زهر البساتين

من

مواقف العلماء والربانيين

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٣ درب الأتراك - الدور الثاني خلف الجامع الأزهر

ت: ٥١٠٨٢٥٧ / ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠

بني سويف: برج الريحي - بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠٨٢٣١٧٣٤٤ / ٠١٠١٧٥٦٢٩٦

زهر البساتين

من

مواقف العلماء والربانيين

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء الأول

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٣ درب الأتراك الدور الثاني خلف الجامع الأزهر

ت: ٥١٠٨٢٥٧ / ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠

بني سويف: برج الزيبق - بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠٨٢٣١٧٣٤٤ / ٠١٠١٧٥٦٢٩٦

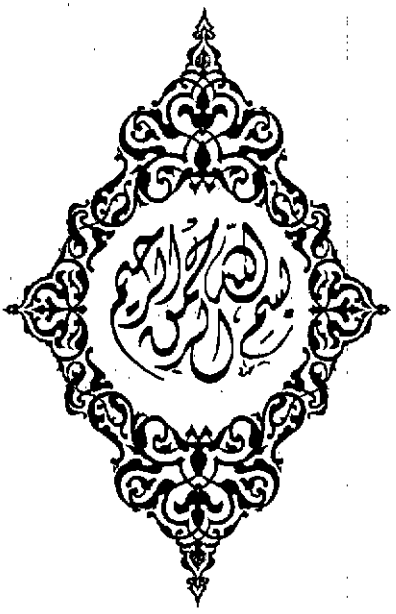
بسم الله الرحمن الرحيم

الموضـــوع الصفحة

- إهـــداء -
المقدمة ٧
- يقول الإمام ابن النحاس الدمشقي: ١٣
- أخي ٢٠
زهر البساتين في مواقف العلماء والربانيين ٢٣ - ٨١
فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٥
(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ٢٥
(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أخص أوصاف النبي ﷺ في التوراة والإنجيل ٢٨
(٣) هو أظهر صفات أولي العزم والكُمَّل من المؤمنين وأبرز سماتهم ٢٨
(٤) منزلة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تلي مرتبة الأنبياء عند اللَّه ٣٠
(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناط خيرية هذه الأمة ٣٠
* لطيفة ٣٢
(٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين وتجافُ عن صفات المنافقين ٣٤
(٧) الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر له مثل أجر من اتبعه ٣٤
(٨) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل إلى الفلاح ٣٥
(٩) بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استقامة الحياة وسبب للنجاة من العذاب ٣٦
* حين يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٧
(١٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موجب للرحمة وتركهما

الموضـــوع	الصفحة
يفضي إلى اللعنة.....	٤١
(١١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للنصر والتمكين..	٤٥
(١٢) إقامة الملة والشريعة وحفظ الدين والعقيدة لتكون كلمة اللَّه هي العليا وإلا صار الدين غريبًا.....	٤٥
(١٣) بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحفظ الضروريات الخمس	٤٦
(١٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم لتكفير السيئات.....	٤٦
(١٥) وهو شكر للَّه على نعمه.....	٤٧
(١٦) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم لإجابة الدعاء	٤٨
(١٧) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من موجبات الجنة.....	٤٩
(١٨) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مظهر عظيم للغيرة وإجلال للَّه وتعظيم لحرماته ودليل حياة القلب.....	٥٠
(١٩) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شد لظهر المؤمن وإرغام لأنف المنافق والزنديق.....	٥١
(٢٠) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نشر للعلم والسنة وذيوع للخير، وتركها اندراس للعلم وظهور للجهل وتزين للمعاصي	٥٢
(٢١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقامة لحجة اللَّه على خلقه.....	٥٢
(٢٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شهادة على الخلق.....	٥٢
(٢٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خروج من عهدة التكليف	٥٣
(٢٤) الشهادة بالإيمان لفاعله وجعله من أفضل أعمال المؤمنين..	٥٥
(٢٥) وصف تاركه والقاعد عنه بالظلم.....	٥٦
(٢٦) نفي الإيمان عمَّن قعد عنه ولو بالقلب.....	٦٠
(٢٧) الثواب العظيم للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.....	٦٣

الموضـــوع	الصفحة
* أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر	٦٦
* ضوابط في أمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر	٦٧
* نصح الحاكم المسلم سرًا من غير تشهير مستحب	٧١
* وقفة هامة جدًا	٧٣
وقفات هامة في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضوابط هامة في منهج أهل السنة في التكفير	**٨٣-١٧٣**
* المعروف الأكبر والمنكر الأكبر	٨٥
وقفة مع ﴿فقولا له قولا لينا﴾	٨٧
* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الضوابط الشرعية	٩١
* وقفات هامة في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٩٣
* معنى المعروف	٩٤
* صوره	٩٤
* معنى المنكر	٩٥
* صوره	٩٥
* شروط المنكر	٩٧
* درجات التغيير	٩٧
* شروط المحتسب	٩٨
* المكروه المعتبر في إسقاط الحسبة	١٠٧
* إسقاط الوجوب في الحسبة لحصول المكروه لا يُسقط استحبابها	١٠٨
حكم تعدي الضرر إلى الغير	١٠٨
* مراعاة المصلحة والمفسدة في الحسبة	١١٠
* الموازنة بين المصالح والمفاسد	١١١
* هل يشترط الانتفاع بالاحتساب لوجوبه؟	١١١
* هام جدًا: السعيد من وُعِظ بغيره:	١١٣

الموضـــوع	الصفحة
* نظرات في التاريخ.....	١١٤
* أمثلة من تاريخ سلفنا الصالح في الخروج على أمراء الجور وما جرّه من مُبكيات:.....	١١٥
(١) خروج الحسين بن علي ﷺ على يزيد بن معاوية سنة ٦١هـ	١١٥
(٢) وقعة الحرة في عام ٦٣ هجرية.....	١١٧
(٣) خروج سليمان بن صرد على رأس جيش التوابين على مروان بن الحكم في سنة ٦٥هـ.....	١١٨
(٤) خروج ابن الأشعث على عبدالملك بن مروان سنة ٨٠هـ...	١١٩
(٥) خروج محمد بن عبدالله بن حسين بن حسن بن علي بن أبي طالب وأخيه إبراهيم على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور	١٢١
(٦) ذكر خروج إبراهيم بن عبدالله بن حسن بالبصرة سنة ١٤٣هـ.....	١٢٣
ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة	**١٢٧**
* نحكم للمرء بالإسلام بأدنى شبهة وعلامة، ولا نخرج المرء من الإسلام إلا بيقين كفر.....	١٢٧
* بيان شيخ الإسلام ابن تيمية أن ما يُعرف بنظر العقل لا يكفر الإنسان بمخالفته، وإنما يكفَّر بمخالفة الرسول وهو عالم بذلك:	١٣٨
* مذهب أهل السنة والجماعة عدم تفكير كل من خالفهم وإن كان مكفرًا لهم، وطريقة أهل البدع تكفير كل من خالفهم، واستحلال دمه:.....	١٣٩
* من كفرّ غيره بغير حجة ولا برهان يستحق العقوبة الشديدة التي تردعه عن رمى الناس بالعظائم.....	١٤٠
* دفع التكفير عن علماء المسلمين من أحق الأغراض الشرعية، ودفع إطلاق الكفر عن المسلمين من الأغراض الشرعية	١٤١

الموضـــوع	الصفحة
* وقال فيمن قال ببعض مقالات الباطنية جاهلاً، ولم تقم الحجة عليه:	١٤٢
موانع إطلاق الكفر على المعين	**١٤٣**
(١) الخطأ	١٤٣
* المجتهد المخطئ في التأويل	١٤٦
* الأدلة على أن المخطئ معذور كثيرة:	١٤٩
(٢) الجهل	١٥١
(٣) العجز	١٥٢
* استدل شيخ الإسلام على ذلك بأدلة:	١٥٣
* الدليل الأول	١٥٣
* الدليل الثاني	١٥٤
* الدليل الثالث	١٥٤
* الدليل الرابع	١٥٥
(٤) الإكراه	١٥٥
* شروطه أربعة	١٥٥
* هل يشمل الإكراه الأفعال كما يشمل الأقوال أم لا؟	١٥٨
شروط تكفير المعين	١٥٩
١ ـ الشرط الأول: أن يقصد المعين بكلامه المعنى المكفر	١٥٩
٢ ـ الشرط الثاني: قيام الحجة	١٦١
* اشتراط الايضاح التام في قيام الحجة وإزالة الشبهات	١٦٢
* الفرق بين قيام الحجة وإقامة الحجة	١٦٣
* وقفة هامة	١٦٤
* وقفات هامة وكلام أحلى من الشهد للعالمين الربانيين الشيخ عبدالعزيز بن باز والشيخ محمد بن صالح العثيمين	١٦٦

الموضـــوع	الصفحة
* وقفة	١٧١
* أعمال القلوب	١٧١
* أعمال الجوارح	١٧١
* الزنديق	١٧٢
* ما يمحو الكفر بعد ثبوته على المعين	١٧٣
فبهداهم اقتده	**١٧٥ - ١٩٢**
* فبهداهم اقتده	١٧٧
* مؤمن آل يس	١٧٧
* مؤمن آل فرعون	١٧٨
* سحرة فرعون	١٨٤
مواقف العلماء والربانيين	**١٩٤**
* مواقف العلماء والربانيين	١٩٥
* الإمام القدوة أبو الوليد عبادة بن الصامت الخزرجي رضي الله عنه	١٩٥
* أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه	١٩٦
* أبو هريرة رضي الله عنه	١٩٧
* أبو ذر رضي الله عنه	١٩٧
* أبو سعيد الخدري ومروان بن الحكم	١٩٧
* ابن عمر والحجّاج	١٩٨
* عبد الملك بن مروان وأم الدرداء رضي الله عنها	١٩٨
* صحابي يقتل من سبّ النبي صلى الله عليه وسلم	١٩٩
* ابن عباس رضي الله عنهما يفحم الخوارج	٢٠٠
* أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ومروان بن الحكم	٢٠٢
* أسماء ذات النطاقين رضي الله عنها والحجّاج	٢٠٣
* أبو بكرة رضي الله عنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم	٢٠٤

الموضـــوع	الصفحة
* عامر بن عبد قيس راهب العرب	٢٠٤
* أويس القرني	٢٠٥
* عبد اللَّه بن محيريز بن جنادة	٢٠٥
* أبو مسلم الخولاني ومعاوية	٢٠٥
* شيخ زاهد وعبد الملك بن مروان	٢٠٧
* زر بن حبيش وعبد الملك	٢٠٨
* سيد التابعين سعيد بن المسيب	٢٠٨
* رجل والحجاج	٢١٠
* جهبذ العلماء الشهيد سعيد بن جبير	٢١١
* أبو حازم الأعرج سلمة بن دينار الأفزر التمار	٢١٣
«كيف لنا أن نصلح ما فسد»	٢١٥
«حلالها حساب»	٢١٦
* الأفريقي والسفاح	٢١٧
* الحكم بن عمرو الغفاري ووالي العراق زياد بن أبيه «كتاب اللَّه قبل كتاب أمير المؤمنين»	٢١٧
* أحد الرعية وعبد الملك بن مروان «والحاكم عليك عادل»	٢١٨
* أحد الرعية وسليمان بن عبد الملك «اذكر يوم الأذان»	٢١٨
* أعرابي وسليمان بن عبد الملك «وأنت المسئول عما اجترحوا»	٢١٩
* طاووس طاووس العلماء والزهاد وزينتهم	٢٢٠
* سيد أهل اليمن وإمامهم طاووس «طاووس وسليمان أتعلمون من أبغض الخلق إلى اللَّه»	٢٢٢
* طاووس وهشام بن عبد الملك «ما الذي حملك على ما صنعت»	٢٢٢
* عمر بن عبد العزيز	٢٢٣

الموضـــوع	الصفحة

«لا تُحي ذكرى الحجاج» ٢٢٤
«فكيف سلطانه عند غضبه» ٢٢٤
* زياد العبدي «ما أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك» ٢٢٥
* أبو قلابة ٢٢٥
* عطاء بن أبي رباح وهشام ٢٢٦
* أعرابي وهشام «هذا جزاء من يطفف في الكيل» ٢٢٧
* سالم بن عبد الله بن عمر «ما أعظم ما ابتليت به يا عمر» .. ٢٢٧
* سالم وهشام بن عبد الملك ٢٢٨
* الحسن البصري ٢٢٩
«والإمام العادل يا أمير المؤمنين» ٢٣٠
«إن استقمت استقاموا» ٢٣٢
* الحسن والحجاج ٢٣٢
* الحسن البصري يذب عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أمام الحجاج بن يوسف الثقفي ٢٣٣
* الحسن وابن هبيرة ٢٣٤
* الحسن والنضر بن عمرو ٢٣٥
* محمد بن سيرين وابن هبيرة ٢٣٧
* مكحول عالم الشام ويزيد بن عبدالملك ٢٣٨
* بين الإمام الشعبي وأمير واسط عمرو بن هبيرة ٢٣٨
* خالد بن صفوان وعمر بن عبد العزيز «إن أقوامًا غرهم ستر الله» ٢٣٩
* أحد الرعية وعمر بن عبد العزيز «ويحك اردد علي كلامك» ٢٤٠
* يعلى بن مخلد والحجاج ٢٤٠
* يحيى بن يعمر والحجاج ٢٤١

الموضـــوع	الصفحة
* رجل من اليمن والحجاج.....	٢٤٢
* عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وأبوه.....	٢٤٢
* الخازن وعمر.....	٢٤٣
* غلام هاشمي وعمر بن عبد العزيز «لو أن الأمر بالسن، لكان في الأمة من هو أحق منك».....	٢٤٣
* محمد بن واسع وبلال بن أبي بردة «لا تظلم ولا تحتاج إلى دعائي».....	٢٤٤
* مالك بن دينار وبلال بن أبي بردة «ما أدري أيهما أكرم على اللَّه».....	٢٤٤
* مالك بن دينار والمهلب «أعرفك حق المعرفة».....	٢٤٥
* حطيط الزيات والحجاج «أنت خطيئة من خطاياه».....	٢٤٦
* أحد الزهاد وخليفة.....	٢٤٦
* الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو شيخ الإسلام وعالم الشام ـ رحمه اللَّه ـ.....	٢٤٧
* الأوزاعي والمنصور «خذ لنفسك الأمان من ربك».....	٢٤٩
* محمد بن عمران قاضي المدينة والخليفة المنصور.....	٢٥٣
* الثوري إمام الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....	٢٥٤
* مالك بن أنس وصدعه عند السلطان بالحق.....	٢٦٦
* مالك والرشيد «احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى».....	٢٦٨
* الإمام ابن أبي ذئب محمد بن عبد الرحمن «إنك لا تعدل في الرعية».....	٢٦٩
* عبداللَّه بن وهب إمام مصر يمتنع عن تولي القضاء.....	٢٧١
* محمد بن أوس والرشيد.....	٢٧٢
* الليث بن سعد وهارون الرشيد «ومن رأس العين يأتي الكدر»	٢٧٣

الموضـــوع	الصفحة
* شعيب بن حرب والرشيد	٢٧٥
* أبو يوسف القاضي وهارون الرشيد	٢٧٥
* عمر بن حبيب القاضي والرشيد	٢٧٦
* ابن السمَّاك والرشيد	٢٧٧
* العمري.. وما العمري!!	٢٧٧
* العمري والرشيد «فكيف بمن أسْرَفَ في مال المسلمين»	٢٧٩
«ولا يَغُرَّنَّك المدَّاحُون الزُّور»	٢٨٠
* كرز بن وبرة	٢٨١
* صالح المري والمهدي	٢٨١
* صالح بن عبدالجليل والمهدي «أنت أعلمُ بموضع النجاة»	٢٨٢
* حماد بن سلمة ومحمد بن سليمان «أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدًا»	٢٨٣
* بهلول المجنون والرشيد «لا يعطيك وينساني»	٢٨٤
«وهذه قصورهم، وهذه قبورهم»	٢٨٥
* القاضي شريك.. والأمير موسى بن عيسى	٢٨٦
* ابن السماك والرشيد «لو مُنعتْ عنك هذه الشربة؟»	٢٩٠
«لا يكن أحدٌ أطوعَ للَّه منك»	٢٩٠
«هذا ذلّ الصفة، فكيف بذلِّ المُعاينة؟!»	٢٩١
* شقيق البلخي والرشيد	٢٩١
* عمرو بن عبيد والمنصور «أظهر الحق يتبعك أهله»	٢٩٢
* «ليتقربن إليك بالعدل من لا نية له فيه»	٢٩٣
* الفضيل بن عياض	٢٩٤
* «هذا كتاب اللَّه بين الدفتين»	٢٩٧
* عبداللَّه الخراساني وهارون الرشيد	٢٩٨

الموضـــوع	الصفحة
* هارون الرشيد ورجل	٢٩٨
* أسلم مولى عمر وجعفر بن أبي سليمان «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»	٢٩٨
* الأمين بن هارون الرشيد	٢٩٩
* شيخ الإسلام أبو نعيم الفضل بن دكين	٢٩٩
* الإمام الحافظ أبو عثمان عفان بن مسلم البصري الصفار	٣٠١
* عبدالله بن مرزوق	٣٠٢
* بشر بن الحارث الحافي	٣٠٣
* الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	٣٠٣
* الناصر داود	٣٠٤
* القاضي يوسف بن يعقوب ـ رحمه الله ـ	٣٠٥
* الخياط الزاهد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر	٣٠٥
مواقف الربانيين تُحيي الأمة «قد مات في حديدهم أقوام»	٣٠٩
* الإمام البويطي	٣١٠
* الإمام نعيم بن حماد	٣١١
* الإمام الخزاعي	٣١١
* شيخ شامي يلقم كبير المعتزلة حجرًا	٣١٢
* ابن الجوزي والمستضيء بالله	٣١٥
* الإمام عبدالقادر الجيلاني وصدعه بالحق	٣١٦
* نصح الشيخ أحمد الرفاعي لأمير المؤمنين المستنجد	٣١٦
* الغزالي والسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي «في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان»	٣٢١
* البخاري وأمير بخارى «إني لا أُذِلُّ العلمَ»	٣٢٢

الموضـــوع	الصفحة
* النّوري	٣٢٢
* شيخ الإسلام، المحدِّث الإمام، أبو الحسن بنان الحمّال	٣٢٣
* الإمام القدوة الشهيد أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل المعروف بابن النابلسي وجوهر قائد العبيديين الفاطميين	٣٢٤
* شيخ الإسلام ابن الحطيئة، أبو العباس أحمد بن عبداللَّه اللخمي	٣٢٤
* شيخ الإسلام الهروي الأنصاري، أبو إسماعيل عبداللَّه بن محمد بن علي	٣٢٥
* الحافظ الأثري عبدالغني المقدسي	٣٢٨
هذه واللَّه أحلى مذاقًا منَ العسل	٣٢٩
* العماد المقدسي «جوهرة عصره»	٣٣١
* أسد الشَّام اليونيني، عبداللَّه بن عثمان بن جعفر	٣٣١
* البربهاري شيخ الحنابلة الإمام أبو محمد الحسن بن علي	٣٣١
* سلطان العلماء، وبائع الملوك والأمراء أبو محمد عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم	٣٣٢
* أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر للملك الأشرف موسى بن الملك العادل ابن أيوب	٣٣٢
* إنكاره على ملك دمشق التَّنازل عن ديار المسلمين، وعقد الصلح مع الفرنجة الصليبيين المعتدين	٣٣٤
* عالم تهابه المبتدعة والملوك	٣٣٧
* العز ونجم الدين أيوب	٣٣٨
* «أمراء للبيع»	٣٤٠
* أمره بالمعروف أيام قطز	٣٤٢

الموضـــوع	الصفحة
* ابن دقيق العيد	٣٤٣
* الإمام النَّووي	٣٤٣
* بين الإمام النَّووي وابن النجار	٣٥٦
* شيخ الإسلام ابن تيمية	٣٦٤
* حديث ابن تيمية مع قازان	٣٦٤
* ابن تيمية والأحمدية الرفاعية	٣٧٠
* ابن تيمية يخزي دجاجلة البطائحية	٣٧١
* نهي الشيخ لهم عن التعبد بما لم يشرعه اللَّه	٣٧٢
* التقرب إلى اللَّه بفعل المباح والمكروه والحرام	٣٧٣
* العهود التي تؤخذ على الناس مخالفة للكتاب والسنَّة	٣٧٤
* نفاق ومداهنة	٣٧٥
* شيخ الإسلام يطلب شيخهم للمناظرة	٣٧٥
* رفضهم للحجاج وإظهارهم للدجل والتهريج	٣٧٦
* بين البطائحية والأمير	٣٧٦
* نصح شيخ الإسلام لهم	٣٧٧
* الأمير يصر على كشف باطلهم	٣٧٧
* شيخ الإسلام يستنصر ربه	٣٧٧
* استثارتهم للناس وجمعهم الأعوان والأنصار	٣٧٨
* سبب انتشارهم في ديار الإسلام	٣٧٨
* أنصار الباطل	٣٧٩
* كذبهم على الشيخ، وفضح الشيخ لهم، وكشفه لباطلهم	٣٧٩
* الشيخ مستعد لدخول النار لكشف باطلهم	٣٨٠
* حيلة دخول النار	٣٨١
* الأمير يصر على البيان	٣٨٢

الموضـــوع	الصفحة
* رد الشيخ عليهم في بدعة لبس أطواق الحديد	٣٨٣
* لا يجوز الخروج على الشريعة بحال	٣٨٤
* الباطن والظاهر محكوم بالكتاب والسنة	٣٨٤
* ادعاء الخوارق	٣٨٥
* الخوارق ليست دليل الصلاح والتقى	٣٨٦
* وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون	٣٨٦
* استخدام القوة إن لم تنفع الحجة	٣٨٧
* لا يقر أحد على إظهار المنكر في ديار الإسلام	٣٨٧
* ذم المبتدعة	٣٨٨
* البدعة شر من الزنا والمعاصي	٣٨٨
* ابن تيمية والملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون	٣٩١
* الطرطوشي وأمير مصر	٣٩٤
* الخبوشاني الفقيه الزاهد	٣٩٥
* الفناري يرد شهادة سلطان الروم لتركه لصلاة الجماعة	٣٩٦
* الكوراني عالم بلاد الروم يقول للسلطان: مطعمك حرام وملبسك حرام	٣٩٧
* الشيخ محمد بن علي الحاج الأغصاوي يعارض أمير فاس في بيع حصن العرائش للنصارى فيقتله	٣٩٨
* العلامة علاء الدين الجمالي والسلطان سليم	٤٠١
* الشاطبي والأمير موسك: «قُلْ للأمير نصيحةٌ»	٤٠٢
* أبو غياث الزاهد والأمير	٤٠٣
* أبو النضر وعامل للخليفة «كتاب اللَّه قبل كتاب الخليفة»	٤٠٤
* أبو سعيد الضبعي ومحمد بن سليمان «لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون؟»	٤٠٤

الموضـــوع الصفحة

* القاضي ابن عين الدولة والملك الكامل..... ٤٠٤
القضاة الذين لا يخشون في الله لومة لائم ٤٠٦
من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر
* قاضي المدينة الإمام سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف ٤٠٦
* قاضي القضاة بكار بن قتيبة ووالي مصر أحمد بن طولون.... ٤٠٧
* القاضي أبو عبيد بن حربويه ومؤنس الخادم أكبر أمراء الخليفة المقتدر..... ٤٠٨
* الإمام الشهيد قاضي برقة محمد بن الحبلي والمنصور وسلطان العبيديين..... ٤٠٨
نَفْح الطِّيبِ من مواقف علماء وقضاة الغُصنِ الرطيب ٤١١-٤٤٦
* نفح الطيب من مواقف علماء وقضاة الغصن الرطيب:..... ٤١٣
* القاضي نصر بن ظريف اليحصبي والأمير عبدالرحمن بن معاوية..... ٤١٣
* قاضي قرطبة المصعب بن عمران يردُّ الضيعة على الأيتام ويخالف كلام الأمير الحكم بن هشام..... ٤١٤
* أبو عبدالله محمد بن يحيى بن البراء قاضي المرية بالأندلس، ويوسف ابن تاشفين أمير المرابطين..... ٤١٥
* قاضي الجماعة بمراكش أبو عبدالله بن علي بن مروان وأبو يوسف المنصور ملك الموحدين..... ٤١٦
* القاضي المنذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة والخليفة عبدالرحمن الناصر..... ٤١٧
* ابن غانم القاضي والأمير إبراهيم بن الأغلب..... ٤٢٠
* شيخ المالكية وقاضي إفريقية الإمام سحنون..... ٤٢١
* القاضي عيسى بن مسكين والأمير إبراهيم بن الأغلب..... ٤٢٢

الموضـــوع	الصفحة
* القاضي الفرج بن كنانة والأمير الحكم بن هشام.....	٤٢٣
* القاضي سليمان بن الأسود الغافقي والأمير محمد بن عبدالرحمن الثاني أمير ماردة.....	٤٢٥
* الشيخ محمد بن سعيد بن بشير المعافري والحكم بن هشام أمير الأندلس.....	٤٢٧
* الشيخ عبدالملك بن حبيب والأمير الحكم.....	٤٣١
* شيخ المالكية الإمام القاضي أبو بكر بن العربي.....	٤٣٣
* القاضي محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن النباهي والأمير ابن هود.....	٤٣٦
* القاضي الحسن بن الحسن الجزامي النباهي والزنديق إبراهيم الفزاري وبنو أشقيلولة.....	٤٣٧
* القاضي محمد بن يحيى بن بكر الأشعري المالقي قاضي غرناطة.....	٤٣٩
* كتب إلى أميره.....	٤٤٠
* القاضي أبو عبدالله محمد بن عبدالسلام المنستيري وابن تافرجين المتغلّب على تونس.....	٤٤١
* القاضي أبو عمر وعثمان بن موسى الجاني.....	٤٤٤
* القاضي المجاهد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أسد بن الفرات.....	٤٤٥
أمة مثل المطر لا تدري أوله خير أم آخره	٤٤٧ـ٤٦٦
* أمة مثل المطر لا تدري أوله خير أم آخره.....	٤٤٩
* الشيخ الفقيه نصير الدين الحسيني البرهانبوري أحد علماء الهند الربانيين.....	٤٤٩
* الشيخ صادق أفندي الواعظ الحنفي والسلطان العثماني	

الموضـــوع الصفحة

عبدالعزيز خان ٤٥٠
* زين الدين الفارقي والأفرم أمير دمشق ٤٥١
* شهاب الدين الزاهدي ومحمد شاه تغلق ٤٥١
* علاء الدين البخاري ٤٥٢
* الأقصرائي والأشرف قايتباي ٤٥٣
* شيخ الإسلام بدر الدين الغزي ٤٥٤
* الشيخ أبو المواهب الحنبلي وأمير دمشق محمد باشا بن كرد ٤٥٥
* الشيخ عبدالغفار الضرير الشافعي ٤٥٦
القاضي مغيث الدين الحنفي اليبانوي والسلطان علاء الدين
محمد شاه الخلجي ٤٥٦
* الشيخ بهاء الدين زاده وإبراهيم باشا الوزير ٤٥٨
* الشيخ أحمد بن محمد الهادي بن عبدالرحمن ٤٥٩
* الشيخ العيثاوي الدمشقي ٤٥٩
* الإمام اليوسي والسلطان المنصور إسماعيل بن الشريف
الحسني السجلماسي ٤٦٠
* طالوت المعافري الفقيه المالكي والحكم بن هشام ٤٦٥
المسك الأذفر في تاريخ أسود الأزهر ٤٦٧-٥٢٥
* المسك الأذفر في تاريخ أسود الأزهر ٤٦٩
* شيخ الإسلام ابن دقيق العيد والملك المنصور حسام الدين
لاجين سلطان مصر ونائبه الأمير منكوتمر ٤٦٩
* شيخ الإسلام زكريا الأنصاري وقضاة المذاهب وقانصوه
الغوري سلطان مصر ٤٧٢
* الشيخ علي الصعيدي وعلي بك الكبير ٤٧٥
* الشيخ الدردير ـ رحمه الله ـ ٤٧٦

الموضـــوع	الصفحة
* الشيخ سليمان المنصوري لا يُسلَّم للإمام في فعل يُخالف الشرع الكريم	٤٧٦
* عبدالرحمن الجبرتي المؤرخ الذي يصدع بالحق	٤٧٧
* الشيخ عبدالحميد الجزائري والمندوب السامي	٤٨٠
* أحد علماءٌ الأزهر والخديوي إسماعيل «مِنك يا إسماعيل، لا منَّا»	٤٨١
* الشيخ محمد أبو الأنوار وحسن باشا الجزائرلي	٤٨٢
* الشيخ العدوي أمام السلطان «ذَكَرَ دينَه ونسيَ دنياه»	٤٨٣
* الشيخ العدوي أمام المحكمة «لم يَعُدْ جديراً بأن يحكمنا»	٤٨٤
* أحد علماء الأزهر والسلطان «مَنْ يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يدَه»	٤٨٥
* الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر والملك فاروق	٤٨٦
* الشيخ حسن الطويل والخديوي توفيق ورياض باشا	٤٨٨
* الشيخ الإنبابي شيخ الجامع الأزهر واللورد كرومر	٤٨٩
* الشيخ النواوي شيخ الأزهر وحكومة مصطفى فهمي	٤٨٩
* الشيخ الشربيني واللورد كرومر	٤٩٠
* الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية	٤٩١
* الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر ووالد الشيخ أحمد محمد شاكر يقوم بعد صلاة الجمعة ويعلن للناس أمام السلطان حسين بطلان صلاتهم ويأمرهم أن يعيدوها ظهراً	٤٩١
* الشيخ الجليل محمد الخضر حسين شيخ الأزهر	٤٩٣
* الحرية في خطاب الأمراء	٤٩٥
* شيخ المحدثين بمصر أبو الأشبال أحمد محمد شاكر وصدعه بكلمة الحق	٤٩٨
* كلمة الحق	٤٩٨

الموضـــوع	الصفحة
* قوله عن الإنجليز أثناء احتلالهم لمصر قبل طردهم نهائيًّا من مصر:	٥٠٣
بيان إلى الأمة المصرية خاصة وإلى الأمم العربية والإسلامية عامة:	٥٠٣
* الشيخ أحمد شاكر وعبدالعزيز فهمي باشا	٥١١
* أسطورة وجود شيء في الإسلام يدعى «رجال الدين»	٥١٦
* الشيخ شاكر قذى في أعين الملاحدة	٥١٦
* أبو الأشبال الليث الشيخ أحمد شاكر يزأر في عرينه	٥١٧
* أيها الإخوان	٥١٨
* الشيخ أحمد شاكر وقضية فلسطين	٥١٩
* الشيخ شاكر وصوته الهادر في تعدد الزوجات	٥٢٠
* للّه درك من إمام	٥٢٢
* الشيخ شاكر وقوله الهادر في جزاء من اتبع اليهود والنصارى:	٥٢٣

* * *

الموضـــوع	الصفحة
ربانيون على الطريق ونبع الهدى ريان	٥
* ربانيون على الطريق ونبع الهدى ريان	٧
* أهل اليمن أرق الناس أفئدة . . الإيمان يمان والحكمة يمانية	٧
* الإمام المجتهد المطلق محمد بن إبراهيم بن وزير ودفاعه الفذ عن السنة وأهل الحديث	٨
* رحمك اللّه يا ابن الوزير بم نصحت لأمتك	١٥
* علامة اليمن في القرن الحادي عشر الحسن بن أحمد الجلال وتصديه للمتوكل إسماعيل لقوله المنحرف عن الأتراك	١٦
* الشيخ الحسن بن زيد الشامي خير كله	١٨
* الشيخ الصادع بالحق أحمد بن عبدالرحمن الشامي	١٩
* الشيخ أحمد بن يوسف الحديث يرفض الزواج من ابنة المهدي العباس	٢٠
* السيد إسحاق بن يوسف بن المتوكل ونصره للسنه	٢٠
* مصلح اليمن ومجتهد القرن الثاني عشر الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني	٢١
* أولياته ونجاحه الذي أدركه	٢١
* قضاياه الأساسية	٢٣
(أ) التوحيد	٢٣
(ب) صور من المعتقدات الفاسدة	٢٤
(ج) جناية الملوك وواجب العلماء	٢٥
* الاجتهاد	٢٦
* العدل	٢٧
* رسالة الأمير إلى المنصور	٢٧
* المكوس	٢٨

الموضـــوع	الصفحة
* الإقطاع	٢٩
* العمال والقضاة	٣٠
* الرسامة	٣١
* رائيته التاريخية في أيام المتوكل	٣٢
* نصرة السنة ومحاربة البدعة	٣٧
* الكفاءة بين الزوجين	٣٧
* ثناؤه ودفاعه عن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب	٣٩
* سعيه لتدمير أصنام البانيان	٣٩
* نشره للسنة خلال سجنه	٤٠
* فضحه لليهود وعمله على إخراجهم من شبه جزيرة العرب	٤٠
* دفاعه عن الحجيج وطلب حمايتهم	٤٦
* رده على الزنادقة	٤٧
* العلامة القانت يحيى بن محمد الحوثي ابن عروب تلميذ الصنعاني وإنكاره على إمام اليمن المنصور	٤٩
* الشوكاني شيخ عصره ـ قذى في عيون المبتدعة والمقلدة وشجى في حلوق الرافضة	٥٢
* دعوة الشوكاني إلى عقيدة السلف	٥٣
* دعوته إلى تطهير الاعتقاد	٥٤
* دعوته إلى الاجتهاد ومحاربته العنيفة للتقليد	٥٦
* كتاب «السيل الجرار» ورده على فقه «الزيدية»	٥٧
* جهاد الشوكاني للمقلدين وذمه لهم	٥٧
* الشوكاني يداوي قومه وأمته	٦٠
١ ـ الجانب العلمي	٦٠
٢ ـ الجانب العملي	٦٠

الموضـــوع	الصفحة

٣ ـ الجانب التوجيهي ٦٠
* ومن الهند ربانيون آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر ٦١
* ملوك آل تغلق وجهادهم للبدع والمنكرات ٦١
* العلامة عبدالعزيز الأردبيلي ٦٢
* والشيخ عليم الدين (حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني) .. ٦٢
* ملك الهند الشجاع محمد تغلق ٦٣
* الملك فيروز شاه وعطفه على الرعية وإعلاؤه لكلمة اللّه ٦٥
* الإمام أحمد بن عبدالأحد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني (٩٧١هـ ـ ١٠٣٤هـ) ٦٥
* الملك أكبر وفتنة القرن العاشر الكبرى «الاعتقاد ببداية نظام جديد للعالم على بداية الألف الثاني من الهجرة ٦٦
* العلماء والمشايخ الشجعان الصرحاء في عهد «أكبر» و«جهانكير» ٦٩
* الشيخ إبراهيم المحدث الأكبر آبادي ٦٩
* الشيخ شهباز كنبوة (م١٠٠٨هـ) ٦٩
* الشيخ عبدالقادر الأجي ٧٠
* مرزا عزيز الدين الدهلوي كوكه (م١٠٣٣هـ) ٧٠
* الشيخ منور بن عبدالحميد اللاهوري (م١٠١٥هـ) ٧١
* ميزة الإمام السرهندي من بين هؤلاء ٧١
* السلطان جهانكير واستئناف الإمام السرهندي عمله التجديدي لإصلاح الدولة والسلطان ٧٢
* سجن السرهندي في قلعة كواليار وإسلام الآلاف عى يديه وهداية آلاف آخرين من المسلمين ٧٢
* الوعظ بالرسائل وما صدر من القلب وصل إلى القلب

الموضوع	الصفحة
وليست النائحة الثكلى كالمستعارة	٧٦
العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي	٧٩
* إعادة الثقة والإيمان بحتمية النبوة المحمدية وخلود الرسالة الأخيرة	٨٢
* الدين النصيحة: الرد على الإمام السرهندي بقلم الندوي	٨٣
* كلام طيب للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد	٨٨
* نقل الأستاذ الندوي عن الإمام السرهندي انتقاله من مقام إلى مقام	٨٩
* رأي السرهندي في ابن عربي	٩١
* ذكره للفارق بينه وبين عامة المثبتين أو النافين لوحدة الوجود	٩١
* وحدة الشهود في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية	٩٢
* منع كتاب «السرهندي» للندوي بفتوى من الشيخ ابن باز	٩٧
* السلطان العظيم محيي الدين أورنك زيب عالمكير وحميته الدينية وحمايته للإسلام	٩٨
* للّه درّ أورنك زيب عالمكير	١٠٣
* حكيم الهند وربانيه ومجدد القرن الثاني عشر الإمام الدهلوي	١٠٤
* دوره في إصلاح العقائد في الهند على مذهب السلف الصالح أهل السنة والجماعة	١٠٦
* الطريق المؤثر لعلاج الأدواء وإصلاح الأوضاع	١١١
* ترجمة القرآن إلى الأردية بعد الإمام الدهلوي	١١٥
* قيام الدهلوي بنشر الحديث والسنة المشرفة ونصره لمذهب أهل الحديث	١٢٠
* نظرة على حال الهند في القرن العاشر الهجري وما بعده تعرفك قدر الدهلوي	١٢١

الموضـــوع	الصفحة
* العلامة علي بن سلطان بن محمد الهروي المعروف بملا علي القاري ورده على بدع عصره وإنصافه لشيخ الإسلام ابن تيمية	١٢٣
* مأثرة الشيخ عبدالحق الدهلوي	١٢٤
* نشاط الدهلوي في خدمة الحديث الشريف ونشره	١٢٧
* ومن مؤلفاته في علوم الحديث	١٢٩
* مأثرة من مآثر الإمام الدهلوي	١٢٩
* الإمام الدهلوي والتوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد	١٣٣
* الدهلوي والحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر	١٣٤
* الإمام الدهلوي وعرضه للشريعة الإسلامية عرضًا مبرهنًا متسقًا	١٣٥
* دفاعه عن الخلافة	١٣٨
* الصلة بين «حجة اللّه البالغة» و«إزالة الخفاء»	١٣٨
* دور الدهلوي القيادي في عهد احتضار الدولة المغولية	١٤٢
* المراهتة	١٤٢
* السيخ	١٤٤
* الجات (الزط)	١٤٧
* حملة نادر شاه	١٤٨
* الدور القيادي للإمام الدهلوي	١٤٩
* النواب نجيب الدولة	١٥٣
* أحمد شاه الأبدالي والي قندهار بطل أفغاني	١٥٥
* الإمام الدهلوي ودوره في الإصلاح والتربية للمجتمع	١٦١
* خطابه للسلاطين المسلمين	١٦٢
* خطابه للأمراء وأركان الدولة	١٦٣
* خطابه للعلماء والطلاب	١٦٥

الموضـــوع	الصفحة
* مع الوعاظ المعسرين في الدين والزهاد المنزوين المنعزلين.....	١٦٦
* خطابه الشامل للأمة الإسلامية جمعاء تشخيص الداء ووصف الدواء.....	١٦٧
* إصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع منها.....	١٦٨
* الدين النصيحة.....	١٧١
* على درب وخطا الدهلوي الأبناء الأعلام والخلفاء العظام...	١٧٣
* ومن هؤلاء العظام: سراج الهند حجة اللّه الإمام عبدالعزيز ابن ولي اللّه الدهلوي.....	١٧٤
* تدريس الحديث الشريف ونشره وترويجه بشكل لم يسبق له مثيل.....	١٧٤
* دفاعه عن السنة ورده على الشيعة في كتابه القيم «التحفة الاثنا عشرية».....	١٧٥
* معارضة السلطة الانجليزية والحفاظ على كيان الملة الإسلامية	١٧٦
* الشيخ محمد بن إسحاق الدهلوي وأثره في نشر الحديث في الهند.....	١٧٨
* الإمام الذي لم يوف حقه: السيد أحمد عرفان.....	١٧٨
* إحياؤه للإمارة والإمامة وتأسيسه لدولة إسلامية.....	١٨١
* إحياؤه للجهاد وقتاله للسيخ.....	١٨٢
* إحياؤه لركن الحج في الهند.....	١٨٥
* حقيقة أعجب وأغرب من الخيال والأساطير.....	١٨٨
* إسلام أكثر من أربعين ألفًا على يد الإمام أحمد بن عرفان...	١٨٨
* الدين النصيحة.....	١٨٩
* الإمام الشاه إسماعيل بن عبدالغنى الدهلوي.....	١٨٩
* قيادة الإمامين: العلامة نذير حسين الدهلوي والشيخ صديق	

الموضـــوع	الصفحة
حسن خان.....	١٩١
* العالم الرباني رائد السلفية في الهند السيد نذير حسين المحدث الدهلوي.....	١٩١
* العالم الرباني صديق حسن خان ملك بوفال.....	١٩٣
* ابن تيمية الهند.. إمام الهند أبو الكلام آزاد.....	١٩٩
* الشيخ رحمت اللَّه بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني القرشي الهندي وجهوده في مقاومة التنصير وكتابه «إظهار الحق»	٢٠٧
* مناظر الإسلام ومحامي المسلمين في القارة الهندية وبطل الإسلام العالم الرباني ثناء اللَّه الأمرتسري من أخزى اللَّه على يديه القادياني والقاديانية.....	٢١٣
* القاضي الفاضل عبدالرحيم البيساني يوجه صلاح الدين ويصرف همه لفتح بيت المقدس.....	٢١٧
* الشيخ آق شمس الدين الرومي الفاتح المعنوي للقسطنطنية....	٢١٨
* الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور.....	٢٢٢
* لآلئ البيان في رجال من دولة آل عثمان.....	٢٢٥
* شيخ الإسلام مصطفى صبري آخر شيوخ دولة الخلافة العثمانية المدافع عن الإسلام والخلافة.....	٢٢٥
* رحلة كفاح.....	٢٢٦
* التحدي والتصدي.....	٢٢٧
* الرحيل والدعوة في اليونان.....	٢٢٨
* فكر إيجابي.....	٢٢٩
* موقفه من المؤرخ العربي محمد عبداللَّه عنان في اتهاماته لتاريخ آل عثمان.....	٢٣٠
* شيخ الإسلام مصطفى صبري ورده على محمد عبداللَّه عنان	٢٣١

الموضـــوع	الصفحة
* شيخ الإسلام والمجددون الديمقراطيون	٢٣٧
* مفهوم الخلافة في فكر الشيخ	٢٣٨
* تعريف الشيخ للجنسية الإسلامية	٢٣٨
* المفهوم الوطني والجنسية الدينية وسن القانون	٢٣٩
* أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب والشريعة	٢٤٠
* الفرق بين القانون البشري والقانون الإلهي	٢٤٠
* من الذي يضغط لفصل الدين عن الدولة؟	٢٤٠
* مدى صحة تخويل حكومات المسلمين وحرية وضع القوانين	٢٤١
* فصل الدين عن السياسة والمثقف العربي	٢٤٢
* فصل الدين عن الدولة والأزهر	٢٤٣
* حكومة الشيخين وعلى عبدالرازق	٢٤٦
* الإمام المجدد سليمان حلمي وحفاظه على الهوية الإسلامية لتركيا أيام أتاتورك	٢٤٧
* المراحل الأولى من حياة سليمان حلمي	٢٤٨
* صفات الإمام سليمان حلمي: «نخدم الدين والإسلام ونقبل أن نكون مكان الأحذية في سبيله	٢٥١
* نشاط سليمان حلمي بعد حياته الدراسية والظروف التي أحاطت به	٢٥٢
* الوسائل التي لجأ إليها سليمان حلمي لجمع الطلبة	٢٥٤
* الوسائل التي اتخذها سليمان حلمي لتعليم تلاميذه	٢٥٥
* تبديل المكان باستمرار	٢٥٥
* استئجار المزارع	٢٥٥
* إرسال طلابه خارج البلاد وإعدادهم للدعوة	٢٥٥
* موقف الإمام سليمان حلمي تجاه الحكومة	٢٥٦

الموضـــوع	الصفحة
* موقف الحكومة من الإمام سليمان حلمي والمصاعب التي واجهها في سبيل دعوته	٢٥٩
* مدارس الإمام سليمان حلمي	٢٦٢
* ملاحظات على برنامج تلامذة سليمان حلمي أفندي	٢٦٩
* أعمال الإمام سليمان حلمي أفندي	٢٧٠
* وفاة الإمام سليمان حلمي ١٦ سبتمبر عام ١٩٥٩م «سيخافون من موتنا كما يخافون من حياتنا»	٢٧١
* الشيخ عاطف الاسكيليبي	٢٧٢
* حياته وفكره	٢٧٢
* حياته	٢٧٢
* فكر الشيخ عاطف أفندي	٢٧٥
* اتباع أهل السنة والجماعة	٢٧٥
* تعريف الخليفة	٢٧٦
* واجبات الشعب تجاه الخلافة	٢٧٦
* وجوب البيعة للخليفة	٢٧٧
* ضرورة وجود الخلافة القوية	٢٧٨
* مسئولية الأمة تجاه الشرع	٢٧٨
* مسئولية الأمة تجاه العدو الغاصب	٢٧٨
* مثل المتبرع بثمن مسمار في مدمرة حرب إسلامية	٢٧٩
* الحجاب والمرأة المسلمة	٢٧٩
* أعمال عاطف أفندي	٢٨٠
* معاناته واستشهاده	٢٨١
* أخلاق الشيخ	٢٨٢
* رسالة «تقليد الفرنجة والقبعة»	٢٨٣

الموضـــوع	الصفحة
* قانون ارتداء القبعة في مصدرين	٢٨٣
* عاطف أفندي وأحداث القبعة	٢٨٦
* الإعدام للشيخ بدلاً من ثلاث سنوات سجن	٢٨٨
* رؤيا صادقة	٢٨٨
* أحمد نعيم بابان زاده داعية الفكر الإسلامية والمدافع عنها أمام الفكرة القومية	٢٩٠
* أعماله	٢٩٤
أولاً: المقالات	٢٩٤
ثانيًا: المؤلفات	٢٩٦
* رأيه في الإسلام والعصبية القومية	٢٩٧
* بعض الأمور التي يسرت انتشار الإسلام:	٢٩٧
١ ـ الاتحاد والإيمان الخالص	٢٩٧
٢ ـ تحمل الشدائد والبساطة	٢٩٨
٣ ـ العسكرية والفروسية والإقدام	٢٩٨
٤ ـ العبقريات النادرة	٢٩٨
٥ ـ السياسة في المفتوح	٢٩٩
٦ ـ انتشار العدالة	٢٩٩
* قضية القومية في الإسلام	٣٠٠
* شاعر الإسلام محمد عاكف ممثل الأدب الديني التركي في القرن العشرين وعنوان الجامعة الإسلامية وجهاده ورده على شعراء المادية	٣٠٥
* عاكف يجاهد بالفكرة وبالقلم وبالخطابة	٣٠٦
* عاكف: مؤمن لا يهتز	٣٠٧
* خيبة أمل عاكف في أتاتورك	٣٠٩

الموضـــوع	الصفحة
* ديوان «الصفحات» لمحمد عاكف.....	٣١١
* فكر شاعر الإسلام محمد عاكف.....	٣١٢
* أقوال عن عاكف.....	٣١٨
* محمد عاكف يرد على الماديين وعلى رأسهم توفيق فكرت...	٣٢٠
* التغريبيون والإسلاميون.....	٣٢٠
* المفكر الإسلامي نجيب فاضل (١٩٠٥ ـ ١٩٨٣) مؤلف كتاب «نسيج الفكرة».....	٣٢٣
* الأمير سعيد حليم باشا من أعظم المدافعين عن الإسلام.....	٣٢٥
* الشيخ عثمان دان فوديو يقيم سلطنة «سوكوتو» على التوحيد النقي الصافي للّه دره.....	٣٢٨
عودٌ على بدء مواقفهم مؤمنات العبير	٣٢٩ـ٤١٠
* عودٌ على بدء مواقفهم مؤمنات العبير.....	٣٢٩
* عود على بدء مواقفهم مؤمنات العبير.....	٣٣١
* فاقصص القصص لعلهم يتفكرون.....	٣٣١
* الآن عز الإسلام.....	٣٣٢
* ما قصر صاحب السفينة أرسى بي على باب الجنة.....	٣٣٣
* الآن عرفتني حق المعرفة.....	٣٣٤
* للّه در طاووس من إمام.....	٣٣٤
* عز العلماء: عطاء بن أبي رباح القائل: «ما لي إلى مخلوق حاجة».....	٣٣٤
* صفوان بن سليم القائل: «لست الذي أرسلت إليه».....	٣٣٥
* لأن يخنقني الشيطان أحب إلي من أن ألي القضاء».....	٣٣٦
* أما واللّه ما مجالستهم مجالسة الأبرار.....	٣٣٦
* أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبسي ووالي إفريقية.....	٣٣٧

الموضـــوع الصفحة

* الزاهد بهلول بن راشد القيرواني وهرثمة بن أعين أمير إفريقية ٣٣٧
* صاحب مالك بن أنس زياد بن عبدالرحمن اللخمي ٣٣٨
* زين القراء محمد بن واسع يمتنع عن تولي القضاء ٣٣٩
* الإمام المبارك: عبداللَّه بن المبارك القائل: «يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر له العصا ٣٣٩
* يا حسن الوجه حساب الخلق كلهم عليك ٣٤١
* الإمام القدوة الحافظ عيسى بن يونس بن أبي إسحاق أبو عمرو الهمذاني السبيعي وجعفر البرمكي: «لا يتحدث أهل السنة أني أكلت للسنة ثمنًا» ٣٤١
* شيخ الإسلام محمد بن أسلم الطوسي والأمير عبداللَّه بن طاهر «النظر في وجوهكم معصية» ٣٤٢
* إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ودرة من درره: «قلوبنا لازمة للحق» ٣٤٣
* الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك ٣٤٣
* مزاحم مولى عمر بن عبدالعزيز وعمر بن عبدالعزيز: «إني أحذرك ليلة تمخض القيامة في صبيحتها تقوم الساعة» ٣٤٤
* شيخا المسلمين الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ٣٤٤
* فقه سيد التابعين سعيد بن المسيب: «واللَّه لا يسلمني اللَّه ما أخذت بحقوقه» ٣٤٥
* الإمام الكبير ابن جرير الطبري وعفة نفسه ٣٤٥
* القاضي محمد بن أبي المنظور الأنصاري قاضي القيروان وصاحب المغرب المنصور العبيدي: «ما أخذ منا صلة ولا نقدر على عزله» ٣٤٦
* إبراهيم بن أدهم يستقتل ٣٤٧

الموضـــوع الصفحة

* محدث مصر بقية بن الوليد وهارون الرشيد: «اسكت فما كنت عنده هامان حتى أكون عنده فرعون»..... ٣٤٧
* «ليس عندي ما أخافك عليه»..... ٣٤٨
* «واللَّه ما أخذت ولا لبست لهم ثوبًا»..... ٣٤٨
* شيخ الإسلام إبراهيم الحربي يرد أعطيات الخيفة وهو أمس الحاجة إليها: «إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك»..... ٣٤٩
* الحافظ الإمام علي بن الجعد الجوهري والمأمون: «لا يشترى إلا من هذا»..... ٣٥٠
* شيخ الشام الحافظ القدوة آدم بن أبي إياس أبو الحسن الخراساني العسقلاني ـ رحمه اللَّه ـ حيًا وميتًا..... ٣٥١
* الإمام الواعظ الكبير ابن سمعون البغدادي وعضد الدولة: «الحمد للَّه الذي سلمه منا وسلمنا منه»..... ٣٥١
* الإمام الفقيه عيسى بن مسكين الإفريقي والأمير إبراهيم بن الأغلب: «هذا رجل يحاربنا باللَّه لا حاجة لنا بهم»..... ٣٥٢
* إبراهيم بن أسلم والحكم المستنصر باللَّه: «أمنت بفضل اللَّه من نوب الدهر»..... ٣٥٣
* الإمام الزاهد عسكر بن الحصين أبو تراب النخشبي وأمير بلده: «إن المزين ما أخذها فخذها أنت»..... ٣٥٤
* «لا آتيه ألبتة»..... ٣٥٤
* الحافظ القدوة محمد بن رافع النيسابوري والأمير طاهر بن عبداللَّه «خذ خذ لا أحتاج إليه»..... ٣٥٥
* الإمام العابد الواعظ أبو عبداللَّه محمد بن يحيى بن علي الزبيدي والوزير الزينبي..... ٣٥٦
* الإمام العابد محرز بن خلف بن أبي رزين أبو محمد التونسي

الموضـــوع الصفحة

والصقلي: «الصراط أحد من السيف ومن السلطان وأمره»..... ٣٥٦
* الإمام الفقيه جبلة بن حمود الصدفي صاحب سحنون وعبيدالله الشيعي: «قطعوها قطعهم الله»..... ٣٥٧
* «ما أصنع بابن ملك الجبل»..... ٣٥٧
* «صيروا أمر الله ـ عز وجل ـ فضولاً»..... ٣٥٨
* كيف منزلتك من قومك؟..... ٣٥٨
* شيخ الإسلام عبدالله بن المبارك ووالي مرو عبدالله بن أبي العباس الطرسوسي: «أذل بدني ولا أذل حديث رسول الله ﷺ»..... ٣٥٨
* شيخ الإسلام ابن تيمية وقطلوبك الكبير..... ٣٥٩
* الفقيه داود بن علي الأصبهاني الظاهري وأبو عبدالله المحاملي القاضي: «أنا بأمانة العلم أدخلتك إلي»..... ٣٥٩
* لله در الإمام النووي..... ٣٦١
* «أردت نفسي على الموت فأبت فلما أجابتني ظهرت»..... ٣٦٢
* قل له يموت بدينه ولا يعمل معهم..... ٣٦٢
* «هذا النصف درهم أحب إلي منها»..... ٣٦٣
* وصية سفيان الثوري إلى عباد بن عباد..... ٣٦٤
* الإمام القاضي عيسى بن مسكين بن منصور الإفريقي لا يرغب في لقاء رجال السلطان..... ٣٦٥
* «أي رجل كان لو لم يفسدوه؟»..... ٣٦٥
* «إن قربهم مفسدة للقلب»..... ٣٦٦
* أبو حسان الزيادي القاضي يقول لزنديق: «قتلك الحق»..... ٣٦٧
* «حتى أفرغ من أمر الخصوم»..... ٣٦٧
* «ما أصنع بدنانيرك؟»..... ٣٦٨

الموضـــوع	الصفحة
* «دعني أعيش باقيه حرًا سليمًا من الذل»	٣٦٨
* «أنت بدأت بالمسألة ولو سكت لسكت»	٣٦٩
* «السعي للعفو عمن سيق للقتل»	٣٧٠
* «ما أسعد من لا يرانا ولا نراه»	٣٧١
* الإمام الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التجيبي: «لن يزال البلد بخير ما كان فيه مثل هذا الشيخ»	٣٧٢
* «عبدالله بن محيريز القرشي الجمحي	٣٧٣
* القاضي عبيدالله بن الحسن العنبري والمهدي: «اذهب الآن فقد طوقتك طوقًا لا يفكه عنك خمسون قينًا»	٣٧٣
* وعلى درب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سار خلف الأمة	٣٧٤
* سليمان الحلبي البطل الشاب قاتل كليبر الفرنسي الذي ارهق المصريين عسفا وجورًا	٣٧٤
* محاكمة سليمان الحلبي وإعدامه	٣٧٦
* «كان الحق آثر عندي من غيره»	٣٧٩
* الإمام الرباني طاووس بن كيسان لا يقبل من أعطيات الأمراء شيئًا لله دره	٣٧٩
* انظر أين منصرفك إلى الجنة أم إلى النار؟	٣٨٠
* لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود	٣٨١
* أتدري ما الذي يجرؤك علينا ويجنبنا عنك؟	٣٨١
* من وثق بثواب الله لم يضره مس الأذى	٣٨١
* إن قبلها فأنتما حرّان	٣٨٢
* الإمام الفقيه أبو دهب عبدالأعلى بن وهب القرطبي وهاشم ابن عبدالعزيز الوزير: «إن كنت تطلب العلم لله فأعزه يعزك الله»	٣٨٣

الموضـــوع الصفحة

* الخليل بن أحمد الفراهيدي: «ما دمت أجد الخبز فلا حاجة لي في سليمان»..... ٣٨٤
* بايعت رسول اللَّه على النصح لكل مسلم..... ٣٨٥
* للَّه دره صلة بن أشيم العدوي ورفقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «هذا كان أمثل مما أردتم»..... ٣٨٦
* الشيخ أحمد بن المعدل وأمير المؤمنين المتوكل: «نزهتك من عذاب اللَّه»..... ٣٨٦
* التابعي الجليل الإمام عبدالرحمن بن أبي نعم البجلي الكوفي والحجاج: «سر حيث شئت»..... ٣٨٧
* سوار بن عبداللَّه وأبو جعفر المنصور: «خوفتك دعوة اليتيم والأرملة ومن لا حيلة له»..... ٣٨٧
* القاضي شريك وبعض ولد المهدي: «هكذا يطلب العلم»..... ٣٨٨
* «قد حسن عندنا ظاهرك فحسن اللَّه باطنك»..... ٣٨٨
* «إياكم وأبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها»..... ٣٨٩
* «متى يفلح من كان يسره ما يضره؟»..... ٣٨٩
* «إن الأطباء هم العلماء وهم مرضى»..... ٣٩٠
* «ولو أن أهل العلم صانوه صانهم»..... ٣٩٠
* الأعمش والعباس بن موسى أمير الكوفة: «أبلغك أنا نبيع العلم»..... ٣٩١
* «غضب الأمير أهون من غضب اللَّه»..... ٣٩١
* «نصحتك إذ غشوك»..... ٣٩٢
* إنه أعيانا فرارًا»..... ٣٩٢
* «إني أحذرك يوم ينادي المنادي»..... ٣٩٣
* «إن تحكم في يحكم فيك ملك قادر يفرق بين الحق والباطل» ٣٩٤

الموضـــوع الصفحة

* الفقيه الزاهد نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي وتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان» ٣٩٥
* «لو احتجت إلى مالك ما وعظتك» ٣٩٥
* «لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني» ٣٩٦
* «يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب» ٣٩٦
* القاضي عبدالملك بن محمد الحزمي وداود بن يزيد بن حاتم والي مصر: «لن تصل رحمي بمثل إعفائي» ٣٩٧
* العلاء بن كثير الإسكندراني والليث بن سعد ٣٩٨
* «لا يا رب ولو قرضت بالمقاريض» ٣٩٩
* الإمام يحيى بن يعمر والحجاج: «لم تدع خشية اللّه مكانًا لخشية سواه» ٣٩٩
* العز بن عبدالسلام والملك الأشرف الأيوبي: «هذه اجتماعة للّه لا أقدرها بشيء من الدنيا» ٣٩٩
* القاضي سوار بن عبداللّه قاضي البصرة وعقبة بن مسلم الهنائي: «لأقتلنك قتلة يتحدث الناس بها» ٤٠٠
* «للّه درك يا سوار» ٤٠١
* قاضي البصرة الحسن بن عبداللّه العنبري والمعتصم وأحمد بن أبي دؤاد: «وددت أن مكان كل شعرة فيه قاض على بلد من البلدان» ٤٠٢
* القاضي إياس ووكيع بن أبي سود صاحب خراسان: «خدعك إنه لا يقبل شهادتك» ٤٠٤
* عبداللّه بن أيوب المخرمي لا يخرج لأصحاب الخليفة ويرفض القضاء ٤٠٤
* الإمام ربيعة الرأي والخليفة الوليد بن يزيد: «عزة العلماء..

الموضـــوع	الصفحة
ما أحدث شيئًا»	٤٠٥
* صلاح النفس أولاً ثم دعوة الناس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر	٤٠٥
* «لا نستضيء بنارهم»	٤٠٦
* «لا أحدث قومًا أنت فيهم»	٤٠٦
* أعرابي يشكو عاملاً لهشام بن عبدالملك	٤٠٧
* «أكره أن أذل»	٤٠٨
* العالم يؤتى: «لا تعودن لشيء من هذا»	٤٠٨
* الشيخ أحمد بن بديل الكوفي قاضي الري وموسي بن بغا: «إنه اللَّه تبارك وتعالى»	٤٠٩
* «اللَّه بيني وبينك»	٤١٠
* قاضي لا يدفع إلى المعتضد شيئًا: «لم يدفع إلى المعتضد شيئًا»	٤١٠
النبأ الزهر من شيوخ العصر	**٤١١**
* النبأ الزهر من شيوخ العصر	٤١١
* النبأ الزهر من شيوخ ورجال العصر	٤١٣
* الدين النصيحة	٤١٤
* وقفه قبل ذكر الأعلام والرموز الإسلامية	٤١٦
* حكيم الإسلام صاحب المنار.. السيد محمد رشيد رضا.. رائد الإصلاح	٤٢١
* مجلة المنار دعوة إلى الإصلاح	٤٢٦
* الإصلاح في ميدان الفكر والتعليم	٤٢٧
أ ـ المدارس	٤٢٧
ب ـ إصلاح الأزهر	٤٢٨
* الخصومة بينه وبين أعداء الوهّابية والخرافيين	٤٢٩

الموضـــوع	الصفحة
* كلامه علي بدعة المولد	٤٣٣
* التوسل بالأنبياء والصالحين	٤٣٣
* رده على التقليد الأعمى وقوله في المذهبية	٤٣٤
* مع الشيعة	٤٣٥
* خصومته مع المستشرقين	٤٣٧
* الخصومة مع النصارى	٤٣٨
* خصومته مع الماسونية وتحريمه الدخول فيها	٤٣٨
* محاربته للفساد السياسي عند بعض الولاة العثمانيين	٤٣٩
* تحذيره من التدخل الأجنبي في بلاد المسلمين ووقوفه ضد المستعمرين	٤٤٠
* خصومته مع جمعية الاتحاد والترقي	٤٤١
* الخصومة بينه وبين أتباع المدرسة العقلية الحديثة	٤٤٢
* من تأثر برشيد رضا	٤٤٤
* الدين النصيحة وكلٌ يُؤخذ من قوله ويرد	٤٤٥
* شيخ الإسلام عبدالرحمن المعلمي اليماني وأنواره الكاشفة لزلل عدو السنّة أبي ريّة وتنكيله للكوثري القبوري شبخ الأباطيل	٤٤٥
* تنكيله بالكوثري وأباطيله	٤٤٨
* الكوثري لا يرقب في علماء السلف إلاً ولا ذمة ويقع في ابن تيمية وتلاميذه بما هو وصمة عار في جبينه	٤٥٣
* عدوان الكوثري على الأئمة والأعلام	٤٥٥
* موافقة الشيخ عبدالفتاح أبي غدّة لشيخه الكوثري على عدوانه وردّ الشيخ بكر أبو زيد عليه	٤٥٧
* يكفي لإدانة التلميذ	٤٦٠

الموضـــوع الصفحة

* غضبة الحق ٤٦١
* امتيازات الكوثري ٤٦٣
* الافتراء والكذب ٤٦٣
* الخيانة ٤٦٤
* الغدر والخداع ٤٦٥
* الفجور ٤٦٦
* التمادي في الباطل ٤٦٦
* الشيخ طاهر الجزائري رائد الإصلاح التعليمي في بلاد الشام في العصر الحديث (١٢٦٨هـ ـ ١٣٣٨هـ) ـ (١٨٥٢ ـ ١٩٢٠م) ٤٦٧
* حلقة الشيخ طاهر الفكرية ٤٧٢
* دعوته إلى الاجتهاد ٤٧٣
* دعوته إلى اقتباس النافع من علوم الغرب ومدنيته مع نقده للمدنية المادية ٤٧٤
* دفاع الشيخ طاهر عن التاريخ الهجري واللغة العربية ٤٧٥
* جمال الدين القاسمي المصلح الكبير ووقوفة ضد المقلدة والقصّاص والمخرفين ٤٧٦
* جهر الشيخ القاسمي بالأخذ بالاجتهاد ٤٨٠
* هجوم القاسمي على صوفية زمانه ٤٨٤
* إنكاره البدع ٤٨٧
* تصديه للدهريين ٤٨٩
* القاسمي الناصح لأمته ٤٩٢
* الشيخ محب الدين الخطيب ونشره للتراث السلفي المتميز في صحيفة الفتح والمطبعة السلفية ٤٩٣
* الداعية الإمام الشيخ حسن البنا . . العبقري المصلح الفذ ٤٩٩

الموضـــوع	الصفحة

* صدع الأستاذ البنا بالحق والجهر بكلمته عند كل سلطان جائر رده على مصطفى النحاس زعيم الوفد في إعجابه بمصطفى كمال أتاتورك ٥٠١
* مواجهة البنا للحكام في شأن الشريعة الإسلامية ٥٠٢
* تمنيه للموتة الطاهرة.. الشهادة في سبيل اللّه وكلامه على «صناعة الموت» ودور أبنائه في الجهاد في سبيل اللّه ٥٠٤
* دفاعه عن الإسلام والكشف عن باطل وزيف أتباع الغرب وتقديمهم للناس في صورتهم الصحيحة دون خداع أو إيهام: «البنا وطه حسين» ٥٠٥
* موقف الشيخ حسن البنا من كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين ٥٠٩
* الأستاذ البنا يزأر بالحق في عرينه «النذير» ويكتب «متى يستقيم الظل والعود أعوج؟ على رئيس الوزراء والوزراء أن يقيموا الصلاة الجامعة أولاً» ٥١٤
* وعن معركة فلسطين قال ٥١٩
* كلامه عن المحاكم الأهلية ٥١٩
* رده على «سامي الكيالي» ٥٢٠
* للّه در البنا ٥٢١
* ما مهمتنا إذن ٥٢٢
* كلمته إلى الوزراء وأولياء الأمور ٥٢٥
* للّه درك يا بنا ودر أسودك في فلسطين ٥٢٦
* قيل بين من ومن؟ ٥٣٠
* قيل وعلى أي أساس تدور؟ ٥٣٠
* قيل وما النتيجة المرجوة من ذلك؟ ٥٣١

الموضـــوع	الصفحة
* الرجل القرآني: حسن البنا لروبير جاكسون	٥٣٣
* الدين النصيحة	٥٣٧
* الدين النصيحة: اعتراف كبار الإخوان بالتقصير في تصحيح العقيدة	٥٤٢
* منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللّه	٥٤٦
* وتعال معي إلى هذه الحقائق	٥٤٧
* فيا غربة الإسلام	٥٥١
* اعتراض الطوائف المسيحية	٥٥١
* ويؤخذ عليه رحمه اللّه صوفياته	٥٥٤
* من باب إحقاق الحق	٥٥٨
* الشيخ محمد حامد الفقي مؤسس جماعة أنصار السنة التي صانت جانب التوحيد في مصر ومربي العلماء الربانيين	٥٥٩
* الدين النصيحة	٥٦٤
* الشيخ محمود أبو العيون فارس معركة إلغاء البغاء	٥٦٥
* الشيخ بديع الزمان النورسي الكردي رائد الصحوة الإسلامية في تركيا الحديثة	٥٧١
* مفهوم الحرية عنده	٥٧٣
* محاكمة النورسي	٥٧٤
* عزة المؤمن الأسير	٥٧٧
* نذير الصحوة	٥٧٩
* فتوى	٥٨٠
* مع مصطفى كمال	٥٨١
* كتبه ورسائله خلال تلك الفترة	٥٨٢
* رسائل النور	٥٨٤

الموضـــوع	الصفحة
* منع الأذان باللغة العربية سنة ١٩٣٢ ورد النورسي.....	٥٨٦
* لمعات من ظلمات السجن: (المدرسة اليوسفية الأولى).....	٥٨٨
* الدفاع المشهور.....	٥٨٩
* يا حضرات الحكام.....	٥٨٩
* نفي بديع الزمان إلى قسطموني.....	٥٩٠
* سعادة بريد النور.....	٥٩١
* النورسي لا يلبس اقبعة ولا يغير زيه.....	٥٩١
* النورسي مع طلاب المدارس الثانوية.....	٥٩٢
* سجن دنيزلي «المدرسة اليوسفية الثانية».....	٥٩٥
* دفاع رائع.....	٥٩٥
* للّه در النورسي.....	٦٠١
* النورسي يقذف الرعب في قلوب أعداء الإسلام حتى بعد موته.....	٦٠٢

تم المجلد الثاني بحمد اللّه

* * *

الموضـــوع	الصفحة
* السلطان عبدالحميد الخليفة العثماني وحفاظه على فلسطين رغم إغراء اليهود له.....	٥
* السلطان عبدالحميد واليهود.....	٢٩
* الحركة السنوسية وشهيدها أسد الصحراء عمر المختار.....	٣٠
* الشيخ عز الدين القسام إمام وشيخ حركة الجهاد في فلسطين عام ١٩٣٥م.....	٣٦
* وكان الإسلام يمتزج بدمه.....	٣٧
* عز الدين القسام شيخ المجاهدين بفلسطين سلفي العقيدة والمنهج:.....	٤٦
* عملية «نهلال» ضربة موجعة في أكبر رموز الصهيونية.....	٤٩
* الاستعداد للجهاد.....	٥٠
* القسام يعلن الجهاد المقدس.....	٥١
* معركة يعبد.....	٥٣
* إنك واللَّه اليوم أخطب منك حيًا.....	٥٧
* قال القسام.....	٦٠
* الحمد للَّه الذي شرفني باستشهاد أبي.....	٦١
* هذا عز الدين فماذا قال الساسة.....	٦٣
* شنشنة أعرفها من أخزم.....	٦٤
من بلد الرشيد بلاد الرافدين دجلة والفرات كان الشيخ الزهاوي	**٦٥**
* العلامة المجاهد الشيخ أمجد الزهاوي شيخ علماء العراق المعاصرين.....	٦٥
* إرادة اللَّه فوق إرادة الملك.....	٦٧
* الشيخ الزهاوي يراسل ملوك المسلمين ورؤساءهم مطالبًا لهم	

الموضـــوع	الصفحة

بتطبيق شرع اللّه ٦٧
* رسالة الملك سعود ٧٠
* ما تجب معالجته بادئ ذي بدء ٧٢
* كيفية تنظيم الحلف ٧٣
* رسالة الملك إدريس السنوسي ٧٤
* رسالة رئيس جمهورية باكستان ٧٧
* باكستان في نظر الزهاوي ٨١
* رسالة رئيس جمهورية السودان ٨٢
* مذكرة لبقية الملوك والرؤساء يرسلها الشيخ الزهاوي ٨٥
* البطل الفذ أحمد عبدالعزيز.. إذا ذكرت فلسطين ذكر أحمد عبدالعزيز: ٨٧
* هزيمة منكرة لليهود في مستعمرة رامات راحيل في ٢٦ مايو ١٩٨٤ ..... ٨٩
* أكبر خطيئة في تاريخ الحروب قبول الجيوش العربية للهدنة ليفلت مائة ألف يهودي محاصرون بالقدس من إبادة محققة: ٩١
* البطل أحمد عبدالعزيز ورجاله يلقنون اليهود الدروس القاسية ٩٣
* البطل أحمد عبدالعزيز مفخرة الجيش المصري والعسكرية المصرية يفاوض بعزة المسلم وفطنته: ٩٥
* وسقط البطل أحمد عبدالعزيز أبرز شخصية عسكرية أنجبتها المعارك على ثرى فلسطين ٩٦
* كيف قتل الشهيد البطل أحمد عبدالعزيز فخر العسكرية المصرية والجيش المصري؟ ٩٧
* الشيخ أبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية (١٩٠٣ ـ ١٩٧٩) وأميرها بالقارة الهندية يصدع بالحق في أمور الحاكمية والصوفية ونبذ القومية والضرورة الحتمية للدينونة للتشريع

الموضـــوع	الصفحة
الإسلامي:	٩٨
* إلى الصحافة	٩٩
* الطريق إلى القمة	١٠٠
* مزيد من الثقافة	١٠١
* في طريق الدعوة	١٠٣
* المودودي وإقبال	١٠٤
* الجماعة الإسلامية	١٠٦
* أتون المحن المتلاحقة	١٠٧
* في معركة الدستور	١٠٨
* أكبر من الموت	١١٠
* إلى المحكمة العليا	١١٢
* المفاجأة الرهيبة	١١٣
* مؤامرة على الإسلام	١١٤
* تصميم أعظم من الإرهاب	١١٦
* بين الخرافة والغرور	١١٧
* خلوات مباركات وكرامات	١٢٠
* المودودي والتصوف	١٢١
* بين المودودي وأبي الحسن الندوي	١٢٢
* النقد البريء	١٢٣
* الدين النصيحة . . وكل يخطئ ويصيب	١٢٤
* موقفه من الحديث النبوي	١٢٦
* إصرار الشيخ المودودي على موقفه من الحديث وردّ العلماء عليه	١٣٠
* عالم عصره وعلامة مصره مربي الرجال الشيخ محمد بن	

الموضـــوع	الصفحة
إبراهيم آل الشيخ	١٣٣
* تلامذته وأبناؤه في العلم	١٣٦
* اهتمام الشيخ بالدعوة إلى اللَّه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١٤٠
* آثاره الباقية في إقامة مناهل العلم والدين	١٤١
* الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي أعلم الناس بتفسير القرآن بالمأثور في قرننا:	١٤٥
* موقفه مع الحق	١٤٨
* دفاع الشنقيطي عن الشريعة وهدي القرآن وصدعه بالحق	١٤٩
* كلام الشيخ عن اختلاف القلوب	١٦٣
النبأ الزهر من شيوخ ورجال العصر	**١٦٤ ـ ٤٨٤**
* الشيخ علي الطنطاوي الأديب والداعية الإسلامي الكبير وعُرس الشهداء:	١٦٥
* يا عبدالناصر جزاك اللَّه بما تستحق	١٦٩
* أما أنتم أيها الإخوان.. فاعلموا أن المحن تدريب	١٧١
* الشيخ القرضاوي صاحب الملحمة النونية	١٧٢
* أديب الإسلام الشيخ سيد قطب وصدعه بالحق وحكايته مع الطاغية:	١٨٢
* قيادة ثورة يوليو يقيمون حفل تكريم لسيد قطب في أغسطس ١٩٥٢م	١٨٦
* خلاف سيد مع رجال الثورة	١٨٨
* الدين النصيحة	١٩٦
* وسئل فضيلة الشيخ عن (حرية الفكر):	١٩٧
* الدين النصيحة	٢٠٢

الموضـــوع الصفحة

* العالم العامل والمربي الفاضل العلاّمة الشيخ محمد الأودن صاحب الكرامة العظيمة ٢٠٣
* شيخ وعّاظ مصر ورجل العامة الشيخ عبدالحميد كشك أسد المنابر ٢١٠
* الشيخ كشك والإعلام ٢١٤
* استدعاء بسبب القذافي ٢١٦
* الشيخ عبدالحميد كشك وشيخ الأزهر في أيامه ٢٢١
* الشيخ كشك وجعفر نميري ٢٢٢
* يوم التحقيق ٢٢٣
* إمام العصر وسيد علمائه الشيخ عبدالعزيز بن باز ٢٢٥
* خطاب وكتاب ٢٢٦
* واجب العلماء ٢٢٧
* الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر ورفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب السابق ٢٢٨
* الشيخ الدكتور محمد عبدالله دراز يعارض بطش عبدالناصر بدعاة الإسلام: ٢٣٠
* ماذا فعلوا بعالم الأزهر الذي عارض الاشتراكية؟! ٢٣٥
* مأساة المستشار علي جريشة ٢٤٣
* الليث الهصور الشيخ محمود عبدالوهاب فايد شيخ الجمعية الشرعية ٢٤٥
* معركة لا تنسى ٢٤٥
* باسم الله والله أكبر . . فليستقل شيخ الأزهر ٢٤٦
* انتصار ٢٥٥
* خلفيات المعركة ٢٥٦

الموضـــوع	الصفحة
* كلام دونه السهام	٢٥٨
* مناقشة تحليلية	٢٦٠
* وباء الطغيان	٢٦١
* نكسات الزيات	٢٦٢
* نصان منافقان	٢٦٣
* بعد النكبة	٢٦٧
* أين المعتبرون	٢٦٨
* فيتو ثوري	٢٧٠
* في مجلس الشعب	٢٧١
* مع الأسد والليث الشيخ محمود عبدالوهاب فايد رحمه اللَّه	٢٧١
* ومن مواقف الشيخ المبارك ـ رحمه اللَّه ـ نسوق هذه المواقف لالئ ودرر في جبين الأيام ـ مع السادات	٢٧٣
* «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين» قول يتجاهل حقيقة الإسلام	٢٧٨
* لا للحزب اليساري هذا هو واجب العلماء في توجيه النصح للحكام	٢٧٩
* رسالة وديه لرئيس الجمهورية حول أهمية تطبيق الشريعة الإسلامية	٢٨٥
* للَّه درك من عالم رباني، آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر صادع بالحق	٢٩١
* للَّه درك ما أجرأك من ليث	٢٩٤
* يا سيادة الريس: بحكم منصبك فإني أذكرك	٢٩٦
* الشيخ محمود فايد يدخل عش الدبابير	٢٩٧
* رسالة ودية إلى رئيس الجمهورية «لا يجوز لمصر الإسلامية أن	

الموضـــوع	الصفحة
تقيم تماثيل لحكّامها السابقين خصوصًا إذا كانت مُكبّلة بالديون»	٣٠٦
* الشيخ محمود فايد ونجيب محفوظ	٣١٥
* الشيخ فايد ووزير التعليم	٣١٥
* الشيخ محمود عبدالوهاب فايد والمحجوب	٣١٦
* قذائف الحق	٣٢١
* وقفته مع الدكتور البهي	٣٢١
* وقفة جريئة للشيخ مع بيان كبار العلماء سنة ١٩٨٩م	٣٢٣
* لقد تضمن البيان أمورًا ثلاثة على جانب كبير من الأهمية	٣٢٧
* أيها العلماء.. لو قمتم بواجبكم في الدعوة	٣٣٠
* أيها العلماء.. إن الأمر جد	٣٣١
* للّه درك من إمام	٣٣١
* الوحدة المحمدية خير وأبقى من الوحدة الناصرية «رد على مقال أحمد حسن الزيات بمجلة الأزهر»	٣٣٢
* مناقشة الزيات في مقاله	٣٣٣
* يا أستاذ زيات	٣٣٤
* ثم كتب بعد كلام طويل رائع: الزيات ينافق طول حياته	٣٣٥
* رفقًا بأنفسكم وبالأمة	٣٣٦
* نص العريضة التي قدمتها للدكتور محمود حب اللّه أمين مجمع البحوث الإسلامية:	٣٣٧
* يا صاحب الفضيلة	٣٣٩
* لهذا أقترح	٣٣٩
* نص البرقية التي أرسلها إلى رئيس الجمهورية (جمال عبدالناصر)	٣٤٠
* مع الزيات.. مرة أخرى.. من لم يحترم الرسول ﷺ فلا	

الموضـــوع	الصفحة
حرمة له	٣٤١
* عبدالناصر يسخر من علماء الأزهر فيرد عليه الشيخ محمود فايد	٣٤٦
* عيد.. بأية حال عدت يا عيد	٣٤٨
* عبدالناصر والشيخ عاشور والشيخ محمود فايد	٣٥٣
* أيها الإخوة	٣٥٥
* لا بد أن نأخذ العبرة، ونقتبس العظة:	٣٥٥
* العلماء الرجال	٣٥٩
* فقرات من مقال الزعيم أحمد حسين	٣٦١
* شهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه	٣٦٤
* اللَّه يضرب الكافرين	٣٦٥
* كرامة للشيخ محمود فايد	٣٦٥
* شيخ الحديث ومحدث الزمان الشيخ ناصر الدين الألباني	٣٦٧
* فضيلة الشيخ المجاهد محمد أبو زهرة ودفاعه عن قضايا الإسلام	٣٧١
* همس.. وليته ما همس	٣٧٢
* رسالة إلى الحاكم	٣٧٣
* الشجاعة عند أبي هريرة	٣٧٤
أولاها: شجاعة مرفوضة	٣٧٤
ثانيها: شجاعة واجبة	٣٧٤
ثالثها: شجاعة حسنة مستحبة	٣٧٤
* صبره على المحن	٣٧٥
* أبو زهرة وواقع الأمة الإسلامية	٣٧٧
* أصبحنا نحل ما حرم اللَّه	٣٧٩

الموضـــوع الصفحة

* أبو زهرة يدعو إلى الجهاد لتحرير الجزائر ويقول: تحرير الجزائر تحرير للأمة الإسلامية ٣٨٠
* الإبادة الكاملة لأحياء المسلمين ٣٨٢
* هذه أمتكم أمة واحدة ٣٨٢
* إنه حب الدنيا.. وحب الشهوات ٣٨٥
* الجهاد.. الجهاد ٣٨٦
* أبو زهرة عدو الشيوعية والاشتراكية العلمية ـ والشيوعيين: .. ٣٨٧
* وجاء في تخاريف وأكاذيب الميثاق الذي اخترعه عبدالناصر ٣٨٨
* لا يؤخذ الدين إلا من قلب تقي: ٣٨٩
* الشيخ أبو زهرة يؤدب لويس عوض: ٣٨٩
* الحقائق عندنا لا تضيرها الأحجار ٣٩٠
* لقد تعرض بفضول لأمرين ٣٩٠
* إعلان الباطل: ٣٩٢
* أخطر وثيقة للفكر الشيوعي: ٣٩٥
* تقول الوثيقة: ٣٩٥
* الشيوعية.. تكشف عن أنصارها: ٣٩٨
* وتفصح الوثيقة عن أسرار رهيبة فتقول: ٣٩٨
* الشيخ أبو زهرة يرد على أوحال عبدالرحمن الشرقاوي شديد السواد والقتامة في كتاب الشرقاوي «محمد رسول الحرية» وهو يشكك في آيات اللّه وينسب القرآن إلى الرسول ٣٩٩
* اتجاه غير ديني ٣٩٩
* لماذا يقتطع جملة من آية؟! ٤٠٠
* الوحي في الغار كان مناميًا: ٤٠١
* نسبة القرآن إلى النبي ٤٠٢

الموضـــوع	الصفحة
* إنذاره عشيرته الأقربين	٤٠٢
* القتال في الشهر الحرام	٤٠٣
* أسرى بدر	٤٠٣
* إبطال التبني من النبي	٤٠٤
* عبرة أحد	٤٠٥
* تقسيم أموال بني النضير	٤٠٦
* معاني القرآن وأحكامه ينسبها للنبي	٤٠٧
* أين ذكر اللَّه في الكتاب؟!	٤٠٧
* القرآن من همهمة الرسول؟!	٤٠٧
* التشكيك في آيات اللَّه	٤٠٨
* توهين لتواتر القرآن	٤١٠
* ينافي الحقائق التاريخية	٤١٠
* ادعاء خروج النبي إلى اليمن	٤١٠
* ادعاءات من خيال المستشرقين	٤١١
* هل كتب النبي بيده؟!	٤١٢
* ثلاث دعاوى باطلة	٤١٢
* نزعة مسيحية	٤١٣
* خيال روائي:	٤١٤
* رد الشيخ أبي زهرة على مشروع وزارة الشئون الاجتماعية في الأسرة	٤١٤
* المخالفات الصريحة للقرآن والسنة:	٤١٥
* الطلاق	٤١٦
* ذلك قولهم بأفواههم:	٤١٩
* تعدد الزوجات	٤٢٠

الموضـــوع	الصفحة
* زيادة السن.....	٤٢٤
* الولاية على النفس.....	٤٢٥
* هجومه على تنظيم الأسرة وتنظيم النسل أو تحديده.....	٤٢٦
* أبو زهرة يرد على أكذوبة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون في مارس ١٩٦٨م:.....	٤٣١
* الشيخ محمد الغزالي المدافع عن الإسلام ضد خصومه من العلمانيين ودعاة التنوير ـ الظلاميين ـ والقوميين والزنادقة والشيوعيين وطوائف الكافرين.....	٤٣٩
* الشيخ الغزالي يدافع عن الهضيبي ويرد على الظالمين.....	٤٣٩
* إنصاف وأدب ونصح.....	٤٤٢
* وقفة هامة: «الدين النصيحة»:.....	٤٤٢
* الغزالي المدافع عن الإسلام ضد خصومه.....	٤٤٤
* قذائف الحق.....	٤٤٤
* الشيخ الغزالي وعبدالناصر ورجاله.....	٤٤٦
* الغزالي رجل المواقف.....	٤٤٩
* موقفه في المؤتمر القومي العام سنة ١٩٦٢م.....	٤٤٩
* مصارعة القوى المعادية للإسلام.....	٤٥١
* في وجه الاستعمار.....	٤٥١
* في وجه الصهيونية.....	٤٥١
* في وجه التنصير.....	٤٥٢
* في وجه الشيوعية.....	٤٥٣
* محامي الأمة الإسلامية.....	٤٥٤
* الغزالي والحرية وحربه على الفساد السياسي.....	٤٥٥
* في وجه العلمانية.....	٤٥٧

الموضـــوع	الصفحة
* فضح عملاء الغرب	٤٦١
* علماء الأزهر وحملة نابليون والردّ على الخبيث صلاح جاهين:	٤٦٣
* صلاح جاهين وتلميذته سندريلا الشاشة	٤٦٧
* الشيخ الغزالي في مسجد عمرو بن العاص وموقفه العظيم من «قانون الأحوال الشخصية الزائف»	٤٦٩
* قضية الساعة	٤٧٠
* وقفته الرائعة في «ملتقى الفكر الإسلامي» في الجزائر في الثمانينات وردّه على الدكتور البوطي أمام الرئيس الشاذلي بن جديد	٤٧٢
* الشهادة في مقتل فرج فوده	٤٧٣
* أثر شهادة الشيخ في الحياة العامة	٤٧٤
* أسئلة هامة للشيخ:	٤٧٥
* أسئلة إلى الغزالي:	٤٧٦
* إن أسئلتي يا فضيلة الشيخ هي:	٤٧٦
* رد من الغزالي	٤٧٧
* بقية رد الغزالي	٤٧٩
* عقوبة قاتل المرتد	٤٨٠
* الشيخ المبتلى الصابر ومع المحن المنح	٤٨١

تم المجلد الثالث بحمد اللَّه وتوفيقه

* * *

الموضـــوع	الصفحة
* اللواء الركن محمود شيت خطاب أكبر عقلية استراتيجية عسكرية في العرب.. الناصح لأمته قبل نكبة ٥ يونيو ١٩٦٧.. ولكنه كالنبي في الصحراء لا يجد من يستفيد منه.....	٥
* في سلاح الفرسان.....	٥
* أحداث شارك فيها.....	٦
* العمل الأشق التدريس في الكليات العسكرية وكليات الأركان	٨
* جهاده في فلسطين.....	٩
* **مواقفه الطيبة:**	١٠
١ ـ مواقفه في نصرة دعاة الإسلام:.....	١٠
أ ـ مع سيد قطب.....	١٠
ب ـ مع المودودي.....	١٢
٢ ـ موقفه من اللهجة العامية.....	١٤
٣ ـ موقفه من شعر التفعيلة.....	١٥
٤ ـ موقفه من اللغة العربية.....	١٥
٥ ـ رفضه دعوة أعداء العربية لكتابتها بالحروف اللاتينية.....	١٦
٦ ـ موقفه من الحضارة الغربية.....	١٦
٧ ـ موقفه من أدب الجنس.....	١٦
* **موقفه من اليهود:**	١٨
* الأيام الحاسمة قبل معركة المصير، ونصح اللواء محمد شيت خطاب لقادة أمته فلم يستجيبوا له.....	٢٠
* في التأليف العسكري.. اللواء محمود شيت خطاب مجاهد يحمل سيفه في كتبه.....	٢٧
* مؤلفات اللواء محمود شيت خطاب.....	٢٩
١ ـ في التراجم.....	٢٩

الموضـــوع	الصفحة
٢ ـ في الدراسات العسكرية	٣٠
* موقفه من المستشرقين	٣٣
* شروط النهضة	٣٤
* مع الزعماء	٣٤
* موقفه من الوحدة العربية	٣٦
* الإسلام هو الحل	٣٦
* الشيخ أحمد ديدات الذي زلزل أركان التنصير	٣٧
* الرجل الرباني القرآني أبو الحسن الندوي (١٣٣٣هـ ـ ١٤٢٠هـ) (١٩١٤م ـ ١٩٩٩م) عميد الأدب الإسلامي وصاحب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»	٤٤
* دراسته العلمية	٤٥
* الرجال الذين أثروا في توجيهه	٤٥
* العلوم التي يؤثرها	٤٦
* النشاط المبارك للشيخ أبي الحسن الندوي:	٤٨
أ ـ الشيخ وندوة العلماء	٤٨
* عالمية الشيخ	٥٠
* عمله في التأليف	٥١
* للّه در الندوي	٥٣
* «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الكتاب القيم لأبي الحسن الندوي	٥٣
* السبيل إلى الإنقاذ	٥٦
* لكن.. من لهذه العقبات	٥٨
* في التربية والتعليم	٦٠
* منابع السموم	٦١

الموضـــوع	الصفحة
* التربية لدعم العقيدة.....	٦١
* تجربة رائدة.....	٦٢
* أبو الحسن الندوي المربي الفاضل.....	٦٤
* الشيخ الندوي و«الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية»:.....	٦٥
* ردة ولا أبا بكر لها.....	٦٨
* إلى الإسلام من جديد.....	٦٩
* الدين النصيحة.....	٧٠
* العالم الرباني حمود بن عبدالله التويجري ودفاعه عن عقيدة السلف.....	٧١
* الشيخ صلاح أبو إسماعيل يصدع بالحق	٧٢
* الشيخ حافظ سلامة بطل السويس الذي صدّ برجاله اليهود عن الاستيلاء على السويس:.....	٧٦
* الدكتور محمد عباس.. القلم الطاهر المدافع عن الإسلام.. الحيّ بين الموتى:.....	٨٠
* شارون الأول.. وشارون الخامس والخمسين.....	٨١
* الشيخ علي عبدالرحمن الحذيفي إمام وخطيب المسجد الحرام وخطبته عن الشيعة في ١٥ من ذي القعدة عام ١٤١٨هـ:.....	٨٧
الدعاء إلى الإسلام رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	**٩٧ـ١٢٥**
* الدعاء إلى الإسلام رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٩٩
* الصحابي عديّ بن حاتم الطائي يعود إلى الإسلام على يديه ألف وخمسمائة من المرتدين:.....	١٠٢
* دخول التتار والمغول أحفاد جنكيز خان الإسلام على يد الشيخ جمال الدين الذي لا يعرفه أحد:.....	١٠٢

الموضـــوع الصفحة

* عبدالله بن ياسين بن مكوك الجزولي العالم العابد الزاهد مؤسس دولة المرابطين: ١٠٥
* إسلام ملك مالي وسنغاي وجني على يد الدعاة..... ١٠٩
* رجل من أمة التوحيد يُسلم على يديه أربعة آلاف من الأجانب ١١١
* الشيخ محمد جميل غازي الداعية المبارك يقضي عمره ذابًا عن التوحيد، ومدافعًا عن الإسلام ومفسرًا لكتاب الله ويُسلم على يديه القساوسة: ١٢١
* الشيخ غازي ليث المنابر يُفحم مناوئي الإسلام..... ١٢٢
* الهجمة على الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية..... ١٢٥
أما لك بالرجال أسوة؟ ١٢٧ -
أتسبقك وأنت رجل نسوة؟! ١٤٢
* أما لك بالرجال أسوة؟ أتسبقك وأنت رجل نسوة؟!..... ١٢٩
١ ـ إنكار عائشة رضي الله عنها على زياد تجرده عن الثياب بعد بعثه الهدي..... ١٢٩
٢ ـ أمر عائشة رضي الله عنها أمير المدينة بردّ المطلقة إلى بيتها..... ١٣٠
٣ ـ إنكار أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها على الحجاج قوله في ابنها ١٣١
٤ ـ احتساب أم الطفيل على الفاروق رضي الله عنه بسبب قوله في عدّة الحامل المتوفى عنها زوجها..... ١٣٢
٥ ـ احتساب قرشية على الفاروق رضي الله عنه بسبب منعه الزيادة في مهور النساء..... ١٣٣
٦ ـ نهي أم الدرداء رضي الله عنها عبدالملك بن مروان عن لعن الخادم.... ١٣٤
* وهل ينبت الخطي إلا وشيجه؟؟..... ١٣٥
* امرأة من أهل الأندلس آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر..... ١٣٦
* السري السقطي يعظ أستاذه وهو صبي..... ١٣٨

الموضـــوع	الصفحة
* وأخيراً: امرأة سبب في الهداية.....	١٣٩
* وراء كل عظيم امرأة.....	١٣٩
* الأميرة (موضى بنت أبي وهطان) تحث زوجها الأمير محمد ابن سعود على مؤازرة الدعوة الوهّابية.....	١٤٠
للّه درهم من ربانيين	١٤٣-١٨٤
* للّه درهم من ربانيين.....	١٤٥
* للّه درك يا يزيد بن مرثد: كم بينك وبين من يهرولون إلى المناصب ولو على حساب دينهم.....	١٤٥
* كراهية تولي القضاء حذراً من القرب من الولاة وإشفاقًا على النفس.....	١٤٥
* للّه درهم من ربانيين.....	١٥١
* عدم الدخول عليهم وحث بعضهم بعضًا على ذلك.....	١٥١
* ومن العلماء والربانيين الزهاد من يطلب الأمراء والكبراء مقابلتهم فلا يرضون ذلك.....	١٥٤
* ومنهم من كان السلطان يزوره فلا يعظمه وربما لا يلتفت إليه	١٥٨
* ولتجردّهم وإرادتهم الدار الآخرة ردوا عطايا السلاطين والأمراء وما قبلوها وهم أحوج من في الأرض إليها:.....	١٦٠
* للّه درك يا ابن حنبل. أنت إمام أهل السنة صدقًا وشيخ الإسلام حقًا:.....	١٦١
* الإمام ابن جرير الطبري.....	١٦٣
* الشيخ الصالح العالم الزاهد محمد المغربي.....	١٦٣
* شيخ الإسلام تقي الدين البلاطنسي.....	١٦٤
* الشيخ الصالح ولي اللّه الذي يستسقى به المطر محمد بن عمر العباسي الدمشقي الصالحي عابد دمشق.....	١٦٦

الموضـــوع	الصفحة
* الإمام الداعي إلى دار السلام علم اللَّه بن فضيل بن معظم الشريف الحسني البريلوي:	١٦٦
* الشيخ الزاهد مرزا مظهر جان جانان الدهلوي الحسني	١٦٧
* شيخ أهل المغرب عبدالقادر بن علي بن يوسف الفاسي	١٦٨
* الشيخ عمر العقيبي الدمشقي الشافعي المعروف بالإسكاف	١٦٨
* عز العلماء الربانيين العاملين وشرفهم وفضلهم	١٦٩
* وهم أمان للناس	١٧٠
* وفي بقاء العلماء العاملين الربانيين صلاح لهذه الأمة	١٧١
* وهم سبب لنصر الأمة	١٧١
* كلمات للحياة	
* أديب الإسلام مصطفى صادق الرافعي يبيِّن علو شأن العلماء الربانيين الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في شخص سيدهم أحمد بن حنبل:	١٧٢
* الملك الأشرف قايتباي الجركسي سلطان مصر والشيخ عبدالقادر الدشطوطي	١٧٥
* ملك العلماء عبدالعلي اللكهنوي والأمير والاجاه محمد علي خان الكوباموي:	١٧٧
* الشيخ الزاهد محمد بن حمزة الدمشقي المعروف بابن شمس الدين والسلطان محمد الفاتح:	١٧٧
* الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك	١٧٨
* شيخ الإسلام أبو خالد الإمام يزيد بن هارون	١٨٠
* العلماء ملوك الدنيا	١٨١
* طاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء	١٨١
* إلى اللَّه نشكو أهل الممالك من أهل ملتنا	١٨٢

الموضـــوع	الصفحة
وا إسلاماه	١٨٥ ـ ٢٤٠
* وا إسلاماه.....	١٨٧
* وا إسلاماه ـ وا إسلاماه ـ وا إسلاماه.....	١٨٩
* الزنديق فرج فودة وتصدى دعاة الإسلام له وعلى رأسهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي والشيخ الدكتور محمود مزروعة:..	١٩٢
* ادعاؤه تفوق القانون الوضعي على الشريعة الإسلامية.....	١٩٢
* ويعلن رفضه لتطبيق الشريعة الإسلامية.....	١٩٣
* إباحته للزنا.....	١٩٤
* يبيح صناعة الخمور وبيعها في مصر ورفضه للشعائر الإسلامية	١٩٤
* تطاول الكلب على سادات الصحابة.....	١٩٦
* ويقول إن الجهاد في سبيل اللّه وحدها، ويطلق اسم الشهيد على غير المسلم الذي يُقتل دفاعًا عن الأرض:.....	١٩٨
* موقفه من جون جارانج الصليبي زعيم المتمردين في جنوب السودان.....	١٩٨
* نسفه لعقيدة الولاء والبراء:.....	١٩٩
* الشيخ الغزالي وفرج فودة:.....	١٩٩
* وقبل أن نسطر شهادة الدكتور محمود مزروعة نسجل ما سوّدته يد المجرم الأفاك الأثيم فرج فودة إفكًا وزورًا.....	٢٠٢
* تصدي الدكتور محمود مزروعة للعلمانيين وشهادته الجريئة في قضية القميء فرج فودة:.....	٢٠٤
* الشيخ الغزالي يجهر بكلمة الحق في قضية فرج فودة حين صمت أكثر الناس:.....	٢٠٦
* شهادة الأستاذ الدكتور محمود مزروعة أستاذ العقيدة والأديان بجامعة الأزهر في يوم السبت ٣/ ٧/ ١٩٩٣.....	٢١٠

الموضـــوع	الصفحة
* العشرة المبشرون بالجنة كلهم إرهابيون هكذا يقول الضالون المفسدون من الإعلاميين:	٢١٩
* وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. لكن الإسلام لا بواكي له.....	٢٢١
* استدال كلمة «اللّه» بكلمة «الإنسان الكامل» زندقة:	٢٢١
* وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. لكن الإسلام لا بواكي له.....	٢٢١
* الطيور على أشكالها تقع.....	٢٢٣
* ولكن الإسلام لا بواكي له.. وا إسلاماه.. وا إسلاماه.....	٢٢٨
* ماذا بقى من الإسلام إذًا أيها العلمانيون وإليك آخر الطوام قولهم بوحدة الأديان:	٢٢٨
* وا إسلاماه.. ولكن الإسلام لا بواكي له.....	٢٣١
* إنه الانسلاخ الكامل من أركان الإسلام والتغريب المطلق.....	٢٣١
* وكان ولاؤهم للطين والتراب إن كان لهم وراء.....	٢٣١
* أما المجون فدينهم.....	٢٣٢
* خليل عبدالكريم الزنديق.....	٢٣٢
* ولكن الإسلام لا بواكي له.....	٢٣٣
* الدكتورة التنويرية نوال السعداوي.....	٢٣٤
* حيدر حيدر السوري وروايته «وليمة لأعشاب البحر».....	٢٣٤
* وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. وا إسلاماه.....	٢٣٦
* الليث الهادر الدكتور محمد عباس يزأر نصرة لدينه.....	٢٣٦
* أيها المتغرّبون.....	٢٣٧
* معاشر العلمانيين.....	٢٣٨
* أخي.. أنت ابن الإسلام فاهتف بهم.....	٢٣٨
* أخي.. هذي بساتين الجنان فوّحت فأين من يرتاد.....	٢٣٨
* أخي.....	٢٤٠

الموضـــوع	الصفحة
* أخي أيها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.....	٢٤٠
أعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:	٢٤١
الدعوة إلى الاتباع والنهي عن الابتداع	
* أعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الدعوة إلى الاتباع والنهي عن الابتداع.....	٢٤٣
* للّه در من تمسك بالسنة ودعا إلى الاتباع ونهى عن الابتداع ولو غلت به القدور في ذات اللّه:.....	٢٤٣
* عبداللّه بن مسعود ترجمان القرآن رضي الله عنه.....	٢٥٤
* عبداللّه بن مُغفَّل.....	٢٥٥
* عمران بن حصين رضي الله عنه.....	٢٥٦
* الإمام القدوة شيخ الإسلام المتعبد المتهجد المتتبع للأثر المتُشدد أبو عبدالرحمن القرشي العدوي عبداللّه بن عمر.....	٢٥٦
* محمد بن سيرين.....	٢٥٨
* نجيب بني أمية أمير المؤمنين مجدد الدين عمر بن عبدالعزيز	٢٥٨
* وإمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رحمه اللّه ـ.....	٢٦١
* الإمام الربّاني: ابن أبي ذئب.....	٢٦٤
* إمام أهل الشام شيخ الإسلام الأوزاعي.....	٢٦٤
* وأمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري جبل في الاتباع والدعوة إليه:.....	٢٦٥
* وشيخ الإسلام عبداللّه بن المبارك.....	٢٦٦
* والإمام الرباني أبو إسحاق الفزاري.....	٢٦٦
* وسيد شباب أهل البصرة.. فتى الفتيان، وسيد العباد والرهبان.. المنور بالاتباع والإيمان أيوب السختياني:.....	٢٦٧
* ناصر السنة الإمام المطلبي الشافعي:.....	٢٦٨

الموضـــوع	الصفحة
* شيخ المحدثين وقامع البدع: يزيد بن هارون.....	٢٧٤
* معلم الخير وإمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه اللَّه ـ.....	٢٧٥
* أخي:.....	٢٧٨
* للَّه درك إمام أهل السنة.....	٢٨٠
* إعراضه عن أهل البدع وذمّه لهم.....	٢٨٠
* زهر البساتين من ثبات الإمام أحمد بن حنبل إمام العلماء الربانيين.....	٢٨٢
* قافلة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فتبتلى.....	٢٨٦
* فأما من ضُرب من كبار العلماء.....	٢٨٦
* الإمام أسد بن الفُرات وشدّته على المعتزلة وأهل البدع.....	٢٨٩
* محنة الإمام سحنون وتلاميذه في محنة خلق القرآن وثباتهم حتى هُزمت المعتزلة.....	٢٨٩
* شيخ الإسلام محمد بن أسلم الطوسي أمره سماوي أشد الناس اتباعًا ودعوة إلى الاتباع.....	٢٩٢
* سيد الحفاظ أبو زرعة الرَّازي عبيداللَّه بن عبدالكريم بن يزيد..	٢٩٧
* زين الأمة وأمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري.....	٣٠٢
* الإمام القدوة، شيخ أهل السُّنة والجماعة في عصره: البربهاري أبو محمد الحسن بن علي بن خلف.....	٣٠٣
* شيخ الإسلام ابن تيمية: مجدد زمانه وقامع المبتدعين.....	٣١١
* محاربته للبدع والعقائد المخالفة للكتاب والسنة وجهاده الدائم ضد المبتدعة:.....	٣١٤
* تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة والأصول.....	٣٣٠
* من كلامه في أهل البدع.....	٣٣٣

الموضـــوع	الصفحة
* محنة شيخ الإسلام وسجنه.....	٣٣٧
* قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز.....	٣٤١
* حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ـ الإمام ابن قيم الجوزية ـ:..	٣٤٢
* مدى تأثره بابن تيمية:.....	٣٥٠
* عهد لابن القيم مع ربه بجهاد أهل البدع وقمعهم.....	٣٦٥
* **أزاهير التمسك بالسنة واتباع الخليل ﷺ:**	٣٦٧
* قال اللَّه تعالى، وكلام الملوك ملوك الكلام.....	٣٦٧
* عود على بدء.....	٣٧٥
* كلمات في الاتباع وذم البدع لأهل الزهد وأصحاب السلوك..	٣٨١
* **ذم الابتداع والتحذير من أهل الأهواء وهجرهم والشدة عليهم وقمعهم:**	٣٩٠
* تحذير السلف من أهل البدع بأعيانهم.....	٤١٩
* شدة أهل السنة على المبتدعة أهل الأهواء منقبة لهم.....	٤٢٨
* عود على بدء: أقوال العلماء في هجر أهل البدع والأهواء...	٤٣٦
* نصيحة من إمام أهل الشام.....	٤٣٦
* نصيحة الإمام عبدالرحمن بن أبي الزناد (ت: ١٧٤).....	٤٣٦
* درر الفضيل بن عياض.....	٤٣٩
* مع شيخ الإسلام حقًا وإمام أهل السنة صدقًا: أحمد بن حنبل	٤٤٠
* وصدق واللَّه الإمام.....	٤٤٠
* الحذار الحذار من قراءة كتب المبتدعة الفُجّار.....	٤٤٥
* ابن خلدون للَّه دره.....	٤٤٧
* الحافظ ابن حجر العقسلاني وغضبه للَّه ورسوله:.....	٤٤٧
* لآلئ البيان للشيخ ابن عثيمين ـ رحمه اللَّه ـ.....	٤٤٨
* قاضي الجماعة ابن حمدين الأندلسي (ت: ٥٠٨) وإحراقه	

الموضـــوع	الصفحة

لكتاب إحياء علوم الدين: ٤٤٩
* «يا قومنا أجيبوا داعي اللَّه»: ٤٥١
* عليكم بالعتيق وإياكم والهمج الرعاع ٤٥٤
* درة من درر ابن القيم ٤٥٥
*** منكرو السنة كليًا أو جزئيًا العقلانيون أفراخ المعتزلة ـ القرآنيون** ٤٥٦
* الشيخ محمد حسين الذهبي والمدرسة العقلية الحديثة ٤٦١
* نتائج سياسية ٤٦٥
* النتائج الفكرية ٤٦٥
* قول هام للدكتور محمد محمد حسين عن المدرسة العقلية الحديثة: ٤٦٦
* الدكتور التركي محمد توفيق صدقي دجّال من الدجاجلة ٤٦٧
* إسماعيل أدهم يفتري على الأئمة ٤٦٨
* أحمد أمين وإنكاره للسنة وخيانة الأمة وأسفه على موت المعتزلة ٤٦٩
* الدكتور محمد حسين هيكل صاحب: «حياة محمد» من الطاعنين في السنَّة ٤٧٠
* عدّو السنة وعدو أبي هريرة محمود أبو رية يتصدى لظلماته العالمان الجليلان: محمد عبدالرزاق حمزة وعبدالرحمن المعلمي اليماني ٤٧٢
* زكي مبارك ٤٧٢
* «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا» ٢٧٤
* أخي: ٤٧٨
* الكذاب الأشر المدعو «السيد صالح أبو بكر» وجنونه العجيب ٤٧٩

الموضـــوع	الصفحة
* الرد القويم على المجرم الأثيم لفضيلة الشيخ حمود التويجري	٤٨٣
* الدكتور أحمد زكي أبو شادي وإنكار السنة.....	٤٨٦
* توفيق الحكيم أستاذ المتمردين على السنة ورد الدكتور عبدالعظيم المطعني عليه.....	٤٨٧
* الشيخ محمد فايد منكر المعجزات.. يردّ بعض الأحاديث فيلقمه شيخ الإسلام مصطفى صبري الحجر.....	٤٩٠
* القرآنيون منكرو السنة بالهند وباكستان وتصدي شيخ الإسلام أبي الوفاء ثناء اللّه تسري الأمر لدجّالهم غلام أحمد القادياني..	٤٩٣
* الشيخ أبو زيد الدمنهوري صاحب كتاب «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن»:.....	٤٩٣
* صبحي منصور الدجّال منكر السنة نائب مسيلمة الكذاب بتوسان والمروّج لنبوته الكاذبة وتصدي فضيلة الشيخ الدكتور سعد ظلام له وفضحه إياه:.....	٥٠٠
* وممن أنكرو بعض الأحاديث المتواترة أو الصحيحة:.....	٥٠٦
* الشيخ محمد بخيت المطيعي.....	٥٠٦
* وعلى درب الوالد سار الابن.....	٥٠٦
* وعلى الدرب سار الدكتور مصطفى محمود.....	٥٠٧
* منكر السنة مصطفى كمال المهدوي صاحب كتاب «البيان بالقرآن» وتصدي الشيوخ في ليبيا له:.....	٥٠٧
* العقيد معمر محمد عبدالسلام أبو منيا ـ القذافي وإنكاره للسنة وتصدي العلماء له وعلى رأسهم شيخ الإسلام عبدالعزيز بن باز ـ رحمه اللّه ـ.....	٥١٠
* وفرية أخرى: ادعاء النبوة.....	٥١١
* شطح وانفلات.....	٥١٥

الموضـــوع	الصفحة
* دجال السودان حسن الترابي يرد السنة وينحرف عن قواعد الدين ويطعن في الصحابة وينكر حد الردة والرجم ويمجّد الفن ورقص الغرب!!	٥١٩
* آراؤه في العقيدة	٥٢٠
* إنكاره لبعض الحدود	٥٢٢
* موقفه من الفن	٥٢٤
* روجيه جارودي من صنع الجّهال حوله هالات النور وهو يهدم دين اللّه من أساسه ويحطم الثوابت والسنة فيتصدى له شيخ الإسلام الفذ الشيخ عبدالعزيز بن باز	٥٢٥
* ويقول عن القدر والإنسان	٥٢٦
* أما عقيدته في اليوم الآخر	٥٢٦
* مفهوم البعث	٥٢٧
* أما السنة	٥٢٧
* الوحدة الفيديرالية الإبراهيمية	٥٢٨
* بيان حكم الشرع في الجارودي على ضوء المقابلة معه في مجلة المجلة لسماحة الشيخ: عبدالعزيز بن عبداللّه بن باز	٥٢٩
* الشيخ ابن باز يحكم بردة من تنقّص الرسول ﷺ ويرد على جريدة المساء المصرية:	٥٣٨
* حكم من استهزأ بالرسول العظيم عليه الصلاة والسلام أو سبّه أو تنقصه أو استحل شيئًا مما حرمه:	٥٣٨
* للّه در الشيخ ابن باز ـ رحمه اللّه ـ:	٥٥١

تم المجلد الرابع بحمد اللّه

الموضـــوع	الصفحة
جناية المدرسة العقلية الحديثة وروّادها على الإسلام	٥
* جناية المدرسة العقلية الحديثة وروّادها على الإسلام	٧
* الدكتور فهد الرومي يكشف زيف المدرسة العقلية الحديثة	٧
* جمال الدين بن صفدر الأفغاني	٨
* الجامعة الشرقية لا الجامعة الإسلامية	٨
* نشاط الماسوني	٩
* حقيقته والمآخذ عليه	١٥
* اليهود والنصارى من حوله	١٧
* صلته بالإنجليز	١٨
* الشيخ محمد عبده	٢٢
* ما يؤخذ عليه	٢٢
* التقريب بين الأديان	٢٣
* فتوى لعالم الإسلام الرباني ابن باز في «التقريب بين الأديان»	٢٦
* ومن المآخذ على الشيخ محمد عبده	٣٠
* محمد عبده وتلميذه قاسم أمين	٤١
* موقف المدرسة العقلية الحديثة من بعض القضايا القرآنية والاعتقادية	٤٦
* ولنأخذ من انحرافاتهم أمثلة	٤٩
* وفي القضاء والقدر	٥١
* المعجزات	٥٢
* معجزات محمد ﷺ	٥٣
* إحياء الموتى	٥٧
* من معجزات عيسى ـ عليه السلام ـ	٦٠
* انشقاق القمر	٦٢

الموضـــوع	الصفحة
* قولهم في الملائكة	٦٤
* قولهم في الجن	٧٢
* شذوذ الشيخ محمد عبده وشطحه في تفسير قوله تعالى: ﴿وأرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل﴾	٧٣
* قول المدرسة العقلية في القصة القرآنية	٧٩
* منهج المؤولين للقصص	٨٣
* المنهج الثاني ـ منهج القائلين بالتخييل	٨٥
* إنكارهم نزول عيسى ـ عليه السلام ـ آخر الزمان وردهم للحديث المتواتر	١٠٠
* نقل رشيد رضا تأويل الشيخ عبده لهذه الآية بقوله	١٠٤
* أثر المدرسة العقلية الحديثة في الفكر الإسلامي	١٠٧
ب ـ في السنة النبوية	١٠٩
جـ ـ في القصة القرآنية	١٠٩
د ـ في الفقه	١١٠
هـ ـ في السياسة	١١٤
و ـ في الاجتماع والأسرة	١٢٠
* موقف علماء المسلمين منهم	١٢٧
(أ) المعاصرين لهم	١٢٨
* الشيخ محمد الجنبيهي مؤلف كتاب «بلايا بوزا» والشيخ يوسف النبهاني يتصديان لمحمد عبده وشيخه الأفغاني	١٢٨
(ب) مَنْ بعدهم	١٣٩
* موقف الاستعمار البريطاني منهم واعترافه بما قدموه له من خدمات	١٤٥
* ترحيب المستشرقين بالمدرسة ونتائجها	١٤٧

الموضـــوع	الصفحة
* من رفض هذه الحجج وردها ندعوه إلى المباهلة:	١٥٠
* الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ يدافع عن أهل الحديث ويرد على الشيخ محمد الغزالي	١٥٢
* أيها الصاحب	١٥٤
* رده على الغزالي في طعنه على السلفية	١٥٩
* تفسيره أحاديث بخلاف فهم أهل السنة	١٦٠
* ضعفه النفسي أمام الغرب وحال العصر	١٦٠
* من أخطائه الاعتقادية	١٦٢
* العلم.. العلم	١٦٢
* أصل الإنسان وبدع المدرسة العقلية	١٦٣
* الدكتور عبدالصبور شاهين يخالف اجماع الأمة ويأتي بالعجب العجاب فيتصدى له الدكتور عبدالعظيم المطعني ويلقمه حجرًا	١٧٠
* موقف السلف من هذه القضية	١٧٢
* المنهج الذي سلكه في كتابه	١٨٠
* مشروع إنسان	١٨٣
* دعوى الدكتور عبدالصبور شاهين بخلو المجتمع من التكليف	١٨٥
* معنى النفخ عنده	١٩٠
* مصدر الأمة في نشأة الإنسانية	١٩٠
* نداء من الدكتور عبدالعظيم المطعني للدكتور عبدالصبور شاهين رئيس قسم السموم بجامعة القاهرة الدكتور إسماعيل منصور يبث سمومه في الأمة فيتصدى له الرجال	١٩٤
جهاد أهل السنة الرجال المتصوفة والشيعة الرافضة الضُّلاّل	**١٩٥-٢٤٥**
* الصوفية حادوا عن سواء السبيل وغيروا وبدلوا عقائد الأمة	١٩٥

الموضـــوع	الصفحة
* شيخ الإسلام ابن تيمية الجبل الطود الذي دحر التصوف:	١٩٩
* الوكيل يذب عن التوحيد ويبين عوار الصوفية في كتابه: «هذه هي الصوفية»	١٩٩
* «إله ابن الفارض»!	٢٠٢
* التجسد في النساء	٢٠٣
* إله الجيلي.. وادعاء الجيلى الربوبية العظمى	٢٠٤
* الحلاج الزنديق	٢٠٥
* خطايا الوثنية في بذاءة القونوي	٢٠٥
* إله النابلسي	٢٠٦
* فضيلة الشيخ الوالد بقية السلف الشيخ محمد صفوت نور الدين	٢٠٨
* الشيعة الرافضة الاثنا عشرية بإيران وعلى رأسهم الخميني إمام الضلال تفضحهم كتابات شيخ أهل السنة بباكستان إحسان إلهي ظهير فيقتلونه	٢٠٩
* العالم الرباني المجاهد شيخ علماء باكستان: الشيخ إحسان إلهي ظهير (١٣٦٠ ـ ١٤٠٧هـ)	٢١٠
* تنقله في الدراسات الجامعية والعليا ومناصبه	٢١٠
* إخلاصه وتجرده يضعان القبول لكتبه	٢١١
* مناظراته ومناقشاته	٢١٣
* قيمة كتبه ومؤلفاته	٢١٤
* مؤلفاته باللغة العربية	٢١٥
* أعداد مراجعه في كتبه	٢٢٣
* مؤلفاته باللغات الأخرى	٢٢٣
* نسأل الله أن يتقبل الشيخ إحسان إلهي ظهير في عداد الشهداء	٢٢٤

الموضـــوع	الصفحة
* من ذكرى النوادر نستمد العبر.....	٢٢٤
* تكفير علماء الأمة للشيعة الإمامية الاثنا عشرية بسبب تكفيرهم للصحابة ولعنهم إياهم.....	٢٢٧
* ولذا كفرهم الأئمة.....	٢٢٩
* الإمام مالك.....	٢٣٠
* الإمام أحمد.....	٢٣١
* وقال البخاري ـ رحمه اللَّه ـ:.....	٢٣١
* وقال ابن حزم.....	٢٣٢
* للمخدوعين في «حزب اللَّه» الاثنا عشرية.....	٢٣٤
* سلوا التاريخ يخبركم عن الرافضة الاثنا عشرية.....	٢٣٥
* الخميني ضال مضل.....	٢٣٦
* الخميني الضال يذهب إلى تحريف القرآن.....	٢٣٧
* الخميني الضال المضل المغالي في أئمته الاثنا عشرية.....	٢٣٩
* ونحن نقول عن الخميني أنه إمام من أئمة الكفر.....	٢٤٠
١ ـ الاتجاه الوثني عنده.....	٢٤٠
٢ ـ اعتقاد تأثير الكواكب والأيام على حركه الإنسان وهو قول الصابئة الكفار.....	٢٤١
٣ ـ قوله بالحلول والاتحاد ـ قوله بالحلول الخاص.....	٢٤٢
* قوله بالحلول والاتحاد الكلي.....	٢٤٣
ثالثًا: دعوى النبوة:.....	٢٤٣
* الخميني يكفر صحابة الرسول ﷺ عامة ويصر بتكفير الشيخين.....	٢٤٤
* ونكفر الخميني بتفضيله مهدي الشيعة المنتظر على النبي محمد ﷺ.....	٢٤٥

الموضـــوع	الصفحة
صفحة من جهاد المجددين وفضحهم للمبتدعة الآثمين	٢٤٧
* الإمام المجدد الرباني الشاطبي صاحب كتاب الاعتصام وجهاده للبدع وفضحه للمبتدعة	٢٤٩
* خمسة قواعد من الشاطبي في ذم البدع وأهلها	٢٥٨
* القاعدة الأولى:	٢٥٩
* القاعدة الثانية: المبتدع يستدرك على الشارع	٢٥٩
* القاعدة الثالثة: المبتدع معاند للشرع	٢٦٠
* القاعدة الرابعة: المبتدع مضاه للشارع	٢٦١
* القاعدة الخامسة: المبتدع متبع للهوى	٢٦١
* فتوى الشاطبي فيما تنتحله طائفة الفقراء الصوفية، في الأندلس	٢٦٢
* الغناء والشطح	٢٦٣
* الشاطبي الغيور.. المعظم لأسماء اللّه الحسنى	٢٦٤
* الشاطبي المنصف العادل كلامه في الصوفية الأوائل موافق لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية	٢٦٥
* العلماء العاملون هم السواد الأعظم وهم الجماعة	٢٦٨
* الدين النصيحة: وكل يؤخذ من قوله ويترك	٢٧٢
حراس الهوية والعقيدة السلفية	٢٧٥-٥٨٢
* حراس الهوية والعقيدة السلفية	٢٧٧
* شيخ الإمام ابن تيمية	٢٧٧
* الدعوة للإصلاح السياسي	٢٧٩
* ركز ابن تيمية في هذا المجال على أمور ثلاثة:	٢٧٩
الأول: بناء تصور سليم للحكم الإسلامي	٢٧٩
الثاني: إقامة حكومة قوية	٢٧٩

الموضـــوع	الصفحة
الثالث: بَعث روح الجهاد والمقاومة لمواجهة الأخطار الخارجية...	٢٨٠
* ومن إنجازات شيخ الإسلام في هذا الميدان.....	٢٨٠
* الدعوة للعدالة الاجتماعية.....	٢٨٢
* الدعوة للقضاء على انحرافات الفرق الضالة.....	٢٨٢
* شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، مجدد زمانه، إمام الدعوة السلفية في العصر الحديث.....	٢٨٣
* حالة المسلمين عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب..	٢٨٤
* المراحل التي مرت بها دعوة الشيخ محمد ـ رحمه اللَّه ـ.....	٢٨٨
* الشبه التي أثيرت حول دعوة الشيخ.....	٢٨٩
* ثمرات دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه اللَّه ـ وآثارها.....	٢٩٣
* العالم الرباني والزعيم السياسي عبدالحميد بن باديس يحافظ على هوية الجزائر العربية الإسلامية.....	٢٩٤
* تعليمه.....	٢٩٥
* صفاته.....	٢٩٥
* الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي.....	٢٩٧
* وقفة مع الصليبيين الفرنسيين قبل الحديث عن «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين».....	٢٩٩
* البعثات التنصيرية.....	٣٠١
* ابن باديس للَّه درُّه.....	٣٠٢
* التعليم.....	٣٠٣
* تعليم المرأة.....	٣٠٩
* رحلاته الدعوية.....	٣١٠
* الصحافة.....	٣١١

الموضـــوع	الصفحة
* مجالات نشاطه الصحفي	٣١٣
أولاً: مجالس التذكير	٣١٣
* مجالس التذكير من كلام البشير النذير	٣١٦
ثانيًا: رجال السلف ونساؤه وبعض الأعلام المعاصرين	٣١٧
ثالثًا: القضايا المعاصرة	٣١٨
* التجنس	٣١٩
* الوحدة العربية	٣٢١
* التقدم والمدنية	٣٢١
* نشاطه السياسي	٣٢٤
* تأسيس الشيخ عبدالحميد بن باديس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورئاسته له طيلة حياته	٣٢٩
* اهتمام ابن باديس بقضايا العالم الإسلامي	٣٣٦
* ابن باديس والطرقية «الصوفية»	٣٣٧
* ابن باديس، الرئيس الشرفي لبعض فرق الكشافة الجزائرية	٣٤١
* ابن باديس العليم بأحوال عصره وواقع أمته	٣٤٢
* ابن باديس في نظر معاصريه ومن أتى بعده من الأجيال المسلمة	٣٤٤
* في نظر المؤرخين	٣٤٩
* رجاء جارودي وابن باديس	٣٥٦
* قول زملائه وإخوانه وتلاميذه عنه	٣٥٧
* من دُرره وأقواله	٣٦٠
* أمير ونابغة البيان مصطفى صادق الرافعي «تحت راية القرآن» يرد على الزنادقة والغربان، ويدافع عن هوية الأمة في لغة القرآن	٣٦٥
* الرافعي تحت راية القرآن يُلقم طه حسين حجرًا بل جبلاً	٣٦٨

الموضـــوع	الصفحة
* معركة الفصحى والعامية بين الرافعي وأحمد لطفي السيد....	٣٧٧
* الرافعي و«الجملة القرآنية».....	٣٧٨
* أصحاب اللسان المرقَّع.....	٣٨٠
* الرافعي ورده على محمود عزمي المتباهي بالقبعة.....	٣٨٢
* مصطفى صادق الرافعي يفضح أتاتورك ويأخذ بثأر الإسلام منه.....	٣٨٦
* قال الرافعي عن أتاتورك.....	٣٨٦
* لو سمع؛ لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول: أخزاه اللَّه!!	٣٨٨
* كُفْر الذبابة.. أو كفر أتاتورك.....	٣٩٠
* قُتل الإنسان ما أكفره!!.....	٣٩٩
* دفاعه عن علماء الإسلام.....	٤٠٠
* رثاء الرافعي لشيخ العروبة أحمد تيمور.....	٤٠٣
* نصح الرافعي للمرأة، ومحاربته للسفور والتبرج.....	٤٠٥
* حديثه عن البنت.....	٤١٠
* محاربته للتبرج والسفور والعُري «لحوم البحر».....	٤١٠
* الشباب الرقيع المخنث.....	٤١٥
* نصيحة للمرأة الشرقية المسلمة.....	٤١٧
* قصيدة مترجمة عن الملك.....	٤١٧
* احذري...!!.....	٤١٧
* من دُرر الرافعي ونصحه للنساء في «وحي القلم».....	٤٢٣
* للَّه درُّك يا أبا سامي.....	٤٢٩
* شيخ العروبة وحامل لوائها، فارس التراث: أبو فهر الشيخ محمود محمد شاكر.....	٤٣١
ثانيًا: آثاره.....	٤٣٨

الموضـــوع	الصفحة
أ ـ مؤلفاته.....	٤٣٨
ب ـ تحقيقاته.....	٤٣٩
* فساد الحياة الأدبية «ومحنة الشعر الجاهلي».....	٤٥١
* لله در الأستاذ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ.....	٤٦٠
* يقول الدكتور عبدالحميد إبراهيم في مقاله: «محمود شاكر ـ الرجل والموقف».....	٤٦٥
* ويقول الدكتور حلمي القاعود في مقاله: «معارك محمود محمد شاكر الأدبية».....	٤٦٩
* الدكتور محمد محمد حسين، الحامي لحصوننا الداخلية يفضح التغريب وينذر قومه.....	٤٩٠
* حصوننا مهددة من داخلها.. لزام على كل مسلم قراءته.....	٤٩٥
* مؤسسة فرانكلين الأمريكية ودورها في تخريب التعليم وانحلال المجتمع.....	٥٠٧
* نقده للآراء الهدامة فيما يسمى بالفن والثقافة.....	٥١٤
* دعاة الفرعونية من أعداء الإسلام والعروبة.....	٥١٥
* اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية تحت إشراف سمسار الغرب أحمد أمين وتلميذه طه حسين تنظر بغير عين العرب وتعمل بغير عقل العرب.....	٥٢٥
«مستقبل الثقافة في المجتمع العربي» مقال شنيع لكامل عياد يفضحه ويكشف ما فيه الدكتور محمد محمد حسين.....	٥٢٦
* الدكتور محمد محمد حسين يبين حقيقة عبدالرزاق السنهوري الذي دعا إلى تبديل الشريعة الإسلامية ودعا إلى القانون الوضعي «القانون المدني العربي».....	٥٢٧
* الدكتور محمد محمد حسين يفضح عمل لجنة الإدارة الثقافية	

الموضـــوع	الصفحة

بجامعة الدول العربية ورئيسها الدكتور طه حسين في الكتب التي ترجموها..... ٥٣٦
* الدكتور محمد محمد حسين يفضح المؤتمرات المشبوهة لضرب العرب والفصحى..... ٥٤١
* الحاجة الشديدة إعادة النظر في تقويم الرجال..... ٥٤١
* نقده لرفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي..... ٥٤٨
* إعجاب الطهطاوي بالمسرح الفرنسي!! ورقص الباليه واختلاط الرجال بالنساء..... ٥٥٣
* الدكتور محمد محمد حسين يُفرد الفصل الثالث من كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» لنقد الأفغاني ومحمد عبده وكشف الستر عن حقيقتهما..... ٥٥٥
* الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر..... ٥٥٧
* حذو القُذَّة بالقُذَّة..... ٥٦٢
* القديم والجديد: وفضح الدكتور محمد محمد حسين لسلامة موسى صاحب كتاب «اليوم والغد»..... ٥٦٣
* الدكتور محمد محمد حسين يكشف عن صناعة الزعماء «سعد زغلول صديق الإنجليز وكرومر»..... ٥٧٢
* وإن تعجب فاعجب.. فكم ذا بمصر من المضحكات!!..... ٥٧٩

تم الجزء الخامس بحمد الله.

* * *

الفاروق الحديثة للطباعة والنشر هاتف: ٤٢٠٧٥٢٦-٢٠٥٥٦٨٨ القاهرة

الموضـــوع — الصفحة

* الأستاذ العملاق.. والفارس اليقظ.. القمة الشامخة الفاضحة لرواد التبعية للغرب والتبشير والغزو الفكري، الأستاذ أنور الجندي ـ رحمه اللّه ـ ٥
* أنور الجندي في مواجهة «حرب الكلمة» ١٨
* أنور الجندي يعيد تقييم الرجال وفق ميزان الإسلام ٢٦
* هذا هو سعد زغلول، وهذا قدره ٢٧
* تكشف هذه المذكرات عن أشياء كثيرة، أهمها: ٢٩
أولاً: علاقة سعد بالإنجليز ٢٩
ثانيًا: أخلاقيات سعد.. سعد زغلول زعيم مصر المقامر.. وكم ذا بمصر من المبكيات!! ٣١
* سعد زغلول رأس المدرسة الحزبية في مصر ٣٤
* سعد زغلول واللغة العربية ٣٩
* مواقف سعد ٤١
* حداد الماسونية على فقيد البلاد الأعظم ٤٣
* الأستاذ أنور الجندي يكشف زيف عميد التغريبيين طه حسين في كتبه: «طه حسين: حياته وفكره في ميزان الإسلام» و«محاكمة فكر طه حسين» و(الوجه الآخر لطه حسين.. من مذكرات السيدة سوزان «معك») ٤٥
* الاتهامات المقدمة لفكر طه حسين أمام محكمة الرأي العام... ٤٨
* للّه درُّ الأستاذ أنور الجندي، وما أعظم مؤلفاته ٥١
* الدين النصيحة ٥١
* عَلَم السنة وإمامها.. رمز الهوية الإسلامية والسلفية.. شيخ المحدثين.. مجدد العصر.. ومحدث ديار الشام.. فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ٥٢

الموضـــوع	الصفحة
* للَّه درّ أمام أوحَدت بناصر الدين الألباني	٥٥
* كلمة للشيخ مقبل بن هادي الوادعي	٥٧
* إلى شانئي الشيخ غير المنصفين	٥٨
* الألباني ودعوته	٥٩
* الشيخ الألباني رائد التصفية والتربية، الطريق الرشيد لبناء الكيان الإسلامي	٦٠
* إمام العصر.. شيخ الفقهاء.. إمام أهل السنة.. الذاب عن عقيدة السلف فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه اللَّه ـ	٦٥
* علامة الجزيرة وفقيد الأمة.. الشيخ عبدالعزيز بن باز.. بقلم فضيلة الشيخ الدكتور: يوسف القرضاوي	٧٩
* لماذا كان أمة وحده؟!	٨٢
* القاضي المعلم	٨٤
* مخايل الذكاء	٨٥
* من المحلية إلى العالمية	٨٥
* إمام العلماء	٨٦
* المناصب الشامخة	٨٩
* رئيس هيئة كبار العلماء	٨٩
* رئيس مجلس الرابطة	٩١
* رئيس المجلس الأعلى	٩١
* رئيس المجمع الفقهي	٩٢
* عطاء بلا حدود	٩٣
* بعض صفاته كما رواها طلابه	٩٤
* الولي العابد المتهجد.. البكّاء.. الذاكر.. المخلص.. الزاهد	٩٧
* محافظته على الصف الأول في الصلاة	١٠٢

الموضـــوع	الصفحة
* المداوم على ذكر اللَّه	١٠٤
* إخلاص الشيخ الإمام	١٠٤
* زهد الإمام ابن باز في الدنيا	١٠٦
* براءة جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام	١٠٧
* خدمة المسلمين ولين الجانب	١٠٩
* الشمولية في الحياة	١١٠
* حُسن ظنه بالناس	١١٨
* القيام بالمسئولية والصدق في حمل الأمانة	١١٨
* أقوال في الثناء على إمام أهل السنة والجماعة في عصرنا وقرننا سماحة الإمام الشيخ ابن باز	١٢١
* ولسوف يذكرك الزمان	١٢١
* الإمام العلامة	١٢٦
* إمام في علمه قدوة في سلوكه	١٢٩
* وبكى العلماء أمام تواضعه	١٣٠
* رحمك اللَّه أبا عبداللَّه	١٣٢
* في وداع الشيخ	١٣٤
* ذكرياتي مع فقيد الأمة	١٣٥
* الإمام العالم العامل سماحة الشيخ ابن باز	١٣٧
* كوكب غار ضوؤه	١٣٩
* والسابقون السابقون برنامج الشيخ اليومي والسنوي بإيجاز	١٤٤
* وبرنامج الشيخ السنوي هو	١٤٦
* قلعة العلم	١٥٠
* مات ابن باز	١٥٢

الموضـــوع	الصفحة
* مشهد الرحيل	١٥٤
* أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة تخدمهم الملوك «ورقة من سفر الخلود»	١٦٤
* فقيه الزمان.. العالم الرباني.. بقية السلف أبو عبدالله محمد ابن صالح بن محمد بن عثيمين	١٧٠
* ابن عثيمين ودفاعه عن عقيدة السلف	١٧٣
* وانظر إلى إنصافه	١٧٣
* رؤية الشيخ لضوابط إنجاح الصحوة الإسلامية	١٧٨
* مكانة الشيخ في التفسير	١٧٩
* زهده ـ رحمه الله ـ	١٧٩
* وقال الشيخ محمد صالح المنجد	١٧٩
* تواضعه واحترامه لأهل العلم	١٨٢
* عبادته ـ صلاته وتهجده	١٨٢
* قيامه الليل	١٨٤
* أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وغيرته على حرمات الله	١٨٥
* فقه إنكار المنكر عند الشيخ	١٨٦
* نماذج من دعوة الشيخ للكفار، أو العصاة، وأمره ونهيه	١٨٧
* موقف آخر	١٩٢
* اهتمامه بأحوال المسلمين في العالم، وعلمه بواقعهم	١٩٤
* وأما قضية مأساة إخواننا المسلمين في الشيشان	٢٠٣
* شيخ السلفية باليمن وشيخ المحدثين بها الشيخ مقبل بن هادي الوادعي ـ رحمه الله ـ	٢٠٦
* الشيخ مقبل الوادعي	٢١٤
* دراستي ومشايخي	٢١٥

الموضـــوع	الصفحة
* الدروس التي تلقى	٢٢٣
* وفاته	٢٢٣
* قول الوادعي عن مؤلفاته	٢٢٤
* المؤلفات مرتبة ترتيبًا زمنيًّا إن تيسر ذلك	٢٢٥
* المؤلفات باليمن	٢٢٥
* عداوة أعداء الإسلام والمبتدعة لدعوة الشيخ مقبل	٢٢٧
* هذه دعوتنا وعقيدتنا	٢٢٨
* هذه دعوتنا وعقيدتنا	٢٢٩
* للَّه در حرَّاس العقيدة	٢٣٨
* عود على بدء مع أبي الأشبال الشيخ أحمد محمد شاكر محدث الديار المصرية ـ رحمه اللَّه ـ	٢٣٨
* حارس الفضيلة من أرض الجزيرة الشيخ بكر أبو زيد	٢٤٢
* كشف دعاة المرأة إلى الرذيلة	٢٤٤
* ففي مجال الحياة العامة	٢٤٨
* وفي مجال الإعلام	٢٥٠
* وفي مجال التعليم	٢٥١
* وفي مجال العمل والتوظيف	٢٥١
* فباسم الحرية والمساواة	٢٦٠
* الشيخ بكر أبو زيد والحفاظ على الهوية الإسلامية، ونداؤه العالي بتحريم المدارس الأجنبية	٢٦٢
* إنها قنطرة إلى مبدأ حرية تغيير الدين	٢٦٦
* بيان إلى الأمة الإسلامية من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف	٢٦٩
* حكم الشريعة الإسلامية في المدارس الأجنبية المبني على	

الموضـــوع	الصفحة
النصوص الشرعية والقواعد والمقاصد العامة	٢٧٢
أولاً: وجوب إعلان إنكارها والبراءة منها	٢٧٢
ثانيًا: تحريم الإذن بفتحها	٢٧٣
ثالثًا: تحريم الاتجار بفتحها والعمل بها	٢٧٤
رابعًا: تحريم الإعانة عليها بالتأجير أو الدعاية ونحوها	٢٧٤
خامسًا: تحريم إدخال أولاد المسلمين فيها	٢٧٤
سادسًا: تحريم فتحها في بلاد الإسلام مطلقًا	٢٧٥
سابعًا: تحريم فتحها في جزيرة العرب والمناشدة بإلغائها	٢٧٦
ثامنًا: وجوب تواصي المسلمين بالتحذير منها	٢٧٧
تاسعًا: واجب العلماء مواصلة البيان بإنكارها	٢٧٧
* لفتة طيبة	٢٧٨
* ومسك الختام فارس الإسلام المدافع عن الهوية الإسلامية ومقدم السلفية بمصر وشيخها المبارك ونصير المرأة المسلمة.. صاحب «عودة الحجاب» قذى في عيون المبتدعة شيخنا محمد إسماعيل المقدم حفظه اللَّه	٢٧٨
* قذائف الشيخ المقدام محمد بن إسماعيل	٢٧٩
* الشيخ يبين لنا حجم العلمانيات رائدات تحرير المرأة	٢٨٥
* أمينة السعيد	٢٨٥
* معركة الحجاب	٢٩٠
* المعركة مستمرة	٢٩٢
* فيا كتائب الحق في كل مكان	٢٩٣
* تصدي الشيخ المقدم في كتابه القيم: «بل النقاب واجب» للمبتدع إسماعيل منصور صاحب كتاب «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب»	٢٩٣

الموضـــوع	الصفحة
* الشيخ المقدم نصير المرأة المسلمة وغراسه.. وقاسم أمين وغسلينه وزقومه الدنيوي.....	٢٩٧
* المدافع عن الهوية الإسلامية.....	٢٩٩
* أعداء الهوية في الداخل.....	٣٠٢
* فرسان الدفاع عن الهوية.....	٣٠٥
* هل ستعود إلى المسلمين هويتهم.....	٣٠٧
* يا ناطح الجبل العالي لتكلمه.....	٣٠٩
* المدرسة السلفية بالإسكندرية وأثرها المبارك في مصر.....	٣١٠
وا إسلاماه!!	**٣١١**
ولكن الإسلام لا بواكي له.....	٣١١
* للإسلام وبالإسلام نحيا.....	٣١٢
* محمد سعيد العشماوي الذي تولى كبر الطعن في الإسلام وثوابته.....	٣١٣
* العشماوي هو كاسمه.....	٣١٤
* ويقول عن الشريعة.....	٣١٨
* يقول الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي عن أهل الإلحاد...	٣٢٤
* الزنديق نزار قباني.....	٣٢٥
* الظاهرة النزارية.....	٣٣٣
* ولتستبين سبيل المجرمين.....	٣٣٥
* صاحب الحق المر: الشيخ محمد الغزالي البحر الهادر الجارف لزبالات فكر كل علماني وحداثي ومستشرق فاجر.....	٣٣٧
* كلام الشيخ محمد الغزالي الذي يفضح إلحاد نصر أبو زيد...	٣٣٧
* عجبًا!!.....	٣٣٨
* يضاهئون قول مَن قبلهم.....	٣٤٠

الموضـــوع	الصفحة
* عتمة في العقل	٣٤١
* هل تحرير فلسطين بالعلمانية	٣٤٣
* ردّة	٣٤٤
* سماسرة الكفر	٣٤٨
* بتر الشريعة	٣٥٠
* أمة منحدرة	٣٥٢
حذار من علماء السوء.. قطاع الطريق إلى الآخرة	**٣٥٥**
* من لم يعمل بعلمه فهو جاهل	٣٦٢
* عالم السوء	٣٧١
* تلبيس إبليس	٣٧١
* علماء السوء	٣٧٤
* علماء السوء قطاع الطريق إلى الجنة.. دعاة على أبواب جهنم	٣٧٦
* علماء السوء ممقوتون عند الله	٣٧٦
* علماء السوء	٣٧٦
* شيخ معمم في اللاذقية أيام الوحدة مع مصر يقول عن «المسابح المختلطة» أنها الجيل القوي الأمين الذي سيحرر فلسطين.. وكلمة حق من الشيخ محمد المجذوب	٣٧٩
* خبر عجيب عجيب!!	٣٨٥
* إن عالم السوء سماؤه مظلمة ليس فيها كواكب	٣٨٦
* فتوى للشيخ زكي بدر للشيخ الأكبر على مذهب واعتقاد الخوارج	٣٨٦
* حكم التكفير أشد من حكم الحرابة	٣٨٧
* الرد على شيخ الأزهر وجماعة التكفير	٣٨٧
* دليل شيخ الأزهر	٣٨٨

الموضـــوع	الصفحة
* الاقتتال لا يخرج من الإسلام.....	٣٨٩
* من زيارة شيخ الأزهر لأندية الروتاري الماسونية.....	٣٨٩
* شيخ الأزهر يقول عند موت أحد البطاركة: «لقد مات حبيب اللّه وحبيب الشعب»!!.....	٣٩٠
* الدكتوراه الفخرية من الجامعة الإنجيلية «مركز الدراسات التنصيرية» لشيخ الأزهر!! لماذا؟!.....	٣٩١
* وا إسلاماه.....	٣٩٢
* من يصلح الملح إذا الملح فسد.....	٣٩٣
* الأزهر يعطي الدكتوراه الفخرية لأحمد سوكارنو المرتد عن الإسلام والصانع لدين «الفانشاسيلا».....	٣٩٣
* وزير الأوقاف وشئون الأزهر يأمر بصلاة الغائب على «باتريس لومومبا» رئيس الكونغو وهو شيوعي قح.....	٣٩٥
* نافق أحمد حسن الزيات جمال عبدالناصر وادّعى أن الوحدة الناصرية مع سوريا أفضل من الوحدة المحمدية.....	٣٩٥
* أرضعوا الأمة الرياء والنفاق.....	٣٩٩
* وا إسلاماه.. وا إسلاماه.....	٤٠٠
* يا علماء السوء.....	٤٠٠
* يا علماء السوء عودوا إلى الحق.....	٤٠٠
* وأخيراً.....	٤٠١
* يا عالم السوء.....	٤٠١
* صبراً جميلاً.....	٤٠٢
الأحاديث الضعيفة والموضوعة	**٤٠٩**
* باب: النهي عن مخالطة العلماء للأمراء «أحاديث ضعيفة»...	٤٢٦
* باب: الإنكار على الأمراء «أحاديث ضعيفة».....	٤٣٠

الموضـــوع	الصفحة
* فصل: الابتعاد عن السلاطين «أحاديث ضعيفة»	٤٣٤
* التحذير من العلماء الفساق «أحاديث ضعيفة»	٤٣٨
* ذم من لا يعمل بعلمه «أحاديث ضعيفة»	٤٤١
* وختامًا	٤٤٦
فهرس المراجع	٤٤٧

تم الجزء السادس وانتهى الكتاب بحمد الله.

* * *

الفاروق الحديثة للطباعة والنشر هاتف: ٠٠٢٠٢٤٣٠٧٥٢٦ - ٢٠٥٥٦٨٨ القاهرة

زهر البساتين

من

مواقف العلماء والربانيين

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء الأول

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٣ درب الأتراك الدور الثاني خلف الجامع الأزهر

ت: ٥١٠٨٢٥٧ / ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠

بني سويف: برج الزيبق - بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠٨٢٣١٧٣٤٤ / ٠١٠١٧٥٦٢٩٦

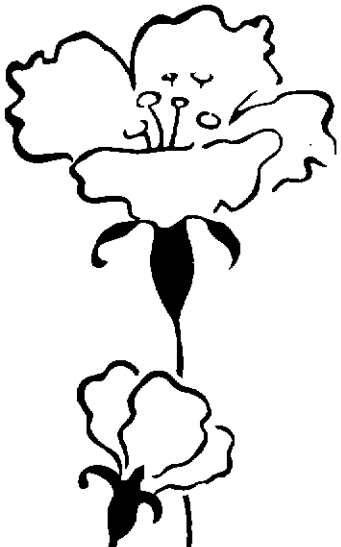

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الرَّاحِلَيْن الكريمَيْن

♥ فضيلة الشيخ الوالد المُكَرَّم: محمد صفوت نور الدين شيخ أهل السنة والجماعة بمصر ورئيس جماعة أنصار السنة.

♥ فضيلة الشيخ زين شباب الدعوة السلفية ببني سويف: سيد عبدالعظيم فايد من رزقه اللَّه سببًا من أسباب الشهادة نسأل اللَّه أن يتقبَّله في عداد الشهداء.

إلى الراحلَيْن:

بِنْتُم وبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانحُنَا ... شوقًا إليكم ولا جَفَّتْ مآقينا

تكادُ حينَ تُناجيكم ضمائِرُنا ... يقضي علينا الأسى لولا تَأَسِّينا

ليُسقَ عهدكمُ عهد السرورِ فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

✍ إن الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

* ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

✍ **أما بعد:**

فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

✍ **أما بعد:**

فإن طلب الحق أحلى في النفوس الأبيّة من الشمس في رائعة النهار،

وقطب تدور عليه همم الأخيار، وعُباب تنصبّ منه جداول شمائل الأطهار، ومتى علت الهمة في طلب الحق، حملت على مفارقة العوائد وطلب الأوابد، فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلّما يعرفه إلا واحد، وإذا عظم المطلوب قلّ المساعد، فإن البدع قد كثُرت، وكثرت الدعاة إليها، والتعويل عليها، وطالب الحق ـ اليوم ـ شبيه بطُلّابه في أيام الفتْرة، وهم سلمان الفارسي، وزيد بن عمرو بن نُفيل وأضرابهما، رحمهما اللّه تعالى، فإنهم قدوة لطالب الحق، وفيهم له أعظم أُسوة، فإنهم لما حرصوا على الحق، وبذلوا الجهد في طلبه، بلّغهم اللّه إليه، وأوقفهم عليه، وفازوا من بين العوالم الجمّة، فكم أدرك الحق طالبُه في زمن الفترة! وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النبُوّة! فاعتبر بذلك، واقتد بأولئك، فإن الحق ما زال مصونًا عزيزًا، نفيسًا كريمًا، لا يُنال مع الإضراب عن طلبه، وعدم التشوّف والتشوّق إلى سببه، ولا يهجم على المبطلين المعرضين، ولا يُفاجئ أشباه الأنعام الغافلين، ولو كان كذلك ما كان على وجه الأرض مبطل ولا جاهل، ولا بطّال ولا غافل»[1] .

إن الحق لا ينثني ولا ينحني، إنما يسير في طريقه قيمًا لا عوج فيه، قويًّا لا ضعف فيه، صريحًا لا مداورة فيه، إنه ليس ملكًا لأحد حتى يجامل فيه، إنما هو للّه عز وجل، والحق قد يغزو قلوب ذوي السلطان والجاه فيصبحون له جندًا وخدمًا فيفلحون، ولكنه هو لا يفلح إذا كان من جند السلطان وخدمه، فهو من أمر اللّه، وهو أعلى من ذوي السلطان والجاه.

الحق له قوته وصدقه وثباته، والباطل له زهوقه واندحاره وجلاؤه، ومن طبيعة الصدق أن يحيا ويثبت، ومن طبيعة الباطل أن يتوارى ويزهق.

مهما بدا للباطل وللزيف صولة ودولة، فإنه ينتفخ وينتفج وينفش؛ لأنه

(١) «إيثار الحق على الخلق» للسيد مرتضى اليماني ص(٢٤) ـ مطبعة الآداب والمؤيد.

لا يطمئن إلى حقيقة، ومن ثم يحاول أن يموّه على العين، وأن يبدو عظيمًا كبيرًا ضخمًا راسخًا، ولكنه هش سريع العطب، كشعلة الهشيم ترتفع في الفضاء عاليًا ثم تخبو سريعًا وتستحيل إلى رماد، بينما الجمرة الذكية تدفئ وتنفع وتبقى، وكالزبد يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ولا يبقى.

* وصدق اللَّه تعالى إذ يقول: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ الآية [الرعد: ١٧].

إن الحق له العقبى وله البقاء.

إن كلمة الحق الطيبة كالشجرة الطيبة ثابتة سامقة مثمرة، ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان.

والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك، ويُخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى، ولكنها تظل نافشة هشة، لا قرار لها ولا بقاء.

والحق الأصيل لا يموت ولا يُزوي، مهما زحمه الشر والزيف وأخذ عليه الطريق، إن الخير بخير، وإن الشر بِشَرّ.

إن الحق نور تشرق به النفس، فترى الطريق واضحة إلى اللَّه لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب، غبش الأوهام والخرافات، أو غبش الشهوات وضباب الأطماع، ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار.

والحق نور يشرق في القلب، فيشرق به الكيان البشري يرقرقه ويجلوه ويطلقه من إسار الأرض ومن طينها اللازب المعتم.

ولا بد للحق من أناس يصدعون به ولا يكتمون، فالساكت عنه شيطان أخرس. قال ابن القيم: «فتارك حقوق اللَّه التي عليه أسوأ حالاً عند اللَّه ورسوله من مرتكب المعاصي؛ فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجهًا ذكرها شيخنا في تصانيفه، ومَن له خبرة بما بعث اللَّه به رسوله ﷺ، وبما كان عليه أصحابه رأى أن أكثر مَن يُشار إليهم بالدين هم أقل الناس دينًا، واللَّه المستعان، وأيّ دين وأيّ خير فيمن يرى محارم اللَّه تُنتهك وحدوده تُضاع، ودينه يُترك وسنَة رسول اللَّه ﷺ يُرغَب عنها وهو بارد القلب ساكت اللسان؟ شيطان أخرس! كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين[1].

وخيارهم المتحزن المتلمظ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذّل، وجدّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وُسعه. هؤلاء ـ مع سقوطهم من عين اللَّه ومَقْت اللَّه لهم ـ قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهو موت القلوب؛ فإن القلب كلما كانت حياته أتمّ كان غضبه للَّه ورسوله أقوى وانتصاره للدين أكمل».

❑ ثم قال: «ورأس التقوى والإحسان خُلوص النية للَّه في إقامة الحق، واللَّه سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فَمَن الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان اللَّه مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومَن ينصره من بعده؟ فإذا قام العبد بالحق على غيره وعلى نفسه أولاً، وكان قيامه باللَّه وللَّه لم يقم له شيء، ولو كادَتْه السموات والأرض والجبال لكفاه اللَّه مؤنتها، وجعل له فرجًا ومخرجًا، وإنما يُؤتى العبد من تفريطه وتقصيره في

(١) وهل أفسد الدين إلاّ الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها
لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي اللب أنتانها

هذه الأمور الثلاثة، أو في اثنين منها، أو في واحد؛ فمن كان قيامه في باطل لم يُنصَر، وإنْ نُصِر نصرًا عارضًا فلا عاقبة له وهو مذموم مخذول، وإن قام في حق لكن لم يقم فيه للَّه وإنما قام لطلب المَحْمَدة والشكور والجزاء من الخلق أو التوصل إلى غرض دنيوي كان هو المقصود أولاً، والقيام في الحق وسيلة إليه، فهذا لم تُضمَن له النصرة؛ فإن اللَّه إنما ضمن النصرة لمن جاهد في سبيله، وقاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا، لا لمن كان قيامه لنفسه وهواه»[1].

❑ وفي زمننا هذا الذي غلبت فيه المنكرات و«اقشعرت الأرض، وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظُلم الفجرة، وذهبت البركات، وقلّت الخيرات، وهزلت الوحوش، وتكدّرت الحياة من فسق الظلمة، وبكا ضوء النهار، وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة، والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون إلى ربهم من كثرة الفواحش، وغلبة المنكرات والقبائح، وهذا منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادْلهمّ ظلامه»[2].

وإذا تُرِك عوام المسلمين البسطاء لشُبَه الزنادقة والمجرمين والمنافقين، «وإذا صادفت هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية، وخيالات فاسدة، وظنون كاذبة، جالت فيها وصالت، وقامت بها وقعدت، واتسع مجالها، وكثر بها قيلها وقالها، فملأت الأسماع من هذيانها، والأرض من دويانها.

وما أكثر المستجيبين لهؤلاء والقابلين منهم، والقائمين بدعوتهم، والمحامين عن حوزتهم، والمقاتلين تحت ألويتهم، والمكثرين من سوادهم،

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن قيم الجوزية (٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩).
(٢) «الفوائد» لابن القيم ص(٨٨) بتحقيق محمد عيون.

ولعموم البلية بهم، وضرر القلوب بكلامهم، هتك اللَّه أستارهم في كتابه غاية الهتك، وكشف أستارهم غاية الكشف، وبيّن علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم»[١].

❑ يقول الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ: «أما عن مجابهة الغزو المتمثل في الإذاعات والكتب والصحف والمجلات والأقلام التي ابتليت بها المجتمعات الإسلامية في هذا العصر وأخذت تشغل أكثر أوقات المرء المسلم والمرأة المسلمة رغم ما تشتمل عليه في أكثر الأحيان من السم الزعاف والدعاية المضللة فهي من أهم المهمات لحماية الإسلام»[٢].

❑ ولا نجاة إلا بالمناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال اللَّه تعالى: ﴿**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وهنا تبدو الحاجة إلى العلم والعلماء وتربية الأمة على مواقف العلماء الربانيين الذين لا يخشون في اللَّه لومة لائم، فخير وسيلة للتربية هي التربية بالقدوة ولن تجدها إلا ببستان السلف تجد أريجها الفوّاح تعبق به القلوب والأرواح.

أزاهيرهم مؤمنات العبير وأطيارهم قانتات الزَّجَلْ

أو:

حدّث عن القوم فالألفاظ ساجدة خلف المحاريب والأوزان تبتهل

«فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلّة مبالاتهم بسطوة السلاطين، ولكنهم اتكلوا عى فضل اللَّه أن يحرسهم،

---

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم ص(١١٢).

(٢) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» للشيخ ابن باز (١/ ٣٩٢).

ورضوا بحكم اللَّه تعالى أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا النيّة أثّر كلامهم في القلوب القاسية فليّنها وأزال قساوتها، وأما الآن فقد قيدّت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا؛ ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ومن استولى عليه حب الدنيا فلم يقدر على الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر»[1].

واعلم أن من استولى عليه شهود جلال اللَّه وعظمته وكبريائه، فغاب بذلك عن شهود هيبة الخلق، وخوف سطوتهم وطغيانهم، ولم يشغله الذهول بما هو مهتم به عن ملاحظة الحق ومشاهدة الإخلاص، وتحقق حسن القصد في كل حركة من حركاته مثله ينبغي أن يُتصدّى للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وإلاّ فلا.

*** يقول الإمام ابن النحاس الدمشقي:**

«فمن أخلص للَّه النيّة أثّر كلامه في القلوب القاسية فليّنها، وفي الألسن الذربة فقيّدها، وفي أيدي السَّلَطة فعقلها.

وأما زماننا هذا فقد قيّد الطمع ألسن العلماء، فسكتوا إذْ لم تساعدْ أقوالهم أفعالهم، ولو صدقوا اللَّه لكان خيرًا لهم.

فإذا نظرنا إلى فساد الرعية وجدنا سببه فساد الملوك، وإذا نظرنا إلى فساد الملوك وجدنا سببه فساد العلماء، وإذا نظرنا إلى فساد العلماء وجدنا سببه ما استولى عليهم من حبّ المال والجاه وانتشار الصيت ونفاذ الكلمة، ومداهنة المخلوقين وفساد النيات في الأفعال والأقوال، وإذا أراد واحد منهم

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٧/ ٩٢).

أن ينكر على واحد من الرعية لم يستطع ذلك فكيف يستطيع الإنكار على الملوك والتعرض للمهالك ومفارقة ما استولى على قلبه من حب المال والجاه.

اللَّهم استر فضايحنا وتولّ مصالحنا، وخذ بأزمّة قلوبنا إليك، واستعملنا فيما يرضيك يا أرحم الراحمين»[١].

❑ قال ابن النحاس: «خرّج البيهقي في الشعب بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا ينبغي لامرئ شهد مقامًا فيه حق إلا تكلم به، فإنه لن يُقدّم أجله ولم يحرمه رزقًا هو له**».

قلت: وهذا الحديث فيه الحض على الإقدام والشجاعة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يعلم الإنسان يقينًا أن الأمر والنهي لن يقدما أجلاً أخره اللَّه، ولن يمنعا رزقًا قدّره اللَّه، فلا يلتفت إلى ما يلقيه الشيطان من تخذيله، وقوله: لا تتعرّض لهذا يضربوك ويقتلوك، ونحو ذلك، فإن الضرر وإن قلّ، والنفع وإن جلّ مقدّران، إذ لا يزيدان فتيلاً ولا ينقصان نقيرًا»[٢].

* قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ٢١].

❑ قال القرطبي: وهذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف مع خوف القتل[٣].

❑ وكثير من الناس غلب عليهم الجهل بوجوب الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) «تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين» لابن النحاس الدمشقي ص(٦٨) ـ دار الكتب العلمية.

(٢) المصدر السابق ص(١٠٧).

(٣) «تفسير القرطبي» (٤/ ٤٨).

عن المنكر، وفضله العظيم واستولى على قلوبهم الركون إلى مداهنة الخلق وإيثار مودتهم وبقاء صحبتهم، وثقل كلمة الحق على ألسنتهم، وما يلقيه الشيطان في قلوبهم من الخوف والجبن وتقدير البعيد من الضرورة قريبًا، واعتقاد السكوت على المنكر وجوبًا، وما علموا أن التهلكة هي ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن النجاة هي الأمر والنهي.

❑ قال الغزالي: «لا خلاف أن المسلم الواحد يجوز له أن يهجم على صف الكفار يقاتل، وإنْ علم أنه يُقتل، وكما أنه يجوز أن يقاتل الكفّار حتى يُقتل جاز ذلك أيضًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

❑ وقال ابن النحاس: «يجوز للمنكر بل يُستحب أن يُعرِّض نفسه للضرب أو القتل إذا كان لإنكاره تأثير في رفع المنكرات، أو كسر جاه الفاسق أو فيه تقوية قلوب أهل الدين»[1].

وقال: «سقط عنه الوجوب وبقي الاستحباب، وهي مرتبة لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، ولا ينالها إلاّ من جاد بنفسه للّه الكريم»[2].

❑ والعلماء والربانيون ـ وهم ورثة الأنبياء ـ وأعلم الناس بالضوابط الشرعية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما أقدموا على الإنكار بقصد أن يؤثر أثرًا في الدين، وأن يصدعوا بما أمروا به من الإنكار على الظالمين، فإذا لم يحصل أثر كفاهم قصدهم حجّة عند اللّه تعالى ووقع أجرهم على من لا يُضيع أجر المحسنين.

كما أن المنغمس في الكفار لو حصل له حال انغماسه ضربة فمات قبل أن يقتل أحدًا منهم أو يجرحه لم يُؤاخذ بتغريره بنفسه، وكان شهيدًا باعتبار

---

(١) «تنبيه الغافلين» ص(٧٣).

(٢) المصدر السابق ص(١٠٧).

قصده وإن لم يحصل.

وزماننا هذا يصدق فيه قول حذيفة ﷺ: «يأتي على الناس زمان لأن تكون فيه جيفة حمار أحبّ إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم»؛ لأن من تصدّى في هذا الزمان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثقل على القلوب وإن كان خفيفًا، وسمج في العيون وإن كان لطيفًا، ورُمي بالكذب وساءت فيه الظنون، وقُصد بالأذى، وكثر أعداؤه، وقلّ أصدقاؤه، ورُمي وأُلقِي في مهاوي الردى، وأُعملت الفكر في كيفية الخلاص منه، والراحة من مشاهدته، بل في قتله واستئصال شأفته.

❑ فلا بد للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يجعل له من الصبر حصنًا حصينًا، ومن الاحتمال خِلاًّ أمينًا، وأن يوطّن نفسه على تجرّع كئوس المرارات، وتجنّب حلاوة المداهنة والمداراة، وأن يمرّن نفسه على هجر الخلق في جنب اللَّه، ويقنع في كل أحواله بنظر اللَّه، وألا يأسف على من قلاه لذلك، ولا يحزن على من فارقه وخذله في هذه المهالك، وليقطع أطماعه من الخلق، ويثق بكفالة الحق، ويتوكّل على اللَّه فهو حسْب من توكل عليه، ويفوّض إليه في جميع أحواله، فمرجع الأمور كلها إليه.

فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صحّ منك الوُدُّ فالكُلُّ هيّنٌ ... وكلُّ الذي فوق التراب ترابُ
فيا ليت شُرْبي من وِرَادِك صافيًا ... وشُرْبيَ من ماء الفرات سرابُ
متى لم يكن بيني وبينك رِيبَةٌ ... فَكُلُّ نعيمٍ صدّ عنك عذابُ

❑ ومواقف الربانيين تُحيي الأمم والخير متواصل ونهره ريّان في هذه الأمة.

● وقد قال ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره»[١].

● وقال ﷺ: «لكل قرن من أمتي سابقون»[٢].

❑ لقد ذكرت في هذا الكتاب أي انحراف عن جادة الصراط المستقيم وطريق سلف هذه الأمة، ومن تصدى لهذا الانحراف.

❑ وتجد من الذين تصدوا لنصرة الإسلام في عصرنا والرد على العلمانيين تجد لبعضهم انحرافًا عن السنة والاتباع فذكرنا انحرافهم ومن تصدى لهم وبيّن عوجهم في هذا المجال فالحق أحق أن يُقال، ووجه اللَّه بغيتنا وقصدنا ومع هذا نقول: «ليس من قصد الحق فأخطأه كمن تعمّد قصد الباطل» ورحم اللَّه ابن القيم إذ يقول: «والبصير الصادق يضرب مع كل قوم بسهم ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم».

وهنا تبدو قيمة النصيحة لحث شباب هذه الأمة على العلم، فلولا حفظ اللَّه ثم العلم لاختلطت الأمور إذ كيف يتصدى رجل لانحراف العلمانيين والرد عليهم ثم تجد له انحرافًا عن الجادة في ميدان من ميادين الإسلام، فالأمة كلها محتاجة إلى العلم حتى يتخرّج كوادر من المدافعين على الإسلام ليس في أقوالهم أو اعتقادهم أي شائبة وحتى لا نحتج إلا بمن هو خير كله.

العلم جمال لا يخفى، ونسبٌ لا يُجفَى، بعيد المرام لا يصاد بالسهام،

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي والطيالسي وأحمد وأبو الشيخ في الأمثال عن أنس، وابن حبان والبزار والرامهرمزي في الأمثال عن عمار، والبزار عن عمران بن حصين، والسهمي في تاريخ جرجان عن ابن عمر والطبراني في «الكبير» عن ابن عمرو. وضعفه النووي في «فتاويه» ص(١٢٧) بحسب ما وقف عليه من طرق. ولكن الحديث قوي.

(٢) **صحيح**: رواه أبو يعلى في «الحلية» عن ابن عمر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥١٧٢).

ولا يقسم بالأزلام، ولا يُورث عن الأعمام.

بحر لا يخوصه الملاّح، ولا تطيقه الألواح، ولا تهيّجه الرياح، جبل لا يُتسنّم إلا بُخطى الفكر، وسماء لا تصعد إلا بمعراج الفهم، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد، لا يصلح إلا للغرس، ولا يُغرس إلا في النفس ولا يُسقى إلا بالدرس.

العِلم عِلْق لا يُباع ممن زاد، وصيد لا يألف الأوغاد، وشيء لا يُدرك إلا بنزع الروح، وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر، واستناد الحجر، وردّ الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر، وكثرة النظر، وإعمال الفكر، بل وقف الهم كله عليه.

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم**»[1].

والعلماء سراج للناس، ومصابيح في الدنيا والآخرة، أعلى من القمرين والنجوم، مع أنها أرفع وأنور في المشارق والمغارب؛ لأنها يحجبها الغمام، ونور العلم لا يحجبه سبع سموات، والشمس تغيب ليلاً، والقمر يخفى نهارًا، والعلم لا يغيب ليلاً ولا نهارًا بل هو هو.

والقمران يفنيان والعلم لا يفنى، والقمران ينكسفان والعلم لا ينكسف، والقمران تارة يضران، وتارة ينفعان، والعلم ينفع ولا يضر بشرطه، والقمران في السماء زينة لأهل الأرض، والعلم في الأرض زينة لأهل السماء، وهما في الفوق ويضيئان ما تحت والعلم في قلب المؤمن، وهو في التحت، ويضيء ما فوقه وتحته، وضوءهما يقع على الولي والعدو، والعلم ليس إلا للوليّ.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٠٨٩).

وشعاع الكواكب إلى أسفل، وشعاع العلم يصعد إلى العلو.

والكواكب تطلع من خزانة الفلك، والعلم يطلع من خزانة الملك، والكواكب علامة، والعلم كرامة.

والكواكب موضع نظر المخلوقين، والعلم موضع نظر رب العالمين، والكواكب نفعها في الدنيا، والعلم نفعه في الدنيا والآخرة، الشمس تحرق، والعلم يُنجي.

وإنما كانوا كالمصابيح في الآخرة؛ لأن الناس يحتاجون إلى العلماء في الموقف للشفاعة، بل وبعد الدخول ـ دخول الجنة ـ فينتفع بهم فيها كالمصابيح؛ ولذا يُقال: إن ذات العالِم تُكسى نورًا يضيء كالمصباح حقيقة، ألا ترى أن هذه الأمة تُدعى غُرًّا محجلين من آثار الوضوء، فالعالِم يتميّز على آحاد المؤمنين بأن تصير جثته كلها مضيئة، فنعمة العلم من أفخر النعم وأجزل القسَم ومن أوتيه فقد أوتي خيرًا كثيرًا»[1].

❑ ومع العلم لا بد من التجرد للَّه عز وجل وإخلاص النيّة، فعزيز على المرء عاطفة أن يجرح بعض مواقف لأناس يدافعون عن الإسلام، أما إذا كان الولاء كله والحب والبغض للَّه وفي اللَّه فالأمر هين.. من وجد اللَّه فماذا فقد:

مَنْ فاتَهُ مِنْكَ وَقْتٌ حَظُّهُ النَّدَمُ ... ومنَ تكُن هَمَّه تسمو به الهِمَمُ
ونَاظِرٌ في سِوى مَرْآكَ حُقَّ لَهُ ... يَفيضُ مَدْمَعُهُ بالدَّمْعِ وَهُوَ دَمُ
نسيتُ كُلَّ طريقٍ كُنْتُ أَعْرِفُهُ ... إلا طريقًا يُؤَدِّيني لبَابِكُمُ
فَسَلِّني كُلَّ حالٍ كنت آلَفُهُ ... في وَصْلِه القَطْعُ ما بيني وبينكمُ

* * *

(١) «فيض القدير» للمناوي (١/١٠٧).

❑ وللَّه درُّ القائل:

هَنيئًا لمن أَضْحَى وأَنتَ حَبيبُهُ ... وَلَوْ أَنّ لَوْعَاتِ الغَرَامِ تُذيبُهُ
وطُوبى لِصَبٍّ أَنتَ ساكِنُ سِرِّهِ ... ولو بانَ عنه إِلْفُهُ وقريبُهُ
وما ضَرّ صَبًّا أن يبيتَ ومالَهُ ... نصيبٌ من الدنيا وأنتَ نَصيبُهُ
ومَنْ تَكُ راضٍ عَنْهُ في طَيِّ غيْبه ... فما ضَرَّهُ في الناس من يَسْتَغيبُهُ
عُبَيْدُك في باب الرجا مُتَضَرِّعٌ ... إذا لم تجبه أنت من ذا يجيبه
بعيد عن الأوطان يبكي بذلةٍ ... وهل ذاق طعمَ الذُّل إلا غريبُه
تَصدَّقْ على من ضاع منه زمانُهُ ... ولمَ يدْرِ حتى لاح منه مشيبُهُ[1]

❑ **أخي**: قد بيّنت في جمعي هذا أخطاء العقلانيين من المدرسة العقلية الحديثة، وزيف العلمانيين وأهل الحداثة المارقين الساخرين من دين اللَّه، وبيّنا دجل المعاندين للَّه ورسوله.

وذكرنا من تصدى لهم ودافع عن حياض الإسلام، وحرس بستانه حتى استوى على سوقه وفاح أريجه وعبقه يملأ ساحات الدنيا.

❑ وللَّه در من دافع عن الإسلام ولسان حاله يقول:

أنا قُرْبَ النجوم والجارُ فَرْقَدْ ... وبقلبي شمسُ المجرّة تُوقدْ
موكبي العنفوانُ، يُذكي اشتياقي ... لزمان فيه العملاقُ يُولَدْ
فيه ألقى حقيقتي تتخطّى ... حاجزَ الوَهمْ نحوَ فَجْرٍ تَجَدَّدْ
فيه يندك السورُ تحت يميني ... والأباطيلُ سحرُها يتبدَّدْ
لا دجى الليل يخطفُ العزمَ مني ... كيف هذا؟ ولا طريقي تُوصَدْ

---

(١) «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» لابن رجب الحنبلي ص(١٣٩) ـ المكتب الإسلامي.

قد سلكت الأشواكَ والقلبُ راضٍ وكتمت الأنينَ والدَّمُ يَشْهَدْ
بل تجاوزت الصمتَ، أُعلِن عشقي للحصى والقذى، بدربي المُخدَّدْ
ها يدي ترفع (العُقَاب) جهاراً فوق أصنامٍ من دمٍ قد تجمَّدْ
هكذا تصنع العقيدة فينا نعشق الموت والمسارَ المهدَّدْ
أيها الخائفون من صدق قولي هل مذاقُ النفاقِ في النفس أجْوَدْ؟
أيها الخائفون شكراً جزيلا فلقد حررتمُ فؤادي المقيَّدْ
صرت أقسى من الرماح العوالي صرت أمضى من الحسام المهند

* * *

اللَّهم اجعل جمعي هذا خالصًا لوجهك الكريم، اللَّهم واجعل جهادي بالحجة والبيان لأعدائك في ميزان حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى اللَّه بقلب سليم.

اللَّهم إني أسالك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنانَ بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام.. اللَّهم صل على عبدك ونبيك محمد ﷺ.. اللَّهم اختم لي بأفضل الشهادة في سبيلك، وورِّث همي فيك منتهى أملي.. اللَّهم اجعلني ما أبقيتني في الدنيا شجى وقذى في أعين المارقين والزنادقة والمبتدعين.. اللَّهم احفظنا بعينك التي لا تنام.

اللَّهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

اللَّهم وما أعطيتنا مما نحب فاجعله قوة لنا فيما تحب.

اللَّهم وما زويت عنا مما نحب فاجعله فراغًا لنا فيما تحب، اللَّهم أحي قلوبنا بحبك، واجعل سعينا كله في مرضاتك.. استرنا بالعافية واجعل تحت

الستر ما تحب.. واجعل أنفاسنا وأموالنا وحركاتنا وسكناتنا وأهلينا وقفًا على دينك وفداء له.. اللَّهم إني أسالك لذة العيش بعد الموت والشوق إلى لقائك..

وكتبه: الفقير إلى عفو ربه ورحمته

سيد العفاني

زهر البساتين
في
مواقف العلماء والربانيين

فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

[١] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وزبدة رسالات النبيين والمرسلين:

❑ قال أبو حامد الغزالي ـ رحمه اللَّه ـ: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القُطب الأعظم في الدين، وهو المُهمّ الذي ابتعث اللَّه له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأُهمل عمله، لتعطّلت النبوة واضمحلت الديانة، وعمَّت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتَّسع الخرق، وخربت البلاد وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التَّناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، إذ قد اندرس من هذا القُطب عَمَلُه وعِلمُه، وانمحق بالكلية حقيقتُه ورسمه، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق، وانمحت عنها مراقبة الخالق، واسترسل الناس في اتِّباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في اللَّه لومةُ لائم، فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسَدِّ هذه الثُّلمة؛ إمَّا متكفِّلاً بعملها، أو متقلّدًا لتنفيذها، مجدِّدًا لهذه السُّنَّة الدَّاثرة، ناهضًا بأعبائها، ومتشمرًا في إحيائها ـ كان مُستأثرًا من بين الخلق بإحياء سُنَّةٍ أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدًّا بقُربةٍ تتضاءل درجات القُرب دون ذروتها»[(١)].

❑ وقال القاضي أبو بكر بن العربي: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام، وهو أيضًا انتهاؤه»[(٢)].

❑ وقال القرطبي: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانا واجبيْن في

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٣٣).

(٢) «أحكام القرآن» لابن العربي (١/ ٣٩٤).

الأمم المتقدمة وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة»[١].

* قال تعالى عن أنبيائه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

❑ وقال العلامة محمد رشيد رضا: «وقد جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن كان محفوفًا بالمكاره والمخاوف»[٢].

❑ وقال الشوكاني: «هو من أعظم واجبات الشريعة وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها»[٣].

❑ وقال الرازي: «رأس المعروف الإيمان باللَّه، ورأس المنكر الكفر باللَّه، والجهاد يوجب الترغيب في الإيمان والزجر عن الكفر، والجهاد داخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[٤].

❑ وقال السرخسي: «وقد سمى رسول اللَّه ﷺ الجهاد سنام الدين، وفيه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وهو صفة هذه الأمة وفيه تعرّض لأعلى الدرجات وهو الشهادة»[٥].

❑ وقال الإمام الشاطبي في «الموافقات»: «الجهاد الذي شُرع بالمدينة فرع من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو مقرر بمكة»[٦].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ٧٤).
(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢).
(٣) «فتح القدير» للشوكاني (١/ ٣٣٧).
(٤) «مفاتيح الغيب» للرازي (٤/ ٥٢١).
(٥) «شرح السير الكبير» (١/ ١٩ ـ ٢٠).
(٦) «الموافقات» للشاطبي (٣/ ٥٠).

«اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضُيِّع أكثره من أزمان مُتطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسومٌ قليلةٌ جدًّا ، وهو بابٌ عظيمٌ به قوام الأمر وملاكهُ، وإذا كثر الخبث عمَّ العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم اللَّه تعالى بعقابه ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فينبغي لطالب الآخرة، والساعي في تحصيل رضا اللَّه عز وجل أن يعتني بهذا الباب؛ فإن نفعهُ عظيمٌ لا سيما وقد ذهب معظمهُ، وعلى الآمر بالمعروف أن يُخلصَ نيته ولا يهابنَّ من ينكر عليه لارتفاع مرتبته لأن اللَّه تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، واعلم أن الأجر على قدر النصب ولا يتركهُ أيضًا لصداقته ومودَّته ومُداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمةً وحقًّا، ومن حقِّه أن ينصحهُ ويهديه إلى مصالح آخرته، وينقذه من مضارِّها، وصديق الإنسان، ومحبُّه هو من سعى في عمارة آخرته وإن أدَّى ذلك إلى نقصٍ في دنياه، وعدوُّه من يسعى في ذهابِ أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورةَ نفعٍ في دنياه. وإنما كان إبليس عدوًّا لنا لهذا، وكانت الأنبياءُ ـ صلواتُ اللَّه وسلامه عليهم أجمعين ـ أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها، ونسأل اللَّه الكريم توفيقنا وتوفيق أحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته. وينبغي للآمرِ بالمعروف والنَّاهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب، فقد قال الإمام الشافعيُّ ـ رحمه اللَّه ـ:

«من وعظ أخاهُ سرًّا فقد نصحهُ وزانهُ، ومن وعظهُ علانيةً فقد فضحَهُ وشانَهُ»(١).

[٢] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أخص أوصاف النبي ﷺ في التوراة والإنجيل:

❑ قال ابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ: «هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه السلام».

* قال تعالى عن خليله محمد ﷺ: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ...**﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، فكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أول أوصافه.

[٣] وهو أظهر صفات أولي العزم والكُمّل من المؤمنين وأبرز سماتهم:

أولئك الذين اقتفوا هدى رسول اللَّه ﷺ وجعلوه أسوتهم
ومن تكن برسول اللَّه أسوته كانت خلائقه روحًا وريحانًا

* قال تعالى فيهم: ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ١١٢] هذه صفة جليلة تتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة، وحفظ لحدود اللَّه يردّ عنها العادين والمُضيّعين ويصونوها من التهجم والانتهاك.

❑ قال ابن كثير: «ينفعون خلق اللَّه، ويرشدونهم إلى طاعة اللَّه بأمرهم

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/ ٢٤).

بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود اللَّه في تحليله وتحريمه علمًا وعملاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به»[١].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يصبر عليه إلا أولو العزم من الرجال.

* قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

❑ قال الألوسي: «﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ تكميلاً لنفسك، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك»[٢].

❑ وقال الرازي: «إذا أكملت نفسك بعبادة فكمِّل غيرك، فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكمّلوا غيرهم»[٣].

* وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

* وقال تعالى عن مؤمني أهل الكتاب الذين تابعوا النبي ﷺ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٤ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١١٥ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٥].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٩٢).

(٢) «روح المعاني» للألوسي (٢١/ ٨٩).

(٣) «مفاتيح الغيب» للرازي (٦/ ٥٧٨).

صورة وضيئة تُرفع أمام الراغبين في هذه الشهادة، وفي هذا الوعد، ليحققها في ذات نفسه كل من يشتاق إلى نورها الوضيء في أفقها المنير.

[٤] منزلة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تلي مرتبة الأنبياء عند الله:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

استنبط الحسن ـ رحمه الله ـ أن في الآية دلالة على أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر تلي منزلته عند الله منزلة الأنبياء فلهذا ذكرهم عقيبهم[١].

[٥] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مناط خيرية هذه الأمة وأهم خصائصها:

* قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

❑ قال ابن تيمية: «وصف الأمة بما وصف به رسولها صلوات الله وسلامه عليه»[٢] وذلك لأن صلاح المعاش والمعاد إنما يكون بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، وذلك لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس»[٣].

❑ قال قتادة: «بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة حجها رأى من

---

(١) «التفسير الكبير» للرازي (٧/ ٢١٥)، و«غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للنيسابوري (٣/ ١١٥).

(٢) «مجموع فتاوي ابن تيمية» (٢٨/ ١٢٢ ـ ١٢٥).

(٣) المصدر السابق (٢٨/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

الناس رِعَة[١] ، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ...﴾، ثم قال: «من سرّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط اللَّه فيها»[٢] .

«ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمّهم اللَّه بقوله: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنكَرٍ فَعَلُوهُ...﴾ [المائدة: ٧٩]»[٣] .

❑ قال القرطبي: «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم وكان سببًا لهلاكهم»[٤] .

❑ وقال القرطبي ـ رحمه اللَّه ـ: «إن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليه»[٥] .

أخرج البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»[٦] .

❑ قال ابن كثير: «وهكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطية العوفي وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ يعني خير الناس للناس. والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ولهذا قال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

(١) الرِعة: سوء الهيئة وسوء الأدب.
(٢) «تفسير ابن جرير» (٥/ ١٠٢).
(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩٦).
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٧٣).
(٥) المصدر السابق (٤/ ٤٧).
(٦) انظر «فتح الباري» (٨/ ٢٢٤) حديث رقم (٤٥٥٦) ـ كتاب التفسير ـ تفسير سورة آل عمران، باب ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وانظر الحديث رقم (٣٠١٠).

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١] .

ولهذا كان الدعاء إلى الإسلام أعلى الأمر بالمعروف ورأسه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال ابن القيم قال الحسن: «هو المؤمن أجاب اللَّه في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب اللَّه فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته، فهذا حبيب اللَّه، هذا ولي اللَّه، فمقام الدعوة إلى اللَّه أفضل مقامات التعبد»[٢] .

* **لطيفة:**

«في هذه الآية قدم اللَّه عز وجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان باللَّه مع أن الإيمان لا يتقدمه شيء من الأعمال ولا يفضله. ولكن قد يكون هذا التقديم في هذا الموضع يراد به إبراز خاصية وميزة لهذه الأمة على غيرها من الأمم، فإنهم وإن كانوا مطالبين به إلا أنه لم يكن تحقق فيهم كتحققه في هذه الأمة فاستحقوا التفضيل به على غيرهم من سائر الأمم التي سبقتهم وإن شاركوهم في تحقق الإيمان، فهذه الأمة خاتمة الأمم، ورسولها ﷺ خاتم الرسل، وكتابها آخر الكتب، وقد أُخرجت للناس لتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتشهد عليهم»[٣] .

* ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ....﴾.

أمة تخرج إخراجًا من الغيب من وراء الستار السرمدي، الذي لا يعلم

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩١)، و«الفتاوى» (٣٥/ ١٦٠).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٣).
(٣) انظر «التفسير الكبير» (٨/ ١٨٠)، و«التحرير والتنوير» (٤/ ٥٠).

ما وراءه إلا اللَّه، تخرج إلى الوجود، أمة ذات دور خاص، لها مقام خاص، ولها حساب خاص.

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة ينبغي دائمًا أن تُعطي هذه الأمم مما لديها، وأن يكون لديها دائمًا ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور الصحيح، والنظام الصحيح، والخلق الصحيح، والمعرفة الصحيحة، والعلم الصحيح.. هذا واجبها الذي يحتِّمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها. واجبها أن تكون في الطليعة دائمًا، وفي مركز القيادة دائمًا. ولهذا المركز تبعاته.

وفي أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحريض على الخير، وصيانة المجتمع من عوامل الفساد، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب، ومواجهة طواغيت الشر في عنفوانهم وجبروتهم.

الدعاة إلى الخير الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر يواجهون الشر في عنفوانه، ويواجهون طاغوت الشهوة في عَرَامتها وشدَّتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع وزادهم هو الإيمان باللَّه، وسندهم هو اللَّه، وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد، وكل عدة سوى عدّة الإيمان تُفَلّ، وكل سند غير اللَّه ينهار.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبودية ودينونة للَّه في أبهى صورها.

إنه لا بد من عبودية! فإن لا تكن للَّه وحده، تكن لغير اللَّه.. والعبودية للَّه وحده تُطلق الناس أحرارًا كرامًا شرفاء أعلياء.. والعبودية لغير اللَّه تأكل إنسانية الإنسان وكرامته وحريته وفضله.

إن اللَّه سبحانه وتعالى وصف الأمة المسلمة بأن الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر صفتها؛ ليدلّها على أنها لا توجد وجودًا حقيقيًّا إلا أن تتوافر فيها هذه السمة الأساسية، التي تُعرف بها في المجتمع الإنساني، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بيّن أنهم كانوا به خير أمةٍ أخرجت للناس.

[٦] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين وتجافٍ عن صفات المنافقين:

* قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

* وقال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧].

قال البيهقي ـ رحمه اللَّه ـ: «إن اللَّه تعالى جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرق ما بين المؤمنين والمنافقين؛ لأنه قال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ...﴾، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ فثبت بذلك أن أخص أوصاف المؤمنين وأقواها دلالة على صحة عقيدتهم وسلامة سريرتهم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1]. اهـ.

فالأمر بالمعروف أخص أوصاف المؤمنين وضده أخص أوصاف المنافقين المفارقين للمؤمنين في منهجهم ومعتقدهم ومصيرهم.

[٧] الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر له مثل أجر من اتبعه:

● عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من دلّ على خير

(١) «شعب الإيمان» (٦/ ٨٤).

فله مثل أجر فاعله» رواه مسلم.

● وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا».

● وفي حديث سهل بن سعد عند البخاري: «فواللَّه لأن يهدي اللَّه بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم».

● وقال ﷺ: «إن الدَّال على الخير كفاعله»[١].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «دليل الخير كفاعله»[٢].

● وقال ﷺ: «من استن خيرًا فاستن به كان له أجره كاملاً ومن أجور من استن به ولا ينتقص من أجورهم شيئًا ومن استن سُنَّةً سيئة فاستن به فعليه وزره كاملاً، ومن أوزار الذين استنوا به، ولا ينتقص من أوزارهم شيئًا»[٣].

[٨] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل إلى الفلاح:

* وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

❑ قال الطبري: «﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ جماعة يدعون إلى الخير يعني إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها اللَّه لعباده»[٤].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٠٥).
(٢) حسن: رواه ابن النجار عن علي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٩٠).
(٣) صحيح: رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٠٤٠).
(٤) «تفسير الطبري» (٤/ ٢٤).

وبيّن الملك عز وجل أن الفلاح منوط بالقائمين به المباشرين، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون، عمَّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليف ليس بالهين ولا باليسير، إذا نظرنا إلى طبيعته، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم، ومصالح بعضهم ومنافعهم، وغرور بعضهم وكبريائهم، وفيهم الجبار الغاشم، وفيهم الحاكم المتسلط، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد، وفيهم المنحلّ الذي يكره الجدّ، وفيهم الظالم الذي يكره العدل، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة، وفيهم وفيهم، ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر، ولا تُفلح الأمة، ولا تُفلح البشرية إلا أن يسود الخير، وإلا أن يكون المعروف معروفًا، والمنكر منكرًا. والمعروف الأكبر هو الاعتراف بسلطان اللَّه ومنهجه للحياة، والعبودية له وحده. والمنكر الأكبر هو الشرك، ورفض ألوهية اللَّه، ورفض شريعته للحياة.

[٩] بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استقامة الحياة، وسبب للنجاة من العذاب:

* وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

سُنّة من سنن اللَّه في الأمم؛ الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، فإن سنة اللَّه تحقّ عليها؛ إما باستئصال أو انحلال واختلال. فالآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهم يحُولون دون أممهم وغضب اللَّه واستحقاق النَّكال والضياع.

* وقال تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

* وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

* وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

لا يبقون على منكرٍ وهم قادرون على تغييره، ولا يقعدون عن معروفٍ وهم قادرون على تحقيقه.

*** حين يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

حينئذ تتحوَّل الحياة إلى مستنقعٍ آسن: حُكم بغير شرع اللَّه، اقتصاد يقوم على الرِّبا، مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمةً إلا في حالة الإكراه، ولا يعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة اللَّه، وخمور يباح تداولها، ولا يعاقب شاربها إلا على حالة السكر البين في الطريق العام، وحتى هذه لا يعاقب فيها بحد اللَّه، وشذوذ... وسبّ لدين اللَّه.

● عن أنس رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض: اللَّه اللَّه**»(١).

❑ قال ابن كثير في أحد قوليه: معناه أن أحدًا لا يُنكر منكرًا، ولا يزجُر أحدًا إذا رآه قد تعاطى منكرًا، وعبّر عن ذلك بقوله: «حتى لا يقال: اللَّه اللَّه».

(١) رواه مسلم.

● وفي حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يأخذ اللَّه شريطته من أهل الأرض، فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفًا، ولا يُنكرون منكرًا**»(١).

وكما جاء في حديث البخاري، لما قيل للنبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثُر الخبث**».

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة، يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذّب فيه الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن ويُخوَّن فيها الأمين وينطق فيها... الرُّوَيْبضَة**»(٢).

قيل: وما الرويبضة؟ قال: «**السَّفيه يتكلم في أمر العامة**»(٣).

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «من أشراط الساعة.. أن يعلو التُّحوتُ الوعول» أكذلك يا عبد اللَّه بن مسعود سمعته من حِبِّي؟ قال: نعم ورب الكعبة. قلنا: وما التُّحوتُ؟ قال: «فسول الرجال، وأهل البيوت الغامضة، يرفعون فوق صالحيهم، والوُعُول: أهل البيوت الصالحة»(٤).

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه أحمد في مسنده (١١/ ١٨١ ـ ١٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.
شريطته: أي: أهل الخير والدين، والأشراط من الأضداد يقع على الأشراف والأراذل والعجاجة والعجاج: الأراذل ومن لا خير فيهم.

(٢) الرويبضة: تصغير الرَّابِضة، وهو العاجز الذي رَبَض عن معالي الأمور، وقعد عن طلبها، والتافه الخسيس الحقير.

(٣) **إسناده جيد**: رواه أحمد في «مسنده»، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٥/ ٣٧ ـ ٣٨): إسناده حسن ومتنه صحيح. وقال ابن كثير في «النهاية في الفتن والملاحم»: هذا إسناد جيد، ولم يخرجوه من هذا الوجه.

(٤) ذكره ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ١٥) من رواية الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، وقال الهيثمي: حديث أبي هريرة وحده في الصحيح بعضه، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث وهو ثقة.

● قال ﷺ : «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب منه»[١] .

● وقال ﷺ : «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك أن يعمهم اللَّه بعقابه»[٢] .

● وقال ﷺ : «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه، إلا عمهم اللَّه تعالى منه بعقاب»[٣] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : «مثل القائم على حدود اللَّه، والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذونا، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم، نجوا جميعًا»[٤] .

ووقوع الهلاك من جهتين:

الأولى: أن المعاصي التي تظهر ولا تُنكر سبب للمصائب والعقوبات.

والثانية: أن السكوت ذاته يعد معصية يستحق صاحبها العقوبة، كما أنه يدل على التهاون في دين اللَّه عز وجل.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٩٧٣)، وجوّد إسناده الحافظ، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، وصححه أيضًا الأرناؤوط.

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي بكر، ورواه الطحاوي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٩٧٤).

(٣) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن جرير، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٧٤٩).

(٤) رواه أحمد والبخاري والترمذي عن النعمان بن بشير.

هذا إذا كان الساكت عنه فردًا من أفراد المجتمع. أما حين تسكت الأمة بأسرها؛ فإن العقوبة تحل وتعمّ في هذه الحال.

* وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ الآية. [الأنفال: ٢٥].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أمر اللَّه المؤمنين أن لا يُقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب».

قال الحافظ: ولهذا الأثر شاهد من حديث عدي بن عميرة: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن اللَّه عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه؛ فإذا فعلوا ذلك عذّب اللَّه الخاصة والعامة**»(١).

وعن جرير رضي الله عنه مرفوعًا: «**ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيّرون إلاّ عمهم اللَّه بعقاب**»(٢).

قال ابن العربي: «وهذا الفقه عظيم، وهو أن الذنوب منها ما يعجّل اللَّه عقوبته، ومنها ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت عن المنكر تتعجّل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وركوب الذل من الظلمة للخلق»(٣).

---

(١) **سنده حسن**: قال الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٣ ـ ٤): «أخرجه أحمد بسند حسن، وهو عند أبي داود حديث العرس بن عميرة وهو أخو عدي. وله شواهد من حديث حذيفة وجرير وغيرهما عند أحمد وغيره.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه في «سننه» كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حديث رقم (٤٠٠٩)، (٢/ ١٣٢٩)، و«مشكل الآثار» (٢/ ٦٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٢٣٨) (٢/ ٣٦٨).

(٣) «عارضة الأحوذي» (٩/ ١٥)

● وعن أم المؤمنين زينب رضي الله عنها قالت: «أنهلك وفينا الصالحون»؟ قال النبي ﷺ: «نعم إذا كثُر الخبث»[١].

▣ قال عمر بن عبد العزيز: كان يقال: «أن اللَّه تعالى لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عُمِل المنكر جهارًا استحقوا كلهم العقوبة»[٢].

▣ وقال بلال بن سعد ـ رحمه اللَّه ـ: «إن المعصية إذا خفيت لم تضرّ إلا صاحبها، وإذا أُعلنت فلم تغير ضرت العامة»[٣].

[١٠] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موجب للرحمة، وتركهما يفضي إلى اللعنة:

* قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧١].

* وقال تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩].

وطبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفًا مصطلحًا عليه، أو أن يُصبحا أمرًا سهلاً يجترئ عليه كل من يهمُّ به.

والقائمون بأمر اللَّه ودينه، عليهم أن يؤدوا أمانتهم التي استُحفِظوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٥٩٨) «الفتح» (٦/ ٦١١).

(٢) «الموطأ» رقم (١٨٢٠) و«الزهد» لابن المبارك (١٣٥١).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (١٣٥٠)، و«الحلية» (٥/ ٢٢٢).

عليها، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء، لا يخافون لومة لائم، سواءٌ جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم أو الأغنياء المتسلطين بالمال أو الأشرار المتسلطين بالأذى، أو الجماهير المتسلطة بالهوى، فمنهج اللَّه هو منهج اللَّه، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواءٌ.

والإسلام يشدِّد في الوفاء بهذه الأمانة، فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما يقع فيها من شر، إذا هي سكتت عليه، ويجعل الأمانة في عنق كل فردٍ، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة.

وفي الآية غاية التَّشدُّد، إذ علَّل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر.

* وقال تعالى: ﴿ **لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾ [المائدة: ٦٣].

وهذا صوت النذير لكل أهل دين.

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**أكثر منافقي أمتي قُرَّاؤها**»(١).

● وقال ﷺ: «**غيرُ الدَّجال أخوف على أمتي من الدَّجّال، الأئمة المضلون**»(٢).

* وقال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ**

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمرو، وأحمد والطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر، والطبراني في «الكبير» وابن عدي عن عصمة بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٢٠٣)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٧٥٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩٨٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٤١٦٥).

الظَّالمينَ﴾ [الجمعة: ٥].

وهذه صورة زرية بائسة، ومثل سيئ شائنٌ لكل الذين حملوا أمانة العلم والعقيدة، ثم لم يحملوها ويصدعوا بها.

يقول مصطفى صادق الرافعي في «وحي القلم» (٣/ ٥٨ ـ ٦٦) تحت عنوان «أمراء للبيع»: «إننا نفوس لا ألفاظ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه، لا بمعناها في نفسها، فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده الشرع عليه، ولو نافق الدين، لبطل أن يكون دينًا، لو نافق العالم الديني، لكان كل منافق أشرف منه، فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود والمنافق رجل مغطى في حياته لكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته لا مغطّى، فهو للهداية لا للتلبيس، وفيه معاني النور لا معني الظلمة، وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل، فإذا نافق فقد كذب، والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التَّبيين؛ فإذا نافق فقد كذب وغش وخان.

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة في الناس دهرًا بعد دهر، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النُّور، تحويه في نفسها، وتلقيه على غيرها، فهي أداةٌ لإظهاره وإظهار جماله معًا.

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء، وكلهم آخذٌ من نور واحدٍ لا يختلف؟!

أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلُّور يُظهر النور نفسه فيه، ويُظهر حقيقته البلورية، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب، يُظهر النور حقيقته الخشبية لا غير!

وعالم السوء يفكِّر في كتب الشريعة وحدها، فيسهل عليه أن يتأوَّل ويحتال، ويغير ويُبدِّل، ويُظهر ويُخفي، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب

الشريعة في صاحب الشريعة، فهو معه في كل حالةٍ؛ يسأله: ماذا تفعل؟ وماذا تقول؟

والرجل الديني لا تتحول أخلاقه، ولا تتفاوت ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم، فهي بأخلاقه كلها، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا، الذي لو نطقت أفعاله لقالت للَّه بلسانه: هم يُعطوني الدراهم والدنانير، فأين دراهمك أنت ودنانيرك؟!

إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحًا في أحد وجهيه دون الآخر، أو في بعضه دون بعض، فهو زائف كله.

وأهل الحُكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء، يتعاملون مع قوَّة الهضم فيهم، فينزلون بذلك منزلة البهائم، تقدِّم أعمالها لتأخذ بطونها، والبطن الآكِل في العالم السّوء، يأكُل دين العالم فيما يأكله.

فإذا رأيت لعالم السوء وقارًا فهو البلادة، أو سكوتًا عن الظلم؛ فتلك رشوة يأكلون بها» اهـ.

* قال تعالى: ﴿**لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [المائدة: ٦٣].

أخرج ابن جرير في تفسيره عن الضحاك أنه قال في هذه الآية: «ما في القرآن آية أخوف عندي منها: أننا لا ننهى»[(١)].

قال ابن جرير: «وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشد توبيخًا للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها»[(٢)].

---

(١) إسناده صحيح.

(٢) «تفسير الطبري» (١٠/ ٤٤٩) ـ طبع دار المعارف.

[١١] **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للنصر والتمكين:**

* قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١]. واللَّه ما استُجلب نصر بمثل الطاعة وأعلاها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[١٢] **إقامة الملة والشريعة وحفظ الدين والعقيدة لتكون كلمة اللَّه هي العليا وإلا صار الدين غريبًا:**

* قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

* قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠].

* قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أُمِر بالشر، ومن لم يزحف بمبادئه زُحِف إليه بكل مبدأ وفكرة وخواء روحي، ومبادئ أرضية وأفكار متعفنة، واختفت معالم الدين، وتفشت المنكرات والكفر والظلم حتى يصبح المتمسك بدينه غريبًا بين الناس.

❑ قال الخلال: «أخبرني عمر بن صالح بطرسوس، قال: قال لي أبو عبداللَّه - أحمد بن حنبل - : يا أبا حفص يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه بينهم مثل الجيفة، ويكون المنافق يشار إليه بالأصابع، فقلت: يا أبا عبداللَّه، وكيف يشار إلى المنافق بالأصابع؟! فقال: يا أبا حفص صيّروا

أمر اللَّه فضولاً. وقال: المؤمن إذا رأى أمرًا بالمعروف أو نهيًا عن المنكر لم يصبر حتى يأمر وينهي، يعني قالوا: هذا فضول. قال: والمنافق كل شيء يراه قال بيده على فمه. فقالوا: نعم الرجل، وليس بينه وبين الفضول عمل»[١].

والدعوة إلى الإيمان باللَّه وتوحيده، ونبذ ما يخالفه في العقيدة والشريعة من شركيات وبدع وخرافات أعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[١٣] بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحفظ الضروريات الخمس:

مجموع الضروريات خمس: الدين، والنفس، والعقل، والنسل والمال.

ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم ونسلهم ومالهم.

وأصول العبادات راجعة إلى حفظ الدين من ناحية الوجود، والعادات راجعة إلى حفظ النفس والعقل من ناحية الوجود، والمعاملات راجعة إلى حفظ النسل والمال من ناحية الوجود، وإلى حفظ النفس والعقل لكن بواسطة العادات، والجنايات راجعة إلى حفظ الجميع من جانب العدم.

والذي يجمعها من جانب الوجود: الأمر بالمعروف، ومن جانب العدم: النهي عن المنكر[٢].

[١٤] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم لتكفير السيئات:

● قال ﷺ: «**فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفِّرها الصيام، والصلاة، والصدقة، والأمر بالعروف، والنهي عن المنكر**»[٣].

❑ قال سليمان: «قد كان يقول: الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلاّل ص(٦٥).

(٢) «الموافقات» للشاطبي (٢/ ٨ ـ ٩).

(٣) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن حذيفة.

والنهي عن المنكر»[١] .

[١٥] **وهو شكر للَّه على نعمه:**

● عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**»[٢] .

● عن أبي ذر ﷺ أن أناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول اللَّه ذهب أهل الدُّثور[٣] بالأجور، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم قال: «**أوليس قد جعل اللَّه لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة**» قالوا يا رسول اللَّه: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرٌ**»[٤] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب «الزكاة» ـ باب الصدقة تكفر الخطيئة حديث رقم (١٤٣٥)، وكذا رقم (٣٥٨٦)، (٧٠٩٦)، ومسلم في كتاب «الفتن وأشراط الساعة» ـ باب في الفتنة تموج كموج البحر حديث رقم (١٤٤) (٤/ ٢٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب صلاة المسافرين، باب: استحباب صلاة الضحى، والحث على المحافظة عليها حديث رقم (٧٢٠) (١/ ٤٩٩)، وفي كتاب الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم (١٠٠٦، ١٠٠٧)، وأخرج نحوه من حديث عائشة (٢/ ٦٩٨).

(٣) الدثور: جمع دثر، وهو المال الكثير.

(٤) رواه مسلم (١٠٠٦).

● وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنه خُلِقَ كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل. فمن كبَّر اللَّه وحمد اللَّه، وهلَّل اللَّه، وسبَّح اللَّه، واستغفر اللَّه، وعزل حجرًا عن طريق الناس، أو شوكةً أو عظمًا عن طريق الناس، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة السُّلامى[1] فإنه يمشي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار»[2].

● وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»[3].

● عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «على كل مسلم صدقة» قالوا يا رسول اللَّه فإن لم يجد؟ قال: «فيعملُ بيديه فينفعُ نفسه ويتصدق» قالوا: فإن لم يستطع، أو لم يفعل؟ قال: «فيعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فليأمر بالخير» أو قال: «بالمعروف» قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «فليمسك عن الشر فإنه له صدقة»[4].

[١٦] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم لإجابة الدعاء:

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «مروا بالمعروف، وانهَوْا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يُستجاب لكم»[5].

(١) السُّلامى: هو المفصل وجمعه سلاميات.

(٢) رواه مسلم (١٠٠٧).

(٣) حسن: رواه الترمذي في «سننه» (١٩٥٧)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وقال الأرناؤوط في تحقيق الأصول (٩/ ٥٦١): حديث حسن.

(٤) رواه البخاري، ومسلم.

(٥) حسن: رواه ابن ماجه في «سننه» (٤٠٠٤)، وحسّنه الألباني في «صحيح سنن ابن =

● وعن حذيفة بن اليمان ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن اللَّه أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»(١).

[١٧] **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من موجبات الجنة:**

● عن أبي كثير السُّحيمي عن أبيه قال: سألت أبا ذر قلت: دُلَّني على عمل إذا عمل العبد به دخل الجنة؟ قال: سألت عن ذلك رسول اللَّه ﷺ قال: «**تؤمن باللَّه واليوم الآخر**» قلت: يا رسول اللَّه ﷺ إن مع الإيمان عملاً؟ قال: «**يرضخ**(٢) **مما رزقه اللَّه**» قلت: يا رسول اللَّه، أرأيت إن كان فقيرًا لا يجد ما يرضخ به؟ قال: «**يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر**» قال: قلت: يا رسول اللَّه، أرأيت إن كان عييًّا لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ قال: «**يصنع لأخرق**» قلت: أرأيت إن كان أخرق أن يصنع شيئًا؟ قال: «**يعين مغلوبًا**». قلت: أرأيت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يعين مغلوبًا؟ قال: «**ما تريد أن يكون في صاحبك من خير؟ يمسك عن أذى الناس**» فقلت: يا رسول اللَّه إذا فعل ذلك دخل الجنة؟ قال: «**ما من مسلم يفعل خصلة من هؤلاء إلا أخذت بيده حتى تُدخله الجنة**»(٣).

● وعن البراء بن عازب ﷺ قال: جاء أعرابي فقال: يا نبي اللَّه

= ماجه» (٢/ ٣٦٧).

(١) **حسن**: رواه الترمذي في «سننه» (٢١٦٩)، وقال: هذا حديث حسن، وحسّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٦٢)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٢٧).

(٢) يرضخ: أي يُعطي عطية قليلة.

(٣) **صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» واللفظ له، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٣٠) رواته ثقات، وكذا رواه ابن حبان في «صحيحه»، والحاكم (١/ ٦٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

علمني عملاً يدخلني الجنة قال: «لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة[١] أعتق النسمة، وفك الرقبة». قال: أوليستا بواحد؟ قال: «لا، إن عتق النَّسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها، والمنحة الوكوف[٢] والفيء على ذي الرحم[٣] الظالم؛ فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر؛ فإن لم تطق ذلك فكُفَّ لسانك إلا من الخير»[٤].

[١٨] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مظهر عظيم للغيْرة وإجلال للّه وتعظيم لحرماته ودليل حياة القلب:

لا أحد أغير من اللّه، ولذا حرّم اللّه الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تعظيم لحرمات اللّه.

* قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠].

* وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر يغضبون لمحارم اللّه إذا استحلت، كما يغضب النمر إذا حَرِب.

● قال رسول اللّه ﷺ: «المؤمن يغار واللّه أشد غيراً»[٥].

---

(١) أعرضت المسألة: أي جئت بها عريضة أي: واسعة.

(٢) المنحة الوكوف: الغزيرة اللبن الكثيرة الدر.

(٣) الفيء على ذي الرحم: الرجوع عليهم بما رد اللّه تعالى عليك من أموال.

(٤) إسناده صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٩٩) واللفظ له، والبغوي في «شرح السنة» (٩/ ٣٥٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ١٥١)، ورجاله ثقات وسنده صحيح.

(٥) رواه مسلم عن أبي هريرة.

وغيرة العبد لربه أن تنتهك محارمه ملاك الغيرة وأعلاها، كيف لا يأمر المسلم وينهى ويغار على شرع اللَّه المعطل المغيّب عن ديار المسلمين، والقرآن الذي عُطّلت أحكامه، والسنة التي انمحى نورها وقلّ اتباعها في زمن علا فيه شأن الذوق والمواجيد. كيف لا يغار وأعراض المسلمين تنتهك، وتغتصب الطاهرات حتى بعد موتهن.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة حياة القلب وأن همه كله في اللَّه وحبه كله له، كلما عرض له من ربه أمرٌ ونهيٌ أحسّ من قلبه ناطقًا ينطق: «لبيك وسعديك، إني آمر بالمعروف وناه عن المنكر ولك المنة عليّ في ذلك والحمد فيه عائد إليك».

❑ قال أحد السلف: وددت أن الخلق كلهم أطاعوا اللَّه وأن لحمي قُرض بالمقاريض.

❑ قال عبدالملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه: «وددت أني غلتْ بي وبك القدور في اللَّه تعالى».

[١٩] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شدٌّ لظهر المؤمن وإرغام لأنف المنافق والزنديق:

❑ قال الثوري ـ رحمه اللَّه ـ : «إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق»[1].

فإن المنافق يخنس ويشرق إذا اضمحلت المنكرات بنهي الصالحين عنها، فكيف إذا ألزم الاستقامة أمام الناس.

أمام المؤمن فإن سعادته لا تقدر ولا تُحد حينما ينتشر الخير فينشرح صدر الآمرين بالمعروف بترفع المجتمع عن الدنايا، وقرب الناس من ربهم،

(١) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلاّل ص(٦٧).

ومحاسبتهم لأنفسهم على أصغر الزلات وترك الأمر بالمعروف يُجرّئ العصاة والفسّاق على أهل الإيمان فينالون منهم ويتطاولون عليهم بل ويسخرون منهم.

[٢٠] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نشر للعلم والسنة وذيوع للخير، وتركهما اندراس للعلم وظهور للجهل وتزيين للمعاصي:

فإن المنكر إذا ظهر ولم يوجد من ينكره نشأ عليه الصغير وألفه وظن أنه من الحق ويصير الواقع فتنة للعامة يصدَّق فيها الكاذب ويُكّذب فيها الصادق، ويؤتمن فيه الخائن ويُخوّن الأمين وينطق الرويبضة وهو السفيه الذي يتكلم في أمر العامة بل وفي دين اللَّه.

وضد ذلك أن يجلو أمر المنكر أمام الناس ويعرفه الصغير والكبير فينتشر العلم ويظهر نور السنة في المجتمع ودنيا الناس، وإذا كثر الفاعلون للخير تداعى الناس إلى فعله؛ لأن النفوس مجبولة على تشبه بعضها ببعض فالناس كأسراب القطا. وصاحب المنكر كالبعير الأجرب يختلط بالإبل فتجرب جميعًا، وأهل الفساد لا يرضون إلا بموافقة الناس لهم، ويكرهون من تنزه عن ذلك، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن المرأة الزانية تود أن النساء كلهن يزنين، ونقل ذلك عن السلف.

[٢١] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقامة لحجة اللَّه على خلقه:

❑ كما قال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان» (١/ ١٧٦).

* قال تعالى: ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء: ١٦٥].

[٢٢] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شهادة على الخلق:

❑ قال الإمام مالك بن أنس: «ينبغي للناس أن يأمروا بطاعة اللَّه؛ فإن

عُصوا كانوا شهودًا على من عصاه»[١].

وبالمقام الشهادة من مرتبة تتضاءل دونها الرتب، واللَّه لو لم يكن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا هذه المنقبة لكفى.

[٢٣] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خروج من عهدة التكليف:

* وقال تعالى: ﴿وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٥].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب يؤدَّى للَّه؛ لنبلغ إلى اللَّه عذرنا، ويعلم أن قد أدينا واجبنا، ثم لعل النصح يؤثر في تلك القلوب العاصية، فيثير فيها وجدان التقوى.

❑ قال ابن العربي في قصة أصحاب السبت: «فاستمروا على نهيهم لهم ولم يمنع من التمادى على الوعظ والنهي عدم قبولهم؛ لأنه فرْض قُبِل أو لم يُقبَل».

❑ وقال القاسمي: «دل قوله تعالى: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ على أن المنكر لا يسقط ولو علم المنكِر عدم الفائدة فيه، إذ ليس من شرطه حصول الامتثال عنه، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان

(١) «الجامع» لابن أبي زيد القيرواني ص(١٥٦).

الدين والغيرة على حدود اللَّه والاعتذار إليه تعالى إذا شدّد في تركه لكفاه فائدة».

قال النووي: «قال العلماء رحمهم الله: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب فعله؛ فإن الذكرى تنفع المؤمن، وقد قدّمنا أن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول، وكما قال اللَّه عز وجل: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾».

والقول بالوجوب هو رواية عن الإمام أحمد وصححه أبو يعلى، وهو اختيار ابن تيمية، وعزاه ابن رجب إلى أكثر أهل العلم»[1].

وقال ابن تيمية: «لو فُرض أن الناس لا يترك أحد منهم هذه المشابهة المنكرة ـ مشابهة الكفار ـ لكان في العلم بها معرفة القبيح والإيمان بذلك؛ فإن نفس العلم والإيمان بما كرهه اللَّه خير، وإن لم يعمل به، بل فائدة العلم والإيمان أعظم من فائدة مجرد العمل الذي لا يقترن به علم؛ فإن الإنسان إذا عرف المعروف، وأنكر المنكر كان خيراً من أن يكون ميت القلب لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا».

«ثم لو فُرض أنا علمنا أن الناس لا ينكرون المنكر، ولا يعترفون بأنه منكر، لم يكن ذلك مانعًا من إبلاغ الرسالة وبيان العلم؛ بل ذلك لا يُسقط وجوب الإبلاغ، ولا وجوب الأمر والنهي ـ في إحدى الروايتين عن أحمد ـ وقول كثير من أهل العلم»[2].

والقول الثاني: «القول بالاستحباب، وإنما يكون مستحبًّا حيث لم يخش الضرر وهو رواية عن أحمد، واختاره الجصاص والشنقيطي في

---

(١) «انظر الآداب الشرعية» (١/ ١٥٨)، و«مختصر الفتاوى المصرية» ص(٥٨).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٤٨، ١٤٩).

أضواء البيان»[١] .

● عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما شبك النبي ﷺ أصابعه وقال: «**كيف أنت يا عبد اللَّه بن عمرو إذا بقيت في حثالة قد مرجت عهودهم وأمانتهم واختلفوا فصاروا هكذا**» قال: فكيف أصنع يا رسول اللَّه؟ قال: «**تأخذ ما تعرف وتدع ما تنكر وتُقبل على خاصتك وتدعهم وعوامهم**»[٢] .

● وفي لفظ آخر: بينما نحن جلوس عند رسول اللَّه ﷺ إذ ذُكرت الفتنة فقال: «**إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم وخفّت أمانتهم وكانوا هكذا**» ـ وشبّك بين أصابعه ـ قال ابن عمرو: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني اللَّه فداك؟ قال: «**الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودعْ ما تُنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**»[٣] .

[٢٤] الشهادة بالإيمان لفاعله وجعله من أفضل أعمال المؤمنين:

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**أحب الأعمال إلى اللَّه إيمان باللَّه، ثم صلة الرحم، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأبغض الأعمال إلى اللَّه الإشراك باللَّه ثم قطيعة الرحم**»[٤] .

---

(١) «انظر الآداب الشرعية» (١/ ١٥٨)، و«أحكام القرآن» للجصاص (٢/ ٢١٨)، و«أضواء البيان» (١/ ١٧٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» رقم (٦٥٠٨)، والبخاري تعليقًا في كتاب الصلاة ـ باب تشبيك الأصابع ـ حديث (٤٧٩)، «الفتح» (١/ ٥٦٥)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٧٤٥، ٧٥٧).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢١٢)، وأبو داود في «الملاحم» باب الأمر والنهي حديث رقم (٤٣٢١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨٢).

(٤) حسن: رواه أبو يعلى في مسنده عن رجل من خثعم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٦).

[٢٥] وصف تاركه والقاعد عنه بالظلم:

* قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

«أراد بالذين ظلموا تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واتبعوا طلب الشهوات واللذات واشتغلوا بتحصيل الرياسات»[١].

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قال الزمخشري: «ليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن من تركهما مع القدرة عليهما فليس بمهتد، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه»[٢].

وذهب بعض المفسرين في تفسير هذه الآية إلى نكتة لطيفة هي أن الآية تقول: إن المؤمنين لن ينال منهم الضالون شيئًا إذا كانوا مهتدين. وإنما يكون الإنسان مهتديًا إذا لم يقتصر على إصلاح نفسه بل يسعى لإصلاح غيره. والذي يترك السعي لذلك فإنه جائر عن قصد السبيل مهما كان صالحًا متورعًا في نفسه. وإن ما ذهبوا إليه ليس نكتة دقيقة فحسب، بل هي تمثل روح الكتاب والسنة»[٣].

● وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس! إنكم تقرءون

(١) «التفسير الكبير» (١٨/ ٧٥)، «فتح القدير» (٢/ ٥٣٤)، و«تفسير القاسمي» (٩/ ١٨٠).
(٢) «الكشاف» (١/ ٣٨٦).
(٣) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للسيد جلال الدين العمري ص(٢٨) ـ شركة الشعاع للنشر.

هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا ظالمًا فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب**»[١].

❑ وفي قصة أصحاب السبت قال الحافظ ابن كثير:

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق:

فرقة ارتكبت المحظور، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للمنكرة ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي: لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من اللَّه؟ فلا فائدة في نهيكم إياهم، قالت لهم المنكرة: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ قرأ بعضهم بالرفع[٢]، كأنه على تقدير هذه معذرة، وقرأ آخرون بالنصب[٣] أي: نفعل ذلك ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعلّ بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى اللَّه تائبين؛ فإذا تابوا تاب اللَّه عليهم ورحمهم.

* قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة. ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ فنصّ على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحًا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيمًا فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٣٠٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) وهم ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة والكسائي.

(٣) وهي قراءة عاصم.

كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين:

❑ قال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.. فلما وقع عليهم غضب اللَّه نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وأهلك اللَّه أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة.

❑ وقال حماد بن زيد: عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال: ما أدري أنجا الذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أم لا؟ قال: فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا، وكساني حلة».

وساق ابن كثير رواية عكرمة التي ذكرها عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٤٠، ٢٤٢)، وابن جرير (١٣/ ١٥٢٧٢) ومنها قال ابن عباس: «فأرى الذين نهوا قد نجوا، ولا أرى الآخرين ذُكروا، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها، قال: قلت: أي جعلني اللَّه فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم، وقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾؟ قال: فأمر لي، فكُسيت ثوبين غليظين، وكذا روى مجاهد عنه.

❑ ثم قال ابن كثير: القول الثاني: أن الساكتين كانوا من الهالكين عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ابتدعوا السبت فابتلوا فيه، فحُرمت عليهم فيه الحيتان، فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان، ينظرون إليها في البحر؛ فإذا انقضى السبت ذهبت، فلم تُر حتى السبت المقبل؛ فإذا جاء السبت جاءت شُرّعًا، فمكثوا ما شاء اللَّه أن يمكثوا كذلك، ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتًا فخزمه بأنفه، ثم ضرب له وتدًا في الساحل، وربطه وتركه في

الماء، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله، ففعل ذلك وهم ينظرون ولا يُنكرون، ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه، حتى ظهر ذلك في الأسواق، ففُعل علانية، قال: فقالت طائفة للذين ينهونهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ فقالوا: نسخط أعمالهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

❑ قال ابن عباس: كانوا أثلاثًا: ثلث نهوا، وثلث قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وثلث أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم.

وهذا إسناد جيد عن ابن عباس، ولكن رجوعه إلى قول عكرمة في نجاة الساكتين أولى من القول بهذا؛ لأنه تبيّن حالهم بعد ذلك، والله أعلم»[1]، وعلى أي حال فإن الأمة الثالثة قد سكت عنها النص، ربما تهوينًا لشأنها ـ وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب ـ فاستحقت الإهمال، وإن لم تستحق العذاب.

❑ قال شيخ الإسلام ابن القيم: «ليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأمور المحبوبة لله، وأكثر الدّينين لا يعبأون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ولرسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله وكتابه ودينه؛ فهذه الواجبات لا يخطرْن ببالهم، فضلاً عن أن يريدوا فعلها، فضلاً عن أن يفعلوها.

وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها، وقلّ أن يُرى منهم من يحمّر وجهه ويتمعّر في الله، ويغضب لحرماته، ويبذل عرضه في نصرة دينه.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٨) ـ مكتبة أولاد الشيخ.

وأصحاب الكبائر أحسن حالاً عند اللَّه من هؤلاء.

❑ قال الشيخ حمد بن عتيق: «قد فتح الشيطان لكثير من الناس أبوابًا من الشر في إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألقاها على أُناس فيهم شبهة دين، حتى اعتقدوها أعذارًا لهم، وإنما هي من زخارف الشياطين، ولكن إذا تبين أن الزاني والسارق وشارب الخمر أحسن حالاً عند اللَّه من هؤلاء الجنس فهذا كافٍ من شناعة مذهبهم وسوء منقلبهم»[١].

❑ قال بعض السلف: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة المخلوقين نزعت منه الطاعة، فلو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخفّ بحقه.

❑ قال جامع بن شدّاد: «كنت عند عبد الرحمن بن يزيد بفارس، فأتاه نعي الأسود بن يزيد، فأتيناه نعزيه. فقال: مات أخي الأسود. ثم قال: قال عبداللَّه: يذهب الصالحون أسلافًا ويبقى أصحاب الرِّيب. فقالوا: يا أبا عبدالرحمن، وما أصحاب الرِّيب؟! قال: «قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن منكر»[٢].

[٢٦] نفي الإيمان عمّن قعد عنه ولو بالقلب:

● عن ابن مسعود مرفوعًا: «**ما من نبي بعثه اللَّه في أمة قبلي إلاّ كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[٣].

---

(١) «مجموعة رسائل» الشيخ حمد بن عتيق ص(٣٧)، و«الدرر السنّية» (٧/ ٣٦ ـ ٣٩) في الأجوبة النجدية جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم.

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٦/ ٩٤) رقم ٧٥٨٤).

(٣) رواه أحمد ومسلم.

● وعن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «**من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[1] . لا رخصة لأحد في ترك الإنكار بالقلب.

❑ قال ابن تيمية: وإنكار القلب: هو الإيمان بأن هذا منكر، وكراهته لذلك»[2] .

ومتى لا يعرف القلب المعروف ولا ينكر المنكر فهذا علامة موته:

● عن حذيفة بن اليمان ﷺ مرفوعًا: «**تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأي قلب أُشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادًّا، كالكوز مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أُشرب من هواه**»[3] .

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وذلك أضعف الإيمان» مراده أنه لم يبق بعد هذا الإنكار ما يدخل في الإيمان حتى يفعله المؤمن، بل الإنكار بالقلب آخر حدود الإيمان ليس مراده أن من لم ينكر لم يكن معه من الإيمان حبة خردل، ولهذا قال: «ليس وراء ذلك» فجعل المؤمنين ثلاث طبقات، فكل منهم فعل الإيمان الذي يجب عليه..»[4] .

❑ قال القرافي: «ما معنى قوله ـ عليه السلام ـ وذلك أضعف الإيمان؟

جوابه: المراد بالإيمان هنا الإيمان الفعلي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمَا

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي، والترمذي وأبو داود وابن ماجه.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ١٤٨).

(٣) أخرجه في «صحيحه» كتاب الإيمان ـ باب أن الإسلام بدأ غريبًا حديث رقم (١٤٤) (١/ ١٢٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ١٢٧).

﴿كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم لبيت المقدس، والصلاة فعل.

وأقوى الإيمان الفعلي إزالة اليد، ثم القول لأنه قد لا تقع معه الإزالة، وقد تقع، والإنكار القلبي لا يورّث إزالة البتة»[1].

اعلم أن كثيرًا من الناس يظنون أنه ما دام كارهًا للمنكر فلا بأس عليه بمخالطة فاعله أو الجلوس معه حاله مواقعته للمنكر، أو البقاء في مكان فيه منكر، وهذا مخالف للشرع.

* قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وهذا نهي صريح عن مجالستهم حال مواقعتهم لهذا المنكر، فما دام لا يقدر على الإنكار باليد أو اللسان فلا بد إذًا من مفارقته للمنكر ـ هذا هو الصحيح»[2].

❑ قال الإمام القرطبي: «فدلّ بهذا على وجوب اجتناب أصحاب المعاصي إذا ظهر منهم منكر؛ لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم والرضا بالكفر كفر، قال اللَّه عز وجل: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ فكل من جلس في مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم في الوزر سواء، وينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها؛ فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية، وإذا ثبت تجنب أهل المعاصي فتجنب أهل البدع والأهواء أولى»[3].

---

(١) انظر «الفروق» للقرافي (٤/ ٢٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٠٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٣٩).

(٣) القرطبي (٥/ ٤١٨).

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «أي إن قعدتم معهم في الحال المذكور ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها.

والحاصل أن من حضر مجلسًا يعصى اللَّه به فإنه يتعيّن عليه الإنكار عليهم مع القدرة، أو القيام مع عدمها»[١].

● عن عُرْس بن عميرة الكندي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا عُمِلت الخطيئة في الأرض كان من شهدها وكرهها كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**»[٢].

● وعن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا: «**ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرِف برئ، ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع**»[٣].

[٢٧] **الثواب العظيم للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر:**

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن من أمتي قومًا يُعطَون مثل أجور أولهم، يُنكرون المنكر**»[٤].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «**إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف**

---

(١) «تفسير السعدي» (٢/ ٩٣ ـ ٩٤).

(٢) **حسن**: رواه أبو داود في «سننه» ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي حديث رقم (٤٣٢٣)، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٨٩)، والأرناؤوط في «جامع الأصول» (١/ ٣٣٣) رقم (١١٥).

(٣) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة ـ باب وجوب الإنكار على الأمراء مما يخالف الشرع وترك قتالهم ما صلوا حديث رقم (١٨٥٤).

(٤) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» عن رجل، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٢٢٤).

في الآخرة، وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة»[١] .

● وعن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «واللَّه لأن يُهدى بهداك واحد، خيرٌ لك من حمر النَّعَم»[٢] .

● وعن أبي أمية الشعباني، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، قال: أما واللَّه لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول اللَّه ﷺ قال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًّا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام؛ فإن من ورائكم أيامًا الصبرُ فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم»، قال ابن المبارك وزادني غير عتبة: قيل يا رسول اللَّه: أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم»[٣] .

● وعن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو في قبة من أدم حمراء في نحو أربعين رجلاً. فقال: «إنه مفتوح لكم، وأنتم منصورون مصيبون، فمن أدرك ذلك منكم فليتق اللَّه وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، وليصل رحمه، ومثل الذي يعين قومه على غير الحق كمثل البعير يتردَّى

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن سلمان وقبيصة وابن عباس، ورواه أبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠٣١).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٠٩٤).

(٣) حسن: رواه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨) واللفظ له وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه (٤٠٠٥)، ومحمد بن نصر المروزي في «السنة» ص(٩) من حديث عتبة بن غزوان، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٤٨)، وقال محققه: للحديث شواهد يتقوّى بها.

فهو يمد بذنبه»[١] .

❑ وهذي بعض أحاديث أُخر نلحقها هنا:

● وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والجلوس على الطرقات**» فقالوا: مالنا بُدٌّ، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «**فإذا أتيتم إلى المجالس فأعطوا الطريق حقها**». قالوا: ما حق الطريق؟ قال: «**غضُّ البصر، وكفُّ الأذى وردُّ السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر**»[٢] .

● وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن اللَّه لم يبعث نبيًّا ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومَن يُوق بطانة السوء فقد وُقيَ**»[٣] .

● وعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث اللَّه من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم اللَّه تعالى**»[٤] .

● وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قام خطيبًا فكان فيما قال: «**ألا لا يمنعن رجلاً هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه**»[٥] .

● وعن تميم الداري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» قلنا:

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٩)، والترمذي (٢٢٥٧)، وقال: حسن صحيح والحاكم في «المستدرك» واللفظ له (٤/ ١٥٩)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقرّه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٥)، «الفتح» (٥/ ١١٢)، ومسلم (٢١٢١) (٣/ ١٦٧٥)، (١٧٠٤).

(٣) رواه مسلم (٢٠٣٨)، والترمذي واللفظ له (٢٣٦٩)، وقال: حسن صحيح غريب.

(٤) رواه البخاري حديث رقم (٧١٩٨).

(٥) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٤٠٠٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٢٣٧) وفي «الصحيحة» (١٦٨).

لمن؟ قال: «**للَّه، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»(١).

● وعن جرير البجلي رضي الله عنه قال: «بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»(٢).

● وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول اللَّه ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في اللَّه لومة لائم»(٣).

* أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر:

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**أحب الجهاد إلى اللَّه كلمة حق تُقال لإمام جائر**»(٤).

● وقال ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»(٥).

---

(١) رواه مسلم (٥٥).

(٢) رواه البخاري (١, ١٤) واللفظ له، ومسلم (٥٦).

(٣) رواه البخاري (٧١٩٩، ٧٢٠٠)، ومسلم (٩ ـ ١٧٠) (٣/ ١٤٧٠).

(٤) **حسن**: رواه أحمد، والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٦٨).

(٥) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٣٤٤)، والترمذي (٢/ ٢٦)، وابن ماجه (٤٠١١)، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه، والحاكم (٤/ ٥٠٥ ـ ٥٠٦)، والحميدي في «مسنده» (٧٥٢)، وأحمد (٣/ ١٩، ٦١) عن أبي سعيد الخدري. ورواه ابن ماجه (٤٠١٢)، وأحمد (٥/ ٢٥١، ٢٥٦)، والروياني في «مسنده» (٣٠/ ٢/ ٢١٥)، وابن عدي (١١٢/ ٢)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ١/ ٤٣٨) عن أبي أمامة.
ورواه النسائي (٢/ ١٨٧)، وأحمد (٤/ ٣١٥)، والبيهقي والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (ق ٢١/ ٢) عن طارق بن شهاب وصححه النووي والمنذري، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٤٩١). و«صحيح الجامع» رقم (١١٠٠).

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[١].

● وقال ﷺ: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاهُ، فقتله»[٢].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه في ذات اللَّه فقتله على ذلك»[٣].

* ضوابط في أمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر:

هناك ضوابط في أمر الحكام بالمعروف ونهيهم عن المنكر:

أولاً: بالنسبة للحاكم المسلم:

(١) «لا يجوز بحال إنكار منكر الإمام المسلم بالسيف، وإنما يُكتفَى بإنكار منكره بالقلب، واللسان؛ وذلك أن الضرر الواقع على جمهور المسلمين من الخروج عليه أشد من انحراف الحاكم وظلمه؛ فإن السيف إذا وقع بين الأمة وقعت بسببه مفاسد كثيرة، فالإمام لا بد أن ينحاز له كثيرون معه وخاصة إذا كانت الشوكة بيده، كالسلاح والجيوش، وهؤلاء حتمًا سيتعصبون له، ومن ذا يستطيع أن يصل إلى الإمام دون أن يقع القتل في مسلمين كثيرين يتترس بهم الإمام؟»[٤]. هذا مذهب أهل السنة والجماعة

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي سعيد، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٤٩١)، و«صحيح الجامع» رقم (٩٠٢٢).

(٢) حسن: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩٥)، وقال: صحيح الإسناد، والضياء عن جابر، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٦٧٥)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٣٧٤).

(٣) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك»، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) من كتاب «فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى اللَّه» للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق ص(١١٧).

خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين أوجبوا إنكار منكر الإمام بكل صورة من صور الإنكار: اليد واللسان، والقلب.

● عن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**من كره من أميره شيئًا فليصبر؛ فإنه من خرج من السلطان شبرًا فمات مات ميتة جاهلية**»[1].

❑ قال في «الفتح» (١٣/ ٧): قال ابن بطال: «في الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن للدماء، وتسكين الدهماء».

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت الصادق المصدوق يقول: «**هَلَكَةُ أمتي على يد غلمة من قريش**»، فقال مروان: لعنة اللَّه عليهم غلمة، فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول بني فلان، بني فلان لفعلت»[2].

❑ قال في الفتح (١٣/ ١١): «وفي الحديث أيضًا حجة لما تقدم من ترك القيام على السلطان ولو جار؛ لأنه ﷺ أعلم أبا هريرة بأسماء هؤلاء، وأسماء آبائهم، ولم يأمرهم بالخروج عليهم مع إخباره بأن هلاك الأمة على أيديهم لكون الخروج أشد في الهلاك، وأقرب في الاستئصال من طاعتهم، فاختار أخف المفسدتين، وأيسر الأمرين».

● وفي حديث أم سلمة عند مسلم عن النبي ﷺ قال: «**إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون، وتُنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع**» قالوا: يا رسول اللَّه أفلا نقاتلهم؟ قال ﷺ: «**لا، ما صلوا**».

---

(١) رواه البخاري (١٣/ ٥) برقم (٧٠٥٣).

(٢) رواه البخاري (١٣/ ٩) برقم (٧٠٥٨).

● وعند مسلم عن عوف بن مالك ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم، ويحبونكم ويُصلون عليكم، وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**»، قيل: يا رسول اللَّه أفلا ننابذهم بالسيوف؟ فقال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من وُلاتكم شيئًا تكرهونه، فاكرهوا عمله، ولا تنزعوا يدًا من طاعة**»[1].

وإقامة الصلاة بالنسبة إلى الحاكم تعني شهود صلاة الجماعة في المساجد، والدعوة إليها، وإقامة الحدود المتعلقة بها.

وحديث مسلم السابق نص ظاهر واضح في أن الإمام وإن استحق اللعن من المسلمين وكان بغيضًا إليهم، مبغضًا لهم، لا يجوز الخروج عليه بالسيف ما أقام الصلاة.

❑ وقال أهل السنة والجماعة، والسلف قاطبة: إنه لا يجوز الخروج على الإمام الذي ما زال يصلي إلا أن يكفُر كفرًا بواحًا، والبواح هو العلانية الشائع أي: يُعلن ذلك، ولا يكون مُسِرًّا به لأهل خاصته مثلاً.

واستندوا في ذلك إلى حديث جنادة بن أبي أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، فقلنا: حدثنا ـ أصلحك اللَّه ـ بحديث ينفع اللَّه به، سمعته من رسول اللَّه ﷺ فقال: دعانا رسول اللَّه ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة في منشَطِنا ومكْرهنا، وعُسرنا ويُسرنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، قال: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من اللَّه فيه برهان**»[2].

وهذا نص ظاهر في عدم جواز منازعة الإمام الأمر إلا أن يعلن الكفر علانية، وقوله: «**عندكم من اللَّه فيه برهان**» أي: نص آية، أو خبر صحيح لا

(١) مسلم كتاب الإمارة ـ باب: خيار الأئمة وشرارهم.
(٢) رواه البخاري (١٣/ ٥) برقم (٧٠٥٦).

يحتمل التأويل، ومقتضاه: لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل.

❑ قال أبو جعفر الطحاوي: «ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف».

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى أن طاعتهم من طاعة اللَّه ـ عز وجل ـ فريضة ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»[١].

❑ قال النووي ـ رحمه اللَّه ـ «أجمع أهل السنة أن لا ينعزل السلطان بفسق، وسبب عدم انعزاله، وتحريم الخروج عليه، ما يترتب على ذلك من الفتن، وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه»[٢].

«وأما استدلال الخوارج والمعتزلة بقول عمر ﷺ: «وإذا أسأت فقوّموني» فقال له رجل: «لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناك بسيوفنا». في وجوب الخروج على الإمام المسلم بالسيف إذا انحرف أو ظلم في نظرهم عما يعتقدونه، ففيه نظر، وذلك لأن عمر ﷺ قال: «قوّموني» ولم يقل: «قوّموني بالسيف»، كما أن قول الرجل في رده على عمر ﷺ تطاول منه على أمير المؤمنين، ولم يشأ عمر ﷺ أن يردّ عليه، وهو في مقام الإمام، وفي خطبته الأولى حتى لا يُتّهم بالدفاع عن نفسه، وإلا فهذا الأمر أشبه بين السلف مما هو معلوم من الدين بالضرورة»[٣]. وهذا إن صحت الرواية.

---

(١) «شرح الطحاوية» ص(٤٢٨).

(٢) «صحيح مسلم» بشرح النووي (١٢/ ٢٢٩).

(٣) انظر إلى كتاب «فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى اللَّه» للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ص(١١٦).

❑ وكذا لا يجوز إقامة المظاهرات والاعتصامات والإضرابات وأعمال الشغب وما شابهها والتي لم يجر عليها عمل السلف الصالح ويترتب عليها ضياع الأمن وإثارة الفتن.

«ولنعلم أن كلمة الحق أقوى من ظلم أي سلطان مهما كان، وصبر أهل الحق على حقهم وتعرضهم للأذى في سبيله، وانتظارهم لفرج اللَّه ورحمته عوامل رئيسية لانكسار الباطل، واندحاره مهما كان.

كما أن افتراض الشر دائمًا بالسلاطين من اتباع الظن، ومن الحكم على القلوب التي لا يطلع عليها إلا اللَّه تعالى، ونحن نعتقد أن القلوب بيد اللَّه يصرّفها كيف يشاء»[١].

(٢) على المأموم والمحكوم أن يطيع الحاكم المسلم في طاعة اللَّه، ويعصيه في معصية اللَّه؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

● قال ﷺ: «**لا طاعة في معصية اللَّه، إنما الطاعة في المعروف**»[٢].

* نصح الحاكم المسلم سرًّا من غير تشهير مستحب:

ويستحب نصيحة الحاكم المسلم سرًّا من غير تشهير، ولا تعيير لحديث عياض بن غنم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُبده علانية، ولكنْ ليأخذ بيده، فيخلو به؛ فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدّى الذي عليه**»[٣].

● وعن أبي وائل شقيق قال: قيل لأسامة بن زيد: ألا تدخل على

---

(١) المصدر السابق ص(١١٨).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب الإمارة حديث رقم (١٢٢٥).

(٣) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٤٠٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٩٦)، (١٠٩٧)، و(١٠٩٨) (٢/ ٥٢١)، والحاكم (٣/ ٢٩٠).

عثمان فتُكَلِّمه؟ فقال: أترون أني لا أكلمه إلاّ أُسمعكم؟ واللَّه لقد كلمته فيما بيني وبينه، ما دون أن أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من فتحه»، وفي لفظ للبخاري: «إنكم لترون أني لا أكلمه! إلا أُسمعكم؟! إني أكلمه في السر»[1].

❑ قال ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٥٧): فقال أسامة قد كلمته سرًّا دون أن أفتح بابًا، أي: باب الإنكار على الأئمة علانية خشية أن تفترق الكلمة. ثم عرّفهم أنه لا يداهن أحدًا ولو كان أميرًا بل ينصح له في السر جهده».

❑ وقال عياض: مراد أسامة أنه لا يفتح باب المجاهرة بالنكير على الإمام لما يخشى من عاقبة ذلك، بل يتلطف به وينصحه سرًّا، فذلك أجدر بالقبول.

❑ قال النووي: «وفيه الأدب مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سرًّا وتبليغهم ما يقوله الناس فيهم لينكفوا عنه»، «ويأخذوا حذرهم بلطف وحسن تأدية بحيث يبلغ المقصود من غير أذية للغير»[2].

● وأخرج أحمد بسنده عن سعيد بن جمهان قال: أتيت عبد اللَّه بن أبي أوفى وهو محجوب البصر فسلمت عليه، قلت: فإن السلطان يظلم الناس ويفعل بهم، قال: فتناول يدي فغمزها بيده غمزة شديدة، ثم قال: ويحك يا ابن جمهان عليك بالسواد الأعظم، عليك بالسواد الأعظم، إن كان

---

(١) رواه البخاري في كتاب «بدء الخلق» باب: صفة النار وأنها مخلوقة حديث رقم (٣٢٦٧)، «الفتح» (٦/ ٣٣١)، وفي كتاب «الفتن» باب الفتنة التي تموج كموج البحر «الفتح» (١٣/ ٥٢) رقم (٧٠٩٨)، ومسلم في كتاب «الزهد» باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله حديث رقم (٥١) (٤/ ٢٢٩٠).

(٢) انظر «الفتح» (١٣/ ٥٧).

السلطان يسمع منك فأته في بيته فأخبره بما تعلم؛ فإن قبل منك وإلا فدعه فإنك لست بأعلم منه»[١] .

❑ وقد كان الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ لا يُحدّث بالأحاديث التي توهم بجواز الخروج على الأئمة.

❑ قال ابن القيم: «ومن دقيق الفطنة: أنك لا ترد على المطاع خطأه بين الملأ، فتحمله رُتبته على نُصرة الخطأ، وذلك خطأ ثانٍ، ولكن تلطف في إعلامه به بحيث لا يشعر به غيره»[٢] .

❑ وقال الإمام الشوكاني ـ رحمه اللَّه ـ: «ولكن ينبغي لمن ظهر له غلط الإمام في بعض المسائل أن يناصحه، ولا يُظهر الشناعة عليه على رءوس الأشهاد، بل كما ورد في الحديث أنه يأخذ بيده، ويخلو به، ويبذل له النصيحة، ولا يذل سلطان اللَّه؛ وأنه لا يجوز الخروج على الأئمة ـ وإن بلغوا في الظلم أي مبلغ ـ ما أقاموا الصلاة، ولم يظهر منهم الكفر البواح»[٣] .

*** وقفة هامة جدًّا:**

❑ القول باستحباب نصح الإمام المسلم سرًّا لا يمنع من الإنكار عليه علانية على الصحيح إن احتمل المقام ذلك وكانت المصلحة تقتضيه؛ لا سيما إذا صدر المنكر منه علانية، فالأمر دائر مع المصلحة وهذا هو الوسط في هذه المسألة، كما أن في هذا القول جمعًا لأدلة هذا الباب والآثار الواردة فيه.

---

(١) حسن: رواه أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٥٢٣)، وحسّنه الألباني في «السنة».

(٢) «الطرق الحكيمة» لابن قيم الجوزية ص(٥٤).

(٣) «السيل الجرار» للشوكاني (٤/ ٥٥٦).

قال النووي عند كلامه على حديث أسامة بن زيد السابق: «وفيه الأدب مع الأمراء واللطف بهم ووعظهم سرًّا وتبليغهم ما يقوله الناس فيهم لينكفوا عنه.

وهذا كله إذا أمكن ذلك؛ فإن لم يمكن الوعظ سرًّا والإنكار فليفعله علانية لئلا يضيع أصل الحق»[1] اهـ.

فإذا احتجب الولاة عن رعيتهم، وحالت دونهم الستور والأبواب والحراس بحيث تكون عنقاء مغرب أقرب ملايين المرات للناس من هؤلاء الذين يصدق فيهم قول رسول اللَّه ﷺ: «**من ولى من أمور المسلمين شيئًا، فاحتجب دون خلّتهم وحاجتهم، وفقرهم وفاقتهم، احتجب اللَّه عنه يوم القيامة، دون خلّته، وحاجته، وفاقته وفقره**»[2].

إذا قامت السدود بين الراعي والرعية بحيث أن الوصول إلى الحاكم صار ضربًا من المحال، وصار المنكر عامًّا هل يظل النصح سرًّا؟!!!

إن المنكر إذا كان عامًّا فإن النهي عنه يكون عامًّا، ففتوى الإمام مالك المتعلقة بطلاق المكره كانت عامة كذا، وموقف الإمام أحمد من فتنة خلق القرآن كان جهادًا وعلانية، ومن قبله موقف الإمام سفيان الثوري، وإنكار سلطان العلماء العز بن عبد السلام على السلطان إسماعيل الذي استعان بالنصارى ضد سلطان مصر كانت عامة، وفي خطبة جمعة في المسجد الأموي بدمشق، ولقاء شيخ الإسلام ابن تيمية مع محمود قازان كان على مرأى ومسمع من وفد علماء دمشق الذين كانوا يرافقون ابن تيمية، وأمام

---

(١) النووي على مسلم (٩/ جزء ١٨/ ١١٨).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود وابن ماجه، والحاكم عن أبي هريرة، وصححه الحاكم، وقال: هذا إسناد شامي صحيح، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: هو كما قالا، انظر «صحيح الجامع» (٩٤٧١)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٦٢٩).

كبار قادة جيش قازان، ثم طارت أخبار هذا اللقاء فسمع بها الخواقين والأمراء الذين أحاطوا بهذا العالم الجليل عند عودته إلى دمشق يتبرّكون به، ويسألونه الدعاء لهم، ورسائل الإمام النووي التي كان يرسلها إلى سلاطين عصره كانت عامة؛ لأن عددًا من كبار العلماء الذين كانوا يوقّعون عليها من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانت هذه الرسائل تتعلق بقضايا عموم الناس، وسنفصل بعد قليل سير العلماء الربانيين وجهرهم وصدعهم بالحق أمام الأمراء والسلاطين.

وأما الولاة الذين لا يحكمون بالشرع ويحاربون الإسلام وأهله؛ فإن لكل حالة لبوسًا ولكن ترك الخروج المسلح حتى لا تراق دماء المسلمين الأبرياء فيه الخير كل الخير، والصبر على الأذى هو طريق النبيين والمرسلين ويكفي قول النبي ﷺ لخباب وقد لاقى ما لاقى هو والصحابة: «**ولكنكم تستعجلون**» فلينظر إلى فتاوى العلماء الربانيين الصادقين ولا يندفع الناس بعواطفهم إلى تيه مظلم وفتن تعجز عن حملها الجبال، وكم مدينة فُتِحت بالسيف والسنان، وكم من مدينة فُتحت بالعلم والقرآن الرواس.

❑ قال الشيخ رشيد رضا: «ومن المسائل المجمع عليها قولاً واعتقادًا أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. وأن إباحة المجمع على تحريمه: كالزنا والسكر واستباحة إبطال الحدود وشرع ما لم يأذن به اللَّه كفر وردة»[1].

❑ وما يقول العلماء فيمن سن القوانين التي تجعل البنوك الربوية لا يكاد يخلو منها حي أو قرية، وفي هذه المؤسسات التشريعية والقضائية التي لا يُسمح فيها لمن يشاء من القضاة أن يساوي بين شريعة اللَّه، والشريعة التي سنّها زعيم الدولة فضلاً عن تفضيله لشريعة اللَّه، وهذه المصانع والمحلات التي تبيع الخمور، ليست المشكلة هنا فيمن يرابي أو يشرب الخمر أو يشاهد

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٦/ ٣٧٦).

مناظر العرايا من النساء والرجال؛ ولكن المشكلة فيمن سن القوانين التي تبيح هذه المنكرات.

لقد كثر النفاق والتزلف من قبل أناس يتسربلون بسربال العلم والمعرفة، ويتدثرون بدثار التقوى والورع:

- فمنهم من أباح المعاملات الربوية، وشن حملات ظالمة ضد البنوك الإسلامية.

- ومنهم من زعم أن أحكام الشريعة الإسلامية مطبقة في مصر؛ لأن القانون المدني مستمد من أحكام الشريعة، وهو أول من يعلم بأنه يكذب في هذا الادعاء.

- ومنهم من زعم أن أهل الجنة يعيشون حالة من الفرح ليس لها مثيل من قبل؛ لأنهم يستعدون لاستقبال أحد أبناء الطغاة الذي أهلكه اللَّه سبحانه وتعالى، والولد سرّ أبيه.

- ومنهم من سمعته أذناي، كما سمعه مثلي مئات المصلّين الذين كانوا يصغون إليه وهو يخطب الجمعة، وينسب إلى رسول اللَّه ﷺ في حديث حبكه قوله: «ثم يأتي جمال الدين فينتصر كما انتصر صلاح الدين» يريد من وراء هذا الكذب على رسول اللَّه ﷺ والتزلف إلى نظام جمال عبد الناصر إبان حكمه وطغيانه»[1].

وإن تعجب فاعجب للشيخ الباقوري الذي كان يُحلِّق في غير سربه، ينضم إلى الجوقة التي صفّقت لأنور، وقال في كلمته التي ألقاها في مؤتمر نظّمته الحكومة لتأييد أنور والتنديد بمعارضيه، وكان مما قال فيه: «إن السلطان هو ظل اللَّه في الأرض.. وظل اللَّه في الأرض له حرمة ومهابة، فلا يجوز

(١) «العلماء وأمانة الكلمة» لمحمد سرور بن نايف ص(١٧) دار الجابية ودار الأرقم.

المساس بالسلطان أو الإساءة إليه بكلمة حتى أن الفقهاء قالوا: إذا كان السلطان يركب بغلة، وذيل بغلة السلطان مقطوع، فلا يجوز التهكم على ذيل بغلة السلطان.. فكيف بالتهكم على السلطان»[1].

وهذا الدفاع عن السلطان وذيل بغلته جاء بعد زيارة السادات لإسرائيل وتوقيع معاهدة الذل والعار، وكان من المنتظر أن يقول الشيخ في هذه المناسبة كلمة يتقرّب بها من ربه، ولا سيما أنه قد بلغ من الكبر عتيًّا.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

❑ قال الطبري: «وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاصّ من الناس؛ فإنها معنيٌّ بها كل كاتم علمًا فرض اللَّه بيانه للناس، وذلك نظير الخبر الذي روي عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**من سُئِل عن علم فكتمه، أُلجِم يوم القيامة بلجام من نار**»[2].

❑ قال الشيخ رشيد رضا: «إن العبرة في الآية هي أن حكمها عام، وإن كان سببها خاصًّا، فكل من يكتم آيات اللَّه وهدايته عن الناس فهو مستحق لهذه اللعنة، ولما كان هذا الوعيد وأشباهه حجة على الذين لبسوا لباس الدين من المسلمين وانتحلوا الرئاسة لأنفسهم بعلمهم، حاولوا التقصّي منه، فقال بعضهم: إن الكتمان لا يتحقق إلا إذا سئل العالم عن حكم اللَّه تعالى فكتمه، وأخذوا من هذا التأويل قاعدة هي أن العلماء لا يجب عليهم نشر ما

---

(٢) مجلة المجتمع العدد (٤٧٦) تاريخ ٩/ ٥/ ١٤٠٠هـ عن الصحف المصرية الصادرة في هذا التاريخ.

(١) «تفسير الطبري» (٣/ ٢٥٢) دار المعارف قال الشيخ أحمد شاكر: هذا حديث صحيح رواه أحمد في المسند من حديث أبي هريرة، وخرّجناه في شرح المسند، وفي صحيح ابن حبان.

أنزل اللَّه تعالى ودعوة الناس إليه وبيانه لهم؛ وإنما يجب على العالم أن يجيب إذا سُئِل عما يعلمه، وزاد بعضهم: إذا لم يكن هناك عالم غيره وإلاّ كان له أن يحيل على غيره.

وهذه القاعدة مسلمة عند أكثر المنتسبين إلى العلم اليوم وقبل اليوم بقرون، وقد ردّها أهل العلم الصحيح، فقالوا: إن القرآن الكريم لم يكتف بالوعيد على الكتمان، بل أمر ببيان هذا للناس، وبالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوعد من يترك هذه الفريضة، وذكر لهم العبر فيما حكاه عن الذين قصّروا فيها من قبل، ثم قال: «ما ورد عن تدافع علماء السلف في الفتوى فإنما هو في الوقائع العملية الاجتهادية، التي تعرض للناس، لا في الدعوة إلى مقاصد الدين الثابتة بالنصوص وسياجها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

إن هؤلاء كتموا ما أوجب اللَّه عليهم بيانه والصدع به، وسكتوا عن بيان قواعد الدين وإسقاطها على الواقع خوفًا من السلطان، واللَّه جل وعلا أحق بالخوف والخشية من أعتى سلاطين الأرض وهذه واللَّه هي الفتنة؟!!

كان العلماء الربانيون يقولون والخطر محدق بهم من كل جانب: «إذا أجاب العالم تُقية والجاهل يجهل متى يتبيّن الحق؟» وهذا يعني أن بعضهم كان يفضّل الموت على التقية.

كانوا يعتقدون وجوب إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها عملاً بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾ ويؤمنون بحرمة السكوت عن بيان الأحكام، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بليّ أعناق النصوص أو تحريف الكلم عن مواضعه كما يفعل البعض في أيامنا هذه.

ولقد كانوا ينأون بأنفسهم عن مجالسة السلاطين والتزلف لهم وقبول

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٥١).

وظائفهم وأعطياتهم.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد عبد من السلطان قربًا إلا ازداد من اللَّه بعدًا**»(١).

❑ ورحم اللَّه الإمام سفيان الثوري الذي قال: «ما أخاف من إهانتهم لي، إنما أخاف من إكرامهم فيميل قلبي إليهم»(٢).

ولما احتج قوم على أبي حامد الغزالي ـ لما أفتى بعدم جواز أخذ أعطيات الظالمين ـ وقالوا: إن بعض الصحابة والتابعين كانوا يأخذون أُعطيات وجوائز الظالمين فقال ـ رحمه اللَّه ـ : «إن الظلمة في العصر الأول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء والراشدين كانوا مستشعرين من ظلمهم، ومتشوّقين إلى استمالة قلوب الصحابة والتابعين وحريصين على قبول عطاياهم وجوائزهم، وكانوا يبعثون إليهم من غير سؤال وإذلال، بل كانوا يتقلدون المنة بقبولهم ويفرحون به، وكانوا يأخذون منهم ويفرّقون ولا يطيعون السلاطين في أغراضهم ولا يغشون مجالسهم ولا يُكثّرون جمعهم ولا يحبون بقاءهم بل يدعون عليهم ويطلقون اللسان فيهم وينكرون المنكرات منهم عليهم فما كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم، ولم يكن يأخذهم بأس؛ فأما الآن فلا تسمح نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في استخدامهم والتكثر بهم والاستعانة بهم على أغراضهم والتجمّل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء والتزكية، والإطراء في حضورهم ومغيبهم، فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولاً، وبالتردد بالخدمة

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٧١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٢٦٧) رقم (١٢٧٢).

(٢) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي ص(١٢٢) ـ دار الفكر.

ثانيًا، وبالثناء والدعاء ثالثًا، وبالمساعدة له على أغراضه عند الاستعانة رابعًا، وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسًا، وبإظهار الحب والموالاة والمناصرة على أعدائه سادسًا، وبالستر على ظلمه ومقابحه ومساوئ أعماله سابعًا، لم يُنعم عليه بدرهم واحد ولو كان في فضل الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ مثلاً؛ فإذًا لا يجوز أن يُؤخذ منهم في هذا الزمان ما يعلم أنه حلال لإفضائه إلى هذه المعاني، فكيف ما يعلم أنه حرام أو يشك فيه؟ فمن استجرأ على أموالهم وشبّه نفسه بالصحابة والتابعين فقد قاس الملائكة بالحدادين»[1].

● «إن غشيان العلماء لمجالس الأئمة العدول بقصد تذكيرهم بالقيامة والمعاد، وتحذيرهم من الركون إلى الدنيا وتبليغهم بمظالم الرعية التي لم تبلغهم واجب شرعي لقوله ﷺ: «**الدين النصيحة**»، قلنا: لمن؟ قال: «**للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[2].

بل هو النصح وهو أصل عظيم من أصول الإسلام، قال جرير بن عبداللَّه: «بايعت النبي ﷺ على النصح لكل مسلم»[3].

● عن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، وليس بوارد عليَّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يُصدِّقهم بكذبهم، فهو مني، وأنا منه وهو وارد عليّ الحوض**»[4].

❑ قال أبو سليمان الخطابي: «ليت شعري من الذي يدخل إليهم اليوم

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ١٣٩).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان.

(٤) **صحيح الإسناد**: رواه أحمد عن ابن عمر، والترمذي، وقال أحمد شاكر: صحيح الإسناد، «المسند» (٨/ ٦٢).

فلا يصدقهم على كذبهم، ومن الذي يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم، ومن الذي ينصح ومن الذي ينتصح منهم؟ إن أسلم لك يا أخي في هذا الزمان وأحوط لدينك أن تقلّ عن مخالطتهم وغشيان أبوابهم»[٥] .

❑ ولله در القائل عن صون العلماء الربانيين لأنفسهم عن الركون إلى الظالمين أو التزلف لهم وإهانة العلم الذي يحملونه وهو ميراث الأنبياء:

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما ... رأوا رجُلاً عن موقف الذّلِ أحجما
أرى الناسَ من داناهُمُ هان عندهُمْ ... ومَن أكرمَتْـــهُ عزّةُ النفس أُكرِما
وما كلُّ بَرْقٍ لاح لي يستفزُّني ... ولا كلُّ من لاقيتُ أرضــاهُ مُنعما
وإني إذا ما فاتني الأمرُ لم أبتْ ... أُقلّب كَفّي إثْـــرهُ مُتَنــدِّمــا
ولم أقضِ حقَّ العلمِ إن كان كُلّما ... بَدا طمعٌ صيّرتُـــه لي سُـلَّما
إذا قيل هذا مَنْهَلٌ قلتُ قد أرى ... ولكنّ نفس الحــرِّ تحتملُ الظَّـمَا
ولم أبتذل في خدمةِ العلم مُهجتي ... لأخـــدُمَ منْ لاقيتُ لكنْ لأُخدما
أأشقى به غَرْسًا وأجنيه ذِلّةً ... إذًا فاتباع الجهــلِ قد كان أحزما
ولو أنَّ أهــلَ العلمِ صانوه صانهمْ ... ولو عظّموه في النفوس لعُظِّما
ولكنْ أهــانوه فهــان ودنّســوا ... مُحَيّــاه بالأطمــاع حتى تجهّما[١]

* * *

(١) «العزلة والخلطة».

(٢) للقاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني ـ طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ٤٦٠).

وقفات هامة

في

فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وضوابط هامة في منهج أهل السنة

في التكفير

المعروف الأكبر والمنكر الأكبر

قال القرطبي ـ رحمه اللَّه ـ: «إن أخصّ أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام»[1].

وأس الدعوة إلى الإسلام ومبتدأ دعوة الرسل هي العقيدة.. القضية التي ليس وراءها شيء في حياة الإنسان إلا ما يقوم عليها من المقتضيات والتفريعات.. العقيدة حتى تستقر استقرارًا مكينًا ثابتًا.. القضية التي تصدى لها القرآن المكي ثلاثة عشر عامًا كاملة لم يتجاوزها إلى غيرها مثلما دعا إليها نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عامًا..

المعروف الأكبر هو التوحيد والتسليم ودينونة الناس لمولاهم ولألوهيته وسلطانه ومنهجه وحكمه وأمره وعبوديتهم له والمنكر الأكبر الشرك وهو رفض ألوهية اللَّه ورفض شريعته وأمره ونهيه والجرأة على اللَّه وادعاء خصائص الألوهية. هذا هو المنكر الكبير الجذري الذي يجب أن يتجه إليه الإنكار، فكل المنكرات بعد ذلك فرع عنه وعرض.

هذه هي الأمانة الكبرى: الدعوة إلى العبودية للَّه وحدهَ والتسليم لأمره وشرعه، ونبذ كل عبودية لسواه.. تفرد اللَّه سبحانه بالألوهية، والحاكمية في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال، حتى يكون الناس أمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة اللَّه ينفذونها، وعلى عدل اللَّه يقيمونه دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم؛ إنما يكون السلطان الذي في أيديهم للَّه ولدينه وشريعته؛ لأنهم يعلمون أنه من اللَّه، هو الذي آتاهم إياه..

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/٤٧).

لا يكون البدء بالدعوة إلى إصلاح سياسي أو إصلاح اقتصادي أو عسكري أو قومي أو اجتماعي أو أخلاقي وإنما بلا إله إلا اللَّه، راية لا ترفع معها سواها، راية التوحيد وطريقها وعر شاق في ظاهره؛ مبارك ميسّر في حقيقته.

لقد كان الهم الأكبر، والغاية العظمى للأنبياء والرسل، وللعلماء العاملين من بعدهم عبر التاريخ الإنساني وإلى يوم القيامة تحقيق عبودية العباد للَّه، ونبذ كل مألوه سواه، لا يصرفهم عن ذلك صارف، ولا يشغلهم عنه شاغل.

وهذه قضية لا تقبل المساومة.. إنها قضية لا بد أن تحسم أولاً وبوضوح وكل من شم رائحة العلم يعلم أن لا صلاح إلا بإصلاح العقيدة.. العقيدة أولاً، وكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة.

وتقرير عبودية الناس لربهم سبحانه، وإخلاص التوحيد للَّه عز وجل، والتحذير من كل أنواع الشرك، والتسليم والإذعان لكل ما جاء عن اللَّه ورسوله، وملء قلوب الناس بالحب للَّه والخوف منه والرجاء فيه هو شغل الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الشاغل قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦].

* وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ**﴾ [الأنبياء: ٢٥].

حين يكون الهم الأكبر تربية الناس على العقيدة الحقة وتوحيد اللَّه الصافي والصبر على هذا تنتصر الدعوة بمثل هؤلاء تقام وتؤسس الدول، يثبتون إذا ولّى الناس، ويقبلون إذا أعرض الناس، ويبذلون إذا بخل الناس، ويقلّون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع لا يريدون مالاً ولا جاهًا ولا منصبًا، وإنما يبتغون ما عند اللَّه وحده.

استنجد بعمر بن الخطاب عمرو بن العاص ليبعث لهم مددًا بضعة آلاف، فبعث إليه أربعة ممن تربوا في مدرسة الإسلام، وقال: كل واحد من هؤلاء بألف.

وقفة مع ﴿فقولا له قولاً ليّنا﴾

أمر اللَّه موسى وهارون عليهما السلام عندما وجههما إلى فرعون ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤].

«يقف بعض المسلمين في هذا الزمان أمام هذا الأمر الإلهي، فلا يفهمونه حق فهمه، بل يحرّفون معناه، ويجعلونه وثيقة إدانة ضد الدعاة الجريئين، والخطباء الصريحين، والعاملين الصادقين، الذين يجهرون بالحق أمام المسئولين، فينصحون ويذكّرون وينكرون، إنهم يتهمون هؤلاء بمخالفة هذا الأمر، وأنهم لا يقولون للمسئولين قولاً لينًا، بل قولاً عنيفًا شديدًا قاسيًا منفّرًا، ينفّرهم من الطاعة بدل أن يقرّبهم منها.

ويقدم هؤلاء الناصحون النصائح للدعاة بوجوب مراعاة القول اللّين في خطاب المسئولين، ويفسّرون لهم القول اللين تفسيرًا خاصًّا خاطئًا:

إن القول اللين يتمثل في السكوت عن مخالفات المسئولين ومنكراتهم ومفاسدهم، وغض النظر عن الممارسات والسلوكيات الخاطئة التي يقومون بها. القول اللين: يعني إذا شاركهم في مجلس أو حفلة أو لقاء أو اجتماع، وجرت فيه منهم مخالفات ومنكرات، أن يصمت الدعاة، وكأنهم لم يروا ولم يسمعوا ولم يلاحظوا. القول اللين يعني: إذا فكرّ هؤلاء في الكلام والتذكير، فليكن بأخفض صوت وألينه وأضعفه، وبلهجة بسيطة ذليلة، تُخرج النصيحة الخافتة والتذكير الميت، بسيل من الثناء والمدح والإشادة.

أما إذا وقف الداعية أمام المسئول برجولة وثبات، وأنكر عليه مخالفاته ومنكراته بوضوح وتحديد، وقال كلمة الحق بجهر وجرأة وشجاعة، وذكّره بالواجب بإقدام وثبات، إذا فعل هذا فقد خالف الأمر الوارد في الآية، وما قال لهذا المسئول قولاً ليّنًا.

ولم يخرج موسى عليه السلام عن القول الليّن، وهو يحاور فرعون هذا الحوار الدعوي ويقدّم له نفسه بشجاعة وجرأة وصراحة، ويقدّم له دعوته بصفاء وبيان وتحديد: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨-٣٣].

هل تريد بيانًا للدعوة أوضح من هذا البيان؟ وهل تريد جرأة وشجاعة وثباتًا أصدق من هذا؟ وهل تريد قولاً ألين من هذا القول؟ ولكنه لين مع الوضوح والحسم والجزم والتحديد، وهل تريد لهجة أصدق وأثبت من هذه اللهجة؟

هكذا يكون القول اللين. ويا ليت الناصحين يوضحون هذا للآخرين.

وما زلنا مع موسى الكريم عليه السلام لنتعلم منه كيفية القول اللين.

ففي موقف من مواقف مواجهته لفرعون، وكلامه معه بالقول اللين، آذاه فرعون بالكلام توقّح عليه، ووجّه له ما يشبه الشتم والإهانة. فماذا فعل موسى عليه السلام؟ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٢].

كان من القول اللين: أن يكشف موسى عليه السلام لفرعون مغالطاته، وأن يبين له علمه بأن الآلهة المزيّفة لا تملك شيئًا، ومعرفته بأنه لا إله إلا رب العالمين، لكنه يغالط في هذا، ويزعم إنكار الألوهية للّه رب العالمين.

قال فرعون: إني لأظنك يا موسي مسحورًا. فأجابه موسى عليه السلام برجولة وجرأة وتحديد وصراحة: إني لأظنك يا فرعون مثبورًا.. والمثبور هو الهالك الخاسر.

❑ والسؤال الذي نوّجهه للناصحين المنظّرين: هل كان موسى عليه السلام مخالفًا للقول اللين عندما قال لفرعون: إني لأظنك يا فرعون مثبورًا؟

والتساؤل الذي نطرحه: لو كان موسى عليه السلام يعيش في زماننا هذا، وقال الكلام هذا، فبماذا يصفه الواصفون؟ ومع من يصنفونه؟.

بهذا التفسير الواضح من موسى عليه السلام يجب أن نفهم المراد بالقول اللين وكيفية ومجال قوله؟ ويجب أن نعرف كيف قال موسى هذا القول اللين لفرعون، من خلال الاطلاع على مشاهد المواجهة بينهما التي أشار إليها القرآن الكريم، والتي تعتبر هي التفسير العملي للأمر الربّاني بالقول الليّن.

❑ بعد هذا نقول: إن القول اللين هو في أسلوب مخاطبة المدعوين ـ

ومنهم المسئولون ـ وفي ألوان هذا الخطاب، وفي درجته ومستواه، وفي القالب الذي تُقدَّم فيه الحقائق، والصورة التي تُعرض فيها، والإطار الذي تكون ضمنه، وفي اختيار الألفاظ والمفردات والتراكيب والعبارات التي تدل على الموضوع.

ولا يمكن أن يكون القول اللين في الموضوع والمضمون، والحقائق والمقررات، والمعالم واليقينيات، والخطة والمنهج، لأن هذه الأمور لا تقبل المساومة ولا المفاوضة، ولا المداهنة ولا التنازل، ولا تأجيلها ولا إخفاءها.

والقول اللين في أسلوب الخطاب لا مضمونه، القول اللين في عرض الحقيقة لا في جوهرها وكنهها.

يريد ناصحون من الدعاة أن يتنازلوا عن المضمون والجوهر باسم القول اللين، وأن يخفوا الحقائق والمقررات باسم القول اللين، وأن يباركوا الفساد والانحراف والمنكر باسم القول اللين، وأن يتخاذلوا ويجبنوا ويذلوا أمام المسئولين باسم القول اللين.

وهم ظالمون لأنفسهم ولإخوانهم ولدينهم وإسلامهم. هم ظالمون لمفهوم ومعنى القول اللين، ظالمون لموسى في فهمهم عنه التزام القول اللين.

نأخذ معنى القول اللين وطريقة تنفيذه من أوامر اللَّه لمحمد عليه السلام، التي بلّغها بطريقة القول اللين: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ...**﴾ الآيات [المائدة: ٦٧ ـ ٦٨].

* وقال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.

ونأخذ القول اللين من ذلك «المسلم الذي قال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتق اللَّه. فقال له أحدهم: أتقول هذا لأمير المؤمنين؟ فأجابه عمر: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها؟»[1، 2].

* الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الضوابط الشرعية لا يُحاد عنها أنملة بدعوى «مصلحة الدعوة» التي أصبحت صنمًا:

إن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضوابطَ شرعية فصلتها كتب الفقه؛ بل وأفردت لها المجلدات وما غفل عنها علماء الأمة بل قاموا بهذا الواجب من غير إفراط ولا تفريط.. ليس حماسًا واندفاعًا وتهورًا كحماس أصحاب المقاهي ينخدع به التابع والمتبوع وتعمّ به البلوى وتُصاب الدعوات في مقتل بسبب هذا التهور الذي لا ينضبط بمنهج السلف الكرام ويستعجل الناس قطف الثمار وينسون حديث خباب رضي الله عنه.

وعلى الطرف الآخر قوم يفرّطون ويفرطون يعتبرون الدعوة فنًّا لا يهتدي إليه إلا هم.. يضبطونه بهواهم وآرائهم وفكرهم وفلسفتهم وذكائهم بدون هدى من كتاب ولا سنة يقول أحدهم: «ارضهم ما دُمت في أرضهم»، ويقول الآخر: «مصلحة الدعوة» لا يريد بهذا القواعد الشرعية في درء المفاسد وجلب المصالح وغيرها ولكن تفلتًا من قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تفريطًا وتسيبًا.. بل إن جماعة لها انتشار واسع كجماعة التبليغ تجعل من أصولها «الأمر بالمعروف» ولا تضم إليه «النهي عن المنكر» وفي هذا

(١) «الإسلام بين العلماء والحكام» ص(١٧١).

(٢) «تصويبات في فهم بعض الآيات» للدكتور صلاح الخالدي ص(١١٤ ـ ١٢٠) ـ دار القلم ـ دمشق.

تعطيل وإهدار لهذا الواجب.

نعم العقبات في طريق الدعوات كثيرة، والدعاة بشر محدودو الأجل، وهم يحسون هذا ويعلمونه، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق.. يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعزّ على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتًا لعلّ الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة!، ويودون مثلاً لوْ جاروْهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة!

ويودون.. ويودون.. من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها.. ذلك على حين يريد اللَّه أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. فالكسب الحقيقي للدعوة ـ في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم ـ هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين، ولو خسرت في أول الطريق، فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص أو مَن هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء.

الدعوة إلى اللَّه عز وجل كريمة عظيمة رفيعة، تستغني عن كل أحد، وعن كل سند، وعنايتها فقط بمن يريدها لوجه اللَّه كائنًا ما كان وضعه ووزنه في ميزان الدنيا.

وهي عزيزة لا يتصدى بها للمُعرضين الذين يظهرون الاستغناء عنها هي فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بها.

انظر كم سنة دعا نبي اللَّه نوح أول رسول أُرسل إلى قضية التوحيد وفي هذا أكبر العظات ـ ليست العبرة بالنتائج فهذه موكولة إلى اللَّه عز وجل؛ قال ﷺ: «**عُرِضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**»[1].

*** وقفات هامة في فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

(١) الأمر بالمعروف الواجب واجب، والنهي عن المنكر المحرم واجب. نقل الإجماع على الوجوب الجصاص والغزالي وابن حزم والنووي وغيرهم.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية على الأمة قاله جمهور علماء المسلمين، أي إذا قام به البعض حتى وُجد المعروف الواجب وزال المنكر المحرَّم سقط عن الباقين وإلا أثم كل قادر.

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظروفنا الحاضرة متعيّن بالقلب للجميع.

وباللسان في كثير من الأحوال وباليد أحيانًا بالشروط الشرعية لعموم المنكرات وعدم من يأمر وينهى.

(٤) يصبح فرض الكفاية فرض عين في بعض الأحوال: كمن كان في موضع يُطمس فيه بالمعروف أو يرتكب فيه المنكر لا يعلم به إلا واحد، أو من تعيِّنه الدولة الإسلامية لذلك.

(٥) في حديث ابن مسعود الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ: «**... ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»، نفي الإيمان هنا في الحديث على معنيين:

الأول: أنه في المستحل فيكون نفي الإيمان عنه بالكلية مستلزمًا لكفره،

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عباس.

فمن جحد المعلوم من الدين بالضرورة أو رأى أنه لا يلزمه فعل الواجب ولا ترك المحرم، فإنه كافر باتفاق أهل العلم.

الثاني: أن المقصود في هذا الحديث من رضي بالمنكر وفرح به وأقرَّه، وإن لم يستحله. وهذا لا يكفر كفرًا ناقلاً عن الملة.

ومعنى: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»: أي: في عمله ذلك أي من غير المنكر بقلبه وهو قادر على أن يغيره بلسانه أو بيده فقد قصر وأثم، ولكن فعله هذا وهو التغيير بالقلب بكراهية المنكر وبغضه له وتمني زواله فيه شيء من الإيمان، أما من لم يكره المنكر بل رضي بوجوده وفرح بنيل شهوته وهواه من خلاله **ليس في** هذا الفعل شيء من الإيمان ولا يلزم أن لا يكون في قلبه شيء من الإيمان في أمور أخرى كتصديق اللَّه ورسوله ﷺ.

والالتزام إجمالاً بالشرع، وإن كان الالتزام التفصيلي غير موجود في هذه المعصية.

فمن ترك الواجب عليه من التغيير ولو بالقلب فهذا قد يكون معه إيمان مجمل، وليس معه **الإيمان** الكامل الواجب[1].

*** معنى المعروف:**

«**المعروف**: هو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة اللَّه والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع من المحسنات.

صوره:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ:

«ويجب على أولي الأمر وهم علماء كل طائفة وأمراءها ومشايخها أن

(١) تراجع في هذه النقاط المذكورة هنا رسالة «الأمر بالمعروف» لأخينا الحبيب فضيلة الشيخ الدكتور ياسر برهامي؛ فإنها قيمة جدًّا حفظ اللَّه كاتبها ورفعه بها وقد لخصنا ها هنا.

يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر فيأمرونهم بما أمر اللَّه به ورسوله، مثل: شرائع الإسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها، وكذلك الصدقات المفروضة والصوم المشروع وحج البيت الحرام.

ومثل الإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره.

ومثل الإحسان وهو أن تعبد اللَّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك.

ومثل ما أمر اللَّه به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة، مثل: إخلاص الدين للَّه والتوكل عليه، وأن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، والرجاء لرحمة اللَّه والخشية من عذابه والصبر لحكمه والتسليم لأمره.

ومثل: صدق الحديث والوفاء بالعهود وأداء الأمانات إلى أهلها، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والتعاون على البر والتقوى، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والصاحب والزوجة والمملوك، والعدل في المقال والفعال، ثم الندب إلى مكارم الأخلاق مثل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك.

ومن الأمر بالمعروف كذلك الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنهي عن الفرقة والاختلاف وغير ذلك.

*** معنى المنكر:**

معناه: هو ضد المعروف وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه.

صوره:

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ:

«المنكر الذي نهى اللَّه عنه ورسوله، أعظمه الشرك باللَّه، وهو أن يدعو مع اللَّه إلهًا آخر كالشمس والقمر والكواكب، أو كملك من الملائكة، أو نبيًّا

من الأنبياء، أو رجل من الصالحين، أو أحد من الجن، أو تماثيل هؤلاء، أو قبورهم، أو غير ذلك مما يدعى من دون اللَّه، أو يستغاث به، أو يسجد له فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرمه اللَّه على لسان جميع رسله. ومن المنكر كل ما حرمه اللَّه، كقتل النفس بغير حق، وأكل أموال الناس بالباطل بالغصب، أو الربا، أو الميسر والبيوع والمعاملات التي نهى رسول اللَّه ﷺ.

كذلك قطيعة الرحم وعقوق الوالدين وتطفيف الكيل والميزان والإثم والبغي بغير الحق.

وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها اللَّه ورسوله ﷺ».

❑ فيتضح لك من هذا الكلام النفيس أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشمل الدعوة إلى الإيمان والإسلام ومحاربة الكفر والشرك والبدع والمعاصي كما يشمل الجهاد في سبيل اللَّه وهو من أعظم المعروف الذي أمرنا به، ويشمل إصلاح الأمة وتربيتها وتبليغ الشرع وتأليف الكتب الشرعية ونصيحة الإخوان، وأن يبذل كل جهد مستطاع لنشر الدين ونصره وتمكينه.

وليست الحسبة محصورة في صورة معينة كتكسير أماكن الفساد، أو تحريقها ومن لم يفعل ذلك فهو مضيع لهذه الفريضة كما يظنه البعض بل هذه الأمور. عند توافر شروطها هي بعض صور هذه الفريضة ولا ينفي ما عداها فضلاً عن تحقيره والاستهانة به «**ورأس المعروف توحيد اللَّه ورأس المنكر الشرك باللَّه**»، وإنما يعرف المعروف والمنكر بأدلة الشرع سواء جرت به عادة الناس أم لا؛ لأن إعطاء هذا الوصف هو حكم شرعي والحكم للَّه وحده ولا عبرة بعرف الناس إذا خالف الشرع، وإنما العرف المعتبر هو ما لا يخالف النصوص ـ وقد تغير عرف الناس حتى أنكروا المعروف وأقروا المنكر وعرفوه فكيف يكون ميزانًا لمعرفة الحق»[1].

(١) «الأمر بالمعروف» للشيخ ياسر برهامي ص(٢٠ ـ ٢٣) ـ طبع دار العقيدة.

* **شروط المنكر:**

أن يكون ظاهرًا بدون تجسس، وأن يكون قائمًا في الحال فما لم يقع بعد من المنكرات فلا يجوز الاحتساب فيها بغير الوعظ والإرشاد إذا ظهرت بوادره، وما وقع وانتهى من المنكرات فالعقوبة عليه من حد أو تعزير لولي الأمر، ومن يقوم مقامه.

❑ ومن شرطه أن يكون غير مختلف فيه اختلافًا سائغًا، وأما الخلاف غير السائغ وهو الذي دل صريح القرآن أو السنة أو الإجماع أو القياس الجليِّ على بطلانه وشذوذه فلا يمنع الإنكار.

فمن خالف السنة أو الإجماع يُنكر عليه، ولو كان متأولاً.

* **درجات التغيير:**

أولاً: يبدأ بالتعريف: وهذا في حق الجاهل.

ثم: الوعظ والنصح والتخويف باللَّه تعالى: وهذا في حق من يعلم ويصر، ويكون برفق من غيرعنف وشدة.

ثم: التعنيف والتغليظ بالقول الخشن: عند العجز عن المنع بالرفق.

ثم: تغيير المنكر باليد: كإراقة وكسر آلات اللهو والباطل كالموسيقى وغير ذلك ويدخل في ذلك إتلاف كتب البدع والضلال من غير تعرض لمرتكبه.

ثم: التهديد والتخويف بالعقوبة لمرتكبه،

ثم: مباشرة العقوبة كالضرب باليد والرجل وغير ذلك مما ليس فيه شهر سلاح ـ وذلك مشروع للآحاد حال وجود المنكر بشرط الضرورة، والاقتصار على قدر الحاجة للدفع، ولو أدى للقتل كدفع الصائل على نفسه، أو غيره وإن احتاج إلى شهر سلاح وجمع أعوان فللآحاد ذلك ما لم يثر فتنة ومفسدة أعظم ومن العلماء من قيد ذلك بإذن إمام وخلفائه كما سبق عن إمام

الحرمين[١] »[٢].

* شروط المحتسب:

١ ـ **الإسلام**: فالإسلام شرط للمخاطبة به في الدنيا، وكذا في صحته وقبوله عند اللَّه.

ولكن لو أن كافرًا رأى مسلمًا يزني مثلاً فنهاه عن ذلك لوجب على المسلم قبول ذلك لحق اللَّه تعالى.

فالحق يُقبل من كل قائل به، ولو كان أكفر الكفار كما قال النبي ﷺ في صلح الحديبية عن المشركين.

«**واللَّه لا يسألوني خطة يعظمون بها حرمات اللَّه إلا أجبتهم إليها**»[٣].

فهذه طاعة لأمر اللَّه لا لأمر الكافر، ولا متابعة لهم؛ ولكنه انقياد للحق الواجب.

ولكن لا يجوز تولية الكافر ولاية الحسبة ولا الشرطة ولا نحوها مما فيه

---

(١) هذا استثناء في الأغلب، وليس بأصل إذ الأغلب حصول الفتن بالنسبة للجماعة التي تمارس الحسبة بدون ولاية بل تعم المفسدة غيرها من الجماعات كما هو مشاهد.

ملحوظة: ذكر الغزالي ـ رحمه اللَّه ـ هذه المراتب وتبعه عليها غيره من أهل العلم والدليل عليهما هدي الرسول في التغيير كما سبق في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد ومعاوية ابن الحكم وغيرها كثير.

ومن القواعد العامة في الشريعة مثل استعمال الرفق مع المسلمين ما أمكن لقول النبي ﷺ: «**الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**»، وأن الأصل حرمة المسلم في دمه وماله وعرضه، وارتكابه المنكر استوجب عقابه إذا أصر عليه والضرورات تقدر بقدرها، فإن اندفع بالأخف لم يجز الانتقال إلى الأشد مراعاة لأصل الحرمة.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه البخاري في «صحيحه» عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

سلطة على مسلم.

* قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ١٤١].

● وقال النبي ﷺ: «**ارجع فلن أستعين بمشرك**»[١].

وهذا مجمع عليه.

٢ ـ التكليف: وهو شرط وجوب: فالاحتساب واجب على العقلاء البالغين وليس معنى ذلك أن يمنع من كان من أهل القربة كالصبي المميز من القيام بالأمر والنهي.

* قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧].

❑ والعدالة لا تشترط في المحتسب على الراجح من أقوال العلماء إذ أن الاحتساب فرض كسائر الفروض لا يتوقف القيام به على أكثر مما يتطلبه هذا الفرض، وترك الإنسان لبعض الفروض لا يسقط عنه فروضًا غيرها.

قال بعض أهل العلم: «فرض على شاربي الكئوس أن يتناهوا فيما بينهم».

❑ وعدم اشتراط الولاية أو إذن الإمام هو مذهب جماهير العلماء؛ لعموم الأدلة وعدم المخصِّص ثم إجماع المسلمين في الصدر الأول الذي نقله إمام الحرمين فقد قال في عدم اشتراط الولاية، أو إذن الإمام: «والدليل عليه إجماع المسلمين؛ فإن غير الولاة في الصدر الأول، والعصر الذي يليه كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر مع تقرير المسلمين إياهم وترك توبيخهم

(١) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها.

على التشاغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من غير ولاية» اهـ.

ومما يدل على أن هذا هو فهم السلف قصة أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره**» إنما كان في التغيير على مروان بن الحكم حينما بدأ بالخطبة قبل الصلاة في العيد.

فحاول أبو سعيد منعه من الخروج للخطبة قبل الصلاة في العيد، فلم يستجب فقام رجل فقال: الصلاة قبل الخطبة.

فقال مروان: قد ترك ما هنا لك.

فقال أبو سعيد: أما هذا ـ يقصد الرجل ـ فقد أدى ما عليه.

● سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره..**»[1] وذكر الحديث.

وفي بعض الروايات أن أبا سعيد حاول منع مروان من الخطبة قبل الصلاة فلم يمكنه.

فدل ذلك على تغيير منكرات الأئمة أنفسهم.

وإنما يشترط استئذان الإمام المسلم إذا كانت الحسبة تؤدي إلى فتنة، أو قتال فيلزم الإذن لرفع الضرر لا لمجرد الإذن.

٣ ـ العلم: ويشترط العلم في القائم بالحسبة قال تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال النووي: إنما يأمر وينهى من كان عالـمًا بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام والزنا والخمر ونحوها فكل المسلمين علماء بها،

(١) القصة والحديث في «صحيح مسلم».

وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال، ومما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام فيه مدخل، ولا لهم إنكاره بل ذلك للعلماء.

❑ والعلم المشترط في الحسبة يشمل العلم بخطاب الشارع والعلم بالواقع.

٤ ـ القدرة: وشرط القدرة إنما هو في تغيير المنكر باليد واللسان.

أما الإنكار بالقلب فيجب أن يكون كاملاً، ودائمًا وهو متعين إذ هو مستطاع كل أحد.

ومن معنى حصول القدرة: غلبة الظن بالسلامة من الأذى والمكروه لنفسه وغيره من المسلمين.

❑ قال الغزالي: «لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي[١] ، بل يلحق به ما يخاف عليه من مكروه يناله فذلك في معنى العجز»[٢] .

ويلاحظ هنا أن العجز الحسي يسقط التكليف بالكلية وهو مثل الإكراه الملجئ مثل امرأة قيدت واغتصبت قهرًا فهذه لم يقع منها فعل ولا يوصف ما وقع لها في حقها بإباحة ولا كراهة؛ لأن العجز هنا عجز حسي كامل.

أما العجز المعنوي، فإنه لا يسقط التكليف بالكلية، ولكنه يسقط الوجوب في الواجب ويصبح مستحبًا أو مباح الترك، وقد يوصف بالتحريم إذا كان فيه ضرر متعدٍّ لغيره إذا كان يترتب عليه منكرًا أعظم، وكذا يسقط التحريم في المحرم، ويصبح مكروهًا أو مباح الفعل.

٥ ـ الإكراه: تحت هذا العنوان أتى الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه اللَّه ـ

(١) العجز الحسي: كالأخرس مثلاً لا يجب عليه التغيير باللسان لعجزه، وكالمشلول اليد لا يجب عليه التغيير باليد.

(٢) العجز المعنوي: وهو أن يصيب الإنسان أذى معتبر في الإكراه يزول عنه الحكم من الوجوب أو التحريم.

في رسالته «الأمر بالمعروف» بدرر من كلام السلف فقال ـ رحمه اللَّه ـ:

❑ قال النووي في «روضة الطالبين»[١] : «واعلم أنه لا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بأن يخاف منه على نفسه أو ماله أو يخاف على غيره مفسدة أعظم من مفسدة المنكر الواقع»، وكذا قال ابن مفلح: وأطلق القاضي وغيره سقوط الأمر بالمعروف بخوف الضرب والحبس. وأسقطه أيضًا بأخذ المال اليسير. . .

❑ قال الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ: «من شرطه أن يأمن على نفسه وماله خوف التلف»[٢].

❑ قال ابن دقيق العيد[٣] : «وفي الحديث دليل على أن من خاف القتل أو الضرب سقط عنه التغيير، وهو مذهب المحققين سلفًا وخلفًا، وذهبت طائفة من الغلاة إلى أنه لا يسقط وإن خاف ذلك».

❑ قال القرطبي[٤] : قال ابن عطية: «والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض على من أطاقه وأمن القدر على نفسه وعلى المسلمين فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه».

❑ وقال النووي[٥] : قال ابن بطال: «النصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل قوله، وأمن على نفسه المكروه، فإن خشي أذى فهو في سعة».

❑ وقال ابن رجب: «ومن هذا من خاف منهم على نفسه السيف أو

(١) «روضة الطالبين» (١٠/ ٢٣١).
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٣٥٥).
(٣) «فتح المبين» (٩٠).
(٤) القرطبي (٢٢٥).
(٥) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١/ ٥٤).

السوط أو الحبس أو القيد أو النفي أو أخذ المال أو نحو ذلك من الأذى سقط أمرهم ونهيهم وقد نص الأئمة على ذلك منهم مالك وأحمد وإسحاق وغيرهم».

وأدلة أهل العلم الذين سبق كلامهم هي أدلة اعتبار الإكراه قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

● وفي حديث عمار قال النبي ﷺ: «**إن عادوا فعد**»[١].

● وقال النبي ﷺ: «**وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٢]. حديث حسن.

❑ وقال عمر: «ليس الرجل بأمين على نفسه إذا سجن، أو أوثق، أو عذب»، وعنه: «أربع كلهن كره: السجن والضرب والوعيد والقيد» راجع «تفسير القرطبي».

❑ قال ابن حجر الهيثمي في الرد على من قال: يجب الإنكار على كل حال: «وإن قتل المنكر ونيل منه أنه غلو مخالف لظاهر الحديث إلى أن قال: ولا حجة لهم في خبر: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقول اللَّه تعالى: (**ما منعك إذا رأيت كذا وكذا أن تنكره فيقول يا رب خشيت الناس. فيقول اللَّه تعالى: إياي كنت أحق أن تخشى**)»[٣].

---

(١) حديث عمار رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٠)، وابن سعد في «طبقاته» (٣/ ١٧٨)، وابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ١٨٢) كلهم عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر.

(٢) رواه البيهقي في «السنن» عن ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٧١١٠)، وفي «إرواء الغليل» برقم (٨٢).

(٣) رواه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه في «سننه»، وابن حبان في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٨١٨)، وفي «السلسلة» برقم (٩٢٩).

لأن المراد بالخشية فيه مجرد رعايتهم مع القدرة، إذ لو وجب الإنكار مطلقًا لم يتأت قوله ﷺ: «**فإن لم يستطع**»، وإذا جاز التلفظ بالكفر عند الخوف والإكراه كما في الآية فليجز ترك الإنكار بالأولى؛ لأن الترك دون الفعل في القبح.

قال ابن رجب: «قال ابن شبرمة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالجهاد، ويجب على الواحد أن يصابر في الاثنين ويحرم عليه الفرار منهما، ولا يجب عليه مصابرة أكثر من ذلك؛ فإن خاف السب أو سماع الكلام السيء لم يسقط عنه الإنكار ـ نص عليه أحمد ـ وإن احتمل فهو أفضل» اهـ.

فإن قال قائل: المنكر الحاصل أمر مقطوع به والأذى أمر مظنون فكيف نترك المقطوع به للمظنون؟

قيل له: المقصود بالخوف المعتبر ـ غلبة الظن بحصوله ولا عبرة بالشك والتوهم، وإمكان حصول الأذى ولو صح تطبيق هذا الكلام لا نسد باب الإكراه أصلاً إذ مبناه على غلبة الظن فالتهديد بالقتل والسجن والتعذيب كل ذلك مما أجمع العلماء على اعتباره في الإكراه في الجملة وهو من أمور المستقبل وليس قطعيًا بالمعنى الاصطلاحي، ولكن الشرع وضع غلبة الظن محل العلم وجريان العادة في الواقع المشهود والتجربة كاف في حصول غلبة الظن؛ ولذا فينطبق على هذه مسألة ـ خوف الضرر ـ شروط الإكراه المعتبر كما ذكرها ابن حجر ـ رحمه اللّه في «الفتح».

الأول: أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به والمأمور عاجزًا عن الدفع ولو بالفرار.

الثاني: أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك.

الثالث: أن يكون ما هدد به فوريًا فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك

غدًا لا يعد مكرهًا ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًّا أو جرت العادة بأنه لا يخلف.

الرابع: أن لا يظهر من المأمور به ما يدل على اختياره. اهـ.

وهذا الكلام يتضح منه أن جريان العادة بعدم تخلف الأذى مدة معينة أو منًا قريبًا يعد عذرًا أما إذا كان الأذى متوقعًا في الجملة فهذا غير معتبر.

فإن قيل: نحن نتمكن من التخلص بالفرار ـ فالواجب أن من يعلم أن فراره سوف يلحق الأذى المتوقع بأقاربه وأهله وإخوانه أو غيرهم من المسلمين العاجزين عن الفرار لم يكن فعله مشروعًا إذ ترتب عليه هذا المنكر الآخر.

فإن قيل: فالجهاد والحسبة من باب واحد وهو لا يخلو من خوف الأذى والمكروه. وأين آيات الابتلاء والصبر نحو قوله تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ**﴾ [العنكبوت: ٢].

الجواب: أن المسلمين في الجهاد لا يغلب على ظنهم الانهزام كما لا يغلب على ظن إنسان بعينه حصول القتل أو الجرح له بل هو مظنون في الجملة أما بالنسبة لشخص بعينه فهو محتمل وممكن.

وقد سبق أنه لا عبرة بالإمكان والاحتمال. وأما عند غلبة اظن بحصول الهزيمة والقتل للمسلمين لكونهم أقل من نصف عددهم فقد رخص الشرع لهم في الانصراف، والخلاف في استحباب الثبات أو الانصراف إن كان في الثبات نكاية للعدو، أما إذا كان القتال فيه هزيمة المسلمين من غير نكاية وجب الإنصراف وحرم القتال إجماعًا نقله ابن جزي عن إمام الحرمين بلا خلاف، وذكر مثله النووي في «الروضة» (ح١٠). بل يكون الواجب عند ذلك تحريز المؤمنين استمرارًا للدعوة وحفظًا للدين. أما الصبر الواجب على الأذى فهو عند الأذى الذي لا يعتبر عذرًا في الإكراه. أما الأذى فسيأتي تفصيله إن شاء اللَّه.

فإن قيل: فالأذى الواقع على البعض منكر خاص والمنكرات العامة منكر عام والموازنة تقتضي دفع الضرر العام بتحمل الضرر الخاص؟

والجواب: إن هذا تطبيق للقواعد في غير موضعها وإهمال لكلام أهل العلم الذي سبق في أمر الموازنة، إذ جعلوا الأذى الحاصل للمحتسب أو غيره منكرًا يقدم دفعه على دفع المنكر الأصلي ـ وهذا لأن المنكر إنما يضر من فعله مختارًا ومن رضي به ـ ولا يضر من كره وأباه ممن عجز عن تغييره، وأما إيذاء المسلمين الأبرياء الذين لا ذنب لهم فهو ضرر محض لمن لا يستحقه.

❑ قال ابن رجب ـ رحمه اللَّه ـ[1] : ولعمري إن أيام عبدالملك والحجاج والوليد وأضرابهم[2] كانت من الأيام التي سقط فيها فرض الإنكار عليهم بالقول واليد لتعذر ذلك والخوف على النفس.

وقد حكى أن الحجاج لما مات قال الحسن: اللَّهم أنت أمته فاقطع عنا سنته فإنه أتانا أخيفش أعيمش يمد بيد قصيرة البنان واللَّه ما عرق فيها عنان في سبيل اللَّه، يرجل جمته ويخطر في مشيته ويصعد المنبر فيهذر حتى تفوته الصلاة، لا من اللَّه يتقي، ولا من الناس يستحي، فوقه اللَّه وتحته مائة ألف أو يزيدون لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل ثم قال الحسن: هيهات، واللَّه حال دون ذلك السيف والسوط.. قال: «فهؤلاء السلف كانوا معذورين في ذلك الوقت في ترك النكير باليد واللسان».

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذه الأمور العدل فيها أن لا يطلب العبد أن يبتلى، وإذا ابتلى بها فليتق اللَّه وليصبر والاستعداد لها أن تصيبه من غير طلب الابتلاء بها»، وقال: «والتعرض للفتنة هو من الذنوب».

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢٨٢).

(٢) أضرابهم: أمثالهم.

* **المكروه المعتبر في إسقاط الحسبة:**

المكروه نوعان:

١ ـ فوات الحاصل. ٢ ـ خوف امتناع المنتظر.

وهو في أربعة أشياء:

١ ـ الصحة والسلامة في البدن. ٢ ـ المال.

٣ ـ الجاه والمنزلة. ٤ ـ العلم.

ولا يتصور فوات الحاصل في العلم؛ لأنه لا يمكن لأحد أن ينسى غيره ما يعلمه، ولا يحصل فوات الحاصل في العلم إلا بتقصير منه.

فأما فوات الحاصل في الصحة والسلامة في البدن فمثاله أن يقتل أو يضرب ضربًا مؤلمًا أو يقطع عضو من أعضائه أو يحبس حبسًا يُدخل عليه الضيق.

وفوات الحاصل في المال أن يؤخذ ماله ويهدم داره وتسلب ثيابه.

وفوات الحاصل في الجاه أن يهان الإنسان أمام أهله أو جيرانه أو أصدقائه بما يسقط مروءته.

وكل من هذه الثلاثة لها حد في الكثرة لا بد من اعتباره وحد في القلة لا بد من إهداره، وما بينهما محل اجتهاد ونظر وترجيح.

والترجيح في ذلك بنظر الدين لا بموجب الهوى والطبع.

❑ **فمثال:** ما لا بد من اعتباره ما ذكرناه من القتل وسلب المال وهدم الدار والإهانة أمام الأهل والجيران.

❑ ويستثنى من عدم اعتبار خوف امتناع المنتظر عذرًا يسقط الوجوب ما تشتد الحاجة إليه، ويكون في فواته محذور يزيد على محذور السكوت على المنكر فهذا يلحق بفوات الحاصل في اعتباره عذرًا يسقط الوجوب.

* **إسقاط الوجوب في الحسبة لحصول المكروه لا يسقط استحبابها:**

إذا لم يتعدى الضرر على المحتسب إلى غيره فإن الوجوب إذا سقط فلا يسقط الاستحباب إذا كان للحسبة أثر في رفع المنكر أو في كسر جاه صاحبه أو في تقوية قلوب أهل الدين وذلك لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [آل عمران: ٢١].

● وقال النبي ﷺ لمن سأله عن أفضل الجهاد: «**كلمة حق عند سلطان جائر**»[(١)].

لكن إذا علم المحتسب أن لا أثر لحسبته عاجلاً، ولا آجلاً ولا خاصًّا ولا عامًّا لا على المحتسب عليه ولا غيره مع حصول الأذى الجسيم كقتله أو انتهاك عرضه فقد قال تعالى: ﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ فسقط الجواز عندئذ.

حكم تعدي الضرر إلى الغير

وأما إذا غلب على ظنه تعدي الأذى إلى غيره من أقاربه أو أصحابه أو رفقائه أو عموم المسلمين حرم الاحتساب، ولو قدر زوال المنكر؛ لأنه يفضي إلى منكر آخر وهو إلحاق الأذى بالآخرين وليس له أن يسامح في حق غيره[(٢)]

---

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده»، وابن ماجه في «سننه»، والطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي أمامة ﷺ، ورواه النسائي في «سننه» من حديث شهاب ﷺ وصحح الحديث الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١١٠٠)، وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٩١).

(٢) الأخذ بالعزيمة مستحب والأخذ بالرخصة جائز، وقد يكون مستحبًّا، وليس للإنسان أن يفرض على الآخرين الأخذ بالعزيمة، وقد جعل الله لهم سعة في الرخصة فمن عرض =

إلا من أذى يسير لا تنفك عنه الحسبة كالشتم والسب فهذا فيه نظر.

❑ قال ابن رجب: «إن خشي في الإنكار على الملوك أن يؤذي أهله أو جيرانه لم ينبغ له التعرض لهم حينئذ من تعدي الأذى إلى غيره كذلك قال الفضيل بن عياض وغيره».

❑ قال الغزالي: «فإن كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها؛ فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور نعم إن كان لا ينالهم أذى في مال أو في نفس، ولكن ينالهم الأذى بالسب والشتم فهذا فيه نظر ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها ودرجات الكلام المحذور في نكايته في القلب وقدمه في العرض»، وقال: «وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على إبطال المنكر أو ظهر لفعله فائدة، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه؛ لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضي إلى منكر آخر وليس ذلك من القدرة في شيء بل لو احتِسب لبطل ذلك المنكر، ولكن كان ذلك سببًا لمنكر يتعاطاه غير المحتسب عليه فلا يحل له الإنكار على الأظهر؛ لأن المقصود عدم مناكير الشرع مطلقًا لا من زيد أو عمرو».

❑ قال الشيخ أحمد الدردير[1] في شروط جواز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «وفي المنكرأن لا يخاف أن لا يؤدي إلى منكر أعظم منه».

❑ قال أحمد الصاوي معلقًا: «أي كنهيه عن أخذ مال شخص فيؤدي إلى قتله وفي الحقيقة هو شرط في الأمر أيضًا».

= غيره للأذى فهو يلزمه بما لا يلزمه شرعًا، ومن هنا كان له أن يسامح في حق نفسه لا في حق غيره.

(١) «الشرح الصغير» (٢/ ٤٨٣).

❑ قال الشيخ عز الدين: «وإذا حدث رد فعل سيء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فله نوعان: أحدهما أن يصيب القائم به أذى والآخر ألا يضر نفسه، ولكن تحدث مفسدة أخرى نحو أن يقتل رجل بريء أو يزيد مرتكب المنكر تماديًا وإصرارًا وغير ذلك.

أما النوع الثاني من رد الفعل فقد أجمع العلماء على عدم القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الوجه»[١].

* **مراعاة المصلحة والمفسدة في الحسبة:**

* قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ [البقرة: ٢٠٥].

* وقال عن شعيب: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾ [هود: ٨٨].

* وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [المائدة: ٦٤].

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «إنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل بالكلية.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليتان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة»[٢].

❑ قال ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ: «ولهذا قيل: وليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر، وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات

(١) «ميثاق الأبرار» (١/ ٥).

(٢) «إعلام الموقعين» (٣/ ٥٤).

لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، واللَّه لا يحب الفساد بل كل ما أمر اللَّه به فهو صلاح، وقد أثنى اللَّه على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر اللَّه وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم» اهـ.

❑ قال النووي في «شرح مسلم»: «قال إمام الحرمين ـ رحمه اللَّه ـ ويسوغ لآحاد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح؛ فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان».

*** الموازنة بين المصالح والمفاسد:**

«لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام» اهـ[1].

❑ ويقصد بالمصالح: المصالح التي شهد الشرع لاعتبارها: وهي ما دلَّت أصول الشرع لنوعها أو لجنسها.

❑ والنصوص الشرعية هي الأصل في معرفة المصالح وليس العكس، ولا شك أن الموازنة بين المصالح والمفاسد من أعظم الأمور خطراً وهي تحتاج إلى علم واجتهاد وبصيرة وفقه عظيم في دين اللَّه وسنن الأنبياء في الكتاب والسنة ليكون الترجيح بموجب الدين لا بموجب الطبع والهوى.

هل يشترط الانتفاع بالاحتساب لوجوبه؟

❑ الأظهر من قول العلماء أن الحسبة واجبة مع ظن التأثير والنفع.

(١) «الحسبة» لابن تيمية ص(٧٥).

ومع عدمه إذا كانت فيه مصلحة أخرى كانتفاع غير المحتسب أو إظهار شعائر الإسلام أو الأثر والنفع آجلاً لا عاجلاً[١] ، فإن عدم ذلك سقط الوجوب وعليه تحمل الأحاديث الواردة في ترك الأمر والنهي ونحوها مما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥].

● مثل قوله ﷺ: «**حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا وهوى متبعًا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام...**»[٢] الحديث ـ رغم أن في سنده مقال.

والهداية لا تتم للعبد إلا بأداء الواجبات، ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تجب العزلة إذا لم يمكن للإنسان حفظ دينه والنجاة من الفتن إلا بالعزلة.. وهذا أمر مخصوص في أحوال مخصوصة[٣] ، وليس عامًّا في

(١) احتج من يرى سقوط وجوب الحسبة إذا ظن عدم التأثير بقوله تعالى: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ فمفهومه أنها إذا لم تنفع لم يجب التذكير وهو مفهوم شرط، وجمهور أهل العلم يقولون به والأصل عدم تقدير محذوف نحو قولهم: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ أي: وإن لم تنفع مثل قوله تعالى: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ أي: والبرد والحق أن هذا الاستدلال إنما يتم إذا تصور انتفاع جميع أنواع النفع فإن المسلم إذا لم يستجب للحسبة من أول مرة فإن ذلك يحدث في قلبه أثرًا ولا شك وهو ما يسميه بعض أهل العلم نكاية في قلبه ويتكرار ذلك عليه يشعر بأن فعله مستقبح لدى الناس ففعله في الآجل يترك هذا المنكر أو حتى يفعله وهو في حرج لا أن يتعود عليه إذا لم ينكر عليه أحد ـ حتى يصبح هذا المنكر معروفًا، وكذلك قد ينتفع بالحسبة آخرون غير المحتسب عليه ـ وينتفع المجتمع كله بظهور شعار الإسلام فيه وامتناع العذاب العام والفتنة التي لا تصيب الذين ظلموا خاصة.

(٢) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه في «السنن»، وابن حبان في «صحيحه» من حديث أبي ثعلبة الخشني، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٣٤٤).

(٣) كمن لم يجد على الخير أعوانًا وخشي على نفسه الوقوع في الفتن أو على حصول الأذى الذي لا يصبر عليه.

الأرض كلها في أي زمن لقول النبي ﷺ : «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم إلى قيام الساعة**»[١] »[٢] .

* **هام جدًّا : السعيدُ من وُعِظ بغيره :**

العيش مع أهل العلم الربانيين هو الحياة . . ومن حاد عن طريقهم قيد أنملة عرف الهجير الكالح والأخذ بالأعنت الأعنت، والأغلظ الأغلظ، ومن أراد اللَّه به الخير التزم بكل صغيرة وكبيرة من قواعد أهل السنة والجماعة، وعرف معنى قول الشاعر :

غزلت لهم غزلاً دقيقًا فلم أجد لغزلي نسّاجًا فكسّرت مغزلي

وقول الشاعر :

نصحتُ لهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ

✍ منذ عام ١٩٧٧م بمصر والصادقون يحذرون الشباب من خطورة الخروج المسلح وأنه لن يعود إلا بالدمار على الأمة، وكان ما كان وفي التسعينات أدرك أصحاب الخروج المسلح خطورة ما حدث وأثره السيء على الأمة والعمل الإسلامي . . وما جرى فيه من إراقه دماء المسلمين والجرأة على العلماء الربانيين فعادوا عن العمل المسلح[٣] ، والعود أحمدُ وعدلوا عن

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن معاوية بن أبي سفيان وعن المغيرة بن شعبة، ورواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والحاكم وابن حبان والدارمي بألفاظ مقاربة عن جملة من الصحابة.

(٢) انتهى النقل من الرسالة القيمة «الأمر بالمعروف» للشيخ ياسر برهامي نقلنا أكثرها للفائدة.

(٣) وإن كنا نعتب عليهم أن صوت الناصحين قد بحّ، ولو أنهم سألوا العلماء الربانيين واتبعوا نصحهم لوفّروا على شباب الأمة عشرين عامًا من التعذيب وإراقة دماء الأبرياء ودموع ومآسي وتشريد الأسر والدمار الذي لحق بالعمل الإسلامي.

موقفهم السابق جعل اللَّه توبتهم في سجل حسناتهم.

ويرحم اللَّه عبيداللَّه بن الحسن العنبري فقيه البصرة حين قال: «لأن أكون ذنبًا في الحق، أحبّ إليَّ من أن أكون رأسًا في الباطل»[1].

فسؤال العلماء الربانيين عن كل صغيرة وكبيرة، والتقيد بكلامهم وما يسوقونه من أدلة شرعية، والاقتباس من خبرتهم وعلمهم بالواقع. فالحمد للَّه أن علماء الآخرة ليسوا في غيبوبة فكرية والواقع يشهد بهذا، وفتاوى السادة الأئمة الربانيين تنير الطريق للحائرين: الشيخ ابن باز والشيخ الألباني والشيخ ابن عثيمين والشيخ بكر أبو زيد والشيخ صالح الفوزان مصابيح تنير في قلب الدجى« وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر...».

فالرجوع إلى الحق في كل شيء بالضوابط الشرعية أولى من التمادي في الباطل وإليك نص كلامهم:

*** نظرات في التاريخ:**

«إن للخروج على الحكام والأمراء أمثلة عديدة سجلتها كتب التاريخ من أيام السلف إلى أيامنا هذه، والعاقل اللبيب من ينظر إلى هذه الأمثلة نظرة اعتبار وتفحص ليستخلص منها بعد ذلك الدروس والعبر، وليس بعاقل من يغفل عن هذه التجارب والأمثلة.

وقديمًا قلنا: إنه ينبغي أن نبدأ من حديث انتهى الآخرون لا من حيث بدأوا، لنكون بالفعل مستوعبين لما سبقنا من تجارب.

وليس الحديث هنا دفاعًا عن هؤلاء الحكام ولا إقراراً لهم على مذهبهم، ولكنها نظرة شاملة إلى الآثار والعواقب التي تحدث عند الخروج عليهم وهي عواقب لم يختلف عليها أحد.

(١) «تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني (٧/ ٧).

ومع تقديرنا ومحبتنا العظيمة لأولئك الأخيار الذين آثروا الآخرة على الأولى والباقية على الفانية وتحملوا الصعاب والمشاق في خروجهم، فإننا لسنا في معرض الحديث عن التصويب أو التخطئة لكنها النظرة إلى عواقب هذا الخروج على أمة الإسلام والمسلمين حكامًا ومحكومين.

*** أمثلة من تاريخ سلفنا الصالح في الخروج على أمراء الجور وما جرَّه من مُبكيات:**

أولاً: خروج الحسين بن علي ﷺ على يزيد بن معاوية سنة ٦١هـ[1]:

❑ لما مات معاوية وبويع ليزيد، بايع ابن عمر وابن عباس وفَرَّ الحسين وابن الزبير إلى مكة.

❑ كثرَ ورود الكتب إلى الحسين من بلاد العراق يدعونه إليهم ويستحثونه في القدوم إليهم ليبايعوه عوضًا عن يزيد بن معاوية ويخبروه أنهم لم يبايعوا أحدًا حتى الآن وينتظرونه.

❑ أرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل إلى العراق ليكشف له حقيقة الأمر.

❑ لما دخل مسلم الكوفة تسامع أهلها بقدومه فجاءوا إليه فبايعوه على إمرة الحسين وحلفوا لينصرنه بأنفسهم وأموالهم، ووصل عدد المبايعين إلى ثمانية عشر ألف مبايع.. كتب مسلم إلى الحسين ليقدم إلى الكوفة فقد تمهدت له البيعة والأمور قد استتبت له.

وهنا تجهز الحسين من مكة قاصدًا الكوفة، وكتب في الوقت ذاته يزيد إلى ابن زياد أن يقدم الكوفة ويطلب مسلم بن عقيل، ثم يقتله إذا قدر عليه أو ينفيه.

(١) «البداية والنهاية» (٤/ ٦٦٦) وما بعدها بتصرف.

❑ قام عبيدالله بن زياد بإخراج بعض الأمراء وأمرهم أن يركبوا في الكوفة يُخَذِّلون الناس عن مسلم بن عقيل ففعلوا، وهنا انفض الناس من حوله فبقي وحده ليس معه من يدله على الطريق، ثم ألقى القبض عليه وبكى عندها قائلاً: «أما والله لست أبكي على نفسي؛ ولكن أبكي على الحسين وآل الحسين، إنه قد خرج إليكم اليوم من مكة».

❑ وتوجه الحسين إلى الكوفة رغم توسلات الناس إليه بعدم الخروج: قال له ابن عباس رضي الله عنهما: «أخبرني إن كانوا قد دعوك بعد ما قتلوا أميرهم ونفوا عدوهم وضبطوا بلادهم فسر إليهم، وإن كان أميرهم حيًّا وهو مقيم قاهر لهم وعماله تجبي بلادهم فإنهم إنما دعوك للفتنة والقتال، ولا آمن عليك أن يستنفروا عليك الناس ويقلبوا قلوبهم عليك، فيكون الذين دعوك أشد الناس عليك، والله لأظنك ستقتل غدًا بين نسائك وبناتك ولولا أن يُزرى ذلك بي وبك لنشبت يدي في رأسك، ولو أعلم أنا إذا تناشبنا أقمتَ لفعلتُ».

❑ ولحقه ابن عمر رضي الله عنهما وهو في مسيره إلى العراق على مسيرة ثلاث ليال فقال: أين تريد؟ قال: العراق وإذا معه صحف وكتب، فقال: هذه كتبهم وبيعتهم فقال: لا تأتهم، فأبى، فقال ابن عمر: إني محدثك حديثًا. إن جبريل أتى النبي ﷺ فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا[1]، وإنك بضعة من رسول الله ﷺ، والله ما يليها أحد منكم أبدًا وما صرفها الله عنكم إلا للذي هو خير لكم، فأبى أن يرجع، قال: فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال: أستودعك الله من قتيل.

❑ وقال له ابن الزبير رضي الله عنهما: «أتخرج إلى قوم قتلوا أباك وأخرجوا أخاك».

(١) رواه البخاري (٢٤٤٤/٨٤) عن عائشة رضي الله عنها.

وعلم الحسين بمقتل مسلم بن عقيل لكنه رفض أن يرجع.

❑ كان جيش الحسين مائة وخمسين رجلاً ومعهم أهل بيته جميعًا، وقد عرض الحسين على جيش ابن زياد بقيادة عمرو بن سعد وشمر بن ذي الجوشن ثلاث خصال فلم يقبلوها منه، وأصرا على أن ينزل الحسين على حكم ابن زياد.

❑ وكانت المعركة وقتل الحسين ﷺ وقتل معه ستة عشر رجلاً كلهم من أهل بيته، ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبه كما قال الحسن البصري. وأرسلت رأس الحسين إلى عبيداللَّه بن زياد ثم إلى يزيد.

❑ قال سعيد بن المسيب: «لو أن حسينًا لم يخرج - أي إلى العراق - لكان خيرًا له».

❑ وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن: «قد كان ينبغي لحسين أن يعرف أهل العراق ولا يخرج إليهم».

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنه لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا في دنيا، وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده، فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله، ونقص الخير بذلك، وصار سببًا لشر عظيم، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن» اهـ.

ثانيًا: وقعة الحرة[1] في عام ٦٣ هجرية:

وكان سببها خلع أهل المدينة ليزيد وتولية عبداللَّه بن مطيع على قريش وعبداللَّه بن حنظلة بن أبي عامر على الأنصار، واجتمع الناس على إخراج عامل يزيد من المدينة، وعلى إجلاء بني أمية منها، فاجتمع بنو أمية في دار

(١) «البداية والنهاية» (٤/ ٧٥٠).

مروان بن الحكم وحاصرهم أهل المدينة فيها، وقد أنكر ابن عمر على أهل المدينة بيعتهم لابن مطيع وابن حنظلة على الموت واعتزل هو بآل بيته الناس، وقد أرسل يزيد جيشًا قوامه خمسة عشر ألف رجل على رأسهم مسلم بن عقبة، وقال له: ادع القوم ثلاثًا فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكف عنهم، وإلا فاستعن باللَّه وقاتلهم، وإذا ظهرت عليهم فَأبحْ المدينة ثلاثًا، ثم اكفف عن الناس، ثم إذا فرغت من المدينة فاذهب إلى مكة لحصار ابن الزبير، وانهزم أهل المدينة بعد قتال شديد، واستباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وقتل خلقًا من أشرافها وقراءها وانتهب أموالاً كثيرة منها، وقيل: إنهم وقعوا على النساء حتى قيل: حبلت ألف امرأة بغير زواج في تلك الأيام.

❑ قال الزهري عن عدد القتلى: إنهم سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ووجوه الموالي، وممن لا أعرف من حرٍّ وعبدٍ عشرة آلاف.

ثالثًا: خروج سليمان بن صرد على رأس جيش التوابين على مروان بن الحكم في سنة ٦٥هـ[1]:

اجتمع إلى سليمان بن صرد الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه وهو صحابي جليل روى عن النبي ﷺ أحاديث في «الصحيحين»، اجتمع إليه نحو من سبعة عشر ألفًا كلهم يطلبون الأخذ بثأر الحسين ممن قتله، وكان هؤلاء يرون أنهم كانوا سببًا في قتل الحسين لخذلانهم له فسموا أنفسهم بجيش التوابين، وتواعدوا على الخروج في يوم فلما خرج الناس أخذوا يصيحون بأعلى أصواتهم: يا لثارات الحسين، فسمع الناس فخرجوا، وخرج أشراف الكوفة فكانوا قريبًا من عشرين ألفًا فلما عزم على المسير بهم لم يصف معه منه

(١) «البداية والنهاية» (٤/ ٧٩٢) وما بعدها بتصرف.

سوى أربعة آلاف، فسار بهم مراحل: ما يتقدمون مرحلة إلى الشام إلا تخلف عنه طائفة من الناس الذين كانوا معه، فلما سمع أهل الشام بهم أعدوا جيشًا كبيرًا قوامه أربعون ألف مقاتل، وتقدم جيش الخلافة وقابل جيش التوابين في موقعة عين وردة. وكانت موقعة رهيبة إذ اقتتل الجيشان قتالاً شديدًا، وكانت مقتلة عظيمة بين المسلمين حتى خاض المقاتلون في الدماء، وكانت الدائرة لجيش الخلافة فقد قتل سليمان بن صرد ﷺ وأمراءه وعامة جيشه، ولم يبق إلا القليل منهم الذين فروا عائدين إلى الكوفة.

رابعًا: خروج ابن الأشعث على عبدالملك بن مروان سنة ٨٠هـ[1] :

وهذه الفتنة من أعظم ما ابتليت به أمة الإسلام بعد الفتنة الكبرى بسبب ما أصاب المسلمين فيها من قتل لأئمة الهدى وأعلام الدين.

❑ **سببها**: كان الحجاج يبغض ابن الأشعث ويقول: ما رأيته قط إلا هممت بقتله، وكان هو يفهم ذلك ويضمر له السوء وزوال الملك عنه. فلما أمره الحجاج على الجيوش التي غزت بلاد الترك وحدث ما حدث من فتح لبعض البلدان، ثم التوقف حتى صلحوا من حالهم ويتقووا إلى أن ينصرم فصل الشتاء، ثم يغزون رتبيل.

❑ بعث ابن الأشعث بذلك إلى الحجاج فكتب الحجاج إليه يستهجن هذا الرأي ويستضعف عقله ويقرعه بالجبن والنكول عن الحرب ويأمره حتمًا بدخول بلاد رتبيل، ثم أردف بكتاب ثان ثم بكتاب ثالث، فغضب ابن الأشعث وقال: يكتب إلي بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي، ولا من بعض خدمي، ثم جمع ابن الأشعث رؤوس أهل العراق، وقال لهم موضحًا رأيه ورأي الحجاج وأعلمهم أنه لن يتراجع عن رأيه فثار

(١) «البداية والنهاية» (٥/ ٤٨) وما بعدها.

الناس إليه. وقالوا: لا بل نأبى على عدو اللَّه الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع.

❑ وخلع الناس الحجاج ولم يخلعوا عبدالملك.. ووثبوا إلى عبدالرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضًا عن الحجاج.

صَالَح ابن الأشعث رتبيل وانقلب عائدًا إلى الحجاج ليقاتله ويأخذ منه العراق. وفي منتصف الطريق خلعوا عبدالملك بن مروان أيضًا وبايعوا ابن الأشعث على الكتاب والسنة.

❑ بلغ المهلب بن أبي صفرة ما صنع ابن الأشعث، فأرسل إليه ناصحًا: أبقِ على أمة محمد ﷺ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسكفها، والجماعة فلا اتفرقها، والبيعة فلا تنكثها، اجتمع إلى ابن الأشعث ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل وخرج الحجاج إليه في جيش عظيم والتقى الجيشان في يوم الأضحى عند نهر دُخيل وانهزمت مقدمة الحجاج وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقًا كثيرًا نحو ألف وخمسمائة، دخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس بها وبايعهم وبايعوه على خلع عبدالملك ونائبه الحجاج، وقال لهم ابن الأشعث: ليس الحجاج بشيء، ولكن اذهبوا بنا إلى عبدالملك لنقاتله، ووافقه على خلعها جميع من في البصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب.

❑ ثم كانت واقعة الزواية سنة ٨٢هـ بين الحجاج وابن الأشعث وكانت الجولة للحجاج وقتل خلق كثير من القراء من أصحاب ابن الأشعث.. ثم كانت وقعة دير الجماجم بين الجيشين، وكان ابن الأشعث معه مائة ألف ومثلهم من الموالي واستمر القتال قرابة العام والأيام دول بين الجيشين.

❑ أمر الحجاج بالهجوم على كتيبة القراء في جيش ابن الأشعث فقتل منهم خلقًا كثيرًا ثم حمل على بقية أصحاب ابن الأشعث فانهزموا وذهبوا في

كل وجه وهرب ابن الأشعث ومعه نفر قليل من الناس.

قتل الحجاج خمسة آلاف أسير ودخل الكوفة، وجعل لا يبايع أحدًا من أهلها إلا قال: أَشْهِد على نفسك أنك قد كفرت، فإذا قال: نعم. بايعه، وإن أبى قتله؛ فقتل منهم خلقًا كثيرًا أبى أن يشهد على نفسه بالكفر.

تتبع الحجاج أصحاب ابن الأشعث وقتل منهم بين يديه صبرًا مائة وثلاثين ألفًا منهم من الأخيار والسادات والعلماء والأبرار مثل محمد بن سعد ابن أبي وقاص وكان آخرهم سعيد بن جبير ـ رحمهم اللَّه ورضي عنهم.

كان جملة من قتل في هذه الفتنة من المسلمين حوالي مائة وخمسين ألفًا.

قال ابن كثير: وابن الأشعث من كِنْدةَ وليس من قريش ثم قال: «وكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالإمارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويبايعون لرجل كندي بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير؛ فإنا للَّه وإنا إليه راجعون. اهـ.

خامسًا: خروج محمد بن عبداللَّه بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب وأخيه إبراهيم على الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور[1]:

وقصة هذا الخروج تتلخص في الآتي: تغيب محمد وأخوه من مبايعة أبي جعفر المنصور وذهبا هربًا في البلاد الشاسعة، فسأل المنصور أباهما عنهما فحلف أنه لا يدري أين صارا من أرض اللَّه، ثم ألح المنصور على عبداللَّه في طلب ولديه فغضب عبداللَّه من ذلك وقال: واللَّه لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما. فغضب المنصور وأمر بسجنه وأمر ببيع رقيقه وأمواله فلبث في السجن ثلاث سنين، وأشاروا على المنصور بحبس بني حسن عن

(١) «البداية والنهاية» (٥/ ٥٦٩) وما بعدها.

آخرهم، فحبسهم وجَدَّ في طلب إبراهيم ومحمد، وبعث الجواسيس في البلاد فلم يقع لهما على خبر، ونقل آل حسن من حبس المدينة إلى حبس العراق وفي أرجلهم القيود، وفي أعناقهم الأغلال، وقد أرسل معهم محمد ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان المعروف بالديباج لحسن وجهه وأمه هي فاطمة بنت الحسين بنت علي بن أبي طالب، وكان محمد هذا أخًا لعبدالله ابن حسن لأمه، وكانت ابنته تحت «أي زوجة» إبراهيم بن عبدالله بن حسن وقد حملت منه فاستحضره الخليفة وقال: قد حلفت بالعتاق والطلاق أنك لم تغشني وهذه ابنتك حامل، فإن كان من زوجها فقد حبلت منه وأنت تعلم به، وإن كان من غيره فأنت ديوث.

فأجابه عثمان بجواب أغاظه فأمر به فجُرِّدت عنه ثيابه، ثم ضربه بين يديه مائة وخمسين سوطًا منها ثلاثون فوق رأسه أصاب أحدها عينه فسالت، ثم رد إلى السجن، وقد بقي كالعبد الأسود من زرقة الضرب وتراكم الدماء فوق جلده، وكان في المحبس محمد بن إبراهيم بن عبدالله، وكان فتى جميلاً، وكان يقال له الديباج الأصفر من حسن جماله وبهائه، فأحضره المنصور بين يديه، وقال له: أما لأقتلنك قتلة ما قتلها أحدًا من قبل. ثم ألقاه بين أسطوانتين وسد عليه حتى مات، وقد هلك كثير من آل حسن في السجن فكان فيمن هلك في السجن عبدالله بن حسن بن حسن بن حسن بن على بن أبي طالب وأخوه إبراهيم بن الحسن وغيرهما، وقَلَّ من خرج منهم من الحبس، وقد جعلهم المنصور في سجن لا يسمعون فيه أذانًا ولا يعرفون فيه وقت الصلاة، ثم بعث أهل خراسان يشفعون في محمد بن عبدالله العثماني فأمر بضرب عنقه وأرسل برأسه إلى أهل خراسان. وأما ما كان من أمر محمد بن عبدالله فما زال بعض الناس يؤنبونه على اختفائه وعدم ظهوره، حتى عزم على الخروج فواعد أصحابه على الظهور في الليلة الفلانية، وأقبل محمد بن عبدالله بن حسن في مائتين وخمسين في المدينة المنورة فمر بسجن المدينة

فأخرج من فيه وجاء دار الإمارة فحاصرها، وأمسك الأمير رباح بن عثمان أمير المدينة وسجنه في دار مروان، واستظهر محمد بن عبداللَّه على المدينة ودان له معظم أهلها، وجعل محمد يستميل رؤوس أهل المدينة فمنهم من أجابه ومنهم من امتنع عليه، وقال له بعضهم: كيف أبايعك وقد ظهرت في بلد ليس فيها مال تستعين به على استخدام الرجال..

ولزم بعضهم منزله فلم يخرج منه.

وأما ما كان من أمر المنصور فإنه جهز الجيوش إلى محمد بن عبداللَّه وعلى رأسهم عيسى بن موسى فلما قدم عيسى بن موسى المدينة فر أهلها منها وتركوا محمدًا وقليلاً من أصحابه، وكانوا زهاء ثلاثمائة رجل، والتحم الجيشان وقتل كثير من جيش محمد وهرب أكثرهم وبقى محمد في شرذمة قليلة، ثم بقى وحده وليس معه أحد، ثم قتل وقطعت رأسه وأرسل بها إلى المنصور.

سادسًا: ذكر خروج إبراهيم بن عبداللَّه بن حسن بالبصرة سنة ١٤٣هـ:

أرسل محمد بن عبداللَّه بن حسن أخاه إبراهيم إلى البصرة وتواعدوا على الخروج في يوم واحد، ولما بلغ إبراهيم خبر ظهور أخيه محمد في المدينة خرج في البصرة وبايعه عدد كبير من أهل البصرة، وكان الناس يقصدونه من كل فج لمبايعته، وجعل المنصور يرصد لهم الجنود في الطرق المؤدية إلى البصرة فيقتلوهم، ويأتون برؤوسهم فيصلبها بالكوفة ليتعظ الناس، ثم أرسل المنصور جيشًا كبيرًا لقتال إبراهيم، فخرج إبراهيم في جيشه والتقى الجيشان وهزم جيش إبراهيم وثبت إبراهيم ونفر قليل معه، ثم قتل إبراهيم وقطعت رأسه وأرسلت إلى المنصور.

وبعد...

فرغم أن هذه التجارب التاريخية تتناول زمانًا غير زماننا وظروفًا غير

ظروفنا ووقائع قد تختلف في بعض جزئياتها، أو تتفق في أخرى مع جزئيات واقعنا، ولكن هذه الوقائع تحمل لنا أعظم الدروس وأسمى الخبرات، فالعبرة عظيمة والفائدة جليلة والحكمة باهرة في هذا التاريخ العظيم، وهل هناك أفضل من تاريخنا لكي نأخذ منه العبرة والعظة؟ إنها حكمة السنين تأتينا سهلة سلسة في عدة صفحات، إنها عظة التاريخ الإسلامي لكل جيل بعد هذا الجيل العظيم.. وهؤلاء العظماء من السلف قد جربوا.. وقديمًا قال حكماء السلف: «سلوا المجرِّب فقد استطلع الحقيقة ووقف على الدقيقة وعلم ما لم تعلموا».

ونحن لن نستطيع أن نحيا حياتين أو نعيش أعمارنا مرتين عمر نجرب فيه ونخطئ وعمر نتعلم فيه من أخطائنا، فالحل أن نستعير خبراتهم ودروس حياتهم. فمن عاش مع دروس التاريخ كله ـ وليس الإسلامي فحسب ـ طال عمره وازدادت خبرته، فالتاريخ كله عبر وعظات، وقد قص علينا القرآن قصص الأولين والآخرين وقال: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾ [يوسف: ٣].

فالبشرية مر من عمرها آلاف السنين، ومن لم ينتفع بخبرة كل هذه السنوات فلا يستحق أن يحيا أو أن يعيش، وصدق المثل الذي يقول: «من لم ينتفع بخبرة آلاف السنين لم يتجاوز زاده في الحياة خبز يوم بيوم»، أي: لم يستفد شيئًا وعليه أن يتخبط تحت نظرية التجربة والخطأ ويحمل بخبرة يوم بيوم، وهذه نظرية مهلكة للأفراد والجماعات والدول والأمم، وهذه النظرية تجعلك كل يوم تقع في خطأ جديد؛ لأنك لم تتعلم تلافي الخطأ من تجربة المحنكين من قبلك، أو لم تتعلمه من تجربة أخيك، أو لم تتعلمه من تجربة سلفك، فأين لنا العمر الطويل؟ وأين لنا من الإمكانيات المادية وأنى لنا بالقدرة المادية التي تهلك بين الحين والآخر لنستطيع تعويضها بعد فقدها؟

ومن أجمل ما قرأت في ذلك عن الخليفة المأمون قوله الحكيم: «ألذ الأشياء التنزه في عقول المجربين».

❑ ولكن كيف يتنزه في عقولهم؟ إنه يتعرف على حكمة عمرهم وخبرات حياتهم وعمق تجاربهم في الحياة؛ وذلك ليضيف أعمارهم إلى عمره وخبراتهم إلى خبرته، وتجاربهم إلى تجربته، وقد علمنا القرآن خبرة البشرية كلها من لدن آدم وهو في الجنة حتى يوم القيامة، ومن أقوى وأعظم أحاديث رسول اللَّه ﷺ قوله: «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»، فمن لدغ من جحر مرتين فقد ضاعت منه حكمة وخبرة وتجربة اللدغة الأولى، ومن كان كذلك فهو مؤهل أن يخدع مرات ومرات من نفس الباب ويلدغ مرات ومرات من نفس الجحر.

ويقاس على هذا الحديث قول القائل الحكيم: «لا تلدغ من جحر لدغ منه أخوك».

وقول القائل الحكيم: «لا تكرر أخطاء الآخرين».

وقول الحكيم الآخر: «ابدأ من حيث انتهى الآخرون ولا تبدأ من حيث بدأوا»؛ وذلك حتى لا تكرر أخطاءهم وحتى تجتنب عثراتهم، فالمؤمن كيس فطن، ومن مبادئ الجماعة الإسلامية التي لم تنل حظًا كبيرًا من الرعاية والعناية ذلك المبدأ الشهير: «وتستوعب ما سبقها من تجارب»، فقد قصرنا في العمل بهذه الفكرة العظيمة، وقد يكون سبب التقصير هو عدم انفتاحنا على الآخرين من الحركات الإسلامية في سياق التنافس الشريف على العمل لدين اللَّه، أو الانشغال بالعمل اليومي الدائب الذي يحرم القائمين على العمل للإسلام من الراحة الذهنية للتفكير المتأني، أو تلك المواجهات التي كانت مستعرة بدرجات متفاوته. فالعاملون للإسلام إذا لم يأخذوا الوقت الكافي للتفكير في أمورهم لم تكن خطواتهم سليمة صحيحة، وأفضل شيء في

ذلك أن تفكر وأنت بعيد عن الصدام وتنظر إلى خريطته كاملة من بعيد متأملاً متفكراً فيه[١] ، وهذا ما حرم منه القائمون على العمل الإسلامي في السنوات الأخيرة تحت ضغط المطاردات الفظيعة التي تعرضوا لها، فأصبحت كل الأمور هي أفعال وردود أفعال، وقد أوردنا هذه الأمثلة من العصر الأول للإسلام لنبين كم من الدماء الزكية أريقت دون فائدة تذكر، وكم شغلت الأمة بنفسها عن أعدائها الأساسيين، وكم من حمامات الدماء التي سفكت من أمة الإسلام دون جدوى، ونحن لسنا في معرض الدفاع عن الحكام ممن سردنا قصصهم ولسنا في معرض اللوم لأئمتها العظماء الأبرار مثل الحسين سيد شباب أهل الجنة أو ابن الأشعث وسعيد بن جبير، ولكن لاستخلاص العبرة والعظة، وحتى لا تسفك الدماء الموحدة الطاهرة دون هدف في مواقع لم تحسب جيداً وفي حوادث لم تدرس بعناية، فلا أرضًا قطعت ولا ظهراً أبقت»[٢] .

---

(١) وأين كانوا من سؤال أهل العلم الربانيين أمثال الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ، والشيخ ناصر الدين الألباني ـ رحمه اللَّه ـ والشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه اللَّه ـ والشيخ بكر أبو زيد والشيخ صالح الفوزان والشيخ عبدالرزاق عفيفي ـ رحمه اللَّه ـ.. لِمَ لم يسألوهم.. وهل يُترك الأمر لطلبة العلم دون العلماء الربانيين.. وهل كانت هذه الأمور غائبة في بطون الكتب ولم يعثروا عليها طيلة عشرين عامًا.. حتى تجرأ من تجرأ ووصل الأمر إلى القول بأن هؤلاء علماء الحيض والنفاس، ولم يخرجوا بعد من أبواب المياة والطهارة.. عفا اللَّه عن الجميع وتقبّل توبتهم، ونحن نحسن الظن بهم.. عاملنا اللَّه وإياهم بلطفه.. ولكن أقولها مئات المرات..: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم».. لا يترك الأمر لطلبة العلم ويُنحى العلماء الربانيين الورعين.. فأهل الورع كانوا يدققون وترتعش أجسادهم خوفًا من الفتيا من مسائل البيع والشراء فكيف بمسائل الأعراض والدماء.

(٢) تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء لقادة الجماعة الإسلامية الثمانية بمصر ناجح إبراهيم عبداللَّه، وأسامة حافظ، وكرم زهدي، وعاصم عبدالماجد، وعصام دربالة، وفؤاد الدواليبي، وحمدي عبدالرحمن، وعلي الشريف ـ ص(١٠٣ ـ ١٢٠) ـ مكتبة =

ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة

*** نحكم للمرء بالإسلام بأدنى شبهة وعلامة، ولا نخرج المرء من الإسلام إلا بيقين كفر وقيام الحجة الرسالية عليه، ونحن أبعد الناس عن تكفير المعين إلا بضوابط الشرع:**

لا تحكمنا العواطف في الحكم على الناس وسط غربة الإسلام وبُعد الناس عن دينهم في أيامنا هذه.. نحكم للرجل بالدخول في الإسلام بنطقه للشهادتين بإجماع علماء أهل السنة من رجالات السلف.. بل نُجري عليه أحكام المسلم بأقل من هذا، فلو أن طائرة قادمة من دول الإفرنج احترقت بمن فيها، ووجدنا من بينهم من يحمل مصحفًا في جيبه، أو في جبهته أثر السجود أجرينا عليه حكم المسلم وصلينا عليه صلاة الجنازة.

❑ ولا نخرج من الإسلام إلا بيقين كفر كالشمس في رابعة النهار، لا يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عنزان وقيام الحجة الرسالية عليه.

❑ والسلفيون أبعد الناس عن تكفير المسلمين... وشيخ الإسلام ابن تيمية من أشد الناس نهيًا عن تكفير المعين إلا بعد قيام الحجة الرسالية عليه، ولا عبرة بافتراء وكذب من يقول: «إن السلفية اغتراب زمني يأخذ صاحبه نحو كتابات المتشددين ويجد ملاذًا في هجرة عصره من خلال الاستغراق فيما يدعو إليه «ابن حزم» من حق الثورة على الحاكم الذي لا يطبق شرع اللَّه وصولاً إلى ما يستشرفه من فكر ابن تيمية حول تكفير الجماعة أحيانًا، ولا يخفى على أحد أن هذه اجتهادات يقابلها على الجانب الآخر عشرات بل

= التراث الإسلامي ـ الطبعة الأولى.

مئات من تراث الفقهاء الكبار الذين يتجهون في منحنى آخر مضيًّا مع التيار العام للإسلام الحنيف، والذي يأخذ بالسماحة مع الغير والحكمة في معالجة الأمور والموعظة الحسنة في الدعوة إلى دين اللَّه»[1] .

(١) من مقال «دعوة ونداء» للدكتور مصطفى الفقي بجريدة الأهرام ص(١٣) يوم ٣١ ديسمبر ٢٠٠٢م.

وهو القائل في نفس المقال:

«إن المصري صوفي بطبيعته!!، بسيط بفطرته، يعبد اللَّه في عمق حيث يشغل الدين حيزًا كبيرًا في أعماق وجدانه، ولا شك أن الحركة الصوفية هي نقيض التوجهات السلفية والأصولية ذلك لأن الصوفية إيمان عميق يرتبط باللحظة وليست نزعة ماضوية، بينما السلفية اغتراب زمني. . .».

وهو القائل ـ ويا ليته لم يقل ـ:

«إن مصر هي بحر المذهب السني في العالم الإسلامي ومع ذلك فإنها لا تتعصب له ضد أهل الشيعة بل إنني أزعم ـ وأرجو ألا أكون مغاليًا ـ أن المصري سني المذهب شيعي المزاج، فالفاطميون بنوا الجامع الأزهر لكي يكون مركز انطلاق لمذهبهم الشيعي إلى أن سقطت دولتهم وبدت مصر فجأة وكأن لم يكن فيها شيعي واحد، ومع هذا فإن مصر تحفل بالمزارات المقدسة فهي البلد الذي استقبل أهل البيت في القرن الأول الهجري عندما طاردهم بنو أمية خصوصًا في عهد خلفائهم الأوائل، وها هي قباب القاهرة تغطي أضرحة غالية للسيدة نفيسة والسيدة زينب والسيدة عائشة والحسين سيد الشهداء، وقد ينازعنا غيرنا مزارات لأهل البيت تحمل بعض هذه الأسماء ذاتها، ولكن تبقى مصر هي حضانة ذلك السلف الصالح وحامية الإسلام الصحيح وراعية شريعته السمحاء ولغته الثرية، وما زلت أذكر أن السيد «رافسنجاني» رئيس جمهورية إيران الأسبق قال: إن أحد أحلام حياته هي أن يتمشى يومًا داخل صحن الأزهر الشريف توقيرًا من أهل الشيعة لذلك المركز الإسلامي الأول في الدنيا كلها، فمصر بحق هي بلد المزارات الإسلامية لأهل السنة والشيعة معًا تفد إليها الطوائف الإسلامية كلها ساعية إلى بعض مساجدها تتمسح بها وتتدعي الانتماء إليها طائفة «البهرة» ببعيدة عن هذا السياق ولعلنا نتذكر في هذه المناسبة ذلك الاجتهاد الرفيع الذي قام به الإمام المستنير الشيخ «محمود شلتوت» شيخ الأزهر الأسبق عندما أصدر فتواه الشهيرة التي تقتضي بالمساواة بين أهل السنة وأهل الشيعة «الاثنى عشرية»، وهو ما كان انقلابًا حقيقيًّا أدى إلى نزع فتيل الجفوة بين أكبر =

✍ ونقول: إن شيخ الإسلام ابن تيمية جبل أشم.. والشهادة له بأنه شيخ الإسلام قالها شيوخ الإسلام الربانيين من بعده، ومن يحاول الافتراء عليه بأن يكفر الجماعة أحيانًا يبين قدر جهله عند من يعرف ابن تيمية من أقواله وكتبه واللَّه الموعد بينه وبين شانئية:

زعمتم أنكم أحبار علم ... وتطعن في ابن تيمية الأمينا
وكلكمُ خُواءٌ وهو بحرٌ ... هو الصبارُ شيخ المسلمينا
وذا قول الأئمة من قديم ... وما بالطعن صار التبرطينا
أنأخذ عنكمُ الدين النديّ ... وقد صرتُم رعاة الفسق فينا

✍ وها نحن نفرد من كلام ابن تيمية ما ينسف هذه الفرية:

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«إني من أعظم الناس نهيًا عن أيُنسب معين إلى تكفر وتفسيق ومعصية إلا إذا عُلِم أنه قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرى وعاصيًا أخرى»[1].

وقال: «وكنت أبين لهم أنما نُقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حق؛ لكن يجب التفريق بين

= مذهبين إسلاميين وإيجاد حالة من الارتياح المذهبي الذي يعد إضافة إيجابية مطلوبة للأمة الإسلامية، ومنذ ذلك الحين والأزهر الشريف يواصل رسالته في تدريس الفقه والشريعة والدعوة وفقًا للمذاهب السنية الأربعة مضافًا إليها الفقه الجعفري لأهل الشيعة وهو ما يؤكد استنارة الأزهر واعتداله وشخصيته الرحبة التي يسعى إليها المسلمون جميعًا، بل تتجاوز ذلك حاليًا إلى الحوار البناء مع أهل الكتاب واتباع الديانات السماوية الغراء» اهـ. كلام الفقي.

وسنرد على هذه الجهالات في رسالة مستقلة تبيّن تخبط الرجل ورحم اللَّه من قال:

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو لطّخت وجهـــــك بالمدادِ

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣/ ٢٢٩).

الإطلاق والتعيين.

❑ وهذه أول مسألة تنازعت فيها الأمة من مسائل الأصول الكبار، وهي مسألة «الوعيد» فإن نصوص القرآن في الوعيد مطلقة كقوله: ﴿**إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً**﴾ الآية، وكذلك سائر ما ورد: من فعل كذا فله كذا، فإن هذه مطلقة عامة.

وهي بمنزلة قول من قال من السلف: من قال كذا: فهو كذا ثم الشخص المعين يلتغي حكم الوعيد فيه: بتوبة، أو حسنات ماحية، أو مصائب مكفرة، أو شفاعة مقبولة.

والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول ﷺ؛ لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئًا.

وكنت دائمًا أذكر الحديث الذي في «الصحيحين» في الرجل الذي قال: «إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في اليم، فواللَّه لئن قدر اللَّه علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين، ففعلوا به ذلك، فقال اللَّه: ما حملك على ما فعلت. قال خشيتك فغفر له».

فهذا رجل شك في قدرة اللَّه، وفي إعادته إذا ذُري، بل اعتقد أنه لا يُعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلاً لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف اللَّه أن يعاقبه، فغفر له بذلك»[1].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن المقالة تكون كفرًا: كجحد وجوب الصلاة

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

والزكاة والصيام والحج وتحليل الزنا والخمر والميسر، ونكاح ذوات المحارم، ثم القائل بها قد يكون بحيث لم يبلغه الخطاب وكذا لا يكفر به جاحده، كمن هو حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة بحيث لم تبلغه شرائع الإسلام، فهذا لا يُحكم بكفره بجحد شيء مما أنزل على الرسول إذا لم يعلم أنه أُنزل على الرسول»[1].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن نصوص الوعيد التي في الكتاب والسنة، ونصوص الأئمة بالتكفير، والتفسيق ونحو ذلك لا يستلزم ثبوت موجبها في حق المعين، إلاّ إذا وُجدت الشروط وانتفت الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول، والفروع. هذا في عذاب الآخرة، فإن المستحق للوعيد من عذاب اللَّه ولعنته وغضبه في الدار الآخرة، خالد في النار، أو غير خالد، وأسماء هذا الضرب من الكفر والفسق، يدخل في هذه القاعدة، سواء كان بسبب بدعة اعتقادية، أو عبادية، أو بسبب فجور في الدنيا، وهو الفسق بالأعمال»[2].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «من الناس من يكون جاهلاً ببعض هذه الأحكام جهلاً يُعذَر به، فلا يُحكم بكفر أحدٍ حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿**لئلا يكون للناس على اللَّه حجة بعد الرسل**﴾، وقال: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾، ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه؛ أو لم يعلم أن الخمر يحرُم لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا؛ بل ولم يُعاقَب حتى تبلغه الحجة النبوية».

وقال: «وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث اللَّه به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيراً مما يبعث اللَّه به رسوله ولا يكون هناك من

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٥٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢١٥) طبع دار الوفاء.

يبلغه لك، ومثل هذا لا يكفر؛ ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول؛ ولهذا جاء في الحديث: «**يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حجًّا إلا الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، يقول أدركنا آباءنا وهم يقولون: لا إله إلا اللَّه، وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجًّا، فقال: ولا صوم ينجيهم من النار**».

وقد دلَّ على هذا الأصل ما أخرجاه في «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قال رجل ـ لم يعجل حسنة قط ـ لأهله: إذا مات فحرِّقوه، ثم اذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فواللَّه لئن قدر اللَّه عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبنه أحدًا من العالمين، فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر اللَّه البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب وأنت أعلم؛ فغفر اللَّه له**».

وفي لفظ آخر: «**أسرف رجل على نفسه فلماحضره الموت أوصى بنيه فقال: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم اذروني في البحر، فواللَّه لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذَّبه أحدًا. قال: ففعلوا ذلك به. فقال للأرض: أدِّ ما أخذت، فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب، أو قال: مخافتك، فغفر له بذلك**»، وفي طريق آخر: «**قال اللَّه لكل شيء أخذ منه شيئًا: أدِّ ما أخذت منه**».

وقد أخرج البخاري هذه القصة من حديث حذيفة، وعقبة بن عمرو أيضًا عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «**كان رجل فيمن كان قبلكم كان يسيء الظن بعمله، فقال لأهله: إذا أنا مت فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف ففعلوا، فجمعه اللَّه، ثم قال: ماحملك على الذي فعلت**[1] ؟ **فقال: ما حملني إلا**

(١) وفي نسخة: صنعت.

مخافتك، فغفر له».

وفي طريق آخر: «إن رجلاً حضره الموت، فلما يئس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مت، فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا، وأوقدوا فيه نارًا حتى إذا أكلت لحمي، ووصلت إلى عظمي، فامتحشت، فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يومًا فذروني في اليم، فجمعه اللَّه فقال له: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك. فغفر اللَّه له». قال عقبة بن عمرو: أنا سمعته ـ يعني النبي ﷺ ـ يقول ذلك، وكان نبَّاشا».

فهذا الرجل ظن أن اللَّه لا يقدر عليه إذا تفرّق هذا التفرّق، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة اللَّه تعالى، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرَّقت كفر، لكنه كان مع إيمانه باللَّه وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلاً بذلك، ضالاً في هذا الظن مخطئًا، فغفر اللَّه له ذلك.

والحديث صريح في أن الرجل طمع أن لا يعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شاكًّا في المعاد، وذلك كفر ـ إذا قامت حجة النبوة على مُنكره حكم بكفره ـ هو بين في عدم إيمانه باللَّه تعالى».

وقال: «فغاية ما في هذا أنه كان رجلاً لم يكن عالمًا بجميع ما يستحقه اللَّه من الصفات، وبتفصيل أنه القادر، وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك، فلا يكون كافرًا.

ومن تتبع الأحاديث الصحيحة وجد فيها من هذا الجنس ما يوافقه.. فهذه عائشة أم المؤمنين سألت النبي ﷺ هل يعلم اللَّه كل ما يكتم الناس[1] فقال لها النبي ﷺ: «نعم». وهذا يدل على أنها لم تكن تعلم ذلك، ولم تكن قبل معرفتها بأن اللَّه عالم بكل شيء يكتمه الناس كافرة، وإن كان الإقرار بذلك بعد قيام الحجة من أصول الإيمان، وإنكار علمه بكل شيء

(١) ورد في حديث عائشة عند مسلم أنها قالت للنبي: «... قالت: قلتُ: مهما يكتم الناس يعلمه اللَّه؟ قال: نعم!.

كإنكار قدرته على كل شيء، هذا مع أنها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب، ولهذا لهزها النبي ﷺ وقال: أتخافين أن يحيف اللَّه عليك ورسوله؟ وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع.

فقد تبيَّن أن هذا القول كفر، ولكن تكفير قائله لا يُحكم به حتى يكون قد بلغه من العلم ما تقوم به عليه الحجة التي يكفر تاركها»[1].

□ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعيَّن، وإن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعيَّن إلا إذا وُجدَت الشروط وانتفت الموانع. يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات، لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه.

فإن الإمام أحمد ـ مثلاً ـ قد باشر «الجهمية» الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفي الصفات، وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات وقطع الأرزاق، وردِّ الشهادة، وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولى الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم: يكفِّرون كل من لم يكن جهميًّا موافقًا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القران، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر، فلا يولونه ولاية، ولا يفكُّونه من عدو، ولا يعطونه شيئًا من بيت المال، ولا يقبلون له شهادة، ولا فُتيا، ولا رواية ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة، والافتكاك من الأسر وغير ذلك، فمن أقرّ بخلق القران حكموا له بالإيمان، ومن لم يقرّ به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان، ومن كان داعيًا إلى غير التجهم قتلوه أو ضربوه أو حبسوه.

✍ ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١/٤٠٦ ـ ٤١٣).

قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب.

ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحلَّلهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعيَّنين من الجهمية، الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوق، وأن اللَّه لا يُرى في الآخرة».

وقال عن حديث الرجل الذي لم يعمل خيرًا قط: «فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة اللَّه على إعادة ابن آدم، بعدما أحرق وذري، وعلى أنه يُعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك، وهذان أصلان عظيمان:

أحدهما: متعلق باللَّه تعالى، وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير.

والثاني: متعلق باليوم الآخر، وهو الإيمان بأن اللَّه يعيد هذا الميت، ويجزيه على أعماله، ومع هذا فلما كان مؤمنًا باللَّه في الجملة، ومؤمنًا باليوم الآخر في الجملة، وهو أن اللَّه يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملاً صالحًا ـ وهو خوفه من اللَّه أن يعاقبه على ذنوبه ـ غفر اللَّه له بما كان منه من الإيمان باللَّه، واليوم الآخر والعمل الصالح...

وأيضًا فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل، واتفقوا على عدم التكفير بذلك، مثل ما أنكر بعضُ الصحابة أن يكون الميت يسمع دعاء الحي، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة، وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه، ولبعضهم في الخلافة والتفضيل كلام معروف، وكذلك لبعضهم في قتال بعض ولعن بعض وإطلاق تكفير بعض أقوال معروفة.

❑ وكان القاضي شريح يُنكر قراءة مَنْ قرأ: ﴿**بل عجبتُ**﴾، ويقول:

إن اللَّه لا يعجب؛ فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال: إنما شريح شاعر يعجبه علمه. كان عبداللَّه أفقه منه، فكان يقول: ﴿بل عجبتُ﴾. فهذا قد أنكر قراءة ثابتة، وأنكر صفة دلَّ عليها الكتاب والسنَّة، واتفقت الأمة على أنه إمام من الأئمة، وكذلك بعض السلف أنكر بعضهم حروف القرآن، مثل إنكار بعضهم قوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ وقال: إنما هي: أو لم يتبين الذين آمنوا، وإنكار الآخر قراءة قوله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾، وقال: إنما هي: ووصى ربك، وبعضهم كان حذف المعوذتين، وآخر يكتب سورة القنوت. وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر.

❑ وأيضًا فإن الكتاب والسنة قد دلَّ على أن اللَّه لا يعذب أحدًا إلا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسًا، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لئلا يكون للناس على اللَّه حجة بعد الرسل﴾، وقوله: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي﴾ الآية، وقوله: ﴿أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير﴾، وقولهم: ﴿وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم﴾ الآية، وقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى يبعث رسولا﴾، وقوله: ﴿وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا﴾، وقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾، وقوله: ﴿ولو لا أن تصيبهم مصيبة بما قامت أيديهم فيقولون ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك

ونكون من المؤمنين﴾ ونحو هذا في القرآن في مواضع متعددة.

فمن كان قد آمن باللَّه ورسوله، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول، فلم يؤمن به تفصيلاً، إما أنه لم يسمعه، أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يُعذر به، فهذا قد جعل فيه من الإيمان باللَّه وبرسوله ما يُوجب أن يثيبه اللَّه عليه، وما لم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التي يكفر مخالفها.

❑ وأيضًا فقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفه؛ بل ولا يفسق، بل ولا يأثم؛ مثل الخطأ في الفروع العملية؛ وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن المخطئ فيها آثم، وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب، فهذان القولان شاذان، ومع ذلك فلم يقل أحد بتكفير المجتهدين المتنازعين فيها، ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع فيها بالنصوص والإجماع القديم، مثل استحلال بعض السلف والخلف لبعض أنواع الربا، واستحلال آخرين لبعض أنواع الخمر، واستحلال آخرين للقتال في الفتنة...».

❑ وقال: «إن التكفير العام ـ كالوعيد العام ـ يجب القول بإطلاقه وعمومه.

وأما الحكم على المعين بأنه كافر، أو مشهود له بالنار فهذا يقف على الدليل المعين، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه».

وقال: «وإذا عُرِف هذا فتكفير «المُعيَّن» من هؤلاء الجهال وأمثالهم ـ بحيث يُحكم عليه بأنه من الكفار ـ لا يجوز الإقدام عليه، إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية، التي يتبيَّن بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كُفر. وهكذا الكلام في تكفير جميع «المعينين» مع أن بعض هذه البدعة أشدّ من بعض وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان

ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يُكفر أحدًا من المسلمين، وإن أخطأ وغلط حتى تُقام عليه الحجة، وتُبين له المحجة.

ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة»[١].

❑ والنقولات كثيرة عن شيخ الإسلام ابن تيمية مشهورة، وهي مثل الشمس في وضوحها وألفاظه صريحة في أن هناك فرق كبير بين كفر النوع وكفر العين، وأن الرجل قد يرتكب فعل الكفر ولا يكفر به فربما كان الرجل جاهلاً أو متأولاً، أو مخطئًا، أو مُكرهًا، أو نشأ ببلدة لا تعرف الإسلام، أو كان حديث عهد بإسلام، أو غلبة علماء السوء على البلدة.

*** بيان شيخ الإسلام ابن تيمية أن ما يُعرَف بنظر العقل لا يكفر الإنسان بمخالفته، بل ولا يكفر بجحده وإنكاره، وإنما يكفَّر بمخالفة الرسول وهو عالم بذلك:**

❑ فقال ـ رحمه اللَّه ـ: «والكفر هو من الأحكام الشرعية، وليس كل من خالف شيئًا عُلم بنظر العقل يكون كافرًا، ولو قدر أنه جحد بعض صرائح العقول لم يُحكم بكفره حتى يكون قوله كفرًا في الشريعة، وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع»[٢].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «فإن الإيجاب والتحريم والثواب والعقاب والتكفير والتفسيق هو إلى اللَّه ورسوله، ليس لأحد في هذا حكم، وإنما

---

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٢/ ٤٨٧ ـ ٥٠١).
وانظر «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٣ ـ ٣٦)، و«الرد على البكري» ص(٣٢٨)، و«الأصفهانية» (١٤٤ ـ ١٤٥)، و«الاستقامة» (١/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩)، و«منهاج السنة» (٤/ ٧٦، ٧٧، ٩٩، ١٠٠)، (٧/ ٤٤٨ ـ ٤٤٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٢٥).

على الناس إيجاب ما أوجبه اللَّه ورسوله، وتحريم ما حرَّمه اللَّه ورسوله»[١] .

❑ وقال: «فإن الكفر والفسق أحكام شرعية، ليس ذلك من الأحكام التي يستقل بها العقل، فالكافر من جعله اللَّه ورسوله كافر، والفاسق من جعله اللَّه ورسوله فاسقًا، كما أن المؤمن والمسلم من جعله اللَّه ورسوله مؤمنًا ومسلمًا، والعدل من جعله اللَّه ورسوله عدلاً، والمعصوم الدم من جعله اللَّه ورسوله معصوم الدم»[٢] .

*** مذهب أهل السنة والجماعة عدم تكفير كل من خالفهم وإنْ كان مكفّرا لهم، وطريقة أهل البدع تكفير كل من خالفهم، واستحلال دمه:**

❑ قال شيخ الإسلام: «أهل السنة لا يبتدعون قولاً ولا يكفِّرون من اجتهد فأخطأ، وإن كان مخالفًا لهم، مكفراً لهم، مستحلاً لدمائهم، كما لم يكفِّر الصحابة الخوارج مع تكفيرهم لعثمان وعلي ومن والاهما، واستحلالهم لدماء المسلمين المخالفين لهم»[٣] .

وقال: «كان أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم وإن كان المخالف يكفِّرهم؛ لأن الكفر حكم شرعي. فليس للإنسان أن يعاقب بمثله، كمن كذب عليك وزنى بأهلك ليس لك أن تكذب عليه وتزني بأهله؛ لأن الكذب والزني حرام لحق اللَّه تعالى، وكذلك التكفير حق للَّه فلا يكفَّر إلا من كفَّره اللَّه ورسوله»[٤] .

❑ ويقول عن أئمة العلم والعدل والرحمة من أهل السنة والجماعة:

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٥٤٥).

(٢) «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٥/ ٩٢ ـ ٩٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٩٥).

(٤) «الرد على البكري» لابن تيمية (٢٥٦ ـ ٢٥٨).

«يرحمون الخلق فيريدون لهم الخير والهدي والعلم، لا يقصدون الشر لهم ابتداءً بل إذا عاقبوهم وبيَّنوا خطأهم وجهلهم وظلمهم كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله للَّه، وأن تكون كلمة اللَّه هي العليا»[١].

*** مَن كفّر غيره بغير حجَّة ولا برهان يستحق العقوبة الشديدة التي تردعه عن رمي الناس بالعظائم:**

❑ قال ابن تيمية: «وأما تكفير شخص عُلِم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم. فقد ثبت في الصحيح عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال: **«ولعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمنًا بكفر فهو كقتله»**[٢].

❑ وثبت في «الصحيح» أن: «**من قال: لأخيه يا كافر، فقد باء به أحدهما**»[٣].

❑ ثم قال: «وإذا كان تكفير المعيَّن على سبيل الشتم كقتله، إذ كل كافر يباح قتله، وليس كل من أُبيح قتله يكون كافرًا، فقد يُقتل الداعي إلى بدعة لإضلاله الناس وإفساده، مع إمكان أن اللَّه يغفر له في الآخرة؛ لما معه من الإيمان، فإنه قد تواترت النصوص بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[٤].

❑ وقال: «وأما من قال: إن من نفى التوسل الذي سمَّاه استغاثة بغيره

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رواه البخاري (٨/ ٢٨، ٤٩) (كتاب الأدب)، والشطر الأول منه رواه مسلم في «صحيحه» ـ كتاب الإيمان (١/ ٧٣).

(٣) رواه البخاري كتاب الأدب (٨/ ٤٨)، ومسلم كتاب الإيمان (١/ ٥٧).

(٤) «الاستقامة» (١/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

كفر، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله، فأظهر من أن يحتاج إلى جواب، بل المكفر بمثل هذه الأمور يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثال من المفترين على الدين، لا سيما مع قول النبي ﷺ: «**أيما رجل قال لأخيه: يا كافر. فقد باء بها أحدهما**»[1].

* دفع التكفير عن علماء المسلمين من أحق الأغراض الشرعية، ودفع إطلاق الكفر عن المسلمين من الأغراض الشرعية:

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رجل دفع التكفير عن بعض علماء المسلمين، وقد كفّرهم بعض الناس لقولهم إن النبي ﷺ أخطأ في مسألة تأبير النخل، فقال: «وهذا القائل إنما ذكر لدفع التكفير عن مثل الغزالي وأمثاله من علماء المسلمين الذين تكلموا في هذا الباب، بل دفع التكفير عن علماء المسلمين؛ وإن أخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية، حتى لو فُرض أن دافع التكفير عن القائل ـ يقصد المتكلم في مسألة تأبير النخل ـ يعتقد أنه ليس بكافر حماية له، ونصرًا لأخيه المسلم: لكان هذا غرضًا شرعيًّا حسنًا، وهو إن اجتهد في ذلك فله أجران، وإن اجتهد فيه فأخطأ فله أجر واحد.

فبكل حال هذا القائل محمود على ما فعل، مأجور على ذلك، مثاب عليه إذا كانت له فيه نيّة حسنة، والمنكر لما فعله أحق بالتعزير منه، فإن هذا يقتضي قوله القدح في علماء المسلمين من الكفر، ومعلوم أن الأول أحق من الثاني إن وجب التعزير لأحدهما، وإن كان كل منهما مجتهدًا اجتهادًا سائغًا، بحيث يقصد طاعة اللَّه ورسوله بحسب استطاعته، فلا إثم على واحد منهما»[2].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٠٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

* **وقال فيمن قال ببعض مقالات الباطنية جاهلاً، ولم تقم الحجة عليه:**

«فهذه المقالات هي كفر، لكن ثبوت التكفير في حق الشخص المعين موقوف على قيام الحجة التي يكفر تاركها، وإن أطلق القول بتكفير من يقول ذلك، فهو مثل إطلاق القول بنصوص الوعيد، مع أن ثبوت حكم الوعيد في حق الشخص المعين موقوف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه[١].

❑ وفي التفريق بين كفر النوع وكفر العين، والفرق بين العام المطلق والخاص المعين استدل بما ثبت في «صحيح البخاري» عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله، وكان يُلقّب حمارًا، وكان يُضحك النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا، فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللَّهم العنه، ما أكثر ما يُؤتى به، فقال النبي ﷺ: **«لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله»**[٢].

❑ قال: «فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب اللَّه ورسوله، مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرة: **«لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها»**[٣]، ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين، الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة به. وكذلك التكفير المطلق والوعيد المطلق، ولهذا كان الوعيد

(١) «بغية المرتاد» لابن تيمية (٣٥٣ ـ ٣٥٤).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٢٨٤).

(٣) قال ﷺ: «لعن اللَّه الخمر، وشاربها، وساقيها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه». رواه أبو داود في «سننه» ـ كتاب الأشربة (٣٦٧٤)، وابن ماجه في «سننه» ـ كتاب الأشربة (٣٣٨٠)، وصححه الحاكم والسيوطي، وقال المنذري: رجال ثقات، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٥٢٩)، و«صحيح الجامع» (٤٩٦٧).

المطلق في الكتاب والسنة مشروطًا بثبوت شروط، وانتفاء موانع»[1].

▫ وهناك موانع من إلحاق التكفير بالمعين، وهي الخطأ، والجهل، والعجز، والإكراه، والتأويل، والجنون، وغلبة علماء السوء على البلدة، والصغر.

موانع إطلاق الكفر على المعين

الأول: الخطأ:

والمقصود هنا غير العمد، وهذا الخطأ سواءً وقع في المسائل العلمية الخبرية، أو المسائل العملية فهو خطأ مغفور، ما لم تقم الحجة على صاحبه.

وهو يشمل صنفين من الناس:

الصنف الأول: المجتهد في إطلاق الحكم على المسألة.

الصنف الثاني: المتوقف عن الحكم في مسألة ما.

وقد يحصل أجر لبعض المجتهدين المخطئين أو المتوقفين في هذه المسائل، وقد لا يحصل لهم ذلك؛ إذ أن المسائل التي يخطئ فيها المجتهدون تنقسم ـ من حيث حصول أجر الاجتهاد وعدمه ـ إلى قسمين:

أحدهما: خطأ لا يعاقب عليه صاحبه ولا يثاب، حتى تبلغه الرسالة، وتقوم عليه الحجة، وهذا الخطأ فيما لم يشرع جنسه؛ كالشرك مثلاً.

▫ قال شيخ الإسلام في ذلك، بعد أن ذكر ما يشرع جنسه، وحكم المخطئ فيه: «بخلاف ما لم يشرع جنسه مثل الشرك، فإن هذا لا ثواب فيه، وإن كان اللَّه لا يعاقب صاحبه إلا بعد بلوغ الرسالة، كما قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾. لكنه وإن كان لا يعذب فإن هذا لا يثاب بل

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٢٩ ـ ٣٣٠).

هذا كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

❑ قال ابن المبارك هي: «الأعمال التي عملت لغير اللَّه». وقال مجاهد: «هي الأعمال التي لم تقبل».

* وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]. فهؤلاء أعمالهم باطلة لا ثواب فيها. وإذا نهاهم الرسول عنها فلم ينتهوا، عوقبوا، فالعقاب عليها مشروط بتبليغ الرسول، وأما بطلانها في نفسها فلأنها غير مأمور بها، فكل عبادة غير مأمور بها فلا بد أن ينهى عنها، ثم إن علم أنها منهي عنها وفعلها استحق العقاب، وإن اعتقد أنها مأمور بها، وكانت من جنس المشروع فإنه يثاب عليها، وإن كانت من جنس الشرك فهذا الجنس ليس فيه شيء مأثور به، لكن قد يحسب بعض الناس في بعض أنواعه أنه مأمور به، وهذا لا يكون مجتهدًا؛ لأن المجتهد لا بد أن يتبع دليلاً شرعيًا، وهذه لا يكون عليها دليل شرعي، لكن قد يفعلها باجتهاد مثله؛ وهو تقليده لمن فعل ذلك من الشيوخ والعلماء والذين فعلوا ذلك قد فعلوه لأنهم رأوه ينفع، أو لحديث كذب سمعوه. فهؤلاء إذا لم تقم عليها الحجة بالنهي لا يعذبون، وأما الثواب فقد يكون ثوابهم أنهم أرجح من أهل جنسهم، وأما الثواب بالتقرب إلى اللَّه فلا يكون بمثل هذه الأعمال»[1].

القسم الثاني: خطأ المجتهد الذي لا يعاقب على خطئه وله أجر على اجتهاده وهذا الخطأ يشترط فيه ثلاثة شروط:

الأول: أن يكون قصدة متابعة النبي ﷺ.

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٢ ـ ٣٣).

الثاني: أن يكون استفرغ وسعه في طلب الحق ومعنى الوسع [هو ما تسعه النفس، فلا تضيق عنه ولا تعجز عنه، فالوسع فعل بمعنى مفعول، كالجهد][1].

الثالث: أن يكون متبعًا دليلاً شرعيًّا؛ إلا أن هذا الدليل تخلف فيه شرط قبوله في الاستدلال ـ وهو لا يعلم ذلك ـ؛ كالصحة، وعدم النسخ، وعدم التخصيص، ونحو ذلك. أو فهم أمرًا غير مقصود منه.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه اللَّه تعالى ـ مبينًا هذه الشروط: «والمجتهد المخطئ له أجر؛ لأن قصده الحق وطلبه بحسب وسعه وهو لا يحكم إلا بدليل، كحكم الحاكم بإقرار الخصم بما عليه، ويكون قد سقط بعد ذلك بإبراء أو قضاء، ولم يقم به حجة، وحكمه بالبراءة مع اليمين، ويكون قد اشتغلت الذمة باقتراض، أو ابتياع غير ذلك، لكن لم يقم به حجة، وحكم لرب اليد مع اليمين، ويكون قد انتقل الملك عنه، أو يده يد غاصب؛ لكن لم يقم به حجة.

وكذلك الأدلة العامة؛ يحكم المجتهد بعمومه، وما يخصه ولم يبلغه[2]، أو بنص وقد نسخ ولم يبلغه، أو يقول بقياس ظهرت فيه التسوية؛ وتكون تلك الصورة امتازت بفرق مؤثر؛ وتعذرت عليه معرفته؛ فإن تأثير الفرق قد يكون بنص لم يبلغه، وقد يكون وصفًا خفيًّا.

ففي الجملة الأجر هو على اتباعه الحق بحسب اجتهاده؛ ولو كان في الباطن حق يناقضه؛ هو أولى بالاتباع، لو قدر على معرفته لكن لم يقدر.

فهذا كالمجتهدين في جهات الكعبة، وكذلك كل من عبد عبادة نُهِيَ عنها ولم يعلم بالنهي ـ لكن هي من جنس المأمور به ـ؛ مثل من صلى في

(١) «الاستقامة» (١/ ٢٧).

(٢) هكذا في الأصل، ولعلها (بعمومها وما يخصصها لم يبلغه).

أوقات النهي، وبلغه الأمر العام بالصلاة، ولم يبلغه النهي، أو تمسك بدليل خاص مرجوح»[١].

فإذا فقدت أحد هذه الشروط كان الحكم بحسب ما يقتضيه مخالفة الشرط فإن كان قصده عدم متابعة النبي ﷺ، بل قصده شقاقه وعناده فهو كافر.

وإن قصر في طلب الحق أو تكلم بغير دليل شرعي، فهو عاص، وقد يكون فاسقًا.

قال شيخ الإسلام: «وأما التكفير فالصواب أنه من اجتهد من أمة محمد ﷺ وقصد الحق فأخطأ لم يكفر، بل يغفر له خطؤه، ومن تبين له ما جاء به الرسول، فشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين فهو كافر. ومن اتبع هواه، وقصَّر في طلب الحق وتكلم بلا علم فهو عاص مذنب، ثم قد يكون فاسقًا، ثم قد تكون له حسنات ترجح على سيئاته»[٢].

* المجتهد المخطئ في التأويل:

ويدخل ضمن أقسام الخطأ الذي يعذر فيه المسلم: الخطأ في التأويل، قال شيخ الإسلام: «لكن ليس كل مخطئ يكفر، لا سيما إذا قاله متأولاً باجتهاد أو تقليد»[٣]، أما وقوع الذنب عليه وعظم الذنب وصغره فيتناسب مع حجم تقصيره في طلب الحق تناسبًا طرديًّا؛ بمعنى: أنه كلما كان تقصيره في طلب الحق أعظم، كان الذنب عليه أعظم. وفي هذا يقول شيخ

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٣٠ ـ ٣١).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ١٨٠).
(٣) «الرد على البكري» (٣٢٨).

الإسلام: «وعلى هذا فالمتأول الذي أخطأ في تأويله، في المسائل الخبرية والأمرية، وإن كان في قوله بدعة يخالف بها نصًّا، أو إجماعًا قديمًا، وهو لا يعلم أنه يخالف ذلك بل قد أخطأ فيه، كما يخطئ المفتي والقاضي في كثير من مسائل الفتيا والقضاء باجتهاده، يكون أيضًا مثابًا من جهة اجتهاده الموافق لطاعة اللَّه تعالى، غير مثاب من جهة ما أخطأ فيه، وإن كان معفوًّا عنه.

ثم قد يحصل فيه تفريط في الواجب، أو اتباع لهوى يكون ذنبًا منه، وقد يقوى فيكون كبيرة، وقد تقوم عليه الحجة التي بعث اللَّه عز وجل بها رسله، ويعاندها مشاقًّا للرسول من بعد ما تبين له الهدى، متبعًا غير سبيل المؤمنين، فيكون مرتدًّا ردة ظاهرة»[1].

❑ ومن الأمثلة على وقوع الخطأ في التأويل ما ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه اللَّه ـ بقوله: «وذلك كالمتأولين في تناول المسكر من صالحي أهل الكوفة، ومن اتّبعهم على ذلك، وإن كان المشروب خمرًا لا يشك في ذلك من اطلع على أقوال النبي ﷺ وأقوال الصحابة، وكذلك المتأولون للمتعة[2]، والصرف[3] من أهل مكة، متبعين لماكان يقوله ابن عباس ـ وإن كان قد رجع عن ذلك، أو زادوا عليه ـ إذ لا يشك في ذلك، وأنه من أنواع الربا المحرم والنكاح المحرم، من اطلع على نصوص النبي ﷺ، وكذلك المتأولون في

---

(١) «الأصفهانية» (١٤٤ ـ ١٤٥).

(٢) «سنن البيهقي» (٧/ ٢٠٥)، و«المغني» (١٠/ ٤٨).

(٣) وردت عدة أحاديث في ذلك منها: ما رواه الشيخان عن أبي المنهال قال: «باع شريك لي ورقًا بنسيئة إلى الموسم، أو إلى الحج، فجاء إلي فأخبرني، فقلت: هذا أمر لا يصلح، قال: قد بعته في السوق، فلم ينكر ذلك على أحد...». وكذلك ما ورد عن ابن عباس من إباحة ربا الفضل، متأولاً قوله النبي ﷺ: «لا ربا إلاّ في النسيئة»، فلما بين له رجع عن ذلك. رواه البخاري (٣/ ١٥٥) كتاب البيوع، ومسلم (٥/ ٤٥، ٤٩) كتاب البيوع.

بعض الأطعمة والحشوش[١] من أهل المدينة، وإن كان لا يشك في تحريم ذلك من اطَّلع على نصوص النبي ﷺ وأصحابه، وكذلك ما دخل فيه من دخل من السابقين والتابعين من القتال في الفتنة والبغي بالتأويل[٢]، مع علم في ذلك من نصوص الكتاب والسنة: من ترك القتال، والصلح. فما تأول فيه قوم من ذوي العلم والدين من مطعوم أو مشروب أو منكوح، أو مملوك، أو مما قد علم أن اللَّه قد حرمه ورسوله لم يجز اتباعهم في ذلك ـ مغفوراً لهم ـ وإن كانوا خيار المسلمين، واللَّه قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان، كما دل عليه الكتاب والسنة، وهو سبحانه يمحو السيئات بالحسنات، ويقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات»[٣].

❑ وقال أيضاً: «فالاستحلال الذي يكون من موارد الاجتهاد، وقد أخطأ المستحل في تأويله، مع إيمانه وحسناته، هو مما غفره اللَّه لهذه الأمة من الخطأ في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

كما استحل بعضهم بعض أنواع الربا، واستحل بعضهم بعض أنواع الخمر، واستحل بعضهم استماع المعازف، واستحل بعضهم من دماء بعض بالتأويل ما استحل. فهذه المواضع التي تقع من أهل الإيمان والصلاح تكون سيئات مكفرة أو مغفورة، أو خطأ مغفوراً، ومع هذا فيجب بيان ما دل عليه الكتاب والسنة من الهدي ودين الحق، والأمر بذلك والنهي عن خلافه بحسب الإمكان. ثم هذه الأمور التي كانت من أولئك تكثر وتتغلظ في قوم آخرين بعدهم، حتى تنتهي بهم إلى استحلال محارم اللَّه والخروج عن دين

(١) الحشوش: الأدبار. وقد روي عن ابن عمر، ونافع، وزيد بن أسلم، ومالك إباحة اتيان النساء في أدبارهن، متأولين قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. انظر «تفسير الطبري» (٢/ ٣٩٤)، «المغني» (١٠/ ٢٢٦).

(٢) المقصود بذلك ما وقع بين الصحابة في الجمل وصفين.

(٣) «الاستقامة» (١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

اللَّه، وإذا تغلظت هذه الأمور عاقب اللَّه أصحابها بما يشاء، وقد كان بعض الصحابة ظن أن الخمر حرِّمت على العامة دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فشربها متأولاً فأحضره عمر، واتفق هو وأئمة الصحابة كعلي وغيره على أنهم إن أصروا على استحلالها كفروا، وإن أقروا بالتحريم جلدوا، فأقروا بالتحريم. ثم حصل لذلك نوع من اليأس والقنوط لمن فعل، فكتب إليه عمر ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر:١، ٢]، وأظنه قال: ما أدري أي ذنبيك أعظم: استحلالك الرجس، أم يأسك من رحمة اللَّه؟[1].

وهذا كما أنه مثل لوقوع الخطأ في التأويل، فهو دليل أيضًا على أن التكفير يدرء عن المتأول.

*** والأدلة على أن المخطئ معذور كثيرة منها:**

ما رواه مسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾. قال دخل قلوبهم منها شيء، لم يدخل قلوبهم من شيء، فقال النبي ﷺ: «**قولوا سمعنا، وأطعنا، وسلَّمنا**». قال: فألقى اللَّه الإيمان في قلوبهم، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. قال: قد فعلت ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾. قال: قد فعلت ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا﴾ قال: قد فعلت»[2].

وأيضًا فإن اللَّه سبحانه وتعالى قد أخبر في غير ما موضع أنه لا يكلّف

(١) «صحيح مسلم» ـ كتاب الإيمان (١/ ٨١).

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٣٠١).

نفسًا إلا وسعها، كقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصاحات لا نكلف نفسا إلا وسعها﴾، وقوله: ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾، وقوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

❑ وقال بعد إيراده لهذه الآيات: «ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول ﷺ، وأخطأ في بعض ذلك فاللَّه يغفر له خطأه، تحقيقًا للدعاء الذي استجابه اللَّه لنبيه وللمؤمنين، حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1].

❑ وقال أيضًا: «ولو كان أخوه المسلم قد أخطأ في شيء من أمور الدين فليس كل من أخطأ يكون كافرًا، ولا فاسقًا، بل قد عفا اللَّه لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، وقد قال تعالى في كتابه في دعاء الرسول ﷺ والمؤمنين: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، وثبت في الصحيح أن اللَّه قال: قد فعلت»[2].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

❑ ومنها ما رواه ابن ماجه وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن اللَّه وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**».

❑ **ومنها**: الإجماع، قال شيخ الإسلام: «وأجمع الصحابة وسائر أئمة

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٤٢٠).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه ـ كتاب الطلاق (٢٠٤٥)، وحسنه ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٨٥)، والنووي في «الأربعين النوويه»، وصححه الألباني في «الإرواء» (٨٢).

المسلمين على أنه ليس كل من قال قولاً أخطأ فيه أنه يكفر بذلك، وإن كان قوله مخالفًا للسنة، فتكفير كل مخطئ خلاف الإجماع»[١] .

□ **ومنها**: قياس الأولَى؛ وذلك أن المجتهد المخطئ أولى بالعذر من الجاهل الذي لم يطلب العلم.

*** ثانيًا : الجهل :**

بيَّن شيخ الإسلام أن من شرط الإيمان وجود العلم بالمؤمن به، لذا من أنكر أمرًا من أمور الشرع جاهلاً به، ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله، فإنه لا يكفر[٢] . حتى الوقوع في مظهر من مظاهر الشرك، والواقع فيه لم يكن عالمًا بتحريمه في دين الإسلام؛ كأن يكون حديث عهد بالإسلام، وقد اعتاد على هذا المظهر الشركي قبل إسلامه، ولم يعلم مناقضته للإسلام، أو كان يعيش في بلد جهل، فهذا لا يستحق العقوبة حتى تقام عليه الحجة[٣] .

وهذا المانع ذكره السلف قبل شيخ الإسلام، فقد ذكره سفيان الثوري ضمن رده على المرجئة، قال: «ركوب المحارم من غير استحلال معصية، وترك الفرائض متعمدًا من غير جهل ولا عذر، هو كفر»[٤] .

كما ذكره ابن قدامة المقدسي[٥] .

وقد سبق ذكر أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في أن الجهل مانع من إلحاق الكفر بالمعين.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٨٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٣٨).

(٣) «الرد على الأخنائي» (٦١ ـ ٦٢).

(٤) «السنة» لعبدالله بن أحمد (٧٤٥).

(٥) «المغني» (١٢/ ٢٧٥، ٢٧٦).

* **ثالثًا: العجز:**

شريعة الإسلام شريعة سهلة ميسرة، فهي كما أنها جاءت محكمة شاملة لجميع نواحي الحياة، فهي كذلك متناسبة مع أحوال البشر وطاقاتهم وقدرهم؛ لذا جعلت الأحكام في حال الضرورة مختلفة عن الأحكام في حال السعة والرخاء، ومن هذا التناسب في التشريع مع طاقات البشر وقدرهم: أن المرء لا يكلف ما لا يطيق[١]؛ ولا يقدر على أدائه.

* وقد جاء هذا المعنى مصرحًا به في مواضع كثيرة من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾، وقوله: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا**﴾، وغيرها من الآيات.

❑ وانطلاقًا من ذلك عد شيخ الإسلام العجز عن أداء ما شرع اللَّه عز وجل من الموانع التي تمنع من التكفير؛ وذلك كأن تبلغ دعوة النبي ﷺ لبعض الكفار وهم في دار كفر، فعلموا أنه رسول اللَّه فآمنوا به، وآمنوا بما أنزل عليه واتقوا اللَّه ما استطاعوا، ولم يتمكنوا من الهجرة إلى دار الإسلام، ولا الالتزام بجميع شرائع الإسلام؛ لكونهم ممنوعين من الهجرة، وممنوعين من إظهار دين اللَّه، وليس عندهم من يعلمهم جميع شرائع الإسلام، فهؤلاء مؤمنون من أهل الجنة[٢].

❑ قال شيخ الإسلام مبينًا هذا المانع: «فمن ترك بعض الإيمان الواجب

---

(١) انظر (النساء: ١٦٥)، والإسراء (١٥)، و«مجموع الفتاوى» (١١/٤٠٦، ٤٠٩ ـ ٤١٠، ٤١٢ ـ ٤١٣)، و«مجموع الفتاوى» (٣/٢٣١)، و«الرد على البكري» (٢٥٩)، و«مجموع الفتاوى» (٣٥/١٦٥ ـ ١٦٦)، (٢٠/٣٦)، (٦/٦١)، و«الاستقامة» (١/٣٠)، و«درء تعارض العقل والنقل» (٨/٢٣٨)، و«الرد على الأخنائي» (٦٦)، و«الأصفهانية» (١٢٧ ـ ١٢٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩/٢١٧).

لعجزه عنه؛ إما لعدم تمكنه من العلم؛ مثل أن لا تبلغه الرسالة، أو لعدم تمكنه من العمل لم يكن مأموراً بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه؛ وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل؛ بمنزلة المريض والخائف والمستحاضة، وسائر أهل الأعذار؛ الذين يعجزون عن إتمام الصلاة، فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه، وبه أمروا إذ ذاك، وإن كانت صلاة القادر على الإتمام أكمل وأفضل، كما قال النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف وفي كل خير**»(١).

*** واستدل شيخ الإسلام على ذلك بما يأتي:**

الدليل الأول:

أن النجاشي كان ملك النصارى في الحبشة، فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، ولم يدخل معه سوى نفر يسير منهم، فلما مات، صلى عليه النبي ﷺ بالمدينة، خرج بالمسلمين إلى المصلى، فصفهم صفوفًا، وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات، فقال: «**قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش، فهلم فصلوا عليه**»(٢).

وكثير من شرائع الإسلام لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر ولم يجاهد، بل قد روي أنه لم يصل الصلوات الخمس، ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية؛ لأن ذلك يظهر عند قومه فينكرونه عليه وهو لا يمكنه مخالفتهم. ويُعلم قطعًا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن؛ لأن قومه لا يقرونه على ذلك، ولهذا جعل اللَّه هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي ﷺ، قال اللَّه تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**

(١) رواه مسلم (٧/ ٥٦) ـ كتاب القدر انظر «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩).
(٢) رواه البخاري ـ كتاب الجنائز (٢/ ١٨٥)، ومسلم ـ كتاب الجنائز (٣/ ٥٥).

لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهذه الآية قد قال طائفة من السلف: إنها نزلت في النجاشي، ومنهم من قال: فيه وفي أصحابه[١].

الدليل الثاني:

* قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

❑ ذكر شيخ الإسلام أن هذه الآيات في جماعة من المؤمنين كانوا يستخفون بإيمانهم بمكة، وهم عاجزون عن الهجرة، فعذرهم الله تعالى[٢].

الدليل الثالث:

* قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

❑ قال شيخ الإسلام مبينًا وجه الدلالة من هذه الآية: «فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم فقد سقط ما عجزوا عنه، فإذا كان هذا فيمن كان مشركًا وآمن فما الظن بمن كان من أهل الكتاب وآمن»[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢١٧ ـ ٢١٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٢٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

الدليل الرابع:

ما أخبر به عن حال مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وعن حال إمرأة فرعون وكما كان يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ مع أهل مصر؛ فإنهم كانوا كفارًا ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام؛ لأنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه[1].

*** رابعًا: الإكراه:**

الإكراه لغة هو: إلزام الغير بأمر هو له كاره.

واصطلاحًا: بيَّنه شيخ الإسلام بأنه: كل ما أدى بشخص لو لم يفعل المأمور به إلى ضرب، أو حبس، أو أخذ مال، أو قطع رزق يستحقه، أو نحو ذلك.

وشروطه أربعة:

الأول: أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزًا عن الدفع؛ ولو بالفرار.

الثاني: أن يغلب على ظن المكره أنه إذا امتنع أوقع به ما هدده به.

الثالث: أن يكون ما هدده به فوريًّا، أو بعد زمن قريب جدًّا، أو جرت العادة أنه لا يخلف ما هدده به.

الرابع: أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره.

* والدليل عليه قوله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [النحل: ١٠٦].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩/٢١٧).

أما اعتبار هذا المانع، وإباحة اظهار ما يخالف الدين في حال الإكراه، فقد ذكره شيخ الإسلام ـ رحمه اللَّه ـ، فقال ضمن رده على التقية؛ أحد عقائد الرافضة: «وكتمان الدين شيء، وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبيحه اللَّه قط؛ إلا لمن أكره، بحيث أبيح له النطق بكلمة الكفر»[١].

❑ وقال في موضع آخر: «فأباح سبحانه عند الإكراه أن ينطق الرجل بالكفر بلسانه، إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان، بخلاف من شرح بالكفر صدرًا. وأباح للمؤمنين أن يتقوا من الكافرين تقاة، مع نهيه لهم عن موالاتهم.

● وعن ابن عباس: «إن التقية باللسان»[٢]، ولهذا لم يكن عندنا نزاع في أن الأقوال لا يثبت حكمها في حق المكره بغير حق، فلا يصح كفر المكره بغير حق، ولا إيمان المكره بغير حق»[٣].

وفي موضع آخر قال: «وإذا أكره على كلمة الكفر، جاز له التكلم بها، مع طمأنينة في قلبه بالإيمان»[٤].

وهذا المانع معتبر عند السلف لدلالة النصوص عليه، فقد روي عن الحسن أنه قال: «التقية إلى يوم القيامة».

● وعن ابن عباس فيمن يكرهه اللصوص، فيطلق امرأته، قال: ليس بشيء. وبه قال ابن عمر، وابن الزبير، والشعبي والحسن[٥]، كما

---

(١) «منهاج السنة» (٦/ ٤٢٤).

(٢) رواه صالح بن أحمد في «مسائل الإمام أحمد» (٥٧١)، والطبري في «التفسير» (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٠٨).

(٣) «الاستقامة» (٢/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٨/ ٥٠٤).

(٥) انظر «تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٢). ويقصد بالتقية هنا: إبطان الإسلام إذا خشي على نفسه في بلد الكفر.

اعتبره الشافعي[١] ، وأبو حنيفة[٢] ، وذكره البخاري في «صحيحه».

❑ وقال بعد أن سرد بعض الأدلة عليه: فعذر اللَّه المستضعفين الذين لا يمتنعون من ترك اللَّه ما أمر اللَّه به، والمكره لا يكون إلا مستضعفًا غير ممتنع من فعل ما أمر به[٣] .

كما ذكر القرطبي: أن النطق بكلمة الكفر تسقط الأحكام المترتبة عليه والإثم في حال الإكراه باتفاق العلماء[٤] .

وضمن تقرير شيخ الإسلام لارتباط الأعمال الظاهرة لأعمال القلوب بين أن وجود هذا المانع يمنع من إيقاع الكفر.

❑ فقال ـ رحمه اللَّه ـ مستدلاً على ذلك: «أما مع اعتقاده أن الفعل يجب عليه باطنًا وظاهرًا، فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط، ونظير هذا لو قيل: أن رجلاً من أهل السنة قيل له: ترضّ عن أبي بكر وعمر فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما، ومع عدم الأعذار المانعة من الترضي عنهما، فهذا لا يقع أبدًا.

وكذلك لو قيل أن رجلاً يشهد أن محمدًا رسول اللَّه باطنًا وظاهرًا وقد طلب منه ذلك، وليس هناك رهبة ولا رغبة لأجلها، فامتنع منها حتى قتل، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمدًا رسول اللَّه؛ ولهذا كان القول في الظاهر من الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف، والأولين والآخرين؛ إلا الجهمية ـ جهمًا ومن وافقه ـ.

فإنه إذا قدر أنه معذور لكونه أخرس، أو لكونه خائفًا من قوم إن أظهر

(١) انظر «الأم» (٤/ ٣٠٤).

(٢) انظر «المبسوط» (١٢/ ٤٣ ـ ٤٤).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢/ ٣١١ فتح الباري).

(٤) «تفسير القرطبي» (٣/ ٤٣٢).

الإسلام آذوه ونحو ذلك، فهذا يمكن أن لا يتكلم مع إيمانه في قلبه، كالمكره على كلمة الكفر، قال اللَّه تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ومن اتبعه.

فإنه جعل[١] كل من تكلم بالكفر من أهل وعيد الكفار، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»[٢].

وهل يشمل الإكراه الأفعال كما يشمل الأقوال، أم لا؟

بين شيخ الإسلام أن هذه المسألة مختلف فيها على قولين، وأن الجمهور على أنه شامل للأفعال كما أنه شامل للأقوال، وهذا الذي مال إليه ـ رحمه اللَّه ـ.

❑ فقال ضمن كلامه على من أكره على السجود لمخلوق: «وأما إذا أكره الرجل على ذلك بحيث لو لم يفعله لأفضى إلى ضربه، أو حبسه، أو أخذ ماله الذي يستحقه من بيت المال، ونحو ذلك من الضرر، فإنه يجوز عند أكثر العلماء؛ فإن الإكراه عند أكثرهم يبيح الفعل المحرم كشرب الخمر ونحوه وهو المشهور عن أحمد وغيره، ولكن عليه مع ذلك أن يكرهه بقلبه، ويحرص على الامتناع منه بحسب الإمكان. ومن علم منه الصدق أعانه اللَّه تعالى، وقد يعافى ببركة صدقه من الأمر بذلك. وذهب طائفة إلى أنه لا يبيح إلا الأقوال دون الأفعال، ويروى ذلك عن ابن عباس، ونحوه، وقالوا: إنما التقية باللسان. وهي الرواية الأخرى عن أحمد»[٣].

---

(١) لعلها: فإنها جعلت...، ويرجع الضمير إلى الآية.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢١٩ ـ ٢٢٠).

(٣) «مجموع الفتاوى المصرية» (١/ ٥٦)، ورواية الإمام أحمد الثانية رواها صالح عنه. انظر «مسائل الإمام إحمد» لابنه صالح (٥٧٠)، أما حكاية المشهور فانظر «المغني» (١٢/ ٤٩٩).

❑ وأما فعل الأفعال الكفرية، أو قول الأقوال الكفرية للحصول على فضل رئاسة أو مال، وإذا لم يفعل ذلك فاتته هذه الرئاسة أو هذا المال فلا يعتبر إكراهًا.

❑ يقول شيخ الإسلام في ذلك: «وأما فعل ذلك لأجل فضل الرئاسة والمال فلا»[١].

❑ وبين ـ رحمه اللَّه ـ وجهًا حسنًا يسلكه المكره على مثل ذلك، ونوى بقلبه إن هذا الخضوع للَّه تعالى كان حسنًا، مثل أن يكرهه على كلمة الكفر وينوي معنى جائزًا، واللَّه أعلم»[٢].

*** شروط تكفير المعين:**

الأول: أن يقصد المعيَّن بكلامه المعنى المكفِّر.

فلزام قبل تكفير المعين معرفة قصد المعين، والتزامه بالمعنى الكفري أو عدم التزامه؛ وذلك لأن بعض الألفاظ متشعبة المعاني، فربما قصد المعين من لفظ معنى غير المعنى الكفري، أو قال قولاً يستلزم أمورًا مكفرة لم يقصدها، ولا يلتزمها، فمن كان هذا حاله يكون رميه بالكفر أمرًا مشكوكًا، لا يجوز التجرؤ عليه.

❑ يقول: «لازم المذهب ليس بمذهب، إلا أن يلتزمه صاحب المذهب. فخلق كثير من الناس ينفون ألفاظًا أو يثبتونها، بل ينفون معاني أو يثبتونها، ويكون ذلك مستلزمًا لأمور هي كفر وهم لا يعلمون بالملازمة بل يتناقضون، وما أكثر تناقض الناس لا سيما في هذا الباب، وليس التناقض كفرًا»[٣].

---

(١) «مجموعة الفتاوى المصرية» (١/ ٥٦).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

وقال: «فالصواب أن مذهب الإنسان ليس بمذهب له إذا لم يلتزمه، فإنه إذا كان قد أنكره أو نفاه، كانت إضافته إليه كذبًا عليه، بل ذلك يدل على فساد قوله وتناقضه في المقال، غير التزامه اللوازم التي يظهر أنها من قبل الكفر والمحال مما هو أكثر[١] .

فالذين قالوا بأقوال يلزمها أقوال يُعلم أنه لا يلتزمها، لكن لم يعلم أنها تلزمه، ولو كان لازم المذهب مذهبًا للزم تكفير كل من قال عن الاستواء أو غيره من الصفات أنه مجاز ليس بحقيقة، فإن لازم هذا القول يقتضي أن لا يكون بشيء من أسمائه أو صفاته حقيقة... لكن نعلم أن كثيرًا ممن ينفي ذلك لا يعلم لوازم قوله»[٢] .

واستدل شيخ الإسلام بقول اللَّه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا**﴾ [البقرة: ١٠٤].

قال: «وهذه العبارة كانت مما يقصد به اليهود إيذاء النبي ﷺ، والمسلمون لم يقصدوا ذلك فنهاهم اللَّه تعالى عنها، ولم يكفرهم بها»[٣] .

فإن المسلمين «كانوا يقولون: راعنا يا رسول اللَّه. من المراعاة أي: أرعنا سمعك؛ أي: فرِّغ سمعك لكل منا، وكانت هذه اللفظة سبًّا قبيحًا بلغة اليهود، قيل: كان معناها عندهم: اسمع لا سمعت، وقيل: هي من الرعونة، فكانوا إذا أرادوا إطلاق الحمق على أحد قالوا: راعنا. فنهى اللَّه المسلمين من إطلاق هذه الكلمة، حتى لا يتخذها اليهود وسيلة لسبِّ النبي ﷺ جهارًا»[٤] .

---

(١) الكلام مبتور في هذا الموضع.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠/٢١٧ ـ ٢١٨).

(٣) «الرد على البكري» لابن تيمية (٣٤١ ـ ٣٤٢).

(٤) «تفسير البغوي» (١/١٠٢).

الشرط الثاني: قيام الحجة:

فقيام الحجة شرط في تكفير المعين، وقيام الحجة في حق الكفار هو وجود الرسول المبلِّغ، والتمكن من الاستماع له.

❑ قال ابن تيمية: «والحجة قامت بوجود الرسول المبلِّغ وتمكنهم من الاستماع والتدبر، لا بنفس الاستماع»[1].

أما في المسلم فيراعي اختلاف أحوال الناس، من حيث قرب عهدهم بالإسلام أو قدمهم فيه، ومن حيث انتشار العلم في بلدانهم، أو قصوره عنها، كما يراعى حال السنة التي جحدها الجاحد من حيث ظهورها وخفائها. فإن كانت السنة خافية، أو البلد ينتشر فيه الجهل، أو كان الشخص قريب عهد بإسلام، أو لم يبلغه العلم بالسنة، اشترط فيه قيام الحجة، وإلا ينظر هل تعلقت بجحده شبهة أم لا؟

❑ قال شيخ الإسلام: «وقد ينكر أحد القائلين على القائل الآخر قوله إنكارًا يجعله كافرًا، أو مبتدعًا أو فاسقًا، يستحق الهجر، وإن لم يستحق ذلك، وهو أيضًا اجتهاد، وقد يكون ذلك التغليظ صحيحًا في بعض الأشخاص، أو بعض الأحوال، لظهور السنة التي يُكفَّر من خالفها، ولما في القول الآخر من المفسدة التي يُبدع قائلها، فهذه أمور ينبغي أن يعرفها العاقل، فإن القول الصدق إذا قيل فإن صفته الثبوتية اللازمة: أن يكون مطابقًا للمخبر.

أما كونه عند المستمع معلومًا، أو مظنونًا، أو مجهولاً، أو قطعيًّا، أو ظنيًّا، أو يجب قبوله، أو يحرم، أو يكفر جاحده، أو لا يكفر، فهذه أحكام عملية تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/١٦٦).

فإذا رأيت إمامًا قد غلّظ على قائل مقالته، أو كفَّره فيها، فلا يُعتبر هذا حكمًا عامًّا في كل من قالها، إلا إذا حصل فيه الشرط الذي يستحق به التغليظ عليه، والتكفير له، فإن من جحد شيئًا من الشرائع الظاهرة، وكان حديث العهد بالإسلام، أو ناشئًا ببلد جهل لا يكفر حتى تبلغه الحجة النبوية.

وكذلك العكس إذا رأيت المقالة المخطئة قد صدرت من إمام قديم فاغتفرت، لعدم بلوغ الحجة له، فلا يغتفر لمن بلغته الحجة ما اغتُفِر للأول، فلهذا يُبدَّع من بلغته أحاديث عذاب القبر أو نحوها إذا أنكر ذلك، ولا تُبدَّع عائشة ونحوها ممن لم يعرف بأن الموتى يسمعون في قبورهم، فهذا أصل عظيم فتدبره فإنه نافع»[1].

* اشتراط الايضاح التام في قيام الحجة، وإزالة الشبهات:

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن اللَّه تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنت كافرًا لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهَّال، وكان هذا خطابًا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم. وأصل جهلهم شبهات عقلية، حصلت لرؤوسهم، في قصور من معرفة المنقول الصحيح، والمعقول الصريح الموافق له»[2].

وقال: «ليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط، حتى تقام عليه الحجة، وتُبيَّن له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٦٠ ـ ٦١). وأثر عائشة رضي الله عنها رواه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الجنائز (٢/ ٢٠٤)، ولفظه أنها قالت: «إنما قال النبي ﷺ: إنهم ليعلمون الآن أنما كنت أقول حق وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢].

(٢) «الردُّ على البكري» ص(٢٥٩).

بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة»[1].

* **الفرق بين قيام الحجة وإقامة الحجّة:**

إقامة الحجة تكون بتبليغ أدلة الشرع القطعية التي يكفر المخالف لها بواسطة القاضي أو العالم الذي يُفتي بكفر هذا الشخص، فينتفي بذلك عذره ظاهرًا، ويثبت حكم كفره في الظاهر، ويثبت حكم الكفر عليه في الحقيقة أي في الباطن.

وقد يكون الشخص قد قامت عليه الحجة وبلغته النصوص القاطعة وخالفها مستحلاً لمحرم أو مستحلاً لترك واجب، وصار بذلك كافرًا، ولكننا لا نعلم بقيام الحجة عليه، فلا نحكم بكفره ظاهرًا في أحكام الدنيا حتى نستيقين من إقامة الحجة.

❑ وإقامة الحجة شرط لإجراء الحكم الظاهر على الشخص المرتكب للكفر في المسألة المعيَّنة التي ثبت أنها كُفر.

وقيام الحجة بالفعل تكون ببلوغ الأدلة القطعية، وعلى ذلك لو ارتكب شخص ما عملاً كفريًّا ومات على ذلك، ولا ندري أقيمت عليه الحجة أم لا، والمسألة فيها شبهة، فهذا الشخص ليس مجهول الحكم، بل هو ما زال على حكم الإسلام؛ لأنه ثبت إسلامه من قبل بيقين لا يُخرج منه إلا بيقين.

فمقصودنا: أن بلوغ الحجة شرط في ثبوت الحكم بالكفر حقيقة (أي باطنًا).

وإقامتها شرط في ثبوت الحكم ظاهرًا، فمن بلغته الحجة ولم نعلم نحن بها ظاهرًا فهو كافر باطنًا، وإنْ كُنّا في الظاهر لم نكفره لعدم علمنا بإقامة الحجة عليه، أيْ: لا بدَّ قبل حكمنا بكفره ظاهرًا من إقامة الحجة عليه ظاهرًا.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٤٦٦).

فليس هناك مرحلة متوسطة لا يُحكم فيها على الشخص بعدم الإسلام وبعدم الكفر ويتوقف فيها الحكم عليه.

❑ وترك الاستتابة لا تمنع إثبات حكم الكفر عليه، فالاستتابة شيء، وإقامة الحجة شيء آخر.

لا يوجد شخص حكمه مجهول، لا يُعرف حاله من جهة الإسلام والكفر حتى تدَّعي ذلك جماعة التوقف والتبين وشيخها عبدالمجيد الشاذلي صاحب كتاب «حد الإسلام»، ومن أتى بعده من «القطبيين» وشيخهم محمد قطب عفا اللَّه عنه.

لا يوجد شخص لا يُعرف حاله أكافر هو أم مسلم، ولو مات على وضعه لا يُدرَى ما حكمه. هذا الكلام لا أصل له من كلام علماء أهل السنة والجماعة. من نتوقف في تكفيره وقد ثبت مِن قبلُ إسلامه فما زال حكمه الإسلام، ولو توقَّفنا في إثبات إسلام شخص عُلِم كفره من قَبلُ فهو ما زال على كفره.

❑ ولا نقول بأنه مجهول الحكم ومحل بحث ودعوة.

ولا يلزم من مشروعية الاستتابة أن نتوقف في حكم من شرعت في حقه، فالاستتابة للشخص من الردة فرع على ثبوت ردته.

والاستتابة من أجل إقامة الحد، وليست شرطًا في تكفير الشخص، بل تكفيره شرط في استتابته الاستتابة الاصطلاحية.

✍ **وقفة هامة: «حد الإسلام» للشاذلي وأصل بدعة التوقف والتبين وكتابات محمد قطب:**

ومما ينبغي أن ننبه له هذه الكتابات المنحرفة عن عقيدة أهل السنة والجماعة لكتاب «حد الإسلام وحقيقة الإيمان» لعبدالمجيد الشاذلي وهو أصل بدعة «التوقف والتبيّن» فهو يشترط لإسلام الرجل غير نطقه بالشهادتين معرفة

«النسك، والولاية، والحكم»[١] ويوهم أنه من كلام ابن القيم في الطبقة السابعة عشرة من طبقات المكلفين، ويطبقها على أهل القبلة، وكلام ابن القيم في هذه الطبقة إنما هو على الكفار الجهال المقلدين كعوام اليهود والنصارى ونسائهم وخدمهم.

❑ يقول عبدالمجيد الشاذلي في بدعته: «حد الإسلام»:

«يحكم بالإسلام لمجرد التلفظ به ما لم يقترن مع تلفظه ما يدل على الشرك، أو مظاهرة المشركين، أو امتناعه عن قبول الحكم، ويفترض فيه ترك الشرك والتزام الشرائع.

وإن اقترن مع التلفظ ما يدل دلالة قطعية على الشرك، أو رفض الشرائع، أو مظاهرة المشركين فلا عبرة بأقوال كذَّبتها الأفعال، فلا يحكم بالإسلام مع هذه الحال.

❑ إذ وُجِد لوث ظاهر يدخل شبهة على إرادته لمدلول الشهادتين، أو كان في تلفظه ما يشكل فلا بد من التبين لموضع اللبث».

❑ ثم أتى الأستاذ محمد قطب من بعده فذكر كلامًا يقارب كلام عبدالمجيد الشاذلي صاحب هذه البدعة، فقسَّم الناس إلى ثلاثة: مسلمين بلا شبهة، وكفار بلا شبهة، والطبقة الثالثة قال عنها: «ومنهم كتلة متميعة غير واضحة السمات اختلط فيها الحابل بالنابل، ولكن مظهرها العام بعيد عن مقتضيات الإسلام وهم الذين يختلف الناس في حكمهم عليهم.. ولا نشغل أنفسنا بالحكم عليها»[٢].

---

(١) انظر ص(٨٣، ٥٦٨) من كتابه «حد الإسلام».

(٢) وقريب من هذا قول الشيخ سفر الحوالي عفا الله عنه: «تارك جنس العمل الذي لم يستتاب ولم تقم عليه الحجة كافر في الحقيقة، لكن هذا الأمر سوف يُكتم في أنفس الدعاة!!! وهم يدعونه ـ أي يدعون إظهاره ـ تحقيقًا للمصلحة ودفعًا للمفسدة»، وقوله:=

وللرد على هذا الكلام المنحرف عن عقيدة أهل السنة والجماعة نقول: أنه يثبت حكم الإسلام في الدنيا لمن «اعتقد دين الإسلام اعتقادًا جازمًا ونطق بالشهادتين» كما ذكر الإمام النووي في الجزء الأول ـ كتاب الإيمان ـ من شرحه لصحيح مسلم تحت عنوان «إطلاق الإيمان على الأعمال»[1].

*** وقفات هامة وكلام أحلى من الشهد للعالمَيْن الربانيَّين الشيخ عبدالعزيز ابن باز والشيخ محمد بن صالح العثيمين:**

❑ نقل الدكتور ياسر برهامي ـ حفظه اللَّه ـ في رسالته العلمية في الرد على الشيخ سفر الحوالي نقلاً هامًا وقيمًا عن الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين نوردهما:

❑ نظمت إدارة الدعوة بوزارة الأوقاف والشئون القطرية لقاء عبر الهاتف مع فضيلة الشيخ ابن عثيمين وبعد موعظة عامة أجاب الشيخ على هذه الأسئلة وتشتهر هذه الأسئلة باسم «الأسئلة القطرية».

س: شخص قال لا إله إلا اللَّه مخلصًا من قلبه مصدقًا بقلبه مستسلمًا منقادًا لكنه لم يعمل بجوارحه خيرًا قط مع إمكان العمل هل هو داخل في المشيئة أم كافر؟

= «تارك جنس العمل قبل الاستتابة أو إقامة الحجة في حقيقة الأمر أنه مجهول الحكم» أو موضع دعوة وموضع بحث ونظر. فالقول بأن شخص ما حكمه مجهول، لا يُعرف حاله من جهة الإسلام والكفر، ولو مات على وضعه لا يدرى ما حكمه، هذا الكلام لا أصل له من كلام علماء أهل السنة والجماعة...» وهناك رسالة هامة في الرد العلمي على كتاب «ظاهرة الإرجاء» للشيخ سفر الحوالي، وهذه الرسالة القيمة للشيخ الحبيب الفاضل الدكتور ياسر برهامي مدّ اللَّه في عمره وجعله من الربانيين، وهي مآخذ هامة على ما أخطأ فيه الشيخ سفر بالأدلة الشرعية وكلام أهل العلم، عفا اللَّه عنا وعن المسلمين.

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١/ ١٣٣).

ج: أقول ـ والحمد للَّه رب العالمين ـ إذا كان لا يصلي فهو كافر ولو قال: لا إله إلا اللَّه[1] ، لو كان صادقًا في قول: «لا إله إلا اللَّه» مخلصًا بها واللَّه لن يترك الصلاة؛ لأن الصلاة صلة بين الإنسان وبين اللَّه عز وجل، فقد جاء في الأدلة من القرآن والسنة والنظر الصحيح في إجماع الصحابة كما حكاه غير واحد على أن تارك الصلاة كافر مخلد في نار جهنم وليس داخلاً تحت المشيئة، ونحن إذا قلنا بذلك لم نقله عن فراغ، ونحن إذا قلنا بذلك فإنما قلناه لأنه من مدلولات كلام اللَّه وكلام رسوله ﷺ وأقوال الصحابة التي حكى إجماعهم عليها، قال عبداللَّه بن شقيق: «كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة»، ونقل إجماع الصحابة على كفر تارك الصلاة الحافظ ابن راهوية ـ رحمه اللَّه ـ وهو إمام مشهور[2] ، أما سائر الأعمال إذا تركها الإنسان كان تحت المشيئة يعني لو لم

(١) كفر تارك الصلاة مسألة خلافية، والخلاف فيها معتبر بين أهل العلم من أهل السنة والجماعة، انظر: «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٢/ ٩٣٢ ـ ٩٣٨)، و«الإشراف على مذاهب أهل العلم» لابن المنذر (٤١٠ ـ ٤١٧)، وانظر «التمهيد» لابن عبدالبر (٤/ ٢٢٤ ـ ٢٤٣)، (٢/ ٢٥٧ ـ ٢٦٧)، و«الاستذكار» لابن عبدالبر (٥/ ٣٤٨ ـ ٣٥٥)، و«المغني» لابن قدامة (٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٧)، و«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢/ ٢١)، (٢٢/ ٤٧ ـ ٤٩)، (٢٢/ ٥٠ ـ ٥١)، (٢/ ٥٦)، (٢٢/ ٦٠، ٦٢)، و«حكم تارك الصلاة» لابن القيم (٢٦ ـ ٤٥)، و«تحفة الأحوذي» (٧/ ٣٠٧ ـ ٣١١)، و«مشكل الآثار» للطحاوي (٤/ ١٥٧)، و«معالم السنن» للخطابي (٤/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠)، و«المحلى» لابن حزم (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧)، و«الفصل» لابن حزم (٣/ ١٢٨ ـ ١٣٨).

وانظر أيضًا «التمهيد» لابن عبدالبر (٢/ ٢٥٧ ـ ٢٦٧)، و«شرح السنة» للبغوي (١/ ١٠٣) و«بداية المجتهد» (١/ ١١٩ ـ ١٢١)، و«تفسير القرطبي» (٥/ ٢٩١٣ ـ ٢٩١٤)، و«مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٩١ ـ ٩٤)، (٢٨ ـ ٣٠٨)، و«فتح الباري» (١/ ١٤٠)، (٣/ ٢١٦).

(٢) أجمع العلماء على الرواية بإكفار تارك الصلاة، واختلفوا في تفسير هذا الكفر هل هو أصغر أو أكبر. . راجع «تعظيم قدر الصلاة» (١/ ١٣٣)، و«مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٩٠ ـ ٩٤)، وأثر عبداللَّه بن شقيق التابعي لا يدل على هذه المسألة.

يزكِّ مثلاً فهذا تحت المشيئة؛ لأن النبي ﷺ لما ذكر عقوبة مانع الزكاة قال: «**ثم يرى سبيله إمّا إلى الجنة وإما إلى النار**»، ومعلوم أنه لو كان كافرًا لم يكن له سبيل إلى الجنة، والصيام والحج كذلك من تركها لم يكفر، وهو تحت المشيئة ولكنه يكون أفسق عباد اللَّه.

س: الشق الثاني يقول: وهل يوجد خلاف بين أهل السنة في حكم هذا الرجل بناء على حكم تارك مباني الإسلام الأربع[1] والخلاف فيها؟

ج: مسألة الخلاف لا أستطيع حصره، ولكن يجب أن نعلم أن الكفر حكم شرعي لا يُتلقى إلاّ من الشرع، وأن الأصل في المسلمين الإسلام حتى يدل دليل على خروجهم منه، والتسرع في التكفير خطير جدًّا جدًّا جدًّا حتى أن النبي ﷺ قال محذرًا منه: «**من دعا رجلاً بالكفر أو قال يا عدوا اللَّه وليس كذلك حار عليه**» ـ أي على القائل ـ أي رجع على القائل.

سائل آخر: كيف نفهم حديث أبي سعيد الخدري عند مسلم وفيه «**فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط**»؟

ج: نفهم هذا أنه عام، وأن أدله كفر تارك الصلاة خاصة، ومعلوم عند العلماء أن العام يُخصَّص بخاص؛ لأن هذا الحديث لم يقل لم يصل حتى نقول أنه معارض للنصوص الدالة على كفر تارك الصلاة، بل قال لم يعمل خيرًا قط، فلم ينص على الصلاة بل عمم، ونصوص كفر تارك الصلاة خاصة فتخص ما خصصت به.

س: الخلاف الواقع في حكم تارك الصلاة هل هو خلاف داخل دائرة أهل السنة أم لا؟

ج: نعم، خلاف داخل دائرة أهل السنة، وأهل اسنة أنفسهم مختلفون

---

(١) أي: الصلاة والزكاة والصوم والحج.

في هذا، كما يختلفون في فروض الوضوء، ووجوب الوضوء من لحم الإبل وما أشبه ذلك.

س: يقول البعض: إذا ترك عمل الجوارح بالكلية خرج من الإيمان ولكن لا يقتضي عدم انتفاعه بأصل الإيمان والشهادتين بل ينتفع بهما كمن أراد الحج وشهد عرفة وهو ركن، فإنه ينتفع بالأركان الأخرى فما قول فضيلتكم؟

ج: نقول هذا ليس بصواب، إنه لن ينتفع بإيمانه مع ترك الصلاة التي دلّت النصوص على كفر تاركها، وكذلك لو ترك الوقوف بعرفة ما صح حجه كما دلَّ على ذلك سنة النبي ﷺ، أما من أدرك عرفة قبل الفجر يوم النحر فقد أدرك، ومن لا فلا حتى لو جاء بعد ذلك بالرمي والمبيت في مني والطواق والسعي لم يكن حج.

س: تارك جنس العمل كافر، تارك آحاد العمل ليس بكافر، فما رأيكم في ذلك؟

ج: هذه القاعدة من قائلها؟ هل قالها محمد رسول اللَّه ﷺ؟ كلام لا معنى له.

نقول: من كفره اللَّه ورسوله فهو كافر، ومن لم يكفره اللَّه ورسوله فليس بكافر هذا هو الصواب، أما جنس العمل أو نوع العمل أو آحاد العمل فهذا كله طنطنة لا فائدة فيها.

س: هل أعمال الجوارح شرط في أصل الإيمان وصحته أم أنها شرط في كمال الإيمان الواجب؟

ج: تختلف، فتارك الصلاة مثلاً كافر، إذ فعل الصلاة من لوازم الإيمان. وإني أنصح إخواني أن يتركوا هذه الأشياء والبحث فيها، وأن يرجعوا إلى ما كان عليه الصحابة رضوان اللَّه عليهم، والسلف الصالح لم يكونوا يحرفون مثل هذه

الأمور، المؤمن من جعله اللَّه ورسوله مؤمنًا، والكافر من جعله اللَّه ورسوله كافرًا.

س: إذا كنا في بلد يُفتي أهل العلم فيها بأن تارك الصلاة ليس كافرًا كفرًا أكبر، فإذا مات تارك الصلاة في هذه البلد، فهل يترك الناس غسله والصلاة عليه؟ وهل يمنعون دفنه في مقابر المسلمين في هذا البلد؟

وهل مات مسلمًا لأنه مقلد لعلماء بلده؟

ج: أما من يعتقد أنه كافر فلا يصلي عليه، وأما من لا يعتقد فليصل عليه، وهكذا ينظر في الخلاف» اهـ.

❑ وفي الحوار الذي أجرته مجلة الفرقان «العدد ٩٤ ص(١١، ١٢)» مع الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه اللَّه ـ:

س: العلماء الذين قالوا بعدم كفر من ترك أعمال الجوارح مع تلفظه بالشهادتين ووجود أصل الإيمان القلبي هل هم من المرجئة؟

ج: قال ـ رحمه اللَّه ـ: «هذا من أهل السنة والجماعة، فمن ترك الصيام، أو الزكاة أو الحج لا شك أن ذلك كبيرة عند العلماء ولكن على الصواب لا يكفر كفرًا أكبر.

أما تارك الصلاة فالأرجح أنه كافر كفرًا أكبر إذا تعمَّد تركها، وأما تارك الزكاة والصيام والحج فإنه كفر دون كفر.

السائل: أعمال الجوارح هل هي شرط كمال أم شرط صحة الإيمان؟

الشيخ: إن أعمال الجوارح كالصوم هي من كمال الإيمان والصدقة والزكاة من كمال الإيمان وتركها ضعف في الإيمان، أما الصلاة فالصواب أن تركها كفر، فالإنسان عندما يأتي بالأعمال الصالحة فإن ذلك من كمال الإيمان».

❑ قال ابن رجب بعد ما نقل الخلاف في ترك المباني الأربعة: «فأما بقية خصال الإسلام والإيمان فلا يخرج العبد بتركها من الإسلام عند أهل السنة

والجماعة، وإنما خالف في ذلك الخوارج ونحوهم من أهل البدع»[١] اهـ.

✍ وقفة:

مذهب أهل السنة والجماعة في العمل وارتباطه بالإيمان، أن الأعمال داخلةٌ في مسمَّى الإيمان. والأعمال على نوعين:

أعمال القلوب: وأصل أعمال القلوب شرط في صحة الإيمان.

أعمال الجوارح: تنقسم إلى قسمين:

١ ـ **المباني الأربعة:** وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج، وتاركها تكاسلاً أو عمداً لا جحوداً بين أهل السنة خلاف معتبر هل يكفر أم لا، ولا يُبدَّع المخالف فنطاق أهل السنة يجمعهم وعلى هذا فالخلاف في المباني الأربعة هل هي شرط صحة أم كمال يسع أهل السنة، يشتد الخلاف في مسألة الصلة ثم تخفُّ شدته في الزكاة فالصوم فالحج على الترتيب.

٢ ـ خلاف المباني من أعمال الجوارح هي شرط كمال لا شرط صحة، ولم يقل بأنها شرط صحة إلا الخوارج.

❑ نقول هذا إبراءً للذمة فلسنا من المرجئة ولا الخوارج ولسنا من جماعة التوقف والتبين ولسنا من القطبين[٢] ولسنا ممن يُطلق عليهم اسم السروريين.. لسنا من دعاة التنظيمات السرية ولا الجماعات المسلحة..

---

(١) شرح ـ كتاب الإيمان من «صحيح البخاري» لابن رجب ص(٣٠)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٧/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣).

(٢) لا نحمل فكر الأستاذ سيد قطب ولا نوافقه على أي خطأ من أخطائه ويكفي في الرد عليه «المورد العذب الزلال في الرد على الظلال» للشيخ الدويش، ولا ننكر له دعوته إلى اللّه عز وجل ومواقفه والصالح من أعماله ويكفي قول الشيخ بكر أبو زيد في هذا والشيخ الألباني والشيخ ابن باز.. فالرجل كان أديبًا ولم يكن عالمًا.. وظهر في فترة عمّ فيها الجهل وفشا، ولم يتمكن من الاطلاع على عقيدة أهل السنة والجماعة على التفصيل.. ولذا وردت له أقوال في الإيمان لا تُقبل منه ولا من المخالف.. نقول هذا ونهتف.

وبالسلفية إعجابنا إذا قلَّ بالسلف المعجب

وإنما ندعو اللَّه على منهج سلفنا الصالح ندعو إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة برفق ولين، ونصبر على المخالف ولا نشتط في تبديع الناس أو العجلة في تكفيرهم.. والحق هو بغيتنا ووجه اللَّه مرادنا وبغيتنا.

* **الزنديق:**

هو المنافق على عهد رسول اللَّه ﷺ، وكل من يظهر طعنًا في الإسلام.

❑ قال ابن تيمية: «لما كثرت الأعاجم في المسلمين تكلموا بلفظ «الزنديق» وشاعت في لسان الفقهاء. وتكلم الناس في الزنديق: هل تُقبل توبته في الظاهر؟:

إذا عُرِف بالزندقة، ودُفع إلى ولي الأمر قبل توبته: فمذهب مالك وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وطائفة من أصحاب الشافعي، وهو أحد القولين في مذهب أبي حنيفة: أن توبته لا تقبَل.

والمشهور من مذهب الشافعي قبولها كالرواية الأُخرى عن أحمد وهو القول الآخر في مذهب أبي حنيفة، ومنهم مَن فصَّل.

والمقصود هنا: أن الزنديق في عُرف هؤلاء الفقهاء، هو المنافق الذي كان على عهد النبي ﷺ وهو أن يظهر الإسلام ويُبطن غيره، سواءً أبطن دينًا من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم، أو كان معطلاً جاحدًا للصانع، والمعاد، والأعمال الصالحة.

ومن الناس من يقول: «الزنديق» هو الجاحد المعطل، وهذا يُسمَّى الزنديق في اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة، ونقلة مقالات الناس، ولكن الزنديق الذي تكلَّم الفقهاء في حكمه هو الأول؛ لأن مقصودهم هو التميز بين الكافر وغير الكافر، والمرتد وغير المرتد، ومن أظهر ذلك ومن أسرَّه، وهذا الحكم يشترط فيه جميع أنواع الكفار والمرتدين، وإن تفاوتت درجاتهم في الكفر والردة»[1].

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٧/ ٤٧١ ـ ٤٧٢).

* **ما يمحو الكفر بعد ثبوته على المعين:**

وقوع التوبة من المعيَّن أمر يمحو إلحاق التكفير به بعد وقوعه عليه:

قال شيخ الإسلام: «واللَّه تعالى يقبل توبة العبد من جميع الذنوب: الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣ ـ ٧٤]، وقال: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

فمن تاب من هذه الاعتقادات الفاسدة، وهو استحلال شيء من المحرمات، أو التديُّن بشيء منها، قبل اللَّه توبته، وأما من استحلَّ ذلك أو تديَّن به وإن لم يفعله، فالذي يفعل ذلك وهو معتقد للتحريم خير منه، فإن هذا مؤمن مذنب، وأما الاستحلال لها والتديّن بها فهو كفر»[1] فالتوبة تمنع إطلاق اسم الكفر على المعيَّن بعد رجوعه عن الكفر الذي وقع فيه، بخلاف تلك الموانع الأربعة فهي تمنع إلحاق الكفر به ابتداءً.

وبهذا الاعتبار يكون حصول التوبة المانع الوحيد، الذي يمنع تكفير المعين إذا رجع عن الكفر الذي قد ثبت عليه، وعلى هذا انعقد الإجماع[2].

---

(١) «الاستقامة» (٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) انظر «مراتب الإجماع» لابن حزم ص(١٧٦).

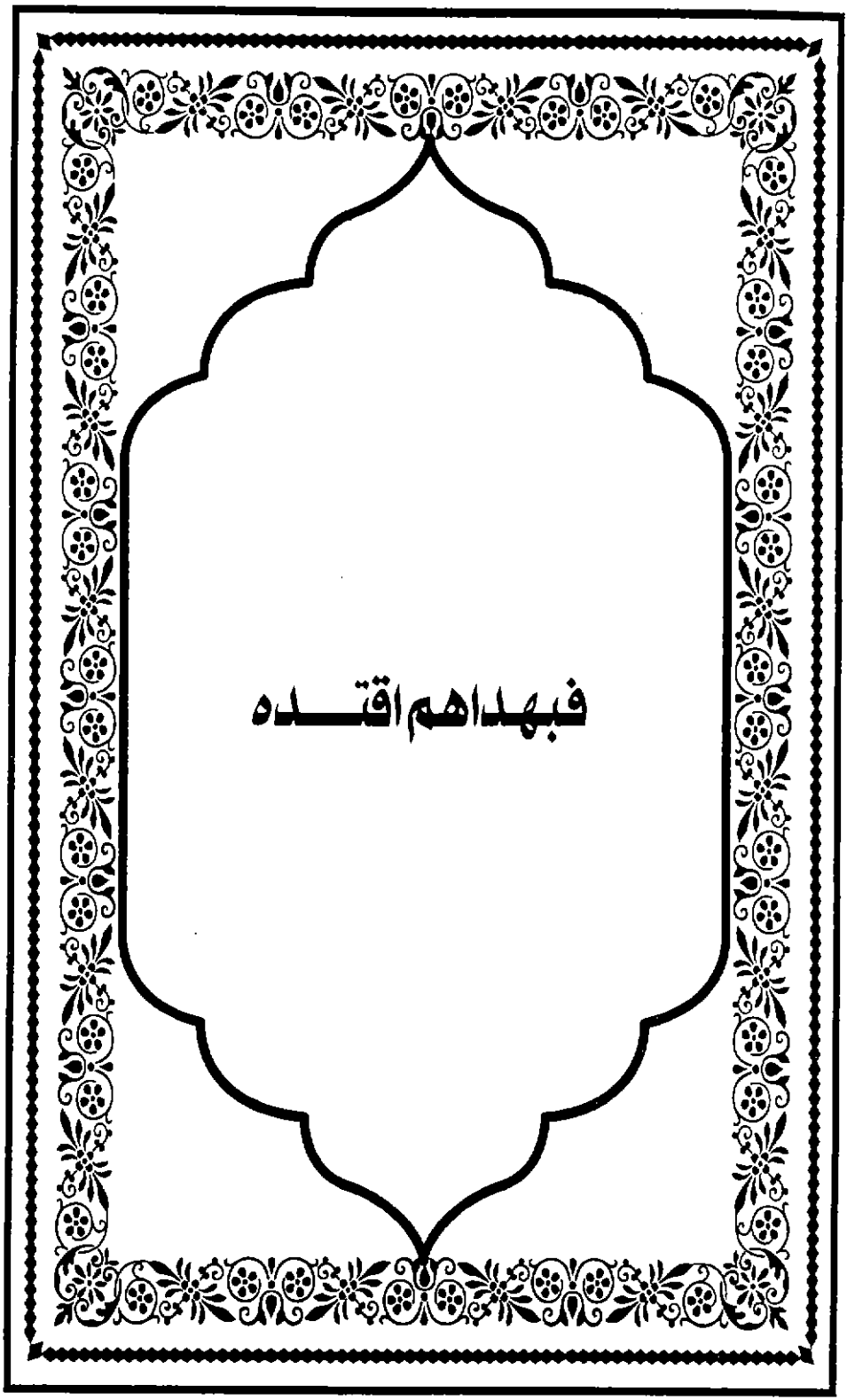
فبهداهم اقتده

فبهداهم اقتده

مواقف أهل الإيمان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضاربة في أعماق الزمن. . ومواكب النور لهذا الدين الواحد لها جذورها الراسخة منذ القدم وهذه قطوف من بساتين الصالحين قبل بعثة الحبيب ﷺ .

*** مؤمن آل يس :**

قصّ اللَّه علينا في سورة يس موقف أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون وكيف كذبوا المرسلين الثلاثة، وكيف أخذتهم العزة بالإثم، وكيف عمد هؤلاء المكذبون الضالون إلى الأسلوب الغليظ العنيف ـ فالباطل على مدار التاريخ ضيق الصدر عربيد ـ وأسفر الباطل عن غشمه، وأطلق على الهداة المرسلين تهديده؛ وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة الراسخة، وكيف عربد في التعبير والتفكير ﴿**قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

يرجموهم لأنهم باللَّه ذكروهم!! قلوب ميتة ختم اللَّه عليها وطبع.

وهناك على الطرف الآخر قلب خشع للرحمن ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ**﴾ [يس: ٢٠ـ٢٥].

إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة، فيها الصدق، والبساطة، والحرارة، واستقامة الإدراك وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق ما يتحدث

عنه في مقالته لقومه، وحينما استشعر قلبه حقيقة الإيمان تحرّكت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتًا؛ ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور؛ ولكنه سعى بالحق الذي استقرّ في ضميره وتحرّك في شعوره، سعى به إلى قومه وهم يكذّبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون. وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق، وفي كفّهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين. وألقى بكلمة الإيمان الواثقة المطمئنة وأشهد المرسلين عليها ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

وكانت الشهادة لهذا الرجل الذي جهر بكلمة الحق، وقذف بها في وجوه من يملكون التهديد والتنكيل.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

هل رأيتم داعيًا بعد رحيله عن الدنيا يتمنى لو يرى قومه ما هو فيه من الرضى والكرامة، ليعرفوا الحق ويثوبوا إليه.

*** مؤمن آل فرعون وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وكلماته الخالدة في ضمير الزمان:**

ما أجمل هذه السورة «غافر» وهي تسجل المواقف العظيمة لكليم اللّه موسى عليه السلام وتبجح فرعون وسخريته وكلماته الفاجرة وحججه الواهية.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

وهي بعينها كلمة كل طاغية مستبد عن كل داعية مصلح، هي بعينها

كلمة الباطل الكالح في وجه الإيمان الهادئ، منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

❑ هنا انتدب رجل من آل فرعون، وقع الحق في قلبه، ولكنه كتم إيمانه، انتدب يدفع عن موسى، ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملئه مسالك شتى، ويتدسس إلى قلوبهم بالنصيحة ويثير حساسيتها بالتخويف والإقناع:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٢٨ ـ ٣٥].

إنها جولة ضخمة هذه التي جالها الرجل المؤمن مع فرعون وملئه. وإنه

منطق الفطرة المؤمنة في حذر ومهارة وقوة كذلك إنه يبدأ بتفظيع ما هم مقدمون عليه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ . . فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب، واقتناع نفس، تستحق القتل، ويردّ عليها بإزهاق روح؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة.

❑ ثم يخطو بهم خطوة أخرى، فالذي يقول هذه الكلمة البريئة ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾. . يقولها ومعه حجته وفي يده برهانه ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهم ـ فيما بينهم وبعيدًا عن الجماهير ـ يصعب أن يماروا فيها!

❑ ثم يفرض لهم أسوأ الفروض ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ وهو يحمل تبعة عمله، ويلقى جزاءه ويحتمل جريرته، وليس هذا بمسوّغ لهم أن يقتلوه على أية حال!

وهناك الاحتمال الآخر، وهو أن يكون صادقًا، فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال وعدم التعرض لنتائجه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام.

❑ ثم يهددهم من طرف خفي ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

❑ وحين يصل بهم إلى فعل اللّه بمن هو مسرف كذّاب، يهجم عليهم مخوّفًا بعذاب اللّه، محذّرًا من بأسه الذي لا ينجيهم منه ما هم فيه من ملك وسلطان.

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾.

إن الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن، من أن بأس اللّه أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض، فهم أحق الناس أن يحذروه،

وأجدر الناس أن يحسوه ويتقوه، وأن يبيتوا منه على وجل، فهو يتربص بهم في كل لحظة ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ ليشعرهم أن بأس اللَّه إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير، وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف.

هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة.. تأخذه العزة بالإثم، ويرى في النصح الخالص افتياتًا على سلطانه، ونقصًا من نفوذه، ومشاركة في النفوذ والسلطان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صوابًا وإنه لهو الصواب والرشد والخير لا شك ولا جدال! وهل يسمح الطغاة بأن يظن أحد أنهم مخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأيًا؟! وإلا فلم كانوا طغاة؟!

ولكن الرجل المؤمن يجد من إيمانه غير هذا؛ ويجد أن عليه واجبًا أن يحذّر وينصح ويُبدي من الرأي ما يراه.. ويرى من الواجب عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده كائنًا ما كان رأي الطغاة.

ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحس وتستيقظ وترتعش وتلين.. يطرق قلوبهم بلفتها على مصارع الأحزاب قبلهم وهي شاهدة ببأس اللَّه في أخذ المكذبين والطغاة.

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

ولكل حزب كان يوم، ولكن الرجل المؤمن يجمعها في يوم واحد ﴿مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾ فهو اليوم الذي يتجلّى فيه بأس اللَّه، وهو يوم واحد في طبيعته على تفرّق الأحزاب.

❑ ثم يذكرهم بيوم القيامة يوم التناد.

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ

﴿ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾.

وفي ذلك اليوم ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، فالتنادي واقع في صور شتى، وتسميته «يوم التناد» تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصوّر يوم زحام وخصام وتتفق كذلك مع قول الرجل المؤمن ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾.

وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم، أو محاولتهم الفرار، ولا عاصم يومئذ ولات حين فرار.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ لعلّ فيها إشارة خفية إلى قول فرعون: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾.. وتلميحًا بأن الهدى هدى اللَّه، وأن من أضلّه اللَّه فلا هادي له.

❑ وينذرهم بإضلال اللَّه الذي ينتظر كل مسرف مرتاب في عقيدته وقد جاءته معها البينات ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾.

ثم يشتد في مواجهتهم بمقت اللَّه ومقت المؤمنين لمن يجادل في آيات اللَّه بغير حجة ولا برهان، وهم يفعلون هذا في أبشع صورة وينذد بالتكبر والتجبر، وينذر بطمس اللَّه لقلوب المتكبرين المتجبرين!

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾.

❑ وعلى الرغم من هذه الجولة الضخمة التي أخذ الرجل المؤمن قلوبهم بها؛ فقد ظلّ فرعون على ضلاله، مُصرًّا على التنكّر للحق.

وأمام مراوغتهم واستهتارهم، ألقى الرجل المؤمن كلمته الأخيرة مدوية

صريحة بعد ما دعا القوم إلى اتباعه في الطريق إلى اللّه، وهو طريق الرشاد، وكشف لهم عن قيمة هذه الحياة الزائلة، وشوّقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذّرهم عذاب الآخرة، وبيّن لهم ما في عقيدة الشرك من زيف ومن بطلان: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

إنه يقول في مواجهة فرعون ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ وقد كان فرعون منذ لحظات يقول: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فهو التحدي الصريح الواضح بكلمة الحق لا يخشى فيها سلطان فرعون الجبار ولا ملأه المتآمرين معه من أمثال هامان وقارون.

❑ ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم إلى النجاة فيدعونه إلى النار، فيهتف بهم في استنكار ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ وهم لم يدعوه إلى النار، إنما دعوه إلى الشرك، وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار؟ إنها قريب من قريب. فهو يبدل الدعوة بالدعوة في تعبيره في الآية التالية ﴿تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾.

❑ وشتان بين دعوة ودعوة، إن دعوته لهم واضحة مستقيمة. إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار. يدعوهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره.. يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر فإلى أي شيء يدعونه؟ يدعونه للكفر باللّه على طريق إشراك ما لا علم له به من مدّعيات وأوهام وألغاز!

❑ ويقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم في الأمر

شيء، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة، وأن المردّ للّه وحده، والمسرفين المتجاوزين للحدّ في الادعاء سيكونون أهل النار: ﴿لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تعلثم، بعدما كان يكتم إيمانه، فأعلن عنه هذا الإعلان؟ لا يبقى إلاّ أن يفوّض أمره إلى اللّه، وقد قال كلمته وأراح ضميره، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى والأمر كله إلى اللّه.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وينتهي الجدل والحوار. وقد سجّل مؤمن آل فرعون كلمة الحق خالدة في ضمير الزمان.

* قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

*** سحرة فرعون.. في أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة قالوا كلمة الحق عند أكبر طاغية إعلاناً لحرية القلب المؤمن:**

* قال تعالى عن موقف السحرة في بداية أمرهم ثم ما آل إليه أمرهم: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ

اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٦٠ - ٧٣].

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

إنها اللمسة تصادف العصب الحساس فينتفض الجسم كله، وينبعث النور ويُشرق الظلام، إنها لمسة الإيمان للقلب البشري تحوله في لحظة من الكفر إلى الإيمان.

ولكن أنَّى للطغاة أن يدركوا هذا السر اللطيف؟ أنيّ لهم أن يدركوا كيف تتقلّب القلوب؟ وهم قد نسوا لطول ما طغوا وبغوا، ورأوا الأتباع ينقادون لإشارة منهم، نسوا أن اللّه هو مقلب القلوب؛ وأنها حين تتصل به وتستمد منه وتشرق بنوره لا يكون لأحد عليها سلطان.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ . . قولة الطاغية الذي لا يدرك أنهم هم أنفسهم لا يملكون ـ وقد لمس الإيمان قلوبهم ـ أن يدفعوه عنها، والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

فذلك سر الاستسلام في نظره، لا أنه الإيمان الذي دبّ في قلوبهم ولا أنها يد الرحمن تكشف عن بصائرهم غشاوة الضلال.

ثم التهديد الغليظ بالعذاب الغليظ الذي يعتمد عليه الطغاة، ويسلّطونه على الجسوم والأبدان حين يعجزون عن قهر القلوب والأرواح ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾.

ثم الاستعلاء بالقوة الغاشمة، قوة الوحوش في الغابة، القوة التي تمزق الأحشاء والأوصال، ولا تفرّق بين إنسان يقرع بالحجة وحيوان يقرع بالناب: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

ولكنه كان قد فات الأوان. كانت اللمسة الإيمانية قد وصلت. فإذا هي قوية قويمة، وإذا القوى الأرضية كلها ضئيلة ضئيلة، وإذا الحياة الأرضية كلها زهيدة زهيدة، وكانت قد تفتّحت لهذه القلوب آفاق مشرقة وضيئة لا تبالي أن ينظر بعدها إلى الأرض وما بها من عرض زائل، ولا إلى حياة الأرض وما فيها من متاع تافه.

❑ قال ابن كثير: «قال ابن عباس ﷺ وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة وفي آخر النهار شهداء بررة».

❑ وقال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفًا، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشرة ألفًا، وقال الأوزاعي: لما خرّ السحرة سُجّدًا رُفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها، وعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال: رأوا منازلهم تبين لهم وهم في سجودهم، وكذا قال عكرمة والقاسم ابن أبي بزة.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾

أي: لأجعلنكم مثلة ولأقتلنكم ولأشهرنكم، قال ابن عباس ﷺ: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أنتم تقولون إني وقومي على ضلالة وأنتم مع موسى وقومه على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه، فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم في اللَّه عز وجل.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين، ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسمًا ويحتمل أن يكون معطوفًا على البينات، يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم المبتدي خلقنا من الطين فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت، ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما شئت وما وصلت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لك أن تُسلّط في هذه الدار وهي دار الزوال ونحن قد رغبنا في دار القرار، ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي: خير لنا منك وأدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنّيتنا وهو رواية عن ابن إسحاق ـ رحمه اللَّه ـ وقال محمد بن كعب القرظي: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أُطيع، ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أي: منك عذابًا إن عُصِي» اهـ.

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعدّ القربى منه مغنمًا يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هي بعد لحظة تواجهه في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ فهي أعزّ وأغلى

وهو جلّ شأنه أكبر وأعلى، ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ ودونك وما تملكه لنا في الأرض، ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فسلطانك مقيّد بها، ومالك من سلطان علينا في غيرها، وما أقصر الحياة الدنيا، وما أهون الحياة الدنيا، وما تملكه لنا من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب يتصل باللَّه، ويأمل في الحياة الخالدة أبدًا. ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾. ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ خير قسمةً وجوارًا، وأبقى مغنمًا وجوارًا، إن كنت تهددنا بمن هو أشد وأبقى..

* قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

❑ قال الحافظ ابن كثير: «الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون يحذرونه من نقمة اللَّه وعذابه الدائم السرمدي ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد».

«ألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من الطاغية موقف المعلم المستعلي. فإذا كان يتهددهم بمن هو أشد وأبقى، فها هي ذي صورة لمن يأتي ربه مجرمًا هي أشد عذابًا وأدوم ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيتمتع، إنما هو العذاب الذي لا ينتهي إلى موت ولا ينتهي إلى حياة.. وفي الجانب الآخر الدرجات العلى جنات للإقامة ندية بما يجري تحت غرفاتها من أنهار ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، وتطهر من الآثام.

❑ وانظر إلى سورة أخرى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

يطمئنون على الأجر والمكافأة إن كانوا هم الغالبين ويتلقّون من فرعون

الوعد بالأجر الجزيل والقربى من عرشه الكريم!.

جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية، تبذل مهارتها في مقابل الأجر الذي تنتظره، ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شيء سوى الأجر والمصلحة.

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم في الخداع، وها هو فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر، يعدهم أن يكونوا من المقرّبين إليه، وهو بزعمه الملك والإله ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ يجعلون قسمهم الأعلى بعزّة فرعون.

وفي نهاية الأمر سجدوا لرب موسى وهارون وهم قد كانوا منذ لحظة مأجورين ينتظرون الجزاء من فرعون على مهارتهم، ولم يكونوا أصحاب عقيدة ولا قضية، ولكن الحق الذي الذي مسّ قلوبهم قد حوّلهم تحويلاً، لقد كانت هزة رجتهم رجًّا، ووصلت إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزالت عنها ركام الضلال، وجعلتها صافية حيّة خاشعة للحق، عامرة بالإيمان، في لحظات قصار.

كلمة لفرعون الطاغية تقابلها كلمة مؤمنة: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إنها الحماقة التي يرتكبها كل طاغية، حينما يحس بالخطر على عرشه أو شخصه، يرتكبها في عنف وغلظة وبشاعة، بلا تحرّج من قلب أو ضمير.. إنها كلمة فرعون الطاغية المتجبّر الذي يملك تنفيذ ما يقول فما تكون كلمة الفئة المؤمنة التي رأت النور!

إنها كلمة القلب الذي وجد اللّه فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان. القلب الذي اتصل باللّه فذاق طعم العزة فلم يعد يحفل

بالطغيان.. القلب الذي يرجو الآخرة فلا يهمه من أمر هذه الدنيا قليل ولا كثير: ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

لا ضير.. لا ضير في تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، لا ضير في التصليب والعذاب، لا ضير في الموت والاستشهاد.. لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون.

يا للَّه! يا لروعة الإيمان إذ يُشرق في الضمائر وإذ يفيض على الأرواح، وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين، وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.

روعة غامرة ومشهد له جلاله الباهر وإيقاعة العميق.. وهو يربي النفوس حين تواجه الأذى والكرب والضيق ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب.

وفي سورة أخرى ماذا قال السحرة: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

أسلموا للَّه وحده، وأعلنوا الخروج من العبودية الزائفة للطاغوت المغتصب للربوبية واختصاصاتها. كانوا يعلمون حقيقة المعركة بينهم وبين الطاغوت، إنها المعركة على العقيدة؛ لأن هذه العقيدة تهدد سلطان الطواغيت بمجرد إعلان أصحابها أن عبوديتهم خالصة لرب العالمين.. بل بمجرد إعلان أن اللَّه رب العالمين! ومن ثم قالوا لفرعون ردًّا على اتهامه لهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فلجأوا إلى ربهم ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ فكان هذا فرقانًا جعله اللَّه في قلوبهم حين استقرت حقيقة الإسلام للَّه فيها.

□ هزأت القلوب المؤمنة بتهديد الطغيان الجائر، وواجهته بكلمة الإيمان القوية، وباستعلاء الإيمان الواثق، وبتحذير الإيمان الناصع وبرجاء الإيمان العميق.

«ومضى هذا المشهد في تاريخ البشرية إعلانًا لحرية القلب البشري باستعلائه على قيود الأرض وسلطان الأرض، وعلى الطمع، في المثوبة والخوف من السلطان، وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان.

وهكذا ينتصر الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود، بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة:

انتصار آية العصا على السحر، وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف؛ وانتصار الإيمان في قلوبهم على الرغب والرهب، والتهديد والوعيد. فالآن ينتصر الحق على الباطل، والهدى على الضلال، والإيمان على الطغيان في الواقع المشهود، والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول، فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير، وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن.. إن للحق والإيمان حقيقة متى تجسّمت في المشاعر أخذت طريقها فاستعلنت ليراها الناس في صورتها الواقعية. فأما إذا ظلّ الإيمان مظهراً لم يتجسّم في القلب، والحق شعاراً لا ينبع من الضمير، فإن الطغيان والباطل قد يغلبان؛ لأنهما يملكان قوة مادية حقيقية لا مقابل لها ولا كفاء في مظهر الحق والإيمان.. يجب أن تتحقّق حقيقة الإيمان في النفس وحقيقة الحق في القلب؛ فتصبحا أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان.. وهذا هو الذي كان في موقف موسى ـ عليه السلام ـ من السحر والسحرة. وفي موقف السحرة من فرعون وملئه، ومن ثم انتصر الحق في الأرض».

مواقف العلماء والربّانيين

مواقف العلماء والربانيين

نعطر جمعنا هذا بهذه التراجم من سادات سلفنا من الربانيين الذين صدعوا بالحق أمام الأمراء والسلاطين، وقاموا بأداء هذه الأمانة الغالية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجاهدوا أفضل الجهاد وأشرفه وأعظمه، فسرْ على دربهم تنزل بأرضهم، وصَوِّت بحاديهم تحل بواديهم.

وهذه أمثلة وضيئة شفافة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودفع الشبه الباطلة وتبيين الحق للناس، لسادة من سادات سلفنا، تبقى مدى الأيام ناصعة منيرة بيضاء، تهدي وتشد أزر العاملين.

* **الإمام القدوة أبو الوليد عبادة بن الصامت الخزرجي** رضي الله عنه:

أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدريين.

● عن قبيصة بن ذؤيب أن عبادة أنكر على معاوية شيئًا، فقال: لا أساكنك بأرض، فرحل إلى المدينة، قال له عمر: ما أقدمك؟ فأخبره بفعل معاوية، فقال له: ارحل إلى مكانك فقبح اللَّه أرضًا لست فيها وأمثالك، فلا إمرة له عليك[1].

● عن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول اللَّه ﷺ[2] على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول أو نقوم بالحق حيث كنا، لا نخاف في اللَّه لومة لائم. وثمة بيعة أخرى[3].

---

(١) رجاله ثقات. رواه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٧).

(٢) أي: ليلة العقبة.

(٣) رواه أحمد والبخاري، ومسلم والنسائي.

● وعن عبيد بن رفاعة: أن عبادة بن الصامت مرت عليه قطارة[١] وهو بالشام تحمل الخمر، فقال: ما هذه، أزيت؟ قيل: لا، بل خمر يباع لفلان. فأخذ شفرة من السوق، فقام إليها، فلم يذر فيها راوية إلا بقرها، وأبو هريرة إذا ذاك بالشام ـ فأرسل فلان إلى أبي هريرة، فقال: ألا تمسك عنّا أخاك عبادة؛ أما بالغدوات، فيغدو إلى السوق يفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشيِّ، فيقعد في المسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا وعيبنا! قال: فأتاه أبو هريرة، فقال: يا عبادة، ما لك ولمعاوية؟ ذره وما حمِّل، فقال: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا يأخذنا في اللَّه لومة لائم. فسكت أبو هريرة وكتب فلان إلى عثمان: إن عبادة قد أفسد عليَّ الشام[٢].

* **أبو أيوب الأنصاري** رضي الله عنه:

● عن محمد بن كعب قال: كان أبو أيوب يخالف مروان، فقال: ما يحملك على هذا؟ قال: إني رأيت رسول اللَّه ﷺ يصلي الصلوات؛ فإن وافقته، وافقناك، وإن خالفته خالفناك[٣].

● وعن سالم بن عبد اللَّه بن عمر قال: أعرست، فدعا أبي الناس، فيهم أبو أيوب، وقد ستروا بيتي بجُنادي أخضر، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسه، فنظر فإذا البيت مستر، فقال: يا عبد اللَّه، تسترون الجدر؟ فقال أبي واستحيا: غلبنا النساء يا أبا أيوب. فقال: من خشيت أن تغلبه النساء، فلم أخش أن يغلبنك، لا أدخل لكم بيتًا، ولا آكل لكم طعامًا[٤].

(١) القطارة والقطار: أن تشد الإبل على نسق واحد خلف واحد.

(٢) «السير» (٢/ ٩ ـ ١٠).

(٣) رجاله ثقات. أخرجه الطبراني (٣٩٩٣).

(٤) **إسناده قوي**: أخرجه الطبراني (٣٨٥٣)، والذهبي في «السير» (٢/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩). =

* **أبو هريرة** رضي الله عنه :

قام أبو هريرة رضي الله عنه إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة، فقال له: أتظل عند ابنة فلان تُروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد، وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر! لقد هممت أن أفعل وأفعل. ثم قال: اسمعوا من أميركم[١] .

* **أبو ذر** رضي الله عنه :

عن الأوزاعي حدثني أبو كثير عن أبيه، قال: أتيت أبا ذر وهو جالس عند الجمرة الوسطى، وقد اجتمع الناس عليه يستفتونه، فأتاه رجل فوقف عليه، فقال: ألم ينهك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فرفع رأسه، ثم قال: أرقيب أنت عليَّ! لو وضعتم الصمصامة على هذه ـ وأشار بيده إلى قفاه ـ ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من رسول اللَّه ﷺ قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها[٢] .

* **أبو سعيد الخدري ومروان بن الحكم:**

روى عبد الرزاق عن الثوري عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: أوّل من قدّم الخطبة على الصلاة يوم العيد مروان، فقال له رجل: خالفت السنة، فقال له مروان: إنه قد تُرك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أمّا هذا فقد قضى ما عليه. سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه؛ فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٣] .

= والجنادي: هو جنس من الأنماط والثياب يستر بها الجدران.

(١) «العقد الفريد» (١/ ٥٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٦٤).

(٣) «البداية والنهاية» (٨/ ٢٦١) ـ طبع دار الريان.

* ابن عمر والحجّاج:

وابن عمر ابن عمر.. أشد الصحابة اتباعًا.. وردت الآثار بذلك وشأنه عجيب في هذا المضمار.

● عن القعقاع بن الصلت قال: خطب الحجاج، فقال: إن ابن الزبير غيّر كتاب اللَّه، فقال ابن عمر: ما سلّطه اللَّه على ذلك، ولا أنت معه، ولو شئت أقول: كذبتَ لفعلت.

وروى شهر بن حوشب وغيره أن الحجاج أطال الخطبة فجعل ابن عمر يقول: الصلاة الصلاة مراراً، ثم قام فأقام الصلاة فقام الناس، فصلّى الحجاج بالناس، فلما انصرف قال لابن عمر: ما حملك على ذلك؟ فقال: إنما نجيء للصلاة، فصلِّ الصلاة لوقتها ثم تفتق[1] ما شئت بعد من تفتقه[2].

وقام ابن عمر إلى الحجاج وهو يخطب فقال: يا عدو اللَّه! استَحَلَّ حرم اللَّه، وخرّب بيت اللَّه، فقال: يا شيخًا قد خرف. فلما صدر الناس، أمر الحجاج بعض مُسَوِّدته فأخذ حربة مسمومة وضرب بها رجْل ابن عمر فمرض ومات منها. ودخل عليه الحجاج عائداً، فسلّم فلم يردَّ عليه، وكلمّه فلم يجبه[3].

* عبد الملك بن مروان وأم الدرداء رضي الله عنهما:

أخرج ابن كثير عن إبراهيم بن هشام بن يحيى القبّاني عن أبيه عن جده قال: كان عبد الملك يجلس في حلقة أم الدرداء في مؤخر المسجد بدمشق، فقالت له: بلغني أنك شربت الطلا بعد العبادة والنسك، فقال: أي واللَّه،

(١) تفتق: تفتق فلان بالكلام: أنطق به لسانه.
(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ١٢٧).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٣٠).

والدما أيضًا قد شربتها. ثم جاءه غلام قد بعثه في حاجة، فقال: ما حسبك لعنك اللَّه؟ فقالت أم الدرداء: لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فإني سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ: «**لا يدخل الجنة لعّان**»[١].

❑ قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «الإسلام ثمانية أسهم: الصلاة سهم، والزكاة سهم، والجهاد سهم، وصوم رمضان سهم، والأمر بالمعروف سهم، والنهي عن المنكر سهم، والإسلام سهم، وقد خاب من لا سهم له»[٢].

*** صحابي يقتل من سبَّ النبي ﷺ:**

● عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر، قال: فلما كانت ذات ليلة، جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المغول[٣]، فوضعه في بطنها، واتكأ عليها فقتلها، فوقع بين رجليها طفل، فلطخت ما هناك بالدم، فلما أصبح، ذُكر لرسول اللَّه ﷺ، فجمع الناس فقال: «أنشد اللَّه رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق، إلا قام»، فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتزلزل حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه أنا صاحبها، كانت تشتمك، وتقع فيك، فأنهاها لا تنتهي، وأزجرها فلا تنزجر، ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت بي رفيقة، فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذت المغول فوضعته في بطنها، واتكأت عليها حتى قتلتها، فقال النبي ﷺ: «**ألا اشهدوا أن دمها هدر**»[٤].

● وعن ابن سعد عن عبد اللَّه بن معقل قال: نزل ابن أم مكتوم على

---

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ٧١). والطلا: الخمر.

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١١/ ٧).

(٣) سيف قصير دقيق.

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود والنسائي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

يهودية بالمدينة كانت ترفقه وتؤذيه في النبي ﷺ، فتناولها فضربها فقتلها، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فقال: أما واللَّه إن كانت لترفقني، ولكن آذتني في اللَّه ورسوله، فقال النبي ﷺ: «**أبعدها اللَّه فقد أبطلت دمها**»(١).

* ابن عباس رضي الله عنهما يفحم الخوارج:

أثناء الحرب التي دارت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، خرج فريق كفَّر عليًّا ومعاوية، وجاءوا بأمور لم تكن معروفة من قبل، وذهب ابن عباس إليهم ليوضِّح الحق، ويكشف الشُّبهة.

❑ قال ابن عباس: دخلت عليهم وهم قائلون، فإذا هم مسهمة وجوههم من السهر، قد أثر السجود في جباههم، كأنَّ أيديهم ثفن الإبل، (ثفن الإبل: ما يقع على الأرض من الإبل كالركبتين)، عليهم قمص مرحضة، (المرحضة: المغسولة)، فقالوا: ما جاء بك يا ابن عباس؟ وما هذه الحلة التي عليك؟ قال: قلت: ما تعيبون من ذلك؟ فلقد رأيت رسول اللَّه ﷺ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنية. قال: ثم قرأت هذه الآية: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف: ٣٢]. فقالوا: ما جاء بك؟ قال: جئتكم من عند أصحاب رسول اللَّه ﷺ وليس فيكم منهم أحد، ومن عند ابن عم رسول اللَّه ﷺ وعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بتأويله، جئت لأبلغكم عنهم، وأبلغهم عنكم. فقال بعضهم: لا تخاصموا قريشًا؛ فإن اللَّه يقول: ﴿**بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف: ٥٨]، فقال بعضهم: بلى فلنكلمه. قال: فكلمني منهم رجلان أو ثلاثة قال: قلت: ماذا نقمتم عليه؟ قالوا: ثلاثًا، فقلت: ما هنَّ؟ قالوا: حكم الرجال في أمر اللَّه، وقال اللَّه تعالى: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾ [الأنعام: ٥٧].

---

(١) صححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٥١)، وضعفه في ضعيف أبي داود (٩٣٧).

قال: هذه واحدة، وماذا أيضًا؟ قالوا: فإنه قاتل، فلم يَسْبِ، ولم يَغْنَم، فلئن كانوا مؤمنين ما حلَّ قتالهم، ولئن كانوا كافرين، لقد حلَّ قتالهم وسَبْيُهم، قال: قلت: وماذا أيضًا؟ ومحا نفسه من إمرة المؤمنين؛ فإن لم يكن أمير المؤمنين، فهو أمير الكافرين. قال: قلت: أرأيتم إن أتيتكم من كتاب اللَّه وسنة رسوله بما ينقض قولكم هذا، أترجعون؟ قالوا: وما لنا لا نرجع!! قال: قلت: أما قولكم: حكم الرجال في أمر اللَّه؛ فإن اللَّه قال في كتابه: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة: ٩٥]. وقال في المرأة وزوجها: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا** ﴾ [النساء: ٣٥]. فصير اللَّه ذلك إلى حكم الرجال، فناشدتكم اللَّه، أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين، وفي إصلاح ذات بينهم أفضل، أو في دم أرنب ثمنه ربع درهم، وفي بضع امرأة؟ قالوا: بلى، هذا أفضل. قال: أخرجتم من هذه، قالوا: نعم، قال: وأما قولكم: «قاتل ولم يسب ولم يغنم»، أتسبون أمكم عائشة؟! فإن قلتم: نسبيها، فنستحلَّ منها ما نستحل من غيرها، فقد كفرتم، وإن قلتم: ليست بأمنا فقد كفرتم، فأنتم ترددون بين ضلالتين، أخرجتم من هذه؟ قالوا: بلى. قال: وأما قولكم: «محا نفسه من إمرة المؤمنين» فأنا آتيكم بمن ترضون، إن نبي اللَّه ﷺ يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو، قال رسول اللَّه ﷺ: «**اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول اللَّه**»، فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو: ما نعلم أنك رسول اللَّه، ولو نعلم أنك رسول اللَّه ما قاتلناك، قال رسول اللَّه ﷺ: «**اللَّهم إنك تعلم أني رسولك، يا علي اكتب: هذا ما اصطلح عليه محمد ابن عبد اللَّه وأبو سفيان وسهيل بن عمرو**»[1].

(١) انظر «الاعتصام» للشاطبي (٢/ ١٨٧).

لقد كان ابن عباس بحرًا زخّارًا، كشف الشبهة ودحضها، وأتى بالأدلة البينة من الكتاب والسنة، ولقد أثمرت جهوده، فرجع منهم عن باطلهم ألفان.

لله در ابن عباس من إمام.. ورضي اللَّه عن ترجمان القرآن وحبره، وما أحوج المسلمين اليوم إلى علماء أمثال ابن عباس، كي يقارعوا أهل الباطل، ويكشفوا عن شبهاتهم، ويوضّحوا الطريق الحق، وفي الأمة بقية خير، واللَّه غالب على أمره ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العظيم.

*** أم المؤمنين عائشة ﵂ ومروان بن الحكم:**

روى البخاري في «صحيحه» عن يوسف بن ماهك قال: «كان مروان على الحجاز، استعمله معاوية، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يُبايع له بعد أبيه، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر شيئًا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل اللَّه فيه: ﴿**وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي**﴾ فقالت عائشة من وراء حجاب: ما أنزل اللَّه فينا شيئًا من القرآن إلا أن اللَّه أنزل عذري»[1].

وقد جاءت مقالة عبد الرحمن مفسّرة في بعض الروايات ففي بعضها: «ماهي إلا هرقلية»، وفي رواية: «سنة هرقل وقيصر» بعد أن قال مروان: «سنة أبي بكر وعمر»، وفي رواية: «أجئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم، وفي رواية: «هرقلية؟ إن أبا بكر واللَّه ما جعلها في أحد من ولده، ولا في أهل بيته»، قال ذلك بعد أن قال مروان: «وإن يستخلف فقد استخلف أبو بكر وعمر»[2].

---

(١) البخاري في كتاب التفسير باب: ﴿**والذي قال لوالديه أف لكما**﴾ حديث رقم (٤٨٢٧) (٨/ ٥٧٦).

(٢) انظر «فتح الباري» (٨/ ٥٧٧).

* أسماء ذات النطاقين رضي الله عنها والحجّاج:

● عن أبي الصديق الناجي أن الحجّاج دخل على أسماء بنت أبي بكر بعدما قُتل ابنها عبد اللَّه، فقال: إن ابنك ألحد[1] في هذا البيت، وإن اللَّه أذاقه من عذاب أليم، وفعل. فقالت: كذبت، كان بارًّا بوالديه، صوّامًا قوّامًا، واللَّه لقد أخبرنا رسول اللَّه ﷺ: «أنه يخرج من ثقيف كذّابان الآخر منهما شر من الأول، وهو مبير»[2، 3].

● وفي «صحيح مسلم» عن أبي نوفل قال: رأيت عبد اللَّه بن الزبير على ثنية الحجون مصلوبًا فجعلت قريش تمّر عليه والناس حتى مرّ عليه عبداللَّه بن عمر فوقف عليه، فقال: السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، السلام عليك أبا خبيب، أما واللَّه لقد كنت أنهاك عن هذا، أما واللَّه لقد كنت أنهاك عن هذا، أما واللَّه لقد كنت أنهاك عن هذا، أما واللَّه إن كنت ما علمتُ صوّامًا قوّامًا وصولاً للرحم، أما واللَّه لأمة أنت شرها لأمة خير، ثم بعد عبد اللَّه بن عمر، فبلغ الحجاج وقوف ابن عمر عليه، وقوله ما قال، فأرسل إليه فأنزله عن جذعه وأُلقي في قبور اليهود، ثم أرسل إلى أمه أسماء بنت أبي بكر فأبت أن تأتيه، فأعاد عليها الرسول لتأتيني أو لأبعثن إليك من يسحبك من قرونك، فأبت وقالت: واللَّه لا آتيه حتى يبعث إليّ من يسحبني بقروني، فقال الحجاج: أروني سبتيتي فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذف[4] حتى دخل عليها، فقال: كيف رأيتيني صنعت بعدو اللَّه؟، قالت: رأيتك أفسدْت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، بلغني أنك تقول: يا ابن

(١) ألْحَدَ: أي ظلم وجار.
(٢) مبير: مُهلك.
(٣) «البداية والنهاية» (٩/ ١٢٦).
(٤) وذَف: يتوذّف: يقارب الخطو ويُسرع.

ذات النطاقين[١] ، أنا واللَّه ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسول اللَّه ﷺ وطعام أبي بكر، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنه؛ أما إن رسول اللَّه حدثنا أن في ثقيف كذّابًا ومبيرًا، فأما الكذّاب فرأيناه؛ وأما المُبير فلا إخالك إلا إياه. قال: فقام عنها ولم يراجعها»[٢] .

* أبو بكرة رضي الله عنه مولى رسول اللَّه ﷺ :

❑ قال عبد العزيز بن أبي بكرة: «إن أباه تزوج امرأة فماتت، فحال إخوتها بينه وبين الصلاة عليها، فقال: أنا أحق بالصلاة عليها. قالوا: صدق صاحب رسول اللَّه ﷺ، ثم إنه دخل القبر فدفعوه بعنف، فغشي عليه، فحُمِل إلى أهله، فصرخ عليه عشرون من ابن وبنت، وأنا أصغرهم فأفاق، قال: لا تصرخوا، فواللَّه ما من نفس تخرج أحبّ إلي من نفسي. ففزع القوم، وقالوا: لم يا أبانا؟ قال: إني أخشى أن أدرك زمانًا لا أستطيع أن آمر بمعروفٍ ولا أنهى عن منكر وما خير يومئذٍ»[٣] .

* عامر بن عبد قيس راهب العرب :

مرّ ـ رحمه اللَّه ـ في الرّحبة، وإذا رجل يظلم فألقى رداءه، وقال: لا أرى ذمّة اللَّه تخفر وأنا حي. فاستنقذه.

● ويُروى أن سبب إبعاده إلى الشام، كونه أنكر وخلَّص هذا الذِّمّيّ[٤]، وبعث إليه أمير البصرة: ما يمنعك أن تأتي الأمراء؟ قال: إن لدي أبوابكم

---

(١) النطاقين: شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها.

(٢) انفرد به مسلم ـ انظر «البداية والنهاية» (٨/ ٣٤٦).

(٣) «معجم الطبراني»، و«تاريخ ابن عساكر» (١٧/ ٣١٩/ب)، (٣٢٠/أ)، و«السير» (٣/ ٧).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٨).

طلاب الحاجات، فادعوهم واقضوا حاجاتهم، ودعوا من لا حاجة له إليكم.

*** أويس القرني:**

❑ قال أويس القرني لرجلٍ من مراد: يا أخا مراد، إن الموت وذكره لم يدع لمؤمنٍ فرحًا، وإن علمه بحقوق اللَّه لم يترك له في ماله فضةً ولا ذهبًا، وإن قيامه للَّه بالحق لم يترك له صديقًا[١].

❑ قال الحسن البصري ـ رحمه اللَّه ـ مُروا بالمعروف وانهوْا عن المنكر، وإلا كنتم أنتم المُوعِظات[٢، ٣].

*** عبد اللَّه بن مُحيريز بن جُنادة:**

كان من العلماء العاملين، ومن سادة التابعين.

❑ قيل: إنه رأى على خالد بن يزيد بن معاوية جُبَّة خزٍّ، فقال: أتلبس الخز؟ قال: إنما ألبس لهؤلاء. وأشار إلى الخليفة، فغضب وقال: ما ينبغي أن يعدل خوفك من اللَّه بأحدٍ من خلقه[٤].

رحم اللَّه ابن محيريز الذي قال فيه الأوزاعي: من كان مقتديًا فليقتد بمثل ابن محيريز، إن اللَّه لم يكن ليضل أمة فيها ابن محيريز، وقال رجاء بن حيوة: بقاء ابن محيريز أمان للناس.

*** أبو مسلم الخولاني ومعاوية:**

«السلام عليك أيها الأجير»:

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٨٣).

(٢) الموعظات: أي يوعظ بكم غيركم لما يحلّ بكم من سخط اللَّه تعالى ولعنته بسبب إهمال هذا الأصل.

(٣) «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلاّل ص(٤٩).

(٤) «سير أعلام النبلاء».

أتى أبو مسلم الخولاني إلى معاوية بن أبي سفيان، فقام بين السِّماطين، فقال: السلام عليك أيها الأجير. فقال من عنده: أبا مسلم، السلام عليك أيها الأمير، فقال أبو مسلم: السلام عليك أيها الأجير. فقال معاوية: دعوا أبا مسلم؛ فإنه أعلم بما يريد، فقال: اعلم أنه ليس من أجير استُرعي رعية إلا ربُّ الرعية سائله عنها؛ فإن داوى مرضاها وجبر كسراها، وهنَأ جرباها، ورد أولاها على أخراها، ووضعها في أنف من الكلأ وصفو من الماء؛ وفاه أجره، وإن كان لم يُداو مرضاها، ولم يهنأ جرباها، ولم يجبر كسراها، ولم يرد أولاها على أخراها، ولم يضعها في أنف من الكلأ وصفو من الماء؛ لم يؤته أجره، فانظر أين أنت يا معاوية من ذلك. فقال معاوية: يرحمك اللَّه يا أبا مسلم[1].

● دخل معاوية رضي الله عنه يومًا مسجد دمشق وجلس على المنبر فناداه أبو مسلم الخولاني قائلاً: «يا معاوية إنما أنت قبر من القبور، إن جئتَ بشيء كان لك شيء، وإن لم تجئ بشيء فلا شيء لك. يا معاوية لا تحسبنّ الخلافة جمع المال وتفرّقه، ولكن الخلافة العمل بالحق، والقولُ بالمعدلة، وأخذ الناس في ذات اللَّه عز وجل، يا معاوية إننا لا نبالي بكدر الأنهار ما صفا لنا رأس عيننا، وأنت رأس عيننا، يا معاوية إياك أن تحيف على قبيلة من قبائل العرب، فيذهب حيفك بعدلك»[2].

رحم اللَّه ريحانة الشام عبد اللَّه بن ثوب أبا مسلم الخولاني، وحبس معاوية بن أبي سفيان العطاء يومًا، (العطاء: مرتبات ثابتة لجميع أفراد الشعب تؤدَّى لهم من بيت المال) فلما صعد المنبر قام إليه أبو مسلم الخولاني، وقال: لم حبست العطاء يا معاوية؟ إنه ليس من كدّك ولا كد أبيك، ولا كد أمك

(١) «المصباح المضيء» لابن الجوزي.
(٢) «الآمرون بالمعروف في الإسلام» للمنجد ص(٥٢).

حتى تحبس. فغضب معاوية غضبًا شديدًا ونزل عن المنبر، وقال للناس: مكانكم، وغاب عن أعينهم ساعةً، ثم عاد إليهم فقال: إن أبا مسلم كلّمني بكلام أغضبني، وإني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الغضب من الشيطان، والشيطان خلق من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء؛ فإذا غضب أحدكم فليغتسل**»، وإني دخلت فاغتسلت، وصدق أبو مسلم؛ إنه ليس من كدي ولا كد أبي فهلمُّوا إلي عطائكم.

فانظر رحمك اللَّه إلى صدع أبي مسلم بالحق، وانظر إلى حلم خال المؤمنين معاوية رضي الله عنه وقبوله، وأين نحن من غبار قدم معاوية... من أقزام نصبوا أنفسهم آلهة، يقولون فلا يُرد قولهم.

هُبَل هُبَل.. رمز السخافة والخيانة والعمالة والدَّجَلْ
هتافة التهريج ما ملوا الثناء... زعموا له ما ليس عند الأنبياء
ملك تجلبب بالضياء وجاء من كبد السماء
هو عالم ومعلم... هو عبقري ملهم
ومن الجهالة ما قتل..
وسعى القطيع غباوة يا للبطل
وثنٌ يقود جموعهم يا للخجل

* شيخ زاهد وعبد الملك بن مروان:

قال الحافظ ابن كثير، قال الهيثم بن عدي: أذن عبد الملك للناس في الدخول عليه إذنًا خاصًّا، فدخل شيخ رث الهيئة لم يأبه له الحرس، فألقى بين يدي عبد الملك صحيفة وخرج فلم يُدر أين ذهب، وإذا فيها: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم، يا أيها الإنسان إن اللَّه قد جعلك بينه وبين عباده فاحكم بينهم بالحق ﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ**

اللَّه لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾، وإني أحذرك يوم ينادي المنادي ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

قال: فتغيّر وجه عبد الملك فدخل دار حرمه ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أيامًا[1].

*** زرّ بن حبيش وعبد الملك:**

كتب زر بن حبيش إلى عبد الملك كتابًا وفي آخره: ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر لك في صحتك فأنت أعلم بنفسك واذكر ما تكلّم به الأولون:

إذا الرجال ولدت أولادها وَبَلِيَتْ من كِبَر أجسادها

وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بلّ طرف ثوبه، ثم قال: صدق زر، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق[2].

*** سيد التابعين سعيد بن المسيب:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ : لا تملئوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم[3].

❑ وقال عبد اللَّه بن جعفر: استعمل ابن الزبير جابر بن الأسود بن

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ٧٠).

(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٧١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٣٢).

عوف الزهري على المدينة، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير، فقال سعيد بن المسيب: لا، حتى يجتمع الناس، فضربه ستين سوطًا، فبلغ ذلك ابن الزبير فكتب إلى جابر يلومه ويقول: ما لنا ولسعيدٍ دعه[1].

لما ضرب سعيد بن المسيب، صاح بجابر بن الأسود ـ وكان تزوج الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة ـ : واللَّه ما ربعت على كتاب اللَّه وإنك قد تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة، وما هي إلا ليالٍ فاصنع ما بدا لك، فسوف يأتيك ما تكره. فما مكث إلا يسيرًا حتى قتل ابن الزبير.

وعقد عبدالملك لابنيه الوليد وسليمان بالعهد، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدة، وعامله يومئذ على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي، فدعا الناس إلى البيعة، فبايعوا، وأبى سعيد بن المسيب أن يبايع لهما، وقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار. فقيل: ادخل واخرج من الباب الآخر، قال: واللَّه لا يقتدي بي أحد من الناس، فضربه هشام ستين سوطًا، وطاف به في تبان من شعره وسجنوه، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع، ويقول: سعيد! كان واللَّه أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه.

❑ وقيل لسعيد بن المسيب: ما شأن الحجاج لا يبعث إليك، ولا يحركك ولا يؤذيك؟ قال: واللَّه ما أدري إلا أنه دخل ذات يوم مع أبيه المسجد، فصلى صلاة لا يتم ركوعها ولا سجودها، فأخذت كفًّا من حصى فحصبته بها، زعم أن الحجاج قال: ما زلت بعد أُحسن الصلاة.

❑ وفي الطبقات الوسطى لابن سعد (٥/ ٣٠): عن ميمون بن مهران، قال: قدم عبد الملك بن مروان المدينة، فامتنعت منه القائلة، واستيقظ، فقال لحاجبه: انظر هل في المسجد أحد من حداثنا، فخرج فإذا سعيد بن المسيب في حلقته، فقام حيث ينظر إليه، ثم غمزه وأشار بإصبعه، ثم ولّى فلم

(١) «طبقات ابن سعد» (٧/ ١٢٢، ١٢٣).

يتحرك سعيد، فقال: لا أراه فطن، فجاء ودنا منه، ثم غمزه وقال: ألم ترني أشير إليك؟ قال: ما حاجتك؟ قال: أجب أمير المؤمنين، فقال: إلي أرسلك؟ قال: لا، ولكن قال: انظر بعض حُدَّاثنا. فلم أر أحدًا أهيأ منك. قال: اذهب فأعلمه أني لست من حداثه، فخرج الحاجب وهو يقول: ما أرى هذا الشيخ إلا مجنونًا، وذهب فأخبر عبد الملك، فقال: ذاك سعيد بن المسيب فدعه.

❑ فللَّه دره من إمام في عزة نفسه وصدعه بالحق.

❑ وذكر الحافظ بن كثير أن الحجاج بن يوسف صلّى مرة بجنب سعيد ابن المسيب، وذلك قبل أن يلي شيئًا فجعل يرفع قبل الإمام ويقع قبله في السجود، فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه ـ وكان له ذكر يقوله بعد الصلاة ـ فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره، ثم أقبل عليه سعيد فقال له: يا سارق يا خائن، تصلي هذه الصلاة، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك، فلم يرد عليه ثم مضى الحجاج إلى الحج، ثم رجع فعاد إلى الشام، ثم جاء نائبًا على الحجاز، فلما قتل ابن الزبير كر راجعًا إلى المدينة نائبًا عليها، فلما دخل المسجد إذ مجلس سعيد بن المسيب، فقصده الحجاج فخشي الناس على سعيد منه، فجاء حتى جلس بين يديه، فقال له: أنت صاحب الكلمات؟ فضرب سعيد صدره بيده، وقال: نعم! قال: فجزاك اللَّه من معلم ومؤدب خيرًا ـ ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك. ثم قام ومضى[1].

* رجل والحجّاج:

❑ قال الحافظ ابن كثير: «وقيل إن الحجاج خطب يومًا، فقال: أيها

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ١١٩ ـ ١٢٠).

الناس الصبر عن محارم اللَّه أيسر من الصبر على عذاب اللَّه، فقام إليه رجل فقال له: ويحك يا حجاج ما أصفق وجهك وأقل حيائك، تفعل ما تفعل، وتقول مثل هذا الكلام؟ خبث وضل سعيك، فقال للحرس: خذوه فلما فرغ من خطبته قال له: ما الذي جرأك عليَّ؟ فقال: ويحك يا حجاج، أنت تجترئ على اللَّه، ولا أجترئ أنا عليك؟ ومن أنت حتى لا أجترئ عليك وأنت تجترئ على اللَّه رب العالمين، فقال: خلوا سبيله، فأطلق»[1].

* **جهبذ العلماء سعيد بن جبير:**

● عن عمرو بن ميمون عن أبيه، قال: لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى علمه.

❑ قال سالم بن أبي حفصة: لما أتي الحجاج بسعيد بن جبير قال: أنا سعيد بن جبير، قال: أنت شقي بن كسير، **لأقتلنك**. قال: فإذن أنا كما سمتني أمي، ثم قال: دعوني أصل ركعتين، قال: وجهوه إلى قبلة النصارى، قال: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال: إني أستعيذ منك بما عاذت مريم، قال: وما عاذت به؟ قال: قالت: ﴿**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾ [مريم: ١٨].

❑ قال ابن عيينة: «لم يقتل بعد سعيد إلا رجلاً واحداً»[2].

وجعل الحجاج يقول بعد قتله: ما لي ولسعيد بن جبير.

● وعن خلف بن خليفة عن أبيه قال: شهدت مقتل سعيد بن جبير، فلما بان رأسه قال: لا إله إلا اللَّه، لا إله إلا اللَّه ولم يتم الثالثة.

❑ قال سليمان التيمي: كان الشعبي يرى التقية، وكان ابن جبير لا يرى

(١) المصدر السابق (٩/ ١٢٤ ـ ١٢٥).
(٢) «الحلية» (٤/ ٢٩٠)، و«السير» (٤/ ٣٣٨).

التقية؛ وكان الحجاج إذا أتي بالرجل ـ يعني: ممن قام عليه ـ قال له: أكفرت بخروجك علي؟ فإن قال: نعم. خلّى سبيله. فقال: أكفرت؟ قال: لا، قال: اختر أي قتلةٍ أقتلك، قال: اختر أنت؛ فإن القصاص أمامك[١].

● وعن داود بن أبي هند قال: «لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال: ما أراني إلا مقتولاً وسأخبركم: إني كنت وأنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثم سألنا اللَّه الشهادة، فكلا صاحبي رزقها، وأنا أنتظرها، قال: فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء»[٢].

❑ قال الذهبي: قلت: ولما علم من فضل الشهادة ثبت للقتل ولم يكترث، ولا عامل عدوه بالتقية المباحة له ـ رحمه اللَّه ـ»[٢].

❑ قال ابن كثير: عن سالم بن أبي حفصة قال: لما أتي بسعيد بن جبير إلى الحجاج قال له: أنت الشقي بن كسير؟ قال: لا، إنما أنا سعيد بن جبير، قال: لأقتلنك، قال: أنا إذن كما سمتني أمي سعيداً، قال: شقيت وشقيت أمك. قال: الأمر ليس إليك، ثم قال: اضربوا عنقه، فقال: دعوني أصلي ركعتين.

● وفي رواية أنه قال له: لأبدلنك بالدينار ناراً تلظى، قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا. وفي رواية أنه لما أراد قتله قال: وجهوه إلى قبلة النصارى، فقال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، فقال: اجلدوا به الأرض، فقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. فقال: اذبح فما أنزعه لآيات اللَّه منذ اليوم. فقال: اللَّهم لا تسلطه على أحدٍ بعدي.

وقد ذكر أبو نعيم هنا كلامًا كثيراً في مقتل سعيد بن جبير، أحسنه هذا

(١) «السير» (٤/ ٣٣٨).
(٢) «السير» (٤/ ٣٤٠).

واللَّه أعلم.

❑ قال ابن كثير عن سعيد بن جبير: «قال له الحجاج: ويلك. فقال: الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار، فقال: اضربوا عنقه. فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، استحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة؛ فأنا خصمك عند اللَّه، فذبح من قفاه فبلغ ذلك الحسن فقال: اللَّهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج، فما بقي إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود، فأنتن منه فمات. وقال سعيد للحجاج لما أمر بقتله وضحك فقال له: ما أضحكك؟ فقال: أضحك من غيرتك علي وحلم اللَّه عنك».

❑ قال ابن كثير: لم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول: يا عدو اللَّه، فيم قتلتني؟ فيقول الحجاج: ما لي ولسعيد بن جبير، ما لي ولسعيد بن جبير؟.

* أبو حازم الأعرج سلمة بن دينار الأفزر[1] التمار:

❑ قال ابن خزيمة: لم يكن في زمانه مثله.

«اعرض نفسك على كتاب اللَّه»:

لما حج سليمان بن عبد الملك ودخل المدينة زائرًا لقبر النبي ﷺ سأل عن أحدٍ ممن أدرك أصحاب رسول اللَّه ﷺ فقيل له: ها هنا رجل يقال له: أبو حازم فبعث إليه فجاءه، فقال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء الذي ظهر منك، وأنت توصف برؤية أصحاب رسول اللَّه ﷺ مع فضل ودين تذكر به؟ فقال أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين؟ فقال سليمان: إنه أتاني وجوه أهل المدينة وعلماؤها وخيارها، وأنت معدودٌ منهم،

(١) أي: الأحدب الذي في ظهره عجرة عظيمة.

ولم تأتني. فقال أبو حازم: أعيذك باللَّه أن تقول ما لم يكن، ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها. قال سليمان: صدق الشيخ، فقال: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال أبو حازم: لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب. قال سليمان: صدقت يا أبا حازم، فكيف القدوم على الآخرة؟ قال: نعم أما المحسن؛ فإنه يقدم على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفر بعيد، وأما قدوم المسيء، فكالعبد الآبق. يؤخذ فيشد كتافه، فيؤتى به إلى سيده؛ فإن شاء عفا عنه وإن شاء عذب. فبكى سليمان بكاء شديداً، وبكى من حوله، ثم قال: ليت شعري ما لنا عند اللَّه يا أبا حازم؟ فقال: اعرض نفسك على كتاب اللَّه، فإنك تعلم ما لك عند اللَّه، قال سليمان: يا أبا حازم، وأين أصيب تلك المعرفة في كتاب اللَّه تعالى؟ قال: عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. قال سليمان: يا أبا حازم، فأين رحمة اللَّه؟ قال: قريب من المحسنين. قال سليمان: يا أبا حازم من أعقل الناس؟ قال: أبو حازم أعقل الناس من تعلم الحكمة والعلم، وعلم بها الناس. قال سليمان: فمن أحمق الناس؟ فقال: من حط في هوى رجل هو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره. قال سليمان: فما أسمع الدعاء ؟ قال أبو حازم: دعاء المخبتين الخائفين. فقال سليمان: فما أزكى الصدقة عند اللَّه تعالى؟ قال: جهد المقل، قال: فما تقول فيما ابتلينا به؟ ـ يعني الخلافة ـ قال: أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه، أصلحك اللَّه. قال سليمان: نصيحة تلقيها. فقال: ما أقول في سلطان استولى عنوة بلا مشورة من المؤمنين، ولا اجتماع المسلمين، فسفكت فيه الدماء الحرام، وقطعت به الأرحام، وعطلت به الحدود، ونُكثت به العهود، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها فيا ليت شعري ما تقولون؟ وماذا يقال لكم؟ فقال بعض جلسائه: بئس ما قلت يا أعور أمير المؤمنين يستقبل بهذا. فقال أبو حازم: اسكت يا كاذب، فإنما أهلك فرعون هامان وهامان

فرعون، إن اللَّه قد أخذ على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

«كيف لنا أن نصلح ما فسد»:

❑ قال سليمان بن عبد الملك: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح ما فسد منا؟ فقال: المأخذ في ذلك قريب يسير يا أمير المؤمنين. فاستوى سليمان جالسًا من اتكائه، فقال: كيف ذلك؟ فقال: تأخذ المال من حله وتضعه في أهله، وتُكّف الأكف عما نهيت، وتمضيها فيما أمرت به، قال سليمان: ومن يطيق ذلك؟ فقال أبو حازم: من هرب من النار إلى الجنة، ونبذ سوء العادة إلى خير العبادة. فقال سليمان: اصحبنا يا أبا حازم وتوجه معنا تصب منا ونصب منك. قال أبو حازم: أعوذ باللَّه من ذلك. قال سليمان: ولم يا أبا حازم؟ قال: أخاف أن أركن إلى الذين ظلموا فيذيقني اللَّه ضعف الحياة وضعف الممات. فقال سليمان: فتزورنا. قال أبو حازم: إنا عهدنا الملوك يأتون العلماء، ولم يكن العلماء يأتون الملوك، فصار في ذلك صلاح الفريقين، ثم صرنا الآن في زمان صار العلماء يأتون الملوك والملوك تقعد عن العلماء، فصار في ذلك فساد الفريقين جميعًا. قال سليمان: فأوصنا يا أبا حازم وأوجز، قال: اتق اللَّه ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك. قال سليمان: ادع لنا بخير، فقال أبو حازم: «اللَّهم إن كان سليمان وليك، فبشره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ إلى الخير بناصيته». قال: زدني. قال: قد أوجزت؛ فإن كنت وليه فاغتبط، وإن كنت عدوه فاتعظ، فإن رحمته في الدنيا مباحة، ولا يكتبها في الآخرة إلا لمن اتقى في الدنيا، فلا نفع في قوسٍ ترمي بلا وترٍ. فقال سليمان: هات يا غلام ألف دينار. فأتاه بها، فقال: خذها يا أبا حازم. فقال: لا حاجة لي بها؛ لأني وغيري في هذا المال سواء؛ فإن سويت بيننا وعدلت، أخذت وإلا فلا؛ لأني أخاف أن يكون ثمنًا لما قلت من كلامي. قال سليمان: يا أبا حازم، عظني

وأوجز. قال: حلال الدنيا حساب وحرامها عقاب، وإلى اللَّه المآب، فاتق عذابك أو دع. قال: لقد أوجزت فأخبرني ما مالك؟ قال: الثقة بعدله، والتوكل على كرمه، وحسن الظن به، والصبر إلى أجله، واليأس مما في أيدي الناس قال: يا أبا حازم، ارفع إلينا حوائجك، قال: رفعتها إلى من لا تخذل دونه، فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني رضيت، مع أني نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول إلى شيئين: أحدهما لي والآخر لغيري، فأما ما كان لي، فلو احتلت عليه بكل حيلة، ما وصلت إليه قبل أوانه وحينه الذي قدر لي، وأما الذي لغيري، فذلك لا أطمع فيه فكما منعني رزق غيري، كذلك منع غيري رزقي، فعلام أقتل نفسي في الإقبال والإدبار. قال سليمان: لا بد أن ترفع إلينا حاجةً نأمر بقضائها. قال: فتقضيها. قال: نعم، قال: فلا تعطني شيئًا حتى أسألكه ولا ترسل إليَّ حتى آتيك[1].

«**حلالها حساب**»:

قدم هشام بن عبد الملك إلى المدينة، فأرسل إلى أبي حازم، فقال: يا أبا حازم عظني وأوجز. قال: اتق اللَّه وازهد في الدنيا؛ فإن حلالها حساب، وإن حرامها عذاب. قال: لقد أوجزت يا أبا حازم، ارفع حوائجك إلى أمير المؤمنين. فقال أبو حازم: هيهات هيهات، قد رفعت حوائجي إلى من تُنجز الحوائج دونه، فما أعطاني منها قنعتُ، وما منعني منها رضيت. وقد نظرت في هذا الأمر؛ فإذا هو نصفان: أحدهما لي والآخر لغيري.

● وعن زيد بن أسلم قال: كنت مع أبي حازم في الصائفة، فأرسل عبد الرحمن بن خالد ـ وكان أصلح من بقي من أهل بيتنا ـ إلى أبي حازم أن ائتنا حتى نسائلك وتحدّثنا، فقال أبو حازم: معاذ اللَّه، أدركت أهل العلم لا يأتون الدِّين أهل الدنيا، فلن أكون بأول من فعل ذلك؛ فإن كان لك حاجة

(١) كتاب «الإمامة والسياسة».

فأبلغنا. فتصدى له عبد الرحمن وسأل عنه، وقال له: لقد ازددت علينا بهذا كرامة[١].

* **الأفريقي والسفاح:**

أما الأفريقي فهو شيخ الإسلام الإمام القدوة أبو أيوب عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، قاضي إفريقية وعالمها.. كان الثوري يعظمه جدًّا.

❑ قال إسماعيل بن عياش: ولي السفاح، فظهر جور بإفريقية، فوفد ابن أنعم على أبي جعفر مشتكيًا. ثم قال: جئت لأعلمك بالجور ببلدنا؛ فإذا هو يخرج من دارك؟! فغضب وهم به، وقيل: قال له: كيف لي بأعوان؟ قال: أفليس عمر بن عبد العزيز كان يقول: الوالي بمنزلة السوق، يجلب إليه ما ينفق فيه؟ فأطرق طويلاً، فأومأ إلى الربيع الحاجب بالخروج[٢].

* **الحكم بن عمرو الغفاري ووالي العراق زياد بن أبيه: «كتاب اللَّه قبل كتاب أمير المؤمنين»:**

روى الأعمش عن الشعبي، أن زيادًا كتب إلى الحكم بن عمرو الغفاري، وكان على الصائفة ـ أي: الغزاة في زمن الصيف ـ أن أمير المؤمنين معاوية كتب إليَّ يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهبًا ولا فضة. واقسم ما سوى ذلك. فكتب إليه الحكم: إني وجدت كتاب اللَّه قبل كتاب أمير المؤمنين، واللَّه لو أن السموات والأرض كانتا رتقًا على عبدٍ فاتقى اللَّه، لجعل له منهما مخرجًا، ثم نادى في الناس وقسم فيهم ما اجتمع له من الفيء[٣].

---

(١) «حلية الأولياء».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٤١٢).

(٣) «العقد الفريد».

*** أحد الرعية وعبد الملك بن مروان: «والحاكم عليك عادل»:**

قام عبد الملك بن مروان ليخطب في الناس ذات يوم ـ وكان بالكوفة ـ فقام إليه رجل اسمه سمعان بن معمر، وقال له: مهلاً يا أمير المؤمنين، اقض لصاحبي بحقه، ثم اخطب. فقال عبد الملك: وما ذاك؟ فقال سمعان: إن لهذا الرجل مظلمة، فجئتك به لأنظر عدلك الذي كنت تعدنا به قبل توليتك، فقال عبد الملك: ما بدا لك أن تقول، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إنكم تأمرون ولا تأتمرون، وتنهون ولا تنتهون، وتعظون ولا تتعظون، أفنقتدي بسيرتكم، أم نطيع أمركم بألسنتكم؟! فإن قلتم: أطيعوا أمرنا واقبلوا نُصحنا. فكيف ينصح غيره من غشّ نفسه؟! وإن قلتم: خذوا الحكمة حيث وجدتموها، واقبلوا العظة ممن سمعتموها. فعلام قلدناكم أزمة أمورنا، وحكمناكم في دمائنا وأموالنا؟! أو ما تعلمون أن منّا من هو أعرف منكم بصنوف اللغات، وأبلغ في العظات؛ فإن كانت الإمامة قد عجزت عن إقامة العدل فينا، فخلوا سبيلها وأطلقوا عقالها، أما واللّه لئن بقيت في أيديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المرة، لتضمحلّ حقوق اللّه وحقوق العباد، فقال عبد الملك: وكيف ذلك؟ فقال سمعان: لأن من كلّمكم في حقه زُجر، ومن سكت عن حقه قهر، فلا قوله مسموع، ولا ظلمه مرفوع، ولا من جار عليه مردوع، وبينك وبين رعيتك مقام تزول منه الجبال؛ حيث ملكك هناك خامل، وعزُّك زائل وناصرك خاذل والحاكم عليك عادل. فبكى عبدالملك، ثم قال للرجل: ما حاجتك؟ فقال: عاملك بالسماوة ظلمني، وليله لهو، ونهاره لغو ونظره زهو. فكتب إليه بإعطائه ظلامته، ثم عزله.

*** أحد الرعية وسليمان بن عبد الملك: «اذكر يوم الأذان»:**

دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالس للعامة، فقال: يا سليمان أذكرك يوم الأذان. فارتاع لما دعاه باسمه،

وقال: ويحك، وما يوم الأذان؟. قال: قول اللَّه جل ذكره: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. فبكى سليمان وقال له: ما حاجتك؟ فقال: أنا جارٌ في ضيعتك الفلانية، وقد ظلمني وكيلك، فأضر ذلك بي وبعيالي. قال: قد وهبت لك الضيعة. وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه[1].

*** أعرابي وسليمان بن عبد الملك: «وأنت المسئول عما اجترحوا»:**

قال عمر بن عبد العزيز لسليمان بن عبد الملك: إن بالباب ـ يا أمير المؤمنين ـ رجلاً له حزم ولسان، قال: أدخله، فدخل، فقال له سليمان: ممن الرجل؟ فقال: من عبد القيس بن أقصى، وإني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله وإن كرهته؛ فإن وراءه ما تحب إن قبلته. فقال: قل يا أعرابي. فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في اللَّه ولم يخافوه فيك، خربوا الآخرة وعمروا الدنيا، فهم حرب للآخرة سلم للدنيا، فلا تأتمنهم على ما ائتمنك اللَّه عليه؛ فإنهم لن يألوا الأمانة إلا تضييعًا، والأمة خسفًا، وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسئولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك؛ فإن أعظم الناس غبنًا بائع آخرته بدنيا غيره. قال سليمان: أما أنت يا أخا ربيعة، فقد سللت لسانك، وهو أقطع من سيفك. فقال: أجل يا أمير المؤمنين، لك لا عليك. قال: فهل من حاجة في ذات نفسك. قال: أما خاصة دون عامة فلا. ثم قام فخرج. فقال سليمان: للَّه دره ما أشرف أصله وأجمع قلبه، وأذرب لسانه وأصدق بينته، وأورع نفسه، هكذا فليكن الشرف والعقل[2].

---

(١) كتاب «المحاسن والمساوئ» للبيهقي.

(٢) «المصباح المضيء» لابن الجوزي، و«عيون الأخبار»، و«العقد الفريد».

*** طاووس طاووس العلماء والزهاد وزينتهم:**

جاء الخليفة سليمان بن عبدالملك يومًا إلى طاووس فلم ينظر إليه، فقيل له في ذلك: فقال: أردت أن يعلم أن للَّه رجالاً يزهدون فيما لديه[١].

❑ وعن ابن طاووس قال: كنت لا أزال أقول لأبي: إنه ينبغي أن يُخرج على هذا السلطان[٢]، وأن يفعل به. قال: فخرجنا حجّاجًا، فنزلنا في بعض القرى، وفيها عامل - يعني لأمير اليمن - يُقال له ابن نجيح، وكان من أخبث عمّالهم، فشهدنا صلاة الصبح في المسجد فجاء ابن نُجيح فقعد بين يديْ طاووس فسلّم عليه فلم يُجبه، ثم كلّمه فأعرض عنه، ثم عدل إلى الشق الآخر فأعرض عنه، فلما رأيتُ ما به قمتُ إليه فمددت يده وجعلت أسائله وقلت له: إن أبا عبدالرحمن لم يعرفك، فقال العامل: بلى معرفته لي فَعَلَتْ ما رأيت!، قال: فمضى أبي لا يقولُ لي شيئًا، فلمّا دخلت المنزل قال: أي لُكَع بينما أنت زعمت تريد أن تخرج عليهم بسيفك لم تستطع أن تحبس عنه لسانك[٣].

❑ وروى الذهبي أن أبا جعفر المنصور استدعى طاووس ومعه مالك بن أنس رحمهما اللَّه تعالى، فلما دخلا عليه، أطرق ساعة ثم التفت إلى طاووس.

فقال له: حدثني عن أبيك يا طاووس.

فقال: حدثني أبي أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أشد الناس عذابًا يوم**

---

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٤٢٤).

(٢) هذا القول مرجوح فلا يجوز الخروج على الحاكم المسلم الفاسق والصبر عليه أولى خشية الفتنة.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤١).

القيامة رجل أشركه اللَّه في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله». فأمسك ساعة. قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه، ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عظني يا طاووس. قال: نعم يا أمير المؤمنين ـ إن اللَّه تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

❑ قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأني من دمه، فأمسك عنه ثم قال: ناولني الدواة، فأمسك ساعة حتى اسوّد ما بيننا وبينه، ثم قال: يا طاووس ناولني هذه الدواة فأمسك عنه.

فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟

فقال: أخشى أن تكتب بها معصية للَّه، فأكون شريكك فيها، فلما سمع ذلك قال: قوما عني.

قال طاووس: ذلك ما كنا نبغ منذ اليوم، قال مالك: فمازلت أعرف لطاووس فضله[1].

* * *

(١) «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٦٠)، «وفيات الأعيان» (٢/ ٥١١).

*** سيد أهل اليمن وإمامهم طاووس: «طاووس وسليمان: أتعلمون من أبغض الخلق إلى اللَّه»:**

روي أن رجاء بن حيوة نظر إلى طاووس اليماني يصلي في المسجد الحرام، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك، وهو يومئذ بمكة قد حج ذلك العام، فقال: إني رأيت طاووسًا بالمسجد، فهل لك أن ترسل إليه؟ قال: فأرسل إليه سليمان. فلما أتاه قال رجاء لسليمان: يا أمير المؤمنين، لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يتكلم. فلما قعد طاووس سكت طويلاً، ثم قال: ما أول شيء خلق؟ فقلنا: لا ندري. فقال طاووس: أول شيء خلق القلم. ثم قال: أتدري ما أول شيء كتب؟ قلنا: لا، قال: فإن أول ما كتب: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، ثم كتب القدر خيره وشره إلى يوم القيامة. ثم قال: أتعلمون من أبغض الخلق إلى اللَّه؟ قلنا: لا، فقال: إن أبغض الخلق إلى اللَّه تعالى، عبد أشركه اللَّه في سلطانه، فعمل فيه بمعاصيه، ثم نهض، قال رجاء: فأظلم عليَّ البيت فما زلت خائفًا عليه حتى توارى، فرأيت سليمان يحكُّ رأسه بيده، حتى خشيت أن تخرج أظافره لحم رأسه[1].

*** طاووس وهشام بن عبد الملك: «ما الذي حملك على ما صنعت»:**

قدم هشام بن عبد الملك حاجًّا إلى مكة، فلما دخلها قال: ائتوني برجل من الصحابة. فقيل: يا أمير المؤمنين قد تفانوا. قال: فمن التابعين، فأتوه بطاووس اليماني، فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه، ولم يسلم بإمرة أمير المؤمنين، ولكن قال: السلام عليك. ولم يكنه ولكن جلس بإزائه. قال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب هشام غضبًا شديدًا، حتى هم بقتله، فقيل

(١) كتاب «الإمامة والسياسة».

له: أنت في حرم اللَّه ورسوله، فلا يمكن ذلك فقيل له: يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: وما الذي صنعت؟! فازداد هشام غضبًا، وقال: لقد خلعت نعليك بحاشية بساطي، ولم تقبل يدي، ولم تسلم بإمرة أمير المؤمنين ولم تُكنني وجلست بإزائي بغير إذني، وقلت: كيف أنت يا هشام، فقال: أما ما خلعت نعلي بحاشية بساطك؛ فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، فلا يعاتبني ولا يغضب علي. وأما قولك: لم تقبل يدي؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ يقول: لا يحل لرجل أن يقبل يد أحد، إلا امرأته من شهوة أو ولده برحمة، وأما قولك: لم تسلم بإمرة أمير المؤمنين، فليس كل الناس راضين بإمرتك، فكرهت أن أكذب، وأما قولك: جلست بإزائي؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله ناسٌ قيام، وأما قولك: لم تكنني فإن اللَّه عز وجل سمى أولياءه، وقال: يا داود يا يحيى، يا عيسى، وكنى أعداءه، فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، فقال هشام: عظني. فقال: سمعت أمير المؤمنين عليًّا ﷺ يقول: «إن في جهنم حيات كأمثال القلال، وعقارب كالبغال، تلدغ كل أميرٍ لا يعدل في رعيته» ثم قام وذهب[1].

*** عمر بن عبد العزيز:**

لله دره من آمر بالمعروف وناه عن المنكر ووزير صدق قبل توليه الخلافة.

---

(١) «مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين» ص(٦٢) نقلاً من كتاب نزهة الناظرين لعبيد الضرير.

«لا تُحي ذكرى الحجاج»:

لما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتب الحجاج يزيد بن أسلم، قال له عمر بن عبد العزيز: أسألك باللَّه ـ يا أمير المؤمنين ـ أن لا تُحيي ذكرى الحجاج باستكتابك إياه. فقال: يا أبا حفص، إني لم أجد عنده خيانة دينار ولا درهم. قال عمر: أنا أوجدك من هو أعف منه في الدينار والدرهم. قال: ومن هو؟ قال: إبليس، ما مس ديناراً ولا درهماً، وقد أهلك هذا الخلق[1].

وحجّ سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز، فلما أشرفا على قبة عسفان، نظر سليمان إلى السرادقات قد ضربت، فقال له: يا عمر، كيف ترى؟ قال: أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضًا، وأنت المسئول عنها والمأخوذ بها. فبينما هما كذلك، إذ طار غراب من سرادقات سليمان في منقاره كسرة، فصاح فقال سليمان: ما يقول هذا الغراب؟ قال عمر: ما أدري ما يقول، ولكن إن شئت أخبرتك بعلم. قال: أخبرني قال: هذا غراب طار من سرادقاتك في منقاره كسرة أنت بها مأخوذ، وعنها مسئول من أين دخلت ومن أين خرجت. قال: إنك لتُخبرنا بالعجائب. قال: أفلا أخبرك بأعجب من هذا؟ قال: بلى، قال: من عرف اللَّه كيف عصاه؟! ومن عرف الشيطان كيف أطاعه؟! ومن أيقن الموت، كيف يهنيه العيش؟! قال: لقد غثثت علينا ما نحن فيه ثم ضرب فرسه وسار.

«فكيف سلطانه عند غضبه»:

وحج سليمان بن عبد الملك في خلافته ومعه عمر بن عبد العزيز، فلما أشرف من ثنية قديد رأى سواد عسكره، فأعجبه ذلك فقال: يا أبا حفص ما

(١) «سراج الملوك» للطرطوشي.

ترى هنالك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أرى ذئابًا يأكل بعضها بعضًا، أنت المبتلى بها والمسئول عنها. فبينما هو على ذلك برقت برقة فصعقت صاعقة، فاعتنق سليمان دابته فلما تجلى ذلك قال: يا أبا حفص، ما ترى هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، هذا سلطان اللَّه عز وجل عند رحمته فكيف سلطانه عند غضبه، ثم قال: والعجب واللَّه ممن عرف اللَّه عز وجل فعصاه، وعرف الشيطان فأطاعه، ورأى الدنيا وتقلبها بأهلها فاطمأن إليها.

*** زياد [1] العبدي: «ما أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك»:**

قدم زياد العبدي على عمر، فقال له عمر: يا زياد ألا ترى ما ابتليت به من أمر أمة محمد ﷺ قال: يا أمير المؤمنين لا تعمل نفسك في الوصف، وأعمل نفسك في المخرج مما وقعت فيه، فلو أن كل شعرةٍ منك نطقت، ما بلغت كُنه ما أنت فيه. ثم قال زياد: يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألد، ما حاله؟ قال: سيئ الحال. قال: فإن كانا خصمين ألدّين؟ قال: ذاك أسوأ لحاله. قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: ذلك حين لا يهنؤُه عيشٌ. قال: فواللَّه يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد إلا وهو خصم لك، قال: فبكى عمر حتى تمنيت أن لا أكون قلت له. وقال له عمر مرةً: يا زياد، إني أخاف أن أكون قد هلكت؟ قال: أنا أخاف عليك أن لا تكون تخاف.

*** أبو قلابة:**

حكي عن أبي قلابة، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له: يا أبا قلابة عظني، فقال: يا أمير المؤمنين إنه لم يبق من لدن آدم إلى يومنا هذا خليفة غيرك، قال له: زدني، قال: وأنت أول خليفة يموت. قال: زدني،

---

(١) زياد العبدي: هو زياد بن أبي زياد ميسرة مولى عبد اللَّه بن عياش بن أبي ربيعة المتوفي سنة ١٣٥هـ.

قال: إذا كان اللَّه معك فمن تخاف! وإذا كان عليك فمن ترجو! قال: حسبي[١].

* عطاء بن أبي رباح وهشام:

دخل عطاء بن أبي رباح على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: مرحبًا مرحبًا، هاهنا هاهنا. فرفعه حتى مست ركبته ركبته، وعنده أشراف الناس يتحدثون فسكتوا، فقال هشام: ما حاجتك يا أبا محمد؟ قال: يا أمير المؤمنين أهل الحرمين، أهل اللَّه وجيران رسول اللَّه ﷺ، تقسم فيهم أعطياتهم وأرزاقهم. قال: نعم يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطائهم وأرزاقهم لسنة، ثم قال: هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب ومادة الإسلام، ترد فيهم فضول صدقاتهم. قال: نعم، اكتب يا غلام بأن ترد فيهم صدقاتهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أهل الثغور يرمون من وراء بيضتكم، ويقاتلون عدوكم، قد أجريت لهم أرزاقًا تردّها عليهم، فإنهم إن هلكوا غُزيتم. قال: نعم، اكتب يا غلام، تُحمل أرزاقهم إليهم، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أهل ذمتكم لا يكلفون إلا ما يطيقون فإنما يجيئون معونة لكم على عدوكم. قال: نعم، اكتب يا غلام أن لا يحملوا ما لا يطيقون، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، اتق اللَّه في نفسك؛ فإنك خلقت وحدك وتموت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك، لا واللَّه ما معك ممن ترى أحد. فأكب هشام يبكي. وقام عطاء فلما كان عند الباب، وإذا رجل قد تبعه بكيس ما ندري فيه دراهم أو دنانير، وقال: إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا.

(١) «فضائح الباطنية» للغزالي.

فقال: ما أصنع بهذا ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، ثم خرج عطاء فواللَّه ما شرب عنده حسوة من ماء فما فوقها[١].

*** أعرابي وهشام: «هذا جزاء من يطفف في الكيل»:**

دخل أعرابي على هشام بن عبد الملك، فقال له هشام: عظني يا أعرابي، فقال: كفى بالقرآن واعظًا أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم. بسم اللَّه الرحمن الرحيم: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦]. ثم قال: يا أمير المؤمنين، هذا جزاء من يطفف الكيل والميزان، فما ظنك بمن أخذه كله[٢].

*** سالم بن عبد اللَّه بن عمر: «ما أعظم ما ابتليت به يا عمر»:**

كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب: «سلام عليك، فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد؛ فإن اللَّه عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من أمره هذه الأمة، من غير مشورة مني فيها ولا طلب مني لها، إلا قدر من الرحمن قدَّره عليَّ، فأسأل الذي ابتلاني أن يعينني على ما ولاني من عباده وبلاده، أن يرزقني فيهم العمل بطاعته، وأن يرزقهم مني الرأفة والرحمة، ويرزقني فيهم السمع والطاعة وحسن المؤازرة؛ فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث إليَّ بكتب عمر وسيرته وقضائه في أهل القبلة وأهل الذمة؛ فإني سائر بسيرته ومتبع أثره إن اللَّه أعانني على

(١) «مختصر منهاج القاصدين».

(٢) «العقد الفريد».

ذلك إن شاء اللَّه. والسلام».

فكتب إليه سالم: من سالم بن عبد اللَّه إلى عمر بن عبد العزيز، سلام عليك؛ فإني أحمد إليك اللَّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن اللَّه تعالى خلق الدنيا لما أراد، فجعل لها مدة قصيرة، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء. ثم إنك يا عمر قد وليت أمرًا عظيمًا؛ فإن استطعت أن لا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة، فافعل، وإن استطعت أن تجيء يوم القيامة لا يتبعنك أحد بمظلمة، ويجيء من قبلك وهم غابطون لك فافعل، فإنهم قد عالجوا نزع الموت، وعاينوا أهوال المطلع، وانفقأت أعينهم التي كانت لا تنقضي لذتها، وانشقت بطونهم التي كانوا لا يشبعون فيها، واندقت رقابهم غير متوسدين، بعد تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم. فصاروا جيفًا في بطون الأرض تحت آكامها لو كانوا إلى جنب مساكين تأذّوا من ريحهم بعد إنفاق ما لا يُحصى من الطيب؛ فإنا للَّه وإنا إليه راجعون. ما أعظم ما ابتليت به يا عمر. فمن بعثت من عمالك فازجره زجرًا شديدًا، شبيهًا بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها. المال المال يا عمر، الدم الدم يا عمر. كتبت إلي أن أبعث إليك بكتب عمر وسيرته. إن عمر عمل في غير زمانك وبغير رجالك، وأنا أرجو إن عملت على النحو الذي عمل به عمر، بعد ما بلوت من المظالم، أن تكون أفضل من عمر عند اللَّه، وقل كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨][1].

*** سالم وهشام بن عبد الملك:**

حج هشام بن عبد الملك أيام خلافته، فدخل الكعبة، فوجد فيها سالم

(١) «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي.

ابن عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب ﷺ جميعًا، فقال الخليفة: يا سالم سلني حاجة، فقال له سالم: إني لأستحي من اللَّه أن أسأل في بيته غيره. فلما خرج سالم من الكعبة، خرج هشام في إثره، وقال له: الآن خرجت من بيت اللَّه، فسلني حاجة. فقال سالم: من حوائج الدنيا، أم حوائج الآخرة؟ فقال هشام: من حوائج الدنيا. فقال سالم: إني ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟!

* **الحسن البصري:**

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز يعظه ويحذره من الدنيا، أما بعد يا أمير المؤمنين:

فإن الدنيا دار ظعن وانتقال وليست بدار إقامة على حال، وإنما أُنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها؛ فإن الراغب تارك والغني فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها. إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق، وجدها تذل من أعزها، وتفرِّق من جمعها فهي كالسم يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله وفيه ـ واللَّه ـ حتفه فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه، يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً. الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرها ولم يغتر بزينتها؛ فإنها غدارة ختالة خدّاعة، قد تعرضت بآمالها، وتزينت لخطابها، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة، وهي ـ والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق ـ لأزواجها قاتلة فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مُؤَدّ إلى الهلكة والفناء.

واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وتاركها موفق، والمتمسك بها هالك غرق. والفطن اللبيب من خاف ما خوفه اللَّه، وحذره ما حذره، وفرّ من دار الفناء إلى دار البقاء،

فعند الموت يأتيه اليقين.

الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف من سوء العافية. والدنيا ـ وايم اللَّه ـ يا أمير المؤمنين حلم والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام.

❑ وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فإن تَنْجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ وإلا فإنّي لا أخَالُكَ ناجيًا

ولما وصل كتابه إلى عمر، بكى وانتحب، حتى رحمه من كان عنده، وقال: رحم اللَّه الحسن؛ فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة وينبهنا من الغفلة، وللَّه هو من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري: عظني، فكتب إليه الحسن: «أما بعد يا أمير المؤمنين، فكن للمثل من المسلمين أخًا، وللكبير ابنًا، وللصغير أبًا، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطًا واحدًا فتدخل النار»[1].

«والإمام العادل يا أمير المؤمنين»:

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل. فكتب الحسن البصري ـ رحمه اللَّه ـ:

«والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده؛ يسعى لهم صغارًا، ويعلمهم كبارًا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم في مماته.

---

(١) «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهًا ووضعته كرهًا، وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته وتغتمّ بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى، وخازن المساكين يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين اللّه وبين عباده، يسمع كلام اللّه ويُسمعهم، وينظر إلى اللّه ويُريهم، وينقاد إلى اللّه ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك اللّه كعبد ائتمنه سيده، فاستحفظه ماله وعياله، فبدَّد المال وشرَّد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن اللّه أنزل الحدود ليزدجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها! وأن اللّه أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر. واعلم أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحبّاؤك، ويسلموك في قعره وحيداً فريدًا، فتزود له. واذكر إذا بعثر ما في القبور، وحصّل ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة.

لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد اللّه بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بذهاب طيباتك في آخرتك، ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا، وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي اللّه في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

إني يا أمير المؤمنين لم آلك شفقةً ولا نصحًا، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة؛ لما يرجوه له من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللَّه وبركاته»[1].

«إن استقمت استقاموا»:

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى فقهاء العراق أن يأتوه، فاعتل الحسن ـ أصيب بعلة بفتق في بطنه ـ وكتب إليه:

«يا أمير المؤمنين، إن استقمت استقاموا، وإن ملت مالوا. يا أمير المؤمنين، لو أن لك عمر نوحٍ وسلطان سليمان، ويقين إبراهيم، وحكمة لقمان، ما كان لك بُدٌّ أن تقتحم العقبة الجنة أو النار، من أخطأته هذه دخل هذه». فلما أتاه الكتاب، أخذه فوضعه على عينيه، ثم بكى ثم قال: كيف لي بعمر نوح، ويقين إبراهيم، وسلطان سليمان، وحكمة لقمان؟! ولو نلت ذلك، لم يكن لي بد أن أشرب بكأس الأولين.

*** الحسن والحجاج:**

روي أن الحجاج بنى دارًا بواسط، وأحضر الحسن ليراها، فلما دخلها قال: الحمد للَّه، إن الملوك ليرون لأنفسهم عزًّا، وإنا لنرى فيهم كل يوم عبرًا، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده، وإلى فراش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحف به ذباب طمعٍ وفراش ونارٍ، وأصحاب سوءٍ، فيقول: انظروا ما صنعت: فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين! أما أهل السموات فقد مقتوك، وأما أهل الأرض فقد لعنوك، بنيت دار الفناء، وخربت دار البقاء، وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور. ثم خرج وهو يقول: إن اللَّه سبحانه وتعالى أخذ عهده على العلماء، ليبينه

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه.

للناس ولا يكتمونه. وبلغ الحجاج ما قال، فاشتد غضبه، وجمع أهل الشام، فقال: يا أهل الشام، أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور، فلا تنكرون؟! ثم أمر بإحضاره فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع، حتى دخل على الحجاج، فقال له الحجاج: هاهنا اجلس. فأجلسه قريبًا منه، وقال: ما تقول في علي وعثمان؟ قال: أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك. قال: قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢]، علم علي وعثمان عند اللَّه. قال: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد. ودعا بغالية ـ طيب ـ وعلف بها لحيته، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه؟ قال: قلت: «يا عدتي عند كربتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا ولي نعمتي، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ارزقني مودته واصرف عني أذاه» ففعل ربي عز وجل[1].

* الحسن البصري يذبُّ عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أمام الحجاج ابن يوسف الثقفي:

دعا الحجّاج فقهاء البصرة وفقهاء الكوفة، وكان من بينهم الحسن البصري ـ رحمه اللَّه ـ وكان آخر من دخل، فقال الحجاج: مرحبًا بأبي سعيد، إليّ إليّ، ثم دعا بكرسيّ فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه، فجعل الحجاج يذاكرهم ويسألهم، ثم ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونال منه، فوافقه الجالسون مقاربة له، وفرقًا من شره، والحسن ساكت عاض على إبهامه، فقال الحجاج: يا أبا سعيد، ما لي أراك ساكتًا؟ قال: ما عسيت أن أقول؟ قال: أخبرني برأيك في أبي تراب. قال: سمعت اللَّه جل ذكره

(١) «الحسن البصري» لابن الجوزي.

يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] فعليٌّ ممن هدى اللَّه من أهل الإيمان فأقول: ابن عم النبي عليه السلام، وختنه على ابنته وأحبّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركة، سبقت له من اللَّه، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها، وأقولُ: إن كانت لعليّ هنّات فاللَّه حسيبه، واللَّه ما أجد فيه أعدل من هذا، فبسر وجه الحجاج وتغيّر، وقام عن السرير مغضبًا، فدخل بيتًا خلفه، وخرج القوم.

قال عامر الشعبي ـ وكان جالسًا معهم ـ: فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم الكوفة، أتيت شيطانًا من شياطين الإنس تُكلمه بهواه وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر، هلاّ اتقيت اللَّه إن سُئلت فصدقت، أو سكت فسلمت.

قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذلك أعظم في الحجة عليك، وأشدّ في التبعة[1].

* **الحسن وابن هبيرة:**

لما قدم عمرو بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن البصري والشعبي، وأمر لهما ببيت، فكانا فيه شهرًا ونحوه، ثم جاء عمرو إليهما، فسلم ثم جلس معظمًا لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك كتب إلي كتبًا، أعرف أن في إنفاذها الهلاك؛ فإن أطعته عصيت اللَّه، وإن عصيته أطعت

(١) «منهاج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لفاروق السامرائي ص(١٨٥ ـ ١٨٦) طبع دار الوفاء.

اللَّه، فهل تريا لي في متابعتي إياه مخرجًا؟

❑ فقال الحسن للشعبي: أجب الأمير. فتكلم الشعبي كلامًا يريد به إبقاء وجهه عنده ـ أي يريد إرضاءه ـ فقال ابن هبيرة للحسن: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أقول: يا ابن هبيرة، أوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة اللَّه فظ غليظ، لا يعصي اللَّه ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك. يا عمرو بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر اللَّه إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق به باب المغفرة دونك. يا عمرو بن هبيرة، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة، كانوا عن هذه الدنيا وهي مقبلة، أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة. يا عمرو بن هبيرة إني أخوفك مقامًا خوفك اللَّه عز وجل فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]. يا عمرو بن هبيرة، إن تك مع اللَّه في طاعته، كفاك يزيد بن عبدالملك. وإن تك مع يزيد على معاصي اللَّه، وكلك اللَّه إليه. فبكى عمرو ابن هبيرة وقام بعبرته. فلما كان من الغد أرسل إليهما، فأدناهما وأجازهما، فأكثر في جائزة الحسن وأنقص جائزة الشعبي. فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر اللَّه على خلقه، فليفعل، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسن شيئًا منه فجهلته، ولكن أردت وجه ابن هبيرة فأقصاني اللَّه منه. وفي رواية أخرى: رققْنا فرقّقُوا.

*** الحسن والنضر بن عمرو:**

أحضر النضر بن عمرو ـ وكان واليًا على البصرة ـ الحسن البصري يومًا، فقال: يا أبا سعيد إن اللَّه عز وجل خلق الدنيا وما فيها من رياشها وبهجتها، وزينتها لعباده، وقال عز وجل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال عز من قائل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ

الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

فقال الحسن: يا أيها الرجل اتق اللَّه في نفسك، وإياك والأماني التي ترجحت فيها فتهلك، إن أحدًا لم يُعط خيرًا من خير الدنيا ولا من خير الآخرة بأمنيته؛ وإنما هي داران، من عمل في هذه أدرك تلك، ونال في هذه ما قدر له منها، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعًا. إن اللَّه سبحانه اختار محمدًا ﷺ لنفسه، وبعثه برسالته ورحمته، وجعله رسولاً إلى كافة خلقه وأنزل عليه كتابًا مهيمنًا، وحد له في الدنيا حدودًا، وجعل له فيها أجلاً ثم قال عز وجل: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وأمرنا أن نأخذ بأمره، ونهتدي بهديه وأن نسلك طريقته ونعمل بسنته، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر. فذلك باب مخرجنا؛ فأما الأماني فلا خير فيها، ولا في أحد من أهلها. فقال النضر: واللَّه يا أبا سعيد، إنا على ما فينا لنحب ربنا. فقال الحسن: لقد قال ذلك قوم على عهد رسول اللَّه ﷺ، فأنزل اللَّه تعالى عليه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فجعل سبحانه اتباعه ﷺ علمًا للمحبة وأكذب من خالف ذلك، فاتق اللَّه أيها الرجل في نفسك، وايم اللَّه لقد رأيت قومًا كانوا قبلك في مكانك، يعلون المنابر وتهتز لهم المراكب، ويجرون الذيول بطرًا ورياء الناس، يبنون المدر ويؤثرون الأثر، ويتنافسون في الثياب، أخرجوا من سلطانهم، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم، قدموا على ربهم، ونزلوا على أعمالهم. فالويل لهم يوم التغابن ويا ويحهم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ

(١) «الحسن البصري» لابن الجوزي.

امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[١] [عبس: ٣٤-٣٧].

ودخل عليه مرة أخرى فقال له: أيها الأمير ـ أيدك اللَّه ـ إن أخاك من نصحك في دينك، وبصرك عيوبك وهداك إلى مراشدك، وإن عدوك من غرك ومناك. أيها الأمير اتق اللَّه؛ فإنك أصبحت مخالفًا للقوم في الهدي والسيرة والعلانية والسريرة، وأنت مع ذلك تتمنى الأماني، وترجح في طلب العذر. والناس ـ أصلحك اللَّه ـ طالبان: فطالب دنيا، وطالب آخرة. وايم اللَّه لقد أدرك طالب الآخرة واستراح وتعب الآخر واخترم. فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطلب الفاني وترك الباقي، فتكون من النادمين، واعلم أن حكيمًا قال:

أين الملوك التي عن حظها غفلت ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

نعوذ باللَّه من الحور بعد الكور، ومن الضلالة بعد الهدى. لقد حدثت أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول: «كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أمينًا، وعلى أعمالهم مُعينًا»[١].

*** محمد بن سيرين وابن هُبيرة:**

عن جعفر بن مرزوق قال: بعث ابن هبيرة إلى ابن سيرين والحسن والشعبي، قال: فدخلوا عليه فقال لابن سيرين: يا أبا بكر، ماذا رأيت منذ قربت من بابنا؟

قال: رأيت ظلمًا فاشيًا، قال: فغمره ابن أخيه بمنكبه، فالتفت إليه ابن سيرين فقال: إنك لست تُسأل، إنما أنا أُسأل. فأرسل إلى الحسن بأربعة آلاف، وإلى ابن سيرين بثلاثة آلاف، وإلى الشعبي بألفيْن، فأما ابن سيرين فلم يأخذها[٢].

---

(١) «عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي.

(٢) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٦٨).

قال هشام: ما رأيت أحدًا عند السلطان أصلب من ابن سيرين[١].

*** مكحول عالم الشام ويزيد بن عبدالملك:**

جلس التابعي الجليل مكحول عالم أهل الشام في مجلسه يلقي درسه كعادته، وحوله طلاّب العلم يأخذون عنه، إذ أقبل الخليفة الأموي يزيد بن عبدالملك في زينته وتبختره، وجاء إلى حلقة مكحول، فأراد الطلاب أن يوسعوا له، فقال مكحول: دعوه يتعلّم التواضع[٢].

*** بين الإمام الشعبي وأمير واسط عمرو بن هُبيرة:**

دعا عمرو بن هبيرة أمير واسط من قبل الخليفة يزيد بن عبدالملك ـ بعض أهل العلم ليستشيرهم، وكان في جملتهم الإمام الشعبي ـ رحمه اللّه، فتخلّل حديثهم معه مسألة خلافة يزيد وشدّته.

فقال ابن هبيرة: إنه ليأتيني منه كتب أعرف في تنفيذها الهلكة.. فإن أطعته عصيت اللّه.. فماذا تأمرون؟! فأحال العلماء الإجابة على الإمام الشعبي تأدّبًا فقال: «أمّا إذ سألتني فإنه يحقّ عليّ أن أجيبك: إن اللّه عز وجل مانعك من يزيد، ولن يمنعك يزيد من اللّه، وإنه يوشك أن ينزل ملك من السماء فيستنزلك من سريرك وسعة قصورك إلى باحة دارك، ثم يخرجك من باحة دارك إلى ضيق قبرك، ثم لا يوسع عليك إلا عملك. يا ابن هبيرة.. إني أنهاك عن عباد اللّه عز وجل فإنما جعل اللّه السلطان ناصرًا لعباده ودينه، فلا تركبوا عباد اللّه بسلطان اللّه فتذلوّهم، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.. يا ابن هبيرة لا تأمنن أن ينظر اللّه عز وجل إليك عند أقبح ما تعمل نظرة مقت، فيغلق عنك باب الرحمة، يا ابن

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦١٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٥٠).

هبيرة.. إني أدركت أناسًا من صدور هذه الأمة كانوا فيما أحلّ اللَّه لهم أزهد منكم فيما حرّم اللَّه عليكم، وكانوا لحسناتهم ألا تُقبل أخوف منكم لسيئاتكم ألا تُغفر، وكانوا لثواب الآخرة أبصر منكم لمتاع الدنيا بأعينكم، وكانوا عن الدنيا وهي عليهم مقبلة أشد إدبارًا من إقبالكم عليها وهي عنكم مدبرة.

يا ابن هبيرة.. إني أخوّفك مقامًا خوّفكه اللَّه عز وجل من نفسه فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

يا ابن هبيرة.. إن تكن مع اللَّه على يزيد يكفك اللَّه بائقته، وإن تكن مع يزيد على اللَّه يكلك إليه».

وما زال الشعبي يؤدي أمانته في النصح لإعلاء لواء الحق، حتى سمع الناس من خارج القصر بكاء الأمير[1].

* **خالد بن صفوان وعمر بن عبد العزيز: «إن أقوامًا غرهم ستر اللَّه»:**

قال عمر بن عبد العزيز لخالد بن صفوان: عظني وأوجز. فقال خالد ابن صفوان: يا أمير المؤمنين، إن أقوامًا غرهم ستر اللَّه، وفتنهم حسن الثناء فلا يغلبن جهل غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا اللَّه وإياك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مفتونين، وعما افترض اللَّه علينا متخلفين، وإلى اللهو مائلين. قال: فبكى ثم قال: أعاذنا اللَّه وإياك من اتباع الهوى.

ودخل عليه مرة أخرى فقال له: عظني يا خالد. فقال: إن اللَّه لم يرض أحدًا أن يكون فوقك، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك. قال: فبكى عمر حتى غشي عليه ثم أفاق، فقال: هيه يا خالد لم يرض أن يكون أحد فوقي، فواللَّه لأخافنه خوفًا، ولأحذرنه حذرًا، ولأرجونه رجاءً، ولأحبنه محبة، ولأشكرنه شكرًا، ولأحمدنه حمدًا، يكون ذلك كل غاية

(١) «كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء» للشيخ محمد فهمي عبدالوهاب ص(١١٥ ـ ١١٦) ـ دار الاعتصام.

طاقتي، ولأجتهدن في العدل والنصفة والزهد في فاني الدنيا لزوالها، والرغبة في بقاء الآخرة ودوامها، حتى ألقى اللَّه عز وجل؛ فلعلي أن أنجو مع الناجين، وأفوز مع الفائزين. وبكى حتى غشي عليه.

*** أحد الرعية وعمر بن عبد العزيز: «ويحك اردد علي كلامك»:**

ذكر رجل مظلمة له على عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين اذكر مقامي هذا؛ فإنه مقام لا يشغل اللَّه ـ عز وجل ـ عنه كثرة من تخاصم إليه من الخلائق، يوم تلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءةٍ من الذنب. فقال عمر: ويحك، اردد علي كلامك. فردده عليه فجعل يبكي وينتحب حتى إذا أفاق قال: ما حاجتك؟ قال: عاملك على أذربيجان ظلمني، وأخذ من مالي عشرة آلاف درهم. فكتب بردٍّ ذلك عليه، وبعزل عامله، وقال: انظروا هل اخلولق له ثوب، أو تقطّع له من حذاء فحسب ذلك فبلغ عشرين ديناراً فأمر عمر بدفعها إليه[1].

*** يعلى بن مخلد والحجاج:**

دخل يعلى بن مخلد المجاشعي على الحجاج في مرض الموت، فقال له: كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته؟ فقال: يا يعلى، غمًا شديداً، وجهداً جهيداً، وألماً مضيضًا، ونزعًا حريضًا، وسفراً طويلاً، وزاداً قليلاً فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار. فقال له: يا حجاج إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء الكرماء، أولي الرحمة والرأفة، والتحنن والتعطف على عباده وخلقه، أشهد أنك قرين فرعون وهامان؛ لسوء سيرتك وترك ملتك، وتنكبك عن قصد الحق وسنن المحجة، وآثار الصالحين، قتلت صالحي الناس فأفنيتهم وأبرت عترة التابعين فتبرتهم، وأطعت المخلوق في معصية

(١) «المحاسن والمساوئ» للبيهقي.

الخالق وهرقت الدماء وضربت الأبشار وهتكت الأستار، وسست سياسة متكبر جبار، لا الدين أبقيت، ولا الدنيا أدركت أعززت بني مروان، وأذللت نفسك وعمرت دورهم وأخربت دارك. فاليوم لا ينجونك ولا يغيثونك إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر. لقد كنت لهذه الأمة اهتمامًا واغتمامًا، وعناءً وبلاءً فالحمد للَّه الذي أراحها بموتك وأعطاها مناها بخزيك، قال: فكأنما قطع لسانه عنه فلم يحر جوابًا وتنفس الصعداء، وخنقته العبرة ثم رفع رأسه فنظر إليه وأنشأ يقول:

ربِّ إن العبـــادَ قـد أياسُوني ورجـائي لك الغـداةَ عظيمُ[1]

*** يحيى بن يعمر والحجاج:**

عن الشعبي: كنت عند الحجاج، فأتي بيحيى بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبلاً بالحديد، فقال له الحجاج: أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول اللَّه ﷺ، فقال: بلى. فقال الحجاج: لتأتيني بها واضحة بينة من كتاب اللَّه، أو لأقطعنك عضوًا عضوًا. فقال: آتيك بها واضحة بينة من كتاب اللَّه يا حجاج، قال: فتعجب من جرأته بقوله: يا حجاج. فقال له الحجاج: ولا تأتيني بهذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾. فقال: آتيك بها واضحة من كتاب اللَّه، وهو قوله: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فمن كان أبو عيسى وقد ألحق بذرية نوح؟ قال: فأطرق مليًا. ثم رفع رأسه، فقال: كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب اللَّه حلوا وثاقه وأعطوه من المال كذا[2].

---

(١) «ذيل الأمالي والنوادر» لأبي علي القالي.

(٢) «التفسير الكبير» للفخر الرازي.

* رجل من اليمن والحجاج:

بينما الحجاج جالس في الحجر إذا دخل رجل من أهل اليمن، فجعل يطوف فوكل به بعض من معه، فقال: إذا خرج من طوفه فأتني به فلما فرغ من طوفه أتاه به، فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل اليمن، قال: ألك علم بمحمد بن يوسف؟ قال: نعم. قال: فأخبرني عنه. قال: لقد تركته أبيض بضًّا سمينًا طويلاً عريضًا. قال: ويلك، ليس عن هذا أسألك. قال: فعمه؟ قال: عن سيرته وطعمته. قال: فأجور السير، وأخبث الطعم وأعدى العداة على اللَّه وأحكامه. قال: فغضب الحجاج وقال: ويلك، أما علمت أنه أخي؟ قال: بلى. قال: أفأنت ما علمت أن اللَّه ربي؟ واللَّه لهو أمنع لي منك أكثر منك لأخيك، قال: أجل، أرسله يا غلام[1].

* عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وأبوه:

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه عمر فقال: يا أمير المؤمنين، إن لي إليك حاجة، فأخلني ـ وعنده مسلمة بن عبد الملك بن مروان ـ فقال له عمر: أسر دون عمك؟ فقال: نعم. فقام مسلمة وخرج. وجلس بين يديه، فقال له: يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل لربك غدًا إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها، أو سُنّة لم تحيها؟ فقال له: يا بني أشيء حمَّلَتْكَهُ الرعية إلي، أم رأي رأيته من قبل نفسك؟ قال: لا واللَّه، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي، وعرفت أنك مسئول فما أنت قائل؟ فقال له أبوه: رحمك اللَّه، وجزاك من ولدٍ خيرًا، فواللَّه إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير. يا بني إن قومك قد شدّوا هذا الأمر عُقدةً عقدة وعروةً عروةً، ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقًا

(١) «سراج الملوك» للطرطوشي.

تكثر فيه الدماء، واللّه لزوال الدنيا أهون عليّ من أن يهراق في سببي محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا، إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة، حتى يحكم اللّه بيننا وبين قومنا بالحق، وهو خير الحاكمين.

*** الخازن وعمر:**

كان لعمر بن عبد العزيز غلامًا، وكان خازنًا لبيت المال وكان لعمر ثلاث بنات، فجئنه يوم عرفة وقلن له: غدًا العيد، ونساء الرعية وبناتهم يلمننا ويقلن: أنتن بنات أمير المؤمنين، ونراكن عُريانات لا أقل من ثياب بيضاء تلبسنها، وبكين عنده، فضاق صدر عمر فدعا غلامه الخازن، وقال له: أعطني مشاهرتي ـ الراتب الشهري ـ لشهر واحد. فقال الخازن: يا أمير المؤمنين تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفًا، انظر إن كان لك عمر شهرٍ فخذ مشاهرة شهرٍ. فتحير عمر وقال: نعم ما قلت أيها الغلام، وبارك اللّه فيك. ثم قال لبناته: اكظمن شهواتكن؛ فإن الجنة لا يدخلها أحد بغير مشقة[1].

*** غلامٌ هاشميّ وعمر بن عبد العزيز: «لو أن الأمر بالسن، لكان في الأمة من هو أحق منك»:**

حينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفدت الوفود من كل بلد، لبيان حاجتها وللتهنئة فوفد عليه الحجازيون، فتقدم غلام هاشمي للكلام وكان حديث السن، فقال عمر: ليتكلم من هو أسن منك. فقال الغلام: أصلح اللّه أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه؛ فإذا منح اللّه عبدًا لسانًا لافظًا وقلبًا حافظًا فقد استحق الكلام، وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن، لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك

(١) «التبر المسبوك».

هذا منك. فقال عمر: صدقت، قل ما بدا لك. فقال الغلام: أصلح اللَّه أمير المؤمنين، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة وقد أتيناك لمنّ اللَّه الذي منّ علينا بك، ولم يقدمنا إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة: فقد أتيناك من بلادنا. وأما الرهبة: فقد أمنا جورك بعدلك. فقال عمر: عظني يا غلام. فقال: أصلح اللَّه أمير المؤمنين إن ناسًا من الناس غرهم حلم اللَّه عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم، فزلت بهم الأقدام فهووا في النار. فلا يغرنك حلم اللَّه عنك، وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك، فتزل قدمك فتلحق بالقوم. فلا جعلك اللَّه منهم، وألحقك بصالحي هذه الأمة. ثم سكت. فقال عمر: كم عمر الغلام؟ فقيل: إحدى عشرة سنة. ثم سأل عنه؛ فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي ﷺ، فأثنى عليه خيرًا، ودعا له وتمثل قائلاً:

تعلَّم فليس المرء يُولدُ عالمًا ... وليس أخو علم كمن هُو جاهلُ
فإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافلُ

*** محمد بن واسع وبلال بن أبي بردة: «لا تظلم ولا تحتاج إلى دعائي»:**

دخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة في يوم حار، وبلال في حشمه وعنده الثلج، فقال بلال: يا أبا عبد اللَّه كيف ترى بيتنا هذا؟ قال: إن بيتك لطيب والجنة أطيب منه. وذكر النار يُلهي عنه. قال: ما تقول في القدر؟ قال: جيرانك من أهل القبور ففكّر فيهم؛ فإن فيهم شغلاً عن القدر. قال: ادع لي. قال: وما تصنع بدعائي، وعلى بابك كذا وكذا، كل يقول إنك ظلمتهم. يرتفع دعاؤهم قبل دعائي؟! لا تظلم ولا تحتاجُ إلى دعائي.

*** مالك بن دينار وبلال بن أبي بُردة: «ما أدري أيهما أكرم على اللَّه»:**

خرج بلال بن أبي بردة في جنازة، وهو أمير على البصرة، فنظر إلى جماعة وقوفًا فقال: ما هذا؟ قالوا: مالك بن دينار يذكّر الناس. فقال لوصيف معه: اذهب إلى مالك بن دينار، فقل له يرتفع إلينا إلى القبر.

فجاء الوصيف فأدى الرسالة إلى مالك، فصاح به مالك: ما لي إليه حاجة فأجيئه فيها؛ فإن تكن له حاجة، فليجئ إلى حاجة نفسه. فلما دفنوا ميتهم قام بلال بمن معه إلى حلقة مالك، فلما دنا منه ونزل، نزل معه ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس، فلما رآه مالك بن دينار سكت، فأطال السكوت فقال بلال: يا أبا يحيى ذكّرنا. فقال: ما نسيت شيئًا فأذكرك به. قال: فحدثنا. قال: أما هذا فنعم قدم علينا أمير من قبلك على البصرة فمات فدفناه في هذه الجبانة، ثم أتينا بزنجي فدفناه إلى جنبه. فواللَّه ما أدري أيهما كان أكرم على اللَّه سبحانه. فقال بلال: يا أبا يحيى، أتدري ما الذي جرأك علينا، وما الذي أسكتنا عنك؟ لأنك لم تأكل من دراهمنا شيئًا، أما واللَّه لو أخذت من دراهمنا شيئًا ما اجترأت علينا هذه الجرأة.

❑ يقول الطرطوشي: فأفاد هذا الحديث علمًا ألا فاتقوا دراهمهم وما أشبه هذا بقول القائل:

من كان لا يطأُ التراب برجله ... وَطِئَ التـرابَ بنـاعمِ الخـدِّ

مَنْ كان بينكَ في التراب وبينَهُ ... شـبـرانِ كان بغـايـةِ البُعـدِ

لو بُعثرت للناس أطباقُ الثَّرى ... لم يُعرَفَ المولـى من العبـدِ[1]

*** مالك بن دينار والمهلب: «أعرفك حق المعرفة»:**

عن الأصمعي عن أبيه، قال: مر المهلب بن أبي صفرة على مالك بن دينار، وهو يتبختر في مشيته، فقال له مالك: أما علمت أن هذه المشية تكره إلا بين الصفين؟ فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال مالك: أعرفك أحسن المعرفة. قال: وما تعرف مني؟ قال: أما أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بينهما تحمل العذرة. قال: فقال المهلب: الآن عرفتني حق

(١) «سراج الملوك» للطرطوشي.

المعرفة.

❑ نعم يا أخي يحيى:

أنف يسيل وأذن كلها سَهَكُ والعين مُرْمصَة والثَّغرُ مَلعوبُ
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً قصِّرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

*** حطيط الزيات والحجاج: «أنت خطيئة من خطاياه»:**

جيء بحطيط الزيات إلى الحجاج، فلما دخل عليه قال: أنت حطيط؟ قال: نعم، سل عمّا بدا لك؛ فإني عاهدتُ اللَّه عند المقام على ثلاث خصال: إن سئلت لأصدقنَّ، وإن ابتليت لأصبرن، وإن عوفيت لأشكرن. قال: فما تقول في؟ قال: أقول: إنك من أعداء اللَّه في الأرض، تنتهك المحارم، وتقتل بالظنة. قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال: أقول: إنه أعظم جرمًا منك وأنت خطيئة من خطاياه. قال: فقال الحجاج: ضعوا عليه العذاب. قال: فانتهى به العذاب، حتى انتحلوا لحمه. فما سمعوه يقول شيئًا ثم مات ـ رحمه اللَّه ـ وكان ابن ثمان عشرة سنة.

*** أحد الزهاد وخليفة:**

حُكي أن بعض الزهاد دخل على بعض الخلفاء، فقال له: عظني فقال له: يا أمير المؤمنين، كنت أسافر الصين، فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكى بكاء شديدًا، وقال: أما إني لست أبكي على البلية النازلة، ولكن أبكي لمظلوم على الباب يصرخ فلا يؤذن له، ولا أسمع صوته، ولكن إن ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس: لا يلبس أحد ثوبًا أحمر إلا متظلم. ثم كان يركب الفيل في نهاره حتى يرى حمرة ثياب المظلومين. فهذا يا أمير المؤمنين مشرك باللَّه تعالى، غلبت عليه رأفته على المشركين، وأنت مؤمن باللَّه تعالى، ومن أهل بيت نبيه ﷺ كيف لا تغلب

رأفتك بالمؤمنين»[١] .

* الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو شيخ الإسلام وعالم الشام ـ رحمه اللَّه ـ:

قال الأوزاعي: رأيت كأن ملكين عرجا بي، وأوقفاني بين يدي رب العزة، فقال لي: أنت عبدي عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف؟ فقلت: بعزتك أنت أعلم. قال: فهبطا بي حتى رداني إلى مكاني. رواها عبد اللَّه ابن أحمد، عن الحسن بن عبد العزيز، وعنه[٢] .

قال أحمد بن الغمر: لما جلَّت المحنة التي نزلت بالأوزاعي، لما نزل عبد اللَّه بن علي حماة، بعث إليه فأشخص. قال: فنزل على ثور بن يزيد الحمصي. قال الأوزاعي: فلم يزل ثور يتكلم في القدر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى أن طلع الفجر وأنا ساكت ما أجابه بحرف، فلما انفجر الفجر صليت، ثم أتيت حماة، فأدخلت على عبد اللَّه بن علي فقال: يا أوزاعي، أيعدُّ مقامنا هنا ومسيرنا رباطًا؟ فقلت: جاءت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال: «**من كانت هجرته إلى اللَّه ورسوله، فهجرته إلى اللَّه ورسوله**». قال: فنكت بالخيزارانة نكتًا هو أشد من نكت الأول، وجعل من حوله يعضُّون على أيديهم، ثم رفع رأسه فقال: يا أوزاعي، ما تقول في دماء بني أمية؟ قلت: جاءت الآثار عن رسول اللَّه ﷺ أنه: «**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث**» الحديث. فنكت بالخيزارانة نكتًا هو أشد من ذلك، وأطرق مليًّا، ثم رفع رأسه، فقال: يا أوزاعي ما تقول في أموال بني أمية؟ فقلت: إن كانت لهم حرامًا فهي عليك حرام، وإن كانت لهم حلالاً فما أحلَّها اللَّه

---

(١) «فضائح الباطنية» للغزالي.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١١٨).

لك إلا بحقّها. قال: فنكت بالخيزرانة نكتًا هو أشد من ذلك، وأطرق مليًّا، ثم رفع رأسه فقال: يا أوزاعي، هممت أن أوليك القضاء. فقلت: أصلح اللّه الأمير، وقد كان انقطاعي إلى سلفك ومن مضى من أهل بيتك، وكانوا بحقي عارفين؛ فإن رأى الأمير أن يستتم ما ابتدأه آباؤه فليفعل. قال: كأنك تريد الإذن؟ فقلت: إن ورائي لحرمًا بهم حاجة إلى قيامي بهم وستري لهم. قال: فذلك لك. قال: فخرجت، فركبت دابتي وانصرفت، فلم أعلم حين وصلت إلى بيروت إلا وعثمان على البريد. قال: قلت: بدا للرجل فيّ، فقال: إن الأمير غفل عن جائزتك، وقد بعث لك بمائتي دينار. قال أحمد: قال ابن أبي العشرين: فلم يبرح الأوزاعي مكانه حتى فرقها في الأيتام والأرامل والفقراء، ثم وضع الرسائل في رد ما سمع من ثور بن يزيد في القدر[١].

ولقد وصف الأوزاعي مجلس عبد اللّه بن علي لحظة دخوله، فقال ـ رحمه اللّه ـ : «دخلت أتخطى القتلى».

● وفي رواية: «سألني والمسودة قيام على رءوسنا بالكافر كوبات»[٢].

● وفي رواية أخرى: «دخلت عليه فرأيت الرجال وقوفًا بين يديه بالسيوف، فلما رأيت ذلك لم أشك إلا وأني مقتول»[٣].

● وفي رواية: «لما فرغ عبد اللّه بن علي ـ يعني عم السفاح ـ من قتل بني أمية، بعث إليّ، وكان قتل يومئذ نيفًا وسبعين منهم بالكافر كوبات، فدخلت عليه»[٤].

● وفي رواية: «فنكس رأسه ونكست فأطلت ثم قلت: البول فأشار

(١) «تاريخ ابن عساكر» (١٠/ ٤٨ب/ ٤٩أ)، و«سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٢٢ ـ ١٢٣).
(٢) المقارع مفردها: الكافر كوب. أي: المقرعة.
(٣) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي.
(٤) «السير» (٧/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

بيده: اذهب فقمت فجعلت لا أخطو خطوة إلا قلت: إن رأسي يقع عندها».

● وفي رواية: «قلت: لأصدقنّه، واستبسلت[١] للموت».

❑ قال الذهبي في «السير» (٧/ ١٢٥): «قد كان عبد اللَّه بن علي ملكًا جبارًا، سفاكًا للدماء، صعب المراس ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمر الحق كما ترى، لا كخلقٍ من علماء السوء، الذين يحسنون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسف، ويقلبون لهم الباطل حقًّا ـ قاتلهم اللَّه ـ أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق».

❑ قال محمد بن عمر التنوخي: «كتب المنصور إلى الأوزاعي: أما بعد فقد جعل أمير المؤمنين في عنقك، ما جعل اللَّه لرعيته قبلك في عنقه، فاكتب إلي بما رأيت فيه المصلحة مما أحببت.

فكتب إليه: أما بعد.. فعليك بتقوى اللَّه، وتواضع يرفعك اللَّه يوم يضع المتكبرين في الأرض بغير الحق، واعلم أن قرابتك من رسول اللَّه ﷺ لن تزيد حق اللَّه عليك إلا عظمًا، ولا طاعته إلا وجوبًا»[٢].

*** الأوزاعي والمنصور: «خذ لنفسك الأمان من ربك»:**

❑ يقول الأوزاعي: بعث إليَّ المنصور أمير المؤمنين وأنا بساحل الشام، فأتيته، فلما وصلت إليه وسلمت عليه بالخلافة، ردّ عليَّ واستجلسني ثم قال: ما الذي أبطأك عنا يا أوزاعي؟ قلت: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم. قلت: فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئًا ثم لا تعمل به. فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة. فطابت نفسي وانبسطت

(١) أبسل نفسه للموت، واستبسل: إذا وطن نفسه عليه، واستيقن.
(٢) «السير» (٧/ ١٢٥).

في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول اللَّه ﷺ: «**أيما عبد جاءته موعظة من اللَّه في دينه؛ فإنها نعمة من اللَّه سيقت إليه؛ فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من اللَّه عليه**» يا أمير المؤمنين، قال رسول اللَّه ﷺ: «**إيما وال بات غاشًّا لرعيته، حرم اللَّه عليه الجنة**». يا أمير المؤمنين، إن رسول اللَّه ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيًّا لم يتعمَّده فأتاه جبريل، فقال: يا محمد، إن اللَّه لم يبعثك جبارًا متكبرًا. فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال: «**اقتص مني**». فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا ولو أتيت على نفسي. فدعا له بخير. يا أمير المؤمنين، رض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك. يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل إليك، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك. يا أمير المؤمنين جاء في تأويل هذه الآية عن النبي ﷺ: ﴿**مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا**﴾ [الكهف: ٤٩]، قال: «الصغيرة التَّبسُّم والكبيرة الضحك» فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الألسن. يا أمير المؤمنين بلغني أن عمر بن الخطاب قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات. ضيعة، لخشيت أن أسأل عنها، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك. يا أمير المؤمنين جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ**﴾ [ص: ٢٦].

قال: يا داود أقعد الخصمين بين يديك وإن كان لك في أحدهما هوى فلا تمنين في نفسك أن يكون الحق له، فيفلج على صاحبه فأمحوك من نبوتي ثم لا تكون خليفتي. يا داود جعلت رسلي إلى عبادي رعاء كرعاء الإبل، لعلمهم بالرعية ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسير ويكلئوا الهزيل على الكلأ والماء. يا أمير المؤمنين استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من الأنصار على الصدقة، فرآه بعد أيام مقيمًا، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك،

أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل اللَّه؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه بلغني أن الرسول ﷺ قال: «**ما من وال يلي شيئًا من أمور المسلمين، إلا أتي به يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه على جسر في النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة، يزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب؛ فإن كان محسنًا نجا بإحسانه، وإن كان مسيئًا انخرق به ذلك الجسر، فهوى به في النار سبعين خريفًا**». فقال له: ممن سمعت هذا؟ فقال: من أبي ذر وسلمان. فأرسل إليهما عمر فسألهما، فقالا: نعم سمعناه من رسول اللَّه ﷺ. فقال عمر: وا عمراه، من يتولاها بما فيها. فأخذ أبو جعفر المنديل فوضعه على وجهه، ثم بكى وانتحب حتى أبكاني.

❑ يقول الأوزاعي: ثم قلت للمنصور: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس النبي ﷺ إمارة مكة والطائف أو اليمن، فقال له النبي ﷺ: «**يا عم نفس تنجيها، خير من إمارة لا تحصيها**». نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، وأنه لا يغني عنه من اللَّه شيئًا، إذ أوحى اللَّه إليه: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فقال: «**يا عباس ويا صفية ويا فاطمة، إني لست أغني عنكم من اللَّه شيئًا، لي عملي ولكم عملكم**». وقد قال عمر بن الخطاب: لا يقيم أمر الناس إلا حصيف العقل، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم. وقال: السلطان أربعة أمراء؛ فأمير ظلف نفسه وعُمّاله، فذلك كالمجاهد في سبيل اللَّه يد اللَّه عليه باسطة بالرحمة. وأمير ضعيف ظلف نفسه وأرتع عماله بضعفه، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه اللَّه. وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه، فذلك الذي قال رسول اللَّه ﷺ: «**شر الرعاة الحُطَمَة**»، فهو الهالك وحده. وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعًا. وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: أتيتُك حين أمر اللَّه بمنافيخ النار، فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة. فقال له: «جبريل،

صف لي النار». فقال: إن اللَّه عز وجل أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا يطفأ جمرها. والذي بعثك بالحق لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعًا. ولو أن ذنوبًا من شرابها صب في ماء الأرض جميعًا لقتل من ذاقه. ولو أن ذراعًا من السلسلة التي ذكر اللَّه وضع على جبال الأرض جميعًا لذابت وما استقرت، ولو أن رجلاً أدخل النار ثم أُخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه. فبكى النبي ﷺ، وبكى جبريل لبكائه، وقال: أتبكي يا محمد وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا! ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين؟**» فقال: أخاف أن أبتلي بما ابتلي به هاروت وماروت.

يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام للَّه بحقه، وإن أكرم الكرم عند اللَّه التقوى، وإنه من طلب العز بطاعة اللَّه رفعه اللَّه وأعزه، ومن طلبه بمعصية اللَّه أذله اللَّه ووضعه، فهي نصيحتي. والسلام عليك. ثم نهضت فقال: إلى أين؟ قلت: إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين، إن شاء اللَّه. قال: فقد أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك، وقبلتها بقبولها، واللَّه الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها؛ فإنك المقبول القول غير المتهم في النصيحة. قلت: أفعل إن شاء اللَّه. قال محمد بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه، فلم يقبله، وقال: لنا في ذلك غِنى عنه، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها. وعرف المنصور مذهبه، فلم يجد عليه في رده[1].

❑ قال عبد الحميد بن حبيب: لما سوينا على الأوزاعي تراب قبره، قام والي الساحل عند رأسه فقال: رحمك اللَّه أبا عمرو، فواللَّه لقد كنت لك

(١) «مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين» تأليف أحمد رضوان أبو الخير، نقلاً عن «المصباح المضيء» لابن الجوزي.

أشد تقية من الذي ولآني فمن ظلم بعدك فليصبر»[١] .

*** محمد بن عمران قاضي المدينة والخليفة المنصور:**

لما وصل أبو جعفر المنصور إلى المدينة حاجًّا، تظلّم منه الجمّالون، وصاحوا على القاضي، قال الشيباني: «فكنت كاتبه؛ فأمرني أن أكتب إلى المنصور رقعة في الحضور مع من تظلّم منه. فقلت: «تعفيني من هذا! فإنه يعرف خطيّ» فقال: «إذًا لا يحملها غيرك» فكتب، ثم ختم الكتاب، ومضيتُ، ودفعته إلى الربيع، واعتذرتُ. وقال: «لا عليك» ودخل بالكتاب، ثم خرج، فقال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم: قد دُعيتُ إلى مجلس الحكم الشرعي؛ فلا يتبعني أحد منكم، ولا يكلّمني، ولا يقم إليّ إذا خرجتُ» قال: «ثم برز، وبعض وزرائه بين يديه، وأنا خلفه، وهو في مئزر ورداء؛ فلم يقم إليه أحد. فلما دخل المسجد، بدأ بالقبر، فسلّم على رسول اللَّه ﷺ ثم قال للربيع: «أخشى أن تدخل ابن عمران مني هيبة، فيتحوّل عن مجلسه، ولئن فعل، لا وَلِيَ لي ولاية أبدًا»، ثم سار إلى القاضي، فلما رآه وكان متكئًا، أقلق رداءه عن عاتقه ثم احتبى[٢] ودعا بالخصوم، ثم قضى لهم بحقهم، وانفصل الخليفة إلى محله. فلما وصل، أمر الربيع بإحضار القاضي، فلما دخل عليه قال له: «جزاك اللَّه عن دينك وعن نفسك وعن خليفتك أحسن جزائه» وأمر له بعشرة آلاف درهم، فبقي هذا الفعل من المنصور عبداللَّه العباسي معدودًا على مرّ الأيام، في مناقبه، معروفًا من فضائله، مرسومًا في كتاب حسناته[٣] .

---

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ٢٠٧).

(٢) جمع بين ظهره وساقيه وجلس ليصير كالمستند.

(٣) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٧٣).

* الثوري إمام الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

❑ قال يحيى بن يمان: سمعت سفيان يقول: إني لأرى المنكر فلا أتكلم فأبول أكدم دمًا[١].

❑ وقال يحيى بن يمان: لقيت سفيان عند بني فزارة فقال: تدري من أين جئت؟ قلت: لا. قال: مررت بدار الصيدنانيين[٢] فنهيتهم عن بيع الدّاذي وإني لأرى الشيء يجب علي أن آمر فيه وأنهى، فأبول دمًا[٣].

❑ رحمك اللَّه يا سفيان أين من غبار نعلك علماء السوء وقراء السوء، الذين قال فيهم نبينا ﷺ: «أكثر منافقي أمتي قُراؤها»[٤]. وفيهم يقول القائل:

شيخَ الشيخَ بياضُ الشَّعْر ... وهو للأطفالِ مِثْل السُّخْر
وجهه للحان ولّى شيخُنا ... يا رفاقي بعدُ ما تدبيرُنا

❑ أو كما يقول القائل:

يُرمرِمُ من فُتات الكُفرِ قُوتًا ... ويَلْعَق من كؤوسهم الثُّمالَهْ
يُقبِّلُ راحة الطّاغُوتِ حِينًا ... ويَلْثِم دونما خَجَلٍ نِعَالَهْ

❑ قال عبد الرزاق: قدمنا مكة، وقدمها الذي يقال له: المهدي،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٥٩).

(٢) الصيدنانيون والصيدلانيون: لغتان بمعنى واحد. والداذي، ويقال: الذآذي: حب يوضع الرطل منه في فرق من الماء فيكون مسكرًا.

(٣) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/ ١٢٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «الشعب» عن ابن عمرو، وأحمد والطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر، والطبراني وابن عدي عن عصمة بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٢٠٣).

فحضرت الثوري وقد خرج من عنده وهو مغضب، فقال: أدخلت آنفًا على ابن أبي جعفر فقال لي: يا أبا عبد اللَّه طلبناك فأعجزتنا، فأمكننا اللَّه منك في أحب المواضع إليه، فارفع إلينا حوائجك. قال: فقلت: وأي حاجة تكون لي إليك؟! وأولاد المهاجرين وأولاد الأنصار يموتون خلف بابك جوعًا. فقال لي أبو عبيد اللَّه: يا أبا عبد اللَّه، لا تكثر الفضول واطلب حوائجك من أمير المؤمنين. فقلت: ما لي إليه من حاجة، لقد أخبرني إسماعيل بن أبي خالد أن عمر بن الخطاب حجَّ فقال صاحب نفقته: كم أنفقنا في حجِّنا هذا؟ قال: اثنا عشر دينارًا. قال: أكْثَرْنا أكثرنا. أو قال: أسرفْنا أسرفنا. وعلى أبْوابكم أمور لا تقوم لها الجبال الرّاسيات. قال: فقال لي ابن أبي جعفر: يا أبا عبداللَّه، أفرأيت إن لم أقدر أن أُوصل إلى كل ذي حقٍّ حقه، فما أصنع؟ قال: تفرّ بدينك وتَلْزَم بيتك، وتترك الأمر إلى من يقدر أن يُوصل إلى كل ذي حق حقه. قال: فسكت، وقال لي أبو عبيد اللَّه: أراك تكثر الفضول، إن كانت لك حاجة فاطلبها، وإلاّ فانصرف. قال: فانصرفت[1].

❑ وعن سفيان أنه أُخذ في المسجد الحرام، فأُدخل على أبي هارون وهو في إزار ورداء والنعلان في يـده. قال: فلمّا دخلتُ سلَّمت وقعدت، فقال أبو عبيد اللَّه: إني أظن أن له رأي سوء ـ يعني رأي الخوارج ـ فقلت لأبي هارون: من هذا؟ قال: هذا معاوية بن عُبيد اللَّه. فقلت له: احذر هذا وأصحابه.

❑ قال إبراهيم بن أعين البجلي: كنت مع سفيان الثوري والأوزاعي وإسحاق بن القاسم الأشعثي بمكة، فدخل علينا عبد الصمد بن علي ـ وهو أمير مكة ـ عند المغرب وسفيان يتوضّأ وأنا أصبّ عليه، وهو يتوضأ كأنه بطة

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ١١٠ ـ ١١١).

وهو يقول: لا تنظروا إليّ فإني مُبتَلى. فيدخل البيت الذي فيه الأوزاعي فسلّم، ثم أتى عبد الصمد بن علي فسمعت الأوزاعي يقول: مرحبًا مرحبًا. ثم جاء فسلّم على سفيان، فقال له سفيان: من أنت؟ فقال: أنا عبد الصمد. فقال له: كيف أنت، اتق اللَّه، اتق اللَّه، إذا كَبَّرت فأسمعْ[1].

❑ قال سفيان الثوري ـ رحمه اللَّه ـ: حجّ المهدي...، فرأيته يرمي جمرة العقبة والناس محيطون به يمينًا وشمالاً يضربون الناس بالسياط، فوقفت فقلت: يا حسن الوجه حدثنا أيمن بن نابل عن قدامة بن عبد اللَّه الكلابي قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ يرمي جمرة يوم النحر على جمل، لا ضرب ولا طرد ولا جلد ولا إليك إليك، وها أنت يخبط الناس بين يديك يمينًا وشمالاً. فقال لرجل: من هذا؟ قال: سفيان الثوري. فقال: يا سفيان لو كان المنصور ما احتملك على هذا. فقال: لو أخبرك المنصور بما لقي لقصرت عما أنت عليه»[2].

❑ وقال أبو رجاء: طُلِب سفيان حتى أُدخل على أبي جعفر، والمهدي قائم على رأسه، فدخل سفيان وسلّم، ثم دنا من البساط فنحّاه برِجله وجلس. قال: فقال المهدي: يا أبا عبد اللَّه، حدِّث أمير المؤمنين بشيءٍ ينفعه اللَّه عز وجلّ به. قال: إن سألتمونا عن شيءٍ عِلْمُ ذلك عندنا، أخبرناكم. فأعاد عليه، فقال: إني لست بقاصٍّ. ثم قال: حدّثنا أيمن بن نابل، عن قدامة بن عبد اللَّه قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ يرمي الجمار على ناقةٍ صَهْباء من بطن الوادي، بلا ضربٍ ولا طرد، ولا إليك إليك. ثم قال المهدي: حدِّث أمير المؤمنين بشيء ينفعه اللَّه عز وجل به. فقال: أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ١١١ ـ ١١٢).
(٢) «معالم القربة» (٢١ ـ ٢٢).

رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ قرأ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤]، ثم قال بيده على خصره: بي بول بي بول. ثم قطعَ.

❑ وقال عبد الصمد بن حسان: قال سفيان الثوري: إني أُدخلت على المهدي، فقلتُ له: انظر إلى عمر بن الخطاب. فقال: عمر كان له أصحاب. فقلت: فعمر بن عبد العزيز، فقد كان في فتنة وفي ما كان فيه، فما تكلّم بشيءٍ إلا صار سُنَّة. فقال: إن لم أُطِق؟ فقلت: اجلس في بيتك.

❑ وقال عبد الرزاق: كان رجل صَحِب الثوري ـ يقال له: يوسف ـ إلى صنعاء، فلم يشعر إذ جاءته الولاية من أبي جعفر، فقال له الثوري: ويحك يا يوسف، شحطوك بغير سكينٍ، كيف إذا قيل يوم القيامة: أين أبو جعفر وأتباعه؟ قُمتَ فيهم[1].

وعن يحيى بن أبي غُنَيّة قال: ما رأيت رجلاً قطُّ أصْفَق وجهًا في اللَّه عز وجل من سفيان الثوري[2].

❑ قال الذهبي في «السير» (٧/ ٢٥٩): قال شجاع بن الوليد: كنت أحج مع سفيان، فما يكاد لسانه يفتر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا».

● عن مفضل بن مهلهل قال: حججت مع سفيان، فوافينا بمكة الأوزاعي، فاجتمعنا في دار، وكان على الموسم عبد الصمد بن علي، فدق داق الباب، قلنا: من ذا؟ قال: الأمير، فقام الثوري فدخل المخرج وقام الأوزاعي فتلقاه، فقال له: من أنت أيها الشيخ؟ قال: أنا الأوزاعي قال: حياك اللَّه بالسلام، أما إن كتبك كانت تأتينا فنقضي حوائجك، ما فعل

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ١١٢ ـ ١١٤).
(٢) «الجرح والتعديل» (١/ ١٠٨).

سفيان؟ قال: قلت: دخل المخرج. قال: فدخل الأوزاعي في إثره، فقال: إن هذا الرجل ما قصد إلا قصدك. فخرج سفيان مقطبًا، فقال: سلام عليكم، كيف أنتم؟ فقال له عبد الصمد: أتيت أكتب عنك هذه المناسك. قال: أوَ لا أدلك على ما هو أنفع لك منها؟ قال: وما هو. قال: تدع ما أنت فيه. قال: وكيف أصنع بأمير المؤمنين؟ قال: إن أردت كفاك اللَّه أبا جعفر. فقال له الأوزاعي: يا أبا عبد اللَّه، إن هؤلاء ليس يرضون منك إلا الإعظام لهم. فقال: يا أبا عمرو إنا لسنا نقدر أن نضربهم وإنما نؤدبهم بمثل هذا الذي ترى. قال مفضل: فالتفت إلي الأوزاعي فقال لي: قم بنا من هاهنا؛ فإني لا آمن أن يبعث هذا من يضع في رقابنا حبالاً، وإن هذا لا يبالي[1].

● وعن عطاء بن مسلم قال: لما استُخلف المهدي بعث إلي سفيان، فلما دخل عليه خلع خاتمه فرمى به إليه، وقال: يا أبا عبد اللَّه، هذا خاتمي، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة. فأخذ الخاتم بيده، وقال: تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين؟ قلت لعطاء: قال له: يا أمير المؤمنين؟! قال: نعم. قال: أتكلم على أني آمن؟ قال: نعم. قال: لا تبعث إلي حتى آتيك، ولا تعطني حتى أسألك. قال: فغضب، وهم به، فقال له كاتبه: أليس قد أمنته؟ قال: بلى، فلما خرج حف به أصحابه، فقالوا: ما منعك؟ وقد أمرك أن تعمل في الأمة بالكتاب والسنة؟! فاستصغر عقولهم، وخرج هاربًا إلى البصرة[2].

ويوضح هذا الموقف ما يأتي:

❑ قال الثوري: قال لي المهدي: أبا عبد اللَّه، اصحبني حتى أسير فيكم

(١) «الحلية» (٧/ ٣٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦٢).

سيرة العمرين. قال: قلت: أما وهؤلاء جلساؤك، فلا. قال: فإنك تكتب إلينا في حوائجك فنقضيها. قال سفيان: واللَّه ما كتبت إليك كتابًا قط.

❑ قال يحيى بن يمان: وقال لي سفيان: إن اقتصرت على خبزك وبقلك، لم يستعبدك هؤلاء[1].

❑ قال وزير المهدي أبو عبيد اللَّه: ما أعلقنا مخالينا هذه في عنق أحد إلا قضم منها إلا الثوري.

❑ وقال محمد بن عصام بن يزيد: سمعت أبي يقول: أرسلني سفيان إلى المهدي بكتابه، بأن نأخذ له الأمان منه، فدخلت على المهدي، فقال لي فيما يقول: لو جاءنا أبو عبد اللَّه، لكنا نتزر بإزارٍ، ونرتدي بآخر، ونضع أيدينا في يده ونخرج إلى السوق، فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر. فلما رجعت قلت: لأي شيء تهرب منه، وهو يقول: لو جاء لخرجت معه إلى السوق فأمرنا ونهينا؟! فقال: يا ناعس! حتى يعمل بما يعلم؛ فإذا فعل لم يسعنا إلا أن نذهب فنعلمه ما لا يعلم. قال عصام: فكتب معي سفيان إلى المهدي، وإلى وزيره أبي عبيد اللَّه قال: وأدخلت عليه، فجرى كلامي، فقال: لو جاءنا أبو عبد اللَّه، لوضعنا أيدينا في يده وارتدينا بردًا، واتزرنا بآخر، وخرجنا إلى السوق، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر؛ فإذا توارى عنا مثل أبي عبد اللَّه، لقد جاءني قُراؤكم الذين هم قراؤكم، فأمروني ونهوني ووعظوني، وبكوا ـ واللَّه ـ لي وتباكيت لهم، ثم لم يفجأني من أحدهم إلا أن أخرج من كُمِّه رقعةً: أن افعل بي كذا، وافعل بي كذا. ففعلت، ومقتُّهم. قال: إنما كتب إليه؛ لأنه طال مهربه أن يعطيه الأمان فأتيتُه فقدمت عليه البصرة بالأمان، ثم مرض ومات[2].

---

(١) «الحلية» (٦/ ٣٧٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، و«الحلية» (٧/ ٤٣، ٤٤)، و«الجرح والتعديل».

فانظر ـ رحمك اللَّه ـ إلى علّو فهم الثوري للأمر بالمعروف، وهربه بعيداً عن مجالس السلاطين والخلفاء، حتى يعملوا بما عندهم من علم، وإلا فلا.

أخذه عبد الصمد فذهب به إلى المهدي وهو بمنى، فلما رآه صاح بأعلى صوته: ما هذه الفساطيط؟ ما هذه السرادقات؟![1].

● وعن سفيان قال: أدخلت على المهدي بمنى، فسلمت عليه بالإمرة، فقال: أيها الرجل، طلبناك فأعجزتنا، فالحمد للَّه الذي جاء بك، فارفع إلينا حاجتك. فقلت: قد ملأت الأرض ظلمًا وجورًا، فاتق اللَّه، وليكن منك في ذلك عبرة. فطأطأ رأسه، ثم قال: أرأيت إن لم أستطع دفعه؟ قال: تخليه وغيرك. فطأطأ رأسه، ثم قال: إلينا حاجتك. قلت: أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بالباب، فاتق اللَّه، وأوصل إليهم حقوقهم. فطأطأ رأسه، فقال أبو عبيد اللَّه: أيها الرجل ارفع إلينا حاجتك. قلت: وما أرفع؟ حدثني إسماعيل بن أبي خالد قال: حج عمر فقال لخازنه: كم أنفقت؟ قال: بضعة عشر درهمًا. وإني أرى هاهنا أمورًا لا تطيقها الجبال[2].

❑ رحم اللَّه أمير المؤمنين وشيخ الإسلام وزين العباد سفيان الثوري... إن كان الربانيون يهابونه، فكيف بملوك الدنيا.

❑ قال ابن مهدي: ما كنت أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياء وهيبة منه[3].

❑ قال عبد اللَّه بن المبارك: إن سفيان دخل على أبي جعفر، فقال: حاجتك؟ فقال: حاجتي أن لا تدعوني حتى آتيك[4]... وأبو جعفر

(١) «السير» (٧/ ٢٦٥).
(٢) «السير» (٧/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).
(٣) «السير» (٧/ ٢٦٧).
(٤) «الجرح والتعديل» (١/ ١١٢).

أبو جعفر في بطشه!! للَّه درُّك يا سفيان من إمام.

❑ قال يحيى بن سعيد: أملى عليّ سفيان إلى المهدي: من سفيان بن سعيد إلى المهدي. فقلت له: لو بدأت به. قال: فأبى وقال: اكتب كما أقول. قال أبو الوليد[1]: فاحتججت عليه بكتابه إلى عثمان بن زائدة، وأنه بدأ بعثمان، فقال: كان عثمان رجلاً صالحًا[2].

❑ قال يوسف بن أسباط: قال رجل لسفيان الثوري: إني جعلت في جدة في بناء يبنونه ـ يعني للسلطان ـ قال: ألست تمنى بقاءهم إلى أن يعطوك أجرك؟ قال أبو محمد: يعني كم ظلمًا يُجري اللَّه على أيديهم إلى أن تقبض أجرك.

واللَّه لكأن الأمر بالمعروف في زماننا يبكى على سفيان... لكثرة علماء السوء الذي فرطحوا نعالهم أمام أبواب الحكام، ودبَّجوا لهم فتاوى ما أنزل اللَّه بها من سلطان.

لقد مات سفيانٌ حميـــدًا مبرَّزًا ... على كلِّ قـــارٍ هجَّنتـــهُ المطامعُ
يلوذ بأبـــواب الملـــوك بنيـــة ... مُبهرجةٍ والزَّيُّ فيـــه التواضـــعُ
يُشمِّرُ عن ساقيهِ والرأسُ فوقهُ ... مُبرّكةٌ[3] فيهـا اللَّصيصُ المُخادِعُ
جعلتم فداء للذي صـــان دينـــهُ ... وقرّبـــهُ حتى حوتـــهُ المضاجعُ
على غيـــر ذنبٍ كان إلا تنـزهًا ... عن الناسِ حتى أدركتهُ المَصارِعُ
بعيـــدٌ عن أبـوابِ الملوكِ مُجانبًا ... وإن طلبُـــوه لم تنـــلهُ الأصـابعُ

* * *

(١) الراوي عن يحيى بن سعيد.
(٢) «الجرح والتعديل» (١/ ١١٠).
(٣) قلنسوة.

❑ قال سفيان: إذا أثنى على الرجل جيرانه أجمعون، فهو رجل سوءٍ؛ لأنه ربما رآهم يعصون فلا ينكر، ويلقاهم ببشر[1].

جاء في كتاب «الذهب المسبوك في وعظ الملوك»: قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي، وأُتي بسفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره، فلما دخل عليه سلم، ولم يسلم بالخلافة، والربيع قائم على رأسه، متكئًا على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق، وقال له: يا سفيان تفر هنا وهاهنا، تظن أن لو أردناك بسوءٍ لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟ قال سفيان: إن تحكم فيَّ يحكم فيك ملك قادر، يفرق بين الحق والباطل. فقال الربيع له: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ أتأذن لي أن أضرب عنقه. فقال له المهدي: اسكت، ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة، على أن لا يُعترض عليه فيَّ حكم. فكتب عهده ودفعه إليه، فأخذه وخرج ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس، فطُلب في كل بلدٍ فلم يوجد فعين مكانه شريك النَّخعي.

وجاء في كتاب «الإمامة والسياسة»: دخل سفيان الثوري على أبي جعفر المنصور فأمره ونهاه، فقال له أبو جعفر: ها هنا يا أبا عبد اللَّه، إليَّ إليَّ، ادن مني. فقال: إني لا أطأ ما لا أملك ولا تملك. فقال أبو جعفر: يا غلام ادرج البساطَ، وارفع الوطاء. فتقدم سفيان فصار بين يديه وقعد، ليس بينه وبين الأرض شيء وهو يقول: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. فدمعت عينا أبي جعفر. ثم تكلم سفيان دون أن يستأذن فوعظ وأمر ونهى وذكَّر، وأغلظ في قوله، فقال له الحاجب:

---

(١) «السير» (٧/ ٢٧٨).

أيها الرجل أنت مقتول. فقال سفيان: وإن كنت مقتولاً فالساعة. فسأله أبو جعفر عن مسأله فأجابه، ثم قال سفيان: فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقت من مال اللَّه، ومال أمة محمد ﷺ بغير إذنهم، قد قال عمر في حجة حجها، وقد أنفق ستة عشر ديناراً هو ومن معه: ما أرانا إلا وقد أجحفنا ببيت المال.

● وعن ابن مسعود أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**رب متخوضٍ في مال اللَّه ومال رسول اللَّه فيما شاءت نفسه له النار غداً**». فقال أبو عبيدة الكاتب: أمير المؤمنين يستقبل بمثل هذا؟! فقال له سفيان: اسكت؛ فإنما أهلك فرعون هامان وهامان فرعون. ثم خرج سفيان، فقال أبو عبيدة الكاتب: ألا تأمر بقتل هذا الرجل، فواللَّه ما أعلم أحداً أحقّ بالقتل منه؟ فقال أبو جعفر: اسكت، فواللَّه ما بقي على الأرض أحدٌ ـ اليوم ـ يُستحيا منه غير هذا ومالك ابن أنس.

وذكر الإمام ابن بلبان والغزالي وغيرهما: أن الرشيد لما ولي الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا سفيان الثوري؛ فإنه لم يأته، وكان بينه وبينه صحبة، فشق عليه ذلك، فكتب إليه الرشيد كتابًا يقول فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم من عبد اللَّه هارون أمير المؤمنين، إلى أخيه في اللَّه سفيان بن سعيد الثوري: أما بعد يا أخي:

فقد علمت أن اللَّه آخى بين المؤمنين، وقد آخيتك في اللَّه مؤاخاةً لم أصرم فيها حبلك، ولم أقطع منها ودك، وإني منطو لك على أفضل المحبة وأتم الإرادة، ولولا هذه القلادة التي قلدنيها اللَّه تعالى، لأتيتك ولو حبواً، لما أجد لك في قلبي من المحبة؛ وإنه لم يبق أحدٌ من إخواني وإخوانك إلا زارني وهنأني بما صرت إليه، وقد فتحت بيوت الأموال، وأعطيتهم المواهب السنية، ما فرحت به نفسي وقرت به عيني، وقد استبطأتك، وقد كتبت كتابًا

مني إليك أُعلمك بالشوق الشديد إليك، وقد علمت يا أبا عبداللَّه ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومواصلته؛ فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعجل العجل».

ثم أعطى الكتاب لعباد الطالقاني، وأمره بإيصاله إليه، وأن يُحصي عليه بسمعه وقلبه دقيق أمره وجليله ليخبره قال عباد: فانطلقتُ إلى الكوفة فوجدت سفيان في مسجده، فلما رآني على بُعد قام، وقال: أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك اللَّهم من طارق يطرق إلاَّ بخير. قال: فنزلت عن فرسي بباب المسجد، فقام يصلي ولم يكن وقت صلاة، فدخلت وسلمت، فما رفع أحدٌ من جلسائه رأسه. إلى أن قال: فبقيت واقفًا، وما منهم أحد يعرض علي الجلوس، وقد علتني من هيبتهم الرعدة، فرميت بالكتاب إليه، فلما رأى الكتاب، ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه، فركع وسجد، وسلم، وأدخل يده في كمه وأخذه وقلبه بيده، ورماه إلى من كان خلفه، وقال: ليقرأه بعضكم؛ فإني أستغفر اللَّه أن أمس شيئًا مسه ظالم بيده، قال عباد: فمد بعضهم يده وهو يرتعد كأنه حية تنهشه، ثم قرأه، فجعل سفيان يتبسم تبسم المتعجب، فلما فرغ من قراءته، قال: اقلبوه، واكتبوا للظالم على ظهره. فقيل له: يا أبا عبد اللَّه؛ إنه خليفة، فلو كتبت إليه في بياض نقي لكان أحسن. قال: اكتبوا للظالم في ظهر كتابه؛ فإن اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به، ولا يبقى شيء مسه ظالم بيده عندنا فيفسد علينا ديننا. فقيل له: ما نكتب إليه: قال: اكتبوا له:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم.. من العبد الميت سفيان، إلى العبد المغرور بالآمال هارون، الذي سلب حلاوة الإيمان ولذة قراءة القرآن. أما بعد: فإني كتبت إليك أعلمك أني قد صرمت حبلك، وقطعت ودك؛ وإنك قد جعلتني شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت على بيت مال

المسلمين، فأنفقته في غير حقه، وأنفذته بغير حكمه، ولم ترض بما فعلته وأنت ناءٍ عني، حتى كتبت إلي تشهدني على نفسك؛ فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك، وستؤدى الشهادة غدًا بين يدي اللَّه الحكم العدل. يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم، هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض اللَّه، والمجاهدون في سبيل اللَّه، وابن السبيل؟! أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم، يعني العاملين؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل؟ أم رضي بذلك خلق من رعيتك؟! فشدّ يا هارون مئزرك وأعد للمسألة جوابًا، وللبلاء جلبابًا، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل، فاتق اللَّه في نفسك، إذ سُلبت حلاوة العلم والزهد، ولذة قراءة القرآن ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالمًا وللظالمين إمامًا. يا هارون قعدت على السرير، ولبست الحرير، وأسبَلْت ستورًا دون بابك، وتشبهت بالحجبة برب العالمين، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك، وتركتهم يظلمون الناس ولا ينصفون، ويشربون الخمر ويحدّون الشارب، ويزنون ويحدّون الزاني، ويسرقون ويقطعون السارق، ويقتلون ويقتلون القاتل، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس؟! فكيف يا هارون غدًا، إذا نادى المنادي من قبل اللَّه: احشروا الظلمة وأعوانهم. فتقدمت بين يدي اللَّه ويداك مغلولتان إلى عنقك، لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك، والظالمون حولك وأنت لهم إمام أو سائق إلى النار؟! وكأني بك ـ يا هارون ـ وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء، وظلمة فوق ظلمة، فاتق اللَّه يا هارون في رعيتك، واحفظ محمدًا ﷺ في أمته، واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائرٌ إلى غيرك، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها

واحداً بعد واحد، فمنهم من تزود زاداً نفعه، ومنهم من خسر دنياه وآخرته، وإياك إياك أن تكتب إلي بعد هذا؛ فإني لا أجيبك. والسلام».

وألقى الكتاب منشوراً من غير طي ولا ختم، فأخذته وأقبلت به إلى سوق الكوفة، وقد وقعت الموعظة بقلبي فناديت: يا أهل الكوفة من يشتري رجلاً هرب إلى اللَّه؟ فأقبلوا إلي بالدراهم والدنانير، فقلت: لا حاجة لي بالمال، ولكن جُبة صوف وعباءة قطوانية، فأتيت بذلك، فنزعت ما كان علي من الثياب التي كنت أجالس بها أمير المؤمنين، وأقبلت أقود الفرس الذي كان معي، إلى أن أتيت باب الرشيد حافيًا راجلاً، فهزأ بي من كان على الباب ثم استؤذن لي، فلما رآني على تلك الحالة، قام وقعد، وجعل يلطم رأسه ووجهه، ويدعو بالويل والخراب، ويقول: انتفع الرسول وخاب المرسل، ما لي وللدنيا، والملك يزول عني سريعًا. فألقيت الكتاب إليه مثل ما دفع إلي، فأقبل يقرؤه ودموعه تنحدر على وجهه، وهو يشهق فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، قد اجترأ عليك سفيان، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد، وضيقت عليه السجن، فجعلته عبرةً لغيره. فقال هارون: اتركوا سفيان وشأنه يا عبيد الدنيا، المغرور من غررتموه والشقي واللَّه ـ حقًّا ـ من جالستموه، وإن سفيان أمَّةً وحده. ولم يزل كتاب سفيان عند الرشيد يقرؤه ويبكي، حتى توفي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

*** مالك بن أنس وصدعه عند السلطان بالحق:**

قال مالك: قال لي أبو جعفر: قد أردت أن أجعل هذا العلم علمًا واحداً، فأكتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة، فيعملون به، فمن خالف ضربت عنقه. فقلت له: يا أمير المؤمنين أو غير ذلك. قلت: إن النبي ﷺ كان في هذه الأمة، وكان يبعث السرايا، وكان يخرج فلم يفتح من البلاد كثيراً حتى قبضه اللَّه عز وجل، ثم قام أبو بكر رضي الله عنه بعده، فلم يفتح من

البلاد كثيراً ثم قام عمر ﷺ بعدها ففتحت البلاد على يديه، فلم يجد بدًّا من أن يبعث أصحاب محمد ﷺ معلمين، فلم يزل يؤخذ عنهم كابراً عن كابر إلى يومهم هذا؛ فإذا ذهبت تحولهم إلى ما لا يعرفون، رأوا ذلك كفراً، ولكن أقرّ أهل كل بلدة على ما فيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك. فقال لي: ما أبعدت القول، اكتب هذا العلم لمحمد»[1] ـ يعني ابنه المهدي ـ وكان أبو جعفر يريد حمل الناس على الموطأ، وقال لمالك: لعمري لو طاوعتني لأمرت بذلك.

● وعن عبد المتعال بن صالح ـ من أصحاب مالك ـ قال: قيل لمالك ابن أنس: إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون ويجورون؟ قال: يرحمك اللَّه فأين التكلم بالحق.

□ قال مالك بن أنس: وجه إلي هارون الرشيد، فسألني أن أحدثه فقلت: يا أمير المؤمنين، إن العلم يُؤتى ولا يأتي، فصار إلى منزلي فاستند معي في الجدار، فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن من إجلال اللَّه إجلال ذي الشيبة المسلم. قال: فقام فجلس بين يدي، فقال لي بعد مدة: يا أبا عبد اللَّه تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة فلم ننتفع به، وكان سفيان يأتيهم إلى بيوتهم فيأخذ دراهم[2].

● عن مروان الطاطري أن أبا جعفر نهى مالكًا عن الحديث: ليس على مستكره طلاق[3]، ثم دس إليه من يسأله، فحدثه به على رءوس الناس،

---

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ٢٩).

(٢) «المصباح المضيء» لابن الجوزي.

(٣) لم يرد في المرفوع، وإنما هو موقوف على ابن عباس، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٤٨): «ليس لمكره ولا لمضطهد طلاق». ورجاله ثقات، وعلقه البخاري (٩/ ٣٤٣)، ولفظه قال ابن عباس: طلاق السكران والمستكره ليس بجائز. وقال الحافظ: وصله ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور.

فضربه بالسياط.

❑ قال الواقدي: لما دُعي مالك، وشوور وسمع منه وقبل قوله حُسد، وبغوه بكل شيء فلما ولى جعفر بن سليمان المدينة، سعوا به إليه، وكثروا عليه عنده، وقالوا: لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، وهو يأخذ بحديث رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المكره: أنه لا يجوز عنده. قال: فغضب جعفر، فدعا بمالك، فاحتج عليه بما رُفع إليه عنه، فأمر بتجريده وضربه بالسياط، وجُبذت يده حتى انخلعت من كتفه، وارتكب منه أمر عظيم، فواللَّه ما زال مالك بعد في رفعة وعلو[1].

* **مالك والرشيد: «احذر بطانة السوء وأهل الرِّدَى»:**

❑ كتب الإمام مالك بن أنس ـ رحمه اللَّه تعالى ـ رسالته الشهيرة إلى هارون الرشيد يعظه فيها وينصحه. وقد جاء في مقدمتها: أما بعد، فإني كتبت إليك بكتاب لم آلُك فيه رُشدًا، ولم أدّخر فيه نُصحًا، تحميدًا للَّه، وأدبًا عن رسول اللَّه ﷺ، فتدبَّره بعقلك، وردِّد فيه بصرك، وأرْعِه سمْعك، ثم اعقله بقلبك، وأحضر فهمك ولا تغبن عنه ذهْنك، فإن فيه الفضل في الدنيا وحسن ثواب اللَّه في الآخرة. اذكر نفسَك في غَمَرات الموت وكُربة ما هو نازل بك منه، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على اللَّه سبحانه ثم الحساب، ثم الخلود بعد الحساب. وأعدّ للَّه عز وجل ما يسهِّل عليك أهوال تلك المشاهد وكربها، فإنك لو رأيتَ سخط اللَّه تعالى، وما صار إليه الناس من ألوان العذاب، وشدّة نقمته عليهم، وسمعتَ زفيرهم في النار وشهيقهم، مع كُلُوح وجوههم، وطول غمّهم، وتقلّبهم في دَرَكاتها على وجوههم، ولا يسمعون ولا يبصرون، ويدعون بالويل والثُّبور.

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٨٠ ـ ٨١).

وأعْظِم بحسرة إعراض اللَّه عنهم وانقطاع رجائهم، وإجابته إياهم بعد طول الغمّ بقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. ثم قال له: لا تأمن على شيءٍ من أمرك مَنْ لا يخاف اللَّه، فإنه بلغني عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ أنه قال: «شاور في أمرك الذين يخافون اللَّه». احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى على نفسك، فإنه بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من نبيٍّ ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأمُره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألُوه خَبَالاً**». ثم قال: لا تَجُرّ ثيابك، فإن اللَّه لا يحب ذلك، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «**من جرَّ ثيابه خُيَلاء، لم ينظُر اللَّه إليه يوم القيامة**». أطع اللَّه في معصية الناس، ولا تُطع الناس في معصية اللَّه، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[1].

* **الإمام ابن أبي ذئب محمد بن عبد الرحمن:**

شيخ الإسلام أبو الحارث القرشي.

❑ قال الذهبي: «كان من أوعية العلم ثقة فاضلاً قوّالاً بالحق مهيبًا».

❑ قال أحمد بن حنبل: كان يُشبَّه بسعيد بن المسيب، فقيل لأحمد: خلف مثله؟ قال: لا، ثم قال: كان من أفضل من مالك، إلا أن مالكًا كان أشد تنقية للرجال منه. وقال أحمد: هو أورع وأقول بالحق من مالك»[2].

❑ قال الذهبي في «ترجمته في السير» (٧/ ١٣٩ ـ ١٤٨): دخل ابن أبي ذئب مرة على والي المدينة، فكلمه ـ وهو عبد الصمد بن علي عم المنصور ـ فكلمه في شيء، فقال عبد الصمد بن علي: إني لأراك مرائيًا. فأخذ عودًا، وقال: من أُرائي؟! فواللَّه للناس عندي أهون من هذا.

---

(١) «الإسلام بين العلماء والحكام».

(٢) «السير» (٧/ ١٤٠، ١٤٢).

❑ وقال أبو العيناء: لما حج المهدي، دخل مسجد رسول اللَّه ﷺ فلم يبق أحدٌ إلا قام، إلا ابن أبي ذئب، فقال له المسيب بن زهير: قم، هذا أمير المؤمنين. فقال: إنما يقوم الناس لرب العالمين. فقال المهدي: دعه، فلقد قامت كل شعرة في رأسي.

❑ قال أبو العيناء: وقال ابن أبي ذئب للمنصور: قد هلك الناس، فلو أعنتهم من الفيء. فقال: ويلك، لولا ما سددت من الثغور، لكنت تؤتى في منزلك فتذبح. فقال ابن أبي ذئب: قد سد الثغور، وأعطى الناس من هو خير منك: عمر رضي الله عنه فنكس المنصور رأسه ـ والسيف بيد المسيب ـ ثم قال: هذا خير أهل الحجاز.

❑ قال أحمد بن حنبل: ابن أبي ذئب ثقة. قد دخل على أبي جعفر المنصور، فلم يهله أن قال له الحق، وقال: الظلم ببابك فاش. وأبو جعفر أبو جعفر.

❑ قال أبو نعيم: حججت عام حجَّ أبو جعفر ومعه ابن أبي ذئب ومالك بن أنس، فدعا ابن أبي ذئب، فأقعده معه على دار الندوة، فقال له: ما تقول في الحسن بن زيد بن حسن؟ ـ يعني أمير المدينة ـ فقال: إنه ليتحرى العدل. فقال له: ما تقول في؟ مرتين فقال: ورب هذه البنية إنك لجائر. قال: فأخذ الربيع الحاجب بلحيته، فقال له أبو جعفر: كف يا ابن اللخناء[1] ثم أمر لابن أبي ذئب بثلاثمائة دينار. وقال أحمد بن حنبل: كان ابن أبي ذئب رجلاً صالحًا قوالاً بالحق يُشبَّه بسعيد بن المسيب.

❑ وقال حماد بن خالد: كان يشبه بابن المسيب، وما كان هو ومالك في موضع عند سلطان إلا تكلم ابن أبي ذئب بالحق والأمر والنهي، ومالك ساكت.

---

(١) اللخن: نتن الريح عامة، وقبح ريح الفرج. ويقال: اللخناء: التي لم تختن.

«إنك لا تعدل في الرعية»:

❑ قال أبو جعفر المنصور لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان؟ قال: أشرار من أهل بيت أشرار، قالوا: سله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن يزيد. وكان عامله على المدينة. قال: ما تقول في الحسن؟ قال: يأخذ بالإحنة ويقضي بالهوى. فقال الحسن: واللَّه يا أمير المؤمنين، لو سألته عن نفسك لرماك بداهية ونعتك بشر. قال: ما تقول في؟ قال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: لا بد أن تقول. قال: إنك لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية. فتغير وجه المنصور، فقام إبراهيم بن محمد بن علي صاحب الموصل، وقال: طهرني بدمه يا أمير المؤمنين. قال له ابن أبي ذئب: اقعد يا بني، فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا اللَّه طهور[1].

* عبداللَّه بن وهب إمام مصر يمتنع عن تولي القضاء:

❑ قال الذهبي في «السير» (٩/٢٢٧):

«قال أحمد بن عبدالرحمن بحشل: طلب عبّاد بن محمد الأمير عمي ليُوليه القضاء، فتغيّب عمي، فهدم عبّاد بعض دارنا، فقال الصباحي لعباد: متى طمع هذا الكذا وكذا أن يليَ القضاء؟ فبلغ ذلك عمي فدعا عليه بالعمى قال: فعمى الصباحي بعد جمعة».

قال أبو الفداء: للَّه درّ السلف ما كان أزهدهم في القضاء مخافة على دينهم طالبين السلامة في ذلك، فكانوا مهابين عند الملوك ومكرّمين، ومعظّمين، يعلوهم الوقار، أما الآن فقد أصبح الكثير ممن ينتسب إلى العلم ألعوبة في أيدي الملوك وذلك بحرصهم على الدنيا، قد أكل الطمع قلوبهم فهم مع ملوكهم يدورون وفي إرضائهم يدأبون فاستذلوهم، فأهانوا العلم،

(١) «سراج الملوك» للطرطوشي.

وأهانوا أنفسهم، فكان حالهم كما قال القائل:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفوس لعُظّما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا محيّاه بالأطماع حتى تجهّما

*** محمد بن أوس والرشيد:**

كان هارون الرشيد يطوف بالبيت وهو متكئ على الفضل بن الربيع ورجل آخر، فقام إليه محمد بن أوس الهلالي، واعترضه عند الحجر وقال: يا أمير المؤمنين استمع كلامي؛ فإنك إن سمعته حقًّا قبلته، وإن سمعته باطلاً فلا تعبأ به، فوقف فقال: يا من غذي في نعيم، وتردد في ملك سليم، إن خفت العذاب الأليم، وأحببت البقاء في سرور مقيم، فلا تسمعنّ ممن أنت بينهما، ولا تغترنّ بشيءٍ من قولهما، فإن اللَّه عز وجل يخلو بك دونهما، فالموت يصل إليك على الطوع والكُره منهما، فلا تقتصدنّ بالذليل، ولا تتكثّرنّ بالقليل، ولا تعتصم بغير دافع، ولا تطمئنّ إلى غير مانع، لا يمنع ولا يدفع عنك، فإنك بعين اللَّه، وبحضرة بيته الذي جعلَهُ مَثابةً للزائر، ومنحجرًا للفاجر. فانتفض الرشيد وجلس وخلا يديه عنهما، وأومأ أن خُذوا الرجل، فأُخِذ، حتى قضى طوافَهُ وصلى، ورجع إلى المنزل الذي به نزل، ودعا بالرجل فأُدخل عليه شيخ جليل، فقال: من أين أنت؟ قال: من مكة. قال: ما اسمك؟ قال: محمد. قال: ابن من؟ قال: ابن أوس. قال: من قبيلتك؟ قال: بنو هلال. قال: قبيلة مشهورة، فما حملك أن كلّمتني بالذي كلّمتني؟ قال: إشفاقًا عليك، إذ أنضيت الرّكاب، وأتعبت الرجال، وأنفقت الأموال في أمورِ اللَّه عز وجل أعْلَمُ بها، حتى صرتَ إلى غاية الطالب، وموضعٍ ترجو فيه الرحمة، اعتمدت على ظالمين طاغيين، قد جُبلا على

(١) «حلية الأولياء»، «سير أعلام النبلاء».

الغَشْم، ونُشِّئا على الظُّلم، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]. فنكس الرشيد رأسَهُ، وأقبل ينكُت في الأرض وعيناه تذرِفان، ثم رفع رأسه فقال: من أين مطعمُك ومشربك؟ قال: من عند مَن يرزقك. قال: مَنْ ذاك؟ قال: من عند مَنْ فَلَقَ الحَبَّ والنَّوَى، وأخرجَ الحبّ من الثَّرَى، من طعامٍ سهرتْ فيه العيون، وتعبت في حصاده الأجساد، وحرستْه الملائكة، حتى أتاني به القَدَرُ بلا رنق ولا كدرٍ. قال: ألك عيال؟ قال: نعم. قال: ومن هن؟ قال: زوجة. قال: أفلا أُجري عليك رزقًا تستعين به على بعض أمورك، وتستغني به عن الطَّلَب من غيرك؟ قال: إني باللَّه عز وجل أغْنَى مني بما بذلتَ لي من ذلك. قال: ألك حاجة؟ قال: نعم، أطعِ اللَّه عز وجل فيما تعلم من سِرِّك، فإنك تصل إلى كل محبوبٍ، وتنال به كل مطلوب. قال: ألك حاجة غيرها؟ قال: أتُؤمنني من الموت؟ قال: لا أقدر على ذلك. قال: فتُجيرني من النار؟ قال: ليست في يدي. قال: فتدخلني الجنة؟ قال: لست أملك. قال: أفتُحيي لي ميتًا، حتى أسأله عما عاين ورأى؟ قال: ذاك في قدرة غيري. قال: ما أنت إلا كسائر مَنْ ترى من رَعِيَّتك، غير أن اللَّه عز وجل فضَّلك عليهم بما أعطاك من هذا الحطام الزائل، واستَخْلَفَك في الأرض لينظر كيف تعمل. وذكر كلامًا ثم خرج. فقال الرشيد: الحمد للَّه الذي جَعَل في رعيَّةٍ أنا عليها مِثْلَه، ولا تزال هذه الأمة بخير ما لم يعدموا هذا ونظراءه وأشباهه.

*** الليث بن سعد وهارون الرشيد: «ومن رأس العين يأتي الكدر»:**

❑ يقول عبد اللَّه بن صالح: سمعت الليث بن سعد يقول: لما قدمت على هارون الرشيد قال لي: يا ليث، ما صلاح بلدِكم؟ قلت: يا أمير المؤمنين، صلاح بلدنا بإجراء النيل، وإصلاح أميرها، ومن رأس العين

يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي فقال: صدقت يا أبا الحارث[١].

*** شعيب بن حرب والرشيد:**

قال شعيب بن حرب ـ رحمه اللَّه ـ: «رأيت الرشيد في طريق مكة فقلت في نفسي: قد وجب عليك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فَخَوَّفَتْني فقالت: إنه الآن يضرب عنقك. فقلت: لا بد من ذلك، فناديته فقلت: يا هارون! قد أتعبتَ الأمة والبهائم. فقال: خذوه. فأُدخلت عليه وفي يده لت من حديد يلعب به وهو جالس على كرسي، فقال: ممن الرجل؟ فقلت: رجل من المسلمين. فقال: ثكلتك أمك ممن أنت؟ فقلت: من الأنبار. فقال: ما حملك على أن دعوتني باسمي؟ قال: فخطر ببالي شيء لم يخطر قبل ذلك، فقلت: أنا أدعو اللَّه باسمه يا اللَّه، أفلا أدعوك باسمك؟ وهذا اللَّه سبحانه قد دعا أحب خلقه إليه بأسمائهم: يا آدم، يا نوح، يا هود، يا صالح، يا إبراهيم، يا موسى، يا عيسى، يا محمد، وكنى أبغض خلقه إليه فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ فقال الرشيد: أخرجوه أخرجوه[٢].

*** أبو يوسف القاضي وهارون الرشيد:**

طلب هارون الرشيد أمير المؤمنين من أبي يوسف القاضي وضع كتاب الخراج، فقدّم أبو يوسف نصيحته للخليفة بين يدي الكتاب فقال:

يا أمير المؤمنين، إن اللَّه ـ وله الحمد ـ قد قلّدك أمرًا عظيمًا ثوابه أعظم الثواب، وعقابه أشد العقاب، قلّدك أمر هذه الأمة، فأصبحت وأمسيت

(١) «حلية الأولياء»، «سير أعلام النبلاء».

(٢) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧١).

وأنت تبني لخلق كثير، وقد استرعاكهم اللّه وائتمنك عليهم وابتلاك بهم وولاّك أمرهم، وليس يلبث البنيان إذا أُسس على غير التقوى أن يأتيه اللّه من القواعد فيهدمه على من بناه وأعان عليه. فلا تضيعنّ ما قلدك اللّه أمر هذه الأمة والرعية، فإن القوة في العمل بإذن اللّه، لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد، فإنك إذا فعلت ذلك أضعت، إن الأجل دون الأمل، فبادر الأجل بالعمل، فإنه لا عمل بعد الأجل، وإن الدعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه، فأتم الحق فيما ولاّك اللّه وقلّدك ولو ساعة من نهاره، فإن أسعد الدعاة عند اللّه يوم القيامة راع سعدت به رعيّته، ولا تزغ فتزيغ رعيتك، وإياك والأمر بالهوى والأخذ بالغضب، وإذا نظرت إلى أمرين، أحدهما للآخرة، والآخر للدنيا، فاختر أمر الآخرة على الدنيا، فإن الآخرة تبقى والدنيا تفنى، ولكن من خشية على حذر، واجعل الناس عندك في أمر اللّه سواء القريب والبعيد، ولا تخف في اللّه لومة لائم، واحذر، فإن الحذر بالقلب وليس باللسان، واتق اللّه فإنما التقوى بالتوقي، ومن يتق اللّه يتقه.

إني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك، ورعية ما استرعاك اللّه، وأن لا تنظر في ذلك إلا إليه وله، فإنك أن لا تفعل تتوعّر عليك سهولة الهدى، وتعمى في عينيك وتخفّى رسومه ويضيق عليك رحبه، وتنكر منه ما تعرف، وتعرف منه ما تُنكر، فخاصِم نفسك خصومة من الفلج لها لا عليها، فإن الراعي المضيّع يضمن ما هلك على يديه مما لو شاء ردّه عن مواطن الهلكة بإذن اللّه. وأورده أماكن الحياة والنجاة، فإن ترك ذلك أضاعه، وإن تشاغل بغيره كانت الهلكة عليه أسرع وبه آخذ، وإذا أصلح كان أسعد من هنا لك بذلك ووفّاه اللّه أضعاف ما وفيّ له.

فاحذر أن تضيع رعيّتك فيستوفي ربها حقها منك ويضيّعك بما أضعت أجرك، وإنما يدعم البنيان قبل أن ينهدم، وإنما لك من عملك ما عملت فيمن

ولاّك اللّه أمره فلست تنسى، ولا تغفل عنهم وعما يصلحهم فليس يُغفَل عنك، ولا يضيع حقك من هذه الدنيا في هذه الليالي والأيام كثرة تحريك لسانك في نفسك بذكر اللّه تسبيحًا وتهليلاً وتمجيدًا والصلاة على رسول اللّه ﷺ نبي الرحمة وإمام الهدى» اهـ.

*** عمر بن حبيب القاضي والرشيد:**

قال عمر بن حبيب القاضي: حضرت مجلس الرشيد يومًا فجرت مسألة فتنازعها الخصوم، وعلت الأصوات فيها، فاحتج بعضهم بحديث يرويه أبو هريرة عن النبي ﷺ فدفع بعضهم الحديث، وزادت المدافعة والخصام حتى قال قائلون منهم: أبو هريرة متهم فيما يرويه[1]، وصرّحوا بتكذيبه ورأيت الرشيد قد نحا نحوهم، ونصر قولهم. فقلت أنا: الحديث صحيح عن رسول اللّه ﷺ فنظر إلي الرشيد نظر مغضب، وانصرفت إلى منزلي، فلم ألبث أن جاءني غلام فقال: أجب أمير المؤمنين إجابة مقتول، وتحنط وتكفن. فقلت: اللّهم إنك تعلم أني دفعت عن صاحب نبيك، وأجللت نبيك أن يطعن على أصحابه، فسلّمني منه، وأُدخِلتُ على الرشيد وهو جالس على كرسي، حاسرًا ذراعيه، بيده السيف، وبين يديه النطع. فلما بصر بي قال: يا عمر بن حبيب ما تلقّاني أحد من الدفع والرّد بمثل ما تلقيتني به، وتجرأت عليّ. فقلت: يا أمير المؤمنين إن الذي قلته ودافعت عنه، ومِلتَ إليه، وجادلت عنه ازدراء على رسول اللّه ﷺ، وعلى ما جاء به، فإنه إذا كان أصحابه ورواة حديثه كذّابين فالشريعة باطلة، والفرائض والأحكام في الصلاة والصيام والنكاح والطلاق والحدود مردودة غير مقبولة.

---

(١) من قال هذا فهو كذّاب أشر. بل هو من معادن الصدق بأبي هو وأمي ﷺ أمير المؤمنين في الحديث، وسيد الرواة عن رسول اللّه ﷺ.

فاللَّه اللَّه يا أمير المؤمنين أن تظن ذلك أو تصغى إليه، وأنت أولى أن تغار لرسول اللَّه ﷺ من الناس كلهم، فلما سمع كلامي رجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمرو بن حبيب أحياك اللَّه، أحييتني أحياك اللَّه[1].

*** ابن السمّاك والرشيد:**

❑ قال له ابن السماك يومًا: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي اللَّه عز وجل، والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ بالكظم، وتزل القدم، ويقع الندم، فلا توبة تقبل، ولا عثرة تقال، ولا يقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته. فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي. وقال له الفضيل بن عياض ـ في كلام كثير ليلة وعظه بمكة: يا صبيح الوجه إنك مسئول عن هؤلاء كلهم، وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ قال: حدثنا ليث عن مجاهد: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا. فبكى حتى جعل يشهق»[2].

*** العُمَريّ.. وما العمري!!:**

الإمام القدوة الزاهد، العابد، أبو عبد الرحمن، عبداللَّه بن عبدالعزيز ابن عبداللَّه بن صاحب رسول اللَّه ﷺ عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب.

❑ قال الذهبي: أمّار بالعُرْف، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم. كان ينكر على مالك الإمام الاجتماع بالدولة.

❑ قال الذهبي: كتب مالك إلى العُمريّ: إنك بَدَوت، فلو كنتَ عند

---

(١) «تاريخ بغداد» (١١/١٩٧).

(٢) «البداية والنهاية» (١٠/١٢١٧).

مسجد رسول اللَّه ﷺ. فكتب: إني أكره مجاورة مثلك، إن اللَّه لم يَرَكَ متغير الوجه فيه ساعةً قَطُّ.

❑ قال الذهبي: «هذا على سبيل المبالغة في الوعظ، وإلا فمالك من أقْوَل العلماء بالحق، ومن أشدهم تغيُّرًا في رؤية المنكر»[1].

وعن علي بن حرب، عن أبيه قال: مضى الرشيد على حمار، ومعه غلام إلى العُمريّ، فوعظه، فبكى وغُشي عليه.

وقيل: إن العمري وعظ الرشيد مرة، فكان يتلقى قوله بـ: نعمْ يا عمّ، فلما ذهب، أتْبَعَهُ الأمين والمأمون بكيسين فيهما ألفا دينار، فردّها وقال: هو أعلم بمن يفرقها عليه. وأخذ دينارًا واحدًا، وشخص عليه بغداد، فكره مجيئه، وجمع العُمَريين، وقال: ما لي ولابن عمكم!! احتملتُه بالحجاز، فأتى إلى دار ملكي، يريد أن يُفسد عليَّ أوليائي، ردُّوه عني. قالوا: لا يقبل منا. فكتب إلى الأمير موسى بن عيسى: أنْ ترفق به حتى تردّه.

❑ قال مصعب الزُّبيري: ما أدركت بالمدينة رجلاً أهْيَب منه، وقدم الكوفة ليُخَوِّف الرشيد باللَّه، فرجف لمجيئه الدولة، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف، ما زاد من هيبته، فرُدّ من الكوفة، ولم يصل إليه.

❑ قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر: سمعت أبا عبد الرحمن العمري الزاهد يقول: إن من غفلتك إعراضك عن اللَّه، بأن ترى ما يُسخطه فتتجاوزه، ولا تأمر ولا تنهى، خوفًا من المخلوق، منْ تَرَكَ الأمر بالمعروف خوف المخلوقين، نُزِعت منه الهيبة، فلو أمر ولدَهُ، لاستخفّ به[2].

❑ قال محمد بن حرب المكي: قدم العمريُّ، فاجتمعنا عليه، فلمَّا نظر

(١) «السير» (٨/ ٣٧٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨).

(٣) «الإمامة والسياسة».

إلى القصور المُحدِقة بالكعبة صاح: يا أصحاب القصور المشيَّدة، اذكروا ظُلْمة القبور الموحشة، يا أهل التَّنعم والتَّلذُّذ، اذكروا الدود والصديد، وبلاء الأجسام في التراب. ثم غلبتْه عينُه، فنام.

لما قدم أبو جعفر المنصور بغداد، ورد عليه كتابٌ من عبيد اللَّه العُمريّ فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد اللَّه أبي جعفر أمير المؤمنين، من عبيد اللَّه ابن عمر. سلام اللَّه عليك ورحمة اللَّه التي اتَّسعتْ فوسعتْ مَنْ شاء. أما بعد، فإني عهدتُك وأمْر نفسك لك مهمّ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة، أحمرها وأسودها وأبيضها، وشريفها ووضيعها، يجلس بين يديك العدو والصديق، والشريف والوضيع، ولكلٍّ حِصَّتُه من العدل ونصيبه من الحق، فانظر كيف أنت عند اللَّه يا أبا جعفر، وإني أحذِّرك يومًا تعنو فيه الوجوه والقلوب، وتنقطع فيه الحُجّة للملك قد قهرهم وأذلهم بسلطانه، والخلق داخرون يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه، وإنّا كنّا نتحدَّث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السَّرِيرة، وإني أعوذ باللَّه أن تُنزل كتابي سوء المنزل، فإني إنما كتبت به نصيحة، والسلام»[1].

*** العُمَريّ والرشيد: «فكيف بمن أسْرَفَ في مال المسلمين»:**

يقول سعيد بن سليمان: كنت بمكة وإلى جانبي عبد اللَّه بن عبدالعزيز العُمَريّ وهو من نسل عمر بن الخطاب، وقد حجّ هارون الرشيد، فقال له إنسان: يا أبا عبد اللَّه، ها هو ذا أمير المؤمنين يسعى، قد أُخلي له المسعى. فقال العمريُّ للرجل: لا جزاك اللَّه خيرًا، كلَّفتني أمرًا كنت عنه غنيًّا. ثم تعلَّق نَعْلَيه وقام، فتَبِعتُه، فأقبلَ هارون الرشيد من المروة يريد

(١) «الإمامة والسياسة».

الصّفا، فصاح به: يا هارون. فلمّا نظر إليه قال: لبيك يا عمّ. قال: ارْقَ الصفا. فلما رَقِيهُ قال: ارم نظرك إلى البيت. قال: قد فعلتُ. قال: كم هو؟ ـ أي عَدَدهم ـ قال: ومن يُحصيهم. قال: فكم في الناس مِثْلهم؟ قال: خلْق لا يُحصيهم إلا اللَّه. قال: اعْلَمْ أيها الرجل أن كل واحدٍ منهم يُسأل عن خاصَّة نفْسه، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلّهم، فانظر كيف تكون. قال: فبكى هارون. قال العمريُّ: وأخرى أقولها. قال: قل يا عمّ. قال: إن الرجل ليُسرف في ماله، فيستحقّ الحَجْر عليه، فكيف بمن أسْرَفَ في مال المسلمين! ثم مضى وهارون يبكي[1].

«ولا يَغُرَّنَّك المدَّاحُون الزُّور»:

كتب عبداللَّه العُمريُّ إلى هارون الرشيد مرة يقول له: «الحمد للَّه رب العالمين. والعاقبة للمتقين. الذي لا يخذُل مَن أطاعه ولا يكرم عليه أحدٌ عصاه. يا أمير المؤمنين، هذا داعي القرآن يُسمعك يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فلا استقامة إلا على طريق نجاةٍ، فاحفظ وصية اللَّه وارْجُ ثوابه وخفْ عقابَه، وتواضع له بحُسن الاستماع من رَعيَّتك، واعلم أنك عبد قد بُليت برعاية أمم لا تُحصى، قد خفرت أمانتها وتفرَّقت أهواؤها واختلفت في دينها. فأمرهم مَريج وبأسهم بينهم شديد. ولِيَتَهُمْ لإحدى اثنتين: إمّا أدَّيت أمانَتَهُم وعَطَفْتَهم على ربِّهم، فعلَّم اللَّه بك جاهلَهم وذكَّر بك ناسِيَهُم، وجدَّد بك العدل وأحيا بك الحقَّ، فكنت بذلك من المصلحين، ونلتَ به من اللَّه عز وجل ثواب القائمين بالقسط. وإمّا خفرتَ أمانة اللَّه عز وجل ونقضتَ عهدَهُ، وزدت المفسدين فسادًا، وظلمتَ اليتيم حقَّه، ومنعت المسكين نصيبَهُ، وحكمتَ في عباد اللَّه بغير ما أنزل اللَّه، استكبارًا وعُلُوًّا على

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ١٨٢).

المستضعفين، واللَّه لا يحب المستكبرين. والإمام العادل كالوالد في برِّه، يسعى لهم صغارًا ويعلِّمهم كبارًا، ويجمع لهم حياتَهُ ويدَّخِر لهم مماتَهُ، ويُؤثرهم على نفسه. والإمام العادل خليفة المرسلين، والقائم بين اللَّه وبين عباده. لا تكُن كعبد ائتمنَهُ سيِّدُه واستَحْفَظَه مالَهُ، فعطَّل الضيعةَ وبذر المال، وشرَّد العيال وأفْقَرَ أهله، وأهلكَ مالَهُ. ولا يغُرَّنّك المدّاحون الزُّور، ولا تُوَلِّينّ قريبًا لقرابته، ولا صديقًا لصداقته، ولا تُحابينّ في دين اللَّه عز وجل فيُحاجّك الدِّين غدًا عند اللَّه عز وجل. وإني لم آلُك نصيحةً وعليك شفقةً، فأنزِلْ كلامي بمنزلة المداوي جرحَه ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١][1].

* كُرز بن وَبَرَة:

عن ابن فُضيل عن أبيه أو عن نفسه، قال: كان كُرز إذا خرج أمر بالمعروف، فيضربونه حتى يُغشى عليه[2].

للَّه درُّه من عابد له الصيِّت البليغ في النُّسك والتَّعبُّد وله القدح المعلى في الأمر بالمعروف، فما أجْمَلَه من تكامُل... وهكذا فليكن العُبّاد.

* صالح المري والمهدي:

قال صالح المري: دخلت على المهدي، فلما مثُلْت بين يديه قلت: يا أمير المؤمنين احمل للَّه ما أكلمك به اليوم، فإن أولى الناس باللَّه أحملهم لغلْظة النصيحة فيه، وجدير بمن له قرابة برسول اللَّه ﷺ أن يرث أخلاقه ويأتم بهدْيه، وقد ورثك اللَّه من العلم والحجة ميراثًا قطع به عذرَك. واعلم

---

(١) «حلية الأولياء».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٨٥).

أن رسول اللَّه ﷺ خصْمُ مَن خالَفه في أمته، ومن كان محمد خصمَه: اللَّهُ خصمُه، فأعدَّ لمخاصمة اللَّه ومخاصمة رسوله حُججًا تضْمن لك النجاة، أو استسلم للهلكة. واعلم أن أبطأ الصَّرعى نهضةً صريعُ هوًى يدّعيه إلى اللَّه قربةً، وأن أثبتَ الناس قدمًا يوم القيامة آخَذُهم بكتاب اللَّه وسنة نبيه. فمثلك لا يكابر المعصية، ولكن تُمثَّل له الإساءة إحسانًا، وتشهد له عليها خونة العلماء، وبهذه الحبالة تصيدت الدنيا نظراءَك، فأحسن الحَمْل؛ فقد أحسنتُ إليك الأداء. قال: فبكى المهدي. يقول مَن روى هذا القول: وقد أخبر بعض الكتَّاب في الدواوين، أنه رأى هذا الكلام مكتوبًا في دواوين المهدي.

*** صالح بن عبدالجليل والمهدي: «أنت أعلمُ بموضع النجاة»:**

دخل صالح بن عبدالجليل ـ وكان ناسكًا مفوهًا ـ على المهدي، فسأله أن يأذن له في الكلام، فقال: يا أمير المؤمنين إنه لما سهل علينا ما توعرّ على غيرنا من الوصول إليك، قمنا مقام المؤدي عنهم وعن رسول اللَّه ﷺ بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي، لانقطاع عذر الكتمان في التقية، لا سيما حين اتسمت بميسم التواضع، ووعدت اللَّه وحملة كتابه إيثار الحق على ما سواه، وقد كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يقولون: من حجب اللَّه عنه العلم عذبه على الجهل وأشد منه عذابًا من أقبل إليه العلم فأدبر عنه، ومن أُهدي إليه العلم فلم يعمل به، فقد رغب عن هدية اللَّه، وقصر بها، فاقبل ما أهدى اللَّه إليك من ألسنتنا قبول تحقيق. فبكى المهدي حتى ظنوا أنه لا يسكت، وقال: يا صالح لو وجدت رجالاً يعملون بما آمرهم به وما أنوي في رعيتي، لظننت أني ألقى اللَّه عز وجل وأمر أمة محمد ﷺ أقل ذنوبي وأهون حسابي. ولكن دُلّني على وجه النجاة؛ فإن لم أعمل كنت أنا الجاني على نفسي، والمؤثر هواي على رضا ربي. قال له صالح: أنت يا

أمير المؤمنين أعلم بموضع النجاة. قال: لو كنت أعلم بموضع النجاة ما كنت أولى بعظتي مني بعظتك، وما هو إلا أن أركب سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولا يصلح واللَّه عليها أحد من أهل هذا العصر، وذلك أن الناس في الزمن الماضي كان يُرضي أحدهم التمر البالي، وتنفعه الكسرة اليابسة، والماء القراح. وهم اليوم في مطارف الخز والوشي، ومائدة أحدهم في اليوم تمثل غنى ذي العيال في زمن عمر، ولو أنني حملت الناس على سيرة العمرين في هذا العصر، كنت أول مقتول؛ وذلك أن الفطام عن هذا الحطام شديد، لا يصبر عليه إلا المرزأ السابق، فأطرق صالح مفكرًا ثم رفع رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين إنه ليقع في خلدي أنك قبلت قولي قبول تحقيق. فقال المهدي: شهيدي على ذلك هو اللَّه. فقام صالح، وقال: أعانك اللَّه يا أمير المؤمنين على صالح نيتك، وأعطاك أفضل ما تأمله في رعيتك ووهب لك أعوانًا صالحين بررة، يعملون بما يجب عليهم فيك. ثم خرج.

*** حماد بن سلمة ومحمد بن سليمان: «أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً»:**

قال مقاتل بن صالح الخراساني: دخلت على حماد بن سلمة مفتي البصرة؛ فإذا ليس في البيت إلا حصيرٌ، وهو جالس عليه، ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه علمه، ومطهرة يتوضأ فيها، فبينما أنا عنده جالس، إذا بطارق يطرق الباب، فقال: يا صبية، اخرجي فانظري من هذا؟ فقالت: رسول محمد بن سليمان. قال: قولي له يدخل وحده. فدخل، فناوله كتابًا فإذا فيه: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم من محمد بن سليمان إلى حماد بن سلمة، أما بعد... فصبَّحك اللَّه بما صبح به أولياءه وأهل طاعته. وقعت مسألة فأتنا نسألك عنها. والسلام». قال: يا صبية، هلمّي الدواة. ثم قال لي: اقلب الكتاب واكتب: «أما بعد.. وأنت فصبحك اللَّه بما صبح به أولياءه وأهل طاعته. إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحداً. فإن كانت وقعت مسألة فأتنا

واسألنا عما بدا لك. وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدك، ولا تأتني بخيلك ورجلك، فلا أنصح، ولا أنصح إلا نفسي. والسلام» فبينما أنا عنده، إذ دقّ داق الباب. فقال: يا صبية اخرجي، فانظري من هذا؟ فقالت: محمد بن سليمان. قال: قولي له: ليدخل وحده. فدخل فسلم، فجلس بين يديه، قال: مالي إذا نظرت إليك امتلأت رعبًا. فقال حماد: سمعت ثابتًا البناني يقول: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن العالم إذا أراد بعلمه وجه اللَّه عز وجل، هابه كل شيء، وإذا أراد أن يكتنز به الكنوز هاب من كل شيء**». فقال: ما تقول ـ رحمك اللَّه ـ في رجل له ابنان وهو عن أحدهما أرضى، فأراد أن يجعل له في حياته ثلثي ماله؟ قال: لا يفعل ـ رحمك اللَّه ـ؛ فإني سمعت البناني يقول: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا أراد اللَّه أن يعذب عبده بماله، وقفه عند موته لوصية جائرة**». قال: فحاجة إليك. قال: هات؛ ما لم تكن رزية في دين. قال: أربعون ألف درهم تأخذها؛ تستعين بها على ما أنت عليه. قال: اردها على من ظلمته بها. قال: واللَّه ما أعطيتك إلا ما ورثته. قال: لا حاجة لي فيها، ازوها عني، زوى اللَّه عنك أوزارك. قال: فتقسمها. قال: فلعلي إن عدلت في قسمتها أن يقول بعض من لم يرزق منها: لم يعدل. ازوها عني، زوى اللَّه عنك أوزارك[1].

*** بهلول[2] المجنون والرشيد: «لا يعطيك وينساني»:**

● عن الفضل بن الربيع، قال: حججت مع هارون الرشيد، فمررنا بالكوفة؛ فإذا بهلول المجنون يهذي، فقلت له: اسكت؛ فقد أقبل أمير

---

(١) «صفة الصفوة».

(٢) هو أبو وهيب بهلول بن عمرو المجنون، من أهل الكوفة.

المؤمنين. فسكت. فلما حاذاه الهودج، قال: يا أمير المؤمنين، حدثني أيمن بن نابل، قال: أنبأنا قدامة بن عبد اللّه العامري، قال: رأيت النبي ﷺ بمنى على جمل، وتحته رجل أسود، فلم يكن ثم طرد ولا ضرب ولا إليك إليك[1]. قلت: يا أمير المؤمنين، إنه بهلول المجنون. قال: قد عرفته.

قال: يا بهلول. فقال: يا أمير المؤمنين:

هب أنك قد ملكت الأرض طرًّا ودان لك العبادُ فكان ماذا
أليس غدًا مصيرك جوفُ قبرٍ ويحثو التُّرب هذا ثم هذا

قال: أجدت يا بهلول، أفغيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين من رزقه اللّه جمالاً ومالاً فعف في جماله وواسى في ماله، كُتب في ديوان الأبرار. قال: فظن أنه يريد شيئًا. قال: فإنا قد أمرنا بقضاء دينك. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين. لا تقض دينًا بدين، اردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك. قال: إنا قد أمرنا أن يُجرى عليك. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يعطيك وينساني. أجرى عليَّ الذي أجرى عليك، لا حاجة لي في جرايتك.

«هذه قصورهم، وهذه قبورهم»:

حينما التقى هارون الرشيد بالبهلول، قال له: عظني يا بهلول. فقال له بهلول: بم أعظك يا أمير المؤمنين؟! هذه قصورهم، وهذه قبورهم. ثم قال: كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق بين يديه، وسألك عن النقير والفتيل والقطمير، وأنت عطشان جوعان عُريان، وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون؛ فإذا بهارون تخنقه العبرة، وتسيل دموعه، ويأمر بصلة لبهلول،

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، ورواه النسائي والدارمي وابن ماجه. (إليك إليك): اسم فاعل، بمعنى تنح عن الطريق.

فقال له بهلول: ردها على من أخذتها منهم، قبل أن لا تجد لهم شيئًا ترتضيهم به. ثم أنشد:

دعِ الحرْصَ على الدنيا ... وفي العيْشِ فَلا تَطمعْ
فإنَّ الرزقَ مقسُوم ... وسوءُ الظنِّ لا يَنفعْ
فقيرٌ كلُّ ذي حرْصٍ ... غَنيٌّ كلُّ مَنْ يقنعْ

*** القاضي شريك.. والأمير موسى بن عيسى:**

روى عمر بن هيّاج بن سعيد، قال: أتت امرأة يومًا «شريك بن عبدالله» قاضي الكوفة وهو في مجلس الحكم، فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي.

قال: من ظلمك؟!

قالت: الأمير موسى بن عيسى ابن عم أمير المؤمنين.. كان لي بستان على شاطئ الفرات فيه نخل، ورثته عن أبي، وقاسمت إخوتي، وبنيت بيني وبينهم حائطًا، وجعلتُ فيه رجلاً فارسيًّا يحفظ النخل ويقوم به.. فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي وساومني، ورغبّني فلم أبعه.. فلما كانت هذه الليلة بعث خمسمائة غلام وفاعل، فاقتلعوا الحائط، وأصبحت لا أعرف من نخلي شيئًا، واختلط بنخل إخوتي!!

فقال شريك لحاجبه: يا غلام.. أحضر ورقة.. ثم ختمها بخاتمه، وقال لها: امضي إلى بابه بالختم حتى يحضر معك..

فجاءت المرأة بالورقة المختومة فطرقت باب الأمير، فأخذها الحاجب منها ودخل بها على موسى وقال له: قد أعدى القاضي عليك وهذا ختمه.

فقال موسى: ادع لي صاحب الشرطة، فدعا به فقال له: امض إلى شريك، وقل: يا سبحان الله.. ما رأيت أعجب من أمرك.. امرأة ادّعت

دعوى لم تصح، أعديتها عليّ؟!!

فقال صاحب الشرطة: إنْ رأى الأمير أن يعفيني من ذلك؟!

فقال الأمير: امض.. ويلك!!

فخرج صاحب الشرطة وقال لغلمانه: اذهبوا وأدخلوا إلى حبس القاضي بساطًا وفراشًا وما تدعو الحاجة إليه في السجن!!

ثم مضى إلى شريك.. فلما وقف بين يديه أدّى الرسالة.. فقال القاضي لغلام المجلس: خذ بيده فضعه في الحبس!!

فقال صاحب الشرطة: واللَّه قد علمت أنك تحبسني، فقدّمت ما أحتاج إليه في السجن وبلغ موسى بن عيسى الخبر، فوجّه الحاجب إلى شريك، وقال له: رسول أدّى رسالة.. أي شيء عليه؟؟ فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه إلى الحبس.. فحُبس!!

فلما صلى الأمير موسى العصر، بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعثي، وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء القاضي شريك، وقال لهم: امضوا إلى القاضي، وأبلغوه السلام، وأعلموه أنه استخفّ بي، وأني لست كالعامّة.

فمضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة.. فلما انقضى كلامهم قال لهم: ما لي أراكم جئتموني في غثرة[1] من الناس فكلّمتموني!!؟

ثم التفت حوله ونادى: من ها هنا من فتيان الحي؟!

فأجابه جماعة من الفتيان، فقال لهم: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل من هؤلاء فيذهب به إلى الحبس!! ثم وجّه الكلام إلى وجوه الكوفة وهم

---

(١) أي: في ظلمة وغشمة.

يسحبون فقال: ما أنتم إلا فتنة.. وجزاؤكم الحبس، فقالوا له: أجادٌّ أنت؟! قال: حقًّا.. حتى لا تعودوا برسالة ظالم! فحبسهم جميعًا.

وعلم موسى بن عيسى، فركب في الليل إلى باب السجن، وفتح الباب وأخرجهم كلهم.

فلما كان الغد، وجلس شريك، جاءه السجّان فأخبره.. فدعا شريك بالقمطر فختمه، ووجّه به إلى منزله، وقال لغلامه: الحق بثقلي إلى بغداد.. واللّه ما طلبنا هذا الأمر منهم.. ولكن أكرهونا عليه.. ولقد ضمنوا لنا فيه الإعزاز إذ تقلّدناه لهم!! ومضى نحو قنطرة الكوفة في الطريق إلى بغداد.

وبلغ الخبر موسى بن عيسى، فركب في موكبه ولحقه، وجعل يناشده اللّه ويقول: يا أبا عبداللّه تثبّتْ.. انظر.. إخوانك تحبسهم؟! دع أعواني..

قال شريك: نعم.. لأنهم مشوا لك في أمر لم يجز لهم المشي فيه، ولست ببارح أو يردّوا جميعًا إلى الحبس.. وإلاّ مضيْت إلى أمير المؤمنين المهدي فأستعفيه مما قلدّني!!

فأمر موسى بردهم جميعًا إلى الحبس، وهو واقف واللّه مكانه حتى جاءه السجّان فقال: قد رجعوا جميعًا إلى الحبس!!

فقال شريك لأعوانه: خذوا بلجام دابة الأمير بين يديّ إلى مجلس الحكم!!

فمروا بين يديه حتى أدخل المسجد.. وجلس في مجلس القضاء..

وجاءت المرأة المتظلمة فقال لها: هذا خصمك قد حضر!!

فقال موسى وهو إلى جانب المرأة المتظلمة بين يديه: قبل كل أمر أنا قد حضرت.. أولئك يخرجون من الحبس.

فقال شريك: أما الآن فنعم.. أخرجوهم من الحبس..

وقال شريك للأمير: ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة؟!

وأجاب موسى: صدقَتْ.

قال: تردّ ما أخذت منها، وتبني حائطًا سريعًا كما كان..

وقال موسى: أفعل ذلك كله..!!

واتجه شريك نحو المرأة وقال: أبقيَ لك عليه دعوى؟!

قالت: بيت الرجل الفارسي ومتاعه..

قال موسى: ويردّ ذلك كله؟!

وقال شريك للمرأة: أبقى لك عليه دعوى؟؟

قالت: لا، وبارك اللَّه عليك وجزاك خيراً..

وأمر شريك المرأة بالانصراف، فانصرفت.. فلما فرغ قام.. وأخذ بيد موسى بن عيسى، وأجلسه في مجلسه، وقال: السلام عليك أيها الأمير.. أتأمرني بشيء؟!

وقال الأمير: أي شيء آخر..!! وضحك..

فقال له شريك: أيها الأمير.. ذلك الفعل حق الشرع.. وهذا القول الآن حق الأدب.

فقام الأمير وانصرف إلى منزله وهو يقول: من عظّم أمر اللَّه أذلّ اللَّه له عظماء خلقه!!

كما اعتزّ الحق بأهله واعتزوا به، وانتصر بهم وانتصروا به.. وباء أعداؤه بذلة العبيد وهم يضعون على رءوسهم تيجان الملوك[1].

(١) انظر «كتمان الحق» ص(٨٢ ـ ٨٦).

*** ابن السماك والرشيد: «لو مُنعتْ عنك هذه الشربة؟»:**

حينما دخل ابن السماك على الرشيد أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: عظني. فقال: يا أمير المؤمنين، اتق اللَّه وحده لا شريك له، واعلم أنك واقف غدًا بين يدي اللَّه ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما: جنة أو نار. فبكى هارون حتى ابتلت لحيته بالدموع، ثم طلب هارون ماء ليشرب، فلما وضع الماء على فيه ليشرب، قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول اللَّه ﷺ، لو منعت عنك هذه الشربة فبكم كنت تشتريها؟ قال: بنصف ملكي. فقال له ابن السماك: اشرب هنَّأك اللَّه. فلما شرب، قال له: أسألك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول اللَّه ﷺ، لو منعت خروجها من بدنك، بماذا كنت تشتريها؟ قال: بجميع ملكي. قال ابن السماك: إن ملكًا قيمته شربة ماء لجدير أن لا يُنافس فيه. فبكى هارون الرشيد، حتى أشفق الحاضرون عليه.

«لا يكن أحدٌ أطوعَ للَّه منك»:

قال ابن السماك: أرسل إليَّ هارون الرشيد، فدعاني، فقال لي: يا ابن السماك، عظني. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن أولى الناس أن يرغب في نعيم الآخرة من ذاق نعيم الدنيا. قال: فبكى، ثم قال: زدنا. فقلت: يا أمير المؤمنين، إن اللَّه تبارك وتعالى لم يرض لك أن يجعل فوقك في الأرض أحدًا، فلا ترض أن يكون في الأرض أحد أطوع للَّه منك. قال: فبكى هارون حتى رحمتُه. فقال لي الفضل: ارفق بأمير المؤمنين. ثم قال: تكلم يا ابن السماك وادعُ. فدعوت بدعاء أعجبه، وقلت في دعائي: اللَّهم إنك قلت: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أفتراك يا رب تجمع بين أهل القسمين في مكان واحد. وهارون يبكي[1].

(١) «المصباح المضيء» لابن الجوزي.

وجاء في «سراج العلوم» للطرطوشي: لما دخل ابن السماك على هارون، قال له: عظني. قال: يا أمير المؤمنين، إن اللَّه لم يرض لخلافته في عباده غيرك، فلا ترض من نفسك إلا بما رضي اللَّه به عنك، فإنك ابن عم رسول اللَّه ﷺ، وأنت أولى الناس بذلك. يا أمير المؤمنين، من طلب فكاك رقبته في مهلة من أجله، كان خليقًا أن يعتق نفسه. يا أمير المؤمنين، من ذوقته الدنيا حلاوتها بركون منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها. يا أمير المؤمنين، ناشدتك اللَّه أن تقدم إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض، وقد دُعيت إليها، وليس لك فيها نصيب. يا أمير المؤمنين، تموت وحدك وتحاسب وحدك؛ وإنك لا تقدم إلا على نادمٍ مشغول، ولا تخلف إلا مفتونًا مغرورًا، وإنك وإيانا في دار سفرٍ وجيران ظعن. وجاء فيه أيضًا.

«هذا ذلّ الصفة، فكيف بذلّ المُعاينة؟!»:

بعث هارون إلى ابن السماك، فلما أخذه الحرس بغير رفق ورآه الرشيد، قال: ارفقوا بالشيخ. فلما وقف بين يديه، قال له: يا أمير المؤمنين، ما مرَّ بي يوم منذ ولدتني أمي ـ أتعب فيه من يومي هذا، فاتق اللَّه في خلقه، واحفظ محمدًا في أمته، وانصح لنفسك في رعيتك؛ فإن لك مقامًا بين يدي اللَّه تعالى أنت فيه أذّل من مقامي هذا بين يديك. فاتق اللَّه، واعلم أن من أخذ اللَّه وسطوته على أهل المعصية كيْت وكيْت. قال: فاضطرب الرشيد على فراشه، حتى نزل إلى مصلًّى بين يديْ فراشه، فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا ذلُّ الصفة، فكيف لو رأيت ذلَّ المعاينة؟! فكادت نفس الرشيد تخرج.

*** شقيق البلخي والرشيد:**

❑ قال هارون الرشيد لشقيق البلخي: أوصني فقال له شقيق: يا أمير

المؤمنين، إن اللَّه تعالى قد أجلسك مكان الصِّدِّيق، وإنه تعالى يطلب منك مثل صدقه، وإنه تعالى أعطاك مكان الفاروق وهو يطلب منك مثل عدله، وإنه تعالى أجلسك مكان عثمان وهو يطلب منك مثل حيائه وخوفه، وإنه أعطاك مكان علي وهو يطلب منك مثل علمه وحُكمه. فقال له الرشيد: زدني يا شقيق. فقال شقيق: يا أمير المؤمنين، إن للَّه داراً تُعرف بجهنم، وإنه جعلك بوابًا عليها، وأعطاك ثلاثة أشياء لتردَّ عباده عنها: أعطاك بيت المال والسوط والسيف، وأمرك أن تمنع الناس عن دخول النار، فمن جاءك محتاجًا إلى طعام حلال، فلا تمنعه حقه في بيت المال، حتى لا يسرق ولا يقتل. ومن خالف أمر اللَّه، وخرج عن حدود اللَّه فأدبه بالسوط. ومن قتل نفسًا بغير حق، فاقتله بالسيف؛ إلا أن يعفو ولي المقتول. فإن لم تفعل في ملكك بدين اللَّه، فأنت زعيم أهل النار. فقال له الرشيد: زدنا. فقال له شقيق: يا أمير المؤمنين، إن مثلك كمثل منبع الماء، والعلماء والأمراء هم السواقي على منبع الماء؛ فإذا كان المنبع صافيًا، نقلت السواقي الماء صافيًا، وإن كان النبع كدرًا، كان ماء السواقي كدرًا. فبكى هارون الرشيد من قوله، وأمر له بمال. فأبى أن يأخذه وتركه، وانصرف.

* عمرو بن عبيد [1] والمنصور: «أظهر الحق يتبعك أهله»:

قال المنصور: يا أبا عثمان، عظني. فقال: أعوذ باللَّه السميع العليم من الشيطان الرجيم. بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ إلى قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ

(١) شيخ أهل البدع والمعتزلة ولا كرامة.. وقد سقناها لقبول كلمة الحق ولو من أبعد الناس عنها؛ فقد قال رسول اللَّه ﷺ لأبي هريرة عن شيطان الجن الذي عرض له: «صدقك وهو كذوب».

لَبِالْمِرْصَادِ﴾ قال: فبكى بكاءً شديداً، كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة، وقال: إن اللَّه قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها. واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك، ثم أفضى إليك، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك. وإني أحذرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة. قال: فبكى واللَّه أشد من بكائه الأول، حتى رجف جنباه. فقال له سليمان بن مجالد: رفقًا بأمير المؤمنين، قد أتعبته منذ اليوم. فقال له عمرو: وبمثلك ضاع الأمر وانتشر ـ لا أبا لك ـ وماذا خفت على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية اللَّه؟ فقال له أمير المؤمنين: يا أبا عثمان، أعني بأصحابك أستعن بهم. قال: أظهر الحق يتبعك أهله. قال: لقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم، تستعين بها على سفرك وزمانك. قال: لا حاجة لي فيها. قال: واللَّه لتأخذنها. قال: واللَّه لا آخذها. فقال له المهدي: يحلف أمير المؤمنين وتحلف؟ فقال: من هذا الفتى؟ فقال: هو ابني محمد، وهو المهدي، وولي العهد. فقال: واللَّه لقد سميته اسمًا ما استحقه عمله، ولقد مهدتَّ له أمرًا أمتع ما يكون به، أشغل ما يكون عنه. ثم التفت إلى المهدي، فقال: يا ابن أخي، إذا حلف أبوك، وحلف عمك؛ فإن أباك أقدر على الكفارة من عمِّك. ثم قال: يا أبا عثمان، هل من حاجة؟ قال: نعم. قال: وما هي؟ قال: لا تبعث إلي حتى آتيك. قال: إذًا لا نلتقي. قال: عن حاجتي سألتني. قال: فاستحفظه وودعه، ونهض قائمًا. فلما ولّى مدَّه بصره، وهو يقول:

كلكم يمشي رُويدْ كلُّكمْ يطلبُ صَيدْ

غير عمرو بن عُبَيدْ

* **«ليتقربن إليك بالعدل من لا نية له فيه»:**

دخل عمرو بن عبيد على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، إن اللَّه عز

وجل يوقفك ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر. وإن الأمة خُصماؤك يوم القيامة، وإن اللَّه عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك. وإن اللَّه عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية. يا أمير المؤمنين، إن وراء بابك نيرانًا تتأجج من الجور، واللَّه ما يحكم وراء بابك بكتاب اللَّه ولا بسنة نبيه ﷺ. قال: فبكى المنصور. فقال سليمان بن مجالد، وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو، قد شققت على أمير المؤمنين. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال: أخوك سليمان بن مجالد. قال عمرو: ويلك يا سليمان، إن أمير المؤمنين يموت، وإن كل ما تراه ينفد، وإنك جيفة غدًا بالفناء، لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قُربك، إذا كنت تطوي عنه النصيحة وتنهى من ينصحه... يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء اتخذوك سُلَّمًا إلى شهواتهم. قال المنصور: فأصنع ماذا؟ ادع لي أصحابك، أولهم. قال: ادع أنت بعمل صالح تُحدثه، ومر بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس، واستعمل في اليوم الواحد عمَّالاً، كلما رابك منهم ريب، أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره. فواللَّه لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لا نية له فيه.

*** الفضيل بن عياض:**

انظر إلي سيد من سادات المتهجدين، الذي كان إذا وعظ قبل ابن المبارك جبهته، وقال: يا مُعلِّمَ الخير، من يحسن هذا غيرك.

انظر إليه حين يقول: لأن يدنو الرجل من جيفة منتنةٍ، خير له من أن يدنو إلى هؤلاء ـ يعني السلطان ـ.

❑ وقال أيضًا: رجل لا يخالط هؤلاء، ولا يزيد على المكتوبة، أفضل عندنا من رجل يقوم الليل، ويصوم النهار، ويحج ويعتمر، ويجاهد في

سبيل اللَّه. واسمع يا أخي إلى الجبال حين تتكلم، استمع إلى زواجر الكلم تُلقى على مسامع الخليفة من قبل متهجد، وهو الفضيل: «قال الفضل بن الربيع: حج أمير المؤمنين، فأتاني فخرجت مسرعًا، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: ويحك، قد حاك في نفسي شيء، فانظر لي رجلاً أسأله. فقلت: هاهنا سفيان بن عيينة. فقال: امض بنا إليه. فأتيناه، فقرعنا الباب، فقال: من ذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. فقال: خذ لما جئناك له ـ رحمك اللَّه ـ فحدثه ساعة، ثم قال له: عليك دين؟ فقال: نعم. قال: أبا عباس، اقض دينه. فلما خرجنا، قال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلاً أسأله. قلت: هاهنا عبدالرزاق بن همام. قال: امض بنا إليه. فأتيناه، فقرعنا الباب، فخرج مسرعًا، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فقال: يا أمير المؤمنين، لو أرسلت إلي لأتيتك. قال: خذ لما جئناك له، فحادثه ساعة، ثم قال له: عليك دين؟ قال: نعم. قال: أبا عباس، اقض دينه. فلما خرجنا، قال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلاً أسأله. قلت: هاهنا الفضيل بن عياض. قال: امض بنا إليه. فأتيناه فإذا هو قائم يصلي، يتلو آية من القرآن يردّدها، فقال: اقرع الباب. ففرعت الباب، فقال: من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟

❑ فقلت: سبحان اللَّه، أما عليك طاعة؟ أليس قد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس للمؤمن أن يُذلّ نفسه**» فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت، فدخلنا فجعلنا نجول بأيدينا، فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه، فقال: يالها من كف! ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب اللَّه عز وجل!

❑ فقلت في نفسي: ليكلمنّه الليلة بكلام من تقي قلب نقي. فقال له:

خذ لما جئناك له، رحمك اللَّه. فقال: إن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبداللَّه، ومحمد بن كعب، ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابُتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليّ. فعد الخلافة بلاء، وعددتَّها أنت وأصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبداللَّه: إن أردت النجاة من عذاب اللَّه فصم الدنيا، وليكن إفطارك منها الموت. وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب اللَّه، فليكن كبير المؤمنين عندك أبًا، وأوسطهم أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فوقر أباك، وأكرم أخاك، وتحنن على ولدك. وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب اللَّه، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت. وإني أقول لك؛ فإني أخاف عليك أشدّ الخوف يومًا تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك اللَّه مثل هذا؟ أو من يشير عليك بمثل هذا، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، حتى غُشي عليه، فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين. فقال: يا ابن الربيع، تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا! ثم أفاق، فقال له: زدني، رحمك اللَّه. فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني أن عاملاً لعمر بن عبدالعزيز شكا، فكتب إليه عمر: يا أخي، أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند اللَّه، فيكون آخر العهد، وانقطاع الرجاء. قال: فلما قرأ الكتاب طوى البلاد، حتى قدم على عمر بن عبدالعزيز، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى اللَّه عز وجل. قال: فبكى هارون بكاءً شديدًا، ثم قال له: زدني رحمك اللَّه. فقال: يا أمير المؤمنين، إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول اللَّه أمرني على إمارة. فقال له النبي ﷺ: **«إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة؛ فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل»**. فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا، فقال له: زدني، ـ رحمك اللَّه ـ.

قال: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك اللَّه عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإياك أن تُصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحد من رعيتك؛ فإن النبي ﷺ قال: «من أصبح لهم غاشًّا، لم يرح رائحة الجنة». فبكى هارون الرشيد، وقال له: عليك دين؟ قال: نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي أن سألني، والويل لي أن ناقشني، والويل لي إن لم أُلهم حجتي. قال: إنما أعني من دين العباد؟ قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، إنما أمرني إن أصدق وعده وأطيع أمره، فقال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. فقال له: هذه ألف دينار، فأنفقها على عيالك، وتقوّ بها على عبادتك. فقال: سبحان اللَّه أنا أدلك على طريق النجاة، وأنت تكافئني بمثل هذا! سلّمك اللَّه ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا، فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، قال هارون: إن دللتني على رجل فدلّني على مثل هذا. هذا سيد المسلمين[1].

* «هذا كتاب اللَّه بين الدفتين»:

حدث يحيى بن يوسف الزمي عن الفضيل بن عياض، قال: لما دخل على هارون الرشيد أمير المؤمنين، قال: أيكم هو؟ قال: فأشاروا إلى أمير المؤمنين، فقال: أنت هو يا حسن الوجه؟! لقد كُلِّفت أمرًا عظيمًا، إني ما رأيت أحدًا هو أحسن وجهًا منك؛ فإن قدرت أن لا تُسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار، فافعل، فقال لي: عظني. فقلت: بماذا أعظك؟! هذا كتاب اللَّه تعالى بين الدفتين، انظر ماذا عمل بمن أطاعه؟ وماذا عمل بمن عصاه؟ إني رأيت الناس يعرضون على النار عرضًا شديدًا، ويطلبونها طلبًا شديدًا حثيثًا،

(١) «الحلية» (٨/ ١٠٥ ـ ١٠٧).

أما واللّه لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها. فقال: عد إليّ.

فقال: لو لم تبعث إلي لم آتك، وإن انتفعت بما سمعت مني عدت إليك.

*** عبداللّه الخراساني وهارون الرشيد:**

حُكي عن إبراهيم بن عبداللّه الخراساني أنه قال: حججت مع أبي ـ سنة حج الرشيد ـ فإذا نحن بالرشيد، وهو واقف حاسرٌ حافٍ على الحصباء، وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي. ويقول: يا رب، أنت أنتَ، وأنا أنا، أنا العوّاد إلى الذنب، وأنت العوّاد إلى المغفرة، اغفر لي. فقال لي: يا بني، انظر إلى جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء.

*** هارون الرشيد ورجل:**

أمير المؤمنين هارون الرشيد أمر يحيى بن خالد بحبس رجل جنى جناية، فحبسه، ثم سأل عنه الرشيد، فقيل: هو كثير الصلاة والدعاء. فقال للموكل به: عَرِّضْ له بأن يكلّمني، ويسألني إطلاقه. فقال له الموكل ذلك. فقال: قل لأمير المؤمنين: إن كل يوم يمضي من نعمتك يُنقص من محنتي، فالأمر قريب، والموعد الصراط، والحاكم اللّه. فخرّ الرشيد مغشيًّا عليه، ثم أفاق وأمر بإطلاقه.

*** أسلم مولى عمر وجعفر بن أبي سليمان: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»:**

روى زيد بن أسلم عن أبيه، قال: قلت لجعفر بن سليمان بن عبداللّه ابن أبي طالب الهاشمي، والي المدينة: احذر أن يأتي رجل غداً، ليس له في الإسلام نسبة، ولا أب، ولا جد، فيكون أولى برسول اللّه منك، كما كانت

امرأة فرعون أولى بنوح ولوط ـ عليهما السلام ـ من زوجيهما، وكما كانت زوجة نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته. من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطئ به نسبه.

* الأمين بن هارون الرشيد:

❑ قال الإمام أحمد: بلغني أن إسماعيل بن عُلية الحافظ أدخل على الأمين، فلما رآه، زحف، وجعل يقول: يا ابن الفاعلة، تتكلم في القرآن[1] ؟! وجعل إسماعيل يقول: جعلني اللَّه فداك، زلة من عالم، ثم قال أحمد: إن يغفر اللَّه له ـ يعني الأمين ـ فبها[2].

* شيخ الإسلام أبو نعيم الفضل بن دكين:

❑ قال الإمام أحمد: شيخان كان الناس يتكلمون فيهما، ويذكرونهما وكنا نلقى من الناس في أمرهما ما اللَّه به عليم، قاما للَّه بأمر لم يقم به كبير أحد[3].

❑ قال أبو العباس السرّاج عن الكديمي قال: لما دخل أبو نعيم على الوالي ليمتحنه، وثَمَّ يونس وأبو غسان وغيرهما، فأول من امتحن فلان فأجاب، ثم عطف على أبي نعيم، فقال: قد أجاب هذا، فما تقول؟ فقال: واللَّه ما زلت أتهم جده بالزندقة، ولقد أخبرني يونس بن بكير أنه سمع جده يقول: لا بأس أن يرمي الجمرة بالقوارير. أدركت الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ، الأعمش فمن دونه، يقولونه: القرآن كلام اللَّه، وعنقي أهون

---

(١) وكان إسماعيل يقول بخلق القرآن.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١١٢)، و«تاريخ بغداد» (٦/ ٢٣٨).

(٣) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩)، و«السير» (١٠/ ١٤٩).

من زري هذا. فقام إليه أحمد بن يونس، فقبل رأسه ـ وكان بينهما شحناء ـ وقال: جزاك اللَّه من شيخ خيراً[1].

رحم اللَّه أبا نعيم من إمام حافظ، قال فيه الإمام أحمد: نُزاحم به سفيان بن عيينة. وقال فيه: كان ثقة، يقظان في الحديث، ثم قام في أمر الامتحان ما لم يقم غيره، عافاه اللَّه.

❑ وقال محمد بن عبد الوهاب الفراء: «كنا نهاب أبا نعيم أشد من هيبة الأمير». والجزاء من جنس العمل.

❑ قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي في كتابه «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»: قال عبد الصمد بن المهتدي: لما دخل المأمون بغداد، نادى بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وذلك لأن الشيوخ بقوا يضربون ويُحبسون، فنهاهم المأمون، وقال: قد اجتمع الناس على إمام. فمر أبو نعيم، فرأى جنديًا وقد أدخل يديه بين فخذي امرأة، فنهاه بعنف، فحمله إلى الوالي، فحمله الوالي إلى المأمون، قال: فأدخلت عليه بكرة وهو يسبح، فقال: توضأ. فتوضأت ثلاثًا ثلاثًا على ما رواه عبد خير عن علي، فصليت ركعتين، فقال: ما تقول في رجل مات عن أبوين؟ فقلت: للأم الثلث، وما بقي للأب. قال: فإن خلّف أبويه وأخاه؟ قلت: المسألة بحالها، وسقط الأخ. قال: فإن خلف أبوين وأخوين؟ قلت: للأم السدس وما بقي للأب. قال: في قول الناس كلهم؟ قلت: لا إن جدك ابن عباس يا أمير المؤمنين، ما حجب الأم عن الثلث إلا بثلاثة أخوة. فقال: يا هذا، من نهى مثلك عن الأمر بالمعروف؟! إنما نهينا أقوامًا يجعلون المعروف منكراً.

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٤٨١)، و«تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٤٩)، و«تهذيب الكمال لوحة» (١٠٩٨).

ثم خرجت[١] .

* **الإمام الحافظ أبو عثمان عفان بن مسلم البصري الصفار:**

❑ قال حنبل: حضرت أبا عبدالله وابن معين عند عفان، بعد ما دعاه إسحاق بن إبراهيم للمحنة، وكان أول من امتحن من الناس عفان، فسأله يحيى من الغد، بعد ما امتحن، وأبو عبدالله حاضر ونحن معه، فقال: أخبرنا بما قال لك إسحاق. قال: يا أبا زكريا، لم أسود وجهك ولا وجوه أصحابك، إني لم أجب. فقال له: فكيف كان؟ قال: دعاني، وقرأ علي الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة؛ فإذا فيه: امتحن عفان، وادعه إلى أن يقول: القرآن كذا وكذا؛ فإن قال ذلك، فأقره على أمره، وإن لم يجبك إلى ما كتبت به إليك، فاقطع عنه الذي يجري عليه. وكان المأمون يجري على عفان كل شهر خمسمائة درهم، فلما قرأ علي الكتاب، قال لي إسحاق: ما تقول؟ فقرأت عليه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختمتها، فقلت: أمخلوق هذا فقال: يا شيخ، إن أمير المؤمنين يقول: إنك إن لم تجبه إلى الذي يدعوك إليه، يقطع عنك ما يُجري عليك. فقلت: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. فسكت عني، وانصرفت، فسر بذلك أبو عبدالله ويحيى[٢] .

❑ قال إبراهيم بن ديزيل: لما دُعي عفان للمحنة، كنت آخذًا بلجام حماره، فلما حضر عُرِض عليه القوْل، فامتنع أن يُجيبَ، فقيل له: يُحبس عطاؤك. قال: وكان يُعطى في كل شهر ألف درهم. فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فلما رجع إلى داره عذله نساؤه ومَن في داره، قال:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٤٩ ـ ١٥٠)، و«تاريخ بغداد» (١٢/ ٣٥٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٤٤)، و«تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٧١).

وكان في داره نحو أربعين إنسانًا، فدقّ عليه داقٌّ الباب، فدخل عليْه رجل شبّهتُه بسمّان أو زيّات، ومعه كيس فيه ألف درهم، فقال: يا أبا عثمان، ثبّتك اللَّه كما ثبَّتَّ الدِّين، وهذا في كل شهر[1].

* أخي، «اعلم أنه إذا هذّب الآمر نفسَه، أثّر قولُه إما في زوال المنكر، أو في انكسار المذنب، أو إلقاء الهيبة له في القلوب.

خرج إبراهيم الخوّاص لإنكار منكر فنبح عليه كلبٌ، فما قَدَر على الوصول إلى مكان المنكر، فرجع إلى مسجده وتفكَّر ساعةً، ثم قام، فجعل الكلب يتبصبَص حوله ولا يُؤذيه، حتى أزال المنكر، فسئل عما جرى له، فقال: إنما نبح عليّ لفسادٍ دخل عليّ في عقدٍ بيني وبيْن اللَّه عز وجل، فلما رجعتُ ذكرته، فاستغفرت»[2].

* **عبداللَّه بن مرزوق:**

«لما قدِم المهدي مكة، لبث بها ما شاء اللَّه، فلما أخذ في الطّواف نحّى الناس عن البيت، فوثب عبداللَّه بن مرزوق، فلبّبه بردائه، ثم هزّه وقال له: انظر ما تصنع! مَن جعلك بهذا البيت أحقَّ ممن أتاه من البُعْد، حتى إذا صار عنده حُلْتَ بينه وبينه؟! وقد قال اللَّه تعالى: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ مَن جعل لك هذا؟ فنظر في وجهه ـ وكان يعرفه لأنه ابن مواليهم ـ فقال: أعبدُاللَّه بن مرزوق؟ قال: نعم. فأُخذ فجيء به إلى بغداد، فكره أن يعاقبه عقوبة يُشنّع بها عليه في العامّة، فجعله في إصطبل الدوابّ ليَسُوسَ الدوابَّ، وضمّوا إليه فرسًا عضوضًا سيّئ الخُلُق، ليعْقره الفرس، فليّن اللَّه تعالى له الفرس. قال: ثم صيّروه إلى بيْت وأُغلق عليه، وأخَذَ المهدي المفتاح عنده،

(١) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)، و«السير» (١٠/ ٢٤٥).
(٢) «التبصرة» (٢/ ٣٣٢).

فإذا هو قد خرج بعد ثلاث إلى البستان يأكل البقْل، فأوذن به المهدي، فقال له: مَن أخرجك؟ فقال: الذي حبسني. فضجّ المهدي وصاح، وقال: ما تخاف أنْ أقتلك؟ فرفع عبداللَّه إليه رأسه يضحك وهو يقول: لو كنتَ تملك حياة أو موتًا. فما زال محبوسًا حتى مات المهدي ثم خلوا عنه، فرجع إلى مكة. قال: وكان قد جعل على نفسه نذْرًا، إن خلصه اللَّه مِن أيديهم أن ينحر مائة بدَنة، فكان يعمل في ذلك، حتى نحرها»[1].

*** بِشر بن الحارث الحافي:**

«قال فتح بن شخرف: تعلَّق رجل بامرأة ومعه سكين، لا يدنو منه أحد إلا عَقَره، وكان شديد البدن، فبينا الناس كذلك والمرأة تصيح، مرّ بشر بن الحارث فدنا منه، وحكّ كتفه بكتف الرجل، فوقع الرجل إلى الأرض، ومرّت المرأة ومَرّ بشر، فدَنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا، فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدري ولكن حاكّني شيخ وقال: إن اللَّه عز وجل ناظرٌ إليك وإلى ما تعمل. فضَعُفْتُ لقوله وهِبْتُه هيبةً شديدة، لا أدري مَنْ ذلك الرجل. فقالوا له: ذاك بشر بن الحارث. فقال: واسَوْأتاه، كيف ينظر إليّ بعد اليوم! وحُمَّ من يومه ذاك. ومات يوم السابع»[2].

*** الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة:**

ومَنْ في الناس كأحمد، وكل موقفٍ يتضاءل دون موقفه وثباته في فتنة خلْق القرآن... ويكفي أن يصدع بالحق عند الخليفة ويقول: «ائتوني بشيءٍ من كلام اللَّه أو سُنَّة رسوله ﷺ».

وكان رحمه اللَّه أمْرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر يمشي على الأرض.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤).

(٢) «التبصرة» (٢/ ٣٣١).

«قال صالح بن أحمد: كان رجل يختلف إلى عفان، يقال له: أحمد ابن الحكم العطار، فختن بعض ولده، فدعا يحيى وأبا خيثمة وجماعة من أصحاب الحديث، وطلب إلى أبي أن يحضر، فمضوا ومضى أبي بعدهم وأنا معه، فلمَّا دخل أُجلس في بيت ومعه جماعة من أصحاب الحديث، فقال له رجل: يا أبا عبداللَّه، هاهنا آنية من فضة. فالتفت فإذا كرسي، فقام فخرج، وتبعه من كان في البيت، وأُخبر الرجل فخرج فلحق أبي، وحلف أنه ما علم بذلك، ولا أمر به، وجعل يطلب إليه فأبى، وجاء عفان فقال له الرجل: يا أبا عثمان، اطلب إلى أبي عبداللَّه يرجع. فكلّمه عفان فأبى أن يرجع، ونزل بالرجل أمر عظيم.

وعن علي بن أبي صالح السّوّاق قال: كنّا في وليمة بباب القبر قال: فجاء أحمد بن حنبل، فلمّا دخل نظر إلى كرسي عليه فضة فخرج، فلحقه صاحب المنزل، فنفض يده في وجهه وقال: زيّ المجوس، زي المجوس، وخرج»[1].

*** الناصر داود:**

ذكر ابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ في ترجمة الملك الناصر «أنه حضر أول درس ذكر بالمستنصرية في سنة ثنتين وثلاثين وستمائة، وأن الشعراء أنشدوا المستنصر[2] مدائح كثيرة، فقال بعضهم في جملة قصيدة له:

لو كنتَ في يوم السقيفةِ شاهداً كنتَ المقـــدمَ والإمامَ الأعظما

فقال الناصر داود للشاعر: اسكت فقد أخطأت، قد كان جد أمير المؤمنين العباس شاهداً يومئـذ، ولم يكن المقدم، وما الإمام الأعظم إلا

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص(٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(٢) وهو الخليفة آنذاك.

أبو بكر الصديق ـ رضي اللَّه عنه ـ فقال الخليفة: صدقت»[١] .

*** القاضي يوسف بن يعقوب ـ رحمه اللَّه ـ:**

جاء في ترجمة يوسف بن يعقوب قاضي البصرة وواسط والجانب الشرقي من بغداد المتوفى سنة (٢٩٧هـ) أنه: «جاء يومًا بعض خدم الخليفة المعتضد فترفع في المجلس على خصمه فأمره حاجب القاضي أن يساوي خصمه فامتنع إدلالاً بجاهه عند الخليفة، فزبره القاضي، وقال: ائتوني بدلال النخس حتى أبيع هذا العبد وأبعث بثمنه إلى الخليفة، وجاء حاجب القاضي فأخذه بيده وأجلسه مع خصمه، فلما انقضت الحكومة رجع الخادم إلى المعتضد فبكى بين يديه، فقال له: ما لك؟ فأخبره بالخبر، وما أراد القاضي من بيعه، فقال: واللَّه لو باعك لأجزت بيعه ولما استرجعتك أبدًا، فليس خصوصيتك عندي تزيل مرتبة الشرع؛ فإنه عمود السلطان وقوام الأديان»[٢].

*** الخيّاط الزاهد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر:**

ذكر القاضي أبو الحسن محمد بن عبدالواحد الهاشمي عن شيخ من التجار قال: كان لي على بعض الأمراء مال كثير فماطلني ومنعني حقي، وجعل كلما جئت أطالبه حجبني عنه ويأمر غلمانه يؤذونني، فاشتكيت عليه إلى الوزير فلم يفد ذلك شيئًا، وإلى أولياء الأمر من الدولة فلم يقطعوا منه شيئًا، وما زاده ذلك إلا منعًا وجحودًا، فأيست من المال الذي عليه ودخلني هَمٌّ من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي، إذ قال لي رجل: ألا تأتي فلانًا الخياط ـ إمام مسجد هناك ـ فقلت: وما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم، وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؟ فقال لي: هو أقطع وأخوف

(١) «البداية والنهاية» (١٣/١٩٨).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/١١٢).

عنده من جميع من اشتكيت إليه، فاذهب إليه لعلك أن تجد عنده فرجًا. قال: فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي ومالي وما لقيت من هذا الظالم، فقام معي فحين عاينه الأمير قام إليه وأكرمه واحترمه وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه فأعطانيه كاملاً من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له: ادفع إلى هذا الرجل حقه وإلا أذّنت. فتغير لون الأمير ودفع إليَّ حقي.

❑ قال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط مع رثاثة حاله وضعف بنيته كيف انطاع ذلك الأمير له، ثم إني عرضت عليه شيئًا من المال فلم يقبل مني شيئًا، وقال: لو أردت هذا لكان لي من الأموال ما لا يحصى. فسألته عن خبره وذكرت له تعجبي منه وألححت عليه فقال: إن سبب ذلك أنه كان عندنا في جوارنا أمير تركي من أعالي الدولة، وهو شاب حسن، فمر به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها وهو سكران فتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبى عليه وتصيح بأعلى صوتها: يا مسلمون أنا امرأة ذات زوج، وهذا رجل يريدني على نفسي ويدخلني منزله، قد حلف زوجي بالطلاق أن لا أبيت في غير منزله، ومتى بت ها هنا طلقت منه ولحقني بسبب ذلك عار لا تدحضه الأيام ولا تغسله المدامع.

❑ قال الخياط: فقمت إليه فأنكرت عليه وأردت خلاص المرأة من يديه فضربني بدبوس[1] في يده فشج رأسي، وغلب المرأة على نفسها وأدخلها منزله قهرًا، فرجعت أنا فغسلت الدم عني وعصبت رأسي وصليت بالناس العشاء، ثم قلت للجماعة: إن هذا قد فعل ما قد علمتم فقوموا معي إليه

(١) الدبوس: عمود على شكل هراوة مدملكة الرأس. «المعجم الوسيط» (١/ ٢٧٠).

لننكر عليه ونخلص المرأة منه، فقام الناس معي فهجمنا عليه في داره فثار إلينا في جماعة من غلمانه بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس، وقصدني، هو من بينهم فضربني ضربًا شديدًا مبرحًا حتى أدماني، وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة، فرجعت إلى منزلي وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء، فنمت على فراشي فلم يأخذني نوم، وتحيرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها حتى لا يقع على زوجها الطلاق، فألهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع فيخرجها من منزله فتذهب إلى منزل زوجها، فصعدت المنارة وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم على عادتي قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت ثم أذنت فلم تخرج، ثم صَمَّمْت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح.

فبينا أنا أنظر هل تخرج المرأة أم لا، إذ امتلأت الطريق فرسانًا ورجالة وهم يقولون: أين الذي أذن هذه الساعة؟ فقلت: ها أنا ذا، وأنا أريد أن يعينوني عليه، فقالوا: انزل، فنزلت فقالوا: أجب أمير المؤمنين.

فأخذوني وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئًا، حتى أدخلوني عليه، فلما رأيته جالسًا في مقام الخلافة ارتعدت من الخوف وفزعت فزعًا شديدًا، فقال: ادن، فدنوت فقال لي: ليسكن روعك وليهدأ قلبك. وما زال يلاطفني حتى اطمأننت وذهب خوفي، فقال: أنت الذي أذَّنت هذ الساعة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فقال: ما حملك على أن أذَّنت هذه الساعة وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه؟ فَتَغُرَّ بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم. فقلت: يُؤَمِّنني أمير المؤمنين حتى أقصَّ عليه خبري؟ فقال: أنت آمن. فذكرت له القصة. قال: فغضب غضبًا شديدًا، وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته على أي حالة كانا فأُحضرا سريعًا فبعث بالمرأة إلى زوجها

مع نسوة من جهته ثقات ومعهن ثقة من جهته أيضًا، وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها، فإنها مكرهة ومعذورة.

ثم أقبل على ذلك الشاب الأمير فقال له: كم لك من الرزق؟ وكم عندك من المال؟ وكم عندك من الجواري والزوجات؟ فذكر له شيئًا كثيرًا. فقال له: ويحك أما كفاك ما أنعم اللَّه به عليك حتى انتهكت حرمة اللَّه وتعديت حدوده وتجرأت على السلطان، وما كفاك ذلك أيضًا حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر فضربته وأهنته وأدميته؟ فلم يكن له جواب. فأمر به فجعل في رجله قيد وفي عنقه غل ثم أمر به فأدخل في جوالق، ثم أمر به فضرب بالدبابيس ضربًا شديدًا حتى خَفَتَ، ثم أمر به فأُلقي في دجلة فكان ذلك آخر العهد به.

ثم أمر بدرًا صاحب الشرطة أن يحتاط على ما في داره من الحواصل والأموال التي كان يتناولها من بيت المال، ثم قال لذلك الرجل الصالح الخياط: كلما رأيت منكرًا صغيرًا كان أو كبيرًا ولو على هذا ـ وأشار إلى صاحب الشرطة ـ فأعلمني، فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلى ما بيني وبينك الأذان، فأذن في أي وقت كان أو في مثل وقتك هذا. قال: فلهذا لا آمر أحدًا من هؤلاء الدولة بشيء إلا امتثلوه، ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفًا من المعتضد. وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن[1].

* * *

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٨٩ ـ ٩١)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٧١).

مواقف الربانيين تُحيي الأمة

«قد مات في حديدهم أقوام»

حين يَدْلَهِمُّ الخطب، ويجلُّ الأمر، ويظهر الفساد، ويشيع الظلم في كثير من البلدَان التي نَحّت الحكم بما أنزل اللَّه، حينئذ يخشى الناس على أنفسهم وأولادهم وذويهم، فيُضطرون إلى الانزواء بعيداً عن معترك الأحداث، بل ويخضعون لهذا الواقع المظلم، ويستسلمون له بعد أن ألجمتْ ألسنتَهم تلك الأوضاع، فنجدهم قد رضُوا أن يتجرعوا مرارة الصبر، وربما شربوا كئوس الذلّ والمهانة، لكن الظالم ينسى ـ حين بغيه وجبروته ـ تدبير الخالق العزيز الجبار، وأنه له بالمرصاد، فيتمادى في بغيه ويزيد في طغيانه، ولكن يأبى اللَّه إلا أن ينصر دينه ويتمَّ نوره، ويدحض الباطل، ويعلي الحق، فيقيِّض لتلك الشعوب الذليلة المنكسرة من يخرجها من خُنوعها وذلتها، ويبعث فيها روح العزة والكرامة، وذلك حين يضحي العلماء والدعاة بأنفسهم، حينما يقعون تحت سياط الجلادين وسيوف الجبارين وأعواد المشانق؛ لأنهم لا يخافون في اللَّه لومة لائم ليقولوا للناس: إن الموت في سبيل اللَّه خير من الموت جبنًا وذلاً. ويقيض اللَّه كذلك لأولئك الظلمة الطغاة من يرهب قلوبهم، ويزلزل كراسيهم بالصدع بكلمة الحق ابتغاء مرضاة اللَّه، بعد أن يتخذوا كل الوسائل المتاحة والمشروعة لذلك، وبعد أن يصرَّ الظالم على ظلمه، ويقف من شرع اللَّه موقف المعارض، ويقف من الدعاة إلى اللَّه موقف المعادي والمحارب.

إن إحياء الأمة من مواتها، وبعثها من غفوتها ونومها، وإخراجها من عبادة غير اللَّه، وقيادتها إلى ربها وسوْقها إليه سوقًا جميلاً، وحمْل هذا الدين والسعي به والجهاد في سبيله ـ إن هذا وغيره هو من سمات العلماء

الفحول عبر تاريخنا المجيد. ونستعرض هنا صوراً من مواقف أولئك العلماء، لعلها تكون إحياءً للغافلين، ورهبة للظالمين، إذ ضحوا بأرواحهم في سبيل إعلاء دين اللَّه سبحانه، وهي العزاء لكل مسلم يسوؤه تلك التصرفات الجائرة ضد الدين ودعاته.

ولو استرجعنا التاريخ لوجدنا الأمر لا يكاد يختلف، بل يسجل التاريخ تلك الحقيقة الجليَّة ألا وهي الصراع بين حزب الرحمن وحزب الشيطان، ولن تموت أمثال هذه الكلمات الصادقة: «ولأموتنَّ في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم...»!!

فإلى أولئك الذين يسقطون ظلمًا وعدوانًا في الدفاع عن الإسلام ودعوته؛ ليعلموا أنه قد سبقهم أقوام على الطريق نفسه، وإليك أخي صوراً من تلك المواقف: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ ولن تجد لسنة الله تبديلاً [الأحزاب: ٣٨] ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٢-٤٣].

*** الإمام البويطي[1]:**

هو العلّامة، سيّد الفقهاء، يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي. صاحَب الشافعيَّ ولازمه مدة، وفاق الأقران، وكان إمامًا في العلم قدوة في العمل، زاهدًا ربانيًّا متهجدًا، دائمَ الذكر.. سعى به أصحابُ ابن أبي دُؤاد، حتى كتب فيه ابن أبي دُؤاد إلى والي مصر، فامتحنه ـ أي في محنة خلق القرآن ـ فلم يُجب، وكان الوالي حسن الرأي فيه، فقال له: قل فيما بيني وبينك. قال: إنه يقتدي بي مائة ألف، ولا يدرون المعنى!! فأمر به أن يُحمل إلى بغداد.

❑ قال الربيع بن سليمان: رأيته على بغلٍ في عنقه غُلٌّ، وفي رجليه

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/٥٨).

قيدٌ، وبينه وبين الغلّ سلسلة فيها لَبِنَةٌ ـ طوبة ـ وزنها أربعون رطلاً، وهو يقول: «إنما خَلَقَ اللَّه الخلْق بـ «كن»، فإذا كانت مخلوقة فكأن مخلوقًا خُلق بمخلوق، ولئن دخلت عليه لأصْدُقَنَّه ـ يعني الواثق ـ ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم».

وتوفي ـ رحمه اللَّه ـ في قيده مسجونًا بالعراق، في سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة.

*** الإمام نُعيمُ بن حماد[1] :**

هو العلامة صاحب التصانيف، وكان شديداً في الرد على الجهمية، حُمل إلى العراق في إبّان تلك الغُمَّة مع البويطي مقيدَيْن.

❑ وكان يقول: «من شبّه اللَّه بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس في ما وصف اللَّهُ به نفسه ورسولُه تشبيه».

❑ قال ابن يونس: حُمل على القول بتلك الفرية، فامتنع أن يجيب، فسجن، ومات في سجنه سنة تسع وعشرين ومائتين، وجُرّ بأقياده، فأُلْقي في حفرة، ولم يكفّن، ولم يُصلَّ عليه... وأوصى نُعيمُ بن حماد أن يدفن في قيوده. وقال: «إني مخاصم».

*** الإمام الخزاعي[2] :**

هو أبو عبداللَّه أحمد بن نصر الخزاعي، كان أمّارًا بالمعروف، قوّالاً بالحق، من أكابر العلماء العاملين، ومن أهل العلم والديانة.

حُمل من بغداد إلى سامّراء مقيداً، وجلس له الواثق، فقال له: ما

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٦١٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٦٧)، و«البداية والنهاية» (١٠/ ٣١٨).

تقول في القرآن؟ قال: كلام اللَّه. قال: أفمخلوق هو؟ قال: كلام اللَّه. قال: فترى ربك يوم القيامة؟ قال: كذا جاءت الرواية. قال: ويحك! يُرى كما يُرى المحدود المتجسم، ويحويه مكان، ويحصره ناظر؟! أنا كفرتُ بمن هذه صفته. ما تقولون فيه؟ فقال قاضي الجانب الغربي: هو حلال الدَّم. ووافقه فقهاءٌ. قال الواثق: ما أراه إلا مؤديًا لكفره، قائمًا بما يعتقده. ودعا بالسيف، وقام، وقال: إني لأحتسب خُطاي إلى هذا الكافر. فضرب عنقه، بعد أن مدُّوا له رأسَه بحبل، وهو مقيد.

□ قال الحسن بن محمد الحربي: سمعت جعفر الصائغ يقول: رأيت أحمد بن نصر ـ حين قُتل ـ قال رأسه: لا إله إلا اللَّه. واللَّه أعلم.

وعُلّق في أذن أحمد بن نصر ورقة فيها: هذا رأس أحمد بن نصر، دعاه الإمام إلى القول بخلْق القرآن، ونفي التشبيه، فأبى إلا المعاندة؛ فجعله اللَّه إلى ناره. وبقي رأسه منصوبًا ببغداد، والبدن مصلوبًا بسامراء، وفي رجليه زوج قيود.

هذه صور لابتلاء العلماء على مرِّ التاريخ من الظَّلَمة والطواغيت، والنتيجة أن أولئك العلماء يُترحم عليهم حتى الآن، أمَّا أولئك الظلمة المحادُّون للَّه ولرسوله ولشريعته. فإنهم محلُّ المقت والكراهية.. ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

* شيخٌ شامٌي يُلقِم كبيرَ المعتزلة حجرًا:

مَنْ أوتي بصيرة في كتاب اللَّه لم يحتج في مناقشة أهل الضلال إلى علم الكلام، ومنطق اليونان، وعلم الفلسفة؛ ففي كتاب اللَّه غنًى، كيف لا، وهو كتاب اللَّه الذي وضّح الدلائل، وبيّن المسائل، ونفى الضلال والباطل؟! وإذا قَصُر الناس في الاستدلال من القرآن، وطلبوا الحجة من

غيره؛ فلقصور في عقولهم، وضعف في بصائرهم. وقد ذكر علماء التاريخ مناقشة أحد علماء السنة لقادة فتنة القول بخلْق القرآن، فألقمهم حجرًا، وأخزى حقُّه باطلَهم، وقد اعتمد في حِجَاجه على كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ، وهو حِجاجٌ قريب المأخذ، يدركه الناس بسهولة ويسر، وتستمع إليه فيأسرك روعةُ الاستدلال، وقوة الحجة.

حكى المسعودي عن علي بن صالح قال: «حضرت يومًا من الأيام جلوس المهتدي للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي، فيما يتظلم به إليه ـ ما استحسنته، فأقبلتُ أرمُقه ببصري إذا نظر في القصص، فإذا رفع طَرْفه إليَّ أطرقت، فكأنه علِم ما في نفسي. فقال لي: يا صالح، أحسب أنَّ في نفسك شيئًا تحب أن تذكره. قال: قلت: نعم يا أمير المؤمنين. فأمسك، فلما فرغ من جلوسه أمر أن لا أبرح، ونهض، فجلست جلوسًا طويلاً، فقمت إليه، وهو على حصير الصلاة، فقال لي: أتحدثني بما في نفسك، أمْ أحدثك؟ فقلت: بل هو من أمير المؤمنين أحسن. فقال: كأنني بك وقد استحسنت مِن مجلسنا. فقلت: أيُّ خليفة خليفتنا، إن لم يكن يقول بقوْل أبيه، من القول بخلْق القرآن! فقال ـ أي الخليفة ـ: قد كنت على ذلك برهة من الدهر، حتى أُقدِم عَلَى الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من «أذنة» من الثغر الشامي، مقيدًا طوالاً، حسن الشيبة، فسلّم غيرَ هائب، ودعا فأوجز، فرأيت الحياء منه في حماليق عينَى الواثق، والرحمةَ عليه. فقال: يا شيخ، أجبْ أحمد بن أبي دؤاد عما يسألك عنه. فقال: يا أمير المؤمنين، أحمد يصغُر، ويضعف، ويقلُّ عند المناظرة. فرأيت الواثق، وقد صار مكان الرحمة، غضبًا عليه. فقال: أبو عبداللَّه يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك؟! فقال: هوّن عليك يا أمير المومنين، أتأذن لي في كلامه؟ فقال الواثق: قد أذنتُ لك. فأقبل الشيخ على أحمد، فقال: يا أحمد إلامَ دعوت الناس؟ فقال أحمد: إلى القوْل بخلق القرآن. فقال له

الشيخ: مقالتك هذه التي دعوت الناس إليها، من القول بخلق القرآن أداخلة في الدين، فلا يكون الدين تامًّا إلا بالقول بها؟ قال: نعم. قال الشيخ: فرسول اللَّه ﷺ دعا الناس إليها أم تركهم؟ قال: لا. قال له: يعلمُها أم لم يعلمها؟ قال: عَلِمَهَا. قال: فلمَ دعوتَ إلى ما لم يدعهم رسول اللَّه ﷺ إليه، وتركهم منه؟ فَأَمْسَك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، هذه واحدة.

ثم قال له: أخبرني يا أحمد، قال اللَّه في كتابه العزيز: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣]، فقلتَ أنت: الدين لا يكون تامًّا إلا بمقالتك بخلق القرآن، فاللَّه تعالى عز وجل صدق في تمامه وكماله، أم أنت في نقصانك؟! فَأَمْسَك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، وهذه ثانية.

ثمَّ قال بعد ساعة: أخبرني يا أحمد، قال اللَّه عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ الآية: [المائدة: ٦٧]، فمقالتك هذه التي دعوتَ الناس إليها، فيما بلَّغه رسول اللَّه ﷺ إلى الأمّة أم لا؟ فأمسك. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، وهذه ثالثة.

ثمَّ قال بعد ساعة: خبرِّني يا أحمد، لمّا علم رسول اللَّه ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها، أتَّسع له عن أن أمسك عنها أم لا؟ قال أحمد: بل اتَّسع له ذلك. فقال الشيخ: وكذلك لأبي بكر، وكذلك لعمر، وكذلك لعثمان، وكذلك لعلي رحمة اللَّه عليهم؟ قال: نعم. فصرف وجهه إلى الواثق، وقال: يا أمير المؤمنين، إذا لم يتَّسع لنا ما اتسع لرسول اللَّه ﷺ ولأصحابه فلا وسَّع اللَّه علينا. فقال الواثق: نعم، لا وسَّع اللَّه علينا، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول اللَّه ﷺ ولأصحابه، فلا وسع اللَّه علينا. ثمَّ قال الواثق: اقطعوا قيوده، فلما فُكَّت، جاذب عليها. فقال الواثق: دعُوه، ثم قال: يا شيخ؟ لِمَ جاذبْتَ عليها؟ قال: لأني عقَدتُّ في نيتي أن أجاذب

عليها، فإذا أخذتُها أوصيتُ أن تُجعل بين يدَي كفني، ثمَّ أقول: يا ربي، سَلْ عبدك: لِمَ قيدني ظلمًا، وارتاع بي أهلي؟ فبكى الواثق، والشيخ، وكلُّ مَنْ حضر. ثمَّ قال له: يا شيخ، اجعلني في حِلٍّ. فقال: يا أمير المؤمنين، ، ما خرجت من منزلي حتى جعلتُك في حلٍّ، إعظامًا لرسول اللَّه ﷺ، ولقرابتك منه. فتهلل وجه الواثق وسُرَّ. ثمَّ قال له: أَقِمْ عندي آنسُ بك. فقال له: مكاني في الثغر أنفع، وأنا شيخ كبير، ولي حاجة. قال: سَلْ ما بدا لك. قال: يأذن لي أمير المؤمنين في رجوعي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم. قال: قد أذنت لك. وأمر له بجائزة، فلم يقبلها.

قال المهتدي: فرجعتُ من ذلك الوقت عن تلك المقالة، وأحسب أيضًا أن الواثق رجع عنها»[1].

* ابن الجوزي والمستضيء باللَّه:

عبدالرحمن بن الجوزي وعظ المستضيء باللَّه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنْ تكلمتُ خفتُ منك، وإن سكتُّ خفت عليك. فأنا أُقدِّم خوفي عليك من خوفي منك؛ لمحبتي دوامَ أيامك. وأن أقدم قول القائل: اتق اللَّه. خيرٌ من قول القائل: إنكم أهل بيت مغفورٌ له. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية، ولم أغيِّره فأنا الظالم. يا أمير المؤمنين، كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط؛ لئلا يَنسى الجياع. وكان عمر يضرب بطنه عامَ الرمادة ويقول: قرْقِري إن شئت أوْ لا، واللَّه، لا شبعْتِ والمسلمون جياع. فترتب على هذه الموعظة أن أطلق أمير المؤمنين المستضيء باللَّه المحابيس، وتصدق صدقات كثيرة، وأشبع الجياع[2].

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٣٢٤).

(٢) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي.

* **الإمام عبدالقادر الجيلاني وصدعه بالحق:**

هذا الإمام العظيم.. شيخ الوعّاظ وبقية السلف.. شيخ ابن قدامة وعبدالغني المقدسي» يقف على منبره محاسبًا أمير المؤمنين المقتفي لأمر اللَّه ومنكرًا عليه تولية يحيى بن سعيد المشهور بابن المزاحم الظالم القضاء، فقال له مخاطبًا: وليّت على المسلمين أظلم الظالمين، وما جوابك غدًا عند رب العالمين أرحم الراحمين؟!

فارتعد الخليفة، وعزل المذكور لوقته[1].

ما أجمل ما اختلطت كرامة النفس بكرامة الحق عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نفوس أهل العلم وكانت الأجسام الضامرة والأردية البالية تحوي أنفسًا لا ترقى إلى غناها أنفس الملوك في طيلسانها، وبين أجنادها وأحراسها.

* **نصح الشيخ أحمد الرفاعي لأمير المؤمنين المستنجد:**

رحم اللَّه الشيخ الرفاعي فقد كان شيخًا كبيرًا في العلم والعمل والاتباع خلافًا لمن أتوا بعده.

كتب ـ رحمه اللَّه ـ إلى أمير المؤمنين المستنجد: «الحمد للَّه والصلاة والسلام على سيد خلقه محمد عبده وحبيبه ومصطفاه أما بعد.

من الفقير إلى اللَّه أحمد بن علي بن أبي الحسن كان اللَّه له إلى الإمام الخليفة المطاع أمير المؤمنين أبي أحمد المستنجد[2] باللَّه العباسي الهاشمي أيده اللَّه بما أيده به عباده الصالحين آمين، وصلنا كتابك الآمر بالنصيحة والحديث

(١) «قلادة الجواهر» ص(٨).

(٢) هو أبو المظفر يوسف بن المقتفي ولد سنة ٥١٨هـ. كان موصوفًا بالعدل والرفق والفهم الثاقب والرأي الصائب والذكاء الغالب والفضل الباهر، له نظم بديع ونثر بليغ ومعرفة بعمل آلات الفلك والإسطرلاب، مات سنة ٦٦٤هـ.

«الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة»[1] .

لولا هذا الحديث لما تصديت لنصحك؛ لأن نصيحة مثلك بارك اللّه بك لها شرطان: الإخلاص من الناصح والقبول بشرط العمل بالنصيحة، من أخيه أيدك اللّه بتوفيقه.

يا أمير المؤمنين: إن أنت أنفذت أحكام اللّه تعالى وتقدس في نفسك نفذت أحكام كتبك في ملكه وإن عظمت أمر اللّه تعالى باتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، واحتفلت بشأنه الكريم عظم الناس عمالك وولاة الأمور من قبلك، ولا تنظر يا أمير المؤمنين ما عليه القياصرة وملوك المجوس من القوة في ملكهم مع انسلاخهم وبعدهم عن كل ما ذكرته فإنهم جهلوا الحق فأبعدهم عنه وقربهم من الدنيا وقربها منهم وولاهم أمر من شاء من خلقه فإن ساسوهم بما تكن إليه أفئدتهم وتطمئن طباعهم دام أمرهم في حجاب دنياهم إلى أن تنقطع حبال آجالهم، وإن لم يسوسوهم بالرفق والمداراة وأوقعوا فيهم ما يثقل عليهم سلطهم عليهم فسلب دنيا قوم بقوم والنار مأوى الكافرين.

أما أنت يا أمير المؤمنين فحافظ ثغور وحارس دماء وأموال هزت بكل مفازاتها سيوف الإسلام لا علمًا بقدومك بعد حين ولا تمهيدًا لك لتفعل برأيك، إنما كان ذلك للّه ولرسوله، فافزع في كل أمورك إلى اللّه وعظم في كل شئونك أمر رسول اللّه وأنت حينئذ في أمان اللّه وظل نبيه، ثم انظر يا أمير المؤمنين كل ما يصل إلى خويصة نفسك في هذه الدار من طعام تأكله وشراب تشربه ورداء ترتديه وظل تستظله واجعل الشره على الدنيا بقدر ذلك وإياك وظلم العباد، وإذا استوزرك الشيطان ورام نزغك إلى الظلم فسل

---

(١) ورد في «صحيح البخاري»، و«مسلم» وابن حبان وسنن ابن ماجه والترمذي.

نفسك أن لو كنت مسجونًا أو مظلومًا أو مقهورًا أو مكذوبًا عليك ما الذي تريده لنفسك من سلطانك، وعامل الناس بما تريده لنفسك فإنك إن فعلت ذلك وفيت العدل والآدمية حقهما، واعلم أن ما أنت فيه من ملك الدولة شيء يسير من ملك اللَّه تعالى وأنت جزء صغير منه فإن رأيت لك شيئًا ونسيته وقمت تفعل فعل من يزعم مشاركته في ملكه فأهملت حقه وغدرت خلفه يصرف عنك عونه ونصره ولك فيمن باد عبرة ولا تنظر يا أمير المؤمنين إلى من صرفهم عن مشغلة الدنيا من أحبابه المقربين إليه كبعض الصحابة الذين نازعهم الناس وانتزعوا أزمة الدنيا من أيديهم؛ لأن أولئك قوم اجتذبهم إليه وولى على الناس من يشاكلهم في أعمالهم وكل عن عمله مسئول ﴿**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٤٩].

❑ يا أمير المؤمنين، ظلك ما أظلك ورداؤك ما سترك، وطعامك ما أشبعك ومالك ما لك منه شيء، ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ [آل عمران: ١٢٨]، إن ربي على ما يشاء قدير تنعم أنت خاتم من خواتم القدر يطبع على أرواح الصور فيرفع اللَّه به ويضع، ويصل به ويقطع، فإن أنت لزمت الأدب مع الفعال المطلق برعاية حق شرعه الذي شرع لعباده ثابك، وأدار محور الوهب بك ربء علم بعدك، وإن أهملت أمره وهتكت ستر خلقه دخلت في عداد الظالمين ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [البقرة: ٢٧٠].

❑ يا أمير المؤمنين، أهل الفهم السليم والذوق الصالح تجتمع هيئتهم على الحق ويتزعرعون في بحبوحة العدل والإحسان فكبيرهم وصغيرهم أميرهم ومأمورهم حرهم وعبدهم في الدنيا سواء، ولكل منهم مقام معلوم. لا تشب فيهم نار الشقاق ولا يتحكم فيهم سلطان سوء الأخلاق يحكمون بما أنزل اللَّه ولا يزالون في أمان اللَّه ولو احتالوا في الحكم فجعلوا له وجهًا في الظاهر وأبطنوا الباطل يقول لهم الحكم العدل: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، فإذا أظهروا الباطل وهيئوا سبيلاً شرعيًا أدخلته عليتهم وشوكتهم في الحكم قال الحق تعالى لهم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، فإذا أظهروا الباطل وانتحلوا له سبيلاً من الرأي استصغاراً لحكمة الشرع وتعززًا بالأمر فحكموا به، قال لهم المنتقم الجبار ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

❑ يا أمير المؤمنين أروقة الأعمال لا تعمر بأيدي الخيال، ولا يصان حي إلا بمادة جامعة، تلصق القلوب ببعضها وتدفع النزاع والتفرقة، وما هي واللَّه إلا الشرع العادل والسنة المحمدية الصالحة، وكل ذلك أمر اللَّه الذي طبع الطباع وعلم ما تطيب له وبه يرتاح الضعيف لطلب حقه من خصمه القوي، وأنت تدري يا أمير المؤمنين أن ابن عمك إمام المسلمين عليًا أمير المؤمنين كرم اللَّه وجهه ورضي اللَّه عنه حدث عن ابن عمه سيد المخلوقين أنه قال: «**لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير ممتنع**»، والأمر واللَّه كذلك. وعلمت يا أمير المؤمنين من سيرة عمر بن الخطاب الفاروق الجليل ﷺ أنه لم يرهب فارس والروم والمغرب والصين والهند والبربر بفرش الديباج وبسط الحرير وكئوس الجوهر والخيول المسومة والبيوت الشاهقة والأقواس المذهبة. إنما أرهبهم بالعدل المحض وأفحم شوس رجالهم بالحكمة البالغة، **ألا** وهي شريعة نبيك سيد الحكماء وبرهان العقلاء وإمام الأنبياء محمد ﷺ.

ولتعلم أمطر اللَّه على قلبك سحاب الإلهام المبارك والتوفيق وأحكم أمرك بالأعوان الصالحين أهل الحكمة والنجدة، أن الحق كمين تحت ضلوع الخاصة والعامة، المحق منهم والمبطل، فربما أعانك عبدك على باطلك بيده ولسانه انقيادًا لوقتك، وأنكر عليك بسره وأضمر قلبه لك بعدها السوء، فلا يزكي ذكرك لديه، ولو جعلته حرًا ثم أكبرته ثم استوزرته بل ولو كان أشد

منك وهذا سر اللَّه المضمر في الحق.

واعلم أي سيدي أن جيش الملوك العدل، وحراسهم أعمالهم، ودفاتر أحوالهم عمالهم وأصحابهم، وهذه الدفاتر في أيدي العامة، فأصلح دفتر أحوالك واحكم حراستك وأيد جيشك وعليك بأهل العقل والدين، وإياك وأرباب القسوة والغدر والضلالة، فهم أعداؤك وصن أمرك من أن تلعب به النساء والأحداث والذين لا نخوة لهم، فإنهم دواعي الخراب والاضمحلال، وإذا أحببت فحكم الإنصاف في عملك حتى لا تقدم غير محق، أو ترفع بغير الحق وإذا كرهت فاذكر اللَّه، ونزه طبعك من خور الغدر، فإن مكانك الأمن، يدور صاحبه مع الحق لا مع الغرض، وإذا غضبت فاجنح للعفو، فإن أخطأت فيه خير من أن تخطئ في العقوبة. واجعل بذلك ونوالك لأهل الدين والحكمة والغيرة للإسلام، واختر منهم أشرفهم طبعًا وأكثرهم عقلاً وأوجزهم رأيًا ونطقًا، وأثبتهم حجة وأعلمهم باللَّه ورسوله. وساوِ الناس برًّا وفاجرًا مؤمنًا وكافرًا، في باب عدلك واحفظ حرمة الدين وأهله واعمل عملاً تحسن به عاقبتك إذا لقيت ربك واللَّه ولي التوفيق «إنا للَّه وإنا للَّه راجعون».

«والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته»[1] اهـ.

* * *

(١) «الوصايا» للإمام أحمد الرفاعي (٩/ ١٤) ـ مكتبة مدبولي القاهرة.

*** الغزالي والسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي: «في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان»:**

كان مما كتبه الإمام الغزالي للسلطان محمد بن مالك شاه السلجوقي: «ويجب أن تعلم أن صلاح الناس في حُسْن سيرة الملك، فينبغي للملك أن ينظر في أمور رعيته، ويقف على قليلها وكثيرها وعظيمها وحقيرها، لا يشارك رعيته في الأفعال المذمومة، ويجب عليه احترام الصالحين، وأن يثبت على الفعل الجميل، ويمنع من الفعل الرديء الوبيل، ويعاقب من ارتكاب القبيح، ولا يحابي مَنْ أصر على القبيح؛ ليرغِّب الناس في الخيرات ويحذِّرُوا من السيئات، ومتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهى المُفْسِد عن فساده ويتركه على مراده، أفسد سائر أموره في بلاده. وقال الحكماء: إن طباع الرعية نتيجة طباع الملك؛ لأن العوامّ إنما يبخلون، ويركبون الفساد، وتضيق أعينهم اقتداء منهم بمُلوكهم، فإنهم يتعلمون منهم، ويلزمون طباعهم، ألا ترى أنه قد ذُكر في التاريخ أن الوليد بن عبدالملك ـ من بني أمية ـ كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة. وكان سليمان بن عبدالملك همّته في كثرة الأكل، وتطييب الطعام، وقضائه الأوطار، وبلوغ الشهوات. وكانت همّة عمر بن عبدالعزيز في العبادة والزهادة. قال محمد بن علي بن الفضيل: ما كنتُ أعلم أمور الرعية تجري على عادة ملوكها، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبدالملك قد اشتغلوا بعمارة الكُرُم والبساتين، واهتموا ببناء الدور، وعمارة القصور. ورأيتهم في زمان سليمان بن عبدالملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام، حتى كان الرجل يسأل صاحبه: أيَّ لون اصطنعتَ، وما الذي أكلتَ؟ ورأيتُهم في أيام عمر بن عبدالعزيز قد اشتغلوا بالعبادة، وتفرغوا لتلاوة القرآن، وأعمال الخيرات، وإعطاء الصدقات. لتعلم أن في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان، ويعملون بأعماله، ويقتدون بأفعاله: من

القبيح والجميل، واتباع الشهوات، وإدراك الكمالات، كما يُقال»[١].

* **البخاري وأمير بُخارى: «إني لا أُذِلُّ العلمَ»:**

بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي ـ والي بخارى ـ إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إليّ كتابَ الجامع والتاريخ؛ لأسمع منك. فقال محمد بن إسماعيل لرسوله: قل له: إني لا أُذِلُّ العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فلْيحضِرني في مسجدي، أو في داري، فإن لم يعجبْك هذا فأنت سلطان، فامنعني من المجلس؛ ليكون لي عذر عند اللَّه يوم القيامة: أني لا أكتم العلم؛ فكان سبب الوحشة بينهما[٢].

* **النّوريّ:**

صَحِبَ السري، وكان الجنيد يعظمه، لكنه في الآخر رقّ له وعذره، لما فسد دماغُه.

ولما مات قال الجنيد: «ذهب نصف العلم بموته»[٣].

❑ قال أبو بكر بن الجلاد: كان النوريّ إذا رأى منكرًا غيّره، ولو كان فيه تَلَفُه. نزل يومًا، فرأى زورقًا فيه ثلاثون دَنًّا، فقال للملاح: ما هذا؟ قال: ما يلزمك؟ فألحّ عليه. قال: أنت ـ واللَّه ـ صوفي كثير الفضول، هذا خمر للمعتضد. قال: أعطني ذلك المِدْرى. فاغتاظ، وقال لأجيره: ناولْه حتى أُبصر ما يصنع، فأخذه، ونزل، فكسَّرها ـ كلها ـ غير دَنٍّ، فأُخذ وأُدخل إلى المعتضد، فقال: من أنت، ويلك؟ قال: مُحْتَسِب، قال: من ولاك الحِسْبة؟ قا: الذي ولاك الإمامة يا أمير المؤمنين، فأطرق، وقال: ما

(١) «التبر المسبوك».

(٢) مقدمة «فتح الباري».

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٧٠، ٧٣).

حملك على فعْلك؟ قال: شفقة منِّي عليك. قال: كيف سَلِم هذا الدَّنُّ؟ فذكر أنه كان يكسِّر الدّنان ونفسه مخلصَة خاشعة، فلما وصل إلى هذا الدَّنِّ، أعجبته نفسه، فارتاب فيها، فتركه[1].

*** شيخ الإسلام، المحدّث الإمام، أبو الحسن بنانُ الحمّال:**

«من يُضرب بعبادته المثل. وقد امتحِن في ذات اللَّه فصبر، وارتفع شأنه. فنقل أبو عبدالرحمن السلمي في «محَن الصوفية» أن بنانًا الحمّال قام إلى وزير خُمارويه صاحب مصر ـ وكان نصرانيًّا ـ فأنزله عن مركوبه، وقال: لا تركب الخيل وعيِّر، كما هو مأخوذ عليكم في الذمة. فأمر خُمارويه بأن يُؤخذ ويُوضع بين يدي سَبُع، فطُرح، فبقي ليلةً، ثم جاءوا والسبع يلحسه وهو مستقبلٌ القبلة، فأطلقه خُمارويه واعتذر إليه.

❑ قال أبو علي الروذباري: كان سبب دخولي مصر حكاية بنان الحمال؛ وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف، فأمر به أن يُلقى بين يدي سبع، فجعل السبُع يشمه ولا يضرُّه، فلما أُخرج من بين يدي السبع، قيل له: ما الذي كان في قلبك حيث شمَّك؟ قال: كنت أتفكر في سؤْر السباع ولُعابها»[2].

للَّه درُّه مِن سيد مِن سادات المسلمين... حتى الأُسد الضواري تعرف منزلته، وتتأدب معه... خافوا اللَّه وقاموا بحقه، فخافتهم الأُسد وقاموا بحقهم.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٧٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩).

*** الإمام القدوة الشهيد أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل المعروف بابن النابلسي وجوهر قائد العبيديين الفاطميين:**

الإمام ابن النابلسي هو شيخ الديار المصرية في وقته:

❑ قال أبو الفرج ابن الجوزي: أقام جوهر ـ القائد لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابلسي، وكان ينزل الأكواخ، فقال له: بلغني أنك قلت: إذا كان مع الرجل عشرة أسهم، وجب أن يرمي في الروم سهمًا وفينا تسعة. قال: ما قلتُ هذا، بل قلت: إذا كان معه عشرة أسهم وجب أن يرميكم بتسعة، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا، فإنكم غيّرتم الملّة، وقتلتم الصالحين، وادّعيتم الألوهية، فشهره ثم ضربه، ثم أمر يهوديًّا فسلخه.

❑ قال أبو ذر الحافظ: سجنه بنو عبيد ـ الفاطميون ـ وصلبوه على السُّنّة، سمعت الدارقطني يذكره ويبكي ويقول: كان يقول وهو يُسلخ: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾.

❑ قال معمر بن أحمد بن زياد الصوفي: أخبرني الثقة أن أبا بكر سُلخ من مفرق رأسه حتى بلغ الوجه، وكان يذكر اللَّه ويصبر حتى بلغ الصدر، فرحمه السلاّخ، فوكزه بالسكين موضع قلبه، فقضى عليه»[1].

*** شيخ الإسلام ابنُ الحطيئة، أبو العباس أحمد بن عبداللَّه اللخمي:**

❑ قال شجاع المدلجي ـ وكان من خيار عباد اللَّه ـ: كان شيخنا ابن الحطيئة شديداً في دين اللَّه، فظًّا غليظًا على أعداء اللَّه، لقد كان يحضر مجلسه داعي الدعاة[2] مع عِظم سلطانه، ونفوذ أمره، فما يحتشمه، ولا

(١) «سيرأعلام النبلاء» (١٦/١٤٨ ـ ١٤٩)، «السير» (١٦/١٤٨ ـ ١٤٩).
(٢) قاضي الخليفة العاضد.

يكرمه، ويقول: أحمق الناس في مسألة كذا وكذا: الروافض؛ خالفوا الكتاب والسنة، وكفروا باللَّه. وكنتُ عنده يومًا في مسجده بشرق مصر، وقد حضره بعض وزراء المصريين ـ أظنه ابن عباس ـ فاستسقى في مجلسه، فأتاه بعض غلمانه بإناء فضةٍ، فلما رآه ابن الحطيئة وضع يده على فؤاده، وصرخ صرخة ملأت المسجد، وقال: واحَرّها على كبدي، أتشربُ في مجلس يُقرأ فيه حديث لرسول اللَّه ﷺ في آنية الفضة؟! لا، واللَّه لا تفعل، وطرد الغلام، فخرج، وطلب الشيخ كوزًا، فجيء بكوز قد تثلّم، فشرب واستحيي من الشيخ، فرأيتُه ـ واللَّه ـ كما قال اللَّه: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[1] [إبراهيم: ١٧].

* شيخ الإسلام الهَرَوي الأنصاري، أبو إسماعيل: عبداللَّه بن محمد بن علي:

❑ قال تلميذه المؤتمن: كان يدخل على الأمراء والجبابرة، فما يبالي.

❑ قال عنه الذهبي في السِّير (١٨/٥٠٩): «كان سيفًا مسلولاً على المتكلمين، له صولةٌ وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده، يعظمونه، ويتغالون فيه، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به. كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير، وكان طودًا راسيًا في السُّنة، لا يتزلزل ولا يلين، وقد امتُحن مرات، وأُوذيَ، ونُفي من بلده.

❑ قال ابن طاهر: سمعتُه يقول: عُرضتُ على السيف خمسَ مرات، لا يُقال لي: ارجع عن مذهبك. لكن يُقال لي: اسكت عمّن خالفك. فأقول: لا أسكت»[2].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/٣٤٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/٥٠٩)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٨٤).

هذا ـ واللَّه ـ الثبات على الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر!

«قال الحافظ أبو النضر الفامي: كان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بِكْر الزمان، وواسطة عقد المعاني، وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع المحاسن، منها نُصرةُ الدين والسنة، من غير مداهنة ولا مراقبة لسلطان ولا وزير. وقد قاسى بذلك قصد الحُسّاد في كلّ وقت، وسعَوا في رُوحه مرارًا، وعَمدوا إلى إهلاكه أطوارًا، فوقاه اللَّه شرَّهم، وجعل قصدهم أقوى سببٍ لارتفاع شأنه».

❑ قال ابن طاهر: «حكى لي أصحابنا أن السلطان ألب أرسلان قَدِمَ هراة ومعه وزيره نظام الملك، فاجتمع إليه أئمة الحنفية، وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري، ومطالبته بالمناظرة، فاستدعاه الوزير، فلما حضر قال: إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك، فإنْ يكن الحق معك رجعوا إلى مذهبك، وإن يكن الحق معهم رجعت، أو تسكت عنهم. فوثب الأنصاري وقال: أناظر على ما في كُمّي. قال: وما في كمّك؟ قال: كتاب اللَّه ـ وأشار إلى كمِّه الأيمن ـ وسنة رسول اللَّه، وأشار إلى كمِّه اليسار، وكان فيه «الصحيحان»، فنظر الوزير إليهم مستفهمًا لهم، فلم يكن فيهم مَنْ ناظره من هذا الطريق. وسمعت خادمه أحمد بن أميرجه يقول: حضرتُ مع الشيخ؛ للسلام على الوزير نظام الملك، وكان أصحابنا كلّفوه الخروج إليه، وذلك بعد المحنة، ورجوعه إلى وطنه بلخ ـ يعني أنه كان قد غُرِّب ـ قال: فلما دخل عليه أكرمه وبجّله، وكان هناك أئمة من الفريقين، فاتفقوا على أن يسألوه بين يدي الوزير، فقال العلوي الدبوسي: يأذن الشيخ الإمام أن أسأل؟ قال: سَلْ. قال: لِمَ تلعن أبا الحسن الأشعري؟ فسكتَ الشيخ، وأطرق الوزير، فلما كان بعد ساعة قال الوزير: أجبْه. فقال: لا أعرف أبا الحسن، وإنما ألعن من لم يعتقد أن اللَّه في السماء، وأن القرآن في المصحف، ويقول: إن النبي

ﷺ اليوم ليس بنبيٍّ. ثم قام وانصرف. فلم يُمكن أحدًا أن يتكلم من هَيْبته، فقال الوزير للسائل: هذا أردتم! أن نسمع ما كان يذكره بهراة بآذاننا، وما عسى أن أفعل به؟ ثم بعث إليه بصلة وخِلَع فلم يقبلها، وسافر من فوْره إلى هراة»[1].

قال خادمه: وسمعت أصحابنا بهراة يقولون: لما قدم السلطان ألب أرسلان في بعض قدماته، اجتمع مشايخ البلد ورؤساؤه، ودخلوا على أبي إسماعيل، وسلَّموا عليه، وقالوا: ورد السلطان ونحن على عزْمٍ أنْ نخرج ونُسلّم عليه، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك، وكانوا قد تواطؤوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغيرًا، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ، وخرجوا، وقام الشيخ إلى خلْوته، ودخلوا على السلطان واستغاثوا من الأنصاري، وأنه مجسِّمٌ، وأنه يترك في محرابه صنمًا، يزعم أن اللَّه تعالى على صورته، وإنْ بعث السلطان الآن يجده، فعظُم ذلك على السلطان، وبعث غلامًا وجماعة، فدخلوا، وقصدوا المحراب، فأخذوا الصنم، فألقى الغلام الصنم، فبعث السلطان مَن أحضر الأنصاري، فأتى فرأى الصنم والعلماء، وقد اشتدَّ غضب السلطان، فقال له السلطان: ما هذا؟ قال: صنم يُعمل من الصُّفر شبه اللعبة. قال: لستُ عن ذا أسألك. قال: فعمّ يسألني السلطان؟ قال: إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا، وأنك تقول: إن اللَّه على صورته. فقال شيخ الإسلام ـ بصولة وصوت جَهْوري ـ: سبحانك! هذا بهتان عظيم. فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه، فأمر به، فأُخرج إلى داره مكرمًا، وقال لهم: اصدقوني. وهددهم، فقالوا: نحن في يد هذا في بليّة من استيلائه علينا بالعامة، فأردنا أن نقطع شرّه عنا، فأمر بهم، ووكّل بهم، وصادرهم، وأخذ منهم، وأهانهم[2].

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٥١١ ـ ٥١٢)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٨٧ ـ ١٨٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٥١٢)، و«تذكرة الحفاظ» (٣/ ١١٨٨ ـ ١٨٩).

ما يضيرُ البحرَ أمسى زاخِرًا أنْ رمى فيهِ غلامٌ بِحَجَرْ

❑ ولله در القائل:

يَا نَاطِحَ الجبلِ العالي لتُكْلِمَهُ أشفقْ على الرأس لا تُشفق عَلى الجبلِ

* الحافظ الأثري عبدالغني المقدسي:

❑ «قال الضِّياء: أخبرني خالي موفق الدين، قال: كان الحافظ عبدالغني جامعًا للعلم والعمل، وكان رفيقي في الصِّبا، وفي طلب العلم، وما كنا نستبق إلى خير إلا سبقني إليه، إلا القليل، وكمّل اللَّه فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم.

❑ قال الضياء: كان لا يرى منكرًا إلا غيّره بيده أو بلسانه، وكان لا تأخذه في اللَّه لومة لائم. قد رأيته مرة يهريق خمرًا، فجبذ صاحبه السيف فلم يَخَفْ منه، وأخذه من يده، وكان قويًّا في بدنه، وكثيرًا ما كان بدمشق ينكر ويكسر الطنابير والشَّبابات. قال خالي الموفق: كان الحافظ لا يصبر عن إنكار المنكر إذا رآه، وكنّا مرة أنكرنا على قومٍ وأرقنا خمرهم وتضاربنا، فسمع خالي أبو عمر، فضاق صدره، وخاصمنا، فلما جئنا إلى الحافظ طيّب قلوبنا، وصوّب فعلنا، وتلا ﴿وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ...﴾ [لقمان: ١٧].

وسمعت أبا بكر بن أحمد الطحان، قال: كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلَتْ لهم طنابير، وكانوا في بستان يشربون، فلقي الحافظ الطنابيرَ فكسَّرها. قال: فحدثني الحافظ، قال: فلما كنتُ أنا وعبدالهادي عند حمَّام كافور، إذا قوم كثير معهم عِصِيٌّ فخفّفتُ المشي، وجعلت أقول: «حسبي اللَّه ونعم الوكيل»، فلما صرت على الجِسر لحقوا صاحبي، فقال: أنا ما كسرت لكم شيئًا، هذا هو الذي كسر، قال: فإذا فارس يركض فترجَّل،

وقبّل يديّ، وقال: الصبيان ما عرفوك. وكان قد وضع اللَّه لهُ هيبة في النفوس»[١].

هذه واللَّه أحلى مذاقًا منَ العسل...

❑ «قال فضائل بن محمد المقدسي: سمعتُهم يتحدثون بمصر أن الحافظ كان قد دخل على العادل فقام له، فلما كان اليوم الثاني جاء الأمراء إلى الحافظ، مثل سركس وأزكش، فقالوا: آمنا بكرامتك يا حافظ. وذكروا أن العادل قال: ما خِفْتُ من أحد ما خفتُ من هذا. فقلنا: أيُّهَا الملك هذا رجل فقيه. قال: لما دخل ما خُيِّل إليّ إلا أنه سَبُع. وبلغني ـ بعدُ ـ عنه أنه قال: ما رأيتُ بالشام ولا مصر مثل فلان، دخل عليّ فَخُيِّل إليّ أنه أسد.

❑ قال الضياء: كانوا قد أوغروا عليه صدر العادل، وتكلموا فيه، وكان بعضهم أرسل إلى العادل يبذل في قتل الحافظ خمسة آلاف دينار»[٢].

❑ قال الذهبي في السير: جرّ هذه الفتنة نشر الحافظ أحاديث النزول والصفات، فقاموا عليه ورمَوْه بالتجسيم، فما دارى كما كان يداريهم الموفق.

وحكى الأمير درباس أنه دخل مع الحافظ إلى الملك العادل، فلما قضى الملك كلامه مع الحافظ، جعل يتكلم في أمر (ماردين) وحصارها، فسمع الحافظ فقال: أيش هذا، وأنت بعدُ تريد قتال المسلمين، ما تشكر اللَّه فيما أعطاك، أمَا... أمَا؟! قال: فما أعاد ولا أبدى. ثم قام الحافظ وقمتُ معه، فقلت: أيش هذا؟ نحن كنا نخاف عليك من هذا، ثم تعمل هذا العمل؟! قال: أنا إذا رأيت شيئًا لا أقدر أصبر.

وسمعتُ أبا بكر بن الطحان، قال: كان في دولة الأفضل جعلوا

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٥).

(٢) «السير» (٢١/ ٤٥٥).

الملاهي عند الدَّرج ـ يعني درج جيرون ـ فجاء الحافظ فكسّر شيئًا كثيراً، ثم صعد المنبر يقرأ الحديث، فجاء رسول القاضي يأمره بالمشي إليه ليناظره في الدُّفِّ والشبابة، فقال: ذاك عندي حرام، ولا أمشي إليه. ثم قرأ الحديث، فعاد الرسول، فقال: لا بُدّ من المشي إليه، أنت قد بطّلتَ هذه الأشياء على السلطان. فقال الحافظ: ضرب اللَّه رقبته ورقبة السلطان. فمضى الرسول وخفنا. فما جاء أحد[1].

❑ قال الحافظ عبدالغني: سألت اللَّه يرزقني مثل حال الإمام أحمد، فقد رزقني صلاته. قال: ثم ابتُلي بعد ذلك وأوذي.

ولقد ناظر الفقهاءَ، وثبت على عقيدة أهل السنة أمام الأشاعرة، وصدع بها فوشوا به إلى الحكام والسلاطين، وبدّعوه وكفَّروه، وهمُّوا أن يقتلوه. رحمه اللَّه.

ولقد أُمِرَ الحافظ أن يكتب اعتقاده، فكتب: أقول كذا، لقول اللَّه كذا. وأقول كذا؛ لقول اللَّه كذا، ولقول النبي ﷺ كذا. حتى فرغ من المسائل التي يخالفون فيها، فلما رآها الكامل قال: أيش أقول في هذا، يقول بقولْ اللَّه، وقول رسوله ﷺ؟!

ناظره القاضي محيي الدين، والخطيب ضياء الدين، وجماعة، فصعدوا إلى القلعة، وقالوا لواليها: هذا قد أضلّ الناس ويقول بالتشبيه. وارتفعت الأصوات، فقال والي القلعة الصَّارم برغش: كلّ هؤلاء على ضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم. فأمر بكسر منبره.

رحم اللَّه الحافظ عبدالغني، فقد كان سيداً من سادات أهل الدين والعلم، والتألُّه، والصدْع بالحق.

---

(١) «السير» (٢١/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦).

* **العماد المقدسي «جوهرة عصره»:**

قال عنه الضياء المقدسي: ما علمت أنه دخل إلى سلطان ولا وال، وكان قويًّا في أمر اللَّه، ضعيفًا في بدنه، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، أمّارًا بالمعروف، لا يرى أحدًا يُسيء صلاته إلا قال له، وعلَّمَه.

قال: وبلغني أنه أتى فُسَّاقًا، فكسّر ما معهم، فضربوه حتى غُشي عليه، فأراد الوالي ضربَهم، فقال: إنْ تابوا ولازموا الصلاة فلا تُؤْذِهم، وهُم في حِلٍّ. فتابوا[1].

* **أسد الشَّام اليونيني، عبداللَّه بنُ عثمان بن جعفر:**

- قال الشيخ علي القصار: كنت أَهَابه كأنه أسد.
- وقال الذهبي: كان أمّارًا بالمعروف لا يهاب الملوك.

قيل: إن العادل أتى والشيخ يتوضأ، فجعل تحت سجادته دنانير، فردّها وقال: يا أبا بكر، كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق، وتبيع المرأة وقية، يؤخذ منها قراطيس؟! فأبطل ذلك.

وقيل: جلس بين يديه المعظم وطلب الدعاء منه، فقال: يا عيسى، لا تكن نجسًا مثل أبيك، أظهر الزغل[2]، وأفسد على الناس المعاملة[3].

* **البربهاري شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي:**

كان قوّالاً بالحق، داعيةً إلى الأثر، لا يخاف في اللَّه لومة لائم. وكان له ـ رحمه اللَّه ـ مجاهداتٌ ومقامات في الدين، وكانت له المنزلة الرفيعة في

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٢/٤٩ ـ ٥٠).

(٢) العملة المغشوشة.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢٢/١٠١ ـ ١٠٢).

قلوب الناس.

وكان له أصحاب كثيرون، ثم لم تزل المبتدعة توحش قلب الراضي عليه، حتى نُودي في الناس: لا يجتمع اثنان من أصحاب البربهاري. فاختفى، وتوفي مستترًا، فدفن بدار أخت توزون.

*** سلطان العلماء، وبائع الملوك والأمراء: أبو محمد عزُّ الدين عبدالعزيز ابن عبدالسلام بن أبي القاسم:**

«شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، سلطان العلماء، إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه.. لم يُر مثل نفسه، ولا رأى من رآه مثلَه، علمًا وورعًا وقيامًا في الحق، وشجاعة وقوةَ جنانٍ، وسلاطة لسان»[1].

❑ وقال عنه ابن حجر: «كان عالي الهمة، بعيد الغوْر في فهم العلوم.. وكان قائمًا بالأمر بالمعروف، لا يخاف في ذلك كبيرًا ولا صغيرًا»[2].

وذكر اليافعي أن الإمام العزَّ كان جبل إيمان، لا يخشى سلطانًا، ولا يهاب سَطوة الملك، بل يعمل بما أمر اللَّه ورسوله به، وما يقتضيه الشرع المطهر[3].

*** أمرُه بالمعروف ونهيُه عن المنكر للملك الأشرف موسى بن الملك العادل ابن أيوب:**

دخل سلطان العلماء على الملك الأشرف في مرضِ موْته، فقبَّل

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٠٩).
(٢) «رفع الإصر عن قضاة مصر» لابن حجر (٢/ ٣٥١).
(٣) «مرآة الجنان» لليافعي (٤/ ١٥٥).

الأشرف يده، وقال له: ادعُ اللَّه لي، وأوصني وانصحني. فقال له عزّ الدين: أمّا دعائي للسلطان، فإني أدعو له في كثير من الأحيان؛ لما في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام، واللَّه تعالى يُبَصِّر السلطان فيما يبيِّض به وجهه يوم يلقاه، وأما وصيتي ونصيحتي للسلطان، فقد وجبت وتعيّنت لقبوله وتقاضيه، وكان قُبَيْل مرضه قد وقع بينه وبين أخيه السلطان ـ الملك ـ الكامل واقع ووحشة، وأمر وهو في ذلك المرض بنصْب دِهليزه إلى صوب مصر، وضرب دهليزه بمنزلة تُسمّى: الكُسوة[1] ، وكان في ذلك الزمان قد ظهر التَّتَرُ بالمشرق، فقال الشيخ للسلطان الكامل: أخوك الكبير وَرَحِمُكَ، وأنت مشهور بالفتوحات والنصر على الأعداء، والتَّتَرُ قد خاضوا بلاد المسلمين، تترك ضرب دهليزك إلى أعداء اللَّه وأعداء المسلمين، وتضربه إلى جهة أخيك! فينقل السلطان دهليزه إلى جهة التتار، ولا تقطع رَحِمَك في هذه الحالة، وتنوي مع اللَّه نصر دينه وإعزاز كلمته؛ فإن مَنَّ اللَّه بعافية السلطان رجونا من اللَّه إدالته على الكفار، وكانت في ميزانه هذه الحسنة العظيمة، فإن قضى اللَّه تعالى بانتقاله إليه كان السلطان في خفارة نِيَّته. فقال له: جزاك اللَّه خيراً على إرشادك ونصيحتك. وأمَر ـ والشيخ حاضر ـ في الوقت بنقل دهليزه إلى الشرق، إلى منزلة يُقال له: القُصير[2] ، فنُقل في ذلك اليوم. ثم قال له: زدني من نصائحك ووصاياك. فقال له: السلطان في مثل هذا المرض، وهو على خطر، ونُوّابُه يُبيحون فروج النساء، ويُدمنون الخمور، ويرتكبون الفجور، ويتنوَّعون في تمكيس المسلمين، ومن أفضل ما تلقى اللَّه به أن تتقدم بإبطال هذه القاذورات، وبإبطال كلِّ مَكْسٍ، ودفْع كلِّ

(١) أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر.

(٢) هذه المنزلة هي القرية التي تُسمّى اليوم باسم: الجعافرة. إحدى قرى مركز فاقوس، محافظة الشرقية.

مظلمة. فتقدم رحمه اللَّه ـ للوقت ـ بإبطال ذلك كله، وقال له: جزاك اللَّه عن دينك وعن نصائحك، وعن المسلمين خيراً، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنِّه وكرمه. وأطلق له ألف دينار مصرية فردَّها عليه، وقال: هذه اجتماعةٌ للَّه لا أكدِّرها بشيء من الدنيا، وودَّع الشيخ السلطان، ومضى إلى البلد، وقد شاع عند الناس صورة المجلس، وتبطيل المنكرات، وباشَرَ الشيخ بنفسه تبطيلَ بعضها»[1].

* إنكارُه على مَلِك دمشق التَّنازُل عن ديار المسلمين، وعقْد الصُّلح مع الفرنجة الصليبيين المعتدين:

«لما تحالف الصالح إسماعيل ـ المعروف بأبي الخبيش، حاكم دمشق مع الصليبيين، وأسلمهم قلعة صَفْد، وقلعة الشقيف، وصيدا، وبعض ديار المسلمين اختياراً؛ لينجدوه على الصالح نَجم الدين أيوب، حاكم مصر؛ لأنّ الصالح إسماعيل خاف منه فكاتب الفرنجة؛ ليساعدوه ضد ابن أخيه حاكم مصر، فدخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح، ليقاتلوا المسلمين، فشقّ ذلك على سلطان العلماء مشقةً عظيمة في مبايعة الفرنج السلاح، وعلى المتدينين من المتعيِّشين مِنَ السلاح، فاستفتَوا الشيخ في مبايعة الفرنج السلاح، فقال: يحرُم عليكم مبايعتُهم؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين.

وترك عز الدين الدعاء للحاكم في الخطبة، وجدّد دعاءه ـ في الجامع ـ الذي كان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين: «اللَّهم أبرِم لهذه الأمة أمراً رشداً تُعزُّ فيك وليّك، وتُذِلُّ فيه عَدُوّك، ويُعمل فيه بطاعتك، ويُنهى فيه عن معصيتك» والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء اللَّه

(١) «طبقات الشافعية» (١٠/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

الملحدين.

فكاتب أعوانُ الشيطان السلطانَ بذلك، وحرّفوا القول وزخرفوه، فجاء كتابه باعتقال الشيخ، فبقي مدة معتقلاً، ثم وصل الصالح إسماعيل، وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات، فأقام مدةً بدمشق، ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس، فوافاه الملك الناصر داود في الفور، فقطع عليه الطريق وأخذه، وأقام عنده بنابلس مدة، وجرت له معه خطوبٌ، ثم انتقل إلى بيت المقدس وأقام به مدة، ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور ـ صاحب حمص ـ وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس، يقصدون الديار المصرية، فسيّر الصالح إسماعيل بعض خواصّه إلى الشيخ بمنديله، وقال له: تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطُّف وتستنزله، وتعِدُه بالعود إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك تدخل به عليّ، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي. فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرَع في مُسايسته وملاينته، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة، أن تنكسر للسلطان، وتقبِّل يده لا غيره»[1]. وهنا قال سلطان العلماء كلماته النيِّرة، وهي كلمات الحياة، فيها استعلاءُ أهل العلم وعزَّة العقيدة، خرَّ من هول هذه الكلمات رسول الحاكم. قال عز الدين: «واللَّه يا مسكين، ما أرضاه أن يُقبِّل يدي، فضلاً أن أُقبِّل يدَه. يا قوم، أنتم في وادٍ، وأنا في وادٍ، الحمد للَّه الذي عافاني مما ابتلاكم به»[2].

عزةُ سلطان العلماء بربه.. يصون يده المتوضئة عن ملامسة عميل للصليبيين، وإن كان سلطانَ دمشق.. يصون يده التي تكتب العلم وتسجد لمولاها.

---

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

(٢) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

لَوْ كَانَ فيهمْ مَنْ عَراهُ غرامُ ... ما عنّفوني في هواهُ ولامُوا[1]
لكنَّهم جهلُوا لَذاذةَ حُسْنِه ... وعلمْتُها ولذَا سَهِرْتُ ونامُوا
لَوْ يعلمُونَ كَمَا علمتُ حقيقةً ... جَنحُوا إلى ذاكَ الجَنَابِ وهامُوا
أوْ لوْ بدتْ أنوارُهُ لعُيونهمْ ... خَرُّوا ولم تثبُتْ لهم أقدامُ
مولايَ عِزَّ الدين عَزّ بكَ العُلا ... فَخْرًا فدونَ حِذاكَ منْهُ الْهامُ
جاوزتَ حدَّ المدْح حتى لم يُطِقْ ... نظْمًا لفضلِكَ في الورى النُّظَّامُ
فعليكَ يا عبدَالعزيز تحيةٌ ... وعليكَ يا عبدَالعزيز سَلامُ[2]

يقول الشيخ شرف الدين عبداللطيف ولد الشيخ سلطان العلماء، فيما حكاه السُّبكي في «طبقات الشافعية» بعد مقولة الشيخ لرسول السلطان:

«فقال له: قد رسم لي إن لم توافق على ما يُطلب منك وإلا اعتقلتك. فقال: افعلوا ما بدا لكم. فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خَيْمة السلطان. وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه، فقال يومًا لملوك الفرنج: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم. قال: هذا أكبر قُسُوس المسلمين، وقد حبستُه لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلتُه عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجتُه فجاء إلى القدس، وقد جدّدتُ حبسه واعتقاله لأجلكم. فقالت له ملوك الفرنج: لو كان هذا قِسِّيسَنا لغسَلْنَا رجليه، وشربنا مرقتها»[3].

للَّه ما أحلى هذه الكلمة وأطيبها... «صَدَقَكَ وهو كذوب».. ونور الحق لا يخفى، وجمال الشيخ وهيبته، وحسن موقفه يشهد به الأعداء...

---

(١) هذا البيت لسلطان العلماء، وما بعده لتلميذه عمر بن عبدالعزيز الأسواني قاضي أسوان.
(٢) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).
(٣) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٤).

وهذه شهادة الكفار في حقّه.. فمال بالُ أذنابهم؟!

قَدْ تُنكرُ العيْنُ ضَوْءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ ويُنكرُ الفمُ طَعْمَ الماءِ مِن سقَمِ

«ثم جاءت العساكر المصرية، ونصر اللَّه تعالى الأمة المحمدية، وقتلوا عساكر الفرنج، ونجّى اللَّه سبحانه وتعالى الشيخ، فجاء إلى الديار المصرية، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب رحمه اللَّه، وولاه خطابة مصر وقضاءَها، وفوّض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة، واتفق له في تلك الولايات عجائبُ وغرائبُ».

*** عالم تَهابُهُ المبتدعة والملوك:**

«كان رحمه اللَّه سيفًا ذا حدَّيْن: حدٌّ سلّه على ترف الملوك ولهْوهم ولعبِهم ومنكرهم، وآخر على بِدَع العوامّ، بجرأة لا نظير لها، ولو كان وراء ذلك السجنُ أو الموتُ، فيُمْضي اللَّهُ كلمته في الملك والمملوك. وترجم ذلك قولاً وعملاً[1]، فكان يقول:

طُوبى لمن تولَّى شيئًا من أمور المسلمين، فأعان على إماتة البدع، وإحياء السنن[2].

وأبطل بدعًا كثيرة منها: صلاة الرغائب المبتدَعة، وصلاة ليلة النّصف من شعبان، ودقّ المنبر بالسيف.

وللَّه درُّه حين يقول في نُصرة الحق: «ينبغي لكلّ عالم إذا أُذل الحقُّ، وأُخمل الصوابُ أن يبذل جهده في نصرهما، وأن يجعل نفسه بالذلّ والخمول أولى منهما، وإن عزّ الحق فظهرَ الصوابُ، أن يستظل بظلّهما، وأن

(١) صفحات مطويَّة من حياة سلطان العلماء بقلم سليم بن عيد الهلالي (ص٦٥) ـ طبع دار ابن الجوزي.

(٢) مساجلة علمية (ص١٠).

يكتفيَ باليسير مِن رشاش غيرهما»[١] .

❑ وقال رحمه اللَّه في «الفتاوى» (٧١ ـ ٧٢) مُنَبِّهًا على خطورة البدع الزاعمة أن في الإسلام قشرًا ولُبابًا: «لا يجوز التعبير عن الشريعة بأنها قشرٌ، مع كثرة ما فيها من المنافع والخير، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قشرًا، وأنّ العلم الملَقّب بعلم الحقيقة جزءٌ من أجزاء الشريعة؟! ولا يُطلق مثل هذه الألقاب إلا غبيٌّ شقيٌّ، قليل الأدب. ولو قيل لأحدهم: إن كلام شيخك قُشورٌ، لأنكَرَ ذلك غاية الإنكار، ويطلق لفظ القشور على الشريعة! وليست الشريعة إلا كتاب اللَّه وسنة رسوله. فيعزَّر هذا الجاهل تعزيرًا يليق بمثل هذا الذنب.

وكان سلطان العلماء رحمه اللَّه يقوم بإنكار المنكر وإبطال البدع بنفسه، فقد اتفق أن الوزير فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ، أستاذ دار الملك ـ وهو الذي كان إليه أمر المملكة ـ عمد إلى مسجد بمصر، فعمل على ظهره بناءً لطبلخانات[٢] ، وبقيت تَضْرِبُ هنالك، فلما ثبت هذا عند الشيخ عزّ الدين حكم بهدم البناء، بل وذهب بنفسه وجماعته وهدَم البناء. ولما علم الوزير غضب لذلك، فقام الشيخ بالإشهاد عليه، وأسقط عدالته، وحكم بفسقه، وعزل نفسه عن القضاء، ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان، ولكنه لم يُعِدْه إلى الولاية، وظنَّ فخر الدين أن هذا الحكم لا يتأثر به فخر الدين في الخارج.

*** العزُّ ونجم الدين أيوب:**

وقد كانت له قصة ـ أيَّ قصة ـ مع نجم الدين أيوب سلطان مصر.

---

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٥).

(٢) أي: دار لهوٍ وغناء.

ونجم الدين هو نجم الدين ظلمًا وجبروتًا.

قال عنه صاحب النجوم الزاهرة: «كان كثير التخيُّل والغضب، والمؤاخذة مع الذنب الصغير، والمعاقبة على الوهم، لا يقيل عثرةً، ولا يقبل معذرة، ولا يرعى سالف خدمة، السيئة عنده لا تُغتفر، وكان جبارًا متكبرًا، شديد السطوة، كثير التجبُّر على أصحابه ونُدمائه وخواصِّه، ثقيل الوطأة، حتى إن خواصَّه لم يكونوا يأمنون سطوته، ولا يقدرون على الاحتراز منه، ولم يكن في خلقه الميل لأحدٍ من أصحابه ولا أهله ولا أولاده، ولا المحبة لهم، ولا الحنُّو عليهم على ما جرت به العادة»[1].

❑ قال أبو الحسن الباجي تلميذ العز: «طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العسكر مصطفِّين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قَوْمِهِ في زينته، على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراءُ تقبّل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه: يا أيوب.. ما حجتك عند اللَّه، إذا قال لك: يا أيوب ألم أُبَوِّئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور؟! فقال: هل جرى هذا؟ قال: نعم، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ـ يناديه بأعلى صوته، والعساكر واقفون ـ فقال: يا سيدي، هذا ما أنا عملته، هذا من زمان أبي. فقال: أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ...﴾ [الزخرف: ٢٢] فَرَسَمَ السلطان بإبطال تلك الحانة.

❑ يقول الباجي: فسألتُ الشيخ لَمَّا جاء من عند السلطان، وقد شاع هذا الخبر: يا سيدي، كيف الحال؟ فقال: يا بنَيَّ، رأيته في تلك العظمة،

(١) «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» (٦/ ٣٣٥).

فأردت أن أهينه؛ لئلا تَكْبُر عليه نفسه فتؤذيه. فقلت: يا سيدي، أما خفتَه؟ فقال: واللَّهِ يا بني استحضرت هَيْبة اللَّه تعالى، فصار السلطان قُدّامي كالقط»[1].

للَّه ما أعطَر هذا الكلام... وإن شئتَ فهناك ما هو أحلى وأعطر:

* «أُمراءُ للبَيْع»:

حكى السُّبكي والسيوطي أنه «لما تولَّى الشيخ عزُّ الدين القضاء تصدّى لبيع أمراء الدولة مِنَ الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرِّق مستصحبٌ عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظُم الخَطْب عندهم، واضطَرم الأمر، والشيخ مصمِّم لا يصحِّح لهم بَيْعًا ولا شراءً ولا نكاحًا، وتعطلت مصالحهم لذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستثار غضبًا، فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: نعقد لكم مجلسًا ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقُكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجعْ، فجَرَتْ من السلطان كلمة فيها غِلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر وأنه لا يتعلق به، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار، وأركب عائلته على حمار آخر، ومشى خلفهم خارجًا مِنَ القاهرة قاصدًا نحو الشام، فلم يصل إلى نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالبُ المسلمين، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يُؤْبَه إليه يتخلف، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم، فبلغ السلطان الخبر، وقيل له: متى راح ذهب ملكُك، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه، فرجع، واتفقوا معه على أنه يُنادَى على الأمراء، فأرسل إليه نائب السلطنة بالمُلاطفة فلم يُفِدْ، فانزعج النائب، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ

(١) «طبقات الشافعية» (٨/٢١١)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/٣١١).

ويبيعنا، ونحن ملوك الأرض؟! واللَّه لأضربنَّه، بسيفي هذا، فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيف مسلول في يده، فطرَق الباب، فخرج ولد الشيخ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى، وشرح له الحال فما اكترث لذلك، وقال: يا ولدي أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل اللَّه. ثم خرج، فحين وقع بصره على النائب يَبِسَتْ يد النائب، وسقط السيف منها، وأرعدتْ مفاصلُه، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له، وقال: يا سيدي، أيش تعمل؟ قال: أنادي عليكم، وأبيعكم. قال: ففيمَ تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين. قال: وَمَن يقبضه؟ قال: أنا، فتمّ ما أراد، ونادى على الأمراء واحدًا واحدًا، وغالى في ثمنهم، ولم يبِعْهم إلا بالثمن الوافي، وقبضه وصرفه في وجوه الخير، وهذا ما لم يُسمع بمثله عن أحد. رحمه اللَّه تعالى»[1].

ولقوة الشيخ في الحق وجرأته في بيانه، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، لا يهاب أحدًا إلا اللَّه، ولا يخشى مِن دونه شيئًا. رُوي عن الملك الظاهر بيبرس أنه لما توفي الإمام العز، ومرَّت جنازته تحت القلعة، وشاهد الملك كثرة الخلق الذين معها، قال لبعض خواصّه: «اليوم استقر أمري في الملك؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس: اخرجوا عليه. لانتزع الملك مِني»[2].

وبرغم هذا، فقد كان الملك الظاهر بيبرس يجلّ سلطان العلماء، «ولم يبايع بيبرس واحدًا من الخليفة المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدمه الشيخ عزّ الدين للمبايعة، ثم بعده السلطان، ثم القضاة. ولما مات حزن عليه كثيرًا

(١) «حسن المحاضرة» للسيوطي (٢/ ١٦٢)، و«طبقات الشافعية» للسبكي (٨/ ٢١٦).
(٢) «طبقات الشافعية» لابن قاضي شبة (٢/ ١٣٩)، و«طبقات الشفاعية» للسبكي (٨/ ٢١٥)، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٣١٦).

حتى قال: لا إله إلا اللَّه، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي، وشيّع أمراءه وخاصته وأجناده لتشييع جنازته، وحَملَ نعشَه، وحضر دفنه»[١].

فاتفق أن جهّز السلطان الملك الصالح رسولاً من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد، فلما وصل الرسول إلى الديوان ووقف بين يدي الخليفة، وأدّى الرسالة خرج إليه وسأله: هل سمعتَ هذه الرسالة من السلطان؟ فقال: لا، ولكن حمّلنيها عن السلطان فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ داره. فقال الخليفة: إن المذكور أسقطه ابن عبدالسلام، فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها[٢].

بأبي وأمي من يحكمون، ويخضع لحكمهم الخلفاء والسلاطين.

*** أمره بالمعروف أيام قطز:**

«لما دَهَم التتار البلاد عُقَيْبَ واقعة بغداد، جَبُنَ أهل مصر عنهم، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض، استشاروا الشيخ عزّ الدين رحمه اللَّه، فقال: اخرجوا، وأنا أضمن لكم على اللَّه النصر. فقال السلطان له: إن المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار. فقال له الشيخ عز الدين: إذا أحضرتَ ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحليّ الحرام، وضربتَه سكّة ونقدًا وفرّقته في الجيش ولم يقمْ بكفايتهم ذلك الوقت، اطلبِ القرْض، وأمّا قبل ذلك فلا. فأحضر السلطان والعسكر ـ كلهم ـ ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة؛ بحيث لا يستطيعون مخالفته، فامتثلوا أمره، وانتصروا»[٣].

---

(١) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢٤٥).

(٢) «طبقات الشافعية» بتصرف (٨/ ٢١٠ ـ ٢١١).

(٣) «طبقات الشافعية» (٨/ ٢١٥).

* ابن دقيق العيد:

قال السبكي في «طبقات الشافعية» (٩/ ٢١٢) عن شيخ الإسلام ابن دقيق العيد: «كان يخاطب عامّة الناس، السلطان فمَن دونه، بقوله: يا إنسانُ. وإن كان المُخاطَب فقيهًا كبيرًا قال: يا فقيه. وتلك كلمة لا يسمحُ بها إلا لابن الرفعة، ونحوه. وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي: يا إمام. ويخصُّه بها».

هذا الإمام العظيم الأمّار بالمعروف الذي كانت تَهابه الملوك، وكان سلطانُ مصر إذا رآه من على البعد قام له، فإذا وصل عنده قبّل السلطان يده، فيقول له شيخ الإسلام: هذا خير لك، هذا ينفعك.

هذا هو العالم الرباني... أما علماء السوء، فأصدق وصفٍ للفرد منهم قول الشاعر:

يرمرِمُ مِنْ فُتات الكُفر قُوتًا ... ويشربُ مِنْ كُئوسِهِمُ الثّمالهْ
يُقَبِّلُ راحَةَ الطاغوتِ حِينًا ... وَيَلْثَمُ دُونَها خجلٍ نِعَالَهْ

* الإمام النَّووي:

قال ابن العطار: كان مواجهًا للملوك والجبابرة بالإنكار، ولا تأخذه في اللَّه لومةُ لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة، كتب الرَّسائل، وتوصل إلى إبلاغها، فممَّا كتبه وأرسلني في السعي فيه وهو يتضمَّن العدل في الرعيَّة. وإزالة المكوس عنهم، وكَتَبَ معه في ذلك شيخُنا شيخ الإسلام أبو محمد بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وشيخنا العلامة قدوة الوقت أبو محمد عبدالسلام بن علي بن عمر الزواوي شيخ المالكية، وشيخنا علامة العلوم أبو بكر محمد ابن أحمد الشريشي المالكي، وشيخنا العارف القدوة أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ العارف ولي اللَّه عبداللَّه، عُرِفَ بابن الأرمني،

وشـيخنا المفتي أبو حامد محمد بن العلامة أبي الفضائل عبدالكريم بن الحرستاني خطيب دمشق وابن خطيبها، وجماعة آخرون، ووضعها في ورَقة كتبها إلى الأمير بَدْر الدِّين بيلبك الخَزْنْدَار بإيصال ورقة العلماء إلى السلطان الظاهر التُّركي، وهذه صورتها:

بسم الله الرحمن الرحيم.

من عبدالله يحيى النَّواوي.

سلام اللَّه ورحمته وبركاته على المولى المُحْسِن ملك الأمراء بدر الدين، أدام اللَّه الكريم له الخيرات، وتولاَّه بالحسنات، وبلَّغه من خيرات الآخرة والأولى كلَّ آماله، وبَارَكَ له في جميع أحواله، آمين.

ويُنْهَى إلى العلوم الشريفة[1] أنَّ أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيشٍ، وضعف حال، بسبب قلَّة الأمطار، وغلاء الأسعار، وقلَّة الغلات والنبات، وهلاك المواشي، وغير ذلك. وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقةُ على الرعيَّة والسُّلطان، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم؛ فإنَّ الدِّين النَّصيحة.

وقد كتبَ خدَمَةُ الشَّرعِ، الناصحون للسلطان، المحبُّون له، كتابًا بتذكيره النَّظَر في أحوال رعيَّته، والرفق بهم، وليس فيه ضررٌ، بل هو نصيحةٌ محضةٌ، وشفقةٌ تامةٌ، وذكرى لأولي الألباب.

والمسئول من الأمير ـ أيَّده اللَّه تعالى ـ تقديمه إلى السلطان، أدام اللَّه له الخيرات، ويتكلَّم عليه من الإشارة بالرِّفق بالرعيَّة بما يجدُهُ مُدَّخَرًا له عند اللَّه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء إلى الأمير أمانةٌ ونصيحةٌ للسلطان ـ

(١) أي نرفع إلى علْمِكم الشريف.

أعزَّ اللَّه أنصاره ـ والمسلمين كلهم في الدنيا والآخرة، فيجب عليكم إيصاله للسلطان ـ أعزَّ اللَّه أنصاره ـ وأنتم مسئولون عن هذه الأمانة، ولا عُذرَ لكم في التأخُّر عنها، ولا حُجَّة لكم في التَّقصير فيها عند اللَّه تعالى، وتُسألون عنها ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

* أنتم بحمد اللَّه تحبُّون الخير، وتحرِصون عليه، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات، وأفضل الطَّاعات، وقد أُهِّلتُم له، وساقه اللَّه إليكم، وهو من فضل اللَّه، ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدَّةً إن لم يَحصلِ النظر في الرفق بهم. قال اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

* وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥].

* والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، مما إذا فعلتمُوهُ، وجدتُّموه عند اللَّه؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

فلما وصلتِ الورقتان إليه؛ أوقفَ عليهما السلطان، فلما وقف عليها؛ رد جوابها جوابًا عنيفًا مؤلمًا، فتنكَّدت خواطر الجماعة الكاتبون، وغيره، فكتب ـ رحمه اللَّه ـ جوابًا لذلك الجواب:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم.

الحمدُ للَّه رب العالمين.

اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وسلم.

من عبداللَّه يحيى النواوي: يُنهى أن خَدَمَةَ الشَّرعِ كانوا كتبوا ما بلغ

السلطان ـ أعزَّ اللَّه أنصاره ـ فجاء الجواب بالإنكار والتَّوبيخ والتَّهديد، وفهمنا منه أن الجهاد ذُكِرَ في الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوجب اللَّه إيضاحَ الأحكام عند الحاجة إليها، فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾ الآية [آل عمران: ١٨٧]، فوجب علينا حينئذ بيانُهُ، وحرُمَ علينا السكوت؛ قال اللَّه تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ٩١].

وذُكِرَ في الجواب أن الجهاد ليس مختصًّا بالأجناد، وهذا أمرٌ لم ندَّعه، ولكن الجهاد فرضُ كفاية، فإذا قرَّر السلطان له أجنادًا مخصوصين، ولهم أخباز[1] معلومةٌ من بيت المال، كما هو الواقع ـ تفرَّغَ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم، من الزِّراعة، والصَّنائع، وغيرهم، الذي يحتاجُ الناس كلهم إليها، فجهادُ الأجنادِ مُقابِل الأخبازِ المقرَّرَة لهم، ولا يحلُّ أن يُؤخذ من الرعيَّة شيءٌ ما دام في بيت المال شيءٌ من نقدٍ، أو متاعٍ، أو أرضٍ، أو ضياعٍ تباع، أو غير ذلك. وهؤلاء علماءُ المسلمين في بلاد السلطان ـ أعزَّ اللَّه أنصاره ـ مُتَّفقونَ على هذا، وبيتُ المال ـ بحمد اللَّه ـ معمورٌ، زادهُ اللَّه عمارةً وسعةً، وخيراً وبركةً في حياة السلطان المقرونة بالكمال والسعادة له، والتَّوفيق والتَّسديد والظُّهورِ على أعداء الدين، ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وإنما يُستعانُ في الجهادِ وغيره بالافتقار إلى اللَّه تعالى، واتِّباع آثار النبي ﷺ، ومُلازمةِ أحكام الشرع.

وجميع ما كتباه أولاً وثانيًا هو النصيحة التي نعتقدها، وندينُ اللَّه بها،

---

(١) الأخباز واحدها: الخبزة أي النصيب، وهي الرواتب والجرايات التي تعطى شهريًّا، أو تبعًا للمواسم الزراعية، أو عند الحملات الحربية.

ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه. والسلطان يعلم أنها نصيحةٌ له وللرَّعيَّة، وليس فيها ما نلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان؛ إلا لعلمنا أنه يحب الشرع، ومتابعته أخلاق النبي ﷺ، في الرِّفق برعيته، والشفقة عليهم، وإكرامه لآثار النبي ﷺ، وكل ناصحٍ للسلطان موافقٌ على هذا الذي كتبناه. وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد، فكيف يُقاسُ ملوك الإسلام، وأهل الإيمان والقرآن بطُغاة الكفار؟! وبأي شيءٍ كنا نُذكرُ طُغَاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئًا من ديننا؟!

وأما تهديدُ الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة، فليس هو المرجو من عدل السلطان، وحِلمه؛ وأيُّ حيلةٍ لضعفاء المسلمين المفرَّقين في أقطار ولاية السلطان في كتابٍ كتبه بعض المسلمين الناصحين نصيحةً للسلطان ولهم، ولا علم لهم به؟! وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يُلامُ عليه؟!

وأما أنا في نفسي، فلا يضرُّني التهديد، ولا أكبرُ منه، ولا يمنَعُني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقدُ أن هذا واجبٌ علي وعلى غيري، وما ترتَّبَ على الواجب، فهو خيرٌ وزيادةٌ عند اللَّه تعالى، ﴿**إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**﴾ [غافر: ٣٩]، ﴿**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [غافر: ٤٤]، وقد أمرنا رسول اللَّه ﷺ أن نقول بالحق حيثما كنا، وأن لا نخاف في اللَّه لومةَ لائمٍ.

ونحن نحب للسلطان معالي الأمور، وأكمل الأحوال، وما ينفعه في آخرته ودنياه، ويكون سببًا لدوام الخيرات له، ويبقى ذكره له على مرِّ الأيام، ويخلدُ في سننه الحسنة، ويجد نفعه ﴿**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً**﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأما ما ذُكر من تمهيد السلطان البلاد، وإدامته الجهاد، وفتح الحصون، وقهر الأعداء، فهذا بحمد اللَّه من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها

الخاصة والعامة، وسارت في أقطار الأرض، ولله الحمد، وثواب ذلك مدَّخرٌ للسلطان إلى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

ولا حُجَّة لنا عند الله تعالى إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا.

والسلام عليكم، ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله رب العالمين»[١].

ومما كتبه لمَّا احتيطَ على أملاك دمشق ـ حرسها الله تعالى ـ بعد إنكاره مواجهة السلطان الظاهر، وعدم إفادته وقبوله:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين.

* قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٧].

* وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] وقد أوجب الله على المكلَّفين نصيحة السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ ونصيحة عامَّة المسلمين؛ ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الدِّينُ النَّصيحةُ؛ لله، ولكتابه، ورسوله، وأئمة المسلمين، وعامَّتهم**»[٢]. ومن نصيحة السلطان ـ وفَّقه الله لطاعته، وتولاه

---

(١) «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين» لابن العطار (ص١٠١ ـ ١٠٨).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» (١/ ٧٥)، والنسائي في «المجتبى» (٢/ ١٧٨)، وأبو داود في «السنن» (٥/ ٢٢٣)، والحميدي في «المسند» (٢/ ٣٦٩)، وأحمد في «المسند» (٤/ ١٠٢)، والبخاري في «التاريخ الصغير» (٢/ ٣٥)، وابن نصر في «تعظيم قدر =

بكرامته ـ أن تُنهى[١] إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام.

وأوجب اللَّه تعالى الشَّفقة على الرعية، والاهتمام بالضعفة، وإزالة الضرر عنهم.

* قال اللَّه تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

● وفي الحديث الصحيح: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنما تُنصرُونَ وتُرزَقُونَ بضعفائكم**»[٢].

● وقال ﷺ: «**من كَشَفَ عن مسلمٍ كربةً من كُرَبِ الدنيا، كَشَفَ اللَّه عنه كُربةً من كُرَبِ يوم القيامة، واللَّه في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه**»[٣].

● وقال ﷺ: «**اللَّهم من وَلِيَ من أمرِ المسلمين شيئًا، فَرَفَقَ بهم؛ فارفُق**

= الصلاة» (رقم ٧٤٧ و٧٤٩ و٧٥٠ و٧٥١)، وبيَّن أن محمد بن عجلان أدخل إسنادًا في إسناد، فجعل الحديث من مسند أبي هريرة. والصحيح أنه من حديث تميم الداري. وانظر حول هذا الأمر: «فوائد الليث بن سعد» (ص٥١ ـ ٥٥)، وكلام محققه عليه.

(١) أي: تُرفع إليه وتبلغ مسامعَه.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» (٦/ ٨٨)، والنسائي في «المجتبى» (٦/ ٤٥)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٤٥)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٢٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠، ٢٦)، و(٨/ ٢٩٠)، والدورقي في «مسند سعد بن أبي وقاص» (رقم ٥١)، والهيثم الشاشي في «مسنده» (ورقة ١٠/أ). وأبو طاهر المخلِّص، وأبو القاسم التيمي في «الترغيب»، كما في «النكت الظراف» (٣/ ٣١٩).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» (٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩)، وأبو داود في «السنن» رقم (٤٩٤٦)، والترمذي في «الجامع» رقم (١٤١٥، ١٩٣٠)، وابن ماجه في «السنن» (رقم ٢٢٥)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٢، ٢٩٦، ٥٠٠، ٥١٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

به، ومن شقَّ عليهم، فاشقُقْ عليه»[١] .

● وقال ﷺ : «كُلُّكم راعٍ، وكلكم مَسئولٌ عن رَعيَّته»[٢] .

● وقال ﷺ : «إن المُقسطينَ على مَنابرَ من نُورٍ على يمينِ الرحمنِ، الذينَ يَعدِلُونَ في حُكمِهم، وأهليهم، وما وُلُّوا»[٣] .

وقد أنعم اللَّه تعالى علينا، وعلى سائر المسلمين بالسلطان ـ أعز اللَّه أنصارهُ ـ فقد أقامه لنُصرة الدين والذَّبِّ عن المسلمين، وأذلَّ به الأعداءَ من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة، وأوقعَ الرُّعبَ منه في قلوب أعداء الدين وسائر الماردين، ومَهَّدَ له البلاد والعباد، وقمعَ بسببه أهل الزَّيغِ والفساد، وأمدَّهُ بالإعانة واللطف والسعادة.

فللَّه الحمد على هذه النعم المتظاهرة، والخيرات المتكاثرة، ونسألُ اللَّه الكريم دوامها له وللمسلمين، وزيادتها في خير وعافية، آمين.

* وقد أوجبَ اللَّه شكر نعمه، ووعده الزيادةَ للشَّاكرين، فقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

ولقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواعٌ من الضرر، لا يمكن التعبير عنها، وطُلِبَ منهم إثباتٌ لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا

---

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» (رقم ١٨٢٨)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٦٢، ٩٣، ٢٥٧، ٢٦٠)، وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» و«الأدب المفرد»، ومسلم، والنسائي، والترمذي، وعبدالرزاق، وأبو داود، وأبو عوانه، وابن الجارود في «المنتقى»، وأحمد، والطبراني في «الكبير».

(٣) أخرجه مسلم، وأحمد، والبخاري في «التاريخ»، والنسائي، والحميدي في «المسند»، والبغوي في «شرح السنة»، وعبدالرزاق في «المصنف»، والبيهقي في «السنن الكبرى».

تحلُّ عند أحد من علماء المسلمين، بل من في يده شيءٌ، فهو ملكه، لا يحلُّ الاعتراضُ عليه، ولا يُكلَّفُ بإثباته.

وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يُحِبُّ العمل بالشرع، ويُوصي نوَّابَهُ به، فهو أولى من عَمِلَ به، والمسئول إطلاق الناس من هذه الحوطة، والإفراج عن جميعهم، فأطلقهم، أطلقك اللَّه من كلِّ مكروه، فهم ضعفةٌ، وفيهم الأيتامُ، والأراملُ، والمساكينُ، والضعفةُ، والصالحونَ، وبهم نُنصَرُ، ونُغَاثُ، ونرزق، وهم سكان الشام المبارك، جيرانُ الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم، وسكان ديارهم، فلهم حُرماتٌ من جهات. ولو رأى السلطانُ ما يلحق الناس من الشدائد، لاشتَدَّ حُزنُه عليهم، وأطلقهم في الحالِ ولم يُؤخِّرهم، ولكن لا تُنهَى الأمورُ إليه على وجهها.

فباللَّه، أغث المسلمين، يُغثكَ اللَّه، وارفق بهم؛ يرفق اللَّه بك، وعجِّل لهم الإفراجَ قبل وقوعِ الأمطار، وتلف غلاتهم، فإن أكثرهم ورثُوا هذه الأملاك من أسلافهم، ولا يمكنهم تحصيلُ كتب شراء، وقد نُهبت كتبهم.

وإذا رفق السلطانُ بهم؛ حصل له دعاء رسول اللَّه ﷺ لمن رفق بأمته، ونصره على أعدائه؛ فقد قال اللَّه تعالى: ﴿إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وتتوفر له من رعيته الدَّعوات، وتظهر في مملكته البركاتُ، ويُبَارِكُ له في جميع ما يقصده من الخيرات.

● وفي الحديث عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَن سَنَّ سُنَّةً حسنةً؛ فله أجرُهَا وأجرُ من عَمِلَ بها إلى يومِ القيامة، ومن سَنَّ سُنَّةً سيِّئَةً؛ فعليه وزرُهَا ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يَومِ القِيَامَةِ**»[1]. فنسألُ اللَّه الكريم أن يوفِّقَ السلطانَ للسنن الحسنة التي يذكر بها إلى يوم القيامة، ويحميه من السنن السيِّئة.

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي وغيرهما.

فهذه نصيحتُنَا الواجبةُ علينا للسُّلطان، ونرجو من فضلِ اللَّه تعالى أن يلهمهُ اللَّه فيها القبولَ. والسلام عليكم ورحمه اللَّه.

الحمد للَّه رب العالمين، وصلواتُه وسلامُه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه[1].

❑ قال السخاوي: «وكان السبب في هذه الحوطة ـ كما صرّح به صاحب البدر السافر ـ: أن السلطان الظاهر بيبرس لما ورد دمشق بعد قتال التتار، ونزوحهم عن البلاد ولّى وكالة بيت المال شخصًا من الحنفية، فقال: إن هذه الأملاك التي بدمشق كان التتار قد استولوا عليها، فتملّكوها، على مقتضى مذهب الإمام أبي حنيفة[2] رحمه اللَّه. فوضع السلطان يده عليها، فقام جماعة من أهل العلم في ذلك، وكان الشيخ فيهم. (قلت) ـ أي السخاوي ـ: بل هو أعظمهم. قال: فكلّم السلطان في ذلك كلامًا فيه غلظَة، فظنَّ السلطان أن له مناصبَ يعزله عنها. فقيل له: ماله. انتهى كلام البدر.

❑ وقال الخطيب النونيني: إنه واقَفَ الظاهر غير مرة، بدار العدل بسبب الحوطة على بساتين دمشق وغير ذلك. وحُكي عن الظاهر أنه قال: أنا أفزع منه. أو ما هذا معناه. ولقد شاهدتُّه مرةً طلع إلى زاوية الشيخ خضر ـ بالجبل المشرف على المزة ـ وحدَّثه في أمرٍ، وبالغ معه وأغلظ له، فسمع الشيخ خضر كلامًا مؤلِمًا، فأمر بعض من عنده بإخراجه ودفعه، فما تأثر لذلك في ذات اللَّه ـ عز وجل ـ ولا رجع عن قَصْده؛ لنفع يجلِبُه لبعض المسلمين.

---

(١) «تحفة الطالبين» (ص ١٨٠ ـ ١١٤).

(٢) والجمهور على خلافه.

❑ وقال العماد ابن كثير: إنه قام على الظاهر في دار العدل في قضية الغوطة، لمّا أرادوا وضع الأملاك على بساتينها، فردّ عليهم ذلك، ووقى اللَّه شرَّها، بعد أن غضب السلطان وأراد البطش به، ثم بعد ذلك أحبّه وعظّمه، حتى كان يقول: أنا أفزع منه. انتهى كلام ابن كثير»[1].

ومما كتبه بسبب الفقهاء، لما رُسِم[2] بأن الفقيه لا يكون منزلاً في أكثر من مدرسة واحدة، وهذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

خَدَمةُ الشَّرع يُنهونَ أن اللَّه تعالى أمَرنا بالتَّعاونِ على البر والتَّقوى، ونصيحة ولاةِ الأمورِ، وعامَّة المسلمين، وأخذَ على العلماء العهد بتبليغِ أحكامِ الدين، ومناصحةِ المسلمين، وحثَّ على تعظيم حرماتِه، وإعظامِ شعائرِ الدين، وإكرامِ العلماء وتُبَّاعِهم.

وقد بلغَ الفقهاءَ بأنَّه رسم في حقِّهم بأن يُغيروا عن وظائفهم، ويُقطَعوا عن بعض مدارسهم، فتنكَّدت بذلك أحوالهم، وتضرَّروا بهذا التضييقِ عليهم، وهم محتاجونَ، ولهم عيالٌ، وفيهم الصالحون، والمشتغلون بالعلوم، وإن كان فيهم أفرادٌ لا يلتحقون بمراتب غيرهم، فهم منتسبونَ إلى العلمِ، ومشاركون فيه. ولا تخفى مراتبُ أهل العلم، وفضلهم، وثناءُ اللَّه تعالى عليهم، وبيانُه مزيَّتهم على غيرهم، وأنهم ورثَةُ الأنبياء ـ صلوات اللَّه وسلامه عليهم ـ وأن الملائكة ـ عليهم السلام ـ تضعُ أجنحتها لهم، ويستغفر لهم كل شيءٍ، حتى الحيتانُ. واللائقُ بالجنابِ العالي إكرامُ هذه الطائفةِ،

(١) ترجمة شيخ الإسلام النووي، للحافظ السخاوي (ص٤٥) طبع جمعية النشر والتأليف بالأزهر.

(٢) أي: كتب، و«المرسوم» ما يُصدره رئيس الدولة كتابة في شأنٍ من الشئون، فتكون له قوة القانون.

والإحسانُ إليهم، ومُعاضدتهم، ودفعُ المكروهاتِ عنهم، والنظر في أحوالهم، بما فيه الرفق بهم؛ فقد ثبت في «صحيح مسلم» عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**مَن ولي من أمرِ أُمتي شيئًا، فرَفَقَ بهم؛ فارفق به**».

● وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان يقول لطلبة العلم: مرحبًا بوصية رسول اللَّه ﷺ، إن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنَّ رجالاً يأتونَكُم يَتفقَّهون في الدين، فإذا أتوكم؛ فاستوصوا بهم خيرًا**»[1].

والمسئول أن لا يُغيَّر على هذه الطائفة شيءٌ، وتُستجلب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة، وقد ثبت في «صحيح البخاري» أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**هل تُنصرُونَ وتُرزَقُونَ إلا بِضُعَفَائكُم**».

وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك، حين أنكر عليه السلطان صرف الأموال الكثيرة في جهة طلبة العلم، فقال: أقمتُ لك بها جُندًا لا تردُّ سهامُهُم بالأسحار». فاستصوب فعلهُ، وساعدهُ عليه.

واللَّه الكريم يوفِّق الجنابَ دائمًا لمرضاته، والمسارعة إلي طاعاته.

والحمد للَّه رب العالمين، وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه وسلم.

وله ـ رحمه اللَّه تعالى ـ رسائلُ كثيرةٌ في كُلِّيات تتعلق بالمسلمين وجزئيات، وفي إحياء سننٍ نيِّرات، وفي إماتة بدع مظلمات، وله كلامٌ طويل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مواجهًا به أهل المراتب العاليات»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وعبدالرزاق في «المصنف»، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (ص١٧٦)، كلهم من طريق أبي هارون العبدي عمارة بن جُوين كذبه بعضهم. انظر «الميزان» (٣/ ١٧٣).

(٢) «تحفة الطالبين» (١١٥ ـ ١١٨)، و«ترجمة النووي» للسخاوي (ص٤٦ ـ ٤٧).

قال السخاوي مُعقِّبًا: «قلت: منها رسالة إلى نائب السلطنة بدمشق يطلب جمع الناس للاستسقاء، كتبها في يوم الأحد، حادي عشر جمادى الأولى، سنة ثمانٍ وستين وستمائة».

وقد ردّ فيها على من خذَّل في صلاة الاستسقاء، وجاء فيها: «فهذا المخذِّل مخطئ جاهل، بل إن اعتقد هذا، كان كافرًا؛ لأنّ ما فعله رسول اللَّه ﷺ هو الحق والصواب الذي يجب على كل مكلَّف الانقياد له، والمسارعة إلى قبوله، وانشراح الصدر له.

* قال اللَّه تعالى: ﴿لا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

* وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وكل ما خالف سنة رسول اللَّه ﷺ فهو البدعة والضلالة والغباوة والجهالة والسَّفاهة والرذالة، بل هذه طريقة الكفار في مدافعة دين الإسلام، ويأبى اللَّه إلا أن يتمّ نورَه، ولو كره الكافرون، ويجب على ولي الأمر ـ وفقه اللَّه لطاعته ـ إذا سمع كلام هذا الزاعم الجاهل الضّال الغاشم المتجاهل، وغيره ممّن يقول نحو هذا القول في مدافعة الحق والاعتراض على سنن رسول اللَّه ﷺ ـ أن يؤدب تأديبًا بليغًا ينزجر به هو وأمثاله، ويُشهر أمره، لينكفَ أهل الجهالة والضلالة عن مثل فعله، وليعلم أن المراد بالاستسقاء امتثال أمر اللَّه تعالى والاقتداء برسول اللَّه ﷺ وهو مصلحة فاخرة، وسعادة معجلة، ومنة من اللَّه تعالى، يُشكر على التوفيق لها. وأما نزول المطر فهو إلى اللَّه تعالى، وليس المراد بالاستسقاء تيقُّن نزول المطر».

وحثّ النووي في رسالته نائبَ السلطنة أن يأمر الناس قبل الخروج للاستسقاء، بالتوبة من المعاصي ومصالحة الأعداء، والصدقة وصيام ثلاثة

أيام، والخروج في اليوم الرابع صيامًا. ولمّا وصلت الرسالة لولي الأمر، أمرَ مُحتَسب البلد، فنادى ـ ساعته ـ في الناس بصيام ثلاثة أيام، أولّها يوم الإثنين الثاني عشر من جمادى الأولى، ثم خرج وليّ الأمر والناس يوم الخميس، الخامس عشر من الشهر المذكور واستسقوا، ثم سُقوا بعد ذلك بسبعة أيام سقيا عامة وترادفت أمطار كثيرة بعد أن حصل لكثير من الناس قنوطٌ، فللّه الحمد على نعَمِه، والتوفيق لإظهار شعائر دينه، ومتابعة رسوله ﷺ، والاعتناء بسنته.

وكتب ولي الأمر إلى نوابه في البلدان يأمرهم بالاستسقاء في اليوم الذي يستسقي فيه أهل دمشق، فامتثلوا لأمره في ذلك، فسُقوا كلُّهم في بلدانهم في الوقت المذكور، ثم وقعت في البلدان ثلوج كثيرة لم يُرَ في تلك السنين مثلها، وأبطل تضمين الخانات والخمور، وأُريقت على كل من وجدت عنده في دمشق وسائر بلاد الشام، ورفعت المنكرات ـ وللّه الحمد ـ رفعًا تامًّا بعد أن كانت شائعةً أفحش الشياع، وذلك في ربيع الآخر من السنة. ثم جعل اللّه الكريم في الغلات أنواع البركات، وأخصبت الغلات في جميع بلاد الشام إلى حدٍّ لم يُعهد مثله، من نحو ثلاثين سنة، ثم أعقب ذلك رُخصًا لكثرة الغلات، لم يُعهد مثله من نحو خمس عشرة سنة[1].

* بَيْنَ الإمام النَّووي وابنِ النّجار:

كان في دمشق شخصٌ ـ يُقال له: ابن النجار ـ «سعى في إحداث أمورٍ على المسلمين باطلة، فقام الشيخ ـ قدّس اللّه رُوحه ـ مع جماعة من علماء المسلمين فأزالوها بإذن اللّه تعالى، ونصر اللّه الحق وأهله، فغضب لذلك؛ لكراهيته مصلحة المسلمين ونصيحة الدين، وبعث إلى الشيخ يهدِّده، ويقول:

(١) «ترجمة النووي» للسّخاوي (ص٤٧ ـ ٤٩).

«أنت الذي تحزِّبُ العلماء على هذا». فكتب إليه الشيخ ـ قدَّس اللَّه روحه ـ كتابًا هذا صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمدُ للَّه رب العالمين.

من يحيى النووي.

اعلم أيُّها المقصِّر في التأهُّب لمعاده، التاركُ مصلحةَ نفسه في تهيئة جهازه له وزاده، أنِّي كنتُ لا أعلمُ كراهتك لنُصرةِ الدين، ونصيحة السلطان والمسلمين؛ حملاً منِّي لك على ما هو شأنُ المؤمنين، من إحسان الظنِّ بجميع الموحِّدين، وربما كنتُ أسمعُ في بعض الأحيانِ من يذكرك بغشِّ المسلمين، فأنكر عليه بلساني وبقلبي، لأنها غيبةٌ لا أعلم صحَّتها، ولم أزل على هذا الحال إلي هذه الأيام. فجرى ما جرى من قول قائل للسلطان ـ وفقه اللَّه لكريم الخيرات ـ: إن هذه البساتين يحلُّ انتزاعُها من أهلها عند بعض العلماء. وهذا من الافتراء الصريح، والكذب القبيح، فوجب عليّ وعلى جميع من علمَ هذا من العلماء أن يُبيِّنَ بُطلانَ هذه المقالة، ودحضَ هذه الشناعة، وأنها خلافُ إجماع المسلمين، وأنه لا يقول بها أحدٌ من أئمة الدين، وأن يُنهوا[1] ذلك إلى سلطان المسلمين، فإنه يجبُ على الناس نصيحته، لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«الدِّينُ النصيحة، للَّهِ، ولكتابه، ولرسوله، وأئمَّة المسلمين، وعامَّتهم»**.

وإمام المسلمين في هذا العصر هو السلطان ـ وفَّقه اللَّه تعالى لطاعته، وتولاه بكرامته ـ، وقد شاع بين الخواصِّ والعوام، أن السلطان كثير الاعتناء بالشرع، ومحافظٌ على العمل به، وأنه بنى المدرسة لطوائف العلماء،

(١) أي: يرفعوا.

ورتَّب القضاة من المذاهب الأربعة، وأمر بالجلوس في دار العدل؛ لإقامة الشرع، وغير ذلك، مما هو معروف من اعتناء السلطان ـ أعزَّ اللَّه أنصارهُ ـ بالشرع، وأنه إذا طلب طالبٌ منه العملَ بالشرعِ؛ أمر بذلك، ولم يخالفه.

فلما افترى هذا القائلُ في أمر البساتين ما افتراه، ودلَّس على السلطان، وأظهر أن انتزاعها جائزٌ عند بعض العلماء، وغشَّ السلطان في ذلك، وبلغ ذلك علماء البلد؛ وجب عليهم نصيحةُ السلطان، وتبيين الأمر له على وجهه، وأن هذا خلافُ إجماع المسلمين، فإنه يجب عليهم نصيحةُ الدين، والسلطان، وعامَّة المسلمين. فوفَّقهم اللَّه تعالى للاتفاقِ على كتب كتاب يتضمَّن ما ذكرتُه؛ على جهة النصيحة؛ للدين، والسلطان، والمسلمين، ولم يذكروا فيه أحدًا بعينه، بل قالوا: من زعم جوازَ انتزاعِهَا، فقد كذب، وكتب علماء المذاهب الأربعة خطوطهم بذلك؛ لِمَا يجب عليهم من النصيحة المذكورة، واتَّفقوا على تبليغها ولي الأمر ـ أدامَ اللَّه نِعَمَهُ عليه ـ لينصحوه، ويُبيِّنوا حكم الشرع.

ثم بلَّغني جماعاتٌ متكاثراتٌ في أوقاتٍ مختلفاتٍ ـ حصل لي العلم بقولهم ـ أنك كرهت سعيهم في ذلك، وسارعت في ذمِّ فاعل ذلك، وأسندت معظم ذلك كله إليَّ. ويا حبذا ذلك من صنيع. وبلّغني عنك هؤلاء الجماعات أنك قلت: قولوا ليحيى: هو الذي سعى في هذا، فينكفَّ عنه، وإلا أخذت منه دار الحديث.

وبلَّغني عنك هؤلاء الجماعاتُ أنك حلفتَ مراتٍ بالطلاق الثلاث أنك ما تكلَّمتَ في انتزاع هذه البساتين، وأنك تشتهي إطلاقها.

فيا ظالم نفسه، أما تستحي من هذا الكلام المتناقض، وكيف يصحُّ الجمع بين شهوتك إطلاقها وأنك لم تتكلم فيها، وبين كراهتك السَّعي في

إطلاقها ونصيحة السلطان والمسلمين؟!

ويا ظالم نفسه ، هل تعرَّض لك أحدٌ بمكروه، أو تكلم فيك بعينك؟ وإنما قال العلماءُ: من قال هذا للسلطان فقد كذب ودلَّس عليه، وغشَّه، ولم ينصحه؛ فإن السلطانَ ما يفعل هذا إلا لاعتقاده أنه حلالٌ عند بعضِ العلماء، فبيَّنوا أنَّه حرامٌ عند جميعهم. وأنت قد قلت أنك لم تتكلم فيها. وحلفتَ على هذا بالطلاقِ الثلاث، فأيُّ ضررٍ عليك في إبطال قول كاذبٍ على الشرع، غاشٍّ مدلس على السلطان، وقد قلت أنه غيرك؟! وكيف تكره السعي على شيءٍ قد أجمع الناسُ على استحسانه، بل هو واجب على من قدر عليه؟! وأنا ـ بحمد اللَّه ـ من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت، وأما نجاحُه، فهو إلى اللَّه تعالى، مقلِّب القلوب والأبصار.

ثم إني أتعجَّب العجب من اتِّخاذكَ إيَّاي خصمًا، ويا حبَّذا ذلك من اتخاذ؛ فإني ـ بحمد اللَّه تعالى ـ أحبُّ في اللَّه تعالى، وأُبغضُ فيه، فأُحبُّ من أطاعهُ، وأُبغض من خالفه، وإذا أخبرتَ عن نفسك بكراهتك السعي في مصلحة المسلمين، ونصيحة السلطان؛ فقد دخلت في جملة المخالفين، وصرت ممَّن نبغضه في اللَّه ربِّ العالمين؛ فإن ذلك من الإيمان؛ كما جاءت به الآثار الصحيحة، المنقولة بأسانيد الأئمة الأخيار[1] .

ارضَ لِمَنْ غَابَ عَنْكَ غَيْبَتَـهُ فَـذَاكَ ذَنْبٌ عِقَـابُهُ فِيـهِ

ويا ظالمَ نفسه، أنا خاصمتُك، أو كالمتُكَ، أو ذكرتُك، أو بيني وبينك مخاصمة، أو مُنازَعَة، أو معاملةٌ في شيءٍ؛ فما بالك تكره فعل خيرٍ يسرَّني

(١) يشير الإمام النووي إلى حديث: «من أحبَّ للَّه، وأبغض للَّه، وأعطى للَّه، ومنع للَّه، فقد استكمل الإيمان» أخرجه أبو داود في «السنن» (رقم ٤٦٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (رقم ٧٦١٣ و٧٧٣٧ و٧٧٣٨). والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٥٤)، والبيهقي في «الاعتقاد» ص(١٧٨ ـ ١٧٩) بإسنادٍ حسنٍ.

اللَّه الكريمُ له؟! ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

بل أنت لسوءِ نظركَ لنفسك تتأذَّى على نفسك، وتُشهِدُ الشهودَ بكراهة هذه النصيحة، التي هي مصرِّحة بأنك أنت الذي تكلَّمت في هذه البساتين، وأن الطلاقَ واقعٌ عليك، وما أبعدَ أن تكون شبيهًا بمن قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

ويا عدوَّ نفسه، أتُراني أكرَهُ مُعاداةَ من سلك طريقتك هذه؟! بل ـ واللَّه ـ أُحِبُّها، وأوثرها، وأفعلها بحمد اللَّه تعالى، فإنَّ الحُبَّ في اللَّه، والبُغضَ فيه، واجبٌ عليّ وعليك، وعلى جميعِ المكلَّفين، ولستُ أدري أي غرضٍ لك في حِرصك في الإنكار على السَّاعين في إعظام حُرُماتِ الدِّين، ونصيحة السلطان والمسلمين. فيا ظالم نفسه، انته عن هذا، وارجع عن طريقةِ المباهتين المعاندين.

وأعجَبُ من هذا تكريرُك الإرسال إليَّ ـ بزعمك الفاسد ـ كالمتوعِّد: إن لم ينكَفَّ أخذتُ منه دار الحديث.

فيا ظالمَ نفسه، وجاهلَ الخير وتاركه، أطّلعت على قلبي أنِّي متهافت عليها، أو علمت أنيَّ منحصرٌ فيها، أو تحقَّقت أنيَّ معتمدٌ عليها، مستندٌ إليها، أو عرفت أنيَّ أعتقدُ انحصار رزقي فيها، أو ما علمت ـ لو أنصفتَ ـ كيف كان ابتداءُ أمرها؟! أو ما كنت حاضرًا، مُشاهِدًا أخذي لها؟! ولو فُرِضَ تهافُتي عليها، أكنتُ أوثرها على مصلحةٍ عامةٍ للمسلمين، مشتملةٍ على نصيحة اللَّه، وكتابه، ورسوله ﷺ، والسلطان، وعامة المسلمين؟! هذا ما لم أفعله ولا أفعله، إن شاء اللَّه تعالى

وكيف تتوهم أنيَّ أترك نصيحة اللَّه ورسوله وسلطان المسلمين

وعامَّتِهم؛ مخافةً من خيالاتك؟! إن هذه لغباوةٌ منك عظيمة.

ويا عجبًا منك! كيف تقول هذا؟! أنت ربُّ العالمين؟! بيدك خزائن السماوات والأرض، وعليك رزقي ورزق الخلائق أجمعين؟! أم أنت سلطان الوقت؛ تحكم في الرَّعيَّة بما تريد؟!

فلو كنت عاقلاً؛ ما تهجَّمت على التَّفوُّه بهذا الذي لا ينبغي أن يقوله إلا ربّ العالمين، أو سلطان الوقت؛ مع أن سلطان الوقت منزَّهٌ عن قولك الباطل، مرتفعُ المحلِّ عن فعلِ ما ذكرتَ.

يا ظالمُ، فإن كنت تقول هذا استقلالاً منك؛ فقد افتأتَّ عليه، واجترأت على أمرٍ عظيم، ونسبته إلى الظلم عدوانًا، وإن كنتَ تقوله عنه، فقد كذبتَ عليه؛ فإنه ـ بحمد اللَّه ـ حسنُ الاعتقاد في الشرع، وذلك من نعم اللَّه تعالى عليه، والسلطان ـ بحمد اللَّه وفضله ـ أكثر اعتقادًا في الشرع من غيره، ومعظم حرُماته، وليس هو ممن يقابلُ ناصحَهُ بهذيانات الجاهلين، وتُرَّهات المخالفين، بل يقبلُ نصائحَهُم، كما أمره اللَّه تعالى.

واعلم أيُّها الظالمُ نفسه، أني ـ واللَّه الذي لا إله إلا هو ـ لا أترُكُ شيئًا أقدرُ عليه من السعي في مناصحةِ الدين والسُّلطان والمسلمين في هذه القضيَّة، وإن رغمت أنوفُ الكارهين، وإن كرهَ ذلك أعداءُ المسلمين، وفَرِقَ حزبُ المخذِّلين، وسترى ما أتكلم به، إن شاء اللَّه تعالى، عند هذا السلطان ـ وفَّقه اللَّه تعالى لطاعته، وتولاه بكرامته ـ في هذه القضية، غيرةً على الشرعِ، وإعظامًا لحُرمات اللَّه تعالى، وإقامةً للدين، ونصيحةً للسلطان وعامة المسلمين.

ويا ظالم نفسه، أجلب بخيلكَ ورجلكَ إن قدرتَ، واستعن بأهلِ المشرقين وما بين الخافقين؛ فإني ـ بحمد اللَّه ـ في كفايةٍ تامَّةٍ، وأرجو من

فضلِ اللَّه تعالى أنك لا تقوى لمنابذةِ أقل الناس مرتبةً، وأنا ـ بحمد اللَّه تعالى ـ ممَّن يودُّ القتلَ في طاعةِ اللَّه تعالى.

❑ أتقوى يا ضعيف الحِيَلِ لمنابذتي؟! أبلغك يا هذا أني لا أؤمنُ بالقدر، أو بلغكَ أني أعتقدُ أن الآجالَ تنقصُ، وأن الأرزاق تتغير[1] ؟! أما تفكِّرُ في نفسك في قبيحِ ما أتيتهُ من الفعالِ، وسوء ما نطقتَ به من المقال؟!

❑ أيا ظالمَ نفسه، من طلب رضا اللَّه تعالى تردُّه خيالاتُك، وتمويهاتُك، وأباطيلك، وتُرَّهاتُك؟!

❑ وبعد هذا كله، أنا أرجو من فضل اللَّه تعالى أن اللَّه يوفق السلطان ـ أدام اللَّه نعمهُ عليه ـ لإطلاق هذه البساتين، وأن يفعل فيها ما تقرُّ به أعينُ المؤمنين، ويرغِمُ أنف المخالفين، فإن اللَّه تعالى قال: ﴿والعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

❑ والسُّلطان ـ بحمد اللَّه تعالى ـ يفعل الخيرات، فما يتركُ هذه القضيَّةَ تفوتُه.

❑ واعلم أنك عندي ـ بحمد اللَّه تعالى ـ أقل مِنْ أنْ أهتم بشأنك، أو ألتفتُ إلى خيالاتك وبطلانك، ولكني أردتُ أن أعرِّفك بعض أمري؛ لتدخل نفسك في منابذةِ المسلمين بأسرهم، ومنابذةِ سلطانهم ـ وفَّقه اللَّه تعالى ـ على بصيرةٍ منك، وترتفع عنك جهالةُ بعض الأمر؛ ليكون دخولُك بعد ذلك معاندةً لا عذرَ لك فيها.

❑ ويا ظالم نفسه، أتتوهَّمُ أنه يخفى عليَّ وعلى من سلك طريق

---

(١) انظر رسالة «إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان» للشيخ مرعي الحنبلي. نشر دار عمار، و«تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل» للشوكاني ـ نشر دار ابن حزم تحقيق: مشهور حسن سليمان.

نصائحِ المسلمين وولاةِ الأمرِ وحُماةِ الدين أنا لا نعتقدُ صدقَ قول اللَّه تعالى: ﴿والعاقِبَةُ للمتَّقين﴾ [الأعراف: ١٢٨].

* وقوله تعالى: ﴿ولا يَحيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بأَهْلِه﴾ [فاطر: ٤٣].

* وقوله تعالى: ﴿والَّذين جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* وقوله تعالى: ﴿إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

* وقوله تعالى: ﴿وكانَ حقًّا علَيْنا نَصرُ المُؤْمنين﴾ [الروم: ٤٧].

● وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين على الحق، لا يضرُّهم خذلان من خذلهم**»[1].

والمراد بهذه الطائفة أهل العلم؛ كذا قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من أولي النُّهى والفهم.

● وقوله ﷺ: «**واللَّه في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه**».

هذا فيمن كان في عون واحدٍ من الناس، فكيف الظنُّ بمن هو في عون المسلمين أجمعين؛ مع إعظام حُرُمات الشرع، ونصيحة السلطان، وموالاته، وبذل النفس في ذلك؟!

❑ واعلم أني واللَّه لا أتعرَّضُ لك بمكروهٍ سوى أني أُبغضُكَ للَّه تعالى، وما امتناعي عن التعرُّض لك بمكروهٍ عن عجزٍ، بل أخافُ اللَّه ربَّ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وغيرهما بنحوه، من حديث المغيرة بن شعبة، والحديث وارد عن جمع من الصحابة، بلغ عددهم ستة عشر نفسًا من الصحابة، وعدّه ابن تيمية من الأحاديث المتواترة.

العالمين من إيذاءِ من هو من جملة الموحِّدين.

وقد أخبرني من أثِقُ بخبره وصلاحه، وكراماته وفلاحه، أنك إن لم تُبادر بالتوبةِ، حلَّ بك عقوبةٌ عاجلةٌ، تكون بها آيةً لمن بعدكَ، لا يأثمُ بها أحدٌ من الناس، بل هو عدلٌ من اللَّه تعالى، يوقعه بك؛ عبرةً لمن بعدك، فإن كنت ناظرًا لنفسك، فبادر بالرُّجوع، عن سوء فعالك، وتدارك ما أسلفتهُ من قبيحِ مقالك، قبل أن يحلَّ بك ما لا تُقالُ فيه عثرتُكَ، ولا تغترَّ بسلامتك وثروتك ووصلتكَ، وفكِّر في قول القائل:

قَدْ نَادَتِ الدُّنْيَا عَلَى نَفْسِهَا ... لَوْ كَانَ فِي العَالَمِ مَنْ يَسْمَعُ

كَمْ وَاثِقٍ بِالعُمْرِ وَارَيْتُهُ ... وَجَامِعٍ بَدَّدتُ مَا يَجْمَعُ

والسلام على من اتَّبَعَ الهدى، والحمد للَّه رب العالمين[1].

*** شيخ الإسلام ابن تيمية:**

شيخ المسلمين، ودرَّة الموحدين وبقيَّة السلف العاملين، سيرته تحتاج لمجلدات ضخام، ولكن:

قليلٌ منكَ يَكفيني ولكنْ ... قليلُكَ لا يُقَال له قليلُ

*** حديث ابن تيمية مع قازان:**

لما ظهر قازان على دمشق المحروسة، جاءه ملك الكُرج، وبذل له أموالاً كثيرة جزيلة على أن يُمكِّنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق، ووصل الخبر إلى ابن تيمية، فخرج ورجالٌ من وجوه دمشق وكبرائهم وذوي الأحلام منهم، في يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هجرية إلى حضرة قازان، فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟ فقيل: هم رؤساء

(١) «تحفة الطالبين» (ص١١٩ ـ ١٢٠)، و«ترجمة النووي» للسخاوي (ص٣٦، ٥٠ ـ ٥٥).

دمشق. فأذنَ لهم، فحضروا بين يديه، فتقدم الشيخ رحمه الله أولاً، فلما أن رآه أوقع اللَّه له في قلبه هيبة عظيمة، حتى أدناه وأجلسه، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولاً في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكُرج على المسلمين، وأخبره بحرمة دماء المسلمين، وذكّره ووعظه، فأجابه إلى ذلك طائعًا، وحُقنت بسببه دماء المسلمين، وحُميت ذراريهم، وصين حريمُهم.

❑ يقول الحافظ عمر بن علي البزار في «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية»: حدثني من أثق به، عن الشيخ وجيه الدين بن المنجّا قدس اللَّه روحه، قال: كنتُ حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ، فجعل ـ يعني الشيخ ـ يحدّث السلطان بقول اللَّه ورسوله في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه، حتى جثا على ركبتيه، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرب أن تُلاصِق ركبتُه ركبةَ السلطان، والسلطان مع ذلك مُقبلٌ عليه بكليته، مصغٍ لما يقول، شاخصٌ إليه، لا يُعرض عنه، وإن السلطان من شدة ما أوقعَ اللَّه في قلبه من المحبة والهيبة، سأل من يخصّه من أهل حضرته: من هذا الشيخ؟ وقال ما معناه: إني لم أر مثله ولا أثبت قلبًا منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقيادًا مني لأحد منه. فأُخبرَ بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل. فقال الشيخ للترجمان: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذّنون ـ على ما بلغنا ـ فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدَا فوفَّيا، وأنت عاهدت فغدرتَ، وقلت فما وفَّيت، وجُرتَ.

وسأله: إن أحببت أن أعمِّر لك بلد آبائك حرّان، وتنتقل إليه، ويكون برسمك؟ فقال: لا واللَّه، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم عليه السلام، وأستبدل به غيره. فخرج من بين يديه مُكرمًا معزَّزًا، قد صنع له اللَّه بما طوى عليه نيّته الصالحة من بذله نفسه في حقن دماء المسلمين؛ فبلّغه ما أراده.

وكان ذلك أيضًا سببًا لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم وردِّهم على أهلهم، وحفظ حريمهم[1].

بل خلّص أهل الذمَّة من النصارى واليهود؛ لأن التتار ومن معهم من ملوك النصارى كانت لهم عداوة مع أبناء دينهم، وكان بعضهم يفتك بالبعض الآخر، فقال ابن تيمية للقائد (بولاي)، وكان قد التحق مع قازان: بل جميع من معك من اليهود والنصارى، الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نفكهم ولا ندع أسيرًا، لا من أهل الملَّة، ولا من أهل الذمة.

❑ يقول ابن تيمية: وقد أطلقنا من النصارى من شاء اللَّه. فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على اللَّه.

❑ قال ابن تيمية: لن يخاف الرجل غير اللَّه إلا لمرضٍ في قلبه؛ فإن رجلاً شكا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة. فقال له: لو صححت لم تخف أحدًا.

فابن تيمية الخائف الوجل الذي يهاب ربَّه تهابُه الملوكُ.

وقد قصَّ ـ أيضًا ـ هذه القصة الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر بن قوام البالسي، وكان يوم قازانَ في جملة من كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لَمَّا تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان، وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل لقازان: أنت تزعم أنك مسلم، ومعك مؤذِّنون وقاضٍ وإمام وشيخ ـ على ما بلغنا ـ فغزوتَنَا، وبلغتَ بلادنا على ماذا؟! وأبوك وجدُّك (هولاكو) كانا كافرين، وما غزوا بلاد الإسلام، بل عاهدوا قومنا، وأنت عاهدتَّ فغدرت، وقلت فما وفَّيت. قال: وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونُوَب، قام ابن تيمية فيها كلَّها

(١) «الأعلام العَلِيَّة» (ص٦٩ ـ ٧٢).

للّه، وقال الحق، ولم يخش إلا اللّه عز وجل. قال: وقرّب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكلّه مما نهبتُم من أغنام الناس، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس! قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: اللّهم إن كان هذا ـ عبدك محمود ـ إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا، وليكون الدين كلُّه لك، فانصره وأيّده، وملّكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلبًا للدنيا، ولتكون كلمته هي العليا، وليذلَّ الإسلام وأهله، فاخذله وزلزله، ودمِّره واقطع دابره. قال: وقازان يؤمِّن على دعائه، ويرفع يديه. قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله. قال: فلما خرجنا من عنده، قال له قاضي القضاة نجم الدين بن صرصري وغيره: كدتَّ أن تُهلكنا وتُهلك نفسك، واللّه لا نصحبُك من هنا. فقال: وأنا واللّه لا أصحبكم. قال: فانطلقنا عُصبةً، وتأخَّر هو في خاصَّةِ نفسه، ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعت به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان، فأتوه يتبرَّكون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق، وينظرون إليه، قال: واللّه ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارسٍ في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأمَّا أولئك الذين أبوا أن يصحبُوه، فخرج عليهم جماعة من التَّتَر، فشلَّحوهم عن آخرهم[1].

❑ قال ابن كثير في «البداية والنهاية» في تاريخ سنة «أربع وسبعمائة»:

«وفي رجب أُحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخٌ كان يلبس دلقًا كبيرًا متَّسعًا جدًّا، يُسمَّى: المجاهد إبراهيم القطان، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق، فتناهبه الناس من كل جانبٍ وقطّعوه، حتى لم يدعُوا فيه شيئًا،

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٩١ ـ ٩٢).

وأمر بحلق رأسه، وكان ذا شعر، وقلّم أظفاره، وكانوا طوالاً جدًّا، وحَفّ شاربه المُسبَل على فمه، المخالف للسنة، واستتابه من كلامه الفَاحِش وأكل ما يغير العقل، من الحشيشة وما لا يجوز من المحرّمات وغيرها، وبعده استحضر الشيخ محمد الخباز البلاسي فاستتابه ـ أيضًا ـ عن أكل المحرمات ومخالطة أهل الذمة، وكتب عليه مكتوبًا أن لا يتكلم في تعبير المنامات، ولا في غيرها بما لا علم له به. وفي هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد التاريخ، وأمر أصحابه ومعهم حجارون بقطع صخرة كانت ـ بنهر قلوط ـ تُزار ويُنذر لها، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشِّرك بها، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرُّها عظيمًا، وبهذا وأمثاله حسدوه، وأبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه، فحُسد على ذلك وعُودي، ومع هذا لم تأخذه في اللَّه لومة لائم، ولا بالى، ولم يصلُوا إليه بمكروه، وأكثر ما نالوا به الحبس، مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يشينه، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه، وإلى اللَّه إيابُ الخلق وعليه حسابُهم.

وفي مستهلِّ ذي الحجة ركب الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين، ومعه نقيبُ الأشراف زين الدين ابن عدنان، فاستتابوا خلقًا منهم وألزموهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيَّدًا منصورًا»[1].

وعن أحداث سنة تسعٍ وسبعمائة يقول ابن كثير: «استهلَّتْ وخليفةُ الوقت المستكفي أمير المومنين... وسلطان البلاد، الملك المظفر، ركن الدين بيبرس الجاشنكير. وفي ليلة سلَخَ صفرُ توجّه الشيخ تقي الدين ابن تيمية من القاهرة إلى الإسكندرية بصحبة أمير مقدَّم، وكان دخوله إلى الإسكندرية يوم

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٦ ـ ٣٧).

الأحد، وبعد عشرة أيام وصل خبره إلى دمشق، فحصل عليه تألم، وخافوا عليه غائلة الجاشنكير وشيخه المنبجي، فتضاعف له الدعاء؛ وذلك أنهم لم يُمكّنوا أحدًا من أصحابه أن يخرج معه إلى الإسكندرية، فضاقت له الصدور، وذلك أنه تمكن منه عدوُّه نصر المنبجي، وكان سبب عداوته له أن الشيخ تقي الدين كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجي، ويقول: زالت أيامه، وانتهت رياسته، وقرُب انقضاءُ أجله. ويتكلم فيهما، وفي ابن عربي وأتباعه، فأرادوا أن يُسيّروه إلى الإسكندرية ـ كهيئة المنفى ـ لعل أحدًا من أهلها يتجاسرُ عليه فيقتله غيلةً، فما زاد ذلك الناس إلا محبة فيه، وقربًا منه، وانتفاعًا به، واشتغالاً عليه، وحُنُوًّا وكرامة له.

وجاء كتابٌ من أخيه يقول فيه: إن الأخ الكريم نزل بالثَّغر المحروس على نية الرباط؛ فإن أعداء اللَّه قصدوا بذلك أمورًا يكيدونه بها، ويكيدون الإسلام وأهله، وكانت تلك كرامةً في حقنا، وظنوا أن ذلك يُؤدي إلى هلاك الشيخ، فانقلبت عليهم مقاصدُهم الخبيثة، وانعكست من كل الوجوه، وأصبحوا وأمسوا، وما زالوا عند اللَّه وعند الناس العارفين سُودَ الوجوه، يتقطعون حَسَرات وندمًا على ما فعلوا. وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مُقبلين عليه مُكرمين له، وفي كل وقتٍ ينشر من كتاب اللَّه، وسنة رسوله ما تقرُّ به أعين المؤمنين، وذلك شجًى في حُلُوق الأعداء.

واتُّفق أنه وجد بالإسكندرية إبليس[1] قد باض فيها وفرّخ، وأضلّ بها فرق السبعينية والعربية، فمزّق اللَّه بقدومه عليهم شملهم، وشتَّتَ جموعَهم شَذَرَ مَذَرَ، وهتك أستارهم وفضحهم، واستتاب جماعةً كبيرةً منهم، وتوّب رئيسًا من رؤسائهم، واستقر عند عامّة المؤمنين وخواصّهم من أميرٍ، وقاضٍ

(١) كُنية إبليس: الشيخ أبو مرَّة.

وفقيه، ومُفت وشيخ، وجماعة المجتهدين ـ إلا من شَذّ من الأغمار الجهّال، مع الذلة والصَّغار ـ محبةُ الشيخ وتعظيمهُ وقبول كلامه، والرجوع إلى أمره ونهيه، فعلت كلمةُ اللَّه بها على أعداء اللَّه ورسوله، ولُعنوا سرًّا وجهرًا، وباطنًا وظاهرًا في مجامع الناس بأسمائهم الخاصَّة بهم، وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد، ونزل به من الخوف والذل ما لا يُعبَّر عنه»[1].

* ابن تيمية والأحمدية الرفاعية:

عن سنة خمسٍ وسبعمائة يقول ابن كثير: «وفي يوم السبت تاسع جمادى الأولى حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق، وحضر الشيخ تقي الدين ابن تيمية، فسألوا من نائب السلطنة بحضرة الأمراء أن يكُفّ الشيخ تقي الدين إمارَته عنهم، وأن يُسلم لهم حالهم، فقال لهم الشيخ: هذا ما يمكن. لا بد لكلٍّ أحدٍ أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولاً وفعلاً، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه. فأرادوا أن يفعلوا شيئًا من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم، فقال الشيخ: تلك أحوالٌ شيطانية باطلة، وأكثر أحوالهم من باب الحِيَل والبهتان، ومن أراد منهم أن يدخل النار، فليدخل أولاً إلى الحمّام وليغسل جسده غسلاً جيدًا، ويدلّكه بالخل والأشنان، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقًا، ولو فُرض أنّ أحدًا من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل، فإن ذلك لا يدلّ على صلاحه ولا على كرامته، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالفة للشريعة إلا إذا كان صاحبها على السنة، فما الظن بخلاف ذلك. فابتدر شيخ المنيع، الشيخ صالح وقال: نحن أحوالنا إنما تنفق عند التتر، ليست تنفق عند الشرع. فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة وكثر الإنكار عليهم من كل أحد،

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٥١ ـ ٥٢).

ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم، وأنّ من خرج عن الكتاب والسنة ضُربت عنقُه.

وصنّف الشيخ جزءًا في طريقة الأحمدية، وبيّن فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيُّلاتهم، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب، وأظهر اللَّه السنة على يديه، وأخمد بدعتهم، وللَّه الحمد والمنَّة»[١].

ويحلو لنا أن نبسُط هذه القصة بقلم ابن تيمية نفسه:

*** ابن تيمية يُخزي دَجَاجِلَة البطائحية:**

ظهرت في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية جماعة تسمى بالبطائحية، وهم الأحمدية الرفاعية[٢]، وينتسبون إلى الزهد والتصوف، ويدَّعون التأله والتعبد، ولكنهم يقومون بأعمالٍ شركية، ويُظهرون بدعًا ما أنزل اللَّه بها من سلطان، ويحتالون لنيل أغراضهم بالكذب والتلبيس على الناس، ويُظهرون أعمالاً وخوارقَ يدلّلون بها على أن طريقهم حقٌّ وصدق، كالدخول في النار، وملامسة الحيَّات، وإظهار الدم واللاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك، وقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية في وجه باطلهم، وأنكر عليهم ما خالفوا فيه أحكام الإسلام، وسنَّة الرسول ﷺ، وجَرَت بينه وبين رجالهم وزعمائهم مراجعاتٌ ومحاوراتٌ، فأقام عليهم الحجة، وكشف باطلهم، ثمَّ ناقشهم في محفلٍ عامٍّ، حضر فيه الأمراء والقوَّاد والعلماء، وكثير من أهل دمشق وغيرهم، وسنذكر طرفًا مما جرى بينه وبينهم مما ذكره شيخ الإسلام نفسه[٣].

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٨).

(٢) الشيخ أحمد الرفاعي بريء منهم؛ لأنه من شيوخ أهل السنة والجماعة، أثنى عليه ابن تيمية، والحافظ الذهبي في «السير»، وكفى بهذا تعديلاً له.

(٣) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١١/ ٤٤٥ ـ ٤٤٧).

فمن ذلك أن شيخًا منهم استدل على باطله بأنَّه كان عند بعض أمراء التَّتر بالمشرق، وكان له صنم يعبده، فقال له الأمير التتري: هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كلَّ يوم، ويبقى أثر الأكل في الطعام بيِّنًا يُرى فيه. فأنكر الشيخ ذلك، فقال له الأمير التتري: إن كان يأكل، فأنت تموت. فقال الشيخ: نعم. قال: فأقمت عنده إلى نصف النهار، ولم يظهر في الطعام أثر، فاستعظم ذلك التتري، وأقسم بأيمانٍ مغلَّظة أنه كلَّ يوم يَرى فيه أثر الأكل، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك. فقال شيخ الإسلام: أنا أبيِّن لك سبب ذلك؛ ذلك التتري كافر مشرك، ولصنمه شيطان يغويه بما يُظهره من الأثر في الطعام، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد اللَّه تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة إلى أمثالك، فالتتري وأمثاله سُودٌ، وأهل الإسلام المحْض بيضٌ، وأنتم بلَق، فيكم سواد وبياض، فأعجب هذا المثل من كان حاضرًا.

*** نهي الشيخ لهم عن التعبُّد بما لم يشرعه اللَّه:**

❑ قال شيخ الإسلام: جاءني جماعة منهم مع شيخ لهم من شيوخ البر، مطوَّقين بأغلال الحديد في أعناقهم، وهو وأتباعه معروفون بأمور، وكان يحضر عندي مرّاتٍ فأخاطبه بالتي هي أحسن؛ فلما ذكر الناس ما يُظهرونه من الشعار المبتدع الذي يتميزون به عن المسلمين، ويتخذونه عبادة ودينًا يوهمون به الناس أن هذا سرٌّ من أسرارهم، وأنه سِيمَاء أهل الموهبة الإلهية السالكين طريقهم ـ أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه ـ خاطبتُه في ذلك في المسجد الجامع، وقلت: هذا بدعة لم يشرعها اللَّه تعالى ولا رسوله، ولا فعل ذلك أحدٌ من سلف هذه الأمة، ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم، ولا يجوز التعبُّد بذلك، ولا التقرُّب به إلى اللَّه تعالى؛ لأنَّ عبادة اللَّه بما لم يشرعه ضلالة، ولباسُ الحديدِ على غير وجه التعبد قد كَرِهَه

من كرهه من العلماء؛ للحديث المرويّ في ذلك وهو أن النبي ﷺ رأى على رجل خاتمًا من حديد فقال: «**ما لي أرى عليك حليةَ أهل النار؟**»[1].

وقد وصف اللَّه تعالى أهل النار بأنَّ في أعناقهم الأغلال، فالتشبه بأهل النار من المنكرات.

● وقال بعض الناس: قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا، قال في آخره: «أحبُّ القيد وأكره الغُلَّ. **القيد ثبات في الدين**» فإذا كان مكروهًا في المنام فكيف في اليقظة؟!..

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحوًا منه مع زيادة. وخوَّفته من عاقبة الإصرار على البدعة. وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيتُ أكثره لبعد عَهدي به. وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبُّد بها ـ باتفاق المسلمين ـ ولا التقرب بها إلى اللَّه، ولا اتخاذها طريقًا إلى اللَّه وسببًا لأن يكون الرجل من أولياء اللَّه وأحبائه، ولا اعتقاد أن اللَّه يحبها أو يحب أصحابها كذلك، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيرًا عند اللَّه وقربةً إليه، ولا أن يُجعل شعارًا للتائبين المريدين وجه اللَّه، الذين هم أفضل ممن ليس مثلَهم.

* التقرُّب إلى اللَّه بفعل المباح والمكروه والحرام:

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به، وهو أنَّ المباحات إنَّما تكون مباحة إذا جُعلت مباحات، فأمَّا إذا اتُّخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك دينًا لم يشرعه اللَّه، وجعلُ ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها، فلا حرام إلا ما حرَّمه اللَّه؛ ولا دين إلا ما شرعه اللَّه؛ ولهذا عظُمَ ذمُّ اللَّه في القرآن لمن شرع دينًا لم يأذن اللَّه به، ولمن

(١) **صحيح**: رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان عن بريدة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٦٦٤).

حرّم ما لم يأذنِ اللَّه بتحريمه. فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم، لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة اللَّه أن يطيعه، بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل، عند أحمد وغيره. وعند آخرين لا شيء عليه، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة طاعةً وعبادةً.

*** العهود التي تؤخذ على الناس مخالفة للكتاب والسنَّة:**

ونحو ذلك العهود التي تُتَّخذ على الناس لالتزام طريقةِ شيخٍ معيَّنٍ، كعهود أهل «الفُتُوَّة»، و«رُمَاة البندق»، ونحو ذلك، ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدِّين والطاعة للَّه إلا ما كان دينًا وطاعةً للَّه ورسوله في شرع اللَّه. لكن قد يكون عليه كفارة عند الحِنْثِ في ذلك؛ ولهذا أمرتُ غير واحد أن يعدلَ عما أُخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحةٍ، أو مشتملة على أنواعٍ من البدع، إلى ما هو خيرٌ منها من طاعة اللَّه ورسوله ﷺ، واتباع الكتاب والسنَّة؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل: إنه قربة وطاعة وبرٌّ، وطريق إلى اللَّه، واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر اللَّه به ورسوله ﷺ؛ وذلك يُعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك، وما عُلم باتفاق الأمّة أنَّه ليس بواجب ولا مستحبٍّ، ولا قربة؛ لم يَجُزْ أن يُعتقد، أو يُقال: إنه قربة وطاعة.

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى اللَّه، ولا التعبُّد به، ولا اتخاذه دينًا، ولا عَمَلُه من الحسنات، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول، ولا بإرادة وعمل. وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء، يرون الشيء إذا لم يكن محرَّمًا لا يُنهى عنه، بل يقال: إنه جائز. ولا يفرقون بين اتخاذه دينًا وطاعة وبرًّا، وبين استعماله كما تُستعمل

المباحات المحضة، ومعلوم أن اتخاذه دينًا بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما، أو بالقول أو بالعمل بهما ـ من أعظم المحرّمات وأكبر السيئات، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يُعلم أنها مَعَاصٍ وسيئات.

*** نفاق ومداهنة:**

فلما نهيتُهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة، ومَضَت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين، وإظهار ما يخالف شِرْعة المسلمين، ويطلبون الإيقاع بهم، وأنا أسلك مسلك الرِّفق والأنَاة، وأنتظر الرجوع والفيئة، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) المسجد الجامع. وكان قد كتب إلي كتابًا بعد كتابٍ، فيه احتجاج واعتذار، وعتبٌ وآثار، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة، بل إمَّا أحاديث موضوعة، أو إسرائيليات غير مشروعة، وحقيقة الأمر الصَّدُّ عن سبيل اللَّه، وأكل أموال الناس بالباطل.

*** شيخ الإسلام يطلب شيخَهم للمناظرة:**

فقلت لهم: الجواب يكون بالخطاب؛ فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك. وحضر عندنا منهم شخصٌ فنزعنا الغُلَّ من عنقه. وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر اللَّه تعالى ورسوله ﷺ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]؛ ولهذا غَالِبُ وجدهم هوًى مطلقٌ، لا يدرون من يعبدون، وفيهم شَبَه قوي من النصارى الذين قال اللَّه تعالى فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]؛ ولهذا كان السلف يُسَمُّونَ أهل البدع: أهل الأهواء.

* رَفْضُهم للحجَاج وإظهارهم الدَّجَل والتَّهريج:

فَحَمَلَهم هواهُم على أن تجمعوا تجمُّع الأحزاب، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب، بالأحوال التي يعدونها للغلاب. فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر اللَّه ورسوله ﷺ، ونتفق على اتباع سبيله، فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو - على ما ذكر لي - وهم من الصيِّاح والاضطراب، على أمر من أعجب العُجاب. فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعذرة، وطلبًا للبيان والتبصرة، ورجاءَ المنفعة والتذكرة. فعمدوا إلى القصر مرة ثانية، وذكر لي أنهم قدِموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد، واضطراب الرءوس والأعضاء، والتقلُّب في نهر بَرَدَى، وإظهار التَّولُّه الذي يُخيِّلون به على الورى، وإبراز ما يدَّعونه من الحال والمُحَال، الذي يسلمه إليهم من أضلوا من الجهال.

* بين البطائحية والأمير:

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر. وسأل عنهم، فقيل له: هم مشتكُون، فقال: ليدخل بعضهم. فدخل شيخهم، وأظهر من الشكوى عليَّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلامًا كثيرًا لم يبلغني جميعه، لكن حدثني من كان حاضرًا أن الأمير قال لهم: فهذا الذي يقوله من عنده، أو يقوله عن اللَّه ورسوله ﷺ؟ فقالوا: بل يقوله عن اللَّه ورسوله ﷺ. قال: فأيّ شيء يُقال له؟ قالوا: نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا. قال: فنسمع كلامه، فمَن كان الحق معه نصرناه. قالوا: نريد أن تشدَّ منا. قال: لا، ولكن أشدُّ من الحقِّ، سواء كان معكم أو معه. قالوا: ولا بدَّ من حضوره؟ قال: نعم. فكرَّروا ذلك، فأمر بإخراجهم. فأرسل إليَّ بعض خواصّه من أهل الصدق

والدين ممن يَعرفُ ضلالَهم، وعَرَّفني بصورة الحال، وأنه يريد كشف أمر هؤلاء.

*** نُصْح شيخ الإسلام لهم:**

فلمّا علمتُ ذلك أُلقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده اللَّه من إظهار الدين، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين، لانتشارهم في أقطار الأرضين، وما أحببتُ البغي عليهم والعدوان، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان، فأرسلت إليهم من عَرَّفهم بصورة الحال، وأني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال، وكثُر فيكم القيل والقال، وأن من قعد أو قام قُدَّامَ رماحِ أهل الإيمان، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان. فاجتمعوا، وأشار عليهم شيوخُهم بإظهار موافقة الشريعة، والخروج عما يُنكر عليهم من البدع. وقال لهم شيخهم: أحوالنا تَظهر عند التتار، لا عند شرع محمد بن عبداللَّه، ونزعوا الأغلال من الأعناق، وأجابوا إلى الوفاق.

*** الأمير يُصرُّ على كشف باطلهم:**

ولكن الأمير أصرّ على عقد المناظرة، لكشف باطلهم، وألزمَهم بالحضور.

*** شيخ الإسلام يستنْصرُ ربَّه:**

قال ـ رحمه اللَّه ـ: فاستخرتُ اللَّه تعالى تلك الليلة، واستعنته واستنصرته واستهديته، وسلكتُ سبيل عباد اللَّه في مثل هذه المسالك، حتى أُلقِيَ في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك[1]، وأنها تكون بَرْدًا

(١) يقول الشيخ عمر الأشقر معلّقًا في كتابه «جَولةٌ في رياض العلماء» (ص١٨٩): رحمه اللَّه، ما كان أسخاه بنفسه في سبيل إظهار دين اللَّه.

وسلامًا على من اتَّبع ملةَ الخليل، وأنها تحرق أشباهَ الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل. وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم ـ إمام الحنفاء ـ بنواحي البطائح منضمين إلى مَن يُضاهيهم من نصارى الدَّهماء.

وبَينَ الصابئةَ ومن ضَلَّ من العباد المنتسبين إلى هذا الدين نَسَبٌ يعرفه من عرف الحق المبين. فالغالية من القرامطة والباطنية، كالنصيرية والإسماعيلية، يخرجون إلى مُشابهة الصابئة الفلاسفة، ثم إلى الإشراك، ثم إلى جحود الحق تعالى. ومن شركهم الغلوُّ في البشر، والابتداع في العبادات، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك، بحسب ما هو به لائق، كالملحدين من أهل الاتحاد، والغالية من أصناف العباد.

* استثارتُهم للناس وجَمْعُهم الأعوانَ والأنصار:

فلما أصبحنا ذهبتُ للميعاد، وما أحببت أن أستصحب أحدًا للإسعاد، لكن ذهب أيضًا بعض من كان حاضرًا من الأصحاب، واللَّهُ هو المسبِّبُ لجميع الأسباب. وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء، وقالوا أنواعًا مما جرت به عادتُهم من التلبيس والافتراء، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء، مثل زَعمهم أنّ لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء، وأنّ لهم طريقًا لا يعرفها أحد من العلماء. وأن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المَنيفة، وأن المُنكِر عليهم هو آخذٌ بالشرع الظاهر، غيرُ واصل إلى الحقائق والسرائر، وأن لهم طريقًا وله طريق، وهم الواصلون إلى كُنْهِ التحقيق. وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق.

* سببُ انتشارِهم في ديار الإسلام:

وكانوا لِفَرط انتشارهم في البلاد، واستحواذهم على الملوك والأمراء

والأجناد؛ لخفاء نور الإسلام، واستبدال أكثر الناس بالنورِ الظلامَ، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار ـ لهم في القلوب موقع هائل، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل.

*** أنصار الباطل:**

قال المخبُر: فغدا أولئك الأمراءُ الأكابر، وخاطبوا فيهم نائبَ السلطان بتعظيم أمرهم الباهر. وذَكَر لي أنواعًا من الخطاب، واللَّه تعالى أعلم بحقيقة الصواب، والأمير مستشعر ظهورَ الحق عند التحقيق، فأعاد الرسول إليّ مرة ثانية فبلغتُه أنَّا في الطريق. وكان كثير من أهل البدع الأضدَّاد ـ كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد ـ مُجدِّين في نصرهم بحسب مقدورهم، مجهزين لمن يُعينهم في حضورهم. فلما حضرتُ وجدتُ النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع، متطلعين إلى ما سيكون، طالبين للاطلاع.

*** كذِبُهم على الشيخ، وفضْح الشيخ لهم، وكشْفُه لباطلهم:**

فلما وصل الشيخ ذكر له نائب السلطان وغيره أنهم قالوا: إن الشيخ طلبهم للامتحان، وأن يُحموا الأطواقَ نارًا ويَلبسونها. فأكذبَ ذلك، وقال للأمير: نحن لا نستحلُّ أن نأمر أحدًا بأن يدخل نارًا، ولا تجوز طاعة من يأمر بدخول النَّار، وفي ذلك الحديث الصحيح. وهؤلاء يكذبون في ذلك، وهم كذَّابون مبتدعون، قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما اللَّه به عليم. وذكرت تلبيسَهم على طوائف من الأمراء، وأنهم لبَّسوا على الأمير المعروف بالأيدمري، وعلى قفجق نائب السلطنة، وعلى غيرهما، وقد لبَّسوا أيضًا على الملك العادل ـ كتغا ـ في مُلكه، وفي حالة ولاية حماة، وعلى أمير السلاح، أجلِّ أمير بديار مصر. وضاق المجلس عن حكاية جميعِ

تلبيسهم، فذكرتُ تلبيسهم على الأيدمري، وأنهم كانوا يُرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة، ثم يخبرونه بها على طريق المُكاشفة، ووعدوه بالمُلْك، وأنهم وعدوه أن يُرُوه رجالَ الغيب، فصنعوا خُشبًا طوالاً، وجعلوا عليها مَن يمشي كهيئةِ الذي يلعب بأكر الزجاج، فجعلوا يمشون على جبل المزة، وذلك يَرى من بعيدٍ قومًا يطوفون على الجبل، وهم يرتفعون عن الأرض، وأخذوا منه مالاً كثيرًا، ثم انكشف له أمرهم.

قلت للأمير: وولدُه الذي هو في حلقة الجيش يعلم ذلك، وهو ممن حدثني بهذه القصة، وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم، وأوهموه أن الموتى تتكلم، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجلٍ زعموا أنَّه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان، ولم يُقربوه منه، بل من بعيد؛ لتعود عليه بركته، وقالوا: إنه طلب منه جملةً من المال. فقال قفجق: الشيخ يكاشف، وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله. وتَقرَّب قفجق منه وجذَب الشَّعَر، فانقلع الجِلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز. فذكرت للأمير هذا؛ ولهذا قيل لي: إنه لما انقضى المجلس، وانكشف حالهم للناس، كتب أصحاب قفجق إليه كتابًا، وهو نائب السلطنة بحماة يخبره بصورة ما جرى.

وذكرتُ للأمير أنهم مُبتدِعون بأنواعٍ من البدع، مثل الأغلال ونحوها، وأنا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة. فذكر الأمير حديث البدعة، وسألني عنه، فذكرت حديث العرباضِ بن سارية، وحديث جابر بن عبدالله، وقد ذكرتُهما بعد ذلك بالمجلس العام، كما سأذكره.

* الشيخ مستعد لدخول النار لكشْف باطِلهم:

قلت للأمير: أنا ما امتحنتُ هؤلاء، لكن هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار، وأن أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك، ويقولون

لنا: هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشّرع، ليس لهم أن يعترضوا علينا، بل يُسلِّم إلينا ما نحن عليه، سواء وافق الشرع أو خالفه. وأنا قد استخرتُ اللَّه سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم، ومن احترقَ منّا ومنهم فعليه لعنة اللَّه وكان مغلوبًا، وذلك بعد أن نغسل جسومَنا بالخلّ والماء الحارّ.

* حيلة دخول النار:

فقال الأمير: ولِمَ ذاك؟ قلت: لأنهم يَطلُون جسومَهم بأدوية يصنعونها من دُهن الضفادع، وباطنِ قشر النارنج، وحجرِ الطلق، وغير ذلك من الحِيل المعروفة لهم. وأنا لا أطلي جلدي بشيء، فإذا اغتسلتُ أنا وهم بالخّل والماء الحار، بطُلت الحيلة وظهر الحق. فاستعظم الأميرُ هجومي على النار، وقال: أتفعل ذلك؟ فقلت له: نعم، قد استخرت اللَّه في ذلك، وألقى في قلبي أن أفعله، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأمَّة محمد ﷺ، المتبعين له باطنًا وظاهرًا ـ لحُجَّةٍ أو حاجةٍ، فالحجة لإقامة دين اللَّه، والحاجة لما لا بد منه، من النصر والرزق الذي به يقوم دين اللَّه. هؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطل دين اللَّه وشرعه، وجب علينا أن ننصر اللَّه ورسوله ﷺ، ونقوم في نصر دين اللَّه وشريعته، بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا، فلنا حينئذٍ أن نعارض ما يُظهرونه مِن هذه المخاريق، بما يؤيدنا اللَّه به من الآيات.

وليُعلمْ أن هذا مثلُ معارضة موسى للسحرة، لّما أظهروا سحرهم أيَّد اللَّه موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم. فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السّماط بذلك، وفرح بذلك، وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحدٌ على ردِّه. وسمعتُه يخاطب الأمير

الكبير الذي قَدِم من مصر (الحاج بهادر) ـ وأنا جالسٌ بينهما على رأس السّماط ـ بالتركي، ما فهمتُه منه إلا أنه قال: اليوم ترى حربًا عظيمًا. ولعل ذاك كان جوابًا لمن كان خاطبه فيهم، على ما قيل.

*** الأمير يُصرُّ على البيان:**

وحضر شيوخهم الأكابر، فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح، وإطفاءَ هذه القضية، ويترفقون، فقال الأمير: إنما يكون الصُّلح بعد ظهور الحق. وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر، أنا وهو وبَهَادر، فسمعتُه يذكر له أيُّوب الحمّال بمصر، والمُولَهين ونحو ذلك، فدلَّ ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظَّمة، وأن له فيهم ظنًّا حسنًا، واللَّه أعلم بحقيقة الحال؛ فإنه ذكر لي.

وكان الأمير أحبَّ أن يُشهد (بهادر) هذه الواقعة ليتبيَّن له الحقّ، فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده، وقد قدِم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه، فأمر ببساط يُبسط في الميدان. وقد قدم البطائحية، وهم جماعة كثيرون، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية، من الإزباد والإرغاء، وحركة الرءوس والأعضاء، والطفر والحبو والتقلُّب، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات، والحركات الخارجة عن العادات، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ الآية. [لقمان: ١٩]. فلما جلسنا وقد حضر خَلق عظيم من الأمراء والكتّاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم، وحضر شيخهم الأوَّلُ المشتكي، وشيخ آخر يُسمي نفسه: خليفةَ سيِّده أحمد، ويركب بعلمين، وهم يسمُّونه: عبداللَّه الكذَّاب. ولم أكن أعرف ذلك. وكان من مدة قد قدِم عليَّ منهم شيخٌ بصورةٍ لطيفة، وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيتُه طلبَتَه، ولم أتفطّن لكذبه، حتى فارقني، فبقي في نفسي أن هذا خفيَ عليَّ تلبيسُه

إلى أن غاب، وما يكاد يخفى عليَّ تلبيسُ أحد، بل أُدركه في أول الأمر، فبقي ذلك في نفسي، ولم أره قطُّ إلى حين ناظرتُه، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديمًا، فتعجبتُ من حسن صنع اللَّه، أنه هتكه في أعظم مشهد يكون، حيث كتم تلبيسَه بيني وبينه.

فلما حضروا تكلّم منهم شيخٌ ـ يقال له: حاتم ـ بكلامٍ مضمونه طلبُ الصلح، والعفو عن الماضي والتوبة، وأنا مُجيبون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع، ومُتّبعون للشريعة. فقلت: أما التوبة فمقبولة. قال اللَّه تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣] هذه إلى جنب هذه. وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

* ردُّ الشيخ عليهم في بدعةِ لُبْسِ أطواق الحديد:

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للُبسهم الأطواق، وذكر أن وَهْبَ بنَ مُنبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابدٌ، وأنه جعل في عنقه طوقًا، في حكاية من حكايات بني إسرائيل، لا تثبت. فقلت لهم: ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا؛ قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبداللَّه رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة، فقال: «**أمُتهوِّكونَ يا ابن الخطاب؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًّا، ثم اتبعتموه وتركتموني لَضللتم**». وفي مراسيل أبي داود أن النبي ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئًا من كتب أهل الكتاب، فقال: «**كفى بقومٍ ضلالة أن يتبعوا كتابًا غيرَ كتابهم، أُنزل إلى نبي غير نبيهم**»، وأنزل اللَّه تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. [العنكبوت: ٥١].

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى، فيما علمنا أنَّه أُنزل عليهما من عند اللَّه، إذا خالف شرعنا، وإنَّما علينا أن نتَّبع ما أُنزل علينا من ربنا، ونتّبع الشرعة والمنهاج الذي بعث اللَّه به إلينا رسولَنا. كما قال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الآية [المائدة: ٤٨]. فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تُعلَم صحتها؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل؟! ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١]. هاتِ ما في القرآن، وما في الأحاديث الصِّحاح، كالبخاري ومسلم. وذكرتُ هذا وشبهه بكيفية قوية.

*** لا يجوز الخروج على الشريعة بحال:**

فقال هذا الشيخ منهم، يخاطب الأمير: نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قومٌ شافعية. فقلت له: هذا غير مستحبٍّ ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين؛ بل كلُّهم يَنهى عن التعبُّد به ويَعُدُّه بدعة. وهذا الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني مفتي الشافعية دعوتُه، وقلت: يا كمال الدين، ما تقول في هذا؟ فقال: هذا بدعة غير مستحبة، بل مكروهة. أو كما قال. وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفةٍ من العلماء بذلك. وقلت: ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ، ولا الخروج عن كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ. وأشكُّ هل تكلمتُ هنا في قصة موسى والخضر، فإنِّي تكلمتُ بكلام بَعُدَ عهدي به.

*** الباطن والظاهر محكومٌ بالكتاب والسنَّة:**

فانتدبَ ذلك الشيخُ عبداللَّه ورفع صوته، وقال: نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يُوقف عليها. وذكر كلامًا لم أضبط لفظه، مثل المجالس والمدارس،

والباطن والظاهر، ومضمونُه: أن لنا الباطن ولغيرنا الظاهر، وأن لنا أمرًا لا يقف عليه أهل الظاهر، فلا يُنكرونه علينا.

فقلتُ له ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ: الباطن والظاهر والمجالس والمدارس، والشريعة والحقائق، كلّ هذا مردود إلى كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ؛ ليس لأحد الخروج عن كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ﷺ، لا من المشايخ والفقراء، ولا من الملوك والأمراء، ولا من العلماء والقُضاة وغيرهم؛ بل جميع الخلق عليهم طاعة اللَّه ورسوله ﷺ. وذكرت هذا ونحوه.

* ادّعَاءُ الخوارق:

فقال ـ ورفع صوته ـ: نحن لنا الأحوال وكذا وكذا. وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها، واختصاصهم بها، وأنهم يستحقون تسليمَ الحال إليهم لأجلها.

فقلت ـ ورفعتُ صوتي وغضبت ـ: أنا أخاطب كلّ أحمديّ. من مشرق الأرض إلى مغربها، أيّ شيء فعلوه في النار، فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترقَ فهو مغلوبٌ ـ وربما قلت: فعليه لعنة اللَّه ـ ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخلّ والماء الحار. فسألني الأمراء والناس عن ذلك، فقلت: لأن لهم حِيَلاً في الاتصال بالنار، يَصنَعُونها من أشياء من دُهن الضفادع، وقشر النارنج، وحجر الطلق. فضجَّ الناس بذلك، فأخذ يُظهر القدرة على ذلك ويقول: أنا وأنت نلف في بارية، بعد أن تُطلى جسومُنا بالكِبْريت. فقلت: فقم. وأخذتُ أكرر عليه في القيام إلى ذلك، فمدَّ يده يُظهر خَلْع القميص، فقلت: لا، حتى تغتسل في الماء الحارّ والخلّ. فأظهر الوهم على عادتهم، فقال: من كان يحب الأمير فليُحضر خشبًا. أو قال: حزمة حطب. فقلت: هذا تطويلٌ وتفريق للجمع، ولا يحصل به مقصود بل قنديل يُوقد، وأُدخل أُصبعي وأُصبعَك فيه بعد الغسل، ومن احترقت أصبعُه

فعليه لعنة اللَّه، أو قلت: فهو مغلوب. فلما قلت ذلك تغيَّر وذَلّ. وذكر لي أنَّ وجهه اصفر.

* الخوارق ليست دليل الصَّلاح والتُّقى:

ثم قلت لهم: ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة، ولو طِرتُم في الهواء، ومشيتم على الماء، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدّل على صحة ما تدَّعونه من مخالفة الشرع، ولا على إبطال الشرع؛ فإن الدَّجال الأكبر يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: أنبتي. فتنبت، وللخربة: أخرجي كنوزَك. فتُخرج كنوزها تتبَعُه؛ ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شِقَّيه، ثم يقول له: قُمْ. فيقوم، ومع هذا فهو دجّالٌ كذّاب ملعون، لعنه اللَّه. ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقعٌ عظيم في القلوب.

وذكرتُ قول أبي يزيد البسطامي: لو رأيتم الرجل يطير في الهواء، ويمشي على الماء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي. وذكرت عن يونس بن عبدالأعلى أنَّه قال للشافعي: أتدري ما قال صاحبنا؟ ـ يعني الليث بن سعد ـ قال: لو رأيتَ صاحب هوًى يمشي على الماء، فلا تغتر به. فقال الشافعي: لقد قصر اللَّيث، لو رأيتَ صاحب هوًى يطير في الهواء فلا تغتر به. وتكلمتُ في هذا ونحوه بكلامٍ بعُد عهدي به. ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح. وجعلتُ أُلحُّ عليه في إظهار ما ادَّعوه من النار مرةً بعد مرةٍ، وهم لا يُجيبون، وقد اجتمع عامّة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولهون منهم، وهم عدد كثير، والناس يضجون في الميدان، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها.

* وقع الحقُّ وبطَل ما كانوا يعملون:

فذكر بعض الحاضرين أنَّ الناس قالوا ما مضمونه: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانْقَلَبُواْ صَاغِرِينَ﴾ وذكروا أيضًا أن هذا الشيخ يُسمَّى: عبداللَّه الكذاب. وأنَّهُ الذي قصَدك مرة فأعطيتَه ثلاثين درهمًا. فقلت: ظهر لي - حين أخذ الدراهم وذهب - أنه مُلَبِّس، وكان قد حكى حكاية عن نفسه، مضمونها أنَّه أدخل النار في لحيته قُدّام صاحب حَماة، ولما فارقني وقع في قلبي أن لحيته مدهونة، وظهر عجزهم وكذبهم وتلبيسهم.

*** استخدام القوة إن لم تنفع الحُجّة:**

فقال: فبأي شيء تبطل هذه الأحوال؟ فقلت: بهذه السِّياط الشرعية. فأعجب الأمير وضحك، وقال: إي واللَّه، بالسِّياط الشرعية تبطل هذه الأحوال الشيطانية. كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد، ومن لم يُجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية. وأمسكتُ سيف الأمير وقلت: هذا نائب رسول اللَّه ﷺ وغلامه، وهذا السيف سيف رسول اللَّه ﷺ، فمن خرج عن كتاب اللَّه وسنَّة رسوله ضربناه بسيف اللَّه. وأعاد الأمير هذا الكلام.

*** لا يُقَرُّ أحدٌ على إظهار المنكر في ديار الإسلام:**

وأخذ بعضهم يقول: فاليهود والنصارى يُقَرُّونَ ولا نُقَرُّ نحن؟!. فقلت: اليهود والنصارى يُقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دُورهم، والمبتدِع لا يُقَرُّ على بدعته. فأفحموا بذلك.

وحقيقة الأمر أن من أظهر منكرًا في دار الإسلام لم يُقَرَّ على ذلك، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يُقَر، ولا يُقَر من أظهر الفجور، وكذلك أهل الذّمة لا يُقَرون على إظهار منكرات دينهم، ومن سواهم فإن كان مسلمًا أخذ بواجباتِ الإسلام وترك محرماتِه، وإن لم يكن مسلمًا ولا ذميًّا، فهو إما

مرتدٌ وإما مشرك وأما زنديق ظاهر الزندقة.

*** ذمُّ المبتدِعَة:**

وذكرت ذمَّ المبتدعة، فقلت: روى مسلم في صحيحه عن جعفر ابن محمد الصادق، عن أبيه أبي جعفر الباقر، عن جابر بن عبداللَّه أن رسول اللَّه ﷺ كان يقول في خطبته: «**إنَّ أصدق الكلام كلام اللَّه، وخيرَ الهدي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**». وفي السنن عن العرباض بن سارية، قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ خطبةً ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول اللَّه، كأن هذه موعظة مُودِّعٍ، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى اللَّه، والسمع والطاعة، وإن أُمِّر عليكم عبد حبشي بالسمع والطاعة، فإنه من يَعِش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيراً، فعليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومُحدَثات الأمور؛ فإنَّ كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[1]. وفي رواية: «**وكل ضلالة من النار**».

*** البدعة شرٌّ من الزنا والمعاصي:**

فقال لي: البدعة مثل الزنا، وروى حديثًا في ذمّ الزنا. فقلت: هذا حديث موضوع على رسول اللَّه ﷺ، والزنا معصية، والبدعة شرٌّ من المعصية، كما قال سفيان الثوري: البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ فإنَّ المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها. وكان قد قال بعضهم: نحن نُتوِّب الناس، فقلت: من ماذا تتوبونهم؟ قال: من قطع الطريق، والسرقة، ونحو

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرك» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٥٤٩).

ذلك. فقلت: حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم؛ فإنهم كانوا فُسّاقًا يعتقدون تحريم ما هم عليه، ويرجون رحمة اللَّه، ويتوبون إليه، أو يَنْوُون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالّين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام، يحبون ما يُبغضه اللَّه ويُبغضون ما يحبه اللَّه. وبيّنتُ أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شرٌّ من المعاصي.

❑ قلت مخاطبًا للأمير والحاضرين: أمّا المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ أن رجلاً كان يدعى حمارًا، وكان يشرب الخمر، وكان يُضحك النبي ﷺ، وكان كلما أُتي به النبي ﷺ جلده الحدَّ، فلعنه رجل مرةً، وقال: لعنه اللَّه، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ!. فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنه فإنه يحبُّ اللَّه ورسوله**». قلت: فهذا رجل كثير الشرب للخمر، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب اللَّه ورسوله، شهد له النبي ﷺ بذلك، ونهى عن لعنه.

وأما المبتَدِع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ وغيرهما ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أن النبي ﷺ كان يقسم، فجاءه رجل ناتِئُ الجبين، كَثُّ اللحية، محلوقُ الرأس، بين عينيه أثر السجود، وقال ما قال، فقال النبي ﷺ: «**يخرج من ضِئضِئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءَته مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرُقُون من الإسلام كما يمرُق السهم من الرَّمِيَّة؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتلَ عاد**»، وفي رواية: «**لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل**»، وفي رواية: «**شرُّ قتلى تحت أديم السماء، خيرُ قتلى من قتلوه**».

❑ قلت: فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم، وما هم عليه من العبادة والزهادة أمَرَ النبي ﷺ بقتلهم، وقَتَلهم عليّ بن أبي طالب

ﷺ ومَن معه من أصحاب النبي ﷺ؛ وذلك لخروجهم عن سُنَّة النبي وشريعته، وأظن أني ذكرتُ قول الشافعي: لأن يُبتَلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك باللَّه خيرٌ من أن يُبتلى بشيء من هذه الأهواء. فلما ظهر قُبح البدع في الإسلام، وأنها أظلمُ من الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنهم مبتدعون بدعًا منكرة، فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والسارق وشارب الخمر، أخذ شيخهم عبداللَّه يقول: يا مولانا، لا تتعرض لهذا الجناب العزيز. يعني أتباع أحمد بن الرفاعي. فقلتُ منكرًا بكلام غليظ: ويحك؛ أيّ شيء هو الجَناب العزيز، وجَناب من خالفه أولى بالعزِّ يا ذا الزرجنة، تريدون أن تبطلوا دين اللَّه ورسوله؟! فقال: يا مولانا، يحرقك الفقراء بقلوبهم. فقلت: مثل ما أحرقني الرافضَةُ لما قصدتُ الصُّعود إليهم، وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرِّهم، ويقول أصحابهم: إن لهم سرًّا مع اللَّه، فنصر اللَّه وأعان عليهم. وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بَرَكة ما يسَّره اللَّه في أمر غزو الرافضة بالجبل، أكذب الطوائف، حتى قيل فيهم: لا تقولوا: أكذبُ من اليهود على اللَّه. ولكن قولوا: أكذب من الأحمدية على شيخهم. وقلت لهم: أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥].

ولما رددتُّ عليهم الأحاديث المكذوبة، أخذوا يطلبون منِّي كتبًا صحيحة ليهتدوا بها فبذلتُ لهم ذلك، وأُعيد الكلام: أنه مَن خرج عن الكتاب والسنَّة ضربتُ عنقه، وأعاد الأمير هذا الكلام، واستقر الكلام على ذلك. والحمد للَّه الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزَمَ الأحزاب وحده.

وقلت لهم: يا شبه الرافضة، يا بيت الكَذِب. فإن فيهم من الغلوّ والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك، أو يساوونهم، أو يزيدون عليهم». اهـ.

*** ابن تيمية والملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون:**

لمّا عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى المُلك، وزالت دولة المظفر الجاشنكير وخُذل، وخُذل شيخه نصر المنبجي الاتحادي الحلولي «دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر، ولم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الإسكندرية معزَّزًا مكرَّمًا مبجَّلاً. ولما قَدِمَ عليه الشيخ تقي الدين نهض قائمًا للشيخ أول ما رآه، ومشى له إلى طرف الإيوان، واعتنقا هناك هُنَيهة، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستان، فجلسا ساعةً يتحدثان، ثم جاء ويَدُ الشيخ في يد السلطان، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر، وعن يساره ابن الخليلي الوزير، وتحته ابن صصري، ثم صدر الدين علي الحنفي، وجلس الشيخ تقي الدين بين يدي السلطان على طرف طراحته، وتكلّم الوزير في إعادة أهل الذِّمَّة إلى لُبس العمائم البيض بالعلائم، وأنهم قد التزموا للديوان بسبعمائة ألف في كلّ سنة زيادةً على الحالية، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام، وكبار العلماء من أهل مصر والشام، من جملتهم ابن الزملكاني. قال ابن القلانسي: وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني، فلم يتكلم أحدٌ من العلماء ولا مِنَ القُضاة، فقال لهم السلطان: ما تقولون؟ يستفتيهم في ذلك، فلم يتكلم أحد، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيه، وتكلم مع السلطان في ذلك بكلامٍ غليظ، وردّ على الوزير ما قاله ردًّا عنيفًا، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويُسكته برفقٍ وتؤدَةٍ وتوقير. وبالغ الشيخ في الكلام، وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ولا بقريبٍ منه، وبالغ في التَّشنيع على من يُوافق في ذلك. وقال للسلطان: حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته في أُبَّهة المُلك تنصر فيه أهل الذِّمة لأجل حُطامِ الدنيا الفانية، فاذكر نعمة اللَّه عليك إذ ردّ مُلكك إليك، وكبتَ عدوَّك، ونصرك على

أعدائك. فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدّد عليهم ذلك، فقال: والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك؛ لأنه إنما كان نائبًا لك. فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك. وجرت فصول يطولُ ذكرها. وقد كان السلطان أعلم بالشيخ من جميع الحاضرين، ودينه وقيامه بالحق وشجاعته. وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لمَّا انفردا في ذلك الشبّاك الذي جلسا فيه، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة؛ بسبب ما كانوا تكلّموا فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله من المُلك ومُبايعة الجاشنكير، وأنهم قاموا عليك، وآذوك أنت أيضًا، وأخذ يحثُّه بذلك على أن يُفتيه في قتل بعضهم. وإنما كان حَنَقُه عليهم بسبب ما كانوا سَعَوا فيه من عَزلِه ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ مُرادَ السلطان، فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء، ويُنكر أن يَنال أحدًا منهم بسوءٍ، وقال له: إذا قتلتَ هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم. فقال له: إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مِرارًا. فقال الشيخ: من آذاني فهو في حِلٍّ، ومن آذى اللَّه ورسوله فاللَّه ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح»[1].

قال: وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول: ما رأينا مثل ابن تيمية حرّضنَا عليه فلم نقدِر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجَجَ عنا.

للَّه درُّك يا شيخ الإسلام من إمامٍ!

للَّه درُّك من إمامِ أمة... للَّه درُّ أمٍ درت عليك... وأمةٍ فيها مثلك...

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية آيةً من آيات اللَّه في الصَّدع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن الفرق. ويكفي ردُّه على فلاسفة الصوفية،

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٥٣ ـ ٥٥ ـ ٥٦).

والدجاجلة منهم، والأشاعرة والمتكلمين، والشيعة، والمُقَلِّدة، والفلاسفة وأهل الاعتزال، وكان أمَّارًا بالمعروف للسلاطين والأمراء.

قال الحافظ عمر بن علي البزار: «أخبرني من لا أتَّهِمُه أن الشيخ رحمه الله حين وُشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد بن قلاوون، أحضره بين يديه، قال: فكان من جملة كلامه: إنني أُخبرتُ أنك قد أطاعك الناس، وأنّ في نفسك أخذ المُلك. فلم يكترث به، بل قال له بنفسٍ مطمئنة، وقلب ثابت، وصوت عالٍ، سمعَه كثيرٌ ممّن حضر: أنا أفعل ذلك؟! واللَّه إن مُلكك ومُلك المُغل لا يساوي عندي فلسين. فتبسم السلطان لذلك، وأجابه في مقابلته ـ بما أوقع اللَّه له في قلبه من الهيبة العظيمة ـ: إنك ـ واللَّه ـ لصادق، وإن الذي وشى بك إليّ لكاذب»[1].

لقد «كان رحمه الله من أعظم أهل عصره قوةً ومقامًا وثبوتًا على الحق، وتقريرًا لتحقيق توحيد الحق، لا يصدُّه عن ذلك لومُ لائم، ولا قول قائل، ولا يرجع عنه لحُجَّة مُحتجٍّ، بل كان إذا وضح له الحق يعضُّ عليه بالنواجذ، ولا يلتفتُ إلى مُباينٍ معاند، ولقد سُجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا، ولم يُولِّهم دُبُرَه فرارًا، ولقد قصد أعداؤه الفتكَ به مرارًا، وأوسعُوا حيَلهم عليه إعلانًا وإسرارًا، فجعل اللَّه حفظَهُ منهم له شعارًا ودِثَارًا. ولقد ظنُّوا أن في حبسه مشينةً، فجعله اللَّه له فضيلةً وزينةً، وظهر له يوم موته ما لو رآه وادُّه أقرّ به عينيه، فإن اللَّه تعالى لعلمه بقرب أجله، ألبسَه الفراغ عن الخلق، للقدوم على الحقِّ أجملَ حُلَله، كونه حُبِسَ على غير جَريرةٍ ولا جريمة، بل على قوة في الحق وعزيمة، هذا مع ما نشر اللَّه له من عُلومه في الآفاق، وبَهَرَ بفنونه البصائر والأحداق وملأ بمحاسن مؤلفاته الصُّحف والأوراق، كبتًا ورغمًا للأعداء، أهل البدع المُضلّة والأهواء، وصُنْعًا عظيمة من رب السماء،

(١) «الأعلام العَلِيَّة» (ص٧٢، ٧٣).

لعوائده لخاصَّة الأولياء، أهل المحبة والولاء»[١] .

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يزال اللَّه يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة**»[٢] .

*** الطرطوشي وأمير مصر:**

«افتحِ البابَ وَسَهِّلِ الحجابَ»:

□ «قال أبو بكر الطرطوشي: دخلتُ على الأفضل بن أمير الجيوش وهو أمير على مصر، فقلت: السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته. فردّ السلام عليّ نحو ما سلّمتُ ردًّا جميلاً، وأكرمني إكرامًا جزيلاً، وأمرني بدخول مجلسه، وأمرني بالجلوس فيه، فقلت: أيُّها الملك، إن اللَّه تعالى قد أحلَّك محلاً عليًّا شامخًا، وأنزلَك منزلاً شريفًا باذخًا، وملَّكك طائفةً من مُلكه، وأشركَك في حكمه، ولم يرضَ أن يكون أمر أحدٍ فوق أمرك، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أولى بالشُّكر منك، وليس الشكر باللسان، وإنما هو بالفعال والإحسان؛ قال اللَّه تعالى: ﴿**اعملُوا آلَ دَاودَ شُكْرًا**﴾. واعلم أن هذا الذي أصبحتَ فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتَّقِ اللَّه فيما حولك من هذه الأمة، فإن اللَّه تعالى سَائلُك عن الفتيل والنقير والقِطْمير، قال اللَّه تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسألنَّهم أجمعينَ عمَّا كَانُوا يَعْمَلون**﴾، وقال تعالى: ﴿**وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حبَّةٍ مِنْ خَردلٍ أتيْنا بها وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾، واعلم أيُّها الملك أن اللَّه تعالى قد آتى مُلك الدنيا

---

(١) «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» ص(٧٥ ـ ٧٧).

(٢) حسن: رواه أحمد، وابن ماجه، والبخاري في «التاريخ» عن أبي عنبة الخولاني وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٦٩٢).

بحذافيرها سليمانَ بن داود عليه السلام، فسخَّر له الإنس والجنَّ والشياطين والطير والوحش والبهائم، وسخَّر له الرِّيح تجري بأمره رُخَاءً حيثُ أصابَ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع، فقال له: ﴿هذا عَطَاؤنا فامْنُنْ أوْ أمْسِكْ بغير حساب﴾. فواللَّه ماعدَّها نعمة كما عددتُّموها، ولا حَسِبها كرامةً كما حسِبتموها، بل خاف أن تكون استدراجًا من اللَّه تعالى ومَكرًا به، فقال: ﴿هذا مِنْ فَضْلِ ربّي لِيَبْلُوَني أأَشْكُرُ أمْ أكفُرُ﴾. فافتح الباب، وسهِّل الحجابَ، وانصر المظلومَ، وأغثِ الملهوف، أعانك اللَّه على نصر المظلوم، وجعَلك كَهفًا للملهوف وأمانًا للخائف»[1].

* **الخَبُوْشاني الفقيه الزاهد:**

نجم الدين أبو البركات محمد بن موفق الخبوشاني الشافعي.

❑ قال ابن خلكان: كان السلطان صلاح الدين يُقربه، ويعتقد فيه، ورأيت جماعة من أصحابه، فكانوا يصفون فضله ودينه وسلامة باطنه.

❑ قال الموفق عبداللطيف: سكن السُّمَيْساطية، وعرف الأمير نجم الدين أيوب، وأخاه، وكان قشفًا في العيش، يابسًا في الدين، وكان يقول: أصعد إلى مصر، وأُزيل ملك بني عُبيد اليهودي، إلى أن قال: فنزل بالقاهرة، وصرّح بثلب أهل القصر، وجعل سبّهم تسبيحه، فحاروا فيه، فنفذوا إليه بمال عظيم قيل: أربعة آلاف دينار، فقال للرسول: ويلك، وما هذه البدعة؟! فأعجله، فرمى الذهب بين يديه، فضربه وأنزله من السلم.

❑ ومات العاضد، وتهيّبوا الخطبة لبني العباس، فوقف الخبوشاني بعصاه قدّام المنبر، وأمر الخطيب بذلك، ففعل، ولم يكن إلا الخير، وزُيِّنت

(١) المستطرف في كل فن مستظرف.

بغداد[١] .

❑ وكان لتقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين مواضع يُباع فيها المزر[٢] على ما قيل فكتب الخبوشاني ورقة إلى صلاح الدين يذكر له هذا، فسيرها صلاح الدين إلى ابن أخيه وطلب منه إرضاء الشيخ، فركب إليه، وطلب منه حاجبه أن يقف بباب مدرسة الخبوشاني ريثما يهيئ له الأمور. وجاء حاجب نائب مصر المظفر تقي الدين عمر وقال له: تقي الدين يُسلِّم عليك. فقال: بل شقي الدين لا سلمّ اللَّه عليه، قال: إنه يعتذر، ويقول: ليس له موضع لبيع المِزْر. قال: يكذب. قال: إن كان ثمّ مكان فأرِناه. قال: ادْن، فدنا فأمسك بشعره، وجعل يلطم على رأسه، ويقول: لست مزّارًا فأعرف مواضع المزر، فخلصوه منه[٣] .

*** الفناري يرد شهادة سلطان الروم لتركه لصلاة الجماعة:**

هو القاضي محمد بن محمد بن حمزة الفناديّ ويُقال الفناري بالراء مكان الدال ولد سنة ٧٥١هـ وارتحل إلى مصر رجع إلى الروم فولي قضاء بروسا وارتفع عند ابن عثمان جدًّا وحلّ عنده المحل الأعلى.

❑ قال ابن حجر: كان عارفًا بعلم العربية والمعاني والبيان والقرآن كثير المشاركة في الفنون، وكان حسن السمت كثير الفضل والإفضال. ولَمَّا دخل القاهرة يريد الحج اجتمع به فضلاء العصر وذاكروه وشهدوا له بالفضيلة ثم رجع.

ومن تصلبه في الدين وتثبته في القضاء أنه رد شهادة من سلطان الروم

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٢٠٤).

(٢) المِزر: نبيذ يُتخذ من الذرة، وقيل من الشعير أو الحنطة، وهو يشبه البيرة في عصرنا.

(٣) انظر «السير» (٢١/ ٢٠٧).

في قضية فسأله السلطان عن سبب ذلك فقال: إنك تارك للجماعة فبنى السلطان قدّام قصره جامعًا وعين لنفسه فيه موضعًا ولم يترك الجماعة بعد ذلك.

فللَّه در هذا العالم الصادع بالحق مع ما هو فيه من التقلب في نعمة سلطانه التي سمعت بعض وصفها، ورب عالم لا يقدر على الكلمة الواحدة في الحق لمن له عليه أدنى نعمة مخافة من زوالها، بل رب عالم يمنعه رجاء العطية ونيل الرتب السنيّة عن التكلم بالحق ولم يكن بيده إلا مجرد الأماني الأشعبية. ورحم اللَّه هذا السلطان الذي سمع الحق فاتبع، ولم تصدّه سوْرة[1] الملك وما هو فيه من سلطان الذي كاد يطبق الأرض عن قبول ذلك وهذا السلطان هو السلطان بايزيد بن مراد[2].

*** الكوراني عالم بلاد الروم يقول للسلطان: مطعمك حرام وملبسك حرام:**

عالم بلاد الروم أحمد بن إسماعيل بن عثمان شهاب الدين الكوراني:

قال عنه الشوكاني في «البدر الطالع» (١/ ٤٠): «توجّه إلى مملكة الروم.. وحسنت حاله هناك جدًّا... وقد ترجمه صاحب «الشقائق النعمانية» ترجمة حافلة ذكر فيها أن سلطان الروم السلطان محمد عرض عليه الوزارة فلم يقبلها، وأنه أتاه مرّة مرسوم من السلطان فيه مخالفة للوجه الشرعي فمزّقه، وأنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له ولا يقبّل يده بل يصافحه مصافحة، وأنه كان لا يأتي إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه، وكان يقول له: مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط وذكر له مناقب جمة تدل على أنه كان من العلماء العاملين» اهـ.

---

(١) سوْرة: سطوة.

(٢) «البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٩).

*** الشيخ محمد بن علي الحاج الأغصاوي يعارض أمير فاس في بيع حصن العرائش للنصارى فيقتله:**

قتله أمير فاس في وقته، السلطان محمد الشيخ المأمون بن أبي العباس المنصور فقد كتب الأغصاوي رسالة أغلظ له فيها القول، وذلك أن محمد الشيخ المأمون أراد أن يبيع مدينة القصر وحصن العرائش وحصن أصيلا للنصارى دمرهم اللَّه في فكاك أولاد عمه الذين كانوا مأسورين عند النصارى، فكان الأغصاوي يقول: لو حمل أهل الغرب خراجًا يدفعونه للنصارى في فكاك المأسورين لكان أهون، فخالفه في ذلك محمد الشيخ بأنه لا بد من بيع المدائن المذكورة، ووافقه على ذلك بعض من لا خلاق له، فصرّح الأغصاوي بأن محمد الشيخ تنقض بيعته بهذا السبب، فغضب لذلك الأمير حيث وصله خبره، فكتب أخ الأغصاوي وهو عليّ إلى الأمير يعتذر عن أخيه، ويتطلب بأن أخاه مجذوب تغلب عليه الأحوال ومن كان هكذا لا يؤاخذ بما يصدر عنه، ثم إن الأغصاوي اطلع على ما كُتب للأمير فكتب بظهر كتاب أخيه المذكور مخاطبًا السلطان ما نصه: ما قاله علي ـ يعني أخاه ـ بعضه حق وبعضه كذب، بأي موجب قلعت محلتك من سلا، وأتيت مهرولاً لهتك حرمة الإسلام؟ ومن ألزمك صرخة عبدة الأصنام والأوثان؟ أكفر بعد إيمان؟ واللَّه ما تبدّل لي ديني أنت ولا عليّ، وباللَّه الذي لا إله إلا هو لا يُحلَف بأجل منه المهيمن الدّيان لو وصلتي إلى تطاون إلا لقيتك باللَّه ورسوله حماية للكلمة الإسلامية وغيرة على الأمة المحمدية حتى تسمع مني ما قال فيه سيدنا رسول اللَّه ﷺ: «الدين النصيحة» لكن لا إيمان لك مع الذين على عهده ولا عهدة، الحمد للَّه الذي أبعدني عن صحبتك، فقد أراد بي خيرًا واللَّه لا سعيت في وصلك أبدًا لأن وصلك بعد من اللَّه، وفصلك قرب من اللَّه، فالوجود كله كان يخاطبني باللعنة الصريحة بسبب مخالطتك،

فلا تطمع بوصالي أبدًا لأني وصلتك في اللَّه، ولم أخش في اللَّه لومة لائم، وليس محمد[١] بقائم، والموت محيط بكل أحد، وهو قنطرة بين دار البقاء ودار الفناء، فإذا لقيت اللَّه وهو راض عني لا أبالي بما ألقى قبل لقائه، ولا خوف إلا لمن يُقتل ولا يُغفر، فإن كنت تقتل واللَّه يغفر فلا فائدة في قتلك، والموت كما قيل مسلك ينتهج فيه المالك والمملوك، فأنا اليوم وأنت غدًا، وعند ربكم تختصمون، أليس اللَّه بكاف عبده، ويخوّفونك بالذين من دونه، ومن يضلل اللَّه فما له من هاد، ومن يهد اللَّه فما له من مضل.

فكيف يا مخذول تسلّم للنصارى ـ دمرهم اللَّه ـ حصون المسلمين ومعاقل الدين والمساجد التي عبدوا فيها اللَّه وتُلي فيها كلام اللَّه وانتصبت محاربهم لقبلة الإسلام وتعلّقت بهم من حرمة مسجد اللَّه الحرام ما أقامه مقامه في محلهم، كأنك لم تسمع قوله جلّ من قائل: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**﴾ [التوبة: ٢٨]، وكيف تصح النسبة للإسلام لمن لم ينصر شرائع الدين قلمًا وقدمًا؟

سبحان اللَّه وبحمده، لو بعثت أربعة رجال من سلا[٢] لما ظهر لك لوقع الكلام مع الناس ويتفاوضون في الرأي الصالح والحاضر ويصير فيها ما يوافق شريعة الإسلام وفقًا طواعيًا عن رضى وتراض لكان أسلم لك عن هذا الخصوص، وإلا حيث سوّلت لك نفسك تسمع كلام من لا خلاق له، من باع آخرته بدنياه، ومن يرى القرب منك أعظم من القرب من اللَّه، ورأيت كأن الخلق ليس لهم خالق بل أنت خالقهم وليس غيرك، وأنك أحطت بجميع الخلق وأرواحهم بيدك، فإذا استطعت قبض أرواحهم فافعل ما تريد، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه، فكيف يا مسكين انطمست بصيرتك عن منهاج

(١) يعني ـ نفسه ـ رحمه اللَّه ـ.

(٢) أي: اثنين وعشرين وألف.

الحق وتحملت سريرتك ما لا يطاوع من الخبث؟

لو كان الخير فيك لعكس بصرك إلى بصيرتك ولاتخذت من العلماء لصحبتك أهل الورع الذين تجدهم دنيا وأخرى، ولظهر حسن سيرتك على خديمك من زمان، من هو ملازم لخدمتك الآن لا يحرّم حرامًا كان، ولا يكون لك عليه ملك، لا حاجة لي بخلطتك البتة، قل فللَّه الحجة البالغة، ومن أسرّ سريرة ألبسه اللَّه رداءها، والسلام».

وهذا الأمر الذي رام الظالم لنفسه أمر عظيم، فإن في تسليم هذه الحصون للنصارى أعداء اللَّه ورسوله إدخالاً للوهن عن بيضة الإسلام، وتوهينًا لأمة النبي ﷺ وتمكينًا لهم من أسرهم مدى الليالي والأيام، فإن كثيرًا من أهل تلك الناحية ضعفة لا يستطيعون حرص أنفسهم مع الكفار مع كونهم معهم قرب منازلهم فيُفضى الأمر إلى أسر أكثر وأكثر من الذين أراد فداءهم، ولا يُضرّ مسلم لإنقاذ مسلم آخر، فإن الجميع له ذمة الإسلام، على أنه ربما لزم منه استئصال الإسلام من أصله من هذا الغرب المشتمل على أمم لا يحصيها إلا اللَّه تعالى، وفيهم من الضعفاء والأرامل كذلك من لا يستطيعون دفعًا عن أنفسهم كما وقع في بلاد الأندلس ـ أعادها اللَّه دار إسلام ـ فإن سبب أخذها واستيلاء النصارى على حصونها ورباطاتها بغفلة المسلمين وتراخيهم ومسامحتهم، وكلما استولوا على حصن وقع اليأس من استنقاذه حتى استولوا على الجميع ـ دمر اللَّه العدو، ونصر الإسلام ـ بعد أن قاتلهم أهل الإسلام أشد القتال وفعلوا بهم الأفاعيل العظيمة، ومع ذلك لم يغنوا شيئًا في ردّ الحصون إذ كان العدو محتفلاً لها شديد الحرص على أخذها ينتهز الفرصة في ذلك حتى تمكن من الجميع وكان أمر اللَّه قدرًا مقدورًا.

وتغليظ الأغصاوي له في محله، وإن أفضى ذلك إلى قتله، فقد فاز

بالشهادة[١] لأنه بذل نفسه للّه تعالى في الدفع عن الدين لأن تكون كلمة اللّه هي العليا، ولصون شريعة اللّه عن امتهان الكافرين ولحماية حرمة المسلمين[٢].

*** العلاّمة علاء الدين الجمالي والسلطان سليم:**

العلاّمة العالم الفاضل علاء الدين علي بن أحمد الجمالي الرومي الحنفي لما تولى السلطان أبو يزيد السلطنة رآه في المنام فأرسل إليه الوزراء ودعاه إليه فامتنع فأعطاه تدريسًا ثم رقّاه في التدريس حتى أعطاه إحدى الثماني[٣].

وكان يصرف جميع أوقاته في التلاوة والعبادة والتدريس والفتوى ويصلي الخمس في الجماعة، وكان لا يذكر أحدًا بسوء، ويغلق باب داره ويقعد في غرفة له فتُلقى إليه رقاع الفتاوى فيأخذها ويكتب ثم يدلّيها؛ فعل ذلك لئلا يرى الناس فيميز بينهم في الفتوى وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصدع بالحق ويُواجه بذلك السلطان فمن دونه حتى إن السلطان سليم خان أمر بقتل مائة وخمسين رجلاً من حفّاظ الخزينة فتنبّه لذلك المولى علاء الدين فذهب إلى الديوان ولم يكن من عادتهم أن يذهب المفتي إلى الديوان إلاّ لحادثة عظيمة، فلما دخل على أهل الديوان تحيّروا في الأمر وقالوا: أيّ شيء دعا المولى إلى المجيء فقال: أريد أن ألاقي السلطان ولي معه كلام فعرضوا أمره على السلطان، فأمر بدخوله وحده فدخل وسلمّ وجلس وقال: وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان، وقد سمعتُ بأنك

(١) نرجو اللّه له ذلك.

(٢) نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني للشيخ محمد بن الطيب القادري (١/ ١٤٠ ـ ١٤٤).

(٣) هي المدارس الثمانية التي أنشأها السلطان محمد الفاتح في القسطنطينية لما فتحها.

أمرتَ بقتل مائة وخمسين رجلاً من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعًا فغضب السلطان سليم، وكان صاحب حدّة وقال: لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك، فقال: بل أتعرّض لأمر آخرتك وهو من وظيفتي فإن عفوت فلك النجاة وإلا فعليك عقاب عظيم، فانكسرت سورة غضبه وعفا عن الكل، ثم تحدّث معه ساعة ثم سأله في إعادة مناصبهم فأعادها لهم.

❑ وحكى أن السلطان سليم أرسل مرة إليه أمرًا بأن يكون قاضي العسكر وقال له: جمعتُ لك بين الطرفين لأني تحققت أنك تتكلم بالحق فكتب الجمالي في جوابه: وصل إليّ كتابك سلمّك اللّه تعالى وأبقاك وأمرتني بالقضاء وإني أمتثل أمرك إلا أن لي مع اللّه تعالى عهدًا أن لا تصدر عني لفظة (حكمتُ) فأحبه السلطان محبة عظيمة لإعراضه عن المال والجاه والمنصب صيانة لدينه[1].

* **الشاطبي[2] والأمير موسك: «قُلْ للأمير نصيحةً»:**

كان الأمير عزُّ الدين مُوسك من أمراء دولة بني أيُّوب ـ ويُنسب إليه شارع الموسكي بمصر ـ كان أميرًا يحبّ أهل العلم والصلاح، فلما قَدِمَ الإمام القاسم الشاطبي المقرئ الضرير، وكان إمامًا منقطع القرين، رأسًا في القراءات، الذي سارت الرُّكبان بقصيدته (حرز الأماني) فلما قَدِمَ مصر ووُصِفَ للأمير، طلبهُ، ولم يتقدم إليه الأمير بنفسه. فأخذت الشيخ عزّةٌ

(١) «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» لنجم الدين الغزي (١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٢) الشاطبي: هو القاسم بن فيروه الرعيني، وهو إمام قُرَّاء عصره. وُلد بشاطبة (الأندلس)، وتوفي بالقاهرة عام ٥٩٠هـ. وكان ضريرًا، رحَل إلى القاهرة وعلَّم فيها. من آثاره: حرز الأماني؛ وهي قصيدة في القراءات تُعرف بالشاطبية، وكان عالمًا بالحديث والتفسير واللغة. قال ابن خلكان: كان إذا قُرئ عليه «صحيح البخاري»، و«مسلم»، و«الموطأ»؛ تُصحح النُّسخ من حفظه.

العلم، وهو الغريب الفقير، فكتب له رقعةً فيها:

قـلْ للأميـــرِ نصيحـــةً ... لا تركنَـــنَّ إلى فقيـــهْ
إنَّ الفـقيـــه إذا أتَـــى ... أبوابَـــكُم لا خيـــرَ فيـــهْ

*** أبو غياث الزاهد والأمير[1] :**

رُوي أن أبا غياث الزاهد كان يسكن المقابر ببخارى، فدخل المدينة ليزورَ أخًا له، وكان غلمان الأمير نصر بن محمد، ومعهم المُغَنُّون والملاهي، يخرجون من داره، فلما رآهم أبو غياث الزاهد قال: يا نفس، وقع أمرٌ إن سكتِّ فأنت شريكةٌ. فرفع رأسه إلى السماء واستعان باللَّه وأخذ العصا، فَحَملَ عليهم حملةً واحدة، فولُّوا منهزمين مدبرين إلى دار السلطان، وقصُّوا على الأمير، فدعا به، وقال له: أما علمتَ أنه من يخرج على السلطان يتغدى في السجن؟ فقال له أبو غياث: أما علمت أنه من يخرج على الرحمن يتعشَّى في النيران؟ فقال له: مَن ولاك الحسبة؟ فقال: الذي ولاك الإمارة. فقال الأمير: ولاني الخليفةُ. فقال أبو غياث: ولاني الحسبة ربُّ الخليفة. فقال الأمير: ولَّيتُكَ الحسبةَ بسمرقند. فقال: عزلتُ نفسي عنها. فقال الأمير: العجَب في أمرِك، تحتسب حين لم تؤمر، وتمتنع حيث تؤمر؟! قال: لأنك إن وليتني عزلتني، وإذا ولاني ربي لم يعزلني أحد. فقال الأمير: سل حاجتك؟ فقال: حاجتي أن تردَّ علي شبابي! فقال: ليس ذلك إليّ فهل لك حاجة أخرى؟ قال: أن تكتب إلى مالك خازنِ النار أن لا يعذبني. قال: ليس لي ذلك أيضًا. قال: هل لك حاجة أخرى؟ قال: أن تكتب إلى رضوان خازن الجنان يدخلني الجنة. قال: ليس ذلك إليّ أيضًا. قال أبو غياث: فإنها مع الربّ الذي هو مالك الحوائج كلها، لا أسأله حاجة إلا أجابني إليها. فخلّى الأميرُ سبيلَه[1].

(١) انظر كتاب «من أخلاق العلماء».

* **أبو النضر وعاملٌ للخليفة: «كتاب اللَّه قبل كتاب الخليفة»:**

دخل أبو النضر سالم مولى عمر بن عبيداللَّه على عاملٍ للخليفة، فقال له: يا أبا النضر، إنه تأتينا كتبٌ من عند الخليفة فيها وفيها، ولا نجد بُدًّا من إنفاذها، فما تَرَى؟ قال أبو النضر: قد أتاك كتابُ اللَّه قبل كتاب الخليفة، فأيّهما اتبعتَ كنت من أهله.

* **أبو سعيد الضبعي ومحمد بن سليمان: «لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون؟»:**

كان والي البصرة: محمد بن سليمان، فكان كلما صعد المنبر أمر بالعدل والإحسان، فقام أبو سعيد الضبعي، فقال: يا محمد بن سليمان، إن اللَّه تعالى يقول في كتابه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾. يا محمد بن سليمان، إنه ليس بينك وبين أن تتمنَّى أن لم تُخلق إلا أن يَدخل ملكُ الموتِ من بابِ بيتك. قال: فخنقت محمد بن سليمان العبرة، فلم يقدر أن يتكلم، فأحبَّه النسَّاكُ حين خنقته العبرة، وقالوا: مؤمنٌ مذنبٌ.

* **القاضي ابن عين الدولة.. والملك الكامل:**

ولقد عرضت على القاضي ابن عين الدولة قضية كان أحد الشهود فيها الملك الكامل، فأراد القاضي أن يتجنب شهادته؛ لأنه ليس من العدول في نظره.. فقال له في رفق: السلطان يأمر ولا يشهد!! فلما لم يفهم الملك رغبة القاضي في إبعاده عن موقف الشهادة قال للقاضي: أنا أشهد.. تقبلني أم لا؟!

فقال له القاضي: لا.. لا أقبل منك شهادة، وقد علمت أن الفتاة التي تُدعى «عجيبة» المغنية تطلع إليك بجنكها ودفّها كل ليلة، ثم تنزل وهي تتمايل ثملة على أيدي الجواري؟! أيحسن ما نزلت عن هذه الشهادة؟!

فثارت ثائرة الملك، وخرج عن صوابه.. ولكنه لم يستطع أن يشتمه باللغة العربية، فشتمه باللغة الفارسية قائلاً: يا كيواج!!

فردّ القاضي ردًّا حاسمًا في ملأ الناس وقال: ما في الشرع يا كيواج!! أي أنه ردّ عليه شتمته بذكاء ولباقة وعزّة!!

وبعد ذلك أعلن ابن عين الدولة على الفور أنه قد عزل نفسه من القضاء!! وعندما نهض لمغادرة المكان أسرع إليه الملك وأخذ يسترضيه ويعتذر إليه خوفًا من أن يصل الخليفة أمره، وظل يرجوه العفو والصفح، ويعده بألا يعود إلى المعاصي[1].

* * *

(١) «كتمان الحق» ص(١٢٢ ـ ١٢٣).

القضاة الذين لا يخشون في اللَّه لومة لائم من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر

يدخل في زمرة الربانيين القضاة الذين صدعوا بالحق وما خشوا في اللَّه لومة لائم، وكانوا من سادات الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، ونذكر منهم:

*** قاضي المدينة الإمام سعد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف:**

كان شعبة إذا ذكر سعد بن إبراهيم يقول: حدّثني حبيبي سعد بن إبراهيم، يصوم الدهر، ويختم القرآن في كل يوم وليلة.

❑ اختصم عند ابن هشام المخزومي ـ أمير المدينة ـ وسعدٌ عنده يومًا ـ ولد لمحمد بن مسلمة وآخر من بني حارثة، فقال ابن محمد: أنا ابن قاتل كعب بن الأشرف. فقال الحارثي: أما واللَّه، ما قُتِل إلا غدرًا، فانتظر سعد أن يغيّرها الأمير، فلم يفعل حتى قاما. فلما استقضي سعد قال لخادمه: أُعطي اللَّه عهدًا لئن أفلت الحارثي منك لأوجعنّك. قال شعبة: فصليت معه الصبح ثم جئت به سعدًا، فلما نظر إليه سعد قال: أنت القائل: إنما قُتِل ابن الأشرف غدرًا، ثم ضربه خمسين ومائة سوط، وحلق رأسه ولحيته وقال: واللَّه لأقومنك بالضرب ما كان لي عليك سلطان.

وفي مرض الموت دخل عليه ابن هرمز وجماعة يعودونه، فاغرورقت عينا ابن هرمز، فقال له سعد: ما يُبكيك؟ فقال: واللَّه لكأني بقائلة غدًا تقول: واسعداه للحق ولا سعد. قال: واللَّه لئن قلت ذلك، ما أخذني في اللَّه لومة لائم منذ أربعين سنة[1].

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/٤١٨ ـ ٤٢١).

*** قاضي القضاة بكّار بن قتيبة ووالي مصر أحمد بن طولون:**

❑ قال الذهبي: كان عظيم الحُرمة، وافر الجلالة، من العلماء العاملين، وكان تاليًا للقرآن، بكّاءً صالحًا دينًا.

❑ قال الطحاوي: كان بكّار على نهاية من الحمد في ولايته.

جمع أحمد بن طولون العلماء والأعيان، وقال: قد نكث الموفق أبو أحمد ـ ولي العهد ـ بأمير المؤمنين، فاخلعوه من العهد، فخلعوه، إلا بكّار ابن قتيبة. وقال: أنت أوردت عليّ كتاب المعتمد بتوليته العهد، فهات كتابًا آخر منه بخلعه، قال: إنه محجور عليه ومقهور. قال: لا أدري. فقال له: غرّك الناس بقولهم: ما في الدنيا مثل بكار، أنت قد خرفت. وقيّده وحبسه وأخذ منه جميع عطائه من سنين، فكان عشرة آلاف دينار، فقيل: إنها وُجدت بختومها وحالها.

ونقل القاضي ابن خلّكان: أن ابن طولون كان يُنفذ إلى بكّار في العام ألف دينار، سوى المقرّر له، فيتركها بختمها، فلما دعاه إلى خلع الموفق، طالبه بجملة المال، فحمله إليه بختومه ثمانية عشر كيسًا، فاستحيا ابن طولون عند ذلك.

ولما اعتل أحمد بن طولون راسل بكّارًا، وقال: إنا رادوك إلى منزلك، فأجبني، فقال له: قل له: شيخ فان، وعليل مدنف والملتقى قريب، والقاضي اللَّه عز وجل، فأبلغها الرسول أحمد، فأطرق، ثم أقبل يكرر ذلك على نفسه ثم أمر بنقله من السجن إلى دار اكتريت له[1].

---

(١) «السير» (١٢/ ٤٩٩ ـ ٦٠٤)، و«ولاة مصر وقضاتها» (٣٦١ ـ ٣٦٢).

*** القاضي أبو عبيد بن حربويه ومؤنس الخادم أكبر أمراء الخليفة المقتدر:**

قاضي مصر المشهور بالعدل والهيبة، كان أمير مصر يركب إلى داره ولم يكن هو يركب إلى دار الأمير.

ومن شدّته في إنفاذ الشريعة أن مؤنسًا الخادم ـ وكان أكبر أمراء الخليفة المقتدر وكان يُخطب له على المنابر مع الخليفة ورد إلى مصر في عسكر كبير، فعرض له ضعف، فأرسل إلى القاضي يطلب منه شهودًا يشهدهم عليه أنه أوصى بوقف قرى كثيرة على سبيل البر، وبعتق ستمائة مملوك، وبأنواع من الخير. فقال القاضي: حتى يثبت عندي أن مؤنسًا حر، وقال: إنه لم يرد عليّ كتاب من الخليفة بأنه أعتقه، فلا أفعل. وكتب المقتدر إليه كتابًا، فوصل الكتاب إلى مؤنس، فاستدعى بعض الأمراء ليوصله إلى القاضي، فامتنع هذا؛ هيبة منه، فدعا تكين أمير مصر، وحمله على أن يذهب إلى القاضي ويوصل إليه الكتاب، فأتى تكين إلى القاضي ومعه الكتاب وناوله إياه، فقال القاضي: ما هذا؟ فقال: كتاب أمير المؤمنين. فقال: أَمِنْ يدك؟ فقال: بل من أيدي شاهديْن عدليْن يشهدان أنه كتاب أمير المؤمنين[1].

*** الإمام الشهيد قاضي برقة: محمد بن الحُبُلى والمنصور سلطان العُبيديين:**

أتاه أمير برقة ـ وكان من الفاطميين العبيديين ـ فقال: غدًا العيد. قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطِّر الناس وأتقلد إثمهم. فقال: بهذا جاء كتاب المنصور. وكان هذا من رأى العُبيدية يفطرون بالحساب، ولا يعتبرون برؤية، فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد. فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي. فأمر الأمير رجلاً خطب، وكتب بما جرى إلى المنصور،

(١) مقدمة «محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي» للأمير شكيب أرسلان ص(٢٩ ـ ٣٠) ـ مكتبة دار الحياة ـ بيروت.

فطلب القاضي إليه، فأُحضر، فقال له: تنصّل، وأعفو عنك. فامتنع، فأمر، فعُلقّ في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش فلم يُسق، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة اللَّه على الظالمين»[1].

* * *

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٣٧٤).

نفح الطيب
من
مواقف علماء وقضاة الأندلس
الغصن الرطيب

نَفْح الطِّيبِ مِن مواقفِ علماءِ وقضاةِ الغُصنِ الرطيب

*** القاضي نصر بن ظريف اليحصبي والأمير عبدالرحمن بن معاوية:**

حكى أبو عمر بن عبدالبر أن حبيبًا القرشي دخل على الأمير عبدالرحمن بن معاوية، فشكا إليه القاضي نصر بن ظريف اليحصبي، وذكر أنه يريد أن يُسجِّل عليه في ضيعة يقيم فيها، وادَّعى عليه الاغتصاب لها، ولاذ بالأمير من إسراع القاضي إلى الحكم عليه من غير تثبت. فأرسل الأمير إليه وكلمّه في حبيب ونهاه عن العجلة عليه، فخرج ابن ظريف من يومه، وعمل بغير ما أراد الأمير، وأنفذ الحُكم، وبلغ الخبر حبيبًا؛ فدخل إلى الأمير متَّغرًا غيظًا، فذكر له ما عمله القاضي، ووصفه بالاستخفاف بأمره والنقض له، وأغراه، فغضب الأمير على القاضي واستحضره، فقال له: من أمرك أن تنفذ حكمًا، وقد أمرتك بتأخيره والأناة به؟ فقال له: قدّمني عليه رسول اللَّه ﷺ؛ فإنما بعثه اللَّه بالحق؛ ليقضي به على القريب والبعيد والشريف والدنيء. وأنت أيها الأمير، ما الذي حملك على أن تتحامل لبعض رعيتك على بعض، وأنت تجد مندوحة بأن تُرضي من مالك مَن تُغني به، وتمدّ الحق لأجله؟ فقال له: جزاك اللَّه يا ابن ظريف خيرًا. وخرج القاضي، فدعا بالقوم الذين صارت الضيعة إليهم بالاستحقاق، وكلّمهم فوجدهم راضين ببيعها إن أجزل لهم الثمن، فعقد فيها البيع معهم، وصارت إلى حبيب، فكان بعد ذلك يقول: جزى اللَّه ابن ظريف عنا خيرًا، كانت بيدي ضيعة حرام، فجعلها حلالاً[1].

---

(١) «قضاه الأندلس» (ص٤٤) ـ المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ لبنان.

*** قاضي قرطبة المصعب بن عمران يردّ الضيعة على الأيتام ويخالف كلام الأمير الحكم بن هشام:**

عُرف هذا القاضي ـ رحمه اللَّه ـ بصلابته في الحق، وحكمه به على أي أحد كائنًا من كان.

«في كتاب الحسن بن محمد: أن العباس بن عبدالملك المرواني اغتصب رجلاً من أهل جيّان ضيعته، فبينما هو ينازعه فيها، هلك الرجل وترك أيتامًا صغارًا، فلما ترعرعوا وسمعوا بعدل القاضي مصعب وقضائه قدموا قرطبة، وأنهوا إليه مظلمتهم بالعبّاس، وأثبتوا ما وجب إثباته، فبعث القاضي إلى العباس، وأعلمه بما دفعه إلى الأيتام، وعرّفه بالشهود عليه، وأعذر إليه فيهم، وأباح له المدافع، وضرب له الآجال، فلما انصرمت، ولم يأت بشيء أعلمه أنه ينفذ الحكم عليه، ففزع العباس إلى الأمير الحكم، وسأله أن يوصي إلى القاضي بالتخلي عن النظر في قضيته؛ ليكون هو الناظر فيها، فأوصل إليه الأمير ذلك مع خليفة له من أكابر فتيانه، فلما أدّى الوصية إليه، اشتدت عليه، وقال: «إن القوم قد أثبتوا حقهم، ولزمهم في ذلك عناء طويل، ونصب شديد لبُعد مكانهم، وضعف حالتهم. وفي هذا على الأمير ـ أعزّه اللَّه ـ ما فيه فلست أتخلى عن النظر وإنفاذ الحكم لوجهه، فليفعل الأمير بعده ما يراه صوابًا من رأيه». فرجع الرسول إلى الأمير بجوابه، فوجم منه، وجعل العباس يغريه بمصعب، ويقول: قد أعلمتُ الأمير بشدة استخفافه وغلطه في نفسه، وتقديره له أن الحكم له ولا حكم للأمير عليه. وكرّر الأمير الطلب إليه أن يكفّ عن إصدار الحكم في القضية، فأمر القاضي الرسول بالقعود، وحكم للقوم بالضيعة، ثم أنفذ الحكم وأشهد عليه، وقال: قد حكمتُ بالعدل، فلينقضه الأمير إن قدر، فاستشاط غيظًا، وأطرق مليًّا. وأقرّ حُكم القاضي»[1].

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٤٦ ـ ٤٧).

*** أبو عبدالله محمد بن يحيى بن البراء قاضي المرية بالأندلس، ويوسف ابن تاشفين أمير المرابطين:**

كتب إليه سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين - فيمن كتب إليهم - بفرض معونة على الأهالي لأجل الجهاد، فامتنع القاضي عن فرضها، وكتب إلى أمير المسلمين بأنه لا يجوز له ذلك. فأجابه أمير المسلمين ابن تاشفين قائلاً له: إن القضاة عندي والفقهاء أباحوا فرضها، وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرضها في زمانه، فراجعه القاضي بكتاب يقول له فيه: الحمد لله الذي إليه مآبنا وعليه حسابنا، وبعد: فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرّي عن ذلك، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية، فإن كان عمر رضي الله عنه اقتضاها؛ فقد كان صاحب رسول الله ﷺ، ووزيره، وضجيعه في قبره، ولا يُشك في عدله، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ، ولا بوزيره، ولا بضجيعه في قبره، ولا ممن لا يُشك في عدله، فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل، فإن الله سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ، وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، وحينئذ تجب معونته... إلخ فلما بلغه هذا الكتاب وعظه الله بقوله ولم يُعِدْ عليه في ذلك قولاً[1].

* * *

(١) مقدمة «محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي» ص(٣٠ي - ٣١).

* **قاضي الجماعة بمراكش أبو عبدالله بن علي بن مروان وأبو يوسف المنصور ملك الموحدين:**

روى ابن خلكان عنه هذه الحكاية الرائعة وهي: «أن الأمير الشيخ أبا محمد عبدالواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبدالواحد صاحب إفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها، فسيّر الأمير عبدالواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبدالواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش أبي عبدالله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبدالواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور، ومضى على ذلك أيام، ثم إن الشيخ عبدالواحد اجتمع بالقاضي في قصر الأمير بمراكش، وقال له: أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاءوني. فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له: يا أمير المؤمنين، الشيخ عبدالواحد قد طلب أهله، وهذه الثانية فسكت الأمير يعقوب، ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبدالواحد القاضي بالقصر المذكور، وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له: يا قاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، وأنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير وقال له: يا مولانا، إن الشيخ عبدالواحد قد تكرّر طلبه لأهله، فإما أن تُسيِّر إليه أهله، وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور ثم قال: يا أبا عبدالله، ما هذا إلا جدّ كبير. ثم استدعى خادمًا وقال له في السرِّ: تحمل أهل الشيخ عبدالواحد إليه، فحُملت إليه في ذلك النهار[1].

(١) «وفيات الأعيان» (٧/ ١٠ ـ ١١).

* القاضي المنذر بن سعيد قاضي الجماعة بقرطبة والخليفة عبدالرحمن الناصر:

ولي قضاء الجماعة بقرطبة أيام عبدالرحمن الناصر، وناهيك من عدل أُظهر، ومن فضل أُشهر، ومن جور قُبض، ومن حق رُفع، ومن باطل خُفِض.

كان مهيبًا صليبًا، غير جبان ولا عاجز، ولا مراقب لأحد من خلق اللَّه في استخراج حق ورفع ظلم، استعفى مرارًا من القضاء فما أُعفي»[1].

❑ «كان المنذر قاضي قرطبة وخطيب مسجدها الكبير، وعندما أخذ الخليفة الناصر في بناء الزهراء، انهمك في الإشراف عليها، حتى تأخر عن حضور صلاة الجماعة ـ في يوم الجمعة ـ ثلاث جمع متواليات، فأراد القاضي منذر أن يغضّ منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة، والتذكّر بالإنابة والرجوع، فابتدأ في أول خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٦]. ثم وصله بقوله: فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى، وهي دار القرار، ثم مضى في ذم تشييد البنيان والاستغراق في زخرفته إلى أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:

(١) «نفح الطيب» (١/ ٣٧٥).

١٠٩]، ثم خوّف بالموت، ودعا إلى الزهد حتى خشع الناس ورقوّا وبكوا، وضجّوا ودعوا وأعلنوا التضرع إلى اللّه في التوبة والابتهال في المغفرة، وأخذ خليفتهم من ذلك بأوفر حظ، وقد علم أنه المقصود به، فبكى وندم على ما سلف له من فرطه، واستعاذ باللّه من سخطه، إلا أنه وجد[1] على منذر لغلظ ما قرّعه به، فشكا ذلك لولده الحكم بعد انصراف منذر، وقال: واللّه لقد تعمّدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي، ولم يُحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعُني. واستشاط غضبًا عليه، فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة الجمعة خاصة، فجعل يلتزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف صاحب الصلاة بقرطبة، ويجانب الصلاة بالزهراء. وقال الحكم: فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذا كرهته؟! فزجره وانتهره، وقال له: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه ـ لا أم لك ـ يُعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟! هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من اللّه أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكنه أحرجني فأقسمت، ولوددت أني أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يُصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء اللّه، فما أظننا نعتاض منه أبدًا»[2].

قال ابن عفيف: من أخباره المحفوظة: أن أمير المؤمنين ـ الناصر ـ عمل في بعض سطوح الزهراء قبّة بالذهب والفضة، وجلس فيها، ودخل الأعيان فجاء منذر بن سعيد، فقال له الخليفة كما قال لمن قبله: هل رأيت أو سمعت أن أحدًا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدّر، ثم قال: واللّه ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان ـ لعنه اللّه ـ يبلغ

(١) وجد: غضب.

(٢) عبدالرحمن الناصر لبسّام العسيلي ص(١٠٦ ـ ١٠٨).

منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك اللَّه من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين، حتى يُنزلك منازل الكافرين، فانفعل عبدالرحمن لقوله وقال: انظر ما تقول، وكيف أنزلني منزلتهم؟ قال: نعم، أليس اللَّه تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥]، فنكّس الناصر رأسه طويلاً ودموعه تتساقط، ثم قال: جزاك اللَّه عنا خيرًا وعن المسلمين، والذي قلت هو الحق، وأمر بنقض سقف القبّة.

ووقف مرة إلى جانب الخليفة الناصر، واستمع إلى ما قيل في مدح الزهراء، فاهتزّ الناصر وابتهج، أما القاضي منذر فأطرق، ثم قال منشدًا:

يا باني الزهراء مستغرقًا ... أوقاته فيها أما تمهلْ

للَّه ما أحسنها رونقًا ... لو لم تكن زهرتها تذبُلْ

فقال الناصر: إذا هبّ عليها نسيم التذكار والحنين، وسقتْها مدامع الخشوع، لا تذبُل إن شاء اللَّه تعالى. فقال منذر: اللَّهم اشهد أني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحًا[1].

كان للناصر حظية من نسائه ملكت قلبه، فهام بها، وكلف برغباتها، فبنى لها قصرًا جميلاً، ثم عنّ له أن يتوسع في شرفاته ومقاصيره، فأراد أن يشتري دارًا مجاورة لبعض الأيتام، وعرض بعض المال لذلك، فقال الوصيّ: إنه لا ينفذ البيع إلا بإذن القاضي منذر بن سعيد، إذ أن الأيتام في حجره ورعايته، فهو قاضي الجماعة من المسلمين، وأولى بالتصرف والإنفاذ، فبعث

(١) «السير» (١٦/ ١٧٧)، وعبدالرحمن الناصر للعسيلي ص(١١٠ ـ ١١١).

الخليفة إلى القاضي يسأله إنفاذ البيع، فقال البلوطي لرسول الخليفة: إن البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه منها: الحاجة الملحة، أو الضعف الشديد، أو الرغبة في مال من غبطة مرتجاة، وليس بالأيتام حاجة لنقد، ولا بالدار ضعف فتزال، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين كثيراً أنفذت البيع وإلا فلا.

وطار الرسول بالخبر إلى الخليفة فأظهر زهداً في شرائها، وخاف القاضي أن يصمّم الخليفة على الشراء، فأمر بنقض الدار وبيع أنقاضها، فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة في الشراء، فعزّ ذلك على الناصر، واستدعى القاضي وناقشه في هدم المنزل، فقال له المنذر في جرأة حميدة: لقد أخذت في هدمها بقول اللَّه عز وجل: ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ [الكهف: ٧٩] ومقوّمك لم يقدرها بمال معقول، وقد قبضت في الأنقاض وحدها أكثر منه، وبقيت الأرض للأيتام، فتدبر الخليفة الأمر قليلاً وأدرك صدق النيّة لدى القاضي وعلم إخلاصه في اتباع الحق فقال له: نحن أولى بالانقياد إلى العدالة، وجزاك اللَّه خيراً يا قاضي الجماعة عن العدل والإسلام»[1].

*** ابن غانم القاضي والأمير إبراهيم بن الأغلب:**

هو عبداللَّه بن عمر بن غانم.

لما امتنع فرّوخ من القبول للقضاء أشار بابن غانم، وتقدّم من قِبل هارون الرشيد بإفريقية، وذلك في رجب سنة ١٧١، وكان يوجّه بمسائله أيام

(١) «علماء في وجه الطغيان» للدكتور محمد رجب اليومي (٢/ ١٥ ـ ١٦) هدية مجلة الأزهر ـ لشهر صفر ١٤٢٢هـ.

قضائه إلى الإمام مالك، فيما ينزل به من نوازل الخصوم، ويكتب إلى ابن كنانة[١] فيأخذ له الأجوبة من مالك.

قال ابن غانم: دخلتُ مجلس إبراهيم بن الأعلب، فبينما نحن قعود، إذ أشرف علينا إبراهيم، فقام إليه من كان في البيت غيري، فجلس مغضبًا، ثم قال لي: يا أبا عبدالرحمن ما منعك أن تقوم كما قام إخوانك؟ فقلت: أيها الأمير: حدثني مالك عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من **أحب أن يتمثّل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار**» فنكّس إبراهيم رأسه وأطرق.

وكان له ـ رحمه اللَّه ـ حظ من صلاة الليل، فإذا قضاها وجلس عرضها على ربه عَرض خصم يريد أن يحكم له فيقول في مناجاته: «يا رب» إن فلانًا نازع فلانًا وادّعى عليه بكذا؛ فأنكر دعواه؛ فسألته البيّنة؛ فأتى بيّنة شهدت له بما ادّعى، وقد أشرفت أن آخذ له من صاحبه بحقه الذي تبيّن لي أنه حق له؛ فإن كنتُ على صواب فثبتني! وإن كنتُ على غير صواب فاصرفني! اللَّهم لا تُسلِمْني! اللَّهم سلِّمني! فلا يزال يعرض الخصوم على ربه حتى يفرغ منهم[٢].

* شيخ المالكية وقاضي إفريقية الإمام سحنون:

هو عبدالسلام بن سعيد بن حبيب التنوخي الملقّب سحنون. تولى قضاء إفريقية وذلك سنة ٢٣٤هـ فلم يزل قاضيًا إلى أن مات.

ذكر عياض بن موسى عن أبي العرب أنه قال: لما عُزِل ابن أبي الجواد قال سحنون: «اللَّهم! ولِّ هذه الأمة خيرها وأعدلها» فكان هو الذي ولي

---

(١) هو القاضي الفرج بن كنانة.

(٢) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٤٣، ٤٤).

بعده. وقال: «لم أكَدْ أرى قبول هذا الأمر حتى كان من الأمير مَعْنيان؛ أحدهما: أعطاني كل ما طلبتُ، وأطلق يدي في كل ما رغبت، حتى إني قلتُ: «أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك؛ فإنّ قِبَلهم ظلامات للناس وأموالاً منذ زمان طويل»، فقال لي: «نعم! لا تبدأ إلا بهم، وأجْرِ الحقّ على مفرق رأسي»، وجارني من عزٍّ منه مع هذا ما يخاف منه المرء على نفسه، وفكّرت؛ فلم أجد لنفسي سعة في ردِّه ولما تمّت ولايته، سار حتى دخل على ابنته خديجة، وكانت خيار النساء، فقال لها: اليوم ذُبح أبوك بغير سكين، فعلم الناس قبوله للقضاء.

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يؤدب الناس على الأيْمَان التي لا تجوز، من الطلاق والعتاق حتى لا يحلفوا بغير اللَّه، ويؤدبهم على سوء الحال في لباسهم وما نُهي عنه، ويأمرهم بحسن السيرة والقصد، وهو أول من نظر في الحِسْبَة من القُضاة، وأمر بتغيير المنكر، وأوّل من فرّق حِلَق البدع من الجامع، وشرّد أهل الأهواء منه، وكان الذين يحضرون مجلسه من العُبّاد أكثر من طلاب العلم.

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «من لم يعمل بعلمه، لم ينفعه العلم، بل يضرّه. وإنما العلم نور يضعه اللَّه في القلوب؛ فإذا عَمِل به، نوّر اللَّه قلبه، وإن لم يعمل به، وأحبّ الدنيا، أعمى حبُّ الدنيا قلبه، ولم ينوّره العلم.

ولم يأخذ لنفسه مدّة قضائه من السلطان شيئًا ـ رحمه اللَّه ـ[1].

*** القاضي عيسى بن مسكين والأمير إبراهيم بن الأغلب:**

الرجل عيسى بن مسكين بن منصور تلميذ سحنون.

لما اضطر الأمير إبراهيم بن الأغلب يحيى بن عمر إلى ولاية القضاء،

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» (٤٧، ٤٨، ٤٩).

فقال له: «إن دلَلْتُك على مَنْ هو أفضل مني، في الوجه الذي تحبّ تعفيني؟» فقال له: نعم، فدلّه على عيسى بن مسكين وكان بالحضرة حَمْديس، فقال: «إنه واللّه أيها الأمير، صاحبنا عند سحنون، جمع اللّه فيه خلال الخير بأسرها» فأرسل فيه إبراهيم إلى كورة بالساحل، وأوصله إلى نفسه، وقال: «أتدري لم بعثت لك؟»، قال: لا. قال: «لأشاورك في رجل قد جمع اللّه فيه خلال الخير، أردتُ أن أولّيه القضاء، وألمّ به شعث الأمة؛ فامتنع». قال: يلزمه أن يلي. قال: تمنّع. قال: يُجبَرُ على ذلك. قال: تمنّع. قال: يُجلَد. قال: قم! فأنت هو! قال: «ما أنا الذي وصفت» وتمنّع. فأخذ الأمير بجامع ثيابه، وقرّب السيف من نحره، فتقدّم إليه بخنجره. قال حمديس: «وكنت في المجلس؛ فقمت من مكاني، لئلا يصيبني من دمه». فلم يزل به حتى ولي على شروط، منها قال له: «أستعفيك في كل شهر»، قال: نعم، قال: «وأجعلك، وبني عمك، وجُندك، وفقراء الناس وأغنياءهم في درجة واحدة»، قال: نعم. قال: «ولم توجِّه ورائي، وكذا وكذا، فمتى لم تفِ لي بشرط، عزلتُ نفسي». قال: نعم. وعرض عليه عند ذلك الكسوة والصلة، فامتنع وقال له: أنا رجل طويل الصمت، قليل الكلام غير نشط في أمور، ولا أعرف أهل البلد، فقال له الأمير: عندي مولى نشيط، قد تدرّب في الأحكام، أنا أضمه إليك. فضمّ إليه عبداللّه بن مفرِّج. قال المخبِر: «فكثيرًا ما كنت آتي مجلسه وهو صامت. وسُئل عن فرط انقباضه في قضائه فقال: «ابتُليت بجبّار عنيد، خِفتُ أن يبعث إليّ من طعامه، أو يدعوني إليه، ولا آتيه، فحملتُ نفسي على ذلك، ليقطع طمعه مني».

وكان إذا تحدّث عن أيام قضائه يقول: «كنت في بليّتي» و«كنت أيام المحنة». . ولما تاب الأمير تخلّى عن الملك وتوجّه للجهاد، أتاه عيسى بن مسكين؛ فقال له: «إن اللّه عافاكَ مما كنتَ فيه، فشارِكني في الخروج عمّا

أدخلتني فيه فقد كبر سني، وضعف بدني». وعلى الأثر وقع انفصاله عن القضاء[١].

*** القاضي الفرج بن كنانة والأمير الحكم بن هشام:**

استخلصه الأمير الحكم بن هشام، وولاّه قضاء الجماعة بقرطبة. وكان هو القاضي بها أيام الهرج المعروف بوقيعة الرّبض.

ومما جرى له حينئذ، أن بعض أصحاب الأمير الحكم، الذين أرسلهم على الناس، تعلّقوا بجار الفرج بن كنانة، اتهموه بالحركة في الصبح، وتسوّروا عليه، وصاح نساؤه؛ فسمع القاضي الصراخ؛ فقال: «ما هذا؟» فقيل: «جارك فلان! تعلّق به الحرس؛ فأخرجوه ليُقتَل» فبادر بالخروج، وكفّ القوم عن جاره، وقال لهم: «إن جاري هذا بريء الساحة، سليم الناحية، وليس فيه شيء مما تظنون». فقال له رئيس الحرس، المُرسَل معهم: «ليس هذا من شأنك! فعليك بالنظر في أحباسك وحكومتك! ودَعْ ما لا يعنيك» فغضب الفرج عند ذلك، ومشى إلى الأمير الحكم؛ فاستأذن عليه، فلما دخل، قال له بعد السلام: «أيها الأمير! إن قريشًا حاربت رسول اللّه ﷺ وناصبته العداوة في اللّه تعالى، ثم إنه صفح عنهم، لما أظفر اللّه تعالى بهم، وأحسن إليهم. وأنت أحق الناس بالاقتداء به، لقرابتك منه، ومكانك من خلافته في عباد اللّه»، ثم حكى له قصة جاره، وما عرض له في الدفاع عنه، فأمر بتخلية سبيله، وبعقاب الناظر الذي عارض القاضي؛ وعفا عند ذلك عن بقية أهل قرطبة، وبسط الأمان بجماعتهم، وردّهم إلى أوطانهم»[٢].

---

(١) المصدر السابق ص(٤٩، ٥٠، ٥١).

(٢) المصدر السابق ص(٧٤، ٧٥).

* القاضي سليمان بن الأسود الغافقي والأمير محمد بن عبدالرحمن الثاني أمير ماردة:

❑ قال أبو عمر بن عبدالبر: «كان القاضي سليمان بن الأسود رجلاً صالحًا متقشِّفًا، صليبًا في حكمه، مهيبًا. وكان السبب في تقليد الأمير محمد[1] إياه قضاء قرطبة، حُكْمٌ أمضاه بمدينة ماردة، وهو قاضٍ عليها للأمير عبدالرحمن والده، ومحمد أمير عليها؛ وقد احتبس لرجل يهودي من تجار جلِّيقية مملوكة أعجبته.

واشتط اليهودي في سومها، فدس غلمانه لاختلاسها في اليهودي، وخذع اليهودي إلى سليمان بمظلمة، واستشهد بمن حول دار الإمارة ممن عرف خبرها. فأوصل سليمان إلى محمد، يعرفه بما ذكره اليهودي، وما شهد به لديه ويقبح عنده سوءَ الأحدوثة عنه، ويسأله دفع مملوكته إليه. فأنكر محمد ما زعمه اليهودي ولواه بحقه، فأعاد القاضي إليه الرسالة يقول له: «إن هذا اليهودي الضعيف لا يقدر أن يدعي على الأمير بباطل وقد شهد عندي قوم من التجار فليأمر الأمير بإنصافه» فلج محمد، ولج سليمان فأرسل إليه سليمان ثانية، يقسم باللَّه العظيم لئن لم يصرف على اليهودي جاريته، ليركبن دابته من فوره، ويكون طريقه إلى الأمير والده يعلمه الخبر ويستعفيه من قضائه. فلم يلتفت محمد إلى وصيَّته فشد سليمان على نفسه وركب دابته سائرًا إلى قرطبة، وكانت طريقة على باب دار الامارة، فدخل الفتيان إلى محمد، فعرفوه بسيره. فأشفق من ذلك، وأرسل خلفه فتًى من ثقاته، يقول له: إن الجارية قد وجد خبرها عند بعض فتيانه، وقد كان أخفاها بغير

---

(١) هو أمير الأندلس محمد بن عبدالرحمن الثاني، وقد ولي الأندلس من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣هـ.

أمره. وها هي حاضرة، ترد إلى اليهودي. فلحقه الرسول على ميل أو نحوه من ماردة، وأعلمه فقال: «واللَّه لا أنصرف من موضعي راجعًا، أو أوتى بالجارية إلى هذا المكان ويقبضها اليهودي ها هنا والا مضيت لوجهي»، فأرسل محمد الجارية إليه. فلما صارت بين يديه، وأرسل في اليهودي مولاها، وفي ثقات من ثقات أهل البلد ودفعها إليه بمحضرهم. وأعجب الأمير محمدًا ما كان منه. واسترجحه واعتقد تفضيله. فلما ولي الخلافة، واحتاج إلى قاضٍ، ولاَّه وأعزَّه.

قال أسلم بن عبدالعزيز: سمعت أخي هاشمًا يقول: إني لقاعد يومًا بين يدي الأمير، إذا دخل عليه فتاه بدرون الصقلبيُّ (وكان أثيرًا لديه) باكيًا فقال له: «ما دهاك؟» فقال له: «يا مولاي» عرض لي الساعة مع القاضي ما لم يعرض له مثله قط! ولوددت أن الأرض انضمت علي ولم أقف بين يديه» قال: «وما ذاك؟». قال: دست علي امرأة تطالبني في دار في يدي، فأغفل ما كنت إذ جاءتني بطابع القاضي، وكنت أنت أمرتني بما تعلمه، فاعتذرتُ إليها وقلت: أنا اليوم مشغول بشغل الأمير ـ أعزه اللَّه ـ وسأكتب إلى القاضي، وأستعلم ما يريده. ثم إني أقبلت إلى القصر وقد أتيت باب القنطرة، فإذا برسول من أعوان القاضي بادر إلي، فضرب على عاتقي، وصرفني عن طريقي إليه، فدخلت عليه في المسجد الجامع، فوجدته غضبان، فنبهني وقال: «عصيتني ولم تأخذ طابعي» فقلت: «أوكل من يخاصمها عني» فأبى علي إلا أن أتكلم فلما رأيت صعوبة مقامي، أعطيتها بدعواها، ونجوت بنفسي. أفيحسن عندك يا مولاي، أن يركب من قاضيك مثل هذا، ومكاني من خدمتك مكاني؟». وقال: فتغير وجه الأمير محمد، وقال له: «يا بدرون، أخفض عليك! فمحلك مني تعلمه، فاسألنا به حوائجك، نجبك إليها! ما خلا معارضة القاضي في شيء من أحكامه، فإن

هذا باب قد أغلقنا فلا نجيب إليه أحدًا من أبنائنا ولا من إخواننا، ولا من أبناء عمنا، فضلاً عن غيرهم، والقاضي أدرى بما فعل!» فمسح بدرون عينيه، وانصرف. قال القاضي أسلم: وإنما كان يحتمل مثل هذا من أولئك القضاة، وأما أمثالنا نحن فلا. وصدق أسلم ـ رحمه اللَّه ـ فالقهر بالحكم لا يحتمل في الغالب إلا لمن تخلص نيته في القصد به وجه اللَّه. وما تسرع ملامة الناس إلا لمن يتقيها ويتخوف عاقبة أمر أهلها. وسخط اللَّه أكبر من ملامه الخلق. ونسأل اللَّه الهداية والوقاية[1] !.

* الشيخ محمد بن سعيد بن بشير المعافري والحكم بن هشام أمير الأندلس:

كان هذا الرجل ـ رحمه اللَّه ـ ممَّن لقي مالك بن أنس عند توجُّهه إلى حج بيتِ اللَّه الحرام. فلمّا عاد إلى الأندلس، استقضاه الحكم بن هشام؛ وقبل قضاءه على شروط؛ منها نفاذُ حُكمه على كل أحد، من الأمير إلى حارس السوق؛ وأنه، إذا ظهر له العجز من نفسه، أُعفي، وأن يكون رزقُه كفافًا من المال الفَيءِ. وكان من صدور القُضاة، وذوي المذاهب الجميلة، شديد الشكيمة، ماهر العزيمة.

قال أحمد بن خالد: وكان أول ما أنفذه في قضائه التسجيلَ على الأمير الحكم؛ في رحى القنطرة، إذ قيم عليه فيها، وثبت عنده من الدَّعي وسمع من بيّنته ما أعذر به إلى الأمير الحكم؛ فلم يكن عنده مدفع، فسجَّل فيها، وأشهد على نفسه. فلمّا مضت مُدَّتُهُ، ابتاعها ابتياعًا صحيحًا. فكان الحكم بعد ذلك يقول: «رحم اللَّه محمد بن بشير! لقد أحسن فيما فعل بنا على كره منا: كان بأيدينا شيءٌ مشتبهٌ؛ فصحَّحه لنا، وصار حلالاً، طيّب الملك

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٧٨ ـ ٨٠).

في أعقابنا»، وممّا يُذكر عليه أن رجلاً كان يدلس في كتب الوثائق، وإنه عقد وثيقة باطل على رجل من التجار، وقام بذلك عند محمد بن بشير. فلمَّا صحَّ لديه تدليسه، أمر بقطعه؛ فقُطعت يدُه. وكان إذا اختلفت عليه الفقهاءُ بقرطبة، وأشكل عليه الأمر في قضية، كتب إلى عبدالرحمن بن القاسم بمصر، وإلى عبداللَّه بن وهب، وأشباههما؛ وربما قبل الشاهدَ على التوسُّم.

ونُقِل عن عبيداللَّه بن يحيى عن أبيه أنه قال لمحمد بن بشير: «إن الحالات تتغيَّر، ولا تثبت. فإذا عدل عندك الرجل يحكم شهادته، ثمَّ تطاول أمره، وشهد عندك ثانيةً، فكلِّفه التعديل، وأخِّر فيه الكشف؛ فاعمل بحسب الذي يبدو لك». فقبل ذلك منه ابن بشير. فلمّا أشعر الناس به أخذوا حذرهم منه.

ومن كتاب محمد بن حارث، حديث أحمد بن خالد؛ قال: سمعنا محمد بن وضاح يقول: وكل سعيد الخير بن الأمير عبدالرحمن بن معاوية عند القاضي محمد بن بشير وكيلاً يخاصم عنه في شيءٍ اضطرَّ إليه. وكانت بيده فيه وثيقةٌ، فيها شهادات من أهل القبول، وقد أتى عليهم الموت؛ فلم يكن فيها من الأحياء إلاَّ الأمير الحكم بن هشام وشاهدٌ آخر مُبرَّزٌ. فشهد ذلك الشاهدُ عند القاضي، وضُربت الآجال على وكيله في شاهدٍ ثانٍ رجي به الخصام فدخل سعيد الخير بالكتاب إلى الأمير الحكم، وأراه شهادته في الوثيقة (وكان قد كتبها قبل الخلافة في حياة والده) وعرَّفه مكان حاجته إلى أدائها عند قاضيه، خوفًا من بطول حقّه. وكان الحكم يعظِّم سعيد الخير عمّه، ويلزم مبرَّته؛ فقال له: «يا عمِّ، إنا لسنا من أهل الشهادات؛ فقد التبسنا من فتَن هذه الدنيا بما لا تجلهه؛ ونخشى أن توقفنا مع القاضي موقفَ مخزاة، كُنَّا نفديه بملكنا. فصر في خصامك إلى ما صيَّرك الحقُّ إليه! وعلينا خلَفُ ما انتقصك!» فأبى عليه سعيد الخير، وقال: «سبحان اللَّه! وما عسى

أن يقول قاضيك في شهادتك، وأنت وليته، وهو حسنة من حسناتك؟ ولقد لزمك[١] في الديانة أن تشهد لي بما علمته ولا تكتمني ما أخذ اللَّه عليك!»، فقال له الأمير: «بلى! إن ذلك لمن حقِّك كما تقول. ولكنك تُدخل به علينا داخلة؛ فإن أعفيتنا منه، فهو أحبُّ إلينا؛ وإن اضطررنا، لم يمكننا[٢] عقوقك». فعزم عليه سعيد الخير عزم من لم يشكَّ أن قد ظفر بحاجته. وضايقته الآجال؛ فألحَّ عليه؛ فأرسل الأميرُ الحكم عند ذلك عن[٣] فقيهَيْن من فقهاءِ حضرته، وخطَّ شهادته تلك بيده في قرطاس، وختم عليه[٤] بخاتمه، ودفعها إلى الفقيهين، وقال لهما: «هذه شهادتي بخطِّي تحت طابعي[٥] ! فأدِّياها إلى القاضي» فأتياه بها إلى مجلسه، في وقت قعوده للسماع من الشهود، فأدَّياها إليه؛ فقال لهما: «قد سمعتُ منكما؛ فقُوما راشدين» وانصرفا. وجارت[٦] دولة وكيل سعيد الخير؛ فتقدَّم إليه مُذلاً، واثقًا بالخلاص؛ فقال له: «أيها القاضي؛ قد شهد عندك الأمير ـ أصلحه اللَّه ـ فما تقول؟» فأخذ القاضي كتاب الشهادة، ونظر فيه؛ ثمَّ قال للوكيل: «هذه شهادة لا تعمل بها عندي! فجئ بشاهد عدل!» فدهش الوكيل، ومضى إلى موكِّله؛ وأعلمه؛ فركب من فوره إلى الأمير الحكم وقال له: «ذهب سلطانُنا وأُزيل بهاؤنا! ويجترئُ هذا القاضي على ردِّ شهادتك، واللَّه تعالى قد استخلفك على خلقه، وجعل الأمر في دمائهم وأموالهم إليك! هذا ما لا ينبغي أن تحتمله عليه»[٧] وجعل يغريه بالقاضي، ويحرّضه على الإيقاع به.

---

(١) في «نفح الطيب» ص(١٤٧): «لزمتك».

(٢) في «نفح الطيب»: «لم يمكنا».

(٣) في «نفح الطيب»: «إلى».

(٤) كلمة «عليه» ساقطة من نفح الطيب.

(٥) في «نفح الطيب»: «تحت ختمي».

(٦) في «نفح الطيب»: «وجاء وكيل سعيد الخير».

(٧) في «نفح الطيب»: «هذا ما لا يجب أن تُحمل عليه».

فقال له الحكم: «وهل شككتُ أنا في هذا؟ يا عمِّ، واللَّه! رجلٌ صالحٌ، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم! فقال الذي يجبُ عليه، ويلزمه، ويسدُّ بابًا كان يصعُب علينا الدخول منه! فأحسن اللَّه عنا وعن نفسه جزاءه»، فغضب سعيد الخير من قوله، وقال له: «هذا حسبي منك»، فقال له: «نعم! قد قضيتُ الذي كان عليَّ؛ ولستُ، واللَّه! أعارض القاضي فيما احتاط به لنفسه، ولا أخون المسلمين في قبض يد مثله». ولما عوتب ابن بشير فيما أتاه من ذلك، قال لمن عاتبه: «يا عاجز، ألا تعلم أنه لا بدَّ من الإعذار في الشهادات؟ فمن كان يجترئُ على الدفع في شهادة الأمير لو قبلتها؟ وإن لم أعذر، بخستُ المشهود عليه بعض حقّه».

وكان القاضي محمد بن بشير لا يجيز الشهادة على الخط في غير الأحباس، ولا يرى القضاءَ باليمين مع الشاهد. ولذلك اعتلَّ عند شهادة الأمير الحكم في خصومة عمّه سعيد الخير بما اعتلَّ. ومسألة اليمين مع الشاهد مما اختلف فيه أهلُ العلم؛ فأمَّا مالك، فإنه كان يرى ذلك؛ وأمَّا الليث، فإنَّه كان يرى أن كل حق لم يشهد عليه عدلان باللَّه تعالى لم يرد إتمامه. قال عبيداللَّه بن يحيى: وكان أبي ـ رحمه اللَّه ـ يحتجُّ بقول الليث. ويُحكى عن محمد بن بشير أنه لم يحكم في ولايته باليمين مع الشاهد، ولا حكمًا واحدًا. وفي «أحكام» ابن أبي زياد: قال محمد بن عمر بن لبابة: قد علم القاضي ـ حفظه اللَّه ـ اختلاف أهل العلم، وما ذهب إليه مالك، وأصحابه من اليمين مع الشاهد، وما ذهب إليه قضاةُ بلدنا منذ دخلته العرب، من أنهم لا يرون اليمين مع الشاهد، ولا يقضون به. فليتخيّر القاضي ما أراده اللَّه. وإني لمتوقّف على الاختيار في هذا، لما ظهر لي من فساد الناس، وقلَّة الدعة في الشهادة»[1].

(١) المصدر السابق ص(٦٨ ـ ٧١).

❑ قال عنه أبو بكر بن العربي: «ما كان يُقاس إلا بمن تقدّم من صدور هذه الأمّة».

* الشيخ عبدالملك بن حبيب والأمير الحكم:

❑ قال القاضي عياض في كتابه «الشفا»: «أفتى ابن حبيب وأصبغ بن خليل من فقهاء قرطبة بقتل المعروف بـ «ابن أخي عجب»، وكان خرج يومًا، فأخذه المطر، فقال: «بدأ الخرّاز يرشّ جلوده. وكان بعض الفقهاء بها - أي بقرطبة - أبو زيد، وعبد الأعلى بن وهب، وابن عيسى قد توقفوا عن سفك دمه، وأشاروا إلى أنه عبث من القول يكفي فيه الأدب، وأفتى بمثله القاضي حينئذ موسى بن زياد، فقال ابن حبيب: دمه في عنقي، أيشتُم ربًّا عبدناه ولا ننتصر له؟ إنا إذًا لعبيد سوء، وما نحن له بعابدين، وبكى، ورُفع المجلس إلى الأمير بها عبدالرحمن بن الحكم الأموي «ت ٢٨٢هـ». وكانت «عجب» عمّة هذا المطلوب من حظاياه، أي من أحب الزوجات لعبدالرحمن بن الحكم، وأُعْلِم باختلاف الفقهاء، فخرج الإذن من عنده بالأخذ بقول ابن حبيب وصاحبه، وأمر بقتله، فقُتِل وصُلِب بحضرة الفقيهين: ابن حبيب وأصبغ، وعُزل القاضي لتهمته بالمداهنة في هذه القصة، ووبّخ بقية الفقهاء وسبّهم»[1].

❑ قال ابن حارث: وكان السبب في عزله عن القضاء ما كان من أمر ابن أخي عجبٍ حظيَّة الأمير الحكم؛ وذلك أنه شهد عليه بلفظ نطقَ به عابثًا في يوم غيث. فأمر الأمير عبدالرحمن بحبسه، وطلب الشهادات عليه. وأبرمته عجبٌ عمَّتُه في إطلاقه؛ وكانت مدلَّةً عليه لمكانها من أبيه. فقال لها: «مهلاً! يا أمّاه، فلا بُدَّ، واللَّه! من أن نكشف أهل العلم عمَّا يجبُ

(١) «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض (٢/ ٢٩٩).

عليه في لفظه ذلك الذي شهد به عليه؛ ثم يكون الفصل بعد في أمره. فإنا، معشر بني مروان، لا تأخذنا في اللَّه لومة لائم! وما نرى أن اللَّه رفع ملكنا، وجمع بهذه الجزيرة فلَّنا، وأعلى فيها ذكرنا، حتى صرنا شجًى في حلق عدونا، إلا بإقامة حدوده، وإعزاز دينه، وجهاد عدوّه، مع مجانبة الأهواء المُضلة، والبدع المردية». ثم تقدَّم الأمير عبدالرحمن إلى محمد بن السليم الحاجب أن يحضر القاضي محمد بن زياد، والفقهاء بالبلد. فجمعهم، وفيهم عبدالملك بن حبيب، وأصبغ بن خليل، وعبدالأعلى بن وهب، وأبو زيد بن إبراهيم، وأبان بن عيسى بن دينار، فشاورهم في أمر ابن أخي عجب، وأخبرهم بما كان من لفظه. فتوقَّف القاضي محمد بن زياد على القول بسفك دمه. وتبعه في ذلك من الفقهاء أبو زيد وعبدالأعلى وأبان. وأفتى بقتله عبدالملك بن حبيب، وأصبغ بن خليل معًا. فأمرهم محمد بن السليم أن ينصُّوا فتواهم على وجوهها في صكّ، ليرفعها إلى الأمير، ليرى فيها رأيه. وفعلوا. فلمَّا تصفَّح الأمير أقوالهم، استحسن قول ابن حبيب وأصبغ، ورأى ما رأيا من قتله. وأمر الفتى حسَّانًا؛ فخرج إليهم، فقال لابن السليم: «قد فهم الأميرُ ما أفتى به القومُ من أمر هذا الفاسق. وهو يقول لك: أيُّها القاضي! اذهب؛ فقد عزلناك. وأما أنت، يا عبدالأعلى، فقد كان يحيى بن يحيى يشهد عليك بالزندقة، ومن كانت هذه حالهُ، فحَرَيٌ ألا تسمع فتواهُ! وأما أنت، يا أبان بن عيسى! فإنا أردنا أن نولّيك قضاء جيَّان؛ فزعمت أنك لا تحسن القضاء. فإن كنت صادقًا، فعليك أن تتعلَّم؛ وإن كنت كاذبًا، فالكاذبُ لا يكون أمينًا مُفتيًا»، ثم قال حسَّان لصاحب المدينة: «يأمرُك الأمير أن تخرج الآن مع هذين الشخصين عبدالملك وأصبغ؛ فتأمر لهما بأربعين من الغلمان ينفذون لهما في هذا الفاسق ما رأياه»، ثم أُخرج المحبوسُ، ووقفًا معًا حتى رُفع فوق خشبة، وهو يقول لعبدالملك: «يا أبا مروان، اتَّقوا اللَّه ـ عز وجل ـ في دمي! فإني أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأنَّ محمدًا رسول اللَّه» وعبدالملك يقول: «الآن! وقد عصيت!» حتى طُعن.

وانصرفا[١] .

*** شيخ المالكية الإمام القاضي أبو بكر بن العربي:**

استقضي بمدينة إشبيلية؛ فقام بها أجمل قيام وكان من أهل الصلابة في الحقّ، والشدّة، والقوّة على الظالمين، والرفق بالمساكين. ثم صرف عن القضاء، ولي القضاء مدة أولها رجب من سنة ٥٣٨[٢] ؛ فنفع اللَّه لصرامته، ونفوذ أحكامه. والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، حتى أُوذي في ذلك بذهاب كُتُبه وماله؛ فأحسن الصبر على ذلك كلِّه. ثم صُرِفَ من القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثِّه»[٣] .

❑ وقال الشيخ أحمد بن محمد المقري في كتابه «نفح الطيب»: «ما برح معظَّما إلى أن تولّى خطة القضاء، ووافق ذلك أن احتاج سور أشبيلية إلى بنيان جهة منه، ولم يكن فيها مال متوفر، ففرض على الناس جلود ضحاياهم، وكان ذلك في عيد أضحى، فأحضروها كارهين، ثم اجتمعت العامة العمياء، وثارت عليه ونهبوا داره، وخرج إلى قرطبة»[٤] .

❑ قال القاضي أبو بكر بن العربي ـ رحمه اللَّه ـ: «تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي في حديث أبي ثعلبة المرفوع: «**إن من ورائكم أيّامًا للعامل فيها أجر خمسين منكم**» فقالوا: بل منهم. فقال: «**بل منكم، لأنكم تجدون على الخير أعوانًا، وهم لا يجدون عليه أعوانًا**»، وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسّسوا الإسلام، وعضدوا الدين، وأقاموا المنار، وافتتحوا الأمصار، وحموا البيضة، ومهدوا الملّة، وقد قال ﷺ في «الصحيح»: «**لو أنفق**

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٧٧ ـ ٧٨).

(٢) في «نفح الطيب»: «رجب من سنة ثمان وعشرين».

(٣) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٣٨، ١٣٩).

(٤) «نفح الطيب» (٢/ ٢٧).

أحدكم كل يوم مثل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه» فتراجعنا القول، وتحصّل ما أوضحناه في شرح الصحيح، وخلاصته: أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد، ولا يدانيهم فيها بشر، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم، وخلّصها من شوائب البدع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام وهو أيضًا انتهاؤه، وقد كان قليلاً في ابتداء الإسلام، صعب المرام، لغلبة الكفار على الحق، وفي آخر الزمان أيضًا يعود كذلك، لوعد الصادق ﷺ، بفساد الزمان، وظهور الفتن، وغلبة الباطل، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق، وركوب من يأتي سَنَن من مضى من أهل الكتاب. كما قال ﷺ: «**لتركبن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضب خرب لدخلتموه**»[1].

● وقال ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ**» فلا بد، واللَّه تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق، أن يرجع الإسلام إلى واحد، كما بدأ من واحد، ويضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إذا قام به قائم مع احتوائه بالمخاوف وباع نفسه من اللَّه تعالى في الدعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنًا منه مُعانًا عليه بكثرة الدعاة إلى اللَّه تعالى، وذلك قوله: «**لأنكم تجدون على الخير أعوانًا وهم لا يجدون عليه أعوانًا**» حتى ينقطع لك انقطاعًا باتًّا لضعف اليقين وقلة الدين، كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض اللَّه اللَّه**»[2] يُروى برفع الهاء

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس، وكذا رواه البزار والدولابي، ولفظ الحاكم «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتم...**»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٠٦٧).

(٢) رواه أحمد ومسلم، والترمذي عن أنس، وكذا رواه ابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «المستدرك».

ونصبها، فالرفع على معنى: لا يبقى موحّد يذكر اللَّه عز وجل، والنصب على معنى: لا يبقى آمر بمعروف ولا ناهٍ عن منكر يقول: أخاف اللَّه، وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يمرّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني كنت مكانه**»[1] انتهى[2].

❑ يقول الإمام ابن العربي: «لقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يكن يُر في الأرض منكر، واشتد الخطب على أهل الغصب، وعظم على الفسقة الكربَ فتألّبوا وألّبوا وثاروا إليّ فاستسلمت لأمر اللَّه وأمرت كل من حولي ألا يدافعوا عن داري وخرجت على السطح بنفسي فعاثوا عليّ وأمسيْت سليب الدار، ولو لا ما سبق من حُسن المقدار لكنتَ قتيل الدار»[3].

ولقد كان ـ رحمه اللَّه ـ يحث الأمراء والرعية على الجهاد، فقد قال ـ رحمه اللَّه ـ: «لقد نزل بنا العدو ـ قصمه اللَّه تعالى ـ سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا، وتوسّط بلادنا في عدد حدّد الناس عدده فكان كثيراً، فقلتُ للوالي والمولى عليه: هذا عدو اللَّه قد حصل في الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعيّنة عليكم حركة. فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار فيحاط بهم، فإنه هالك لا محالة، وإن يسركم اللَّه له فغلبت الذنوب، ورجفت بالمعاصي القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلبًا يأوي إلى وجاره، وإن رأى المكيدة بجاره فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «نفح الطيب» (٢/ ٣٧ ـ ٣٩).

(٣) «العواصم من القواصم» ص(١٣٨).

*** القاضي محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن النُّباهي والأمير ابن هود:**

ولي القضاء بمالقة في سنة ٦٢٦نحوًا من أربع سنين، ثم إن أهل مالقة بغوا عليه، وشنعوا عليه القيام على الأمير ابن هُود؛ فخرج عن مالقة قاصدًا لابن هود إلى إشبيلية، ليعرفه بذلك، ويطلب منه الإقالة؛ فلقي أبا عبداللَّه الرَّميميّ، وزير ابن هود، فردّه عن الطريق إلى مالقة، ثم ذهب معه إلى غرناطة، فأمسك بها في أحد أبراجها مدَّةً ثم سرِّح بعد ذلك، على شرط المقام هنالك. قال: وامتحن ـ رحمه اللَّه ـ في حياته كثيرًا. وانتقم اللَّه له ممّن ظلمه وبغى عليه؛ فكان في أمرهم عبرة للمعتبرين؛ فما منهم إلا من مات بالسيف والسوط، ورأوا هم في أنفسهم، من البلايا والمحَن، ما يقصر.

كان القاضي النباهي جزلاً في أحكامه، رمَّاءً في تصرُّفاته، غليظًا على ولاة الجور، شديدًا في ردع أهل الأهواء والآراء الفاسدة. ورامهُ ابن هود عندما ولاه قضاء بلدته، أن يصرف إليه أمانةَ كُورتَها، حسبما كانت قبل ذلك، لنظر أبي عليّ القاضي؛ فتمنّع، واستعفى؛ فأعفاه من الأمانة. وتفرَّد بالقضاء، والنظر في الأحباس؛ فصانها، واسترجع ما كان منها قد ضاع، أيام دُوَل المُوحِّدين، إلى الألقاب المخزنيّة؛ وقدم لضبطها، والشهادة فيها، ووضعها في أماكنها، الفقيه المقرئ الورع أبا محمد عبدالعظيم بن الشيخ، وأجراها على منهاج السداد. واستكتب أبا عبداللَّه بن عليّ، المُشتهر بابن عسكر، مؤلفَ الكتاب المسمّى «بالمشروع الرويّ»، في الزيادة على كتاب الهرويّ» في غريب القرآن والحديث. ثمَّ استنابه في بعض أعماله، ورشَّح من الفقهاء كابن الشيخ المذكور، وابن دحمان، وابن ربيع، وابن لبٍّ، وأمثالهم، وتثبَّت في الحكم، وتحفَّظ من شهود زمانه، وتعفَّف عن قبول

(١) «أحكام القرآن» (٢/ ٩٥٥) عند قوله تعالى: ﴿انفروا خفافًا وثقالاً﴾ التوبة.

تُحَف أقاربه، فضلاً عن أجانبه[1].

* القاضي الحسن بن الحسن الجُزامي النباهي والزنديق إبراهيم الفزاري وبنو أَشْقِيلُولة:

كان الحسن بن محمد بن الحسن الجذامي النُّباهي ـ رحمه اللَّه ـ رجلاً صليبًا في الحق، متعزّرًا باللَّه قويًّا في ذاته، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، رفيقًا مع ذلك بالمساكين، شفيقًا على الضعفاء، ومبغضًا في أهل الأهواء. وأول يومٍ قعد فيه للحكم، تقدّم إليه رجلان في الطلب بدين ترتَّب لأحدهما قبل الآخر؛ وأقرَّ المطلوبُ ببقائه في ذمَّته، وزعم أنه في الوقت غير قادرٍ على أدائه؛ ولم تُقم له بيِّنةٌ على صحَّة دعواه، ولا حضره حميلٌ به؛ فتوجَّه عليه السجن. فحين شاهد أسباب ذلك، قال يخاطب القاضي: «أصلحك اللَّه! أيجمل بك، ويحسن عندك استفتاحُ عملك بسجن مثلي من الضعفاء؟ ولي صبيةٌ أصاغرُ لا كاسبَ لهم، ولا كافِلَ غيري، فإن حبستني عنهم، لم يبعد تلفُهم جوعًا وعطشًا! فارفق بساحتي، وانظر لحالتي!» فأمر القاضي بإحضار مقدار العدد المطلوب من مال نفسه، وأذن في دفعه لمطالبه، وخلَّى سبيل الغريم يمضي لشأنه. وكان قد أصاب الماشية بكُورة ريَّة من الغصب والنهب، أيام فتنة الخلاف بها، ما صار داعيةً لتغلُّب الحرام عليها؛ فردَّ شهادة كلٍّ من ثبت فيه لديه أنه أكل من ذلك اللحم المغصوب؛ وهو عالمٌ بعينه، سواءٌ كان مشتريًا له من الغاصب أو أكله دون عوض. وردَّ شهادة الولد إذا كانت مع والده؛ فاشتدَّ في أحواله. وفي أثناء ذلك سبق له رجلٌ، شهدت البيِّنةُ بأنه وجد في خربةٍ بحذاء مقتولٍ. وسأل الرجل حين أعذر له؛ فذكر أنه كان مختارًا عليها لمنزله؛ فرام أولياء الدم الأخذ لهم بالقسامة في المسألة، على ما

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٤٦، ١٤٧).

رواه ابن حكم في مثل النازلة، ورواه ابنُ وهب عن مالك؛ فأجرى النظر في القضيّة، وتوقَّف عن الفصل، وعقد النيّة على ترك الولاية ما بقي من مدّة حياته، واستعفى على الفور من الحكم بين الناس. وقد كان القلق وقع به من أُولي الأمر، فأعفي على الأثر، فكانت مدّة ولايته القضاء نحو شهر. وهو - أعظم اللَّه أجره! ممّن أصيب في ذاته وماله، بسبب إنكاره على إبراهيم الفزاريّ، وليّ بني أشقِيلولُة أيام ثورتهم بريَّة، وامتعاضه لما أظهره لهم من البدعة وادِّعاء النبوة، وعند ذلك فرَّ من مالقة أبو جعفر بن الزُّبير، وأتبع ليُقتل؛ فأفلت، ولاذ بأمير المسلمين، السلطان، المؤيّد المنصور، أبي عبداللَّه المدعوّ بالفقيه - رحمه اللَّه وأرضاه - فحاول على الفزاري، حتَّى تحصَّل في حكمه، وأمر بقتله وصلبه؛ فقُتل بغرناطة على كفره، هو وبعض أصحابه.

وقد أشار إلى ما نبَّهنا عليه الشيخ القاضي الراوية المحدِّث، الوزيرُ المشاورُ، أبو عامر بن عبداللَّه بن قاضي الجماعة أبي عامر بن رَبيع، في كتابه المسمَّى بـ «تنظيم الدرّ في ذكر علماء الدّهر».

والذي وقع في الكتاب المسمَّى بعد اسم أبي عليّ بن الحسن، من أوَّله إلى آخره، ما هو نصُّه: الحسن بن محمد الجُذامي من أهل مالقة، من أعيانها وجلَّة بيوتها، يُعرف بالنُّباهي، ويُكنى أبا علي. أخذ بمالقة عن شيوخها. وكان - رحمه اللَّه - صالحًا، فاضلاً، دينًا، صلبًا في الحق، فامتحن في اللَّه تعالى، وقيامه بالحق، بالضرب والنفي عن بلده - نفعه اللَّه - واستقرَّ بمدينة فاس، تحت تكرمة ومبرَّة، يتولى عقد الوثائق، ويحترف بها. وكان من جلَّة العُدول. ثم عاد إلى بلده مالقة، عند خروج بني أشقيلُولة منها، وأقام بقيَّة عمره، يتعيَّش من فائد بقايا أملاكه بها. ودُعي إلى الخطابة بجامعها الأعظم؛ فأبى وقضى أيامًا يسيرةً، واستعفى. توفِّي - رحمه اللَّه - في حدود سنة ٧٠٠هـ[1].

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٦٣ - ١٦٥).

*** القاضي محمد بن يحيى بن بكر الأشعري المالقي قاضي غرناطة:**

تصدر في فنون العلم، ونفع وأدّب، وخرّج وهذّب حتى صار أصحابه على هيئة متميزة من لباس واقتصاد، وجدّ واجتهاد. وكثيرًا ما كان يقول لفتيان الطلبة ما قاله الجُنيد بن محمد، وهو: «يا معشر الشباب، جدُّوا قبل أن تبلغوا مبلغي! فتضعفوا وتقصروا كما قصرتُ!».

وكان الجنيد وقت الشاخة لا يلحقه الشباب في العبادة. ومن تلك النسبة أيضًا كان شيخُنا أبو عبدالله بن بكر؛ فإنه لم يكن في الغالب يأكل إلا عند حاجة، ولا ينام إلا عن غلبته، ولا يتكلَّم بغير العلم إلا عن ضرورة. وبقي كذلك زمانًا، يدرّس بالمسجد القريب من منزل سكناه احتسابًا. ثم تقدَّم ببلاده للوزارة، ناظرًا في أمور العقد والحلِّ، ومصالح الكافَّة. ثمَّ ولي القضاءَ به؛ فأظهر من الجزالة والشدّة ما ملأ به وجدًا صدور الحسدة، ونسبوا إليه أمورًا حملت على إخراجه من مالقة، وإمكانه بغرناطة؛ فبقي بها يسيرًا، وتقدَّم منها بالمسجد الجامع خطيبًا. ثمَّ ولي قضاءَ الجماعة؛ فقام بالوظائف، وصدع بالحق، وبهرج العدول؛ فزيَّف منهم ما ينيف على الثلاثين عددًا، استهدف بذلك إلى محادة ومناسبة ومعادلة خاض ثبجها وصادم تيارها غير مبالٍ بقيل أو قال؛ فأصبح في عمله، مع كتبة الوثائق بغرناطة، أشبه القضاة بيحيى بن معمر في طلبة قرطبة، إذ بلغ من مناقشته أن سجَّل في يوم واحد بالسخطة على تسعة عشر رجلاً منهم. وجرت لابن بكر في هذا الباب حكايات يطول ذكرُها، إلى أن استمرَّت الحال على ما أراده. وعزم عليه أميرهُ في إلحاق بعض من أسخطه بالعدالة؛ فلم يجد في قناته مغمزًا؛ فسلَّم له في نظره.

ولم يزل مع ذلك ملازمًا أيام قضائه للإقراء مع التعليم؛ درَّس العربية، والأصول، والفقه، وإقراءَ القرآن، والحساب، والفرائض، وعقد مجالس

الحديث شرحًا وسماعًا. وربما نحا في بعض أحكامه أنحاء مصعب بن عمران أحد القضاة قديمًا بقرطبة؛ فكان لا يقلِّد مذهبًا، ويقضي بما يراه صوابًا.

وإنْ قلنا عن القاضي ابن بكر إنه كان في شدائد أحكامه أشبه علماء وقته بسحنون بن سعيد، لم يكن في ذلك ببعيد؛ فإنَّه أدَّب الناس على الحلف بالأيمان اللازمة، وأنكر سوءَ الحال في الملابس، وفرَّق مجتمعات أرباب البدع، وشدَّد أهل الأهواء بالسجن والأدب، على سبيل في ذلك كلِّه من اتِّباع السنة واطراح الهوى، وخفض الجناح لأهل الخير.

وكان في خطبه وصلاته كثير الخشوع، لا يتمالك من سمع صوته في الغالب من إرسال الدموع؛ يقرأ في الصبح بما فوق المُفصَّل؛ فيحسبه المُصلِّي خلفه كأنما قرأ بآية واحدة، لحسن قراءَته، وطيب نغمته، وصدق نيَّته؛ وإذا ذُكر شيءٌ؛ من أُمور الآخرة، ظهر على وجهه الاصفرار؛ ثم يغلبه البكاءُ، ويتمكن منه الانفعال. فكان، في معاملته لأصحابه، على مذهب الفرج بن كنانة، لا يرى زلةً لصديقه، ولا يعدل في حاجته إليه عن طريقه؛ وقلَّما كان يتخلَّف في يوم من أيامه عن عيادة مريض، أو شهود جنازة، أو تفقُّد محتاج، أو زيارة منكوب.

*** كتب إلى أميره:**

«اعتمد مشورة ناصح لك بإلغاء نصحه حذر الوشاة فتخافت. وإذا حضرك الغاوون المستبغون، وألقوا من حبال كيدهم وعصى مكرهم ما هم ملقون؛ فتعوذ باللَّه من شرّ ما يشركون، واستحضر من الحق كلمة تلقف ما يأفكون ﴿**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾. ثم اسمع من لسان الحال، وهو أفصح من لسان المقال، حجَّة من اعتاد سيلان الفضائل من يديك، ومثله جاثيًا للاحتكام لديك، أليس من قواعد الحكم نظر حال المدَّعي وحال المدَّعَى عليه، ومن يليق به ما عزى له

ومن لا يناط به ما نسب إليه؟ هل يستويان مثلاً، أو يتقاربان قولاً ويتقارنان عملاً، أو يتباعدان بعد المشرقين، ويتباينان فوق ما بين عُطاردين؟ فمن الذي يتلو الآيات ويردِّد واعظها، ويسرد الأحاديث ويسمع مواعظها، ويطرد في الأسحار الهجوع، ويرسل في مجالس الخير الدموع ويتعبَّد مع العابدين، ويتقلَّب مع الساجدين؟ أم هو كذا وكذا وكيت وكيت مما يكثر عند التعداد، ولا يحمل في مثله استعمال القلم والمداد؟ فعلى من تحمَّل اليمين والكذب، أعلى من ألفه الجدُّ أم على من غلب عليه اللعب؟ فإنَّ غير هذا أو غير هذا لأمر ما وقيل هما في الثناء سيَّان، وعند النداء سَمِيّان. . .».

كان ـ رحمه اللَّه ـ على الغاية من الاجتهاد، والرغبة في الجهاد، إلى أن فُقد في مصاف المسلمين يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريق، شهيداً مُحرّضًا، يشحذ البصائر، ويدمي الأبطال، ويشير على الأمير أن يكثر من قول: «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل»، وقد كتف دابته التي كان عليها راكبًا، وهو رابط الجأش، مجتمع القوى، وأنشأ عليه بالركوب وقال له: «انصرف! هذا يوم الفرح!» يشير، واللَّه أعلم. إلى قوله تعالى في الشهداء: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وذلك ضحى الاثنين السابع من جمادى الأولى عام ٧٤١هـ[1].

* القاضي أبو عبداللَّه محمد بن عبدالسلام المُنَسْتيري وابن تافْرَجين المتغلّب على تونس:

كان ـ رحمه اللَّه ـ من القضاة بحضرة تونس، وصدور علمائها في زمانه. وكان قويًّا على أمر الناس مستخفًّا بسخطهم، وملامتهم في حق اللَّه، وحفظ ما يرجع لرسوم القضاء ومن ذلك عملُه في العقد الذي شهد فيه

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣ ـ ١٨٤).

جملةٌ من أعلام المغرب، أيام كونهم بتونُس عند دخولها في الإيالة المرينيَّة؛ فردَّ شهادتهم وعوتب على ذلك؛ فقال: «أو ليس قد فرُّوا من الزحف، مع توفُّر الأسباب المانعة لهم شرعًا عن الوقوع في معرَّة الإدبار؟» ويشير إلى الكائنة الشنعاءِ التي كانت لهم بظاهر طريف مع الروم عام ٧٤١هـ.

ومن أخباره أنه، لمّا تغلب الشيخ أبو محمد عبداللَّه بن تافرَجين على مدينة تونس دون قصبتها، عند خروج السلطان أبي الحسن أمير المسلمين عنها، بقصد مدافعة وفود العرب العادية على أرضها، فهزمت جيوشه، واستقرَّ هو ومن بقي معه من جنده محصورًا بداخل القيروان، فجاءَ في أثناءِ ذلك يوم الجمعة، فقال المتغلِّب على الأمر للخطيب بالمسجد الجامع بتونس: «اخطب بدعوة الأمير أبي العبَّاس بن أبي دبُّوس من الموحِّدين»، وكان في المسجد القاضي ابن عبدالسلام؛ فقال: «والسلطان المرينيُّ؟» فراجعه الشيخ بأنه في حكم الحصار داخل القيروان بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه. قال: «فتلزم إذًا مناصرتُه، والعملُ على الوفاءِ بما شرط له عند مبايعته» فردَّ عليه بأن الأخبار تواترت بعد ذلك بتلفه، وانتزاع ملكه، فقام الخطيب، وقال على تقدير صحَّة هذا النقل: «الفرعُ زال بزوال الأصل، انظروا ما يصلح بكم لخطبتكم»، وارتفعت الأصوات والمرجعات؛ فقطع القاضي الكلام بمبادرته إلى الخروج، وهو يقول: «لم يثبت لدينا ما يوجب العدول عن طاعة السلطان أبي الحسن، واستصحاب الحال حجَّة لنا وعلينا»، وكاد وقت صلاة الجمعة أن يفوت؛ فوجَّه عند ذلك المتغلّب على المدينة إلى القاضي ثقةً، يخبره باستمرار الأمر في الخطبة على ما كانت عليه؛ فدعا الخطيب وتمَّت الصلاة على الرسم المتقدم؛ وحصلت السلامة للقاضي بحسن نيَّته، وعدّ مخالفة فقهاءِ مدينته ـ جزاه اللَّه وإيَّاهم خير جزائه ـ وحدَّثني بهذه الحكاية غير واحد من الثقات الأثبات، منهم صاحبُنا الفقيه المتفنِّن الأصيل أبو زيد

عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرميُّ.

وأخبرني كذلك عن هذا القاضي ـ رحمه اللَّه ـ بما حاصلُه: إن الأمير أبا يحيى استحضره مع الجملة من صُدور الفقهاء بدار الخلافة، والمثول بين يديه، ليلة الميلاد الشريف النبوي، إذ كان قد أراد إقامة رسمه على العادة الغربيَّة، من الاحتفال في الأطعمة، وتزيين المحلّ، بحضور الأشراف، وتخيُّر القوَّالين للأشعار المقرونة بالأصوات المطربة؛ فحين كمل المقصود من المطلوب، وقعد السلطان على أريكة ملكه، ينظر في ترتيبه، والناسُ على منازلهم، بين قاعد وقائم، هزَّ المُسمِّع طرَّه، وأخذ يهنِّئهم بألحانه؛ وتبعه صاحبُ براعةٍ بعادته عن مساعدته، تزحزح القاضي أبو عبداللَّه عن مكانه، وأشار بالسلام على الأمير، وخرج من المجلس؛ فتبعه الفقهاءُ بجملتهم إلى مسجد القصر؛ فناموا به، فظنّ السلطان أنهم خرجوا لقضاءِ حاجاتهم؛ فأمر أحد وزرائه بتفقُّدهم والقيام بخدمتهم إلى عودتهم، وأعلم الوزيرُ الموجَّهُ لما ذكر القاضي بالغرض المأمور به؛ فقال له: «أصلحك اللَّه! هذه الليلة المباركة التي وجب شكر اللَّه عليها، وجمعنا السلطان ـ أبقاه اللَّه ـ من أجلها، لو شهدها نبينا المولود فيها ـ صلوات اللَّه وسلامه عليه ـ لم يأذن لنا في الاجتماع على ما نحن فيه، من مسامحة بعضنا لبعض في اللهو، ورفع قناع الحياءِ بمحضر القاضي والفقهاء! وقد وقع الاتفاق من العلماء على أن المجاهرة بالذنب محظورةٌ، إلا أن تمسَّ إليها حاجة كالإقرار بما يوجب الحدَّ أو الكفارة. فليسلم لنا الأمير ـ أصلحه اللَّه ـ في القعود بمسجده هذا إلى الصباح! وإن كنَّا في مطالبة أُخَر من تبعات رياء، ودسائس أنفس، وضروب غرور، لكنَّا، كما شاء اللَّه، في مقام الاقتداء ـ لطف اللَّهُ بنا أجمعين بفضله» فعاد عند ذلك الوزير المرسل للخدمة الموصوفة إلى الأمير أبي يحيى، وأعلمه بالقصة؛ فأقام يسيراً، وقام من مجلسه، وأرسل إلى القاضي من ناب عنه في شكره، وشكر أصحابه، ولم يعد إلى مثل ذلك العمل بعد. وصار في كل

ليلة يأمر في صبيحة الليلة المباركة بتفريق طعام على الضعفاء، وإرفاق الفقراء، شكرًا للَّه»[1].

* **القاضي أبو عمر وعثمان بن موسى الجاني:**

من القضاة بمدينة مَلِّي من أرض الحبشة.

قال عنه الشيخ الفقيه أبو العباس، الساحلي الغرناطي أنه لقيه ببلده، وأنه كان من أهل الفضل والعدل، والقيام على العلم، والصرامة في الحكم.

قال الساحلي: ومن ذلك نازلة حدثت له في أحكام الدماء، فتحري فيها الحق المخلص بين يدي اللَّه، وهي أن أحد بني عمٍّ سلطانه ترتّبت قِبَله المطالبةُ بِدَم قتيلٍ كان قد أشهد العدول، وهو جريحٌ، بأنَّ دمه عنده، وتوفي إثر الشهادة عن عصبة من ولدٍ وإخوةٍ؛ فقاموا طالبين من السلطان النظر لهم في صاحبهم؛ فاستحضره عن أمره بمجلس الحكم الشرعي، وأعذرَ له فيما استظهر به أولياءُ دم القتيل، فادَّعى الدفع في ذلك، وتأجَّل آجالاً وسع فيها عليه. وانقرضت الأيام وقهرته الأحكام؛ فشكى القاضي للسلطان، وسأل منه الأخذ مع الفقهاءِ في قضيَّته؛ وقد كان صانَعَهم بجهده، واستظهر بإثبات عداوته بينه وبين من رماه بدمه، فجمعهم الأمير بحضرته، وأخذ معهم في نازلة ابن عمّه؛ فوقع الاتِّفاق منهم على الأخذ بمذهب الشافعي، أنه لا يقسم بمجرَّد قول المصاب: «دمي عند فلان». واستدلُّوا بالحديث الثابت في الصحيح الذي نصُّه: «**لو يُعطى الناس بدعواهم، لادَّعي ناسٌ دماء رجال وأموالهم**». قالوا: وبخصوص في هذه النازلة، لما اقترن بها من الأسباب المرجحة للانتقال عن المذهب وذكروا مسألة عبداللَّه بن سهل وأنَّ رسول اللَّه

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(١٩٩ ـ ٢٠٢). أما الاحتفال بالمولد النبوي فما لم يكن دينًا على عهد محمد ﷺ لا يكون اليوم دينًا فإن الأول لم يدع للآخر مقالاً، وإن لم يسعنا ما وسع سلفنا فلا وسعتنا ـ رحمه اللَّه. نتبع ولا نبتدع.

ﷺ! وداه من عنده بأنه ثقةٌ. فمال السلطان إلى موافقتهم، وأن تكون الغرامة من قبله؛ ولكنَّه قال لقاضيه: «ما عندك فيما اجتمع عليه أصحابك؟» فقال له: «أمدَّك اللَّه بإرشاده، وأراك الحق حقًّا، وأعانك على اتباعه! أنت مالكيُّ المذهب، وأهلُ بلادك كذلك، والانتقال من مذهب إلي مذهب آخر لا يسوغ إلا بعد شروط لم يحصل في نازلتها منها شرطٌ واحدٌ! وحديث القسامة أصلٌ من أصول الشرع، وركنٌ من أركان مصالح العباد، وبه أخذ جلُّ الأئمَّة والسلف من الصحابة والتابعين، وفقهاءُ الأمصار، والذي يجمل بك، أيُّها الملك، إمرارُ الحق بوجهه، ولو كان على نفسك، فضلاً عن ابن عمّك!»، قال: فأخذ برأي قاضيه، وأمر بابن عمّه؛ فدفع بذمَّته إلى أصحابه؛ فقتلوه بالقسامة. قال المُخبر: فحسب الناس ما صدر في النازلة عن الأمير والقاضي من المناقب الشريفة، والمآثر الحميدة، والأفعال الدالة على تعظيم الشريعة[1].

*** القاضي المجاهد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أسد بن الفرات:**

«حكى ابن وضّاح أن أسد بن موسى كتب إلى أسد بن الفرات: «اعلم يا أخي إنما حملني على الكتب إليك ما أنكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك اللَّه من إنصافك وحسن حالك مما أظهرت من السنّة، وعيبك لأهل البدع وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم، فقمعهم اللَّه بك وشدّ بك ظهر أهل السنة وقوّاك عليهم بإظهار عيبهم والطعن عليهم، وأذلّهم اللَّه بذلك وصاروا ببدعتهم مستترين فأبشر أي أخي بثواب اللَّه، واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد، وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب اللَّه وإحياء سنة رسول اللَّه ﷺ»[2].

(١) المصدر السابق ص(٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٣٥).

وذُكر أيضًا أنّ للّه عند كل بدعة كيد بها الإسلام وليًّا للّه يذبّ عنها، وينطق بعلاماتها. . فاغتنم ذلك، وادع إلى السنّة حتى يكون لك في ذلك أُلفة، وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونون أئمة بعدك، فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة كما جاء الأثر، فاعمل على بصيرة ونيّة وحسبة، فيرد اللّه بك المبتدع المفتون الزائغ الحائر، فتكون خلفًا من نبيك ﷺ، فإنك لن تلقى اللّه بعمل يشبهه.

وإياك أن يكون لك من أهل البدع أخ أو جليس أو صاحب. . وقد وقعت اللعنة من رسول اللّه ﷺ على أهل البدع، وأنّ اللّه لا يقبل منهم صرفًا ولا عدلاً ولا فريضةً ولا تطوعًا، وكلما ازدادوا اجتهادًا وصومًا وصلاةً ازدادوا من اللّه بعدًا، فارفض مجالسهم وأذلّهم وأبعدهم كما أبعدهم اللّه وأذلّهم رسول اللّه ﷺ وأئمة الهدى بعده»[1].

* * *

(١) «البدع والنهي عنها» لابن وضاح ص(٢٨ ـ ٣٢).

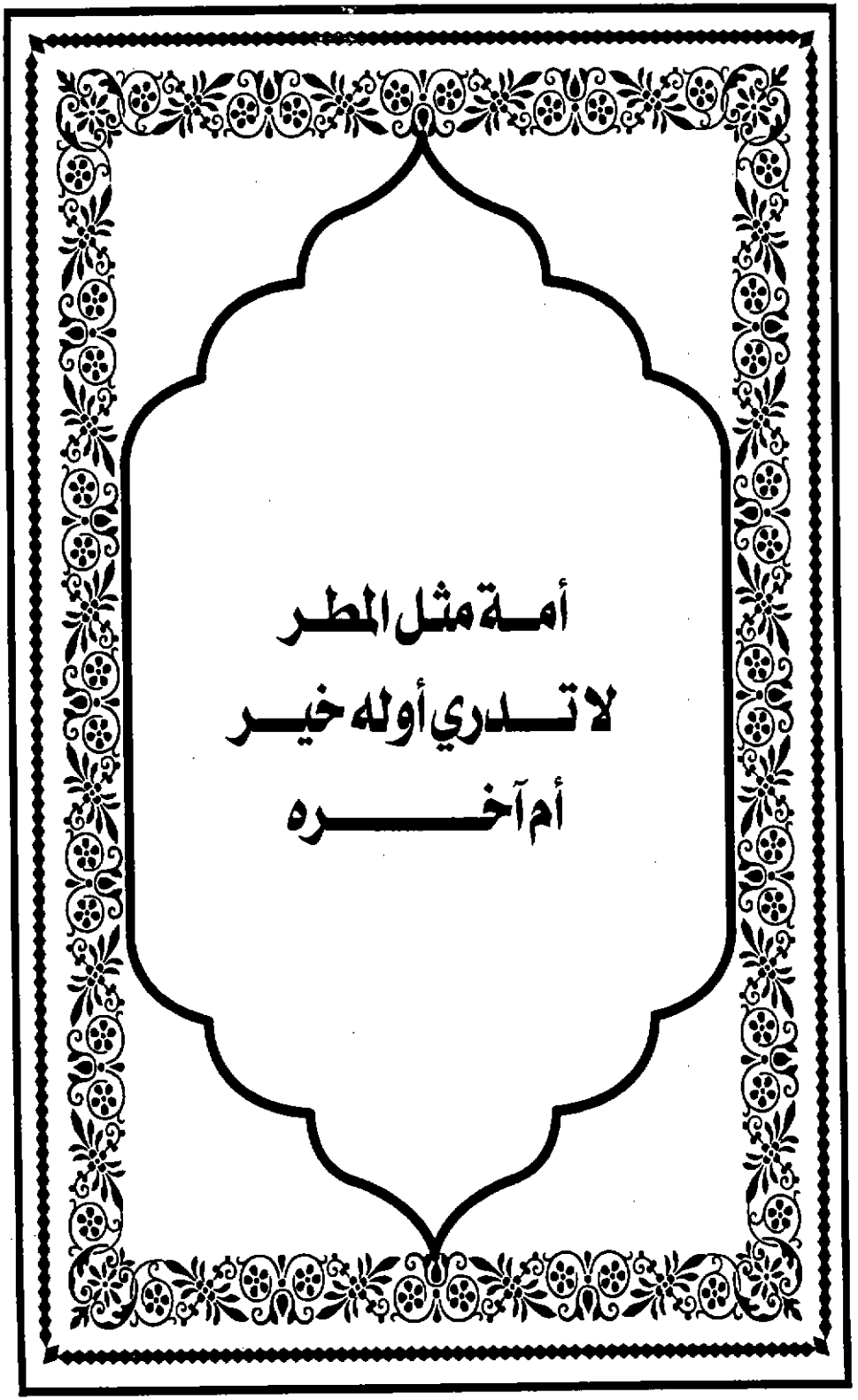
أمة مثل المطر
لا تدري أوله خير
أم آخره

أمة مثل المطر لا تدري أوله خير أم آخره

*** الشيخ الفقيه نصير الدين الحسيني البرهانبوري أحد علماء الهند الربانيين:**

كانت قدماه ويده اليسرى مشلولة.

قال خافي خان في «منتخب اللباب»: «إنه كان يتنفّر عن اختلاط الأمراء فيقابلهم بوجه عبوس ولا يقبل نذورهم بل يعظهم بقول مرّ لينفروا عنه، قال: إن منورخان جاء يومًا في حضرته وكان واليًا على تلك الناحية فقال له نصير الدين: إني لا أعلم في وصولكم إليّ طائلاً غير أن فيلتكم وعساكركم تضيق على الناس طرقهم في ذهابهم وإيابهم ويُشركونني في الظلم واللوم، فليت شعري ما الحامل لكم على إيقاع الناس في الضيق لسدّ الطريق؟ فأجابه منورخان: إني أتردد إليكم لتجذبوني إليكم، فقال له: إني أذنبت ذنبًا كان عاقبة ذلك أن شلت قدماي وإحدى يديّ فإن استعددت لذلك فانتظر مكافأة سوء المعاملة لمخلوق اللّه سبحانه.

قال خافي خان: إن عناية اللّه خان كان من معتقديه فحرّض السلطان أن يجعل له شيئًا من بيت المال فأشار السلطان إلى خواجة أدهم الذي كان صدرًا بمدينة «برهانيور» أن يفتش عن حاله ثم يعرض على السلطان ما يناسب له من يومية أو شهرية، فذهب إليه أدهم وأقرأه رسالة السلطان، فقال له نصير الدين: لعلك أخطأت في مجيئك عندي؛ لأن الصفات الأربعة التي كتبوها في المراسلة لا توجد فيّ، أما السيادة فلا أنكرها ولا أدّعيها، ولكن الصفات الأخرى من العلم والصلاح والاستحقاق فليس لها عين ولا أثر في نفسي فلعلهم أرادوا بها غيري ممن يُسمّى باسمي، فانقبض الصدر من قوله

وتكدّر وقال: «لعل عندكم بضاعة التوكل، فقال: بلى إن مفاتيح رزقي بيد من يحتاج إليه مائة مائة آلاف مثل سيدك تحتاج إليه»[١].

*** الشيخ صادق أفندي الواعظ الحنفي والسلطان العثماني عبدالعزيز خان:**

كان الشيخ صادق الحنفي إمامًا كاملاً، وعالمًا عاملاً، متمسكًا بدينه، لا يخشى سطوة أمير مكابر، ولا إمام جائر، صدّاعًا في قوله، معتمدًا على اللَّه في قوّته وحوله، لا يميل مع نفسه إلى ملائم، ولا تأخذه في اللَّه لومة لائم. في سنة بضع وثمانين بعد المائتين والألف حضر لدار السلطنة العلية وعاصمة الأمة الإسلامية، في أيام خلافة السلطان عبدالعزيز خان، وكان دخول الشيخ صادق أوائل رمضان، فكان يقرأ درس الوعظ بأيا صوفيا إلى اليوم السابع والعشرين، وقد جرت العادة أن السلطان في ذلك اليوم يدور على الدروس، فمتى أتى لدرسٍ يختم المدرس الكلام، ويدعو للسلطان، فما زال السلطان يُجري العادة ومعه وكلاء الدولة العظام، وشيخ المسلمين والإسلام، إلى أن وصل لدرس الشيخ صادق، فلم يُجر العادة من الختم في الحال والدعاء، بل التفت إلى الوكلاء، وخاطبهم بكونهم أدخلوا على السلطان الغرور، وأبطلوا الشريعة، وارتكبوا سفاسف الأمور، ونكّسوا أعلام الدين، وقدّموا المخالفين على المؤمنين، وأطال الكلام، وتجاوز الحدّ في هذا المقام، والسلطان صاغ إليه، فحقد الوكلاء عليه، فبعد أن ختم ذهب، وقد أضمروا له كل عطب، ثم بعد ذلك اجتمعوا وذهبوا إلى السلطان، فدخلوا عليه وتكلموا في حق الشيخ صادق بما غيرّ قلب أمير المؤمنين عليه، وقالوا له: قد فعل ما أوجب توجيه المضرّة إليه، فلا بد من إعدامه، ليتأدب غيره عن التكلم بمثل كلامه، فقال أمير المؤمنين: نعم ولكن لا بد من مرافعتكم معه في مجلس شيخ

(١) «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» للسيد عبدالحي الندوي الحسني (٦/ ٣٩٢ - ٣٩٣).

الإسلام، لئلا يقول الناس: قُتِل ظلمًا فنقع بين العموم في الملام، فحينما أحسّ شيخ الإسلام، دخل خفية عن الوكلاء العظام، ولم يزل يتعطف السلطان ويقول له: إن قتلناه قيل بالعبارات الصحيحة: إن السلطان قد قتله لبذله النصيحة، ولكن نفيه أولى، ورأي أمير المؤمنين أعظم وأعلى، فأمر السلطان بنفيه في الحال، فأرسل إلى عكا من غير إمهال»[١].

* زين الدين الفارقيّ والأفرم أمير دمشق:

هو عبداللَّه بن مروان بن عبداللَّه بن فيروز الفارقي أبو محمد زين الدين. ولي دار الحديث الأشرفية بعد النووي.

❑ قال الذهبي: «كان فصيحًا متقنًا متحريًا، لديه فضيلة جيّدة مع دين وصيانة وقوة في الحق».

❑ قال صاحب «الدرر الكامنة»: «وقرأت بخط العثماني قاضي صفد أنه حضر دار العدل فرأى على الأفرم ـ أمير دمشق ـ قباء[٢] حرير وخاتم فضة ودواة مذهبة، فقال: إذا سألني اللَّه عن هذا ما حُجّتي؟ إذا قال لي: لِمَ لم تقل له إن هذا حرام بالإجماع؟ وبكى فأبكى الحاضرين والأفرم، وبادر إلى نزع القباء والخاتم، واستبدل بهما وبالدواة، قال: فكان آمرًا بالمعروف قائمًا بالحقوق[٣].

* شهاب الدين الزاهدي «حق كَو» ومحمد شاه تغلق:

شهاب الدين الزاهدي هو الشيخ العالم شهاب الدين بن فخر الدين الزاهدي الميرتهيّ المشهور بـ «حق كَو» (معناه الصادق) كان من كبار المشايخ

(١) «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» للشيخ عبدالرزاق البيطار (٢/ ٧٠١ ـ ٧٠٢).
(٢) نوع من الملابس.
(٣) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلاني (٢/ ٤٠٢).

في عصره، ثم سافر إلى دهلى، وقتله محمد شاه تغلق، قال محمد بن الحسن المندوي في «كلزار أبرار»: إن محمد شاه قال له يومًا من الأيام: إن النبوة لم تنقطع كالولاية، فاغتاظ به شهاب الدين ولم يملك نفسه فخلع نعله وضرب به وجه محمد شاه، فغضب عليه محمد شاه وأمر أن يلقوه في الخندق، فألقوه من القلعة فلم يمت، فألقوه حتى مات في المرة الثالثة رحمه اللَّه بفضله»[1].

* **علاء الدين البخاري:**

محمد بن محمد بن محمد العلاء أبو عبداللَّه البخاري العجميّ الحنفي.

«كان إذا حضر عنده أعيان الدولة بالغ في وعظهم والإغلاظ عليهم، بل ويراسل السلطان معهم بما هو أشد من الإغلاظ ويحضه على إزالة أشياء من المظالم مع كونه لا يحضر مجلسه وهو مع هذا لا يزداد إلا إجلالاً ورفعة ومهابة في القلوب»[2].

❑ قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في «إنبائه»: كان من أهل الدين والورع».

وكان يذهب إلى تكفير ابن عربي، وتكفير ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ وتصدى له حافظ الشام ابن ناصر الدين فذب عن شيخ الإسلام ابن تيمية وألفّ كتاب «الرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيمية أنه شيخ الإسلام فهو كافر» عفا اللَّه عنه.

---

(١) «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» لعبدالحي الندوي (٢/ ٦٣).
(٢) «الضوء اللامع» للسخاوي (٩/ ٢٩١).

* الأقصرائي والأشرف قايتباي:

هو العلاّمة الشيخ يحيى بن محمد بن إبراهيم أبو زكريا الأقصرائي الأصل ـ نسبة لأقصرا إحدى مدن الروم ـ القاهري الحنفي.

قال عنه السخاوي: «تصدى للإقراء فانثالت عليه الفضلاء من كل مذهب فأخذوا عنه وارتحل الناس بسبب لقيه من غالب الأماكن، وأقرأ الفقه والأصلين[1] والتفسير والحديث والعربية والمعاني والبيان، وقُصِد بالفتاوى في النوازل الكبار وغيرها ونفع اللَّه به في ذلك كله.

واشتهر بحسن التعليم والإرشاد... والصدع في الحق بلسانه وقلمه ومشافهته للملوك بالمواعظ والتخويفات في المواطن التي لا يشركه في المعارضة فيها غيره فصار بهذه الأوصاف الحميدة والمناقب العديدة إلى ضخامة وعلو مكانة وأوامر مطاعة.

ولما همّ الأشرف قايتباي للاستيلاء على فائض الأوقاف ونحوه من الأمور التي رام إحداثها محتجًّا بالاحتياج في تجهيز العسكر لدفع بعض الخارجين، وجمع القضاة عنده بسبب ذلك، كان من جملة من حضر فقام بأعباء دفع هذه النازلة أعظم قيام وكفى اللَّه المؤمنين القتال، وما نهض غيره لمشاركته في ذلك، وكفّ اللَّه عنه ألسن المفسدين وأيديهم بحسن نيته وجميل سريرته، ولم يجد الأعداء سبيلاً إلى الحطّ من مقداره بل كان ذلك سببًا في ارتقائه، فإنه توعّك بعد ذلك، ووصل علمه إلى السلطان المشار إليه فنزل إليه في منزله فسلّم عليه وبالغ في التواضع معه.

وبالجملة فقلّ أن ترى العيون في مجموعه مثله وللناس فيه جمال. ولم يزل على جلالته ولكن ثقل أمره على الأشرف لمشافهته له مرة بعد أخرى بما

(١) أي أصول الفقه وأصول الدين.

لم ينهض غيره لذكره بحيث قال له بحضرتي مرة: لا تتلفّت لما في أيدي الناس، وعارض في المجلس المعقود بسبب الكنيسة عند الدوادار الكبير بل فارق المجلس وعزّ ذلك على المتقين...

ومات سادس عشر المحرم سنة ثمانين وصلى عليه في محفل شهده السلطان فمن دونه وتأسف الناس على فقده وكثر ثناؤهم عليه ولم يخلّف بعده مثله رحمه اللَّه»[1].

* **شيخ الإسلام بدر الدين الغزي:**

أبو البركات محمد بن محمد بن محمد الغزي القرشي الشافعي.

قصده نائب الشام مصطفى باشا فلم يجتمع به إلا بعد مرّات، فلما دخل عليه قبّل يده والتمس منه الدعاء فقال له: ألهمك اللَّه العدل، ولم يزده على ذلك، فكرر طلب الدعاء منه فلم يزده على قوله: ألهمك اللَّه العدل وكانت هذه دعوته لكل من قصده من الحكّام.

❑ واستأذن عليه درويش باشا نائب الشام فلم يأذن له إلا في المرة الثالثة فقبّل يده، وأشار إليه الشيخ أن يجلس معه على فراشه فأبى درويش باشا، وجلس بين يديه وطلب منه الدعاء فقال له: ألهمك اللَّه العدل، وأوصاه بالرعية، وقال له الباشا يا سيدي: ماذا تسمعون عني؟ فقال: الظلم، بلغني أن صوباشيك ضرب إنسانًا في تعزير حتى مات وضرب آخر فبالغ في ضربه فاستغاث باللَّه فلم يخلّ عنه فقال له: بحياة رأس درويش باشا فخلّى عنه، وهذا يدل على كفر كامن في قلبه وعتوّ وتجبّر، فأمر درويش باشا برفع صوباشيه[2] في الحال وغضب عليه وجاء بعد ذلك الصوباشي إلى الشيخ

(١) «الضوء اللامع» (١٠/ ٢٤٠ ـ ٢٤٣).

(٢) وظيفة عثمانية صاحبها وشيك أو نائب.

فزجره وطرده، وكان الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ إذا بلغه منكر بعث إلى الحكّام في إزالته، وأنكره بقدر طاقته، يصدع بالحق، ولا يخاف في اللَّه لومة لائم، ولا يحابي ولا يُداهن في فتاويه ولا في غيرها[1].

*** الشيخ أبو المواهب الحنبلي وأمير دمشق محمد باشا بن كرد:**

أبو المواهب بن عبدالباقي بن عبدالباقي الحنبلي البعلي الدمشقي مفتي الحنابلة بدمشق، شيخ القرّاء والمحدثين.

في سنة خمس عشرة ومائة وألف كان واليًا بدمشق محمد باشا بن كرد بيرم فأرسل إليه من طرف الدولة العلية أن يضبط بعلبك والعائد منها ويرسله إلى طرفهم لكونها كانت في يد شيخ الإسلام المولي فيض اللَّه مفتي الدولة العثمانية فحين قُتِل صارت للخزينة السلطانية العائد منها حتى الحرير وغيره، وكان لما وصل إليه الحرير طرحه على التجار بدمشق فذهب جماعة إلى الشيخ أبي المواهب وترجَّوْا منه رفع هذه المظلمة عنهم، فأرسل ورقة مع خادمه ابن القيسيّ إلى الباشا فلما وصل إليه هددّه فهرب من وجهه، فلما ذهب كان حاضرًا في مجلس الباشا أحد أعيان جند دمشق وهو محمد أغا الترجمان وباش جاويش وغيرهما فأخبروه بمقام الشيخ وعرّفوه بحاله من النسك والعلم والعبادة والولاية. فلما تحقّق ذلك ـ وكان مراده أن يأخذ من الشيخ مالاً لما سمع بخبره من مزيد الثروة، أرسل خبرًا: لا أحد يتعدى على التجار، ثم إن التجار وقعوا على الشيخ مرة ثانية، فأرسل ورقة أخرى إلى الباشا وذكر أن الرعية لا تحتمل الظلم، فإما أن ترفع هذه المظلمة وإما أن تهاجر من هذه البلدة والجمعة لا تنعقد عندكم، وأيضًا الحرير للسلطان لا لك، فلما وصلت إليه ترك مراده بعدما علم بمقام الشيخ وأن الرعية تقوم

(١) «الكواكب السائرة باعيان المائة العاشرة» لنجم الدين الغزي (٣/ ٣ ـ ١٠).

عليه إذا فعل ذلك.

وكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ لا يخاف في اللَّه لومة لائم ولا يهاب الوزراء ولا غيرهم»[١].

*** الشيخ عبدالغفار الضرير الشافعي:**

❑ قال الحمصي: مات قتلاً في صلاة الجمعة ببلدة يُقال لها: مطبوس بالقرب من إسكندرية، قال: وسبب ذلك أن هذه البلدة كانت في إقطاع الأمير طراباي وبها رجل متدارك لمالها اسمه أبو عمرو فوقع بينه وبين أهل البلده لفسقه وظلمه، فشكوا حالهم للأمير طراباي، فأرسل أخاه للبلد يحرّر ذلك فلما حضر شكا أهل البلدة إليه ظلم أبي عمرو لهم فضرب أخو طراباي واحداً من أهل البلدة بالدبوس فرجمه أهل البلدة فأمر بضرب السيف فيهم فقتل منهم ما يزيد على ثلاثين نفراً فقال الشيخ عبدالغفار: هذا ما يحلّ، فُضربت عنقه وأُلقي في البحر فساقه البحر إلى قرية تسمى كوم الأفراح فُدفن بها وكان قتله سنة ثلاث عشرة وتسعمائة[٢].

*** القاضي مغيث الدين الحنفي اليبانويّ والسلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي:**

أحد كبار الفقهاء الحنفية، انتهت إليه رياسة العلم والعمل في عصر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجيّ.

قال له السلطان علاء الدين: الأموال التي غنمتها في ديوكير في أيام الإمارة قبل أن أكون سلطانًا غنمتها بتحمّل المحن والمشاق فهل هي لي خاصة

(١) «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للشيخ محمد خليل المرادي (١/ ٦٧ ـ ٦٩).
(٢) «الكواكب السائرة» (١/ ٢٤٠).

لنفسي أو لبيت مال المسلمين؟ فأجاب القاضي: إن الأموال التي غنمتها في ديوكير في أيام الإمارة غنمتها بعساكر المسلمين فهي لبيت مالهم، فلو كنت حصلتها بجهد نفسك على وجه يبيحه الشرع كانت تلك الأموال خاصة لك، فلما سمع السلطان ذلك غضب عليه وقال: كيف تقول؟ ألا يعلم رأسك ما تقول؟ الأموال التي أخذتها بجهد نفسي وقوة خاصتي من الخدم وحصلتها من الكفار الذين لا يعلمهم أحد في دهلي وما أدخلتها في بيت المال كيف تكون لبيت المال؟

❑ ثم سأله: كم لي ولأهلي وعيالي نصيب من بيت المال؟ فقال القاضي: إني أظن أن الموت قد دنا مني، فقال السلطان: لم تقول ذلك أيها القاضي؟ قال: لأن السلطان سألني عن مسألة إنْ أجبت عنها بما يوافق الشرع يقتلني، وإن أجبت بما يوافق هواه يدخلني اللّه في النار يوم القيامة، فقال السلطان: إني لست بقاتلك فقل ما بدا لك. فقال: إن اقتدى السلطان بالخلفاء الراشدين وأراد رزق الآخرة، فله أن يأخذ من بيت المال ما وظفّه الشرع للمجاهدين في سبيل اللّه، وهو أربع وثلاثون ومائتا تنكة لنفسه وأهل بيته، وإن قال السلطان: إن هذا القدر لا يكفيه لعزّه السلطنة فله أن يأخذ ما يعطي غيره من الأمراء، وإن أراد أن يأخذ أكثر من ذلك بما أفتاه علماء السوء فله أن يأخذ أكثر من ذلك كثرة يعيش بها أحسن مما يعيش الأمراء، وإياه وإياه أن يأخذ أكثر من ذلك، وأن يعطي نساءه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة من بيت المال وقرى كثيرة من أرض الخراج والملابس الثمينة والظروف الغالية والجواهر الكريمة! فإنها تكون نكالاً ووبالاً لك في الآخرة، فقال السلطان: ألا تخاف سيفي فتقول: إن ما نعطيه نساءنا حرام في الشرع؟ فقال: إني أخاف سيفك ولذلك أحسب عمامتي كفني فقال السلطان: إنك حرّمت عليّ كل ما سألتك عنه، فلعلك تحرم ما أفعله من التعزير والتشديد،

فإني أمرت في شاربي الخمر وبايعيها بالحبس في الآبار، وبقطع أعضاء الزناة وبقتل النساء الزواني، وإني لا أميّز الصالح من الطالح في البغاة فأقتلهم وأهلك نساءهم وأبناءهم، ومن يخون في بيت المال أمرت فيه أن يُحبس في السجن ويوضع في الأغلال والقيود ويضرب ويطعن حتى يدفع ما عليه، فنهض القاضي من المجلس وذهب إلى صف النعال ووضع جبينه على الأرض ونادي بأعلى صوته سواء قتلني السلطان أو أبقاني لم يبح له الشرع ذلك ولم يطلق يده في أن يفعل بالمجرمين ما يشاء، فكظم السلطان غيظه ودخل في الحرم[1] ، ورجع القاضي إلى بيته، ثم ودّع أهله وأقرباءه في الغد توديع المحتضرين وتصدّق واغتسل كغسل الميت وأتي قصر السلطنة ودخل على السلطان فقرّبه السلطان إلى نفسه وخلع عليه[2] .

*** الشيخ بهاء الدين زاده وإبراهيم باشا الوزير :**

بهاء الدين زاده هو محمد بن بهاء الدين بن لطف اللَّه، الشيخ الإمام محيي الدين الحنفي لما مرض مفتي التخت السلطاني علاء الدين الجمالي وطال مرضه وعجز عن الكتابة قيل له اختر من العلماء من يكون مقامك فاختار الشيخ بهاء الدين زاده لوثوقه بفقهه وورعه وتقواه. وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا تأخذه في اللَّه لومة لائم؛ ووقع منه كلام في حق إبراهيم باشا الوزير بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحنق عليه الوزير فخافوا على الشيخ منه وأشاروا إليه أن يسكت عنه فقال: «غاية ما يقدر عليه القتل وهو شهادة والحبس وهو عزلة والنفي وهو هجرة»[3] .

مات ـ رحمه اللَّه ـ ببلدة قيصرية بتركيا.

---

(١) أي دار نسائه وجواريه.

(٢) «الإعلام» (٢/ ١٧٠ ـ ١٧٣).

(٣) «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٩ ـ ٣٠).

*** الشيخ أحمد بن محمد الهادي بن عبدالرحمن:**

جلس للإقراء بالمسجد الحرام، وكان متدرعًا جلباب الطاعة عاملاً بعلمه حافظًا للسانه وفهمه مواظبًا على السنن النبوية، كثير التلاوة ملازمًا للذكر مع غاية من الزهد والقناعة.

كان شديد الإنكار يثب على المنكر كأنه صاحب ثأر لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، ولا تأخذه رأفة في دين اللَّه، وإذا حضر مجلسًا احتاط الحاضرون في ستر المنكرات والمستهجنات وحكي أنه دخل على بعض أرباب الدولة وعنده من يضرب بالآلة فأسكت المستمعين ووعظ الحاضرين وأمرهم بالتوبة وكانت وفاته سنة خمس وأربعين وألف[1].

*** الشيخ العيثاوي الدمشقي:**

محمد بن محمد بن أحمد العيثاوي الدمشقي كان متصلبًا في أمر الدين قوّالاً بالحق لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، ومما اتفق له أنه دخل مرّة على محافظ الشام في مصلحة فتشاغل الباشا عنه بأوراق فمسك الباشا من طوقه وجذبه وقال له: انظر في أمر هؤلاء الفقراء واقض مصلحتهم، فالتفت إليه وقضى له ما جاء فيه.

❑ ودخل مرة على حاكم آخر بسبب معاليم الجامع الأمويّ وكان سنان باشا المتولي عليه كتب بها دفترًا وأراد قطع شيء منها. فوجد الباشا ينظر في دفتر المتولي ويتأمله، فجذبه أيضًا من طوقه وقال له: لا تلتفت إلى ما كتبه هذا الظالم وكان حاضرًا المجلس، وانظر إلى عباد اللَّه بنور اللَّه، فعمل على مراده وترك ما أراد المتولي، وله من هذا القبيل أشياء أخر[2].

---

(١) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للشيخ فضل اللَّه المحبي (١/ ٣١٥ ـ ٣١٦).
(٢) «خلاصة الأثر» (٤/ ٢٠١ ـ ٢٠٢).

* الإمام اليوسي والسلطان المنصور إسماعيل بن الشريف الحسني السجلماسي:

هو سيف السنة أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي.

خُصّ عن أهل عصره بالصدع بالحق بين يدي خليفة الوقت اعتناءً به ومبالغة في نصحه راجيًا منه أن يكون على سيرة الخلفاء الراشدين.

وله مراسلات ومحاورات مع السلطان أبي النصر المنصور باللَّه أمير المؤمنين إسماعيل بن الشريف الحسني السجلماسي:

كتب إليه في أحدهما:

«فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها مُلك للَّه تعالى لا شريك له، والناس كلهم عبيد للَّه تعالى وإماء له، والسلطان واحد من العبيد، وقد ملّكه اللَّه تعالى عبيده ابتلاءً وامتحانًا، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة اللَّه في أرضه، وظل اللَّه على عباده، وله الدرجة العالية عند اللَّه تعالى، وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير حق ومتعرّض لعقوبة اللَّه تعالى الشديدة وسخطه. ولا يخفى على سيدنا حال من تسلّط على رعيته يروم تملّكهم بغير إذنه كيف يفعل به يوم يتمكن منه، ثم نقول إن على السلطان حقوقًا كثيرة لا تفي بها البطاقة، ونقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها:

الأول: جمع المال من حق وتفريقه في حق.

الثاني: إقامة الجهاد لإعلاء كلمة اللَّه، وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج من عدد وعدّة.

الثالث: الانتصاف للمظلوم من الظالم، وفي معناه كفّ كل يد عادية

عليهم منهم ومن غيرهم.

وهذه الثلاثة قد اختلّت كلها في دولة سيدنا، فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع أو بالغفلة؛ فإن تنبه وفعل فقد فاز وفي ذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة، وإلا فقد أدّينا الذي علينا.

❑ فأمّا الأمر الأول: فليعلم سيدنا أن المال الذي يُجبى من الرعيّة قد أعدّه اللّه للمصالح التي ينظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاة والأئمة والمؤذنين والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح.

ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن الوصول إلى قبضها إلاّ بوكيل، ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل، فإن استوفى الوكيل الدَّيْن بلا زيادة ولا نقصان وأدّاه إلى اليتامى بحسب ما يجب لكلٍّ فقد برئ من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم وحصل له أجران: أجر القبض وأجر الدفع، وإن هو زاد على الدَّيْن الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم للمديان، وإن نقص بغير موجب فهو ظالم لليتيم وكذا إن استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم لهم، فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جرّوا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينًا ولا دنيا، أما الدنيا فقد أخذوها، وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه، ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم. فعلى السلطان أن يتفقّد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكلام من يزين له الوقت، فإن أكثر الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون اللّه ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب، وفي أفضل منهم قال جدّ سيدنا أمير المؤمنين علي كرّم اللّه وجهه:

«المغرور من غرركموه»، وأن يتفقّد المصالح، ويبسط يد الفضل على خواص الناس وأهل العلم والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل:

أفادتكمُ النعمـــاءُ مني ثلاثـــةً يدي ولساني والضمير المحجّبا

وليعلم سيدنا أن السلطان إذا أخذ أموال العامة ونثرها وشيد بها المصالح فالعامة يدْعون له ويعلمون أنه سلطان وتطيب قلوبهم بما يروْن من إنفاق أموالهم في مصالحهم وإلا فالعكس.

وأيضًا السلطان متعرّض للسهام الراشقة من دعوات المظلومين من الرعية، فإذا أحسن إلى الخاصة دعوا له بالخير والسلام والبقاء فقابل دعاء بدعاء واللّه الموفق.

❑ وأما الأمر الثاني فقد ضاع أيضًا، وذلك أنه لم يتأت في الوقت الآن عمارة الثغور، وسيدنا قد غفل عنها، فقد ضعفت اليوم غاية، وقد حضرت بمدينة تطاون أيّام مولانا الرشيد ـ رحمه اللّه، فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلاً ورُماة، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخًا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصيّ والمقاليع، وهذا وهن في الدين وغرر على المسلمين، وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة وتكليفهم الحركة وإعطائهم العدة كسائر الناس.

فعلى سيدنا أن يتفقّد السواحل كلها من القليعة إلى ماسة ويحرّضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم، ويترك لهم خيلهم ورجالهم وعدتهم ويزيدهم مما يحتاجون إليه، فهم حماة بيضة الإسلام، ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضايق وغيرة على الإسلام وأهله ولا يولي فيها مَنْ همّته ملء بطنه والاتكاء على أريكته.

❑ وأما الأمر الثالث فقد اختل أيضًا؛ لأن المنتصبين للانتصاف بين

الناس هم العُمّال في البلدان وخُدّامهم وهم المشتغلون بظلم الناس، فكيف يزيل الظلم من يفعله؟ ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه، فلا يقدر أحد أن يشتكي. فليتق سيدنا دعوة المظلوم فليس بينها وبين اللَّه حجاب، وليجتهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا.

* قال اللَّه تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾، ثم ذكر المنصورين وشرائط النصر فقال: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة، فمتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلّط عليهم من يُفسد عليهم الدولة علموا أن ذلك من إخلالهم بهذه الأمور، فكان عليهم الرجوع إلى اللَّه تعالى وتفقّد ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم إياه، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لا يثبت معه المُلك ولا يستقيم وأن العدل يستقيم معه المُلك ولو مع الكفر، وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا يتحافظون عليه من العدل في الرعية استصلاحًا لدنياهم فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والآخرة...

● وقال ﷺ: «**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته**»[1].

● وقال ﷺ: «**ما من وال يلي ولاية إلا جاء يوم القيامة ويده مغلولتان، فإما عدل يفكّه وإما جور يُوبقه**». وعن علي بن أبي طالب كرّم اللَّه وجهه قال: رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره على الأبطح فقلت: يا أمير المؤمنين

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي عن ابن عمر.

أين تسير؟ قال: بعيرٌ شرد من إبل الصدقة أطلبه. فقلت: أذللت الخلفاء من بعدك. فقال: لا تلمني، والذي بعث محمدًا بالحق عليه السلام لو أن عنقًا[1] ذهبت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة، ألا إنه لا حرمة لوالٍ ضيّع المسلمين، وقد رأى ﷺ شيخًا يهوديًّا يسأل على الأبواب فقال عمر ﷺ: ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية ما دمت شابًّا ثم ضيّعناك اليوم، وأمر أن يُجرى عليه قوته من بيت المال.

وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق، وليسأل العلماء عما يأخذ وما يُعطي وما يأتي وما يذر، وقد كان بنو إسرائيل يكون فيهم الأمير على يد نبي، فالنبي يأمر والأمير ينفذ لا غير، ولما كانت هذه الأمة المشرّفة انقطعت النبوءة بنبينا خاتم النبيين صلى اللّه عليه وآله وسلم وعلى إخوانه النبيين، فلم يبق إلا العلماء يُقتدى بهم... فكان حقًّا على خلفاء هذه الملة أن يتبعوا العلماء ويتصرّفوا على أيديهم أخذًا وعطاء. وقد تُوفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر ﷺ، وكان قبل ذلك يبيع ويشتري بالسوق لعياله، فلما بُويع أخذ متاعه إلى السوق كعادته حتى ردّه علماء الصحابة وقالوا له: إنك في شغل بأمر الخلافة عن السوق، وفرضوا له ما يكفي عياله وجعلوا المال على يد أمين، وكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره. وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده. فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء، ولا يقتدي بأهل الأهواء».

وكان الخليفة مولانا إسماعيل المذكور يثني عليه خيرًا. ومما يُحكى عنه في ذلك أنه كان يقول: علماء الوقت على أربعة أقسام: قسم لا يخاف إلا من اللّه ولا يخاف منا ـ يعني نفسه ـ، وقسم يخاف من اللّه ومنا، وقسم

(١) العناق: أنثى المعز.

يخاف منا ولا يخاف من اللَّه، وقسم لا يخاف من اللَّه ولا منا» ويمثل للقسم الأول باليوسي.

وقد فاز اليوسي بدينه فلم يتحمّل بشيء من غمزات المسلمين إلا ما سعى لهم في المصالح وارتكاب المخاطرة في إرشاد السلطان إلى ما هو واجب عليه بأشد من الخطاب المتقدم في الرسالة المنقولة مشافهة حيث سعى للمسلمين في المصالح، ونصح الخليفة المذكور غير مرّة، وقد راجعه برسالة أخرى أطول من هذه جوابًا عن مانعته به بطانة السلطان الذين يلونه ويقربون منه، واجتمع معه وشافهه، وقضاياه معه كثيرة[1].

* طالوت المعافري الفقيه المالكي والحكم بن هشام:

لما مضت الألسنة تتحدّث عن خروج الأمير الحكم بن هشام للصيد واصطحابه الندماء واستماعه للغناء وقراءته للكتب الفلسفية وزاد الأمر حتى تحدث المرجفون عن مجالس الخمر والكأس وألحان الولوع والصبابة، وحديث الجواري والغلمان وثار الفقهاء وأهل قرطبة على الأمير واستطاع الأمير إخماد ثورتهم وصلب ثلاثمائة من رؤسائهم، وذاق الفقهاء من الهول والشدة ما تركهم جزر السيوف، واختفى الفقيه المالكي طالوت بن عبدالغفار المعافري لدى بعض معارفه من أهل الكتاب حتى اهتدى الحكم إلى مكانه، واستشعر الحكم الندم على إفراطه في الانتقام، وما إن وقعت عينه على طالوت حتى أجلسه إلى كرسي بجواره وقال له في عتاب مهذب: «يا طالوت، أخبرني لو أن أباك أو ابنك مالك هذا القصر أكان يزيد في البر والإكرام على ما كنت أفعله بك؟

هل قدمت عليّ قط لحاجة في نفسك أو لغيرك إلاّ سارعت إلى

(١) «نشر المثاني» (٣/ ٢٥ ـ ٤٩).

إسعافك؟ ألم أعدك في علّتك مرات؟ ألم تتوفّ زوجتك فقصدت إلى بابك ومشيت في جنازتها راجلاً من الربض ثم انصرفت معك راجلاً حتى أدخلتك منزلك، فماذا بلغ منك، وهذا لي عندك، إن لم ترض إلا بسفك دمي وهتك ستري وإباحة حرمتي!

فأجاب طالوت في اعتداد: «ما أجد لنفسي في هذا الوقت مقالاً خيراً لي من الصدق، أبغضتك للّه، فلم ينفعك عندي كل ما صنعته لأجلي».

رحمك اللّه يا طالوت.

* * *

المسك الأذفر
في
تاريخ أُسود الأزهر

المسك الأذفر في تاريخ أُسود الأزهر

*** شيخ الإسلام ابن دقيق العيد والملك المنصور حسام الدين لاجين سلطان مصر ونائبه الأمير منكوتمر:**

ابن دقيق هو ابن دقيق في سمو العلماء الربانيين وجرأتهم في الحق، وتعددت في ذلك مواقفه العظيمة.

عرض عليه منصب قاضي القضاة فاعتذر عنه أبيًّا، ولكن الإلحاح المتزايد قد اضطره إلى القبول بعد أن اشترط على ذوي الأمر شروطًا تحفظ للقضاء كلمته النافذة وسطوته الغالبة دون تعويق.

تبوأ الإمام الورع مكانه القضائي فرأى بثاقب رأيه أن أمراء المماليك يبذلون وساطاتهم المتوالية الملحّة لدى القضاة، فأرسل منشورًا عامًا من تأليفه وبتوقيعه يدعو جميع القضاة إلى التزام الشرع، واطراح ما يؤثر على تنفيذه من وساطات ومحسوبيات، وشدّد النكير على من تضعف نفسه أمام شهوات الحكام وخوّف بعذاب اللَّه والآخرة.

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

هذه المكاتبة لمن وفّقه اللَّه لقبول النصيحة، وآتاه لما يقرّبه به قصدًا صالحًا ودنيا صحيحة، أصدرنا إليه بعد حمد اللَّه الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور، تذكرة بأمر ربك، فإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون.

فنحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا، فما أحد سواه بمغبون، عسى اللَّه أن يرشده بهذا التذكار وينفعه، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار، فإني أخاف أن يتردى فيها فيجرّ من ولاّه والعياذ باللَّه معه، والمقتضى لإرسالها ما لمحناه من الغفلة المستحكمة على القلوب، ومن تقاعد الهمم عما يجب للرب على المربوب، ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة، وظهروا بصور كبار وهي نحيفة، واللَّه إن الأمر لعظيم وإن الخطب لجسيم، ولا أرى مع ذلك أمنًا ولا قرارًا ولا راحة، فاتق اللَّه الذي يراك حيث تقوم، واقصر أملك عليه فالمحروم من أمله غير مرحوم، وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمي وقد قال له قائل: ليتنا لم نُخلق فقال: (إذا وقعتم فاحتالوا).

كان الملك المنصور حسان الدين لاجين سلطان مصر سنة ٧٩٧ وقد أعطى مملوكه الأمير منكوتمر سلطة واسعة، إذ جعله نائب السلطنة، وأخذ يرشحه للقيام بالأمر من بعده، فأخذ الأمير ينكل بأعدائه، ويبعث الرهبة في النفوس والفزع في القلوب، وامتلأت الصدور حفيظة عليه وضيقًا به ومقتًا له، وكانت له رغبة في المال تتكاثر في نفسه بتكاثر ما يغصب، ولا يعرف القناعة.

وحبه الأعمى للمال دفعه ذات مرة إلى مواجهة ابن دقيق العيد.

وخلاصة القصة: أن تاجرًا كبيرًا من التجار مات وترك وراءه ثروة هائلة، فرأى منكوتمر أن يدّعي أن له أخًا سمّاه وعناه، وتقدّم به إلى القاضي ليأخذ الميراث، فإذا تمّ ذلك فإن الأمير يستطيع أن يستولى عليه من الأخ المزعوم لقاء هبة محدودة، ولكن مواجهة ابن دقيق بذلك ليست من السهولة الهينة في اعتقاد الأمير، فرأى أن يحتال لذلك، واختار أحد كبار خاصة الأمير «كرت» ووفده إلى قاضي القضاة فاستأذن مستخذيًا وسلّم، فقام له القاضي نصف قومة وردّ عليه السلام وأجلسه، فأخذ يتلطّف في الحديث

متوسلاً إلى إثبات أخوة التاجر بشهادة الأمير «منكوتمر» نائب السلطنة.

ولكن ابن دقيق العيد ـ نضّر اللَّه وجهه ـ ينظر إلى الأمير «كرت» مستخفًّا، وهو يقول: وماذا ينبني على شهادة منكوتمر؟

فيحمر وجه الرسول وهو يقول: هو عندنا وعندكم عدل يا مولاي!

فيصيح الشيخ: سبحان اللَّه، سبحان اللَّه ثم ينشد:

يقولون هذا عندنـــا غير جائـــز ومن أنتمو حتى يكون لكم عندُ

وكرر البيت ثلاث مرات، ثم قال: «واللَّه متى لم تقم عندي بينة شرعية تثبت أُخوّة الرجل بغير شهادة منكوتمر فلن أثبتها بحال».

❑ وراجع الأمير كرت نفسه، فثار عليه ضميره، وصاح من فوره في مجلس الشيخ: لا إله إلا اللَّه، هذا هو الإسلام!!

❑ مضت أيام وجاء لابن دقيق العيد من يُخبره أن الأمير منكوتمر يريد الاجتماع به، فصاح في وجهه: قل له إن طاعتك ليست واجبة عليّ. ثم التفت إلى مَن حوله من القضاة، وقال: أشهدكم أني عزلت نفسي باسم اللَّه، وقولوا له يولّ غيري.

❑ قال المقريزي في السلوك: وعاد الشيخ إلى داره وأغلق بابه وبعث نقباءه في مصر إلى نواب القضاة يمنعهم من الحكم وتوثيق الأنكحة فقبلوا طائعين.

وقامت الضجة في البلاد، فقد عزل شيخ العلماء وقاضي القضاة نفسه من مباشرة أمور الناس، وأرسل إلى نوابه فامتنعوا عن مجالس القضاة وعقد توثيق الزواج، ووصلت الضجة إلى الملك المنصور فهاج واضطرب وجعل يعنّف منكوتمر على نزقه وتسرّعه، ثم أرسل إلى ابن دقيق يستدعيه، فاعتذر، ولم ييأس السلطان، فواصل السعي وأرسل طوائف العلماء الوجهاء إلى الشيخ يستعطفونه ويرجونه في مقابلة السلطان وله أن يتمسّك برأيه كما يشاء.

وبعد لأي ذهب الإمام الورع الأشم، فقابل الملك المنصور، فتلقاه بحفاوة، وعزم عليه أن يجلس معه على كرسي واحد، فبسط الشيخ منديله، وكان خرقة من الكتان. فوق الحرير الموشى بالذهب على الكرسي، ثم جلس في اعتداد، فجعل السلطان يتلطف إليه ويتذلل، ويرجوه أن يعود إلى منصبه القضائي ويحكم بما يشاء، فقبل بعد حجاج. وانتهز السلطان فرصة قبوله فقال: يا سيدي، هذا ولدك منكوتمر فادع له اللَّه!!

فنظر ابن دقيق إلى منكوتمر ثم قال: منكوتمر لا يصلح، لن يجئ منه شيء. ثم قام لوجهه، وترك منديله على الكرسي، فتناول السلطان خرقته البالية، وأخذ يمسح بها وجهه، ثم تزاحم عليها الأمراء.

قال الراوي: فمن رأى تهافت السلطان على منديل الشيخ وتزاحم الأمراء على خرقته البالية، رأى جلال العلم وعظمة العدل وروعة الإيمان.

* شيخ الإسلام زكريا الأنصاري وقضاة المذاهب وقانصوه الغوري سلطان مصر:

علماء لا يخشون في اللَّه لومة لائم، يجبهون السلطان في مجلسه بما يردع أهواءه، فتثور ثائرته، ويعلن نقمته ثم يخرجون من مجلسه وقد أخلصوا ضمائرهم للَّه صادقين.

لقد نمى إلى «صاحب الحجاب»[1] أن رجلاً من الناس يأتي إلى بيت صديقه في غيبته وأنه على صلة منكرة بزوجته، فأخذ الحاجب للأمر أهبته وراقب المنزل حتى داهم الصديق مع معشوقته، وما زال بهما ضربًا وتبريحًا حتى أقرّا بالفاحشة، وإذ ذاك حُملا معًا على حمارين وطيف بهما في ملأ من الصبية والرعاع لتعلن فضيحتهما على الناس، جريًا على المألوف من

(١) يقوم بمهمة مدير الأمن.

تقاليد هذا العصر ثم فُرضت عليهما غرامة فادحة قاما بأدائها في أسف نادم وخزي شنيع.

وكان من الميسور أن ينتهي الموقف دون أن يعقب صداه في دائرة السلطان! ولكن بعض الذين يحبون أن تشيع أصداء الفاحشة في كل مجلس! حتى في مجلس الغوري نفسه قد نقل الحادث إلى الغوري نفسه، ولكن الناقل المغرض أردف ذلك بأنه يأمل أن يصدر السلطان أمره برجم المذنبين فيكون ممن أحيا شريعة الإسلام من المماليك! وقد راقت الفكرة لدى الغوري، فحوّل المسألة إلى القضاء، وطلب أن يصدر قرار الرجم سريعًا لتقوم به الدولة على ملأ مشهود يحضره السلطان.

وقد طار النبأ إلى الرجل المسكين، فأشار عليه بعض ناصيحه أن يعدل عن إقراره، لأنه اعترف بالزنا تحت سياط الحاكم، والرجوع عن الإقرار حتى ولو لم يكن مع الإكراه، بل لدى الاختيار الكامل يمنع الحد كما أجمع عليه العلماء ولهم بصدد ذلك نصوص وأقيسة ووقائع لا تقبل التأويل.

فرجع الرجل عن إقراره، وكتب صاحبه فتوى طاف بها على العلماء بهذا الشأن فأجابوا جميعًا بتوقيعاتهم، وأعلنوا أن الرجوع عن الإقرار يسقط حدّ الزنا دون نزاع.

وارتكب الغوري الشطط، ودعا القضاة والعلماء لمناقشة الموضوع في مجلس خطير تصدّره السلطان!! واكتنفته الأسنة والحراب.

❑ كان العلماء على بيّنة مما يحاك، فأجمعوا أمرهم على أن يقولوا كلمة الحق دون مبالاة، وكان شيخهم زكريا الأنصاري عضدهم في حومة الجدال، وثقوا في همته، واطمأنوا إلى مؤازرته.

والحق أن رأي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في هذه القضية مما يصعب على الغوري أن يهجنه ببعض التحامل أو الادعاء.

لقد ادّخر الحق لخذلان الغوري سهامًا صائبة، وقد فتح لها صدره في غطرسة كاذبة حين دعا العلماء إلى النقاش.

وشاء السلطان أن يوجه كلامه للشيخ زكريا الأنصاري بادئ ذي بدء بعد أن نظر في غضب إلى من حوله من العلماء، فصاح في غضب: كيف يا شيخ زكريا يضبط رجل في منزل صاحبه مع عشيقته ويقرّ بالجريمة ثم يتراجع فتقرون أنتم بالرجوع؟!

فسكت زكريا الأنصاري قليلاً، وقال أحد تلاميذة من القضاة: «للمعترف بالزنا أن يرجع عن اعترافه وقد كان الرسول ﷺ يراجع المعترفين فيقول لأحدهم: لعلك كذا ولعلك كذا، فيفسح له السبيل».

فاحمر وجه الغوري وتوقدت عيناه من الغيظ وصرخ يقول: أنا ولي الأمر، لي الحق في إصدار الحكم بالرجم، وليس لكم أن تقفوا أمامي باسم الدين.

فانبرى قاضٍ متحمس يقول: نعم لك الحق أن تصدر الحكم إذا كان متفقًا مع الشرع الكريم، فإذا أصررت على رجم المتهمين فأنت مذنب وعليك ديتهما. وارتج المجلس الحاشد إثر هذه العبارة ارتجاجًا عنيفًا فأظهر بعض أمراء المماليك كلمات نابية منكرة، وتطوّر أحمقهم فسحب العالم من ثيابه وأجبره على الخروج، أما السلطان فقد وقف متغيظًا يضرب الأرض بقدمه، ويلوّح بسيفه متهددًا متوعدًا، وقد ندت منه عبارات ما كانت تصدر من شيخ محنّك كبير، ثم التفت إلى الشيخ زكريا وصاح: وأنت يا شيخ الإسلام ما تقول؟ فرد الشيخ زكريا ـ وكان قد جاوز التسعين، لكنه احتفظ بقوة الأداء، وارتفاع الصوت، وكأن الحق أعاد إليه شباب حنجرته، فقال: إن الرجوع بعد الاعتراف يُسقط الحق، وجمهور الأئمة على ذلك، وفي مقدمتهم صاحب

المذهب ﷺ فأظهر السلطان استهزاءه وصاح متهكمًا: هل هذا ما ترتضيه ذمتك يا شيخ الإسلام؟ فردّ الشيخ زكريا: ليس هذا ما ترتضيه ذمتي وحدي، ولكنه ما ارتضته ذمة ساكن مصر الإمام الشافعي! صاحب المذهب، وذمته الشريفة لا تقبل التجريح بحال! فزاد غضب الغوري وردّ متعجّلاً: أنت شيخ قد كبرت وضعف عقلك، أما أنتم أيها القضاة فلا أحب أن أراكم بعد الآن، وقد عزلتكم جميعًا عن القضاء!. وخرج السلطان مزبدًا سابًّا لاغيًا، فانفض المجلس أسوأ انفضاض!! ثم هتف الغوري ببعض أعوانه فأصدر أمره بمصادرة أموال البعض، ونفي البعض الآخر إلى الواحات، وضرب نائب مذهب الشافعي الشيخ الزنكلوني مع أولاده بالعصا، حتى كادوا يموتون؛ لأنه في اعتقاد السلطان قد هيّأ للمتهم سبيل الرجوع عن الاعتراف، وبذلك أمكن للقضاء معارضته على رءوس الأشهاد. أما المتهمان فقد صدر الأمر بشنقهما علنًا وتعليق جثتيهما يومين كاملَيْن، ليرى الناس في مصر قلة حيلة القضاة، وهل استطاعوا أن ينتصروا على السلطان؟!

* الشيخ علي الصعيدي وعلي بك الكبير:

كان الشيخ علي الصعيدي ذا مهابة توجب على علي بك الكبير أن يقبّل يده، وكان الشيخ يمنع شرب الدخان ويفتي بتحريمه، فصار علي بك يحرص على أن يُخفي أدوات التدخين إذا علم بمجيئه خشية من غضبه، وكان الناس يلجأون إليه إذا مسّهم الضرّ، فيسجّل شكاواهم في صحيفة خاصة، ويتحدث مع الحاكم في كل شكوى على حدة، ولا يُلقي بالاً لتضايقه البارز في قطوب وجهه، بل كان يصيح في وجهه قائلاً: «لا تأسف، فالدنيا فانية، وسيسألنا اللَّه عن تأخرنا في نصحك إن لم نفعل»، ثم يمسك بيده قائلاً: «أنا

(١) انظر «سيرة عمر مكرم» لمحمد فريد أبو حديد ـ و«تاريخ الجبرتي».

خائف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب»!.

وقد لاحظ تلكؤًا في إجابة بعض مطالبه فخرج غاضبًا، ونفر الناس وراءه وارتبك الأمير فحاول اللحاق به معتذرًا، فأصرّ الشيخ على ألا يعود وأخذ يتلو قول اللَّه تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ**﴾ [هود: ١١٣].

*** الشيخ الدردير ـ رحمه اللَّه ـ:**

من كبار علماء الأزهر في أيام دولة الخلافة العثمانية وله صولات وجولات في مجابهة الظلم والطغيان سجلها له الجبرتي في تاريخه:

ولعلّ أهمها موقفه من الأمير يوسف الكبير حين منع الأوقاف الخيرية عن طلبة العلم من المغاربة، فرفعوا الشكوى إلى القاضي فحكم لهم بما يستحقون، وكبرُ على الأمير أن يُذعن، فكتب الشيخ الدردير يطالبه بالإذعان، فطغى وبغى ورفض الطلب محتقرًا مَن حمله فكان ما تحدّث به الجبرتي حين قال: «ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع، فاجتمعوا في صبحها، وأبطلوا الدروس والأذان وأقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء».

وكانت وقفة عصيبة رجع فيها الحق إلى أصحابه على أيدي علماء الدين وعلى رأسهم الشيخ الدردير.

*** الشيخ سليمان المنصوري: لا يُسلَّم للإمام في فعل يُخالف الشرع الكريم:**

أرسل السلطان التركي سنة ١١٤٨ أمرًا خاصًا بإلغاء بعض الأوقاف الخيرية، مطالبًا بوجوب نقلها إلى دائرة الوالي، ليضيفها بالتالي إلى ما يُرسل إلى الأستانة من الأموال، وانعقد مجلس الديوان، فقرأ القاضي العثماني

منشور الخلافة، ثم عقّب بقوله: «أمر السلطان لا يُخالف وتجب طاعته بنص الشرع الشريف»، ولكن الشيخ سليمان المنصوري ـ أحد أعضاء المجلس من علماء الأزهر ـ يقف فيقول في صراحه:

«يا شيخ الإسلام، هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان، وفعْل النائب كفعْل السلطان، وهذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين، وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة، فلا يجوز إبطال ذلك، وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك، فلا يجوز لأحد يؤمن باللَّه ورسوله أن يُبطله، وإنْ أمر ولي الأمر بإبطاله لا يسلم له ذلك ويُخالف أمره؛ لأن ذلك مخالفة للشرع، ولا يسلم للإمام في فعل يخالف الشرع الكريم».

❑ يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد تعليقًا على هذه الحادثة الجريئة: وقد كانت وقفة الشيخ الجليل سببًا في عدول الحكومة عمّا كانت عازمة عليه، ولا يسع الإنسان إلا الإعجاب بمثل هذه الدقة في القول، وهذا الاتزان في المنطق، وهذه الجرأة في الحق[1].

* عبدالرحمن الجبرتي المؤرخ الذي يصدع بالحق:

عاش الجبرتي أيام حكم محمد علي الحالك السواد، اغتال وسلب وذبح وأرهب، أحال الحياة في عيني صاحب الحق ظلامًا دامسًا تتخلله العقارب والهوام، وتكتنفه المخاطر والحتوف.

لقد تحدّث الجبرتي في الجزء الأول والثاني من تاريخه عن عهد المماليك، فذكر بدقة ما لمسه من أساليب المشاحنة والمنافسة بين الرؤساء والأتباع، وألمّ إلمامًا مسهبًا بدسائس الأمراء والسناجق، وتكالبهم على المال

(١) انظر «سيرة عمر مكرم» لمحمد فريد أبو حديد.

والجاه، وفصّل مصارعهم الرهيبة، وما جلبوه على مصر من محن ونكبات، ووالى طعناته الدامية إلى محمد جركس، ومراد، وعلي الكبير، فبيّن كيف كان أتباعهم يأخذون ما يحبون من الباعة دون ثمن، فإذا امتنع أحد التجّار قتلوه ونهبوا متجره، وشرح كيف كانوا يخطفون النساء والغلمان، ويدخلون منازل الناس ثم لا ينصرفون حتى ينالوا الثياب والأغلال والأموال، وكيف تجرّأ هؤلاء الأوغاد بتحريض أمرائهم على نهب مصوغات الذهب والفضة من الصاغة، وغصب نفائس الحليّ من صدور النساء في الحمامات، بعد التهجم عليهن هجومًا آثما ينكره الإسلام وتأباه الأخلاق.

ما حاد الجبرتي عن الصدق في تاريخه ولم يداهن فيه دولة بنفاق، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق، وتعذّر عليه أن يجد متنفَّسًا لقلمه في أمد تتحكم به الفردية الطاغية تحكمًا قاهرًا، ولو أغمض عينيه لخان رسالته وهاجت عليه نوازعه بالتأنيب والتقريع، وصمم على أن يجتاز طريقه الوعر مهما امتلأ بالأشواك والصخور!! ومهما تعرّض إلى مهاوٍ سحيقة يكتنفها الويل والثبور!!

وحين تكلم عن محمد علي وكان حاكمًا على مصر لم يغفل الحديث عن اشتعال الغلاء اشتعالاً كاد يُسلم الشعب إلى مجاعة دهياء، وكان أليمًا أن يغدر الباشا بأولياء نعمته فيقلب ظهر المجن للسيد عمر مكرم وطائفة من أفاضل العلماء والأعيان، وقد جعل من مصادرة الأموال سيلاً ينحدر دافقًا إلى خزائنه، مما ضيّق الخناق على أصحاب المتاجر والمصانع فأخذوا يتنفّسون في جو خانق كريه وجنود الباشا المسلحون يجددون مآسي الفرنسيين، فينتهكون الحرمات ويتباهون بالمعاصي، ويعبثون بالمتاجر والأسواق، بل إن نجل الباشا إبراهيم يقتدي بأبيه فيصب غضبه الظالم على الرعية صبًّا رهيبًا سجّله الجبرتي حين قال:ـ

«ثم سافر إبراهيم راجعًا إلى الصعيد، ليتم ما بقي عليه لأهله من العذاب الشديد، فقد فعل بهم فعل التتار، عندما جالوا بالأقطار، وأذلّ أعزة أهلها، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل، سنّه دون العشرين عامًا، وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه، لم يؤدبه مؤدب، ولا يعرف شريعة، ولا مأمورات ولا منهيّات».

إنها الجرأة الصادقة تدفع الرجل إلى تأنيب القساة الطغاة، ولو تضافرت الأقلام على إنصاف الحق، ما وجد طاغية يتبجح بالمظالم ويخوض في الشهوات دون أن يسمع غير الإطراء الكاذب، والرياء المقيت، وقد كان الجبرتي جريئًا، فلم يكتف بتسطير المظالم دون تعقيب، بل رأى من حق التاريخ عليه أن يشفع مخازي الآثمين بتنديد فاضح يذكى الحفاظ ويلهب الصدور، في وقت وُجد به أناس يجعلون من هذه المثالب محاسن رائعة، وجلائل حافلة تتعلق بها الآمال، وخيال الباطل فسيح مديد.

ذاع نقد الجبرتي، وتناقل الناس ما سطّره عن محمد علي وإبراهيم، ثم عن أشياعهما من الأصهار المتجبرين، كمحمد الدفتردار، وسليمان أغا السلحدار، وكلاهما كان طاغوتًا رهيبًا لا يذر من شيء يأتي عليه، بل طالما استمد من سلطان الوالي رهبة قاتلة، تذل النفوس وتُلجم الأفواه، فما الذي يكافأ به الجبرتي إزاء صراحته في عالم تهون لديه الأرواح الإنسانية هوانًا يلحقها بالحشرات والهوام؟

إن النتيجة الرهيبة متوقعة محتومة، فلا يعقل أن تنكمش الأحقاد المتجبرة عن فريسة عزلاء لا تفزع بقوة أو ترهب بنفوذ.

ولا ريب أن المؤرخ كان يعرف تمام المعرفة في أي طريق يسير! أو إلى أي مهوى ينحدر! وهنا موطن الأسوة ومجال العبرة! هنا مكمن العظمة في أفذاذ أماثل، يقدّمون أرواحهم قربانًا للعدالة والإنصاف، وينصبون إقدامهم

مثلاً حيًّا للبطولة والفداء! ولو لم تكن للجبرتي هذه الروح السامية الرفيعة لعاش كالآلاف من الأفراد يجامل الطغيان ويتملّق العدوان، ويقضي حياة ذليلة ضارعة تنتهي به إلى موت آسف لهيف، ويمرّ مماته الهيّن مرورًا ساكنًا شاحبًا، فما بكت عليه أرض وما تفتّحت لاستقباله سماء! أما كيف تمّت المأساة فقد اختلف فيها الكُتّاب، فهناك روايتان متباعدتان:ـ

❑ رواية تقول: إن حكم الإعدام نُفّذ في المؤرخ بعينه عن طريق الاغتيال في طريق موحش بهيم، بتحريض من محمد علي وتنفيذ سليمان أغا السلحدار.

❑ ورواية تقول: إن الاغتيال قد وُجِّه إلى خليل الجبرتي نجل المؤرخ، فتفجّع والده عليه، وكفّ ما بقي من بصره حتى لحق بولده بعد أيام.

والرواية الأولى أقرب الروايتين إلى المنطق.

وأصبح الجبرتي مثلاً يُحتذى، وذكرى تتعطّر بها الأجيال والعاقبة للمتقين[1].

* الشيخ عبدالحميد الجزائري والمندوب السامي الفرنسي:

استدعى المندوب السامي الفرنسي ـ في سورية ـ الشيخ عبدالحميد الجزائري، وقال له: إما أن تُقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار وإلا أرسلتُ جنودًا لإغلاق المسجد الذي تنفثُ فيه هذه السموم ضدَّنا، وإخمادِ أصواتك المنكَرة. فأجاب الشيخ عبدالحميد: أيُّها المسيُو الحاكم، إنك لا تستطيع ذلك. واستشاط المسيو غضبًا، وقال: كيف لا أستطيع؟ قال الشيخ: إذا كنتُ في عرسٍ علّمتُ المحتفلين، وإذا كنتُ في مأتمٍ وعظتُ المُعزِّين، وإن جلستُ في

(١) انظر «علماء في وجه الطغيان» للأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي ص(٧٦ ـ ٩٧) ـ هدية مجلة الأزهر.

قطار علَّمتُ المسافرين، وإن دخلتُ السجن أرشدتُ المسجونين، وإن قتلتموني ألهبتُ مشاعِر المواطنين، وخيرٌ لك أيها المسيو ألا تتعرض للأمة في دينها ولغتها[1].

* **أحد علماء الأزهر والخديوي إسماعيل: «منك يا إسماعيل، لا منَّا»:**

لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة، وتوالتِ الهزائم على مصر ـ لوقوع الخلاف بين قُوَّاد جيوشها ـ ضاق صدر الخديوي لذلك، فركب يومًا مع شريف باشا، وهو مُحرج، فأراد أن يفرِّج عن نفسه، فقال: لشريف باشا: ماذا تصنع حينما تلمُّ بك مُلمَّة تريد أن تدفعها؟ فقال: يا أفندينا، إن اللَّه عوَّدني إذا حاق بي شيءٌ من هذا أن ألجأ إلى «صحيح البخاري»، يقرؤه لي علماءٌ أطهارُ الأنفاس، فيفرج اللَّه عني. قال: فكلَّم شيخ الأزهر، وكان الشيخ العروسي، فجمع له من صلحاء العلماء جمعًا، أخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر. قال: ومع ذلك، ظلَّت أخبار الهزائم تتوالى، فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إلى العلماء، وقال لهم محنقًا: إما أن هذا الذي تقرءونه ليس بـ «صحيح البخاري»، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح؛ فإن اللَّه لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئًا. فَوَجَم العلماء لذلك. وابتدره شيخٌ من آخر الصفِّ يقول له: منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي ﷺ، أنه قال: **«لَتَأمرُنَّ بالمعروف ولَتنهونَّ عن المنكر، أو لَيُسلِّطنَّ اللَّه عليكم شراركم، فيدعو خيارُكم، فلا يُستجاب لهم»**[2].

وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا، ولم يَنبِسَا بكلمة. وأخذ العلماء

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» لعبداللَّه ناصح علوان.

(٢) رواه البزار والطبراني في «الأوسط»

يلومون القائل ويؤنِّبونه. فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل: أين الشيخ القائل للخديوي ما قال؟ فقال: أنا. فأخذه وقام، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يَلُومون الشيخ يُودِّعونه وداعَ من لا يأملون أن يرجع. وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديوي في قصره، فإذا به قاعد في البهو وأمامه كرسي، أجلس عليه الشيخ وقال: أعد يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر. فأعاد الشيخ كلمته وردَّد الحديث وشرحه، فقال له الخديوي: وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء؟ قال له: يا أفندينا، أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يُبيح الربا؟! أليس الزنا برخصة؟! أليس الخمر مباحًا؟! وعدّد له منكرات تجري بلا إنكار، وقال: فكيف تنتظر النصر من السماء؟! فقال الخديوي: وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب، وهذه مدنيَّتهم؟ قال: إذن، فما ذنب البخاري، وما حيلة العلماء؟! ففكّر الخديوي مليًّا، وأطرق طويلاً، ثم قال: صدقتَ. وأمر، فرتِّبت له في الرزنامجة ثلاثون جنيهًا[1].

* الشيخ محمد أبو الأنوار وحسن باشا الجزائرلي:

يحكي لنا الشيخ الجبرتي «أن حسن باشا الجزائرلي لما قَدِم مصر من قِبَل السلطنة العثمانية وخرج الأمراء المصريون إلى الجهة القبلية واستباح أموالهم، وقبض على نسائهم وأولادهم، وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعمًا أنهم أرقّاء لبيت المال... لمّا فعل ذلك اجتمع الأشياخ، وذهبوا إليه، فكان المخاطب له الشيخ محمد أبو الأنوار قائلاً له: «أنت أتيت إلى هذه البلدة، وأرسلك السلطان إلى إقامة العدل، ورفع الظلم ـ كما تقول ـ أو لبيْع الأحرار وأمهات الأولاد، وهتك الحريم؟!!».

قال: هؤلاء أرقاء لبيت المال!!

---

(١) من كتاب «من أخلاق العلماء».

فقال الشيخ: هذا لا يجوز، ولم يقل به أحد!!

فاستشاط الوالي غيظًا شديدًا، وطلب كاتب ديوانه، وقال له: اكتب أسماء هؤلاء ـ يعني الشيوخ ـ وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره.

فقال له السيد محمود البنوفري: اكتب ما تُريد.. بل نحن نكتب أسماءنا بخطنا!! فأفحم الوالي وانكفّ عن إتمام قصده.

وتتبّع الوالي أموال الأمراء وودائعهم، وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند الشيخ أبي الأنوار وديعة، فأرسل الوالي يطلبها.. فامتنع عن دفعها قائلاً له: إن صاحبها لم يمت، وقد كتبت على نفسي وثيقة فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها على قيد الحياة!!

فاشتد غيظ الباشا منه، وقصد البطش به، فحماه اللَّه منه ببركة الانتصار للحق، فكان الباشا يقول:

«لم أر في جميع الممالك التي وليتها من اجترأ على مخالفتي مثل هذا الرجل؛ فإنه أحرق قلبي»[1].

*** الشيخ العدوي أمام السلطان: «ذَكَرَ دينَه ونسيَ دنياه»:**

عندما زار السلطان العثماني عبدالعزيز مصر في عهد إسماعيل باشا كان إسماعيل حَفِيًّا بالزيارة؛ لأنها كانت جزءًا من برنامجه للحصول على لقب خديوي، مع عدَّة امتيازات في نظام الحكم بمصر. وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السَّراي، ولما كانت للمقابلة السَّنِية تقاليدُ، منها أن يُنحني الداخل إلى الأرض، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام، فقد كان حتمًا على رجال السراي أن يدرِّبوا العلماء على طريقة المقابلة عدَّة أيام؛ كي لا يُخطئوا في حضرة السلطان. وعندما

(١) «عفوًا يا فضيلة الإمام الأكبر» لمحمد عبداللَّه السمان ص(٦٥ ـ ٦٦).

حان الموعد، دخل السادة العلماء الأجلاء فنسُوا دينهم واشتروا به دنياهم، وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات، وخرجوا مُوجِّهين وجوهَهم إلى الخليفة، كما أمرهم رجال التشريفات، إلا عالمًا واحدًا هو الشيخ حسن العدوي، ذكَر دينَه ونسي دنياه، واستحضر في قلبه أن لا عزة إلا للَّه، ودخل مرفوعَ الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار، وواجه الخليفة بتحية الإسلام: السلام عليكم يا أمير المؤمنين. وابتدره بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالمُ الحاكمَ، دعاه إلى تقوى اللَّه، والخوف من عذابه، والعدل والرحمة بين رعاياه، فلما انتهى سلَّم، وخرج مرفوع الرأس. وأُسقط في يَد الخديوي ورجال السراي، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم، وأن السلطان لا بدّ غاضبٌ، فضائعةٌ تلك الجهود التي بذلوا، والآمال التي نسجوا. ولكنّ كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سُدًى، فلا بدَّ أن تصدع القلوب قوية حارّة، كما نبعت من مكمنها قوية حارّة، وهكذا كان، فقال السلطان: ليس عندكم إلا هذا العالم. وخلَع عليه دون سواه[1].

*** الشيخ العدوي أمام المحكمة: «لم يَعُدْ جديراً بأن يحكمنا»:**

كان الشيخ الأزهري حسن العدوي أحد الذين شاركوا في الثورة العرابية، فلما حلَّت الهزيمة وقبض على عرابي والعرابيين، كان العدوي واحدًا من الذين قُدِّموا للمحاكمة أمام المحكمة التي كانت مؤلَّفة من لفيف من الباشوات، ومن رجال الخديوي. ووقف الشيخ ـ الذي قَارَب سنّ الثمانين ـ أمام المحكمة، وسأله رئيسها إسماعيل باشا أيوب بصوت غليظ جافٍّ: هل وقَّعتَ باسمك، أو ختمتَ بخاتَمك قرارًا يقضي أن أفندينا المعظَّم سُمُو الخديوي توفيق باشا يستحقُّ العزل؟ وإذا بالشيخ الطاعن في السنّ

(١) «مواقف حاسمة للعلماء في الإسلام»، نقلاً عن «التصوف الإسلامي» لزكي مبارك.

يستعيد حَمِيَّة الشباب وحماستَه، فنظر إلى أيوب باشا نظرةً ثابتةً حادَّة، واتَّكأ بذراعيه على منضدةٍ أمامه، وقال: أيُّهَا الباشا، إنني لم أر الورقة التي تتحدث عنها، ولهذا فلن أجيب على سؤالك عما إذا كنتُ قد وقَّعتُها، ولكنني أقول لك ما يأتي: إنه إذا أحضرتَ لي الآن ورقةً تحتوي على مثل هذا المعنى الذي ذكرتَه، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي وأختمُها بخاتمي في حضورك، الآن أيُّها الباشا. ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلاً: إذا كنتم مسلمين، فهل تستطيعون أن تُنكروا أن توفيق باشا ـ وقد خان بلاده، وذهب إلى الإنجليز وانضم إليهم ـ لم يعد جديرًا بأن يكون حاكمًا لنا. واصفرَّ وجه الباشا رئيس المحكمة، الذي كان يظنُّ أنه يُخيف المحكومين، ولم ينطق بكلمة واحدة يردُّ بها على الرجل المُسنِّ الجريء، وأومأ إلى حُرَّاس المحكمة أن يأخذوه ويَخرَجوا به من قاعة المحكمة، ثم نقلوه إلى قريته، واعتقلوه فيها[1].

*** أحد علماء الأزهر والسلطان: «مَنْ يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يدَه»:**

لما قَدِمَ السلطان عبدالعزيز مصر وزار الجامع الأزهر وصحبَه الخديوي إسماعيل، فَلَحَظَ الخديوي على شيخ بالجامع كأنه غيرُ مُهتمٍّ، فهو مسندٌ ظهره، مادٌّ رجله، فأسرع بالسلطان عنه، ثم كلَّف أحد رجاله ـ وقد أراه الشيخَ ـ أن يذهب له بصُرَّة، يريد أن يعرف حاله، فلما جاء الرسولُ ليعطيه قبضَ الشيخُ عنه يده، وقال له: قل لمن أرسلك: إن من يمدُّ رجله لا يمدُّ يده[2].

---

(١) جريدة أخبار اليوم ٨/ ١٩٨١م.

(٢) كتاب: «أخلاق العلماء». والسلطان عبدالعزيز هو ابن السلطان محمود الثاني ابن السلطان سليم الثالث، وُلد عام ١٨٣٠م وتُوفي عام ١٨٧٦م، انسلخت على أيامه رومانيا والصرب والبلغار ومصر عن الإمبراطورية العثمانية.

وصدق الشاعر حيث يقول:

لا يغرنّك من المر ... ءِ قميصٌ رقّعه
أو إزار فوق كعـ ... ـب الساق منه رَفعه
أو جبينٌ لاح فيه ... أثر قد قلعه
ولدى الدرهم فانظرْ ... غيّه أو ورعه

*** الشيخ عبدالمجيد سليم شيخ الجامع الأزهر والملك فاروق:**

عاش الشيخ عبدالمجيد في عصر يسوده الاستعمار الإنجليزي الذي استولى على مصر، وفساد داخلي يمثله الملك والقصر والحاشية، وحزبية متناحرة.

ولم يسكت الشيخ كغيره، بل جاهر بالدعوة إلى نبذ الحزبية، وعارض في صراحة واضحة من يرون مشايعة القصر ومسايرته، ورأى أن واجبه الألزم يفرض عليه أن يكون ممن يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر، فأعلن رأيه في السياسة الطائشة.

وقد دفعته رجولته أن يعلن رأيه الصريح في القصر الباغي والحزبية العمياء وهو شيخ الأزهر دون أن يحرص على منصب زائل أو يخاف مغبة متربصة.

ولم يكن القصر يجهل ما للشيخ من صلابة في الحق وإباء للضيْم، فقد ذاق فاروق من حملاته السافرة قبل المشيخة وبعدها ما أرّق مضجعه، وذكرت مجلة المصور مقالاً بعنوان «مات الشيخ عبدالمجيد سليم» بتاريخ ١٤ من أكتوبر ١٩٥٤م جاء فيه أن الشيخ إذ كان مفتيًا للديار المصرية تلقّى سؤالاً عن حكم الشرع في رجل يراقص النساء ويشرب الخمر في الحفلات، ويرتكب أعمالاً يحرّمها الإسلام، وقد أدرك المفتي أن المقصود بهذا السؤال هو فاروق،

ولكنه لم يتراجع، بل أصدر فتوى جريئة وصف فيها المسئول عنه وصفًا يشين ويجرح. ويقول المصوّر: إن الدوائر الرسمية والسياسية قد اضطربت لهذه الفتوى واتصل الملك السابق بالشيخ المراغي شيخ الأزهر فطلب إليه أن يطلع منذ الآن على كل فتوى يصدرها الشيخ عبدالمجيد قبل السماح لها بالذيوع!

ولم تكد الأيام تمرّ على تربّص حذر من القصر بالشيخ وآرائه حتى حاول فاروق أن يعين المغفور له الأستاذ مصطفى عبدالرازق شيخًا للأزهر، وكان القانون الرسمي للمشيخة لا يسمح بذلك؛ لأن الأستاذ مصطفى عبدالرازق لم يكن عضوًا في جماعة كبار العلماء، كما أن تعيينه في هذا المنصب الخطير يعتبر دفعًا جديدًا للأزهر في أتون السياسة الحزبية المتصارعة؛ لأن الرجل عضو بارز في حزب الأحرار الدستوريين ووزير من كبار وزرائه، وله في السياسة هوى خاص يميل مع قوم دون آخرين، فلا بد أن يكون عصره امتدادًا محتومًا لسياسة الأستاذ المراغي في الانضمام إلى القصر وشيعته.

لذلك نجد الشيخ عبدالمجيد ـ رحمه اللَّه ـ يرفض في عنف هذا التعيين، وقد استدعاه النقراشي باشا كما ذكرت مجلة «المصور» وحاول أن يغريه بالمال إذ كان للشيخ عدة آلاف من الجنيهات بوزارة المالية مكافأة شخصية على مشيخته للأحناف بالأزهر مدة طويلة، وقد تجمدت تلك المرتبات بالوزارة لاعتراضها على أن يجمع الشيخ بين مرتبيْن في وقت واحد، فلوّح له رئيس الوزراء بصرف تلك الألوف المتجمعة سريعًا إذا وافق على تعيين مصطفى عبدالرازق، فغضب الشيخ في وجهه غضبةً أزعجته وصاح به في انفعال: أتريد أن تساومني في الحق؟ ثم خرج ساخطًا دون استئذان، ولم ييأس القصر بعد، فأوفد إليه بعض رجاله يهدده بالعاقبة ويقول في صراحة: إن معارضة الملك خطر عليك! فقال الشيخ في إيمان: أسيحولُ

هذا الخطر بيني وبين المسجد؟ فخجل رسول القصر ولم يُجب.

وكان الشيخ جريئًا حين أعلن نبأ هذه المحادثة بإمضائه في بيان أصدره للناس!

❑ أما حملته على استهتار فاروق ومجونه فقد كانت شديدة، ففي الوقت الذي تسابق فيه الزعماء إلى تمجيد فاروق كان شيخ الأزهر يصيح صيحته الغاضبة: (تقتير هنا وتبذير هناك) منددًا بما ينفقه الملك في «كابري» من الكنوز على الخمور والقمار والنساء، وانتهز رجال الحكومة الفرصة فطاروا بهذه الكلمات إلى فاروق، فأقيل الشيخ من منصبه، وقد ثبتت محبته في القلوب، وما ضرّه عزل دنيء عن منصب رسمي يسمو بالشيخ دون أن يسمو به، فهو من عظمته وعزته فوق المناصب.

*** الشيخ حسن الطويل والخديوي توفيق ورياض باشا:**

العالم الأزهري الجليل كان من عزّة النفس والثقة باللَّه على جانب رفيع دخل عليه رياض باشا وهو يدرّس لطلابه بدار العلوم فما غيّر موقفه أو بدّل جلسته، وحين همّ الزائر بالخروج قال له الأستاذ: لماذا لا أكون وزيرًا معكم يا باشا؟ فدهش الزائر وقال: أي وزارة تريد؟ فقال: وزارة المالية لأستبيح من أموالها ما تستبيحون!!

وكانت لطمةً أليمة تُوجَّه إلى حاكم لم يألف التهكّم والاستخفاف به، فخرج ثائرًا غاضبًا واستدعى ناظر المعارف علي مبارك ليعجّل بفصله من وظيفته، ولكن يدًا أعلى من يد رياض باشا تقف في وجهه فيتراجع عن غطرسته العاتيه مدحورًا وقد آثر ألا يزور مدرسة أو معهدًا بعد ذلك[1].

❑ هذا الرجل العظيم الشيخ حسن الطويل قد طُلب منه أن يرتدي

(١) «من أخلاق العلماء» للأستاذ محمد سليمان ص(١٨١).

ملابس خاصة ليُقابل بها الخديوي توفيق وحان الموعد المرتقب فجاء بملابسه المعتادة ومعه منديل يضم الملابس الرسمية، ثم قدّمها للخديوي قائلاً في بساطة: إن كنت تريد الجبة والقفطان فها هما ذان، وإن كنت تريد حسن الطويل!! ثم قال الشيخ لجلسائه: كيف أتجمّل لتوفيق بلباس لا أتجمّل به لربي في الصلاة؟![1].

* الشيخ الإنبابي شيخ الجامع الأزهر واللورد كرومر:

دخل اللورد كرومر على الشيخ الإنبابي محيّيًا، فصافحه الشيخ من جلوس، فاستعظم اللورد ما صنع وسأله: ألست تقوم للخديوي؟ فقال: نعم؛ لأن الخديو وليّ الأمر، وهو منّا ولست مثله لدينا في شيء[2].

لم يقل الشيخ ذلك تزلّفًا للخديوي، فهو العالم الجريء الذي جابه توفيقًا وأفتى بعزله ومروقه دون تحفّظ أو اكتراث.

❑ ووقع الجواب من اللورد موقع الهيبة والإعظام في آن واحد... ثم دوّن الحادث في تقرير بعث به إلى الحكومة البريطانية.

* الشيخ النواوي شيخ الأزهر وحكومة مصطفى فهمي:

وهناك الشيخ النواوي شيخ الجامع الأزهر، فقد أرادت حكومة مصطفى فهمي أن تضعف القضاء الشرعي إجابة لرغبة المعتمد البريطاني، فدعت لتعديل اللائحة الشرعية مستندة إلى نفوذ المستعمر كعهدها في حكمها الطويل البهيم! ولكن الشيخ النواوي يحمل على المشروع بكلمة موجزة فتطير في الأمة كل مطير ويتأهب الكُتّاب لنقده نقدًا جارحًا، فتتخاذل الحكومة وتؤثر الانسحاب بمشروعها الخطير، ولو كان هذا الموقف لزعيم سياسي لظلّت

(١) «علماء في وجه الطغيان» ص(١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢) «من أخلاق العلماء» ص(١٨٢).

صحفنا المنصفة!! تردّده بين الحين والحين[1] .

*** الشيخ الشربيني واللورد كرومر:**

«تولى الشيخ الشربيني ـ رحمة اللّه عليه ـ مشيخة الأزهر في وقت اشتد فيه الصراع بين الاستعمار البريطاني الذي كان يمثله اللورد كرومر، وبين الوطنية الأصيلة المستمدة من الدين والأخلاق.. وكان الأزهر في تلك الأثناء هو القلعة الحصينة العتيدة بجنود الوطن والإيمان والكفاح، وكان الاستعمار الغاشم لا يهاب شيئًا أكثر من سلطان العلماء؛ لأن قوة الشعب حينذاك كانت مستمدة من عزتهم وصدقهم.. وكان اللورد كرومر يرى ـ على حد فهمه ـ أن تفاهمه مع الشيخ الشربيني مما يخفف حدة الصراع الرهيب.. فأراد أن يقابل شيخ الأزهر في منزله.

وفي الوقت الذي حدّده الإمام حضر اللورد ومعه زوجته.. وحرص الإمام الأكبر على عدم القيام له إذا دخل عليه؛ لأنه لا يليق بشيخ الأزهر أن يقوم لكافر ظالم، فأمر خدمه بأن يدخلوهما في حجرة الانتظار في الدور الأرضي من المنزل.. وبعد برهة نزل إليه الشيخ فقام له اللورد وزوجته، وكان ذلك هو المطلوب، فسلّم عليه، ولم يسلّم على زوجته!!

وأخذ كرومر يتودد إلى الشيخ، ويتزلّف إليه ويتملّقه.. والإمام لا يعيره التفاتًا أو اهتمامًا بما يقول!! بل إنه أعطى ظهره لزوجة اللورد كي لا يراها.. فاعتبر اللورد أن ذلك إهانة له ولزوجته على وجه الخصوص.. ولكنه لم يستطع أن ينصرف.. ثم طلب من الشيخ أن يأذن لزوجته كي تصعد إلى الطابق العلوي من المنزل لزيارة حرم الإمام، ولتجلس معها حتى

---

(١) انظر «علماء في وجه الطغيان» ص(١٢٥)، و«في ميزان الإسلام» للدكتور محمد رجب البيومي (٢/٢٠٧) من سلسلة «إسلاميات».

تنتهي المقابلة..!!

ولكن الشيخ أبى.. وأجابه على الفور في عنف فقال: أنا آسف إنها تحرم على نسائنا المسلمات كحرمة الرجل الأجنبي سواء بسواء، لاختلاطها بالرجال!!

وهنا لم يستطع اللورد إلا أن يسرع في الانصراف مدحورًا.. ثم أبلغ حكومته بخطورة بقاء الإمام في منصبه كشيخ للأزهر.. ولم يلبث الإمام قليلاً حتى ترك منصبه غير آسف.. وفضّل أن يفوز برضى اللَّه عز وجل ورضى رسوله ﷺ ورضى بلاده، على أن يفوز برضى عميد الاستعمار وحكومته.. ولو كان من وراء ذلك ملك الدنيا»[1].

*** الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية:**

لطم ـ رحمه اللَّه ـ الاستعمار البريطاني لطمة قاسية حين أصدر فتوى دينية وطنية في مقاطعة الإنجليز فسرت مسرى النار في الهشيم.

هذا الشيخ الجليل رفض ثروة مغرية قُدِّمت إليه حين أصدر فتوى إسلامية في وقف من الأوقاف وقال كلمته الجليلة «العلم في الإسلام لا يُباع»[2].

*** الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر ووالد الشيخ أحمد محمد شاكر يقوم بعد صلاة الجمعة ويعلن للناس أمام السلطان حسين بطلان صلاتهم ويأمرهم أن يعيدوها ظهراً:**

❑ قال الشيخ أحمد محمد شاكر في مقالاته «كلمة الحق»:

---

(١) «كتمان الحق» ص(١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢) «علماء في وجه الطغيان» ص(١٢٧).

«كان الشيخ طه حسين طالبًا بالجامعة المصرية القديمة، حين كانت متشرّفة برياسة سموّ الأمير فؤاد «حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد ـ رحمه اللَّه ـ، وتقرّر إرساله في بعثة إلى أوربا، فأراد حضرة صاحب العظمة السلطان حسين ـ رحمه اللَّه ـ أن يكرمه بعطفه ورعايته، فاستقبله في قصره استقبالاً كريمًا، وحباه هدية قيّمة المغزى والمعنى.

وكان من خطباء المساجد التابعين لوزارة الأوقاف، خطيب فصيح متكلم مقتدر هو الشيخ محمد المهدي خطيب مسجد عزبان، وكان السلطان حسين ـ رحمه اللَّه ـ مواظبًا على صلاة الجمعة، في حفل فخم جليل، يحضره العلماء والوزراء والكبراء.

فصلّى الجمعة يومًا ما، بمسجد المدبولي القريب من قصر عابدين العامر، وندبت وزارة الأوقاف ذلك الخطيب لذلك اليوم. وأراد الخطيب أن يمدح عظمة السلطان، وأن ينوّه بما أكرم الشيخ طه حسين، وحُقَّ له أن يفعل، ولكن خانته فصاحته، وغلبه حبّ التغالي في المدح، فزلّ زلّة لم تقم له قائمة من بعدها، إذ قال أثناء خطبته: «جاءه الأعمى، فما عبس في وجهه وما تولى».

وكان من شهود هذه الصلاة والدي الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر سابقًا ـ رحمه اللَّه، فقام بعد الصلاة يعلن الناس في المسجد أن صلاتهم باطلة، وأمرهم أن يعيدوا صلاة الظهر فأعادوها؛ ذلك أن الخطيب كفر بما شتم به رسول اللَّه ﷺ تعريضًا لا تصريحًا. وجاء الخطيب الأحمق الجاهل يريد أن يتملق عظمة السلطان ـ رحمه اللَّه، فمدحه بما يوهم السامع أنه يريد إظهار منقبة لعظمته، بالقياس إلى ما عاتب اللَّه عليه رسوله، واستغفر اللَّه من حكاية هذا، فكان صنع الخطيب المسكين تعريضًا برسول اللَّه ﷺ لا يرضى به مسلم، وفي مقدمة من ينكره السلطان نفسه.

ثم ذهب الوالد ـ رحمه اللَّه ـ فورًا إلى قصر عابدين العامر، وقابل محمود شكري باشا، وهو له صديق حميم، وكان رئيس الديوان إذ ذاك، وطلب منه أن يرفع الأمر إلى عظمة السلطان، وأن يبلّغه حكم الشرع في هذا بوجوب إعادة الصلاة التي بطلت بكفر الخطيب ولم يتردّد شكري باشا في قبول ما حُمِّل من الأمانة، واعتقد أن عظمة السلطان لم يتردد في قبول حكم الشرع بإعادة الصلاة. . .

ولكن اللَّه لم يدع لهذا المجرم جرمه في الدنيا، قبل أن يجزيه جزاءه في الأخرى، فأُقسم باللَّه، لقد رأيته بعيني رأسي، بعد بضع سنين، وبعد أن كان متعاليًا متنفّخًا، مستعزًا بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء، رأيته مهينًا ذليلاً، خادمًا على باب مسجد من مساجد القاهرة يتلقّى نعال المصلين يحفظها في ذلة وصغار»[1] .

* الشيخ الجليل محمد الخضر حسين شيخ الأزهر:

قال الشيخ محمد عبداللَّه السمّان:ـ

«كان الشيخ الجليل «محمد الخضر حسين» ـ وكنت على صلة وثيقة به في جمعيته «الهداية الإسلامية التي كان يرأسها، وكان الشيخ بسيوني مديرًا لمكتبه. . قال لي الشيخ بسيوني ـ رحمه اللَّه ـ: إن الشيخ إثر تولّيه المشيخة كتب «استقالة» غير مؤرخة من صورتين احتفظ بإحداهما في مكتبه، وأعطاني الأخرى قائلاً لي: إذا رأيتني ضعيفًا في موقف من المواقف فابعث بالصورة التي معك إلى المسئولين نيابة عني. . وهذه مسئوليتك أمام اللَّه.

وفي عام ١٩٥٣م حدث اعتداء فرنسا على سلطان المغرب محمد الخامس لمواقفه الوطنية، وأُبعد عن بلاده، لكن بعض القبائل العميلة

(١) «كلمه الحق» للشيخ أحمد محمد شاكر ص(١٤٩ ـ ١٥٣) ـ مكتبة السنة.

للاستعمار الفرنسي آزرت المعتدي، وعقد الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين جلسة لهيئة كبار العلماء وأصدر بيانًا شديد اللهجة ضد عدوان فرنسا على السلطان الشرعي، واعتبر البيان أن العملاء الخونة خارجون عن الإسلام لموالاتهم للعدو الكافر المغتصب!! وأرسل البيان إلى جريدة الأهرام التي عُرفت بولائها لكل حكومة وعرضته على المسئولين الذين طلبوا إرجاء نشره، في الصباح لم يجد الشيخ بيان هيئة كبار العلماء منشورًا في الجريدة، فأرفق مع استقالته صورة من البيان وأرسلها إلى رئيس الجمهورية.. وكان أن نُشر البيان كاملاً في اليوم التالي تجنّبًا لمصادمات قد تحدث مع الأزهر شيوخًا وطلابًا حين تُشاع الاستقالة.

ورحل هؤلاء الشيوخ العظام.. الذين لم تخلّدهم الكراسي التي كانوا يجلسون عليها، وإنما خلّدتهم مواقفهم، واعتزازهم كورثة للأنبياء»[1].

❑ وكتب الشيخ محمد فهمي عبدالوهاب في كتابه الطيب «كتمان الحق» ص(٩٢): «لقد كان فقيد الإسلام والمسلمين فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين شيخًا للأزهر فجدّد ـ وهو المسنّ الهرم ـ للأزهر بعض شبابه، وبثّ فيه رُوحًا من كرامة النفس وكرامة العلم، وكرامة العلماء!!

فلقد حدث أن استدعاه وزير من وزراء الدولة، ولكن فضيلته أبى وقال: لا يملك دعوتي إلى مكتبه إلا رئيس الدولة!!

وليس ذلك بعجيب من عالم صادق، بذل حياته كلها للجهاد في سبيل الحق، واستمرأ النكال والتعذيب من أجل إيمانه.. وحكم عليه بالإعدام في بلده فهاجر من بلد إلى بلد.. تاركًا خلفه مفاتن الدنيا يزيّنها له الغاصبون الظالمون.. وهو يدعّم لأمته كرامة الدين والوطن!! ومن ثم رأينا كيف يذهب

(١) «عفوًا يا فضيلة الإمام الأكبر» لمحمد عبدالله السمّان ص(٤٦ ـ ٤٧) ـ طبع دار الاعتصام.

الوزير المذكور إلى مكتب فضيلته في اليوم التالي معتذرًا!! أجل.. إن المسألة هنا كانت كرامة نفس، وكرامة دين في وقت واحد.

قال ـ رحمه اللَّه ـ: «سار أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعد النبي ﷺ بسيرة القرآن فلم تشغله مقاليد الخلافة في يده أن يقوم خطيبًا على ملأ من الناس المسلمين بقوله: «أيها الناس قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والقويّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق إن شاء اللَّه تعالى»، ثم قال: «أطيعوني ما أطعت اللَّه ورسوله فإذا عصيت اللَّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم»، فعيّن بهاته الخطبة للحكومة الإسلامية مركزًا ثابتًا تدير عليه أمور سلطتها وذلك قوله: «أطيعوني ما أطعت اللَّه ورسوله، فإذا عصيت اللَّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم»، وفتح في وجوه الرّعية فرجًا يرددون منها أنفاس الحرية مع أولي الأمر، وأمر بالإنكار والمعارضة عندما تنحرف تلك السلطة عن مركزها يمينًا أو شمالاً وذلك قوله: «وإن أسأت فقوّموني»[1].

*** الحرية في خطاب الأمراء:**

قال ـ رحمه اللَّه ـ: «من صعّد نظره في عصر الخلفاء الراشدين يجد السبب الذي ارتقى بالإسلام وانسجم به في سبيل المدنية هو ما انعقد بين الدين والخلافة من الاتحاد والوفاق، ومن ضرب بنظره فيما يشاء من الدول التي حمي فيها وطيس الاستبداد يجد المحرّك لتلك الريح السموم والعيثر المشئوم ما اعترض بين هاتين السلطتين من الاختلاف.

كان موضع العناية ومحل القصد من الإمارة في نظر أولئك الخلفاء

(١) «الحرية في الإسلام» للشيخ محمد الخضر حسين ص(٢٩) ـ دار الاعتصام.

ومن حذا حذوهم كعمر بن عبدالعزيز هو خدمة الدين الذي هو خادم للعدالة التي هي خادمة لصلاح العالم قال الشيخ قبادو التونسي:

وما الجاه إلا خادم الملك لائذاً وما المُلك إلا خادم الشرع حزمهُ
وما الشرع إلا خادم الحق مرشدا وبالحق قام الكون وانزاح ظلمهُ

ولمّا انطوت أحشاؤهم على هذا المقصد الجميل أطلقوا سراح الرّعية في أمرهم بالمعروف وإحضارهم النصيحة مثل ما سبق في خطبة أبي بكر الصديق ﷺ وكقول عمر بن الخطاب ﷺ: «أعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف وإحضاري النصيحة وأعينوني على أنفسكم بالطاعة»، وكانوا يوسعون صدورهم للمقالات التي توجه إليهم على وجه النصيحة والتعريض بخطأ الاجتهاد، وإن كانت حادة اللهجة قارضة العبارة.

عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد ﷺ وكان أميرًا على قنسرين، ولم يجد عمر بدًّا من الاعتذار عن ذلك بمحضر ملإٍ من المسلمين حذرًا مما عسى أن يقدح في بعض الظنون، فقام وخطب خطبةً في شأن العطاء وألقى في آخرها بالمعذرة فقال: وإني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد فإني أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته منه، وأمرت أبا عبيدة بن الجراح. فقام أبو عمر بن حفص وكان ابن عم عمر لخالد ـ فقال: واللَّه ما اعتذرت يا عمر، ولقد نزعت عاملاً استعمله رسول اللَّه ﷺ إلى أن قال: وقطعت رحمًا وحسدت ابن العم. فقال عمر ﷺ: «إنك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك». ولم يزد على أن التمس لمناقشته وجهًا وردّه ردًّا ليّنًا.

وأخيرًا قدم خالد بن الوليد إلى عمر ﷺ، وحصحص الحق أنه نقيّ الراحة بري العهدة مما ظُنَّ به وبذلك كتب عمر إلى الأمصار.

ثم خلف من بعد أولئك خلف عرفوا أن فطرة الدين وطبيعته لا تتحمّل

شهواتهم العريضة وألفوا بلاط الملك فسيح الأرجاء بعيد ما بين المناكب ولكنه لا يساعفهم على أغراضهم وتتبّع خطواتهم ما دامت أوصاله ملتحمة بالإرادة الدينية، ولم يهتدوا حيلة إلى فارق بينهما سوى أن يسدّوا منافس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون دعاة الإصلاح، وابتكروا ضروبًا من الخسف وأفانين من الإرهاق كانوا يهجمون بها على الناس هجوم الليل إذا يغشى، وإذا سمعوا مناديًا ينادي ليحق الحق ويُبطل الباطل كلموه بألسنة السيوف.

❑ ولما أبق الملك من حضانة الدين وخفقت عليه راية الاستبداد خالط الأفئدة رعب وأوجال كأنما مُزِجَتْ بطينتها، فبعد أن كان راعي الغنم يفد من البادية وعصاه على عاتقه فيخاطب أمير المومنين بيا أبا بكر ويا عمر ويا عثمان، ويتصرف معه في أساليب الخطاب بقرارة جأش وطلاقة لسان وسكينة في الأعضاء أصبح سيد قومه يقف بين يدي أحد الكبراء في دولة الحجاج فينتفض فؤاده رعبًا ويتلجلج لسانه رهبةً وترتعد فرائصه وجلاً يخشى أن يكون فريسة لبوادر الاستبداد.

ولا نجهل أن القرون السالفة تمخضت فولدت رجالاً تمتلئ أفئدتهم غيرة على الحق والعدالة، فصغرت في أعينهم أبّهة الملك وازدروا بما يكتنفها من أدوات الاستبداد فجاهروا بالنصيحة المرّة وحفّفوا من ويلات المنكر نصيبًا وافرًا كالقاضي أبي الحسن منذر بن سعيد البلوطي المتوفى سنة ٣٥٥ وكنت تعرّضت إلى نبذة من سيرته في مجلة السعادة عدد ١٧، ومثل القاضي أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب الحوادث والبدع، ولكن هؤلاء الرجال لم يبلغوا النصاب الكافي لإصلاح شأن أمة عظيمة وما كانوا إلا أمثلة نادرة يضربها اللّه لدعاة الإصلاح لعلهم يتذكرون»[1].

(١) «الحرية في الإسلام» للشيخ محمد الخضر حسين ص(٦٧ ـ ٦٩).

وأصل هذا الكُتيّب محاضرة ألقاها الشيخ بنادي جمعية قدماء تلامذة الصادقية مساء يوم =

ونختم مواقف الشيخ العطرة بموقف عظيم، يوم جاءه موفد يساومه على دينه، فأجابه «قل للرئيس يكفيني من دنياكم كسرة خبز وكوب لبن وقد ضمنهما اللَّه لي. وهذه استقالي تحت تصرفكم»[1].

*** شيخ المحدثين بمصر أبو الأشبال أحمد محمد شاكر وصدعه بكلمة الحق:**

شهدته مجلة الهدي النبوي أسدًا يذبّ عن دينه في وقت صمت فيه الكل.. وصدع بكلمة الحق في مسائل صمت عنها الشجاع من الناس؛ وهدر بالكتاب والسنة وكان مثالاً للعالم العامل الذي لا يخشى في اللَّه لومة لائم، وكل مقالاته تدل على ذلك. وصان للقضاء الشرعي هيبته، فقد كان قاضيًا شرعيًا أكثر من ثلاثين سنة حتى توفي في يوم السبت ٢٦ من ذي القعدة سنة ١٣٧٧هـ.

*** كلمة الحق:**

انظر إليه للَّه دره وهو يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

ما أقلَّ ما قلنا (كلمة الحق) في مواقف الرجال. وما أكثر ما قصّرنا في ذلك، وإن لم يكن خوفًا فضعفًا، ونستغفر اللَّه، وأرى أن قد آن الأوانُ لنقولها ما استطعنا. كفَّارةً عما سَلَف من تقصير، وعما أسلفتُ من ذنوب، ليس لها إلا عفو اللَّه ورحمتهُ. والعمرُ يجري بنا سريعًا، والحياةُ توشك أن تبلغ منتهاها.

وأرى أن قد آن الأوانُ لنقولها ما استطعنا، وبلادُنا، بلادُ الإسلام،

= السبت ١٧ من ربيع الثاني سنة ١٣٢٤هـ وهو يومئذ القاضي بمدينة بنزرت.

(١) «علماء ومنكرون عرفتهم» لمحمد المجذوب (١/ ٣٧٦).

تنحدر في مجرى السَّيل، إلى هُوَّةٍ لا قَرار لها، هُوَّة الإلحاد والإباحية والانحلال. فإن لم نَقِفْ منهم موقف النذير، وإن لم نأخذ بحُجَزِهم عن النار، انحدرنا معهم، وأصابنا من عَقَابيل ذلك ما يصيبُهم، وكان علينا من الإثم أضعافُ ما حُمِّلوا.

* ذلك بأن اللَّه أخذ علينا الميثاقَ: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. وذلك بأن اللَّه ضرب لنا المثل بأشقى الأُمم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

* وذلك بأن اللَّه وصفنا ـ معشرَ المسلمين ـ بأننا خيرُ الأُمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فإن فقدنا ما جعلنا اللَّه به خيرَ الأُمم، كنا كمثل أشقاها، وليس من منزلةٍ هناك بينهما.

* وذلك بأن اللَّه يقول: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

● وذلك بأن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ألا لا يمنعنَّ أحدَكم رهبةُ الناسِ أن يقول بحقٍّ إذا رآه أو شَهِدَه، فإنه لا يُقرِّبُ مِنْ أَجَلٍ، ولا يُباعِدُ من رِزْقٍ، أَنْ يقولَ بحقٍّ، أو يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ**»[1].

● وذلك بأن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا يَحْقِرَنَّ أحدُكم نفسَه**»، قالوا: يا رسول اللَّه، كيف يحقر أحدُنا نفسَه؟ قال: «**يَرَى أَمرًا للَّه عليه فيه مقالٌ، ثم**

(١) رواه أحمد في «المسند» (١١٤٩٤) بإسناد صحيح.

لا يقولُ فيه، فيقول اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ له يومَ القيامة: ما مَنَعَكَ أن تقولَ فِيَّ كذا وكذا؟ فيقولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ، فيقُولُ: فَإِيَّايَ كنتَ أَحقَّ أَن تَخْشَى»[1].

▣ نريد أن نقول (كلمة الحق) في شئون المسلمين كلها. نريد أن ننافح عن الإسلام ما استطعنا، بالقول الفصل، والكلمة الصريحة، لا نخشى فيما نقول أحدًا إلا اللَّه. إذ نقول ما نقول في حدود ما أذن اللَّه لنا به، بل ما أوجب علينا أن نقوله، بهَدْيِ كتاب ربنا وسنة رسوله.

نريد أن نحارب الوثنية الحديثة والشِّرك الحديث، اللذين شاعا في بلادنا وفي أكثر بلاد الإسلام، تقليدًا لأُوربة الوثنية الملحدة، كما حارب سلفُنا الصالحُ الوثنيةَ القديمة والشرك القديم.

نريد أن ننافح عن القرآن، وقد اعتاد ناس أن يلعبوا بكتاب اللَّه بين أظهرنا، فمن متأولٍ لآياته غيرِ مؤمن به، يريد أن يَقسرَها عليه غير ما يدل على صريح اللفظ في كلام العرب، حتى يوافق ما آمن به، أو ما أُشربَتْه نفسه، من عقائد أوربة ووثنيتها وإلحادها، أو يُقَرِّبُهُ إلى عاداتهم وآدابهم ـ إن كانت لهم آداب ـ ليجعل الإسلام دينًا عصريًّا في نظره ونظر ساداته الذين ارتضعَ لِبَانَهم، أو رُبِّيَ في أحضانهم!!

ومن منكر لكل شيء من عالم الغيب، فلا يفتأُ يحاور ويداور، ليجعل عالم الغيب كله موافقًا لظواهر ما رأى من سنن الكون، إن كان يَرَى، أو على الأصح لما فهم أن أُوربة ترى!! نعم، لا بأس عليه ـ عنده ـ أن يؤمن بشيء مما وراء المادة، إن أثبته السادة الأُوربيون، ولو كان من خرافات استحضار الأرواح!!.

ومن جاهل لا يفقه في الإسلام شيئًا، ثم لا يستحي أن يتلاعب

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ٢٥٢) بإسناد صحيح.

بقراءات القرآن وألفاظه المعجزة السامية، فيكذِّب كلَّ الأئمة والحفاظ فيما حفظوا ورووا. تقليدًا لعصبية الإفرنج التي يريدون بها أن يهدموا هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليجعلوه مثل ما لديهم من كتب.

وهكذا مما نَرى وتَرَوْن.

نريد أن نحفظ أعراض المسلمين. وأن نحارب ما أحدث (النسوانُ) وأنصارُ (النسوان) من منكرات الإباحية والمجون والفجور والدعارة، هؤلاء (النسوان) اللائي ليس لهنَّ رجال، إلاَّ رجالاً (يُشْبِهْنَ) الرجال!! هذه الحركة النسائية الماجنة، التي يتزعمها المجددون وأشباه المجددين، والمخنثون من الرجال، والمترجلات من النساء، التي يهدمون بها كل خلق كريم، يتسابق أولئك وهؤلاء إلى الشهوات، وإلى الشهوات فقط.

نريد أن ندعو الصالحين من المؤمنين، والصالحات من المؤمنات: الذين بقي في نفوسهم الحِفاظُ والغيرة ومقوّماتُ الرجولة، واللائي بقي في نفوسهنَّ الحياء والعفة والتصوُّن ـ إلى العمل الجدِّيّ الحازم على إرجاع المرأة المسلمة إلى خدرها الإسلامي المصون، إلى حجابها الذي أمر اللَّه به ورسوله، طوعًا أو كَرهًا.

* نريد أن نثابر على ما دَعَونَا وندعو إليه من العودة إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله في قضائنا كله، في كل بلاد الإسلام، وهدم الطاغوت الإفرنجيّ الذي ضُرب على المسلمين في عقر دارهم في صورة قوانين، واللَّه تعالى يقول: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا**﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

* ثم يقول: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

❑ نريد أن نتحدث في السياسة، السياسة العليا للأُمم الإسلامية، التي تجعلهم (أُمةً واحدة)، كما وصفهم اللَّه في كتابه، نسمو بها على بدعة القوميات، وعلى أهواء الأحزاب. نريد أن نُبصِّر المسلمين وزعماءَهم بموقعهم من هذه الدنيا بين الأُمم، وتكالب الأُمم عليهم بغيًا وعدوًا، وعصبية وكراهية الإسلام أولاً وقبل كل شيء.

❑ نريد أن نعمل على تحرير عقول المسلمين وقلوبهم من روح التهتك والإباحية، ومن روح التمرد والإلحاد، وأن نريهم أثر ذلك في أُوربة وأمريكا، اللتين يقلدانهما تقليد القردة، وأن نريهم أثر ذلك في أنفسهم وأخلاقهم ودينهم.

❑ نريد أن نحارب النفاق والمجاملات الكاذبة، التي اصطنعها كتَّاب هذا العصر أو أكثرهم فيما يكتبون وينصحون! يظنون أنَّ هذا من حسن السياسة، ومن الدعوة إلى الحق «بالحكمة والموعظة الحسنة» اللتين أمر اللَّه بهما! وما كان هذا منهما قط، وإنما هو الضعف والاستخذاء والملق والحرص على عرض الحياة الدنيا.

❑ وما نريد بهذا أن نكون سفهاء أو شتَّامين أو منفِّرين. معاذ اللَّه، و«**لَيسَ المُؤمنُ بالطعَّانِ ولا اللَّعَّانِ، ولا الفَاحشِ ولا البَذِيء**» كما قال رسول اللَّه ﷺ[1]. ولكنا نريد أن نقول الحق واضحًا غير ملتوٍ، وأن نصف الأشياء بأوصافها الصحيحة، بأحسن عبارة نستطيعها، ولكنَّا نرىٰ بأنفسنا وبإخواننا، أن نصِفَ رجلاً يعلن عداءه للإسلام، أو يرفض شريعة اللَّه ورسوله ـ مثلاً ـ

(١) رواه الترمذي (٣/ ١٣٨) من شرح المباركفوري، وأحمد في «المسند» (٣٨٣٩، ٣٩٤٨).

بأنه «صديقنا»، واللَّه سبحانه نهانا عن ذلك نهيًا حازمًا في كتابه ونربأ بأنفسنا أن نضعف ونستخذي، فنصفَ أُمةً من الأُمم تضرب المسلمين بالحديد والنار، وتهتك أعراضهم وتنتهب أموالهم، بأنها أُمة «صديقة» أو بأنها أُمة «الحرية والنور»، إذا كان من فعلها مع إخواننا أنها أُمة «الاستعباد والنار»! وأمثال ذلك مما يرى القارئ ويسمع كل يوم، من علمائنا ـ نعم من علمائنا ـ ومن كبرائنا وزعمائنا ووزرائنا! واللَّه المستعان.

❑ نريد أن نمهد للمسلمين سبيل العزة التي جعلها اللَّه لهم ومن حقهم إذا اتصفوا بما وصفهم به: أن يكونوا «مؤمنين». نريد أن نوقظهم وندعوهم إلى دينهم بهذا الصوت الضعيف، صوت مجلتنا[1] هذه المتواضعة. ولكننا نرجو أن يدوّيَ هذا الصوت الضعيف يومًا ما، فيملأ العالم الإسلامي، ويبلغ أطراف الأرض، بما اعتزمنا من نية صادقة، نرجو أن تكون خالصةً للَّه وحده، جهادًا في سبيل اللَّه. إن شاء اللَّه.

فإن عجزنا أو ذهبنا، فلن يعدم الإسلام رجلاً أو رجالاً خيرًا منَّا، يرفعون هذا اللواء، فلا يزال خفاقًا إلى السماء، بإذن اللَّه...

*** قوله عن الإنجليز أثناء احتلالهم لمصر قبل طردهم نهائيًّا من مصر:**

❑ قال رحمه اللَّه:

بَيَانٌ إلى الأُمَّة المصريَّة خَاصَّةً، وإلى الأُمَمِ العَرَبيَّة والإسلاميَّة عَامَّةً:

أما وقد استبان الأمر بيننا وبين أعدائنا من الإنجليز وأحلافهم، استبان

(١) نشرت هذه المقالات في مجلة الهدي النبوي المجلد الخامس عشر والسادس عشر وقت أن كان العلامة الشيخ أحمد شاكر رئيسًا لتحريرها وكانت تُنشر تحت عنوان «كلمة الحق».

لأبناء الأعداء منَّا، الذين ارتضعوا لبانهم، ولعبيد الأعداء منَّا، الذين أسلموا إليهم عقولهم ومقادهم. ولم نكن نحن الذين نشأنا على الفطرة الإسلامية الصحيحة في شك من توقع ما كان، ومن توقّع أشدّ منه مما سيكون!

أمّا وقد استبان الأمر، أمّا وقد أعلنت الأمة المصرية كلُّها رأيها وإرادتها، أمّا وقد أعلن الأزهر رأيه الصحيح في معاملة الأعداء ونصرتهم:-

فإن الواجب أن يعرف المسلمون القواعد الصحيحة في شرعة اللَّه، في أحكام القتال وما يتعلق به، معرفة واضحة يستطيع معها كل واحد تقريبًا أن يفرق بين العدوّ وغير العدوّ، وأن يعرف ما يجوز له في القتال وما لا يجوز، وما يجب عليه وما يحرم. حتى يكون عمل المسلم في الجهاد عملاً صحيحًا سليمًا، خالصًا لوجه اللَّه وحده، إن انتصر انتصر مسلمًا، له أجر المجاهد في الدنيا والآخرة، وإن قُتل قُتل شهيدًا.

إن الإنجليز أعلنوها على المسلمين في مصر حربًا سافرًا غادرةً، حرب عدوان واستعلاء، وأعلنوها على المسلمين في السودان حربًا مقنَّعةً مغلَّفة بغلاف المصلحة للسودان وأهله، مزوّقةً بحلية الحكم الذاتي الذي خدع به المصريون من قبل.

وقد رأينا ما يصنع الإنجليز في منطقة قناة السويس وما يقاربها من البلاد، من قتل المدنيين الآمنين، والغدر بالنساء والأطفال، والعدوان على رجال الأمن ورجال القضاء، حتى لا يكاد ينجو من عدوانهم صغير أو كبير.

فأعلنوا بذلك عداءهم صريحًا واضحًا، لا لبس فيه ولا مجاملة ولا مداورة. فصارت بذلك دماؤهم وأموالهم حلالاً للمسلمين. يجب على كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يحاربهم وأن يقتلهم حيثما وُجدوا - مدنيين كانوا أو عسكريين. فكلهم عدوّ، وكلهم محارب مقاتل. وقد استمرءوا الغدر والعدوان، حتى إن نساءهم وفتيانهم ليطلقون النار من النوافذ

والشرفات، في الإسماعيلية والسويس وبورسعيد، على المارين المسالمين، دون خجل أو حياء. وهم قوم جبناء، يفرون حيث يجدون القوي المناضل، يستأسدون حيث يجدون الرِّخوَ المُستضعَف. فلا يجوز لمسلم أن يُستضعَفَ أمامهم أو يريهم جانب اللين والعفو ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾.

ولقد نهانا رسول اللَّه ﷺ عن قتل النساء في الحرب. وهو نهى معلل بعلة واضحة صريحة: أنهن غير مقاتلات. فقد مرّ رسول اللَّه ﷺ في بعض غزواته على امرأة مقتولة، فقال: «**ما كانت هذه لتقاتل**» ثم نهى عن قتل النساء.

أمّا الآن، ونساؤهم مجنَّدات، يحاربن مع الرجال جنبًا إلى جنب، وغير المجنَّدات منهن مسترجلات، يطلقن النار على المسلمين دون زاجر أو رادع، فإن قتلهن حلال، بل واجب، للدفاع عن الدين والنفس والبلد. إلا أن تكون امرأة ضعيفة لا تستطيع شيئًا.

وكذلك الحال مع الصبيان دون البلوغ، والشيوخ الهالكين الضعفاء: من قاتل منهم أو اعتدى قُتل، ومن لم يفعل فلا يعرضنَّ أحد له بسوء، إلا أن يؤخذوا هم والنساء أسرى. وسنذكر حكم الأسرى، إن شاء اللَّه.

وقد قلنا: «يجب على كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يحاربهم وأن يقتلهم حيثما وجدوا، مدنيين أو عسكريين»، ونحن نقصد إلى كل حرف من معنى هذه الجملة. فأينما كان المسلم، ومن أي جنس كان من الأجناس والأُمم، وجب عليه ما يجب علينا في مصر والسودان. حتى المسلمين من الإنجليز في بلادهم ـ إن كانوا مسلمين حقًّا ـ يجب عليهم ما يجب على المسلمين من غيرهم ما استطاعوا. فإن لم يستطيعوا وجبت عليهم الهجرة من بلاد الأعداء، أو من البلاد التي لا يستطيعون فيها حرب العدو بما

أمرهم اللَّه.

فإن الإسلام جنسية واحدة ـ بتعبير هذا العصر ـ وهو يلغي الفوارق الجنسية والقومية بين متبعيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، والأدلة على ذلك متواترة متضافرة، وهو شيء معلوم من الدين بالضرورة، لا يشك فيه أحد من المسلمين، بل إن الإفرنج ليعرفون هذا معرفة اليقين. ولم يتشكك فيه إلا الذين رباهم الإفرنج منَّا واصطنعوهم لأنفسهم حربًا على دينهم وعلى أُمتهم، من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٨].

فلم يستثن اللَّه من وجوب الهجرة على كل مسلم في بلاد أعداء اللَّه إلا الضعفاء ضعفًا حقيقيًّا، لا يعرفون ما يصنعون، ولا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا.

* لم يقبل اللَّه عذرًا من أحد، بمال ولا ولد، ولا مصالح ولا علاقات: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فسرد اللَّه جميع الأعذار والتعلات التي ينتحلها المترددون المتخاذلون، ثم رفضها كلها، لم يقبل منها عذرًا ولا تعلَّة.

فليسمع هذا وليضعه نصب عينيه كل مسلم في مصر والسودان، والهند وباكستان، وكل بلد يحكمه الإنجليز الأعداء، أو يدخل في نطاق نفوذهم، من سائر أقطار الأرض، ومن أي جنس أو لونٍ كانوا.

أما التعاون مع الإنجليز، بأي نوع من أنواع التعاون، قلَّ أو كثر، فهو الردّة الجامحة، والكفر الصُّراح. لا يقبل فيه اعتذار، ولا ينفع معه تأول، ولا ينجي من حكمه عصبية حمقاء، ولا سياسة خرقاء، ولا مجاملة هي النفاق. سواء أكان ذلك من أفراد أو حكومات أو زعماء. كلهم في الكفر والردة سواء. إلا من جهل وأخطأ، ثم استدرك أمره فتاب واتخذ سبيل المؤمنين؛ فأُولئك عسى اللَّه أن يتوب عليهم. إن أخلصوا من قلوبهم للَّه، لا لسياسة ولا للناس.

وأظنني قد استطعت الإبانة عن حكم قتال الإنجليز وعن حكم التعاون معهم بأي لون من ألوان التعاون أو المعاملة، حتى يستطيع أن يفقهه كل مسلم يقرأ العربية، من أي طبقات الناس كان، وفي أي بقعة من الأرض يكون.

وأظن أن كل قارئ لا يشك الآن، في أنه من البديهي الذي لا يحتاج إلى بيان أو دليل: أن شأن الفرنسيين في هذا المعنى شأن الإنجليز، بالنسبة لكل مسلم على وجه الأرض. فإن عداء الفرنسيين للمسلمين، وعصبيتهم الجامحة في العمل على محو الإسلام، وعلى حرب الإسلام، أضعاف عصبية الإنجليز وعدائهم. بل هم حمقى في العصبية والعداء، وهم يقتلون إخواننا المسلمين في كل بلد إسلامي لهم فيه حكم أو نفوذ، ويرتكبون من الجرائم والفظائع ما تصغر معه جرائم الإنجليز ووحشيتهم وتتضاءل. فهم والإنجليز في الحكم سواء: دماؤهم وأموالهم حلال في كل مكان، ولا يجوز لمسلم في أي بقعة من بقاع الأرض أن يتعاون معهم بأي نوع من أنواع التعاون، وإن التعاون معهم حكمه حكم التعاون مع الإنجليز: الردة والخروج

من الإسلام جملة، أيًّا كان لون المتعاون معهم أو نوعه أو جنسه.

وما كنت يومًا بالأحمق ولا بالغِرِّ، فأظن أن الحكومات في البلاد الإسلامية ستستجيب لحكم الإسلام، فتقطع العلاقات السياسية أو الثقافية أو الاقتصادية مع الإنجليز أو مع الفرنسيين.

ولكني أُريد أن أبصر المسلمين بمواقع أقدامهم، وبما أمرهم اللَّه به، وبما أعدَّ لهم من ذل في الدنيا وعذاب في الآخرة، إذا أعطوا مقاد أنفسهم وعقولهم لأعداء اللَّه.

وأُريد أن أعرفهم حكم اللَّه في هذا التعاون مع أعدائهم، الذين استذلوهم وحاربوهم في دينهم وفي بلادهم. وأُريد أن أعرفهم عواقب هذه الردة التي يتمرغ في حمأتها كل من أصرّ على التعاون مع الأعداء.

ألا فليعلم كل مسلم في أي بقعة من بقاع الأرض: أنه إذ تعاون مع أعداء الإسلام مُستَعبِدِي المسلمين، من الإنجليز والفرنسيين وأحلافهم وأشباههم، بأيِّ نوع من أنواع التعاون، أو سالمهم فلم يحاربهم بما استطاع، فضلاً عن أن ينصرهم بالقول أو العمل على إخوانهم في الدين، إنه إن فعل شيئًا من ذلك ثم صلى فصلاتهُ باطلة، أو تطهر بوضوء أو غُسل أو تيمُّم فطُهوره باطل، أو صام فرضًا أو نفلاً فصومه باطل، أو حَجَّ فحجُّه باطل، أو أدى زكاةً مفروضة، أو أخرج صدقة تطوعًا، فزكاتُه باطلة مردودة عليه، أو تعبد لربه بأيّ عبادة فعبادتُه باطلة مردودة عليه، ليس له في شيء من ذلك أجر، بل عليه فيه الإثم والوِزر.

ألا فليعلم كل مسلم: أنه إذا ركب هذا المركب الدنيء فقد حبِطَ عملُهُ، من كل عبادَةٍ تعبد بها لربه قبل أن يرتكس في حمأة هذه الردَّة التي رضي لنفسه، ومعاذ اللَّه أن يرضى بها مسلمٌ حقيقٌ بهذا الوصف العظيم، يؤمن باللَّه وبرسوله.

ذلك بأن الإيمان شرط في صحة كل عبادة، وفي قبولها، كما هو بديهي معلومٌ من الدين بالضرورة، لا يخالف فيه أحد من المسلمين.

* وذلك بأن اللَّه سبحانه يقول: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

* وذلك بأن اللَّه سبحانه يقول: ﴿وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

* وذلك بأنَّه تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥١-٥٣].

* وذلك بأن اللَّه سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ

وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٥ - ٣٥].

ألا فليعلم كل مسلم وكل مسلمة أن هؤلاء الذين يخرجون على دينهم ويناصرون أعداءهم، من تزوّج منهم فزواجه باطل بطلانًا أصليًّا، لا يلحقه تصحيح، ولا يترتب عليه أيّ أثر من آثار النكاح من ثبوت نسب وميراث وغير ذلك. وأن من كان منهم متزوجًا بطل زواجه كذلك، وأن من تاب منهم ورجع إلى ربه وإلى دينه، وحارب عدوه ونصر أُمته، لم تكن المرأة التي تزوج حال الردة ولم تكن المرأة التي ارتدّ وهي في عقد نكاحه -: زوجًا له، ولا هي في عصمته، وأنه يجب عليه بعد التوبة أن يستأنف زواجه بها، فيعقد عليها عقدًا صحيحًا شرعيًّا. كما هو بديهي واضح.

ألا فليحتطِ النساءُ المسلماتُ، في أي بقعة من بقاع الأرض، وليتوثّقْن قبل الزواج من أن الذين يتقدمون لنكاحهنّ ليسوا من هذه الفئة المنبوذة الخارجة عن الدين، حِيطةً لأنفسهنّ ولأعراضهن، أن يعاشرن رجالاً يظنونهنّ أزواجًا وليسوا بأزواج، بأن زواجَهم باطل في دين اللَّه.

ألاَ فليعلم النساءُ المسلماتُ، اللائي ابتلاهنّ اللَّه بأزواج ارتكَسُوا في حَمْأة هذه الرِدّة، أن قد بَطل نكاحهنَّ، وصِرْن محرَّمات على هؤلاء الرجال، ليسوا لهنّ بأزواج، حتى يتوبوا توبةً صحيحة عملية، ثم يتزوجوهنَّ زواجًا جديدًا صحيحًا.

ألا فليعلم النساء المسلماتُ، أنَّ من رضيت منهنّ بالزواج من رجل هذه

حالُه، وهي تعلم حاله، أو رضيت بالبقاء مع زوج تعرف فيه هذه الردّة -: فإن حكمها وحكمه في الردّة سواء.

ومعاذ اللَّه أن تَرْضى النساءُ المسلمات لأنفسهن ولأعراضهنّ ولأنساب أولادهن ولدينهنّ شيئًا من هذا.

ألا إن الأمر جِدٌّ ليس بالهزل، وما يغني فيه قانون يصدر بعقوبة المتعاونين مع الأعداء. فما أكثر الحيل للخروج من نصوص القوانين، وما أكثر الطرق لتبرئة المجرمين، بالشبهة المصطنعة، وباللَّحن في الحجة.

ولكنّ الأُمة مسئولة عن إقامة دينها، والعملِ على نصرته في كل وقت وحين. والأفرادُ مسئولون بين يدي اللَّه يوم القيامة عما تجترحه أيديهم، وعما تنطوي عليه قلوبهم.

فلينظر كل امرئ لنفسه، وليكن سياجًا لدينه من عبث العابثين وخيانة الخائنين.

وكل مسلم إنما هو على ثغر من ثغور الإسلام، فليَحْذَرْ أن يؤتَى الإسلامُ من قِبلَه.

وإنما النصر من عند اللَّه، ولَيَنْصُرنَّ اللَّه من ينصُره.

*** الشيخ أحمد شاكر وعبدالعزيز فهمي باشا:**

❑ قال عنه الشيخ شاكر: «هذا الرجل الذي أُشرب في قلبه قوانين الإفرنج حتى لا يسع غيرها، لم يكد يمسك القلم حتى خلق فرصة، لا أدري كيف خلقها، لإبراز ما يحمل قلبه من ضغن على التشريع الإسلامي، ولتقديس قوانين الإفرنج والإشادة بها وللذود عنها».

يقول: «وقد بدأ معالي الباشا استدلاله بكلمة منكرة «أن الدين للَّه، وأما سياسة الإنسان فللإنسان» وما هذه الكلمة إلا تحريف أو تحوير لكلمة

ليست إسلامية، وليست عربية، كلمة فيها خنوع وخور واستسلام لاستبداد القياصرة، لا يرضاها مسلم ولا يرضاها عربي.

❑ نعم: إن الدين كله للَّه، وإن الأمر كله للَّه، ولكن هذا الرجل والذين يظاهرونه يريدون أن يفهموا الدين على غير ما يعرف المسلمون، وعلى غير ما أنزل اللَّه في القرآن، وعلى لسان الرسول ﷺ. يريدون أن ينفثوا في روع الأغرار والجاهلين أن الدين هو العقائد والعبادات فقط، وأن ما سواهما من التشريع ليس من أمر الدين، عدواً منهم وبغْيًا، واستكباراً وعُتوًّا على المسلمين، بل جهلاً وعجزًا، ثم استكانة وذلاً للسادة الأوربيين «ذوي العقول الجبارة»!!.

❑ ولطالما سمعنا اعتذار المسرفين على أنفسهم، ممن يأبوْن العود بالأمة إلى تشريعها الإسلامي، ولطالما جادلناهم، فما رأينا أحدًا منهم أجرأ على اللَّه وعلى الدين من هذا الباحث العلاّمة!.

ما زعم لنا واحد منهم قط «أن الدين للَّه، وأما سياسة الإنسان فللإنسان» وأن «الحاكم في الإسلام عليه أن يسوس الناس على ما يحقق مصالحهم، مؤسسًا عمله على الحق والعدل، على أن لا يمسّ العقائد وفرائض العبادات»؛ لأن معنى هذا الكلام الخروج بالإسلام عن حقيقته، وجعله دين عبادة فقط، وإنكار ما في القرآن والسنة الصحيحة من الأحكام في كل شئون الإنسان.

والقرآن مملوء بأحكام وقواعد جليلة، في المسائل المدنية والتجارية، وأحكام الحرب والسلم، وأحكام القتال والغنائم والأسرى، وبنصوص صريحة في الحدود والقصاص.

فمن زعم أنه دين عبادة فقط فقد أنكر كل هذا، وأعظم على اللَّه الفرية، وظن أن لشخص كائنًا من كان، أو لهيئة كائنة من كانت، أن تنسخ

ما أوجب اللَّه من طاعته والعمل بأحكامه. وما قال هذا مسلم قط ولا يقول، ومن قاله فقد خرج من الإسلام جملة ورفضه كله، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

❑ ثم يقول الشيخ أحمد شاكر: «أعجب ما في الأمر أن يسأل معالي الباشا السيد محب الدين الخطيب «هل يرى في تلك النظم والقوانين ما يخالف شيئًا من عقائد المسلمين أو يعطّل فرضًا من فرائض الدين؟» وسأجيبه أنا جوابًا حاسمًا:ـ

«نعم، إن القوانين الإفرنجية والنظم الأوربية، فيها كثير مما يخالف عقائد المسلمين، وفيها تعطيل لكثير من فروض الدين.

❑ فيها إباحة الخمور علنًا، والترخيص رسميًّا ببيعها، بتصريح كتابي يوقّع عليه وزير من وزراء الدولة أو موظف كبير من موظفيها. بل إن فريقًا من رجال الدولة الكبار لا يخجلون أن تدار عليهم الخمور في حفلات رسمية، ينفق عليها من أموال الدولة، بحجة أن هذا إكرام لمدعوّيهم من الأجانب، أو بما شئت من حجج تجرّدت من الحياء، حتى إن الدهماء ومن يسمونهم بسمة «الطبقة الراقية» اقتدوا بساداتهم وكبرائهم، واستغلوا هذه القوانين فيما يُذهب عقولهم ويذيب أموالهم، فانحطُّوا إلى الدرك الأسفل.

وفيها إباحة الميسر بكل أنواعه بشروط ورخص وضعوها.

فخربت البيوت، واختلت الأعصاب والعقول مما هو مشاهد، يعجز قلمي عن وصفه.

❑ وفيها إباحة الفجور بطرق عجيبة من حماية الفجّار من الرجال والنساء من سلطان الآباء والأولياء، بحجة حماية الحرية الشخصية، ثم ما في الحانات والمواخير، ثم اختلاط الرجال والنساء، ثم المصايف وما فيها من البلاء، ثم هذه المراقص العامة والخاصة، بل المراقص التي تُنفِق عليها الدولة

في الحفلات والتمثيل اقتداءً بالسادة الأوربيين «ذوي العقول الجبّارة التي كشفت الكهرباء والراديو ومعجزات الطيران»!.

❑ وفيها إبطال الحدود التي نزل بها القرآن كلها مسايرةً لروح التطور العصري، واتباعًا لمبادئ التشريع الحديث! وتَبًّا لهذا التشريع الحديث وسحقًا.

❑ وفيها إهدار الدماء في القتلى، باشتراط شروط لم ينزل بها كتاب ولا سنة، في الحكم بالقصاص، مثل شرط سبق الإصرار مع العمد الموجب وحده للقصاص في شرعة الإسلام.

ومثل البحث فيما يسمونه «الظروف المخففة» و«درس نفسيّة الجاني وظروفه» ومثل جعل حق العفو للدولة، لا لوليّ الدم الذي جعل اللَّه له وحده حق العفو بنص القرآن، فأهدرت الدماء، وفشا القتل للثأر، حتى لا رادع، والأمة والحكومة والصحف وغيرها تتساءل عن علة ازدياد جرائم القتل، والعلة في هذه القوانين التي خالفت العرف والدين. إلى غير ذلك مما لا نستطيع أن نحصيه في هذه الكلمة وكل هذه الأشياء وأمثالها تحليل لما حرَّم اللَّه، واستهانة بحدود اللَّه، وانفلات من الإسلام، وكلها حرب على عقائد المسلمين، وكلها تعطيل لفروض الدين.

❑ ثم قال الشيخ أحمد شاكر: «ولسنا ننعَى على هذه القوانين كل جزئية فيها، بالضرورة، ففيها فروع في مسائل مفصّلة، تدخل تحت القواعد العامة في الكتاب والسنة، ولكنا ننكر المصدر الذي أُخذت منه، وهو مصدر لا يجوز لمسلم أن يجعله إمامًا في التشريع، وقد أُمِر أن يتحاكم إلى اللَّه ورسوله. فالكتاب والسنة وحدهما هما الإمام، نستنبط منهما وفي حدودهما ما يوافق كل عصر وكل مكان، مسترشدين بالعقل وقواعد العدل. ولكنا نسخط على الروح الذي يُملي هذه القوانين ويوحي بها، روح الإلحاد والتمرّد

على الإسلام، في كثير من المسائل الخطيرة، والقواعد الأساسية فلا يُبالى واضعوها أن يخرجوا على القرآن، وعلى البديهي من قواعد الإسلام، وأن يصبغوها صبغة أوربية، مسيحية أو وثنية، إذا ما أرضَوْا عنهم أعداءهم، ونالوا ثناءهم، ولم يخرجوا على مبادئ التشريع الحديث!!

وهم في نظر الشرع، مخطئون إذا ما أصابوا، مجرمون إذا ما أخطئوا. أصابوا عن غير طريق الصواب، إذْ لم يضعوا الكتاب والسنة نصب أعينهم، بل أعرضوا عنهما ابتغاء مرضاة غير اللَّه، جهلوهما جهلاً عجيبًا، وأخطئوا عامدين أن يُخالفوا ما أمرهم به ربهم، ساخطين إذ ما دُعُوا إلى اللَّه ورسوله ليحكم بينهم.

❑ ثم قال الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه اللَّه ـ:

«والفرية الكبرى أن يرمي معالي الباشا فقهاءنا وأئمتنا السابقين بما يخرجهم من الدين! فإنه سأل محب الدين:ـ

«هل يحسبُ أن فقهاءنا الأكرمين، لو كان اللَّه مدّ في أجلهم إلى اليوم، كانوا يأخذون في سياستنا بغير الموجود الآن من القوانين؟».

ونحن نجيبه الجواب الحاسم الصحيح: أن سلفنا الصالح لو مدّ اللَّه في أجلهم إلى اليوم، ما رضُوا عن هذه القوانين، وما خنعوا لها وما استكانوا بل ما جرؤ أحد أن يفكّر في وضعها لبلاد المسلمين، وليس الذي ينفي عنهم عار هذه السبّة هو الذي يكذب عليهم علنًا، وهم أجلّ في أنفسهم وفي نفوس المسلمين من أن يصدق عليهم ما رماهم به معاليه، ومن ظن بهم غير ذلك، فقد جهل العلم والدين، وأنكر التاريخ، أو قال غير الحق، زراية بهم وإسرافًا عليهم، وهو يعلم أن الحق غير ما قال.

ثم قال له: إن الرجل الحازم يعرف كيف يرجع إلى الحق علنًا، كما حاد عنه علنًا، فإن أبيْت فلا تنس بيت بشر ابن أبي حازم:

ولا يُنجي من الغَمَرات إلا بُرَاكاء القتال أو الفرار

*** أسطورة وجود شيء في الإسلام يُدْعى «رجال الدين»:**

قال الشيخ أحمد شاكر: «لطالما حاولت نقض هذه الأسطورة، أسطورة وجود شيء في الإسلام يُدعى «رجال الدين»!! من ذلك ما قلته في محاضرة أعددتها لأُلقيها يوم ٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ (٣ أبريل سنة ١٩٤١) ومنعني من إلقائها الوزير القائم على الأحكام العرفية الإنجليزية إذ ذاك، وهو حسين سرّي باشا رئيس الوزراء. وكان مما قلتُ فيها عن آثار القوانين الإفرنجية في نفوس متعلميها:ـ

«كان لها أثر بيّن بارز في التعليم، فقسّمت المتعلمين المثقفين منا قسمين، أو جعلتهم معسكريْن: فالذين عُلِّموا تعليمًا مدنيًّا، ورُبُّوا تربية أجنبية، يعظمون هذه القوانين وينتصرون لها ولما وضعت من نظم ومبادئ وقواعد، يرون أنهم أهل العلم والمعرفة والتقدم وكثير منهم يُسرف في العصبية لها، والإنكار لما خالفها من شريعته الإسلامية، حتى ما كان منصوصًا محكمًا قطعيًّا في القرآن، وحتى بديهيات الإسلام المعلومة من الدين بالضرورة، ويزدري الفريق الآخر ويستضعفهم، واخترعوا له اسمًا اقتبسوه مما رأوا أو سمعوا في أوربة المسيحية، فسمّوهم «رجال الدين» وليس في الإسلام شيء يُسمّى «رجال الدين» بل كل مسلم يجب عليه أن يكون رجل الدين والدنيا»[1].

*** الشيخ شاكر قذى في أعين الملاحدة:**

كان الشيخ أحمد شاكر مجاهدًا طوال حياته ضد الحركة النسوية خاصة، وضد مهاجمي الإسلام والمتلاعبين به عامة.. كان قذى في أعين لا ندري كيف تبصر وشجى في حلق جمعيات التبشير وصحف الدعاية.

(١) هذه المحاضرة الممنوعة نُشرت في مجلة الهدي النبوي في العدد ٦ من المجلد ٥.

قال ـ رحمه اللَّه ـ في تعليقه على حديث رسول اللَّه ﷺ: «التسبيح للرجال والتصفيق للنساء»[١]: ـ «فلينظر السفهاء الحمقى أنصار المرأة في عصرنا! من الملحدين، ومن الجاهلين الجرآء الذين يدّعون العلم بما لا يعلمون، ممن أخرجوا المرأة المسلمة من خدرها إلى الطرقات والجامعات والمصانع والملاهي، الذين يريدون إفساد الخلق الإسلامي السامي، ويفترون على اللَّه ورسوله، أن الإسلام سوّى المرأة بالرجل، ولم يحجبها عن مخالطة الرجال! لينظروا كيف صان اللَّه ورسوله المرأة المسلمة عن أن يظهر صوتها حتى في الصلاة، ولكن القوم لا يستحيون! قاتلهم اللَّه أنّى يؤفكون»[٢].

* أبو الأشبال الليث الشيخ أحمد شاكر يزأر في عرينه:

لقد كان أبو الأشبال الشيخ أحمد شاكر له من كنيته واسمه أوفر نصيب فحين أصدر مجلس الوزراء في يوم الأربعاء ٢٧ ربيع الأول ١٣٥٨هـ مشروعًا بقانون لتنظيم المحاكم الدينية لغير المسلمين وفي مادته الثامنه نصّ على أن «تغيير دين أحد الخصوم أثناء سير الدعوى لا يؤثر في اختصاص المحكمة التي رُفع إليها النزاع وفقًا لأحكام هذا القانون»، وألقى الشيخ شاكر كلمة في اجتماع الجمعية العمومية لقضاة محكمة مصر الشرعية صباح يوم الجمعة ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٨ كلمة قال فيها:

«معنى هذا بالقول الصريح: أن الرجل إذا دخل دين الإسلام أثناء التقاضي كان للمحكمة الأخرى غير المسلمة أن تحكم بتطليق زوجته منه حكمًا تقرّه الدولة. وأن المرأة إذا أسلمت أثناء التقاضي حكمت عليها المحكمة غير المسلمة بالدخول في طاعة زوجها الذي أبى الإسلام، ونفذّت

(١) انظر «مسند الإمام أحمد» بتعليق الشيخ شاكر (١٣/ ٩) رقم (٧٢٨٣).
(٢) انظر «مسند الإمام أحمد» بتعليق الشيخ شاكر (١٣/ ٩) رقم (٧٢٨٣).

قوات الدولة الإسلامية هذا الحكم ومكّنت غير المسلم من المرأة المسلمة إلى غير ذلك مما يعرض لكم من الحوادث كل يوم.

ثم قال: إن محمدًا ﷺ، وهو الأمين المأمون، وهو سيد الأوفياء بالعهود، عاهد قريشًا يوم الحديبية، أن لا يأتيه أحد من مكة إلاّ ردّه إليهم، وإن كان مؤمنًا، وقد أوفى بعهد، فردّ أبا جندل بن سهيل وغيره، وفاء بالعهد، ثم جاء نساء مؤمنات مهاجرات من مكة، فأتى أهلهن يسألونه الوفاء بعهده، فمنعه اللَّه من ذلك، وأمره أن لا يرد النساء إليهم فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ**﴾ [الممتحنة: ١٠].

أفيُراد من المسلمين بعد هذا النص القرآني القاطع أن يخرجوا على دينهم، فيسلّموا المرأة التي أسلمت إلى الرجل ليس من أهل ملتها؟! اللَّهم إن هذا لا يُرضيك، وإنا نأبى أن نخضع له.

أنتم حماة الشرع، أنتم وسائر العلماء، وعليكم جميعًا عبء الدفاع عنه، والذبّ عن حوضه، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

أيها الإخوان:

إن الواجب على العلماء الآن أن يقولوها كلمة صريحة واضحة خالصة لوجه اللَّه، أن هذه المادة عدوان على الإسلام، وخروج على كتاب اللَّه، وأنها إذا أُقرّت نهائيًّا كانت ردّة وانفصامًا عن الدين، لا حكم لها غير ذلك. واعلموا أن لا عذر لكم عند اللَّه وعند الناس في السكوت عنها، وأن اللَّه سبحانه قال لخير الناس بعد الأنبياء وهم أصحاب محمد، في شأن أهون من هذا، وهو النفقة في سبيل اللَّه، ولستم أكرم على اللَّه منهم، قال لهم:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته».

* الشيخ أحمد شاكر وقضية فلسطين:

قال الشيخ في تحيته للمؤتمر العربي في قضية فلسطين:

«إن هؤلاء الأذلاء[1] كتب اللَّه عليهم الجلاء، فقد أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة وأرباضها، ثم جلاهم الفاروق عن الحجاز، ثم سكت عنهم المسلمون، بل حموهم حين رأوهم مضطهدين مستضعفين، فلما عادوا سيرتهم من البغي والعدوان، أعادهم اللَّه سيرتهم من الجلاء، فجلاهم الألمان والطليان عن بلادهم؛ وستكون عاقبة أمرهم - إن شاء اللَّه - أن يجليهم المسلمون عن كل بلاد الإسلام.

إن أوربة لم تتمكن من دول الإسلام في فترة ضعفهم إلا حين أرهبتهم بغُول التعصب، حتى صار كل مسلم يتخاذل عن دينه وعن شريعته، خشية أن يتهم بالتعصب ثم ألقت بينهم بدعة القوميات، لتفتنهم عن وحدتهم وقوتهم.

ولقد قال الزعيم الخطير، صاحب المعالي محمد علي علوبة باشا، بالأمس بالمؤتمر كلمة خالدة أرجو أن تكون على ذكر منا دائمًا قال: «وليعلم اليهود أنهم إذا فرحوا اليوم بظفر يستند إلى حراب غيرهم فإنهم سيندمون لا محالة يوم تغيب هذه الحراب عنهم، وأحداث الدهر كثيرة، والفرص آتية لا ريب فيها، ومن أنذر فقد أعذر».

وإني أعتقد أن هذه الكلمة مما يلهم اللَّه بعض عباده؛ فهي عبرة لمن

(١) يعني اليهود.

شاء أن يعتبر، وهي نذير لمن شاء أن يتدبر النذر وأستغفر اللَّه لي ولكم»[1].

* **الشيخ شاكر وصوته الهادر في تعدد الزوجات:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «نبتت في عصرنا هذا الذي نحيا فيه نابتة إفرنجية العقل، نصرانية العاطفة، ربّاهم الإفرنج في ديارنا وديارهم، وأرضعوهم عقائدهم، صريحة تارة، وممزوجة تارات، حتى لبّسوا عليهم تفكيرهم، وغلبوهم على فطرتهم الإسلامية، فصار هجِّيراهم وديدنهم أن ينكروا تعدد الزوجات، وأن يروه عملاً بشعًا غير مستساغ في نظرهم! فمنهم من يصرِّح، ومنهم من يجمجم.

وزاد الأمر وطمّ، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التي تنتسب للإسلام وضعت في بلادها قانونًا منعت فيه تعدد الزوجات[2] جملة، بل صرّحت تلك الحكومة باللفظ المنكر: أن تعدد الزوجات ـ عندهم ـ صار حرامًا. ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجريء المجرم صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام، تجري عليهم وعلى مَنْ يرضى عن عملهم كل أحكام الرّدة المعروفة، التي يعرفها كل مسلم، بل لعلهم يعرفون ويدخلون في الكفر والردّه عامدين عالمين..».

ثم جعل الشيخ العلاّمة يعرض شبهات القوم ويفنّدها شبهة شبهة إلى أن قال: «فيا أيها المسلمون:

لا يستجرينكم الشيطان، ولا يخدعنكم أتباعه وأتباع عابديه، فتستخفوا بهذه الفاحشة التي يريدون أن يذيعوها فيكم، وبهذا الكفر الصريح الذي

---

(١) انظر كتاب «كلمة الحق» للشيخ أحمد محمد شاكر ص(١٩٥ ـ ١٩٨) ـ طبع مكتبة السنة.

(٢) يشير بذلك إلى الحكومة التونسية في عصره.

يريدون أن يوقعوكم فيه، فليست المسألة مسألة تقييد مباح أو منعه، كما يريدون أن يوهموكم، وإنما هي مسألة في صميم العقيدة: أتصرون على إسلامكم وعلى التشريع الذي أنزله اللَّه إليكم وأمركم بطاعته في شأنكم كله؛ أم تُعرضون عنهما ـ والعياذ باللَّه ـ فتتردّوا في حمأة الكفر، وتتعرضوا لسخط اللَّه ورسوله؟ هذا هو الأمر على حقيقته.

إن هؤلاء القوم.. الذين يدعونكم إلى منع تعدد الزوجات ـ لا يتورّع أكثرهم عن اتخاذ العدد الجم من العشيقات والأخدان، وأمرهم معروف مشهور، بل إن بعضهم لا يستحي من إذاعة مباذله وقاذوراته في الصحف والكتب، ثم يرفع علم الاجتهاد في الشريعة والدين، ويزري بالإسلام والمسلمين.

إن اللَّه حين أحلّ تعدد الزوجات.. بالنص الصريح في القرآن ـ أحلّه في شريعته الباقية على الدهر، كل زمان وكل عصر. وهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، فلم يعزب عن علمه ـ عز وجل ـ ما وقع من الأحداث في هذا العصر، ولا ما سيقع فيما يكون في العصور القادمة. ولو كان هذا الحكم مما يتغيّر بتغيّر الزمان ـ كما يزعم الملحدون الهدّامون ـ لنص على ذلك في كتابه أو في سنة رسوله: ﴿**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

والإسلام بريء من الرهبانية، وبريء من الكهنوت، فلا يملك أحد أن ينسخ حكمًا أحكمه اللَّه في كتابه أو في سنة رسوله. ولا يملك أحد أن يحرّم شيئًا أحله اللَّه، ولا أن يحلّ شيئًا حرّمه اللَّه. لا يملك ذلك خليفة ولا ملك، ولا أمير ولا وزير، بل لا يملك ذلك جمهور الأئمة سواء بإجماع أم بأكثرية. الواجب عليهم جميعًا الخضوع لحكم اللَّه، والسمع والطاعة.

* اسمعوا قول اللَّه: ﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ**

وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

* وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

ألا فلتعلمنَّ أن كل من حاول تحريم تعدد الزوجات أو منعه، أو تقييده بقيود لم ترد في الكتاب ولا في السنة، إنما يفتري على اللَّه الكذب.

ألا فلتعلمن أن «كل امرئ حسيب نفسه»، فلينظر امرؤ لنفسه أنّى يصدر وأنَّى يرد. وقد أبلغت. والحمد للَّه رب العالمين»[1].

* للَّه درّك من إمام:

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ معلقًا في عمدة التفاسير (٢/ ١٩٦) عند قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩].

«... وها هو ذا القرآن الكريم يحرّم الربا كله أشد التحريم، ويفسره التفسير الواضح الذي لا يحتمل تأويلاً: أنه ما زاد على رأس المال، وتؤكده الأحاديث الصحاح في التحريم والتفسير.

ويتوعد اللَّه آكلي الربا أشد الوعيد: بالحرب من اللَّه ورسوله، يتوعّد آكلي الكثير والقليل، بل يتوعد آكلي ﴿ ما بقي من الربا ﴾ ليشمل أقل القليل.

وها هي ذي أقوال الصحابة والتابعين، في استتابة المرابين، ثم وجوب قتلهم إن لم يتوبوا عنه ـ فقهًا منهم دقيقًا لمعنى الآية في إعلام المرابين، هذا

(١) انظر «كلمة الحق» للشيخ أحمد شاكر ص(٣٠٣ ـ ٣١٤) ـ مكتبة السنة.

فيمن يفعل دون مجاهرة باستحلال الربا.

أما المستحلّ ما حرم اللَّه في كتابه وعلى لسان رسوله، المعلوم تحريمه من الدين بالضرورة فلا يشك مسلم من عامة المسلمين في أنه مرتد خارج من الإسلام، مباح الدم بالردة عن الإسلام، لا بأكل الربا والإصرار عليه فقط.

فانظروا ـ أيها المسلمون إن كنتم مسلمين ـ إلى بلاد الإسلام في كافة أقطار الأرض إلا قليلاً، وقد ضُرِبت عليها القوانين الكافرة الملعونة، المقتبسة من قوانين أوربة الوثنية الملحدة، التي استباحت الربا استباحة صريحة بألفاظها ورُوحها، والتي يتلاعب فيها واضعوها بالألفاظ، بتسمية «الربا»: «فائدة».. حتى لقد رأينا ممن ينتسب إلى الإسلام، من رجال هذه القوانين ومن غيرهم ممن لا يفقهون.. من يُجادل عن هذه الفائدة، ويرمي علماء الإسلام بالجهل والجمود، إن لم يقبلوا هذه المحاولات لإباحة الربا.

أيها المسلمون! إن اللَّه لم يتوعد في القرآن بالحرب على معصية من المعاصي غير الربا، فانظروا إلى أنفسكم وأممكم ودينكم.

ولن يغلب اللَّه غالب».

* الشيخ شاكر وقوله الهادر في جزاء من اتبع اليهود والنصارى:

قال ـ رحمه اللَّه ـ في «عمدة التفاسير» (١/ ٢٢٧) عند قول اللَّه تعالى: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

«عصم اللَّه المسلمين منذ أن هداهم اللَّه للإسلام إلى قريب من عصرنا هذا ـ من أن يتبعوا ملة اليهود والنصارى، إلا ما يكون من حوادث فردية، أكثرها من المعاصي العملية.

ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى، فزادوا في التشبه بهم قليلاً قليلاً. ثم وُجد من أهل العلم فيهم ومن أهل الرأي.. من حاول أن يدافع عن الإسلام أسوأ دفاع، فصاروا يتقرّبون شيئًا فشيئًا لسادتهم، بتأويل القرآن والسنة، وتحريف معانيهما، ليقاربوا بين شريعتهم المطهرة، وشرائع تلك الأمم الضالة المغضوب عليها... بل ليقاربوا شريعتنا ونصوصنا الصريحة إلى عقائد الملحدين الوثنيين من أهل أوربة وأمريكا، فكان في علمائنا وكتّابنا مَن ينكر الغيب أو أكثره، فيتأولون صفة الملائكة، ووصف الجن، ويُنكرون المعجزات النبوية عامة.. لأنها لم ترد في القرآن، زعموا! ثم يحرّفون المعنى فيما ثبت منهما في القرآن أو السنة المتواترة. ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا على المسلمين قوانين أوربة الوثنية المجرمة الملعونة، ثم استباحوا أكثر المحرّمات، يصرّحون بإباحتها من غير حياء ولا غيرة.

ثم صاروا ينبزون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التي هدانا اللَّه إليها ورسوله بالتقاليد وبالرجعية لينفروا الناس منها، وقامت في عصرنا هذه الدعوة سافرة وقحة إلى تغيير الشريعة النقية في تعدد الزوجات والطلاق والمواريث.

بل إن من يحمل «شهادة العالمية» من الأزهر كتب في الصحف من غير حياء: «إن الإسلام يُحرِّم تعدد الزوجات»! وضَعُف الأزهر كله عن أن يضرب على يديه، خشية أن يغضب مَنْ وراءه ومَنْ ينصره في كُفره وافترائه على اللَّه.

وحتى إن بعض الصحف القوية الماجنة الداعرة لتدعو إلى الزنا علنًا، دون أن يردعها أحد، بل إن بعضهم ليصرِّح بمنع العلماء من الكتابة في المسائل «الاجتماعية».

والصحف الأُخرى لا ترضى أن تنشر لأحدٍ من العلماء دَفْعًا لهذا الكفر

البواح، بل إن نسوانًا ماجناتٍ فاجراتٍ ينشرن في الصحف الدعوة السافرة إلى الفجور بعد انتشار السفور.

فلئن لم يدفع المسلمون ـ أو المنتسبون للإسلام ـ هذه المنكرات عن دينهم وعن بلادهم، ليسلطنَّ اللَّه عليهم عدوهم، وليستأصلن شأفتهم، وليستبدلنّ بهم قومًا غيرهم، ثم لن يكونوا أمثالهم»[1].

رحمك اللَّه أبا الأشبال ومحدث الديار ورزقك الفردوس الأعلى، وسقى أعظمك الطاهرات.

ولِلَّه درّ شوقي حين يقول فيك وفي علماء الأزهر العاملين بعلمهم:

واخشع مليًّا واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرًا وماجوا أبحرا
كانوا أجلّ من الملوك جلالة ... وأعز سلطانًا وأفخم مظهرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرمُ الأمان وكان ظلهم الذرا
من كل بحرٍ في الشريعة ذاخر ... ويُريكه الخلق العظيم غضنفرا

* * *

(١) ما حوته ترجمة الشيخ أحمد شاكر من أقوال له مبثوثة في كتبه ومقالاته التي جمعتها مكتبة السنة في كتابين «كلمة الحق» و«حكم الجاهلية».

فهرس الموضوعات

زهر البساتين

من

مواقف العلماء والربانيين

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء الثاني

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٣ درب الأتراك - الدور الثاني خلف الجامع الأزهر

ت: ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠ / ٥١٠٨٢٥٧

بني سويف: برج الزيني - بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠١٠١٧٥٦٢٩٦ / ٠٨٢٣١٧٣٤٤

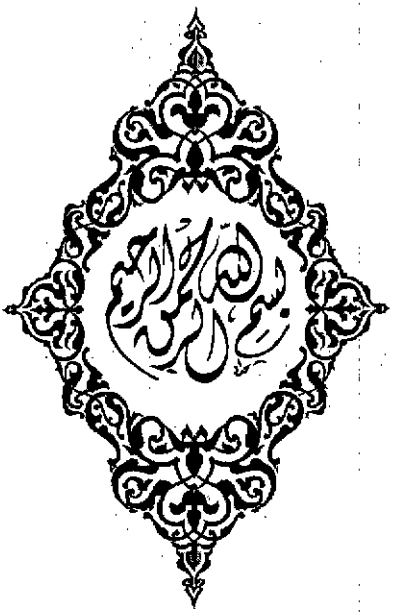
بسم الله الرحمن الرحيم

ربّانيون
على الطريق
ونبع الهدي ريّان

ربَّانيون على الطريق ونبع الهدى ريّان

* **أهل اليمن أرق الناس أفئدة.. الإيمان يمان والحكمة يمانية:**

❑ لَلَّه در اليمن وأهله وقد أثنى عليهم الصادق المصدوق ﷺ.

● فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية...**»[1].

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوبًا، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية**»[2].

في أطواء الظلام وأخاديد الصمت بررت جواهر كريمة في الذب عن السنة ومحاربة البدع والتقليد الجامد.

❑ في اليمن كما يقول الصنعاني:

محط رحال آمال الأماني ومغناطيس أفئدة الرجال
بها نلت المآرب معْ رفاقٍ رقوا في المجد هامات المعالي

❑ وكما يقول القائل منهم عن اتباعهم للسنة والرسول ﷺ:

تلامذة لأحمد لا سواه تلي أحفادنا فيه الجدودا
هو القلب الكبير به حيينا وأطلقنا الواهب والزنودا

❑ قال الإمام الشوكاني في «البدر الطالع» في ترجمة الإمام الكبير ابن الوزير: «إن في ديار الزيدية ـ يعني اليمن ـ من أئمة الكتاب والسنة عددًا

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي.

يجاوز الوصف يتقيّدون بالعمل بنصوص الأدلة، ويعتمدون على ما صح في الأمهات الحديث وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام، ولا يرفعون إلى التقليد رأسًا، لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب اللَّه وما صحّ من سنة رسول اللَّه مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية، ولو لم يكن لهم من المزية إلا التقيد بنصوص الكتاب والسنة وطرح التقليد فإن هذه خصيصة خصّ اللَّه بها أهل هذه الديار في هذه الأزمنة الأخيرة ولا توجد في غيرهم إلا نادرًا»[1].

*** الإمام المجتهد المطلق محمد بن إبراهيم بن الوزير ودفاعه الفذّ عن السنة وأهل الحديث:**

قال عنه الشوكاني: «تبحّر في جميع العلوم وفاق الأقران واشتهر صيته وبعد ذكره وطار علمه في الأقطار... وارتفعت طبقته في العلم، وهكذا ابن حجر فإنه ذكره في «أنبائه» في ترجمة أخيه الهادى لأن صاحب الترجمة إذ ذاك كان صغيرًا، فقال وله أخ يُقال له محمد مقبل على الاشتغال بالحديث شديد الميل إلى السنة بخلاف أهل بيته. انتهى، ولو لقيه الحافظ ابن حجر بعد أن تبحّر في العلوم لأطال عنان قلمه في الثناء عليه فإنه يثني على من هو دونه بمراحل، ولعلها لم تبلغ أخباره إليه، وإلاّ فابن حجر قد عاش بعد صاحب الترجمة زيادة على اثنى عشر سنة. وكذلك السخاوي لو وقف على «العواصم والقواصم» لرأى فيها ما يملأ عينيه وقلبه ولطال عنان قلمه في

(١) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للشوكاني (٢/ ٨٣).

ترجمته، ولكن لعلّه بلغه الاسم دون المسمّى»[١].

❑ وقال الشوكاني عنه: «وبالجملة فصاحب الترجمة ممن يقصر القلم عن التعريف بحاله، وكيف يمكن شرح حال من يزاحم أئمة المذاهب الأربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم، ويضايق أئمة الأشعرية والمعتزلة في مقالاتهم، ويتكلم في الحديث بكلام أئمته المعتبرين مع إحاطته بحفظ غالب المتون ومعرفة رجال الأسانيد شخصًا وحالاً وزمانًا ومكانًا وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف. ومن رام أن يعرف حاله ومقدار علمه فعليه بمطالعة مصنفاته فإنها شاهد عدل على علوّ طبقته، فإنه يسرد في المسألة الواحدة من الوجوه ما يبهر لبّ مطالعه ويعرفه بقصر باعه بالنسبة إلى علم هذا الإمام كما يفعله في «العواصم والقواصم»[٢] فإنه يورد كلام شيخه السيد العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم في رسالته التي اعترض بها عليه ثم ينسفه نسفًا بإيراد ما يزيفه به من الحجج الكثيرة التي لا يجد العالم الكبير في قوته استخراج البعض منها، وهو في أربعة مجلدات يشتمل على فوائد في أنواع من العلوم لا توجد في شيء من الكتب، ولو خرج هذا الكتاب إلى غيرَ الديار اليمنية لكان من مفاخر اليمن وأهله[٣]، ولكن أبى ذلك لهم ما جبلوا من غمط محاسن بعضهم لبعض ودفن مناقب أفاضلهم.

ومن مصنفاته «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» وهو كتاب في غاية الإفادة والإجادة على أسلوب مخترع لا يقدر على مثله إلا مثله.

ومنها كتاب «الروض الباسم» في مجلد اختصره من العواصم، وكتاب

---

(١) «البدر الطالع» (٢/ ٨٣).

(٢) وهو كتاب في الانتصار للسنة والرّد على الزيدية.

(٣) الحمد للّه أنه طُبع في مؤسسة الرسالة بعد ذلك.

«إيثار الحق على الخلق» وهو غريب الأسلوب مفيد في بابه.

وهو إذا تكلم في مسألة لا يحتاج الناظر بعده إلى النظر في غيره من أي علم كانت، وقد وقفت من مسائله التي أفردها بالتصنيف على عدد كثير تكون في مجلد، وما لم أقف عليه أكثر مما وقفت عليه، وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده، بل هو من نمط كلام ابن حزم وابن تيمية، وقد يأتي في كثير من المباحث بفوائد لم يأت بها غيره كائنًا من كان، وديوان شعره مجلد وشعره غالبه في عصره، فإن له معهم قلاقل وزلازل وكانوا يثورون عليه ثورة بعد ثورة، وينظمون في الاعتراض عليه القصائد، وأفضى ذلك إلى أن اعترض عليه شيخه المتقدم ذكره برسالة مستقلة فأجابها بما تقدّم، وكان يجاوبهم ويصاولهم ويجاولهم فيقهرهم بالحجة، ولم يكن في زمنه من يقوم له لكونه في طبقة ليس فيها أحد من شيوخه فضلاً عن معارضيه، والذي يغلب على الظن أن شيوخه لو جُمِعوا جميعًا في ذات واحدة لم يبلغ علمهم إلى مقدار علمه وناهيك بهذا.

ثم بعد هذا انجمع وأقبل على العبادة وتمشيخ وتوحش في الفلوات وانقطع عن الناس ولم يبق له شغلة بغير ذلك وتأسف على ما مضى من عمره في تلك المعارك التي جرت بينه وبين معاصريه مع أنه في جميعها مشغول بالتصنيف والتدريس والذب عن السنة والرفع عن أعراض أكابر العلماء وأفاضل الأمة، والمناضلة لأهل البدع ونشر علم الحديث وسائر العلوم الشرعية في أرض لم يألف أهلها ذلك لا سيما في تلك الأيام فله أجر العلماء العاملين وأجر المجاهدين المجتهدين، ولكنه ذاق حلاوة العبادة وطعم لذة الانقطاع إلى جناب الحق فصغر في عينيه ما سوى ذلك. وقد ترجمه بعض بني الوزير في كراريس واستوفى أحواله، ولو ترجمه في مجلد لم يكن وافيًا بحقه... ومدحه غير واحد من أعيان العلماء، والحاصل أنه رجل

عرفه الأكابر وجهله الأصاغر، وليس ذلك مختصًا بعصره بل هو كائن فيما بعده من العصور إلى عصرنا هذا.

ولو قلت: إن اليمن لم ينجب مثله لم أبعد عن الصواب وفي هذا الوصف ما لا يحتاج معه إلى غيره»[1].

❑ وقال عنه صديق حسن خان: «كان فريد العصر، ونادرة الدهر، خاتمة النقّاد، وحامل لواء الإسناد، وبقية أهل الاجتهاد، بلا خلاف وعناد، رأسًا في المعقول والمنقول، إمامًا في الفروع والأصول»[2].

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

العلم ميراث النبي كذا أتَى ... في النص والعلماء هم ورّاثُهُ
فإذا أردت حقيقة تدرى لمن ... ورّاثه فكرتَ ما ميراثُهُ
ما ورَّثَ المختارُ غيرَ حديثه ... فينا وذَاكَ متاعُه وأثاثهُ
فلنا الحديثُ وراثةً نبويةً ... ولِكُلِّ مُحدِث بدعة إحداثه

❑ ويقول ـ رحمه اللَّه ـ:

كتب إليه العلاّمة المقري الشافعي لما اطّلع على «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم مختصر «العواصم من القواصم»: «لقد وقف المملوك على «الروض الباسم» فما هو إلا الحسام القاصم، لقد وقع من القلوب موقع الماء من الصادي والنَّجح من الغادي، والراحة من المعمور، ولقد نصرتَ الحديث على الكلام، والحلال على الحرام، وأوضحتَ الصراط المستقيم، وأشرتَ إلى النهج السليم، ولم تترك شبهة إلا فضحتها، ولا حجة إلا أوضحتها، ولا زائغًا إلاّ قوّمته، ولا جاهلاً إلا علّمته، ولا ركنا للباطل إلا خفضته، ولا عقدًا لمبتدع إلا نقضته، ولقد صدقتَ اللَّه في النيّة في

(١) «البدر الطالع». انظر ترجمة ابن الوزير في «البدر الطالع» (٢/ ٨١ ـ ٩٣).
(٢) «أبجد العلوم» لصديق حسن خان (٣/ ١٩٠).

الرغبة إليه، ووهبت نفسك للّه، وتوكلت عليه، فالحمد للّه الذي أقرّ عين السنة بمكانه، وأدالها على البدع وأهلها ببرهانه، فلقد أظهر من الحق ما ودّ كثير من الناس أن يكتمه وأيد دين الأمة الأمية بما علّمه اللّه وألهمه فعض على الجذل، وسيجعل اللّه لك بعد عسر يسرًا، وإنا لا ندري لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمرًا، وإذا أراد اللّه أمرًا هيأ أسبابه، وفتح لمن أراد له الدخول إلى بابه.

إذا اللّه سَنَّى حَلَّ عَقْدِ تيسَّرا.

ومن وقف على ما أفحمت به ذلك المتعدي، من الحق الذي استحلفت فيه بالإعجاز والتحدي، علم أن بينه وبين النفثات النبوية أسبابًا شريفة لا تُحل عقودها، ولا تضاع حقوقها، ورحما بلّها ببلالها، وبادر إلى صلتها ووصالها، لقد أبقى نورًا في وجه الزمان، وسرورًا في قلوب أهل الإيمان، وقلّدت جيد السنّة منّة وأي منّة، أصبح شخصك ملموحًا بأعين البصائر، وحديثك ملتقطًا بأسماع الضمائر.

والمنّة في ذلك المصنّف على عامة أهل الملّة وخاصة أعيان هذه النحلة، فحق على الكل أن يعرفوا حقّه إن كانت لهم أفهام تقدره حق قدره، وأن يستضيئوا بنوره إن كانت لهم أبصار تثبت للنور فجره، وأرى لهم أن يكتبوا أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكتب سمع الدعاء إلى الفلاح فوثب، وقلب اللّه قلبه إلى الحق فانقلب، من غير ترغيب استفزّه، ولا ترغيب هزّه، ولا محاسدة اعترته، ولا مناظرة غيّرته، بل توفيق من اللّه إلهي، وإلهام سماوي، سهل عليه مفارقة العادة، وما نشأ عليه بدءًا وإعادة، وإن أمرًا هذا أوله، فعواقبه عن النجاح مسفرة، وقصدًا هذا مبتدؤه، فمغارسه مثمرة.

وإني لأرجـــو اللّه حتى كأنني أرى بجميل الظن ما اللّه صانع»[1]

(١) مقدمة «العواصم والقواصم في الذبّ عن سنة أبي القاسم» لابن الوزير (١/٥٨ ـ ٥٩) ـ مؤسسة الرسالة.

يقول ـ رحمه اللَّه ـ في مقدمة «الروض الباسم»[١] في التزامه بالسنة أصولاً وفروعًا: «ولم يكن بدعًا أن تنسّمت من أعطارها روائح، وتبصّرت من أنوارها لوائح، أشربت قلبي محبة الحديث النبوي، والعلم المصطفوي، فكنت ممن يرى الحظ الأسنى في خدمة علومه، وتمهيد ما تعفّى من رسومه، ورأيتُ أولى ما اشتغلت به ما تعين فرض كفايته بعد الارتفاع وتضيق وقت القيام به بعد الاتساع من الذبّ عنه، والمحاماة عليه، والحث على اتباعه والدعاء إليه، فإنه علم الصدر الأول، والذي عليه بعد القرآن المعوّل، وهو لعلوم الإسلام أصل وأساس، وهو المفسر للقرآن بشهادة ﴿**لتبين للناس**﴾، وهو الذي قال اللَّه فيه: ﴿**إن هو إلا وحي يوحى**﴾، وهو الذي وصفه الصادق الأمين بمماثلة القرآن المبين؛ حيث قال في التوبيخ لكل مترف إمَّعة: «**إني أوتيت القرآن ومثله معه**». وهو العلم الذي لم يشارك القرآن سواه في الإجماع على كفر جاحد المعلوم من لفظه ومعناه، وهو العلم الذي إذا تجاثت الخصوم للرُّكب، وتفاوتت العلوم في الرتب، أصمت مرنان نوافله كل مناضل، وأصمت برهان معارفه كل فاضل، وهو العلم الذي ورّثه المصطفى المختار والصحابة الأبرار، والتابعون الأخيار، وهو العلم الفائضة بركاته على جميع أقاليم الإسلام، الباقية حسناته في أمة الرسول عليه السلام، وهو العلم الذي صانه اللَّه عن عبارة الفلاسفة، وتقيّدت عن سلوك مناهجه، فهل راسفة في الأغلال آسفة، وهو العلم الفاصل حين تلجلج الألسنة بالخطاب، الشاهد له بالفضل رجوع عمر بن الخطاب.. وهو العلم الذي يميز اللَّه به الخبيث من الطيب، ولا يرغم إلا المبتدع المتريّب، وهو العلم الذي يسلك بصاحبه نهج السلامه، ويوصله إلى دار الكرامة، والسارب في رياض حدائقه، الشارب من حِياض حقائقه»[٢].

---

(١) «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم» لابن الوزير ص(٥).

(٢) «الروض الباسم» ص(٥، ٦).

وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

يا حبذا يومُ القيـــامة شـــهرتي ... بين الخلائـق في المقـام الأحمـد

لمحبتـــي سنن الرســـولِ وإننـــي ... فيها عصيتُ مُعَنِّفي ومُفَنِّـــدي

وتركت فيها جيرتي وعشيرتي ... ومحل أترابي وموضع مَولدِي[1]

وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

لو أن العلماء تركوا الذَّبَّ عن الحق؛ خوفًا من كلام الخلق، لكانوا قد أضاعوا كثيرًا، وخافوا حقيرًا.

ومَن قصد وجه اللَّه ـ تعالى ـ في عمل من أعمال البر والتقي؛ لم يحسن منه أن يتركه، لما يجوز عليه في ذلك من الخطا، وأقصى ما يخاف أن يكلّ حُسامُه في معترك المناظرة وينبو، ويعثر جواده في مجال المجادلة ويكبو، فالأمر في ذلك قريب؛ إن أخطأ فمن الذي عُصِم، وإن خُطِّىء فمن الذي ما وُصِم. والقاصد لوجه اللَّه لا يخاف أن يُنقد عليه خلل في كلامه، ولا يهاب أن يُدل على بطلان قوله، بل يحب الحق من حيث أتاه، ويقبل الهُدى ممن أهداه، بل المخاشنة بالحق والنصيحة أحب إليه من المداهنة على الأقوال القبيحة»[2].

يقول الصنعاني ـ رحمه اللَّه ـ مثنيًا على كتاب «إيثار الحق على الخلق» لابن الوزير:

انظـر إلى الإيثـــار كيف أصـــابه ... عين الكمـال لنصـــرة الإيثـــار

فـــإذا نظـرت إليه فلتـــك مُنتهٍ ... عن حملك الأسفار في الأسفار[3]

---

(١) «مقدمة العواصم والقواصم» ص(٧٧).

(٢) «العواصم والقواصم» ص(٢٢٤).

(٣) «فتح الخالق في مدائح رب الخلائق» ص(٢٠٢).

*** رحمك اللَّه يا ابن الوزير بما نصحت لأمتك:**

رأى ابن الوزير ـ رحمه اللَّه ـ أن في قمة التفكير الذي أدى إلى فرقة الأمة وانقسامها يأتي دور التفكير الفلسفي الذي صاغته أهواء البشر بعيداً عن الاهتداء لفظًا ومعنى بالنور الإلهي الذي لا يضل من اهتدى به ولا يشقى.

ورأى ـ رحمه اللَّه ـ في «علم الكلام» الذي نشأ كأثر مباشر وقوي للكفر اليوناني بحوثًا لا طائل تحتها، ولقد كان أحد الأسباب لتمزق الأمة الواحدة وتناحرها، وتيه فلسفي أضاع الأمة، وهو يرسف في الضعف والهوى، والتناقض، ورأى ـ رحمه اللَّه ـ أن كتابه «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان» هو الصيحة في وجه الأفكار الفلسفية.

وبكتابه «إيثار الحق على الخلق» أراد أن يسلك بالأمة الطريق الواحد.. الذي لا تتعدد عنده السبل: وحدة الأمة على كتاب اللَّه واعتصامها بسنة رسول اللَّه ﷺ.

وقلّل من شأن المعتزلة التي رفعت العقل فوق مرتبته وإقحامه في عالم الغيب.

لقد حورب ـ رحمه اللَّه ـ حربًا لا هوادة فيها ممن يخشون الدعوة إلى الكتاب والسنة وكانت صيحته الفذّة.

يا لائمي كفّ عن لومي فمعتقدي ... قولُ النبي وهمّي في تَعرُّفه
فما قفوتُ سوى آيات منهجه ... ولا تلوتُ سوى آياتِ مصحفه[1]

❑ ويقول ـ رحمه اللَّه ـ في «إيثار الحق» محذرًا من مقاصد المنطقيين والمتكلمين: «وليحذر كل الحذر من زخرفتهم للعبارات في ذلك وترغيبهم بأنواع المرغبات في تلك المسالك، وليعتبر في ذلك بقوله تعالى لرسوله

(١) مقدمة «العواصم والقواصم» ص(١١٨).

المعصوم ﷺ ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥] ويا لها من موعظة موقظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد كما قال سبحانه وتعالى. ولتعرف أهل الزيغ بذلك وأهل الحق بخلافه فإنهم كما وصفهم ربهم عز وجل في قوله: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦]. ولا ينبغي أن يستوحش الظافر بالحق من كثرة المخالفين له كما لا يستوحش الزاهد من كثرة الراغبين ولا المتقي من كثرة العاصين ولا الذاكر من كثرة الغافلين. بل ينبغي منه أن يستعظم المنة باختصاصه بذلك من كثرة الجاهلين له الغافلين عنه، وليوطن نفسه على ذلك... فنسأل اللَّه أن يرحم غربتنا في الحق ويهدي ضالنا ولا يردنا من أبواب رجائه ودعائه وطلبه محرومين إنه مجيب الداعين وهادي المهتدين وأرحم الراحمين»[1] رحم اللَّه ابن الوزير.

أبا التنقيح والترجيح أبدي ... (عواصمه) و(إيثاراً) فريدا
على بحر المئين السبع شعَّتْ ... فأقمأت المعانـــد والحسودا

* علاّمة اليمن في القرن الحادي عشر الحسن بن أحمد الجلاّل وتصديه للمتوكل إسماعيل لقوله المنحرف عن الأتراك:

وُلد بصعدة سنة ١٠١٣ وتوفي سنة ١٠٨٤، وكان له في العلوم النقلية والعقلية قدم راسخ وكعب عال، ألزم نفسه بالدليل، وتنكّب طرق التبعية الجهلاء والمذهبية العمياء، وكان زهده وتقواه مضرب المثل، ولما ساءه ما لقي

(١) «إيثار الحق على الخلق» لابن الوزير ص(٢٦ ـ ٢٧).

من المتعصبة المبتدعة آثر البقاء بقرية الجراف شمالي صنعاء، وكان مصدر رزقه الوحيد تربية الخيل والإنفاق من أثمانها. صادعًا بالحق مؤثرًا لرضاء الخالق على رضا الخلق، أهم مؤلفاته «ضوء النهار على متن الأزهار» وضعه على الكتاب والسنة غير آبه بالمخالف والمؤالف. وما أكثر ثناء الشوكاني عليه، واعتبره أفضل ما كُتب في بابه ولما أصدر المتوكل إسماعيل صاحب ضوران مرسومه المشهور باعتبار ما كان من البلاد تحت الأتراك خراجية وملاّكها أجراء للمتوكل وأسرته، وأجاز لجنده الأخذ من أموال الرعايا في حملتهم إلى يافع ومشارق اليمن تصدى له العلاّمة الجلال بوضع رسالة سمّاها «براءة الذمة في النصح للأمة» فنّد فيها آراء المتوكل وكشف عن مجافاتها لنصوص الكتاب والسنة، وألزمه بالتزام الأصلين: كتاب اللّه وسنة رسوله[1].

❑ قال عبدالرحمن طيب بعكر «لما جاء إسماعيل بن القاسم يعلن تكفير الأتراك وأن الأرض التي كانت تحتهم خراجية، نهض الحسن الجلال في وجهه وتصدى لفتواه ببحثه القيم الذي يؤكد إسلام الأتراك».

❑ قال الحسين الروضي وهو من تلاميذ الصنعاني:

قالوا أما فهم إسماعيل عالمهم ... أفتاهم بمقال فيه برهانُ
يقول إن جنود الترك كافرة ... دانت لها من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا ... صارت إلينا حلالاً بعد ما بانوا
وكل شخص من الزراع عاملنا ... على الذي يبديه أينما كانوا
أصولنا تقتضي هذا فلا حرج ... بما أخذنا ولا والقول بهتانُ
إبليس سوّل هذا والنفوس عنت ... إلا برغبتها فيها لها شانُ
هذي الخيالات لا تجدي ليوم غد ... إذا قضى بين أهل الأرض ديّان[2]

(١) «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني» لعبدالرحمن طيّب بعكر ص(١٥١، ٢٨) مكتبة أسامة باليمن.
(٢) المصدر السابق ص(٢٨).

❑ ولما مرّ الصنعاني بقبر الجلال وقال:

جادت على قبر الجلال ... عيني بدمع ذي انهمالِ
ووقفت فيه مد لّها ... أبكي على فقد المعالي
جبلٌ من التحقيق غيّبه ... الفنا تحت الرمالِ
بحرٌ إذا أخذ اليراع ... تدفقت منه اللآلي
فرد يعزّ له النظير ... فلا يعرف بالمثال[1]

* * *

* الشيخ الحسن بن زيد الشامي خيرٌ كله:

❑ يقول الشوكاني في ترجمته: (أنه كان خيراً كله) اجتمعت فيه ثلاث خصال تكفي الواحدة منهن جماعة من الناس أولهن حب السنة فهو مبرء من التعصب لمذهب أو طائفة واجتمع له أتباع لا يتقيدون إلا بالدليل. والثانية حب الفقراء. فقد كان يبذل جهده لإقناع المهدي اعباس بتوسيع العطاء للفقراء والبذل عليهم. وتوفي قاضي القضاة السيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي. وكان من قرابته وجعل وصيته للإمام فعهل بها الإمام للحسن ابن زيد فر سروراً بالغًا؛ لأنه أفلح باقتطاع شطر من الأملاك وجعلها للفقراء وأثبتها بمسودة مقيدة بدواوين الدولة. الثالثة الدعوة الدائمة إلى اللّه للأغنياء والفقراء والخاصة والدهماء حتى النساء إذا مر به جماعة منهن استوقفهن وشرح لهن أحوال الحيض وأخذ ينصحهن بعدم الغيبة ونشر الدعوة في حافتهن[2].

* * *

(١) المصدر السابق ص(٢١٢).
(٢) المصدر السابق ص(٣٨ ـ ٣٩).

*** الشيخ الصادع بالحق أحمد بن عبدالرحمن الشامي:**

من أعلام القرن الثاني عشر استوعب علوم عصره وطاف على كبار مشائخ صنعاء وأتم اللّه النعمة بأن يسّر له الاجتماع بالعلامة عبدالخالق بن الزين المزجاجي فقرأ عليه في الأمهات الست وتمكن من علم الحديث.

ولقد تولى هذا العَلَم منصب القضاء الأكبر طوال حكم ثلاثة أشهر من القاسم بن الحسين إلى حفيده المهدي بن العباس فكان مثلاً في الصدع بالحق والثبات على اتحاده وآية في العفة وحسن العلم وأهله إلى كياسته وحسن تدبيره وسداد رأيه الذي كان مضرب المثل.

ومن أمثلة حلمه وطهارة خلقه وسلامة صدره أن رجلاً سمه في تمر فظل عامًا كاملاً يعاني أثر ذلك السم وهو كاتم لأمره عارف لخصمه فلما ذهب عنه آثار السم وتماثل للشفاء كان أول عمل يقوم به أن يقضي حاجة خصمه الذي سمَّه. وكان إلي جانب توليه القضاء الأكبر مضطلعًا بمسئوليات تلقي الوافدين إلى صنعاء ورعايتهم والإنفاق عليهم وهو في كل ذلك محمود السيرة والسريرة وكان يقول: أنه لولا خشية أن يلي الأمر من لا يرعى في الأمة تقوى اللّه لما بقي في منصبه يومًا.. وقد أثنى عليه كل من ترجم له وفي مقدمتهم شيخ الإسلام الشوكاني. وكلهم يجمع على مجاهرته للمهدي العباس وتحذيره له من سفك الدماء وأموال الوقف. وفي مقدمة خاصته المحبين إليه (ابن الأمير) الذي كان كثيرًا ما يتعاون معه على أمر بمعروف أو نهي عن منكر ـ رحمه اللّه ـ[1].

*** الشيخ أحمد بن يوسف الحديث يرفض الزواج من ابنة الإمام المهدي العباس:**

ومن أعلام القرن الثاني عشر الناصرين للسنة سيد فاضل من آل الإمام

(١) المصدر السابق ص(٣٩ ـ ٤٠).

هو أحمد بن يوسف بن الحسين بن الحسن بن القاسم برع في العلوم وتعلق في الحديث حتى عرف به. فكان يُدعى أحمد بن يوسف الحديث. وحسبك أن يشهد له إمام السنة الشوكاني بأنه المحقق البارع في علم الحديث.. وهو الذي تولى تخريج مجموع الإمام زيد بن علي ﷺ فنص على تخريج كل حديث من الأمهات وما لم يجد له تخريجًا سكت عنه. كان ـ رحمه اللَّه ـ يؤثر البعد عن أرباب الدولة وذوي الجاه منقطعًا للعلم وأهله. عرض عليه الإمام المهدي العباس أن يزوجه ابنته فأبى وحرص على الاجتماع به أكثر من مرة وهو يتخلص حتى لا يقع في شباك الدولة ورجالها[1].

*** السيد إسحاق بن يوسف بن المتوكل ونصره للسُّنَّة:**

ومن آل الإمام المشهورين بنصرة الحق والسنة والتعليق بهما والذب عنهما السيد الكريم إسحاق بن يوسف بن المتوكل. درس على علماء صنعاء وطلب الإجازة من علماء زبيد فأجازه مفتيها الأكبر السيد يحيى بن عمر الأهدل في أمهات الحديث. وكانت له صولات وجولات مع المتمذهبة الذين أفحمهم بأبحاثه وأسئلته التي كان ينشرها فتتلقاها بلدان اليمن ويتسابق علماؤها للإجابة عليها. ومن أسئلته المشهور سؤاله علماء الزيدية عن المذهب فقام له الكثيرون ونالوا منه وأغلظوا له في القول ولكنه لم يلتفت ولم يأبه شيء من ذلك.

ومن مؤلفاته المباركة رسالة أثنى عليها الشوكاني أسماها «بالوجه الحسن المذهب للحزن فيمن تمسك بالسنة ومشى على السنن» طبعت في القاهرة سنة ١٣٤٨هـ وأنشيء عليها علماء الأزهر. وبحث آخر نفيس أسماه «تفريج الكروب وتكفير الذنوب» في مجلدين[2].

---

(١) المصدر السابق ص(٤٠).

(٢) المصدر السابق ص(٤١).

* مصلح اليمن ومجتهدها في القرن الثاني عشر الأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني:

عمر مديد قضاة مجتهد اليمن الإمام الصنعاني في نشر ونصر سنة رسوله ﷺ، وكتبه تملأ الخافقين هدى ونورًا وأثرًا في الجهاد مشكورًا.

ومدرسة الإمام فقف عليها ونادِ أميرها الحبر المفيدا
بتنوير وتوضيح لسبل وعدة من شأى الشأو الحميدا
وكان لعدل حكم واجتماع ووقْف اللّه مدْرَهه المُجيدا[1]

* أوّلياته ونجاحه الذي أدركه:

وأول ما نسجله من رياداته هو إدخاله كتب الحديث إلى جامع صنعاء ونشرها تدريسًا ووعظًا للخاصة والعامة. فلقد كان شغفه بالسنة مبكرًا.

سلام على أهل الحديث فإنني نشأت على حب الأحاديث من مهدي

وقوله: لا للفخر والادعاء ولكن للتنبيه والتوجيه:

كان الحديث بأرضكم مستغربًا واللّه جدا
حتى نشرت فنونه وجلوت منه ما تصدى

وهو أول مصلح يمني بعد الألف يضع برنامجًا عامًا للإصلاح يجمع بين إقامة الشريعة وتحقيق العدل وإصلاح الأوضاع المالية والاجتماعية والعناية بتنظيم الري وتوفير مصادره ومحو الأمية الدينية، نلمس ذلك واضحًا في النصوص السالفة من مطالبته بانتقاء القضاة وإصلاح السجون والعملة وإزالة المظالم..

---

(١) هذه هي أهم مؤلفاته الإمام الصنعاني وهي: «التنوير شرح الجامع الصغير»، و«التوضيح شرح التنقيح» و«سبل السلام شرح بلوغ المرام» و«العدة حاشية شرح العمدة» لابن دقيق العيد».

❑ وهو أول عالم يمني بعد الألف يتجاوز بنصائحه وتوجيهاته ملوك اليمن إلى غيرها من ملوك الجزيرة كما صنع مع الشريف مساعد صاحب مكة.

وهو أول عالم يمني بعد الألف قصده الطلاب لا من جزيرة العرب وحدها، وإنما أيضًا من بلاد الروم والعراقين والهند.

وهو أول من حوّل الشعر من ترفٍ ذهني وتلاعب بديعي إلى نفير للإصلاح ومنبر للتوجيه.

هذا ما حضرني من أولياته التي نسجلها ريادات له سبق بها عصره ومصره..

أما نجاحاته التي يسر اللَّه إدراكها فكثيرة ربما كان أهمها إقناعه الأئمة، وبخاصة المهدي العباس على حبه الجم للمال أن يصرف شيئًا من الزكاة على مستحقيها. وكان يخرج الآلاف على يد عباد صالحين كحسن الحداد وحسن الشامي ومحسن فايع.

❑ كما أنه كان سياجًا منيعًا لصون أملاك الوقف من البيع والعبث، وكان تلميذه العراسي صاحب الجهد المشكور في حفظ أملاك الوقف وتدوينها. وهو الذي تنبه إلى خطر الباطنية وصلف اليهود وغواية البانيان فتم له تسفير يوسف العجمي وتأديب اليهود حتى ألزمهم جحورهم وإجلاء البانيان من اليمن وتحطيم أصنامهم التي بلغ مالها المرصود عليها بالمخا خمسين ألفًا[1].

❑ كان الصنعاني بدرًا حقيقة لا مجازًا، لم يُدرك ثمَّة محاق ولا سرار، تجاوز إشعاعه الثمانين عامًا التي عاشها إلى القرون التي تلتها.

❑ أضاء بخُطَبه وَسَطه ومدينته، وأضاء بكتبه وطنه وجزيرته، بل

(١) «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني» ص(١٥٧).

تجاوزهما إلى سائر بلاد الإسلام، ووضع بمواقفه الجريئة في اللّه المضيئة بالتقوى منارًا شامخًا للعلماء العاملين وميسمًا خالدًا على أنوف وجباه الظلمة المتسلطين.

يجري عليه رزقه من غير انقطاع بعد موته وله روافده التي يستمر بها عمل الإنسان بعد وفاته:

❑ الصدقة الجارية: وهو إن لم يكن بالثرى الذي يملك أن يقتطع شيئًا من ماله وقفًا للّه إلا أنه وتلك حقيقة ثابتة لأمراء فيها حمى أصول الوقف في صنعاء وغيرها من أطماع الطامعين وعبث العابثين، فكان ساعيًا في استمرار ذلك الخير العميم.

❑ وهذه كتبه ورسائله تبلغ المائتين كما أحصاها الأستاذ البحاثة عبداللّه محمد الحبشي تتداولها الأجيال وتهتدي بهداها الأقاليم.

❑ وأولاده الصالحون العلماء الربانيون الذي نشروا السنة في ربوع اليمن.

قضاياه الأساسية[1]

«يمكن لنا أن نقتصر في هذه النقطة على أمهات اهتماماته وكليات نشاطه القولي والفعلي والتأليفي وأولها التوحيد.

(أ) التوحيد

هذه هي نقطة البيكار وأصل الأصول في كل الأديان السماوية التي دعى إليها كل رسول وجاهد من أجلها كل رباني. وفي العصر الذي عاشه الأمير كانت قضية التوحيد محاطة بالكثير من غبار القرون وركام البدع وزيف المنحرفين. فهناك العقائد الفاسدة في القبور والممارسات المنحرفة لجهلة المتصوفين والتكريس الجاهل أو المتعمد من ملوك الضلالة وأمراء الغواية

(١) انظر «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني» ص(١١٤ ـ ١٢٩).

بخليط من الأوهام والبدع والضلالات وأفضل ما وضعه الأمير لمواجهة كل ذلك رسالته الشافية الكافية (تطهير الاعتقاد من درب الإلحاد) التي تناول فيها الموضوع من كل زواياه وجوانبه. وسنقتطف منه نصوصًا معينة توضح أهم مقاصد البحث.

(ب) صور من المعتقدات الفاسدة

❑ يقول: وكل قوم لهم رجل ينادونه. فأهل العراق والهند ينادون عبدالقادر الجيلاني، وأهل التهائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه يقولون: يا زيلعي يا ابن العجيل. وأهل مكة وأهل الطائف يا ابن العباس. وأهل مصر يا رفاعي يا بدوي. والسادة البكرية وأهل الجال يا أبا طير وأهل اليمن يا ابن علوان. وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ودفع الضر وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام كما قلنا في الأبيات النجدية:

أعادوا بها معنى سواع ومثله ... يغوث وود بئس ذلك من عود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصهر الفرد
وكم نحروا في سوحها من نحيرة ... أهلت لغير اللّه جهرًا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبلاً ... ويستلم الأركان منهن باليد

❑ فإن قال: إنما نحرت للّه وذكرت اسم اللّه عليه، فقل: إن كان النحر للّه فلأي شيء قربت ما تنحره من باب مشهد من تفضله وتعتقد فيه؟ هل أردت بذلك تعظيمه؟ إن قال: نعم. فقل له: هذا النحر لغير اللّه بل أشركت مع اللّه تعالى غيره وإن لم ترد تعظيمه فهل أردت توسيع باب المشهد وتنجيس الداخلين إليه؟ ويقول: «وهذه النذور بالأموال وجعل قسط للقبر كما يجعلون شيئًا من الزرع يسمونه تلمًا في بعض الجهات اليمنية وهذا شيء ما بلغ إليه عباد الأصنام وهو داخل تحت قول اللّه تعالى في سورة النحل:

﴿ويجعلون لما يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾ بلا شك ولا ريب».

❑ ويقول: أخبرني من أثق به أنه رأى من يسجد على عتبة باب مشهد الولي الذي يقصده تعظيمًا له وعبادة ويقسمون بأسمائهم بل إذا حلف من عليه حق باسم اللَّه تعالى لم يقبلوا منه فإذا حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه وهكذا كان عُبَّاد الأصنام. قال تعالى: ﴿**إذا ذكر اللَّه اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون**﴾. . وفي الحديث الصحيح: «**من كان حالفًا فليحلف باللَّه أو ليصمت**».

وسمع رسول اللَّه ﷺ رجلاً يحلف باللات فأمره أن يقول: لا إله إلا اللَّه.

(ج) جناية الملوك وواجب العلماء

❑ يقول: وترى العامة ملوك الأقطار وولاة الأمصار معززين لذلك ويولون العمال لقبض النذور. وقد يتولاها من يحسنون فيه الظن من عالم قاض أو مفتٍ أو شيخ صوفي فيتم التدليس لإبليس وتقر عينه بهذا التلبيس.

❑ ويقول: «اعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها ونسعى في هدم منارها صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بلا دليل ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دبير وقبيل. ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته وأصحاب بلدته يلقنونه في الطفولة أن يهتف باسم من يعتقدون فيه. ويراهم ينذرون عليه ويعظّمون عليه ويرحلون به إلى محل قبره فينشأ وقد وقر في قلبه عظمة ما يعظمونه. وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه فنشأ على هذا الصغير وشاخ عليه الكبير. ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير. بل ترى ممن يتسم بالعلم ويدّعي الفضل وينتصب للقضاء أو الفتيا أو التدريس أو ولاية أو المعرفة أو الإمارة والحكومة معظمًا لما يعظمونه مكرمًا لما يكرّمونه

قابضًا للنذور آكلاً ما ينحر على القبور. فيظن العامة أن هذا دين الإسلام وأنه رأس الدين والسنام».

ويقول: «فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه غلابًا ـ بل كل من يعمرها ـ هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة. أما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ أو كبير ويزوره الناس الذي يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتاف باسمه. بل يدعون له ويستغفرون حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم فيأتي مَنْ بعدهم فيجد قبرًا قد شيد عليه البناء وسرجت عليه الشموع وفرش بالفراش الفاخر وأرخيت عليه الستور وألقيت عليه الأوراد والزهور فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر ويأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل وأنزل الضرر بفلان وبفلان النفع حتى يغرسوا في جبلته كل باطل.. ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها.. وأحاديث ذلك واسعة معروفة فإن ذلك في نفسه منهي عنه ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة».

وهو يقر التوسل بصالحي الأحياء أخذًا من قوله ﷺ للفاروق وقد ذهب حاجًا «أدع لنا يا أخي».. ومن توسل الأصحاب بالعباس في عام الرمادة. ولكنه يشنع أن يكون التوسل بمن يهمل الفرائض فضلاً عن السنن ويشدد حملته على مبتدعة المتصوفة وخصوصًا القائلين بالأفكار المنسوبة إلى ابن عربي.

الاجتهاد

وهذا هو الموضوع الثاني الذي وقف حياته عليه وعانى من العنت بسببه طوال ثمانين عامًا.. وما من صفحة من صفحات حياته ولا معركة من

معاركه الطويلة التي خاضها إلا والاجتهاد رائدها وحاديها. وبالجملة فالاجتهاد بالنسبة له عنوان حياة وسجل وجود وشهادة خلود تقرعه بارزًا في حياته العلمية كما تشهده بارزًا في حياته العملية..

وفي سنة (١١٣٤) نظم تلميذه النابه إسحاق بن يوسف سؤاله السائر في المذهب الذي تسابق الفحول في الإجابة عليه حتى تناهى أمره إلى المتوكل القاسم، ولقي الأمير من أجله العتاب والتشهير.

العدل

سنكتفي هنا بإيراد نصوص من رسالته التي بعثها إلى المنصور من شهارة سنة ١١٤٦ بعد أن وقع عليها واستمد تواقيع من كبار علماء عصره وهي تتناول أهم المظالم السائدة في عصره.

*** رسالة الأمير إلى المنصور:**

بعث هذه الرسالة إلى المنصور الحسين بن القاسم وهم مقيم بشهارة بعد أن وقع عليها اسمه فتبعه كبار علماء اليمن في شهارة وحوث وصنعاء وأكثرهم من تلاميذه وتولى تسليمها إلى يد المنصور بصنعاء القاضي الشجاع أحمد بن محسن الرصاص فكفاه اللّه شره فلم ينله بسوء.

(الحمد للّه الذي لا يعبد بحق سواه ولا يُخاف إلا بطشه بمن تمرد عليه وعصاه. ولا تُرجى الإنابة إلا منه لمن التزم طاعته وتقواه. والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على الدليل عليه والفائض كل خير من الرب تعالى إلى العباد على يديه وعلى آله والذين اهتدوا بهداه وسلكوا نهجه الذي يسلكه من يرجو النجاة. أما بعد..).

ويقدم ابن الأمير التحية للمنصور ولكل من وافق على ما جاء بهذه الرسالة خصوصًا للعلماء والأعيان والسادة والقضاة ثم يقول:

«وهم بحمد اللَّه لا يجهلون هذه الشريعة المحمدية الغراء. ولا ينكرون ما دعتهم من الطرق السوية فسلوكها لكل عاقل أولى وأحرى. فهذه آيات كتاب اللَّه تعالى عليهم تتلى. وهذه سنة رسول اللَّه ﷺ لا تزال عليهم تملى. ولا يقول أحد أن الشريعة ـ وحاشاها ـ قد نُسخت ولا أن عزائمها قد فُسخت ولا أن معالمها قد طُمست ولا أن ربوعها قد درست، حجتها باقية على الدهور والتكليف ثابت إلى يوم النشور. لا تزال بحمد اللَّه رايات حقيقتها قائمة وعيون دلائلها مستيقظة غير نائمة، والأعلام تقررها في التدريس والتدوين. وتحررها جهابذة كل عصر بالإيضاح والتبيين على تغالب الأحكام عامة العوام، وأشرقت أنوار الشريعة رؤوس الأنام. إلا أن ها هنا أموراً كادت تنادي بلسان الحال أنه لا حرام ولا حلال ولا سنة ولا كتاب ولا ثواب ولا عقاب ولا جنة ولا نار ولا دار غير هذه الدار. وهل هناك من فرق بين هذه العهود وعهود الجاهلية فإنها انتهكت المحارم واتسع الخرق في المظالم. فكل ظالم لا يقف على حد في ظلمه ولا يزال باب الزيادة مفتوحًا في حد الظلم ورسمه».

❑ ومنها قوله عن الأوقاف:

«ثم من المنكرات هذه الأوقاف في اليمن جعلت بنظر بعض المترفين قصارى همه سلب غلاتها وإن أسخط رب العالمين لا ينظر رقبة الوقف ولا الموقوف عليه ولا يجعل عليها نائبًا إلا من يركن عليه وما بهذا أمر اللَّه العباد ولا هذا فعل من يخاف المعاد».

المكوس

❑ نقلاً عن ابن الأمير وعصره (ص٢٩٢):

«هذه المكوس قد ملأت الدنيا بمظالمها وأذهبت من الشريعة أبهى معالمها. وهي المسماة بالمجابي في القرى والبوادي. وبالمعشر في البنادر

والسواحل.

وهي ما لا يُعلم على جوازها دليل ولا يدعيه عالم ولا جاهل إلا ما يؤثر عنه ﷺ **«إن اللَّه حرم دماءكم وأموالكم وأعراضكم»**. فمن الذي أباح مال من خرج من بيت اللَّه الحرام غاسلاً ما كان عليه من الآثام.

فإنه لا يخرج إلى هذه السواحل إلا وقبض ما يحرزه حتى ما يأكله من الأكل ثم يقوم عليه بالثمن الوافر. ثم يؤخذ منه ما يختاره من بضاعة الكاتب والناظر فتقوَّم كأنها تركة الأيتام ويؤخذ منه العشر دائمًا وهو أضعاف ذلك في حقيقة الكلام.

وكذلك من يخرج من الهند وغيره من الآفاق جالبًا لبضاعته نافعًا لعباد اللَّه بتجارته.

فيا عباد اللَّه هل ورد في هذا شريعة من الشرائع فنتبع أم وقع من رسول اللَّه ﷺ وخلفائه فنحن لهم تَبَع.

● أم قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا يحل مال مسلم إلا بطيبة من نفسه»**. وثبت عنه ﷺ **أن اللَّه لا يقبل توبة ماكس** وهم قابضوا المجابي التي صارت في هذا القطر اليمني في كل بلدة ومكان يأكلها من قُبضت لهم من الحكام وآل الإمام.

فليتق اللَّه كل إنسان من هذا الحرام فإنه لا يجهل أحد تحريمه من الأنام فإن الناس بين قابض ومقبض وناظر وآمر. وهو حرام بإجماع أمة الإسلام».

الإقطاع

وليس المقصود به ما هو معروف اليوم عن الإقطاع بمعناه السياسي وإنما المقصود به ما كان سائداً يومذاك من استيلاء فرد أو أسرة على جهة من البلاد فيأخذون زكاتها لأنفسهم. يقول نص الأمير:

«ثم الطامة العظمى والمصيبة في دين اللَّه الكبرى هذه القطع التي هي من أعظم النكرات وأشنع البدع قد عم البلاء بها وطم وفرقت البلاد بيوتًا وقرى بين الأعيان من آل الإمام وغيرهم ممن لا نفع منهم للأنام وغيرهم من القبائل الطغام وإن كانوا في إقطاعاتهم أحسن سيرة من بيت الإمام. وزاد الشر حتى أُقطعت الحريم وكل ذي منصب من خاص وعام. وهذه الأولى صارت من السموم القاتلة لدين الإسلام فإنه إعطاء عين الزكاة لمن تحرم عليه من ثلاث جهات.

من المنصب.. فإنه صح عن الصادق الأمين أنها لا تحل الزكاة لمحمد ولا لآل محمد. وقد ذهب إمام المذهب الهادي أن مضطر الآل يقدم أكل الميتة على الزكاة.

● وثانيتهما أيضًا فإنا لا نعلم صاحب قطعة إلا وهو غني. وقد قال ﷺ «**أنها لا تحل لغني ولا قوي ولا لذي مرَّة سوي**».

وثالثها: أن يأخذ أضعافًا مضاعفة على النصاب».

*** العمال والقضاة:**

ويتناول في النقطة الثالثة نقد توليته العبيد والأغرار من حملة الشريعة تولي رقاب المسلمين وأخذ زكاتهم. ويلفت نظر الإمام إلى خطورة منصب الحكام وأن المذهب يشترط أن يكون القاضي مجتهدًا. فكيف وأكثر القضاة المعينين ظلمة جاهلين.

«ثم من المصائب في دين الإسلام هؤلاء الذين ولُّوا منصب القضاة والأحكام فإنه في هذه الأزمنة التساهل في تولية القاصرين ولا سيما إذا كان أبوه قاضيًا فإنه يولي ابنه ولو كان من أجهل الجاهلين. والأصح في المذهب أنه لا بد أن يكون من المجتهدين كأنه ميراث فرضه اللَّه من فوق سبع سماوات. ثم يفرض لهم من المقررات ما يكفي أمة من ذوي الحاجات من

زكاة وغيرها. ثم يقبضون أجوراً واسعة على طيافة شجار أو رقم علامة أو إحضار. وقد أجمعت الأمة كما نقله جماعة من الأئمة أنه يحرم على الحاكم قبض أجرة من المتخاصمين حيث له جراية من بيت المال. وإنه لا يستحق ذلك إلا مع نفعه لعباد اللَّه تعالى بالأقوال والأفعال».

* **الرسامة:**

وفي رسالة تسمى (الحراسة عن مخالفة المشروع من السياسة) نقلاً عن زبارة في نشر العرف، (١/ ٨٣): «ليس الذي اتخذه عمر ﷺ مثل هذه السجون التي عورفت بين الناس من التضييق على من فيها ومنعه من الخروج والدخول لأداء الصلوات وقبض المال من المسجون ولو ساعة. ويسمونها (رسامة). وصارت الحبوس الآن مستغلات للعمال يقبلونها من الأشرار بالأموال. وتبعوا الحجاج في اتخاذ القيود والأغلال. فإنه أول من أحدث ذلك في الإسلام. ولا يخفى على متشرع أن الحبس هذا الذي اتخذه الناس عقوبة من أعظم العقوبات فإنه مشتمل على هتك عرض المسجون وعلى قبض مال منه أولاً أجرة لمن يأمره الأمير أن يذهب به إلى الحبس، ثم أجرة السجان، ثم منعه عن التكسب لمعاشه.. وقد ينضاف إلى ذلك تقييده وتحكم السجان فيه ويهدده بإدخاله محلاً مظلمًا يسمونه المطبق حتى يسلم ما لا يدفع به عن إدخاله ذلك المحل. ثم منعه من كل شيء حتى يُمنع من دخول ولده أو والده إليه. بل قد يُمنع عن رؤية البرق كما قال بعض آل محمد ﷺ وهو في سجن بني العباس[1]:

وبدا له من بعدما اندمل الهوى ... برق تألق موهنًا لمعانه

يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذرى متمنع أركانه

(١) أورد ابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات» أن الأبيات من شعر محمد بن صالح العلوي وقد سجن مدة بأمر المتوكل.

فدنى لينظر كيف لاح فلم يطق نظراً إليه صده سُبحَانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سُمَّت به أجفانه

ولقد نظرت في قول يوسف الصديق عليه السلام عند لقائه والده وأهله وخروا له سجداً حيث قال: ﴿**هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ**﴾. فخص إحسان اللّه بإخراجه من السجن ولم يذكر إحسانه إذ أخرجه من الجب ولا إحسانه إذ برّأه من كيد النسوة ولا إحسانه به إذ ملّكه مصر ولا إحسانه إذ أخرجه من الرق. ما ذاك إلا لعظم بلية السجن وعظم ضرره بالعبد وشدة موقعه في القلب. وإذا كان بهذه المثابة في شدته فلا ينبغي أن يسجن إلا من قد شقّ عصى المسلمين وخرج على خليفة قد استقام به أمر العباد فيخرج الخارج لإثارة الفساد وإيقاظ الفتنة وتفريق كلمة المسلمين وتصيير الناس أحزابًا. وكل طائفة تغضب لواحد وتختلف الأقوال وتُسفك الدماء وتُقطع السبل» اهـ.

*** رائيته التاريخية في أيام الإمام المتوكل:**

وضع هذا الإمام العظيم رائيته التي ضمّنها كل مخازي الوضع ومظالم الحكم، ووُزِّعت على محاريب المساجد فتداولها الناس صباح اليوم التالي في كل صنعاء، إذ أنها جدول حافل بما كانت عليه اليمن قبل ثلاثة قرون وما ظلت تعانيه بعد ذلك على اختلاف الأيام والأعوام نثبتها بنصها على طولها من الديوان:

سماعاً عباد اللّه أهل البصائر لقول له ينفي قيام النواظر
فشقوا ثبات الصبر عند سماعه وصبوا من الأجفان دمع المحاجر
ولا تحسبوا هذا وفاء بحق من تقضى وأضحى في مضيق المقابر
فقد قام ناعي الدين فيكم مناديًا بأرفع صوت فوق أعلى المنابر

وأسمع سكان البسيطة كلها ... فما مؤمن للسامعين بعاذر
أوقر على الأسماع أم في أكنة ... قلوب البرايا أم عمى في البصائر
أيدفن فيما بينكم شرع أحمد ... ويُهدم من بنيانه كل عامر
ولم يُرَ مَحزونٌ عليه كأنما ... دفنتم عدوًّا فقده غير ضائر
ثكلتكم أين التناصح للهدى ... وأين التسامي للعلى والمفاخر
أضعتم وصايا المصطفى وهجرتم ... طريقته في نهيه والأوامر
وجئتم بأمر منه يبكي ذوو الهدى ... ويضحك منه كل رجس وخاسر
وتشمت من أفعالكم كل ملة ... ويُصبح مسروراً بها كل كافر
فيا عصبة ضلت عن الحق والهدى ... ومالت إلى أفعال طاغ وفاجر
بأي ملوك الأرض كان اقتداؤكم ... فما لكم في فعلكم من مناظر
أنافستم الحجاج في قبح فعله ... ففعلكم في الجور فعل مفاخر
يفديكم إبليس حين يراكم ... يقول بكم واللّه قرت نواظري
نبذتم كتاب اللّه خلف ظهوركم ... ولم تعملوا منه بنصٍّ وظاهر
خراجية صيرتم الأرض كلها ... جَنَّبتِم العمال شر المعاشر
لذاك الرعايا في البلاد تفرقت ... وفارقت الأوطان خوف العساكر
وقد رضيت بالعشر من مالها لها ... وتسعة أعشار تصير لعاشر
فلم تقنعوا حتى أخذتم جميع ما إذا ... حوته وما قد أحرزت من ذخائر
سئلت عن جوركم وفعالكم ... أجابت علينا بالدموع البوادر
فقل لقضاة السوء لا در درهم ... أما لكم في نصحهم سهم قامر
أما أخذ الميثاق ربي عليكم ... بأن تنصحوا بالحق أهل المناكر
قنعتم بأخذ السحت منها وبالرشا ... ودافعتم عنهم بسيف المعاذر

معاذير راحت عند إبليس لا سدى ... وما هي إلا ضحكة في المسامر
وقلتم لمولى الأمر يأخذ مالهم ... إذا ما عليم خاف سطوة جائر
وما خاف مولاكم عليهم وإنما ... غدا منفقًا أموالهم في العمائر
ويأخذ بالمنقول منهم عقارهم ... ويعرض عما قد تلى في التهاتر
ويكنز ما فيها ليكوى جبينه ... مع الظهر منه يوم كشف السرائر
ويا عصبة من هاشم قاسمية ... إلى كم ترون الجور إحدى المفاخر
ومن دون هذا أخرج الترك جدكم ... ولو عاش أخلاكم بحد البواتر
فأحللتم ما حرم اللّه جهرة ... وشر ذنوب الخلق ذنب المجاهر
وجوّزتم أخذ المكوس بأرضنا ... وتوفيرها ظلمًا على كل تاجر
وقلتم ترى فيها مصالح للورى ... وربكم أدرى بكل الضمائر
تساويتم في كل قبح فعلتم ... أكابركم في فعلهم كالأصاغر
أأحْللتم أخذ الزكاة وأكلها ... كإحلال أهل السبت صيد الجزائر
وزديتم نص الكتاب بمنعكم ... فقيراً وإعطاء الغني المكاثر
أتيتم بأصناف الضلالات كلها ... وجئتم بأنواع الأمور المناكر
وأما الجزاءات التي كل ليلة ... تسمى سباراً وهي إحدى الفواقر
ففي بردقان أُنفقت وحشيشةٍ ... وخمر لخمار ولهو لسامر
لقد أثرت هذي القبائح بينكم ... وقد ظهرت في كل باد وحاضر
لما قد رأينا في الحسين بن طالب ... وتقطيعه ملقى بجنب المقابر
وبان لكم من غير شك غريمه ... ولكن طرحتم فوقه ثوب ساتر
وحابيتم الجاني لأجل قرابة ... وخشية أن يخزيكم في المحاضر
أكابركم قد مُيّزوا لصلاحهم ... وإغضائهم من موجبات الأوامر

بإقطاعهم ما حرم اللّه أخذه ... فسحقًا بعدَ ذا لعذرًا للأكابر
وأشنع خطب ما يقول خطيبكم ... من الكذب المنشور فوق المنابر
منابر كانت للمواعظ والهدى ... فما بالها عادت لسخرة ساخر
ملأتم بلاد اللّه جورًا وجئتم ... بها سُودت منه وجوه الدفاتر
ووليتم أمر العباد شراركم ... وخولتم أعمالكم كل ماكر
وقد كنتم ترمون من كان قبلكم ... بظلم وجور قد جرى في العشائر
وقلتم نرى المهدي قد بان جوره ... لكل سميع في الأنام وناظر
صدقتم لقد كان الظلوم وإنما ... بظلمكم قد صار أعدل جائر
فكل فتى قد كان شكو فعاله ... وسيرته قد صار أحسن شاكر
وما أخذ الأوقاف قط ولا اشتكت ... مساجدنا في عصره كف قادر
ولا أمر الشجني بأخذ مالها ... فيا بئس مأمور ويا خزي آمر
فبالأخذ كم قد أغلقت من مدارس ... وكم من سبيل قد غدا غير عامر
وكم في زبيد أغلقت من مساجد ... وأغلق فيها مسجد للأشاعر
وفي آنس كم قرية قد تعطلت ... مساجدها عن كل تالٍ وذاكر
ولو تشتري تلك المساجد باعها ... ببخس وما بالى بصفقة خاسر
ويا وزراء السوء يا شر فرقة ... وأخبث أعوان لناهٍ وآمر
إلى أي حين في الضلالة أنتم ... جهلتم بأن اللّه أقدر قادر
أما بالحريبي الشقي اعتبرتم ... ففي فعله للحق أعظم زاجر
هو الرأس في كل الضلالات كلها ... وأول من شاد الضلال لآخر
ولكنكم جئتم بأضعاف ظلمه ... وزدتم على ما شاده من مناكر
وقلتم نرى الأجبار أموالهم لهم ... خذوها عليهم يا ولاة البنادر

ولكن دعوا آل الخليفة كلهم ... وأعوانه من حاكم أو مؤازر
ومن خفتم من شره وفساده ... كردمان وابن الحاج أهل العشائر
فما يفعل الدجال مثل صنيعكم ... فلا تشمتوا من بعد هذا بكافر
فأفعالكم لو رمت حصراً لعدها ... لأفنيت في الدنيا مداد المحابر
ويا علماء الدين ما لي أراكم ... تغاضيتم عن منكرات الأوامر
أما الأمر بالمعروف والنهي فرضكم ... فأعرضتم عن ذاك إعراض هاجر
فإن هم عصوكم فاهجروهم وهاجروا ... تنالوا بنصر الدين أجر المهاجر
إذا كان هذا حال قاضٍ وعالم ... وحال وزير أو آمر مظاهر
ولم تنتهوا عن غيكم فترقبوا ... صواعق قهار وسطوة قادر
فما الله عما تعملون بغافل ... ولكنه يملي لطاغ وفاجر
وقد أرسل الآيات منه مخوفًا ... ولكن غفلتم عن سماع الزواجر
رماكم بقحطٍ ما سمعنا بمثله ... وحبس سحاب بالإغاثة ماطر
أجيبوا عباد الله صوت مناصح ... دعاكم بصوت ما له من مناصر
وقوموا سراعًا نحو نصرة دينكم ... إذا رمتم في الحشر غفران غافر
وحسن ختام النظم أزكى صلاتنا ... على المصطفى والآل أهل المفاخر

وقد اهتز القصر لهول المفاجأة التي لم يكن قد تعودها ولم يدر بحسبانه وقع مثلها. فلقد أصبحت صنعاء الهادئة الصامتة تتناول القصيدة الكاشفة لفضائح الوضع ثم تناقلتها الأيدي خارج صنعاء وعلى امتداد أرجاء اليمن وكل قارئ لها يشعر أنها تنطق عن قلبه وتتحدث بلسانه؛ لأنها الصدى المسموع لكل صور المعاناة اليومية والمتاعب الدائمة»[1].

(١) «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل» ص(٧٦ ـ٧٩).

نصرة السنة ومحاربة البدعة

وهذه هي القضية الأساسية الخامسة التي قطع فيها الأيام والأعوام. وما أعظمها من قضية وما أكرمه من مقام. وقد اخترنا ثلاثة مواضع تمثل بعضًا من نشاطه الجاهد وسعيه الحميد في هذا المجال.

* **الكفاءة بين الزوجين:**

❑ قال في «سبل السلام» ج(٢) ص(١٠٠٧):

«والذي يقوى هو ما ذهب إليه زيد بن علي ومالك، ويروى عن عمر وابن مسعود وابن سيرين وعمر بن عبدالعزيز وهو أحد قولي الناصر أن المعتبر الدين لقوله تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ ولحديث: «**الناس كلهم ولد آدم**»، وتمامه «**وآدم من تراب**» أخرجه ابن سعد من حديث أبي هريرة وليس فيه لفظ كلهم «والناس كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى»، أخرجه ابن لال بلفظ قريب من لفظ حديث ابن سعد. وأشار البخاري إلى نصرة هذا القول حيث قال: «باب الأكفاء في الدين»، وقوله تعالى: ﴿**هو الذي خلق من الماء بشرًا**﴾ الآية. فاستنبط من الآية المساواة بين بني آدم ثم أردفه بإنكاح أبي حذيفة من سالم بابنة أخيه هند بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة وسالم مولى امرأة من الأنصار، وقد تقدم حديث «**فعليك بذات الدين**» وقد خطب النبي ﷺ يوم فتح مكة فقال: «**الحمد لله الذي أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتكبرها. يا أيها الناس إنما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله**. ثم قرأ الآية».

● وقال ﷺ: «**من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله**».

فجعل ﷺ الالتفات إلى الأنساب عيبة الجاهلية وتكبرها. فكيف يعتبرها المؤمن ويبني عليها حكمًا شرعيًّا.

● وفي الحديث: «**أربع من أمور الجاهلية لا يتركها الناس**». ثم ذكر الفخر بالأنساب. أخرجه ابن جرير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. . وفي الأحاديث شيء كثير في ذم الالتفات إلى الترفع بها. وقد أمر ﷺ بني بياضة بإنكاح أبي هند الحجاج وقال: «**إنما هو امرؤ من المسلمين**» فنبه على الوجه المقتضي لمساواتهم وهو الاتفاق في وصف الإسلام. وللناس في هذه المسألة عجائب لا تدور على دليل غير الكبرياء والترفع. ولا إله إلا اللّه كم حرمت المؤمنات النكاح لكبرياء الأولياء. ولقد مُنعت الفاطميات من جهة اليمن ما أحل اللّه لهن من النكاح لقول بعض أهل مذهب الهادوية أنه يحرم نكاح الفاطمية إلا من فاطمي، من غير دليل ذكروه. . وليس مذهب الإمام الهادي عليه السلام بل زوج بناته من الطبريين. . وإنما نشأ هذا القول من بعده في أيام الإمام أحمد بن سليمان وتبعهم بيت رياستها فقالوا بلسان الحال: تحرم شرائفهم على الفاطميين إلا من مثلهم. وكان ذلك من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير بل ثبت خلاف ما قالوه عن سيد البشر كما دل له. .

● وعن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «**انكحي أسامة**» رواه مسلم. وفاطمة قرشية فهرية أخت الضحاك ابن قيس وهي من المهاجرات الأول. كانت ذات جمال وفضل وكمال. جاءت إلى الرسول ﷺ بعد أن طلقها أبو عمرو ابن حفص بن المغيرة بعد انقضاء عدتها منه فأخبرته أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم خطباها فقال رسول اللّه ﷺ: «**أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه وأما معاوية فصعلوك لا مال له. انكحي أسامة بن زيد** ـ الحديث». فأمرها بنكاح أسامة مولاه ابن مولاه وهي قرشية. وقدمه على أكفائها ممن ذكر. ولا أعلم أنه طلب من أحد من أوليائها إسقاط حقه. وكأن المصنف ـ رحمه اللّه ـ أورد هذا الحديث بعد بيان ضعف الحديث الأول للإشارة إلى أنه لا عبرة في الكفاءة بغير الدين كما أورد لذلك قوله.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يا بني بياضة انكحوا أبا هند**». اسمه يسار وهو الذي حجم النبي ﷺ. وكان مولى لبني بياضة «**وانكحوا إليه وكان حجامًا**» رواه أبو داود والحاكم بسند جيد.

فهو من أدلة عدم اعتبار كفاءة الأنساب. وقد صح أن بلالاً نكح هالة ابنت عوف أخت عبدالرحمن بن عوف.

*** ثناؤه ودفاعه عن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب:**

وتواردت إليه أخبار الشيخ المصلح محمد بن عبدالوهاب وما قام به من الجهود في تصحيح الاعتقاد وحمل الناس على التوحيد وطرح المعتقدات الفاسدة مع قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسره ذلك كل السرور وحفزه على وضع قصيدته الدالية المشهورة إلى ابن عبدالوهاب عن طريق مكة:

سلام على نجد ومن حـــل في نجد وإن كان تسليمي على البعد لايجدي

واشتملت القصيدة على تحبيذه حرق «دلائل الخيرات» والحملة على بدعة المذهبية والمتصوفة من أتباع ابن عربي والثناء على مذهب السلف المتمسكين بأدلة الكتاب والسنة وهي تبلغ في مجموعها أربعة وستين بيتًا وربما عدنا إليها في الباب التالي. كان ذلك في سنة ١١٦٣هـ ومضت سنوات والقصيدة تطير كل مطار متجاوزة الجزيرة إلى غيرها ووصلت إليه ردود التحبيذ والاعتراض من كبار علماء الأقطار إلا أن ابن عبدالوهاب لم يرد على ذلك بشيء لا شعرًا ولا نثرًا.

*** سعيه لتدمير أصنام البانيان:**

وفي سنة ١١٦٣هـ حرر رسالة بتدمير أصنام البانيان بالمخا فأمر المهدي بتدميرها وصودرت أموالها المحبوسة عليها وكانت تبلغ خمسين ألف ريال[1].

(١) المصدر السابق (ص٩٤ ـ ٩٥).

* نشره للسنَّة خلال سجنه:

سجن الإمام الصنعاني عام ١١٦٦هـ فلم يُضيّع الأمير فترة الشهرين التي استغرقها حبسه وإنما صرفها في نشر السُّنَّة فللَّه دره وأصبح النقيب الماس الذي حُبِس عنده من تلاميذه اللاصقين.

* فضحه لليهود وعمله على إخراجهم من شبه جزيرة العرب:

لاحظ الصنعاني ـ رحمه اللَّه ـ انتفاش اليهود في اليمن وتطاولهم وخاصة في أيام المهدي أحمد بن الحسن ونفوذهم المتزايد داخل الحاشية وسيطرتهم على اقتصاد البلاد واحتكارهم لضرب العملة فجعلوا يتوسعون في عمارة الكنائس زيادة على العدد المسموح به والمتفق عليه وشرعوا ينشرون المباذل في المجتمع مثل بيع الخمر وإفساد الأخلاق وتطاول بهم الأمر إلى حد أنهم كانوا يزاحمون المسلمين في الطرقات ويحملونهم على سلوك يسار الطريق كما ذكر ذلك الأمير في «سبل السلام».

ومن يرجع إلى كتاب «حوليات يمانية» سيجد أخبار زياراتهم الغريبة لصنعاء في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وانطلاقًا من اطلاعه الواسع على تاريخهم المقيت ضد الإسلام وفهمه العميق لحكم اللَّه تعالى ووصية رسوله ﷺ بإجلائهم عن الجزيرة كان يبذل وسعه ويحث الإمام على إخراجهم أو على الأقل إلزامهم جحورهم التي أنزلوا فيها.. وذات يوم اعتدى مخمور على مراهق ليفحش به فأنقذه الناس وغضب الإمام وطلب كبير اليهود سالم العرافي منكرًا عليهم بيع الخمر. ولكثرة المندسين في الحاشية من أصدقاء اليهود أوعزوا إلى سالم أن يفتري على الأمير والحسن بن إسحاق أنهما افتيا بذلك وسمع الأمير بالزعم المفترى لتوه إلى المتوكل مطالبًا

(١) المصدر السابق (ص٩٥).

بإحضار سالم والتحقيق فيما افتراه وأحضر سالم فعلاً. وهناك فاجأه الأمير بمناقشته عن الكنائس المستحدثة خلافًا للاتفاق. وبينما سالم مرتبك في الإجابة على ذلك إذا بالأمير يفاجئه مرة أخرى بالسؤال عما زعمه من فتوى الأمير وإسحاق وعندها أقر اليهودي أنه لم يكن قد اتفق بالأمير ولا بابن إسحاق وإنما أخبرهم عالمهم بذلك فاتضح للمتوكل كذبه وأمر بحبسه ولكن الأمير أوضح له أن الحبس غير كاف وإنما المقصود هو إزالة الكنائس المستحدثة؛ لأن في بقائها شرًّا كبيرًا. وحذر المتوكل من أصدقاء اليهود المندسين في حاشيته. وفعلاً ما كاد الأمير يصل منزله حتى هرع أفراد الحاشية يتشفعون لدى المتوكل بإخراج سالم من الحبس ووقف الهدم للكنائس..

ولنصغ إلى المؤرخ زبارة يحدثنا في «نشر العرف» عن تفاصيل تلك الحادثة وما كان من مناظرة الأمير مع يوسف المتوكل حولها ورسالة ابن الوزير بشأنها قال (ص٥١٤): ثم أن البدر الأمير ناصح المتوكل بأنه يجب عليه إخراج اليهود من جزيرة العرب التي منها اليمن كما أوصى النبي ﷺ فإن لم يتم إخراجهم فلا أقل من التزامهم الصغار وخراب ما زادوه من الكنائس مما لم يؤذن فيه.

فأمر المتوكل عند ذلك بخراب الكنائس. ثم قال له البدر: هذا اليهودي يبذل المال لمعاونيه وسيراجعكم الآن في شأنه كل أحد ثم خرج. فلما كان ببعض الطريق أرسل إليه المتوكل بأول مكتوب وصل إليه وأمر المتوكل بأن لا يُقيد اليهودي.

وكان اليوم يوم الجمعة. فلما كان بعد صلاتها بلغ البدر أن المتوكل قد أمر بكف الخراب للكنائس. وكان قد شرع فيه المأمورون. فدخل على المتوكل فقال له: قد كنا سنرسل إليكم السيد أحمد ابن عبدالرحمن الشامي لأن الولد يوسف بن المتوكل وصل إلي إلى المحراب في الجامع وقال: لا يحل خراب

الكنائس فقد قررهم عليها الأئمة. فقال البدر: اطلبوه إلى مقامكم للمناظرة. ففرح المتوكل بذلك وأرسل إليه فلما دخل عليه قال له: هذا السيد هو المرشد إلى خراب الكنائس. فقال المولى يوسف بن المتوكل مخاطبًا للبدر: كيف يصدر منكم هذا؟ فقال البدر: أما خراب الكنائس فأمرسهل إنما أطلب من الإمام تنفيذ وصية رسول اللَّه ﷺ بإخراج اليهود من جزيرة العرب.

فقال يوسف: وأين هذا الحديث؟ فقال البدر: هو في كتب الحديث وغيرها. منها «شرح الآثار».

فأمر المتوكل السيد أحمد بن عبدالرحمن الشامي أن يحضر «شرح الآثار» فجاء به ففتح البدر على الحديث.

قال المولى يوسف: إن السيد محمد منطيق وأنا على المنطيق لا أطيق.

فقال المتوكل: فلِمَ جئتنا إلى المحراب. وانقضى المجلس ولم يتم المرام ثم ألف السيد العلامة عبداللَّه بن علي الوزير رسالة يرجح فيها تقرير اليهود على البقاء في اليمن فأورد أدلة واهية وأرسل بها إلى القاضي يحيى بن حسن سيلان؛ ليبلغها إلى المتوكل.

فمر بها الرسول على المولى العلاّمة الحسن بن إسحاق فاطلع البدر عليها.

فأمر البدر رجلاً يشبه خطه خط الرسالة أن يكتب ما يمليه عليه في نقضها وكتب الرد في هامشها بعد كل بحث. وكان يصحح في آخر البحث من الرد موهمًا أنه من الأصل ثم أرجعها إلى الرسول واستكتمه. فلما أبلغها القاضي يحيى سيلان إلى المتوكل أمر بقراءتها. ثم قال المتوكل: اقرأ ما في هامشها فإذا هو ناقض للأصل. فقال المتوكل كيف هذا ينقض بعضه بعضًا. فقال: لا أدري[1] اهـ.

(١) المصدر السابق (ص٨١ ـ ٨٣).

قال الصنعاني في «سبل السلام» عن وجوب إخراج اليهود والنصارى والمجوس من جزيرة العرب:

والحديث دليل على وجوب إخراج اليهود والنصارى والمجوس من جزيرة العرب لعموم قوله: «**لا يجتمع دينان في جزيرة العرب**». وهو عام لكل دين.

والمجوس بخصوصهم حكمهم حكم أهل الكتاب كما عرفت. وأما حقيقة جزيرة العرب فقال مجد الدين في القاموس: جزيرة العرب ما أحاط به بحر الهند وبحر الشام، ثم دجلة والفرات. أو ما بين عدن أبين إلى أطراف الشام طولاً ومن جدة إلى أطراف ريف العراق عرضًا. انتهى.

وأُضيفت إلى العرب لأنها كانت أوطانهم قبل الإسلام وأوطان إسلامهم وهي تحت أيديهم. وبما تضمنت الأحاديث من وجوب إخراج من له دين غير الإسلام من جزيرة العرب. قاله مالك والشافعي وغيرهما.

إلا أن الشافعي والهادوية خصّوا ذلك بالحجاز، قال الشافعي: وإن سئل من يعطي الجزية أن يعطيها ويجزي عليه الحكم على أن يسكن الحجاز لم يكن له ذلك.

والمراد بالحجاز مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها.

وفي القاموس: الحجاز مكة والمدينة والطائف ومخاليفها فإنها حجزت بين نجد وتهامة أو بين نجد والسراة أو لأنها انحجزت بالحرار الخمس: حرة بني سليم وراقم وليلى وشوزان والتار.

قال الشافعي: ولا أعلم أحدًا أجلى أحدًا من أهل الذمة وقد كانت بها ذمة. وليس اليمن بحجاز فلا يجليهم أحد من اليمن ولا بأن يصالحهم على مقامهم باليمن (قلت) لا يخفى أن الأحاديث الماضية فيها الأمر بإخراج من ذكر من أهل الأديان غير دين الإسلام من جزيرة العرب.

والحجاز بعض جزيرة العرب. وورد في حديث أبي عبيدة الأمر بإخراجهم من الحجاز وهو بعض من جزيرة العرب. والحكم ـ كما تقرر في الأصول ـ أن الحكم على بعض أفراد العام لا يخصص العام. وهذا نظيره.

وليست جزيرة العرب من ألفاظ العموم كما وهم فيه جماعة من العلماء. وغاية ما أفاده حديث أبي عبيدة زيادة التأكيد في إخراجهم من الحجاز؛ لأنه دخل إخراجهم من الحجاز تحت الأمر بإخراجهم من جزيرة العرب. ثم أفرد بالأمر زيادة تأكيد لا أنه تخصيص أو نسخ. كيف وقد كان آخر كلامه ﷺ: «**أخرجوا المشركين من جزيرة العرب**». كما قال ابن عباس أوصى عند موته...

وأخرج البيهقي من حديث مالك عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمر بن عبدالعزيز يقول: بلغني أنه كان من آخر ما تكلم به رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**قاتل اللَّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقين دينان بأرض العرب**»...

وأما قول الشافعي: أنه لا يعلم أحدًا أجلاهم من اليمن فليس ترك إجلائهم بدليل فإن أعذار من ترك ذلك كثيرة. وقد ترك أبو بكر رضي الله عنه إجلاء أهل الحجاز مع الاتفاق على وجوب إجلائهم لشغله بجهاد أهل الردة. ولم يكف ذلك دليلاً على أنهم لا يجلون بل أجلاهم عمر رضي الله عنه. وأما القول بأنه ﷺ أقرهم في اليمن بقوله لمعاذ: «**خذ من كل حالم دينارًا أو عدله معافريًا**». فهذا كان قبل أمره ﷺ بإخراجهم فإنه كان عند وفاته كما عرفت. فالحق وجوب إجلائهم من اليمن لوضوح دليله.. وكذا القول بأن تقريرهم في اليمن قد صار إجماعًا سكوتيًّا لا ينهض على دفع الأحاديث فإن السكوت من العلماء على أمر وقع من الآحاد أو من خليفة أو غيره من فعل محظور أو ترك واجب لا يدل على جواز ما وقع ولا على جواز ما ترك فإنه إن كان

الواقع فعلاً أو تركًا لمنكر وسكتوا لم يدل سكوتهم على أنه ليس بمنكر لما علم من أن مراتب الإنكار ثلاث باليد واللسان أو القلب وانتفاء الإنكار باليد واللسان لا يدل على انتفائه بالقلب وحينئذ فلا يدل سكوته على تقرير ما وقع حتى يقال: قد أجمع عليه إجماعًا سكوتيًّا. إذ لا يثبت أنه قد أجمع الساكت إذا علم رضاه بالواقع ولا يعلم ذلك إلا علام الغيوب. وبهذا يعرف بطلان القول: بأن الإجماع السكوتي حجة.

ولا أعلم أحدًا قد حرر هذا في الإجماع السكوتي مع وضحه. والحمد للَّه المنعم المفضل فقد أوضحناه في رسالة مستقلة. فالعجب ممن قال ومثله قد يفيد القطع وكذلك قول من قال: أنه يحتمل أن حديث الأمر بالإخراج كان عند سكوتهم بغير جزية باطل لأن الأمر بإخراجهم عند وفاته ﷺ والجزية فرضت في التاسعة من الهجرة عند نزول براءة فكيف يتم هذا؟ ثم أن عمر أجلى أهل نجران وقد كان صالحهم ﷺ على مال واسع كما هو معروف وهو جراية والتكلف لتقويم ما عليه الناس ورد ما ورد من النصوص بمثل هذه التأويلات مما يطيل تعجب الناظر المنصف.

❑ قال النووي: قال العلماء ـ رحمهم اللَّه تعالى ـ: ولا يمنع الكفار من التردد مسافرين إلى الحجاز ولا يمكثون فيه أكثر من ثلاثة أيام.

قال الشافعي ومن وافقه: إلا مكة وحرمها فلا يجوز تمكين كافر من دخولها بحال فإذا دخل في خفية وجب إخراجه فإن مات ودُفن فيه نُبش وأخرج ما لم يتغير. وحجته قوله تعالى: ﴿**إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام**﴾.

✍ **قلت**: ولا يخفى أن البانيان هم المجوس والمجوس حكمهم من حكم أهل الكتاب لحديثه: «**فسنوا بهم سنة أهل الكتاب**». . فيجب إخراجهم من أرض اليمن ومن كل محل من جزيرة العرب. . وعلى فرض أنهم ليسوا

بمجوس فالدليل على إخراجهم دخولهم تحت «لا يجتمع دينان في أرض العرب»[١] .

□ حرقه لكتابي «الإنسان الكامل» لعبدالكريم الجيلي، ومعه «المضنون به على غير أهله» المنسوب للغزالي.

قال في الديوان: لما تطاول معي عارض الإسهال زيادة على سنة ونصف ولم ينفع فيه دواء وأعيا الأطباء جاءني بعض فقهاء صنعاء بكتاب اسمه «الإنسان الكامل» تأليف الجيلي. ومعه «المضنون به على غير أهله» منسوب إلى تآليف الغزالي ولا أظنه من مؤلفاته، وإنما هو مكذوب عليه إن شاء اللَّه.

فطالعت الكتابين وكنت أعرف الأول منهما من أيام ثم رأيت فيهما ما هو واللَّه كفر لا يتردد فيه إيمان. فحرقتهما ثم جعلت أوراقهما في التنور وخبز لي على نارهما خبز نضيج وأكلته بنية الشفاء من ذلك الداء فذهب بحمد اللَّه ذلك الألم. ونمت الليل أو أكثره وحمدت اللَّه تعالى على نصرة دينه وعلى العافية. وقلت أبياتًا، وهي:

ألمّ بجسمي عارض طال مكثه ... وأعيا الأطبا منه طول سقامي
وأشفق أولادي وأهلي وجيرتي ... وظن حميمي أن فيه حمامي
ومما زلت أدعو اللَّه في كل ساعة ... وهل غيره يرجى لكل مرام[٢]

* **دفاعه عن الحجيج وطلب حمايتهم:**

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ١١٨٢هـ توجه ولده إبراهيم قاصدًا البيت الحرام وكانت الأخبار الواردة عن الحرمين تنقل إلى المسامع خبر

---

(١) «سبل السلام» (٢/ ٣٦٧).
(٢) «مصلح اليمن» (ص١٢٨ ـ ١٢٩).

اضطراب الأحوال هناك وسطو العبيد على الحجيج فبعثها إلى الملك آنذاك الشريف مساعد يقول فيها:

إلى الأشراف أعيان الأنام ... وأهل البيت والبلد الحرام
بنو حسن وآل أبي نُمي ... وابنا أحمد خير الأنام
سلام لا يزال على رباكم ... من الرب السلام على الدوام
ولا زلتم حماة البيت ممن ... يحاول فيه أنواع الآثام
أتانا عنكم خبر غريب ... تواتر من يماني وشامي
بأن عبيدكم أضحوا لصوصًا ... يخيفون الحجيج بكل عام
إذا ظنوا بمال عند شخص ... ببطن الجيب أو تحت الحزام
تواثبت الجميع ليأخذوه ... ولو في الحجر كان أو المقام
ولو بالقتل إن عنهم تأبى ... بلا خوف هناك ولا احتشام
فقل لمساعد الملك المفدى ... لماذا لا تذب عن الأنام
وأنت عزيز قومك في أسود ... من الإشراف ليس له مسامي
أيأمن من يحج بكل فج ... ويلقى الخوف في البلد الحرام

*** رده على الزنادقة:**

كان الأمير يسمع بالمنكر البعيد عنه فيلزم نفسه بإنكاره ولو باللسان.. بلغه مرة ظهور بعض الفواحش بقطر قصي عنه فوضع قصيدة طويلة ينكر فيها على من سمع.. وكذلك شأنه مع بيت يقوله زنديق أو شبهة يروجها فاسق فلا يلبث أن يضع رده المفحم عليها.. وقف على بيتي الراوندي:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا

وهو الراوندي المرتد الذي هرب من سيوف المسلمين وأوى إلى ابن

لاوي اليهودي ووضع له كتبًا في الرد على الشريعة الإسلامية وصاحبها ﷺ فأجاب الأمير على بيتيه بقوله:

هذا الذي زاد أهل العلم معرفة ... وزادهم بالإله الحق تصديقا
فليس بالجهل صار الرزق مغتبطًا ... وليس بالعقل صار الرزق ممحوقا
وإنما هي أرزاق مقدَّرة ... بحكمة اللَّه فاسأل منه توفيقا

❑ ووقف الأمير على أبيات المعري:

كم غودرت غادة كعاب ... وعُمِّرت أمها العجوز
أحرزها الوالدان خوفًا ... والقبر حرز لها حريز
يجوز أن تخطئ المنايا ... والخلد في الدهر لا يجوز

❑ فأجاب عليه:

واللَّه ما أخطت المنايا ... ولا عليها الخطا يجوز
وإنما خالق البرايا ... الواحد القاهر العزيز
قدر آجالهم كماشا ... الطفل والكهل والعجوز
فمن تعامى وكان أعمى ... أنَّى لنيل الهدى يحوز

❑ وأطلع على قول المعري أيضًا:

أخفتم السابح في لجة ... ورعتم في الجو ذات الجناح
هذا وأنتم عُرش للردى ... فكيف لو خُلدتم يا قباح

❑ فرد عليه:

يا برهمي الشرع ربي الذي ... لصيد بر ولبحر أباح
لو كنت تقرى الذكر والسنة ... الغراء ما قلت لهم يا قباح
فما على من صاد حوتًا ولا ... ذات جناح ما عليه جناح

❑ وقال أيضًا في الرد عليه:

حرمت أكل اللحم يا جاهلاً ... ولمت من جهلك أهل الصلاح

وربنـــا مـــنَّ علينـــا بمـــا نصيد من حوت وذات الجنـــاح
تفضـــلاً يا منكـــراً فضـــله فمـــا علينا في مبـــاح جنـــاح
قلدت أهـــل الكفـــر لكننـــا نتبع آيات الكتـــاب الصحـــاح[1]

فرحم اللَّه الإمام الصنعاني وأجزل له المثوبة بدفاعه عن دينه ونشره للسنة وقمعه للبدعة.

* العلاّمة القانت يحيى بن محمد الحوثي ابن عروب تلميذ الصنعاني وإنكاره على إمام اليمن المنصور:

في سنة ١١٤٢هـ كان هجوم الباطنية من يام على بيت الفقيه إحدى مدن تهامة وعلى حفاش وملحان. وارتكبوا فيها العظائم. وبعد أن نهبوا وسلبوا أرسل المنصور جندًا اعترضوهم في أثناء الطريق وانتزعوا منهم شطرًا مما نهبوه. وكانت هذه الحادثة من أبشع ما صنعته الباطنية وبعض الموالين لهم من القبائل فإنهم لم يكتفوا بسلب الأموال وإنما أضافوا إليها سبي النساء والأطفال وبيع الحرائر وبيع الإماء. واعتبر المنصور استيلاء جنده على الشطر المنهُوب نصرًا ضربت له الطبول، ووردت به البشائر، وقبلت فيه التهاني. لكن اللَّه سبحانه جعل في كل جيل شهودًا منه ووازعين له. فما أن وردت المراسيم الإمامية ناقلة التهاني مفعمة بالابتهاج حتى بعث العلاّمة القانت يحيى بن محمد الحوثي ابن عروب تلميذ ابن الأمير السالف الذكر برسالة رد إلى الإمام المنصور ينكر عليه سطوته ويوضح له حقيقة ما جرى ويجري وهي وثيقة من وثائق الإجلال لعلماء اليمن الصادعين بالحق.

وإليك فقرة من رسالته إلى المنصور قال: خلا أن كتابكم أعلن بما لا

(١) «مصلح اليمن» (ص٢١٣ ـ ٢١٥).

يقتضيه الحال والمقام. وإن لكل مقام مقالاً ولكل مقال حالاً يعرف. ذلك من نظرة في علم البلاغة وإن لم يكن من أهل الكمال دع عنك من صال في ميدان ذلك العلم وجال. والحال يقتضي أن يؤتى بكتاب حادث عظيم وخطب جسيم وكتاب تعزية بما حصل على المسلمين والضعفاء والمساكين وما لاقوه من الظلمة الضالين ثم تأسونا بما أسانا به القرآن وبما وصانا رسول الرحمن ﷺ ما اختلف الملوان وكر الجديدان وبما قاله السلف الصالحون ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾. وكيف لا؟ وهذه مصيبة في الإسلام وحادث جلل على الأنام وقد سُبيت كذا وكذا امرأة وكذا وكذا ولد. وأهلكت النفوس المحترمات وغُصبت الأموال المملوكات واستبيحت الفروج المحرمات. وصار المسلمون خولاً وأموالهم دولاً ونساءهم كالإماء تباع وتشترى. فخليق بالمسلمين أن يبكوا دمًا لا ماء وأن يسكبوا الدموع من العيون وأن يعزي بعضهم بعضًا وأن يظهروا التلهف والجزع والخيب والفزع لا سيما من أخل بالدفع وهو عليه فرض. فهذا المقال هو الذي يقتضيه الحال لا ما استعرتموه من الأبيات المصرعة والفقر المسجعة والألفاظ المصرعة.

فهذه البضاعة لا تنفق إلا عند غير أهل هذه الصناعة من الجهلة الأغمار لا عند الناظرين بعين الاعتبار من ذوي البصائر والأبصار».

❑ ويقول بعد استطراده في تصوير ما حدث بين الباطنية وجند المنصور من التكالب على السلب، ويخلص إلى الرد على ما كان يطلقه المنصور على جنده من نعتهم بالمجاهدين: «وما ذكرتموه من أن المجاهدين الثابتين فعلوا وفعلوا ممن ذكرتهم لا يستحق اسم المجاهد الشهيد. وإنه قد حدّ لنا نبينا ﷺ حين سُئِل ما هو؟ فقال: «من **قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا**».

وهؤلاء إنما قتالهم على حطام الدنيا. وكان يجب عليكم الدفع عن رعيتكم من الضعفاء قبل أن تنهشهم الكلاب والذئاب، وقبل أن يصلوا إلى بلاد حفاش وملحان. ولو كسرتم تلك الفئة الباغية قبل أن يصلوا إلى المسلمين لعددنا ذلك نصرًا مبينًا وبشارة عظيمة ولكأنكم فتحتم القسطنطينية وفلسطين، ولو كان جندكم من أهل الحق كما ذكرتم لردوا ما نهبوه إلى أهله ولما بقوا في الحين وحراز محررين أنفسهم من سقوط السماء أو كأنهم حافظون لها وهي لا تقع على الأرض إلا بإذن اللَّه».

ثم يسرد بعض الخطوب التي نزلت برعاياه ويحدد أسباب الداء. ولعمري أنه لقول فاصل ما أحوج الناس حتى اليوم إليه.

قال ـ رحمه اللَّه ـ: «نعم قد كتبنا كتبًا من جهة المصالحة لحاشد وبكيل ويافع، وأجبتم بجواب مغالطة تركتم ما ذكرناه لكم من المصالحة لأنكم لو فعلتم ذلك لما نهبت يافع قعطبة... والسبب فيما حصل أنكم خصصتم بوزراء سوء كل واحد منهم عن الدين عاطل، دينهم أكل أموال الناس بالباطل، ولا يصلون إلى ذلك إلا بفتح هذه المهالك، ولم يرقبوا شديد بطش المالك، فبعضهم يقف فوق سجادته بعض يومه وليلته وتلك شبكة لأموال المسلمين، وبعضهم يخبط خبط عشواء كحاطب ليل في ظلماء لا ينظر في الأمر بعين الحقيقة، ويوهم بأنه من أهل الطريقة، وكلهم يتبع كل ما قيل له: هذا كذا قال: بلى هذا يصلح هذا من أحسن ما يكون. فهؤلاء يجب عليكم الدفع عن المسلمين بما أمكن إما بقتال العدو أو المصالحة كما كان عليه من قبلكم، وكذلك النظر في المحبوسين؛ فإن تحميلهم القيود الثقيلة المهلكة أو المثخنة مما لا يجوز وكذلك غيرهم من المستضعفين. ولم يكن لأئمة أهل البيت ذلك، وإنما كانت قيودهم بأقفال تُفتح للصلاة» اهـ[1].

(١) «مصلح اليمن» (ص٨٧ ـ ٨٨).

❑ وفضل الحوثي ابن عروب شاهد بفضل الصنعاني فإنه حسنة من حسناته.

* الشوكاني شيخ عصره ـ قذى في عيون المبتدعة والمقلِّدة وشجى في حلوق الرافضة:

واجه الشوكاني أدواء قومه ومفاسدهم الوبيلة، والركام الهائل من الاعتقادات المنحرفة والأهواء الزائفة والنظريات السقيمة التي أصابت الأمة على امتداد القرون وتطاول الأحقاب وابتعادها شيئًا فشيئًا عن صراطها المستقيم وعروتها الوثقى الكتاب والسنة فنتج عن ذلك البعد أخطبوط متعدد الجنبات والاتجاهات:

١ ـ الرافضة بما تعنيه من ثلب الأصحاب وبالتالي منابذة السُّنة فالتردي في المهالك التي لا يبقى معها دين.

٢ ـ الباطنية بمنطلقها المجوسي الحاقد على الإسلام وتنظيمها الهادم لأسس العقيدة المفضي إلي نسف كيان الأمة.

٣ ـ التصوف الفلسفي المؤثر للابتداع على الاتباع مما يؤدي إلى الانحراف والخبط في المتاهات.

٤ ـ المذهبية لابتعادها عن المصدر الواحد النقي، والتيه في مختلف الأقوال، والجمود وعدم تمحيص أقوال الرجال على ضوء الأدلة القطعية.

٥ ـ إلى جانب ذلك المظالم المتعددة من الظلم الإداري الناتج عن عبث واختلاس رجال الحكم والظلم المالي المتمثل في المكوس الجائرة المفروضة على المسلمين بغيرسند شرعي، وإنما هي معارضة لما نهى عنه الكتاب والسنة والظلم الاجتماعي المتمثل في ما كان سائدًا ولا يزال في بعض الجهات من التحايل على ميراث المرأة باسم الوصايا والنذور ومنعها من حقها المكفول لها

بالشريعة. وكذلك موضوع الطلاق الذي أصبح مع طول الزمن مخالفًا في أغلب صوره لمقتضى الشريعة المبين بالكتاب والسنة الصحيحة والظلم القبلي الذي كان ولا يزال يحدث من اعتداء قبيلة على أخرى وإهدار الأرواح والديار والأموال.

كل تلك الأمراض والمظالم كانت موضوعة في خارطة الشوكاني الفكرية والعملية وهو يتحسس أوجاع قومه.

*** دعوة الشوكاني إلى عقيدة السلف:**

يرى الإمام الشوكاني: «أن طرق المتكلمين لا توصل إلى يقين ولا يمكن أن تصيب الحق فيما هدفت إليه؛ لأن معظمها قام على أصول ظنية، لا مستند لها إلا مجرد الدعوى على العقل، والفرية على الفطرة، فكل فريق منهم قد جعل له أصولاً تخالف ما عليه الآخر، وقد أقام هذه الأصول على ما رآه عنده هو صحيحًا من حكم عقله الخاص المبني على نظره القاصر، فبطل عنده ما صح عند غيره، وقاسوا بهذه الأصول المتعارضة كلام اللَّه ورسوله في الإلهيات وما يتصل بها من العقائد، فأصبح كل منهم يعتقد نقيض ما يعتقده الآخر، وكل منهم يزعم أن العقل يقتضي ما يعتقده، وحاشا العقل الصحيح السالم عن تغيرّ ما فطره اللَّه عليه، أن يتعقّل الشيء ونقيضه، فإن اجتماع النقيضين محال عند جميع العقلاء»[1].

والإمام الشوكاني يدافع عن عقيدة السلف ويفرد لها بعض الرسائل مثل رسالة «التحف في مذهب السلف»، و«كشف الشبهات عن المشتبهات»، وهو يقول هذا بعد أن سبر علم الكلام، وأكبّ على مؤلفات طوائفه المختلفة، وشُغِل بها زمنا، فلم يظفر بشيء ولم يستفد غير الحيرة.

(١) «كشف الشبهات عن المشتبهات» للشوكاني (ص٢٢، ٢٣).

وغاية ما حصّلته من مباحثي ... ومن نظري من بعد طول التدبرِ
هو الوقوف ما بين الطريقيْن حيرة ... فما علم من لم يلق غير التحيّر؟
على أنني قد خضتُ منه غمارة ... ولم أرتض فيه بدون التبحر[1]

*** دعوته إلى تطهير الاعتقاد:**

رأى الإمام الشوكاني ما أدخله غلاة الشيعة والصوفية على العقيدة الإسلامية من جرّاء رفعهم القبور، وبناء القباب، ودعوة الأموات والعكوف على قبورهم، وطوافهم بها وتعظيمها، والذبح لهم والنذر لهم، وهذاكفر بواح يناقض شهادة «أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً رسول اللَّه».

وهو يجهر بهذه الدعوة للعوام والخواص، ومما كتبه يشفع فيه على بعض الخواص، ممن نسوا كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، وانساقوا وراء التعصب أو التقليد رسالة بعنوان «شرح الصدور بتحريم رفع القبور»، وهو في هذه الرسالة يرد على الإمام يحيى بن حمزة وهو من كبار أئمة الزيدية في القرن الثامن الهجري في قوله: «لا بأس بالقباب والمشاهد على قبور الفضلاء والملوك لاستعمال المسلمين، ولم ينكر». فيثبت أن هذا أول نداء بهذه البدعة صدر في الديار اليمنية، ثم تتابع المؤلفون في الفقه بهذا التصريح والجواز وراءه، تقليداً له واقتداء به. وهو يبطل هذه الفتوى بإبطال أدلتها التي أسندها بها صاحبها، وهي «استعمال المسلمين ولم ينكر» فإن استعمال المسلمين أو عدم انكارهم، إذا تعارض مع الكتاب أو مع السنة، كان ذلك الاستعمال باطلاً، فإن المرجع في الجواز وعدمه هو كتاب اللَّه وسنة الرسول؛ ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ**﴾ [النساء: ٥٩]، وقد ظهر في الكتاب

(١) «التحف في مذهب السلف» للشوكاني (ص٥٤)، و«كشف الشبهات» للشوكاني (ص٢٣، ٢٤).

والسنة أن هذه أعمال تتساوى مع الكفر وعبادة الأصنام، وقد قال الرسول ﷺ: «كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد»، ثم إن علماء المسلمين في كل عصر، ما زالوا يروون أحاديث رسول اللَّه ﷺ في لعن من فعل ذلك ويقررون شريعة الإسلام في تحريم ذلك في مدارسهم ومجالس حفّاظهم، يرويها الآخر عن الأول والصغير عن الكبير»[1].

❑ ويدعو الشوكاني ـ رحمه اللَّه ـ إلي إخلاص التوحيد، أو النطق بشهادة «أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه» على وجهها، وأن المجتمع لا يمكن أن يستفيد من إيمانه في حياته الاجتماعية أو الاقتصادية والسياسية، إلا إذا كانت هذه الشهادة خالصة من مظاهر الشرك، فهنا يمكن أن ينتفع الإنسان من هذه الشهادة دينًا ودنيا، وأنه ما أخّر المسلمين، وقعد بهم عن الاستمرار في نهضتهم وعزتهم، إلا تحريف هذه الشهادة، وحيلولة مظاهر الشرك بينها وبين حلولها في القلب، أو حلولها ولكن بزيغ وتشويه، وأن هذه هي علة المسلمين اليوم، والتي وراء كل جمود وتأخر وذلة»[2].

«وقد أخذت هذه الدعوة منه حيّزًا كبيرًا بحيث صار فيها في اليمن إمامًا كابن عبدالوهاب في الحجاز من قبل، وابن تيمية في مصر والشام، ولاقى من جرّائها الكثير من المتعصبين ومن المقلدين، ورُمِي بالنصب من أجلها، ومن أجل دعوته إلى الاجتهاد والرجوع بالتشريع إلى طريقة السلف الصالح من الصحابة والتابعين»[3].

ورد على ادعاؤهم بأنه ناصبي بكتابه «رد السحاب في مناقب القرابة

---

(١) «شرح الصدور بتحريم رفع القبور» للشوكاني (ص٩) وما بعدها.

(٢) رسالة «الدواء العاجل في دفع العدو الصائل» للشوكاني (ص٦٢، ٦٣، ٦٨).

(٣) مقدمة «قطر الولي على حديث الولى» أو «ولاية اللَّه والطريق إليها» للشوكاني (ص٣٧ ـ تحقيق الدكتور إبراهيم إبراهيم هلال ـ دار الكتب الحديث.

والأصحاب في فضائل علي ﷺ، وزوجة فاطمة وأولادها ﷺ».

*** دعوته إلى الاجتهاد، ومحاربته العنيفة للتقليد:**

ورأيه في الاجتهاد والتقليد عنوان لروح مذهبه، وهو عالم أصيل متمكن، متحمس له من باب التدين والمحافظة على الكتاب والسنة، وهو يقول في ذلك: «والذي أدين اللَّه به أنه لا رخصة لمتعلم من لغة العرب ما يفهم به كتاب اللَّه بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف، وشطر من مهمات كليات أصول الفقه في ترك العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز، أو السنة المطهرة، ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأي سواء كان قائله واحدًا، أو جماعة، أو الجمهور»[1].

ولقد ألّف الشوكاني كتابًا للتراجم كدليل عملي وواقعي على أن باب الاجتهاد لم ينسد، وأنه مفتوح إلى يوم الدين، ذلك هو كتابه المشهور «البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع» ذكر فيه أصنافًا من المجتهدين، أو ممن فاقوا رتبة الاجتهاد، كإبطال لفكرة انتهاء الاجتهاد بانتهاء القرن السادس الهجري، وفي ذلك يقول: «فإنه لما شاع على ألسن جماعة من الرعاع اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها، حتى اشتهر عن جماعة من أهل هذه المذاهب الأربعة تعذّر وجود مجتهد بعد المائة السادسة كما نقل عن البعض، أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون.. حداني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا، ليعلم صاحب تلك المقالة، أن اللَّه ـ وله المنة ـ قد تفضّل على الخلف، كما تفضّل على السلف»[2].

(١) «البدر الطالع» (٢/ ٨٤).

(٢) «البدر الطالع» (١/ ٢، ٣).

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ:

يا غارقين بشؤم الجهل في بدع ... ونافرين عن الهدى القديم، عدوُا
ما باجتهاد فتى في العلم منقصة ... النقص في الجهل لا حيّاكمُ الصمدُ
لا تنكروا مورداً عذباً لشاربه ... إن كان لابد من إنكاره فردوا

❑ تجد هذه الروح القوية في جميع كتبه التي وصلتنا والتي أُلّفت في علوم الكتاب والسنة جميعها، مما يجعل منه مجاهداً كبيراً في هذا الميدان لا مجرد صاحب دعوة وكفى، وقد وقف بعض كتبه على بيان وجوب الاجتهاد، وعدم جواز التقليد مثل: كتاب «السيل الجرار»، وكتاب «أدب الطلب، ومنتهى الأرب»، وكتاب «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد»، وكتاب «بغية المستفيد في الرد على من أنكر الإجتهاد من أهل التقليد».

*** كتاب «السيل الجرار» ورده على فقه «الزيدية»:**

وكتاب «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار» في الفقه، يُعتبر تطبيقًا عمليًّا من الإمام الشوكاني لمبدأ الاجتهاد في مسائل الفقه ومناهضا للفقه الهدوي في الزيدية، إذ أنه يأتي بالمسألة التي تكلم عنها الإمام المهدي أحمد بن يحيي المرتضى في الأزهار، أو علق عليها في شروحه هو أو غيره، فيبسطها، ويبين وجه التقليد فيها للإمام الهادي يحيى بن الحسين، أو الإمام يحيى بن حمزة، أو غيرهما، ويقيم الأدلة من القرآن والسنة على بطلان ذلك وابتداعه.

*** جهاد الشوكاني للمقلدين وذمه لهم:**

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «ولقد كان لي مع هؤلاء في أيام الاشتغال بالدرس والتدريس وعنفوان الشباب، وحِدّة الحداثة قلاقل وزلازل جمعت فيها رسائل، وقلت فيها قصائد فمن جملة ما خاطبتهم به ما قلته في

قصيدة:

يا ناقداً لمقال ليس يفهمه ... من ليس يفهم قل لي كيف تنتقد؟
يا صاعداً في عور ضاق مسلكها ... أيصعد الوعر من بالسهل يرتعد؟
يا ماشياً في فلاةٍ لا أنيس بها ... كيف السبيل إذا ما اغتالك الأسدُ؟
يا خائض البحر لا يدري سباحته ... وَيْلي عليك أتنجو إن علا الزبد؟

❑ ومما قلته في ذلك:

رأوني لا أدين بدين قوم ... يرون الحق ما قال الجدودُ
ويطّرحون قول الطهر «طه» ... وكلٌّ منهمُ عنه شرودُ
فقالوا قد أتى فينا فلان ... بمعضلة وفاقرة تؤود
يقول الحق قرآن وقول ... لخير الرسل لا قول ولود
فقلت كذا أقول وكل قول ... عدا هذين تطرقه الردود
وهذا مهيع[1] لأعلام قبلي ... وكلهم لمورده ورود

❑ ومما قلته:

موتوا إذا شئتم قد طار من كلمي ... في نصرة الحق ما حرّرتُ في الكتب
وأرتجى أن يلبي دعوتي نفرٌ ... يسعوْن للدين لا يسعون للنَّشب
لا يعدلون بقول اللّه قول فتًى ... ولا بسنة خير الرسل رأى عني
أبث ما بينهم من مذهبي دررًا ... حجبتها عن ذوي التقليد والريب
يا فرقة ضيّعتْ أعلامها سفهًا ... وصيّرت رأس أهل العلم كالذَّنَبِ
من قال: قال رسول اللّه بينكمُ ... غدا بذا عندكم من جملة النصَب[2]

(١) المهيع: الطريق الواضح.
(٢) «قطر الولي على حديث الولي» للشوكاني (ص٣٤٧ ـ ٣٥١).

❑ ويُرجع تعصب المقلدين إلى الجهل:

أتانا أن سـهلاً ذم جهـلاً علومًـا ليس يعرفهـنَّ سـهلُ
علومًا لو دراهـا ما قلاهـا ولكن الرضى بالجهـل سهلُ

❑ يقول الشوكاني في واجب العلماء وأولى الأمر نحو المقلّدين:

«وواجب على كل من له ولاية يأمر فيها بمعروف أو ينهى عن منكر أن يجعل نهي المنكر الذي عليه هؤلاء عنوان كل نهي ينهى به عن منكر، فإنهم في الحقيقة إنما يطعنون على علماء الدين من السلف الصالح، ومن مشى على هديهم القويم، ويدفعون بالرأي الذي هو ضد الشريعة، ما شرعه اللَّه لعباده، وهم بهذه المنزلة من الجهل البسيط أو المركب.

فهل سمعت أذناك بمنكر مثل هذا المنكر، وبلية في الدين مثل هذه البلية، ورزية في الملة الإسلامية مثل هذه الرزية؟؟ فإن النيل من عرض فرد من أفراد المسلمين منكر لا يخالف فيه مسلم إذا كان عن طريق الغيبة، أو البهتان، أو على طريق الشتم مواجهة ومكافحة.

فكيف بمن جاء بما هو من أعظم البهتان، وأقبح الشتم للشريعة المحمدية، والدين الإسلامي، ولعلماء المسلمين سابقهم ولاحقهم؟؟ فياللَّه وللمسلمين، ياللَّه وللمسلمين، ياللَّه وللمسلمين!!!

فإن هؤلاء لما رأوا كثيرًا من العلماء يداهنونهم ويدارونهم اتقاء لشرهم ما زادهم ذلك إلا شرًّا، ولا أثر فيهم إلا تجرءًا على ما هم فيه.

ولو تكلم أهل العلم بمايجب عليهم من نصر الشريعة والذب عن أهلها بما يجب عليهم لكانوا أقل شرًّا وأحقر ضرًّا»[1].

(١) المصدر السابق (ص٣٥٧ ـ ٣٥٩).

* **الشوكاني يداوي قومه وأمته:**

ولم يكن دواء الشوكاني منحصرًا في التأليف فقط، وإنما كان موزعًا على ثلاث شعب:

١ ـ **الجانب العلمي**: وتبلغ مؤلفاته وأبحاثه ورسائله المئتين أو تزيد تناول فيها كل ما يهم الإنسان من تبصرة بأمور دينه ودنياه وأهمها في مواجهة الأمراض والمظالم السالفة عشرة كتب هي: «فتح القدير في التفسير» و«نيل الأوطار» و«الفوائد المجموعة في الحديث»، و«السيل الجرار على متن الأزهار» في تحقيق القول في المذهب والنص على صحيحه وسقيمه. وكان هذا الكتاب الذي أمضى فيه اثني عشر عامًا من أسباب مضاعفة النقمة عليه و«إرشاد الغبي في مذهب أهل البيت في أصحاب النبي»، و«در السحابة في الذب عن الصحابة»، و«القول المفيد بين الاجتهاد والتقليد»، و«الفتح الرباني الجامع لفتاوى الشوكاني».

٢ ـ **الجانب العملي**: وحياته كلها جهاد متواصل لتمكين الشريعة ونشر السنة. ويمكن إجمالها في تدريسه لكتب الحديث وتطهيره لجهاز القضاء من الجهلة والظلمة وحثه للإمام المنصور على أخذ الزكاة عينًا بحسب مقاديرها في الشريعة وإلغاء المكوس ومحو الأمية الدينية بنشر المعلمين في الأرياف والقرى على حساب الدولة. وقد أفلح في كل ذلك ولو إلى حين وتمكن من إنصاف المرأة من حقها في الإرث وتنظيم الطلاق.

٣ ـ **الجانب التوجيهي**: ويعتبر الشوكاني في هذا الجانب مؤسس مدرسة تربوية رائدة وكتبه في هذا المضمار عديدة. منها «أدب الطلب» و«الدواء العاجل» و«البدر الطالع» وديوان شعره.

هذه باختصار بالغ مجمل إنجازات الإمام الشوكاني الذي كان في عصره شيخ شيوخ السنة في عالم الإسلام على الإطلاق.

* ومِنَ الهند ربّانيون آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر:

«تشرّفت الهند بالإسلام في عهد الخلافة الراشدة، وفُتحت بلاد السند في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك سنة ٩٣هـ على يد المجاهد الباسل محمد بن القاسم الثقفي.

وكان أهلها منذ الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن الرابع عاملين بالكتاب والسنة على مذهب أهل الحديث، بعيدين عن الجمود الفقهي الذي فرّق جمع الأمة الإسلامية، وشتّت شملها فيما بعد.

وشهد على ذلك أبو القاسم المقدسي الرّحالة المعروف في كتابه «أحسن التقاسيم» حين زار بلاد السند سنة ٣٧٥هـ قائلاً:

«أكثرهم أصحاب الحديث، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة ـ رحمه اللّه، وليس به مالكية ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة.

إنهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة، وصلاح وعفّة. قد أراحهم اللّه من الغلوّ والعصبية والفتنة»[1] »[2].

❑ وأرض الهند رويت أرضها وازدهرت بدماء الغزاة والفاتحين المسلمين، وعرق الدعاة والمصلحين، ودموع الأولياء والصالحين، ودعوات الضارعين المبتهلين.

* ملوك آل تغلق وجهادهم للبدع والمنكرات:

ورد عديد من تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللّه ـ من الشام ومصر إلى الهند وكان لهم أثر في دعوة الملك محمد تغلق إلى القضاء على

(١) «جهود مخلصة في خدمة السنة المطهرة» للفريوائي (ص٦) ـ طبعة السلفية بالهند.
(٢) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية ولصلاح الدين مقبول» (ص١٦٣) ـ دار ابن الأثير ـ الكويت.

العادات والتقاليد والبدع والخرافات. وعلى رأس هؤلاء التلامذة:

❑ [«**العلامة عبدالعزيز الأردبيلي**: قد صرّح بوروده إلى الهند وتأثيره في الملك محمد تغلق المذكور عدد من المؤرخين منهم: أكبر شاه النجيب أبادي في «مرآة الحقائق»، والشيخ محمد إكرام في «ماء الكوثر»، والأستاذ محمد إسماعيل الندوي في «تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية».

❑ **والشيخ عليم الدين (حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني)**: ذكره الشيخ محمد إكرام والنجيب آبادي وصرّح بأنه من «تلامذة ابن تيمية، وكان من أبرز من دعا محمد تغلق إلى إزالة البدع والمنكرات، وشجّعه على استئصال الأوهام والخرافات»[1].

* **والعلاّمة شمس الدين ابن الحريري:**

❑ قال النجيب أبادي: كان حنفي المذهب، وكان قاضيًا في مصر إلاّ أنه قد عُزِل عن القضاء لأجل تأييده الإمام ابن تيمية، وجاء إلى الهند سنة ٧٠٨هـ في عهد السلطان علاء الدين الخلجي، وجاء معه بأربعمائة كتاب في الحديث، ولعلّ هذه الخزانة الحديثية التي وصلت إلى الهند أجدر بالذكر والتنويه من غيرها»[2].

وكان الشيخ شمس الدين يقول: «إن لم يكن ابن تيمية شيخ الإسلام فمن؟ وقال بعض أصحابه: أتحبّ الشيخ تقي الدين؟ قال: نعم! واللّه لقد أحببت شيئًا مليحًا».

❑ «لقد أشاد هؤلاء المؤرخون وغيرهم من كبار العلماء مع بعض تعصباتهم وتصوفهم أمثال السيد سليمان الندوي، والأستاذ خليق أحمد

(١) «مرآة الحقائق» (ص٤٣٣).
(٢) المصدر السابق (ص٤٣٣).

النظامي بجهود تلامذة شيخ الإسلام ابن تيمية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عصر الملك محمد تغلق وتأثر الملك بهم في حكم العباد وسياسة البلاد»][1] .

* **ملك الهند الشجاع محمد تغلق :**

حثه تلامذة ابن تيمية على إحياء ما اندرس من معالم الإسلام، والاهتمام بإقامة الصلوات الخمس، ورغّبوه في اختيار منهج شيخ الإسلام في العقائد والعبادات والآداب والمعاملات وأثمرت دعوتهم ولاقت عنده قبولاً[2].

«ومما يُحكى في اشتداده في إقامة الشرع ورفع المغارم والمظالم أنه كان شديدًا في إقامة الصلاة آمرًا بملازمتها بالجماعات، يُعاقب على تركها أشد العقاب. ولقد قتل في يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنيًا، وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك إلى الأسواق، فمن وُجد بها عند إقامة الصلاة عُوقب، حتى انتهى إلى عقاب مربّي الخيل إذا ضيّعوا الصلاة، وأمر أن يُطالب الناس بتعليم فرائض الوضوء والصلاة والإسلام، فكانوا يُسألون عن ذلك، فمن لم يُحسنه عوقب، وصار الناس يتدارسون ذلك ويكتبونه.

ومما قيل في ذلك أنه أمر أخاه أن يكون قعوده مع قاضي القضاة في قبّة مرتفعة مفروشة بالبسط، فمن كان له حق مع أحد من كبار الأمراء وامتنع عن أدائه لصاحبه يُحضره رجال أخيه عند القاضي ليُنصفه.

ومما فعل من ذلك أنه أمر برفع المكوس عن بلاده، وأن لا يُؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة. وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم في كل

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٤٢)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ٣٢٠).

(٢) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة» (ص٢٤، ٢٥).

يوم اثنين وخميس. . ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من المثول بين يديه. . وعيّن أربعة من الأمراء الكبار يجلسون على أبواب أربعة لأخذ القصص من المشتكين. . وإن لم يأخذوه مضى إلى قاضي المماليك، فإن أخذ منه وإلاّ شكا إلى السلطان، فإن صحّ عنده أنه مضى إلى أحد منهم فلم يأخذه أدّبه. وكل ما كان يجتمع من القصص في سائر الأيام يطالعه بعد العشاء الآخرة»[١].

❑ وقال الشيخ محمد إكرام: «إن المتصوفة الكبار وأصحاب التراجم ألصقوا بالملك محمد تغلق تهمًا كثيرة، وذكروا عنه قصصًا تشكك في عقائده، ولكن الأمر الذي يدعو إلى التفكير فيه هو أن محمد تغلق آذى المتصوفة فقط. وأما العلماء فلم يلاقوا منه إلا احترامًا وتبجيلاً. وكان يُؤكد على إقامة الصلوات الخمس بكل قوة وشدة، وكان يحافظ على الصلوات الخمس بالجماعة.

وكان محمد تغلق ـ رحمه اللّه ـ حافظًا للقرآن كله، محافظًا على الصلوات الخمس في أوقاتها بكل عناية»[٢].

❑ قال الأستاذ مسعود الندوي بعد ما ذكر محمد تغلق وماله وما عليه:

«ومهما يكن من حقيقة الأمر فإنه أحب لدينا ممن تقدّمه من ملوك الهند الجبابرة؛ لأنه قام بشيء من واجبه في سبيل إحياء مآثر الإسلام وتجديد ما اندرس من آثاره ومعالمه في هذه البلاد. والناس فيما يعشقون مذاهب»[٣].

❑ قال مؤرخ الهند الهندوكي الوثني تاراشند: «كان محمد تغلق ملتزمًا التزامًا كاملاً بمقتضيات دينه، وكانت حياته العائلية نزيهة ولم يكن عصبيًّا.

(١) «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للسيد عبدالحي الحسني (٢/ ١٢٩).
(٢) «ماء الكوثر» (ص١٠٤).
(٣) «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» لمسعود الندوي (٢٤ ـ ٢٥).

وحاول إصلاح حياة الهنادك، والقضاء على تقاليد الديانة الهندوكية في شأن النساء المتوفى عنهن أزواجهن فقد كُنّ يحرقن أنفسهن مع أزواجهن، وكان يسمى هذا العمل «ستى»[١] .

ولم ينصفه ابن بطوطه وادعى عليه ما ليس فيه من أنه تجاسر على إراقة الدماء وردّ عليه الدكتور مهدي حسن في كتابه عن حياة محمد تغلق.

*** الملك فيروز شاه تغلق وعطفه على الرعية وإعلاؤه لكلمة اللّه:**

تولى فيروز شاه تغلق (٧٥٣ ـ ٧٩٠هـ) الأمر بعد وفاة ابن عمه محمد تغلق فرأت البلاد منه ملكًا صالحًا يعطف على الرعية ويعني بأمور صلاحهم.. لم تظهر منه بادرة تزري بسيرته في رعيته وسياسته في ملكه، وأنه قد أتى في سبيل إعلاء كلمة اللّه ورفع لوائها من الأعمال الجليلة بما لم يأت به، بل وبما يضاهيه أحد ممن تقدّمه من ملوك المسلمين. وذكر بنفسه كل الاصلاحات التي قام بها في تأريخه «فتوحات فيروز شاهي». ولخّصه الأستاذ مسعود الندوي في كتابه «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند»، وفيه كل ما يحتاج إليه العباد والبلاد من الإصلاحات في العقيدة والدين، والمعيشة، والاقتصاد، والسياسة والحكم، اللّهم بعض التصرفات والنقائض وسبحان من تنزّه عنها وله الكمال المطلق»[٢] . اهـ.

*** الإمام أحمد بن عبدالأحد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني (٩٧١هـ ـ ١٠٣٤هـ):**

لن نستطيع أن نعرف قدر هذا الإمام حتى نقف أولاً على زندقة الملك أكبر وما فعله بالإسلام:

(١) «مختصر تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» (ص١٧٢ ـ ١٧٣).

(٢) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص٢٤ ـ ٣٠).

الملك أكبر وفتنة القرن العاشر الكبرى «الاعتقاد ببداية نظام جديد للعالم على بداية الألف الثاني من الهجرة»:

نادى الزنديق محمود بسيخواني في أواخر القرن التاسع الهجري إلى الديانة النقطوية[١] وبلغ أتباع هذه الفرقة الضالة الألوف المؤلفة في إيران والهند، ويعتقد هذا الزنديق بقدم العالم، ولا يؤمن ببعث الأجسام، وبالحشر إطلاقًا، ويعتبر الراحة واللذة في الدنيا مكان الجنة والنار، ويقول بنظرية النشوء والارتقاء ويعتقد أن القرآن الحكيم من تأليف محمد بن عبدالله ﷺ، ويستهزء بالصلاة والحج والأضحية، ويسمي شهر رمضان «بشهر الجوع والظمأ» ويسخرون من أحكام الطهارة والغسل، ولا يؤمن بحرمة النساء المحرمات، وقال بأن الدين الإسلامي أصبح منسوخًا، فلا مناص من قبول الدين الجديد الذي جاء به محمود، وأن الإسلام قد استنفد دوره، وقضى عمره، فمست الحاجة إلى دين جديد وأنه مع بداية الألف الثاني الهجري سيظهر الدين الجديد نبوءة محمود أنه سوف يظهر في عام ٩٩٠هـ رجل يمحو الباطل ويقيم الدين الحق، وهو ما يسمى عندها لعقيدة الألفية آلاف أخرى إلا في الشعوب العجمية[٢].

وكان شريف الآملي وهو من المقربين إلى الملك أكبر ملك الهند ذا صلة وثيقة بكبار هذه الفرقة، وكان الملك أكبر يعامله معاملة المريد لشيخه، فرغّب أكبر في الدين الجديد وظل يستميله إليه، وأسند إليه الملك أكبر قيادة الجيش المكون من ألف جندي، ونصّبه داعيًا في بنكاله إلى «الدين الإلهي» وكان من

---

(١) سميت بذلك لادعاء ذلك الزنديق أنه يستعين في بيان مفاهيم القرآن بعدد الحروف والنقط.

(٢) انظر «الإمام السرهندي حياته وأعماله» لأبي الحسن الندوي (ص٥٣ ـ ٥٩) ـ دار القلم بالكويت.

أخص أصحاب الملك أكبر وأصدقائه الأربعة وكان ينوب عن الملك في مخاطبة أتباع الدين الإلهي ومريديه، والمعتقدين فيه.

❑ وممن دعا الملك أكبر إلى اعتناق هذه الديانة ودعاه إلى التحرر من الشريعة، وانحرف به عن الجادة أبو الفضل بن الشيخ مبارك. ولقد نشر أبو الفضل الناكوري بساط ذلك القانون الخاسر الكاسد في بلاد الهند ولم يجدوا شخصًا أجدر وأحق في الدعوة إلى الدين الجديد من الملك أكبر.

❑ دعا أكبر إلى عبادة النار والشمس والكواكب بدل التوحيد، وإلى عقيدة التناسخ مكان البعث والنشور، وأخذ البيعة على هذا الدين الجديد، وكانت الكلمة التي يدخل بها الإنسان في هذا الدين: «لا إله إلا اللَّه، أكبر خليفة اللَّه»، وكان مع هذه الكلمة عهد وميثاق يقول فيه معتنق هذا الدين: «إنني عن رغبة ورضا مني وحب من قلبي، أفارق دين الإسلام المجازي التقليدي الذي سمعت عنه من آبائي، وشهدتهم عليه، وأرفضه، وأدخل في الدين الإلهي الأكبري، وأقبل مراتب الإخلاص الأربعة في الدين، من ترك المال والنفس، وترك العرض والدين».

وكان الربا والقمار، والخمر والخنزير حلالاً طيبًا في هذا الدين، وأُجريت تعديلات في أحكام النكاح، وكان النهي البات عن الحجاب والختان، وقد نظم فيه الزنا تنظيمًا خاصًا، وعُين للمومسات مكان خاص، وأصدر بصدده قانون، فكان بغاءً رسميًّا، وعُدِّلت طريقة الدفن للموتى.

❑ ومواقيت العبادة عنده عند الفجر والظهر وعند العشى فقط، ويسجد له الأتباع سجدة التحية والتعظيم، وأحيا أعياد ومهرجانات المجوس، وحبّذ ودعا إلى الشرب من ماء نهر كنكا «الكنج» وهو النهر المقدس عند الهنادك، وأصدر فرمانًا بمنع الزكاة، وأنكر المعجزات، ومنع من الصلاة، فلم يكن يستطيع أي واحد من الناس أن يؤدي الصلاة جهارًا في القصر، وأسقط

الصلاة والصوم والحج، وازدرى الإسلام وأهانه ولقد وصم تراث الملة الإسلامية كله بالحدوث، واعتبره مجموعة من السفاهات، وأن واضعيه ومؤسسيه أعراب فقراء من جزيرة العرب كانوا مفسدين في الأرض، وقطاع طرق، واستدل على ذلك ببيتين من «شاهنامه فردوسي» الذي قالهما على طريق النقل والرواية:

«من شرب ألبان الإبل، وأكل الضباب، بلغ العرب إلى أن بدأوا يحملون ببلاد العجم، سحقًا لدوائر الزمان سحقًا»، وسخر من الإسراء والمعراج وأنكرهما، وأهان مكان النبوة، ونفر من أسماء النبي وكرهها مرضاة لزوجاته الهندوكيات، واستهزأ بأركان الإسلام. يقول السيد سليمان الندوي: «أوقد المجوس النيران في معابدهم، ودقت النصارى نواقيسهم في كنائسهم، وزينت البراهمة أصنامهم، تمالأ التصوف واليوك وألحّا على أن يُشعلا شمعة واحدة في المعبد الهندوكي والكعبة، وإذا أراد إنسان أن يتصور مدى ما تركت هذه الحركة الخماسية من آثار فليراجع «دبستان مذاهب»[1] ليرى كم من أصحاب الزنّار يحرّكون المسابح، وكم من أصحاب السبح يعلقون في أعناقهم «الزنانير» كم من الأمراء يمرغون وجوههم على عتبة السلطان، وكم من أصحاب العمائم يقفون في البلاط، ويُسمع من منابر المساجد نداء «تعالى شأنه ـ اللّه أكبر» كانوا في كل هذا، وإذا بصوت يعلو من جهة سر هند: «أن خلوّا الطريق، فقد جاء صاحب الطريق، ظهر مجدد فاروقي[2]، في الأبهة الفاروقية، كان ذلك أحمد السرهندي[3] قال عنه شيخه عبدالباقي الدهلوي

(١) كتاب في وصف الديانات المختلفة والفرق الإسلامية في الهند، في الفارسية.

(٢) نسبة إلى عمر الفاروق رضي الله عنه.

(٣) تقدم كتاب «سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد» لأبي الحسن الندوي بقلم السيد سليمان الندوي (ص٣٠، ٣١)، و«الإمام السرهندي» لأبي الحسن الندوي (ص١١١).

«إن أحمد شمس، تأفل في ضوئها آلاف النجوم أمثالي»[١] .

*** العلماء والمشايخ الشجعان الصرحاء في عهد «أكبر» و«جهانكير»:**

مخطئ من ظن الصمت لفّ ربوع الهند استكانة لأمر هذا الزنديق «أكبر» بل تشهد كتب التاريخ والتراجم أن رجالاً ربانيين بذلوا جهودهم، وأبدوا استنكارهم لهذه الأوضاع قدر مستطاعهم، وجاهروا بعواطفهم الدينية وحميتهم الإسلامية، نذكر منهم:

الشيخ إبراهيم المحدث الأكبرآبادي:

ذهب الشيخ إبراهيم المحدث الأكبر أبادي (م١٠٠١هـ) ذات مرة إلى معبد الملك «أكبر» بناء على دعوته، فلم يسجد له، ولم يأت بالتحيات التقليدية للملك، التي كانت مخالفة للشريعة، ثم خطب عنده، فرغبه ورهبّه، وذكره باللّه، ولم يتهيب الشوكة والحشمة الملوكية»[٢] .

الشيخ شهباز كنبوه (م١٠٠٨هـ):

كان من كبار الأمراء في بلاط السلطان أكبر، تولى منصب «ميربخشي»[٣] ، وكان ذا جرأة ونجدة لا يُقصر عن قول الحق عند السلطان ولا يخافه، ولا يبالي برضاه أو سخطه في الأمور الشرعية، فلم يقصر اللحية، ولم يشرب الخمر، ولم يرغب في الدين الإلهي المخترع قط.

قال شاه نوازخان في «مآثر الأمراء»: «إن أكبر شاه السلطان كان يتفرّج يومًا بين العصر والمغرب، على بركة ماء بفتحبور، وكان شهبازخان بين يديه، فأخذ بيده والتفت إليه، وكان يمشي ويتكلم معه، والناس كانوا يزعمون أن

(١) «الإمام السرهندي» (ص١٣٣).

(٢) «نزهة الخواطر» (ج٥)، و«الإمام السرهندي» (ص٢٦٥ ـ ٢٦٦).

(٣) «الأمير الكبير الذي يرجع إليه أمر العساكر السلطانية المعينة في تلك الولاية»، وهو من أمراء الألوف.

شهباز لا يستطيع أن ينزع يده عن يد السلطان، فتفوته الصلاة، وكان من عادته أن لا يتكلم بعد العصر إلى المغرب، فلما رأى شهباز أن الشمس قد مالت إلى الغروب استأذن السلطان للصلاة، فقال السلطان: تداركها بالقضاء، ولا تتركني خليّا، فنزع شهباز يده، وبسط مئزره على الأرض واشتغل بالصلاة، ثم بالأوراد الراتبة والسلطان واقف على رأسه يشدِّد عليه، وتواجد مير أبو الفتح، والحكيم على الكيلاني أيضًا في تلك الساعة فشعرا بدقة الموقف فتقدما وقالا ـ لصرف نظر السلطان وغضبه عنه ـ نحن نستحق أيضًا أن يلتفت إلينا السلطان، فسكن غضبه، وانصرف عن شهبازخان، والتفت إليهما»[1].

الشيخ عبدالقادر الأجيّ:

كان الشيخ عبدالقادر الأجيّ من أصحاب النجدة والجراءة، لم يوافق السلطان في مخالفة الشريعة، قدّم إليه أكبر ذات يوم الأفيون، على جري عادته، فامتنع عن بلعه، فأنكر عليه السلطان، فبينما هو قد فرغ من الصلاة المكتوبة يومًا في «عبادات خانه» ـ القصر الذي بناه أكبر للعبادة ـ واشتغل بالنوافل، إذ خرج عليه أكبر، وقال: ينبغي لك أن تتنفّل في بيتك، فقال عبدالقادر: يا مولانا، هذا ليس بملك فيكون تحت سلطانك، فغضب عليه السلطان وقال: إذا لم تكن ترضى عن ملكي، فاخرج عنه، فخرج الشيخ من ساعته، ورحل إلى مدينة «أج»، وعكف على الإفادة والعبادة، وكذلك سميه عبدالقادر اللاهوري (م١٠٢٢هـ) الذي كان السلطان ساخطًا عليه لتصلبه في الدين وشدة تمسكه بالشريعة، فأمره أن يسافر إلى مكة المكرمة.

مرزا عزيز الدين الدهلوي كوكه (م١٠٣٣هـ):

كان تربًا لأكبر وأخاه من الرضاعة، يحبه «أكبر» حبًّا مفرطًا، ويقدمه

(١) «نزهة الخواطر» (ج٥)، و«الإمام السرهندي» (ص٢٦٦ ـ ٢٦٧).

في كل باب، وكان عزيز ـ مع ذلك ـ يغلظ القول عليه فيما يأمره وينهاه، لا سيما فيما يخالف الشرع، فعزله عن ولاية كجرات، ثم ولاّه على بنكاله وبهار، ولقّبه بالخان الأعظم وكان رغم ذلك، لا يستحسن بعض ما اخترعه من السجدة بحضرته، وحلق اللحية وغيرها.

الشيخ منور بن عبدالحميد اللاهوري (م١٠١٥هـ):

ولاّه أكبر الصدارة عام ٩٨٥هـ بأرض مالوه، ولكن لم يدم له هذا الحال، لصلابته في الدين، واستقامته في السلوك، وضُيّق عليه في السجن حتى مات[1].

ميزة الإمام السرهندي من بين هؤلاء:

لكن الفضل الأكبر في مقاومة انحراف الدولة وضلالها، ومعارضتها بقوة وتنظيم الجهود الموفقة الحكيمة في إصلاحها وتقويمها يرجع إلى الإمام السرهندي الذي قيّضه اللّه ـ عز وجل ـ لصيانة الدين، ونصر الإسلام والمسلمين، وقدّر أن يناط به هذا العمل التجديدي العظيم، الذي واصل ليله بنهاره في إكمال هذه الخطة التجديدية، وإحداث تلك الثورة الصامتة الهادئة التي لم تهرق فيها الدماء وغيّرت مجرى التاريخ، ولا يوجد لها نظير في تاريخ الدول والبلاد الإسلامية الأخرى، وكان نتيجة هذه الجهود أن تولى الدولة ـ بعد وفاة السلطان أكبر ـ من امتاز بحميته للإسلام، وتعظيمه لحرمات الدين، وسلامته من الجراثيم المناوئة للإسلام، والكراهية له، وانتهت هذه السلسلة الذهبية، وبلغت الأوج والكمال على يد السلطان محيي الدين أورنك زيب الذي كان مثله الأعلى حياة الخلفاء الراشدين، وخدمتهم للإسلام والمسلمين.

---

(١) «الإمام السرهندي» (ص٢٦٧ ـ ٢٦٨).

لقد كانت الأيام الأخيرة من حياة السلطان أكبر التي أحدقت فيها الفتن والأخطار بالهند، وهُدِّد الإسلام بالزوال والانقراض ـ هي الفترة التي بلغ فيها الإمام السرهندي كماله الروحي، ونضجه الفكري[1] .

* السلطان جهانكير واستئناف الإمام السرهندي عمله التجديدي لإصلاح الدولة والسلطان:

بعد موت السلطان أكبر عام ١٠١٤هـ أخذ السلطان جهانكير زمام البلاد بيده، ولئن كان جهانكير لتربيته تحت إشراف والده أكبر لم يكن له نزعة دينية خاصة، وتقيد بالشريعة الإسلامية، والتزام للفرائض والواجبات الدينية، فإنه لم يكن كذلك يحمل في صدره بغضًا للإسلام، أو تأثيرًا بحضارة قومية، أو فلسفة من الفلسفات الدينية، أو الرغبة في إعلان دين جديد، ولم يكن راغبًا في محو آثار الإسلام وطمس معالمه.

* سجن السرهندي في قلعة كواليار، وإسلام الآلاف على يديه، وهداية آلاف آخرين من المسلمين:

طلب جهانكير الإمام السرهندي إلى مقره، وأكدّ على حاكم سرهندي أن يوجهه إليه كيفما استطاع، فتوجه إليه السرهندي، ولما دخل عليه لم يأت من الآداب والتقاليد التي كان يلتزم بها الوافدون على السلطان، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف اللّه، نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك[2] ، فسأله السلطان عن

---

(١) كل يؤخذ من قوله ويرد، ويؤخذ على الإمام السرهندي صوفياته، والتلقين النقشبندي، والمكافات. والبيعة والتكميل الباطني النقشبندي، والخلوة وتلقين الذكر القلبي وغيرها من ترهات الصوفية. والخير كل الخير في هدي محمد ﷺ .

(٢) كانت تلك التحية تقليداً سائداً في البلاط منذ عهد السلطان أكبر، وكانت على ثلاثة

السبب، فقال: إنني لم أزل متقيّدًا بالآداب والأحكام التي دعا إليها اللَّه ورسوله ﷺ، ولا أعرف غير هذه الآداب، فغضب السلطان، وقال: اسجد لي، فقال الإمام: ما سجدت لغير اللَّه قط، ولن أسجد لغيره أبدًا، فتغيّظ السلطان وزاد غضبه، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة كواليار.

وكان شاهجهان بعث قبل هذه الحادثة العلامة أفضل خان، والمفتي خواجة عبدالرحمن بالكتب الفقهية، وبهذه الرسالة إلى الإمام، أن الانحناء للسلاطين مرخص فيه في بعض الكتب الفقهية[1] ، فلو فعلت ذلك أضمن لك بأنه لا يصيبك أي ضرر، فقال الإمام: إنه محض رخصة، والعزيمة أن لا ينحني المسلم لغير اللَّه، تعظيمًا وتقديسًا.

وقعت هذه الحادثة في شهر ربيع الأول عام ١٠٢٨هـ، وصودرت كتب السرهندي ورسائله، وبستانه، وبئره، ورباطه، وبيته، ونُقل أهله إلى مكان آخر.

ونادى السرهندي وراء جدران السجن بأعلى صوته ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ [يوسف: ٣٩]، ذكر بعض المؤرخين أن آلافًا من السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه، ودخلوا في الإسلام، وأن مئات من السجناء المسلمين تابوا على يديه[2] .

أصناف، أولها الكورنش، وهو أن يضع يمينه علي جبينه ويطأطئ رأسه إلى الصدر، وثانيها: التسليم، وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس، وثالثها السجدة كما يسجد في الصلاة «الهند في العهد الإسلامي» لعبدالحي الحسني (ص٣٧٢).

(١) عند الإكراه الفعلي خشية القتل والقلب مطمئن بالإيمان.

(٢) «الإمام السرهندي» (ص١٤٥ ـ ١٤٦).

يقول الدكتور آرنلند في كتابه «الدعوة إلى الإسلام»:

«كان في عهد السلطان جهانكير عالم سني يدعي الشيخ أحمد المجدد، اشتهر في عصره بالرد على العقائد الشيعية، وكان الشيعة ذوى نفوذ في البلاط، فاحتالوا عليه حتى سببوا له الاعتقال فبقي في المعتقل عامين، واستمال في هذه المدة مئات من رفقته السجناء من غير المسلمين إلى الإسلام فاعتنقوه»[١].

وجاء في دائرة معارف الأخلاق والديانات:

«يُحكى عن عالم من علماء المسلمين يسمى الشيخ أحمد المجدد ـ كان في القرن السابع عشر الميلادي في الهند، واعتقل ظلمًا ـ أنه أدخل مئات من غير المسلمين السجناء الذين رافقوه في السجن، في دين الإسلام»[٢].

وبقى السرهندي في قلعة كواليار عامًا كاملاً، ثم اختار السرهندي مرافقة السلطان فبقي في عسكره ثلاث سنين، وأثرت هذه المرافقة في السلطان وعسكره، ورأى السلطان عن قرب سلوك السرهندي وسيرته، وشاهد إخلاصه وربانيته، وأنه لا يقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجاهها وسلطانها أي وزن، فأثر ذلك في السلطان جهانكير بالغ التأثير، فقد كان لمرافقته دخل كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة فيه، وعنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة، وما ظهر منه عام ١٠٣١هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية، وإظهار شعائر الإسلام فيها يدل على حدوث التحول، والتقدم في التدين الذي يُمكن معه القول بأنه كان غيضًا من فيض مرافقة الإمام السرهندي وصحبته.

لقد اتصل السرهندي بأعضاء الدولة وأمرائها، وأثار فيهم الحمية

(١) «الدعوة إلى الإسلام» لآرنلند (ص٤١٢) ـ الطبعة الثالثة.

(٢) «المجلد الثامن» (ص٧٤٨).

الإسلامية، والعواطف الدينية، فيمن عرفهم واتصلوا به من قبل، واعتقد أخلاقهم، وسمو شخصيتهم، وتوجعهم للأوضاع، لينفضوا الرماد عن تلك الجمرات الكامنهم في قلوبهم، ويشعلوها وينفخوا فيها، وحرّضهم على النصيحة للسلطان، وأن يبثوا فيه الحمية للإسلام، وحماية حوزته، وتضميد قلوب المسلمين الجريحة، ودعاهم إلى الزهد والتقشف، وسمو النفس وعلو الهمة.

❑ لقد كانت لهذه السنين التي أقامها السرهندي في عسكر السلطان تأثير عجيب في الحاشية وأعيان الدولة، وتحوّل المعسكر إلى رباط، وكان السرهندي يرى أن الساعة الواحدة في المعسكر أفضل من كثير من الساعات في أماكن أخرى.

❑ وجّه السرهندي خطابه إلى أركان الدولة وكبار الأمراء والوزراء واستأنف المراسلات التي بدأها قبل اعتقاله ونثر قطع قلبه، ومُزع نفسه على صفحات الرسائل التي تمتاز ببلاغتها، ونصاعة أسلوبها، وروعة تأثيرها، وكانت هذه الرسائل رسول السرهندي وسفيره في الدعوة، وترجمانه الصحيح لقلبه المكلوم الجريح، وهي قطرات دموعه، وفلذات أكباده، وقد كانت لها مساهمة أساسية فعّالة في إحداث ذلك الانقلاب العظيم الذي ظهر في الدولة المغولية في القرن العاشر بالهند.

لقد راسل السرهندي عددًا كبيرًا من أمراء الدولة وأركانها وأعيانها، راسل السيد مرتضى المعروف بالشيخ فريد وكان مستشارًا خاصًّا للسلطان، فحرّضه على أداء مسئوليته الدينية، وما يفرض عليه كونه من أهل بيت النبوة من واجب إسلامي في نصح السلطان.

وراسل خان أعظم مرزاكوكه، وخان دهان اللودهي، وصدر جهان البهانوي، وبيك جهانكير.

*** الوعظ بالرسائل، وما صدر من القلب وصل إلى القلب وليست النائحة الثكلى كالمستعارة:**

يقول في رسالة: «وا ويلاه، وا مصيبتاه، واحزناه، وا حسرتاه! أتباع محمد ﷺ - الذي هو حبيب رب العالمين - أذلة ضعفاء مهانون، والجاحدون بنبوته، أعزة أقوياء مكرمون، كان المسلمون بقلوبهم الجريحة المكلومة، يندبون الإسلام، ويرثونه وينوحون عليه، وكان المكابرون الجاحدون يسخرون، ويستهزؤون وينكئون جروح المسلمين الدامية، غابت شمس الهداية في ظلام الضلال، واختفى نور الحق في حجب الظلام وسحبه الداكنة.

واليوم بعد أن زال ما كان يحول بين الإسلام، وتقدمه وانتصاره، وتشنّفت الآذان، ببشرى تمكن سلطان الإسلام من عرش الحكومة ورأى أهل الإسلام من الواجب عليهم أن يساعدوا السلطان ويناصروه، ويبصّروه بطريق نشر الشريعة الإسلامية، وتأييد الملة الحنيفية، سواء كانت هذه المساعدة والمناصرة باليد أو باللسان».

ويقول بعد بضعة سطور، وقد وضع الأصبع على الداء الذي أصيبت به الدولة في عهد «أكبر» «كل رزيئة رُزئ بها الإسلام في القرن الماضي، كان من شؤم علماء السوء، فهم الذين أضلوا السلطان وأغووه، وعندما تفرقت الملة الإسلامية اثنتين وسبعين فرقة واتخذت طريق الزيغ والضلال كان علماء السوء رؤوس هذه الفتن، وقادة هذا الانحراف، وقليل من ضل من العلماء وانحرف، ولم يؤثر ضلاله على الناس، وأن معظم جهلة هذا العصر، المتزعمين للتصوف يمثلون دور علماء السوء، ففسادهم - كذلك - فساد متعد مُعدٍ، فإذا كان هناك من يستطيع أن يناصر في هذا العمل «نصر الدين الحنيف» ثم يقصر ويتكاسل ولا يؤدي دوره، فإنه مسئول عن الإسلام، يستحق الملام... أرجو منكم - لتقرّبكم إلى السلطان وتهيؤ الفرص في

الحديث معه ـ أن تبذلوا جهودكم في تمكن الشريعة المحمدية ونشرها، وتخرجوا المسلمين من غربتهم ومسكنتهم ومهانتهم»[١] .

◻ ويقول للسيد فريد ـ وهو من أهل البيت ـ:

«سيدي الشريف! إن الإسلام ـ اليوم ـ مسكين غريب، وإن فلسًا واحدًا يُنفق ـ الآن ـ لتقوية الإسلام وتأييده، يعادل الملايين، فلننظر من يكون ذلك الصقر الجريء الذي ينعم اللَّه عليه بهذه النعمة الجليلة، إن العمل الذي يقوم الإنسان به لنشر الدين وتأييد الملة ـ في أي عصر من العصور ـ جميل محبوب ولكنه اليوم حيث الإسلام غريب أجمل وأحب».

◻ ويكتب إلى مرزا عزيز الدين خان أعظم «أيدكم اللَّه ـ سبحانه ـ ونصركم على أعداء الإسلام في إعلاء الإسلام، قال رسول اللَّه ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**». فقد بلغت غربة الإسلام في هذه الديار أن أطال الكفار ألسنتهم على الإسلام، ويعيبون المسلمين، ولا يستحيون من إظهار أحكام الكفر، ومدحه والثناء عليه في المشاهد والأسواق، والمسلمون إزاءهم لا يقدرون على إظهار أحكام الإسلام، ويُعابون إذا عملوا بها ويُذمون».

◻ وقد قال الشاعر ما معناه:

«ما بال الحور العين مصفرّة الوجوه، شاحبة الألوان، والسعالي في الجمال والدلال، يا للحيرة القاتلة، ويا للعجب العجاب».

ثم يقول: «نرى وجودكم الكريم ـ اليوم ـ نعمة سابغة، ولا نرى فارسًا غيركم في الساحة لإدالة الإسلام من منافسيه، وخصومه وإقالة عثاره، أيدك اللَّه ونصرك».

---

(١) «الإمام السرهندي» (٢٧٥ ـ ٢٧٩) باختصار.

ثم قال: «إن هذه الفرصة للجهاد بكلمة الحق، التي أتاحها اللّه لكم اليوم، هو الجهاد الأكبر، فانتهزوا هذه الفرصة وقولوا: هل من مزيد، واعتبروا هذا الجهاد باللسان ـ في هذا الوقت بالذات ـ أفضل من الجهاد بالسيف والسنان، ونحن الفقراء العجزة، عجزنا عن هذه النعمة العظيمة:

هنيئًا لأرباب النعيم نعيمهم وللعاشق المسكين ما يتجرّعُ

هديناك إلى مكان الكنز الدفين، فإن كنتُ لم أظفر به لعلك أنت تظفر به».

❑ ويكتب إلى الأمير خان جهان:

«لو جمعتم بين ما تتبوأون من منصب كبير وبين العمل على الشريعة لأديتم أمانة الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأوضحتم الدين المتين وأضأتموه، وعممتموه، ولو جهدنا ـ نحن الفقراء ـ أنفسنا أعوامًا طوالاً، لما حلقنا بغبار أمثالكم من صقور الإسلام.

ألا نفوس أبيّـــات لهـــا هممٌ أما على الخير أنصارٌ وأعوانُ؟»

وكتب إليه «لما كان السلطان العظيم جهانكير يستمع إلى حديثكم بإصغاء واهتمام، ويقدره قدره، فما أجمل هذه الفرصة لتبلغوا إلي السلطان ـ بصريح العبارة أو الإشارة ـ كلمة الحق التي يعتقدها أهل السنة والجماعة، شكر اللّه سعيهم، وتقدموا إليه بكلام أهل الحق ما اتسع له المقام، واقتضى الحال، بل انظروا والتمسوا دائمًا مناسبة من المناسبات يتطرق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية، حتى تنتهزوا الفرصة لإظهار أن الإسلام حق والكفر باطل شنيع»[1].

ويقول: «فلو تمكّن الإسلام في بداية هذه الدولة، وارتفعت رؤوس

(١) «الإمام السرهندي» (ص٢٨١ ـ ٢٨٣).

المسلمين ونالوا العزّة والكرامة، فبها ونعمت، وإذا حال توقّف وتردد في هذا الأمر دون ذلك، والعياذ باللّه، فسوف يزداد حال المسلمين سوءًا وتعقدًا ورزيئة، فالغياث الغياث، ثم الغياث الغياث، فلننظر من المقبل المنصور الذي يشرّفه اللّه بهذا السعادة، ومن هو الصقر الجسور الذي يظفر بهذه النعمة الجليلة ﴿ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم﴾».

*** العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي:**

تحت هذا العنوان: «ما هو العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي؟

كتب أبو الحسن الندوي: «إنه تجلية الفكر الإسلامي، وإنعاش الروح الدينية، ومقاومة الفتن الخطيرة المحدقة، واستئصالها من جذورها، وكسر طلاسم المحاولات الضالة المؤسسة على الرياضات والمجاهدات، والإشراق وصفاء الباطن، والتجارب الروحية ـ لمعرفة اللّه تعالى والوصول إليه، التي كانت تعتمد على وسائلها وطرقها الخاصة، وتستنكف عن اقتفاء سيدنا محمد ﷺ واتباع سنته وهديه، ولا ترى لزومًا لذلك، وكشف النقاب عن وجه العقائد والنظريات المتلبسة بالوحدة والاتحاد، وقد بلغا أوج التطرف والمغالاة، وانتشرا في كثير من الأوساط وتلقّاهما كثير من الناس بالقبول، وأحدث رجةً في المعتقدات الدينية، وهزّة في المجتمعات الإسلامية، وفوضى في الخلق والدين، . . . والتشديد في الإنكار على البدع والخرافات ـ التي أصبحت تشريعًا إزاء تشريع ـ وتفنيدها، وعدم الاعتراف بوجود «البدعة الحسنة»، وتثبيت أقدام الإسلام المتزلزلة في الهند، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال، التي خلّفها عهد أكبر المظلم، والمحاولة الجادة الحكيمة الناجحة لثورة دينية تجديدية، وتغيير جذري عظيم، كان من نتاجهم السلطان محيي الدين أورنك زيب عالمكير سلطان الهند، وصاحب الأمر والنهي فيها، سياسيًّا وإداريًّا،

وحكيم الإسلام الإمام ولي الدهلوي وخلفاؤه وتلامذته الذين هم من حلقات هذه السلسلة الذهبية ـ روحيًّا وفكريًّا، وكان كل ذلك امتداد هذه الدعوة والحركة، وهم الذين بذلوا جهودًا جبارة في نشر تعاليم الكتاب والسنة، والدعوة إليها بعلو همة، وشرحهما وتبيينهما للناس، وكانت جهودهم في الإفادة والتدريس، وإنشاء المدارس الدينية، والتزكية الروحية، والتربية الباطنية، وإصلاح العقائد، والردّ على البدع والتقاليد، ثم جهادهم، واستماتتهم في سبيل اللَّه وسعيهم لإعلاء كلمة اللَّه، وبفضل هذه الجهود بقيت شجرة الإسلام في الهند، قائمة على ساقها، ناضرة مخضرة، بل حوّلوا الهند مركز الثقل في العالم الإسلامي في العلوم الدينية لا سيما علم الحديث الشريف، والفكر الإسلامي، والدعوة والإرشاد.

هذا كله صحيح ومقرر تاريخيًّا وعلميًّا ولكن ما هي النقطة المركزية والمحور الأساسي الذي تدور حوله هذه الجهود التجديدية، والأعمال الإصلاحية العظيمة؟ وما هي تلك المأثرة التجديدية المهيمنة، التي تحتضن هذه الجوانب كلها، وتغذيها؟

للناس ـ حسب ميولهم وأذواقهم ـ إجابات مختلفة على هذا السؤال الخطير وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وتفرّق الناس في الإجابة فرقًا وأحزابًا، نخصّ ثلاث فرق منها بالذكر فيما يلي:

(١) يقول فريق من هذه الفرق: إن الإمام السرهندي يستحق وصفه بمجدد الألف الثاني لأنه استعاد الهند إلى راية الإسلام، وحفظها من الارتماء في حضن البرهمية، وفلسفة «وحدة الأديان»، ووجهها إلى لواء محمد ﷺ وسلّمها لوصاية الإسلام، وحمايته، ودفع عنها في القرن الحادي عشر الهجري ـ القرن السادس عشر الميلادي ـ ذلك المصير الذي صارت إليه في

القرن الثالث عشر هجري ـ القرن التاسع عشر الميلادي ـ بل الواقع أنه حفظ الأمة الإسلامية الهندية من خطر الردة العقائدية والفكرية والحضارية الشاملة، التي ظهرت ـ بذكاء تلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة النافذة والإرادة الحديدية كالملك أكبر، ودهاء مستشاريه كمُلاّ مبارك، وفيضي وأبي الفضل ـ واقعًا ملوسًا يحس، وقد كان هذا التحول الروحي والمعنوي والردة الفكرية والحضارية أخطر، وأدق، وأرسخ جذورًا من انقراض الدولة، والانهيار السياسي، الذي وقعت كارثته في أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، بقيام القوى غير الإسلامية الناهضة في الهند، وسيطرة الانكليز وتسلطهم في البلاد.

ولعل الدكتور محمد إقبال أشار إلى هذه الحقيقة، إذ قال في بيت من شعره، يشير إلى الإمام السرهندي: «ذلك الحامي لذمار الأمة الإسلامية في الهند، الذي قيّضه اللّه ـ في الحين المناسب ـ ونصّبه حارسًا للدين القويم».

(٢) ويقول الفريق الثاني: إن عمله التجديدي يتركز في معالجته تفضيل الشريعة على الطريقة، وأن الطريقة تابعة خاضعة للشريعة، في قوة وإيضاح، وثقة وبصيرة، لم يسبق إلى هذا الأسلوب القوي المبين حتى تجلىّ لكل ذي عينين أن الطريقة خادمة للشريعة، وأوقف بذلك تلك الفتنة الخطيرة الناجمة في أواسط «السلوك والطريقة» التي كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة ـ أحيانًا ـ والانحراف عنها ـ أحيانًا أخرى، والاعتماد الكامل على الرياضات والمجاهدات، والحواس الباطنة، والتي كانت تستهدف أول ما تستهدف الهند ـ لكونها مركزًا لليوك والتنسك المتطرف والرهبنة ـ ولم يستطع أحد بعده أن يتجرأ على القول بأن الشريعة في واد، والطريقة في واد، وليس من حق الشريعة فرض الرقابة على الطريقة.

(٣) ويرى الفريق الثالث أن مأثرته التجديدية الأساسية، هي ضربته

القاسمة لعقيدة «وحدة الوجود»، وهدم فلسفتها من أساسها فَسَدّ ذلك السيل العارم الذي كان يجرف بالعقائد الصحيحة، وحوّل تياره العنيف الذي اكتسح جميع الأوساط العلمية والروحية في القرون الأخيرة. . وكلام السرهندي في «وحدة الشهود» لا يُقبل ومردود عليها بعد ذلك.

*** إعادة الثقة والإيمان بحتمية النبوة المحمدية وخلود الرسالة الأخيرة:**

ولكن الواقع أن علمه التجديدي الأساسي الذي تدور حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية، ومنبعه الأصيل الذي تتفجّر منه ينابيع جميع مآثره الإصلاحية، وتتحول إلى نهر يجري في العالم الإسلامي كله، هو ذلك العمل الإصلاحي، العظيم الذي تجلّى في إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية، بخلود الرسالة المحمدية وحاجة الناس إليها، إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة، ولا أعلم أحدًا من المجددين في التاريخ الإسلامي، قام بهذا العمل على هذا النطاق الواسع، وبهذه القوة والصراحة كما قام به الإمام السرهندي، ولعل السبب في ذلك عدم مسيس الحاجة إليها في عهودهم، وأنه لم تبرز على المسرح في عصورهم فلسفة أو حركة منظمة دقيقة كتلك التي ظهر في عهده»[1] اهـ.

ونختم بما قاله الدكتور محمد إقبال بعد أن أثنى ثناءً كثيرًا على الإمام السرهندي، والإمام ولي اللَّه الدهلوي، والسلطان محيي الدين عالمكير وقال: «إنني أقول دائمًا إنه لولا وجود هؤلاء، وجهودهم الموفقة لذاب الإسلام في الديانة الهندكية وحضارتها»[2] اهـ.

* * *

(١) «السرهندي» (ص١٦٧ ـ ١٦٩).

(٢) المصدر السابق (ص٣٠٥).

الدين النصيحة
الرد السلفي على أبي الحسن الإمام السرهندي بقلم الندوي

كل من خدم الإسلام حبيب إلى النفوس، ولكن الحق أحب إلينا من أي أحد، والحق لا يُعرف بالرجال، بل هم يُعرفون به، وأهل الحديث أهل السنة والجماعة لا ينتصرون لإمام، أو شيخ، أو طائفة انتصارًا مطلقًا، غير رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ـ رضي اللَّه عنهم أجمعين.

❑ نسأل اللَّه العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى اللَّه من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحبّ العالم على ما فيه من الاتباع، والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن، و«الشخص الواحد يُحَبُّ ويُوالى لما عنده من الخير والسنن، ويبغض ويكره ويعادى لما عنده من الشر والبدع والفتن ولكن لا يصل حبه إلي ستره، وترك معاداته، والانخداع به، والانحياز إلى بدعه وطاماته»[1].

❑ وللَّه در شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ حين يقول:

«وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا»[2].

❑ لقد كتب الشيخ أبو الحسن الندوي كتابه عن الإمام السرهندي بقلم الصوفي فأثنى على السرهندي الموغل في صوفيّاته.

---

(١) «الماتريديه» للدكتور شمس الدين الأفغاني (١/ ٤٧) مكتبة الصديق.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٨/ ٢٠٩).

وعين الرضا عن كل عيب كليلـة ولكن عين السخط تبدي المساويا

والشيخ السرهندي فقيه ماتريدي[1] له في بيان العقائد على مذهب «الماتريدية» وكلام في الطريقة الصوفية النقشبندية ولسان أي لسان! فهو فقيه حنفي، ماتريدي، وصوفي نقشبندي هذا ما يؤخذ عليه.

❑ وتآليفه تدل على توغله في التصوف، وهذي بعض النماذج من مكتوباته يوجد فيها كل ما يوجد عند الصوفية من الإلغاز، وتعقيد العبارة، والفناء في الشيخ وما إلى ذلك وكلامه عن وحدة الشهود وانتصاره لها:

«قال: . . . والمنع من إظهار حقائق عالم الأمر، إنما هو بسبب دقة تلك المعاني المكنونة. . .

وليس في بثي الأسـرار مصلحة وإن ظهرن لنا كالشمس في فلك

. . . وبقية الجواهر العليا التي فوق الصفات الحقيقية داخلة في دائرة حضرة الذات تعالت وتقدست، ولهذا يُقال لتجليات هذه المراتب الثلاث تجليات ذاتية، ولا مصلحة في التكلم وراء ذلك «بلغ اليراع إلى هنا فتكسرا» «المنتخبات من المكتوبات» (ص٧)، وعنها في «الكشف» (ص٦٩)، وقال: «أظن أن القارئ يعرف الآن أن عبارة «بسبب دقة تلك المعاني المكنونة» هي للمغالطة، وأن السبب الحقيقي هو خوف التكفير».

وقال: «. . . وإذا قال هولاء الصوفية بنفسهم بأن ذات الحق سبحانه وتعالى لا يحكم عليها بحكم، يكون الحكم عليها بالإحاطة والسريان مخالفًا لهذا القول، والحق أن ذاته تعالى ليس كمثله شيء، ولا سبيل لحكم من الأحكام إليها أصلاً، بل في ذلك الموطن الحيرة الصرفة والجهالة المحضة،

(١) يقول السرهندي في مكتوباته «مكتوبات أحمد السرهندي» (٢/ ١١٠) ـ الدرر المكنونات): «زعم جماعة ممن لا خبر لهم أنه تعالى فوق العرش، وأثبتوا له سبحانه وتعالى جهة الفوق والعرش.

فكيف يتطرق السريان والإحاطة إليها؟ ويمكن الاعتذار من جانب الصوفية القائلين بهذه الأحكام بأن مرادهم بالذات هو التعين الأول، فإنهم لما لم يقولوا بزيادة ذلك التعيين على المتعين، قالوا لذلك التعين عين الذات، وذلك التعين الأول بالمعبر عنه بالواحدية سار في جميع الممكنات. . .» «المنتخبات من المكتوبات» (ص١٠).

وقال: «. . . لتسهيل التحليل، يعني بالإحاطة قولهم «اللَّه محيط بكل شيء أو بالممكنات» ويشيرون بها إلى وحدة الوجود، وبالسريان قوله: «اللَّه سار في كل الممكنات، أو الأشياء»، ويعنون بها وحدة الوجود أيضًا. وطبعًا القول بالإحاطة هو حكم، وكذلك القول بالسريان هو حكم أيضًا، لذلك لا يقولون بها؛ لأن ذات الحق لا يحكم عليها بحكم، ويعنون بكلمة «المتعين» الجزء من اللَّه (جل اللَّه وعلا)، الذي تشكل أو تعيّن بالمخلوقات، ويقرّر المجدد أنهم لم يقولوا بزيادة التعين (أي الخلق) على المتعين، فهو هو، والمتعين الأول هو محمد ﷺ وطبعًا، هذا أسلوب جديد يقدمه المجدد لتقرير وحدة الوجود بأسلوب موهم، فيه شيء من التعقيد، أرجو من القارئ أن يحلله بهدوء ليزداد تمرسًا باللغة الصوفية، وليتأكد أن العقيدة عندهم تلاعب بالألفاظ».

❑ وقال: «. . . وهذه المحافظة إنما هي إلى زمان الوصول إلى الشيخ الكامل المكمل، ثم بعد الوصول إليه، ولا شيء عليه سوى تفويض جميع مراداته إليه، وكونه كالميت بين يدي الغسال لديه، والفناء الأول هو الفناء في الشيخ، ويكون هذا الفناء وسيلة الفناء في اللَّه. . .» «المنتخبات من المكتوبات» (ص٢١)، وعنها في «الكشف» (٣٢٧)».

❑ وقال: «. . . ومن علومهم (أي الفلاسفة) علم الهندسة وهو لا يغني شيئًا!!. . وعلم الطب وعلم النجوم وعلم تهذيب الأخلاق. . وهؤلاء

الأشقياء أخرجوا رقابهم عن برقة التقليد، وصاروا في صدد الاثبات بالدلائل، فضلّوا وأضلّوا. ولما وصلت دعوة عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام إلى أفلاطون، وكان هو أكبر هؤلاء الخذلة، قال: نحن قوم مهذّبون لا حاجة بنا إلى من يهدينا، ما أسفهه وما أشقاه حيث أدرك شخصًا يحيى الأموات ويبرئ الأكمه والأبرص...» «المنتخبات من المكتوبات» (ص٧٤) وعنها في «الكشف» (٤٧٧)، وقال: «اترك التعليق للقارئ، ولكني أنبه إلى أن أفلاطون مات قبل ميلاد عيسى بـ ٣٤٧ سنة، فأين الكشف؟ مع العلم أن السرهندي يعترف أن الكشف قد يخطئ.

❑ وقال: «... فما تكون نسبة الآخرين لهؤلاء الأكابر؟وربما تصدر العبادة عن الآخرين وتكون غير مرضية، وهؤلاء الأكابر يتركون العبادة في بعض الأحيان ويكون ذلك الترك مرضيًا. فكان تركهم أفضل عن الحق جل وعلا من فعل غيرهم. والعوام حاكمون بخلاف ذلك يعتقدون ذلك عابدًا وهذا مكارًا أو معطلاً... «المنتخبات من المكتوبات» (ص١٥٢)، وعنها في «الكشف» (٥٩٠ ـ ٥٩١)، وقال: «أقول: من مثل هذا تبين لنا دور الكشف في تزوير عقول الأمة؛ لأن هذا القطب المجدد عرف هذا الحكم عن اللّه الذي هو هو، أثناء إحدى فناءاته، وهو طبعًا، يعتقد أن هذا حق لا ريب فيه».

❑ يذهب الشيخ أحمد السرهندي إلى تعطيل صفه الاستواء عفا اللّه عنه.

❑ وقال: «وجدت اللّه عين الأشياء كما قاله أرباب التوحيد الوجودي من متأخري الصوفية، ثم وجدت اللّه في الأشياء من غير حلول ولا سريان، ثم ترقيت في البقاء وهو ثاني قدم في الولاية فوجدت الأشياء ثانيًا فوجدت اللّه عينها بل عين نفسي، ثم وجدته تعالى في الأشياء بل في نفسي ثم مع الأشياء، بل مع نفسي...» إلخ... «المواهب السرمدية» (ص١٨٢)،

و«الأنوار القدسية» (ص١٨١)، وعنهما في «المنقشبندية» (ص٥٩).

وقال السرهندي: «كثيرًا ما كان يعرج بي فوق العرش المجيد، ولقد عُرج بي مرة، فلما ارتفعت فوقه بقدر ما بين مركز الأرض وبينه، رأيت مقام الإمام نقشبند رضي اللَّه عنه، ورأيت فوق ذلك قليلاً مقامات بعض المشايخ». . وذكر أسماء عديدة ثم قال: «واعلم أني كلما أريد العروج يتيسر لي» (المواهب: ١٨٤، والأنوار: ١٨٢، وعنهما في النقشبندية: ص٤٨)».

وقال: «أُريت الكعبة المطهرة تطوف بي تشريفًا منه تعالى وتكريمًا لي» (المواهب: ص١٨٥، وعنها في النقشبندية» ص٤٨)»[1].

❑ ولا يقبل منه مدحه للنقشبندية وشيخها. والشيخ السرهندي هو مؤسس الطريقة النقشبندية المجددية.

❑ ولقد ردّ الدكتور شمس الدين الأفغاني على أبي الحسن الندوي ما كتبه عن السرهندي في سلسلة «رجال والدعوة في الإسلام» قال الدكتور شمس الدين عن السرهندي: «مع أنه من كبار أهل وحدة الشهود التي هي وحدة الوجود المتطورة المهذبة.

راجع على سبيل المثال «الدرر المكنونات ـ ترجمة المكتوبات» (٢/ ٥ ـ ٧)، و«المنتخبات من المكتوبات» (١٠)، وانظر «نزهة الخواطر» (٥/ ٥٣، ٥٤) في ترجمته، وراجع ما في «جهود علماء الحنفية» (ص١٤٩١ ـ ١٤٩٢)، وللعلامة الخجندي المعصومي (١٣٧٩هـ) كلام مهم في «مفتاح الجنة» (٨٠ ـ ٨١) في ذكر بعض خرافاته وشركياته»[2].

---

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر من كتاباته للعالم السلفي صلاح الدين مقبول أحمد.

(٢) «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» للدكتور شمس الدين الأفغاني (١/ ٧٣) ـ دار الصميعي.

*** كلام طيب للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد في كتابه «الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر في كتاباته»:**

❑ قال الشيخ صلاح الدين مقبول في كتابه: «مركز الإمام السرهندي الاجتهادي والتجديدي في نظر الأستاذ الندوي»:

قال الأستاذ الندوي:

«اختار الإمام السرهندي مذهبًا رابعًا إزاء هذه المذاهب الثلاثة، وهو أن وحدة الوجود مقام يعرض للسالك خلال السلوك، فيشاهد ـ عند ذاك ـ عيانًا وجهارًا ـ إنه لا وجود هناك إلا لواجب الوجود، وكل ما يراه الإنسان من وجود، فهو وجود واحد، وما سواه فليس إلا «تنوعاته وتلويناته» وفي تعبير الشيخ محيي الدين ابن عربي والعارفين المتذوقين لهذا المشرب الوجودي إنما هي «تنزّلاته».

ولكن لو حالف التوفيق الرباني ورافق الهدي النبوي، وكان السالك صاحب طموح وعلو همة، فإنه يفوز بمقام آخر، وهو مقام «وحدة الشهود»[٢].

وهكذا يضيف الإمام السرهندي ـ مع نقضه لنظرية وحدةالوجود، الذي كان مذهب غالب المتصوفين والحكماء المدققين، والإشراقيين المتعمّقين، واعترافه بعلو كعب مؤسس هذه النظرية: علميًّا: ورائدها الأكبر الشيخ محيي ابن عربي، في كثير من العلوم والتحقيقات ـ إضافة جديدة، ويكتشف عالمًا جديدًا يوافق عقيدة جمهور المسلمين، ويتفق مع الكتاب والسنة والشريعة

(١) ونقل الأستاذ الندوي عن الإمام السرهندي أنه قال: «هو مقام العبدية والتوحيد الذي جاء به الأنبياء ـ عليهم السلام ـ المصدر المذكور: (ص٢٥٨)، وأما شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في هذا المقام: «من جعل هذا نهاية السالكين، فقد ضل ضلالاً مبينًا»: «فتاواه» (٣/ ١١٩)، فضلاً عن أن يجعله «مقام العبدية والتوحيد» وعقيدة جمهور المسلمين.

الإسلامية[١] ، في جانب، ويضيف شيئًا ـ بدون أن يرجع بالعلوم القهقري، ويلغي تحقيقات جماعة كبيرة ذات شأن وعلومها ومداركها ـ ينسجم مع التحقيقات والكشوف الأخيرة في الأنفس والآفاق، ويتلاءم مع النصوص الشرعية والأصول القطعية، ويطابق بينهما جميعًا»[٢] .

*** نقل الأستاذ الندوي عن الإمام السرهندي انتقاله من مقام إلى مقام حيث قال :**

«لقد كان كاتب السطور يعتقد أولاً في التوحيد الوجودي، وكان على علم بهذا التوحيد من صغره، وقد رسخ يقينه في قلبه، إلا أنه لم يكن ـ عند

---

(١) ولا ريب أن الإمام السرهندي قدّم نظرية وحدة الشهود إزاء وحدة الوجود، ولكن يرى «بعض كبار العلماء المحققين» ـ على قول الأستاذ الندوي ـ: «إن هذا النزاع كان نزاعًا لفظيًا صرفًا».

وقال بعضهم: «إن الإمام السرهندي أخطأ التوفيق في هذا المجال، وأنه لم يطلع على جميع مؤلفات الشيخ الأكبر: ابن عربي». ولأجل ذلك ألف الشيخ غلام يحيى البهاري (١١٨٠هـ) كتابًا ردّ فيه على تلك النزعة التطبيقية التي كان بعض أوساط السلسلة المجددية أيضًا يحاول على أساسها التوفيق بين وحدة الوجود، ووحدة الشهود». «الإمام السرهندي» (٢٦٢ ـ ٢٦٣).

هذا، وإن نزعة التوفيق والتطبيق بين النظريتين قائمة، ولم يكن ردّ البهاري على النزعة التطبيقية نهاية هذه المشكلة. إذن، كيف يقال: «إن الإمام السرهندي اكتشف عالمًا جديدًا يوافق عقيدة جمهور المسلمين، ويتفق مع الكتاب والسنة، والشريعة الغراء...»؟!

وكيف تكون وحدة الشهود عقيدة جمهور المسلمين، وهي لم تعرف في جيل الصحابة ـ رضي اللّه عنهم ـ؟ وبالتالي كيف تتفق هذه انظرية مع الكتاب والسنة، وهذه هي حالها؟!

وعلى هذا، ليست وحدة الشهود إلا محاولة لتطوير وحدة الوجود، فليعلم... إن التصوف المصطلح بعيد من روح الإسلام الخالص، بحيث لم يستطيع أن يتفق مع الكتاب والسنة بعد إصلاحه وترميمه أيضًا.

(٢) «الإمام اسرهندي» (ص٢٥٢).

ذلك ـ صاحب الحال في هذا المقام، فلما شدا في طريق السلوك، انكشف له طريق توحيد الوجود، فجال في هذا المقام ومراتبه وصال، لمدة طويلة من الزمن، وفاز بعلوم كثيرة خاصة بهذا المقام، وانحلت عقدة تلك الواردات والخواطر المشكلة التي تعرض لسالكي طريق الوحدة، بهذه المكاشفات، والعلوم المفاضة الموهوبة، ثم استولت على هذا الفقير بعد مدة غير قليلة نسبة أخرى، فتردد في طريق توحيد الوجود في حال استيلاء هذه النسبة، ولكن هذا التردد كان يرافقه حسن الظن، لا الإنكار والجحود، وبقي متوقفًا مترددًا مدة طويلة من الزمن، حتى بلغ به الحال إلى الإنكار، وكشف له أن هذه المنزلة أدنى وأحطّ، ووصل إلى مقام الظلّية الذي يفوقها ويفضل عليها، وكان هذا الإنكار اضطرارًا وعن اندفاع، فإنه لم يكن يحبّ الخروج من هذا المقام؛ لأن كبار المشايخ والعارفين ألقوا به عصا الترحال، ولكنه لما بلغ مقام الظلّية، ورأى نفسه والعالم كله ظلاً، تمنى أن لا يفارق هذا المقام؛ لأنه كان يعتقد الكمال في وحدة الوجود، ولهذا المقام مناسبة بها بالجملة، ولكن كان من مقادير اللَّه، ولطفه وكمال شفقته عليه، أن رقّاه وصعد به إلى مقام أسمى وأرفع، هو مقام العبدية[1] ، فتجلى له ـ عند ذاك ـ كمال هذا المقام وعظمته، وجعل يتوب إلى اللَّه، ويستغفره من المقامات السابقة، فلو لم يكن لطف اللَّه أرشد هذا المسكين إلى هذه الجادة الواضحة، ولم يكشف له تفوق

(١) بعد هذا المشوار الطويل في أودية التصرف وصل الإمام السرهندي إلى هذا المقام فرارًا من وحدة الوجود، وقدم نظرية وحدة الشهود إزاءها، ولكن لأجل تعلقه بها من الصغر، كأنه لم يأتي بشيء واضح في هذا الجال عند بعض كبار المحققين في التصوف حيث قالوا: «إن هذا النزاع كان نزاعًا لفظيًا صرفًا» «الإمام السرهندي» (ص٢٦٢).
واعتبر الإمام السرهندي هذا المقام مقام العبدية وغاية السالكين كما هو واضح من تقريره، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية قال في هذا المقام: «من جعله نهاية السالكين فقد ضل ضلالاً مبينًا» «فتاواه» (٣/ ١١٩).

مقام على مقام، لكان يعتقد انحطاطه وسقوطه في ذلك المقام؛ لأنه كان يرى أن لا مقام أفضل وأعلى من مقام «وحدة الوجود، واللَّه يقول الحق، وهو يهدي السبيل»[١] .

*** رأي السرهندي في ابن عربي:**

ذكر الأستاذ الندوي تحت عنوان «الرأي الوسط العادل عن الشيخ الأكبر»، أن الإمام السرهندي يرى أن الناس سلكوا مسلك الإفراط والتفريط في ابن عربي... وأن كلا الفريقين جانبَ الاعتدال، ثمّ نقل عنه قوله في ابن عربي حديث قال:

«ومما يعجب له أن الشيخ ابن عربي يبدو من المقبولين، وتبدو أكثر معارفه وتحقيقاته التي جانبَ فيها أهل الحق خاطئة بعيدة عن الصواب»[٢] .

*** ويذكر ـ في موضع من رسائله ـ الفارق الحقيقي بينه وبين عامة المثبتين أو النافين لوحدة الوجود، فيقول:**

«إن اختلاف هذا الفقير مع القائلين بوحدة الوجود، عن طريق الكشف والشهود، والعلماء يستقبحون هذه الأمور (كوحدة الوجود، والنفي المطلق لما سوى واجب الوجود)، أما الفقير فلا يتردّد في الاعتراف بحسن هذه الأقوال والأحوال الصادرة من فكرة وحدة الوجود، إذا أدت بصاحبها إلى العبور، (أي: أن يعبر السالك هذا المقام إلى مقام أرفع)[٣] .

---

(١) «الإمام السرهندي» (٢٥٧ ـ ٢٥٨).

(٢) «الإمام السرهندي» (ص٢٥٨)، نقلاً عن «الرسالة» رقم (٢٦٦) المجموعة الأولى.

(٣) المصدر المذكور (ص٢٥٨) وقال: «وهو مقام العبودية والتوحيد، الذي جاء به الأنبياء ـ صلوات اللَّه عليهم وسلامه ـ، (الرسالة رقم (٤٢) المجموعة الثانية، بعث بها إلى الشيخ جمال الدين حسين).

وسيأتي ما في هذا المقام من الكلام قريبًا إن شاء اللَّه تعالى.

* **وحدة الشهود في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية:**

ذكر الأستاذ الندوي فكرة وحدة الشهود في كتابات شيخ الإسلام فقال: لا نعلم في حدود دراستنا واطلاعنا إلا شخصيتين شهيرتين ـ نجد عندهما فكرة وحدة الشهود إزاء نظرية وحدة الوجود، وإشارات متفرقة إليها...

(أحدهما): شيخ الإسلام ابن تيمية..

(والآخر): شرف الدين أحمد بن يحيى المنيري..

ويتجلى من كتابه «العبودية» أنه من المطلعين على فكرة وحدة الشهود ويعرف هذه الحقيقة أنها مقام يعترض السالك أثناء تربيته وسلوكه.. ولكنه ـ لعدم غوصه في هذا المجال ـ يكتفي بإيماءات وإشارات»[1].

هذه العبارة تحتاج إلى بعض التوضيحات حتى لا تحمل على غير محملها، ومنها:

❑ قد يفهم من قوله في البداية أن شيخ الإسلام قدّم وحدة الشهود إزاء نظرية وحدة الوجود وهذا خلاف الواقع.

❑ ثم تنازل إلى قوله الواضح: «أنه من المطلعين على فكرة وحدة الشهود». ولكن يعلم أن اطلاعه عليها شيء، وتقديمه إياها إزاء نظرية وحدة الوجود شيء آخر، بل قال: «من جعل هذا نهاية السالكين فقد ضل ضلالاً مبينًا»[2]، فضلاً أن يجعله مقام العبدية والتوحيد.

❑ انبسط الأستاذ الندوي حين ذكر تقي الدين ابن تيمية وشرف الدين المنبري في فكرة وحدة الشهود، وذكر أنهما يشتركان في سلامة الذوق وسلامة الفطرة.

---

(١) «الإمام السرهندي» (٢٤٩ ـ ٢٥٠).

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣/ ١١٩).

فيلعلم حتى لا يلتبس، أن شرف الدين في وحدة الشهود في واد (هو وادي التصوف)[١] ، وتقي الدين في واد آخر (هو وادي السنة).

ذكر الأستاذ الندوي شيخ الإسلام ابن تيمية في نظرية وحدة الشهود، مثله مثل تشبّث الغريق بالحشيش، ولعله أراد بنسبتها إلى شيخ الإسلام ـ أي نوع من النسبة ـ تقليل وحشة الناس من وحدة الشهود إزاء وحدة الوجود.

ولا ريب أن شيخ الإسلام ابن تيمية يعتبر موسوعيًّا في كل ما يتناول من المباحث في كتبه ورسائله، وفتاواه، وقد ذكر مسألة «الفناء» أيضًا في فتاواه في عدة أمكنة[٢] وهو لم يكتف بالإشارات والإيماءات[٣] فقط، بل فصّلها حينًا، ولخّصها حينًا آخر، فيفهم تفصيله في ضوء تلخيصه، وتلخيصه في ضوء تفصيله، فقد ذكر في فتاواه خلاصة ما في هذا الموضوع فقال:

«والفناء يراد به ثلاثة أمور:

(أحدها): هو الفناء الديني الشرعي الذي جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب، وهو أن يفنى عما لم يأمر اللَّه به بفعل ما أمر اللَّه به: فيفنى عن عبادة غيره بعادته، وعن طاعة غيره بطاعته وطاعة رسوله، وعن التوكل على غيره بالتوكل عليه، وعن محبة ما سواه بمحبته ومحبة رسوله، وعن خوف غيره بخوفه، بحيث يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**

(١) قارن قوله في هذه القضية، بما يأتي عن كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١١٨ ـ ١١٩)، (١٠/ ٢١٨ ـ ٢١٩) العبودية، (١٠/ ٣٣٧ ـ ٣٤٣)، و«إبطال وحدة الوجود» (٦٣ ـ ٦٥).

(٣) قال الأستاذ الندوي: «ولكنه لعدم خوضه في هذا المجال يكتفي بإشارات، وإيماءات» «الإمام السرهندي» (ص٢٢٠).

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] فهذا كله هو مما أمر اللَّه به ورسوله[١].

وأما (الفناء الثاني): وهو الذي يذكره بعض الصوفية، وهو أن يفنى عن شهود ماسوى اللَّه تعالى[٢]، فيفنى بمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره

(١) قال شيخ الإسلام في «فتاواه» (١٠/ ٣٣٧) أيضًا:
أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوى الرب، والتوكل عليه وعبادته، ما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو في «الحقيقة» عبادة القلب، وتوكله، واستعانته، وتألهه وإنابته، وتوجهه إلى اللَّه وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد خروج عن هذا.
وهذا هو «القلب السليم» الذي قال اللَّه فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] وهو سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة، والإرادات الفاسدة وما يتبع ذلك».

(٢) هذا الذي يسمونه بـ «وحدة الشهود».
قال شيخ الإسلام أيضًا في «فتاوه» (٢/ ٣١٤): «ومن الناس من يجعل هذا من السلوك، ومنهم من يجعله غاية السلوك، حتى يجعلوا الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية فلا يفرقون بين المأمور والمحظور، والمحبوب والمكروه.
وهذا غلط عظيم... فمن طلب رفع إنيته بهذا الاعتبار لم يكن محمودًا على هذا، ولكن قد يكون معذورًا».
وقال (٢/ ٣٤٤): «... هذا مقام الفناء الذي يعرض لكثير من السالكين لعجزهم عن كمال الشهود المطابق للحقيقة، بخلاف «الفناء الشرعي»، فمضمونه الفناء بعبادته عن عبادة ما سواه...».
وقال (٢/ ٣٦٩): «... لكن إذا كان قد ورد على الإنسان ما يعجز معه شهود هذا وهذا، كان معذورًا للعجز، لا محمودًا على النقص والجهل».
وقال أيضًا في «فتاوه» (١٠/ ٢١٩): «فإذا قوى على صاحب الفناء هذا، فإنه يغيب بموجوده عن وجوده، وبمشهوده عن شهوده، وبمذكوره عن ذكره، وبمعروفه عن معرفته، حتى يفنى من لم يكن وهي المخلوقات المعبدة ممن سواه، ويبقي من لم يزل وهو الرب تعالى. والمراد فناؤها في شهود العبد وذكره، وفناؤه عن أن يدركها أن يشهدها. وإذا قوى هذا ضعف المحب حتى اضطرب في تمييزه فقد ظن أنه هو محبوبه، كما يذكر: أن رجلاً ألقى نفسه في اليم فألقى محبّه نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت فما أوقعك خلفي

وبمعروفه عن معرفته، بحيث قد يغيب عن شهود نفسه لما سوى اللَّه تعالى، فهذا حال ناقص قد يعرض لبعض السالكين، وليس هو من لوازم طريق اللَّه.

ولهذا لم يعرف مثل هذا للنبي ﷺ وللسابقين الأولين، ومن جعل هذا نهاية السالكين، فهو ضالّ ضلالاً مبينًا، وكذلك من جعله من لوازم طريق اللَّه فهو مخطئ، بل هو من عوارض طريق اللَّه تعالى تعرض لبعض

قال: غبت بك عني، فظننت أنك أني».

وقال في «فتاواه» (١٠/ ٢٢٠) أيضًا: «وأكابر أولياء اللَّه كأبي بكر وعمر، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، لم يقعوا في هذا «الفناء»، فضلاً عمن فوقهم من الأنبياء، وإنما وقع شيء من هذا بعد الصحابة... فإن الصحابة ـ رضي اللَّه عنهم ـ كانوا أكمل وأقوى وأثبت في الأحوال الإيمانية من أن تغيب عقولهم، أو يحصل لهم عشى، أو صعق، أو سكر، أو فناء، أو وله، أو جنون. وإنما كان مبادئ هذه الأمور في التابعين من عباد البصرة فإنه كان فيهم من يغشى عليه إذا سمع القرآن، ومنهم من يموت: كأبي جهير الضرير، وزرارة بن أوفى قاضي البصرة...».

وفرق شيخ الإسلام بين الفناء الأول، وهذا الثاني فقال في «فتاواه» (١٠/ ٣٣٨):

«(الأمر الثاني): فناء القلب عن شهود ما سوى الرب، فذاك فناء عن الأرادة، وهذا فناء عن الشهادة. ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء على العلم بالغير والنظر إليه، فهذا الفناء فيه نقص؛ فإن شهود الحقائق على ما هي عليه، وهو شهود الرب مدبرًا لعباده، آمرًا بشرائعه، أكمل من شهود وجوده، أو صفة من صفاته، أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوى ذلك».

وقال في «فتاواه» (١٠/ ٥٩٤) أيضًا: «والذين يسلكون في محبة اللَّه مسلكًا ناقصًا يحصل لأحدهم نوع من ذلك يسمى «الاصطلام» و«الفناء» يغيب بمحبوبه عن محبته، وبمعروفه، وبمذكروه عن ذكره، حتى لا يشعر بشيء من أسماء اللَّه وصفاته وكلامه وأمره ونهيه.

و«منهم» من قد ينتقل من هذا إلى «الاتحاد». فيقول: أنا هو، وهو أنا، وأنا اللَّه، ويظن كثير من السالكين أن هذا هو غاية السالكين، وإن هذا هو «التوحيد» الذي هو نهاية كل سالك. وهم غالطون في هذا؛ بل هذا من جنس قول النصارى، ولكن ضلوا؛ لأنهم لم يسلكوا الطريق الشرعية في الباطن في خبر اللَّه وأمره.

الناس دون بعض، ليس هو من اللوازم التي تحصل لكل سالك.

وأما (الثالث): فهو الفناء عن وجود السوي، بحيث يرى أن وجود المخلوق هو عين وجود الخالق، وأن الوجود واحد بالعين، فهو قول أهل الإلحاد والاتحاد، الذين هم من أضلّ العباد»[1].

هذا الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ في مسألة الفناء، في فتاواه ورسائله[2]، في مواضع عديدة.

وبعد هذا، نتساءل:

ما الذي حمل الأستاذ الندوي أن يذكر شيخ الإسلام في هذا الباب، وهو لم يستفد من كتاباته في «مسألة الفناء»، مع وضوحها وجلائها؟!.

وما رآه الأستاذ الندوي مقام العبدية والتوحيد وغاية السلوك، على

---

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١١٨ ـ ١١٩).

(٢) وهذا الذي فهمه منه تلميذه الرشيد: الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمهما اللَّه ـ، وذكره في كتابه «طريق الهجرتين وباب السعادتين (٤٣٠ ـ ٤٣٢)، ورد على ابن الصائف وشيعته في قولهم: «إن فناء شهود السوى هو عين الكمال» فقال: «فيقال: هذا هو مقام الفناء الذي يشير إليه كثير من المتأخرين، ويجعلونه غاية الغايات ونهاية النهايات، وكل ما دونه فمرقاة إليه، وعيلة عليه... وقد تبين ما في ذلك، وما هو الصواب بحمد اللَّه...» (المصدر المذكور: ٥٣٢ ـ ٥٣٣).

وهذا الذي فهمه العلامة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ـ حفظه اللَّه ـ من المعاصرين، فقال، عند ذكره ثلاثة أقسام للفناء:

«القسم الثاني: صوفي بدعي، وهو الفناء عن شهود السوى... وهو فناء ناقص من وجوه:

(الأول): إنه دليل على ضعف قلب الفاني...

(الثاني): إنه يصل بصاحبه إلى حال تشبه حال المجانين والسكارى...

(الثالث): أن هذا الفناء لم يقع من المخلصين الكمّل من عباده اللَّه...» «فتاوى ابن عثيمين» (٤/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

مذهب الإمام السرهندي، وهو الذي قال فيه ابن تيمية «ومن جعله نهاية السالكين، فهو ضال ضلالاً مبينًا»[١] .

*** منع كتاب «السرهندي» للندوي بفتوى من الشيخ ابن باز:**

لأجل هذه التناقضات والمخالفات خاصة في هذا الباب، والباب الأخير من كتاب «الإمام السرهندي» للأستاذ الندوي، نراه في «قائمة الكتب التي يجب منع دخولها إلى المملكة العربية السعودية، أو طباعته فيها، أو بيعها في المكتبات التجارية نصحًا للّه ولعباده وحماية للمسلمين من شر ما فيها وذلك بعد التثبت والتأكد مما فيه من الجهة المختصة. . .»[٢] .

* * *

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ١١٩).

(٢) بتوقيع من «الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد: عبدالعزيز ابن عبداللّه بن باز ـ حفظه اللّه ـ. (مجلة البحوث العلمية بالرياض: العدد (١٥) (ص٢٨٦ ـ ٢٨٧) وعنها في «كتب تحت المجهر» (٢/ ٢١ ـ ٢٢) للشيخ عبدالعزيز بن محمد السدحان.

* السلطان العظيم محيي الدين أورنك زيب عالمكير وحميته الدينية وحمايته للإسلام:

❑ قال عنه الشاعر محمد إقبال:

«ذاك السلطان أورنك زيب ذو المجد السامق الذري الذي تتباهى به الأسرة الكوركانية، وتعتز به، علا به نجم المسلمين، وارتفعت مكانتهم، ونالت به الشريعة عزها وكرامتها، كان السهم الأخير في كنانة الإسلام، للحرب الحامية بين الكفر والإيمان!.، تعرّضت الأمة الإسلامية لمحنة عظيمة، بسبب بذرة الإلحاد والزندقة، التي بذرها «أكبر»، وسقاها ونماها، والتي نشأت ـ مرة ثانية ـ في فطرة داراشكوه[1]، وكانت شموع القلوب في الصدور خامدة مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك.

هنالك قيض اللَّه ـ سبحانه وتعالى ـ السلطان عالمكير، ذلك الزاهد الغيور الفارس الجسور، الذي اجتباه اللَّه ـ عز وجل ـ لإحياء الدين وتجديد الإيمان واليقين، فحرقت صواعق سيوفه المهندة بيادر الكفر والزندقة، وأضاءت شموع الدين في محافل المسلمين، وتخرّص المتخرصون من قصار النظر، وضعاف النفوس، فحكموا عليه بأحكام قاسية، وقاسوه بمقاييسهم الزائفة، ولم يعرفوا عمق مداركه، وأبعاد تفكيره، لقد كان فراشة متهافتة على شعلة التوحيد، وكان في بلاد الشرك والوثنية كإبراهيم في نار نمرود، نسيج وحده في صف الملوك والسلاطين، ومثالاً فريداً في زمرة الزهاد والناسكين»[2].

---

(١) داراشكوه بن شاهجهان وكان وليًا للعهد وأخًا لأورنك، ووقف علماء المسلمين إلى صف أورنك حتى تربع على عرش المملكة عام ١٠٦٨هـ وذلك لأنهم لاحظوا أن داراشكوه يميل إلى مذهب جده أكبر وأنه معجب بفلسفة وحدة الأديان والجمع بين الديانة الإسلامية والديانة الهندوكية.

(٢) «رموز بيخودي» الديوان الفارسي (ص٩٨).

تأثر أورنك زيب عالمكير بأبناء الإمام السرهندي وأحفاده، وكان يجلهم ويعظمهم، وينسجم مع دعوتهم، وكان اتصاله بالشيخ محمد معصوم بن السرهندي وابنه سيف الدين اتصال تلميذ بشيخيه، وقد كان الشيخ محمد معصوم من يوم أن كان السلطان وليًّا للعهد يعتنى به اعتناءً خاصًّا، ويلقبه بولي العهد الحامي لذمار الإسلام ـ الذي كان إرهاصًا لمستقبله العظيم، وتفاؤلاً نافعًا.

وتفيد رسائل الشيخ سيف الدين ـ التي بعث بها إلى السلطان أورنك زيب وطُبعت باسم «المكتوبات السيفية دراسة عميقة» ـ أن صلة السلطان أورنك زيب بالشيخ سيف الدين ـ بصفة خاصة ـ وبأسرة الإمام السرهندي ـ بصفة عامة ـ لم تكن صلة حب وإجلال فحسب، كما توجد لدى السلاطين المتدينين مع علماء ومشايخ بلادهم وعهودهم، بل كانت هذه الصلة عملية أكثر منها عاطفية وتربوية إصلاحية أكثر منها حبًّا وإجلالاً محضًا. وكان الشيخ سيف الدين يرافق السلطان من حين لآخر ـ في غزواته ورحلاته إلي الركن، وإقامته الطويلة فيها، ويشاركه في تفكيره ويدعو له.

وكان الشيخ سيف الدين داعيًا عظيمًا إلى السنة، ونبذ البدع والمنكرات، واصل جهوده مع السلطان في إحياء السنة، وتنفيذ الشريعة الإسلامية، ولم يدخر في ذلك وسعًا، وتوجد في مجموعة رسائله «المكتوبات السيفية» ثماني عشرة رسالة كتبها إلى السلطان، لفت فيها انتباهه إلى إزالة البدع والمنكرات، وإحياء السنة، وإعلاء كلمة اللّه، وتمكين الدين الإسلامي في هذه البلاد.

وتذكر كتب التاريخ دخول الشيخ سيف الدين في قصر السلطان، وإنكاره على الصور المنحوتة في الجدران، وانقياد السلطان له، وأمره ـ مباشرة ـ بإزالة هذه الصور، وكتب الشيخ محمد معصوم إلى السلطان «إنها

لنعمة عظيمة أن يسمع السلطان ـ رغم أبهته وشوكته وحشمته ـ كلمة الحق وينصاع لها، ويؤثر فيه قول مسكين فقير»[١] .

❑ وكتب الشيخ محمد معصوم إلى ولده الشيخ سيف الدين «ما ذكرته من أحوال السلطان الحامي لذمار الإسلام. . . وتقبله الحسن لكلمة الحق، وإزالة بعض المنكرات. . . فيجب علينا أن نحمد اللَّه عز وجل ـ على ذلك، فإن هذه الصفات شاذة نادرة في طبقة السلاطين»[٢] .

لقد كان الشيخ سيف الدين على رتبة عظيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يكن عليها شيخ من المشايخ مثله، حتى كادت البدع ترتفع عن بلاد الهند في زمنه وتستأصل، ولذلك لقّبه والده «بمحتسب الأمة».

❑ ويصعب الحكم على جميع أعمال أي حاكم أو سلطان لدولة ما من الدول وجميع عاداته وأخلاقه، وأحكامه وأقضيته، وإجراءاته بأنها موافقة ـ مائة في المئة ـ للتعاليم الإسلامية، والأحكام الشرعية، ولا يُمكن أن يُقال ذلك إلا في الخلفاء الراشدين، وبعض الولاة الذين كانوا على سيرة عمر بن عبدالعزيز في إقامة الخلافة على منهاج النبوة، إلا أن الوثائق التاريخية الثابتة عن السلطان أورنك تدل بوضوح أنه خطا خطوات جريئة وأحدث تغييرات عميقة بعيدة المدى في نظام الدولة، وفي المجتمع المسلم ـ الخاضع لهذا النظام، ونفّذ ـ لأول مرة ـ بعض الإصلاحات التي كانت تؤثر على اقتصاد الدولة، تطبيقًا لبعض الأحكام الصريحة في الشريعة الإسلامية.

❑ فقد غير أورنك التقويم المجوسي المتبع في الإدارة والولاية منذ عهد أكبر، وأحلّ بدلاً منه التقويم الهلالي الإسلامي، وأمر بتقديم التقويم الهلالي

(١) «رسائل الشيخ محمد معصوم» (ج٣)، «الرسالة» رقم (٢٢٧).

(٢) لا يُقبل من السلطان أورنك صوفياته النقشبندية، وقد كان متأثرًا في ذلك بشيوخه من أسرة السرهندي. وخير الهدي هدى محمد ﷺ .

على التقويم الشمسي، وأمر بإلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس، وقرر بداية الجلوس بغرّة شهر رمضان، وأبدل مهرجان نوروز بمهرجان عيد الفطر.

❑ أمر السلطان بإلغاء «راهداري» ـ ضريبة الطريق ـ الذي كان يؤخذ على جميع الحدود والثغور، وتوضع جميع وارداته في خزانة الدولة، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي كان دخلها من الحانات والخمارات، والغرامات وما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهارًا للشكر وغير ذلك، مما يبلغ الملايين من الروبيات، وكان دخلاً كبيرًا للدولة.

❑ وذكر مؤلف «نزهة الخواطر» اعتمادًا على كتب التاريخ بالفارسية أن عالمكير نسخ عام ١٠٦٩هـ ثمانين نوعًا من الخراج والضرائب، التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاث ملايين روبية.

❑ «وكانت الحسبة منصبًا خطيرًا في الحكومات الشرعية، وشعارًا ظاهرًا من شعائر الخلافة الإسلامية، وكانت الحسبة مهجورة معطلة في الحكومات المسلمة في الهند، وأحيا السلطان هذه السُّنّة أيضًا».

❑ يقول مؤرخ الهند الأستاذ ذكاء اللّه الدهلوي في كتابه «تاريخ هندوستان»:

«عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسبًا، وأمره أن ينهى الناس عن جميع المحرمات، وخاصة عن شرب الخمور، وتناول الحشيش وجميع المسكرات، وجميع الفواحش، ويمنعهم ـ قدر المستطاع ـ من جميع المسيئات والمنكرات»[1].

❑ وأمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء، ونهى عن اجتماع الناس تحت

(١) «تاريخ هندوستان» لذكاء اللّه الدهلوي (٨/ ٩٢).

قصر السلطان لزيارته، ورؤية طلعته من نافذة في أعلى القصر[١] ، وكان هذا تقليدًا من التقاليد السلطانية المخترعة، ويُسمى «جهروكه درشن»، وترك نفسه الجلوس على النافذة، استنكارًا لهذه التقاليد غير الشرعية.

❑ وكان السلاطين المسلمون في الهند ـ حسب معتقدات الهنادك وعادتهم القديمة يثقون كثيرًا بتنجيم المنجمين، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر المنجمون في ضوء علم التنجيم، فقضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة والعادة المتبعة.

❑ وأهم من ذلك أن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها، فعيّن السلطان عالمكير قضاة شرعيين وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلّق بالقوانين الشرعية.

❑ وتكفّل السلطان لتنفيذ القوانين الشرعية، وتوفير التسهيلات للقضاة ـ بترتيب المسائل الفقهية وتدوينها من جديد، وكوّن لأجل ذلك لجنة من علماء الأحناف وكانت الثمرة هي «الفتاوى العالمكيرية» أو «الفتاوى الهندية» خدمة للقضاء الشرعي على المذهب الحنفي.

❑ وأذن السلطان لرعاياه أن يرافعوا إلى المحكمة ضد السلطان، ويُطالبوا بالحكم طبق الشريعة الإسلامية، وعين لذلك محامين شرعيين.

❑ يقول مؤرخ الهند ذكاء اللّه:

«أمر السلطان عام ١٠٨٢هـ، بأن يُنادَى في البلاط والمدن والقرى: من كانت له دعوى شرعية على السلطان، فليحضر وليراجع وكيل السلطان، وليأخذ حقه إذا ثبتت دعواه، وأمر بتعيين المحامين والوكلاء في البلاط، وفي

(١) في ديانة أكبر المخترعة قال أكبر «إن رؤية وجوه السلاطين هي العبادة، إنهم يُسمّون «ظل اللّه» ولكن رؤيتهم تذكر في الحقيقة بالخالق» ـ انظر «الإمام السرهندي» (ص١٠٧).

المدن القريبة والبعيدة حتى يرفع من لا يستطيع الوصول إلى البلاط أمره إليهم، ويثبتوا عن طريقهم دعواهم، ويطلبوا حقهم».

▫ يقول: «وصدر الأمر بأن المسلمين عند مقابلة السلطان ينبغي أن يقتصروا على أن يقولوا السلام عليك، ولا يضعوا أيديهم على رؤوسهم مثل الكفار، ويجب على الحكام والأمراء أن يتبعوا ذلك مع الخاصة والعامة».

ولقّبت الأوساط الدينية السلطان أورنك زيب - بناء على هذه الإجراءات «بمحيي الدين»[1].

* للّه در أورنك زيب عالمكير:

▫ يقول الأستاذ ذكاء اللّه الدهلوي عن عبادة عالمكير في رمضان:

«كان السلطان يصوم النهار، ويقرأ الأوراد، ويتلو القرآن، ويحفظه غيبًا، ويكتب ويؤلف، ويدير دقّة شئون الدولة، ويقوم بأعمال المحكمة والقضاء والسلطة، وبعد أن يدخل مسجد غسل خانه «مسجد الدّرة» المعروف في داخل القلعة الحمراء فيصلي المكتوبات، والتراويح والنوافل حتى ينتصف الليل، فيتناول قليلاً من الطعام، وقليلاً ما يهجع وينام، ويحيى بقية الليل بالقيام، ويحيى بعض الليالي ذات الخيرات والبركات كلها، وهكذا يقضي شهر رمضان».

▫ يقول المؤرخ واصفًا احتضار السلطان:

«غلبته الحمى العام الواحد والخمسين من جلوسه، الموافق ١١١٨هـ، والتزم الصلاة بالجماعة - رغم شدة المرض - أربعة أيام، لكمال ورعه وتقواه، وكان قد كتب وصية من قبل، أوصى فيها بأن ينفق أربع روبيات ونصف روبية - وهي ما بقي مما اكتسبه بيده بخياطة القلانس - فيشتري بها ما يحتاج

(١) «تاريخ هندوستان» (٨/ ٢١٤).

إليه في التكفين والتدفين، وتوزيع ثمانمائة وخمس روبيات، وهي ما حصلت لي من أجرة كتابة المصاحف، على الفقراء والمساكين، ولما كان يوم الجمعة ٢٨ ذي القعدة عام ٥١ للجلوس، الموافق ١١١٨هـ، صلى السلطان صلاة الفجر، ثم اشتغل بالتهليل، حتى فارق هذه الدنيا الفانية بعد أن تعالى النهار، ورحل للأبد إلى دار القرار»[1] .

* حكيم الهند وربّانيه ومجدد القرن الثاني عشر في الهند الإمام الدهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ):

سعة دائرة التجديد الذي قام به الإمام الدهلوي وتنوعه:

«إن الأعمال والمآثر الجليلة التي وفق اللّه تعالى الإمام الدهلوي ـ في القرن الثاني عشر ـ لتحقيقها وإنجازها من التجديد إصلاح الأمة، وإحياء الفهم الصحيح للدين، ونشر العلوم النبوية وإعادة الحياة والنشاط والحيوية في فكر عهده والأمة الإسلامية وعملها وجهودها تتسع في دائرتها وتتنوع شعبها بحيث لا يوجد له نظير لا في المعاصرين فحسب بل في عامة العلماء والمؤلفين في العهود السابقة أيضًا، ويمكن أن يكون سبب ذلك ـ عدا التوفيق والتقدير الإلهيين ـ يرجع إلى مقتضيات ذلك العهد الذي عاشه، وإلى ذلك الاحتواء والشمول وعلو الهمة، والمنهج الخاص للتعليم والتربية الذي خصه اللّه وقدره له وقد كان نتيجة كل ذلك أن الإمام الدهلوي قام بمآثره التجديدية والإصلاحية في مجالات متنوعة من العلم والعمل حتى أن المترجم له والكاتب في «تاريخ رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ليواجه الصعوبة في استيعابها ودراستها التحليلية والتفصيلية، والذي يريد استيعاب هذه الجوانب والمجالات كلها فإن لسانه ينشد ويشكو بهذا البيت الفارسي المعروف الذي

(١) نفس المصدر (٨/ ٤٦٥).

معناه: «إن ذيل النظر ضيق وورود حسنك كثيرة، وإن مقتطف ربيعك يشكو من ذيله الضيق».

وإذا أردنا أن نفرقها في مواضيع مستقلة، فهي تأتي بهذه العناوين البارزة:

١ ـ إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن.

٢ ـ القيام بنشر الحديث الشريف وترويجه، والجهود الموفقة للتطبيق بين الفقه والحديث والدعوة إليه.

٣ ـ عرض الشريعة الإسلامية في صورة متناسقة مدعمة بالأدلة والبراهين والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها.

٤ ـ بيان مكانة الخلافة ووظيفتها في الإسلام وشرح خصائص الخلافة الراشدة ومميزاتها وإثباتها بالأدلة، والرد على الروافض.

٥ ـ عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي، واحتضار الدولة المغولية.

٦ ـ الحسبة على مختلف طبقات الأمة ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير.

٧ ـ القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح وتخريجهم حتى يقوموا ـ بعده ـ بهذا العمل التجديدي من الإصلاح ونشر الدين الصحيح وينقلوه إلى الأجيال القادمة»[1].

بهذا الشمول العجيب، والتّنوع النادر، والفكر الإسلامي الأصيل، والعلم الديني الراسخ، وفهم روح العصر والتنبه للأخطار والتحديات التي كان يتمخض بها المستقبل، أصبح الدهلوي نموذجًا كاملاً للمصلح الديني والمجدد الإسلامي لاعتماده على الكتاب والسنة.

---

(١) الإمام الدهلوي لأبي الحسن الندوي (ص١٠٥ ـ ١٠٦) ـ دار القلم ـ الكويت.

*** دور الإمام الدهلوي في إصلاح العقائد في الهند على مذهب السلف الصالح أهل السّنة والجماعة:**

يظهر من دراسة حياة الشاة أحمد بن عبدالرحيم المعروف بالشاه الدهلوي أن أفكار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه وأنصاره أثرت في تكوين شخصيته بواسطة مشايخه في الحجاز: الشيخ أبي طاهر محمد بن حسن الكردي وكان سلفي العقيدة، والشيخ محمد حياة السندي، شيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، ورجع الدهلوي إلى الهند بعاطفة الاعتصام بالكتاب والسنة.

❑ وقال في شيخ الإسلام: «والذي أعتقده أنا، وأحب أن يعتقده جميع المسلمين في علماء الإسلام حملة الكتاب والسنة والفقه، والذابين عن عقيدة أهل السنة والحديث أنهم عدول بتعديل النبي ﷺ حيث قال: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله**» ـ وإن كان بعضهم قد تكلم فيهم بما لا يرتضيه هذا المعتقد، إذا كان قولهم ذلك غير مردود عليهم بنص الكتاب والسنة والإجماع، وكان قولهم ذلك محتملاً وكان مجال ومساغ للخوض فيه، سواء كان قولهم ذلك في أصول الدين أو في المباحث الفقهية، أو في الحقائق الوجدانية.

وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللّه تعالى ـ فإنا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب اللّه، ومعانيه اللغوية والشرعية وحافظ بسنة رسول اللّه ﷺ وآثار السلف، عارف بمعانيه اللغوية والشرعية، أستاذ في النحو واللغة، محرّر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله، فائق في الذكاء، ذو لسان وبلاغة في الذبّ عن عقيدة أهل السنة، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة، اللّهم إلا هذه الأمور التي ضيق عليه لأجلها. وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف.

فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود في العالم، ومن يطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره؟ والذين ضيقوا عليه لم يبلغوا معشار ما آتاه اللَّه تعالى وإن كان تضييقه ذلك ناشئًا من الاجتهاد، ومشاجرة العلماء في مثل ذلك ما هي إلا مشاجرة الصحابة ـ رضي اللَّه تعالى عنهم ـ فيما بينهم. والواجب في ذلك كف اللسان إلا بخير»[1].

ثم أجاب عن مسائله التي ضيقوا عليه لأجلها.

❑ يقول الشيخ عبدالحميد عبدالجبار الرحماني الرئيس العام لمركز «أبو الكلام آزاد» للتوعية الإسلامية:

تبين مما تقدم أن العهد التغليقي اختص بتنفيذ تعليمات شيخ الإسلام وإصلاحاته علميًا تحت إشراف الملكين (محمد تغلق وفيروز تغلق) وسلطتهما.

وامتاز عصر الشاه ولي اللَّه الدهلوي بتأثير معارف ابن تيمية في تغيير الفكر والمنهج والتمحيص العقلي، اعترف بذلك الدهلوي وتلميذه معين الدين السندي[2].

---

(١) «جلاء العينين» للألوسي (٤٥ ـ ٤٦) نقلاً عن «التفهيمات الإلهية» الدهلوي.

(٢) وأما أخطاء الشاه ولي اللَّه الدهلوي في باب التصوف ووحدة الوجود ووحدة الشهود فهي رواسب بقيت آثارها في «عبقات» و«صراط مستقيم» من كتب الشاه إسماعيل الدهلوي، ولم يتخلص الفكر السلفي منها في الهند إلا بعد جهود السيد صديق بن حسن البوفالي ورفقائه، وجهاد السيد محمد نذير حسين المحدث الدهلوي وتلامذته الذين ملأوا الدنيا بعلوم الكتاب والسنة ومعارف السلف الصالح شرقًا وغربًا.

ونقول في الشاه ولي اللَّه الدهلوي كما نقل الأستاذ مسعود الندوي عن قائل فيه قوله: «نحن نعرف ولي اللَّه المحدث الفقيه صاحب «حجة اللَّه البالغة» و«إزالة الخفاء» ونُجِلّه أما (ولي اللَّه) المتصوف الفلسفي فلا صلة لنا به. انتهى كلام الرحماني في مقدمة كتاب «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وأثرها في الحركات الإسلامية» للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد ص(٣٣ ـ ٣٤).

❑ يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي عن العقائد والتقاليد الشركية التي كانت سائدة:

«كانت العقائد والتقاليد الشركية قد نالت رواجًا بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين والعجم ونفوذ الحكومة الباطنية والإسماعيلية وتأثيرهما وانتشار تعليمات الجهلة والضلال من الصوفية وأعمالهم، فقد وجد عدد وجيه من المسلمين في ذلك الحين يعتقدون في أئمة دينهم ومشائخهم والأولياء والصالحين منهم من الاعتقادات الفاسدة ويحملون من الأفكار المشركة ما كان يعتقده اليهود والنصارى في عزير والمسيح ـ عليهما السلام ـ وأحبارهم ورهبانهم، وكل ما كان يدور حول قبور الأولياء والمشائخ إنما كان تقليدًا ناجحًا للأعمال والتقاليد التي كانت تنجز في معابد غير المسلمين وقبور المقدسين عندهم، فالاستغاثة منهم والاستعانة بهم، ومديد الطلب والضراعة إليهم، كل ذلك كان عامًا شائعًا بينهم كما عمت عادة بناء المساجد الفخمة على قبورهم وجعلها مساجد وعقد المهرجانات عليها عامًا فعامًا، وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها، وقد كانت عبادة القبور ـ بجراءة ووقاحة ـ وعدم الخشية من اللّه تعالى والخوف من أصحاب القبور والخشية منهم والاستهزاء بذات العلي القدير والاستهانة بشعائره، والجراءة وقلة الأدب وتقديس الأولياء إلى حد التأليه، والحج إلى المشاهد والقبور وترجيحه ـ بعض الأحيان ـ على الحج إلى بيت اللّه العتيق، وخراب المساجد وضياعها، وروعة المشاهد والأماكن الخاصة للزيارة والعناية بها كان كل ذلك من قسمات الحياة الجاهلية وعلائمها البارزة التي لم تكن تحتاج رؤيتها إلى قطع مسافات طويلة ولا إلى تفكير وتأمل كثير»[1] .

لقد كان هذا الوضع في بلاد كمصر والشام والعراق التي فتحها

(١) الإمام ابن تيمية لأبي الحسن الندوي ص(١٧١ ـ ١٨٠).

الصحابة ﷺ بأيديهم المباركة، ثم هي أقرب البلاد وأكثرها اتصالاً بمركز الإسلام ومهبط الوحي وموطن الرسول ﷺ وكانت لغتها العربية التي نزل فيها القرآن، ولم تتوقف فيها ـ ليوم واحد ـ سلسلة دروس الكتاب والسنة، وألفت فيها كتب جليلة في علوم الحديث الشريف وشروحها.

ولا يبعد إذن أن نقدر الوضع بإزاء ذلك في الهند (لا سيما هذا القرن الثاني عشر) التي وصل إليها الإسلام بعد أن طاف بتركستان وإيران وأفغانستان وفقد كثيراً من طاقته وحيويته ونضارته بأيدي أولئك الذين لم يتشرفوا بصحبة النبي ﷺ ولم يتمتعوا بالاستفادة ـ مباشرة ـ من مصدر النبوة الفياض، والذين كان كثير منهم لم يتحرروا ـ كليًا ـ من تأثيرات شعبهم وسلالاتهم، ثم إن الهند كانت تسيطر عليها ـ من آلاف السنين ـ الديانة والفلسفة والحضارة التي عجنت طينتها بالشرك والوثنية وجريا فيها مجرى الدم، والتي كانت أكبر ممثل ـ في هذه القرون الأخيرة ـ للوثنية والمحافظة الأمينة على الجاهلية القديمة، وقد انتقل عدد كبير من سكان هذه البلاد المسلمين من البرهمية والأوساط الشركية الأخرى إلى حظيرة الإسلام، ثم لا يعز بنَّ عن البال أن هذه البلاد لم تكن لها من الصلة المباشرة (عبر المدى الطويل) بالقرآن والسنة، ما كانت ـ لتأثير إيران ـ بالعلوم الحكمية العقلية والفلسفة اليونانية، وإذا كانت لها علاقة علمية ودراسية بالعلوم الدينية، فبالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام، العلوم التي يرجع موضوعها ومجال البحث والتحقيق فيها إلى القضايا والجزئيات الفقهية القانونية، وأصول استنباطها، والبحوث الفلسفية في العقائد، والدعوة الأساسية إلى التوحيد الخالص.

ويمكن أن يقدر ما خلفته ديانات الهند وفلسفاتها وتقاليدها وعاداتها من تأثير في القرن العاشر الهجري نفسه على المجتمع المسلم من إحدى رسائل الإمام السرهندي التي كتبها إلى إحدى الصالحات من مسترشداته، ويقدر منها

ما بلغه المجتمع المسلم من تعظيم شعائر الشرك، والاستعانة بغير اللَّه، وطلب الحاجات من غير اللَّه، وتعظيم أعياد الكفار والمشركين، وتقليد رسومهم وعاداتهم وطقوسهم والنذر والذبح للأولياء والصالحين، والصيام بأسماء المشائخ والصالحات، والخوف من ستيلا (التي كانت تعتبر إلهة الجدري) وإجلالها، وأمثال هذه الأشياء التي تدل على العقلية الهندوسية الوثنية والخضوع للأوهام والخرافات، التي غزت عقر دار المسلمين، ولا يتعسر تقدير ما وقع بعد مضى قرن آخر من الزمان على هذا العهد وفقدان الصلة القوية العامة بالكتاب والسنة من زيغ وانحراف في العقائد وتأثير للعقائد والأعمال غير الإسلامية، بل المعارضة المنافية للإسلام، على كثير من الأسر والبيوتات.

ويمكن أن يقدر أيضًا ما أنتج تأثير غير المسلمين على المجتمع المسلم، والجهل بالكتاب والسنة، والبعد عنهما، والفراغ الطويل في الجهود المؤثرة المركزة (بغضّ النظر عن الدهماء والجماهير سخطوا أم رضوا، وبإغماض العين عن النتائج والأخطار) ـ في الهند من وضع سيئ، وما قام من نظام للعقائد، إزاء الدين الحنيف (الذي لم يكن فيه أي مجال لظل من ظلال الشرك والوثنية) وما نبتت في ساحة حياة المجتمع المسلم من نباتات الجاهلية وحشائشها الشيطانية، يمكن أن يقدر كل ذلك من بعض كتابات الإمام الدهلوي نفسه، يقول في «التفهيمات الإلهية»:

«قال رسول اللَّه ﷺ: **«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لتّبعتموهم**، قلنا يا رسول اللَّه! اليهود والنصارى؟ قال: **فمن؟**» [أخرجه البخاري ومسلم] صدق رسول اللَّه ﷺ فقد رأينا رجالاً من المسلمين الذين ضعف إيمانهم يتخذون الصلحاء أربابًا من دون اللَّه، ويجعلون قبورهم مساجد، كما كان اليهود والنصارى يفعلون،

ذلك وقد رأينا رجالاً منهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويعتمدون في ترك العمل وإرضاء الشهوات على القول المعزو إلى النبي ﷺ «الصالحون للّه، والطالحون لي». كما قال الذين من قبلهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾، وإن سألت الحق فقد فشى التحريف في كل طائفة.

فالصوفية أظهرت أقاويل لا يدرى لها توفيق بـ «الكتاب والسنة»، لا سيما في مسألة التوحيد (الوجودي) فظهر من ذلك أنهم لا يحتفلون بالشرع وليست له عندهم قيمة[1].

ويقول في كتابه الشهير «الفوز الكبير»:

«وإذا كنت تتوقف في التسليم بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم فانظر إلى المحرفين المنحرفين في هذا العصر لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام، ما هي تصوراتهم عن «الولاية» ورغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المتقدمين يرون وجود الأولياء في عصرنا من المستحيلات، ويؤمّون القبور والعتبات، وقد ابتلوا بأنواع من الشرك والبعد والخرافات وتمكن منهم التحريف والتشبيه وتغلغل في نفوسهم حتى لم تبق - بحكم ما جاء في الحديث الصحيح: «لتتبعن سنن من كان قبلكم إلخ» - بلية من البلايا، ولا فتنة في الفتن إلاّ وطائفة من طوائف المسلمين - تخوض فيها وتعلق بها، عافانا اللّه سبحانه عن ذلك[2].

* الطريق المؤثر لعلاج هذه الأدواء وإصلاح الأوضاع نشر القرآن الكريم والدعوة إلى فهمه:

لقد رأى الإمام الدهلوي أن دراسة القرآن الكريم وفهمه وتدبره هو

(١) «التفهيمات الإلهية» (ص١٣٤ ـ ١٣٥).

(٢) «الفوز الكبير» للدهلوي (ص٨ ـ ٩) ـ المكتبة المحمدية.

أقوى الطرق وأكثرها تأثيراً لعلاج هذا الداء، بل الفتنة العمياء، ولم يكن تفطنه لهذه الحقيقة مبنيًا على أساس الذكاء وطول الدراسة والقياس فحسب، بل كانت حقيقة بديهية، يشهد عليها القرآن نفسه، ولا يشهد عليها تاريخ عهد البعثة والنبوة فحسب بل تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام كله شهيد عليه، ولا يتصور لإعلان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وسيلة أقوى وأصرح وأوضح وأكثر تأثيراً في النفوس وجذبًا للقلوب منه، وقد صرح ترجمان القرآن الشيخ عبدالقادر (ابن الإمام الدهلوي) في مقدمة «موضح القرآن» وترجمته للقرآن الكريم وتحشيته عليه (بالأردية) بهذه الحقيقة في أسلوب ساذج نفاذ بما لا مزيد عليه، يقول:

«ليقل القائلون ما شاءوا ولكن ليس أحد يستطيع أن يقول كما قال اللَّه، ولا يوجد في كلام أحد من التأثير والنفوذ ما يوجد في كلام اللَّه».

ولعل شعور الإمام الدهلوي بهذا الوضع الديني في الهند، وبعدها عن تعاليم القرآن الكريم والحكيم وتعاليم الإسلام ـ بصفة عامة ـ ومنافاتها لها، قد قوي واشتد أثناء إقامته بالحجاز، وانبعث في قلبه الدافع القوي، في ذلك الجو الروحي النوراني القرآني ـ الذي علا منه هتاف التوحيد قبل كل مكان ـ إلى أن يقوم بنشر القرآن الكريم وتعميمه بين الناس في الهند، بوضوح وقوة يمكن أن يعبر عنها بالإلهام والإشارة الغيبية التي ترد ـ في كل عصر ـ على النفوس الزكية لتحقيق مهمة دينية ضرورية، ويكاد يستحيل دفعها والتغلب عليها، ولذلك نرى أن الإمام الدهلوي بدأ بعمل ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية التي تمت وتحققت باسم: «فتح الرحمن» بعد عودته من الحجاز.

وقد كان من «الحقائق» المسلم بها ليس في الهند فحسب بل في جميع البلدان العجمية ـ تقريبًا ـ بما فيها تركستان، وإيران، وأفغانستان، والبلدان المجاورة للهند ـ وكانت ميولها ونزعاتها، وأعمالها وأذواقها وحقائقها المعترف

بها عندها تظلل على الأوساط العلمية والدينية في الهند وتؤثر عليها ـ أن القرآن الكريم إنما هو كتاب خاصة الخاصة ليطالعوه ويدرسوه ويفهموه ويتدبروه، وأن فهمه يتوقف على معرفة أكثر من اثنى عشر علمًا، وأن نشره في العامة، وتوعيتهم ـ مباشرة ـ بمعانيه ومطالبه، والدعوة العامة إلى استهدائه والاستيضاء به والاستفادة منه مباشرة خطر شديد، وضلال كبير، وفتح لباب فتنة مسيطرة، وإنها دعوة إلى الاضطراب الفكري في العامة، والقول بالرأي، والاستغناء عن العلماء، بل فوق ذلك دعوة إلى الخروج عليهم والتمرد والطغيان.

❑ يقول الإمام الدهلوي:

«إن هذا العصر الذي نعيشه، وهذه البلاد التي نسكنها تقتضي فيها مصلحة المسلمين ونصيحتهم أن ينقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السلسة (من دون تنميق وتحبير وتظاهر بالفضل وذكر للقصص المتعلقة ووجوه التأويل) حتى يفهمها العامة والخاصة على قدم سواء، ويدرك الصغار والكبار جميعًا معاني القرآن الكريم ومطالبه، وقد ألقى الدافع إلى هذا العمل في روعي، واضطررت إليه اضطرارًا.

وقد ألقيت نظرة فاحصة على الترجمات السابقة حتى إذا كان بعضها على المستوى اللائق اكتفي بنشرها وترويجها، ولا بد أن تكون هذه الترجمة منسجمة مع ذوق أهل هذا العصر إلى حد المستطاع، ولكن هذه الترجمات إما طويلة مملة أو قصيرة مخلة، وقد تحقق لي أثناء ذلك ترجمة الزهراوين (سورتي البقرة والنساء) ثم صادفني السفر إلى الحرمين الشرفيين، وانقطع ذلك العمل ثم بعد عدة أعوام بدأ بعض الأحبة يقرأ عليَّ ترجمة القرآن، فأصبح هذا الدرس باعثًا على العزيمة الأولى، وتقرر أن تقيد الترجمة قدر الدرس اليومي، فلما تمت ترجمة الثلث من القرآن الكريم وقع لهذا العزيز

سفر وتوقف عمل الترجمة، ثم جاءت مناسبة أخرى بعد مدة من الزمن، وعادت الإرادة القديمة من جديد، وتمت الترجمة إلى الثلثين.

وعهد إلى بعض الأصدقاء بتبييض المسودة، وأن يكتبوا معها متن القرآن الكريم أيضًا حتى تتهيأ نسخة مستقلة (للقرآن الكريم مع الترجمة) فبدأ هذا الصديق السعيد تبييض المسودة من عيد الأضحى عام ١١٥٠هـ، فتحرك العزم وعاد الدافع وكملت الترجمة إلى آخر القرآن الكريم، ووقع الفراغ من التسويد في أوائل شعبان وبيضت المسودة عام ١١٥١هـ، ونشرت عام ١١٥٦هـ بعناية الأخ العزيز الشيخ محمد أمين ـ أكرمه اللَّه تعالى بشهوده ـ وبدئ بتدريسها، وتهيأت لها عدد من النسخ واسترعت انتباه المعاصرين، والحمد للَّه ـ تعالى ـ على أن ذلك النقش الذي نقش في قلبي، قد ظهر ـ أخيرًا ـ من وراء ستار التقدير[1].

وقد كتب الإمام الدهلوي عدا هذه الترجمة والتفسير المسمى بـ «فتح الرحمن» مقدمة في أصول الترجمة كذلك، وهي ـ رغم وجازتها وقصرها ـ مقدمة فاضلة تحتوي على فوائد جمة، يقول في بدايتها:

«يقول الفقير إلى رحمة اللَّه الكريم، ولي اللَّه بن عبدالرحيم، إنها رسالة في قواعد الترجمة وأصولها مسماة بـ «المقدمة في قوانين الترجمة»، وقد جرى بضبطها القلم أثناء كتابة ترجمة القرآن الكريم».

ويخيل إلينا أن الصخرة الصلدة التي كانت تحول في سبيل ترجمة القرآن الكريم ونشره بين الناس أزيحت بهذه الخطوة الجريئة التي قام بها شخصية جليلة كالإمام الدهلوي (التي كانت طبقة أصحاب العلم والفكر الصحيح في عهده مجمعة كلها ـ تقريبًا ـ على تبحره في العلم وجمعه

(١) مقدمة «فتح الرحمن» للدهلوي.

للفضائل والمحاسن، ومنزلته الروحية العالية وإخلاصه وتجرده) وفتح الطريق، ولم يزل يحدث ويتسلسل في التاريخ الإسلامي أن شخصية كبيرة ذات شأن إذا بدأت بعمل كانت تحوم حوله الريب والظنون، تنقشع عنه بسببه سحب الريب والظنون وسوء الفهم وينفتح الطريق العام».

*** ترجمة القرآن إلى الأردية بعد الإمام الدهلوي:**

وقد أمست الحاجة ـ سريعًا ـ بعد ترجمة الإمام الدهلوي بالفارسية إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية، إذ أنها كانت بدأت في الجزء الأخير من القرن الثاني عشر الهجري نفسه تحل محل اللغة الفارسية، وبدئ فيها بعمل الكتابة والتأليف، وقد شعر بهذه الحاجة الماسة وتغير الوضع أول ما شعر الشيخ عبدالقادر الدهلوي (م١٢٣٠هـ) ابن الإمام الدهلوي نفسه، وقام بترجمة القرآن الكريم عام ٥ ـ ١٢٠٤هـ إلى اللغة الأردية الأدبية التي يمكن أن يقال عنها إنه ليس في علمنا محاولة نقل معاني القرآن الكريم إلى غير العربية بلغت من النجاح والسهولة والجمال وتناولت روح الألفاظ القرآنية إلى الحد الكبير، ما بلغته هذه الترجمة الفوز الكبير:

وقد كان للشيخ الدهلوي مأثرة عظيمة من مآثره وهو كتابه الفذ الفريد العديم النظير «الفوز الكبير في أصول التفسير».. كان مأثرة تجديدية في الدعوة إلى القرآن، وإنشاء ملكة الفهم والتدبر للقرآن الكريم في أوساط الخاصة وأصحاب العلم والمثقفين، وإيقاظ عاطفة الإصلاح للأمة الإسلامية.

ووقف الدهلوي ـ رحمه اللّه ـ سدًّا منيعًا ضد الشركيات التي كانت تعبث بالمجتمع الهندي.

❑ قال الشيخ أبو الحسن الندوي:

«يقول الإمام الدهلوي في كتابه العديم النظير «الفوز الكبير في أصول التفسير»:

«والشرك هو إثبات الصفات الخاصة باللَّه ـ تعالى ـ لغيره مثل إثبات التصرف المطلق في الكون، بالإرادة المطلقة، التي يعبر عنها بـ «كن فيكون» أو إثبات العلم الذاتي الذي يحصل بالاكتساب عن طريق الحواس والدليل العقلي والمنام والإلهام، وأمثال هذه من الوسائل المادية أو الروحية أو إثبات إيجاد شفاء المريض أو إثبات اللعنة على شخص أو السخط عليه بحيث ينقلب نتيجة هذا اللعن والسخط معدمًا فقيرًا، أو مريضًا أو شقيًّا أو الرحمة لشخص والرضا عنه، بحيث ينقلب هو لسبب هذه الرحمة والرضا غنيًّا صحيحًا معافى سعيدًا.

وهؤلاء المشركون لا يعرفون مع اللَّه ـ تعالى ـ شريكًا في خلق الجواهر (أي أصول المادة) وتدبير الأمور العظام، ويعترفون بأنه لا قدرة لأحد إذا أبرم اللَّه ـ تعالى ـ شيئًا وقضى، أن يمانعه ويقف دونه، إنما كان إشراكهم في أمور خاصة ببعض العباد، إذ أنهم يظنون أن سلطانًا عظيمًا من السلاطين العظام كما يرسل عبيده وأصحاب الزلفى لديه إلى بعض نواحي مملكته للقيام ببعض الأمور الجزئية وأنه لا يقوم بشئون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه، بل يكل ذلك إلى الولاة والحكام، ويقبل منهم شفاعتهم، وتزكيتهم للموظفين الذين يعملون تحت إشرافهم، والمتصلين بهم والمتزلفين لديهم، كذلك قد خلع ملك الملوك على الإطلاق ـ تعالى شأنه ـ على بعض عباده المقربين، خلعة الألوهية وجعل سخطهم أو رضاهم مؤثرًا في عباده الآخرين.

فكانوا ـ لأجل ذلك ـ يرون من الضرورة التزلف إلى أولئك العباد المقربين حتى يكون هذا وسيلة لصلاحية القبول في حضرة الملك الحقيقي، وتنال شفاعتهم في حقهم ـ عند الجزاء على الأعمال والحساب ـ الحظوة والقبول عند اللَّه ـ سبحانه ـ.

ونظرًا لهذه الملاحظة والتصور الذي رسخ في نفوسهم، حدثتهم

أنفسهم بالسجود أمامهم والذبح لهم والحلف بأسمائهم، والاستعانة بقدرتهم المطلقة، ونحت صورهم وتماثيلهم من حجر وصفر ونحاس وغير ذلك، وجعلها قبلة للتوجه إلى أرواحهم، وتدرج الجهلة من هذا الطريق إلى أن بدأوا يعبدون هذه الصور والتماثيل، ويعتقدون أنها آلهة بذاتها، ووقع في المعتقدات خلط والتباس وفساد عظيم»[1].

❑ ويقول أيضًا في «حجة اللَّه البالغة»:

«حقيقة الشرك أن يعتقد إنسان في بعض المعظمين من الناس أن الآثار العجيبة الصادرة منه إنما صدرت لكونه متصفًا بصفة من صفات الكمال. مما لم يعهد في جنس الإنسان بل يختص بالواجب ـ جل مجده ـ ولا يوجد في غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره أو يفنى غيره في ذاته، ويبقى بذاته، أو نحو ذلك ما يظنه هذا المعتقد من أنواع الخرافات كما ورد في الحديث: «إن المشركين كانوا يلبون بهذه الصيغة: لبيك لبيك لا شريك لك إلاّ شريكًا هو لك تملكه وما ملك» فيتذلل عنده أقصى التذلل، ويعامل معه معاملة العباد مع اللَّه ـ تعالى ـ»[2].

❑ ويقول كذلك ـ وهو يبين حقيقة إشراك المشركين، ويصرح بأنه كان هناك أمور مشتركة بين المشركين وبين المسلمين، فقد كان المشركون العرب لا ينكرون وجود اللَّه ـ تعالى ـ ومكانته المتفردة وقدرته المطلقة، وكانوا يرون أن المقربين لديه والمحبوبين عنده يشاركونه في بعض الصفات والحقوق ـ وذلك أيضًا بإذنه ورضاه ـ ولأجل ذلك كانوا يعاملونهم معاملة العبودية والخضوع ـ يقول تحت «باب التوحيد».

«والمشركون وافقوا المسلمين في تدبير الأمور العظام وفيما أبرم وجزم،

(١) «الفوز الكبير» (ص٧ ـ ٨).

(٢) «حجة اللَّه البالغة» لولي اللَّه الدهلوي (١/ ٦١).

ولم يترك لغيره خيرة، ولم يوافقوهم في سائر الأمور، ذهبوا إلى أن الصالحين من قبلهم عبدوا اللَّه ـ تعالى ـ وتقربوا إليه، فأعطاهم اللَّه الألوهية فاستحقوا العبادة من سائر خلق اللَّه كما أن ملك الملوك يخدمه عبده فيحسن خدمته فيعطيه خلعة الملك، ويفوض إليه تدبير بلد من بلاده، فيستحق السمع والطاعة من أهل ذلك البلد، وقالوا: لا تقبل عبادة اللَّه ـ تعالى ـ إلا مضمومة بعبادتهم، بل الحق في غاية التعالي، فلا تفيد عبادته تقربًا منه، بل لا بد من عبادة هؤلاء ليقربوا إلى اللَّه زلفى، وقالوا هؤلاء يسمعون ويبصرون ويشفعون لعبادهم، ويدبرون أمورهم وينصرونهم فنحتوا على أسمائهم أحجارًا، وجعلوها قبلة عند توجههم إلى هؤلاء، فخلف من بعدهم خلف، فلم يفطنوا للفرق بين الأصنام وبين من هي على صورته فظنوها معبودات بأعيانها[1].

ويقول في موضع آخر:

(لقد كان المشركون يعتقدون) «بأنه لا شريك للَّه ـ تعالى ـ في خلق السموات والأرض، وما فيهما من الجواهر، ولا شريك له في تدبير الأمور العظام وأنه لا رادَّ لحكمه ولا مانع لقضائه، إذا أبرم وجزم، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن اللَّه**﴾، وقوله تعالى: ﴿**بل إياه تدعون**﴾، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿**ضل من تدعون إلاَّ إياه**﴾، لكن كان من زندقتهم قولهم: «أن هنالك أشخاصًا من الملائكة والأرواح تدبر أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابد فيما يرجع إلى خويصة نفسه وأولاده وأمواله، وشبهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملك الملوك، وبحال الشفعاء الندماء بالنسبة إلى السلطان المتصرف بالجبروت، ومنشأ ذلك ما نطقت به الشرائع من تفويض الأمور إلى الملائكة، واستجابة

(١) «حجة اللَّه البالغة» (١/ ٥٩).

دعاء المقربين من الناس فظنوا ذلك تصرفًا منهم كتصرف الملوك قياسًا للغائب على الشاهد، وهو الفساد[١] .

▫ وهكذا توصل الإمام الدهلوي إلى جذور الأعمال والعقائد الشركية التي كان يخوض فيها العامة والخاصة الذين هم أشباه العامة، وكشف عن المغالطة التي جرَّت كثيرًا من الجهلة وأدعياء العلم إلى الوقوع في شراك هذه الأعمال والتقاليد وشعائر الشرك، والنذر والذبح لغير اللَّه، والصيام بأسماء الأولياء والصالحين، ودعائهم والسؤال منهم والالتجاء إليهم، والخوف والرجاء منهم، والاستمداد والاستعانة بهم، وتعظيم قبورهم، وكل ما يمتُّ إليهم بصلة كتعظيم بيت اللَّه ـ تعالى ـ والحرم المحرم والالتزام بآدابه واعتقاد تصرفهم ـ ولو جزئيًّا ـ في الكون، وتأثيرهم في شقاء الإنسان وسعادته وصحته ومرضه، وسعته وإقتاره، وكانوا قد حرموا من العمل لقوله ـ تعالى ـ: ﴿**فاعبد اللَّه مخلصاً له الدين**﴾ وكرامة الإنابة والإخبات والتوكل على اللَّه ـ تعالى ـ والانقطاع إليه، وإذا سمع الإنسان بعض أخبارهم وشاهد بعض أعمالهم تذكر الآية الكريمة: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٦].

ولو لم تكن للإمام الدهلوي وأخلافه مأثرة غير هذا التجديد لعقيدة التوحيد وتنقيحها وتوضيحها ونشرها وترويجها، وإزالة ما علق بها من سوء فهم وتصورات خاطئة، لكفى ذلك في عده من المجددين في هذه الأمة، ولكن له مع ذلك أعمال ومآثر، سيأتي تفصيلها في الصفحات التالية»[٢] .

---

(١) «حجة اللَّه البالغة» (١/ ١٢٥).

(٢) «الإمام الدهلوي» (ص١٢٥ ـ ١٢٩).

*** قيام الدهلوي بنشر الحديث والسنة المشرفة، ونصره لمذهب أهل الحديث وتجريد العمل بالكتاب والسنة دون التقيد بمذهب معين:**

لقد قام الإمام الدهلوي في شبه القارة الهندية وفي عهدها الأخير - حقيقة - (الذي يمتد من أواسط القرن الثاني عشر الهجري إلى هذا الحين) بمآثرة عظيمة، وهي القيام بنشر الحديث النبوي الشريف وترويجه وإحياء دروس الحديث والعناية بهذا الفن الجليل، ومؤلفاته في هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق، وتعتبر فصلاً مضيئًا مهما في صحيفة تجديده وكتاب حياته والتي غلبت على فضائله ومجالاته العلمية وخدماته الدينية الأخرى حتى غدا «المحدث الدهلوي» جزءًا من اسمه، وعنوانًا لتعريفه ووصفه، وجرى على ألسنة الناس وأقلامهم «الإمام ولي اللَّه المحدث الدهلوي» وأصبح ذلك علمه المعرف الكامل.

❑ يقول العلامة السيد رشيد رضا في فضل أهل الهند في نشر الحديث وعلومه:

«ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقُضِي عليها بالزوال من أمصار الشرف، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل القرن الرابع عشر[1].

لقد نذر الإمام الدهلوي حياته وصلاحياته لنشر الحديث والدعوة إليه، يقول في الصفحة الأولى من مقدمته «لحجة اللَّه البالغة»:

«إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذي يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين ﷺ وأصحابه أجمعين، من قول، أو فعل، أو تقرير، فهم مصابيح الدجى ومعالم الهدى،

(١) مقدمة «مفتاح كنوز السنة».

وبمنزلة البدر المنير، من انقاد لها ووعى، فقد رشد واهتدى وأوتي الخير الكثير، ومن أعرض وتولى فقد غوى وهوى، وما زاد نفسه إلاّ التخسير، فإنه ﷺ نهى وأمر وأنذر وبشر وضرب الأمثال وذكر، وإنها لمثل القرآن أو أكثر»[١].

❑ ويقول في موضع من بعض كتاباته:

«إن أول شيء يوجبه العقل على نفسه، هو تتبُّع أحوال النبي ﷺ وأقواله، ماذا قال فيما يتعلق بالأحكام الإلهية وكيف عمل بها، ثم يقتدي بهذه الأقوال والأحوال بالقلب والقالب، فإن حديثنا عن شخص قد سلم بأن اللّه ـ تعالى ـ قد كلف عباده بأحكامه، وقد عزم هو على أداء مسئوليته الناشئة من هذا التكليف الشرعي»[٢].

* نظرة على حال الهند في القرن العاشر الهجري وما بعده تعرّفك قدر الدهلوي:

❑ قال الشيخ أبو الحسن الندوي في «الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، وهو يتحدث عن كتاب «جواهر خمسة» لأحد المشائخ المعروفين في القرن العاشر الهجري، الشيخ محمد غوث الكواليارى، ما يلي:

«لقد كانت الهند لا تعرف شيئًا عن الصحاح الستة ومؤلفيها، وأئمة هذا الفن، الذين نقدوا علم الحديث ونخلوا وميزوا بين صحيحها وسقيمها وقاوموا البدع والمحدثات وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة، ونستثنى من ذلك ولاية كجرات التي انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها، وكثرة

(١) مقدمة «حجة اللّه البالغة» (ص٢).

(٢) «كلمات طيبات» للدهلوي (ص١٧٣).

الرحلات فيها إلى الحرمين الشريفين، ونبغ فيها العلامة على المتقى البرهان بوري وتلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتنى (في القرن العاشر الهجري).

ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذي خلفته الفلسفات، والتجارب المحلية في الهند على التصوف من خلال كتاب «جواهر خمسة» للشيخ محمد غوث الكواليارى الذي ذاع صيته في عصره، وحصل له القبول العظيم عند الناس، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية، وتجارب الشيخ الكواليارى الشخصية، ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى ثبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة، واقتباسها من كتب السيرة النبوية المعتبرة، فتجد في هذا الكتاب المذكور ـ آنفًا ـ «صلاة الأحزاب» و«صلاة العاشقين» و«صلاة تنوير القبر» والصلوات المخصوصة بالأشهر المختلفة والأدعية الخاصة بها التي لا أصل لها في السنة، ولا أثر لها في الحديث[1].

ولم تكن هذه خصيصة «جواهر خمسة» فحسب، بل تتوفر أمثلة ذلك في مجاميع أقوال أمثال هؤلاء الصوفية غير المعتبرة، فقد كانت سجدة التحية للمشائخ شائعة، واتخذت القبور مساجد علنًا وجهارًا، فكانت توقد عليها السراج، وتفرش عليها الأردية، وتعظم أطرافها وحواليها كتعظيم الحرم، ويحتفل بها باسم «العرس (الاحتفال الديني) وقراءة الفاتحة» وتكثر فيها النساء، وكانت «الصلاة الغوثية» و«الصلاة المعكوسة» والنذر لغير اللَّه ـ تعالى ـ باسم الأولياء الصلحاء والذبح لابتغاء مرضاتهم، والصوم باسم غير اللَّه، وأمثال هذه من البدع الكثيرة (التي كانت تصل حدودها إلى الشرك) كانت شائعة في الناس يقبل عليها الخاصة منهم والعامة، وكانت تعقد احتفالات إحياء أيام الولادة والوفاة للأولياء والصالحين، ويحتفل بمهرجانات وأعياد.

(١) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (٣/٢١٨).

ولو لم تكن كتب الحديث في متناول أيدي العلماء المسلمين، ولم تتيسر لهم هذه الوسيلة المعتبرة السهلة للتفريق والتمييز بين البدع والسنن، لما كانت هذه السلسلة من عهد شيخ الإسلام ابن تيمية (م٧٢٨هـ) إلى عهد الإمام الدهلوي (م١١٧٦هـ) للعلماء المصلحين والدعاة إلى الدين الخالص، ولم يظهر المصلحون والمجددون حملة راية التجديد والإصلاح وتصحيح العقائد، وإزالة التقاليد الجاهلية.

* العلامة علي بن سلطان بن محمد الهروي (م١٠١٤هـ) المعروف بمُلاّ علي القاري وردّه على بدع عصره وانصافه لشيخ الإسلام ابن تيمية:

يقول الشيخ الندوي:

«اقرأ تراجم علماء أفغانستان (كابل وهرات وغزنين) في القرنين العاشر والحادي عشر، والق نظرة على كتبهم ومؤلفاتهم، قلما تجد عليها مسحة الدفاع عن السنة والرد على البدعة والتحقيق والتنقيح في المسائل، وإذا بشخصية العلامة علي بن سلطان بن محمد الهروي (م١٠١٤هـ) المعروف بمُلاّ علي القاري، تظهر على الساحة، الذي سافر إلى الحجاز وقرأ على كبار أساتذتها ومحدثيها الأجلة كتب الحديث ونبغ فيها، وتتجلى هذه المسحة الظاهرة في شروحه لكتب الفقه والحديث وترجيحه للمسائل ورده - بصراحة ووضوح - على بدع عصره ومحدثاته، وقد أدت به دراسته وبحثه وقوله بالحق وإنصافه إلى أنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية وشهد بأنه كان من أكابر أهل السنة والجماعة وأولياء الأمة[1]»[2].

---

(١) «الدهلوي» (ص١٣٩).

(٢) «المرقاة شرح المشكاة لملاّ علي القاري» (٤/ ٢٧).

* مأثرة الشيخ عبدالحق الدهلوي:

«ثم جاء اللَّه سبحانه وتعالى بالشيخ عبدالحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي المتوفى سنة ١٠٥٢هـ، وهو أول من أفاضه على سكان الهند، وتصدى للدرس والإفادة بدار الملك دهلي، وقصر همته على ذلك وصنفه وخرّج ونشر هذا العلم على ساق الجد، فنفع اللَّه به وبعلومه كثيراً من عباده المؤمنين، حتى قيل إنه أول من جاء بالحديث بالهند، وذلك غلط كما علمت.

ثم تصدى له ولده الشيخ نور الحق المتوفي سنة ١٠٧٣هـ وكذلك بعض تلامذته وأولاده كشيخ الإسلام شارح البخاري، وولده سلام اللَّه صاحب «المحلي» و«الكمالين».

❑ وقد أصاب البروفيسور خليق أحمد نظامي في قوله:

«وعلى كل فإن العهد الذي بدأ فيه الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي دروسه في الحديث الشريف، كان قد طُوِيَ - إذ ذاك - بساط هذا العلم الشريف في شمالي الهند، وأنه قد أشعل في هذا الوسط المظلم الضيق شمعة جذبت إليها الناس من أنحاء نائية بعيدة، فالتفوا حولها وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النور وبدأ نشاط جديد، لدروس الحديث الشريف في شمالي الهند، وانتقل بذلك مركز العلوم الدينية لا سيما الحديث الشريف من كجرات إلى دلهي[1].

وعلى كل فإن الأوساط العلمية والدينية في الهند كانت في حاجة وانتظار لتلك الشخصية التي تكون صلتها بالحديث صلة الحب والغرام، والتي جعلت نشر الحديث الشريف وتعميمه أول أهدافها ومقاصدها في الحياة، لقد وجدت الهند هذه الشخصية في أواسط القرن الثاني عشر الهجري في

(١) «حياة الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي» لخليق أحمد نظامي (ص٤٣).

شخص الإمام ولي اللّه الدهلوي الذي طبق بمعنى اللفظ هذا الشعر الفارسي الذي معناه:

«لقد نسينا كل ما قرأنا وتركناه إلاّ حديث الحبيب الذي لا نملُّ من ترداده وتكراره».

لقد كان الدافع الثاني للإمام الدهلوي إلى إحياء الحديث ونشره وترويجه في الهند، هو ذلك الوضع السائد في الهند الذي تقدم الحديث، لقد كان يغشى الأوساط الدينية حينذاك ضباب كثيف من البدع وتقاليد الجاهلية، وطقوس غير المسلمين وتقليدهم فيها والشعائر غير الإسلامية، التي كان من العسير من خلالها رؤية طلعة الإسلام البهية، وكانت تسود في الأوساط العلمية والدراسية تلك العلوم المستوردة من اليونان التي كانوا يسمونها «فنون الحكمة» والعلوم الآلية، وفنون البلاغة وعلم الكلام ولم يكن للعلوم الشرعية لاسيما علم الحديث الشريف نصيب لائق في هذه الأوساط العلمية والدراسية، وإذا صرف شيء من العناية إلى العلوم الشرعية فلم يكن الأمر يتعدى حدود الفقه وأصول الفقه ودقائقها وشق الشعرة فيهما، يقول الإمام الدهلوي ـ وهو يشاهد هذا الوضع ـ في أسف شديد وحزن بالغ:

«وأقول لطلبة العلم: أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعاني، وظننتم أن هذا هو العلم، إنما العلم آية محكمة من كتاب اللّه، أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها، أو سنة قائمة من رسول اللّه ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ وكيف توضأ، وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم، وكيف يحج وكيف يجاهد، وكيف كان كلامه وحفظه للسانه، وكيف كانت أخلاقه، فاتبعوا هديه واعملوا بسننه على أنه هدي وسنة، ولا على أنه فرض ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة، أن تتعلموا ما هي أركان الوضوء وما هي

أركان الصلاة، وما نصاب الزكاة، وما قدر الواجب، وما سهام فرائض الميت، أما السير وما يرغب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل، وأما ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة إنما هي من علوم الدنيا، خضتم كل الخوض في استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفريعاتهم، أما تعرفون أن الحكم ما حكمه للّه ورسوله، ورب إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به، ويقول إنما عملي على مذهب فلان لا على الحديث، ثم تخيل بأن فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة، وأن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث، فما تركوه إلاّ لوجه ظهر لهم في الدين من نسخ أو مرجوحية.

اعلموا أنه ليس هذا من الدين في شيء إن آمنتم بنبيكم فاتبعوه، خالف مذهبنا أو وافقه، كان مرضى الحق أن تشتغلوا بكتاب اللّه وسنة رسوله ابتداءً، فإن سهل عليكم العمل بهما، فبها ونعمت، وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأي من مضى من العلماء، ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة، وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة، أما أوجب اللّه عليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين، فلم تظهروا الشعائر وأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد، واستكثرتم في أعينهم طلب الحق والدين، أما ترون البلاد العظام تخلو عن العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر[١].

وإن حال الإمام الدهلوي عند اللهج بذكر الحديث من سرور ولذة غامرة، وحب وإجلال لائمة الحديث، يمكن أن ترى بعض نماذجه في رسالته التي كتبها إلى أحد مسترشديه في مناقب الإمام البخاري ـ رحمه اللّه ـ[٢].

---

(١) «التفهيمات الإلهية» للدهلوي (١/ ٢١٤ ـ ٢١٥).

(٢) «كلمات طيبات» للدهلوي (ص١٦٨ ـ ١٧١).

* **نشاط الدهلوي في خدمة الحديث الشريف ونشره:**

لما ذهب الإمام الدهلوي يودّع أستاذه الشيخ أبا طاهر المدني، أنشده شيخه هذا البيت من الشعر:

نسيت كل طريق كنت أعرفه إلاّ طريقًا يؤدّيني لربعكم

فقال الإمام الدهلوي كذلك: «نسيت كل ما قرأت سوى علم الحديث الشريف».

وتشهد حياة الإمام الدهلوي كلها على أنه كان منصرفًا انصرافًا كليًّا إلى خدمة الحديث الشريف، شرحه وتفهيمه، وتدريسه وتعليمه، ونشره وتعميمه، ﴿**رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾.

وقد شمر عن ساق الجد بعد عودته من الحجاز إلى الهند لخدمة الحديث الشريف ونشره، ولم تلبث «مدرسته الرحيمية» أن أصبحت أكبر مؤسسة تعليمية في طول الهند وعرضها وتهافت عليها طلاب علم الحديث من أنحاء الهند وأصقاعها تهافت الفراش على النور، وقد كان في هذه الإصقاع مثل «السند»[1] و«كشمير»[2] من المناطق البعيدة، أما دلهي ونواحيها وشمالي الهند فلا تسأل عنه، وقد كان من المستفيدين من هذه الدروس سوى مسند الهندي الشيخ عبدالعزيز الدهلوي (الذي كان ابنه الأكبر الفاضل والقائم بتكميل

(١) لقد ورد الشيخ محمد معين من السند إلى دلهي، ودرس الحديث على الإمام الدهلوي واستفاد منه، وكتابه «دراسات اللبيب في الأسوة الحسنة بالحبيب» معروف، يتجلى فيه ذوق الإمام الدهلوي ومنهج بحثه وتحقيقه، توفى عام ١١٦١هـ (انظر «نزهة الخواطر» (جـ٦).

(٢) كان الشيخ خواجه محمد أمين الكشميري من خواص تلامذة الإمام الدهلوي والحملة الدعاة لمشربه وبحوثه وتحقيقاته، وهو معروف بمحمد أمين الولي اللهي، وقد كان الشيخ عبدالعزيز أحد تلامذته وقد ألف الإمام الدهلوي بعض رسائله، انظر «نزهة الخواطر» (جـ٦).

أعماله وجهوده وتوسيع نطاقها) مفخرة الهند العلامة السيد مرتضى البلكرامي المعروف بالزبيدي (١١٤٥ ـ ١٢٠٥هـ) صاحب «تاج العروس شرح القاموس» و«إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» الذي دوى صيت تبحره في العلم وتحديثه في العالم العربي، وكان مجلسه بالقاهرة يضاهي مجالس الملوك والسلاطين، وكان من خريجي هذه المدرسة بيهقي عصره القاضي الشيخ ثناء اللّه الباني بتي (م١٢٢٥هـ) خليفة الشيخ الجليل ميرزا مظهر جان جانان، ومؤلف «التفسير المظهري» و«ما لابد منه»[١].

وهكذا أصبح علم الحديث في الهند ـ بعد قرون، ولعله لأول مرة ـ قد نفقت سوقه وقامت دولته، وأقبل عليه الناس إقبالاً عظيمًا حتى ظلت الهند تباهي اليمن الميمون، وبدأت نفحاتها الرخية المنعشة تصل إلى أرض الحجاز نفسها[٢].

❑ وقد أنشد النواب العلامة السيد صديق حسن خان في ذكر الإمام الدهلوي وخدمته للحديث الشريف، ونشاطاته في القيام بنشره، بيتين من الشعر البليغ يصورانه تصويرًا حقيقيًّا:

من زار بابك لم تبرح جوارحه ... تروي أحاديث ما أوليت من منن

فالعين عن قرة، والكف عن صلة ... والقلب عن جابر والسمع عن حسن

ومن الطريف أن المنن التي ذكرتها هذه الجوارح وأشادت بها، والأسماء التي أشارت إليها في هذا الصدد، كلها أسماء رواة الحديث والشيوخ المحدثين، مثل قرة بن خالد السدوسي، وصلة بن أشيم العدوي، وسيدنا

(١) «نزهة الخواطر» (جـ٧).

(٢) وقد أقام الشيخ إسحاق الدهلوي والشيخ عبدلغني المجددي من خريجي هذه المدرسة وتلامذة الإمام الدهلوي حلقات دروس الحديث الشريف في الحرمين الشريفين، وانتفع بهم خلائق من العرب والعجم، انظر للتفصيل «نزهة الخواطر» (جـ٧).

جابر بن عبدالله ﷺ والحسن البصري ـ رحمهم الله جميعًا ـ.

*** ومن مؤلفاته في علوم الحديث:**

المصفى «شرح موطأ الإمام مالك بالفارسية»، و«المسوى» (شرح الموطأ المختصر بالعربية)، و«شرح تراجم الأبواب لصحيح البخاري» و«الإرشاد إلى مهمات الإسناد» و«تراجم البخاري» و«الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين» و«النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر» و«الأربعين» و«المسلسلات».

وله في الاجتهاد والتقليد: «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» و«عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد».

*** مأثرة من مآثر الإمام الدهلوي:**

لقد قام الإمام الدهلوي بالتوفيق بين الفقه والحديث، ثم محاولة الجمع والتأليف بين المذاهب الأربعة وهذه مأثرة من مآثر الإمام الدهلوي التجديدية وحلقة ذهبية رائعة في سلسلة خدمته للحديث الشريف وانتصاره للسُّنّة السنية.

لقد كان الفقه والحديث في كثير من الأوساط العلمية والدراسية والتأليفية في العالم الإسلامي ينتقلان منذ عصر طويل في سلسلتين مواجهتين، وكان كل واحد منهما في محله (من حين ظهوره واشتداد ساعده) يقطع طريقه في غنى وانصراف عن الآخر، وكانا بعد هذا الفراق في كثير من الأحيان لا يجتمعان عند أي نقطة من النقاط، ولم يكن يبحث في الحديث في كثير من المذاهب الفقهية إلا إذا كانت مسألة فقهية تحتاج إلى تأييد من حديث، أو كانت لها حاجة إلى دفع اعتراض من اعتراضات علماء المذهب الفقهي الثاني، وتصريحهم بأن هذه المسألة مخالفة للحديث أو إذا

كانت القصد ترجيح مذهب على مذهب، وكانوا في دروس الصحاح الست إما أن يتأولوا تلك الأحاديث التي تخالف مذهبهم، أو يقدموا الأحاديث الأخرى من الكتب الأخرى التي تؤيد مذهبهم، وإذا كان هناك استدلال في واحد من كتب المذاهب الفقهية المعتبرة المهتمة بالأحاديث فإن العلماء الذين قاموا - ممن لهم اطلاع واسع على علوم الحديث، ويملكون ذوق المحدثين - بمحاولة تخريج هذه الأحاديث والكلام عليها كالمحدثين النقاد[١] ، فهذه المحاولة الطيبة كذلك كانت إحدى الطرق والوسائل لتأييد ذلك المذهب الفقهي والانتصار له، وإثبات أنه موافق للأحاديث، وخدمة علمية وتحقيقية لذلك المذهب، وهي تستحق الشكر والتقدير، ولكنها لم تكن محاولة لإعادة النظر في المسائل نفسها والتوفيق بين الفقه والحديث.

وقد تكونت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد، كان من الممكن كسرها[٢] ، ومن المستحيل مدها وبسطها، وكان أتباع كل مذهب قد اعتقدوا في أنفسهم أن صحة مذهبهم مائة في المائة، وهي الحقيقة الأصيلة، وأما إمكان الخطأ البشري فمحتمل وقد عبر بعضهم عن هذه النظرية بهذه الألفاظ البليغة: «مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب»، وقد كان من نتيجة هذه الوجهة للنظر أن المذاهب الأربعة (الحنفي والمالكي، والشافعي، والحنبلي) التي أجمعت على قبولها الأمة، وسلم -

(١) ككتاب العلامة الزيلعي «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية».

(٢) أي أنه توجد أمثلة الانتقال من مذهب إلى مذهب من الحنفية إلى الشافعية أو العكس، أو اختيار مذهب العمل بالحديث في كل عصر، أما العدول عن بعض المسائل جزئيًا مع البقاء في نطاق المذهب وحدوده واختيار مسألة أخرى من مذهب آخر، أو العمل بالحديث، فأمثلته قليلة جدًا، وذلك لأن كثيراً من العلماء يرون «تجزئ التقليد «غير جائز، أي إذا عمل إنسان بمسألة من مذهب فقهي ثم عمل أخرى من مذهب فقهي آخر فإنه يخرج عن تقليد الأول، وذلك عندهم غير صحيح.

أصوليًّا ـ بين أهل الحق وأهل العلم من أول عهودها فيما يتعلق بها بأن الحق دائر فيها وأن أئمتها ومؤسسيها إنما هم أئمة الهدى وقادة الأمة وأن هذه المذاهب حق، يتسع بينها الخليج ويعمق، وينجر الخلاف بين أتباعها إلى التباغض، والبحث والنقاش بعض الأحيان إلى المخاصمة والمقاتلة، وكان أدهى من ذلك وأمر معاملتهم مع أولئك العلماء الذين يبدأون العمل بالحديث ـ كليًّا أو جزئيًّا ـ في العبادات ومن أمثلة هؤلاء أحد علماء القرن الثاني عشر، العالم السلفي المحدث الشيخ محمد فاخر الإله آبادي (١١٢٠ ـ ١١٦٤هـ) الذي تعرض (حسب رواية بعض المؤلفين) لسخط العامة وغضبهم لسلفيته واتباعه للحديث[١] .

❑ يقول الإمام الدهلوي في دعواته إلى تجريد العمل بالكتاب والسنة دون تقيد بمذهب معين:

«وترى العامة ـ لا سيما اليوم ـ في كل قطر يتقيّدون بمذهب من مذاهب المتقدمين، ويرون خروج الإنسان من مذهب من قلدوه ـ ولو في مسألة ـ كالخروج من الملة. كأنه نبي بعث إليه، وافترضت طاعته عليه. وكان أوائل الأمة قبل المائة الرابعة غير متقيدين بمذهب واحد»[٢] .

وقال أيضًا:

«بعد دراسة فاحصة لكتب المذاهب الأربعة وكتب أصول الفقه والأحاديث التي يتمسكون بها استقرّ في القلب بتوفيق من اللّه وهدايته طريقة الفقهاء المحدثين»[٣] .

رأى الشاه ولي اللّه الدهلوي أن الحق بين التفقّه والظاهرية فقال:

---

(١) نظر «نزهة الخواطر» ترجمة الشيخ فاخر الإله آبادي (جـ٦).

(٢) «التفهيمات الإلهية» للدهلوي (١/ ٥١) طبعة الهند.

(٣) «جهود مخلصة» (ص٥٢) عن كتابه «الجزء اللطيف» في الفارسية.

«. . . إني أقول لهؤلاء المسمِّين بالفقهاء الجامدين على التقليد: يبلغهم الحديث من أحاديث النبيّ ﷺ بإسناد صحيح، قد ذهب إليه جمع عظيم من الفقهاء المتقدمين، ولا يمنعهم إلا التقليد لمن لم يذهب إليه.

ولهؤلاء الظاهرية المنكرين للفقهاء الذين هم طراز حملة العلم وأئمة أهل الدين أنهم جميعًا على سفاهة وسخافة وإلى ضلالة. وأن الحق أمر بيْن بيْن»[١].

«وهذا هو عين مذاهب أهل الحديث»[٢].

❑ يقول الإمام الدهلوي في ترجيح مسلك المحدثين الفقهاء، واختياره مسلكه وطريقه في الحياة:

«وبعد ما طالعت كتب المذاهب الأربعة وأصولها، ونظرت في الأحاديث التي يتمسكون بها اعتزمت على طريق الفقهاء المحدثين بإشارة نور الغيب وإيحائه»[٣].

❑ يقول الإمام الدهلوي في كتابه «حجة اللّه البالغة»:

«إن التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث لكل منهما أصل أصيل في الدين، ولم يزل المحققون من العلماء في كل عصر يأخذون بهما، فمنهم من يقلّ من ذا ويكثر من ذاك، ومنهم من يكثر من ذا ويقلّ من ذاك، فلا ينبغي أن يهمل أمر واحد منهما بالمرة كما يفعله عامة الفريقين، وإنما الحق البحث أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يجبر خلل كل بالآخر، وذلك قول الحسن البصري»[٤].

(١) «التفهيمات» (١/ ٢٠٩).

(٢) «حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي اللّه في التجديد لمحمد إسماعيل السلفي (ص٢٧٤).

(٣) «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف» للدهلوي (ص٤).

(٤) «حجة البالغة» (١/ ١٥٦).

ويقول في «وصاياه»:

«ينبغي في المسائل الفرعية اتباع أولئك العلماء المحدثين الذين يجمعون بين الفقه والحديث، ولا بد من عرض المسائل الفقهية على كلام اللَّه ـ تعالى ـ وحديث رسول اللَّه ﷺ».

ويزيد قائلاً: «ولا غنى للأمة في أي عصر من العصور، عن عرض المسائل الاجتهادية على الكتاب والسنة»[1].

* الإمام الدهلوي والتوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد:

إن من فضائل الإمام الدهلوي الموهوبة ومميزاته التجديدية التي خصه اللَّه ـ تعالى ـ بها، هو ذلك المسلك المتزن المتوسط، وتلك النقطة المتوسطة التي اختارها بين الاجتهاد والتقليد، والتي هي دليل ساطع رائع على طبيعته السليمة المتزنة وذوقه الصحيح وواقعيته، فقد كان هناك فريق يكلف كل مسلم ـ سواء كان عاميًّا أو عالمًا ـ بالعمل وفق الكتاب والسنة واستفادة الأحكام والمسائل الشرعية منهما مباشرة، ويحرم التقليد تحريمًا مطلقًا، وهم إن كان كلامهم لا يصرح بهذا الموقف فإن منهجهم في العمل وكتاباتهم تؤدي ـ طبعًا ـ إلى هذه النتيجة، وقد كان في المتقدمين من هذا الفريق والمتحمسين لهذا الموقف العلامة ابن حزم، ولكن هذا الموقف غير عملي وغير واقعي، وإن تكليف كل مسلم بذلك تكليف بما لا يطاق.

وكان ـ في جانب آخر ـ فريق آخر يوجب على جميع المسلمين التقليد ويصف من يخلع ربقته من التقليد بهذه الأحكام الفقهية الشديدة كـ «الفاسق» و«الضال»، كما يصف الفريق الأول بذلك جماعة المقلدين والمتبعين لمذهب فقهي خاص، وكان هذا الفريق يتناسى أن التقليد إنما هو طريقة تنظيمية إدارية

(١) «الوصايا» (بالفارسية) (ص٢ ـ ٣).

لصيانة العامة من الناس من اتباع النفس والهوى، والقول بالرأي، وحماية المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام في الحياة الدينية العملية، وتيسير العمل بالأحكام الشرعية، ولكنهم جعلوا هذا العمل التنظيمي في منزلة العمل التشريعي، وألحوا عليه بشدة وتأكيد غليظ، نقله من كونه مذهبًا فقهيًّا ومسألة اجتهادية فحسب إلى كونه نصًّا ظاهرًا، وعملاً قطعيًّا وأمرًا دينيًّا مستقلاً.

إن المنهج الذي اختاره الإمام الدهلوي وما عبر به عن ذلك، هو أقرب إلى روح الشريعة، وأكثر انسجامًا مع منهج القرن الأول وأوفق بالفطرة البشرية، وأمسّ بالحياة العملية.

* الدهلوي والحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر:

يرى الإمام الدهلوي ـ مع الاعتراف بخصائص المذاهب الأربعة وميزاتها وخدمات الفقهاء المحدثين الجليلة وعلو منزلته والاعتراف بأن هذه الثروة الفقهية والحديثية ثروة عظيمة قيمة، يستفاد منها وينتفع بها، وأن الاستغناء والإعراض عنها من أسباب الخسران والحرمان ـ أن الاجتهاد ـ مع شروطه وتحفظاته الضرورية ـ حاجة كل عصر، ومقتضى طبعي للتطورات الحادثة في الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية وصلاحية النشوء والارتقاء، والحاجات البشرية، وتسلسل الحوادث والوقائع إثبات لسعة الشريعة الإسلامية، وأنها من اللّه الحكيم، وأنها تملك صلاحية قضاء جميع المتطلبات المشروعة للمجتمع البشري وهداية الناس وإرشادهم الأمر الذي لا بد من إثباته والتظاهر به في كل عصر وهو واجب من واجبات حملة الشريعة الأمناء، يقول الإمام الدهلوي في مقدمة «المصفى»:

«إن الاجتهاد فرض كفاية في كل عصر، وليس المراد بالاجتهاد هنا الاجتهاد المستقل كاجتهاد الإمام الشافعي ـ مثلاً ـ الذي لم يكن في الجرح

والتعديل والعربية وغيرها في حاجة إلى غيره، كما لم يكن تابعًا لأحد في درايته الاجتهادية (بجميع أنواعها وأقسامها) بل المراد الاجتهاد المنتسب، وهو عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية بأدلتها التفصيلية، وتفريع المسائل وترتيبها على طريقة المجتهدين ولو كان ذلك بإرشاد من إمام من الأئمة.

والذي نقوله: أن الاجتهاد في عصرنا هذا واجب (وهي مسألة إجماعية بين العلماء المحققين) فوجهه أن المسائل كثيرة الوقوع ولا يمكن حصرها واستيعابها ولا بد من معرفة حكم اللَّه ـ تعالى ـ فيها، والذي دخل في حيز التحرير والتدوين لا يكفي، والخلافات فيه كثيرة ولا يمكن حلها إلا بالرجوع إلى الدلائل، والروايات المنقولة للمسائل عن الأئمة في أكثرها انقطاع بحيث لا يثق بها القلب بطمأنينة، ولذلك فلا مناص من عرضها على قواعد الاجتهاد وأصوله والبحث فيها»[1].

* الإمام الدهلوي وعرضه للشريعة الإسلامية عرضًا مبرهنًا متسقًا والكشف عن مقاصد الحديث وأسراره في كتابه القيم:

إن كتاب «حجة اللَّه البالغة» للإمام الدهلوي يعد من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلمية الكبرى، التي عرضت فيها الشريعة الإسلامية والدين الحنيف في صورة جامعة متناسقة مدعمة بالحجج والدلائل الناصعة القوية، وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة والإحسان بترتيب وترابط ونظام، وفي تناسق واتزان، بحيث يخيل إليك كأنها لآلئ العقد المنظوم أو حلقات سلسلة مترابطة، مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع والمقاصد والغايات والوسائل والآلات وبين الحقائق الدائمة المستقلة والأمور العارضة المؤقتة بحيث لا يغيب ذلك ـ لحظة ـ عن

(١) مقدمة «المصفى» بالفارسية (ص١٢) ـ طبع المطبع الفارق ـ بدلهي.

الأنظار، وكثيراً ما يختلط الأمر بينهما في كثير من البحوث والمؤلفات بل هي علة قديمة شائعة في تلك الكتب والمؤلفات ـ بصفة خاصة ـ التي ألفت نتيجة رد فعل لتعسف أو مغالاة أو في فورة عاطفة وحماس، ويرجع السبب في هذا الترابط والتناسق ـ عدا ما وهب الإمام الدهلوي من اتزان وتوسط وسلامة فطرة ـ إلى دراسته العميقة الواسعة لعلم الحديث الشريف، وتلك الطبيعة الخاصة التي تتكون عن طريق الاشتغال والاهتمام بالسيرة النبوية والحديث النبوي أو عن طريق صحبة العلماء الربانيين وتربيتهم الذين تربوا في المدرسة النبوية وقطرت عليها رشحات من السيرة العطرة ـ على صاحبها الصلاة والسلام»[1] .

❑ للّه در تلميذ المدرسة القرآنية، وخريج معهد الحديث والسنة وترجمانهما المبين حين يذكر دوافع تأليف هذا الكتاب:

«إن أدق الفنون الحديثية بأسرها عندي وأعمقها محتداً وأرفعها منارًا وأولى العلوم الشرعية عن آخرها فيما أرى، وأعلاها منزلة وأعظمها مقدارًا، هو علم أسرار الدين الباحث عن حكم الأحكام ولمياتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها. . . إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع»[2] .

❑ لقد عالج الإمام الدهلوي في «حجة اللّه البالغة» حكم الأحكام الدينية، ويتعرّض لمصالحها وأسبابها وعللها وهو موضوع جد دقيق وخطير، «ولم يكن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الدقيقة الخطيرة إلا من يمسك بيده أصول الدين الحنيف والشريعة الإسلامية، ويكون عالمًا بغاية نزول الشرائع الإلهية وبعثة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ وقد تغلغلت في أحشائه روح الإيمان والاحتساب وجرت في عروقه ودمائه، وتكونت عقليته

(١) «الإمام الدهلوي» للندوي (ص١٦٧).
(٢) «حجة اللّه البالغة» (ص٣).

وتربيته العلمية في بيئة الكتاب والسنة والإيمان والاحتساب وفي ظلالها الفيحاء، ولقد كان الإمام الدهلوي ـ كما علمنا مما مضى في ترجمة حياته ـ أجدر شخصية وأقدرها على الكتابة في هذا الموضوع الدقيق الخطير»[1] .

❑ لقد كتب علماء قبل الدهلوي في هذا الصدد كالإمام الغزالي والخطابي وشيخ الإسلام عز الدين بن عبدالسلام الذين تحتوي كتاباتهم ومؤلفاتهم في مختلف المواضع على هذه المحتويات والارشارات، ولكن لم يدون قبل «حجة اللّه البالغة» للدهلوي كتاب في هذا الفن الدقيق، وهو بهذا يقدم خدمة جليلة للدين وحاجة ماسة من حاجات العصر.

❑ يقول المحقق الفاضل الشيخ عبدالحق الحقاني في مقدمة ترجمته لـ «حجة اللّه البالغة» المسماة بـ «نعمة اللّه السابغة»:

إن الفن الذي ألف فيه هذا الكتاب، لم يؤلف فيه قبله شيء ولم يدون في مكان، فموضوع هذا الفن هو النظام التشريعي المحمدي من حيث المصلحة المفيدة وغايته أن يعلم الإنسان أن أحكام اللّه ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ لا عسر فيها ولا ضيق، ولا تخالف الفطرة السليمة حتى يطمئن بها الإنسان، وينجذب إليها قلبه ثقة منه بأنها أحكام توافق الفطرة وتتبنى عليها، ولا يقع بتشكيك المشككين في الشبهات.

وحَدُّه: أنه العلم الذي تعرف به حكم الأصول الدينية والأحكام الشرعية ومبادئه جميع العلوم (المتعلقة بالحياة البشرية).

* * *

(١) «الإمام الدهلوي» للندوي ص(١٧٠).

*** دفاع الإمام الدهلوي عن الخلافة، وعظيم منة الخلفاء الراشدين على الأمة في كتابه القيم «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» ـ وتميّز الكتاب وتفرّده:**

إن الكتاب الذي يلي كتاب «حجة اللَّه البالغة» في القيمة والأهمية، والذي هو مأثرة الإمام الدهلوي الفريدة هو كتاب «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» وإنه لكثير من خصائصه ومزاياه كتاب فريد في موضوعه، ويزخر هذا الكتاب كله بالنكات العلمية المثيرة والإشارات النادرة اللطيفة، وتتوفر فيه نماذج كثيرة تدل على تدبر الإمام الدهلوي الطويل وتفكيره العميق في كتاب اللَّه ـ تعالى ـ وتجاوبه الموهوب معه وفهمه الغائص الدقيق، وسرعة البديهة والتفطن لمكنونات الآيات وإشاراتها الدقيقة، وعمق الاستنباط ودقته ووفرة الذكاء وتوقد الذهن بحيث يتوصل به كل منصف سليم الفكر إلى أن هذا العلم ليس كسبيًا وكتابيًّا صرفًا، وأن مؤلف هذا الكتاب ليس صنيع المناهج الدراسية المتداولة، وكتب التفسير وأصول الفقه وعلم الكلام الشائعة في عصره، يقتطف منها، ويجمع فتات فائدتها فحسب، بل إن علمه نابع من الموهبة الربانية والفيوض الإلهية الخاصة.

*** الصلة بين «حجة اللَّه البالغة» و«إزالة الخفاء»:**

لقد كانت الحاجة بعد تأليف كتاب «حجة اللَّه البالغة» الذي عرض فيه نظام الإسلام الجامع الشامل المتناسق بطريق يثبت علاقته بالحياة والمجتمع والمدنية، ويوضح أنه بدون تنفيذ الأحكام الإسلامية المتعلقة بالعقائد والعبادات والحياة الاجتماعية، لا يبقى أي أمل في قيام مجتمع صالح رشيد ومدنية صالحة وحياة اجتماعية متزنة عادلة، كانت الحاجة لبيان هذه المقاصد والأهداف وتكميلها والقيام بهذه المرحلة بطريقة علمية تحقيقية (تروي غليل الأذهان والطبائع العقلانية لعهد الثورة العقلية التي كان قد أظل زمانها) إلى

الكتابة في خصائص النظام الاجتماعي في الإسلام وطبيعته، وأهدافه وغاياته ونطاق عمله، وعن «الخلافة» (الهيئة الإدارية العالمية الدائمة، الصريحة المنصوصة لهذا النظام) بهذا البسط والتفصيل، والأدلة من العقل والنقل، وشواهد التاريخ، وفوق كل ذلك في ضوء الكتاب المبين والسنة الواضحة، وتفضح الضلالات والظنون الخاطئة التي ظهرت في هذا الصدد منذ زمن قديم، والتي نشأت بناءً عليها فرقة جديدة[1] ، كانت قد أحدثت لسيطرة العناصر الإيرانية في عهد الإمام الدهلوي نفسه ـ بصفة خاصة ـ من الاضطراب الفكري والبلبلة العقلية ما تخطّى حدود المعتقدات والأعمال إلى نظام الحكومة وسلطة المسلمين العليا في الهند، وجعلت مستقبل المسلمين في الهند في خطر تحوم حوله الشكوك والشبهات.

إن شأن هذه الفرقة (في نظر أولئك الذين يعرفون تاريخ مذهبها ومعتقداتها الأساسية وفهمها وتصورها للدين، والذين درسوا كتبها المعتبرة ومصادرها المعتمدة لدى أهلها دراسة مباشرة) ليس شأن خلاف في الاجتهاد والقياس، أو فرقة جانبية لا تخرج عن نطاق الشريعة الإسلامية، بل إنها تحمل إزاء التصور الصحيح للدين الذين ينبني أساسه على الكتاب والسنة وعظمة مكانة النبوة وعقيدة ختم النبوة، تفكيراً مستقلاً وتصوراً دينيًّا مقابلاً، ويمكن أن يقدر ذلك ـ إلى حد ما ـ من عقيدة «الإمامة» لدى الفرقة الأثنى عشرية، التي تعتقد أن الإمامية نظيرة النبوة، بل تفضُلها وتفوقها في جوانب كثيرة[2] .

---

(١) المراد بها الفرقة الإمامية الإثنا عشرية الشيعية.

(٢) وقع لدينا أخيراً كتاب «الحكومة الإسلامية» لقائد الثورة الإيرانية روح اللّه الخميني الذي يعرف بآية اللّه العظمى الإمام الخميني، فقد جاء فيه ي (ص٥٢) بعنوان «الولاية التكوينية» بعد التصريح بأن الأئمة يملكون الخلافة التكوينية، وتخضع لحكمهم وسلطتهم جميع ذرات هذا الكون، ما يلي: =

❑ يقول الإمام الدهلوي وهو يبين الغرض الأساسي من هذا الكتاب وغايته الأولى:

«يقول الفقير ولي اللَّه ـ عفا اللَّه عنه ـ إن بدعة التشيع راجت في هذا العهد وانتشرت، وتأثرت طبائع العامة بشبهاتهم التي أوردوها تأثرًا عميقًا، ونشأت في قلوب معظم أهل هذه المنطقة شكوك وشبهات كثيرة في موضوع ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين»[1].

لم يكن نظر الإمام الدهلوي إلى السطح الظاهر من هذه الفتنة التشكيكية المُدبَّرة، بل كان ينظر ـ ببصيرته الثاقبة ـ إلى أعماق تلك المؤامرة الخطيرة التي كانت ترسب في داخلها والتي كانت لتظهر نتائجها البعيدة الخطيرة (مثل خيبة الإسلام وإخفاقه في عهده الأول الزاهر، وأن صحبة النبي ﷺ لم تثمر ولم تفعل فعلها في تكوين مجتمع صالح فاضل يوثق به، ومن نتائج هذا النوع من التفكير والاعتقاد الطبيعية وجود عدم الثقة بصيانة القرآن الكريم، وبقائه على أصالته وصحته، عن طريق الصحابة الذين شهدوا نزوله وتلقوه عن النبي المعصوم ﷺ مباشرة، وذلك في خير القرون، وكذلك الاضطراب في صحة الأحاديث ونقل السنة النبوية، وجميع الأمور التي اتفق عليها المسلمون) ولذلك يقول الإمام الدهلوي:

«كل من يحاول هدم هذا الأصل (ثبوت الخلافة الراشدة وصحتها) وينكر هذا الأصل الأصيل من الدين إنما يحاول هدم جميع الشعب الدينية»[2].

= «وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يقربه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارًا، فجعلهم اللَّه بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا اللَّه. («الحكومة الإسلامية» طبع كتبخانه بزرك إسلامي ـ إيران).

(١، ٢) «إزالة الخفاء» (١/ ١).

ويزيد قائلاً:

«إن الخلفاء الراشدين هم الواسطة بين رسول اللّه وبين أمته في أخذ القرآن الكريم وتلقيه»[١].

ثم يدرج الإمام الدهلوي في هذه الدائرة تلك الشعب والعلوم التي حصلت ثروتها للأئمة عن طريق الخلفاء الراشدين، كعلم الحديث وعلم الفقه والإجماع على المسائل المجتهد فيها، والقضاء على اختلاف الأمة وعلم الإحسان (الذي سمى ـ أخيرًا ـ بعلم السلوك) وتوضيح الفرق بين مراتب علوم الحكمة والأخلاق الفاضلة والأخلاق المذمومة، وتدبير المنزل، وسياسة المدينة، كل هذه العلوم والفنون والشعب الدينية انتقلت إلى الأمة عن طريق الخلفاء الراشدين وبتعليمهم ومنهج عملهم، وتدين لهم الأمة كلها في ذلك»[٢].

ولذلك كان من المناسب ـ جدًّا ـ أن يشرح ـ بعد تأليف «حجة اللّه البالغة» الذي هو تفسير علمي ونظري للإسلام ـ كيف طبقت هذه الأصول والتعاليم الإسلامية بعد عهد النبوة ـ مباشرة ـ في عالم الواقع بنجاح منقطع النظير، وكيف ظهرت في صورة عملية، وطبقت على الحياة بطريقة رائعة، وما هي الآثار التي ترتبت بها على المجتمع البشري، وكيف قضت على مدنيتين عتيقتين جبارتين تملكان أزمة السلطة والسيطرة حتى اقتسمتا العالم المتمدن كله، ويرجع تاريخهما إلى قرون عريقة في القدم وكانتا تزدهران وتتقدمان تحت ظل الحكومات «الساسانية والرومية» وفي قيادتها وتؤثران على الحياة الإنسانية وتطبعانها بطابعهما، كيف انتهى دورهما، وذهبتا أدراج الرياح!؟[٣].

---

(١) «إزالة الخفاء» (٢/ ٤). (٢) المصدر السابق (٢/ ٦).

(٣) انظر المصدر السابق (٢/ ٥٤)، (٢/ ٥٩ ـ ٦٣).

*** دور الإمام الدهلوي القيادي في عهد احتضار الدولة المغولية:**

في القرن الثاني عشر الهجري بلغت الهند من الانحطاط السياسي والإداري والخلقي وفساد النظام وملوك الطوائف والقلق والاضطراب ما يصح أن يعبر عنه بحالة احتضار للهند ونظامها، لقد أصبحت الدولة المغولية رمز للسلطة الطويلة القوية لأسرة مسلمة حاكمة، ولم تعد وراءها قوة مساندة ولا إدارة حازمة ولا همة عالية.

وكانت هناك ثلاث قوى مقاتلة ناشئة تتحكم لا في مصير الدولة المغولية فحسب، بل في مصير البلاد كلها، وهي المراهتة، السيخ، والجات (الزط).

المراهتة:

وهي جماعة مسلحة نشأت في الجنوب «الدكن» وشنوا حرب عصابات ضد الحكومة الشرعية وعزموا على السيطرة على شمال الهند، ووصلوا إلى البنجاب، ورام كنكا ووصلوا إلى دلهي عاصمة البلاد في ٩ ذي الحجة عام ١١٧٣هـ وقاموا بالسلب والنهب.

وقد تأثر المسلمون والهنادك جميعًا بفوضى المراهتة وغاراتهم، فكانت الغارات الوحشية على القرى، وأعمال النهب والسلب بقسوة وعنف، وقطع أيدي الناس وأرجلهم وأنفوهم أمرًا عاديًّا، وكانت النساء ـ بغض النظر عن دينهن وجنسيتهن ـ تتعرض لوحشيتهم ونزواتهم الشهوانية، وكانوا يتجاوزون في ذلك كل الحدود ويتظاهرون بأعمال وحشية بهيمية، وقد أبدى شاعر بنغال المعروف «كنكا رام» مثل هذه الانطباعات، وهو يعلق على غاراتهم وحملاتهم على بنغال.

وقد أبدى المؤلفون البرتغاليون حيرتهم وعجبهم على أفاعيل المراهتة

التي يتندى لها جبين الحياء، وقد كان لسيطرة المراهتة وسلطتهم آثار اقتصادية سيئة على الناس، وحسب تصريح الشيخ غلام علي آزاد البلكوامي: أنهم ينوون ـ إلى حدود قدرتهم واستطاعتهم ـ أن يسدوا أبواب الرزق على الناس ويحكموا قبضتهم على جميع وسائل المعيشة، وكان المراهتة يجبون من تلك المناطق البعيدة النائية التي كانت تحت حكمهم وسلطاتهم ربع حاصلاتهم وغلاتهم.

ولم تقف غارات المراهتة عند الحدود العسكرية واستغلال الجماهير، بل لقد كانت مؤسسة على إحياء الديانة الهندوكية وإقامة حضارتها من جديد، يقول ماونت رستوارت الفنستن (حاكم ولاية بمباي) في تاريخه للهند عن «شيواجي» القائد الأول لهذه الحركة:

«لقد اختمرت طبيعته وتربت على العصبية الهندوكية... ولأجل هذه الطبيعة المستحكمة فيه كان يكره المسلمين وتقاليدهم وطقوسهم كراهية شديدة، ويحب الهندوس ويرغب في رسومهم وتقاليدهم رغبة شديدة، وكان هذا الموقف منه يزداد ـ كل يوم ـ شدة، وقد وافقت هذه الطبيعة فيه تدبير الشئون الملكية حتى تصور بصورة الرهبان والمشايخ الهنادك، وادعى كرامات الأولياء المؤلهين وألطاف الآلهة المعبودين.

لقد حاول المراهتة قبل المعركة الحاسمة في ساحة «باني بت» واستشعاراً منهم لدقة الأوضاع وخطورتها عن طريق النواب شجاع الدولة (الذي كان يحمل في قلبه شيئًا من التعاطف مع المراهتة من قبل ذلك) أن توقع الهدنة مع الشاه الأبدالي، وما رد به شجاع الدولة ـ بناءً على هذه التجارب المتواصلة والحقائق المرة ـ عليهم يلقى ضوءًا كاشفًا على طبيعة المراهتة القومية وتأثير فتوحهم وانتصاراتهم ونتائجها، لقد كان رد النواب شجاع الدولة أن قال:

«إن براهمة الدكن يسيطرون على الهند منذ مدة طويلة، وقد نزلت

على رءوسهم - بسبب شدة حرصهم وطمعهم وغدرهم ونكثهم للعهود - هذه البلية من الشاه الدراني، فكيف يصالح من هؤلاء الذين لا يرعون إلاّ ولا ذمّة، ولا يحافظون على عرض ولا عافية، ويرون أن جميع الأشياء ملك لهم ولقومهم، وقد قلق الناس وضجروا على ما لقوا منهم حتى ألحقوا - لحفظ أعراضهم ومكانتهم ورفاهية الخلق وأمنهم - على الشاه الأبدالي، ودعوه من بلاده، ورأوا حملاته ونكاياته أهون عليهم وأسهل من إيذاءات المراهتة ونكاياتهم»[1].

وأخيراً لقيت المراهتة هزيمة نكراء بتاريخ ١٤ يناير عام ١٧٦١م الموافق ٦جمادى الآخرة ١١٧٤هـ في ساحة باني بت على أيدي القوة الموحدة لجيوش أحمد شاه الأبدالي الأفغانية، وجنود النواب نجيب الدولة الروهيله وجيش النواب شجاع الدولة، وكما يقول أحد المؤرخين: «لقد طارت قوة المراهتة في لمحة البصر كالكافور» وسنذكر عوامل مقدم أحمد شاه الأبدالي التي غيّرت مجرى التاريخ في صدد ذكر مآثر الإمام الدهلوي القيادية.

السيخ:

لقد كانت السيخ فرقة دينية في بنجاب، وضع أساسها في القرن الخامس عشر المسيحي على أيدي «كروبابانانك» (١٤٦٩ - ١٥٣٩م)، ودوّن قائدهم كروارجن كتابهم المقدس لديهم المسمى «كرنته»، ثم تحولوا إلى جماعة مسلحة مقاتلة على يد قائدهم «كووندرائي» وبدأ قائدهم العسكري «هركووند» وهو في الأصل من كشمير في عمليات النهب والسلب وقطع الطريق في نطاق واسع، وكانت الدولة المغولية بعد وفاة الملك أورنك زيب تسير - بسرعة - نحو السقوط والإنهيار، ونشبت حروب متواصلة بين أبنائه وأحفاده على عرش البلاد، أتاحت الفرصة للسيخ أن يضاعفوا قوتهم - علنًا

(١) «تاريخ هندوستان» (٩/ ٥ - ٣).

ـ فكان «بنده بيراكي» يعمل السيف في الألوف من المسلمين ويقتلهم بقسوة ووحشية ويدخل القرى وينهبها حتى وصل إلى قرب دلهي، وأغار في مايو عام ١٧١٠م على سرهند، وفتح أبوابها للقتل والنهب والسلب، وعامل سكان القرية ـ من دون تمييز بين صغير وكبير وقوي وضعيف ـ بظلم فظيع وقسوة رهيبة، وتوجه بهادر شاه إلى بنجاب، وهزمت الجيوش السلطانية بنده بيراكي، ولكنه لجأ إلى الجبال، ثم قام مستغلا الفوضى السياسية والحروب الأهلية بين الأسرة الملكية بعد جلوس فرخ سير على عرش البلاد بالعنف والإرهاب مرة ثانية، وأخيرًا جيئ به إلى دلهي عام ١٧١٦م وقتل هناك، ولم تكن له شخصية محترمة محببة لدى السيخ أنفسهم، وقد أحدث تغييرات طفيفة في عقائد الديانة السيخية وعباداتها وأصبح السيخ تحت قيادته قوة عسكرية، واستمر الحاكم المغولي معين الملك ببنجاب (الذي يعرف بميرمنو) في عهد الملك فرخ سير، على سياسته التعزيرية، ولكن سقوط الدولة المغولية كان يسير بخطى حثيثة، وكانت قد ضعفت حكومة بنجاب وتضعضعت نتيجة حملات أحمد شاه الأبدالي المتكررة، وسنحت الفرصة مرة ثانية لقيام السيخ ونهوضهم، ولم ينجحوا ـ هذه المرة ـ في إخراج ابن أحمد شاه الأبدالي الأمير تيمور ـ الذي كان والي بنجاب حينئذ ـ والذي هدم «هرمندر» ـ أقدس معابدهم ـ وملأ البركة المقدسة لديهم بالإنقاض والركام ـ فحسب، بل استولوا كذلك ـ مؤقتًا ـ على لاهور، وضربت باسم قائدهم «جسا سنغ كلال» العملة، إلا أنهم اضطروا للخروج من لاهور بمقدم المراهتة إليها عام ١٧٥٨م تحت قيادة «ركهوبا» وتوجه أحمد شاه الأبدالي إلى بنجاب للمرة الخامسة، وبعد حرب «باني بت» التي قصمت ظهر المراهتة فور ما غادر بنجاب إذا بالسيخ عادوا للثورة والخروج، واستعادوا مملكتهم المفقودة، وعاد أحمد شاه وهزم السيخ في «لدهيانه» عام ١٧٦٢م هزيمة نكراء، ولكن السيخ بعد مغادرته عام ١٧٦٣م أغاروا على سرهند، ودمروها وخربوها، واستولوا

على لاهور مرة أخرى وأعلنوا قيام حكومة «خالصة» ثم تفرق السيخ بعد ذلك في مختلف الولايات وانقسموا إلى مختلف الفرق التي كانت تدعى «مسلين» ولم يكن هناك حاكم أعلى يحكمهم، ولم يبق لديهم أمر مشترك إلا دينهم، وبعد ثلاثين عامًا من هذه الأوضاع المضطربة علا في بنجاب نجم رنجيت سنغ الذي نظم هذه الفرق المختلفة في صورة دولة مستقلة ووحَّد صفوفهم.

لقد كان السيخ يكنون البغضاء والكراهية لا للحكومات المسلمة فحسب، بل لعامة المسلمين ووقفتهم موقف الحرب والنضال ضد المسلمين وحولتهم ـ بصفة خاصة ـ في أواسط القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي إلى قوة إرهابية مخيفة مزلزلة لسكان المدن الكبيرة الآمنة، وزيادة خطيرة في القوى الهدامة المثيرة للاضطرابات في الهند، وقد تعرضت المساجد والمقابر في عهد حكوماتهم ـ بصفة عامة ـ وفي عهد مهاراجه رنجيت سنغ ـ بصفة خاصة ـ لانتهاك حرماتها، ودوس كراماتها ووضعت عراقيل في سبيل أداء العبادات، ونشأ ذلك الوضع الحالك الذي عبر عنه الدكتور محمد إقبال في بيت من شعره، يقول فيه:

«لقد ذهبت «خالصة» بالسيف والقرآن، وقضت على المسلمين والإسلام في دولتها وسلطانها».

وقد رفع ضد الوضع المكفهر في منتصف القرن الثالث عشر الهجري ـ تقريبًا ـ وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر المسيحي ـ الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ش١٢٤٦هـ الموافق ١٨٣٠م) والشيخ إسماعيل الشهيد (ش١٢٤٦هـ ـ ١٨٣٠م) اللذين كانا خرّيجي مدرسة الإمام الدهلوي وتربيًا على أيدي ابنه الأكبر الشيخ عبدالعزيز الدهلوي ـ رفعا لواء الجهاد ضد حكومة رنجيت سنغ العسكرية، وبدا بذلك مخططهما الواسع والعميق

ومهمتهما العظيمة التي قامت لتحرير الهند من السلطة الخارجية المستعمرة وتأسيس الحكومة الشرعية، وإصلاح المجتمع المسلم وإحياء الدين وإظهاره.

الجات (الزط):

لم تكن الجات فرقة منظمة كالمراهتة، ولا فرقة دينية كالسيخ، ولكن ضعف الدولة المغولية أنشأ فيهم تنظيمًا يقوم على العنف والسلب، وأصبحوا قوة هدامة مثيرة للفتن والاضطرابات.

❑ يقول البروفيسور خليق أحمد نظامي في كتابه «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي»:

«لقد كان الجات يسكنون المنطقة الجنوبية لجمنا من آكره إلى دلهي، وكانت حدودهم في الشرق إلى جنبل» وقد بلغت ثوراتهم في هذه المنطقة أن ضاقت بهم الحكومة المركزية ذرعًا، وحسب ما يقول «سركار»: لم يكن هناك مجال لقبول هذه الشوكة الشائكة في شوارع دلهي وآكره، وكانت المواصلات بين دلهي وآكره تسير بحيطة بالغة وحذر كبير، وكانت الجيوش التي تقصد دكن عن طريق أجمير، تمر بهذه المنطقة، ونهب الجات دلهي، وخرج سكان دلهي ـ خائفين فزعين ـ من بيوتهم، فكانوا يهيمون على وجوههم ويتيهون في الأزقة والسكك، كسفينة محطمة تكون تحت رحمة الأمواج الطاغية، وكان يُرى كل شخص كالمجنون يعدو فزعًا مضطربًا[1].

❑ ويقول الشيخ ذكاء اللّه في ذكر وقائع عام ١٧٦٥م:

«كان الجات متسلطين على قلعة آكره، وكانت للجات جولة وصولة على بعد ١٠٠ ميل من دلهي، وقد طرد راجه سورمل الذي كان ذكيًّا فطنًا بارعًا في المنازلة، ماهرًا في القيادة والحكم ـ قائد المراهتة من آكره، واستولى

(١) «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي لخليق أحمد نظامي (ص١٧٧).

على ميوات، وبني أربع قلاع حصينة قوية، وبدأ يطلب من حكومة دلهي تلك الطلبات التي لا تبقى على اسم الدولة إطلاقًا، وقد هزم نجيب الدولة بحسن تدبيره وحيلته وبمساعدة من البلوجيين، الجات، وقتل راجه سورمل في مناضلته لنجيب الدولة، ثم نجمت في ولاية الجات نزاعات وخصومات، وقتل اثنان من أبناء سورج مل، وخلفها الابن الثالث رنجيت سنغ وقد بلغ الجات في عهده أوج التقدم والازدهار، والمنطقة التي كانوا يحكمونها تقع في شمال غربها «ألور» وفي جنوب غربها «أكره»، وكان دخل هذه الدولة عشرين مليون روبية وكان لديهم جيش مكون من ستين ألف جندي[1].

□ لقد أصبحت دلهي نتيجة لحملات المراهتة والسيخ والجات اليومية المتتابعة عليها كشجرة مثمرة سائبة تحمل عليها الحشود الوحشية من الطيور الكاسرة وتجردها من الثمار والأوراق، وأمّت الفتنة والقلاقل من كل صوب مدينة دلهي.

*** حملة نادر شاه:**

عاد الإمام الدهلوي من الحجاز إلى دلهي عام ١١٤٥هـ ولم تمض على ذلك إلا خمس سنوات أن وقعت عام ١١٥١هـ الموافق ١٧٣٨م تلك الحملة النادرية التي ضعضعت ما بقى من كيان الدولة المغولية، وخربت دلهي ومزقتها شر ممزق، وقد أثرت هذه الحملة في عقول الغيارى من سكان دلهي والأسر والبيوتات الكريمة وصدمت قلوبها صدمة عنيفة حتى بغضت إليهم الحياة، وسادهم الخجل والحياء إلى حد أنهم كانوا كأنهم يعدون العدة لقتلهم وانتحارهم، وقد ذكر الشيخ عبدالعزيز الدهلوي أنه بمناسبة هذه المقتلة الرهيبة العامة وضياع الأموال والأعراض كان أشراف دلهي قد قرروا وعزموا على

(١) «تاريخ هندوستان» باختصار (٩/ ٣١٦ ـ ٣١٨).

تنفيذ تقليد «جوهر»[1] على طريقة الراجبوت القدماء، فذكّرهم الوالد الكريم (الإمام الدهلوي) بحادث كربلاء، ومصائب سيدنا حسين رضي الله عنه ومنعهم من هذا القرار للانتحار، فاختاروا طريق الصبر والرضا بالقضاء رغم هذه المحن والبلايا التي تقشعر منها الجلود وتشيب منها الولدان، ولا يتصور أشد منها وأفتك، وكفوا عن إرادة الانتحار وقتل أنفسهم.

*** الدور القيادي للإمام الدهلوي:**

لم يكن الإمام الدهلوي خلال العجاج المتراكم من هذه الحوادث والأزمات بل في أمطارها الغزيرة الهاطلة جالسًا تحت السماء منصرفًا إلى البحث والتأليف والتدريس والتصنيف بحيث لا تقلب نفحات الرياح العاتية أي ورقة من كتابه ولا تمحو قطرة من قطرات هذه المطر الغزير أي حرف من حروفه، فحسب بل كان يعمل ـ في جد ونشاط وحزم وجهاد ـ لتغيير هذه الأوضاع واستعادة السلطة الإسلامية في هذه البلاد، وإقامة مملكة قوية موطدة الأركان تشعر بمسئوليتها وتعترف بالواقع وتنفذ الأحكام الشرعية، وتحافظ على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم وتقضي على القوى الهدامة التي تعيث في الأرض فسادًا، وتنشر الخير والرخاء، فقد كان يقوم في هذا الصدد بالدور القيادي الذي يمكن أن يقوم به أكبر سياسي بصير لا يمت إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأي صلة.

وكان الدهلوي لحميته وعلو همته وبعد نظره كما قال الدكتور محمد إقبال عنه:

«رغم العواصف الهوجاء يُشعِل ذلك الرجل البطل الذي وهبه اللّه ـ

---

(١) كان أشراف راجبوت عند ما يحاط بهم من كل جانب، ولا تبقى أي إمكانية لحياة الشرف يقدمون على قتل أهلهم وعيالهم، ثم يقفزون بأنفسهم في النار ويحترقون.

تعالى ـ عزة الملوك وإباء السلاطين، سراجه المنير».

❑ لقد بكى قلب الدهلوي الحزين المتقطع المرهف الحس دموعًا من دماء، وقطرت من قلمه السيال هذه القطرات من الدماء على صفحات تلك الرسائل التي كتبها إلى معاصريه من الملوك وأعيان الدولة ووجهائها، وقد جمعت هذه الرسائل باسم «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي».

❑ يكتب إلى ملك معاصر يشكو فيها صولة سورج مل وشوكته وغربة الإسلام وبؤسه:

«ومن بعد ذلك ظهرت شوكة سورج مل وقيت، فقد استولى سورج من على مسافة ٦ أميال من دلهي إلى أواخر حدود «آكره» طولاً، ومن حدود ميوات إلى «فيروز آباد» وشكوه آباد عرضًا، فلا يقدر أحد أن يؤذّن هناك ويقيم الصلاة»[١].

❑ ويذكر في هذه الرسالة خراب مدينة «بيانه» التي كانت عامرة مخصبة، فيقول:

«لقد أخرج المسلمون ـ كرهًا وقسرًا وبإهانة وإذلال ـ من مدينة «بيانه» التي كانت مدينة إسلامية قديمة، لم يزل يسكنها العلماء والمشايخ من سبعة قرون»[٢].

❑ ويذكر فقر الموظفين الرسميين وسوء حالهم وقد تجاوز عددهم مائة ألف، فيقول:

«لما انتهت خزانة الملك، توقف النقود أيضًا، حتى تفرق الموظفون شذر مذر، وبدأوا يتكففون ويستجدون، ولم يبق للدولة إلا الاسم»[٣].

(١) «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي (ص١٥).
(٢) المصدر السابق (ص٩).
(٣) المصدر السابق (ص١١).

❑ وقد صدرت من قلمه ـ وهو يذكر وضع عامة المسلمين ـ هذه الكلمة المؤثرة المشجية:

«وبالجملة فإن جماعة المسلمين تستحق العطف والرحمة»[١].

❑ ويقول في رسالة كتبها إلى النواب نجيب الدولة:

«لقد لقى المسلمون ـ سواء كانوا سكان دلهي أو أي مكان آخر ـ صدمات عديدة، ووقعوا ـ مراراً ـ فريسة السلب والنهب، لقد بلغ السكين العظم، إنه لمقام الرحمة والعطف»[٢].

ويتنبأ الإمام الدهلوي ـ نظرًا إلى الحقائق والوقائع والأسباب القوية المؤثرة ـ بالنتائج الحاسمة ووقائع المستقبل القريب بمالاً دخل فيه للقياس والذكاء بل هو نتيجة الدراسة والواقعية غير المحايدة.

«فلو بقى غلب الكفر وظهوره على هذا الوضع فيخشى على المسلمين أن يتناسوا الإسلام، ولا تمضي إلا أيام وسوى حتى يظل الشعب المسلم شعبًا لا يقدر على التمييز بين الإسلام وغير الإسلام».

❑ كتب الدهلوي إلى أحد ملوك المغول من معاصرية رسالة نصحه فيها بإصلاح الحال، وتقوية الدولة، واسترعاء ـ رحمه اللّه تعالى ـ ونصره وتأييده إليه وضمّنها توجيهات ونصائح حكيمة عالية تقوم على أساس الحكمة العالية والبصيرة النافذة في الدين، والدراسة العميقة الواسعة للتاريخ والسياسة ونظم الدولة، لقد قال في بدايتها: «أرجو من فضل اللّه تعالى ورحمته أنه إذا صح العمل وتحقق بموجب هذه الكلمات فسوف تظهر القوة والحزم في شئون الدولة وبقاء الحكومة وتعلو الكلمة يقول الشاعر ما معناه:

---

(١) الصدر السابق (ص١١).

(٢) «الرسالة السابعة إلى نجيب الدولة» (ص٢٢ ـ ٢٣).

«لقد وضعوني كالببغاء وراء المرآة، فلا أقول إلا مالقنني المعلم الأزلى (الأبدى)»[١].

وقد أشار في آخر هذه الرسالة ـ التي أرسلها إلى الملك المعاصر وأمرائه ووزرائه ـ بعد تقديم توجيهات ناصحة حكيمة، سياسية وإدارية لا يمكن أن تقوم الدولة بغيرها، ولا تعود الرفاهية إلى الناس وتستحكم الثقة فيما بينهم ـ بأن يولى على الحسبة والقضاء أولئك العلماء الذين لم يتهموا برشوة، ويكونون من أهل السنة والجماعة، وأن تعطى لأئمة المساجد رواتب محترمة، ويؤكد على أداء الصلوات بالجماعة، ويعلن ـ باهتمام بالغ ـ أن لا ينتهك أحد حرمة شهر رمضان، وأخيرًا أن لا ينهمك «ملك الإسلام» و«الأمراء العظام» في العيشة الباذخة المحرمة، ويتوبوا مما سلف منهم من الذنوب توبة نصوحًا، ويتوقوا من الذنوب في الحياة المقبلة، فلو عمل بذلك فإني آمل بقاء الدولة، وتأييد اللَّه تعالى ونصرته، «وما توفيقي إلا باللَّه عليه توكلت وإليه أنيب»[٢].

وهكذا قام الإمام الدهلوي بأداء واجبه ومسئوليته التي كان يجب على العالم الجليل بالدين وشارح الكتاب والسنة، ومصلح عصره ومجدده أن يقوم بأدائها، وهكذا يفعل من يعرف مسئولياته وواجباته، ويطلع على تلك الأخطار المحدقة التي كانت كالسيف المصلت ليس على رءوس الأسرة الحاكمة فحسب، بل على رءوس جميع سكان البلاد ولم تكن للإمام الدهلوي في اتباعه لسلفه الأكرمين وحسب منهج العلماء الربانيين علاقات وصلات مباشرة بالبلاط والدولة، بل كان متبوأ على حصير الفقر الغني، ولكن قلبه كان مشغولاً ـ كالشيخ نظام الدين البداوني الدهلوي، وخلفه

(١) «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي، رسالة رقم (١).
(٢) المصدر السابق (ص ٨٠ ـ ٨١).

السيد نصير الدين الدهلوي ـ بالدعاء للحكومة وهدايتها وصلاحها ولم يكن يضن على من يتصل بمركزه العلمي والروحي بالتوجيهات الناصحة مشافهة وكتابة، ويكتب إلى ملك: «تعرض للخليفة مشاكل طريفة غريبة، من قبل أعداء الدين وأتباعه أيضًا فلا علاج لهذه المشاكل إلا العلاج الواحد، وهو أن تجعل مرضاة اللَّه ـ تعالى ـ نصب عينيك، وتستعين به، وتصرف النظر عمّن سواه»[١].

لقد أرسل الدهلوي الأمراء وقادة الجيوش والأبطال الطامحين الذين أحسن في داخلهم بجمرة الحمية الدينية إلا أن اختيار الإمام الدهلوي ـ الذي كان يرافقه الإلهام الرباني والفراسة الإيمانية ـ وقع منهم على شخصيتين عظيمتين في ذلك العهد، كان أحدهما في داخل الهند، والآخر في خارجها، أعني بذلك الأمراء النواب نجيب الدولة وأحمد شاه الأبدالي حاكم أفغانستان إذا ذاك.

*** النواب نجيب الدولة:**

ويقول الشيخ ذكاء اللَّه في «تاريخ الهند»: لقد كان نجيب الدولة عاقلاً ذكيًّا فطنًا حكيمًا، قلَّ من يكون مثله، فقد انتهت إليه في عهده الأمانة والديانة، فكان لا يكف عن طاعة أسياده القدماء النواب دوندي خان روهيله، والنواب شجاع الدولة، وبالجملة فقد كان هذا الرجل الشجاع يداري ـ بطريقة أو أخرى ـ هذه الدولة المحطمة المكسرة»[٢].

ويقول الشيخ عبدالعزيز الدهلوي: «كان لدى نجيب الدولة تسعمائة عالم، يتقاضى أدناهم منزلة خمس روبيات وأعلاهم ٥٠٠ روبية شهريًا»[٣].

(١) المصدر السابق (ص١٣٦ ـ ١٣٧).

(٢) «تاريخ هندوستان» (٩/ ٣١٥).

(٣) «مجموعات الكلمات» للشيخ عبدالعزيز الدهلوي (ص٨١).

وكان هو ـ حسب تصريح البروفيسور خليق أحمد نظامي ـ أكبر شخصية في دلهى في الفترة ما بين ١٧٦١م ـ ١٧٧٠م، فكان هو القطب الذي تدور حوله رحى السياسة كلها، وكان يتحمل عاتقه أعباء إدارة الحكومة كلها[١].

لقد اختار الإمام الدهلوي ـ الذي وهبه اللَّه تعالى ـ ملكة خاصة لمعرفة الرجال والاعتراف بالواقع والتي لا تعطي إلا لأولئك الرجال الذين يقومون في تاريخ الإصلاح والتجديد وصناعة الرجال وتربية الأفراد بأعمال جليلة بارزة، لتحقيق آماله وتكميل مهمته في هذا العهد من أزمة الرجال وندرة الأفراد، النواب نجيب الدولة وقد تفرس بعد نظره ودقته ما أودع اللَّه تعالى من جوهر صالح وحمية دينية، فبدأ الإمام الدهلوي مراسلته، وحاول إشعال تلك الجمرات الكامنة تحت الرماد، يقول في رسالة إليه: «ندعو اللَّه تعالى أن يشرف أمير المجاهدين بالنصر الظاهر والتأييد المبين ويبلغ هذا العمل إلى منزلة القبول وينزل عليه بركات ورحمات كبيرة».

ليبلغ من الفقير ولي اللَّه ـ عفا اللَّه عنه ـ بعد التسليمات العطرة بالمحبة أننا نشتغل هنا بالدعاء لنصرة المسلمين، وتلوح لنا من الغيب آثار القبول، ونأمل أن اللَّه تعالى سيجري على أيديكم الجهد والجهاد الديني ويعطي بركاته وثماره في الدنيا والآخرة، إنه قريب مجيب»[٢]. ويدعوه في رسالة أخرى بـ «أمير الغزاة ورئيس المجاهدين»[٣]، ويقول في رسالة أخرى: «يخيل إلينا أن عمل تأييد الملة الإسلامية ونصرة الأمة المحرومة في هذا العصر سوف يتحقق على أيديكم الذي هو مصدر هذه الأعمال الخيرة ووسيلتها.

(١) «الرسائل السياسية» (ص٢٣٢).
(٢) المصدر السابق (ص١٩).
(٣) المصدر السابق (ص٢٠).

❑ وكتب إليه ناصحًا:

«عندما تمر الجيوش الملكية بدلهى فليراع بدقة نظام أن لا تداس كرامة هذه المدينة بالظلم والعدوان كما سبق من قبل، لقد شهد أهل دلهى ـ مرارًا ـ حوادث النهب والسلب وانتهاك الحرمات والأعراض، وهذا هو سبب التأجيل في تحقق المقاصد والأهداف؛ فإن أنة المظلوم لا تذهب هكذا سدى، فإذا كنتم تريدون هذه المرة أن يتحقق لكم ما لم يتحقق بعد، فليؤكد تأكيدًا بالغًا وليلتزم التزامًا قويًا بأن لا يتعرض أي جندي للمسلمين في دلهى وغير المسلمين أيضًا، الذين يدعون أهل الذمة»[1].

ويلفت الإمام الدهلوي الأنظار ـ مرة بعد مرة ـ في عدد من رسائله إلى حماية البلاد من خطر هذه القوى المقاتلة الهدامة الثلاث ـ التي مضى ذكرها ـ وحفظها من أضرارها وعدوانهم، إذ بدون ذلك لا تقوم للنظام والإدارة في البلاد قائمة، ولا يسود الأمن والسلام ولا تبقى الشعائر الدينية ومساجد المسلمين آمنة مصونة، ولا أمل في عيشة عادية متزنة، فقد أصبحت البلاد كلها بسبب هذه القوى العائثة في الأرض الفساد تعيش حالة حرب دائمة، وفي صورة جبهة عسكرية مستقلة[2].

وقد اتخذ الإمام الدهلوي النواب نجيب الدولة نفسه واسطة خاصة لدعوة أحمد شاه الأبدالي إلى الهند، وأمره بالكتابة إليه عدا مراسلاته معه مباشرة.

*** أحمد شاه الأبدالي والي قندهار بطل أفغاني (١١٣٦ ـ ١١٨٦هـ):**

لقد كان ـ رحمه اللّه ـ من أولئك القادة العسكريين الممتازين في القرن

(١) «الرسائل السياسية» (ص٢١).

(٢) المصدر السابق (ص٢١ ـ ٢٢).

الثاني عشر الهجري الذين لا يولدون إلا بعد آماد وأحقاب طويلة، ويؤسسون دولاً وحكومات مستقلة أنه جمع شمل الأفغانيين المتفرقين بتوفيق ونجاح، ونفذ القوانين العادلة، وأقام الحسبة، وكان يجمع بين صفات الفروسية والأخلاق الفاضلة وشرف النفس وكرم الأصل، يتذوق العلم والأدب ويعني بهما، وكان مجيبًا أنيسًا في قومه، متدينًا متقيدًا بالفرائض والآداب الدينية، يحب مجالسة العلماء والصالحين ويتأدب مع الأشراف والمشايخ ويكرمهم، ويرغب ـ دائمًا ـ في زيادة معلوماته وتبادل الآراء في الأمور العلمية.

وكان رقيق القلب رحيمًا سخيًّا كريمًا، يتمسك بأصول المساواة والمسامحة الدينية، وقد أحيا بعض السنن التي كان التكلم بها في البيئة الأفغانية ـ إذا ذاك ـ من الصعوبة بمكان، مثل الزواج بالأيامى، وقد كان هو نفسه مثقفًا وكاتبًا قديرًا، وكان يهتم بتقدمه الروحي ويتمنى ذلك، يقول فيرير: «لقد كان أحمد شاه بريئًا من كثير من السيئات ومواضع الضعف الشرقية، فكان يتجنب ـ كليًّا ـ شرب الخمور وتناول الأفيون، نزيهًا ساميًا على أفاعيل النهامة والنفاق، ملتزمًا بالدين أيما التزام، وكانت عاداته وأخلاقه الساذجة ولكن المتزنة الرزينة تحببه إلى كل شخص، كان الوصول إليه سهلاً ميسورًا، فقد كان يراعي العدل والنصفة، ولم يشك أحد قط في حكمه وقضائه.

قال عنه الإمام الدهلوي: «الذي يخيل إليّ هو أن أحمد شاه الدراني سوف يعود إلى هذه البلاد ويقلب هؤلاء الكفار ظهرًا لبطن ويجعل عاليهم سافلهم، وإنه رغم جوره وطغيانه قد ـ حفظه اللَّه تعالى ـ لأجل هذه المهمة»[1].

(١) المصدر السابق (ص٢٦ ـ ٢٧).

كان الإمام الدهلوي يريد من أحمد شاه الأبدالي أداء دوره في صيانة هذه البلاد من هذه الأوضاع القلقلة والفوضى العامة، وأن يتعهد بالدولة إلى شخص كفء صالح ـ إلى حد ما ـ من أفراد الأسرة الحاكمة، وكان الإمام الدهلوي قد تنبأ قبل مقدمه بأنه لا يلبث هنا بل يولى أمر الدولة لأحد الزفراد من أولاد الملوك[١] .

وأخيراً طلب الإمام الدهلوي من نجيب الدولة كتابة الرسائل بهذا الصدد إلى أحمد شاه الأبدالي، ثم كتب إليه ـ مباشرة ـ رسالة مؤثرة بليغة تكشف عن بصيرة الإمام الدهلوي السياسية وحميته الدينية وجراءته الخلقية[٢].

وقد ذكر في هذه الرسالة الأوضاع الراهنة في البلاد وأساليب حكمها القديمة وإدارة مختلف الولايات ونظمها المختلفة وعدد الفرق الدينية والسلالية المختلفة في البلاد، ونسبة قواها، وأخطاء الملوك السياسية وقصر نظرهم فيما يتعلق بهم، واستحكامهم وتبوأهم مكانة القوة والسلطة ـ بصفة تدريجية، وذكر المرهنة والجات في هذا الصدد ـ بصفة خاصة ـ وصور غربة الإسلام وبؤس المسلمين بتأثير حملاتهم المتكررة صورة مشجية مذيبة للقلوب، وحرض هذه القائد المسلم ـ الذي كان يملك في ذلك العهد من الهند إلى ايران ـ أكبر قوة عسكرية منظمة على مقاومة هذه الأوضاع وتثبيت دعائم الدولة المغولية وتوطيد أركانها، وتحمل مسئولية البلاد على عاتقها من جديد، وصارحه بقوله: «إنه لا يوجد ـ في هذا العهد ـ ملك يملك من القوة والشوكة ما يستطيع أن يهزم بها جيوش الأعداء، مع بعد النظر والحنكة العسكرية إلا سيادتكم»[٣] .

---

(١) «الرسائل السياسية» (ص٣٠).

(٢) «الرسائل السياسية» (ص٦ ـ ١٧).

(٣) المصدر السابق (ص١٢).

ويزيد قائلاً: «نسأل باللّه تعالى أن تصرفوا همتكم المباركة العالية إلى هذه الجهة، وتقاوموا الأعداء حتى يكتب لكم عند اللّه تعالى في صحيفتكم ثواب عظيم، ويسجل اسمكم على صفحة المجاهدين في سبيل اللّه، وتنالكم في الدنيا مغانم كثيرة لا تحصى، ويتخلص المسلمون من مخالب الكفار وقبضتهم»[١].

وقد عرض الإمام الدهلوي في هذه الرسالة ـ نفسها ـ ببصيرته السياسية واطلاعه العميق على الظروف والأوضاع، عن هذه القوى الناشئة البارزة التي كانت لها ـ الفقدان أي: قوة منظمة مجابهة ـ هيبتها ورعبها في النفوس، وكان يعتقد أن لا قدرة لأحد على هزيمتها، تقديراً صحيحًا دقيقًا لا يقدمه إلا قائد محنك أو سياسي بارع، يقول عنه المرهتة: «إن الهزيمة المرهتة هيّنةٌ سهلة، شريطة أن يشمر غزاة الإسلام عن ساق الجد والجهاد، والواقع أن عنصر المرهتة قليل العدد، ولكن جمعًا كبيرًا يساندهم ويحالفهم، فلو فرق صف واحد من صفوفهم لتبددت هذه الجماعة وتفرقت وأصيبت بالهزيمة والضعف والفتور، وبما أن هؤلاء القوم ليسوا أصحاب قوة وشوكة، لذلك فإنه ينحصر كل مهارتهم في جمع العدد الكبير والجيش الكثير الذي يكون أكثر من النمل والجراد، أما البطولة والشجاعة وكثرة وسائل الحرب فليست فيهم»[٢]. إن هذه الرسائل التي كتبها النواب نجيب الدولة ـ بتوجيه من الإمام الدهلوي إلى أحمد شاه الأبدالي، ثم الرسالة المؤثرة البليغة المفضلة التي كتبها الإمام نفسه إليه، وقد تقدمت بعض مقتطفاتها لم تذهب سدى، فقد توجه أحمد شاه الأبدالي عام ١١٧٣هـ ـ الموافق ١٧٥٩م لكسر شوكة المرهتة وتحطيم قوتهم ومساعدة نجيب الدولة وشجاع الدولة ـ الذين كانا قد أثبتا

(١) المصدر السابق (ص١٢).

(٢) «الرسائل السياسية» (ص٨٦).

وعيهما السياسي ووحدتهما الإسلامية إلى الهند، ومضى عام كامل في الحروب والاشتباكات الجانبية، وأخيرًا وقعت بين المرهتة وبين الأفغانيين والجبهة الإسلامية الهندية الموحدة عام ١١٧٤هـ الموافق ١٤ يناير عام ١٧٦١م تلك المعركة الحاسمة التي غيرت في الهند مجرى التاريخ، وأخرجت المرهتة من الخريطة السياسية الناشئة في الهند.

ونورد فيما يلي قصة هذه الحرب ونتيجتها بإيجاز حسبما يحكيها الشيخ ذكاء اللَّه في كتابه «تاريخ الهند»[1] ، يقول:

«لقد حمى الوطيس واشتد لظى الحرب إلا أن كفة المرهتة كانت راجحة، فأصدر أحمد شاه أمره للجنود الفارين من الزحف أن يحاصروا ويقتلوا، وأعلن أن من حاول الفرار يقتل فورًا، ثم أمر جيشه بالتقدم وأمر فرقة عسكرية أن تحمل من جهة يساره على العدو، وقد أصاب سهم هذه التدبير نقتله، وقد كان بهاؤ، وبسواس راؤ في قلب الجيش راكبين يحرضان الجنود المرهتة على القتال، وكانت الحرب بالخناجر والرماح، وإذا به وقع ما اللَّه يعلمه فتزلزلت أقدام الجنود المرهتة، وذهبت ريحهم وما أن تزلزلت أقدامهم حتى امتلأت ساحة الحرب بالجثث والأشلاء، فتعقبهم الجيش الإسلامي وتتبعهم ـ بحماس واندفاع ـ في كل جهة وجانب إلى خمسة عشر وعشرين ميلاً، وأثخنهم بالجراح، وأسقطهم أكوامًا من الصرعى والقتلى، ومن بقى من المرهتة من أيدي هؤلاء الأعداء فقد قتلهم البدو الرعاع، وقتل «بسواس راؤ»، و«بهاؤ» وكان قد أخفى بعض الدرّانيين «جي كوجي سنديها» وستر عليه، ولكنه أخذ بعد بحث وتفتيش وقتل، وأسر إبراهيم خان كاردي[2] ولقى حتفه بعد أسبوع، وقتل شمشير بهادر وهو يحاول الفرار،

(١) «تاريخ الهند» للشيخ ذكاء اللَّه (٩/ ٣٠٥ ـ ٣٠٩).

(٢) كان رئيس المدفعية في جيش مرهته وكان رغم إسلامه وخيالهم، بقى بجوارهم إلى آخر لحظة، عليه من اللَّه ما يستحقه.

وفر ملهاراؤ في «مالوه» بنفسه، ووصل أبا جي سندهيا إليه كذلك وهو أعرج، ولم يبق أحد من القادة المعروفين سوى هذين القائدين، ولم تلحق المرهتة مثل هذه الهزيمة الساحقة من قبل، ولا نزلت مثل هذه النازلة قط، وقد أحدثت هذه المصيبة يأسًا في النفوس، فسقطت الهمم وبردت القلوب، ومات بالاجي لهذه الصدمة الشديدة بعد أيام، وكان من يوم أن سمع نبأ الهزيمة اعتكف في أحد المعابد يدرس اللغة السنسكريتية»[١].

وحسب تصريح أحد المؤرخين: «لقد طاردت قوة المرهتة في لمحة البصر كالكافور»، ويوقل سرجاد وناتهسركار: «إنه لم يبق بيت من البيوت في ولاية مهاراشتر لم يعمه المأتم والرثاء، فقد ذهب جيل القادة والرؤساء كله في معركة واحدة»[٢].

وتوجه أحمد الأبدالي ـ حسب تخطيط الإمام الدهلوي ـ بعد تحقيق هذه المهمة الضرورية إلى قندهار، يقول الشيخ ذكاء اللّه:

«لقد قدم أحمد شاه بعد الفتح والانتصار من باني بت إلى نواحي دلهى، ومكث عدة أيام وعين الأمير عالي كوهراي شاه عالم ملك البلاد، وشفع لدى الملك أن يولى شجاع الدولة الوزارة ونجيب الدولة إمارة الأمراء، ولم يكن شاه عالم إذا ذاك في دلهى، فعين ابنه جوان بخت نائبًا عنه، وفوض إلى نجيب الدولة إدارة دلهى ونظامها، وخلع على شجاع الدولة وولاه ولايات أوده واله آباد، وتوجه هو نفسه إلى قندهار[٣].

❑ يقول البروفيسور خليق أحمد نظامي: «لقد حاول أحمد شاه الأبدالي ـ جهده ـ بعد حرب «باني بت» أن يدعو شاه عالم إلى دلهى،

(١) «تاريخ الهند» (٩/ ٣٠٩).
(٢) «الرسائل السياسية» (ص٤٥).
(٣) «تاريخ الهند» (٩/ ٣٠٩ ـ ٣١٠).

وبعث إليه برسول ولما لم يحضر طلب أحمد شاه من والدته النواب زينب محل أن تكتب إليه، وكان أحمد شاه يحاول دعوة شاه عالم «إلى دلهى» حتى يتخلص هو من قبضة الإنكليز، ويقدم إلى دلهى ويضاعف قوته ويحكمها حال وجود أحمد شاه الأبدالي»[١] .

❑ ويقول خليق أحمد أيضًا: «لم يكن عند أحد من المرهتة والسيخ والجات من السعة وشمول التصور والتفكير بحيث يفكر في أساليب المحافظة على وحدة الهند ومركزيتها، وقد كان الإمام الدهلوي ـ حسب مخططه المقترح ـ يريد استعادة السلطة العليا والمركزية والوحدة التي كانت في عهد الملك أكبر ـ وجهانكير ـ وشاه جهان واورنك زيب في البلاد، ولكن عن طريق الحكومة العادلة لا الملوك الجائرين الجبارين»[٢] .

وضيّع شاه عالم ما صنعه الأبدالي بسقوط همته وقصر نظره.

* الإمام الدهلوي ودوره في الإصلاح والتربية للمجتمع:

مع كون الإمام الدهلوي كان من كبار العلماء والمؤلفين إلا أنه كان من كبار الوعاظ ومعلمي الأخلاق وإمامًا في مجال الإصلاح والتربية والتجديد، وهذه المآثرة للدهلوي من أروع المآثر وألمعها في تاريخ الإصلاح والتجديد؛ فإنه قد خاطب السلاطين المسلمين والأمراء وأركان البلاط والجنود العسكريين والصناع والمحترفين، وأولاد المشايخ المنعزلين، كل طبقة من هذه الطبقات على حدة وفي صورة مستقله، وضرب على وترهم الحساس، ودل على مكامن ضعفهم وانحرافهم وأنواع غرورهم وخداعهم، كما خاطب الأمة الإسلامية ـ بصورة عامة ـ خطابًا جامعًا شاملاً، وكشف عن أمراضها

(١) «الرسائل السياسية» (ص٤٥ ـ ٤٦).
(٢) المصدر السابق (ص٤٧).

وأدوائها، ووصف علاجها، وقد بلغ توجعه وحرقة قلبه واندفاعه في الحمية الإسلامية وعاطفة الدعوة الدينية وبلاغة البيان وقوة التعبير في هذه الخطابات الخاصة أوجها وذروتها يصعب أن تجد أمثلتها في كتب المؤلفين السابقين ـ الذين مضى ذكرهم ـ والمصلحين الناقدين، وسوف نورد مقتطفات من كتاب «التفهيمات الإلهية» للإمام الدهلوي الذي خاطب فيه قادة مختلف الطبقات البارزة المؤثرة وسادتها، ويتجلى في هذه الخطابات الخاصة من دقة نظر الإمام الدهلوي وعمق ملاحظته وحكمته في الدعوة، وجراءته الخلقية واطلاعه الواسع الدقيق ما يحاربه دارس التاريخ الذي اطلع على انحطاط هذا العهد ومجتمعه، ومراعاة العلماء وأصحاب الأقلام لمصالحهم الشخصية، ويأس الدعاة والمصلحين من إصلاح الأوضاع وتغيير الأحوال ويتعجب ويقول: «هل كانت هذه الجمرة يا رب كامنة في الرماد!

وها نحن ننقل هذه الكلمات الموجهة إلى مختلف الطبقات بنصها:

خطابه للسلاطين المسلمين:

أقول للملوك، أيها الملوك! المرضى عند الملأ الأعلى في هذا الزمان أن تسلوا السيوف، ثم لا تغمدوها حتى يجعل اللّه فرقانًا بين المسلمين والمشركين وحتى يلحق مردة الكفار والفساق بضعفائهم لا يستطيعون لأنفسهم شيئًا، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ فإذا ظهر الفرقان فرضاء الملأ الأعلى أن تنصبوا في كل ناحية وفي كل مسيرة ثلاثة أيام وأربعة أيام أميرًا عادلاً يأخذ للمظلوم حقه من الظالم ويقيم الحدود ويجتهد أن لا يحصل فيهم بغي ولا قتال ولا ارتداد ولا كبيرة، ويفشوا الإسلام ويظهر شعائره، ويأخذ بفرائضه كل أحد ويكون لأمير كل بلد شوكة بيقدر بها على إصلاح بلده ولا يكون له شوكه يتمتع بسببها ويعصي على السلطان، وينصب في كل إقليم كبير أميرًا يقلده القتال فقط يكون جمعه اثنا

عشر ألفا من المجاهدين، لا يخافون في اللَّه لومة لائم يقاتلون كل باغ وعاد، فإذا كان ذلك فرضاء الملأ الأعلى أن يفتش حينئذ من النظامات المنزلية والعقود ونحوهما حتى لا يكون شيء إلا موافق الشرع حتى يأمن الناس من كل وجه[1].

خطابه للأمراء وأركان الدولة:

وأقول للأمراء: أيها الأمراء! أما تخافون اللَّه اشتغلتم باللذات الفانية الدائرة وتركتم الرعية تأكل بعضها بعضا، أما شربت الخمور جهرة وأنتم لا تنكرون، أما بنيت منازل ودور للزنا وشرب الخمر والقمار وأنتم لا تغيرون، أما هي البلاد الكبيرة لم يضرب فيها حد منذ ستمائة سنة أو أكثر، من وجدتموه ضعيفًا أكلتموه ومن وجدتموه قويًا تركتموه وعُتّوه، خاضت أفكاركم في لذائذ الطعام ونواعم النساء ومحاسن الثياب والدور، وما رفعتم إلى اللَّه رأسًا وما ذكرتموه إلا بألسنتكم في حكاياتكم كأنكم تريدون باسم اللَّه انقلاب الزمان، تقولون اللَّه قادر على كذا تعنون أن الزمان قد ينقلب كذلك[2].

وأقول للعسكرية: أيتها العسكرية! أخرجكم اللَّه للجهاد ولتظهروا كلمة الحق وتكبتوا الشرك وأهله فتركتم ما أخرجكم لأجله، واتخذتم رباط الخيل وحمل السلاح كسبًا تستكثرون به أموالكم من غير نية الجهاد وقصده، شربتم الخمر والبنج وحلقتم اللحى وأعفيتم الشوارب، وظلمتم الناس ولم ينالوا مما تأكلون فواللَّه إلى اللَّه سوف ترجعون فينبئكم بما كنتم تعملون، كان مرضى الحق فيكم أن تتزيوا بزي الصالحين من الغزاة، واعفوا اللحى وقصوا الشوارب وصلوا الصلوات الخمس واتقوا اللَّه في أموال الناس واصبروا في الحرب والبأس، وتعلموا رخص الصلوات كالقصر والجمع، وأنه يجوز ترك

(١) «التفهيمات الإلهية» (١/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

(٢) المصدر السابق (ص٢١٦).

السنن في السفر، وكذلك أحكام التيمم، فتمسكوا بها وعضوا على الفرائض وأصلحوا نياتكم يبارك لكم ربكم في خولكم وينصركم على أعدائكم[١] .

وأقول للمحترقه! ضاعت أماناتكم وذهلتم عن عبادة ربكم وأشركتم بربكم، وذبحتم لطواغيتكم وحججتم إلى المدار[٢] والسالار[٣] ، فبئس صنيعكم ذلك ورب إنسان منكم جعل الطيرة ماله وكسبه، فجعل يتكلف في لباسه وزيه ومطمعه مالا يكفي له فيضيع حقوق نسائه ورب إنسان منكم اكتفى بشرب الخمر واستيجار الفروج فيضيع معاشه ومعاده، إن اللَّه هيأ لكم من الكسب ما يكفي لكم ولذوي حقوقكم إن أنتم اقتصدتم واكتفيتم بما يكون بلغة إلى المعاد، وكفرتم بنعمة ربكم، أسأتم التدبير أما تخافون عذاب جهنم وبئس المهاد، واصروفا غداءكم وعشيتكم في ذكر اللَّه، وطول النهار في حرفتكم، والليل في نسائكم واجعلوا الصرف أقل من الدخل فما غبر، فواسوا فيه الغريب والفقير وذروا شيئًا لنوائبكم وحوائجكم؛ فإن خالفتم هذه الأمور فقد أسأتم التدبير[٤] .

وقد نادى ـ هكذا ـ أولاد المشائخ برسم آبائهم من غير استحقاق: يا أيها الناس! ما لكم تحزبتم أحزابًا، واتبع كل ذي رأي رأيه، وتركتم الطريقة التي أنزلها اللَّه على محمد ﷺ رحمة بالناس ولطفًا بهم، وهدى لهم فانتصب كل واحد منكم إمامًا ودعا الناس إليه وزعم نفسه هاديًا مهديًا، وهو ضال مضل، نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يبايعون الناس ليشتروا به ثمنًا قليلاً أو يشوبوا اغراض الدنيا بتعلم علم، إذ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل

(١) المصدر السابق (ص٢١٦ ـ ٢١٧).
(٢) المراد به الشيخ بديع المكنبوري.
(٣) المراد به السيد سالار مسعود الغازي الذي يحتفل آلاف الناس بمولده.
(٤) «التفهيمات الإلهية» (١/ ٢١٧).

الهداية ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم ويأمرون بحب أنفسهم، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله ولم يدع إلى نفسه ولا ترضى بإشاعة الإشارات الصوفية في المجالس والمحافل، إنما المرضى الإحسان، أما لكم عبرة في قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾[1] .

ثم يخاطب العلماء والطلاب في عصره فيقول:

خطابه للعلماء والطلاب:

وأقول لطلبة العلم: أيها السفهاء المسمون أنفسكم العلماء! اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعني وظننتم أن هذا هو العلم، إنما العلم آية محكمة من كتاب اللَّه أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل معضلها أو سنة قائمة من رسول اللَّه ﷺ أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ وكيف توضأ، وكيف كان يذهب لحاجته وكيف يصوم، وكيف يحج وكيف يجاهد، وكيف كان كلامه، وحفظه للسانه وكيف كان أخلاقه، فاتبعوا هديه واعملوا بسنته على أنه هدى وسنة لا على أنه فرض ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة أن تتعلموا ما هي أركان الوضوء وما هي أركان الصلوة، وما نصاب الزكاة، وما قدر الواجب وما سهام فرائض الميت، أما السير وما يرغب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل، وأما ما اشغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة؛ إنما هي علوم الدنيا[2] .

ثم يقول لهؤلاء الطلاب والعلماء:

وأن لا تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة لا بأنها أمور مستقلة، أما

---

(١) (ص٢١٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢١٤).

أوجب اللَّه عليكم أن تشيعوا العلم حتى يظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين، فلم تظهروا الشعائر وأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد واستكثرتم في أعينهم طلب الحق والدين أما ترون البلاد العظام تخلوا من العلماء وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر[١] .

ثم خاطب أولئك الناس الذين جعلوا وساوسهم وخطرات قلوبهم دينا، وكل من لم يتفق ومقياسهم المؤسس على هواجس النفس وخطرات القلب، فكأنه خارج عن الدين، وقد كان معظم هذه الطبقة من الناس الذين أصيبوا بهذا الأنحراف من الزهاد المتقشفين والعباد الغالين والوعاظ المتشدقين، ولذلك اختبر لهم هذا العنوان.

مع الوعاظ المعسرين في الدين والزهاد المنزوين المنعزلين:

وأقول للمتقشفين من الوعاظ والعباد والجالسين في الخانقاهات:

يا أيها المتنسكون! ركبتم كل صعب وذلول وأخذتم بكل رطب ويابس، دعوتم الناس إلى الموضوعات والأباطيل وعسرتم على الخلق، وإنما بعثتم ميسرين لا معسرين، وتمسكتم بكلام المغلوبين من العشاق، وكلام العشاق يُطوى ولا يُروى، واستطبتم الوسواس وسميتموه الاحتياط، وكان مرضى الحق فيكم أن تفهموا الإحسان بجزئيه الاعتقادي والعملي، فتحصلوه من غير أن تخلطوا به أحوال المغلوبين وإشارات المكاشفين فادعوا الناس إليه، أما تعلمون أن الرحمة كل الرحمة والهدى ما جاءكم به محمد ﷺ، أكان يفعل فعلكم هذا أم كان أصحابه يفعلون هذه الأفعال[٢] .

ويخاطب ـ أخيراً ـ عامة المسلمين، لا يخص فيه طبقة منهم دون طبقة، يقول:

---

(١) «التفهيمات» (١/ ٢١٥).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢١٥).

خطابه الشامل للأمة الإسلامية جمعاء تشخيص الداء ووصف الدواء:

وأقول لجماعات المسلمين عمومًا خطابًا واحدًا:

يا معاشر بني آدم! (فسدت) أخلاقكم وغلب عليكم الشح واستحوذ عليكم الشيطان وزئرت النساء على الرجال، وغمط الرجال على النساء واستطبتم الحرام واستبشعتم الحلال، فواللَّه إن اللَّه ما كلف نفسًا إلا ما تطيق، عالجوا شهوة فروجكم بالنكاح وإن كثرن، ولا تتكلفوا في نفقتكم وزيكم مما لا تطيقون، ولا تزر وازرة وازرة كأنها معلقة، ولا تضيقوا الأمور على أنفسكم فإنكم إن ضيقتم خرجت نفوسكم إلى حد الصفق، وأن اللَّه يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، وعالجوه شهوة بطونكم بالأطعمة واكتسبوا قدر ما يكفيكم ولا تكونوا كلا على الناس تسألونهم فلا يعطونكم ولا تكونوا كلا على الخلفاء والأمراء إنما المرضى لكم الكسب بأيديكم إلا عبد ألهمه اللَّه أن اللَّه يكفيك واللَّه يعصمك من آفات الفقر.

يا معشر بني آدم! من رزقه اللَّه مسكنًا يؤويه ومشربًا يرويه ومطعمًا يشبعه وملبسًا يستره، ومنكحًا يحصن فروج ويعاونه في معيشته، فقد أدى له الدنيا بحذافيرها، فليشكر اللَّه وليتخذ كسبًا يكفيه وليكن من شأنه القناعة والقصد في المعيشة ولينتهز الفرصة لذكر اللَّه وليحافظ على ثلاثة أوقات: الغدوة والعشية والسحر، وليذكر اللَّه بالتهليل والتسبيح وتلاوة القرآن واستمعوا الحديث واحضروا حلق الذكر.

يا معشر بني آدم! اتخذتم رسومًا فاسدة تغير الدين، اجتمعتم يوم عاشوراء في الأباطيل، فقوم اتخذوه مأتم، أما تعلمون أن الأيام أيام اللَّه والحوادث من مشيئة اللَّه، وإن كان حسين رضي الله عنه قتل في هذا اليوم فأي يوم لم يمت فيه محبوب من المحبوبين، وقد اتخذه لعبًا بجرابهم وسلاحهم، وقوم اتخذوه منسكًا، أف لصنيعكم اجتمعتم يوم البراء يلعب قوم، ويزعم قوم أنه

يجب إكثار الأطعمه للموتى، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، ورسومًا تضيق عليكم كالإفراط في لولائم وكالامتناع من الطلاق وكإمساك المرأة بعد زوجها من النكاح، فضيعتم أموالكم وأوقاتكم في الرسوم وتركتم الهدى الصالح، وكان المرضى أن لا تتخذوا هذه الرسوم وأن تتخذوا رسومًا سهلة ليس فيها ضيق، اتخذتم المأتم عيدًا كأن إكثار الطعام واجب عليكم، وضيعتم الصلوات وقوم اشتغلوا بمكاسبهم فلم يقدروا على الصلوات ومنشأ هذا الفساد أنهم ما اخذوا مجالسهم في رحب حول المساجد يسهل عليهم الصلوات، وضيعتم الزكاة، وما من غنى إلا له متعلقون من المحاويج يطعمهم ويواسيهم، ولو أنه نوى الزكاة والعبادة لكفاه، وضيعتم صوم رمضان، فضيع قوم لأنهم صاروا عسكرية لا يقدرون على الصوم مع ما هم عليه من المحنة، اعلموا أنكم أسأتم التدبير وصرتم عيالاً على السلطان ولما لم يجد السلطان ما يعطيكم، ضيق على الرعية، فما اقبح صنيعكم هذا، قوم لا يتسحرون ولا يجتنبون أعمالاً شاقة، وذلك من سوء تدبيرهم وعقلهم.

ويقول أخيرًا: «ومقالات الملأ الأعلى في هذا الزمان كثيرة تنبئ عن الخير الكثير والقليل يكون نموذجًا عن الكثير»[1].

إصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع منها:

لم يقتصر الإمام الدهلوي على هذه الخطابات الخاصة لهذه الطبقات الخاصة من الناس، بل شدد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية والبدع والشعائر غير الإسلامية التي تسربت إلى المجتمع المسلم وشاعت فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهنادك ومواطنتهم لعدة قرون، وعدم الاهتمام

(١) «التفهيمات» (١/ ٢١٧ ـ ٢١٩).

بالسنة المشرفة والحديث الشريف وغفلة العلماء وتقصيرهم، وعدم شعور الحكومة المسلمة بمسئوليتها وفقدان الحسبة الدينية، والتزم بها المسلمون التزامًا شديدًا، وشنع تلك المعتقدات الباطلة، والأوهام والخرافات الجاهلية، وتقليد غير المسلمين وأتباعهم، وعابهم عليه، وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفنون الحكيمة لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالا ويرونها هيّنة خفيفة، أو يتغاضون عنها فرارًا من الوقوع في المشاكل ومعارضة الجماهير، وقد بدأت هذه المهمة لإصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع المسلم منها ـ بعد الإمام السرهندي الذي شنع في عدد من رسائله على هذه المعتقدات الشركية والتقاليد الجاهلية والطقوس الهندوكية ـ بجهود الإمام الدهلوي، وقد قام بتكميل هذه المهمة وتوسيعها ـ بعده ـ أبناؤه الأعلام ومن تخرج عليهم، ونشأ في أحضانهم من المصلحين المجددين كالإمام أحمد بن عرفان الشهيد (خليفة الشيخ عبدالعزيز الدهلوي ابن الإمام الدهلوي) والشيخ إسماعيل الشهيد حفيد الإمام الدهلوي.

ونورد هنا مقتطفًا من «التفهيمات الإلهية» و«وصايا الإمام الدهلوي» يقول:

«من عادات الهندوس الشنيعة أنه إذا مات زوج المرأة فلا يخلونها تتزوج مرة ثانية، ولم تكن هذه العادة في العرب قط، لا قبل النبي ﷺ ولا بعده، فرحم اللّٰه امرأ يقضي على هذه العادة الشنيعة، وإذا لم يمكن القضاء على رواج هذه العادة في عامة الناس فينبغي ترويج طريقة العرب فيما بين قبيلته، وإن لم يمكن ذلك كذلك فلا بد من استقباح هذه العادة ومخالفتها من أعماق القلب على الأقل، إذ هو آخر درجة من الإنكار على المنكر.

وعادتنا الشنيعة الثانية أننا نغالي في المهور، وقد كان نبينا ﷺ الذي نيط به شرفنا في الدنيا والآخرة ـ حدد لأهله الأقربين ـ وهو ما يبلغ

خمسمائة درهم.

ومن عاداتنا الشنيعة الإسراف، فإننا نبذر الأموال في مناسبات الأفراد وتقاليد العادات، ولم يثبت عن النبي ﷺ إلا الوليمة في الزواج والعقيقة، ولذلك فينبغي الالتزام بهما والاحتراز عن غيرهما، أو عدم الاهتمام الكثير بغيرهما.

ومن عاداتنا السيئة أيضًا الإسراف والتبذير في مناسبات المآتم باسم سيد جهلّم ششماهي، فاتحه، سالانه[1]، مع أنه لم يكن شيء من هذا في العرب الأولين فمن الخير أن يهتم بتعزية ورثة الميت في مصابهم لثلاثة أيام، وبالطعام ليوم وليلة، ولا يلتزم بتقليد آخر، ولتجتمع نساء القبيلة بعد ثلاثة أيام وليطيبن ثياب النساء ذوات قربى الميت، وإذا كانت زوجة الميت موجودة فليقض على سلسلة المأتم بعد عدتها[2].

ولقد صدق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ـ رحمه اللّٰه تعالى ـ إذ صرح في مقاله بعنوان «حقيقة منصب التجديد ومكانه الإمام الدهلوي في تاريخ التجديد» في مجلة «الفرقان» العدد الخاص بالإمام الدهلوي بعد إيراده لمقتطفات من «إزالة الخفاء» و«التفهيمات الإلهية» بما يلي:

«ويقدر من هذه المقتطفات ـ إلى حد ما ـ أنه كيف استعرض الإمام الدهلوي ماضي المسلمين وحاضرهم هذا الاستعراض التفصيلي، وكيف انتقدهم بهذا الشمول والاستيعاب، وأن من نتائج هذا النوع من الانتقاد اللازم أن جميع العناصر الصالحة في المجتمع التي لا تزال في إيمانها وضمائرها بقية من حياة ولا تزال قلوبها تميز الصالح والطالح، والشر والخير ـ يقلقهم الشعور بفداحة الخطب وسوء الأوضاع، ويرهف شعورهم

(١) هذه التقاليد خاصة بالأيام المحددة بعد وفاة شخص.

(٢) «التفهيمات الإلهية» (٢/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

الإسلامي إلى حد أنه يريبهم كل أثر من آثار الجاهلية في الحياة من حولهم ويحيك في صدورهم، وتقوى قوة التمييز وتزداد فيهم، فيبدأون يحسون بشوائب الجاهلية مع الإسلام في كل ناحية من نواحي الحياة وتستيقظ فيهم القوة الإيمانية إلى أن كل شوكة من أشواك الجاهلية تقض مضجعهم، وتدفعهم إلى الإصلاح، ثم يلزم المجدد ـ بعد ذلك ـ أن يقدم أمامهم مخططًا واضحًا للبناء والجديد، حتى يركزوا أنظارهم على الوضع المنشود الذي يغيّر به الوضع الراهن، ويكرسوا كل جهودهم ومحاولاتهم نحو هذه الجهة المطلوبة، وقد أنجز الإمام الدهلوي هذه المهمة البناءة أيضًا في شمول وإجادة وإتقان، كما شاهدته في مهمته النقدية الماضية[1] .

* **الدين النصيحة:**

✍ كل يُؤخذ منه قوله ويرد، ونحن نحسن الظن بالإمام الدهلوي لرسوخ قدمه في علم الكتاب والسنة، وجلالة شأنه في علوم الشريعة وهذا آخر ما لقى اللّه به.

وإن سبق للإمام الدهلوي كتابات صوفية فيها مخالفات مثل عقيدة وحدة الوجود، والفناء والبقاء، والتصرف في الكون، والتوجه إلى القبور والعتبات في دفع البلاء وجلب المنفعة، والاستعانة بغير اللّه، والكشوف والمقامات، لقد ألف الإمام الدهلوي كتبًا عدة في التصوف، فيها الشيء الكثير من الدعاوى والشطحات، بل المخالفات العقدية التي يمكن للمنحرفين من الصوفية أن يجعلوها تكأة يتكئون عليها في تأييد انحرافاتهم وضلالاتهم ومن هذه الكتب:

ـ «ألطاف القدس في لطائف النفس».

---

(١) مجلة الفرقان العدد الخاص بالدهلوي(ص ١٠١ ـ ١٠٢).

ـ «القول الجميل في بيان سواء السبيل» (في سلوك الطرق الثلاثة المشهورة القادرية، والجشتية، والنقشبندية).

ـ و«الخير الكثير» و«أنفاس العارفين» و«الانتباه في سلاسل أولياء اللَّه» وهو كتاب مبسوط في السلاسل المشهورة وغير المشهورة.

ـ «وفيض الحرمين»

في هذه الكتب ـ وخاصة في «القول الجميل» و«الخير الكثير» من القبح والشر ما اللَّه به عليم من عقيدة وحدة الوجود، والاستيناس بأقوال الحلاج وابن عربي، وتلميذه القونوي، وادعاء الأخذ المباشر من الجيلاني، والنقشبندي، والجشتي، بل من النبي ﷺ وكذلك من الملأ الأعلى.

فهو في هذه الكتب وأمثالها، صوفي مثل أي صوفي اخر، متوغل في الشطحات والدعاوى المخالفة للكتاب والسنة مثل الفناء والبقاء ومكاشفة القلوب والقبور.

ومعروف أن الإمام الدهلوي يردد إصطلاحات الصوفية، ويطبقها في كتبه، وأحيانًا يحوم حول شطحاتهم ـ مثل الأخذ من النبي ﷺ حينًا، ومن الملأ الأعلى حينًا آخر، حتى في كتبه التي ألفها بعد اهتدائه إلى تأييد مذهب المحدثين في العقيدة والعمل[1].

لقد بقي الإمام الدهلوي متصوفًا على طول الطريق، ولكنه بعد اهتدائه إلى نصرة مذهب أهل الحديث في العقائد والأحكام، ترك من الآثار ما يدل دلالة واضحة على تخليه عن تلك المخالفات العقدية الصريحة التي سجلت في بعض كتبه.

---

(١) راجع مبحث «المقامات والأحوال» في كتابه الشهير «حجة اللَّه البالغة» وفيه تطبيقات لاصطلاحات الصوفية على أمور النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

وكتبه في نصرة المنهج السلفي هي الآخرة وترد على كتاباته الصوفية السابقة.

ونحن كأهل حديث لا نعرف إلا الإمام الدهلوي المحدث وأتباعه وأنصاره الذين حثوا على الاعتصام بالكتاب والسنة، ونشروا الحديث شرحًا وتدريسًا ودافعوا عن مسلك المحدثين، وردوا على الكلام المذموم، ورفضوا التقليد الجامد، وعرضوا الفروع الفقهية على النصوص، ودعوا إلى ضرورة الاجتهاد نظرًا إلى ما يستجد من المسائل في كل عصر وزمان.

وأهل الحديث في شبه القارة الهندية يعرفون الدهلوي المحدّث، ولا صلة لهم بالدهلوي الصوفي، وأتباعه وأنصاره الذين عضوا على التقليد والتصوف بالنواجذ.

*** على درب وخطى الدهلوي الأبناء الأعلام والخلفاء العظام:**

إن من مزايا الإمام الدهلوي في سلسلة رجال الفكر والدعوة، ونعم اللَّه ـ تعالى ـ الخاصة عليه بين المصلحين والمجددين أن اللَّه عز وجل خصه بأولئك الأبناء والخلفاء الأعلام الكرام الذين كانوا خير خلف لخير سلف، والذين لم يحافظوا على ذلك المشعل الذي أناره الإمام الدهلوي مضيئًا وهاجًا فحسب، بل أشعلوا به مئات من الشموع والمشاعل، ولم تزل هذه المشاعل تمد المشاعل الأخرى وتنقل إليها من نورها وضوئها، واستمرت هذه السلسلة المباركة دون انقطاع في شبه القارة الهندية وخارجها من نشر تعاليم الكتاب والسنة والعقائد الصحيحة، والتوحيد الخالص، والرد على الإشراك والبدعة، وإصلاح التقاليد والعادات، وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق، والوصول إلى درجة «الإحسان» وإعلاء كلمة اللَّه ـ تعالى ـ والجهاد في سبيله والحمية الدينية والغيرة الإسلامية، وإقامة المدارس الدينية، وعرض تعاليم الإسلام الصحيحة والكتابة والتأليف لتبليغ هذه الرسالة والدعوة إليها، وتراجم القرآن الكريم

والعناية بالحديث الشريف، وكتب الفقه، إلى يومنا هذا، فلو درسنا تاريخ هذه الخطوات والجهود المباركة وبحثنا عن مراكز هذه الخيرات والمبرات، ونسب هذه السلاسل والحلقات، لرأينا أن الشموع تضئ الشموع والمشاعل لم تزل تمد المشاعل، وقد أضاءت هذه الشموع والمشاعل كلها بذلك السراج المنير الذي أشعله الإمام الدهلوي في منتصف القرن الثاني عشر وسط العواصف الهوجاء والرياح العاتية الشديدة.

*** ومن هؤلاء العظام:**

سراج الهند... حجة اللّٰه الإمام عبدالعزيز بن ولي اللّٰه الدهلوي:

قام الإمام عبدالعزيز بتكميل أعمال والده الإمام الدهلوي، وتوسيع نطاقها فبدأ ـ رحمه اللّٰه ـ سلسلة مباركة لترجمة القرآن وتفسيره، وتحطّم ذلك الطلسم الذي روّج له علماء الدنيا بأن نشر القرآن الكريم في العامة نذير خطر كبير وتمهيد لضلالة مستطيرة.

فقد كانت دروس الإمام الدهلوي في التفسير وصلت إلى هذه الآية من سورة النساء ﴿**اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾ حيث وفاة الأجل المحتوم، فبدأ الشيخ عبدالعزيز سلسلة دروسه منها فبلغ إلى قوله تعالى: ﴿**إن أكرمكم عند اللّٰه أتقاكم**﴾ من سورة الحجرات، وبدأ بعده ابن بنيّه الشيخ محمد إسحاق ـ الذي كان قد تربّى وتخرّج على يديه وكان خليفته بحق في دروسه في القرآن الكريم.

ثم ألف الشيخ عبدالعزيز تفسيره المسمى «فتح العزيز».

*** تدريس الحديث الشريف ونشره وترويجه بشكل لم يسبق له مثيل:**

إنه يصعب أن يوجد له مثيل في تاريخ الهند العلمي والديني، وتمتد

فترة تدريسه للحديث الشريف إلى أربع وستين سنة، وخرج التلاميذ النجباء، والخريجين الفضلاء الذين أفاضوا علوم الحديث ومعارفه، ليس في الهند فحسب بل في الحجاز كذلك، ويبلغ عدد من تخرّج على يديه من نوابغ تلاميذه إلى أربعين خريجًا.

لقد كان الشيخ عبدالعزيز بن ولي اللّه الدهلوي مثل أبيه في نصرة العمل بالحديث ضد الجمود الفقهي.

وقد سئل الشاه عبدالعزيز عن مذهب أئمة الحديث فقال:

«إن أئمة الحديث لا يتقيّدون بمذهب من مذاهب المجتهدين، بل إنهم يستفيدون من الفقهاء، ومن المصادر الأخرى على السواء» انتهى من «الفتاوى العزيزية» (٢/ ١١٧).

وأدرك ـ رحمه اللّه ـ خطورة الأصول والقواعد التي وضعها متأخرة الحنفية للرد على الأحاديث الصحيحة فقال في «الفتاوى العزيزية» (١/ ٦٢):

«ومن اللطائف التي قلمّا ظفر بها جدليّ لحفظ مذهبه ما اخترعه المتأخرون لحفظ مذهب أبي حنيفة، وهي عدة قواعد يردّون بها جميع ما يحتج بها عليهم من الأحاديث الصحيحة».

* دفاع الشيخ عبدالعزيز الدهلوي عن السنة ورده على الشيعة في كتابه القيم «التحفة الاثنا عشرية»:

لقد قاوم الشيخ عبدالعزيز فتنة الرفض والتشيع، وقام كتابه «التحفة الاثنا عشرية» في وجه السيل الجارف من التشيع سدًّا منيعًا، خاصة أن شبه الشيعة وتأثيرهم وصل إلى أسر الأشراف والبيوتات الكريمة، وأصحاب الحكم وبلاطهم.

❑ يقول الشيخ عبدالعزيز: «إن هذه البلاد التي نسكنها، وهذا العهد

الذي نعيشه، قد بلغ فيها المذهب الإثنا عشري من الذيوع والانتشار والقبول والرواج بحيث قلّ بيت من بيوت أهل السنة لا يميل فيه واحد أو اثنان من أفراده إلى هذه العقيدة ويتّبع هذا المذهب، ومعظم هؤلاء ممن لا يعرفون علم التاريخ والأخبار، ويعيشون في غفلة وقلة علم بسير أسلافهم وأصولهم ومنهجهم، وعندما يتناقشون مع أهل السنة والجماعة في مجالسهم ونواديهم، يأخذون طريق الجدال والمراء والمغالطة، وقد جاء تأليف هذه الرسالة حسبة للّه ـ تعالى ـ لهذا الغرض حتى لا تزلّ أقدام المتبعين لمذهب أهل السنة والجماعة عند المناقشة والمناظرة، ولا ينكروا أصولهم أنفسهم، ولا يدعوا الشكوك والشبهات في تلك الأمور التي تنبني على الحقائق، تجد إليهم سبيلا»[1].

*** معارضة السلطة الإنكليزية والحفاظ على كيان الملّة الإسلامية:**

بعد سقوط الهند في «الشركة الشرقية للهند» البريطانية، واستيلاء بريطانيا على الهند عام ١٢١٤هـ، ولما وقع بصر الجنرال هارس على جثة السلطان تيبو عام ١٧٩٩م الموافق ١٢١٤هـ قال: «الآن أصبحت الهند لنا».

وكان الشيخ الدهلوي أول شخص يتجاسر على إعلان أن الهند أصبحت دار حرب، وسُئل الشيخ عبدالعزيز: دار الإسلام هل يمكن أن تتحول دار حرب أوْ لا؟ قال في «الفتاوى العزيزية» (ج/١): «إن حكم إمام المسلمين في هذه المدينة «دلهي» غير نافذ، وحكم الحكام النصرانيين نافذ مطبق بدون معارضة ونقد، وإن ما يسميه الفقهاء بإجراء أحكام الكفر يُراد به أن يكون الكفار أصحاب حكم وسلطة في شئون إدارة البلاد وتنظيم الرعية وأخذ الجبايات وتعشير أموال التجارة وتعزير السُّرّاق وقطّاع الطريق والفصل في الخصومات والتعزير على عامة الجرائم، وإن كانوا لا يتعرضون لبعض

(١) «التحفة الإثنا عشرية» للشيخ عبدالعزيز الدهلوي (ص٢).

الأحكام الإسلامية كإقامة الجمعة والعيدين والأذان وذبح البقر، ولكن الأصل الأصيل أن تكون هذه الشئون المتقدمة الذكر تحت رحمتهم وفي دائرة نفوذهم، إننا نرى بأم أعيننا أنهم يهدمون المساجد علنًا، ولا يسمح لأي مسلم أو ذمي أن يدخل هذه المدينة أو نواحيها إلا بإذنهم، ولا يمنعون الوافدين من الخارج والمسافرين والتجار لمصالحهم الذاتية، ولكن الوجهاء الآخرين كشجاع الملك وولايتي بيكم لا يمكن أن يدخلوا المدينة بغير إذنهم، إن حكم النصارى يسود من مدينة دلهي إلى كلكته، نعم إنهم لم ينفذوا أحكامهم في بعض المناطق ـ يمينًا وشمالاً ـ كحيدر آباد ولكنؤو رامفور، إما لأجل مصالحهم الخاصة، أو لأن حكام هذه الولايات خضعوا لسلطانهم وقبلوا طاعتهم»[1].

لقد تعرّف الشيخ الدهلوي على الخطر الكبير الذي يواجهه المسلمون والهند كلها، ببصيرته الموهوبة وفراسته الإيمانية، وتجلت بصيرته في تربية رجال الجهاد الذين ينتمون إليه فقد كانوا أكفاء ذوي صلاحية فائقة وهمة عالية وعزيمة صارمة، تأثير في النفوس والقلوب الذين أحدثوا ثورة عظيمة في حياة الآلاف المؤلفة من الناس.

لقد كان نهر علم الشيخ الدهلوي وحياته هادئًا ساكنًا، ولكنه كما يقول الدكتور إقبال: «من هذا النهر تتصاعد تلك الأمواج الطاغية المتلاطمة التي تحطم أوكار التماسيح وتجعل عاليها سافلها».

❑ وكان الإمام أحمد بن عرفان الشهيد والشيخ إسماعيل الشهيد أروع مظاهر تربية الشيخ الدهلوي كما تتجلّى مشاهدها الرائعة في حروب الشيخ ولايت على العظيم آبادي، والشيخ يحيى علي الصادق بوري، والشيخ أحمدالله، والشيخ عبدالله ضد الإنكليز على الحدود، وفي تلك التضحيات

(١) «الفتاوى العزيزية» (١/ ١١٤).

الجليلة التي قام بها الصادقون من صادق بور والتي لا يوجد لها نظير إلا بصعوبة[١].

ثم انتقلت هذه العاطفة من هذه الجماعة المناضلة المجاهدة إلى أولئك العلماء والقادة الدينين الذين خاطروا في سبيلها بمهجهم وأرواحهم عام ١٨٥٧م، وقد اشتهر منهم الشيخ أحمدالله شاه المدراسي، والشيخ لياقات على الإله آبادي، والشيخ إمداد الله المهاجر المكي، والحافظ ضامن الشهيد، ثم انتقلت إلى أولئك العلماء الذين ما تركوا هذا المشعل يخبو يومًا ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما هدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾[٢].

*** الشيخ محمد بن إسحاق الدهلوي وأثره في نشر الحديث في الهند:**

انتشر علم الحديث انتشارًا واسعًا كبير على يدي الشيخ محمد إسحاق الدهلوي تلميذ الشيخ عبدالعزيز الدهلوي، وتخرّج عليه علماء كبار، وأساتذة الحديث في الهند، إلى أن هاجر إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ وأسند عنه كبار علماء الحجاز وأساتذة الحديث بها.

*** الإمام الذي لم يوف حقه: السيد أحمد بن عرفان:**

«يؤسس دولة إسلامية في «بيشاور» ويُحيي الجهاد الإسلامي ضد السيخ ويقضي على البدع»:

❑ قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه «الإمام الذي لم يوف

(١) انظر للتفصيل كتاب اشيخ الندوي «إذا هبّت ريح الإيمان» (ص١٨١ ـ ٢٠٠) ـ طبع دار القلم ـ الكويت ومؤسسة الرسالة.

(٢) «الإمام الدهلوي» (ص٢٨٧ ـ ٢٩١).

حقه: أحمد بن عرفان»: «قاد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه اللّه ـ (١٢٠١ ـ ١٢٤٦هـ) حركة إسلامية كبرى في شبه القارة الهندية، لم يُعرف لها نظير في الشمول وعمق التأثير، ومشابهة الدعوة الإسلامية الأولى، لا في قرنه الثالث عشر الهجري، بل ولا في عدة قرون من تاريخ الإسلام والمسلمين الأخير، وظل يناضل على أوسع جبهة نعرفها من إصلاح المجتمع، وتربية الرجال، والوعظ والإرشاد، والكفاح والجهاد، ولم يكن تأثيره مقصوراً على العهد الذي نشأ فيه والجيل الذي عاصره، والمجال الذي عمل فيه، بل خلّف أثرًا عميقًا واسع المدى على الجيل الذي أعقبه، وعلى دعاة الإصلاح والعاملين في المجال الإسلامي، الذين جاءوا بعده كحركة الإصلاح التي قادها تثار على في بنغال، والدعوة السلفية في الهند، ومركز الدعوة والتربية في «صادق فوربتنه»، وحركة التحرير وإجلاء الإنجليز، التي كانت قيادتها في المرحلة الأولى بيد العلماء والقادة من جماعته، وحركة التأليف والترجمة الواسعة النطاق في مختلف أنحاء الهند، التي ملأت الفجوة الواقعة بين الشعب والثقافة الإسلامية الأصلية، والتعريف بالكتاب والسنة، فكان في كل ذلك أثر ملموس للحركة التي قام بها هؤلاء المجاهدون أو كانت وليدة دعوته التي هزّت المشاعر، وأشعلت المواهب»[1].

❑ إنه دعا إلى الدين الخالص، وللإطلاع على دعوته السافرة القوية إلى التمسك بعقيدة التوحيد القرآنية النقية ونبذ الشرك والبدع، يرجع إلى كتابه «الصراط المستقيم» بالفارسية وكتاب «تقوية الإيمان» لوزيره الشيخ محمد إسماعيل الشهيد «بالأردية» وترجمتها العربية المسماة «برسالة التوحيد» بقلم أبي الحسن الندوي لقد «أشعل في القلوب شعلة الإيمان والحماسة والإسلامية، والجهاد في سبيل اللّه ونظمّ جماعة كبيرة، وأحسن تربيتها

(١) الإمام الذي لم يوف حقه أحمد بن عرفان لأبي الحسن الندوي (ص١٣ ـ ١٤).

الدينية والحربية، وخرج معها مهاجرًا في سبيل اللَّه (في ٧ من جمادي الآخرة سنة ١٢٤١هـ) من طريق بلوجستان وأفغانستان، إلى حدود الهند الشمالية، ليتخذها مركزًا لدعوته، وليتقدم منها إلى الهند لإجلاء الإنجليز، وتأسيس دولة إسلامية على منهاج الكتاب والسنة، وأثار الغيرة الإسلامية في نفوس المسلمين وأولي الأمر، وأنذرهم بالخطر المحدق بالوجود الإسلامي، ونبههم على نوايا «الأخطبوط» الإنجليزي، ومخططاته التوسعية، وراسل أمراء المسلمين في الهند.

❑ كما راسل ملوك البلاد الإسلامية المستقلة ككابل وهرات ونجاري وغيرها، وأرسل إليهم رسله ورسائله الرقيقة المرققة، الدافقة بالقوة والحماسة الإسلامية، وفراسة المؤمن الألمعي، وعلو همة القائد العصامي، والإمام الديني الذي هيأه اللَّه لهذا الأمر العظيم، وسمت همته، وبعد نظره، حتى فاق في ذلك كبار السياسيين في عصره وبعد عصره، وما ذلك إلاّ لإحياء ما مات من السنن، واندرس من معالم الإسلام، ولإدالة الإسلام من الجاهلية، والسنة من البدعة، وإجراء الأحكام الشرعية على من دان بالإسلام ونطق بالشهادتين»[1].

❑ كتب السيد أحمد بن عرفان إلى الأمير كامران: «إن هذا الفقير سوف ينصرف مع المجاهدين الصادقين بعد الفراغ من هذه المهمة (مهمة بنجاب ومنطقة الثغور الشمالية) إلى الهند بعزيمة القضاء على الكفر والطغيان إذ هو الغرض الحقيقي من ذلك» يقصد جهاد الإنجليز.

ويكتب إلى شاه سليمان وإلى «جترال»: «لقد تدهورت حكومة الهند وسلطته ـ لسوء الحظ ـ منذ أعوام إلى وضع سيئ حتى استولى المسيحيون

(١) «سيرة السيد أحمد الشهيد» (١/ ٣٩٠).

والمشركون على أكثر بقاع الهند، وملأوها بظلمات الظلم والجور والطغيان»[١].

ويكتب إلى هند وراؤ وزير كواليار: «وهؤلاء البياعين التجار قد غدوا يملكون زمام البلاد، وقد أسقطوا حكومات الحكام الكبار وانتهكوا الحرمات والأعراض وأذلوهم وأرغموا أنوفهم»[٢].

ويكتب إلى غلام حيدر ـ الذي كان أحد الضباط العسكريين في كواليار:

«لقد راحت معظم البقاع من هذه البلاد إلى سلطة الأجانب، وقد شمروا عن ساعد الجد في الظلم والعدوان في كل مكان، لقد ضاعت حكومة حكام الهند وخربت».

*** إحياؤه للإمارة والإمامة وتأسيسه لدولة إسلامية:**

بُويع بالإمارة والإمامة في ١٢ من جمادي الآخرة سنة ١٢٤٢هـ، وقرئت باسمه الخطبة ودخل الناس في بيعته أفواجًا، وجاءه أمراء المناطق، ورؤساء القبائل، وكبار العلماء فبايعوه على السمع والطاعة والجهاد في سبيل اللَّه.

لقد أسس السيد أحمد دولة شرعية في الحدود الهندية الشمالية والغربية، تشتمل على «بشاور» وما جاورها من البلدان والقرى، ونفّذ الحدود الشرعية، وطبق النظام الإسلامي المالي والإداري تطبيقًا دقيقًا، وشهد التاريخ نموذجًا للخلافة الإسلامية الراشدة، بعدما توالت قرون طويلة على حكومات المسلمين شبه العلمانية والزمنية فيما يتصل بالأحكام الشرعية والقوانين

(١) المصدر السابق (١/ ٣٨٩).
(٢) المصدر السابق (١/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠).
(٣) المصدر السابق (١/ ٣٩٠).

الإسلامية وانضم إلى دولته أمراء منقطة «هزارا» ووادي «كشمير».

*** إحياؤه للجهاد وقتاله للسيخ:**

آثره الجليلة أنه أحيا ركن الجهاد في سبيل اللَّه، حسب تعاليم الإسلامي وآدابه، بعد فترة زمنية كاد يندرس فيها هذا الركن، ويُطوى في صحائف السنة المطهرة، والسيرة النبوية وتاريخ المجاهدين الأولين والعزاة المخلصين الذين قاتلوا لتكون كلمة اللَّه هي العليا، ويكون الدين كله للَّه، ولا يبتغون به عرضًا من الحياة، أو تشييد ملك ودولة لأسرتهم وأبنائهم، وقد أهمله ملوك الإسلام أو استغلوه لقضاء مآربهم، أو اشباع شهوة الملك والفتح، وشُغِل عنه ـ أو عجز ـ دعاة الإصلاح، والمعلمون والمربون حتى كادت الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها تجهل قيمته وأهميته وفضله، ومكانته في الإسلام، وحتى أصبح أقل أهمية من كثير من أبواب الفقه كما يقول وزير السيد وترجمانه العلامة محمد إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي: «إن الجهاد قد صار الاهتمام به عند العلماء لا يزيد على اهتمامهم بتعليم كتاب الحيض والنفاس وتعلمه».

«وقد كان ضرر هذا الإهمال على العالم الإسلامي كبيرًا وفادحًا، فقد عاث فيه المفسدون، واجترأ عليه السفلة وأراذل الناس، وخضدت شوكة الإسلام والمسلمون، وأصبح المسلمون في بلادهم التي فتحوها بحد السيف، وحكموها قرونًا طويلة، فريسة القتل والتدمير، وعرضة الإهانة والتذليل، تُهدم مساجدهم، وتنتهك أعراضهم، وتهدر كرامتهم وانطبق عليهم قول رسول اللَّه ﷺ: **«إذا تركتم الجهاد في سبيل اللَّه سلّط اللَّه عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»**[1]، وقد كان العالم الإسلامي خصوصًا ما بعد منه

(١) صحيح: رواه

عن مركز الخلافة العثمانية صورة صادقة لهذا الوضع المهين.

❑ يقول السيد أحمد بن عرفان في الفصل القيم في «ضرورة الجهاد» من كتابه القيم «الصراط المستقيم»: «ومن شك في وخامة نتيجة ترك الجهاد، وما عاد به على الهند من شر وضرر، وخيّم به عليه بسببه الذل والهوان فليسرح طرفه في أطرافها[١]، وما آل إليه أمرها، وما ترددت فيه من ضعف واستكانة، وذل ومهانة، وبؤس وشقاء، وكيف نزعت عنها البركة، وفارقها البهاء»[٢].

❑ وقد عاش الجهاد بفضل جهاده في إحياء هذا الركن العظيم، واحتل مكانه في حياة المسلمين وتفكيرهم واهتمامهم، وفي الأدب الإسلامي، والشعر الهندي، حتى زالت هيبة الموت، والجراحة في سبيل اللّه، وحنّت النفوس إلى الشهادة حنين الطائر إلى وكره حتى قدّم أحد الأثرياء والأمراء[٣] ابنه الشاب للجهاد، وقال أريد أن ينال الشهادة من أيدي الكفار فيكون ذبيحًا كإسماعيل، وتنافس الشبان والأثرياء والمتنعمون في الهجرة والجهاد، وألفوا حياة التقشف والخشونة، والايثار والفداء، وكانت الأبيات التي قيلت في الحث عليه، والشوق إلى الشهادة ترنيمة تنوم بها الأمهات أبناءهن، وينشدنها في مناسبات كثيرة.

❑ اجتمع تحت راية أحمد بن عرفان في معركة «شيدو» نحو مائة ألف مقاتل.

❑ ولما احتل السيخ «بنجاب» واستولوا عليها، وكانت لهم سيطرة على

(١) «عند كتابة هذا الكتاب في سنة ١٢٣٣هـ.

(٢) «الصراط المستقيم» لأحمد بن عرفان (ص٩٥ ـ ٩٦).

(٣) هو الأمير فرزند على من سراة مديرية «غازي فور» قدّم ابنه أمجد، اقرأ التفاصيل في «سوانح أحمدي».

حدود الهند الشمالية الغربية والقبائل الأفغانية الحرة، وهددوا سلامة أفغانستان، وزحفوا إليها مرارًا، وتعرّض المسلمون الذين كانوا يشكلون الأكثرية في «بنجاب»، وحكموها منذ القرن الخامس الهجري للإهانة والإبادة، والاضطهاد الديني، فكان لا بد من انتصار لهم ودفاع عنهم ودرء الخطر عن البلاد الإسلامية الصميمة، وكانت لبنجاب أهمية استراتيجية كبيرة.

وبدأت الحرب مع السيخ، كانت الحرب مع «رنجيت سنغ» أكبر قائد من السيخ نبغ في أواخر القرن الثامن عشر المسيحي، وأقوى حاكم عسكري في عصره، وانتصر المجاهدون في أكبر المعارك الحربية، وعلى الجيوش التي كان يسرحها رنجيت سنغ حاكم «بنجاب»، يقود بعضها قائدان إيطاليان محنكان كانا قد قاتلا بجوار نابليون في الحروب التي دارت بينه وبين منافسيه والحكومات الأوربية، وهما الجنرال فينتورا والجنرال ألارد، وظهر من المجاهدين من الشجاعة والحنين إلى الشهادة والطاعة للأمير، والتأدب بآداب الشرع في الحرب والسلم ما جدّد ذكريات القرون الأولى.

ولما تحرك الجيش الإسلامي إلى الهند، صرفوا العنان إلى منقطة «هزارا» ووادي كشمير وفي طريقهم إلى كشمير، وقعت المعركة الحاسمة الأخيرة في وادي «بالاكوت» مع جيش السيخ الذي كان يقوده الأمير شير سنغ بن رنجيت سنغ، وقد دلّه بعض المسلمين المأجورين إلى هذا الوادي الضيق الوعر المسالك، ووقعت المعركة الحامية، واستشهد الإمام السيد أحمد، وصاحبه العلامة محمد إسماعيل بن عبدالغني (ابن شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي) وكبار أصحابها بعد بطولات نادرة، وشجاعة خارقة للعادة، وذلك

(١) استولى الإنجليز على ملك رنجيت سنع في سنة ١٨٤٩م، يعني بعد شهادة السيد أحمد ابن عرفان بثماني عشرة سنة، وانقرض هذا الملك انقراضًا كليًا.

في ٢٤ من ذي القعدة عام ١٢٦٤هـ (٦ من مايو ١٨٣١م).

واتخذ خلفاء السيد وأصحابه ـ وعلى رأسهم الشيخ ولايت على العظيم آبادي وأخوه وأولاده ـ مركزًا لهم في «ستهانه» المنطقة القبائلية الحرة، وانتقلت المعركة من «السيخ» ـ الذين ضعف شأنهم وفقدوا السلطة[1] ـ إلى الإنجليز الذين استولوا على الهند، وأسسوا فيها حكومة منظمة قوية، وقد كان هذا الانتقال من مقاصده الحقيقية، والغاية القصوى التي كان يرمي إليها.

ولم يزل أتباعه في الهند قائمين على الحق، باذلين في ذلك النفس والنفيس، والإنجليز يطاردونهم ويضطهدونهم، ويصادرون أملاكهم وأموالاهم، ويحاكمونهم محاكمات طويلة عريضة، وقد حكم على بعضهم بالشنق، وبالنفي المؤبد، وعلى بعضهم باعتقال طويل مع الأعمال الشاقة، وهم صابرون محتسبون، لا يضطربون ولا يتزعزعون، ولا يلينون ولا يستكينون، حتى كانت ثورة ١٨٥٧م.

* إحياؤه لركن الحج في الهند:

أحيا السيد أحمد بن عرفان ركن الحج في الهند، الذي تعرّض لحملة علمية وفقهية تحاول اسقاط فرضيته عن المسلمين في الهند، لحيلولة البحار وكثرة الأخطار، وتوجه للحج سنة ١٢٣٦هـ بصحبة سبعمائة شخص.

❑ وأحيا السيد أحمد بن عرفان سنة تزويج الأيامى الذي كان المسلمون في الزمن الأخير يتعيرون منه، ويعدونه سبّة وعارًا.

وكذلك تزويج العوانس في القبائل الأفغانية التي تعرضت لتعطيله أو تأخيره تأخيرًا عظيمًا لقبائح عظيمة.

❑ قال المؤلف الكبير السيد صديق حسن خان أمير بهوبال (م١٣٠٧هـ) ذلك الذي شهد بأم عينيه تأثير تعليم السيد وتربيته، وعاشر طائفة من أولئك

الأفراد الذين تربّوا في مدرسته مباشرة، وذلك في كتابه «تقصار جيود الأحرار»: «إنه كان آية من آيات اللّه في هداية عباده، وإصلاح حالهم، والرجوع بهم إلى اللّه وعبادته، بلغ خلق كثير، وعالم بأسره إلى درجة الربانية والإحسان بتعليمه وتربيته، وتزكيته القلبية والجسمية، وتطهرت الهند من أدناس الشرك والبدع والخرافات، والأوهام، بفعل مواعظ أصحابه وخلفائه، واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة، ولا تزال مواعظه وتعاليمه تفعل فعلها وتؤتي أكلها».

ويضيف قائلاً: «وقصارى اقول: أننا لا نعلم رجلاً يدانيه في جلالة شأنه وفضله، في أي جزء من أجزاء العالم المعاصر، وما جناه الخلق من المنافع الإيمانية، والمكاسب الروحية، من هذه الجماعة الحقة، لم ينالوا عشر أعشاره من العلماء والمشايخ المعاصرين الآخرين».

ويقول علاّمة عصره، وأستاذ أساتذة عهده، الشيخ حيدر علي الرامبوري الطونكي (م١٢٧٣هـ) أحد تلاميذ الإمام الشيخ عبدالعزيز بن ولي اللّه الدهلوي في رسالته، «صيانة الناس عن وسوسة الخناس»:

«أشرق نور إصلاحه وتربيته، كأشعة الشمس بكل قوة ودفعة على البلاد، وفي قلوب العباد، وجعل يتقاطر عليه من الناس من كتب لهم اللّه السعادة في الأزل، ويتوبون من الشرك والبدع، الذين كانوا قد وقعوا فريستها، وعاشوا فيها كعامة الناس فيعصرهم، فتمسكوا بأهداب التوحيد والكتاب والسنة، وقام خلفاؤه وأتباعه المؤمنون بجولات واسعة في البلدان والقرى، وهَدَوْا مئات الألوف من الناس إلى منهج الشريعة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ فمَنْ حالفهم التوفيق الإلهي، وكانوا سعداء أخذوا يسيرون على هذا الدرب القويم، وبث أتباعه في جميع النواحي حتى يواصلوا القيام بالتربية والإرشاد، وتلقين التوبة، والذين كانوا يكرهون الصلاة

والصيام، ويتعاطون الحشيش، وكان الخمر والأشربة المحرمة قوام حياتهم، ويصدعون على رءوس المحافل والمجلس ـ سخرية واستهزاء ـ بأن الصلاة لم تأمر بها الشركة الهندية الشرقية الحاكمة في الهند، وأن الصيام لم يفرضه مجلس حكومي فضلاً عن الزكاة والحج، وكانت الرشوة والزنا، وإيذاء عباد اللَّه، والربا شغلهم الشاغل، وقد عمّ الاختلاط فيما بين الرجل والمرأة دون نكاح شرعي، كالبهائم والأنعام مما كثر به أولاد الزنا، وكانت هناك مئات من الشباب والشيوخ لم يختتنوا كاليهود والنصارى، فتاب هؤلاء وأولئك كلهم بفضل تعليم السيد وتربيته عن ذنوبهم، واستغفروا اللَّه، وتناكحوا واختتنوا، وعادوا إلى حياة الطهر والصفاء، والعفة والحياء، وحسنت توبتهم، وصاروا أتقياء يخافون اللَّه، وكان يبايعه في وقت واحد عشرة آلاف من الناس، وقد اعتنق الإسلام بفضل جهوده الإصلاحية والتربوية كثير من الهنادك، والشيعة، ومن يمارسون «يوك» ـ الرياضات الهندوكية ـ وصدقوا في إسلامهم، وأخلصوا في إيمانهم، حتى حضره سرًا بعض النصارى، وأسلموا على يديه، دون أن يشعروا بذلك قومهم، وأقبل آلاف العلماء ـ بعد ما تخرّجوا عليه في التربية والإحسان على إصلاح الخلق ـ فمنهم من اتخذ الإرشاد والإصلاح والتربية والتزكية، شعاره ودثاره ومنهم من انقطع كليًّا إلى وضع الكتب الدينية، وتفسير الآيات القرآنية، وشرح الأحاديث النبوية، وألفوا وصنفوا، ونشروا كتبًا ورسائل في لغتهم الأم، ترغب الناس في العبادة، وترهبهم من المعاصي، وبذلك جعلوا كثيراً من الجهلاء ـ الذين كانوا لا يستطيعون أن يتلفظوا بكلمة الإسلام صحيحة ـ علماء يعرفون الدين والإسلام، ومنهم من سلكوا الطريقين معًا[1] »[2] .

---

(١) يعني عنوا بالتعليم إلى جانب التأليف والتصنيف.

(٢) «صيانة الناس عن وسوسة الخناس» للشيخ حيدر الرامبوري الطنكوي (ص٤ ـ ٦).

ويقول العالم الرباني الشهير، المجاهد في سبيل اللَّه الشيخ ولايت على العظيم آبادي ـ رحمه اللَّه ـ (م١٢٦٩هـ): «ما إن دوّت دعوته في الهند، إلا وجعل الناس يترامون عليه ترامي الفراش على النور، حتى كان يبايعه عشرة آلاف نسمة في يوم واحد، وتكاثرت جماعته مع الأيام وتوسعت، وانسلخ آلاف الناس عن دياناتهم الباطلة، ودخلوا في الإسلام، وبايعه في مدة ستة أعوام فحسب ثلاثة ملايين من المسلمين الهنود، بالإضافة إلى نحو مائة ألف رجل بايعوه خلال رحلته للحج والزيارة، والذين بايعوه كان فيهم الآلاف من العلماء والفقهاء ومئات من حفّاظ القرآن الكريم، ومئات من رجال الإفتاء والقضاء وكثير من أولى التجربة والحنكة الذين ساحوا وطوّفوا وجربوا الحلو والمر، مما يدل دلالة واضحة على مدى ما كان يتمتع به من حسن القبول والتأييد العجيب من اللَّه، فكان تنجذب إليه قلوب الناس انجذاب الحديد إلى المغناطيس، ويبايعونه مندفعين راغبين»[1].

* حقيقة أعجب وأغرب من الخيال والأساطير:

إسلام أكثر من أربعين ألفًا على يد الإمام أحمد بن عرفان:

يقول أحد علماء الهند المطلعين الثقات الشيخ عبدالأحد، وله خبرة واسعة بأحوال الهند وأخبارها، والذي زار عددًا كبيرًا من أفراد هذه الجماعة النيّرة الصادقة، وكان عهده قريبًا من عهد الإمام الشهيد «لقد أسلم على يدي السيد أحمد أكثر من أربعين ألفًا من الهنادك وغيره من الكفار، وبايعة ثلاثة ملايين من المسلمين».

(١) «رسالة الدعوة المتضمنة للرسائل التسع» للشيخ ولايت على العظيم آبادي (ص٦٥).

* **الدين النصيحة :**

«لا ريب أن السيد أحمد بن عرفان البريلوي، وأصحابه وعلى رأسهم الشاه إسماعيل الدهلوي ـ قائد الجناح العسكري ـ أقاموا دولة إسلامية، ولكن أمراء بعض القبائل، والمغرضين من الشعب تخاذلوا عن تأييدها، لقلة الوازع الديني، وعدم التربية على منهاج النبوة، حتى قُتل السيد أحمد والشاه إسماعيل الدهلوي مع كثير من أصحابهما، على يد السيخ في ساحة «بالاكوت» في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وأربعين ومائتين وألف من الهجرة النبوية.

❑ حثوا الناس على الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين، وأنشأوا فيهم حب التفاني في سبيل اللَّه، كأنهم تأثروا في هذا الجانب بدعوة الإمام محمد ابن عبدالوهاب، إلا أنهم كانوا صوفية في سلوكهم، وحنفية في فروعهم الفقهية، وأشعرية وما تريدية في عقائدهم.

❑ وألفوا كتبًا ورسائل ودونوا إملاءات تدل دلالة صريحة على توغلهم في التصوف الطرقي منها كتاب «الصراط المستقيم» وهو إملاءات السيد أحمد التي دوّنها الشاه إسماعيل والشيخ عبدالحي البدهانوي، ونقله الأخير إلى العربية، وفيها مخالفات عقدية كثيرة»[1] .

وهذا القول الصحيح هو عكس ما يقوله الأستاذ أبو الحسن الندوي عن كتاب الصراط المستقيم.

* **الإمام الشاه إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي (ـ ١٢٤٦هـ) :**

جاهر ـ رحمه اللَّه ـ بالعمل بالحديث تمسكًا بما قرّر جدّه الإمام الدهلوي في كتاباته من تأييد مذهب المحدثين (مع التزامه بمرشده الشيخ

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ الوجه الآخر من كتاباته ـ لصلاح الدين مقبول أحمد.

أحمد بن عرفان في التصوف)[1] ، وقام بالرد على البدع السائدة في البلاد، وألّف كتاب «تقوية الإيمان» الذي هو مثل «كتاب التوحيد» للإمام محمد بن عبدالوهاب، و«ردّ الإشراك» و«تنوير العينين»، وهي مؤلفات العلامة إسماعيل الدهلوي وهي ثمرات ناضجة لمعارف شيخ الإسلام ابن تيمية التي ورثها عن جده. وأثمرت حركته لإحياء السنة، وتحوّلت إلى حركة الجهاد التي أقضّت مضاجع السيخ والإنجليز، حتى استشهد هو ومرشده في ميدان «بالاكوت».

❑ ولقد تأثر علماء «صاد قبور» بالشاه إسماعيل الدهلوي وجمعوا بين العقيدة الصحيحة واتباع السنة، والذكر والتزكية والجهاد في سبيل اللّه، حتى انتهوا فيما بعد بنبذ التصوف، وصاروا نواه لحركة أهل الحديث، وحماة للدعوة السلفية في شبه القارة الهندية، ورفعوا راية الجهاد ضد الإنجليز، واستعذبوا ألوانًا من المصائب والمشقات على أيديهم، فعُلِّقوا على المشانق ونفوا من البلاد، ودُمرت بيوتهم، ونُبشت قبورهم، وأقيمت مكاتب الدوائر الرسمية على أنقاضها فرحمهم اللّه رحمة واسعة، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

❑ عودة مرة أخرى إلى الشاه إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي الذي دعا إلى الكتاب والسنة بقلمه ولسانه، نهارًا وجهارًا، وكان كتابه «تقوية الإيمان» دعوة صريحة إلى التمسك بعقيدة السلف نقية وخالية من أكدار الشرك والوثنية، والإلحاد والزندقة، فاهتدى به إلى سبيل الحق والرشاد مئات الألوف من الناس، ولعلّه لم يحظ كتاب من القراءة والمطالعة من قبل الموافقين والمخالفين على السواء، فكان حجة أو عليهم ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ

(١) «أبجد العلوم» لصديق حسن خان (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وعلى يد الشاه إسماعيل الدهلوي تميّزت صفوف أهل الحديث في الهند بالاعتصام بالكتاب والسنة، عن غيرهم من طوائف المسلمين، وتقدمت حركة إحياء السنة إلى الإمام مع تمييز الصف، وتوضيح المنهج وتحديد المسار، فالحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

*** قيادة الإمامين: العلاّمة نذير حسين الدهلوي، والشيخ صديق حسن خان:**

بعدما تميّز الصف اهتم العلماء بالتدريس والإفادة، والدعوة والإرشاد، والتصنيف والتأليف. ونشأت اليقظة السلفية في القارة الهندية، بعد الركود الذهني المحزن، والسبات الفكري العميق، والجمود الفقهي الطويل، تحت قيادة الإمامين السيدين:

*** العالم الرباني رائد السلفية في الهند السيد نذير حسين المحدث الدهلوي (ـ ١٣٢٠هـ):**

تلميذ الشيخ محمد إسحاق المهاجر المكي[1] (ـ ١٢٦٢هـ)، بل أبرز تلامذته على الإطلاق وتولي التدريس بعده في مكانه، ودرّس الحديث على طريقة فقهاء المحدثين ما يقارب اثنين وستين سنة وتخرّج على يده أعلام أهل الحديث في الهند وخارجها، ومنهم[2]:

ـ أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي (ـ ١٣٢٩هـ) صاحب «عون

(١) انظر إلى أبجد العلوم» (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٢) هناك مقالات منشورة في «مجلة الجامعة السلفية» في تراجم العظيم آبادي، والمباركفوري، والسهسواني والآروي لكاتب هذه السطور.

المعبود على سنن أبي داود».

- أبو العُلى عبدالرحمن المباركفوري (- ١٣٥٣هـ) صاحب «تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي».

- محمد بشير الفاروقي السهسواني (- ١٣٢٦هـ) صاحب «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان».

- أبو محمد إبراهيم الآروي (- ١٣١٩هـ) الذي اهتدى العلامة محمد نصيف وجيه جدة (- ١٣٩١هـ) بتوجيهاته إلى السلفية.

- الشيخ سعد بن عتيق - الذي انتشر سند شيخه المحدّث نذير حسين بواسطته في بلاد نجد والحجاز.

قال العلامة عبدالحي[1] الحسني في شيخه السيد نذير حسين المحدّث الدهلوي: «... وكان له ذوق سليم في الفقه الحنفي، ثم غلب عليه حبّ القرآن والحديث، فترك اشتغاله بما سواهما إلا الفقه... ونفع اللَّه بعلومه خلقًا كثيرًا من العرب والعجم وانتهت إليه رئاسة الحديث في بلاد الهند.

أما تلامذته فعلى طبقات:

فمنهم العالمون الناقدون المعروفون، فلعلهم يبلغون إلى ألف نسمة.

ومنهم المقاربون للطبقة الأولى في بعض الأوصاف.

ومنهم من يلي الطبقة الثانية - وأهل هاتين الطبقتين يبلغون إلى الآلاف»[2].

❑ وقال العلامة حسين بن محسن الأنصاري اليماني[3] (- ١٣٢٧هـ):

---

(١) هو والد الشيخ أبي الحسن الندوي.

(٢) «نزهة الخواطر» (٨/ ٥٠٠).

(٣) راجع ترجمته في «أبجد العلوم» (٣/ ٢١١).

«إنه فرد زمانه ومسند وقته وأوانه. ومن أجلّ علماء العصر، بل لا ثاني له في إقليم الهند في علمه وحلمه وتقواه. وإنه لمن الهادين والمرشدين إلى العمل الكتاب والسنّة والمعلّمين لهما. بل أجلّ علماء هذا العصر المحققين في أرض الهند أكثرهم من تلامذته. وعقيدته موافقة لعقيدة السلف الموافقة للكتاب والسنّة»[١].

ولا ريب أنه ربّي جيلاً كاملاً على إحياء السنّة تدريسًا وتأليفًا، ودعوة وتبليغًا، فجزاه اللّه عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

*** العالم الرباني صديق حسن خان ملك بوفال:**

هو الأمير السيد صديق حسن الحسيني القنوجي البوفالي (ـ ١٣٠٧هـ) الذي نشر كتب الحديث ودواوين السنّة من جهة، وأثرى المكتبات الإسلامية بمؤلفاته من جهة أخرى.

وكان العلامة صديق حسن خان ممن تأثر بدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام محمد بن عبدالوهاب[٢]. ومؤلفاته تمثّل «مدرسة الأثر» التي تعرض فروع الفقه الإسلامي على الكتاب والسنّة مباشرة[٣].

❑ قال العلامة محمد عبدالعزيز الخولي:

«ومن حسناته طبع «فتح الباري في شرح البخاري» للحافظ ابن حجر، و«نيل الأوطار» للإمام الشوكاني، و«تفسير الحافظ ابن كثير مع تفسير فتح البيان».

طبعت هذه على نفقته في المطبعة الأميرية بمصر، فكانت من أنجح

---

(١) «نزهة الخواطر» (٩/ ٤٩٩).

(٢) «الشيخ محمد بن عبدالوهاب» لابن حجر آل بوطامي (ص١٣١).

(٣) «دستور الوحدة» (ص٧٧).

رسائل إحياء السنة[١].

❑ يقول الشيخ عبدالحميد عبدالجبار الرحماني:

«كان السيد صديق بن حسن (ـ ١٣٠٧هـ) سلفيًا منذ نعومة أظفاره، وارتضع حب السلفية مع لبان الأم ولما سافر للحج سنة ١٢٧٦هـ اغتنم فرصة وقوف باخرته في اليمن، فأقام هناك أسبوعين عند المحدث اليماني الشيخ حسين بن محسن الحديدي (ـ ١٣٢٧هـ)، واشترى عدة كتب، منها «اقتضاء الصراط المستقيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

وبعدما فرغ من أداء مناسك العمرة أول عمل قام به في مكة المكرمة هو نسخ كتاب «السياسة الشرعية» لابن تيمية بيده.

وكأنه كان يعدّ نفسه لتنفيذ ما في «اقتضاء الصراط المستقيم» في العقيدة والمنهج، وتنفيذ ما في «السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» في سياسة البلاد التي حكمها فيما بعد.

ولما تزوج بملكة (بوفال) شاهجهان بيكم (ـ ١٣١٩هـ) وأخذ مقاليد الأمور بيده في سنة ١٢٨٨هـ قام بنشر أفكار شيخ الإسلام ومعارفه بمؤلفاته ومطبوعاته ومدارسه ومساجده في بلاده وخارجها.

وكتب ترجمة شيخ الإسلام في كتبه بالفارسية مثل «إتحاف النبلاء المتقين لإحياء مآثر الفقهاء والمحدثين»، و«تقصار جيود الأحرار من تذكار جنود الأبرار» ـ وفي كتبه بالعربية مثل: «التاج المكلّل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول» و«أبجد العلوم» ولم يكتف بتحرير ترجمته وترجمة بعض تلامذته في هذه الكتب فقط بل كلما وجد مناسبة لذكر شيخ الإسلام ذكره وذكره معارفه ودعوته في مؤلفاته الأخرى التي تبلغ أكثر من مئتين وخمسة

(١) «مفتاح السنة» للخولي (ص١٦٩) ـ دار الكتب العلمية بيروت.

وعشرين كتابًا في اللغات العربية والفارسية والأردية. وحجم بعض هذه الكتب يزيد عن خمسة آلاف صفحة.

ولقد نوّه بشيخ الإسلام وعدّه مجدّد قرنه في عدة كتب له، مثل «حجج الكرامة» (١٣٦ ـ ١٣٧) و«تقصار جيود الأحرار» (ص٧٦) و«هداية السائل إلى أدلة المسائل» (١١٥ ـ ١١٦، ٢٨٢) وغيرها من مولفاته وهي مملوءة بمثل هذه التصريحات.

□ وقد قام العلامة صديق بن حسن البوفالي بجلائل الأعمال في الدفاع عن شيخ الإسلام، وطبع كتابين من أهم الكتب في هذا الموضوع.

أحدهما: «الرد الوافر على من زعم أن من سمّى ابن تيمية شيخ الإسلام كافر» للعلامة ابن ناصر الدين الدمشقي (٨٤٢هـ).

والثاني: «جلاء العينين في المحاكمة بين الأحمدين» للشيخ خير الدين أبي البركات نعمان بن محمود الآلوسي (ـ ١٣١٧هـ). وفيه مقارنة بين آراء أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني، وأحمد بن حجر الهيتمي (ـ ٩٧٤هـ) ودافع فيه عن شيخ الإسلام وبيّن وهاء آراء ابن حجر الهيتمي.

وكذلك نشر مختصرات عدة رسائل لشيخ الإسلام وفتاواه في اللغة الفارسية الرائجة في الهند آنذاك. ووقف مطابعه ومدارسه لنشر معارفه ومعارف الأئمة السلفيين الآخرين.

وأما ما قام به من الأعمال الجليلة لنشر السنّة والدفاع عن السلفية فيتلخص في الأمور التالية:

ـ شكّل مجلسًا علميًّا جمع فيه نخبة من العلماء البارزين الذين ملأوا القارة الهندية نورًا وعلمًا.

ـ وعيَّن علماء سلفيين محققين على نفقته للدفاع عن عقيدة السلف الصالح وعن السنّة الصحيحة، والرد على البدع والمنكرات.

ـ وعيّن مكافآت شهرية وجوائز تشجيعية لمن يحفظ الأحاديث وشجعت هذه الخطة المباركة عدة علماء على حفظ دواوين السنّة.

ـ قام بإحياء علوم الكتاب والسنّة تصنيفًا وتأليفًا ونشرًا وتوزيعًا.

وكان له مندوبون في مصر وتركيا واليمن يبحثون له عن مخطوطات نادرة لينشر تراث السلف الصالح ويكون في متناول أيدي العلماء وطلبة العلم.

وجدير بالذكر هنا أن هؤلاء العلماء الذين نفذوا خططه كانوا كلهم إلا البعض، من تلامذة السيد محمد نذير حسين المحدث الدهلوي (١٢٢٠ ـ ١٣٢٠هـ) رحمه اللَّه تعالى.

فالعلامة السيد نذير حسين المحدث الدهلوي بعلمه الجم وتربيته الفذة، وعمله بالكتاب والسنة على منهج السلف وحبه للسنّة، والسيد صديق بن حسن بماله وجاهه وعلمه بذلا قصاري جهودهما لإحياء منهج السلف الصالح في الهند على غرار دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية، وحركته الإصلاحية السلفية».

وما يرى من ازدهار في حركة العمل بالسنّة في شبه القارة الهندية، يرجع فضله ـ بعد اللَّه تعالى ـ إلى هذين العالمين الجليلين اللذين بارك اللَّه في أعمالهما في نشر السلفية تأليفًا وتدريسًا، ودعوة وتبليغًا.

● وصدق فيهما قول النبيّ ﷺ: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه اللَّه مالاً فسُلِّطَ على هلكته في الحق. ورجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها»**[1].

وقد أوذي هذان الإمامان في سبيل الحق، ونشر الدعوة، والدفاع عن

(١) البخاري مع الفتح (١/ ١٦٥)، ومسلم (٨١٦) عن عبداللَّه بن مسعود.

منهج السلف في العقيدة والعمل كثيرًا.

وبدأ تيار العمل بالكتاب والسنّة يسري في صفوف العلماء الذين تأثروا بالسيد صديق بن حسن البوفالي والسيد نذير حسين المحدث الدهلوي حتى وصل السهول والجبال في شبه القارة الهندية.

وأخص بالذكر هنا أسرة علمية تتلمذت على السيد نذير حسين الدهلوي وغيّرت مجرى التأريخ فيطها، ألا وهي أسرة غزنوية وعلى رأسها الإمام عبداللَّه بن محمد الغزنوي ـ رحمه اللَّه ـ الذي اعتنى بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية اعتناء بالغًا.

◻ قال ابنه عبدالجبار بن عبداللَّه الغزنوي (١٢٦٨ ـ ١٣٣١هـ):

«كان والدي الإمام عبداللَّه الغزنوي ـ رحمه اللَّه ـ راغبًا جدًّا في مؤلفات المحدثين المحققين، وخاصة في مصنفات شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، ودائمًا كان يبحث في كتبهما... وكان يفضلهما على أكثر الأئمة والعلماء، وكان يصغّر الشاه ولي اللَّه الدهلوي في مقابلهما...»[1].

◻ وكان الشيخ عبداللَّه الغزنوي (تلميذ السيد نذير حسين الدهلوي) عاكفًا على العبادة والإفادة وانتهى إليه الورع وحسن السمت والتواضع والاشتغال بخاصة النفس، واتفق الناس على الثناء عليه والمدح بشمائله وصار المشار إليه في هذا الباب»[2].

وكان له ـ رحمه اللَّه ـ اثنا عشر ابنًا كلهم دعاة إلى اللَّه على منهج السلف الصالح. وكان من بينهم العلامة عبدالرحيم الغزنوي والعلامة

(١) «سيرة الإمام عبداللَّه الغزنوي» (ص٢٤).
(٢) «نزهة الخواطر» (٦/ ٣١١).

عبدالواحد الغزنوي يشتغلان بالتجارة ليستعينا بها على الطاعة والعبادة والدعوة. وكانا يجوبان الأقطار في هذا الشأن حتى وصلا إلى بعض البلدان العربية، وقدّر اللّه أن حصل لهما اجتماع أثناء سفرهما إلى الكويت بالأمير عبدالرحمن بن الفيصل آل سعود (١٢٦٨ ـ ١٣٤٦هـ) وابنه المغامر عبدالعزيز ابن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود (١٢٩٧ ـ ١٣٧٣هـ) وتأثر الأميران بهما جدًّا ودرسًا عليهما بعض العلوم، وقامت بينهم علاقة ودية خالصة على أساس وحدة العقيدة والمنهج.

ولما استولى الأمير عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود على «الرياض» عاصمة نجد، وجه إليهما الدعوة للإقامة في الرياض فجاءا وبقيا خمس سنوات في نجد، واستفاد منهما في هذه المدة بعض الأشخاص من آل سعود وغيرهم من أهل نجد.

وهذه الإقامة في نجد فتحت لهما الطريق للحصول على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية التي كانا مجبولين على حبها من عهد والدهما عبداللّه الغزنوي. ورجع هذان العالمان إلى الهند مع النسخ الخطية لبعض مؤلفات شيخ الإسلام فقاموا بطبعها وتلخيصها ونقلها إلى الأردية وتوزيعها في شبه القارة الهندية.

وبالإضافة إلى ذلك طبعوا عدة مؤلفات للإمام ابن قيم الجوزية، وكتبا في الدفاع عن شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ودعوته، ومؤلفات أئمة الدعوة السلفية الآخرين. وبدأت الدعوة السلفية تشق طريقها إلى الأوساط المسلمة في الهند بجهود العلماء الغزنويين وغيرهم من تلامذة السيد نذير حسين الدهلوي ورفقاء السيد صديق حسن خان البوفالي.

* * *

* ابن تيمية الهند... إمام الهند أبو الكلام آزاد:

أما العبقري العظيم الذي ملأ أرض الهند بذكريات شيخ الإسلام ابن تيمية ووضع شخصيته أمام العلماء والمفكرين، والدعاة والمثقفين بأدب رائع رفيع، وأسلوب شائق جذاب، وطريقة معجزة مبتكرة فهو إمام الهند أبو الكلام محيي الدين أحمد الملقب بآزاد (أي الحر) (١٣٠٥ ـ ١٣٧٧هـ). وهو من سلالة علمية من آل البيت وكان أبوه خير الدين من كبار المتصوفة، ولكن اللَّه عزّ وجلّ أراد لابنه خيراً فانقلب على أبيه، ودعا إلى التمسك بالكتاب والسنّة، ودافع عن عقيدة السلف، وعرف بإماماته في العلوم والمعارف، وذكائه المفرط، وعبقريته الفذة في فهم الدين والواقع، ونظرته الثاقبة في السياسة الحاضرة، وفراسته النافذة في أحداث المستقبل. ولا ريب أنه كان من أذكياء العصر.

❑ قال الأستاذ الأديب المؤرخ أبو سلمان الشاه جهانفوري: «... إذا كان يشبه أبو الكلام آزاد أحداً في هذه الأمور فهو يشبه جامع المحاسن والفضائل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ.

ولذا قرّر الأديب الصحافي الخطيب شورش الكاشميري أن أبا الكلام آزاد نظير شيخ الإسلام، وهو ابن تيمية الهند»[1].

❑ كان أبو الكلام آزاد مع علمه الجم بالكتاب والسنّة سياسيًّا محنكًا ورائداً من رواد تحرير الهند من براثن الاستعمار البريطاني. وكان الاستعمار يتوجس من كتاباته الرصينة الهادفة، ومحاضراته البليغة الآخذة خيفة لما كان فيها من الإثارة والتحميس للشعب، والمؤاخذة على حكم الإنجليز وسياسة الاستعمار.

---

(١) «حياة ابن تيمية» لأبي سلمان (ص٦ ـ ٧).

ولأجل هذا وذاك اعتقله الاستعمار الإنجليزي مرات. ولما اعتقله في (٣٠ مارس ١٩١٦م) بمدينة «رانشي» بقي هناك في المعتقل ثلاث سنوات ونصف السنة، واشتغل طوال هذه المدة بالعبادة والذكر، وبترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيره، وبتأليف كتابه القيم المعروف بـ «التذكرة»، وذكر فيه تأريخ الأئمة المجددين والمصلحين البارزين، ونوّه فيه بصفة خاصة بسيرة إمام السنّة أحمد بن محمد بن حنبل، وشيخ الإسلام أحمد ابن تيمية وركّز على سيرة شيخ الإسلام فكتب ما يقارب مائة صفحة كتابة في غاية الروعة، لا يوجد لها نظير ـ في نظري ـ في سيرته في أي لغة حتى في العربية.

وقال الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ غلام رسول مهر ـ رحمه اللّه ـ: إن جريدة أبي الكلام آزاد المسماة «الهلال» الأسبوعية (الصادرة سنة ١٣٣٠هـ) لم تكن إلا انعكاسًا لمعارف ابن تيمية. ولا ريب أن كتاباته وخطبه وجهوده، وكذلك صحفه ومجلاته (الهلال، والبلاغ، وإقدام، والجامعة، وبيغام (الرسالة) جلها كانت شرحًا وتفصيلاً لمعارف شيخ الإسلام وآرائه، وجاء كتابه «التذكرة» ملخّصًا لكل هذه النفائس والدرر في صفحاته القلائل».

أرى من المناسب تعريب مقتطفات من كتابه «التذكرة» مع أن نقل أسلوبه الرصين، وعباراته البليغة إلى أي لغة أخرى من أصعب الأمور؛ لأنه كان أمير البيان وسلطان القلم، ولا يستطيع أن يوفي بحق تعريب كتاباته إلا رجل عبقري مثله.

وللإفادة إليكم آلان بعض المقتطفات المعربة عن شيخ الإسلام من «التذكرة»:

ـ قال: «... فإن الفتن التي ظهرت عبر التأريخ الإسلامي في شأن العقيدة الإسلامية متفرقة في عصور مختلفة عادت مجتمعة في هذا العصر.

فنظرًا إلى هذا لا يشفي غليل هذا العصر إلا معارف ابن تيمية إلا أنها

تحتاج إلى شرح زائد، وتفصيل لما أجمله، وتوضيح لما أشار إليه، وضبط وتصنيف لما فرّقه ونشره»[1].

ـ وقال: «... وحينما ظرت الروح الموافقة للدعوة العامة للأمة ولتجديد الشريعة وإحياء السنّة بعد موتها، وإخماد البدعة بعد شيوعها وارتفاعها، وتجسدت في شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رضي اللّه عنه ـ الذي هو آية من آيات اللّه وحجة قائمة من حجج اللّه، وشيخ المصلحين، وملاذ المجددين، وسند الكاملين، وإمام العارفين، ووارث الأنبياء، وقدوة الأولياء، وسلمت إلى هذا المجدد العظيم رئاسة جميع مسالك الدعوة وسيادتها، والتجديد في العصر الأخير، وصار قطبًا لرحاها، ونقطة مركزية لدائرتها. فهل كان لا يوجد في هذا العصر عالم من علماء الحق سوى شيخ الإسلام؟.

... بل كان من بينهم كبار الحفاظ، وكبار الأئمة والمحققين والباحثين، وعباقرة المجتهدين والمفكرين الذين لن تلد الأمهات بعدهم مثلهم في العالم الإسلامي..

... فماذا تعتقدون في هؤلاء؟ هل يسع لأحد أن ينكر فضل هؤلاء النجباء الكرام وورعهم وتقواهم واتباعهم للحق...

... مع وجود هؤلاء الأئمة الأعلام وعباقرة الفنون في هذا العصر لم يحظ أي واحد منهم بالمكانة التي حظي بها شيخ الإسلام ابن تيمية في القيام بواجبات الدعوة والجهاد بكل شجاعة وعزم وصبر وتحمل للمشاق التي تقشعر الجلود من تصوّرها. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قد خص به دون غيره، وهي حقيقة لامعة مثل الشمس، واضحة لكل صاحب عين مبصرة.

---

(١) «التذكرة» (١٧٩ ـ ١٨٠).

ولا شك أن هؤلاء الأعلام قاموا بأعمال جليلة في نواح معينة، ولكن شيخ الإسلام قد أتى بما كانوا يشتغلون به أحسن مما أتوا، وسبقهم فتركهم وراءه على مسافات بعيدة في عزم الدعوة، وتجديد معالم الدين، ورفع أعلام السنّة، وإخماد الشرور والبدع، وإبراز المعاني الخفية من الكتاب والسنّة، وكشف غوامض المعارف وأسرار الحكم النبوية وتفجير ينابيع الحكمة من اللسان والجنان، والجهاد في سبيل اللّه بالسيف والقلم واللسان، ووقف وحيدًا على قمة العلوم الموهوبة، والأعمال الموفقة حيث تعي وتحسر أفكار أقرانه وأخيلة معاصريه في التفكر فيه، فاعترفوا جميعًا بلفظ واحد:

«ما رأينا مثله وإنه ما رأى مثل نفسه».

❑ وقال الحافظ الذهبي في معجم شيوخه بعد ما أعياه تحرير محاسن نادرة الأرض وأعجوبة الدهر هذا، ولم يصل إلى نهاية مدائحه فأمسك عنها وقال:

«وهو أكبر من أن ينبّه على سيرته مثلي. واللّه لو حلفت بين الركن والمقام أني ما رأيت بعيني مثله وأنه ما رأى مثل نفسه لما حنثت.

❑ وكفاك بالذهبي شاهدًا:

تقي الدين أضحى بحر علم يجيب السائلين بلا قنوط

أحاط بكل علم فيه نفع فقل ما شئت في البحر المحيط[1]

ووقف أبو الكلام آزاد مع الدعوة السلفية التي جدد معالمها شيخ الإسلام، وبذل في سبيلها كل غال ونفيس، ودعم هذه الحركة العظيمة بكتبه ومقالاته وصفحه ومجلاته وتلامذته ومسترشديه.

ولما احتل أبو الكلام آزاد منصب نائب رئيس الوزراء في الحكومة

(١) من كتاب «التذكرة» لأبي الكلام آزاد ملخصًا.

الهندية، وصار أول وزير للمعارف فيها بعد استقلال الهند من حكم الاستعمار لم يغفل عن إحياء معارف ابن تيمية ونشر علومه وأفكاره.

ومن مآثره في هذه الفترة من الزمن مع زحمة الأشغال الرسمية أنه بذل جهده لطبع كتابين مهمين لشيخ الإسلام.

أحدهما: «الرد على المنطقيين»: قام بنشره الشيخ عبدالصمد شرف الدين في المطبعة القيمة في بمبائي سنة ١٣٦٨هـ بتعاون من أبي الكلام آزاد.

والثاني: «الصارم المسلول على شاتم الرسول». طبعته «دائرة المعارف العثمانية» بحيدر آباد.

ومن الجهود العظيمة التي لا تنسى وقوفه مع أهل الحديثة والسنّة والجماعة: السلفية في أنحاء العالم الإسلامي للدفاع عن الأعمال التي أنحرتها حكومة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود في الحجاز لتطهير مكة المكرمة والمدينة الطيبة، والطائف من آثار الشرك.

وبهذه المناسبة أصدر أبو الكلام آزاد مجلة «الجامعة» بالعربية للدفاع عن الموحدين في هذه القضية. وكتب مقالات علمية مدلّلة بالكتاب والسنّة لتعزيز موقفهم، ودحض آراء مخالفيهم، وأهمها مقالان:

الأول: الأمير ابن سعود والحرمان الشريفان ومسألة هدم القباب (يحتوي على ٢٣ صفحة).

والثاني: حكم المباني على المقابر، والفرق بين اتباع السنّة وعاطفة التشبه بعادات النبيّ ﷺ (يحتوي على ٧٦ صفحة).

وهذان المقالان ردّ مقنع لمن يحترم العلم والبرهان، وردّ مفحم للمكابر الذي ليس لديه حجة إلا التعصب والهوى. وما رأيت في قوة الاستدلال وبراعة الأسلوب نظيراً لهذين المقالين في موضوعهما.

واختار أبو الكلام آزاد موقفًا واضحًا من دعوة شيخ الإسلام تيمية وإحياء علومه ومعارفه. وتأثر بصراحته في هذا الأمر كثيرمن الأدباء والمفكرين والكتاب والمثقفين وعلى رأسهم:

ـ الكاتب الإسلامي والمؤرخ الكبير غلام رسول مهر ـ رحمه اللَّه ـ وقد ألّف رسالته «سيرة ابن تيمية» (طبعت ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م في ٦٦ صفحة) وهي تحتوي على مقدمة وسبعة أبواب مختصرة جامعة.

واعترف المؤلف بأن هذه الرسالة انعكاس لكتابات إمام الهند أبي الكلام أزاد في هذا الباب.

وكذلك كتب المؤلف المذكور مقدمة جامعة على كتاب «الإمام ابن تيمية» للدكتور غلام جيلاني برق الذي أعدّ لنيل شهادة «الدكتوراه» من جامعة «فنجاب». وزادت هذه المقدمة قيمة الكتاب في نظر القراء.

ولما عزم الشيخ محمد عطاء اللَّه حنيف الفوجياني ـ رحمه اللَّه ـ على إعداد الطبعة الأردية لكتاب «ابن تيمية: حياته وعصره وآراؤه وفقهه» لأبي زهرة، مع تعليقاته النفيسة وانتقاداته القوية، وقع نظره لتقديم هذه الطبعة الأردية على الأستاذ غلام رسول مهر ـ رحمه اللَّه ـ وذلك لكفاءته البالغة في أداء حق المقدمة على كتاب يتعلق بشيخ الإسلام ـ رحمه اللَّه ـ.

وقد كان أثار أبو زهرة في كتابه شبهات كثيرة حول دعوة شيخ الإسلام، وحركة الإمام محمد بن عبدالوهاب، وحكومة آل سعود. فأتاها الأستاذ غلام رسول مهر في هذه المقدمة من قواعدها، فدافع عن شيخ الإسلام بالأدلة والبراهين، وأعاد الحق إلى نصابه، وذكر حقائق تاريخية كذبت آراء أبي زهرة في دعوة ابن عبدالوهاب وحكومة آل سعود. وأعطى كلاً من الدولة العثمانية والدولة الشريفية والدولة السعودية حقها من الإنصاف. ولا يتسع المقام لذكر تحليلاته بهذا الشأن، ولي عودة إلى ذلك في

فرصة أخرى إن شاء اللَّه، ولكني أقول: إن الأستاذ غلام رسول مهر ـ رحمه اللَّه ـ كان موفّقًا في هذا البحث الذي لم يسبق إليه.

❑ قال العلاّمة محمد عبدالعزيز الخولي:

«ولا يوجد في الشعوب الإسلامية على كثرتها من وفي الحديث قسطه من العناية في هذا العصر، مثل إخواننا مسلمي الهند، أولئك الذين وجد بينهم حفّاظ للسنّة، ودارسون لها على نحو ما كانت تدرس في القرن الثالث، حرية في الفهم، ونظر في الأسانيد.

كما طبعوا كثيرًا من كتبها النفيسة التي كادت تذهب بها يد الإهمال، وتقضي عليها غير الزمان.

وإن أساس تلك النهضة في البلاد الهندية أفذاذ أجلاء، تمخضت بهم العصور الحديثة، وانتهجوا في تحصيل العلوم نهج السلف، فنبه شأنهم وعلا أمرهم، وذاع صيتُهم. وتكونت جمعيات سلكت سبيلهم، وعملت على نشر مبادئهم فكان لها ذلك الأثر الصالح والسبق الواضح.

ومن أشهر هؤلاء الأعلام: ولي اللَّه الدهلوي صاحب التصانيف في اللغتين: العربية والفارسية، وأشهرها كتاب «حجة اللَّه البالغة». والسيد صديق حسن خان ملك بهوفال صاحب التصانيف الكثيرة أيضًا...

وفي الهند الآن طائفة كبيرة تهتدي السنّة في كل أمور الدين، ولا تقلّد أحدًا من الفقهاء ولا المتكلمين وهي طائفة المحدثين»[1].

ولا ينسى فضل علماء الهند الآخرين كالأستاذ شبل النعماني:

ـ وأثنى العلامة محمد منير الدمشقي على حركة أهل الحديث في الهند فقال:

---

(١) «مفتاح السنة» للخولي.

«وهي نهضة عظيمة أثرت على باقي البلاد الإسلامية، فاقتدى بها غالب البلاد الإسلامية في طبع كتب الحديث والتفسير»[١].

ـ وقد اعترف بفضل حركة أهل الحديث الشيخ مناظر أحسن الكيلاني من تلامذة الشيخ محمد أنور الكشميري الحنفي، فقال:

«يُعْتَرَفُ أن اعتناء أحناف شبه القارة الهندية بالنبعين الأساسيين للدين (الكتاب والسنّة) فيه دخل كبير لحركة أهل الحديث، ورفض التقليد... وإن لم يترك عامة الناس التقليد إلا أنه قد تحطّم سحر التقليد الجامد، والاعتماد الأعمى»[٢].

فحركة أهل الحديث في الهند ثمرة لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وامتداد طيب لها ورحم اللَّه ابن تيمية حين يقول: «ومن المعلوم أن أهل الحديث والسنة أخص بالرسول وأتباعه، فلهم من فضل اللَّه وتخصيصه إياهم بالعلم والحلم، وتضعيف الأجر ما ليس لغيرهم كما قال بعض السلف: «أهل السنة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل.

❑ وقال أيضًا:

«من المعلوم أن أهل الحديث يشاركون كل طائفة فيما يتحلّون به من صفات الكمال ويمتازون عنهم بما ليس عندهم. فإن المنازع لهم لا بد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقًا أخرى مثل المعقول، والقياس، والرأي، والكلام، والنظر، والاستدلال، والمحاجة، والمجادلة، والمكاشفة، والمخاطبة، والوجد، والذوق، ونحو ذلك[٣].

---

(١) «نموذج من الأعمال الخيرية» للدمشقي (ص٤٦٨) ـ طبع المطبعة المنيرية.

(٢) «جهود مخلصة» (ص٧٥).

(٣) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٤/ ١٤٠).

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتها وخلاصتها: فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياسًا، وأصوبهم رأيًا، وأسدّهم كلامًا، وأصحهم نظرًا، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمّهم فراسة، وأصدقهم إلهامًا، وأحدّهم بصرًا ومكاشفة، وأصوبهم سمعًا ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجدًا وذوقًا.

وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنّة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل».

*** الشيخ رحمت اللّه بن خليل الرحمن الكيرانوي العثماني القرشي الهندي، وجهوده في مقاومة التنصير، وكتابه «إظهار الحق»:**

وحين نتكلم عن التنصير في الهند، الذي مهد له الاستعمار الإنجليزي، وتحويل المساجد إلى الكنائس، وبناء ألف مدرسة تبشيرية كنيسية يدرس فيها خمسة وستون ألف طالب، ويتبع للكنائس معاهد متخصصة وكليات في «هوجلي» و«كلكتا» و«لاهور» و«غازي يور» و«كليكرة» تدار بأموال الوقف الإسلامي... نتكلم عن المنصر هنري مارتين، الذي وضع أساسًا قويًا للتنصير بترجمة الإنجيل إلى الفارسية والأردية... نأتي إلى خاتمة المطاف إلى المستشرق الأمريكي الكاثوليكي د. فندر، والذي تحول إلى البروتستانتية وأرسلته كنيسة إنجلترا رئيسًا للمنصرين في الهند.

تزعم فندر الحملة التنصيرية داخل الهند بإلقاء المواعظ والخطب في الاجتماعات العامة والمآتم والأفراح الإسلامية والهندوسية، والتهجم على العقائد غير النصرانية، والطعن في الإسلام، والتشكيك في القرآن الكريم وفي رسول الإسلام ﷺ، وتحدي علماء المسلمين علنًا.

وكان يوجه المنصرين إلى مختلف المديريات الهندية، ويدربهم على

إلقاء الخطب والمحاضرات. وألف عدة كتب للدعوة للنصرانية، أهمها وأخطرها «ميزان الحق»، بل هو أخطر كتب المنصرين على الإطلاق، وتلقى المنصرون والقساوسة هذا الكتاب بالقبول والتقدير، لشموله جميع الشبه والافتراءات، وكل ما يمكن أن يعترض به المنصرون والمستشرقون على دين الإسلام، بالإضافة.. لشموله جميع أوجه الرد والدفاع عن العقائد النصرانية، ونفدت له ثلاث طبعات متتالية في الهند بالإنجليزية والفارسية والأردية، وترجم فيما بعد للتركية والعربية. وهذا الكتاب هو الينبوع الذي منه يستقي المبشرون مطاعنهم في الإسلام، ويعد صاحبه به أخطر منصر دخل القارة الهندية. وقد عد. هوري زعزعة فندر لعقيدة المسلمين في الهند بترجمته كتابه «ميزان الحق» إلى اللغتين الفارسية والأردية، أعظم من عمل القس هنري مارتين بترجمته الإنجيل للفارسية والأردية، كما ورد في كتاب الغارة على العالم الإسلامي (ص٣١ ـ ٣٢)، وقد عد إبراهيم خليل أحمد ـ القسيس المصري الذي أسلم ـ في كتابه الاستشراق والتبشير (ص٦٤، ٦٢) أخطر أربعة كتب للمنصرين، وجعل أولها وأكثرها خطورة كتاب «ميزان الحق».

وكان لهذا الكتاب ردود فعل عنيفة، حصلت عند المسلمين إثر صدور هذا الكتاب؛ لانتشاره السريع، وسكوت كثير من العلماء عن الرد عليه فترةً من الزمن، بحيث خيف على ضعاف النفوس من الردة.

بل إن رام شندر الهندوسي الذي كان صديقًا لفندر وللشيخ رحمت اللَّه، وكان محبًّا لفندر وكتبه، تجرأ أن يطلب من الشيخ رحمت اللَّه ـ وهو أستاذ الهند بلا منازع في الرد على النصارى ـ زيارة فندر لعله يهتدي إلى النصرانية!!

□ يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في مجلة البعث الإسلامي عدد ٩

سنة ١٣٩٩هـ (ص٥٥): «وقد استفحل أمر فندر ورأى أن الجو قد خلا له، فازداد جراءةً وتحديًا، ورأى الشيخ رحمت اللّه أنه لا سبيل إلى الحد من نشط هؤلاء القسوس، وفي مقدمتهم وعلى رأسهم القس فندر، وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين إلا مناظرة فندر في مجمع حافل، يحضره المسلمون والمواطنون والحكام الأوروبيون والنصارى والمنصرون، وكان فندر كثير الإدلال بكتابه ميزان الحق، فخورًا بتبجحاته، ويرى أنه ليس من السهل معارضته ونقضه من علماء المسلمين.

كل هذه الأسباب مجتمعةً، جعلت الحاجة ماسة للرد على هذا القسيس، مما حفز الشيخ رحمت اللّه للدعوة إلى مناظرته علنًا حتى يعريه، ويفقده كل هذا الأثر في الأوساط الهندية.

فأرسل الشيخ رحمت اللّه تسع رسائل إلى الدكتور القسيس فندر لترتيب أمور المناظرة العلنية بينهما، بدأت المراسلات بتاريخ ٢٣ آذار، وانتهت في ٨ نيسان سنة ١٨٥٤، ويظهر منها أن الشيخ رحمت اللّه قد أشرب قلبه حب المناظرة، وكان يخشى عدم قبول فندر للمناظرة العلنية، فقد كان رسائل فندر إليه تحوي شروطًا صعبة لتثبيط همته، فقبلها، وتم الاتفاق بينهما على أن تكون المناظرة في خمسة موضوعات، هي: النسخ، والتحريف، وأُلوهية المسيح والتثليث، وإعجاز القرآن، ونبوة محمد ﷺ، وأن تكون المناظرة يومي الإثنين والثلاثاء ١١، ١٢ رجب سنة ١٢٧٠هـ و١١ نيسان سنة ١٨٥٤م في موضوعي النسخ، والتحريف، ومكان المناظرة في خان عبدالمسيح الذي كان مدرسة في السابق، وأن يكون القسيس فزنج مساعدًا للقسيس فندر، وأن يكون الدكتور محمد وزير خان أبادي مساعدًا للشيخ رحمت اللّه، وكان محمد وزير خان قد درس الطب في لندن وتخرج عام ١٨٣٢م فأتقن اللغتين الإنجليزية واليونانية، واطلع على المسيحية في مصادرها

الأصلية، وعند عودته إلى الهند أحضر معه عددًا من الكتب الأصلية عن النصرانية وأقوال علمائها المحققين.

وتم انعقاد مجلس المناظرة العام في اليوم الأول ١١ رجب في تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا، في حي عبدالمسيح ببلدة أكبر أباد، وقد توافد الناس لحضور المناظرة من المسلمين والمسيحيين والوثنيين، وكان على رأس الحضور أُمراء المسلمين والهندوس وحكام الإنجليز وأعيان البلدة والوجهاء وكبار الموظفين المدنيين والعسكريين، كما حضرها القضاة والعلماء المسلمون والقساوسة والمنصرون ومراسلوا الصحف، وقد زاد عدد الحضور في هذا اليوم على خمسمائة نفس، وتناقل الناس خبر المناظرة، فزاد عدد الحضور في اليوم الثاني على ألف نسمة من جميع الأطراف.

وقد أسفرت هذه المناظرة الكبرى عن:

تعرية فندر وكتاباته:

فقد استطاع الشيخ رحمت اللَّه بفضل اللَّه في هذه المناظرة أن يظهر فندر للناس على حقيقته، وتعرية كتاباته التي ملئت تبجحًا وتحديًا، فأظهر تناقضه في مواضع عديدة من كتبه، وأنه كان يكتب بغير علم، وقد تراجع فندر عن كتاباتٍ كتبها، ويكفي انتصارًا للشيخ، أنه أظهر للحاضرين ضآلة علم فندر، وتهربه عن الجواب بطرق شتى.

اعتراف القسيس فندر العلني وصاحبه بوقوع النسخ والتحريف في كتب العهدين: بسبعة مواضع أصلية، منها أكبر شاهدٍ لهم التثليث، وهو ما في رسالة يوحنا الأولى ٥/ ٧ ـ ٨، من أن الذين يشهدون في السماء ثلاثة، وهم واحد.

كما اعترفا بوجود أربعين ألفًا موضع سمياها سهو الكاتب أو اختلاف العبارة، مع عدم القدرة على تعيين الصادقة جزمًا، وقدما القول بأن

اختلافات العبارة أربعون ألفًا، على القول القائل بأنها مائة ألف وخمسون ألفًا، وهي ما يطلق المسلمون عليه اسم التحريف النافي لبقاء إلهامية كتب العهدين.

فلما ظهرت الغلبة لرحمت اللَّه في مسألتي النسخ والتحريف، ورأى ذلك صاحب الميزان «فندر»، وسد باب المناظرة، ووقع في عرض الشيخ ونفسه، ولعل القسيس «فندر» خشي أن يظهر المزيد من مثالب كتاباته، وخاصة مسألتي الألوهية والنبوة، بل لعله خشي أن يهتدي إلى اللَّه وإلى الدين الحق، بعد أن يثبت له الشيخ بطلان عقيدة ألوهية المسيح وثبوت نبوة محمد ﷺ، على ما كان مشروطًا من دخول المغلوب في دين الغالب منهما.

وبعد هزيمة فندر في المناظرة، وجره العار الكبير والخزي على الكنيسة، لم يستطع البقاء في الهند، وسافر إلى ألمانيا وسويسرا وبريطانيا، ثم اختارته الكنيسة منصرًا في مقر الخلافة الإسلامية في القسطنطينية فسافر إليها سنة ١٨٥٨م.

وقد اتصل فندر بالسلطان عبدالعزيز خان، وزور أخبار المناظرة، وزعم أن الغلبة فيها كانت له، ثم دعا مسلمي تركيا إلى الاقتداء بإخوانهم مسلمي الهند، حيث زعم أنهم تحولوا إلى النصرانية، وأن المساجد أصبحت كنائس، وأخذ يتجول في أرجاء تركيا يشيع أخبار هذه المناظرة بطريقته الخاصة، معتمدًا على الكذب وتزوير الحقائق؛ لرفع مكانته وستر فضائحه.

ولكن السلطان عبدالعزيز خان أُصيب بغمٍّ شديد لسماعه أخبار فندر، وخشي أن تؤثر هذه الإشاعات على أبناء المسلمين، وقد علم من الحجاج الأتراك أن الشيخ رحمته اللَّه موجود في مكة المكرمة ـ بعد مصادرة الإنجليزية لأمواله، وجعلوا مكافأة ألف روبية لمن يدلهم على الشيخ رحمت اللَّه،

وحظروا بيع كتبه وطبعها، فاضطر للهجرة متخفيًا حتى وصل إلى مكة سنة ١٨٦٢م ـ فعجل السلطان عبدالعزيز بالأمر إلى أمير مكة الشريف عبداللَّه بن عون، بإرسال الشيخ رحمت اللَّه إلى دار الخلافة؛ ليناظر فندر في تركيا.

ولما حل الشيخ ضيفًا رسميًّا في قصر الخلافة، وسمع فندر بذلك فر هاربًا من تركيا.

وقد أوعز السلطان العثماني بترحيل المنصرين عن تركيا، وحظر نشاطهم، ومصادرة كتبهم ومنع انتشارها.

ولَّما سمع السلطان عبدالعزيز العلماء والوزراء وكبار رجال الدولة، طلب من الشيخ أن يقص خبر المناظرة، فلما استبان للسلطان طول باع الشيخ في هذه الموضوعات، وتمكنه منها، طلب منه تأليف كتاب باللغة العربية يضم مسائل المناظرة الخمس، فعقد الشيخ العزم على تأليف كتاب يكون سدًّا منيعًا في وجه المنصرين، فألف كتابه «إظهار الحق» ليكون مرجعًا لطلاب العلم والباحثين عن الحق والمتخصِّصين في هذا الفن.

ولو كان فندر يعلم أن مجيئه إلى تركيا وكذبه على السلطان عبدالعزيز خان، وتزويره أخبار المناظرة، سيكون سببًا في تأليف هذا الكتاب، لفضل البقاء في بلاده، أو قطع لسانه، كي لا يخرج هذا السفر الجليل إلى عالم الوجود، فأي دارسٍ لعلم مقارنة الأديان والرد على العقائد الباطلة، وأي طالب للرد على المنصرين والمستشرقين، وأي باحث عن الحق بخصوص كتب أهل الكتاب وعقائدهم، ولا يطلع على «إظهار الحق»، يكون قد فاته من هذا العالم زبدته، ولن ينال مادته في أي كتاب آخر.

فهو كتاب في فنه آية، وليس وراءه لمبتغي الزيادة غاية.

أظهرت أنواره أسراره ... كم جلتْ أقمارُه ليلَ ارتيابْ
نِعْم مبناه رياضٌ أثمرتْ ... دُرَّ معناه لمن يدري الخطابْ
كلّ غاوٍ لو رآه مُنصفًا ... من ظلام الكفر بالإيمان طابْ

وقد طبع الكتاب أكثر من عشر طبعات بالعربية، وأمر السلطان العثماني عبدالحميد خان بترجمته وطباعته وتوزيعه في العالم الإسلامي، وترجم إلى تسع لغات أجنبية، منها: الألمانية والفرنسية والإنجليزية، وترجم إلى التركية. وغاظ النصارى صدور هذا الكتاب، فأخذوا يشترون الكتاب من الأسواق بجميع ترجماته وطبعاته، ويجمعونها ثم يتلفونها بالحرق، قاصدين إعدام وجوده من الأسواق العالمية، ومنع وصوله إلى أيدي القراء عامة والنصارى خاصة، وقد علقت صحيفة اللندن تايمز على هذه العملية الحاقدة بقولها: «لو دام الناس يقرءون هذا الكتاب لوقف تقدم المسيحية في العالم».

*** مناظر الإسلام ومحامي المسلمين في القارة الهندية وبطل الإسلام العالم الرباني ثناء اللّه الأمر تسري من أخزى اللّه على يديه القادياني والقاديانية:**

❑ لما استفحل أمر القاديانية وعمّ دجلهم القارة الهندية على يد زعيمهم القميء عميل الإنجليز، الكذاب الدجّال غلام أحمد القادياني وادعى أنه ابن اللّه بل عين اللّه وأن النبوة لم تختم بمحمد ﷺ بل هو نبي بعده، وادعى أن عقيدة الجهاد عقيدة نجسة، وأهان الأنبياء، وفضل نفسه عليهم فقال: «جاء أنبياء كثيرون؛ ولكن لم يتقدم أحد عليّ في معرفة اللّه، وكل ما أعطى لجميع الأنبياء أعطيت أنا وحدي بأكمله»[1]. وفضل نفسه على آدم فقال: صار آدم ذليلاً مصغرًا، ثم خلقني اللّه لكي أهزم الشيطان».

❑ وفضّل نفسه على نبي اللّه نوح فيقول: «إن اللّه أنزل لصدق دعواى آيات وبينات بهذه الكثرة، لو أُنزلت على نوح لم يغرق أحد من قومه»[2].

❑ وفضل نفسه على نبي اللّه يوسف فقال: «إن يوسف هذه الأمة ـ

(١) «در ثمين» للقادياني (ص٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) «ما الفرق في آدم والمسيح الموعود» للقادياني.

يعني أنا العاجز الحقير - أفضل من يوسف بني إسرائيل؛ لأن اللَّه شهد لبراءتي بنفسه، وبآيات كثيرة، حينما احتاج يوسف بن يعقوب لبراءته إلى شهادة الناس»[١] .

وتطاول على نبي اللَّه ورسوله محمد ﷺ فقال: «إن النبي له ثلاثة آلاف معجزة، ولكن معجزاتي زادت على مليون معجزة»[٢] .

ويقذف الأنبياء فيقول هذا الفاجر: «أنا أرى بأن المسيح ما كان يتنزه عن شرب الخمر»[٣] .

ويقول هذا الكافر للقاضي يار محمد القادياني: «إنه رأى نفسه كأنه امرأة، وإن اللَّه أظهر فيه قوته الرجولية»[٤] .

ولقد نازل العلماء غلام أحمد القادياني الدجّال، وأفتوا بالإجماع بكفره ودجله، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل العلامة ثناء اللَّه الأمر تسري؛ مناظر الإسلام، ومحامي المسلمين في القارة الهندية، فقد جرى بينه وبين الغلام القادياني عدة مناظرات، ومناقشات تحريرة، وتقريرية، ودومًا كان الانتصار حليفًا لرجل إلهي[٥] ، وبطل الإسلام، فاستشاط من ذلك المتنبي القادياني غضبًا، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م، وبتاريخ ١٥ إبريل بالضبط، وكتب فيها ما يلي:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم، يسئلونك أحق هو قل إي وربي إنه

---

(١) «براهين أحمدية» للقادياني.

(٢) «تذكرة الشهادتين» للغلام (ص٤١).

(٣) «ريويو» (١/ ١٢٣)، ١٩٠٢م.

(٤) «ضحية الإسلام» ليار محمد (ص٣٤).

(٥) «هكذا سماه العلامة الشيخ رشيد رضا في مجلته المنار.

لحق إلى خدمة الأستاذ ثناء اللَّه.

السلام على من اتبع اللَّه، من زمان وأنا أُكذَّب وأُفَسَّق في مجلتكم «أهل حديث»، ودائمًا تسمونني في مجلتكم هذه ملعونًا كذّابًا، ودجّالاً مفسدًا، وتشهرني في العالم بأني مفتري كذاب دجال، وأفترى في دعواي المسيحية، فأنا تأذيت منك كثيرًا وصبرت، ولكني لما رأيت نفسي بأني مأمور لنشر الحق، وأنت تمنع العالم من التوجه إليّ بسبب افتراءاتك عليّ إنْ أنا كذّاب ومفتري؛ كما تذكرني في مجلتك؛ فأهلك في حياتك؛ لأني أعلم أن عمر الكذاب والمفسد لا يكون طويلاً؛ بل هو يموت خائبًا في حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان، وتكون في موته منفعة لعباد اللَّه؛ حيث لا يضلهم، فإن لم أكن كذابًا ومفتريًا، بل أكون متشرفًا بمخاطبة اللَّه والمكالمة معه، وأكون مسيحًا موعودًا؛ فأدعو اللَّه أن لا تنجو من عاقبة المكذبين، حسب سنة اللَّه فأُعلن: إن لم تمت أنت في حياتي بعقاب اللَّه، الذي يكون من عند اللَّه محضًا، مثل أن يموت بمرض الطاعون أو الكوليرا، فلن أكون مرسلاً من اللَّه تعالى، وهذا لا أقول بنودة، بل طلبت القضاء من اللَّه تبارك وتعالى، وأدعو اللَّه؛ يا مولاي البصير القدير، العليم الخبير، يا عالم أسرار القلوب؛ إنْ أنا كاذب ومفسد في نظرك، وأفترى عليك ليلاً ونهارًا يا اللَّه، فأهلكني في حياة الأستاذ ثناء اللَّه، وسرّه وجماعته بموتى آمين.

ويا اللَّه أنا صادق، وثناء اللَّه على باطل، وكذّاب في التهم التي يلصقها بي، فأهلكه ـ يا رب العالمين ـ في حياتي بالأمراض المهلكة؛ مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض، آمين. يا رب أنا أوذيت وصبرت، ولكني أرى الآن أنه قد تجاوز الحدّ، وأنه يظنني أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضرون العالم، ويحسبني أرذل خلق اللَّه، وقد شهرني في البلاد النائية بأني في الحقيقة مفسد، ونهّاب وطماع، وكذاب ومفتري،

وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدًى، كنت صبرت عليه؛ ولكني أرى أن ثناء اللَّه يريد بهذه التهم أن يفنى دعوتي، ويهدم عمارتي التي بنيتها أنت يارب، ويا من أرسلتني، ولذا ألتجأ إليك يا أللَّه، آخذًا بذيل رحمتك وتقدسك، فاقض بيني وبين ثناء اللَّه بالحق، وأهلك الكذاب والمفسد في حياة الصالح أو ابتليه في آفة؛ تكون مثل الموت، فافعل هكذا يا ربي الحبيب، آمين ثم آمين ﴿**ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين**﴾.

وأخيرًا، أرجو من الأستاذ ثناء اللَّه أن ينشر هذه النشرة في مجلته، ثم يعلق عليها ما يشاء، فالقضاء الآن بيد اللَّه.

الراقم عبداللَّه الصمد غلام أحمد المسيح الموعود، عافاه اللَّه وأيده[1].

وبعد هذا الإعلان والدعاء بعشرة أيام، نشر الغلام القادياني في جريدة قاديانية: إن كل ما قيل من ثناء اللَّه ليس من عند أنفسنا، بل من قبل اللَّه، كما ألهمت الليلة عن الدعاء الذي دعوته ﴿**أجيب دعوة الداع**﴾، ومعنى هذا الإلهام أن دعوتي قد قُبلت»[2].

وفعلاً قُبلت دعوته هذه، وقُضي بينه وبين ثناء اللَّه بالحق؛ فبعد ثلاثة عشر شهرًا وعشرة أيام بالضبط جاءه قضاء اللَّه وقدره، بصورة بشعة؛ كان يتمناها للشيخ الجليل ثناء اللَّه، نعم بنفس الصورة، وبنفس المرض الذي نصّ عليه هو! بالكوليرا.

مات غلام أحمد في العاشرة والنصف صباحًا بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨م، وبقى ثناء اللَّه حيًّا بعد موته قريبًا من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية ويقمع جذورهم»[3].

---

(١) «إعلان الغلام القادياني» المنشور بتاريخ (١٥/٤/١٩٠٧م، «المندرج في تبليغ رسالت» (١٠/ ١٢٠) مجموعة إعلانات الغلام المرتبة من قاسم القادياني.

(٢) جريدة بدر القاديانية الصادرة في ٢٥/٤/١٩٠٧م.

(٣) كتاب «القاديانية» لإحسان إلهي ظهير.

* القاضي الفاضل عبدالرحيم البيْساني يوّجه صلاح الدين ويصرف همّه لفتح بيت المقدس:

القاضي الفاضل عبدالرحيم البيْساني وزير صلاح الدين وكاتبه وقاضيه.. ومن جعله اللَّه سببًا في أن يصرف صلاح الدين همّه لفتح بيت المقدس وقتال الفرنجة.

مرض صلاح الدين مرضًا شديدًا فوجهه القاضي الفاضل أن ينذر إن شفاه اللَّه تعالى أن يوجه همه كله لفتح بيت المقدس، ووفى صلاح الدين بنذره.

❑ قال عنه صلاح الدين الأيوبي: «واللَّه ما أخذت البلاد بالعساكر، بل برسائل القاضي الفاضل». ذلك هو وسام صلاح الدين يكرِّم به كاتبه، ويُظهر أثر الكلمة الطيبة الهادفة في إصلاح شئون الأمة ونفي الخبث عنها، وتوحيد صفوفها، ورفعها إلى مستوى معركة المصير، التي أحسن صلاح الدين الإعداد لها حتى استرد بيت المقدس»[1].

❑ قال عنه ابن كثير: «لم يكن له في زمانه نظير، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مثيل، ولما استقرّ الملك صلاح الدين بمصر جعله كاتبه وصاحبه ووزيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وأولاده، وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلاد، هذا بُحسامه وسِنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه.

كان يواظب كل يوم وليلة على ختمة كاملة، مع ما يزيد عليها من نافلة، طاهر القلب، وله أوقاف على تخليص الأسارى من أيدي النصارى، وقد اقتنى من الكتب نحوًا من مائة ألف كتاب، وهذا شيء لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك»[2].

---

(١) مجلة الأدب الأسلامي العدد الثامن (ص١).

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٣/ ٢٧ ـ ٢٨).

❑ قال عنه العماد الكاتب: «لم يُبقِ في مدة حياته عملاً صالحًا إلا وقدّمه، ولا عهدًا في الجنة إلا أحكمه، ولا عقدًا في البر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب وأوقافه على سبل الخيرات، متجاوزة عن الحسنات، لا سيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين، إلى يوم الحساب. كان رحمه اللَّه للحقوق ماضيًا، وفي الحقائق ماضيًا، سلطانه مطاع والسلطان له مطيع وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع.

هو واحد الزمان، قد خصه اللَّه بالمكانة والإمكان، والسلطان ـ رحمه اللَّه ـ من مفتتحاته فتوحه، ومختتماتها ومبادئ أمور دولته وغاياتها. ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه، ومقاليد غناه ونائه... وكانت كتابته كتائب النصر، ويراعته رائعة الدهر، وبلاغته للدولة مجمِّلة، وللملكة مكمِّلة»[1].

*** الشيخ آق شمس الدين الرومي الفاتح المعنوي للقسطنطينية يوجه السلطان محمد الفاتح لفتح القسطنطينية ويحدد له موعد الفتح فيتم في نفس اليوم... ويقول محمد الفاتح: «ليس فرحي لفتح المدينة، إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني»:**

هو الشيخ الرباني محمد بن حمزة الدمشقي ثم الرومي المعروف بابن شمس الدين، ارتحل مع والده إلى الروم، وقرأ على علمائها حتى صار مدرسًا ببعض مدارسها، أصبح علمًا من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني.

«وهو معلم الفاتح ومربيه يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان مولده في دمشق عام ٧٩٢هـ (١٣٨٩م) حفظ القرآن الكريم وهو

(١) «عيون الروضتين وأخبار الدولتين» لأبي شامة (٢/٢٢٨ ـ ٢٣٠).

في السابعة من عمره، ودرس في أماسيا ثم في حلب، ثم في أنقره وتوفى عام ١٤٥٩م.

درّس الشيخ آق شمس الدين للأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن، وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية، والفارسية، والتركية، وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك والتاريخ والحرب، وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولّى إمارة مغنيسا ليتدرب على إدارة الولاية وأصول الحكم.

واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[1].

وعندما أصبح الأمير محمد سلطانًا على الدولة العثمانية، وكان شابًا صغير السن وجهه شيخه فورًا إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي فحاصر العثمانيون القسطنطينية برًا وبحرًا، ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يومًا»[2].

❑ قال الشوكاني عن الشيخ آق شمس الدين: «اشتهرت بركته وظهر فضله حتى أن السلطان محمد خان سلطان الروم لما أراد فتح القسطنطينية دعاه للجهاد فقال للسلطان سيدخل المسلمون القلعة في يوم كذا، فجاء ذلك الوقت الذي عيّنه لفتح القلعة فحصل مع بعض أصحابه فزع شديد من السلطان على الشيخ إذا لم يصح الخبر، فذهب إليه في تلك الحال فوجده في

---

(١) **ضعيف**: رواه أحمد في «مسنده»، والحاكم في «المستدرك» عن بشر الغنوي، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٦٥٨)، و«الضعيفة» رقم (٨٨٢).

(٢) «فاتح القسطنطينية محمد الفاتح» للدكتور علي محمد الصلابي (ص١٤١ ـ ١٤٢) دار الإيمان.

خيمته ساجدًا على التراب مكشوف الرأس وهو يتضرع ويبكي برفع رأسه وقام على رجليه وكبّر وقال: الحمد للّه مُنحنا فتح القلعة. قال الراوي: فنظرت إلى القلعة فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففرح السلطان بذلك، وقال: ليس فرحي لفتح القلعة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني»[١].

هذه رواية الشوكاني في «البدر الطالع».. وفصّل غيره فقال:

«حاصر العثمانيون القسطنطينية برًا وبحرًا، ودارت الحرب العنيفة ٥٤ يومًا. وعندما حقق البيزنطيون انتصارًا مؤقتًا وابتهج الشعب البيزنطي بدخول أربع سفن أرسلها السلطان محمد الفاتح وقالوا له: «إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جريًا وراء كلام أحد المشايخ ـ يقصدون آق شمس الدين ـ فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد، ثم زاد الأمر على هذا بأن عونًا من بلاد الإفرنج للكافرين دخل القلعة، ولم يعد هناك أمل في هذا الفتح»[٢]، فأرسل السلطان محمد وزيره ولي الدين أحمد باشا إلى الشيخ آق شمس الدين في خيمته يسأله الحل فأجاب الشيخ: «لا بد من أن يمنّ اللّه بالفتح»[٣]، ولم يقتنع السلطان بهذا الجواب، فأرسل وزيره مرة أخرى ليطلب من الشيخ أن يوضح له أكثر، فكتب هذه الرسالة إلى تلميذه محمد الفاتح يقول فيها: «هو المعز الناصر.. إن حادث تلك السفن قد أحدث في القلوب التكسير والملامة، وأحدث في الكفار الفرح والشماتة، إن القضية الثابتة هي: إن العبد يدبر واللّه يقدر والحكم للّه... ولقد لجأنا إلى اللّه وتلونا القرآن الكريم وما هي إلا سنة من النوم جاءت بعدها ألطاف اللّه تعالى فظهرت من البشارات ما لم يحدث مثلها من قبل»[٤].

---

(١) «البدر الطالع» (٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٢) «البطولة والفداء عند الصوفية» لأسعد الخطيب (ص١٤٦).

(٣) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب (ص٣٧٣) ـ دار القلم دمشق.

(٤) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٣).

أحدث هذا الخطاب راحة وطمأنينة في الأمراء والجنود، وعلى الفور قرّر مجلس الحرب العثماني الاستمرار في الحرب لفتح القسطنطينية، ثم توجه السلطان محمد إلى خيمة الشيخ شمس الدين فقبل يده، وقال: علمني يا سيدي دعاءًا أدعو اللّه به ليوفقني، فعلمه الشيخ دعاء، وخرج السلطان من خيمة شيخه ليأمر بالهجوم العام»[١] .

أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمتة الشيخ ليستدعيه، فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناءً على أمر الشيخ، فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة في جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجدًا للّه في سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض، ولحيته البيضاء تنعكس مع شعره كالنور، ثم رأى السلطان شيخه يقوم من سجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجي ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله الفتح القريب[٢].

وعاد السلطان محمد «الفاتح» عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلي الأسوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسور تدفق منها الجنود إلى القسطنطينية[٣] .

وعندما تدفقت الجيوش العثمانية إلى المدينة بقوة وحماس، تقدم الشيخ إلى السلطان الفاتح ليذكره بشريعة اللّه في الحرب وبحقوق الأمم المفتوحة كما هي في الشريعة الإسلامية[٤] .

---

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٣).

(٢، ٣، ٤) المصدر السابق (ص٣٧٤).

وبعد أن كرم السلطان محمد الفاتح جنود الفتح بالهدايا والعطايا وعمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة أيام أقيمت خلالها الزينات والمهرجانات، وكان السلطان يقوم بخدمة جنوده بنفسه متمثلاً بالقول السائد «سيد القوم خادمهم»، ثم نهض ذلك الشيخ العالم الورع آق شمس الدين وخطبهم، فقال: يا جنود الإسلام، اعلموا واذكروا أن النبي ﷺ قال في شأنكم: «**لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**»، ونسأل اللَّه سبحانه وتعالى أن يوفقنا ويغفر لنا، ألا لا تسرفوا في ما أصابتم من أموال الغنيمة ولا تبذروا وأنفقوها في البر والخير لأهل المدينة، واسمعوا لسلطانكم وأطيعوه وأحبوه، ثم التفت إلى الفاتح، وقال له: يا سلطاني، لقد أصبحت قررةَ عينِ آل عثمان، فكن على الدوام مجاهدًا في سبيل اللَّه، ثم صاح مكبرًا باللَّه في صوت جهوري جليد[1].

وقد اهتدى الشيخ آق شمس الدين بعد فتح القسطنطينية إلى قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه بموضع قريب من سورة القسطنطينية»[2].

ورأى الشيخ آق شمس الدين أبا أيوب الأنصاري منامًا وقال أبو أيوب له: شكر اللَّه سعيكم حيث خلّصتموني من ظلمة الكفر».

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا[3].

* الشيخ شمس الدين يخشى على السلطان من الغرور:

كان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حبًا عظيمًا،

(١، ٢) «محمد الفاتح» للدكتور سالم الرشيدي (ص١٤٩) ـ الإرشاد ـ جدة.

(٣) المصدر السابق (ص١٤٩).

وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله ـ بعد الفتح ـ: «إنكم تروننني فرحًا، فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة، إنَّ فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين.

وعبر الفاتح عن تهيبه لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا، قال السلطان الفاتح: «إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري، إنني أشعر وأنا بجانبه بالانفعال والرهبة[1] .

ذكر صاحب البدر الطالع أن: «. . . ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة ـ أي آق شمس الدين»، وهو مضطجع فلم يقم له فقبَّل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة، قال: وما هي؟ قال: أدخل الخلوة عندك، فأبي فألح عليه السلطان مرارًا وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة، وأنا تأبى عليّ، فقال الشيخ؟ إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت اللَّه علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا، وذكر له الشيخ من النصائح ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمدخان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي، فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسر مثله للسلاطين العظام فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو. . .»[2] .

هكذا كان هذا العالم الجليل الذي حرص على تربية محمد الفاتح على معاني الإيمان والإسلام والإحسان، ولم يكن هذا الشيخ متبحرًا في علوم الدين والتزكية فقط، بل كان عالمًا في النبات والطب والصيدلة، وكان مشهورًا في عصره بالعلوم الدنيوية وبحوثه في علم النبات ومدى مناسبتها

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٤).
(٢) «البدر الطالع» (٢/١٦٧).

للعلاج من الأمراض.

وبلغت شهرته في ذلك أن أصبح بين الناس يقول: «إن النبات ليحدث آق شمس الدين»[١].

❑ قال الشوكاني عنه: «... وصار مع كونه طبيبًا للقلوب طبيبًا للأبدان فإنه اشتهر أن الشجرة كانت تناديه وتقول: أنا شفاء من المرض الفلاني...»[٢].

وكان الشيخ يهتم بالأمراض البدنية قدر عنايته بالأمراض النفسية، واهتم الشيخ آق شمس الدين اهتمامًا خاصًا بالأمراض المعدية، فقد كانت هذه الأمرض في عصره تتسبب في موت الآلاف، وألف في ذلك كتابًا بالتركية بعنوان «مادة الحياة» قال فيه: «من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائيًا، فالأمراض تنتقل من شخص إلى آخر بطريق العدوى، هذه العدوى صغيرة ودقيقة إلى درجة عدم القدرة على رويتها بالعين المجردة؛ لأن هذا يحدث بواسطة بذور حيّة»[٣].

وبذلك وضع الشيخ آق شمس الدين تعريف الميكروب في القرن الخامس عشر الميلادي، وهو أول من فعل ذلك، ولم يكن الميكروسكوب قد خرج بعد وبعد أربعة قرون من حياة الشيخ آق شمس الدين جاء الكيميائي والبيولوچي الفرنسي لويس باستير ليقوم بأبحاثه وليصل إلى نفس النتيجة.

واهتم الشيخ آق شمس الدين أيضًا بالسرطان وكتب عنه وفي الطب ألف الشيخ كتابين هما: «مادة الحياة»، و«كتاب الطب» وهما باللغة التركية والعثمانية، وللشيخ باللغة العربية سبع كتب هي [حل المشكلات، الرسالة

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٥).
(٢) «البدر الطالع» (٢/ ١٦٧).
(٣) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٦).

النورية، مقالات الأولياء، رسالة في ذكر اللَّه، تخليص المتائن، دفع المتائن، رسالة في شرح حاجي بايرام ولي][1].

ومات الشيخ بموطنه كونيوك عام (٨٦٣هـ ـ ١٤٥٩م) ـ رحمه اللَّه ـ وأسكنه فسيح جناته وهذه سنة اللَّه في خلقه، لا يخرج قائد رباني مغوار إلا وحوله علماء ربانيون يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر، ويشحذون هممه لإعادة مجد الإسلام الغابر... تقبل اللَّه أعمالهم وأعلى ذكرهم فقد ملأوا الدنيا طيبًا من عبق طيبهم... عبقت منه الأرواح وعبق منه التاريخ.

لآلئ البيان في رجال من دولة آل عثمان

* شيخ الإسلام مصطفى صبري آخر شيوخ دولة الخلافة العثمانية المدافع عن الإسلام والخلافة:

ظهر الشيخ في أواخر عهد الدولة العثمانية، والدولة مقبلة على الانهيار، ودعاة التغريب في أوج قوّتهم. درس في مسقط رأسه (توقاد) الدراسة الابتدائية، ثم أخذ في حفظ القرآن الكريم، ومن ثم رحل إلى بلدة قيصرية، وكانت مركزًا للعلوم الدينية. وتلقّى دراسة العلوم العقلية والنقلية عن مدرِّسه الشيخ خوجة أمين أفندي. بعد ذلك انتقل إلى إستانبول حاضرة الخلافة الإسلامية.

وفي إستانبول شدّ الشيخ مصطفى صبري انتباه مشايخه بحدّة ذكائه وبقوّة حافظته وعمق تحصيله، وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره أصبح مدرسًا بجامع السلطان محمد الفاتح، وهو منصب مرموق يحتاج إلى جدّ واجتهاد وتحصيل طويل.

---

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٦).

ثم أصبح أمينًا لمكتبة السلطان عبدالحميد الثاني، وقد لفت انتباه السلطان عبدالحميد إليه بسعة اطّلاعه وبتميّزه وهو في سنّ شابّة بين رجال العلم الدينيين في إستانبول، عاصمة الخلافة ومقرّها.

*** رحلة كفاح:**

وفي عام ١٩٠٨م، مثل منطقته توقاد في مجلس المبعوثان العثماني للجهر بآرائه في هذا المجلس النيابي. وكان في هذه الفترة رئيسًا لتحرير مجلة «بيان الحق»، وهي مجلة إسلامية كانت تصدرها «الجمعية العلمية»، ثم أصبح عضوًا في دار الحكمة الإسلامية.

ودار الحكمة الإسلامية مؤسسة علمية إسلامية أُسست عام ١٩١٨م بأمر من السلطان محمد رشاد: بغية إيجاد حلول للمسائل الدينية التي تظهر في الدولة العثمانية أو أيّ مكان في العالم، كما تهدف إلى التّصدي بالإجابة على الهجوم الذي يتعرض له الإسلام، إجابة تنبع من أحكام الإسلام.

ثم عمل الشيخ مصطفى صبري أيضًا بالسياسة، ولم يكن للسياسة عنده إلا معنى واحدًا وهو جعل الشريعة الإسلامية أساسًا لإدارة الدولة.

وعندما أتت حكومة حزب الحريّة والائتلاف إلى الحكم عام ١٩١٩م، وتشكلت الحكومة برياسة الداماد فريد باشا، أصبح الشيخ مصطفى صبري أفندي شيخًا للإسلام (يلاحظ القارئ أن لقب أفندي لدى الأتراك يطلق على العلميين الدينيين).

وعندما سافر رئيس الوزارة إلى مؤتمر باريس، تولّى الشيخ النيابة عنه رئيسًا لمجلس الوزراء العثماني.

وفي العهد الثاني لهذه الوزارة (عام ١٩٢٠م) جاء الشيخ مصطفى صبري شيخًا للإسلام، لكنه اختلف مع الوزراء في الرأي، فترك مشيخة

الإسلام. ثم سعى إلى تأليف حزب جديد هو حزب الحريّة والائتلاف المعتدل.

إن استقالته هذه كانت بدء مرحلة كفاح أوسع من حياته المليئة بالكفاح، فقد كان الشيخ مصطفى صبري كما يقول صادق آل بايراق: «كان ينادي بالشريعة ويريد إحلال كلام اللّه محل الحكم في المجتمع» وكان يدافع عن هذا طوال حياته في بلاده وفي مهجره. كان يناضل بمفهومه ضد كل مختلف التيارات الفكرية.

*** التحدي والتصدي:**

ولم يكن بجوار الشيخ مصطفى صبري كادر من الإسلاميين كاف؛ ليتحمل الدفاع عن المفهوم الإسلامي في الحكم، وينادي به ويعممه مع الشيخ.

تصدّى الشيخ مصطفى صبري لكل المفكرين والمسئولين الذين أنجبتهم حركة التنظيمات العثمانية، ومن ثم حركة حزب الاتحاد والترقي؛ التي كانت ترى في الإسلام عقبة كئوداً ضد التطور وضدّ حركة التغريب الشاملة للدولة العثمانية. لذلك عاداه أنصار التغريب، وهم كثرة في موقع السلطة. كان السبب في هذا العداء السافر الذي أظهره المتغربون ضد الشيخ، أن الشيخ مصطفى صبري أفندي كان يجاهر بآرائه داعيًا لفكره عمليًّا، ينادي به بكل فرصة وفي كل وقت، أمّا الآخرون من الإسلاميين فلم يكونوا قادرين على التصدّي والجهر بالدعوة ـ بكل هذا الوضوح الذي فعله الشيخ ـ لفكرتهم الإسلامية؛ ولأن الفكر الذي طرحه شيخ الإسلام مصطفى صبري والنضال السياسي الذي قام به، لم يكن قد شوهد بين المسلمين لسنوات طوال سبقته.

تصدّى شيخ الإسلام مصطفى صبري لدعاة الوقيعة بين العرب وبين الأتراك، وتصدّى للدفاع عن مفهوم الإسلام في الحكم، وفي الحياة، كما

وقف وقفة رجل، ووقفه عالم، لمن أرادوا تشويه التاريخ الإسلامي. وتصدّى أيضًا لحملة واسعة شنّها دعاة الفكر الغربي عندما نادوا بخروج المرأة وسفورها. ولم يسلم من حملاته أولئك الذين تسموا باسم «المسلمون الجدد»، وأجاب في كتابه «المجددون الدينيون» على كل آرائهم.

كان يتناول كل حركة (ما لم تمسّ بالإسلام الصحيح)، وكان يتحول إلى مهاجم صعب؛ إذا ما تصرف أحد من معاصريه ضد هذا الذي يؤمن به، يقول الشيخ:

«مع رغبتي المخلصة في أن يصعد المسلمون إلى وجه عالم سعيد، ومع ذلك فإني ألعن الذين يضغطون على ديننا صاعدين إلى عالم عالٍ يمكننا الوصول إليه.

عندما نصعد إلى هذا العالم يجب علينا وفي نفس الوقت أن نمسك الإسلام في أيدينا نلصقه بها ونضعه على رءوسنا».

*** الرحيل والدعوة في اليونان:**

وفي عام ١٩٢٢م أجبر الشيخ مصطفى صبري على مغادرة بلاده، فهاجر إلى اليونان، حيث جمع المسلمين الأتراك في منطقة (تراقيا) الغربية ووحّدهم، وأصدر هناك جريدة تركية بالحروف العربية سمّاها «يارين» أي الغد، تفاؤلاً بغد إسلامي مشرق. وأخذ الشيخ من خلال هذه الجريدة في نقد حركة التغريب في العالم الإسلامي، ونقد المجتمع التركي، ونقد النظام الكمالي في تركيا الذي عُرف باسم الحركة الكمالية، نسبة إلى مصطفى أتاتورك، وأخذ يحلل المصائب التي حلت بالعالم الإسلامي، وعلى رأسه الدولة العثمانية من جراء اتباع حركة التغريب.

إن في جريدة «يارين» مادة خصبة لدراسة وجهة النظر المعارضة

للكمالية من مقالات وتحليلات ودراسات وفكر وأدب.

❑ ثم سافر الشيخ إلى مصر، ثم الحجاز، ثم مصر مرّة أخرى، حيث استقر في القاهرة. وفي العاصمة المصرية أخذ الشيخ ينادي بأفكاره، بالعودة إلى العمل بالشريعة الإسلامية، ويفصل القول في مضار العلمانية. لذلك لم يترك له دعاة الفكر الغربي في مصر وقتًا للراحة. وعندما كان العلمانيون في مصر يصفقون لأتاتورك ولانقلاباته في تركيا قال الشيخ مصطفى صبري:

«إن الفصل بين الحكومة وبين الخلافة، يجرّد الحكومة من كونها حكومة إسلامية. وهذا معناه أيضًا أنّ الحكومة التركية قد خرجت على دينها. إن الاتحاديين ومن أعقبهم قد عملوا كثيرًا على نشر الإلحاد بين الأتراك. وقد كان هذا الطريق، هو أقصر الطرق إلى الوصول إلى غاياتهم».

❑ كان الشيخ مصطفى صبري في نظر الكماليين مجرمًا؛ أوردوه ضمن قائمة الـ ١٥٠ شخصًا غير المرغوب فيهم، لكنه في نظر الإسلاميين الأتراك بطلاً ورغم أن قرارًا بالعفو عن قرار الـ ١٥٠ شخصًا قد صدر من بعد، إلا أن الشيخ لم يُحبب العودة وبقي في مصر إلى أن توفي في القاهرة عام ١٩٥٤. توفى شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي بعد حياة حافلة بالدفاع عن الفكرة الإسلامية في الحكم والحياة، ولم يعرف المؤرخون عنه أنه خشي إنسانًا، وقد قال كل آرائه رغم كل الظروف الصعبة التي مرّ بها هو وأسرته في وطنه أو في مهجره. مات بعد أن قال لا، لكل المسئولين والكتاب والرأي العام الذي كان مخالفًا له وقتها.

*** فكر إيجابي:**

يمكن إيجاز فكر شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في ثلاثة نقاط:

١ ـ استنهاض الأمة الإسلامية لإزالة كل مظاهر العلمانية والتغريب الحضاري والخلقي.

٢ ـ التمسك بطريق أهل السنّة والجماعة.

٣ ـ إعادة الخلافة الإسلامية.

أما أعماله فعشرة مؤلفات باللغتين العربية والتركية، أشهرها: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، باللغة العربية، وصدر في القاهرة في أربعة أجزاء عام ١٩٥٠، نشرتها دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ القاهرة. و«المجدّدون في الإسلام»، باللغة التركية. وصدرت منه طبعة بالحروف اللاتينية أخيراً بعنوان «ديني مجددلر»، عن دار سبيل للنشر، بإستانبول.

*** موقفه من المؤرخ العربي محمد عبدالله عنان في اتهاماته لتاريخ آل عثمان:**

❑ قال شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«كان ظني عند مغادرتي تركيا مهاجراً إلى بلاد العرب؛ التي جاء نور الإسلام إلينا منهم، أنّى أستريح من مجاهدة الملاحدة (يقصد الاتحاديين والكماليين). لكني وجدت الجو الثقافي بمصر أيضًا مسمومًا من تيار الغرب فشقّ هذا على نفسي أكثر مما شقّ عليَّ موقف تركيا الجديدة (يقصد تركيا عقب الانقلاب الكمالي) من ذلك التيار. كما شقّ عليَّ وقوفي على أنّ إخواني العرب يفضّلون تركيا هذه (أي الكمالية) على تركيا القديمة المسلمة (أي الدولة العثمانية)، فرأيتهم (يقصد المصريين المتغربين) توغّلوا في تقليد الغرب، وسابقوا الترك في الامتنان به. والانقلاب الثائر في تركيا (أي انقلاب أتاتورك) حصل عندهم (أي المصريين) في شكل هادئ، وعن طريق التأثير والتجديد في الأزهر... (موقف العقل ـ صدر عام ١٩٥٠م ـ (١/ ٢٣).

لم يستطع الشيخ سكوتًا على معارضي فكره الإسلامي، لذلك أخذ يفصح بالكتابة في الصحف والمجلات المصرية، وكذلك في كتبه عن موقفه تجاه المثقفين المصريين والعرب المتشبّعين بروح الغرب وثقافته، وتجاه الإلحاديين من العرب.

شيخ الإسلام مصطفى صبري ورده على محمد عبدالله عنان:

ومن هذه المواقف، موقفه من محمد عبدالله عنان. ومحمد عبدالله عنان من أبرز المؤرخين العرب؛ إن لم يكن أبرزهم وأوسعهم شهرة، وهو عالم عُرف بتخصّصه في التاريخ الأندلسي، لكن موقفه من التاريخ العثماني موقف غريب من مؤرّخ، ولا أقول من مؤرخ شرقي ومسلم. إن موقفه من التاريخ العثماني لا يعتمد على مصادر موثوقة، ونُقُوله فيه تعتمد على مصادر تنقصها الثقة، مثال عن ذلك محاضرته في ندوة ابن إياس. إنه مؤرخ لم يتعمّق تاريخ العثمانيين ولم يتقصّ المصادر الأولى في هذا التاريخ، معلوماته مغلوطة. رد كاتب هذه السطور[1] على معلومات وادعاءات محمد عبدالله عنان عن السلطان سليم الأول وكلها مغلوطة. فكاتب هذه السطور، فضلاً عن أنه متخصص في التاريخ العثماني في البلادَ العربية؛ قد درس عهد سليم الأول من مصادره الأولى، ويقول: إنها تناقض محمد عبدالله عنان في هذا الصدد.

وفي مجلة (سدير) التركية (عدد أبريل ١٩٨٠م)، لقاء أجرته المجلة مع كاتب هذه السطور حول مشاكل فهم التاريخ العثماني، نقد كاتب هذه السطور في هذا اللقاء مشاكل فهم عنان لتاريخ العثمانيين. في فهم عنان الخاطئ الذي لا يعتمد على مصادر أولية موثوقة. كتب أيضًا الدكتور

(١) هو الدكتور محمد حرب مؤلف كتاب «العثمانيون في التاريخ والحضارة».

مصطفى فايدة؛ الأستاذ بكلية الإلهيات في إستانبول مقالات علمية في حولية كلية الإلهيات حول ادعاءات محمد عبداللَّه عنان على التاريخ العثماني.

❑ نشر المؤرخ العربي محمد عبداللَّه عنان في مجلة الرسالة عام (١٩٤٠م) مقالة عنوانها: حرب منظمة يشنّها الكماليون على الإسلام، قال فيها: «وإذا كان الإسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتزّ بهذه البقيّة الضئيلة من تركيا القديمة؟».

آذت هذه الجملة شيخ الإسلام، فقال: «إن عنان ليس مخلصًا في عدائه للكماليين، وإنما الأستاذ عنان ينضم بعدوانه لتركيا القديمة الإسلامية العثمانية، إلى تلك الوسائل المحشودة لخصومة الإسلام ويؤيد جديدها (أي تركيا الكمالية) الذي تظاهر (أي صارح) بمعاداته مع قديمها كما يؤيده الغرب الحاشد، وليس الأستاذ (يقصد بذلك عنانًا) صميميًا في هذه المعاداة، إنما هو جادّ في خصومة تركيا القديمة الإسلامية الشامخة؛ التي لا بدّ أن يكون من خاصمها من خصوم الإسلام». «موقف العقل» (ص٧٢ ـ ٧٣).

لا بدّ هنا من ملاحظة أن محمد عبداللَّه عنان يرى في الخطوات الأولى للثورة الكمالية مثل: إلغاء الخلافة، وحلّ الجماعات الدينية، والطرق الصوفية وفرض الثياب المدنية، وفرض لبس القبّعة، . . ما يثير الأذهان المستنيرة التي كانت تتتبَعُ جهود تركيا الجديدة في سبيل التجديد القومي والاجتماعي بمنتهى الإعجاب والعطف.

فزع شيخ الإسلام عندما وجد عنانًا العربي المسلم يعلي من شأن خطوات الانقلاب الكمالي تجاه الثقافة الإسلامية والدين، فأخذ الشيخ يجهز مقالة في الردّ على عنان، مدافعًا فيه عن الدولة العثمانية، ودور الأتراك في موكب الحضارة الإسلامية وفي مجاهدة أعداء المسلمين، فإذا بمقالة الشيخ

تطول حتى أصبحت كتابًا؛ نصفه الأول دفاع عن الدولة العثمانية، ونصفه الثاني دفاع عن الإسلام نفسه. ثم شغل الشيخ نفسه بالنصف الثاني من الكتاب، فإذا بهذا يكبر حتى صار كتابًا في أربعة أجزاء أسماه: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين».

ولا شك أن هذا الكتاب كسب وإثراء للفكر الإسلامي المعاصر.

❑ ينقل شيخ الإسلام مصطفى صبري أمثلة أُخرى لعداوة محمد عبداللَّه عنان للأتراك المسلمين: «إن مصر الإسلامية لم تعرف، رغم ما توالى عليها من عصور الاضطراب والفتنة، من الخطوب والمحن نكبة أعظم من الفتح العثماني، ولم تعرف حكمًا أقسى وأمرّ من حكم الدولة العثمانية ـ عنان، «مصر الإسلامية» (ص١٤٩)... ولبث سليم الأول في القاهرة ثمانية أشهر يذيق وجنده المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة...» «مصر الإسلامية» (ص١٦١).

* يردّ شيخ الإسلام على محمد عبداللَّه عنان ردودًا مختلفة، منها:

ـ إن محمد عبداللَّه عنان: «في قلبه مرض عدم التفريق بين المسلمين العرب واليهود، وعلى بصره غشاوة من معاداة آل عثمان... فلم يكن مقصود سليم من الفتح إلا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية»[1].

❑ إن عبدالرحمن عزام بك، وهو مصري وأمين الجامعة العربية ـ سابقًا ـ، قال عن العثمانيين في مقال بعنوان «آخر الخلفاء»، في الأهرام بتاريخ ٢٢/ ١/ ١٩٤٤م:

«لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا وكلها سجون أبدية يتوالد فيها

(١) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» للشيخ مصطفى صبري (ص٨٥).

الفلاحون للعبودية، فكسروا (أي العثمانيون) أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الفردية، فهم (أي العثمانيون) هم الذين قضوا على نظام الإقطاع والأرستقراطية ليحل محلّه نظام المواطن الحر والرغبة المتساوية الحقوق، فوصل في دولتهم الرقّ الشركسي والصقلبي وغيرُه إلى أكبر مقام في الدولة؛ كما وصل النابه من عامّة الناس حتى المجهول الأصل، إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا، وتعلّمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والملل والنحل. فترتب على ذلك تطور هائل في اتجاه الحرية والديمقراطية الغربية الحديثة. وكانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصوراً ذهبية شمل فيها الناس، الأمن والرخاء والسلام الروحي. ولم يكن فوز آل عثمان كما يظنّ بعض الناس، مستمدًّا من سيف وشجاعة، بل مما هو أعظم من السيف والشجاعة، احترام الحق والوفاء بالعهد والخضوع لسلطان القانون والشرع، ولو كان الأمر كما يتصوره الذين ينخدعون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف، والغيرة بين العناصر، والبطش لتغطية الضعف، لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمائة سنة، منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور. لقد رويت لي ـ أي لعبدالرحمن عزام، أمين الجامعة العربية سابقًا ـ في رحلاتي بالبلقان وملدافيا؛ أمثلة باقية في لغة العامة، من عدل آل عثمان بين بيوت الملك الذي طال أمره وتنوّعت رعاياه، وقد ثقلت كفّته بالخير والرحمة والمروءة والشرف».

❑ إن الأمير شكيب أرسلان امتدح العثمانيين في ديوانه، بقوله:

أحبّكم حبّ مَنْ يسعى لطيّته ... في طاعة العقل لا في طاعة الغضب

أحبّكم حبّ من يدري مواقفكم ... في خدمة الدين والإسلام من حقب

ومنذ تقلدتمو أمر الخلافة قد ... آويتمو بينها كل مغترب

❑ إن سليم الأول قد حارب مماليك مصر لأنهم انحازوا إلى إيران الصفوية الشيعية، العدو الأول لسليم الأول، والتي كان هدفها إسقاط حكم آل عثمان وتعميم الفكر الشيعي بالقوّة في الدولة العثمانية. وسليم الأول قد عرف بانحياز مماليك مصر إلى الشاه إسماعيل الصفوي ضده. وإن الباحث يجد في بعض معاهدات الدولة العثمانية مع الإيرانيين نصوصًا تفرض عليهم أن يكفّوا عن شتم سيدنا أبي بكر وعمر وسيدتنا عائشة «موقف العقل» (١/ ٨٥ ـ ٨٦).

❑ إن دجو فارا، وهو وزير روماني خضعت بلاده للسيادة العثمانية ومؤلف كتاب «مائة مشروع لتقسيم تركيا»، وكان ألّفه عقب الحرب العالمية الأولى، يقول:

«إنّ احترام المعاهدات والعمل بموجب الكلمة المعطاة من مزايا العثمانيين يدور عليها التاريخ كله»، و«كانت السلطنة العثمانية سلطنة عسكرية محضًا مستندة على شرع سماوي»، و«العداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الحرية الدينية التي يتمتع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية».

❑ قول ريتشارد لوج، صاحب كتاب تاريخ أوروبا الحديث وتعريب محمد عبداللّه عنان (١/ ٤٧): «إن سر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم في تضحية نفوسهم، وهي عاطفة الجهاد التي غرسها الإسلام في قلوبهم، وكذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم المدنية والحربية» «موقف العقل» (ص٩٠).

❑ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري في حاشية (ص١٠١) من «موقف العقل» ما نصّه: «وإني أقرأ على المسلمين المنهومين في أكل لحوم الدولة العثمانية الزائلة كالأستاذ عبداللّه عنان وغيره، قول الحطيئة (الذي كان الأستاذ على عبدالرزاق بك باشا قرأه في غير محله على المسلمين الذين لا

يعجبهم أفعال مصطفى كمال في تركيا الجديدة، وذلك في مقالة له منشورة في الزمان الماضي):

أقـــلّوا عليهـــم لا أبـــا لأبيكم من اللوم أو سدوا الفراغ الذي سدوا»

❑ يختتم شيخ الإسلام في الدولة العثمانية سابقًا، الشيخ مصطفى صبري، والذي هاجر إلى مصر فصدمه فيها ميل العالم العربي إلى التغريب والبعد عن الأصالة، يختتم موقفه من المؤرخ العربي محمد عبدالله عنان، بقوله:

«أنا لا أقول: إن آل عثمان، حتى الأعاظم المشهورين منهم في تاريخ العالم، برآء من كل ما ينتقدونهم به، وإنما أردّ على من أنكر اعتزاز الإسلام بهم» «موقف العقل» (ص٩٠).

❑ بيان موقفه في عدم جواز فصل الدين عن السياسة، ورده على الدكتور محمد حسين هيكل الداعي إلى فصل الدين عن الدولة والمطالب بحذف عبارة أن الإسلام دين الدولة الرسمي من الدستور.

كانت قضية عدم جواز فصل الدين عن السياسة من أهمّ الأسس التي خصص لها مصطفى صبري أفندي، مكانًا كبيراً في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، (طبع الكتاب في القاهرة عام ١٩٥٠م).

بدأ شيخ الإسلام مصطفى صبري في تبيان موقفه من هذه القضية، عندما كتب الدكتور هيكل باشا كتابه «حياة محمد»، وأسقط الدكتور هيكل باشا في مقدمته جميع ما في كتب الحديث فضلاً عن السيرة مثل صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أحمد وغيرها من أحاديث معجزات نبينا ﷺ، من حيز الاعتداد والاعتماد.

ثم إن الدكتور هيكل باشا قد أتى في مقدمة كتاب «حياة محمد» على المبدأ الغربي المتعلّق بفصل الدين عن الدولة فصلاً واضحًا صريحًا. يقول الشيخ: «والدين في مصر وإن كان مفصولاً عن الدولة والحكومة إلى حدّ ما، لانقسام المحاكم فيها إلى شرعية وغير شرعية، ولعدم دخول شيخ الأزهر في هيئة الوزارة... لكن معاليه (يقصد هيكل باشا) يتمنى فصلاً أوضح وأصرح، بأن يحذف بتاتًا من الدستور كون دين الدولة الرسمي الإسلام، كما وقع في تركيا الحديثة، أو يجرد لفظه من كل معنى حقيقي كما فعلت الدول الأوروبية بدينها المسيحي الذي يبتدئ خطأ الخاطئين من قياس الإسلام عليه... وهذا الفصل الواضح الصريح الذي هو آمال المتعلمين العصريين، وآخر منال لهم من ديننا...» «موقف العقل» (ص١٦٢).

يعقّب شيخ الإسلام بعد ذلك بقوله: «وهنا أقول سلفًا وباختصار أن (هذا) معناه خروج حكومة المسلمين من ربقة الإسلام ورقابته عليها، وخروج الأمة أيضًا من ربقته اختيارها الحكومة الخارجة عن الإسلام حكومة لها، لا سيما الحكومة المستندة إلى البرلمان المستند إلى الأمة، فمثل الفصل في تلك الحكومات كمثل المناداة بالردة حكومة وأمّة».

*** شيخ الإسلام والمجدّدون الديمقراطيون:**

«وقد يقول المجددون الأكياس (يقصد العصريين): لا حاكم هناك ولا محكوم عليه (أي في الديمقراطية الحديثة) وإنما يرد بالفعل أن يكون الدين والحكومة مستقلين لا يتدخل أي منهما في شأن الآخر. لكني أعرف جيدًا ويعرف الإسلام الذي هو أكيس منهم أنّ الجانب الذي يتولى السياسة والسلطة، لا بدّ أن يحكم على الذي تنازل عنهما (أي أن هناك حاكم ومحكوم)». «موقف العقل» (ص١٦٣).

«وبالنظر إلى أنّ بلاد الإسلام تطلق في عرف الشرع على بلاد تحكم

فيها قوانين الإسلام؛ وأن عزل الدين عن التدخل في أمور الدولة يخرج تلك البلاد من عداد بلاد الإسلام».

«وإن كانت المخالفة لمبدأ الفصل والعزل معدودة من الجمود المعيب عند معاليه (يقصد الدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب حياة محمد)، فأنا أحمد الجامدين وأحمد الحامدين للَّه تعالى على جمودي هنا». «موقف العقل» (ص١٦٣).

*** مفهوم الخلافة في فكر الشيخ:**

الخلافة، كما يعرفها شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي، هي «الخلافة التي هي بمعنى الخلافة عن رسول اللَّه ﷺ؛ عبارة عن التزام أحكام الشرع الإسلامي ممن يتولى الحكم على المسلمين؛ لأنه إنما يكون بهذه الطريق خليفة عن الرسول، وإلغاء الخلافة الذي هو إلغاء هذا الالتزام، لا بدّ وأن يترتب عليه فصل الدين عن الحكومة، وعزله (أي الدين) عن أن يكون ذا سلطة عليها، وقد حصل هذا الحال فعلاً في تركيا بعد إلغاء الخلافة، فخلفها حكومة لا دينية» «موقف العقل» (٤/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).

*** تعريف الشيخ للجنسية الإسلامية:**

«إن الإسلام جنسية.. إن جنسيته فوق الجنسيات، ذلك أن أفضل الجنسيات ما يكون سببًا لتأسيس الوجدان المشترك بين أفراد الجنس. إذ بهذا الاشتراك فقط يحصل بينهم الاتحاد الحقيقي الذي هو الاتحاد الفكري. ومن هذا لم يفضل عليه الاتحاد القومي، لعدم كفايته في تأسيس الوجدان المشترك ولعدم قابليته للتوسع السريع، فكان الاتحاد في المذهب السياسي أو الاجتماعي أقوى منه؛ ويؤيده أن الرجل تراه ينحاز إلى جانب زملائه في الحزب السياسي والاجتماعي أكثر من انحيازه إلى إخوانه القوميين» «موقف

العقل» (٤/ ٣٣٢).

* المفهوم الوطني والجنسية الدينية وسنَ القانون:

❑ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«الجنسية المعتنى بها اليوم من الأمم المتمدنة، هي الجنسية الوطنية المفسّرة بالاجتماع تحت قوانين مشتركة والاستفادة من حقوق متساوية، ولو كان المجتمعون تركبوا من أقوام مختلفة. فلا عبرة بالاختلاف القومي أمام الاشتراك في القانون الذي هو معنى الوطنية. وهذا القانون وإن كان المعتاد بل الملتزم عند الأمم المتمدنة العصرية أن يسنها المواطنون أنفسهم في برلمانهم، لكن الحصول على توحيد القلوب بهذا القانون غير مضمون كالحصول عليه بالقانون المأخوذ من الدين. بل الحصول على العدالة أيضًا غير مضمون بالقوانين الموضوعة عند البشر، وإن كان واضعها نفس الأمة التي تطبق عليها؛ لأن تلك القوانين لا تسنّ مطلقًا بإجماع آراء الأمة وإنما تسنّ بأكثر الآراء النسبية، فيكفيه أن يكون زائدًا على النصف ولو بواحد. وليس بمضمون ولا لازم أن يكون رأي هذا الأكثر حقًّا، بل يفضل خطأ الأكثر على صواب الأقل كما هو المعروف في الأسلوب البرلماني، فتكون العبرة بعدد الآراء لا بقوتها وأصالتها. وليس بمضمون أيضًا أن يكون هذا القدر من الكثرة حقيقيًا فهو صنعي على الأكثر؛ لأن النواب المجتمعين في البرلمان تدخل الشبهة في صحة نيابتهم عن الأمة بدخول أنواع الحيل في انتخاباتهم. وكل شيء في الأساليب المأخوذة من الغرب شكلي واعتباري لا حقيقي. فيقال مثلاً إن في البلاد حرية، لا سيما حرية القول والنقد، وهي محترمة غاية الاحترام، ثم يقال لكنها حريّة مقيّدة بالقانون، والقانون تضعه الحكومة مع الحزب الذي تستند إليه في البرلمان، فتكون حريّة على حساب أهوائهما، وتكون مضايقة للذين تحاولان مضايقتهم» «موقف» (٤/ ٣٣٣).

*** أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب والشريعة:**

«... لا تخلو البرلمانات من الميمنة والميسرة، ويكون الحكم لمن غلب... فظهر أن الحكم الجمهوري والديمقراطي الذي يعتبر أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب، لا يكفل توحيد أكثر القلوب فضلاً عن جميعها، ولا يخلو من محاباة بعض وضرار بعض. وقد أخذ به الغربيون لعدم وجود القانون الإلهي عندهم، بسبب عدم وجود علم الفقه المستنبط من كتابهم وسنة نبيّهم، ولا أصول فقه لديهم، ولو وجد لأخذوا به وآثروه طبعًا على القوانين البشرية. أو من ذا الذي لا يؤثر القانون الموضوع من قبل اللَّه على ما هو صنع الإنسان الظلوم الجهول؛ إلا أن يكون غير معتقد لدينه ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل اللَّه فأولئك هم الكافرون**﴾، ولم يقل كتاب اللَّه هذا القول لمجرد التشديد فيمن لم يحكم بما أنزل اللَّه، وإنما قاله تبيانًا قد تخفى على بعض الناس» «موقف» (٤/ ٣٣٤).

*** الفرق بين القانون البشري والقانون الإلهي:**

«... والقانون البشري نفسه، فضلاً عن تفسيره، لا يخلو على كل حال من أن يكون خديعة يخدع بها الناس بعضهم بعضًا، ويتخذها أداة العدالة فيما بينهم، عدالة تقسم إلى طبقتين: حاكمة، وواضعة القانون.. فهي عدالة مخلة بالمساواة، أما القانون الإلهي فالحاكم فيه هو اللَّه، والناس حتى السلطان سواء أمامه، غير محسين بثقل الحكم لكونه على السوية ولكونه من اللَّه الذي خلقهم» «موقف» (٤/ ٣٤٥).

*** من الذي يضغط لفصل الدين على الدولة؟**

«... إن الضغط على الدولة الإسلامية لكفها عن العمل بقوانين الشرع الإسلامي؛ كان يأتي في الزمن القديم من الدول الصليبية، وكان

يقتصر على مسألة التسوية بين المسلم والذمي، وكان لهم عذر في ذلك أو على الأقل عذر في الظاهر، والآن ينوب عن الدولة الأجنبية الضاغطة فريق من المسلمين المتعلمين في مدارس تلك الدول، نيابة تعدّت حدود الأصالة، غير معذورين ولا مقتصرين على مسألة دون مسألة، فهؤلاء النواب عن الأعداء (أي المثقفين من المسلمين بثقافة أجنبية خاضعين لها) أشدّ من الأعداء». «موقف العقل» (٤/ ٣٤٦).

*** مدى صحة تخويل حكومات المسلمين حرية وضع القوانين:**

«إن من الناس... (من) يخول حكومات المسلمين حرية تامة في وضع القوانين، ويدّعي أنه لا يوجد قانون يسنونه أو عمل يعملونه إلا ويسعه الإسلام؛ لأنه دين عام خالد، وهو مذهب الأستاذ فريد وجدي بك، الذي لا يرى حتى في أعمال مصطفى كمال (أتاتورك) منافاة لدين الإسلام. وهذا الرأي أسوأ من فصل الدين عن السياسة لكونه فصلاً وإنكارًا للفصل معًا. ففيه فصل ومكر وفيه القضاء على الإسلام باسم الإسلام. وقد قال انكلهارد، من سفراء فرنسا في تركيا، وفي مقدمة كتابه «تركيا والتنظيمات» (نُشر عام ١٨٨٢م): «كان الغرض العام من التَنظيمات «حركة تغريب الدولة العثمانية» هو تقريب الهيئة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التي عاشت منذ قرون، بعيدة عنها معنى وسياسة. وكان السبب الحقيقي (في هذا البعد عن الهيئة الدولية الأوروبية) في هذا الانفراد هو الدين.

وفي الحقيقة (ما زال الكلام لانكلهارد) إن الإسلام الذي كان مؤسس الحكومة العثمانية، بقي حاكمًا مطلقًا فوق الحكومة... ولكون تشكيلات (أي منظمات ومؤسسات) الأمة (العثمانية) اشتبكت بالعقائد الدينية، بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة (أي مؤسسات الأمة

العثمانية إداريًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وغير ذلك) لا تقبل التغيير كالعقائد الدينية، فوجب... إمّا إزالة الحائل (أي الإسلام) أو تخفيف وطأته. ومعناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية (يقصد الدينية التشريعية) إلى الدنيوية (أي العلمانية) بتخليصها من تأثير القوانين الدينية كما وقع في العالم المسيحي، وإما أن تخلص بالتدريج من الحدود والقيود الدينية عن طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيرًا موسعًا.

وللاحتراز (ما زال الكلام لانكلهارد) من الحالات الموجبة لاشمئزاز شعب جاهل متعصب (أي خوفًا من حدوث رد فعل لدى الشعب العثماني المسلم)... كانت الحكومة العثمانية (عندما سيطر على أمورها دعاة التغريب من الماسون الأتراك... ممثلي الثقافة الغربية في البلاد العثمانية) قد اختارت الشقّ الثاني (أي التخلص التدريجي من الأحكام الشرعية الإسلامية). (انتهى كلام انكلهارد).

وهذه الكلمة (الكلام هنا لشيخ الإسلام مصطفى صبري) المنقولة من كتاب انكلهارد... تعلن ما كان يضمره المتفرنجون الأتراك أن يفعلوه في الآونة الأخيرة بدين المسلمين، ثم ظهر مع الانقلاب الكمالي اللا ديني. وما يضمره المتفرنجون العرب في مصر وغيرها ولم يظهر تمامه بعد. «موقف العقل» (٤/ ٣٤٨).

*** فصل الدين عن السياسة والمثقّف العربي:**

❑ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري:

«إن فصل الدين عن السياسة كان أول من أثاره مبدئيًا وجاهد بالدعوة إليه الأستاذ علي عبدالرازق بك (باشا)، حيث ألّف فيه كتابًا سمّاه: «الإسلام وأصول الحكم» ونشره، وكان يومئذٍ قاضي المنصورة الشرعي. فأدّى نشر هذا

الكتاب إلى قطع صلته بالأزهر. وإن كان مبدأ الفصل قد عمل به في مصر وقطع شأوًا من العمل؛ مبتدئًا من يوم تجريد الوزارة المصرية من العضو الشرعي المسمّى شيخ الإسلام؛ والذي يكون جميع الحلّ والعقد الصادر عن مجلس الوزراء موقوفًا على موافقته، ويلي كرسيه في المجلس مقعد الرئيس متعينًا للنيابة عنه عند غيابه، ومقامه مرجع المحاكم الشرعية فضلاً عن المفتين، بل محاكم البلاد كلها، غير محكمة الجزاء والتجارة حيث يكون القاضي الشرعي رئيس محكمة الحقوق أيضًا العاملة بقوانين الشريعة الإسلامية. اطّلعت (الكلام لشيخ الإسلام) على كتاب الأستاذ علي عبدالرازق، «الإسلام وأصول الحكم»... على ترجمته إلى التركية من المسرعين الترك إلى استغلاله في أغراضهم اللا دينية قبل مجيئي إلى مصر من تركيا الغربية (في اليونان)، وكنا نصدر فيه مع ولدي إبراهيم صبري، (أستاذ اللغتين التركية والفارسية في جامعة الإسكندرية، شاعر وأديب وعالم جليل، تلقّى كاتب السطور العلم على يديه بكلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٩٧٢م، ثم درّس في جامعات ليبيا ولبنان) جريدة باللغة التركية سمّيناها يارين (الغد)، نشرتُ فيها كتابًا عن الإمامة الكبرى مجزءًا على أعداد الجريدة، ضمّنته الرد على كتاب الأستاذ (علي عبدالرازق)... نقدًا (حيث إنّه) أريد بنشره بمصر تبرير ما فعله مصطفى كمال في تركيا من إلغاء الخلافة الإسلامية وإقامة حكومة أنقرة اللا دينية. تبًّا لحكومة مبتدعة لا يكمن الدفاع عنها إلاّ بالطعن في خلافة أبي بكر وإنكار ما في حكومته من الصبغة الدينية كما فعله الأستاذ قاضي المنصورة (علي عبدالرازق) «موقف» (٤/ ٣٧٥).

* فصل الدين عن الدولة والأزهر:

هاجم شيخ الإسلام مصطفى صبري الأزهر بعنف وشدّة، أما السبب

في هذا، فإنه ـ أي الشيخ ـ كان يظن أن الأزهر سيسانده كأحد دعاة الفكرة الإسلامية أمام محاولات الشيخ في شرح علمانية النظام الكمالي، واستنهاض الشيخ لهمم المسلمين بعد إلغاء الخلافة، فإذا بالأزهر يعلن تأييده لانقلابات مصطفى كمال (أتاتورك).

في العدد ٣٩٦ من مجلة الرسالة ظهرت مقالة بعنوان «أسبوع في تاريخ الأزهر»، فيها يقول عن الشيخ الأكبر إمام الأزهر الشيخ المراغي، يقول المقال: «كان من المبادئ الجليلة التي سمعناها من فضيلة الإمام المراغي من أن الدين في كتاب اللَّه غير الفقه. وأن من الإسراف في التعبير أن يقال عن الأحكام التي استنبطها الفقهاء وفرعوا عليها واختلفوا فيها، وتمسكوا بها حينًا ورجعوا عنها حينًا أنها أحكام الدين، فإنما الدين هو الشريعة التي أوصى اللَّه بها الأنبياء جميعًا، أمّا القوانين المنظمة للتعامل والمحققة للعدل والدافعة للحرج فهي آراء الفقهاء مستمدة من أصولها الشرعية، تختلف باختلاف العصور والاستعدادات، وتبعًا لاختلاف الأمم ومقتضيات الحياة فيها، وتبعًا لاختلاف البيانات والظروف. ولو جاز أن يكون الدين هو الفقه مع ما ترى من اختلاف الفقهاء بعضهم مع بعض وتفنيد كلّ آراء مخالفيه وعدّها باطلة، لحقت عليه كلمة اللَّه: ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء**﴾».

❑ يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي في ردّه على هذا: «لا دين في الأزهر باعتراف فضيلة شيخ الأزهر وإمامه، بمعنى لا علم يدرس فيه وفي كلياته يصح أن يسمّى علم الدين، ولا صحة لما اشتهر عند الناس من كون الأزهر معهدًا دينيًّا ـ بل كونه أكبر معاهد العالم الإسلامي الدينية ـ ولا لما تواطأ عليه المسلمون، من اعتبار ما في كتب الفقه من الأحكام والقوانين أحكام الشريعة الإسلامية وقوانينها؛ فتكون ما يسمونه الشريعة الإسلامية

شريعة عندية لأناس يسمّون الفقهاء... إن ما قاله شيخ الأزهر (الأستاذ الأكبر الإمام المراغي) اعتداء عظيم... على أئمة الإسلام أصحاب المذاهب المشهورة في الفقه مثل الإمام أبي حنيفة ومالك الشافعي وابن حنبل ﷺ... (٤/ ٢٠٩، لا بدّ وأن تكون ٣٠٩) «إن لقول الأستاذ الإمام (المراغي) مغزى لم يبح به قائله، وقد خفي على محبذيه ومنكريه، وسأبديه أنا... يحاول الأستاذ الأكبر المراغي بقوله المنقول من قبل ترويج آخر آمال لهم (دعاة الفكرة الغربية) وتمزيق آخر أوصال للإسلام: وهو فصل الدين عن الحكومة، فقد رام أن يتوصل إليه بفصل الدين عن الفقه وقطع صلته به. فكأنه يقول: إن الفقه ينطوي على قوانين سنّها الأئمة والمجتهدون وهي قوانين زمنية لا دينية. وخلاصة ادعاء فصل الدين عن السياسة قد وقع من زمان قديم في الإسلام؛ منذ اتخاذ الحكومات الإسلامية آراء أئمة الفقه التي لا صلة لها بالدين، قوانين معمول بها في بلاد الإسلام، فلهذا يجوز لنا أن نهملها ونسن بدلاً منها قوانين أخرى أوفق لزماننا وسياستنا، ولا نكون إن فعلنا ذلك بدلنا ديننا إلى دين غير الإسلام، أو فصلنا الدين عن السياسة أوّل مرّة... وكان الأولى بالأستاذ الأكبر أن لا يتوسل إلى ترويج مبدئه بالاعتداء على الفقه، وإخراج أقوال الفقهاء أئمة الإسلام من الدين، بل يبقيهم في مقاماتهم المسلمة دينيًّا؛ ويقول ونحن نجتهد ونضع القوانين الجديدة مستمدين (ذلك) من الأصول الشرعية، فتكون آراؤنا أيضًا فقهًا ودينًا كما كانت آراؤهم. لكنه لم يفعل.

(إن) مقصود الإمام المراغي... هو فصل الدين عن السياسة وتخليص الحكومات في سن القوانين عن التقييد بقيود الشرع الإسلامي «موقف العقل» (٤/ ٢٠٨ ـ ٢١٥).

«... ثم إن هذه الفكرة من الأستاذ الإمام فكرة تنزيل الفقهاء أئمة

الدين الواضعين للقوانين الشرعية، منزلة واضعي القوانين الزمنية غير المتقيدين في وضعها بالقيود الدينية، تشبه ما فعله الكتاب العصريون بمصر من تنزيل الأنبياء إلى منازل العباقرة؛ منكرين لهم النبوة الميتافيزيقية والمعجزات الخارقة لسنن الكون» «موقف العقل» (٤/ ٢١٨، ٣١٨).

*** حكومة الشيخين وعلي عبدالرازق:**

«واليوم أقول (الكلام لشيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي) في كتابي هذا: ليس لأحد من عقلاء الشرق والغرب شك في كون حكومة أبي بكر وعمر مثلاً أعلى للحاكم الصالح العادل الذي يراعي حقوق الأمة ويسعى في مصالحها أكمل مراعاة مسعاة... وكنا نحن المسلمين نحمل كمال حكومة الشيخين في الصلاح والفلاح على اهتمامها بأحكام الإسلام، وعلى كمال اقتفائهما بآثار النبي ﷺ، وحتى أن أبا بكر حارب لتنفيذ قانون إسلامي يجعل في مال الغني حقًّا معلومًا للفقير. وبالاختصار كنا نعرف سر أفضلية حكومتي الشيخين من فضل الدين... لكن الأستاذ (علي عبدالرازق مؤلف كتاب الإسلام وأصول الحكم) يحاول في قطع صلة فضائلهما الظاهرة الباهرة بالإسلام؛ أن لا يعترف بفضل الدين الإسلامي في سمو حكم هذين الرجلين العظيمين الذي يشهد العالم بكونهما مقال الحكم السامي الإنساني» «موقف» (٤/ ٣٧٥).

«فالأستاذ (علي عبدالرازق) إذن كاتب دعاية وبطل رواية لا يمثل أمثالها إلا المبشرون أعداء الإسلام وأعداء مفاخره... فالأولى بسعادة الأستاذ (علي عبدالرازق) على كلا المعنيين للسعادة أن يتعجل في التأهب لذلك الموقف (أي عند الاحتكام إلى اللَّه في المحشر) بتوبة علنية يسمعها قراء كتابه الإسلام ونظام الحكم معترفة (أي التوبة) بكونه مخطئًا في تأليفه، وإني (أي شيخ الإسلام مصطفى صبري) مخطئه الصائل عليه وصديقه الحقيقي، يسرني أن

أنفعه بخطيئتي لتعمير آخرته» . . . «موقف العقل» (٤/ ٣٧٦)»[١] .

* الإمام المجدد سليمان حلمي[٢] وحفاظه على الهوية الإسلامية لتركيا أيام أتاتورك:

الإمام سليمان حلمي من الشخصيات النادرة في عالمنا الإسلامي، فهو شخص متميز في إسلامه، متميز في إرشاده، متميز في شجاعته، عمل في خدمة الإسلام طوال حياته التي بلغت إحدى وسبعين عامًا. ومن المؤسف أن هذا العالم والمرشد لم يعرفه الناس حق المعرفة وقد اشتهر كثيرون غيره كانوا أقل منه بكثير، سواء من وجهته الإسلامية الصحيحة أو الاشتغال بمنصب الإرشاد، أو من ناحية الأثر الإسلامي الذي تركه في قلوب تلامذته ومحبيه. ولهذا السبب فإنه من الشرف أن أقدم للعالم الإسلامي ما تيسر لي عن التعريف به، ولن يكون حق المعرفة به ولكنه بعض الاجتهاد لفتح المجال بعد ذلك لكتابات أخرى أكثر تعريفًا وأكثر عمقًا لشخصه وحياته وأعماله التي لا تزال تعيش بين أبنائه حتى يومنا هذا.

١ ـ حياته: (١٨٨٨م ـ ١٩٥٩م):

الإمام سليمان حلمي من طبقة العلماء الممتازين، جده هو (الحافظ قيماق)، أسرته تنتسب إلى الجد الأكبر (إدريس بك) الذي ينتسب لرسول اللَّه ﷺ وكان السلطان الفاتح في ذلك الوقت يبحث عمن يرجع نسبه إلى رسول اللَّه ﷺ ولا يزال على قيد الحياة، وحينما وجد (إدريس بك) زوجه

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب (ص٣١١ ـ ٣٣٠) ـ دار القلم دمشق.

(٢) نقلاً عن «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب (ص٣٩٤ ـ ٤٢٢)، وكتاب «الإسلاميون وتركيا العلمانية» لهدى درويش.

أخته ونصبه خانًا أي أميرًا على منطقة (الطونا) (الدانوب) ولذلك نجد أن لقبه طوناخان، وكلفه بجباية الضرائب. وبقي إدريس بك في منصبه هذا وخلفه من بعده أحفاده حتى جاء (عثمان بك) والد سليمان أفندي، وقد كانوا جميعًا من أهل العلم وأرباب القلب[1] ومن هنا يرجع وجه الشبه الكبير الذي كان بين سليمان حلمي وبين جده السلطان محمد الفاتح.

أبو سليمان أفندي هو عثمان أفندي الذي درس في إستانبول وعين مدرسًا في مدرسة (ساطرلي). رأى عثمان أفندي (والد سليمان حلمي) في منامه وكأن قطعة من جسده تخرج منه وتصعد إلى السماء وتنير ما حولها. وعندما استيقظ عثمان أفندي من نومه سأل عن تفسير هذه الرؤية فقيل له إنها تعبر عن أنه «سيأتي له ولد صالح ينشر الإسلام في العالم».

ثم تزوج عثمان أفندي وأنجب أربعة من الذكور هم: فهمي، وسليمان حلمي، وإبراهيم، وخليل. وأخذ يراقبهم لمعرفة من منهم سوف تتحقق رؤيته عليه.

*** المراحل الأولى من حياة سليمان حلمي:**

ولد سليمان بقرية (فرحاتلر) التابعة (لسليسترة) عام ١٨٨٨م (في بلغاريا اليوم) دخل سليمان حلمي مدرسة (ساطرلي) بسليسترة مع باقي إخوته، وقد كان والده عثمان أفندي مدرسًا فيها.

لاحظ عثمان أن سليمان ولده يتميز عن باقي إخوته بالذكاء والفهم وقابليته للتعليم والزهد، فتوجه عثمان إليه يخصه بالحب والرعاية والنصح، وكان يعامله باحترام وهو لا يزال صبيًا صغيرًا في سنواته الأولى، وكان يقول له: «تفضل يا بني يا سليمان أفندي» وكان سليمان أفندي يشعر بالخجل

(١) «ماذا قالوا عن المجدد الكبير» لمصطفى أريقان ـ جريدة أفق، رقم (٤٧٧).

الشديد بمعاملة والده له بهذا الاحترام حيث كان صبيًا صغيرًا، لكن والده كان يجد فيه النور الذي رآه في المنام».

أتم سليمان حلمي دراسته الابتدائية في مدرسة (ساطرلي)، والإعدادية في مدرسة (سيلسترة) وحتى يتمكن من تحصيل علوم عصره أرسله والده إلى إستانبول مركز العلم والحضارة، وقد زوده والده بثلاث نصائح هي:

١ ـ أن يكون مقتصدًا ولا يبذر ماله.

٢ ـ أن يبذل جهده ليتمكن من علم الأصول.

٣ ـ أن يدرس علم المنطق جيدًا حتى يقوى في علمه.

وعمل سليمان حلمي بنصائح والده فاهتم بدراسة علم الأصول والمنطق وتخصص فيهما. وحينما وصل سليمان إلى إستانبول زار قبر السلطان محمد الفاتح قريبه بالمصاهرة من جهة جده الأكبر إدريس بك. وهناك التحق سليمان حلمي بمدرسة (الفاتح) بإستانبول، وقد ارتضى أن يسكن الدور أسفل الأرض حيث لا ضوء ولا نافذة، وقد رضي بهذا المكان حبًا في الدراسة والعلم، وكان يدرس على يد الشيخ (أحمد أفندي البفراوي) الذي أحبه كثيرًا وقربه إليه. وقد شد سليمان حلمي انتباه الجميع لفرط ذكائه وحبه للدراسة ولشدة إعجاب الإمام بسليمان حلمي أراد أن يزوجه ابنته لكن القدر الإلهي كان غير ذلك حيث إنها توفيت إثر وقوعها في بئر.

تزوج سليمان أفندي في إستانبول من امرأة صالحة تدعى (خديجة) وبعد تخرج سليمان حلمي من مدرسة الفاتح التحق بمدرسة (دار الخلافة العالية) سنة ١٩١٣ وتخرج منها وكان من الأوائل ونجح في امتحان مدرسة القضاء وكان ترتيبه الأول، وعين قاضيًا بقسطموني لكنه لم يطلب تعيينه قاضيًا، وحينما علم والده نبأ تخرجه من الحقوق بالدرجة الأولى أرسل له برقية يقول له فيها: «يا سليمان، اعلم أنني لم أرسلك إلى إستانبول لتكون

في النار» وكان والده هنا يذكره بحديث رسول اللَّه ﷺ «**قاضيان في النار، وقاض في الجنة**»[١] ، فلم يكن يريد لابنه أن يتولى منصب القضاء، وقد كان رد سليمان حلمي في هذا الأمر أنه لم يكن يطلب منصب القضاء بل هدفه هو بلوغ مرحلة الكمال بالعلوم الدينية والدنيوية، ولقد أسعد والده جوابه هذا.

كان سليمان حلمي يبذل جهدًا كبيرًا من أجل تحصيل العلوم والبلوغ لهدفه الذي يتوق إليه، كان يقاوم النوم في عينيه حتى نزفتا، وكان يحتسي المزيد من القهوة ليقرأ المزيد من الكتب ولا يغلب عليه النعاس. وفي ليالي الشتاء الباردة كان يتناول كمية من الثلج ويلقيها بين قميصه وظهره حتى يظل مستيقظًا ولا يضيع لحظة من عمره دون دراسة.

واصل سليمان حلمي دراسته حتي نال مرتبة كبير المدرسين في فروع التفسير والحديث والفقه. ثم تخرج من (مدرسة السليمانية) بإستانبول فرع التفسير والحديث عام ١٩١٩م كما حصل على شهادة (مدرسة القضاة) فأصبح مدرسًا عامًا[٢] ، وكان صاحب اليد الطولى في علم الحقوق لكنه لم يقبل منصب القاضي، درس سليمان أفندي القانون الروماني، والقانون

---

(١) ونص الحديث: عن بريدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «القضاة ثلاثة واحد في الجنة واثنان في النار»، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار» رواه أبو داود والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم «الترغيب والترهيب» (ج٣)، كتاب القضاء، (ص٣١٣). وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٣٢٢)، و«الإرواء» رقم (٢٦٠٣).

(٢) المدرس العام يوازي مرتبة الأستاذ في الجامعة، وكان لها الحق بمنح إجازة علمية (أجازتنامه) لتلامذته بعد اجتيازهم للامتحانات التي يعقدها لهم والتي تعطيهم حقًا للتدريس بعد الحصول عليها.

البحري والتجاري والقانون الدولي المقارن مع الشريعة الإسلامية في كلية السليمانية. قام بالتدريس عام ١٩٢١م لكن حياته التدريسية لم تستمر طويلاً حيث انتهت بإغلاق المدارس الدينية؛ حسب القانون الذي صدر في عهد أتاتورك عام ١٩٢٤م.

*** صفات الإمام سليمان حلمي: «نخدم الدين والإسلام ونقبل أن نكون مكان الأحذية في سبيله»:**

كان سيدًا بلباسه النظيف البسيط، وقور، ويدعو من يراه لأول مرة أن يحترمه ويعظمه، كان يقابل من يضايقه بابتسامة ومحبة وطيبة قلب، كان يطعم رجال الشرطة الذين كانوا يأتون لتفتيش منزله ويأمر أهل بيته بحسن ضيافتهم. كان يفطر مع رجال الشرطة الذين يأتون للقبض عليه إذا كان يوم صيام فكانوا ينضمون لصفوفه ويصبحون من تلامذته. كان شديد العطف والشفقة خاصة على أبنائه الطلبة حتى أنه إذا مرض أحدهم كان يذهب به إلى الطبيب بنفسه.

كان يواجه الشدائد بوقار وصبر ويقين، لم يعرف اليأس يومًا، لم يهدف يومًا إلى تحقيق غاية أو منصب دنيوي ويقول: «نخدم الدين والإسلام ونقبل أن نكون مكان الأحذية في سبيله»، كان ينفق كل ما يتقاضاه من راتبه على تلامذته. كان عابدًا مؤمنًا، يتهجد الليل، ولا يفوته صلاة الضحى صلاة الأوابين، كان يقرأ قبل وبعد صلاة الفجر أوراده وأذكاره.

كان مرشدًا كاملاً، وعالمًا عاملاً، ومجددًا وإمامًا.

كان عذب الحديث لا يتكلم فيما لا حاجة له، يتحاشى الإكثار من تناول الطعام.

❑ يقول الكاتب والأديب نجيب فاضل عن سليمان أفندي: «تعرفت على سليمان أفندي عام ١٩٤٦م ومن النظرة الأولى أدركت أنني أمام مثقف

وعالم حقيقي طاف كثيرًا من البلاد ومفكر مسلم».

أما رؤية المراقب السابق لدار إفتاء إستانبول ويدعى (مناسترلي سليمان) فهي أن سليمان أفندي حينما يتناول تفسير مسألة فهو يستند في أحاديثه على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، «دائمًا يقرأ اللغة العربية كان مدرسًا عثمانيًا بكل ما تحمله الكلمة من معان».

أما تلميذه «محمد امره» وهو مفتٍ سابق فيحكي عن أستاذه قائلاً: لقد تصدى أستاذي للظلم الذي وقع عليه في حياته بالعلم والحلم، وكان يدعو بالخير والصلاح لمن ظلمه.

*** نشاط سليمان حلمي بعد حياته الدراسية والظروف التي أحاطت به:**

لم يمهل القدر سليمان حلمي أفندي من مواصلة خدماته الدينية بصورة علنية ورسمية عن طريق المدارس. وقد كان يعمل ويخدم في وقت تسود الدولة الفوضى والاضطرابات. وقد وقع الانقلاب العثماني عام ١٩٠٩م وهو ما يزال طالبًا في المدرسة. فكان من معارضي الانقلاب ومن مؤيدي الخلافة وكان يرفض كل ما له علاقة بالتغريب.

ومن الغريب أن في ظرف خمس سنوات من حصول سليمان حلمي على إجازة التدريس، حدثت في حياة تركيا أحداث فيصلية هي: تكوين مجلس الأمة الكبير، وإلغاء السلطنة وانتهاء الدولة العثمانية من الوجود ونفي السلطان محمد وحيد الدين، وإعلان الجمهورية وتنفيذ قانون توحيد التدريس أو توحيد المدارس وجعلها كلها تحت سلطة واحدة.

وحينما قدم واصف بك عضو مجلس الأمة التركي عن (صاروخان) ومجموعة من زملائه قانونًا إلى مجلس الأمة يقضي بإلغاء المدارس الدينية على كل مستوياتها، وكذلك كل مؤسسات التعليم الديني في البلاد وجعل التدريس والمدارس كلها تابعة للدولة ولسياستها (العلمانية) عام ١٩٢٤م،

كانت جمعية المدرسين الدينيين في البلاد تضم ٥٢٠ مدرسًا، وكان يعني هذا القانون فصل كل هؤلاء المدرسين. وأرادت الدولة أن تعينهم في أماكن ووظائف أخرى هم أكبر علميًّا من مستواها مثل أئمة في المساجد أو وعاظًا، أرادت إحالة بعضهم إلى التقاعد. واستجاب أعضاء هذه الجمعية إلى الأمر الواقع إلا سليمان حلمي فقد أحس أن هذا معناه أن يفقد الأتراك العلوم الدينية والعلوم القرآنية.

واصل سليمان حلمي خدماته الإسلامية والتعليمية فعمل واعظًا في مساجد السلطان أحمد والسليمانية والجامع الجديد وشهزاده باشى وقاسم باشا وكثير من المساجد الأخرى ولم يخل مسجد في إستانبول من خطب الإمام سليمان حلمي ومواعظه.

❑ في هذه الأثناء حذر سليمان حلمي زملاءه المدرسين من خوفهم من الحكومة واستسلامهم للأمر الواقع فدعاهم وخطب فيهم قائلاً: «إخواني المدرسين.. إنكم هذا اليوم ضمانة الدين في هذا البلد فعددنا خمسمائة تقريبًا. فلو قام كل واحد منا بتعليم أمور الدين لثلاثة أشخاص في البيوت لأمكننا أن نربي ألفًا وخمسمائة شخص تربية دينية إسلامية. فيمد اللّه بهم من عمر الإسلام خمسين عامًا على الأقل وهو عمل جيل أو جيلين». وكان يحثهم على ألا يخشوا في اللّه لومة لائم[1].

❑ فاقتنع البعض وبعثوا برقية إلى الحكومة قالوا فيها:

«نعلم أن دولتنا خرجت من الحرب قبل وقت قصير وشعبنا فقير والدولة لا تتحمل المصاريف»، إننا مستعدون لتعليم أبنائنا العلوم الدينية بلا

(١) مجلة كينج اقادمي، العدد الخاص عن سليمان حلمي طوناخان، عدد رقم ٢٧، إستانبول، ١٩٩٥م، (ص١٧).

مقابل فأجابتهم حكومة أنقره قائلة: «لقد تم قبول قانون توحيد المدارس وكل عمل يخالف هذا القانون يستوجب العقوبة الشديدة».

فقرر المدرسون عند ذلك أن التدريس غير ممكن في ذلك الوقت. وفي هذه اللحظة قرر سليمان حلمي العمل بمفرده رغم المخاطر والعقبات فأول ما قام به، هو تدريس الطلبة خفية، حيث اعتبر نفسه مسئولاً أمام اللَّه في تعليم دين الإسلام للطالبين له وكان يقول: أنه يخشى يومًا يسأله اللَّه فيه ويقول له: يا سليمان ماذا فعلت بالعلم الذي أعطيتك؟ هل أعطيتك العلم لتدفنه في الأرض؟ فماذا أجيب؟ وكان ينتقد العلماء في عصره ويقول: كيف يدعي هؤلاء بأنهم ورثة الأنبياء وهم عاجزون عن تعليم أولادهم. وكان سليمان حلمي يبحث عن أحد يعلمه فلا يجده؛ لأن الناس كانت تخشى الحكومة فبدأ بتعليم ابنتيه في البيت على أن تقوما بتعليم زوجيهما وأولادهما فتنفعان نفسيهما وأسرتيهما.

❑ الوسائل التي لجأ إليها سليمان حلمي لجمع الطلبة:

ولقد واجه الإمام سليمان حلمي صعوبات كبيرة في جمع الطلبة وتعليمهم لكن ما لبثوا أن انجذبوا إليه وارتبطوا به ارتباطًا وثيقًا حيث كان يشعل في قلوبهم حب الدراسة.

كان إذا مرض أحد تلامذته يذهب به إلى الطبيب بنفسه. وكان يدفع الإمام سليمان حلمي أجرًا لطلبته على تعليمهم وذلك من أجل تشجيعهم لخدمة الإسلام. وقد استحدث هذه الطريقة ـ صرف أجر للطالب ـ وظل ملتزمًا بها.

كان حتى مماته يحل مشاكل تلامذته ويعدهم إعدادًا نفسيًّا ومعنويًّا. كان أبًا رحيمًا وأستاذًا مربيًا. وكان يشجع تلامذته على تعلم دين اللَّه ويقول لهم: إن دين اللَّه شرف لا يعلوه شرف في الدنيا والآخرة. وكان الطلبة

يأتون إليه من قرى الأناضول للدراسة وهم في زي الفقراء فيعودون إلى أهليهم وكأنهم من أغنياء إستانبول.

*** الوسائل التي اتخذها سليمان حلمي لتعليم تلاميذه:**

أما الوسائل التي اتخذها الإمام سليمان حلمي لتعليم أبنائه:

❑ تبديل المكان باستمرار:

كان الإمام سليمان حلمي يعطي الدرس لطلبته فكان يدرس يومًا في غرفة المؤذن في جامع شهرزاده باشي ويومًا آخر في بيت أحد أتباعه في أحد أحياء إستانبول. كما كان يجمعهم في أقبية المباني التاريخية القديمة. وقد لجأ الإمام إلى تعليم الطلاب في الأدوار السفلية من المباني ويقول لهم: «المهم أن تنجح دعوتنا ولا نهتم بالمناصب، ونقبل أن يصبح مكاننا مكان الأحذية في المساجد». وكان يدرس لهم كل يوم في مكان مختلف عن سابقه ويقول لهم: «علمتكم ونقلتكم من مكان إلى مكان كالقطة التي تنقل صغارها، ولم يكن الإمام يتقاضى شيئًا نظير عمله وكان يعيش على الكفاف[1].

❑ استئجار المزارع:

كان الإمام سليمان حلمي يستأجر مزرعة (قاباقجا) ويخبئ طلابه في زي العمال يزرعون الأرض في الصباح ويبدءون درسهم في المساء وحينما كانت تكتشف الشرطة مكانهم كانوا يحملون كتبهم ويذهبون إلى مكان آخر.

❑ إرسال طلابه خارج البلاد وإعدادهم للدعوة:

كان ينصح تلامذته بالذهاب خارج البلاد فيفتحون دور القرآن ويعلمون

---

(١) هدى درويش، جريدة الأحرار، «الشيخ سليمان حلمي وإحياء الإسلام في تركيا»، عدد ٢٠٠٣، ١٩٩٧/٧/٢٠م.

أولاد البلد الذي يذهبون إليه وكان يوصيهم بقوله: «اذهبوا إلى مناطقكم وافتحوا دور القرآن والمساكن للطلاب هناك وعلموا أولاد أمة محمد ﷺ كتاب اللَّه ودينه. فإذا قمتم بما أقول فأنا داع لكم وإلا: فإني ممسك بخناقكم».

*** موقف الإمام سليمان حلمي تجاه الحكومة:**

شهدت تركيا في العهد الجمهوري عدة إجراءات اتخذها مصطفى كمال أتاتورك لإزالة كل أثر إسلامي أو تراث قديم للدولة العثمانية وتتريك كل ما هو عثماني أو عربي، وذلك لإزالة الصلة التي تربط بين الإسلام والدولة، والوصول إلى الهدف المطلوب ألا وهو فصل الدين عن الدولة.

كان الإمام سليمان حلمي من بين علماء الدولة المسلمين الذين رفضوا إجراءات الحكومة وكل عالم كان له أسلوبه وطريقته، إلا أن الإمام سليمان حلمي اتجه بكليته نحو دراسة القرآن الكريم وتحفيظه واتخذه الوسيلة الوحيدة لإنقاذ المسلمين من ضياع إسلامهم وثقافتهم التي تربوا عليها قبل ذلك. وقد كان الإمام سليمان حلمي أهلاً لتدريس العلوم الدينية، واختار التدريس للطلبة على الرغم من الضغوط التي كانت تمارسها الحكومة آنذاك في وقت كان الناس يخشون نطق كلمة التوحيد، فقد كان الجو الإرهابي سائداً حتى أن الناس منعت من أداء أركان الإسلام أو ختم القرآن أو الصلاة وكان المسلمون يخفون إسلامهم.

❑ وقد تحدث وزير الداخلية التركية في إحدى جلسات مجلس الأمة الكبير قائلاً:

«إن الأديان مؤسسات انتهت مهامها ولم تستطع أن تجد لها عضوية أو حياة».

وقد حدث أن طالب أحد النواب البرلمانيين تطبيق الدروس الدينية

كعمل مضاد لخطر الشيوعية. فما كان من (رجب بكار) رئيس الوزراء في ذلك الوقت إلا أن قال له: «إن هذا الأمر يعني التداوي بسم آخر قاتل مثل سم الشيوعية». وقد اعتبر رئيس الوزراء أن تدريس العلوم الدينية الإسلامية هي سم قاتل.

وفي ٣ مارس ١٩٢٤ صدر قانون يقضي بإحالة كافة المؤسسات التعليمية التابعة للوزارات المختلفة إلى وزارة التعليم القومي وهو قانون توحيد المدارس الذي يهدف إلى تركيز السيطرة العلمية في سلطة واحدة.

وكان الإمام سليمان حلمي ضد إلحاق مدارس الأئمة والخطباء بوزارة التعليم الوطني، وعارض ربطها برئاسة الشئون الدينية.

وقد أغلق مجلس الأمة الكبير عدد ٤٦٥ مدرسة علمية، و٢٩ مدرسة من مدارس الأئمة والخطباء.

وكانت الحكومة تنزل أقصى العقوبة على من يتولى مهمة تدريس الدين بصفة غير رسمية.

وقد أدت هذه الإجراءات إلى بطالة نحو ٥٢٠ مدرسًا أجبروا على التقاعد، وقد استسلم أكثرهم للأمر الواقع على الرغم من تنبيه الإمام سليمان لهم بأن يعلموا أبناء المسلمين، ولو تركوا هذا الأمر فسوف يسألوا أمام اللّه عليه، ولكن للأسف لم يجد صدى فقام بالجهاد في هذا الأمر بمفرده. وكان ذلك العهد هو عهد الحزب الواحد وكان التدريس يقابل بأقصى عقوبة.

وقد أعلن المدرسون وقتذاك، أن التدريس لم يعد وسيلة للكسب قائلين «فلنودع هذه المهنة» إلا أن سليمان حلمي أجابهم غاضبًا: «أن التدريس ليس سلة خبز، فهي تبليغ كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ للناس». وهكذا بدأ كفاح سليمان حلمي في خدمة الدين.

وقد تحدث الإمام سليمان حلمي عن هذه الفترة قائلاً: «لم أجد من

أدرس له. وقد جاء يوم تمنيت أن أدفع للطالب راتب نائب كي أدرس له، لكن لم أجد ذلك الطالب، كانوا يخافون، وصرت أخاف من زوال هذه العلوم من على وجه الأرض. فبدأت بتدريس بناتي على أن يعلمن أحفادي ثم بعد ذلك خلق اللّه الأسباب، وبدأت أدرس للكهول وبعد ذلك جاء الشباب».

وكانت تعقد الجلسات لتداول المسائل الدينية، وكانت تجمع المحامي والتاجر والشيخ والخياط وتتشكل حلقات الدرس، وكانت الشرطة تتعقبهم فتقوم باعتقالهم واستجوابهم وتعذيبهم واضطهادهم، فكانت كل ما تكتشف الشرطة وجودهم في مكان ينتقلون إلى مكان آخر، وكان الإمام سليمان حلمي يقول: «ليس التعب يضنينا ولا الإزعاج يثنينا، سنسارع إلى نداء التعلم والتعليم والخدمة حتى وإن أدى بنا إلى الموت».

أما بخصوص ثورة الحروف وتغييرها من العربية إلى التركية فلم يؤيدها سليمان أفندي بل انزعج منها كثيراً فقد عبر عنها بقوله:

«إن أضر ما يكون بالإسلام والإيمان والعادات والتراث والصناعة والتجارة والزراعة أن تلغى الحروف الإسلامية على هذا النحو الذي شاهدناه». وتغيير الحروف كان يعني قطع صلة الإنسان بماضيه وثقافته وترك الكتب العلمية والفكرية التي لا تقدر بثمن على الرفوف نهبًا للغبار أو التلف، والأسوأ من هذا هو فقدان الهوية الأصلية».

وفي هذه الفترة قامت أحداث كثيرة أثارت حفيظة المسلمين حيث كانت الشرطة تقوم بتعليق العلماء على أعواد المشانق كما أحرقت المصاحف والكتب الدينية ودفنت بعضها في الأرض. وفي ذكرى تأسيس الجمهورية العاشرة قامت الشرطة بجمع المصاحف والكتب الدينية ووضعتها على الإبل ليشدها رجل يرتدي زي أعرابي يقوم بجرها نحو الجزيرة العربية وقد علقت

على رقاب الجمال لافتة تحمل عبارات تقول: «جاءت من الصحراء ولتعد إلى الصحراء» و«جاءت من العرب فلتذهب إلى العرب» وغيرها من العبارات الاستفزازية. وحولوا الأذان إلى اللغة التركية. ولم يجد الناس من يصلي بهم الجنازة أو صلاة العيدين. فاختبأ عوام المسلمين من الناس خوفًا أو جهلاً.

* موقف الحكومة من الإمام سليمان حلمي والمصاعب التي واجهها في سبيل دعوته:

كان الإمام سليمان حلمي يخاطب رئيس الوزراء عدنان مندريس في مواعظه ويقول له: «يا مندريس افتح آيا صوفيا، وليكن هذا الشرف من نصيبك» لكن مندريس لا يسمع هذا الخطاب أو يسمع فلا يفعل شيئًا. وقد سيق الإمام سليمان حلمي إلى سجن كوتاهية في مؤامرة دبرت له في (بروسة) وكان مضطهدًا من قبل الحكومة أيما اضطهاد حتى بعد موته، فعند دفنه قال نامق كديك وزير داخلية حكومة الحزب الديمقراطي التي يرأسها مندريس: «لن نسمح بنقله إلى الجهة المقابلة، سيدفن في حفرة حفرها رجال الشرطة بمقبرة قراجة أحمد» وكانت الحكومة قد رفضت طلبه بدفنه بجوار جده السلطان محمد الفاتح على الرغم من حصوله على كافة الأذونات لأجل هذا الغرض.

وعلى الرغم من معارضة الإمام سليمان حلمي للحكومة ورئيس وزرائها عدنان مندريس، إلا أنه لم يفكر في تكوين أي تنظيم سياسي، وكان طلابه يصوتون في الانتخابات ومنهم من ترشح للنيابة ورئاسة البلدية، ويعبر عن هذا قول الإمام سليمان: «ظاهرنا مع الخلق، باطننا مع الحق».

لكن في الوقت نفسه كانت له مواقفه تجاه قضايا المسلمين في العالم،

ففي الجزائر كان لسليمان حلمي موقفه الحاسم مع مسلمي الجزائر الذين كانوا يكافحون لنيل استقلالهم من الاحتلال الفرنسي، فقد نادى تركيا بمؤازرة مسلمي الجزائر ضد الفرنسيين، ومن خلال خطبة له في المسجد قال فيها:

«يجب علينا أن ندعو لإخواننا الجزائريين، فنكون بذلك عونًا لهم، إن مسلمي الجزائر ساعدونا في حرب الاستقلال وتبرعت النساء الجزائريات بحليهن وأساورهن وخواتمهن» وقد لقي خطابه هذا صدىً واسعًا لدى مسلمي الجزائر، وبسبب مقولته هذه في حق الجزائريين لنيل استقلالهم فقد تعرض لمساءلة الشرطة والتحقيق معه. وقد جاء في دفاعه عن نفسه في هذا التحقيق ما يلي على حد قول سليمان حلمي: «من خلال تعرضي في الحديث عن حروب الجزائر ذكرت أن إخواننا الجزائريين قدموا لنا مساعدات خلال الأيام العصيبة من حرب الاستقلال التي خضناها في الأناضول، وإننا مدينون لهم بمساعدتهم بالدعاء. لقد رفعت يدي بالضراعة قائلاً: اللّهم انصر إخواننا في الدين على الفرنسيين الظالمين لكني لم أتطرق إلى موضوع قيام الصحافة بالدعوة إلى تقديم مساعدات سواء مالية أو غيرها، ولم أتحدث إلى الصحفيين في هذا الأمر». وهكذا نرى أن دعاء سليمان حلمي للمسلمين كان يؤدي إلى سلسلة من التحقيقات واستدعاءات الشرطة له.

وقد تعرض الإمام سليمان حلمي للاعتقال أول مرة عام ١٩٣٩م حيث أخذته الشرطة من منزله واعتقلته ثلاثة أيام، تعرض خلالها للتعذيب داخل زنزانته، ثم اقتيد إلى محكمة الجنايات.

ثم أقيل من عمله في الوعظ لأنه تكلم كلامًا يتعارض مع مبادئ العلمانية التي اتخذتها الدولة، وكان ذلك ثم أُعيد إلى عمله مرة أخرى عام ١٩٥٠م وذلك بعد سلسلة من التحقيقات.

وفي عهد (عصمت إينونو) اعتقل مرة أخرى وألقي في زنزانة لمدة

ثمانية أيام تعرض خلالها لأنواع من العذاب، حيث كانت زنزانته تضاء بمصابيح شديدة القوة تمنعه من النوم أو مجرد النظر، وكانت الأرض ترش بصفائح المياه التي لا تعد ولا تحصى؛ وذلك كي يصاب بأمراض الرطوبة وبالفعل فقد أصيب بالروماتيزم. وبعد معاناة حكمت المحكمة ببراءته من التهم الموجهة إليه.

وفي عام ١٩٣٦م علمت الشرطة باستئجاره مزرعة (خالد باشا) ليقوم بالتدريس فيها لطلابه، فاضطر لتغيير المكان حتى إنه أخذ طلابه وصعد بهم إلى قمة جبل يسمى (قوش قايا) بجبال سترانجه، ولكن الشرطة لحقت به مرة أخرى هناك فقبضت عليه واقتادته إلى المركز لاستجوابه. كان الإمام سليمان مراقبًا مراقبة مستمرة من قبل رجال الشرطة، وقد حدث في يوم من أيام رمضان أن أخذ الإمام سليمان الشرطي المكلف بمراقبته إلى منزله وقال له: «يا ولدي إنني أعلم أنك صائم فلنفطر معًا ثم تعود إلى عملك مرة أخرى»، وحينما اعترضت زوجته على ذلك قال لها: «إنه موظف يقوم بما تمليه عليه وظيفته»، وقد أثر هذا الموقف في نفس الشرطي تأثيرًا قويًا حتى أنه التحق بطلاب الإمام وأصبح من أخلص أتباعه.

وفي عهد الحزب الديمقراطي دبرت مؤامرة للنيل من سليمان حلمي، وقد دبرت من قبل (جلال بايار) رئيس الحزب الديمقراطي مع (عصمت إينونو) واشترك في التخطيط لها كل من (نامق كديك) وزير الداخلية (وأحمد إحسان غورصوي) نائب كوتاهية وصهر (جلال بايار)، كما اشترك في تنفيذها عدد من الولاة والبيروقراطيين ورجال الشرطة السرية. وعرفت هذه المؤامرة (بأحداث منمن). وكانت أحداث هذه المؤامرة هي: أنه في يوم الجمعة توجه بعض الرجال إلى المسجد الكبير وأخذ أحدهم السيف من يد الخطيب وصرخ: «أنا المهدي» وصار آخرون يهتفون: «جاء مهدينا» فعمت

الفوضى وأخذ شرطي يطلق النار في الهواء فتفرقت الجموع وانفضت صلاة الجمعة في ذلك الوقت، وصدرت الصحف في اليوم التالي معلنة: «ظهور الرجعية»، وتم القبض على أتباع الإمام سليمان واعتقلوا الإمام سليمان حلمي وزوج ابنته (كمال قاجار) وسيقوا إلى سجن كوتاهية حيث بقي الإمام سليمان هناك مدة تسعة وخمسين يومًا، ثم حكمت المحكمة ببراءته من هذه التهمة. وبعد الحكم قال سليمان حلمي لهيئة المحكمة: «أشكركم لأنكم أنجيتموني من الإعدام التدريجي». وقد أثرت هذه الأحداث على الإمام سليمان تأثيرًا قويًا، حتى أنه عبر عن هذه الفترة التي قضاها في سجن كوتاهية بقوله: «لم أر الشمس في النهار ولا النجوم في الليل طوال فترة شهرين، لكني أحمد اللَّه ولا أشتكي لأن كل هذا في سبيله». وقد طلب منه أبناؤه أن يستريح بعد هذه الفترة التي عانى فيها العذاب خلال شهرين، لكنه رفض طلبهم قائلاً لهم: «يا أبنائي، سنعوض ـ إن شاء اللَّه ـ ما فاتنا خلال هذين الشهرين»، وقد ضحى الإمام سليمان بصحته وحياته من أجل خدمة الإسلام والمسلمين[1].

*** مدارس الإمام سليمان حلمي:**

قامت الحكومة عام ١٩٤٩م بفتح المدارس الدينية وذلك نتيجة لضغط المسلمين، وبعد وصول الحزب الديمقراطي الحكم عام ١٩٥٠م بدأت النشاطات الإسلامية تتطور، وتحقق حلم الإمام سليمان حلمي وصار التعليم يدرس في مدارس رسمية بعد أن كان التعليم يقتصر على غرف المؤذنين، وفي المزارع، وعلى رءوس الجبال، وفي الأدوار السفلية من العمائر. كان يعلم الناس وقت لم يكن هناك إمام المسجد وكان الموتى ينتظرون من يدفنهم،

(١) جريدة مللي غازته، ذكريات مع سليمان أفندي، إستانبول، ١٩٩٢م، (ص٣).

وكانت نشاطات سليمان حلمي تحت المراقبة والتفتيش المستمر. ويرجع تاريخ افتتاح أول مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم التابعة لجامعة الإمام سليمان حلمي إلى عام ١٩٥١م. وكان هذا بشكل غير رسمي، أما أول مدرسة لتحفيظ القرآن على منهج الإمام سليمان فقد كان رسميًّا عام ١٩٥٢م. وبافتتاح هذه المدرسة صار يرسل طلابه المتفوقين إلى الأناضول، ويطلب منهم أن يفتحوا مدارس هناك ويقوموا بمهمة التدريس فيها، وكان يتابع نشاط طلابه في فتح المدارس على خريطة تبين له كافة الأماكن التي فتحت فيها هذه المدارس.

وقد وجه تعليمه إلى الناشئين لتدريس القرآن وحفظه، فتتكون النواة وتتوارث الأجيال تعليمه فيضمن استمرار الإسلام ودوامه في القلوب.

وقد كان الإمام سليمان حلمي شديد الحرص على افتتاح مدارس القرآن في الأناضول، وإذا سمع خبر افتتاح مدرسة من المدارس في أي مكان كان يقوم ويسجد شكرًا للّه. وكانت رئاسة الشئون الدينية تقيم مسابقات للوعظ والإفتاء، كان الإمام سليمان يرسل طلابه للاشتراك في هذه المسابقات، فكان طلابه هم الذين يتفوقون على باقي الشباب على الرغم من صعوبة الأسئلة في الفقه وعلم الكلام والمنطق والتفسير والنحو والصرف والمواريث والحديث. وحينما كانت اللجنة الفاحصة تسأل أحد المتفوقين وتقول له: من الذي علمك؟ فكان الجواب: سليمان أفندي! عندئذ أراد رئيس الشئون الدينية وكبار الرسميين فيها في ذلك الوقت زيارة الإمام سليمان حلمي ورؤية ذلك المعلم الفذ الذي خرَّج على يديه هؤلاء المتفوقين».

وقد تخرج طلاب من أبناء الإمام سليمان شغلوا مناصب هامة في الإفتاء والوعظ لدى رئاسة الشئون الدينية، ومنهم (حسني يلماز) والذي كان مفتيًا لمدينة (باليكسير) وعمره ثمانية عشر عامًا.

وقد جاء في عناوين الصحف خبر يقول: «تعيين أصغر مفتٍ

لباليكسير» وهو أحد أبناء الإمام سليمان حلمي.

❑ وجاء وصف هذه المدارس على حد قول الأستاذ نجيب فاضل، الكاتب والشاعر والمفكر الإسلامي الشهير: «عرّفني سليمان أفندي على هؤلاء الطلبة فدهشت لأمرهم كمن يدهش من العثور على كنز في حديقة بيته، كنت أظن أن عمل هذه المدارس هو التكرار والحفظ، لكني رأيت أن هذه المدارس بأيدي مسئولين أطهار، هم مهرة في تعيين هدفهم وتشخيص مشاكل مجتمعهم، ويمكن أن أقول إنه لا توجد في تركيا مؤسسة مثلها في الوحدة والحجم. والرباط الذي يربط هؤلاء الأشخاص هو الشريعة، والمدارس القرآنية هذه تستمد قوتها من هذه الرابطة، وإنني إذ أعتبرها أنقى وأصفى العروق في الجيل الإيماني الجديد فمرجعه هو هذا الرباط».

وكان نجيب فاضل يقول أيضًا: «من المؤسف أن بعض العناصر التابعة لرئاسة الشئون الدينية كانوا يشعرون بالضيق من هؤلاء الشباب، فعملوا على إبعادهم عن المؤسسات التابعة للشئون الدينية فاضطر بعضهم إلى الاستقالة».

وقد عارضهم نجيب فاضل بقوله: «إن الذين يتطاولون على المجموعة المعروفة في مجال التعليم الديني بالسليمانيين ويعرقلون نشاطاتهم، ما هم إلا ردود أفعال ناتجة من البعد عن الحقيقة ومن الحسد وعدم الثقة بالنفس».

كانت هذه المدارس منتشرة في كل مدينة وكل قرية وكل حي، وهي على قدر كبير من النظام والانتظام والرابطة الأخوية بين الطلبة.

ومن الأمور التي أدهشت الجميع في هذه المدارس هي طريقة تعليم العلوم القرآنية في فترة قصيرة وعلى أكمل وجه. وكان منهج الإمام سليمان حلمي في التدريس يختلف عن مناهج المدارس الأخرى، وكانت تتلخص في التطبيق الذي يساعد على تنشيط الطالب تنشيطًا مستمرًا، وكانت طريقة الإمام سليمان في التدريس أن يجعل الطالب يقرأ الدرس بنفسه، وتكون

مهمة المدرس هي إكمال نواقص الطالب، فيكتسب الطالب ثقة بنفسه، وتكون المادة أكثر رسوخًا في الذهن.

كان سليمان أفندي يقوم بالتدريس لطلابه من أمهات الكتب العربية في المدارس العثمانية، وكان يقوم بتعليم الإسلام باللغة العربية التي هي المصدر الأصلي للعلوم الإسلامية، ولم يصرف وقته في تأليف الكتب حتى يتمكن من قضاء كل وقته في تعليم طلابه الإسلام وخدمة الإسلام.

وقد سئل عن الأسباب التي جعلته يتحاشى تأليف الكتب فأجاب:

«نحن نعلم ما نعلمه للأجيال فتقوم هذه الأجيال بتأليف الكتب، نحن نعد الآثار التي تؤلف الكتب، وقد رأيت بعض الكتب التي لا تقدر بثمن دفنت في التراب وتلفت، فخير لنا أن نربي طلابًا يفهمون الكتب العلمية ويفهمونها لغيرهم، فينقلون العلوم من السطور إلى الصدور».

وهناك سبب آخر لعدم تأليفه الكتب هو أنه خشي على طلابه من أن ينصرفوا إلى قراءة كتبه ويفضلونها على قراءة القرآن، فيهجرون القرآن ولهذا صرف النظر عن الكتابة.

أحيا الإمام سليمان حلمي الإيمان والعقيدة والعبادة، وأضاف إلى منهج التدريس كتب المتون.

نجح الإمام سليمان حلمي في تدريس الكتب التي تحتاج إلى خمسة عشر عامًا واختصرها إلى خمس سنوات، وسبب هذا النجاح هو صفاته المعنوية وإخلاصه في خدمة الدين.

وقص أحد محبيه ويدعى «الحاج علي شكر» كيفية تدريس الإمام سليمان حلمي الدروس لطلابه وطريقه شرحه قائلاً:

«ذهبنا في أحد الأيام مع الحاج مصطفى أفندي القونوي إلى مدرسة القرآن في قصيقلي، وأثناء الحديث مع فضيلة الإمام سليمان نادى أحد تلامذته قائلاً له: هيا اقرأ يا ولدي، فبدأ الطالب يقرأ نصًا من الكتاب وصار

يشرح ما يقرأ بقدر فهمه بينما كان الإمام يكمل نقص الطالب، وبعد إجابة الطالب صار الإمام يشرح الدرس بطريقة أسهل وأسرع ثم يشجع الطالب للقراءة مرة أخرى، وبينما الطالب يقرأ يقول له الإمام:

«اقرأ يا بني، انتبه للضمير.. ستقرأ من الباب.. لا تنس نائب الفاعل.. فأعجبنا بطريقة تدريسه حتى وددت أن أقرأ الدروس بين يديه على الرغم من كبر سني».

كان الطالب يشترك في الدرس والأستاذ يكمل النواقص فيتخلص الطالب من الخجل والخوف، كما أن تنبيهات الإمام وتذكيره له ببعض النقاط كان حافزًا له لتثبيت معلوماته.

وكان كتابه المطبوع الوحيد هو «ترتيب جديد وطريقة حديثة في تعليم قراءة حروف وحركات القرآن الكريم» وقد اختصر هذا الكتاب تعليم قراءة القرآن من شهور إلى أيام، فكان يقول: «الآن وقت السرعة وليس وقت إطالة التدريس»، ويستعيض عن الحفظ بفهم خلاصة الدرس، وكان طلابه يقرءون الدرس قبل أن يدرسوه أمام شيخهم.

وكان يعتمد في تدريسه على «الحب» فكان يحب طلابه ويحبونه ويحبون تعليمه ويقبلون عليه بالحب والشوق لأحاديثه، فالحب جعل الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٠ ـ ١٢ عامًا يعتلون المنابر والمنصات، وبالحب ضمن استمرارهم رغم الشدائد والعقبات، كان يحرص على ألا يدخل الملل القلوب، فكانت دروسه يتخللها الحديث عن ذكرياته وأحاديثه العذبة، فلا يتعب طلابه ويشعرون بالراحة والاستمتاع بالدرس.

كان يعلم طلابه طريقة الحديث واللباس، فكان مربيًا، يقول في حق طلابه: «إن أبنائي يأتون نحوي وأرجلهم تجر نعالهم، ويعودون وهم أسياد من أسياد إستانبول» كان طلابه يحبونه أكثر مما يحبون آباءهم وأمهاتهم، وقد

سئل يومًا عن سر هذا الحب الذي بينه وبين طلابه فأجاب قائلاً: «الأب والأم هما السبب الظاهري في مجيئهم إلى الدنيا، بينما نحن نجتاز بهم عالم البرزخ والحشر والصراط لنوصلهم إلى الجنة والجمال الإلهي»، وكان هذا جانب من جانبه الروحي مع طلابه، كان طلابه يصعدون منابر المساجد يلقون الخطب ويلقون دروس الوعظ فيشعرون بالثقة في النفس، وكانوا طلابًا ومعلمين في آن واحد، وفي شهر رمضان كان الإمام سليمان يرسلهم إلى مختلف البلاد يقومون بدور الوعظ والإرشاد، وكان يأمرهم بزيارة مفتي كل بلد يذهبون إليها يطلبون منه الإذن بالوعظ، فينشرون العلم الذي تعلموه وينشرون العلوم الإسلامية.

والكتب التي كان يدرسها الإمام سليمان أفندي في مدارسه هي: «الأمثلة، والبناء، والعوامل، والمقصود، والإظهار، والمراح، والكافية» وغيرها من علوم الأدوات بالإضافة إلى مجموعة من المتون: «الأمالي، وعقائد النسفي، والمنار، وإيساغوجي والشمسية، وشرح العقائد، وحاشيته للقسطلي، والسيرة النبوية، وأصول الحديث، وكتب الأحاديث والتفسير والفرائض».

وجميع هذه الكتب كانت تدرس في المدارس الدينية قديمًا، وكان جميع الطلبة ينجحون ويتفوقون، وقد استحدث الإمام سليمان أفندي طريقه إحياء المدارس التي كانت تمثل التعليم الديني العثماني، ولا يزال طلابه يسيرون على مناهجه حتى الآن، ولم تتوقف طريقه تدريسه بوفاته بل بثها في أتباعه، فحافظوا عليها واستمروا فيها متذكرين تعاليمه ووصاياه ويسيرون على طريقه وأسلوبه، حتى إن عدد ما ينسب إليه من مدارس القرآن يزيد الآن عن ثلاثة آلاف مدرسة.

وعندما قرب موعد رحيله وشعر بدنو أجله تحدث في آخر خطبة له

أمام مائتين من طلابه قال فيها: «يا أبنائي، لا يلهكم القلق على معيشتكم فالمعيشة مال الدنيا، والمعيشة مضطرة للحاق بمن ارتبطوا باللّه، يا أبنائي، إن لنا في هذه الدنيا هدف واحد هو شحن قلوب أبناء الأمة المحمدية بالفيوض المحمدية، هذه هي مهمتكم: التعليم.. التعليم، يا أبنائي إنكم محظوظون لأنكم تتلقون العلم حيًا عن حي، وستستمرون في القيام بهذه المهمات؛ فإذا بقيتم مواظبين عليها فستجدونني من الداعين لكم، فإذا لم تنقلوا العلم الذي تلقيتموه منا لغيركم ولم تشحنوهم به، فاعلموا بأن أصابعي العشرة ستأخذ بخناقكم يوم القيامة، وإذا لم تقوموا بهذه الخدمات فبأي وجه ستقابلون اللّه وتقابلون رسول اللّه وتقابلونني.. يا أبنائي إياكم والفرقة والخلاف، أنتم مأمورون بنشر نور اللّه».

وودعهم وكأنه يراهم للمرة الأخيرة، وقال لهم: «سنكون معًا في عالم البرزخ».

ولا يفوتنا هنا في الحديث عن هذه المدارس أن نذكر تقييم المفكر والكاتب نجيب فاضل لهذه المدارس، وقد جاء على النحو التالي:

- المدارس القرآنية هي الوعاء الذي يصنع بداخله الجيل الإيماني الجديد وهدفها علمي وروحي بحت.

- في هذه المدارس يدرس كتاب اللّه ويعلم للناس ويشحن الضمير بالحق، وليس في هذه المدارس سياسة بل علم وتشوق.

- في هذه المدارس يتم تعلم أحكام الشريعة مع اليقين بأنها أوامر من اللّه.

- حرارة الشعور بالوجد تجاه الإسلام وحب اللّه ورسوله في هذه المدارس مثل حرارة أفران الصهر التي يحرص أصحابها على عدم انطفاء نارها.

ـ المدارس القرآنية باعتبارها مادة أنارتها روح معينة هي مؤسسات أنجزها سليمان أفندي وأتباعه.

ـ إننا نعتبر طلاب مدارس القرآن الذين بلغ عددهم مائة ألف ـ والعدد الآن أكثر من هذا ـ أرض غراس بكر تنتج الجيل المنتظر.

ـ نحن مصممون على أن نحول أمر الذين ينطقون بكلمة سوء واحدة ضد الهوية السامية الواضحة لمدارس القرآن إلى سيفنا الذي يعرف الكفر أوصافه جيدًا.

وهذه المدارس منتشرة الآن في كل مدينة وكل قرية وكل حي، وهي على مستوى عالٍ من النظافة والانتظام والرابطة الأخوية بين الطلبة.

*** ملاحظات على برنامج تلامذة سليمان حلمي أفندي:**

١ ـ يدرس الطالب الحديث والتفسير في كل مرحلة ابتداءً من المرحلة الثالثة ويستمر في الرابعة والتكاملية على حسب مستوى الطلاب.

٢ ـ كل مرحلة عبارة عن عام كامل.

٣ ـ يعقد اختبار في نهاية كل عام لكي ينتقل الطالب من مرحلة إلى مرحلة أو من عام إلى عام آخر؛ فإذا نجح ينتقل إلى المرحلة الأعلى وإذا رسب يعيد الدراسة كاملة.

٤ ـ يستمر التعليم في مدارس الإمام سليمان حلمي طوال العام، بمعنى أن العام الدراسي عندهم أحد عشر شهرًا والشهر الباقي هو شهر رمضان حيث تعطل الدراسة فيه.

٥ ـ يقوم الطلبة في شهر رمضان بنوع من الدراسة العملية فيتم توزيعهم على المساجد في القرى والمدن دعاة وأئمة ووعاظًا حتى يتعودوا على مهام

الدعوة الإسلامية بعد تخرجهم.

٦ ـ يشمل البرنامج بعض المواد الأخرى مثل علم الميراث أي علم الفرائض وبعض الأمور العلمية الأخرى.

٧ ـ يطبق هذا البرنامج على البنات في مدارس البنات التابعة للإمام سليمان حلمي.

ومن نصائحه العامة لطلابه قوله: «لا يلهكم القلق على معيشتكم، فالمعيشة مال الدنيا، ومال الدنيا مضطر لأن يلحق بالذين ارتبطوا باللَّه».

ومن آخر وصاياه لهم أيضًا: «أنتم مأمورون للَّه، مأمورون لرسوله، مأمورون لدينه، مأمورون لكتابه ومأمورون بنشر نور اللَّه».

وشعر تلامذته أنهم مسئولون أمام اللَّه في تعليم أمور الإسلام، فحتى بعد وفاة الإمام سليمان لم ينفرط عقد هذه الجماعة، بل هم مستمرون في تأدية خدماتهم للدين والإسلام بنفس القوة التي بدءوا بها سواء داخل تركيا أو خارجها.

*** أعمال الإمام سليمان حلمي أفندي:**

لم يهتم الإمام سليمان بتأليف الكتب كما ذكرنا من قبل لأنه كان يهمه تعليم أبنائه، فلا يشغل نفسه بعمل حتى لا يضيع لحظة دون أن يعلم فيها طلابه، فكانت كتبه قليلة المعروف منها:

١ ـ حروف القرآن وتشكيله: وهو أسلوب جديد وطريقة حديثة لتعلُّم قراءة القراءة الكريم، ويتكون من ست صفحات، وقد سهل هذا على الطلاب عملية تعلم القرآن وحفظه.

٢ ـ رسالة كبريت أحمر: وهي رسالة تتضمن السلوك الذي يجب اتباعه في سلوك المسلم.

٣ ـ رسالة الرسائل: «بعض المسائل المهمة» وهو كتاب يتحدث عن الصحبة وآدابها.

*** وفاة الإمام سليمان حلمي ١٦ سبتمبر عام ١٩٥٩م «سيخافون من موتنا كما يخافون من حياتنا»:**

لم يقف مرض السكر الذي كان يعاني منه الإمام سليمان حلمي حائلاً دون تأدية خدماته لطلابه، وقد كان يسافر يوميًا متنقلاً عبر أربع وسائل للمواصلات للذهاب لطلابه والتدريس لهم، وظل على هذا الحال مضحيًا بالنفس والصحة والمال في سبيل أولاده والوصول بهم إلى مقصده، وفي ١٦ سبتمبر عام ١٩٥٩م رحل الإمام سليمان حلمي إلى دار البقاء وقت صلاة المغرب.

طلب رئيس مجلس الأمة في ذلك الوقت «إبراهيم كيراز أوغلو» بدفنه قرب ضريح السلطان «محمد الفاتح» جده نسبًا، فوافق رئيس الوزراء بالسماح بدفنه قرب السلطان، وفي اليوم التالي توجهت الجموع من كل مكان لحضور مراسم الجنازة، واجتمعت جموع أخرى في جامع الفاتح انتظارًا لنعشه، وحينما حمل الآلاف من محبيه نعشه للذهاب إلى مسجد جده الفاتح منعت الشرطة السماح بدفنه في هذا المكان وقطع الطريق على الموكب، وتم دفنه في مقبرة حفرها له رجال الشرطة في «قراجا أحمد».

وكان السبب في منع دفنه بجانب قبر الفاتح هو «نامق كديك» وزير الداخلية في ذلك الوقت حيث قال وقتها: لن نسمح بنقله إلى الجهة المقابلة، سيدفن في حفرة حفرها رجال الشرطة بمقبرة «قراجه أحمد»، وقد قال الإمام سليمان يومًا: «سيخافون من موتنا كما يخافون من حياتنا»، وقد رأى أحد أتباعه في منامه الإمام يقول له: «حاولتم كثيرًا أن تدفنوني بجانب الفاتح

ولكن هناك حكم كثيرة لا ندركها بعقلنا».

وظل الآلاف يترددون على قبره بمقبرة «قراجا أحمد» حتى يومنا هذا، ويعتبرونه قدوتهم في الدنيا بروحه بينهم».

تلك هي دعوة الإمام سليمان حلمي طوناخان إلى الأمة الإسلامية من أجل الحفاظ على روح الإسلام في ظل الحفاظ على القرآن الكريم من خلال لغته العربية.

ويقطف المسلمون الآن في تركيا ثمرة جهاده وكفاحه في سبيل إحياء الإسلام وفي سبيل الأمة الإسلامية، بعد انتشار القرآن الكريم في بلاد كان مقدرًا فيها ـ حسب إرادة البشر ـ أن يقضى على كتاب اللَّه وعلى اللغة العربية والعلوم الإسلامية فيها.

هدى درويش

من كتابها «الإسلاميون وتركيا العلمانية»

القاهرة ١٩٩٨م.

* * *

*** الشيخ عاطف الاسكيليبي:**

صفحة مضيئة في تاريخ تركيا، إعدامه بسبب تحريمه لبس القبعة.. ورؤيته لرسول اللَّه ﷺ منامًا قبل الحكم عليه بساعات.

*** حياته وفكره:**

حياته:

اسمه محمد عاطف، ويطلقون عليه عاطف أفندي، أو عاطف خوجه وكلاهما يعني عالم الدين.

ولد الشيخ عاطف الاسكيليبي عام ١٨٧٦ في قرية طوبخانه التابعة لاسكيليب في الأناضول من أسرة عريقة في العلم، عريقة في النسب، كان تحصيله الأولي في قريته، أما في عامي ١٨٩١ ـ ١٨٩٢م فقد تلقى بداية علومه الدينية في اسكيليب نفسها، ومن ثم انتقل إلى إستانبول حيث كان وصوله إليها في إبريل عام ١٨٩٣م، أنهى دراسته الدينية وقد بلغ من العمر ٢٦ عامًا، وفي عام ١٩٠٢م حصل على إجازته العلمية، وفي نفس هذا العام دخل امتحان التقدم لكلية الإلهيات التي كانت تابعة لجامعة إستانبول، فكان ترتيبه الثاني على المتقدمين، وفي عام ١٩٠٥م تخرج في هذه الكلية وعين معلمًا بدرجة (مدرس عام) في جامع الفاتح، وبذلك أُتيح له التصدي لإلقاء الدروس الدينية من فوق كرسي الوعاظ هناك، وبالتالي بدأ الشيخ عاطف أفندي في التدريس.

كما كان يكتب المقالات الدينية والشرعية في مجلتي «بيان الحق» و«صراط مستقيم» أشهر المجلات الإسلامية في الدولة العثمانية.

وعندما أجبرت جمعية الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨م السلطان عبدالحميد الثاني على إعلان المشروطية على أسس النظم الغربية، بدأ عهد الاتحاد والترقي وبدأت معه آلام الشيخ عاطف أفندي، فأبعدته الجمعية عن إستانبول، إلى سينوب، ثم إلى جوروم، ثم إلى بوغازليان وإلى سنقرلو (من بلاد الأناضول) ثم أطلق سراحه بعد نفي أربع سنوات.

وعندما حدثت الانتخابات في عهد الاتحاد والترقي اختاره أهل جوروم نائبًا عنهم، فانتهز الفرصة لينتقد حكم الاتحاد والترقي، وكان أن أصبح مديراً عامًا للمدرسة الابتدائية الداخلية بإستانبول، فلم يسكت وظل مداومًا على نشر المقالات الدينية لتوعية المسلمين بأوضاعهم، فأكثر من الكتابة في مجلة «محفل» وركز على التوعية بأسس الفقه الإسلامي باعتبار أنها روح الشريعة

الإسلامية.

كان الشيخ عاطف أفندي، مقصد المسلمين الذين كانوا يفدون من كل جهات العالم إلى إستانبول، باعتبارها مركز الخلافة الإسلامية، من اليابان، ومن العراق ومن القرم وغيرها، يستفتون الشيخ عاطف أفندي في أمور دينهم، ولم يكن يرد قاصدًا إلا بعد أن يكرمه، فزاد هذا العلم الغزير والكرم، احترام الشيخ في قلوب المسلمين.

وعندما احتل اليونانيون أزمير في الحرب العالمية الثانية، كانت جمعية «تعالي إسلام» (أي: رفعة الإسلام) التي أسسها الشيخ عاطف أفندي، أول من احتج لدفع المعتدي.

قام الشيخ عاطف أفندي بتدريس مادة التفسير في القسم العالي في مدرسة دار الخلافة، ومادة حكمة التشريع في مدرسة القضاة بإستانبول، كما اشترك في دروس مجلس السلطان (حضور درسلري) وهي مناظرات علمية يقوم بها العلماء في حضور السلطان العثماني.

واستمر الشيخ في وظيفته مديرًا للمدرسة الابتدائية ومدرسًا حتى عام ١٩٢٤م، أما بعد هذا التاريخ فقد اقتصرت مهامه على التدريس فقط في جامع الفاتح مدرسًا واعظًا.

كانت الثورة التي قادها مصطفى كمال أتاتورك قد ألغت التعليم الديني في ١٥ فبراير عام ١٩٢٤م، وقد اتخذ كمال هذا القرار في مجلس من قادة الجيش والأركان، ومعه قرارين آخرين، والقرارات الثلاثة كانت كالآتي:

١ ـ إلغاء الخلافة.

٢ ـ إلغاء وزارة الأوقاف والأمور الشرعية.

٣ ـ توحيد التعليم.

وفي ٣ مارس عام ١٩٢٤م تم تنفيذ قرار مجلس الأمة التركي بإلغاء الخلافة وطرد كل أفراد آل عثمان خارج البلاد، ونفّذ هذا القرار في ليلة الموافقة عليه (انظر: مضبطة خمسين عامًا من الجمهورية، إستانبول ١٩٧٣م).

أما في عام ١٩٢٥م فقد صدر قانون الملابس في تركيا، والذي أبدل الطربوش بالقبّعة.

قبل صدور هذا القانون بعام أو أربعة أشهر كان الشيخ عاطف أفندي قد أصدر رسالة في «تقليد الفرنجة والقبّعة».

في اليوم التالي صدرت الصحف التركية بالعنوان التالي: «تنفيذ حكم الإعدام في الشيخ عاطف الاسكيليبي، مؤلف الكتب الرجعية»، ولما أرادت زوجته التأكد من خبر إعدامه، أرسلت برقية إلى مدير سجن أنقرة، فجاءها الجواب كالتالي: «مات الشيخ عاطف أفندي».

يعقب على هذا الرد المقتضب، الكاتب الإسلامي الشاب المؤرخ صادق آل بايراق بقوله: «لم يستطيعوا أن يقولوا قتلناه... ذلك أنهم كانوا يخافون.. كانوا يخافون حتى من جثته بعد موته».

* فكر الشيخ عاطف أفندي:

يمكن استقراء فكر عاطف أفندي من خلال مقالاته ورسالاته، وكتبه وخطبه، ويمكن وضع خطوط فكره العريضة على النحو التالي:

اتباع أهل السنة والجماعة:

❑ يقول عاطف أفندي في مرآة الإسلام: «مذهب أهل السنة والجماعة هو الحق، وما عدا هذا باطل، واعتقاد أهل السنة والجماعة هو الطريق الحق المستقيم؛ والذي بيّنه جناب اللّه في القرآن الكريم، والذي ذكره الرسول

ﷺ بأحاديثه الشريفة، وليس في اعتقاد من اتبع هذا، أيّ اعوجاج..».

*** تعريف الخليفة:**

❑ يقول عاطف أفندي:

«الخليفة، هو خلف لسيدنا الرسول ﷺ، مهمته النظر في أعمال الناس الدينية والدنيوية، وهو الرئيس العام الذي يدير هذه الأعمال، واختيار الخليفة واجب على كل المسلمين، ويشترط أن يتوفر في الخليفة أن يكون مسلمًا حرًا، ذكرًا بالغًا، عاقلاً قادرًا على إدارة أمور الأمة، وعلى الحفاظ على البلاد وعلى تنفيذ أحكام الدين.. ويصبح الشخص الذي تتوفر فيه هذه الشروط خليفة، بقبول علماء الأمة وعقلائها له خليفة للرسول وحاكمًا على الناس. وواجب على عموم المسلمين وغير المسلمين الذين يقبلون التبعية للحكومة الإسلامية إطاعة أوامر الخليفة التي تتفق والشريعة الإسلامية، وأن يكونوا جنودًا وأن يدفعوا الضرائب وأن لا يعصونه ولا يقومون ضده، أما الذين لا يخضعون لأوامره المتفقة والشريعة والذين لا يكونون جنودًا ولا يدفعون الضرائب، يكونون عصاة مذنبين، ولكن تنفيذ أوامره التي تخالف الشريعة فحرام». «طريق الإسلام» (ص٧٧ ـ ٧٩)، عن صادق آل بايراق، معركة الدين في تركيا، إستانبول ١٩٧٥م، (ص٥١٦).

*** واجبات الشعب تجاه الخلافة:**

يذكر عاطف أفندي واجبات الناس تجاه الخلافة في عشر واجبات كالآتي:

١ ـ إطاعة أوامر الخليفة وعمّاله إذا وافقت الشريعة.

٢ ـ دفع الضرائب الواجب دفعها للحكومة شرعًا مثل العشر والخراج،

وزكاة الأموال الظاهرة في حينها.

٣ ـ أداء الخدمة العسكرية.

٤ ـ معاونة الحكومة في كل ما هو حق، مالاً وبدنًا وفكرًا ولسانًا وقلمًا.

٥ ـ بجانب عدم القيام ضد الخليفة، فالواجب صيانة الخليفة وحمايته من أصحاب الفساد ومن فتن أصحاب الفتنة، وكذلك من مؤامرات أعدائه.

٦ ـ تحويل قلوب عموم التبعية (الشعب) خاصة هؤلاء الذين ينفرون من الخليفة، من العداء له إلى واجبه وطاعته.

٧ ـ إخبار الخليفة بظلم موظفيه وعامليه وبمعاملاتهم السيئة.

٨ ـ إيقاظ الخليفة إذا أغفل، ومنعه من الظلم، وإرشاده إلى طريق الحق والعدل بتصحيح خطئه، ومنعه من ارتكاب المعصية.

٩ ـ إظهار الإحترام اللائق للخليفة والدعاء له بصلاح أمره.

١٠ ـ تقديم النصح للخليفة سرًا أو علانية.

عاطف أفندي؛ «طريق الإسلام»، إستانبول ١٩٢٢م، عن صادق آل بايراق، «معركة الدين» (ص٢١٦).

*** وجوب البيعة للخليفة:**

❑ يقول عاطف أفندي في ذلك: «إن بيعة المسلمين للخليفة أمر واجب، وهو ثابت بالعقل والشرع، والدليل الشرعي في هذا، هو إجماع الصحابة والتابعين واتفاقهم عليه، ففي يوم وفاة سيدنا الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه، اجتمع الصحابة ـ رضوان اللّه عليهم ـ قبل دفنه ﷺ في المكان الذي أُطلق عليه سقيفة بني ساعدة، وتشاوروا في أمر بيعة الخليفة

وبايعوا سيدنا الصديق رضي الله عنه، بعد أن اتفقت كل آراء الأمة على أنه أحقّ وأليق الجميع لمقام الخلافة، وقد استمر الوضع على هذه الشاكلة أيضًا في عهد الصحابة وعهد التابعين من بعد. وبناء على ذلك؛ فإن وجوب تعيين الخليفة ثابت بإجماع الأمة بطريق الأدلة الشرعية. «شريعة الحضارة» نقلاً عن صادق آل بايراق، «السائرون والمنفيون في سبيل الشريعة» (ص٣٩)، إستانبول ١٩٧٩م.

*** ضرورة وجود الخلافة القوية:**

في هذا يقول عاطف أفندي: «.. وحيث إن الغاية الأساسية في الخلافة، هي تنفيذ أحكام الشريعة وتنظيم شئون الأمة، ولأن هذا يستلزم الاعتماد على القوة والسلطة؛ فإن الأصل في شروط الخلافة والذي يتقدم على كل الشروط هو: القدرة والقوة» المرجع السابق، (ص٤٠).

*** مسئولية الأمة تجاه الشرع:**

حثّ عاطف أفندي الأمة على التحرّر من أنواع الأسر، بقوله: «أيتها الأمة! إذا كنتم تريدون التخلص من الظلم، إذا كنتم تريدون التحرر كلية من الأسر، فأكسبوا أنفسكم القدرة على الإبقاء بواجباتكم الشرعية، ثوروا ضدّ ظلم الظالم، بأي شكل كان، ثوروا ضد كل عمل مخالف للدين يقوم به فرد أو تقوم به حكومة». نفس المرجع (ص٤١).

*** مسئولية الأمة تجاه العدو الغاصب:**

في مقالة له بعنوان «الجهاد» نشرها في «بيان الحق»، قال عاطف أفندي موجهًا حديثه للأمة المسلمة: «إن الأمة المسلمة سواء كانت في منطقة الزوملي (أوربا الشرقية، وكانت تابعة للدولة العثمانية) أو في الولايات الأخرى، أو

حتى في الشرق أو الغرب، إذا أظهرت هذه الأمة التكاسل في الحرب ضد العدو الغاصب، سواء كان هذا التكاسل بدنيًا أو ماليًا، وإذا ما تسببت هذه الأمة (في أي مكان هي فيه) في هزيمة الحكومة الإسلامية أو تسببت في انهيارها كلية؛ فإن أفراد هذه الأمة المسلمة جميعًا آثمون قد ارتكبوا بذلك الذنب الكبير، مثل ذلك: مثل قتل النفس، وأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب الزنا، وتكون الأمة كلها قد عصت شريعة اللَّه». المرجع السابق (ص٣٨).

*** مثل المتبرع بثمن مسمار في مدمرة حرب إسلامية:**

❑ يقول الشيخ عاطف أفندي في مقالة له بعنوان «القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة» نشرها في جريدة «صراط مستقيم» في ١٠ سبتمبر عام ١٩١٠م ما نصه: «لو أن شخصًا دفع عشر عملات (بارة) من النقود مساعدة للأسطول؛ ونتج عن هذه المساعدة مسمار في مدمرة اشترتها (الدولة الإسلامية أو صنعتها لحسابها) وتم دفع هذه المدمرة إلى الحرب، وكان المسمار (موضوع الحديث) فيها؛ فإن للشخص المتبرع بالمبلغ المذكور أجره وثوابه دائمًا سواء في حياته أو بعد موته، وكما لو كان اشترك بالفعل في الحرب». عاطف أفندي «القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة»، مجلة «صراط مستقيم» (٥/ ٢٣٧٧) سبتمبر ١٩١٠م، ١٣٢٦هـ نقلاً عن صادق آل بايراق، المرجع السابق (ص٣٦).

*** الحجاب والمرأة المسلمة:**

للشيخ عاطف أفندي رسالة في تستر المرأة المسلمة وحجابها بعنوان «التستر الشرعي» يقول فيها:

١ ـ المرأة مجبرة على الاشتغال بالأعمال المنزلية وبتربية الأطفال، فهذا

من وظائفها الأساسية.

٢ ـ ضرورة منع ما يفسد سعادة العائلة من أسباب الكدر والوهم والوقوع في الشبهات، ذلك الذي يحدث عند رؤية رجل عفيف وشريف لعائلته وهي تختلط برجال أجانب عنها، فيأخذ منه الشك مأخذًا، ويتولد من هذا السبب حدوث النفور بين الرجل وأهله.

٣ ـ ضمان سعادة الأسرة في إطار العفة والشرف بمنع زيادة سوء الخلق ومنع الفواحش وظهورها.

لذلك يجب منع الذين يعملون للإخلال بهذا قولاً وكتابة وفعلاً ومعاقبتهم، كذلك الأمر للذين لا يرعون الحجاب من الناس، إن هذا من الواجبات الدينية للإداريين (المسئولين) الذين تكون مهمتهم حكم الناس.

أما الذين يبدون ـ من هؤلاء ـ تسامحًا أو إهمالاً فإنهم يكونون مسئولين أمام اللّه لأنهم لم يوفوا بواجباتهم الشرعية وهم بذلك يستحقون العذاب الإلهي والجزاء السيئ، وإنه لفرض على كل مسلم، كل حسب قدرته تنفيذ أوامر الدين ونواهيه، بدفاعه وبمواجهة الذين يعملون على إزالة شعار من شعائر الإسلام أو أركانه أو لغوها». محمد عاطف أفندي «تستر شرعي» (ص١ ـ ١٦) إستانبول ١٩٢٣م نقلاً عن «معركة الدين في تركيا» لصادق آل بايراق إستانبول ١٩٧٥م.

*** أعمال عاطف أفندي:**

يورد نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير» إستانبول ١٩٧٧م، أثناء حديثه عن عاطف أفندي، قائمة بأعماله أوردها بالتالي كالآتي: (ملاحظة أن عاطف أفندي لم يكتب إلا بالتركية):

١ ـ «مرآة الإسلام».

٢ ـ «طريق الإسلام».

٣ ـ «دعوة الإسلام».

٤ ـ «المسكرات في دين الإسلام».

٥ ـ «القوات البرية والبحرية في نظر الشريعة».

٦ ـ «الحجاب الشرعي».

٧ ـ «حضارة الشريعة».

٨ ـ «تقليد الفرنجة والقبعة» وهو الكتاب الذي شُنق بسببه.

*** معاناته واستشهاده:**

بدأت معاناة عاطف أفندي مع تسلط حزب الاتحاد والترقّي على أمور الحكم في الدولة العثمانية، كان الاتحاد والترقي مقدمة لنتيجة أسفرت عنها عملية تغريب الدولة العثمانية، ففكر الاتحاد والترقي فكر مناف للفكر الإسلامي، كان الاتحاد والترقي بحكم سيطرة خلايا الحركة الماسونية عليه، والتدعيم اليهودي العالمي له شيئًا مخالفًا تمامًا له ألفه سير حركة الفكر الإسلامي والجامعة الإسلامية.

في عام ١٩٠٨م فرض الاتحاديون الحكم المشروطي على عبدالحميد، وفي عام ١٩٠٩م خلعوه، ثم أرادت قيادات حزب الاتحاد والترقي تصفية قائد جيش الحركة الذي أتى بالحزب إلى السلطة، وهو محمود شوكت باشا، فدبّرت له وهو قائد من قوادها العسكريين، مؤامرة أودت بحياته.

ولأن الشيخ عاطف أفندي كان من أبرز علماء الدولة العثمانية؛ ولأن القيادة الحزبية للاتحاد والترقي كانت مصابة بداء «حساسية الدين» (وهذا التعبير لنجيب فاضل) فقد تم القبض على عاطف أفندي بحجة الاشتباه

بعلاقته بالمؤامرة.

نفى الاتحاديون عاطف أفندي إلى قلعة سينوب ثم جوروم، ثم بوغازليان ثم سنقورلو، وعند الإفراج عنه عاد إلى إستانبول.

عيّن ـ كما سبق القول ـ مديرًا للمدرسة الابتدائية الداخلية، فأخذ اسمه يبرز ويرتفع في وقت قصير، وأصبحت المدرسة بفضل فعالية مديرها نموذجًا يحتذى وطالت شهرة الشيخ عاطف وأخذ اسمًا عالميًا طيبًا كعالم ورع.

*** أخلاق الشيخ:**

وبجانب هذه الشهرة الطائلة، كان خلق الشيخ عاطف أفندي مرآة لإسلامه.. كان دؤوبًا على مداومة تحصيل العلم، وكان متواضعًا، ذات مرة دعاه السلطان وحيد الدين سلطان الدولة العثمانية وخليفة المسلمين إلى طعام الإفطار في رمضان في قصر الحكم، قَبِلَ الشيخ دعوة أمير المؤمنين، وأُعجب السلطان وحيد الدين بعلم الشيخ عاطف أفندي، مما لاحظه المجتمعون على مائدة الإفطار، وعندما أراد السلطان وحيد الدين أن يظهر تقديره لعاطف أفندي بتقديم هدية راجيًا منه أن يتقبلها، قال الشيخ عاطف بأدب جمّ: «أستسمحكم ألاّ تعوّدوني على تلقّي الإحسان».

وكما كان السلطان يحب عاطف أفندي، فكذلك كان عامة الناس، ذات يوم أراد فراش متقاعد أن يعبّر عن حبّه تجاه عاطف أفندي؛ فقدم له هدية عبارة عن صينية بقلاوة عملها خصيصًا هذا الفراش العجوز المتقاعد، لم يستطع الشيخ قبول هدية الرجل، ولكن كان على الشيخ أن يطيب خاطره، فقال له: سامحني، لأنني لم أستطع قبول هديتك.. سامحني؛ فإن مهنتي والقضية التي أعمل لها حساسة للدرجة التي لا أستطيع معها تحمل مثقال وطأة المنفعة المادية.

* رسالة «تقليد الفرنجة والقبعة»:

كتب الشيخ عاطف أفندي رسالته المشهورة «تقليد الفرنجة والقبعة»، أوضح فيها أن على الأمة الإسلامية ألا تقلد الغرب تقليداً أعمى يأخذ بالسطحيات، وأن على المسلمين الأخذ بما ينفعهم فقط في المدنية الغربية، وأن على المسلمين أن يطوّروا أنفسهم دون التنازل عن أخلاقهم ومقدساتهم، ولا تفريط في الأخلاق الإسلامية، لا تنازُل عن الدين في سبيل التطور المادي، لا تقليد للغرب.

والرسالة تنتقد المسلمين الذين يجارون الغرب على عمى ودون تبصر، وتأخذ عدم لبس القبعة مثالاً لقوله «لا» الاعتراضية على التغريب؛ ولأن الشيخ عاطف أفندي كان معروفًا بعلمه وتقواه، فقد استمع له الناس.

بعد ذلك بعام وأربعة أشهر، وبالضبط في ١٩٢٥/١/٢٥م، وافق مجلس الأمة التركي على قانون ارتداء القبعة تمثُلاً بالغرب.

* قانون ارتداء القبعة في مصدرين:

اعتمد هنا في الفقرة على نقلين من مصدريين كماليين:

أولهما: «تاريخ الانقلاب التركي» وهو كتاب مقرر على طلاب المدارس العسكرية بالجيش التركي، وأصدرته مطبعة هيئة أركان حرب الجيش التركي بأنقرة عام ١٩٧٣م.

❑ يقول الكتاب: «.. بتطور الزمن أصبح الطربوش زيًا إسلاميًا، بل صار رمزًا للرابطة العثمانية.. وكان لا بد أن يحصل المجتمع التركي على شكل حضاري.. كان تحول المواطنين الذين يعيشون في دولة علمانية ويرتدون زيًا دينيًا يتضاد مع واقع الحركة الحضارية للمجتمع التركي الحديث.. كان الطربوش رمز الدولة الإسلامية، فكان من الضروري الإطاحة

بالطربوش من على رأس الشعب التركي، وبهذا يتحقق أمران، الأول: علمنة الزي؛ والثاني: ارتداء المواطن التركي زيًا يشبه فيه شعوب العالم المتحضر، كما كان من الضروري على رجال الدين الذين يرتدون زيهم أن يرتدوه في أماكن العبادة فقط. كانت المشكلة تتمثل في أن يخضع الشعب زيّه للحياة العلمانية، وفي إبعاد رموز الحياة الدينية عن الحياة اليومية، وكانت هذه هي فكرة أتاتورك. . .(ص١٦٣).

المصدر الثاني: كتاب «الذئب الأغبر مصطفى كمال» لمؤلفه (هـ. س. أرمسترونج) والمؤلف كان ضابطًا إنجليزيًا عمل ملحقًا حربيًا لبريطانيا في تركيا، وكان على اتصال مباشر بالأتراك عامة وبمصطفى كمال أتاتورك خاصة. القاهرة، دار الهلال ١٩٥٢م.

❑ يقول أرمسترونج: «صار عليه الآن (أي: على مصطفى كمال أتاتورك) أن يغير عقول الشعب بأسره، بأفكارهم القديمة، وعاداتهم وأزيائهم، وأساليب حياتهم، وأدق الدقائق التي تربطهم بنشأتهم الشرقية وماضيهم. . كانت هذه المهمة أصعب بكثير من إعادة بناء الكيان السياسي للدولة، أو على حد تعبيره (أي: تعبير أتاتورك): «لقد قهرت العدو، وقهرت الدولة، فهل أستطيع أن أقهر الشعب؟».

ورأى (أي: أتاتورك) أن يتخلص من الطربوش، رمز الدولة العثمانية، وكان يعلم أنه سيلقى مقاومة عنيفة من الشعب، الذي سيشعر أنه قد طعن في شعاره القومي، فأثر أن يصل إلى هدفه بالتدريج. . بدأ بأن فرض على حرسه الخاص ارتداء القبعة، فلمّا لم يعترض أحد، عمّم القبعة في الجيش كله، وبث في صفوفه من يشرح للجنود فضليتها على الطربوش في حماية الرأس من الشمس والمطر. . فلمّا لم يحتج الجيش ظهر هو (أي: أتاتورك) مرتديًا قبعة من القش! وبدا يبشر بنظريته قائلاً: «إذا أردنا أن نكون شعبًا

متمدنًا فينبغي أن نرتدي ثياب المتمدنين الدولية، أما الطربوش فهو رمز الجهل! ولكن الجماهير أبت أن تجاريه أو تقلده في «بدعته» وحتى الأفراد القليلين الذين تبعوه، عادوا فنكصوا أمام ازدراء الناس وتهكّمهم! وعندئذ أحسّ الغازي أنه فشل في إقناع الأتراك برأيه، فلم يجد بدًا من أن يفرضه عليهم بالقوة! وهكذا أصدرت «الجمعية الوطنية» (أي: مجلس الأمة التركي) بناء على طلبه (أي: أتاتورك) قانونًا يحرم ارتداء الطربوش ويعاقب من يرتديه، وبعد يومين من إصداره انتشر رجال البوليس في الشوارع الرئيسية في جميع المدن والقرى وأخذوا يصادرون الطرابيش من فوق رؤوس المارة، وكل من قاوم أو اشتكى كان مصيره الحبس!.. وسَرَت في البلاد موجة من الغضب والسخط، ورجمت الجماهير في كثير من البلاد ممثلي الحكومة بالأحجار، مدفوعة بتحريض من رجال الدين الموتورين الذين ألقوا في روع الناس أن هذه البدعة مخالفة لتعاليم الإسلام، وأن القرآن والسنة يحرمان ارتداء القبعة!.. وفي الجمعية الوطنية (أي: مجلس الأمة التركي) نفسها وقف الجنرال نور الدين باشا يحتج على هذه البدعة الجديدة..!.

عندئذ انقلب (أتاتورك) إلى مستبد غاشِم، لسان حاله «أن الثوراث يجب أن تبنى على الدم، وإلا انهارت ولم تدم!» وبدأ فأقصى نور الدين باشا من الجمعية وأرسل «محاكم الاستقلال» إلى الأقاليم لتحكم على مئات من «المتمردين» بالشنق والرمي بالرصاص والسجن!.. ولكي يوطد مصطفى كمال هذا التقليد في أذهان العالم الخارجي أرسل مندوبًا إلى المؤتمر الإسلامي المنعقد في مكة، مرتديًا قبعة! وكان المؤتمر يضم ممثلين لجميع دول العالم الإسلامية. ولم يجد المؤتمرون بدًا من احترام المندوب وقبعته تقديراً لمصطفى كمال. «الذئب الأغبر» (ص٢١٢ ـ ٢١٤) القاهرة يوليو ١٩٥٢م.

*** المقبوض عليهم في سبيل القبعة:**

تم القبض على كثير من علماء الدين الأتراك منهم: سليمان خوجة العشاقي، وصالح أفندي الغيتاني مدير مدرسة الأئمة والخطباء في عشاق، وأحمد أفندي البوزقيرلي، ودورمش خوجة السلطنيوي، والشيخ المتصوف شرف الدين الداغستاني، وغيرهم، أتى بهم رجال الحكومة من جميع أنحاء تركيا من «ريزه» (اسم مدينة في بلاد اللاز بشمال تركيا) ومن «أرضروم»، و«كيراسون»، و«سيواس» وغيرها من مدن الأناضول إلى أنقرة العاصمة التركية، كما قبضت السلطات على الشيخ عاطف أفندي أيضًا.

وفي ٢٦ يناير ١٩٢٦م، قدم عاطف أفندي لأول مرة أمام «محكمة الاستقلال» فهو الذي كتب ضد القبعة قبل أن يصدر قانون تغيير الأزياء ولبس القبعة بسنة وأربعة أشهر.

*** عاطف أفندي وأحداث القبعة:**

كان لا بد من القول أنه في يوم الخميس ٢١ يناير عام ١٩٢٦م حدثت ثورة في مدينة كيراسون التركية وسميت باسم «ثورة القبعة» لأنها كانت ضد قانون القبعة الذي أصدره مجلس الأمة التركي، والمفهوم أن لكتاب عاطف أفندي عن تقليد الفرنجة والقبعة أثرًا في هذا الحادث.

وفي كيراسون أيضًا وقعت حادثة سميت «حادثة كيراسون» قام فيها شخص غريب مختل العقل، وقف في وسط الشارع وأعلن بصوت عال أنه لن يمتثل لقانون لبس القبعة ولن يلبسها. قبضت الشرطة عليه وسألوه:

ـ لماذا لم تلبس القبعة؟ فأجاب بقوله:

ـ لأني أرسلت إلى عاطف أفندي خطابًا بشأن ارتداء القبعة فأجابني بأن

الشريعة لا تسمح بارتدائها، وأن في ارتدائها الكفر، لذلك قررت أن لا أرتديها.

❑ هنا يقول الكاتب التركي نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير» ـ عند تعرضه لهذه الحادثة ـ أن لم يسأل أحد من رجال الشرطة هذا الرجل؛ إذا كان أخذ بكلام عاطف أفندي، فلماذا يصيح بهذا الشكل المفتعل وسط الشارع، ويقول: إنه لن يلبس القبعة؟! لم يسأله أحد هل أحسّ بحاجة إلى هذا الصياح المبالغ فيه؟! وهل قال له الشيخ أن يصيح هكذا؟! ولما سألت الشرطة الرجل عن خطاب عاطف أفندي الخاص بهذا، قال: إنه فقده!

تقوم السلطات بالقبض على عاطف أفندي وترسله إلى محكمة كيراسون أولاً ثم إلى محكمة الاستقلال بأنقرة.

❑ يقول نجيب فاضل في كتابه المذكور عن حادثة كيراسون هذه: «إن هذا الحادث مدبر... أسوأ وأحقر أنواع التدبير».

سألوا عاطف أفندي عن صحة إرساله خطاب إلى هذا الرجل، فأوضح الشيخ إلى محكمة كيراسون أن هذا كذب، فلم يكتب لهذا الرجل شيئًا بل لم يتلق منه أيّ خطاب.

مثل أمام محكمة الاستقلال في مسألة قضية القبعة ـ ضمن الكثير من الماثلين ـ النائب البرلماني السابق لمدينة مرعش ـ واسمه حبيب ـ الذي ذكر للمحكمة؛ أن أهل مرعش متمسكون بدينهم، والقبعة تجرح شعورهم الديني، وأنه نفسه لم يجد وقت صدور قانون القبعة، قبعة في أي مكان في مرعش ليرتديها في فورة مدينة مرعش ضد قانون القبعة، حكمت المحكمة على سبعة أشخاص بالإعدام، وبعديد من الأحكام الأخرى على بعض المواطنين، بلغت ما بين السجن خمسة عشر عامًا إلى ثلاث سنوات سجنًا.

*** الإعدام للشيخ بدلاً من ٣ سنوات سجن:**

في ٢٦ يناير ١٩٢٦م: عاطف أفندي أمام محكمة الاستقلال المدعي العام يطلب للشيخ السجن ثلاث سنوات على الأقل.

القاضي يطلب من الشيخ إعداد دفاعه ليقرأه على المحكمة في الغد. الشيخ يبدأ في كتابة دفاعه، يغفو أثناء الكتابة يستيقظ بعد هذه الإغفاءة، وعلى وجهه حضور، وفي أساريره سكون، يمزق الورقة التي كان يكتب فيها دفاعه ولم يكن أتمه بعد، ويقول للقاضي في اليوم التالي ردًا على سؤال من المحكمة: «لا حاجة لي يا سيدي إلى الدفاع فمن الواضح تمامًا أنني لم أرتكب ذنبًا يوجب الدفاع»، وكان القرار بعد ساعة واحدة، كان القرار: الإعدام.

*** رؤيا صادقة:**

أمّا لماذا مزق الشيخ عاطف أفندي ورقة دفاعه، ولماذا كان موقنًا من أن الحكم عليه سيكون الإعدام، وليس ثلاث سنوات كما كان يطلب المدعي العام، فيقصها نجيب فاضل في كتابه «المظلومون من الإسلاميين في العهد الأخير»:

«حدثني بهذا الشيخ طاهر المولوي بنفسه (الذي كان يحاكم أمام نفس المحكمة التي أصدرت حكم الإعدام على عاطف أفندي، كان ذلك في عام ١٩٣٢م عندما التقيت بطاهر المولوي في مكتبة رائف قرادنيز في سوق الكتب في حي بايزيد بإستانبول).

جلس عاطف أفندي (في السجن) بعد صلاة العشاء وأخذ يكتب دفاعه عن نفسه (والذي طلبه منه القاضي).. أغفى الشيخ عاطف أفندي قليلاً بعد أيام طويلة لم يذق فيها طعم النوم.. أغفى وفي يده ورقة دفاعه الذي لم

يكمله.. نوم عاطف أفندي لم يستمر طويلاً، وفجأة فتح عاطف أفندي عينيه وارتسمت على وجهه ابتسامة عميقة ورقيقة عجيبة.

❑ الشيخ طاهر المولوي يسأل: ماذا حدث يا فضيلة الشيخ؟ لماذا استيقظت سريعًا؟

ـ قال الشيخ: حصل المراد من النوم؟

ـ يعني؟!

ـ يعني رأيت الرؤيا التي كنت أنتظرها.

ـ ماذا رأيت؟

ـ اعتدل الشيخ عاطف أفندي، لاك ورقة دفاعه بيده، وقال:

ـ رأيت في رؤياي، فخر الكائنات (سيدنا محمد ﷺ) يقول لي: يا عاطف أتشغل نفسك بالدفاع عن نفسك ولا تريد الالتحاق بنا؟!

ـ قال طاهر المولوي للشيخ: وماذا تفسر هذا؟

ـ قال عاطف أفندي: سيعدمونني، وسألتحق بحبيب اللّه ﷺ.

ـ طاهر المولوي: لا شك قط في صدق هذه الرؤيا.. إلاّ أن المدعي العمومي لم يطلب لك إلا السجن ثلاث سنوات!

ـ سترى أنهم سيعدمونني، ولا أفهم إلاّ أن الأمر يأتي من أكبر الأبواب.

ـ ليس لدي ما أقوله.

ـ صحيح! ولم يعد للكلام جدوى! وها هي ذي الورقة التي كتبت فيها دفاعي ولم أكملها بعد.. أمزقها!.

وفي اليوم التالي حكمت المحكمة بالإعدام على عاطف أفندي على أن ينفذ هذا الحكم فوراً فنفذ في فجر اليوم التالي.

*** أحمد نعيم بابان زاده داعية الفكرة الإسلامية والمدافع عنها أمام الفكرة القومية، قال عنه شاعر الإسلام محمد عاكف: «إن أحمد نعيم بك هو أكثر الناس الذين أحببتهم بعد الصحابة»:**

منذ عهد التنظيمات العثمانية، أي: في بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصيب العالم الإسلامي بمقدمات غزو الفكرة الأوربية المتمثلة في القومية، تطور هذا الفكر بواسطة منظمات مدسوسة على الدولة العثمانية، وجودها في بلاد المسلمين وجذورها في أوربا، نمت هذه الفكرة وازداد أتباعها وعلى رأسهم هؤلاء الذين تعلموا في الغرب فأخذهم بريقه.

وقد تمثل انتصار الفكرة الغربية في الدولة العثمانية، بقيام الدولة القومية التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك؛ الذي اتخذ مثاله الأعلى في الغرب رافضًا إسلامية البلاد الشرقية.

لا بد من القول هنا أنه قد سبق هذه المرحلة، مرحلة إعلان الأيديولوجية الطورانية، سياسة للدولة العثمانية بعد أن استولت عليها ـ عنوة ـ جمعية الاتحاد والترقي، إلا أن الوعي الإسلامي العام بجانب نفور القوميات الأخرى الموجودة في الدولة العثمانية مثل القوميتين العربية والكردية من مبدأ الاتحاديين، وهو الجامعة الطورانية (وحدة أتراك العالم) بجانب عوامل أخرى أدت إلى فشل الجامعة الطورانية، بل وقد تسببت هذه الفكرة في تدمير الدولة العثمانية.

وفي أثناء اقتحام الغرب الفكري لفكرة المسلمين، ولد أحمد نعيم بابان زاده في بغداد، وأحمد نعيم ينتمي إلى أسرة بابان زاده البغدادية، وأحمد نعيم هذا هو الذي عُرف فيما بعد كواحد من رجال العلم المسلمين النابهين ذوي السمعة الإسلامية الطيبة، عُرف بعمق الفكر وقوة الحجة وسلامة

المنطق، يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، لكن شهرته طبقت الآفاق عندما دافع عن الفكرة الإسلامية في مواجهة القوميين (الجدد والقدامى) في الدولة العثمانية، ثم في تركيا بعد انهيار الدولة، وهو الذي أخطر القوميين حتى لا يستغلوا الإسلام في الدعاية للقومية وكسب مزيد من الأنصار.

أمضى أحمد نعيم فترة دراسته الابتدائية في بغداد، ثم انتقل إلى مدارس إستانبول حيث استمر في إتمام بقية مراحله الدراسية التي تُوِّجت بأستاذيته في الجامعة.

منذ شبابه كان يجيد اللغة العربية، وكانت معرفة العربية ميزة تفتح أمام المثقفين العثمانيين الطريق إلى الوظائف المحترمة، فقد التحق أحمد نعيم في البدء بوزارة الخارجية العثمانية بوظيفة مترجم، وقد كانت وظيفة مرموقة، ثم عمل أستاذًا للغة العربية في نفس المدرسة التي تخرج فيها وهي غالاطه سراي.

وبين عامي ١٩١١م ـ ١٩١٣م، عمل أحمد نعيم مديرًا للتدريس العالي في وزارة المعارف، وأثناء تأديته لهذه الوظيفة عمل عضوًا في غرفة التأليف والترجمة التابعة لوزارة المعارف أيضًا.

كما بدأ أحمد نعيم بك في عام ١٩١١م في إلقاء دروسه في كلية الآداب (شعبة الإلهيات) في دار الفنون (الجامعة) بإستانبول، وأخذ يلقي في هذه الكلية دروس الفلسفة والمنطق والأخلاق، واستمر في ذلك حتى عام ١٩٢٣، كان في أثنائها أيضًا مديرًا للجامعة.

وأثناء ذلك كان يكتب في الصحف والمجلات داعيًا إلى الفكرة الإسلامية مدافعًا عنها، وكان هذا أثناء اشتداد المعارك بين أنصار الفكرة الإسلامية وأنصار الفكرة القومية، وكان طبيعيًا أن تنتقل هذه المعارك إلى الجامعة بين الأساتذة الإسلاميين وبين الأساتذة القوميين.

يجدر الملاحظة هنا أن أحمد نعيم بك وجد في العمل السياسي ما يلائم دعوته، فنجده عام ١٩١٩م، وقد أصبح عضوًا بمجلس الأعيان واستمر في عضويته هذه لمدة ثلاث سنوات، وعندما انتهى مجلس «المبعوثان العثماني» عاد أحمد نعيم بك عام ١٩٢٢م إلى الجامعة مرة أخرى، واستمر في وظيفة الأستاذية والكتابة أيضًا، إلى أن أطاح به القوميون الخلص بعد أن كسبوا المعركة السياسية وسيطروا على البلاد وأعلنوا مبادئ الأيديولوجية الكمالية، وقد اتخذ الكماليون عدة قرارات منها: عدم السماح للمطالبين بتحكيم الشريعة الإسلامية، بالكتابة ولا بالكلام، وكان فصل أحمد نعيم بك من الجامعة في أول يوليو ١٩٣٢م.

أحمد نعيم بك أجاد اللغة العربية إجادته للغة العثمانية وعرف الفارسية، كما أنه لكي يعرف تطور الفكر الغربي، درس اللغة الفرنسية حتى يجد الفرصة ليدرس الغرب مصدر الفكرة القومية.

لذلك اتسمت كتابات أحمد نعيم بك بالجدية وحازت الاحترام، وقد كان يعقد المقارنة دائمًا في كتاباته بين مفكري الشرق الإسلامي وبين مفكري الغرب مبينًا في دراسات جادة مدى أهمية الفكر الإسلامي في الحفاظ على وحدة المسلمين، وخطورة استمرار الفكر الغربي في الشرق الأوسط في تفتيت وحدة المسلمين، وقد كانت خطورة الفكر الغربي متمثلة في الفكر القومي الذي أسماه المسلمون العثمانيون في ذلك الوقت «داء الفرنجة» أو «علة الغرب».

اشتهر من عائلة بابان زاده في ذلك الوقت اثنان: أحمد نعيم بك، وكان إسلامي النزعة إسلامي الاتجاه، وإسماعيل حقي بابان زاده، وهذا ارتقى إلى درجة وزير للمعارف، وكان فكريًا مضادًا لأخيه أحمد نعيم، فقد كان إسماعيل حقي من دعاة الفكر القومي، كان كرديًا يدعو للفكرة القومية

الكردية، وكان صاحب مكانة كبيرة بين رجال الاتحاد والترقي، أما أحمد نعيم بك، فقد وجد أن من الذل الدعوة إلى القومية، أبي: إلى عصبية قومية في الوقت الذي ننعم فيه بالإسلام.

تخرج على يد أحمد نعيم بك عدة آلاف من الطلاب طوال ثلاثين عامًا، كان قريبًا من تلامذته، لم يكن يبخل عليهم بالوقت ولا بالجهد في سبيل إعدادهم فكريًا وعلميًا.

وعندما ظهرت الحركة الكمالية في تركيا، كان معنى ذلك أن تطورت فكرة الطورانية (فكرة تجمع أتراك العالم في دولة واحدة) إلى فكرة الدولة القومية المحدودة التي أعلن مصطفي كمال أتاتورك حدودها بالدولة التي دافع الأتراك عنها، وحملوا السلاح دفاعًا عن حدودها، وأراقوا دماءهم في سبيلها وهي دولة تركيا الحالية.

هؤلاء الكماليون تمكنوا من الانتصار بفكرتهم القومية العلمانيه، انتصروا وكان لا بد بالضرورة ـ من وجهة مصالحهم الأيديولوجية ـ من تصفية المفكرين الداعين للإسلام مفهومًا للدولة، وشملت التصفية فيما شملت الأستاذ أحمد نعيم بك، إذ أنه كان في كل محاضراته وكتاباته يفضل الفكرة الإسلامية، على الفكرة القومية الواردة.

تم إبعاد أحمد نعيم بك عن الجامعة، وعن كل وسائل الاتصال الجماهيري، فأصابه الحزن والكمد، إن ما كان يزعج أحمد نعيم بك هو انحسار القوة عن الفكر الإسلامي الذي وهب نفسه للدفاع عنه، حزّ في نفسه استيلاء المعارضين للفكرة الإسلامية على إدارة البلاد، إذ أن النتيجة كانت تقول: إن الإسلاميين قد خسروا المعركة.

فصلوا أحمد نعيم بك عن الجامعة في منتصف عام ١٩٣٣م، ومات في منتصف عام ١٩٣٤م، كان أحمد نعيم بك يكره حب الظهور، ولم يعط

أحدًا الفرصة لمدحه، فقد كان يكره هذا، قال عنه معاصروه: إنه لم يداخله الغرور ولا الرياء، كما كان سمحًا، قال عنه مدحت جمال إينانج ألب في كتابه المسمي «أحمد نعيم المدرّس» (المدرس في اللغة العثمانية بمعنى أستاذ الجامعة أي: بروفيسور) إنه: «كان لأحمد نعيم بك قلبًا محمديًا».

كان لوفاة أحمد نعيم بك أثر كبير في نفوس الذين تلقوا عنه «الفكرة الإسلامية» وفي نفوس الذين قرأوا له، بل بلغ الأمر في ذلك أنه عندما سمع شاعر الإسلام محمد عاكف بوفاة أحمد نعيم (داعية الفكرة الإسلامية والمدافع عنها أمام فكرة القومية) أن قال: «حسبت ساعتها أن بيتي قد خرب وأنني واقع تحت أنقاضه».

كان شاعر الإسلام محمد عاكف على حق عندما قال: «إن أحمد نعيم بك هو أكثر الناس الذين أحببتهم بعد الصحابة» ذلك لأن أحمد نعيم بك كان من أشد الناس تأثيرًا في المثقفين الذين تكتلوا أمام قوى الفكر القومي المتعصب الذي غرقت فيه البلاد العثمانية في أوائل القرن العشرين، رثاه الشاعر التركي علي رضا قوش آضالي بقوله:

آه لقد رحل عنا أحمد نعيم بك.
وهو منبع العلم والعرفان.

كما رثاه العالم المسلم المشهور محمد حمدي المالي بقوله:

ذهب نعيم إلى ربه؛
عبر السجود.

* **أعماله:**

أولاً: المقالات:

لأحمد نعيم بك مقالات كثيرة نشرها في مجلة «ثروت فنون» وهي مجلة ظهرت في أواخر عهد السلطان عبدالحميد، تهتم بالأدب والأدباء، بها

ترجمات من اللغات الغربية وخاصة الفرنسية، أما أحمد نعيم بك فقد كان له سلسلة مقالات في هذه المجلة تحت عنوان «بدائع العرب» قدم فيها للقارئ العثماني ترجمات مختارة من الأدب العربي إلى اللغة التركية، كما كتب المقالات حول هذه المترجمات والشروح.

كما كتب أحمد نعيم بك المقالات في جريدة طنين وفي مجلة كلية الآداب بجامعة إستانبول.

ثم كتب في مجلة «صراط مستقيم» التي كانت تصدر في إستانبول مجلة «الصراط المستقيم» التي أخذت في الظهور منذ عام ١٩٠٨م، وهي مجلة أقامها المسلمون العثمانيون يردون من خلالها غائلة الفكر القومي الذي كان قد استولى على عقول الشباب العثماني، خاصة صغار ضباط الجيش قبيل انهيار دولة آل عثمان، وكتب في مجلة «سبيل الرشاد» وهي امتداد طبيعي للصراط المستقيم.

وقد عرض أحمد نعيم بك على المجلة رسالة أرسلها لها، عرض أن يكتب فيها، وقال فيما قال: «سلام عليكم، إنني أطالع في أوقات فراغي بحب وشوق ولذّة مجلتكم الغراء..» وبعد أن أبان أحمد نعيم بك في رسالته إلى المجلة أنه يقدر خدمات المجلة في وقت تمر فيه أمة محمد بالظلم والجهل، «وإني أقدر مدى توفيق المجلة في تلقين حقائق الإسلام للأذهان الفاسدة، وتبعث من جديد الأحاسيس الدينية في القلوب الميتة، وأن المجلة لها السبق في نفخ شعور الإحياء الإسلامي من جديد في البلاد».

ثم أفصح أحمد نعيم بك عن تصوره لخدماته في مجال الإحياء الديني عن طريق المجلة، في قوله: «إن رأيي المتواضع أن أهم خطوة يمكن أن تخطوها في هذا المجال هو التفسير والحديث، وإني أعتبر أن على الرغم من خدماتكم الجليلة في المجلة، إلا أننا لم نر فيها شيئًا خاصًا بالحديث

الشريف، فالكتاب والسنة هما أهم منبعين في ديننا، وأنه ينبغي عليكم أن تفتحوا قسمًا لكل منها بين أعمدة الصراط المستقيم، ومن هذا المنطلق أقول لكم إنه برغم عدم حيازتي لقدرة عميقة في مجال التفسير ولا في مجال الحديث النبوي، ومع رغبتي في خدمة المسلمين، فعلى الأقل يمكنني تقديم خدماتي في هذين المجالين عن طريق الترجمة من العربية.

وأني لأثق أنني عندما أجد الفرصة لترجمة الكتاب المبارك المسمى بالتجريد الصريح وهو الذي رتبه الزبيدي عن البخاري باختصار، أثق أنني إذا ترجمت هذا الكتاب المبارك على حلقات وأرسلت ذلك إليكم فلن ترفضوه.

وقد كان هذا العرض من داعية إسلامي عميق الفكر عظيم التواضع، مسارع للخدمة الإسلامية، كسب وأي كسب لمجلة الصراط المستقيم، التي كانت صاحبة نفوذ عظيم في قلوب المسلمين، بدأ أحمد نعيم بك في نشر «التجريد» في الصراط المستقيم، ثم أخذ بعد ذلك في شرح حديث نبوي في كل عدد من أعداد المجلة.

❑ وقالت مجلة الصراط المستقيم في عرفانها بفضل أحمد نعيم بك: «إننا نشكر باسم جميع العالم الإسلامي، الأخ أحمد نعيم بك، فقد أخذ على عاتقه هذه الخدمة السامية المقدسة المفيدة».

ثانيًا: المؤلفات:

١ ـ تمرينات: وهو كتاب مدرسي في صرف اللغة العربية، عبارة عن تطبيقات على رسالة كتبها جميل الناظر بمدرسة غالاطه سراي.

٢ ـ دروس الفلسفة.

٣ ـ علم النفس: وهو ترجمة كتاب بسيكولوجي، لجورج فونس جريف إلى التركية.

٤ ـ ما هو علم الفلسفة؟ وهو ترجمة عن بول جانيت إلى التركية.

٥ ـ ترجمة الأربعين حديثًا من العربية إلى التركية.

٦ ـ قضية القومية: وهو كتاب في دحض الفكرة القومية، حتى أن بعضهم نشره بعد ذلك بالحروف اللاتينية التركية تحت عنوان «الإسلام يمنع العرقية».

٧ ـ أسس الأخلاق الإسلامية.

٨ ـ ترجمة «التجريد الصريح» مختصر البخاري، لم يكمل إذ لم يصدر منه إلا جزءان. الجزء الأول عبارة عن تأليفه، ويختص بدراسة علم الحديث والأصول، وهذا الجزء من الكتاب الوحيد الذي يمكن اعتباره ووصفه بأنه أكثر الكتب المنشورة حتى الآن في علم الحديث تكاملاً وعلمية، كما وصفه ناشر كتاب بعنوان «الإسلام بخطوطه العريضة» لأحمد نعيم بابان زاده، نشر دار جيغيز بإستانبول عام ١٩٧٥م، وقد طبعت إدارة الشئون الدينية بأنقرة هذا الكتاب عام ١٩٢٨م.

* رأية في الإسلام والعصبية القومية:

نترجم هنا عن أحمد نعيم بك بعض كتاباته في موضوعين، هما «بعض الأمور التي يسرت انتشار الإسلام»، و«قضية القومية في الإسلام».

* بعض الأمور التي يسّرت انتشار الإسلام:

❑ سنتحدث هنا عن بعض الوسائل التي يسّرت انتشار الإسلام، وهي:

١ ـ الاتحاد والإيمان الخالص:

كان العرب ـ وهم أول من دخلوا في دين اللّه أفواجًا ونشروه ـ كانوا يعيشون على هيئة قبائل مختلفة، كانوا يتلاعبون بحياة بعضهم بعضًا وهم تحت تأثير فكرة الثأر وفكرة الحصول على الغنائم، فجمعهم فيض الإسلام

حول كلمة واحدة، كما أن هذا الفيض الإسلامي قد حوّل هذه القبائل المتفرقة إلى قوّة مجتمعة. ثم دفعتهم الغيرة الدينية والقوى المعنوية إلى التضحية والفداء. فلم يعد ينسحب أو يفكر في التقهقر عن مكانه بين المجاهدين أي فرد منهم، حتى في أحرج مواقف القتال وأدقّها. لقد كان يعلم حتى أجهل الجاهلين منهم أن كل ميت في سبيل الدين شهيد، وكل من يحيا فهو غازٍ، وأن أيّ إنسان يلقي بنفسه في المخاطر لن يموت إذا لم يكن ذلك مكتوبًا، وأنّ الأجل إذا حان وقته فلا يمكن أن يوقفه شيء. ولأن هذه الفكرة العلويّة لم يكن لها وجود عند هؤلاء الذين يحاربون المسلمين، فقد كان شرف النصر في كل معركة من نصيب المجاهدين المسلمين.

٢ ـ تحمّل الشدائد، والبساطة:

كان العرب قوم بدو. نشأوا وكانت لهم القدرة على تحمّل الصعاب نتيجة التربية التي تمنحها الصحراء، قليلاً يأكلون وقليلاً يشربون وقليلاً يلبسون، ورغم هذا فقد كانوا يسيرون كثيرًا. كانت لهم المقدرة الفائقة على السهر وتحمُّل التعب والمشاقّ، ولهذا السبب كانت جيوشهم بسيطة، فيها خفة الحركة وقلّة الحمل والأثقال، وكانوا يستطيعون بيسر وسهولة تغيير المكان.

٣ ـ العسكرية والفروسية والإقدام:

كان العرب يجيدون ركوب الخيل بمهارة فائقة. كما كانوا يجيدون استخدام السلاح استخدامًا يفضلون فيه العجم والروم. كما أنهم بالفطرة قوم شجعان يفخرون بالشجاعة ويستقبلون الموت ـ إذا لزم الأمر ـ بشجاعة وإقدام، ويعتبرون الفرار من العدو عيبًا، وأيّ عيب.

٤ ـ العبقريات النادرة:

ظهر عباقرة عديدون، خاصة في الفترات الأولى من الإسلام، حيث كان وجودهم مصاحبًا للجيوش الإسلامية، وعن طريقهم أحرز الإسلام

تقدّمه.

ظهر أصحاب العزم والنيّة الصادقة والصلاح والتقوى، مثل سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر ﷺ، وظهر أيضًا أرباب الشجاعة والبطولة مثل سيدنا علي، وسيدنا حمزة ﷺ، وظهر القادة مثل خالد بن الوليد، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة بن الجرّاح، ويزيد بن أبي سفيان ﷺ.. وظهر السياسيون أمثال عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه ﷺ. أسهم كل هؤلاء من العظماء في إعداد هذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامي. وبعدهم ظهرت شخصيات إسلامية تعقّبت خطا هؤلاء وساروا على منوالهم.

٥ ـ السياسة في الفتوح:

دخل المجاهدون المسلمون ـ عندما كانوا يعملون على نشر الإسلام ـ في الأراضي التي يشكّل العرب فيها الأغلبية الكبيرة من شعوبها، مثل مناطق الشام والعراق.

وبعد أن ضمن الفاتحون ولاء هذه الشعوب، استمرّوا في التقدّم واهتموا أيما اهتمام بوجود رابط دائم بينهم وبين مركز الخلافة.

٦ ـ انتشار العدالة:

في الوقت الذي كانت الشعوب الخاضعة لكل من إيران وروما تئن تحت وطأة ظلم وضغط هاتين الحكومتين، كان العرب ينشرون العدل في الأراضي التي دخلوها. كانوا يعطون الرعايا الحرية، وكانوا يساوون في الحقوق بين الأمير وبين البدويّ الفقير. كانوا ينفّذون بدقّة متناهية أوامر سيدنا أبي بكر الصديق التي تحث على عدم الغدر، وعلى البعد عن خداع أهل البلاد المفتوحة، وعلى عدم ربط أذرع الأسير، وعلى عدم تعذيب أحد، وعلى عدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعلى عدم قطع النخيل والأشجار المثمرة،

وعلى عدم ذبح الحيوانات كالأغنام والماشية والجمال عبثًا، وعلى عدم التعرّض للرهبان الزاهدين في الدنيا الذين انسحبوا إلى أديرتهم.

وعندما وجد الإيرانيون والرومان كل هذا، أخذوا يفتحون أبواب مدنهم بلا حرب أحيانًا، وبصدام خفيف أحيانًا أخرى، لمجاهدي الإسلام، وينضمون بذلك إلى موكب العدالة الذين يدخلونه حديثًا بعد أن ذاقوا مساوئ الحكومات السابقة.

بهذا الذي عدّدنا وبغيره، ومن قبل بفضل العون الإلهي الذي غذى هذه الأسباب؛ إذا بنور الإسلام ـ ولمّا لم يمض بعد قرن واحد منذ ظهوره ـ قد امتدّ إلى داخل فرنسا مارًّا بحدود الهند والصين في الشرق والأندلس من الغرب بعد أن أزاغ بصر حكومتي إيران وروما.

أحمد نعيم: «كنل جزكيلر يله إسلام».

*** قضية القومية في الإسلام:**

بدأت قضية القومية، أو بمعنى آخر العصبية القومية والجنسية بين المسلمين أن تكون إحدى المسائل الحيوية في البلاد العثمانية ابتداء من عهد المشروطية.

وهذه القضية بدعة أجنبية مهلكة؛ بالدرجة التي أرى فيها ـ أنا العبد العاجز ـ أنه يمكن أن نطلق عليها اسم: داء السلّ في جسم الأمة الإسلامية، كما أنها بدعة مضرة استعرناها من أوربا بدافع من الجهل، والواقع الفعلي أن القومية تعتبر من أعظم مصائبنا التي تشدّ الانتباه، وأكثر ما يشدّ الانتباه في ذلك أننا لا نأخذ عن أوربا إلا ما عندها، وأننا لا نطبق هنا الأمور الطيبة في أوربا إلا إذا أفسدت.

القضية القومية مذمومة ومرفوضة شرعًا، وهي بالتعبير الشرعي دعوى

الجاهلية، وهي أفظع ضربة لقوام الأمة الإسلامية ولبقائها ولرفاه المسلمين ولسعادتهم.

إن المعنى الذي أخذه هؤلاء الذين يمسكون في أيديهم براية العصبية القومية، معنى مناف للوطنية ولحب الوطن، والمصيبة العظمى التي حلت بإخواننا الألبانيين الذين جروا وهرعوا خلف السعادة القومية والسراب المغفل، ليعتبر درس عبرة فظيع علينا استيعابه.

إن نفس الأسباب تولد نفس النتائج، وبناء على هذه القاعدة الطبيعية والمعقولة فإننا إذا داومنا السير في هذا السبيل، فإن هذه المصيبة ستحلّ بنا إن آجلاً أو عاجلاً، وبهذا الاطراد ستصبح هذه الديار، وهي آخر ملجأ للأمة الإسلامية (يقصد المؤلف بذلك: الدولة العثمانية) يمكن أن تنقلب ـ معاذ اللّه تعالى ـ إلى ديار للكفر مثل ألبانيا.

إننا نرى زعماء الفكرة القومية ينقسمون إلى مجموعتين:

الأولى: القوميين الخلّص.

الثانية: القوميين الإسلاميين.

ونحن نرى (أي: المؤلف أحمد نعيم بك) أن المجموعة الأولى تريد أن تلقح الأذهان وبوضوح، بفكرة الإلحاد، أما الفكرة الثانية (أي: القوميين الإسلاميون) فأصحابها لا يريدون أن يضحّوا أبدًا بأي من الفكرتين: الإسلامية والقومية.

هؤلاء (القوميون الإسلاميون) يتحدثون عن ضعف العنصر التركي وأنه يحتاج إلى العون والمساعدة، لكنهم لا يريدون أن يجرحوا الشعور بالجامعة الإسلامية، إنهم يعتبرون أن هذه الجامعة لازمة لأمرين: أولهما عدم انفصال العناصر الأخرى الإسلامية عن الدولة، وأيضًا يسر تربية وارتقاء الأتراك. لكنهم يخطئون في نقطة، فهم يقولون: «إن الجامعة التركية تقوّي الجامعة

الإسلامية، وإن دعوى العصبية ليست مغايرة للدين الإسلامي، وإن الفكرتين لا تزاحم كلاهما الأخرى بالعكس؛ فإن كلاً منهما تكمل الأخرى وكلاً منهما تسهل حصول الأخرى، وإننا نستطيع عن طريق الحمية الوطنية القومية أن نقرب إلى الإسلام العديد من الشباب المحروم ـ بكل أسف ـ من الإيمان ومن الإسلام». يقول القوميون الإسلاميون هذا ويقيمون بجانب الإيمان الديني «إيمانًا قوميًا».

ولقد التقيت ببعض أشخاص من هذه المجموعة، لا أشك أدنى شك في تمسكهم بالإيمان والإسلام، وهؤلاء يعتقدون جدًّا بأن الشعور الإسلامي لا يصاب بأي ضرر كان إذا ما حدث التفاخر بالقومية، بل بالعكس، ـ والقول لهم ـ فإن الإنسان الذي يفعل هذا يصل إلى درجة من الرقيّ عظيمة إذا افتخر بشعور الاعتزاز المصاحب للكيان، حتى ولو كان هذا الشعور قائمًا تجاه الأقوام الأخرى ولو كانت مسلمة.

❑ تقول هذه الشخصيات التي أتحدّث عنها: «وما حيلتنا إذا لم نقل بهذا وأبطلنا الحديث عنه؟! فإن العنصر التركي سيتعرّض للزوال. الألبانيون والعرب قاموا بالدعوة إلى هذه المسألة (القومية) قبل أن نفعل (نحن الأتراك) هذا الأمر، إننا الآن في موقف الدفاع عن النفس، فإذا ترتّب على دفاعنا هذا ضرر وقع على المسلمين فإن الذنب في هذه الحالة ليس ذنبنا نحن. إن الذنب إنما يتحمّله أوّل من بدأ هذه المسألة وقال بها. والبادئ أظلم».

وإذا سألنا هؤلاء الذين يدعون إلى القومية العربية: «لماذا تدعون إلى القومية؟ فإنهم يبحثون عن ألف وسيلة ووسيلة ليقولوا إنهم على حق وإنهم في موقف الدفاع ويكررون ـ مثلهم في مثل هذا إخواننا الأتراك ـ القول بأن البادئ أظلم».

❑ لسنا هنا في مجال البحث عن: مَنْ ظَلَم مَنْ؟! لأننا نرى في كل من

الطرفين أمرًا منكرًا يخالف الشريعة ولا يتّفق مع روح الإسلام. وبموجب الحديث الشريف: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، فإننا نرى أنفسنا مكلّفين بمساعدة الجميع، بمعنى أننا مكلفون بالدعوة إلى طريق الحق والصواب.

بناء على ذلك، نقول لإخوننا (الأتراك) القوميين الإسلاميين إن التركي يحتاج العون، وهو مفتقر لهمّة إرشاداتكم، وهذا لا ينكره أحد، وليس من الحقّ أن ندع التركي بعد ذلك عرضة لمتاعب تؤدي إلى ضرره، ولا أن ندعه عرضة لحالة لا يستطيع معها التفكير في سعادة دنياه وآخرته. والرقي بأحواله الاجتماعية وتدعيم قوته الاستحصالية، وتقوية معنوياته، وتنمية ملكاته الفاضلة وإزالة ملكاته الرديئة؛ لأمر جدير حقًّا بالتقدير، وهذا أمر مقبول عند اللّه وعند الناس.. ولكن عليكم ألا تجتازوا حدّ الجواز في أي وقت من الأوقات وتفاخرون بدعوى الجاهلية وبالأنساب وبالآباء الأقدمين.. وعليكم دائمًا ألا تغفلوا (عندما تخاطبون التركي) عن مخاطبته بكلمة: «يا مسلم!» بدلاً من كلمة: «يا تركي!». حدّثوه دائمًا عن الإسلام ولا تحدّثوه عن القومية التركية. وعندما تريدون أن تضربوا على أوتار همّته الحسّاسة لا تضربوا هذه الأوتار باسم العنصر التركي وإنما باسم الإسلام. لا تفصلوا تاريخ الترك عن تاريخ الإسلام.

راجعوا أنفسكم قليلاً وفكّروا بإنصاف. إنكم تجرون خلف هذه الدعوى القومية وهي دعوى فارغة. احسبوا جيدًا وراجعوا جيدًا الخدمات التي قمتم بها للأتراك. ماذا أضفتم لأدبهم أو لقواعدهم اللسانية أو لقاموسهم أو لعلومهم وفنونهم أو لتجارتهم وزراعتهم؟!!

ماذا أكسبتم الأتراك غير دعوى أنانية جافّة، وغير إفساد علاقتهم بإخوانهم الآخرين من الشعوب الأخرى التي كانت تستظل براية الدولة العثمانية. إن عموم الناس لا يفهمون جيدًا ماذا تريدون قوله. إن عموم

الناس لا يعلمون أيضًا ماذا يفعلون. إنكم قلتم لهم إن أجدادهم، هم قدماء الأتراك، فآمنوا بما قلتم لهم، حتى الذين لم يبقَ منهم أي ارتباط بالعنصر التركي غير اللغة بعد أن اختلطت دماء الأقوام المختلفة على مدى ألف سنة، حتى أن كثيرين منهم يظنون أنفسهم أنهم أولاد وأحفاد هؤلاء المشركين القدماء، ولم يفكّروا لحظة أن القومية التركية للكثير منهم شيء عارض تمامًا، ذلك لأن ارتباطهم بالقومية التركية لم يأتِ إلا نتيجة للغة التركية التي تعلموها فيما بعد. وهؤلاء يقسمون ـ وهذا حدّ الغاية في الجنون ـ بكلٍ من: «أرض جنكيز المقدسة» و«قانون جنكيز المقدّس».

إنه لأمر جدير بالاهتمام حقًا أن يعرف الكثير من الدعاة للقومية، أي جنس وعصبية ينتمي إليها البطن الثالث لهم، وما إذا كان هذا البطن تركيًّا أم من جنس آخر غير تركي.

إنكم أيها القوميون تعملون لإحياء الأساطير الخرافية التي مرّت عليها آلاف السنين، مع أن مثل هذا العمل سينمّي ـ ولا شك ـ في الإخوة المسلمين الآخرين إحساس الانفصال ويسبب لهم الانزعاج.

أيها الإخوة القوميون الإسلاميون! ها أنتم ترون أنه مهما عملتم بحسن نية فليس من الممكن أن تنالوا مقصودكم بالطرق التي نهى اللّه عنها.

إن الهدف ذو الغايتين لن يجدي شيئًا. وأتباعكم، هل سينتمون إلى القومية التركية أكثر من الإسلام؟ أم إلى الإسلام أكثر؟ إذا قلتم فلينتموا إلى الغايتين في درجة واحدة، فلن يكون هذا ممكنًا. لذلك أستحلفكم باللّه أن تصرّوا على أن يولي الأتراك وجوههم نحو الكعبة، وإلا يحوّلوها إلى طوران. لا توصوا أحدًا بأن يولي وجهه شطر الاثنتين، ذلك لأن الجهتين تضادّ كل منهما الأخرى ولا يمكن رؤية كلاهما في وقت واحد. فإما أن يتجه الأتراك نحو الكعبة ـ كما هم كذلك منذ ألف عام ـ ويتركون طوران

خلفهم، أو ينظرون إلى طوران فينسون بعد ذلك الكعبة. أما الذين ينظرون تارة إلى هنا وأُخرى إلى هناك فيدخلون في زمرة: ﴿**مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء**﴾ ومعروفةٌ حدود الخير الذي يمكن أن يأتي من المذبذبين في الفكر.

في هذه الحالة دعوكم من هذا الخيال الأجوف الذي يجمع الضدّين.. ذلك لأنه من المحال التواجد تحت لواء الإسلام، وتحت لواء الجاهلية في وقت واحد.

إن معرفة قانون جنكيز والتعرّف على وطن إيلخان، وذكر دولة الجيش الذهبي (من الدول التركية القديمة) لا يهمنا في شيء، فلا فخر بالشرك الذي حدث في الماضي. إن الذي يلزمنا معرفته هو: الشرع المحمدي والوطن الإسلامي ومعرفة المجاهدين المسلمين، شرف العنصر لا قيمة له أمام شرف الإسلام، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

هذه نصيحتنا للقوميين الإسلاميين. وهذا أيضًا عين ما نقوله لإخواننا العرب الذي بهر هوى العصبية أعينهم.

أحمد نعيم: «إسلامده دعواي قوميت»

دار الخلافة، توسيع طباعت مطبعة سي ١٣٣٢هـ»[1].

* شاعر الإسلام محمد عاكف ممثل الأدب الديني التركي في القرن العشرين وعنوان الجامعة الإسلامية وجهاده ورده على شعراء المادية:

ولد محمد عاكف في إستانبول عام ١٨٧٣م من أب أرناؤوطي (ألباني) مهاجر في إستانبول، وأم بخارية مهاجرة ضمن أسرتها إلى تركيا أيضًا. وكان

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٤٨ ـ ٣٦٨).

(١) خُدع عاكف في أتاتورك ثم استبان له أمره فيما بعد

والده محمد طاهر أفندي، عالمًا دينيًّا يعمل أستاذًا في مدرسة جامع الفاتح بإستانبول.

درس عاكف دراسة منتظمة في إستانبول: الكتاب والابتدائية والثانوية ثم القسم العالي في المدرسة. وبجانب هذه الدراسة المنتظمة تلقى عاكف في المنزل دراسة خاصة في اللغة العربية التي يجيدها إجادته للتركية، ثم درس اللغتين الفرنسية والفارسية، ولعب والده دورًا كبيرًا في إتقانه اللغة العربية.

*** عاكف يجاهد بالفكرة وبالقلم وبالخطابة:**

عندما سقطت مدينة إزمير التركية في أيدي قوات المهاجمين اليونانيين في ١٥ مايو ١٩١٩م كتب محمد عاكف في سبيل الرشاد (العدد ٤٣٧عام ١٩١٩م)، قائلاً: إن الأتراك المسلمين الذين لم يعرفوا الضيم ولم يفقدوا استقلالهم منذ القرون الطوال لا يستطيع اليونانيون إجبارهم على حياة المذلة.

وفي أواخر مايو من نفس العام، وبينما القوات اليونانية تتجه نحو آيواليق للاستيلاء عليها، فإذا بهذه القوات وقد أخذت تجابه حركة مقاومة شعبية مسلحة نجحت في صدهم. وكان هذا أول مظاهر حرب الاستقلال التركية التي انتهت بطرد قوات الحلفاء من تركيا، هذه الحركة حمست عاكفًا، فاتجه مسرعًا إلى مدينة (باليق أسير)؛ ليحث الشعب على مواصلة النضال، فألقى الخطب في الجوامع، وكتب في سبيل الرشاد، ثم طبع سرًّا ترجمة تركية قام بها صهره عمر رضا طوغرول لكتاب ألّفه العالم الهندي حسين قضواي؛ يهاجم به الإنكليز. وكان الإنكليز وقتها يحتلون إستانبول. وفي عام ١٩٢٠م استقال محمد عاكف من أمانة دار الحكمة الإسلامية لانشغاله بالمعركة. وعندما أعلن الحلفاء في ١٦ مارس ١٩٢٠م احتلالهم رسميًّا لإستانبول، ترك عاكف إستانبول واتجه للأناضول ليلتحق بالحركة الشعبية الوطنية المقاومة للاحتلال الأوروبي. وصل عاكف في أنقرة، وفي ٢٣ مايو

من نفس العام ١٩٢٠م أصدر أتاتورك قرارًا بإنشاء مجلس الأمة التركي الكبير، فاشترك عاكف في هذا المجال نائبًا عن مدينة بُوردُوز. ولما قام أهل قونية بتمرد ضد حكومة مصطفى كمال، قامت حكومة أنقرة بإرسال شاعر الإسلام محمد عاكف ليهدئ من روعهم ولينصحهم بالعدول عن الثورة[1]، وفي هذا دليل على اعتراف تركيا بأهمية محمد عاكف. ومن قونية اتجه عاكف إلى قَسْطَمُوني حيث أخذ يعظ الشعب ويثير حماسه ونخوته وذلك من جامع نصر اللّه، وكذلك ليصدر مجلة سبيل الرشاد بعد أن نقلها من إستانبول حتى لا تكون تحت تأثير الإنكليز.

وجد محمد عاكف اهتمامًا شعبيًّا بالغًا بوعظه وإرشاده وخطبه في مدينة قسطموني، لذلك أخذ في زيارة البلاد الأخرى في الأناضول من صغيرة وكبيرة لبعث روح المقاومة في الشعب. وقد أصدر عاكف في خطبه هذه رسائل أخذ يوزعها في قرى الأناضول ومراكزهم. ثم عاد في يناير ١٩٢١م إلى أنقرة.

*** عاكف: مؤمن لا يهتز:**

ثم جاء عام ١٩٢١م بهزائم كثيرة للحركة الوطنية الاستقلالية، بانتصار الجيوش اليونانية على المواقع التركية، وسقوط مدينة أفيون ثم مدينة كوتاهية في شهر يوليو، ثم مدينة أسكيشهر في أول شهر أغسطس وأخذت جيوش اليونان تتقدم صوب أنقرة العاصمة الشعبية.

في هذا الوقت العصيب أعلن عاكف أنه لن يبرح العاصمة أنقرة، وظلّ حيث هو ينشر البيانات على الناس ليعيد السكينة إلى الشعب وكذلك ليحثّه على العمل والمقاومة..

(١) خُدع عاكف في أتاتورك ثم استبان له أمره فيما بعد

ولّما أعلنت وزارة المعارف التركية عن مسابقة لتأليف نشيد الاستقلال دُعي إليها كل الشعراء الأتراك، واشترك فيها ٧٢٤ شاعرًا لم ينجح منهم أحد. ولم يكن عاكف قد اشترك فيها؛ لأن المسابقة كانت تنص على مكافأة مالية للشاعر الذي ينجح. ولّما قام وزير المعارف وهو حمد اللّه صبحي، بإلغاء بند هذه المكافأة من الإعلان، استطاع الوزير بذلك أن يقنع شاعر الإسلام، بتأليف النشيد، وبالتالي ظهر أقوى نشيد في حياة تركيا وهو نشيد الاستقلال. وكان نشيدًا هامًا، صدّق عليه مجلس الأمّة التركي الكبير في ٢٥ مارس عام ١٩٢١م، بعد أن قرأه وزير المعارف بنفسه وأثار وقتها حماسًا منقطع النظير في مجلس الأمة.

وأقدّم هنا ترجمة لبعض هذا النشيد الهام.

لا تخف!

فلن ينطفئ أوار هذا العلم؛

هذ العلم الأحمر السابح في الشفق؛

حتى يخمد آخر موقد في بلادي.

نجم شعبي: هم هذا العلم.

إنه ملكي أنا. إنه لي ولأمتي.

يا أيها الهلال!

لا تقطب جبينك هكذا،

فأرواحنا.. فداءٌ لك.

دع هذا الوجوم وابتسم!

ابتسم لشعبي البطل؛

حتى تحل لك دماؤنا.

دماؤنا هذي مبذولة في سبيلك.

أمّا الاستقلال: فإنه حق لشعبي

شعبي هذا المؤمن الذي يعبد اللّه.

عشتُ حرًّا منذ الأزل.. وسأحيا حرًّا إلى الأبد.

أيُّ مجنون هذا الذي يتصور،

إنه يكبلني بالقيود.

فأنا السيل الهادر أحطّم قيودي لأنطلق.

وفي عام ١٩٢٢م، انتخب عاكف عضوًا بهيئة التأليفات الإسلامية التي أنشأتها وزارة الشرعية التركية، وكلفته الحكومة التركية بترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة التركية.

وعندما ظهرت نتيجة حرب الاستقلال التركية الباهرة على قوات اليونانيين، ويطرد قوات الحلفاء من البلاد، مما جعل تركيا تصبح محط أنظار المسلمين. أخذ محمد عاكف في الأمل الكبير بأن هذا الانتصار سيعيد وحدة المسلمين مرة أخرى، ويكتب للجامعة الإسلامية التحقق. وكانت فرحة شاعر الإسلام، فرحة كبرى كبر أمله.

*** خيبة أمل عاكف في أتاتورك:**

إلاّ أن أمله ذهب هباء، وصدم شاعر الإسلام. صدم لأنه عمل مع الحركة الوطنية الاستقلالية بكل جهده مؤملاً في أن انتصارها معناه انتصار الإسلام والجامعة الإسلامية. خاصة أن أتاتورك كان أثناء الحرب الوطنية في سبيل الاستقلال يقترب كثيراً من علماء الدين يزورهم ويستمع إليهم، ويتشاور معهم ويفيد منهم، فإذا ما تم الانتصار لأتاتورك ورفاقه، أخذوا يبتعدون تمامًا عن طريق الجامعة الإسلامية، واتخذوا الغرب مثلاً أعلى لهم،

فأعلنوا رسميًّا: علمانية الدولة، وألغوا السلطنة ثم ألغوا الخلافة، وأبطلوا وزارة الشرعية والأوقاف وأغلقوا المدارس الدينية، وفرضوا لبس القبعة، وغيّروا الحروف العربية إلى حروف لاتينية، وضيقوا على الإسلاميين، وأعلنوا أنّ الإسلام تخلّف وأن الغرب تقدّم[1] .

وبعدما رأى محمد عاكف ما فعله أتاتورك بتركيا كانت الصدمة شديدة عليه، فلم ير في وجوده في بلاده فائدة فهاجر إلى مصر في شتاء ١٩٢٥م.

وفي مصر أقام عامين ضيفًا على الأمير عباس حليم باشا في حلوان بالقرب من القاهرة، وهي الآن ضمن حدود القاهرة الكبرى. بعد ذلك أرسل عاكف في طلب أسرته من تركيا، ولما جاءت سكن في منزل مستقل، وأخذ في تدريس اللغتين الفارسية والتركية في الجامعة المصرية ـ جامعة القاهرة الآن ـ واستمر في وظيفته هذه إلى أن أدركه الموت عام ١٩٣٦م.

لما أحسّ بدنو أجله طلب الرجوع إلى إستانبول فرجع. وفي ٢٧ ديسمبر ١٩٣٦م توفي شاعر الإسلام الذائع الصيت في تركيا محمد عاكف، ودفن في مقبرة باب أدرنه بجوار زميل جهاده أحمد نعيم بابان زاده.

ونظرًا لأن عاكف كان أدار ظهره للحكم الكمالي، ولم يرضَ بإجراءاته

---

(١) لسوف يذكر التاريخ ما فعله هذا القزم المارق بالإسلام والمسلمين وهدمه لثوابت هذا الدين وخيانته للإسلام ويكفي قراءة «صحوة الرجل المريض» أو «الرجل الصنم» ليعرف الناس من هو أتاتورك.. وفرح الغرب الشديد به ففي ٣٠ نوفمبر ١٩٧٩ كان المقال الرئيسي في جريدة مليت التركية «البابا يصرح في أنقرة بقوله: «إنني أول بابا في التاريخ ينحني بإجلال واحترام أمام قبر أتاتورك»!!! وذلك في أثناء زيارة البابا جون بول الثاني بابا روما لتركيا ووصوله إلى أنقرة في ٢٨ نوفمبر ١٩٧٩.. ويترك البابا مستقبليه أمام الطائرة ليسجد ويقبل الأرض. كانت هذه هي أول مرة تطأ فيها قدم البابا أرضًا مسلمة.

المضادة للإسلام والجامعة الإسلامية. فلم تهتم الدوائر الرسمية ولا أجهزة الإعلام التركية بوفاته، ولم تشيع جنازته بالمكانة اللائقة به.

إلا أن الشباب المسلم في تركيا تبنى ما دعا إليه عاكف، ومن ثم أصبح اسم محمد عاكف شاعر الإسلام رمز الحركة الإسلامية في تركيا، وعنوانًا من عناوين فكرة الجامعة الإسلامية. ومحمد عاكف كما تقول الأستاذة نجلاء بك أولجاي، أستاذة الأدب الإسلامي: «لا شك أن عاكف هو ممثل الأدب الديني في القرن العشرين، وأنهُ يعد شخصية قائمة بذاتها في داخل نطاق هذا الأدب الإسلامي، فعاكف يأخذ من القرآن الكريم ليتجه إلى مجتمعه داعيًا ومصلحًا.

ولقد قام محمد عاكف بترجمة معاني القرآن الكريم إلى التركية أودعها عند صديقه الشيخ محمد إحسان عبدالعزيز، إلاّ أن الأستاذ إبراهيم صبري ابن شيخ الإسلام مصطفى صبري قام بإعدامها خوفًا من أن يفتتن المسلمون في تركيا بأسلوبها فيتخذونها بديلاً عن قراءة القرآن الكريم ذاته!!»[1].

*** ديوان «الصفحات» لمحمد عاكف:**

جمع عاكف أشعاره كلها في ديوان واحد يضم سبعة أجزاء، الديوان عنوانه الصفحات. أما الأجزاء فهي كالتالي:

الأول: الصفحات. صدر عام ١٩١١م وقصائده عبارة عن قصص شعرية اجتماعية وقصص تاريخية شعرية، مثل قصة سيدنا عمر والعجوز ـ قصّة ديرواس ـ ويضمّ هذا الجزء أيضًا قصصًا شعرية من حياة عاكف نفسها

(١) انظر «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٢٩٧ ـ ٢٩٨).

مثل قصة سيفي بابا.

الثاني: من كرسي الوعظ بالسليمانية: وهذا الجزء عبارة عن منظومة طويلة بطلها عبدالرشيد إبراهيم، وهو رحالة مسلم من أتراك الشرق صدر عام ١٩١٢م.

الثالث: أصوات الحق: وهو شروح بالشعر لثماني آيات قرآنية، وشرح شعري لحديث شريف. وصدر عام ١٩١٣م.

الرابع: من كرسي الوعظ في جامع الفاتح: وصدر عام ١٩١٤م. عبارة عن قصيدة واحدة طويلة وعظية. تناول فيها عاكف موضوعات شتى تشغل بال العالم الإسلامي.

الخامس: خواطر: صدر عام ١٩١٧م. وهي خواطر عاكف عن رحلاته في مصر والحجاز ونجد وبرلين. مع بعض قصائد هي شروح شعرية لبعض آيات من القرآن الكريم.

السادس: عاصم: وصدر عام ١٩٢٤م. وهو قصة منظومة واحدة على شكل محاورة. وأراد عاكف فيها الإشارة إلى الجيل الجديد من المسلمين الذي يأمل الشاعر الداعية فيه، ورمز إليه بشخصية عاصم.

السابع: الظلال: وصدر عام ١٩٣٣م من مصر. ويضم أشعارًا دينية. وهو مترجم إلى اللغة العربية، وصدر في مصر أيضًا، ومترجمه الأستاذ إبراهيم صبري.

* فكر شاعر الإسلام محمد عاكف:

❑ ويمكن تقديم صورة فكر شاعر الإسلام محمد عاكف في الإطار التالي:

١ ـ وجوب اتخاذ القرآن الكريم مصدرًا أصليًّا للحركة، وبالتالي ترك

الخرافات والبدع، وتقويم الإسلام على أنه نظام حياتي ينظم حياة المجتمع، وأنّ القرآن:

«لم ينزل ليقرأ على القبور

ولا ليستخرج منه الفال».

أما عن مهمتنا تجاه القرآن الكريم فيقول عاكف:

«يجب أن نستلهم القرآن مباشرة

يجب أن نجعل إدراك العصر يقول بالإسلام».

٢ ـ وجوب أخذ المسلمين بالتكنولوچيا الغربية. . وفي هذا يقول:

«خذوا علوم الغرب، خذوا فنونه

وأعطوا مساعيكم أقصى سرعتها

انتبهوا لعلوم الغرب

لأنّ الحياة بدونها مستحيل

ولأنّ ليس للفنون ولا للعلوم جنسية».

٣ ـ وجوب معاداة الفكرة القومية:

وقد كانت موجة القومية تهب على الدولة العثمانية في محاولة لتفتيت عناصرها، وقد انتهت هذه المحاولة فيما بعد بالفعل إلى نفس النتيجة التي هبت عليها هذه الموجة.

يقول عاكف في نثره:

«إنّ قضية العرقية قضية فاسدة لا يؤخذ بها، وهي بالتعبير الديني جاهلية».

كما يوجّه عاكف أشعاره إلى بني جلدته من الألبانيين عندما طالبوا بالانفصال عن الدولة العثمانية؛ بحجّة أنهم قومية مختلفة غير الترك، وغير

العرب، وغير القوميات الأخرى التي تحيا في إطار الدولة العثمانية.

❑ يقول عاكف:

«أين ما كنتم عليه من مليّة الإسلام؟!

وما هي هذه القومية؟!

وماذا لو اعتصمتم بإسلامكم؟!

وما هي هذه «القومية الألبانية»؟!

ألها مكان في شريعتنا الإسلامية؟!

أن تقدّم قومك: كفرٌ، وليس له معنى آخر.

أهناك (في الإسلام) تفضيلٌ لعربي على تركي؟!

أو للازي على شركسي أو كردي.

أو إيراني على صينيّ؟!

هل في الإسلام عناصر أو قوميات؟! ما هذا الهراء!

إن الرسول يلعن فكر «القومية».

والتفرقة بين المسلمين، لأكبر عدوّ لروح نبيّنا».

٤ ـ التحذير من الغرب والدعوة لمعاداته:

❑ يقول شاعر الإسلام محمد عاكف:

«تسلط كابوس الغرب الدامي وغشّى البصر

وعطّل فكر الإسلام، وعطّل ساعده منذ قرون».

❑ وعن الصليبيين الغربيين واتخاذهم المدنية ستاراً لقهر الشرق الإسلامي يقول عاكف:

«ابصقوا على وجه هؤلاء الصليبيين عديمي الحياء

ابصقوا على كلماتهم الخائنة

ابصقوا على الكائن المهرّج الذين يسمّونه بالمدنية

ابصقوا على ضمير العصر المقنع! ابصقوا».

٥ ـ الأخذ بالعلم التطبيقي وترك الجهل:

❑ يقول شاعر الإسلام محمد عاكف في تركيا:

«وا أسفاه على علم يضيع مخنوقًا في النظريات.

قيمة العلم: قيمة عملية تطبيقية».

❑ وعن الفرق الذي بين «الذي يعلم» و«الذي لا يعلم»، وهل يتساويان؟! يقول عاكف:

«لا يمكن، فبالطبع: واحد منهما إنسان والآخر حيوان، ولا بدّ أن تعزم الأمة على التخلص من السبّة المسماة بالجهل».

٦ ـ الأخذ بالحذر دائمًا من روسيا ومعاداة الروس:

فروسيا كانت تحرّض الشعوب غير المسلمة في الدولة العثمانية على الاستقلال عن الدولة، وذلك عن طريق إثارة هذه الشعوب وتحريضها على القيام بثورات مستمرة ترهق بها الدولة، ثم تقوم روسيا بعد ذلك بالضغط على الدولة العثمانية بالحروب، لكي تعطي الدولة لهذه الشعوب الصغيرة استقلالها، فإذا استقلّت هذه الشعوب ابتلعتها روسيا. مثال ذلك: شعب بلغاريا الذي ثار كثيرًا ضد الدولة العثمانية، فلما استقلّ هذا الشعب قامت روسيا بتعيين أمير روسي حاكمًا عليه، وأخذ جنرالات روسيا يديرون شأن بلغاريا عقب استقلالها عن العثمانيين.

❑ ومن جهة أخرى كانت روسيا تضطهد المسلمين الواقعين تحت حكمها يقول عاكف:

«ضغوط روسيا شديدة

أهناك من طريق آخر لتجنّب الظلم؟».

❑ ويعيب على أوروبا المتحضّرة سكوتها على اضطهاد روسيا للمسلمين فيها، فيقول:

«لماذا لا تعي أوروبا المتحضّرة
أنّ كل عقل يحاول التفكير (في روسيا) مصيره: السَّحق».

٧ ـ احتقار أصحاب القلم الذين لا يلتزمون بالإسلام:

❑ يقول عاكف في نثره:

«يجب على الأدباء أن يكونوا على أدب. ولا أدب إلا في التأدّب بأدب الإسلام».

٨ ـ بث الأمل في عودة نهضة الأمة الإسلامية من جديد في نفوس المسلمين، فيقول:

«لمَ يلقونَ الأمل، وإلا، فإنّ هذا الدين
قد نشر على الكائنات ظلاله الخضراء.
وصوت الحق قد خنق صوت الضلال.».

❑ كما يقول:

«ما دام وعد اللَّه لنا هو الحق
فإنّ فجر الشرق الأزلي، سيشرق».

❑ ويقول:

«المؤمن لا يقع في اليأس، ولو قيد ذرّة».
«اليأس مستنقع قذر
ولو وقعتَ فيه لاختنقت،
فاعتصم بالأمل».

٩ ـ التأكيد على ضرورة يقظة المسلمين ووعيهم، وضرورة تحرّكهم.

يقول عاكف:

«كفى يا معشر المسلمين
باللّه ألا صحوتم من نومكم
يا معشر المسلمين هبّوا من نومكم
فسوف تغرب هذه الشمس
استيقظوا فإني أخاف أن يحلّ ليل الندم
بعد ذلك، من سيوقظكم؟!
أصور إسرافيل؟!!

١٠ ـ الدعوة إلى العودة إلى بساطة الإسلام الأولى: يقول عاكف:

«فلنتناول فترة قريبة من نشأة الإسلام
يا له من تقدّم مدهش، يا لها من سرعة خارقة
أأبدت الإنسانية يومًا معجزة كهذه المعجزة!
الذين عاشوا على الفطرة
الذين غرقوا عندما استقرّت الوحشية والغلظة
في قلوبهم وأعماقهم،
والذين كانوا يئدون بناتهم
أحياءً في رمال الصحراء.».

. . . . . .

«انظروا! كيف صاروا في ثلاثين عامًا!!
ملكوا الأرض بتقدم ثلاثين ألف عام.».

. . . . . .

«فليرجع المسلمون لصدر الإسلام».

١١ ـ المناداة بضرورة وحدة عناصر المسلمين. يقول شاعر الجامعة الإسلامية عاكف:

«لن يحيا التركي، بدون العربي
وكل من يقول بعكس هذا، فهو أبله.
فالتركي بالنسبة للعربي
عينه اليمنى وساعده الأيمن.».

. . . . . .

«لندفن الفُرقة في قبر النسيان».

١٣ ـ المناداة بفهم الإسلام على حقيقته. يقول شاعرنا المفكّر محمد عاكف:

«يعني: أن لم يبق للإسلام في المسلمين إلاّ الاسم،
يعني: أن هذا هو السبب في الخسران بين المسلمين اليوم.».

*** أقوال عن عاكف:**

يصفه المفكر الإسلامي سزائي قراقوج بقوله: «نقطة انطلاق عاكف كانت الإسلام، وفي ضوء من الإسلام بذل عاكف جهده، وفي ضوء من الإسلام، أبان عاكف على الملأ الظروف الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التي كبّلت المجتمع الإسلامي؛ في عهد انهيار الدولة العثمانية الإسلامية التي ظلّت قائمة ستمائة عام. وعندما أبان عاكف جراح الأمة الإسلامية أبان في نفس الوقت أيضًا الدواء. والدواء الذي شخصه عاكف لأمته هو: الإسلام وإحياء مبادئه بروح شابة سواء في داخلنا أم في خارجنا، ثم التزيّن بقوى العصر التكتيكية والمادية».

يواصل سزائي قراقوج قوله ففي وصف عاكف: «أخذ عاكف يشرح

الحقائق للمثقفين العثمانيين في أوائل هذا القرن العشرين، عن طريق أشعاره التي بلغت صيتًا بعيدًا في طول البلاد وعرضها، وعن طريق مقالاته المؤثرة، وأيضًا عن طريق الوعظ بالدروس الدينية التي كان يلقيها في الجوامع، وكذلك عن طريق ترجمة أعمال المفكّرين الإسلاميين إلى اللغة التركية».

«كان عاكف يبرز المصائب التي كان يمكن أن تحدث في المجتمع الإسلامي إذا أدار هذا العالم ظهره للإسلام وللجامعة الإسلامية. ورسم عاكف اللوحة المادية والمعنوية لفقرنا، منتقدًا الفكر الغربي الذي كان يهاجمنا».

«قال عاكف هذا، قبل أن تصبح هذه الأفكار وقائع تأخذ شكلها الرسمي وتفرض نفسها على البلاد فرضًا».

❑ وعنه تقول الكاتبة شكوفه نهال:

بعد أن فجع عاكف في تركيا الكمالية وخاب ظنه فيها، ظلّ إنسانًا، فلم يتراجع عن التزامه، لم يُغره المال، ولم يَستَمِلْهُ المنصب. لم يخن عاكف ضميره، ولم يخدش كبرياءه، ظل إنسانًا كما هو إنسان، واقتفى أثر الطريق الذي اعتقد فيه الحق».

أما حسن علي يوجل فيوجز فكر عاكف في العبارة الآتية: «يرى محمد عاكف أن تخلص الأمة من المصائب المختلفة، ووصولها إلى السعادة إنما يكمن في العودة إلى ماضي الأمة الأصيل، إلى عصر النبي ﷺ، هذا العصر الذي ينادي محمد عاكف دائمًا باتخاذه المنوال والمثل».

❑ يقول الأستاذ الدكتور نور الدين طوبجي: «حاول الشيوعيون والقوميون والماسونيون خنق صوت عاكف حتى بعد موته، إلا أنّ شباب هذه الأمة تبنّى فكر عاكف وأعماله وفرضها على وجه تركيا رغم التعتيم الرسمي عليه».

*** محمد عاكف يرد على الماديين وعلى رأسهم توفيق فكرت:**

كان الأدب هو شغل عاكف الشاغل وأهله اطلاعه الواسع على الأدب أن يعمل أستاذًا له في جامعتي إستانبول والقاهرة.

رأس عاكف تحرير مجلة إسلامية أدبية وفكرية هامة، هي مجلة الصراط المستقيم، وقد تغير اسمها في أواخر أيامها إلى «سبيل الرشاد». وكتب فيها عاكف كثيرًا. وكانت هي اللسان المعبر عن آراء الإسلاميين في الفكر وفي الأدب وفي الدفاع عن الإسلام وفي مهاجمة الماديين.

*** التغريبيون والإسلاميون:**

سيذكر التاريخ بالخزي والعار التغريبون الأتراك: أمر اللّه أفندي وساطع الحصري والأمير صباح الدين بك عضو جمعية الاتحاد والترقي، وأحمد رضا بك الذي ينكر الغيب وكان رئيسًا للاتحاد والتقري في باريس، وعبداللّه جودت، وجلال نوري، ورضا توفيق وهؤلاء رأوا ضرورة استبعاد الحروف العربية واتخاذ الحروف اللاتينية للكتابة، وجعل العلمانية أساس فكر المجتمع، وتحديث الأسرة، وضرورة هدم نظام التعليم الديني السائد في الدولة. وأتى من بعدهم الماركسي ناظم حكمت.

وقاوم الإسلاميون هذا التيار التغريبي وكان على رأس الإسلاميين سعيد حليم باشا (١٨٦٣ ـ ١٩٢١)، وأحمد نعيم بابان، وحمدي يازير (١٨٧٧ ـ ١٩٤٢)، وشيخ الإسلام موسى كاظم (١٨٥٨ ـ ١٩٢٠)، وشيخ الإسلام مصطفى صبري (١٨٦٩ ـ ١٩٥٤)، وإسماعيل حقي (١٨٦٨ ـ ١٩٤٦) ومحمد علي عيني (١٨٦٩ ـ ١٩٤٥)، وأحمد حلمي شهبندر زاده (١٨٦٥ ـ ١٩١٣)، وإسماعيل فني (١٨٥٥ ـ ١٩٤٦). ومحمد عاكف الذي طالما صدح بشعره «فليرجع المسلمون إلى صدر الإسلام» و«الذين غرقوا في

الضلالة عندما استقرت الغلظة والوحشية في قلوبهم وأعماقهم، والذين كانوا يئدون بناتهم أحياءً في رمال الصحراء. إذا بهم في ثلاثين عامًا من الإسلام قد ملكوا الأرض بتقدم ثلاثين ألف سنة».

❑ وفي تضامن العالم الإسلامي يقول محمد عاكف: «لن يحيا التركي بدون العربي، ومن ينكر قولي هذا فهو أبله. فالتركي للعربي عينه اليمنى وساعده الأيمن»، و«فلندفن الفُرقةَ في قبر النسيان».

وكانت هناك معارك فكرية بين الجانبين، منها ما كان بين أحمد حلمي شهبندر زاده الذي ردّ في كتابه «مسلك الماديين» على جلال نوري (١٨٧٧ ـ ١٩٣٩) الذي كان من المفكرين المقربين لأتاتورك.

إلا أن أشهر هذه المعارك كانت معركة عاكف ـ فكرت.

❑ أما توفيق فكرت (١٨٦٧ ـ ١٩١٥م) فهو شاعر مادي وتمثّل أدبه في أمرين:

أ ـ الإلحاد.

ب ـ مهاجمة نظام السلطان عبدالحميد والدولة العثمانية.

❑ وفي الإلحاد، يقول:

أنا لا أعرف المعبود ولا أعرف العابد.
أنا أعرف نفسي بأني أعبد الطبيعة؛
وأرى في السموات آلاف المساجد؛
وأرى ضميري ساجدًا فيها. وفي هذا طاعتي.
أما كتابي إن كان لا بد من كتاب فهو مسرح الطبيعة.
وأما الدين إن كان لا بد من دين فهو الحياة.

❑ وفي مهاجمة الدولة العثمانية، وفي التمرد على قيم الإيمان يقول:

لا محارب، لا حرب، لا استيلاء.

لا تسلط، لا سلطنة، لا شقاء.

لا شكوى، لا ظلم، لا استبداد.

أنا أنا، وأنت أنت، لا رب ولا عباد.

❑ يقول شاعر الإسلام محمد عاكف عليه رحمة اللَّه، عن توفيق فكرت، عبارة مؤداها أنه لا يمكن السكوت على فكرت بأي شكل من الأشكال وينبري محمد عاكف ليهاجم فكرت ويهاجم الأدباء المعتقدين بالمادية، فيقول:

أدباء المادية: مخلوقات قبيحة.

أيُترك هؤلاء لتوجيه الناس؟!!

بعض أدباء المادية سماسرة

لترويج الفواحش.

* * *

ما شعر شعراء المادية إلا

حديث عن الخمر والبغايا والساقطات.

شعراء المادية ضائعون.

ليس لأحد منهم مبدأ

«فكرت» يسب الآن، خالقه.

ويغدقون عليه المال

فيعمل ـ بلا حياء ـ شماسًا،

في كنيسة البروتستانت.

* * *

شعراء المادية الملحدون.. سفلة

باعوا أعراضهم للسماسرة[1].

يعني كان توفيق فكرت ينادي بفكر مادي وثقافة متحللة. أمّا عاكف فينادي بالعلم وبسمو الأخلاق أي الأخذ بعلوم العصر والأخذ في نفس الوقت بأخلاق الإسلام.

تمسك توفيق فكرت وثقافته في حياته فترك ابنه متحللاً حتى أصبح ابنه واسمه «خلوق» قسيسًا ترك بلاده ليستقر في الغرب، وتمسك محمد عاكف بالعلم العصري والأخلاق الإسلامية فترك خلفه جيلاً مسلمًا واعيًا يترحم عليه.

*** المفكر الإسلامي نجيب فاضل (١٩٠٥ ـ ١٩٨٣) مؤلف كتاب «نسيج الفكرة»:**

نجيب فاضل قلد وسام أشعر شعراء اللغة التركية في مايو ١٩٨٠ وتولى عمادة الأدب التركي بجدارة، وامتاز ـ رحمه اللَّه ـ بوضوح الرؤية الإسلامية بكل أبعادها وإلى الإسلام الشامل وكان ـ رحمه اللَّه ـ هو واجهة الفكرة الإسلامية في مواجهة المادية.

ويعتبر عام ١٩٣٤م أهم عام في حياة نجيب فاضل وفكره، وهو العام الذي التقى فيه بالشيخ عبدالحكيم الأروسي، وفيه بدأ نجيب عهدًا جديدًا من الوعي والاعتراف بدور القيم في الحياة، وأخذ نجيب عن طريق هذا الفكر الطارئ على حياته، دورًا إيجابيًا في حياة تركيا الفكرية والسياسية، وبذلك أيضًا أخذ دور الرائد ليذكر الأتراك ومن في تركيا بأن لبلادهم قيمًا أصلية

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٤٣٤ ـ ٤٣٧).

وتاريخًا عريضًا، وأن الطريق أمامهم للنهوض من التخلف والانحطاط إنما يكمن في مراعاة القيم وعدم الجري وراء التقليد بلا ضرورة وبالتالي وجد نجيب فاضل نفسه في صف، ووجد الإداريين ـ وقتها ـ وزملاء القلم من الماديين في صف آخر. ذلك لأن تركيا كانت قد اتخذت الخط الأوربي مسارًا رسميًا لحياتها، ووقف نجيب عملاقًا حينما أدلى برأية في بعض قضايا التاريخ، وأعاد الاعتبار إلى شخصيات تاريخية شُوهت نتيجة لدعايات بعض الأحزاب مثل شخصية السلطان عبدالحميد الثاني، والسلطان محمد وحيد الدين.

أدان نجيب فاضل فترة التنظيمات التي نسى الناس فيها من عثمانيين ـ أي من أتراك ـ وعرب وغيرهم؛ أصولهم وأصالتهم وأصبحوا تابعين للغرب. ونذكر هنا أن لنجيب فاضل كتاب «نسيج الفكرة» أهم وأخطر أعمال نجيب على الإطلاق يحمل فكرته في نهضة شعوب الشرق، يضارع إن لم يتفوق على كل ما كتب في اللغات الشرقية في موضوعه. توفي نجيب فاضل عام ١٩٨٣م.

❑ وله قصيدتان مشهورتان «الشرق العظيم»[1] و«البشرى» في الأولى يقول نجيب فاضل:

أشرِقْ أيّها الشرق العظيم
أشرِقْ من هنا. من عنْدي أنا؟
فمرآة آفاقي علم من نار؛
ورماد أبي هو أنتِ:
أيتها الأرض السوداء

(١) يعني بذلك بلاد الإسلام.

❑ وفي الثانية يقول نجيب فاضل:

سيدخل الفرسان من ثغرات الأسوار؟
إلى مدينة الأصنام.
الإنسان في مدينة الأصنام.
جثة عفنة تقف على الأقدام.
ستنشق السموات
لتعلن البشرى.
لتعلن أنَّه:
بشرى لكم؟
ها هي ذي الشمس التي لا تعرف المغيب:
قد أشرقت. اهـ.
نعم أشرقت شمس الإسلام التي لا تعرف المغيب..

*** الأمير سعيد حليم باشا من أعظم المدافعين عن الإسلام:**

❑ قال محمد إقبال عن سعيد حليم باشا وعن جمال الدين الأفغاني في كتابه «جاويد نامة» (ص٦٠) «لم ينجب الشرق (في القرن التاسع عشر) أفضل من هذين الرجلين»[1].

ولد سعيد حليم باشا في القاهرة عام ١٨٦٣م وهو حفيد محمد علي باشا والي مصر. درس سعيد حليم باشا اللغات العربية والفارسية والفرنسية والإنجليزية. ثم سافر إلى سويسرا ودرس هناك خمس سنين. ولما أتم دراسته عاد إلى إستانبول، وأصبح من دعاة وحدة العالم الإسلامي حول الخلافة والسلطنة العثمانية. وعمل وزيراً للخارجية العثمانية، وعين في ١٣ يونيو عام

(١) الأفغاني وضحنا صورته من قبل، ولا يُقبل كلام إقبال فيه.

١٩١٣م صدرًا أعظم أي في عهد الاتحاد والترقي.

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م دخل الاتحاديون بالدولة إلى جانب ألمانيا في هذه الحرب. وكان سعيد حليم باشا يبذل جهدًا كبيرًا لكي تبقى البلاد على الحياد. ولما لم يقنع أحدًا بذلك استقال، لكن الدولة تمسكت به حتى عاد إلى مباشرة عمله. وفي عام ١٩١٧ استقال وحل محله طلعت باشا. وعندما احتل الإنجليز إستانبول نفي سعيد حليم باشا إلى مالطة وقضى فيها سنتين واغتاله أحد الأرمن في روما يوم ٦ ديسمبر ١٩٢١م.

❑ وكان سعيد حليم باشا يتقن الفرنسية ويكتب بها، ولسعيد حليم باشا عدة مؤلفات عبارة عن رسائل منها:

المشروطية (الحكم الدستوري) ـ مشكلاتنا الاجتماعية ـ مشكلاتنا الفكرية ـ التعصب ـ تجربة قلمية حول انحطاط العالم الإسلام ـ النظم الإسلامية في الإسلام.

ويختلف الأمير سعيد حليم باشا عن جده محمد علي باشا أن الأخير كان متحمسًا للغرب، إلا أن الأمير كان رجلاً ذا تجربة عملية في سياسته الدولية في أوقات عصيبة، وذا اطلاع واسع في سياسته الأوربية الحديثة، وكان مصلحًا، وأجبرته الظروف المحيطة في كل حياته، أن يفكر طويلاً في المشاكل المتعلقة بمستقبل الإسلام والمسلمين، كان رجلاً له اطلاع واسع في أفكار إنجلترا وفرنسا وألمانيا، كاطلاعه في القرآن الكريم وتفسيره والأحاديث النبوية وشروحها، فكان لذلك جديرًا بأن ينصح للعالم الإسلامي فيما يختص بسياساته المستقبلة، ولم يكن نصحه أوربيًا، بل إسلاميًّا[1].

فمثلاً يقول الأمير: «نجح الإسلام في وضع القاعدة القائلة: إن الإنسان ليس ملزمًا بأي شكل بأن يخضع لقوانين مجاوريه، حتى ولو كانت تلك

(١) مريم جميلة، «الإسلام في النظرية والتطبيق»، ترجمة س. حَمَـد (ص١٢٩) الكويت=

القوانين معبرة عن إرادة الغالبية العظمى. ذلك إن أمثل هذه القوانين تستوجب أن تكون اختيارية لحد ما، فهو يخضع لإرادة خالقه».

«وهكذا، فقد أبطل الإسلام المذهب التجريبي والعقلي على أساس أن الأول والثاني ما هما إلا مجموعة من الأخطاء والاغترارات.. وجاء الإسلام بالقواعد التي أعطت للناس حق تحرير أنفسهم من تلك السيادات الخيالية التي نصبوها لأنفسهم».

«ومن وجهة النظر السياسية، إن الإسلام ـ بلا منازع ـ أوجد أصح مفهوم للسلطة، وأعطاها أهميتها الحقيقية»[1].

وبالرغم من تفوق المبادئ الإسلامية الواضح في تنظيم المجتمع، فإن العقلية المسلمة قد ضُلِّلَت في أيامنا هذه، حتى أنها لتفضل قاعدة «إرادة الأمة كسلطة غير محدودة، ولا تناقش على قاعدة سيادة الشريعة. ولقد انبهرت فئة متزايدة من المفكرين المسلمين بالنجاح المادي والقوة المادية للمجتمع الغربي وهم يصرّون باعتبار هذا الرقي الغربي ـ وهو موضوع تعجبهم المفرط ـ نتيجة مدهشة لقاعدة سيادة الأمة، هؤلاء الناس يريدون أن تنتهي الشريعة عن أن يكون المصدر والميزان للدولة الإسلامية. وذلك الاعتقاد بالسيادة القوية للأمة، هو اعتقاد باطل كغيره من اعتقادات السيادة التي ظهرت على الغرب، فهو يرتكز على اعتقاد باطل كغيرة من اعتقادات السيادة التي ظهرت في الغرب»[2].

رحمك اللّه أيها الأمير العظيم هذه صفحة عن عظماء المسلمين في تركيا نرد لهم بها دينًا عظيمًا في رقابنا.

أولئـك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنـا يا جريـر المجـامعُ

= ١٩٧٨م.

(١) مريم جميلة، المرجع السابق (ص١٣١).

(٢) مريم جميلة، المرجع السابق (ص١٣٣)، و«العثمانيون» (ص٤٢٩ ـ ٤٣١).

*** الشيخ عثمان دان فوديو يقيم سلطنة «سوكوتو» على التوحيد النقي الصافي لله دره:**

«في السودان الغربي: كان الداعية الشيخ عثمان دان فوديو أحد أبناء قبيلة الفولاني في السودان الغربي من أتباع الشيخ ابن عبدالوهاب، فأخذ يحارب البدع الشائعة في عشيرته، ويعمل على تقويض بقايا الوثنية، وعبادة الأموات التي كانت عند بعض السودانيين، ثم أخذ ينشر تعليم الإسلام الصحيحة، واستطاع أن يجمع حوله قبيلته في وحدة متماسكة مرتبطة برباط الدين.

ثم بدأ الشيخ عثمان بعد ذلك سلسلة من المعارك، كان أولها سنة ١٨٠٢م ضد قبائل الحوصة الوثنية، ولم تأت سنة ١٨٠٤م حتى أقام سلطنة «سوكوتو» في السودان، على أنقاض مملكة جبيرثين ـ النجير الأدنى، ونهر الينوي.

وقد قامت هذه الدولة على أساس الدعوة الوهابية، وامتدت حدودها إلى جميع الأقطار الراقعة بين تمبكتو وبحيرة تشاد، على مساحة أربعمائة ألف كليو متر مربع، كان يسكنها نحو عشرة ملايين من الناس، وقد ظلت هذه الدولة مستقلة نحو قرن من الزمان، حتى احتلها الاستعمار الأوربي وانفصلت عنها فيما بعد ممالك بورنو، والأداموا، وغاندوا، ونوبو، ولكنها ما تزال جميعها محتفظة بالإسلام عقيدة وخلقًا وسلوكًا»[1].

* * *

(١) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» (ص٣٧٦).

عَـوْدٌ على بـــدء
مواقِـفـهم مؤمنـــات العَبيـــر

عَوْدٌ على بدء مواقفُهم مؤمناتُ العَبير

* ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾:

❑ للَّه در أبي حنيفة حين يقول:

«الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إليّ من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم»[1].

وما أجمل قول الجنيد وهو الذي يغوص على الدرر: «الحكايات جند من جنود اللَّه»[2]، وقول مالك بن دينار: «الحكايات من تحف الجنة».

❑ قال بشر بن الحارث الحافي: «بحسبك أن قومًا موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قومًا أحياء تموت القلوب برؤيتهم».

❑ وقال سفيان بن عيينة: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»[3].

والحكايات عن الصالحين خير مهماز لرفع الهمم، وشدّ العزائم، وسموّ المقاصد، وإنارة القلوب، واحتلال ذرى المجد الرفيع، تعالج الفتور في الهمم، والقناعة بالدُّون، والخمود في الطبائع، والاشتغال بسفاسف الأمور.

هذا القصص الحق الذي نقصه «لا يبلغ الخيال ـ عند بعض الناس ـ إلى ما بلغه حقيقة، من احتلال ذروة الفضل والمجد وارتقاء سنام العلم والمكانة الرفيعة، وحيازة الذكر العطر الدائم، والأجر الباقي المستمر، وغير ذلك من الفضائل والمآثر»[4].

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (١/ ١١٧).

(٢) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (١/ ٥٢).

(٣) المصدر السابق (١/ ٥٢).

(٤) «صفحات مضيئة من حياة السابقين» لإبراهيم العلي (١/ ٢٠) ـ دار القلم.

ومن علامة كمال الإنسان علو الهمة، والراضي بالدون دنيء! قال الشاعر:

إذا ما علا المرء رام العُـــلا ويقنع بالدون مَنْ كان دونا!

وهذه الصفحات التي نسطرها في هذا الفصل.. إنما هي تربية بالقدوة، فإن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة، وإنما العيش مع أهل العلم السابقين من سلف الأمة الذين بلغو أقصى كمال يرتقيه البشر في كل مجال..

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنـــا شـــوقًا إليكم ولا جفّت مآقينـــا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنـــا يقضي علينـــا الأســـي لولا تأســـينا
ليُسق عهدكم عهـــد السرور فما كنتـــم لأرواحنـــا إلا رياحيـــنا

❑ أزاهيرهم مؤمنات العبير وأطيارهم قانتات الزجل..

مواقف العلماء والربانيين أزاهير فاح أريجها فعبقت به الأرواح وأحيا اللَّه بها القئام من الناس عبر تاريخ الأمة ـ فعودٌ على بدء مع هذه الصفحات، وهي أزاهير متفرقات من بساتين الربانيين، أهل اللَّه وعلماء الآخرة وملوك الدنيا، والجامع لهذه الأزاهير المتفرقات إعراض أهل العلم عن القضاء والولايات، فإن تولوا كرها تنظر إلى قيامهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر كأفضل ما يفعل الربانيين السادات، وإعراضهم عن الدنيا، وعدم قبولهم الأعطيات، وثباتهم على الحق والطاعات وإن خالفوا الناس والعادات:

*** الآن عزّ الإسلام:**

جاء في كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» لشهاب الدين الأبشيهي (٢/ ٣٤) و«حاشية ابن عابدين» (٤/ ٢١٣) ما نصه:

«أن غلمانًا من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة وأسقف البحرين قاعد، فوقعت الكرة على صدره فأخذها.

فجعلوا يطلبونها منه، فأبى، فقال غلامهم: سألتك بحق محمد ﷺ

إلا رددتها علينا.

فأبى لعنه اللَّه وسب الرسول ﷺ فأقبلوا عليه بصواليجهم، فما زالوا يخبطونه حتى مات لعنه اللَّه.

فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فواللَّه ما فرح بفتح ولا غنيمة، كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف.

وقال: الآن عزَّ الإسلام، إن أطفالاً صغارًا شُتم نبيهم، فغضبوا له وانتصروا، فأهدر دم الأسقف، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم».

*** ما قصَّ صاحب السفينة أرسى بي على باب الجنة:**

جاء في كتاب «ثمرات الأوراق» لابن حجة الحموي (١/ ٢٢) ما نصه:

«أن الحاكم الفاطمي لما بنى المسجد الجامع بالقاهرة المعزية المجاور لباب الفتوح، قيل أنه فسد حاله في آخر أمره، وادعى الألوهية، وكتب بسم الحاكم الرحمن الرحيم، وجمع الناس إلى الإيمان به، وبذل لهم النفائس، وكان ذلك في فصل الصيف، والذباب يتراكم على الحاكم، والخدام يدفعه ولا يندفع.

❑ فقرأ في ذلك الوقت بعض القراء، وكان حسن الصوت:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤].

فاضطربت الأمة لعظم وقوع هذه الآية الشريفة في حكاية الحال، حتى كأن اللَّه أنزلها تكذيبًا للحاكم فيما ادعاه.

وسقط الحاكم من فوق سريره خوفًا من أن يقتل، وولى هاربًا، وأخذ

في استجلاب ذلك الرجل، إلى أن اطمأن إليه، فجهزه رسولاً إلى بعض الجزائر، وأمر بإغراقه.

ورؤي بعد ذلك في المنام، فقيل له: ما وجدت فقال: ما قصر معي صاحب السفينة أرسى بي على باب الجنة».

*** الآن عرفتني حق المعرفة:**

«عن الأصمعي عن أبيه قال:

«مرّ المهلب ـ يعني ابن أبي صفرة ـ على مالك بن دينار متبختراً.

فقال: أما علمت أنها مشية يكرهها اللَّه إلا بين الصفين؟

فقال المهلب: أما تعرفني؟

قال: بلى، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة.

فانكسر وقال: الآن عرفتني حق المعرفة»[1].

*** للَّه درّ طاووس من إمام:**

عن سفيان بن عيينة قال: جاء ابن لسليمان بن عبدالملك، فجلس إلى جنب طاووس، فلم يلتفت إليه، فقيل له: جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه؟!

فقال: أردت أن يعلم أن للَّه عباداً يزهدون فيما فيه يديه[2].

*** عزُّ العلماء: عطاء بن أبي رباح القائل: «ما لي إلى مخلوق حاجة»:**

قال الأصمعي: «دخل عطاء بن أبي رباح على عبدالملك بن مروان،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٢).

وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبدالملك، قام إليه فسلّم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه وقال: يا أبا محمد، حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين! اتق اللَّه في حرم اللَّه، وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة.

واتق اللَّه في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس.

واتق اللَّه في أهل الثغور، فإنهم حصن الإسلام، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسئول عنهم.

واتق اللَّه فيمن على بابك، فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك.

فقال له: أفعل.

ثم نهض فقام.

فقبض عليه عبدالملك وقال: يا أبا محمد! إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك؟

قال: ما لي إلى مخلوق حاجة.

ثم خرج، فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤود»[1].

*** صفوان بن سليم القائل: «لستُ الذي أُرسلتَ إليه»:**

«عن كثير بن يحيى، عن أبيه قال:

قدم سليمان بن عبدالملك المدينة، وعمر بن عبدالعزيز عامل عليها، قال: فصلى بالناس الظهر، ثم فتح باب المقصورة واستند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سليم، فقال لعمر: من هذا؟ ما رأيت أحسن سمتًا منه.

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨٤ ـ ٨٥).

قال: صفوان.

قال: يا غلام كيس فيه خمس مائة دينار فأتاه به.

فقال لخادمه: اذهب إلى ذلك القائم.

فأتى حتى جلس إلى صفوان وهو يصلي، ثم سلم، فأقبل عليه، فقال: ما حاجتك؟

قال: يقول أمير المؤمنين: استعن بهذه على زمانك وعيالك.

فقال صفوان: لستُ الذي أُرسلتَ إليه.

قال: ألست صفوان بن سليم؟ قال: بلى.

قال: فإليك أُرسلتُ، قال: اذهب فاستثبت، فولى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم يُرَ بها حتى خرج سليمان من المدينة»[1].

* **«لأنْ يخنقني الشيطان أحبٌّ إليّ من أليَ القضاء»:**

وهذا رجل من رجال الآخرة المغيرة بن عبدالرحمن المخزومي صاحب مالك بن أنس:

«قال الزبير ـ يعني ابن بكار ـ: وعرض عليه أمير المؤمنين الرشيد قضاء المدينة وجائزة أربعة آلاف دينار فامتنع، فأبى إلاَّ أن يلزمه ذلك.

فقال: واللَّه يا أمير المؤمنين لأن يخنقني الشيطان أحبُّ إليَّ من أليَ القضاء.

فقال الرشيد: ما بعد هذا شيء، وأعفاه، وأجازه بألفي دينار»[2].

* **أما واللَّه ما مجالستهم مجالسة الأبرار:**

«عن فضيل بن جعفر قال:

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٨).

(٢) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (١/ ٢٨٣).

خرج الحسن من عند ابن هبيرة، فإذا هو بالقراء على الباب.

فقال: ما يجلسكم ها هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء، أما واللَّه ما مجالستهم مجالسة الأبرار، تفرقوا فرق اللَّه بين أرواحهم وأجسادكم، قد فرطحتم نعالكم، وشمرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم، فضحتم القراء فضحكم اللَّه، واللَّه لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم، فزهدوا فيكم، أبعد اللَّه من أبعد»[1].

*** أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبسي ووالي إفريقية:**

«ذكر ابن اللَّباد عن سحنون قال: مات بعض قضاة إفريقية، فقدم رسول الخليفة إلى إفريقية لجمع العلماء واستشارتهم في قاض يوليه إفريقية.

فتوجه إلى تونس وبعث إلى واليها في علي بن زياد فتثاقل، فأخبر بذلك الوالي رسول الخليفة.

فقال له الرسول: أمير بلد ورسول الخليفة يوجه إلى رجل من الرعية فيتثاقل عن المجيء.

فمضى إليه الوالي معه، فلما دخلا عليه وجداه قد حوَّل وجهه إلى الحائط، فقال له الوالي: يا أبا الحسن، هذا رسول الخليفة يستشيرك في قاض يلي إفريقية.

فحوَّل علي وجهه إلى القبلة وقال: ورب هذه القبلة ما أعرف بها أحدًا يستوجب القضاء قوموا عني»[2].

*** الزاهد بهلول بن راشد القيرواني وهرثمة بن أعين أمير إفريقية:**

«قال أبو زرجونه: أقبل هرثمة بن أعين أمير إفريقية في موكبه، حتى

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٦).

(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ٣٢٨).

انتهى إلى مسجد البهلول بن راشد، وبهلول مسند ظهره إلى عمود بإزاء باب المسجد، فانحنى هرثمة في السرج، وقال لبعض من معه: ادفع إليه هذا المزود بالدراهم وقل له: قال لك الأمير فرقها.

فجاء إليه الرسول فقال له البهلول: الأمير أقوى على تفريقها»[1].

قال أبو عثمان بن الحداد: بلغني أن بهلولاً كان ذات يوم جالسًا وعنده صاحبه رباح بن يزيد الزاهد، إذ أقبل أخ للبهلول في البادية يلهج بخبر المطر والزرع، والبهلول يتقلى ويتلون اغتمامًا لرباح، لعلمه بكراهيته ذكر الدنيا وأسبابها.

فلما أكثر أخوه من هذا نهض وجعل يقول لبهلول: سقطت من عيني، تُذكر الدنيا في مجلسك ولا تغير.

فقال له البهلول: إذا لم أسقط من عين اللَّه فلا أبالي من عين من سقطت.

فخرَّ رباح على رأسه يقبله»[2]: نعم يا حبيبي يا بهلول لا تبالي من عين من سقطت، إذا المرء سقط من عين اللَّه».

*** صاحب مالك بن أنس زياد بن عبدالرحمن اللَّخمي:**

«قال يحيى: كان زياد واحد زمانه، زاهدًا ورعًا، أتاه هشام ليلاً في خاصته فقرع عليه الباب فخرج فعرف به، ففتح له وسلم عليه، وسأله عن سبب مجيئه.

فقال: طلب التفرد بك، وهذا مال طيب ـ وأشار إلى مال يحمله الفتى ـ أردت التزلف به فأتيتك به لتضعه حيث تراه.

---

(١) «ترتيب المدارك» (١/ ٣٣٥).

(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ٣٣٣).

فقال له زياد: تجد من هو أقْوَم لك بذلك، وأعرَف بأهله.

وسمى له قومًا من صلحاء الناس، فأبى هشام إلا إياه، فلم يقدر عليه إلى أن حلف له أن لا يفعل.

فاستحياه هشام وخرج بماله وهو يقول: اللَّهم أعني على طاعتك بمثل هذا»[1].

*** زين القرّاء محمد بن واسع يمتنع عن تولّي القضاء:**

«عن أحمد بن محمد الدورقي، حدثنا محمد بن عيسى، حدثنا مخلد ابن الحسين، عن هشام، قال:

دعا مالك بن المنذر الوالي محمد بن واسع فقال: اجلس على القضاء، فأبى، فعاوده وقال لتجلسنَّ، أو لأجلدنك ثلاث مئة.

قال: إن تفعل، فإنك مسلط، وإن ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة»[2].

*** الإمام المبارك: عبداللَّه بن المبارك القائل: «يأبى هذا الرجل إلاّ أن نقشر له العصا»:**

عن حماد بن سلمة وحماد بن زيد: أن عبداللَّه بن المبارك كان يَتّجر في البز. وكان يقول: لولا خمسة ما اتجرت، فقيل له: يا أبا محمد من الخمسة؟ فقال: سفيان الثوري، وسفيان بن عُيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السماك، وابن علية.

وكان يخرج فيتجر إلى خراسان، فكلما ربح من شيء أخذ القوت للعيال، ونفقة الحج، والباقي يصل به إخوانه الخمسة.

---

(١) «ترتيب المدارك» (١/ ٣٥٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٢٢).

قالا: فقدم سنة فقيل له: قد ولي ابن علية القضاء، فلم يأته ولم يصله بالصرة التي كان يصله بها في كل سنة، فبلغ ابن علية أن ابن المبارك قد قدم، فركب إليه فتنكس على رأسه، فلم يرفع به عبداللَّه رأسًا، ولم يكلمه فانصرف..

فلما كان من الغد كتب إليه رقعة: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم. أسعدك اللَّه بطاعته، وتولاك بحفظه، وحاكك بحياكتك، قد كنت منتظرًا لبرك وصلتك أتبرك بها، وجئتك أمس فلم تكلمني، ورأيتك واجدًا عليَّ. فأي شيء رأيت مني حتى أعتذر إليك منه؟».

فلما وردت الرقعة على عبداللَّه بن المبارك دعا بالدواة والقرطاس وقال: يأبى هذا الرجل إلا أن نقشر له العصا»، ثم كتب إليه: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم

يا جاعل الدين له بازيًا ... يصطاد أموال المساكين
احتلت للدنيا ولذاتها ... بحيلةٍ تذهب بالدين
فصرت مجنونًا بها بعدما ... كنت دواءً للمجانين
أين رواياتك في سردها ... عن ابن عون وابن سيرين؟
أين رواياتك في سردها ... لترك أبواب السلاطين
إن قلت أكرهت فذا باطل ... زلَّ حمار العلم في الطين

فلما وقف ابن علية على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء، فوطئ بساط هارون وقال: يا أمير المؤمنين! اللَّه اللَّه ارحم شيبتي فإني لا أصبر للخطأ ـ أو على القضاء ـ.

فقال له هارون: لعل هذا المجنون أغوى بقلبك.

فقال: اللَّه اللَّه، أنقذني أنقذك اللَّه.

فأعفاه من القضاء، فلما وصل عبداللَّه بن المبارك ذلك، وجه إليه

بالصرة»[1].

*** يا حسن الوجه، حساب الخلق كلهم عليك:**

جاء في «سير أعلام النبلاء» في ترجمة الفضيل بن عياض ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«قال عباس الدوري: حدثنا محمد بن عبداللَّه الأنباري قال:

سمعت فضيلاً يقول: لما قدم هارون الرشيد إلى مكة قعد في الحِجر هو وولده، وقومٌ من الهاشميين، وأحضروا المشايخ، فبعثوا إلي فأردت أن لا أذهب، فاستشرت جاري، فقال: اذهب لعله يريد أن تعظه، فدخلت المسجد، فلما صرت إلى الحجر، قلت لأدناهم: أيكم أمير المؤمنين؟ فأشار إليه.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة اللَّه وبركاته، فردَّ علي، وقال: اقعد، ثم قال: إنما دعوناك لتحدثنا بشيء. وتعظنا.

فأقبلت عليه وقلت: يا حسن الوجه، حساب الخلق كلهم عليك.

فجعل يبكي ويشهق، فرددت عليه، وهو يبكي، حتى جاء الخدم فحملوني وأخرجوني، وقال: اذهب بسلام».

*** الإمام القدوة الحافظ عيسى بن يونس بن أبي إسحاق أبو عمرو الهمذاني السبيعي وجعفر البرمكي: ـ (لا يتحدث أهل السنَّة أني أكلت للسنَّة ثمنًا»:**

«عن أبي بلال الأشعري، عن جعفر البرمكي قال:

ما رأينا في القراء مثل عيسى بن يونس، أرسلنا إليه، فأتانا بالرقة، فاعتل قبل أن يرجع.

---

(١) «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٣٥)، و«المنهج الأحمد» (١/ ٥٥).

فقلت له: يا أبا عمرو، قد أمرنا لك بعشرة آلاف.

فقال: هيه. قلت: خمسون ألفًا.

قال: لا حاجة لي فيها.

فقلت: ولم؟ واللَّه، لأهنِّئَنَّكها، وهي واللَّه مئة ألف.

قال: لا واللَّه، لا يتحدث أهل العلم أني أكلت للسنَّة ثمنًا، ألا كان هذا قبل أن ترسلوا إليَّ، فأما على الحديث فلا، ولا شربة ماء، ولا إهليلجة[1]»[2].

*** شيخ الإسلام محمد بن أسلم الطوسي والأمير عبداللَّه بن طاهر: «النظر في وجوهكم معصية»:**

❑ جاء في «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢٠٢) في ترجمة الإمام الحافظ الرباني، شيخ الإسلام، أبو الحسن محمد بن أسلم بن سالم الكندي مولاهم الخراساني الطوسي ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن أحمد بن سلمة، حدثنا محمد بن أسلم، قال: لما أُدخلت على عبداللَّه بن طاهر، ولم أسلم عليه بالإمرة، غضب وقال:

عمدتم إلى رجل من أهل القبلة فكفرتموه، فقيل: قد كان ما أُنهي إلى الأمير.

فقال ابن طاهر: شراك نَعلي عمر بن الخطاب خير منك، وكان يرفع رأسه إلى السماء، وقد بلغني أنك لا ترفع رأسك إلى السماء.

فقلت برأسي هكذا إلى السماء ساعة، ثم قلت: ولم لا أرفع رأسي إلى السماء؟ وهل أرجو الخير إلا ممن في السماء؟! ولكني سمعت مؤمل بن

---

(١) الإهليلج: شجر ينبت في الهند والصين وأفغانستان، ثمرة على هيئة حب الصنوبر الكبار.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٩٣).

إسماعيل يقول: سمعت سفيان يقول: النظر في وجوهكم معصية.

فقال: بيده هكذا، أي: يُحبس».

*** إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ودرة من درره: «قلوبنا لازمة للحق»:**

قيل لأحمد بن حنبل أيام المحنة ـ أي: أيام ظهور المعتزلة على أهل السنة ودعوتهم الناس بسلطان الدولة إلى القول بخلق القرآن ـ: يا أبا عبدالله ألا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟!

فقال: كلا! إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة! وقلوبنا بعدُ لازمةٌ للحق[1].

*** الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك:**

❑ قال عمرو بن ميمون الأودي: صحبت معاذًا باليمن، فما فارقته حتى واريته التراب بالشام، ثم صحبت بعده أفقه الناس: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، فسمعته يقول: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة».

ثم سمعته يومًا من الأيام وهو يقول: «سيلي عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها، فصلوا الصلاة لميقاتها، فهي الفريضة، وصلوا معهم فإنها لكم نافلة».

قال: قلت: يا أصحاب محمد، ما أدري ما تحدثون؟

قال: وما ذاك؟

قلت: تأمرني بالجماعة وتحضني عليها، ثم تقول: صل الصلاة وحدك، وهي الفريضة، وصل مع الجماعة وهي نافلة.

قال: يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية،

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص(٣١١).

تدري ما الجماعة؟

قلت: لا. قال: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك.

وفي لفظ آخر: «فضرب على فخذي، وقال: ويحك! إن جمهور الناس فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة اللَّه عز وجل»[1].

*** مزاحم مولى عمر بن عبدالعزيز وعمر بن عبدالعزيز:**

«إني أحذرك ليلة تمخض القيامة في صبيحتها تقوم الساعة»:

عن نوفل بن عمارة، قال عمر بن عبدالعزيز: إن أول من أيقظني في هذا الشأن مزاحم، حبست رجلاً فجاوزت في حبسه القدر الذي يجب عليه، فكلمني في إطلاقه.

فقلت: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما هو عليه.

فقال مزاحم: يا عمر بن عبدالعزيز! إني أحذرك ليلة تمخض القيامة، في صبيحتها تقوم الساعة. يا عمر! ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع، قال الأمير، وقال الأمير: فواللَّه ما هو إلا أن قال ذلك فكأنما كشف عن وجهي غطاء! فذكروا أنفسكم ـ رحمكم اللَّه ـ فإن الذكرى تنفع المؤمنين[2].

*** شيخا المسلمين الفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة:**

«عن محمد بن حسان السمتي قال:

شهدت الفضيل بن عياض وجلس إليه سفيان بن عيينة، فتكلم الفضيل فقال: كنتم معشر العلماء سرج البلاء يستضاء بكم، فصرتم ظلمة، وكنتم نجومًا يهتدى بكم، فصرتم حيرة لا يستحي أحد منكم أن يأخذ مال هؤلاء

(١) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» لابن القيم (١/ ٦٩).

(٢) «مناقب عمر بن عبدالعزيز» لابن الجوزي ص(١٤٠).

الظلمة، ثم يسند ظهره ويقول: حدثنا فلان عن فلان.

فقال سفيان: لئن كنا لسنا بصالحين فإنا نحبهم»[١]

*** فقه سيد التابعين سعيد بن المسيب: «واللَّه لا يسلمني اللَّه ما أخذتُ بحقوقه»:**

عن المطلب بن السائب قال: كنت جالسًا مع سعيد بن المسيب فمر بريد لبني مروان، فقال له سعيد: من رسل بني مروان أنت؟

قال: نعم.

قال: كيف تركت بني مروان؟ قال: بخير.

قال: تركتهم يجيعون الناس، ويشبعون الكلاب؟

فاشرأب الرسول، فقمت إليه، فلم أزل أجزيه حتى انطلق.

فقلت لسعيد: يغفر اللَّه لك تشييط بدمك؟

فقال: اسكت يا أحمق، فواللَّه لا يسلمني اللَّه ما أخذت بحقوقه[٢].

*** الإمام الكبير ابن جرير الطبري وعفَّة نفسه:**

جاء في «معجم الأدباء» (١٨/ ٨٧ ـ ٨٨) في ترجمة الإمام عالم العصر شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«أهدى أبو علي محمد بن عبيداللَّه الوزير إلى أبي جعفر برمان فقبله، وفرقه في جيرانه، فلما كان بعد أيام وجه إليه بوعاء فيه بدرة فيها عشرة آلاف درهم، وكتب معها رقعة وسأله أن يقبلها، وقال الوزير لمن حملها:

إن قبلها وإلا فاسأله أن يفرقها في أصحابه ممن يستحق، فلما دخل

---

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٢٤١)، وكتاب «القصاص والمنكرين» لابن الجوزي ص(٢٣٢).

(٢) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ٥٥).

عليه وأوصل الرسالة، قال:

يغفر اللَّه لنا وله، أقرء عليه السلام، وقل له: أرددنا إلى الرمان وامتنع من قبول الدراهم، فقال له الرسول: «**فرقها في أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردها**».

فقال: هو أعرف الناس إذا أراد ذلك. وأجاب عن الرسالة، وبعد مدة جاءه مال ضيعته فجعله بضاعة وأرسله إلى الوزير، وفيها ما قيمته أربعون دينارًا».

* القاضي محمد بن أبي المنظور الأنصاري قاضي القيروان وصاحب المغرب المنصور العُبيدي:

«ما أخذ منا صلة، ولا نقدر على عزله»:

جاء في معالم الإيمان (٣/ ٥٦ ـ ٥٧) و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ١٥٧ ـ ١٥٨) في ترجمة المنصور أبو الطاهر إسماعيل بن القائم بن المهدي العبيدي الباطني، صاحب المغرب ما نصه:

«ومن محاسنه أنه ولَّى محمد بن أبي المنظور الأنصاري قضاء القيروان، وكان من كبار أصحاب الحديث، قد لقي إسماعيل القاضي، والحارث بن أبي أسامة، فقال: بشرط أن لا آخذ رزقًا ولا أركب دابة ـ ولا يقبل شهادة من طاف بهم أو قاربهم، ولا يركب إليهم مهنيًا ولا معزيًا[1] ـ فولاه ليتألف الرعية.

فأحضر إليه يهودي قد سب ـ يعني النبي ﷺ ـ فبطحه وضربه إلى أن مات تحت الضرب. وأتى يومًا إلى بيته فوجد سُلاف داية السلطان، تشفع في امرأة نائحة فاسقة ليطلقها من حبسه، فقال: مالك؟

(١) الزيادة من «معالم الإيمان» (٣/ ٥٥).

قالت: قضيب ـ محبوبة المنصور تطلب منك أن تطلقها.

فقال: يا منتنة، لولا شيء لضربتك، لعنك اللَّه ولعن من أرسلك. فولولت، وشقت ثيابها ثم ذكرت أمرها للمنصور.

فقال: ما أصنع به؟ ما أخذ منا صلة، ولا نقدر على عزله نحن نحب إصلاح البلد».

*** إبراهيم بن أدهم يستقتل:**

عن شعيب بن حرب: دخل إبراهيم بن أدهم على بعض هؤلاء الولاة، فقال له: من أين معيشتك؟

❑ قال إبراهيم:

نُرَقِّعُ دنيانا بتمزيق ديننا فلا دِينُنا يبقى ولا ما نرقع

❑ قال: فقال الوالي: «أخرجوه فقد استقتل!»[1].

*** محدث مصر بقية بن الوليد وهارون الرشيد:**

«اسكت، فما كنت عنده هامان حتى أكون عنده فرعون»:

جاء في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٥٣١ ـ ٥٣٢) في ترجمة أحد مشاهير الأعلام الحافظ العالم محدث مصر، بقية بن الوليد بن صائد أبو يحمد الحميري الكلاعي ثم الميتمي الحمصي المتوفي سنة ١٩٧هـ ـ رحمه اللَّه ـ:

عن عطية بن بقية قال: قال أبي: «دخلت على هارون الرشيد، فقال لي: يا بقية إني أحبك، فقلت: ولأهل بلدي يا أمير المؤمنين؟

قال: إنهم جند سوء لهم كذا وكذا غدرة. ثم قال: حدثني.

فقلت: حدثنا محمد بن زياد، عن أبي أمامة قال: قال رسول اللَّه

(١) «تهذيب الكمال» (٢/ ٣٦).

ﷺ : «أنا سابق العرب» وذكر الحديث.

فقال: زدني، فقلت: حدثني محمد بن زياد، عن أبي أمامة قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا مع كل ألف سبعين ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات ربي».

قال: فامتلأ من ذلك فرحًا، وقال: يا غلام الدواة. وكان القيم بأمره الفضل بن الربيع، ومرتبته بعيدة فناداني: يا بقية ناول أمير المؤمنين الدواة بجنبك.

قلت: ناوله أنت يا هامان.

فقال: أسمعت ما قال يا أمير المؤمنين؟

قال: أسكت فما كنت عنده هامان حتى أكون أنا عنده فرعون.

«ليس عندي ما أخافك عليه»:

جاء في «تاريخ بغداد» (٦/ ١١٢) و«تهذيب الكمال» (٢/ ١٥٠) في ترجمة إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي مولاهم أبو شيبة الكوفي قاضي واسط المتوفي سنة ١٦٩هـ ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن العتبي عن أبيه، قال:

قال موسى بن عيسى ـ وهو يومئذ أمير الكوفة ـ لأبي شيبة: مالك لا تأتيني؟

قال: أصلحك اللَّه إن أتيتك فقربتني فتنتني، وإن باعدتني أحزنتني، وليس عندي ما أخافك عليه، ولا عندك ما أرجو.

فما رد عليه شيئًا».

«واللَّه ما أخذت، ولا لبست لهم ثوبًا»:

جاء في ترتيب «المدارك» (٢/ ٥٩١) و«الديباج المذهب» (٢/ ٣٨) في

ترجمة الإمام العلامة، فقيه المغرب أبو سعيد عبدالسلام بن حبيب التنوخي الحمصي الأصل المغربي القيرواني المالكي، قاضي القيروانة وصاحب «المدونة» والملقب بسُحنون ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن سحنون قال: أَكْلٌ بالمسكنة، ولا أَكْلٌ بالعلم محب الدنيا أعمى، لم ينوره العلم، ما أقبح بالعالم أن يأتي الأمراء، واللَّه ما دخلت على السلطان إلا وإذا خرجت حاسبت نفسي، فوجدت عليها الدرك، وأنتم ترون مخالفتي لهواه، وما ألقاه من الغلظة، واللَّه ما أخذت ولا لبست لهم ثوبًا».

*** شيخ الإسلام إبراهيم الحربي يرد أعطيات الخليفة وهو في أمسّ الحاجة إليها: «إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك»:**

جاء في المنهج الأحمد (١/١٩٨) في ترجمة الشيخ الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق البغدادي الحربي صاحب التصانيف ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«قال أبو عثمان الرازي: جاء رجل من أصحاب المعتضد إلى إبراهيم الحربي بعشرة آلاف من عند المعتضد يسأله عن أمير المؤمنين تفرقه ذلك، فرده، فانصرف الرسول ثم عاد فقال: إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقة في جيرانك، فقال: عافاك اللَّه هذا مالٌ لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته. قل لأمير المؤمنين: إن تركتنا وإلا تحولنا من جوارك».

للَّه دره ـ يفعل هذا مع شدة فقره وحاجته:

❑ قال إبراهيم الحربي: أفنيت من عمري ثلاثين سنة برغيفين، إن جاءتني بهما أمي أو أختي، وإلا بقيت جائعًا إلى الليلة الثانية، وأفنيت ثلاثين سنة برغيف في اليوم والليلة، إن جاءتني امرأتي أو بناتي به، وإلا بقيت جائعًا عطشانًا، والآن آكل نصف رغيف وأربع عشرة تمرة إن كان بُرْنيًا، أو نيفا وعشرين إن كان دَقلاً».

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «ما كنا نعرف من هذه الأطبخة شيئًا، كنت أجيء من عشيٍّ إلى عشيٍّ، وقد هيّأت لي أمي باذنجانة مشوية أو لعقة بِنٍّ أو باقة فجل».

❑ وقال أبو علي الخيّاط المعروف بالميِّت: «كنت يومًا جالسًا مع إبراهيم الحربي على باب داره، فلما أن أصبحنا؛ قال لي: يا أبا علي، قم إلى شغلك؛ فإن عندي فجلة قد أكلت البارحة خضرها، أقوم أتغدّى بجزرتها»[1].

*** الحافظ الإمام علي بن الجعد الجوهري والمأمون: «لا يُشترى إلاّ من هذا»:**

جاء في «تاريخ بغداد» علي بن الجعد أبو الحسن البغدادي الجوهري ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن سليمان بن علي بن الجعد قال:

أحضر المأمون أصحاب الجوهر، فناظرهم على متاع كان معهم، ثم نهض لبعض حاجته، ثم خرج، فقام له كل من في المجلس إلا علي بن الجعد، فنظر إليه كالمغضب ثم استخلاه، فقال: يا شيخ، ما منعك أن تقوم؟

قال: أحللتُ أمير المؤمنين للحديث الذي نأثره عن النبي ﷺ، قال: وما هو؟ قال: سمعت مبارك بن فضالة، سمعت الحسن يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا، فليتبوأ مقعدة من النار**». فأطرق المأمون، ثم رفع رأسه فقال: «لا يشترى إلا من هذا. فاشتروا منه يومئذٍ بثلاثين ألف دينار».

---

(١) «تاريخ بغداد» (٦/ ٣١)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٨٦ ـ ٨٨)، و«إنباه الرواة» للقفطي (١/ ١٩٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٦٧).

والبِنُّ بكسر الباء: الطبقة من الشحم، وبضم الباء: إدام يُصنَع من تمكَر المُرِّي: أي: من ردئ الإدام وأسوئه، يتأدم به الغرباء لفقرهم. والباقة، أي: الحزمة.

*** شيخ الشام، الحافظ القدوة آدم بن أبي إياس أبو الحسن الخراساني العسقلاني ـ رحمه اللَّه ـ حيًّا وميتًا:**

«قال أبو بكر الأعين: أتيت آدم العسقلاني، فقلت له: عبداللَّه بن صالح كاتب الليث يقرئك السلام، فقال: لا تقرئه السلام، قلت: ولم؟

قال: لأنه قال: القرآن مخلوق.

فأخبره بعذره، وأنه أظهر الندامة وأخبر الناس بالرجوع.

قال: فأقرئه السلام، وإذا أتيت أحمد بن حنبل، فأقرئه السلام وقل له:

«يا هذا اتق اللَّه، وتقرب إلى اللَّه تعالى بما أنت فيه، ولا يستفزنك أحد؛ فإنك ـ إن شاء اللَّه ـ مشرف على الجنة، وقل له: أخبرنا الليث عن ابن عجلان، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من أرادكم على معصية اللَّه فلا تطيعوه»**.

قال: فأبلغت ذلك أبا عبداللَّه، فقال: رحمه اللَّه حيًّا وميتًا، فلقد أحسن النصيحة»[1].

*** الإمام الواعظ الكبير ابن سمعون البغدادي وعضد الدولة: «الحمد للَّه الذي سلمه منا، وسلمنا منه»:**

جاء في «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٥٠٩ ـ ٥١٠) في ترجمة الإمام، الواعظ الكبير المحدث، أبو الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عَنْبَس البغدادي، شيخ زمانه ببغداد المعروف بابن سمعون ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

«عن أبي الثناء شكر العضدي قال: لما دخل عضد الدولة بغداد وقد هلك أهلها قتلاً وخوفًا وجوعًا للفتن التي اتصلت بين السنة والشيعة فقال: آفة هؤلاء القصاص، فمنعهم، وقال: من خالف أباح دمه، فعرف ابن سمعون،

(١) «تاريخ بغداد» (٧/ ٢٧ ـ ٢٨).

فجلس على كرسيه، فأمرني مولاي، فأحضرته. فدخل رجل عليه نور.

قال شكر: فجلس إلى جنبي غير مكترث فقلتُ: إن هذا الملك جبارٌ عظيم، ما أوثر لك مخافته، وإني موصلك إليه، فقبل الأرض وتلطف له واستعن باللَّه عليه، فقال: الخلق والأمر للَّه.

فمضيتُ به إلى حجرة قد جلس فيها الملك وحده، فأوقفته ثم دخلت أستأذن، فإذا هو إلى جانبي، وحول وجهه إلى دار عز الدولة ثم تلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ثم حول وجهه وقرأ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]، ثم أخذ في وعظه، فأتى بالعجب، فدمعت عين الملك، وما رأيته ذلك منه قط، وشرك كمه على وجهه، فلمّا خرج أبو الحسين ـ رحمه اللَّه، قال الملك: اذهب إليه بثلاثة آلاف درهم وعشرة أثواب من الخزانة فإن امتنع فقل له: فرِّقها في أصحابك، وإن قَبِلَها فجئني برأسه، ففعلت.

فقال: إن ثيابي هذه قد فُصِّلت من نحو أربعين سنة ألبسها يومَ خروجي وأطويها عند رجوعي، وفيها متعةٌ وبقيةٌ، ونفقتي من أجرة دارٍ خلفها أبي، فما أصنع بهذا؟

قلت: فرِّقها على أصحابك. قال: ما في أصحابي فقير، فعدتُ فأخبرته، فقال: الحمدُ اللَّه الذي سلَّمه منَّا وسلمنا منه».

*** الإمام الفقيه عيسى بن مسكين الإفريقي والأمير إبراهيم بن الأغلب: «هذا رجل يحاربنا باللَّه، لا حاجة لنا بهم»:**

جاء في «ترتيب المدارك» (٣/ ٢١٨) في ترجمة الإمام الفقيه عيسى بن مسكين بن منصور الإفريقي ـ رحمه اللَّه ـ أحد أصحاب سحنون ما نصه:

«بينما عيسى يومًا بجامع رقادة، إذ سمع صياح قوم باللَّه ثم به.

فقال لمن حوله: انظروا من هؤلاء؟

قالوا: نهب تونس، فأمر بإمساكهم، فشكاه الذي نهبهم إلى الأمير، إبراهيم ـ يعني ابن الأغلب ـ فأرسل إليه في إطلاقهم.

فقال لكاتبه: اكتب إليه: ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار﴾ إلى قوله: ﴿بصير بالعباد﴾.

فلما قرأها، قال: هذا رجل يحاربنا باللَّه، لا حاجة لنا بهم، اتركوهم».

*** إبراهيم بن أسلم والحكم المستنصر باللَّه: «أمنت بفضلِ اللَّهِ من نُوبِ الدهر»:**

جاء في تاريخ قضاة الأندلس (١٦٤ ـ ١٦٥) في ترجمة القاضي أبي البركات محمد بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن خَلَف السُّلميُّ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«ومن كلامه ـ رحمه اللَّه ـ:

من اقتصر على التعيش من مرافق الملوك، ضاع هو ومن له، وشمله القلُّ، وخامره الذلُّ، اللَّهم! إلاَّ من القوة باللَّه قد بلغ من الزهد إلى الحدِّ الذي يكسبه الراحة بالخروج عن متاعها، وترك شهوتها، قليلها وكثيرها، مالِها وجاهِها، بأمرٍ آخر! ومن لنا بالعون على تحصيل هذا المقام، ولا سيما في هذا الزمان، ولم نسمع ممن قاربه من الولاة المتقدمين بالأندلس إلا ما حُكيَ عن إبراهيم بن أسلم، وقد أراد الحكم المستنصر باللَّه رياضته، فقطع عنه جرايته؛ فكتب إليه عند ذلك:

تَزيدُ على الإقلالِ نفسي نَزَاهةً ... وتأنَسُ بالبَلْوى وتَقوى مع الفَقْرِ

فَمَنْ كانَ يخشى صَرفَ دَهرٍ فإنني ... أَمِنتُ بِفَضلِ اللَّهِ مِنْ نُوبِ الدَّهرِ

فلما قرأ الحكم بيتيه، أمر بردِّ الجراية، وحملها إليه، فأعرض عنها، وتمنَّع من قبولها، وقال:

«إني، والحمد للَّه! تحت جراية من إذا أعصيته، لم يقطع عني جرايته!

فليفعل الأمير ما أحبَّ!».

فكان الحكم بعد ذلك يقول: «لقد أكسبنا ابن أسلم بمقالته مخزاةً عظم منَّا موقعها، ولم تسهل علينا المقارضة بها!».

*** الإمام الزاهد عسكر بن الحصين أبو تراب النخشبي وأمير بلده: «إن المُزَين ما أخذها فخذها أنت»:**

«عن أبي علي الحسين بن خيران الفقيه قال: مر أبو تراب النخشبي بمُزَين، فقال له: تحلق رأسي للَّه عز وجل.

فقال له: اجلس، فجلس فبينا هو يحلق رأسه، مر به أمير من أهل بلده، فسأل حاشيته فقال لهم: أليس هذا أبا تراب؟ فقالوا: نعم.

فقال: إيش معكم من الدنانير؟

فقال له رجل من خاصته: معي خريطة فيها ألف دينار.

فقال: إذا قام فأعطه إياها، واعتذر إليه وقل له: لم يكن معنا غير هذه. فجاء الغلام إليه وقال له: إن الأمير يقرأ عليك السلام، وقال لك: ما حضر معنا غير هذه.

قال له: ادفعها إلى المزين.

فقال المزين: إيش أعمل بها؟

فقال: خذها، فقال: واللَّه لو أنها ألفا دينار ما أخذتها.

فقال له أبو تراب: سر إليه فقل له:

إن المزين ما أخذها، فخذها أنت فاصرفها في مهماتك»[1].

*** «لا آتيه ألبتة»:**

جاء في «سير أعلام النبلاء» (١٧/٢٤٨ ـ ٢٤٩) في ترجمة الإمام

(١) «طبقات الشافعية» للسبكي (٢/٥٦).

الحافظ المحدث، شيخ خراسان محمد بن الحسين الأزدي السلمي، أبو عبدالرحمن النيسابوري الصوفي، صاحب التصانيف ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

قال السلمي: ورأينا في طريق همذان أميرًا، فاجتمعتُ به، فقال: لا بدَّ من كتابة «حقائق التفسير» فنسخ له في يوم، فُرِّقَ على خمسةٍ وثمانين ناسخًا، ففرغوه إلى العصر، وأمر لي بفرس جواد ومئة دينار وثياب كثيرة.

فقلت: قد نغَّصتَ عليَّ وأفزعتني وأفزعتَ الحاجَّ، وقد نهى النبي ﷺ عن ترويع المسلم، فإن أردتَ أن يبارك اللَّه لك في الكتاب، فاقض لي حاجتي.

قال: وما هي؟ قلت: أن تعفيني من هذه الصلة، فإني لا أقبل ذلك.

فَفَرَّقها في نُقَباء الرفقة، وبعث من خفَّرنا، وكان الأمير نصر بن سُبُكْتِكِين صاحب الجيش عالمًا، فلما رأى ذلك التفسير، أعجبه، وأمر بنسخه في عشر مجلدات، وكِتْبةِ الآيات بماء الذهب، ثم قالوا: تأتي حتى يسمع الأمير الكتاب.

فقلت: لا آتيه البتة، ثم جاؤوا خلفي إلى الخانقاه، فاختفيت، ثم بعث بالمجلد الأول، وكتبت له بالإجازة».

*** الحافظ القدوة محمد بن رافع النيسابوري والأمير طاهر بن عبداللَّه: «خذ خذ، لا أحتاج إليه»:**

«قال زكريا بن دلُّوية: بعث الأمير طاهر بن عبداللَّه الخزاعي إلى محمد ابن رافع بخمسة آلاف درهم على يد رسولٍ له، فدخل عليه بعد صلاة العصر، وهو يأكل الخبز مع الفِجل! فوضع الكيس بين يديه، وقال: بعثَ الأمير طاهر بهذا المال لتنفقه على أهلك.

فقال له محمد بن رافع: خُذْ خُذْ، لا أحتاج إليه، فإن الشمس قد بلغت رأس الحيطان، إنما تغرب بعد ساعة، قد جاوزت الثمانين، إلى متى أعيش؟

فرد المال ولم يقبله، فأخذ الرسول المالَ وذهب، فدخل على محمد بن رافع ابنهُ فقال له:

يا أبه ليس لنا خبزٌ الليلة! وكان محمد بن رافع يخرجُ إلينا في الشتاء الشاتي، وقد لبس لحافه الذي يلبسه بالليل!»[1].

*** الإمام العابد الواعظ أبو عبدالله محمد بن يحيى بن علي الزبيدي والوزير الزينبي:**

«قال ابن الجوزي: كان يقول الحق وإن كان مرًّا، لا تأخذه في اللَّه لومة لائم.

قيل: دخل على الوزير الزَّينبي وعليه خِلعةُ الوزارة، وهم يهنئونه، فقال: هو ذا يوم عزاء لا يوم هناء.

فقيل: ولم؟ قال: أهنيءُ على لبس الحرير؟!»[2].

*** الإمام العابد محرز بن خلف بن أبي رزين أبو محمد التونسي والصقلي: «الصراط أحدُّ من السيف ومن السلطان وأمره»:**

«كان بتونس صقلّي أمر الناس ألاّ يكبروا على الميت، إلاّ خمس تكبيرات. فقال له المشارقة: أبو كسية يكبر أربعًا، ولا يؤذن حَيَّ على خير العمل، ولا يقرأ بسم اللَّه الرحمن الرحيم في الصلاة، ولا يسلم تسليمتين، ولا يؤذن الصلاة خير من النوم.

فأرسل وراءه، فدخل عليه محرز، وحول الصقلي المشارقة، فلم يسلِّم.

فقال له الصقلي: السلطان يأمر بكذا، وأنت لا تفعل أمر السلطان، احذر من السيف.

---

(١) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٥١٠)، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر العسقلاني (٩/ ١٦١).

(٢) «المنتظم» لابن الجوزي (١٠/ ١٥٨).

فقال له: الصراط أحد من السيف، ومن السلطان وأمره!

ثم انصرف، فبُهت الصقلي ولم يتكلم بكلمة وغشي عليه، فلما أفاق من غشيته، قال: تقولون أبو كسية؟ لما أشار إليَّ حسبت كأن من ضربني برمح في القلب، فغشي عليَّ»[1].

*** الإمام الفقيه جبلة بن حمود الصدفي صاحب سحنون وعبيدالله الشيعي: «قطعوها قطعهم الله»:**

جاء في «ترتيب المدارك» (٣/ ٢٥٢) في ترجمة الإمام الفقيه جبلة بن حمود بن عبدالرحمن بن جبلة أبو يوسف الصدفي أحد أصحاب سحنون ـ رحمه الله ـ: «قال الفقيه ابن سعدون القروي: لما دخل عبيدالله الشيعي، القيروان، وخطب أول جمعة، وجبلة حاضر، فلما سمع كفرهم قام قائمًا وكشف عن رأسه حتى رآه الناس وخرج يمشي إلى آخر الجامع، ويقول:

قطعوها قطعهم الله.

فما حضرها أحد من أهل العلم بعد هذا».

*** ما أصنع بابن ملك الجبل:**

جاء في «الأنساب» للسمعاني (٧٧/ ٢٨٩) في ترجمة الرجل الصالح المحدّث ابن عامر قبيصة بن عقبة السوائي الكوفي شيخ الإمام أحمد والبخاري المتوفي سنة ٢١٥ هـ ـ رحمه الله ـ ما يلي:

«حُكي أن دلف بن أبي دلف العجلي ـ وهو ابن ملك سيأتي في هذا الخبر ـ جاء إلى باب قبيصة بن عقبة، ومعه الخدم والغلمان لكتابة الحديث.

فدُقَّ عليه الباب، فأبطأ قبيصة بالخروج، فعاوده الخدم ـ بالدق ـ وقيل له: إن ابن ملك الجبل على الباب وأنت لا تخرج إليه. فخرج وفي طرف

(١) «ترتيب المدارك» (٤/ ٧١٣).

إزاره كسر من الخبز، فقال لهم: رجل قد رضي من الدنيا بهذا ما يصنع بابن ملك الجبل! والله لا أحدثه».

*** صيروا أمر الله عز وجل فضولاً:**

جاء في كتاب الآداب الشرعية (١/ ٢١٧) ما نصه:

«عن عمر بن صالح: قال لي أبو عبدالله ـ أحمد بن حنبل ـ:

يا أبا حفص يأتي على الناس زمان المؤمن بينهم مثل الجيفة، ويكون المنافق يشار إليه بالأصابع.

فقلت: وكيف يشار إلى المنافق بالأصابع؟

قال: **صيروا الله عز وجل فضولاً.**

قال: المؤمن إذا رأى أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر لم يصبر حتى يأمر وينهى، يعني قالوا هذا فضول.

قال: والمنافق كل شيء يره قال بيده على أنفه، فيقال: نعم الرجل ليس بينه وبين الفضول عمل».

*** كيف منزلتك من قومك؟:**

جاء في كتاب «تنبيه الغافلين» للنحّاس (ص٩٦) ما نصه:

«سأل كعب الأحبار أبا مسلم الخولاني فقال له: كيف منزلتك في قومك؟ قال: حسنة. قال كعب: إن التوراة لتقول غير ذلك. قال: وما تقول؟ قال: تقول: إن الرجل إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ساءت منزلته عند قومه. فقال: صدقت التوراة وكذب أبو مسلم».

*** شيخ الإسلام عبدالله بن المبارك ووالي مرو عبدالله بن أبي العباس الطرسوسي: «أذل بدني ولا أذل حديث رسول الله ﷺ»:**

«عن أحمد بن أبي الحواري قال: حدثني بعض أصحابنا قال: جاء

عبدالله بن أبي العباس الطرسوسي ـ وكان والياً بمرو ـ إلى منزل عبدالله بن المبارك بالليل ومعه كتابه والدواة والقرطاس، فسأله عن حديث فأبى أن يحدثه.

ثم سأله عن حديث فأبى أن يحدثه ـ ثلاث مرات ـ فقال لكتابه: اطو قرطاسك ما أرى أبا عبدالرحمن يرانا أهلاً أن يحدثنا.

فلما قام يركب مشى معه ابن المبارك إلى باب الدار، فقال له: يا أبا عبدالرحمن، لِمَ لَمْ ترنا أهلاً أن تحدثنا وتمشي معنا؟

فقال: إني أحببت أن أذل لك بدني، ولا أذل لك حديث رسول الله ﷺ»[1].

*** شيخ الإسلام ابن تيمية وقطلوبك الكبير:**

شكا لابن تيمية إنسان من قطلوبك الكبير، وكان المذكور فيه جبروت وأخذ أموال الناس واغتصابها، وحكاياته في ذلك مشهورة.

فلما دخل إليه الشيخ وتكلم معه في ذلك، قال: أنا الذي كنت أريد أجيء إليك لأنك رجل عالم زاهد ـ يعني يستهزئ به.

فقال له: لا تعمل عليَّ دركوان[2]، موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك، وكان موسى كل يوم يجيء إلى باب فرعون مرات، ويعرض عليه الإيمان»[3].

*** الفقيه داود بن علي الأصبهاني الظاهري وأبو عبدالله المحاملي القاضي: «أنا بأمانة العلم أدخلتك إليّ»:**

«قال أبو عبدالله المحاملي: صليتُ صلاة عيد القطر في جامع المدينة،

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ١٦٩)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٥٥).

(٢) لا تعمل عليّ دركوان: أي لا تتهزئ بي.

(٣) «فوات الوفيات» لمحمد بن شاكر الكتبي (١/ ٧٥).

وقلتُ: أدخل على داود بن علي فأُهنئه، فجئته وإذا بين يديه طبقٌ فيه أوراق هندباء، وعُصارة فيها نُخالة وهو يأكل. فهنأته وعجبتُ من حاله! ورأيت أن جميع ما في الدنيا ليس بشيء.

فخرجت من عنده ودخلت على رجل من محبي الصنيعة ـ أي فعل الخير والكرم ـ يقال له: الجرجاني، فخرج إليَّ حاسر الرأس حافي القدمين، وقال لي: ما عَنَّى القاضي؟!

قلت: مُهِمٌّ! قال: ما هو؟

قلتُ: في جوارك داود بن علي ومكانه من العلم تعلمُهُ، وأنت كثيرُ الصلة والرغبة في الخير تغفُلُ عنه؟! وحدثته بما رأيت.

❑ فقال الجرجاني: داودُ شرسُ الخُلق! وجهتُ إليه البارحة بألف درهم ليستعين بها فردها عليَّ، وقال للغلام: قُلْ له: بأيِّ عينٍ رأيتني؟ وما الذي بلغك من حاجتي، وخَلِّني حتى بعثت لي بهذا؟!

❑ قال المحاملي: فعجبتُ وقلت للجرجاني: هات الدراهم، فإني أحملها إليه فدفعها إليَّ، وقال للغلام: ائتني بكيس آخر، فوزن ألفًا أخرى وقال: تلك لنا وهذه لعناية القاضي.

فأخذت له الألفين وجئت إليه، فقرعتُ الباب ودخلتُ وجلستُ ساعة، ثم أخرجت الدراهم وجعلتها بين يديه.

فقال: هذا جزاء من ائتمنك على سره؟ أنا بأمانة العلم أدخلتك إليَّ، ارجع فلا حاجة لي فيما معك.

❑ قال المحاملي: فرجعتُ وقد صغُرت الدنيا في عيني، وأخبرت الجرجاني فقال: «إني أخرجت هذه الدراهم للَّه تعالى، فلا ترجعُ في مالي،

فليتولّ القاضي إخراجها في أهل البر والعفاف»[١] .

* لله در الإمام النووي:

جاء في ترجمة الإمام النووي للحافظ السخاوي ص(٨٠) ما نصه:

«لما خرج الظاهر (بيبرس) إلى قتال التتار بالشام أخذ فتاوى العلماء بجواز أخذ مال من الرعية يستنصر به على قتالهم.

فكتب له فقهاء الشام بذلك فأجازوه، فقال: هل بقي من أحد؟ فقيل له: نعم، بقي الشيخ محيي الدين النووي.

فطلبه فحضر فقال له: اكتب خطك مع الفقهاء. فامتنع، فقال: ما سبب امتناعك؟

فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير (بندقدار) وليس لك مال ثم منَّ اللَّه عليك وجعلك ملكًا، وسمعت عندك ألف مملوك، كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مئتا جارية لكل جارية حق من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليكك بالبنود والصرف بدلاً من الخوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتيتك بأخذ المال من الرعية.

فغضب (الظاهر) من كلامه وقال: اخرج من بلدي ـ يعني دمشق.

فقال: السمع والطاعة.

وخرج إلى (نوى) فقال الفقهاء: إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق.

فأمر برجوعه، فامتنع الشيخ وقال:

لا أدخلها والظاهر فيها، فمات بعد شهر»[٢] .

---

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

(٢) «ترجمة الإمام النووي» للحافظ السخاوي ص(٨٠).

* «أردت نفسي على الموت فأبت فلما أجابتني ظهرت»:

جاء في تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٥٦) في ترجمة الإمام العلم الزاهد الرباني العابد المجاهد عبدالله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ ما نصه:

«لما قدم الرشيد عين زربة» طلب ابن المبارك.

❑ قال أبو سليمان: فذكرت وقلت: إن ابن المبارك رجل خراساني لا آمن أن يجيب أمير المؤمنين بما يكره فيقتله، فأكون قد أهلكت أمير المؤمنين، وأهلكت ابن المبارك، وأهلكت نفسي.

فأمسك الرشيد عن السؤال عنه ثم عاود، فقلت: يا أمير المؤمنين ابن المبارك جلف غليظ الطباع.

فأمسك الرشيد، ثم ظهر ابن المبارك بعد ثلاث فقيل له: تجنبت ثم ظهرت؟

قال: أردت نفسي على الموت فأبت، فلما أجابتني ظهرت».

* قل له يموت بدَيْنه ولا يعمل معهم:

جاء في كتاب «المنهج الأحمد» في ترجمة علي بن الحسن بن زياد ما نصه: «قال: كان أبي صديقًا لأحمد بن حنبل، فركبه الدَّيْن، فوجّه بي إلى أحمد بن حنبل، فقال له: يا أبا عبدالله قد ركبني الدَّيْن، فترى لي أن أعمل مع هؤلاء بقدر ما أقضي دَيْني؟

فقال لي: قل له يموت بدَيْنِه ولا يعمل معهم.

قل له: يلقى الله بدينه ولا يعمل معهم»[1].

* * *

(١) «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد» (١/ ٣١٣).

مالاً، وقد بلغني أن غرماءَهُ أثبتوا عندك، وقد قسَّطتَ لهم في ماله، فاجعلنا كأحدهم.

فقال له أبو حازم: قل له: أمير المؤمنين ـ أطال اللَّه بقاءه ـ ذاكر لما قال لي وقت ما قلَّدني، أنه قد أخرج الأمر من عُنقه، وجعله في عُنقي، ولا يجوز لي أن أحكم في مال رجل لـمُدَّع إلاَّ ببيِّنة.

فرجع إليه طريف، فأخبره.

فقال: قل له فلان وفلان يشهدان، يعني رجلين جليلين كانا في ذلك.

فقال: يشهدان عندي، وأسأل عنهما، فإن زُكِّيا قبلتُ شهادتهما، وإلاَّ أمضيتُ ما ثبتَ عندي.

فامتنع أولئكَ من الشهادة فزعًا، ولم يدفع إلى المعتضد شيئًا».

* **«هذا النصف درهم أحبُّ إليَّ منها»:**

«قال ابن وهب: سمعت مالكًا يُحدِّث: أن عاملاً من العمّال بعث إلى سعيد بن المسيب بخمسة آلاف درهم، فقال له الرسول: بعث بهذا إليك ـ أصلحك اللَّه ـ لتنفقها وتجعلها في حاجتك.

قال: وسعيد جاد مجد يُحاسب غلامه في نصف درهم يدّعيه قِبَله.

والغلام يقول: ليس لك عندي شيء.

قال سعيد للرسول: اذهب إلى عملك.

ثم عرضها عليه الرسول أيضًا، فقال: اغرب عني، وأبى أن يأخذها منه.

وكلّمه إنسان في تركه أن يأخذها.

فقال له ابن المسيب: هذا النصف درهم أحبُّ إليَّ منها»[1].

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٦١).

* وصية سفيان الثوري إلى عبَّاد بن عبَّاد:

«عن حفص بن عمرو ابن أخي سفيان الثوري قال:

كتب سفيان إلى عبَّاد بن عبَّاد:

أما بعد، فإنك في زمان كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يتعوّذون أن يُدركوه، ولهم من العلم ما ليس لنا، ولهم من القدم ما ليس لنا، فكيف بنا حين أدركناه على قلّة علم وقلّة صبر، وقلّة أعوان على الخير، وفساد من الناس، وكدر من الدنيا. فعليك بالأمر الأول والتمسك به، وعليك بالخمول، فإن هذا زمن خمول، وعليك بالعزلة وقلّة مخالطة الناس، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض، فأما اليوم فقد ذهب ذاك، والنجاة في تركهم فيما نرى.

وإياك والأمراء أن تدنو منهم وتخالطهم في شيء من الأشياء، وإيّاك أن تُخدع فيُقال لك: تشفع وتدرأ عن مظلوم، أو تردّ مظلمة، فإن ذلك خديعة إبليس، وإنما اتخذها فُجّار القرّاء سُلَّمًا، وكان يُقال: اتقوا العابد الجاهل، والعالم الفاجر، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

وما لقيت من المسألة والفتيا فاغتنم ذلك، ولا تُنافسهم فيه، وإيّاك أن تكون كمن يحب أن يُعمل بقوله، أو يُنشَر قوله، أو يُسمَع من قوله، فإذا ترك ذلك منه عرف فيه.

وإياك وحب الرياسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يُبصره إلا البصير من العلماء السماسرة، فتفقّد نفسك، واعمل بنيّة، واعلم أنه قد دنا من الناس أمر يشتهي الرجل أن يموت، والسلام»[1].

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧).

*** الإمام القاضي عيسى بن مسكين بن منصور الإفريقي لا يرغب في لقاء رجال السلطان:**

«قال أبو بكر بن اللباد: شاهدتُ ابن مسكين في جنازة بعض نساء الأمير إبراهيم، جالسًا في المقبرة، إذ جاءه الأمير أبو العباس، فقام إليه الناس، وسلَّموا عليه، وعيسى جالس ما حلّ حبوته، فلمّا نظر إليه قال:

يا قاضي، السلام عليك ورحمة اللَّه.

فقال له: وعليك السلام ورحمة اللَّه وبركاته.

ثم سار إذ جاءه أبوه إبراهيم، فوقف إليه الناس، وعيسى على حاله ما حلَّ حبوته، فلمّا رأه الأمير مال إليه، فلمّا حاذاه، قال:

السلام عليك يا قاضي، فردَّ عليه.

ثم نزل فقدَّم عيسى للصلاة عليها، وبعث الأمير به إلى تونس، فرغب بعض أهلها في نزوله عنده، فأنزله في دار حسنة، فقصد إلى بيت مسودٍّ من الدخان، بابه تحت درج، فنزل فيه، فسئل عن ذلك، فقال:

يأتيني رجال السلطان فيُطيلون الجلوس إذا أصابوا مكانًا حسنًا، وها هنا من أتى منهم، سلَّم وانصرف، وعوفيتُ منهم»[1].

*** «أي رجل كان لو لم يُفسدوه؟»:**

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦) في ترجمة الإمام الفقيه القاضي شريك بن عبداللَّه النخعي أبو عبداللَّه الكوفي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«قال يحيى بن اليمان: لمّا ولي شريك القضاء أُكره على ذلك وأُقعد معه جماعة من الشرطة يحفظونه، ثم طاب للشيخ فقعد من نفسه، فبلغ

(١) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

سفيان الثوري أنَّه قعد من نفسه فجاء فتراءى له، فلمّا رأى الثوري قام إليه فعظَّمه وأكرمَه، ثم قال: يا أبا عبداللَّه، هل من حاجة؟

قال: نعم، مسألة، قال: أو ليس عندك من العلم ما يجزئك؟

قال: أحببتُ أُذكِّرك بها. قال: قل.

قال: ما تقول في امرأة جاءت فجلست على باب رجل فاحتملها ففجر بها، لمن تحدُّ منهما؟ فقال: الرجل دونها لأنها مغصوبة.

قال: فإنه لمّا كان من الغد جاءت فتزيَّنت، وتبخَّرت وجلست على ذلك الباب، ففتح الرجل فرآها، فاحتملها ففجر بها، وقد علمت الخبر بالأمس.

قال: أنت كان عذرك حين كان الشرط يحفظونك، اليوم أيُّ عذر لك؟

قال: يا أبا عبداللَّه، أُكلِّمك.

قال: ما كان اللَّه ليراني أُكلمك أو تتوب؟ قال: ووثب فلم يُكلِّمه حتى مات.

وكان إذا ذكره قال: أيُّ رجلٍ كان لو لم يُفسدوه؟».

* **«إن قُرْبهم مفسدةٌ للقلب»:**

جاء في كتاب «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي ـ رحمهما اللَّه تعالى ـ (١/ ٨١) ما نصه:

«قال يوسف بن أسباط: كان سفيان الثوري إذا كتب إلى رجل، كتب: بسم اللَّه الرحمن الرحيم:

من سفيان بن سعيد إلى فلان بن فلان، سلام عليك فإنِّي أحمدُ إليكَ اللَّه الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهلٌ تبارك وتعالى، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، أما بعد:

فإنِّي أوصيكَ ونفسي بتقوى اللَّه العظيم، فإنَّه من يتَّقِ اللَّه يجعل له مخرجًا، ويرزقُه من حيث لا يحتسب، جعلنا اللَّه وإيَّاك من المُتَّقين، وإن دعاكَ هؤلاء الملوك لتقرأ عليهم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١] فلا تُجبهم، فإن قُربَهم مفسدةٌ للقلب».

* **أبو حسان الزيادي القاضي يقول لزنديق: «قتلك الحق»:**

«عن أبي الحسين عمر بن الحسن، قال: حدَّثنا ابن أبي الدنيا قال: كنتُ في الجسر واقفًا، وقد حضر أبو حسان الزيادي القاضي، وقد وجَّه إليه المتوكِّلُ من سرّ من رأى، بسياط جدد في منديل دبيقي، مختومة وأمره أن يضرب عيسى بن جعفر بن محمد بن عاصم - وقيل: أحمد بن محمد بن عاصم - صاحب خان عاصم، ألف سوط؛ لأنه شهد عليه الثقات، وأهل الستر، أنه شتم أبا بكر وعمر، وقذف عائشة، فلم يُنكر ذلك، ولم يَتبْ منه، وكانت السياط بثمارها.

فجعل يُضرب بحضرة القاضي، وأصحاب الشرطة قيام.

فقال: أيها القاضي قتلتني.

فقال له أبو حسان: قتلكَ الحقُّ، لقذفكَ زوجة الرسول، ولشتمكَ الخلفاء الراشدين المهديين.

قال طلحة: وقيل: لمَّا ضُربَ تُركَ في الشمس حتى مات، ثم رُمي به في دجلة»[1].

* **«حتى أفرغ من أمر الخصوم»:**

«عن أبي هشام الرفاعي: أن حفص بن غياث كان جالسًا في الشرقيَّة

(١) «مختصر نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» للقاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي (١/ ١٤١).

للقضاء، فأرسل إليه الخليفة يدعوه.

فقال له: حتى أفرغَ من أمر الخصوم، إذ كنت أجيرًا لهم، وأصير إلى أمير المؤمنين.

ولم يقم حتى تفرَّق الخصوم»[1].

* **«ما أصنعُ بدنانيرك؟»:**

«قال محمد بن عبدالوهاب الفرّاء، قال: سمعتُ الحسين بن منصور يقول:

بعث معن بن زائدة إلى سفيان ـ الثوري ـ بثلاثمائة دينار.

قال: فقال للرسول: ثم إلى ذلك الطاق، انظر عليه.

قال: فوجد أربعة دوانيق، قال: هذه عندي منذ ثلاثة أشهر لا أدري ما أصنع بها، فما أصنع بدنانيرك؟»[2].

* **«دعني أعيش باقيه حرًّا سليمًا من الذُّلِّ»:**

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٤/ ١٤٢ ـ ١٤٣) في ترجمة الإمام أبي السعادات المبارك بن أبي الحرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، الملقَّب مجد الدين ـ رحمه اللَّه تعالى، ما نصه:

«حكى أخوه عز الدين أبو الحسن علي أنه لما أُقعِدَ جاءهم رجل مغربيٌّ، والتزمَ أن يُداويه ويُبرئه ممّا هو فيه، وأنه لا يأخذ أجرًا إلاَّ بعد بُرئه، فملنا إلى قوله، وأخذ في معالجته بدُهن صنعه، فظهرت ثمرة صنعته ولانت رجلاه، وصار يتمكَّن من مدِّهما، وأشرف على كمال البرئ فقال لي:

---

(١) «تاريخ بغداد» (٨/ ١٩٠).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٣٦٢).

أعطِ هذا المغربيَّ شيئًا يُرضيه واصرفه.

فقلت له: لماذا وقد ظهر نجح معاناته؟

فقال: الأمر كما تقول، ولكنّي في راحة ممّا كنتُ فيه من صحبة هؤلاء القوم والالتزام بأخطارهم، وقد سكنت روحي إلى الانقطاع والدَّعة وقد كنتُ بالأمس وأنا معافى أذلُّ نفسي بالسَّعي إليهم، وها أنا اليوم قاعد في منزلي، فإذا طرأت لهم أمور ضرورية جاءوني بأنفسهم لأخذ رأيي، وبين هذا وذاك كثير، ولم يكن سبب هذا إلا هذا المرض، فما أرى زواله ولا معالجته، ولم يبق من العمر إلاَّ القليل، فدعني أعيش باقيه حُرًّا سليمًا من الذُّلِّ، وقد أخذتُ منه بأوفر حظٍّ.

قال عز الدين: فقبلتُ قوله، وصرفتُ الرجل بإحسان».

* **«أنت بدأت بالمسألة، ولو سكتَّ لسكتُّ»:**

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٧/ ٢٥١) ما نصه:

«قيل إن موسى بن عبدالرحمن بن القاسم الزاهد اختصَّ به القاضي بكّار، وكان يتبرَّك به لزهده.

فقال له يومًا: يا أبا هارون، من أين المعيشة؟

قال: من وقف وقفه أبي.

فقال له بكّار: أيكفيك؟ قال: قد تكفَّيتُ به، وقد سألني القاضي فأريد أن أسأله، قال: سل.

قال: هل ركب القاضي دينٌ بالبصرة حتى تولَّى بسببه القضاء؟

قال: لا.

قال: فهل رُوقَ مولوداً أحوجه إلى ذلك؟

قال: لا، ما نكحتُ قطُّ.

قال: فهل لك عيالٌ كثيرة؟

قال: لا.

قال: فهل أجبركَ السلطان وعرض عليك العذاب وخوَّفكَ؟

قال: لا.

قال: فضربتَ آباطَ الإبل من البصرة إلى مصر لغير حاجة ولا ضرورة، للَّه عليَّ لا دخلتُ عليك أبدًا.

فقال: يا أبا هارون أقلني.

قال: أنت بدأت بالمسألة، ولو سكتَّ لسكتُّ.

ثم انصرف عنه ولم يعد إليه بعدها».

* **«السعي للعفو عَمّن سيق للقتل»:**

«عن عمر بن حبيب العدوي القاضي، قال:

وفدتُ مع وفد من أهل البصرة، حتى دخلنا على أمير المؤمنين المأمون فجلسنا، وكنتُ أصغرهم سنًّا.

فطلب قاضيًا يولي علينا بالبصرة، فبينا نحن كذلك، إذ جيء برجل مقيَّد بالحديد، مغلولة يده إلى عنقه، فحُلَّت يدُه عن عُنقه، ثم جيء بنطع[1] فوُضع في وسطه، ومُدَّت عُنقُه، وقام السيَّافُ شاهر السيف، واستأذن أمير المؤمنين في ضرب عُنقه، فأذنَ له، فرأيتُ أمرًا فظيعًا.

فقلت في نفسي: واللَّه لأتكلَّمنَّ، فلعلَّه ينجو.

فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مقالتي.

فقال لي: قل.

(١) النطع: بساط يُفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس.

فقلت: إن أباكَ حدَّثني عن جدِّكَ عن ابن عباس عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال:

«إذا كان يوم القيامة، يُنادي منادٍ من بُطنان[1] العرش: ليقم من عظَّم اللَّه أجره، فلا يقومُ إلاَّ من عفا عن ذنب أخيه، فاعفُ عنه يا أمير المؤمنين، عفا اللَّه عنك».

فقال لي: آللَّه، إن أبي حدَّثكَ عن جدِّي عن ابن عباس عن رسول اللَّه ﷺ؟

فقلت: آللَّه، إن أباكَ حدَّثني عن جدِّكَ، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ.

فقال: صدقت، إن أبي حدَّثني عن جدِّي، عن ابن عباس، عن رسول اللَّه ﷺ بهذا، يا غلام، أطلق سبيله.

فأطلق سبيله، وأمر أن أولَّى القضاء»[2].

* «ما أسعد من لا يرانا ولا نراه»:

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٥/ ٢٠١) في ترجمة غياث الدين السلجوقي ـ رحمه اللَّه تعالى، ما نصه:

«أن أتابك زنكي صاحب الموصل أرسل إليه القاضي كمال الدين محمد ابن عبداللَّه بن القاسم الشهرذوري في رسالة، فوصل إليه وأقام معه في العسكر، فوقف يومًا على خيمة الوزير حتى قارب أذان المغرب، فعاد إلى خيمته وأذَّن المغرب وهو في الطريق، فرأى إنسانًا فقيهًا في خيمة، فنزل إليه فصلَّى معه.

فسأله كمال الدين: من أين هو؟ فقال: أنا قاضي مدينة كذا.

---

(١) بطنان: جوف كل شيء.

(٢) «تاريخ بغداد» (١١/ ١٩٨).

فقال له كمال الدين: القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وهو أنا وأنت، وقاضٍ في الجنة وهو من لا يعرفُ أبواب هؤلاء الظَّلَمة ولا يراهم.

فلمّا كان من الغد أرسل السلطان وأحضر كمال الدين، فلمّا دخل عليه ورآه يضحك قال:

القضاة ثلاثة، فقال كمال الدين: نعم يا مولانا.

فقال: واللَّه صدقت، ما أسعد من لا يرانا ولا نراه.

ثم أمر به فقُضيت حاجتُه، وأعادَه من يومه».

*** الإمام الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم التجيبي: «لن يزال البلد بخير ما كان فيه مثل هذا الشيخ»:**

جاء في كتاب «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٤/ ٤٢٥ ـ ٤٢٦) في ترجمة الإمام الفقيه إسحاق بن إبراهيم بن مسرة أبو إبراهيم التجيبي ـ رحمه اللَّه تعالى، ما نصه:

«لمّا أُخذت الشَّهادات على أبي الخير المسمى بأبي الشرِّ الزنديق، أفتى أبو بكر بن السليم والحجازي في جماعة، بالأعذار له فيمن شهد عليه، وأفتى أبو إبراهيم وابن المشاط والقاضي منذر بطرح الأعذار في جماعة. وكان أشدُّهم في ذلك إسحاق بن السليم، والد أبي بكر، وخالف ابنه في ذلك، فأمر الحكم بالأخذ برأي أبي إبراهيم وأصحابه، وأمر بقتله دون أعذار.

فكتبَ إليه أبو إبراهيم كتابًا يشكره فيه على حياطة الدين، ويعتذرُ عن تخلُّفه عنه لبرد اليوم، وتوالي المطر.

فأجابه الحكم بجواب منه:

وجزاك اللَّه عن الدين والحياطة للإسلام خيرًا، فلقد وقع رأيكَ مني أفضل موقع، وقد أحسنت في توقُّفكَ والأخذ بالقدر، الذي عاقك بما أحبَّ، إلى ما أحاطكَ اللَّه به، وأصلح من حالك، ولقد قلت لمن حضر في

يوم السبت إثر خروجك:

لن يزال هذا البلد بخير ما كان فيه مثل هذا الشيخ، أكثر اللَّه فيه مثله، اعترافًا للَّه بالنعمة فيك، وهذه بصيرتي فيك، فاعلمه».

*** عبداللَّه بن محيريز القرشي الجمحي:**

«قال رجاء بن أبي سلمة عن خالد بن دُريك:

كانت من ابن محيريز خصلتان ما كانتا في أحدٍ ممَّن أدركتُ من هذه الأُمَّة: كان في أبعد الناس أن يسكتَ عن حقٍّ بعد أن يتبيَّن له، يتكلَّمُ فيه، غَضِبَ في اللَّه مَنْ غَضِب، ورَضِيَ فيه مَنْ رَضِي.

وكان من أحرصِ الناس أن يكتمَ من نفسه، أحسنَ ما عنده»[1].

*** القاضي عبيداللَّه بن الحسن العنبري والمهدي: «اذهب الآن فقد طوَّقْتُكَ طوقًا لا يفكُّه عنكَ خمسونَ قينًا»:**

جاء في كتاب «الثقات» للعجلي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (الورقة ٣٥) في ترجمة القاضي الإمام المُحدِّث الفقيه عبيداللَّه بن الحسن العنبري البصري ـ رحمه اللَّه تعالى، ما نصه:

«قال عبداللَّه بن صالح العجلي: كتبَ المهديُّ إلى عبيداللَّه بن الحسن قاضي البصرة يأمرُهُ أن انظر إلى الأرض التي يخاصمُ فيها فلان التاجر فلانًا القائد فاقض بها للقائد.

قال: اجمع لي شهودًا، فجمع جماعةً فكتبَ عليه حُكمًا للتاجر، ثم قال:

اذهب الآن، فقد طوَّقتُكَ طَوقًا لا يفكُّه عنكَ خمسون قينًا.

قال: فعزله المهدي».

---

(١) «تهذيب الكمال» (١٦/١٠٩ ـ ١١٠).

❑ ولله در القائل:

حدِّث عن القوم فالألفاظ ساجدة عند الحكايات والأوزان تبتهلُ

وعلى درب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سار خلف الأمة

* سليمان الحلبي البطل الشاب قاتل كليبر الفرنسي الذي أرهق المصريين عسفًا وجورًا:

البطل سليمان بن أمين ونّس الشهير بالحلبي قاتل الطاغية كليبر.. الضابط الفرنسي الذي كان برفقة نابليون حين احتل مصر عام ١٧٩٩م، ولما غادر نابليون مصر عيّنه حاكمًا عليها، فأرهق أهلها عسفًا وجورًا، وفعل الفرنسيون الأفاعيل بالمصريين فكانوا كما قال الجبرتي «فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف والجور ويؤجلونهم بالساعات؛ فإن مضت ولم يوفوهم المطلوب حلّ بهم ما حلّ من الحرق والنهب والسلب والسبي، وخصوصًا إذا فرّ مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم، وإلا قبضوا عليهم وضربوهم بالمقارع والكسارات على مفاصلهم وركُبهم، وسحبوهم معهم في الحبال، وأذاقوهم أنواع النكال».

«ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول وتفرّقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوا من المتاع، والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا[1] الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وتغوّطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه عرّوه ومن

(١) بعثروا.

ثيابه أخرجوه»[١] .

ولم يغمض لسليمان الحلبي جفن وهو الذي تلقى علومه بالأزهر، فكيف يعبث الفرنسيون فيه فسادًا، ويدوسون المصاحف بنعالهم ويعرُّون الشيوخ من ثيابهم.

إذا أَلَمَّتْ بوادي النيل نازلةٌ باتت لها راسيات الشام تضطربُ

وصمم الحلبي على قتل كليبر وسافر من حلب إلى القاهرة فدخلها في مساء اليوم الرابع عشر من مايو سنة ١٨٠٠، وولى وجهه ناحية منزل أستاذه «مصطفى أفندي» فقضى ليلته عنده، ثم فارقه إلى الأزهر للإقامة في رواق الشام، وهناك قضى ثلاثين يومًا منزويًا لا يخرج منه إلا للبحث والتقصي ومعاينة الطرق التي يسلكها لقضاء مأربه.

وفي مساء ١٣ من يونيه أسرّ سليمان لأربعة من زملائه في العلم بما انتواه[٢] ، فحاولوا تخويفه ولكن سليمان كان من هؤلاء الذين لا يخافون ولا ينكصون؛ فإذا هو يغادر جمعهم، ويعبر النيل على هيئة سائل ويتجه إلى الروضة حيث كان كليبر يستعرض كتيبة الأروام التي انخرطت في سلك الجيش الفرنسي بقيادة نيقولا بابا زوغلو فسأل سليمان النوتية عن تحركات كليبر، فعلم منهم أنه يقضي بعض الوقت في مساء كل يوم بحديقة القيادة ترويحًا عن نفسه، فعزم سليمان على الدخول إلى الحديقة والتربص به، ولما أراد أن يدخل الحديقة اكتشف الحراس أمره فادّعى لهم أنه يريد تقديم عريضة إلى الجنرال، فأخذوه إلى بيروس سكرتير كليبر فرفض أن يقدمه إليه.

وبات تلك الليلة في المسجد، وفي الصباح اتّجه إلى الأزبكية، وتتبع خطوات غريمه، وسار خلفه إلى الروضة، ثم عاد وراءه واتجه إلى الحديقة،

(١) تاريخ الجبرتي، أحداث ١٢١٣هـ.

(٢) هم محمد الغزي، وأحمد والي، وعبدالله الغزي، وعبدالقادر الغزي.

واندس بين الخدم، ورآه الضابط ديفوج ـ ياور كليبر ـ فاعتقد أنه من العمال الذين يقومون بأعمال الترميم في مبنى القيادة، فلم يَرْتب في أمره، ولما رآه يتعقَّب كليبر، وهو داخل منزل الجنرال داماس، شك في أمره، وأمر الخدم بطرده، ولكن سليمان استطاع أن يغافل الحرس ويدخل الحديقة.

وهناك انزوى خلف الساقية، وقبيل العصر دخل كليبر الحديقة بصحبة المهندس بروتان، وفي أثناء عبور كليبر ممر الحديقة من تحت تكعيبة العنب فوجئ بالفتى الحلبي يخرج من مكمنه، ويتقدم إليه كمن يريد أن يستجديه، وما كاد يلتفت إليه حتى رفع سليمان خنجره وهوى به على صدره، ثم تبع سليمان طعنته بثلاث أخريات أسلم بعدها كليبر الروح، واتجه سليمان إلى بروتان، الذي حاول القبض عليه، فأصابه بست طعنات كانت أخف وطأة من طعنات كليبر، فرقد بجواره يئن من الجراح[1].

*** محاكمة سليمان الحلبي وإعدامه:**

وعُثر على سليمان بعد مضي ساعة وراء جدار مهدوم بالحديقة، وحاول أن يتخلّص من مطارديه، ولكنه لم يفلح، وقادوه إلى حيث ضباط القيادة يحرقون الأرم غيظًا، فمثل أمامهم، وسأله الجنرال مينو وواجه بالجنرال بروتان فتعرّف عليه، وشهد الشهود من رجال البحر بأن سليمان كان يتتبع خطوات كليبر في الروضة ويسأل عنه، وفي صباح ١٥ من يونيه مثل سليمان أمام محكمة عسكرية مؤلفة من تسعة أعضاء برئاسة الجنرال رينيه، وبعد استجواب عنيف، وتعذيب قاسٍ على يد «برتلمي الرومي» ـ أحد أذناب الفرنسيين ـ اعترف سليمان.

أورد الجبرتي نقلاً عن ملفات المحكمة الفرنسية من أقوال الشيخ محمد الغزي:

(١) من كتاب «الشهيد محمد كريم» للأستاذ عبدالعزيز حافظ دنيا.

«سُئِل هل سليمان أخبره على ضميره في قتل ساري عسكر؟

فجاوب: إن سليمان كان قد قال له: إنه قد حضر من غزة لأجل أن يغازي في سبيل اللّه لقتل الفرنساوية..».

وها هو المقرر «سارلتون» الذي أشرف على تعذيبه يقول عنه: «وهو بالذات مقرٌ بذنبه بلسانه، ومسمّي شركاه، وهو مادح نفسه للقتل الكريه صنيع يديه، وهو مستريح بجواباته، وينظر محاضر سياسات عذابه بعين رفيعة، والرفعة هي الثمر المحصول من العصمة والنقاوة، فكيف تطهر بوجوه الآثمين»[١].

وحُكم على سليمان بحرق يده اليمنى، وإعدامه على الخازوق، وترك جثته تأكلها الطير، كما حُكم على من أسرَّ إليهم بنيّته بقطع الرقاب وإحراق جثثهم.

وعقب تشييع جنازة الجنرال كليبر في يوم ١٧ من يونية، ودفن جثته في قبر أعدوه له مؤقتًا في حديقة العيني، قادوا المحكوم عليهم إلى «تل العقارب» بحي السيدة زينب، وهناك نُفّذ الحكم في سليمان وإخوانه، وصعدت أرواحهم إلى بارئها.

ومما يجدر ذكره أن دائرة المعارف الماسونية أبدت أسفها العميق لمقتل كليبر الذي أنشأ الماسونية في مصر، ورأس أول محفل فيها دعاه محفل «إزيس» لكن الأجل لم يمهله ليكمل رسالة الماسونية[٢]، وإن شئت قل إن سليمان الحلبي لم يمهله لتكمل رسالة الماسونية»[٣].

لقد كان للدولة العثمانية يد بيضاء في مساعدة الحلبي وتوجيهه لقتل

(١) تاريخ الجبرتي.. هكذا يقولون عن المجاهدين أنهم آثمون.

(٢) «الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام» لعبداللّه التل.

(٣) سليمان الحلبي الشهيد البطل تأليف خالد الجر ص(١٥) ـ دار القلم، دمشق.

كليبر، وهذا لا ينقص قدر الحلبي البطل الذي لقي ربه وهو ابن أربع وعشرين عامًا. والحق أن سليمان الحلبي هذا جاهد خير جهاد في سبيل اللَّه، وبذل روحه في سبيل الإسلام، فنال الشهادة، وذهب له بعيدُ صيت في الآفاق»[1].

واحتفظ الفرنسيس بالهيكل العظمي من جسم سليمان، فوضعوه في متحف حديقة الحيوانات والنباتات في باريس، كما حفظوا جمجمته في غرفة التشريح بمدرسة الطب بباريس، ومازال الخنجر الذي طُعن به كليبر محفوظًا في مدينة كاركاسون بفرنسا[2].

هذه صفحات نهديها لمن زوروا التاريخ واحتفلوا بذكرى الحملة الفرنسية، وأعجب لهذا، ومن أراد المزيد فلينظر إلى كتاب «الحملة الفرنسية تزوير أم تنوير» للدكتورة ليلى عنان... ومنه تعرف قدر الجرم الذي يرتكبه الذين تنكّروا لإسلامهم ولدولتهم قبل أن يتنكروا للعرب، وكانوا خدمًا للغرب الصليبي الذي يتربص بالأمة الإسلامية الدوائر.

* * *

(١) «ضيانامة» للمؤرخ العثماني عزت أفندي الدارندلي ص(٣٠٦)، ترجمه جمال سعيد عبدالغني ـ نشر الهيئة العامة للكتاب بمصر عام ١٩٩٩م.

(٢) «الأعلام» للزركلي (٣/ ١٣٣).

*** كان الحق آثر عندي من غيره:**

جاء في «ترتيب المدارك» (٢/٥٧٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢/٥٦ ـ ٥٧) في ترجمة الإمام الفقيه أبو عمرو الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف المالكي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«قال الكندي: كان كلما حضر قال له المأمون: يا ساعي، يرددها عليه.

فقال له: لست بساعي، وإن أذن أمير المؤمنين في الكلام تكلمت.

قال: تكلم.

قال: واللَّه يا أمير المؤمنين ما أنا بساعي، ولكني أحضرت، فسمعت وأطعت حين دعيت، ثم سئلت عن أمر فاستعفيت، فلم أعف ثلاثًا، فلما رأيت أنه لا بد لي من الكلام، كان الحق آثر عندي من غيره.

قال المأمون: هذا رجل أراد أن يرفع له علم في بلده، خذه إليك.

ثم حمله إلى العراق، وخرجت إليه امرأته، وحمل ابنه إبراهيم إلى الثغور».

*** الإمام الرباني طاووس بن كَيْسان لا يقبل من أُعطيات الأمراء شيئًا، للَّه درُّه:**

«عن النعمان بن الزبير الصنعاني قال: أن محمد بن يوسف أبو أيوب ابن يحيى، بعث إلى طاوس بسبع مئة دينار، أو خمس مئة، وقيل للرسول: إن أخذها منك، فإن الأمير سيكسوك، ويُحسن إليك.

قال: فخرج بها حتى قدم على طاووس الجَنَد، فقال: يا أبا عبدالرحمن، نفقة بعث بها الأمير إليك.

قال: ما لي بها حاجة، فأراده على أخذها فأبى، فغفل طاووس فرمى بها في كُوة البيت، ثم ذهب.

فقال لهم: قد أخذها، فلبثوا حينًا، ثم بلغهم عن طاووس شيء يكرهونه.

فقال: ابعثوا إليه فليبعث إلينا بمالنا.

فجاءه الرسول فقال: المال الذي بعث به إليك الأمير.

قال: ما قبضت منه شيئًا.

فرجع الرسول، فأخبرهم، فعرفوا أنه صادق.

فقيل: انظروا الذي ذهب بها، فابعثوا إليه.

فقال: المال الذي جئتك به يا أبا عبدالرحمن.

قال: هل قبضت منك شيئًا؟

قال: لا.

قال: فقيل له: هل تدري أين وضعته؟

قال: نعم في تلك الكوة.

قال: فانظر حيث وضعته.

قال: فمد يده، فإذا هو بالصُّرة قد بَنَت عليها العنكبوت.

قال: فأخذها فذهب بها إليهم»[1].

*** انظر أين منصرفك إلى الجنة أم إلى النار؟:**

جاء في «المصباح المضيء» (٢/ ١٧٣) ما نصه:

وعظ ابن السماك أمير المؤمنين هارون الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إن لك بين يدي اللَّه مقامًا، وإن لك من مقامك منصرفًا، فانظر إلى أين منصرفك إلى الجنة أم إلى النار؟

---

(١) «تهذيب الكمال» للمزي (١٣/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

فبكى هارون حتى كاد أن يموت».

*** لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود:**

جاء في «مفتاح السعادة» لابن القيم (١/ ١٦٥) ما نصه:

«قال إبراهيم الحربي: كان عطاء بن أبي رباح عبدًا أسود لامرأة من مكة، قال: وجاء سليمان بن عبدالملك ـ أمير المؤمنين ـ إلى عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حول قفاه إليهم! ثم قال سليمان لابنيه: قوما، فقاما.

فقال: يا بني، لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود».

*** أتدري ما الذي يجرؤك علينا، ويجنبنا عنك؟:**

جاء في كتاب «تنبيه الغافلين» للنحاس ص(٤٩) ما نصه:

«دخل مالك بن دينار ـ رحمه اللَّه ـ على أمير البصرة فقال له:

قرأت في بعض الكتب: من أحمق من السلطان، ومن أجهل ممن عصاني، ومن أعز ممن اعتز بي.

أيها الراعي السوء، دفعت إليك غنمًا صحاحًا، فأكلت اللحم ولبست الصوف، وتركتها عظامًا تقعقع.

فقال الأمير: أتدري ما الذي يجرؤك علينا ويجنبنا عنك؟

قال: لا.

قال: قلة الطمع إلينا، وترك الإمساك عما في أيدينا».

*** من وثق بثواب اللَّه لم يضره مس الأذى:**

جاء في «مجمع الزوائد» و«منبع الفوائد» للحافظ نور الدين الهيثمي (٧/ ٢٦٦) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله ثقات ما نصه:

«عن أبي جعفر الخطمي أن جده عمير بن حبيب بن حماشة ـ وكان قد أدرك النبي ﷺ عند احتلامه ـ أوصى ولده فقال:

يا بني! إياك ومجالسة السفهاء، فإن مجالستهم داء، ومن يحلم عن السفيه يُسر، ومن يحبه يندم، ومن لا يرضى بالقليل مما يأتي به السفيه، يرضى بالكثير، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى، ويثق بالثواب من اللَّه تعالى، فإنه من وثق بالثواب من اللَّه عز وجل لم يضره مس الأذى».

*** إن قبلها فأنتما حُرَّان:**

جاء في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٤٩)، و«تهذيب الكمال» (٨/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩) في ترجمة الإمام الرباني القدوة، داود بن نُصَير الطائي، أبو سُليمان الكوفي الفقيه الزاهد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«حدثنا محمد بن حَسَّان، قال:

قال لي عمي: قدم محمد بن قحطبة الكوفة، فقال: أحتاج إلى مُؤدب يؤدِّب أولادي، حافظ لكتاب اللَّه، عالم بسنة رسول اللَّه ﷺ والأثر وبالفقه والنحو والشعر وأيام الناس.

فقيل: ما يجمع هذه الأشياء إلا داود الطائي، وكان محمد بن قحطبة ابن عم داود، فأرسل إليه يعرض ذلك عليه ويُسني له الأرزاق والفائدة، فأبى داود ذلك، فأرسل إليه بَدْرَةً: عشرة آلاف درهم.

وقال: استعن بها على دهرك، فردها، فوجه إليه بَدْرَتَيْنِ مع غلامين له مملوكين، وقال لهما:

إن قبل البَدْرَتين فأنتما حُرَّان.

فمضيا بهما إليه فأبى أن يقبلهما، فقالا له:

إن في قبولهما عتق رقابنا.

فقال لهما: إني أخاف أن يكون في قبولهما وَهَق[1] رقبتي في النار، رداها إليه، وقولا له أن يردهما على من أخذهما منه أولى من أن يعطيني أنا».

*** الإمام الفقيه أبو وهب عبدالأعلى بن وهب القرطبي وهاشم بن عبدالعزيز الوزير: «إن كنت تطلب العلم للّه فأعزه يعزك اللّه»:**

جاء في «ترتيب المدارك» للقاضي عياض ـ رحمه اللّه ـ (٣/ ١٤٠) في ترجمة الإمام الفقيه أبو وهب عبدالأعلى بن وهب القرطبي ـ رحمه اللّه تعالى ـ ما نصه:

«قال ابن لبابة: كنت يومًا عند ابن وهب، في جنته بقرب مقبرة قريش، وكان يعتمرها بيده في نفر من الطلبة يسمع عليه، إذ أُحضر غداؤه، فقدمه إلينا فأكلنا معه.

إذ استأذن عليهم هاشم بن عبدالعزيز الوزير، فأذن له على تكره، ودخل، ونحن نأكل خبزًا أدمه من بقل الجنة. فجلس، وجعل يداعب الشيخ لظرفه، والشيخ لا ينبسط. ويقول: أبا وهب أما تدعونا لطعامك؟ تخاف أن نلتهمه؟

فقال له: ليس من الأطعمة التي توافقك.

قال: وإن لم تكن، فأنا أتبرك به.

ومد هاشم يده إلى لقمة من الخبز، فغمسها في البقل، وجعل يلوكها ولا يسيغها، فلمَّا فرغنا، سأل الشيخ عن مسألة فقه فأجابه الشيخ.

وقام هاشم لينصرف، فتحركت لأقوم معه، فضرب الشيخ على يدي، وأجلسني حتى خرج. ثم قال لي: ما أردت؟

---

(١) وهق: الحبل يُرمى في أنشوطة، فتؤخذ به الدابة والإنسان.

قلت: إكرامه، في مجلسك.

فقال: بئس ما صنعت، إن كنت تطلب العلم للَّه، فأعزه يعزك اللَّه، وإن كنت تطلبه للدنيا، فكن خادمًا من خدمة هؤلاء، فتصرف بين أيديهم، فهو أبقى لك عندهم، وأكسد لك عند ربك. فحافظت بعد ذلك على وصيته».

*** الخليل بن أحمد الفراهيدي: «مادُمتُ أجد الخبز فلا حاجة لي في سليمان»:**

«كان من الزهاد في الدنيا، والمنقطعين إلى العلم، ويُروَى عنه أنه قال: إن لم تكن هذه الطائفة ـ يعني أهل العلم ـ أولياء اللَّه فليس للَّه وليٌّ.

وقد كان وجه إليه سُلَيمان بن عَليّ من الأهواز، وكان واليها، يلتمس منه الشخوص إليه وتأديب أولاده ويرغِّبه ـ ويقول: إن الذي وجه إليه سليمان بن حبيب بن المهلب من أرض السِّنْد، يستدعيه إليه ـ وكان الخليل بالبصرة فأخرَجَ الخليلُ إلى رسول سُليمان خبزًا يابسًا، وقال: ما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي في سليمان، فقال الرسول: فما أبلغه عنك؟

فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سَعة ... وفي غِنى غيرَ أني لستُ ذا مالِ
شُحًا بنفسي أني لا أرى أحدًا ... يموت هُزْلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدرٍ لا الضعف ينقصُهُ ... ولا يزيدكَ فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ... ومثل ذاك الغني في النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل:

إن الذي شَقَّ فمي ضامنٌ ... للرزق حتى يتوفاني
حرمتني خيرًا قليلاً فما ... زادك في مالك حرماني

فبلغت سليمان فأقامه وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه، وأضعف راتبه، فقال الخليل:

وزلةٍ يُكثر الشيطانُ إن ذُكرت ... منها التعجُّب جاءت من سليمانا

لا تعجبنَّ لخير زلَّ عن يده ... فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانًا[1]

*** بايعت رسول الله ﷺ على النُّصح لكل مسلم:**

«عن إبراهيم بن جرير البجلي عن أبيه قال:

غدا أبو عبدالله ـ أي جرير ـ إلى الكناسة ليبتاع منها دابة، وغدا مولى له فوقف في ناحية السوق، فجعلت الدواب تمر عليه فمر به فرس فأعجبه، فقال لمولاه:

انطلق فاشتر ذلك الفرس، فانطلق مولاه، فأعطى صاحبه به ثلاثمائة درهم، فأبى صاحبه أن يبيعه، فماتخه، فأبى صاحبه أن يبيعه، فقال:

هل لك أن تنطلق إلى صاحب لنا ناحية السوق؟

قال: لا أبالي، فانطلقا إليه، فقال له مولاه: إني أعطيت هذا بفرسه ثلاثمائة درهم، فأبى، وذكر أنه خير من ذلك، قال صاحب الفرس: صدق، أصلحك الله، فترى ذلك ثمنًا.

قال: لا، فرسك خير من ذلك تبيعه بخمسمائة، حتى بلغ سبعمائة درهم أو ثمانمائة.

فلما ذهب الرجل أقبل على مولاه، فقال له:

ويحك انطلقت لتبتاع لي دابة، فأعجبتني دابة رجل، فأرسلتك تشتريها، فجئت برجل من المسلمين تقوده، وهو يقول ما ترى ما ترى؟

---

(١) «أخبار النحويين» ص(٣٨ ـ ٣٩)، و«تهذيب الكمال» (٨/ ٣٣٠)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٢٤٦).

وقد بايعت رسول اللَّه ﷺ على النصح لكل مسلم»[١].

*** للَّه درُّ صلة بن أشيم العدوي ورفقه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «هذا كان أمثل مما أردتم»:**

«مر فتى يجر ثوبه أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا.

فقال صلة: دعوني أكفكم أمره.

ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة.

قال: ما هي؟

قال: أحب أن ترفع إزارك.

قال: نعم وقرة عين، فرفع إزاره.

فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم»[٢].

*** الشيخ أحمد بن المعدل وأمير المومنين المتوكل: «نزّهتك من عذاب اللَّه»:**

«عن أحمد بن علي البصري قال: وجه المتوكل إلى أحمد بن المعدل وغيره من العلماء، فجمعهم في داره، ثم خرج عليهم، فقام الناس كلهم له غير أحمد بن المعدل، فقال المتوكل لعبيداللَّه: إن هذا لا يرى بيعتنا.

فقال له: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن في بصره سوءًا.

فقال أحمد بن المعدل: يا أمير المؤمنين ما في بصري سوء، ولكن نزهتك من عذاب اللَّه، قال النبي ﷺ: «**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا**

---

(١) **سنده صحيح**: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٢٣٩٥)، و«المحلى» لابن حزم (٨/ ٤٤٠ ـ ٤٤١).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة المقدسي ص(١٢٨).

قرة عين: أقر عينك بطاعتك.

فليتبوأ مقعده من النار».

فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه»[١] .

*** التابعي الجليل الإمام عبدالرحمن بن أبي نعم البجلي الكوفي والحجاج: «سرْ حيث شئت»:**

«كان من عُبَّادِ أهل الكوفة، ممن يصبرُ على الجوع الدائم، ودَخَل على الحجَّاج أيام الجماجم فوعظه، فأخذه الحجَّاج ليقتله، وأدخله بيتًا مظلمًا، وسدَّ الباب عليه خمسة عشر يومًا! ثم أمر بالباب ففُتح ليخرج فيُدفن، فدخلوا عليه، فإذا هو قائمٌ يُصلِّي! فقال له الحجَّاج: سِر حيث شئت»[٢] .

*** سوار بن عبدالله وأبو جعفر المنصور: «خوفتك دعوة اليتيم والأرملة ومن لا حيلة له»:**

جاء في كتاب «أخبار القضاة» ص(٥٨)، ما نصه:

«همَّ أبو جعفر المنصور أن يسكِّر نهر ابن عمر في البصرة، فوفد إليه وفد من أهل البصرة فيه سوار بن عبدالله، وداود بن أبي هند، وسعيد بن أبي عمرويه فكلموه.

فقال سوار: يا أمير المؤمنين، إن أردت أن تقتل مائة ألف من الناس عطشًا فسكِّره، يا أمير المؤمنين! إني أحذرك أهل البصرة.

فقال أبو جعفر: أتخوفني بأهل البصرة؟ لهممت أن أوجه إليهم بقائد يجثم على أكبادهم حتى يأتي على آخرهم.

قال: يا أمير المؤمنين! لم أذهب حيث ذهبت، ولكن خوفتك دعوة اليتيم والأرملة ومن لا حيلة له.

فرجع أبو جعفر وأضربَ عما كان عزم عليه».

---

(١) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص(٣٥٢).

(٢) «تهذيب التهذيب» (٦/ ٨٦).

*** القاضي شريك وبعض ولد المهدي: «هكذا يُطلب العلم»:**

«عن حمدان بن الأصبهاني قال: كنت عند شَريك، فأتاه بعضُ ولَد المهدي، فاستند إلى الحائط، وسأله عن حديث، فلم يلتفت إليه، فأعادَ عليه، فلم يلتفت إليه.

فقال: كأنَّكَ تستخفُّ بأولاد الخلافة؟ قال: لا، ولكنَّ العِلْمَ أزْيَنُ عند أهله من أن يضيِّعوه.

قال: فجثا على ركبتيه ثم سأله.

فقال شريك: هكذا يُطلبُ العِلمُ»[1].

*** «قد حَسُنَ عندنا ظاهركَ، فحسَّن اللَّهُ باطنك»:**

جاء في كتاب «تاريخ قضاة الأندلس» لأبي الحسن بن عبداللَّه المالقي ص(٤٢) في ترجمة القاضي عنترة بن فلاح، ما نصه:

«استسقى القاضي عنترة بن فلاح في قرطبة يومًا، فأحسن في قيامه في الخطبة، وخشع الناس بوعظه وتذكيره، وحرَّكهم بدعائه وابتهاله، فلما فرغ قام إليه رجل من عامة الناس فقال له: أيها القاضي الواعظ، قد حَسُنَ عندنا ظاهرك، فحسَّن اللَّهُ باطنك.

فقال القاضي: اللَّهم آمين ولنا أجمعين، أضمرت يا ابن أخي شيئًا؟

فقال الرجل: نعم يا قاضي، بتفريغ أهرائك يتم فضل استسقائك.

فقال: لعمري لقد نصحتني، وإني أُشهد اللَّه أن جميع ما حواه ملكي من الطعام صدقة لوجه اللَّه الكريم.

ثم أقسم ألا يترك مقامه حتى يرسل إلى داره فيفرق جميع ما ادَّخره.

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (١/١٩٨).

قال: فغيث الناس من يومهم غيثًا عامًّا».

* «إياكم وأبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها»:

«عن المفضل بن فضالة، عن أبيه قال:

استأذن قوم على عبدالملك بن مروان أمير المؤمنين، وهو شديد المرض فدخلوا عليه فقال:

إنكم دخلتم عليَّ في حين إقبال آخرتي، وإدبار دُنياي، وإني تذكرت أرجى عمل لي فوجدته غزوة غزوتها في سبيل اللَّه، وأنا خلو من هذه الأشياء، فإياكم وأبوابنا هذه الخبيثة أن تطيفوا بها»[1].

* «متى يُفلحُ من كان يسرُّه ما يضرُّه؟»:

جاء في «سير أعلام النبلاء» للذهبي ـ رحمه اللَّه ـ (١١/ ٥٠٠) في تعليقة رائعة للإمام الذهبي على حديث «الدين النصيحة» ما نصه:

وقال: فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهي قوله: «الدِّينُ النصيحةُ»، فمن لم ينصح للَّه وللأئمة والعامَّة، كان ناقصَ الدين، وأنت لو دُعيتَ: يا ناقص الدين، لغضبت! فقل لي: متى نصحت لهؤلاء؟ كلا واللَّه، بل ليتك تسكت، ولا تنطق، أو لا تُحسِّن لإمامك الباطل، وتجرئه على الظلم وتغشه، فمن أجل ذلك سقطت من عينه، ومن أعين المؤمنين، فباللَّه قل لي:

متى يُفلحُ مَن كان يسرُّه ما يضرُّه؟ ومتى يُفلح من لم يراقب مولاه؟ ومتى يُفلح من دنا رحيله، وانقرض جيلُه، وساء فعله وقيله، فما شاء اللَّه كان، وما نرجو صلاح أهل الزمان، ولكن لا ندع الدعاء، لعل اللَّه أن يلطف، وأن يصلحنا، آمين».

---

(١) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٤/ ٥٢٠)، و«مشارق الأشواق» لابن النحاس (١/ ١٤٤).

* «إن الأطباء هم العلماء وهم مرضى»:

جاء في كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي ـ رحمه اللَّه ـ (٣/ ٦٣) عبارات رائعة أورد نصها:

«إن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء اللَّه، ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح، فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه، لم يجد طبيبًا حاذقًا يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرض مزمنًا، واندرس هذا العلم، وأُنكر طب القلوب، وأُنكر مرضها...».

* «ولو أن أهل العلم صانوه صانهم»:

جاء في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ (١١/ ٣٥٤) في ترجمة القاضي الفقيه الشاعر علي بن عبدالعزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢هـ أبياتٌ شعرية رائعة للقاضي الجرجاني ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه:

يقولون لي فيكَ انقباضٌ وإنَّما ... رأوا رجلاً عن موقفِ الذُّلِّ أحجما
أرى الناسَ مَنْ داناهُم هانَ عندهم ... ومن أكرمتهُ عزة النفس أُكرما
ولم أقض حقَّ العلم إن كان كلما ... بدا طمعٌ صيرتهُ لي سلمًا
إذا قيل هذا مطمعٌ قُلتُ قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تحتملُ الظَّما
ولم أبتذِلْ في خدمةِ العلم مهجتي ... لأخدمَ من لاقيتُ لكن لأُخدَما
أأشقى به غرسًا وأجنيه ذِلَّةً ... إذًا فاتِّباعُ الجهل قد كان أحزما
ولو أنَّ أهلَ العلمِ صانوه صانهم ... ولو عظَّموهُ في النفوسِ لعُظِّما
ولكن أهانوهُ، فهان، ودَنَّسوا ... مُحيَّاهُ بالأطماعِ حتى تجهَّما

* **الأعمش والعباس بن موسى أمير الكوفة: «أبلغك أنَّا نبيع العلم؟»:**

«عن حفص بن غياث قال: بعث العباس بن موسى أمير الكوفة إلى الأعمش بألف درهم وصحيفة، فقال:

اكتب لي فيها من حديثك.

فأخذ الألف درهم، وكتب له فاتحة الكتاب، فبعث بها إليه.

فبعث إليه: أبلغك أنَّا لا نُحسِنُ القرآن؟!

فبعث إليه: أبلغكَ أنَّا نبيعُ العلم؟!»[1].

* **«غضب الأمير أهون من غضب اللَّه»:**

«دخل جامع المحاربي على الحجاج ـ وكان جامع شيخًا صالحًا خطيبًا لبيبًا جريئًا، وهو الذي قال للحجاج إذ بني مدينة واسط: بنيتها في غير بلدك، وتورثها غير ولدك ـ فجعل الحجاج يشكو له سوء طاعة أهل العراق وقبح مذهبهم، فقال جامع:

أما إنهم لو أحبُّوك لأطاعوك، على أنهم ما شنؤوك لنسبك ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، فدع عنك ما يبعدهم منك إلى ما يقربهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك.

فقال الحجاج: ما أرى أن أردَّ بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف.

قال جامع: إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار.

قال الحجاج: الخيار يومئذٍ للَّه.

قال جامع: أجل، ولكنك لا تدري لمن يجعله اللَّه.

قال الحجاج: إنك من محارب يا هناه.

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي (١/ ٣٥٦).

قال جامع:

وللحرب سُـمينا وكنا محاربـًا إذا ما القنا أمسى من الطعم أحمرا

قال الحجاج: واللَّه لقد هممت أن أخلع لسانك فأضرب به وجهك.

❑ قال جامع: إن صدقناك أغضبناك، وإن غششناك أغضبنا اللَّه، وغضب الأمير أهون علينا من غضب اللَّه.

قال الحجاج: أجل، وسكت»[1].

* «نصحتُك إذ غشُّوك»:

«قدم عقيبة الأسدي على معاوية، ورفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

معاويّ إننا بشر فاسجح فلسنا بالجبال ولا الحديد

أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد؟

أتطمع بالخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود؟

فهبنا أُمة هلكت ضياعًا يزيـد أميرها وأبو يزيـد

فدعا به معاوية فقال: ما جرَّأكَ عليَّ؟

قال: نصحتك إذ غشوك، وصدقتك إذ كذبوك.

فقال: ما أظنك إلا صادقًا، وقضى حوائجه»[2].

* «إنه أعيانا فرارًا»:

جاء في كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٣/ ١٦٥) ما نصه:

«لقي أبو جعفر سفيان الثوري في الطواف، وسفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه (٤/ ٢٥).

(٢) «خزانة الأدب» (٢/ ٢٢٦).

قال: لا، ولكنك قبضت عليَّ قبضة جبار.

قال: عظني أبا عبداللَّه.

قال: وما عملت فيما علمت فأعظكَ فيما جهلت.

قال: فما يمنعك أن تأتينا؟

❑ قال: إن اللَّه نهى عنكم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

ثم التفت إلى أصحابه فقال: ألقينا الحبَّ إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فرارًا».

* **«إني أحذرك يوم ينادي المنادي»:**

جاء في «البداية والنهاية» لابن كثير ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٩/ ٦٦) في ترجمة الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«ذات يوم أذن عبدالملك للناس في الدخول عليه إذنًا خاصًا ـ يعني لا يدخل إلاَّ خاصة الناس ـ فدخل مع الناس شيخ رث الهيئة، لم يأبه له الحرس، فألقى أمام عبدالملك صحيفة، وخرج، فلم يدر أحد أين ذهب.

وأخذ عبدالملك الصحيفة، فإذا فيها:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم:

يا أيها الإنسان، إن اللَّه قد جعلك بينه وبين عباده، فاحكم بينهم ﴿بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦].

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣ - ١٠٤].

إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

وإني أحذرك يوم ينادي المنادي ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]، ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

فلما قرأه عبدالملك تغير وجهه، فدخل دار حرمته، ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أيامًا».

* «إنْ تحكم فيَّ يحكم فيك ملك قادر يفرِّق بين الحق والباطل»:

«قال القعقاع بن حكيم: كنت عند المهدي وقد أُتي بسفيان الثوري، فلما دخل عليه سلم تسليم العامة ولم يُسلم بالخلافة، والربيع قائم على رأسه متكئًا على سيفه يرقب أمره، فأقبل عليه المهدي بوجه طَلْقٍ، وقال له:

يا سفيان، تفر منا ها هنا وها هنا، وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، أفما تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟

❑ قال سفيان: إن تحكم فيَّ يحكم فيك ملكٌ قادر يفرِّق بين الحق والباطل.

فقال له الربيع: يا أمير المؤمنين، ألهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا؟ إئذن لي أن أضرب عنقه.

فقال له المهدي: اسكت ويلك، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم! اكتبوا عهده على قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم.

فكتب عهده ودفع إليه، فأخذه وخرج فرمى به في دجلة وهرب،

فطُلب في كل بلد فلم يوجد، ولما امتنع من قضاء الكوفة وتولاه شريك بن عبدالله النخعي قال الشاعر:

تحـرَّزَ سُـفيان وفَـرَّ بدينـه وأمسى شُريكٌ مرصداً للدَّراهم[1]

* **«الفقيه الزاهد نصر بن إبراهيم بن نصر المقدسي وتاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان»:**

زار تاجَ الدولة تُتش بن ألب أرسلان الفقيه نصرُ بنُ إبراهيم يومًا، فلم يقم له، فسأله عن أحَلِّ الأموال التي يتصرف فيها السلطان، فقال الفقيه نصر: أحلُّها أموال الجزية.

فخرج من عنده، وأرسل إليه بمبلغ من المال، فقال:

هذا من مال الجزية، تفرقه على الأصحاب.

فلم يقبله، وقال: لا حاجة بنا إليه.

فلما ذهب الرسول، لامه الفقيه أبو الفتح نصر الله بن محمد، وقال له:

قد علمت حاجتنا إليه، فلو كنت قبلته وفرَّقته فينا.

فقال: لا تجزع من فَوته، فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد.

فكان كما تفرس فيه»[2].

* **«لو احتجتُ إلى مالكَ ما وعظتُكَ»:**

جاء في كتاب «تاريخ الخلفاء» للإمام جلال الدين السيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ ص(٢٦٥) في ترجمة الخليفة العباسي المنصور أبي جعفر عبدالله ابن محمد بن علي العباسي الهاشمي ـ رحمه الله ـ ما نصه:

«عن محمد بن منصور البغدادي قال: قام بعض الزُّهَّاد بين يدي

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٣٩٠).

(٢) «طبقات الشافعية» للسبكي (٤/ ٢٨).

المنصور فقال: إن اللَّه أعطاكَ الدُّنيا بأسرها، فاشترِ نفسكَ ببعضها، واذكر ليلة تبيتُ في القبرِ لم تبت قبلها ليلة، واذكر ليلة تخض عن يوم لا ليلة بعده.

❑ فأفحم المنصور، وأمر له بمال، فقال: لو احتجتُ إلى مالكَ ما وعظتُكَ».

* «لا أزعمُ أنَّه ابتلاني، وقد عافاني»:

جاء في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٢/ ٤٠) في ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي، ما نصه:

«خطب الحجاج بن يوسف في يوم جمعة فأطالَ الخُطْبَة، فقام إليه رجل، فقال: إن الوقت لا ينتظركَ، والرَّبُّ لا يعذركَ.

فأمر به إلى الحبس، فأتاه آل الرجل، فقالوا: إنَّه مجنون.

فقال: إن أقرَّ على نفسه بما ذكرتُم، خلَّيتُ سبيله.

❑ فقال الرجل: لا واللَّه، لا أزعمُ أنَّه ابتلاني، وقد عافاني».

* «يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب؟»:

جاء في كتاب «البداية والنهاية» للإمام ابن كثير ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٩/ ١٤٢) ما نصه:

«قال ميمون بن مهران: بعث الحجاج إلى الحسن البصري وقد همَّ به، فلمَّا قامَ بين يديه.

قال: يا حجاج، كم بينك وبين آدم من أب؟

قال: كثير.

قال: فأين هم؟

قال: ماتوا.

فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن».

* **«لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت»:**

جاء في كتاب «جذوة المقتبس» للحميدي ـ رحمه اللَّه ـ ص(١٧٢) و«نفح الطيب» للمقري التلمساني ـ رحمه اللَّه ـ (٣/ ١٧٢ ـ ١٩٠) في ترجمة أبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني ـ رحمه اللَّه، ما نصه:

«قال ابن حزم ـ رحمه اللَّه ـ: ومن أعظم ما يُحكى من المكارم التي لم نسمع لها أختًا:

أن أبا الوليد عبداللَّه بن محمد بن عبداللَّه المعروف بابن الفرضي حدثني: أن أبا الجيش مجاهدًا ـ يعني العامري ـ صاحب الجزائر ودانيه، وجَّه إلى أبي غالب أيام غلبته على مُرسيه، وأبو غالب ساكن بها ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور ـ يعني تلقيح العين ـ مما ألَّفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد، فردَّ الدنانير وأبى من ذلك، ولم يفتح في هذا بابًا البتة، وقال:

واللَّه لو بذلَ لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب، لأني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب.

فأعجب لهمة هذا الرئيس وعلوِّها، وأعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها».

* **القاضي عبدالملك بن محمد الحزمي وداود بن يزيد بن حاتم والي مصر: «لن تصل رحمي بمثل إعفائي»:**

«عن يزيد بن عمر: أن الطائي صاحب البريد شفعَ إلى الحَزْمي في خَصْمٍ فكتب إليه الحزمي: ما أنت والقضاء، عليك تدبُر دوابَّكَ وبراذعها، وكنس زبولها.

فكتب إليه هارون يبغيه ويقول: إن الناس قد شكوه.

وأتى كتاب هارون إلى داود بن يزيد بن حاتم، وكان واليًا على مصر يأمره أن يوقِّفَ الحزمي للناس.

فأقامه داؤد فأثنى الناس عليه خيرًا، وركب الليث بن سعد، وعاصم ابن العلاء القاص، وعبدالله بن لهيعة، إلى الأمير فأثنوا عليه.

فقال الحزمي لداؤد: قد جاءتني فُرجة، فيها لباس العافية مما أنا فيه، ولست تصل رحمي بمثل إعفائي، وقد رضيتُ لك المفضل بن فضالة.

فلم يزل به حتى أعفاه»[1].

*** العلاء بن كثير الاسكندراني والليث بن سعد:**

«قال سليمان بن داود المهري، عن علي بن مُطلب وغيره:

كان العلاء بن كثير لا يتلقى أحدًا إذا قدم الإسكندرية غير الليث بن سعد، ولا يُشيِّع أحدًا غيره إذا خرج.

قال: فبلغ العلاء أنه ولي.

قال سليمان: وإنما ولي مصلحة المسلمين، فقدم الليث، فقال العلاء لأصحابه: لا أعلمن أحدًا منكم خرج إليه ولا يلقاه.

قال: فقدم فدخل المسجد، فلم يقم إليه أحد.

قال: فجاء الليث فجلس إلى العلاء، فقال: يا ليث وليت؟

فقال الليث: خفتُ على دمي.

فقال له العلاء: لسحرةُ فرعون كانوا أقرب عهدًا بالكفر منك ولهم كانوا أعلم بالله منك حين قالوا: اقض ما أنت قاض.

قال: فقال: فإني أتوب إلى الله.

---

(١) «أخبار قضاة مصر» لمحمد بن يوسف الكندي ص(٣٨٤).

قال: فقال العلاء لإخوانه: خذوا بيد أخيكم»[١].

* «لا يا رب ولو قرضت بالمقاريض»:

«عن أبي يحيى الوقار قال: لَمّا طُلبَ ابنُ وهَب للقضاء تغيَّب فسُمع وهو يقول:

❑ يا ربِ يقدم عليك إخواني غدًا عُلماءَ حُكماءَ فُقهاء، وأقدمُ عليكَ قاضيًا، لا يا ربِّ ولو قُرضتُ بالمقاريض»[٢].

* **الإمام يحيى بن يعمر والحجاج: «لم تدع خشية اللَّه مكانًا لخشية سواه»:**

«قال الحجاج ليحيى بن يعمر: ما تقول في مدينة واسط؟

فقال له: ما أقول فيها وقد بنيتها من غير مالك، وسيسكنها غير أهلك.

فقال الحجاج: ما حملكَ على ما قلت؟

قال: ما أخذ اللَّه تعالى على العلماء من العهد ألاَّ يكتموا الناس حديثًا.

فقال له: ألم تخشى سيف الحجاج؟

❑ فقال: لقد ملأتني خشية اللَّه جلَّ وعَلا، فلم تدع مكانًا لخشية سواه.

فسكت الحجاج ولم يُجب»[٣].

* **العز بن عبدالسلام والملك الأشرف الأيوبي:**

«هذه اجتماعة للَّه لا أُكدِّرها بشيء من الدنيا»:

«كان الملك الأشرف الأيوبي يلي دمشق، وأخوه الملك الكامل يلي مصر، وقامت فتنة بدمشق على مسائل كلامية انتصر فيها العز بن عبدالسلام للشريعة الغراء نصراً أغضب الملك الأشرف، إذا كان ميله للطرف الآخر،

(١) «تهذيب الكمال» للمزي (٢٢/ ٥٣٣).

(٢) «أخبار قضاة مصر» للكندي ص(٤١٨).

(٣) «عيون الأخبار» للدينوري (١/ ٢٣٠).

فلما مرض الأشرف أرسل للشيخ يتحلل منه ويعتذر إليه، ويسأله أن يعوده ويوصيه بما ينفعه، فقبل الشيخ واتجه لزيارته، وكانت قد وقعت بين الأشرف وأخيه الكامل وحشة فأمر وهو في مرضه أن ينصب دهليزه صوب مصر، فلما رأى الشيخ الدهليز على هذه الحال، قال للملك الأشرف:

إن الملك الكامل أخوكَ الكبير، ورحمك، وأنت مشهور بالفتوحات، والتتار قد خاضوا بلاد المسلمين، أفتركُ ضرب دهليزك إلى أعداء اللَّه وأعداء الإسلام، وتضربه صوب أخيك؟ غيِّر الحال ولا تقطع رحمك، وانوِ مع اللَّه نصر دينه وإعزاز كلمته، فإن منَّ اللَّه بالعافية عليك رجونا منه تعالى إدالتك على الكفار، وكانت هذه الحسنة العظيمة في ميزانك، وإن قضى اللَّه بانتقالك إليه كان السلطان في خفارة نيتك.

فقال الأشرف: جزاك اللَّه خيراً عن إرشادك ونصيحتك، وأمر والشيخ حاضر بنقل دهليزه صوب التتار.

ثم قال للشيخ: زدني من نصيحتك ووصاياك.

فزاده الشيخ حتى أمر بإبطال المكس والإقلاع عن المحرَّمات والمظالم، وأطلق له ألف دينار مصرية فردَّها عليه وقال:

هذه اجتماعة للَّه لا أُكدِّرها بشيء من الدنيا»[1].

*** القاضي سوار بن عبداللَّه قاضي البصرة وعقبة بن مسلم الهنائي: «لأقتُلنَّكَ قتلةً يتحدَّثُ الناس بها»:**

جاء في كتاب «أخبار القضاة» ص(٥٩ ـ ٦٠) ما نصه:

«عن الأصمعي عن أبيه: أن عقبة بن مسلم الهنائي عامل أبي جعفر على معونة البصرة بلغ من عُتوِّه واجترائه على اللَّه، وإقدامه على دماء

(١) «العز بن عبدالسلام» للأستاذ رضوان الندوي «الموقف: ٣٢».

المسلمين وأموالهم أمرًا منكرًا.

أخذ مرة رجلاً قدم بجوهرة، فاعتدى عليه وأخذ منه الجوهرة، وحبسه في السجن.

فجاءت زوجة الرجل إلى سوار بن عبدالله وهو قاضي أهل البصرة فقالت: أنا بالله ثم بالقاضي، إن الأمير عقبة بن مسلم أخذ زوجي، قدم بجوهرة فاغتصبه إياها، وحبسه في السجن.

فبعث إليه سوار يخبره بما رفعت المرأة عليه عنده ويقول له: فإن كان حقًا فأطلق الرجل وردَّ جوهرته.

فلما أخبر الرسول عقبة برسالة سوار زجره، وشتمه، وشتم سوارًا، فجاء الرسول إلى سوار فأخبره بذلك، فوجَّه إليه سوار بأمنائه ليسمعوا منه قوله، وما يردُّ به من جوابٍ، فأتوه فردَّ عليهم بشتم قبيح فعادوا إلى سوار فأخبروه.

فأرسل إليه سوار: والله لئن لم تطلق الرجل وتردَّ عليه جوهرته، لآتينَّكَ في ثياب بيض ماشيًا، ولأدمِّرنَّ عليك بغير سلاح، ولأقتُلنّكَ قتلةً يتحدَّث الناس بها.

فلمَّا سمعَ مَنْ بحضرته رسالة سوار قالوا: أيُّها الأمير إنَّه يفعل بكَ ما أرسل إليك، وهو سوار قاضي أمير المؤمنين، فافعل ما أمركَ به، فوجَّه إليه بالرَّجل وبالجوهرة، ووجَّه إليه رجالاً يشهدون عليه بقبض الرجل والجوهرة، فصاح بهم سوار: تشهدون على ماذا؟ يُطلق الرجل وتُردُّ عليه جوهرته، ففعلوا».

* «لله درك يا سوار»:

«كان محمد بن سليمان أميرًا للمهدي على البصرة، وكان حماد بن موسى الغالبُ عليه لموضعه منه، فحبس سوار القاضي رجلاً من أتباع حمَّاد

في قضيته فأخرج حمَّاد الرجل من الحبس.

فركب سوار حتى دخل على الأمير محمد بن سليمان، وهو قاعد للناس والناس على مراتبهم فجلس حيث يراه محمد، ثم دعا بقائد من قواد الأمير وقال له: أسامع أنت مطيع؟ قال: نعم. قال: اجلس ها هنا وأقعده عن يمينه، ثم دعا آخر وفعل ذلك بجماعة من القواد، ثم قال: انطلقوا إلى حمَّاد بن موسى فضعوه في الحبس، فنظروا إلى محمد فأشار إليهم أن افعلوا ما يأمركم، فانطلقوا فوضعوا حماد بن موسى في الحبس فانصرف سوار.

فلما كان العشيُّ قال له الأمير: يا أبا عبداللَّه قد بلغني ما صنع هذا الجاهل وأُحبُّ أن تهب لي ذنبه.

قال: قد فعلتُ إن ردَّ الرجل إلى الحبس، قال: يردُّه بالصاد والقماء، ووجَّه إلى الرجل فحبسه، وأخرج حمادًا وكتب بذلك إلى المهدي.

فكتب المهدي إلى سوار يحمده على ما صنع، وكتب إلى محمد بن سليمان بكلام غليظ يقول فيه:

واللَّه لولا أن الوعيد أمام العقوبة، ما أدَّبته إلاَّ بالسيف ليكون عظةً لغيره ونكالاً، يفتات على قاضي المسلمين في رأيه، ويركب هواه لموضعه منك! ويعرض بالأحكام استهانة بأمر اللَّه وإقدامًا على أمير المؤمنين، وباللَّه لئن عاد إلى مثلها ليجدني أغضب لدين اللَّه، وأنتقم لأولياء اللَّه من أعدائه والسلام»[1].

*** قاضي البصرة الحسن بن عبداللَّه العنبري والمعتصم وأحمد بن أبي دؤاد: «وددتُ أن مكان كل شعرة فيه قاض على بلد من البلدان»:**

«لـمَّا أصبح الحسن بن عبيداللَّه العنبري قاضيًا على البصرة أراد أحمد

(١) «أخبار القضاة» ص(٦٩).

ابن أبي دؤاد ـ قاضي القضاة ـ أن يختبره، فكتب إليه:

إن عندك صكوكًا في ديوانكَ هي لقوم من أهل بغداد، فاحملها مع نفر من قبلكَ لتُسلِّمها إلى قاضي بغداد ليكون أهون على أهلها في التثبُّت.

فكتب الحسن العنبري له: إنَّ هذه الصُّكوك لقوم ادَّعوها قبلي، وقد شرعوا فيها، وأقاموا البيِّنة عندي، ولم أكن لأُخرجها عن يدي فيبطلَ حقٌّ من حقوقهم، فإن شئت أن تبعثَ أنتَ إلى الديوان فتأخذها كان ذلك إليك أمّا أنا فلن أتقلَّد ذاك أبدًا.

دخل ابن أبي دؤاد على المعتصم، وأخذ منه كتابًا حازمًا يأمرُ الحسن بحملِ الصُّكوك إلى قاضي بغداد، فجمع الحسن فقهاء البصرة وفيهم هلال الرأي فشاورهم فقال له هلال: كأنَّهم عزلوكَ عن هذه الصُّكوك نفسها، فوجِّها إليهم.

قال محمد بن عمر: فلمّا خرج الفقهاء قال لي: ما تقول؟ فقلتُ: عوَّذكَ اللَّه وأهلكَ من ردِّ كتب الخلفاء بما لا يستقيم خيرًا.

قال: فنادى غُلامه، وقال له: اكتب يا غلام، وردَ عليَّ كتاب أمير المؤمنين حزمًا، ولم يكن القضاة يُكتبُ إليهم حزمًا، وهذه الكتب كنت أوطن أمير المؤمنين فيها العشرة، وهي لقوم قبلي، ولم أكن لأتقلَّد إثم إبطال حقوقهم، والديوان ديوان أمير المؤمنين، فإن أحبَّ أن يُرسل فيأخذها فذلك إليه.

فلمّا وردَ الكتابُ على أحمد بن أبي دؤاد قال للمعتصم:

كيف رأيت فراستي فيه؟

واللَّه لوددتُ أن مكان كل شعرة فيه قاض على بلد من البلدان»[1].

(١) «أخبار القضاة» ص(١٧٤).

*** القاضي إياس ووكيع بن أبي سود صاحب خراسان: «خدعك إنه لا يقبل شهادتك»:**

«احتال قوم على وكيع بن أبي سود صاحب خراسان ليشهد لهم، وهو رجل أحمق شرير، وكان إياس لا يقبل شهادته.

فلما أقبلَ وكيع على إياس احتفى به، وقال له: مرحبًا وأهلاً بأبي مطرف، وأجلسه معه، ثم قال له:

ما جاءَ بك؟ قال: لأشهد لفلان.

فقال له إياس: ما لك وللشهادة، إنَّما يشهدُ الموالي والتجّار والسوقة.

قال: صدقت، وانصرف من عنده، فقيل له: خدعكَ إنَّه لا يقبل شهادتك.

قال: لو علمتُ ذلك لصلوته بالقضيب»[1].

*** عبدالله بن أيوب المخرمي لا يخرج لأصحاب الخليفة ويرفض القضاء:**

«عن محمد بن محمد بن سليمان الباغندي ـ رحمه الله تعالى ـ قال:

كنتُ بسرّ من رأى، وكان عبدالله بن أيوب المخرمي يقرب إليَّ، فخرج توقيع الخليفة بتقليده القضاء، فانحدرتُ في الحال من سرَّ من رأى إلى بغداد، حتى دققتُ على عبدالله بن أيوب بابه، فخرج إليَّ.

فقلت: لك البُشرى.

فقال: بشَّركَ الله بخير، ما هي؟

قال: قلت: خرج توقيع السلطان بتقليدك القضاء لأحد البلدين، إمّا سرَّ من رأى، أو بغداد.

قال: فأطبقَ الباب، وقال: بشَّركَ الله بالنار.

---

(١) «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي (١/ ٩٠) ـ طبع لجنة التأليف.

وجاء أصحاب السلطان إليه، فلم يظهر لهم، فانصرفوا»[١] .

* **الإمام ربيعة الرأي والخليفة الوليد بن يزيد: «عزَّة العلماء... ما أُحدِّثُ شيئًا»:**

«عن عبدالله بن كامل، عن مالك أو غيره قال:

لمّا دخل ربيعة على الوليد بن يزيد ـ وهو خليفة ـ قال: يا ربيعة، حدِّثنا.

قال: ما أحدث شيئًا.

قال: فلما خرج من عنده قال: ألا تعجبون من هذا الذي يقترح عليّ كما يقترح على المُغنية: حدثنا يا ربيعة»[٢] .

* **صلاح النفس أولاً ثم دعوة الناس وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر:**

قال أبو حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ: «كن أحد رجلين:

إمّا مشغولاً بنفسك، وإمّا مُتفرِّغًا لغيرك بعد الفراغ لنفسك.

وإيَّاكَ أن تشتغلَ بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك.

فإن كنت المشغول بنفسكَ فلا تشتغل إلاَّ بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك.

ولا تشتغل بفروض الكفاية، لا سيَّما وفي زمرة الخلق من قد قام بها، فإن مُهلك نفسه ـ فيما به صلاح غيره ـ سفيه، فما أشدَّ حماقة من دخلت الأفاعي تحت ثيابه، وهمَّت بقتله، وهو يطلبُ مذبَّةً يدفعُ بها الذباب عن غيره.

وإن تفرَّغت من نفسك وتطهيرها، فاشتغل بفروض الكفايات، وراع التدريج فيها»[٣] .

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٠/ ٨١)، و«المنتظم» (٥/ ٥٣).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب (١/ ٣٣٦).

(٣) «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٩).

وقال: «فحقٌّ على كلِّ مسلم أن يبدأ بنفسه فيُصلحها، بالمواظبة على الفرائض وترك المحرَّمات، ثم يعلِّم ذلك أهل بيته، ثم يتعدَّى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلَّته، ثم إلى أهل بلده... وهكذا إلى أقصى العالم.

فإن قام به الأدنى، سقط عن الأبعد، وإلاَّ حرج به على كلِّ قادر عليه، قريبًا كان أو بعيدًا، ولا يسقطُ الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه، وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلِّمه فرضه.

وهذا شغل شاغل، لمن يهمه أمر دينه، ويشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة، والتعمُّق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات، ولا يتقدَّم على هذا ـ أي أمر الدعوة ـ إلاَّ فرض عين، أو فرض كفاية هو أهم منه»[1].

* **«لا نستضيء بنارهم»:**

«قال أبو شهاب: كنت ليلة مع سفيان فرأى نارًا من بعيد.

فقال: ما هذا؟ فقلت: نار صاحب الشرطة.

فقال: اذهب بنا في طريق آخر، لا نستضيء بنارهم، أو قال: بنورهم»[2].

* **«لا أُحدِّث قومًا أنت فيهم»:**

جاء في كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي ـ رحمه اللَّه ـ (١/ ٣٣٧) برقم: (٧٦٤) ما نصه:

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٤٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٧/ ٤٠).

«. . . نا شريك قال: كان أبو جعفر المنصور قد استخفى عند رجل فأكرمه، فلمَّا أفضت الخلافة إليه، قدم عليه ذلك الرجل يُهنِّئه، فأكرمه وقال له: سل حاجتكَ، فقال له: أنت تعلم أنِّي من اللَّه في نعمة، ما لي حاجة، إلاَّ أنِّي أشتهي أن يُحدِّثني الأعمش، فاكتب إليه كتابًا ليُحدِّثني.

فكتب له أبو جعفر كتابًا بخطِّه إلى الأعمش يُعرِّفه فيه وجوب حقِّه عليه، ويأمره بأن يُحدِّثه.

فلمّا مضى الرجل بالكتاب وافى باب الأعمش، فدقَّه، وكان الأعمش يكره أن يُدَقَّ عليه بابُهُ، فقال: من ذا؟ ادخل.

فدخل ـ والأعمش يلخف كسبًا[1] للشاة ـ فقال له: ما لَكَ؟

فقال: هذا كتاب أمير المؤمنين إليك.

فقال: هاته، فأخذه، ثم قال: يا بُسْرَةَ ـ يعني أن اسم الشاة بُسْرَة ـ فرفعت رأسها، فجعل يُضَفِّرها الكتاب حتى أكلته.

ثم قال: إيش فيه؟ قال: فيه أن تُحدِّثني.

فقال: ما أُحدِّثُكَ بحرف.

فقال: سبحان اللَّه يا أبا محمد! يكتبُ إليك أمير المؤمنين في شيءٍ فلا تفعله؟

فقال: واللَّه ما أُحدِّثُكَ، ولا أُحدِّثُ قومًا أنت فيهم».

*** أعرابي يشكو عاملاً لهشام بن عبدالملك:**

«دخل أعرابيٌّ على هشام بن عبدالملك يشكو عاملاً لهم، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه واللَّه ما أدركنا أحداً قعَدَ مَقْعَدَكَ أعدلَ منكَ، وإنَّ أهل الشكر لعدلك، هم عُيونُكَ على مكارمكَ، يجب عليهم أن يرفعوا إليك كلَّ مكرمةٍ

(١) يلخف كسبا: أي يعجنه، ويضرب بعضه ببعض ليتماسك، ثم يطعمه للشاة.

غِبتَ عنها، حفظًا لغيبك، وتأديةً لحقِّك وحقِّ إمامتك، وفلان بن فلان رفعتَ خسيستَهُ، وأثبتَّ رُكنَهُ، وأعليتَ ذِكرَهُ، وأمرتَهُ بنشر محاسنكَ فطواها، وإظهار مكارمكَ فأخفاها، وقد أخربَ البلادَ، وأظهرَ الفسادَ، وأجاعَ الأكبادَ، وأخرج الناس من سَعَةِ العدلِ إلى ضيقِ الجوْرِ، حتى باعوا الطارفَ والتالِدَ.

قال: يا أعرابي، إن كان ما تقول حقًّا عزلناه وجعلناه نكالاً لمن سار بسَيْرِه»[1].

* **«أكره أن أُذَلَّ»:**

«عن سفيان بن عيينة أن محمد بن إبراهيم الهاشمي، وكان واليًا على مكة، بعث إلى سفيان الثوري بمائتي دينار، فأبى أن يقبلها.

قلت: يا أبا عبداللَّه، كأنكَ لا تراها حلالاً؟

قال: بلى، ولكن أكره أن أذلَّ»[2].

* **العَالِمُ يُؤتى: «لا تعودنَّ لشيء من هذا»:**

جاء في كتاب «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي ـ رحمه اللَّه ـ (١/ ٣٧٠) برقم: (٨٥٠) ما نصه:

«. . . سمعتُ مُسَدَّدًا ـ يعني ابن قَطَن ـ يقول: سمعتُ أبي يقول:

كنتُ عند سليمان بن حرب إذ أقبل طاهر بن عبداللَّه بن طاهر ـ والمطرقة بين يديه ـ فلمَّا جلس أقبل عليه سليمان فقبض على لحيته، فقال:

سبحان اللَّه يُستَخَفُّ بشيخٍ مثلي؟!

قال: ما ذاك يا أبا أيوب؟

---

(١) «لباب الآداب» للأمير أسامة بن منقذ (ص٢٣٧).

(٢) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي (١/ ١٤٤).

قال: بعثتَ إليَّ أن تعال فحدِّثني، العالم يأتي، أو يؤتى؟

قال: لا أعود يا أبا أيوب. قال: لا تعودنَّ لشيء من هذا، إن أردتَ الحديث فهذا مجلسي».

*** الشيخ أحمد بن بديل الكوفي قاضي الريِّ وموسى بن بغا: «إنه اللَّه تبارك وتعالى»:**

«عن أبي القاسم عبيداللَّه بن سليمان قال: كنتُ أكتُ لموسى بن بغا، وكنّا بالرَّي، وكان قاضيها إذْ ذاكَ أحمد بن بديل الكوفي، فاحتاج موسى أن يجمع ضيعة كانت هناك، كانت له فيها سهام، وأن يعمِّرها، وكان فيهم سهم ليتيم.

فصرت إلى أحمد بن بديل، أو قال: استحضرت أحمد بن بديل، وخاطبته في أن يبيع علينا حصة اليتيم، ويأخذ الثمن.

فامتنع وقال: ما باليتيم حاجة للبيع، ولا آمن أن أبيع ماله وهو مستغن عنه، فيحدث على المال حادثة، فأكون قد ضيَّعته عليه.

فقلت: أنا أُعطيك في ثمن حصته ضعف قيمتها.

فقال: ما هذا لي بعذر في البيع، والصورة في المال إذا كثر، مثلها إذا قلَّ.

فأردتُه بكلِّ لون وهو يمتنع، فأضجرني، فقلت له:

أيها القاضي، إلاَّ تفعل، فإنه موسى بن بغا.

فقال لي: أعزَّك اللَّه، إنه اللَّه تبارك وتعالى.

قال: فاستحييتُ من اللَّه أن أعاوده بعد ذلك، وفارقته.

ودخلت على موسى، فقال: ما عملت في أمر الضيعة؟

فقصصتُ عليه الحديث، فلمَّا سمع «إنه اللَّه» بكى، وما زال يكرِّرها.

ثم قال: لا تعرض لهذه الضيعة، وانظر في أمر هذا الشيخ الصالح، فإن كانت له حاجة فاقضها.

قال: فأحضرته، وقلت له: إن الأمير قد أعفاك من أمر الضيعة، وذلك أنِّي شرحتُ له ما جرى بيننا، وهو يعرض عليك قضاء حوائجك.

قال: فدعا له، وقال: هذا الفعل أحفظ لنعمته، وما لي حاجة إلا إدرار رزقي، فقد تأخَّر منذ شهور، وقد أضرَّ بي.

فأطلقت له جاريه»[1].

*** اللَّه بيني وبينك:**

«عن إبراهيم الفرَّاء، قال: كتب سفيان إلى المهدي مع عصام جبر:

طرَدْتَني، وشرَّدْتَّني، وخَوَّفْتَني، واللَّهُ بيني وبينكَ، وأرجو أن يخير اللَّه لي قبل مرجوع الكتاب. فرجعَ الكتابُ وقد مات»[2].

*** قاضي لا يدفع إلى المعتضد شيئًا: «لم يدفع إلى المعتضد شيئًا»:**

جاء في كتاب «المنتظم» للإمام ابن الجوزي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ (٦/ ٥٣) ما نصه:

«عن أبي الحسين عبدالواحد بن محمد الخصيبي، قال: قال لي ابن حبيب الذرَّاع: كنَّا ونحن أحداث مع أبي حازم، وكنَّا نقعده قاضيًا، ونتقدَّم إليه في الخصومات.

قال: فما مضت الأيام والليالي، حتى صار قاضيًا.

قال أبو الحسين: وبلغ من شدَّته في الحكم، أن المعتضد وجَّه إليه بطريف المخلدي، فقال له: إنَّ لي على الضبعي ـ بيع كان للمعتضد ولغيره ـ

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (٥/ ٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦٤).

النبأ الزهر
من
شيوخ ورجال العصر

النَّبأ الزَّهْر من شيوخ ورجال العصر

مضى ركب الإسلام، على ظهر مركب الأيام، حتى رَسَتْ به على شاطئ القرن. الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) وقد تبدّلت الشرائع، وتغيّرت السنن، وعمّ الجهل وطمّ، فالإسلام لا يحكم، وأهله عنه غافلون، قد لعبت بهم الأهواء، وسار بهم الشيطان في كل واد، وتداعت علينا الأمم وتكالبت، وأخذتنا من كل حدب وصوب، وأصبحنا لقمة سائغة لشذاذ الآفاق وحثالة اليهود.

وفُرضت على المسلمين الانتدابات والاستعمارات، وعلماء الدين بين مغلوب على أمره لا ينادي بشيء، وبين منقاد علت الغشاوة عينيه، ولكن الأمر لم يخل من مصابيح تبين الهدى من الضلال، والحق من الباطل، والنور من الظلام فقاموا للّه عز وجل وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، كان دينهم عندهم محفوظًا في شغاف قلوبهم، أغلى عندهم من كل طريف وتالد، فدعوا الناس للرجوع إلى أصل الدين، ونقاوة هذه العقيدة لتكون بيضاء نقيّة، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

واستيقظ القوم على أصوات تنادي بالإصلاح والصفاء، تهيب بالمسلمين بالرجوع إلى ماضيهم المشرق، واستعادة مجدهم التليد، كانت هذه الأصوات عنادل وسط غربان التغريب، ويوم ما يسمّونه بالتنوير تصوّت بالأمة لتدلها على الطريق المستقيم الفوّاح الذي يعبق بالزنابق، ويثري قنوات الروح والفكر خصبًا ونماء.

هؤلاء الأفذاذ يبقى دور غيرهم قاصرًا أمام وقفاتهم الواهبة لأمتهم إرثًا عريضًا لا يكفي وقوفنا أمامه مبهورين، بل نقتفي آثارهم عسى أن نكون

فخورين بمآثرهم ورفدهم، عاملين على منوالهم.

الدين النصيحة

كل إنسان يؤخذ منه ويردّ إلا رسول اللَّه ﷺ.

لله در ابن تيمية الرباني حين يقول:

«إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة، ومعصية وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا»[1].

فنسأل اللَّه العفو والمغفرة لأهل التوحيد ونبرأ إلى اللَّه من الهوى والبدع، ونحبُّ السنة وأهلها، ونحبّ العالم على ما فيه من الاتباع، والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن».

ونحن نقبل الحق من علماء المسلمين، ونبرأ إلى اللَّه تعالى من زلاتهم وأخطائهم ـ خاصة في الأمور العقدية؛ لأن الحق لا يُعرف بالرجال، بل هم يُعرفون به، ونحن لا ننتصر لإمام، أو شيخ، أو طائفة انتصاراً مطلقًا، غير رسول اللَّه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

ومع هذا ننصف الأكابر ونعترف بفضلهم ـ وننبه على خطئهم نصيحة، لا تتبعًا للزلات فالدين النصيحة.

وللَّه در ابن القيم حين يقول: والبصير الصادق يضرب مع كل قوم بسهم ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم.

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٨/٢٠٩).

يقول الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ:

«لا ريب أنه يجب على المسلمين توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم على الحق وتعاونهم على البر والتقوى ضد أعداء الإسلام كما أمرهم اللَّه سبحانه بذلك بقوله عز وجل ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وحذرهم من التفرق بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ولكن لا يلزم من وجوب اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم على الحق واعتصامهم بحبل اللَّه ألا ينكروا المنكر على من فعله أو اعتقده من الصوفية أو غيرهم، بل مقتضى الأمر بالاعتصام بحبل اللَّه أن يأتمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويبيّنوا الحق لمن ضلّ عنه أو ظن ضده صوابًا بالأدلة الشرعية حتى يجتمعوا على الحق وينبذوا مخالفه، وهذا هو مقتضى قوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ومتى سكت أهل الحق عن بيان أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين لم يحصل منهم ما أمرهم اللَّه به من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومعلوم ما يترتب على ذلك من إثم الساكت عن إنكار المنكر وبقاء الغالط على غلطه، والمخالف للحق على خطئه، وذلك على خلاف ما شرعه اللَّه سبحانه من النصيحة والتعاون على الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واللَّه ولي التوفيق»[1].

(١) انظر «تنبيهات في الرد على الصابوني» للشيخ ابن باز (ص٣١، ٣٢) ـ نشر دار الإفتاء.

❑ ويقول الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ:

«نعم يجب علينا أن نتعاون فيما اتفقنا عليه من نصر الحق والدعوة إليه والتحذير مما نهى الله عنه ورسوله ﷺ. أما عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فيه فليس على إطلاقه بل هو محل تفصيل، فما كان من مسائل الاجتهاد التي يخفى دليلها فالواجب عدم الانكار فيها من بعضنا على بعض، أما ما خالف النص من الكتاب والسنة فالواجب الإنكار على من خالف النص بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن عملاً بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]»[1].

* وقفة قبل ذكر الأعلام والرموز الإسلامية:

حين نسطر لرجال من رجالات الإسلام كانت لهم مواقف عظيمة في خدمة الإسلام والدفاع عنه، والذود عن حياضه، وربما شاب منهج بعضهم شائبة أو أكثر من البعد عن منهج السلف في نقطة أو نقطتين.. وعزّ وجود مثال يمثل المنهج السلفي بكل شموله كشيخ الإسلام ابن تيمية.. وأصدق مثال لذلك السيد محمد رشيد رضا.. الذي كان يُطلق عليه أبو السلفية، ولكن غابت عنه أشياء أو خالف منهج السلف في أشياء مثل إنكاره للمهدي والمسيح الدجال ونزول المسيح رغم علمه وتبحره في فنون العلم، فكيف بمن غلبت عليه الدعوة إلى الله وهمومها وكثرة السفر والترحال، فحال ذلك دون التمحيص والعلم.. والنصح لله ورسوله وأئمة المسلمين ودعاتهم يوجب علينا التجرد لله، وإنصاف الدعاة إلى الله، مع بيان خطئهم.. فقد تجد

(١) المصدر السابق (ص١٤، ١٥).

الرجل سدًّا منيعًا وحصنًا حصينًا للإسلام في جانب، ويُرد عليه في جانب آخر لا نوافقه عليه مطلقًا.

❑ والنصح للّه، والنقد النزيه أو الرد البناء فهو في طليعة العوامل التي صانت الأمة الإسلامية عن الانحراف عن الجادة.

«والذين يحاولون أن يخدموا الدين بكل جدّ وإخلاص، ولا يريدون إلا إعلاء كلمة اللّه ورفع شأن الإسلام، وينشدون الحق والصواب، ويحرصون على تصحيح «الفهم الديني» وتصعيده وإكماله، والحق هو القياس الوحيد لديهم ـ أولاً وأخيراً ـ لا جماعة من الجماعات ـ مهما كان وثيق الصلة بها، ولا فرد من الأفراد ـ مهما كان عظيمًا عنده ـ فإنهم دائمًا يتلقون النقد الإيجابي البنّاء، والآراء والتوجيهات المخلصة مهما خالفت آراءهم، بصدر رحب، وقلب منشرح.

وكانت هذه الحسبة العلمية المخلصة النزيهة، في طليعة العوامل التي صانت الأمة المسلمة عن الانحراف عن الجادة، والتحريف للدين والشذوذ الجماعي، والعثرة المردية، في تأريخها الطويل، ورحلتها الشاقة الشاسعة في ميادين الاجتهاد، والتجربة، والاستنباط والاستنتاج، وإجهاد الفكر والرأي.

وقد فقدت هذه الحسبة العلمية الدينية أو ضعفت ضعفًا كبيراً في ديانات أخرى.. ولذلك شدّدت الشريعة الغراء على وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بهما في كل زمان ومكان، وحذّرت من التواني فيهما والمحاباة لأهل الوجاهة والسلطان، وجعلت «كلمة حق عند سلطان جائر» أفضل الجهاد، وقام به المسلمون، وخصوصًا علماؤهم بهذه الفريضة في كل زمن فاسد وحكم جائر، وسمح له أمير المؤمنين عمر لكل ضعيف ومغمور ورحّب به، فقال: «لا خير فيهم إذا لم يقولوها لنا، ولا خير فينا إذ

لم نقبل»[١] .

❑ وقال مرّة: «امرأة أصابت ورجل أخطأ»[٢] .

ولا يمنع من هذا التنبيه على خطأ أوزلة، والإرشاد إلى الأنفع الأصلح، أو الأقوم الأسلم، تبوأ من تعرّض لهذا الخطأ الاجتهادي أو السهو والنسيان اللذين هما من خصائص الإنسان مكان قيادة، أو اشتغاله بمصلحة اجتماعية للأمة، أو سلامة نية، أو غناؤه في كفاح أو نضال، فإن كان الصحابة ﷺ ينبّهون أفضل الرسل وخير البشر ﷺ على السهو، وقد قال ذو اليدين لرسول اللَّه ﷺ وقد صلّى الرباعية اثنتين: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول اللَّه[٣] .

❑ وعزل أمير المؤمنين عمر ـ وهو أعرف بمصالح الإسلام والمسلمين ـ سيدنا خالداً في معركة اليرموك، وهي المعركة الحاسمة المصيرية في تاريخ الإسلام، ونصب أبا عبيدة مكانه، ولو أخذ المسلمون في ماضيهم عدم إحداث التشويش في صفوف المسلمين بعين الاعتبار، وكفوا عن التنبيه على الزلل والخطأ، لانقطع هذا التيار الحيوي المبارك من حركة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحسبة في الدين، والشهادة بالحق، عن جهاز الأمة الاجتماعي والخلقي، ووقف القلب عن توزيع الدم الصحيح إلى الشرائين والعروق، وكان ما يعقب ذلك من التباس الأمور على أهل العلم والرأي، والمجراف العامة للتيارات، واختفاء كثير من حقائق الدين، أعظم وأجلّ من اعتراف هذا القائد أو الإمام أو العبقري بخطئه في التعبير، أو تقصيره في الفهم أو التفهيم، فإن العصمة للَّه وحده، وكلٌّ يؤخذ من قوله ويُردّ إلا

(١) «كتاب الخراج» للإمام أبي يوسف (ص٧).
(٢) «نيل الأوطار» (٦/ ١٧٠).
(٣) متفق عليه.

رسول اللَّه ﷺ»[١] .

«معلوم أن التحذير من كتاب، أو الردَّ على فكر، لا يعني القدح في صاحبه اللَّهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بعقائد الإسلام، وقواعده، أو كان النقد موجهًا إلى أفضل الناس بعد الأنبياء والرسل، وهم أصحاب النبي ﷺ؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى اختارهم لصحبة نبيه ﷺ، وقال فيهم بعد ما علم ما لهم وما عليهم: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وكذلك هناك فرق بين «خلاف شخصي حاقد» و«اختلاف مبدئي هادف» فالأول مذموم، والآخر ممدوح.

«فردّ القالات الضعيفة وتبيين الحق في خلافها بالأدلة الشرعية ليس هو مما يكرهه أولئك العلماء، بل مما يحبّونه ويمدحون فاعله ويثنون عليه، فلا يكون داخلاً في باب الغيبة بالكلية.

فلو فرض أن أحدًا يكره إظهار خطئه المخالف للحق، فلا عبرة بكراهته لذلك، فإن كراهة إظهار الحق ـ إذا كان مخالفًا لقول الرجل ـ ليس من الخصال المحمودة، بل الواجب على المسلم أن يحبَّ ظهور الحق ومعرفة المسلمين له، سواء كان ذلك في موافقته أو مخالفته.

وهذا من النصيحة للَّه ولكتابه ورسوله ودينه وأئمة المسلمين وعامتهم، وذلك هو الدين، كما أخبر به النبي ﷺ[٢] .

وأما بيان خطأ من أخطأ من العلماء قبله إذا تأدَّب في الخطاب، وأحسن في الردّ والجواب، فلا حرج عليه ولا لوم يتوجه إليه.. سواء كان الذي بيَّن الخطأ صغيرًا أو كبيرًا..»[٣] .

---

(١) «التفسير السياسي للإسلام» لأبي الحسن الندوي (٢٣ ـ ٢٦).

(٢) عن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» (مسلم رقم ٥٥، والبخاري تعليقًا في كتاب الإيمان).

(٣) «الفرق بين النصيحة والتعيير» لابن رجب (٣٢ ـ ٣٣) باختصار.

ليس كتابنا هذا، إلا حسبة دينَّة، ومحاولة علمية مخلصة إن شاء اللَّه ـ وإن كانت من صغير لكبير ـ تحثّ على مراجعة ما سلف، وتدارك ما فات، وتبحث عن الأصلح الأقوم، والأنفع الأسلم لهذه الأمة، وتحتاج إلى النوعية الواعية من العلماء والدعاة الذين ينتبهون للأخطار والأفكار التي تهدد كيانها من الخارج والداخل على السواء. ولا ريب أن الأستاذ الندوي له في القلب منزلة بل منازل، وهو عزيز، ومثله لا يفرَّط فيه، ولكن الحق أعزّ وأولى من الرجال.

فإن كان له رأي، فليتفضَّل ـ بصدر رحب وقلب منشرح ـ بالنظر في رأي آخر، يمكن أن يكون فيه ما ينير معالم الطريق، ويزيل السحاب السوداء عن شمس الحقيقة.

فلنتق[1] اللَّه عز وجل ـ جميعًا، في عقيدتنا وديننا، ومنهجنا وسلوكنا، ونراجع جميع أمورنا قبل فوات الأوان، والاختبار على مستوى المسئولية[2].

وأختم هذا التمهيد بما ختم به الأستاذ الندوي كتابه «التفسير السياسي للإسلام»، فإنه قال: «إن الإخلاص الصادق، وعاطفة نشدان الحق، وحبّ صيانة الدين عن كل شائبة من التحريف، وإعلاء كلمة اللَّه في الأرض، والإيمان بأن كلاً يؤخذ من قوله ويردُّ إلا النبي المعصوم ﷺ، وكل ذلك سيجعل الإنسان لا يتضايق بهذه الملاحظات والتنقيحات، بل سيتقبَّلها بصدر رحب وقلب منشرح، لما يراها تُعينه على فهم الإسلام، وتفهيمه وصيانته، مما سيدلُّ على أن الغرض هو اتباع الحق ورضا اللَّه لا تضخيم الشخصية، أو تنمية الكلام، أو تحبير الحديث».

* ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

---

(١) اللَّهم لا تجعل أحدًا منَّا إذا قيل له: «اتق اللَّه أخذته العزة بالإثم».

(٢) قال رسول اللَّه ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» (صحيح ـ رواه الترمذي في كتاب الزهد من جامعه، والبخاري تعليقًا في كتاب المرضى عن سعد بن أبي وقاص).

أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨][1] .

ولله در ابن عثيمين حين يقول:

«وأما الخطأ في العقيدة؛ فإن كان خطأً مخالفًا لطريق السلف فهو ضلال بلا شك، ولكن لا يُحكم على صاحبه بالضلال حتى تقوم عليه الحجة، فإذا قامت عليه الحجة؛ وأصرّ على خطئه وضلاله كان مبتدعًا، كان مبتدعًا فيما خالف فيه الحق، وإن كان سلفيًّا فيما سواه، فلا يُوصف بأنه مبتدع على وجه الإطلاق، ولا بأنه سلفي على وجه الإطلاق، بل يُوصف بأنه سلفي فيما وافق السلف، مبتدع فيما خالفهم، كما قال أهل السنة في الفاسق أنه مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من العصيان، فلا يُعطى الوصف المطلق، ولا يُنفَى عنه مطلق الوصف، وهذا هو العدل الذي أمر اللَّه به، إلاَّ أن يصل المبتدع إلى حد يخرجه من الملة فإنه لا كرامة له في هذه الحال»[2] .

* حكيم الإسلام.. صاحب المنار.. السيد محمد رشيد رضا.. رائد الإصلاح:

كان من الأعلام المبرّزين والأئمة المشهورين حمل على عاتقه أمر الإصلاح، فصنف وكتب، وألّف وألهب، أنشأ المنار فكانت منارة للعلم والأدب، مدحها المخلصون، وعاداها المبغضون وقد شهد للشيخ رشيد ثلة من العلماء والفقهاء قال شيخه محمدعبده:

فيا رب إن قدّرت رُجعى قريبة ... إلى عالم الأرواح وانفضّ خاتمُ

فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا ... (رشيداً) يضئ النهج والليل قاتمُ

وصف العلامة محمد تقي الدين الهلالي الشيخ رشيد رضا بأنه (إمام

---

(١) الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ الوجه الآخر من كتاباته للأستاذ صلاح الدين مقبول أحمد (ص١٥ ـ ١٧).

(٢) «كتاب العلم» لابن عثيمين ص(١٩٩ ـ ٢٠٠) طبع دار الثريا.

هذا العصر وحكيمه الأكبر)[١] .

❑ وأثنى عليه شيخ الإسلام مصطفى صبري ـ بالرغم من أنه هاجم بعض آراء السيد محمد رشيد في كتابه «موقف العلم والعقل والعالم من رب العالمين ـ وقال عن كتاب رشيد «الخلافة أو الإمامة العظمى»:

«وأمّا كتاب «صاحب المنار»، ففي غاية الإفادة والإجادة، كما يتوقع من مؤلفه الذي هو فارس خطير في أمثال هذا الميدان، وقد وجّه إلى الحكومة التركية الحاضرة انتقادات ووصايا ودعاهم إلى الصلاح والإصلاح، وقدمهم في الاستعانة والاستخدام لرقيّ الإسلام، فللّه دره في تحقيق المقام واجتهاده في إحياء منصب الخلافة الصحيحة»[٢] .

❑ وذكر الشيخ حسن البنا ـ رحمه اللّه ـ في مذكرات الدعوة والداعية تصديراً لمجلة المنار كتبه الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر جاء فيه: «. . . وكان محبًّا لكتاب اللّه، وسنة رسوله وآثار السلف الصالح، وقف حياته لخدمة دينه، والأمم الإسلامية، وكان شجاعًا في الحق لا يهاب أحدًا ولا يجامل ولا يُحابي، ونشأ على هذا واستمرّ فيه إلى أن لقى ربه»[٣].

❑ وقال الشيخ حسن البنا عن مجلة المنار أنها «من أعظم المؤثرات في خدمة الإسلام المعاصر في مصر وغيرها من البلاد»[٤] ، وحتى بعد أن انهارت المنار رغم جهود الجمعية لانقاذها اعتبر البنا مجلته الخاصة «الشهاب»

(١) «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» لخالد بن فوزي آل حمزة (ص٤٧) ـ مؤسسة قرطبة.

(٢) كتاب «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» للشيخ مصطفى صبري (ص١١٣) ـ تقدم الدكتور مصطفى حلمي.

(٣) «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ البنا.

(٤) «الإخوان المسلمون» لريتشارد ميتشل (ص٤٩٤) ـ ترجمة د. محمود أبو السعود، وتعليق الأستاذ صالح أبو رقيق.

امتداداً لها.

❑ وكتب الشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية الذي كان يصف نفسه بأنه «تلميذ حكيم الإسلام السيد رشيد رضا» خاتمة لكتاب السنة والشيعة قال فيها:

«رحم اللّه أستاذنا حكيم الإسلام السيد رشيد، وأسكنه فسيح جنّاته، فلقد بذل كل عناصر حياته في البحث والمعرفة، وقضى عمره في الصدع بما عرف من الحق، والحرب العنيفة لكل ما عرف من الباطل، ولو أنه وقف على ما وقفنا عليه، وعرف عن الشيعة من كتبهم ما عرفناه[1] لقال أكثر مما نقول، وأعلن بأشد مما نعلن من التحذير من القرب منهم، ومن تقريبهم، لكنه رحمه اللّه عرّفنا الطريق، وأناره لنا، ودفعنا إليه بكلتا يديه فسرنا على هذا في البحث والتمحيص، ونطقنا بلسانه في الحق نمحصه، ونجلوه من جميع جوانبه ونؤمن به، وندعوا إليه في صراحة وقوة».

❑ وقد ترجم الشيخ محمد بهجة البيطار علاّمة الشام لكتاب «الوحي المحمدي» للشيخ رشيد وأشاد بالكتاب ومؤلفه، وكان يصفه بالسيد الإمام.

❑ يقول الشيخ المراغي في مدح رشيد: «كان شديد الإحاطة بما في العصر الذي يعيش فيه، خبيراً بأحوال المسلمين في الأقطار الإسلامية، ملما بما في العالم من أصول جديدة، وبما يحدث من المعارك بين العلماء وأهل الأديان، فهو ممن أوتي الحكمة ورُزِق الخير الكثير»[2].

❑ وقال عنه الشيخ أحمد محمد شاكر: «أستاذنا السيد رشيد رضا ـ رحمه اللّه ـ».

---

(١) كان الشيخ رشيد يعلم الكثير والكثير عن الشيعة.

(٢) «رشيد رضا» للدكتور أحمد الشرباصي (ص١٨٤) ـ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر.

❑ وقال الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة: «أنا تلميذ السيد رشيد رضا واستفدت منه ما أشكر اللَّه عليه وأشكر أستاذي على ذلك وأترحّم عليه لأجله»[1].

❑ ويقول عنه محمد فؤاد عبدالباقي: «إنه مرشدي وأستاذي»[2].

❑ ويقول عنه محدث ديار الشام وحامل راية السلفية الشيخ الألباني ـ رحمه اللَّه ـ: «السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ له فضل كبير على العالم الإسلامي، بصورة عامة، وعلى السلفيين منهم بصورة خاصة، ويعود ذلك إلى كونه من الدعاة النادرين الذين نشروا المنهج السلفي في سائر أنحاء العالم بواسطة مجلته (المنار) وقد جاهد في سبيل ذلك جهاداً يُشكر عليه، ويرجى أن يكون أجره مدخراً عند ربه، وبالإضافة إلى كونه داعية إلى اتباع منهج السلف الصالح فيما كانوا عليه من عقيدة وفكر وسلوك، فقد كانت له عناية تشكر بالأحاديث الصحيحة والضعيفة، هذه الأحاديث التي لا يخفى على أي مسلم عنده شيء من الثقافة الإسلامية إنها هي السبيل الوحيد لفهم كتاب اللَّه تعالى فهما صحيحًا، حيث إن كثيراً من الآيات لا يمكن أن يُتوصل إلى فهمها إلا بطريق بيان السنة النبوية وقد نص اللَّه عز وجل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

فهذا وغيره من النصوص تؤكد للمسلم أنه لا سبيل إلى فهم القرآن إلا بطريق سنة الرسول ﷺ.

وقد كان للسيد محمد رشيد عناية بالغة بعلم الحديث بحدود مساعدة وضعه العلمي والاجتماعي والسياسي فكثيراً ما نبّه إلى ضعيف بعض الأحاديث من حيث إسنادها، عبر مجلته (المنار) التي أصبحت نواة

(١) «من ظلمات أبي رية» (ص٢٣٧) عن الاحتجاج بالأثر (ص٢٨٨).
(٢) «رشيد رضا» للشرباصي (ص٢٠٣).

طيبة، لفتت أنظار المسلمين للعناية بأحاديث الرسول ﷺ . . . فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذوي الفضل، فأجد نفسي بهذه المناسبة الطيبة مسجلاً هذه الكلمة ليطّلع عليها مَن بلغته، فإنني بفضل اللَّه عز وجل بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانيًا يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ عن طريق أعداد مجلته المنار التي وقفت عليها أول اشتغالي بطلب العلم»[1].

---

(١) «حياة الألباني» لمحمد إبراهيم الشيباني (١/ ٤٦):

ولقد سرد الشيخ الألباني بعض ما انتقد به السيد رشيد رضا فذكر منها قضية الإيمان بالغيب، وأن الشيخ محمد عبده رغم تحرره وجهوده في تطوير الأزهر لم يكن كالسيد رشيد رضا من حيث الحرص على نهج السلف الصالح من عقيدة ومنهاج، وعلى الرغم من ذلك تأثر به رشيد رضا في مجال الإيمان بالغيب وضرب مثلاً على ذلك بالجن فقال: «ولعل من الأمثلة المشهورة في أنه كان ينقل عن محمد عبده تفسيره للجن المذكور في الكتاب والسنة بما يقرب الجن إلى العقل المادي المثقف ثقافة مادية، فادّعى أن الجن هي الميكروبات الخفية التي تؤثر في صحة الناس ونحو ذلك، ولا أذكر بأن أحدًا ردّ عليه مبيّنًا خطأه بأن هذا التأويل يشبه طريقة الباطنية والمعتزلة وغيرهم ممن انحرفوا عن الكتاب والسنة بسبب التأويل». ثم تابع الشيخ الألباني انتقاده للسيد رشيد في إنكار الأخير أحاديث خروج المهدي ونزول عيسى واعتذر له بأنه أراد أن يرد انحرافات وتأويلات القاديانية في ادعائهم مهدية ميرزا غلام أحمد القادياني وذلك بإنكار أو تشكيك في بعض الأحاديث التي يتعلّق بها فلا يبقى لهم حجة يدعى بها مدّع أنه عيسى أو مثيله أو المهدي.

ثم قال الألباني ـ حفظه اللَّه ـ:

«لقد أصيب السيد رشيد رضا ـ رحمه اللَّه ـ بشيء من الاستعجال بإنكار أحاديث = صحيحة معروفة عند عامة المحدثين قديمًا وحديثًا وسلفًا وخلفًا وإن كان الباعث له باعثًا حسنًا، ولكن من المسلم به لدينا نحن معشر المسلمين أن الغاية لا تبرّر الوسيلة» ا.هـ.

* قال الشيخ خالد بن فوزي آل حمزة في كتابه «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» ص(٣٦٨): «وقد قال لي الشيخ محمد الصالح العثيمين علاّمة القصيم عن السيد

❑ وقال عنه الشيخ محمد رشاد غانم ـ وهو من الرواد الأول لجماعة أنصار السنة في الإسكندرية وقرين للشيخ العلامة عبدالرزاق عفيفي: أنه (أبو السلفية في مصر)[1] .

❑ وقال عبدالله الصديق الغماري: المحدث الحقيقي هو رشيد رضا[2] .

* مجلة المنار دعوة إلى الإصلاح:

❑ قال الشيخ رشيد رضا في مقدمة «التفسير» مبينًا سبب انشائه للمنار: «وأنشأت المنار دعوة إلى الإصلاح»[3] ، وفعلاً أعلنت المنار أهدافها في

= رشيد رضا أنه كان سلفيًا، وأنه لا يعرف أنه خرج عن مذهب السلف في المسائل التي كتب فيها»، والقول هذا محمول على الجملة، ولكنه على أي حال ـ شهادة من رجل مدقق كالشيخ ابن عثيمين، وأيّد هذا الشيخ الألباني محدث الشام إلا أنه خصّ سلفيته في العقيدة، وذكر لي أنه ربما انحرف في الحديث عن السلفية، ومثل لذلك بإنكار رشيد رضا بعض أحاديث الصحيحين.

(١) «الجماعات الإسلامية» في فكر رشيد رضا لخالد بن فوزي آل حمزة (ص٤٥) ـ مؤسسة قرطبة.

قال الشيخ خالد بن فوزي: «وقد عرضت هذا القول على شيخنا وشيخ مشائخنا العلامة عبدالرزاق عفيفي فأجابني بأنه «ليس على كل حال» وأنه في الجملة سلفي إلا أنه له شطحات، وأحالني على قصة آدم في تفسير المنار في سورة البقرة، وقرأتها عليه، وفيها ملحظ ومأخذ وإن كان السيد رشيد نقلها عن محمد عبده، وأشار إلى اختياره المخالف له في نهايتها، وانظر المنار «التفسير» (ص٢٨٠) وما بعدها الجزء الأول كما أكّد ذلك في مجلة المنار والأزهر وأن ما ورد فيها كان على طريقة أهل التأويل وأنه منها برئ (ص٥٤، ٥٥).

(٢) المصدر السابق (ص٤٦).

(٣) «تفسير المنار» للسيد رشيد رضا (١/ ١٢) ـ وقال ـ رحمه الله ـ على حديث: «إن للإسلام صوى ومناراً ـ» أي علامات وشرائع، وذكر أن ذلك دفعه لتسمية المجلة بالمنار، حيث قال: هذا وإننا قد اقتبسنا اسم المنار من الحديث الشريف تفاؤلاً بأن يكون مبينًا لصوى الإسلام، وناصبا لأعلامه، وموضعًا لنور الحقيقة التي نحتاج إليها في حياتنا العملية والاجتماعية ا.هـ. انظر «فتاوى الإمام رشيد رضا» (٢/ ٦٣٢).

العدد الأول وهي: نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وإقامة الحجة على أن الإسلام دين شامل، وكانت المنار كاسمها منارًا للعلم والإصلاح، وارتفع بها صوت الإصلاح في زمن طويل يمتد إلى وفاة الشيخ رشيد. وأقدم كثير من العلماء والأفراد والجمعيات على مراسلة المنار مشيدين بها.

وانطلق صوت الحق من المنار، فجاء منه التحذير من البدع والخرافات السائدة في المجتمع، وبيّن السيد رشيد أن الإسلام بريء منها، وحمّل العلماء مسئولية انتشارها ووجوب قلعها من جذورها، وبيّن أن العلماء والحكام بمنزلة العقل المدبّر والروح المفكر من الإنسان، وأن صلاح حالهما يصلح حال الأمة، وأن العلماء هم القائمون على الطب الروحاني الذي هو تهذيب الأخلاق، وتقويم العادات، وبيّن لهم الطريق إلى ذلك بأنها طريقة الوعظ والتعليم والخطابة على المنابر، وفي أماكن البدع نفسها، وتحمل المشاق المترتبة على ذلك مع تحلّي الدعاة بالأخلاق الفاضلة، والآداب الإسلامية السامية[1].

* الإصلاح في ميدان الفكر والتعليم:

أ ـ المدارس:

نادى السيد رشيد بالإصلاح في مجال التربية والتعليم، فحذّر الراغبين في إصلاحه من تقليد المدارس الحكومية السائدة التي تهدف من تلك المدارس إلى إعداد تلاميذها للوظائف، و«من يرمي بتعليمه إلى هذا الغرض فهو خاسر... وأجدر بتعليم هذا شأنه أن يُسعى في إزالته»[2].

وبيّن رشيد الفنون التي يجب إدخالها لمسايرة ركب العلم والعرفان،

(١) «المدرسة العقلية الحديثة وموقفها من التفسير» لفهد الرومي (١/ ١٧٨) ـ طبع الرياض.
(٢) «رشيد رضا» لإبراهيم العدوي (ص١٧٧ ـ ١٧٨).

وأصبح المرجع في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة.

والعلوم التي أوصى بها هي: علم أصول الدين، وتهذيب الأخلاق، وفقه الحلال والحرام، وتقويم البلدان والتاريخ، والاقتصاد، وتدبير المنزل، والحساب، والصحة، وعلم لغة البلاد.

ب ـ إصلاح الأزهر:

نادى السيد رشيد بالتحرر من ربقة التقليد، ونصح الأزهر أن يأخذ طريقه في الإصلاح، ولا يكون عقبة في مساره.

ومما نادى به لإصلاح الأزهر، بل لإصلاح أحوال العالم الإسلامي كله، هي محاولة تغيير طريقة تدريس الفقه واستمداده، وتحديث مصادر جديدة تصفي القديم مما علق به قال ـ رحمه اللَّه ـ:

«وإنما غرضنا أن نبين أن يُسر الشريعة، وحكمة التشريع، وكون الاجتهاد رحمة للأمة إنما يُعرف من مجموع كلام المجتهدين، ويفوت من قصر نظره على مذهب واحد من مذاهبهم، وأن طلاب الإصلاح للأمة الإسلامية ما زالوا يقترحون تأليف جمعية من علماء المذاهب المتبعة كلها، تضع للأمة كتبًا في العبادات والمعاملات، تُؤخذ من نصوص الكتاب والسنة، ومن اجتهاد جميع المجتهدين، يُراعَى فيها اليسر ورفع الحرج، ودرء المفاسد، ومراعاة المصالح، ومراعاة العرف، وغير ذلك من القواعد العامة. وهذا الكتاب ـ يعني «المغني مع الشرح الكبير» من أعظم الوسائل لذلك، . . . ونسأله تعالى أن يعيد لهذه الأمة وحدتها وهدايتها، ولن يصلح آخرها إلا بما صلح به أولها»[1] اهـ.

---

(١) «اختلاف الأمة» لرشيد رضا ـ طبع المنار.

* الخصومة بينه وبين أعداء الوهّابية والخرافيين:

نشط الشيخ رشيد في نشر عقائد السلف، وتبيين حقيقة الدين ولا سيما في توحيد العبادة، وكان الشرك قد غلب في عصره على كثير من الناس في مصر وغيرها، وصار التمسح بالقبور مع طلب الحاجات من المقبورين هو الدين، وما خالفه هو الشرك، وصار المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، فثار السيد رشيد على هذه الأوضاع المتردية، وجرّد قلمه ولسانه ضد المبتدعة من الصوفية، ولم يقنع لأجل وحدة الكلمة بالسكوت؛ لأن الأساس «كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة».

ولما كانت هذه المظاهر الوثنية يستفيد منها شيوخ، وكان لكلام السيد رشيد وأمثاله أثر شديد في سحب البساط من تحتهم، كان لابد لهؤلاء أن يثوروا في وجه الشيخ رشيد معلنين الحرب عليه، وحمل لواء هذه الحرب الشيخ يوسف الدجوي شيخ الأزهر وكانت سلسلة مقالات للشيخ رشيد جمعها فيما بعد في كتاب أسماه «المنار والأزهر»، وأبانت هذه المقالات عن صلابة الشيخ رشيد في الحق، وقوة حجته وسعة علمه.

❑ قال الشيخ رشيد في كتابه «المنار والأزهر»:

«مقدمة تاريخية للرد على مجلة مشيخة الأزهر في تصدي «المنار» للإصلاح ومقاومة الشيوخ له...

إن هذا الكتاب والتخاصم بين مجلة المنار ومجلة مشيخة الأزهر هو تنازع في مسائل من كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، وطريق فهمها، ودفع ما يرد عليهما من الشبهات العصرية، وما عارضهما من شوائب البدع، فمن حق الأمة أن تعرفه وأن يكون لها حق الحكم فيه»[1].

(١) «المنار والأزهر» لرشيد رضا (ص٤٢).

وهذه المقالات هامة جداً.

وإن من أوضح الدلائل على صلابة الشيخ في مواجهة أهل البدع أنه كان لا يملّ من نقد المتصوفة وأهل البدع نقداً علمياً منصفاً، ويدلل على ما يقوله بأدلة واضحة من الكتاب والسنة وكان ـ رحمه اللَّه ـ خصماً شديداً للمتصوفة الذين أفسدوا الدنيا والدين.

وتكلم عن بدعهم ومعاصيهم ولا سيما في «الموالد» التي يكثر بها الخنا والفسوق[1] ، وفي موضع آخر[2] يذكر غلوّ الصوفية في كرامات أوليائهم الدجالية، ويعقد فصلاً طيباً عن أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان، وينقل من طبقات الشعراني حال الأقطاب الأربعة وأنه باستثناء الجيلاني لم يكن أحد منهم ينفع الناس بعلوم الشرع، وأن الدسوقي كان يكتب بألفاظ غير مفهومة... وكذلك كرامات ولي شيطاني يقرر ألوهية إبليس وذلك في الخطب لما قال في خطبته «وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام!!!» وأن «الشيخ علي وحيش كان قوّاداً للعاهرات بضمانه المغفرة لمن يفجر بهن بشفاعته ويأتي الحمير في الشارع».

وأن الشيخ شعبان المجذوب يقرأ قرآناً غير القرآن، وهو دائماً عريان ثم قال: «وأقول إذا كان الشعراني من أكبر علماء الأزهر ومؤلفيه يعدّ هذا المجنون من أولياء اللَّه ويترضّى عنه كلما ذكره وإن تكرّر ذكره في سطر واحد، وكان شيخه علي الخواص يتلقى عنه حل مشكلات المعارف الإلهية ويعتمد على كشفه فهل نكون مخطئين إذا قلنا: أن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين مجانين مثله»، ثم قال: «كان من فساد هذا التصوف الذي بثه الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وُجِد في المغرب الأقصى

(١) «تفسير المنار» (٢/ ٧٢ ـ ٧٦).
(٢) «تفسير المنار» (١١/ ٤١٥).

في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني صار له طريقة من أشهر الطرق... ثم تكلم وأفاض في فضح ضلالاته ومنكراته وأوراده المبتدعة، ثم تكلّم عن تقليد الباب والبهاء لغلاة الصوفية في دعوى الوحي والنبوة والألوهية، وختم القول بنقول من كتاب الفرقان لابن تيمية.

وما وجد الشيخ رشيد بابًا للرد على هؤلاء المبتدعة إلا فتحه ولا يقتصر الأمر عنده على ما كان خطيراً بل يمتد إلى أن يشمل إنكاره حتى ألفاظهم مثل الذكر بالإسم المفرد الذي يفعله الصوفية المرتاضون ومقلدتهم المرتزقون.

وقد بحث السيد رشيد في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣١] مشابهة الصوفية للنصارى في غلوّهم بشيوخهم ومتبوعيهم[1].

واشتد نكيره على أساطينهم كابن عربي وغيره من أصحاب الوحدة والاتحاد، وذكر أن شيخ الإسلام قد أجاد في الرد عليهم.

ويظهر من فتاوى الشيخ رشيد حرصه الشديد على جمع شمل الأمة ولكن لم يمنعه ذلك من بيان الحق في الأمور التي استُفتي فيها، وهذا المنهج هو الصحيح بخلاف من يرى عدم التعرض لمثل هذه المسائل ابتداءً لأنها تثير الفتنة كما زعموا، ولعمر اللّه كم هدم ادعاؤهم هذا صرحًا للحق، وكم غيّر وأضل قومًا بعد هدى كانوا عليه. وكلامه في ذلك سديد ظاهر الحق أبلجه.

❑ فـ «لا يمكن أن نقف صفًّا واحدًا في وجه أعداء الإسلام إلا إذا صلحت العقيدة من الشركيات والبدع والخرافات والإلحاد في أسماء اللّه وصفاته.

(١) انظر «تفسير المنار» (١٠/ ٤٢٥ ـ ٤٤٥).

(٢) انظر «تفسير المنار» (١٠/ ٢٨٧).

* قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والاعتصام بحبل اللَّه يعني الرجوع إلى الحق وترك الباطل، وإذا كانت المعاصي تخل بصف المسلمين أمام أعدائهم[١] . فكيف بالمعاصي الاعتقادية؟ إنه لا يبقى في وجه الأعداء إلا أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان كما قال النبي ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم على ذلك**»[٢] .

❑ وإذا أردت أن تعرف قدر الشيخ رشيد فانظر إلى كلامه عن البدع اللغوية والشرعية[٣] وجاء في كلامه: «فما ذُكِر في السؤال عن الزرقاني من أمثلة البدعة اللغوية صحيح، إلا جعله السلام خلف الأذان، والقرآن خلف الجنازة من المباحات نقلاً عن ابن عبدالسلام، فالأذان عبادة من شرائع الإسلام، ورد بألفاظ معدودة جرى عليها العمل في عصر النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، فلو جاز أن يزاد فيه سلام لجاز أن يزاد في غيره من الأذكار كسبحان اللَّه والحمد للَّه وبعض آيات القرآن، ومقتضى هذه أنه يجوز لكل أحد أن يُغيّر شعائر الإسلام بما استحسن من زيادة أو نقصان، ولم يقل بجواز هذا أحد من أئمة المسلمين المجتهدين، ولو جرى المسلمون على هذه البدعة فعلاً لما بقي شيء من شعائر الإسلام على ما جاءنا به الرسول ﷺ عن اللَّه تعالى، ولصرنا في أديان جديدة كل طائفة أو جماعة أو فرد فيها

---

(١) ومن ذلك ما عاتب اللَّه سبحانه بعضهم بقوله: ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ قال الشيخ سفر: وجود شرك الإرادة عند البعض مانع من الانتصار على الأعداء، فما ظنتا بما هو أعظم من ذلك وهو الشرك الأكبر.

(٢) «تنبيهات في الرد على الصابوني» للشيخ صالح الفوزان (ص٨٩ ـ ٩٠) طبع دار الإفتاء بالرياض.

(٣) «فتاوى الإمام محمد رشيد رضا» (٥/ ١٨٨٣ ـ ١٨٨٦).

يُخالف فيها سائر المسلمين. ولو جاز أن يُزاد في عبادة الأذان لجاز أن يُزاد في غيرها، كجعل الصلاة الثلاثية رباعية، والرباعية خماسية، وجعل الركوع في ركعة مرتين أو أكثر، والسجود ثلاثًا أو أكثر، وهلم جرا.

وهل يُوجد أحد شم رائحة العلم الديني والعقل يُجيز هذه الفوضى في دين اللَّه؟!!».

* كلامه على بدعة المولد:

وهذه البدعة شغل العبيديون الفاطميون والقرامطة والصوفية الناس بها زمنًا طويلاً وظنوها من القرب المعظمة، فتكلم فيها الشيخ رضا كلامًا هو اللؤلؤ المنظوم[1] إلى أن قال: «وإنما يصح قول الحافظ ابن حجر في كون حفلة المولد بدعة حسنة بشرط خلوّها من المساوئ والمعاصي المعتادة فيها إذا كان القائمون بها لا يعدونها من القرب الثابتة في الشرع، بحيث يكفر تاركها أو يأثم أو يعدّ مرتكبًا للكراهة الشرعية، فإن البدعة التي تعتريها الأحكام الخمسة ويُقال أن منها حسنة وسيئة هي البدع في العادات، وأما البدع في الدين فلا تكون إلا سيئة كما صرّح به المحققون وذكر ذلك الفقيه ابن حجر الهيثمي المكي في موضعين من الفتاوى الحديثية».

❑ وتكلم عن حديث شد الرحال ومخالفة المسلمين له[2].

* التوسل بالأنبياء والصالحين:

وللشيخ رشيد كلام رصين في هذا الباب، قال ـ رحمه الله ـ: «وجملة القول أن التوسل هو التقرب، وإنما يُتقرب إلى اللَّه تعالى بما شرعه على ألسنة رسله لا بأشخاصهم واتباع الصالحين في ذلك لا بذواتهم، وأن ذلك غير

(١) «فتاوى الإمام محمد رشيد رضا» (٥/ ٢١١١ ـ ٢١١٥).

(٢) «فتاوى الإمام محمد رشيد رضا» (٥/ ٢٠٥١ ـ ٢٠٥٢).

مشروع، ومنه ما هو شرك باللَّه، كدعاء غيره بما لا يدعى به غيره. . . ومنه ما هو ذريعة إلى الشرك، ومنه ما هو معصية. . .»[١] .

* رده على التقليد الأعمى وقوله في المذهبية:

❑ ما أجمل قول القائل:

ولكنــه دين أردت صلاحـــه . أحاذر أن تقضى عليه العمائم

هاجم بعض الشيوخ السيد رشيد رضا في تحرره من ربقة التقليد، واعترض عليه الكثيرون، ولما كان الحق الذي لا مرية فيه أنه لا يحق لأحد أن يقدم قولاً لأحد علماء الأمة أو غيرهم على قول اللَّه سبحانه وقول النبي ﷺ، لذا نجد الشيخ رشيد ينبري للرد على المقولة الساقطة بوجوب التقليد لكل أحد[٢]، وهذا صحيح في حق من ليس أهلاً لمعرفة الدليل وهو من العوام الذي لا يعرفون الأدلة ولا يميزيون بينها.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«وأما سؤال المعترض هل نطلق الحرية للآراء والأفكار في الأخذ من الكتاب والسنة أم نعملهم على رأى واحد، وإيراد على كل واحد من طرفي الترديد ما أورده، فإننا نجيب عنه بما ليس في حسبانه فنقول: لا شك أن الكلام في المسائل الخلافية، وقد كان السلف من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين يطلقون الحرية في المسائل الاجتهادية لكل أحد في المسائل العلمية المتعلقة بالشخص لا بالحكومة وكانوا لا يرون ذلك موجبًا للخلاف والتفريق

---

(١) انظر «الفتوى في فتاوى الإمام رشيد رضا» (٥/ ١٨٦١ ـ ١٨٦٣)، وانظر «تفسير المنار» (٦/ ٣٧١) عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

(٢) انظر الفتوى في «فتاوى الإمام رشيد رضا» (١/ ٣٧٨).

ولا للتنازع والتقاطع كما حدث بعد التزام المذاهب والتعصب لها بل كان كل يعذر الآخر فيما خالفه فيه. . .» إلى أن قال: «وأما قوله: أنه يعلم قطعًا أن اتباع الأئمة الأربعة كانوا كذا وكذا فنقول فيه: «أن المنقول عن الأئمة وأصحابهم تحريم التقليد ومنعه ووجوب الأخذ بالكتاب والسنة وستجد طائفة من هذه النقول عنهم في كتاب محاورات المصلح والمقلد، ولكن لم يتبعهم في هذا كل من انتمى إليهم لا سيما في هذه الأزمنة المتأخرة، فإن كلام الأئمة الأولين صار مجهولاً حتى للمنقطعين إلى العلم، والأستاذ الإمام يسعى في إحياء كتبهم وهو رئيس جمعية أُلفت لهذا الغرض. وأما العوام فأكثرهم لا يعرف الآن من الدين إلا بعض مسائل الخلاف بين المذهب الذي يدعيه والمذهب المنشر في بلده كانتشار مذهب المدّعى. ثم إن أكثرهم لا يعلمون إلا القليل مما يعلمون من مسائل الخلاف والوفاق. والمعترض وأمثاله لا يخافون من هذا الضياع للدين ولكنهم يخافون من الدعوة إلى الكتاب والسنة، والاهتداء بها بحجة الخوف على المذاهب التي لم يبق منها إلا الجدل فيما بقي من دروس المقلدين. . .» ا.هـ.

*** مع الشيعة:**

حاول الشيخ رشيد أن يأخذ بيد مريضهم وينتشله من أحوال التشيع إلى نور السنة، وظهرت أباطيل الشيعة مانعًا دون هذه الغاية بعد أن دعاهم إلى التجرد للحق ولم يسكت على أباطيلهم بحجة تجميع الكلمة بل صدع بالحق في وجوه هؤلاء.

يقول: «فهل يريد المستنكر من إخواننا أن نسكت لهؤلاء على هذا الطعن، فيكون سكوتنا حجة على أهل السنة كافة، ومعصية يأثمون بها كلهم، ولا يزيد الشيعة إلا يقينًا بضلالهم وبعدًا عن الاتفاق معهم؟!»[1].

(١) «السنة والشيعة» للشيخ محمد رشيد رضا (٢/ ١١٦).

لم يسكت الشيخ رشيد على منكر عند الشيعة أو شرك يراه، وما كان ينتهي من رد إلا رأى مقالات وكتبًا أخرى تحتاج إلى رد وإبطال، فلربما نشر رده عليهم وحده، وربما جمع إلى ذلك ما ألفه غيره، كما نشر رسالة الألوسي في الرد على العاملي كاملة، قال بعد تكالب أهل الضلال والزيغ من الشيعة عليه «وإنا قبل أن نتم الرد على ذلك الكتاب اطلعنا على كتاب آخر لأحد كبرائهم العاملين (هو الشيخ الكبير السيد عبدالحسين الشهيد).

جعله الكلمة الأولى، من ثلاث كلمات رافضية شعوبية، هي كما يظهر من أولها ـ أضرّ على دين الإسلام والأمة العربية من دعاة الثالوث الهندوسي وثالوث النصرانية. وأما المؤلف فإنه لم يراع قاعدة مذهبهم في التقية، أو في مراعاة، بل صرّح فيها بتضليل أصحاب رسول اللَّه ﷺ من المهاجرين والأنصار، والطعن في دينهم وطاعتهم للَّه ورسوله ﷺ وجهادهم في سبيله، وبالطعن في حفّاظ السنة ومدونيها، وفي الأمة العربية برمتها من صدر الإسلام إلى اليوم أقبح الطعن وأكذبه وأصرحه؛ لأن عصبيته الرافضية سوّلت له أن الغلو الممقوت في علي رضي الله عنه وكرّم وجهه، لايتم إلا بذلك، فهو قد كشف قناع الرفض، بل ألقى رداء الحياء وإزاره، لا قناعه فحسب، حتى ظهر عريانًا بادي السوأتين، وأعمى العينين، ليس دونه شيء من ستار لقب الوهابية ولا من شفوف التقية»[1].

▣ فمناقشة أصول الشيعة ونقدها نقدًا علميًّا هو الكفيل بتصحيح الأوهام وتقويم الانحرافات ورد الصف إلى الالتئام والاجتماع على كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ الصحيحة، لا وحدة زائفة تخفي وراءها ضغينة وعداوة وتحريفًا للكلم عن مواضعه، وإحداثًا في شريعة اللَّه لم يأذن به اللَّه، وتظاهرًا بما لا ينطوي عليه القلوب.

(١) «السنة والشيعة» (٢/ ٥).

* خصومته مع المستشرقين:

اطلع الشيخ رشيد على السموم التي نشرها المستشرقون تارة بأسمائهم، وتارة بأبواقهم ممن استغفلوهم من أبناء المسلمين، وأصدر كتابه «الوحي المحمدي» ينافح بالحجة والمحجة ويرد على كثير مما أثاروه، وراسلهم، وكان حريصًا على أن يُبلّغ هؤلاء دعوة صحيحة عن الإسلام رجاء أن يدخلوا في دين اللَّه.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ تحت عنوان «بلوغ الدعوة لأحرار الإفرنج والمستشرقين منهم»:

«لن يكون بلوغ الدعوة صحيحًا موجزًا إلا بوصولها إلى الأحرار مستقلي الفكر من هذه الشعوب بلغاتهم، وأكثر أفراد المستشرقين الذين تعلموا العربية ليسوا من هؤلاء الأحرار المستقلين المنصفين، فإنهم ما درسوا العربية ولا مارسوا كتب الإسلام ليعرفوا حقيقته، ويعرّفوا غيرهم بها، بل ليبحثوا عن عورات يتلمسونها فيها، لينفروا أقوامهم عنه بتصويرها لهم بالصور المشوهة التي ينكرونها، كما نرى فيما اطلعنا عليه من كتبهم، وفي معجمهم العلمي، الذي سمّوه بـ «دائرة المعارف الإسلامية»... وأما المستقلون منهم وهم الأقلون، فقد غلبتهم الأفكار المادية على عقولهم، فقضاياها عندهم مُسَلّمات، كأنها لا مجال للبحث فيها، وقد قرّبنا مسافة الخلاف بيننا وبينهم بما أقمناه في هذا الكتاب من البينات العلمية القطعية على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون من كلام محمد ﷺ ..» إلى أن قال: «ولعل كتاب «الوحي المحمدي» قد وصل إلى جميع هؤلاء المستشرقين الذين يعرفون العربية، فإنني أهديته إلى من عرفت عناوينهم، وأرسله غيري إلى أناس منهم...»[1].

(١) مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب «الوحي المحمدي» للشيخ رشيد رضا.

* الخصومة مع النصارى:

رغم أن الشيخ رشيد كان لين الجانب مع النصارى، إلاّ أن هذا اللين كان في المعاملة، أما إذا اقترب الأمر من الدين والعقيدة، فهو لا يبالي أكان كلامه مقبولاً عندهم أوْ لا، وقد وضع كتابه «شبهات النصارى وحجج الإسلام» ويتضمّن ست عشرة مقالة نشرت في المجلدين الرابع والخامس من المنار وفيها المقابلة بين الإسلام والنصرانية، وتحقيق كون النصرانية من الوثنية، . . .

❑ وألّف أيضًا كتاب «المسلمون والقبط» فيه كما يقول الشرباصي: «فيض من الشواهد على غيرته الدينية وعدم التساهل مع غير المسلمين فيما هو من حقوق الإسلام»[1] .

فهو يقول فيه مثلاً: «فكل ما ناله القبط من الوظائف الكثيرة فهي فضل وإحسان من أمير مصر المتساهل»[2] .

وقد ذهب الشيخ رشيد إلى النصارى وناقشهم بالحجة واللسان كما ذكر ذلك في «تفسير المنار» (٦/ ٢٥).

❑ وقد أصدر السيد رشيد رضا إنجيل برنابا وطبعه، وهذا الإنجيل كان النصارى قد أخفوه وحرّموا مطالعته، ففوجئوا بالسيد رشيد يطبعه في المنار معلقًا عليه، وذلك لأن هذا الإنجيل فيه توحيد الرب وبشرية عيسى، ولا يوجد فيه ما يوجد في أناجيلهم الأربعة الأخرى.

* خصومته مع الماسونية وتحريمه الدخول فيها:

❑ مع علم الشيخ رشيد رضا أن الأفغاني ومحمد عبده دخلا في

(١) «رشيد رضا» للشرباصي (ص١٨٧).
(٢) «المسلمون والقبط» لرشيد رضا (ص٣٧).

الماسونية إلا أنه خالفهما في ذلك أشد المخالفة يقول ـ رحمه اللَّه ـ عن الماسونية: «لم يكن لها ثمرة إلا إعداد النفوس لفصل السياسة والحكومة عن الدين، والاستغناء عن الشرع بالقوانين، والمؤاخاة بين المسلمين وغيرهم وموالاتهم لهم»[١].

كان الشيخ رشيد يرى أن الماسونية جميعة سياسية لإزالة استبداد الملوك وسلطة البابوات، وأن الواضع لأساسها الأول هم اليهود وغرضهم إعادة ملك سليمان، ويرى أن الماسون هم السبب في هدم الحكومة التركية الإسلامية.

ولذا منع من الدخول فيها؛ وذلك لأنه بعد ذكره لحقيقتها وغرضها قال لسائليه: «إذا قد عرفتم حقيقتها وغرضها فقد عرفتم حكم الدخول فيها»[٢].

*** محاربته للفساد السياسي عند بعض الولاة العثمانيين:**

الثابت أن الشيخ محمد رشيد رضا كان يهاجم أمورًا من الفساد والانحطاط في سياسة بعض الولاة العثمانيين... وهذا لا يعني مطلقًا أنه كان يسعى لاسقاط الخلافة العثمانية.

كيف يُقال هذا عنه وهو يقول عن المستعمرين: «إنهم يبثون في البلاد العربية فكره الاستقلال العربي مخادعة للعرب، ليساعدوهم على الانفصال من جسم الدولة العلية، وماذا تريد أوربا بعد ذلك؟، تريد أن تضع البلاد العربية تحت حمايتها، أو تضمها إلى معسكراتها، وتقطع عليها طريق الاستقلال باسم الاستقلال»[٣].

---

(١) «فتاوى السيد رشيد رضا» (٣/ ١١٢٢).

(٢) «فتاوى السيد رشيد رضا» (ص٩٧٧، ص١١٢١، ص٢٠٦٢).

(٣) «رشيد رضا» للشرباصي (ص٣١).

* **تحذيره من التدخل الأجنبي في بلاد المسلمين، ووقوفه ضد المستعمرين:**

والثابت أيضًا أن الشيخ رشيد كان يقاوم التدخل الأجنبي في البلاد الإسلامية بكل قواه، ويحذر منه.

فحينما احتلت إيطاليا طرابلس الغرب، كتب عشر مقالات بعنوان «المسألة الشرقية» حذّر فيها من الخطر الذي يُحدق بالعالمين الإسلامي والعربي حتى اضطر وكلاء الدولة الأوربية في مصر إلى الالتجاء إلى المعتمد البريطاني في مصر ليوقف هذه المقالات ويحول دون انتشارها بين الأمة العربية[١].

❑ أما الاستعمار الفرنسي فحاربه السيد رشيد وهاجم سياسته الرامية إلى تنصير المسلمين ونقد الأزهر في عدم إصداره احتجاجًا على فرنسا بهذا المعنى[٢].

❑ وأما موقفه من بريطانيا والإنجليز فأشهر من أن يُوضّح ويحقق، فإن كتبه ومقالاته طافحة بذكر عيوبهم والتحذير من تدخلهم في شئون المسلمين، ولما نشبت الحرب العالمية حاول الإنجليز استمالته إليهم، ولمّا لم يروا منه ذلك صار تحت مراقبتهم[٣].

❑ وقد هاجم الإنجليز في معرض هجومه الشديد على سياسة الأمراء حسين وفيصل وعبدالله، وانتقاده لسياستهم في الحجاز قبل استيلاء الملك عبدالعزيز عليه، فمن ذلك قوله متهكمًا: «يظهر أن مدير التيمس، ومراسل التيمس بمصر، وأمثالهما لا يزالون يظنون كما يظن رجال وزارة الخارجية البريطانية، أن المسلمين لا يزالون يصدقون كل ما يقول الإنجليز، بدليل أن بعض أهل فلسطين وسورية والعراق لا يزالون يعظمون حسينًا وفيصلاً

(١) «رشيد رضا» للدكتور أحمد العدوي (ص٢٣٦).
(٢) «المنار والأزهر» لرشيد رضا (ص١٤).
(٣) «رشيد رضا» للعدوي (ص٢٤٣).

وعبدالله مع ظهور خيانتهم للأمة العربية، وخيانتهم للدين الإسلامي»[١] .

❑ وندّد بالكتاب الذين يخدمون السياسة الإنكليزية[٢] .

❑ وكثير ما حذّر المسلمين من مخططات الإنكليز وفضح أساليبهم، ووصفهم بأنهم أعداء الخلافة الإسلامية والعرب معًا، وأنهم الذين يحاربون دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ويساعدون خصومهم بالمال والعتاد، ويذكر موانع انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بأنها الدولة العثمانية، ومحمد علي باشا، ودولة الدسائس الشيطانية ويقصد بها بريطانيا[٣] .

❑ وكانت له ـ رحمه الله ـ مشاركة حميدة في محاربة الصهيونية، والحيلولة دونهم للاستيلاء على فلسطين، وكتب سلسلة من المقالات عن ثورة فلسطين أسبابها ونتائجها، وحقائق في بيان حال اليهود والإنجليز والعرب.

❑ ولقد رحل إلى الأستانة عام ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ) لإزاله سوء التفاهم بين العرب والأتراك.

* خصومته مع جمعية الاتحاد والترقي:

❑ ثار الشيخ رشيد على جمعية الاتحاد والترقي التي خلعت السلطان عبدالحميد، ووصفها بأنها جمعية الأحمرين الدم والذهب. وقد ذكر شكيب أرسلان أن السيد رشيد لما انضم لأعداء الدولة العثمانية قبل الحرب الكبرى كان غرضه إسقاط جمعية الاتحاد والترقي، ولم يكن يريد زوال الدولة العثمانية. انظر (ص١٩٧) من ترجمة الأمير شكيب أرسلان للسيد رشيد.

❑ ووصف الشيخ رشيد مصطفى كمال أتاتورك بالإلحاد والمروق، بل

(١) «الوهابيون والحجاز» لرشيد رضا (ص٢٠).
(٢) المصدر السابق (ص٤٩).
(٣) مجلة المنار (٢٦/ ٢٠٥).

قد وصف جميع أعضاء وزعماء حزب الاتحاد والترقي بذلك، وصفهم بأنهم «أوباش من الملاحدة المارقين قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بكيد يهود سلانيك...»اهـ. وكان هذا في خطبته السياسية في منى لما حج «المنار» (١٦/١٥٩).

❑ وتأسف الشيخ رشيد على الخلافة، وأخذ يدعو بشدة إلى إعادة الخلافة الإسلامية، وألف في ذلك كتابة «الخلافة» أو «الإمامة العظمى»، ودعا إلى عقد مؤتمر للخلافة في مصر سنة ١٣٤٣هـ وتم انعقاده بلا نتيجة مشجعة.

*** الخصومة بينه وبين أتباع المدرسة العقلية الحديثة:**

❑ جاء السيد محمد رشيد رضا إلى مصر عام ١٣١٥هـ ـ وعمره ٣٢ سنة ـ وبدأ محمد عبده دروسه في التفسير عام ١٣١٧هـ ـ وعمر رشيد آنذاك ٣٤ سنة ـ، وتُوفي محمد عبده عام ١٣٢٣هـ ـ وعمر رشيد ٤٠ سنة ـ توفى الشيخ رشيد وله من العمر ٧٢ سنة عام ١٣٥٤هـ.

ولقد كتب الشيخ رشيد «المنار والأزهر» وله من العمر ٧٠ سنة أي بعد موت محمد عبده بـ ٢٨ سنة.

فالشيخ رشيد صحب محمد عبده وهو في سن ٣٢ سنة، وافترقا بموت محمد عبده ورشيد في الأربعين... معنى هذا أن الشيخ رشيد صاحب محمد عبده ثمان سنوات فقط منها ستة سنوات سمع منه فيها للتفسير.

❑ ومن جهة أخرى عاش السيد رشيد بعد موت الشيخ محمد عبده ثلاثين سنة، وهذه المدة كفيلة أن تُغيّر فكر الشخص وتحوله.

---

(١) «مجموع فتاوى رشيد رضا» (ص٨٧ ـ ٨٨).

(٢) «تفسير المنار» (١/١٦).

❑ ولقد صرّح الشيخ رشيد رضا بأنه قام بالدعوة الإصلاحية مستقلاً برأيه في كل شيء دون التلقين من محمد عبده، فيقول في ترجمة حياته:

«فإن بعض الناس كانوا يظنون أنني قد قمت بهذه الدعوة الإصلاحية في الإسلام بالتلقين من الشيخ محمد عبده، وأنني لم أكن ذا رأي مستقل فيها ولا عاملاً بوازع من نفسي، ويظن آخرون أني أنشأت المنار لأجل كسب الرزق، ولكن قرّاء المنار ولا سيما الأولين منهم كانوا يعلمون أن الأمر بخلاف ذلك من كل وجه، وأنني كنت مستقلاً برأيي في كل شيء»[1].

❑ واختلف منهجه كثيراً بعد موت الشيخ محمد عبده وصرّح هو بذلك فيقول: «هذا وإني لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه ـ رحمه اللّه ـ بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواءً كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها»[2].

وخالف أستاذه وسجل هذا في كتابه «المنار والأزهر» وكان يقول: «هذا قول محمدعبده وأنا أخالفه».

❑ ولقد تحول منهج السيد رشيد كلما امتد به العمر عن منهج محمد عبده والأفغاني وازداد سلفية، وترك كثيراً مما كان عليه يوم جاء إلى مصر في أول عهده في الطلب والإصلاح، وقد أدرك أتباع المدرسة العقلية من تلاميذ الشيخ محمد عبده تحوّله عن منهج شيخه، وجرت بينه وبينهم مناقشات حادة في الصحف، وكثيراً ما هاجموه وهاجموا آراءه الجديدة، ومن هؤلاء الأستاذ محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة المصرية، فقد فتح مجلته للهجوم على السيد رشيد، ويذكر الشيخ رشيد أن السبب في ذلك هو وقوفه ضد علي عبدالرازق وكتابه «الإسلام وأصول الحكم».

وهكذا وقف الشيخ رشيد طوداً شامخًا، وسداً منيعًا أمام أي انحراف عن النبع الصافي.

ولقد فنّد ونقد فيما نقد كتاب «الشعر الجاهلي» لطه حسين.

*** من تأثر برشيد رضا:**

لقد أثر الشيخ رشيد رضا في أكثر من جاء بعده من الأفراد والجماعات، كلها قد جعلت رشيد رضا إمامًا واستمدت منه الطريق، واستوحت من كتاباته ومقالاته هداها، وكان نبراسًا وشعلة هدى، ولقد صدع صاحب المنار ومناره بالحق على أكثر من ثلاثين سنة ينشر الفكر السلفي المتحرر من ربقة الجهل والضلال، وجاء صوته ومعوله يدق صروح التخلف مذعنًا ببدء دعوة جديدة مع داعية ومصلح عظيم.

تأثرت به جمعية أنصار السنة ومؤسسها الشيخ حامد الفقي أكبر الأثر، وأثر في كبار علمائها: أحمد شاكر، وعبدالرزاق حمزة، وتأثر به الشيخ الألباني ومدرسة السلفية أكبر الأثر، والشيخ تقي الدين الهلالي الداعية السلفي الكبير.

واعتبر الأستاذ البنا (الإخوان المسلمون) امتدادًا لدعوة رشيد رضا، ولم يتحرج مؤرخو الإخوان أن يسطروا ذلك في تاريخ الحركة بوضوح وصراحة، ولقد كان الأستاذ البنا على صلة وثيقة بالشيخ منذ كان طالبًا بدار العلوم، وكانت مجلة المنار ملتقاه بأكثر من التقى بهم من رجالات الحركة الإسلامية في ذلك العهد، واتخذت أكثر القرارات في مواجهة المؤامرات ضد الإسلام في هذه الدار، وقد ظل الأستاذ على اتصال بالشيخ بعد قيام دعوة الإخوان، وكان يستشيره في كثير من الأمور»[1].

(١) «الإخوان المسلمون» رؤية من الداخل للأستاذ محمود عبدالحليم (٢٤٦/١) طبع دار الدعوة بالإسكندرية، وكتاب «الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية=

فرحم اللَّه الشيخ الإمام رشيد رضا وأجزل له المثوبة جزاء ما قدّم لدينه وأمته.

الدين النصيحة وكلٌّ يُؤخذ من قوله ويرد

❑ للَّه در إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وما أطيب كلمته الكافية الشافية: «كل يُؤخذ من قوله ويُترك إلا صاحب هذا القبر» ـ يعني رسول اللَّه ﷺ ـ وقد وقع السيد رشيد رضا في أخطاء وشطحات نسأل اللَّه أن يغفرها لها بفضله ثم ببحر خير الرجل ولحجم علمه وجهاده منها:

❑ مدحه لكتابيْ قاسم أمين «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، ومنها لين جانب للنصارى في الأمور الاجتماعية، وصلته الوثيقة ببعضهم.

❑ ومنها قوله: بعدم وجود نص قطعي في أفضل الناس بعد النبي ﷺ.

❑ ومنها إنكاره للمهدي، وإنكاره لنزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان.

❑ ومنها إنكاره لانشقاق القمر، ومنها قوله في المعجزات: أنها تأتي تأييدًا لا حجة، وقوله في الربا، ومنها إباحته سماع الملاهي وزعمه بعدم ورود نص صريح في تحريمها ـ غفر اللَّه له.

* شيخ الإسلام عبدالرحمن المعلمي اليماني وأنواره الكاشفة لزلل عدو السنّة أبي ريّة، وتنكيله للكوثري القبوري شيخ الأباطيل:

❑ للَّه در شيخ الإسلام العلاّمة المحدث الفقية عبدالرحمن بن يحيى بن علي المعلمي العتمي اليماني (١٣١٣هـ ـ ١٣٨٦هـ) ولد ونشأ في بلاد عتمة،

= المصرية» (١٩٢٨ ـ ١٩٤٨) للدكتور زكريا سليمان بيومي.

وتعلّم فيها، وبعدد من بلاد اليمن، ثم أقام في عسير، وتولى رئاسة القضاء، ولُقّب لورعه ودينه وعلمه بشيخ الإسلام، ثم سافر إلى الهند، وأشرف على دائرة المعارف العثمانية، وأشرف على ما نشرت من الكتب العلمية. ثم أقام في مكة من سنة ١٣٧١هـ، وعيّن أمينًا لمكتبة الحرم المكي، وقد خدم المكتبة خدمة جلي، وكان على صلة طيبة برجال الإصلاح في العالم الإسلامي، ومات بعد صلاة الفجر بمكة المكرمة عام ١٣٨٦هـ ودفن بمكة ـ رحمه اللّه ـ.

❑ وللّه در القائل: «من لم يقر بأن أهل الحديث هم أنصار الدين فإنه يُعدّ في ضعفاء المساكين».

❑ وما أحلى قول من قال: «لولا أصحاب المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر».

لما سوّد عدو السنة الصفحات في كتابه «أضواء على السنة» وسار على خطأ المستشرقين وطعن في السادة علماء الإسلام انبرى للرد عليه فضيلة الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة مدير دار الحديث بمكة المكرمة في كتابه القيم «ظلمات أبي رية»، ثم أتى العالم الفذ الشيخ المعلمي اليماني بكتابه الفذّ «الأنوار الكاشفة لما في كتاب «أضواء على السنة» من الزلل والتضليل والمجازفة فقبرترهات عدو السنة أبي رية وألقمه حجراً بل جبلاً، وكشف دجله، وكيف أن علماء الأمة عنده هم النظام وثمامة ورؤوس البدعة وتطاوله على شيوخ الحديث وأئمة أهل السنة الذين نعتهم بأنهم «صدور الحشوية وشيوخ الجهل من زوامل الأسفار الذين يخشون على علمهم المزور من سطوة الحق ويخافون على كساد بضاعتهم العفنة التي يستأكلون بها أموال الناس بالباطل... وليس لمثل هؤلاء خطر عندنا ولا وزن في حسابنا»[1].

---

(١) «أضواء على السنة» لأبي رية (ص١٤)، و«الأنوار الكاشفة» لما في كتاب «أضواء على السنة» من الزلل والتضليل والمجازفة» للشيخ عبدالرحمن المعلمي (ص١٢) ـ المكتب الإسلامي.

✍ فرد اللَّه كيده في نحره على يد ليث السنة المعلمي.

❑ قال المعلمي ـ رحمه اللَّه ـ: «فإن أضرّ الناس على الإسلام والمسلمين هم المحامون الاستسلاميون، يطعن الأعداء في عقدة من عقائد الإسلام أو حكم من أحكامه ونحو ذلك، فلا يكون عند أولئك المحامين من الإيمان واليقين والعلم الراسخ بالدين والاستحقاق لعون اللَّه وتأييده ما يثبتهم على الحق، ويهديهم إلى دفع الشبهة، فيلجأون إلى الاستسلام بنظام، ونظام المتقدمين التحريف، ونظام المتوسطين زعم أن النصوص النقلية لا تفيد اليقين والمطلوب في أصول الدين اليقين، فعزلوا كتاب اللَّه وسنة رسوله عن أصول الدين. ونظام بعض العصريين التشذيب، وأبو رية يحاول استعمال الأنظمة الثلاثة ويوغل في الثالث. على أن أولئك الذين سميتهم محامين كثيراً ما يكونون هم الخصوم، والباطل جشع، وقد قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١][1].

❑ ولقد ردّ المعلمي على عدو السنة في تطاوله على الصحابة ﷺ ورميهم باعتقاد ما يخبر به أهل الكتاب صحيحًا لا ريب فيه، وفندّ ذلك ـ رحمه اللَّه. ثم رد على مكيدة مهوله يكاد بها الإسلام والسنة اخترعها بعض المستشرقين وتبناها أبو رية وارتكب لترويجها ما ارتكب واتهامه لعمر ﷺ بأسفل درجات الغفلة بأنه كان يستمع لكعب الأحبار، وأن كعبًا توسّع في الروايات الكاذبة، وأن الصحابة قبلوا من كعب ما يخبرهم به عن النبي ﷺ مما يُفسد دينهم!!! فحط على الفاروق والصحابة الذين فتحوا العالم ودبروا الدنيا.. حط عليهم بالباطل والزور والخيانة.

❑ ثم ردّ عليه في تكذيبه لحديث المعراج واستهزائه به وعدّه من

(١) «الأنوار الكاشفة» (ص٢٥).

الإسرائيليات ثم تكلم عن افترائه على الصحابة بنسبة الكذب إليهم فلعنة اللَّه عن من كذّبهم، ثم رد المعلمي على عدو السنة في رده لحديث شق الصدر واستهزاء أبي رية به، ثم تكذيبه لأبي هريرة وشسع نعل أبي هريرة أفضل منه ومن أمثاله، واحتجاج أبي رية بجلد سيهر.

❑ ثم رد على انتقاد أبي رية في ترجمة أبي هريرة نيفًا وثلاثين حديثًا ـ رد المعلمي ردًّا شافيًا أثلج صدور المؤمنين، وبين رد عدو السنة لأحاديث صحيحة ثابتة كحديث موسى وملك الموت، والأحاديث في شأن الدّجال، وحديث الحوض وحديث كشف الساق، وكلامه عن «صحيح البخاري».

❑ ثم رد عليه بذاءته على علماء الدين واطراءه للمستشرقين ويحشر المرء مع من أحب.

*** تنكيله بالكوثري وأباطيله:**

❑ يقول محدث ديار الشام الشيخ الألباني ـ رحمه اللَّه ـ في تقديمه لكتاب «التنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل»: «أما بعد، فإني أقدم اليوم إلى القرّاء الكرام كتاب «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» تأليف العلامة المحقق الشيخ عبدالرحمن بن يحيى بن علي اليماني ـ رحمه اللَّه، بيّن فيه بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة تجني الأستاذ الكوثري على أئمة الحديث ورواته، ورميه إياهم بالتجسيم والتشبيه، وطعنه عليهم بالهوى والعصبية المذهبية، حتى لقد تجاوز طعنه إلى بعض الصحابة، مصرّحًا بأن أبا حنيفة رغب عن أحاديثهم! وأن قياسه مقدم عليها! فضلاً عن غمزه بفضل الأئمة وعلمهم، فمالك مثلاً عنده ليس عربي النسب بل مولى! والشافعي كذلك، بل هو عنده غير فصيح في لغته، ولا متين في فقهه، والإمام أحمد غير فقيه عنده! وابنه عبداللَّه مجسم، ومثله الأئمة ابن خزيمة وعثمان بن سعيد الدارمي وابن أبي حاتم وغيرهم، والإمام الدارقطني عنده

أعمى ضال في المعتقد، متبع للهوى، والحاكم شيعي مختلط اختلاطًا فاحشًا!!! وهكذا لم يسلم من طعنه حتى مثل الحميدي، وصالح بن محمد الحافظ، وأبي زرعة .

ثم هو إلى طعنه هذا يضعف الثقات من الحفاظ والرواة، وينصب العداوة بينهم وبين أبي حنيفة لمجرد روايتهم عنه بعض الكلمات التي لا تروق لعصبية الكوثري وجموده المذهبي، وهو في سبيل ذلك لا يتورع أن يعتمد على مثل ابن النديم الوراق وغيره ممن لا يعتقد بعلمه في هذا الشأن.

وهو على النقيض من ذلك يوثق الضعفاء والكذابين إذا رووا ما يوافق هواه!

ومنه يتبيّن للناس ما كان خافيًا عليهم من حقيقة الكوثري، وأنه كان يجمع في نفسه بين صفتين متناقضتين: فهو في الفقهيات وعلم الكلام مقلد جامد، وفي التجريح والتعديل، والتوثيق والتضعيف، وتصحيح الحديث وتوهينه، ينحو منحى المجتهد المطلق، غير أنه لا يلتزم في ذلك قواعد أصولية، ولا منهجًا علميًّا! فهو مطلق عن كل قيد وشرط لذلك فهو يوثق من شاء من الرواة ولو أجمع أئمة الحديث على تكذيبه، ويضعف من شاء ممن أجمعوا على توثيقه، ويصرح بأنه لا يثق بالخطيب وأبي الشيخ ابن حبان ونحوهما، ويضعف من الحديث ما اتفقوا على تصحيحه، ولو كان مما خرجه الشيخان في «صحيحهما» ولا علة قادحة فيه. ويصحح ما يعلم كل عارف بهذا العلم أنه ضعيف بل موضوع مثل حديث «أبو حنيفة سراج أمتي»! إلى غير ذلك من الأمور التي ستتجلى للقارئ الكريم، مبرهنًا عليها من كلام الكوثري نفسه في هذا الكتاب العظيم بأسلوب علمي متين، لا وهن فيه، ولا خروج عن أدب المناظرة، وطريق المجادلة بالتي هي أحسن، بروح علمية عالية، وصبر على البحث والتحقيق كاد أن يبلغ الغاية، وإن لم أقل بلغها.

كل ذلك انتصارًا للحق، وقمعًا للباطل، لا تعصبًا للمشايخ والمذهب، فرحم اللَّه المؤلف وجزاه عن المسلمين خيرًا»[1] .

❑ يقول الشيخ عبدالرحمن المعلمي ـ رحمه اللَّه ـ: «فإني وقفت على كتاب «تأنيب الخطيب» للأستاذ العلامة محمد زاهد الكوثري، الذي تعقب ما ذكره الحافظ المحدث الخطيب البغدادي في ترجمة الإمام أبي حنيفة من «تاريخ بغداد» من الروايات عن الماضين في الغض من أبي حنيفة، فرأيت الأستاذ تعدّى ما يوافقه عليه أهل العلم من توقير أبي حنيفة وحسن الذب عنه ـ إلى ما لا يرضاه عالم متثبت من المغالطات المضادة للأمانة العلمية، ومن التخليط في القواعد، والطعن في أئمة السنة ونقلتها، حتى تناول بعض أفاضل الصحابة والتابعين والأئمة الثلاثة مالكًا والشافعي وأحمد وأضرابهم وكبار أئمة الحديث وثقات نقلته والرد لأحاديث صحيحة ثابتة، والعيب للعقيدة السلفية، فأساء في ذلك جدًّا حتى إلى الإمام أبي حنيفة نفسه، فإن من يزعم أنه لا يتأتى الدفاع عن أبي حنيفة إلا بمثل ذلك الصنيع فساء ما يثني عليه[1] ، فدعاني ذلك إلى تعقيب الأستاذ فيما تعدى فيه، فجمعت في ذلك كتابًا أسميته «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل»، ورتبته على أربعة أقسام:

القسم الأول: في تحرير القواعد التي خلط فيها.

الثاني: في تراجم الأئمة والرواة الذين طعن فيهم وهم نحو ثلثمائة فيهم أنس بن مالك ﷺ، وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام، والأئمة الثلاثة، وفيهم الخطيب، وأدرجت في ذلك تراجم أفراد مطعون فيهم حاول توثيقهم..

---

(١) في الطبعة الأولى «بمثل الطعن في هؤلاء الأكابر فقط فضح وأساء إلى من يريد الذب عنه بسوء صنيعه.

الثالث: في الفقهيات، وهي مسائل انتقدت على أبي حنيفة وأصحابه، حاول الأستاذ الانتصار لمذهبه.

الرابع: في الاعتقاديات ذكرت فيه الحجة الواضحة لصحة عقيدة أئمة الحديث إجمالاً. وعدة مسائل تعرض لها الأستاذ، ولم أقتصر على مقصود التعقب، بل حرصت على أن يكون الكتاب جامعًا لفوائد عزيزة في علوم السنة مما يعين على التبحر والتحقيق فيها.

وحرصت على توخي الحق والعدل، واجتناب ما كرهته للأستاذ، خلا أن إفراطه في إساءة القول في الأئمة جرّأني على أن أصرّح ببعض ما يقتضيه صنيعه»[1].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ في «القائد إلى تصحيح العقائد» وهو القسم الرابع من كتابه «التنكيل»:

«فإن صاحب كتاب «تأنيب الخطيب» تعرّض كتابه للطعن في عقيدة أهل الحديث ونبزهم بالمجسمة، والمشبهة، والحشوية، ورماهم بالجهل والبدعة، والزيغ والضلالة، وخاض في بعض المسائل الاعتقادية، كمسألة الكلام والإرجاء، فتجشّمت أن أتعقبه في هذا كما تعقّبته في غيره، راجيًا من اللَّه تبارك وتعالى أن يثبت قلبي على دينه، ويهديني لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، ويتغمدني بعفوه ورحمته، إنه لا حول ولا قوة إلا باللَّه»[2].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«هذه أمور ينبغي للإنسان أن يقدم التفكر فيها ويجعلها نصب عينيه:

١ ـ يفكر في شرف الحق وضعة الباطل، وذلك بأن يفكر في

(١) «التنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل» للشيخ عبدالرحمن المعلمي اليماني (ص١١ ـ ١٢) ـ دار الكتب السلفية.

(٢) «التنكيل» (ص١٨٨).

عظمة اللَّه عز وجل وأنه رب العالمين وأنه سبحانه يحب الحق ويكره الباطل، وأن من اتبع الحق استحق رضوان رب العالمين، فكان سبحانه وليه في الدنيا والآخرة، بأن يختار له كل ما يعلمه خيراً له وأفضل وأنفع وأكمل وأشرف وأرفع حتى يتوفاه راضيًا مرضيًّا، فيرفعه إليه، ويقربه لديه، ويحله في جواره مكرمًا منعمًا في النعيم المقيم والشرف الخالد، الذي لا تبلغ الأوهام عظمته، وأن من أخلد إلى الباطل استحق سخط رب العالمين وغضبه وعقابه، فإن آتاه شيئًا من نعيم الدنيا فإنما ذلك لهوانه عليه ليزيده بعدًا عنه، وليضاعف له عذاب الآخرة الأليم الخالد الذي لا تبلغ الأوهام شدته»[1].

ثم قال: «يسعى في التمييز بين معدن الحق ومعدن الشبهات، فإنه إذا تم له ذلك هان عليه الخطب؛ فإنه لا يأتيه من معدن الحق إلا الحق فلا يحتاج إن كان راغبًا في الحق قانعًا به إلى الإعراض عن شيء جاء من معدن الحق، ولا إلى أن يتعرض لشيء جاء من معدن الشبهات، لكن أهل الأهواء قد حاولوا التشبيه والتمويه، فالواجب على الراغب في الحق أن لا ينظر إلى ما يجيئه من معدن الحق من وراء زجاجاتهم الملونة، بل ينظر إليه كما كان ينظر إليه أهل الحق. واللَّه الموفق»[2] انتهى من «القائد إلى تصحيح العقائد» الذي قال فيه الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة أنه: «كتاب من أجود ما كُتب في بابه».. قرأت الكتاب فأُعجبت به أيّما إعجاب لصبر العلاّمة على معاناة مطالعة نظريات المتكلمين خصوصًا من جاء منهم بعد من ناقشهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم كالعضد والسعد، ثم رده عليهم بالأسلوب الفطري والنقول الشرعية التي يؤمن بها كل من لم تفسد عقليته بخيالات الفلاسفة المتكلمين، فسدّ بذلك فراغًا كان على كل سُني سلفي سدّه

(١) المصدر السابق (ص٢٠٥).
(٢) المصدر السابق (ص٢١٧).

بعد شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم ـ رحمهما اللَّه تعالى، وأدّى عنا دينًا كنا مطالبين بقضائه، فجزاه اللَّه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وحشرنا وإياه في زمرة الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا»[1].

* الكوثري لا يرقب في علماء السلف إلاّ ولا ذمة، ويقع في ابن تيمية وتلاميذه بما هو وصمة عار في جبينه:

❑ للَّه در القائل:

ما ضرّ شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

❑ محمد زاهد الكوثري الحنفي الجركسي ألدّ أعداء السنة الذي يتأجج حقدًا وغيظًا وحنقًا على السلفيين وشيخهم ابن تيمية وتلاميذه، هو حامل لواء التجهم في العصر الحديث:

«ذكر الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد أن الكوثري نبز ابن القيم الجوزية بلقب «ابن زفيل» كذبًا ووضعًا فقال:

«وهو أمر غير بعيد على مخلوق يتأجج غيظًا وحنقًا على شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذ مدرسته السلفيين كابن قيم الجوزية، فإنه نسب نفسه، وكدّ قلمه وفكره في محاربة هذين الإمامين، وإثارة الشغب عليهما، ورميهما بالزندقة والكفر، والنفاق والضلال[2] وإذا سكن جأشه توسع في السباب واللعن وكيل القذائف مما لا يتصور خروجه إلي من رجل مقضيّ عليه في

---

(١) المصدر السابق (ص٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) قال العلامة بدر الدين العيني الحنفي ـ الذي يفضّله الكوثري على ابن حجر ـ: «فمن قال هو كافر فهو كافر حقيق، ومن نسبه إلى الزندقة فهو زنديق» «الرد الوافر» (ص٢٤٤).

دينه وعقله. وكتبه ورسائله شاهدة بذلك. . .»[١].

❑ قال الكوثري في كتابه «الإشفاق في مسألة الطلاق» (ص٨٩):

«إن كان ابن تيمية لا يزال يعدّ شيخ الإسلام فعلى الإسلام السلام»[٢].

❑ وقال أيضًا:

«والأغرب من هذا وذاك أن يرفع دعاة الإصلاح العصري عقيرتهم بالدعوة إلى تقلّد مذهب من يكون بهذه السخافة في بداهة العقول، والإعلان عنه وعن شيخه. . . أنهما أكبر مصلح تتطلبه حاجة العصر. فإن كان هذا هو الإصلاح فعلى الإسلام السلام»[٣].

هكذا سلّم الكوثري على إسلامه مرارًا، في مواضع أخرى من كتاباته، في عداوة شيخ الإسلام وتلميذه ابن قيم الجوزية ـ رحمهما اللّه تعالى.

❑ وقال أيضًا في «الإشفاق» (ص٨٦):

«ولو قلنا: لم يبل الإسلام في الأدوار الأخيرة بمن هو أضرّ من ابن تيمية في تفريق كلمة المسلمين لما كنا مبالغين في ذلك، وهو سهل متسامح مع اليهود والنصارى»[٤].

❑ وقال العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه اللّه تعالى ـ:

«. . . المدعو زاهد الكوثري، الذي كان ـ والحق يقال ـ على حظّ وافر من العلم بالحديث ورجاله، ولكنه ـ مع الأسف ـ كان علمه حجة عليه

---

(١) «ابن قيم الجوزية» (ص١٨).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٨ ـ مقدمة الألباني) المكتب الإسلامي ط. رابعة ١٣٩١هـ بيروت.

(٣) «تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري» لابن عساكر (ص٣٩٣ ـ تعليقًا) دار الكتاب العربي بيروت.

(٤) «شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٩ ـ مقدمة الألباني).

ووبالاً؛ لأنه لم يزدد به هدى ونوراً، لا في الفروع ولا في الأصول، فهو جهميّ معطّل، حنفيّ هالك في التعصب، شديد الطعن والتحامل على أهل الحديث قاطبة، المتقدّمين منهم والمتأخرين.

فهو في العقيدة يتّهمهُم بالتشبيه والتجسيم، ويلقّبهم... بالحشوية السخفاء. ويقول في كتاب «التوحيد» للإمام ابن خزيمة: «إنه كتاب الشرك» ويرمي نفس الإمام بأنه مجسّم جاهل بأصول الدين!

وفي الفقه يرميهم بالجمود، وقلة الفهم، وأنهم حملة أسفار!

وفي الحديث طعن في نحو ثلاثمائة من الرواة أكثرهم ثقات. وفيهم نحو تسعين حافظًا وجماعة من الأئمة الفقهاء، كمالك والشافعي وأحمد...

وهو إلى ذلك يضعّف من الحديث ما اتفقوا على تصحيحه... وعلى العكس من ذلك فهو يصحّح انتصاراً لعصبيته المذهبية ما يشهد كل عارف بهذا العلم أنه ضعيف بل موضوع، مثل حديث: «أبو حنيفة سراج أمتي»! إلى غير ذلك من الأمور التي لا مجال لسردها، وبسط القول فيها الآن.

وقد ردّ عليه وفصّل القول فيها بطريقة علمية سامية، وبحث منطقي نزيه العلامة عبدالرحمن المعلمي اليماني في كتابه «طليعة التنكيل» ثم في كتابه الفذّ العظيم «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل». فليراجعهما من شاء الوقوف على حقيقة ما ذكرنا، فإنه سيجد الأمر فوق ما وصفنا، واللّه المستعان»[1].

* عدوان الكوثري على الأئمة الأعلام:

إن الكلام في جانب الصحابة ﷺ يدلّ على خذلان فاعله. وهذا

(١) المصدر المذكور (٤٥ ـ ٤٦).

المتجرئ رمى أنس بن مالك رضي الله عنه خادم النبيّ ﷺ بالخرف والوهم؛ لأن روايته خالفت هواه. فنعوذ بالله من الخذلان.

وأما كلامه في الأئمة الأعلام، والنيل من كرامتهم لأجل الدفاع عن الحنفية فحدّث عنه ولا حرج»[1].

«فليس للشافعي عنده ميزة... سوى قرشية فيها خلاف، وليس لمالك مزيّة سوى سكنى المدينة في وقت لا فضل في سكناها، وليس لأحمد بن حنبل فضل سوى كثرة الحديث من غير تمحيص ولا غوص فهي قليلة الجدوى»[2].

«وهو لا يرى شيئًا غير أبي حنيفة، ولذلك لقّبه أحمد الغماري بقوله: «مجنون أبي حنيفة»[3].

وتجنّى على أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ فقال:

«ومن الغريب أن بعض من يعدّونه من أمراء المؤمنين في الحديث يتبجّح قائلاً: إني لم أخرج في كتابي عمن لا يرى أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، مع أنه أخرج عن غلاة الخوارج ونحوهم في كتابه، وهو يدري أن الحديث القائل بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص غير ثابت عند النقّاد. ولا التفات إلى المتساهلين، ممن لا يفرّقون بين الشمال واليمين»[4].

---

(١) راجع كشف مخاريه في العلماء الأعلام في «التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل» للعلامة عبدالرحمن يحيى المعلمي اليماني ـ رحمه الله تعالى ـ.

(٢) «المقابلة بين الهدى والضلال» للشيخ عبدالرزاق حمزة (ص٦٩).

(٣) ابن قيم الجوزية» للدكتور أبو زيد (ص٢١) نقلاً عن «بدع التفاسير» للغماري (ص١٨٠).

(٤) «تأنيب الخطيب» (ص٤٤ ـ ٤٥).

ووافق تلميذه الوفيّ عبدالفتاح أبو غدّة على هذا التجنّي أيضًا، مع موافقته على إجائه فقال:

«وبعد هذا البيان الشافي الذي أفاده شيخنا الكوثري ـ رحمه اللَّه تعالى ـ يتجلّى لك حسن ما قاله الإمام الأعظم أبو حنيفة ﷺ . . .»[1] .

* موافقة الشيخ عبدالفتاح أبي غدّة لشيخه الكوثري على عدوانه وردّ الشيخ بكر أبي زيد عليه:

قال الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد بعد ما نقل عدوانه على أئمة الحديث:

«وهكذا يتعالج بقرض الأعراض، والتمضض بالاعتراض، وسحب أذيال البغض على كل من ليس «حنفيًّا، أشعريًّا، صوفيًّا، قبوريًّا» مع مهارة بالغة في التقول، وتحريف النقول، والتصرف في نصوص المؤلفين، كما فعل في «الانتقاء» لابن عبدالبر، وتداركه القدسي إلى آخر ما هنالك من الصيال والتصاول، وأسباب الخذلان والتخاذل. ولم نره في شيء مما تقدم ندم على ما قدّم.

وفي كتابي «التنكيل» و«طليعته» للعلاّمة المعلمي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ من الردود الموثقة الأمينة من غير سرف ولا مخيلة، ما يكشف مخازي هذا المبتلي، وأنها ـ كما قال المعلمي في موضع من كتابه ـ أصبحت: «كضراطة عير في الفلا».

ومع هذا:

فهذا التلميذ الوفي لتلكم المشارب الكدرة، يزنه بميزان علماء السلف،

---

(١) «قواعد في علوم الحديث» للتهانوي (ص٢٣٨ ـ تعليق عبدالفتاح أبي غدّة).

مع ما رأته عينك الباصرة في هذه النماذج من فحش القول وقبحه، والتبرقع بالصفاقة والحماقة، وبثّ الريب، وتنزيل السباب والشتائم.

وهذا التلميذ لم نعلمه يتعقبه فيما كتب ولو مرة واحدة في دفع هذه الخبائث من صريح كذبه، أو عدوانه؟

وهذا التلميذ أثقل رسائله وتعليقاته بالنقل عنه بما يزيد عن مائة وعشرين مرة ـ بما يمثل مجموعة مجلدة مستقلة مستغفلاً لعباد اللّه، كأنه يصيح بها في واد لا ينبت إلا أغفالاً شربوا من تلك الأرض، من عمل جِلِّق[1].

كل هذا يسوقه بقلم الحفاوة والرضا. أليس هذا هو عين المساوقة في الاعتقاد والرضا؟

وهذا التلميذ صار من أجله «سَمَرِيًا» يجمع ما يحسبه ناهضًا لمشاربه الكدرة، وجلّ الاستدلالات منها كأحاديث السُّمّار، لا يهم السامر صدقًا كانت أم كذبًا، وعند التحقيق فالذي يسوقه: نصف ليس له، ونصف عليه. فبماذا يتسلى المفلسون؟.

والمسكين بقدر ما احترق في «الكوثري» تهالك في مشاربه.

لكن الشيخ ينشرها عن طريق الفظاظة والمجاهرة والسرف والمناكدة، لأنه في إقليم يسمح له بذلك. والتلميذ تحت وطأة الإقليم والعيش الرغيد ينشرها بكلمات يلفّ حبلها على غاربها عن طريق النقل المجرّد، وترك النص بلا تعليق ومسلك التشذيب لمدرسة أهل الحديث، بالشدّ على مسلك مدرسة الرأي في القديم والحديث.

---

(١) جِلِّق: بكسرتين وتشديد اللام ـ اسم لكورة الغوطة كلها. وقيل: قرية من قراها، وقيل: دمشق نفسها. «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» لصفي الدين البغدادي (١/ ٣٤٢) دار المعرفة. بيروت.

فهو في المحاماة عن شيخه وكيل جَلْد.

إنه بهذا الرضا الفضفاض، وهذه الحفاوة البالغة، وحال الرجل كما أشرت، وفوق ما وصفت في اتجاهاته العقدية والمذهبية، والتلميذ مثقّل بهذا العناء وحمله ونشره.

فإن حواشيه: «زاملة هذه المشارب» تحمل مخاطر عظيمة ـ على أصول الحديث ومصطلحه، مكدّرة صفوفها مائلة بها إلى مسار مدرسة معينة؟.

وهذا إخسار في الميزان، واللَّه تعالى يقول: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]، ولن يبلغ السارون في العصبية مأربهم، وإن أكل البغض قلوبهم. واللَّه من ورائهم محيط».

ثم حذّر الدكتور بكر بن عبداللَّه أبو زيد من العزو إلى كتابات هؤلاء، وقال:

«وبعد: فكيف يسوغ لعبد يتّبع الدليل، ويرفض التعطيل والتشبيه والتأويل وينابذ الإشراك والبدع في الدين أن يتكفكف في مهيع هذا: القذّيف، الشغّاب السبّاب الطعّان، والشتّام ضاربًا في مجاهل شبهاته ومشتبهاته، يحرث كتبه حرثًا، ويحييها قراءة وبحثًا، وينشر عصارتها في صفوف القراء والدارسين، رافعًا لها على كاهل الرضا والقبول، ناصبًا نفسه له ظهيرًا، ولها نصيرًا.

❑ وهي محل التزوّد والإمداد بأصول النقض لمدرسة السلف في نواقض أربعة:

١ ـ انتصابه للتقليد الأصم في عصبية سادرة.

٢ ـ وثبتُه إلى التمشعر غاليًا جافيًا.

٣ ـ انفلات وكاء عقيدته، في عجم دلائل توحيد اللَّه في عبادته إلى قبورية زائفة.

٤ ـ ثمّ انساب قلمه في التكفير والقذف للأبرياء، والتنقّص للأوفياء، لكل ناج من تلك المشارب الثلاثة.

❑ وهذه الأربع جرّت التلميذ إلى أربع:

١ ـ تنكر لعلماء السلف.

٢ ـ غلائل التقديس المصبغة.

٣ ـ احتضان المبتدعة.

٤ ـ الدنيّة بالدين.

فانظر كيف التقت حلقة البطان، إذ هما يرميان، عن قوس واحدة لغاية واحدة، فيقبل الأستاذ بأربع، ويدبر متابعه بثمان، منثورة في صدور الطلاّب، وأفئدتهم وأفكارهم. والقلوب ضعيفة، والشبه خطّافة، وليس في «الرّبع» حراك.

❑ قال أبو تمام:

مساوٍ لو قُسِمْنَ على الغواني ... لما أُمْهِرْنَ إلا بالطَّلاقِ[1]

* يكفي لإدانة التلميذ:

لا يستغرب صدور هذه الكلمات الإجرامية، وظهور هذه الضغائن المتأصلة ضد علماء الأمة الثقات من الكوثري لأنه كما قال الشاعر:

من يَهُنْ يسهل الهوانُ عليه ... ما لجرح بميّتٍ إيلام

ولكن الغريب انسياق «التلميذ» وراء مخازيه، واستدلاله بها على مراميه، وشحنه تعليقاته بغمزاته ولمزاته، ونسجه هالة من التبجيل حوله تمهيداً للإضلال بتقوّلاته، حتى يلقّبه بـ:

---

(١) «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» (٣٠ ـ ٣٥).

«أستاذ المحققين الحجة المحدث الفقيه الأصولي المتكلم النظّار المؤرخ النقّادة الإمام محمد زاهد الكوثري. . .»[1].

مجرد هذا التبجيل لهذا الحقود على الأئمة الأعلام يكفي لإدانة التلميذ فضلاً عن مخالفاته الأخرى في تعليقاته التي يمجّد فيها كل من يناوئ منهج أهل الحديث قديمًا وحديثًا. وهذا لا ينكره إلا مكابر.

وما الغي إلا أن تصاحب غاويًا ... وما الرشد إلا أن تصاحب من رشد
ولن يصحب الإنسان إلا نظيـره ... وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد

*** غضبة للحق:**

يعرف علامة الجزيرة الإمام الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز (المفتي العام للملكة العربية السعودية، والرئيس العام لإدارات البحوث الإسلامية والإفتاء والدعوة والإرشاد) بالورع البالغ، واللسان العفيف والقول النزيه، لا تكاد تسمع منه كلمة مشوبة بالشدة. وهو عالم متّبع هيّن لين سهل قريب. ولا أزكي على الله أحدًا.

إن هذا العالم الجليل ـ حفظه الله وتولاّه ـ لما اطلع على كتاب «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة» للعلامة الدكتور بكر بن عبدالله أبوزيد ـ حفظه الله ـ الذي يكشف عن بعض مخازي الكوثري وتلميذه ـ غضب غضبة للحق، ووجه رسالة إلى صاحب الكتاب تأييدًا له، وأداءً لأمانة الكلمة. فكتب ما نصه:

«من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

إلى حضرة الأخ المكرَّم صاحب الفضيلة العلاّمة الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد، وكيل وزارة العدل ـ لا زال مسدّدًا في أقواله وأعماله، نائلاً

(١) كلمة الإهداء في «الأجوبة الفاضلة» للكنوي.

من ربّه جزيل نواله، آمين.

سلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

أما بعد:

فقط اطلعت على الرسالة التي كتبتم بعنوان «براءة أهل السنّة من الوقيعة في علماء الأمة»، وفضحتم فيها المجرم الآثم محمد زاهد الكوثري بنقل ما كتبه من السبّ والشتم والقذف لأهل العلم والإيمان، واستطالته في أعراضهم، وانتقاده لكتبهم إلى آخر ما فاه به ذلك الأفّاك الأثيم ـ عليه من اللَّه ما يستحق ـ.

كما أوضحتم ـ أثابكم اللَّه ـ تعلّق تلميذه الشيخ عبدالفتاح أبو غدّة به، وولاءه له، وتبجّحه باستطالة شيخه المذكور في أعراض أهل العلم والتقى، ومشاركته له في الهمز واللمز.

وقد سبق أن نصحناه بالتبرؤ منه، وإعلان عدم موافقته له على ما صدر منه، وألححنا عليه في ذلك، ولكنه أصرّ على موالاته له، هداه اللَّه للرجوع إلى الحق، وكفى المسلمين شرّه وأمثاله.

وإنا لنشكركم على ما كتبتم في هذا الموضوع أن يجزيكم عن ذلك خير الجزاء، وأفضل المثوبة، لتنبيه إخوانكم إلى المواضع التي زلّت فيها قدم هذا المفتون ـ أعني محمد زاهد الكوثري ـ كما نسأله سبحانه أن يجعلنا وإياكم دعاة الهوى، وأنصار الحق، إنه خير مسئول، وأكرم مجيب.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته

الرئيس العام

لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الختم[1]

(١) مطبوع مع «براءة أهل السنة» (٣ ـ ٤) ط. ثانية في الرياض ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧م.

* امتيازات الكوثري:

تقدّم أن الكوثري سلّم على إسلامه عدة مرات في عداوة شيخ الإسلام الذي يعتبر نصيرًا لمذهب السلف. ومن ذهب في الحنق على أئمة الأمة وعلمائها هذا المذهب الردي، وتعصّب «لكل من يحسب أنه يتصل بدم جركسي»[١، ٢].

يمتاز الكوثري على غيره، في عداوة مذهب السلف الصالح، بأمور عديدة. ومن أهمها:

* الافتراء والكذب:

كان الكوثري «يرتجل الكذب ويغالط»، ونسب إلى بعض العلماء والرواة ما لا يوجد في الكتب، للتشكيك في رواياتهم، تحقيقًا لهدفه، وشفاءً لغيظه منهم. وإليكم بعض الأمثلة:

١ ـ افترى على الحفاظ «أبي محمد العسّال» أنه ضعّف «أبا الشيخ الأصبهاني»، بدون أن يذكر مصدرًا لهذا الكلام. فلما راجعه فضيلة الشيخ سليمان الصنيع (عضو مجلس الشورى، ومدير مكتبة الحرم المكي سابقًا) في داره بمصر، وسأله عن ذلك، فلم يحصل على نتيجة منه. فقال الشيخ الصنيع:

«ولو كان صادقًا فيما نسبه إلى «أبي أحمد العسّال» لأوضحه لي حين سؤالي له، والذي يظهر لي أن الرجل يرتجل الكذب ويغالط...»[٣].

---

(١) «الانتقاء» لابن عبدالبر (ص٣ ـ كلمة الناشر القدسي).

(٢) انظر إلى مقالة العلامة محب الدين الخطيب في مقاله «عدوان على علماء الإسلام يجب أن يكون له حد يقف عنده «المطبوع في مجلة الزهراء (٦/ ٤٣٣).

(٣) «طليعة التنكيل» للمعلمي (١/ ٣٤).

٢ ـ من كذبه وافترائه أنه نبز الإمام ابن قيم الجوزية بلقب «ابن زفيل» زاعمًا أن «زفيلاً» اسمًا لجدّه من قبل أمه. وأراد بنبزه هذا تحقيره على عادة العرب. كما قال المشركون في حق النبيّ ﷺ: «أمر أمر ابن أبي كبشة»، وهو جدّ النبيّ ﷺ من قبل أمه.

ولما سأله الشيخ أبو الفيض أحمد الغماري: «أين وجدت أن ذلك اسم لجدّ ابن القيم لأمّه فلم يجب بإيجاب»[1].

٣ ـ من افترائه واجترائه على الكذب أنه ذكر في «ذيول تذكرة الحفاظ» (ص١٨٥ ـ بتحقيقه) في ترجمة الشيخ المفيد شمس الدين محمد بن خليل المنصفي الحنبلي الحريري (ـ ٨٠٣هـ) بعض مخازيه ثم قال:

«وهذا الشيخ الحرّاني ـ يعني ابن تيمية ـ مع كونه ألّف في إبطال الحيل تراه، وأتباعه من أكبر المجترئين على تحليل المحرّم، وأنهم كانوا يتقاضون ممن وقع في مأزق من أمر النكاح والطلاق نحو خمسة دراهم، فيفتون له»[2].

* **الخيانـــة:**

اشتهر الكوثري بالخيانة في النقل عند أهل العلم الفضلاء. وهذا أمر مفروغ منه لا يحتاج إلى مراجعة.

❑ قال العلامة المعلمي:

ومن فواقره: تقطيع نصوص أئمة الجرح والتعديل، يختزل منها القطعة التي توافق غرضه، وقد يكون فيما يَدَعُه من النص ما يبيّن أن معنى ما

---

(١) «ابن قيم الجوزية» للدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد (١٨ ـ ١٩) سمّى الكوثري ردّ السبكي على ابن القيم «السيف الصقيل في الردّ على ابن زفيل» ونبزه بهذا اللقب سلامة العزامي الحلولي تبعًا للكوثري في كتاب «فرقان القرآن» (١٣٥، ١٣٧).

(٢) راجع «الرد الوافر» (ص٨٤ ـ تعليق زهير الشاويش).

يقتطعه غير المتبادرمنه عند انفراده. . .»[١] .

❑ وقال الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد:

«وقد فضح في هذا من أهل العلم، بل من أصدقائه وخاصته، منهم حسام الدين القدسي في مقدمة (الانتفاء في فضل الثلاثة الأئمة الفقهاء). ومنهم أحمد وعبدالله ابنا الصديق الغماري. وهو لا يرى شيئًا غير أبي حنيفة. ولذلك لقّبه أحمد الغماري في كتاب «بدع التفاسير» (ص١٨٠) بقوله: «مجنون أبي حنيفة»[٢] .

*** الغدر والخداع:**

من بلغ به الجنون إلى هذا المستوى المتدني كيف ينجو من الغدر والخداع؟!.

وقد غدر الكوثري، صاحب الفضل الكبير عليه حينما خالف بعض تعصابته الباردة ألا وهو «شيخ الإسلام مصطفى صبري» (آخر مشايخ الإسلام في الدولة العثمانية). فكيف بمن غيره[٣] .

أما خداعه السيد حسام الدين القدسي (ناشر كتبه وتعليقاته وحواشيه)، فأشهر من أن يذكر. ولمّا اطلع على «دخلة في علمه وعمله» أعلن براءته من تعليقاته الحاقدة على أئمة الإسلام قائلاً:

«خيفةً أن أشاركه في الإثم، إذ أنا سكتُّ عن جهله بعد علمه، سقتُ هذه الكلمة الموجزة معلنًا براءتي مما كان من هذا القبيل»[٤] .

---

(١) راجع الأمثلة على ذلك في «طليعة التنكيل» (ص٥١).

(٢) راجع «ابن قيم الجورية» (٢٠ ـ ٢١) مفصّلاً.

(٣) «المقابلة بين الهدى والضلال» (ص٨٦ ـ تعليقًا).

(٤) «الانتقاء» (ص٣ ـ مقدمة القدسي).

فحذارِ حذارِ من تعليقات الكوثري على الكتب، التي تغيّر التاريخ، وتشوّه الحقائق بكل خسّة ودسيسة.

* **الفجـور:**

فجور الكوثري مع خصومه، ووقوعه فيهم فحدّث عنه ولا حرج. وما تقدّم من مخازيه في هذا الأمر يكفي لمن يتعظ ويعتبر[١].

قال الدكتور بكر بن عبدالله أبو زيد:

«فالكوثري خصم ملدّ ليس لابن القيم فحسب، بل لكل من ليس حنفيًّا. ومن أراد كشف ذلك فلينظر كتاب «التنكيل» للمعلمي، وغيره من كتب العلماء، التي أبانت عن تحامله وطيشه وتجاسره على علماء السلف من الصحابة ﷺ فمن بعدهم...»[٢].

* **التمادي في الباطل:**

ما تقدّم من الشائنات كفى لمعرفة هذا الرجل، ومن حذا حذوه في عداوة علماء السلف عامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية خاصة. فكيف بالزوائد[٣] التي هي أشدّ خطرًا على دين الإنسان وعلمه»[٤] اهـ.

* * *

(١) ومن يريد الزيادة فليراجع «براءة أهل السنّة» للدكتور بكر بن عبدالله، يجد هنالك الخطوط العريضة لعواهنه وعواقبره ومخزيه.

(٢) «ابن قيم الجوزية» (ص٢٠).

(٣) مثل البدعة، واتباع الهوى، والحقد، والحسد، وغيرها من العظائم.

(٤) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» لصلاح الدين مقبول (٢/ ٥٢١ ـ ٥٣٥).

* الشيخ طاهر الجزائري رائد الإصلاح التعليمي في بلاد الشام في العصر الحديث (١٢٦٨هـ-١٣٣٨هـ) - (١٨٥٢ - ١٩٢٠م):

❑ قال عنه صاحبه الشيخ جمال الدين القاسمي: «هو الشيخ المفيد، والمرقي الوحيد»[١] .

❑ وقال الشيخ رشيد رضا «العلاّمتان الجزائري والقاسمي كانا سيَّين في سعة الاطلاع وحسن الاختيار، إلاّ أن الجزائري أكثر اطلاعًا على الكتب، وولوعًا بالاستقصاء والبحث، والقاسمي أشد تحريًا للإصلاح وعناية بما ينفع الناس»[٢] .

❑ وقال الشيخ القاسمي: «الشيخ طاهر أعجوبة في عصره في الذكاء، وفي التنقيب على الآثار العلمية، فهو شيخها في عصره بلا ريب، بل وفيما قبل عصره»[٣] .

❑ وقال ظافر القاسمي عنه وعن والده جمال الدين القاسمي: «من آيات اللّه على خلقه، وعاملاً كبيرًا في اليقظة الفكرية والإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي».

❑ قال عنه تلميذه محب الدين الخطيب وفي عنايته به بعد وفاة والده وهو صغير «ثم قيّض اللّه لهذا اليتيم الضعيف أستاذًا في أسمى مراتب الإنسانية، فأخذ بيده، وأحسن توجيهه في الطريق الذي هداه اللّه إليه في الحياة: الشيخ طاهر، فهو الإنسان الكامل، هو علامة الشرق والإمام الحكيم. . فهو أبوه الروحي بعد والده الراحل»[٤] .

---

(١) «جمال الدين القاسمي وعصره» لظافر جمال الدين القاسمي (ص٤٢٧).

(٢) المصدر السابق (ص٤٤١). (٣) المصدر السابق (ص٤٣٢).

(٤) «مذكرات محب الدين الخطيب» لمحب الدين الخطيب (ص٦ - ٧) ط١، (ص٩١) ط٢.

❑ وقال تلميذه الأستاذ محمد كرد علي أول رئيس لمجمع اللغة العربية في دمشق: «كان العامل الأكبر في توجيه إرادتي نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، والإقدام على التأليف والنشر، وإشرابي محبة الأجداد، والتناغي بآثارهم، والحرص على تراث حضارتهم، أستاذي الأكبر الشيخ طاهر الجزائري، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه»[١].

❑ وقال عنه تلميذه الشيخ محمد سعيد الباني: «وصفوة القول؛ إنه كان من أعظم أركان النهضة العلمية والحركة الفكرية في البلاد السورية خصوصًا دمشق»[٢].

❑ وكانت الصلة بينه وبين مجدد السلفية بالشام الشيخ عبدالرزاق البيطار أقوى الصلات. وكانت أقوى صلاته بصاحبه جمال الدين القاسمي، لما كانا يشتركان به من حس إصلاحي متوقد، ودفعا عربة التجديد الديني والفكري. واستفادا من مجلس الشيخ عبدالرزاق البيطار مجدد مذهب السلف في الشام، استفادا من علمه وعقيدته الأثرية، وهديه وأخلاقه المرضية.

❑ ولقد تربى الشيخ طاهر وتأثر بشيخه عبدالغني الغنيمي الميداني الذي كان «على جانب عظيم من التقوى والورع، يمثل صورة من السلف الصالح، فطبع الشيخ طاهرًا بطابعه، وأنشأه على أصح الأصول العلمية الدينية، وكانت دروسه صافية المشارب، يرمي فيها إلى الرجوع بالشريعة إلى أصولها، والأخذ من آدابها بلبابها، ومحاربة الخرافات التي استمرأتها طبقات المتأخرين، وإنقاذ الدين من المبتدعين والوضّاعين»[٣].

(١) «محاضرات عن محمد كرد علي» لشفيق جبري (ص٣٢، ٣٣) ـ مؤسسة الرسالة.
(٢) «تنوير البصائر في سيرة الشيخ طاهر» لمحمد سعيد الباني (ص٧٠) ـ الطبعة الأولى.
(٣) «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي (ص٩) ـ دار الفكر ـ دمشق.

❑ قال الشيخ محمد كرد علي عن أستاذه طاهر الجزائري: «سعى الشيخ حياته لنشل المسلمين من سقطتهم، ونشر العلوم القديمة والحديثة بين أبنائهم، ولولا ما قام به من التذرع بجميع ذرائع الإصلاح لتأخرت نهضة المسلمين في الشام أكثر من نصف قرن»[١] .

❑ وقال الأستاذ علي الطنطاوي: «كان من المؤلفين المكثرين، إنْ عُدّ المؤلفون المكثرون، وكان من أئمة المربين، إنْ ذُكِر المربّون، وكان من رؤوس المصلحين، ومن العلماء العاملين، وكان من الأركان الكبار في هذه النهضة التي نأوي اليوم إليها، ونتفيأ ظلالها، وننعم بخيراتها»[٢] .

❑ وقال الدكتور عدنان الخطيب: «إن تاريخ النهضة الحديثة في مصر والشام مرتبط أشد الارتباط بحياة ثلاثة من عظماء الرجال، تدين البلاد العربية لهم، كما تدين البلاد الإسلامية بإيقاد أول شعلة أيقظت العرب والمسلمين من سباتهم... هؤلاء الثلاثة هم: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وطاهر الجزائري»[٣] .

❑ وقال الدكتور مازن المبارك: «لقد كان الشيخ طاهر شعلة نشاط عربي وإسلامي، ثقافي وفكري وإصلاحي، وكان واحدًا من أكبر رواد النهضة أثرًا في بلاد الشام»[٤] .

❑ وقال الأستاذ سامي الكيالي:

«استطاع هذا المصلح أن يخلق مدرسة في دمشق تقول برأيه، وتسير

---

(١) «المذكرات» لمحمد كرد علي (٣/ ٦٤٣ ـ ٦٤٤) ـ مطبعة الترقي بدمشق.

(٢) «رجال من التاريخ» لعلي الطنطاوي (ص٣٨٠).

(٣) «الشيخ طاهر الجزائري» لعدنان الخطيب (ص١١٩). لم يكن الشيخ طاهر الجزائري وهو السلفي المنهج على منهج الأفغاني أو محمد عبده وسيأتي الحديث عنهما فيما بعد.

(٤) «الشيخ طاهر الجزائري» مقال لمازن المبارك.

وفق منهجه، وهي مدرسة ضمّت الكثير من الأعلام، والتي مهّدت لنهضة دمشق الفكرية والعلمية، وتلك النهضة التي تمتع بثمراتها أبناء هذا الجيل[١] .

❑ وقال الأستاذ نجاة قصاب حسن:

«والأهم في حياته أنه دائرة معارف كاملة تجمّعت في عقل إنسان واحد، فكان مطلعًا على سياسة، ومصلحًا حكيمًا، لم يدخر وسعًا في بث العلوم والمعارف، ومجتهدًا في الدين بما يوافق روح العصر.. ولا أرى أن معرفة أي من مثقفينا بتاريخ الثقافة في هذا القطر (السوري) تكتمل إن لم تبدأ من طاهر الجزائري وأمثاله من العلماء المصلحين»[٢] .

❑ وإذا كان العالم لا يمتاز عن غيره من العلماء إلا إذا تسلّح برؤية ومشروع، واستهدف في حياته أهدافًا لا يرى لحياته وأعماله قيمة إذا لم تخدمها وتسعى به إلى الوصول إليها، فإن الشيخ طاهر الجزائري ـ رحمه اللّه ـ كان يهدف من وراء كل جهده وأعماله ومؤلفاته إلى إنهاض الأمة الإسلامية من كبوتها الحضارية، وتسليحها بكل ما يلزمها، كي تستأنف دورها في رعاية أبنائها، وتوفير أسباب الترقي والتقدم لهم في جميع مجالات الحياة، ومن ثمّ القيام بدورها في قيادة العالم.

❑ كان للشيخ طاهر أثره العظيم في دفع الحركة الثقافية بدمشق، إذ أنه تولى أول أمره التعليم وشارك في تأسيس جمعية علمية اجتماعية مع بعض العلماء والوجهاء سُميت «الجمعية الخيرية» ثم التقى بالوالي مدحت باشا وأقنعه بضرورة إنشاء مدارس حكومية حديثة، واقترح عليه أن تتولى الجمعية المذكورة تنفيذ الخطة المرسومة، وعلى ذلك استطاع بمعونة بعض الشباب

(١) «الأدب العربي المعاصر في سورية» لسامي الكيالي (ص١٠٢) ـ طبع دار المعارف.
(٢) «طاهر الجزائري لنجاة قصاب حسن ـ جريدة الثورة السورية عدد ٨١٥٩ (١٨/١/١٩٩٠م).

تأسيس تسع مدارس اثنتان منها للإناث. ولما عُيِّن مفتشًا عامًّا لمعارف سورية بدأ جهودًا إضافية جبارة لإصلاح أساليب التعليم والدعوة لطلب العلم.

❑ وعمل إلى جانب ذلك على تأسيس دور عامة للكتب منها المكتبة الظاهرية بدمشق، وبذلك عرفت دمشق أول مكتبة عامة في تاريخها الحديث. وجمع لها الشيخ طاهر بتفويض من الحكومة ما تبقّى من المخطوطات الموقوفة في الجوامع والمدارس بعد أن كان قد سُرِق كثير منها أو تلف، ولقي في سبيل ذلك عنتا ومشقة حتى إنه هُدِّد بالقتل، ولم يقتصر دوره على تأسيس المكتبات العامة في دمشق وحدها، بل تعدّاها إلى غيرها من المدن مثل حماة، وحمص، وطرابلس وعهدت الحكومة العثمانية إليه وظيفة التفتيش على خزائن الكتب في ولاية سورية ومتصرفية القدس. وفي هذه الفترة ساعد الشيخ طاهر الشيخ راغب الخالدي في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس، وأعدّ لهذه المكتبة فهرسًا خاصًّا.

واستطاع إقناع الوالي مدحت باشا بضرورة تأسيس مدارس حكومية تدرس فيها العلوم بالعربية، وتعنى بتدريس آداب هذه اللغة.

❑ تحدّى الشيخ طاهر بمشاريعه هذه «النشاط التعليمي للإرساليات التبشيرية الأجنبية التي بدأت تتوالى على دمشق بدءًا من «إرسالية الآباء العازاريين» إلى دمشق سنة ١٧٥٥م والتي أسست مدرسة لها بعد عشرين سنة من وصولها»[1].

وأقنع ـ رحمه اللّه ـ رجال الحكومة العثمانية بأن مدارس الإرساليات الأجنبية كلها تدرس العربية وآدابها خلافًا لمدارس الحكومة العثمانية، فإذا طالت هذه الحال نشأ في المدارس الأجنبية جيل له تفكير خاص ومذاهب

(١) «الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث» لحازم زكريا محيي الدين (ص٣٤) ـ دار القلم بدمشق.

سياسية خاصة، فيجب مقاومة هذه النزعات بالطريقة التي يتبعها الأجانب.

❑ وجاب الشيخ طاهر القرى والمدن في سورية ولبنان، وفلسطين، ومصر، والحجاز، وتركية وفرنسا، مفتشا عن الكتب والمخطوطات، داعيًا إلى ما يؤمن به من قيم وأفكار تجديدية، محرّضًا الناس في كل مكان على افتتاح المدارس وتأسيس المكتبات العامة.

ولما التقى بوالي مصر عباس حلمي الثاني في ٧ صفر ١٣٢٨هـ أشار على الوالي، بتأسيس مدرسة للغة العربية تُقصد من كل جهة، كما أشار عليه بتأسيس دار للترجمة، وعمل مطبعة لطبع ما يُترجم، وجعل مصححين للترجمة.

* حلقة الشيخ طاهر الفكرية:

كان محور وهدف هذه الحلقة هو تعلم العلوم الحديثة، وتدارس التاريخ والتراث الإسلامي، واللغة العربية وآدابها، والدعوة إلى التمسك بمحاسن الأخلاق والقيم الإسلامية، والانفتاح على الغرب من خلال الأخذ بالصالح من مدنيته الحديثة، ونبذ كل ما لا ينسجم مع الشريعة والعقيدة الإسلامية، وكانت تدور في هذه الحلقة أحاديث ومحاورات عن الوسائل التي يجب الأخذ بها لرفع مستوى التعليم والتفكير عند المسلمين في الدولة العثمانية.

وكان من أهم روّاد هذه الحلقة التي ترأسها الشيخ طاهر الجزائري علماء مصلحون، وكتاب معروفون كالشيخ عبدالرزاق البيطار مجدد السلفية بالشام، والشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ سليم البخاري والشباب من أمثال: محمد كرد علي، ومحمد سعيد الباني، ومحب الدين الخطيب، والشيخ محمد علي مسلم، ورفيق العظم، وعبدالحميد الزهراوي، وسليم الجزائري.

كان ـ رحمه اللّه ـ يقول: «إن العلم أنشودة المتعلم أينما وجده تعلمه،

كما أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها»[١] .

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «تعلموا كل ما يتيسر لكم تعلمه، ولو لغة مالطة، فقد يجئ زمان تحتاجون إليها، وإياكم أن تقولوا: إنها لا تدخل في اختصاصنا، فالعلم كله نافع، والمرء يتعلم ما حسنت به الحياة»[٢] .

❑ وكان للشيخ رأى طيب في طريقة إصلاح الأمة والنهوض بها وذلك عن طريق التربية والتعليم بالتدرج فيقول:

«إن الإصلاح على اختلاف أنواعه لا بد أن يكون على سبيل التدرج، وفقًا لمقتضى السنن الطبيعية؛ لأن ما يأتي على جناح السرعة لا يثبت أن يرجع من حيث أتى»[٣] .

قال: «إن أفضل الطرق في إنهاض شعب تثقيفه بثقافة العصر، وثقافة الدين، وهذه طريق طويلة، ولكنها أمينة الغائلة، لا تخرج عن طريقة النشوء الطبيعي»[٤] .

❑ وقال محمد كرد علي ملخصًا منهج شيخه الجزائري: «وخطته الإخلاص والعمل على النهوض بالأمة من طريق العلم، وبث الملكات الصحيحة في أهل الإسلام، وثورته ثورة فكرية لا مادية، ويقول: إن هذه الطريق يطول أمرها، ولكن يؤمن فيها العثار، والسلامة محققة ثابتة»[٥] .

* دعوته إلى الاجتهاد:

ولقد دعا الجزائري إلى الاجتهاد، ونبذ روح التعصب المذهبي.

(١) «تنوير البصائر» للباني (ص٧٨) ط١.
(٢) «المذكرات لمحمد كرد علي» (٣/ ٧١٩).
(٣) «تنوير البصائر» للباني (ص٧٩).
(٤) «المذكرات» لمحمد كرد علي (٣/ ٧١٩).
(٥) «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي (ص١٤).

❑ قال الأستاذ محمد كرد علي: «هذا وليس الشيخ في مذهبه على الحقيقة حنبليًّا ولا مالكيًّا ولا حنفيًّا، بل مسلمًا يأخذ من أصل الشريعة باجتهاده الخاص، ويُحسن ظنه بأئمة المذاهب المعروفة، ويتجهّم لمن يتجرأ على النيل من أحد العلماء عامة، ويعمل بما صحّ له من الدليل في الكتاب والسنة»[1].

*** دعوته إلى اقتباس النافع من علوم الغرب ومدنيته مع نقده للمدينة المادية:**

كتب في رسالة له:

«إن الاقتباس من الأمم المترقية، دليل على النباهة، لا كما يظن البله من أن في الاقتباس غضاضة، ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقي الأمور النافعة، لا كما يظنه المتكايسون من أن الأمم الراقية ينبغي أن يؤخذ منها كل شيء حتى أدّاهم الأمر أن يقلدوهم في الأمور التي يودون هم أن يخلصوا منها»[2].

❑ وقال الشيخ الجزائري ناقدًا المدنية المادية:

«وأرجو أن يكون ما حصل لكم من المروّعات، زائدًا في نشاطكم في إفادة الأمة، فإنها في احتياج شديد إلى من ينير لها الطريق الأقوم، من أرباب الوقوف والإخلاص، وأعظم ما تحتاج إليه هو أمر الأخلاق وما يتعلّق بها، ومعرفة الأمور العمرانية على وجه لا يكون فيه إخلال بمعالي الأمور، وتنبيههم على عدم التعويل على المدنية، التي كان الغربيون قديمًا يفتخرون

(١) المصدر السابق (ص١٣).
(٢) المصدر السابق (ص٣٤).

بها، ويزدرون بمن لا يتابعهم عليها، مما هو مبني على مجرد مراعاة الأمور المادية دون غيرها، وهي التي جلبت هذه المصائب الحاضرة، . . . ومما ينبغي أن تحثوا عليه تعلّم صنعة ما، أي صنعة كانت، ولا يكون أحد خاليًا عنها، وتجعل هذا مبدأ جديدًا لهذا العصر والتعويل على الرياضة الجسمانية»[1] .

❑ ومن آراء الشيخ التربوية:

«١ ـ إدخال مبادئ الصنائع في المدارس الابتدائية.

٢ ـ إدخال التربية العملية فيها، وذلك بتعويد التلاميذ على الصدق.

٣ ـ السعي في مدرسة القراءات السبع، مثل ما كان من قبل، ولا ينبغي أن توضع هذه الأشياء في المذاكرة، أو يخطب فيها، فإن مثل ذلك ينبغي أن يخطب فيها بعد أن تصير»[2] .

* دفاع الشيخ طاهر عن التاريخ الهجري واللغة العربية:

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «عجبت لمن يسعون في أن نهجر التاريخ الهجري، ويفاتحوننا في ذلك، كأنهم لا يعلمون أنّا نعلم ما يرمون إليه عن بُعد، لكل أمة شعار، إذا تركته طُمع فيها، واستضعف جانبها، وربما صارت بعدُ مدمجة في غيرها. وقد سعى أناس منذ عهد بعيد، في أن يصفوا ما يقوي أمر الإسلام عمومًا، والعربي خصوصًا، فنجحوا بعض النجاح، فطمعوا في أن يقضوا عليه، فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من إضعاف أمر اللغة العربية، والسعي في تبديل خطها، والتزهيد في الكتب التي كتبت بها، فجعلوا ذلك دأبهم وديدنهم، حتى أثّروا في كثير من أبناء جلدتنا، الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء، والوقوف على أسرار الأمم، فكان ما كان

(١) «كنوز الأجداد» (ص٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص٣٧).

مما هو معروف، ثم زاد الأمر، فطمعوا في تبديل التاريخ الهجري، وساعدهم في ذلك (جبت) مصر، ففرحوا فرحًا لا مزيد عليه. وقال بعضهم: الآن شفينا الغليل من هذه الأمة، غير أنّ كثيرًا ممن انتبه لهذا الأمر سعى في إعادته على قدر الإمكان، فامتعض أولئك القوم، وصاروا يلمزون كل من يسعى في ذلك».

وهذه المسألة نظرًا لتعلقها بتاريخ تأثر الشرق، لا يتيسر أن يكتب فيها أقل من نحو ثلاثين صفحة في نحو ثلاثين يومًا. وليت شعري كيف يُلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجري، فهل انقرض التاريخ الهجري؟ وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء؟

فإن قالوا: إن المقصود توحيد التاريخ في الأمم، وأوربة هي القوية الآن.

قيل: إن أوروبا لها تاريخان: أحدهما شرقي والآخر غربي، وكل يؤرخ به قوم منهم، فهل أوقف ذلك التجارة أو أثّر في المدنية شيئًا؟ ولِمَ لا يكلفون تغيير مكاييلهم وموازينهم وأذرعهم، لتتحد المقاييس في الأمم، وتغيير ذلك ليس فيه غضاضة بخلاف التاريخ. وقد رأيتهم يتعذرون عنه، ويعدّون ذلك متانة في الأخلاق، فانظر ما وصلنا إليه»[1].

* جمال الدين القاسمي المصلح الكبير ووقوفه ضد المقلدة والقصّاص والمخرّفين:

كتب إليه مجدد السلفية بالشام الشيخ عبدالرزاق البيطار:

يا مقيما مدى الزمان بقلبي ... وبعيداً بشخصه عن عياني

أنت روحي إن كنت لست تراها ... فهي أدنى إليّ من كل داني

(١) «كنوز الأجداد» (ص ٤٠ ـ ٤١).

وقال هو عن نفسه: «ليفعل أعدائي بي ما يريدون، فأنا أعتبر حبسي خلوة ونفي سياحة، وقتلي شهادة» «لقد رتبت خطة أسير عليها لخدمة العلم وإرجاع مجد الإسلام والقيام بالرسالة التي ينبغي أن يقوم بها كل مصلح، وأهم أهدافها: بيان عظمة الإسلام، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وتنبيه الناس إلى ما دخل عليه من بدع وخرافات هي غريبة عنه»[1].

كان النهج الغالب على أهل العلم في دمشق قبل القاسمي الأخذ بأحد المذاهب الأربعة المعروفة التي استقرّ عليها الفقه، لا يخرج أحد من العلماء أو طلاّب العلم عنها ظهر القاسمي في الشام يوم كان فيها أفراد ورثوا عن آبائهم وأجدادهم عمائم العلماء وألقابهم والرواتب التي كانوا يأخذونها من أوقاف المسلمين، ولم يرثوا عنهم من العلم بتلك الكتب شيئًا، فاتُهِمَ العلم. ولم يفتهم صرف الأوقات كلها في استنباط الحيل للتمتع بجاهه ومجده تبعًا للتمتع بألقابه وأزيائه ونقده؛ فكان من أكبر الخطوب عليهم أن يروا في الشام عالمًا يتصدى للتدريس والتصنيف ويبين حاجة البلاد إلى الإصلاح والتجديد[2].

كما كان عصره عصراً كثرت فيه الطرق الصوفية وقامت بجانبها الخرافات والضلالات والانحرافات... وجمد الناس على حالة من التأخر لا يريدون الخروج عنها مع هبوب رياح التغيير من الغرب، ومع الاضطرابات في جميع جوانب الحياة العامة.

ولم يكن قبل القاسمي في دمشق كذلك أثر للدعوة السلفية التي انقطعت بعد ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، فجاء الشيخ جمال الدين والشيخ عبدالرازق البيطار مجدد السلفية في بلاد الشام بدعوة جديدة على المدينة تقريبًا، بل على بلاد الشام دهش لها الأهالي فضلاً على الحكومة التي

(١) «جمال الدين القاسمي» للدكتور نزار أباظة (ص٧) ـ دار القلم بدمشق.
(٢) مجلة المنار (٧/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠).

أخذت تتعقبها ولا تغفل عنهما ألبتة، وخشيت أن يستقطبا الناس بدعوتهما كما صغ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية، وأدركت الحكومة أن قدرات الشيخين تسير بهما نحو دعوة منظمة كدعوات المصلحين ممن سبقوا فكانت حادثة المجتهدين عام ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) ووجهت التهمة إلى القاسمي وعبدالرزاق البيطار وجمع من أصحابهما بأنهم يردوا على الأئمة المجتهدين، واحتجز القاسمي من دون زملائه كلهم في السجن، ولم يخرج إلا بشفاعة القاضي ووساطته، وادعى الناس ومعهم المفتي أن القاسمي يدعو إلى مذهب يسمى المذهب الجمالي. وكان لهذه الحادثة أكبر الأثر في توجيه تفكيره، وفي طريقة التأليف ومواعظه ودروسه العامة. قال الشيخ القاسمي:

زعم الناس بأني ... مذهبي يُدعى الجمالي
وإليه حينما أف ... تى الورى أعز ومقالي
لا وعمر الحق إني ... سلفي الانتحال
مذهبي ما في كتاب ... اللّه ربي المتعالي
ثم ما صح من الأخـ ... ـبار لا قيل وقالِ
أقتفي الحق ولا أر ... ضى بآراء الرجال
وأرى التقليد جهلاً ... وعمًى في كل حالِ

وقال في هذا المعنى:

أقول كما قال الأئمة قبلنا ... صحيح حديث المصطفى هو مذهبي
أألبس ثوب القيل والقال باليًا ... ولا أتحلّى بالرداء المذهبِ[1]

وقال:

زعموا بأن من اقتفى الآثارا ... أولى الذين تقدّموا الإنكارا

(١) «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» لعبدالرزاق البيطار (١/ ٤٣٧)، ومجلة المنار (٨/ ٦٣٣).

كلا فأجر الاجتهاد لهم سوى متعصب يتأوّل الأخبـــارا[١]

❑ وفي عام ١٣٢٤هـ أقام متعصبو المذاهب عليه وعلى الشيخ البيطار تهمة جديدة فاتهموهما بالوهابية، وكانت تهمة غير هينه، ونجى اللّه منها القاسمي بسفره حينئذ إلى بعلبك وبيروت وصيدا.

❑ وفي عام ١٣٢٦هـ (١٩٠٨م) زار دمشق السيد رشيد رضا، فاستقبله القاسمي والبيطار وثلة من العلماء وصحبوه إلى المسجد الأموي غداة يوم وصوله، فقرأ فيه درسًا، ووعد بقراءة درس آخر في اليوم التالي، لكن فتنة هوجاء ثارت عند ذلك، وجُوبة الضيف بالأسئلة الغريبة، فكثرت الضوضاء، وأحاط به خصومه ومعهم جماعة من العامة، فقذفوه بما يغيظ من الكلام، وهاجوا به.. ثم نادى أعداؤه بعد صلاة التراويح في ذلك اليوم بذهاب الدين وضيعته، وصاروا يندبون ويبكون ويصرخون، وحرّضوا العامة على التجمّع أمام دار الحكومة ففعلوا، وتبعهم خلائق لا يحصون في ذلك اليوم المزدحم، وجعلوا يصرخون ويشتمون السيد رشيد الذي اضطر لتهدئه الفتنة إلى مغادرة البلد، ولم يكن مضى على وصوله إليها سوى يومين، وعندئذ تفرّد مثيروا القلاقل بالقاسمي، وأشاعوا في البلدة أنه هو الذي دعا السيد إلى الزيارة، وأشعلوا عليه حربًا اضطرته إلى لزوم بيته ثلاثة أشهر، فلم يغادره إلا لصلاة جمعة في مسجد صغير قرب داره، وعانى في أثناء ذلك ضيقًا شديدًا، ولعله كان يحاذر على نفسه الشر والأذى، وبقيت أسرته «تكابد الأكدار والأحزان ولا أحزان المآتم»[٢].

❑ وفيها قال الأمير عادل أرسلان:

حزب التقهقر ما لعينك دامية تبكي أسى وعن الهدى متعامية

(١) المصدر السابق.

(٢) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (٥٩٤ ـ ٥٩٥).

حزب التقهقر ما لقلبك خافقا تسقي الثرى بمدامع لك هامية
يا أهل ذاك الحزب حزتم عندنا شرف التقهقر رتبة متسامية

* * *

ما دخل وهّابيّتي في أمركم ماذا اخترمت لتُنكروا إسلاميه
سبحان من سمك السماك ومن برى هذي الخلائق لا أطيل كلاميه[1]

❑ وفي رمضان من عام ١٣٢٧هـ (١٩٠٩م) يُدعى القاسمي وصديقه البيطار لسؤالهما عن الوهابية، وعدد الوهّابيين في الشام. وقد فُتشت كتبه أكثر من مرة، وأُخذ منها ثلاثة أكياس، ومُنع من طباعة بعض مؤلفاته.

*** جهر الشيخ القاسمي بالأخذ بالاجتهاد:**

أول ما جهر به جمال الدين القاسمي من أفكاره في الشام هو الأخذ بالاجتهاد، حاول فتح الباب الذي أُغلق منذ زمان طويل، ووضعت عليه الأقفال الثقال... فروّع بذلك أصحاب المذاهب، وقامت بينه وبينهم حرب باردة أو ساخنة منذ ذلك الحين، وسمّوه بما سمّوه.. وسماهم هو الحشوية الجامدين. وقال فيهم: إنهم يجمدون على العبارات في كتب الفقه «يذيبون فيها أدمغتهم ليفهموها ويستنبطوا منها منطوقًا ومفهومًا، ويضيعوا أوقاتهم بما لا يفيد الأمة شيئًا مذكورًا. ولو صرفوا أوقاتهم لفهم القرآن والسنة لأتوا منهما بالعجب العجاب، ونشلوا الأمة من تأخرها وجمودها»[2].

وكان يقيم الحجة على الفقهاء من أصحاب المذاهب الذين لا يخرجون عن أقوال الأئمة قيد أُنملة، مع «أن مذهب أبي حنيفة الآن هو مذهب تلميذيه

(١) «جمال الدين القاسمي» للدكتور نزار أباظة (ص١٤٣ ـ ١٤٤).
(٢) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» لمحمود مهدي الاستانبولي (ص٥٨، ٨٤) ـ المكتب الإسلامي.

أو أحدهما على الغالب، وقد خالفا إمامهما في كثير من أقواله. . . وكان في حياته يُسَرّ بهما. وهذه هي طريقة الأئمة الأربعة»[١] . ولذا فيرى أن تقبل آراء كل فقيه قديم، ولكن على بصيرة وحجة، هي حجة إقامة الدليل والنقاش الصحيح[٢] .

وكان من حججه على الفقهاء أن الأئمة الأربعة أنفسهم كانوا يرفضون التقليد؛ لأنهم أمروا تلامذتهم بالاجتهاد ضمن مذاهبهم، لا أن يجعلوا كلامهم في ذاته حجة؛ واستشهد على هذا بكلام المزني في مختصره لكتاب «الأم» للشافعي الذي قال: «اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ ومن معنى قوله لأقربه على من أراده، مع إعلاميه نهيه عن تقليده وتقليد غيره لينظر فيه لدينه ويحتاط فيه لنفسه»[٣] . وكان يقول: «ألم يقل الشافعي إذا رأيتم كلامي يخالف الحديث فاعملوا بالحديث، واضربوا بكلامي عرض الحائط! ألم يقل أبو حنيفة: لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يأخذ بكلامي!» .

من أجل ذلك ارتضى القاسمي كتب المذاهب كلها وأخذ منها ما يحتاج إليه مع أخذه بالدليل، هذا حين كان يستحيل على فقيه أن يرضى برأي في غير مذهبه»[٤] .

❑ وصرّح القاسمي لطلابه وقال: «إن مذهبي ألاّ أتقيّد بمذهب من المذاهب، بل آخذ من كل مذهب بماكان أقوى دليلاً»[٥] .

---

(١) المصدر السابق (ص٤٥).

(٢) المصدر السابق (ص٢٧).

(٣) المصدر السابق (ص٤٤)، وانظر «مختصر المزني» «المقدمة».

(٤) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (ص٦٠٦).

(٥) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» للاستانبولي (ص٨١).

ولشدة اهتمامه بالاجتهاد ومحاربة التقليد الأعمى اهتم بعلم الأصول اهتمامًا خاصًّا، فطبع كتبه وحثّ على التأليف فيه.

وكان يحمل على التعصب المذهبي الذي أدى لتأخر المسلمين وفساد أنظمتهم وضياع حقوقهم وهددهم بالهلاك؛ لأن الأمة تخضع لمذهب حاكمها؛ فأيام الأتراك حكمت المحاكم على مذهب الحنفية، وقبلها كان الحكم على غيره.. وقد توسع الأمر فقامت أربع محاكم على أربعة مذاهب، مما أدى للفوضى ونفور الناس وترك الشريعة، وهذا ما حصل حينما طلبت الحكومة العثمانية من فقهاء المذهب الحنفي أن يعدلوا من مجلة الأحكام الشرعية ما يتعذر تطبيقه لتغير الزمن فيأخذوا من المذاهب الأخرى، فأبوا تعصبًا، مدعين أن ذلك يعدّ تلفيقًا، مما دفع المسئولين دفعًا إلى الأخذ بالقوانين الأوروبية[١].

كان تعدد المذاهب مع جمودها إذن يؤرقه.. وكان يريد أن يأخذ بالحسن الموافق من كل مذهب، ولقد تأثر في هذا بالشيخ محمد عبده الذي يسمعه يقول: «نحن في حاجة إلى مذهب ينتخب من المذاهب الأربعة» وعقب القاسمي على ذلك بالقول: «وهذا الكلام كان يدور معناه في خلدي من أزمان، إذ أنّ جعل الأمة أو بلد من البلاد أو قوم من الناس على مذهب واحد فيه من الحرج والعنت ما فيه، ودين اللّه يسر.. وفي مجموع فروع الأئمة ما يعود على الأمة باليسر والتيسير، مع المحافظة على أصول الدين.. ولي نية بجمع كتاب في الفروع في ذلك»[٢].

ويرى جمال الدين القاسمي أنه لا يجوز خلو الزمان عن مجتهد، وقد عرف لكل زمان مجتهدوه الذين ترجمت لهم كتب الرجال[٣]. ولا قيمة

(١) المصدر السابق (ص٨٤).

(٢) المصدر السابق (ص٧٠).

(٣) «كالضوء اللامع» للسخاوي، وحسن المحاضرة للسيوطي.

لإنكار بعض المتفقهة لوجودهم معتقدين أن الأئمة الأربعة في منزلة التشريع، لا في منزلة الضبط والتحرير[١] .

ولقد بسط الشيخ رأيه بالاجتهاد والتقليد في كتابه الفضل المبين[٢] فذكر أن «دعوى بعض المحققين خلو الوقت عن المجتهد المطلق لا دليل عليها، فهل عرف القائل بذلك جميع المسلمين وهم يعدون بمئات الملايين، وتحقق أن كل واحد منهم مقلد؟»[٣] ، «واللَّه تعالى يوجب العمل بالأقوال مع الحجة التي تلزم المؤمن مستشهداً بالآية الكريمة: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥]. ذلك لأن التقليد لا يرضاه إلا عامي أعمى أو عالم لم يصل إلى مرتبة كبار الفضلاء من عقلاء المتقدمين والمتأخرين»[٤] .

ويناقش مسألة شروط الاجتهاد التي وضعها بعض العلماء، قائلاً: «إذا لم يشترط اللَّه تعالى هذه الشروط في كتابه، ولا رسوله في سنته، فمن أين تكون حجة يلقم بها كل من يدعي الاجتهاد؟ وأيضًا فهذه الشروط، إما أن يشترطها مجتهد، فليس قوله حجة على مجتهد غيره، أو مقلد، فأحرى ألا يكون كلامه حجة ولا مقنعًا»[٥] .

ومع أنه يقبل كثيراً من هذه الشروط، لكنه يراها غير مستحيلة ما دامت مادة اللغة جُمعت ودُوِّنت، وجُمعت الأحاديث الشريفة، وانتشرت كتب الرجال والخلاف والفروع، «فهل يعسر بعد هذا كله أن يتوقف الذكي النبيه

(١) «الفضل المبين» للقاسمي (ص٨٠ ـ ٨٩).
(٢) «الفضل المبين» (ص٨٠ ـ ٨٩).
(٣) المرجع السابق (ص٨١).
(٤) المرجع السابق (ص٨٣).
(٥) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (ص٣٠١).

عن الحكم أو يشكل عليه الأمر. . وباب الاجتهاد أوسع مما يُضَيِّقون»[١] .

ثم يقول: «على أن من نظر إلى هديه ﷺ في تفقيه أصحابه وتعليمه إياهم قواعد الدين وكلياته في أيام يسيرة لكثير ممن يفد مؤمنًا من قبيلته، ويمكث أيامًا في حضرته ﷺ ، ثم يرسله ﷺ داعيًا وهاديًا ومرشدًا»[٢] .

وهذا النص الأخير من كلام القاسمي مقبول على وجه الإجمال.

وأعجب القاسمي بابن تيمية وآرائه ومواقفه وصبره، ولكنه لم يقلده في كل شيء قال به ولما سأله بعض طلابه عن موقفه هذا قال: «ومن قال لك إنني مقلد لابن تيمية؟ إنما أدافع عنه وأنشر كتبه؛ لأنه مجتهد غير مقلد، وأقواله أقرب إلى الصواب من غيره؛ لأنه جاء متأخرًا عن الأئمة، وزاد اطلاعه على اطلاعهم، وناقشهم جميعًا»[٣] .

*** هجوم القاسمي على صوفية زمانه[٤] :**

وكان القاسمي بالمقابل حربًا على صوفية زمانه لا يزال يهاجمهم ويذكر خرافاتهم دون أن يذكر أسماءهم على عادته، إلا أنه يشير إليها في رسائله ومذكراته التي لا ينشرها. ولقد كان يسوءه منهم اثنان، يوسف النبهاني وأسعد الصاحب، وله فيما يبدو ردود عليهم ومواقف ولئن كان الصاحب يجهر بمهاجمة القاسمي في المجالس، وينال منه أمام الوالي والوجهاء، فقد كان النبهاني يهاجم السلفية وأصحابها؛ كتب جمال الدين في إحدى رسائله لمحمد نصيف بلهجة لم تعهد عنه لكنه يعلل سبب هجومه فيقول: «وأما

(١) المصدر السابق (ص٢٠٣).

(٢) المصدر السابق (ص١٠٣).

(٣) «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» لاستانبولي (ص٤٩ ـ ٥٠).

(٤) لكن يؤخذ عليه التنويه بفضل ابن عربي في كتابه «الفضل المبين» (٣٤٨ ـ ٣٥٤)، وثناؤه على النصير الطوسي ـ اقرأ لظافر القاسمي (ص٢٧٤).

النبهاني فدعوه يمت بغيظه قاتله اللَّه من رجل خرافي أضر بتآليفه كثيراً من البسطاء.. على أن مظهر هذا العصر هو نبذ تآليفه العارية من العلم والأدب، فلا تحرصوا إلا على محاربته بنشر آثار شيخ الإسلام وأمثالها، لا بالمقالات في الجرائد فإن الجهاد معه هو في بث أثر السلف ومشربهم.. عامله اللَّه بما يستحق»[١].

وكان من أسباب هذا الهجوم أيضًا هو أن النبهاني حمل على ابن تيمية وابن القيم حملات شعواء، وإذن فالقاسمي يؤاخذ أصحاب البدع والفتن والضلالات الصوفية مما كان يراه منهم في زمانه، وكان يقول عن مشايخ الطرق: «هم كالعمود الكهربائي، يبث الجنون في رؤوس الناس، ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر مرض الصرع العام والذهول العقلي»[٢] أي في حالات الذكر الخاصة بهم. وكان ينهى عن الاختلاط بهم ولو من أجل الاطلاع على أحوالهم؛ فقد زجر تلميذاً له مرة حينما أحب الذهاب لمشاهدة حلقاتهم والسماع لأناشيدهم وموسيقاهم، وقال له: «لا تكثر سواد المبتدعة، ولا تكن قدوة سيئة لغيرك»[٣].

ولقد آلمه كثيراً تصرفات مشايخ الطرق في دمشق وأعمالهم وادعاءاتهم وكثرة بدعهم، فهاجمهم، وبيَّن ضلال كثير منهم. وقد وصف ما يفعلون من منكرات تضر بالدين، ننقل منها حديثه عن مواكبهم التي كانت تخرج في الربيع، فيقول[٤]:

لا تزال هذه الطوائف تبتدع أموراً تُضحك السفهاء وتُبكي العقلاء وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة وسلط عليها الأجنبي يهزأ

(١) «جمال الدين القاسمي» لظافر القاسمي (ص٥٩١).
(٢) المصدر السابق (ص٣٥٣).
(٣) «شيخ الشام» للاستانبولي (ص٩١).
(٤) «إصلاح المساجد من البدع والعوائد» للقاسمي (٢٤٨ ـ ٢٥٠).

بديننا ويقبح أعمالنا ظنًّا منه أن ما يجريه هؤلاء الجهلة من الدين. فهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم، والتزموا طرق أشياخهم الذين يدّعون أنهم على آثارهم وما هم إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاؤون. أين تصفية الباطن التي هي مدار الطريق، وأين الخمول مع هذا الظهور، وأين التواضع مع ركوب الخيل والبغال يقدمها الطبل والمزمار، وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية، وأين البعد عن الرياء مع الوقوف بين مئات الألوف يتمايل ويتلوى، وأين الإرشاد مع هذه البدع وأين الأشياخ إذا أردنا السلوك. فلعمري لا نرى إلا رجالاً اتخذوا الطريق وسيلة معاشية. أما آن لهذه البدع أن تموت ولهؤلاء الجهلة أن يتنبهوا ويعلموا أنهم بين أمم ينظرون أعمالهم وينتقدون أحوالهم ويكتبون عنهم ما يكتب عن الهمج وسكان البوادي.

إنّ الطريق المسلوك للقوم مبني على الإخلاص في العمل وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن اللغو وملازمة الذكر ومداومة السهر فيه وفي التهجد والزهد فيما في أيدي الناس والتمسك بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم، وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود واستبدال السنة بالبدعة وترك الشرع بهوى النفس. والطامة الكبرى دعوة بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة وإضلاله العامة بما ينقله إليهم عن الإنسان الكامل ونحوه من كتب الصوفية مدعيًا فهمه لإشاراته من طريق الفتح أو الإلهام، فقد كثرت النحل والبدع، وسمعنا من أقوالهم ما ليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر. وقد اتفق أن أحد مُعتَبِري الأجانب دخل أحد الأماكن وقد اجتمع فيه جماعة من أهل الأهواء، فرآهم يرقصون ويصيحون صياح جنون فقال لترجمانه: ما هذه الغوغاء ونحن نعلم أن صلاة المسلمين في غاية الخشوع والآداب وهذه الأمور ليست إلا هذيانًا. فقال له ترجمانه: «إن هذه أكبر صلاة عندهم» يريد تنفيره من الدين الإسلامي ولا حول ولا قوة إلا باللّه. فالدين بريء من نسبة هذه البدع إليه؛ فإن سيرة

النبي ﷺ معلومة محفوظة، إذ لم يترك الحفاظ وكتاب السير شيئًا من أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته إلا دونوه، وجاء الخلفاء الراشدون ومن عاصرهم على أثره ﷺ وكذلك جاء الصوفية المتقدمون على هذا الأثر. فلما تشيخ الجهلاء في الطريق التزموا البدع وجاء من لهم إلمام بكتب القوم فانتحلوا أقوالاً لا يعرفون معناها، وعلّموها لجهلة لا يفقهون، فضلُّوا وأضلوا، إنا للَّه وإنا إليه راجعون. ومن المصائب الفظيعة تركهم الذكر الشرعي وقولهم: «اللام إلا اللَّه» «لوالوها إلا اللَّه» و«ال» بلام مغلظة و«اه» و«هه»، ثم الرقص وأكل النار وضرب الدف أو الناي والنقارات والنقرزان ووضع الدبوس في الذراع والسيخ الحديد في الحنك والشيش وغيرها من المفتريات القبيحة. فحق شيخ المشايخ منع هؤلاء الجهلاء من إعطاء العهود، حتى يعرفوا العقيدة والآداب الشرعية والفروع الفقهية، ففي ذلك خدمة الأمة والدين، وتأييد لكلمة الحق المتين».

*** إنكاره للبدع:**

أنكر القاسمي بدعة وجود إمامين يتعاقبان في مسجد واحد ورأى أنها مخالفة للإسلام. ولما كان في مسجده إمام آخر يصلي بعده فقد قال: «لو كانت العادة أن يصلي الإمام الشافعي بعد الحنفي لاستقلت من هذه الوظيفة، كيلا أقع في هذا المحذور»[1].

وهو إذ يؤاخذ أصحاب البدع ـ وخاصة من الذين يلجؤون إلى الاستعانة بغير اللَّه ـ فإنه يبين أنّ عملهم هذا أفظع من شرك المشركين؛ لأنَّ أولئك كانوا إذا نزلت بهم شدة دعوا اللَّه وحده، بخلاف هؤلاء الذين ينسون ربهم في المصائب ويدعون غيره، ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ**

(١) «شيخ الشام» (ص٨٥).

الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥][١] .

ولقد فصّل القاسمي الحديث في البدع وبحث بها وبيّن أمرها في مقدمة كتابه «إصلاح المساجد من البدع والعوائد»، فتحدث عن معناها اللغوي والاصطلاحي ورهّب منها ونفّر من المبتدعين، وذكر غالب أنواع البدع التي شاعت في عهده، وحث على الأخذ بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإزالة البدع والصبر في سبيل اللّه. حتى لم يترك في ذلك زيادة لمستزيد[٢] . وفي مقابل هذه البدع دعا من أجل محاربتها إلى الأخذ بالأصول وعلى رأسها الكتاب والسنّة، واهتم كثيراً بهذين الأصلين، حتى قال: «إنني أحترم كل من يكتب في التفسير والحديث في المسائل المهمة ولو كراسًا، فهو أفضل من كثير ممن يعمل الشروح في القضايا والمسائل غير المهمة»[٣] ، ومن هنا فقد رجع القاسمي إلي كثير من كتب التفاسير، وانتقى منها الآراء التي كان يقتنع بصحتها، حتى جمع كتابه الواسع «محاسن التأويل» وهو من أعظم مؤلفاته بل أعظمها على الإطلاق.

أما في الحديث الشريف فإنه كان ينهى عن الأخذ بالأحاديث الضعيفة، ولا يتسامح بالاعتماد عليها ولو في مقام الترغيب بفضائل الأعمال[٤] . وقال: وعلى هذا فلا يجوز الاستشهاد بها، ومن فعل ذلك فعليه أن يشير إلى ضعفها. وكأن من يلجأ إلى الأحاديث الضعيفة يظن الشريعة قاصرة، مع أنّ في الأحاديث الصحيحة ما يغني وكذلك في القرآن الكريم[٥] .

---

(١) المصدر السابق (ص٨٥).

(٢) انظر مقدمة «إصلاح المساجد».

(٣) «شيخ الشام» (ص٨٠).

(٤) انظر «قواعد التحديث» للقاسمي (ص١٢١ ـ ١٢٤).

(٥) «شيخ الشام» (ص٨١).

ويعجبه في هذا الصدد قول الإمام مسلم في مقدمة صحيحه:

«كل من يروي الأحاديث الضعيفة وهو عارف بها فهو آثم غاش للمسلمين»[١] وفي رأيه أن خير طريقة لنشر الدين الصحيح بين الناس الانكباب مع الحصم على دراسة كتب السنة الصحيحة والحث على قراءتها، وقراءة سيرة النبي ﷺ[٢].

ولما كان الحديث الشريف لا يعرف إلا بعلم الجرح والتعديل فقد عده القاسمي من أهم العلوم، قال: «إنه باب من أبواب الدين، ولولاه ما أثبتت صحة هذا الدين العظيم»[٣].

*** تصديه للدهريين:**

ومثلما تصدى جمال الدين للمنحرفين من الصوفية وأصحاب البدع والأهواء هاجم كذلك الدهريين الذين «كثروا في مصر والهند وأطراف سورية، وأضحوا يبثون شبههم بواسطة كثير من المؤلفات الأجنبية والمجلات النصرانية». فَحَجَّهُم في كتابه «دلائل التوحيد»، ونقض كلامهم بكلام الفلاسفة الذي يعولون عليه.

لله در القاسمي: كان القاسمي دؤوبًا في دعوته لا يثنيه عن بيان مذهبه وفكره شيء، ولا يرده عما يعزم ويشرع من الإصلاح أمر. وقد جاهد من أجل نصرة دينه وتطهيره من الأوهام والبدع ورواسب عهود الانحطاط دون أن يعرف للراحة طعمًا ولا للهدوء معنى وبالطريقة اللطيفة التي ذكرناها، ولقي في سبيل ذلك إعراضًا وعنتًا من الناس وازدراءً من خصومه

(١) المصدر السابق. وانظر مقدمة «صحيح مسلم بشرح النووي» (ص١٢٣).
(٢) «شيخ الشام» (ص٢٨، ٨٣).
(٣) «شيخ الشام» (ص٨٣).

الذين أخذوا يشيعون عنه الأقاويل ويفتئتون عليه ويتهمونه بالإحداث في الدين، وقد صور حاله معهم وما يجده منهم بقوله: «إن العالم لما أخذ اللَّه عليه الصدع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن لا يخاف في اللَّه لومة لائم كان معرّضًا من أعداء أنفسهم وعبيد أهوائهم للشنآن والنبز بالألقاب، فتراهم إن وجدوه يميل للنظر في الأدلة على الأحكام والوقوف على مآخذ المذاهب والأقوال وتحري الأقوم والأصلح دون تعصب لإمام ولا تحزب لآخر نبزوه بالاجتهاد وسموه مجتهدًا تهكمًا، مع أنه بذلك لم يقم إلا بواجبه. وإن أبصروا ميله لعلوم الحكمة والرياضيات وتشويقه لاقتطاف ثمارها سموه طبيعيًا. وإن رأوا حثه على البذل والإنفاق في سبيل اللَّه ودعواه الموسرين للعطف على البؤساء لقبوه اشتراكيًّا..»[١]، وليس غريبًا بعد هذا أن يقول عن جماعة آذوه وعادوه لاختلافهم معه في الرأي: «كثير من الناس بصورة البشر، ولكنهم في الحقيقة أفاع وحشرات سامة»[٢].

ومع هذا فكان كلما ناله أذى من أعداء الإصلاح زاد قوة ونشاطًا ودعاية وكتابة، جاعلاً همه الأعظم أن يجمع بين الدين والعلم الصحيح، ويبث بين الناس فكرة تآخيهما[٣]. وكان مع صبره على الخصوم يجابههم طالبًا للحق ودفعًا للباطل قائلاً: «ينبغي الرد على الخصم مهما كانت دعواه سخيفة، ومصداق هذا من القرآن الكريم الذي ينقل قول اليهود: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾ فردّ اللَّه عليهم بقوله: ﴿**غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ [المائدة: ٦٤][٤].

---

(١) «الفتوى في الإسلام» (ص٦٦).
(٢) «شيخ الشام» (ص٨٢).
(٣) المصدر السابق (ص١٧).
(٤) المصدر السابق (ص٨٢).

❑ وكان من أسلوب دعوته كذلك التنبيه على فساد المضلين والإشارة إليهم بأعيانهم ليعرف الناس الحق من الباطل، فنراه يقول في هذا: «كثير من الناس يلومون المصلحين إذا تحدثوا عن بعض الشخصيات المبتدعة حية كانت أم ميتة، ظانين أن هذا الصنيع مغيبة منهي عنها.. وهذا من الخطأ الواضح، فإنه لا بد من ذكر المسيء لدينه إذا وجدت المصلحة. وقد ذم القرآن الكريم كثيراً من المضللين والمفسدين بذكر أسمائهم وأوصافهم، كما ذم الموالين لهم»[1].

❑ لقدكان خصوم القاسمي من أصحاب الخرافات ومن الجامدين من المقلدين الذين لا يُعملون عقولهم فالعقل السليم لا يعارض النقل الصحيح، وكان يرى تصرفات هؤلاء فظيعة «لأنهم يلغون عقولهم، ويحيلون كثيراً من الأمور في مؤلفاتهم القليلة التي يتطفلون على جمعها إلى أرباب الكشف والفتح.. أو يقولون عن أمر أعجزهم: إن ذلك تعبدي محض لا يعقل له معنى، ولا يمكن أن يكشفه أحد.. إلى غير ذلك من الإحالات على المجهولات، والإياس من النظر وإعمال الفكر، والاقتناع بما كُتب فيه أو حُقِّق». وقد مر معنا أنه بلغ من تمام عنايته بالعقل تشجيعه طلابه على الاستماع للعلماء والاتصال بهم والأخذ عنهم والاستفادة منهم وخاصة أصحاب الاستنباط والاجتهاد على شرط أن يلقوا وراء ظهورهم ما لا يصح من الأفكار بعد مناقشتها[2].

❑ يقول: «إنّ غل الفكر عن النظر والتأمل هو أعظم هادم لصرح التحقيق، فإن الحقيقة بنت البحث، وإن الحق ليس منحصراً في قول ولا مذهب، وقد أنعم اللّه على الأمة بكثرة مجتهديها وليس الغرض من

(١) المصدر السابق (ص٨٣).

(٢) المصدر السابق (ص٨٤).

الإصلاح العلمي بالاجتهاد القيام بمذهب خاص والدعوة له على انفراده، وإنما المراد إنهاض همم رواد العلم لتعرض المسائل بأدلتها، وإننا في الرأي مستقلون ولسنا بمقلدين ولا متحزبين»[١].

❑ ورأى القاسمي بثاقب فكره أن دعوة التجديد ينصرها الشباب وهم أحوج الناس إليها فاهتم بهم وبتربيتهم على الاعتماد على الكتاب والسنة فجزاه اللَّه خير الجزاء من مصلح نصح أمته.

❑ ونختم بما قال الشيخ رشيد رضا عن القاسمي: «إن الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر»[٢].

ويقول: «إنه كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته، وما مذهب السلف إلا العمل بالكتاب والسنة بلا زيادة ولا نقصان على الوجه الذي كانوا يفهمونه في الصدر الأول»[٣].

*** القاسمي الناصح لأمته:**

❑ انظر ـ رحمك اللَّه ـ إلى نصح القاسمي لأمته حين يقول في «محاسن التأويل» عند قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ [الأنفال: ٦٠]:

«دلت هذه الآية على وجوب إعداد القوة الحربية اتقاء بأس العدو وهجومه، ولما عمل الأمراء بمقتضى هذه الآية أيام حضارة الإسلام كان الإسلام عزيزًا عظيمًا أبيّ الضيم، قويّ القنا، جليل الجاه، وفير السنا، إذ نشر لواء سلطته على منبسط الأرض، فقبض على ناصية الأقطار والأمصار،

(١) «الاستئناس» للقاسمي (ص٤٤)، و«الجرح والتعديل» للقاسمي (ص١٤).
(٢) «المنار» المجلد ١٧، (٨/ ٦٣١).
(٣) «المنار» المجلد ١٧، (٨/ ٦٣٣).
وإن كان عليه مآخذ في رسالته «تاريخ الجهمية والمعتزلة».

وخضّد شوكة المستبدين الكافرين، وزحزح سجوف الظلم والاستعباد، وعاش بنوه أحقابًا متتالية، وهم سادة الأمم وقادة الشعوب، وزمام الحول والطول، وقطب رحى العز والمجد، لا يستكينون لقوة، ولا يرهبون لسطوه.

«وأما اليوم فقد ترك المسلمون العمل بهذه الآية الكريمة، ومالوا إلى النعيم والترف، فأهملوا فرضًا من فروض الكفاية، فأصبحت جميع الأمة آثمة بترك هذا الفرض، ولذا تعاني اليوم من غصّته ما تعاني. وكيف لا يطمع العدو بالممالك الإسلامية، ولا ترى فيها معامل للأسلحة وذخائر للحرب، بل كلها مما يُشترى من بلاد العدو؟ أما آن لها أن تنتبه من غفلتها، وتنشئ معامل لصنع المدافع والبنادق والقذائف والذخائر الحربية؟ فلقد ألقى عليها تنقص العدو بلادها من أطرافها درسًا يجب أن تتدبره وتتلافى ما فرطت به قبل أن يداهم ما بقي منها بخيله ورجله، فيقضى والعياذ باللَّه على الإسلام وممالك المسلمين، لاستعمار الأمصار واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار»[1] ا.هـ.

لقد أسمعت لو ناديت حيًا ولكن لا حياة لمن تنادي

* الشيخ محب الدين الخطيب ونشره للتراث السلفي المتميز في صحيفة الفتح والمطبعة السلفية:

الشيخ محب الدين الخطيب هو «أبو الجمعيات الإسلامية في مصر» وهو «منشئ جمعية الشباب المسلمين» وهو رائد كبير من الرعيل السلفي أخذ على عاتقه بعد الشيخ رشيد نشر التراث السلفي، وكان لمطبعته السلفية بالمنيل قصب السبق في تعريف أهل مصر بالكتاب السلفي، ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن عبدالوهاب والدهلوي وهذه الكتب نشرت السلفية

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٨/ ٣٠٢٥).

في ربوع القطر المصري.

❑ وتولى أيضًا إصدار الكتب المدافعة عن عقيدة السلف وأئمة السلف ككتاب «ظلمات أبي رية» للشيخ محمد عبدالرزاق حمزة وكتب ذهبي العصر عبدالرحمن المعلمي اليماني «التنكيل» و«الأنوار الكاشفة». كما نشر وقام على ترجمة مقالات المستشرقين وشياطين التبشير في صحيفة الفتح ١٣٤٩ ـ ١٣٥٠هـ، ثم في كتاب مستقل، ولو لم يكن للشيخ محب الدين الخطيب تلميذ الشيخ طاهر الجزائري إلا نشره لمقالات «الغارة على العالم الإسلامي» لكفاه فخرًا.

❑ قال الشيخ محب الدين الخطيب: «في يوم من أيام سنة ١٣٣٠هـ، وكنت أشتغل في تحرير المؤيد، أقبل عليّ زميلي السيد مساعد اليافي، وقال: «شيء جديد لم أكن أتوقعه. قلت: وما هو؟ قال: إن مجلة «العالم الإسلامي» التي كانت إلى الآن مجلة اجتماعية أدبية، تحوّلت في هذا الشهر إلى مجلة تبشيرية، انظر، إنها أصدرت عددًا ضخمًا ليس فيه غير بحث واحد وهو بحث تبشيري يدور حول ما تقوم به إرساليات التبشير البروتستانية في العالم الإسلامي، وما قيل في المؤتمرات التي عقدتها تلك الإرساليات في أوقات مختلفة.

وقد جعلت المجلة عنوان هذا البحث (الغارة على العالم الإسلامي) أو (فتح العالم الإسلامي).

قلت له: إن المجلة الفرنسية بنشرها هذا العدد الخاص بأعمال المبشرين البروتستانت تقول للمبشرين الكاثوليك: انظروا كيف سبقكم الآخرون إلى الغارة والفتح، فيجب أن تضاعفوا جهودكم وتنظروا في أساليبهم فتستفيدوا منها، ونحن أيها الأخ ـ بصفتنا مسلمين ـ يجب علينا أن نعلم ما يكيده لنا هؤلاء وأولئك، وأن نجعل أمتنا على علم بما يُنصب لها من شراك وما يُبيّت

لها من شرٍ. فأقترح عليك أن تترجم فصول هذا البحث فصلاً بعد فصل وتنشره في المؤيد تباعًا فيقف المسلمون على ما يُكاد لهم به من هذه الناحية. فقال لي صديقي السيد مساعد: ولكن البحث طويل. والوقت الذي نعمل فيه هنا مشغول بالواجبات الأخرى.

❑ قلت: نتعاون أنا وأنت على هذا الخير، ولا نعدّ هذا من واجباتنا في قلم التحرير، بل من واجباتنا نحو الإسلام والشرق، وأرى أننا عندما نفرغ كل يوم من عملنا اليومي تُملي عليّ ترجمة فصل من الفصول بأي الألفاظ شئت وأنا أصوغ ما تمليه على بعبارة عربية فنتمكن من أداء هذا العمل بنصف الوقت اللازم له. قال: حسن!

وما كادت هذه المقالات المتسلسلة تنتشر في مصر والعالم الإسلامي حتى كان لها وقع عظيم جدًّا، وبعثت اليقظة في كثير من الناس، ونقلتها عن المؤيد مجلات وصحف متعددة ـ منها مجلة المنار في القاهرة، وجريدة الإخاء العثماني في بيروت ـ وضاق صدر كتّاب مجلة العالم الإسلامي نفسها وأمثالهم من أنصار التبشير والاستعمار من ذيوع هذه الفصول بين المسلمين؛ لأنهم يودون أن يقوم بأعماله والمسلمون نيام، فدارت مناقشة بينهم وبين «المؤيد حول هذا الموضوع تولى كاتب هذه السطور الإجابة عليها»[1].

ثم نشرها الشيخ محب الدين الخطيب ـ بعد نشرها في «المؤيد» ـ في الفتح، ثم طبعها في كتاب مستقل.

❑ لما صدرت هذه المقالات كتب شكيب أرسلان[2] الأديب الكبير:

«إنني أقترح طبع هذه المقالات المترجمة في «الفتح» عن أعمال المبشرين

(١) مقدمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» لشاتيليه (ص٣، ٤).

(٢) زعيم الدروز وقيل إنه عاد في أخريات حياته إلى مذهب أهل السنة.

كتابًا على حدة يطبع منه ألوف من النسخ وعشرات ألوف ويوزع على جميع العالم الإسلامي بدون استثناء ويقتنيه كل مسلم ذي حميّة ويقرأ منه الخطباء والمدرسون في الجوامع، ولا يبرح بين أيدي المسلمين حتى يستظهروه غيبًا لعلهم ينهضون أخيرًا لقابلة الشيء بمثله ويؤلفون الجمعيات ويتبرعون لها بالأموال ولو بعشر معشار ما يتبرع به الإفرنج لجمعياتهم التبشيرية التي لا نحتاج إلى ذكر مآربها الخبيثة بما شرحته لنا تقاريرها، وما فضحته من أسرار أعمالها، وما أوضحته من الطرق التي هي سائرة عليها لهدم الإسلام من كل أقطار الأرض. ويجب أن يترجم هذا الكتاب إلى التركي والفارسي ولسان الأرد ولسان الملايو وجميع ألسنة الشعوب الإسلامية.

❑ وإننا لنشكر زويمر وأقرانه وجميع هؤلاء المبشرين على هذه التقارير التي لم تُبق عند أحد شبهة في حقيقة مقاصد هذه الجمعيات وهذه البعثات التبشيرية على اختلاف نحلها، كما أنها لم تُبق عند أحد شبهة في عضد الحكومات الأوربية لهذه الجمعيات التبشيرية وهذه البعثات التي تبثها في العالم الإسلامي تارة خفية وتارة علنًا، فإنه ما من سبيل للدفاع عن النفس أحسن من معرفة العدو ما يكيد له عدوه[1].

❑ وعن دوره في مقاومة «التغريب» ودوره في حركة اليقظة الإسلامية يقول الشيخ محب الدين الخطيب:

«لما خرج الناس من الحرب العالمية الأولى أخذ المؤمنون بثقافة الغرب من رجالنا وشبابنا يعدّون العدة للاستيلاء على الرأي العام، وتحويل وجهه عن «المكتين»[2]، وما أنزل اللَّه فيهما، إلي المعاهد القائمة على ضفاف (التايمز) و(السين) وما يصدر عنهما، وواتاهم الحظ بما أحدثته

(١) خاتمة كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» (ص١١٩) ـ المطبعة السلفية.
(٢) مكة المكرمة والمدينة المنور.

أنقرة[1] من أحداث وما جنحت إليه من هوى، فتذرعوا بالثناء على جهادها الوطني للدعوة إلى مثل نتائجه في الدين والدولة، وتعميم تلك النتائج في المشرقين والمغربين، ولم يكن للإسلام في مصر صحف غير مجلة (المنار)، ولا جمعيات غير جمعية «مكارم الأخلاق» ومجلتها، أما النزعات الأخرى العاملة على تعميم الدعوة الأنقروية وتقليدها، فكان في أيدي رجالها أكثر الصحف، وكانوا مشرفين على معظم المرافق والجمعيات، وكان أنصارهم منبثين في وزارة المعارف ومعاهدها، ونظام الاحتلال يؤيدهم في إبعاد الشباب عن الإسلام وحيويته جهد الطاقة.

❑ وكان أحمد تيمور باشا هو الوجيه المصري الأول الذي شعر بالخطر الأعظم عى مصر والوطن العربي والعالم الإسلامي، وأشفق من أن يتم فيه ـ ولو بالتدريج ـ ما تمّ في تركية، وكان ـ رحمه الله ـ لا ينقطع عن زيارة دار المطبعة السلفية من سنة ١٣٤٢ إلى سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م ـ ١٩٢٥م) في شارع «خيرت» فانعقدت فيها اجتماعات حضرها: أحمد تيمور باشا، وأبوبكر يحيى باشا، وعبدالرحمن قراعة، والسيد محمد الخضر حسين، وعلي جلال الحسيني، ونحو عشرة آخرين مَن هذه الطبقة، وتذاكروا موجة الإلحاد القوية التي طغت على العالم الإسلامي، وهو على غير استعداد لدفعها لأن أمره ليس في يده، والذين أمره في يدهم من المسلمين فهموا من الإسلام ألفاظ أوراده وحركات مسابحه، وغفلوا عن أهداف جهاده وحركات حيويته!!

وانتهت تلك الاجتماعات بتقرير تأليف جمعية لمقاومة الإلحاد، والتعاون على ذلك مع كل من يؤلمه أمره في الوطن الإسلامي أكبر، واختير لسكرتارية الجمعية أحد أصحاب الفضيلة المدرسين بالأزهر، وبذل نشاطًا مذكورًا للاتصال بجميع أصحاب الغيْرة الإسلامية من العلماء والوجهاء في

(١) أي: إلغاء الخلافة الإسلامية.

جميع أنحاء العالم الإسلامي.

❑ وبعد أشهر من هذه المحاولة تبيّن لنا أن الخطر أسرع من أن يعالج بمثل هذه الجمعية، وأنه لا بد من الاتصال بالرأي العام والشباب المثقف على الخصوص، وأن الصحافة هي الوسيلة الأولى لذلك، وكنت أصدر في ذلك الحين مجلة (الزهراء) غير أنها شهرية وأدبية لا تصلح مطية لهذه المعركة؛ فضلاً عن أنه مشروط في امتيازها ألا تتعرّض للسياسة أو الدين، وكان الحصول يومئذ على امتياز بصحيفة إسلامية للغرض الذي نريده أشبه بالمستحيل.

❑ غير أن أحمد تيمور باشا ـ رحمه اللّه ـ التمس لذلك الأسباب التي لا يقدر عليها غيره، وتمكنا من الحصول على امتياز بإصدار (الفتح) عام (١٣٤٤هـ) (١٩٢٦م). ومرّ على هذه التجربة عام تبيّن لنا فيه أن الخطر أفدح وأقوى من أن يعالج بهذه الأداة الضعيفة، والأمة أعظم وأكرم على نفسها من أن تصغى إلى هذا الصوت الخافت، وحينئذ فكرنا في تأسيس جمعية (الشبان المسلمين) وكان تأسيسها في غرفة متواضعة من دار المطبعة السلفية ومكتبتها بشارع الاستئناف، وقد استعنا على النجاح في تأسيسها باثنى عشر شابًا منهم الأساتذة: محمد شاكر، عبدالمنعم خلاف، عبدالسلام هارون، محمد الخضيري، كمال اللبان، عبدالفتاح كرشاه، فانتشروا في الكليات والمدارس والوزارات والأندية، وفي كل مكان، وبعد أن صار للجمعية ثلاثمئة عضو يليقون بها وتليق بهم، أخبرنا الدكتور عبدالحميد سعيد والشيخ عبدالعزيز جاويش وأمثالهما ودعوناهم للانضمام للجمعية، وبعد ذلك أعلن عن تأسيس الجمعية في غرة جمادى الآخرة ١٣٤٥هـ (نوفمبر ١٩٢٧)[1].

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي (٣٣٦ ـ ٣٣٨) ـ دار القلم ـ دمشق.

*** الداعية الإمام الشيخ حسن البنا . . العبقري المصلح الفذّ:**

أشهر في الدنيا من الدنيا . . . مصلح استطاع أن يوقظ جذوة الفكرة الإسلامية في صدور الآلاف من الشباب، ويرد غربة الإسلام بين الجاهلين به إلى معرفة وأنس، وعرّف الناس في زمن الغربة بشمولية الإسلام وصلاحيه للدنيا والآخرة فالإسلام مصحف وسيف، وبذل في سبيل ذلك من علمه وجهاده ووقته ونفسه وأعطابه وراحته ما لا يستطيعه إلا العصبة المجتمعة من أقوياء الرجال.

❑ قال عنه الشيخ محب الدين الخطيب: «يحمل قلبًا ولا كالقلوب، إن الأستاذ حسن البنا أمة وحده، وقوة كنت أنشدها في نفس مؤمن فلم أجدها إلا يوم عرفته في تلك الغرفة المتواضعة من دار المطبعة السلفية عام ١٣٤٦هـ، وكنت (ابن صنعة) يوم اكتشفتُ بيني وبين نفسي حاجة الإسلام إلى هذا الداعية القوي، الصابر والمثابر، الذي يعطي الدعوة من ذات نفسه ما هي في حاجة إليه من قوة ومرونة ولين وجلد وصبر وثبات إلى النهاية»[1].

❑ ثم يقول الشيخ محب الدين:

«كانت هذه النواة (الإخوان المسلمين) تبشر بأنها هي الأمل الذي كان يرجوه شيوخ الملة: أحمد تيمور، وأبو بكر يحيى، وعبدالرحمن قراعة وأضرابهم؛ يوم اجتمعوا في دار المطبعة السلفية بشارع (خيرت) يقلّبون وجوه الرأي في السلاح الذي يقاتلون به موجة الإلحاد، والتي تحولت بأحداث أنقرة من موجة ماء يهدد بالغرق إلى موجة بترول وبنزين تهدد بالنار تلتهم الأخضر واليابس.

وأذكر أننا كنا نعجب كيف يكون للمعاني التافهة في السياسة المحلية أحزاب يهبُّ لها الشباب قلوبهم وحماستهم في ذلك الحين، ولا يكون

(١) المصدر السابق (٣٣٨ ـ ٣٣٩).

للإسلام ـ وهو المعنى الأشمل لكل سياسة سامية ـ حزب يواليه ويؤيده ويغضب له ويرضى لأجله. وكثيراً ما أفكر في هذا الجيش اللجب من الإخوان المسلمين وما لهم من مئات الشُّعب، وكيف استطاع رجل واحد أن يحقق ذلك بعد أن كان أملاً بعيداً لكل غيور على الإسلام، فأعود وأقول: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤][1].

ذلك انطباع محب الدين عن البنا وقد لقيه في أول الطريق، يضع البنا حيث مكانه الحق من حركة اليقظة في العقد الثاني من القرن العشرين.. فكيف لو امتدت به السنون؟

*** صدع الأستاذ البنا بالحق والجهر بكلمته عند كل سلطان جائر:**

من يُطالع آثار الأستاذ حسن البنا وكتاباته يجده قائمًا بالحق، لا يتوقف عن أن يقول كلمته لكل حاكم، وأن يرد غيبة الإسلام في كل موقف.

يقول ـ رحمه اللَّه ـ للحكّام:

«أيها الجالسون على كراسي الحكم: أما آن لكم أن تفقهوا بعدُ أن من استعز بغير اللَّه ذل، وأنَّ الناس من خوف الذل في الذل، ومن خوف الفقر في الفقر، وأنَّ من حرص على الموت وهب اللَّه له الحياة. فإذا أردتم القوّة الصحيحة فالتمسوها في طاعة اللَّه وأداء فرائضه ومناصرة أحكامه، وتأييد المجاهدين في سبيل حماية أرض الإسلام ومقدسات الإسلام، ولا تتخذوا من دون اللَّه ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة. اصدقوا اللَّه ساعة من نهار، وجربوا هذا الطريق، وثقوا أنكم الرابحون ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]»[2].

---

(١) «المصدر السابق (٣٣٩ ـ ٣٤٠).

(٢) «حسن البنا» (ص٤٠٢).

*** رده على مصطفى النحّاس زعيم الوفد في إعجابه بمصطفى كمال أتاتورك:**

أرسل الأستاذ حسن البنا ـ رحمه اللَّه ـ إلى مصطفى النحاس زعيم الوفد، أكبر حزب في مصر يناقشه فيما جاء في تصريح له حين قال: أنا معجب بلا تحفظ بكمال أتاتورك، ليس فقط بناحيته العسكرية، ولكن بعبقريته الخالصة وفهمه لمعنى الدولة الحديثة.

❑ يقول: هذا التصريح ليس تصريحًا أجوف، وليس تصريحًا يصدر هكذا عن مجاملة أو غير روية سابقة، وفكرة مستقرة تريد أن تبرز إلى الوجود في الوقت المناسب حين تتهيأ لها الظروف؛ وإن سبق اللسان فأظهر مكنون الضمير.

فأنتم تسجلون في هذا التصريح أن هناك شيئًا اسمه الدولة الحديثة، وهي التي فهمها كمال أتاتورك، وشكل علي غرارها تركية، وتصرحون في كلامكم كذلك أن هذه الدولة هي التي تستطيع وحدها في الأحوال العالمية أن تعيش وتنمو.

ومعلوم أن أتاتورك في دولته الحديثة قد تجرد من كل المظاهر الإسلامية، فكأنكم في هذا تعلنون في صراحة أن مصر لا تستطيع أن تعيش وأن تنموا في الأحوال العالمية الحاضرة إلا إذا تجردت هي الأخرى من كل مظاهر الإسلام كما فعلت تركية.

وكأن هذا هو عنوان منهاجكم ومحور الإصلاح الذي تريدونه لهذا الوطن بعد الانتهاء من قضاياه الخارجية، ولست رجلاً من آحاد الناس، بل أنتم زعيم يؤول إليه الحكم، وتلقى إليه مقاليد الأمة، واسمح لي أن أنبه إلى نقطة قد تكون خافية؛ وهي أن كمال أتاتورك جاهد بالسيف في تحرير بلاده، وطرد منها الأجانب، وبث فيها روح العزة والكرامة، ووفر بها بعض الراحة في الاقتصاد والماديات، وهذا جميل لا غبار عليه، وقد وصل إليه أتاتورك

وهو مسلم يحمل السبحة ويتلو القرآن في المصحف، ويسجد للَّه على رمال الصحراء بين أعراب الأناضول ومسلميه، حتى إذا مكن اللَّه في الأرض نسي ما كان يدعو إليه من قبل، وقد كان يتيسر له كل ما أراد من إصلاح بل وأضعافه لو ظلَّ متمسكًا بدينه وإسلامه، فلم يكن الإسلام حائلاً يومًا ما عن الوصول إلى المجد، والإلحاد والرقص والقبعة، وغير ذلك من المظاهر الفارغة الخادعة التي لا تقدم ولا تؤخر.

هذا التصريح دليل مادي بين يدي الذين يرون أن (الوفد) يعمل على سياسة إن لم تكن تناوئ الإسلام فهي على الأقل لا تستمد منه ولا تعني بشأنه، ويسرها أن تتخلص من تباعته»[1].

□ وانظر إلى جرأة الأستاذ البنا وأدبه في الكشف عن زيف الاتجاه السياسي الذي كانت تعيش عليه الحزبية السياسية في البلاد العربية.

* مواجهة البنا للحكّام في شأن الشريعة الإسلامية:

رحم اللَّه البنا فقد أوقف عمره كله على خدمة قضايا الإسلام والدفاع عن الشريعة الإسلامية.. انظر إليه وهو يقول للحكام:

«يا زعماء مصر وقادتها وأولي الرأي فيها! ما أعظم تبعتكم بين يدي اللَّه وبين يدي الأجيال القادمة؛ إن ظلت الحالة على ما هي عليه الآن، إنكم ضيعتم بتفرقكم واشتغالكم بخصوماتكم هذه الفرص المواتية لهذا الشعب الذي ائتمنكم على مقدراته، فلم تحفظوا فيه حق أمانته.

طهروا أنفسكم من هذه الأدران، واطرحوا هذا الكبرياء الكاذب الذي يزينه لكم شيطان النفوس الجامحة، وفكروا في مصر، واعملوا لمصر، فإن فعلتم ذلك فهو حظكم في الدنيا ونجاتكم في الآخرة، وإن لم تفعلوا ـ ولا

(١) «حسن البنا» (ص٤٠٢ ـ ٤٠٣).

أقول الثانية ـ فسيحيق بكم سوء تفريطكم، وسنحاسبكم أشد الحساب على أعمالكم، وسيدمغ تاريخكم بأبشع تهمة لوث بها تاريخ إنسان، وسنسير في طريقنا، وسنحاول أن نعمل لهذا الشعب، ونسلك به مسالك الجهاد الصحيح في سبيل استكمال حريته واستعادة مجده؛ رضيتم بذلك أو وقفتم في سبيله، ولن يدفع أمر اللَّه دافع، ولكنا نريد أن تكونوا معنا، فنختصر الطريق فهل أنتم فاعلون؟

ويواجه المسئولين في صراحة فيقول:

إن الذين وضعوا الدستور المصري قالوا في المادة التاسعة والأربعين بعد المئة منه: «إن دين الدولة الرسمي هو الإسلام».

فالأمر لا يعدو أحد اثنين: إما أن يكونوا جادِّين في هذا الذي سجلوه على أنفسهم وعلى الدستور المصري، فيجب أن يكون محل احترام منهم، وأن يعملوا جاهدين حتى تحل النظم الإسلامية محل كلِّ نظام غير إسلامي في كل شيء: في الحكم، والقانون، والعادات، والمعاملات، كل مظاهر الحياة، وحينئذ يكون بحق دين الدولة الرسمي هو الإسلام، ويكون الدستور المصري محترمًا مصونًا، قد احترمه واضعوه، ونزلوا على حكمه.

وإما أن يكونوا لا يقصدون ما يقولون، ولا يؤمنون بما يكتبون، وهم بذلك يعبثون ويلهون، ويغشون الشعب ويخدعونه بمثل هذا النص الذي لا تحقق له في الخارج، وحينئذ يجب علينا معشر الدعاة أن نقوم إليهم وإلي هذا الشعب المخدوع بالنصيحة، فإن فعلوها فبها ونعمت، وإلا فنحن دائبون في جهادنا، عاملون على تحقيق هذه الغاية مهما كلفتنا، جادون في إيقاظ الفكرة الإسلامية القائمة في نفس المسلم الطيب القلب، حتى يعرف حقه، ويحرص على دينه ويملي إرادته على حكامه، فينزلون عليها، ولا يجدون مناصًا من تحقيقها، فيكون الدين الرسمي بذلك للدولة هو الإسلام.

فأي الموقفين يريد حماة الدستور واضعوه أن يضعوا أنفسهم أمام الأمة؟

ذلك موقفنا من القرآن والدستور، وسيظل دائمًا في المستقبل حتى تتحق الغاية؛ فتتفق تعاليم الدستور مع تعاليم القرآن، وتكون تعاليم القرآن هي لب الدستور ومحوره، والحكم بيننا وبين الفقهاء، ليستمدوا الدستور من كتاب اللَّه على أوسع حدوده ومدلولاته، وإنا لندعوهم إلى خطة سواء فهل يقبلون؟!»[1].

*** تمنيّه للموتة الطاهرة.. الشهادة في سبيل اللَّه وكلامه على «صناعة الموت» ودور أبنائه في الجهاد في سبيل اللَّه:**

كان ـ رحمه اللَّه ـ يقول دائمًا: «أرجو أن يتمّ اللَّه عليّ نعمته، فألقى اللَّه وأنا على هذه الطهارة، وأن يرزقني اللَّه أيضًا الموتة الطاهرة.. وهذه الموتة الطاهرة هي الشهادة».

ولقد سجل هذا المعنى في مقال ذائع له تحت عنوان: (صناعة الموت):

«الموت صناعة من الصناعات؛ من الناس من يحسنها فيعرف كيف يموت الموتة الكريمة، وكيف يختار لموتته الميدان الشريف والموقف المناسب، فيبيع القطرة من دمه بأغلى أثمانها، ويربح بها ربحًا أعظم من كل ما يتصور الناس، فيربح سعادة الحياة وثواب الآخرة، ولم ينقص من عمره ذرة، ولم يفقد من حياته يومًا واحدًا، ولم يستعجل بذلك أجلاً قد حدده اللَّه.

انجلى الصدأ عن المعدن النفيس، وبرزت النفس في ثوبها الحقيقي اللامع المجاهد، وتكشف الصدف عن لؤلؤه، وتمحص الذهب الخالص تحت نار الضغط الأليم، وذهب فريق من أبطال المسلمين يحسنون من جديد صناعة الموت، ويطلبون عن طريقها حقهم في الحياة، وسرى هذا التيار في

(١) «حسن البنا» (ص٤٠٤ ـ ٤٠٥).

نفس الفئة المجاهدة القليلة في جوار الحرم المقدس إلى كثيرٍ من شباب الإسلام.

إن فلسطين هي خط الدفاع الأول، والضربة الأولى نصف المعركة فالمجاهدون إنما يدافعون عن مستقبل بلادكم وأنفسكم وذراريكم؛ كما يدافعون عن أنفسهم وبلادهم وذراريهم، وليست قضية فلسطين قضية قطر شرقي ولا قضية الأمة العربية وحدها، ولكنها قضية الإسلام وأهل الإسلام جميعًا، ولا محل للتدليل على حقوق العرب فيها».

وقد صدق حسن البنا ربه، فكانت فلسطين هي المسرح الأول لجهاده، ومنها تجلت الصورة الباهرة التي كشفت عن نجاح تجربته، فقد قدم أبناؤه ورجاله أرواحهم خالصة طاهرة؛ على نحو أذهل القوى الغربية الاستعمارية التي أحست بمدى الخطر الذي سيحدث لو نجح هذا الإتجاه وهذا التيار، ومن ثمَّ قدم حسن البنا حياته وروحه مؤمنًا بصناعة الموت وعلى النحو الذي رسمه وفهمه، فمات هذه الموتة الكريمة، بعد أن كشف للدنيا كلها أن كلمة الجهاد لم تمت في المسلمين، وإنما هي قادرة على الحياة والعمل، وأنها حين استجاشت بها النفس المؤمنة عادت من جديد لتثبت أن الإسلام قادر على بناء الأمم من جديد.

* دفاعه عن الإسلام والكشف عن باطل وزيف أتباع الغرب وتقديمهم للناس في صورتهم الصحيحة دون خداع أو إيهام: «البنا وطه حسين»:

ومن ذلك موقفه من الدكتور طه حسين حين أعلن في حفل أقامه له أتباعه من طلاب كلية الآداب بأنه نصير الإسلام، وقال: إنني أتمنى أن يقيض اللَّه للإسلام من يدافع عنه كما أدافع عنه، وأن ينشره ويحببه للناس كما أنشره أنا وكما أحبب مبادئه للناس. فكتب له الأستاذ البنَّا قائلاً:

«إذا صح ذلك يا دكتور فقد اتفقنا كل الاتفاق، واعتبرنا أيها الداعية

المسلم من جندك منذ الساعة، فإنا للإسلام نعيش، وله نحيا، وفي سبيل الدعوة إليه نموت شهداء.

صدقني يا دكتور طه من غير أن أقسم لك، وإن شئت فأنا أقسم على هذا؛ إنني لأتمنى من كل قلبي مخلصًا أن أرى ذلك اليوم الذي تدعو فيه أنت للإسلام وتنشره بين الناس وتحبب تعاليمه إليهم.

فإنك رجل جريء لك قلم ولك لسان ولك تلامذة معجبون وأصدقاء مخلصون، وفيك دأب ونشاط وإنتاج خصيب، وما نحسدك على هذا ولكنا نتمنى أن يكون ذلك في ميزان الإسلام لا عليه وفي كفة الخصومة له وتوهين أمره بطريق غير مباشر، فهل يجيء حقًّا ذلك اليوم؟! أسألك يا دكتور مخلصًا لأطمئن، لا متحديًّا لأتعنت.

إنَّ لك تلامذة قد اختصصت بهم واختصوا بك، فأيهم ظهر أثر دعوتك فيه؛ فكان لسانًا إسلاميًّا، أو قلمًا إسلاميًّا، أو صفحة من صفحات الفكرة الإسلامية، أو مظهرًا من مظاهر التمسك بالإسلام؟!

وإنك قد ساهمت في خدمة كثير من القضايا الاجتماعية، وحضرت كثيرًا من الأحفال والمؤتمرات في داخل القطر وخارجه؛ ففي أيٍّ من هذه جميعًا نطقت باسم الإسلام أو دعوت إلى تعاليمه؟!

وأنت يا دكتور أستاذ في الجامعة المصرية منذ أنشئت، فأنشدك الحق: هل تذكر أنك عرضت في دروسك ومحاضراتك لطلبتك بما يلفت أنظارهم إلى جلال هذا الدين وروعته ومتانة تشريعه؛ هذا والمادة التي اختصصت بتدريسها ألصق مواد الدراسة بالإسلام وكتاب الإسلام؟!

ولا أحرجك فأقول ـ وأنشدك الحق يا دكتور ـ: أفتحيا أنت في حياتك اليومية نمط إسلامي، وتطبع أسرتك كرب بيت بهذا الطابع، ودع البيت وما فيه، أفتقوم أنت في حياتك الشخصية بواجبات الرجل المسلم؛ فضلاً عن

الداعية الذي يتمنى أن يقيض اللَّه للإسلام من يدافع عنه مثله؟!

ولا أحرجك بهذا السؤال الأخير ولا أطالبك بجوابه؛ فأنتم معشر الدعاة العصريين تفرقون بين الحياة الشخصية والحياة العامة، كأن واجبات الفضيلة وتعاليم الإسلام لا تتناولهما جميعًا، وكأن الحياة العامة للفرد ليست مرتبطة بحياته الخاصة كل الارتباط؟!

وبعد يا دكتور طه: فهل من الدعوة للإسلام أن تعرض للنظر في القرآن بالأسلوب الذي اخترته لنفسك من قبل ـ ولعلك عَدَلت عنه من بعد، وهو ما أسرُّ له ـ حتى مع تسليم الدعوى بأن البحث علمي بحت!!

وهل من الدعوة للإسلام أن تقف وقفتك المعروفة في شأن الكتابين الإنكليزيين، وما كان عليك ولا على الجامعة ولا من حرية الفكر من بأس أن تستجيب لأبناء مؤمنين من تلاميذك رأوا في هذا الكلام طعنًا في مقدساتهم، فلجئوا إليك بالطريق القانوني في هدوء وأدب؛ أوَمَا كان أولى بالداعية إلى الإسلام أن يشجع هذه الغيرة ويسرَّ لها ويعطف كل العطف على القائمين بها؟!

وهل من الدعوة إلى الإسلام أن تنادي في صراحة لا تعدلها صراحة: أنه لا سبيل لنا إلى الرقي إلا إذا قلّدنا أوروبة، وسلكنا مسلك الأوروبيين، لنكون لهم شركاء في حضارتهم خيرها وشرها، حلوها ومرها، نافعها وضارها، ما يحب منها وما يكره، وما يمدحه منها وما يعاب، ومن زعم لك ذلك فهو خادع أو مخدوع!!.

ولعلك تقول كما قلت: إنما أريد الدعوة إلى العلم وإلى القوة وإلى الخلق وإلى النظام، وهذا حسن جميل، ولكن أفترى أن الإسلام لم يسلك بالمسلمين السبيل إليه قبل أن تخرج أوروبة من ظلمات جهلها بمئات السنين؟ فلم تدعونا إلى العلم والقوة والخلق والنظام باسم أوروبة الناشئة المتخبطة،

ولا تدعونا إلى ذلك باسم الإسلام الثابت الدعائم الراسخ الأركان؟!.

وهل من الدعوة إلى الإسلام أن تخلط يا دكتور بين الفتيان والفتيات هذا الخلط في كلية الآداب، فتحذو حذوها غيرُها من الكليات، وتبوء أنت بإثم ذلك كله؟!.

وتزين للفتيات في صراحة هذا الاختلاط، وتحثهن عليه، وتدعوهن إليه! ولا تقل إن هذا من عمل غيرك، فيداك أوكتا وفوك نفخ، وما تحمس لهذا ودعا إليه وحمل لواءه واستخدم نفوذه في تحقيقه أحد كما فعلت ذلك أنت!!.

ولعلك تعتبر هذا من مآثرك ومفاخرك، ولكني أخالفك يا دكتور، وأصارحك بأن هذا الاختلاط ليس من الإسلام، وقد رأينا وسنرى ما سيكون له من آثار!!.

هذه صحيفتك يا دكتور طه في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه، فهل لا تزال بعد هذا الحساب اليسير غير العسير الذي لا مناقشة فيه ولا قسوة ولا عدوان، مصرًّا على أن يقيِّض اللَّه للإسلام من يدافع عنه كما تدافع عنه، ومن ينشره ويحبب تعاليمه إلى الناس كما تفعل؟!.

على أننا على استعداد لأن ننسى الماضي جميعه، ونأخذ في جديد مثمر منتج على الأساس الذي وضعته أنت وارتضيناه نحن: أن تثبِّت في نفوسنا ونفسك مكانة الإسلام، وأن تدافع عنه، وأن تنشر تعاليمه، وأن تحببه للناس. وعلى أن يكون هذا الإسلام هو كتاب اللَّه كما تفسره اللغة العربية الواضحة، وسنة رسول اللَّه ﷺ الثابتة الصحيحة كما فهمها السلف الصالحون ـ رضوان اللَّه عليهم.

فهل يضع الدكتور طه يده في يدنا على هذا الأساس، ثم نعاهد اللَّه جميعًا على أن نكون أمناء له مخلصين له مجاهدين في سبيله؟!.

وكلمة أخيرة يا دكتور: لقد قلت ـ وهو قول الحق ـ: إن حياتنا موقوتة، وكل ما فيها موقوت، وإن اللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يسترد المنحة التي منحها لنا، وهي الحياة في أي لحظة، وهو قادر على أن يسترد ما يمنحنا أثناء الحياة.

ما أجمل هذا الإيمان!! أذكرك بهذه الكلمات، وأذكرك أنك الآن رجل قد جاوزت سن الآمال الخلّب، وصرت إلى الآخرة أقرب، وأسأل اللَّه أن يطيل حياتك خادمًا مخلصًا للإسلام، وإن هذا الشعب شعب كريم طيب القلب سرعان ما تنسيه الحسنة الواحدة كثيراً من السيئات.

وإن اللَّه تبارك وتعالى واسع المغفرة عظيم الفضل عفو كريم؛ فلا عليك يا دكتور أن تختم المطاف بتوبة صادقة نصوح، وتتجرد للإسلام ولخدمة الإسلام ولنشر الإسلام ولتحبيب تعاليمه بحق إلى الناس، فتفوز بخير الدنيا وسعادة الآخرة.

ذلك ما نرجوه منك ولك، وقلوب الناس بيد اللَّه، يصرفها كيف يشاء، فمن يرد اللَّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام. والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

ذلك هو موقف حسن البنا في مواجهة أهل الفكر: حكمة عالية، وسماحة خلق، مع بيان كل شيء حتى لا ينخدع الناس بكلام مزيف براق»[1].

*** موقف الشيخ حسن البنا من كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين:**

كان للأستاذ حسن البنا موقف من طه حسين أساسًا، وموقف منه بعد

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي (ص٣٩٧ ـ ٤٠١).

صدور كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» وقد أحدث هذا الكتاب دويًا شديداً[1]، وناقش مجلس النواب استجوابًا خاصًا بهذا الكتاب، وكان أخطر ما دعا إليه طه حسين قوله: «أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادًا».

وقوله: «إن السياسة شيء والدين شيء آخر»، وقوله: «إن العقل الشرقي يوناني الأصل، وأن الإسلام لم يغيّر في العرب شيئًا»، وعقدت محاضرة في جمعية الشبان المسلمين تكلم فيه البنا وبين زيف مقالات طه حسين، وكشف زيفها، وخاصة عبارته الخاصة: «إن علينا أن نقبل الحضارة الغربية: حلوها ومرّها، وما يُحمد منها وما يُعاب»، وقال البنا بعد أن حضر جلسة البرلمان:

«تردد في القاعة ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة تصريحًا أو تلميحًا من أنَّ الدين شيء والسياسة شيء آخر.

ومن أنَّ الدين شيء والقومية شيء غيره.

ومن أن الدين شيء والعلم شيءٌ سواه.

وأنَّ وحدة الدين واللغة لا تصلحان أساسًا لتكوين الدول.

وإن هذا التفريق بين الدين وبين السياسة والقومية والعلم أصلٌ من أصول الحياة الحديثة التي نقلناها عن أوروبة.

فأما أنَّ هذا التفريق والفصل أصل من أصول الحياة الحديثة في أوروبة فأمرٌ لا نخالف الدكتور طه ولا غير الدكتور طه فيه.

ولا ندّعي غيره؛ بل نستطيع أن نقول إنَّ أوروبة استفادت من هذا التفريق والفصل أجزل الفوائد، ولعلها ما كانت تستطيع النهوض بغير هذا.

---

(١) وجاء اليوم من يبعث هذا الكتاب من جديد، ويقدّم له الدكتور محمد فتحي سرور!!.

وأما أننا نقلنا بعض هذه الأفكار من أوروبة، وتأثَّرنا بها إلى حدٍّ كبير أو صغير، وجرت عليها سياستنا العملية في كثير من مظاهر حياتنا؛ فأمرٌ لا نخالف فيه كذلك، وسببه واضحٌ بيِّن: هو أننا أسلمنا قيادَنا أو أسلمتنا الحوادث بعبارةٍ أدقّ إلى ساسةٍ أوروبيين ومعلمين أوروبيين ومشرّعين أوروبيين، فصاغونا كما يريدون وكما يعلمون، واصطبغت سياستنا العملية في معظم شئوننا بهذه الصبغة الأوروبية.

فنحن لا نخالف الدكتور طه ولا غيره في أن حياتنا العملية في كثيرٍ من مظاهرها العامة والخاصة قد انحرفت إلى معنًى أوروبيٍّ بفعل الحوادث المتعاقبة طوال هذه السنين الطويلة.

وهذا الانحراف نفسُه الذي يتخذه الدكتور ومن نحا نحوَه حجةً على وجوب رضانا بأوروبة والاندفاع في تقليدها فيما بقي لنا من مظاهر الحياة، هو نفسه الذي يدفعنا نحن إلى تحذير الأمة من التقليد، وإلى وجوب رجوعها إلى تعاليم الإسلام، وعرض هذه الحضارة الأوروبية عليها؛ فما وافقها قبلناه وما خالفها رفضناه، ونحن لم نجنِ بعدُ من هذا التقليد الخاطئ إلا المصائب والعقم واضطراب الحياة في كل ناحيةٍ من نواحيها.

ولكن الذي نخالف فيه الدكتور طه وغيره ممن يؤمن بفكرته هذه؛ ادّعاءُ أن هذا التفريق بين العلم والسياسة، وبين الدين والقومية[1] ، وبين الدين والعلم نافعٌ لنا، متفقٌ مع تعاليم ديننا.

هذه دعوى ينقضها الدليل النظري والدليل التاريخي، وتتنافى تمامًا مع مصلحتنا ومع مقوِّمات نهضتنا.

والذي يريد أن يجرِّد الإسلام عن معناه السياسي وعن معناه القومي وعن معناه الثقافي يريد بمعنى آخر ألاَّ يكون هناك شيءٌ اسمه (الإسلام)

(١) هذا المصطلح أتى به الاستعمار إلى بلادنا الإسلامية ليفرق بين المسلمين.

تؤمن به هذه الأمة، وهو عند نفسه وعند الناس يخدع هذه الأمة ويخاتلها، ويعدل بها عن الإسلام الحق إلى إسلامٍ من عند نفسه، لا يتّصل إلى الإسلام الصحيح بسبب، وإنما هو في الحقيقة مسيحيةٌ سمّاها هو الإسلام.

إنَّ أوروبة حينما فصلت بين الدين والسياسة وبين الدين والقومية وبين الدين والعلم؛ كانت مدفوعةً إلى ذلك بعوامل قهرية ضرورية.

فالدين الذي كان يسودها وتؤمن به شعوبها خالٍ تمامًا من التشريعات العملية والمعاني السياسية، وهو وصايا روحية محدودة في الكتب المقدسة، وطقوس كهنوتية بين جدران الهياكل والمعابد. والرجال الذين كانوا يمثّلون هذا الدين كانوا شجًا في حلق الدولة والعلماء بما لهم من سلطانٍ مطلق أكسبتهم إياه هذه التعاليم.

وتاريخ أوروبة القديم والوسيط سلسة نزاع بين الأمراء والباباوات من جهة وبين العلماء والكنيسة من جهةٍ أخرى، بل تعدَّى الأمرُ في هذا النضال إلى الشعوب نفسها، فكان النضال كثيرًا ما يكون بين الشعب بأسره وبين الكنيسة.

هذه الأمور الثلاثة: طبيعة الدين الأوروبي، وهيمنة رجاله على الدولة والعلم، والنضال الطويل بين نواحي الجهات الأوروبية المختلفة؛ كلٌّ ذلك دعا أوروبة إلى أن تفصل بين الدين والسياسة، وبين الدين والقومية، وبين الدين والعلم. فهل هذه المعاني تنطبق على الإسلام؟

أحبُّ أن يفكر السادة الباحثون في الجواب على السؤال بإنصاف، وهم سيقولون بعد ذلك بملء الفم: لا ثم لا.

إنَّ طبيعة الإسلام ليست طبيعةً روحية بحتة، فهو دينٌ روحي وعملي معًا، وهو لم يحصر نفسه في حدود المساجد والمعابد، ولم يحفل بالطقوس والمظاهر، وإنَّ الدين الذي يقول لبنيه: (ابنوا مساجدكم جمًا) أي غير مزيّنة

ولا مزخرفة ولا مبالَغ في بنائها ورفعها (وابنوا مدائنكم مشرفة) أي محصّنة مسوّرة، مجهّزة بأدوات الدفاع وما إليها، إن الدين الذي يجعل هذا من شعاره لعظيمُ العناية بشئون الدنيا ومصالح الناس، كما يعنى تمامًا بصلاح الروح والآخرة.

* وشعار الإسلام: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

الدولة والعلم من أعظم أركان الإسلام وأثبت قواعده وشعائره؛ فأين هذا من بُعد الدين الأوروبي عن مظاهر الحياة العامة، وإن رجال الإسلام في كل عصرٍ من عصوره إلى الآن لم يدّعوا لأنفسهم سلطةً أكبر مما يؤهِّلهم لها علمهم بهذا الدين وصلتهم به، ولم ينازعوا الأمر أهله بعضًا من الأيام، ولم يُعرَف عنهم إلا إنكار المنكر حين يشيع وتشجيع المعروف حين يظهر والوقوف عند حدود اللَّه.

* وإذا كان شعار الرسول الأعظم ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢]، فأين هذا من سلطان الإكليروس في أوروبة وما ادّعوه لأنفسهم من سلطانٍ على قلوب الناس وإيمان الناس وحياة الناس الدنيوية والأخروية!!

وتبعًا لهذا كان تاريخ الإسلام مع الدولة ومع العلم صفحاتٍ مجيدة من التعاون والتآزر والسلام؛ فكيف يقال بعد ذلك إن هذا الأصل الذي سارت عليه أوروبة في فصل سياستها وعلومها وقومياتها عن الدين يجب أن

يطبَّق عندنا، ويجب أن نتلقّاه على أنه أصلٌ صالح لنا؟!

نريد أن نتفق على أصلٍ صالح للنهوض، ونريد أن نحدد الهدف معًا، حتى لا نختلف ولا نضلّ، ونريد أن نتبع الهدى الواضح والنور اللائح حتى لا نفشل ونقاسي من الآلام، ولا ينفعنا في ذلك إلا العودة إلى هدي الإسلام.

إن كنتم آمنتم بهذه الأصول في حياة أوروبة على أنَّها حقائق لا تقبل النقض، فاعلموا أنها لا تتفق مع الإسلام، وأنكم بذلك تصطدمون بإسلامكم، فكونوا شجعانًا وكونوا صرحاء في إعلان الخروج على الإسلام حتى لا تخدعوا أنفسكم وتخدعوا الناس، وإن كنتم آمنتم بالإسلام على أنه حقٌّ ثابت فنحن نرضى أن نتحاكم جميعًا إليه، وحينئذٍ سنلتقي ونتفق وستعلمون أنَّ الدولة وأنَّ العلم من أركان الإسلام»[1].

*** الأستاذ البنا يزأر بالحق في عرينه «النذير» ويكتب «متى يستقيم الظل والعودُ أعوجُ؟ على رئيس الوزراء والوزراء أن يقيموا الصلاة الجامعة أولاً»:**

مضى البنا وصحيفته «النذير» في مواجهة أخطاء المجتمع والسياسة بقوة (متى يستقيم الظلّ والعود أعوج، على رئيس الوزراء والوزراء أن يقيموا الصلاة الجامعة أولاً).

«أيُّ دين يبيح لكم هذا: في حفل وزير الخارجية الرسمي رقصٌ وشراب واختلاط!! اللَّهم إنَّ الإسلام لا يبيح هذا ولا يرضاه».

ونددَّت «النذير» بما نشرته الصحف عن سباق الخيل باعتباره بابًا لزيادة إيرادات الدولة.

وقالت: «هل ضاقت بوزير المالية مصادر الزيادة في الإيرادات فلم يجد

(١) «حسن البناء» (ص١١٦ ـ ١٢٠، ٥٣١، ٥٣٢).

أمامه إلا باب الميسر والمال الحرام»!!

ولما قصد وزير المالية والنائب العام إلى ميدان السباق قالت: «إنَّ هذا فرعٌ من الميسر لا شك فيه قد نهانا عنه الشرع وحرّمه الدين.

لئن ربح النائب العام جنيهات معدودة لقد خسر رضاء اللَّه وثقة المسلمين».

وهاجمت «النذير» حديثًا للشيخ مصطفى عبدالرازق حين قال: «أنا لا أقرّ فضيلة الشيخ أبي العيون على مقترحاته بخصوص الآداب على الشواطيء ولا أذهب مذهبه».

وقالت: «لقد عرف الجميع عصريَّته التي قد تخالف الحياة الإسلامية الصحيحة، ولكن ما كان أحدٌ يتصوّر أن يذهب إلى مثل هذا الجواب الملتوي، كنا نتصور أنَّه موافقٌ مثلاً على اختلاط الجنسين في الجامعة، ولكن ما كنا نتصور أنه لا يقرّ مقترحات الشيخ أبي العيون التي يرمي بها إلى القضاء على الفساد الذي يُرتكب في الشواطيء أمام بصر الحكومة وسمعها.

وما كنا نظن أنَّ الشيخ مصطفى عبدالرازق - خريج الأزهر الأغر - يسكت عن إبداء رأيه في مقترحات الشيخ أبي العيون بما يُفهم منه عدم رضاه عنها».

وعارض الأستاذ البنَّا شيخَ الأزهر حين أعلم موافقَته على أن يلبس رجال الجيش القبَّعة شبيهًا بالجنود الأجانب.

وقال: «إنَّ لبس القبعة أمرٌ يحرِّمه الدين أشدَّ التحريم، لما يستتبعه من مفاسد وأضرار، فقد حرَّم الإسلام كلَّ لباسٍ يُضعِف في نفس المسلم معنى الفكرة الإسلامية بأن يجعله شبيهًا بالكفار في الهيئة وإن لم يكن هذا اللباس خاصًّا برجال دينهم، وقد وضع الإسلام في ذلك وغيره قاعدته المعروفة:

«من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1].

❑ وكتب يقول: «أجل لا بد من جديد في هذه الأمة؛ ولكن أتدرون ما هو الجديد الذي لا بد منه، ولا إصلاح بدونه؟ إنه تغيير القلوب، وتبديل النفوس، وتطهير الأرواح، وتزكية السرائر والضمائر، والعودة إلى اللَّه من جديد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

الجديد هو تغيير هذه النظم المرقعة المهلهلة التي لم تجنِ منها الأمة إلا الشقاق والفرقة، هذه الأوضاع البالية الفاسدة التي نُقلت إلينا من أرضٍ غير أرضنا وبلدٍ غير بلدنا، ولم تُصلح أهلها فضلاً عن إصلاحنا.

الجديد هو العودة إلي كتاب اللَّه ونظم الإسلام في الحكم والقانون والسياسة.

أيها الزعماء: ما دمتم ضعاف العزائم والإرادات فلن تصلح على أيديكم مصر وما دمتم تحبون أنفسكم أكثر من هذا الوطن وتعملون لمصالحكم الشخصية أكثر مما تعملون لهذه الأمة؛ ستظل هذه الأمة كحمار الرحى يدور والمكان الذي بدأ منه هو الذي ينتهي إليه، وستُحَلُّ وزارة بعد وزارة.

وأنت أيها الشعب، إنَّ القومَ يغررون بك ويخدعونك عن دينك. ضعوا عن أبصاركم هذه المناظير الملونة التي قدمتها لكم أوروبة وروّجها عليكم ساسة العصر، وانظروا إلى الإسلام بنور اللَّه الذي هداكم به».

❑ ولما ذهب الشيخ مصطفى عبدالرازق ـ وهو وزير ـ إلى إحدى الحفلات الراقصة بعمامته، كتبت صحيفته تقول: إلى اللَّه نبرأ من هذه العمامة.

ولما وقف مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد ليعترض على الشريعة

(١) المصدر السابق (ص ١٢٠ ـ ١٢١).

الإسلامية ويسخر بها؛ تعرّض له في حزمٍ وأدبٍ إسلامي جمّ وبراعة فائقة:

«لقد تصوّر (رفعة الباشا) هذه الحركة بأنها وليدة مؤامرة يُراد بها تعويق سير مؤتمر إلغاء الامتيازات، ويعترف بأن الحدود مقررة في شريعتنا، ولكنها لا ترضي الأجانب، ثم ذكر أنَّ القائمين بهذه الحركة لا قيمة لهم ولا وزن، ثم بيّن أنه ليس المراد بهذه الحركة وجه اللَّه ولا إعلاء كلمة اللَّه، فإن الإسلام بحمد اللَّه عالي الجنبات.

هذا كلامٌ يجب أن لا يمرّ على الأمة دون أن نبين ما فيه:

إن المطالبة بالشريعة الإسلامية وإحلالها محل التشريع ليست مؤامرةً ولكنها شعورٌ قويّ فيَّاض يجيش به قلب كل مسلم، وأمنية عزيزة كريمة يراها المصريون جميعًا أسمى أمانيهم، وواجبٌ حتم مروض، إن لم يقم به أناس فقد أثموا إثمًا عظيمًا، وعرَّضوا أنفسهم في الدنيا لعذاب الجريمة واضطراب الأمن وفساد الخُلق، ولعذاب اللَّه في الآخرة: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ**﴾ [المائدة: ٤٩].

وسيظل الإخوان يطالبون بإعادة التشريع الإسلامي كركنٍ من أركان حياة مصر الإسلامية حتى يحقق اللَّه غايتهم أو يموتوا دونها.

أما أنَّ الأجانب لا يرضيهم هذا فنحن نعيش في بلادنا لأنفسنا لا للأجانب، وإن قهرتنا الظروف في بعض الأحيان على المجاملة واللين فلن ينسينا ذلك أن لنا حقًّا مهضومًا لا بد أن نناله، ولا ينسينا ذلك أن ننتهز الفرص لنتحرر من هذا الرقّ والتحكم في شئون حياتنا المصرية ممن لا يمتّون إلينا بصلة، وكان على الزعماء أن يصارحوا الأمة بأننا غير أحرار في تشريعنا وغير أحرار في أموالنا، ويهيبوا بنا أن نعمل جاهدين لنستكمل الاستقلال

الحقيقي في الإدارة والحكم والشريعة والاقتصاد، ولكن الزعماء ـ عفا اللَّه عنهم ـ قنعوا من الاستقلال بوثيقةٍ لا قيمة لها وتركوا الشعب مكبّلاً في كل ناحية من نواحي حياته.

أما المطالبون بالتشريع فليسوا قلةً بحيث لا يقام لهم وزنٌ ولا يُرهَب جانبُهم، بل هم المسلمون جميعًا والمنصفون من غير المسلمين كذلك، إنهم الشعب المصري. وسيعلم الزعماء ـ إن لم يكونوا يعلمون ـ أنَّ هذه الغاية ليست غايةَ فردٍ ولا جماعة، ولكنها غايةُ كل مصري يعيش في هذا البلد، ولئن ضبطت الأمة شعورها وآثرت الحكمة في السير، فليس معنى هذا أنها نسيت أو تغافلت، وستأتي الساعة التي يدوّي فيها هذا الصوت رائعًا قويًّا رهيبًا يصمّ الآذان ويخلع قلوب المترددين المتحللين؛ ﴿**فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا**﴾ [الإسراء: ٥١]!!.

بقي أن الإسلام عالي الجنبات رفيع الذرى، وإنه لكذلك، وإن اللَّه له لحافظ، وإن أرواح المسلمين له فداء، ولكن الزعماء ـ هداهم اللَّه ـ في ناحيةٍ وهذا الإسلام العالي الجنبات في ناحية أخرى.

أنت معنا بنصّ هذا الخطاب في أنَّ قطعَ يد السارق، ورجم المحصن، ومنع التعامل بالفائدة من القواعد المقررة في شريعتنا السمحة، وطبعًا إنَّ محاكمنا وقوانيننا تتعامل بغيرها، فنحن إذن على اتفاق في أننا نتحاكم إلى غير كتاب اللَّه ونظام الإسلام ونحن مع هذا مسلمون!!

فهل أنتم راضون عن هذا أو ساخطون عليه؟

إن كانت الأولى فقد حاربتم الإسلام ورضيتم بضياع أحكامه؛ وإن كانت الثانية فهلاَّ فكرتم في أن نتعاون جميعًا على إزالة هذا المنكر، والمطالبة معًا بتشريع الإسلام وتذليل العقبات في هذا السبيل، ومصارحة الأمة بأنه لا

يصلحها إلا هذا، وتقويتها تقويةً تامة للوصول إلى هذه الأهداف، وحينئذٍ تتخلَّصون من التبعة بين يدي اللَّه وتنصحون الأمة».

* وعن معركة فلسطين قال:

«إن أشدَّ ما يمكِّن لأعدائكم في دياركم قعودكم عن نصرة إخوانكم، فقد كانت الأندلس تُغتصَب في الوقت الذي فيه مصر القومية تصادق فرنسا المغتصِبة».

* كلامه عن المحاكم الأهلية:

وعندما جاء العيد الخمسون للمحاكم الأهلية واحتفلت به دوائر الصحافة والحكومة أعلن صيحةً مدوّية:

إنَّ المحاكم الأهلية بنظامها الحالي وتشريعها الحالي تصطدم بتعاليم الإسلام في عدة نواحي:

أولاً: في الحدود التي ذكرها القرآن وأثبتتها السنة الصحيحة للسارق والزاني والشارب ونحوهم من قطع اليد والجلد والرجم.

ثانيًا: في إعفاء الزانيين من العقوبة إذا رضيا عن هذا الزنى في سنٍّ محدودة.

ثالثًا: في إباحة الفائدة في الربا.

إن التشريع الحالي في المحاكم يصطدم بتعاليم الإسلام وأحكامه في هذه النقاط وفي غيرها، ومعلوم أن الأمة التي تحتكم إلى هذه المحاكم وتطبق عليها هذا التشريع أمةٌ إسلامية تدين بالإسلام، وتنزل على حكمه، وتعتزُّ به وبتعاليمه؛ فلا بدَّ من تعديل التشريع الحالي بما يتناسب مع الدستور ومع القوم الذين يطبَّق عليهم التشريع لرفع هذا التناقض القائم بين القانون الكلي للدولة وهو الدستور وبين القانون الجزئي وهو تشريع المحاكم الأهلية.

* رده على «سامي الكيالي»:

وهو لا يتوقف عن مواجهة كل كاتب وباحث إذا ما خالف الطريق.

ومن ذلك ما وجَّهَه إلى صاحب مجلة الحديث (سامي الكيالي):

«يا أستاذ سامي: إنك مسلمٌ عربي، الإسلامُ فخارُك ولا مجد لك إلا به، والعربيةُ قوميتُك فلا عزة لك بدونها، وإن تشدَّق التركي بطورانيته والمصري بمصريته فلن تجد لك إلا العرب والإسلام، فأنت من بيتٍ كان أولى الناس بالدفاع عنهما والانتصار لهما؛ فلتنفض يدك من هذه الشيعة الشعوبية المفارقة، ولتطهِّر (الحديث) من مغامزهم.

ولا يهولنك قطع الصلة بهؤلاء؛ فلأن تصل الحقَّ أولى وأجلّ، وليبدلنَّك اللَّه منهم أرضًا بأرض وإخوانًا بإخوان.

لقد حشوتَ مجلتك بتعسُّفات الدكتور طه في العلم والدين والأدب، وتبجُّحات سلامة موسى وإسماعيل مظهر والشاعر الزهاوي، وبالغتَ في صوغ عبارات المدح والثناء لهم؛ وهم الذين هاجموا الإسلام في أرسخ قواعده، وكادوا للقومية العربية في أظهر مزاياها.

ورأيناك تقرظ كتاب (حرية الفكر) وفيه من المغامز ما لا يتسع المقال لنقله، وتشيد بذكر كتابَي (الشعر الجاهلي) و(الأدب الجاهلي) وتنتصر فيهما لأستاذك؛ ولقد أجمع العقلاء على ردِّهما، وتنشر القصيدة التائية للزهاوي وكلُّها إنكارٌ للبعث والروح، وتنشر لكاتبٍ ألمانيٍّ مقالاً بعنوان (خديجة) أساء بها إلى مقام الرسول الأعظم ﷺ وأم المؤمنين رضي الله عنها، إلى ما فيه من خلطٍ شطط؛ ولم تعلِّق عليه بكلمة غير أن نقلتَ حديث الإفك من البخاري.

شيءٌ آخر، ذلك هو أنَّ الناس جميعًا يعلمون أنَّ هذا الانقلاب التركي وما كان ينويه (أمان اللَّه) في الأفغان هو عداءٌ كامن للعربية ومحاربة صريحة للإسلام وانسلاخٌ عن شريعته، ومع هذا فأنتم تحبِّذونه، وتنشرون فيه كلمات

التشجيع والإغراء.

* لله در البنا:

لقد عمل البنا على تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح، يعمل على صبغ الأمة الإسلامة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾.

لقد حمل البنا حملة قوية على المناوئين والمنحرفين عن الجادة، وتكلم بلسان المصلح عن أسباب التخلف وردّها إلى الانفصال عن أحكام الله ونظامه وقرآنه فقال رحمه الله:

أيها الناس: إن الله بعث لكم إمامًا ووضع لكم نظامًا، وفصّل أحكامًا وأنزل كتابًا، وأحلّ حلالاً وحرّم حرامًا؛ فهل اتبعتم إمامه واحترمتم نظامه، وأنفذتم أحكامه وأحللتم حلاله وحرّمتم حرامه؟

كونوا صرحاء في الجواب، وسترَون الحقيقة، واضحةً أمامكم: إن كل النظم التي تسيرون عليها في شئون الحياة نظمٌ تقليدية بحتة لا تتصل بالإسلام ولا تستمد منه ولا تعتمد عليه!!

نظام الحكم الداخلي، نظام العلاقات الدولية، نظام القضاء، نظام الدفاع والجندية، نظام المال والاقتصاد للدولة والأفراد، نظام الثقافة والتعليم، نظام الأسرة والبيت، نظام الفرد في سلوكه الخاص.

إنَّ الروح العام الذي يهيمن على الحاكمين والمحكومين ويشكّل مظاهر الحياة على اختلافها كلٌّ ذلك بعيدٌ عن الإسلام وتعاليم الإسلام.

من الحق أن نعترف بأنَّ موجةً جارفة وتيارًا شديدًا دفاقًا قد طغى على العقول والأفكار في غفلةٍ من الزمن وفي غرور من الشعوب المسلمة وانغماسٍ منهم في الترف والنعيم، وعزت الأمةَ الإسلامية في عقر دارها، وأحاطت بالمسلمين في كل مكان، ودخلت بيوتَهم ومخادعهم؛ بل احتلّت قلوبَهم

وعقولهم ومشاعرهم!!.

ونشأ في كل الشعوب الإسلامية جيلٌ مخضرم، إلى غير الإسلام أقرب، تصدَّر في تصريف أمورها واحتلّ مكان الزعامة الفكرية والروحية والسياسية والتنفيذية منها، فدفع بالشعوب الغافلة إلى ما يريد، إننا بعُدْنا عن هدي الإسلام وأصوله وقواعده!!

حقًّا لقد تقدَّم العلم والطب والفن والفكر، وتزايد المال، وأخذت الأرض زينتها وازَّينت، وأُترف الناس ونُعِّموا، ولكن هل جلب هذا لهم شيئًا من السعادة، وهل أمَّن لهم شيئًا من الحياة الكريمة؟!

هل حُوربت الجريمة واستراح المجتمع من شرور المجرمين؟!

هل استغنى الفقراء وأشبعَتْ الملايين التي تفوق الحصر من بطون الجائعين؟!

هل ساقت هذه الملاهي والمفاتن التي ملأت الفضاء وسرتْ مسرى الهواء العزاءَ إلى المحزونين؟!

هل تذوَّقتْ الشعوب طعمَ الراحة والهدوء، وأمِنتْ عدوان المعتدين وظلم الظالمين؟

لا شيء من هذا!!

أيها الناس فما فضل هذه الحضارة إذن على غيرها من الحضارات؟!

ألسنا نرى هذه النظم والتعاليم والفلسفات حتى في العلوم وفي الأرقام يحطِّم بعضُها بعضًا، ويقضي بعضها على بعض؟!

*** ما مهمتنا إذن؟**

أما إجمالاً: فهي أن نقف في وجه هذه الموجة الطاغية من مدنية المادة، وحضارة المتع والشهوات، التي جرفت الشعوب الإسلامية فأبعدَتها عن زعامة

النبي ﷺ وهداية القرآن، وحرمتْ العالم من أنوار هديهما، وأخَّرتْ تقدُّمَه مئات السنين، حتى تنحسر عن أرضنا، ويبرأ من بلائها قومنا.

ولسنا واقفين عند هذا الحدّ، بل سنلاحقها في أرضها وسنغزوها في عقر دارها حتى يهتف العالم كلُّه باسم النبي ﷺ، وتوقن الدنيا بتعاليم القرآن وينتشر ظلّ الإسلام الوارف على الأرض.

وحينئذٍ يتحقق للمسلم ما ينشده، فلا تكون فتنةٌ، ويكون الدين كله للَّه ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥].

أما في التفاصيل: فهي أن يكون في مصر أولاً ـ بحكم أنَّها في المقدمة من دول الإسلام وشعوبه ثم في غيرها كذلك:

* نظامٌ داخلي للحكم يحقق قول اللَّه تبارك وتعالى:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

* ونظام للعلاقات الدولية يتحقق به قول القرآن الكريم:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

* ونظام عملي للقضاء يستمَدّ من الآية الكريمة:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

* ونظام للدفاع والجندية يحقق مرمى النفير العام:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١].

* ونظام اقتصادي استغلالي للثروة والمال، للدولة والأفراد، أساسُه قول

اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

* ونظام للثقافة والتعليم يقضي على الجهالة، ويطابق جلال الوحي في أول آية نزلت من كتاب اللَّه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

* ونظام للأسرة والبيت ينشيء الفتى المسلم، والفتاة المسلمة، والرجل المسلم، ويحقق قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

* ونظام للفرد في سلوكه الخاص يحقق الفلاح المقصود بقوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

* وروحٌ عام يهيمن على كلِّ عامل في الأمة من حاكم ومحكوم قوامُه قوله تعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧].

❑ نحن نريد الفرد المسلم، والبيت المسلم، والشعب المسلم، والحكومة المسلمة، والدولة التي تقود الشعوب الإسلامية وتضم شتات المسلمين وتستعيد مجدَهم وتردّ عليهم أرضهم المفقودة وأوطانهم المسلوبة وبلادهم المغصوبة، ثم تحمل بعد ذلك علم الجهاد ولواء الدعوة إلى اللَّه حتى نُسعد العالم بتعاليم الإسلام.

سيقول الذين يسمعون هذا: إنه الخيال بعينه، وإنه الوهم، وإنه الغرور، وأنَّى لهؤلاء الذين لا يملكون إلا الإيمان والجهاد أن يقاموا هذه القوى المتألِّبة المجتمعة والأسلحة المتنوعة المختلفة، وأن يصلوا إلى حقِّهم وهو بين

ذراعَي وجبهة الأسد.

سيقول كثيرون هذا، ولعل لهم بعض العذر؛ فهم قد يئسوا من أنفسهم، ويئسوا من صلتهم بالقوي القادر، أما نحن فنقول: إنها الحقيقة التي نؤمن بها ونعمل لها، ونحن نقرأ قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ**﴾ [النساء: ١٠٤].

وإنَّ الذين فتحوا أقطار الدنيا ومكّن اللَّه لهم في الأرض من أسلافنا؛ لم يكونوا أكثر عددًا ولا أعظم عدة، ولكنهم كانوا مؤمنين مجاهدين وكفى»[1].

* كلمته إلى الوزراء وأولياء الأمور:

في يونيو ١٩٤٣م توجَّه مجموعة من الوزراء لزيارة البنا: فؤاد سراج الدين، وعبدالحميد عبدالحق، ومحمود سليمان غنام، وأحمد حمزة، ودكتور محمد صلاح الدين، وكان مما قاله البنا:

«كلمةٌ خاصة أوجهها إلى أصحاب المعالي الوزراء خاصةً، وإلى أولياء الأمور عامةً، بعاطفة الوطني لا بلسان السياسي، وهي النصيحة الواجبة لا معدى عنها ولا مناص، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**الدين النصيحة**. قلنا: لمن يا رسول اللَّه، قال: **للَّه، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم**».

إنكم أولياء الأمر ورعاة الشعب، وأنتم المسئولون بين يدي اللَّه عما استرعاكم، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيَّته**»، وفي أيديكم سلطاتٌ واسعة لا يحجزكم شيءٌ عن استخدامها والانتفاع في خير هذا الشعب بها، وقد قال الخليفة الثالث رضي الله عنه: «إن اللَّه

(١) «حسن البنا» (ص١٠٦ ـ ١١٠).

ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، فاقدروا هذه التبعة وإنها لعظيمة، واستخدموا هذه السلطات في محاربة المنكرات الفاشية وعلاج الآفات الكثيرة، والقضاء على المعاصي والآثام المنتشرة، وتقرَّبوا إلى اللَّه بمناصرة المعروف وتغيير المنكر وصالح العمل ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١][1].

*** للَّه درّك يا بنا ودرّ أسودك في فلسطين:**

كانت معركة فلسطين هي الشغل الشاغل لحسن البنا، وترجم هو وأبناؤه ذلك عمليًّا.

كان يوم ٧ ديسمبر ١٩٤٧م يومًا حاسمًا حين انعقد المؤتمر العربي الكبير في الجامع الأزهر من أجل فلسطين وقال البنا في كلمته:

«ليس هذا العدوان الذي اجتمعنا اليوم من أجل التفكير في وسائل دفعه عن أرض العروبة والإسلام نظير في تاريخ البشرية كلها، فلم يحدث أن تآمرت طائفة من الناس على أرض أمة من الأمم فاحتلتها بالخديعة، ثم اقتطعت منها ما شاءت بالإرهاب، ثم سخرت أمم المادة والشهوات لتحكم لها بما أرادت؛ بشراء الذمم واحتكار الضمائر والمساومة على الأصوات، ثم زعمت أنها ستقيم دولة، وتنشيء حكومة لتعيش بين هذه المجموعة الضخمة من الشعوب رغم أنفها».

«إن قرار التقسيم الظالم الذي يقر قيام دولة صهيونية في قلب بلاد العرب لا ينال فلسطين وحدها، ولكن يتعداها إلى كل وطن عربي آخر بجوارها، ثم إلى الأوطان الإسلامية جميعًا، فإن اليهود لا يخفون نواياهم، ولكنهم يجاهرون ويهتفون بأن ملك إسرائيل من الفرات إلى النيل، بل إنهم

(١) المصدر السابق (ص١٤٣).

ليحلمون بيثرب موطن بني قريظة وبني النضير سابقًا، ومهوى قلوب المسلمين وأفئدتهم اليوم، ومستقر أكرم إنسان عرفته الإنسانية سيدنا محمد ﷺ، ولن يصلوا إلى شيء بإذن اللَّه ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]».

«إن المسلمين في بقاع الأرض سيقاومون بكل ما فيهم من شدة هذا العدوان الصارخ، ولن يستسلموا أبدًا لمستعمر الأمم المتحدة المزيفة، ولا لإرهاب الصهيونية الذليلة وقوتها المصطنعة، وسيرى الذين يشكون أو يتشككون في مقدرة المسلمين وقوتهم واستعدادهم للدفاع أنهم واهمون.

وإننا بحمد اللَّه نملك من القوة المادية والمعنوية ما نصل به إلى النصر إن شاء اللَّه، وسيرى الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

«إننا معشر المسلمين على اختلاف بلادنا قد تفهمنا سرّ الشهادة، وتذوق أسلافنا حلاوتها، وقد فرض الإسلام على كل مسلم أن يكون جنديًّا للحق، يذود عنه بنفسه وماله وروحه، ولا يتردد في ذلك أبدًا، إننا نؤمن بأن آجالنا محدودة وأيامنا معدودة، وإننا نؤمن بأنه لن يصيبنا شيء إلا بقضاء اللَّه». اهـ.

«وكان الأستاذ البنَّا قد أعلن أنه سيدخل إلى فلسطين في عشرة آلاف مجاهد كدفعة أولى، ولكن الاستعمار البريطاني حال دون تحقيق ذلك، ورفضت حكومة (النقراشي) السماح بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط في الجزء الشمالي من صحراء النقب، فاتخذوا سبيل التعمية وذهبوا إلى سيناء في رحلة علمية، ومنها دخلوا إلى فلسطين سرًّا حيث لحقت بهم دفعات أخرى.

وبدخول أفواج الإخوان في فبراير (شباط) ١٩٤٨م بدأ القتال الفعلي في صحراء النقب، حيث أخذوا في مهاجمة المستعمرات اليهودية بعناد وصلابة، رغم قلة عددهم وضعف أسلحتهم، وتجمع حولهم المجاهدون من

أهل فلسطين، وبدأت حرب عصابات منظمة، غير أن الحكومة طلبت من الإخوان سحب قواتهم من النقب، ورفض الإخوان، فقطعت عنهم الإمدادات، فلم يثنهم ذلك شيئًا، وعاشوا أيامًا طوالاً على التمر والماء وعلى الخبز اليسير الذي يشترونه من نقود قليلة يرسلها أهلوهم بين حين وآخر، ووجدوا من إخوانهم العرب كل معونة، حتى دخل الجيش المصري البلاد وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية في النقب، واشتركوا في معظم العمليات، فلم تراجع الحكومة موقفها، بل شددت رقابتها، واضطر الإخوان إلى السير على الأقدام فتتابعت جموعهم، وكان أكثرهم شبابًا أحداثًا، جاؤوا راغبين في تأدية فريضة الجهاد، غافلوا رجال البوليس وقفزوا إلى عربات البضائع في قطارات السكك الحديدية، وساروا مسافات شاسعة في صحراء سيناء!!.

كان الإخوان خطرًا كبيرًا على كيان إسرائيل، فقد نجحوا في التسلل عبر الحدود، ولم تمض أسابيع قليلة على بداية الصدام حتى حمل الإخوان لواء الجهاد الشعبي، ونجحوا في إدخال عدد كبير من خيرة شبابهم من مصر وسورية وشرق الأردن، وساهم إخوان سورية بقيادة (مصطفى السباعي)، ثم قدّم الإخوان شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية، فتشكلت منهم ثلاث كتائب أتمت تدريبها في معسكر (الهايكستيب)، ثم تسللت إلى فلسطين بقيادة أحمد عبدالعزيز، وعبدالجواد طبالة.

وقام الإخوان بدورهم في معارك فلسطين في بسالة أدهشت القوات المصرية، وأدهشت الإنكليز واليهود على السواء.

بل إنهم في فترة من الفترات كانوا طلائع للجيش المصري تحميه وترد عنه عادية المباغتات.

وكان الأستاذ البنَّا يعدّ العدة في ذلك الوقت لأن يقدم إلى فلسطين مع قوة ضخمة للدفاع عن القدس، حيث كان اليهود يشنون هجمات عنيفة على

مراكز الجيش الأردني، وكان على وشك إعلان الجهاد الديني والتعبئة الشعبية بعد أن فشلت الحكومة وجامعة الدول العربية.

على أن هذه الحركة لم يقدر لها النجاح، بل لعلها هي التي سارعت بالعمل على حل الإخوان وتصفيتهم بعد أن هز قتالهم الرائع في فلسطين دوائر الاستعمار والصهيونية، ووقفت الحكومة المصرية ضد تقدمهم، وأمرت بانسحابهم من المواقع التي كانوا يحتلونها إلى معسكراتهم.

وكان جمع المجاهدين من الإخوان في معسكراتهم والحد من نشاطهم مقدمة لهذا العمل الذي دُبِّر بليل.

لقد كشفت معركة فلسطين عن أشياء كثيرة، عن ظهور جيل جديد يؤمن باللَّه والجهاد في سبيله، ويحمل السلاح ويقاتل، ويواجه الاستعمار البريطاني والاحتلال الصهيوني، وهو ما عمل الاستعمار سنوات طويلة دون وقوعه ولقد رأى الاستعمار هؤلاء الذين يستشهدون فرحين بلقاء ربهم، وشاهد صورًا عجيبة من بطولة هؤلاء المؤمنين.

لقد كشف الإخوان بدخولهم معركة فلسطين عن حقيقة خطيرة، هو أنهم أصبحوا قادرين على العمل في ميدان من شأنه أن يقلب خطط الاستعمار رأسًا على عقب، فكان لا بد من القضاء على ذلك كله.

وكان مما أشار إليه الأستاذ البنَّا من عبرة فلسطين قوله: «كنتم تقولون متحمسين: الجهاد سبيلنا، فأبتسم ابتسامة الإشفاق، وأقول عند الامتحان، فجاء الامتحان القاسي في قضية فلسطين، فأثبتم صدقكم وصدق إيمانكم، وألحقكم ـ والحمد للَّه ـ بسلفكم الصالح من الأنصار والمهاجرين»[1].

* لا يؤمنون باللَّه: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي ص(٢٣٢ ـ ٢٣٤).

نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

قيل بين مَن ومَن؟

والجواب إنها بين الإخوان المسلمين الذين رأوا منذ عشرين سنة انحراف العالم كله عن جادة الصواب وضلاله في مسالك النظم الاجتماعية الفاسدة، وإهماله لهذا النظام الرباني الكريم والصراط المستقيم. كما رأوا كذلك نسيان أهل القرآن أنفسهم والمنتسبين إليه من أبناء الأمة الإسلامية لما فيه من روائع الحكم والأحكام، وانصرافهم عنه إلى مبادئ ودعوات لم يعرفوها، ونظم وأحكام لم يألفوها، جرّت عليهم الخيبة والفساد في الدنيا، وسيكون جزاؤها الندم والعذاب في الآخرة، فقاموا منذ هذا التاريخ يهتفون «القرآن دستورنا» ويطالبون في إلحاح بأن يكون للقرآن أمته الواعية، ودولته العاملة.

المعركة بين هؤلاء وبين أولئك من الصنفين: الذين لا يؤمنون به على اختلاف أممهم ودولهم وعقائدهم ليؤمنوا، والذين آمنوا به على اختلاف طوائفهم وهيئاتهم وأحزابهم ومذاهبهم ليتذكروا ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

قيل وعلى أي أساس تدور؟

والجواب: إنها تدور بالحكمة والموعظة الحسنة، والبيان الصريح الكافي والدعوة الواضحة المشرقة، على أساس النصوص القرآنية المحكمة القاطعة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ولن ندع الخصوم يفلتون من ثنايا وجوه التأويل والتفسير، أو يفرون من أبواب النقاش والجدل العقيم، بل سنوقفهم أمام النص المحكم وجهًا لوجه، فلا يستطيعون منه فرارًا أو إفلاتًا، فإما عناد وإما تسليم:

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

قيل وما النتيجة المرجوة من ذلك؟

والجواب: التميُّز أولاً، فلا بدَّ أن يمتاز أهل الحق من أهل الباطل، وحينئذٍ يزداد الذين آمنوا إيمانًا بعد وضوح حجتهم وبيان محجتهم، ويتعثر أهل الرجس في رجسهم، ويشعرون بمرض القلب، وظلمة النفس وفداحة الجرم، ومرارة الإثم، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرًا، وما طال عمر الباطل إلا حين يمتزج به ستار من الحق، أو يمتزج هو بعناصر من الحق، وما قعد بالحق شيء كاختلاطه بطرف من الباطل ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، ورحم اللَّه القائل: «ميِّزنا يا خالد» وحين يتم هذا التمييز في الموازين والقواعد، ثم في النفوس والمشاعر، ثم في الأعمال والتصرفات، تحدَّد بفعاله الحقوق والواجبات، وينتصر أهل الحق بحقهم، ويتفرق أهل الباطل عن باطلهم، وتكون العاقبة للمتقين، والنصر للمؤمنين، ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر اللَّه».

ولم يتوقف الأستاذ البنَّا عند هذا، بل بلغ إلى أقصى غايات النصح والتوجيه والإعذار إلى اللَّه، فكشف عيوب النظام السياسي المصري في جملة مقالات متوالية تحت عنوان:

ألا هل بلغت؛ اللَّهم فاشهد.

وقال بصراحة: «إن النفوس لن تقنع ولن تطمئن إلا إلى رسالة جديدة ولون من الحياة جديد».

وأشار إلى الكفاح والتطاحن بين الآراء والأوضاع، ودعا إلى الاختيار، وقال في صراحة تامة:

«إذا لم نختر اليوم ونحن راضون فسنقبل غدًا ـ بل الغد القريب ـ

ونحن مرغمون، وإني لأرى الوميض خلال الرماد يوشك أن يكون له ضرام، أمامنا الشيوعية والاشتراكية، وهما معتبران ـ من منطق التحالف الدولي اليوم ـ من معاني الديمقراطية، ولا يستطيع الديمقراطيون أن يقدموا غير هذا، وأمامنا كذلك نظام الإسلام، وتوجيه الإسلام، وتعاليم الإسلام، وأحكام الإسلام».

وقال: «ونحن في الحقيقة لسنا مخيرين ولسنا أحرارًا في الاختيار، فإننا جميعًا آمنا بهذا الإسلام الحنيف دينًا ودولة، واعتبرنا مصر دولة إسلامية، بل هي زعيمة دول الإسلام.

إذن فلا مناص للحكومة المصرية والهيئات المصرية والأحزاب المصرية من أن تفي بعهدها الشرعي للّه ولرسوله؛ يوم نطقت بالشهادتين، فالتزمت الإسلام، وبعهدها المدني الوطني لهذا الشعب يوم أصدرت الدستور، ونصت فيه على أن الدين الرسمي هو الإسلام، وبغير هذا تكون قد غدرت بعهدها، وخانت أمانة اللّه والناس عندها، وعليها أن تصارح الشعب ليحدد موقفه منها وموقفها منه، ولا محل اليوم للمداورة والخداع.

فهل تصيغ الآذانُ المغلقة إلى هذا النذير، فنعودَ إلى حجر الإسلام قولاً وعملاً وتطبيقًا.

يادولة رئيس الحكومة، يا رجال الأزهر الشريف، يا رؤساء الهيئات والجماعات والأحزاب، ويا أيها الغُيَّر على مصلحة هذا الوطن العزيز، ويا أبناء هذا الوطن جميعًا؛ إليكم أوجه النداء، فإلى تعالى الإسلام ﴿**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٨]، ألا هل بلغت، اللّهم فاشهد.

❑ وقال ـ رحمه اللّه ـ: «إن العالم الآن تتجاذبه شيوعية روسية من جانب، وديمقراطية أمريكية من جانب آخر، وهو بينهما مذبذب حائر، لن

يصل عن طريق إحداهما إلى ما يريد من استقرار وسلام.

وفي أيديكم أنتم قارورة الدواء من وحي السماء، فمن الواجب علينا أن نعلن هذه الحقيقة في وضوح، وأن ندعو إلى منهاجنا الإسلامي في قوة، ولن يضيرنا أن ليس لنا دولة ولا صولة، فإن قوة الدعوات في ذاتها، ثم في قلوب المؤمنين بها، ثم في حاجة العالم إليها، ثم في تأييد اللَّه لها متى شاء أن تكون مظهر إرادته وأثر قدرته ورحمته: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥ - ٦].

لا بد لنا أن نتسلم الراية: راية الحضارة الإنسانية لنسعد الناس ونحررهم بعد أن فشل الغرب وتخبَّط، لا بد لنا من هذا، وإننا لواصلون إليه، واللَّه غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ولتعلمن نبأه بعد حين.

الدنيا كلها حائرة ضالة لاهية، كلها تنظر إلى القيادة ومكانها شاغر، لن يملأه غيركم باسم اللَّه وباسم محمد ﷺ.

أجدد البيعة على أن أظلَّ - كما عرفتموني جميعًا في أول يوم - عاملاً مجاهدًا مكافحًا في سبيل دعوة الحق، لا ألين ولا أملّ ولا أتغير، حتى يحق اللَّه الحق؛ واللَّه على ما أقول وكيل»[1].

*** الرجل القرآني: حسن البنا لروبير جاكسون:**

زار الكاتب الأمريكي روبير جاكسون مصر سنة ١٩٤٦، وسنة ١٩٤٩، ووصف هذا الكاتب الشيخ البنا وكتب عن أثر دعوته فقال:

(١) «حسن البنا» لأنور الجندي ص(٢٣٥ - ٢٤١).

«إن معركة فلسطين، ومعركة التحرير الأخيرة في القناة، قد أثبتتا بوضوح أن الرجل صنع بطولات خارقة، قلّ أن تجد لها مثيلاً في تاريخ العهد الأول للدعوة الإسلامية».

وقال: «وقد أُتيح لي أن ألتقي بوالده الوقور الشيخ أحمد عبدالرحمن البنا[1] وسمعته يتحدث مع بعض الإخوان، أنه كان يتمنى لو أن ابنه وضع الكتب في أمر الإسلام واكتفى بذلك، قد ردّ عليه الأستاذ البنا بأنه منشرح الصدر لمعالجة الإسلام عن طريق تأليف الرجال».

وقال جاكسون أيضًا عن البنا: «كأنما أراد أن ينشيء للشرق روحًا جديدة من المثل العليا؛ هذه المادة الضائعة التي هزم بها الشرق الدنيا وفتح بها أطراف الأرض».

وتكلم عن رحلاته الدعوية إلى أكثر من أربعة آلاف قرية، وزيارته كل قرية بضع مرات بالقطار والسيارة والدابة وفي القوارب وعلى الأقدام!!

قال البنا لجاكسون: «هل قرأت عن محمد ﷺ؟ قال: نعم، قال: هل عرفت ما دعا إليه وصنعه؟ قال: نعم. قال: هذا هو ما نريده».

قال جاكسون عن البنا أنه: «:ان يقتفي خطوات عمر وعلي، ويصارع في مثل بيئة الحسين فمات: «وقال: «كان لا بد أن يموت هذا الرجل الذي صنع التاريخ، وحوّل مجرى الطريق شهيدًا؛ كما مات عمر وعلي والحسين».

وقال: «عاش الرجل كل ظحة من حياته، بعد أن عجزت كل وسائل الإغراء في تحويله عن نقاء الفكرة وسلامة الهدف.. لم يحن رأسه، ولم يتراجع، ولم يتردد أمام المثبطات ولا المهددات. وكان الرجل قذى في عيون

(١) الشيخ عبدالرحمن البنا الساعاتي والد الشيخ حسن البنا هو المحدث المصري الشهير وصاحب كتاب «الفتح الرباني في ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني على أبواب البخاري».

بعض الناس، وحاول الكثيرون أن يقيدوا من القوة التي يسيطر عليها، فقال لهم: «إن أنصاره ليسوا عصا في يد أحد، وإنهم للَّه وحده».

«كان كل جانب من جوانب شخصيته يبرز كطابع خاص في الوقت المناسب، ولكل هذه الصفات التي تقرؤها في كتب شمائل الصحابة والتابعين، لم يكن مقدرًا أن يعيش طويلاً في الشرق... وكان لا بد أن يموت باكرًا، فقد كان غريبًا عن طبيعة المجتمع، يبدو كأنه الكلمة التي سبقت وقتها، أو لم يأت وقتها بعد.

ولم يكن الغرب ليقف مكتوف اليدين أمام مثل هذا الرجل الذي أعلى كلمة الإسلام وخفت بدعوته ريح التغريب والجنس، ونزعات القومية الضيقة، وأعدلت لهجات الكتاب، وبدأ بعضهم يجري في ركب «الريح الإسلامية».

وقال: «كان الناس يرونه غريبًا في محيط الزعماء بطابعه وطبيعته، فلما مات كان غريبًا غاية الغرابة في موته ودفنه، فلم يصلِّ عليه في المسجد غير والده، وحملت جثمانه النساء، ولم يمش خلف موكبه أحد من هؤلاء الأتباع الذين كانوا يملئون الدنيا لسبب بسيط هو أنهم وراء الأسوار.

لقد نُقل الرجل بعد أن أسلم الروح إلى بيته في جوف الليل، ومنع أهل البيت من إعلان الفاجعة، وغسله والده، وخيم على القاهرة تلك الليلة كابوس مزعج كئيب. ولقد كان خليقًا بمن سلك مسلك أبي حنيفة ومالك وابن حنبل وابن تيمية مواجهة للظلم ومعارضة للباطل، أن تختتم حياته على هذه الصورة الفريدة المروعة، التي من أي جانب ذهبت تستعرضها، وجدتها عجيبة مدهشة!!.

إنه كان يدهش الناس في كل لحظات حياته، فلا بد أن يدهش الأجيال بختام حياته، إن الألوف المؤلفة قد سارت في ركب الذين صنع لهم الشرق

بطولات زائفة، أفلا يكون حسن البنَّا قد رفض هذا التقليد الذي لا يتم على غير النفاق.

إن هناك فارقًا أزليًا بين الذين خدعوا التاريخ وبين الذين نصحوا للَّه ولرسوله ﷺ، إن هذا الختام العجيب سيظل مدى الأجيال يوقد في نفوس رجال الفكر النور والضياء، ويبعث في قلوب الذين آمنوا معه ما بعثه الحق في نفوس أهله حتى يمكنوا له»[١].

لقد قتل الأستاذ حسن البنا في ٢٢ فبراير ١٩٤٩م، ولاحظ سيد قطب في أمريكا أثناء زيارته لها في تلك الأيام مظاهر الفرح والابتهاج، بل والشماتة ـ عند الأمريكان لاغتيال البنا، حيث اعتبروه أخطر رجل في الشرق[٢].

❑ قال الأستاذ سيد قطب: «وقد قُتِل الشهيد حسن البنا، وأنا هناك في عام ١٩٤٩م، وقد لفت نظري بشده ما أبدته الصحف الأمريكية، وكذلك الإنجليزية التي كانت تصل إلى أمريكا ـ من اهتمام بالغ بالإخوان، ومن شماتة وراحة واضحة، من حلّ جماعتهم وضربها، وفي قتل مرشدها»[٣].

❑ قال الأستاذ أحمد حسين زعيم «مصر الفتاة» عن البنا ـ رحمه اللَّه ـ في خطاب أرسله إلى فهمي أبو غدير (أكتوبر ١٩٧٦ في ظروف وأوقات معينة..

إن حسن البنا بتأسيسه جمعية الإخوان المسلمين كان استمرارًا لنضال مصر الإسلامية بعد أن تطورت ونشأت أجيال جديدة أراد لها الاستعمار أن

---

(١) انظر «حسن البنا» لأنور الجندي (ص٣٦٤ ـ ٣٩٠).

(٢) «سيد قطب» لصالح خالدي (ص١٨٨) دار القلم ـ دمشق.

(٣) «لماذا أعدموني» لسيد قطب (ص١٠).

تجهل كل شيء عن الإسلام فجاء حسن البنا فجعلهم فرسانًا للإسلام»[١] .

* الدين النصيحة:

✍ مع إسهابي في بيان دور الداعية الرباني في المشرق ودعوته وصدعه بالحق إلا أنه يؤخذ من قوله ويترك، ولا يغض ذلك من قدره، وكان ـ رحمه اللَّه ـ رجل دعوة وحركة أكثر منه رجل علم وتحقيق[٢] ، فنترك من أقواله وأصوله أشياء حاد فيها عن منهج السلف.

❑ فنجده مثلاً في باب «الألوهية» يذكر الشرك ويحذر منه، ولكن تارة بأسماء مجملة كالمنكر ولا يصرح بكونه شركًا[٣] .

❑ قوله: بأن التوسل إلى اللَّه بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من مسائل العقيدة[٤] .

❑ وفي كلامه على زيارة القبور يذكر الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بعض أنواع الشرك ولا يصرح بكونها شركًا[٥] .

❑ وفي الأسماء والصفات مال الشيخ إلى مذهب الأشاعرة المفوضة، فهو يراها من المتشابهات، ويفوض المعنى والكيفية[٦] ، وقوله: إن آيات الصفات من المتشابهات.

وليس هذا مجال الإسهاب وإنما نضع نقاطًا للخلاف معه تحتاج إلى

(١) «المدرسة الإسلامية» لأنور الجندي (ص٢٠، ٢١) ـ دار الاعتصام.

(٢) انظر (ص٥٦) من «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ البنا، ففيها ما يوافق هذا الكلام.

(٣) انظر «مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» (ص٣٥٦) ـ الأصل الرابع من الأصول العشرين.

(٤) انظر «مجموعة رسائل البنا» (ص٣٥٨) ـ الأصل الخامس عشر.

(٥) انظر «مجموعة رسائل البنا» (ص٣٥٨).

(٦) انظر «مجموعة رسائل البنا» (ص٣٥٧، ٣٥٨).

إسهاب، فلقد ختم الشيخ البنا كلامه على الصفات بأن «رأي السلف من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى اللَّه تبارك وتعالى أسلم وأولى بالاتباع»[١].

❑ ولقد قال الشيخ ابن باز لما سُئل عن: «قول أحد الدعاة: إن آيات الصفات من المتشابهات[٢]، ثم ذكر رأيه فقال: ونحن نرجح مذهب السلف من تفويض علم هذه المعاني إلى اللَّه فهل هذا مذهب السلف، أم مذهب السلف تفويض الكيفية مع معرفة المعنى الكلبي؟

فأجاب ـ رحمه اللَّه ـ: «هذا غلط، هذا القول غلط، ليست من المتشابهات، من الواضحات، آيات الصفات وأحاديث الصفات أمر واضح، وليس فيها متشابه... فهي معلومة معروفة المعاني عند أهل السنة ولكنها مجهولة الكيفية، فالتفويض في الكيفية فقط.

أما من قال نفوّض معانيها إلى اللَّه فهذا قول المفوضة وهو قول قبيح قول منكر معناه أن اللَّه خاطب الناس بما لا يفهمون ولا يعقلون، وهذا غلط، أهل السنة والجماعة يفوّضون الكيفية فقط ويؤمنون بالمعاني وأنها حق.

الرحمن ـ الرحمة معلومة ـ السميع معروف السمع ـ البصير معروف البصر.. هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة «قاطبة» المعاني معروفة، والكيف مجهول، والإيمان بها واجب، أما التفويض فهو من قول أهل البدع، والقول بأنها مشتبهة من قول أهل البدع، فليس من المشتبهات بل من

(١) «مجموعة الرسائل» للشيخ حسن البنا (ص٤١٨).. يقول الشيخ خالد فوزي في كتابه «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» (ص٣٥٧)، وقد قرأت هذه العبارة منذ سنوات وبالتحديد عام ١٤٠٠هـ على العلاّمة عبدالرزاق عفيفي فأجابني بأن هذا هو مذهب الأشاعرة».

(٢) قال البنا في «مجموعة رسائل الإمام البنا» (ص٣٥٧، ٣٥٨) في الأصل الأول من أصوله العشرين «وآيات الصفات، وأحاديثه الصحيحة، وما يليق بذلك من المتشابه...».

المعلومات، ولا تفوض معانيها، إنما التفويض للكيفية، أما معاني الصفات فهي معلومة»[١] .

فقد كان البنا ـ رحمه اللَّه ـ محبًّا لمذهب السلف ولكن غابت عنه أشياء فيه، منها قولهم في الأسماء والصفات، ولو اطلع على أدلتهم بالتفصيل لرجع إليها إذ هو معروف عنه الإذعان للحق والرجوع إلى السنّة.

❑ ونخالفه ـ رحمه اللَّه ـ في موقفه من الشيعة، ومما هو معروف أن الشيخ البنا كان في «لجنة التقريب بين السنة والشيعة» وأثبت ذلك الأستاذ حامد أبو النصر «من شريط مسجل» وقوله: «أن المذهبان قاما جنبًا إلى جنب مئات السنين دون أن يحصل احتكاك بينهما إلا في المؤلفات «ونسى الشيخ أنه نشبت الفتن طيلة القرون وأريقت الدماء بسبب الشيعة، بل وظهرت جلية خيانتهم لأهل السنة وإعاقتهم فتح أوربا أيام الدولة الصفوية الشيعية.

❑ ونخالفه ـ رحمه اللَّه ـ في موقفه من أهل الكتاب، فقد ذكر الأستاذ التلمساني في جريدة الأخبار في عدد صدر بعد أحداث ١٩٨١م التي شهدتها مصر أنه كان في المكتب العام للإخوان نصارى»[٢] !! .

وانظر إلى ما قال شقيق الشيخ حسن البنا الأستاذ عبدالرحمن البنا في خطابه الذي وجهه لصلاح حافظ ونشره الأخير بجريدة أخبار اليوم عدد ١٩٨٨/٢/٢٠م الصفحة الأخيرة «أراد مسيحو دمنهور ذات يوم أن يبنوا كنيسة فاعترضهم الإخوان المسلمون وحضر الأستاذ المستشار ميلاد تادرس من دمنهور إلى الشيخ حسن البنا في القاهرة وأخبره بالأمر فأمسك الأستاذ حسن البنا بالتليفون وأمر الإخوان المسلمين في دمنهور أن يقوموا بالعمل في بناء

(١) مسجل من شريط رقم (١٥) من فتاوى حج عام ١٤٠٨هـ بالتوعية الإسلامية، مكة المكرمة.

(٢) «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» هامش (ص٣٦٣).

الكنيسة مع المواطنين المسيحيين».

وهذا الكلام عجيب حقًّا، فقد «اتفق المسلمون على أن ما بناه المسلمون من المدائن لم يكن لأهل الذمة أن يحدثوا فيها كنيسة؛ مثل ما فتحه المسلمون صلحًا، وأبقوا لهم كنائسهم القديمة؛ بعد أن شرط عليهم فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا يحدثوا كنيسة في أرض الصلح، فكيف في مدائن المسلمين؟! بل إذا كان لهم كنيسة بأرض العنوة كالعراق ومصر ونحو ذلك فبنى المسلمون مدينة عليها إن لهم أخذ تلك الكنيسة، لئلا تترك في مدائن المسلمين كنيسة بغير عهد، فإن في سنن أبي داود بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تصلح قبلتان بأرض، ولا جزية على مسلم**»[1] ، والمدينة التي يسكنها المسلمون، والقرية التي يسكنها المسلمون وفيها مساجد للمسلمين لا يجوز أن يظهر فيها شيء من شعائر الكفر، لا كنائس ولا غيرها، إلا أن يكون لهم عهد فيوفي لهم بعدهم، فلو كان بأرض القاهرة ونحوها كنيسة قبل بنائها لكان للمسلمين أخذها؛ لأن الأرض عنوة فكيف وهذه الكنائس محدثة أحدثها النصارى؟»[2] .

فكيف تبنى كنائس جديدة، فضلاً من أن يقوم المسلمون بالعمل في بنائها؟!!.

▣ ولم يكن الأمر مختلفًا بالنسبة لليهود!!، فقد جعل البنا ـ رحمه اللَّه ـ وغفر له الخلاف مع اليهود ليس دينيًّا، وذلك فيما قاله أمام لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية حيث قال: «باسم الإخوان المسلمين أؤيد ما أعلنه العرب وزعماؤهم ومندوبوهم وكذلك الجامعة العربية، والناحية التي سأتحدث عنها

(١) **إسناده جيد**: أخرجه أبو داود في الإدارة (باب ٢٨)، والترمذي في الزكاة (باب ٧) وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٣٣/ ٢٨٥).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٦٣٤ ـ ٦٣٥). و«أحكام أهل الذمة» (٢/ ٦٧٧).

بسيطة من الوجهة الدينية؛ لأن هذه النقطة قد لا يكون مفهومة في العالم الغربي، ولهذا فإني أحب أن أوضحها باختصار، فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن حض على مصافاتهم ومصادقتهم[١] . والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية، وقد أثنى[٢] عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقا ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [٤٦: العنكبوت]»[٣] .

وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول اليهود تناولهم من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿بِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا[٤] ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾. ولي كلمة أخيرة من الوجهة الدينية، فإن اليهود يقولون عن فلسطين: إنها أرض الميعاد.. ونحن لا مانع لدينا من أن يكونوا في يوم القيامة معنا!!!!!»[٥، ٦] .

وهذه مخالفة صريحة للشرع، ولا أظن أن أحدًا يوافق أن القرآن أثنى على اليهود، وحث على مصادقتهم وأن خلافنا معهم ليس في العقيدة والدين!!!

□ أما في تصوفه فمنهج الأستاذ حسن ـ رحمه اللَّه ـ لم يخل من غبار

---

(١) في أي آية هذا الحض؟!

(٢) هل في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ثناء!!!

(٣) ولم ينظر الشيخ إلى بقية الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ...﴾.

(٤) هل الوجهة القانونية في قوله: ﴿وبصدهم عن سبيل اللَّه كثيرا﴾!!!!.

(٥) لا وألف لا، لا نحب هذا فإن المرء يُحشر مع من أحب.

(٦) «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ... رؤية من الداخل» للأستاذ محمود عبدالحليم (١/ ٤٠٩، ٤١٠) ـ دار الدعوة بالإسكندرية.

التصوف غفر اللَّه له[١].

❑ وكذلك يؤخذ عليه قوله: «الإلهام، والخواطر، والكشف والرؤى، ليست من أدلة الأحكام، ولا تعتد إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

فمفهوم كلامه أنها إذا لم تصطدم بأحكام الدين ونصوصه فيعتد بها من أدلة الأحكام وهذا باطل.

❑ وقوله في الأصل الثاني عشر أن «البدعة الإضافية والتركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي لكل فيه رأيه ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان»[٢].

والمطالع في كتب أهل العلم المصنفين في البدع تجدهم يدخلون في الأنواع المذكورة بدعا تخرج صاحبها عن الملة «كبدعة إسقاط التكاليف».

غفر اللَّه للبنا وكل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول اللَّه ﷺ، ولكنا لا نغمط قدر الرجال..

*** الدين النصيحة:**

اعتراف كبار الإخوان بالتقصير في تصحيح العقيدة:

لقد انتبه بعض قادة الإخوان إلى خطورة الإهمال أو التقصير في جانب العقيدة في دعوتهم، فصرّحوا بذلك أداءً للأمانة، وتفاديًا للأخطاء التي حصلت في تربية الشباب في الماضي.

---

(١) انظر «رسائل البنا» (ص٣٨٥).

(٢) انظر «الإبداع في مضار الابتداع» للشيخ علي محفوظ ـ دار الاعتصام (ص٥٣، ٦٠) ففيهما الرد الشافي.

❑ قال الأستاذ سيد قطب ـ رحمه اللّه ـ:

«وبعد مراجعة ودراسة طويلة لحركة الإخوان المسلمين، ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى للإسلام أصبح واضحًا في تفكيري أن الحركة اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات البشرية يوم جاء الإسلام أول مرة من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية، وليس فقط البعد عن النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية..

.. ولا بد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة، وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلامية صحيحة، وعدم إضاعة الوقت في الأحاديث السياسية الجارية، وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي لأنها عرفته على حقيقته، وتريد أن تحكم به.

هذا الظرف كان يحتّم عليّ أن أبدأ مع كل شاب، وأسير ببطء وحذر من ضرورة فهم العقيدة الإسلامية فهمًا صحيحًا قبل البحث عن تفصيلات النظام، والتشريع الإسلامي. وضرورة عدم إنفاق الجهد في الحركات السياسية المحلية الحاضرة في البلاد الإسلامية، للتوفر على التربية الإسلامية الصحيحة لأكبر عدد ممكن. وبعد ذلك تجيء الخطوات التالية بطبيعتها بحكم اقتناع وتربية قاعدة في المجتمع ذاته؛ لأن المجتمعات البشرية اليوم بما فيها المجتمعات في البلاد الإسلامية قد صارت حالة مشابهة كثيراً، أو مماثلة لحالة المجتمعات الجاهلية يوم جاءها الإسلام، فبدأ معها من العقيدة والخلق، لا من الشريعة والنظام.

واليوم يجب أن تبدأ الحركة والدعوة من نفس النقطة التي بدأ منها

الإسلام وأن تسير في خطوات مشابهة مع مراعاة بعض الظروف المغايرة»[١] .

❑ قال الدكتور ربيع بن هادي المدخلي، بعدما نقل كلام سيد قطب هذا:

«رحم اللَّه سيد قطب، لقد نفذ من دراسته إلى عين الحق والصواب ويجب على الحركات الإسلامية أن تستفيد من هذا التقرير الواعي الذي انتهى إليه سيد قطب عند آخر لحظة من حياته بعد دراسة طويلة واعية. لقد وصل في تقريره هذا إلي عين منهج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[٢] .

❑ قال الأستاذ محمد قطب في كتابه «واقعنا المعاصر»[٣] ـ وكأنه يفسّر

---

(١) جريدة المسلمين الدولية (المسلمون) السنة الأولى، العدد الثالث، الصادر في يوم السبت الموافق ٤/ جمادي الآخرة ١٤٠٥هـ. (٦ ـ ٧) حلقة من سلسلة مقالات تحت عنوان (لماذا أعدموتي؟».

(٢) «منهج الأنبياء» (ص١٣٩) للشيخ ربيع بن هادي المدخلي.

(٣) كتب الدكتور محمد حكمت تعريفًا بكتاب «واقعنا المعاصر» تحت عنوان «قراءة في كتاب واقعنا المعاصر للأستاذ محمد قطب» في مجلة المجتمع الكويتية (السنة التاسعة عشرة، العدد ٨٧٠) فقال:

«هذا هو آخر كتاب يصدره المفكر الإسلامي محمد قطب، وقد أفرغ فيه خلاصة فكرية ناضجة، وتجربة إسلامية غنية تصف واقع المسلمين اليوم، وتحلل جذور المشكلات التي يعانون منها. وقد قام المؤلف بتشخيص خطر الانحراف الذي أصاب المجتمع الإسلامي، وبدأ الهبوط به عن الذروة العليا التي كان عليها جيل الصحابة والخلفاء الراشدين. ثم حلّل آثار هذا الانحراف الذي طرأ على المجتمع الإسلامي.

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن الصحوة الإسلامية المعاصرة بما تشكله من آمال كبار، وما يعترض طريقها من مشكلات إلى أن ينتهي بنظرة إلى المستقبل. كل ذلك في عرض مفصّل شيّق، وبأسلوب رصين معتدل. وهو، وإن فصل بحكم المعايشة في تجربة مصر في هذا المجال، إلا أن ما ينطبق على مصر ينطبق على كثير من البلدان العربية والإسلامية سواء على الصعيد الإسلامي أو على الصعيد العلماني. ويقع هذا الكتاب النفيس في خمسة فصول..».

رأي أخيه في الاهتمام بجانب العقيدة:

«لقد كان العمل الذي قام به حسن البنا عملاً ضخمًا يشبه أن يكون إعادة بناء أمة..

لقد كان حال هذه الأمة كجدار يريد أن ينقضّ.. فأقامه[١].

ولكن هذا البناء الضخم الذي أقامه كان يشتمل على ثغرات تعطي تأثيراتها بصور شتى في خط السير.. وأغلب الظن أن هذه الثغرات لم تكن بادية للبنا العظيم في بداية السير، إلا أنها بدت له واضحة فيما بعد قبيل مقتله ـ كما سيجيء ـ وإن كان لم يمهل لترسيخها في قلوب أتباعه.

ـ كانت الثغرة الأولى: الاستعجال في التجميع الجماهيري قبل موعده الذي ينبغي أن يجيء فيه[٢]..

ـ وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع قبل أن يتمّ بناء الأعمدة الراسخة بالمواصفات المطلوبة، حدث التعجل بالتحرك قبل الأوان المناسب، سواء في الساحة الداخلية، أو في ساحة المعركة في فلسطين[٣].

❑ وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع، وفي التحرّك بهذه الجماهير قبل الأوان المناسب، حدث كذلك في عملية البناء ذاتها. فلم تبدأ من نقطة البدء اللازمة، بل تجاوزتها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب..

لقد اعتبرت قضية العقيدة قضية بديهية، وقضية منتهية.. وكان هذا.. مبالغة في إحسان الظن، وأثبتت الأيام فيما بعد أنه في حاجة إلى مراجعة شديدة. وأن نقطة البدء كان ينبغي أن تكون هي تصحيح العقيدة ذاتها،

---

(١) «واقعنا المعاصر» (ص٤١٠).

(٢) المصدر السابق (ص٤١١).

(٣) المصدر السابق (ص٤١٧).

وجلاء مفهومها الحقيقي الذي غاب عن الجماهير، بل غاب عن كثير[١] من الدعاة أنفسهم في غربة الإسلام الثانية التي أخبر عنها رسول اللَّه ﷺ حين قال: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء**»[٢].

*** منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللَّه:**

وصل الأستاذ محمد قطب بهذا التحليل المرحلي الدقيق، والنظر الواسع العميق في دعوة الإخوان، إلى أهمية العقيدة، وترسيخها في أذهان الشباب أولاً وقبل كل شيء، بحيث تُدَكُّ قاعدتُها دكًا متينًا، لا يتأثر برواسب البيئة وعواصفها وتقاليدها وعاداتها.

وهذه هي «نقطة البدء اللازمة» في الدعوة، ولا يجوز تجاوزها إلى ما يجيء بعدها في الترتيب ظنًا بأن المجتمع مسلم لا يحتاج إلى مراجعة في عقيدته. وهذا هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللَّه تعالى»[٣].

فالدعوة التي تريد بحق منهج الأنبياء لا بد أن تنقي عقيدة أفرادها من رواسب البيئة وتهويلات أهل البدع والأهواء حتى تبقى واضحة نقية طبق الكتاب والسنة كما كانت في عهد الإسلام الزاهر.

ولا يمكن إعادة مجد المسلمين المفقود، واسترداد حقوقهم المغصوبة في مشارق الأرض ومغاربها إلا بالعودة إلى الكتاب والسنّة عقيدة وعملاً، ومنهجًا وسلوكًا.

وتربية الناس على عقيدة أهل السنة والجماعة مثلما حدث في دعوة

---

(١) وما أمر التلمساني والغزالي وسعيد حوى وعبدالمتعال الجابري ومحمد حامد أبو النصر وغيرهم عنكم ببعيد.

(٢) «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب (ص٤١٩) ـ دار الشروق.

(٣) «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» لصلاح الدين مقبول (ص٣٢٦ ـ ٣٢٩).

الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة واهتمام علمائها ودعاتها بغرس عقيدة السلف. . هذه من لم تكن واضحة في دعوة الشيخ حسن البنا غفر اللَّه له. ولذلك وقع كبار دعاتها بل الشيخ البنا نفسه فيما خالف عقيدة السلف في بعض أقواله، مثلما ذكرنا من قبل من قوله في التوسل، وذهابه إلى تفويض المعنى في الأسماء والصفات وقوله: أن هذه عقيدة السلف وهذا خلاف الحقيقة، وعدم تمحيصهم لمسائل الولاء والبراء.

*** وتعال معي إلى هذه الحقائق:**

«احتفل الإخوان المسلمون بمرور عشرين عامًا على إنشاء الجماعة وفي هذا الحفل خطب حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين خطبة قال فيها:

«وليست حركة الإخوان موجهة ضد أي عقيدة من العقائد أو دين من الأديان أو طائفة من الطوائف، إذ أن الشعور الذي يهيمن على نفوس القائمين بها أن القواعد الأساسية للرسالات جميعًا قد أصبحت مهددة الآن بالإلحادية، وعلى الرجال المؤمنين بهذه الأديان أن يتكاتفوا ويوجهوا جهودهم إلى إنقاذ الإنسانية من هذا الخطر، ولا يكره الإخوان المسلمون الأجانب النزلاء في البلاد العربية والإسلامية، ولا يضمرون لهم سوءًا حتى اليهود المواطنين لم يكن بيننا وبينهم إلا العلائق الطيبة»[1].

وقبلها عام ١٩٤٦ اختطب أمام لجنة أمريكية بريطانية بشأن قضية فلسطين فقال:

«. . والناحية التي سأتحدث عنها نقطة بسيطة من الوجهة الدينية لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة في العالم الغربي، ولهذا فإني أحب أن

---

(١) «قافلة الإخوان» للسيسي (ص١/٣١١) ـ كان هذا الاحتفال وهذه الخطبة في (٥/٩/١٩٤٨م).

أوضحها باختصار، فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن الكريم حض على مصافاتهم ومصادقتهم والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية وقد أثنى عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقًا ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول مسألة اليهود تناولها من الوجهة الاقتصادية والقانونية فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ ونحن حين نعارض بكل قوة، الهجرة اليهودية، نعارضها لأنها تنطوي على خطر سياسي، وحقنا أن تكون فلسطين عربية».

❑ وسُئل سماحة الشيخ: عبدالعزيز بن باز مفتي عام المملكة العربية السعودية ورئيس إدارة الافتاء والبحوث العلمية سابقًا عن هذا الكلام فأجاب ـ رحمه اللَّه ـ:

ما حكم الشرع فيمن يقول: إن خصومتنا مع اليهود ليست دينية وقد حث القرآن على مصافاتهم ومصادقتهم، وجعل بيننا وبينهم اتفاقًا فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية، وحينما أراد القرآن أن يتناول قضية اليهود تناولها من وجهة اقتصادية وسياسية فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا...﴾ إلى نهاية الآية.

ما حكم الشرع في هذه المقولة يا شيخنا؟

❑ أجاب سماحة الشيخ بقوله:

«هذه مقالة باطلة خبيثة، اليهود من أعدى الناس للمؤمنين، هم من أشر الناس، بل هم أشد الناس عداوة للمؤمنين مع الكفار كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فاليهود

والوثنيون هم أشد الناس عداوة للمؤمنين.

وهذه المقالة مقالة خاطئة ظالمة، قبيحة، منكرة، . . والدعوة إلى اللَّه بالحسنى ليست خاصة باليهود ولا بغيرهم، بل الدعوة إلى اللَّه مع اليهود ومع الوثنيين ومع الشيوعيين ومع غيرهم، يقول اللَّه جلَّ وعلا: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. هذا عام للكفار ولغير الكفار.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ليس خاصًا بهم، ولكن من باب التنبيه على أنهم وإن كانوا يهودًا أو نصارى فإنهم يجادلون بالتي هي أحسن؛ لأن هذا أقرب إلى دخولهم في الإسلام وإلى قبولهم الحق، إلا إذا ظلموا، . . ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾، الظالم له ما يستحق من الجزاء.

فالحاصل: أن الدعوة بالتي هي أحسن عامة لجميع الكفار ولجميع المسلمين. الدعوة بالتي هي أحسن، ليست خاصة باليهود ولا بالنصارى ولا بغيرهم.

فهذا الكلام الذي نقلته عن هذا الشخص، هذا غلط.

نسأل اللَّه للجميع الهداية»[1].

❑ وكذلك سُئل الشيخ السؤال التالي:

هل يكفر من يدخل كنائس النصارى، ويحترمهم، ويقول لهم: يا سماحة البابا، ويا قداسة البابا، ويقول لهم: يا صاحب السيادة لحاخام اليهود، ويقول: إنه ليس بيننا وبين اليهود أية عداوة دينية، بل القرآن حث على حبهم ومصافاتهم، أنبئونا عن ذلك جزاكم اللَّه خيرًا؟

(١) نقلاً عن شريط مسجل بتاريخ (٢٨/ ٧/ ١٤١٢) هـ للشيخ عبدالعزيز بن باز.

❑ فأجاب:

«هذا جهل كبير فلا يجوز هذا الكلام، لكنه لا يكون ردة عن الإسلام عندما يسلم عليه أو يدخل عليه إنما معصية. أما إذا قال: ليس بين الإسلام وبين اليهود شيء فهذا كفر وردة، واللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا**﴾ فبيننا وبينهم عداوة عظيمة، فمن يقول: إن الدين واحد ولا بيننا وبينهم عداوة فهذا جاهل مركب، وضال مضل كافر فالذي بيننا وبينهم العداوة، واليهود من أكفر الناس وأضلهم وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين»[1].

❑ يقول محمد الغزالي:

«والواقع أن المسلمين ـ كأصحاب المثل ـ تطغى عليهم طيبة القلب، وصفاء الطوية، فينشدون السلامة ويحسنون الظن، ثم يفاجئهم ما ليس في الحسبان فيعلمون أنهم مهما أحبوا مكروهين.

* ومن ثم يقول اللَّه لهم: ﴿**هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ**﴾.

ومع ذلك التأريخ الساق، فإننا يجب أن نمد أيدينا وأن نفتح آذاننا وقلوبنا إلى كل دعوة تؤاخي بين الأديان وتقرب بينها، وتنتزع من قلوب أتباعها أسباب الشقاق.

إننا نقبل مرحبين على كل وحدة توجه قوى المتدينين إلى البناء لا الهدم، وتذكرهم بنسبهم السماوي الكريم وتصرفهم إلى تكريس الجهود

(١) نقلا عن مجلة «الدعوة». العدد رقم (١٤٠٢) وتاريخ (١٧ صفر ١٤١٤هـ).

لمحاربة الإلحاد والفساد وابتكار أفضل الوسائل لرد البشر إلى دائرة الوحي[١] بعد ما كادوا يفلتون منها إلى الأبد»[٢] .

❑ **أقول**: لم يستفد الغزالي من توجيه اللَّه للمسلمين في كتابه الحكيم ولم يستحضر آيات الولاء والبراء التي تجعل من يتولى اليهود والنصارى فهو منهم ـ ولو في أقل من الصورة التي يدعو إليها الغزالي وأصغر منها ـ فمتى دعا القرآن والسنة أو الصحابة أو علماء الإسلام ـ عياذًا باللَّه ـ إلى هذه الأخوة بين أهل الديانات.

وإلى هذه الوحدة التي لا قدوة للغزالي فيها غير الماسونية الملحدة.

خلا لك الجو فبيضي واصفري ونقـري ما شئت أن تنقـري

*** فيا غربة الإسلام؟!**

❑ وقال مصطفى السباعي في معركة الدستور[٣] :

اعتراض الطوائف المسيحية:

يتضح مما قرأناه لرؤساء الطوائف المسيحية، ومما سمعناه منهم أن اعتراضهم ينصب على ناحيتين اثنتين:

١ ـ إن معنى دين الدولة الإسلام، أن أحكام الإسلام ستطبق على المسلمين والمسيحيين، ولما كانت للمسيحيين عقائد وأحكام وأحوال شخصية تختلف عن الإسلام، **فكيف يجبرون على أحكام الإسلام؟!**

❑ وهذا الفهم خاطئ من نواح عدة، أهمها: **أن الإسلام يحترم المسيحية**

---

(١) يبدو أن الغزالي يرى أن الرجوع إلى اليهودية والنصرانية المحرفتين رجوع إلى دائرة الوحي.

(٢) كتاب «من هنا نعلم» (ص١٥٠).

(٣) «مجلة حضارة الإسلام» ـ العدد الخاص بالحديث عن حياة السباعي (ص١١٧ ـ ١٢٢).

كدين سماوي ويترك لأهلها حرية العقيدة والعبادة دون أن يتدخل في شئونهم، أما أحوالهم الشخصية فلا يتعرض لها بحال، ولا يمكن أن يطبق عليهم أي من الأحكام التي تخالف شريعتهم أو تقاليدهم، وأحكام الإسلام في ذلك واضحة، وكتب التشريع الإسلامي بين أيدينا، ووقائع التاريخ لا ينكرها إلا مكابر، وقد ظل المسيحيون العرب منذ عصر الإسلام حتى الآن يتمتعون بعقيدتهم وعبادتهم، وأحوالهم الشخصية لم تتعرض لها دولة ولا حكومة، في الوقت الذي كان الحكم فيه للإسلام خالصًا، فكيف يتوهم الآن أن يطبق عليهم أحكام تخالف دينهم ونحن في دولة برلمانية شعبية الحكم فيها للشعب ممثلاً في نوابه المسلمين والمسيحيين؟

ونزيد على ذلك أنه مع احترام الإسلام لكل ما ذكرناه فنحن لم نكتف بذكر هذه في الدستور بل اقترحنا أن تنص على احترام الأديان السماوية وقدسيتها واحترام الأحوال الشخصية للطوائف الدينية، فكيف يخطر في البال بعد هذا أن هنالك خطرًا على عقيدة المسيحيين وأحوالهم الشخصية؟!

٢ ـ إن معنى دين الدولة الإسلام العداء للأديان الأخرى، وانتقاص غير المسلمين في حقوقهم والنظر نظرًا يختلف عن اتباع الدين الرسمي، وهذا خطأ بالغ أيضًا، فليس الإسلام دينًا معاديًا للنصرانية حتى يكون النص عليه عداء لها، بل هو معترف[1] بها ومقدس لسيدنا المسيح عليه السلام، بل هو الدين الوحيد من أديان العالم الذي يعترف بالمسيحية وينزه رسولها الكريم وأمه البتول، وقد أمر القرآن الكريم أتباعه أن يؤمنوا بالأنبياء جميعًا ومنهم عيسى

(١) ما هذا الاعتراف واللَّه يقول: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن اللَّه هو المسيح﴾ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن اللَّه ثالث ثلاثة﴾ وهل يجوز هذا الربط بين أمة كافرة باللَّه وبين رسول كريم؟!

عليه السلام فأين العداء وأين الخصام بين الإسلام والمسيحية؟!

أوليس النص على أن الإسلام دين الدولة[١] الرسمي يتضمن أن المسيحية دين رسمي للدولة باعتبار الإسلام معترفًا بها ومحترمًا لها؟

وأما توهم الانتقاص من المسيحيين، وامتياز المسلمين، فأين الامتياز؟

أفي حرية العقيدة، والإسلام يحترم العقائد جميعًا، **والدستور سيكفل حرية العقائد للمواطنين جميعًا؟**

أم في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات، والإسلام لا يفرق بين مسلم ومسيحي فيها، ولا يعطي للمسلم في الدولة حقًّا أكثر من المسيحي، والدستور سينص على تساوي المواطنين جميعًا في الحقوق والواجبات[٢] ؟

إني سأضع أمام القراء وأمام أبناء الشعب جميعًا نص المادة المقترحة في هذا الشأن ليروا بعد ذلك أي خوف منها وأي غبن يلحق المسيحية فيها.

١ ـ الإسلام دين الدولة.

٢ ـ الأديان السماوية محترمة ومقدسة.

٣ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ ـ المواطنون متساوون في الحقوق لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة.

إني أسأل المنصفين جميعًا وخاصة أبناء الطوائف الشقيقة: إذا كانت المادة التي تنص أن دين الإسلام هي التي تتضمن هذه الضمانات كلها، فأين الخوف،

(١) نعوذ باللَّه من هذه التقول على الإسلام، كيف تكون النصرانية المحرَّفة إلى الكفر والوثنية دين رسمي للدولة الإسلامية. إن كانت دولة السباعي كذلك فهي دولة مرتدة.

(٢) هذا الكلام فيه افتراء كبير على اللَّه وعلى الإسلام ومصادمة لنصوص كثيرة في القرآن والسنة ولما علمه وقرره علماء المسلمين من أهل السنة وغيرهم، فأي تحريف يفوق هذا التحريف عياذًا باللَّه؟

وأين الغبن، وأين الامتياز للمسلمين وأين الانتقاص لغيرهم؟»[1] ا.هـ.

*** ويؤخذ عليه رحمه اللَّه صوفياته:**

فقد قال أخوه عبدالرحمن البنا: «أنه حين يهلّ هلال ربيع الأول كنا نسير في موكب مسائي كل ليلة حتى ليلة الثاني عشر ننشد القصائد في مدح الرسول وكان من القصائد المشهورة في هذه المناسبة المباركة.

صلى الإله على النور الذي ظهرا ... للعالمين ففاق الشمس والقمرا

كان هذا البيت تردده المجموعة ينشد أخي وأنشد معه:

هذا الحبيب مع الأحباب قد حضرا ... وسامح الكل فيما قد مضى وجرا

لقد أدار على العشّاق خمرته ... صرفًا يكادُ سناها يذهب البصرا

يا سعد كرر لنا ذكر الحبيب لقد ... بلبلت أسماعنا يا مطرب الفقرا

وما لركب الحمى مالت معاطفه ... لا شك أن حبيب القوم قد حضرا»[2]

❑ وفي هذا من الشركيات ما فيه ونسبة المغفرة إلى رسول اللَّه ﷺ.

وقال أيضًا الأستاذ عبدالرحمن البنا: «وعقب صلاة العشاء يجلس أخي البنا إلى الذاكرين من جماعة الإخوان الحصافية وقد أشرق قلبه بنور اللَّه فأجلس إلى جواره نذكر اللَّه مع الذاكرين وقد خلا المسجد من أهل الذكر وخبا الصوت إلا ذبالة من السرج وسكن الليل إلا همسات من الدعاء أو ومضات من ضياء وشمل المكان كله نور سماوي ولفه جلال رباني وذابت الأجسام وهامت الأرواح وتلاشى كل شيء في الوجود وانمحى وانساب صوت المنشد في حلاوة وتطريب.

---

(١) «العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم» للشيخ ربيع المدخلي (ص٦٤ ـ ٧٠) ـ مكتبة الفرقان.

(٢) «حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه» لجابر رزق (ص٧١ ـ ٧٢).

اللَّه قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمالِ
فجميع ما في الكون إن حققته عدم على التفصيل والإجمالِ»[١]

❑ وهذا الكلام لا يحتمل شرعًا وعقلاً غير وحدة الوجود أو وحدة الشهود.

❑ ومنها محاضرته في مشهد السيدة زينب بمناسبة حفل العام الهجري، وعدم ذكره للشرك الأكبر ولا نهيه عنه، مع أنه يرى من يتطوفون بالقبر ويسألون من صاحبته ما لا يُطلب إلا من اللَّه»[٢] .

❑ ومنها مشيه إلى قبر الدسوقي وسنجر عشرين كيلاً ذهابًا وعشرين كيلاً رجوعًا سيرًا على الأقدام[٣] .

❑ ومنها ثناؤه على الميرغني المعروف بوحدة الوجود[٤] .

---

(١) «حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه» (ص٧١ ـ ٧٢).

(٢) «الطريق إلى الجماعة الأم» لعثمان (ص٢٦).

(٣) قال حسن البنا في مذكراته (ص٣٣): «وكنا في كثير من أيام الجمع التي يتصادف أن نقضيها في (دمنهور) نقترح رحلة لزيارة الأولياء القريبين من (دمنهور) فكنا أحيانًا نزور دسوقي فنمشي على أقدامنا بعد صلاة الصبح مباشرة بحيث نصل حوالي الساعة ٨ صباحًا فنقطع المسافة في ثلاثة ساعات وهي نحو عشرين كيلو مترًا ونزور ونصلي الجمعة ونستريح بعد الغداء ونصلي العصر.

وقال في الصفحة نفسها: «وكنا أحيانًا نزور عزبة النوام حيث دفن في مقبرتها سيد سنجر من خواص رجال الطريقة الحصافية».

(٤) انظر «رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب لمحمد بن علي الصومعي (ص٢٨) الهامش (١) ـ طبع دار الآثار ـ وفيها:

في ١٩٤٨/٦/٩م زار القاهرة شيخ الطريقة المرغنية الختمية فاحتفل المركز العام للإخوان به فتكلم البنا في الحفل فقال: إن دارَ الإخوان لتسعد وتأنس أعظم الإيناس إذ تستقبل هذه القلوب الطاهرة والنفوس الكريمة أعلام الجهاد وأبطال العروبة وأقطاب قادة الإسلام.. لعل الكثيرين أيها السادة لا يعلمون أننا نحن الإخوان مدينون للسادة المرغنية =

❑ ومنها سعيه الدءوب للتقريب بين السنة والرافضة[١] .

وهذا المسلك والمنحى للأسف هو منحى المودودي غفر اللَّه للجميع.

❑ يقول أبو الأعلى المودودي: «إن ثورة الخميني ثورة إسلامية، والقائمون عليها هم جماعة إسلامية، وشباب تلقوا التربية الإسلامية في الحركات الإسلامية.

وعلى جميع المسلمين عامة، والحركات الإسلامية خاصة أن تؤيد هذه الثورة كل التأييد، وتتعاون معها في جميع المجالات»[٢] .

❑ ولا يفهم مطلقًا أن جماعة الإخوان ضمت جمعًا من الأقباط ولا يقبل هذا، وهذا متواتر على لسان قادة الجماعة ففي كتاب «دعوة الإخوان المسلمون في الميزان» وفي مجلة «لواء الإسلام» العدد الأول السنة الخامسة والأربعون رمضان ١٤١١هـ (ص٣٩) قالت المجلة: «والإمام حسن البنا عندما شكّل اللجنة السياسية العليا للإخوان المسلمين كان ضمن أعضائها ثلاثة من المسيحيين هم الأساتذة: ١ ـ لويس أخنوخ. ٢ ـ وهيب دوس. ٣ ـ ثابت كريمز[٣] .

= بدين المودة الخالصة والحفاوة البالغة التي غمرونا بها من قبل ومن بعد.. اهـ.
قافلة الإخوان لعباس السيسي (ص١٥٠) بواسطة الطريق إلى الجماعة الأم (ص٢٧).

(١) وعلى نفس الطريق سارت الجماعة فقد جاء في «مجلة الدعوة» في (٢٥/١٩٧٩) «دعاء التنظيم العالمي للإخوان المسلمين قيادات الحركات الإسلامية في كل من تركيا وباكستان والهند وإندونسيا إلى اجتماع أسفر عن تكوين وفد توجه إلى طهران وقد أكّد الوفد من جانبه أن الحركات الإسلامية ستظل على عهدها في خدمة الثورة في إيران.. انظر «الطريق إلى الجماعة الأم» (ص١٠٥).

(٢) «ملحوظات وتنبيهات» لعبداللَّه بن صلفيق الظفيري (ص٣٤) ـ دار المنهاج نقلاً عن «الشقيقان» (ص٣).

(٣) «الرد الشرعي المعقول على المتصل المجهول» لأحمد بن يحيى النجمي المطبوع مع «رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب» (ص١٠٢ ـ ١٠٣).

❑ ويعاب على الجماعة أنها ضمت خليطًا من أصحاب الاتجاهات فمنهم السلفي ومنهم المعتزلي والصوفي والأشعري..

❑ يقول محمد سرور زين العابدين الذي قضى في المنهج الإخواني عقدًا من الزمن: «لم يعد عقلي يتصور وجود جماعة واحدة فيها السلفي، والصوفي، والأشعري، والخارجي، ودعاة الاعتزال والعقلانية، وغير ذلك من الاتجاهات المختلفة المتباينة. لقد سئمت من سياسة التجمع على أساس غير سليم، وصرت أعتقد فشل سياسة وتخطيط هذا الخليط من الخلائق، وإن زعموا أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى. ومللت من ترداد من حولي: «ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه». كيف يعذر بعضنا بعضًا في اختلاف التضاد»[1].

❑ قال البنا ـ رحمه اللَّه ـ: «نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»[2].

وقد سُئِل الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه اللَّه ـ عن هذه المقالة:

«ونص السؤال ما يلي: ما هو قولكم في هذه العبارة: فلنتعاون فيما اتفقنا عليه وليعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه؟

فأجاب: أما الجزء الأول منها فصحيح يجب أن نتعاون فيما اتفقنا عليه.

وأما الثاني ففيه تفصيل: إن كان للاختلاف مساغ في الشرع فإنه يجب علينا أن يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، مثال ذلك: رجلان أحدهما يرى

(١) انظر المصدر السابق (ص٨٦ ـ ٨٧).

(٢) «مجموع رسائل الشيخ حسن البنا».

أن لحم الإبل ينقض الوضوء والثاني يرى أن لحم الإبل لا ينقض الوضوء كلاهما مجتهد كلاهما أداه اجتهاده إلى ما رأى فيجب علينا أن يعذر بعضنا بعضًا.. أما إذا كان الاختلاف لا مساغ له في الشرع فإنه لا عذر فيه كاختلاف أهل البدع مع أهل السنة فإن خلافهم هذا ليس لهم فيه عذر لأن الواجب عليهم اجتناب البدع لقول النبي ﷺ: «**اياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلاله**». اهـ. نقلاً من شريط «أهمية الدعوة إلى اللَّه» رقم٢.

❑ ونصيحة أخيرة لكل العاملين بساحة الدعوة إلى اللَّه عز وجل.. العلم العلم به تسلم [قال الشيخ مقبل الوادعي ـ رحمه اللَّه ـ في درسه بتاريخ ٣٠ صفر عام ١٤١٧هـ: «قرأت على الشيخ ابن باز قول حسن البنا: إن الحكومة عليها أن تأخذ من أموال الأغنياء وتعطي الفقراء وتعاوض الأغنياء بما هو أجدر!! فقال: هذا ليس صحيحًا، أن تعاوض الدولة الأغنياء ولا تأخذ أموال الأغنياء ثم همس في أذني همسة فقال: حسن البنا ما هو عالم لكن متحمس للدين على غير علم» اهـ.

❑ وقال الشيخ الألباني كما في شريط «صوفية حسن البنا والقرضاوي»: البنا ـ رحمه اللَّه ـ لم يكن عالمًا ولكن عنده عاطفة إسلامية وله كتابات خالف فيها السنة والمنهج السلفي» اهـ][1].

*** من باب إحقاق الحق:**

❑ يقول الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد في كتابه «أبو الحسن الندوي الوجه الآخر» من كتاباته (٣/ ٥٦٠): «لا شك أن الأستاذ حسن البنا نشأ على التصوف، وكان يداوم على الأوراد والأذكار على الطريقة الحصافية إلى

(١) «رد الجواب على من طلب مني عدم طبع الكتاب» (ص٥٢).

آخر حياته إلا أنه كان يرى أن الفكرة الصوفية جاوزت حد علم السلوك والتربية إلى تحليل الأذواق والمواجيد، ومزج ذلك بعلوم الفلسفة والمنطق ومواريث الأمم الماضية وأفكارها، فخلطت بذلك الدين بما ليس منه، وفتحت الثغرات الواسعة لكل زنديق أو ملحد أو فاسد الرأي والعقيدة ليدخل من هذا الباب باسم التصوف، والدعوة إلى الزهد والتقشف.. إلى أن قال: ولكن هذا الخلط أفسد كثيرًا من هذه الفوائد وقضى عليها.

ومن واجب المصلحين أن يطيلوا التفكير في إصلاح هذه الطوائف من الناس.. وذلك لا يستلزم أكثر من أن يتفرغ من العلماء الصالحين لدراسة هذه المجتمعات، والإفادة من هذه الثروة العلمية وتخليصها مما علق بها، وقيادة هذه الجماهير قيادة صالحة»[1].

ويقول البنا ـ رحمه اللَّه ـ في «مذكرات الدعوة والداعية» (ص١٣٢) ـ عن الصوفية: «حضر إلى الإسماعيلية.. من القصاصين وهو يدعو إلى الطريقة، وله أفكار خاصَّة تنافي آمالي الإسلامية.. لقد آن الأوان الذي أعتزل به عن كلِّ هذه الدعاوى المشتبهة، وأكشف فيه عن الغاية للإصلاح الإسلامي، الذي يتلخَّص في الرجوع إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله، وتطهير العقول من هذه الخرافات والأوهام، وإرجاع الناس إلى هدي الإسلام الحنيف» اهـ.

* الشيخ محمد حامد الفقي مؤسس جماعة أنصار السنة التي صانت جانب التوحيد في مصر، ومربّي العلماء الربانيين:

الشيخ محمد حامد الفقي تلميذ حكيم الإسلام رشيد رضا، ومؤسس جماعة أنصار السنة في مصر عام ١٣٤٥هـ (١٩٢٦م) بمدينة القاهرة، ثم

(١) «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ حسن البنا (ص٣٠ ـ ٣١).

توسعت أعمالها ونشاطاتها إلى بلاد السودان فيما بعد.

❑ وكان الشيخ الفقي من خريجي «الأزهر»، بدأ دعوته إلى الكتاب والسنّة (الدعوة السلفية)، في أثناء فترة دراسته بالأزهر. وبعد عمل عظيم وعمر زاهر توفي إلى ـ رحمة اللَّه تعالى ـ في سابع رجب ١٣٧٨هـ. رحمه اللَّه تعالى[١].

❑ وكان ـ رحمه اللَّه ـ علمًا وسدًّا منيعًا في محاربة الشركيات والوثنية التي كانت ولا تزال تشمل أطرافًا من البلاد الإسلامية في مصر وغيرها، وكان له ولأنصار السنة الدور الرئيسي في التحذير من عبادة القبور والدعوة إلى التحرر في الفقه من ربقة التقليد.

ومن هذه الجماعة الطيبة الذكر خرج العلماء الربانيون الذين حملوا جانب التوحيد نذكر منهم فضيلة الشيخ المحدث أحمد محمد شاكر، والعلامة محمد عبدالرزاق حمزة والشيخ محمد عبدالظاهر أبو السمح وعنهما يقول الشيخ رشيد: «وهما من تلاميذي»[٢]، والشيخ عبدالرحمن الوكيل والشيخ أبو الوفا درويش، والعلاّمة الشيخ خليل هراس والعلامة عبدالرزاق عفيفي والشيخ محمد صفوت نور الدين والشيخ صفوت الشوادفي.

❑ بيَّن العلامة الشيخ محمد حامد الفقي ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه «جماعة أنصار السنّة المحمدية: دعوتها وأهدافها» ما يلي:

١ ـ دعوة الناس إلى التوحيد الخالص.

٢ ـ إرشاد الناس إلي أخذ دينهم من نبعيه الصافيين، صريح الكتاب، وصحيح السنّة.

٣ ـ إرشادهم إلى أن نصوص الكتاب والسنّة لا محيد عنها البتّة.

---

(١) «مجلة الهدي النبوي» المجلد ٢٣ (ص٦٩ ـ ٧٣).

(٢) انظر «رشيد رضا» لشكيب أرسلان (ص٧٥٦).

٤ ـ الدعوة إلى حب رسول اللَّه ﷺ حبًّا صادقًا صحيحًا يحمل على اتخاذه مثلاً أعلى.

٥ ـ الدعوة إلى مجانبة البدع ومحدثات الأمور.

٦ ـ محاربة الخرافات والعقائد الفاسدة.

٧ ـ إرشاد الناس إلى أن حياتهم الدنيوية والأخروية مرتبطة كل واحدة منها بالأخرى أوثق ارتباط.

٨ ـ إرشاد الناس إلى أن اللَّه تعالى مدح الخير ووعد فاعله بالمغفرة، وذمّ الشرّ، وتوعَّد فاعله.

٩ ـ إرشادهم إلى أن الفسوق والعصيان نتيجة لازمة لعدم إيمانهم باللَّه واليوم الآخر.

١٠ ـ إرشاد الناس إلى أن أوامر الدين ونواهيه هي رحمة بهم.

١١ ـ إرشادهم إلى أن الرسول ﷺ حرَّم تشريف القبور؛ لأنه ظلم يمقته اللَّه.

١٢ ـ إرشاد الناس إلى أن الحكم بغير ما أنزل اللَّه تعالى هلكة في الدنيا، وشقاوة في الآخرة.

١٣ ـ إرشاد الناس إلى أن موقفهم من صفات الرب سبحانه وأسمائه يجب أن يكون مطابقًا لموقف الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم.

١٤ ـ إرشاد الناس إلى أن أصل الداء هو سماحهم للنساء بارتياد الملاهي، ودور السينما.

١٥ ـ إرشاد الناس إلى وجوب تمسكهم بالرجولة، لتظلَّ لهم القوامة على نسائهم.

❑ وكان للشيخ الفقي وأنصار السنة أكبر الأثر في فضح عقائد الصوفية الخربة مثل «وحدة الوجود» التي نادى بها ابن عربي شيخ الصوفية الأكبر

وكبريتهم الأحمر، والقول «بالحلول والاتحاد» وهو قول الحلاج، وابن الفارض صاحب التائية، والقول «بوحدة الأديان» كما قال الحلاج:

ألا أبلغ أحبائي بأني
ركبت البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتى
فلا البطحا أريد ولا المدينة[1]

❑ وقال ابن عربي: «فإياك أن تتقيَّد بعقد مخصوص وتكفر بما سواه فيفوتك خير كثير، بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولي لصور المعتقدات كلها، فإن اللَّه تعالى أوسع وأعظم من أن يحصر عقد دون عقد فإنه يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾»[2].

❑ وأزاح الشيخ الفقي الستار عن زندقة السهرودي وابن سبعين وعبدالكريم الجيلي وعقيدتهم الفاسدة، وبين خطأ الصوفية في «القضاء والقدر» وقولهم: «الرضا أن لا تسأل اللَّه الجنة ولا تستعيذ به من النار»[3]، وقولهم: «لو أدخل اللَّه الخلائق كلهم الجنة، وأدخلني النار لكنت بذلك راضيًا»[4]، وبيّن فساد توكلهم، وعدم ممارستهم للأسباب، وقولهم: إن بذل الأسباب، واتخاذ الوسائل مناف للتوكل، ومعارض للقدر.

❑ ووضح الفقي استخفاف الصوفية بعذاب اللَّه وثوابه كقول من قال: «الجنة هي الحجاب الأكبر؛ لأن أهل الجنة سكنوا إلى الجنة، وكل من سكن

(١) «نشأة التصوف الإسلامي» للبسيوني (ص١٨٧).
(٢) «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» للبقاعي (ص١٠٠).
(٣) «الرسالة القشيرية» للقشيري (ص٩٠).
(٤) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٤/٣٤٩).

إلى الجنة سكن إلى سواه فهو محجوب»[١] ، وقول القائل: «إن للَّه عبادًا لو بزقوا على جهنم لأطفأوها»[٢] .

❑ وقصرهم الجهاد على جهاد النفس فقط، والطوام التي أتوا بها في الأذكار والعبادات والبدع التي أحدثوها، والموالد التي شهدت رقصهم وفجورهم واختلاط الرجال بالنساء، وبناء الأضرحة.

❑ رحم اللَّه الفقي وبارك في جماعته، فلقد عدَّى المنحرفين عن منهج السلف وهديهم.

❑ انظر رحمك اللَّه إلى قول رياح القيس: «لا يبلغ الرجل منازل الصديقين حتى يترك زوجته، كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلاب»[٣] ، وانحرافهم عن هدي الإسلام في الزواج والجهاد، قال ابن تيمية:

«ومن هنا صار كثير من السالكين من أعوان الكفار والفجَّار وخفرائهم، حيث شهدوا القدر معهم، ولم يشهدوا الأمر والنهي الشرعيين»[٤] .

❑ وأوقف الشيخ الفقي عمره على فضح المصطلحات الصوفية وبيان عوارها من السماع، والكشف، والأضرحة والقبور، وتربية سر الهمة والاستسلام للشيخ، والتأثير والتصرف في الأكوان، والتوسل البدعي، والخلوة، والشطحات والدعاوى والعشق، والأقطاب، والأبدال، والمكاشفة والإشراق على الخواطر والفناء البدعي ووحدة الشهود، والسياحة في القفار

---

(١) «شطحات صوفية» لبدوي (ص ٢٠).

(٢) المصدر المذكور (ص٢١).

(٣) «نشأة التصوف الإسلامي» (ص١٥٨).

(٤) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١١/ ٤٩٩).

والبراري، وترك الجمع والجماعات والأعياد عمدًا، والفهم الخاطئ للزهد، وبعدهم عن هدي رسول اللَّه ﷺ وقد قال: «**تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب اللَّه وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض**»[1].

*** الدين النصيحة:**

والذي يؤخذ عمومًا على جماعة أنصار السنة هو حصرها الدعوة في بعض مجالات العقيدة دون شمولها لباقي المجالات، وهو ليس بعيب إن قال أصحابها نحن نهتم بكذا ونركز عليه لأننا رأينا أن هذا المرض هو الذي أقعد المجتمعات عن النهوض والتقدم، ونترك لغيرنا أن يصلح باقي المجالات التي لم نطرقها.

وتأثر بعضهم برشيد رضا في أمور خالف فيها عقيدة السلف مثل انكار بعضهم المهدي[2] وأنكر كثير منهم مسّ الجن للبشر وكتب الشيخ أبو الوفا درويش وهو من أساطين أنصار السنة كتابه «صيحة الحق» وفيه إنكاره لتلبس الجن بالمصروع. وإنكار بعضهم لسحر النبي ﷺ. ودعوة بعضهم إلى الاقتصار على البخاري ومسلم.

ويعاب عليهم تخاذلهم في قضية فلسطين وحرب ١٩٤٨م، وكان الأولى بهم وهم الدعاة إلى التوحيد أن يكونوا في الصدارة التي تولاها غيرهم.. ولكن كما يقال: «إن الماء إذا بلغ القلتين لا يحمل الخبث» وهذه المؤاخذات مغفورة إن شاء اللَّه في بحر حسناتهم الجاري. وموردهم العذب الصافي الزلال.

---

(١) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة (٣/١٠٩، ١٤٨، ٥٣٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٧٦١)، و«صحيح الجامع» ٢٩٣٧٠).

(٢) انظر إلى ما كُتب في مجلة «التوحيد» إبان حادث الحرم سنة ١٤٠٠هـ.

*** الشيخ محمود أبو العيون فارس معركة إلغاء البغاء:**

كانت معركة البغاء من أشد المعارك وأقواها، وقد حمل لواء الدعوة إلى إلغائه الشيخ محمود أبو العيون، وسجل ـ رحمه اللَّه ـ أخطاء المجتمع ودعا إلى الإصلاح دعوة مستمرة لم تتوقف وكشف عن دور علماء الدين في هذا المجال واستهلها في سلسلة مقالات في الأهرام بدأها في ٢٠/ ١١/ ١٩٢٣.

رجال الدين من نصب نفسه لنفع الناس وهو عنهم مستغن لا يعمل رغبة في دنيا ولا يسكت رهبة من عقاب، فعله الحق، وقوله الصدق، إن قام بأمر اللَّه قام به، وإن أمر بشيء كان الزم الناس له، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، يبين لهم أن الدين يساير العلم ولا يأباه، وليس بينه وبين العقل عداء، وأن الميزة العليا للعقيدة الدينية هي ألا تتنافى مع نتاج العلم الصحيح وأن ترتكز على العقل السليم وتعتصم بالبرهان الحق.

لقد وضع اللَّه هذا الدين ليكون قانونًا منظمًا لجميع البشر وإرشادًا وتربية وتهذيبًا وصالحًا لكل الأمم في جميع الأزمنة والأمكنة.

إن الإلحاد قد انتجع في نفوس أهل الجيل مكانًا خصبًا وظهرت طلائعه في كل مكان، في دور العلم والنوادي الأدبية والمحافل الخاصة، في الصحف والمجلات، في المؤلفات، والظاهرة الجديدة: الدعوة إلى طهارة الفطرة الدينية وقداسة الإيمان بقصد التشكيك ومناهضة التعاليم الدينية وزعزعة العقائد الصافية، وتحقيق مبادئ المدرسة الحديثة التي يزعمونها طليعة النهضة الجديدة إن الإلحاد الذي أساسه التشكيك حرب على الفضيلة وعلى الحق وعلى الإنسانية وعلى الأديان كلها.

فإذا لم تكن حياة الأمة ذاخرة بالحياء والعفاف وتصون الأقلام والألسن فإنها تعيش كما تعيش الأمم السادرة في الهمجية[1].

(١) الأهرام ٢٠/ ١١/ ١٩٢٣.

❑ وقال: «بين سمع الحكومة وبصرها يقام سوق للفجور وينفض سوق، وتذهب الأعراض ضحايا الشهوات والأطماع، وبين سمع الحكومة وبصرها تنظم الجمعيات السرية لتجارة الرقيق ويجوب دعاتها الأمصار والقرى، طلائع وكتائب يجتلبون كل طفلة ومعصر وعانس وخود، بين سمع الحكومة وبصرها تتمرد الروح الخبيثة ويؤسس الزعيم (الغربي) مملكة منتظمة داخلها مفقود، وطالعها مولود، وهناك وفي سجون ذلك المستبد الظالم تخرج الفتيات العاملات، جليبات خزي، وأسيرات بغي، فيشهدون منظرًا مريعًا من أبشع ما رأى وسمع الناس، هنالك يمتهن الشرف وتزهق الإنسانية»[1].

❑ وقال: «إن ثورة مصر سنة ١٩١٩م قد تركت أثرًا بالغًا في آداب الأمة المصرية وأحلامها، ولكنا لا نفهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية ترمز له بالتماثيل وتقيم له الأنصاب، ما كنا نود أن نأخذ من معناه كماله لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس واضمحلال في كل معاني الحياة الناهضة، تلك التي بذلنا في سبيلها مهجًا غالية ودماء ذاكية.

نقول إن ثورة ١٩١٩ التي طأطأ لها التاريخ إجلالاً وهومت لها الأمم إكبارًا وإعظامًا كانت في حياة مصر فجرًا كاذبًا لمع نوره في آفاقها كلسان الشمعة ثم خبا وأظلم، وها نحن ولاء في دياجير الظلم تائهين حيارى.

أجل نظرك مرة في الحدائق العامة وفي صالات اللهو ومسارح التمثيل وعلى شاطئ البحار وداخل الأكشاك المتناثرة وحولها في موسم الصيف، أجل نظرك في تلك الأسواق المأهولة، بأولئك الماجنين والماجنات، ثم خبرني ماذا بقي لمصر من شرف العفاف وحسن السمعة.

---

(١) الأهرام ١٩٢٦.

ثم هاجم الحكومة التي لم تأخذ درسًا من الجلادين والجلادات (علام وأبي الدهب وريا وسكينة وغير هؤلاء) وقال: وهذه حادثة الغربي ثالثة الأسافي وفضيحة العمر وسبة الدهر.

ثم توالت مقالاته يعرض فيها لجوانب المشكلة. ويعرض «للمذاهب الإباحية التي تهدد البلاد بالمحن والزرايا ـ في الدين والخلق، فتكثر الجنايات وتتكرر المؤامرات على اغتيال الأعراض وشرف البيوتات، وتساءل عما وضعته الدولة من مراقبة لصون الأعراض بعد حادثة الغربي».

وتساءل عما إذا كانت الحكومة (تجهل مواطن الموبقات والفسوق في كل شارع وفي كل حي وفي كل منتدى ظاهر وفي أطراف المدينة وأحشائها)، وتحدث عن الزعيم الغربي ـ الذي هزه لكتابة هذه المقالات ـ فصور «ما أذهب من شرف وكرامة وما أقام من ولائم وحفلات قصف ونكر ضمت من ضمت من أعاظم الرجال وأخطر السيدات وما شيد من معارض للفسوق يدعو إليها سائحي الأفرنج للتفرج على الممرات والفضائح بصور قبيحة كما يتفرجون على آثار الشرق ومدافن توت عنخ آمون».

وأشار إلى حالة شارع (كلوت بك) وانتشار بيوت الفساد فيه وحوانيت تعاطي المكيفات والحانات المرخص بها للأشربة، وقال: إن الحكومة ضعفت أمام سلطان الاستعمار الذي فرض عليها إباحة الزنا والترخيص بالمسكرات ولعب القمار وتغطية محاولات تجارة الرقيق في خطف البنات.

ثم قدم كشفًا بأماكن المنازل السرية بالعاصمة (١٧/ ١٢/ ١٩٢٣) وقال: إنها غير محلات النوم والخياطة والزار ومكاتب المخدمين والتدليك والذهبيات المعدة للفجور، ونادي «الغوث الغوث. النجدة النجدة» وكشف عن أن المصابين بالأمراض التناسلية يبلغ ٨٢٠ ألف ـ وقال: إن هناك مليون إصابة في العام، وقال: إن الحكومة ترخص بالبغاء. ثم تهمل مراقبة البيوت السرية

والآداب العامة.

❑ ونقل أبو العيون نصًّا من تقرير قسم اللوائح والرخص هو:

«أن الدول التي حرمت البغاء أو تجاهلته لم تفعل ذلك احترامًا للدين والآداب والرأي العام فقط بل لأنها رأت أيضًا أن الاعتراف به رسميًّا مفسدة للأخلاق وأنه مسبب للأمراض موجد لجريمة الاسترقاق مروج لتجارة الرقيق الأبيض».

ولم يتوقف محمود أبو العيون عند هذا الحد بل أنه أجرى استطلاعًا كاملاً عن «فضيحة» الغربي التي هزت الدوائر المختلفة وكانت رمزًا على مدى الخطر الذي وصلت إليه البلاد بنتيجة للغزو الغربي في ميدان الاجتماع.

وكشف عن شخصية (إبراهيم محمد محمود الغربي) الذي تعرض لإفساد الأخلاق بأن اعتاد تحريض الفتيات اللاتي لم يبلغن سن الثانية عشر سنة على الفجور والفسق. ووضعهن في منازل معدة للدعارة وعرضهن على المترددين لارتكاب الفاحشة معهن.

ثم وصف زيارته لهذه الشوارع والحارات (القذرة) لرؤيتها وقال: «رأيت ما لم أره من قبل، رأيت أسفل منظر وقع عليه نظري، لم أر سوقًا للأعراض مرخصًا بها من الحكومة مثل سوق الوسعة في القاهرة هناك، نساء لا عد لهن من جميع الألوان منهن السوداء والبيضاء والنحاسية اللون، جالسات على أبواب منازلهن ينادين بالعربية كل من يمر ليرينه رخصتهن المصرح بها من الحكومة».

❑ ووصف إبراهيم الغربي: «هذا الرجل ـ إذا شئت أن تقول بحق ـ هذا الشيطان، بأنه أشنع منظر تراه في مصر وقال: «وإني أعتقد أنه الرجل الوحيد من نوعه في العالم الذي يعلن عن مهنته صراحة وله ميزة تميزه عن زملائه فإنه شرهم».

فقلما تجد بين هولاء السياح من يغادر أرض الفراعنة قبل أن يرى إبراهيم الغربي. وجدنا منزل إبراهيم الغربي منارًا بالأضواء الكثيرة ووجدنا القاصرات المرخص لهن جالسات في مدخله، كان إبراهيم الغربي بينهم مرتديًا ملابس امرأة ملونة وجهه كما تفعل النساء رغم سواده. له جلد أسود لامع وعينان واسعتان يضع على رأسه طوقًا من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وتجد زراعيه عاريتين إلى الكتف وبهما من الأساور الذهبية الثمينة عدد كبير، وقد أحصيت ما تحمله الذراع الواحدة منها فوجدت أنها أكثر من أربعة عشر صنفًا من الأساور، وكان حول رقبته عقد من الذهب، ويحمل في أصابعه خواتم عديدة ويضع في رجليه خلخالاً من الذهب ويلبس على جسمه ملابس مزركشة بالذهب والفضة والترتر مما يعكس الضوء فيبهر الأبصار، إنهم ينظرون إليه هناك كما لو كان شيئًا خارقًا للطبيعة، أو كما لو كان شخصًا مقدسًا، وسعيد هو الذي أتيحت له الفرصة أن يلمس جسمه وكثير من الوطنيين يجزمون بأنه إذا غضب على كائن من كان فجزاؤه الموت، وعندي أنه يجب ضرب هذا المخلوق بالكرباج في ميدان عام وأمام الجمهور يقولون إنه ذو ثروة طائلة ونفوذ واسع. وقيل لي: أنه نظرًا إلى نفوذه عرض اسمه على الخديو السابق من أجل أن ينعم عليه برتبة البكوية. . . ولم يتوقف «أبو العيون» عن الدعوة إلى إلغاء البغاء إلا بعد أن انبرت جريدة السياسة تقاومه وتسخر به، وهناك توقفت الأهرام عن نشر مقالاته، بعد أن كشف الستار عن فضائح هذه الجريمة وكشف عن شرور البغاء وحمل على الحكومة حملة نكرة.

ولم يلبث أن أرسل إلى البرلمان في أول جلسة من جلساته برقية يطالب بالغاء البغاء الرسمي، وقام بمحاولة ضخمة حين مر على وزراء الدولة وعظماء البلاد وكتابها المصلحين يستكتبهم رأيهم في البغاء، هنالك ازدادت حملة الصحف التغريبية عليه وقاومت دعوته بالشتم والمنابذة ونشرت له

المجلات صورًا كاريكاتورية قاسية، ووصفوه «بأنه مأجور وصنيعة ومشعوذ ودجال».

ثم لم يلبث أن عاود الحملة في يوليو ١٩٣٣م مستأنفًا الدعوة إلى محاربة البغاء بالدعوة إلى مطاردة محترفيه وإزالة مواخيره وهدم أسواقه النافقة في العواصم والأمصار.

ووصف البغاء بأنه «احتراف امرأة تبذل أعضاء جسمها للرجل في مقابل أجر معين، والإسلام دين الدولة الرسمي يحرمه ويعاقب عليه، والأديان كلها تضافرت على تحريمه. وقد راعى الشارع في ذلك صيانة المجتمع من الشرور والمفاسد التي تتنافى مع الآداب والأخلاق والصحة ونظام الأمن».

وبين أن أبلغ أضرار إباحة البغاء امتهانة لكرامة فريق من بني الإنسان، وردد ما ورد في تقرير عصبة الأمم سنة ١٩٢٧م عن تجارة الرقيق من أن مصر أصبحت ميدانًا حيويًا ومركزًا هامًا من المراكز الدولية.

وصور كيف أن الترخيص بالبغاء السري سهل على الشباب الاستمتاع بالمرأة من غير زواج، ودعا إلى سن قانون للزواج في سن معينة وتعليم الدين اجباريًّا في المدارس ومكافحة الأمراض السرية ودعا إلى إلغاء البغاء دفعة واحدة.

وكانت الحكومة قد اتخذت قرارًا في عام ١٩٣٢ لبحث موضوع البغاء وجرى اتصال اللجنة التي كونها الدكتور محمد شاهين وزير الصحة بمختلف الهيئات والطبقات للوقوف على وجهة نظرها وقد ظلت هذه اللجنة معطلة حتى عام ١٩٤١ عندما أعلنت توصيتها بإلغاء البغاء الرسمي ولم يتم ذلك إلا بعد عام ١٩٤٦[1].

(١) «تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين» (١٩٢٠ ـ ١٩٤٠) =

❑ وحارب ـ رحمه اللَّه ـ ميوعة الشباب وتخنثهم ووصفهم في الأهرام ٧/ ١/ ٣٤ بأنهم من الطراوة والميوعة بحيث لا يقدسون ماضيًا ولا يحفلون بمصير وأنهم يضيعون أوقات حياتهم في العبث والمجون وإن أفكارهم تصور الأوهام الفاسدة وألسنتهم تنطق بالألفاظ المستهجنة ونظراتهم خائنة. وإنه لا شيء أفعل للعصبية ولا أدرى بالمروءة ولا أخطر لكرامة الشعوب من تلك الإباحة الخاسرة.

* الشيخ بديع الزمان النورسي الكردي رائد الصحوة الإسلامية في تركيا الحديثة:

حجة الإسلام في تركيا الحديثة كما يسميه بذلك الدكتور محسن عبدالحميد أستاذ التفسير بجامعة بغداد. حمل هموم المسلمين منذ شبابه، ودحض الأفكار المنحرفة والفلسفات الجاحدة المناقضة له والغزو الفكري الجارف التي تعرض له منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري، بل قبله. ومحاولات التغريب المادية في السياسة والاقتصاد والإعلام. وسعى النورسي إلى البناء والتدرج والهدوء، والنفوذ المحكم إلى عقول المسلمين وقلوبهم دون صراخ عاطفي أو تهريج مدمر، أو صدمات فوقية، لم يكن الوضع الإسلامي يومئذ مهيئًا لها ويقوى فيها على مجابهة الأعداء الأقوياء في الداخل والخارج.

ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» إحدى قرى قضاء «خيزان» التابع لولاية «بتليس» شرق الأناضول سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٣م). وتلقى علومه الدينية وبزّ فيها أقرانه، بحفظه للمجلدات الضخام وذاع صيته منذ شبابه

= لأنور الجندي (ص٣٠٣، ٣٠٦ ـ ٣٠٧) ـ دار الاعتصام، وكتاب «اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب» لأنور الجندي (ص٢٧٣ ـ ٢٧٤) ـ دار الاعتصام.

وكان ديدنه «لأبرهن للعالم أن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها»[١].

❑ قدَّم ـ رحمه اللَّه ـ عريضة إلى السلطان عبدالحميد يطلب فيها فتح المدارس التي تعلّم العلوم الرياضية والفيزياء والكيمياء ـ بجانب المدارس الدينية في شرق الأناضول، حيث يخيم الجهل والفقر على سكانه.

ثم يقابل السلطان وينتقد الاستبداد ونظام الأمن والاستخبارات لقصر «يلدز» مما أثار نقمة حاشية السلطان التي لا تمثل فكر السلطان[٢] فأحالوه إلى محكمة عسكرية، وأجالوه إلى الأطباء لفحص قواه العقلية، وأدخلوه مستشفى «طوب طاش» للمجاذيب.. وفحصه الأطباء وكتب الطبيب في تقريره: «لو كانت هناك ذرة واحدة من الجنون عند بديع الزمان فمعنى ذلك أنه لا يوجد على وجه الأرض كلها عاقل واحد» وأرسلوه إلى وزير الداخلية وجرت بينهما المحاورة الآتية:

ـ الوزير: إن السلطان يخصك بالسلام مع مرتب بمبلغ ألف قرش، وعندما تعود إلى بلدك سيجعل مرتبك ثلاثين ليرة، كما أرسل لك ثمانين ليرة هدية سلطانية لك.

❑ بديع الزمان: لم أكن أبدًا متسوّل مرتب، ولن أقبله ولو كان ألف ليرة لأنني لم آت لغرض شخصي، وإنما لمصلحة البلد، فما تعرضون عليّ سوى رشوة للسكوت.

ـ الوزير: إنك بهذا تردّ الإرادة السلطانية، والإرادة لا تردّ.

❑ بديع الزمان: إنني أردّ لكي يستاء السلطان ويستدعيني عند ذلك

(١) «بديع الزمان سعيد النورسي» لإحسان قاسم الصالحي (ص٢٥) ـ المختار الإسلامي.
(٢) كان النورسي يطلق على السلطان عبدالحميد «السلطان المظلوم» ويصفه بأنه ولي من أولياء اللَّه وخليفة المسلمين (الشهود الأواخر ـ نص كلام بديع الزمان نفسه (ص٢١٩).

أستطيع أن أقول له قولة الحق.

ـ الوزير: إن العاقبة ستكون غير سارة.

❑ بديع الزمان: تعددت الأسباب والموت واحد، فلئن أعدم فسوف أرقد في قلب الأمة، علمًا بأنني عندما جئت إلى استانبول كنت واضعًا روحي على كفيّ. اعملوا ما شئتم، فإنني أعني ما أقول: إنني أريد أن أوقظ أبناء الأمة ولا أقوم بهذا العمل إلا لأنني فرد من هذا البلد، لا لأقتطف من ورائه مرتبًا؛ لأن خدمة رجل مثلي للدولة لا تكون إلا بإسداء النصائح، وهذه لا تتم إلا بحسن تأثيرها، وهذا لا يتم إلاّ بترك المصالح الشخصية فإنني معذور إذن عندما أرفض المرتب.

ـ الوزير: إن ما ترمي إليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسة في مجلس الوزراء حاليًا.

❑ بديع الزمان: إذن فلم يتأخر نشر المعارف ويستعجل في أمر المرتب؟ لماذا تؤثرون منفعتي الشخصية على المنفعة العامة[1].

*** مفهوم الحرية عنده:**

لما دعا ـ رحمه اللَّه ـ إلى الحرية وإلى مبدأ الشورى الإسلامي التقي به كبار رجال الاتحاد والترقي لعلهم يستطيعوا أن يجعلوه تابعًا لهم فشعر بانحرافهم القوي عن الدين وخطرهم على الأمة وعدائهم للإسلام، فقال لهم: «لقد اعتديتم على الدين وأدرتم ظهوركم للشريعة»[2].

❑ وطلب اليهودي الماسوني «عمانوئيل قره صوه» مقابلته طمعًا في جرّه

(١) «بديع الزمان النورسي» لإحسان الصالحي (ص٢٨ ـ ٢٩).

(٢) «حياة سعيد النورسي وجوانبها المجهولة» لنجم الدين شاهين (ص٦٩ ـ ٧٠)، و«بديع الزمان النورسي» للصالحي (ص٣٠).

إلى صفه، ولكن ما لبث اليهودي أن خرج من عنده قائلاً: «لقد كان هذا الرجل العجيب أن يزجّني بحديثه في الإسلام»[١].

وفي عام ١٩٠٨م صرف ـ رحمه اللّه ـ جل همّه إلى إلقاء الخطب وكتابة المقالات مبينًا فيها مفهوم الحرية في الإسلام، وتأثير الإسلام في الحياة السياسية، ومطالبًا بتحكيم الشريعة الغرّاء، ومحذرًا من التفسير الخطأ للحرية لما شعر بالمحاولات الخبيثة لرجال الاتحاد والترقي فكان يقول: «بني وطني لا تسيئوا تفسير الحرية كي لا تذهب من أيديكم. لا تصبوا العبودية العفنة في قوالب براقة وتسقونا من علقمها، إن الحرية لا تتحقق ولا تنمو إلاّ بتطبيق أحكام الشريعة ومراعاة آدابها»[٢].

❑ وأمام المد الإلحادي لجمعية الاتحاد والترقي تشكلت في ١٩٠٩م جميعة «الإتحاد المحمدي» وأعلن عن تشكيلها في ٥ نيسان في اجتماع ديني حاشد بجامع أيا صوفيا وكان النورسي من الداعين إليها المناصرين لها، وألقى في هذا الاجتماع خطبة رائعة.

واستطاع زبالات الاتحاد والترقي من عزل السلطان عبدالحميد في ٢٧ نيسان ١٩٠٩، وأعلنت الأحكام العرفية وشُكِّلت محكمة عسكرية ونُصبت المشانق للموحدين.

*** محاكمة النورسي:**

كان سعيد النورسي من الذين قُدِّموا إلى المحكمة، وقُدِّم البعض إلى أعواد المشانق.

وفي المحكمة ـ ومنظر جثث خمسة عشر من المشنوقين تُشاهَد عبر

(١) «جوانب مجهولة» (ص٨٨).

(٢) «بديع الزمان النورسي» (ص٣١).

النافذة ـ بدأ الحاكم العسكري «خورشيد باشا» بمحاكمة بديع الزمان قائلاً له:

.. وأنت أيضًا تدعو إلى تطبيق الشريعة؟ إن من يُطالب بها يُشنق هكذا (مشيرًا بيده إلى المشنوقين).

❑ فقام بديع الزمان النورسي وألقى على سمع المحكمة كلامًا رائعًا نقتطف منه ما يأتي:

«لو أن لي ألف روح لما تردّدت أن أجعلها فداءً لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام.. فقد قلت: إنني طالب علم لذا فأنا أزن كل شيء بميزان الشريعة، إنني لا أعترف إلا بملّة الإسلام، إنني أقول لكم وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمونه «السجن» في انتظار القطار الذي يمضي إلى الآخرة لا لتسمعوا أنتم وحدكم بل ليتناقله العالم كله؛ ألا قد حان للسرائر أن تنكشف وتبدو من أعماق القلب فمن كان غير محرم فلا ينظر إليها. إنني متهيء لقدومي للآخرة، وأنا مستعد للذهاب مع هؤلاء الذين علقوا في المشانق.. تصوروا ذلك البدوي الذي سمع عن غرائب استانبول ومحاسنها فاشتاق إليها إنني مثله تمامًا في شوقي إلى الآخرة، والقدوم إليها. إن نفيكم إياي إلى هناك لا تعتبر عقوبة.. لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد، والآن فإنها تُعادي الحياة، وإذا كانت هذه الحكومة هكذا: فليعش الجنون، وليعش الموت، وللظالمين فلتعش جهنم»[1].

❑ وبعد براءته غادر مدينة استانبول متوجهًا إلى (وان) حيث بدأ يلقي دروسه ومحاضراته متجولاً بين القبائل والعشائر يعلمهم أمور دينهم ويرشدهم إلى الحق. وهناك ألف كتابه «المناظرات» الذي طبع سنة ١٩١٣م.

وفي سنة ١٩١١م (١٣٢٧هـ) زار ديار الشام وألقى خطبة في الجامع

(١) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٣٤ ـ ٣٥) نقلاً عن «سعيد النورسي ـ حياته وآثاره» لمحمد سعيد البوطي (ص١٧ ـ ١٨).

الأموي في دمشق طبعت فيما بعد باسم «الخطبة الشامية» شخّص فيها أمراض الأمة الإسلامية وعلاجها.

وفي سنة ١٩١٢م وقبيل نشوب «حرب البلقان» عين بديع الزمان قائدًا للقوات الفدائية التي تشكلت من المتطوعين المسلمين القادمين من شرق الأناضول.

❑ وقُبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى أصبح بديع الزمان عضوا في «تشكيلات خاصة» وهي مؤسسة سياسية وعسكرية ـ وأمنية سرية شُكِّلت بأمر السلطان ووظيفتها هي المحافظة على وحدة أراضي الإمبراطورية ومحاربة أعدائها. وكان بديع الزمان من أنشط أعضاء قسم «الاتحاد الإسلامي» في هذه المؤسسة. وقد قامت هيئة من علماء الدين الأعضاء في هذه المؤسسة بإصدار فتوى «الجهاد» وهم: شيخ الإسلام خيري أفندي، والشيخ السنوسي، وحمدي يازر، ومحمد أسعد أفندي، والنورسي وطبعت الفتوى بجميع لغات المسلمين.

ورجع إلى «وان» وهناك شكَّل من طلابه ومن المتطوعين المدنيين فرقًا للجهاد وخاطب طلابه قائلاً: «تهيأوا واستعدوا.. إن زلزالاً شديدًا أوشك على الأبواب واشتهر طلابه بدقة التصويب، وكانت عصابات الأرمن المتواطئة مع القوات الروسية تتهيب لقاء هؤلاء المجاهدين وعلى جبهة «القفقاس» ١٩١٦م كان سعيد النورسي يقاتل هو وطلابه الجيش الروسي بكل ما أُوتوا من جُهد، وفي هذه المعارك وفي جبهات القتال وخنادقه ألف سعيد النورسي كتابه «إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز» باللغة العربية، وعندما دخل الجيش الروسي إلى مدينة «بتليس» كان النورسي وتلاميذه يدافعون عن المدينة ببسالة نادرة حيث جرى قتال شديد في شوارع المدينة وأزقتها، وجُرِح النورسي جرحًا بالغًا، وبقى ثلاثين ساعة مغشيًا عليه، وأما النزف المستمر

وإبقاءً على حياته في ظروف قاسية شديدة البرد ذهبوا به إلى المستشفى وهناك أسره الروس وأرسلوه إلى أحد معسكرات الأسر في «قوصترما» في شرق روسيا وبقى في أسره مدة سنتين وأربعة أشهر وأربعة أيام، وفي الأسر برزت عزة المؤمن الأسير النورسي.

* **عزة المؤمن الأسير:**

وذات يوم قدم هناك إلى المحكمة الحربية بتهمة إهانة القيصر والجيش الروسي.

❑ أما قصة ذلك فهي كما يأتي:

كان خال القيصر والقائد العام للجبهة الروسية «نيكولا نيكولا فيج» يزور معسكر الأسرى فقام جميع الأسرى لأداء التحية ما عدا (سعيد النورسي).

❑ لاحظ القائد العام ذلك، فرجع ومرّ ثانية أمامه.. فلم يقم له كذلك، وفي المرة الثالثة وقَفَ أمامه وجرَت المحاورة الظريفة الآتية بينهما بوساطة مترجم للقائد:

ـ الظاهر إنك لم تعرفني؟

ـ بلى.. لقد عرفتك. إنك نيكولا نيكولافيج، خال القيصر، والقائد العام في جبهة القفقاس.

ـ إذن فَلِمَ تستهين بي؟

ـ كلا، إنني لم أستهن بأحد، وإنما فعلت ما تأمرني به عقيدتي.

ـ وماذا تأمرك عقيدتك؟

ـ إنني عالم مسلم، أحمل في قلبي إيمانًا فالذي يحمل في قلبه إيمانًا هو أفضل من الذي لا إيمان له. ولو إنني قمت لك لكنت إذن قليل الاحترام لعقيدتي ومقدساتي، لذلك فإنني لم أقم لك.

ـ إذن فإنك بإطلاقك عليَّ صفة عدم الإيمان تكون قد أهنتني وأهنت جيشي وأمتي والقيصر كذلك، فيجب تشكيل محكمة عسكرية للنظر في هذا الأمر.

تشكلت المحكمة العسكرية، وقدِّم إليها سعيد النورسي بتهمة إهانة القيصر والأمة الروسية والجيش الروسي.

ويسود حزن في معسكر الأسرى ويلتف حوله الضباط الأسرى من الأتراك والألمان والنمساويين ملحِّين عليه القيام بالاعتذار للقائد الروسي وطلب العفو منه، إلاَّ أنه رفض ذلك بإصرار قائلاً لهم:

«إنني أرغب في الرحيل إلى الآخرة والمثول بين يدي رسول اللَّه ﷺ. لذلك فإنني بحاجة فقط إلى جواز سفر للآخرة، وأنا لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني».

وتصدر المحكمة قرارها بالإعدام، وفي يوم التنفيذ تحضر ثلة من الجنود على رأسها ضابط روسي لأخذه إلى ساحة الإعدام، ويقوم سعيد النورسي من مكانه بابتهاج قائلاً للضابط الروسي:

«أرجو أن تسمح لي قليلاً لأؤدي واجبي الأخير» فيقوم ويتوضأ ويصلي ركعتين.

ـ وهنا يأتي القائد العام ليقول له بعد فراغه من الصلاة:

أرجو منك المعذرة، كنت أظنك قد قمت بعملك قاصدًا إهانتي ولكنني واثق الآن أنك كنت تنفذ ما تأمرك به عقيدتك وإيمانك، لذا فقط أبطلت قرار المحكمة، وإنني أهنئك على صلابتك في عقيدتك وأرجو المعذرة منك مرة أخرى[1].

(١) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٤٠ ـ ٤٢).

وفرّ ـ رحمه اللّه ـ من أسره إلى ألمانيا حيث استُقبل هناك استقبالاً كبيراً ومنها توجه إلى استانبول. وعين عضواً في «دار الحكمة الإسلامية» التي لا تضم إلا صفوة العلماء.

*** نذير الصحوة:**

وعندما تتولى المصائب والهزائم على الدولة العثمانية، وتدخل جيوش الدولة الاستعمارية تركيا وتعقد معاهدة «سيفر» يحس سعيد النورسي بهذه الطعنات وكأنها توجه إلى قلبه:

«لقد كنت أحس بأن هذه الضربات التي وجهت إلى العالم الإسلامي كأنها وجهت إلى أعماق قلبي»[١].

وفي هذه الأثناء وقوات الاحتلال الإنكليزي تحتل استانبول (١٦ مارت ١٩٢٠) ألّف بديع الزمان كتابه «الخطوات الست» وأخذ ينشره سرًّا بمساعدة طلابه وأصدقائه.. يهاجم بديع الزمان في هذا الكتاب الإنكليز بلهجة قوية رادعة ويفحم الشبهات التي إثيرت آنذاك ببراهين قاطعة مفندًا حججهم ويلفت أنظار المسلمين إلى أطماعهم ويحارب اليأس الذي تسلط على كثير من النفوس ويشدّ العزائم[٢].

ومن سلسلة المؤامرات على الإسلام، وجّه الإنكليز عن طريق كنيسة «انكليكان» ستة أسئلة إلى المشيخة الإسلامية ليجيب عنها بستمائة كلمة. فوجهت المشيخة هذه الأسئلة إلى بديع الزمان، وكان جوابة: «إن هذه الأسئلة لا يُجابُ عنها بستمائة كلمة، ولا بست كلمات. ولا بكلمة واحدة.. بل بَبصقة واحدة على الوجه الصفيق للإنكليزي اللعين»[٣].

(١) المصدر السابق (ص٤٩).
(٢) المصدر السابق (ص٥٠).
(٣) المصدر السابق (٥١).

وبعد إن انهارت الدولة العثمانية ومزقت، ظهرت رغبة عند بعض المثقفين الأكراد في إنشاء دولة كُردية في الولايات الشرقية من تركيا، ولكون سعيد النورسي كردي الأصل وذا منزلة كبيرة في نفوس أهالي الولايات الشرقية. أرسل إليه أحد الصحفيين رسالة يطلب فيها الانضمام إلى الداعين لتكوين هذه الدولة، وقد أجابه سعيد النورسي برسالة مطوّلة قال فيها:

«يا رفعت بك.. سأكون معك إن حاولت إحياء الدولة العثمانية.. وأنا مستعد للتضحية بنفسي في هذا السبيل. إما تكوين دولة كردية.. فلا!».

وكذلك تسلَّم الاقتراح نفسه والطلب من السيد عبدالقادر رئيس جمعية «تعالي الأكراد» فكان جوابه هو الرفض أيضًا[1].

* **فتوى:**

بدأت حركة المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي في الأناضول، فأصدر شيخ الإسلام عبداللَّه أفندي تحت ضغط المحتلين الأنكليز فتوى ضد هذه الحركة والقائمين بها، ولكن سرعان ما قام ستة وسبعون مفتيًا مع ستة وثلاثين عالمًا وأحد عشر نائبًا بإصدار فتاوى مضادة، حيث أيدوا تلك الحركة وشجعوا على قتال المحتلين، وكان بديع الزمان أحد هؤلاء العلماء حيث قال:

«إن فتوى تصدر عن مشيخة وإدارة هي تحت ضغط الإنكليز وإمرتهم لا بد أن تكون غير سليمة، ولا يجوز الانصياع لها، ذلك لأن الذين قاموا بمقاومة احتلال الأعداء لا يمكن اعتبارهم عصاة، لذا يجب سحب هذه الفتوى»[2].

---

(١) المصدر السابق (ص٥١).

(٢) المصدر السابق (ص٥٢).

* مع مصطفى كمال:

ولاشتهار بديع الزمان بعدائه للمحتلين، فقد دُعي إلى أنقرة ـ مركز حركة المقاومة ـ من قبل مصطفى كمال للانضمام إليهم، إلاَّ أنه رفض الدعوة قائلاً:

«إنني أريد أن أُجاهد في أخطر الأمكنة، وليس من وراء الخنادق، وأنا أرى أن مكاني هذا أخطر من الأناضول»[1].

ولكن الدعوة تكرَّرت، فأرسل إلى أنقرة بعض طلابه، ثم ذهب هو إليها سنة ١٩٢٢م قبيل عيد الأضحى، حيث استقبل في المحطة استقبالاً حافلاً، إلاَّ أنه لم يسعد في أنقرة كثيرًا، إذ لاحظ بأسف بالغ أن معظم النواب لا يؤدون الصلاة. كما إن تصرفات مصطفى كمال وسلكوه المعادي للإسلام أحزنه كثيرًا، لذلك فقد قرر أن يطبع بيانًا في ١٩/١/١٩٢٣ يتضمن عشرة مواد موجهًا إلى النواب يعظهم ويذكّرهم بالإسلام مستهلاً بـ:

«يا أيها المبعوثون.. إنكم لمبعوثون ليوم عظيم».

وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزّع بين النواب، وتولَّى القاءه الجنرال كاظم قرة بكر (القائد الأول لحركة الاستقلال) أن ما يقارب ستين نائبًا من النواب قد استقاموا على التدين وأقاموا الصلاة، حتى إن مسجد بناية المجلس لم يعد كافيًا للمصلين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

□ لم يرض مصطفى كمال عن هذا البيان، فاستدعى بديع الزمان وحدثت بينهما مشادة عنيفة، وكان مما قاله مصطفى كمال:

«لا ريب إننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد عوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمتَ به لنا هو الحديث عن

---

(١) المصدر السابق (ص٥٢).

الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل هذا المجلس.

فأجابه بديع الزمان مشيراً إليه بأصبعه في حدة:

«باشا.. باشا.. إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان هي الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود..»[1].

لذلك فكَّر مصطفى كمال بإبعاده عن أنقرة بحجة تعيينه واعظًا عامًا للولايات الشرقية وبمرتب مُغرٍ، ولكن سعيد النورسي رفض هذا الطلب.

*** كتبه ورسائله خلال تلك الفترة:**

أول ما نشره «إشارات الإعجاز» ثم في سنة ١٩٢٢م نشر «السنوحات» وفي سنة ١٩٢٣ نشر الرسائل الآتية: «رموز الإشارات» و«طلوعات» و«لمعات» و«شعاعات من معرفة النبي ﷺ نقطة من معرفة اللَّه»، وألف في أنقرة «ذيل الذيل»، الحباب، وأجزاء من المثنوي العربي النوري».

وقد أورد في هذه الرسائل دلائل قاطعة على وجود اللَّه ووحدانيته، محاولاً بذلك التصدي لموجة الشك والإلحاد والبعد عن الدين التي ظهرت بين أوساط المفتونين بالغرب، حيث يصف هذه الحالة في مقدمة «رسالة الطبيعة»:

«دُعيت لزيارة «أنقرة» سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٢م) وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي، إلاَّ أنني أبصرتُ ـ خلال موجة الفرح هذه ـ زندقة رهيبة تدبُّ بخبثٍ ومكر، وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة إلى عقائد أهل الإيمان الراسخة بغية إفسادها وتسميمها.. فتأسفت من أعماق روحي، وصرخت مستغيثًا باللَّه العليّ القدير ومعتصمًا بسور هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [إبراهيم:

(١) المصدر السابق (ص٥٣).

١٠] من هذا الغول الرهيب الذي يريد أن ينقضّ على أركان الإيمان ويُعْمِلَ معاوله في أسسه وأصله يقطع رأس تلك الزندقة ويدحرج أشلاءها، وقد صنفتها بالعربية، واستقيت معانيها وأفكارها من نور هذه الآية الكريمة لإثبات بداهة وجود اللّه سبحانه ووضوح وحدانيته، وقد طبعتها في مطبعة «يني كوُن» في أنقرة.. إلاَّ أنني لم ألمس آثار البرهان الرصين في مقاومة الزندقة وإيقاف زحفها إلى أذهان الناس، وسبب ذلك ـ على ما أظن ـ كونه مختصراً ومجملاً جداً، فضلاً عن قلة الذين يتقنون العربية في تركيا وندرة المهتمين بها آنذاك، لذا فقد انتشرت أوهام ذلك الإلحاد وأستشرت في صفوف الناس مع الأسف الشديد، مما أضطرني إلى إعادة كتابة تلك الرسالة ببراهينها بالتركية، مع شيء من البيان والتوضيح، فكانت هذه الرسالة..[1].

نفي النورسي إلى «بارلا» وتأليفه لمعظم رسائل النور في مدة نفيه:

وبعد ثورة الشيخ سعيد بيران الكردي وقضاء أتاتورك عليها وعدم اشتراك النورسي فيها لعدم رغبته في إهراق دماء المسلمين، وعدم ثقته في معظم القائمين عليها وقلة وعيهم الإسلامي وعدم مقدرتهم على تمثيل الإسلام الصحيح؛ إلا أنه اعتقل ونُقل إلى استانبول ومن هناك إلى «بارلا» وهي بلدة صغيرة نائية من أعمال «اسبارطة» في غرب الأناضول في شتاء سنة ١٩٢٦م ـ حتى يقل تأثيره ويطويه النسيان ويجف هذا النبع الفيَّاض وصنعوا له غرفة خشبية غير مسقّفة صغيرة وُضعت بين أغصان شجرة دُلب ضخمة، قضى الشيخ في منفاه ثماني سنوات ونصف سنة، متفكراً متعبداً متهجداً حتى انبلاج الصباح في معظم الأحيان كتب فيها معظم «رسائل النور» التي امتد إشعاعها إلى كل قرية وكل مدينة في أرجاء تركيا.

وتعرّف خلال هذه المدة بتلميذه الوفي «سليمان» وكان هو أول حلقة

(١) المصدر السابق (ص٥٤، ٥٥).

وصلت بينه وبين الآخرين، وبدأت حلقاته تتسع وتنتشر، ونشط تلاميذه في دراسة «رسائل النور» واستنساخها ونشرها في كل تركيا متحملين جميع تبعات هذا العمل من اعتقال ومطاردة وتعذيب.

*** رسائل النور:**

في تلك السنوات الحالكة كان الإسلام يتعرض لزلزال كبير في تركيا، فالحرب ضد الإسلام تقودها الحكومة بكل أجهزة الدعاية والإعلام التي تملكها، وبأقلام جميع المنافقين والمتزلفين وأعداء الإسلام من الكتّاب والصحفيين في الوقت الذي كممت فيه أفواه دعاة الإسلام، وحيل بينهم وبين الدفاع عن عقيدتهم، لذلك فقد تعرضت أسس الإسلام وأصوله ومبادئه الأولية إلى الشك والإنكار في نفوس كثير من الشباب الذي لم يكن يجد أمامه مرشدًا وموجهًا، لذلك فقد قرَّر الأستاذ سعيد النورسي أن يحمل تلك الأمانة الكبرى على كاهله، وأن يحاول «إنقاذ الإيمان» في تركيا.

نعم..إنقاذ الإيمان تلك كانت هي المسألة الرئيسية التي لا تحتمل التأجيل أو التسويف أو الاهتمام بأي أمر عداها، لذلك فإنه كان يصحح مفاهيم الذين كانوا يزورونه وهم يتصورون أنه شيخ طريقة صوفية فكان يقول لهم:

«إنني لست بشيخ طريقة، فالوقت الآن ليس وقت طرق صوفية بل وقت إنقاذ الإيمان»[1] فنرى أن من أولى الرسائل التي ألفها هي «رسالة الحشر» حيث إن مسألة البعث ووجود يوم القيامة ويوم الحشر أصبحت تصور من قبل الدوائر الملحدة وكأنها خرافة أو أسطورة لا سند لها من دليل عقلي أو علمي. وقد شرح الأستاذ في هذه الرسالة مسألة البعث والحشر مستلهمًا

(١) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٧١).

من الأسماء الحسنى موردًا فيها شواهد قريبة من نظر الإنسان، ومن حياته الواقعية، فنومه نوع من أنواع الموت، ويقظته نوع من البعث، النباتات تذبُل وتموت، ثم لا تلبث أن تورق وتزهر من جديد.. إنها عملية بعث جديد، تتكرر أمام أنظارنا على الدوام، فلِمَ الاستغراب إذن من البعث يوم القيامة؟!

كان تأليف «رسائل النور» ونشرها شيئًا متميزًا وفريدًا في تاريخ الدعوات الإسلامية المعاصرة، ذلك لأن الأستاذ سعيد النورسي لم يكن يكتب كثيرًا من رسائله بيده وإنما كان يملي هذه الرسائل على بعض طلابه في حالات من الجيشان الروحي والوجداني، وبعد ذلك تتداول النسخة الأصلية بين التلاميذ الذين يقومون بدورهم باستنساخها باليد، ثم ترجع هذه النسخ جميعها إليه[1] لكي يقوم بتدقيقها واحدة واحدة، وتصحيح أخطاء الاستنساخ إن وجدت، ولم يكن لديه أية كتب أو مصادر يرجع إليها عند التأليف سوى القرآن الكريم، وقد ساعده على ذلك ما وهبه اللَّه من ذاكرة خارقة وقدرة عجيبة على الحفظ، فكان يستقي عند تأليفه رسائله من مخزونات محفوظاته في مصادر العلوم الدينية التي كان قد قرأها في بداية حياته[2].

❑ لما استبدل أتاتورك الحروف العربية إلى حروف لاتينية وحظر النشر بها، وأُغلقت مطابعها كانت الطريقة الوحيدة لرسائل النور للشيخ المنفي المراقب هي طريقة الاستنساخ باليد، والكتابة بالحروف العربية حفاظًا عليها

(١) يقول عبداللَّه جاويش: «كنت أغادر قرية (إسلام) بعد المغيب حاملاً في حقيبتي الرسائل التي استنسخها (الحافظ علي) وأسير الليل كله مشيًا على الأقدام حتى أصل مع الفجر إلى (بارلا) وأرى الأستاذ في انتظاري، ويستقبلني بسرور بالغ. نصلي الفجر معًا. ثم أستسلم للنوم.. وهكذا كنت أتسلم في اليوم التالي المسودات من الأستاذ، وأغادر (بارلا) ليلاً لأصل قرية (إسلام) فاسلّم المسودات إلى (الحافظ علي). son sahitler (٦٩/١).

(٢) المصدر السابق (ص٧٢).

من الانذثار والنسيان، وبدأ عشرات بل آلاف من طلبة النور رجالاً ونساء في مباشرة هذا الاستنساخ حتى أن بعضًا منهم قضى سبع سنين لم يغادر منزله وهو مكب على هذه المهمة. وأتى بعض النسوة إلى الشيخ النورسي قائلات له: «يا أستاذنا.. إننا لكي نشارك في خدمة رسائل النور قررنا القيام بالأعمال اليومية لأزواجنا لعلهم يتفرّغون كليًّا لكتابة رسائل النور»[1].

*** منع الأذان باللغة العربية سنة ١٩٣٢ وردّ النورسي:**

في سنة ١٩٣٢م صدرت الأوامر بمنع الأذان باللغة العربية، واستُبدلت العربية في الأذان باللغة التركية، فكانت مصيبة جديدة أدمت القلوب وأدمعت العيون.. أين ذلك الأذان الذي كانت تهفو إليه القلوب، تخشع له النفوس، من هذا الأذان الذي تنفر منه القلوب وتنبو عنه الأسماع؟!

وفي المسجد الصغير الذي كان يصلي فيه الأستاذ سعيد النورسي إمامًا لبعض القرويين، كانوا يصرون على الأذان وأقامة الصلاة داخل المسجد باللغة العربية.

وما لبث أن ترامى هذا الخبر الخطير إلى سمع مدير الناحية الذي رتَّب كمينًا داخل المسجد، فأخفى بعد الجندرمة في المسجد، في القسم المخصَّص للنساء، لكي يتم القبض على «المجرمين».. في حالة التلبس بالجريمة.

سيق هؤلاء القرويون في عز الشتاء مشيًا على الأقدام، وفي طرق مغطاة بالثلوج حتى (اغريدير).

لنستمع إلى أحد هؤلاء ـ وهو مؤذن المسجد ـ يروي ذكرياته عن هذه الحادثة، إذ يقول:

ـ كم آذونا في مسألة الأذان، عندما اخترعوا لنا أذانًا تركيًا.. كان هناك

(١) المصدر السابق (ص٧٥).

معلم معادٍ للأذان الشرعي ـ باللغة العربية ـ وبعض علماء الدين يقولون: يجب طاعة أوامر أولي الأمر. أما أنا فكنت أقول: لا أعرف مثل هذه الطنطنة المسماة بالأذان التركي الغريب، وأنى لي العلم بأن (حفلة صاخبة) تُعدّ لي!؟.

ففي أحد الأيام داهموا مسجد الأستاذ سعيد النورسي، وقبضوا على (عبدالله جاويش، ومصطفى جاويش، وسليمان، وعليّ وأنا) وطردوا الباقين. . أخذونا إلى مدينة (اغريدير) مشيًا على الأقدام فوق الثلوج، وهناك أودعونا السجن ومنعوا الجميع من التحدث معنا، وفي أحد الأيام أحضروني عند المدعي العام، وكان عنده ضباط برتبة عميد وعقيد قالوا لي:

ـ حسبما سمعنا فقد أعطيت لهذا الكردي (يقصد الأستاذ) مئة وخمسًا وعشرين ليرة ذهبية. فما مقدار الذخيرة التي اشتريتموها بهذا المبلغ؟!

ـ قلت: إن الحكومة التركية تشبه سفينة، وأنتم أعلم بما يدخل ويخرج من هذه السفينة. إن الأستاذ لا يملك مدفعًا ولا بندقية، بل هو يريد نشر الاطمئنان والوئام.

سألني: هل عندك أطفال؟

قلت: نعم.

قال: إذا لم تصدق، ولم تقل الحقيقة، فالشنق ينتظرك!

قلت: إن هذا الشخص ليس إلا خادمًا للقرآن، فماذا يعمل بالمدفع والبندقية. إن بندقيته ومدفعه هو القرآن لا غير.

وعندما انعقدت المحكمة سألني الحاكم:

ـ من الذي أذن بالعربية؟

قررت أن أتظاهر بالصمم. فوقفت ساكنًا دون جواب وكأنني لم أسمع السؤال.

التفتَ إليَّ الحاكم سائلاً: هل اسمك سليمان؟.

قلت: لما كان الوقت شتاء، فقد حضرت قبل يوم.

الحاكم: قلت لك ما اسمك؟

ـ لقد نمت في الخان يا سيدي.

فغضب الحاكم غضبًا شديدًا، والتفت حوله صائحًا:

ـ اخرجوا هذا القذر[1].

ونقل النورسي بعد ذلك من منفاه إلى اسبارطة سنة ١٩٣٤م حيث ألف هناك بعض رسائل النور «رسالة الاقتصاد، ورسالة الإخلاص، والتستر، والإشارات الثلاثة»، و«المرضى والشيوخ» وجميعها من «اللمعات».

وفي نيسان ١٩٣٥م اعتقل الشيخ ومعه مئة وعشرين من تلاميذه وسيقوا جميعًا إلى سجن مدينة «أسكي شهر» انتظارًا لمحاكمتهم بتهمة «تشكيل جمعية سرية تعادي نظام السلطة القائمة وتسعى لقلبه»، والعمل على هدم الثورة الكمالية، وإثارة روح التدين بنشر رسالة «الحجاب».

وبثت الحكومة شائعات في البلد من أن طلبة النور وأستاذهم سوف يعدمون، وذلك لغرض إلقاء الرعب في قلوب الناس، وتحذيرهم من الانخراط في صفوف طلبة النور.

*** لمعات من ظلمات السجن: (المدرسة اليوسفية الأولي):**

وضع الأستاذ سعيد النورسي في سجن انفرادي مسلطين عليه مضايقات كثيرة، بهدف التأثير في روح المعنوية، ولكن الأستاذ رغم هذه المضايقات كان مستمرًا في تأليف رسائل النور، ففي هذا السجن ألَّف اللمعة الثامنة

(١) المصدر السابق (ص٧٦ ـ ٧٧).

والعشرين واللمعة التاسعة والعشرين واللمعة الثلاثين، مع الشعاع الأول والثاني. كما أن كثيرًا من المجرمين في هذا السجن قد تابوا إلى اللّه، وبدأوا اتباع الطريق المستقيم.

لم يسفر التحقيق الطويل مع الأستاذ ومع طلبته عن شيء يمكن الاستناد إليه في الحكم بإدانته أو إدانة طلابه، إلاّ إن المحكمة حكمت عليه بالسجن أحد عشر شهرًا، بسبب رسالته عن «الحجاب» وهي اللمعة الرابعة والعشرون.

*** الدفاع المشهور:**

وقد ترافع الأستاذ أمام المحكمة وألقي دفاعًا مشهورًا نقتطف منه ما يأتي:

*** يا حضرات الحكام:**

لقد جيء بي إلى هنا بتهمة أنني شخص رجعي الدين سبيلاً إلى الإخلال بالأمن العام. وإنني أقول لكم:

إن إمكانية عمل شيء لا يستدعي وقوعه ولا المعاينة عليه، فعود الكبريت يمكنه إحراق بيت، ولكن هذا الإمكان لا يعني ارتكاب أي جريمة.

إن انشغالي بعلوم الإسلام لا يخدم إلا رضى اللّه تعالى، وحاشا أن يخدم أي غرض كان غير ذلك.

لقد سألتم: هل أنا ممن يشتغل بالطرق الصوفية؟ وأنني أقول لكم: إن عصرنا هذا هو عصر حفظ الإيمان لا حفظ الطريقة. إن كثيرين يدخلون الجنة بغير الانتماء إلى طريقة صوفية، ولكن أحدًا لا يدخل الجنة بغير إيمان.

وتقولون: من أين تأتي بالمال لجمع الناس من حولك في جمعية، وإنني أسأل هؤلاء ومن أين لهم الوثائق التي أثبتوا بها أنني اشتغلت بجمعية أو قمت بأي نشاط يحتاج إلى المال؟

وتعترضون قائلين: إنني لستّ موظفًا في ما اعمل فيه. وللتدريس مديرية خاصة ينبغي أن اتلقى الأذن منها أولاً، ولكن أقول لكم:

لو أنَّ أبواب القبور كلَّها أُغلقت، وأُعدم الموت من الوجود، لجاز أن ينحصر الأذن في دائرتكم. أما وإن ثلاثين ألف جنازة تنادي كل يوم نداء الموت، وتوقع على حكمه، فإن هذا يعني أن ثمة وظائف وواجبات أخرى أهم كثيرًا مما انحصر في دائرتكم وأحكامكم[1].

*** نفي بديع الزمان إلى قسطموني:**

بعد أن قضى بديع الزمان في سجن «أسكي شهر» مدة سجنه البالغة أحد عشر شهرًا، نفي إلى مدينة «قسطموني» في ربيع سنة (١٩٣٦م)، إذ اقتيد إلى مخفر الشرطة، حيث قضى فيه مدة ثلاثة أشهر، نقل بعدها إلى بيت صغير يقع أمام المخفر مباشرة، لكي يكون تحت المراقبة الدائمة. كان البيت مؤلفًا من طابقين: الطابق الأرضي مخزن للوقود، إما الطابق الثاني فكان مكونًا من غرفتين، وكان بديع الزمان يدفع إيجار هذا البيت بنفسه.

بقي بديع الزمان في «قسطموني» سبع سنين استمر خلالها في كتابة رسائل النور مثل «الشعاع السابع» رسالة «الآية الكبرى»[2]، وكذلك الشعاع

---

(١) المصدر السابق (ص٧٨ ـ ٨٠).

(٢) رسالة الآية الكبرى: هي مشاهدات سائح يسأل الكون عن خالقه، فهو يسأل السماء والنجوم والصحاري والبحار وهكذا.. ثم العلماء، والأولياء، والأنبياء، والرسول الحبيب ﷺ، والملائكة وعالم الغيب والوحي، والقرآن.. مع ذكر الدلائل والمعجزات وهي تستنطق المخلوقات وتبين كيف إنها دليل وأثر من آثار الخالق الكريم. فهي سياحة فكرية وروحية عجيبة رائعة لا مثيل لها، وقد طبعت عدة مرات وترجمت إلى أكثر من لغة.

الثالث ـ رسالة «المناجاة» ـ والشعاع الرابع والشعاع السادس[٣] والشعاع الثامن والتاسع مع تبييض الخامس.

*** سعادة بريد النور:**

في هذه الفترة، استمر بديع الزمان في مراسلة طلابه بشتى الوسائل متخطيًا العيون المترصدة لحركاته، إذا كانت رسائله تنقل سرًّا، ثم تستنسخ، ثم توزع على القرى، والنواحي، والمدن القريبة، فتشكلت بهذا «سعاة بريد النور» الذين كان واجبهم ينحصر في نقل الرسائل من قرية إلى قرية، ومن مدينة إلى مدينة، كما انتظمت وقويت مسألة استنساخ الرسائل، فهناك بعض الطلبة الذين استنسخوا وحدهم أكثر من ألف رسالة، وبهذه الطريقة استنسخت رسائل النور كتابة باليد ستمئة ألف نسخة. وانتشرت في أرجاء تركيا تدريجيًّا منتصرة على جيوش الظلام، ومعلنةً بأنه لا يمكن إطفاء نور الإسلام أبدًا. ثم جمعت هذه الرسائل التي تشمل نواحي دقيقة في العقيدة، وردّ الشبه المضللة حول بعض الأحاديث الشريفة، وكثيرًا جدًّا من فقه الدعوة إلى اللَّه، تحت عنوان «ملحق قسطموني»[١].

*** النورسي لا يلبس القبعة ولا يغير زيّه:**

صدر قانون الأزياء في سنة ١٩٢٥م حُرِّم بموجبه لبس الزي العثماني والحجاب للنساء، وفُرض السفور والزي الأوربي ولبس القبعة.

ولما كان بديع الزمان لا يزال محتفظًا بملابسه وعمامته خلافًا لقانون الأزياء، فقد استدعاه الوالي «مدحت آلتي اوق» والي «قسطموني» إلى مقره

(١) الشعاع الرابع هو شرح لآية ﴿حسبنا اللَّه ونعم الوكيل﴾، والشعاع الخامس يخص (الدجال وفتنته في آخر الزمان) والشعاع السادس في شرح معنى (التحيات للَّه).

(٢) «بديع الزمان سعيد النورسي» (ص٨١ ـ ٨٢).

الرسمي، فجاء بديع الزمان إلى مقر الوالي يحيط به رجال الشرطة، وكان ثائرًا فالظاهر إن أحدهم حاول نزع عمامته في الطريق. دخل إلى غرفة الوالي قائلاً له بحدة:

ـ «اسمع يا مدحت؛ ليس هناك سوى حاجز رقيق بيننا وبين الموت الذي تخشونه، فإذا أقتحمنا هذا الحاجز لم يبق هناك شيء يمكن الخشية منه، لذلك فاتخذ ما تحب من إجراءاتك القانونية».

أصفرّ وجه الوالي، وارتبك ولم يجد جوابًا، وبصعوبة بالغة وصلت أصابعه إلى الجرس الموضوع على مكتبه، ليضغط عليه مستدعيًا رجاله ليأخذوا بديع الزمان إلى بيته، دون أن يجسر وهو الوالي المشهور بفظاظته وقسوته بمطالبة الأستاذ بتبديل قيافته[1].

وفي أنقرة يطلبه الوالي «نوزاد طان دوغان» حيث تجري بينهما مناقشة حول زيّه، إذ يحاول الوالي تبديل زيِّه قسرًا، فيردّ عليه الأستاذ بديع الزمان من أنه شخص منزو، وإن قانون الأزياء لا يشمله، وإن هذه العمامة لا تُرفَع إلاَّ مع هذا الرأس مشيرًا على عنقه!![2].

*** النورسي مع طلاب المدارس الثانوية:**

في تلك السنوات الحالكة حذفت دروس الدين من المدارس، كما حذفت كلمات «الخالق، الرب، اللَّه جلّ جلاله» من الكتب المدرسية ووضعت بدلاً منها كلمات «الطبيعة، التطرر، الوطنية، القومية.. إلخ». فقد كانت الغاية مسخ مفهوم (الإلـه) ومسخ فكرة (الخالق) من الأذهان، ونشر مفهوم أن الإيمان باللَّه سبحانه يتوافق مع الجهل، وإن من علامات الثقافة والعلم إنكار وجود اللَّه. ولعلّ من المفيد أن ننقل ترجمة الفقرة من مادة كلمة

(١، ٢) «سعيد النورسي» للصالحي (ص٨٤، ٨٨).

لفظ الجلالة «اللّه» الواردة في (دائرة معارف الحياة) التركية المطبوعة في استانبول سنة (١٩٣٢م) الجزء الأول، لكي يتضح الجو الفكري السائد آنذاك عند مدعي العلم والتوجيه في تركيا، بعد أن نقرأ مفهومهم عن كيفية نشوء فكرة الإلـه عند الإنسان البدائي، وكيفية تطورها ومجيء الأديان تنتهي بالأسطر الآتية:

«إن الفكرة التي تريد الأديان الموجودة حاليًا، أن تبثّها هي: إن اللّه واحد، وأنه هو الذي خلق الكون. ولكن التقدم العلمي بدأ يوضح شيئًا فشيئًا، وبأن هذه الفكرة باطلة، وأنه لا وجود لشيء اسمه (اللّه).

وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد باللّه بين أوساط المثقفين».

وهكذا كانت معاول الهدم تهدم الإيمان باللّه في نفوس الجيل الجديد، وتثير الحيرة فيها، ويتحدث السيد «عبداللّه يكن» مؤلف «يني لغات» «القاموس الجديد» عن جيرته هذه عندما كان طالبًا في المدرسة المتوسطة، فيقول بأن مدرسيه لم يكونوا يتحدثون مطلقًا عن (اللّه) فكان يذهب هو وصديق له يدعى «رفعت» لزيارة بديع الزمان:

«كنا أنا وصديقي رفعت نزوره على الدوام، فكان يتحدث معنا عن أهمية الإيمان، وعن وحدانية اللّه، وإن الإنسان لم يخلق للعيش بدون ضوابط، وكنا نحسّ في أعقاب كل زيارة بأننا قد ولدنا من جديد، وكانت نفوسنا تطفح بالسعادة المعنوية وبالبشر والفرح...».

وقد أحس بديع الزمان بضرورة كتابة رسالة عن هذا الموضوع الخطير، لكي يكون وسيلة إنقاذ لآلاف، ومئات الآلاف من الجيل الجديد الحائر، الذي يبحث عن نور لقلبه، وهداية لروحه. يقول بديع الزمان في مقدمة هذه الرسالة:

جاءني فريق من طلاب الثانوية في «قسطموني» قائلين: عرّفنا بخالقنا،

فإن مدرسينا لا يذكرون اللَّه لنا! فقلت لهم: إن كل علم من العلوم التي تقرأونها يبحث عن اللَّه دومًا، ويعرّف بالخالق الكريم بلغته الخاصة. فاصغوا إلى تلك العلوم دون المدرسين.

فمثلاً: لو كانت هناك صيدلية ضخمة، في كل قنينة من قنانيها أدوية ومستحضرات حيوية، وضعت فيها بموازين حساسة، وبمقادير دقيقة؛ فكما إنها ترينا أن وراءها صيدليًّا حكيمًا، وكيميائيًّا ماهرًا، كذلك صيدلية الكرة الأرضية التي تضم أكثر من أربعمائة ألف نوع من الأحياء ـ نباتًا وحيوانًا ـ وكل واحد منها في الحقيقة زجاجة مستحضرات كيماوية دقيقة، وقنينة مخاليط حيوية عجيبة تري ـ حتى للعميان ـ صيدليها الحكيم ذا الجلال، وتعرِّف خالقها الكريم سبحانه بدرجة كمالها، وانتظامها، وعظمتها، ومدى نسبتها قياسًا على تلك الصيدلية التي في السوق، وذلك وفق مقاييس علم الطب الذي تقرأونه[1].

❑ للَّه در النورسي:

ما أجمل سمت المخلصين الصادقين للَّه درهم وهم الذين كساهم رسول اللَّه عز وجل تاجًا من البهاء لا يفارق وجوههم النضرة وكان للنورسي منه نصيب أي نصيب!!.

ففي أحد المرّات وعندما كان جالسًا على حائط قلعة «قسطموني» الأثرية مرّ من هناك شخص سكّير يترنّح في مشيه سالكًا الطريق المؤدّي إلى بيوت الدعارة (التي أصبحت عَلَنية). وصل السكّير إلى القرب من الحائط الذي يجلس عليه بديع الزمان، وتسمر في مكانه لا يتقدم خطوة إلى الأمام، ولا يتأخر خطوة إلى الوراء، وهو يتطلع إلى فوق.. إلى العالم الجليل، المتسربل بالملابس البيضاء، تطلّع إليه بديع الزمان لحظة. ثم ابتسم له، وسلّم

(١) المصدر السابق (ص٨٧).

عليه، ثم قال له:

«ـ ارجع يا أخي.. لا تذهب إلى هناك! بل ارجع وأغتسل وتُب إلى اللَّه وابدأ بالصلاة».

نفذ هذا الصوت المملوء محبة واشفاقًا إلى قلب السكّير، فلم يحسّ إلا والدموع تطفر من عينيه، ثم تنتابه نوبة من البكاء، وهو يقفل راجعًا إلى بيته. ويحتار رجل الأمن المكلّف بمراقبة حركات بديع الزمان، ويسرع، إلى السكير آخذًا بتلابيبه وصارخًا في وجهه: قل لي بسرعة، اجبني بسرعة ماذا قال لك ذلك الكردي؟![1].

*** سجن دنيزلي «المدرسة اليوسفية الثانية»:**

اقتيد الشيخ النورسي ومعه مئة وستة وعشرين من طلاب النور من مختلف مدن تركيا إلى سجن دنيزلي بتهمة تأليف جمعية سرية، وتحريض الشعب على الحكومة العلمانية، ومحاولة قلب نظام الحكم، ثم تسمية مصطفى كمال بالدجال و«هادم الدين» حيث قضى بديع الزمان تسعة أشهر في زنزانة انفرادية، وكان طلابه مسجونين بنفس السجن اقتيد وهو ابن سبعين عامًا وألف أثناء مُكوثه في سجن «دنيزلي» رسالة «الثمرة»، كان يكتبها على قصاصات من الورق، ويضعها في علب الكبريت، ويرميها خفية من شباك ردهته إلى طلابه وهم بدورهم يستنسخونها.

*** دفاع رائع:**

وأثناء مدّة التوقيف عقدت محكمة الجزاء الكبرى عدة جلسات للمحاكمة، وقد ألقى بديع الزمان دفاعًا رائعًا أمام هذه المحكمة نورد جزءًا منه هنا: (٤٨)

(١) المصدر السابق (ص٨٣).

نعم.. نحن عبارة عن جمعية، وإنها لجمعية تحوي في كل عصر على (أربعمائة) مليون من الأعضاء المنتسبين إليها، وهم في كل يوم يعبرون خمس مرات دائمًا عن أتم علاقتهم بالدستور العظيم لهذه الجمعية وهم يتسابقون دائمًا إلى تحقيق أهم شعائرها ألا وهو «إنما المؤمنون أخوة» فنحن من أفراد هذه الجمعية المقدسة تعريفًا علميًّا راسخًا، وذلك تعاون منا على أعتاق أنفسنا من سجن الأبدية الذي يتهددنا.

بأي وجه حق تستطيعون إيقاف حركة «رسالة النور» وإنما هي عبارة عن خدمة حقائق القرآن، والقرآن حقيقة مرتبطة بعرش اللّٰه العظيم؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يجرأ فيقف في وجه حقيقة ترتبط بعرش اللّٰه تعالى؟

إنني لا أتوجه في بياني هذا إلى أعضاء هذه المحكمة فقط بل إلى تلك الجماعة المتآمرة في «اسبارطة» أيضًا. إنني لأعجب كيف يُتهم إناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية؟! على حين يحق لمارق مثل (الدكتور دوزي) أن يفتري على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ثم يعتبر ذلك أمرًا مقدسًا لأنه حرية للرأي والفكر، هذه حرية للرأي والفكر.

أما نور القرآن الذي يأبى إلا أن يشعّ في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره، فهو خطورة تنهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة!

إنكم تتهمونني بمعاداة «الجمهورية» ولكني أقول لكم، إنني منذ كنت طالب علم يؤتى لي بطعامي من الخبز والحساء، كنت آكل نصيبي منه ثم أنثر ما بقي منه بين جماعات من النمل كانت بالقرب مني ـ تقديرًا لجماعتها وتقديسًا لنظامها وإخوتها ـ إنكم تستطيعون أن تعلموا من هذا مدى تقديري لحقيقة الجمهورية الصالحة. علي أن أكبر على تقديسي الجمهورية هو احترامي لخلفاء الإسلام، فقد كانوا إلى جانب كونهم خلفاء، رؤساء جمهورية أيضًا:

ولقد كانت حياتهم حياة جمهورية لا في الادعاء اللفظي فقط، بل في الحقيقة والواقع.

أما عن الجمهورية العلمانية، فنحن نعلم أنها تلك التي لا تتعرض للدين في خير أو شرّ. ولكن ها أنتم أولاء تفسحون الطريق أمام كل جريمة، وفاحشة خلقية، وكذب على اللّه والكون، باسم الحرية الوجدانية والفكرية، حتى إذا تنبهتم لآية من القرآن تفسر وتجلي حقائقها، رفعتم أصواتكم بالنكير وقلتم: جمعية سرية سياسية.. وخطورة!!.

إن المسألة إذن من الخطورة والإجرام بحيث تحاولون أن تستروها برداء العلمانية، فإن كان الأمر كذلك فاعلموا أنه لو كانت لي ألف روح فأنا على استعداد أن أفدي كل ذلك في سبيل أهم حقائق الكون ألا وهو دين اللّه تعالى، وسأحتمي منكم بحصن واحد فقط هو: «حسبنا اللّه ونعم الوكيل».

إنكم تدورون ثم تقولون: إن أعمالي الدينية ما هي إلاّ استغلال ووسيلة للإخلال بالأمن. ولكن أقول لكم بالمقابل: إن دعواكم هذه ليست إلا استغلالاً ووسيلة لإعدام الدين باسم المحافظة على الأمن.

إنكم تعلمون إن رسالة النور تضيء منذ عشرين عامًا، فهل سجلتم منذ ذلك اليوم إلى الآن حادثة واحدة أخلت بالأمن؟ إذن فإن تكن المادة ذات الرقم (١٦٢) ما هي إلا عبارة عن كرة تقذفون بها إلي حيث أردتم، وما أرادتكم إلا معاداة الدين.

إذن فاسمعوا يا مَن بِعتم دينكم بدنياكم ونكستم في الكفر المطلق، إنني أقول بمنتهى ما أعطاني اللّه من قوة: افعلوا كل ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداء لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام.

نحن في كل لحظة ننتظر أحكام أعدامكم، إن السجن الخارجي على هذه الحال اسوأ مائة مرة من ذلك السجن الداخلي.

وتقولون: لماذا لا تلبس قبعتنا منذ عشرين عامًا مرة واحدة؟ ولم تكشف عن رأسك لمحكمتنا مرة واحدة مع إن سبعة عشر مليونًا انسجموا مع هذا اللباس؟

وإنني أقول: ليسوا سبعة عشر مليونًا، ولا سبعة ملايين بل لا يوجد أقل من القليل لبسوها بمحض إرادتهم واختيارهم. اللَّهم إلا حفنة من الحمقى الذين يلهثون وراء رذيلة وانحطاط أوروبا.

إن مثلي ممن ترك الحياة الاجتماعية منذ خمس وعشرين سنة لا يقال عنه في هذا مخالف أو معاند، وافرضوا أنه عناد فما دام أن مصطفى كمال بنفسه لم يقدر أن يكسر عنادي، وإن محكمتين وحكومة ثُلاث ولايات لم تستطع التأثير فيّ فما أنتم وخطبتكم حتى تضيعوا الوقت في هذا اللعب؟

ويقول في موضع آخر من دفاعه:

هذه هي الحقيقة ونحن نقول بكل قوة:

أيا من بعتم دينكم بدنياكم. أيها الكافرون التُعساء، أنفقوا ما شئتم. ستكون الدنيا وبالاً عليكم، لقد فُديت هذه الدعوة المقدسة بملايين الأبطال ونحن مستعدون لأن نفديها بأرواحنا، إننا نفضل البقاء في السجن ألف مرة على أن نرى الحرمات تُنتهك، في ظل هذا الاستبداد لا يمكن أن يقال إن هنا: حرية، حرية العلم. أو حرية الضمير، أو حرية التعبير أو حرية الدين، وبقي على طلاب الحرية أن يموتوا أو يبقوا في السجون محتمين باللَّه تعالى قائلين: «حسبنا اللَّه ونعم الوكيل».

إن الدعوى المقامة على رسائل النور ليست مسألة شخصية أو شيئًا بسيطًا حتى يقلل من شأنها، إنها مسألة تهم الأمة والوطن والدولة وتهم الأمة الإسلامية، والعالم الإسلامي بأسره سيتابع هذه المسألة باهتمام بالغ.

نعلن بأننا منتسبون إلى الجماعة الإسلامية التي ينتسب إليها أكثر من

ثلاثمائة مليون مسلم، فنحن حزب اللَّه ونحن إخوة متضامنون.. خدم القرآن.. وجند اللَّه وحزبه. أيها السادة! يا رئيس المحكمة!

إنكم إذ تصدرون هذه الأحكام على رسائل النور وطلابها، وتدعون الكفر والإلحاد، وتحاولون حجب الحقائق القرآنية والإيمانية عن عيون البشر، وتريدون بذلك سد الطريق الذي سار عليه ملايين بل مئات الملايين من المسلمين ووصلوا إلى السعادة الأبدية الحقيقية، فلن تجنوا سوى حقدهم وازدرائهم.

إن الزنادقة والمنافقين غرروا بكم وصفعوا العدل والحق، وانحرفوا بالدولة عن وظيفتها الأساس إلى مشاغل لا فائدة منها، واتخذوا من الاستبداد جمهورية، والردّة نظامًا ومن الجهل والسفه مدنية، ومن الظلم قانونًا، وبذلك خانوا وطنهم وضربوه ضربة ما كان لأجنبي أن يضرب مثلها[1].

❑ وفي عام ١٩٤٤م وضعوا الشيخ في إقامة جبرية في أميراداغ، ووضعوا على بابه حارس لا يفارق الباب لمتابعة حركات الشيخ وسكناته، ودسّوا له السم في طعامه، وشاء اللَّه أن لا يموت، وجعل ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «إنه مما يعوضني عن عشرة الناس يحال بيني وبينهم، إن مليونًا من المسلمين يعكفون على دراسة رسائل النور التي انتشرت فيما بينهم، إنهم إن استطاعوا أن يسكتوني أمام الناس، فلن يستطيعوا إسكات رسائل النور التي تصل إلى شغاف القلوب.. إن كل نسخة منها تقوم مقامي في الكلام والبيان، ولن تسكتها أي قوة كانت على الأرض»[2].

❑ هل كان مرور اثنتين وعشرين سنة من حياة النفي والإقامة الجبرية

(١) المصدر السابق (ص٩٠ ـ ٩٤).

(٢) المصدر السابق (ص٩٧).

والمراقبة والترصّد لشيخ بلغ عمرة الخامسة والسبعين عامًا يكفي بالنسبة لجلاوزة أنقرة آنذاك؟!

كلا، وإنما سجنوه في مدينة أفيون عشرين شهرًا وعاملوه معاملة قاسية، فبالرغم من شيخوخته ومرضه، وبالرغم من الشتاء القارس، فقد تركوه وحده في زنزانة كبيرة عارية تسع ستين شخصًا، تركوه دون مدفأة بينما كان الثلج يتراكم على زجاج نافذته ودسوا له السم في طعامه، ولكن اللّه حفظه، وعندما حاول بعض طلابه إسعافه ومساعدته، ضربوهم ضربًا مبرحًا وأدميت أرجلهم على (الفلقة).

وفي هذا السجن أيضًا اهتدى على يديه كثير من المجرمين والقتلة، كما أنه استمر على التأليف. فألّف «الشعاع الخامس عشر» الذي هو رسالة «الحجة الزهراء» وتتناول الأدلة القاطعة على وجود اللّه سبحانه وتعالى ووحدانيته وعلى صدق نبوة محمد ﷺ.

❑ يقول بيرام يوكسل الذي خدم الأستاذ طوال حياته:

«كانت كتابة رسائل النور والانشغال بها شغلنا الشاغل مع إخواننا من طلاب النور في السجن، فعندما كنا نقترب من ردهة الأستاذ في السجن نسمع صوتًا كدوي النحل يترنم ليلاً ونهارًا. إنها أصوات أذكاره وتسبيحاته وصلواته. كنّ نراقب أعمال الأستاذ عن كثب، وكان مصباحه يضاء خافتًا حتى في أوقات متأخرة من الليل. ألف في هذه الفترة الشعاع الخامس عشر الحجة الزهراء فكنا نمر بين حين وآخر من تحت شباك ردهته، وما إن يرانا حتى يرمي لنا علب الكبريت وفيها قسم مما ألفه من الرسالة. ونحن بدورنا نستنسخ سرًا نسخًا منها (son sahitler) (١/ ٣٨١)[1].

❑ وبعد خروج الشيخ من سجن أفيون سقط حزب الشعب الجمهوري

(١) المصدر السابق (ص ١٠٠).

الذي حارب الإسلام ربع قرن من الزمان.. فأتيح قدر ضئيل من الحرية فقام الشيخ بالتدريس الجماعي لرسائل النور إضافة إلى قيامه بدعوة ونصح السياسيين ورجال الحكم باتباع الإسلام والاسترشاد به، وبيان أن الطريق الصحيح الوحيد هو طريق الإسلام، وبقى ـ رحمه اللَّه ـ يصرف كل جهده لتربية النفوس وتقوية الإيمان وتذكير الناس باللَّه واليوم الآخر.

❑ وحاكموه في ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٢م بسبب رسالته «مرشد الشباب» وهي رسالة تحاول إنقاذ الشباب والشابات من التيارات العديدة التي تعمل علي هدم بنية المجتمع ونخر جسمه.

❑ وحاكموه مرة أخرى أمام محكمة صامسون عام ١٩٥٣م بسبب مقالة له نُشرت في جريدة «الجهاد الأكبر» تحت عنوان «أكبر برهان» وطُبب مثوله أمام المحكمة وحال مرضه آنذاك دون حضوره المحاكمة.. لم يرحموه وهو في الثمانين من عمره.. بل لاحقوه على الدوام.

❑ وفي مرض الموت وكان في أورقة طلبوا منه مغادرة المدينة إلى أسبارطة فقال لمدير أمن المدينة: إنني الأن في الدقائق الأخيرة من عمري لا أستطيع الرجوع، وقد أموت هنا. إن وظيفتك الآن هي تهيئة الماء لغسلي بعد الوفاة.. وكانت الوفاة في نفس اليوم الأربعاء الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩هـ (٢٣ مارت ١٩٦٠م) وورى جثمانه الطاهر في مقبرة «أولو جامع».

*** للَّه در النورسي:**

للَّه در النورسي الذي حمل في يده سراج الهداية وسط أعتى العواصف دون أن تلين له قناة أو تفتر له همة.. إن للحق ساعداً لا ينثني ووجه لا يتراجع، وللنورسي علم لا يلتبس، وكلام لا يسكت وقلب لا ينخدع.

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن مضايقة أهل الدنيا لي، ليست ناشئة من انشغالي بالسياسة لأنهم يعرفون جيدًا أني لا أتدخل في الأمور السياسية، بل أنفر منها، فهم يعذبونني بسبب ارتباطي بالدين وتمسكي بأهدابه، أي أنهم يعذبونني ـ بشعور وبغير شعور ـ إرضاءً للزندقة. لذا فإن مراجعتهم تعني إبداء الندامة عن الدين، وملاطفة لمسلك الزندقة، فضلاً عن أن القدر الإلهي العادل سيعذبني بأيديهم الأثيمة إن التجأت إليهم أو راجعتهم؛ لأنهم يضايقونني لتمسكي بالدين، بينما القدر الإلهي يضايقني لنقائصي وقصوري في التقوى والإخلاص ولتزلفي أحيانًا إلى أهل الدنيا. فلا نجاة لي إذن من هذه المضايقات في الوقت الحاضر. إذ لو راجعت أهل الدنيا لقال القدر: يا أيها المرائي! ذق جزاء مراجعتك هذه، وإن لم أراجع أهل الدنيا قالوا: إنك لا تعترف بنا فلازم المضايقات».

أيها التعساء! ماذا فعلت بكم، وما الذي أفعله بحقكم؟ إنني أسعى لإنقاذ ايمانكم وإبلاغكم السعادة الأبدية، يبدو أن خدمتي لم تخلص بعدُ للَّه، لذا يولد خلاف المأمول.. وأنتم نظير ذلك تؤذونني في كل فرصة سانحة، فلا ريب أننا سنتحاكم في المحكمة الكبرى.. أقول: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل.. نعم المولى ونعم النصير.. الباقي هو الباقي»[1].

*** النورسي يقذف الرعب في قلوب أعداء الإسلام حتى بعد موته:**

رحم اللَّه النورسي عاش مجاهدًا في سبيل اللَّه، وقضى ثمانيًا وعشرين عامًا من حياة النفي والسجن والمضايقات التي لا تنتهي، لكنه استطاع وحده ـ بفضل من اللَّه ـ أن يهز تركيا من أقصاها إلى أقصاها حتى أن هذا الرعب لم

(١) رسائل النور ـ المكتوبات (٢) ـ ذيل المكتوب السادس عشر للنورسي (ص٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥) ـ دار سورلر للنشر.

ينته بوفاته بل بقي يخيفهم وهو في مثواه الأخير!

❑ قال الشيخ عبدالمجيد النورسي شقيق الشيخ سعيد النورسي في مذكراته: «في بداية شهر تموز أي بعد مرور خمسة أشهر على وفاة شقيقي جاءني ظُهر أحد الأيام شخص عرفت فيما بعد أن اسمه إبراهيم بروكسل وأنه رئيس شعبة الأمن قائلاً بأن الوالي يستدعيني، فذهبت معه إلى بناية الوالي حيث شاهدت ثلاثة من جنرالات الجيش مع الوالي، كان أحدهم «جمال نورال» والآخر «رفيق تولكا» خاطبني «جمال تورال» قائلاً:

«إن زوّار عديدين من الولايات الشرقية والجنوبية يأتون لزيارة شقيقكم، وكما تعلمون فإننا نعيش ظروفًا دقيقة، لذا فإننا نريد أن ننقل شقيقكم ـ بمعاونتكم ـ أيضًا إلى أواسط الأناضول، فنرجو توقيع هذه الورقة».

ومدّ إلي بعريضة على لساني، قرأتها ثم قلت:

«ولكني لم أطلب هذا.. أرجوكم دعوه يرتاح على الأقل في قبره، فأصروا على موقفهم، وقالوا بأنه لا بد من التوقيع».

وبعد التوقيع توجهنا إلى المطار حيث أقلتنا طائرة عسكرية إلى أورقه، وقام الجنود بهدم القبر وإخراج التابوت منه وفتحو التابوت، ووجدوا الكفن سليمًا، وكأنه قد توفى بالأمس وعندما كشف الطبيب الكفن عن وجهه كانت هناك شبه ابتسامة على وجهه، وذهبوا بالتابوت إلى المطار بعد فرض حظر التجول في المدينة، وهناك نقل في طائرة إلى «اسبارطة» حيث دفن في مكان ما لا يزال مجهولاً». ـ رحم اللّه ـ النورسي فقد تمنى في وصيته لتلاميذه عدم معرفة مكان قبره»[1].

* * *

(١) سعيد النورسي للصالحي (ص١٣٤ ـ ١٣٦).

فهرس الموضوعات

زهر البساتين

من

مواقف العلماء والربانيين

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء الثالث

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٣ درب الأتراك - الدور الثاني خلف الجامع الأزهر

ت: ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠ / ٠١٠٥١٠٨٢٥٧

بني سويف: برج الري - بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠١٠١٧٥٦٢٩٦ / ٠٨٢٢١٧٣٤٤

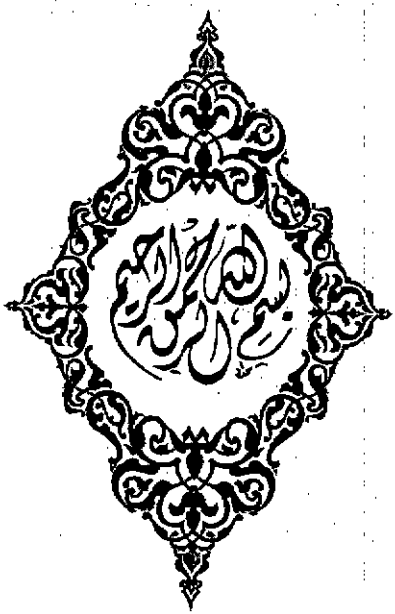
بسم الله الرحمن الرحيم

* السلطان عبدالحميد الخليفة العثماني وحفاظه على فلسطين رغم إغراء اليهودية:

لعل الموقف الذي وقفه السلطان عبدالحميد من فلسطين والصمود الذي أبداه تجاه جميع المحاولات التي بذلها زعماء الصهيونية العالمية كافيان في نظر الباحث العربي المسلم، لتثمين دور السلطان عبدالحميد في الحفاظ على وحدة الأراضي الإسلامية وعدم التفريط بشبر واحد منها، رغم المتاعب السياسية والمالية والعسكرية التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية إبّان تلك الفترة والتي استغلها الصهيونية أبشع استغلال لتنفيذ وعيدها له بإسقاطه عن عرشه، عندما لم يتجاوب مع الوعود والإغراءات اليهودية.

ولم يكن «تيودور هرتزل» هو الوحيد الذي سعى لمقابلة عبدالحميد وحاول استدراجه، لتحقيق مآرب الصهيونية، فلقد تكررت المحاولات واختلفت الوسائل والأساليب، ولم تصل الصهيونية إلى بغيتها، إلا بعد أن نجحت في مخططها لإبعاد عبدالحميد عن عرش الخلافة الإسلامية.

❑ وقد روى الشيخ طه الولي[1] أنه زار مع أخيه فؤاد الولي ـ قبل وفاته ـ في ١١ أيلول سبتمبر ١٩٦٧ الشيخ علي شيخ العرب في بيته بطرابلس الشام بلبنان، واستمعا منه إلى هذه الرواية:

كان ذلك عام ١٩٠١م ونحن في قصر يلدز باستانبول، وإلى جانبي الشيخ محمود الجيزاوي، إمام جامع العرب في دار السعادة، وإذا بثلاثة من اليهود يطلبون مقابلة مولانا أمير المؤمنين السلطان عبدالحميد الثاني فاستقبلهم

(١) الشيخ طه الولي، عالم لبناني فاضل، يعمل أمينًا للمكتبة العامة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت، أما شقيقه فؤاد فقد كان ـ رحمه الله ـ أستاذًا للتاريخ في كلية التربية والتعليم بمدينة طرابلس الشام بلبنان.

تحسين باشا رئيس الكتاب وهم:

١ ـ مزاحي قراصو مدير أحد البنوك.

٢ ـ جاك ولم أعد أذكر باقي اسمه.

٣ ـ ليون ولم أعد أذكر باقي اسمه.

وأصر على معرفة ما يريدون لينقله حرفيًّا للسلطان فأبدوا استعدادهم لـ:

١ ـ الوفاء بجميع الديون المستحقة على الدولة العثمانية.

٢ ـ بناء أسطول لحماية الدولة.

٣ ـ تقديم قروض بخمسة وثلاثين مليون ليرة ذهبية دون فائدة؛ لإنعاش مالية الدولة مواردها مقابل:

١ ـ إباحة دخول اليهود إلى فلسطين في أي يوم من أيام السنة للزيارة.

٢ ـ السماح لليهود بإنشاء مستعمرة ينزل بها أبناء جلدتهم قرب القدس أثناء الزيارة.

وحينما نقل تحسين باشا ما سمعه إلى السلطان أجابه: قل لهؤلاء اليهود الوقحين:

١ ـ إن ديون الدولة ليست عاراً عليها لأن غيرها من الدول كفرنسا مدينة ولا يضيرها ذلك.

٢ ـ إن بيت المقدس الشريف افتتحه للإسلام أول مره سيدنا عمر رضي الله عنه ولست مستعدًّا أن أتحمل تاريخيًا وصمة بيع الأراضي المقدسة لليهود، وخيانة الأمانة التي كلفني المسلمون بالحفاظ عليها.

٣ ـ ليحتفظ اليهود بأموالهم، فالدولة العلية لا يمكن أن تحتمي وراء حصون بنيت بأموال أعداء الإسلام.

وأخبراهم أن يخرجوا وألا يحاولوا مقابلتي أو الدخول لهذا المكان بعدها..

❑ ويستمر الشيخ علي شيخ العرب[١] في روايته فيقول: إن عبدالحميد أرسل بعد ذلك إلى ممدوح باشا ناظر الداخلية ليكلفه بالاتصال برؤوف باشا متصرف القدس الشريف ليقوم بالتحري فوراً عن اليهود في فلسطين ولا سيما في القدس، بحيث لا يبقى منهم إلا الزائرون لمدة محدودة.

❑ ويقول: إن اليهود نجحوا في استخدام جمعية «الاتحاد والترقي» التي تقنعت بها جماعة «الدونمة»، وهم المتظاهرون بالإسلام من يهود أسبانيا، فأطاحوا بعبدالحميد عام ١٩٠٨، ولم تكن «المشروطية»[٢] غايتهم، بل أنهم قاموا برشوة بعض المشايخ للخروج في الشوارع والمناداة بـ «الارتجاعية»[٣] لإخراج السلطان ولدفع الاتحاديين للثورة، تمهيداً للتخلص من الإسلام نفسه.

وهذه الرواية الشخصية تعزز الروايات العديدة التي تناقلتها مختلف المصادر حول مساعي اليهود المتكررة مع السلطان عبدالحميد الثاني، لانتزاع

---

(١) الشيخ علي شيخ العرب، أحد شيوخ العرب الذين قربهم إليه السلطان عبدالحميد فعاشوا في كنفه وفي رحاب قصره «يلدز».

(٢) المشروطية: دعوة إلى إباحة الحريات العامة والمشاركة في الحكم والعمل بالدستور.

(٣) الارتجاعية: دعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية، وهي ما يعرف اليوم بـ «الرجعية»، وهي حادث ٣٠ مارس الذي أدى إلى الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد بعد أن تم تدبير مجزرة كبرى في إستانبول نسبت للارتجاعيين، وصورت على أنها مرتبة ومخططة لتثبيت نفوذ عبدالحميد والانقضاض على المشروطية الثانية، كما حصل في أعقاب المشروطية الأولى.

إلا أن الوثائق أثبتت كما سنورده في الباب القادم، أنها تمت بتدبير من الاتحاديين والماسونيين والانكليز وقد وردت ـ اتهامات هذه الجهات صراحة في مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني، وفي اعترافات لكل من أنور باشا، وجمال باشا عبر مذكراتهما عقب اقصائهما عن الحكم.

موافقته على تسهيل هجرتهم إلى فلسطين[١] .

وقد بعث السلطان عبدالحميد برسالة إلى شيخه محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق بعد خلعه من الخلافة، نشرتها مجلة العربي، وهذا نصه يا هو[٢] .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

خطاب عبدالحميد الثاني للشيخ محمود أبو الشامات.

الحمد للّه رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين.

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة[٣] ، إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات، وأقبل يديه المباركتين راجيًا دعواته الصالحة.

بعد تقديم احترامي، أعرض أني تلقيت كتابكم المؤرخ ٢٢ مارس في السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي! إني بتوفيق اللّه تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية[٤] ليلاً

(١) انظر مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني ـ ترجمة د. محمد حرب عبدالحميد.

(٢) يا هو: الذكر بالاسم المفرد «اللّه اللّه» يا خليفة المسلمين لا يجوز، والذكر بالاسم المضمر هو نوع من الهوس.

(٣) مفيض الروح والحياة هو اللّه سبحانه وتعالى.. وليس شيخ الطريق الشاذلية، وهكذا يقع خليفة المسلمين في الشرك ـ رحمه اللّه ـ وعافاه.. وما سقطت الخلافة العثمانية إلا بمثل هذه المعتقدات البدعية.. سقطت لما كان المستشار الدّيني لها محمد أبو الهدي الصيادي شيخ الرفاعية الذي سمّاه الكواكبي «البغل المزركش» وأتى بالأقوال الطوام.. لما انتشرت البدع والشركيات نالها ما نالها.

(٤) الأوراد الشاذلية بما فيها من بدع واستغاثة وطلب المدد من غير اللّه. وأنت خليفة المسلمين رحمك اللّه وغفر لك.

ونهارًا، وأعرض أنني ما زلت محتاجًا لدعواتكم القلبية بصورة دائمة. بعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم وإلى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ:

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم «جون ترك» وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة «فلسطين»، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف.

❑ وأخيرًا وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضًا وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي:

«إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبًا - فضلاً عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهبًا - فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي.

لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية، ما يزيد عن ثلاثين سنة، فلم أسوّد صحائف المسلمين آبائي وأجدادي، والخلفاء العثمانين. لهذا لن أقبل بتكليفكم بوجه قطعي أيضًا».

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيعيدونني إلى سالونيك فقبلت بهذا التكليف الأخير، هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية، والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشيء عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة «فلسطين».

وقد كان ذلك ما كان. ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على اللّه المتعالي، وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام، وبه أختم رسالتي هذه.

ألثم يديكم المباركتين، وأرجو وأسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي وسلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء.

يا أستاذي المعظم لقد أطلت عليكم البحث، ولكن دفعني لهذه الإطالة، أن أحيط سماحتكم علمًا، وتحيطوا جماعتكم بذلك علمًا.

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

٢٢ أيلول ١٣٢٩ خادم المسلمين

عبدالحميد بن عبدالمجيد

❑ وكان بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا، وقد وجّه مذكرة إلى سفيره بالأستانة عام ١٨٤٠ قال فيها:

«يقوم بين اليهود والمبعوثين الآن في كل أوربا شعور قوي، بأن الوقت الذي ستعود فيه أمتهم إلى فلسطين تأخذ في الاقتراب..

ومن المعروف جيدًا أن يهود أوربا يمتلكون ثروات كبيرة.. ومن الواضح أن أي قطر يختار أعداد كبيرة من اليهود أن يستوطنوه سيحصل على فوائد كبيرة من الثروات التي سيجلبها معهم هؤلاء اليهود.

فإذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية ومباركة السلطان، فسيكون في هذا حائلاً بين محمد علي ومن يخلفه، وبين تحقيق خطته الشريرة في المستقبل».

وحتى إذا لم يؤد هذا التشجيع الذي سيقدمه السلطان لليهود بالفعل إلى استيطان عدد كبير منهم في حدود الإمبراطورية العثمانية، إلا أن إصدار قانون من هذا النوع سيعمل على انتشار روح الصداقة تجاه السلطان بين جميع يهود أوربا، وسترى الحكومة التركية في الحال كم سيكون مفيدًا لقضية فلسطين أن يكسب أصدقاء مفيدين في كثير من الأقطار بقانون واحد بسيط منها».

وبعد عام واحد أرسل بالمرستون رسالة أخرى إلى سفيره في الأستانة طالبه فيها بإقناع السلطان بإباحة هجرة اليهود وقال:

«سيكون مفيدًا جدًّا للسلطان إذا ما أغرى اليهود المبعثرين في أوربا وأفريقيا بالذهاب والتوطن في فلسطين، لكن اليهود يطلبون نوعًا من الأمان الحقيقي الملموس، ولذلك فإني أقترح أن يكون في استطاعتهم الاعتماد على حملة بريطانيا، وأن يسمح لهم بأن ينقلوا إلى الباب العالي شكاواهم عن طريق السلطات البريطانية».

كما استعان اليهود الروس بالسفير الأمريكي في الأستانة ليبذل نفوذه ومساعيه لدى السلطان عبدالحميد بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، خصوصًا بعد قرار الولايات المتحدة الأمريكية عام (١٨٨٢م)، وذلك بتحديد هجرة اليهود إليها، لكن وزير خارجية عبدالحميد أخفق في إقناعه، ومضى نحو خمس سنوات والمحاولات اليهودية جارية دون كلل أو ملل، حين جاءت محاولة كبرى من بريطانيا لدى السلطان عام (١٨٨٧م) بذلت فيها كل جهودها وإغراءاتها المالية ووعودها العلنية السرِّية، بالوقوف إلى جانب الدولة العثمانية، لكن عبدالحميد ثبت على رفضه القاطع.

وكانت الهجرة اليهودية قد بدأت من روسيا القيصرية أثر قيام منظمة «عشاق صهيون» باغتيال القيصر الروسي إسكندر الثاني بالقنابل في ١٣ آذار مارس (١٨٨١م)، وحملة السلطات الروسية لتصفية اليهود بعدها.

وقد قبلت السلطات الروسية إيواء بعض اليهود الهاربين من روسيا لكن مطامع اليهود تطورت عقب المؤتمر الصهيوني الأول ببال في سويسرا[1].

وقد تمكنت حركة التهجير اليهودية «البيلوا» في عام (١٨٢٢م) من

(١) انظر: د. صالح مسعود أبو بصير ـ «جهاد شعب فلسطين» ـ رسالة دكتوراه بالأزهر ـ دار الفتح ـ بيروت.

إيصال ٢٠ مستعمرًا يهوديًا إلى فلسطين اعتبروا «رواد» الهجرة اليهودية، وعملوا على تحويل عدة قرى عربية صغيرة نائية إلى مستعمرات صهيونية ولكنهم فشلوا في الزراعة فشلاً ذريعًا ولولا مساعدات البارون إدمون دي روتشيلد لماتوا جوعًا ومرضًا.

❑ وقيل أيضًا أن السير موسى مونتفيوري خاطب إبراهيم باشا والي محمد علي على الشام ليسمح لهم بهجرة اليهود إلى فلسطين، وأبدى استعداده لشراء الأراضي اللازمة لاستيطان اليهود في فلسطين، ولكن إبراهيم باشا رفض هذا العرض.

❑ وفي عام (١٨٩٦م) اتصل هرتزل بدوق بادن الأكبر وطلب منه أن يحصل له على إذن لمقابلة مع قيصر ألمانيا، وشرح له الفوائد التي ستعود من هذا المشروع، إذا تم تقسيم الدولة العثمانية في المستقبل القريب فسوف تقف الدولة التي تقام في فلسطين حاجزًا، وتستطيع أن تلعب دورًا في المحافظة على تركيا، وأن تسند السلطان بالمال إذا هو تخلى عن قطعة أرض لا قيمة لها عنده.

كما أثار القضية لدى قيصر روسية عن طريق دوق هس حمي القيصر.

❑ وعندما أرسل السلطان عبدالحميد الثاني مندوبًا سريًّا لأوربا للاتصال بالأرمن اللاجئين بعد تشكيلهم اللجان ونضالهم للتحرر، عرض هرتزل مساندة اليهود في قضية الأرمن ـ كما جاء في مذكراته ـ مقابل خدمات مؤكدة للقضية الصهيونية، ولكن عبدالحميد رفض العرض.

❑ وقد أرسل «المسيو كريسبي»[1] مقالاً حول القضية الصهيونية يشير فيه

(١) وردت هذه الشهادة في صحيفة تركية اسمها «أقشام» أي: المساء بقلم صحفي إنكليزي يدعى «كريسبي»، وقد نقلتها جريدة «المعرض» البيروتية في عددها الصادر يوم ١٠ كانون الثاني يناير ١٩٣٣م (ص٢٩).

الكاتب إلى حادث وقع خلال سنتي (١٩٠٠ ـ ١٩٠١م) قال كريسبي: «كان الدكتور هرتزل[١] في ذلك العهد رئيس تحرير القسم الأدبي في جريدة «نيوفري» في فيينا، فأرادني أن أسعى له في مقابلة السلطان عبدالحميد بعد أن بسط لي بحزن شديد كيف أن غليوم «امبراطور ألمانيا» والبرنس دوبيلوف خدعاه لما رافقهما في رحلة الإمبراطور إلى فلسطين.

❑ فقد وعده هذا الأخير أن يقدمه إلى السلطان، فلما وصلوا إلى الأستانة اكتفى البرنس بأن عرفه إلى عزت باشا «العابد» الذي ما كاد يسمع بالقضية الصهيونية حتى غرق في بحر من اللذات ووجد أنها مزراب من الذهب، وقد قبلت أن أهتم شخصيًّا بقضية الدكتور هرتزل وخصوصًا أن هذه المطالبة لم تكن تعاكس المساعي التي كنت أقوم بها يومئذ.

وبدأت بكل شجاعة عملي، فاصطدمت في البداية بصعوبات خفية ولولا مساعدة شيخ الإسلام «جمال الدين أفندي» وكنت على صلة دائمة به، لفقدت كل أمل بنجاح مساعي، فإن هذا الشيخ أخذ على نفسه مهمة رفع كتابات الدكتور هرتزل وتقدماته، وكانت هذه التقدمات باهرة وإليك بيانها:

أن الصهيونيين يتعهدون لقاء نزول اليهود المضطهدين في أنحاء العالم بفلسطين أن يدفعوا الدين العثماني البالغ «إذا لم تخني الذاكرة» ٣٣ مليون ليرة إنكليزية، ويتعهدون كذلك ببناء أسطول كامل للدفاع عن أراضي الدولة العلية.

---

(١) الدكتور تيودور هرتزل يهودي بولوني ولد في بوادبست (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) وأقام في فيينا، اشتغل في التأليف المسرحي والصحافة وتأثر بقضية الجاسوس الفرنسي اليهودي «دريفوس» وألف كتابه «دير يودنيشتات» أي: الدولة اليهودية عام ١٨٩٦ وترأس أول مؤتمر صهيوني في بازل بسويسرا في ٢٨ آب اغسطس ١٨٩٧م كما قابل السلطان عبدالحميد في إطار مساعيه لتوطين اليهود بفلسطين، والمعروف أن الصهيونية بقيت مفتقرة إلى التخطيط، حتى تمكن هرتزل من عقد ذلك المؤتمر الذي حضره ٢٠٤ من مندوبي سائر الجمعيات الصهيونية في مختلف أرجاء العالم.

وفي هذه الأثناء قبل «أي: هرتزل» أن يعقد للدولة العثمانية قرضًا بمبلغ مليون فرنك تصرف في سبيل التسليح العام، ولكن هذه المساعي حبطت ولم تنجح.

❑ يعتبر «ليو بنسكر» (١٨٢١ ـ ١٨٩١م) الداعية الأول للحركة الصهيونية، ثم تلاة «آحاد هاعام» (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧م) الذي اعتبر المفكر الأول للصهيونية بمفهومها الحديث، أما المؤسس الحقيقي للصهيونية كحركة سياسية فهو «تيودور هرتزل» (١٨٠٦ ـ ١٩٠٤م).

ورواد الصهيونية هؤلاء جميعًا يتفقون على فكرة الاستيلاء على الأرض، رغم الخلافات البسيطة على الأساليب.

❑ وقد رسم هرتزل سياسة الاستيطان الصهيوني المبرمج فقال في «يومياته» عام (١٨٩٥م) ما يلي: «يتوجب علينا أن ننزع الملكية الخاصة لأراضي فلسطين من أيدي ملاكها، وينبغي أن يكون ذلك في لطف، وفي منتهى السرية والتكتم والحذر الشديد، وعلينا أن نقوم بتهجير السكان المعدمين ـ الفلسطينين ـ عبر الحدود، بعد أن نسد أمامهم كل مجال للعمل في بلادنا ـ فلسطين ـ بينما نحاول تأمين استخدامهم وتشغيلهم في بلدان العبور». «يوميات هرتزل عن الحدود الشمالية للدولة اليهودية المقترح إقامتها في مؤتمر بال (١٨٩٧م) وأما إذا كانت ستقف حدودها عند بيروت أم تتعداها شمالاً فقال: «عندما نصل إلى بيروت سوف يكون من المهم أن نسأل أنفسنا هذا السؤال، إن حدود دولتنا سوف تتوقف على عدد المهاجرين إليها، كلما كان هناك مهاجرون، كلما احتجنا إلى مساحات من الأرض أوسع». «يوميات هرتزل، المصدر السابق».

❑ أما الكابتن «نورمان بنتويتش» المفكر الصهيوني الأميركي الذي تولى مهمة نائب المندوب السامي البريطاني على فلسطين أيام «هربرت صموئيل»

الإنكليزي فقد ذكر في كتابه «فلسطين اليهود: الماضي والحاضر والمستقبل» الذي أصدره عام (١٩١٩م)، النظرية الصهيونية التوسعية التي يسميها «حكماء صهيون» بنظرية «جلد الغزال» فقال: «إن رقعة الأرض التي يمكن أن يمتد عليها الاستعمار الاستيطاني هي من البحر المتوسط إلى نهر الفرات، ومن جبال لبنان إلى نهر مصر النيل».

وكان الاستيطان الصهيوني قد بدأ بشكل منظم منذ عام (١٨٥٥م) بقدوم اليهودي البريطاني «موسى مونتفيوري» الذي تمكن من شراء بيارة برتقال قرب يافا لتكون أول «موشاف» صهيوني ـ قرية زراعية فردية بعكس «الكيبوتز» فهي قرية زراعية جماعية ـ وفي عام (١٨٧٠م) أنشيء أول معهد زراعي صهيوني قرب يافا أيضًا بتمويل من «روتشيلد»، وفي عام (١٩٠١م) تم تأسيس الصندوق القومي اليهودي «كيرن كايميت» تنفيذًا لبروتوكولات حكماء صهيون بضرورة شراء أراضي فلسطين لتوطين الشعب اليهودي[1].

---

(١) لم يخفى أن المساعي الصهيونية لم تفتر لحظة واحدة لخلق الكيانات الطائفية في المنطقة، رغم انفضاح هذا المخطط وتوقف «إسرائيل» وزبانيتها عن تنفيذه مرات عديدة، ذلك أن الكيان «الإسرائيلي» بحد ذاته، كيان عنصري طائفي، فضلاً عن إفتقاره لإمكانات الدولة الحقيقية، ولولا الدعم الأمريكي المستمر لزال ذلك الكيان المصطنع تلقائيًا.

وقد كانت التجربة المرة التي عانتها «إسرائيل» إبان العدوان الثلاثي على مصر عام (١٩٥٦م) حينما وقف الجنرال دوايت أيزنهاور رئيس الولايات المتحدة إلى جانب القضية العربية من زاوية الحرص الخالص على المصالح الأميركية في المنطقة، درسًا بليغًا أكد للصهاينة في «إسرائيل» وأميركا ضرورة الحرص على عدم تكرار هذه التجربة ـ التي قد لا تحتملها «إسرائيل» ـ ثانية، مما حدا بهم لبرمجة العمل للسيطرة على البيت الأبيض والخارجية والدفاع والمخابرات، ومجلس الشيوخ والنواب ومختلف الأجهزة العسكرية والإعلامية، والجامعية والثقافية والمالية والاقتصادية، ومراكز البحوث والدراسات والاستفتاءات، لضمان استمرار الانحياز الأميركي لتثبيت وجود ذلك الكيان اليهودي المصطنع في المنطقة العربية، وفي قلب العالم الإسلامي.

ومن المؤلم أن يشهد العرب والمسلمون في هذه الآونه المظلمة من تاريخنا، بدايات تنفيذ =

وبعد نجاح المؤامرة اليهودية بالإطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني على يد الاتحاديين عام (١٩٠٩م) أصدر «الاتحاديون» تشريعًا يقضي ببيع جميع الأراضي السلطانية في الدولة وبالمزاد العلني! ولولا يقظة عرب فلسطين، واندلاع الحرب العالمية الأولى، لضاعت فلسطين كلها منذ ذلك التاريخ، فقد بلغ عدد المستوطنات التي شيدها اليهود خلال السنوات ما بين (١٩١٠ ـ ١٩١٤م) ٣٩ مستوطنة تضم نحو ١٢ ألف يهودي هم مجموع من كان في فلسطين آنذاك. «بلاد فلسطين: مصطفى الدباغ».

وهكذا نجد أن المشروع الصهيوني قطع خطوات واسعة في أيامنا هذه، بالمقارنة مع خطواته المتعثرة منذ «موشاف مونتفيوري»، وقد نجح الصهاينة في

= تلك المشاريع التقسيمية، التي لم يعد الخجل ليمنع دعاتها من رفع عقيرتهم الطائفية، دون الحاجة للبحث عن أعذار أو مبررات منطقية، بحيث تخطوا في «جرأتهم» الأجهزة الاستعمارية في أسوأ أيام الانتدابين الفرنسي والإنكليزي، ولعل الأشد إيلامًا أن هذه «الوقاحة الطائفية» تتم على مسمع ومرأى من آذان وأعين الأمة بمختلف فئاتها وأقطارها، دون أن يتحرك ساكن، وكأن المشاعر تبلّدت، والهمم فترت، والنخوة طارت من الرؤوس، التي أصبحت مفرغة من العقول، فراغ القلوب من تقوى الله وخشية العاقبة!. ولقد أكد الكاتب الأميركي ستيفن غرين في كتابه «الانحياز» أن اليهود ما كانوا ليحققوا هذه السلسلة من الانتصارات بدءًا بحرب (١٩٤٨م)، وحتى غزو لبنان (١٩٨٢م)، بل حتى اليوم، لولا التورط الأميركي التدريجي في الانحياز إلى «إسرائيل» ضد العرب، معززًا قناعته بمجموعة من الوثائق السرية التي عثر عليها في ملفات الاستخبارات الأميركية وغيرها من الدوائر المعنية، والتي تؤكد جميعها أن الجيش «الإسرائيلي» بدون الدعم الأميركي في ألمانيا ونقلها إلى «إسرائيل»، كما يكشف عن المخالفة التي ارتكبها عسكريون أميركيون للدستور الأميركي بمحاربتهم إلى جانب «إسرائيل» عام (١٩٤٨م)، دولاً ليست في حالة حرب مع أميركا، أيام الرئيس الصهيوني «ترومان»، كما يكشف من جانب آخر أن موسكو سهلت عدة مرات تهريب الأسلحة والمحاربين إلى «إسرائيل»، مما يؤكد تواطؤ الشرق والغرب على قضيتنا العربية والإسلامية، التي لا حل لها إلا بالجهاد، مهما عزّت التضحيات.

تحقيق نظرية «جلد الغزال» التي استمد منها كيسنجر نظريته المعروفة بـ«سياسة الخطوة خطوة»، حتى التهمت «إسرائيل» غزة وسيناء، والضفتين والجولان، ثم صعدت إلى جنوب لبنان ودخلت بيروت وسيطرت على منابع الحاصباني والليطاني والوزاني، ودان وبانياس والأردن، وبحيث أصبح «سد المخيبة» الذي أقيم منذ سنوات طويلة على نهر اليرموك رمزًا للـ «الخيبة العربية» التي جسدتها أحداث لبنان المأساوية وجراحه النازفة منذ بداية الفتنة الطائفية الجديدة بافتعال «حادث الباص» في عين الرمانة ببيروت يوم ١٣ نيسان أبريل (١٩٧٥م)، والتي أدت إلى خراب لبنان وهيأت الأجواء لتنفيذ المخطط الصهيوني القديم الهادف لإقامة سلسلة من الدويلات الطائفية في المنطقة لتبرير وجود «إسرائيل» ككيان عنصري[1] .

---

(١) منذ إعلان الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة عام (١٩٤٧م) كان اليسار العربي يقف جنبًا إلى جنب مع عملاء الغرب في بلادنا، ولا غرو فقد كان الاتحاد السوفيتي أول المعترفين بقيام «إسرائيل» وعلى رأسهم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وغيرها من دول المعسكرين الغربي والشرقي، ولكن حقدهما الصليبي المتأصل، وخوفهما الموروث من شبح «المارد الإسلامي» قد جمع بينهما للاتفاق على زرع هذا الكيان الدخيل، لضمان استنزاف قوى وطاقات هذه المنطقة.

ولقد تكرس هذا اللقاء «الشرقي ـ الغربي» بصورة جلية من خلال المحاولات المبذولة في السر والعلن لتحقيق «التفاهم» بين «إسرائيل» و«العرب»، حيث بدأ مسلسل مساعي الحوار «العربي ـ الإسرائيلي» منذ عام (١٩٥٦م)، حينما وجه المحامي المصري اليساري يوسف حلمي بالاشتراك مع الزعيم الشيوعي اليهودي «المصري» هنري كورييل رسالتين لكل من جمال عبدالناصر، وبن جوريون يدعوانهما فيهما باسم «الحركة الديموقراطية» و«حركة السلام المصرية» لعقد مؤتمر للسلام بمشاركة الدول العربية «وإسرائيل» ودول عدم الانحياز والدول الكبرى، ولكن العدوان الثلاثي على مصر عام (١٩٥٦م) أجهض تلك المحاولة.

وحين نستعرض أسماء «أبطال السلام» على الجبهة «الإسرائيلية» لا يجد بينهم إلا الأيدي القذرة الملطخة بالدماء، بل إن بين ضحاياهم أبطالاً حقيقيين للسلام، وأولهم: «ناتان يالين ـ مور» وهو رئيس عصابة «شتيرن»، قاتل «الكونت برنادوت» مندوب الأمم المتحدة =

. . . . . .

= إلى فلسطين عام (١٩٤٨م)! وثانيهم «عاموس كنعان» الكاتب الصهيوني المعروف والعضو في عصابة «شتيرن» أيضًا، أما ثالثهم فهو «يوري أفنيري» وهو بدوره إرهابي قديم في منظمة «أرغون» وعضو «الكنيست الإسرائيلي»، والبطل الرابع هو «أريك رولو» وهو اسم مستعار لشخصية إرهابية يهودية مصرية سبق أن طردت من مصر في أعقاب فضيحة «لافون» الشهيرة وأعني به «إلياهو رفول» الذي تحول بعد تزوجه إلى فرنسا إلى «أريك رولو» الكاتب الصحفي الخطير في «لوموند» الفرنسية، وخبير شئون الشرق الأوسط للخارجية الفرنسية ولإذاعة وتليفزيون باريس!!، أما بقية أبطال السلام من الجانب اليهودي فهم زمرة من الشيوعيين المشبوهين من رفاق هنري كورييل وبينهم:

«كلوديا» التي كانت تعمل ضمن وفد مصر للأونسكو في باريس، و«جوزيف حزان»، و«جويس بلو»، و«ريمون اسطمبولي»، و«موريس بارث»، و«دانييل أميت» الأستاذ في الجامعة العبرية بالقدس، وآخرهم الجنرال «ماتيتا هوبيليد» الذي قاتل في صفوف عصابة «الهاجاناه» منذ كان في الخامسة عشرة من عمره، وجميعهم ممن شارك في كل الحروب العربية ـ «الإسرائيلية» فضلاً عن سجلاتهم الإرهابية الحافلة عبر أنشطة عصابات «شتيرن» و«أرغون» و«الهاجاناه»، وتلك هي «الحمائم الإسرائيلية» الوديعة!!.

وعلى الجانب العربي مَن عسانا نجد من أبطال السلام.. إن تاريخ «الحوار العربي ـ الإسرائيلي» يسجل أن أول «مؤتمر سلمي» عقد في «فلورنسا» بإيطاليا برعاية ولي عهد المغرب ـ آنذاك ـ الأمير الحسن بن محمد الخامس، وكان ذلك في عام (١٩٥٨م)، بترتيب من هنري كورييل الذي جمع فيه وفودًا من الأحزاب الشيوعية العربية مع ممثلي الحزب الشيوعي الإسرائيلي «راكاح»، وبعد عدوان (١٩٦٧م) التقى النقيب السابق بالجيش المصري «أحمد حمروش» رفيق كورييل في الحزب الشيوعي المصري وعضو «الحركة الديموقراطية»، و«حركة الضباط الأحرار» مع «كورييل» و«أريك رولو» في باريس حيث رتبوا اللقاء بين جمال عبدالناصر، وناحوم غولدمان رئيس «المؤتمر اليهودي العالمي» وقد أجهضت المحاولة بوفاة عبدالناصر عام (١٩٧٠م).

ثم تابعت منظمة التحرير الفلسطينية «الحوار» عبر القياديين الماركسيين «المتفهمين» بدءًا بممثل المنظمة في لندن سعيد حمامي الذي لقي مصرعه في يناير (١٩٧٨م) ومرورًا بنعيم خضر، وبعز الدين قلق اللذين اغتيلا في أبريل (١٩٨٣م).

كما شارك في «الحوار» المنظر اليساري المصري الدكتور رفعت السعيد، وممثل المنظمة في داكار «أبو خليل»، وكان عرّاب اللقاءات في كثير من الأحيان رئيس النمسا السابق =

ونشرت مجلة «المشرق»[1] تفاصيل محاولة أخرى عن طريق اللورد اليهودي غوش سفير بريطانيا في الأستانة أيام عبدالحميد فقال:

«لما كان اللورد «غوش» الإسرائيلي أي: اليهودي سفيراً بالأستانة عرض على الحكومة السنية أن يجعل تلك النواحي: جلعاد ومؤاب في غور الأردن، التي مساحتها ستمائة ألف هكتار، مستعمرة لليهود، تحت نظارة الباب العالي، يسمونها كما يشاءون، بشرط أن يدفعوا لمولانا السلطان مبلغًا عظيمًا

= اليهودي «برونو كرايسكي»، أو رئيس رومانيا اليهودي «نيقولاي شاوشيسكو» أو رئيس الوزراء الفرنسي اليهودي «بيار منديس فرانس» الذي استضاف الحوار مراراً في قصره الصيفي.

وقد كشف سامي الجندي في كتابيه «البعث» و«كسرة خبز» عن رفضه لتنفيذ تعليمات وزير خارجية سورية الدكتور إبراهيم ماخوس قبيل عدوان يونيو (١٩٦٧م)، بإجراء حوار مع ممثلي «العدو» في باريس، بينما اعترف نائب رئيس الوزراء المصري حسن التهامي بإجرائه الحوار مع موشى دايان في الرباط (١٩٧٦م)، تمهيداً لعقد اتفاقيات «كامب ديفيد» التي أسفرت عن اغتيال أنور السادات عام (١٩٨١م).

كما كشفت الأحداث اللبنانية عن اتصالات مشبوهة منذ مطلع السبعينات بين زعماء الموازنة وقادة «العدو الإسرائيلي» حيث رتب كميل شمعون اجتماعات حضرها بيار الجميل ووالده بشير وأمين مع شخصيات «إسرائيلية»، أسفرت عن طبخة الفتنة الطائفية التي ما زالت مندلعة منذ عام (١٩٧٥م).

وقبلها كانت اجتماعات «الشونة» بين «جولدا مائير» والملك عبداللّه التي أدت إلى اغتيال الملك عبداللّه في المسجد الأقصى عام (١٩٥٠م).

وهكذا نجد أن أقصى اليمين التقى مع أقصا اليسار في «حوار» ودي لترسيخ كيان «إسرائيل» في قلب العالم الإسلامي، مستهدفًا زرع هذا الجسم الدخيل لإعاقة أية صحوة إسلامية حقيقية.

(١) لمعرفة حجم النفوذ المالي الذي تتمتع به الصهيونية يكفي أن نعلم أن أسعار الذهب والعملات الدولية يتم تحديدها في نشرتين يوميتين منذ عام (١٩١٩م) من قبل أربعة من كبار تجار الذهب وجميعهم من اليهود: روتشيلد، ومونتاغو، وشارب ويبكلي، وجونسون.

من الدراهم، ولا يقل عن بضعة ملايين من الفرنكات، غير أن الدولة السنية لم تلب دعوة «غوش» وأغنياء اليهود، فذهبت آمالهم أدراج الرياح، وكانت غايتهم أن يمهدوا الطريق لأبناء جلدتهم لإنشاء مملكة مستقلة بالأراضي المقدسة، كما كانت قبل المسيح.

❑ وكانت المحاولة الأخيرة التي قام بها تيودور هرتزل في عام (١٩٠١م)، ولكن عبدالحميد رفض مقابلته للصدر الأعظم:

«انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جديدة في هذا الموضوع، إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل ملك الأمة الإسلامية، التي جاهدت في سبيلها وروتها بدمائها فليحتفظ اليهود بأموالهم وملايينهم، وإذا مزقت دولة الخلافة يومًا فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن! أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أرى فلسطين قد بترت من الدولة الإسلامية، وهذا أمر لا يكون، إني لا أستطيع الموافقة على تشريح أجسادنا ونحن على قيد الحياة».

وقد أثار جوابه هرتزل فوجه للسلطان إنذارًا بواسطة يوسف الخالدي كبير النواب العرب، في مجلس المبعوثان العثماني جاء فيه:

«أما إذا رفض فسنواصل البحث، وصدقني إننا سوف نهتدي إلى مكان آخر وفقًا لما نريده، وفي هذه الحالة سوف يضيع على تركيا بلا رجعة آخر سهم في متناول يدها لتنظيم ماليتها والنهوض باقتصادها.

وثقوا أن من يصارحكم بهذا القول صديق مخلص للأتراك فاذكروا ذلك دومًا»[1].

(١) انظر نص رسالة عبدالحميد الثاني إلى شيخه محمود أبو الشامات ضمن الوثائق والملاحق في نهاية الكتاب.

وقد نبهت هذه الحادثة المسلمين، فوجهت أنظار الحكومة لتنبيه الأهالي إلى الاحتزاز من تلبية مطالب اليهود وعدم تمكينهم من التسلل إلى فلسطين فنشرت جريدة «معلومات» التي كانت تصدر في الأستانة، ونقلت عنها «ثمرات الفنون» التي كان يصدرها ببيروت المرحوم الشيخ عبدالقادر القباني ما يلي:

«لليهود ميل شديد تقادم فيهم لمجاورة القدس[1] ؛ لأن تلك الأقطار

(١) تكررت هذه الآونة الأخيرة محاولات نسف المسجد الأقصى والحرم الإبراهيمي، كما نجح الصهاينة في نسف العديد من المساجد الإسلامية في عدة مدن وقرى فلسطين المحتلة، كما هاجموا مؤخراً طلبة الكلية الإسلامية في الخليل، وقد أطلق الشيخ سعد الدين العلمي رئيس الهيئة الإسلامية العليا في القدس آخر صيحة تحذير للعالم الإسلامي، محملاً المسلمين وقادتهم المسئولية أمام الله والتاريخ، حينما كشف في تصريح له نشرته صحيفة «صوت الشعب» الأردنية، أن الحاخام الصهيوني «مائير كاهانا» زعيم حركة «كاخ» قد خيّره بين بيع المسجد الأقصى لليهود بمليون دولار أو الاغتيال، على أن تتم عملية البيع بالهدوء، والكتمان، وقال الشيخ العلمي: إنه تعرض لأربع محاولات اغتيال من قبل منظمة «كاخ» بعد هذا التهديد.
ما تكررت أنباء اعتقال وتعذيب واضطهاد العلماء المجاهدين الذين يواصلون قيادة الكفاح والتعبئة للجهاد داخل الأرض المحتلة، منذ أن نفذ اليهود جريمتهم بإحراق المسجد الأقصى.
ناهيك عن «الحفريات الأثرية» التي بدأت منذ أيام موشى دايان، ولم تنته بوفاته، والتي تستهدف إزالة جميع المقدسات الإسلامية من فلسطين، بحجة التنقيب عن «الهيكل» والكشف عن الآثار اليهودية!.
وفي تحقيق لجريدة «القبس» الكويتية في الأرض المحتلة نشرته يوم ٦ مايو (١٩٨٤م) نقلت على لسان الشيخ عكرمة سعيد صبري صيحة تحذير أخيرة للمسلمين في العالم جاء فيها: إن هدم المسجد الأقصى بات مسألة وقت!!.
كما كشفت صحيفة «التايمز» البريطانية، وصحيفة «لوماتان» الفرنسية أن ضباطًا في الجيش الإسرائيلي يقفون من وراء شبكات الإرهاب الصهيوني التي تتخذ من عصابات «غوش إيمونيم» - أي: جبهة المؤمنين - ستاراً لها، فضلاً عن جماعة «المولودين ثانية» الذين يستعجلون مجيء «المسيح المنتظر» بنسف المساجد الإسلامية بفلسطين!. =

كانت لحدًا لاعتلاء مجدهم في الأزمنة الغابرة، وقد جذبتهم معتقداتهم الدينية إلى لحد مجد أسلافهم فعزم الكثيرون منهم على المهاجرة إلى أنحاء القدس، وتوطن فريق منهم في تلك الجهات وصار لهم قسم كبير من الأراضي، وما يزال الكثيرون يرغبون بالهجرة وشراء الأراضي. وهذا ما يضر بمصالح الدولة والأمة معًا، إذ تصبح القدس في يوم من الأيام وهي بيد اليهود فقط.

❑ وهناك حادث سياسي آخر يؤكد التصميم على الحفاظ على فلسطين وذلك حين انتهز السلطان عبدالحميد فرصة وفاة الخديوي توفيق يوم ٧ كانون الثاني يناير (١٨٩٢م)، وتولية ابنه عباس حلمي فاستغل عبدالحميد دهاءه السياسي لإخراج سيناء من ولاية مصر فأصدر فرمان التولية بحدود مصر دون إشارة لسيناء، وحضر المشير أيوب باشا إلى مصر لتلاوة الفرمان في الحفل التقليدي، ولما علمت وزارة الخارجية البريطانية بالأمر وقعت أزمة عنيفة بينها وبين عبدالحميد، وكادت تعلن الحرب حتى اضطرته في ٨ نيسان أبريل (١٨٩٢م) إلى إعادة سيناء لولاية مصر.

= ويزعم التقرير أن عدد اليهود انكمش نتيجة للمذابح الجماعية من ١٦,٧ مليون عام ١٩٣٩م إلى حوالي ١١ مليون عام ١٩٤٥م.

ويتطرق التقرير إلى قضية المستوطنات في الأرض المحتلة فيرى أنها سوف تؤدي تدريجيًا لدفع عرب الضفة الغربية إلى إعلان التحدي السافر، وإبطاء عملية السلام، فضلاً عن تكاليفها الباهظة التي ستؤدي إلى مزيد من إضعاف الاقتصاد الإسرائيلي، وتقليل قدرته على مساندة قوة قتالية فعالة!!.

ويقول التقرير إن إسرائيل تواجه ثلاث مهام جوهرية في الوقت الراهن هي:

١ ـ إقامة سلام آمن.

٢ ـ ترتيب جبهتها الداخلية.

٣ ـ تنمية علاقات صحية وبناءة أكثر مع يهود المهجر الدياسبورا.

كما يعترف التقرير بأن إسرائيل تجد نفسها حاليًا محاصرة بعدد من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية، والدينية والسياسية الخطيرة، مما يشكل خطرًا داخليًا على مستقبلها لا يعلوه سوى الخطر الخارجي!!.

ويقول عبدالرحمن الرافعي في كتابه «مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية»: إن آراء الباحثين اختلفت في تفسير موقف عبدالحميد، وأن الشواهد تشير إلى خشيته من النفوذ البريطاني في مصر، وتسلط الصهيونية على بريطانيا مما يحفزها لتقديم تسهيلات لإسكان اليهود في سيناء[1].

بينما يذهب آخرون إلى أبعد من ذلك فيقولون أن عبدالحميد بدهائه السياسي البعيد تعمد إثارة بريطانيا للمطالبة بضم سيناء إلى مصر مما يؤكد أن سيناء مصرية، وأن الاحتلال البريطاني لمصر لا يبرر التصرف بسيناء وإعطائها لليهود، وأن اللعبة لم يكتشفها الإنكليز واليهود، إلا بعد أن كرسوا ضم سيناء لمصر رسميًّا ودوليًّا.

أيقنت الصهيونية العالمية بعد فشل محاولاتها المتكررة للحصول على موافقة السلطان عبدالحميد الثاني بالسماح لليهود، بالهجرة المحدودة فقط

---

(١) كلف فيلب كلوتسنيك رئيس المؤتمر اليهودي العالمي عام (١٩٨٠م) لجنة اقتصادية واجتماعية من يهود العالم بوضع تقرير عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إسرائيل، يرأسها البارون اليهودي جي دي روتشيلد وتضم نحو ٣٠ فردًا بينهم البروفسور حاييم بن شاما رئيس جامعة تل أبيب، وادغار برونغمان رئيس المؤتمر اليهودي الحالي، وسول كاني مدير بنك كندا وأمين صندوق المؤتمر اليهودي العالمي، واللورد ليفر أوف مانشتر عمدة ريو دي جانيرو، وموريس ليفنسون رئيس مركز دراسات المؤسسات الديمقراطية، والبروفسور سيمور لبيست أستاذ العلوم السياسية والاجتماع بجامعة ستانفورد الأمريكية، والبروفسور مارتن ميرسون رئيس جامعة بنسلفانيا.

وبعد جهود استمرت ثلاثة أعوام قدمت اللجنة تقريرها الذي تضمن أن عدد اليهود في العالم اليوم ١٥,٣ مليون نسمة موزعين على ١٠٠ دولة منهم ٣,٥ مليون يهودي في إسرائيل و٦ مليون يهودي في الولايات المتحدة، و٢,٤ مليون يهودي في الاتحاد السوفيتي، كما يوجد في فرنسا حوالي ٦٠٠ ألف يهودي، وفي بريطانيا ٤٥٠ ألف يهودي، وفي كندا والأرجنتين حوالي ٣٠٠ ألف بكل منهما، وفي البرازيل ١٤٠ ألفًا، وفي جنوب إفريقيا ١٣٠ ألفًا.

وليس إقامة وطن قومي في فلسطين ـ أن وجوده يشكل عقبة كأداء في سبيل تحقيق مقررات المؤتمر الصهيوني الأول، ولم يملك هرتزل ـ بعد فشل محاولته الأخيرة ـ إلا أن يلجأ لسلاح التهديد والوعيد صراحة.

ولم يكن السلطان عبدالحميد بغافل عن مدى نفوذ وتأثير الصهيونية العالمية على اتجاهات السياسة العالمية من خلال ممارستها في الدول الكبرى، ولكنه في الوقت نفسه لم يملك إلا أن يرفض العروض والوعود الصهيونية التي أخذت تقايض ديار المسلمين المقدسة بأموال اليهود الملوثة.

استقر رأي الصهيونية العالمية على العمل للإطاحة بالسلطان عبدالحميد الثاني، كخطوة على طريق عودة «شعب اللّه المختار» إلى أرض «الميعاد» في مملكة إسرائيل التي تطمح للوصول بحدودها من الفرات إلى النيل.

وكان للصهيونية أكثر من وسيلة تسعفها في الوصول لأغراضها، نتيجة للمكر والدهاء اليهودي المعروف.

فقد أوجدت الحركة الماسونية بمحافلها الشرقية والغربية، وكانت السبية اليهودية الروسية «روكزيلان» التي تزوجها السلطان سليمان القانوني وسماها «حرم السلطان» أول بؤرة صهيونية، وأول خرق للشريعة الإسلامية بما حققته من تقارب بين سليمان القانوني وفرنسوا الأول ملك فرنسا، حينما منح لقب «حامي النصارى العثمانيين» وعقد اتفاق الدولة الأكثر رعاية عام (١٩٥٣م)، الذي تحول إلى ما عرف بـ «الامتيازات الأجنبية» فيما بعد[1].

---

(١) ما زالت فضيحة المحفل الماسوني بي ٢، تتفاعل منذ انفجارها في مطلع الثمانيات، فقد هدد عميل المخابرات الإيطالية الهارب «فرانشيسكو بازينزا» في مقابلة صحفية مع مجلة «البرجيزي» اليمينية بنشر وثائق مثيرة وخطيرة عن تورط عدد كبير من الساسة، ورجال الاقتصاد الإيطاليين بفضيحة بنك «إمبروزيانو» الذي وجد رئيسه السابق «ربيرتو كالفي» قتيلاً في ظروف غامضة تحت جسر «بلاك فراير» في لندن عام (١٩٨٢م). =

❑ ولم يتوقف دور روكزيلان عند هذا الحد بل أنها بعد زواج ابنتها مهرماه من اللقيط الكرواتي رستم باشا دبرت مؤامرة قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، ونصبت صهرها مكانه، فكافأها بخنق ولي العهد مصطفى ابن ضرتها، ونصبت مكانه ابنها سليم الذي أصبح فيما بعد السلطان سليم.

وكانت روكزيلان سببًا في استعطاف سليمان القانوني لقبول هجرة اليهود إلى روسيا هربًا من ظلم القياصرة، كما استعطفته ثانية لقبول إيواء يهود الأندلس الذين شردتهم محاكم التفتيش الأسبانية، فنزلوا سلانيك والأناضول، وجزر المتوسط وموانيء الشام ومصر، وهم الذين سببوا فيما بعد دمار الدولة العثمانية، فنال الخليفة عبدالحميد الثاني حفيد سليمان القانوني على يد اليهودي قره صو جزاء سنمار، ولم يشفع له عند الصهيونية إزاء رفضه لعروض هرتزل، مما حققه البارون اليهودي «هيرس» من ثروة طائلة بفضل تعهده لأعمال الخطوط الحديدية العثمانية (١٩٠٥م)، حتى أنه أوصى قبيل وفاته بإنفاق مائتين وخمسين مليون فرنك لتأمين إقامة وطن قومي ليهود العالم، وهكذا كرر مرة أخرى جزاء سنمار لخلفاء المسلمين، وقد أعطى قره صو أربعمائة ألف ليرة ذهبية قبضها من البنك الإيطالي وسلمها لثري اسمه «نجيب دراغا» الذي أعطاها لأيوب صبري أحد أعضاء «الاتحاد والترقي» لصرفها على أحداث مجزرة ٣١ مارس التي أطاحت بحكم عبدالحميد، وكان قره صو أحد أربعة بلغوا عبدالحميد قرار عزله، رغم أنه

= وقال بازينزا: إنه يؤلف كتابين ويصور فيلمًا عن أهم الفضائح السياسية مما سيحدث هزة كبيرة، والمعروف أن بازينزا يرتبط بصدقات مع هنري كيسنجر واليكسندر هيج، وكبار الساسة في أمريكا وإيطاليا، بحكم علاقاته القديمة مع الماسونية والمافيا وفروعهما في «الألوية الحمراء» وأجهزة المخابرات الغربية!!.

يتمتع بالجنسيتين الإيطالية والعثمانية، وقد فاخر قره صو[1] بعدها بقوله: «إن الاتحاديين نفذوا بأربعمائة ألف ليرة إنكليزية ما لم ينفذ عبدالحميد بخمسة ملايين».

❑ يقول الشيخ محمد إسماعيل المقدم في محاضرته القيمة «غزة أريحا»: «إنه في نفس الليلة التي أُقصي فيها السلطان عبدالحميد آخر سلاطين آل عثمان حدث حادثان خطيران أولهما: غياب الإسلام الفعلي، ثانيًا: سقوط فلسطين في يد اليهود، ومن المعروف أن اليهود بذلوا جهدًا كبيرًا في إغراء السلطان عبدالحميد حتى يسمح لهم بالاستيطان فقط في شرق الأردن وسوريا الجنوبية، وبعد ذلك جاء هرتسل فعرض على «عبدالحميد» مساعدات مالية مُغرية، فقال السلطان ضمن جوابه: سوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منّا ليحتفظ اليهود ببلاييهم، فإذا قُسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل لكنها لن تُقسم إلا على جثثنا، ولن أقبل تشريحنا بأي ثمن كان. وعرض هرتسل بعد ذلك على السلطان اقتراحًا بتأسيس جامعة إسلامية في القدس يدرس فيها الشباب المسلم كل العلوم العلمية والدينية، ولكن لم يفلح كذلك، قدّم هرتسل للسلطان مليوني ليرة ذهبية رشوة شخصية له فغضب شر غضبة وطرده، وفي اللقاء الأخير حضر هرتسل ومعه رئيس الحاخامات يعرضون عليه رشوة لإقامة وطن يهودي، واقترحوا القدس وحدها، وقال تهرسل: أحب أن أعرض لجلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبة من الذهب حالاً من أجل القدس، فقال السلطان ـ وكان يحكي القصة لأحد أصدقائه في المنفى ـ:

(١) كان اليهودي قره صو أحد أربعة بلغوا عبدالحميد قرار عزلة ويا لسخرية الأيام يهودي!!. وهؤلاء الأربعة هم:
اليهودي قره صو، والأرمني آدم، والأرناؤوطي طوبطائي، والكرجي حكمت.

شعرت بالدم يقفز من رأسي، تأمل، لقد وصلت الجرأة بهذين اليهوديين إلى عرض الرشوة في مقابل سلطتنا، صرخت بهما: أخرجا من هنا حالاً، إن الوطن لا يباع بالمال، وحينما دخل رجال القصر أمرتهم بإخراجهما، منذ ذلك الوقت ناصبني اليهود العداء كل ما ألاقيه هنا في سلانيك هو جزاء عدم إعطاء الوطن لليهود، ولقد ضحيت بعرشي من أجل فلسطين والقدس، وقلت لهم: لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين عامًا، فلن أسوّد صحائف المسلمين أبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين.

❑ يقول بعدما أبلغوه بقرار خلعه: وحمدت المولى، وأحمده أنني لم أقبل أن ألطّخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشيء عن تكليفهم إياي بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة الفلسطينية.

وبعد خلع السلطان عبدالحميد أخذت الصحف اليهودية في سلانيك تزف البشرى بالخلاص من مضطهد إسرائيل، وعاث اليهود فسادًا في تركيا، وكان من ضمن الإجراءات التي قام بها السلطان عبدالحميد بعدما أحس بالخطر اليهودي أصدر فرمانات تقضي برفض قبول التجاء اليهود المطرودين إلى الدولة العثمانية، وأعلن ذلك قائلاً: «إن سكن اليهود في أجزاء الإمبراطورية يجعلهم يتسللون إلى فلسطين تدريجيًّا رغم ما اتخذته من تدابير، وسيسعون إلى تشكيل حكومة موسوية بتشجيع الدولة الأوربية، فليغادروا إلى أمريكا.

أيضًا سنّ تعليمات لضمان عدم بقاء اليهود في القدس بعد إكمال زيارتهم لها، وبعد هذا حدث تسلل لليهود إلى فلسطين حتى بلغ عددهم فيها خمسًا وعشرين ألفًا طيلة أكثر من ثلاثين سنة، أغلق السلطان عبدالحميد جميع المحافل الماسونية في الإمبراطورية كلها لكنها استمرت بشكل سرّي

والمعروف أن الماسونية الولد النجيب لليهودية، وكان الذي سلّم السلطان قرار الخلع العم نويل قره صو اليهودي الماسوني فالتفت السلطان إلى الوفد الذي كان معه قائلاً: ألم تجدوا شخصًا آخر غير اليهودي لكي تبلغ خليفة المسلمين قرار الحل؟!

ومن قرارات: «السلطان عبدالحميد» قراراً أبلغ به جميع ممثلي دول العالم في اسطنبول عام ١٩٠٠م بمنع الحجاج اليهود من تسليم جوازات سفرهم عند دخولهم أرض فلسطين كما يحدث مع الحجاج في مكة فيسلم الحاج جواز سفره ويعطوه وثيقة يتحرك بها داخل مكة لمدة معينة، وإن تأخر عن هذه المدة فله الويل، فكان من لا يغادر البلاد في هذه المدة يُطرد بالقوة، وأصدر السلطان أمرًا بجعل تصريح الإقامة هذا لونه أحمر، حتى يسهل طردهم ولذا فقد رأى اليهود بعد تمكنهم أن يفرضوا على جميع الجوازات الدبلوماسية على مستوى العالم كله اللون الأحمر، وهو الجواز الذي لا يُفتش صاحبه، وهذا يعتبر إعادة اعتبار لليهود ضد إجراء السلطان عبدالحميد.

***

السلطان عبدالحميد واليهود

قال الدكتور عدنان النحوي ـ حفظه اللّه ـ:

سَلامٌ عَلى «عَبْد الحَميد» وَقَدْ مَضَى
عَلى الطِّيْبِ من أَمْجاده العَطِرَاتِ
فَيَا أيُّها «السّلطان» ذكْرُك عاطِرٌ
عَلى صِدْق مَا جَاهَدْت في حَلَبَاتِ
دَعَوْتَ إِلَى حَقٍّ وخُضْتَ سَبيلَه
وَمَا لِنْتَ مِنْ طعْنٍ وَمِنْ غَمَرَاتِ
دَعَوْتَ إِلَى دِيْنٍ يُوَحِّدُ أُمَّةً
وَيَجْمَعُ نُعْمَى عِيْشَةٍ وَمَمَاتِ
دَعَوْتَ إِلَى الإِسْلام يُنْكِرُ فُرْقَة
وَيَهْدِمُ مِنْ كُفْرٍ وَمِنْ شُبُهَاتِ
يُسَاوِمُكَ الكُفّار مَالاً وَزِيْنَةً
وَزهْرَةَ دُنيا أوْ مَتَاعَ حَيَاةِ
لِتُعْطِيَهُمْ داراً وَرَوْضًا وَمَا حَوَتْ
«فلسْطِيْنُ» مِنْ قُدْسٍ وَمِنْ حُرُمَاتِ
فَقُلْتَ لَهُمْ: أمْضَيتُ عَهْدِي وَبَيْعَتي
مَعَ اللّهِ في سَعْيِي وَفِي رَكَعَاتِ
وَبِعْتُ إِلَى الرَّحْمنِ نَفسي بِجَنَّةٍ
عَلَى حُرْقَةِ الأشْوَاقِ واللَّهَفَاتِ
فَكَيْف تُرَاني أَرْتَضِي عَرَضًا بها
إِذَا كَانَت الدُّنْيَا هَشِيْمَ نَبَاتِ

مَضَيْتَ.. وَمَا لانَتْ قَنَاتُك بَيْنَهُمْ
وَمَا وَهَنَتْ نَفْسٌ عَلَى شَهَوَاتِ
هَوَى بِكَ رُكْنٌ... ما هَوَى عَزْمُكَ الذي
بَنَيْتَ بِهِ رُكنًا وصَرْحَ أُبَاةِ
نَفَوْكَ... وَمَا هانَتْ بذَاكَ مَحَامِدٌ
وآذَوْك... فاستمسكْتَ بَيْنَ عُتَاةِ
عَلَوْت... فَهَانُوا دون صَبْرِك والهُدَى
وَذَلّوا... وَرُمْتَ المَجْدَ في ذَرَوَاتِ
سَلامٌ عَلَى رُكْنٍ هَوَى فَهَوَت به
مِنَ الدّار أرْكَانٌ ومِنْ عَزَمَات[1]

*** الحركة السنوسية وشهيدها أسد الصحراء عمر المختار:**

تنتمي هذه الحركة إلى السيد محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧م - ١٨٥٩م). وهو من مواليد قرية مستغانم بالجزائر.

أنشأ الزوايا السنوسية التي كانت مراكز دينية ثقافية اجتماعية عسكرية، ودعا إلى التمسك بالعقيدة الإسلامية الصحيحة ومحاربة البدع والخرافات ومحاربة الانحلال الاجتماعي والفساد الإداري والسياسي وإحياء الشريعة، والانضواء تحت لواء الخلافة العثمانية.

أنشا ـ رحمه اللّه ـ الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر، ثم نقل الدعوة إلى واحة جنبوب سنة ١٨٥٦م.

❑ ومن قادة السنوسيين السيد أحمد الشريف السنوسي الذي دخل في

(١) «ملحمه الأقصى» للدكتور عدنان النحوي (ص١٤١) ـ دار النحوي.

حرب طاحنة ضد فرنسا وإيطاليا. وتصدى ـ رحمه اللَّه ـ للفرنسيين في تونس، «ومن النماذج المشرفة لجهاد السنوسيين ضد الإيطاليين المعركة التي عُرِفت باسم معركة يوم الجمعة سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م، قرب درنة، إذ جاهد السيد/ أحمد الشريف السنوسي والمجاهدون جهادًا عنيفًا، وأبلوا فيها بلاءً حسنًا رغم عدم التكافؤ حسب موازين القوى ـ لكن اللَّه سبحانه كتب النصر لهم في هذه الموقعة في الوقت الذي كان سلاحهم ما يعرف باسم «السلاح الأبيض» كالسيف والخناجر وغيرها أما سلاح الأعداء فالمدافع والبنادق مع تفاوت كبير في العدد والعدّة حتى اعتقد الكثيرون أن النصر جاء كرامة للسيد الشريف السنوسي»[1].

❑ وبعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م ـ ١٩١٨م) اجتمع زعماء طرابلس في مؤتمر غريان سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م، وقرروا توحيد ليبيا تحت زعامة الأمير إدريس السنوسي، تمهيدًا لإستئناف الجهاد، ووصل موسوليني إلى حكم إيطاليا في نفس السنة وأعلن أن ليبيا إيطالية، وألغى اتفاقيات سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م (صلح بنيادم) الذي ينص على وقف القتال ومنح طرابلس قانونًا أساسيًّا يضمن المساواة والحرية الدينية والشخصية[2].

❑ حين تغنّي الجنود الإيطاليون بنشيدهم: «أنا ذاهب إلى ليبيا فرحًا مسرورًا.. لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة ومحو القرآن! وإذا مت يا أماه فلا تبكيني! وإذا سألك أحد عن عدم حدادك فقولي: لقد مات وهو يحارب الإسلام»[3] خرج إليهم جنود الإسلام يقودهم أسد الصحراء عمر

---

(١) «الموسوعة الحركية» لفتحي يكن (١/ ١٥٦).

(٢) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة: السنوسية ـ البادیسية ـ القسّامية» لصفوت منصور (ص٦٣).

(٣) «التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية» للدكتور أحمد شلبي الجزء الرابع.

المختار وهو شيخ طاعن في السن، وهاجمهم في بنغازي و«القصور» و«تكنس» و«دفنا»، وجعل من الجبل الأخضر مقرًّا له، ولما حاول مشايخ قبيلته منعه من العودة إلى «برقة» مجاهدًا قال: «إن ما أسير فيه هو طريق الخير، ومن يبعدني عنها فهو عدو لي، ولا ينبغي لأحد أن ينهاني عنها».

وقبل ذلك كبّد هو ورفاقه الفرنسيين في «التبستي» خسائر فادحة قبل وصول إيطاليا إلى ليبيا مستعمرة لها.

وستذكر إيطاليا كيف دوّخها عمر المختار في معركة «الرحيبة» ومعركة «عقدة المطمورة» من أعظمها، وانتهت كلها بارتداد الإيطاليين. واشتد الجهاد في عامي ١٩٢٤، ١٩٢٥، بوقوع معارك عدة، ولمع اسم عمر المختار كقائد بارع يتقن أساليب الكرّ والفرّ.

ولما أراد الطليان الاستيلاء على «القران» واحتلال عاصمتها سنة ١٩٢٨، التحم المجاهدون مع الجيش الإيطالي بقيادة «جرازياني» في معركة دامية، استمرت خمسة أيام بتمامها، وقد انهزم الإيطاليون شر هزيمة، ومرة أخرى حاولوا الكرّة، وأباد المجاهدون أكثر الإيطاليين.

ومرة أخرى في «درنة» في ٢٢ أبريل سنة ١٩٢٨م يشتبك معهم في معركة عنيفة دامت يومين، وكان النصر فيها حليفه، وفي السلوم، والحجزة، ومرسى بريقة، وجالو، وأوجلة، وأنزلوا بالطليان خسائر فادحة.

للّه درك يا عمر المختار بحفنة قليلة من الرجال تزلزل أقدام الإيطاليين، ويستولى على عتادهم ومؤنهم، واضطر موسوليني سنة ١٩٢٩م أن يعين «بادوليو» حاكمًا على ليبيا، ويعهد إليه بالقضاء على المقاومة.

وحينما أرسلت إليه إيطاليا بشروطها المزرية، قال: «إني لا أرضى بهذه الشروط، وأفضل الموت جوعًا وعطشًا، ولا ألقى بنفسي وإخواني بين أيدي الإيطاليين يتصرّفون فينا كيف شاءوا». وأراد الطليان أن يستميلوا عمر المختار

بالمال، فأرسلوا إليه مع «بلعون» مدير الحاسة يعرضون عليه مليون فرنك هدية فرفضها.

وحاصر الطليان عمر المختار، وأقاموا الأسلاك الشائكة على طول مسافة لا تقل عن ثلثمائة كيلو متر على طول الحدود الشرقية مع مصر، فلم يضعف بعد أن أصبح هو ورجاله منقطعين عن جميع البشر من جميع الجهات.

وفي أكتوبر سنة ١٩٣٠م تمكن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين في معركة كبيرة، وقد عثر الطليان عقب انتهائها على نظارات عمر المختار، كما عثروا على جواده مقتولاً، فأصدروا منشوراً حاولوا فيه أن يقضوا على أسطورة عمر المختار الذي لا يُقهر أبدًا، وقال جرازياني متوعدًا: «لقد أخذنا اليوم نظّارات عمر المختار، وغدًا نأتي برأسه».

وفي ١١ من سبتمبر سنة ١٩٣١ وصل إلى الحكومة برقية، تُفيد أن مصادمات وقعت بين المجاهدين وبين قوة من خيّالة الحكومة بالقرب من «سلنطة»، وأن رجلاً من الأهْلين وقع في أسرهم، وقد عرفه الجند وقالوا: إنه عمر المختار نفسه، قُتِل جميع من معه وقُتِل حصانه، وظل يُقاتل القوة الإيطالية إلى أن جُرِح في يده، ثم تكاثروا عليه وأخذوه أسيرًا. وقال عمر المختار كلماته الغاليات الخالدات: أن القبض عليه، ووقوعه في قبضة الطليان، إنما حدث تنفيذاً لإرادة المولى عز وجل، وأنه قد أصبح أسيرًا بأيدي الحكومة الإيطالية، فاللَّه سبحانه وتعالى وحده يتولى أمره، وأما أنتم فلكم الآن وقد أخذتموني، أن تفعلوا بي ما تشاءون، وليكن معلومًا أني ما كنت في يوم من الأيام لأُسلِّم لكم طوعًا»[1].

(١) «عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء» لمحمد محمود إسماعيل (ص٤٧) ـ مكتبة القرآن.

وشاءت الأقدار أن يقف البطل الذي حيّر إيطاليا، وأشاع الرعب في قلوب جيشها، أمام جزازياني الذي قطع رحلته إلى باريس ليستدعي البطل في صبيحة اليوم الذي عُقدت فيه المحكمة الطائرة له.

وقبل المُحاكمة بقليل جاءوا بالأسد عمر المختار مُقيَّد اليدين بالسلاسل والقيود، وكان يسير بصعوبة، وقد غطَّى وَجْهَه بحِرامِه، وظهرَ عمر المختار حينئذٍ وليًّا من أولياء اللَّه، لم ينل الأسر والسجن شيئًا من وقاره وجلال هيبته ودار حوارٌ بين الأسد المُسْلسَل، وبين الجبان جزازياني:

جزازياني (مخاطبًا عمر المختار): لماذا حاربت الحكومة الإيطالية هذه الحرب الشديدة؟ عمر: لأن ديني يأمُرُني بذلك. جزازياني: هل كان لديك أيّ أمل في أنك سوف تستطيع إخراجنا من «برقة»، ومعك هذا العدد القليل من الرجال الذين ينخرطون معك، وتلك المعدَّات القليلة التي تملكها؟. عمر: كلاَّ، فإن هذا على ما يبدو كان أمرًا مستحيلاً. جزازياني: ماذا كان غَرَضُك إذن؟ وماذا كنت تبغي؟. عمر: كنتُ مجاهدًا وكفَى، أمَّا ما يَنجمُ من هذا الجهاد؛ فالأمر فيه موكولٌ للَّه وحده. جزازياني: هل أمرتَ فِعْلاً بقتْل الطَّيَّارَيْن «أوبر» و«بياتي»؟ عمر: نعم، فإن الرئيس وحده هو الذي يتحمَّل جميع المسئوليَّات، والحرب هي الحرب. جزازياني: كم من الوقت يُمكنك بما لك من نفوذٍ وصَوْلَةٍ أن تُخضع الثُّوَّار في الجبل؟ عمر: أبدًا أبدًا، قد أقسَمنا جميعًا أن نموت واحدًا بعد واحدٍ، ولا نُسلِّم أنفُسنا بتاتًا، ومن المعروف تمامًا أنِّي لم أُسلِّم نفسي إليكم. جزازياني: لا شكَّ أنك كنت طوال حياتك رجلاً شجاعًا، وإني لأرجو أن تكون شجاعًا مهما حدثَ لك أو نزل بك. عمر: إن شاء اللَّه.

وعَرَض جزازياني على عمر المختار عفوًا شاملاً، نظير أن يكتُب بتوقيعه نداءً للمجاهدين، يدعوهم ويطلب إليهم أن يكُفُّوا عن القتال، ويُسلِّموا

أنفسهم وأسلحتهم للحكومة، ورفض عمر لأسباب وضَّحها جرازياني، وهي أن هذا العمل لا يرضي ضميره ودينه، وفضلاً عن ذلك، فإن أحدًا لن يُصدِّق صدور هذا النداء من عمر المختار.

لقد كان عمر المختار هو عمر المختار إلى النهاية! لقد كتب جرازياني في مُؤلَّفه عن «برقة» أنه لا يزال يشعر بالأثر الذي أحدثته في نَفْسه رؤية عمر المختار، وكيف أنه أدركَ لماذا كان المختارُ صاحبَ الكلمة المسموعة والرأي الأعلى بين المجاهدين.

وعُقدت لعمر المختار محاكمةٌ صُورِيَّة في الساعة الخامسة مساء يوم ١٥ سبتمبر عام ١٩٣١ في «برقة»، وتلا رئيسُ المحكمة في الساعة السادسة والربع مساء الحُكْم بإعدام عمر المختار شنقًا، فقابَلَ عمر المختار ذلك بقوله: «إنَّا للَّه وإنَّا إليه راجعون». وفي التاسعة من صباح اليوم التالي، وهو يوم الأربعاء الموافق ١٦ من سبتمبر عام ١٩٣١م، نفَّذ الطليان في «سلوق» حُكم الإعدام شنقًا في السيِّد عمر المختار، الذي كان في السبعين من عمره.

«ودفعت الخِسَّة بالإيطاليين إلى أن يفعلوا شيئًا عجيبًا في تاريخ الشعوب، إذ إنهم أرغموا أعيان البَرْقاوِيِّينَ الذين اعتقلوهم في «بنينة»، كما أرغموا أعيان «بنغازي» وعددًا كبيرًا من الأهالي من مختلف الجهات ـ على حضور عمليَّة التنفيذ، فحَضَرَ ما لا يقلُّ عن عشرين ألف نَسَمَة على قول جرازياني. ويا لها من ساعةٍ رهيبة تلك التي سار فيها عمر المختار بقَدَمٍ ثابتة، وشجاعة نادرة، وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة، وقد ظلَّ عمر المختار يُرَدِّدُ الشهادتين حتى نفذ فيه الجلاَّدون حكم الإعدام، وعندما وجد هؤلاء أن عمر المختار لم يَمُتْ، أعادوا عمليَّة الشنق مرَّةً ثانية»[1].

عظمة في الحياة، وعظمة في الممات، عشتَ قاتلاً لأعداء اللَّه ومت

(١) «عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء» (ص٥٦، ٥٧).

مقتولاً بيد أعداء اللَّه. للَّه درُّك يا عمر «حتى الموت.. يموت الناس مرَّة، وأنت تموت مرَّتَيْن! لماذا؟ ألاأنَّ اللَّه يريد أن يرفعك بذلك مرَّتين، ويُعطيك على ذلك أجريْن: أجر الشهيد الذي عايَنَ الموت وذَاقَهُ، ثم أجر الشهيد ـ مرة ثانية ـ الذي أراد أعداؤه أن يقتلوه مرَّة ثانية.. وتلك علامات القَبُول.. وذلك أول تاجٍ من تيجان الآخرة»[1].

* الشيخ عزّ الدين القسام إمام وشيخ حركة الجهاد في فلسطين عام ١٩٣٥م:

القسّام:

القسّام القسّام.. اسم سوف يبقى في فلسطين يتردد في أجوائها فيوقع الرعب في قلوب الذين يسيطرون عليها بحرابهم، ويُتلى في صفحات تاريخها الخالدة، فيملأ نفس القارئ إكباراً وإعجابًا.

❑ قال الأستاذ محمد حسن شُرَّاب: «ثبت عندي للقسّام منقبتان جامعتان لكل خلال الخير وهما: أنه شيخ المجاهدين في فلسطين، ورائد من رُوّاد الدعوة إلى اللَّه وإصلاح المجتمع على نهج السلف الصالح»[2].

❑ ولد الشيخ محمد عز الدين بن عبدالقادر بن مصطفى القسّام الشهير «بعز الدين القسّام» في بلدة جَبَلة وهي ثغر من ثغور المسلمين من أعمال حلب قرب اللاذقية عام ١٣٠٠هـ الموافق ١٨٨٣م.

وكان جده مصطفى مقدمًا في الطريقة القادرية الصوفية وورث عبدالقادر الطريقة عن أبيه، وكان أنصار الطريقة القادرية في العراق يقدمون

---

(١) «عمر المختار شهيد الإسلام وأسد الصحراء» (ص٥٦، ٥٧).

(٢) «عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين» لمحمد حسن شرّاب (ص١٤) ـ دار العلم دمشق.

إلى جبلة لزيارة ضريحي عبدالقادر ووالده مصطفى في جبلة، فكان عز الدين يردع هؤلاء، ويحثهم على الامتناع من شد الرحال إلى جبلة لهذا الغرض.

ورحل في طلب العلم إلى الأزهر عندما بلغ الرابعة عشرة من عمره سنة ١٣١٤هـ - ١٨٩٦م ونال شهادة الأزهر العالية بعد أن أمضى حوالي ثماني سنوات في جوار الأزهر.

❑ وفتح مدرسة في جبلة سنة ١٩١٢م درّس فيها للأطفال واليافعين نهارًا، وللرجال الكبار مساء، وهذه فضيلة لم يسبقه إليها أحد من رجال الإصلاح في العصر الحديث.

❑ ودرّس الحديث، وتفسير القرآن العظيم في جامع إبراهيم بن أدهم، ثم صار خطيبًا في جامع المنصوري في وسط البلدة، وجذب الناس إليه.

*** وكان الإسلام يمتزج بدمه:**

❑ ولما غزا الإيطاليون ليبيا ثارت موجة عارمة من الغضب بين أهل الشام، وكان للقسّام دور بارز في قيادة حملات تجنيد الشباب للجهاد، وجندّ - رحمه اللّه - مئات الشباب من الساحل السوري، وقادهم بنفسه، وتعهدهم بالتدريب العسكري والفكري، وقام أيضًا بحملة لجمع الأموال والمؤن الكافية للنفقة على المتطوعين وأسرهم، ولمساعدة المجاهدين في ليبيا. واتصل عز الدين القسّام بالحكومة التركية، وحصل على موافقة الباب العالي في إستانبول بنقل المتطوعين إلى الإسكندرية.

وكانت هناك صعوبات كثيرة أمام الرجال، ولكن القسام صمم على لقاء الأشقاء المجاهدين في ليبيا، وأن ينقل إليهم ما استطاع جمعه من معونات مادية، وانتقل سرًّا إلى الأراضي الليبية، والتقى القسّام بالمجاهد الكبير عمر المختار.

ولم يشارك القسّام في الثورة العربية المسلحة، ولم يحمل سلاحًا ضد الأتراك المسلمين وذلك لفقهه الكبير، ولم يشق عصا الطاعة على ولاة الأمر من الأتراك، واعتزل ـ رحمه اللّه ـ الحرب ورجع إلى بلده بعد سنة ١٩١٦م.

□ ولما احتل الأسطول الفرنسي اللاذقية والساحل السوري في ١٠/ ١٠/ ١٩١٨م كان القسّام ممن مَنْ رفع راية مقاومة الفرنسيين في تلك المنطقة، وأول من حمل السلاح في وجهها. وكان من نتاج دعوته أن اندلعت نيران الثورة في منطقة صهيون.

وباع القسّام بيته لشراء السلاح ليكون قدوة للناس، وجعل يدرب المتطوعين على استعمال السلاح وفنون القتال عند شاطئ خليج بحري يُدعى «البحيص» جنوب جبلة.

ولما رأى عيون الفرنسيين يضيّقون عليه، ورأى أن منازلتهم في سهول جبلة المكشوفة تتيح لجيشهم قمع ثورته، فتطلع إلى موقع أكثر حصانة، وأبقى على الجهاد فاختار جبال صهيون ميدانًا للجهاد، وفيهم شطرها من رجاله، واتخذ قاعدة عسكرية في قمة منيعة قرب قرية «الزنقوفة» يغيرون على المراكز العسكرية الفرنسية في الجبال وفي مشارف المدن الساحلية.

وحاول الفرنسيون استمالته بأن أرسلوا إليه رسولاً بالكفّ عن مقاومتهم في مقابل تعيينه قاضيًا شرعيًّا في المنطقة، ورفض البطل دعوتهم، وقال لرسولهم: عُد من حيث أتيت، وقل لهؤلاء الغاصبين: «إنني لم أقعد عن القتال أو ألقى اللّه شهيداً».

فلما عجز الفرنسيون عن استمالته وثنيه عن الجهاد حكم عليه الديوان العُرفي فيما كان يُسمّى بدولة العلويين بالموت غيابيًّا.

ولم يذهب القسام وحيداً إلى ميدان الجهاد، وإنما ذهب على رأسه أتباعه وتلامذته، وكان معه في جبال صهيون عمر البيطار ورجاله.

ومن أشهر معارك القسام وجماعته «معركة بانيا» حين تمكن القسّام مع ثلة من المجاهدين من القيام بغارة ليلاً على الثكنة الفرنسية، وقتل حاميتها في آذار ١٩٢٠م.

ولما لم يجد القسام المدد الذي طلبوه من القيادة السياسية في دمشق انتقل ـ رحمه اللّه ـ من جبلة، انتقل منها وكان له شرف المشاركة في ملحمة ميسلون في ٢٤/٧/ ١٩٢٠م التي قُتل فيها البطل يوسف العظمة وعدد كبير من رفاقه.

وبعد معركة ميسلون عاد القسام إلى بيروت ومنها إلى دمشق للدفاع عنها، ومنها إلى صيدا، ومنها إلى عكا متخفيًا، وهاجر القسّام إلى فلسطين ليتابع الجهاد، واستقر في حيفا يدرس ويفتي ويربي.

«وفي سنة ١٩٣٤م قال له عامل من عمال الميناء، عندما استمع إلى درس الجهاد: «هل سمع «سيدنا» بحكاية البراميل التي اكتُشِفت مصادفة، وهي مملوءة بالأسلحة الفتّاكة التي يهربُها اليهود ليومهم الموعود»؟ فانتفض الشيخ وابتسم. وفي العشرين من تشرين الثاني ١٩٣٥م نشرت الصحف خبرًا هزّ العالم العربي يقول: إن الشيخ القسّام يلبس الكوفية والعقال و«البنطال» الكاكي والسلاح هو ورجاله، ويتدربون في غابات «يَعْبُد» بقضاء جنين استعدادًا للجهاد. فكانت هذه الثمرة الحيفاوية باكورة الجهاد الفلسطيني، وهي الفكرة التي أصلحت مسار العمل العسكري، بل أوجدته»[1].

وكانت الأحزاب السياسية مناهجها تقوم على المظاهرات، وإجراء اتصالات مع المندوب السامي، وإلقاء الخطب، وإرسال الوفود، وليس ثمة تفكير في الدعوة إلى الجهاد كما قال إبراهيم طوقان ساخرًا من الزعماء

(١) «عز الدين القسّام» لمحمد مُحمد حسن شرّاب (ص١٢٧).

السياسيين:

أنتمُ المخلصون للوطنيّه ... أنتمُ الحاملون عبء القضيه
أنتم العاملون من غير قولٍ ... بارك اللّه في الزنود القويّه
«وبيان» منكم يعادل جيشا ... بمعدات زحفه الحربيّه
«واجتماع» منكم يردُّ علينا ... غابر المجد من فتوح أميه
وخلاص البلاد صار على الـ ... ـباب وجاءَتْ أعياده الورديّة
ما جحدنا «أفضالكم» غير أنّا ... لم تزل في نفوسنا أمنيّة
في يدينا بقية من بلاد ... فاستريحوا كيلا تطير البقيّه

وقال ـ رحمه اللّه ـ:

أنتم رجالُ خطابات مُنَمّقة ... كما علمنا وأبطال احتجاجات
وقد شبعتم ظهوراً في مظاهرةٍ ... مشروعة وسكرتم بالهتافات
أضحت فلسطينُ مِن غيظٍ تقول لكم ... خلوا الطريق فلستم من رجالاتي

وكان القسام ـ رحمه اللّه ـ يحاضر المسلمين ويعظهم في مسجد الجرينة الكبير وجامع الاستقلال ويبصّرهم بواقع الأمة ويربيهم على الجهاد.

ولما «سُئِل ـ رحمه اللّه ـ عن رأيه في أساليب الزعماء المعتمدة على محاورة الإنكليز، فأجاب: «من جرّب المجرَّب فعقله مخرَّب»، وقال مرة: «من جرّب المجرَّب فهو خائن»، وهو يشير إلى تجربة العرب مع الإنكليز إبّان الثورة العربية على العثمانيين»[٢].

وأعلن القسّام أن الإنجليز رأس البلاء والداء، ويجب توجيه

(١) المصدر السابق (ص١٣٣).
(٢) «عز الدين القسّام» لشراب (ص١٤٧).

الإمكانات كلها لحربهم، وطردهم من فلسطين قبل أن يتمكنوا من تحقيق وعدهم لليهود.

ودعا القسّام المسلمين إلى التمرّد، وحرّضهم على ألا يسمعوا للعساكر البريطانية.

«ففي أواخر سنة ١٩٣٤م، سأل القسّام المصلين من على المنبر: «هل أنتم مؤمنون؟»، وأجاب: «لا أعتقد»، وسكت قليلاً، ثم تابع كلامه قائلاً: «لأنه لو كنتم مؤمنين، لكانت لكم عزّة المؤمن، فإذا خرجتم من هذا المسجد وناداكم جندي بريطاني، فلا تطيعوا نداءه.

واتّجه القسّام إلى توعية الشعب بالشرور المحدقة بهم، وكان يكثر من قوله: «بأن اليهود ينتظرون الفرصة لإفناء شعب فلسطين، والسيطرة على البلاد، وتأسيس دولتهم».

❑ ومن باب التحريض على الجهاد دعا القسّام إلى توجيه اقتصاد البلد إلى شراء الأسلحة، وأنكر في هذا السبيل سياسة «المجلس الإسلامي الأعلى» في تزيين المساجد وبناء الفنادق، وقال: يجب أن تتحول الجواهر والزينة في المساجد إلى أسلحة، فإذا خسرتم أرضكم فإن الزينة لن تنفعكم وهي على الجدران.

وحذر الشيخ عز الدين المصلين في إحدى خطب الجمعة سنة ١٩٢٧م من التساهل مع الهجرة اليهودية التي تحتل البلاد، ودعاهم إلى استقبال هذا العدو القادم بعربات الانتداب الإنكليزي وحمايته، بوصفهم أعداء لا بوصفهم ضيوفًا».

وكان ـ رحمه اللّه ـ في مسجد الاستقلال يردد دائمًا الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. ويُسهب في شرح ﴿وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فأولوا الأمر هم المسلمون أما الإنكليز

فلا طاعة لهم على المسلمين، وكان الإنكليز يبثون على لسان «القاديانية» ومركزها «حيفا» أن الدولة البريطانية وليّة أمر المسلمين ولها عليهم حق الطاعة.

❑ وفي سنة ١٩٢٩م عُلِمَ أن اليهود يأتمرون للهجوم على جامع الاستقلال، فطلب وجوه المسلمين في حيفا من السلطات البريطانية أن ترسل قوة لحراسة المسجد من الهجوم المُدبّر، فثار القسّام على هذا الاقتراح، وقال في خطاب ألقاه بهذه المناسبة: «إن جوامعنا يحميها المؤمنون منّا، إن دمنا هو الذي يحمي مساجدنا لا دم الآخرين» ووصف الطلب بالجبن، وعدّه دليلاً على الخضوع والذل. ولما دعته السلطات للتحقيق في كلامه، لم ينكره، وعندما أُوقف، أعلنت المدينة الإضراب، فاضطرت السلطات إلى إخراجه من السجن، وتجنّبت حكومة الانتداب اعتقاله فيما بعد[١].

❑ وفي الثلاثينيات حين شاعت حوادث قطع الطرق، وظهور عصابات السّلب، برز اسمُ «أبو جلْدة»[٢] وأحيط بهالة من التقدير، بوصفه معبراً عن الحس الشعبي، ورغبته في مقاومة الانتداب، وفي سنة ١٩٣٢م سُئِل الشيخ عن رأيه في أهل «الشعراوية» وجبل نابلس الذين يقطعون أشجار اليهود، ويَسُمُّون الحيوانات، وينعتهم الناس باللصوصية وقطّاع الطرق، فأجاب: «دعهم يعملون؛ لأن في عملهم رجولة سنحولّها في يوم من الأيام إلى جهاد، وما دام المستعمر يرغب في إماتة قلوبنا، فإن هؤلاء أقرب إلى اللّه

---

(١) المصدر اسابق (ص١٤٨).

(٢) أبو جلدة: صعلوك فاتك، ولكنه كان يسلب الإنكليز واليهود فقط. ذكره المؤرخ الروسي في كتابه «تاريخ الأقطار العربية المعاصر» فقال: في سنة ١٩٣٢م. برز زعيم فصائل الفدائيين البطل الشعبي «أبو جلدة» الذي كان يزرع الرعب في قلوب المستعمرين ببسالته وجرأته.

وإلى حب الجهاد من المستكينين»[1].

❑ واستطاع القسّام في عشر سنوات أمضاها في جامع الاستقلال، أن يجعل الناس مستعدين لتلبية نداء الجهاد، وصارت الكلمات الجهادية المقدسة من خطبه، على لسان الجمهور، من ذلك قوله: «المجاهد رائد قومه، والرائد لا يكذب أهله»، وقوله: «الجهاد رفيقه الحرمان» أي الصبر على المشقة، وكان شعار القسّام وتلاميذه «هذا جهاد، نصر أو استشهاد».

❑ ومن خلال اتصال القسّام بالقوى البشرية عن طريق المسجد، استطاع أن يُقوّم القدرات الوطنية للجهاد، ووازن بينها وبين قدرات الأعداء، فوجد القوة الوطنية تفوق قوى الأعداء، فثبت في نفسه أن الأسلوب العسكري للوصول إلى الحق هو الأسلوب الناجح، وأن الطرق السلمية التفاوضية فيها إذلال للمسلمين؛ لأنها تجبر الأسد القوي «وهم العرب» أن يفاوض الكلب (وهم الأعداء). ونقل الرواة عن ابنة القسّام ميمنة هذه الحادثة: «إذ رأته صباح يوم هائجًا هياجًا شديدًا، يردّد أشعارًا حماسية حربية، فخشيت من مغبّة هذا الهياج، وقالت له: إن الطريق السلميّة هي خير طريق يمكن أن يسلكه شعب أعزل كشعبنا؛ لأن القوة يجب أن تجابهها قوة مثلها، ونحن لا قوة لدينا ولا مال، قالت ميمنة: ولكن الوالد الشهيد لم يتركني أتمّ كلامي، بل صاح بصوته الجَهْوري: اصمتي يا ميمنة. ثم أطرف برهة، وأنشد وهو ينظر إليّ:

واعلم بأن عليك العـــار تلبَسُــه ... مَن عَضَّه الكلب لا من عضّه الأسدُ

ولم يكن القسّام مبالغًا في تقديره وتقويمة لقلة الأعداء، فقد قدّر عدد اليهود في فلسطين سنة ١٩٢٢م (٨٣٠٠٠) ثلاثة وثمانون ألفًا، وبلغت

(١) «عز الدين القسّام» (ص١٥٠ ـ ١٥٣).

نسبتهم لمجموع السكان (١١٪)، وفي سنة ١٩٣١م قدّر عدد اليهود (١٧٤٠٠٠) مئة وأربعة وسبعون ألفًا، وبلغت نسبتهم ١٦٪.

❑ وفي سنة ١٩٣٦م عجزت القوات البريطانية عن السيطرة على فلسطين، وحرّر المجاهدون أجزاء كبيرة من فلسطين، لولا وساطة (أصنام العرب) في فلسطين وخارجها التي نصبها الأعداء لتقرّب العرب إلى الإنكليز زُلْفى، وكانت هذه الأصنام، بل شياطينها، تعِد الناس بالمواعيد العرقوبية، وتوحي إلى المسلمين بأن قوة الأعداء العسكرية تفوق قوة العرب عددًا وعُدّة، وأنه لا سبيل إلى الخلاص منهم إلا بالحُسنى، فيطفئون حركة الجهاد، وبينها وبين النصر قاب قوسين أو أدنى، أطفأ اللّه نور قبورهم.

وقد ركّز القسّام عنايته في التوجيه إلى معاني الجهاد، وتصحيح المفهومات السياسية الدارجة، ولكنه لم ينس ثلاث قضايا:

الأولى: الدعوة إلى إخلاص العقيدة للّه وحده، وتنقية المفهومات الدينية الشائعة من الشوائب، والرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة، مصدرين لكل توجهات المسلمين.

وفي هذا السبيل حارب البدع المتصلة بالجنائز والمآتم، والمولد النبوي، وشهر رمضان... إلخ.

وخاض من أجلها معركة شاركه فيها محمد كامل قصّاب، وألّفا فيها كتاب «النقد والبيان في دفع أوهام خزيران».

الثانية: الغزو الفكري المدعوم من اليهود والإنكليز، وكانت حيفا مركزًا لفرقتين ضالتين هما: البهائية والقاديانية.

الثالثة: اكتشاف القادرين على الجهاد وتنظيمهم في خلايا سرية، ولما تأسست جمعية الشبان المسلمين في فلسطين كان القسّام رئيسًا لجمعية حيفا، وقد واظب القسّام على تقديم محاضرة دينية أسبوعية في جمعية الشبان

المسلمين مساء كل جمعة، فكان يذهب كل أسبوع، مع فئة من أعضاء الجمعية للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلى القرى، وأسس ـ رحمه اللَّه ـ فروعًا لجمعيات الشبان المسلمين في اللواء الشمالي، أصبحت غطاءً مناسبًا لعمل رفاق القسّام في قراهم المحلية.

❑ قال أحمد القشيري: «كنت على معرفة وطيدة بالشيخ عز الدين القسّام، عرفته تقيًّا ورعًا، خطيبًا دينيًّا صالحًا، واجتمعت به في مؤتمرات جمعيات الشبان المسلمين في حيفا وغيرها، ولم يكن يدور في خلدي أو خلد غيري، حتى من أصدقائه المقربين، أن هذا الشيخ المعمم، إمام الجامع كان يهيئ نفسه لقيادة ثورة مسلحة ضد السلطات البريطانية مباشرة»[1].

❑ كان القسّام ـ رحمه اللَّه ـ جريئًا في قول الحق، لا يخاف في اللَّه لومة لائم.

«كان يقرر من على المنبر أن الجهاد فريضة على المسلمين، وأنه لا مفرّ من محاربة الإنكليز وأعوانهم، وكان يطلب من الناس جهراً شراء السلاح والتدرب عليه.

واستدعته سلطات الانتداب مرة للتحقيق حول تركيزه على آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] في إحدى خطبه، فأجاب القسّام، بأن الآية الكريمة جزء لا يتجزأ من القرآن، وأنّ واجبه يحتّم عليه شرح هذه الآية في ظل الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد.

وطلب مرة من المصلين أن يقاوموا الأعداء فوقف أحد المصلين وسأله: بماذا نقاوم الأعداء ونحن لا نملك سلاحًا؟

فأجاب الشيخ: بقتلهم وأخذ السلاح منهم.

---

(١) «أربعون عامًا في الحياة العربية» لأحمد الشقيري (ص١٣٩).

وروى الشيخ أحمد السعدي ـ رئيس بلدية جنين ـ أن القسّام، رفع يومًا مسدسًا أمام المصلين، وكان قد دبّر طريقة لإخفائه، وقال: من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر، فليقتن مثل هذا»[١] .

*** عز الدين القسام شيخ المجاهدين بفلسطين سلفي العقيدة والمنهج:**

قال الشيخ محمد محمد حسن شُرّاب: «أخذ عز الدين ثقافته الإسلامية من القران والسنة الصحيحة، ونهل من السيرة النبوية المشتملة على بيان شمائل الرسول ﷺ التي يكون للمسلمين بها أسوة حسنة. ودرس سير الصحابة، فصدر بعد كل هذا عن عقيدة سلفية لم تتأثر بمذهب قديم أو اتجاه حديث»[٢] .

«كان همه الأول تخليص الدين من الشوائب، وإخلاص العقيدة للّه وحده، حارب القسام ذهاب الناس إلى «مقام الخضر»[٣] على سفوح جبل الكرمل لذبح الأضاحي شكرًا على شفاء من مرض، أو نجاح في مدرسة. ودعا القسّام الناس إلى أن يتوجهوا بنذورهم وأضاحيهم إلى اللّه تعالى فقط؛ لأنه ـ وحده ـ القادر على النفع والضر، وأما أصحاب القبور فلا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا.

وبالجملة فإن العقيدة السلفية الصحيحة، والثقافة الإسلامية المقتبسة من القرآن والسنة أثرت في تلاميذ القسّام»[٤] ، وانطبعوا بطابع التربية الإسلامية الإيمانية، سلوكًا وأقوالاً. وقد وصف أحمد الشقيري أصحاب القسّام، وقد

---

(١) «عز الدين القسّام» (ص١٩٨).

(٢) «عز الدين القسّام» (ص١٧٠).

(٣) يقع عند أقصى حد حيفا إلى الغرب من سفح جبل الكرمل.

(٤) «عز الدين القسّام» (ص١٥٥).

عايش عدداً منهم، ودافع عنهم ـ بوصفه محاميًّا ـ أمام الإنكليز، فقال: «لم تجر على ألسنتهم تعابير «الكفاح المسلح» و«الحركة الوطنية» و«الاستعمار والصهيونية»، فقد كانت تعابيرهم على بساطتها تنبع من ينبوع أروع وأرفع هو «الإيمان والجهاد في سبيل اللَّه» لقد كانوا قومًا مؤمنين، صنعهم الإيمان، فصفت نفوسهم، وتآلفت إرادتهم، وتعاظمت عزائمهم، وأحسّوا أن حبلهم مع اللَّه قد أصبح موصولاً، وأن الباب بينهم وبينه قد بات مفتوحًا»[1].

«ومنذ تولّي عز الدين القسام أمر تعليم الناس في المدارس والمساجد أخذ على نفسه تقويم ما اعوج من أمر المسلمين، وأن يرجعهم إلى الإسلام المصفى الخالي، ورأى أن يبدأ بمرحلة الدعوة والتعليم لتربية جيل مؤمن بربه متمسك بسنة النبي ﷺ، فأخذ يحارب البدع والخرافات.. ويدعو الناس إلى نبذ البدعة، ومن هنا بدأ الصراع بين أنصار البدع وبين المذهب السلفي الذي اتبعه القسام»[2].

والذي يفهم من سيرة القسّام أنه كان مربيًّا سلفيًّا داعيًا يعمل لكي «يعود للدين مجده بسيطرة السنة، ومحق البدعة، وعودة مجد الدين، هو عودة لمجد أهله المتمسكين به».

«إن من يقرأ كتاب «النقد والبيان» للقسّام يعلم تمام العلم أنه ما حاد عن السلفية منهجًا وعقيدة قدر أنملة.

لم يكن القسّام ـ رحمه اللَّه ـ حاطب ليل بل كان يميز بين الصحيح والضعيف من الأحاديث النبوية وكان يدعو إلى العلم الصافي قبل القول والعمل، وكان يأمل في الإعداد المرحلي، والتّدرج في الإعداد فما أمهله أعداؤه حتى يصل إلى ما يريد.

---

(١) «أربعون عامًا» لأحمد الشقيري (ص١٤٥).

(٢) «عز الدين القسام» لشراب (ص١٧٦).

القسام البطل المتواضع الذي حرص على الاتصال بكل فئات شعبه، وكان يمتلك قلوب الناس بشخصيته الجذابة المحبوبة» هذا البطل الذي جعل من باعة الكاز «الجاز» قادة ومجاهدين عظماء.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «يمين اللَّه إن شباب العصر الأخير ابتعدوا كثيرًا من النهج القويم، وأمعنوا في الضلال، فلم يبق على هذه الأمة إلا أن تعتصم بما في قلوب الفلاحين والعمال من بساطة وإيمان، وبعد عن بهارج مدنيَّتكم الزائفة»[١].

❑ وكان ـ رحمه اللَّه ـ: يقول: «خبرتي الطويلة تجعلني أرجو خيرًا من الفلاحين والعمال، فهم واثقون باللَّه، مؤمنون بجنات الخلد واليوم الآخر، ومن كانت هذه صفاته كان أقرب الناس إلى التضحية وأجرأهم على الإقدام»[٢].

يرحم اللَّه البطل الذي بسّط العقيدة للعوامّ وشوّقهم إلى البذل والعطاء والجهاد.

❑ إن الإنسان ليعجب حين يكتب الناس زورًا وبهتانًا عن القسّام فينسبونه إلى الصوفية فيجعلونه شيخ الزاوية الشاذلية، كما ترجم له صاحب «الأعلام الشرقية»[٣]، وهذا كذبٌ صراح.

❑ إن أبطال ثورة البراق كانوا من تلاميذ القسّام، وإن لم يتوفّر دليل على أنهم كانوا أعضاء في التنظيم السري.

ومن الذين شاركوا في ثورة البراق من إخوان القسّام: عبداللَّه الأصبح، الذي كان له جهاد مشهود في منطقة «صفد»، والشيخ فرحان

(١، ٢) المصدر السابق (ص٢٠٣ ـ ٢٠٤).

(٣) «البطولة والفداء عند الصوفية» لسعد الخطيب (ص٢٢٥ ـ ٢٢٨) دار الفكر ـ سورية.

السعدي في قضاء جنين.

وفي المدة من ١٩٣١ ـ ١٩٣٥م، تأكد أن أعضاء المُنظمتين قاموا بأعمال عسكرية في قضاء حيفا.

وكانت أولى العمليات، الهجوم على مستعمرة (الياجور) قرب حيفا ليلة ٥/ ٤/ ١٩٣١م فقتلوا ثلاثة من اليهود، وعادوا دون أن يتركوا أثرًا، كما هجم القسّاميون على مستعمرة (بلغوريا) ومستعمرة (كفار هاسيديم» ومستعمرة (عتليت) ومستعمرة (العفولة) في المرج.

*** عملية «نهلال» ضربة موجعة في أكبر رموز الصهيونية:**

❑ العملية العسكرية التي أغضبت الإنكليز واليهود، وأدخلت الرعب إلى قلوبهم هي عملية (نهلال) ليلة ٢٢/ ١٢/ ١٩٣٢م. فقد قام المجاهد أحمد الغلاييني ـ الذي يعمل سمكريًّا ـ بصنع ألغام في معمله في حيفا، وأعطى لغمًا منها لمصطفى علي الأحمد، فوضع اللغم في منزل حرس مستوطنة (نهلال) وسيّر إخوان القسّام قطيعًا من الغنم على الطريق، فذهب الأثر. فانفجر اللغم، وأدى إلى قتل يهوديين، وإصابة اثنين بجراح. فكانت هذه الواقعة ضربة مؤثرة موجعة في أكبر رموز الصهيونية في فلسطين، وهي مستعمرة (نهلال) حيث يقول «وايزمن» في وصفها: «إن (نهلال) مستعمرة ذات قيمة خاصة في نظري؛ لأنني منها أبتدئ سياحتي، وبها أختمها، وهي رمز عملنا العظيم في مرج ابن عامر، ولست أُبالغ إذا وصفتها بأنها قلب المرج، وعندما تقترب مني الأيام الصعبة أتطلّع إلى (نهلال) لأستمد منها التعزية.

وحكم بالإعدام على مصطفى الأحمد وبالسجن خمسة عشر عامًا على أحمد الغلاييني، ودامت الأعمال العسكرية سنوات، كانت من أشدّ ما قام به المجاهدون في فلسطين تأثيرًا فألقت الرعب في قلوب اليهود؛ لأنهم رأوا

عملاً جديداً يُنفّذ بالسلاح، لم يعرفه اليهود من قبل، ومع كثرة هذه الأعمال، وتعدد أشكالها، فإنها ظلت محاطة بالسريّة والكتمان. وابتدأت المنطقة تشهد أعمالاً بطولية عظيمة فمنذ أوائل ١٩٣٥م شهد المثلث العربي جنين نابلس طولكرم سيلاً من الاغتيالات للضباط الإنجليز ونسف القطارات، وهوجمت معسكرات الجيش البريطاني، وقتل أي عربي يثبت لدى الوطنيين اتصاله بالبريطانيين اتصالاً مريبًا.

وكانت هذه الأعمال تتم تحت جنح الظلام، وفي فترات متعاقبة في غاية الدقة والتنظيم والسرية، وسرت روح الجهاد بين الشعب فتتابع تنظيم التشكيلات السرية، وزادت متاعب البريطانيين وإرهابهم.

*** الاستعداد للجهاد:**

أرسل القسام أحد إخوانه (محمود سالم المخزومي)[1] الملقب (أبو أحمد القسام) إلى سماحة رئيس المجلس الإسلامي الأعلى (الحاج أمين الحسيني) ليعلمه عن عزمه القيام بثورة في فلسطين للقضاء على فكرة الوطن القومي اليهودي، وذلك سنة ١٩٣٥م قبل ثورة القسام بأشهر قليلة، وفعلاً، اتصل رسول القسام بالحاج أمين بواسطة الشيخ (موسى العزراوي) ـ رحمه اللّه ـ أحد أعوان الحاج أمين، وأعلمه عن رغبة القسام: وهي أن يشرع الحاج أمين في الإعداد للثورة في جنوب فلسطين، حيث يعد القسام العدة في شمال فلسطين.

فأجاب الحاج أمين بواسطة (العزراوي) أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا

---

(١) «ثورة الشيخ عز الدين القسام» لعوني العبيدي (ص٥٥). وقال الأستاذ عوني العبيدي: ذكر لي ابن الشيخ أبو إبراهيم الكبير «أبو نبيل»: أن الذي كان يرسله القسام إلى الحاج أمين الحسيني هو الشيخ «كامل القصاب»، وليس محمد سالم المخزومي كما ذكر.

العمل، وأن الجهود السياسية التي تبذل تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم، إذ كان حَسَنَ الظن بالإنكليز[١] .

وباع القسام بيته الوحيد في حيفا، وباع أصحابه حليَّ زوجاتهم، وبعض أثاثهم، واشتروا بثمنها رصاصًا وبنادق[٢] .

*** القسام يعلن الجهاد المقدس:**

وبعد أسبوعين من مهاجمة قوات البوليس الإنكليزي للمتظاهرين العرب في القدس، وفي ليلة ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٥م جمع الشيخ عزالدين القسام إخوانه في مدينة حيفا، وأبلغهم أنه قرر إعلان الجهاد المقدس، وأبلغهم أنهم سيغادرون تلك الليلة إلى أرض المعركة، وقال لهم إن شعار جهاده (أن يذهب كل مجاهد إلى أهله يستودعهم اللَّه، ويواعدهم اللقاء في الجنة)، ثم يلتئم جمعهم في بيت القائد محمود سالم المخزومي، ليتوجهوا من هناك إلى أرض المعركة، وخرجوا وخرج القسام الذي جاوز الستين من عمره بعد أن ودع زوجته وأولاده الصغار.

وقد اختار أرض معركته في المناطق الجبلية، وكان أقربها إلى حيفا جبال جنين، فتوجه موكب المجاهدين في تلك الليلة إلى قرية (كفردان)، وهناك وزع رفاقه على قرى: يعبد، وفقوعة، وصندلة، وقباطية، للاتصال بأهاليها. وليشرحوا لسكانها أهداف الثورة.

وكان الشعب في السابق يعرف القسام من على منبر جامع الاستقلال في حيفا، ويعرف القسام من خلال زياراته إلى حفلات الأفراح في القرى.

---

(١) «الثورة العربية الكبرى في فلسطين» (ص٢١ ـ ٢٢) وسيأتي التعليق على بيع القسّام لبيته إذ إنه لم يكن يمتلك بيتًا إنما كان يستأجر فقط.

(٢) «الإسلام وحركات التحرر العربية» لشوقي أبو خليل (ص٢٠٤).

ويعرف إخلاص القسّام، لذلك فقد استجاب له ولرسله أعداد كبيرة من الرجال المخلصين. وكان الاستعمار في هذه الفترة يرقب تحركات القسّام بواسطة البوليس السري «الخونة».

ويُؤثر عن رجال القسام أن كل واحد منهم كان يحمل في جيبه نسخة من القرآن الكريم الذي اتخذوه قدوة لهم، وكانوا يرون أن كل السعادة هي في بلوغ مرتبة الشهادة، والانتقال إلى الحياة الأخرى، للتمتع بما أعده اللّه للمجاهدين والشهداء من نعم.

وقد روى سكان قرية يعبد حيث كان القسام يرابط بجماعة على مقربة منهم ـ أنهم لم يسألوهم أو يطلبوا منهم شيئًا في يوم من الأيام، بل كانوا في النهار يأوون إلى الكهف، يصلون ويقرؤن القرآن، وفي الليل يخرجون للتدرب على القتال.

وبعد يومين أي يوم ١٤ تشرين الثاني ارتكب أحد مناضلي القسام خطأً، كان سببًا في افتضاح أمر الثورة قبل إعلانها رسميًّا، وكانت خطة القسّام أن يتوزع رجاله على قرى المناطق الجبلية، حتى يضموا إليهم أكبر عدد من المناضلين، حتى إذا اكتمل العدد الذي يريد هاجم مدينة حيفا، واحتل دوائر الحكومة ومراكز الشرطة والميناء، وبعد أن يستتب له الأمر يعلن قيام الحكومة العربية، ويكون أعوانه في المدن الأخرى قد قاموا بذات عملية الاحتلال، فينتهي بذلك مأساة تهويد فلسطين التي لم تَحُل دونها حتى الآن جميع المفاوضات والاحتجاجات والمظاهرات.

ولكن الخطأ الذي ارتكبه أحد أعوانه عرض الخطة إلى الفشل، ففي ليلة ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٥م كان المناضل محمود سالم المخزومي يقوم بالحراسة قرب قرية فقوعة، فشاهد دورية بوليس من الفرسان يقودها شاويش يهودي، وهي قادمة من مستعمرة عين حارود، فدب الحماس في المناضل الحارس

عندما وجد أنه يسيطر على موقع يستطيع منه التحكم في الدورية، فأطلق النار على الشاويش اليهودي فقتله، إلا أن زميله استطاع الهرب، فأبلغ مركز البوليس بالواقعة، وفي اليوم التالي قامت قوات كبيرة بتطويق جميع القرى المجاورة، ولما اقتربت من مواقع أعوان القسّام اشتبكت معهم في قرية (البارد)، ونشبت المعركة التي استشهد خلالها المناضل الشيخ محمود الحلحولي، وقتل اثنان من البوليس الإنكليزي، وتطورت الأمور، فأيقن حكومة الانتداب أن الثورة المسلحة قد أشرفت على القيام، وأن الجهاد الحاسم على وشك الاستنفار، عندئذ عقد اجتماع في مكتب المندوب السامي تقرر فيه ضرورة القضاء على هذه الثورة، وهي في مهدها مهما كلف الأمر قبل استفحال خطرها.

وأرسلت نجدات من رجال البوليس الإنكليزي من كافة المدن الفلسطينية إلى حيفا، تساندهم طائرات استكشافية، وفي صباح يوم ١٩ تشرين الثاني زحفت قوات البوليس إلى جبال جنين، وطوقت منذ طلوع الفجر قرى: يعبد، واليامون، وبرقين، وكفر دان، وفقوعة، وكان الشيخ القسّام مع أحد عشر مناضلاً في أحراش قرية (يعبد) في خربة الطرم في الجهة الشمالية الشرقية من يعبد.

أما إخوانه فهم: الشيخ محمد الحنفي أحمد، والشيخ يوسف الزيباوي، والشيخ حسن الباير، والشيخ أحمد جابر، والشيخ أسعد كلش، والشيخ نمر السعدي، وعرابي البدوي، وتوفيق الزيري، وناجي أبو زيد، ومحمد يوسف، وداود خطاب.

*** معركة يعبد:**

وعرفت القوات الإنكليزية أنَّ الشيخ القسّام هو قائد الثورة، وأنه يقيم في أحراش يعبد، فأرسلت إليه خمسمئة جندي فرضت عليه طوقًا بحيث لا

يمكنه الانسحاب، كما لا يمكن للنجدات أن تصل إليه.

«وحين طلب منه أن يستسلم أجاب إننا لن نستسلم إن هذا جهاد في سبيل اللّه، والتفت إلى زملائه قائلاً: موتوا شهداء».

ودارت معركة بين قوتين غير متكافئتين بالعدد والعدة، وكان كل مجاهد يقاتل أربعين جنديًا، ونشبت المعركة في الفجر، واستمرت حتى الظهر، فانتهت باستشهاد قائد الثورة الشيخ عز الدين القسام، والشيخ محمد الحنفي أحمد، رفيق جهاده في سوريا، والشيخ يوسف الزيباوي، كما جرح جميع إخوانه.

ووقع في الأسر الجرحي من المناضلين وهم: أحمد جابر، وعرابي البدوي، ومحمد يوسف، وتمكن الآخرون من الإفلات من طوق الجنود، وقد قتل من الإنكليز عدد كبير، إلا أن البلاغ الرسمي لم يعترف إلا بمقتل ثلاثة جنود.

ثم أصدرت السلطات البريطانية بلاغًا نعتت فيه القسام وصحبه بالأشقياء. وجرت بعد ذلك محاكمات تاريخية للأسرى من الجرحى وغير الجرحى.

وبذلك تمكن الإنكليز من القضاء على قائد الثورة وعدد من إخوانه الأبرار، وفشلت الخطة المقررة لاحتلال دوائر الحكومة في حيفا، والاستيلاء على الأسلحة التي ستسلم إلى المجاهدين للقيام بأعمال ثورية واسعة، لمنع إقامة دولة يهودية في أي جزء من أرض فلسطين.

وبعد سقوط العالم القائد المجاهد الشيخ عز الدين القسام واثنين من إخوانه الأبرار في ساحات الشرف والكرامة، واعتقال خمسة منهم، اضطر الآخرون إلى الاختفاء في الجبال لإتمام رسالة القسّام الثورية المقدسة في الوقت المناسب.

ولقد أكرم سكان مدينة حيفا البواسل الشهداء الأبرار، وتحدوا السلطات الغاشمة، وجرت جنازة مهيبة، اشترك فيها عشرات الألوف من أبناء الشعب، وجرت مظاهرات أثناء تشييع جنازة الشهداء، حيث هاجم أبناء الشعب الثائر دوائر البوليس، والدوريات الإنكليزية بالحجارة.

ونشرت تلك المظاهرات وعيًا في صفوف الشعب الفلسطيني العربي المسلم، وأخذ كل فرد يفكر بالثورة المسلحة على الظلم والطغيان، وأخذ إخوان القسام من العلماء يحرضون الشعب على القتال، وكان للعالم الشيخ كامل القصاب وزملائه دور بارز في استلام زمام المبادرة بعد القسام.

وسار موكب الجنازة مجللاً بالأعلام العربية، حيث صُلي على الشهداء في المسجد الكبير، وشيع القسّام إلى مقره الأخير في قرية الياجور التي تبعد عن حيفا نحو عشرة كيلو مترات، سارتها على الأقدام حاملة نعش الشهيد، فكان مشهدًا رائعًا من المشاهد الحقة.

وقد نُعِيَ الشهيد عز الدين القسام وصحبه من مآذن المسجد الأقصى ومساجد فلسطين، وصلى الناس عليهم في كل مكان صلاة الغائب.

وفي اليوم التالي كتب الأستاذ أكرم زعيتر واصفًا الجنازة فقال:

«هل رأيت اليمّ الصخّاب، الجائش الفوّار، المتلاطم الأمواج الموّار، المُرْغي المزبد الهدّار؟ هل رأيت البراكين المضطرمة تقذف الحمم والنار؟ هل سمعت الرعود القاصفة تجلجل؟ هل أحسست بالعواصف العاصفة تتدافع؟ هل رأيت الأتون المستعر المتلظى المتأجج الوهاج؟

إن لم يكن هذا، فسل مَن مشى في موكب الشهداء في حيفا التي دوّت صرختها اليوم في الآفاق، وتصاعد زفيرها إلى أجواء الفضاء.

كل ذلك من أجل عصابة أشقياء!! أستغفر اللّه، بل عصبة شهداء.

يقول البلاغ الرسمي: إنها عصابة من الأشقياء، وتقول الأمة الحية التي

مشت في موكب التشييع: كلا، إنهم أبنائي، وذُوّادي، إنهم مهجي وشهدائي.

وفطن أهل فلسطين إلى الغرض الذي أراده القسام باستشهاده.

وبذلك يكون المجاهد الشيخ عز الدين القسام أول من عمل عملاً مركزًا للثورة وزرع بذور الحقد على الاستعمار البريطاني الغاشم وربيبته الصهيونية، وترك للأمة عشرات المخلصين قاموا بالدور الرئيسي البارز بالثورة الكبرى التي اندلعت في ١٥ نيسان سنة ١٩٣٦م[1].

وقد أزعج القسام السلطة المنتدبة حتى بعد موته، فقد استدعى مدير المطبوعات أصحاب الصحف ورؤساء تحريرها، وحظر عليهم كتابة شيء عن القسام، وهدد بمحاكمتهم وتعطيل صحفهم.

ولقد ألقت ثورة القسام ظلاً كبيرًا على المسرح السياسي الفلسطيني، وأصبحت كل محاولة لإقامة تقارب بين الفلسطينيين والسلطات الحكومية محكومًا عليها بالفشل.

وبموت الشيخ القسام انطوت صفحة مجيدة من صفحات البطولة والتنظيم والتخطيط الإسلامي في معارك فلسطين، إلا أن ثورة القسّام لم تمت بموته، بل بقيت منارة لأحرار فلسطين يؤمنون بأنه لا حياة لهم ولا كرامة بدون السير على خط ونهج الثورة في الكفاح والجهاد لإعلاء كلمة اللّه فوق أرض اللّه المقدسة، وانطلاقة لهم منها إلى جهاد أعم وأشمل.

❑ قال الشاعر محمد صادق عرنوس:

من شاء فليأخذ عن القسام
أنموذج الجندي في الإسلام

(١) «جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن» (ص١٧٧).

وليتخذه إذا أراد تخلصاً
من ذله الموروث خير إمام
ترك الكلام ورصفه لهواته
وبضاعة الضعفاء محض كلام
أو ما ترى زعماءنا قد أتخموا ال
آذان قولاً أيما إتخام
كنا نظن حقيقة ما حبروا
فإذا به وهم من الأوهام

❑ قال القسام ـ رحمه اللَّه ـ:

«ليس المهم أن نحرر فلسطين في بضعة أشهر، بل المهم أن نعطي من أنفسنا الدرس للأمة، وللأجيال القادمة»[1].

❑ قال الأستاذ محمد حسن شُرّاب:

«استشهد القسّام فوجدوا في ثيابه مصحفًا، وأربعة عشر جنيهًا. وزعم بعض المؤلفين أن القسّام باع بيته في حيفا قبل خروجه فسألت الأستاذ عبدالرحمن بن محمد الحنفي هل كنتم تمتلكون بيوتًا؟ فقال: إن القسّام لم يمتلك بيتًا، وإنما كان يسكن بيتًا مستأجرًا»[2].

* إنك واللَّه اليوم أخطب منك حيًّا:

❑ «أجمل وأبلغ ما قيل في أثر استشهاد القسّام[3] في الأمة قول أكرم

(١) «عز الدين القسّام» لشراب (ص٣٠١).
(٢) المصدر السابق (ص٣٠٢ ـ ٣٠٣).
(٣) لا نجزم بالشهادة لأحد إلاّ ما جزم له الرسول ﷺ ونحسبهم شهداء عند اللَّه ونكل أمرهم إلى اللَّه.

زعيتر في يوم جنازة القسّام: «لقد سمعتك قبل اليوم خطيبًا مفوّهًا، تتكئ على السيف، وتهدر من على المنبر، وسمعتك اليوم خطيبًا تتكئ على الأعناق، ولا منبر تقف عليه، ولكنك واللّه اليوم أخطبُ منك حيًّا».

ذلك أن استشهاد القسّام كان أبلغ خطبة سمعها الناس، فكان للشهادة تأثير دائم، وكانت الشهادة أنشودة الجهاد في جميع المعارك التالية.

وبعد ثلاثة أيام من استشهاد القسّام كتب أكرم زعيتر يقول: «ليس من سبيل إلى الخلاص إلاّ الجهاد الدامي، وقد فتح فقيدنا القسّام الباب فلنلجْه، وإنا لفاعلون، إنها دعوة جديدة أخذت تظهر على ألسنة الناس، ويجهر بها الكُتّاب، لم نكن نعرفها من قبْل، نفخت في الأمة روحًا لم تكن تفطن لها[1].

❑ وقال عجاج نويهض: «سافر القسّام، وكان جواز سفره الأكبر مصحفًا في جيبه وقلبه».

❑ وقال حمدي الحسيني: «إن القسّام عدّل من هذه القضية ما اعوجّ».

❑ وقال صبحي الخضراء: «إن القسّام قضى على الردّة التي أفسدت على البلد اتجاهه».

❑ وقال أحمد الشقيري: «حاول الإنكليز أن يَصِموا القسّام بإشاعات كثيرة، منها: أن الشيوعيين هم الذين استخدموه. كذبوا كذبوا».

❑ وقال أكرم زعيتر: «بالأمس دفنّا القسّام، ودفنّا معه العدل البريطاني. لماذا التمجيد والتأبين ألأنهم ماتوا؟ كلا، بل لأنهم عرفوا كيف يموتون، وأيّ سبيل إلى الجنة يسلكون، القسّام خاطب العاتي بأفصح لغة، وأكرم بيان، فتح في القضية باب الجدّ، ودقّ بيده المضرّجة باب المجد».

(١) «عز الدين القسّام» لشراب (ص٣٠١).

❑ وقالت جريدة الجامعة العربية بتاريخ ٣/ ١/ ١٩٣٦م: «يحتفل أبناء فلسطين بإحياء ذكرى مجاهد من «سوريا الشمالية» سقط شهيداً في سبيل استقلال «سورية الجنوبية»، وليس ذلك فحسب، بل قاد حملة جهاد لعلها الأولى من نوعها في تاريخ الإسلام الحديث في فلسطين وسورية والشرق العربي بأسره».

«يُجمع المؤرخون الذين عاصروا العقد الرابع من القرن العشرين على أن استشهاد القسّام كان المولد، والحياة والقدوة للشعب الفلسطيني في جميع مراحل نضاله، حيث قدّم القسّام إلى الشعب المسلم في فلسطين المثل الأعلى في الجهاد الذي كان ينتظره وألهبت حركته واستشهاده في الشعب الحماس، وصارت مثلاً للجرأة والجهاد العلني ضد الإنكليز. وأجبر أصحاب الاتجاهات السياسية والفكرية على الإقرار بتفوق العمل القسّامي على كل عمل يسبقه، وقوة تأثيره فيما لحقه، ولم يتفق الكُتّاب والمؤرخون على صحة زعامة رجل عمل في الحقل الوطني كما اتفقوا على استحقاق القسّام لقب الزعيم والقائد[1].

❑ وقال أكرم زعيتر في رسالته إلى المندوب السامي في ١٩/ ٤/ ١٩٣٦م: «إن شخصاً كالشيخ عز الدين القسّام لا ينتمي إلى عائلة كبيرة، ولا يمت بصلة إلى الزعامات الحكومية، ولم يرشح نفسه لكرسيّ من كراسيها، يتمتع برعاية وتقديس واحترام لا يحلم بمثله أكبر زعيم».

❑ وقال «عجاج نويهض» يصف حال فلسطين بعد استشهاد القسّام: «كانت فلسطين تُولد رُوحيًّا ولادة ثانية. صارت صورة القسّام وحواريه كأنها آية نجوم سماوية تضيء، لا فلسطين وحدها، بل الرقعة العربية كلها،

(١) المصدر السابق (ص٣٠٩ ـ ٣١٠).

اكتسحت نفوس الناس موجة كلها عواصف وزعازع، وزفير كزفير النار. ابن العاشرة استوى في هذه الموجة مع ابن العشرين والثلاثين والأربعين، حتى التسعين فما فوق، النساء أصبحن يحملن الروح القسّامية أشد من الرجال.

❑ وصل تأثير استشهاد القسّام إلى عواصم الأقاليم العربية، وأرسل الدكتور أمين رويحة من بغداد لأكرم زعيتر برقية قال فيها: «لقد أحيا القسّام وإخوانه في نفوسنا الأمل، بعد أن كدنا نفقده، وليتني علمت بعصابتهم قبل الآن، لكنتُ واللّه أوّل من ينضمّ إليهم، فهذا واللّه سبيل الخلاص وَحْدَه».

❑ وقال المؤرخ عمر أبو النصر مؤرخًا ثورة ١٩٣٦م: «إن الثورة لم تبدأ في نيسان سنة ١٩٣٦م، بل بدأت يوم تشييع القسّام، يوم رأينا حيفا تضطرب في موجة حزن، وتجتمع في نعش ميت، وتخرج بأعلامها ورايتها وآلامها وأحزانها ونسائها وشيوخها وشبابها، تضع هذا كله على بضعة أشبار من الأرض استراح إليها بطل، ضحكت أمانيها على فمه، ولم تفطن إلى عبقريته وتضحيته حتى سقط على أرضها صريعًا، عندئذ فَطِنت إلى عظَم ما قام به في سبيلها، وكيف أنه نفخ فيها روحًا لم تكن تفطن لها مِن قبْل. وكذلك جعل اللّه من جثة القسّام الهامدة وطنًا يُشعِر بالحرية، ويعيد للذكرى التضحيات، بل يَا لَهُ من جسدٍ لم يكد الموت يتلقاه حتى أفاض الحياة على هؤلاء الذين يعيشون على الأرض من غير أن يفطن واحدٌ منهم إلى أضواء الحياة».

❑ **قال القسام:**

«إن الصليبية الغربية الإنجليزية، والصهيونية الفاجرة اليهودية، تريد ذبحكم كما ذبحوا الهنود الحمر في أمريكا، تريد إبادتكم أيها المسلمون، حتى يحتلوا أرضكم من الفرات إلى النيل، ويأخذوا القدس، ويستولوا على المدينة المنورة، ويحرقوا قبر الرسول ﷺ، إنهم يريدون اللعب بأمهاتكم

وبناتكم وأخواتكم وتحويلهن إلى خدم وسبايا!!.

يا ويلكم ألا تفهمون؟ رسول اللَّه ﷺ يقول: إذا ديس شبر من أرض المسلمين، فعلى المرأة أن تخرج بغير إذن زوجها[1]، وعلى الولد أن يخرج بغير إذن أبيه، أيها المسلمون ألا تفهمون؟

أيها المؤمنون، فرض اللَّه علينا الجهاد ليحمينا به، ليحمي أرضنا وعرضنا، قال تعالى: ﴿**قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة**﴾ لقد ملأ اليهود بلادكم، ولقد سرقوا أرضكم.

ولما حان الوقت المناسب، صرخ القسام من فوق منبر الاستقلال بألوف المسلمين: «باسم اللَّه نعلن الثورة، سأخرج فورًا إلى الجهاد، لن أعود إلى هذا الجامع إلا بعد طرد الإنجليز واليهود»[2].

وخرج ولم يعد، لا لشيء إلا لأنه سقط شهيدًا».

*** الحمد للَّه الذي شرفني باستشهاد أبي:**

وفي أول مؤتمر نسائي عربي في التاريخ عقد لأجل فلسطين عام ١٩٣٨م وقفت ميمنة ابنة الشهيد عز الدين القسام خطيبة في وفود النساء، وحدث في أثناء إلقائها الخطاب أن غلبها التأثر، وبدرت منها بادرة إغماءة، وكان ذلك التأثر البالغ، يبدو جليًّا على العموم، دموعًا أو تصفيقًا، فأجلست، وأحضر الماء لرشه على وجهها وسارعت السيدة ساذج نصار، فتناولت الخطاب، وراحت تكمله بإلقاء موفق، ولكن لم تكد تلقي فقرات منه، حتى نهضت ميمنة، واستعادت وعيها، وتناولت الخطاب في عاصفة

(١) هذا في جهاد فرض العين. ليس هذا بحديث، ولكن هذا ما فهمه أهل العلم من النصوص الآمرة بالجهاد إذا أصبح فرض عين.. حين يداهم العدو بلدة بعينها فيصير الجهاد فرض عين على أهل تلك البلدة.

(٢) «الإسلام وحركات التحرير العربية» (ص٢١٠).

من التصفيق، واستأنفت إلقاءه ومما جاء فيه:

«هل تسمحن أن تتكلم عربية يا سيداتي، أبوها شيخ جليل، وعالم من علماء الدين، له أنصار وتلاميذ، ألف منهم عصبة كريمة مجاهدة، ومضى بهم إلى أحراش يعبد وروابي جنين.

وهناك وقف في مواجهة جيش الظالمين، وهتف بإخوانه:

اللَّه أكبر، اللَّه أكبر. ثباتًا ثباتًا موتوا في سبيل فلسطين، وما هي إلا ساعة حتى كان أبي وملاذي، الشيخ عز الدين القسام، صريع الظلم والعدوان يخضب دمه عمامته البيضاء، ويسقي شجرة الاستقلال في ثرى فلسطين، وقال التاريخ: عز الدين أول شهيد في الثورة، دق باب الحرية بيده المخضبة بالدماء، فكان استشهاده أستاذًا في الفداء، أما طلابه ومريدوه فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً.

نعم، منهم من خاض الغمرات وعشي المعامع، واستبسل في الوقائع، وهو لا يزال في الجبال، والوهاد، في المغاور والكهوف، لم يلق سلاحه، ولم يستسلم، حتى تنجو فلسطين من كيد الكائدين.

أما أنا فلست أقول سوى: الحمد للَّه، ثم الحمد للَّه الذي شرفني باستشهاد أبي، وأعزني بموته، ولم يذلني بهوان وطني واستسلام أمتي»[1].

❑ وقال الشاعر عبدالرحيم محمود:

حفي اللسان وجفّت الأقلام
والحالُ حالٌ والكلام كلامُ
إني رأيتُ الحقَّ فَصْل خطابه
يتلوهُ فينا الفيصل الصمصامُ

(١) «عز الدين القسّام» لعوني العبيدي (ص٨٨ ـ ٩٠).

اصهـر بنـارك غُـل عُنْقـك ينصـهـرْ
وعلى الجمـاجـم تركـزُ الأعـلامُ
وأقـم على الأشـلاء صَـرْحَك إنمـا
من فوقهـا تُبنى العُـلا وتُـقـامُ
وخـذ الحقـوق إليك لا تَسْتَجْدِهـا
إن الأُلي سـلبـوا الحقـوقِ لئـامُ
هـذي طريقـك للحيـاة فـلا تَـزغْ
قـد سـارهـا من قبلك «القسّـام»
ذاك الـذي هـجـر الكـلام لفَتْـكَةٍ
بِـكْرٍ وهـلْ فـكَّ القيـودَ كـلامُ؟

*** هذا عزّ الدين فماذا قال الساسة:**

«في سنة ١٩١٩م جاءت إلى اللاذقية لجنة من الأمريكيين لاستفتاء الناس في شأن مصيرهم، واختيار دولة تكون وصية عليهم فشخص وفد من جبلة لمقابلتها، وكان الشيخ من أعضائه، وعندما سُئل عن رأيه جهر بالقول: لا وصاية، ولا حماية، فقال رئيس اللجنة: نعتقد أنكم لا تستطيعون إدارة أنفسكم، وحماية بلادكم، فردّ الشيخ قائلاً:

«إننا نستطيع، وليس غيرنا أقدر منا على ذلك، ولدينا قوّة لا يملكها سوانا»[1].

وأخرج المصحف من جيبه وقال: هذه قوّتنا».

❑ وبعد ستة أيام من موت القسّام اجتمع ممثلوا الأحزاب السياسية مع

(١) «عز الدين القسّام» لشراب (ص ٣٧٠).

المندوب السامي وقدّموا له مذكرة جاء فيها: «إنهم إذا لم يتلقَوْا جوابًا عن مذكرتهم، يكونُ مُرضيًا فإنهم سيفقدون كل ما يملكونه من نفوذٍ على أتباعهم، وعندئذ تسود الآراء المتطرّفة غير المسؤولة، وتتدهور الحالة سريعًا»[1].

فجعلوا الخوف على النفوذ والمراكز دافعًا لتحقيق المطالب، وجعلوا إعلان الجهاد بالسلاح سلوكًا متطرفًا!!

*** شَنْشِنة أعرفها من أخزم[2] :**

قد أعاد التاريخ نفسه بعد ستين عامًا، فسَرَت هذه «الشَّنْشِنة» من أخزم إلى أولاده، فما زلنا نسمع العبارة نفسها من المفاوضين والرؤساء، والقوّاد «إذا لم تعطونا ـ الأقل من القليل ـ ساد المتطرفين والإرهابيون» فعدَّ أبناء أخزم المطالبة بفلسطين كلها تطرفًا وإرهابًا.

* * *

(١) المصدر السابق (ص٣١٤).

(٢) مثل عربي. والشنشنة: الطبيعة والسجيّة، وكان أخزم عاقًّا لأبيه، فمات وترك بنين عقّوا جدّهم وضربوه، فقال الجدّ ذلك.

من بلد الرشيد بلاد الرافدين: دجلة والفرات

كان الشيخ الزهاوي

*** العلاّمة المجاهد الشيخ أمجد الزهاوي شيخ علماء العراق المعاصرين:**
(١٣٠٠ ـ ١٣٨٧هـ)

أيام الاحتلال الإنجليزي للعراق قامت الثورة عليهم، وكان الشيخ ضاري ـ رحمه اللّه ـ شيخ مشايخ عشائر زوبع في لواء الدليم خصمًا سياسيًّا بارزاً للإنجليز، وهو ـ رحمه اللّه ـ على جانب من الإيمان والشجاعة في الجهاد ضد الإنجليز حتى في معارك الكويت الضارية إلى جانب الجيش العثماني المسلم، وهي معارك ما يزال يئن من وطأتها تاريخ الحرب البريطانية حيث أسر فيها الجنرال الإنكليزي «طاوزند» وبعد تغلّب الإنكليز وسيطرتهم على العراق عيّنوا إنكليزيًّا وقحًا شرسًا، خبيثًا مجرمًا حاكمًا للواء الدليم مستقر الشيخ ضاري وعشائره الشجاعة المجاهدة وهو الكولونيل «ليجمن».

وفي أول لقاء بين الشيخ ضاري ـ رحمه اللّه ـ وهذا الإنكليزي المجرم القذر التفت «لجمن» إلى الشيخ ضاري وبادره بقوله: ها.. شيخ ضاري. أين أصحابك الأتراك؟

فقال الشيخ: لا أدري فقد ذهبوا حيث ذهبوا.

فقال لجمن: لا تدري؟ أنا أعلمك بخبرهم.. لقد تركناهم كالأرانب بين الشجر. وسكت الجميع.

وبعد ذلك أخذ لجمن يزور الشيخ ضاري في مضيفه وكان يحرص أن يسرد على مسامع الحاضرين قصص غزواته الشجاعة وكيف كان يذبح المتمردين العرب بشراهة وقوة وتبجح، وهم الثائرون المجاهدون ضد الإنكليز

ـ يغيظ بذلك الشيخ ضاري ومن كان في مجلسه.

❑ وفي إحدى هذه الزيارات برزت عزة المؤمن وأشار إلى ولده البطل الشجاع الشيخ خميس بن ضاري، وبعد خروج هذا الإنكليزي، الشرس القذر أفرغ الشيخ خميس المؤمن الشجاع عدة رصاصات من بندقيته فيه فأراده قتيلاً، يتخبّط في دمه، وقامت قيامة الإنكليز، كيف يُقتل الكولونيل «لجمن» وهو الحجر الأساسي لهذا الاستعمار، وخرج الشيخ ضاري ـ رحمه اللّه ـ إلى سورية ونجا هو وأولاده، وقامت المظاهرات الصاخبة في بغداد وأرجاء العراق تشيد بالشيخ ضاري وبوطنيته وشجاعته، ومما كانوا يهتفون به «هزّ ضاري لندن وأبكاها» ولكن مؤامرات الإنكليز استمرت تلاحق الشيخ ضاري حيث استطاعوا بواسطة سائق سيارة أرمني جاسوس عندهم أن يخدع الشيخ ويحمله إلى بغداد بسيارته، وكان مريضًا فأدخلوه المستشفى وحاكموه، وطلبوا له المحامي حسب أنظمتهم فأبى الكثيرون وتقدّم المؤمن الصادق الشيخ أمجد الزهـاوي المحامي الحرّ وتولى الدفاع عن الشيخ ضاري ولم يبال بالإنجليز ولا بأذناب الإنكليز. وهذا أحد المواقف الشجاعة التي يذكرها التاريخ العراقي لشيخ العراق وعالمه المجاهد الشيخ أمجد الزهاوي ـ رحمه اللّه ـ وأسكنه فسيح جنّاته[1].

* * *

(١) انظر «العلامة المجاهد الشيخ أمجد الزهاوي» لمحمد محمود الصوّاف ص(١٣ ـ ١٥) طبع دار الاعتصام.

*** إرادة اللَّه فوق إرادة الملك:**

❑ يقول الشيخ محمد محمود الصوّاف:

«وموقف آخر ذكره لي فضيلة الشيخ عبدالقادر حتاتة ـ رحمه اللَّه ـ خطيب مسجد الإمام أبي حنيفة النعمان في الأعظمية والرجل الصالح الكريم، قال لي ـ ونحن نتحدث عن قوة الشيخ في الصراحة في الحق ـ:

لقد طلبوا أمرًا من الشيخ أمجد أرادته الحكومة فأبى وهو رئيس في مجلس التمييز الشرعي؛ لأن الأمر الذي طُلب منه مخالف للشريعة، وأخيرًا ذهب إليه مسئول كبير وبلّغه رغبة الملك فيصل الأول بذلك فقال الشيخ: «إرادة اللَّه فوق إرادة الملك» ورفض الطلب[1].

*** الشيخ الزهاوي يراسل ملوك المسلمين ورؤساءهم مطالبًا لهم بتطبيق شرع اللَّه:**

كانت أولى هذه الرسائل والمذكرات رسالته إلى الملك محمد الخامس ملك المملكة المغربية وسلّمها له بيده عند لقائه به هو والشيخ محمد الصواف في قصر سلطانه في المدينة المنورة في يوم ٢٦ رجب سنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٤/ ١/ ١٩٦٠م وهذا نصّها:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

حضرة الملك المعظم محمد الخامس ملك المغرب أسعده اللَّه وأسعد به المسلمين.

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته وبعد:

إن الواجب اليوم على كل مسلم ومسلمة أن يفكر في الحالة الراهنة

(١) المصدر السابق ص(١٥).

ومصير الإسلام فإن الجيل الحاضر قد انتشرت فيه الردة والداعون إليها في عمل مستديم وتعاون على محو الإسلام وهو الآن جار على حسب خططهم في كافة البلاد الإسلامية فلا بد من صيحة بالمسلمين لينتبهوا أمام هذا التيار الجارف إن المسئولية عن سير الحالة أصبحت عامة ولكنها درجات أولاً تقع على عاتق الأمراء ثم على العلماء، ثم على قادة الرأي والرؤساء، ثم على كافة المسلمين. فحماية الدين والدفاع عنه لم تكلف به الملائكة بل نحن المكلفون به فعلى قدر ما ينكب المسلمون في دينهم تعظم عقوبة المتقاعدين عن نصرته. أما المسارع إلى نصرته فإن اللَّه آخذ بيده وناصره لا محالة. وقد كفل ذلك بقوله عز من قائل: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ واللَّه لا يخلف الميعاد.

إن الذي يجب البداءة به من أمراء المسلمين بسرعة فائقة وعزيمة صادقة.

أولاً: إشغال المراكز الحساسة عسكرية أو إدارية بالأقوياء من المؤمنين الصادقين ولا تخلو البقاع منهم ولا يشترط فيهم أن يكونوا خريجي مدارس بل اجتناب هؤلاء أولى فإن أعاظم رجال التاريخ لم يستصحبوا في أعمالهم العظيمة سوى مقدرتهم الفطرية ومعلوماتهم من أدوار التجارب التي تمر بهم في أعمالهم.

ثانيًا: الحكم بموجب الشريعة الإسلامية وإلغاء القوانين التي هي أحكام جاهلية وأن يعين للقضاء رجال الدين.

أن المتجددين يزعمون أن ليس في الأحكام الشرعية كفاية وقد كذبوا فإن القوانين الغربية لا تقاربها في الدقة والعدالة علاوة على أن الشعب يدين بحقيتها فهو قد ارتضاها بصفته مسلمًا وأعدل حكم في نظر الطرفين ما يرتضيانه ويعتقدان عدالته لكن المتجددين يستنكفون من الشرائع ومن كل قديم وذلك كفر مضاعف وفيهم تفسير الآية الكريمة ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ**

اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

إن القوانين المدنية والجزائية إنما تراد لنتائجها وليس في الدنيا بقعة أرض هي آمن من البلاد السعودية بفضل تطبيقهم للشريعة والدعاوى المدنية تحسم فيها في أوجز وقت والطرفان يرضيان بالحكم ويعتبرانه عدلاً. وأفضل الأحكام ما له هذه النتائج.

إن تسليم الإدارة لغير المعروفين بالديانة متعبة للملوك؛ لأن همهم أن يكيدوا صاحب السلطة ليتخلصوا من كل قديم وقد قيل: «مقرب أعدائه قاتل نفسه».

ومن الخير العظيم أن تسعوا في حلف إسلامي ينتعش به المسلمون بواسطة بعثة علمية أكون أحدهم أو بغير ذلك من التدابير التي ترونها. وأظن أنه سيستجيب لهذا الحلف ملك ليبيا وملك السعودية وملك الأردن وغيرهم ممن كتبت لهم السعادة وسيكون هذا الحلف الإسلامي الخالص مباركًا وحصنًا للإسلام واللَّه الموفق.

محمد محمود الصواف
من علماء العراق وعضو المكتب
الدائم للمؤتمر الإسلامي بالقدس

أمجد الزهاوي
رئيس رابطة العلماء في العراق

يقول الشيخ محمد الصوّاف في كتابه عن «الشيخ أمجد الزهاوي» ص(١٣٧ ـ ١٥٤): في أوائل شهر رجب سنة ١٣٧٩هـ تركت دمشق متوجهًا إلى المدينة المنورة لألتحق بشيخنا وأستاذنا أمجد الزهاوي ـ رحمه اللَّه، وهناك سكنَّا في غرفة واحدة قريبة من مسجد النبي صلوات اللَّه وسلامه عليه. وبعد بضعة أيام رأينا أن نواصل الجهود والعمل ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. ثم قررنا أن نرفع مذكرات ونداءات للملوك والرؤساء لعل اللَّه عز وجل أن ينفع بها، ونكون قد أدينا بعض واجب الدعوة والتبليغ. وإن كنا في هجرة وبعد عن وطننا وبلادنا. فالوطن الإسلامي بفضل اللَّه كله وطننا، وهذه المدينة المنورة هي دار الهجرة والمهاجرين، ومنها انطلق النور وانطلقت الدعوة، وانطلقت جيوش الفتح تحمل النور والهداية للعالمين.

وبعد قرارنا هذا تفرغ الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ لكتابة هذه المذكرات، وبعد الانتهاء منها توجهنا إلى جدة، وقابلنا سفير ليبيا، وسلمناه مذكرة للملك المؤمن محمد السنوسي ـ رحمه اللَّه. وكذا قابلنا سفراء باكستان والسودان ومصر، والأردن والمغرب، وتونس والجزائر وغيرهم من سفراء الدول الإسلامية حيث حملناهم الأمانة وسلمانهم الرسائل ليبلغوها كل إلى مرجعه=٣ ودولته.

أما رسالة الملك سعود ـ رحمه اللَّه ـ فلم يكن في جدة فأخرناها لنسلمها له باليد. ثم عدنا إلى المدينة المنورة بعد أن مكثنا في جدة قرابة عشرة أيام.

رسالة الملك سعود

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الجلالة الملك سعود المعظم أيده اللَّه سبحانه وتعالى بما

يؤيد به أولياءه.

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

إن اللَّه عز وجل قد استودعكم إمارة المسلمين وإن لهذه الوديعة لا سيما في هذه الظروف شأنًا عظيمًا لا يقدر قدرها إلا العالمون فالجو مظلم من جميع الأرجاء وقد أحاطت بنا علل قتالة من إلحاد وبلشفة تتدفق من كل صوب كالسيل الجارف، واليهود على مقربة من الأماكن المقدسة وقد كمنت فيها عصارة قوة الغربيين لجعلها مركزًا لاحتلالهم البلاد الإسلامية عند زوال التوازن بين الكتلات المتقابلة، أو تقسيمها عند التقارب بينهما ويدل هذا الكمون بوضوح اندفاع اليهود على الجيش المصري بصورة لم تمكنه من لم شعثه في الهزيمة فأحس الروس أنه بعد بضعة أيام ستصبح أفريقيا بيد الغربيين غنيمة باردة دون عناء فهدد بإعلان الحرب إذا لم ينسحبوا فأرغموا على الانسحاب واكلين الأمر إلى فرصة أخرى ومع كل ذلك لا يجوز لنا وليس من المعقول الاستسلام لليأس فقد قال النبي ﷺ: «**من قال هلك الناس فهو أهلكهم**»، أي: بإدخاله اليأس على قلوبهم وكيف يساورنا اليأس واللَّه عز من قائل يقول: ﴿**إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾، ويقول: ﴿**وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾، ولكن لا ينبغي لنا أن نأمل النصر الموعود إلا بعد إحكام الشرط المشروط، وذلك نصرة اللَّه سبحانه وتعالى باتباع أوامره فقد جرت سنته في الكون بترتيب المسببات على الأسباب فمن لم يزرع لم يحصد ولكن من زرع القليل حسب مكنته ربما يحصل على كثير لم يكن في الحسبان بفضل اللَّه وبركاته، فعلينا الإقبال على ما أمرنا اللَّه سبحانه وتعالى به بكل وسعنا على التفكير وإعداد القوة وليكتب العامل منا على باب غرفة عمله الحديث الشريف «من استوى يوماه فهو مغبون»[1]، فإذا رآنا اللَّه

(١) حديث لا يصح.

سبحانه وتعالى قد صدقنا الجد ومحضنا النصح للّه ولرسوله وللمؤمنين عمنا برحمته كما قال فيمن امتحنهم من الأمم السابقة ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾.

«ما تجب معالجته بادئ ذي بدء»

أرى أن أول ما يجب عمله نظرًا للحالة الراهنة السعي في إنشاء حلف إسلامي بدلاً من الرابطة العربية التي تذكرنا بعهود الغساسنة والمناذرة حين كانوا يسامون الخسف والهوان تحت سيادة المستعمرين.

وإشادة بذكر ملوك الإسلام التي دانت لهم بقاع الأرض وكانت لهم السيادة على الربع المسكون كما يقول ابن حزم واستمر لهم ذلك الأجيال المتطاولة إلى عهد ليس ببعيد أن هذا الحلف يجعل المتحالفين كتلة واحدة في الدفاع عن الإسلام، ولكي تسري فيه الروح الإسلامية ويكون له مفعول قوي يشترط على الداخل فيه أن يلتزم أحكام الشرع ويتقيد بشعائر الدين حتى يستثار بذلك شعور المؤمنين فتتعالى أصواتهم وتتجاوب من كل مكان ويعلم العالم الإسلامي أن اللّه سبحانه وتعالى بعث إليهم من يجدد دينهم فيبتسم لهم الأمل وينشطون من الخمول وتصبح لهم نفوس فعالة قديرة على محافظة دينهم وحراسة زعمائهم الذين يتولون تنظيم سعادتهم، وهكذا على مجرى الأيام تزداد فيهم عزيمة الدفاع والشعور بالواجب الديني فتسموا نفوسهم كما سمت نفوس آبائهم بالسلاح المعنوي وهو يفوق السلاح المادي بما لا يتقارب وعليه الاعتماد عند الشدائد ويقول علماء الاجتماع: إن توسع الأمم يمتد على قدر تعصبهم للمبدأ الذي يوحدهم وانتصارهم له ومن هنا نعلم أن انتشار الشيوعية واستطارتها في الأقطار ذلك لاستماتتهم حول مبدأهم والمسلمون أشد انتصارًا للإسلام من الشيوعية لمبدئهم.

ولكن أمراءهم أساءوا إليهم حين جردوهم من مبدئهم الحقيقي فأماتوا

فيهم هذه الغريزة واستبدلوا بها القومية والوطنية التي لا يتحسس بها المسلمون تلوكها ألسنتهم إطاعة لأمرائهم وليس لقلوبهم منها شيء.

حتى صاروا أجسامًا بلا أرواح، لا يثبتون أمام العواصف، أما وقوف الأتراك في الحرب العالمية الأولى حين تألبت عليهم وعلى حلفائهم الغربيين بأسلحتها الفتاكة حتى استسلمت لهم ألمانيا بلا قيد ولا شرط وقد كانت أكبر دولة حربية واضمحلت النمسا التي كانت أم الأوربيين ذلك لأنهم كانوا تربية المرحوم[1] السلطان عبدالحميد وقد كان مؤمنًا فكانوا يذكرون اللَّه سبحانه وتعالى عند هجماتهم وضد أعدائهم فلم يرزءوا من بلادهم شيئًا وذلك بفضل ـ ما كانوا عليه من الإيمان، أما الآن وقد شطت بهم أمراء السوء وأنسوهم الذكر فلا يعرف مصيرهم إذا عصفت بهم العواصف.

«كيفية تنظيم الحلف»

إذا كان للرأى العالي فيه جبهة فهناك التوفيق إن شاء اللَّه وإن أمرنا بمعالجة المقترحات فأنا أذهب مع الصواف ومن أردتم أن يصحبنا بكتاب منكم إلى من تؤمل منه الإجابة أولاً فنعرض عليه هذا الرأي وندعمه بما يفتح اللَّه علينا من البينات فإذا اقتنع بهذا الرأي حصلنا منه على كتاب معتمد يكون معنا للذهاب إلى آخر وهكذا إلى أن يتم عدد الذين يرغبون في الدخول بالحلف أولاً فيصبح بسلاحه المادي والمعنوي وعزائم ملوكه حصنًا حصينًا ومعقلاً جليلاً مهابًا تستشرف له النفوس ويأوي إليه الملوك للاعتصام به عند النوازل وما أقربها نظراً لما تنذر به الأحوال المشاهدة، فرحم اللَّه سبحانه من أسس هذا البنيان له ولمن استرعاه اللَّه وهو سائر بهم إلى ساحل السلام الشاطئ الأيمن المبارك فطوبى له ولمن سار في ركابه واللَّه ولي التوفيق.

أمجد الزهاوي

---

(١) لا يجوز الجزم بالرحمة ودخول الجنة لأحد ولا نقطع بذلك إلا لمن سمّاه الشارع.

سلمتها بيد الملك سعود في طريق الطائف عند افتتاح الطريق الجديد طريق جبل الهدى.

٢٨ رمضان سنة ١٣٨٠ ـ محمد الصواف.

رسالة الملك إدريس السّنوسي

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة ملك ليبيا المعظم أسعده الله وأسعد به المسلمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فإن الحالة الراهنة توجب على كل مسلم ومسلمة التفكير والتعاون على مقاومة الإلحاد والإباحية والازدراء بالشرائع السماوية في جميع الأقطار وهي سائرة على الخطط المرسومة من جماعات تعاونت علي كيد الإسلام للتخلص منه ومن كل قديم وعلى نسبة خطورة الحالة تقع المسئولية على عاتق كل مسلم ومسلمة على اختلاف درجاتهم فيها.

فأولاً: على الأمراء؛ لأن القيادة في أيديهم ويملكون من توجيه الأمة ما لا يملك غيرهم، والمؤاخذة على قدر المقدرة، وقد كتب النبي ﷺ لعظيم الروم أنه إذا لم يستجب إلى الإيمان فإن عليه إثم الأريسيين.

وثانيًا: العلماء؛ لأنهم المرشدون للأمة ومسموعو الكلمة فيهم وبصلاحهم تصلح الأمة.

وثالثًا: أولو الرأي والأشراف فلهم من نفوذ الكلمة ما ليس لغيرهم.

ورابعًا: العامة ولن يعفى المسئولية أحد من المكلفين.

لهذا نرى أن نستنجد بكم لمكانتكم ومكانة أسلافكم من الدين، فقد

جمعتم بين الحكم والعلم والإرشاد، والتدابير العاجلة التي يجب المسارعة إليها هي:

١ ـ إعلان إجراء الأحكام الشرعية في البلاد فإن مركز الإسلام يتقوى بذلك وبه يحصل الوئام بين الراعي والرعية وخير ما تحكم به الأمة الأحكام التي تعتقد عدالتها، والشعب المسلم لا يرى العدالة إلاَّ فيها، على أن القوانين إنما تراد لنتائجها وهي الأمن وفصل الدعاوى بسرعة وبصورة يرتضيها الطرفان، وذلك ظاهر من تطبيق الأحكام الشرعية في البلاد السعودية فليس في الدنيا بقعة أرض تماثلها في الأمن بفضل تطبيق الشريعة فيها كما أن المسائل الحقوقية تفصل بكل سرعة ويتلقاها المتخاصمان بالقبول.

٢ ـ إشغال المناصب العالية والحساسة بالمعروفين بالديانة والتضحية في سبيل الإسلام من أولي القوة دون انتقائهم من خريجي الجامعات المشبعة أرواحهم بما لا يوافق نفوسنا. فإن قوة الإرادة بقوة الروح وما عليه التجارب أثناء السير في الأعمال وهو المعروف عن عظماء الرجال المخلدة أعمالهم في صفحات التاريخ ولم يؤثر على أحدهم استمداده العون من الكتب، فقوة الإرادة بالروح القوية والعزيمة الصادقة والعقل الفطري المتكامل بممارسة الأعمال.

٣ ـ تقريب العلماء المشهورين بالصلاح والإكثار من الاستعانة بهم حتى يتمكنوا من توجيه الناس بالوعظ والإرشاد إلى واجباتهم الدينية التي منها حث الناس على إعداد القوة والالتفاف حول السلطان ومحافظته وتنفيذ أوامره المشروعة كما يأمر به الشرع الشريف؛ لأنه مصدر قوة المسلمين فعليهم محافظته ومؤازرته وعدم الخروج عليه حسب وصية النبي ﷺ فيهم ما لم يروا منهم كفرًا بواحًا.

٤ ـ الإقلال من مدارس المعارف وعدم السماح بامتدادها إلى الأرياف

والسيطرة عليها بأن لا يندس بين رجال التعليم مجهول لا تعرف عدالته وعلى الكتب التي تدرس فيها وإلزام الطلاب بإيفاء شعائر الدين وطرد من يؤنس منه التهاون بها وتوزيع الإدارة فيها إلى رجال مشهورين بالصلاح وإعطائهم الصلاحية التامة في شئون الإدارة لما يجب عمله لمحافظة المدرسة من دخول الآراء الهدامة فيها، فإن مكروبًا واحدًا منها كاف لهدم صرح المملكة والحكم وفي سقوط حكومة المرحوم عبدالحميد في تركيا وفي مصيبة بغداد الحاضرة عبرة لمن اعتبر فالتساهل في ذلك إلقاء النفس في تهلكة الدنيا والآخرة وتعريض المملكة إلى الضياع فلم تؤت الممالك الإسلامية إلا من قبل المدارس «من ها هنا يطلع قرن الشيطان»، ولهذا أرى الأوفق الإقلال من الصفوف النظرية واستبدالها بمدارس صناعية إنتاجية تدر الخير على البلاد.

وفقكم اللّه لسعادة المسلمين وعمر قلبكم بالالتجاء إليه سبحانه وتعالى والتوكل عليه وطرد عنكم الضعف واليأس مهما جابهتكم الخطوب العظام، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، وقال عز من قائل ﴿إن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾...

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

أمجد الزهاوي
رئيس رابطة العلماء في بغداد
ورئيس المؤتمر الإسلامي بالقدس
١١ شعبان ١٣٧٩هـ
٨ يناير ١٩٦٠م

رسالة رئيس جمهورية باكسْتانْ

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب السيادة رئيس جمهورية باكستان المعظم.

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته، وبعد:

فإن ما شاع عنكم من رجاحة العقل وسمو التفكير وقوة الإرادة وحب الإسلام دعاني إلى التعاون معكم في بيان عوامل الانحطاط ووسائل الترقية والرجوع إلى القوة التي لم تفارق المسلمين إلا من عهد قريب حينما أضاع حكامها استقلال الرأي ورفعوا على رءوسهم علم المغلوبية ألا وهو التقليد، فإن الأمة المغلوبة شأنها أن تتشبه بالغالبة.

إن عوامل الغلبة بالدرجة الأولى لا تركز على القوى المادية بل على الأمور المعنوية وذلك بشدة التمسك بالمبدأ الذي يوحدهم والدفاع عنه وقد ذكر علماء الاجتماع أن قوة الحكومة واتساعها على نسبة تعصبها للمبدأ الذي تحتضنه وتمسكها به. وقد تجلى ذلك في الشيوعية فإن قوتها المشاهدة تستمد من تغلغل مادتها في نفوسهم وذلك سر انتشارها واتساعها في أقطار الأرض. إن المسلمين أشد اعتزازاً بدينهم ودفاعًا عنه من الشيوعيين بمبادئهم ولكن في الآونة الأخيرة صار حكامهم ينتزعون منهم هذا المبدأ بوسائل مختلفة مستعيضين عنه بمبادئ القومية والوطنية اتباعًا للغربيين، والمسلمون لا يتحمسون لهذه المبادئ الاصطناعية التي لا تتعدى ألسنتهم وليس لها أي مفعول في قلوبهم فقد سلبوهم المبدأ الحقيقي دون أن يحل محله آخر فصاروا أجسامًا خاوية وأفرادًا متفرقين لا تجمعهم جامعة فكان ضياعهم في أقطار الأرض وفقدانهم عزهم أمرًا طبيعيًا حتى قال بعض من لم ينظر في التاريخ من الغربيين في تعليل ما أصيب به المسلمون من الضعف والهوان: قد غرَّ

هؤلاء دينهم حيث يأمرهم بالتوكل على اللّه في أمورهم وترك الوسائل والأخذ بالأسباب ونظرة بسيطة في التاريخ ترينا قصر نظر هؤلاء حيث لم يمتد إلى ما قبل الحالة الراهنة حتى يروا سيادة المسلمين على ربع المسكون طيلة القرون الماضية وإذا أصابتهم مغلوبية في بعض الأقطار فإنما هي موضعية كنكبة الأندلس في الوقت الذي سقطت فيه إمبراطورية الروم بسقوط القسطنطينية وكانت السيادة في أوربا آنئذ للعثمانيين وكذلك فتنة التتار التي لم تقف أمامها دول الغرب قد صدت من قبل عساكر مصر والشام وبعد ذلك دخلوا في الإسلام وكيف تصح نسبة ترك الأسباب لهم وهم يقرأون في القرآن ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾.

فقد أمرهم القرآن بإعداد القوة بمنتهى الوسع وما بعد المنتهى غاية، والتاريخ يذكر أن معداتهم الحربية في عامة حروبهم كانت تتفوق على معدات خصومهم وإنما السبب الحقيقي ما ذكرنا من إضعاف المبدأ الذي يحاربون من أجله وذلك الإسلام وهو سلاحهم المعنوي، وهو أقوى من كل سلاح مادي.

إن الجيش العثماني كان في الحرب العالمية الأولى مربىّ تربية إسلامية فقد كان تربية المرحوم السلطان عبدالحميد وهو كان مسلمًا صحيح الإسلام، فاستطاع هذا الجيش أن يقف بوجه الحلفاء وحده حينما سلمت ألمانيا دون قيد أو شرط نزولاً على حكم الأعداء واضمحلت النمسا غير أن العثمانيين بقوا في النضال ست سنوات ولم يخسروا من بلادهم سوى البلاد العربية التي خرج عليهم زعماؤهم بإغراء الأعداء فالرجوع إلى القوة هو الرجوع إلى الإسلام وذلك بنشر تعاليمه وتطبيق أحكامه وحمايته عن المبادئ المناقضة له. فإذا قامت بذلك دولة من دول الإسلام لا سيما إذا كانت مثل دولتكم في اتساعها وكثرة الأفراد ووفرة الإمكانيات فيها من كل ما تتطلبه أسباب الغلبة كان النجاح مضمونًا ورجعت القوة الإسلامية كما كانت وعاد النصر حليفهم

وهكذا يعلو شأنهم حتى يصبحوا كتلة ثالثة في العالم الحاضر. فالمسلمون اليوم وعددهم نحو من خمسمائة مليون في انتظار ذلك الزعيم المسلم الحق الذي يودعه اللَّه أمر هذه الأمة فينصب لها علمًا تلتفت حوله حتى تحتل به مكانتها الأولى.

إن هذا الانقلاب الخطير لا يكلف أمرًا عظيمًا فإن قوامه بأربعة أمور:

١ ـ أن يعلن إجراء الأحكام الشرعية في الدولة وإظهار الشعائر الإسلامية بكل معناها.

٢ ـ أن توسد المراكز العليا للمعروفين بالديانة والنصح للمسلمين من أولي القوة.

٣ ـ أن توسع دائرة الوعظ والإرشاد سيما بين الجنود ومدارس المعارف حتى يتكون في الدولة جيل صالح يقوى على مجابهة الأخطار.

٤ ـ أن تكون مدارس المعارف تحت مراقبة تامة في انتخاب المدرسين والدروس وإلزام الطلاب بإيفاء واجباتهم الدينية.

إن إنجاز هذه الأربع في غاية اليسر. أما الأولى فإن الشعب مسلم لا يعتقد شيئًا من القوانين الوضعية يسامي أحكام الشريعة وبصفته مسلمًا راضيًا بها ومعتقدًا بصحتها وضحى في سبيلها، وأفضل الأحكام هي التي يرتضيها الطرفان المتحاكمان. هذا من الوجهة النظرية، أما من الوجهة العملية فإن لها أثرًا عظيمًا في الغاية التي تراد من أجلها القوانين فإنها إنما تراد لنتائجها وأثر الأحكام الشرعية في المملكة السعودية ظاهر للعيان فلا توجد في الأرض بقعة تماثلها في الأمن وسرعة الفصل في القضايا وذلك بفضل تطبيق الأحكام الشرعية فيها فلا تتكدس فيها الإضبارات فتشغل الحكام عن سرعة الإنجاز ويتمتع الظالم بظلمه مدة بقاء الدعوى تحت نظر الحكام فيتكاثر الظلم لتلك الغاية. وأما البواقي فإنها من حق تصرفات الحكام الاعتيادية، وقد كان في

السابق يمولها المتجددون الذين لا يرتاحون لكل قديم ويحتجون بمعارضة حلفائنا للرجوع لأحكام الشرع كما كانت عليه أسلافنا.

أما الآن فإن خطر الشيوعية قد جمع بيننا وأزال تلك الفوارق فإن بناء التحالف على القوة ولن تتجلى قوة المسلمين إلا باتباع مبادئهم فأي غرض للحليف في إضعاف قوة حليفه التي عليها بنيت المحالفة في ظروف خطيرة فإن غلطة واحدة ربما أدت إلى زوال الجميع من خارطة العالم إن هذا لا يتصور أن يقدم عليه عاقل. إن الخطر قد أحاط بالعالم وإننا الآن في الخط الثالث والساقط في الحرب القادمة لا يرجى له قيام وإنا لنأمل أن تسيروا بالمسلمين لا بباكستان وحدها إلى شاطئ السلامة الشاطئ الأيمن المبارك، فإن في الأوساط الإسلامية والتطورات الاجتماعية استعداداً لذلك ولا بد أن ينبثق نور السعادة من نقطة فطوبى لتلك النقطة التي تكون منبعًا لسعادة العالم.

ونحن ندعو اللَّه سبحانه وتعالى أن تكون تلك النقطة ولا يحتاج الأمر إلا إلى إرادة قوية وعزيمة صادقة وذلك معهود فيكم فما الإصلاحات التي قمتم بها هي الغاية نظرًا للعزيمة القوية التي منحكم اللَّه إياها بل نأمل أن تكون هذه في طريق الغاية التي هي أسس من كل ما خلده التاريخ لعظماء الرجال، فامضوا على بركة اللَّه فستخدمكم الصدف وتنقاد لكم الأمور ويحالفكم النصر، قال اللَّه سبحانه وتعالى ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ لا يخلف اللَّه وعده.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

أمجد الزهاوي
رئيس المؤتمر الإسلامي بالقدس
ورئيس رابطة العلماء في بغداد
١٠ شعبان ١٣٧٩هـ
٧ يناير ١٩٦٠م

* باكستان في نظر الزهاوي:

في حديث للشيخ الزهاوي مع مجلة الأخوة الإسلامية في عددها ٢١ الصادر في بغداد ٢٥ من ذي الحجة سنة ١٣٧٣ الموافق ٤ أيلول سنة ١٩٥٣ سُئِل ـ رحمه اللَّه ـ: ما رأيكم في وضع الباكستان الحاضر؟ أجاب سماحته:

«إن قيام دولة الباكستان وانفصالها عن الهند كان على أساس ديني؛ لأن الأكثرية الساحقة من سكان الباكستان من المسلمين ولذا فقد كان من المنتظر من الحكومة الباكستانية أن ترعى الإسلام رعاية تامة وتؤازر كل حركة إسلامية صحيحة تهدف لإعلاء الإسلام ونصرة المسلمين، ولكن الذي فهمناه وأيّدته الوقائع أن الحكومة قد تنكّرت لزعماء الحركة الباكستانية بل تنكّرت للإسلام وهذا خطر عظيم إذا كانت الأمة في جانب والحكومة في جانب آخر، ويعظم هذا الخطر عند الشدائد والمحن. ولا شك أن الباكستانيين يعلمون أن انفصالهم عن الهند كان على أساس ديني وإلاّ فهم قوم واحد فإذا تنكرت الحكومة للإسلام ازداد تأثير المسلمين في الباكستان ونقموا على الحكومة وامتلأوا غيظًا وحقدًا لمن تنكّر للإسلام ولمن فصلهم عن أبناء جنسهم.

نسأل اللَّه أن تتعظ الحكومة الباكستانية وتدرك هذه النقطة الحسّاسة فترعى الإسلام وعلماء الحركات الإسلامية الذي يعلم اللَّه وتُشهدُ العالم أن الباكستان لو لم يكن الإسلام لما وُجِدت دولة في القارة الهندية يُطلق عليها الباكستان.

إني لأحذر الحكومة الباكستانية من الاستمرار في غيّها خشية النقمة عليها من مسلمي الباكستان الذين يقرأون الحديث الشريف **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»** سدّد اللَّه أولي الأمر إلى الطريقة المثلى التي تحفظ كيان دولة الباكستان لأن الاحتفاظ بالشيء أصعب من الحصول عليه»[1].

(١) المصدر السابق ص(١٦٨ ـ ١٦٩).

رسالة رئيس جمهورية السودان

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فخامة رئيس جمهورية السودان المحترم.

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته وبعد:

فإن النفوس الكبيرة تجابه المستقبل بالحزم، والأعمال بقوة العزم، وتقابل النعم بالشكر. وقد اختاركم اللّه سبحانه وتعالى لقيادة الأمة السودانية التي هي من خيرة الأمم الإسلامية وجهزكم بما تحتاج إليه القيادة الرشيدة في الصفات كما جهز شعبكم من المناعة بما يصد عنه كل عدوان. فشكر هذه النعم يتم بمقابلة صرف هذه المواهب في سبيل سعادة الشعب بتقوية روح الإيمان وتنميتها في قلوبهم وهو الوضع الطبيعي فيها المحافظ على وحدتها التي هي قوام كيانها وبقائها ومتى فقدته تفرقت بها المبادئ المختلفة وأفقدتها قوتها المعنوية فكانت المغلوبية، وفقد الاستقلال لها محتّمًا والمسئول الأول عن ذلك الذي يرعاها فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته أعاذك اللّه من ذلك.

والسياسة الرشيدة جمع الأمة على ما به سعادتها وهو الإسلام الذي نعتقده وندافع عنه وهو قوتها المعنوية التي هي أمضى من كل سلاح وقد برهنت الحروب السابقة على مفعولها فيهم. تاركون إلى غيره من المبادئ القومية والوطنية التي تنطلق بها ألسنتهم ولا تمر بقلوبهم مغامرة عظيمة في انحلال قوة الأمة التي عليها ترتكز سيادتها.

فالزعيم العظيم هو الذي يحافظ على ما به سعادتها وسيادتها ويجنبها ما به شقاؤها وانحلالها شعوراً بالمسئولية العظيمة الموجهة إليه.

إن حماية الأمة ورعايتها الكافلة لسعادتها وبقاء استقلالها يتم بأربعة أمور:

١ ـ إشغال المراكز الكبيرة الحساسة من عسكرية وإدارية وقضائية بالمشهورين بالديانة والصلاح ولا يقتصر في ذلك على خريجي الجامعات وحملة الشهادات فإن عظماء الرجال الذين خلدت أعمالهم صفحات التاريخ لم يكن لهم سوى العقل الفطري وقوة الإرادة والعلوم التي يكتسبونها من التجارب حين مجابهتهم الأمور الخطيرة.

٢ ـ تقريب العلماء ووضعهم في مراكز مرموقة حتى تحتل الصفة الدينية في المملكة مكانتها اللائقة بها والإكثار من وظائف الوعظ والإرشاد ولا سيما بين الجنود حماة الإسلام. ومدارس المعارف المربية لرجال المستقبل حتى تظهر على المملكة السيادة الدينية فتتبعها الوحدة ومن ثم القوة.

٣ ـ إعلان إجراء الأحكام الشرعية في البلاد فإن الأمة المسلمة تعتز بها ولا ترى أحكامًا تساميها والأسس التي تبنى هي عليها في غاية الدقة والمنطق يحق للمسلمين أن يفتخروا بها على غيرهم كما أن مفعولها فيما توضع القوانين لأجله من الأمن وسرعة إيصال الحقوق إلى مستحقيها يتجلى في البلاد السعودية فليس في الأرض بقعة آمن منها والقضايا الحقوقية تفصل فيها بأسرع وقت على ما يرضى الطرفين المتخاصمين. إلا أن المتجددين الذين سرت فيهم الروح الغربية لا يروق لهم ذلك لمجرد أنه قديم وهم أعداء لكل قديم وإلا فليس لهم من النظريات الحقوقية ما تعرف به مناهجهم في استنكارها سوى أنه لم تكن صياغتها من قبل الغربيين وهكذا نفوس الغربيين تتحكم في نفوسنا حتى إننا لنرفع على رءوسنا علم المغلوبية وهو التقليد في كل مجال حياتنا.

٤ ـ النظر الدقيق في مدارس المعارف فإنها هي التي تكون الرأي العام فيجب أن يكون المدرسون فيها مراقبين أشد المراقبة حتى لا يدخل بينهم من لا تعرف سيرته ونزعته فإن مكروبًا واحدًا كافٍ لإفساد أمة بأسرها كما أن

الكتب التي تدرس يجب أن تكون فنية خالية من الآراء الاجتماعية والعقائد الزائفة. وينتخب المدرسون من المعروفين بقوة الروح والتأثير في الإلقاء فإن الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان. ويستعان على ذلك بمن يختار لهذه المهمة من رجال الإدارة الذين هم على جانب من الصلاح والقدرة ويزودون بصلاحيات واسعة ليتمكنوا من أداء مهمتهم بكل حرية ومع ذلك يقتضي تقليل الصفوف وقصرها على العلوم العملية الإنتاجية وعدم امتدادها إلى الأرياف فإنها مادة الإسلام ومعدن القوة وملجأ صاحب السلطة في قمع أهل الشغب عند ثورتهم فينبغي ترك الأرياف على بساطتهم وفطرتهم مجهزين بالمبادئ الدينية التي منها إيجاب طاعة أولي الأمر ومنع تسرب النظريات الاجتماعية الحديثة إليهم التي هي مظنة التفرقة والاختلافات وقى الله بلادكم منها ووفقكم للعمل لصالح الأمة وأيدكم بنصره فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ فالنصر مضمون لكم عند نصرة الدين والسلام عليكم.

أمجد الزهاوي
رئيس المؤتمر الإسلامي بالقدس
ورئيس رابطة العلماء في بغداد

* مذكرة لبقية الملوك والرؤساء يُرسلها الشيخ الزهاوي:

وهذه المذكرة سُلِّمت بيد السفراء في جدة بعد مقابلتهم والتحدث معهم:

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته:

وبعد فإن الرزية كل الرزية ما أصيب به المسلمون من وافدة الردة التي نشبت جذورها في الأقطار الإسلامية إلى جانب التحلل والخلاعة البالغة التي نزلت بهم إلى مستوى الحيوانات. تلك السحب المظلمة التي أنذر بها النبي ﷺ مبشراً العامل فيها بأجر خمسين رجلاً من الصحابة، إنهم على آثار أهل بدر في العمل على عز الإسلام يا لها من منزلة عالية أكرمنا اللَّه سبحانه وتعالى بها وإنما تراد الحياة لنيل هذه المناصب السامية على قدر أهل العزم تأتي العزائم وقد كانت ملوك المسلمين برها وفاجرها تحمي الديانة عن التجاوز عليها وعمن يخترق حرمتها في النفوس وتصدر في مهام أمور المسلمين عن رأي العلماء، وبذلك حافظوا على السيادة في ربع المسكون إلى عهد قريب حيث أضعف نفوسهم إعجابهم بالغربيين فقلدوهم في كل شئونهم وإنما التقليد علم المغلوبين ومن الاستكانة رفع علم المغلوبين على رءوسنا.

إن مصدر غلبتنا في عصور عزنا سلاحنا المعنوي الذي يدفعنا إلى ساحة القتال ويصحبنا فيها هذا المبدأ الذي كنا نحارب من أجله ذلك الإسلام وغلبة الأقوام وامتداد الملك يكون على نسبة قدسيتهم لمبدأهم والتفافهم حوله فالشيوعية إنما استطارت إلى أقطار متنائية لشدة تعصب القائمين بها وتحزبهم لمبادئها على كون تلك المبادئ مصادمة للعقل ومضادة للطبيعة.

أما الآن فقد هدموا هذا المبدأ الذي عليه محور انتصاراتنا واستبدلوا به مبادئ لا تمت إلى الإسلام بصلة كالقومية، والوطنية فانفصمت عرى الوحدة

ولم يبلغ مفعول المبدأ القلوب فتعاونت علينا ثلاثة عوامل الانقسام وضعف النفوس وعدم الوثوق بالمستقبل، وفي هذه الظروف ترانا في مسئولية عظيمة أمام اللّه سبحانه وتعالى، إذا وقفنا أمام هذه الحوادث صامتين، فقادنا التفكير إلى إنشاء مؤتمر إسلامي يكون محل دعوة للمؤمنين إلى الأعمال التي ترفع شأن الإسلام ورأينا في طريقنا أن نعرض على من نتوسم فيه الإيجابية من ملوك الإسلام فكرة التضامن على هذا المشروع فإن فيه السير بالأمم إلى ساحل السلامة الشاطئ الأيمن المبارك وهم أقدر بإمكانياتهم إلى تكييف شعوبهم بما يؤدي إلى إسعادهم وسيبذل المؤتمر جهوده تحت إشرافها وتوجيهها ولنا الأمل الواسع بأن الذين ترسل إليهم كتبنا من الملوك والرؤساء في هذا الشأن العظيم وهو التضامن على هذا الانقلاب الفكري والأخلاقي الصامت سيقابلوننا بالإجابة المشفوعة بالشكر نظرًا لما نتوسم فيهم من الفطرة على الخير فيكونون مفاتيح للخير مغاليق للشر وعلى مقدار ذلك يتفاوت عظماء الرجال وسيلحق بهم سائر ملوك الإسلام فيكون لهم فضل التقدم على حد قوله ﷺ: «**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**». وباتفاق قادة المسلمين تعود شوكتهم كما كانت، فطوبى لمن يجري ذلك على يديه. واللّه الموفق.

أمجد الزهاوي
رئيس المؤتمر الإسلامي بالقدس
ورئيس رابطة العلماء في بغداد

*** البطل الفذّ أحمد عبدالعزيز.. إذا ذُكِرت فلسطين ذُكِر أحمد عبدالعزيز.. أبرز شخصية عسكرية أنجبتها المعارك على ثرى فلسطين:**

❑ البطل أحمد عبدالعزيز مفخرة الجيش المصري والعسكرية المصرية، وهو الذي تولى قيادة المتطوعين في حروب فلسطين، والتنسيق بينهم وبين الجيش المصري تحركت كتيبة بقيادته في اتجاه بئر سبع، ومنها إلى الخليل، ومنها إلى بيت لحم حيث عسكرت، وهناك دارت معارك كبيرة أمام مستعمرة رامات راحيل.

❑ هذا البطل العظيم الذي لا ينساه تلاميذ من ضباط الجيش المصري، وهو يُلقي عليهم محاضراته القيمة في كلية أركان الحرب، وبطولاته الرائعة التي سجّلها في ميدان الفروسية.. ولا ينساه أهل فلسطين، وهو يسجل صفحات النور في تاريخ فلسطين.. بطلاً مولعًا بالمغامرة، له الجرأة الخارقة، العالم بمقدرته وكفاءته، وعنده اليقين كل اليقين بربه.

أدمى عيون اليهود كثيرًا، وأدخل الفزع الشديد والرعب في قلوبهم من مجرد سماع اسمه.. طبّق في قتاله.

❑ لن ينسى اليهود لأحمد عبدالعزيز معركة كفار ديروم الثالثة فقد أوقع بهم ضربة قاتلة وطبّق البطل حرب العصابات في معركته هذه «وأوقع باليهود في هذه المعركة خسائر فادحة. وبعد نصره الرائع في هذ المعركة، أخذ يضرب المستعمرات بمدفعيته دون أن يهاجمها، ويعترض طريق القوافل المصفحة ويبيدها عن آخرها، حتى أزعج اليهود إزعاجًا شديدًا، وحرّم عليهم التجول في صحراء النقب وكان مقدرًا لهذه الحركة نجاحًا رائعًا لولا أحداث جدّت على الموقف الحربي.

ورأى اللواء أحمد على المواوي قائد الجيش المصري أن يتولى أحمد

عبدالعزيز قيادة منطقة (بئر السبع) ـ على ألا يتجاوزها شمالاً ـ فيدافع بذلك عن مفتاح فلسطين الشرقي، ويوزع قوات العدو بين جبهتين واسعتين، ويحمي ميمنة الجيش المصري من خطر الالتفاف.

وقبل أحمد عبدالعزيز هذا الرأي فجمع قواته واخترق بهم صحراء النقب مارًّا بمستعمرة «العمارة» حيث ضربها بمدفعيته في ١٧ مايو، ودخل بئر السبع حيث قابله السكان مقابلة رائعة. ولم يكد يستقر بها حتى بدأ أول حركاته بضرب مستعمرة (بيت إيشل) الحصينة، ثم شرع في توزيع قوته على هذه المنطقة. فأرسل جزءًا بقيادة البكباشي «زكريا الورداني» ليحتل «العوجة» و«العسلوج» العربيتين. وأبقى جزءًا آخر بقيادة اليوزباشي «محمود عبده» ليتولى الدفاع عن مدينة (بئر السبع) ومنطقتها.

أما هو فقد اتخذ قيادته في المدينة، وأخذ يرسم الخطط لمهاجمة اليهود في كل مكان في الصحراء. وجاء وفد من مدينة الخليل في ١٩ مايو، وقابل أحمد عبدالعزيز والتمس منه إرسال جزء من قواته للاشتراك مع الجيش الأردني في الدفاع عن الخليل وبيت لحم. ووافق أحمد عبدالعزيز، وقرّر الزحف إلى الخليل وفي ٢٠ مايو زحف البطل على رأس قوة صغيرة تاركًا مهمة الدفاع عن مدينة بئر السبع ومنطقتها لليوزباشي «محمود عبده».

وما فعله البطل محمود عبده ورجاله من الإخوان المسلمين تحت قيادة أحمد بن عبدالعزيز يوم ٧ مايو ١٩٤٨ باليهود يسجل له ولقائده بأحرف من نور.. وحصارهم المستعمرات، وإنهاك قوى اليهود بالغارت المتواصلة على مواصلاته ومراكزه، وبعثه بالدوريات المسلحة لتجوب الصحراء وتعترض طرق القوافل وترغمها على الفرار تاركة خلفها الكثير من الأسلحة ومعدات الحرب.

*** هزيمة منكرة لليهود في مستعمرة رامات راحيل في ٢٦ مايو ١٩٤٨م**

كانت مستعمرة «رامات راحيل» الواقعة على طريق بيت لحم ـ القدس مصدر خطر كبير على الجيش الأردني في بيت لحم، فرامات تقع على ربوة عالية، وتتحكم في الطريق الرئيسي الذي يصل بيت لحم بالقدس، فوق أن المدافعين عنها يمكنهم مراقبة القوات الموجودة ببيت لحم وإحصاء كركاتهم وسكناتها، لذلك توجه البطل أحمد عبدالعزيز لاقتحامها منذ هبط بيت لحم. وأرسل في ٢٤ مايو قوة من الإخوان بقيادة لبيب الترجمان لتقوم باستكشاف المستعمرة وكتابة تقرير واف عن تحصيناتها. وكانت خطة البطل أحمد عبدالعزيز أن تبدأ المدفعية بقصف الحصون والأبراج، ثم يزحف المشاة تحت غلالة من نيران المدفعية (الهاون) وقنابلها الدخانية، ثم تقوم جماعات الفدائيين من حملة ألغام (ألنجالور) لنسف العوائق السلكية وحقول الألغام.

وكان يوم ٢٦ مايو ١٩٤٨م يومًا من أيام فلسطين: لماجدة وجاس البطل أحمد عبدالعزيز برجال خلال أبنية المستعمرة وأبراجها، وفجر الرجال الابراج العالية، وعكفوا على تطهيرها وحين كان آخر يهودي يغادر المستعمرة هاربًا، كان صوت المؤذن يتهادى مع نسيم الفجر من أعلى قمة فوق أعلى برج. اللَّه أكبر.. اللَّه أكبر. أشهد أن لا رله إلا اللَّه.. أشهد أن محمدًا رسول اللَّه.. ورأى رجال اللَّه في المستعمرة ما أذهلهم من الخيرات والمؤن المكدسة؛ إذ كانت هذه المستعمرة هي مركز التموين الذي يشرف على إمداد المستعمرات الواقعة في جنوبي القدس. وكان عدد القتلى من اليهود في هذه المعركة كبيرًا للغاية إذ وُجِد تحت الردم ما يزيد على المائتين، عدا ما نجح اليهود في أخذه معهم عند انسحابهم، أما خسائر المسلمين فلم تتجاوز عشرة من الشهداء والجرحى.

❑ تولى البطل الدفاع عن «صور باهر»، وقد حدث في أوائل شهر

يونيو أن حلقت طائرة يهودية تحمل أسلحة وذخائر، وأردات إلقاءها على (رامات راحيل)، وكان الوقت ليلاً، ورأى أحمد عبدالعزيز أن المستعمرة تطلق إشارات حمراء لتدل الطائرة على موضعها، فما كان منهم إلا أن أطلقوا إشارات حمراء مشابهة، فاختلط الأمر على الطائرة وألقت حمولتها فوق (صور باهر) وكانت صناديق ضخمة مليئة بأجزاء المدافع وأنواع الرشاشات الحديثة والأدوية الثمينة.

❑ أرسل اليهود قوة من جنودهم هاجمت الجيش الأردني في مقر قيادته في «دير مار إلياس» واضطرته لإخلائه، وكان هذا الدير يقع على مقربة من (صور باهر) وكان احتلال هذا الدير يؤثر تأثيرًا بالغًا في موقف المرابطين في بيت لحم، فلم يجد أحمد عبدالعزيز بُدًّا من معاودة احتلاله، وتقدمت قوة بقيادة المجاهد «حسين حجازي» تعاونة قوة من جيش الجهاد المقدس الفلسطيني بقيادة المجاهد جاد اللّه، وهاجمت اليهود على غرة واضطرتهم للأنسحاب موقعة بهم كثيرًا من الخسائر.

❑ وأرسل البطل أحمد عبدالعزيز قوة إلى مستعمرة (تل بيوت) التي دأبت على إطلاق النيران من برجها الضخم وتسبب ذلك في كثير من الخسائر والأضرار، وأصدر البطل أمره إلى البطل حسين حجازي ليتولى تدمير هذا البرج الخطير، وفي ليلة ٤ يونيو زحف حسين وإخوانه أربعة كليو مترات تحت تهديد الرصاص والحيات الزاحفة بين الأحجار، وقرب الفجر سمعت بيت لحم انفجارًا مدويًا وشهدت ثلاث حصون من «تل بيوت» وبرجها الضخم الذي تهاوى وصنع من تراكمه قبرًا كبيرًا يضم نخبة كبيرة من رجال الهاجاناة.

* * *

*** أكبر خطيئة في تاريخ الحروب قبول الجيوش العربية للهدنة ليفلت مائة ألف يهودي محاصرون بالقدس من إبادة محققة:**

«حينما حاصر المجاهدون من مصر وسورية وفلسطين وشرق الأردن مائة ألف يهودي بالقدس وقد طلب اليهود التسليم بدون قيد أو شرط؛ لأنه قد مُنع عنهم الطعام والماء الذي كان يصلهم من رأس العين، استغاث اليهود بأبناء أوربا وتجاوبت معهم اليهودية العالمية وأوربا الصليبية، واستصدروا قراراً من مجلس الأمن بفرض هدنة مدتها أربع أسابيع بين اليهود والعرب اعتباراً من ٢٩ مايو ١٩٤٨ يتوقف أثناءها القتال، وكان الهدف من ورائها انقاذ يهود القدس وغيرهم من هلاك محقق إن لم يتم التسليم، مع تمكن اليهود من جلب مزيد من الأسلحة الثقيلة والذخائر.

وكان على الأنظمة العربية أن لا تقبل الهدنة، وخاصة أن المجاهدين يمسكون بعنق العدو، ولكن الخيانة كانت تلعب دورها، وكما ذكر أحد المؤرخين، وتحت تهديد توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الأردن[1] قبلت الأنظمة العربية الهدنة ووقف إطلاق النار من جانبها دون قيد أو شرط، وكان ذلك اعترافًا فعليًّا من الأنظمة العربية بقيام الدولة اليهودية.

❑ وفي ٢٣ من حزيران ١٩٤٨م كلّف القائد أحمد عبدالعزيز البطل معروف الحضري باحتلال مواقع أمامية في مواجهة اليهود منها (بيه إلياس) وقام باحتلال مواقع أخرى أمامية».

قال وكيل القنصل الأمريكي بالقدس: «إن قرار مجلس الأمن الذي فرض الهدنة الأولى في ٢٩ مايو ١٩٤٨، هو وحده الذي خلّص اليهود وحال دون سحقهم على أيدي الجيوش العربية»[2].

(١) «جهاد شعب فلسطين» (ص٤٠٥).

(٢) «جهاد شعب فلسطين» (ص٣٨٩، ٤٠٦).

❑ وقال عبدالله التل: «لقد وافق أعضاء اللجنة السياسية بالجامعة العربية على الهدنة بدون قيد أو شرط، وهي أكبر خطيئة في تاريخ الحروب بالشرق العربي، حيث فُكّ حصار القدس، وأنقذ مائة ألف يهودي كانوا على وشك التسليم»[1].

❑ لم تقف فائدة الهدنة لليهود عند حدّ جلب السلاح والعتاد فحسب، ولكنها كانت وسيلة لاحتلال المواقع الهامة، إذ أن أغلب المراكز الخطيرة لم تستطع اليهود احتلالها إلا بهجمات غادرة قاموا بها خلال الهدنة.

وهاجم اليهود قرية العسلوج واستولوا عليها في أول يوم الهدنة، وكان احتلال هذا الموقع يعني قطع مواصلات الجيش المصري في الجبهة الشرقية مما دعا قيادة الجيش المصري إلى تنظيم خطة لاسترداده، وفي اليوم التالي تحركت قوة كبيرة من الجيش النظامي تعاونها المدفعية والسيارات المدرعة ولكنها فشلت في الاقتراب من القرية، لاستماتة العدو في الدفاع عنها.

فاستنجدت القيادة العامة بالبكباشي أحمد عبدالعزيز، ووضع البطل خطته وتولى تنفيذها رجاله من متطوعي الإخوان وعلى رأسهم اليوزباشي محمود عبده قائد متطوعي الإخوان في (صور باهر) واسترد الرجال هذا الموقع.

❑ يقول القائد العام للقوات المصرية في فلسطين اللواء أحمد محمد علي المواوي في شهادته أمام القضاء في «قضية سيارة الجيب»..:

«العسلوج بلد تقع على الطريق الشرقي، واستولى عليها اليهود في أول يوم الهدنة، ولهذا البلد أهمية كبرى بالنسبة لخطوط المواصلات، وكانت

(١) «جهاد شعب فلسطين» (ص٣٨٩).

رئاسة الجيش تهتم كل الاهتمام باسترجاع هذا البلد حتى أن رئيس هيئة أركان الحرب أرسل إليّ إشارة هامة يقول فيها: (لابد من استرجاع العسلوج بأي ثمن) فكانت الخطة التي رسمتها لاسترجاع هذا البلد هي الهجوم عليها من كلا الطرفين من الجانبين، فكلفت المرحوم[1] أحمد عبدالعزيز بإرسال قوة من الشرق من المتطوعين وكانت صغيرة بقيادة ملازم، وأرسلت قوة كبيرة من الغرب تعاونها جميع الأسلحة، ولكن القوة الصغيرة هي التي تمكنت من دخول القرية والاستيلاء عليها.

ولما سأله المحامون عن السبب في تغلب القوة الصغيرة أجاب:

«القوة الغربية كانت من الرديف، وضعفت روحهم المعنوية بالرغم من وجود مدير العمليات الحربية فيها إلا أن المسألة ليست مسألة ضباط، المسألة مسألة روح، إذا كانت الروح طيبة يمكن للضابط أن يعمل ما يشاء، ولكن إذا كانت الروح ميتة لا يمكن للضابط أن يعمل شيئًا، لا بد من وجود الروح المعنوية». وكان هذا الملازم هو المجاهد «يحيى عبدالحليم فللّه دره ودر قائده أحمد عبدالعزيز.

* البطل أحمد عبدالعزيز ورجاله يلقنون اليهود الدروس القاسية:

خلال الهدنة جمع أحمد عبدالعزيز قوّاته المبعثرة وحشدها في بيت لحم، وأمدته القيادة العامة المصرية ببعض الأسلحة والذخيرة، وزودته بعدد من الجنود، فأخذ يحصن نفسه داخل المدينة، وأقام خطًا دفاعيًا حولها يمتد من (صور باهر) إلى (كرمزان) مارًّا بقرى (مار إلياس) و(بيت صفافا) و(شرفات) و(الولجا)، وكان رجاله من الإخوان والمتطوعين خير الرجال أثبتوا

(١) يُقال ـ رحمه الله ـ ولا يقطع بالرحمة في الآخرة ودخول الجنة لأحد: أسأل الله أن يتقبل هذا البطل في شهداء المسلمين.

مقدرتهم الفائقة على الدفاع والتحصين، وكانت مواقع (صور باهر) الحصينة وما أقيم بها من خنادق و(دشم) نحتت ببراعة في الأرض الصخرية الصلبة، تشهد بعظم الجهد الذي بذله الرجال لتحصين هذه القرية العربية والاحتفاظ بها حتى آخر مراحل القتال رغم الهجمات المتوالية التي شنّها العدو، وحاول فيها احتلالها ليضع القوات المرابطة في بيت لحم والخليل كلها تحت رحمته.

وكانت أولى المحاولات التي قام بها العدو هي إقدامه على محاولة احتلال مرتفعات جبل المكبر في ١٨ أغسطس سنة ١٩٤٨. وجبل المكبر الواقع إلى الجنوب الشرقي من القدس القديمة مرتفع منيع يستطيع من يحتله أن يهيمن على القدس كلها، ويقطع الطريق الرئيسي الذي يصلها بعمان، فوق هذا يتحكم في القوات المتطوعة التي ترابط في جنوب القدس. وكان هذا المرتفع إحدى حلقات الدفاع التي يتولاها الإخوان المسلمون المرابطون في قرية صور باهر تحت القيادة العامة لأحمد عبدالعزيز، ونائبه في صور باهر محمود عبده.. وبدأت جموع اليهود تتحرك في الساعة الثامنة من مساء ١٨ أغسطس من أحياء القدس اليهودية ومن المستعمرات الواقعة في جنوبها، تحرك اليهود في سكون غير أن نقط المراقبة الأمامية فطنت لهذه الحركة.. ودار قتال عنيف، واستمات اليهود ليحتلوا هذا الموقع، وكان طريق الإمداد مفتوحًا على مصراعيه، وكانت أولى الخطوات التي أقدم عليها المجاهد محمود عبده أن أمر فصيلة من جنوده فدارت إلى اليمين واقتربت من الطريق الذي يستخدمه العدو في تحركاته وأخذت تطلق النار على القوافل التي تتحرك صوب المعركة، وفي نفس الوقت كان يصدر أمره للمدافعين عن الجبل بالانسحاب إلى الوراء، فظن العدو أن المقاومة قد انتهت، فتقدم ليحتل المواقع التي أخلاها المجاهدون وفي نفس الوقت كانت أفواه المدافع تنفتح من كل صوب وتقذف كتلاً من اللهب على قمة الجبل، ولم يكن لليهود ما يحتمون فيه، فقُتل عدد كبير من اليهود وتراجعوا في ذعر وارتباك. وكان

يومًا عظيمًا من أيام فلسطين، وأصيب فيه قائد الموقع المجاهد محمود عبده وتولى القيادة من بعده المجاهد لبيب الترجمان للَّه درهم جميعًا.

* البطل أحمد عبدالعزيز مفخرة الجيش المصري والعسكرية المصرية يفاوض بعزة المسلم وفطنته:

أخذ اليهود يتسللون فرادى إلى المنطقة الحرام ودار الحكومة حيث يوجد بعض مراقبي الهدنة ورجال هيئة الأمم وفطن الإخوان للأمر فتابعوهم إلى هناك، وضربوا حصارًا محكمًا حول دار الحكومة وهددوا بتدميرهم، مما اضطر رجال هيئة الأمم إلى الاستغاثة بالبكباشي (أحمد عبدالعزيز) الذي جاء لتوه، واستجاب لرغبة مراقبي الهدنة بوقف إطلاق النار، ولكنه أصر على احتلال مرتفع يدعى (رأس الأحرش) يشرف على دار الحكومة والحي اليهودي بالقدس. وبذلك أصبح الإخوان خطرًا شديدًا يهدد القدس الجديدة واتخذوا من هذا الموقع نقطة يراقبون منها حركات اليهود وسكناتهم.

وحاول اليهود في اليوم التالي القيام بهجوم كبير على نفس هذه المواقع أملاً في احتلالها ورد اعتبارهم بعد هزيمة الأمس، ولكن يقظة الإخوان واستماتتهم في الدفاع وقفت سدًّا منيعًا دون وصولهم لهذه الغاية، مما اضطرهم إلى التراجع في ذلة وانكسار؛ وكانت خسائرهم في هذه المرحلة تتجاوز المائتين حسب تقدير مراقبي الهدنة عدا فقدانهم لجميع الأسلحة والمعدات التي دفعوا بها في هذه المعارك.

بدأت بعد هذه الفترة مرحلة مفاوضات طويلة لتخطيط حدود المنطقة الحرام، وكان أحمد عبدالعزيز فخورًا بجنود الإخوان وبما أحرزوه من انتصار رائع، مما جعله يملي إرادته على اليهود ويضطرهم للتخلي عن منطقة واسعة مهددًا باحتلالها بالقوة، وكانت المفاوضات تدور في مقر قيادة الجيش العربي بالقدس ويحضرها الكولونيل (عبداللَّه التل) القائد العربي في المدينة

المقدسة»[1].

*** وسقط البطل أحمد عبدالعزيز أبرز شخصية عسكرية أنجبتها المعارك على ثرى فلسطين:**

وحين انتهت المفاوضات في ليلة ٢٢ أغسطس أراد أحمد عبدالعزيز أن يحمل نتائجها إلى القيادة المصرية العامة في (المجدل) وأصر على أن يذهب في ليلته، وكانت المعارك في ذلك الحين تدور بشدة على الطريق المؤدي للمجدل مما جعل ضباطه يلحون عليه في التريث وعدم الذهاب، ولكنه قطع هذه المحاولات حين قفز إلى سيارته (الجيب) وهو يردِّد: ﴿**قل لن يصبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾ وانطلقت السيارة في طريق المجدل، ولم يكن معه إلا اليوزباشي (الورداني) واليوزباشي (صلاح سالم) من ضباط رئاسة المواوي، وسائق سيارته.

وكانت «عراق المنشية» في ذلك الحين تستهدف لهجمات متواصلة مما دعا القيادة العامة إلى منع السير على هذا الطريق بالليل.

وما أن وصلت السيارة إلى مواقع عراق المنشية حتى صاح الحارس يأمر السيارة القادمة بالوقوف، ولكن سوء الحظ تدخل هذه المرة، إذ ضاع صوت الحارس في ضجيج السيارة فأطلقت نقطة المراقبة النار، وتدخل سوء الحظ مرة أخرى حين أصابت أول رصاصة البكباشي (أحمد عبدالعزيز) في جنبه، وحمله مرافقوه إلى عيادة طبيب بمدينة (الفالوجا) ولكن قضاء الله سبقهم إليه، فصعدت روحه إلى بارئها.

ولم يكد الخبر يذاع على الناس حتى عم الوجوم الجميع، وبكاه كل فرد في الجيش، وكان أكثر الناس حزنًا عليه وألمًا لفراقه أولئك الجنود الذين

(١) «الإخوان المسلمون» (ص ١٠٠).

زاملوه في الميدان وقاسموه مرارة الهزيمة ونشوة النصر، ونعته وكالات الأنباء ومحطات الإذاعة العالمية وأسف لفقده الحلفاء والأعداء، ونعوه للناس بمزيد الإعجاب والإكبار، وبموت أحمد عبدالعزيز طويت صفحة من أمجد صفحاتنا العسكرية، وأفل نجم لامع كان في سمع الناس وبصرهم، وخلا بذلك مكانه في الميدان، وصعدت روحه الطاهرة لتحتل مكانًا مرموقًا في ملكوت اللّه وجنته ورفع اسمه من كشوف الجيش المصري ليحفظ في سجل التاريخ، كأبرز شخصية عسكرية أنجبتها حرب فلسطين.

* كيف قتل الشهيد البطل أحمد عبدالعزيز فخر العسكرية المصرية والجيش المصري؟

نشرت الأهرام بعددها الصادر يوم ٢٢ من إبريل ١٩٨٤ في صفحتها الخامسة مقالاً للضابط محمد حسن التهامي نائب رئيس الوزراء برئاسة الجمهورية توضيحًا لمقتل البطل أحمد عبدالعزيز الذي سبق الحديث عنه في هذا الكتاب، فقال تحت عنوان: «إخلاء الأرض من أقوى عناصر في مواجهة اليهود»:

«استدعت القيادة المصرية بأوامر من القاهرة البطل أحمد عبدالعزيز ليترك الجبهة التي كان يسيطر عليها تمامًا بقواته لينزل إلى القاهرة عبر قيادة القوات المصرية في المجدل للقاء هام مع القيادة السياسية في مصر، ومع الملك فاروق نفسه كما قيل. وكان أحمد عبدالعزيز في حالة من الغضب لما يجري من تواطؤ في هذه الحرب لصالح إسرائيل، ونزل في ذلك اليوم المشهود في سيارة جيب يقودها الصاغ صلاح سالم (الرائد) حاليًا بجواره، ومن خلفهما الجندي السائق. وأثناء دخول أحمد عبدالعزيز إلى مواقع الكتيبة السادسة مشاة في عراق المنشية والتي كان جمال عبدالناصر أركان حربها، قُتِلَ أحمد عبدالعزيز في سيارته برصاصة أصابته وحده. ووصل إلى المجدل

حيث فارق الحياة، ولم يتم لقاؤه بالقيادة السياسية في مصر. واختفى عن مسرح العمليات العسكرية التي كان يعمل لها موشى ديان ألف حساب، ويخشاها أكثر من خشيته لكل القوات العربية المقاتلة في فلسطين عام ١٩٤٨م. فهل كان استدعاؤه مصادفة؟ أو إبعاده عن ميدان القتال مصادفة؟ ثم استشهاده على هذا الحال ـ إن لم يكن هذا كله حلقة من حلقات الحرب».

❑ يقول الأستاذ حسن الجمل في كتابه «جهاد الإخوان المسلمين في القناة وفلسطين»: تحت عنوان «كلام خطير»: «خطب فينا القائد: أحمد عبدالعزيز في أحد الأيام قائلاً: «أنتم خير شباب مصر وخير رجالها، ولا بد من تحرير البلاد الإسلامية من كل أجنبي».

وكان يوجد أحد رجالات المخابرات المصرية...».

هذه صفحة ناصعة من جهاد البطل ورجاله وكيف سقط.. ونسأل اللَّه أن يتقبله في عداء الشهداء.

* الشيخ أبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية (١٩٠٣ ـ ١٩٧٩م) وأميرها بالقارة الهندية يصدع بالحق في أمور الحاكمية والصوفية ونبذ القومية والضرورة الحتمية للدينونة للتشريع الإسلامي:

ولد الأستاذ المودودي عام ١٩٠٣م في إحدى مدن ولاية حيدر أباد الدكن من شبه القارة الهندية.

«وهو مؤسس الجماعة الإسلامية بالقارة الهندية وأميرها. وكان كاتبًا مجيدًا، وصحفيًا ناجحًا، بارعًا في الأسلوب، لبقًا في الأداء، موفقًا في عرض الحلول للمشاكل الناجمة في المجتمع، ومبدعًا في تقديم الإسلام إلى غير المسلمين في الأسلوب العصري المتزن.

قام بتشكيل الجماعة الإسلامية سنة ١٩٤١م، وأصدر مجلة «ترجمان

القرآن»، وألف في التفسير والحديث، والتعليم والتربية والسياسة والقانون، والاقتصاد والاجتماع والدفاع عن الإسلام. وردّ في كثير من كتاباته علي الحضارة الغربية المزيّفة، والأفكار الإلحادية المستوردة، والحركات الهدّامة المعاصرة، ونقلت بعض كتبه إلى كثير من لغات العالم الحية.

وكذلك حذّر المسلمين من وخيمة الشرك والقومية، والتقليد الأعمى، والتصوف. وبذل جهداً مشكوراً مع الجماعات الأخرى في تدوين الدستور الإسلامي في باكستان، وتطبيق الشريعة»[1].

❑ يقول الأستاذ محمد المجذوب في كتابه «علماء ومفكرون عرفتهم» (٦/٢):

«لعلي لا أجانب الواقع إذا قلت إن أبرز سماته ذلك الوقار الذي يجلله كله، حتى مشيته ونظراته ولهجته، فيذكرك بقول عبدالله بن المبارك في إمام المدينة:

يأبى الجواب فما يراجع هيبةً ... والسائلون نواكس الأذقان
عز الوقار ومجد سلطان النهى ... فهو المهيب وليس ذا سلطان

ولم يطل لقاؤنا يومئذ ومضيت، ثم لم أره بعد ذلك، بيد أني لم زفارق أفكاره التي تغنيني عن الاجتماع بشخصه وظللت أتتبع أخبار النضال الذي ما ينفك يخوضه في سبيل تثبيت الطابع الإسلامي على الدولة، التي ما كان لها أن تكون لولا الإسلام.. إلى أن توفاه الله يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٧٩».

*** إلى الصحافة:**

ألقى عصا التسيار وهو لم يتجاوز السابعة عشرة في مدينة «بجنور» بعد

(١) «روابع في وجه السنة قديمًا وحديثًا» للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد (ص١١٧) ـ دار ابن الأثير ـ الكويت.

وفاة والده وعمل في مجلة أسبوعية في المدينة نفسها. «والظاهر أن الدافع له إلى إيثار هذه المجلة هو التزامها (حركة المحافظة على الخلافة الإسلامية) وقد انتفع بموهبته الإنشائية فجعل يكتب لها الافتتاحيات اللاهية في موضوع الخلافة، الذي كان مشغلة نفوس مسلمي الهند في ذلك العهد، ولم يكتف بنصرة الحركة عن طريق الكتابة فقط بل جعل يقتطع من أجوره ما يتبرع به لصندوقها.

وفي هذا الجو المتأجج بالحماسة الإسلامية ألّف اثنين من أوائل كتبه، أحدهما (النشاطات التبشيرية في تركية) والثاني بعنوان (مجازر اليونانيين في سمرنا) وفي هذين العنوانين ما يكفي لتصوير قلق مسلمي الهند على إخوانهم في تركية، التي كانت ترزح أثناء ئذٍ تحت كابوس الاحتلال الصليبي، وتعاني من عدوان اليونانيين على مناطقها التي أغرقوها بدماء الأبرياء.

وفي العنوانين إلى ذلك دلالة أخرى على ما في قلب هذا الفتى، الذي لم يتجاوز السابعة عشرة بعد من تفاعل مع أحداث العالم الإسلامي، وبخاصة في دولة الخلافة، التي كانت، على ضعفها الذي أطمع بها أعداء الإسلام، مطمح أنظار المسلمين على تباعد أقطارهم، والمركز الذي يستقطب مشاعرهم الروحية، فيؤلف قلوبهم حول الخليفة الذي يعتبر الرمز المقدس لوحدة العالم الإسلامي..

*** الطريق إلى القمة:**

ولقد كان لاتصال المودودي بحركة الخلافة، ولمقالاته البليغة في نصرتها، أثر شد أبصار الشخصيات السياسية إليه ودفعهم إلى تقدير مواهبه. وفي رحلة إلى دهلي اجتمع باثنين من أكابر جمعية علماء الهند المتعاونين مع غاندي في نطاق النضال ضد الاستعمار البريطاني، وكانا من المعجبين بكتاباته المثيرة، وأسلوبه الأخّاذ، وعن طريق هذين العالمين الكبيرين توثقت صلته

بجمعية العلماء، حتى أسندت إليه رئاسة التحرير لأول صحيفة أصدرتها باسم (المسلم) عام ١٩٢١ وفي عام ١٩٢٤ أصدرت صحيفة أخرى باسم (الجمعية) وأسندت إليه كذلك أمر تحريرها، وقد استمر في عمله ذاك إلى عام ١٩٢٨م.

وكفى بهذا دليلاً على ما بلغه المودودي الشاب من مكانة في أوساط أهل العلم والعاملين في ميدان القضية الإسلامية وحركة التحرير الوطنية جميعًا. جعلته موضع الثقة من أفاضل العلماء وكبار الساسة.. وهي ثقة من شأنها أن تفسح السبيل لمستقبل أبعد وأعمق.

ثم لا ننسى أن عمله في الصحافة قد أتاح له الاطلاع على خفايا الأحداث وأنواع النفوس، وفي ذلك زادٌ لا غنى عنه للرجل الذي يعده القدر للإسهام في قيادة الفكر الإسلامي على المستوى العالمي..»[1].

*** مزيد من الثقافة:**

ودهلي في الهند كالبصرة في دولة بني العباس، ملتقى الثقافتين الغربية والإسلامية، فلا معدي للرجل الطُّلَعَة، ذي النهم الذي لا يخمد إلى المعرفة، من الانتفاع بهذه البيئة إلى أقصى الحدود، وكذلك فعل صاحبنا، فأقبل على تكثيف معرفته العربية بدراسته علوم البلاغة والأدب على أحد المختصين في ذلك البلد، وقرأ أمهات من كتب الحديث على آخر من المشهورين بهذا الفن، واغترف ما أمكنه من التفسير والفقه والمنطق من أحد كبار علماء ذلك البلد..

ولم يغفل أمر العلوم العصرية فتعلم الإنجليزية على أحد أساتذتها في أربعة أشهر، وعن طريق الإنجليزية أطل على الكثير من علوم الغرب كالتاريخ

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ٩).

والفلسفة والعلوم الاجتماعية، وبذلك أتيح له أن يعلم من مواضع التلاقي والافتراق بين الثقافتين، ما لم يكن ليحيط به لولا هذا التضلع الذي وفقه الله إليه.

وفي هذا الغمار من الكتابة في شئون المسلمين، والدراسة المتصلة لمختلف الفنون والعلوم، تمكن المودودي من إخراج كتابين آخرين أحرزا الكثير من الإعجاب والرواج، وهما (مصدر قوة المسلم) و(الجهاد في الإسلام).. وقد نشرهما أولاً حلقات متسلسلة في جريدة الجمعية ثم أخرجهما في طبعتين مستقلتين.

وكان لهذا التوسع الثقافي أثره العميق في نفس الأستاذ المودودي، إذ تحصل لديه من العلم ما أتاح له أن يُكَوِّنَ تصوراً متكاملاً عن الإسلام، يختلف عن المفهوم الذي جمد عليه المشايخ التقليديون. وكان لكل من الكتابين على وجه الخصوص أثره الفعال في عقل مؤلفه، إذ كان عليه أن يراجع الكثير من المصادر، ليستمد منها الركائز الأساسية للموضوع الذي يزمع كتابته، فيستكشف أثناءئذٍ من الحقائق ما لم يقع عليه من قبل، وبذلك تتسع مساحة أفكاره، وتمتد أشواطه خلالها، حتى بلغ كل من الكتابين الحجم الذي لم يتصوره.. وتولى طبع كتاب الجهاد للمرة الأولى العلامة الإسلامي السيد سليمان الندوي في خمسمائة صفحة من القطع الكبير، وبلغ من إعجاب شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال بهذا الكتاب أن جعل ينصح للشباب المسلم باقتنائه والانتفاع به.. بل إن الأستاذ المودودي نفسه يرحمه الله يقول عنه: (إن كتاب الجهاد نفعني أكثر من أي قارئ له، فقد بدأت تأليفه وأنا على حمية القومية، وفرغت منه وأنا على حمية الإسلام.. حتى لقد آليت ألا أعود إلى ممارسة الصحافة في المستقبل إلا على أساس أن أجعلها وسيلة لخدمة الإسلام[1].

(١) بتصرف عن كتاب الحامدي (ص١٨).

* في طريق الدعوة:

وتحت هذا التأثير الفكري قرر الأستاذ أجزل اللَّه أجره أن يقف حياته على الدعوة إلى اللَّه، ولكنه على أتم القناعة بأن الإقدام على هذه المهمة يقتضي استعدادًا خاصًا من الزاد العلمي يتناسب مع مستوى العصر.. هذا العصر المليء بالأفكار والتيارت المذهبية مما لم يسبق له مثيل حتى في العصور العباسية.

وهكذا انقطع الفتى إلى المطالعة الواسعة العميقة، مكتفيًا من العمل الدنيوي بالقليل الذي يكفُّه عن الحاجة، لينصرف بكل طاقته إلى الدعوة عن طريق مجلته (ترجمان القرآن) وقد صور لنا مدى تصميمه بالكلمة التالية التي افتتح بها العدد الأول منها:

«إن هذه المجلة تضع قدمها اليوم في طريق محفوف بالمصاعب والمحن، ويتولى عبئها رجل يعترف بأنه ضعيف فاقد القيمة صفر اليدين. ولكنه على الرغم من وعورة الطريق استعد لحمل هذا العبء يقينًا منه بأن اللَّه الذي نور قلبه بالإسلام، وخلق في نفسه حب الدعوة إليه، هو الذي سوف يؤازره بنصر من عنده، ويمنحه الرسوخ في العلم، والصحة في الفكر، والسلامة في القلب، والطهارة في النفس، والسمو في الروح[1]..».

وبهذه العزيمة الفذة يمضي الشاب الفقير الأعزل، إلا من سلاح الإيمان والرؤية الواضحة والتصميم الحاسم، في طريق الدعوة التي وهب لها نفسه، ووقف عليها مجلته التي لم يكن لها مؤنس سواه، فهو مديرها ومحررها، ومصحح طبعاتها والساعي الذي يحملها إلى البريد.. والمجيب على كل

(١) المصدر السابق (ص١٩).

استفسار يتعلق بها.. فمن أجلها يسهر الليالي يطالع ويكتب إلى صلاة الفجر، ومن أجلها يتحمل شظف العيش حتى لتأتي عليه أيام لا يتاح له من الطعام إلا العدس والماء[1]..

وعلى غلاف المجلة كتب عهده للقراء بأن «غايتها إعلاء كلمة اللَّه والدعوة إلى الجهاد في سبيله، ووسيلتها إلى ذلك نقد الأفكار المنحرفة ومبادئ الحضارة الغربية بمحك القرآن، ثم عرض المبادئ التي جاء بها كتاب اللَّه وسنة رسوله في كل مجال من الفلسفة والعلوم والسياسة والاقتصاد والاجتماع.. إن هذه المجلة تدعو الأمة المسلمة إلى حياة جديدة، وخلاصة دعوتها: أيها الناس. اجعلوا قلوبكم وأذهانكم مسلمة خاضعة للَّه، وتخلوا عن نظم الجاهلية واسلكوا صراط اللَّه المستقيم، وخذوا كتاب اللَّه بالقوة لتكونوا سادة العالم وأئمة الحضارات».

وسرعان ما انتشرت هذه الأفكار في مواطن المسلمين على مدى القارة، كما ينتشر شعاع الفجر في ليل كثيف الظلمات.. وأخذت كلماته سبيلها إلي القلوب والعقول تتداولها وتتأملها وتتفاعل معها..

*** المودردي وإقبال:**

لعل أبرز نقاط التلاقي بين العملاقين هي إيمان كل منهما بعظمة الإنسان المسلم، واحتقارهما للضعف الذي مسخ ذاتيته في أتُّون النوائب، التي أطبقت عليه في كل مكان من وطن الإسلام، فكان من الأهداف الفكرية لكل منهما إيقاظ تلك الذوات المخدَّرة، وإعادة الثقة بالنفس إليها، وبعث وعيها لحقائق هذا الدين، التي غيرت مسيرة الإنسانية من قبل، وهي على أتم الاستعداد لتغييرها من بعد..

(١) المصدر السابق (ص٢٠) انظر «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ١٢).

وأحس شاعر الإسلام إقبال من خلال مقالات المودودي في «ترجمان القرآن» قوة الوشائج التي تجمع بينهما، فكتب إلى صديق له في حيدر أباد ليبلغه رغبته في مقابلته، فلم يتلبث حتى شخص لزيارته في لاهور.. وكان لقاء ضاعف من قوة تلك الوشائج، إذ وجد كل منهما أفكاره في صدر صاحبه وتم الاتفاق بينهما على أن ثمة ركيزتين أساسيتين لا نجاح بدونهما: إحسان العرض لعظمة النظام الإسلامي بالأسلوب العلمي المقنع، وإعداد الرجال الذين يصلحون لقيادة المسلمين فكراً وعملاً..

واستجاب الأستاذ لاقتراح إقبال بالهجرة إلى البنجاب، التي تعتبر مهد الحركات والدعوات والتيارات الفكرية، واتخذ فيها موطنه منذ ذلك العهد، بيد أن الأجل سرعان ما وافي الشاعر العظيم، فحرمه القدر الحكيم فرصة التعاون مع ذلك القلب الموَّار بنور الإيمان وهدايته.. وسجل المودودي مشاعره بإزاء هذه المصيبة في قوله: «فقدت أكبر سند في الدنيا بموت هذا الرجل العظيم..»[1].

وكان على المودودي أن يستفيد من جو لاهور العلمي فاستجاب لدعوة كلية «حماية الإسلام» وشرع في العمل بها محاضراً دون أجر لمدة عام.. ومن ثم اتجه إلى العديد من المدن يلقي فيها المحاضرات على الطبقات المثقفة، فكان منها واحدة في قاعة بلدية لاهور بعنوان «الجهاد في سبيل اللَّه» وأخرى في «مجلس الأخوة الإسلامية للطلبة الجامعيين» بلاهور أيضًا، ثم محاضرتان بعنوان «منهاج الانقلاب الإسلامي» و«معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها في الإسلام» ألقاهما في جامعة عليكره عام ٤٠ و٤١ ثم أخرى في «دار العلوم لندوة العلماء» بعنوان «منهج جديد للتربية والتعليم» وواحدة بعنوان «الإسلام والجاهلية» في «مجلس الدراسات الإسلامية» بالكلية الإسلامية في بشاور.

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ١٢ ـ ١٣).

* الجماعة الإسلامية:

«والمتحدث عن الإمام المودودي ملتزم بأمرين اثنين أحدهما أفكاره التي انعكست في مقالاته ومؤلفاته الموسوعية والثاني هو الجماعة التي أراد أن يجعل منها مجالاً حيًا لتطبيق مخططه في تكوين الرجال المؤهلين لحمل رسالة الإسلام، وقد شاء اللَّه أن يخلِّد أعمال هذا الرجل، فحفظ أفكاره وجعل منها منارة تستمد من أنوار الوحيين، كما يستمد القمر من ضوء الشمس فينقل عطاءها للناظرين.

لقد آمن المودودي بطريقة إمامه وقائده المصطفى، صلوات اللَّه عليه وسلامه، القائمة على الجمع بين التربية والتعليم جميعًا، كما وصفها كل من عثمان وابن مسعود وابن عمر، عليهم رضوان اللَّه، بما مؤداه: «كنا نتعلم الآي من كتاب اللَّه فلا ننتقل منها إلى غيرها حتى نتعلم العمل بها» فكان من ثمرات ذلك الإيمان أنه لم يكتف بالعلم يبثه في الكتب والصحف، فأقام لترجمته ذواتًا تحمل طابعه، وتمثل معالمه في سلوكها وسائر تصرفاتها.. وهكذا نشأت الجماعة الإسلامية، التي على الرغم من انقسام القارة إلى دولتين، وتجزئها أخيرًا إلى ثلاث جماعات، فقد احتفظ كل منها بطابعه الإسلامي الراسخ الرصين.

وقد تم أول اجتماع لتأسيس هذه الجماعة عام ١٩٤١ وبعد الاتفاق على نظامها الأساسي أعطى كل من أعضائه الخمسة والسبعين عهده بتنفيذ ذلك الميثاق ذي الفقرات الثماني عشرة، الشاملة المحددة لهويتها الإسلامية.. مجددًا ولاءه لكتاب اللَّه وسنة رسوله ومؤديًا شهادة التوحيد في خشوع المتأمل في أبعادها المدرك لعظيم تبعاتها.. وكان من أوائل التزاماتهم لمبادئ الجماعة انسحاب كل موظف بينهم من خدمة الحكومة البريطانية والوقوف في سائر تصرفاتهم عند حدود الشريعة المطهرة، ورفض محاميهم المرافعة أمام

المحاكم التي تقضي بغير ما أنزل اللّه[١] .

والمتتبع لأعمال هذه الجماعة يتبين أنها تنظيم غير مسبوق يتناول بأنشطته سائر جوانب الحياة، من تعليم وتعاون واقتصاد، وتنمية وسياسة، وطاقات بشرية تشمل الأستاذ والطبيب والتاجر والطالب والفلاح والنساء والرجال على السواء..

وقد يقف المتأمل في هذا التنظيم وهو يتذكر نظيره الذي قام بمصر على يد الإمام حسن البنا وإخوانه، في نفس الفترة من حياة العالم الإسلامي، فيتساءل: أيهما الذي اقتبس من الآخر؟!. كما يقف مشدوها أمام التلاقي الماثل بين أفكار المودودي والشهيد سيد قطب، دون أن يستطيع فصلاً تامًا بين المؤثر والمتأثر»[٢] .

*** أتون المحن المتلاحقة:**

بعد تقسيم الهند وقيام الباكستان باسم الإسلام، تكاثفت المشكلات، وتحركت الأهواء يريد كل منها أن يفرض نفسه على المجتمع الجديد.

وأخطر هذه المشكلات هو في اضطراب الرؤية عند الساسة الذين قادوا حركة الانفصال، فهم يتكلمون عن دولة إسلامية، ويتحدثون عن مميزاتها القومية، ولكنهم لايملكون أي فهم لمضمون الإسلام، من حيث كونه نظامًا مستقلاً بذاته عن كل نظام آخر عرفه الإنسان الحديث في شرق أو غرب..

ومن هنا تدفق سيل البلاء على دعاة الحق، إذ أصبحوا يشكلون الجبهة الوحيدة المقاومة لتلك الشواذ الخطيرة، والمتصدية لتصحيح الأفهام، ولنشر التوعية بحقائق الإسلام، والمعارضة لكل انحراف عن جادَّته في أوساط الحكام.

ومن البديهيات المألوفة في عالم السياسة الميكافيلية أن أصحاب الحكم

(١) مجلة «الأمان» عدد ٣٥/ ٧ ذي القعدة ١٣٩٩ (ص٨).

(٢) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ١٤ ـ ١٥).

المطلق لا يقرون معارضة تَحُدُّ من سلطانهم، فكل محاولة لتغيير وجهتهم من قبل الآخرين إنما هي بنظرهم تطاول على كرامتهم، واستهانة بشأنهم، لا مندوحة من القضاء عليها بكل الوسائل الممكنة.

وهكذا وجدت الجماعة الإسلامية وقائدها الملهم أنفسهم في أتُونٍ من المحن المتلاحقة لا يفرغون من الواحدة حتى تتلقفهم الأخرى..

إنهم يرون اتجاه الدولة في الطريق نفسه الذي طالما عانوا من شروره في ظل الاستعمار الإنجليزي بل إنهم ليرون هؤلاء الحكام المحسوبين على الإسلام أشدَّ عداءً له من الإنجليز أنفسهم، وأشد منهم اندفاعًا في تأييد قوانينهم المنافية لدين الأمة، فعلام إذن حدث هذا الانفصال، وفي سبيل أي شيءٍ تحمل المسلمون تكاليفه التي ذهبت بعشرات الآلاف من إخوانهم وبآلاف الملايين من ممتلكاتهم؟!..

كلا.. إن اللَّه لن يعذر مسلمًا يرضى بهذه الخيانة التي ستقرر مصير المسلمين إلى أحقاب طويلة وإذا كانت التبعة على قدر الإدراك فعلى عاتق الجماعة الإسلامية يقع العبء الأكبر منها.

*** في معركة الدستور:**

وهكذا أخذ المودودي زمام المبادرة لمواجهة كل تدبير يضاد الخط الإسلامي، وكان سلاحه في هذه المعركة ذلك القلم الذي استطاع بتوفيق اللَّه أن يوقظ النائمين، ويُقِض مضاجع الظالمين، ثم تلك الجماعة التي احتضنت أفكاره، من خلال إيمانها بكتاب اللَّه وسنة رسوله، وشاركته التصميم على تحمل كل مسئولية في سبيل اللَّه.

ومن الطبيعي أن يقع ثقل المعركة بين الطغيان الجديد، والجماعة الإسلامية، بين علمانية المتسلطين وإسلامية المودودي وإخوانه العاملين..

وحشد كل من الفريقين أعوانه في التحام غير متكافئ من حيث الإمكانات، فبينما يقود رجال السلطة مرتزقة الغوغاء من السياسيين

والعسكريين وأتباعهم، من عميان العامة والحاقدين على الإسلام، ليضربوا بهم جنود الحق العزل بكل ضروب الإرهاب، كان هؤلاء يدفعون الشر بالخير والحماقة بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد وطّنوا أنفسهم على التضحية بكل شيء من أجل الإسلام، الذي باسمه ولأجله قامت باكستان.

وتفاقم الصراع بين الطغيان والجماعة الإسلامية، على تفاوت ما بين وسائل كلٍّ من الفريقين، وقد تجلى ذلك أكثر ما يكون في معركة الدستور، التي حفزت كلا منهما لتعبئة أقصى ما يملك من الطاقات. ولا غرو، فالدستور هو المنطلق الذي سيحدد الخط النهائي لنظام الحكم.. وهو الفيصل الحاسم في حياة المجتمع الباكستاني وفي مسيرته العامة، فإما أن يكون إسلاميًّا ينسجم مع طبيعة السواد الأعظم من الأمة، التي دفعت فداء إسلامها عشرات الألوف من الشهداء والمشوهين، فازدادت به تشبثًا، يقينًا منها بأنه لها بمنزلة الروح من الجسد، والمأمن الذي ليس وراءه إلا العار والدمار..

وإما مخطط شيطاني تُمليه أهواء الأقليات الضالة من متسلطين نشئوا في محاضن الاستعمار فلا يستسيغون سوى طريقته في الحياة، ووثنيين خُلِّفوا في باكستان ليكونوا «الطابور الخامس» لأعدائها المتربصين بها الدوائر.. ماركسيين فقاديانيين يدّعون الإسلام وهم ألد أعدائه، الذين أعطوا ولاءهم لبريطانية التي حطمت كيان الدولة الإسلامية في الهند، وملأت شوارعها بجثث العشرات من آلافهم..

وكان على الجماعة العزلاء إلا من سلاح الإيمان أن تثبت للمتسلطين تأييد السواد الأعظم من الأمة لدعوتها إلى الدستور الإسلامي، فراحت تعقد الاجتماعات الشعبية هنا وهناك، فتتهافت الجموع المؤمنة لتأييدها في تصميم لا يعتريه خوف الموت..

وصدرت الأوامر إلى مرتزقة السلطة وجنودها بمهاجمة هذه الاجتماعات بكل وسائل الإرهاب، وثبتت الجماعة بوجه المجرمين، معتصمة

بالصبر والهدوء والرد بالتي هي أحسن..

وهكذا يمضي الفريقان كل في الطريق الذي ارتضاه أو سِيق إليه.. وكان أشد الجميع إيذاء للجماعة الإسلامية جمهور القاديانيين من أنصار وزير خارجية باكستان، التي يقول أول رئيس لوزرائها لياقات على خان: «إنها هبة الإسلام» ومع ذلك لا يتورع حكامها أن يشهروا الحرب على الإسلام وأن يسلطوا عليه أشرس أعدائه.

وعلى الرغم من المنهج السلمي الذي أخذ به الإمام المودودي جماعته لم يجد بدًا من مواجهة القوى الشريرة بالتظاهرات السلمية[1] المصممة تملأ شوارع البنجاب هاتفة بسقوط القاديانية. وغرّ القاديانيين سلطانهم في قوى الأمن فانهالوا على المؤمنين بالنار التي حصدت من المتظاهرين عدة مئات.. ولكن الإيمان كان كشأنه دائمًا أقوى من الموت، فلم يقف الزحف السلمي حتى سقط قائد القاديانية ظفر اللّه خان، وتضاءلت قواته حتى كادت تنحصر في حوك الدسائس من وراء الستور.

*** أكبر من الموت:**

في هذه الظروف ألف الأستاذ المودودي رسالته في موضوع القاديانية ففضح عقائدها ومؤامراتها الرهيبة على المسلمين، ولكن حاكم باكستان غلام محمد ما لبث أن اتخذ منها مسوِّغًا لإعلان الحكم العرفي ولإلغاء الجمعية التأسيسية، ولوقف البحث في الدستور الجديد، الذي يوشك أن يأخذ طابعه الإسلامي تحت ضغط الشارع، الذي يقوده المودودي وأنصار فكرته.. وتلا ذلك اعتقال الكثيرين من رجال الإسلام، وعلى رأسهم المودودي بتهمة تأليف كتِّيب وُصِف بأنه ضاعف من أسباب الاضطرابات والقلاقل.. وهي مناسبة تتيح لأولئك المتسلطين فرصة التخلص من الرجل الذي يشكل بنظرهم العقبة

(١) المظاهرات السلمية وجدواها يخالف فيها السلفيون في عدم مشروعيتها الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية بباكستان ورأي السلفيين أرجح وبه نلتزم واللّه أعلم.

الكبرى في طريق الدولة العلمانية، التي تطلق أيديهم في رقاب الشعب، وتمكنهم من العبث بكل قيمه الإسلامية..

وأصدرت محكمة العسكر قرارها بإعدام المودودي، في محاكمة صورية كالتي يساق إليها الإسلاميون في مصر وتركية وإندونيسيا، والعديد من أقطار المسلمين الرازحة تحت كابوس العسكريين.

ويصف مرافقه خليل أحمد الحامدي موقفه وهو يتلقى ذلك الحكم الظالم فيقول: لقد استمع إلى هذا القرار بوجه باسم وقلب مطمئن، ولم يزد على قوله: «الحمد للّه على كل حال..».

وجاء الضابط ليسلمه نص القرار وهو يقول: يمكنك أن تقدم الاسترحام خلال أسبوع. ولعل هذا الضابط كان يظن أنه يقدم بذلك بشرى سارة إلى ذلك المحكوم عليه بالموت، وهل يجهل أنه تلقاء نوع من الرجال لم يسمع بمثله قط، لذلك لا بد أنه فوجئ بقول الشيخ في الرد على عرضه: «لن أسترحم أحدًا لأن أحكام الموت والحياة لا تصدر من الأرض، بل من السماء، فإذا قدر اللّه لي موتي فلن يستطيع أحد إنقاذي، وإذا قدر اللّه الحياة فليس بمقدور أحد أن يضرني قيد شعرة» ثم توجه الأستاذ إلى إخوانه الحاضرين تلك المحاكمة بقوله: «لا يقدم أحدٌ منكم أي استرحام بشأني، وأؤكد بذلك على والدتي وأخي وزوجتي وأولادي جميعًا..».

ولكن.. وعلى الرغم من استنكاف الأستاذ عن طلب الرحمة فقد أعادت المحكمة العسكرية نفسها النظر في قرارها واستبدلت به حكمًا بالسجن لمدة إحدى وعشرين سنة.. ولعلها قد فعلت ذلك بإيعاز من السلطة التي تدرك مدى الخطر في إعدام الإمام المودودي، الذي استحوذ بشخصيته المثالية على حب المسلمين، وعرف الطريق إلى قلوبهم فهو يؤلّبهم لتوكيد انتمائهم الإسلامي، فأقدمت على ذلك التغيير تفاديًا للعواقب التي لن تستطيع دفعها..

* إلى المحكمة العليا :

وقد قضى الأستاذ خمسة وعشرين شهرًا فقط من تلك السنين في السجن. . إذ انتهز إخوانه فرصة قيام وزارة جديدة فرفعوا إلى المحكمة العليا بلاهور اعتراضًا على ذلك الحكم بالباطل متذرعين بالبراهين القانونية التي لا تُدفع. .

يقول الأستاذ الحامدي[1] : «لما دخل الإمام المودودي قاعة المحكمة العليا وقف قضاتها احترامًا له. . وهو موقف لم يعرف له مثيل في تاريخ القضاء. . ».

في هذا المشهد الرائع سمع الإمام المظلوم قرار المحكمة العليا بالإفراج عنه، مصحوبًا بالتكريم الأسمى من أعلى هيئة قضائية وثقافية في باكستان، فكان ذلك إدانة دامغةً لعهد خان قضية الإسلام، الذي لولاه لما كان لباكستان من حق في الوجود.

وإن كل ذي ضمير حي في العالم الإسلامي ليشعر بالتوقير البالغ لأولئك القضاة الذين أثبتوا أنهم فوق الأهواء، وأنهم مع الحق الذي لم يوجد القضاء إلا لحمايته من عسف البغاة والمستبدين. .

ولقد كان لهذه الظاهرة أثرها العميق في ارتفاع معنويات المسلمين، فإذا بالمسيرات والمواكب والحفلات تعم أرجاء لا هور بمظاهر الفرح والاستبشار، وأقيمت الاحتفالات العديدة لاستقبال البطل الظافر، وفي أحد هذه التجمعات رد على كلمة الترحيب بقوله:

لقد ذكرتم ما قدر اللّه علينا من محن الحكم بالإعدام إلى امتحان السجن، وأحب أن أقول لكم إن هذه الأحداث لم تفاجئنا قط، بل إني كنت

(١) (ص٦٤) من كتابه «الإمام أبو الأعلى المودودي» ط المكتبة العلمية بلاهور.

أتوقع أمثالها منذ أن وضعت أول خطاي في هذا الطريق قبل اثنتين وعشرين عامًا.. إذ من خصائص العقيدة التي نؤمن بها أن تواجه بالمحن، وقد علمنا التاريخ أن الدعوة امتُحنت في الماضي، ولا بد أن يتكرر الامتحان في الحاضر والمستقبل، سنة اللَّه ولن تجد لسنة اللَّه تبديلاً..

* **المفاجأة الرهيبة:**

وكانت هدنة تحرر المسلمون أثناءها من كابوس الإرهاب العسكري، وبخاصة بعد أن عادت الجمعية التأسيسية الجديدة إلى أعمالها، وصدَّقَتْ على الدستور الإسلامي، الذي أجمعت عليه الأمة بلسان علمائها وجماعاتها وجماهيرها الشعبية، واعتبر يوم صدوره من عام ١٩٥٦م منطلق حياة سعيدة للمسلمين جميعًا، لم يشذَّ عنهم إلا قلة من المستغربين والشيوعيين والقاديانيين والنفعيين، الذي ألقوا بأقدامهم إلى مزلقة الإثم، فلم يعودوا بقادرين على التوقف قبل أسفل الهاوية..

وعبر الإمام المودودي أيامئذ عن فرحة المسلمين بذلك التصريح الذي يصور مدى أمل المسلمين في مستقبلهم المنشود:

«نبدأ اليوم حياة جديدة، حياة شعب حر قرر بلسان ممثليه أن الحاكمية في باكستان للَّه عز وجل، وأن السلطة أمانة في عنق الأمة لا تزاولها إلا في نطاق ما حدد اللَّه ورسوله.. فالحمد للَّه الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللَّه..»[1].

ولكن.. شاء اللَّه ألا تقف محنة باكستان عند هذه النهاية البهيجة؛ لأن أعداء العدالة والخير قد صمموا على ألا يُلقوا سلاحهم وفيهم عرق ينبض، وهكذا فوجئت باكستان ذات صباح بمثل الحال التي أشار إليها قول الشاعر:

---

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/١٦ ـ ٢١).

قد سالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفـو الليالي يحدث الكدر

ففي الثامن من أكتوبر عام ١٩٥٨ أغار الجنرال محمد أيوب، وكان رئيسًا لأركان الجيش الباكستاني، على أمنها في انقلاب عسكري ألغى البرلمان ونقض الدستور، وأدخل البلاد في تيار المحن والمتاعب المتلاحقة طوال إحدى عشرة سنة، لم تعرف لها باكستان نظيرًا في كثافة البلاء وجرأة الحكام على دينها وشريعتها..

لقد صمم محمد أيوب على اجتثاث المعارضة لحكمه بكل الوسائل الممكنة، وبدا له أن يجرب أسلوب المكر مع الإمام المودودي، وكان ذلك عام ١٩٦٠ حين جاء مدينة لاهور، وهناك بعث إليه يدعوه لمقابلته في قصر الحكم، وبعد تردد بين الإجابة والرفض قرر مقابلته رجاء أن تكون المقابلة في صالح الدعوة، واستقبل أيوب الشيخ بترحيب حار وأحاطه بحفاوة جميلة، وراح يطري جهود الشيخ ويكثر الثناء على خدماته للإسلام، وقدرته البارعة في اكتساب العقول والقلوب.. حتى إذا انتهى إلى ما يريد قال:

أيها الشيخ الفاضل. أقترح عليك التفرغ للدعوة والتبليغ بعيدًا عن التورط في السياسة والانغماس في أوحالها.. وبذلك تكون أكثر نفعًا لقومك ووطنك.. ولكن الشيخ سرعان ما أبطل مكره حين أجاب:

«حقًا إن السياسة قد استحالت أوحالاً، ولذلك دخلتها لأطهرها من الأوساخ، وأجعلها نظيفة سديدة لا تدنس الأذيال بل تعود رحمة على الوطن وأهله..»[1].

*** مؤامرة على الإسلام:**

وكان هذا الجواب بمثابة النذير بمعركة جديدة بين الطغيان والإيمان..

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ٢٢).

وقد امتازت هذه المعركة بضروب من العنف والهول أكبر من كل التجارب السابقة، ذلك أن محمد أيوب قد دخلها في برنامج صريح يستهدف حربًا للإسلام لا هوادة فيها. . فقد قرب إليه منكري السنة من أتباع المدعو أبرويز، وما أدري أذلك اسم له أو لقب، ولكن المعروف أنه اسم لآخر أكاسرة الفرس، ذلك الأحمق الذي مزّق كتاب رسول اللّه فمزق اللّه ملكه وقتله بيد ولده، ولعل هذا الخائب قد اختار لنفسه ذلك اللقب إعلانًا لنيته بتمزيق الكيان الإسلامي في باكستان.

لقد راح هؤلاء الخائبون يثيرونها حربًا شعواء على السنة النبوية فيصدرون الكتب والمجلات المشحونة بالطعن عليها، وتتولى أجهزة الإعلام الحكومية توزيعها وإشاعتها، وأقبلت على وضع تفسيرات مضللة لمعاني الكتاب الحكيم، تصرفها عن مقاصدها الإلهية إلى توجيهات هدامة، كتفسيرها القطع للسارق بتأديبه في السجن والغرامة، وتفسيرها للصلاة بالحركة والنشاط والتزام الدوام الرسمي في موعده المحدد، وقولها في الزكاة إنه استثمار المال في المشروعات الإنمائية، وأتموا مؤامرتهم باعتبار رئيس الدولة بمثابة الرسول في امتلاك السلطة المطلقة في التشريع والتقنين وتفسير الأحكام القرآنية بما يراه مصلحة لعصره دون مراجعة لسنته ﷺ . .

وبهذه القحة أصدر محمد أيوب عددًا من القوانين المضادة للشريعة المطهرة، وبخاصة في نطاق الأحوال الشخصية، التي يعتبر الإخلال بها سلخًا للمسلم من صبغته الإسلامية، ومن ذلك حظر الزواج على الفتى الذي لم يبلغ السادسة عشرة مع إباحة الزنى والمخالّة له مع أيٍّ شاء من النساء. .

وفي هذا الجو الخانق أُغْلِقَتْ أفواه العلماء، وحيل بينهم وبين إبداء مرئياتهم في هذه التصرفات الخرقاء، ولم يبق في الساحة من يرجى للتنفيس عن صدور المسلمين سوى الرجل الذي وهب حياته للإسلام، فلا يبالي على

أي جنب كان في اللَّه مصرعه..

لقد انبرى المودودي لعدو السنة أبرويز وجعل يفند أضاليله الواحدة بعد الأخرى في مجلته «ترجمان القرآن» حتى أتى عليها جميعًا، فكشفه للناس عدوًا مبينًا لدين اللَّه، وهو يعلم يقينًا أنه لا يهاجم أباطيله وحدها، بل يهاجم من ورائه السلطة التي تمده بكل أسباب القوة.. ويهاجم كذلك كل من أخذ بتّرهاته من أعداء السنة. وهذا كتابه «مكانة السنة في التشريع» يجعل من هؤلاء في كل زمان ومكان أضحوكة العقلاء، بما يُعَرِّي من جهلهم لحقائق الإسلام، القائمة على الكتاب والسنة دون أي انفصام.

وتصدي لقوانين أيوب المنافية لشريعة اللَّه بالنقد العلمي الذي قطع ألسنة كل المدافعين عنها.. ما أثار حنق الطاغية فأمر باعتقال بعض قادة الجماعة الإسلامية، وزج بالسجن صاحب المطبعة التي أقدمت على نشر ذلك النقد.. ولكنه لم يتعرض لشخص المودودي، ولعله توهم أن تجريده من إخوانه في ذلك الجو الرهيب كاف للحد من نشاطه، ومُلْق في قلبه الرعب فيمسك عن مهاجمة دستوره الهدام، ولكن خاب فأله، حين رأى البطل المؤمن يتناوله بالتشريح الفاضح، فيبرز بوائقه، ويبين أخطاره على الحرية، وما يستهدفه من توطيد النظام الاستبدادي وعلى الرغم من إحجام الصحف الباكستانية عن نشر ذلك النقد الفاضح، فقد حملته الألسن إلى كل مكان فتردد صداه على مستوى الدولة كلها.

*** تصميم أعظم من الإرهاب:**

وبذلك تهيأت الأذهان لحضور الاحتفال الذي أعدته الجماعة الإسلامية لإعلان قرارها الحاسم في ذلك الدستور البغيض.. واستحصلت على إذن من النيابة بعقد ذلك الاجتماع الذي ضم ما يزيد على عشرة آلاف مندوب وعزّ على السلطة الاستبدادية أن تمر تلك المناسبة الهامة بسلام، فدفعت

أدواتها من رجال المباحث لإحداث البلبلة، فاندسوا خلال المجتمعين، وجعلوا يثيرون الشغب ويطلقون الشعارات المعادية للجماعة ولقائدها.. وهو قائم يلقي خطابه في الجمهور، وعمدوا إلى أسلاك المكبر فقطعوها لكي يمنعوا صوته من الوصول إلى الأسماع.. إلا أن الجماعة سرعان ما تداركت هذا الحال بالعودة إلى طريقة المبلِّغين، الذين نهضوا في جوانب الحفل، وجعلوا يستقبلون كلمات الأستاذ ليوصلوها إلى الحضور كاملة مفصلة.. وساء المشاغبين إخفاقهم في إفساد الاجتماع فعمدوا إلى السلاح يطلقون النار لمجرد الإرهاب أولاً، ثم وجه أحدهم طلقته إلى الإمام نفسه، ولكن شاء اللَّه أن تصيب رجلاً آخر من الجماعة فيسقط شهيدًا في الحال، ويظل الأستاذ منتصب القامة يترقب الفرصة لاستئناف خطبته، وأحاط به بعض إخوانه يدعونه للجلوس حفاظًا على سلامته، ولكنه أبى وأجاب: «لو جلست فمن سيبقى واقفًا؟!» ولم يُذهِل حرج الموقف عزيمته، وأخذ يوجه تنبيهاته لأفراد الجماعة بالتزام الهدوء، والاكتفاء بإخراج المشاغبين دون أذى.. وما هي إلا دقائق حتى عاد الوضع إلى طبيعته، وهنا أرسل المودودي الحكيم كلمته التي ذهبت مثلاً: «إن مَثَلَ الحركة الإسلامية كمثل الماء المتدفق، إذا واجه صخرة في طريقه لا يضيع جهده في تحطيمها، بل ينعطف يمينًا ويسارًا حتى يترك الصخرة وراءه تعض أناملها من الغيظ..»[1].

* بين الخرافة والغرور:

«وبلغ الغرور بمحمد أيوب بعد فوزه الصوري في ذلك الانتخاب حدّه الأقصى.. وكان ذلك في آخر رمضان من عام ١٩٥٧ إذ حلّ عيد الفطر في يوم الجمعة، فكبر على الرئيس أن يجتمع على المسلمين خطبتا الجمعة والعيد

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٤ ـ ٢٥).

في يوم واحد، وذلك بنظر الخرافيين في باكستان نذير بانتهاء الحكم القائم، لذلك بادر بمحاولة تغيير موعد العيد فأصدر الأوامر بوجوب إفطار المسلمين يوم الخميس، مع التهديد بالاعتقال لكل من يخالف ذلك الأمر. ولم يكن للميدان غير فارسه المُعْلَم، فأعلن الأستاذ ـ رحمه اللَّه ـ استنكاره لتلك الخرافة، وأكد للمسلمين بأن موعد العيد موقوف على ثبوت الرؤية، وليس لأحد أيًّا كان مركزه أن يقدم في ذلك الموعد أو يؤخره بعد الرؤية الثابتة بالشرع.. واعتبر محمد أيوب هذا التصريح من المودودي تحديًا لمقامه وإلغاء لكلامه، فأمر بإعادة اعتقاله، حيث لبث في السجن شهرين، غادره بعدهما ليشهد عقيب أشهر قليلة سقوط الطاغية وزوال عهده الأسود.. ولكن لم ينته إلى هذا المصير إلا بعد أن مهد السبيل لخليفته ذي الفقار بوتو، ومجيب الرحمن، اللذين قضيا على وحدة باكستان»[1].

*** نظرة في مؤلفات الأستاذ المودودي:**

وطبيعي أن القارئ الذي يريد الإحاطة بشخصية الإمام المودودي، لن يكفيه الاطلاع على ما كتبه عنه وعن جهاده الكاتبون، حتى يرجع إلى مؤلفاته نفسها فَيُنْعِم فيها الفكر والتأمل، ويتغلغل من خلالها في أعماق تلك الشخصية الفذة، التي أعدها القدر إعدادًا خاصًا لإيضاح معالم الإسلام، ولإيقاظ الوعي لحقائقه الجامعة المانعة على ضوء العصر، فكان بها أحد المجددين لهذا الدين.

❑ ولننظر الآن في عنوانات بعض هذه المؤلفات التي تتجاوز المئة عددًا، والتي تُرجم بعضها إلى أكثر من أربعين لغة:

١ ـ الحضارة الإسلامية: أصولها ومبادئها.

٢ ـ نحن والحضارة الغربية.

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٩).

٣ ـ الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة.

٤ ـ مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة.

٥ ـ في محكمة العقل.

٦ ـ الرسول والرسالة.

٧ ـ حقوق الزوجين.

٨ ـ تحديد النسل.

٩ ـ مبادئ الإسلام.

١٠ ـ أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة.

١١ ـ الحجاب.

١٢ ـ الإسلام كما جاء به الرسول.

١٣ ـ نظرة الإسلام السياسية.

١٤ ـ نظرة فاحصة على العبادات الإسلامية.

١٥ ـ موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه.

١٦ ـ منهاج الانقلاب الإسلامي.

١٧ ـ استفسار وذو بال.

١٨ ـ المصطلحات الأربعة في القرآن.

١٩ ـ الإسلام والجاهلية.

٢٠ ـ منهج جديد للتعليم والتربية.

٢١ ـ معضلات الإنسان الاقتصادية وحلها في الإسلام.

وفي هذه العنوانات الرامزة لمضموناتها تصوير جامع لطاقة فكرية تناولت أسس الحياة الإنسانية في ضوء الإسلام. فالحديث عن الحضارة الإسلامية ـ في الكتاب الأول ـ يتطلب علمًا يتسع لأبعاد الحياة البشرية

وموقف الإسلام من كل جزء فيها، ولا يقل عن ذلك أهمية تحديد موقف الإسلام من حضارة الغرب، التي يراد فرضها على المجتمعات الإسلامية، ثم عناصر الصمود الإسلامي في وجه التحديات العصرية. . وهكذا نلاحظ من مجموع هذه الأسماء التي اختارها المؤلف لكتبه طابع الشمول الذي يتصف به ذلك العقل الجبار، الذي ترك بصماته عميقة في ثقافة العالم الإسلامي المعاصر. ولا عجب فقد رأينا من حديث الأستاذ عن مصادره الثقافية ما أقنعنا بأن لديه من نعمة اللَّه وتوفيقه القدرة على معالجة مختلف المشكلات التي تشغل الفكر البشري في هذا الزمن، ومواجهتها بالحلول الشافية المستمدة من كتاب اللَّه الخالد وسنة رسوله الذي علمه ما لم يكن يعلم، وزوده من الحكمة بكل المؤهلات التي تؤكد أنه الرحمة المهداة. .[١] .

*** خلوات مباركات وكرامات:**

ومع أن الميزة الأولى لهذه المؤلفات سواء الصغير منها أو الكبير، هي الجدّة والعمق والنسق المنطقي، الذي يخاطب عقل القارئ وقلبه جميعًا، فقد لفت انتباهي منها حديث الأستاذ الحامدي عن كتاب «مبادئ الإسلام» الذي يقول: إنه ترجم إلى ثلاثين لغة، وصدرت منه ملايين النسخ، وكان من المهتدين به شاب أسباني كتب إلى الأستاذ عقيب قراءته إياه في ترجمته الأسبانية يقول: إنه كان قد اختار حياة الترهب فما إن اطلع على كتابه هذا حتى أُخِذَ بِهِ وانتقل من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. . لا إيمان الوادع بل إيمان من لا يخلد إلى الراحة حتى يُخْضِع الصليب في أسبانيا للَّه الواحد الأحد الصمد[٢] .

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٩ ـ ٣١).

(٢) «كتاب الحامدي» (ص٢٦).

ولئن صح ما يقوله الأستاذ الحامدي رواية عن الإمام المودودي بأنه قد أتم تأليف هذا الكتاب لإدارة التربية والتعليم في حيدر أباد، خلال أسبوع واحد فقط، فلا أشك أنها كرامة قد قيضها له اللَّه، من نوع تلك الكرامات التي كانت توافي شيخ الإسلام ابن تيمية فينتج من الأعمال العلمية في اليوم الواحد ما يعجز الآحاد من العلماء في الأسابيع والأشهر.

ولم يلتق المودودي وابن تيمية على هذا فحسب بل كان بينهما أكثر من جانب مشترك واحد. فقد كان السجن لشيخ الإسلام خلوة تساعده على المزيد من التأمل والإنتاج العلمي، وكذلك المودودي إذ بارك اللَّه عليه في سجنه، فقدر له إخراج العديد من الكتب الصالحة، منها كتابه المشهور عن «الربا» و«مسألة ملكية الأرض في الإسلام» كما أتم المجلد الأول من تفسيره الذي يسميه «تفهيم القرآن» في غياهب السجن أيضًا»[1].

*** المودودي والتصوف:**

وأي مؤمن سليم الرؤية ينكر على الأستاذ المودودي قوله عن غلاة الطرقيين في كتابه «واجب الشباب المسلم»: «وإن تعجب فعجب حال الصوفية فلا تجد بينهم من عمل بالإسلام الحقيقي وعلَّمَه إلا عددًا يسيرًا، وأما معظمهم فكانوا يدعون إلى تصوف مزاجه الفلسفات الإشراقية والمانوية والرواقية، التي اختلطت بالتصوف حتى لم تبق له علاقة مع عقائد الإسلام وأعماله الخالصة إلا قليلاً..»!!!.

وهل نحن بحاجة إلى التذكير برواسب هذا المزيج الهندي والفارسي واليوناني، في مذاهب أولئك الطرقيين، الذين شحنوا أذهان مريديهم بأفكار الحلاج وابن عربي والتجاني والجيلي، والعشرات من أمثالهم، الذين أصبحوا

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ٣١ ـ ٣٢).

قادة السواد الأعظم من عامة المسلمين.. وأصبحت أضاليلهم أعمق أثرًا في قلوبهم من كلام اللَّه ورسوله والأئمة من علماء الإسلام!!

حتى ما يسمونه التصوف النقي يرى الأستاذ المودودي التوكيد على أن الإقبال عليه لا يتفق مع مصلحة الإسلام في الظروف الراهنة، فهو بنظره كالماء الذي استيقن المريض ضرره، فيجب عليه تركه على الرغم من إباحته الأصلية[1] وقديمًا قال الحكماء: «الحكم على الشيء فرع عن تصوره»، وموقف المودودي من المتصوفة له صلة وثيقة بواقعهم الذي نشهده في كل مكان إلا ما رحم اللَّه وقليل ما هم.

* بين المودودي وأبي الحسن الندوي:

«في كتاب «التفسير السياسي للإسلام» الصادر في رمضان ١٣٩٨هـ يناقش الأستاذ أبو الحسن الندوي بعض أفكار أخيه المودودي، فيترجم إعجابه الكبير «بمقالاته القيمة التي كان يكتبها في مجلته الغراء «ترجمان القرآن» في نقد الحضارة الغربية ونظام الحياة الغربي، التي تتميز بأسلوبها الهجومي ونقدها اللاذع لحركة التقدمية والتجدد وفكرة القومية المتطرفة، التي نجمت وباضت وفرخت في حضن الثقافة الغربية، وكذلك موضوعات وقضايا في صميم الشريعة الإسلامية.. وسطر قلمه مقالات قوية مؤثرة معضدة بالدلائل أمثال «الربا» و«الحجاب» و«الجهاد» و«الأضحية» و«الرق» و«حجية الكتاب والسنة» و«الأحوال الشخصية» وما إليها من المسائل الهامة..» حتى ينتهي إلى القول بأنه: «سيكون من الإجحاف الكبير إذا لم نوف حقه من الاعتراف بما لعبته مقالاته هذه.. ومؤلفاته ورسائله المستقلة من دور رائع في إعادة الثقة إلى الطبقة الذكية المثقفة ثقافة غربية بالإسلام، وبقيمه وتصوراته وفي

(١) «التفسير السياسي للإسلام» لأبي الحسن الندوي (ص١١٧).

تخليصها من مركب النقص ونفسية الهزيمة الداخلية حيال الإسلام وتعاليمه، مما جعل بعض الكتاب يدعونه «متكلم الإسلام».

* النقد البريء:

ومن ثم يقف على بعض النقاط التي يرى شذوذها عن الخط الذي يطربه في كتابات المودودي، فيقول: إن الأستاذ المودودي من خلالها «يمارس عملاً آخر نستطيع أن نسميه «الصياغة الجديدة للفكر الإسلامي» أو «الصياغة الجديدة للإلهيات الإسلامية».

ويشرح ذلك بأنه يعني كتابه «المصطلحات الأربعة في القرآن» الذي فسر فيه تلك المصطلحات تفسيراً خاصًا يتميز بالطابع السياسي، ويدور حول «حاكمية الإله» و«سلطان الرب» يحدد علاقة العبد بربه في حدود.. «تأسيس «الحكم الإسلامي» و«إقامة الحكومة الإلهية» فحسب..

والمصطلحات الأربعة التي يدور حولها كتاب الإمام المودودي هي: الإله والربّ والدين والعبادة، وخلاصة ما ذهب إليه بشأنها هي أنها المحور الذي عليه يدور الكيان الإسلامي كله، وأن مفهومها الصريح الواضح في الحِقَب الأولى قد تغير في تصور المسلمين اللاحقين تغيراً أفقدها روحها وفاعليتها.. حتى باتت العقيدة في الألوهية والربوبية محدودة الأثر في حياة جماهير الأمة، بل أقرب إلى الموت، لا تحرك ساكنًا لتنفيذ شريعة اللَّه، وبذلك استحالت العبادة حركات لا مردود لها في نطاق الطاعة الواجبة لأوامر اللَّه ونواهيه..

فالمسلم في عبادته الخالية من روح الوعي لحقائق الإسلام والعمل بها شأنه كشأن الخادم الذي يكتفي من تعظيم مخدومه بترديد اسمه والقيام بين يديه دون أن يقوم بتنفيذ أي من تعليماته الحاسمة.. وفي تمثيل آخر يشبهه بالمريض الذي كتب له الطبيب الحاذق وصفة شافية، لكنه بدلاً من استعماله الدواء الموصوف اكتفى بقراءة الوصفة وترديد كلماتها..

ولكي يتم القيام بمضمون المصطلحات الأربعة بنظر المودودي لا بد من الجمع بين التلبس بالعقيدة السليمة في الألوهية والربوبية والتزام العبادة الحقة مع النهوض بواجب التنفيذ لأوامر اللَّه، التي في رأسها السعي لإقامة حكم اللَّه في الأرض، وإزالة ظلمات الشرك عن عباده.. حتى ليجعل أركان الإسلام الأربعة بعد الشهادتين.. مقررات تدريبة لتحقيق ذلك الهدف.

ومأخذ سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي على هذه الأفكار المتحدة عند المودودي وسيد قطب، أنها تفرغ العبادة من صفتي الذل والحب التي يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أنها ـ العبادة ـ «تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، إذ تتضمن غاية الذل للَّه تعالى بغاية المحبة له..» وهو مأخذ لا مندوحة من النظر إليه؛ لأن تجربة المؤمن الذاتية، بل اليومية، تؤكد له أن علاقته بربه قائمة على الرهبة والرغبة، وأن ثمة لحظات من التجلي تمر به فتغمره بحبه، حتى ليكاد يذهل في غمار نشوتها عن كل معاني الرهبوت والجبروت..»[1].

فتركز المودودي وسيد قطب ـ رحمهما اللَّه ـ على الجانب السياسي فقط في موضوع المصطلحات الأربعة يؤخذ عليهما، وإن كان لهما العذر في الواقع الرهيب الذي يعانيه الإسلام في ظل العلمانية والخطر الهائل الذي يهدد الإسلام والمسلمين بالزوال إذا لم يكن لهم الكيان الذي تحكمه شريعة القرآن.. لا بد أن يؤخذ الإسلام ككل، ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾، لا بد أن يؤخذ التوحيد بشموله، ولا يحصر الإسلام في الجانب السياسي فقط.

*** الدين النصيحة.. وكل يخطئ ويصيب:**

إن الشيخ المودودي ـ رحمه اللَّه ـ أكثر الكتابة في مواضيع مختلفة

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ٣٤ ـ ٣٦).

ومتنوعة. فزلّ قلمه في بعض الأمور التي نراه قد رجع عن كثير منها، إلى الصواب الذي فقده في كتاباته القديمة، أو أدخل تعديلاً في العبارات التي كانت مثار سوء تفاهم لدى الناس، أو وعد بذلك عند تنبيه القرّاء على بعض أخطائه، كما لا يخفى على من له إطلاع على كتاباته القديمة والحديثة[1].

---

(١) راجع على سبيل المثال:

تفسير آية ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١] في تفسيره «تفهيم القرآن» (ط. أولى)، حيث أخطأ في تفسير الآية، وصحّحه في الطبعات الأخرى ـ انظر (١/ ٣٢٦) ـ طبعة لاهور ١٩٨٢م.

ـ وكذا في تفسير آية: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وقع في الخطأ، وصححه في تفسيره «التفهيم» (طبعة لاهور ١٩٨٢).

ـ ذهب إلى إباحة المتعة في بعض الحالات الاضطرارية (ترجمان القرآن) أغسطس ١٩٥٥م، (٤/ ٣٧٩) عدد ٦.

وحينما سئل عن توضيح هذا الأمر، قال: «كنت أريد من هذا إصلاح أفكار الذين أجازوا المتعة مطلقًا بدون شرط الاضطرار، ولكني أتأسف على أنه نشأ سوء تفاهم من أسلوب كتابتي بأني أجيز المتعة في حالة الاضطرار، والحق أنني أقول بحرمتها قطعًا، وصرّحت بذلك قبل عدّة سنوات في «رسائل ومسائل» (٢/ ٢٠ ـ ٢٣) فاطمئنوا على أنه سيدخل تعديل في مثل هذه العبارات عند المراجعة بحيث لا يبقى إمكان لأي سوء فهم» «رسائل ومسائل» للمودودي (٣/ ٤١) ـ ط رابعة، فبراير ١٩٨١م بدلهي).

فالانتقاد على الشيخ المودودي في مثل هذه المسائل، بناء على كتاباته القديمة خلاف الحق والصواب، وخلاف الأمانة العلمية أيضًا.

ـ ولكن للأسف أن السيد علي النقوي من علماء الشيعة استغلّ كلامه لإثبات المتعة فقال: «قد أقرّ بإفادية المتعة مفكّر العصر الشهير العلامة أبو الأعلى المودودي، أمير الجماعة الإسلامية، بكتابة مقال مفصل حول الموضوع» «الأستاذ المودودي في نظر علماء أهل الحديث» (ص١٥) طبعة غوجرانواله ـ نقلاً عن «المتعة والإسلام» للسيد علي النقوي (ص٧) ـ نشر المكتبة الإمامية بلاهور.

ـ ولم يقتصر الأمر على هذا، بل الشيعة اتخذوا بعض كتابات الشيخ المودودي الأخرى أيضًا حول «الصحابة» ﷺ ـ تكأة يتكئون عليها، وليس هذا مجالاً للتفصيل. ومن يريد ذلك فليراجع كتابه «الخلافة والملك» الذي طبعته «دار القلم» بالكويت. =

وهذا الذي كان يرجى منه ومن أمثاله العاملين في حقل الدعوة الإسلامية؛ لأن الإنسان يخطئ ويصيب، وهو مركب الخطأ والنسيان، فالرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. وهذا هو دأب العلماء قديمًا وحديثًا.

*** موقفه من الحديث النبوي:**

دخل الشيخ المودودي خلال كتاباته ـ وللأسف الشديد ـ في بعض المواضيع الشائكة أيضًا التي لم يكن يحسنها، فوقع فيما لا تحمد عقباه من الأخطاء والزّلات، ونبّهه العلماء عليها، ولكنّه ـ مع ادعائه لرحابة صدره في الرجوع إلى الحق، وترحيبه بالنقد البنّاء ـ لم يرجع عنها.

ومن هذه المواضيع موقفه من الحديث النبوي، الذي نراه ثابتًا لم يطرأ عليه تغيير يذكر. وكتاباته حول نقد منهج المحدثين، والإسناد والمتن، والرواية

= وقد قام بالردّ على هذا الكتاب عديد من علماء شبه القارة الهندية دفاعًا عن الصحابة ﷺ.

(١) وإليكم بعض المسائل منها:

ـ تأويله لآيات الصفات، وعدم إمراره إياها كما جاءت، وذلك في تفسيره «تفهيم القرآن».

ـ وتأويله لبعض المعجزات، مثلاً قال في تفسير آية: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] ما معناه: «يفهم من هذه الآيات أن داود ـ عليه السلام ـ حينما كان يحمد اللّه تعالى، ويثني عليه، كانت الجبال ترتج بصوته الندي الجميل، والطيور تتوقف، وطرأت كيفية عجيبة» (تفهيم القرآن: ٣/ ١٧٥) هذا التأويل «لتسخير الجبال» (أي: ارتجاج الجبال بالصوت) ليس خاصًا بداود عليه السلام ـ بل «الارتجاج» والصدى يحصل بصوت كل واحد من الناس. ولأجل هذا عقب عليه الشيخ عبدالماجد الدريابادي قائلاً: «إن هذا المعنى لتسخير الجبال لداود ـ عليه السلام ـ ليس تفسيراً للقرآن، بل هو تحريف له. (التفسير الماجدي: الأنبياء ٧٩).

ـ وقلة الاهتمام بالأحاديث في فهم القرآن.

والدراية مضطربة، ونقده لبعض أحاديث الصحيحين يلقى رواجًا في أوساط الجماعة الإسلامية بدعوى حرية التفكير والتحقيق في النظام الإسلامي. وخاصةً مقاله «مسلك الاعتدال»[١] المطبوع في التفهيمات، الذي أبدى فيه آراء متفككة في ظنية خبر الآحاد، وخرج على منهج المحدثين في نقد الحديث، ونظر إليه بنظر الريبة والشكّ. كما ردّ فيه على طائفة منكري الحديث، انتقد على أنصاره أيضًا، ما ينشئ جراثيم لرفض الحديث، ويفتح أبوابًا سرّية لإنكاره، أمام أصحاب العقول المريضة، والأفكار السقيمة الذين يبحثون عن كلمات يتخذونها شبكة يصيدون بها سفهاء الأحلام، وصغار العقول.

وقد وقع ما كان يُخَافُ منه، هذا «غلام أحمد برويز» رئيس طائفة منكري الحديث، استشهد بكلام الشيخ المودودي على تأييد وجهة نظره الرافضة للحديث مرّات، وخاصة استغل هو وزملاؤه «التفهيمات» للشيخ المودودي، للردّ على أنصار الحديث في كثير من الأحيان، حتى قال هذا الغلام مستفزًا الجماعة الإسلامية:

«عقيدتي وعقيدة الشيخ المودودي في قضية إنكار الحديث سواسية، فلا تناقشني الجماعة الإسلامية فيها بدون طائل»[٢].

وأضاف إلى ذلك أن أول مقال ضدّ الحديث لهذا الغلام نشر بعنوان «عبودية الشخصية» في مجلة «ترجمان القرآن» للشيخ المودودي. وأيّده في ذلك الوقت إلى حد كبير[٣].

لم يكن الشيخ المودودي منكرًا للحديث مثل «غلام أحمد برويز» (معاذ

---

(١) وهو أحرى بأن يسمى «مسلك الاعتزال».

(٢) «إضاحة الحق» للقريشي (ص٧٤ ـ مقال الشيخ محمد يونس الدهلوي) نقلاً عن «طلوع إسلام» عدد إبريل ـ مايو ١٩٥٥م.

(٣) «موقف الجماعة الإسلامية من الحديث» (ص٤٤ ـ مقدمة الفوجياني ـ طبعة الكويت).

اللَّه)، ولا يقول ذلك إلا معاند بل هو ردّ على هذا الغلام وغيره من منكري الحديث في كتاباته، حتى ألّف كتابه «المكانة التشريعية للسنّة» ولكن إذا نُظِرَ إلى كتاباته المتعلقة بالحديث بمنظار المحدّثين تتصل حدودها بإنكار السنّة. وذلك لنقد منهج المحدثين نقدًا حرًا بدون التقيد بالقواعد والأصول، ورميه إياهم بالاتكال على الرواية دون الدراية وتشكيكه في صحة بعض أحاديث الصحيحين، وخلطه في مبحث ظنّية خبر الآحاد[1].

وهناك نقاط تشبث بها منكرو الحديث قديمًا وحديثًا للرد على الأحاديث الصحيحة كما ذكرها الشيخ المودودي نفسه في «التفهيمات» (١/ ٣٥٤)، والفرق بينهم وبينهم هو الفرق ما بين الرد الجزئي، والرفض الكلي؛ لأنهم يعممون هذه القواعد ويجعلونها معياراً على السنة، والشيخ يردّ بها بعض الأحاديث الصحيحة وقد قال بعد ذكر هذه النقاط، وهو بصدد الرد على منكري الحديث «يستدلون بهذه الأفراد على رفض المجموعة الحديثية كلها، وهذا أشبه بالاستدلال بشرور عدة أفراد من الجماعة على شرور الجماعة كلها» (التفهيمات١/ ٣٥٤).

ومن خلال التتبع لكتابات الشيخ المودودي نجده يرد بعض الأحاديث الصحيحة لمخالفة الحديث للعقل والذوق، أو مخالفته للقرآن، أو مخالفته للوقائع التاريخية.

وبعض النقاط في كتابات المودودي لرد الأحاديث الصحيحة لا يؤدي إلا إلى عدم الثقة بجهود المحدثين، وإلى تأليه العقول والذوق إزاء الأحاديث الصحيحة.

ومن الأحاديث التي ردّها الأستاذ المودودي «حديث الكذبات الثلاث»[2].

---

(١) «زوابع في وجه السنة» لصلاح الدين مقبول (ص١١٨ ـ ١٢١).

(٢) رواه البخاري ـ كتاب البيوع ـ باب شراء المملوك من الحربي وهبته وعتقه، و«صحيح =

❑ وحديث سليمان عليه السلام «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة...» وفي رواية «تسعين» وهو أصح[١].

وردّ المودودي حديث الجسّاسة والدجال الذي رواه مسلم (٢٩٤٢)، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن أبي شيبة في «مصنفه»، وأحمد، والطيالسي عن فاطمة بنت قيس، وأبو يعلى في مسنده عن جابر.

وقد سئل الأستاذ المودودي عن الدجال: «يشهر عن المسيح الدجال بأنه مقيد بالسلاسل في مكان ما، فما هو المكان الذي حُبس فيه، وقد وصل الإنسان اليوم في كل زاوية من زوايا الدنيا، فما هو السبب بأنه لا يوجد له خبر ولا أثر الآن»[٢].

❑ ردّ عليه الشيخ المودودي بما يأتي:

«هذا المسيح الدجال وغيره من الأساطير[٣]، التي ليست لها أي حيثية شرعية، وأيضًا لسنا في حاجة إلى البحث عن مثل هذه الأشياء، والإسلام ليس مسئولاً عما اشتهر بين العامة من الناس من هذه الأمور. فإن ثبت خطأ بعضها لا يتضرّر به الإسلام شيئًا؟!»[٤].

❑ تعقبه سائل على ذلك، فقال:

«سُئِلتَ في مجلة «ترجمان القرآن» عما هو مشهور عن المسيح الدجال،

= مسلم» (٢٣٧١)، وسنن أبي داود (٢٢١٢)، و«جامع الترمذي» (٣١٦٥).

(١) «صحيح البخاري» أحاديث الأنبياء ـ باب قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾، و«صحيح مسلم» (١٦٥٤)، وسنن النسائي (٧/ ٢٥).

(٢) «الرسائل والمسائل» للمودودي (١/ ٤٤ ـ ٤٥) تحت عنوان «القرآن والحديث والحقائق العلمية».

(٣) ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

(٤) «الرسائل» (١/ ٤٦) (نقلاً عن مجلة «ترجمان القرآن» عدد رمضان ـ شوال ١٣٦٤هـ سبتمبر ـ أكتوبر ١٩٤٥م).

بأنه محبوس في مكانٍ ما، فما هو المكان، وقد وطئت أقدام الإنسان كل ناحية من نواحي الدنيا، فلماذا لا يوجد له أثر ولا خبر؟

ورددت على السائل «بأن المسيح الدجّال وغيره من الأساطير التي ليس لها أي حيثية شرعية».

ولكن لحد علمي ورد ذكر الدجال على الأقل في ثلاثين رواية، ويمكن تصديقه بالرجوع إلى «صحيحي البخاري ومسلم»، و«سنن أبي داود» و«جامع الترمذي»، و«شرح السنة»، و«سنن البيهقي».

فعلى ماذا ينبني ردك على السائل عن المسيح الدجال؟»[1].

فرد الشيخ المودودي على السائل: «إن الأمر الذي تحققت فيه أنه «أسطورة» هو ذلك الوهم الذي يؤكد أن الدجال محبوس في مكان ما»!!!.

*** إصرار الشيخ المودودي على موقفه من الحديث وردّ العلماء عليه:**

لقد أصرّ الشيخ المودودي على هذا الموقف من الحديث رغم المناقشات الكثيرة التي دارت حوله بينه وبين علماء شبه القارة الهندية وتبناه أصحابه أيضًا ـ إلا من رحم ربّهم ـ ودافعوا عنه. حتى سهل الآن على العامّة منهم فضلاً عن الخاصة أن يردّوا بعض أحاديث «الصحيحين» بدون أي مبالاة، معتمدين على كتاباته بهذا الصدد[2].

وقد طلب من الشيخ بعضُ المحبّين له، والمخلصين لدعوته الرجوع عن الكتابات التي تقلّلُ أهمية الحديث، وخاصّةً ما ورد في «مسلك الاعتدال»، وأثار ضجّة في الأوساط الدينية، وعوّق سير الدعوة. ولكنه لم يزل مدافعًا

(١) «الرسائل والمسائل» (١/ ٤٧) تحت عنوان «تحقيق حديث الدجال».

(٢) زد إلى ذلك أن كتابه «مسلك الاعتدال» الذي يعتبر قاعدة كلّية لنقد منهج المحدثين ـ حسب زعمه ـ نُشِرَ أخيرًا في الكويت للتوزيع مجّانًا، تعصبًا لرأيه فقط؛ لأنه لا يخدم أي جانب من جوانب الدعوة. فنسأل اللّه السلامة!.

عن موقفه، محاولاً إقناع المعارضين له من غير أن يطرأ عليه أي تغيير[١] .

ولأجل إصراره على هذه الموقف من الحديث ردّ عليه كثير من العلماء في كتبهم المستقلّة، غير البحوث والمقالات المنشورة في الجرائد والمجلاّت[٢] .

ومنهم:

ـ الشيخ أبو الوفاء ثناء اللّه الأمرتسري.

ـ والشيخ الحافظ محمد الغوندلوي.

---

(١) راجع الاستدراك على «مسلك الاعتدال» المنشور في آخره، و«الرسائل والمسائل» (١/ ٢١٩ ـ ٢٣٥) حيث ردّ على السائلين عن هذا الموضوع بعناوين مختلفة، مثلاً: «الحديث والفقه»، و«حرّية التحقيق في النظام الإسلامي للجماعة»، و«مكانة الإسناد والتفقّه في تحقيق الأحاديث».

(٢) أما الردود على الشيخ المودودي في مجالات أخرى مختلفة فتبلغ حسبما عرفت بالأرقام (مائة وعشرة كتب) ما بين صغير وكبير، ورطب ويابس، وعنيف وليّن.

ردّ عليه من علماء «ديوبند» الأحناف المعروفين:

ـ الشيخ حسين أحمد المدني.

ـ والشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

ـ والشيخ ميان محمد الدهلوي.

ـ والسيد مهدي حسن (مفتي ديوبند).

ـ ونظرة عابرة في فهرس الردود على الشيخ المودودي، تكشف أيضًا عن أسماء بعض الشخصيات المعروفة على مستوى العالم الإسلامي، التي التزمت بالجماعة الإسلامية، ثم انفكّت عنها. وألفّت في تحديد مواضع الضعف في الجماعة وأميرها حسب تجاربها.

ومن هذه الشخصيات:

ـ السيد أبو الحسن علي الندوي.

ـ والأستاذ أسرار أحمد.

ـ والأستاذ وحيد الدين خان.

ـ والأستاذ عبيداللّه الكاشميري.

ـ والشيخ منظور أحمد النعماني ـ وغيرهم.

ـ والشيخ عبداللَّه الأمرتسري الروبري.

ـ والشيخ عبدالرؤوف الرحماني.

ـ والشيخ محمد إسماعيل السلفي.

ـ والشيخ عبدالمبين منظر البستوي.

ـ والشيخ الحافظ محمد صلاح الدين يوسف.

❑ وقال العلامة محمد إسماعيل السلفي ردًّا على «مسلك الاعتدال» للشيخ المودودي:

«وخاصة «مسلك الاعتدال» فقد قاءت فيه مزبلة الدماغ حثالة أفكارها بدون اعتدال. فلو أن أحدًا من منكري الحديث كتبه لم يكتب إلا ذلك»[1].

غفر اللَّه له وأجزل له المثوبة جزاء حسناته وعفا عن هفواته.

* * *

(١) «موقف الجماعه الإسلامية من الحديث النبوي» (ص١٢٨) الدار السلفية بالكويت.

* عالم عصره وعلاّمة مصره مربّي الرجال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ:

ولد ـ رحمه اللّه ـ في الرياض سنة ١٣١١ هجرية.. وتلقى علومه على أيدي الصفوة من علماء مصره وفي مرض موت عمه الشيخ عبداللّه بن عبداللطيف أوصى الشيخ الملك عبدالعزيز به خيراً، وأعلمه بكفاءته العلمية والشخصية، وأنه يصلح أن يكون خليفة عنه بعد مماته في كل ما كان يقوم به من نشر العلم والدعوة إلى اللّه تعالى والإفتاء وحل المشكلات العامة وتذليل الصعاب. ولما توفى عمه عين الملك عبدالعزيز الشيخ محمد بن إبراهيم خلفًا له في الإفتاء والتدريس وعمره ٢٨ عامًا. «فصار مرجع الناس في الإفتاء، وإمامًا للناس في الفروض الخمسة في مسجد الشيخ، وشيخ العلم والتعليم فيه أيضًا، فكان يجلس فيه لطلبة العلم من بعد صلاة الفجر حتى بعد صلاة العشاء، تقرأ عليه الأفواج في جملة من العلوم الشرعية والعربية، وهو بين ظهرانيهم مَعين لا ينضب، ونشاط لا ينقطع، وعلم لا ينحسر، ودأب عجيب دائم، لا يُغني هذا الكلام عن تصوره حقيقة، ولذا سأدع الحديث هنا لفضيلة الشيخ عبداللّه بن عبداللطيف، إذ يقول في ترجمته في كتابه «مشاهير علماء نجد» (ص١٧٠) وهو يتحدث عن طريقة تدريس الشيخ وأوقات جلوسه للتعليم والمستفيدين[1] : كان الشيخ ـ رحمه اللّه تعالى ـ إذا صلى الفجر، جلس في المسجد يقرأ عليه صغار الطلبة في كتاب «الآجرومية» في النحو، وبعدهم يقرأ عليه متوسطو الطلبة في كتاب «القطر» لابن هشام في النحو، وبعدهم يقرأ عليه كبار الطلبة في «ألفية ابن مالك» وشرح ابن عقيل عليها في النحو أيضًا.

(١) «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر» لعبدالفتاح أبي غدة (ص٢٦٤) ـ مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

❑ فإذا انتهوا من قراءة النحو في «الألفية» وشرحها، قرأوا عليه في الفقه من متن «زاد المستقنع» غيبًا، فإذا قرأ آخرهم وسكت، أخذ الشيخ في قراءة ما قرأوه من المتن من حفظه، وشرع يتكلم على بعض العبارات، ويوضح معاني الكلمات، فإذا انتهى شرع أحد الطلاب في قراءة شرح «الزاد» المسمى «الروض المربع شرح زاد المستقنع»، قراءة ترتيل، يقف عند كل فقرة وجملة، والشيخ يُعلق على عبارات الشارح وجمله، بكلام يوضح المعنى ويزيل الإشكال، ويصور المسائل تصويرًا ملموسًا، يقرِّب المعاني الفقهية إلى أذهان الطلبة، ويقرر قواعدها في نفوسهم.

فإذا انتهى من تقريره على الفقه، شرعوا في القراءة عليه في «بلوغ المرام» فإذا أشارت الساعة إلى الواحدة نهارًا ـ بالتوقيت الغروبي وذلك وقت الضحى ـ انصرف إلى داره وجلس فيها فإذا حانت الساعة الثالثة، جاءه كبار الطلبة وخواصهم، وقرأوا عليه إلى الساعة الخامسة قبيل الظهر، ثم انصرفوا، فإذا أُذِّن بالظهر، خرج وصلى بالناس في المسجد، وجاءه أهل المطولات وقرأوا عليه في مختلف الكتب، كـ «جامع الترمذي»، و«صحيح البخاري» و«زاد المعاد»، فإذا انتهوا قرأ عليه بعض الطلبة في المتون العلمية غيبًا، مثل «كتاب التوحيد» و«العقيدة الواسطية».

❑ فإذا أُذِّن بالعصر خرج إلى داره وجدّد الوضوء، ثم رجع وصلى بالناس العصر، وجلس في المسجد يقرأ عليه أحد أعيان الطلبة في بعض الردود، فإذا انتهى قرأ عليه جملة من الطلبة في مصطلح الحديث، فإذا انتهوا قرأوا عليه في «العقيدة الحموية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فإذا بقي إلى أذان المغرب مقدار نصف ساعة خرج إلى داره.

❑ فإذا أُذن بالمغرب جاء وصلى بالناس، ثم جلس في المسجد للطلبة، يقرأون عليه علم الفرائض والمواريث، فإذا حان أذان العشاء، قام من حلقة درس الفرائض إلى الصف الأول في المسجد، وتنفل بركعات، ثم أمر

القارئ، فشرع يقرأ عليه في «تفسير ابن كثير» إلى الساعة الثانية والنصف، فيأمر بإقامة صلاة العشاء، فإذا أقيمت وصلى بالناس تنفّل وأوتر، وخرج إلى داره وهي قريبة من مسجده.

وكان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ لا يدع طالب العلم المبتدئ يقرأ عليه في الفقه والمطوّلات، حتى يقرأ عليه في مختصرات الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فإذا قرأها عليه عن ظهر قلبه، سمح له في القراءة عليه في مختصر «المقنع» وغيره في كتب الفقه، وفي القراءة في «بلوغ المرام» وغيره من كتب أحاديث الأحكام وشروحها، و«الروض المربع» فكان يربي الطلبة بصغار العلوم قبل كبارها. وقد استمر على هذا الترتيب في الدروس بهذه الصفة، إحدى وأربعين سنة من عام ١٣٣٩ إلى عام ١٣٨٠، حيث ترك جميع الدروس ما عدا درس الفقه و«بلوغ المرام»، فإنه لم يترك الجلوس لهما بعد صلاة الفجر، إلى أن حبسه المرض، فاقتصر على درس التفسير قبيل القيام إلى صلاة العشاء يُقرأ عليه في تفسير ابن جرير الطبري «انتهى كلام الشيخ عبداللَّه بن عبداللطيف.

وهذه حقبة كبيرة من الزمن في عمر الرجل العالم ٤١ عامًا: تعليمًا وتدريسًا وتفقيهًا وتحديثًا، فقد كان الشيخ «أمة» في جسد رجل، وكان مسجده «جامعة» في قلب نجد، ملأت بلاد نجد وغيرها علمًا، وأنارتها بعلوم الشريعة، قبل أن تُبنى مدارس التعليم والمعاهد والكليات والجامعات، التي هي أثر من آثار نهضة الشيخ العلمية ـ رحمه اللَّه تعالى ـ وجزاه عن العلم والدين والإسلام خيرًا.

وكانت علوم الشيخ عيونًا صافية متدفقة، أروت الظماء، وأنشأت العلماء، وأسس الشيخ بجهوده المخلصة لنهضة علمية كبرى، فقد تخرّج به أعداد كبيرة لا تُحصى من العلماء والمحصّلين، وحسبك أن تعلم أن جُلّ أكابر

علماء المملكة اليوم هم من تلاميذه، وهم الذين يشغلون أعلى المناصب العلمية والدينية، ويملأون مناصب القضاء والإفتاء والتدريس والوعظ والإرشاد والدعوة إلى اللَّه تعالى.

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتان بين قرىً وبين رجال[1]

*** تلامذته وأبناؤه في العلم:**

أمضى الشيخُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ كلَّ عمره الشريف في التعليم ونشر العلم والدعوة إلى اللَّه تعالى..، وقد عاش نحو ثمانين عامًا، عاش منها فوق خمسين عامًا يَنشُرُ تلك الفضائل، ويَبُثُّ ذلك الخيرَ في أبناء الأمة، فما تكادُ تجدُ عالمًا كبيرًا في هذه الديار إلاَّ وهو من تلامذته، أو من الطبقة التي أخَذَتْ عن تلامذته، وهم جميعًا مُستقون من مَعينه، مُتعلِّمون بين يديه، ومتتلمذون عليه، فحَصْرُ تلاميذه عَدَدًا وتسميةً أمرٌ عسيرٌ، لا يُمكِن انضباطُهُ.

فشيوخُ العلم الكبار والجامعات الإسلامية والكليات والمعاهد العليا، وشيوخُ القضاء والإفتاء، وشيوخُ المعاهد المتقدمين في العلم هم من طلابه، وهذا أمرٌ معروفٌ، ونَسبٌ شريف يَتفاخَرُ به المنتسبون إلى حلقة الشيخ في هذه الديار النجدية، ويَعتَزُّون به. وما كان بي من حاجة إلى تسمية أحد منهم، لولا أن البعيدَ عن هذه الديار، إذا سَمعوا أسماءَ بعض تلامذة الشيخ الذين هم من كبارِ أهل العلم اليوم، زادَتْ معرفتُهم بمقام الشيخ العلمي وزعامتُه الدينية الوارفة، فمن أجلِ هؤلاء أسوق بعضَ الأسماء، معتذرًا عن عدم الاستيفاء[2].

(١) «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي» (ص٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٢) الأسماءُ المذكورة جلُّها منقول من ترجمة الشيخ في كتاب «مشاهير علماء نجد» للشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ، وهناك أسماءٌ كثيرةٌ أخرى.

١ ـ سماحة الشيخ عبدالله بن محمد بن حُمَيد، الرئيس الأعلى لمجلس القضاء.

٢ ـ سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز، الرئيس العام لإدارة الإفتاء والبحوث والدعوة.

٣ ـ معالي الشيخ عبدالملك بن إبراهيم، شقيق الشيخ، والرئيس العام لهيئات الأمر بالمعروف بالمنطقة الغربية.

٤ ـ معالي الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم، نجل الشيخ، ومدير جامعة الإمام محمد بن سعود قبل تقاعده.

٥ ـ معالي الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم، نجل الشيخ، ووزير العدل قبل تقاعده.

٦ ـ الشيخ سليمان بن عبيد آل سلمى، رئيس المحكمة الكبرى بمكة المكرمة.

٧ ـ معالي الشيخ عبدالله بن سليمان المِسعَري، رئيس ديوان المظالم في المملكة سابقًا.

٨ ـ العَلاَّمة الشيخ عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد، رئيس هيئة التمييز بالمنطقة الوسطى والشرقية.

٩ ـ معالي الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ، رئيس هيئة الأمر بالمعروف في المملكة ووزير المعارف سابقًا.

١٠ ـ العَلاَّمة الشيخ عبدالله بن يوسف الوابل، نزيل مدينة أبها ومفتي عسير ورئيس قضاتها.

١١ ـ الشيخ عبدالرحمن بن فارس، أحد قضاة مدينة الرياض أيضًا.

١٢ ـ الشيخ عبدالرحمن بن سعد، القاضي، من بلدة مَلْهَم.

١٣ ـ الشيخ إبراهيم بن سليمان من آل مبارك، قاضي بلدة الخَرْج والأفلاج.

١٤ ـ الشيخ سعد بن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن رُوَيشِد.

١٥ ـ الشيخ إبراهيم بن عبدالله آل الشيخ، ابن أخي الشيخ.

١٦ ـ الشيخ محمد بن عبدالعزيز بن الشيخ حمد بن عتيق.

١٧ ـ الشيخ عبدالعزيز بن عجلان، من بلدة نَعَام المعروفة.

١٨ ـ الشيخ محمد بن مسلم آل عثيمين، قاضي مدينة تبوك والبِدَع.

١٩ ـ الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله بن فَرَيّان.

٢٠ ـ الشيخ راشد بن صالح بن خُنَيْن، وكيل ثم المستشار في الديوان الملكي.

٢١ ـ الشيخ سعود بن رُشُود، رئيس محكمة الرياض.

٢٢ ـ الشيخ سعد بن محمد بن فيصل آل مبارك، قاضي مدينة شقراء.

٢٣ ـ الشيخ محمد بن مُهَيزِع، أحد القضاة في مدينة الرياض.

٢٤ ـ الشيخ عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي، جامع «مجموع فتاوي ابن تيمية».

٢٥ ـ الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن قاسم العاصمي، نجل المذكور قبله ومعينه في جمع «الفتاوي».

٢٦ ـ الشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن قاسم العاصمي، أمين مكتبة كلية الشريعة بالرياض.

٢٧ ـ الشيخ محمد بن الأمير، أحد قضاة المحكمة الكبرى في الرياض.

٢٨ ـ الشيخ صالح بن محمد بن لحيدان، رئيس الهيئة القضائية العليا.

٢٩ ـ الشيخ محمد بن جبير رئيس ديوان المظالم في المملكة رئيس مجلس الشورى.

٣٠ ـ الشيخ زيد بن فياض الوهبي التميمي مؤلف الروضة الندية وغيرها.

٣١ ـ الشيخ عبدالرحمن بن عتيق، القاضي.

٣٢ ـ الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز الخضيري، القاضي.

٣٣ ـ الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز الراجحي، أحد المدرسين.

٣٤ ـ الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الراشد، أحد المدرسين.

٣٥ ـ الشيخ محمد بن فُوزان بن مُشرف، أحد المدرسين.

٣٦ ـ الشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري، العلامة المحدث الفقيه الباحث في دار الإفتاء.

٣٧ ـ الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن جابر، القاضي.

٣٨ ـ الشيخ إبراهيم بن عبدالرحمن بن قاسم العاصمي، أحد المدرسين.

٣٩ ـ الشيخ عبدالله بن سليمان المنيع، القاضي سابقًا، من هيئة كبار العلماء.

٤٠ ـ الشيخ صالح بن علي الغصوب، العلامة عضو مجلس القضاء الأعلى.

٤١ ـ الشيخ حسن بن عبداللطيف المانع، العلامة المدرس.

٤٢ ـ الشيخ علي بن عبدالله بن مسلم.

٤٣ ـ الشيخ عبدالعزيز بن محمد بن شلهوب، مدير معهد إمام الدعوة العلمي سابقًا.

٤٤ ـ الشيخ عبدالله بن سليمان المعيوف.

٤٥ ـ الشيخ عبدالرحمن بن محمد الهويمل، قاضي الرياض.

٤٦ ـ الشيخ عبدالعزيز بن خلف بن عبدالله الخلف، القاضي وصاحبُ كتاب: نظرات في كتاب حجاب المرأة المسلمة للألباني.

٤٧ ـ الشيخ محمد بن خلف بن عبدالله الخلف، القاضي.

٤٨ ـ الشيخ عبدالعزيز بن محمد العريفي، القاضي.

٤٩ ـ الشيخ مُقبِل بن عبدالله العصيمي، القاضي.

٥٠ ـ الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، المدرّس.

هذه شَذْرَة من أسماء تلامذة الشيخ، لا تُعبِّر عن عددهم إطلاقًا، فهم لا يُحصَون كثرةً كما أسلفتُ، وإنما تُعبِّرُ عن نموذج للمستوى العلمي الرفيع الذي نهض به الشيخُ، وخلَّفَه في أبنائه أكابِر العلماء في هذه الديار السعودية.

وهذه شَذْرَةٌ من تاريخ حياته الحافلة بالمآثر والعطاء والمحامد الشمَّاء، فللَّه دَرُّه وبِرُّه، واللَّهُ المرجوُّ أن يتغمده بواسع رحمته، ويُسبِغَ عليه شآبيب رضوان العظيم.

وما كلُّ ما فيه من الخير قلتُهُ وما كلُّ ما فيه يقولُ الذي بعدي[1]

*** اهتمام الشيخ بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

كانت الدعوة إلى اللَّه شعار الشيخ وحليته، وكان له فيها اليد الطولى.

«وبداية رحلة الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ في الدعوة إلى اللَّه أن أرسله الملك عبدالعزيز ـ رحمه اللَّه ـ ناصحًا ومرشدًا لأهل الغطغط لما رأى تشديدًا منهم

(١) المصدر السابق (ص٢٨٥ ـ ٢٩٠).

في الدين وتكفيراً وغلواً ينافي الشرع وذلك سنة ١٣٤٥هـ وعمره ٣٤ سنة، فأخذ يناصح الإخوان ويسايسهم بحكمة ويبين لهم أحكام الشرع وما يجب عليهم من طاعة ولاة الأمور، وأقام ـ رحمه اللَّه ـ بين ظهرانيهم ستة أشهر صاحبه فيها أخوه الأصغر عبدالملك بن إبراهيم كاتبًا ومرافقًا وحمل معه كتبًا للمطالعة فشرح للإخوان أصول التوحيد وضوابط التكفير، وبيّن لهم عبارات أئمة الدعوة وفسّرها، واحتج لهم بالنصوص الشرعية وقعدّ لهم في ذلك القواعد، فأفادهم في ذلك أدلة سمعية وعقلية، فتراجع منهم مجموعة، ولكن بعضهم بثّ فيهم روح الشقاق وعدم القناعة، فعلم الشيخ أنهم يكيدون له، وأنهم يرومون قتله، فأمر بتجهيز مطيته، وحمل عليها كتبه ليلاً وما خفّ من متاع، ثم تركها عائدًا إلى الرياض»[1].

*** آثاره الباقية في إقامة مناهل العلم والدين:**

لم يكن يُقنِع الشيخ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما رآه من كثرة الطلبة والعلماء حوله، فقد رغب أن يعمّ هذا الازدهار العلمي الأطراف البعيدة والقريبة في المملكة، على وجه نظامي موسع، ليُدخل العلم إلى كل قرية وبلد، فرأى في عام ١٣٦٩ أن يُنشأ في الرياض معهد علمي نظامي يكون تحت نظره وإشرافه، حتى يحتذَى به في إنشاء أمثاله في بقية البلاد السعودية، وتمّ افتتاح المعهد العلمي بالرياض في سنة ١٣٧١ تحت نظر الشيخ وإشرافه، ثم رأى إنشاء «كلية الشريعة في عام ١٣٧٣هـ تحت إشرافه أيضًا، واستقبلت خريجي المعهد العلمي، وكانوا طلائع الخير للأفواج المتلاحقة. ورأى الشيخ أن يعمم هذه الثمرة العظيمة في أنحاء المملكة، فتحصّل في عام ١٣٧٤هـ على أمر ملكي، يخوّله افتتاح فروع لهذا المعهد في سائر جنبات المملكة كما

(١) «إتحاف النبلاء بسير العلماء» لراشد بن عثمان الزهراني (١/ ٩٤ ـ ٩٥) ـ دار الصميعي.

يريد، فأمر سماحته بافتتاح ستة معاهد. ورأى سماحته أن يكون للغة العربية كلية مستقلة فأنشئت كلية اللغة العربية بالرياض في عام ١٣٧٤، وكانت تحت إشرافه أيضًا.

ثم تتابع افتتاح المعاهد العلمية في سائر أنحاء المملكة. وأنشأ مكتبة عامة تتوافر فيها الكتب النادرة في الرياض ١٣٧٠هـ تحت إشرافه ونظره. وجلب لها أمهات الكتب ونوادر المخطوطات.

❑ ثم اتجه نظره إلى نشر العلم بين أبناء المسلمين قاطبة فأُنشئت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٣٨١ تحت إشرافه ورئاسته وكان ـ رحمه اللَّه ـ وراء إنشاء المعهد العالي للقضاء بالرياض في عام ١٣٨٥، وتم افتتاحه عام ١٣٨٧، تحت إشرافه وبرئاسته أيضًا.

❑ وفي سنة ١٣٧٣ أُنشئت دار الإفتاء والإشراف على الشئون الدينية تحت رئاسته.

وكان الشيخ يُستفتَى في كبار المسائل وصعابها من داخل المملكة وخارجها، فيجيب السائلين ويُفيد المستفتين حتى تكوّن من فتاواه مجلدات كثيرة.

❑ وفي سنة ١٣٧٦هـ أُنشئت رئاسة القضاء في نجد وملحقاتها والمنطقة الشرقية والشمالية وأسندت رئاستها إليه، ثم ضُمت إلى رئاسة القضاء في الحجاز سنة ١٣٧٨، ثم توحدت رئاسة القضاة فيه، وأنشأ في عهد رئاسته كثيرًا من المحاكم الشرعية في بلدان المملكة، وأقام فيها قضاة أفاضل من خيار تلامذته وطلابه.

ومن مناصبه أيضًا:

ـ رئاسة دور الأيتام. ـ الإشراف على رئاسة تعليم البنات. ـ رئاسة معهد إمام الدعوة ـ رئاسة المعهد الإسلامي في نيجيريا. ـ رئاسة المجلس الأعلى لرابطة

العالم الإسلامي. ـ رئاسة مؤسسة الدعوة الصحفية. ـ الإشراف على نشر الدعوة في افريقيا. ـ الإشراف على ترشيح الأئمة والمؤذنين والوعاظ والمرشدين. ـ رئاسة هيئة التمييز وكان إلى جانب هذه المهام التي تنوء بها العصبة أولو القوة خطيب الجامع الكبير، وإمام الفروض الخمسة في مسجده.

❑ وكان قد بدأ في إنشاء «مجلس هيئة كبار العلماء» واعتُمدت له ميزانية مالية لعام ١٣٨٩، غير أن الأجل وافاه قبل أن يباشر المجلس أعماله.

هذا موجز تقريبي للأعمال التي كان ينهض بها ذاك العَلَم المفرد، ويملأها بعلمه وحلمه وحكمته وحصافته وصبره وجلده، وما أصدق قول الشاعر البحتري في مثله:

قلبٌ يُطِـلُّ على أفكـاره وَيـدٌ تُمضي الأمور ونفسٌ لهوها التعبُ

وإن الدارس لحياته ليُدهش من هذا الدأب العجيب، والجلد المتواصل، والتوازن العظيم الذي يتحلّى به هذا الإمام الجليل، والتوازن في الرجال، عند إدارة الأعمال، من أغلى الصفات وأندرها، فكان يُصرف أمور التعليم والقضاء، والإفتاء، والإدارة في كل تلك المرافق الهامة والواسعة بصمت كامل، وحكمة وروية، دون دعاية ولا ضوضاء ولا إعلان، ويقوم مع هذا كله بالتعليم بنفسه، وبالتأليف، دون أن يطغى منه جانب على جانب، فللّه دره ما كان أقواه عزمًا وحزمًا وجلدًا ودأبًا في ميادين الخدمة للإسلام والمسلمين.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

❑ وللشيخ ـ رحمه اللّه ـ فتاوى جامعة، في العبادات والمعاملات والعقائد، وقد جمعها وجُلّ رسائل الشيخ ومكاتيبه، وطائفة كبيرة من محفوظاته، تلميذه الشيخ محمد بن عبدالرحمن بن القاسم، وطبعت في ١٣

جزءًا بعنوان «فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ».

«وفي هذه الفتاوى والرسائل نماذج كثيرة حيّة ناطقة بعمق نظره في الفقه الإسلامي، ودقة نظره في القضاء، وشده اجتنابه من المداهنة في دين اللَّه تعالى، مع الانتباه التام لدخائل ودسائس أهل الأهواء والقلوب المريضة في شئون الدين»[١].

❑ يقول عنه الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة: «له هيبة في الصدور كهيبة الملوك»[٢].

ومات الشيخ محمد بن إبراهيم في اليوم الرابع والعشرين من شهر رمضان عام ١٣٨٩هـ.

❑ قال أبو غدة: «كانت الفجيعة به فادحة جدًّا، والأسف عليه عظيمًا، والمصابُ به جللاً عامًا، والثناء عليه وعلى جهوده وجهاده طيبًا عطرًا، أثنت عليه الألسنة البعيدة والقريبة خيرًا، وترك فراغًا كبيرًا لم يُملأ بعده، فقد كان صرحًا رفيعًا للعلم وأهله، وسياجًا منيعًا للدين وذويه، ونصيرًا للإسلام والمسلمين في بلده وخارج بلده..

نعم لقد مات هذا الإمام الهمام والعالم المهيب، الذي كانت هيبته في نفوس أهل الشطط ورعاة التفرنج والشرود عن الجادة أشد رهبة من عصا السلطان القامعة الزاجرة المؤدبة، تحجمهم عن بوائقهم ومفاسدهم. فكان فقده كما قال القائل:

وما كان قيس هُلْكُه هُلْكَ واحد ولكنه بنيـــان قــوم تهدَّمـا[٣]

(١) «تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي» (ص٢٧٤ ـ ٢٧٥).
(٢) المصدر السابق (ص٢٨٤).
(٣) المصدر السابق (ص٢٨٥).

❑ يقول الشيخ الإمام عبدالعزيز بن باز ـ رحمه اللَّه ـ الذي لو لم يكن للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ من حسنات إلا هذا الإمام لكفى ـ تلميذ الشيخ:

«لقد أكرمني اللَّه سبحانه وتفضّل عليّ وله الحمد والمنة بأن كنت من أخصّ تلامذة شيخنا المذكور، لازمته نحو عشر سنين في عام ١٣٤٧هـ إلى عام ١٣٥٧هـ ثم تعينت في القضاء بعد ذلك لكني لم أنقطع عن الاتصال به وسؤاله عن كل ما يشكل والاستفادة من علومه وتوجيهاته إلى أن توفى ـ رحمه اللَّه ـ وقد حضرت له مواقف مشرفة، وشاهدت منه أعمالاً موفقة في نفع المسلمين والغيرة على الإسلام والرد على خصومه، أجزل اللَّه له المثوبة، وكان يوصي الطلبة كثيرًا بالدعوة إلى اللَّه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وكان واسع العلم كثير الخوف من اللَّه سبحانه، ومناقبه وفضائلة كثيرة جدًّا»[1].

* الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي أعلم الناس بتفسير القرآن بالمأثور في قرننا:

❑ قال عنه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: مُلئ علمًا من رأسه إلى أخمص قدميه».

وقال أيضًا ـ رحمه اللَّه ـ: «آية في العلم والقرآن واللغة وأشعار العرب».

وقال سماحة الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ: «أعرف من الشيخ.. العلم الواسع بالتفسير واللغة العربية وأقوال أهل العلم في تفسير كتاب اللَّه عز وجل والزهد والورع والتثبت في الأمور، ومن سمع حديثه في التفسير

(١) «إتحاف النبلاء بسير العلماء» لراشد بن عثمان الزهراني (ص١٠١).

يعجب كثيراً من سعه علمه واطلاعه وفصاحته وبلاغته ولا يمل سماع حديثه، فرحمه اللَّه رحمة واسعة ونفع المسلمين بعلمه[١] .

❑ وقال عنه الشيخ الألباني: «من حيث جمعه لكثير من العلوم، ما رأيت مثله «وشبهه بابن تيمية».

❑ وقال عنه الشيخ حمّاد الأنصاري: «وله حافظة نادرة قوية، ويعتبر في وقته نادرًا، ولم يكن له منافس في تفسير القرآن بأنواعه الأربعة: بالقرآن والسنة، وأقوال السلف، واللغة العربية، وعنده في اللغة استحضار عديم النظير»[٢] .

❑ وقال فيه تلميذه الشيخ بكر أبو زيد: «لو كان في هذا الزمان أحد يستحق أن يسمى شيخ الإسلام، لكان هو».

«اشتغل بتفسير القرآن على أوسع مجال في المملكة حوالي ثلاثين سنة تقريبًا، وفسّر القرآن في المسجد النبوي وحده ثلاث مرات قريبًا[٣] ، وقد سمعته يقول: ما من آية في المصحف إلا وعندي عنها ما قيل فيها، وقد ظهر ذلك جليًا في أضواء البيان بحمد اللَّه»[٤] .

درّس ـ رحمه اللَّه ـ التفسير بالمعهد العلمي وكلية الشريعة واللغة العربية بالرياض عشر سنين، ودرسه بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوره اثنا عشر عامًا.

❑ يقول عنه تلميذه الشيخ عطية سالم: «وكان اهتمامه بالعلم وبالعلم وحده، وكل العلوم عنده آلة ووسيلة، وعلم الكتاب وحده غاية».

---

(١) المصدر السابق (ص١٤٥، ١٤٦).

(٢) «ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان» للشيخ عبدالرحمن السديس ـ طبع دار الهجرة.

(٣) توفى ولم يكمل الثالثة.

(٤) «ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي» للشيخ السديس.

وقال أيضًا: «مات ـ رحمه اللَّه تعالى ـ بعد أن أحيا علومًا درست، وخلّف تراثًا باقيًا، وربّى أفواجًا متلاحقة تعد بالآلاف من خريجي كليات ومعاهد الإدراة العامة بالرياض، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

ما مات ـ رحمه اللَّه ـ إلا بعد أن ترك في كل مكتبة وفي كل منزل «أضواء البيان» تبدد الظلام وتهدي السبيل».

ولو لم يكن للشيخ إلا «أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن» هذا الكتاب الجليل العظيم، لكفاه فخرًا مدى الأزمان.

بكت المثاني ترجمان بيانها ... حاميمها تبكي عليه وصادُ
وكذا المعاني كالمثـــان ثـواكلاً ... أُمَّاتُها تبكي وتبكي الضادُ
هذا البيـان وهـذه أضـواؤه ... عزّت لغير الشيخ لا تنقادُ

❑ أما مناقبة وشمائله فقد قال عنه تلميذه الشيخ عطية سالم: «لو أن للفضائل والمكرمات والشيم وصفات الكمال في الرجال عنوان يجمعها لكان هو أحق بها».

وقال عنه أيضًا: «وبالجملة؛ فقد كان ـ رحمه اللَّه ـ خير قدوة وأحسنها في جميع مجالات الحياة فكان العالم العامل، ولا أزكي على اللَّه أحدًا»[1].

❑ أما عن زهد الشيخ فحدّث ولا حرج، كان ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «الذي يُفرحنا أنه لو كانت الدنيا ميتة لأباح اللَّه منها سد الحاجة».

❑ وأهدى له الأمير عبداللَّه بن عبدالرحمن آل سعود شقيق الملك عبدالعزيز بيتًا في الطائف، فرّده، ولم يقبله، فسُئل عن ذلك؟ فقال: «الذي بناه يحتاجه لنفسه، أما أنا فلم أبنه ولم أحتاجه، وعندي بيتي في المدينة يكفيني».

---

(١) «إتحاف النبلاء بسير العلماء» (ص١٤١).

❑ وقال الشيخ بكر أبو زيد: «وقد كان شيخنا هو محمد الأمين الشنقيطي متقللاً من الدنيا وقد شاهدته لا يعرف فئات العملة الورقية»[١].

* موقفه مع الحق:

كان ـ رحمه اللَّه ـ قويًا صلبًا في بيان الحق، لينًا سهلاً في الرجوع إلى ما ظهر إليه منه.

❑ يقول الشيخ عطية سالم ـ رحمه اللَّه ـ:

«في بعض الأعوام التي حججت معه قدمنا مكة يوم سبع من الشهر، وكان مفردًا الحج، وفي يوم الحج صحبته للسلام على سماحة المفتى ـ الشيخ محمد بن إبراهيم ـ بمنى، فسأله ـ رحمه اللَّه ـ عن نسكه فقال: جئت مفردًا الحج، وقصدًا فعلتُ، فأدرك المفتي ـ رحمه اللَّه ـ أن وراء ذلك شيئًا ولكن تلطف مع الشيخ وقال: أهو أفضل عندك حفظك اللَّه؟ فقال: حفظكم اللَّه لا للأفضلية فعلت، ولكن سمعت وتأكد عندي أن أشخاصًا ينتمون لطلب العلم يقولون لا يصلح الإفراد بالحج ويلزمون المفردين بالتحلل بعمرة، وهذا العمل لا يتناسب مع العديد من وفود بيت اللَّه الحرام كُلٌّ بما اختار من نسك، وكل يعمل بمذهب صحيح، وجرت محادثة من أنفس ما سمعت في تقرير هذا البحث مع مناقشة الأدلة وبيان الراجح، وأخيراً قال: أنه لا ينبغي بيان الأفضل فهذا أمر مختلف فيه وكلٌّ يختار ما يترجح عنده، ولكن يعنيني إبطال القول بالمنع من صحة إفراد الحج لأنه قول لم يُسبق إليه، والأمة مجمعة على صحته، فما كان من سماحة المفتي ـ رحمه اللَّه ـ إلاّ أن استحسن قوله ودعا له.

أما المواقف الدالة على لينه مع الحق ورجوعه إليه كلما ظهر له فهي

(١) «إتحاف النبلاء بسير العلماء» (ص١٣٨).

كثيرة، منها أنه في آخر دروسه في الحرم النبوي في سورة براءة أعلن عن رجوعه عن القول في الأشهر الحرم بأنها منسوخة، قال: الذي يظهر إنها محكمة وليست منسوخة وكنّا نقول بنسخها في «إيهام الاضطراب» ولكن ظهر لنا بالتأمل أنها محكمة»[1].

رحم اللَّه زاهد عصره وغريبه، فهو كما قال عنه الشيخ محمد بن مدين الشنقيطي

عجيب غريب في البرايا وإنما غرائبـه في العلـم فـوق الغرائبِ

*** دفاع الشنقيطي عن الشريعة وهدى القرآن وصدعه بالحق:**

يزخر الكتاب المبارك «أضواء البيان» للشنقيطي عن دفاعه العظيم عن الشريعة وهدى القرآن، وإفحامه للزنادقة الأقزام والمناوئين لشرع اللَّه عز وجل بعقولهم العفنة، ونسوق موضعًا من تفسيره عند قوله تعالى ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾ [الإسرام: ٩].

يقول ـ رحمه اللَّه[2] ـ:

هذه الآية الكريمة أجمل اللَّه جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة، ولكننا إن شاء اللَّه تعالى سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدي القرآن للطريق التي هي أقوم بيانًا لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهًا ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام، لقصور

(١) المصدر السابق (ص ١٣٧ ـ ١٣٨).

(٢) أنظر المبحث الذي نسوق قطعًا منه في «أضواء البيان» (٣/ ٣٧٢ ـ ٤١٦).

إدراكهم عن معرفة حكمها البالغة».

ثم تكلم عن توحيد اللَّه عز وجل في القرآن، وهدى القرآن في جعل الطلاق بيد الرجل، وأن تسوية المرأة بالرجل في ذلك مكابرة في المحسوس، وتكلم عن تعدد الزوجات وأن ذلك من أقوم الطرق وأعدلها لأمور محسوسة يعرفها العقلاء، وهدي القرآن وهو أكمل هدى في تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث، ثم قال:

«فلتعلمن أيتها النساء اللاتي تحاولن أن تكن كالرجال في جميع الشئون أنكن مترجلات متشبهات بالرجال، وأنكن ملعونات في كتاب اللَّه على لسان رسوله ﷺ وكذلك المخنثون المتشبهون بالنساء، فهم أيضًا ملعونون في كتاب اللَّه على لسانه ﷺ، ولقد صدق من قال فيهم:

وما عجب أن النساء ترجلت ولكن تأنيث الرجال عجاب

واعلم وفقني اللَّه وإياك لما يحبه ويرضاه، أن هذه الفكرة الكافرة الخاطئة الخاسئة، المخالفة للحس والعقل، وللوحي السماوي وتشريع الخالق البارئ، من تسوية الأنثى بالذكر في جميع الأحكام والميادين، فيها من الفساد والإخلال بنظام المجتمع الإنساني مالا يخفى على أحد إلا من أعمى اللَّه بصيرته، وذلك لأن اللَّه جل وعلا جعل الأنثى بصفاتها الخاصة بها صالحة لأنواع من المشاركة في بناء المجتمع الإنساني، صلاحًا لا يصلحه لها غيرها كالحمل والوضع، والإرضاع وتربية الأولاد، وخدمة البيت، والقيام على شئونه: من طبخ وعجن وكنس ونحو ذلك. وهذه الخدمات التي تقوم بها للمجتمع الإنساني داخل بيتها في ستر وصيانة، وعفاف ومحافظة على الشرف والفضيلة والقيم الإنسانية ـ لا تقل عن خدمة الرجل بالاكتساب؛ فزعم أولئك السفلة الجهلة من الكفار وأتباعهم: أن المرأة لها من الحقوق في الخدمة خارج بيتها مثل ما للرجل، مع أنها في زمن حملها ورضاعها

ونفاسها، لا تقدر على مزاولة أي عمل فيه أي مشقة كما هو مشاهد. فإذا خرجت هي وزوجها بقيت خدمات البيت كلها ضائعة: من حفظ الأولاد الصغار، وإرضاع من هو في زمن الرضاع منهم، وتهيئة الأكل والشرب للرجل إذا جاء من عمله. فلو أجروا إنسانًا يقوم مقامها، لتعطل ذلك الإنسان في ذلك البيت التعطل الذي خرجت المرأة فرارًا منه، فعادت النتيجة في حافرتها على أن خروج المرأة وابتذالها فيه ضياع المروءة والدين؛ لأن المرأة متاع، وهو خير متاع الدنيا؛ وهو أشد أمتعة الدنيا تعرضًا للخيانة؛ لأن العين الخائنة إذا نظرت إلى شيء من محاسنها فقد استغلت بعض منافع ذلك الجمال خيانة ومكرًا، فتعريضها لأن تكون مائدة للخونة فيه ما لا يخفى على أدنى عاقل، وكذلك إذا لمس شيئًا من بدنها بدن خائن سرت لذة ذلك المس في دمه ولحمه بطبيعة الغريزة الإنسانية، ولا سيما إذا كان القلب فارغًا من خشية اللَّه تعالى، فاستغل نعمة ذلك البدن خيانة وغدرًا. وتحريك الغرائز بمثل ذلك النظر واللمس يكون غالبًا سببًا لما هو شر منه؛ كما هو مشاهد بكثرة في البلاد التي تخلت عن تعاليم الإسلام، وتركت الصيانة، فصارت نساؤها يخرجن متبرجات عاريات الأجسام إلا ما شاء اللَّه؛ لأن اللَّه نزع من رجالها صفة الرجولة والغيرة على حريمهم، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم! نعوذ باللَّه من مسخ الضمير والذوق، ومن كل سوء، ودعوى الجهلة السفلة: أن دوام خروج النساء بادية الرءوس والأعناق والمعاصم، والأذرع والسوق، ونحو ذلك يذهب إثارة غرائز الرجال؛ لأن كثرة الإمساس تذهب الإحساس، كلام في غاية السقوط والخسة؛ لأن معناه: إشباع الرغبة مما لا يجوز، حتى يزول الأرب بكثرة مزاولته، وهذا كما ترى. ولأن الدوام لا يذهب إثارة الغريزة باتفاق العقلاء؛ لأن الرجل يمكث مع امرأته سنين كثيرة حتى تلد أولادهما، ولا تزال ملامسته لها، ورؤيته لبعض جسمها تثير غريزته، كما هو مشاهد لا ينكره إلا مكابر:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

وقد أمر رب السموات والأرض، خالق هذا الكون ومدبر شئونه، العالم بخفايا أموره، وبكل ما كان وما سيكون ـ بغض البصر عما لا يحل، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الآية.

ثم تكلم عند هدي القرآن في ملك الرقيق وملك اليمين، وهديه في القصاص وهديه في قطع يد السارق، والدية، ورجم الزاني المحصن يقول ـ رحمه الله ـ:

«ومن هدي القرآن التي هي أقوم: رجم الزاني المحصن ذكراً كان أو أنثى، وجلد الزاني البكر مائة جلدة ذكراً كان أو أنثى.

أما الرجم ـ فهو منصوص بآية منسوخة التلاوة باقية الحكم، وهي قوله تعالى: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عز حكيم».

وقد قدمنا ذم القرآن للمعرض عما في التوراة من حكم الرجم، فدل القرآن في آيات محكمة ـ كقوله: ﴿يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه..﴾ الآية، وقوله: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم..﴾ الآية ـ على ثبوت حكم الرجم في شريعة نبينا ﷺ لذمه في كتابنا للمعرض عنه كما تقدم.

وما ذكرنا من أن حكم الرجم ثابت بالقرآن لا ينافي قول علي رضي الله عنه، حين رجم امرأة يوم الجمعة: «رجمتها بسنة رسول الله ﷺ»؛ لأن السنة هي التي بينت أن حكم آية الرجم باق بعد نسخ تلاوتها. ويدل لذلك قول عمر رضي الله عنه في حديثه الصحيح المشهور: «فكان مما أنزل إليه آية الرجم،

فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول اللَّه ﷺ ورجمنا بعده..» الحديث.

والملحدون يقولون: إن الرجم قتل وحشـي لا يناسب الحكمة التشريعية، ولا ينبغي أن يكون مثله في الأنظمة التي يعامل بها الإنسان، لقصور إدراكهم عن فهم حكم اللَّه البالغة في تشريعه.

والحاصل ـ أن الرجم عقوبة سماوية معقولة المعنى؛ لأن الزاني لما أدخل فرجه في فرج امرأة على وجه الخيانة والغدر، فإنه ارتكب أخس جريمة عرفها الإنسان بهتك الأعراض، وتقذير الحرمات، والسعي في ضياع أنساب المجتمع الإنساني، والمرأة التي تطاوعه في ذلك مثله. ومن كان كذلك فهو نجس قذر لا يصلح للمصاحبة، فعاقبه خالقه الحكيم الخبير بالقتل ليدفع شره البالغ غاية الخبث والخسة، وشر أمثاله عن المجتمع. ويطهره هو من التنجيس بتلك القاذورة التي ارتكب، وجعل قتلته أفظع قتلة؛ لأن جريمته أفظع جريمة والجزاء من جنس العمل.

وقد دل الشرع المطهر على أن إدخال الفرج في الفرج المأذون فيه شرعًا يوجب الغسل، والمنع من دخول المسجد على كل واحد منهما حتى يغتسل بالماء. فدل ذلك أن ذلك الفعل يتطلب طهارة في الأصل، وطهارته المعنوية إن كان حرامًا قتل صاحبه المحصن؛ لأنه إن رجم كفر ذلك عنه ذنب الزنى ويبقى عليه حق الآدمي، كالزوج إن زنى بمتزوجة وحق الأولياء في إلحاق العار بهم كما أشرنا له سابقًا. وشدة قبح الزني أمر مركوز في الطبائع، وقد قالت هند بنت عتبة وهي كافرة: ما أقبح ذلك الفعل حلالاً! فكيف به وهو حرام، وغلظ جل وعلا عقوبة المحصن بالرجم تغليظًا أشد من تغليظ عقوبة البكر بمائة جلدة؛ لأن المحصن قد ذاق عسيلة النساء، ومن كان كذلك يعسر عليه الصبر عنهن، فلما كان الداعي إلى الزنى أعظم، كان الرادع عنه أعظم

وهو الرجم.

وأما جلد الزاني البكر ذكرًا كان أو أنثى مائة جلدة ـ فهذا منصوص بقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ..﴾ الآية؛ لأن هذه العقوبة تردعه وأمثاله عن الزني، وتطهره من ذنب الزني كما تقدم. وسيأتي إن شاء اللَّه تعالى تفصيل ما يلزم الزناة من ذكور وإناث وعبيد وأحرار «في سورة النور».

وتشريع الحكيم الخبير جل وعلا ـ مشتمل على جميع الحكم من درء المفاسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، ولا شك أن من أقوم الطرق معاقبة فظيع الجناية بعظيم العقاب جزاء وفاقًا».

❑ وبين ـ رحمه اللَّه ـ أن التقدم لا ينافي التمسك بالدين، وبيّن سذاجة وجهل وعمي بصائر من تركوا دينهم واتبعوا الغرب، وتقولهم الباطل على الدين الإسلامي ورميه بما هو برئ منه لينفروا منه ضعاف العقول ممن ينتمي للإسلام ليمكنهم الاستيلاء عليهم؛ لأنهم لو عرفوا الدين حقًا واتبعوه لفعلوا بهم ما فعل أسلافهم بأسلافهم، فالدين هو هو وصلته باللَّه هي هي، ولكن المنتسبين إليه في جل أقطار الدنيا تنكروا له، ونظروا إليه بعين المقت والازدراء؛ فجعلهم اللَّه أرقاء للكفرة الفجرة؛ ولو راجعوا دينهم لرجع لهم عزهم ومجدهم، وقادوا جميع أهل الأرض. وهذا مما لا شك فيه ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾.

❑ ومن هدي القرآن للتي هي أقوم ـ بيانه أن كل من اتبع تشريعًا غير التشريع الذي جاء به سيد ولد آدم محمد بن عبداللَّه صلوات اللَّه وسلامه عليه فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح، مخرج عن الملة الإسلامية. ولما قال الكفار للنبي ﷺ: الشاة تصبح ميتة من قتلها؟ فقال لهم: «اللَّه قتلها» فقالوا له: ما ذبحتم بأيديكم حلال، وما ذبحه اللَّه بيده الكريمة تقولون

إنه حرام! فأنتم إذن أحسن من اللَّه!؟ أنزل اللَّه فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ حذف الفاء من قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ يدل على قسم محذوف فهو قسم من اللَّه جل وعلا أقسم به على أن من اتبع الشيطان في تحليل الميتة أنه مشرك، وهذا الشرك مخرج عن الملة بإجماع المسلمين، وسيوبخ اللَّه مرتكبه يوم القيامة بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؛ لأن طاعته في تشريعه المخالف للوحي هي عبادته.

* وقال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ أي: ما يعبدون إلا شيطانًا، وذلك باتباعهم تشريعه.

* وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ..﴾ الآية فسماهم شركاء؛ لأنهم أطاعوهم في معصية اللَّه تعالى.

* وقال عن خليله: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ الآية، أي بطاعته في الكفر والمعاصي. ولما سأل عدي بن حاتم النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿أتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا﴾ الآية، بين له أن معنى ذلك أنهم أطاعوهم في تحريم ما أحل اللَّه وتحليل ما حرم. والآيات بمثل هذا كثيرة.

* والعجب ممن يحكم غير تشريع اللَّه ثم يدعي الإسلام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

* وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

* وقال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم ـ هديه إلى أن الرابطة التي يجب أن يعتقد أنها هي التي تربط بين أفراد المجتمع، وأن ينادي بالارتباط بها دون غيرها إنما هي دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. فربط الإسلام لك بأخيك كربط يدك بمعصمك، ورجلك، بساقك، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: **«إن مثل المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»**.

ولذلك يكثر في القرآن العظيم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيها على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ الآية، أي لا تخرجون إخوانكم.

* وقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، أي: بإخوانهم على أصح التفسيرين.

* وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، أي: إخوانكم على أصح التفسيرين.

* وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم﴾ الآية، أي لا يأكل أحدكم مال أخيه، إلى غير ذلك من الآيات، ولذلك ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**.

* ومن الآيات الدالة على أن الرابطة الحقيقية هي الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية: قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ

قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ إذ لا رابطة نسبية أقرب من رابطة الآباء والأبناء والإخوان والعشائر.

* وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الآية.

* وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

* وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

❑ فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن النداء برابطة أخرى غير الإسلام كالعصبية المعروفة بالقومية ـ لا يجوز، ولا شك أنه ممنوع بإجماع المسلمين.

ومن أصرح الأدلة في ذلك: ما رواه البخاري في «صحيحه» قال: باب قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان قال: حفظناه من عمرو بن دينار قال: سمعت جابر بن عبدالله ﷺ يقول: كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار!! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!! فسمعها الله رسوله فقال: «ما هذا؟» فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة..**» الحديث.

فقول هذا الأنصاري: يا للأنصار، وهذا المهاجري: يا للمهاجرين ـ هو النداء بالقومية العصبية بعينه، وقول النبي ﷺ: «**دعوها فإنها منتنة**» يقتضي وجوب ترك النداء بها؛ لأن قوله: «**دعوها**» أمر صريح بتركها، والأمر المطلق يقتضي الوجوب على التحقيق كما تقرر في الأصول؛ لأن الله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

* ويقول لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فدل على أن مخالفة الأمر معصية.

* وقال تعالى عن نبيه موسى في خطابه لأخيه: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ فأطلق اسم المعصية على مخالفة الأمر.

* وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فدلت الآية على أن أمر الرسول ﷺ مانع من الاختيار، موجب للامتثال، لا سيما وقد أكد النبي ﷺ هذا الأمر بالترك بقوله: «**فإنها منتنة**». وحسبك النتن موجبًا للتباعد لدلالته على الخبث البالغ.

❑ فدل هذا الحديث الصحيح على أن النداء برابطة القومية مخالف لما أمر به النبي ﷺ، وأن فاعله يتعاطى المنتن، ولا شك أن المنتن خبيث، واللَّه تعالى يقول: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ..﴾ الآية، ويقول: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ وحديث جابر هذا الذي قدمناه عن البخاري أخرجه أيضًا مسلم في «صحيحه» قال ـ رحمه اللَّه ـ: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وزهير بن حرب، وأحمد بن عبدة الضبي، وابن أبي عمر، واللفظ لابن أبي شيبة قال ابن عبدة: أخبرنا وقال الآخرون: حدثنا سفيان بن عيينة قال سمع عمرو جابر بن عبداللَّه يقول: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار؟! وقال المهاجري: يا للمهاجرين!؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما بال دعوى الجاهلية!**» قالوا: يا رسول اللَّه، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: «**دعوها فإنها منتنة**» الحديث.

❑ وقد عرفت وجه دلالة هذا الحديث على التحريم، مع أن في بعض رواياته الثابتة في «الصحيح» التصريح بأن دعوى الرجل: «يا لبني فلان» من

دعوى الجاهلية. وإذا صح بذلك أنها من دعوى الجاهلية فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس منا ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**». وفي رواية في «الصحيح»: «**ليس منا من ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية**»، وذلك صريح في أن من دعا تلك الدعوى ليس منا، وهو دليل واضح على التحريم الشديد. ومما يدل لذلك قوله ﷺ: «**من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا**» هذا حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد من طرق متعددة عن عتي بن ضمرة السعدي، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وذكره صاحب الجامع الصغير بلفظ «إذا سمعتم من يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه ولا تكنوا» وأشار لأنه أخرجه أحمد في «المسند»، والنسائي، وابن حبان، والطبراني في «الكبير»، والضياء المقدسي عن أبيّ رضي الله عنه، وجعل عليه علامة الصحة. وذكره أيضًا صاحب «الجامع الصغير» بلفظ: «إذا رأيتم الرجل يتعزى..» إلخ، وأشار إلى أنه أخرجه الإمام أحمد في المسند والترمذي، وجعل عليه علامة الصحة. وقال شارحه المناوي: ورواه عنه أيضًا الطبراني. قال الهيثمي: ورجاله ثقات. وقال شارحه العزيزي: هو حديث صحيح. وقال فيه الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني في كتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» قال النجم: رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبي بن كعب رضي الله عنه. ومراده بالنجم: الشيخ محمد نجم الدين الغزي في كتابه المسمى «إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن» فانظر كيف سمى النبي ﷺ ذلك النداء «عزاء الجاهلية» وأمر أن يقال للداعي به «إعضض على هن أبيك» أي فرجه، وأن يصرح له بذلك ولا يعبر عنه بالكناية. فهذا يدل على شدة قبح هذا النداء، وشدة بغض النبي ﷺ.

واعلم أن رؤساء الدعاة إلى نحو هذه القومية العربية: أبو جهل، وأبو لهب، والوليد بن المغيرة، ونظراؤهم من رؤساء الكفرة.

وقد بين تعالى تعصبهم لقوميتهم في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا..﴾ الآية، وقوله: ﴿قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ الآية، وأمثال ذلك من الآيات.

واعلم أنه لا خلاف بين العلماء ـ كما ذكرنا آنفًا ـ في منع النداء برابطة غير الإسلام؛ كالقوميات والعصبيات النسبية، ولا سيما إذا كان النداء بالقومية يقصد من ورائه القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية؛ فإن النداء بها حينئذ معناه الحقيقي: أنه نداء إلى التخلي عن دين الإسلام، ورفض الرابطة السماوية رفضًا باتًا، على أن يعتاض من ذلك روابط عصبية قومية، مدارها على أن هذا من العرب، وهذا منهم أيضًا مثلاً؛ فالعروبة لا يمكن أن تكون خلفًا من الإسلام، واستبدالها به صفقة خاسرة؛ فهي كما قال الراجز:

بدلت بالجمة رأسًا أزعرًا وبالثنايا الواضحات الدردرا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا

وقد علم في التاريخ حال العرب قبل الإسلام وحالهم بعده كما لا يخفى.

والحاصل ـ أن الرابطة الحقيقة التي تجمع المفترق وتؤلف المختلف هي رابطة «لا إله إلا اللَّه» ألا ترى أن هذه الرابطة التي تجعل المجتمع الإسلامي كله كأنه جسد واحد، وتجعله كالبنيان يشد بعضه بعضًا، عطفت قلوب حملة العرش ومن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فقد أشار تعالى إلى أن الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومن حوله، وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا اللَّه لهم هذا الدعاء الصالح العظيم، إنما هي الإيمان باللَّه جل وعلا؛ لأنه قال عن الملائكة: «ويؤمنون به» فوصفهم بالإيمان. وقال عن بني آدم في استغفار الملائكة لهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فوصفهم أيضًا بالإيمان فدل ذلك على أن الرابطة بينهم هي الإيمان وهو أعظم رابطة.

ومما يوضح لك أن الرابطة الحقيقة هي دين الإسلام ـ قوله تعالى في أبي لهب عم النبي ﷺ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ويقابل ذلك بما لسلمان الفارسي من الفضل والمكانة عند النبي ﷺ والمسلمين، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال فيه: «**سلمان منا أهل البيت**» ورواه الطبراني والحاكم في «المستدرك»، وجعل عليه صاحب «الجامع الصغير» علامة الصحة. وضعفه الحافظ الذهبي. وقال الهيثمي فيه عند الطبراني كثير بن عبداللَّه المزني ضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات. وقد أجاد من قال:

لقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ وقد وضعَ الكفر الشريف أبا لهب

❑ وقد أجمع العلماء: على أن الرجل إن مات وليس له من القرباء إلا ابن كافر، أن إرثه يكون للمسلمين بإخوة الإسلام، ولا يكون لولده لصلبه الذي هو كافر، والميراث دليل القرابة. فدل ذلك على أن الأخوة الدينية أقرب من النبوة النسبية.

وبالجملة، فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض، وتربط بين أهل الأرض والسماء، هي رابطة «لا إله إلا اللَّه» فلا يجوز البتة النداء برابطة غيرها.

* ومن والى الكفار بالروابط النسبية محبة لهم، ورغبة فيهم يدخل في

قوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾.

* وقوله تعالى: ﴿ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ والعلم عند اللَّه تعالى».

❑ وتكلم الشيخ عن ضعف المسلمين في أقطار الدنيا عن مقاومة الكفار وأن حل هذه المشكلة هو بصدق التوجه إلى اللَّه تعالى، وقوة الإيمان به والتوكل عليه؛ لأن اللَّه قوي عزيز قاهر لكل شيء؛ فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار ولو بلغوا من القوة ما بلغوا.

فالإيمان الكامل، والتسليم العظيم للَّه جل وعلا، ثقة به وتوكلاً عليه هو سبب حل هذه المشكلة العظمى.

❑ ثم تكلم عن تسليط الكفار على المؤمنين بالقتل والجراح وأنواع الإيذاء ـ مع أن المسلمين على الحق، والكفار على الباطل.

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: وهذه المشكلة استشكلها أصحاب النبي ﷺ، فأفتى اللَّه جل وعلا فيها، وبين السبب في ذلك بفتوى سماوية تتلى في كتابه جل وعلا.

وذلك أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين يوم أحد. فقتل عم رسول اللَّه ﷺ وابن عمته، ومثل بهما، وقتل غيرهما من المهاجرين، وقتل سبعون رجلاً من الأنصار، وجرح ﷺ، وشقت شفته، وكسرت رباعيته، وشج ﷺ.

استشكل المسلمون ذلك وقالوا: كيف يدال منا المشركون؟ ونحن على الحف وهم على الباطل؟! فأنزل اللَّه قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فيه إجمال بينه تعالى

بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا - إلى قوله: لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح؛ بأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين، وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم أمره ﷺ، وإرادة بعضهم الدنيا مقدمًا لها على أمر الرسول ﷺ. وقد أوضحنا هذا في سورة «آل عمران». ومن عرف أصل الداء عرف الدواء، كما لا يخفى.

* كلام الشيخ عن اختلاف القلوب:

فقال - رحمه اللَّه -: المشكلة الثالثة هي اختلاف القلوب الذي هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية، لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة، كما قال تعالى: ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾. وقد أوضحنا معنى هذه الآية في سورة «الأنفال».

فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضًا فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك.

وقد بين تعالى في سورة «الحشر» أن سبب هذا الداء الذي عمت به البلوى إنما هو ضعف العقل؛ قال تعالى: ﴿**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ**﴾ ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ**﴾ ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي؛ لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتًا ويضيء الطريق المتمسك به؛ فيريه الحق حقًّا والباطل باطلاً، والنافع نافعًا، والضار ضارًا؛ قال تعالى:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

* وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ومن أخرج من الظلمات إلى النور أبصر الحق؛ لأن ذلك النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقًّا، والباطل باطلاً.

* وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

* وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾.

* وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ الآية، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإيمان يكسب الإنسان حياة بدلاً من الموت الذي كان فيه، ونورًا بدلاً من الظلمات التي كان فيها.

وهذا النور العظيم يكشف الحقائق كشفًا عظيمًا؛ كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ - إلى قوله: - وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ - ولما كان تتبع جميع ما تدل عليه هذه الآية الكريمة من هدي القرآن التي هي أقوم - يقتضي تتبع جميع القرآن وجميع السنة لأن العمل بالسنة من هدي القرآن للتي هي أقوم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ وكان تتبع جميع ذلك غير ممكن في هذا الكتاب المبارك، اقتصرنا على هذه الجمل التي ذكرنا من هدي القرآن للتي هي أقوم تنبيهًا بها على غيرها. والعلم عند اللَّه تعالى.

رحم اللَّه الشيخ الشنقيطي بما نصح لأمته ودعاؤه إياها للصراط المستقيم.

* الشيخ علي الطنطاوي الأديب والداعية الإسلامي الكبير وعُرْس الشهداء:

كتب الداعية الإسلامي الكبير الشيخ علي طنطاوي السوري معبرًا عن حزن الأمة المسلمة في سوريا، ومعبرًا عن حزن العالم الإسلامي كله، لما أصاب الدعاة على يد الطاغية جمال عبدالناصر في ديسمبر ١٩٥٤م[1].

يقول: «لو كان الأمر لي، لما جعلته يوم حداد بل يوم بشر وابتهاج، ولما صيرته مأتمًا بل عرسًا، عرس الشهداء الأبرار على الحور العين، ولما قعدت مع الإخوان أتقبل التعزيات بل التهنئات.

وهل يرجو المسلم إلا أن يموت شهيدًا؟ وهل يسأل اللَّه خيرًا من حسن الخاتمة؟ إني لأتمنى واللَّه شاهد على ما أقول، أن يجعل منيتي على يد فاجر ظالم، فامضي شهيدًا إلى الجنة، ويمضي قاتلي إلى النار، فتكون مكافأتي سعادتي به ويكون عقابه شقاؤه بي.

هذا هو العقاب الحق لا عقابك يا جمال ـ عقاب اللَّه الناصر لأوليائه، القاهر فوق أعدائه، الذي ستقف أمامه وحدك، ليس معك جيشك ولا دباباتك ولا زبانيتك ولا عتادك ولا سجونك وأعوانك، تساق إليه وحيدًا أعزل فريدًا كما قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

* وكما قال جل في علاه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

---

(١) وفيها حُكم بالإعدام على الشيخ عبدالقادر عودة، والشيخ محمد الفرغلي، والشيخ يوسف طلعت، وهنداوي دوير، وإبراهيم الطيب ـ رحمهم اللَّه.

* وكما قال جل وعلا: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥١].

يومها لا تستطيع إنجلترا أن تجيء معك ولا أن تدافع عنك ولا أمريكا.. فالملك للَّه العلي الكبير، والشهود عليك في نفسك لسانك ويدك ورجلك.

تقف بين يدي اللَّه أعزل منكس الرأس فيسألك عن هذه الدماء الذكية فيم أرقتها؟ وعن هذه الأرواح الطاهرة لم أزهقتها؟ وعن هاتيك النساء العابدات الطاهرات القانتات فيم رملتهن؟ وعن أولئك الأطفال البرآء فيم يتمتهم؟ وعن هذه الجماعة الداعية إلى اللَّه المجاهدة في سبيله لم شمّت بها أعداء اللَّه ورسوله؟

فإن كان عندك دفاع فأعده من الآن، لتدلي به أمام محكمة المنتقم الجبار، التي لا تحكم بالموت شنقًا، بل بالحياة الدائمة التي يصغر الشنق ألف مرة من عذاب لحظة منها.

* وصدق اللَّه العظيم إذ يقول: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، يقوم لا ينفع حزب ولا أعوان، يوم تبدل الموازين، وتتغير المقاييس ويكون الفضل للفاضل والصدر للصالح، فيذل أعزة، ويعز الأذلاء، وتهوى ملوك وجبابرة، وتعلو سوقه يوم ينادي المنادي لمن الملك اليوم؟ للطغاه للبكباشية، لسادة في البيت الأبيض والكرملين؟ كلا كلا.. الملك للَّه الواحد القهار.

❑ فعش مهما عشت، وسُد مهما سُدْتَ، فهل تقدر أن تجد لك طريقًا لا يمر بك على الحشر؟ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

هل تجد طريقًا لا يقف بك موقف الحساب؟ هل تعرف ملكًا غير ملك اللَّه تفر إليه كما يهرب المجرم السياسي من دولة أساء إلى حاكميها إلى دولة أخرى تحميه؟ وهل تظنها تدوم لك يا عبدالناصر؟ لو دامت لغيرك ما وصلت إليك.

❑ ولقد حكم مصر من قبلك فاروق، ومن قبله المماليك، ومن قبلهما فرعون وهامان؟ فأين هم اليوم؟ أين من بنى وشيد؟ أين من أحيا وأمات؟ أين من طغى وبغى وقال أنا ربكم الأعلى؟

لقد ساروا جميعًا في ركاب عزرائيل، تشيعهم لعنات المظلومين والمقهورين، حتى وردوا على من لا يضيع عنده مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فاتق أيها الرجل دعوات المظلومين في الأسحار، فإنها السهام التي لا تخطئ واعتبر بمن مضى أن تصير عبرة لمن يأتي، وابك على نفسك قبل ألا تجد من يبكي عليك.

❑ أما أنتم أيها الشهداء فهنيئًا لكم فادخلوها خالدين، فلقد بدأتم بثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وشيعتكم في كل بلد من بلدان هذه الأرض المسلمة الملايين من لم يكن يعرفكم ولا تعرفونه، ولكن اللَّه ملأ قلوبهم جميعًا حبًا لكم وألسنتهم هتافًا بأسمائكم بوادر من تكرمته إياكم، النساء في الخدور والأطفال في المدارس، والتجار في الأسواق الذين فاروا من أجلكم وثاروا، فترك الطالب درسه والتاجر كسبه، وخرجوا حبًا فيكم وغضبًا لكم.

فإن ضن عليكم الظالمون بالماء، غسلوكم بالدموع الجواري، وإن بخلوا بالقبور دفنوكم في الأفئدة البواكي، ثم مشوا بكم في مواكب النور، التي لا تفتأ تتسلل وتتعاقب، سائرة في الزمان من لدن حمزة وجعفر وشهداء الفتح

في بدر، والقادسية واليرموك، ومن قتلى الطغاة الظالمين من أمثال الحجاج وهولاكو وتيمورلنك، إلى شهداء الجهاد في الجزائر وتونس والقوطة والقناة.

لقد سلككم اللَّه في هذه المواكب التي بدأت يوم بدأت في الأرض دعوات الخير والإيمان على لسان نوح وهود وعيسى ومحمد صلى اللَّه عليهم جميعًا.. إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.

فهل من التكريم أبلغ من هذا من يا نساء الشهداء؟ ويا أولادهم؟ ويا من فجعه هذا الظالم بالزوج والأب وبالأخ والولد.

فيا إخواني ويا إخوتي ويا بناتي وأبنائي.. إن فقدتم الولد والأخ فإن كل مسلم على ظهر الأرض أخ لكم اليوم واللَّه خير من الجميع ولقد حول بيتي مأتمًا الليلة البارحة صورة مقطوعة من مجلة، هي صورة العالم الجليل عبدالقادر عودة، يوم أن خرج من السجن وابنه يقدم له الحلوى، فقُصَّتْ على الصورة قصة مكتوبة بمداد الدمع قصة هذا الولد يسأل أمه أين أبي؟ فلا تستطيع أن تقول له أن أباك سجين وتداري دمعها وتغالب بكاءها، وتقول إنه مسافر فيقول: ومتى يعود؟ فتقول: يعود قريبًا يا حبيبي، فيرقب عودته، إن رأى طعامًا طيبًا قال سأحفظه لأبي، وإن ألبسوه جديدًا قال: إني ألبسه يوم يعود أبي، وإن بكت أخته الصغرى قال: لها اسكتي غدًا يعود والدنا.. ويوم جاء أبوه قدم له الحلوى وجلس على ركبته وأخته على ركبته الأخرى وهو يقبل هذا خدًا وتلك خدًا، ويقولون لماذا طالت الغيبة يا أبي؟ لا تسافر مرة أخرى.

فماذا يقولون الآن؟ وقد سافر مرة ثانية إلى حيث لا يعود المسافرون؟ وبماذا تجيب الآن إن سألاها أين والدنا ومتى يعود؟؟

هل تقول لهما أن أباكما الجليل المجاهد المناضل قد شنقه عبدالناصر.

فما ذنب هؤلاء يا عبدالناصر؟ وما ذنب هذه الأم؟ بل ما ذنب الرجل الذي قتلته وفجعت به هذه الأسرة؟ أكل ذلك لأنهم قالوا لمعاهدتك أنها عمل غير صالح؟ أو تعرف ـ لك الويل ـ بمن ضحيت؟

ضحيت بمن كان أعلم المسلمين على ظهر الأرض بالتشريع الجنائي في الإسلام ومن سنحتاج إليه غدًا فلا نجده ولا نجد مثله فنبكي عليه حزنًا وأسفًا ويضحك عدونا شماتة وسرورًا.

ضحيت بمن ألف الكتاب الجليل ـ «التشريع الجنائي في الإسلام»، وترجم إلى أكثر اللغات، وقرر تدريسه في الجامعات وتزاحم الجميع على تكريمه وبعثوا يطلبونه، فقيل لهم: إنه لا يستطيع أن يحضر حفلات التكريم لأن عبدالناصر كرم علمه وفضله بحبل المشنقة.

*** يا عبدالناصر جزاك الله بما تستحق:**

بسيد المجاهدين، الفرغلي.. بالشيخ الذي أفزع بريطانيا حتى جعل راديو فايد ينادي كل يوم ثلاث مرات، بأن من جاء برأسه فله خمسة آلاف جنيه.. فجاءهم برأسه عبدالناصر.

بالذي لاحت عمامته مرة للإنجليز فغلبت مدافعهم ـ وكان ذلك في ١٩٥٣م يوم اختفى الطيار البريطاني فأنذروا حكومة مصر بالويل والثبور إن لم يعد، وأمهلوها للتاسعة من صبيحة الغد وانطلق صلاح سالم يتكلم كلام المستطار اللب يبدئ ويعيد إلى قريب الفجر وكان الغد.. وحبست مصر كلها أنفاسها ترقب ما يكون بعد انقضاء الأمهال وكانت الساعة التاسعة ساعة الهول، فوقفت أمام دار محافظة القناة سيارتان: سيارة تحمل موفد الإنجليز بالتهديد والوعيد، وسيارة تحمل فرغلي ومعه نفر من الإخوان جاء يعلن نصرته للحكومة رغم ما كان بين الحكومة والإخوان المسلمين في تلك الأيام، فلما رأى الإنجليز الشيخ انطفأت الجمرة وسكن الغضب وذهب الوعيد لقد

كان الفرغلي أعدى أعداء الإنجليز فكافأه عبدالناصر في ذلك بحبل المشنقة.

*** يا عبدالناصر جزاك اللّه بما تستحق:**

لقد كانوا جميعًا من أئمة التقى ومصابيح الهدى، من الذين يقومون الليل يقطعونه تسبيحًا وقرآنًا، ويجاهدون في النهار يملأونه خيرًا وإحسانًا واللّه يأمر بتكريم الصالحين والعقل يقضي بإجلال العلماء والمصلحة توجب تشجيع العاملين.. والإنجليز يريدون غير ذلك كله.. فترك عبدالناصر ما يأمره به اللّه، ويقضي به العقل وتوجبه المصلحة، لما يريده الإنجليز، وأشهد لقد قرأت أخبار المشركين وتعذيبهم لمن آمن من قريش وما فعل أعداء الإسلام بالمسلمين، من الطغاة الجبارين كهولاكو وتيمورلنك وما صنعت محاكم التفتيش في الأندلس واليهود في فلسطين ـ في دير ياسين وقبيه ونحالين، فلا واللّه ما آلمني شيء كما آلمني ما صنع عبدالناصر وأعوانه بهذه النخبة الصالحة من المسلمين.

لأن أولئك كفرة فجرة، وهؤلاء يزعمون أنهم مؤمنون وأنهم يحجون ويلبون ولأن أولئك فعلوها كسبًا لدنيا يريدونها وهؤلاء فعلوها ليكسب الإنجليز الدنيا بها.

ولو كان من هؤلاء الشهداء قاتل أو مجرم وحاكموه محاكمة، ثم عاقبوه قصاصًا لما اعترضهم أحد، أما أن يكونوا من خيار المؤمنين وأن يكون ذنبهم أنهم أعدوا السلاح للعدو بعلم رجال الحكومة وأنهم دُرِّبوا على القتال والتدريب واجب على كل مسلم، وأنهم أعلنوا رأيهم في المعاهدة وحق الرأي حق من حقوق الإنسان، وأن تحاكمهم هذه المحاكمة وأن تكون المحاكمة بهذا الأسلوب وأن يكون الحكم على هذه الصورة فهذه قصة فظيعة فظيعة قصة بلغ من فظاعتها أن أجمع الناس على اختلاف البلدان والألسنة والألوان والمذاهب والأديان على استنكارها.

إن الفارس من يبارز خصمه في الميدان، وينازله مسلحًا، أما الذي يبدي البطولة والخصم أعزل مقيد، ويبديها وحوله الرهط من الأنصار وخصمه مفرد، فليس من الفروسية في شيء.

إن هولاء الإخوان قد مضوا شهداء أبرار ونالوا مجد الدنيا وثواب الآخرة.. فارقبوا أنتم ماذا تنالون في دنياكم وأخراكم.

وبعد.. فهذا هو العالم الإسلامي يلبس كله ثوب الحداد ويجلس للعزاء، ما خرج على هذا الإجماع إلا النفر الذين غضب اللّه عليهم من أعوان الظالم، ومن مشايخ السوء، أصحاب ذلك البيان الذي جشى كذبًا وافتراء وتحريفًا للآيات عن مواضعها.

والثورة كالقطة تأكل أبناءها.. وهذه ثورة فرنسا شاهد على ما أقول، وهذه أحداثها تنطق بها كتب التاريخ: الذي جاء بالمقصلة قطع رأسه بها، والذي نصب المشانق علق عليها، والذي أوقد النار كان لها حطبًا، ولنار الآخرة أشد نكالاً وأبقى.

ولكن الثورة الفرنسية لم تقتل أفذاذ العلماء ولم تعرض لدعاة الخير وكانت ثورة أمة على عصابة آثمة.

*** أما أنتم أيها الإخوان.. فاعلموا أن المحن تدريب:**

وكلما تقدم الجندي خطوة، صعب التدريب عليه وقسا فإذا وصل إلى أقصاه بلغ غاية القوة وصار جنديًّا كاملاً، وأنتم بلغتم ذلك اليوم حين امتحنتُم الامتحان الأكبر امتحان الدم، ونجحتم، نجحتم واللّه، ولم تزعزع المشانق إيمان هؤلاء الإخوان، ولا هزَّت أعصابهم ولقد قابلوا الموت مقابلة انحنت إكبارًا لبطولتها وعظمتها هامات الرجال في كل مكان.

والعاقبة لكم، إنها واللّه لكم، لأنكم تمشون على هدي الإسلام، المستقبل لكم فلا تزعزعكم الإحداث ولا تفتنكم عن إيمانكم.

وبعد فيا أهل الشهداء.. الصبر.. الصبر.. إن دموع العالم الإسلامي كله قد مازجت دموعكم وقلوبهم جميعًا قد قاسمت بالأسى قلوبكم، ولكم أخ لكم وصديق ومأتمكم صار مأتم دنيا الإسلام كلها.. واللَّه معكم خير من الجميع.. ولن يفلت سفاح مصر من الانتقام.. والمنتقم هو اللَّه»[١].

* **الشيخ القرضاوي صاحب الملحمة النونية:**

هو صاحب المواقف المشكورة في الدفاع عن قضايا المسلمين، وكل يؤخذ من قوله ويترك، وله القلم السيال في تصوير مآسي المسلمين، وهو صاحب النونية وهي ملحمةٌ ألفت داخل السجن الحربي في القاهرة عام ١٩٥٥م، هذه الملحمة التي نقدمها بين يدي القارئ ـ تحكي قصة سجين قضى نحو عشرين شهرًا في سنوات ٥٤، ٥٥، ١٩٥٦م، في السجن الحربي. إنها تصويرٌ بسيطٌ لبعض ما قاساه المسلمون الذين عُذبوا في هذا السجن الرهيب.

لقد ألف الشاعر هذه القصيدة، أو الملحمة، في ظروف عصيبةٍ داخل السجن الحربي؛ حيث لم يكن يسمح لأي معتقل بأن يبقي معه ورقةً أو قلمًا؛ ولهذا كان الاعتماد في تسجيلها عقب تأليفها على حفظ الصدور، لا على كتابة السطور؛ فقد حفظها عددٌ كبيرٌ من الشباب داخل السجن، فكانوا لها رواةً، ونقلها بعضهم خارج مصر بعد مغادرة السجن.

فلنقرأ هذه الوثيقة التاريخية التي سجلت، بأمانةٍ ودقةٍ، جزءًا أسود من جرائم الطاغية ضد الحركة الإسلامية[٢].

ثَارَ القَرِيضُ بِخَاطِرِي فَدَعُونِي ... أُفْضِي لَكُمْ بِفَجَائِعِي وَشُجُونِي

فَالشِّعْرُ دَمْعِي حِينَ يَعْصِرُنِي الأَسَى ... وَالشِّعْرُ عُودِي يَوْمَ عَزْفِ لُحُونِي

(١) «عرس الشهداء» لعلي الطنطاوي (ص١٩ ـ ٢٨) ـ دار المنار الحديثة.

(٢) «شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث» الجزء الثالث، أحمد الجدع، حسني جرار. ط٤ ـ مؤسسة الرسالة، (ص١٨ ـ ٣٦).

كَمْ قَالَ صَحْبِي أَيْنَ غُرُّ قَصَائِدٍ ... تُشْجِي الْقُلُوبَ بِلَحْنِهَا الْمَحْزُونِ؟
وَتُخَلِّدُ الذِّكْرَى الأَلِيمَةَ لِلْوَرَى ... تُتْلَى عَلَى الأَجْيَالِ بَعدَ قُرُونِ
مَا حِيلَتِي وَالشِّعْرُ فَيْضُ خَوَاطِرٍ ... مَا دُمْتُ أَبْغِيهِ وَلاَ يَبْغِينِي؟!
وَالْيَوْمَ عَاوَدَنِي الْمَلاكُ فَهَزَّنِي ... طَرَبًا إِلَى الإِنْشَادِ وَالتَّلْحِينِ
أُلْهِمْتُهَا عَصْمَاءَ تَنْبُعُ مِنْ دَمِي ... وَيَمُدُّهَا قَلْبِي وَمَاءُ عُيُونِي
نُونِيَّةً وَالنُّونُ تَحْلُو فِي فَمِي ... أَبَدًا فَكِدْتُ يُقَالُ لِي «ذُو النُّونِ»
صَوَّرْتُ فِيهَا مَا اسْتَطَعْتُ بِرِيشَتِي ... وَتَرَكْتُ لِلأَيَّامِ مَا يُعْيِينِي
مَا هِمْتُ فِيهَا بِالْخَيَالِ فَإِنَّ لِي ... بَغَرَائِبِ الأَحْدَاثِ مَا يُغْنِينِي
أَحْدَثُ عَهْدٍ عِصَابَةٍ حَكَمُوا بَنِي ... مِصْرٍ بِلاَ خُلُقٍ وَلا قَانُونِ
أَنْسَتْ مَظَالِمُهُم مَظَالِمَ مَنْ خَلَوْا ... حَتَّى تَرَحَّمْنَا عَلَى «نِيرُونِ»!
يَا سَائِلِي عَنْ قِصَّتِي، اسْمَعْ إِنَّهَا ... قِصَصٌ مِنَ الأَهْوَالِ ذَاتُ شُجُونِ
أَمْسِكْ بِقَلْبِكَ أَنْ يَطِيرَ مُفَزَّعًا ... وَتَوَلَّ عَنْ دُنْيَاكَ حَتَّى حِينِ
فَالْهَوْلُ عَاتٍ وَالْحَقَائِقُ مُرَّةٌ ... تَسْمُو عَلَى التَّصْوِيرِ وَالتَّبْيِينِ
وَالْخَطْبُ لَيْسَ بِخَطْبِ مِصْرٍ وَحْدَهَا ... بَلْ خَطْبُ هَذَا الْمَشْرِقِ الْمِسْكِينِ
فِي لَيْلَةٍ لَيْلاَءَ مِنْ نُوفَمْبَرٍ ... فُزِّعْتُ مِنْ نَوْمِي لِصَوْتِ رَنِينِ
فَإِذَا «كِلاَبُ الصَّيْدِ» تَهْجِمُ بَغْتَةً ... وَتَحُوطُنِي عَنْ شَمْأَلٍ وَيَمِينِ
فَتَخَطَّفُونِي مِنْ ذَوِيَّ وَأَقْبَلُوا ... فَرَحًا بِصَيْدٍ لِلطُّغَاةِ سَمِينِ
وَعُزِلْتُ عَنْ بَصَرِ الْحَيَاةِ وَسَمْعِهَا ... وَقُذِفْتُ فِي قَفَصِ الْعَذَابِ الْهُونِ
فِي سَاحَةِ «الْحَرْبِيِّ»[1] حَسْبُكَ بِاسْمِهِ ... مِنْ بَاعِثٍ لِلرُّعْبِ قَدْ طَرَحُونِي

(١) السجن الحربي: سجن عسكري بناه الإنجليز في عهد الاحتلال؛ ليودع فيه الجنود الذين يخالفون القوانين العسكرية، وهذا السجن هو في الواقع مجموعة سجون أو أقسام، في

مَا كِدْتُ أَدْخُلُ بَابَهُ حَتَّى رَأَتْ ... عَيْنَايَ مَا لَمْ تَحْتَسِبْهُ ظُنُونِي
فِي كُلِّ شِبْرٍ لِلْعَذَابِ مَنَاظِرٌ ... يَنْدَى لَهَا - وَاللَّهِ - كُلُّ جَبِينِ
فَتَرَى الْعَسَاكِرَ وَالْكِلابَ مُعَدَّةً ... لِلنَّهْشِ طَوْعَ الْقَائِدِ الْمَفْتُونِ
هَذِي تَعُضُّ بِنَابِهَا وَزَمِيلُهَا ... يَعْدُو عَلَيْكَ بِسَوْطِهِ الْمَسْنُونِ
وَمَضَتْ عَلَيَّ دَقَائِقٌ وَكَأَنَّهَا ... مِمَّا لَقِيتُ بِهِنَّ بِضْعُ سِنِينِ
يَا لَيْتَ شِعْرِي مَا دَهَانِ؟ وَمَا جَرَى؟ ... لاَ زِلْتُ حَيًّا أَمْ لَقِيتُ مَنُونِي؟
عَجَبًا! أَسِجْنٌ ذَاكَ أَمْ هُوَ غَابَةٌ؟ ... بَرَزَتْ كَوَاسِرُهَا جِيَاعَ بُطُونِ؟
أَأَرَى بِنَاءً أَمْ أَرَى شِقَّيْ رَحًى ... جَبَّارَةٍ لِلْمُؤْمِنِينَ طَحُونِ؟

= كل قسم عدد من الزنازين، بعضها يبلغ المئات، والزنزانة غرفة ضيقة محكمة ليس بها إلا نافذة صغيرة عالية قرب السقف، وهي مطلية بطلاء قاتم، وقد أعدت لتكون سجنًا انفراديًّا.. ولكن كثرة المعتقلين الهائلة جعلت جنود عبدالناصر يودعون في الزنزانة الواحدة سبعة أو ثمانية، بل عشرة في بعض الأحيان، هذا بالإضافة إلى سجون القلعة، وقرة ميدان، وطرة، والقنطرة، والواحات، وغيرها.. وقد أصبح السجن الحربي بين هذه السجون علمًا على التعذيب الوحشي؛ حتى أصبح مجرد ذكر اسمه يثير الرعب، وعلى أرضه قُتل العشرات من المعذبين. وأخيرًا، وبعد أن أخذ القضاء في مصر شيئًا من الحرية، أصدرت محكمة جنوب القاهرة في قضية واحدة من قضايا التعذيب، بتاريخ ٣٠ مارس ١٩٧٥، مجموعة أحكام؛ فقد قررت المحكمة تعويض المستشار على جريشة بمبلغ ثلاثين ألف جنيه، يدفعها شمس بدران وزير الحربية السابق، وورثة حمزة البسيوني قائد السجن الحربي، وورثة اللواء سعد زغلول عبدالكريم قائد الشرطة العسكرية، والعقيد حسن خليل، والرائد حسن كفافي، والملازم أشرف صقوت الروبي.

وطالبت المحكمة رئيس الجمهورية بهدم وإزالة السجن الحربي؛ باعتباره شاهدًا على إذلال الشعب وتعذيب أبنائه، واعتبرت المحكمة هذه الأحكام بلاغًا إلى المدعي العام ضد أربعة وزراء عدل سابقين؛ وهم: بدوي حمودة، وعصام الدين حسونة، ومحمد أبو نصير، ومصطفى كامل إسماعيل، بتهمة التواطؤ والتستر على جرائم التعذيب والإذلال، وأعلن القضاء براءة البلاد من كل من أسهم في إذلال الشعب، وتعذيب أفراده بصورة أو بأخرى.

وَاهًا!! أَفِي حُلُمٍ أَنَا أَمْ يَقْظَةٍ ... أَمْ تِلْكَ دَارُ خَيَالَةٍ وَفُتُونِ؟
لاَ، لاَ أَشُكُّ، هِيَ الْحَقِيقَةُ حَيَّةٌ ... أَأَشُكُّ فِي ذَاتِي وَعَيْنٍ يَقِينِي؟
هَذِي مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ فَكَيْفَ مَا ... تَحْوِي الْفُصُولُ السُّودُ مِنْ مَضْمُونِ؟

* * *

هَذَا هُوَ «الْحَرْبِيُّ» مَعْقِلُ ثَوْرَةٍ ... تَدْعُو إِلَى التَّحْرِيرِ وَالتَّكْوِينِ؟
فِيهِ زَبَانِيَةٌ أُعِدُّوا لِلأَذَى ... وَتَخَصَّصُوا فِي فَنِّهِ الْمَلْعُونِ
مُتَبَلِّدُونَ عَقُولُهُمْ بِأَكُفِّهِمْ ... وَأَكُفُّهُمْ لِلشَّرِّ ذَاتُ حَنِينِ
لاَ فَرْقَ بَيْنَهُمُو وَبَيْنَ سِيَاطِهِمْ ... كُلٌّ أَدَاةٌ فِي يَدَيْ مَأْفُونِ
يَتَلَقَّفُونَ الْقَادِمِينَ كَأَنَّهُمْ ... عَثَرُوا عَلَى كَنْزٍ لَدَيْكَ ثَمِينِ
بِالرِّجْلِ، بِالْكُرْبَاجِ، بِالْيَدِ، بِالْعَصَا ... وَبِكُلِّ أُسْلُوبٍ خَسِيسٍ دُونِ
لاَ يَقْدِرُونَ مُفَكِّرًا وَلَوَ أَنَّهُ ... فِي عَقْلِ سُقْرَاطٍ وَأَفْلاَطُونِ
لاَ يَعْبَئُونَ بِصَالِحٍ وَلَوَ أَنَّهُ ... فِي زُهْدِ عِيسَى أَوْ تُقَى هَارُونِ
لاَ يَرْحَمُونَ الشَّيْخَ وَهْوَ مُحَطَّمٌ ... وَالظَّهْرُ مِنْهُ تَرَاهُ كَالْعُرْجُونِ
لاَ يُشْفِقُونَ عَلَى الْمَرِيضِ وَطَالَمَا ... زَادُوا أَذَاهُ بِقَسْوَةٍ وَجُنُونِ
أَتَرَى أُولَئِكَ يَنْتَمُونَ لآدَمٍ ... أَمْ هُمْ مَلاَعِينٌ بَنُو مَلْعُونِ؟
تَاللَّهِ، أَيْنَ الآدَمِيَّةُ مِنْهُمُو؟ ... مِنْ مِثْلِ مَحْمُودٍ وَمِنْ يَاسِينِ؟
مِنْ جَوْدَةٍ أَوْ مِنْ دِيَابَ وَمُصْطَفَى ... وَحَمَادَةٍ وَعَطِيَّةٍ وَأَمِينِ[1]

(١) هذه أسماء بعض زبانية العذاب في السجون في سنوات ٥٤، ٥٥، ١٩٥٦م، وقد كانوا يُختارون من الجنود الفسقة القساة، المعروفين بميولهم الإجرامية، ثم يحشون رءوسهم بمعلومات كاذبة عن الإخوان، ويغرونهم بمكافآت مادية باهظة، وعلاوات استثنائية، سُميت «علاوة إجرام»، وكلما زاد أحدهم في إجرامه ووحشيته انهالت عليه الترقيات والعلاوات والمكافآت.

لا تَحْسَبُوهُمْ مُسْلِمِينَ مِن اسْمِهِمْ ... لا دِينَ فِيهِمْ غَيْرُ سَبِّ الدِّينِ!
لا دِينَ يَرْدَعُ لا ضَمِيرَ مُحَاسِبٌ ... لا خَوْفَ شَعْبٍ لا حِمَى قَانُونِ
مَنْ ظَنَّ قَانُونًا هُنَاكَ فَإِنَّمَا ... قَانُونُنَا هُوَ «حَمْزَةُ الْبَسْيُونِي»[1]
جَلاَّدُ ثَوْرَتِهِمْ وَسَوْطُ عَذَابِهِمْ ... سَمَّوْهُ زُورًا قَائِدًا لِسُجُونِ!
وَجْهٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ[2] حَاقِدٌ ... مُسْتَكْبِرُ الْقَسَمَاتِ وَالْعِرْنِينِ
فِي خَدِّهِ شَجٌّ تَرَى مِنْ خَلْفِهِ ... نَفْسًا مُعَقَّدَةً وَقَلْبَ لَعِينِ
مُتَعَطِّشٌ لِلسُّوءِ، فِي الدَّمِ وَالِغٌ ... فِي الشَّرِّ مَنْقُوعٌ، بِهِ مَعْجُونُ
هَذَا هُوَ الْحَرْبِيُّ مَعْقِلُ ثَوْرَةٍ ... تَدْعُو إِلَى التَّطْوِيرِ وَالتَّحْسِينِ!
هُوَ صُورَةٌ صُغْرَى اسْتُعِيرَتْ مِنْ لَظَى ... فِي ضِيقِهَا وضعَذَابِهَا الْمَلْعُونِ
هُوَ مَصْنَعٌ لِلْهَوْلِ كَمْ أَهْدَى لَنَا ... صُوَرًا تُذَكِّرُنَا بِيَوْمِ الدِّينِ
هُوَ فِتْنَةٌ فِي الدِّينِ لَوْلاَ نَفْحَةٌ ... مِنْ فَيْضِ إِيمَانٍ وَبَرْدِ يَقِينِ

* * *

قُلْ لِلْعَوَاذِلِ إِنْ رَمَيْتُمْ مِصْرَنَا ... بِتَخَلُّفِ التَّصْنِيعِ وَالتَّعْدِينِ
مِصْرُ الْحَدِيثَةُ قَدْ عَلَتْ وَتَقَدَّمَتْ ... فِي صَنْعَةِ التَّعْذِيبِ وَالتَّقْرِينِ!!
وَتَفَنَّنَتْ - كَيْ لاَ يَمَلَّ مُعَذَّبٌ - ... فِي الْعَرْضِ وَالإِخْرَاجِ وَالتَّلْوِينِ
أَسَمِعْتَ بِالإِنسانِ يُنْفَخُ بَطْنُهُ ... حَتَّى يُرَى فِي هَيْئَةِ «الْبَالُونِ»؟

(١) حمزة البسيوني: ضابط كان برتبة مقدم «بكباش» عام ١٩٥٤، وهو قائد السجون الحربية حينذاك، وبقي قائداً لها في هذه المحنة. هذا الضابط المأفون يحمل في صدره قلب وحش، وفي يده كرباج جلاد، وبين فكيه لسان «شرشوح» لا دين له ولا خلق، قال مرة للإخوان: «هاتوا لي ربكم وأنا أحطه في رنزانة!»، لعنه الله. والجدير بالذكر أنه طُرد من الجيش في مطلع الثورة أيام حملات التطهير، ثم أعاده عبدالناصر خصيصًا لتعذيب الإخوان.

(٢) قمطرير: مقبض ما بين العينين لشدته.

أَسَمِعْتَ بِالإِنسانِ يُضْغَطُ رَأسُهُ ... بِالطَّوْقِ حَتَّى يَنْتَهِي لِجُنُونِ
أَسَمِعْتَ بِالإِنْسَانِ يُشْعَلُ جِسْمُهُ ... نَارًا وَقَدْ صَبَغُوهُ «بِالْفَزْلِين»؟
أَسَمِعْتَ مَا يَلْقَى الْبَرِيءُ وَيَصْطَلِي ... حَتَّى يَقُولَ: أَنَا الْمُسِيءُ خُذُونِي!
أَسَمِعْتَ بِالآهَاتِ تَخْتَرِقُ الدُّجَى ... رَبَّاهُ عَدْلَكَ، إِنَّهُمْ قَتَلُونِي!!
إِنْ كُنْتَ لَمْ تَسْمَعْ فَسَلْ عَمَّا جَرَى ... مِثْلِي، وَلاَ يُنْبِيكَ مِثْلُ سَجِينِ
وَاسْأَلْ تُرَى «الْحَرْبِيِّ» أَوْ جُدْرَانَهْ ... كَمْ مِنْ كَسِيرٍ فِيهِ أَوْ مَطْعُونِ
وَسَلِ السِّيَاطَ السُّودَ كَمْ شَرِبَتْ دَمًا ... حَتَّى غَدَتْ حُمْرًا بِلاَ تَلْوِينِ
وَسَلِ «الْعَرُوسَةَ» قُبِّحَتْ مِنْ عَاهِرٍ ... كَمْ مِنْ جَرِيحٍ عِنْدَهَا وَطَعِينِ
كَمْ فِتْيَةٍ زُفُّوا إِلَيْهَا عُنْوَةً ... سَقَطُوا مِنَ التَّعْذِيبِ وَالتَّوْهِينِ
وَاسْأَلْ «زَنَازِينَ» الْجَلِيدِ تُجِبْكَ عَنْ ... فَنِّ الْعَذَابِ وَصَنْعَةِ التَّلْقِينِ
بِالنَّارِ أَوْ بِالزَّمْهَرِيرِ فَتِلْكَ فِي ... حِينٍ، وَهَذَا الزَّمْهَرِيرُ بِحِينِ
يُلْقَى الْفَتَى فِيهِ لَيَالِيَ عَارِيًا ... أَوْ شِبْهَ عَارٍ فِي شِتَا كَانُونِ
وَهُنَاكَ يُمْلِي الإِعْتِرَافَ كَمَا اشْتَهَوْا ... أَوْ لاَ فَوَيْلَ مُخَالِفٍ وَحَرُونِ
وَسَلِ «الْمُقَطَّمَ» وَهْوَ أَعْدَلُ شَاهِدٍ ... كَمْ مِنْ شَهِيدٍ فِي التِّلاَلِ دَفِينِ[1]
قَتَلَتْهُ طُغْمَةُ مِصْرَ أَبْشَعَ قِتْلَةٍ ... لاَ بِالرَّصَاصِ وَلاَ الْقَنَا الْمَسْنُونِ

---

(١) يظن بعض الناس أن شهداء الإخوان الذين قتلهم عبدالناصر هم الستة الذين شنقوا علنًا بحكم المحكمة الهزلية، التي سُميت زورا «محكمة الشعب»، والحقيقة أن شهداء الإسلام الذين قُتلوا في العهد الناصري في مصر كثيرون جدًّا، يكفي أن تضيف إليهم ٢٤ شهيدًا أُطلقت عليهم المدافع الرشاشة داخل سجن ليمان طرة، مع أنهم سجناء، والتحقيقات التي أُجريت في السجن الحربي أدت إلى مقتل خمسة وتسعين من الإخوان تحت سياط الزبانية المتوحشين، وأدوات التعذيب، وأساليبه التي نقلوها من خبراء النازية والشيوعية؛ ومن هؤلاء الذين سقطوا صرعى العذاب: محمود يونس، وحسين شعبان، والشيخ محمد الديب، ومحمد عطوة، وعلي الخولي، ومحمود أبو الخير، وغيرهم، وغيرهم.

بَلْ عَلَّقُوهُ كَالذَّبِيحَةِ هُيِّئَتْ ... لِلْقَطْعِ وَالتَّمْزِيقِ بِالسِّكِّينِ

وَتَهَجَّدُوا فِيهِ لَيَالِيَ كُلَّهَا ... جَلْدٌ وَهُمْ فِي الْجَلْدِ أَهْلُ فُنُونِ

فَإِذَا السِّيَاطُ عَجَزْنَ عَنْ إِنْطَاقِهِ ... فَالْكَيُّ بِالنِّيرَانِ خَيْرُ ضَمِينِ

وَمَضَتْ لَيَالٍ وَالْعَذَابُ مُسَجَّرٌ ... لِفَتًى بِأَيْدِي الْمُجْرِمِينَ رَهِينِ

لَمْ يَعْبَئُوا بِجِرَاحِهِ وَصَدِيدِهَا ... لَمْ يَسْمَعُوا لِتَأَوُّهٍ وَأَنِينِ

قَالُوا: اعْتَرِفْ أَوْ مُتْ فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ ... فَأَبَى الْفَتَى إِلاَّ اخْتِيَارَ مَنُونِ

وَجَرَى الدَّمُ الدَّفَّاقُ يَسْطُرُ فِي الثَّرَى ... يَا إِخْوَتِي اسْتُشْهِدْتُ فَاحْتَسِبُونِي

لاَ تَحْزَنُوا؟ إِنِّي لِرَبِّي ذَاهِبٌ ... أَحْيَا حَيَاةَ الْحُرِّ لاَ الْمَسْجُونِ

وَامْضُوا عَلَى دَرْبِ الْهُدَى لاَ تَيْأَسُوا ... فَالْيَأْسُ أَصْلُ الضَّعْفِ وَالتَّوْهِينِ

قُولُوا لأُمِّي: لاَ تَنُوحِي وَاصْبِرِي ... أَنَا عِنْدَ خَالِقِيَ الَّذِي يَهْدِينِي

أَنَا فِي رُبَا الْفِرْدَوْسِ أَقْفِزُ شَادِيًا ... جَذْلاَنَ كَالْعُصْفُورِ بَيْنَ غُصُونِ

وَإِذَا حُرِمْتُ الْعُرْسَ فِي الدُّنْيَا فَلِي ... مَا شِئْتُ فِيهَا مِنْ حِسَانِ عِينِ

أُمَّاهُ حَسْبُكِ أَنْ أَمُوتَ مُعَذَّبًا ... فِي اللَّهِ لاَ فِي شَهْوَةٍ وَمُجُونِ

مَا خُنْتُ دِينِي أَوْ حِمَاى وَلَمْ أَكُنْ ... يَوْمًا عَلَى حُرُمَاتِهِ بِضَنِينِ

فَلْيَسْأَلُوا عَنِّي «الْقَنَاةَ» وَيَسْأَلُوا ... عَنِّي «الْيَهُودَ» فَطَالَمَا خَبَرُونِي

سُحْقًا لَجَزَّارِينَ كُمْ ذَبَحُوا فَتًى ... مُسْتَهْتِرِينَ كَأَنَّهُ ابْنُ لَبُونِ[1] !

فَإِذَا قَضَى ذَهَبُوا بِجُثَّتِهِ إِلَى ... تَلِّ الْمُقَطَّمِ وَهْوَ غَيْرُ بَطِينِ[2]

لَفُّوهُ فِي ثَوْبِ الدُّجَى وَتَسَلَّلُوا ... سَارِينَ بَيْنَ مَفَاوِزٍ وَحُزُونِ[3]

وَارَوْهُ ثُمَّ مَحَوْا مَعَالِمَ رَمْسِهِ ... فَغَدَا كَسِرٍّ فِي الثَّرَى مَكْنُونِ

---

(١) ابن اللبون: ابن الناقة ذات اللبن؛ وهو الذي أتم سنتين، ودخل في الثالثة.

(٢) البطين: البعيد.

(٣) حزون: جمع حزن: ما غلظ من الأرض.

أَخْفَوْهُ عَنْ عَيْنِ الأَنَامِ وَمَا دَرَوْا ... أَنَّ الإِلَهَ يَرَاهُمُ بِعُيُونِ
اللَّيْلُ يَشْهَدُ وَالْكَوَاكِبُ وَالثَّرَى ... وَكَفَى بِهِمْ شُهَدَاءَ يَوْمَ الدِّينِ

* * *

قَالُوا: مُحَاكَمَةٌ، فَقُلْتُ: رِوَايَةٌ ... أَعْطَوْا لِمُخْرِجِهَا وِسَامَ فُنُونِ
هِيَ شَرُّ مُهْزَلَةٍ وَمَأْسَاةٍ مَعًا ... قَدْ أَضْحَكَتْنِي مِثْلَ مَا تُبْكِينِي
أَوَعَتْ سِجِلاَّتُ الْقَضَاءِ قَضِيَّةً ... كَقَضِيَّةِ «الإِخْوَانِ»؟ أَيْنَ؟ أَرُونِي؟
الْخَصْمُ فِيهَا مُدَّعٍ وَمُحَقِّقٌ ... وَهْوَ الَّذِي يَقْضِي بِلا قَانُونِ
إِلاَّ هَوَاهُ وَمَا يَدُورُ بِرَأْسِهِ ... مِنْ خَلْطِ سِكِّيرٍ وَرَأْيِ أَفِينِ
أَرَأَيْتَ مَحْكَمَةً تَرَأَّسَهَا امْرُؤٌ ... يَدْعُوهُ مَنْ عَرَفُوهُ «بِالْمَجْنُونِ»[1]
أَرَأَيْتَ أَحْرَارًا رَمَوْا بِهُمُو لَدَى ... قَاضٍ عَدِيمٍ دِينَهُ مَأْبُونِ
وَالْوَيْلُ لامْرِيءٍ اسْتَبَاحَ لِنَفْسِهِ ... إِظْهَارَ تَعْذِيبٍ وَدَفْعَ ظُنُونِ
سَيَعُودُ «لِلْحَرْبِيِّ» يَأْخُذُ حَظَّهُ ... وَجَزَاءَهُ الأَوْفَى مِنَ «الْبَسْيُونِي»

* * *

أَنَا إِنْ نَسِيتُ فَلَسْتُ أَنْسَى لَيْلَةً ... فِي سَاحَةِ الْحَرْبِيِّ ذَاتَ شُجُونِ
عُدْنَا الْمَسَاءَ مِنَ الْمُحَاكَمَةِ الَّتِي ... كَانَتْ فُصُولَ فُكَاهَةٍ وَمُجُونِ
مَا كَادَ يَعْرُونَا الْكَرَى حَتَّى دَعَا ... دَاعِي الرَّدَى وَكَفَاكَ صَوْتُ أَمِينِ[2]

---

(١) هو البكباشي جمال سالم الذي دخل مستشفى الأمراض العقلية غير مرة، ثم عينه فرعون مصر ليحاكم قادة الدعوة الإسلامية؛ أمثال حسن الهضيبي، وعبدالقادر عودة، ومحمد فرغلي، ويوسف طلعت، وسيد قطب، وقد أقصاه فرعون بعد ذلك، ومن أعان ظالمًا سلط عليه، سنة اللَّه في خلقه.

(٢) أمين السيد: رقيب أول «باشجاويش» السجن الحربي، كان في يده سلطات مطلقة، ويستطيع أن يعذب إلى حد الموت، وكان يرى نفسه كأنه أحد قادة الثورة.

فَتَجَمَّعَ «الإِخْوَانُ» ممَّنْ حُوكِمُوا ... ذَا الْيَوْمَ مِنْ طَنْطَا إِلَى بَسْيُونِ
أَمَّا الأُلَى سَيُحَاكَمُونَ فَأُحْضِرُوا ... لِيَرَوْا يَقِينًا لَيْسَ بِالْمَظْنُونِ
وَإِذَا بِقَائِدِنَا الْمُظَفَّرِ حَمْزَةٍ ... فِي عَسْكَرٍ شَاكِي السِّلاحِ حَصِينِ
حَشَدَ الْجُنُودَ وَصَفَّهَا بِمَهَارَةٍ ... وَكَأَنَّـــهُ عَمْـــرٌو بِأَجْنَـــادِيـنِ
وَأَحَاطَنَا بِبَنَادِقٍ وَمَدَافِعٍ ... فَغَرَتْ لَنَـــا فَاهَا كَفِي التِّنِّينِ
طَابُورُ «تَكْدِيرٍ» ثَقِيلٍ مُرْهِقٍ ... فِي وَقْتِ أَحْلامٍ وَآنِ سُكُونِ
نُعْدُو كَمَا تَعْدُو الظِّبَاءُ يَسُوقُنَا ... لَهَبُ السِّيَاطِ شَكَتْ مِنَ التَّسْخِينِ
وَمَضَتْ عَلَيْنَا سَاعَتَانِ وَكُلُّنَا ... عَرَقٌ تَصَبَّبَ مِثْلَ فَيْضِ عُيُونِ
مَنْ خَرَّ إِغْمَاءً يُفِقْ عَجِلاً عَلَى ... ضَرَبَاتِ صَوْتٍ لِلْعَذَابِ مُهِينِ
وَمَنِ ارْتَمَى فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْخُوخَةٍ ... أَوْ عِلَّةٍ دَاسُوهُ دَوْسَ الطِّينِ
لَمْ يَكْفِ حَمْزَةَ كُلُّ مَا نُؤْنَا بِهِ ... مِنْ فَرْطِ إِعْيَاءٍ وَمِنْ تَوْهِينِ
فَأَتَى يُوَزِّعُ بِالْمُفَرِّقِ دُفْعَةً ... بِالسَّوْطِ مِنْ عِشْرِينَ لِلْخَمْسِينِ
كُلٌّ يَنَالُ نَصِيبَهُ بِنَزَاهَةٍ ... فِي الْعَدِّ وَالإِتْقَانِ وَالتَّحْسِينِ
وَإِذَا نَسِيتُ فَلَسْتُ أَنْسَى خُطْبَةً ... مَا زَالَ صَوْتُ خَطِيبِهَا يُشْجِينِي
إِذْ قَالَ حَمْزَةُ ـ وَهْوَ مُنْتَفِخٌ ـ فَلَمْ ... يَتْرُكْ لِفِرْعَوْنٍ وَلا قَارُونِ
أَيْنَ الأُلَى اصْطَنَعُوا الْبُطُولَةَ وَادَّعَوْا ... أَنِّي أُعَذِّبُهُمْ هُنَا بِسُجُونِي
أَظَنَنْتُمُو هَذَا يُخَفِّفُ عَنْكُمُو؟ ... كَلاَّ، فَأَمْرُكُمُ انْتَهَى، وَسَلُونِي؟
أَمْ تَحْسَبُونَ كَلاَمَ أَلْفٍ مِنْكُمُو ... عَنْكُمْ وَعَنْ تَعْذِيبِكُمْ يُثْنِينِي؟
إِنِّي هُنَا الْقَانُونُ، أَعْلَى سُلْطَةٍ ... مَنْ ذَا يُحَاسِبُ سُلْطَةَ الْقَانُونِ
مُتَفَرِّدٌ فِي الْحُكْمِ دُونَ مُعَقِّبٍ ... مَنْ ذَا يُخَالِفُنِي وَمَنْ يَعْصِينِي
فَـــإِذَا أَرَدْتُ وَهَبْتُـــكُمْ حُرِّيَّـــةً ... أَوْ شِئْتُ ذُقْتُمْ مِنْ عَذَابِي الْهُونِ
مَنْ مِنْكُمُو سَـامَحْتُهُ فَبِرَحْمَتِي ... وَإِذَا أَبَيْتُ فَذَاكَ طَوْعُ يَمِينِي

وَمَنِ ابْتَغَى مَوْتًا فَهَا عِنْدِي لَهُ ... مَوْتٌ بِلاَ غُسْلٍ وَلاَ تَكْفِينِ
يَا فَارِسَ الْوَادِي وَقَائِدَ سَجْنِه ... أَبَنُو الْكِنَانَةِ أَمْ بَنُو صِهْيُونِ؟
هَلاَّ ذَهَبْتَ إِلَى الْحُدُودِ حَمَيْتَهَا ... وَأَرَيْتَنَا أَفْكَارَ نَابُلْيُونِ؟
اذْهَبْ لِغَزَّةَ يَا هُمَامُ وَأَنْسِنَا ... بِجِهَادِكَ الدَّامِي صَلاَحَ الدِّينِ!
أَفَضِدْتُنَا كَبْشُ النِّطَاحِ وَنَعْجَةٌ ... فِي الْحَرْبِ جَمَّاءٌ بِغَيْرِ قُرُونِ؟

* * *

قُلْ لِلَّذِي جَعَلَ الْكِنَانَةَ كُلَّهَا ... سِجْنًا وَبَاتَ الشَّعْبُ شَرَّ سَجِينِ
يَأَيُّهَا الْمَغْرُورُ فِي سُلْطَانِه ... أَمِنَ النُّضَارِ[1] خُلِقْتَ أَمْ مِنْ طِينِ؟
يَا مَنْ أَسَأْتَ لِكُلِّ مَنْ قَدْ أَحْسَنُوا ... لَكَ دَائِنِينَ فَكُنْتَ شَرَّ مَدِينِ
يَا ذِئْبَ غَدْرٍ نَصَّبُوهُ رَاعِيًا ... وَالذِّئْبُ لَمْ يَكُ سَاعَةً بِأَمِينِ
يَا مَنْ زَرَعْتَ الشَّرَّ لَنْ تَجْنِي سِوَى ... شَرٍّ وَحِقْدٍ فِي الصُّدُورِ دَفِينِ
سَيَزُولُ حُكْمُكَ يَا ظَلُومُ كَمَا انْقَضَتْ ... دُوَلٌ أُوَلاَتُ عَسَاكِرٍ وَحُصُونِ
سَتَهُبُّ عَاصِفَةٌ تَدُكُّ بِنَاءَهُ ... دَكًّا وَرُكْنُ الظُّلْمِ غَيْرُ رَكِينِ
مَاذَا كَسَبْتَ وَقَدْ بَذَلْتَ مِنَ الْقُوَى ... وَالْمَالِ ـ بِالآلاَفِ وَالْمِلْيُونِ؟
أَرْهَقْتَ أَعْصَابَ الْبِلاَدِ وَمَالَهَا ... وَرِجَالَهَا فِي الْهَدْمِ لاَ التَّكْوِينِ
وَأَدَرْتَ مَعْرَكَةً تَأَجَّجُ نَارُهَا ... مَعَ غَيْرِ «جُنْ بُولِ» وَلا «كُوهِينِ»
هَلْ عُدْتَ إِلاَّ بِالْهَزِيمَةِ مَرَّةً ... وَرَبِحْتَ غَيْرَ خَسَارَةِ الْمَغْبُونِ؟
وَحَفَرْتَ فِي كُلِّ الْقُلُوبِ مَغَاوِرًا ... تَهْوِي بِهَا سَفْلاً إِلَى سِجِّينِ
وَبَنَيْتَ مِنْ أَشْلاَئِنَا وَعِظَامِنَا ... جِسْرًا بِهِ نَرْقَى لِعِلِّيِّينِ
وَصَنَعْتَ بِالْيَدِ نَعْشَ عَهْدِكَ طَائِعًا ... وَدَقَقْتَ إِسْفِينًا إِلَى إِسْفِينِ

(١) النضار: الذهب.

وَظَنَنْتَ دَعْوَتَنَا تَمُوتُ بِضَرْبَةٍ ... خَابَتْ ظُنُونُكَ فَهْيَ شَرُّ ظُنُونِ
بَلِيَتْ سِيَاطُكَ وَالْعَزَائِمُ لَمْ تَزَلْ ... مِنَّا كَحَدِّ الصَّارِمِ الْمَسْنُونِ
إِنَّا لَعَمْرِي إِنْ صَمَتْنَا بُرْهَةً ... فَالنَّارُ فِي الْبُرْكَانِ ذَاتُ كُمُونِ
تَاللَّهِ مَا الطُّغْيَانُ يَهْزِمُ دَعْوَةً ... يَوْمًا، وَفِي التَّارِيخِ بِرٌّ يَمِينِي
ضَعْ فِي يَدَيَّ الْقَيْدَ، أَلْهِبْ أَضْلُعِي ... بِالسَّوْطِ، ضَعْ عُنُقِي عَلَى السِّكِّينِ!
لَنْ تَسْتَطِيعَ حِصَارَ فِكْرِي سَاعَةً ... أَوْ نَزْعَ إِيمَانِي وَنُورَ يَقِينِي!
فَالنُّورُ فِي قَلْبِي وَقَلْبِي فِي يَدَيْ ... رَبِّي وَرَبِّي نَاصِرِي وَمُعِينِي!
سَأَعِيشُ مُعْتَصِمًا بِحَبْلِ عَقِيدَتِي ... وَأَمُوتُ مُبْتَسِمًا لِيَحْيَا دِينِي!

*** أديب الإسلام الشيخ سيد قطب وصدعه بالحق وحكايته مع الطاغية:**

يعلم اللَّه أنا نكتب هذه الترجمة إنصافًا لقدر الناس، وأني لا أحيد عن مذهب السلف ومنهجهم قيد أنملة.

وبالسلفية إعجابنا ... إذا قلّ بالسلف المعجبُ

ولي وقفات كثيرة مع الفكر القطبي وجماعة القطبيين وردود طويلة على كتاب «حد الإسلام» وبيانًا لبدعهم.. ومع هذا أقول: إن للشيخ سيد قطب عبارات فيها استرسال وخاصة في مسائل التكفير وخاصة في تفسيره لسورة الأنعام في «الظلال» وهذه تحتاج لضبط سلفي، ونقدر مواقف الرجال وكلامهم يحتاج إلى روية وجمع لكلامهم المتفرق وأسلوب عف في النقد، مع بيان الخطأ والحيدة عن عقيدة السلف في كل صغيرة وكبيرة.. وليس من الإنصاف محاكمة الرجل على أنه عالم مدقق، وإنما الرجل يكتب بلسان الأديب وفيه استرسال فنبين خطأه وننقده فيه، ونذكر ما عنده من الصواب.. ويوم أن قتل أثنى عليه علاّمة الزمان وشيخ العصر ابن باز، وأثنى عليه بعد ذلك الشيخ بكر أبو زيد، وأثنى على كلمات له الشيخ الألباني.. وكان يكفي

الشيخ ربيع بن هادي المدخلي أن يخفف من حدته في الهجوم وينقد الشيخ سيد قطب نقدًا هادئًا[1] حتى ينتفع ببعض ردوده وفيها صواب على سيد قطب ـ رحمه اللَّه، ولعل أسلوب الشيخ الدويش في كتابه «المورد الزلال في أخطاء الظلال» أسلوب لين هين يبين الصواب بعيدًا عن التهجم والتشنج في العبارات فكل إنسان يؤخذ منه ويترك إلا رسول اللَّه ﷺ.

أكرر للمرة الألف أنا لسنا من القطبيين ولا نوافقهم على بدعهم في التكفير، ولا نقر انحرافهم عن الحق في كتابهم «حد الإسلام» لعبدالمجيد الشاذلي بل نحن السلفيون لهم بالمراصد في كل مكان «نقولها لوجه اللَّه أولاً وأخيرًا وحسابنا على اللَّه.

ولقد أنصف شيخ السلفية الألباني سيد قطب وهو يتحدث عن كلامه في فصل «لا إله إلا اللَّه منهج حياة» من كتابه «معالم على الطريق».

❑ يقول الشيخ بكر أبو زيد عن سيد قطب: «وجدت في كتبه خيرًا كثيرًا، وإيمانًا مشرقًا، وحقًّا أبلجًا، وتشريحًا فاضحًا لمخططات العداء للإسلام! على

---

(١) نأخذ ما عند الشيخ ربيع بن هادي المدخلي من حق ونبينه بالأسلوب الهادئ للناس ونترك منه تحامله في كلامه، ونأخذ من عند سيد قطب من حق ولا نقره مطلقًا على خطئه وخاصة في العبارات المبهمة والتي فيها إرسال في مسائل التكفير، وتأويله للصفات، وكلامه المبهم في بعض الأماكن القول بخلق القرآن ورده لبعض الأحاديث الصحيحة، وإنكاره لسحر النبي ﷺ، وكلامه في كتابه العدالة الاجتماعية عن عثمان ومعاوية رضي الله عنهما.. وقلامة عثمان رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه تساوي الدنيا بأسرها من أبناء عصرنا ونسأل اللَّه أن يمد في العمر ونكتب عن «سيد قطب ماله وما عليه» حتى لا يفتري علينا أحد بأننا من القطبيين بل نحن من السلفيين ومن دعاة المنهج والفكر السلفي الخالص نسأل اللَّه أن يتوفانا على هذا وإن يحشرنا مع سلفنا الصالح، كما نبين أنا سنذكره في كتابنا عن نقد الرجال.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

عثرات في سياقاته، واسترسال بعباراته! ليته لم يتفوَّه بها! وكثير منها ينقضها قوله الحق في مكان آخر والكمال عزيز.

والرجل كان أديبًا نقّادة، ثم اتجه إلى خدمة الإسلام من خلال القرآن العظيم، والسنة المشرفة، وسخّر قلمه ووقته ودمه في سبيلها، فشرق بها طغاة عصره!!

وأصرّ على موقفه في سبيل اللَّه تعالى، وكشف عن سالفَيه!.. وطُلب منه أن يسطّر بقلمه كلمات اعتذار! وقال كلمته الإيمانية المشهورة. إن أصبعًا أرفعه للشهادة، لن أكتب به كلمة تضادها! أو كلمة نحو ذلك!

فالواجب على الجميع الدعاء له بالمغفرة! والاستفادة من علمه! وبيان ما تحقّقنا خطأه فيه.

وإن خطأه لا يوجب حرماننا من علمه ولا هجْر كتبه!

واعتبر ـ رعاك اللَّه ـ حاله بحال أسلاف مضوْا، أمثال أبي إسماعيل الهروي والجيلاني، كيف دافع عنهما شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه تعالى ـ رغم ما لديهما من الطوام؛ لأن الأصل في مسلكهما نصرة الإسلام والسنة وانظر «منازل السائرين» للهروي ـ رحمه اللَّه ـ تر عجائب لا يُمكن قبولها! ومع ذلك فابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ يعتذر عنه أشد الاعتذار، ولا يُجرّمه فيها، وذلك في شرحه «مدارج السالكين».

نقبل الحق من سيد قطب ولا نقلده في خطئه الفكري أو الحركي فلا نقبل منه قوله في كتابه «لماذا أعدموني» (ص٤٥):

«تجب حماية الحركة الإسلامية وهي سائرة في خطواتها بحيث إذا اعتُدي عليها وعلى أفرادها ترد الاعتداء، وما دامت هي لا تريد أن تعتدي على غيرها، ولا تريد أن تفرض نظام اللَّه بالقوة من أعلى، فيجب أن تُترك لتؤدي واجبها، وألا يُعتدي عليها وعلى أهلها.

فإذا وقع الاعتداء عليها، كان الرد عليه من جانبها، بضرب القوة المعتدية، بالقدر الذي يسمح للحركة أن تستمر في طريقها».

لا نقبل هذا الكلام منه، لأننا نراه لا يتفق مع روح الدعوة والجهاد، ولا مع صبر الأنبياء والصالحين مع قوى الباطل، وقد كان كلام سيد هذا النافذة التي دخل منها الأعداء الراصدون إلى تنظيم الإخوان، وتوريطه، وجعل هذا وسيلة إدانته عند الظالمين في مذبحة ١٩٦٥م.. لا بد من الصبر الجميل حتى يقضي اللّه أمرًا كان مفعولاً لا بد من تربية الناس والجيل الناشئ على العقيدة السلفية.

❑ من العجيب أنه في فترة التمهيد لثورة يوليو ١٩٥٢ كان الضباط الأحرار يعقدون بعض اجتماعاتهم مع سيد قطب تحت شجرة باسقة في حديقة بيته بحلوان.

❑ يقول الأستاذ أحمد عبدالغفور عطّار الأديب الحجازي المعروف والصديق الأثير لسيد قطب عن صلة سيد برجال الثورة بعد قيامها «بلغ من احترام الثورة لسيد قطب وعرفانها بجميله وفضله، أن كل أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا ملتفين حوله، ويرجعون إليه في كثير من الأمور، حتى إنه كان هو المدني الوحيد الذي يحضر جلسات المجلس أحيانًا، وكانوا يترددون على منزله في حلوان.

ويتابع عطّار كلامه: «قرر مجلس قيادة الثورة ـ ونشرت القرار مجلة آخر ساعة أن يُسنَد إلى سيد قطب منصب وزير المعارف، كما أذكر، ولكن سيد قطب اعتذر!! ورجوْه أن يتولّى منصب المدير العام للإذاعة، فاعتذر!!

وأخيرًا وافق على أن يكون السكرتير العام لهيئة التحرير، ولبث فيه شهرًا.

وبدأ الخلاف بين سيد قطب وبين عبدالناصر وزملائه فاضطر سيد قطب

إلى الاستقالة من هيئة التحرير»[١] .

❑ يقول سيد قطب ـ رحمه اللَّه ـ: «كنت أعمل أكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميًّا قريبًا من رجال الثورة»[٢] .

*** قيادة ثورة يوليو يقيمون حفل تكريم لسيد قطب في أغسطس ١٩٥٢م!!**

«من تقدير وتوقير رجال الثورة له أنهم أقاموا حفل تكريم له بعد شهر من قيام الثورة.. وكان أساس الحفل محاضرة لسيد قطب بعنوان «التحرر الروحي والفكري في الإسلام» دُعي سيد لإلقائها في نادي الضباط في الزمالك في شهر أغسطس ـ آب ـ ١٩٥٢م.

وذهب سيد لإلقاء المحاضرة في الموعد المحدد، وكان معه صديقه الأديب الحجازي أحمد عبدالغفور عطّار.

وبدل أن يلقي سيد محاضرته، حوّل قادة الثورة الحفل إلى كلمات وخطابات للإشادة بسيد وبيان مناقشة، وصار الخطباء يتكلمون عن سيد ويثنون عليه وهو جالس.

❑ قال الأستاذ عطّار:

«كان مقرراً حضور محمد نجيب، وتولّيه تقديم سيد قطب إلاّ أن عُذْرًا عارضًا اضطر محمد نجيب للتخلف، وبعث برسالة تُلِيَت على الحضور، تلاها أحد الضباط.. وموجز كلمة محمد نجيب: أنه كان حريصًا على أن يحضر المحاضرة، ويُفيد من علم سيد قطب، ووصف سيد بأنه معلم الثورة ورائدها وراعيها.

---

(١) مجلة كلمة الحق السنة الأولى ـ العدد الثاني صفر ١٣٨٧ (ص٣٨) نقلاً عن كتاب «سيد قطب» لصلاح عبدالفتاح الخالدي ـ دار القلم دمشق.

(٢) «لماذا أعدموني» لسيد قطب (ص١١، ١٣).

وبعث نجيب برسالته مع أنور السادات، وأناب عنه جمال عبدالناصر.

افتتح أحد الضبّاط الحفل بآيات من القرآن، وقال أحد كبار الضباط:

«كان مقرّرًا أن يقوم الرئيس محمد نجيب بتقديم أستاذنا العظيم ورائد ثورتنا المباركة، مفكر الإسلام الأول في عصرنا الأستاذ سيد قطب، ولكن أمرًا حال دون حضوره». . وتقدّم الدكتور طه حسين وألقى كلمة رائعة قال فيها: «إن في سيد قطب خصلتيْن هما: المثالية المثالية، والعِناد، فهو ليس مثاليًّا فقط، ولكنه مثالي في المثالية».

وذكر سيد قطب وأثره في الثورة ورجالها. . وختم كلامه بالقول: إن سيد قطب انتهى في الأدب إلى القمة والقيادة، وكذلك في خدمة مصر والإسلام.

ثم وقف سيد قطب وألقى كلمة مرتجلة، وسط تصفيق المصفقين، وهتاف الهاتفين له.

❑ قال عن الثورة: «إن الثورة قد بدأت حقًّا، وليس لنا أن نثني عليها، لأنها لم تعمل بعدُ شيئًا يُذكَر، فخروج الملك ليس غاية الثورة، بل الغاية منها العودة بالبلاد إلى الإسلام!!

ثم قال سيد قطب: لقد كنت في عهد الملكيّة مهيّئًا نفسي للسجن في كل لحظة! وما آمن على نفسي في هذا العهد أيضًا فأنا في هذا العهد مهيئ نفسي للسجن، ولغير السجن، أكثر من ذي قبل».

وهنا وقف جمال عبدالناصر، وقال بصوته الجهوري ما نصه: «أخي الكبير سيد: واللَّه لن يصلوا إليك إلا على أجسادنا، جثثًا هامدة، ونعاهدك باسم اللَّه، بل نجدد عهدنا لك، على أن نكون فداءك حتى الموت!!».

وصفّق الناس تصفيقًا حادًّا متواصلاً، مع الهتاف المتكرر بحياة سيد قطب وعندما انتهى الحفل كان البكباشي جمال عبدالناصر في وداع سيد قطب».

ونذكّر بأن عبدالناصر الذي أقسم أمام الجماهير الحاشدة في ذلك

الحفل، أن يحافظ على سيد وحياته، والذي عاهده أن يكون فداءه حتى الموت، هو الذي حكم عليه بالإعدام بعد أربعة عشر عامًا كاملة من هذا التاريخ[١].

*** خلاف سيد مع رجال الثورة:**

أنشأ جمال عبدالناصر «هيئة التحرير» في ٢٣/١/١٩٥٣م وأسند إلى سيد قطب رئاستها، وحاول سيد أن تكون الهيئة إسلامية، ولكن رجال الثورة لا يريدون ذلك.

واستقال سيد قطب منها في شهر فبراير ١٩٥٣م، وحاول سيد قطب الإصلاح بين عبدالناصر والإخوان لئلا يقع الصدام بين الطرفين وفي هذا خسارة للإخوان والثورة والوطن ولكنه عجز.

فحتى مطلع عام ١٩٥٣ كان سيد قطب يعمل مع عبدالناصر لإصلاح الأحوال في مصر، وكان يرى عملاءَ أمريكا في مصر يحرّشون عبدالناصر علي الإخوان، لكنه لم يجد عند عبدالناصر استعدادًا لذلك، ولهذا فاصله وفارقه في شهر فبراير ١٩٥٣م وانضم إلى الإخوان مباشرة وانضمام سيد قطب للإخوان في هذه الأجواء دليل على صدق توجهه، وإخلاصه للَّه، فهو على يقين أنهم كانوا مقدمين على محنة خطيرة شديدة قاسية، وكان قبل انضمامه إليهم مقربًا من عبدالناصر ورجال الثورة، وهم يملكون الوظائف والمراكز والمناصب والأموال، ومع ذلك ترك الدنيا وما فيها عند عبدالناصر، وذهب إلى الإخوان وهو يكاد يرى المحن والأهوال التي تنتظرهم.

❑ يقول سيد قطب: «كانت حوادث ١٩٥٤م، فاعتقلت مع من اعتقلوا في يناير[٢]، وأُفرِج عنهم في مارس، ثم اعتُقلت بعد حادث المنشية في ٢٦

(١) انظر مجلة كلمة الحق ـ السنة الأولى ـ العدد الثاني، مايو ١٩٦٧م (ص٣٧ ـ ٣٩) وكتاب «سيد قطب» لصلاح الخالدي (ص١٦٠ ـ ١٦٥).

(٢) عند حل جماعة الإخوان في ١٥ يناير ١٩٥٤م.

أكتوبر كذلك، واتهمت بأني في الجهاز السري، ورئيس قسم المنشورات به، ولم يكن شيء من هذا كله صحيحًا»[١] .

وأفرج عن سيد قطب عام ١٩٦٤م بعفو صحي.

وفي ٩/٨/١٩٦٥م ألقي القبض على سيد قطب وبقي في التحقيق والتعذيب والمحاكمة إلى أن تم إعدامه بعد سنة من هذا التاريخ.

لما أُفرج عن سيد قطب عام ١٩٦٤م أصدر كتابه «معالم في الطريق»، وبسبب الأفكار الدعوية في كتاب «معالم في الطريق» وكتابه «في ظلال القرآن» غضب الطغاة من سيد قطب وحكموا عليه بالإعدام، ولهذا أطلق بعضهم على كتاب «معالم في الطريق» الكتاب الذي حكم على صاحبه بالإعدام.

❑ يقول سيد قطب في كتابه «لماذا أعدموني»:

«إنه أعقب ضرب الإخوان في سنة ١٩٥٤ موجة من الانحلال الأخلاقي والاتجاه الإلحادي، وستعقب ضربهم[٢] الآن موجة أشد، لا يعلم إلا اللَّه مداها، فلحساب من هذا الانهيار إنه قطعًا ليس لحساب البلد، ولا حتى لحساب النظام الحاكم.

ومهما كانت الآذان الآن غير مستعدة لسماع هذا الكلام، فإن من واجبي إبلاغه، وتبرئة ذمتي بقوله!!

لقد سمعت عدة مرات: وهل أنتم وحدكم المسلمون؟ أولا يكفيكم المؤتمر الإسلامي، وبرنامج «نور على نور» والمساجد تُقام فيها الصلاة، والناس يذهبون إلى الحج؟ ويجب أن أُقرر أن الإسلام شيء أكبر من هذا كله.. إنه

(١) «لماذا أعدموني» لسيد قطب (ص١٢).

(٢) هذا الكلام في ٢٢/ ١٠/١٩٦٥م.

نظام حياة كاملة، وإنه لا يقوم إلا بتربية وتكوين للشباب، وإلا بتحكيم شريعة اللَّه.

ولقد أردت في سنة ١٩٥٢م القيام بهذا في هيئة شباب التحرير، وكان الاتجاه معي في أول الأمر، ولكن في النهاية تغلّب توجيه جمعية الفلاح الأمريكية، وأشتات المنتفعين، الذين أرادوا هيئة التحرير بالصورة المهلهلة التي وُجدت بها، والتي تُخالف كل ما كنا اتفقنا عليه بشأنها.

إن الإسلام لا يقوم ولا يوجد في بلد ليس فيه حركة تربية ثم قيام نظام إسلامي يحكم بشريعة اللَّه في النهاية!

هذه في النهاية كلمات رجل، يستقبل وجه اللَّه، يُخلِّص بها ضميره، ويُبلِّغ بها دعوته إلى آخر لحظة!

والسلام على من اتبع الهدى.

السجن الحربي في ٢٢/ ١٠/ ١٩٦٥م[١].

وقال في هذا التقرير أيضًا: «إنه آن أن يُقدِّم إنسان مسلم رأسه ثمنًا لإعلان وجود حركة إسلامية»[٢].

وكان سيد قطب ينتظر حكم الإعدام عليه ويعلم أنهم سيحكمون عليه بهذا «روى الأستاذ إبراهيم المصري قائلاً: «وهنا لا بدّ من كشف النقاب عن حديث استكتمه سيد ـ رحمه اللَّه ورضي عنه ـ أحد إخوانه، قبل اعتقاله بأسابيع.. كان الحديث يدور حول اليهودية العالمية، وخطرها على العالم أجمع، والمسلمين بخاصة. يقول سيد: لقد وقفت على مدى تغلغل الأصابع اليهودية وخطرها، بعد بحث وطول عناء، واليهود إذا علموا أنني أحيط

(١) «لماذا أعدموني» (ص٩١ ـ ٩٤).

(٢) «لماذا أعدموني» (ص٧).

بذلك فلا بد أن أُقتل»[١] .

❑ قبل الحكم على سيد قطب بالإعدام يقول أحمد رائف: «في مرة من المرات أخذوني مع بعض الزملاء، لنُحضِر الطعام من المطبخ، وفي الطريق سنحت فرصة للتحدث مع سيد قطب.. قلتُ له ـ فيما قلت: ماذا تنتظر؟

فقال لي الرجل بابتسامة واثقة، نابعة من صدر هادئ مطمئن: أنتظر الوفود على ربي!!!

هذا كل ما كان ينتظر، أمّا ما قاله في المحكمة، فكان يريد به ذكر شيء للتاريخ[٢] .

«كان ينتظر القدوم على ربه؛ لأنه يشعر بأنه أدّى الواجب الذي عليه، وصدق ما عاهد اللَّه عليه، وبلّغ دعوته، وهو فرح سعيد راض.

وقد نُقِل عنه قوله لأحد إخوانه: «لقد عرفت أن الحكومة تريد رأسي هذا المرّة، ولست نادمًا لذلك، ولا متأسفًا لوفاتي، وأنا سعيد للموت في سبيل اللَّه».

وأرسل إلى صديقه عطار قبل الإعدام: «لقد وجدت اللَّه كما لم أجده من قبل قط، ولقد عرفت منهجه وطريقه، كما لم أعرفه من قبل قط، ولقد اطمأننت إلى رعايته، ووثقت بوعده للمؤمنين كما لم أطمئن من قبل قط!! وأنا بعد ذلك ـ على ما عهدتني ـ مرفوع الرأس، لا أحنيه إلا للَّه.. واللَّه يفعل ما يشاء.. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾»[٣] .

وبعد صدور الحكم بإعدامه كان باديًا على وجه الشكر والرضا، وكانت

---

(١) مجلة الشهاب اللبنانية ـ السنة الخامسة ـ العدد الحادي عشر أيلول ١٩٧١م (ص٣).

(٢) «البوابة السوداء» لأحمد رائف (ص٢٢٣).

(٣) «سيد قطب» للخالدي (ص٢٦٠) نقلاً عن مجلة «كلمة الحق» السنة الأولى ـ العدد الثاني مايو ١٩٦٧م (ص٤).

السعادة بادية على تقاسيم وجهه.

وعند ركوب السيارة سأل أحد الضبّاط أحدهم عن الحكم؟ فأجاب بأنه الإعدام!

فقال له سيد قطب: لا تقل لهم إعدام، بل قل شهادة في سبيل اللَّه دعهم يسمعون ما يكرهون.

«وسكت سيد قطب برهة، قال بعدها: الحمد للَّه ـ قالها بملء فيه ـ الحمد للَّه ـ شهادة في سبيل اللَّه.. إن اللَّه سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الجزاء، ولكن الجزاء أكبر بكثير مما نستحق.. شهادة في سبيل اللَّه! غدًا نلقي الأحبة، محمدًا وصحبه! وقال رسول اللَّه ﷺ عن الشهداء: «**أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل**»[1].

«وأُعجب أحد الضباط بفرح سيد قطب وسعادته عند سماعه نبأ الحكم عليه بالإعدام ـ الشهادة ـ وتعجّب؛ لأنه لم يحزن ويكتئب ويُحبط، فسأله قائلاً: أنت تعتقد أنك ستكون شهيدًا، فما معنى شهيد عندك؟.

أجابه سيد قطب قائلاً: الشهيد هو الذي يقدّم شهادة من روحه ودمه، أن دين اللَّه أغلى عنده من حياته، ولذلك يبذل روحه وحياته فداءً لدين اللَّه»[2].

واستعلى الرجل.. سيد قطب على كل المساومات.. أن يقول إن هذه الحركة كانت على صلة بجهة ما ويُفرج عنه بدلاً من الإعدام.

فقال: واللَّه لو كان هذا الكلام صحيحًا لقُلته، ولما استطاعت قوة على

---

(١) «الإخوان وعبدالناصر» لأحمد عبدالمجيد (ص١٩٣ ـ ١٩٤).

(٢) «مذابح الإخوان» (ص١١٨).

وجه الأرض أن تمنعني من قوله! ولكنه لم يحدث وأنا لا أقول كذابًا أبدًا؟!

قال لأخته حميدة: «إنهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، وإن الأعمار بيد اللَّه، وهم لا يستطيعون التحكم في حياتي، ولا يستطيعون إطالة الأعمار ولا تقصيرها، كل ذلك بيد اللَّه.. واللَّه من ورائهم محيط»[١].

عندما طُلب منه الاعتذار مقابل إطلاق سراحه قال: لن أعتذر عن العمل مع اللَّه. وعندما طُلب منه كتابة كلمات يسترحم عبدالناصر، رفض ذلك بعزة وقال: إن أصبع السبّابة الذي يشهد للَّه بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفًا يُقَرّ به حكم طاغية!

وقال ردًّا على ذلك الطلب: لماذا أسترحم؟ إنْ سُجنت بحق فأنا أقبل حكم الحق، وإن سُجنت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل[٢].

يقول الشيخ عبدالحميد كشك أسد المنابر في مذكراته «قصة أيامي» (ص١١٩ ـ ١٢٠):

«كان من الأحداث الجسام التي وقعت في صيف السجن ذلك الخبر الذي تعمّدوا أن يذيعوه علينا بالمذياع غداة تم تنفيذ حكم الإعداء في الشهداء الثلاثة: «سيد قطب» و«عبدالفتاح إسماعيل» و«محمد يوسف هوّاش». ولن أنسى صبيحة هذا اليوم وقد أذاعت النبأ إحدى المذيعات وكأنها تزفّ نبأ انتصار الجيش على إسرائيل، وكأننا استعدنا أرض فلسطين المقدسة.. ومما زاد الألم في النفوس أنها بعد إذاعة النبأ قالت: والآن نستمع إلى أغنية «بسبس نَوْ»!!

إلى هذا الحد بلغت الشماتة بقوم صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه.. إن

(١) «أيام من حياتي» لزينب الغزالي (ص١٨٣ ـ ١٨٤).

(٢) «لماذا أُعدم سيد قطب وإخوانه» (ص٢).

هؤلاء النفر الذين نُفِّذ فيهم حكم الإعداء فجر التاسع والعشرين من أغسطس ١٩٦٦م قوم قالوا كلمة حق عند سلطان جائر، فهم بين حمزة بن عبدالمطلب، وجعفر بن أبي طالب[1] . لقد أمروا هذا السلطان الجائر بالمعروف ونهوه عن المنكر فقتلهم بعدما عضّهم بنابه، وصبّ عليهم سوط عذابه، لقد جرّعهم كئوس التنكيل، وأذاقهم من العذاب ما لوْ صُبّ على الجبال لخرّت له هدّا».

عجبت لمصر تهضم الليث حقه وتفخر بالسنور ويحك يا مصرُ
سلام على الدنيا سلام على الورى إذا ارتفع العصفور وانخفض النسرُ

نسأل اللَّه أن يتقبّلهم في عداد الشهداء.

إن الناس يعيشون ويموتون، لكن الشهداء يعيشون ويعيشون، وإن الناس يعيشون ليموتوا، ولكن الشهداء يموتون ليعيشوا!!

انظر إلى قول سيد قطب في الظلال عند قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

«هو تعبير عجيب عن معنى عميق: إن الشهداء المختارون.. يختارهم اللَّه من بين المجاهدين.. ويتخذهم لنفسه سبحانه..

فما هي رزية إذن ولا خسارة، أن يستشهد في سبيل اللَّه من يُستشهد.. إنما هو اختيار وانتقاء وتكريم واختصاص.. إن هؤلاء الذين اختصهم اللَّه ورزقهم الشهادة، ليستخلصهم لنفسه ـ سبحانه.. ويخصهم بقربه.. ثم هم شهداء يتخذهم اللَّه، ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس، يستشهدهم فيؤدون الشهادة، يؤدونها أداءً لا شبهة فيه، ولا مطعن عليه، ولا

(١) لا نقطع بالجنة لأحد إلا من عيّنه الشارع فضلاً عن الشهادة.. هذا هو مذهب سلفنا أهل السنة والجماعة، ولكن نسأل اللَّه أن يتقبّلهم في عداد الشهداء.

جدال حوله، يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل اللَّه لإحقاق هذا الحق وتقريره في دنيا الناس»[١].

أما حياة الشهداء عند ربهم، التي أخبرنا اللَّه عنها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «إن هناك سيخرّون شهداء في معركة الحق.. شهداء في سبيل اللَّه.. قتلى أعزاء أحباء.. قتلى كراماء أزكياء..

هؤلاء الذين يُقتلون في سبيل اللَّه ليسوا أمواتًا، إنهم أحياء.. فلا يجوز أن يُقال عنهم: أموات! ولا يجوزأن يُعتبروا أمواتًا في الحس ولا في الشعور، ولا أن يقال عنهم أموات بالشفة واللسان، إنهم أحياء بشهادة اللَّه سبحانه، فهم لا بد أحياء.. إنهم قُتلوا في ظاهر الأمر، وحسبما ترى العين..

ولكن حقيقة الموت، وحقيقة الحياة، لا تقرّرهما هذه النظرة السطحية الظاهرة. إن سمة الحياة هي الفاعلية والنمو والامتداد، وإن سمة الموت الأولى هي: السلبية والخمود والانقطاع.

وهؤلاء الذين يُقتلون في سبيل اللَّه، فاعليتهم في نصرة الحق الذي قُتلوا من أجله فاعلية مؤثرة، والفكرة التي قُتلوا من أجلها ترتوي بدمائهم وتمتد، وتأثّر الباقين وراءهم باستشهادهم يقوى ويمتدّ.. فهم ما يزالون عنصرًا فعّالاً دافعًا مؤثرًا، في تكييف الحياة وتوجيهها.

وهذه هي صفة الحياة الأولى.. فهم أحياء بهذا الاعتبار الواقعي في حياة الناس»[٢].

---

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٤٨١).

(٢) «في ظلال القرآن» (١/ ١٤٣).

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ عن «قوة الكلمة» وحياتها وحيويتها: «إنه ليست كل كلمة تبلغ إلى قلوب الآخرين، فتحركها وتجمعها وتدفعها.. إنها الكلمات التي تقطر دماء؛ لأنها تقتات قلب إنسان حيّ!

كل كلمة عاشت قد اقتاتت قلب إنسان!

إن أصحاب الأقلام يستطيعون أن يصنعوا شيئًا كثيرًا، ولكن بشرط واحد.. أن يموتوا هم لتعيش أفكارهم! أن أفكارهم من لحومهم ودمائهم.. أن يقولوا ما يعتقدون أنه حق، ويُقدموا دماءهم فداءً لكلمة الحق! إن أفكارنا وكلماتنا تظل جثثًا هامدة، حتى إذا متنا في سبيلها وغذّيناها بدمائنا انتفضت حية، وعاشت بين الأحياء»[1].

* **الدين النصيحة:**

❑ من المستنكر قول الأستاذ سيد قطب بحرية الاعتقاد كما جاء في كتابه «دراسات إسلامية» (ص١٣ ـ ١٤) يقول:

«وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم اللَّه للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.

وهذه أخص خصائص التحرر الإنساني التحرر الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب متعسفة ونظم مذلة، لا يسمح لهذا الكائن الذي كرمه اللَّه باختياره لعقيدته ـ أن ينطوي ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما عليه الدولة بشتى أجهزتها التوجيهية وما تمليه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها، فإما أن يعتنق مذهب الدولة هذا ـ وهو يحرمه من الإيمان بإله للكون يصرف هذا الكون ـ وإما أن يتعرض للموت بشتى الوسائل

(١) «دراسات إسلامية» لسيد قطب (ص١٣٩).

والأسباب.

إن حرية الاعتقاد: هي أول حقوق الإنسان التي يثبت له بها وصف الإنسان.

فالذي يسلب إنسانًا حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته ابتداء.. ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة، وإلا فهي حرية بالاسم، لا مدلول لها في واقع الحياة.

والإسلام وهو أرقى تصور للوجود وللحياة وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء ـ هو الذي ينادي بأن ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين، فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهي تفرض فرضًا بسلطان الدولة ولا يسمح لمن يخالفها بالحياة؟!»[1].

وهذه فتوى للشيخ محمد بن عثيمين فيمن يجيز حرية الاعتقاد والتدين بما شاء من الأديان.

وسئل فضيلة الشيخ: نسمع ونقرأ كلمة (حرية الفكر) وهي دعوة إلي حرية الاعتقاد، فما تعليقكم على ذلك؟

فأجاب بقوله: تعليقنا على ذلك أن الذي يجيز أن يكون الإنسان حر الاعتقاد، يعتقد ما شاء من الأديان فإنه كافر؛ لأن كل من اعتقد أن أحدًا يسوغ له أن يتدين بغير دين محمد ﷺ، فإنه كافر باللَّه عز وجل ـ يستتاب فإن تاب وإلا وجب قتله.

والأديان ليست أفكارًا، ولكنها وحي من اللَّه ـ عز وجل ـ ينزله على رسله، يسير عباده عليه، وهذه الكلمة ـ أعني كلمة فكر ـ التي يقصد بها

(١) «في ضلال القرآن» (١/ ٢٩١).

الدين يجب أن تحذف من قواميس الكتب الإسلامية؛ لأنها تؤدي إلى هذا المعنى الفاسد..

❑ **وخلاصة الجواب**: أن من اعتقد أنه يجوز لأحد أن يتدين بما شاء وأنه حر فيما يتدين به فإنه كافر باللَّه ـ عز وجل ـ لأن اللَّه تعالى ـ يقول: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ**﴾ ويقول: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أن دينًا سوى الإسلام جائز.

ولا يجوز للإنسان أن يتعبد به بل إذا اعتقد هذا فقد صرح أهل العلم بأنه كافر كفرًا مخرجًا عن الملة»[1].

❑ **وهذا سؤال أيضًا وجه لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين:**

يا شيخ ما رأيكم فيمن يقول: «الإسلام لا يقرر حرية العبادة لأتباعه وحدهم إنما يقرر هذا الحق لأصحاب ديانات مخالفة ويكلف المسلمين أن يدافعوا عن هذا الحق للجميع ويأذن لهم في القتال تحت هذه الراية راية ضمان الحرية لجميع المتدينين وبذلك يحقق أنه نظام عالمي حر يستطيع الجميع أن يعيش في ظله آمنين مستمتعين بحرياتهم الدينية على قدم المساواة مع المسلمين وفي حماية المسلمين؟».

❑ **فأجاب فضيلته قائلاً:**

«الحمد للَّه رب العالمين وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

هناك قاعدة شرعية وعقلية تقول: من ادعى شيئًا فعليه الدليل، فهذا الرجل الذي يدعي أن الناس أحرار في أديانهم وأنهم يختارون من الأديان ما يريدون، وأنهم إذا اختاروا دينًا غير الإسلام فهو كأهل الإسلام؛ لأن

(١) «مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين» (٣/ ٩٩) رقم (٤٥٩).

كلاً له حريته.

نقول له: هذه دعوى فأت لها بدليل فإن لم تأت بدليل فإنها باطلة بالنص والإجماع، قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ...﴾، وقال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ..﴾، وقال اللَّه تبارك وتعالى في المؤمنين أنفسهم: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

فهذا القائل لهذه المقالة نقول: إنه مدع والمدعي عليه البينة وهذه الدعوى مردودة بالقرآن وبإجماع المسلمين على ذلك، صحيح أن الإنسان لا يجبر على الدين الإسلامي إذا بذل الجزية واستكان للدين الإسلامي وذل أمامه، فإننا لا نلزمه أن يتدين، ولكننا نعلم أن مأواه جهنم وبئس المصير، أما إذا نابذ ولم يخضع لحكم الإسلام في بذل الجزية وعدم العدوان على الإسلام وأهله فإننا نقاتله حتى تكون كلمة اللَّه هي العليا، نقاتله بأمر ربنا الذي خلقنا والذي خلقهم واللَّه عز وجل يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وكل من دان بغير دين الإسلام الذي بعث اللَّه به محمدًا ﷺ فهو خاسر ولا ينفعه تدينه هذا بل هو من أصحاب النار حتى إن النبي ﷺ قال عن اليهود والنصارى مع أنهم أهل كتاب إذا سمعوا بمحمد ﷺ ثم لم يؤمنوا ويتبعوه فإنهم يكونون من أصحاب النار فعلى هذا القائل أن يراجع نفسه وأن يحكم عقله وأن يتقي ربه وألا يكون جمادًا لا يفرق بين الخبيث

والطيب وبين المؤمن التقي والكافر الشقي.

❑ **يا شيخ ما حكم ما يقول هذا؟**

«حكمه أن يبلغ ويبيَّن له الحق فإن اهتدى فذلك المطلوب، وإن لم يهتد فلولاة الأمور أن يجروا عليه ما يقتضيه الشرع الإسلامي، ما يقتضيه الدين الإسلامي» ا. هـ[1].

❑ ويؤخذ عليه قوله بالاشتراكية وإلغاء الرق[2].

انظر «العدالة الاجتماعية» (ص٢٦١) ـ الطبعة الخامسة» وفي «ظلال القرآن» (٣/ ١٦٦٩) و(١/ ٢٣٠)، (٤/ ٢٤٥٥)، (٦/ ٣٢٨٥).

❑ قوله بالأخوة الإنسانية [انظر كتابه «نحو مجتمع إسلامي» (ص١٣٢)].

❑ وقوله بالضرائب (المكوس) [انظر كتاب سيد قطب «معركة الإسلام والرأسمالية» (ص٤١ ـ ٤٢)].

وقوله: في يد الدولة أن تنزع الملكيات جميعًا وتعيد توزيعها من جديد.

[انظر «معركة الإسلام والرأسمالية» (ص٤٣ ـ ٤٤، ٥٢)، و«دراسات إسلامية» (ص٩٠)].

❑ وقوله في الجزية انظر «الظلال» (٣/ ١٦٣٣ ـ ١٦٣٤).

ومساواته بين أهل الزكاة وأهل الجزية انظر إلى كتابه «السلام العالمي» (١٧٥ ـ ١٧٦) في حرية العبادة.

❑ ويؤخذ عليه قوله عن نبي الله موسى عليه السلام «أنه نموذج للزعيم

---

(١) «العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم» للشيخ ربيع بن هادي المدخلي (ص٥٦ ـ ٦٣).

(٢) انظر «أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره» لربيع المدخلي (ص١٩) ـ نقلاً عن كتاب «التصور الفني في القرآن».

المندفع العصبي المزاج»[1].

❑ ويعاب عليه عيبًا شديدًا ما قاله عن ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ، وما قاله عن معاوية بن أبي سفيان خال المسلمين ﷺ وما قاله عن الصحابي «أبو سفيان بن حرب» والصحابية هند بنت عتبة، وعمرو بن العاص ﷺ في كتابه «العدالة الاجتماعية» وقد رد عليه الشيخ محمود شاكر في مجلة «المسلمون» عام ١٣٧١هـ العدد الثالث تحت عنوان «لا تسبوا أصحابي».

(انظر العدالة الاجتماعية لسيد قطب ـ الطبعة الثانية عشرة ١٤٠٩هـ (ص١٥٩، ١٦١، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧)، و«كتب وشخصيات» (ص٢٤٢).

❑ أفيعقل أن يقول عن عثمان ﷺ: «ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام» [«العدالة» (ص٢٠٦) ـ الطبعة الخامسة].

❑ ويقول عن معاوية ﷺ: «فلما جاء معاوية، وصارت الخلافة الإسلامية ملكًا عضوضًا في بني أمية لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية»، وقال عن بني أمية: «فأمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها، وما كان الإسلام لها إلا رداء تخلعه وتلبسه حسب المصالح والملابسات»، ويقول عن خال المسلمين معاوية ﷺ: «فمعاوية هو ابن أبي سفيان وابن هند بنت عتبة، وهو وريث قومه جميعًا، وأشبه شيء بهم في بعد روحه عن حقيقة الإسلام.

فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية ـ أو بني أمية فهو منه بريء ومنهم بريء».

---

(١) نفس الهامش السابق.

هذا الكلام يشين سيد قطب . . فلو عمل سيد قطب ما عمل ما بلغ مد أحد من الصحابة ولا نصيفه».

فأي انحراف قيد أنملة عن عقيدة السلف من سيد قطب أو غيره ولو كان من كان يردّ إلى المزابل، وولاؤنا لعقيدة السلف.

وبالسلفية إعجابنا إذا قلّ بالسلف المعجب

ولولا محاولتي وحرصي أن يكون كتابي وجمعي هذا جامعًا في بابه ما ذكرت لمن حاد عن منهج السلف قيد أنملة ولا نصف كلمة.

*** الدين النصيحة:**

❑ من المستنكر قول الأستاذ سيد قطب بحرية الاعتقاد كما جاء في كتابه «دراسات إسلامية» (ص١٣ ـ ١٤).

يقول: «وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم اللَّه للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه.

وهذه أخص خصائص التحرر الإنساني التحرر الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب متعسفة ونظم مذلة، لا يسمح لهذا الكائن الذي كرمه اللَّه باختياره لعقيدته ـ أن ينطوي ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما عليه الدولة بشتى أجهزتها التوجيهية وما تمليه عليه بعد ذلك بقوانينها وأوضاعها، فإما أن يعتنق مذهب الدولة هذا ـ وهو يحرمه من الإيمان بإله للكون يصرف هذا الكون ـ وإما أن يتعرض للموت بشتى الوسائل والأسباب.

إن حرية الاعتقاد: هي أول حقوق الإنسان التي يثبت لها بها وصف الإنسان.

فالذي يسلب إنسانًا حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته ابتداء.. ومع حرية الاعتقاد حرية الدعوة للعقيدة، والأمن من الأذى والفتنة، وإلا فهي حرية بالاسم، لا مدلول لها في واقع الحياة.

والإسلام وهو أرقى تصور للوجود وللحياة وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مراء ـ هو الذي ينادي بأن ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين، فكيف بالمذاهب والنظم الأرضية القاصرة المتعسفة وهي تفرض فرضًا بسلطان الدولة ولا يسمح لم يخالفها بالحياة؟!»[1].

❑ وهذه فتوى للشيخ محمد بن عثيمين فيمن يجيز حرية الاعتقاد والتدين بما شاء من الأديان.

وسئل فضيلة الشيخ: نسمع ونقرأ كلمة (حرية الفكر) وهي دعوة إلى حرية الاعتقاد، فما تعليقكم على ذلك؟

فأجاب بقوله: تعليقنا على ذلك أن الذي يجيز أن يكون الإنسان حر الاعتقاد، يعتقد ما شاء من الأديان فإنه كافر؛ لأنِ كل من اعتقد أن أحدًا يسوغ له أن يتدين بغير دين محمد ﷺ، فإنه كافر باللَّه ـ عز وجل ـ يستتاب فإن تاب وإلا وجب قتله.

* العالم العامل والمربي الفاضل العلاّمة الشيخ محمد الأوْدن صاحب الكرامة العظيمة:

❑ قال عنه الشيخ حسن عاشور صاحب «دار الاعتصام»: «أمير علماء عصره.. العالم العامل والمربي الفاضل، والناصح الأمين.. والتقيّ النقيّ

(١) «في ظلال القرآن» (١/ ٢٩١).

الورع الذي صدع بالحق فنطق به في وجه «طاغية مصر» يوم أن خرست ألسنة كثير من العلماء خشية البطش والتنكيل، أو نجاة بالنفس من الهلاك والاضطهاد، أو تفاديًا للملاحقة والاستبداد، أو أملاً في رضا الحاكم وذهب السلطان.. ذلكم هو العلاّمة الشيخ «محمد الأودن» الذي رحل عن هذه الدنيا بعد أن أدّى رسالة الدعاة وأمانة العلماء رغم ما جلبه ذلك عليه من فتن ومحن، وسجن وإرهاب، وتنكيل وتعذيب.. فلم تفتر همّته، ولم تضعف عزيمته حتى ذهب إلى ربه راضيًا مرضيًّا ليجد عنده ما قدّمته يداه»[1].

يقول الشيخ عبدالحميد كشك في مذكراته عن الشيخ الأودن:

«جيء ذات يوم وفي صيف ١٩٦٥م؛ جئ بأحد العلماء المتخصصين في دراسة الكتاب والسنة، وقد بلغ من الكبر عتيًّا، ووضع في قفص حديدي لما أصاب عظامه من الكسور، فقال قائد الجلاّدين لزبانيته: أدخلوه زنزانة واحبسوه حبسًا انفراديًّا وجوّعوا له كلبًا ـ ومما هو جدير بالذكر أن الكلاب في السجن الحربي كانت تأكل ما لذّ وطاب من الطعام بينما الآدميون لا يجدون فتات الموائد، وكانت الكلاب مدرّبة على نهش لحوم البشر فانظر يرعاك اللّه.. وتأمل ما هي العزّة والكرامة التي كان يتغنّى بها زعيم البلاد؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ ونفّذ الزبانية الأمر وجيء بالشيخ وقد بلغ الوهن منه ما بلغ واشتعل الرأس شيبًا وصار فيه دبيب الشيب فهزم العافية في جسده الناعم، ودخل الزنزانة وهو لا يدري ماذا يراد به ولكن من كان اللّه معه فمن عليه، ومَن وجد اللّه فماذا فقد؟.

دخل الشيخ زنزانته وهو يرتل قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ

(١) في التقديم والتعريف بكتاب «كتمان الحق» في آخر صفحة بقلم الشيخ حسن عاشور.

صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾، ثم يقرأ: ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ واستقبل القبلة وصلّى للّه ركعات والصلاة كهف المؤمن كما أخبر بذلك الصادق المعصوم وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وكان يقول: «أرحنا بها يا بلال»، وفوجئ الشيخ ببعض الجلاّدين يدخلون معه كلبًا مفزعًا مخيفًا ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ وأغلقوا عليهما باب الزنزانة واستمر الشيخ في صلاته فالصلاة روح يسري في قلب المؤمن يصله بالعالم العلوي والعالم الملائكي... وبعد ساعات من وضع الكلب بجانب الشيخ نادى قائد السجن على زبانيته وقال لهم بلسان الصلف والتيه والكبرياء: اذهبوا وانظروا ماذا فعل الكلب بابن الـ.. وذهب الزبانية على أمل أن الكلب قد أكل من الشيخ لحمه وعظمه وبناءً عليه فسوف تُصرف لهم مكافأة مالية وهكذا كانت أحوال الناس وعلاقاتهم: المنفعة... المصلحة... المادة... الكسب الرخيص... الأنانية... حب الذات... النفاق... الكذب... الخيانة... أنا والطوفان من بعدي... «أُنجُ سعد فقد هلك سعيد» ونظروا من العين السحرية من باب الزنزانة ليُخرجوا الكلب ويغسلوا الدم ولكن كانت المفاجأة تنخلع لها القلوب وتنعقد لها الألسنة دهشة وعجبًا، لقد وجدوا الشيخ ساجدًا للّه تعالى مستغرقًا في نور الجلال والجمال والكمال عليه كوكبة تحفّها السكينة والوقار ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

نعم..

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمانُ

وجدوا الشيخ ساجدًا والكلب يحرسه كأنهما كانا على معرفة قديمة وصداقة أصيلة!! إنه الإيمان إذا تمكّنت بشاشته من شغاف القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكنًا والملح الأُجاج عذبًا سلسبيلا، إنه اليقين في اللَّه والاعتصام بحبله المتين... إنه صدق النية والإخلاص... إنها لغة «لاسلكي القلوب» لا يفهمها إلا من صفا قلبه وقوي يقينه... إنه هذا الإيمان يحرّك الجبال ويُسيّر العوالم.

إن للَّه عبادًا فطنا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلمّا علموا ... أنها ليست لحيٍّ سكنا
جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

لقد رجع الزبانية إلى سيدهم وقد انعقدت على رءوسهم هالات ضخمة من الدهشة، فما كان منه إلاّ أن قابل ذلك بالسباب والشتائم وقال لهم: ارجعوا فحرّضوا الكلب لينهش لحم هذا الـ... وفعلوا ذلك، ولكن دون جدوى فالكلب وفيّ لأولياء اللَّه الصالحين، والوفاء قيمة عليا له في القلوب المؤمنة مكانة عظمى بينما بنو الإنسان حرموا هذا القدر العظيم من هذا الخُلُق العظيم ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٣-٩٦].

يا رب ما أعظمك! ما أكرمك! ما أرحمك! ما أجملك! كل شيء قائم بك، وكل شيء خاشع لك، أنت قوة كل ضعيف، وعزّ كل ذليل، وغنى كل فقير، ومفزع كل ملهوف، من تكلّم سمعتَ نطقَه، ومن سكت علمت سرّه، ومن عاش فعليك رزقه، ومن مات فإليك منقلبه، يا عظيمًا يُرجى لكل عظيم.

يا مَن يرى ما في الضمير ويسمعُ ... أنت الرقيب لكل ما يُتوقَّعُ

لقد شكا الزبانية إلى سيدهم صمود الكلب وثبوته واصراره على موقفه من الشيخ فقال لهم ـ وقد ظلّ وجهه مسودّا وهو كظيم ـ إذًا فأخرجوا الكلب حتى لا يُصاب من رائحة الزنزانة بشيء يؤذيه، ونسي هذا أو تناسى أن للقلوب دولة لا يملك مفاتحها إلا اللَّه، لقد ظلّ الشيخ في هذا السجن عامًا خرج بعده مسافرًا إلى مملكة الحجاز حيث عاش بها متنقلاً بين الحرمين الشريفين، وأراد ربك أن يختاره إلى جواره هناك وأن يدفن بأرض الطهر ومنازل الوحي ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾[1] .

❑ يقول صاحب الفضيلة الشيخ محمد محمد الأودن في تقديمه لكتاب «كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء»:ـ

«العلماء... وفي مقدمتهم خرّيجو الأزهر ـ الذين درسوا كتاب اللَّه عز وجل وسنة رسول اللَّه ﷺ، وآمنوا بأن للمسلمين شرعة ومنهاجًا يكفر من جحدهما وفرّط فيهما... يعلمون تمام العلم أنهم مسئولون عن الفساد في الأرض بكتمان الحق والجهاد في سبيله.

وغني عن البيان أن العلماء في الأمة بمثابة القلوب في الأجساد.. . إذا قوي نبضها صحّ الجسد، وإذا ضعف انهارت الأعضاء، ووهنت عزيمتها، واستسلمت للموت جميعًا..

ومبادئ الإسلام وأصوله التي تلقّنها العلماء، وأنفقوا زهرة العمر في

(١) «قصة أيامي... مذكرات الشيخ كشك» للشيخ عبد الحميد كشك ص(١٣٧ ـ ١٤٠) المختار الإسلامي ومذهب أهل السنة أنهم لا يقطعون لأحد بدخول الجنة أو النار إلا من عيّنه الشارع ولكن حسن الظن بالودود الكريم أنه لا يخيّب رجاء أوليائه وحسن ظنهم به.

تحصيلها تفرض عليهم بطبيعتها أن يكونوا دعاة لها، رافعين لواء تبليغها... وإلا كان المفرّطون منهم كبعض علماء بني إسرائيل الذين قال اللَّه فيهم: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.

فإن هم لم يقوموا بذلك ـ وهم أهله وأصحاب الكلمة فيه ـ فمن ذا الذي يقوم بالدعوة به؟!! أم يقوم به المتعلمون تعلّمًا مدنيًّا... وهم الذين حيل بينهم وبين تعلّم الدين في مدارسهم لكي يجهلوه، وينسلخوا من آدابه، ويصيروا على الرغم منهم حربًا عليه فيستغني بهم أعداء الدين، ويكيدون للإسلام على أيديهم، وبموافقة شعورهم الذي صاغوه بدل شعورهم الديني الإسلامي؟!!.

وعند ذلك يتم لأعداء الأزهر مأربهم القديم... من جعل هذا التراث الخالد جسمًا لا روح فيه، وصورة زائفة لا حقيقة لها، ودار طعام وشراب... لا دار نضال وكفاح لتحقيق المثل العُليا للفضائل الإنسانية التي يريد شياطين الباطل انطماس معالمها وآثارها!!

وهذا الكتاب ـ الذي أخرجه مؤلفه مخلصًا لوجه الحق ـ لم يأت بشيء غامض عن حقيقة الرسالة التي حملها أهل العلم، وورثوها عن رسول اللَّه ﷺ وقد أعطوا ربهم ميثاقهم أن يبيّنوها للناس ولا يكتموها.. فإن العلماء خلفًا عن سلف يعرفون واجبهم الخطير، فوصلوا ليلهم بنهارهم سعيًا وراء الحق الذي وضعه المولى أمانة بين أيديهم، ليقوموا به، ويدعو إليه، ويحفظوه في الناس.

وإنما أراد المؤلف بكتابه البنّاء الجامع لرسالة العلم أن يذكّر به من يريد اللَّه بهم الخير من علمائنا الكرام، وأن يعالج أسباب التساؤل على ألسنة الناس عن أمر فساد الزمان، ونضوب معين الحق والعدالة والرحمة في القلوب، لكي يعلموا أن من وراء ذلك كله مسئولية علماء الأمة الإسلامية

في شتى أقطارها ـ وفي مقدمتهم علماء الأزهر الشريف ـ قبل مسئولية ملوكها وأمرائها وحكّامها، بل مضافة إلى مسئولية ملوكها وأمرائها وحكّامها.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ...﴾ عسى اللَّه أن يلين بهذا الكتاب قلوبًا، ويفتح به آذانًا وبصائر»[1] اهـ.

* * *

(١) مقدمة كتاب «كتمان الحق» ص(٨ ـ ٩) بقلم الشيخ الأودن.

*** شيخ وعّاظ مصر : ورجل العامة الشيخ عبدالحميد كشك أسد المنابر :**

حين صمت الجميع تكلّم هو ـ رحمه اللّه ـ بلسان الصدق. . . في وقت علا فيه النفاق هدر الليث ووصف هذه الأيام فقال في مذكراته «قصة أيامي» :ـ

«أيام بلا شمس وليالٍ بلا قمر، تلك التي صار المعروف فيها منكرًا، والمنكر فيها معروفًا، والتي صار شعارها :

صوموا ولا تتكلّموا إن الكلام محرمُ
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النُوّمُ
إن قيل إن نهاركمُ ليلٌ فقولوا مظلمُ
أو قيل هذا شهدكم مرٌّ فقولوا علقمُ

نعم لقد أصبح الشعار للمجتمع «نافقْ أو وافقْ وإلا ففارقْ». وضاعت النصيحة كما ضاع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحوّلت الأمة إلى أشباح تتحرّك، ومَنْ قيل عنه إنه صاحب مبدأ أو يدعو إلى مبدأ، فليس مكانه بين الناس، إنما يُعزَل بعيدًا عنهم هناك وراء القضبان ﴿**أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ وكم يقف الإنسان عاجبًا مشدوهًا من شدة العجب عندما يقرأ قول اللّه تعالى على لسان نبيه صالح وهو يقول لقومه: ﴿**يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ إنها ذروة المأساة وقمة الملهاة، ألا يحب الناس الناصحين حتى يقول الناصح الأمين :

نصحتُ فلم أفلح وغشّوا فأفلحوا فأوقعني نصحي بدار هوان

أصبحت سماء مصر ملبدة بغيوم النفاق والظلم، فهذا صاحب قلم يسيل مداده سُمًّا ناقعًا يريد أن ينافق صلاح نصر فيكتب عنه قائلاً: «إنه الرجل الذي تكلؤنا عينه بالليل ونحن نيام»، ثم يستطرد قائلاً: «إنه الرجل

الذي بلغ من دقة رقابته أنه يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور»، هل هذه العبارة في حاجة إلى تعليق؟!.. لقد بلغ النفاق مداه عندما وقف أحد الشعراء ينافق عبدالناصر فيقول:

بشراى إن صلاح الدين قد عادَ وأصبحت هذه الأيام أعيادا
أجمالُ ما لك من بين الأنام فتى في الشرق والغرب ممَّن ينطق الضادَ
لو كان يُعبد من بين الأنام فتى كُنّا لشخصك دون الناس عُبّادا

وهذا يذكرني بذلك المعتوه[1] الذي دخل على الحاكم ذات يوم في سالف العصر فقال له:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّارُ

إن النفاق شجرة خبيثة مرّة المذاق اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فحق علينا قول اللَّه تبارك اسمه ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾.

أمرناهم بالمعروف والعدل والإحسان فاستكبروا في أنفسهم وعتوا عتوًّا كبيرًا.

وفرق كبير بين أن يقول اللَّه تعالى: ﴿**فَفَسَقُوا**﴾ وبين أن يقول: أن يفسقوا.. ثم تأملّ كيف جاء العطف بالفاء في «ففسقوا»، وهي تفيد الترتيب والتعقيب. ولم يأت بثم التي تفيد الترتيب والتراخي، مما يعطيك لمحة قرآنية عميقة بأن هؤلاء القوم المفسدين قد بلغ من جرأتهم أنهم فسقوا عقب الأمر مباشرة استهزاءً واستكباراً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحق.

وفي قراءة في تلك الآية: ﴿**أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا**﴾ فتشديد الميم في أمَّرنا أي جعلنا أمراءها مترفيها ومفسديها. وقد جاء في حيثيات الحكم على أصحاب

(١) هو ابن هانئ الشاعر يمدح المعز لدين اللَّه الفاطمي.

الشمال قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، وجاء في دعاء الصالحين: اللَّهم ولِّ أمورنا خيارنا ولا تُوَلِّ أمورنا شرارنا.

كان الإمام ابن الجوزي يقول: إني لأظلّ أتقلّب في فراشي طول الليل أبحث عن كلمة أرضي بها الحاكم ولا أُغضب بها اللَّه فلا أجد»[1].

● وقد أخبر النبي ﷺ عن خطر النفاق فقال: «**أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**»[2].

«إن الخطايا ينادي بعضها على بعض» فإذا أُخرست الألسن واستبدّ الحاكم، وصار الذئب راعيًا، والخصم العنيد قاضيًا، فكان الظلم والاضطهاد الذي ينادي على القتل والتشريد والسجون والمعتقلات.

عندما يولي ربيع الحرية مدبرًا، يحل محله لظى الاستبداد، فإذا انتكست القيم، واهتزت المعايير، وانقلبت الحقائق، طفا على وجه الماء هذا الغثاء... إنهم أصحاب القلوب المظلمة، والأفئدة المتحجّرة.

إذا وصف الطائي بالبخل مادرٌ ... وعيَّر قسًّا بالفهاهة باقلُ
وقال السهى للشمس أنت ضئيلة ... وقال الدجى للصبح لونك حائلُ
وطاولت الأرضُ السماء سفاهةً ... وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادلُ
فيا موت زرْ إن الحياة مريرة ... ويا نفس جدي إن دهرك هازلُ

يقول الشيخ عبدالحميد كشك ـ رحمه اللَّه ـ في مذكراته ص(٢٢٦): «إن العالم يجب أن يكون كما قال اللَّه تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ**

---

(١) «قصة أيامي» ص(١٣٠، ١٣١، ١٣٢).

(٢) **صحيح**: رواه ابن عدي عن عمر، وابن حبان والبزار والطبراني في «الكبير» عن عمران، وكذا رواه أحمد والضياء في «المختارة»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» ص(١٢٨)، و«صحيح الجامع» (٢٣٩).

عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وكما قال جل شأنه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

وتاريخ الإسلام مليء بمواقف العلماء من الأمراء. قال عمر بن عبدالعزيز ذات يوم للحسن البصري: عظنا يا تقي الدين وأوجز فقال له الحسن: يا أمير المؤمنين: صم عن الدنيا وأفطر على الموت، وأعدّ الزاد لليلة صبحها يوم القيامة».

* وهكذا وقف أهل الدعوة موقف الناصحين الأمناء يوجِّهون وينصحون لا يبتغون من وراء ذلك كرسيًّا زائلاً أو منصبًا فانيًا، إنما كانوا كما قال اللَّه تعالى: ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ هؤلاء هم أصحاب الرسالات، لم يبيعوا آخرتهم بدنياهم، ولم يبيعوها بدنيا غيرهم، لم يسعوا ولم يلهثوا وراء الشهرة والكراسي المزورة، إنما باتوا على الطوى وقالوا: «نحن في سعادة، لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف»... ويوم يتردّد العالم على باب الأمير فإنه متهم في دينه، ويوم يصير هواه تبعًا لهوى الحكّام يحل ويحرّم إرضاءً لأهوائهم، فإنه قد وقع فريسة للشيطان بل صار أستاذًا له.

* قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

إذا وصف الطائي بالبخل مادرٌ ... وعيَّر قسًّا بالفهاهة باقلُ

وقال السهى للشمس أنت ضئيلة ... وقال الدجى للصبح لونك حائلُ

فلا تصاحبْ غنيًّا تستعزّ به ... وكن عفيفًا وعظمٌ حرمة الدين
واسترزق اللَّه مما في خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن باللَّه عن دنيا الملوك ... كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

*** الشيخ كشك والإعلام:**

يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «ما أشد غضب الذين هاجت عقارب البغضاء في صدورهم فصدوا عن سبيل اللَّه بعدما باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم... ما أشدّ غضبهم على أهل الحق وما أكثر أذاهم للذين يؤدون الدعوة إلى اللَّه على أنها رسالة يبتغون بها وجه اللَّه مصداقًا لقوله جل شأنه ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾.

* ومصداقًا لقوله تبارك وتعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾.

ذات يوم صائف شديد القيظ كأن شمسه أشرقت من بين الرمال لا من بين السحب ذهبت إلى ديوان الوزارة للتحقيق بناءً على استدعاء وصلني وكان على رأس الدعوة شيخ فصيح اللسان ولكن قلبه لم يكن كفصاحة لسانه بل كان يخشى على كرسيه، ومررت عليه في الوزارة قبل أن أدخل على السيد المحقق وهو وكيل الوزارة مررت على الشيخ بصفته ممثلاً للدعوة وعرضت عليه أن يحضر هذا التحقيق ليكون حكمًا بيني وبين هذا الإنسان الذي لا يعرف للعلم كرامة ولا للعلماء احترامًا ولكن الشيخ اعتذر عن الحضور بلباقة وذلك حتى يُجامل الوكيل حرصًا على كرسيه، وهو الذي كثيرًا ما سمعناه يصرخ على المنابر ويصيح كالأسد الصهور مناديًا بأعلى صوته قائلاً: «إن الفضيلة تُذبح... إن الإسلام يُحارب... إن الباطل يُعربد

في عرصات الدنيا» الكلام سهل والبلاغه مواتية والبيان والبديع... والفصاحة والمعاني، كلها بين يديه... ولكن إذا نزل أحدهم ميدان التجربة اصفرّ وجهه وجلاً، وفرّ من الميدان فراره من الأسد.

مهما يكن من شيء فقد دخلت على المحقق وقد أحضر معه شيخين من شيوخ الأوقاف لهما مكانة في إدارة الدعوة وكان السؤال هذه المرة: لماذا تهاجم الإعلام؟ وقلت: «إن الإسلام لا يعرف الهجوم؛ لأن الهجوم من صفة الباطل لكن الإسلام يعرف الدعوة إلى الحق وتصحيح المفاهيم المنحرفة، ولقد انحرف الإعلام عن سبيل الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين، فبدلاً من أن يكون عامل بناء صار معول هدم، وهو سلاح له خطره، حتى قال أحدهم: «أعطني شاشة أُغيِّر بها شعبًا»، وكان كارل ماركس يقول: «لأنسين الناس اللَّه بالمسرح». ولو كان في عصره الإعلام المرئي لكان أشد خطرًا وأبعد أثرًا في الفساد والإفساد.

فأي شيء في الدفاع عن الحق؟ أو عندما يرفع أهل الباطل أصواتهم نستمع وننصت، فإذا ما انبرى لهم أهل الحق يُؤذون ويُستجوبون؟!

أمِن العدل أنهم يردون الـ ـماء صفواً وأن يُكدَّر وِرْدي؟!
أمِن الحق أنهم يطلقون الـ أسد منهم وأن تقيّد أسدى؟!

وما إن فرغت من الإجابة حتى رأيت السيد المحقق يثور ويفور ويتوهج ويتأجج كأنه لديغ نهشته الثعابين أو لدغته العقارب فقلت له: أرجو أن تُغير أسلوبك في التفاهم فلست عبدًا لك، ولا لغيرك، إنما عبوديتي للَّه وحده لا شريك له، ولا أسمح لك أن تضرب على المكتب بيديك، لأنني لست متهمًا وأنت البريء، ولست منحرفًا وأنت المستقيم، فأنا على حق؛ لذلك فإنني لا أخشاك، وسوف أتركك عما قليل، فاقض ما أنت قاض فالحكم للَّه العليّ الكبير!

ونزلت هذه الكلمات عليه كأنها الصواعق خاصة وأن المكان كان به عدد غير قليل من العاملين بالوزارة فرجع إلى صوابه، بعدما علم أنه سيُقابل بكل ما يقول بردّ حاسم، نظر السيد المحقق إلى الشيخين اللذين استدعاهما لحضور هذا اللقاء الغاضب وقال لأحدهما: ما رأي فضيلتكم في هذا الكلام الذي سمعته؟ وكان يظن أن الرجل سيجامله ويؤيده ويصفه بالحكمة والحزم لكن الرجل بحق كان على مستوى المسئولية أمام اللَّه فقال له: ما كان ينبغي أن يأخذ التحقيق دور الخصومة بينك وبين هذا الإمام الذي يدعو إلى اللَّه على بصيرة!!

فبهت وخفت صوته وخبأ جبروته فتوجه بالسؤال إلى الشيخ الثاني يستشيره الرأي فقال له الشيخ: ومن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إذا لم يكن الدعاة إلى اللَّه هكذا؟!. ثم قال له: إن الرجل لم يتجاوز حدود الرسالة ثم ساق له الحديث النبوي الشريف: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطنّ اللَّه عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم**».

واستطرد قالاً: لو وضعنا الأمور في نصابها وسمّينا الأشياء بأسمائها لقدّمنا لهذا الإمام الشكر جزاء ما حمل عنا هذا العبء في الدعوة؛ فإن الخير يجب أن يُقابل بالخير، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان!!

ثم قام الشيخان وعانقاني ودعواَ اللَّه لي بالتوفيق والسداد، وشعر ذلك المحقق بانطفاء في قلبه وكأنه يجلس على الأشواك والحصى، تظله سحابة دكناء ونجم محترق!!»[1].

*** استدعاء بسبب القذافي:**

تحت هذا العنوان في مذكراته كتب الشيخ كشك ـ رحمه اللَّه ـ:

---

(١) «قصة أيامي» ص(٢٢٩ ـ ٢٣٢).

«كان الخلاف محتدمًا بين حكومتي مصر وليبيا، وكان بالطبع خلافًا سياسيًّا، وقد حدث أن حاكم ليبيا تعرّض للإسلام في أمور كان لا بد من الردّ عليها، ودفع به ذلك الجموح أو الجنوح إلى أن ينكر الاستدلال بالسنة النبوية الشريفة، ولقد سمعته بأذنيْ رأسي عن طريق الإذاعة يقول هذا الكلام الذي فيه استهانة بسنة خير الأنام، بل لقد قال كلامًا لا يليق بصاحب الرسالة العصماء. . . وكان لا بد أن يقول المنبر كلمته؛ ليردّ الحق إلى نصابه، ويبطل الباطل، ولو كره المجرمون.

وألقيت خطبة بيّنت فيها مكانة السنّة من القرآن الكريم، وأنها بمثابة المذكرة التفسيرية لآيات الكتاب، كما أنها تأتي مؤكدة لما فيه من معان، كما تأتي مفصلة لما فيه من مطلق. . . وكان ذلك كله بتوفيق من اللَّه وفضله، لكن الأمر الذي لم أكن أتوقعه أن يصلني استدعاء كالعادة، وذهبت لأقف على حقيقة هذا الموضوع فكان الاستجواب خاصًّا بمهاجمة القذافي: لماذا تُهاجم العقيد؟ فقلت: وأيّ شيء في هذا؟ إنه ليس هجومًا كما تدّعون، وإنما هو دفاع عن الحق. لقد كان الأولى بهذا السؤال أن يُوَجّه إلى إعلامكم بمختلف قنواته مقروءًا أو مرئيًّا أو مسموعًا أو معروضًا. . . قالوا: ولكن تلك قنوات شرعية؟ قلت: بل قل قنوات قانونية، أما القنوات الشرعية فهي المنبر الذي ينطق بلسان الإسلام[1] .

وعجبتُ

أحرامٌ على بلابله الدوحُ حلالٌ للطير من كل جنس

أإذا قال غيري تردّدون قوله بشتى اللغات، فإذا انطلق الإسلام ونطقه الحق وقوله الصدق يوضع في قفص الاتهام، ويُكبَّل بالقيود والأغلال؟ ما

(١) «قصة أيامي» ص(٢٣٣ ـ ٢٣٤).

لكم كيف تحكمون أفلا تذكرون؟ أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين.

لكنني علمت أنها سياسة الذئب، مع الحمل، ورددت قول شاعر النيل حافظ إبراهيم:

أمِن العدل أنهم يردون الـ ـماء صفواً وأن يُكدَّر وِرْدي؟!
أمِن الحق أنهم يطلقون الـ أسد منهم وأن تُقَيَّدَ أُسْدِي؟!

❑ يقول الشيخ كشك ـ رحمه اللَّه ـ:

«لقد كان لعمر بن عبدالعزيز مستشار خاص هو عمر بن مهاجر قال له أمير المؤمنين: إذا رأيتني ضللت الطريق، فخذ بمجامع ثوبي وهزّني وقل لي: اتق اللَّه يا عمر فإنك ستموت... هكذا تكون علاقة العالم بالأمير.. علاقة نصح وإرشاد، وتواص بالحق، وتواصٍ بالصبر، فإذا ما حلّ النفاق محل النصيحة فكبّر على هذا المجتمع أربع تكبيرات لوفاته»[1].

❑ ويقول عن نفاق من نافق الحكّام:

«من بين علماء الأزهر من قال عنه: والذي نفسي بيده لو أنّ لي شيئًا من الأمر لرفعت هذا الرجل «يقصد به السادات» إلى قمة لا يُسأل عما يفعل. وقد ردّ عليه الشيخ عاشور فيما سمّوه بمجلس الشعب، وقال له: هذا كفر يا مولانا! فقال له الشيخ الوزير: أنا أعرف باللَّه منك.

ويوم وقعت النكسة وهي في الحقيقة هزيمة ووكسة، قام أحد أعضاء مجلس الأمة يرقص فرحًا وابتهاجًا بسلامة الرئيس كما غُصّت شوارع القاهرة بالمصفقين والهتّافين والراقصين المطالبين ببقاء الزعيم بطل الهزائم... كانوا يرقصون وهم المهزومون، وكان الناس في إسرائيل يعلنون الحداد ويصلّون

(١) «قصة أيامي» ص(٢٣٨).

على قتلاهم، فاعجب معي لشعب منهزم يرقص، وشعب منتصر يندب قتلاه!!... إنه الفرق بالإحساس بالمسئولية واللامبالاة. لقد طفح النفاق، وكثر المنافقون، وحملة القماقم... حتى وقف أحد المدرسين الذين كان السادات تلميذًا عندهم يقول في أحد المحافل أمام سيده السادات «إن في خلق السماوات والسادات لآيات لأولي الألباب» ثم أضاف قائلاً: لقد منح اللَّه سيدة مصر الأولى نصف الجمال، وقسّم النصف الآخر على نساء العالمين.

وجاء اليوم الذي قدّم فيه أحد أعضاء مجلس الشعب اقتراحًا بأن يُطلق على السادات لقب «سادس الخلفاء الراشدين»، وقال له أحد كبار المسئولين في الولايات المتحدة في خطاب ألقاه في أحد المؤتمرات: «إن اللَّه خلق السموات والأرض في ستة أيام اختص منها يومًا خلق فيه المسيح بن مريم وأنور السادات»... ولكن صاحبنا هذا كان أشد جنونًا من المتحدث فقد قال للوفد الذي كان يرافقه في تلك السفرة: «انشروا هذا الكلام في الصحف المصرية عندما نعود»، ولكن شاء اللَّه ألا يُنشر هذا الكلام في مصر حتى لا يُصاب الناس بصدمة تتعلّق بالعقيدة، وهي أغلى ما يملكه المسلم ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

❑ وقال الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ: «توالت الاستدعاءات، فكلما خطبت خطبة يوم الجمعة، جاء الاستدعاء يوم السبت، وكان التحقيق يوم الاثنين... هكذا من كل أسبوع، واختلفت أنواع التحقيق وتعددت نماذجه، فمرة تكون التهمة الموجّهة إليّ أنني أثير الفتنة الطائفية؛ لأن المسجد يقع في

(١) «قصة أيامي» ص(٢٢٠ ـ ٢٢١).

منطقة دير الملاك وهي إحدى قلاع الصليب. وسألت: ما هو الكلام الذي أثار الفتنة في الخطبة؟ وقال المحقق وكان يعمل وكيلاً لوزارة الأوقاف لشئون الدعوة: إنك تتعمّد ذكر الآيات التي تتحدث عن النصارى. قلت: أليست قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة؟ وذكّرني هذا الموقف بموقف أهل العناد من صاحب الرسالة وقد طلبوا منه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن، فحزن الرسول لذلك، فأنزل اللَّه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وأخيرًا قال لي السيد المحقق بعبقريته الفذّة وفهمه العميق وبصيرته النافذة: عليك أن تصعد المنبر، ولكي تريحنا ونريحك اجعل موضوع خطبتك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم انزل وصل بالمصلين... وقلت له: لو كان ذلك كذلك، لوجّهتم إليّ نفس التهمة وهي إثارة الفتنة الطائفية، ولقلتم في مذكرة الاتهام: إنه يقرأ سورة الإخلاص ويقصد بها التعريض بالنصارى المثلثين... وإذن لا جدوى من هذا التوجيه، فاللغة بيننا هي لغة الذئب الذي قال للحَمَل: عكّرْت عليّ الماء.

وماذا يصنع أهل الحق بقوم لبسوا جلد النمر، وقلبوا ظهر المجن، ولكن لا بد أن تسير القافلة والذئاب تعوي. وهل يضر السحاب نبح الكلاب. إن كلمة الحق أقوى من كيد الكائدين واللَّه أشد بأسًا وأشد تنكيلا»[1].

---

(١) «قصة أيامي» ص(٢٢٥).

* بذكر عمر أنت تُعَرِّض بالحكّام!!!

قال الشيخ كشك ـ رحمه اللَّه ـ:

«لم أكن أتوقّع أن يصل بهم الإسفاف إلى هذا الحدّ، في سلسلة الاستدعاءات ذهبت إلى المحقق نفسه، وإذا التهمة الموجهة هذه المرة يُقال فيها: إنك تتحدث كثيرًا عن عمر بن الخطاب. قلت: وأي شيء في هذا؟ قال المحقق الحصيف الأريب: إنك تقصد بذلك التعريض بالحكام؟ قلت: إذن فلا داعي إلى أن أذكر شيئًا عن عدالة الإسلام، وأن أضرب صفحًا عن ذكر حياة رسول اللَّه ﷺ وأصحابه فإنّ في ذكرهم تعريضًا بالحكّام كما تزعمون ولماذا تفهمون هذا الفهم؟ ولو كان فيه تعريض أو تصريح أليس الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر من مبادئ الإسلام؟ وما وظيفة العالم إذا لم يكن ناصحًا ومرشدًا؟»[1].

* الشيخ عبدالحميد كشك وشيخ الأزهر في أيّامه:

قال الشيخ عبدالحميد في مذكراته ص(٢٣٨ ـ ٢٤٠):

«وجّه شيخ الأزهر دعوة إلى رجال الدعوة الإسلامية للبحث في طرق الدعوة، ووضع منهج للدعاة، وكنتُ واحدًا من الذين وُجِّهت إليهم الدعوة، وكان مكان اللقاء في إدارة الأزهر وانعقد الاجتماع بعد صلاة الظهر... وبعد أن انتهى الاجتماع وهممت بالانصراف، أخذ شيخ الأزهر بيدي إلى مكتبه وقال لي: لماذا أغضبت الرئيس[2] منك؟ قلت له: لا أدري وأريد أن توضح الأمر لي، فقال: لماذا لم تذهب إلى الاجتماع الذي دعاك إليه في الإسماعيلية في رمضان؟ فقلت له: لأن اللَّه أراد ألا أحضر. وشرحت له

(١) «قصة أيامي» ص(٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٢) يعني: السادات.

كيف نسيت أن أفتح الخطاب حتى نسيت الموعد المضروب.

ثم سألت الشيخ: وما الذي أعلم فضيلتكم أنه غاضب مني؟ قال: لقد كنت أجلس عن يمينه وقد سأل وزير الإعلام وقال له: ألم يحضر؟ فقال له الوزير: نعم لم يحضر. فهزّ الرئيس رأسه غضبًا. قلت له: يا فضيلة الشيخ ولماذا لم تحاول أن تقول كلمة تُطفئ بها غضب القلوب؟ فقال: إنك تستطيع أن تقدم الآن اعتذار عما حدث. فقلتُ له: وهل أخطأتُ حتى أعتذر؟

فقال: ألا تعلم أننا نعيش في ظل الرئيس ورعايته؟ فقلت له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين: ﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾ وألقيت السلام وانصرفت وأنا أردّد آية الكرسي التي اشتملت على الجلال والكمال والجمال ووصف اللَّه بالحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم. ووصفه بالعليّ العظيم. فهذا هو الذي نعيش في رعايته وعنايته وخيره ورزقه. يرحم اللَّه شيخ الأزهر فقد لحق بالدار الآخرة وعلم أن ما عند اللَّه خير وأبقى. ولكن أذلَّ الحرص أعناق الرجال».

* الشيخ كشك وجعفر نميري:

❑ قال الشيخ كشك: «وقف السادات يخطب في الخامس من سبتمبر (١٩٨١م) وقد فقد صوابه وطاش لبه، وكأنه أُصيب بالسعار فأنشب أنيابه ومخالبه فأوعد وهدّد وأرغى وأزبد، وحمل على الجماعات الدينية، وخص الإخوان المسلمين بنصيب الأسد، كما سفّه كبار الدعاة الإسلاميين، فرمى هذا بالجنون وذاك بالبذاءة، وذلك بأنه «مُرمي كالكلب» وبقى أن يقول: ما علمت لكم من إله غيري أو أن يقول: أنا ربكم الأعلى. كما خصّني في بيان من بياناته بتهمة كاذبة خاطئة، ذكر فيها أن الرئيس السوداني جعفر النميري قد شكاني إليه، وأنني أهاجمه، وماذا يحدث لو صحّ هذا؟ أهناك أحد فوق مستوى التوجيه؟ أليس من عادة الأمراء والصالحين أن يسألوا

العلماء المخلصين النصح؟

ألم يقل أحد الناس لعمر بن الخطاب: اتق اللَّه يا أمير المؤمنين؛ فنهره أحد الجالسين فقال الفاروق ﷺ: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نقبلها؟

ألم يقل عمر ﷺ ذات يوم: رحم اللَّه امرأً أهدى إليّ عيوبي؟، ألم يقل اللَّه لنبيه ومصطفاه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾؟ ألم يقل خليفته أبو بكر ﷺ بعدما بويع بالخلافة: يا أيها الناس لقد وُلّيت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني. أطيعوني ما أطعتُ اللَّه فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم. الصدق أمانة والكذب خيانة... القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

إن تعجب فاعجب لأمر هؤلاء الذين يتأججون نارًا إذا قيل لهم اتقوا اللَّه في الرعية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1].

* **يوم التحقيق:**

تحت هذا العنوان يذكر الشيخ عبدالحميد في قصة أيامه ص(٢٥٨،

(١) «قصة أيامي» ص(٢٥٦ ـ ٢٥٧).

٢٥٩): «دخلت على المحقق ووجه أسئلته، وكان أكثرها يدور حول الخطب، ومن هذه الأسئلة التي ما زلت أذكرها هذا السؤال الخالد: لماذا تهاجم نيللي؟ وكأن نيللي هذه قد أصبحت ذاتها مصونة لا تُمَس!! ومن أرادها بسوء قصمه اللَّه، وكأنها كنانة اللَّه في أرضه أو مبعوثة العناية الإلهية، وشمس الهداية الربانية السيدة المصونة والجوهرة المكنونة!!

قلت: إنما كنت أطالب تأخير فوازيرها حتى نصلّي القيام، فقد صرفت الناس عن صلاة القيام في رمضان، ثم قلت: لقد صارت كالهلال نصوم لفوازيرها ونفطر لفوازيرها.

وتوالت الأسئلة:

❑ ماذا كنت تقصد بقولك: «على الذين يتمثلون بعمر أن يحذو حذوه؟ قلت: وأي شيء في هذا؟ ثم أي تهمة في تلك الكلمة؟ أليس الدين كما أخبر الصادق المعصوم: النصيحة؟ قالوا: لمن؟ قال: للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

❑ وسُئلت: لماذا تُهاجم عيد الأم؟

قلت: لأنه بدعة وفدت علينا من باريس، فليس في الإسلام ما يُسمّى عيدًا إلا عيد الفطر، وعيد الأضحى، فحرام علينا أن نظهر البر بالأم يومًا واحدًا، ونعقّها ثلاثمائة وأربعة وستين يومًا.

❑ قال: لماذا تهاجم الكرة؟

قلت: لأنها تحوّلت إلى رياضة مذمومة وأصبح ضررها كالخمر والميسر توقع العداوة والبغضاء بين الناس وتصد عن ذكر اللَّه وعن الصلاة.

❑ وسُئلت: لماذا تهاجم الإعلام؟

قلت: لأنه أصبح يهدم ولا يبني، ويبدّد ولا يصون ويورث ضعف

الوازع الديني والتفسخ الأخلاقي، والانحلال الاجتماعي، والناس على دين إعلامهم. وقد قيل: أعطني شاشة أغيّر بها شعبًا، فهل مثل هذا الإعلام الذي يدور حول فيلم أو مسرحية، أو مسلسل، أو فوازير وقد سرت السموم الناقعات في خلاياه، هل مثل هذا يبني النفوس القوية المتصفة بالصدق المتحلية بالأمانة؟ لقد استطاع الإعلام أن يُنسيَ الناس أن شهر رمضان شهر القرآن والصيام والبر والنصر والقدر والقيام وبدر، وهكذا كانت الأسئلة وهكذا أجبت.

وكان الإيمان دائمًا يضع نصب عيوننا ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

لقد منعوا هذا الصوت أن يهدر على المنابر ولكنهم لم يمنعوه أن يموت كما يريد.. كان يسأل ربه أن يموت في سجوده.. ومات الشيخ يوم الجمعة وهو يصلي قبل الجمعة.. مات في سجوده وبقي اسمه يترحم الملايين عليه إذا ذكروه وهم يلعنون الظالمين وبقي الإسلام.

فكم زالت رياضٌ من رُباها ... وكم بادت نخيـــل في البوادي
ولكن نخلة الإســـلام تنـــمو ... على مرّ العواصف والعوادي
ومجدك في حمى الإســـلام باق ... بقاء الشمس والســـبع الشـــداد

* وصدق اللَّه تعالى إذ يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

إمام العصر وسيد علمائه الشيخ عبدالعزيز بن باز

مناقب الإمام الشيخ ابن باز لا تُحصى من صدع بالحق ونشر للعلم ودعوة للتوحيد والسنة وتحذير من البدع والمحدثات وزهد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وإطعام للطعام وتهجد وعبادة كان له فيها قصب السبق..

وأجمع على محبته القاصي والداني.

* **خطاب وكتاب:**

في العام ١٣٩٣هـ. استقبلت الجامعة الإسلامية رئيسها الأعلى المغفور له الملك فيصل بن عبدالعزيز أثناء زيارته الثانية لها، وفي المظلة الكبرى أمام المباني الإدارية، وقف الشيخ يحييه بكلمة ضافية، جامعة، أوجز فيها تاريخ الجامعة منذ نشأتها حتى يومها ذاك، وعرض لأطوارها المختلفة، وجنسيات طلابها، وعدد خريجيها، ومصايرهم بعد التخرج، حيث انطلقوا يحققون رسالتها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي... فأبرز بذلك أهمية هذه المؤسسة وآثارها البعيدة في تركيز معاني الإسلام، والوقوف بوجه الزحوف المعادية له من الشرق والغرب... ثم عرج من هناك على واجب حكام المسلمين نحو الإسلام في حمايته وتنفيذ شريعته.

وما أروع تلك اللفتة المباركة التي ركز عليها الشيخ عندما عرض لأهمية الإعلام الحديث في تبليغ الدعوة وإبراز محاسنها للسامعين والناظرين والقارئين، وراح يذكر الملوك والأمراء الذين معه بمسئوليتهم الضخمة في هذا الصدد، ولم يكتمهم ملاحظاته الصريحة حول واجب صون الإعلام السعودي من الانجراف في المزالق التي سبق إليها الآخرون، الذين لا يستشعرون أي مسئولية نحو الإسلام.

كان الشيخ يتدفق بهذه المعاني في حرارة توحي إلى السامعين أن يؤدي أمانة ويبرئ ذمة، وكأنما انتصب في ضميره مشهد الحشر حيث يسأل كل إنسان عما عمل، وتكون مسئولية العلماء أضخم المسئوليات... ولقد كان لأسلوب الشيخ ساعتئذ أروع الأثر في القلوب، إذ سلك إلى غرضه أحكم المسالك فجمع بين اللطف والقوة، وقدم مواعظه ونصائحه ملفوفة بظروف من نور.

وكنت ألاحظ وجه الملك الراحل ـ غفر اللَّه له ـ وهو يصغي بانتباه عميق إلى كلمات الشيخ، فألمح عليه انطباعات الرضى والقبول. ولا غرابة في ذلك فقد كان الملك فيصل ـ فيما نعلم ـ على يقين من فضائل الشيخ وعظيم إخلاصه للحق. وكان الملك كبير التقدير لكل نصيحة مخلصة، رحمه اللَّه.

تلك هي ذكرياتي عن الخطاب... أما الكتاب فله ذكرى أخرى.

وكان ذلك يوم قرئ على الشيخ في إحدى الصحف نبأ حدث أهمه كثيراً، إذ خشي أن يجرّ وراءه ما لا تحمد عقباه.

وعلى دأبه في الشورى عرض الموضوع على مجلس الجامعة فلم يخرج عن توقعاته. واستقر الرأي على أن يرفع إلى المقامات العليا ما ينبغي تذكيرهم به. في مثل هذه الحال.

وفي اجتماع تالٍ أطلع الشيخ المجلس على النص الذي أعده. وكان على جانب من الصراحة كبير، إذ أوضح فيه الشيخ كل الذيول التي يتصورها، وذكر أولي الأمر بموقعهم من عالم الإسلام، ومسئوليتهم نحوه.

وحقًّا لقد أدهشتني تلك الصراحة فلم أتمالك أن قلت: «الحمد للَّه الذي حفظ للإسلام من يقول مثل هذا الكلام».

وما هي سوى أيام حتى وردت الردود من الجهات العليا، وقد كان كل منها قطعة نفيسة من أدب مؤمني الحكام في مخاطبة الأعلام من علماء الإسلام[1].

*** واجب العلماء:**

❑ يقول الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي عن مسئولية أهل العلم بإزاء هذا الجيل: «إذا وُجد جماعة من العلماء المخلصين المستعدين

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» لمحمد المجذوب.

لحمل ما عسى أن يصيبهم من الأذى كالضرب والسجن والنفي زيادة على السبّ والشتم وعداوة الناس، وقد لا يصيبهم شيء من ذلك، فإنهم يستطيعون أن يجذبوا كثيرًا من الناس إلى الإسلام الصحيح، ولا تستطيع الدعوات المعادية للإسلام أن تقف في طريقهم، ولا أن تعوق تقدمهم إلى بلوغ غايتهم المنشودة»[1].

*** الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر ورفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب السابق:**

كم كانت للشيخ الجليل جاد الحق شيخ الأزهر من أيادٍ بيضاء ومواقف جليلة في الذّب عن الإسلام وشريعته، ومن هذه المواقف رده على رفعت المحجوب وهو منشور في أخبار اليوم ٢٣/٢/١٩٨٥م في الصفحة السابعة... ننقل منه ما نصّه بالحرف الواحد للذكرى والذكرى تنفع المؤمنين:

«إن لجان مجلس الشعب ظلت نحو خمس سنوات تعمل في جميع الفروع القانونية لتقدّم تشريعًا إسلاميًّا مأخوذًا من فقه المذاهب الإسلامية ميسرة أحكامه للجميع مع ملاحظة ظروف العصر وتغيراته وانتهت هذه اللجان من إعداد هذه المشروعات وقدّمتها لمجلس الشعب».

وقال فضيلته: «لا ينبغي أن تُحجب هذه المشروعات بوصف أنها لم تُقدّم للمجلس بالطرق المنصوص عليها في الدستور فإن هذا الطريق يملكه كل أعضاء مجلس الشعب... وإذا كنا نتقدم بمشروعات القوانين العادية وبتعديلاتها ونسرع في إنفاذها وتقريرها من يوم صدورها فمن باب أولى أن نسارع أو أن يتقدم نوّابنا أو بعضهم باسمه بهذه المشروعات لتأخذ الصفة الدستورية، وإن كان الدستور لا يقف أمام الشريعة... إن مجلس الشعب

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» لمحمد المجذوب (١/ ٢٢٧) ـ دار الاعتصام.

وكيل عن الشعب وإنه إذا لم يأخذ نفسه بإصدار هذه القوانين بحيث لا يقتصر على مجرد المناقشة في شأنها... فإنه يكون قد خالف موكله وهو الشعب، ولا أقول قد خانه، فإني أنزه مجلس الشعب عن أن يخون شعبه، إنها أمانة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

بعد هذا ردّ فضيلته جزاه اللَّه خيرًا على من يقول: «إن الشعب غير مهيأ لحكم الشريعة» فقال بالحرف: «نحن مهيأون لها تمامًا، يكفي أن تنزل إلى الشارع اليوم لتسمع رغبة الناس في الأخذ بها بل يرد إلى مكتبي بالأزهر العديد من الكتابات من أفراد الشعب يلحون ويطلبون ويستعجلون ويستفسرون عن الأسباب الداعية إلى تأخر إصدار القوانين المأخوذة من الشريعة ولعلّ مجلس الشعب يجيب على ذلك».

ويعود فضيلته فيبيّن ميزة الشريعة الإسلامية عن القوانين الوضعية فيقول: «لا شك أن أصالة الشريعة الإسلامية بأصالة مصدرها، ومصدرها هو اللَّه سبحانه وتعالى فلا يمكن أن تقارن بأي قانون وضعي، بل هي تسمو فوق كل قانون وتاريخ العمل بها مؤيد لذلك... فنحن إذا رجعنا للعصر الأول للإسلام نجد أن الأمن والأمان والسلامة والسلام قد توافر.

كان الأمان ـ أمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ـ أمرًا قائمًا واضحًا ولم يكن هذا بسطوة الشريعة... وإنما بقوة أحكامها وإيمان الناس بعدالتها، إننا نتحايل الآن على كل قانون... بينما شرع اللَّه لا يتحايل عليه أحد؛ لأن الشرع يؤمن به كل مسلم، فحين يُقال للمسلمين: هذا شرع اللَّه وحكمه يخضعون بقلوبهم قبل أن يخضعوا بجوارحهم»[1].

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ٣٥٣).

*** الشيخ الدكتور محمد عبدالله دراز يعارض بطش عبدالناصر بدُعاة الإسلام:**

رحم اللَّه الدكتور محمد عبدالله دراز، كان عالمًا شجاعًا ذا رجولة وشهامة يحب الحق وأهله، له مواقف باسلة ما أحوجنا اليوم إلى إماطة اللثام عنها والتذكير بها لتكون قدوة وأسوة فقد كان ممن يحيون للمبادئ وحدها، لا تلتوي طباعهم، ولا يقبلون مهادنة الباطل، ولا يقبلون أبدًا، أن يسيروا لحظة مع ألاعيب السياسات، وما تنطوي عليه من مكر وختل واحتيال. . . ومن المواقف التي سجلها له التاريخ بإجلال واكبار ولا يعرفها إلا المقربون منه، ذلك الموقف الشجاع، الرافض للظلم والجبروت والطغيان، الذي رفض فيه التوقيع على بيان أراده عبدالناصر يدين فيه «الإخوان المسلمون» ويصفهم فيه بأنهم خوارج، وتستحل دماؤهم.

وهنا غضب الرجل غضبته للَّه ودين اللَّه، وأنصار اللَّه. وقال لمن حمل إليه البيان كما حدثني نجله السفير فتحي دراز: «أتريد مني أن أوقع على إدانة أهل الإسلام؟!» وطرد حامل البيان من منزله. . . كان هذا الموقف الشجاع عقب حادث المنشية الشهير وكانت الإذاعة المصرية حريصة على أن تعرض رأي الدكتور دراز في الأحداث الدامية، فكتب الرجل بيانًا صادقًا أمينًا عادلاً ليلقيه بدار الإذاعة بعنوان «الإسلام سلام وأمان».

وقد حدثني نجله أن الشيخ أعد البيان للإذاعة في صباح الأحد ٢١/ ١١/ ١٩٥٤م ولكنه لم يذع لأنه أريد حذف ما تحته خط أحمر ولم يوافق الشيخ على حذف شيء منه.

وقد عثرت في أوراق الشيخ على النسخة الأصلية من هذا البيان بخط النسخ، وهالني أن الذي تحته خط أحمر هو الآيات القرآنية ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن**

يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]. وقبل هذه الآية خط أحمر تحت هذه العبارة «إن قدسية الدين تأبى لنا أن نتخذ كلمته أداة تفريق، أو انتصاراً متحيزاً لفريق على فريق. إنها تأبى أن تسير في ركاب الحكم، محاباة للرؤساء، كما تأبى أن تسير في ركب الفوضى حماية من طيش السفهاء، فالإسلام عدلٌ ونصفة، يوزع قسطه على الجميع على السواء».

* ووضع خط أحمر تحت قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ووضع خط أحمر تحت هذه العبارة. «إن الإسلام لم يخول للحاكم نفسه أن يحكم بعلمه، فضلاً عن أن يقضي بظنه».

وسيدرك القارئ العزيز بعد مطالعة هذا الحديث الذي يعد بحق شهادة للتاريخ ترى النور لأول مرة أن الدكتور دراز كما يقول الكاتب الحر الأستاذ محمد عبدالله السمان: «من الكتاب الإسلاميين القلائل الذين لهم عقيدة صادقة فيما يكتبون وفيما يقولون، وفيهم رجولة تجعلهم لا يكتبون ولا يقولون إلا ما يعتقدون بعيدين عن مزالق التزلف ومدارج الرياء»، ونترك للقارئ الذي لن يكون أقل منا تقديراً لرجولة هذا العالم الشجاع يطالع هذه الشهادة التاريخية التي سيسجلها التاريخ بأحرف من نور.

❑ يقول الشيخ ـ رحمه الله ـ: «الإسلام دين توحيد ووحدة، وسلام وأمان»... هكذا قال كبار العلماء بالأزهر المعمور... مقالة حق وصدق، لو كان لنا أن نضيف إليها شيئًا ما زدنا عليها إلا حرفًا واحداً، لنقول: إنه توحيد ووحدة وسلام وأمان، وعدالة ونظام». ولكي تكون هذه كلمة حق أُريد بها الحق، نعلن في بدء حديثنا أن قدسية الدين تأبى لنا أن نتخذ كلمته

أداة تفريق، أو انتصارًا متحيزًا لفريق على فريق، إنها تأبى أن تسير في ركاب الحكم محاباة للرؤساء، كما تأبى أن تسير في ركب الفوضى، حماية لطيش السفهاء، فالإسلام عدل ونصفة يوزع قسطه بين الجميع على السواء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ [النساء: ١٣٥]. نقول إن الإسلام سلام وأمان... نعم إنه سلام، من حيث هو إسلام، أليس المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده؟ وأمانٌ بما هو إيمان، أليس المؤمن، من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم؟

الإسلام أمان لأعدائه أفلا يكون أمانًا لأبنائه؟ المسلم، لا يغدر بعدوّه المستأمن المستسلم، فكيف يغدر بأخيه المؤمن المسلم؟

وكذلك نقول إن الإسلام وحدة وتوحيد، وإن دعوته إلى الوحدة، نبتت ونمت في ظل التوحيد: توحيد الرب، وتوحيد النشأة الأولى من أم وأب، ثم توحيد الرحم القربى بين المؤمنين.

أما توحيد الرب، فإن الإسلام لم يهدم به عبادة الأوثان والأصنام المادية فحسب، ولكنه هدم به الأصنام الكبرى، التي في أعماق نفوسنا: أصنام الأهواء والشهوات المضلة، التي تتفرق بها السبل، وتنقطع الحبال التي أمر اللَّه بها أن توصل، حتى يكون انقيادنا لسلطان موحّد، هو سلطان الحق الذي لا يتعدد: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية: ٢٣]، ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾.

وأما توحيد النشأة الأولى.. فإن الإسلام صنع بالإنسانية أسرة واحدة، محا منها العصبيات كلها، وأبطل فيها التفاخر بالأحساب، والأنساب، والاعتزاز بالأموال والألقاب، وجعل التفاضل بينها بالعمل الصالح وحده..

ثم إنه اختص من بين هذه الأسرة العامة، أسرة هي ألصق رَحمًا، وأقرب رُحْمًا، وتلك هي أسرة المؤمنين، عقد فيما بين أفرادها عقد الأخوة، وجعل بينهم وبين أولي الأمر منهم لُحمة البنوة والأبوة: أبناء بررة قائمون بواجب السمع والطاعة في غير إثم ولا عدوان، وآباء رحماء، ساهرون على مصالح الأمة والدولة حرصًا على أمنها ورغدها، وحماية لحوزتها، تعظيمًا وصيانة لمقدساتها، يستمعون لبثها وشكواها، ويتحسسون أحاسيسها في سرّها ونجواها؟ يبادلونها حبًّا بحب، ويجزونها برًّا ببر، يسوسونها بالحزم في غير عنف وباللين في غير ضعف: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]... هكذا كان الإسلام دين وحدة ورحمة، وسلام وأمان.

ثم هو إلى ذلك كان دين عدالة ونظام... إنه لا يكتب عهد رحمة للظالمين المعتدين، ولا يمنح أمانًا لمن يروع الآمنين... فمن شذ من أبنائه وانحرف، ولم ينجع اللين طبًّا لدائه، وجب أخذه بما اقترف، ولم يكن ذلك نقضًا لوحدة الأمة، ولا نقصًا من أمنها، بل كان ذلك صونًا لوحدتها وأمنها.

«ومن يك حازمًا فليقسُ أحيانًا على من يرحم» لا قسوة العدو المحارب يشفي بها غريزة الانتقام من عدوه، ولكن قسوة الوالد المؤدب يستصلح بها ولده، مقدرًا عقوبته بمقدارها، حاصرًا جريمته في أضيق حدودها، لا يأخذ أحدًا بذنب أخيه، ولا جارًا بجرم جاره، ولكن قصاص مكافئ عادل... من ذا الذي يتولى حفظ هذه الحدود، ومنع هذا الشذوذ الشرود؟ أكلٌّ من نبتت في خياله فكرة أن فلانًا بغى أو ظلم، خوّل له الإسلام حق الحكم عليه، ثم خول له تنفيذ ما حكم به؟ يا لها من قضية شنعاء، وجهالة جهلاء!! أنرجع كفارًا يضرب بعضنا رقاب بعض، عن غير هدي ولا بينة؟ أليست تلك هي

الفوضى التي أنقذنا الإسلام منها؟ أفنعود إليها باسمه ونلصق دنسها بثوبه، بل نجعلها عضوًا من جسمه؟.

إن الإسلام لم يخول للحاكم نفسه أن يحكم بعلمه، فضلاً عن أن يقضي بظنه: فكيف يُخول هذا الحق لفرد من عامة الشعب، مجرد من جهاز العدالة الذي وضعه الإسلام شرطًا لإصدار الأحكام، ثم لتنفيذ الأحكام؟ هل أحضر الشاهد والمشهود؟ هل ألقى السؤال وتلقى الجواب؟ هل استمع إلى حوار الاتهام والدفاع؟ ثم أين هو من تحليل المقاصد والبواعث ومن تحديد الأسباب والملابسات، ومن درء الحدود بالتأويلات والشبهات؟.

أيها الناس: إن الإسلام يدعونا إلى كلمة سواء: ألا نعبد إلا اللَّه ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون اللَّه، والإسلام كل لا يتجزأ، أنؤمن ببعض الكتاب، ونكفر ببعض؟ أنفرق بين أحكام اللَّه، فنأخذ منها وندع، وفقًا لأهوائنا وشهواتنا؟ أنكون كالذين إذا دعوا إلى اللَّه ورسوله ليحكم بينهم تولوا وهم معرضون، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين؟ كلا، إن هذا ليس موقف المؤمنين الصادقين ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [النور: ٥١].

وبعد... فهذا موقف شجاع نسجله للتاريخ، تقديرًا لعالم رجل، أرضى اللَّه والإسلام والحق، هكذا كان محمد عبداللَّه دراز ـ رحمه اللَّه ـ: رجل عزة وكفاح، وكان من المهابة والعزة والكرامة والتجلة، بحيث أصبح من بعض من عناهم أمير الشعراء أحمد شوقي حين قال:

كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانًا وأبهى مظهرا

ويبقى محمد عبداللَّه دراز وأمثاله من العلماء العاملين، بسيرهم الطاهرة، ومواقفهم الباسلة في محاربة الظلم والطغيان موضع الأسوة.

ونحن نقدر العلماء الرجال الأوفياء لمبادئ الحق والعدل، الذين خدموا الإسلام ورفعوا رايته، ونصروا دعاته، والذين عاصروا عهد الانقلابين يعلمون جيدًا أن هذا الكلام الذي وجهه الدكتور دراز إلى الرئيس عبدالناصر لم يكن يجرؤ أحد أن يقوله فضلاً عن أن يذيعه على الشعب من دار الإذاعة. ومن هنا كان دور الرقيب من الحذف حتى ولو كان المحذوف وحي السماء المعصوم[1].

*** ماذا فعلوا بعالم الأزهر الذي عارض الاشتراكية؟!**

قال الدكتور أحمد المجذوب في مقال له بعنوان «مآثر ما يُسمَّى بثورة يوليو»:

يخطئ من يظن أني أدافع، فيما كتبته وأكتبه، عن الإخوان المسلمين؛ فهذا أمر ما يمكن أن أفكر فيه وذلك لسبب بسيط وهو أنني لست محاميًّا كما أنني لست عضوًا في الجماعة ولكني مواطن يحب وطنه ويحب الشعب الذي ينتمي إليه وقبل كل شيء يحب دينه ويستميت في الدفاع عنه مهما كلفه ذلك ثم أخيرًا أنا رجل قانون أحرص على أن ينال كل مواطن حقه ويتمتع بحريته مهما كانت أيديولوجيته كما يقولون. كذلك فإنني وقد بلغت هذه السن أصبحت لا أخاف إلا اللَّه ولا ألتمس إلا رضاه وهو ما كنته وسأكونه إلى أن ألقى اللَّه تعالى. وما كتبته عن الانقلاب المسمى ثورة لم أصطنعه أو أخترعه وإنما رأيته بنفسي أو سمعته من مصادر أثق بها ومن هؤلاء المرحوم الشيخ محمد المدني الذي كان من كبار العلماء كما كان عضوًا فيما كان يسمى باللجنة الجنائية المنبثقة عن مجلس إدارة المركز القومي للبحوث الاجتماعية

(١) مقال: «وثيقة تاريخية لم تنشر: الشيخ دراز يعارض بطش عبدالناصر بالإخوان» بقلم الشيخ أحمد فضيلة ـ جريدة آفاق عربية ص(١٢) العدد ٥٦٩، ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٤٢٣هـ ـ ٨ من أغسطس سنة ٢٠٠٢.

والتي كان من أعضائها في ذلك الوقت المرحوم المستشار محمد فتحي والمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة والمرحوم المستشار جلال عثمان وأنا عن المركز. وفي ذات يوم دار الحديث عن عهد عبدالناصر وما حدث فيه من تعذيب وإهدار لحقوق الإنسان وإلغاء لحرياته فتساءل الشيخ أبو زهرة عما إذا كان عبدالناصر قد علم بما كان يحدث أم أن هذا جرى دون علمه فرجح الآخرون أن يكون قد تم دون علمه، وهو ما استفز الشيخ محمد المدني، وكان عالمًا فاضلاً أمينًا عف اللسان صادقًا فقال لهم: أنا لم أكن أرغب في أن أتكلم فقد مات الرجل وأصبح حسابه أمام اللَّه تعالى، ولكن للأمانة وللتاريخ ومن أجل الأجيال القادمة التي لا نريد لها أن تعاني ما عانيناه سأروي لكم ما حدث مع أحد علماء الأزهر الذي كان عبدالناصر نفسه يعرفه حيث تردد لبعض الوقت على الدروس التي كان يلقيها في الأزهر، فقد دسوا عليه من يسأله عن رأيه في الاشتراكية فأجاب الرجل بما لم يرضهم فقرروا اعتقاله وتلقينه درسًا في الطاعة والخضوع للزعيم. وكان الرجل يصحب زميلاً له وصديقًا في نفس الوقت لديه سيارة فكان ينتظره عند مدخل الشارع الفرعي الذي يقع فيه بيته ليحمله إلى الأزهر وفي العودة ينزله من حيث حمله؛ لأنه كان يحب أن يقطع المسافة إلى بيته ماشيًا. وفي ذات يوم أنزله ومضى في طريقه ولكن الشيخ الجليل لم يعد إلى بيته وطال انتظار أسرته له ولكن دون جدوى فاتصلوا بصديقه الذي أكد لهم أنه أنزله عند أول الشارع ورجح أن يكون قد عرج على أناس يقيمون قريبًا منه فقامت الأسرة بالاتصال بكل الأقارب والمعارف كما طافت بأقسام الشرطة وبالمستشفيات ولكنها لم تعثر عليه وذلك لسبب بسيط وهو أن عربة سوداء ذات نوافذ عليها ستائر سوداء كانت قد اختطفته عقب انصراف سيارة صديقه وحملته إلى ما وراء الشمس للتحقيق معه، ولما ذهبت جهود الأسرة لمعرفة مصيره سُدى همس لهم البعض أن ربما يكون قد اختُطف بسبب يرجع إلى ما يقوله في

دروسه.. عندئذ اتخذ البحث وجهة أخرى وبالفعل عرفت الأسرة أنه ضيف معزز مكرم لدى الجهة المسئولة عن أمن الثورة ولن يلبث أن يعود إليهم على أن يكفوا عن البحث والثرثرة وإلا! ومضت أيام في إثر أيام وهم ينتظرون إلى أن كان مساء يوم حين ألقت به السيارة السوداء في نفس المكان الذي سبق أن اختُطف منه فنهض الرجل وتحامل على نفسه حتى وصل إلى البيت فطرق الباب فلما فتحوه له انطلق كالصاروخ إلى غرفته فدخلها وأغلق الباب عليه من الداخل وأسرته في حالة من الدهشة والذهول يطرقون عليه الباب فلا يرد، يتوسلون يتضرعون يبكون ولكن بلا جدوى فهو مصر على عدم فتح الباب بينما نحيبه وبكاؤه يقطع نياط قلوبهم فيبكون معه. وظنوا أن ما لأصدقائه الحميمين من تأثير عليه يمكن أن يسهل المهمة فبعثوا إليهم الواحد تلو الآخر ليدعوه للخروج أو تركهم يدخلون ولكن بلا جدوى.

وأخيرًا اتصلوا بشيخ الأزهر وأبلغوه بالأمر فحضر وتوسل إليه فاستجاب وفتح له الباب فدخل وأغلقه عليه وروى له الكارثة التي نزلت به وهي أن زبانية جهنم لما ظنوا أنه يخفي عنهم بيانات أو معلومات هددوه وتوعدوه، وأخيرًا نعم وأخيرًا يا كل أبناء مصر جردوه من ثيابه ووضعوا عصابة على عينيه و... وياالهول مافعلوه: اتوا برجل من جنودهم وجعلوه يهتك عرض العالم الفاضل الذي توسل إليهم أن يقتلوه ولا يهتكوا عرضه، ولكنهم أصروا وهم يقهقهون. سمع شيخ الأزهر هذا الكلام، وهو في ذهول يريد أن يظن أن بالرجل مسًّا من جنون ولا يصدق أن الثورة التي جاءت من أجل الشعب ترتكب هذا الجرم البشع، ولكن بكاء الرجل ونحيبه وعذابه جعلاه يصدق ويقول: إن عبدالناصر لا يعلم بالقطع، وأن هذه الجرائم تقع من وراء ظهره ونهض غاضبًا حانقًا وهو يحوقل ويعد الشيخ المسكين بلقاء سريع مع عبدالناصر وسوف يعود إليه بما يشفي غليله من المجرمين.

ويتصل شيخ الأزهر بسكرتارية عبدالناصر ليطلب تحديد موعد لمقابلته،

ولكن سامي شرف يرد عليه قائلاً: إن الريس مشغول ويتكرر الاتصال فيتلقى نفس الرد وأخيرًا قال له: إذا كان لا يستطيع الانتظار حتى يقابله الريس فليقل له ماذا يريد. . . تصوروا شيخ الأزهر يعجز عن مقابلة عبدالناصر. المهم فوجئ شيخ الأزهر بأحد وزراء الثورة يدعوه لعقد قران ابنته فسأله إن كان الريس سيحضر فأجاب بالإيجاب فوعد بالذهاب لعقد القران حتى ينتهز الفرصة، ويقابل الريس، ويروي له ما حدث ويومها تأخر حضور عبدالناصر ولكن الشيخ أصر على انتظاره وأخيرًا جاء وأحاط به أتباعه وزبانيته فما كان من الشيخ إلا أن اخترق الزحام حتى وصل إليه وهمس له قائلاً: إنه يلتمس منه بشدة أن يمنحه بضع دقائق ليتحدث إليه فأشاح عنه يوجه الحديث إلى آخر فردد عليه طلبه، فقال له في تأفف وقرف: اتصل بسامي شرف، فقال له: إنه فعل عشرات المرات، ولكن بلا جدوى فتعجب من إصراره وأمهله إلى ما بعد عقد القران قائلاً إنه سيمنحه خمس دقائق لا أكثر، وبالفعل انتحى به الشيخ جانبًا وهمس له بما حدث والألم يكاد يقضي عليه، وفجأة انفجر عبدالناصر في الضحك حتى خيل للشيخ أنه سيقع على ظهره بينما هو ينظر إليه مذهولاً يريد أن يسأله هل تضحك! ولكنه لا يجرؤ ويكف الريس عن الضحك، وهو يجفف وجهه بمنديله ويقول للشيخ: أما ولاد شقاي بصحيح! عملوا كده؟

ويقول الشيخ محمد المدني: إن شيخ الأزهر نظر إلى عبدالناصر والدموع تسيل من عينيه، وقد تحشرج صوته وهو يقول له: لقد هتكوا عرضه، فإذا بالريس الهمام يقول له: وماذا كنت تريدهم أن يفعلوا غير هذا مع رجل يناصب الثورة العداء، ولا يكف عن الهجوم على الاشتراكية؟! ولم يدر الرجل ماذا يقول فإذا بعبدالناصر يرمقه شذرًا كأنه يستحثه ليرد فلما لم يفعل؛ لأن شللاً أصاب لسانه أومأ له برأسه، وهو يأمره «اتفضل روح شوف شغلك ومش عايز أسمع كلام من اللي الراجل ده كان بيقوله»، وخرج

الشيخ وهو لا يكاد يرى مواضع قدميه، وقال الشيخ المدني: إنه ظل يدعو اللَّه أن ينتقم من عبدالناصر وزبانيته وأن يذلهم كما أذلوا الناس.

هذا قليل من كثير أنزله عبدالناصر بالناس بغض النظر عن كونهم من الإخوان أو من غيرهم فما كان الشيخ (. . .) الذي هتكوا عرضه وفسقوا به من الإخوان بل كان مجرد عالم له رأي. وللحديث بقية فلن يهدأ لي بال إلا بعد أن أطلعكم على ما أصاب الإنسان في مصر على يد الانقلاب الملعون الذي أسموه ثورة[1].

❑ قال الرئيس المصري السابق محمد نجيب: «عبدالناصر ودّى البلد في داهية بل في ستين داهية». . . ثم أخذ يعدّد لي جرائمه:

- أبشع انتهاكات لحقوق الإنسان وكرامته.
- هزائم عسكرية.
- إفلاس مالي.
- إفلاس أخلاقي»[2].

❑ وجاء في مقال الصحفي محمود فوزي وعنوانه «ثوار يوليو يتحدثون» في مجلة أكتوبر العدد (٥٦٠) الذي صدر يوم الأحد ١٩ يوليو ١٩٨٧م ص(١٩ ـ ٢٣) في مقابلة مع كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة»، وأعظم رجال العصر الناصري وتقلّد في وقت واحد تسعة مناصب، وكان مشرفًا على الاتحاد القومي ووزيراً للتربية والتعليم ووزير إسكان ووزير إدارة محلية ورئيس المجلس التنفيذي المصري، ورئيس لجنة الطاقة الذرية،

(١) من مقال «من مآثر ما يُسمّى بثورة يوليو (٧) للدكتور أحمد المجدوب ـ جريدة آفاق عربية، العدد (٥٦٨) والعدد (٥٦٩) ص(١٣) ـ ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٤٢٣هـ، ٨ من أغسطس سنة ٢٠٠٢م.

(٢) من حديث الرئيس محمد نجيب لمحمد إحسان عبدالقدوس كما جاء في كتاب «بشاوات وسوبر بشاوات» ص(٢٢٢).

ورئيس مجلس العلوم، ومجلس رعاية الشباب.

❑ قال كمال الدين حسين:

«قلت لعبدالناصر: فرعون نفسه لم يأخذ سلطاتك ولا حتى اللورد كرومر، لا أحد أخذ سلطات في مصر قبل ذلك بهذا الشكل المجحف»[١].

وقال: «كان هناك ظلم كبير على الإخوان المسلمين عام ١٩٦٥م، وقد تأكدت بنفسي من عمليات التعذيب الرهيبة التي راح ضحيتها الكثيرون، وقد أثّر فيّ هذا الموضوع، وقلت لعبدالناصر: اتق اللّه... إذا كنت أنا لا أستطيع أن أقول لعبدالناصر لا... فمن يستطيع أن يقولها له؟!

أنا أعتبرت نفسي ضمير هذا الشعب، وقد قلتُ للسادات: ملعون من اللّه ومن الناس من يتحدّى شعبًا أو يمتهن كرامة أمة»[٢].

وقال: «نعم كان عبدالناصر ديكتاتورًا مستبدًّا، وهل هذا في حاجة إلى تأكيد، كان عبدالناصر متمسكًا برأيه سواءً كان صحيحًا أو خطأ. وكان يأخذ رأي الناس لكن في النهاية قراره هو الذي ينفّذ، وأبلغ دليل على ذلك هو القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤م والذي يجعل مجلس الشعب أمامه وكأنه لعبة، فبمقتضى هذا القانون كان رئيس الجمهورية يعتقل ويضع الأشخاص في مكان بعيد، أو يفرض حراسة عليهم، حتى ولو كنت مظلومًا فليس من حقك أن تتظلم أمام أي جهة... هذا يكون ديكتاتورًا ففي يده كل السلطات ولا أحد يستطيع أن يحاسبه، هذا هو الديكتاتور وهكذا كان عبدالناصر»[٣].

❑ وهذه وثيقة تاريخية حاسمة، وحكم قضاء مصري ونشرت حيثيات حكم محكمة جنوب القاهرة في إحدى قضايا التعذيب جريدة الأحرار في

(١) «باشوات وسوبر باشوات» للدكتور حسين مؤنس ص(٤٤١) ـ الزهراء للإعلام العربي.
(٢) المصدر السابق ص(٣٤٠).
(٣) المصدر السابق ص(٣٤٢).

٣٠ مايو ١٩٨٣م، ١٧ شعبان ١٤٠٣هـ العدد (٢٥٣) وذكره السادات في كتابه «البحث عن الذات» ص(٢٢٢ ـ ٢٢٣):

قالت المحكمة في حيثيات حكمها: «إن الفترة التي جرت فيها أحداث هذه القضية[١] هي أسوأ فترة مرّت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث، فهي فترة ذُبحت فيها الحريات وديست فيها كل كلمة للإنسان المصري ووُطئت أجساد الناس فيها بالنعال، وأُمِر الرجال فيها بالتسمّي بأسماء النساء ووُضعت ألجمة الخيل في فم رب العائلة وكبير الأسرة، ولُطمت الوجوه والرءوس بالأيدي، كما رُكلت بالأقدام، كما هُتكت أعراض الرجال أمام بعضهم وجيء بنسائهم أمامهم وهُدِّدوا بهتك أعراضهنّ على مرأى ومسمع منهم، ودُرِّبت الكلاب على مواطأة الرجال».

وفي يوم السبت التالي الموافق ٤ يونيو ١٩٨٣م قالت نفس المحكمة في حيثيات حكم آخر لها «إن المحكمة تُسجِّل في حكمها كما سبق أن سجّلت في حكم سابق للتاريخ معاصرتها لهذه الأحداث التي تقشعرّ لسماعها أبدان كل حرٍّ يدين بالولاء والتقديس للواحد الأحد، ولا يرضى العبودية لغيره، ولا يشرك في أمره أحداً، مهما تسلط وتجبّر»[٢].

❑ وقد أدانت المحكمة العسكرية ـ العليا في حكمها في ٢٢/ ٥/ ١٩٧٦ برئاسة اللواء حسن صادق رئيسها وقتئذ وجاء في أسباب الحكم في قضية التعذيب الكبرى ٣٣١ لسنة ١٩٧٦م في ٢٢/ ٥/ ١٩٧٦م.

«إن المحكمة لتسجل بحق أن الجريمة موضوع هذه الدعوى كانت سُبَّة في جبين الحكم المصري يندى لها الجبين خزيًا وعارًا، ولعلّ في حكم المحكمة ما يُسدل الستار على حقبة من تاريخ مصر امتهنت فيها وأُهينت

(١) قضية كمشيش بالمنوفية في مايو صيف ١٩٦٦م حتى ١٩٦٨م.

(٢) «باشوات وسوبر باشوات» ص(٢٨٥، ٢٨٦).

كرامة الإنسان.

❑ حقبة من تاريخ كانت فيها السيادة للسياط توصلاً للإرهاب وللإلقاء في غياهب السجون أو تقرّبًا وزلفى للحكام والرؤساء رغبوا هم في ذلك أم رغب فيه فاعلوه.

❑ حقبة من تاريخ مصر ساد فيها الظلام وسُلّط فيه سيف الاعتقال على الرقاب.

❑ حقبة من تاريخ مصر تضاءلت فيها سمعة سجن الباستيل بفرنسا وطغت عليها سمعة السجن الحربي بمصر.

❑ حقبة من تاريخ مصر أعادت للأذهان ذكرى محاكم التفتيش وما كان يجرى فيها من مخازٍ وفظائع.

❑ حقبة من تاريخ مصر تسابق فيها الجلاّدون إلى ابتكار وسائل للتعذيب إرضاءً لشهوة التعذيب في داخلهم حتى لقد أُدخلت التعديلات على «الفلقة» التقليدية، وتم تطويرها لتكون أكثر إيلامًا وأشد تأثيرًا.

حقبة من تاريخ مصر كان فيها السجن الحربي بمثابة التنين الرهيب الذي يخشى كبار القادة مجرد الاقتراب ومعرفة ما يدور فيه أو حتى سماع أخباره إيثارًا للسلامة حتى لقد قال عنه اللواء سليمان مظهر الذي تولّى عضوية محكمة الثورة واشترك في إصدار الحكم فيها قولته المشهورة أمام المحكمة: «إنه آثر الابتعاد عن الشر بل ورفع عقيرته له بالغناء».

❑ حقبة من تاريخ مصر كانت فيها مصر كالنار تأكل بعضها بأمر مَن كان كل هذا؟ ولمصلحة من كان هذا؟ ومن المستفيد من كل هذا؟

أسئلة تطرح نفسها على استحياء تتساءل عمّا تعرف يقينًا إجابته»[1].

(١) «باشوات وسوبر باشوات» للدكتور حسين مؤنس ص(٢٨٨).

* مأساة المستشار علي جريشة:

الذين أهانوا المواطنين وعذّبوهم وأهدروا آدميتهم ليس هناك شك في ارتكابهم هذه الجرائم، فإن حكم المحكمة الذي أصدرته في قضيته المستشار علي جريشة قد قطع الشك باليقين:

ماذا حدث مع مستشار؟

قالت المحكمة: «عذّبوه بوحشية، فأوسعوه ضربًا حتى شوّهوا وجهه واختلطت معالمه واختفت ملامحه حتى عزّ على جاره وصديقه التعرّف عليه إلا بعد التفرّس فيه وإطالة النظر إليه... مزّقوا جسده بالسياط حتى أثخنوه جراحًا... أسالوا دمه حتى استحال قيحًا وصديدًا... أذلوه حسًّا ومعنى حتى أعجزوه عن أن يقف على قدميه وأرغموه أن يزحف على أربع، وكان غاية الهزء والازدراء والتفنّن في القسوة والتعذيب وإلحاق الإهانة والهوان به أن يطلبوا منه أن ينبح كالكلاب. علقوا جسده وألهبوه بالسياط وقذفوه بأقذع وأفحش ألفاظ السباب».

❑ ويسجل الحكم صورة مروّعة لحالة المستشار جريشة، فقد طلبوا منه أن ينزل من زنزانته «للتمام»... وقال الشاهد يصف نزول جريشة للتمام: «إنه شاهد شخصًا ينزل زاحفًا على أربع، ركبتيه وكوعيه وهو يصرخ ويئن أثناء نزوله سلالم السجن الحربي الخرسانية المرهقة للشخص السليم العادي..».

ثم يقول الشاهد: إنه بعد التمام بتسجيل الأسماء صعد نزيل الزنزانة ٤٩ (يقصد جريشة) بنفس الطريقة التي نزل بها زاحفًا على أربع.

كان القصد من تعذيب جريشة بهذه الصورة التي لم تعرفها حتى العصور الوسطى، إلقاء الرعب في قلوب سائر المعتقلين، وكأن الضباط الزبانية يقولون لهم: إننا نفعل كل هذا بقاض فما بالكم أنتم إذا أردنا

تعذيبكم؟!

وسجّلت المحكمة على لسان أحد الشهود بأن شمس بدران قال: «إن أمرًا صدر إليه من الريّس بتعذيب جريشة حتى الموت!».

وقد دمغت المحكمة سلوك الحاكم «بأن التعذيب كان نظام عهد وأسلوب حكم إرهابي كان يهدد كل إنسان حتى نُوّاب رئيس الوزراء»، ثم قالت عن أصحابه «إنه عار على من ارتكبه وخزي له في الدنيا والآخرة».

قالت المحكمة عن خسّة ودناءة ضباط السجن الحربي «كانت هناك سيدات يعلقونهن ويضربونهن، وهددوا المدعي عليه (أي: جريشة) بإحضار زوجته لتعذيبها والاعتداء على عرضها كما فعلوا مع آخرين أحضروا زوجاتهم وأخواتهم وأصهارهم، ومنهم على سبيل المثال الشيخ محمد عبدالمقصود الذي أحضروا زوجته وبناته وأزواجهم وزوجات أولاده، وكذلك المستشار مأمون الهضيبي الذين أحضروا زوج ابنته وأخواته البنات ووالدته»[1].

وهذا ما حدا بأحد المصريين أن يقول ساخرًا وخائفًا مسجّلاً عار تلك الحقبة من تاريخ مصر:

لن يُقال الحق يا ولدي ... وفي الحق مراءْ
فاعبد الطاغوت يا ولدي ... ودع عنك السماءْ
ودع المصحفَ يا ولدي ... إذا الميثاق جاءْ
فبه جاء نبيٌّ ... بزّ كل الأنبياءْ
ودع الصدق ... فإن الصدق طبع الأغبياءْ
وتعلّمْ لغة القوم ... أحاديث الرياءْ
ولتقل كل صباح ... ولتقلْ كل مساءْ:

(١) «باشوات وسوبر باشوات» ص(٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١).

«كيف كنّا كيف أصبحنا وكيف الأمس ساءْ»
هذه مصرُ وفرعون بها كيف يشاءْ
دولة الزور وقـــد دامتْ فَيَـا مُرّ البقـاءْ

*** الليث الهصور الشيخ محمود عبدالوهاب فايد شيخ الجمعية الشرعية وأستاذ الحديث:**

بطل الإسلام الذي هدر بالحق وصدع به في عهد الملكية وفي عهد الرؤساء الثلاثة لا يشاركه غيره في هذه الجرأة والغيرة على دين اللَّه.

❑ كتبت عنه «مجلة التحرير» في العدد (١٨٥) عام ١٩٥٦م بعد تخرجه من كلية أصول الدين بعشر سنوات: «إنه مناكف قديم... كان الأول عند تخرجه في الأزهر، وكان المتبع أن يُدعى الأوائل من الناجحين في كل سنة إلى حفلة يحضرها الملك السابق، ويصافح فيها المتخرجين، وأُعطيتْ الأوامر إلى الجميع بأن ينحنوا عند مصافحته، ولكن الشيخ العنيد أبى أن ينحني، وصافح مولانا وهو منتصب القامة رافع الرأس... وبسبب ذلك صدر الأمر بتعيينه في سوهاج بخلاف ما جرى عليه العرف في تعيين الأولين في القاهرة».

أجل إنه الشيخ العنيد... الذي طالما جرّ عليه عناده وصراحته الأهوال وهو ثابت على ما يؤمن أنه الحق، لا يحني لباغٍ رأسًا، ولا يغضّ عن ظالم طرفًا، ومن أجل ذلك كان نصيبه من البلاء في عهد أصحاب (التحرير) أضعاف ما لقيه في ظل الملك الغرّير»[1].

❑ ولنترك المجال للشيخ المجذوب يقص علينا هو والشيخ فايد حديث الصدع بالحق.

*** معركة لا تنسى:**

وهنا يجد الشيخ مجال الحديث متسعًا فيتحفنا بما لذ وطاب عن

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ٣٥٣).

الأحداث التي عاصرها ولابسها، وقد ركز بوجه خاص على معركته مع الشيخ عبدالرحمن تاج شيخ الأزهر السابق، وأحسن في ذلك؛ لأنه يتيح لنا من خلال هذه المعركة أن ندرس الكثير من الأوضاع التي رافقت عهد الإرهاب والكبت، فكان في هذه المعركة متنفس لغير واحد من هؤلاء الذين فرض عليهم الصمت بإزاء الأهوال التي كانت تنيخ على صدور الناس.

كان عنوان المقال الذي افتتحت به المعركة قذيفة ذات رءوس متعددة. إنه «باسم اللَّه واللَّه أكبر، فليستقل شيخ الأزهر» إنه إعلان حرب لا يراد لها أن تخمد إلا باستقالة شيخ الأزهر، ولم يذكر الشيخ أين نشر المقال، ولكن نرجح نشره في مجلة «الاعتصام» التي كانت أحد المنافذ الصغيرة التي تركتها السياسة الثورية متنفسًا لأهل الإسلام.

*** باسم اللَّه واللَّه أكبر.. فليستقل شيخ الأزهر**[1] :

«نكتب هذا المقال ونحن نوقن أن مصر التي حررت من الذل والضعف والعبودية تأبى أن يفرض عليها إنسان أيًّا كان هذا الإنسان حتى رئيس الجمهورية لا يستطيع أن يتولى منصب الرياسة إلا بعد أن يعرض صحيفة أعماله على الأمة وبعد أن ينال رضاها والوزراء لا بقاء لهم إلا إذا حازوا ثقة الشعب ممثلاً في مجلسه.

بهذه الروح رأينا أن ننصح لأستاذنا الأكبر بأن يستقيل خصوصًا بعد أن أعلن الأزهريون سخطهم عليه في بيان مطبوع وبعد أن استعرضوا صحيفة أعماله فلم يجدوا فيها خيرًا للإسلام أو للأزهر ونحن نأسف إذ يتجاهل فضيلته هذا البيان ويضطرنا إلى هذا الموقف منه خاصة في هذه الظروف العصيبة التي يمر بها الوطن غير أن مصلحة الوطن ـ كما نعتقد ـ توجب أن يكون الأزهر قويًّا ملحوظًا بالعناية حتى يؤدي رسالته تامة في مصر والعالم الإسلامي وهي أيضًا تقضي بأن تكون مصالح الدولة في أتم انسجام وأن

(١) نُشر بالاعتصام ربيع أول ١٣٧٦هـ.

يقصي عنها عوامل الضعف ويقدر ما يواجه الوطن من أزمات بقدر ما تكون حاجته أشد إلى القوة وإلي الأقوياء حتى يجد كل ما يحتاج إليه على خير ما يبغي وحتى يمكن له أن يواجه خصومه في قوة وثبات وينجو من الأخطار التي يتعرض لها، ولهذا تكد الدولة في هذه الأونة وتعمل ليل نهار لتستكمل ما بها من نقص في كل مرافقها، وتعالج ما لديها من ضعف في جميع نواحيها، ولتتجه بكل قوتها إلى العدو المتربص بها، فمعذرة إذا نحن كتبنا في قضية الأزهر ورغبنا في أن نعالج النقص فيه بجانب ما كتبناه وما نكتبه في قضية (تأميم القناة) التي تشغلنا جميعًا ورأيي أن الجسم يكون أقدر على المقاومة إذا كانت كل أعضائه سليمة وقوية والأزهر اليوم مصاب بالجمود والشلل في ظل شيخه الحالي فلا بد له من شيخ جديد يعالجه ويداويه ويبعث فيه النشاط والحركة ليكون أقوى على خدمة الوطن وأسرع إلى تلبية رغباته ـ ولا يمكن أن تخدم قضية القنال بتعطيل مصالح الدولة وتعريضها للزوال بل تخدم بإصلاحها وحثها على السير والأخذ بيدها وتقويتها، والسعي لمضاعفة إنتاجها. وهذا هو ما نريده ونبغيه، وندعو إليه ونكتب فيه.

عندما أردت أن أكتب هذه الكلمة ساق القدر إلي عددًا من صحيفة الأهرام صدر يوم ١٩٥٤/٩/٢٨ وفيه عمل خالد ومسعى حميد لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبدالرحمن تاج. رأيت من الإنصاف أن أشير إليه في مستهل هذه الكلمة حتى لا أغبن فضيلته ولا أغمطه حقه. قالت صحيفة الأهرام في ص(٧) «قصد فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر إلى وزارة الشئون الاجتماعية وتحدث إلى بعض كبار المسئولين فيها عن بعض العادات والمهن الشاذة التي يحترفها ويعيش عليها آلاف من الناس في القاهرة والمدن الكبرى وسائر أنحاء الريف وذكرت الجريدة أن فضيلته أفاض في بيان خطر (القرداتي وضاربة الودع) وطالب بوضع قانون يحمي المجتمع من هذه الشرور.

هذه المهمة التي ذهب إليها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبدالرحمن تاج مهمة جليلة يستحق عليها الشكر فقد أثبت فضيلته للعالم أجمع أن له همة عالية، ويقظة دائمة تحول بينه وبين أن يدع توافه الأمور لأحد من الناس كائنًا من كان فهو لهذا يهتم بصغار المسائل ويشغل فراغه بها، ولا يرضى أن يعهد بها إلى رجل كمدير الوعظ؛ لأن فضيلته يحفظ من الصغر هذا البيت:

ما حك جلدك مثل ظفرك فتـــول أنت جميع أمـرك

نحن لا نجادل في أن واجب الأستاذ الأكبر أن يهتم بكل ما يجري حوله حتى صغار الأمور ولكننا نرى أنه لا يصح بحال ما أن تشغله الصغار عن الكبار إلا إذا كان فضيلته يريد أن يتهرب ويتلهى ويملأ فراغه بشيء ليكتب اسمه في سجل العاملين.

كان في استطاعة الأستاذ الأكبر أن يعهد في حرب القرداتية إلى مدير الوعظ وأن يكل إليه وهو مسئول كبير أن يقابل أمثاله من كبار المسئولين في الوزارة، وأن يتفرغ أستاذنا ـ حفظه اللَّه ـ لما هو أهم رأفة بنفسه وحرصًا على وقته الثمين، وقديمًا قيل: «العظائم للعظام».

كان هناك واجبان في عنق أستاذنا الأكبر على درجة قصوى من الأهمية أحدهما يحتمه عليه كشيخ للإسلام والآخر يوجبه عليه الأزهر كرئيس له آلت أموره إليه ولم نسمع عن فضيلته أنه أدى واجبه في شيء منهما كما أداه بالتمام والكمال مع القرداتية وضاربات الودع، بل لقد لاذ فضيلته بالصمت، وتحصن بالسكوت ولم يأبه لغضب المسلمين عليه بسبب تقصيره «في حق الإسلام» ولم يأبه لغضب الأزهريين عليه بسبب تفريطه في حقوق الأزهر. نعم. لقد ظهرت دعوة الوجوديين في الصحف وأخذ دعاتها ينفثون سمومهم في المجتمع وكتبوا علانية بأسمائهم الصريحة «الدين خرافة، اللَّه أكذوبة،

افتحوا بيوت الدعارة سأعلم ابنتي كيف تكون فاجرة»[١] .

سأعلم ابنتي كيف تكون فاجرة كتبوا هذا وأكثر منه وحضوا على نبذ الأديان عامة ودعوا إلى التحلل الخلقي وتواصوا بالرذائل وتآمروا على الفضائل، فعلوا هذا ولم نسمع أن فضيلته قصد إلى الوزارات ليتحدث إلى كبار المسئولين عن خطر هؤلاء الوجوديين كما فعل فضيلته مع القرداتية وضاربات الودع، لم نسمع أن فضيلته طالب بوضع قانون يحمي المجتمع من خطر هذه المبادئ الهدامة كما طالب فضيلته بوضع قانون يحمي المجتمع خطر هذه المهن الشاذة لا أدري لماذا بدت غيرته وأخذه الحماس ووافته الشجاعة فقام يصارع القرداتية ويؤلب عليهم الجهات الرسمية ثم لماذا انتهى حماسه وخارت قواه ففر من الميدان واختفى من وجه الوجوديين.

لقد كان واجبًا على فضيلته أن يصدر بيانًا يعلن فيه حكم الإسلام على هؤلاء كما فعل مع غيرهم، وكان واجبًا عليه بعد أن أيقظته الحوادث ونبهه المولى وأقام عليه الحجة وهيأ له الفرصة أن يطلب لربه ودينه وأن يسد هذه الثغرات إبراء لذمته وحماية لأمته كان عليه هذا لكن فضيلته لم يفعل ولم يحاول ولم يسمعنا صوته بل على العكس أضاع الفرصة، وقال للناس هذا الكلام المملول الذي اعتاد أن يقوله دائمًا في مناسبة وغير مناسبة، قال لهم: «ليس في الإمكان أبدع مما كان» وتنحى فضيلته عن المعركة التي تدور بين المؤمنين والملحدين ولم يشارك فيها حتى بالنصح فلم ينصح للوجوديين بأن يثوبوا إلى رشدهم، ويعودوا إلى ربهم ولم ينصح لولاة الأمور بمقاومتهم والضرب على أيديهم، وترك قاسم جوده ولم يجبه حين دعاه ـ على صحيفة الجمهورية[٢] بأن يعاون في حل هذه المشكلة، وآثر أن يتبع هذه الحكمة «إن

(١) الجمهورية ـ الجمعة ١٦/٩/١٩٥٥م ص(١٠).

(٢) نقل في الجمهورية ١٦/٩/١٩٥٥ كلامًا في غاية القبح والإلحاد نسبته إلى أسماء صريحة دون مبالاة.

وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب» نعم. من ذهب؛ لأنه يأتيه بالمرتب الشهري ويدر عليه مئات الجنيهات.

أي أستاذي الأكبر... عفا اللَّه عنك لم قصرت في أداء هذا الواجب الديني فلم تعلن حكم اللَّه في هؤلاء الملاحدة، ولم تستعد الحكومة على هؤلاء الخوارج الذين خرجوا على الإسلام والمسلمين بل خرجوا على الأديان والمتدينين. لم لا تقول في هؤلاء: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣].

* ألا تحفظ قول اللَّه تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لقد أوجب اللَّه علينا ضمانًا للربح أن نقول كلمة الحق ونتواصى بها ونصبر على الأذى من أجلها ودون ذلك يصاب الإنسان بالخسران المبين وينال غضب اللَّه وملائكته والناس أجمعين.

أي أستاذي الأكبر... لقد فاتك هذا الواجب كشيخ للإسلام ووارث للرسول ﷺ، فانظر معي هل أديت واجبك كرئيس للأزهر أو فاتك هذا أيضًا؟ لقد كانت براعة الاستهلال في هذا العام أن توقع ـ لا شلت يداك ـ قرارًا بإلغاء بعض المعاهد الثانوية[1] النظامية الناشئة، وأن تفرق ـ جمع اللَّه

(١) في أخبار الجمعة ٧/٩/١٩٥٦م ص(١٥)، وأهل الفيوم يشكون لأن إدارة الأزهر قررت إلغاء القسم الثانوي بمعهد الفيوم وتحويل طلبته إلى القاهرة ويقولون إن هذا القرار بعث الهم والحزن إلى مئات البيوت من أولياء أمور هؤلاء الطلبة، وترك مئات الطلبة حيارى ومنهم من فقد نعمة الإبصار؛ لأنهم واثقون بأن أولياء أمورهم لن يستطعوا الإنفاق عليهم في القاهرة، ومعنى ذلك تشريدهم وضياع ما بذلوه من جهد وضنى في التعليم الابتدائي وهم يستحلفون ولاة الأمور بالقرآن الكريم وبرسالة الأزهر الشريف أن يرجعوا عن هذا

شملك ـ جميع طلابها إلى جهات نائية، دون أن تجد في نفسك إحساسًا بالمتاعب والمشاق التي يتكبدها الطلاب، وجلهم من العجزة والمكفوفين والفقراء والمستضعفين ولا أدري... كيف رضيت نفسك الأمارة بالخير بأن توقع على قرار كهذا تزيل به هذه المعاهد ولم ترض بأن توقع على عريضة استقالة لتزول أنت ـ يا سيدي ـ عنها... لعلك أردت أن تستعجل الخطوة الثانية فمهدت لها بهذا القرار ليتم في عهدك إلغاء المعاهد[1] الدينية ـ كما تم من قبل إلغاء المحاكم الشرعية ـ أو لعلك أردت ـ وقد شاهدت مئات المدارس تبنى كل عام ـ أن تقول فلم يجرؤ قلبك ولم يطاوعك لسانك «تقتير هنا وإسراف هناك» أو لعلك أعجبت بهذا الشاعر الذي يقول:

إذا أنت لم تنفـــع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفع

لقد استقال سلفك العظيم فضيلة الخضر حسين ـ بعد أن كتب بحروف من نور على قلب كل أزهري الحكمة المأثورة: «إن لم يزد الأزهر في عهدي فلا ينتقص منه، والأزهر أمانة في يدي يلزمني أن أسلمه كما أخذته».. فماذا فعلت بهذه الأمانة بعد أن آلت إليك؟؟! إن الأزهر يا سيدي له حقوق وخصائص... أما حقوقه فلم ينل منها شيئًا في عهدك على الرغم من أنها حقوق عدالة، فهي لا تخرج عن المساواة بوزارة التربية والتعليم... ومن الظلم البين أن يتخرج أستاذان من معهد واحد أحدهما نابغة تعين في الأزهر والآخر دونه تعين في الوزارة فيكون النابغة ملفوظًا ويكون زميله الأدنى ملحوظًا.. إن الدستور الجديد ضمن تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية،

= القرار... فلعلهم فاعلون»... وما جرى لمعهد الفيوم جرى لمعاهد أخرى في الوجه البحري.

(١) في مجلة التقوى ص(٢) من صفر ١٣٧٦ أنه تم في هذا العام إغلاق كثير من مكاتب تحفيظ القرآن وهي المورد الذي يمد الأزهر بالطلاب فهل تحرك الأستاذ الأكبر؟.

فكيف تفسر لنا تجميد الأزهريين في الوضع الذي كانوا عليه منذ أربع سنوات.. على حين نرى وزارة التربية والتعليم تغدق على أبنائها الدرجات والعلاوات حتى أصبح التلميذ في الوزارة سابقًا لأستاذه في الأزهر... ثم كيف تفسر لنا هذا المستقبل المظلم الذي ينتظر العالم الأزهري بعد تخرجه؟ توصد في وجهه أبواب المصالح والوزارات فإذا وصل إلى الأزهر وهو والده الذي رباه والذي كان ينتظر منه العطف والتقدير إذا وصل إليه وجد في استقباله هذا الإعلان الطريف ونتطوع بنشره هنا نقلاً عن جريدة الشعب ٥٦/٨/١٥ من غير انتظار أجرة للنشر: «قررت مشيخة الأزهر تعيين مدرسين مؤقتين بالمعاهد الدينية من حملة إجازة التدريس بمكافأة شهرية قدرها خمسة عشر جنيها لمدة سنة قابلة للتجديد».

شكرًا لك يا سيدي.. فقد عز عليك أن تظفر بدرجات[1] تعين فيها مدرسين يسدون حاجة الأزهر فلجأت إلى هذه الحيلة الطريفة، وأخذت بهذه الفتوى اللطيفة وصار التعيين في الأزهر ـ وفي الأزهر وحده على ما أظن ـ بعقد «كونتراتو» قابل للتجديد وقابل للفسخ ولمدة محدودة أقصاها سنة، وتلك بدعة مستحسنة حدثت في عهدكم الميمون ولك الفخر... ومن حقك اليوم أن تباهي شيوخ الأزهر السابقين بهذه الأيادي المشكورة، والمناقب المأثورة، والحسنات الكثيرة، وأن تقول لهم في صوت جهوري:

وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

هذه إحدى مآثركم ـ وأعمالكم كلها مآثر ـ والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، فاغتنم من الأزهريين على ما قدمت وما ينتظر أن تقدمه لو بقيت دعاء لا ينقطع، وثناء لا ينتهي.

---

(١) في مجلة التحرير ٥٦/٨/٢٨ الصفحة الخامسة ما نصه: «لم تتضمن ميزانية الأزهر هذا العام أية درجة جديدة سوى ٦٥ ألف جنيه لوظائف جديدة بإدارة البعوث الإسلامية».

وبعد... فلا أسألك عن خصائص الأزهر من المكافآت[1] المرصودة التي فقدها الطلاب هذا العام ببركة إخلاصكم ولا عن سن الإحالة الذي نقص خمس سنوات من يمن طالعك، ولا عن جماعة كبار العلماء التي حلت تيمنًا بقدومكم، ولا عن أزمة المدرسين التي استحكمت كل الاستحكام في عهدكم ولا عن أقسام تخصص القضاء الشرعي والتدريس والوعظ التي بارت وزالت في أيامكم... بل لا أسألك تصحيح الوضع الذي جئت عليه فتطلب لنفسك مرسومًا كمديري المصالح الصغيرة بدلاً من قرار مجلس الوزراء الذي تم به تعيينكم... لا أسألك خيرًا لنفسك ولا لغيرك، ولا أطلب منك أن تلج أبواب الوزارات اهتمامًا بالأزهر كما ولجتها من قبل اهتمامًا بالقرداتية.. لكني أسألك باللَّه أن تضع عن كاهلك هذا الحمل، وأن تكتفي بما نلت من مكاسب، وما أصاب الأزهر من خسائر، وما حل بالمسلمين من ضعف.. أسألك باللَّه أن تخلو بنفسك، وتتخلص من شياطينك وتستعرض ما وصل إليه الأزهر من سوء وما بلغه من هوان وأنا واثق كل الثقة أن ضميرك الحي لا بد أن يستحثك للاستقالة ويحتمها عليك، ليأتي من بعدك من يقدر على النهوض بالأزهر ويوفيه حقه كاملاً غير منقوص، وأملي ـ وقد لمس العالم ضعفك ـ أن تكون عبرة لمن خلفك، فلا يتكالب الأزهريون على هذا المنصب ولا يسعون إليه في الخفاء، ولا يتقبله منهم إلا صالح مصلح، حازم غيور، عالم متين، قوي أمين، يبلغ الرسالة، ويؤدي الأمانة، يعلن كلمة الإسلام، ويعمل لصالح الأزهر، ويعرف كيف يحافظ على كرامته.. وينتقم اللَّه ممن يطيل محنة الأزهر فيتقبل هذا المنصب

(١) في جريدة الشعب ٥٦/٧/٨ ما نصه: «تضمنت الميزانية الجديدة للأزهر إلغاء المكافآت الشهرية التي كانت تصرف لطلبة الأزهر على أن ينفذ ذلك على الطلبة الجدد في العام الدراسي المقبل».

وهو يحس في نفسه العجز عن النهوض بأعبائه، والقيام بواجباته.

هذه نصيحتي لأستاذنا الشيخ عبدالرحمن تاج وهي نصيحة تريحه منا وتريحنا منه.. وقد قصدت بها وجه اللَّه وصلاح حال الأزهر فإني أخشى لو بقي فضيلته أن يفقد الأزهر كل شيء حتى اسمه، وإني لأعيذه باللَّه أن يؤثر لنفسه البقاء وللأزهر الفناء... فليستقل فضيلته على بركة اللَّه، وليحقق أملنا ولو مرة، وهو أمل وقع عليه من قبل عشرات كبار العلماء من أساتذة الكليات في بيان مطبوع، فإن استجاب فضيلته لنا وقدم استقالته على الفور فقد أحسن اللَّه له الخاتمة ورضي عنه.. وإن قال ـ كما تشيع بطانته التي أرقت النيابة من التحقيق ـ «إني باق في منصبي لن أتزحزح ولن أزحزح.. وما أنا بمتزحزح ولا مزحزح، ولا مستجيب لمن يقول تزحزح».. قلنا له وتلونا عليه الآية الكريمة: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ثم تلونا على إخواننا من العلماء الآية التي تليها: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وطلبنا منهم أن يصبروا ويتقوا ويتوكلوا على اللَّه وحده ليتحقق عَجَزُ الآية: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٦]. ولتصدق فيهم الأخرى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾ [الطلاق: ٢، ٣]»[1].

وسرعان ما انتشر دوي القذيفة، فإذا هو يهز الأزهر كله، فيقابله الكثرة من الأزهريين بكل مظاهر الرضى والتأييد، إذ وجدوا فيه تعبيراً عن رأيهم في الموضوع المثار. ومن هنا جاء نقله إلى معهد قنا، ثم وقف راتبه وإحالته إلى

(١) «صيحة الحق» ص(٤٠٥ ـ ٥١١).

مجلس للتأديب، ألف بسرعة من الشيخ الحسيني سلطان وكيل الأزهر رئيسًا، والشيخ عبداللطيف السبكي عضو يمين، ثم تبع ذلك قرار جمهوري من قِبل الرئيس بتعيين الدكتور مصطفى الحفناوي لعضوية اليسار.

ولما انتشر الخبر تطوع بعض المحامين لاحتلال مقاعد الدفاع. ويسمي الشيخ من هؤلاء الأساتذة سليمان العقاد، وعبدالحميد عبدالمقصود، ومحمد عيسى عطية خميس.

* **انتصار:**

وفي اليوم الذي عُين للجسلة الأولى حضر الشيخ مع محاميه، فأصروا على ما كتب، وأثبت في المحضر أن راتبه قد قطع قبل أن يُدان. وطلب المحامون تأجيل الجلسة للاطلاع، ولمس المحامون ما ينتويه رئيس المجلس، فتباحثوا في الأمر وعلموا من الشيخ ما سبق أن كتبه عن هذا الرجل في مقال كشف عواره، وطالب بتعزيره؛ لأنه نسب إلى الرسول ﷺ ما لم يقله. وفي الجلسة التالية أجمع المحامون على مطالبة وكيل الأزهر بالتنحي عن رئاسة المجلس لأسباب لا يريدون الإفصاح عنها حرصًا على كرامته، فرفض مطالبهم إلا بعد إبداء الأسباب، فسجلوا في المحضر نص المقال المشار إليه قائلين: كيف ترأس مجلس تأديب تحاكم فيه رجلاً، طالب بتأديبك لكذبك على رسول الله ﷺ !؟...

وتكهرب الجو وأجلت الجلسة بعد أن سجل المحامون طلبهم في مذكرة خطية. فما كان من فضيلة الوكيل الرئيس إلا أن كتب على ظهر المذكرة حكمًا بفصل الشيخ المتهم قبل انعقاد المجلس! وكان لذلك رد فعل سريع، إذ قابل الدكتور الحفناوي تصرف الرئيس بالاستنكار، ثم أبلغ الخبر رئيس الجمهورية. وشاع النبأ، وأخفقت المحاكمة، وجاء المفاوضون يغرون الشيخ بمختلف العروض مقابل سكوته، فرفض كل عرض، إلا أن يعود مدرسًا كما

كان في معهد منوف، وأن يعود كذلك زملاؤه الذين أيدوه إلى معاهدهم التي نقلوا منها. ولم يلبث المسئولون أن استجابوا لكل هذه المطالب، وخرج الشيخ من المعركة رافع الرأس منتصرًا. وجاء المؤيدون يستقبلونه بالتهاني، وفي مقدمتهم العلامة الدكتور محمد عبدالله دراز ـ رحمه الله ـ الذي تلا على الشيخ قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾.

*** خلفيات المعركة:**

ووجد شاعر الأزهر ـ كما يسميه الشيخ ـ الدكتور حسن جاد أستاذ الأدب بكلية اللغة العربية، في هذه الأحاديث روافد صالحات لإنشاء مسرحية شعرية صاغها ونشرها في العدد الرابع من مجلة «السيدات المسلمات» عام ١٣٧٦هـ بعنوان «محكمة المجاذيب» وقد رمز فيها إلى الشيخ فايد باسم «عائد» وإلى الأزهر باسم «المعشر».

يقول الشاعر الدكتور على لسان الوكيل الرئيس في تعليله للحكم الذي أصدره على الشيخ فايد:

من حيث إن (عائداً) قد لام شيخ (المعشرِ)
وأعلن الحـق جها رًا ونبـا بالمنـكر
وراح يـزري بالنفـا ق وهـو ليـس بالزري
وضـاق بالإلحـاد والـ ـمـجون في تهـورِ
وبعد مـا تـلاه من دفـاعـه المـوقـر
فقد رأينـا فصـله من المحيـط المعشري

❑ ثم يقول على لسان الدكتور الحفناوي المستنكر لذلك الحكم:

أجيبوني أليس الدين حقًّا فكيف جعلتموه هوى مطاعًا
أيفصل من يقول الحق منكم ويكرم من يضيعه ضياعًا
تسابقتم إلى الحكم اعتباطًا ودبرتم نهايته سراعًا
وزورُكمُ فلم نسمع عليه مداولة ولم نسمع دفاعًا

❑ ثم يتبع ذلك على لسان الشيخ فايد بعد رفضه العروض المغرية:

معاذ اللّه لست أريد جاها وليس هوى المناصب من طباعي
فكفوا عن مساومتي بدنيا يباع الحق فيها كالمتاع
يمين اللّه لا ألقي سلاحا ولست بمغمد يومًا يراعي

وقد اشترك في هذه المعركة أكثر من صحيفة، فمجلة التحرير كتبت عنها في العدد ١٨٥ ـ ١٩٨، وجريدة المساء تناولت الموضوع في ٢٦ يناير ١٩٥٧م، أما مجلة السيدات المسلمات فتابعت القضية في أعدادها الأربعة ربيع الآخر ورجب وشعبان ثم رمضان في عام ١٣٧٦هـ، وكذلك شارك في الموضوع مجلتا صوت الإسلام والاعتصام.

ولا جرم أن اجتماع هذه الصحف كلها، وأولئك المحامين الخمسة، على الخوض في هذه القضية إنما يصور، كما أسلفنا، أوضاعًا نفسية كبر ما يحيط بها من الضغط، فهي تبحث عن منفذ تتنفس منه، فما إن وجدته في هذه القضية حتى اتخذت منها وسيلة للتخفيف مما تعانيه. وكانت القضية جديرة بالاهتمام لأنها تمثل عدوانًا على مؤسسة إسلامية استطاعت أن تحتفظ باستقلالها طوال عشرة قرون، حتى جاءها ذلك الحكم يريد تسخيرها لمآربه، ولو أدى ذلك إلى طعن الإسلام في الصميم. ولقد استطاع ذلك الحكم الرهيب أن يحقق غير قليل من النجاح في هذا المعقل الخالد، باستجراره بعض المسئولين فيه إلى الخضوع لأهوائه، فكان لا بد من رد الفعل الذي

ترجم غضب الجمهور المسلم من أهل العلم على ذلك العدوان وعلى الضالعين معه من المسئولين.

وأخيراً إن في هذه المعركة صورة لا ينبغي أن تنسى من تلك الحقبة التي أُريد بها خنق كل صوت يرتفع بكلمة (لا) ولو أدى ذلك إلى إزهاق الأرواح وإذلال الأمة، ورفع الأبرياء على أعواد المشانق، وشحن السجون بكل كريم من الأطهار الأحرار.

*** كلام دونه السهام:**

والمؤرخ لحياة الشيخ محمود فايد لا يستطيع إغفال شجاعته في مواجهة رئيس المجهورية أثناء أخطر عهوده التي أغلقت الأبصار، وكممت الأفواه، وغلت الأيدي، فلا يجرؤ امرؤ على الإشارة بله الكلمة، إلا إذا كان من المغامرين الذين لا يبالون العواقب، أو المؤمنين الذين لا يرجون لغير ربهم وقاراً.

لقد كشف الرئيس عن نواياه الخفية جميعًا حين أعلن حربه على بقايا النظام الإسلامي في مصر بإلغائه القضاء الشرعي، ومصادرته حقوق الأفراد والجماعات في التملك والكرامة والعدالة وحرية الكلمة... ولم يكن بد للجريح من التأوه، فارتفعت بعض الأصوات الجريئة من أوساط العلماء، تعلن حكم الشريعة في ما يجري من عدوان على مبادئها الأساسية، وتذكّر الرئيس بمسئولياته تجاه الإسلام والشعب الذي يحكمه. وطاش صواب الرجل بإزاء هذه المعارضة، إذ كان يظن ـ ثقة بشهادات من حوله من بطانة الفساد ـ أن الإسلام قد انتهى بمحنة الإخوان المسلمين، فلا موضع لكلمة (لا) أمام كل ما يأتيه وما يذره... وانتهز إحدى المناسبات السياسية فراح يهدد ويوعد، وخص معشر العلماء بدفقة من السباب البليغ. وعلى طريقة الشيوعيين في التهوين من علماء الإسلام، جعل يتهم أصحاب العمائم باستغلال الدين في

سبيل بطونهم وشهواتهم، ولو أدى ذلك بهم إلى بيع الفتاوى بالفراخ. . . دون أن يفرق في هيجته بين الذين ينافقونه والذين يعارضونه من المشايخ.

وكان مستحيلاً على مثل محمود فايد أن يدفن ثورته في قلبه بإزاء ذلك التهجم الضرير فكتب أهم مقالاته ـ كما يقول ـ في نقد ذلك الهذر، وحملت «الاعتصام» ذلك المقال الشافي للصدور في عدد ربيع الأول من عام ١٣٨١هـ.

لقد قدم لمقالته يعرض كلام الرئيس، ثم تجرد للرد عليه بصراحته التي لا يملك عنها انفكاكًا.

قال الشيخ موجهًا كلامه إلى الرجل، الذي نسي، في غمرة الاعتداد بالقوة، مسئوليته كرئيس دولة:

«. . . هنا أحب أن أقف مع الرئيس وقفة قصيرة، ومن حقي أن أقف معه، فقد حدثنا سيادته عن عمر بن الخطاب، وقد حفظنا عن تاريخ عمر أن امرأة استوقفته فوقف، وأطالت معه الحديث، وكان مما قالت: «لقد كنت من قبل عميراً ثم صرت عمر، ثم أصبحت أمير المومنين، فاتق اللَّه وانهج سبيل الحق، فبكى عمر حتى اخضلت لحيته، فقال رفيقه: كفى يا أمة اللَّه، فقد أبكيت أمير المؤمنين. فنهره عمر وقال: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نتقبلها»، وليسمح لي سيادة الرئيس أن أناقشه، وأرجو ألا أتهم بأني أجير للرجعية، فقد كنت، وأنا من أصحاب العمائم، من أرباب الأقلام المتواضعة، التي لم تدخر وسعًا في محاربة الفساد، في وقت اشتد فيه الضغط واستفحل فيه الاستبداد والإرهاب، وكان نفر من الجيش ومن الجيش وحده هو الذي يحمي حمى الفاروق، وكان نفر من الجيش ومن الجيش وحده هو الذي يأكل على مائدة ولي عهده الطفل والقاهرة تحترق. . . فهل يجوز يا سيادة الرئيس أن يذاع على العالم، وبجميع اللغات، ومن

رئيس الجمهورية العربية نفسه، مثل هذا الكلام!

لقد فاتك أن تعقب بأن كثيراً من ذوي العمائم كان لهم مواقف كريمة وغيرة مشكورة، وإحساس مرهف... وإنك لتعرف بعضهم، ولبعضهم عليك فضل... ومن فضل اللَّه أن شعبنا فاضل واع ذكي أريب، يعرف مقاييس الرجال، ويميز الخبيث من الطيب.

وختامًا يكفي العلماء العاملين شرفًا وفخرًا أن أحكم الحاكمين زكاهم ورفع قدرهم وخلد ذكرهم، فقال سبحانه: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾، ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر: «**العلماء ورثة الأنبياء**».

* **مناقشة تحليلية:**

وإذا لم يكن بد من التعقيب على هذا البيان المبين فسأكتفي بتوجيه النظر إلى ناحيتين اثنتين منه. أما الأولى فالشجاعة التي تدفع صاحبها إلى المغامرة برأسه في سبيل الحق، الذي أخذ اللَّه العهد على أولي العلم بنصرته... وبخاصة في ظل تسلط يحاسب على الخلجة، ويقتل على الهمسة، ويسجن كبار الرجال من صالحي العلماء مع الكلاب المفترسة في السجن الحربي... ولعمر الحق إن البطل الذي يقتحم صفوف العدو الكمي، ليس أحق بالتقدير من مؤمن يقف أمام سلطان فتاك ليقذف بوجهه كلمة الحق صريحة مجلجلة. ورحم اللَّه شوقيًا الذي يقول:

إن الشجاعة في الرجال مراتب وأجلـهن شـجـاعـة الآراءِ

وأما الثانية ففي تلك الغمزات الجارحات التي يرمي بها مقاتل خصمه فلا يخطئها. أمعن النظر معي في هذه العبارات:

كان نفر من الجيش، والجيش وحده، هو الذي يحمي حمى الفاروق.

وكان نفر من الجيش، والجيش وحده، هو الذي يأكل على مائدة ولي عهده الطفل، والقاهرة تحترق.

وإنك لتعرف بعضهم... ولبعضهم عليك فضل.

إن شعبنا شعب فاضل ذكي... يعرف مقاييس الرجال، ويميز الخبيث من الطيب.

يكفي العلماء العاملين شرفًا وفخرًا أن أحكم الحاكمين زكاهم و..

ويكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر «**العلماء ورثة الأنبياء**».

إن هنا لقذائف دونها صواريخ سام وهي تطارد فرائسها بقيادة الرادار.

*** وباء الطغيان:**

ولعمر اللَّه لا أستطيع أن أتصور مدى خيانة الأمة لأمانة اللَّه، لو لم يقيض لها من يحمل عنها عبء التصدي لذلك الطغيان الجارف، فيقول لأصحابه مثل هذه الكلمات التي من شأنها أن تنهنه من سكرة الغرور، وتقيم على المغرورين حجة اللَّه!..

إن الطغيان السياسي كالوباء الزاحف، يبدأ صغيرًا محدودًا، فإذا حوصر بالمحصنات الرادعات تقلص وتلاشى، أما إذا أهمل شأنه وفسح له سبيل التكاثر لم يقف أثره عند حد، ومضى يدمر كل شيء يصادفه، ثم لا يلبث أن تتغلغل عدواه إلى ما حوله ثم ما بعده إلى غير نهاية... وهذا ما حدث للطغيان الكمالي، يوم أقدم الدونمي أتاتورك على تقويض الخلافة ولم يجد قوة تردعه، ولما اطمأن إلى سلامة الطريق انطلق يهدم كل قائم في بناء الإسلام، حتى كاد يأتي عليه من القواعد في تركية المسلمة... ولم يقف شره عند حدود تركية، بل أخذ يتدفق إلى كل مكان من بلاد الإسلام يجد فيه استجابة من المضلِّين والمضلَّين، وليست هذه الفتن ترسل شرورها هنا

وهناك في ربوع الإسلام سوى بعض آثار السكوت على عدوان ذلك الطاغية الدونمي على حرمات الإسلام، وما أظن مؤرخًا حصيفًا يدقق النظر في العلاقة بين هذه الانفجارات الهدامة في ديار المسلمين إلا واجدًا ارتباطها الوثيق بتلك المحنة الكبرى، محنة تقويض الخلافة والعدوان على معالم الإسلام في دولة الخلافة. وهكذا تسري عدوى الوباء، وباء الانتقاض على نظام الإسلام من ثورة إلى ثورة، ومن بلد إلى بلد. وليس مقتل علماء الإسلام حرقًا وهم أحياء في مقديشو بأيدي عصابة الماركسيين في الصومال عام ١٣٩٤هـ إلا واحدة من ثمرات الطغيان الذي ساد أكبر بلد عربي، فمهد ولايزال يمهد الطريق لكل محنة يتعرض لها الإسلام وأهله في الشرق العربي وما حوله. ومن هنا كان لهذه القلة من أحرار مصر الذين نصروا الله بأقلامهم في حدود طاقتهم، فضل الرائد الذي يتقدم القافلة نحو الطريق القويم، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً.

*** نكسات الزيات:**

ثم إن هذه المواجهة بين الرئيس والشيخ لم تكن الوحيدة والأخيرة، وإن كانت أبرز المواجهات وأصرحها، فكل مقالة كتبها بعد تكشف حقيقة المتسلطين، كانت سهامًا مسددة إليهم، وإن لم تذكرهم بأسمائهم؛ لأنه لم يخط سطرًا منها إلا في نصرة الإسلام، وكل انتصار لهذا الدين إنما هو هجوم غير مباشر على أعدائه الهدامين.

ولعل غضب الشيخ على الأستاذ أحمد حسن الزيات ـ في عدد ربيع الأول عام ١٣٨٣ من مجلة الاعتصام ـ لا تنزل عن هذا المستوى الذي طالعناه في حواره للرئيس، بل إنها لامتداد لمضامينه؛ لأنها منصبة على سياسة الرئيس نفسها.

لقد ناء عاتق الأستاذ الزيات تحت أعباء الشيخوخة، فنسي ما ملأ به

رسالته الطيبة الذكر من دعوة إلى الخير والفضائل والدين، بل نسي ما رزأه الحكم من ثروة لا تقدر بمال حين انتزع منه تلك المجلة، التي استمرت سنين طويلة مطمح أبصار الأحرار من عشاق البلاغة والأخلاق... وكان ذلك، ويا للأسف، منذ أقامه ذلك الحكم رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر.

أجل، لقد نسي الزيات الشيخ مآثر الزيات الكهل، فسلك إلى مرضاة المتسلطين كل سبيل، حتى لم يتورع أن يتخلى لهم عن دينه، فيصف الوحدة التي ارتجلت ما بين مصر وسورية بأنها خير وأبقى من الوحدة التي بناها محمد رسول اللَّه ﷺ... فكان على كل حر أن يضج من الشتيمة، ويتصدى لهذا الخرف المنحرف ليرده إلى الجادة.

وما كان مثل هذا الحدث ليفوت قلم الشيخ محمود، الذي هو أبدًا بالمرصاد لكل متعرض لمعقل الإسلام. وهكذا انطلق يفند ترهات الزيات، ويجلو لعينيه الحق الذي عميتا عنه.

وطبيعي أن الموقف من الحساسية بحيث لا يمكّن من الفصل بين تجديف الخرف المتزلف وسياسة الرئيس المتزلف إليه؛ لأن الموضوع قائم على المقارنة بين سياسة نبوية مخططة من فوق سبع سموات، وسياسة مرسومة في موسكو وواشنطن، ومدعومة بالمهرجين والهتافين والمرتزقة ممن لا يعرفون من حقائق الوحي نقيرًا ولا قطميرًا.

ولم يكن الشيخ بجاهل ما يُعرِّض له نفسه من عواقب هذا المواقف، بل لا مندوحة له من أن يوطن نفسه لمواجهة أسوأ الاحتمالات.

*** نصان منافقان:**

القنابل التي أطلقها الشيخ في وجه الزيات كثيرة وهائلة ومحرقة، ولايغني الاجتزاء ببعض منها عن بعض... وقد أعاد نشرها كاملة في كتابه الأخير «الحق» فليراجعها القارئ هناك إذا شاء. أما هنا فنكتفي من المعركة

التي استغرقت خمسًا وأربعين صفحة من الكتاب، بالفقرات التالية التي يكشف بها الشيخ عن غريزة النفاق في أعماق الزيات.

في أخريات أيام فاروق وبالضبط في ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢م كتب الزيات في العدد ٩ من مجلة الأزهر ما نصه:

«بسم اللَّه جل اسمه، وعز حكمه... منزل كتابه هدى، ومرسل رسوله رحمة، وبهدي صاحب الرسالة محمد صلوات اللَّه عليه... لسان الوحي، ومنهاج الشرع، ومعجزة البلاغة... وبعطف صاحب الجلالة الفاروق... ناصر الإسلام، ومؤيد العروبة، وحامي الأزهر، أعز اللَّه نصره، وجمل بالعلوم والآداب عصره...».

يقول الشيخ: هذا نص ما افتتح به الأديب مجلة الأزهر قبل طرد فاروق بشهرين... فننشر إلى جانبه ما افتتح به عدد يوليو من مجلة الأزهر سنة ١٩٦٠م وهو يشيع فاروق نفسه:

«كان ملكًا على مصر قبل يوم ٢٣ يوليو، وكان آية من آيات إبليس في الجرأة على دين اللَّه، وعلى حرم الناس... بلغ من جرأته على اللَّه أنه كان ـ كما حدثني أحد بطانته ـ إذا اضطرته رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة خرج إليها من المضجع الحرام فصلاها من غير غسل ولا وضوء، وأداها من غير فاتحة ولا تشهد، وكان يقول: إن أخوف ما أخافه أن يغلبني الضحك وأنا أتابع الإمام في هذه الحركات العجيبة!... وبلغ من جرأته على المحرمات أنه كان يغتصب الزوجة ويقتل الزوج ويسرق الدولة ويسفه الحق، ويأخذ الرشا... ثم أملى له الغرور فتبجح وتوقح وطغى...».

وما أحسب ردًا على مثل مفتريات الزيات أقتل ولا أصمى من المقارنة بين هذين النصين من كتابات الزيات في التملق للطاغيتين... أما لماذا كل هذا النفاق... فيقول الشيخ: لقد عاش الزيات هكذا طوال حياته، يكتب ما

يروج، وينشر ما يجلب له النعمة والعافية... وحسبه أنه ظفر في عهد فاروق بلقب «صاحب العزة» وظفر في هذا العهد بأكرم «جائزة»... وقد أصاب الأستاذ أحمد حسين في كلامه عن موقف المترجم من نفاق الزيات إذ قال: «وقاد الشيخ الحملة، وكتب كتابة من نار تحرق الكافرين... لم يجامل ولم يلاين وإنما وصل إلى حد الهجوم السافر والتحدي لرئيس الدولة نفسه».

*** ونصان مؤمنان:**

وقد سبق أن عرضنا لبعض ما كتبه الشيخ في نقد الظلمة، ونسمح لأنفسنا أن نعرض هنا أيضًا أنموذجين آخرين مما كتبه في كلا العهدين لنرى الفرق بين ما يكتبه أهل الإيمان لوجه الحق، والمتاجرين بالأقلام ابتغاء الرزق.

من مقال نشره الشيخ في عدد «الاعتصام» لشهر إبريل قبل خروج فاروق يقول في وصف واقع المسلمين: «ملوكهم وحكامهم معنيون بمناصبهم، همهم أن تسلم لهم، ولو على أيدي الغاصبين، يسالمون عداهم، ويذلون رعاياهم، يجمعون المال من دم الفلاحين وعرق الكادحين، لينفقوه على ملذاتهم، ويبعثروه على شهواتهم، طورًا ينثرونه على موائد القمار ودور اللهو وكئوس الشراب، وحينًا يبذلونه في مخاصرة النساء، وسماع الغناء، وما تتطلبه الليالي الحمراء... والويل شر الويل لمن تسول له نفسه أن ينكر عليهم، أو يزجي النصح إليهم، فجزاؤه السجن، وإن شئت فقل الإعدام».

وفي «الاعتصام» نفسها يعقب على خطاب الرئيس عبدالناصر الذي ألقاه في الذكرى التاسعة للثورة، وقد جمع الكثير من الغث والسمين، والوعد والوعيد.

يقول الشيخ: «في خطاب الرئيس... فقرات تسترعي النظر، وتثير الانتباه... فقرات تتسم بالصراحة التي تدعو إلى الإعجاب والإكبار... فقرات ينبغي أن نقف عندها، ونتأمل فيها، فهي جديرة بالتفكير

والتقدير. . ».

وبعد أن يعرض الشيخ لبعض مآثر الإسلام في العدالة تذكيراً له بما غاب عنه، يتابع: «تلك صورة جميلة تجعلنا ننكر باسم الإسلام يا سيادة الرئيس هذه الأموال الباهظة التي تنفق في غير موضعها، هذه المكافآت السخية التي تصرف من مال الدولة على الممثلين والممثلات، والراقصين والراقصات، والمغنين والمغنيات. . . قلتَ يا سيادة الرئيس إنك تريد أن تطهر المجتمع من عوامل الحقد والأنانية والفساد والبغضاء. . . ومقتضى هذا المنطق أن تقلم أظافر أولئك المترفين، وتقص أجنحة هؤلاء الذين لا يزالون يعيشون في عالم المريخ، فيثيرون الحقد في نفوس المحرومين، إذ يطلون عليهم من قصور فخمة ويمرون عليهم في عربات ضخمة، تنطلق ـ من فرط السكر ـ بسرعة جنونية تكاد تعصف بهم وتودي بحياتهم».

أجل. . . إنهما نصان يرسمان الصورة المثلى لحملة الأقلام النظيفة التي تتوقع حساب اللَّه على كل نبسة تقولها أو تكتبها، وبهذه الأقلام تفخر الأمم، وتسمو الهمم، وشتان بين هولاء المؤمنين، وأولئك المذبذبين، الذي يصورهم قول الحريري على لسان أحدهم:

أنا الذي تعرفه يا حارثُ حدث ملوك فكهُ مناقثُ
أعمل ما لا تعمل المثالث طوراً أخو جِدٍّ وطوراً عابث
ومخلبي في كل صيد ضابث

وما كان أحوج صاحب «مجتمع الكفاية والعدل. . .» أن يسمع مثل هذا النقد الحار يذكره بواقع (مجتمعه) على لسان القليلين أمثال محمود فايد. . . جزاهم اللَّه عن المظلومين والمحرومين والمضطهدين خير ما يستحقه الأحرار والمجاهدون.

* بعد النكبة :

والحديث عن الأحداث التي عاركها الشيخ سيظل أبتر ما لم يتناول بعض مواقفه التي أعقبت نكبة عام ١٩٦٧م.

كانت تلك الهزيمة مبدأ تحول جديد في حياة مصر، فعلى الرغم من كل التظاهرات التي اصطنعتها مراكز القوى في القاهرة وبيروت وغيرهما، لاستبقاء الرئيس المحطم في مركز القيادة... لم تستطع منع الألسن من الكلام في هذا الموضوع، فانطلقت تعبر عن سخطها على المسئولين عن الكارثة، وتعلن نقدها للعهد كله. وتحركت المراكز الثقافية للإسهام في تحديد التبعات، واستعراض الوسائل الفضلى لمعالجة الواقع الرهيب. وفي إحدى المناسبات المتصلة بموضوع الساعة دعي الشيخ للمحاضرة في جامعة القاهرة وجمعية المحافظة على القرآن، وبصراحته المألوفة مضى في تحديد أبعاد الهزيمة، وتعيين مسئولية الرئيس (...) عنها. ولم يرق ذلك بقية مراكز القوة، التي ما تزال تحيط بالرئيس لدفع النقمة عن نفسها، بوصفها الشريك الأكبر في هذه المسئولية.. فوجدت من مصلحتها تجميد نشاط الشيخ. وهكذا صدر القرار بإحالته إلى الاستيداع، وقد قام بتبليغه ذلك القرار وكيل الأزهر، الذي سارع إلى استخدام الهاتف في ذلك التبليغ، بسبب عطلة يوم رأس السنة الهجرية، وتم تبليغ معهد القاهرة ـ الذي يعمل فيه الشيخ ـ بذلك القرار هاتفيًا أيضًا.

وكان ذلك بمثابة إنذار للشيخ بأنه تحت المراقبة السياسية. وهكذا لزم منزله في رعاية المخابرات التي جعلت ترصد كل حركة منه.

يقول الشيخ: لقد كانت هذه العزلة فرصة ربانية تفرغت فيها لتحقيق بعض الكتب وإنجاز بعض المؤلفات، مما عاد عليه برزق أوسع بكثير من الذي قطع عنه.

وقدم لزيارته أثناء هذه الخلوة المرصودة وكيل الأزهر يومئذ، وشيخه الأكبر هذه الأيام، الدكتور عبدالحليم محمود، ومعه مستشار رئيس الجمهورية الفريق عبدالرحمن أمين، والوزير العراقي السابق اللواء محمود شيث خطاب. وتذاكروا فيما بينهم في وضع الشيخ، ثم اقترحوا عليه أن يقدم التماسًا بالعودة، فامتنع وأصر.

ويروي الفريق عبدالرحمن أمين بمحضر من إدارة الجمعية الشرعية أن الرئيس سأله بعيد صلاة عيد الفطر: «ألا يزال محمود فايد عضوًا في الجمعية الشرعية؟» فيجيب بالإيجاب، ثم يذكر الشيخ بخير، فما كان من سيادة الرئيس إلا أن أشاح بوجهه استنكارًا لذلك الإطراء، ثم سارع إلى مغادرة المسجد وهو يقول متهكمًا: كلهم كذابون وأنت الصادق!».

ولا حاجة إلى التساؤل عن هؤلاء الكذابين الذين تشير إليهم عبارة الرئيس... إنهم بطانة السوء الذين يتوقف بقاؤهم في مراكز التأثير على استبعاد كل عنصر يتوسمون فيه أي ظاهرة من الخير أو الدعوة إلى الخير... وهو واقع يؤكد ما ذهبنا إليه في تعقيبنا على اعترافات توفيق الحكيم التي نشرها بعنوان «عودة الوعي» فناقشناها بالمقال الذي نشرته مجلة «المجتمع» الكويتية تحت عنوان «طغيان فرد أم طغيان عهد».

*** أين المعتبرون:**

وهناك حادثة يحسن ألا يفوتنا ذكرها هنا، ويصفها الشيخ بأنها من الوقائع العجيبة التي مرت به، ذلك أن دولة شيوعية ـ لم يسمها ـ بعثت بفرقة راقصة للترفيه عن المصريين في رمضان ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م ورأى المنحرفون أن يعدّ لها مكان في ميدان الجيش لتحيي الخامس والعشرين من رمضان.

وفي حفل عام أقامته الجمعية الشرعية في ذكرى بدر تكلم الشيخ فايد

حول هذه الصفاقة فكان مما قاله: «أخزى اللَّه هؤلاء السفهاء... لقد بلغ بهم السخف أن يحيوا رمضان بالمنكرات... وفي أي مكان؟... في ميدان الحسين بين مسجده وبين إدارة الأزهر ومشيخة الطرق الصوفية!... يا لها من إهانة متعمدة توجه لعمَّار هذه المؤسسات الإسلامية!... يا لها من إهانة توجه إلى شهر القرآن!...».

وكان أحد المسئولين حاضرًا ذلك الحفل فأبلغ النبأ السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية فأصدر أمره بمنع الفرقة من تنفيذ ذلك المنكر.

وقد أثبتنا خبر هذه الرقاعة لما تحمله من خصائص العقلية المادية، التي لا ترى أقدر من الفجور على تحطيم الهمم... وقد أصبحت طابع الجيل الضائع الذي غسل قلبه من معاني القيم الإسلامية، فلا ينظر ولا يسمع ولا يحس إلا من خلال جوارح الكافرين... وقد ذكرنا في أحد كتبنا الأربعين ألف صورة من رسوم الراقصات والمغنيات التي وزعت... قبيل «الزحف لتحرير فلسطين» عام ١٩٦٧م...!، ووعدت الجريدة المصرية ناشرة الخبر أن هناك مئة وستين ألف صورة أخرى لبقية الرقعاء ستوزع على أولئك المحاربين في خنادق القتال!... ثم كانت النتيجة تلك الهزيمة التي مرغت بالهوان جباه العرب والمسلمين جميعًا إلا فرق المنتفعين.

وما أدري لماذا تذكرني هذه السخافات بمنظر تينك الصورتين الأخريين، اللتين جاءني بهما ولدي أثناء حرب رمضان ١٣٩٣هـ على صفحات إحدى الصحف المصرية، وهما تعرضان طيارين مصريين، وقد هما بدخول الطائرة، وبدا جليًّا على خوذة كل منهما «لا إله إلا اللَّه».

إن جيش فريد الأطرش وعبدالوهاب وأم كلثوم وعبدالحليم حافظ وتحية كاريوكا لم يسجل في حربه تلك سوى مآثر الانهيار الذي وزعه خلال ساعات بين أسير في قيود اليهود، وشريد على رمال البيد.

أما جيش «لا إله إلا اللَّه» فقد مسح العار ـ خلال ساعات ـ عن جباه كل العرب والمسلمين بفضل اللَّه رب العالمين.

ولكن... أين الذين يفقهون ويعتبرون!

*** فيتو ثوري:**

ولا يفوتنا أن نذكر من الأعمال الأخرى التي شغل بها عن مهنته الأساسية في مصر، تعيينه رائدًا دينيًّا لمدينة البعوث، فكانت فرصة طيبة لروابط حية توثقت بينه وبين الطلاب الوافدين إلى الأزهر من أنحاء العالم الإسلامي، وأذكر أني التقيت ذات يوم خريجًا سوريًّا منهم، ولما استوضحته عن أقوى مشايخه أثرًا في نفسه لم يتردد في تسمية الشيخ محمود فايد. ولم يكن هذا الخريج ليعلم أن الشيخ زميل لي عزيز في الجامعة الإسلامية.

ولقد رضي ولاة الأمر في الأزهر عن نشاط الشيخ في عمله الجديد، ولم يحجبوا عنه تقديرهم، إلا أن السياسة لم تلبث أن أبدت قلقها من ذلك النشاط، وطلبت من وكيل الأزهر تنحيته. وبعد مطال طويل اضطر الوكيل إلى مصارحة الشيخ بالفيتو الذي أُشهر عليه، فلم يسع الشيخ إلا قبول الواقع، فقدم استقالته لفوره.

ولعل أكرم تعزية نالها الشيخ إثر استبعاده عن تلك الريادة خطاب وكيل الأزهر يومذاك ـ الدكتور محمد ماضي ـ الذي يقول له فيه: «لا يسعني بهذه المناسبة إلا أن أقدم لكم شكر الأزهر وتقديره لجهودكم المثمرة التي بذلتموها لصالح طلاب البعوث الإسلامية ولصالح رسالة الأزهر، وهي رسالة الإسلام، في الفترة التي قمتم فيها بأعباء هذه المهمة... كما نخطر فضيلتكم بأننا قد قررنا أن توضع صورة من خطابنا هذا في ملف خدمتكم...».

ولا جرم أنها لفتة كريمة من الدكتور ماضي تنم عن ارتفاعه فوق أهواء السياسة.

*** في مجلس الشعب:**

ونختم هذه الطائفة من صور النشاط الذي عرف عن المترجَم بالإشارة إلى تلك الصراحة المدوية التي أرسلها في مجلس الشعب المصري صيف العام ١٣٩٣هـ.

لقد دعي يومئذ للمشاركة في البحوث المثارة حول الأوضاع الجديدة بمصر، وفي إحدى الجلسات الحافلة ألقى الشيخ كلمته التي استغرقت عدة صفحات، صرح فيها بكل ما يراه، وأكد على وجوب مناجزة إسرائيل قبل أن تستكمل قدراتها المرسومة، التي يستحيل معها على العرب مواجهتها عسكريًّا.

وكأن القدر كان يجري على لسان الشيخ ما يدور في رءوس المخططين لحرب رمضان، التي ما لبثت أن شبت فاكتسحت، بمعونة اللَّه، خط بارليف. وقد نوه الأستاذ محمود أبو وافية بكلمة الشيخ تلك في مقال نشرته الأهرام يوم ٧٤/٢/٥ وقال في زيارة عجلي للمدينة المنورة: إن الرئيس السادات، اطلع على كلمة الشيخ فأيدها في حينها وعلق عليها بقوله: «هذه أصرح كلمة»[1] اهـ.

*** مع الأسد الشيخ محمود عبدالوهاب فايد ـ رحمه اللَّه ـ:**

يقول الشيخ محمود عبدالوهاب فايد ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه القيم «صيحة الحق»: «النصيحة هي قوام الإسلام ودعامته، عليها يعتمد، وإليها يستند وبها يسود وينتشر وحين يكون النصح خالصًا للَّه، ومستوعبًا للكبير والصغير، والحاكم والمحكوم، وكل أفراد الأمة على اختلاف درجاتهم، وأوضاعهم وحالاتهم، يكون مثمرًا ومفيدًا، يحقق الخير والصلاح والسعادة،

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» لمحمد المجذوب (١/٣٥٦ ـ ٣٧٣).

والهداية والتماسك والقوة والوئام والانسجام ويقي الأمة والدولة كل منافذ الشر والفساد والشقاوة والغواية والتحلل والضعف.

إن الإسلام لا يريد من المسلم أن يكون صالحًا فقط، بل يريد منه أن يكون صالحًا ومصلحًا، وبهذا ينجو من الخسران. وقد قال تعالى في سورة قصيرة يقول عنها الإمام الشافعي رضي الله عنه: «إن في القرآن سورة لو عمل بها الناس لكفتهم، فيه سورة العصر».

وصدق الإمام فيما قال: فهذه السورة على قصرها، تبين أن نجاة الإنسان من الخسران تتطلب الإيمان بكل ما أوجب اللَّه الإيمان به، وتتطلب العمل الصالح بكل أنواعه، وتتطلب أيضًا التواصي بالحق والتواصي بالصبر، والتواصي تفاعل من جانبين فهو يوصي ويوصى وهذا يدفع عن الإنسان الغرور، فلا يخدع نفسه بأن يحسب أنه دائمًا على صواب، ولا يتمادى في الخطيئة ويحسب أنه أكبر من أن ينصح، بل يفهمون جميعًا أنهم معرضون للخطأ والصواب، والطاعة والمعصية، وصدق رسول اللَّه ﷺ إذ يقول: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**» رواه الترمذي وابن ماجه.

والحق كلمة جامعة تشمل كل ألوان البر والخير، وكل ما أوجب اللَّه العمل به، وكل الحقوق التي قررها اللَّه في كتابه، وبينها الرسول ﷺ.

والسورة تدعو إلى التواصي بالصبر، فالصبر يحتاج إليه الدعاة بل هو ضروري لهم لا يمكن أن يستمروا أو ينجحوا بدونه، فعلى الدعاة إلى اللَّه أن يتوقعوا الشر من أهل الشر، والأذى من أهل الأذى فلا بد أن يتسلحوا بالصبر كما تسلح به الرسول والمصلحون من قبل، لهذا قرن اللَّه الأمر بالدعوة بالأمر بالصبر كما هنا في هذه السورة، وكما جاء في وصايا لقمان ﴿**وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ**﴾ [لقمان: ١٧]. وقد اشتهر بين الناس «اللي يقول الحق يندق».

لقد أنزل اللَّه الكتب وأرسل الرسل، وأخذ العهد على العلماء أن يبينوا للناس وحذرهم من التقصير فتحل بهم لعنة اللَّه قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩][1].

*** ومن مواقف الشيخ المبارك ـ رحمه اللَّه ـ نسوق هذه المواقف لآلئ ودرر في جبين الأيام:**

١ ـ مع السادات: ـ «التعصب للدين أولى وأجدى من التعصب للوطن»:

في صحيفة الجمهورية الصادرة يوم الجمعة ١٢ محرم سنة ١٣٧٤هـ العدد (٧٣) عنوان كُتب بالخط العريض (أنور السادات يقول: التعصب الديني لا يقبله الخلق ولا الدين، فلنتعصّب من أجل وطننا فقط) وتحت هذا العنوان تحدثت الجريدة عن السيد أنور السادات فقالت إنه وزير الدولة وسكرتير المؤتمر الإسلامي فرد عليه الشيخ محمود فايد على الفور في مقال نُشر جاء فيه: «لقد قال السيد أنور السادات «التعصب الديني لا يقبله الدين» فمْن أين له هذا يا تُرى؟ وأي دليل عليه من الكتاب أو السنة أو الأدلة المعتبرة. لست أدري أعنده دليل في ذلك أم هو البعث الجديد[2] الذي جاء به المبعوث الجديد؟!!!

إننا نحن في شهر المحرم وذكرى الهجرة ماثلة في أذهاننا ومنها نعلم أن الرسول ﷺ فارق وطنه الحبيب إليه لكنه ظل مستمسكًا بدينه متعصبًا له يدعو إليه ويتحمل الأذى في سبيله حتى عاد فاتحًا لبلاده باسم الدعوة الإسلامية لا باسم الفكرة الوطنية وأعتقد أن أسلافنا الأوائل الذين فتحوا

(١) «صيحة الحق» ص(٨ ـ ٩) ـ الناشر دار القلم والكتاب.

(٢) كان أنور السادات يكتب مقالاته تحت عنوان «بعث جديد».

العالم وبلّغوا رسالة الإسلام السمحة لم يكن يخطر لهم ببال هذا الحدث العجيب»[1].

وقال: «وإذا كان السيد أنور يخاف على وحدة الأمة المصرية من أن تصاب بأذى أو تمسّ بسوء فمن الواجب أيضًا أن يخشى على وحدة الأمة الإسلامية من أن تصاب بأذى وتمس بسوء ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

❑ إن التعصب يا سيد أنور مطلوب للدين، وحسبك أن تقرأ قول اللّه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وهنا حقيقة يجب أن تُعلم هي أن المسلمين لا يدينون بفكرة الوطن القائم على الحدود الجغرافية ولكن يدينون بفكرة الوطن القائم على العقيدة الإسلامية.

❑ الإسلام يا سكرتير المجلس الإسلامي دين واقعي يسع في أرضه المخالفين له ويضمن لهم في جواره حياة كريمة لا ظلم فيها ولا ضيم، ثم نقل بالنص قول الشيخ رشيد رضا من المجلد الثامن من «المنار» ص(٨٨):ـ «إنما البدع الغريب والأمر العجيب الذي لم يُعرف له نظير في أمة من الأمم هو ما نراه في هذا العصر من تصدى أناس لدعوى نصر الدين والزعامة فيه وحفظه على أهله وهم لم يقرءوا كتابه ولو قرءوه ما فهموه، ولم يتلقوا سنته ولو سمعوها لما وعوها، ولم ينظروا في عقائده ولو نظروا فيها لما عقلوها،

(١) «صيحة الحق» ص(١٥).

ولم يعرفوا معظم أحكامه وما يعرفونه منها لا يعملون به، أعجب من هذا وأغرب أنهم بلغوا من الوقاحة والتهجم أن صاروا يعارضون حملة القرآن وأنصار السنة وعرفاء الشريعة وحجج العقائد وحكماء الأحكام ويجادلونهم في اللَّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، وقد حلّوا رابطة الدين ودعوا إلى رابطة أخرى يسمونها «الوطنية» يفرّقون بها بين المؤمنين، وقد جرّأهم على ذلك كله جهل العامة، وقلّة الذين يميّزون بين العلماء العاملين والأدعياء الجاهلين، ولو كان هؤلاء على شيء من الإيمان لاستحوا من اللَّه تعالى أن يدعوا هذه الدعاوى التي يكذبهم بها كتابه، كما تكذبهم سيرة السابقين الأولين، لكنهم لا همّ لهم إلا العامة التي يبغون عندها الرزق والاستعلاء في الأرض، وهم في مأمن من فهمها معنى الإيمان وصفات أهله لأنهم يحولون بينها وبين كل من يوجه وجهها إلى كتاب اللَّه تعالى الهادي إلى ذلك»اهـ. كلام الشيخ رشيد رضا.

❑ ومن كلام الشيخ محمود فايد في هذا المقال لأنور السادات:

«كيف تطلب منا أن نتعصّب للطين ولا نتعصب للدين؟! كيف تطلب منا أن نتعصب لدعوة الأرض ولا نتعصب لدعوة السماء؟! كيف تطلب منا أن نتعصب لوحي الشيطان ولا نتعصب لوحي الرحمن؟!

ألا فاسمعها كلمة مدوية أشهد اللَّه عليها وملائكته ومن بلغه هذا المقال... اسمعها كلمة مدوية أدخرها عند اللَّه، عسى أن أنال بركتها عند الموت وفي حنايا القبر ويوم البعث واللقاء...

اسمعها وليسمعها كل مسلم... تعصّبوا لدينكم وتمسّكوا به كل التمسك، وبلغوه للناس ما وسعكم البلاغ.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤ ـ ٢٧].

* الانتصار للإسلام:

❑ يقول الشيخ محمود فايد: «بعد كتابة هذا الرد على السيد أنور السادات استدعاني لمقابلته وعرض عليّ أن أكون أحد محرري جريدة الجمهورية فرفضت في حوار لا داعي لذكره، ثم بعد ذلك عثرت على خطبة للإمام المراغي، ولعلّ أصرح ما قيل في التعصب للإسلام هو ما جاء على لسان الإمام محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، فقد قال من فوق منبر الأزهر في خطبة رسمية نشرتها الصحف وزيّنت به جيدها مجلة الأزهر المجلد التاسع ص(٨٠٧) وفيها يقول بالحرف ما نصه: «المسلم الذي لا يعترف بأن الدين حق كله وخير كله ويقول: إن بعض قواعده ضارة بالمجتمع أو ضارة بالمدنية أو السياسة مسلم مرتد عن دين اللَّه لا يقبل اللَّه منه صلاة ولا صومًا. وهذا حكم اللَّه أجاهر به من هذا المعهد ليكون المسلم على ذكر منه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] إضعاف سلطان الدين على النفوس، والتفريق بين قواعده، وانتزاع سلطانه على الحياة الاجتماعية يضعف نفس المسلم، ويُبعده عن دينه، ويضعف خُلُقه، ويجعله أهلاً للذلة والاستكانة، والمؤمن محكوم

له بالعزة من اللَّه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

أولئك الذين يحاولون إبعاد الدين عن الحياة الاجتماعية، ويحاولون إخفاء شعائره ومظاهره هم في الواقع أعداء للإسلام، لكن هؤلاء الأعداء مهرة في الدعوة إلى دينهم كما أنهم مهرة في السياسة ظلوا خلف الستر وقدّموا تلاميذهم من المسلمين، وفتلوا لهم في الذروة والغارب واستعانوا بإبليس وجنده، وسوسوا لهم ونفخوا في خياشيمهم وقالوا لهم: هل ندلكم على شجرة الخلد ومُلك لا يبلي، كونوا أبطال المدنية وقادة الإصلاح في الأمم، لكن ذلك لا يكون إلا إذا جاهرتم بأن الدين غير صالح للمدنية، وأن نظمه بعيدة عن الإصلاح الاجتماعي، وأن الأمم المتمدينة لا تحترم من يستمسك بالدين فجاهَرُوا بهذا دون استحياء، وما أولئك المساكين إلا مطايا ذُلِّلتْ وسُخِّرت ورُوِّضت، وما أصواتهم إلا صدى لمعلّميهم ومروّضيهم وفاتنيهم. هؤلاء إما غير مسلم يدعو إلى دينه عن طريق الخديعة والمكر أو مسلم مرتد أو ملحد، واللَّه لا يرضى عن هؤلاء جميعهم، فإما أن تُرْضوهم وتُغضبوا اللَّه وإما أن تُغضبوهم وتُرضوا اللَّه»، ثم قال فضيلته: «أيها المسلمون كونوا كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. ولا تخشوْا أحدًا في إظهار شعائر الإسلام والانتصار للإسلام فاللَّه هو الأحق بالخشية وحده، والمسلم المتعصب لدينه مفيد للجماعة الإنسانية بخُلُقه وقوة إيمانه وهو سلم لإخوانه في الوطن، ولكل من له معهم عهد، فهو محرم عليه أن يعتدي على هؤلاء في أنفسهم أو أعراضهم أو أموالهم، لكنه مع هذا شديد الاحتفاظ بقوميته وعزته وحقوقه يأبى الضيم ولا يطيق الذل» اهـ. هذا صوت الأزهر صدر منه ودوّى في جنبات العالم صريحًا فصيحًا»[1].

(١) «صيحة الحق» ص(١١ ـ ٢٧).

* **«لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين» قول يتجاهل حقيقة الإسلام:**

لما نظرت جريدة «الأخبار أول مارس ١٩٧٩م في مطلعها العنوان الكبير (الرئيس السادات يتحدث إلى أساتذة جامعة الإسكندرية ـ «لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين» ردّ عليه الشيخ محمود عبدالوهاب فايد في مجلة الاعتصام ربيع الآخر ١٣٩٩، ونشره في كتابه «صيحة الحق» ص(٣٤ ـ ٥٠).

❑ وقال فيما قال: «والآن نبدأ فيما أردنا الحديث فيه... قال رئيس الجمهورية: «لا دين في السياسة» ما معنى هذا؟ لقد حاولت أن أفهم هذه العبارة فاستعصى عليّ الفهم ـ هل يريد رئيس المجهورية ـ أن السياسة التي يريد أن ينتهجها سياسة بعيدة عن الدين لا شأن لها به، ولا ارتباط لها بتعاليمه وتتنافى معه... يعني سياسة لا دينية... إن كان يريد هذا فأنا أختلف معه كل الاختلاف... إن السياسة الصحيحة الناجحة لا تكون بمعزل عن القيم والأخلاق، والقيم والأخلاق أصلهما ومنبعهما من الدين.

قال رئيس الجمهورية: «لا سياسة في الدين».

أي دين يعنيه رئيس الجمهورية؟ إن كان يريد المسيحية فهذا صحيح... ولكن بالنسبة للديانة الإسلامية فإن الأمر يختلف كل الاختلاف... بل المسلمون جميعًا وعلى رأسهم علماؤهم قديمًا وحديثًا يؤمنون بأن الإسلام دين ودولة، هداية وسياسة، عقيدة وحكم، عبادة ومعاملة، تهذيب وأخلاق، قيم روحية وإنسانية ودولية، آمن بهذا المسلمون واستقر في أذهانهم، لم يجهله أحد من العوام، بل اعترف به خصوم الإسلام...»[1].

* * *

(١) «صيحة الحق» ص(٣٤ ـ ٥٠).

*** لا... للحزب اليساري: هذا هو واجب العلماء في توجيه النصح للحكام:**

لما قال السادات في افتتاح مجلس الشعب يوم ١٩ من ذي القعدة سنة ١٣٩٦ الموافق ١١ من نوفمبر سنة ١٩٧٦م: «استئنافًا للمسيرة التي عاهدت اللَّه والشعب عليها نحو الديمقراطية السليمة فقد اتخذت قرارًا... هذا القرار هو أن تتحول التنظيمات السياسية الثلاثة ابتداءً من اليوم إلى أحزاب» أي حزب يمين، وحزب يسار ماركسي، وحزب وسط... ونشر هذا في أهرام الجمعة ١٢/١١/١٩٧٦م صفحة ٢ عمود ٨ وصفحة ٩ عمود ١، ٥.

وقال أيضًا: لا تقوم الأحزاب على أسس دينية.

وقال: «إن الصراع بين الأحزاب أمر طبيعي ومن حق كل حزب أن يمارس حركته لكي يصل يومًا إلى تسلم الحكم».

وردّ عليه الشيخ محمود فايد في مقال جريء نشر في الاعتصام محرم ١٣٩٧ فقال: «﴿**هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ابراهيم: ٥٢].

ليس هناك أحد من الناس يتعالى على النصح أو يستغني عنه... وفي القرآن يقول اللَّه تعالى لداود وهو نبي معصوم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [ص: ٢٦].

ورسولنا العظيم ﷺ على الرغم مما ميّزه اللَّه به من نبوة، وما امتنّ به عليه من مواهب كان يشجع أصحابه على نصحه... ويوم وقف عمر رضي الله عنه مهددًا اليهودي الذي طالب النبي ﷺ بدَيْن له مغلظًا في طلبه صرخ النبي ﷺ في وجهه وقال: «**أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج... يا عمر**

تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن التقاضي».

وهكذا أكّد النبي ﷺ بالقول والفعل رغبته في النصح وأظهر حرصه عليه، وأبدى استعداده لتقبّله، ولو ساقه إليه أحد أتباعه الذين اهتدوا من قبل على يديه.

❑ والترابط بين الحاكم والمحكوم يوجب التناصح بينهما ليقوم الارتباط على أساس متين، وعلى دعائم من الإخلاص والوفاء والعدل والحق والخير والصفاء فيتولد الحب وينمو ويرسخ ويقوى.

وإذا كان اللَّه تعالى قد أوجب على الحاكم أن يعمل لصالح رعيته ويحفظها ويحميها فقد أوجب أيضًا على العالم أن يعمل للحفاظ على الحاكم والمحكوم معًا.

وليس هناك أخون من عالم أكرمه اللَّه بالعلم وفقّهه في الدين، ويرى أمته تتعرّض للخطر فلا يحاول دفعه، ويجاري هوى الحاكم ولا ينصح له، ويُقرّه على الخطأ تزلّفًا وتقربًا ويغلو في مدحه رغبًا ورهبًا، لقد أوجب اللَّه على العلماء أن ينصحوا، لا أن يمدحوا، وأن الواجب على العالم أن يقوم بمهمة النصح ابتغاء مرضات اللَّه، وحرصًا على الصالح العام، فإن هو سكت وأخفى ما يعتقد أنه في صالح الدولة والأمة إيثارًا للعافية أو رغبة في مغنم، إنْ سلك هذا المسلك كان آثمًا في حق نفسه ووطنه وأمته، واستحق غضب اللَّه والناس أجمعين.

❑ إن التقاعس عن نصح الحُكّام إعلانًا عن فرط الثقة فيهم، أو طمعًا في إنعامهم، أو خوفًا من انتقامهم، يؤدي بالأمة والوطن إلى الهلاك وسوء المصير، وقد رأينا بأعيننا نتيجه ذلك في مصر من عهد ليس ببعيد.

❑ رفض جمال عبدالناصر أن يناقش أو يراجع باسم الدين، ووضع المتحمِّسين للإسلام في السجون والمعتقلات، وأذاقهم ألوان البلاء وصنوف

العذاب.. ثم أعلن على الملأ استخفافه بعلماء الدين وعمائمهم فأرهبهم وأرهب الناصحين ونتيجة لذلك بدأ نجمه في الأفول وحظه في الذبول، وكان جزاؤه من اللَّه جزاء من حرم الأمة أمنها ورخاءها.

واستمر في خطته، وأرهب الذين من حوله، فكان يتخذ القرار صوابًا أو خطأً فيعرضه عليهم فلا يسمع منهم إلا الثناء العاطر والتأييد الحار ثم يذهب مختالاً إلى مجلس الأمة ليشنف سمعه بألحانه الموسيقية تصفيقًا وهتافًا، وليمتع طرفه بمشاهدة المتمايلين المعجبين حتى في أحلك الظروف رقصًا وطربًا، وكان من جرّاء ذلك أن ازدادت الأحوال سوءًا واستولت إسرائيل على جزء من أرض مصر وتركت له الباقي يحكمه مَهْدَدًا حيران يشاركه في حكمه الروس. ومن عجب أن تحتل إسرائيل في عهده وعمرها مماثل لعمر الثورة أضعاف مساحتها من أرض مصر فضلاً عما التهمته من أراضي العرب المجاورة، وأن تغنم آنئذ أعظم غُنم في أقصر وقت وبأقل ثمن في حين أن تعداد اليهود كلهم في إسرائيل لا يبلغ نصف تعداد القاهرة وحدها.

وانتهى عبدالناصر ولقي ربه.. ولكن بعد أن تسلّم اليهود منه أرض مصر وسلاحها ووصلوا إلى القناة.

انتهى عبدالناصر ولقي ربه، ولكن بعد أن أغرق بلاده في الديون، وتجرّع كئوس الذل من اليهود ومن الروس معًا، وبعد أن ترك لمن يتولى بعده تركة عفنة منتنة في كل المرافق والمجالات»[1].

❑ وقال أيضًا في هذه المقالة:

«أقول ما معنى تحويل التنظيمات إلى أحزاب، وألاّ تقوم الأحزاب على

(١) «صيحة الحق» ص(٥١ ـ ٥٣).

أُسس دينية ـ هل معناه أن الأحزاب الثلاثة المصرح بها أحزاب لا دينية، إذن فمن الواجب على فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبدالحليم محمود، وفضيلة وزير الأزهر الشيخ محمد متولي الشعراوي وأعضاء مجمع البحوث، ومدير الوعظ ورجاله أن يدرسوا هذه الحقيقة ويتباحثوا هذا الوضع الجديد ويُبصّروا الأمة بما يمكن أن ينتج عنه بالنسبة لدينها الرسمي المعتمد في الدستور، وإذا كان الشيوعيون يجتمعون ويتدارسون، ويكتبون في الصحف، ويقابلون المسئولين لبيان وجهات نظرهم فأولى بذلك علماء الإسلام الذين ائتمنهم اللَّه على دينه قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٧].

وإذا كان حزب الوسط الحاكم لا يقوم على أساس ديني، فما معنى حديث رجاله عن الدين أيام المعارك الانتخابية؟

هل معنى هذا أنهم يريدون أن تستروح الأمة نسيم الدين من النافذة لا أن يكون أساسًا يُبنى عليه المجتمع، فإذا أحسّ الحكام من الحزب بأن النسيم قد يتحول إلى عاصفة يُخشى على أشخاصهم منها بادروا بإغلاق النافذة، ومنعوا هذا التيار حفاظًا على أنفسهم وعلى صحتهم فهم يفتحون النافذة ويغلقونها حسب الظروف والأهواء.

□ إن الجو الإسلامي ـ وأقولها في أسًى ومرارة ـ لم تستمتع به الأمة استمتاعًا صحيحًا كاملاً حتى الآن، ولو استمتعت به لوجدت من يُحاسب المسئولين على كل صغيرة وكبيرة كما يقضي بذلك الإسلام، ولو أن الحكّام تربّى عندهم هذا الشعور، الشعور بمحاسبة المحكومين لهم لامتنعوا عن الإقدام على أية خطوة يفاجئون بها الأمة وتعرضها لكارثة يصعب تداركها. لقد نُكبت مصر بالانحلال والاحتلال وبديون باهظة جلبت لها الذل والعار والهوان يوم غابت عنها روح الإسلام، هذه الروح التي جعلت واحدًا من

الرعية يقول لحاكم المسلمين عمر الذي هابه العالم والذي حكم مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام بكل ما فيها من دول يقول مُقاطعًا له وهو يخطب، مُحاسبًا له على ثوب رآه عليه: «من أين لك هذا الثوب؟»،

لا أدري ونحن نُعبِّد الطريق لحزب اليسار الماركسي، ونضع أمامه سُلّم الحكم ليصعد عليه درجة درجة، لا أدري هل ذلك عن اقتناع منا بأن تسهيل ارتداد العدو عن أرضنا مرهون بتسهيل ارتدادنا عن ديننا؟ هل ذلك عن اقتناع منا بأن تيسير طرق التخلص من ديوننا مرهون بتيسير طرق التخلص من ديننا؟!

❑ والتصريح بقيام حزب يساري ماركسي ملحد يقوم بنشاط وصراع ليصل إلى الحكم متجاهلاً دين اللَّه بل معلنًا عليه حربه منكرٌ كبير، وشر مستطير يجب التحرر منه والنهي عنه؛ لأنه يحاد اللَّه ورسوله، ويؤدي إلى انقسام الأمة وإشعال نار الفتنة، ويُعرّض المسلمين لأن تُستباح دماؤهم وأموالهم وأعراضهم، وتستحل حرماتهم، وتُهان مقدساتهم، ويفتنوا في دينهم، ولنا في البلاد التي ابتليت بالماركسية وما حلّ بها من بلاء، وما أصابها على يدها من شقاء عظة مؤثرة، وعبرة بالغة.

انقض الماركسيون على المسلمين فجأة، ونكّلوا بهم وأجاعوهم وشرّدوهم، وأراقوا دماءهم، واستباحوا أعراضهم، ونهبوا ديارهم وأموالهم، وخرّبوا مساجدهم، ونشروا بينهم الإلحاد والفساد، وضيّقوا عليهم حتى كادوا ينقرضون.

تم هذا في القرم والتركستان، ثم كاد يتحقق ـ لولا لطف اللَّه في أندونيسيا والسودان، وأُبرم حبله، وأُحكمت عقدته، واستحكم خطره في عدن وفي الصومال.

هذه بعض نتائج الحكم الشيوعي، آثار مجرمة، وأعمال محرّمة، فهو

شرٌّ يؤدي إلى شر، وهو حرام وذريعة إلى الحرام. . حرام ظهارة وبطانة، سدى ولحمة، وسيلة وغاية، وما كان كذلك فإقراره حرام، ومهادنته حرام. . والتصريح به حرام وأشد حرمة، والسكوت على المنكر منكر فكيف بإباحته؟ إنني أسأل الذين يصرّحون به أهو خيرٌ فنقرّه أم شرٌّ فننكره؟!(١) .

❑ وقال أيضًا: «يا سيادة الرئيس: في دولة العلم والإيمان أُبيح للماركسية أن تخترق الحجاب وتقتحم الأبواب وواجب الحاكم المسلم صيانة عقائد المسلمين حتى لا تكون فتنة في الأرض.

وأُعيذ باللَّه رئيس الجمهورية أن يفتح علينا باب فتنة، وأن يرضى لأمتنا المسلمة أن تنقلب على أعقابها، وتنزل إلى الدرك الأسفل فتتلقى تعاليم ماركس بالترحاب وتزدري شريعة رب الأرباب قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٠ ـ ٢٢](٢) .

❑ وقبل ذلك ينقل بالحرف ما جاء في تفسير ابن كثير عند قول اللَّه تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(٣) .

---

(١) «صيحة الحق» ص(٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧).

(٢) المصدر السابق ص(٦٣، ٦٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٧٤) طبعة المنار، (٢/ ٦٧) طبعة الحلبي، (٣/ ٢٢) طبعة الشعب.

وكان الشيخ محمود فايد كما قال: «لقد وقفنا وحدنا ننكر آنئذ بكل قوة وحزم قيام حزب يساري في مصر بلد الإسلام والأزهر»[١].

رسالة ودية لرئيس الجمهورية المصرية

حول أهمية تطبيق الشريعة الإسلامية

سيادة الرئيس، لقد أقسمت باللَّه العظيم عقب توليك على احترام الدستور وصيانته ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٢] [الواقعة: ٧٦]. وقد نصت مادته الثانية على أن الإسلام دين الدولة، والشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع، وهذا يوجب عليك ألا تدخر وسعًا في سبيل تطبيق هذه المادة، وليس في الشريعة الإسلامية إلا ما يحقق الخير للراعي والرعية، وحسبنا أن نستمع إلى رسول اللَّه ﷺ وهو يشمل كل الناس على اختلاف أديانهم بعدله، وحذر من أن يمسهم ظلم في ظله، ويقول في حزم وحسم **«دعوة المظلوم وإن كان كافرًا ليس دونها حجاب»** أخرجه أحمد عن أنس «ترهيب» (٣/ ١٨٨).

سيادة الرئيس وفقك اللَّه حتى تبر بقسمك، وتكون بالالتزام والانضباط قدوة صالحة لشعبك، وأمدك بحاشية صالحة تذكرك إذا نسيت، وتعينك إذا ذكرت،

سيادة الرئيس، السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته،

أما بعد،

لقد جربت مصر جميع الأدوية والقوانين المستوردة والمحلية البعيدة عن

---

(١) «صيحة الحق» ص(٨١).

(٢) غفر اللَّه للشيخ.. القسم باللَّه عظيم أي عظيم ولكن على ماذا القسم.. نحافظ على ما يوافق ديننا.. وما يخالفه فيه ننبذه ولا نقبله.

شرع اللَّه، فما ازدادت إلا ضعفًا وهوانًا، فلم يعد جسمها العليل قادرًا على أن يتحمل مزيدًا من العلل والانتكاسات، وقد عبرت الأمة منذ وقت طويل وفي كل فرصة سنحت لها عن رغبتها في استعمال العلاج الرباني، والقانون الإلهي الذي يحميها من الانحراف والفساد والرذيلة، ويضمن لها الحرية والكرامة، والعزة والقوة، والسلام والأمان، والعدل والمساواة، والرخاء والاستقرار، والخير والفضيلة والتماسك والحب والألفة.

وكثيرًا ما استنجدت الأمة بالأزهر وإمامه الأكبر، وللذكرى نسوق بعض ما نشر في صحفنا عندما ألفت لجنة لإصدار دستور جديد سنة ١٩٧١م.

بعثت الأمة بوابل من البرقيات إلى شيخ الأزهر تستنجد به، ونكتفي بتسجيل هذه البرقية التي بعث بها فضيلته إلى رئيس لجنة الدستور. فهي غنية عن التعليق، ونصها بالحرف الواحد كما نشر في جميع الصحف يوم ٩ ربيع الآخر ١٣٩١هـ ـ ٢ يونيه ١٩٧١م:

«باسم الإسلام الذي جاء بأحكم دستور حقق عزة العرب ومجد الإنسانية، وباسم الشعب الذي أمطرنا وابلاً من البرقيات والخطابات يعبر عن رغبته الأكيدة المنبعثة من تدين المصريين منذ أقدم العصور، وباسمي، واسم جميع العلماء والعاملين بالأزهر الذين حفظوا تراث الإسلام ونشروا هدايته، باسم هؤلاء جميعًا نرجو ملحين في الرجاء أن ينص في الدستور على أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام الذي وسع الناس جميعًا بعدله وإنصافه وسماحته، وأن تستمد منه القوانين والتشريعات التي تنظم حياتنا».

نعم، لقد أبدت الأمة رغبتها صريحة مدوية في أن تصبغ حياتها، وتصاغ قوانينها بالصبغة والصياغة الإسلامية، وعادت الحكومة إلى الشعب من جديد تتعرف على رغبته فأكد لها الشعب بالإجماع حرصه على أن تكون الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي لجميع القوانين، وأذعنت الحكومة

لرأي الشعب فضمنت الدستور هذا النص، وألفت لجان متعددة لإعادة صوغ القوانين، وبادر الأزهر ـ آنئذ ـ بأداء واجبه، وقام بإنجازها، ثم حملها الإمام الأكبر الشيخ عبدالحليم محمود ـ رحمه اللَّه تعالى ـ وذهب إلى مجلس الشعب، وقال كلمته المأثورة المشهورة:

«لقد انتقلت المسئولية من عنق الأزهر إلى عنق ممثلي الشعب».

ومن هذا اليوم نلحظ تراخيًا في إصدار هذه القوانين، وتأجيلاً للنظر فيها وإقرارها من أسبوع إلى أسبوع، ومن شهر إلى شهر، ومن عام إلى عام حتى انتهت الدورة والقوانين مدرجة في المكاتب لا تجد من يطلقها من الإسار، أو ينفض عنها الغبار ونسي هؤلاء أن اللَّه واحد قهار لا يفلت من قبضته معارض لشرعه، أو معوق[1] لتنفيذ حكمه، وصدق اللَّه العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥].

* وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٥٩-٦٣].

---

(١) كان على رأس المعوّقين الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب السابق.

* وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧ - ٥١].

❑ قال عميد كلية حقوق جامعة أثينا في مؤتمر الحقوقيين:

«إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ، إذ أنه استطاع رغم أميته أن يأتي للعالم بتشريع سنكون نحن الغربيين أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة».

❑ وقال أدموند يورك:

«القانون المحمدي قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه، وهو قانون نسج بأحكم نظام حقوقي وأعظم قضاء علمي وأعظم تشريع عادل لم يسبق قط للعالم إيجاد مثيله».

هذه شهادات تشهد بفضل الشريعة الإسلامية، وتنوه بأثرها البليغ في إصلاح الأمة والدولة.

شهد الأنام بفضلها حتى العدا والفضل ما شهدت به الأعداء

يا سيادة الرئيس،

هل يجوز بعد هذا أن نعارض اللَّه، ونتراخى في تنفيذ شرعه، أو نعمل على تعطيل أحكامه، أو نؤثر حكم الإنسان على حكم الرحمن؟!

هل يجوز بعد هذا أن نعارض الأمة التي طالبت ولا تزال تطالب بأن نعود إلى شرع اللَّه عسى أن ننال رضاه، ويرفع عنا الضر، ويكشف عنا

الغمة.. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤ ـ ٢٧].

❑ يا سيادة الرئيس:

أنقل لك، وأضع تحت بصرك، وتحت بصر كل مسلم هذا النص من تفسير الإمام الحافظ بن كثير المتوفى عام ٧٧٤هـ عند قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩ ـ ٥٠].

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ ما نصه في ص(١٣٧) ج(٣) طبعة المنار، ص(٦٧) ج(٢) طبعة الحلبي، ص(١٢٢) ج(٣) طبعة الشعب:

«ينكر تعالى على من خرج عن حكم اللَّه المحكم، المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة اللَّه، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن مليكهم جنكيز خان الذي وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية..

وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونها على الحكم بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم اللَّه ورسوله فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير».

قرأ هذا شبابنا فتأثروا به، ولا عجب فكلام ابن كثير ناصع الدلالة، قوي التأثير يصرخ في وجوه المؤمنين يحضهم على نبذ كل قانون يخالف قانون اللَّه، ويحضهم على حمايته بكل ما أوتوا من قوة.

سيادة الرئيس،

من قلب مخلص مشفق أكتب إليك هذا الخطاب، سائلاً اللَّه تعالى أن يوفقك ويحفظك ويرعاك، ويدفعني إلى كتابته:

أولاً: أن نتحاشى أسباب اللعنة وما يسخط اللَّه قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

● وقال ﷺ: «من التمس رضا اللَّه بسخط الناس رضي اللَّه عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط اللَّه سخط اللَّه عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان.

ثانيًا: أن ننأى عن أسباب الخسران.. قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر].

ثالثًا: أن نتقي أسباب الهلاك التي دلت عليها هذه الآيات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤، ١٦٥].

● وعن أبي سعيد قال ﷺ: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يحقر أحدكم نفسه**»، قالوا: يا رسول اللَّه، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: «**يرى أمرًا للَّه فيه مقال ثم لا يقول فيه فيقول اللَّه عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى**» أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٢٨).

● وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده فإنه لا يقرب من أجل أو يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم**» أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٥٠)، «[1].

*** للَّه درك من عالم رباني، آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر صادع بالحق:**

من أقوال الشيخ محمود عبدالوهاب فايد ـ رحمه اللَّه ـ:

«نحن علماء الأزهر، ونحن الشيوخ الذين آذنت شمسنا بالمغيب أولى من الشباب بأن نستمسك بديننا، وندعو إلى العمل به، والتحاكم إليه، والتضحية من أجله.

(١) «صيحة الحق» ص(١١٨ ـ ١٢٦).

إنه ليس بمعقول ولا مقبول أن تقتصر مهمة الأزهر والمتخرّجين منه والمتصدرين فيه اليوم على وعظ المساجين دون السجّانين، وعلى وعظ المحكومين دون الحاكمين»[1].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إن كل مسلم مسئول عن تطبيق شريعة الإسلام، مسئول عن تطبيقها على نفسه وعلى أسرته بمقتضى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

❑ ومسئول عن تطبيقها في مجتمعه وأمته بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

● ومسئولية الحاكم أقوى وأشمل قال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها**» أخرجه البخاري ومسلم عن ابن عمر.

وقال عثمان رضي الله عنه: «إن اللَّه ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن»، المسئوليات متعددة ومتفاوتة، والإسلام لا يرضى من المسلم بأن يكون صالحًا فقط، بل يطلب منه أن يكون صالحًا ومصلحًا، وبالصلاح والإصلاح ينجو من الخسران قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ولا ينافي هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾

(١) المصدر السابق ص(١٢٨).

[المائدة: ١٠٥]. فما نفى اللَّه الضرر إلا عند تحقق الاهتداء، والاهتداء لايتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، على ضوء هذا نقول: إن المحكوم مسئول عن الحاكم والحاكم مسئول عن المحكوم، وقد فهم هذا أبو بكر ﷺ، فقد قال في أول خطبة له بعد أن تولى أمور المسلمين: «يا أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوّموني، الضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعت اللَّه ورسوله فإذا عصيت اللَّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

هذه الأسس التي نبّه إليها أبو بكر الصديق ﷺ ينبني عليها صلاح الأمة، وصلاح الدولة، إنها تدعو إلى اليقظة واليقظة البالغة، يقظة الحاكم ويقظة المحكوم، كل منهما يراقب الآخر وينبهه إلى خطئه، ويدله على انحرافه، ويأخذ بيده إلى الطريق القويم، وحينئذ تعيش الأمة في نعيم وأمان، وتبقى الدولة في استقرار وسلام»[1].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ صادعًا بالحق ـ وهو أستاذ الحديث وله العلم الجم بالجرح والتعديل:ـ

«في عهد الرئيس جمال لم يأمن رجل شريف على نفسه أو ماله أو عرضه، فقد أطلق يده يتصرف كما يشاء، وفتح أبواب السجون المظلمة يعذب فيها الأبرياء، وينتهك أعراض النساء، وارتكب من المخازي ما يخجل منه الشيطان كما يقول بعض الكتّاب الفضلاء، ولم ينج منه رئيس أو مرءوس، لم ينج منه اللواء محمد نجيب الذي فجرّ الثورة، بل لقي منه هوانًا، وتجرّع من كئوس الذل ألوانًا.

(١) «صيحة الحق» ص(١٤١، ١٤٢).

مات جمال بعد أن أرهب الشرفاء، وأطلق يد المفسدين تعذب الأبرياء، وبعد أن اقترفت يده الآثمة مذبحة القضاء، وبعد أن سلّم أرض مصر لليهود والروس المفسدين الأخسّاء، وبعد أن بدّد مال الدولة وأرهقها بالديون الباهظة وقد كانت قبل الثورة تدين إنجلترا بنحو أربعمائة مليون جنيه إسترليني، لقد كانت لسياسته هذه عواقب وخيمة أثّرت على الجيل الذي وُلد بعد الثورة»[1].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «نرجع إلى التاريخ الإسلامي أيام طهره ونقائه، وتوهجه وصفائه لنسترشد به، ونستنير بضوئه:

جاءت عمر رضي الله عنه «برود» من اليمن ففرّقها على الناس بردًا بردًا ثم صعد المنبر وعليه حلة منها «أي بردان» فقال: اسمعوا رحمكم اللَّه، فقام إليه سلمان رضي الله عنه فقال: «واللَّه لا نسمع، واللَّه لا نسمع، فقال: ولم يا أبا عبداللَّه؟ فقال: يا عمر، تفضّلت علينا بالدنيا، فرّقت علينا بردًا بردًا، وخرجت تخطب في حلة منها. فقال: أين عبداللَّه بن عمر؟ فقال: ها أنا يا أمير المؤمنين. قال: لِمن أحد هذين البردين اللذيْن علي؟ قال: لي، فقال لسلمان: عجلت عليّ يا أبا عبداللَّه، إني كنت غسلت ثوبي الخَلِق، فاستعرت ثوب عبداللَّه، قال سلمان: أمّا الآن فقل نسمع ونُطيع، «الرياض النضرة» (٢/ ٧٤)، وابن الجوزي بنحوه ص(١٢٧)»[2].

*** للَّه درك ما أجرأك من ليث:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه «صيحة الحق» ص(١٥٢، ١٥٣):

«نسأل الذين كُتِب لهم التصرف في أموال الدولة كيف ساغ لكم أن تحرموا أسرة الرئيس محمد نجيب من الخزانة التي تغرفون منها بلا حساب

(١) «صيحة الحق» ص(١٤٤).

(٢) «صيحة الحق» ص(١٥٠).

لأسرة الرئيس جمال والرئيس السادات، أهو الحكم بالهوى؟ أم هو الرغبة في إرضاء شيعة الرئيسين؟!! إن أسرة جمال عبدالناصر لديها من الأموال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة، وسلوا الصحف الأجنبية عن ثروة منى عبدالناصر وأشرف مروان، وكلاهما كان من أفقر عباد اللَّه فهبطت عليهما الثروة فجأة، سلوا جريدة (الفاينانشيال تايمز) وقد نقلته عنها جريدة الوفد يوم ١٤٠٤/١٢/٢٥هـ ـ ٢ سبتمبر ١٩٨٤ بالصفحة الأولى والعاشرة.

وأسرة السادات يحدثكم عنها عصمت السادات، ورشاد عثمان وقضاياهما محفوظة لكل إنسان، وجارية على كل لسان.

فكيف ساغ لكم يا حكام مصر الحكماء والعقلاء أن تفيضوا على الأغنياء وتحرموا الفقراء؟! وكيف ساغ لكم يا سادة أن تعطوا الأسرتين قصوراً وأموالاً تساوي مليارات من خزانة شعب فقير مدين لدول أجنبية بما يساوي قرابة سبعة عشر مليار دولار طبقًا لتصريحاتكم، ومن فمكم ندينكم.

إن هذه الديون بفوائدها تكبِّل الشعب، وتسمح للدائنين بأن يضيِّقوا عليه الخناق، فلا يجد في المستقبل ما يعينه على ضرورات الحياة، وكفى أن الشعب كله يقف طوابير أمام المخابز والجمعيات الاستهلاكية، فهل يجوز لكم أيها العقلاء الحكماء أن تستقطعوا من خزانة هذا الشعب المطحون بما تضيفونه إلى ثروة آل فاروق؟!! لا أقول غفر اللَّه لكم، فإن اللَّه لا يغفر لمن يظلمون الناس حتى يردوا إليهم ظلامتهم، ولكني أقول: عاملكم اللَّه بمثل ما تُعاملون به شعبكم، وعاملكم اللَّه بما أنتم أهل له» اهـ.

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ ص(١٥٤) في كتابه «صيحة الحق»:ـ

«إن الذين يرفضون الإسلام يرفضونه لأنه دين لا يلهي المحكومين ولا يخدّرهم، بل يفتح عيونهم، ويبصرهم بحقوقهم، ويشجعهم على المطالبة بها، ومساءلة الحكام عنها.

إن الذين يرفضون الإسلام يرفضونه؛ لأنه يجعل الحاكم والمحكومين على سواء أمام قانون السماء، ظهره كظهورهم، وماله كأموالهم، وعرضه كأعراضهم، لا فرق بينه وبينهم، وهم يريدون أن يتحكّموا في الناس وأقدارهم وأموالهم دون سؤال أو عقاب».

*** يا سيادة الريس: بحكم منصبك فإني أذكرك والذكرى تنفع المؤمنين:**

كتب الشيخ محمود عبدالوهاب فايد هذه الرسالة الودية إلى رئيس الجمهورية ونشرها في مجلة الاعتصام ربيع أول وربيع الثاني عام ١٤٠٧هـ وذكر فيها إلحاح الأمة في المطالبة بتطبيق شرع اللَّه، ورغبتها الخالصة الصادقة في إصدار القوانين التي تم إعدادها بشهادة شيخ الأزهر ـ نزولاً على حكم اللَّه.

يقول الشيخ: «ثم حذرت المسئولين من تجاهل شريعة اللَّه، وإهمال وصايا رسول اللَّه، والاستجابة لنصيحة أمريكية، أو صليبية، أو علمانية، أو شيوعية فتصيبنا فتنة، ونبتلى في حياتنا وأرزاقنا ومعايشنا ومصائرنا، وذكرتهم بقول اللَّه سبحانه: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: ٦٣]، وبقوله سبحانه: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه: ١٢٤]. وقد مرّ عام ولم يبد من ولاة الأمور أي تحرّك جدّي في سبيل مرضاة اللَّه، وتحقيق رغبة الشعب، وتطبيق نصّ الدستور فماذا جرّ ذلك علينا؟!!!

نتيجة لهذا الموقف وقعت الواقعة، وتحقق ما حذّرنا اللَّه منه ـ تأديبًا لنا، وعقابًا على إهمالنا فهل من معتبر.

نعم لقد أطلّت المحن والفتن بعنقها، غلاء فاحش يقصم الظهور، وأزمة طاحنة تطوّق أعناق الأمة تزداد يومًا بعد يوم، تنذر بسوء المصير لأجيالنا، بل

وللأجيال القادمة من بعدنا»[١] .

▣ وقال الشيخ: «أيُلامُ الشاب وهو يريد أن يعيش عيشة الطهر والعفاف في ظلال شريعة اللَّه آمنًا على نفسه وعرضه وماله؟

أيُلام الشاب وهو يرى نيران الشرور تشتعل وتشتد وتنتقل من بيت إلى بيت فيطلب من الحكومة أن تحميه وتحمي المجتمع فتسارع إلى إطفاء جذوة الفساد حذرًا من أن تدمّر البلاد والعباد؟!.

إن الشباب اليوم يشاهد مظاهر الاستهتار بالدين، ومظاهر الاستهتار بنزاهة الحُكم، يشاهد الذين يُعارضون أحكام اللَّه ويخرجون على تعاليمه، ويشاهد في حسرة بالغة مظاهر الاستبداد، والفساد، واستغلال النفوذ، وانتشار الرشوة والاختلاس والتهريب والمحاباة، يشاهد مظاهر الإسراف الحكومي التي تتجلى في مخصصات الحكام ومن ينتسبون إليهم أحياءً وأمواتًا، وتتجلى في النفقات الباهظة التي تُصرف في الحفلات داخل الدولة وخارجها وبدون ضرورة، في الوقت الذي ينام فيه كثير من الشعب في المقابر أو على الرصيف ويقفون طوابير في الشوارع ليحصلوا على الرغيف، وفي الوقت الذي تستدين فيه الدولة لتوفر لقمة العيش التي تمسك رمق الأمة، وفي الوقت نفسه تضع الأغلال في أعناقها وأيديها وأقدامها!!»[٢].

*** الشيخ محمود فايد يدخل عش الدبابير:**

وفي جرأة العالم الذي لا يخشى في اللَّه لومة لائم يقول الشيخ:

«إن قرار الاتهام الذي أذاعه النائب العام رسميًّا ضد كبار ضباط الشرطة ومساعديهم الذين اشتركوا في تعذيب المواطنين في السجون بعد

(١) «صيحة الحق» ص(١٥٩، ١٦٠).

(٢) «صيحة الحق» ص(١٦٥، ١٦٦).

القبض عليهم يشين الدولة، ويلطخ وجهها بالعار، ويسيء إلى سمعتها، ويوجب على أولي الأمر أن يسارعوا على الأقل بنقلهم إلى مواقع أخرى لا يكون لهم فيها شوكة ولا يُخشى منهم أذى.

❑ إن المصريين الذين يعيشون في الخارج ستحمر وجوههم خجلاً ويتعيرون حينما يقرءون ويقرأ العالم عنهم وفي صحفهم قرار النائب العام الذي أعلنه يوم الخميس ١١ سبتمبر ونشرته الصحف يوم ١٢ سبتمبر ١٩٨٦ بإحالة ٤١ ضابطًا و٤ مساعدي شرطة للمحاكمة أمام محكمة الجنايات لمعاقبتهم بالأشغال الشاقة والسجن، وذلك لقيامهم بتعذيب متهمين من الجماعات الإسلامية تعذيبًا وحشيًّا ثبت بشهادة الشهود، وأكّدته تقارير الطب الشرعي.

هل بلغ الرئيس ما أذيع من انحراف بعض رجال حكومته كما بلغه ما وقع من انحراف من بعض أبناء أمته؟.

لقد أثبت قرار الاتهام أن بعض رجال الأمن في حكومته لا يؤمنون بحقوق الإنسان ولا بالمواثيق الدولية، ولا بالقوانين المحلية، ويعتبرون هذا منكرًا من القول وزُورًا، ويُحيّون المتهمين أو المشتبه فيهم بعصا في «الدبر» وضغط على «الخصيتين» وكيّ بالكهرباء، وتعليق من الأرجل، وضرب بالسياط، وقلع للأظافر، ونتف للشعر، واعتداءات عليهم أو على أهليهم بصورة فاضحة يستنكرها كل من لديه ذرة من شرف أو بقية من آدمية»[1].

❑ ثم قال الشيخ: «التاريخ يذكرنا أن ما فعله جمال عبدالناصر من تعذيب للبرآء والتنكيل بالمواطنين واعتداء على آدمية الإنسان في مصر قد هيأ الفرصة لإسرائيل أن تُعلن الحرب وأن تغتصب الأرض وأن تأسر الجيش وأن

(١) «صيحة الحق» ص(١٦٧، ١٦٨).

تغنم السلاح وأن تقيم أهرامات من جماجم المصريين في السابع والستين.

والتاريخ يؤكد أن جمال عبدالناصر نفذ المخطط الأمريكي في المنطقة بمناوأة الإسلام وضرب المسلمين ومحاربة الدعاة وتعامل مع الخطة الأمريكية المرسومة، القائمة على أن الصراع سيظل محتدمًا بين الحضارة الإسلامية، والحضارة المسيحية ولا تستطيع أمريكا إلا أن تقف في الصف المعادي للإسلام.

هذا على الصعيد الأمريكي، أما على الصعيد الروسي فقد منحت روسيا جمال عبدالناصر أعظم وسام روسي، بعد أن احتفلت مصر بذكرى «لينين» على المستوى الرسمي والشعبي في الشهر الذي تحتفل فيه الدولة بالمولد النبوي الشريف الذي جعلته مصر عيدًا دينيًّا رسميًّا، ثم دفعت بعد ذلك بعملائها في كل المرافق، ينشرون الفساد والإلحاد!

إن هذا الأسلوب، أسلوب تعذيب السجناء والمعتقلين اتبع من قبل ـ حذو النعل بالنعل ـ في عهد عبدالناصر، فماذا كانت نتائجه؟ أنت أول من يعرف النتائج، ولكني أذكرك به ـ وعلى الرغم مني ـ فالذكرى تنفع المؤمنين.

في جريدة الجمهورية، وهي ليست من صحف المعارضة يوم الخميس ١٩٨٦/٨/٢١ صفحة ٩ العمود الأخير ما نصه:

«اعتقل عبدالناصر في ليلة واحدة ٣٠ ألف مواطن وأعلن ذلك أمام الجماهير، وصفق الحاضرون دون وعي، وقضى معظم المعتقلين ٥ سنوات أو أكثر بين جدران المعتقلات، وخرجوا جميعًا من المرضى والمشوهين نفسيًّا وجسميًّا، مع أن الجريمة كانت مجرد شبهة، بل امتد الأمر أكثر من ذلك، وأصبحت حربًا على الأديان، وصدرت التعليمات بعدم ترقية المسلم الذي يرتاد المساجد أو يحتفظ بمصحف في مكتبه!!».

وتقول إحدى محاكم الجنايات سنة ١٩٧٨م عن فترة حكم جمال

عبدالناصر بعد أن سردت جرائمه الفاضحة، ومآسيه المخزية المبكية:

«إنها أسوأ فترة شهدتها مصر في تاريخها القديم والحديث».

لقد وأد جمال عبدالناصر حرية الشعب وأضاع كرامته وشهامته ونخوته، وملأ القلوب بالذل والرعب بما نشره من جواسيس، وبما فتحه من سجون، وبما أقامه من مراكز تعذيب، فأصبح الوالد لا يثق في ولده، والزوج لا يثق في زوجته، والقريب لا يثق في قريبه، والصديق لا يثق في صديقه، واطمأنت إسرائيل بأن الشعب في حالة احتضار، ويتهيأ للموت فلا يرفع رأسًا، ولا تسمع له ركزًا ولا همسًا، فاغتنمت الفرصة، وشنت الحرب، واحتلت الأرض، وأسرت الجيش، وغنمت السلاح، وأقامت معارض من جماجم المصريين!!. كما جاء في الجمهورية بتاريخ ٢٦/ ٤/ ١٩٦٨.

وهكذا ضربت إسرائيل ضربتها، وأدركت بغيتها، واضطر الزعيم العسكري، والقائد الأعلى الحربي أن يطلب في تواضع ومهانة وبإلحاح من مجلس الأمن أن يوقف القتال بعد أن وصلت إسرائيل إلى قناة السويس في ستة أيام أو كما تقول في ست ساعات، واستجاب له مجلس الأمن فقرر وقف إطلاق النار، وتنفس الزعيم الصعداء، وزال عنه الكرب والعناء، ورقص بعض أشياعه طربًا لسلامته، وأعلنوا ابتهاجهم باستمرار سلطته، ولتذهب «سيناء» إلى إسرائيل، فما هي ـ كما يقول الصحفي حسنين هيكل ـ إلا حبات رمال، وليبق جمال متربعًا فوق جماجم الرجال فهو موضع الرجاء ومنتهى الآمال، ولا عجيب فبقاؤه بقاء لهم ـ وإن اكتوت مصر بنير الاحتلال ـ وزواله إيذان لهم بالضياع والزوال!!

لقد سلم جمال أرض الوطن، وسلم الجيش، وسلم السلاح لأعدائنا، وبقي ثمنه، وبقيت تكاليف شحنه دينًا في عنقنا، ولا نزال نعاني من وطأة

الديون التي فتحها علينا وجلبها إلينا، خصوصًا بعد أن باع رصيدنا من الذهب في حرب اليمن كما قال مدير مخابراته «صلاح نصر» في مذكراته، وهكذا أصبحنا مدينين في عهده بآلاف الملايين بعد أن كنا دائنين ـ قبل الثورة ـ لإنجلترا بنحو أربعمائة مليون جنيه إسترليني والمليون الآن بمائة مليون أو يزيد!!.

وهكذا انتهى بنا الحال في عهد الزعيم، فبعد أسبوع واحد من الحرب، وفجأة على حين غرة فقدنا أرض الوطن، وفقدنا الاستقلال، وفقدنا السلاح والرجال، وفقدنا الشرف والمال، وأصبحت مصر مهينة ذليلة، جزء من أرضها العزيزة تحتله إسرائيل، والباقي يتحكم فيه الروس بجيشهم وخبرائهم والديون تتراكم وتتفاقم، والأمة يمتطي الرئيس وأشياعه ظهرها، ويلتهمون خيرها، ويهددونها بزبانية السجون والمعتقلات.. حتى القضاة ـ وهو في أحط مواقف الضعف والهوان ـ تمتد يده الآثمة إليهم، ويفرط في العدوان عليهم، فصح فيه المثل «أسد عليَّ وفي الحروب نعامة»، ولكن لا عجب، فالشيء من معدنه لا يستغرب!!..

❑ لقد مات الرجل بعد أن أضاع الاستقلال والمال والرجال، وجلب الاحتلال، احتلال أصغر دولة وأحقر دولة لأرضه.

❑ مات بعد أن عطل القناة التي كان يتباهى بتأميمها، ومن عجب أن يأمر بتخريب مال الدولة فيأمر بتفجير أعظم باخرة تمتلكها في مياهها، باخرة مكة، وكانت معدة لأن تحمل ألفين وخمسمائة من الحجاج المصريين بأمتعتهم.

❑ مات الرجل ولم يحرر من أرضه شبرًا، بل لم يحرر ذرة.

❑ مات الرجل وهو عسكري، فهزم في أخص خصائصه، وفيما هو أحق وأولى بمعرفته.

❑ مات الرجل الذي كان يصرخ في وجوه المصريين، بل في وجوه العرب قائلاً: خلقت فيكم العزة.

❑ مات الرجل وقد جلب لنفسه ولوطنه وللعرب ذلاً لم يسجله التاريخ لغيره من قبل!!

وهكذا تنتهي حياة كل من طغى وتجبر، وأخذه الغرور فنسي أن اللَّه أكبر.

لقد مات جمال ومصر ترسف في الأغلال، وتعاني من مذلة الاحتلال والانحلال والاختلال، ولم تستطع أن تتحرر إلا بعد رحيله، وبعد أن أطلق الحكام الحريات، وأخلوا المعتقلات، وبعد أن نشروا العدل والأمان، ورفعوا شعار العلم والإيمان، لم تتذوق مصر طعم النصر إلا بعد أن رجع الشعب وقادته إلى اللَّه، واهتدوا بهداه، وأنابوا إليه، وتوكلوا عليه، وبعد أن تعرضوا لنفحاته في رمضان، وبعد أن جعلوا كلمة السر هي (بدر) مستحضرين ذكرياتها، وما ورد في القرآن بشأنها، وبعد أن دوى صوتهم بالتكبير في أرض المعركة وسمائها، بعدئذ ذاقوا حلاوة النصر، وأيدهم اللَّه بروح من عنده.

* قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

* وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

هذا ما قلته، وسأظل أقوله، ولم تجد مقالتي أذنًا صاغية، ولا قلوبًا واعية، فحكمنا جمال حسب هواه، وتجاهل وصايا اللَّه عز وجل، وانخدع

وخدعنا بمبادئ استوردها من الشرق أو من الغرب، ومنح الثقة بلا حدود لدول كبرى منَّته، وغرته، وسار بنا حينًا في ركاب أمريكا واستجاب لتوجيهاتها في البعد عن الإسلام، والتنكيل بالمسلمين، وظل يصادقها حتى غدرت به، وبعدئذ تحول إلى روسيا، واستجاب لها أيضًا في مخاصمة الإسلام والمسلمين، وفي المولد النبوي حملته على أن يحتفل بذكرى (لينين) على المستوى الرسمي والشعبي، ومنحته على ذلك أعظم وسام روسي، وأخيرًا نصحته فخدعته وكبلته حتى يسرت لإسرائيل احتلال أرضه، وأسر رجاله، واغتنام سلاحه وماله ودفعت عملاءها ينشرون الإلحاد، ويعيثون في الأرض الفساد، ولولا لطف اللَّه لحكموا العباد والبلاد!!

لقد سار جمال عبدالناصر في ركاب أمريكا حينًا، وفي ركاب روسيا حينًا، وتجاهل الإسلام، ونكل بأبنائه، واستهزأ بعلمائه، وشغله هذا عن التفكير في مستقبل وطنه.

❑ سيادة الرئيس: هذه دروس فيها عظة وعبرة، لقد نعمنا بالاستقلال فترة وجيزة من الوقت، وعلا صوتنا في زهو وكبرياء، وأمل العرب أن نقودهم إلى التحرير، ونخلصهم من براثن المستعمرين والصهيونية، ولكن إهمالنا لدين اللَّه، وتقاعسنا عن تنفيذ تعاليمه ووصاياه، والبطش بالمسلمين، والتنكيل بعباده المؤمنين، كل ذلك جلب للعباد والبلاد مقت اللَّه وغضبه، وسخطه وعقابه، فضاع منا في أيام، بل في ساعات كل ما كسبناه، بل مكن لأخس الأعداء من أرضنا وجيشنا وسلاحنا وأموالنا، ولا نزال نعالج آثار هذه المحنة، وحتى الآن لم نتخلص من عارها ولا من أخطارها.

يقولون في الأمثال «السعيد من وعظ بغيره»، فاتق اللَّه، وطبق تعاليمه وقوانينه ووصاياه، واحذر أن تستجيب لمن يشير عليك من المصريين أو غيرهم بأن تتبع سياسة جمال في البطش والقهر والتعذيب فتجلب لشعبك وبلدك

الذل والضياع كما جلب، وتستوجب غضب اللَّه كما استوجب، وتندم حيث لا ينفع الندم وتقول: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨].

❑ سيادة الرئيس: اجعل حكمك يتسم بسمات الحرية في غير مأثم، والقوة في غير بطش، والأمان واليقظة في غير استرخاء، والعدالة في غير إرهاب!!، طبق تعاليم الإسلام السمحة تَهتدِ بنور اللَّه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٦، ٣٧].

❑ سيادة الرئيس: كن صلبًا في قرارك، وانظر إلى إسرائيل بجوارك، ولا تأمن فالدهر قُلبٌ والأيام دول قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

* وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

❑ سيادة الرئيس: «إن مصر ـ والحمد للَّه ـ بخير، وهي غنية بثرواتها المعدنية والبشرية، وغنية برجالها الأكفاء والأطهار الذين برزوا في كل مجال تحتاجه مصر، وعرفوا مع ذلك بالاستقامة والتدين والخلق الفاضل، وعمق الخبرة، وطهارة اليد، ونقاء السمعة، والتفاني في أداء الواجب والاهتمام بمصلحة الوطن والمواطنين، ولم ينقص من قدرهم أنهم لم يدخلوا حلبة السياسة ولم تشاهدهم الأعين في الساحة.

ألا ترى البحر يعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قعره الدرر

وأمثال هؤلاء لا يخفون على مثل رئيس الجمهورية، ولا يتخلفون عن خدمة الوطن إذا ما دعوا، فاستعن بهؤلاء في إنقاذ الوطن، ورفع شأنه، ورعاية مصالحه، وأطلق يدهم في إصلاح الأوضاع المتردية، ومعالجة شئون الوطن المتهاوية، وفي الأصحاء ما يغني عن المرضى، وفي الأقوياء ما يغني عن الضعفاء، وفي الأطهار ما يغني عمن بدت منه الروائح التي تزكم الأنوف!!.

❑ سيادة الرئيس: ملاحظة عابرة أسوقها إليك، ومعذرة، فقد تعودت الصراحة مع كل الذين سبقوك ممن تولوا على أرض مصر ملوكًا أو رؤساء، وقد عشت طول حياتي وفيًّا لديني ولوطني ولولاة الأمور أخلص في النصح، وأعشق الحرية، قانعًا بفضل اللَّه عليَّ، أعز نفسي، ولا أحني رأسي، أقول كل ما أضمره، وأظهره ولا أستره.

❑ سيادة الرئيس: لقد قلت هذا العام في ذكرى ٢٣ يولية «سوف يسجل التاريخ أحداثه الجسام بمداد لا يفنى، ويحمي حقائقه من حملات التزييف والتشويه والافتراء» هذا قولك، وهو قول حق وصدق، لكنك قلت في نفس الخطاب: «كانت ثورة الثالث والعشرين من يولية عام ١٩٥٢م بقيادة وزعامة جمال عبد الناصر» وقلت أيضًا: «قامت جمهورية مصر وعلى رأسها مصري من صميم تراب هذا الوطن جمال عبدالناصر» لا أدري كيف يصح هذا، والمعروف والثابت واقعيًّا وتشهد به الأمة والعالم كله أن الذي قاد الثورة، وأعلن عن اسمه من أول لحظة، وعرض روحه للخطر هو «اللواء محمد نجيب» وهو أول رئيس للجمهورية، وقد بايعه جمال عبدالناصر، وأخذ له البيعة من الشعب، وبايعه المصريون جميعًا في المساجد، أما جمال فقد اغتصبها من نجيب، ولم يتلق البيعة من أحد، ولهذا لم يبارك اللَّه في رياسته، وانتهت إلى ما انتهت إليه من احتلال وانحلال، وفقدان الأرض

والجيش والسلاح والمال،

❑ سيادة الرئيس: أليس من حق نجيب وفاء له ـ والوفاء من شيم الكرام ـ أن نذكره بالخير، وندعو له بالرحمة على ما قدم لوطنه وشعبه، وعلى ما تحمل من غدر وهوان من صحبه في بلده، ودعك من أبنائه فلا أحب لهم إلا أن يعيشوا كما عاش أبوهم في شظف من العيش يتنازل عن جزء من مرتبه دون أن تمتد يده بحق أو بغير حق إلى خزانة الدولة في حياة أو ممات، وختامًا أسأل اللَّه لك يا سيادة الرئيس أن يقويك بالحق، ويقوي الحق بك، ويجعل عهدك بالصلاح والعدل والرخاء زاخرًا، وبالسعادة والحرية والقوة زاهرًا، ويجعل وطنك بتطبيق شريعة اللَّه عامرًا والسلام عليكم ورحمة اللَّه»[1].

رسالة ودّية إلى رئيس الجمهورية: «لا يجوز لمصر الإسلامية أن تقيم تماثيل لحكّامها السابقين خصوصًا إذا كانت مُكبّلة بالديون»[2]:

لقد جاء في رسالة الشيخ الرباني القوّال بالحق:

إني عشت طول حياتي وفي كل العهود لا أطوي صدري على غش، أمقت الخيانة فلا أرضى أن أخون أحدًا من الناس، حاكمًا أو محكومًا، كبيرًا أو صغيرًا، وكتمان النصح لمن يوشك أن يقع في خطأ أو خطيئة مع العلم بذلك خيانة للنفس، وخيانة للغير، ونعوذ باللَّه من الخيانة، فإنها مغضبة للرب، مهلكة للعبد، مضيعة للأمة والدولة.

❑ سيادة الرئيس: أكتب هذه الرسالة إليك بسبب ما اقترحته من إقامة تمثالين، أحدهما لجمال عبدالناصر، والآخر لأنور السادات، ودعوتك إلى

(١) «صيحة الحق» ص(١٧١، ١٧٨).

(٢) نُشرت بالاعتصام ربيع الآخر ١٤٠٩هـ ـ وأوردها الشيخ بتمامها في كتابه «صيحة الحق» ص(١٩٥ ـ ٢٠٥).

التبرع وإسهامك شخصيًّا بألف جنيه لتنفيذ هذا الاقتراح كما نشرت صحيفة الأخبار في الصفحة الأولى العمود الأخير يوم الأربعاء ١٤٠٩/٣/٢٩هـ الموافق ١٩٨٨/١١/٩م.

ورأيي الذي أراه وأسترشد فيه بنور اللَّه، وبنور الإسلام أن هذا قرار خاطئ خصوصًا في هذه الظروف التي بلغت فيها معاناة الشعب في الغذاء والكساء، في التعليم والدواء، في السكن والإيواء حدًّا لم يسبق له مثيل، وصارت الغالبية العظمى ـ وأنا واحد منهم ـ تعجز عن الوفاء بضروريات الحياة، وأصبح كل منا يحدث نفسه في اليقظة والنوم من شدة الهموم وضغط الأفكار!!.

❑ سيادة الرئيس: إن هذا الشعب المصري جاع وضاع، وأكبر دليل على هذا ما نشرته صحيفة الأخبار نفسها في اليوم التالي الخميس بالصفحة الثالثة العمود الأول قالت: «بسبب الزيادة المطردة في عدد السكان نشأت أزمة الإسكان في مصر، واضطر بعض الناس إلى السكنى في القبور».

● وإني أذكرك بقول الرسول ﷺ: «**إن اللَّه سائل كل راع عما استرعاه، حَفِظَ أم ضَيَّع**» رواه ابن حبان في صحيحه عن أنس، وبقوله ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت**» أخرجه أبو داود عن عبداللَّه بن عمرو.

خير لك وللأمة يا سيادة الرئيس أن تهتم بما يسألك اللَّه عنه، وبما يسعف المسكين والمحروم، خير لك وللأمة أن تنفق هذه المبالغ في توفير ضرورات الحياة ولو لبعض المحتاجين من خبز وزيت، وفول وعدس، ومسكن اضطراري يقيهم شر الحر والبرد، ويواري عوراتهم.

● لقد قال الرسول ﷺ: «**خير الناس من ينفع الناس**» رواه الطبراني.

❑ سيادة الرئيس: أسأل اللَّه تعالى أن يوفقك لتكون قدوة صالحة في

الاقتصاد، وضغط المصروفات، وترشيد الإنفاق، والحفاظ على المال الخاص والعام، فلا يصرف قرش فضلاً عن جنيه إلا فيما هو ضروري جدًّا.

إن الدولة مدينة بما يعادل مائة ألف جنيه، وفي الشهور الأخيرة كنت يا سيادة الرئيس مشغولاً جدًّا، ترحل من دولة إلى دولة، تحاول فك القيود والأغلال التي وضعها في أعناقنا صندوق النقد الدولي، وأصارحك يا سيادة الرئيس أن الحكومات التي قامت بعد الثورة تحمل عبء هذه الديون، فقد كنا قبلها ندين بريطانيا العظمى بنحو أربعمائة مليون جنية إسترليني، وكنا نجد مطالب الحياة من غذاء وكساء، ودواء بقروش وملاليم، وكنا نمر في الشوارع فنجد لافتات كتب عليها «فيلا للإيجار» «شقة للإيجار» «غرفة للإيجار» «محل للإيجار» أما بعد الثورة المباركة فأصبح الشعب لا يجد حتى مقبرة للإيجار!!

❑ سيادة الرئيس: إنك أدرى من غيرك بوطأة الديون وأخطارها، فكان أولى بك أن تقود الأمة والحكومة في العمل الجدي للخلاص من هذه الديون، بدلاً من أن تقودها في عمل يستهلك مالها، ويستنفد طاقتها، وأحمد اللَّه عز وجل أن وفقني فدفعت في سداد الديون ٩/ ١/ ١٩٨٦م مثل ما دفعته الآن ـ يا سيادة الرئيس ـ لإقامة تمثالين، سيقول بعض الناس: وما قيمة ألف في سداد ملايين الملايين، وأقول: قد حفظنا في الأمثال «إن رحلة المليون ميل تبدأ بخطوة»، وإذا صح العزم، وصدقت النيات، اقتنعت الأمة بخطة جادة محكمة، ووقفنا في وجه الخونة والمرتشين، وحاربنا السرف والفساد، أمكن السداد، وتحقق المراد.

❑ سيادة الرئيس: إن الإسلام يدعو إلى الحفاظ على المال العام والخاص، وينهى عن صرفه في غير ما أباحه اللَّه، وليس مما أباحه اللَّه إقامة التماثيل، وأنقل لك ما قاله علماؤنا الأجلاء: قال العلامة مفتي الجمهورية

السابق الشيخ حسنين مخلوف في الفتاوى الشرعية (/ ١٨٦، ١٨٧):

«تصوير الشيء حيوانًا كان أو غير حيوان قد يكون بصنع جسم على مثاله وهيئته، ويسمى الواحد تمثالاً والجمع تماثيل، وقد يكون برقم صورته، ونقشها على ورق، أو ثوب، أو ستر، أو حائط ونحوها، وتسمى صورة، ومنه الصور الفوتوغرافية المعروفة، فإن كان التصوير لما ليس له روح كالأشجار والبحار والسفن والأبنية ونحوها حل صنعها، واتخاذها مجسمة وغير مجسمة، وإن كان لما له روح كالإنسان والحيوان فإن كانت الصورة مجسمة وهي التي لها ظل كالتماثيل المعروفة حرم صنعها واتخاذها بالإجماع، وورد استثناء لعب البنات منها فرخص لهن فيها وعليه جواز صنع العرائس المتخذة من القماش والقطن أو من الجبس أو الخشب أو الكاوتشوك أو الحلوى وغيرها من لعب الأطفال».

وفي مجلة المنار (١١/ ٣٨٠) قال الشيخ رشيد رضا: «حرم الإسلام نصب التماثيل كما في حديث علي كرم اللّه وجهه في صحيح مسلم «لا تدع تمثالاً إلا طمسته».

وفي مجلة الأزهر سنة ١٣٥٩ ص(١٦٣) قالت لجنة الفتوى ما نصه: «أجمع الفقهاء على حرمة تصوير الحيوان مجسمًا كاملاً، وقد استثنى بعض العلماء من الصور المحرمة التماثيل الصغيرة التي يتخذها الأطفال لعبة لهم استنادًا لما ورد في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي، وفي فتح الباري أخرج أبو عوانة وغيره عن عائشة قالت: كنت ألعب بالبنات وهن اللعب»، ثم قالت: «إذا كان الغرض من التصوير كما قيل إحياء ذكرى العاملين بتصوير أشخاصهم، وبعث النفوس إلى الاقتداء بهم، فإنه قد ينجم عنه بتطاول الزمن ما لا يحمد عقباه في عقيدة التوحيد، فقد صح عن ابن عباس

في أوثان قوم نوح قال: «كان ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت» أخرجه البخاري ثم قالت: «إن تماثيل العظماء التي تقام في الميادين تقتضي نفقات طائلة لو أنها أنفقت باسم هؤلاء العظماء في أعمال البر والصدقات الجارية لكان أجدى وأنفع في تخليد ذكراهم».

سيادة الرئيس: هذا ما قاله علماؤنا الأجلاء في حكم التماثيل، قالوا: إنها غير مباحة وأقول: لو تخيلنا أنها مباحة ما جاز لنا أن نقدم الميت على الحي بما لا نفع لأحد فيه، وما جاز لنا أن ننفق المال الخاص أو العام في مباح ونضيع الواجب في وقت اشتدت فيه حاجة الناس إلى ضرورات الحياة ـ كما أسلفنا ـ إن تشاريع الإسلام حكيمة، وتعاليمه رحيمة، وقد كرَّم الإنسان أيًّا كان هذا الإنسان حتى لو كان على غير دين الإسلام، فلا يسمح بأن تنفق على تمثال ونسد آذاننا على أنين المرضى، وصراخ الجائعين، وسكان القبور، وقد كان من الممكن أن ننشئ باسم من يراد تكريمه مستشفى، أو مدرسة، أو مأوى للمعوقين، أو ملجأ للمحتاجين.

إن الإسلام يحارب الترف، ويحارب السرف في كل شأن من شئون الحياة، حتى في الماء، فقد مَرَّ النبي ﷺ على سعد وهو يتوضأ فقال: «**ما هذا السرف يا سعد**»؟ قال: أفي الوضوء سرف؟ قال: «**نعم، وإن كنت على نهر جار**» أخرجه أحمد في مسنده، وإذا كان يحارب السرف في الماء فكيف في الأموال التي جعلها اللَّه قيامًا للناس؟!!

إن اللَّه يكره إضاعة المال، وسيحاسبنا عليه، ويسألنا عنه، قال ﷺ: «**إن اللَّه تعالى يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا**

تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل اللَّه جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه اللَّه أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

● وقال ﷺ: «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به» رواه البزار والطبراني.

❑ سيادة الرئيس:

● يقول الرسول ﷺ: «إذا أراد اللَّه بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يُذكره وإن ذكر لم يُعنه» رواه أبو داود عن عائشة، فاختر مستشاريك يا سيادة الرئيس من ذوي الحنكة السياسية، والغيرة الدينية، واتق اللَّه، واعتصم به، وتوكل عليه، وخذ حذرك من الناصريين والساداتيين الذين يحيطون بك، ويحاصرونك، فهؤلاء مشغولون بأنفسهم وزعمائهم الذين أورثوهم المال والسلطان، لا يفكرون في مصلحة الأمة، ولا يهمهم إلا أنفسهم، إن هؤلاء الناصريين والساداتيين لن يمنعوك من اللَّه، ولكن اللَّه يمنعك منهم، فاحرص على مرضاته، وضع نصب عينيك قول الرسول ﷺ: «من التمس رضا اللَّه بسخط الناس رضي اللَّه عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط اللَّه سخط اللَّه عليه وأسخط عليه الناس» أخرجه ابن حبان عن عائشة.

❑ سيادة الرئيس: إن جمال عبدالناصر الذي تقترح إقامة تمثال له انتهك حقوق الإنسان، واشتهر عهده بالاعتقالات، والتعذيب حتى الموت، وهتك الأعراض، ونهب الأموال، وسلب الحريات، وتجنيد الساقطات، وظلم الأخيار، والاعتماد على الأشرار، وقد عاقبه اللَّه فأنهى عهده بمأساة ومخزاة،

فسلب منه السلطة، وأشرك معه في حكم البلاد اليهود والروس، وسلم الأرض والجيش والسلاح لإسرائيل، وبقي ثمن السلاح دينًا في عنقنا، واستصرخ مجلس الأمن لإيقاف القتال، وباع قبل ذلك رصيد العملة الذهبي في حرب اليمن، وكان هذا إعلانًا من اللَّه عن غضبه عليه، وعلى الذين أعانوه، وعلى الذين هادنوه، وأعجب من هذا أنه لم يتعظ، ولم يغير من سلوكه، ولم يتراجع عن ظلمه، فقام بمذبحة القضاء بعد هزيمته المروعة لئلا ينقض له حكم ولئلا تنكشف مخازيه، ولكن اللَّه سلط عليه من حوله فقضوا عليه، وبعدئذ هتك اللَّه ستره بعد موته، وعقب دفنه، فتدفقت المجاري في قبره، كما يعرف الخاص والعام، إن مثل هذا الذي وقع من جمال وقع من ستالين في روسيا، وعلى الرغم من أن ستالين انتهت حياته بعد نصر رائع ضد هتلر فإن شعبه لم يغفر له جرائمه، وانتهاكه لحقوق الإنسان، فحطم تماثيله، ونبش قبره، ورمى به في مكان مهجور، ولا بد للشعوب أن تستيقظ مهما طال الرقاد!!.

وكما كانت نهاية جمال مأساوية كانت نهاية السادات، بعد أن عاد إلى نهج سلفه، كانت نهايته أليمة، وخاتمته وخيمة، فاعتبروا يا أولي الأبصار!!.

❑ سيادة الرئيس: ليست هذه شهادتي وحدي، بل إنها شهادة كل من عاش مع الشعوب بضمير حي، شهادة التاريخ، ويكفي أن أنقل لك شهادة الرجل الذي أقمت له مهرجانًا لفوزه بجائزة نوبل، وقلت في تكريمه كما نشرت الأخبار يوم الثلاثاء ٨/ ١١/ ١٩٨٨ ص(٣): «نكرم هذا القلم الخلاق من أقلام مصر» وقلت فيه: «كان محللاً نافذ البصيرة، ناقدًا حي الضمير، بل كان أحيانًا محتجًا شديد البأس، ومُدينًا للسلبيات والأخطاء والتجاوزات أقوى إدانة، ولقد عَرَّى الانحرافات والانتكاسات في شجاعة فائقة في عهود كانت تلك التعرية تحتاج إلى قدر كبير من الإيمان بالوطن، والتعاطف مع

الشعب، والوقوف إلى جانب الحق» ماذا قال نجيب محفوظ[1] الذي كرمته، قال في مجلة المصور كما نقلت جريدة الأحرار يوم الاثنين ٢٠/٣/١٤٠٩هـ الموافق ٣١/١٠/١٩٨٨م بالصفحة الأخيرة والعمود الأخير:

«المصيبة الوحيدة في حكم عبدالناصر والتي كانت وبالاً عليه هي تأجيل الديمقراطية، لقد طلب من المصريين اعتزال السياسة فتحول المصري من كائن فعال منتم إلى سلبي متفرج، وحتى الآن لا نستطيع أن نضعه على مسرح الحياة السياسية، وهذه مصيبة كبرى، والأكثر من ذلك أنه سلب من داخل المواطن شجاعته وإحساسه بالأمان، وهذا شيء فظيع، ووسط هذا الظلام ظهر الفساد، إن الديكتاتورية هي التي صفت عهد عبدالناصر، وهي التي انتهت بنا إلى ٥ يونيو وقضت على آمالنا وعلى عبدالناصر نفسه».

ولا أنسى ما قاله لي الأستاذ الكبير أحمد حسين تغمده اللَّه بواسع رحمته وأسكنه فسيح جنته، قال لي وقد كان يشفق عليَّ مما أكتبه تعقيبًا على تصرفات جمال عبدالناصر في أقواله وأفعاله مما جمع بعضه في كتاب «وبالحق صدعنا في وجه الطغيان» قال: «إن جريمة عبدالناصر التي لم يسبقه فيها أحد أنه خنث الشعب وليته أنثه».

ثم ترحم أحمد حسين على عهود سابقة كان لا يلقى فيها الناقد ما كان يلاقيه في عهد جمال.

❑ سيادة الرئيس: آمل أن تتقوى باللَّه وبطاعته على نفسك، وعلى من حولك من الناصريين والساداتيين، وأن تقصر جهودك على مصلحة شعبك المظلوم المكلوم المحروم، وأن تكون أمامه مثلاً صالحًا، على وضع المال في موضعه، وفيما هو أصلح وأنفع، وقديمًا قيل: «الرجوع إلى الحق خير من

(١) للشيخ ـ رحمه اللَّه ـ ردّ قوي على نجيب محفوظ وروايته «أولاد حارتنا» أو «موت الإله».

التمادي في الباطل» وفي الحديث يروى عن النبي ﷺ: «أيما عبد جاءته موعظة من اللَّه في دينه فإنها نعمة من اللَّه سيقت إليه، فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من اللَّه عليه ليزداد بها إثمًا ويزداد اللَّه عليه بها سخطًا» أخرجه البيهقي، أعاذنا اللَّه وإياك من سخطه، آمل أن تقف مع شعبك المحروم المظلوم، تسانده ويساندك، وتتعاون معه ويتعاون معك، وتتعقب الذين أهانوه ونهبوه، وترد له منهم ما سلبوه، وإني أصارحك أن الحراسة المشددة، والتدابير المحكمة تحول بينك وبين معرفة نبض الشعب، فالذين تلتقي بهم من العامة تم بحثهم وفحصهم، ولو قدر لك أن تعس بليل كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعرفت الحقيقة، ولكي تقترب منها أنقل لك هاتين الصورتين:

١ ـ في مطلع عامنا الدراسي وقبل كوبري السواح في الأميرية وعند إشارات المرور كان التلاميذ يهجمون على السيارات كل منهم يقول: (يا عم أعطني ثمن كراسة)، ولا بأس عليهم أن يتعلموا التسول في مطلع حياتهم للفاقة التي أمسكت بتلابيب آبائهم نتيجة الغلاء الفاحش، ووقف المنحة دون إنذار سابق!!.

٢ ـ في مجلة اللواء الإسلامي التي يصدرها الحزب الوطني نشر يوم الخميس ٢٣ ربيع الأول ١٤٠٩هـ في الصفحة الأولى بآخر عمود أن علماء الإسلام أفتوا في الندوة التي أقيمت (بأن الموظفين الذين لا يكفيهم مرتبهم يستحقون الزكاة)، وفي هذا دلالة لا تخفى على لبيب، فقد كان الموظف قبل الثورة محسودًا، وكان المثل المشهور «إن فاتك الميري تمرغ في ترابه» فأصبح الآن في أسوأ حال، عديم الجاه والمال، ولم يعد أمامه إلا أن يرتشي، أو يختلس، أو يتقبل الصدقات.

❑ سيادة الرئيس: بقي علي أن أدلك على عمل خيري أجدى وأنفع من إقامة التماثيل تنال به رضا اللَّه عز وجل، وتكسب به دعوات الأطفال، ففي

قريتنا (دمنكة) مركز دسوق معهد ديني ابتدائي أوشك على السقوط فهدمناه وشرعنا في بنائه، ولما يكتمل، وأصبح الأطفال مهددين في الشتاء والمطر والوحل بأن يرحلوا إلى مدرسة في قرية شمالاً وأخرى جنوبًا، فاسحب يا سيدي هذا المبلغ الذي تبرعت به وتعال معي إلى القرية لتدفعه بنفسك، ولتسعد القرية والمحافظة بمشاهدتك، وستكون مناسبة سعيدة، وذكرى مجيدة، ووفاء بالقسم الذي أديته بأن تحترم الدستور، وتلتزم بدين اللَّه وشريعته، وتحرص على مصلحة الشعب وراحته.

حفظك اللَّه ورعاك، وسدد خطاك، وجعلك ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه. والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته»[1].

*** الشيخ محمود فايد ونجيب محفوظ:**

❑ قال الشيخ فايد في كتابه «صيحة الحق» ص(٢٦٠):

«ليس بمعقول أن نستنكر رواية «سلمان رشدي» «آيات شيطانية» ونروّج لرواية «أولاد حارتنا»، وكلتا الروايتيْن حرب على تعاليم الإسلام، وما فيهما من تهجّم وخروج على الأصول الدينية يستدعي التحقيق مع كلا المؤلفين، فإن تابا توبة حقيقية؛ وأعلنا تراجعهما، وقاوما نشرهما فليس لنا عليهما من سبيل وإلاّ حوكما وطبق حكم اللَّه.

ونحيل إلى أن نجيب محفوظ استسلم لحكم الأزهر على روايته، ولكن على الأزهر أن يبذل معه جهدًا آخر حتى يأخذ بيده إلى الطريق السليم».

*** الشيخ فايد ووزير التعليم:**

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه القيم «صيحة الحق» ص(٢٦١):

---

(١) نشر في مجلة «الاعتصام» ربيع الآخر ١٤٠٩هـ. وفي كتاب «صيحة الحق» ص(٢٠٦ ـ ٢١٥).

«لي كلمة خاصة أوجهها إلى وزير التربية والتعليم، كفانا ما حلّ بنا من مقت وغضب نتيجة تجاهلنا لشرع اللَّه، ولا أظن الوزير يقبل أن يحذف «لقمان يعلّم ابنه» وهي وصايا لقمان لابنه في القرآن، ويستبقى «جحا يعلّم ابنه»، لا أظنه يقبل أن يحذف من المقرر شخصية «صلاح الدين» البطل الإسلامي ومحرر القدس، ويقرر شخصية «والت ديزني» أمير الصور المتحركة؟!!!!».

*** الشيخ محمود عبدالوهاب فايد والمحجوب:**

ومن على فراش المرض انبرى الليث الشيخ محمود فايد يردّ على المناوئين لشرع اللَّه فكتب مقالاً نشر في الاعتصام عدد رمضان وشوال ١٤٠٥هـ ـ يونية ويوليه سنة ١٩٨٥ تحت عنوان «الأمة بعقلائها تناشد زعيمها أن يخلصها من المناوئين لشرع اللَّه».

وقال: «يا سيد رفعت: من العار علينا في مصر ألا نطبق شريعة اللَّه ونحن بلد الأزهر الذي يمثل أكثر من ألف مليون مسلم.

من العار علينا في مصر أن يُؤخذ رأينا في شريعة اللَّه واللَّه تعالى أدرى بمصالحنا وحاجتنا وليس رفعت المحجوب».

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «لم يعد خافيًا على أحد أن الصراع بين من يريد تطبيق الإسلام وبين الحكام المعاصرين صراع جاد حاد، فالذين بهرتهم النظم الأجنبية: غربية أو شرقية يعارضون تطبيق الشريعة الإسلامية، ذلك لأنهم لم يدرسوها ولم يفهموها، ولم يوجهوا عنايتهم إليها، وقديمًا قيل: «من جهل شيئًا عاداه»، وصدق اللَّه العظيم: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**﴾ [يونس: ٣٩] والذين درسوها، وفهموها، وآمنوا بها يطالبون بالإسراع في تطبيقها، استجابة لدواعي الإيمان، وتمشيًا مع ما تقتضيه فطرة الإنسان، وتلبية لحاجة المجتمع، ومراعاةً لظروفه، ومعالجة لأمراضه التي استشرت

وتفاقمت ولم يعد قادرًا على علاجها إلا اللّه عز وجل، وقد أصبح هذا المطلب مطلبًا شعبيًّا اضطرت جميع الأحزاب حتى حزب «التجمع اليساري» إلى أن تسجله في مطلع مناهجها، استرضاءً للشعب، وأملاً في كسب أصوات المواطنين. ونزولاً على رغبة الشعب أُلّفت لجان متخصصة تضم صفوة الخبراء والفقهاء والقانونيين والاقتصاديين، والأساتذة الجهابذة، ورجال الفكر وعلماء الشريعة ليقوموا بصياغة قوانين جديدة توائم روح العصر وتتفق مع ما شرعه اللّه، وتنسجم مع عقيدة الشعب وظروفه لتكون الاستجابة تامة وعامة، ومن أعماق القلوب، فلا يقع تحايل في التهرب منها، ولينعم الشعب في ظلالها بالأمان والاستقرار، والحب والعدل، والخير والرخاء، وفرغت هذه اللجان ـ بعد نحو خمس سنوات من العمل المتواصل ـ من إعداد كل القوانين وصياغتها، وانتهت من مراجعتها مراجعة دقيقة، ثم رفعتها إلى رئيس مجلس الشعب الأسبق الدكتور صوفي أبو طالب، وقام هو برفعها مع ما أرفق بها من تقارير إلى الأزهر ليراجعها مجمع البحوث الإسلامية مراجعة نهائية كما شهد بذلك الأستاذ عبدالمغني سعيد أحمد أحد وكلاء الوزارات وأحد المشاركين في إعدادها[١] .

وبادر الأزهر بمراجعتها وأعادها إلى مجلس الشعب في تقرير عنها، كما أكّد ذلك مكتب الإمام الأكبر في بيان أصدره، وكما اعترف بذلك الأستاذ عبدالمغني سعيد في كلمة له[٢] .

إذن فالقوانين تمّ إعدادها ومراجعتها، وهي جاهزة لا ينقصها إلا أن يعتمدها مجلس الشعب، وحق المجلس إنما هو في أن يتأكد من أنها مطابقة

(١) انظر جريدة الوفد أول جمادى الآخر سنة ١٤٠٥ الموافق ٢١ فبراير سنة ١٩٨٥ الصفحة الرابعة.

(٢) نشرت كلمته جريدة الوفد ٢٢ جمادى الآخرة الموافق ١٤ مارس بالصفحة الرابعة.

تمامًا للشريعة، فإذا ثبت له ذلك فليس له خيار في أن يعتمدها، فالمولى يقول في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الاحزاب: ٣٦].

* وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

* وقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠].

بعد هذا المجهود الذي اشترك فيه أعظم رجالات مصر، واستغرق وقتًا طويلاً وأنفق عليه الكثير من مال الدولة، كان من اللازم على «رفعت المحجوب» رئيس مجلس الشعب أن يحيّي الذين قاموا به ويشكر لهم ما بذلوه من جهد، ويتابع السير، ويواصل الخطى حتى يتم للشعب بجميع هيئاته تحقيق مطلبه السامي المقدس، ولكن المحجوب مع الأسف أنكر هذا الجهد، وتنكّر لمن قاموا به وزعم أنه لا توجد لديه مشروعات قوانين، وانبرى للرد عليه فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أعانه اللّه وثبته فأدلى بحديث قيم هادئ رصين وضع فيه النقط على الحروف، ونُشِر في أخبار اليوم ١٩٨٥/٢/٢٣ في الصفحة السابعة.

هذا هو الإمام الأكبر وضع النقاط على الحروف حينما انبرى للرد على افتراءات المحجوب هل قرأ المحجوب هذا الدرس؟ هل فهمه؟ هل وعاه؟ هل تأثر به؟ هل وجد كلام شيخ الأزهر الهادئ المؤيد بالدليل طريقًا إلى قلبه وإلى قلوب نفر على شاكلته؟!! لا... ولا أدري لماذا يخطر على قلبي في

تفسير هذا الموقف قول اللَّه تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. ماذا صنع المحجوب الذي جيء به من وراء الأمة فلم يجد عناءً في مقابلتها، ولم تلتق به لتثبت رغباتها؟! ماذا صنع؟ لقد قام بحركة لم يخف هدفها على أحد، أعلن آنئذ تأجيل نظر تطبيق الشريعة إلى «مايو» عسى أن تهدأ الأعصاب الثائرة، ويتفادى هذه الصواريخ التي أطلقها شيخ الأزهر «يكون مجلس الشعب قد خالف موكله وهو الشعب ولا أقول خانه فإني أنزه مجلس الشعب أن يخون شعبه» وعسى أن يتفاهم مع نفر على شاكلته لتمييع القضية وتمطيطها... ويشاء اللَّه أن تضغط الأحداث فيقع من الجرائم ما لا عهد لمصر به، ويشتد الهلع، ويتفاقم الفزع، ويصرخ الشعب ويولول ويطالب من جديد ويستحث ولاة الأمور على الإسراع بتطبيق شريعة اللَّه عسى أن ينعموا برضاه ويفوزوا بهداه... وفي هذه المرة تنضم حملة الأقلام النظيفة، وينضم قضاة مصر إلى العلماء وإلى الأمة يطالبون بتطبيق الشريعة الإسلامية، والإسراع في تنفيذ الأحكام الإلهية.

وفي جريدة الأخبار الثلاثاء ٢٤ شعبان سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٤ مايو سنة ١٩٨٥ في الصفحة الثالثة العمود الأول كتب جلال الدين الحمامصي تحت عنوان: «هل هم ـ أي الأمريكان ـ ولاة أمورنا؟ ومن منحهم هذه الولاية ما يفيد أن الأمريكان مهتمون بهذه القضية اهتمامًا بالغًا وهم مبتهجون بأساليب المحجوب الخفية، ونجاحه في تأجيل نظر القوانين الإسلامية».

وهكذا انكشف الغطاء وزال الخفاء وعرف الناس من يعمل بوحي من الرحمن ومن يعمل بوحي من الشيطان... ومن حظي برضا اللَّه، ومن حظي برضا الأمريكان... وفي الختام نسوق هذه الآيات:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ١٩ ـ ٢٧].

* وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢٧].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٢ ـ ١٧].

* وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

* **قذائف الحق:**

كانت للشيخ محمود عبدالوهاب فايد صولات وجولات تصدى فيها للدفاع عن الإسلام منها.

❑ رده على مقالات نائب رئيس حزب الوفد الجديد الدكتور وحيد رأفت حول قضية الدين والوطنية نشر بمجلة الاعتصام ذو القعدة وذو الحجة سنة ١٤٠٦هـ - يونية ويولية ١٩٨٦م.

❑ ومنها رده على الغزالي حرب فيما كتبه عن الردة وقوله بعدم قتل المرتد بأن أئمة المذاهب الأربعة على العمل بالسنة ومن أجل هذا أخذوا بالأحاديث التي وردت في قتل المرتد وورد هذا المقال بمجلة الاعتصام شوال ١٣٩٧هـ - ديسمبر سنة ١٩٧٧م.

❑ ثم رده على خلف اللّه وأمينة السعيد بمقال نشر في الاعتصام جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ بعنوان «أتدعون إلى التجديد أم إلى التبديد؟!!».

❑ ورده على عبدالستار الطويلة تحت عنوان «بل الإسلام دين ودولة»[1].

* **وقفته مع الدكتور البهي:**

كتب الشيخ في مجلة الاعتصام مقالاً بعنوان «المساجد في عهدين» وفي ختام كلمته قال: «وبعد... فهل آن لنا أن نهتم بالمساجد، ونوليها عنايتنا حتى يمكن لها أن تضطلع برسالتها، وتقوم بدور إيجابي في خدمة وبناء الدولة أرجو ذلك، وإن كنتُ قد صُدِمت في هذا الأمل حين وجدت ابن الأزهر ووزيره الدكتور البهي قضى ليلة الجمعة متهجدًا في محراب الفن مع الكاسيات العاريات والمغنيات في حفل ساهر[2]، أقيم لمعونة فلذاتنا أبناء

(١) «صيحة الحق» ص(٢٦٣ - ٢٧٧).

(٢) حضر الحفل بتكليف من الرئيس جمال، وكان من واجبه أن يعتذر ولو أدى ذلك إلى استقالته.

الجزائر، ونسي ما أدلى به من قبل في حديث صحفي أن الإسلام يطلب الزينة للزوج فقط لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ تُراه غض بصره عن الآية الكريمة؟ أم تراه ـ وهو الذي يدرس الإسلام من المصحف ـ عثر على دليل بالإباحة لا يعلمه علماء الأزهر؟ أم تراه اهتدى بقول الشاعر الظريف:

فياله من عمل صالح يرفعه اللّه إلى أسفل

لقد كنت أودّ أن يرأس وزير الأزهر حفلات المساجد لا حفلات المسارح» ـ رحمه اللّه وغفر له ـ.

❑ ثم يتصدى الشيخ محمود عبدالوهاب فايد لقضية الربا ويرد على الذين يبيحون ما حرّمه المفتون السابقون والإمام الأكبر الشيخ جاد الحق ومجمع البحوث ومجامع الفقه في العالم الإسلامي وذلك في مقالات نُشرت بالاعتصام وذلك في ربيع الآخر ١٤١٠هـ.

وقال: «بإباحة المفتي لشهادات الاستثمار فإنه بذلك قد منح البنوك الربوية ـ في مسلكها الشيطاني الخبيث شهادة صُنعت في مطابخ السلطة وطبعتها وأعدتها وطرحتها للتداول بين المسلمين في مصر دار الإفتاء»[1].

وقال: «المفتي الذي أباح شهادات الاستثمار لم يستطع طوال تاريخه الوظيفي أن يفك أسر قانون واحد من القوانين الإسلامية التي حبسها الحكام في زنزانة مجلس الشعب... تشكو إلى اللّه سجّانيها»[2].

❑ ووقف مع المحرّض لهذه الفتاوي الدكتور عبدالمنعم النمر بمقال نشر بالاعتصام في جمادى الأولى سنة ١٤١٠هـ وقال:

«فإني أرفض بإباء وأنفة وحميّة إسلامية أن أكون مطيّة لليهود يعبرون

(١، ٢) «صيحة الحق» ص(٤٣٧).

عليها إلى غرضهم في نشر نظمهم الربوية، وتثبيت أوتادها والترويج لها في عالمنا الإسلامي»[1] .

*** وقفة جريئة للشيخ مع بيان كبار العلماء سنة ١٩٨٩م:**

ثم تصدى ـ رحمه اللَّه ـ لبيان كبار العلماء الذي شارك في إعداده الشيخ محمد الغزالي والدكتور محمد الطيب النجار والدكتور عبدالمنعم النمر والشيخ عبداللَّه المشد والدكتور يوسف القرضاوي، وتلاه في صحن الأزهر بين آلاف المستمعين الشيخ محمد متولي الشعراوي يوم الأحد أول يناير سنة ١٩٨٩م.

قال الشيخ فايد في رده:

إن هدفنا جميعًا هو إطفاء الفتنة، وتهدئة الخواطر، وإعادة الصفاء والألفة والثقة بين الشباب والحكومة، والعلاج في الاستمساك بالشرع، والتحاكم إليه، وقد نبهنا اللَّه تعالى لهذا وهو أصدق القائلين فقال: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣].

إن لجوء الحكومة إلى الأزهر وعلمائه أعاد إلى الذاكرة مواقف قديمة كان الأزهر فيها قاعدة للانطلاق ضد المفسدين والظالمين، وضد الملحدين والمارقين، وضد الخونة والمستعمرين، وكان علماء الأزهر هم القادة الذين يرجى على يدهم الخلاص، كانوا سفراء بين الشعب والحكومة، ولهم الكلمة الفاصلة، والوساطة المقبولة، ولا ننسى موقف «الشيخ أحمد الدردير» ـ رحمه اللَّه تعالى ـ حين لجأ الأهالي إليه شاكين ما حلَّ بهم من جور، فانتفض الشيخ للأمر، وتزعم ثورة ضد الظالمين أفزعتهم، وحملتهم على أن يستجيبوا للشيخ ونصائحه، ويكفوا عن المظالم، ويحسنوا إلى الشعب،

(١) «صيحة الحق» ص(٤٥٦).

وكذلك وقف الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر ومعه العلماء ضد الولاة يدافعون عن حقوق الشعب حتى أذعن الحكام لهم وكان من القرارات التي وافقوا عليها:

١ ـ ألا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها الشعب.

٢ ـ أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم.

٣ ـ ألا تمتد يد ذي سلطان إلى فرد إلا بالحق والشرع، انظر «الأزهر في ١٢ عامًا» ص(٢٠، ٢١).

نعم إن ما جرى من الحكومة يعرب عن تقديرها له، واعترافها بمكانته، ومكانة علمائه، وفضلهم، وأثرهم في المحيط المصري والعربي والإسلامي والعالمي، ولهذا لاذوا بشيوخه، وهرعوا إلى جنباته، وارتضوا حكم رجاله، ويرحم اللَّه شوقي إذ يقول:

واخشع مليًّا واقض حق أئمة ... طلعوا به زهرًا وماجوا أبحرًا

كانوا أجل من الملوك جلالة ... وأعز سلطانًا وأفخم مظهرًا

زمن المخاوف كان فيه جنابهم ... حرمُ الأمان وكان ظلهم الذرا

من كل بحر في الشريعة ذاخر ... ويريكه الخلق العظيم غضنفرًا

نعم هكذا كان الأزهر، وهكذا ينبغي أن يكون.

لقد استبشرت خيرًا وقلت في نفسي: إن هؤلاء وافتهم فرصة ذهبية تاريخية قل أن يجود الزمان بمثلها، فالشعب والحكومة كلاهما ينتظر منهم الكلمة الفاصلة، فيما تموج فيه الدولة من أحداث، وما يقع فيها من جرائم، وما يحدث فيها من فتن، وما تتعرض له من أخطار، فواجب عليهم أن يدرسوا كل قضايا الساعة، وكل أوزار الحكم، ويفحصوا أمور الدولة من جميع الجوانب، وبعد الدراسة المتأنية العميقة التي تشخص الأمراض يضعون العلاج في كلمة فاصلة مفصلة، واضحة موضحة في كل ما ألم بالدولة

والأمة، حدث هذا وصدر البيان، وفي رأيي أنه لم يكن مشبعًا ولا مقنعًا، وأنه اكتفى بفض الاشتباك بين الشباب والحكومة دون أن يتوغل في معرفة الأسباب، ويعمل على إزالتها ضمانًا للمستقبل، لقد صيغ البيان بأسلوب موجز اختيرت كلماته، وروجعت بدقة وعناية قبل قراءته، بل قبل الإعلان عنه، وهو يذكرنا بما كنا ندرسه في الأزهر من (متون) لا يستوعب الطالب معانيها إلا بعد مطالعة ما كتب عليها من (شروح)، وما كتب على الشروح من (حواشي) وما كتب على الحواشي من (تقريرات) مثال ذلك في البيان:

(وثقتنا كبيرة في دولتنا أن تزداد حرصًا على إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وتدعيم الفضائل والقيم الدينية والخلقية).

فهؤلاء الذين كتبوا البيان يشهدون للدولة ـ أي رجالها ـ بأنها حريصة على إحقاق الحق... إلخ، ولكنهم يطالبون منها زيادة الحرص، وهذه شهادة سجلها للدولة سبعة من كبار الشيوخ وخيارهم، وهم يؤمنون بأن اللَّه سائلهم عنها، وشهادة اثنين تكفي في نظر الشرع، فكيف بسبعة من جلة العلماء؟!!!.

ومن المعروف أن كلمة (الحق) كلمة جامعة لكل ما يستحسنه الشرع، ويعود بالخير على الفرد، أو الأمة، أو الدولة، بعكس (الباطل) فهو يعني ما ينكره الشرع، ويسيء إلى الفرد، أو الأمة، أو الدولة، ومشايخنا الأكابر ـ حفظهم اللَّه ـ استغنوا بالإجمال عن التفصيل إبراء للذمة أمام اللَّه، وأمام الأمة، ولا أدري كيف نصنف هذه الوقائع، وفي أي خانة نضعها، أفي خانة الحق، أم في خانة الباطل؟!!.

لا أدري هل إقامة تماثيل للحكام الذي طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، وظلموا العباد ولا تزال الدولة والأمة تقاسي العناء والغلاء والبلاء نتيجة سياستهم الخرقاء، أهذا من الحق الذي يجب أن تزداد الدولة حرصًا عليه، أم من الباطل الذي يجب إبطاله والإقلاع عنه، والتوبة منه؟!.

لا أدري أيكون اعتقال النساء والأطفال والأبرياء على الرغم من تبرئتهم في ساحة القضاء أيكون هذا من الحق أم من الباطل؟!.

لا أدري أيكون عرض الأفلام الهابطة، وإذاعة الروايات الساقطة التي تعلم الشباب العنف والجنس والرذيلة وتفسد أخلاقهم، أيكون ذلك من الحق أم من الباطل؟!.

لا أدري أيكون مكافحة الجماعات الإسلامية الذين برأهم القضاء مما نسب إليهم من عنف بعادل إمام ومسرحية الواد سيد الشغال أيكون ذلك من الحق أم من الباطل، لقد فاز عادل إمام بزفة إعلامية لا مثيل لها، فاقت الزفة التي ظفرتم في الأزهر بها، ودامت زفته أيامًا ولياليَ في حمى السلطة وترفها وسرفها وصلفها مع الاعتذار للخزانة المدينة لا أدري أيكون تكريم نجيب محفوظ لفوزه بجائزة نوبل على المستوى الرسمي والشعبي بإيعاز من أجهزة الدولة على الرغم مما في روايته التي فاز بها من تهجم على اللَّه ورسله وكتبه ثم إهمال الشيخ الغزالي بعد فوزه بجائزة فيصل في خدمة الإسلام أيكون ذلك من الحق أم من الباطل؟!.

أسئلة كثيرة وكثيرة جدًّا يتعطش شعبنا إلى معرفة إجابتها ولا نجد في البيان ما يعين الشباب على فهم الجواب؟!.

وبصراحة أقول: إن البيان يحتاج إلى شرح وحواش وتقريرات، وعلى الذين صاغوه أن يسارعوا بذلك ليكون بيانهم مشبعًا مقنعًا، كافيًا شافيًا تنتفع به الحكومة، وينتفع به الشعب!!.

ومهمة الأطباء أن يصفوا دواء لكل داء، وأن يرشدوا المرضى إلى ما يتعاطونه، وإلى ما يتحاشونه، وفي اعتقادي أن الذين وضعوا البيان أحسوا أيضًا بقصوره، وأنه يحتاج إلى إضافة ليكون مستساغ الطعم لدى الشعب، فطالب الشيخ الشعراوي قبل أن يقرأ البيان من الصحيفة التي في يده، طالب

باعتماد مشروعات القوانين الإسلامية التي وضعت على الرفوف، وطالب الشيخ محمد الطيب النجار بأن تتجنب الدولة العنف في تعاملها مع الشباب، وتسارع بالإفراج عن المعتقلين.

وأرى أن هذه المطالب هي أهم المطالب، وبها تنتهي الفتنة، ويستتب الأمن، وتسعد الأمة والدولة، وكان من الواجب أن توضع في صلب البيان لتبرز في صورة مطالب أجمع عليها العلماء، لا صورة مطالب فردية، وليكون لها من القوة ما يحمل الحكومة على سرعة الاستجابة لها، وما يحمل الشباب على حسن الظن بعلمائهم، والثقة بهم، والانقياد لهم، وأيضًا ليغلقوا الباب في وجه أجهزة الإعلام المغرضة التي تحاول أن تشوه صورتهم أمام الأمة، وتبرزهم بأنهم مع الحكومة، وضد الشباب على طول الخط!!.

*** لقد تضمن البيان أموراً ثلاثة على جانب كبير من الأهمية:**

١ ـ استنكار تكفير الدولة وأفراد الأمة، ولا يختلف حكيم منصف مع الشيوخ في أن المسارعة إلى التكفير دون تثبت يعتبر عملاً مستنكرًا شرعًا ويؤدي إلى فساد عظيم، ودولتنا والحمد للَّه تسجل في دستورها هذا المبدأ العظيم: (الإسلام دين الدولة الرسمي، ومبادئ الشريعة الإسلامية هي المصدر لقوانينها)، والشعب كذلك أكد هذا وأجمع عليه في الاستفتاء وطالب ولا يزال يطالب في إلحاح بالإسراع في التطبيق.

٢ ـ الدفاع الحر عن ولاة الأمور، والمديح الوافر، والثناء العاطر على المسئولين، والاعتذار عن إرجائهم للقوانين الإسلامية التي أنجزت بأنهم في انتظار الوقت المناسب، وفي هذا يقول البيان بالحرف:

«ونحن نعتقد في إيمان المسئولين بمصر بأنهم لا يردون على اللَّه حكمًا، ولا ينكرون للإسلام مبدأ، وأنهم يعملون على أن تبلغ الدعوة الإسلامية

مداها تحقيقًا وتطبيقًا، لكن انتظار الوقت المناسب هو الذي يدعو إلى التريث».

وهذا ـ فيما أظن ـ هو الذي دعا الشيخ الشعراوي ورفاقه إلى أن ينفوا عن أنفسهم أن يكونوا من علماء السلطة أو في خدمة الشرطة!!.

ومعنى ما قاله أصحاب الفضيلة أن الشباب مطالب بأن يحذو حذو العلماء الثقات فيعطى للحكومة ثقته وولاءه ـ كما فعلوا ـ وعليه ألا يستعجل تطبيق الشريعة الإسلامية، ويطمئن إلى أنه إذا جاء الوقت المناسب فستبادر الحكومة بتطبيقها فورًا!!.

وهنا أجدني مضطرًا إلى أن أوجه هذا السؤال إلى مشايخنا الأكابر خصوصًا إلى الشيخ الشعراوي: لماذا دعا الحكومة إلى إخراج مشروعات القوانين الإسلامية الموضوعة على الرفوف، أليس الأولى ـ وهو يتبنى هذا المبدأ ـ أن يترك الحكومة ـ وهو واثق فيها مُثْنٍ عليها ـ اختيار الوقت المناسب، أم أنه يختلف معها في الوقت ويرى بأنه قد حان الآن؟!!.

إذن فليعذر الشباب المسلم إذا طالب ـ كما يطالب فضيلته ـ بالإسراع في تطبيقها ليضمن لنفسه عيشة راضية مرضية، وحياة طيبة آمنة مستقرة في ظلال شريعة اللَّه الجامعة لكل خير، المانعة لكل شر، ومن حق الشباب عليه أن يساندهم، ويشكر لهم حرصهم، ورغبتهم في الاحتكام إلى الإسلام، والتزام الدولة بتعاليمه، ويحمد لهم ما يتحملونه في سبيل الدعوة من أذى مادي ومعنوي في أنفسهم وأهليهم، وأموالهم، وأعراضهم، وتشويه سمعتهم، فنالوا من الدعوة كل غرم، ولم ينالوا منها أي غنم إلا رضا اللَّه عز وجل، وكفى به مغنمًا، وكفى باللَّه وليًّا ونصيرًا.

٣ ـ الأمر الثالث: الذي تضمنه البيان هو أن مسئولية تغيير المنكر باليد تقع على عاتق من له ولاية في حدود ولايته حتى لا يؤدي إلى شيوع

الفوضى، أو الوقوع فيما هو أشد ضررًا، وأعظم خطرًا، وهذا كلام سليم يتفق عليه الفقهاء الحكماء ولا يختلف أحد فيه، واللَّه تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وتطبيقًا لهذا يجب فتح الأبواب للدعاة ليقاوموا الشر بالوعظ في المساجد، والنوادي، والأماكن العامة، وهذا يستلزم إلغاء القوانين التي تعترض الدعاة، وتهددهم بالعقاب، وتحول دون هذا الواجب ومهمة العلماء لا تقتصر على وعظ المحكومين، بل تتطلب وعظهم».

وهنا يذكر الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ عن أجهزة الإعلام الرسمية جرائم ومنكرات مذهلة لا يجوز السكوت عنها ثم يعقب بقوله:

«مشكلات كثيرة، وجرائم خطيرة متنوعة، منها ما يتعلق بنظام الحكم القائم، وكلها تحتاج إلى بحث ومراجعة ومعالجة، ولا يجوز أن نغلق أعيننا، أو نتهرب منها!!.

يجب أن يثبت العلماء حضورهم في الساحة، ويبذلوا جهودهم الصادقة والمتواصلة في علاج ما يعرض من مشكلات، ويتعرفوا على أسبابها، ليستأصلوا جذورها، ويجتثوا بذورها، ولا يكفي سبعة من العلماء ولا سبعون، بل لا بد أن نجند كل العلماء الصادقين الغيورين، ونضع كل إمكانيات الدولة في خدمتهم، لا بد من إقامة مجلس دائم، نشيط يقظ، لا ينتظر دعوة من أحد، بل يقوم بواجبه على الفور نحو ما يقع، وما يجد من أحداث تعرض سلامة الوطن والمواطنين للأخطار، يتعمق في البحث والفحص والعلاج على ضوء شريعة اللَّه، ويتخذ القرارات، ويتابع التنفيذ، وتبدو عليه مظاهر الحياة والحركة.

لقد كان من اللازم على العلماء الذين طلب منهم أن يبدو رأيهم أن يثبتوا حضورهم في كل ما يجري على أرض الوطن، ويوضحوا حكم اللَّه في كل هذه الأحداث ولو لم يطلب منهم، فالعلماء مطالبون بتغيير المنكرات، إن لم يكن باليد فباللسان والبيان، كان من اللازم أن يطالبوا بإعدام جالبي المخدرات، ومغتصبي الفتيات، وإنزال عقوبة قطاع الطريق على من يسرقون بالإكراه، ولا أظن الفرصة قد أفلتت من أيديهم، فلا يزال الخطر قائمًا، والأمر موكول إلى ضمائرهم، فلينهضوا بما أوجبه اللَّه تعالى عليهم، وما تنتظره الأمة منهم، وليصلوا حاضرهم بالأزهر بماضيه العريق!!.

* **أيها العلماء:**

لو قمتم بواجبكم في الدعوة على الوجه الأكمل، وصدعتم بالحق، وتحملتم كما كان يتحمل الرسول ﷺ في التبليغ ما وجد الشباب ـ الذين تتهمونه بالجهل والتطرف ـ سبيلاً إلى ما يقوم به، أو ما ينسب إليه، ولأغلقتم باب الفتنة، ونلتم رضا اللَّه والحكومة والأمة، وإلا فماذا يصنع الطالب الجامعي إذا رأى أمه ـ تغتصب أمامه وأمام أبيه، هل يصبر حتى يغيثه بوليس النجدة، أو حتى يتداركه أصحاب الفضيلة وورثة الأنبياء بموعظة بليغة مؤثرة، إن ما يتكون لديه من عقد نفسية تجعله يسارع بالانضمام إلى من يبشره بأن لديه علاج كل داء!!.

إن الفساد تعاظم وتفاقم، ولكي نقضي عليه يجب أن تهتم الدولة بنشر الثقافة والتربية الإسلامية في المدارس، وفي جميع أجهزة الإعلام ويجب أن نبادر بتطبيق شريعة اللَّه وقوانينه، ويجب أن يحرص العلماء والحكام على الانضباط في القول والفعل، وعلى أن يكونوا صورة طيبة، وقدوة صالحة، ومثلاً عليًا تجذب إليهم كل من رآهم، أو سمع عنهم، ويجب أن يتعاون العلماء والحكام والشعب وجميع الأجهزة المسئولة على البر والتقوى لا على

الإثم والعدوان، ويجب عندما نختلف في الرأي أن نلتزم بآداب الحوار، ونتجادل بالتي هي أحسن، فبهذا نعمل على نشر الخير والفضيلة وإزالة الشر والفساد والجهل والرذيلة وبهذا ندعم الدولة، ونقوي الصلة بين أفراد الأمة، ونوثق الروابط بين الشعب والحكومة، ونعيش في سعادة وأمن واستقرار.

*** أيها العلماء:**

إن الأمر جد، وليس بالهزل، فعلينا أن نرتفع إلى مستوى الأحداث، ونتكتل لدرء الأخطار عن الوطن والأمة، بخطة مدروسة، وليس يكفي أن نلقي بيانًا خاطفًا في مظاهرة إعلامية موجهة، بل لا بد من علاج حاسم نستمده من شرع اللَّه ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وفقنا اللَّه جميعًا لخدمة الدين والوطن، واللَّه تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل[1].

*** للَّه درك من إمام:**

بعد أن طوّفنا في بستان شيخنا الجليل بقية السلف الشيخ محمود عبدالوهاب فايد... لا يستطيع القلم مهما أوتي من لسن وفصاحة ومهما سطر القلم فلن يوفي ذلكم الإمام الرباني الصادق حقه... وسّع اللَّه نزله وأكرم مدخله وأظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ورزقه الفردوس الأعلى ومتّعه بالنظر إلى وجهه الكريم جزاء ما ذبّ عن دين اللَّه وصدع بالحق في وقت صمت فيه الجميع سقى اللَّه أعظمه التي عزّ عليها أن تلين قناة الدين.

---

(١) مجلة الاعتصام، العدد ١٠، يناير ١٩٨٩م، وكتاب «صيحة الحق» للمؤلف ص(٤١١ ـ ٤٢٧).

* أحمد حسن الزيَّات ينافق عبدالناصر فيقول «الوحدة الناصرية أبقى وأنمى من الوحدة المحمدية» فيرد عليه ليث الإسلام محمود فايد بمقالين:

كتب الشيخ محمود فايد تحت عنوان:

الوحدة المحمدية
خير وأبقى من الوحدة الناصرية
رد على مقال أحمد حسن الزيات بمجلة الأزهر

[نشرت في الاعتصام عدد ربيع الأول عام ١٣٨٣هـ الموافق أغسطس عام ١٩٦٣م في حياة عبدالناصر]

في مجلة الأزهر شهر المحرم سنة ١٣٨٣هـ كتب مديرها ورئيس تحريرها [أحمد حسن الزيات] مقالاً تحت عنوان: (أمة التوحيد تتوحد) وقد جاء فيه ما نصه (ص٤ ـ س ٧ ـ ١٨):

«إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة لأنها قامت على العقيدة.. ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول.. وإن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة لأنها قامت على السلطان.. والسلطان يعتريه الوهن فيزول.. أما الوحدة الناصرية فباقية نامية لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق، والحرية في الرأي، والديمقراطية في الحكم.. وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة ألا تستأثر فتستغل.. وألا تستبد فتطغى.. وألا تحكم فتتحكم.. والأثرة والطماعية، والطغيان والحسد كانت وما زالت علة العلل في فساد الزمان وهلاك الأمم».

هذا نص ما كتبه الزيات في مجلة تنطق بلسان الأزهر وتحمل عنوانه، وتتكلم باسم علماء الإسلام.. ولو قرأنا هذا في مجلة «روز اليوسف» لقلنا: «الشيء من معدنه لا يستغرب»، ولكن الذي يحز في النفس أن ينشر مثل

هذا الضلال في مجلة الأزهر، وأن يكون الكاتب والناشر مديرها ورئيس تحريرها، وأن يُستدعى الزيات من خارج الأزهر بعد أن تجاوز سن المحالين على المعاش من أبنائه ليقبض على مثل هذا المقال الهدام مائة جنيه من نفس خزانة الأزهر.. وأشد من هذا وأنكى أن يباع مثل هذا الهراء للناس على أنه دين خالص، وعلم مصفى.. رحم اللَّه الشاعر الذي يقول:

ولو كان همًّا واحداً لاحتملته ولكنه همٌّ وثانٍ وثالثُ

* **مناقشة الزيات في مقاله:**

يقول الزيات:

«إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة لأنها قامت عن العقيدة.. ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول.

ماذا يقصد الزيات بهذا؟ أيقصد أن يصرف الناس على رسالة محمد ﷺ، وأن يوجه أنظارهم إلى جهة أخرى يقيمون عليها وحدتهم، ويجدون لديها من وسائل الهناءة والسعادة ما لا يجدونه لدى رسول اللَّه ﷺ؟! وهل يؤمن معي بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

* وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

لقد أنقذت الرسالة المحمدية العرب من الضلالة، وعلمتهم بعد جهالة، وأزالت عن قلوبهم العماية والغواية، وأبعدت عنهم خرافات الجاهلية، وأباطيل الوثنية، وحررتهم من العبودية، وألَّفت بين قلوبهم كما يقول تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

* **يا أستاذ زيات:**

إن محمدًا ﷺ أُوحِي إليه، وما جاء به هو من قِبَل اللَّه.. ولقد كان يقول كما علمه المولى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩]، أفترى أن ما جاء به البشر أحكم مما جاء به رب البشر؟! صدق اللَّه العظيم إذ يقول: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

* **يا أستاذ زيات:**

إن الوحدة المحمدية التي تزعم أنها قامت على أساس قد يضعف ثم ينهار هي الوحدة التي أشاد اللَّه بها، ونوه بذكرها في هذه الآية الكريمة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن هذه الوحدة المحمدية قامت على أساس من تعاليم الإسلام.. والإسلام ليس عقيدة فحسب ـ كما حسبت ـ بل هو عقيدة وشريعة.. ونظام كامل.. ومنهاج واف للناس في كل نواحي الحياة.. عقيدة توثق العلاقة بين العبد والرب.. وشريعة توثق العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض.. عقيدة

تملأ القلب أمنًا وإيمانًا.. وشريعة تملأ الكون سلامًا وإسلامًا، ومحبة ووئامًا.. لقد تذوق العرب طعم الوحدة، وأحسوا بحلاوتها، وشعروا بلذتها بعد أن شايعوا النبي محمدًا ﷺ، واتبعوا النور الذي أُنزل معه فآمنوا بأن ربهم واحد، ورسولهم واحد، وكتابهم واحد، ودينهم واحد، وقبلتهم واحدة.. فاجتمعوا على وحدة العقيدة، ووحدة العبادة»[1].

* **ثم كتب بعد كلام طويل رائع:**

الزيات ينافق طول حياته:

«طبيعة النفاق يبدو أنها متأصلة في الأستاذ الزيات.. نما عليها وشب، وشاخ فيها.. ونضع أمام القراء عينة مما كتب وهو الأديب الذي يقول: «الأدب رسالة يوجه ولا يوجه».

في أخريات أيام فاروق وبالضبط في ٢٥ مايو سنة ١٩٥٢ كتب الأديب الكبير في مجلة الأزهر مجلد ٢٣ جزء ٩ ص٧ ما نصه:

«باسم اللَّه جل اسمه، وعز حكمه.. منزل كتابه هدى، ومرسل رسوله رحمة، وبهدي صاحب الرسالة محمد صلوات اللَّه عليه.. لسان الوحي، ومنهاج الشرع، ومعجزة البلاغ.. وبعطف صاحب الجلالة الفاروق.. ناصر الإسلام، ومؤيد العروبة، وحامي الأزهر، أعز اللَّه نصره، وجمل بالعلوم والآداب عصره».

هذا نص ما افتتح به الأديب الزيات مجلة الأزهر قبل طرد فاروق بشهرين.. وننشر إلى جانب ذلك ما افتتح به مجلة الأزهر في يوليه سنة ١٩٦٠ مجلد ٣٢ جزء ٢:

---

(١) المرجع السابق (ص٥٧ ـ ٥٩).

«كان ملكًا على مصر قبل يوم ٢٣ يوليو، وكان آية من آيات إبليس في الجرأة على دين اللَّه، وعلى حرم الناس.. بلغ من جرأته على اللَّه أنه كان كما حدثني أحد بطانته المقربين إليه إذا اضطرته رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة خرج إليها من المضجع الحرام فصلاها من غير غسل ولا وضوء، وأداها من غير فاتحة ولا تشهد، وكان يقول: إن أخوف ما أخافه أن يغلبني الضحك وأنا أتابع الإمام في هذه الحركات العجيبة.. وبلغ من جرأته على المحرمات أنه كان يغتصب الزوجة ويقتل الزوج، ويسرق الدولة ويسفه الحق، ويأخذ الرشا.. ثم أملى له الغرور فتبجح وتوقح وطغى (!!)».

هكذا تجرأ الزيات على فاروق بعد طرده.. وقد كان يدبج له المدائح في عهده.. وهكذا يكتب عنه جليس بطانته، وأنيس حاشيته.

نعم.. لقد عاش الزيات هكذا طول حياته يكتب ما يروج، وينشر ما يجلب له النعمة والعافية.. وحسبه أنه ظفر في عهد فاروق بلقب (صاحب العزة) وظفر في هذا العهد بأكرم جائزة.. وفي مجلة الأزهر لا زال (يستأثر فيستغل) فيقبض منها مائة جنيه ليخرج عدد ذي القعدة ضمن ذي الحجة، وليصدر عدد محرم في شهر صفر، وليكتب فيها كلامًا إنشائيًا يمجه كل من كان له ذوق سليم»[1].

*** رفقًا بأنفسكم وبالأمة:**

لا نخاف على رسول اللَّه ﷺ من استهانة بعض الكتاب بوحدته التي جاء بها.. ولكنا نخاف على الأمة إذا هي انحدرت إلى هذا المستوى.

لقد بلغ رسول اللَّه ﷺ مكانًا عاليًا لم يبلغه نبي.. فضلاً عن أن يناله ولي أو غير ولي.

(١) المصدر السابق (ص٧٧ ـ ٧٨).

كيف ترقى رقيك الأنبيـــاء يا سماء ما طاولتهـا ســماء
لم يســاووك في عـلاك وقــد حال سنا منك دونهـــم وسـناء

❑ إن رسول اللَّه ﷺ في غنى عنا وعن دفاعنا جميعًا بما حباه اللَّه من مكانة عالية، ومنزلة سامية.. وإذا كُنتُ قد بادرت بالرد على الأستاذ الزيات.. فذلك لاعتقادي أني أدافع عن الأزهر ومجلته وسمعته ورسالته.. بل لاعتقادي أني أدافع عن وجودي ووجود المسلمين الذين وجدوا العزة والكرامة، والهناءة والسعادة، والقوة والغنى، والحضارة والمدنية، والمساواة والحرية، والعدالة الاجتماعية في مبادئ الوحدة المحمدية التي جاء بها سيد البشرية صلوات اللَّه وسلامه عليه.. وما ضر الرسول ﷺ أن يأتي أحد الكتاب ينتقص مما جاء به أو يستهين بمبادئه:

ما ضر شمس الضحا في الأفق طالعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

❑ إن محمدًا ﷺ لا يزال اسمه يدوي على المنابر والمآذن في مشارق الأرض ومغاربها، آناء الليل وأطراف النهار.. وحسبه أن اللَّه رفع ذكره، وطيب نشره، وخلد أثره، وجعل له لسان صدق في الآخرين، وفي أفواه الملايين.. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤].

* نص العريضة التي قدمتها للدكتور محمود حب اللَّه أمين مجمع البحوث الإسلامية:

بعد نشر مقال الزيات قدمت عريضة إلى فضيلة الدكتور «محمود حب اللَّه» أمين مجمع البحوث الإسلامية وهو المسئول الأول عن مجلة الأزهر.. وهذا نصها:

السيد صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الدكتور محمود حب اللَّه.

السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.. وبعد..

فقد نشرت مجلة الأزهر في عددها الصادر في شهر المحرم سنة ١٣٨٣هـ مقالاً لمديرها ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد حسن الزيات تحت عنوان: «أمة التوحيد تتوحد» وفي هذا المقال وردت العبارة التالية (ص٤ عمود ١ سطر ٧ ـ ١٨) ونصها بالحرف:

«إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة.. لأنها قامت على العقيدة.. ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول، وأن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة.. لأنها قامت على السلطان.. والسلطان يعتريه الوهن فيزول.. أما الوحدة الناصرية فباقية نامية لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق، والحرية في الرأي، والديمقراطية في الحكم.. وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة ألا تستأثر فتستغل، وألا تستبد فتطغى، وألا تحكم فتتحكم.. والأثرة والطماعية والطغيان والحسد كانت وما زالت علة العلل في فساد الزمان وهلاك الأمم».

□ هذا نص عبارته.. ولنا عليها مآخذ:

١ ـ أنها تدل صراحة ودون ريب على أن الأساس الذي بنى عليه الرسول ﷺ وحدة الأمة أساس ضعيف لا يضمن لها البقاء، ولا يقوى على الصمود.

٢ ـ تتضمن أن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ قد خلا من المقومات والضمانات التي تضمن للوحدة ألا تستأثر فتستغل، وألا تستبد فتطغى، وألا تحكم فتتحكم.. وهذا دون شك بعيد عن الصواب، وكتاب اللَّه الخالد، وسنة نبيه الكريم ﷺ، وعلوم الأزهر وكتبه تشهد بأن الإسلام دين اللَّه، وشريعته صالحة لكل زمان ومكان.. ففيها كل عناصر الخير، ومقومات السعادة، وما يحتاج إليه البشر لصلاح دنياهم وأخراهم.

٣ ـ تتضمن انتقاص الرسالة، والتعاليم التي جاء بها الرسول ﷺ لكي يطهر القلوب، ويصلح النفوس، ويوثق الروابط بين اللَّه والناس، وبين الناس بعضهم مع بعض.

ومعلوم أن الرسول ﷺ مبلغ عن ربه.. فقد كان يقول كما في القرآن الكريم: ﴿إن اتبع إلا ما يوحى إلي﴾ فالانتقاص من شأن الرسالة انتقاص من شأن المرسل.. ونعوذ باللَّه من هذا.

*** يا صاحب الفضيلة:**

إن مجلة الأزهر تحمل في صدرها عنوان الأزهر وكرامته.. وهذا الذي نشره مدير المجلة ورئيس تحريرها يشين الأزهر، ويتنافى مع الأهداف النبيلة التي من أجلها أنشئت المجلة، ويسجل على الأزهريين قصورهم وتقصيرهم في خدمة الدين والدفاع عنه.

إن هذه السقطة الواضحة الفاضحة سيلتقطها المستشرقون، ورجال التبشير، وأرباب الديانات الأخرى في الداخل والخارج، لينالوا من الإسلام ويكيدوا له، وسيتلقفها خصوم الدولة ليشنعوا على علماء الأزهر، ويسيئوا إلى مكانة الجمهورية العربية في نفوس المسلمين.

*** لهذا أقترح:**

ـ التحقيق مع كاتب المقالة، واتخاذ ما يلزم لتوقي الوقوع في مثل هذا الخطأ.

ـ مصادرة الصحيفة، ونزع مقال الأستاذ الزيات.. ليكون البدء بمقال الإمام الأكبر (في مطلع العام الهجري) وهو ما كان ينبغي أن يراعى أثناء الطبع، وبعد نزع المقال لا مانع من إعادتها إلى باعة الصحف.

ـ أن يتحمل الأزهريون ما ينجم عن ذلك من خسائر مادية دون رجوع

على الخزانة.. وإني أعلن أني على أتم استعداد لدفع قسط كبير تقربًا إلى اللَّه ورسوله.

ـ معالجة الأستاذ الزيات لخطئه في العدد التالي، والإسراع بطبعه مع نشر كلمة لفضيلة الإمام الأكبر ترد إلى المسلمين ثقتهم في الأزهر، وتقوي إيمانهم بالدين.

ـ تدوين محضر رسمي تاريخي يشهد بأن الأزهر أدى رسالته وواجبه، ولم يسكت على هذه الزلة المنكرة.

❑ هذا رأيي.. وإني ليشاركني شعور الألم من هذه الزلة جميع علماء الأزهر.. بل عامة المسلمين.

وختامًا أسأل اللَّه تعالى أن يوفقكم وشيخ الأزهر ووزيره لخدمة العلم والدين.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

محمود عبدالوهاب فايد.

***

❑ وقد أرسلت برقية إلى الرئيس (جمال) ويؤسفني أن أقول: إنه لم يصنع شيئًا.. بل كان الرد إعادة مجلة «الرسالة» إلى «الزيات» ليتقاضى على إصدارها مئات الجنيهات بعد أن أغلقها تهربًا من الضرائب ـ كما قيل ـ.

نص البرقية التي أرسلها إلى
رئيس الجمهورية (جمال عبدالناصر)

السيد رئيس الجمهورية.. القاهرة.

من قلب مخلص أنبهكم لخطر المقارنة بين الوحدة المحمدية والناصرية المنشورة بمجلة الأزهر عدد المحرم، راجيًا مصادرة الصحيفة، ومحاسبة الزيات

على إساءته للرسول ﷺ وللأزهر.

محمود عبدالوهاب فايد.
المدرس بمعهد القاهرة

الإثنين ٣ صفر سنة١٣٨٣هـ
الموافق ٢٤ يونية سنة ١٩٦٣م

* * *

مع الزيات.. مرة أخرى

من لم يحترم الرسول ﷺ فلا حرمة له

نشرت بمجلة الاعتصام في عدد ربيع الآخر سنة ١٣٨٣هـ ـ الموافق: سبتمبر سنة ١٩٦٣م

لم يكن في نيتي أن أكتب عن الزيات بعد ما كتبته عنه في العدد السابق.. غير أن الحقائق المؤسفة التي سمعتها عنه، والهراء الذي قرأته له.. دفعني كل ذلك إلى الكتابة عنه مرة أخرى.. ردعًا له بعد أن خان البيت الذي نَمَّاه، والأزهر الذي آواه.. حضرت جزءًا من التحقيق الشفوي الذي قام به أمين مجمع البحوث الإسلامية في مقال الزيات.. فهالني أن أسمع أن مصحح المجلة نبه الزيات لخطئه وضلاله قبل طبع مقاله.. ولكنه أبى واستكبر، وعاند وأصر، وأخذته العزة بالإثم، فاستبقى هذه الفقرة الخطيرة المثيرة:

«إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة.. لأنها قامت على العقيدة.. ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول، وأن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة.. لأنها قامت على السلطان.. والسلطان يعتريه الوهن فيزول.. أما الوحدة الناصرية فباقية نامية لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق، والحرية في الرأي، والديمقراطية في الحكم».

أصر الزيات على نشر هذه الفقرة، وأعرض عن نصح الناصحين له، وتجاهل القيم الإسلامية، وتطاول على الحضرة النبوية، واعتدى ـ مع سبق الإصرار والترصد ـ على الأزهر ورسالته، وأساء بقصد الاستغلال إلى مجلته وكرامته. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

لقد أراد الزيات أن يحظى بالمال الوفير، والمرتب الكبير، فكتب يعلن عن نفاقه مبديًا سوأته، كاشفًا عورته.. وأقام البرهان ـ بتجاهله لنصح الناصحين ـ على أنه ليس في قلبه للَّه خشية، ولا في نفسه لرسوله هيبة، وأنه على شيخوخته لا يزال تائهًا في ضلالاته، حائرًا في ظلماته، لا يحرك قلمه إلا رنين الدينار والدرهم، ولا يغذي خياله إلا بريق المرتب والمغنم!!

نشر الزيات ثيابه القذرة على مرأى من الناس، وفوق مئذنة الأزهر، فثار الأزهريون، وهاجت الأمة، وارتفعت أصوات الشعب تطالب بتنحيته، وأصدرت جبهة العلماء بيانًا حكمت فيه بإلحاده وردَّته، وشنت المجلات الدينية الحرة ـ أمثال «الاعتصام» و«لواء الإسلام» و«العشيرة المحمدية» حملتها عليه، ووجهت سهام نقدها إليه، وخشي الزيات أن يستجيب الحكام لرغبة الأمة فحنى قامته، وطأطأ هامته، وطلع على الناس بإيضاح وبيان عسى أن تهدأ النفوس الهائجة.. ولكن البيان الذي أصدره ـ على الرغم من أنه أشير عليه بتعديله ثلاث مرات ـ كان بيانًا متهافتًا يفضح صاحبه، ويخزي كاتبه، ولننظر في بيانه، ولنقرأ مقاله من عنوانه: «وحدة.. لا وحدتان»:

❑ يا زيات.. لقد ذكرت في مقالك المسموم المشئوم ثلاث وحدات، وجعلت لكل وحدة خصائص ومميزات، وحكمت عليها بأحكام متغايرة

متباعدة.. فكيف يمكن أن تكون الثلاث أو الاثنتان واحدة.

جعلوا الثلاثة واحداً لو أنصفـــوا لم يجعلوا العدد الكثير قليـــلا

لقد قلت في مقالك: إن وحدة محمد ﷺ قامت على العقيدة.. والعقيدة قد يطرأ عليها الضعف والفناء.. أما الوحدة الناصرية فقد حكمت عليها أيها الأديب الملهم بالبقاء والنماء.. أيمكن بعد هذا أن تكون الوحدتان وحدة؟.. إن قلت: إن الوحدة الناصرية ترجع إلى وحدة النبي محمد ﷺ.. فالوحدة الناصرية إذن بحكم منطقك مهما تدم قد تضعف أو تحول.. وإن قلت: إن وحدة النبي محمد ﷺ ترجع إلى الوحدة الناصرية فقد جعلت التابع متبوعًا، والمتبوع تابعًا، وذلك ـ لعمر الحق ـ غاية الضلال.. بل غاية الخبال.

لقد كان مقالك شؤمًا على الوحدة.. فلم تكد تفرغ من كتابته حتى تعثرت وتعسرت، ووجدت نفسك في حرج وأنت تعالج خطأك فقلت لتستر موقفك: «الوحدة الناصرية المقترحة» خشية أن يبدو تهافتك في دعوى بقائها ونمائها أن الوحدة وهي مطمع الأنظار، وملتقى الأفكار، وهدف كل مسلم غيور، وغاية كل عربي مخلص لا تقوم بملق المتملقين ونفاق المنافقين.. ولكنها ستقوم وتدوم، وتتحقق وتتوثق بجهود المؤمنين، وجهاد المخلصين، وكسح المضللين.. لقد كتب الزيات ما كتب طمعًا في الربح الحرام، وغاب عنه وهو الأديب الكبير ما ورد في الأمثال «تجوع الحرة ولا تأكل بثديها»، وعاد بعد أن تعالت أصوات الأمة بالاستنكار يخاتل ويخادع، ويلتوى هذا الالتواء الذي ضحكت منه العامة، وسخرت منه الخاصة، راح يلقي التهمة على الإيجاز الذي أدى إلى هذه الجملة، وقد كانت أمامه فرصة ليطنب ويوضح فكرته يوم نُبِّه إلى ذلك قبل الطبع.. فلو كان في قلبه لرسول اللَّه ﷺ مهابة لرجع عن ضلاله، وأصلح من مقاله.. ولكنه بدافع

النفاق أبى وأصر، وآذى رسول اللَّه ﷺ من فوق منارة الأزهر.. فليسمع قول اللَّه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦١-٦٣].

* وليسمع قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٢].

❑ يا زيات.. لقد حكم اللَّه على أمثالك بالخزي العظيم، والعذاب الأليم.. فلتهنأ إلى حين في مجلة الأزهر بمائة جنيه تقبضها من خزانته على الرغم من أنوف الأزهريين.. ولتهنأ إلى حين في مجلة الرسالة بمئات الجنيهات تقبضها من خزانة الدولة على الرغم من أنوف أبناء الدولة المؤمنين.. ولتهنأ إلى حين بحرية الرأي قَدْحًا في وحدة خير الأنام.. على الرغم من أن دين الدولة هو الإسلام.. ولتهنأ إلى حين بالاشتراكية في الرزق تسوق إليك من عملك الجديد مئات الجنيهات بعد مقالك المشئوم بأسبوعين على الرغم من أنوف العاملين المخلصين الذين يظفرون بجنيهين علاوة كل سنتين.

ليسمح لي الزيات أن أستعير منه وإليه.. فأقول: «إنه اندس - في مجلة الأزهر - اندساس الإثم في الضمير، والداء في البدن.. فكان في الوحدة مظهر تفريق، وفي النهضة مصدر تعويق، وفي العقيدة مثار شبهة..

وحسبه أن مجلة الأزهر صارت في عهده (مذلة) بعد أن كانت (مجلة)»[1] .

❑ ثم ختم مقاله بالرد على ما قاله الزيات من إطراء العهد الناصري فقال:

لقد غالى في إطراء هذا العهد حتى انتقص الوحدة المحمدية، وأقحم الرسول ﷺ في المقارنة دون أدب ولا روية.. وما فعل ذلك عن إخلاص وإيمان.. بل جريًا وراء الذهب الرنان.. تمامًا كما صنع أيام فاروق قبل طرده.. وإلى أواخر عهده.. وهكذا الزيات طول حياته ينافق بغية القوت، ويكتب بقلم نقش عليه هذا المثل «طالب القوت ما تعدى».

يا زيات.. إن الرئيس عبدالناصر لو أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ ـ بنص الحديث ـ مُدَّ أحَدٍ من أصحاب النبي ﷺ ولا نصيفه، فكيف له يا جهول أن يبلغ مبلغ الرسول؟!.

ألا فلتسمح لي أيها الزيات وقد استضفتك اليوم على مائدة الاعتصام أن أقدم لك فاكهتك، وأسوق إليك هديتك: ««إن الكفر خير من النفاق.. وإن العداوة أفضل من الخديعة.. وإن الصراحة على كل حال عظمة، وإن المراءاة على أي وجه حقارة».

* وخير ما نختم به هذه الكلمة قول اللَّه تعالى: ﴿إِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

* وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ

(١) المصدر السابق (ص ٨٠ ـ ٨٨).

إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨ ـ ٨٩]»[1] ا.هـ.

*** عبدالناصر يسخر من علماء الأزهر فيردّ عليه الشيخ محمود فايد:**

في خطاب عبدالناصر الذي ألقاه في الذكرى التاسعة لثورة ٢٣ يوليو قال عبدالناصر:

«طبعًا بعده كده يمكن بعض المشايخ بقى يروحوا طبعًا كل واحد يخبط ديك رومي أو خروف عند الإقطاعيين ويطلع يدي فتوى أن الملكية لا يمكن لأحد أن يقرب لها.. طبعًا هو ما بيفكرش إلا في جوز الفراخ اللي بيروح يخطبه في العشوة، أو في الديك الرومي.. يعني اللي قال هذا الكلام كان أجير للرجعية، للإقطاع وللرأسمالية والعِمَّة كانوا بيحاولوا في هذا الوقت أن يضحكوا علينا بها».

فرد عليه الشيخ محمود فايد في مقال بعنوان: «فقرات تسترعي النظر وتثير الانتباه في خطاب الرئيس عبدالناصر الذي ألقاه في الذكرى التاسعة لثورة يوليو «نشر في مجلة الاعتصام بعددها الصادر في شهر ربيع الأول سنة ١٣٨١هـ ـ الموافق شهر أغسطس سنة ١٩٦١م، قال الشيخ فايد:

«هنا أحب أن أقف مع الرئيس وقفة قصيرة.. ومن حقي أن أقف معه.. فقد حدثنا سيادته عن عمر بن الخطاب.. وقد حفظنا من تاريخ عمر أن امرأة استوقفته فوقف وأطالت معه الحديث، وكان مما قالت: «لقد كنتَ من قبل عُمَيْرًا ثم صرت عمر، ثم أصبحت أمير المؤمنين، فاتق اللَّه وانهج سبيل الحق» فبكى عمر حتى اخْضَلَّت لحيته فقال رفيقه: كفى يا أمةَ اللَّه فقد أبكيت أمير المؤمنين.. فنهره عمر وقال: «لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا

(١) المصدر السابق (ص٨٩ ـ ٩٠).

خير فينا إذا لم نتقبلها».

❑ ليسمح لي سيادة الرئيس أن أناقشه.. وأرجو ألا أُتهم بأني أجير للرجعية.. فقد كنت من أرباب الأقلام المتواضعة التي حاربت الفساد، وقبل أن يخرج فاروق، وفي شهر أبريل بالضبط كتبت ولا أملك من السلاح سوى إيماني وقلمي.. كتبت في هذه المجلة المتواضعة «الاعتصام» تحت عنوان: «ضعف المسلمين اليوم» مقالة جاء فيها:

«ملوكهم وحكامهم معنيون بمناصبهم.. همهم أن تسلم لهم ولو على أيدي الغاصبين.. يسالمون عِداهم، ويذلون رعاياهم، يجمعون المال من دم الفلاحين، وعرق الكادحين لينفقوه على ملذاتهم، ويبعثروه على شهواتهم.. طوراً ينثرونه على موائد القمار، ودور اللهو، وكئوس الشراب.. وحيناً يبذلونه في مخاصرة النساء، وسماع الغناء، وما تتطلبه الليالي الحمراء.. والويل شر الويل لمن تسول له نفسه أن ينكر عليهم، أو يزجي النصح إليهم فجزاؤه السجن.. وإن شئت فقل: الإعدام. وحسبنا اللّه ونعم الوكيل».

هذا ما قلته [وأنا من ذوي العمائم] في وقت اشتد فيه الضغط، وكثر فيه الفساد والاستبداد والإرهاب[1] . فهل يجوز يا سيادة الرئيس أن يذاع على العالم وبجميع اللغات ـ ومن رئيس الجمهورية العربية ـ مثل هذا الكلام الذي تناثر رذاذه فصرنا نخشى منه على عمائمنا؟!! لقد فاتك أن تعقب بأن كثيراً من ذوي العمائم كان لهم مواقف كريمة، وغيرة مشكورة، وإحساس مرهف، وإنك لتعرف بعضهم، ولبعضهم عليك فضل.

وإذا قلنا: إن بعض الذين تحدثوا عن احترام الإسلام للملكية الفردية قد

(١) في الأصل «وكان رجال من الجيش ومن الجيش وحده هم الذين يحمون حمى الفاروق، وكان رجال من الجيش ومن الجيش وحده هم الذين يأكلون على مائدة ولي العهد الطفل والقاهرة تحترق».

أخطأوا في التطبيق، فقد كان من الممكن أن تكتفي بردهم إلى الصواب بالحجة، ومجادلتهم بالحكمة، ومناقشتهم بالتي هي أحسن حتى لا يضعف صوت العلماء عندما يفرض عليهم الدين أن يعلنوا كلمة اللَّه ضد الشيوعيين، والمستعمرين، والمفسدين.. إذ يكون في مقدور هؤلاء آنئذ أن يتهموهم بأنهم أكلة الفراخ، وأكلة الرومي.

لقد دعوتنا يا سيادة الرئيس إلى التسامح، وتناسي الماضي، منعًا لإثارة النفوس.. وقد خشيت وأنا أسمع هذا الكلام على نفسي، ووضعت مرارًا يدي أتحسس هذه العمامة، وأتعرف أين موقعها على رأسي؟!.

ومن فضل اللَّه أن شعبنا شعب فاضل واع، متدين ذكي أريب، يعرف مقاييس الرجال، ويميز الخبيث من الطيب.. يا سيادة الرئيس.. هذه كلمة عتب وقديمًا قال الشاعر:

إذا ذهب العتاب فليس ود ... ويبقى الود ما بقى العتاب

❑ وختامًا.. يكفي العلماء العاملين شرفًا وفخرًا أن أحكم الحاكمين زكاهم، ورفع قدرهم، وخلد ذكرهم.. فقال سبحانه: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١].

● يكفيهم في المدح والثناء قول أفضل البشر ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**» أخرجه أبو داود»ا.هـ.

عيد.. بأية حال عدت يا عيد

«نشر هذا المقال في عدد الاعتصام الصادر في ذي الحجة عام ١٣٨٨ الموافق مارس عام ١٩٦٩»

❑ ويأتي العيد الأكبر فيذكرنا بقول المتنبي:

عيد بأيه حال عدت يا عيد بما ... مضى أم بأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم ... فليت دونك بيداً دونها بيد

يجيء العيد وبيننا وبين أهلنا في العريش.. وسيناء.. وفي الضفة الغربية.. وفي مرتفعات الجولان.. وفي الأراضي التي احتلتها اليهود.. بيننا وبين هؤلاء عدو خبيث.. دنيء خسيس.. فرق الأهل، ومزق الشمل، وأراق الدماء، ونكل بالأبرياء، واعتدى على الأطفال والكهول والنساء، واستباح الحرمات، وانتهك المقدسات.. ولا يزال يرغي ويزبد، وينذر ويهدد، ولا زلنا نسمع أنات أهلينا المستضعفين، وصرخات إخواننا المنكوبين، وننظر حولنا فلا نجد إلا ما يقض المضجع، ويضرم الفؤاد، ويُطَيِّر عن العين الرقاد.

ومع هذا فكل من هنا مشغول.. مشغول بأمره عن أمر غيره، لا يفكر إلا في نفسه، ولا يهتم إلا بشخصه.. كل من هنا يلقى المسئولية كلها، ويلقي العبء كله على الجيش وعلى الحكومة.. كأنه لا مسئولية على طوائف الشعب وأفراد الأمة.. هكذا يشعرون.. أو هكذا يتعلمون.

كل من تلقاه يبدو على وجهه سمات الحيرة، وتطالع في جبينه أمارات القلق.

كل من في هذا الوطن الذي جار عليه اليهود يعيش قلقًا مضطربًا، لا يطمئن على نفس، ولا على أهل، ولا على مال.. فالخطر ماثل أمام أعينهم، يحيط بهم من كل جانب، ويحدق بهم من كل ناحية، ويهددهم في كل لحظة.

ومع أننا نشعر جميعًا بالخطر، وندرك سر البلاء، ومصدر الشقاء، يحلو لكثير منا أن ينام، ويلذ له أن يلهو، ويبحث عن وسائل السمر، وفرق الرقص.. إمعانًا في الاستهتار، وعدم المبالاة.. هل تبلدت أحاسيسنا؟! هل تحجرت مشاعرنا؟! هل عقمت أفكارنا؟! هل نحن في حاجة إلى ملاه تخدرنا، ومراقص تلهينا؟! أو في حاجة إلى وعي يبصرنا وسلاح يحمينا؟!

إن من أوجب الواجبات علينا ـ خصوصًا في أيامنا الحالكة ـ أن نستيقظ فلا ننام، ونَجِدَّ فلا نلهو، ونتسلح بالدين وبالوعي وبكل أنواع الأسلحة الحديثة.. إن من أوجب الواجبات على علماء الدين، وأرباب الفكر، وحملة الأقلام والقائمين على أجهزة الإعلام أن يبصروا الأمة بالخطر، ويبعثوا فيها روح القتال والاستبسال، ويحاربوا بالقول وبالفعل كل ما يثير الفتنة، ويقتل النخوة، ويثبط العزيمة، ويضعف الهمة، وينيم الأمة.

ما هذه الصور الخليعة التي تنشر؟! ما هذه الأغاني البذيئة التي تسمع؟! ما هذه السموم التي تعلن عنها الصحف وأجهزة الإعلام؟! ما هذه الرذائل؟! ما هذه المنكرات؟! أما آن لنا أن نفيق من سكرتنا، ونتسيقظ من نومتنا؟! أما آن لنا أن ندرك سر نكبتنا؟! أما آن لنا أن نسأل لنفهم: «لماذا لم يستطع جيشنا بأسلحته الوفيرة أن يبقى في سيناء ـ وهي أرضنا ـ عشرين يومًا؟ واستطاع العدو أن يبقى فيها على الرغم منا عشرين شهرًا قابلة للمزيد[1] ؟!.

□ سؤال يجب أن يسأله كل منا لنفسه، وأن يوجهه لغيره.. سؤال يجب أن نعرف جوابه الصريح الصحيح.. فإذا عرفنا الجواب، أدركنا الأسباب، وفهمنا أسرار ضعفنا وجب علينا أن نسارع إلى تفاديها، ونبادر بتلافيها.

في عام ١٩٤٨ ضاعت قطعة من فلسطين بسبب الأسلحة الفاسدة، وخَوَر نفر من الحكام.. ومن أجل هذا قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م.

في عام ١٩٦٧ ضاعت فلسطين كلها.. وضاع معها جزء من مصر..

---

(١) كان هذا يوم كتابة هذا المقال. وقد مضى إلى اليوم تسع سنوات، ونحمد الله على هذا النصر الجزئي الذي حققناه في رمضان سنة ١٩٧٣ بعد أن عدنا إلى الدين، وبعد أن طردنا خبراء الروس، وتوكلنا على الله معتمدين على أنفسنا، ونسأله سبحانه أن يوفقنا لاسترجاع كل أرض العروبة وأرض الإسلام.. آمين.

والأردن.. وسوريا والأسلحة جيدة متوافرة.

في عام ١٩٤٨ استطعنا بأسلحتنا الفاسدة أن ندق أبواب تل أبيب لأن القلوب كانت صالحة.

في عام ١٩٦٧ استطاع العدو أن يصل إلى القناة، ويحرز أعظم كسب في أقصر وقت وبأقل ثمن، ويغنم أسلحتنا الصالحة لأن القلوب كانت فاسدة.

إننا في هذه الأيام أحوج ما نكون إلى إصلاح شامل يرتكز إلى عقيدة دينية، ونأخذ من اليهود عبرة.. فقد استطاعوا تحت لواء الدين أن يتكتلوا، ويظفروا، ويجذبوا العالم إليهم.. على الرغم من أن تعدادهم في إسرائيل مليونان.. أي نصف تعداد القاهرة.. وتعدادهم في دول العالم ستة عشر مليونًا.. أي نصف تعداد الجمهورية العربية وحدها.

لقد أشاعوا في العالم بدعة الفصل بين الدين والدولة.. لكنهم أعلنوا ولا يزالون يعلنون في كل مناسبة أن دولتهم قائمة على التوراة.. التوراة التي بين أيديهم ويؤمنون بها.. اختاروا لدولتهم اسم «إسرائيل» وهو اسم نبي من أنبياء اللَّه.. به يتعلقون.. اختاروا لدولتهم لافتة دينية تستميل القلوب، وتجذب المال والرجال.

ولا تمر فترة حتى يصرح الصهيونيون بأسانيدهم الدينية في احتلال الأراضي التي وقعت في أيديهم.. لقد أعلنوا للعالم أن إسرائيل لها مطالب إقليمية دينية في أجزاء من الأراضي التي احتلتها.. لأن دولتهم تقوم على ثلاث مقومات: ١ ـ التوراة. ٢ ـ الشعب اليهودي. ٣ ـ أرض الميعاد.

وقالوا: إن الدين الذي أبقى على الآباء والأجداد هو الذي يُبْقي على الأبناء والأحفاد.. وتمشيًا مع هذا المبدأ وضعوا خطة لتربية أبنائهم تقوم على إلزام الطفل بتعلم العبرية في سن الثامنة، وقراءة التوراة بها في سن الثانية

عشرة، ودراسة التلمود وحفظ حكمه في سن الرابعة عشرة.. على هذا أقاموا دولتهم، وربوا ناشئتهم، يقول «هيرمان ووك» في كتابه «هذا ربي».

سألني ابن جوريون: كيف يمكن لليهود أن يقاوموا العناء في العالم كله؟ فأجبت عن طريق الدين.. فقال ابن جوريون: أجل هذا هو الطريقُ الوحيد.

إن اليهود لا ينسون أن يرفعوا شعار الدين في كل مناسبة.. ولما دخلوا بيت المقدس قالوا: الآن ثأرنا لأجدادنا في خيبر.. وزحفوا نحو حائط المبكى على بطونهم يبكون، وأسرع قائدهم (ديان) يقبله ويبلله بدمع عينه [الواحدة] بعد ساعات من استيلائه عليه، وكان على رأسهم جميعًا حاخامهم الأكبر يرفع التوراة بين يديه.

إن الحاخام هنالك هو الذي يوجه السياسة بلسانه ويده، بقلمه وخطبه.. وهو في إسرائيل له مكانة مرموقة.. فإذا ما سار على قدميه في أي شارع من شوارع إسرائيل يتوقف المرور فيه.. فلا يمكن لسيارة أن تمر أمامه.. وليس هذا التقدير للحاخام الأكبر وحده.. بل لكل حاخام يعيش في إسرائيل.. كما نشرت ذلك الأهرام في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٦٨ ص١ع٥.

إن التوراة تؤدي دورًا كبيرًا في صراع اليهود معنا.. في كتاب «المعتدون اليهود» (ص٥):

«لقد وجدنا اليهود الذين وقعوا في الأسر ومع كل منهم نسخة من هذه التوراة.. وكأنها سلاح من أسلحتهم في المعركة.. ومن الخطأ الفادح أن نعتبرها مجرد كتاب للبركة، أو نظام للعبادة.. ولكنها منهاج عمل بالنسبة لهم».

لقد وقف الإسرائيلي في المعركة ومعه سلاحان.. سلاح التوراة..

وسلاح المدفع.

ووقف العربي في المعركة.. فماذا كان معه؟ أكتفي بنقل هذا الخبر.. وقد نشر في العامود الثالث من الصفحة الأخيرة بجريدة الأهرام أول يونيه ١٩٦٧ أي قبل الحرب بأربعة أيام ونصه:

«وضع مجدي العمروسي مدير صوت الفن جميع الإمكانيات تحت تصرف إدارة التوجيه المعنوي في القوات المسلحة، كما بدأ في طبع ٤٠ ألف صورة كارت بوستال عليها صورة عبدالوهاب و٤٠ ألفًا عليها صورة عبدالحليم حافظ، و٤٠ ألفًا عليها صورة نجاة الصغيرة، و٤٠ ألفًا عليها صورة شادية.. على كل منها إهداء من صاحبتها.. سترسل من الغد إلى جنودنا الرابضين في الجبهة».

وفوق هذا الخبر أغنية لأم كلثوم وصور مختلفة لها في استديو ٣٥.

هذا ما نشر.. لقد اعتمدنا على الفن كل الاعتماد.. وفي يوم المعركة اختفى صوت الدين بين جلبة المغنيات والمغنين.

إن لدينا أجهزة دينية كان من الممكن أن تخدم الدولة والأمة، وتؤدي دورًا كبيرًا قبل المعركة وأثناءها وبعدها.. لكنا مع الأسف أهملناها.. فلم تقم بجهد يقنع الأمة، ويروي ظمأها، ويقوي أبناءها، ويرهب أعداءها.. لدينا الأزهر، والمعاهد، والكليات الأزهرية، ولدينا المساجد الدينية.. لكن دورها في الصراع الأخير مع العدو كان خافتًا باهتًا لا يتناسب مع مكانتها، ولا مع خطر المعارك التي كتب على الأمة أن تخوضها».

*** عبدالناصر والشيخ عاشور والشيخ محمود فايد:**

عندما نصح الشيخ عاشور عضو مجلس الشعب السابق في عهد عبدالناصر.. عندما نصح الأمة وحمّل الحكام مسئولية الاستخفاف بالدين، وقال عبدالرحمن النجار في بيانه: «إن عاشور لا يحمل شهادة» بإيعاز من

عبدالعزيز كامل نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف، كتب الشيخ محمود فايد مقالاً في مجلة الاعتصام عدد شوال سنة ١٣٨٨ الموافق يناير ١٩٦٩ تحت عنوان «مسئولية العلماء والأمراء» قال فيه:

«وإذا انحرف الأمراء، وظلموا العباد، ونشروا الفساد وجب على العلماء أن ينصحوا لله ورسوله، ويتخذوا كل وسيلة لإنقاذ السفينة.. فإن آثروا دنياهم، واشتغلوا بها عن أخراهم، ولم يرقبوا مولاهم ـ حرمهم الله لذة الدنيا، ومنعهم نعيم الآخرة، وغضب على الأمة بأجمعها، وأنزل بها عذابه، وأذاقها عقابه، وسلط عليها من يذلها ولا يرحمها.. قال ﷺ: **«لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليسلِّطَنَّ الله عليكم شراركم ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم»** أخرجه البزار والطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة.

إن من اللازم على العلماء أن يبلغوا أحكام الله ولا يكتموها، وينشروا تعاليم الله ولا يخفوها.. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٩].. عليهم أن يبذلوا جهدهم في النصح، ويقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحتملوا الشدائد التي يلاقونها.. فمن قبل أوذي خير عباد الله.. وهو رسول الله ﷺ، وسخر منه المجرمون.. فلم يضعف، ولم يتراجع.. بل ازداد صلابة في الحق، وثباتًا على المبدأ، واستمر في طريقه حتى كتب الله له النصر، ومكن له من خصومه، وأصبح اسمه مقرونًا بالتمجيد، وظل حتى عصرنا هذا يدوي على المنابر والمآذن في كل دول العالم شرقًا وغربًا، جنوبًا وشمالاً.. فما من دولة إلا وفيها مسلمون يعتنقون دينه، ويمجدون تعاليمه.. لقد ظلت ذكرى رسول الله ﷺ بعد مماته باقية، وآثاره خالدة، وتعاليمه حية تعلن عن قوتها وصلاحيتها لكل

زمان ومكان».

■ من كلام الشيخ محمود فايد الذي ارتجله أمام مجلس الشعب في يوم الخميس الموافق ١٦ أغسطس عام ١٩٧٣م:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

السيد/ رئيس اللجنة، الإخوة المشتركون معنا في لجنة الاستماع.. إليكم أوجه أبلغ التحية.

من أخيكم محمود عبدالوهاب فايد من رجال الأزهر الشريف والمعار للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

*** أيها الإخوة:**

لقد حضرت اليوم وأنا أعلم أن الكلمة الحرة الصريحة لبنة في بناء الوطن.. وأنا أعلم أيضًا أننا أحوج ما نكون إلى مراجعة شاملة في جميع شئوننا الدينية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والعسكرية، والإعلامية.. ذلك لأن الظروف التي نعيشها ظروف عصيبة والمرحلة التي نجتازها مرحلة رهيبة.. لقد قامت ثورة ٢٣ يولية من أبناء الشعب الذين عاشوا آلامه وآماله، ورحب الشعب بهم لأنهم من صميم القاعدة الشعبية.. فآمل أن يعالجوا آلامه، وأن يحققوا آماله.. ولكن ماذا جرى؟.

*** لا بد أن نأخذ العبرة، ونقتبس العظة:**

لقد كانت بيدنا ـ يوم تسلمت الثورة الحكم ـ غزة وسيناء والعريش كانت بيدنا سنة ١٩٥٢م.. وفي عام ١٩٦٧ م خرجت من يدنا غزة وسيناء والعريش واحتلتها إسرائيل.. كنا ـ كما قال الأخ القيسوني ـ دائنين بالأرصدة الإسترلينية بمبلغ (٣٥٠) مليون جنيه باعتراف انجلترا.. أو ٥٠٠ خمسمائة

مليون جنيه كما كنا نقول.. والآن أصبحنا مدينين بـ .... انقلبنا من دائنين إلى مدينين.. كنا نطالب بجلاء القوات الإنجليزية.. فأصبحنا الآن نطالب بجلاء القوات الإسرائيلية.. كانت مصانعنا في سيناء تحت إدارتنا، ولحسابنا.. فأصبحت تعمل تحت إدارة إسرائيل ولحسابها.. نعم لقد حرمنا من أرض سيناء ودخلها وثرواتها بعد أن كانت في حوزتنا، وأصبحت الآن وأصبح دخلها يشارك في بناء قوة إسرائيل، واقتصادها، والدفاع عنها، والتوسعة عليها.. هذه حالة مزعجة[1] تحتاج إلى أن نفكر.. ما الذي جرى وحدث؟!!!.

□ وأقول بصراحة: إننا استبعدنا الدين في هذه المرحلة كلها.. فترة قصيرة نعمنا فيها بروح دينية، ثم بعد ذلك قفزت مراكز القوة إلى السلطة، وتحكمت فينا، وملأت البلاد إرهابًا وفسادًا واستبدادًا.

فإذا بنا نرى الحالة كما نرى.

رأينا أوضاعنا قد انقلبت.. فبعد أن كنا نأمل الخير أصبحنا نخشى

---

(١) صرح بهذا أخيرًا الرئيس أنور السادات في مجلس الشعب يوم الأحد ١٤ مارس ١٩٧٦ نشرت الأخبار يوم الإثنين ١٥ مارس (ص٩) ما نصه:

«ترك لي عبدالناصر وهو كما تعلمون أخي وصديقي.. ترك لي تركة كلكم تعلمون ما هي هذه التركة.. موقف خارجي ممزق مع جميع العالم، ممزق مع الأمة العربية، ممزق مع أمريكا، ممزق مع غرب أوربا، ممزق مع دول كثيرة جدًا في هذا العالم.. ويكفي أمتنا العربية اللي هي عيلتنا تمزقًا آدي الموقف السياسي.. ترك موقف عسكري.. إسرائيل على ضفة القناة، والروس جاي كلامي عنهم وروه الويل.. حقيقي لم يكن له غير الروس.. لأنه بعد ما انقطعت خيوطه مع كل هذا العالم ما كانش باقي غير الروس.. الموقف العسكري هزيمة.. مرارة.. ألم.. الموقف الاقتصادي احنا في موقف اقتصادي لا نحسد عليه.. موقف صعب جدًا.. بذكر المجتمعون هنا أنني قلت لهم أنا عايز أقول لكم حقيقة هي أن الاقتصاد المصري تحت الصفر في أكتوبر ١٩٧٣ وأنا أشبهه برجل كامل.. ولكن كل دمه نزف من شرايينه».

الشر، ونتوجس خيفة مما يراد بنا.. هذا يتطلب منا أن نفكر كثيرًا لنسترد أرضنا، ونتوقى الأخطار والأشرار.. ما العلاج؟ وماذا يجب علينا في هذه الظروف؟.

❑ وأقول لكم بكل صراحة: إنه يجب أن نعيد للدين كرامته، وسلطته.

إنه لا يجوز بأي حالة من الأحوال أن نستبعد الدين خوفًا من هؤلاء القائلين: إن الدولة يجب أن تكون علمانية.. ولا يصح أبدًا أن تكون دولة دينية.. هؤلاء لا يجوز أن نستمع لقولهم.

تصفيق..

إنني أقول لكم بصراحة: إن ما حدث سنة ٦٧م ليس نكسة.. ولا هزيمة.. بل خيانة للدولة وإنه ليعجبني من السيد نائب الرئيس حسين الشافعي أن صرح بهذا..

وكان يعجبني أكثر لو أن صحح هذا يوم كان الرئيس الراحل موجودًا، وأن يقول له: لا.. إنها ليست نكسة ولا هزيمة.. وإنما هي خيانة.. لقد قالها اليوم، وكان بودي أن يقولها بالأمس.. لقد كان شعبنا يقال له: إنها نكسة فيردد الجميع بعد ذلك.. نكسة.. نكسة.. أذكر أنني يوم قيلت هذه الكلمة كتبت وقلت:

«لقد هزم الحكام.. ولم يهزم الشعب.. سلمت الأرض والجيش والسلاح لأعدائنا».

تصفيق..

نعم.. قلت هذا وكتبته.. وإذا بي أرى الرقيب يشطبها، وأخذت وقتًا طويلاً معه وهو يقول لي: إني أشطبها حرصًا على حياتك أنت!!.

قلت له: أي حياة بقيت؟ إنها حياة ذليلة مهينة.. لقد ضاع أكثر من (١٨) ألف جندي فلم لا يزيدون أيضًا جنديًا واحدًا وهو «محمود فايد»

ويقتل كما قتل هؤلاء؟. فليمت، وليغدر به كما غدر بهم.

قلت: له هذا.. ولكنه أبى ورفض، وقال: إن كنت مستعدًا لتضحي بحياتك فلست مستعدًا أنا لأضحي بحياتي.

نعم، قال المسئولون في مصر أولاً: إنها نكسة.. ثم قالوا: قد هزمنا في معركة.. وأخيرًا قال نائب الرئيس: إنها خيانة.. وأنا أقول: حقيقة إنها خيانة.

استبعدنا الدين لماذا؟ إن إسرائيل أيها الإخوة قامت على أساس ديني.. إن اسمها نفسه اسم ديني: {إسرائيل} اسم لسيدنا يعقوب.. كذلك عَلَمُها عليه نجمة تسمى {نجمة داود}!!.

قامت إسرائيل فجعلت عنوانها عنوانًا دينيًا لأنها تريد أن تستغل الدين، وتستغل اسم (يعقوب) نبي اللَّه الذي يشترك في احترامه وتعظيمه المسلمون واليهود والنصارى.. أرادت بهذا الاسم أن تستدر عطف الناس جميعًا، وألا يَلْعَن اسمها أحد.. أنا شخصيًا لا أستطيع أن ألعن (إسرائيل) إلا إذا قلت أو قصدت (إسرائيل) الدولة.

إسرائيل قامت على أساس ديني، ونظرية دينية، ولا تزال تدعو وتستخدم الدين في جميع معاركها حينما دخلت في سيناء.. هل تعرفون ماذا جرى أيها الإخوة؟!.

جرى أن هؤلاء الجنود اليهود كانوا مرهقين غاية الإرهاق.. ولو أن أي قوة عسكرية قامت عليهم، ودخلت عليهم واللَّه لما استطاعوا أن يقاوموها طويلاً، ولفروا أمامها.. ولقد حدثني رجل أثق به بأنه طلب أن يكلف الجيش أو فرقة منه بمحاربة اليهود في سيناء.. وقد كانت هناك بعض الفرص لاحتمال النصر، وعودة الأرض، فقال المسئولون: لا.. إننا أعطينا كلمة لمجلس الأمن فلا نتراجع!! تراجعوا على أرضنا.. ولم يتراجعوا في كلمتهم

التي قالوها في مجلس الأمن.. لم يتهيبوا الأمة، وسلموا أرضنا، وتهيبوا مجلس الأمن مع إسرائيل التي تتحدى علنًا كل قراراته، وتعلن أنها لا تلتزم إلا بما فيه مصلحتها.. إن هذه معارك حربية والحرب خدعة.. إننا أمام مستقبل أمة.. فكان يجب أن نحافظ عليه، ونرعاه ونهتم به، لقد كان الجيش اليهودي في غاية الإرهاق، وكان لا يستطيع أن يقعد في رمال سيناء حيث لا استعدادات ولا مظلات ولا مخابئ.. فالجيش اليهودي مضطرب.. مرتبك.. يتململ من شدة الحرارة ومن سوء الطقس، هل تعرفون ماذا جرى؟

ذهب موشى ديان إلى الحاخام، وقال له: الجيش مضطرب في سيناء بسبب سوء الأحوال الجوية.. فقال له الحاخام: سأذهب بنفسي.. وذهب الحاخام إلى الجنود وقال: هنا الجنة.. من يمت هنا دخل الجنة.. عندئذ تحمس الجنود للبقاء، وتسمرت أقدامهم في سيناء.. نعم لقد استعملوا الدين.. استخدموه ولم يهملوه في المعركة.. إذن يجب علينا أن نستعمل سلاح الدين.. فالدين لا يجوز أن نهمله.. فديننا أيها الإخوة ما هو؟ هل هو دين نتعير من أن ننطق به؟ ونأتي به على ألسنتنا؟ ونسير على نهجه في حياتنا؟ لا.. إن ديننا أيها الإخوة دين قويم يعمل للدنيا والآخرة.. وإذا أردنا العلم فهو يدعونا إلى العلم، وبأوسع ما تتحمله هذه الكلمة من معنى.. فلا مبرر لما يطالب به العلمانيون.. لماذا؟»[1].

*** العلماء الرجال:**

بقلم الأستاذ محمد عبدالله السمان

❑ ما أكثر العلماء.. علماء الدين.. ولكن ما أقل العلماء الرجال..

(١) «عالم أزهري حر» (ص: ٢ ـ ٢٤).

ويبدو أن العلماء الرجال أصبحوا اليوم كالحقيقة حين كان يبحث عنها أحد الفلاسفة في وضح النهار وبيده مصباح مضيء.. والعلماء.. علماء الدين.. الذين بلغوا من الكثرة بمكان هم فقط حملة مؤهلات لا أكثر ولا أقل.. أما العلماء الذين بلغوا من الندرة بمكان أيضًا هم العلماء الرجال ذوو العقائد والمبادئ والضمائر.. وذوو النفوس العالية العفَّة الذين يتمثل فيهم قول البارودي ـ رحمه اللَّه ـ:

خُلِقْتُ عيوفًا لا أرى لابن حرة عليَّ يدًا أغضي له حين يغضب

❑ والعالم الجليل أخي فضيلة الشيخ محمود عبدالوهاب فايد ـ بلا أدنى مجاملة هو في غنى عنها ـ من هؤلاء العلماء القلائل الذين يبحث عنهم الإسلام المغلوب على أمره وسط التحديات التي تحيط به من كل جانب، وتهب عليه من الشرق المادي الملحد، والغرب الصليبي المتعصب على السواء.. وتبحث عنهم قضايا الإسلام، وقضايا المسلمين التي قل أن تجد اليوم من يأخذ بيدها!!.

❑ لقد عرفت أخي الشيخ «فايد» بقلبي قبل أن أعرفه بعقلي.. عرفته بقلبي مؤمنًا عميق الإيمان.. إنسانًا بكل ما تحمل كلمة الإنسانية من معنى.. فأحببته.. وعرفته شجاعًا تنبع شجاعته من إيمانه.. قويًا يستمد قوته من عقيدته.. فازددت حبًا له!!.

❑ عرَف «الشيخ فايد» طريقه إلى «مجلة الاعتصام».. فعرف مكانه الصحيح اللائق به، وسعد بالاعتصام وسعدت به، وكان لمقالاته الجريئة القوية أثرها الطيب في نفوس القراء، وتأثيرها العنيف على أعناق الطواغيت التي نكبت مصر بها، وأقضت مضاجع الشراذم المتآمرة على الإسلام التي تسللت إلى مصر بأفكارها وسمومها في غيبة «الدعوة الإسلامية» الممتحنة..

❑ وواجه الشيخ فايد الطواغيت وهي في فورة طغيانها، فلم يَحْنِ لها رأسه.. وأحنى غيره من العلماء رءوسهم دون أن يواجهوا الطواغيت لكيلا

تواجههم الطواغيت.. والذين تزلفوا إلى الطواغيت من العلماء ـ حتى في وهنها وهزيمتها ـ كنا نسقطهم من الحساب.. والذين تزلفوا إلى الطواغيت بعد أن هلكت.. بل يوم أن هلكت.. لم نسقطهم من الحساب لأنهم كانوا في نظرنا بلا اعتبار حتى يحاسبوا!!.

❑ والعجيب أن الذين مالأوا الطواغيت في قوتها وفي ضعفها في انتصاراتها الزائفة، وفي هزائمها الحقيقة هم اليوم أطول الناس لسانًا على الطواغيت بعد هلاكها.. بينما الذين لم يجودوا على هذه الطواغيت في حياتها بكلمة تزلف واحدة، بل واجهوها بإيمانهم هم اليوم أقل الناس نهشًا في أعراض هذه الطواغيت.. لأنها في نظرهم أصبحت أهون من أن يشهروا عليها لسانًا!!.

❑ وبعد.. فلعلي لم أقل غير الحق بالنسبة لأخي الشيخ فايد.. بل الحق إنني لم أوفه حقه كما ينبغي تاركًا لكتابه الذي بين يدي القارئ المسلم اليوم ليستكمل عني ما قصرت فيه!!.

واللَّه تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل..[1] محمد عبداللَّه السمان ـ القاهرة.

*** فقرات من مقال الزعيم أحمد حسين:**

في «مجلة الاعتصام» عدد رمضان ١٣٩٥هـ

❑ قال الأستاذ أحمد حسين:

في عهد الظلام. قاد الشيخ محمود فايد الحملة ضدهم وكتب كتابة من نار تحرق الكافرين.

«في الفترة التي ساد الظلام والطغيان في الجزء الأكبر منها.. حيث كان

(١) وبالحق صدعنا في وجه الطغيان عالم أزهري حر يواجه السلطان الجائر بقلمه.. وقلبه ولسانه لمحمود عبدالوهاب فايد (ص١٧ ـ ١٨) دار الاعتصام.

الرجل قد يخرج من بيته فلا يعود إليه، ولا يعرف آله وذووه أين ذهب.. ثم طلب منهم أن يكفوا عن البحث عنه.

في هذا الجو المخيف الخانق الذي أرهب أشجع الشجعان، وجعلهم لا يتكلمون إلا همسًا إن هم تكلموا.

في هذا الوقت بالذات فتحت مجلة الاعتصام صدرها للشيخ محمود فايد الأستاذ بالأزهر، وعضو الجمعية الشرعية البارز، لكي يتعقب كل ما كانت الأمة المسلمة تراه ضارًا بدينها وكيانها..

ولما كنت في ذلك الوقت محتفظًا بصحتي فقد كنت من قرائها المواظبين، بعد أن بدأ ما تنشره من مقالات للشيخ محمود فايد يلفت الأنظار، ويتسامع بها الناس!!.

فطالعنا مقالات دبجتها يراعة الشيخ المؤمن (محمود فايد) تتعقب الدستور الجديد الذي صيغ للبلاد، ويقف أمام الكلمات المشبوهة، والصيغ التي أريد بها صبغ البلاد بالصبغة الحمراء.

وعندما فتحت البلاء على مصاريعها أمام الروس، وألوف ممن سموهم بالخبراء.. وقد كشفوا لنا أخيرًا عن هول ما جرى وقتئذ، وكيف دُعِيَ الروس ليكونوا قادة أسلحتنا.

ومرة أخرى كانت الاعتصام بالمرصاد، وامتلأت صفحاتها بمقالات الشيخ فايد تحذر.. وتنذر.. وتتعقب.. وهي في هذا كانت الصوت الوحيد الذي ارتفع.

وحدث في إحدى المرات أن انطلق رئيس الدولة ـ على أسلوبه في الحديث ـ فراح يطعن في المشايخ بدون أي تحرز أو تحرج فكان مما قاله:

«الشيخ من دول يرقع وزة ويروح فاقع فتوى». وهذا كلام لا يمكن بحال أن نخاطب به الدنيا كلها.. والمهم أن هذا كلام قيل وسمعته الملايين.. وليس إلا صوت الاعتصام من ارتفع بالاعتراض والاحتجاج..

فكتب الشيخ محمود يوجه الحديث مباشرة لرئيس الدولة.. وراح يسائله: لمصلحة من يقال هذا الكلام على فرض صحته؟.

ولفت نظر رئيس الدولة أنه في حاجة لتحقيق أي خير لمصر لهؤلاء المشايخ.. فما كان يصح بحال من الأحوال أن يؤذيهم هذا الإيذاء!!.

وحدث أن سقط رجل[1] اعتبر في وقتٍ ما أحد زعماء الأدب في مصر.. وضاعف في خطورة سقطته أنها جاءت على صفحات «مجلة الأزهر» وحتى هذه الساعة التي أخط فيها هذه الكلمات لا أرى فيها تعليلاً لهذه السقطة.. فوصفُ الرجُل بالنفاق لا يكفي لتفسيرها.. لقد كانت شيئًا أكبر من النفاق، وتلتبس بالكفر.. والتعليل الوحيد لهذه السقطة هو أن الشيطان أجرى على قلمه هذه العبارات الناطقة بالكفر ليكون في كتابتها ونشرها على صفحات «مجلة الأزهر» ابتلاء وامتحان من اللَّه للمسلمين.. وكان من الممكن أن يخيب المسلمون في الامتحان ويستحقون بذلك أن يحل بهم غضب اللَّه.. لولا أن قامت «مجلة الاعتصام» بواجبها فتحولت صفحاتها إلى شعلة من الغضب لدين اللَّه عز وجل ولرسول اللَّه ﷺ.. وتوالت برقيات الاحتجاج على ما قيل، وقاد «الشيخ محمود فايد» الحملة، وكتب كتابة من نار تحرق الكافرين.. وفي هذه المرة لم يجامل، ولم يلاين.. وإنما وصل إلى حد الهجوم السافر، والتحدي لرئيس الدولة نفسه.

وقبل أن أروي ما قاله الشيخ محمود فايد الذي أحفظه عن ظهر قلب برغم مرضي ومرور ما يقرب من اثنتى عشرة سنة على كتابته يجب أن أشير إلى ما قاله هذا الكاتب في سقطته..

❑ قال الرجل تعليقًا على ما تم من وحدة بين مصر وسوريا ما معناه:

«إن الوحدة التي أقامها سيدنا محمد والوحدة التي أقامها صلاح الدين قد انفرط عقدهما.. أما الوحدة الناصرية فباقية خالدة!!».

(١) هو الأستاذ «أحمد حسن الزيات».

فهاجم الشيخ محمود فايد كاتب هذه العبارات بكلمات تتعداه إلى رئيس الدولة وتتحداه.. وما زلت أحفظ مما قاله:

«إن الرئيس لو أنفق مثل أحد ذهبًا لما وصل إلى مُد أحد صحابة رسول اللَّه ﷺ فكيف بالرسول يا جهول!!».

وكان من الممكن أن يطيح ذلك كله بأسرة الاعتصام.. فضلاً عن الكاتب.. لولا أن صَدَقَ اللَّه وعده فدافع عن الذين آمنوا.. فقد حدث أن كل سفراء الدول الإسلامية احتجوا أن يقال هذا الكلام، ووجدت الدولة نفسها في مأزق فلم تجد أمامها إلا مجلة الاعتصام ترسلها إلى السفراء وتقول لهم: «رجل أخطأ ومجلة الاعتصام ردت عليه»[1].

أحمد حسين

*** شهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه:**

بقلم الزعيم أحمد حسين

فرغت لتوي من إعداد مقال بهذا العنوان بعثت به إلى مجلة «الاعتصام» ومحور المقال هو الحديث عن الرجل الذي قام برفع الحرج عن المسلمين في المدة من ١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ ولولاه لأثم المسلمون جميعًا.. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات التي إذا قام بها البعض سقط الحرج عن الباقين.

وأشهد.. لقد قام عنا الشيخ محمود فايد بهذا الواجب.. فحيث دخلنا جميعًا في الشقوق لسبب أو لآخر وجد محمود فايد في مجلة «الاعتصام» ميدانًا ينافح فيه عن الدين ورجاله، وقد تمنيت على أصحاب مجلة «الاعتصام» أن ينشروا هذه الصفحات المطوية لتظل نبراسًا على مدى

(١) المصدر السابق (ص١١ ـ ١٦).

الأيام للمجاهدين والمصلحين، وكيف أن كلمة الحق لم تعدم نصيرًا لها يتحدى الطاغية في ذروة جبروته غير هيَّابٍ ولا وجل.. ولم أكن أدري أن اللَّه سبحانه وتعالى قد آذن بتحقيق أمنيتي.. فلم أكد أفرغ من كتابة المقال حتى بشرني المبشر بأن مقالات أخي وحبيبي وحبيب الملايين «الشيخ محمود فايد» سوف تجمع في كتاب، وأنني مدعوٌّ لأن أقدم الكتاب ببضع سطور.. ولقد أشرت في مقالي السابق إلى بعض المعاني التي تقال في هذا الصدد.. ولذلك أكتفي هنا بذكر ما لم أقله هناك.

*** اللَّه يضرب الكافرين:**

قلت: إن الشيخ محمود فايد غضب للَّه عز وجل، ولرسوله ﷺ عندما زلت قدما رجل اعتبر في يوم من زعماء الأدب في مصر فإذا به يسقط سقطة كبرى فيقارن بين عمل قام به سيدنا ونبينا محمد ﷺ.. وآخر قام به جمال عبدالناصر.. ورجَّحَ مَا قام به «جمال عبدالناصر» وزعم أن الوحدة التي أقامها بين (مصر وسوريا) أخلد وأدوم.. فكان أن رد «الشيخ محمود فايد» رده الذي احتفت به السموات والأرض.. لأنه لم يقف عند حد الرجل الذي سقط.. وإنما تعداه إلى الممدوح نفسه فوضعه في مكانه الصحيح.. وهو أنه لو أنفق ملء أحدٍ ذهبًا لما وصل إلى «مُدّ أحد الصحابة» وسيرى القارئ هذه الملحمة في حينها.

*** كرامة للشيخ محمود فايد:**

وفي مقالي لمجلة «الاعتصام» بينت آية اللَّه الكبرى.. وكيف دافع عن الذين آمنوا.. ولكني أذكر هنا كرامة خصَّ بها اللَّه سبحانه وتعالى عبده الشيخ محمود فايد.. وهو ما يجعلني أحبُّه الحبَّ كله، وأقدمه على نفسي، وعلى كل من عرفت.

فقد وقع الشيخ محمود في يد الزبانية من رجال السجن الحربي.. أي واللَّه.. السجن الحربي وهو في عنفوانه عندما كانت الناس تقتل من

التعذيب، وكانت الكلاب تنهش لحم المسجونين، والأعراض تهتك، وحيث كان ضرب مائة جلدة هو لونًا من ألوان التحية والود.. وسط هذا الجو وقع الشيخ محمود فايد بعد أن قال ما قال، وكتب ما كتب.. فإذا به يستغيث بربه فأغاثه.. فلم يَبتْ سوى ليلة واحدة في السجن الحربي، خرج بعدها معززًا مكرمًا تحفه المهابة والجلال.. وما قولك في أنهم ساوموه على أن يكتب ضد الإخوان المسلمين فرفض.. ولست في حِلٍّ من ذكر تفاصيل ما حدث.. وعسى أن لا يكون لديه مانع أن يروي ذكرياته عن هذا الحادث.. أما بالنسبة لي فالأمر في نظري كرامة مما يكرم بها اللَّه أولياءه الصالحين.. وقديمًا قال اللَّه عز وجل: ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

وحسبي أن أشير إلى ما جعلته عنوانًا لأحد الفقرات من أن اللَّه عز وجل ضرب الذين كفروا.. وكانت ضربته أن قصم ظهر هذه الوحدة التي زعموا أنها أدوم وأخلد.

وبعد..

فما كانت غضبة محمود فايد إلى اللَّه ودين اللَّه.. لم يكن طالب شهرة أو منصب مما يسعى له السياسيون فيجازفون ببعض المواقف، بدليل أنه يعمل في خدمة دين اللَّه الآن وبعيدًا عن الأضواء بعد أن انزاحت الغمة، وسقطت عصابات الشيطان.. فهو يعيش الآن بجوار رسول اللَّه ﷺ في المدينة المنورة.. حيث يقوم بالتدريس في جامعاتها لمئات الطلاب الذين جاءوا من كل فج عميق ليكونوا في الغد مصابيح الهدى لأقوامهم، وما أسعدهم بجوار الرسول العظيم ﷺ وتلقيهم العلم على يد الشيخ محمد فايد.. ليتني بصحتي إذن لكنت معهم فأفوز فوزًا كبيرًا».

أحمد حسين

٣٦ حي الروضة ـ القاهرة
٧/٧/١٩٧٥م ـ ١٣٩٥هـ

شيخ الحديث ومحدث الزمان

الشيخ ناصر الدين الألباني

إمام الحديث في هذا العصر بلا منازع.

❑ يقول الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني ـ حفظه اللَّه ـ:

«لقد ذب ناصر الدين عن السنة خمسين عامًا تحريف الغالين وانتحال المبطلين، حتى أصبح حديث رسول اللَّه ﷺ والدفاع عنه جزءًا من حياته ودمه الذي يجري في عروقه، فحورب كثيرًا من أقرانه، ومن متعصبة زمانه فزجّ في السجن مرتين بسبب العداوة والبغضاء وكان دائمًا يردد مقولة يوسف عليه السلام في كتاب اللَّه: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ الآية [يوسف: ٣٣].

وقد كان من نعم اللَّه على الشيخ ناصر أثناء سجنه أن دعا المسجونين إلى ما كان يدعو إليه خارج السجن، وهو الكتاب والسنة ونبذ الابتداع في الدين والانقياد لقول اللَّه عز وجل، وقول رسوله ﷺ، وترك التقليد، فاستجاب لدعوته خلق كثير منهم، وحث الناس في السجن على صلاة الجماعة والجمعة وهذه أول مرة تقام صلاة الجمعة في القلعة من بعد سجن ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ.

واستفاد الشيخ من سجنه أنه ألف فيه مختصره على صحيح مسلم بن الحجاج ـ رحمه اللَّه ـ وهو غير اختصار مسلم للمنذري الذي حقق أحاديثه الشيخ»[1] ويذكر فضيلة الشيخ الألباني المشكلات التي يتصل بعضها برقاب

(١) للشيخ ـ رحمه اللَّه ـ ردّ قوي على نجيب محفوظ وروايته «أولاد حارتنا» أو «موت الإله».

بعض من آثار دعوته إلى الكتاب والسنة الصحيحة:

«فمرة يدعوه وكيل وزارة الداخلية لشئون الأمن، ليبلغه طلب مفتي أدلب منع الشيخ من دخول تلك البلد، وإبعاده عن منطقة الحسكة، ومرة أخرى يتلقى دعوة من الشرطة بوجوب مواجهة سماحة مفتي دمشق، فلم يسعه سوى التوجه إليه، وإذا مكتب سماحته حافل بالمشايخ الذي حُشدوا لهذه الغاية، وأثير بعض النقاش إلا أنه لم يستمر طويلاً إذ لم يكن من خطة القوم استمراره، واكتفى سماحته بأن وجه إلى الشيخ تهمة إثارة الفتنة!! وتحت التهديد اضطر الشيخ إلى توقيع تعهد بألا يقدم على الخطابة في الناس... وكان ذلك تعهّد غير ذي موضوع بالنسبة إلى الشيخ؛ لأنه غير ذي صلة بالخطابة أصلاً. ويختم الشيخ الألباني عرضه المؤسف بهذا الخبر الغريب، وهو أن نقمة الخصوم قد تجاوزت حدود المضايقات إلى إباحة الدم، وذلك بما أذيع عن فضيلة رئيس رابطة العلماء من أنه أفتى بقتله!!»[1].

«وقد أتاح له السجن الاتصال بمن لولا ضرورات السجن لما فكّروا يومًا بلقائه، فضلاً عن الدخول معهم في حوار عدّل الكثير عن أفكارهم عن الشيخ وعن السلفية»[2].

❑ يقول الشيخ محمد المجذوب في كتابه ص(٢٩٨ ـ ٣٠٠):

«وطبيعي أن حركة ينهض بها ذو علم لإحياء السنة والدعوة إليها لا بد أن تثير غضب المخالفين لها أيًّا ما كانوا، وهكذا انداحت مساحة المعارك هذه حتى تجاوزت سورية إلى مختلف الأقطار الإسلامية.

وأنا هنا أعلن دون تردد أني بجانب الشيخ، أنافح عن دعوته للرجوع

(١) «الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه» للشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني ص(٢٨ ـ ٢٩) ـ الدار السلفية.

(٢) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

إلى الكتاب والسنة وفهمهما على منهج السلف ثقة مني بأن هذا المسلك إحياء للتفكير الإسلامي الحر، وإزالة للجمود الذي ران على عقول كثير من المسلمين وأبعدهم عن منهل الإسلام الصافي.

قالوا ألا كلمة في الشيخ تنصفه ... فقد طغى الجور حتى في الموازينِ
شُنَّت عليه حروب لا يسوّغها ... عقل يرى الحق في ظل البراهينِ
فقلت: فوق ثنائي ما يبلِّغه ... محدث الشام عن خير النبيينِ
وردّه الجيل للوحي الجليل يدٌ ... ما إن يكابر فيها غير مفتونِ
وحسبه أنه هزّ العقول وقد ... باتت من الحجر والتقليد في هُونِ
فأصبحت ذات وعيٍ ليس يعجزهُ ... التمييز ما بين مفروض ومسنونِ
والدين سرٌّ من الرحمن بيَّنه ... رسولهُ، وسواهُ محضُ تخمينِ
والجامدون حيارى ليس في يدهم ... إلا رواية مجروحٍ لموهونِ
فما عسى أن يقول الشعر في رجل ... يدعوه حتى عِداهُ: ناصرَ الدين!
وأي ضيرٍ إذا فردٌ تجاهله ... وقد فشا فضله بين الملايين!

* * *

سجن الشيخ الألباني عام ١٩٦٧م لمدة شهر فقط، ثم سجن بعد ذلك نحو ستة أشهر.

❑ يقول الشيخ الألباني: «إنه هو الذي سُجِن في سبيل التوحيد».

❑ لقد خاف أصحاب السلطان من الإسلام نفسه إذ هم واثقون أن كل كلام للألباني في الإسلام الصحيح هو تشهير بحكمهم وتسفيه لأحلامهم، وقد جرّبوا أن يستكشفوا سريرة الشيخ في هذا المضمار عندما سألوه رأيه في النظام القائم فأعلن خصومته له بسبب مخالفته لحكم اللَّه. فكان جوابهم

على ذلك استبقاءه في المعتقل بعد أن كانوا على وشك الإفراج عنه[١] .

وخرج الشيخ من سجنه وانتشر علمه وذهب ساجنوه إلى مزابل التاريخ إن المحبوس من حبس عن ربه، وإن الأسير من أسره هواه، والأسير فعلاً أسير الآخرة لا الدنيا، فأسير الدنيا يومًا من الأيام تفك قيوده وتفصم كبوله، أما الآخرة فهناك السلاسل والأغلال والقيود والأنكال ﴿لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾.

● عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يُحشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرِّ في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يُسمَّى بُولُس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال**»[٢] .

* * *

(١) انظر «رجال ومفكرون عرفتهم» (١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

(٢) حسن: رواه أحمد والترمذي، وحسنه الألباني في «تخريج المشكاة» (٥١١٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٨٠٤٠).

*** فضيلة الشيخ المجاهد محمد أبو زهرة ودفاعه عن قضايا الإسلام:**

قال عنه الشيخ محمد الغزالي أنه إمام وثيق في فقهه.. دقيق في علمه.. وإن الرجل الذي رمق بازدراء الساسة المستبدين، وأدار وجهه عنهم مستغنيًا متأبِّيًا ينبغي أن يكون أسوة حسنة لعلماء هذا العصر.. إن بقي منهم أحد!!

إنني واحد من كثيرين تتلمذوا على الشيخ محمد أبو زهرة وصاحبوه في جهاده الطويل.. نجحت مؤامرات الصمت المتعمد في طيّ اسمه.. ولكن هل تقدر هذه المؤامرات على طيّ مؤلفاته العامرة، وكتبه الحافلة بالخير الكثير.

إن الجهود تبذل لردم منابع الثقافة الإسلامية الصحيحة وملء الأجواء بالكتابات التافهة والسامة؟!!

على أن هذه الجهود ستلحقها الهزيمة آخر الأمر، ويبقى الإسلام، وما كُتب من أجله إن شاء اللَّه»[1].

ويقول عنه الدكتور محمد كامل البنا رئيس تحرير مجلة لواء الإسلام سابقًا:

«لقد عرفت الشيخ أبا زهرة سنين طويلة، واختلطت به وخَبَرته عن كثب في أثناء رياستي لتحرير مجلة (لواء الإسلام) قرابة ثلث قرن من الزمن، فرأيت فيه شدة في الحق، وقوة في إبداء الرأي، وشجاعة في التصميم على ما يقول.. كان شديد الغضب حقًّا، بل وعنيف الثورة عندما يحس أن رأيًا يسيء إلى الدين أو العقيدة، أو يتعارض مع إجماع المسلمين»[2].

---

(١) «قمم إسلامية» أبو زهرة إمام عصره الجزء الأول حياته وأثره العلمي لأبي بكر عبدالرازق (١/ ١٠ ـ ١١) ـ دار الاعتصام.

(٢) «أبو زهرة وقضايا العصر» لأبي بكر عبدالرازق (٣/ ٥) ـ دار الاعتصام.

كان مفروضًا أن يلي أكبر المناصب الدينية، ولكن رفضه للزلفى وكراهته للملق أبعده عن تلك المناصب التي يختار لها غالبًا من يحسنون الصمت عند وقوع الكبائر، وربما يبكي غيره لهذا الحرمان، أو هذا التضييق، ولكنه ما أحس شيئًا من الخسار أصابه، أو من الدنيا فاته، فكبرياء الرجل العلمية جعلته فوق كل هذه المناوشات!

*** همس.. وليته ما همس!**

حدث أن اشترك الشيخ الإمام «أبو زهرة» في مناقشة رسالة الدكتوراه لأحد المسئولين الذي كان يشغل منصب المتحدث الرسمي للرئيس الراحل «جمال عبدالناصر» وكان من الحاضرين أثناء مناقشة تلك الرسالة أول رئيس لجمهورية مصر العربية اللواء «محمد نجيب» (أطال اللَّه في عمره)، وكان موضوع تلك الرسالة عن فلسطين، وبدأ الإمام أبو زهرة النقاش وقبل أن يحتدم النقاش طلب من الرئيس «المتقاعد» محمد نجيب أن يتفضل بمغادرة القاعة حفاظًا على سلامة موقفه الحساس، خاصة وأنه كان صديقًا شخصيًا للإمام «أبو زهرة» وظل الشيخ الإمام يحاور الباحث ما يقارب الثلاث ساعات. بين له فيها أن رسالته عبارة عن بعض التقارير الخاصة بالشئون العربية لرئاسة الجمهورية وأنه ـ أي الباحث ـ لم يكلف نفسه فيها حتى بجهد ترتيب الصفحات.. أو الموضوعات.. أو حتى إصلاح الأخطاء اللغوية الفادحة.. وأراد أحد الحاضرين أن يبسط من هول الموقف فهمس في أذن الإمام أن صاحب الرسالة مسئول كبير.. «الممثل الشخصي لرئيس الجمهورية».. وليته ما همس!! فلقد كانت الغضبة المضرية لأبي زهرة، وصاح فيه قائلاً: «.. متحدث رسمي.. أو ممثل شخصي لرئيس الجمهورية.. تلك مسميات تستخدم في مكتب رئيس الجمهورية لا تهمنا في شيء.. ولا دخل لنا بها.. ولا مكان لها هنا.. هو هنا طالب علم فقط،

فإما طالب.. أو لا طالب!!».

ونكتفي بهذا القدر..![1].

* رسالة إلى الحاكم:

في بداية عهد السادات وبعد تخلصه من مراكز القوى، ومحاولة خدعة جماهير الأمة واستقطابها، بألفاظه ووعوده البراقة، وبما كان يجريه من لقاءات، حيث التقى بجميع طوائف الأمة. وخصَّ رجال الأزهر بالذهاب إليهم.. فاستقبلوه استقبالاً طيبًا.. ما عدا الشيخ الإمام «أبو زهرة» فقد أبدى بعض تحفظاته، وتحدث إليه بلغته التي عهدت فيه قائلاً: «.. إن كنت مخلصًا في قصدك الذي حضرت من أجله لرجال الأزهر فهذا شيء طيب، يحمد لك، وإياك رسالة مني خطية، اقرأها إن كنت تريد فلاحًا وسيرًا على الدرب الصحيح، فاستلمها منه وأعطاها لسكرتيره.. فغضب الإمام «أبو زهرة» وقال: يا أنور.. تلك الرسالة خاصة بك أنت، وبها مقومات الحاكم العادل، الذي يرعى حق أمته، وحق اللَّه عليه، فإن كنت تريد فلاحًا فتدبر ما فيها. ونطلب العون لك من اللَّه بقدر إخلاصك لدينك ووطنك»[2].

□ وفي وقت خرست فيه كل الألسنة في عهد عبدالناصر كان أبو زهرة ـ رحمه اللَّه ـ يبدأ محاضراته باستعراض للمشكلات الاجتماعية والسياسية الدائرة على الساحة خاصة المحظور منها والمدرج ممتلئ عن آخره بالطلبة يقض ـ رحمه اللَّه ـ مضاجع المناوئين للإسلام[3].

---

(١) «أبو زهرة إمام عصره» لأبي بكر عبدالرازق (١/ ٥٠ ـ ٥١).

(٢) المصدر السابق (١/ ٥١ ـ ٥٢).

(٣) انظر المصدر السابق (١/ ٥١).

وحقيقة الشجاعة عنده في القول هي النطق بالحق، حيث يقتله الإخفاء، وإعلانه حيث يلجلج الباطل.

*** الشجاعة عند أبي زهرة:**

«منطق الشجاعة عند الشيخ الإمام «أبو زهرة» يتحدد في منطلقات ثلاثة: شجاعة مرفوضة، وشجاعة واجبة، وشجاعة حسنة مستحبة.

أولها: شجاعة مرفوضة:

الشجاعة، وما نعبر عنها أيضًا بالصراحة، منها ما يكون كشفًا للأستار التي يضر المجتمع كشفها، كإعلان ما استتر من الرذائل، والكشف عن المخبوء من النقائص، فإن ذلك يضر ولا يفيد، ويشيع الشر، ويحرض على الرذيلة، وقريب من ذلك اغتياب الناس ولو كان صدقًا، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾. وسئل الرسول الكريم ﷺ عن الغيبة فقال: «**ذكر أخاك بما يكره**»، فقال السائل: ولو كان صدقًا، فقال ﷺ: «**إن كان صدقًا فقد اغتبته، وإن كان كذبًا فقد بهته!**».

ثانيها: شجاعة واجبة:

وما يكون في ذكره إثبات حق في مجلس الفقهاء، وهذا واجب دينًا على كل من عاين على أنه فرض عين، فإن اللَّه تعالى يقول: ﴿**وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**﴾.

ثالثها: شجاعة حسنة مستحبة:

الأمر الثالث: النطق بالحق لأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وإرشاد الخلق إلى الحق، ونقد ما يؤدي إلى الضياع، وتأييد ما فيه مصلحة العباد، ودفع لجاجة أهل الباطل، وهذا بلا ريب من الشجاعة التي تطلق عليها مجازًا

الصراحة، وأولئك هم الذين يقول اللَّه فيهم: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾.

* صبره على المحن:

عندما غضب السلطان على الشيخ الإمام «أبو زهرة» وأمر بأن يعتقل في بيته لا يراه أحد.. ولا يرى هو أحدًا. قطع علاقاته بكل الصحف والمجلات التي يجد فيها متنفسًا، منعه من إلقاء محاضراته.. أو لقاءاته مع تلامذته وأصدقائه.. عظم هذا الموقف على نفس أحد تلامذته وأصدقائه المقربين فعرض عليه أن يخاطب السلطان في أمره.. ويعرض عليه أن «الشيخ أبو زهرة» ليس له طموحات سياسية.. أو أي تطلع لأي مركز قيادي.. وهو لا يستحق ما يفعل فيه بدون ذنب ارتكبه ولكن الإمام رفض في إباء وشمم وثار على صديق عمره وغضب منه غضبًا شديدًا قائلاً له: أن كرامة علمة «أبو زهرة» لا يخضعان لأي بشر مهما كانت صفته. وعبر عن محنته هذه في مقدمة آخر كتبه «المعجزة الكبرى» بقوله:

«نحمد اللَّه سبحانه وتعالى على ما اختبرنا به، لقد اختبرنا اللَّه تعالى في أول كتاب نكتبه عن القرآن الكريم، فانقطعنا عن الصحف السيارة التي نخاطب المسلمين من فوق منبرها، وقُطِعنا عن المجلات العلمية التي نوجه الفكر الإسلامي عن طريقها، وعن كل طرق الإعلام فلا نصل إليها، وكان الهم الأكبر أن يقطعنا عن دروسنا وعن المحاضرات العامة ولكنَّ «القرآن الكريم» آنسنا في وحدتنا، وأزال غربتنا، وكان العزاء النفسي والجلاء الروحي، واختبرنا اللَّه تعالى بالضر، كما اختبر نبيه أيوب، إذ قال: ﴿إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ وأنه وإن تشابه المرض فإنه يختلف المقام، فهذا نبي يوحى إليه ونحن من الأتباع، ونرجو أن نكون من الأبرار من أتباع النبيين، لزمنا المرض المقعد نحو شهرين فكان ألم الابتعاد عن القرآن أكبر من

ألم المرض المحض، ولقد مَنَّ اللَّه علينا بالشفاء، فخرجنا من الداء العقام، وما منعنا وعثاء المرض فعدنا إلى القرآن نقتبس من نوره ونعبق من عرفه، فهو أنس المستوحش، وسمير المستغرب فآنسنا بعد طول الغياب، ومنحنا اللَّه تعالى به العافية، فوفقنا لأن نقطع كل ما أردنا عرضه في مدة المرض، وكنا في مجموع ما بلينا من طول المدة أصحاء في أبداننا؛ لأنه سلمت نفوسنا من السقام بفضل القرآن»[١].

واختبرنا اللَّه تعالى من بعد.. بهمٍّ واصب، بأن أصاب رفيقة حياتي كسر أقعدها وأقعدني بالغم الشديد، والكرب البعيد الأثر العميق في النفس، ولكن أنس القرآن خفف همِّي وكشف غمِّي؛ لأنه ملأها إيمانًا بقضاء اللَّه وقدره، ووضع في نفوسنا الصبر الجميل، من غير أنين ولا ضجر، ولكن برضا لما أراد، وهو اللطيف الخبير[٢].

❑ حُظِر على مجلة لواء الإسلام أن تنشر له تفسيرًا أو فتوى.. وظل ـ رحمه اللَّه ـ منتصب القامة عزيز الجانب، ما اكترث لموقف جمال عبدالناصر منه، ولا لضيقه به.

وظل في مجالسه كلها ينقد أخطاء المجتمع والحكم أيضًا.. ويوجه ويحق الحق ويبطل الباطل. وهناك القضايا الاجتماعية والتشريعية التي يعتبر المحامي الأول فيها بلا منازع، والتي كنَّا نمشي في أثره وهو يدافع عنها: هي قضايا الأسرة، ومحاولة أعداء الإسلام تنصير قوانينها وقضايا المعاملات المالية، ومحاولة جعل البنوك الربوية دعامة الاقتصاد الإسلامي، هذا بجانب مواقفه الشجاعة من قضية الشورى[٣].

---

(١) «المعجزة الكبرى» لأبي زهرة.

(٢) «أبو زهرة إمام عصره» (١/ ٥٥ ـ ٥٦).

(٣) المصدر السابق (١/ ١٩٢).

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يوصي تلاميذه دائمًا بقوله: «كونوا يا بنيّ مع الحق دائمًا، وأخلصوا للَّه دائمًا، ولا تمالقوا أحدًا في حق، ولا تكونوا على ضعيف أبدًا».

وهو الذي أعلن بصدق المؤمن رأي الإسلام واضحًا جليًّا في العديد من القضايا الوطنية الهامة والخطيرة، متصديًا بكل العنف للقضايا التي نبش عنها المنحرفون فكريًّا ـ صنائع مدارس الاستشراق وعرَّى كل سوءاتهم معلنًا رأيه الحر من فوق أعلى المنابر وأخطرها.. حيث الجمع الهائل من علماء المسلمين القادمين من كل دول العالم الإسلامي، منبر مجمع البحوث الإسلامية، والملتقى الإسلامي بالجزائر، ومنبر الجامعة العربية في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي! ولم يَدَعْ مجالاً أو مكانًا استطاع أن يصل إليه إلا بلغه[1].

*** أبو زهرة وواقع الأمة الإسلامية:**

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «سبب انتكاسة الأمة الإسلامية وأيضًا أشدّ ما ابتلي به المسلمون في هذه الأيام أمران:

❑ **الأمر الأول**: وجود طائفة من أبناء الأمة تعتقد أن الخير في فرنسا وانجلترا وأمريكا وغيرها من تلك الدول الصليبية التي تنهش لحم المسلمين، ولا تكف عن الضرب والأذى في كل حين وإن هؤلاء يؤمنون بالمدنية الأوربية أكثر من إيمانهم باللَّه ويؤمنون بالحضارة المادية أيضًا.

❑ **الأمر الثاني**: الذي ابتلي به المسلمون في هذا الزمان: اليأس، والضعف، وخور العزائم، وانحلال الإرادة، فلا عزيمة تمضي، ولا إرادة تبرم ولا رأي يجتمع ولا فكرة تتوحد ﴿**تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى**﴾ قد فرقهم

(١) المصدر السابق (١/ ١٩٣).

الفكر وفرقهم الهوى وفرقهم الكبراء.

ولعل هذين الأمرين كانا سببًا في أن خرت الأقاليم الإسلامية صريعة تحت سلطان النفوذ الأوربي، وأن فَقَدَ المسلمون الثقة بأنفسهم، وأن صاروا نهبًا مقسومًا لكل غالب، وأن استخذوا ودينهم دين العلو، وأن ذُلوا ودينهم دين العزة، وأن ضعفوا واستكانوا ودينهم دين القوة والجهاد.

ويقول الإمام «أبو زهرة» ولكي تعود إلى الأمة الإسلامية ثقتها بنفسها، وعزتها وكرامتها، وتكون بحق خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا بد من الاستمساك بكتاب اللَّه، والعودة إلى شريعة القرآن التي عندما غفل عنها المسلمون ضاعوا، وأهملوها ذهبت عزتهم، وضعفت كلمتهم وصار أمرهم سددًا بددًا لا جامعة تجمعهم، ولا رابطة تربطهم وهزمت الأخلاق، واستبيحت المحرمات، وتحكمت الأهواء، فصار الشُّحُّ مطاعًا والهوى متبعًا، وأصبح بأسهم بينهم شديدًا، وقلوبهم شتى، وتقطعوا شيعًا وأحزابًا، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ كأن اللَّه سبحانه وتعالى لم ينزل على نبيه الكريم: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ فما جمعنا شملنا ولا عَبدْنَا حق العبادة ربنا، وتوزعتنا الأرض، فارتبط كل بأقليمه، كأنه لا يعرف وحدة سواه، ونسي أن المسلمين تجمعهم كلمة اللَّه، وشريعته التي نزلت على خاتم النبيين محمد ﷺ، وبذلك التوزع ذهبت النخوة، وماتت العزة الإسلامية، ورضينا بالذل مقامًا، وبالهون من المنازل حظًا وقسمًا، ونسينا قول اللَّه تعالى: ﴿وللَّه العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ وصرنا معشر المسلمين هدفًا تصوب إليه السهام، وغرضًا يُنال، ونهبًا مقسومًا بين الذين لا يريدون بالإسلام إلا خبالاً، ولا يرجون للمسلمين وقارًا، بل صرنا نستغل والغلة لغيرنا، ونعمل والثمرة لأعدائنا، ونسعى في الأرض التي ارتبطنا بها وليس السعي لنا بل نتائجه لغيرنا، وكأن اللَّه

سخرنا عبيدًا أو عسفاء[1] لهم، ونسينا قول اللَّه تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

* وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

*** أصبحنا نحل ما حرم اللَّه!**

❑ لقد صار أمرنا ليس بأيدينا، وولايتنا بأيدي غيرنا، يوجهون في بلادنا السياسة، ويتحكمون في أسواقنا الاقتصادية، ما يحلونه نستحله، ولو أكد القرآن الكريم تحريمه، وما يحرمونه نحرمه، ولو كان في القرآن إباحته، نحل بأمرهم ما حرم اللَّه، ونحرم بأمرهم ما أحل اللَّه، يستنصر الكثير منا بهم، ويجعلون الولاية لهم، وبين أيدينا قول اللَّه تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

* وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

❑ وفي ألم وحسرة يفصح الإمام عما يختلج بصدره من ألم دفين لما صار إليه حال المسلمين فيقول: هذا ما آل إليه أمرنا، أو بالأحرى بعض ما آل إليه أمرنا عندما تركنا شريعة القرآن فقد نسينا صدر تاريخنا، وتنكرنا لماضينا، ورضينا بحاضرنا، وقبلنا أن نكون في كل شيء تابعين ومن قبل كنا متبوعين، حتى خواطرنا سمحنا لغير المسلمين أن يتحكموا فيها، فسرنا لا نفكر إلا بتفكيرهم ولا نتخيل إلا بأخيلتهم، وكأننا لم يكن لنا في الماضي

(١) جمع عسيف وهو العامل الأجير الذي يعمل لغيره.

حضارة إسلامية قائمة، ساست العالم، أو ما وصلت إليه هدايته بالقسطاس المستقيم.

❑ وبعد أن بيَّن حال المسلمين المؤسفة والمخزية عندما تركوا العمل بالشريعة الإسلامية ونسوا كتابهم وسنة نبيهم الكريم، انتقل فضيلته إلى بيان محاسن الشريعة الإسلامية، وما أسبغته على المسلمين من فضل وعزة وازدهار عندما تمسكوا بها ورفعوا راياتها خفاقة ثم قال: ولكن لما هجرها المسلمون، وأقاموا بعض القرآن وأهملوا بعضه ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ وأخذوه متفرقًا، ولم يأخذوه كلاًّ لا يقبل التجزئة، وحُكْمًا عامًا لا يقبل التخصيص، وشرعًا عادلاً لا يقبل التفرق. لمَّا فعلوا ذلك آلُوا إلى ذلك المآل، فلا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم[1].

* أبو زهرة يدعو إلى الجهاد لتحرير الجزائر ويقول: تحرير الجزائر تحرير للأمة الإسلامية[2]:

❑ وينتقل الإمام «أبو زهرة» من الدعوة إلى التمسك بشريعة القرآن والعمل بأحكامها إلى استنفار المسلمين في كل بقاع الأرض للعمل على الوقوف صفًا واحدًا من أجل مساعدة شقيقتهم الجزائر المسلمة التي تعاني من ذل وقهر الاستعمار الفرنسي أخس شعوب أهل الأرض ويؤكد أيضًا على أن المنطلق إلى الجهاد والتضحية من أجل الوطن أساسه التمسك بشريعة اللَّه.. شريعة القرآن.. فيقول:

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**جاهدوا المشركين بأنفسكم وألسنتكم**

(١) المصدر السابق (١/ ١٩٦ ـ ١٩٩).

(٢) «مجلة لواء الإسلام» ـ العدد الثالث ـ السنة العاشرة (ص١٦٥)، و«أبو زهرة إمام عصره» (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٩).

وأموالكم» وهذا أمر عام خالد إلى يوم القيامة، ولذا قال ﷺ في حديث آخر: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة».

وإن الجهاد أصبح الآن أوجب الواجبات على المسلمين، على كل مسلم قادر على حمل السلاح أن ينتضى سيفه ويتقدم للجهاد، وعلى كل ذي مال أن يقدم ما يستطيع أن يعاون به جند اللَّه ولقد قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وإن هذا ينطبق علينا اليوم نحن المسلمين تمام الانطباق، فإننا إن لم ننفق في سبيل اللَّه تعالى لأولئك الذين امتشقوا السلاح، وهم يجاهدون بالصبر ولا مال معهم، ولا مأوى يأوون إليه، وليس لهم من القوة إلا إيمان صادق، وعزم ثابت وإرادة وثيقة، وقوة نفس، إننا إن لم ننفق عليهم أصابتنا التهلكة، وافترَسَنَا أولئك الأعداء فريسة بعد فريسة، وأخذونا لقمة بعد لقمة، والتهمونا طعم بعد طعم.

وعلى ذوي الأقلام والألسنة أن يكشفوا خبايا النيات الصليبية، والمستور من الخبائث الفرنسية، وأن يعلنوا حقيقتهم وحقيقة من يمالئونهم، ويروِّجون لهم بين المسلمين ويلقون في روع الناس أنهم أحرار، وما هم إلا أنذال فهم الذين يتحدث ماضيهم بالخزي والعار، ويتحدث حاضرهم بالإسفاف والصغار، ألم يستضعفوا أمام الإنجليز في الماضي ويسلموا لهم قائدهم الذي كان رمز مجدهم يسومونه في «سانت هيلانة» سوء المهانة والمذلة؟! وألم يستسلموا للألمان استسلام الخانع الذليل المهين الذي يرضى بالهوان بدل العزة، ويخضعوا للحكم الألماني بضع سنين لم يرتفع لهم فيها صوت؟ وها هم أولاء اليوم يلقون بنصف مليون من شبيبتهم في الجزائر أمام عشرين ألفًا، ويستعيرون الأسلحة من أمريكا وانجلترا لدك الأرض دكًّا؛ لأن قومًا قالوا: نحن أحرارٌ في بلادنا، وأننا إن لم ننل الحرية اختيارًا فسننالها انتزاعًا، ننتزعها بإرادة لا تعرف الضعف، فإن الحرية هي معنى الإنسانية، وخير أن نعيش

كالإنسان ونحن نسير إلى ميدان القتال من أن نعيش آمنين في ظل من الخنوع كما رضي الفرنسيون تحت حكم الانجليز، وتحت حكم الألمان.

*** الإبادة الكاملة لأحياء المسلمين:**

❑ هذا واجب المسلمين، وهو يوم النفير، لا يصح لأحد أن يتقاعس عن واجبه، ويقول ماذا أصنع أو ماذا نَصنع. إن هذا يوم الجزائر وغدا يوم تونس. ومن بعدهما ليبيا، وهكذا يفنون الجماعات الإسلامية قبيلاً بعد قبيل، وكل ينتظره دوره، وهم في غفلة ساهون يرتعون ويلعبون، وكأن الأمر لا يهمهم في شيء، وكأنها ليست الذراري والنساء المسلمات يسبين، وتهتك أعراضهن، ويفنى رجالهن.

ولقد وصف الذين شاهدوا وعاينوا وخرجوا من حر السيوف، ونيران المدافع إبادة المسلمين ودك القرى والمدائن فقالوا: إن الأنذال من قواد الفرنسيس، وكلهم كذلك، يقسمون الأراضي التي يسكنها المسلمون إلى مربعات محدودة، ويجيئون إلى كل مربع بأكمله، فيحيطون به إحاطة الدائرة بقطرها حتى إذا أحكموا الالتفاف، أرسلوا صواعق النيران من الأرض والسماء فالمدافع تقصف والطائرات تلقى النيران من السماء، حتى إذا لم يبق في المربع حي، فلم يعد فيه ديار ولا نافخ نار، اتجهوا إلى مربع آخر.

*** هذه أُمتكم أمة واحدة:**

❑ فهل لمسلم أن يسكت عن هذه الشرور، ويترك إخوانه في هذه الإبادة؟ إنها إذن الحالقة لكل خير، وإنه الموت الذليل، وإنه الفناء العتيد، وإن أشد ما تصاب به النفس أن تقطع أجزاؤها، فلا تحس بألم، وتستأصل منهم قطع متجاورات، فلا يشعرون بألم القطع، ولقد فقد المسلمون الإحساس بالأخوة العامة التي تشير إليها الآية الكريمة: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ**

إِخْوَةٌ﴾ وفقدوا معنى الوحدة فلا يدركون معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، ولقد تضافرت الآلام واشتدت فعسى أن تكون منبهة للغافل، موقظة للنائم، شاحذة للعزائم، وللهمم.

❑ وإن أشد ما ابتلي به المسلمون في هذه الأيام أمران (أحدهما) وجود طائفة منهم تعتقد الخير في فرنسا وانجلترا وأمريكا، وغيرها من تلك الدول الصليبية التي تنهش لحوم المسلمين ولا تني عن الضرب والأذى في كل حين، وإن هؤلاء يؤمنون بالمدنيَّة الأوربية أكثر من إيمانهم باللَّه، ويؤمنون بالحضارة المادية ولا يؤمنون بشيء سواها من الحياة، كل مظهر حسِّي يستولى عليهم، وكل بريق مادي يأخذهم، وليس لهم من الإسلام إلا اسمه، وليس لهم من التدين إن كان إلا رسمه، وأولئك يوهنون أحكام الإسلام، ويعظمون ما عند الأوربيين أيًا كان، فقد استرقت أوربا وأمريكا نفوسهم، ولو زال نصف الرقعة الإسلامية من الأرض ما بكوا، وإن أصيب جزء من فرنسا أو انجلترا أو أمريكا بأذى شقوا الجيوب، ولطموا الخدود..!!

❑ ولو كان هذا الصنف من الناس هينًا عند الناس، كما هو مهين في ذاته لهان الأمر ولسهل الخطب ولكن مع الأسف لهم بين الناس قيادة فكرية وصلوا إليها في غفلة من الزمان وقد فسدت فيه مقاييس التقدير، واضطربت موازين القيم الخلقية والعلمية، وصارت السطوة لأجهر الأصوات، وإن كان صاحبه أجوف لا ينطوي على شيء.

هذا الصنف من الناس ما رأى حماسة دينية إلا أطفأها، ولا إقدامًا على عمل إلا ثبطه، وإننا لنرجو أن يسكت اللَّه تعالى هؤلاء، وأن يجعلهم كحقيقتهم لا يؤبه لهم في شيء، ولا يلتفت إليهم في قول، فإنه إذا خفت صوتهم علا صوت الحق ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

❑ **والأمر الثاني**: الذي ابتلي به المسلمون في هذا الزمان اليأس والضعف وخور العزائم وانحلال الإرادة، فلا عزيمة تمضي، ولا إرادة تبرم، ولا رأي يجتمع، ولا فكرة توحد ﴿**تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى**﴾ قد فرقهم الفكر، وفرقهم الهوى، وفرقهم الكبراء ولا حول ولا قوة إلا باللَّه.

❑ وإن هذين الأمرين كانا سببًا في الماضي في أن خرت الأقاليم الإسلامية صريعة تحت سلطان النفوذ الأوربي، وأن فقد المسلمون الثقة بأنفسهم، وأن صاروا نهبًا مقسومًا لكل غالب، وأن استخذوا ودينهم دين العلو، وأن ذلوا ودينهم دين العزة، وأن ضعفوا واستكانوا ودينهم دين القوة والجهاد.

تلك حالنا إن نبتت نابتة قوة خَذَّلها عبيد النصارى بدعايتهم الذليلة، وإن اشتعلت للحق نار أطفئوها بتخذيلهم المزري، وأهل الإيمان في حيرة بين ضعف الضعفاء واستخذاء الأقوياء، وإلحاد الملحدين، وضلال الضالين، حتى صار المسلمون طعمة للآكلين.

وإن الأمر في الجزائر واضح بين: توحش غاشم همجي، يتحكم في أحرار، ولكن نجد المخذَّلين مع ذلك لا يتكلمون ويترددون، وإن اضطروا لكلمة الحق قالوها لكيلا ينكشف أمرهم وينفضح مستورهم، وليجدوا مساغًا لزيف القول يرددونه في الوقت المناسب. ولما شاعت وذاعت تلك المظالم الفرنسية، ولم يُحرْ أحدٌ عنها جوابًا، لعبت فرنسا لعبة لتوجد لهؤلاء الضالين المضلين كلامًا يقولونه ويسوغونه، ذلك أن نائب رئيس وزرائهم قد استقال للمذابح في الجزائر!! بخ بخ!! كأن مذابح الجزائر بنت اليوم، وكأنها لم تكن منذ أكثر من شهر، وكأنها لم تكن لها مثيل في مراكش من قبل. وأشاعت الصحف التي تمالئ فرنسا في مصر أن ثمة أزمة فرنسية بسبب تلك المذابح. ولقد كذبتهم الحوادث، فإن المذابح ما زالت مستمرة، وعملية الإبادة

ما زالت قائمة على قدم وساق، والجزارون ما زالوا آخذين بالمدى يقومون بعملية الذبح على أقبح وجه رآه تاريخ الإنسانية. وإن حوادث التتار في الماضي لأقرب إلى الإنسانية من تلك الهمجية؛ لأن أولئك كانوا رجالاً ففيهم بطولة ومروءه وشجاعة، وأما الفرنسيس فشيء آخر، لا إنسانية، ولا رجولة ولا مروءة، ولا شجاعة ولا أي شيء مما يعلو به ابن الإنسان.

*** إنه حب الدنيا.. وحب الشهوات!!**

❑ وإنا لنسمع بين وقت وآخر: ماذا نصنع مع هؤلاء الأقوياء؟ تلك كلمة قالها الضعفاء من المسلمين، وقالها الأقوياء وقالها الأغنياء، وقالها ذوو الألسنة والأقلام، ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا**﴾ ماذا يصنع أكثر من خمسمائة مليون أو زهاء ستمائة مليون لإنقاذ تسعة ملايين من أجبن دولة رآها التاريخ.. إنهم يصنعون لها العجائب إن أرادوا وأجابوا داعي الإيمان في قلوبهم، ولكن الأمر فيهم أنهم استناموا إلى الراحة، وآثروا الاطمئنان من الخذلان، على النفير مع العزة. لقد تنبأ بذلك خليفة رسول اللَّه ﷺ عندما قال: «**واللَّه لتألمن من النوم على الصوف الأذربي كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان**» إنه التنعم المزري الذي يشجعه فينا الذين يريدون بنا الذل والهوان، إنه حب الدنيا وحب الشهوات.

❑ ويسترسل الإمام «أبو زهرة» في استنفار المسلمين للأخذ بيد شقيقتهم الجزائر فيقول:

❑ **أيها المسلمون**: أين الأموال التي تخرج من باطن الأرض الإسلامية لتتحول إلى ذهب في أيدي الكبراء، أأرسل أحد من هؤلاء طائفة من تلك الأموال كي يشتري بها أولئك المجاهدون سلاحًا يذودون به عن حياضهم، ويحمون حمى الإسلام؟! ولماذا لا تذهب كتائب الفدائيين لتلقي الذعر في

صفوف الأنذال من جند فرنسا؟! ولماذا لا تذهب كتائب من المجاهدين الأحرار تعمل في الصفوف؟ ولماذا لم ترسل الحجاز والعراق وباكستان وإيران وغيرها كتائب. إن الأمر أمر الإسلام كله، لا أمر الجزائر، إنها بلاد الإسلام تقتطع قطعة قطعة، بل أين الأطباء الذين يذهبون ليداووا كلوم الجرحى، أين أطباء الهلال الأحمر! اللَّهم لا حول ولا قوة إلا باللَّه.

* **الجهاد.. الجهاد!!**

إن الجهاد نية واحتساب، وليس أموالاً، ولا مادة، وإنه ليروى في ذلك عن أنس بن مالك خادم رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «جاء رجل إلى عمر يقول له: يا أمير المؤمنين، احملني فإني أريد الجهاد. فقال عمر لرجل: خذ بيده فأدخله بيت المال يأخذ منه ما شاء، فدخل الرجل. فإذا ببيضاء وصفراء، فقال: ما هذا؟ ما لي في هذا حاجة، إنما أردت زاداً وراحلة.. فردوه إلى عمر. فأمر بزاد وراحلة. وجعل يعد له الراحلة بنفسه. فلما ركب رفع الرجل يده يحمد اللَّه ويثني عليه بما هو أهله؛ لأنه مكنه من الجهاد، وسار عمر يمشي خلفه يتمنى أن يدعو له، فالتفت إليه الرجل وقال: اللَّهم فاجزه خيراً».

تلك هي النية المحتسبة، وإنها لو وجدت عند كتيبة إسلامية لأزالت الجبال من مواضعها إننا نعتقد أن سلائل أمثال هذا الرجل ما زالوا في المسلمين، فلقد قال النبي ﷺ: **«لا يزال قوم من أمتي يقاتلون عن أمر اللَّه، يزيغ اللَّه بهم قلوب أقوام وينصرهم عليهم، حتى يأتي أمر اللَّه والخيل معقود في نواصيها الخير»**.

وإن هذا الزمن هو الذي يجب أن يظهر فيه أولئك الأقوام، ألا فليظهروا وليجيئوا من أقصى الصين أو باكستان أو أي بلد إسلامي حتى

يصلوا إلى أرض الجزائر ويعلموا الفرنسيين ونصراءهم أن في القلوب إيمانًا، وأن أمة القرآن ما زالت تحمل السيف كما تحمل القرآن، وأن هذه السياحة التي يسيحون بها من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب هي جهاد الإسلام، فقد قال عليه السلام: «**سياحة أمتي الجهاد في سبيل اللَّه**» اهـ.

* أبو زهرة عدو الشيوعية والاشتراكية العلمية ـ والشيوعيين:

قال ـ رحمه اللَّه ـ: «الشيوعيون يجدون أن مذهبهم لا يسكن إلا في نفوس فارغة من الدين والخُلُق، فكان عملهم الأول هو تفريغ النفوس من الدين والخُلُق حتى إذا فرغت أسكنوها ذلك المذهب المادي الرخيص!!.

ولذلك أقول وأصرّ على ما أقول: إن الإباحية التي تهدم الدين والخُلُق قنطرة الشيوعية، ولا يمكن أن تسكن الشيوعية في قلب مؤمن»[1].

قال الفقيه الشجاع أبو زهرة هذا في عصر قال فيه عبدالناصر أثناء انعقاد اللجنة التحضيرية «للمؤتمر الوطني» للقوى الشعبية عام ١٩٦١ بالحرف الواحد: «ليكن لنا في مجتمعنا الجديد مسجد حرام هو «البناء الاشتراكي» فلنقل للناس جميعًا.. هذا هو مسجدنا الحرام!!! من دخله فهو آمن!!!»[2].

وكان ذلك بداية دعوة صريحة للاشتراكية العلمية المنحرفة، والتي حمل لواء الدعوة إليها عدد من الكتاب والصحفيين الذين عرف عنهم التبعية لكل عهد..! والجري وراء ما يقربهم من السلطان أيًّا كان.. لتطويعه وتضليله ولتنفيذ مآربهم من خلاله..

ولعل أهم ما يميز هؤلاء أنهم عبارة عن مخلفات زمان مضى.! ورثوا من سبقهم من عملاء... ودعاة هدم لكل ما هو شامخ من يوم أن شق

---

(١) «أبو زهرة وقضايا العصر» (٣/ ١٣٣).

(٢) المصدر السابق (ص١٣٤).

الاستعمار الاستشراقي طريقه بين صفوف أمتنا.. وهدفهم واحد، وهو أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية والسيطرة الغربية، كل الغلبة على عقولنا، وعلى مجتمعنا وعلى حياتنا، وعلى ثقافتنا، ولكي يتم بهذه الغلبة انهيار الكيان الكبير الشامخ، الذي بناه أجدادنا في قرون سالفة وصححوا به فساد الحياة البشرية في كل نواحيها الإنسانية والأدبية، والأخلاقية، والعملية، والفكرية، وردوها إلى طريق مستقيم.

*** وجاء في تخاريف وأكاذيب الميثاق الذي اخترعه عبدالناصر:**

«إن الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي، وصولاً ثوريًا إلى التقدم لم يكن افتراضًا قائمًا على الانتقاء الاختياري، وإنما كان الحل الاشتراكي حتمية تاريخية، فرضها الواقع، وفرضتها الآمال العريضة للجماهير كما أكَّدَ الميثاق: أن الصراع الطبقي لا يمكن تجاهله وإنكاره».

ويقول الميثاق أيضًا: «إن الاشتراكية العلمية، هي الصيغة الملائمة لإيجاد المنهج الصحيح للتقدم. وأن أي منهاج آخر لا يستطيع بالقطع أن يحقق التقدم المنشود.. ويوجد في الميثاق أيضًا: «ضرورة سيطرة الشعب على أدوات الإنتاج.. وتوجيهها طبقًا لخطة محددة، كما يدافع بشدة عن التأميم وأثره في ضرب المبادرة الفردية.. إلخ.. !!».

وهذا ترديد للأفكار الماركسية وقد تصدى أبو زهرة البطل وفند أوهام الشيوعيين وأبطل ادعاءاتهم وردّ ـ رحمه اللّه ـ على من يقولون إن الإسلام وهو غض كان يدعو إلى الاشتراكية بالقول والعمل، وأن ما تركه محمد كان كله يساريًا وأنه لم يطبق إلا في حياته، وبعض حياة الراشدين من بعده، وكان تعبيرهم في هذا ينقصه الذوق، وتنقصه اللياقة في القول، فوصفوا دعوة محمد بأنها يسارية، ووصفوا الراشدين بأنهم يساريون، وكان يمكن أن

يعبروا بغير هذا التعبير، محافظة على مقام الرسالة، ومقام الصديقين من أصحابه الحواريين، ولكنهم لم تستقم قلوبهم، فأنى تستقيم ألسنتهم؟ ورحم اللَّه تعالى أبا بكر الصديق رضي الله عنه، إذ يقول: «استقامت ألسنتكم لو استقامت قلوبكم».

*** لا يؤخذ الدين إلا من قلب تقي:**

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«أعرف أن ناسًا من الذين يتجرون بالقول، بل بالدين يموهون ويلفون لفهم باسم الدين، ويعتقد بعض الناس أنهم من أهل العلم به؛ لأنهم يتزيون بزيه، ويلهجون بذكر آي القرآن من غير أن يعنوا بفهم مغازيها، وبأحاديث رسول اللَّه ﷺ من غير أن يتعرفوا غاياتها ومراميها أو يتعرفوها ويعرفوها، ثم يلووا بها عن مقاصدها ليًا، لهوى متسلط عليهم، ولكن الدين لا يؤخذ إلا من قلب تقي، وعقل ذكي، وفكر مستقيم، وإخلاص، ولذلك يرفض الناس كل إلحاد في دين اللَّه، أو تحريف للكلم عن مواضعه أو انحراف في فهم مقاصده، ويتجهون إلى حقائقه اتجاهًا مستقيمًا، لا عوج فيه، وكل دعوات هؤلاء في هباء، كصرخة في واد، لا يتردد صداها، إلا للذين صرخوها، ولا يسمعها إلا الذين أصدروها، ويحسبون أن لهم مستمعًا، ولا سميع ولا مجيب[1].

*** الشيخ أبو زهرة يؤدب لويس عوض:**

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ رادًا على لويس عوض:

---

(١) المصدر السابق (ص١٥٩).

- **الحقائق عندنا لا تضيرها الأحجار:**

في مصر كاتب ليس بمسلم يكتب في صحيفة الأهرام ويكتب كلامًا غير بين، لا يتضح فيه مقصده ولكن يحوم حول مصطلحات أفرنجية، وعبارات لا يتحدد مدلولها، ولا يتميز موضوعها، وأوضحها ما يلمز فيه الإسلام، ويوهن شأنه، ولا نجاريه فنرد الحجر من حيث جاء لأننا نخشى على زجاجه، والحقائق عندنا لا تضيرها الأحجار، ورواميها كناطح الصخر يوهن قرنه ولا يوهنها.

- **لقد تعرض بفضول لأمرين:**

أولهما: أنه قال في لغة ساخرة: «يتمسك أهل القرى بأنهم خير أمة أخرجت للناس»، ويشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾. ولسنا نطلب منه أدب القول، ولياقته، فإن فاسد الأدب لا يلقنه، وفاسد الذوق لا يعلمه، ولكن نقول أن أمة الإيمان خير أمة أخرجت للناس؛ لأنها تأمر بما هو معروف غير مستنكر عند أهل العقول وتنهى عما تنكره العقول وعن الانحراف وعن تقليد الفاسدين، وتعلم أن كل تغيير ينتهي إلى غير الأخلاق فاسد؛ لأنها تدعو إلى الخير والإيمان، لا إلى الانحراف والشذوذ والكذب والفساد، أو تريدها كأمريكا التي تمد الخائنين، أو تريدها كالانحلال الخلقي في انجلترا وغيرها. إن كنت تريدها كذلك فقد رمت صعبًا، وأردت أمرًا إدًّا فاخسئوا فيها ولا تتكلموا.

الأمر الثاني: أنه ينادي بضرورة الإصلاح الديني في الإسلام، فإذا كان كلامه في الأمر الأول فساد أدب وذوق، فكلامه في هذا الثاني فساد ذوق وفضول وافتراء.

ونسأله ما الباعث على الإصلاح الديني، أهو بيع الغفران، أهو السفاح في دهاليز المعابد، أهو الرشا وابتزاز أموال الناس مما حرك لوثر وكلفين وغيرهما إلى الإصلاح، إنه لا شيء من ذلك وليس في الإسلام شيء منه، أم هو منع الانزلاق في مفاسد الشرق والغرب وانحلاله، إن كان كذلك، فإن ما تدعو هو الفساد، وما يتمسك به رجال العلم الإسلامي هو الصلاح الذي لا ريب فيه[1] .

يقول ـ رحمه اللَّه ـ عن الشيوعيين ومحاولة إخفاء نياتهم الخبيثة عن المسلمين: «إن الحق أبلج والباطل لجلج، وإن في قلوب الناس نوراً يستضيئون به، ولهم عقول يدركون بها، وإذا خفي الباطل على بعضهم، فلن يخفى على جُلّهم.

لقد كانت الدعوات الهدامة تعيش في خلايا، وتختفي عن الأعين، ولا يجد الناس لمعرفة كنهها إلا أن أصحابها يسيرون وراء أناس بعداء عنا، دولاً أو جماعات، أو دعايات، وما يعرفه الناس من أمرها لا يكون مكشوفًا، بل يكون في غلس بين الليل المظلم والصبح المنير، وأولئك المختفون يحيطون كلامهم بمعسول من الألفاظ يبثونه في المجالس خفية، فيكون الإخفاء والإبهام سببين للتتبع والتعرف، ومثيرين للرغبة عند ذوي الآفات العقلية؛ ولأن الممنوع متبوع، وأن المحرم يشتهي ويطلب عند أهل النفوس المنحرفة، والقلوب المريضة، والذين قال اللَّه تعالى في أمثالهم: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾، وكانوا يجمعون الأتباع بالإغراء المالي أحيانًا، وبالنساء أحيانًا، وخب اليهود في ذلك.. وكانت الحسناوات من اليهود وسائل الإغراء يطمعن ولا يشبعن ليأخذن بزمام الشباب

(١) المصدر السابق (ص١٦٠ ـ ١٦١).

ومقاودهم، وليس غرضهم إلا فك المجتمع الإسلامي، والشكائم الدينية والخلقية، ليتم لهم ما يريدون، ولا يريدون بالعرب والمسلمين إلا خبالاً، ولا المبادئ الفاضلة إلا وبالاً، ليستمر استيلاؤهم على الأرض التي اغتصبوها، وليفسدوا الإرادة التي تريد أن تقتلهم.

- **إعلان الباطل!**

ولما بدا الصبح لذي عينين، وأعطاهم أولو الأمر حق الإعلان استعلنوا فانكشفوا، فتبين تخبط، واضطراب، وأقوال تافهة لا يبعث إليها إلا تقليد من غير تفكير، واتباع من غير تدبر، وترديد للقول من غير أن يفهموا مراميه ولا غاياته، وصاروا بالنسبة للأدلة كحاطب ليل، لا يدري أيقع على حطب أم يقع على أفعى».

❑ يقول الشيخ أبو زهرة رادًا على دعواهم بيسارية الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين:

«من أجل أن نصدق قولهم يجب أن يكون محمد قد ألغى الملكية الفردية، ولم يبق إلا الملكية العامة، وأن يكون محمد قد استغنى عن الزكاة بالتوزيع الذي توزعه اليسارية، أن يكون محمد قد اعتبر الشخص وما كسبت يداه ملكًا للدولة ليس له أن يتصرف إلا من طريقها، وأنه ليس للأشخاص من أموالهم إلا ما يكفيهم بالمعروف، وأنه لا ينتقل مال من رجل أو امرأة إلى ذويه بالميراث، وأن ثمرة المال لصاحبها إذا لم تزد عن حاجته، وأنه إذا تجاوزها كانت مكاسبه شركة بطرق مختلفة، ولا تنتقل قط بالميراث، فهل كان محمد كذلك؟ وهل سار الخلفاء من بعده على هذا المنهاج، لقد ادعوا أن أبا بكر وعمر وعليًّا ﷺ كانوا يساريين، وأن عثمان ﷺ قتل لأنه كان غير يساري، واستثار معاوية ﷺ أصحاب رءوس الأموال على إمام الهدى علي، ذلك قولهم بأفواههم، واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ونقول في إيضاح أكثر ردًا على مفترياتهم: إن محمدًا ﷺ أثبت الملكية الخاصة، وقرر أنها لا تمس إلا بحقها، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه»، ولا تمس الملكية إلا إذا كان ضرر.

● يقول النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».

وفي حال مسها إذا كان كسبها طيبًا وجب العوض بما لا يقل عن القيمة وقت الاستيلاء عليها، كما قرر مجمع البحوث الإسلامية في مؤتمره الأول.

وأن النبي ﷺ قرر الزكاة، ولم يعتبر التوزيع مانعًا من وجوبها، بل إنها حقيقة التوزيع، وأرسل الولاة في الأقاليم لجمعها من أرباب الأموال، وقدر مقاديرها، في الأبل والبقر والغنم، وفي الأموال السائلة. وجمعها من أصحابه معاذ بن جبل رضي الله عنه، وغيره من كبار أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

ولما قبض اللَّه تعالى رسوله إليه، وارتد من ارتد من ضعاف الإيمان من الأعراب، وقاتلهم أبو بكر، حتى أزال شوكتهم قبلوا أن يقيموا الصلاة ولا يعطوا الزكاة فوقف أبو بكر وقفته الصامدة الحاسمة، وقال: واللَّه لو منعوني عقالاً أعطوه رسول اللَّه ﷺ لقاتلتهم عليه، قال رضي الله عنه، مخاطبًا جماهير المسلمين: «واللَّه لو أفردت من جمعكم، لقاتلتهم، حتى أنال مأربًا أو أقتل مقتلاً». وقال قولة جازمة قاطعة: «إما حرب مجلية، وإما سلم مجزية» وما زال بهم، حتى أعطوا الزكاة طوعًا أو كرهًا.

فهل كان محمد ﷺ يساريًا عندما قرر فرضية الزكاة؟ وهل كان أبو بكر رضي الله عنه ومن معه من أصحاب رسول اللَّه ﷺ يساريين عندما تشددوا في الزكاة ذلك التشدد؟ ولا زكاة إلا إذا كانت الملكية الخاصة ثابتة، وأنتم معشر اليساريين تحاربون الزكاة بجدع الأنف، حتى أنه ليقول بعض مجانينكم: «إن الزكاة بقية من بقايا الجاهلية».

وهل كان الإسلام يساريًا عندما فرض الميراث وقرره فريضة محكمة

لا تقبل الترك إلا عند ضلال الأمة، وقد بينه بالتفصيل الذي لا يأتيه الريب، وما بين القرآن أمرًا شرعيًا بيانًا كاملاً كالميراث. ولقد سماه النبي ﷺ نصف العلم، وأوجب تعلم الفرائض، وتعليمها للناس، فقال ﷺ: **«تعلموا الفرائض وعلموها للناس، فإنها نصف العلم، وأول علم ينسى»**، وأكد النبي الكريم تقسيم المواريث، كما قسمها اللَّه تعالى في قرآنه الحكيم فقال: **«إن اللَّه قسم الفرائض، فأعطوا كل ذي حق حقه، ولا وصية لوارث»**، وهكذا بين القرآن الميراث، وحث عليه، وبذلك أكد ملكية الآحاد في حياتهم، وامتدادها لذوي قراباتهم والاتصال بهم من بعد وفاتهم.

ومنع النبي والقرآن الكريم المالك من أن يتصرف في ملكه من بعد وفاته لغير ورثته إلا في دائرة الثلث، وقد اعتبر ذلك صدقة من اللَّه تعالى عليهم؛ لأن المال للورثة بعد الوفاة لا يصح أن يترك عنهم، وقد قال النبي ﷺ: **«إن اللَّه تصدق عليكم بثلث أموالكم في آخر حياتكم، فضعوه حيث شئتم»**.

وقد اشتد المرض على أحد الصحابة فذهب النبي ﷺ لعيادته، فسأل النبي، أفأتصدق بكل مالي؟ فقال الرسول الأمين: **لا**. فقال: أبنصفه؟ قال: **لا**، قال: بثلثه ـ قال: **نعم، والثلث كثير إنك إن تترك أولادك أغنياء خير من أن تدعهم فقراء يتكففون الناس»**.

وهكذا تقرر الحق في الميراث، فهل اليسارية تقرر الميراث وتعتبر من يحاربه عاصيًا للَّه تعالى محاربًا لفرائض اللَّه تعالى؟ إن كانت كذلك، فليست هي الشيوعية، وإن كانت تعارضه، فليس ذلك هو الإسلام، فاتركوه، واستمروا في غيكم تعمهون. والإسلام في علو دائم، إن شاء اللَّه تعالى، وهو حسبنا ونعم الوكيل»[1].

(١) المصدر السابق (ص١٥٤ ـ ١٥٦).

* أخطر وثيقة للفكر الشيوعي!

نشرت مجلة «كلمة الحق» في إبريل سنة ١٩٦٧ حقيقة الوثيقة التي وضع فيها فلاسفة الفكر الشيوعي الأسس التي يقوم عليها هدم الأديان خاصة الدين الإسلامي.. الذي يمثل العقبة الرئيسية أمام انتشار «أكذوبة الشيوعية» وسوف نقوم بنشر البنود الخاصة بكيفية مهاجمة الدين الإسلامي والقضاء عليه.. وإزاحته من طريق الفكر الشيوعي!!

* تقول الوثيقة:

برغم مرور خمسين سنة تقريبًا على الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي وبرغم الضربات العنيفة التي وجهتها أضخم قوة اشتراكية في العالم إلى الإسلام وبرغم القوى اليقظة التي تحارب الدين فإن الإسلام ما يزال يرسل إشعاعًا وما يزال يتفجر قوة بدليل أن ملايينا من الجيل الجديد في المناطق الإسلامية يعتنقون الإسلام ويجاهرون بتعاليمه مع أن الإسلام أخطر الأديان الرجعية، وهو دين جامد حقود على الحضارة والتقدم[1] وخصم عنيد للاشتراكية، وفي خدمة المستغلين والإقطاعيين والرأسماليين ولذلك قررنا:

١ ـ مهادنة الإسلام لتتم الغلبة عليه والمهادنة لأجل أن نضمن السيطرة ونجتذب الشعوب العربية إلى الاشتراكية.

٢ ـ تشويه سمعة علماء الدين والحكام المتدينين واتهامهم بالعمالة للاستعمار والصهيونية.

٣ ـ تعميم دراسة الاشتراكية في جميع مراحل التعليم بجميع المعاهد ومزاحمة الإسلام ومحاصرته.. حتى لا يصبح قوة تهدد الاشتراكية.

---

(١) هذا من وجهة نظر أرباب الفكر الشيوعي وأبسط ما يوصفون به أنهم يستقون تفكيرهم وتشريعهم من قاع المجاري!!.

٤ ـ . . الحيلولة دون قيام حركات دينية في البلاد مهما كان شأنها ضعيفًا، والعمل الدائم بيقظة لمحو أي انبعاث ديني والضرب بعنف لا رحمة فيه لكل من يدعو إلى الدين، ولو أدى إلى الموت وتنفير الناس بالأسلوب الذي لا ينم عن معاداة للإسلام.

٥ ـ تشجيع الكتاب الملحدين وإعطائهم الحرية في مهاجمة الدين والشعور الديني والضمير الديني والتركيز في الأذهان أن الإسلام انتهى عصره ولم يبق منه اليوم إلا العبادات الشكلية.

٦ ـ قطع الروابط الدينية بين الشعوب وإحلال الرابطة الاشتراكية محل الرابطة الإسلامية التي هي أكبر خطر على اشتراكيتنا العلمية.

٧ ـ إن فصم روابط الدين ومحو الدين لا يتمان بهدم المساجد والكنائس؛ لأن الدين يكمن في الضمير، والمطلوب هو هدم الضمير الديني. . بالقصص، والمسرحيات، والمحاضرات، والصحف، والأخبار، والمؤلفات التي تروج للإلحاد وتهزأ بالدين ورجاله، وتدعو للعلم.. «والاشتراكية العلمية» وحدها.

٨ ـ خداع الجماهير. . بأن يزعم لهم أن المسيح اشتراكي فهو فقير من أسرة فقيرة. ومحمد إمام الاشتراكيين. . فهو فقير وأتباعه فقراء وحارب الأغنياء المحتكرين، والإقطاعيين. . وبقدر الإمكان نبعد عن الأنبياء القَداسَات الدينية والروحية لنجعلهم بشرًا عاديين حتى يسهل علينا القضاء على الهالة التي أوجدوها لأنفسهم!!!، وأوجدها لهم أتباعهم المهووسون.

٩ ـ في القرآن والتوراة، والأناجيل. . قصص. . ولئلا نصطدم بشعور الجماهير الديني ونثيرهم على الاشتراكية يجب أن نفسر تلك القصص الدينية تفسيرًا ماديًا اشتراكيًّا لتعبئة الشعور العام ضد الرأسماليين.

١٠ ـ إشغال الجماهير بالشعارات الاشتراكية وعدم ترك الفرصة لهم

للتفكير وإشغالهم بالأناشيد الحماسية والأغاني الوطنية والتنظيمات الحزبية.. والمحاضرات المذهبية والوعود المستمرة برفع الإنتاج، ومستوى المعيشة وإلقاء مسئولية التأخر والانهيار الاقتصادي، والجوع، والفقر، والمرض، على الرجعية والاستعمار والإقطاع ورجال الدين.

١١ ـ الهتاف الدائم ليل نهار بالثورة وأن الثورة هي المنقذ الوحيد للشعوب من حكامها الرجعيين والهتاف للاشتراكية بأنها الجنة الموعود بها جماهير الشعوب الكادحة.

١٢ ـ نشر الأفكار الإلحادية بل نشر كل فكرة تضعف الشعور الديني والعقيدة الدينية وزعزعة الثقة في رجال الدين في كل قطر إسلامي!!

١٣ ـ لا بأس من استخدام الدين لهدم الدين، ولا بأس من أداء الزعماء الاشتراكيين بعض الفرائض الدينية الجماعية للتضليل والخداع على ألا يطول زمن ذلك؛ لأن القوى الثورية يجب ألا تظهر غير ما تبطن إلا بقدر!! ويجب أن تختصر الوقت والطريق لتضرب ضربتها!! فالثورة قبل كل شيء هدم للقديم والمواريث الدينية جميعها!!

١٤ ـ الإعلان بأن الاشتراكيين يؤمنون بالدين الصحيح لا بالدين الزائف، والدين الصحيح هو الاشتراكية، وإلصاق كل عيوب الدراويش وخطايا رجال الدين بالدين نفسه، وأن الخرافة تكمن في الدين الزائف.. لا الدين الصحيح الذي هو الاشتراكية.

١٥ ـ تسمية الإسلام الذي تؤيده الاشتراكية لبلوغ مآربها وتحقيق غاياتها بالدين الصحيح، والدين الثوري، والدين المتطور، ودين المستقبل حتى يتم تجريد الإسلام الذي جاء به محمد من خصائصه ومعالمه، والاحتفاظ منه بالاسم فقط، لأن العرب إلا القليل منهم مسلمون بطبيعتهم.. فليكونوا الآن مسلمين اسمًا اشتراكيين فعلاً.. حتى يذوب الإسلام لفظًا كما ذاب معنى!!

❑ وتؤكد الوثيقة على أن ضرب الإسلام هو المقصود أولاً.. إن لم يكن هو المقصود أولاً وآخرًا. تقول الوثيقة:

١٦ - الاهتمام بالإسلام مقصود منه أولاً.. استخدام الإسلام في تحطيم الإسلام.. ثانيًا.. استخدام الإسلام للدخول في شعوب العالم الإسلامي رغم أن القوى الرجعية التي في العالم العربي والإسلامي قوى يقظة!!

*** الشيوعية.. تكشف عن أنصارها!!**

وتفصح الوثيقة عن أسرار رهيبة فتقول:

إن في المحيط العربي كله يعمل أنصارنا بجدّ.. وقد استطاعوا أن يثبوا إلى المناصب الرئيسية في الوزارات والإدارات الحكومية، والشركات، والمؤسسات الرسمية، وغير الرسمية، ووقفوا حسب تعليماتنا للسيطرة التي وإن كانت فردية إلا أن نجاحهم في الوصول إلى تلك المناصب يعد من الأعمال الهامة الناجحة..

ولئن كان من المتعذر جدًا توقيت التحرك الفوري إلا أن التمهيد له ينتهي في وقت غير بعيد.. ويزداد على مر الأيام عدد أنصارنا الذين يتولون المناصب ذات الأثر الفعال في خلق الجو الصالح للتحرك الثوري، وحسب تعليماتنا لهم جعلوا من الوزراء والمسئولين الذين لا يشك في إخلاصهم للنظام الرجعي الحاكم المعادي للاشتراكية واجهة يقفون وراءها ويعملون تحت ستارها ما يريدون. في أمن وطمأنينة. مع اليقظة والحذر، دون أن تحوم حولهم الشكوك لأنهم يتسترون بأولئك المسئولين.

وأنصارنا منبثون في كل الوزارات والإدارات والقطاعات الحكومية والعسكرية والشعبية والرسمية والأهلية، واتسعت دائرة نفوذهم التي تزداد

اتساعًا ويزداد تغلغلهم على مرّ الأيام»[١] .

*** الشيخ أبو زهرة يرد على أوحال عبدالرحمن الشرقاوي شديدة السواد والقتامة في كتاب الشرقاوي «محمد رسول الحرية» وهو يشكك في آيات اللّه وينسب القرآن إلى رسول اللّه ﷺ :**

قدّم الشيخ محمد أبو زهرة تقريرًا إلى المسئولين وسجّل فيه تعمد إساءة الكاتب إلى الرسالة المحمدية وجوهر العقيدة، وبرغم خطورة ما ورد في التقرير لم يلق حظه من النشر في وسائل الإعلام على نطاق واسع ولم يلتفت إليه المسئولون.. وبقى الكتاب المذكور ـ أعلاه ـ متداولاً بالأسواق إلى وقتنا الحاضر وعلى الصفحات التالية نعرض الحقائق التي تعمّد عبدالرحمن الشرقاوي بها الإساءة إلى الرسالة وصاحب الرسالة وذكرها الشيخ أبو زهرة في تقريره[٢] .

وللأمانة التاريخية فإن تقرير الشيخ أبي زهرة أول من حصل عليه الأستاذ محمد نعيم من الشيخ أبي زهرة قبل وفاته، وقد احتفظ به حتى أُتيحت له فرصة نشره في الاعتصام عام ١٩٧٥م وهو الذي قام بتلخيصه على هذا النحو المنشور الآن:

*** اتجاه غير ديني!**

يقول الشيخ أبو زهرة في مستهل تقريره: «أن الكتاب لم يسلم من الخطأ، أو بالأحرى كان له اتجاه غير ديني وفي دراسته فهو ما درس محمدًا

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٨ ـ ١٤١).

(٢) انظر «جيل العمالقة» لأنور الجندي (ص٢٢٦ ـ ٢٤٠)، و«أبو زهرة إمام عصره» (ص١٦٣ ـ ١٧٢).

ﷺ على أنه رسول يوحى إليه، بل على أنه رجل عظيم له آراء اجتماعية، فسرها الكاتب على ما يريد، وقد تكون هذه الكتابة مفيدة لقوم يصغرون من شأن محمد، ويهونون من أمره، فتزيل عنه ما يتوهمون، وتبين أن له شأنًا ومقامًا في تفكيره ومنحاه، وإذا لم تكن الكتابة صادقة من كل الوجوه، فهي في ذاتها تصوير حسن في الجملة لغير المسلمين وفي هذه الحال فقط.

□ وأما نشر هذه الكتابة بين المسلمين الذين يعرفون مقام النبي ﷺ عند اللَّه، ومقام الرسالة الإلهية التي يحملها النبي ﷺ. والتي هي مصدر علمه، فإنه لا فائدة فيها من جهة، وتوهين للعقيدة الإسلامية من جهة ثانية، وهي غير صادقة من جهة ثالثة وإذا برر نشرها بين غير المسلمين لتقريب نفوسهم من مبادئ محمد، فنشرها بين المؤمنين باعث على الفتنة، ومنفر للقلوب ومضعف للإيمان.

*** لماذا يقتطع جملة من آية؟!**

وإن أول ما يلمحه القارئ من الكتاب بعد استيعابه جملة وتفصيلاً، أن الكاتب يقطع النبي ﷺ عن الوحي، فكل ما كان من النبي من مبادئ وجهاد في سبيلها، إنما هي من عنده، لا بوحي من اللَّه تعالى، وهي به بمقتضى بشريته، لا بمقتضى رسالته، ولعل العنوان الذي اختاره للكتاب مع إردافه بعنوان آخر صغير يشير إلى بشرية النبي ﷺ فقط، وهذا العنوان قوله: ﴿**إنما أنا بشر مثلكم**﴾ فقد اختار هذه الجملة ليعلن أن ما وصل إليه النبي ﷺ من مبادئ جاهد لأجلها، إنما هو صادر عن بشرية كاملة، لا عن نبوة..

ولكي يتم له الاستشهاد اقتطع الجملة اقتطاعًا مما قبلها ومما بعدها، فإن هذه الجملة وردت في نصين من نصوص القرآن الكريم أولهما: في سورة الكهف، وهو قول اللَّه تعالى: ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله**

واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾ - وثانيهما - في سورة فصلت وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾.

ونرى النص الذي اختاره شعار كتابه مقطوعًا عما قبله وما بعده، فما قبله هو قوله تعالى يخاطب النبي ﷺ بقوله: ﴿قل﴾ وهو يصرح بخطاب اللَّه تعالى للنبي ﷺ، وما بعده هو قوله تعالى: ﴿يوحى إلي﴾ وقد أبعده ولم يأت به؛ لأنه لا يتفق مع غرضه؛ لأنه ينفي الوحي عن الحياة المحمدية.

*** الوحي في الغار كان منامياً:**

وأن القارئ ليسير قليلاً في الكتاب. حتى يجد الكاتب ينفي الخطاب السماوي للرسول، لا يذكر أن جبريل خاطب النبي ﷺ في العيان، فهو يقول عن أول نزول الوحي بالقرآن ما نصه:

«ولكنه في تلك الليلة من رمضان أغفى قليلاً ثم نام، فرأى من يعرض عليه كتابًا ويطلب منه أن يقرأ فقال: ما أنا بقارئ، ولكنه ألح عليه أن يقرأ، فسأله ماذا أقرأ فقال له: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه في النوم، ويستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه، فإذا به هو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتًا بعيدًا يقول له: أنت رسول اللَّه وأنا جبريل» (ص٦٨ و٦٩).

وأن تصوير الوحي بالحلم في النوم يخالف ما أجمع عليه المسلمون من أن جبريل كان يخاطب النبي ﷺ بالعيان لا في المنام، نعم قبل ذلك الخطاب بقوله - اقرأ - ونزول سورة القلم، كان الوحي يجيء إليه في رؤيا منامية، حتى أنه كان يرى الرؤيا تجيء في الصحو مثل فلق الصبح

كما صرح البخاري، ولكن لم تكن تعتبر خطابًا من السماء، حتى نزول الوحي ومخاطبة جبريل الأمين الذي تردد ذكره في القرآن الكريم. على أنه رسول اللَّه إلى الذين يصطفيهم من الأنبياء لتبليغ الرسالة الإلهية إلى الأرض.

*** نسبة القرآن إلى النبي:**

وإنه إذ يقطع الرسالة عن الرسول. ويقطع الوحي عنه يتجه إلى القرآن فيذكر عباراته أحيانًا منسوبة إلى النبي ﷺ على أنها من تفكيره ومن قوله، لا أنها قرآن موحى بها، قائله هو اللَّه سبحانه وتعالى وأن ذلك مبثوث في الكتاب بكثرة، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة.

*** إنذاره عشيرته الأقربين:**

ذكر في صفحة ٨٠ ما نصه: «رأى محمد أن يجمع أسرته من بني عبدالمطلب وأن يدعوهم إلى الإيمان بما جاء به فليس أحب إليه من عشيرته الأقربين»، ونراه يذكر ذلك على أنه رأي ارتآه، ويغفل الأمر القرآني الثابت وهو قوله تعالى: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين**﴾.. فنراه في هذا الكلام الذي قاله ينسب كل ما يكون بوحي قرآني إلى أنه رأي رآه النبي ﷺ.

وفي هذا المقام اعترض أبو لهب عم النبي ﷺ، فيذكر ما نصه في ذلك: فاسمع يا أبا لهب اسمع إذن، سمعت الرعد، تبا لك أنت تبا لك سائر يومك وسائر حياتك، تبت يدا أبي لهب وتب (ص٨٣).. فنراه في هذا ينسب إلى النبي قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾..

وبهذا نرى أنه ينسب هذه السورة إلى النبي ﷺ، لا إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ومثل ذلك جاء في (ص٨٧) من الكتاب، ففيها ما نصه: تبًا لها (أي لامرأة أبي لهب) كما تبت يدا أبي لهب وتبت يدا أبي لهب وتب وامرأته حمالة الحطب.

*** القتال في الشهر الحرام:**

❑ يذكر استنكار المشركين لأمر النبي ﷺ بأنه قاتل في الأشهر الحرم، ويذكر الرد على أنه للنبي فيقول في صفحة ١٨٣: «أنها لكبيرة أن يقتل عبداللَّه ـ أي: ابن جحش ـ أحدًا في الشهر الحرام، ولكن الفتنة أكبر من القتل، وصد الناس عن البيت العتيق وإخراج أهله منه أكبر» ـ يذكر هذا الكلام منسوبًا إلى النبي ﷺ على أنه من عنده، مع أنه من القرآن الكريم، واللَّه تعالى يقول: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾.

*** أسرى بدر:**

❑ استشار النبي ﷺ بعد غزوة بدر أصحابه في شأن الأسرى، فأشار عمر بقتلهم، وأشار أبو بكر بالعفو، وتوسط النبي ﷺ فاختار أن يفتدوا من أهلهم، وقد بين اللَّه سبحانه لنبيه الحكم في أخذه أسرى والمعركة دائمة مستمرة؛ لأنه لا أسرى إلا بعد أن يعجز العدو عن القتال. وقد نزل في ذلك قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾.

هناك في القضية عمل من النبي ﷺ ولوم وتوجيه من اللَّه، ولكن الكاتب يقول أن النبي بعد تأمل وتدبر قرر خطأ الفداء، وهذا نص كلامه «قد أطلق كثيرًا من الأسرى، ولم يعد ـ أي لم يبق ـ غير القليل، فانقطع يفكر، وخرج على أصحابه يقول: أنه أخطأ هو وأبو بكر حين لم يستمعا لنصيحة عمر، فما كان له أن يترك لقريش أسراها لتستعين بهم على حربه مرة أخرى ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض (ص٢٠٣ ـ ٢٠٤).

وبهذا يتبين أنه يرى أنه هذا ليس وحيًا، ولكنه من تأملات النبي ﷺ، وأن القرآن من عند محمد لا من عند اللَّه..

*** إبطال التبني من النبي؟!**

❑ ينسب إبطال التبني إلى النبي ﷺ، ولا ينسبه إلى اللَّه مع أنه قد حرم التبني بقول اللَّه تعالى في نص قرآني إذ يقول سبحانه: ﴿**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾.

* ويقول سبحانه: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾.

فهو يذكر قصة زيد بن حارثة مع زوجه زينب بنت جحش، وشكواه منها وقول النبي له أمسك عليك زوجك ويبين أن الزوجين أصبحا لا يطيقان الاستمرار، ويذكر إشاعة أن النبي ﷺ طمع في جمالها، وما كان للنبي أن يتزوج زوجة متبناه لأنه ابنه، ثم يقول: «ولكن محمدًا خرج يقول لهم:

ان المتبني ليس كالابن تمامًا، فالولد شيء آخر، وأنه إنما تزوج لكي يدركوا هذا ولكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم، فلا حاجة له بجمال زينب، ولديه عائشة وحفصة (ص٢١٦).

فهو في هذا يدعي أن التحريم للتبني من محمد ﷺ، يدعي أن محمدًا تزوج زينب من تلقاء نفسه مع أنه بأمر من اللَّه تعالى في قوله: ﴿**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا..**﴾.

فنراه ينسب التحريم إلى النبي: وينسب الزواج لرأي ارتآه الرسول مع أنه ثابت بالقرآن ولكنه ينسب القرآن دائمًا إلى النبي ﷺ.

وإنا لنحمد له أنه لم يسر وراء المستشرقين في ادعائهم كما جاء في رواية ضعيفة عن بعض التابعين أن النبي ﷺ فتن بجمال زينب، وكان الطلاق لذلك ـ فله منا التقدير لهذا!!..

* **عبرة أحد:**

❑ ذكر بعد أن قص أخبار موقعة أحد العبر فيها على أنها من قول محمد مع أنها من قول اللَّه تعالى، فهو يقول: «.. وأقبل محمد على الناس يحدثهم عن محنة أحد، ويستخلص العبرة من أخطائهم، عسى أن تضيء التجربة القاسية طريق المستقبل»..

* وأن العبرة في أحد كانت بقول اللَّه تعالى في آيات كثيرة من سورة آل عمران في مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ**

حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

.. ولكنه دائمًا ينسب ما جاء في القرآن إلى النبي ﷺ. مما يدل على أنه يرى أن القرآن من قول النبي، ولم يذكر في الصحيح من السنن أن النبي ﷺ بين العبر في أحد بغير تلاوة القرآن عليهم.

* تقسيم أموال بني النضير:

يذكر أن تقسيم أموال بني النضير كان بقول النبي ﷺ، ويقول في ذلك، قال لهم: «.. إنَّ إخوانكم المهاجرين ليس لهم مال، فإن شئتم، قسمت أموال بني النضير وأموالكم بينكم جميعًا، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة».. والحق أنه لا يوجد ذلك التخيير وأن النص القرآني في صريحه يبين هذا، فاللَّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ولكنه كمنهاجه ينسب ما في القرآن دائمًا إلى النبي ﷺ، وزاد هنا مسأله التخيير التي لا نعلم لها مصدرًا تاريخيًّا.. (ص٢٥٥).

*** معاني القرآن وأحكامه ينسبها للنبي:**

❑ وهكذا نجده يذكر كثيرًا من معاني القرآن وينسبها للنبي ﷺ، فهو يذكر سورة (الكافرون) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ على أنها من كلام النبي ﷺ.. (ص١٠٨).

وينسب تحريم الخمر على أنه للنبي ﷺ. ويشير إلى تدرج التحريم في القرآن الكريم.. ويترك الآيات المختلفة الدالة على ذلك..

ويذكر قصص القرآن على أنه نتيجة تجارب النبي ﷺ ويقول في ذلك.. : «وقسم محمد لياليه بين زوجاته الثلاث: سودة، وعائشة، وحفصة، ولكنه مع ذلك كان يجمعهن عند صاحبة النوبة في الصباح ليعظهن وفي المساء ليسمر معهن، ويقص عليهن ما رآه في رحلاته، وكثيرًا من الحكايات والأمثال». وما كان قصص النبي ﷺ إلا من القرآن. وما كانت له رحلات في بلاد العرب. بل إنه لم يخرج من الحجاز إلا مرتين إحداهما وهو في الثانية عشرة. والثانية وهو في الخامسة والعشرين.

*** أين ذكر اللَّه في الكتاب؟!**

❑ ويقول الشيخ أبو زهرة في تقريره: هذه أمثلة سقناها، وإنها لكثيرة في الكتاب، وهي تدل على أنه يرى ـ أي الكاتب ـ أن القرآن من كلام محمد، وفي الحقيقة أنه لم يذكر قط أن اللَّه سبحانه وتعالى منزل القرآن، وباعث محمد بالرسالة، بل إن ذكر اللَّه تعالى يندر في الكتاب بل لا تجد له ذكرًا قط.. ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾.

*** القرآن من همهمة الرسول؟!**

لم يذكر القرآن إلا نادرًا، بل إنك تقرأ الصفحات الكثيرة التي تبلغ

مائتين أو أكثر فلا تجد ذكرًا لكلمة القرآن الكريم. بل لكلمة القرآن فقط، وأذكر آية ذكر أنها همهمة نفس النبي ﷺ، ولنضرب لذلك مثلاً. لقد ذكر أن النبي ﷺ أذن لبعض الناس بالعودة من حيث خرجوا، وكان ذلك في بعض الغزوات، ثم يقول: فأذن لمن يريد أن يعود إلى بيته أن يعود فهذا خير من أن يبقى في الصفوف ليشيع الانهزام ويثبت في الصفوف من يجد في نفسه القدرة على مواجهة الخطر والرغبة الصادقة في الاستشهاد دفاعًا عما يؤمن به وهمهم لنفسه وهو يتقدم الصفوف «عفا اللَّه عنك لما أذنت لهم»، ولكنه عاد فرأى الخير في تخليص صفوفه من العناصر الخائرة ثم أخذ يتلو عليهم. ﴿**وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا**﴾ ﴿**قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ (ص٢٨٨).

*** التشكيك في آيات اللَّه:**

فهو يذكر الهمهمة، ثم يقرنها بآية على أنها من همهمته، ثم يتلو آية أخرى غير ناسبها للَّه، ولا لأحد فهي بمقتضى منطقه من همهمته أيضًا، ثم يشير إلى نوع من التشكيك؛ لأن الآيتين يبدو بينهما تعارض مع أن الآيتين مختلفتان من حيث موضع قولهما، فآية ﴿**عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ**﴾ كانت في غزوة تبوك، وقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ**﴾ كانت في غزوة الأحزاب.

وهو لا يذكر كلمة القرآن على أنه منسوب للَّه في مقام يومئ بالتشكيك في صدقه وأقرأ قوله في (ص٣٥٤) بالنسبة للمرتدين الذين قتلوا بعض المؤمنين غدرًا الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**يقتلون ولو تعلقوا بأستار الكعبة**»: وكان منهم رجل عهد إليه محمد بكتابة القرآن، ولكن الرجل كان

يغير في القرآن على هواه يمليه محمد وهو السميع العليم فيكتب وهو الخبير الحكيم، ثم يذهب إلى المنافقين في المدينة، ويتندر بما يصنع.. ظل يصنع هذا حتى اكتشف محمد ﷺ أمره فهرب إلى مكة، ويظل يهزأ بمحمد، وبالقرآن، ويؤكد للناس أنه حرف كثيرًا من آياته لم يكتشفها محمد بعد.. وأقرأ قوله في (ص٣٥٦): أما الرجل الذي حرف في القرآن الكريم فيعلن توبته ويحرق النسخة المحرفة أمام الجميع.. وأن هذا البيان التاريخي يوهم، بل يثير أن القرآن فيه تحريف وتبديل، بدليل أن أحد كتاب الوحي قال ذلك، والخبر على هذا الوجه غير صحيح، ذلك أن الرجل كان يكتب الوحي أحيانًا، وما كان للنبي كاتب واحد، بل كان يكتب الوحي من يكون بحضرته عند نزوله ممن يحسنون الكتابة، وعندما يملي عليه النبي ﷺ ما أوحي إليه يقرأه ويحفظه من يكون بحضرته من الصحابة فما كان الرجل ملازمًا له، وما كان الاعتماد على ما يكتب، بل على ما يحفظ.

وما تكونت في عصر النبي ﷺ نسخة مجموعة جمعا نهائيًا، ولكن كان محفوظًا في صدور كثيرين من الصحابة كأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعلي بن أبي طالب، وغيرهم كثير، فلا يقال أن هناك نسخة كانت محرفة وحرقت، وما جاء ذلك في سياق تاريخي قط، وما قاله أحد قط من علماء الإسلام وأخيرًا أن الردة التي وقع فيها ذلك الرجل ما كانت نتيجة طرد النبي ﷺ له. بل إنه ارتد من تلقاء نفسه، ثم أخذ يشيع هذه الأكاذيب، فما كانت حقيقة، ولكنها ادعاء منه، هو كاذب فيه، فالنبي ﷺ يحفظ ما ينزل عليه، وغيره يحفظه وما كان من المعقول أن يستمر ذلك التحريف دقيقة واحدة.

وأنه عند جمع القرآن في مصحف، أي تكوين نسخة كاملة منه في

عهد الشيخين أبي بكر وعمر كان الاعتماد على الحفظ وكان يبحث عن المكتوب غير المجموع، إذ كانت الكتابة في قطع متناثرة عند الصحابة، فيبين أن المكتوب كما حفظوا فيثبتونه في المصحف.

*** توهين لتواتر القرآن:**

❑ ويضيف الشيخ أبو زهرة في تقريره:

«إن السياق الذي ذكره الكاتب توهين لتواتر القرآن لا يصح أن ينشر بين المؤمنين أو غير المؤمنين فوق أن أصله كاذب في ذاته ثم إنه ليوهن شأن النصوص سواء أكانت قرآنًا أم أحاديث عندما يقرر أن الحكم في الإسلام بالقرآن أو السنة أو الرأي على أنها متساوية، والمسلم مخير بينها، ألا أنها مرتبة، ويقول في ذلك (ص٣٧٥): «.. وفي رأس كل منهم ترسخ نصيحة محمد:» «احكم بالقرآن أو بالسنة أو اجتهد رأيك، والأمر شورى بينكم لا تختلفوا ولا تعلوا في الأرض مفسدين».

*** ينافي الحقائق التاريخية:**

❑ ويستطرد الشيخ أبو زهرة في تقريره قائلاً:

«هذا موقف الكاتب من القرآن ذكرناه مع ضرب الأمثلة من الكتاب، لا نكتب فيه ما لم يكتب بل إننا نسمع البينات من كتابته، فلنتجه بعد ذلك إلى موقفه من النبي الرسول المبعوث من عند اللّه تعالى، فإن الكلام الذي كتبه عنه غير قائم على أسس صادقة، بل على ما ينافي كل الحقائق التاريخية تمامًا، ولنضرب لذلك بعض الأمثال:

● ادعاء خروج النبي إلى اليمن؟

ادعى أن النبي ﷺ سافر إلى اليمن مع عمه الزبير بن عبدالمطلب فقد

جاء في (ص٤٢) ما نصه: «وها هو ذا محمد يضطر إلى أن يشتغل أجيرًا في هذه القوافل ليعيش فما كان يملك الدينارين أو الدينار ويخرج إلى اليمن مع عمه الزبير في رحلة الشتاء..

وهذا ما لم يذكر في الصحاح عن تاريخ النبي ﷺ.. وقد يذكره المستشرقون من غير سند تاريخي، بل بفرض يفرضونه ليتم لهم ما يبتغون من توهين شأن الدعوة الإسلامية بادعاء أن محمدًا ﷺ كان رحالة، وأن ما جاء به نتيجة تجاربه، لا بوحي من ربه..

يسترسل في ادعاء أن محمدًا ﷺ كان رحالة معنيًا بما عند الرومان والفرس. فهو يقول في (ص٦٢): «.. لم تكن الجزيرة العربية وحدها هي التي تعنيه فقد طاف بالشمال والجنوب، وعرف كثيرًا مما حدث في بلاد الفرس والروم وفكر في هذا كله، ففي كل مكان يهدد الإنسان، ويسيطر الغيظ أحيانًا حتى لتمتد يد المرأة الحنون إلى قلب خصمها بعد أن يقتل: فتأكل منه القلب، وتلعق الدم، وما زال الملاك الكبار في بلاد الروم يصنعون بالرجال والنساء ما يصنعه المرابون التجار الكبار في مكة، والرؤساء والدهاقون في بلاد الفرس وهنا وهناك يقضي على الإنسان ما يقضي باسم قوى الخفاء التي لا تقاوم ولا ترد، وهي قوى لا تشبع من الضعفاء وتقتات بالهوان..

● **ادعاءات من خيال المستشرقين:**

ولا يهمنا من هذا الكلام إلا ما فيه من ادعاء أن النبي ﷺ قد جاب البلاد العربية شمالاً وجنوبًا، وأنه كان معنيًا بمعرفة ما عند الرومان والفرس، وأن ذلك كله لا يوجد ما يدل عليه في التاريخ الإسلامي، والمصادر الصحيحة بل لا يوجد شيء من هذا في أي مصدر عربي قديم، ولكنه خيال المستشرقين لحاجة في أنفسهم.

● **هل كتب النبي بيده؟!**

يذكر أن النبي ﷺ تعلم الكتابة من ملاحظته للحروف. وهذا نص قوله في (ص٣١٣): «.. فتناول محمد الصحيفة من علي ومحا ما كتبه علي، وكتب هو ديباجتها، كما أراد مندوب قريش، كانت هذه أول مرة يكتب فيها بعد أن تعود ملاحظة الحروف من طول ما أملى كتبة القرآن».. وأن هذا تزيد في الروايات، فإن الثابت أن عليًا لما امتنع عن حذف كلمة رسول اللَّه أو محوها، مد رسول اللَّه ﷺ يده، ومحاها بنفسه، وأتم علي بقية الكتاب، ولم يكتب محمد بيده شيئًا..

● **ثلاث دعاوى باطلة:**

يذكر أن محمدًا ﷺ قد سحر، فيقول في ذلك في (ص١٧٩): «.. ورأت اليهود موجة نشاط جديدة تهز القلوب فعادت تكيد، وكان من رجال يهود ونسائها من يقوم بأعمال السحر، وللسحر إذ ذاك سلطان مخيف على بعض العقول، وضعت امرأة يهودية سحرًا يقعده عن الخروج ويمنعه من النساء، ولقد ضاق هو بهذا السحر ولكنه تحداه، وخرج يقود إحدى الرايات وعاد إلى المدينة ساخرًا بهذا السحر، غير أنه امتنع عن النساء فأما سودة الزوجة الكهلة فقد صبرت للأمر عدة شهور، وأما عائشة زوجته الجديدة الشابة فقد احتملت هذه الشهور ثم طالبته أن يصنع شيئًا يبطل به هذا السحر، وكان هو يدللها ويصطفيها ويتركها تتكئ بذقنها على كتفه أمام الناس، وشعرها يلمس خده، وهي ترى معه ألعاب الأحابيش في ساحة المسجد..».

وأن هذا الكلام فيه ادعاءات ثلاثة ـ أولها: أنه سحر. وثانيها: أن ذلك أثر في قوته التناسلية. ثالثها: أنه كان يدلل زوجته أمام الناس، وهذه دعاوى باطلة، أما السحر فقد ذكر في بعض الروايات، ولكن الثقات والمحققين من

العلماء ردوها.. وثبت بالدليل القاطع بطلانها[1] ولو أن بعض الثقات قد أدخلت عليه، وأن المستشرقين يطيلون في ذكرها توهينًا لشأن الدعوة الإسلامية وأما أنه أثر في قوته التناسلية فهي مبنية على تأثره بالسحر، وقد ثبت بطلانها على أن أكثر الرواة لايذكرونها، وأما تدليله لزوجه أمام الناس، فذلك لم يصح إنما الذي صح أنها كانت تنظر إلى ألعاب الاحابيش وتتطلع من فوق منكبه وهو جالس.

● نزعة مسيحية:

نجده في مواضع كثيرة يذكر أن النبي ﷺ يُنادي بيا ولدي ولا يذكر من المنادي، فقد جاء في (ص٤٩) ما نصه: «.. غريب أنت يا ولدي في هذا التيه الذي يتنفس باللعنة والأكذوبة ـ والمنكر. شارد. حزين، لا تنفك تتأمل في السموات والأرض ووجوه الرجال والنساء والأطفال، ما تكاد تضحك مستمتعًا بحياتك الجديدة المطمئنة مع المرأة الجميلة التقية الحكيمة التي اختارتك للحياة».

ولا ندري من الذي يناديه ذلك النداء وقد تكرر ذلك في عدة مواضع، فقد جاء في (ص١٣٤) ما نصه:

«.. طريد أنت يا ولدي. مسكين معذب كالمبشرين الأوائل» فمن الذي ينادي هذا النداء؟ إن الذي يمكننا أن نفسر به ذلك هو أن هذه نزعة مسيحية،

(١) غفر اللّه لأبي زهرة.. فأحاديث سحر النبي ﷺ ثابتة ولم يردها الثقات من الحفاظ والمحدثين كما يقول، وليس فيها ما ينافي العصمة.. وإنما جرى أبو زهرة في هذا على نسق المدرسة العقلية الحديثة.. كما أنه يعاب عليه موقفه من دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وما أورده في ترجمته لشيخ الإسلام ابن تيمية وموقفه من السلفية.. ونحن ننظر إلى الرجال كل الرجال مهما علا شأنهم من منظور سلفي بحت.. فما وافقوا فيه مذهب السلف شكرنا لهم ذلك وأخذناه، وما حادوا فيه عن منهج السلف رددناه عليه وذممناه.

كما يجري على ألسنة المسيحيين أبونا الذي في السماء، وإنه يصح أن يكون ذلك صوت اللَّه يناديه في زعم الكاتب، ولكن لا أحد في الدنيا يصح أن يكون ولدًا للَّه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

● خيال روائي:

هذا موقف الكتاب من القرآن، والنبي ﷺ، بالإضافة إلى الخيال الروائي الذي يفتقر إلى الصدق التاريخي في بعض الروايات عن حمزة وغيره.. والكتاب في الجملة يسيء إلى الناس في دينهم.

وختم الشيخ أبو زهرة رحمة اللَّه عليه تقريره بطلب منع تداول الكتاب لأنه يسيء إلى الناس في دينهم.

* رد الشيخ أبي زهرة على مشروع وزارة الشئون الاجتماعية في الأسرة:

كتب فضيلة الشيخ محمد أحمد أبو زهرة رادًّا على وزارة الشئون الاجتماعية في مشروع الأسرة الخاص بتقييد الطلاق وتقييد تعدد الزوجات وأفحم الأقزام:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم

١ ـ للَّه تعالى الحمد، وعلى نبيه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وبعد: فقد اطلع مجمع البحوث الإسلامية على المشروع الذي اقترحته لجنة ألفت لوزارة الشئون الاجتماعية ورأستها السيدة الدكتورة عائشة راتب ـ وزيرة هذه الوزارة:

وقد نشرت بعض فقرات المشروع الخاصة بتقييد الطلاق، وتقييد تعدد الزوجات، وهاج لذلك الرأي العام المسلم، وتنادى الناس بوجوب أن يقول علماء المسلمين كلمتهم في هذا المشروع، وعدوه بدعًا في الإسلام يجب

رده، أو تجب دراسته، لا أن يذهب إلى دار النيابة عن الأمة في غيبة من رأي علماء المسلمين، وطالب مجمع البحوث الإسلامية من الجهات المختصة أن يرسل المشروع إليه ليدرسه، فإن كان خيرًا لا يخالف المبادئ المقررة أقره، وإن كان غير ذلك رده شاكرًا للذين مكنوه من الدراسة.

وجاء المشروع إلى المجمع، فألف لجنة من أعضائه لدراسته.

وانتهت اللجنة من دراستها إلى أمرين:

أولهما: مخالفته للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية والإجماع الذي انعقد في عهد الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من أئمة الدين، وذلك في تقييد الطلاق أو منعه، وتقييد تعدد الزوجات أو منعه، ومخالفته للفقه الإسلامي بإجماع فقهائه في مسألة الولاية وحد سن الزواج، كما كان مخالفًا للمصلحة الاجتماعية.

ثانيهما: أن الموازنة التي قامت بها اللجنة في الموضوعات التي تعرض لها مشروع وزارة الشئون الاجتماعية وتعرض لها مشروع اللجنة التي قامت بدراسة الأسرة، ووضعت مشروعًا عامًا في كل أحكامها، انتهت بترجيح ما كان في المشروع العام إلا في بعض عبارات.

ومهما يكن: فقد كانت الموازنة في أمور جزئية تكون موضع دراسة عند عرض المشروع العام ليكون قانونًا.

*** المخالفات الصريحة للقرآن والسنة:**

٢ ـ خالف مشروع وزارة الشئون الاجتماعية النصوص والإجماع في أمرين:

الأول: الطلاق.

الثاني: تعدد الزوجات.

* الطلاق:

فبالنسبة للطلاق: صرح القرآن بجوازه، ولم يذكر قيوداً له إلا قيوداً نفسية لكي يقع الطلاق في حال القصد إليه عن عزيمة وإرادة جازمة، ولا يقع تحت تأثير حال عارضة غير دائمة، بل يقع عند قصد الفراق، والأساس أن الطلاق يقع بإرادة الزوج.

* وقد صرح القرآن بجواز الطلاق في مثل قوله تعالى: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

* وقال تعالى عند احتدام الخلاف بين الزوجين: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

وهكذا: نجد الكثير من آيات اللَّه تعالى يجيز الطلاق مقيداً بقيود يلاحظها المطلق في نفسه، لكيلا يظلم أحداً، فهي قيود دينية خلقية، لا يمكن أن يجري فيها تحقيق القضاء، الذي يكون في الأمور البينة الظاهرة، ولا يكون في الأمور النفسية الخلقية، إذ ذلك يكون لحكم الدين وقانون الأخلاق.

وأن النبي ﷺ قد طلق، وطلق أصحابه الذين عاينوا وشاهدوا، وتلقوا علم النبوة عن الرسول المبعوث رحمة للعالمين.

وانعقد الإجماع من لدن عصر النبي ﷺ إلى عصرنا، إلى أن جاء عصر الذين يريدون إخضاع أحكام الإسلام لأنظارهم، سواء أكانت مستقيمة أم كانت منحرفة، وإن جواز الطلاق أمر معروف من الدين بالضرورة.

٣ ـ وقد جعلته اللجنة التي ألفت بوزارة الشئون الاجتماعية ورأستها السيدة الوزيرة لا يقع إلا أمام القاضي وبإشهاد يصدره بعد عرض التحكيم أو الإصلاح بنفسه.

وإذا أوقع الطلاق بغير هذا الطريق يقع الطلاق، إذا استوفى شروطه الشرعية، ولكن يعاقب بحبس أو بغرامة مائة جنيه، أو بهما معًا.

ولو أخذ بهذا المشروع لأدى ـ لا محالة ـ إلى أمرين مخالفين لنصوص الدين أو الإجماع.

الأمر الأول: أنه زيادة في الشرع في أمر لم يأت الشرع بهذه الزيادة، فلم يشترط القرآن ولا السنة أن يكون أمام القاضي، وكان النبي ﷺ والصحابة والتابعون والفقهاء أجمعون، بل المسلمون أجمعون يطلقون من غير أن يلجأوا إلى القاضي ليقع الطلاق بين يديه.

الأمر الثاني: أنه منع الطلاق، ووضع عقوبة عليه، ومعنى العقاب عليه: أن يكون فيه إثم يستوجب العقاب وتلك مناهضة لإباحة القرآن والسنة والإجماع للطلاق، فبينما يقول اللَّه تعالى: ﴿**لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ**﴾. يقول هذا المشروع: لا، بل عليه عقاب صارم.

❑ فهل تكون مصادمة للنصوص المقدسة، وإجماع المسلمين أكبر من هذه المصادمة؟

وأن ذلك فيه ضرر كبير على الأسرة؛ لأن شئون الأسرة بحكم الدين يجب أن تكون مستورة بستر اللَّه تعالى، وفي ظل حكمه الرحيم العادل،

يُحكي: أن قتادة طلق امرأته، فقال له بعض الناس: لم طلقت امرأتك؟ فقال: «إن المؤمن لا يفشي سر أهله».

وإذا كان الطلاق أمام القاضي بإشهاد يصدره، فإنه سيبحث عن بواعثه، وقد يكون من البواعث ـ وذلك كثير ـ ما يضر إعلانه في مجلس القضاء سرًّا أو علانية، كأن يكون ذلك من ريبة بينهما، وإذا أعلن ذلك أضر الزوجة والأولاد، ومن يتصلون بالأسرة من آباء وإخوة، وقد يكون فضيحة، لا تقف عند حد، وأن القرآن الكريم قد لاحظ ذلك. ولهذا عندما أجاز تحكيم الحكمين اشترط: أن يكونا من أهله وأهلها، فقال تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا** ﴾ [النساء: ٣٥].

هذا: وإن العقاب على الطلاق قد يؤدي إلى ضرر شديد بالمرأة، أو استباحة لما حرم اللَّه تعالى، فيعيش معها على بغض وكراهية، وتصير معلقة: لا هي زوجة تأخذ حقوق الزوجية، ولا مطلقة يغنيها اللَّه من سعته وقد يستبيح ما حرم اللَّه أو يتزوج زواجًا غير مسجل، فلا تتقرر حقوق الثانية، كما ضاعت حقوق الأولى، وذلك الحرمان للأولى لا يحله اللَّه تعالى، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ** ﴾.

ولهذا: نجد المنع الحرام الذي قررته لجنة الشئون الاجتماعية برئاسة وزيرتها يؤدي إلى الوقوع في حرام وضرر بالمرأة، والوقوع في المحرمات.

٤ ـ وما الذي أدى بوزارة الشئون الاجتماعية إلى الوقوع في ذلك؟ نذكر ما تذكره.

قالت اللجنة: إن الطلاق قد كثر كثرة فادحة فنسبة الطلاق إلى الزواج ٢٥٪، أي ربع عدد الزواج، فتتفرق الأسرة، وتتشتت، ومن الواجب وضع حدود له.

* **ذلك قولهم بأفواههم:**

❑ لنفكر فيه ونقرر ما يأتي:

أولاً: أن نسبة عدد الطلاق إلى عدد الزواج ٢٣٪ على حسب إحصائية سنة ١٩٦٠، وأن هذا الإحصاء مأخوذ من دفاتر الموثقين الذين يوثقون الطلاق قبل الدخول مطلقًا، سواء أكان قبل الدخول، أم كان رجعيًا، أم كان بائنًا بتراضي الطرفين، وما يكون الزواج قد استؤنف بعد.

ثانيًا: أنه ليس كل طلاق يخرب الأسرة.

ثالثًا: أن الطلاق الذي يكون بحكم القاضي في أمريكا وأوربا نسبته أكبر من هذه النسبة بكثير، وذلك لانحلال الأسرة هناك، ولنضرب عن هذا صفحًا؛ لأن أسرتنا الإسلامية لا تزال ـ بعون اللَّه تعالى ـ أشد الأسر في العالم تماسكًا.

ولننظر في الأمر الثاني وهو الذي تركته وزارة الشئون الاجتماعية، لا نقول: إهمالاً أو جهلاً، ولكن نقول: نسيانًا.

وهو: أنه ليس كل طلاق يفرق الأسرة، فيفرق ما بين الآباء والأمهات والأولاد، فيجب عند دراسة الطلاق الممزق للأسرة، المضيع للأولاد، أن نفرق بين الطلاق قبل الدخول فإنه لا يفرق بين الأسرة، بل إنه يحمي المجتمع من أن تتكون الأسرة على أساس غير سليم، تحمل في تكوينها أسباب انحلالها.

ولا نفرق بين طلاق رجعي، وطلاق بائن، ولا بين طلاق بتراضي الطرفين، وافتداء المرأة نفسها بمال، وطلاق بغير رضا المرأة.

وإنه إذا استنزل من عدد الطلاق عدد الطلاق قبل الدخول، وعدد الرجعات، فإن الطلاق الرجعي إنذار بالافتراق، وليس افتراقًا إلا بعد انتهاء

العدة، وإذا استنزل أيضًا عدد الطلاق بتراضي الطرفين، كما يستنزل من عدد الزواج، الزواج بين مطلق ومطلقة، فإنه إعادة للحياة الزوجية بعد الطلاق فلا تفريق إذا استنزل هذا من الزواج واستنزل ذلك من الطلاق لا تصل نسبته إلى ٢٪ وكثيرًا ما تكون فيها الإساءة من جانب الزوجة، وقد يكون لريبة بينهما.

ذلك هو النظر الحق إلى الطلاق، وهو تقدير العزيز العليم.

*** تعدد الزوجات:**

٥ ـ ولننتقل إلى تعدد الزوجات، وإنا نرى تقييده أو منعه مصادمة لنصوص القرآن، والمأثور في السنة، وإجماع الصحابة ومن بعدهم: التابعين والأئمة المجتهدين بل إجماع المسلمين من عصر النبي ﷺ إلى أن كان في أيامنا من يريدون إخضاع الإسلام لأنظارهم.

جاء في مشروع اللجنة التي ألفت برياسة السيدة وزيرة الشئون الاجتماعية أنه: لا يجوز لمتزوج أن يوثق زواجه بأخرى إلا بإذن من المحكمة المختصة، ولا تأذن المحكمة إلا بعد التحري والتحقيق من توافر المبرر الشرعي، والقدرة على القيام بحسن المعاشرة والإنفاق، ولا تسمع دعوى الزوجية إذا تم خلاف ما تقدم.

وقررت: عقوبة الحبس وبغرامة مائة جنيه، أو بإحداهما على من يتزوج بغير هذا الإجراء.

كما قررت: العقوبة على الذين يدلون بمعلومات يثبت عدم صحتها، ويترتب عليها التوثيق. وكذلك قررت: العقوبة على الموثق الذي يوثق من غير أن يكون لديه إذن من القاضي.

❑ ولننظر في المشروع وفيما يتعلق بهذا الجزء منه من ناحيتين:

الناحية الأولى: الشرعية في الإسلام، فنقول: إن اللَّه تعالى أباح

التعدد، وقيده بعدد معين، مخالفًا بذلك شريعة التوراة، التي لم تنص على عدد، وقيده بعض الأحبار بثماني عشرة، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣]. أي لا تظلموا؛ لأن عال كقال معناها ظلم.

أباح اللَّه تعالى التعدد إلى أربع، والنبي ﷺ عدد لأكثر من ذلك خاصة له، من دون المؤمنين، لأسباب: اجتماعية وسياسية.

وأجمع على الإباحة بهذا العدد: الصحابة الذين تلقوا علم النبوة من النبي كما أجمع التابعون الذين تلقوا علم الصحابة أو الأئمة المجتهدون من بعدهم بل أجمع المسلمون كما ذكرنا.

ويكون المنع بهذا فيه مصادمة لنص القرآن، وسنة النبي ﷺ والصحابة وإجماع المسلمين، وأنه بدعة في الدين، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

والناحية الثانية: ما اشترطه نص المشروع لإصدار الإذن فقد قال: لا تأذن المحكمة إلا بعد التحري والتحقيق من توافر المبرر الشرعي، والقيام بحسن المعاشرة والإنفاق.

هذا نص مبهم، لا يصلح أن يكون مادة في قانون يطبق فما هي المبررات المسوغة للتعدد؟ فهل يكون منها حال ما إذا كان بينهما ما يوجب تصحيح الوضع بعقد شرعي رسمي، وهل يكون من مصلحة المرأة المنع من ذلك؟ ومهما يكن فإن اللفظ مبهم لا يكون في قانون يطبق.

وكيف يتحقق القيام بالعشرة الزوجية وكيف يكون تحقيقه، وأن يكون على الدوام، هل تفتش القلوب، وتتعرف على النيات في الحاضر والقابل!!

إن ذلك أمر غير ممكن، والمقصود بوضع هذا الكلام المبهم: المنع المطلق

وهذا مصادمة واضحة صريحة للنصوص والإجماع.

٦ ـ ولقد وضعت عقوبة لأمر أباحه اللَّه تعالى: فاللَّه تعالى يقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]. ووزارة الشئون الاجتماعية بلجنتها الموقرة، تقول: إذا نكحتم ما طاب مثنى أو ثلاث فالحبس والغرامة مائة جنيه.

لقد قال كاتب اجتماعي في آخر القرن الماضي ورددوا قوله إن شرط الإباحة العدالة، واللَّه تعالى بين في آية أخرى استحالتها فقال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩].

❑ ونقول: إن العدالة المادية هي المطلوبة وهي المساواة في المسكن والملبس والمبيت.. أما العدالة المنفية فهي العدالة في المحبة القلبية، ولم يطالب بها اللَّه تعالى، لأنها ليست في الملك التي يجري بها التكليف، فسبحان مقلب القلوب، ولذلك عقب النفي بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ فمعنى ذلك أنه غير مطلوب هذه العدالة، بل المطلوب ألا تهمل إحداهما.

● ولقد قال النبي ﷺ عند قسمه بين زوجاته: «**اللَّهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك**».

٧ ـ وأخيرًا: إن هذا المنع فيه ضرر للمرأة مع مصادمته لأوامر الشرع، وإجماع المسلمين، وفيه تدخل في حرية التعاقد، وفيه فساد للمجتمع الإسلامي.

إن الأصل في العقود الاختيار، ومن غير رقابة من الدولة إلا أن يكون مخالفًا للنظام العام، وإن تعدد الزوجات لا يمكن أن يكون في دولة دينها الرسمي الإسلام مخالفًا للنظام العام، بل إن منعه هو المخالف للنظام العام.

وإن مشروع وزارة الشئون الاجتماعية تقييد لحرية المرأة والرجل معًا، وكل تقييد للحرية ظلم في ذاته إلا أن يكون له مبرر من دين أو خلق.

وإنه قد يكون في المنع مضرة بالمرأة؛ لأنه قد يكون تصحيحًا لوضع وقع إثمًا وربما لا تجد المرأة زواجًا إلا مع زوجة أخرى فتنالها عند المنع مضرة الحرمان والعنوسة.

وإن منع التعدد يترتب عليه انحلال اجتماعي، فتتعدد الخلائل بدل تعدد الحلائل كما هو الآن في أوروبا وأمريكا، التي لا تتعدد فيها الزوجات، ولكن تتعدد الخليلات، وبذلك ينحل المجتمع ويعم الفساد.

٨ ـ ولماذا كانت مخالفة الشرع الإسلامي بنصوصه وآثاره والإجماع؟ قالوا: لأن التعدد تفاقم أمره وكان التعدد لغير المقصد الشرعي، ولكثرة التشرد.

❑ ونقول: إن التعدد قد أخذ يقل من تلقاء نفسه، فقد كان الإحصاء سنة ١٩٥١ عقب الحرب العالمية بلغ نحو ٤,٥٪ وإحصاء سنة ١٩٦٠ دل على أن النسبة هبطت إلى ١,٠٤٪ والمجتمع يعالج نفسه، والعلاج بقانون ولو لم تكن فيه مصادمة الشريعة ـ لا يصح إلا لضرورة؛ ولأنه لو وضع التوثيق الرسمي لعقود الزواج لأدى ذلك إلى أن نعقد العقود التي لا توثق وفيها ضياع حقوق المرأة، وحقوق الأولاد. فيؤدي القانون إلى عكس مقصده وإن التقنين حيث يكون فيه تقييد للحرية كالدواء لا يُعطى إلا إذا عجز الجسم عن أن يستمد علاجه من حيويته.

وجسم الآفة لم يعجز عن علاج التعدد وإن لم يكن داء؛ لأنه شريعة اللَّه، ولا يمكن أن تكون شريعة اللَّه تعالى داء، إنها شفاء ورحمة للمؤمنين.

وقالوا: إن التعدد في الماضي كان لمقاصد شرعية، والتعدد الآن لأجل الشهوة ولم يبينوا ما المقاصد الشرعية القديمة؟ ونعفيهم من الجواب.

ونقول لهم: إذا كان التعدد للشهوة فإن هذا لا يوجب المنع ولا يسوغه؛ لأنه إذا كان للشهوة فإن وضعها في حلال خير، وحلال في تعدد خير من حرام مؤكد، فإذا سيطرت الشهوة فإن ذلك أدعى لبقاء الإباحة لا المنع.

وقالوا: إن التعدد يفتح باب التشرد.

ونقول: إن التشرد ليس سببه التعدد، أو الطلاق، إنما سببه ضعف الولاية على النفس وضعف الرقابة على الأولياء.

وقد ثبت بالإحصاء أن التشرد في أكبر البلاد الأوربية أكثر عددًا من التشرد في البلاد الإسلامية ولكن هنالك يُؤوَى المتشردون.

وأخيرًا إن التعدد دواء وليس بداء.

*** زيادة السن:**

٩ - وأنه جاء بمشروع وزارة الشئون الاجتماعية، ويزيد سن الزواج، فيجعله بالنسبة للزوجة ثماني عشرة سنة بدل ست عشرة، ويجعله للزوج إحدى وعشرين سنة، وأن ذلك يؤدي إلى الفساد وهو شاذ في ذاته.

أولاً: لأن جعل الحد الأدنى لسن الزواج ست عشرة للفتاة، وثمانية عشرة للفتى هو أعلى حد أدنى في العالم كله فبعض البلاد لا يحدد سنًا، وبعضها يحدده بثلاث عشرة.

ثانيًا: أنه في هذا الوقت الذي شاع فيه الكلام في الحب في الإذاعة المرئية وغير المرئية والصحف والمجلات والروايات يجب إطفاء نوازع الشهوة بالحلال سريعًا ولا يجوز الإبطاء أو المنع.

ثالثًا: أن الشائع في القرى وبين العمال المسارعة إلى تزويج بناتهم وأبنائهم، وكل قانون يجب أن يكون متلاقيًا مع رغبات الشعب وشعوره العام، ولا يكون مصادمًا له، ولا يكون مضيقًا للحرية من غير باعث على

ذلك وإلا كان ظلمًا.

رابعًا: أنه تبتدئ خطبة الفتاة من الخامسة عشرة، وكان يجب أن يكون ذلك الحد الأدنى لسن الزواج، فإذا جاءت الخطبة مثلاً في السابعة عشرة، ورد للسن كان في ذلك فوات الكفء، والنبي ﷺ يقول: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه، فزوجوه ـ إلا تفعلوه تكن فتنة وفساد كبير**».

*** الولاية على النفس:**

١٠ ـ يلاحظ على مشروع لجنة الأحوال الشخصية في الولاية على النفس والحضانة أنه راعى جانب المرأة، ونسي حق الرجل في تربية أولاده والقيام عليهم، وهو المولود له والمنسوبون إليه، وفوضوا للأم كل شيء، ونسوا قوله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ [النساء: ٣٤].

وجعلوا للأم حق الولاية على النفس وقدموها على الإخوة الأشقاء، أو الأب، وخالفوا بذلك قول الفقهاء أجمعين إذ لم يجعل من هؤلاء ولاية لها مع وجود العصبات وهم الذين يستطيعون الإشراف على أخيهم أو أختهم، وفي ذلك مخالفة لقول النبي ﷺ: «**الولاية إلى العصبات**».

ولم يوافق على أن يكون للأم ولاية إلا أبو حنيفة إذا لم يكن عصبات قط.

هذا: وفي مشروع وزارة الشئون تعرض لمسائل جزئية تنظر عندما ينظر المشروع العام الذي انتهت من وضعه لجنة من كبار العلماء سنة ١٩٦٥م.

محمد أحمد أبو زهرة

أستاذ الشريعة الإسلامية بكليات الحقوق

وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر[1]

---

(١) «أبو زهرة وقضايا عصره» (٣/ ٢١٢ ـ ٢٢٠).

❑ لقد أولى الشيخ أبو زهرة الأسرة المسلمة بكبير اهتمامه، وتعد قضايا الأسرة من القضايا الرئيسية التي تعرّض للدفاع عنها في صدر حياته وحتى قبل وفاته بأيام.

وكانت الدعوة إلى تقييد الطلاق، وتقييد تعدد الزوجات التي قُبرت عام ١٩٢٦ ثم أعيدت في سنة ١٩٤٣ واستنكرها العلماء ومن ورائهم الشعب فقبرت مرة ثانية، ثم نُشرت من القبر عام ١٩٤٥ على يد شيخ الأزهر مصطفى المراغي فتصدى له الشيخ محمد أبو زهرة، حتى أن المراغي أرسل إلى وزارة الشئون الاجتماعية ـ آنذاك ـ يقول برجوعه عن رأيه ««وأن التقييد لا يؤدي إلى خير» كما جاء على لسانه.

تصدى الشيخ محمد أبو زهرة لهذه الدعوة وكان وقتها أستاذًا مساعدًا للشريعة في كلية الحقوق جامعة القاهرة وأوصل رأيه إلى وزير الشئون الاجتماعية في تلك الفترة ـ المهندس عبدالمجيد بدر باشا ـ وأطلعه على بحث قد كتبه بـ «مشروع القانون الخاص بتقييد الطلاق، وتعدد الزوجات» وعندما قرأ الوزير هذا البحث القيم والجاد، وافق الشيخ على رأيه، وكتب له خطابًا بهذا المعنى اتخذه الشيخ أبو زهرة كوثيقة يظهره عندما يستدعي الأمر إظهاره.

*** هجومه على تنظيم الأسرة وتنظيم النسل أو تحديده:**

❑ يقول الشيخ أبو زهرة: «إن النسل في ذاته ثروة، وإن أعلى مصادر الثروة هو القوى البشرية، وهناك أمم كسويسرا لا تعتمد في مصادرها إلا على مهارة سكانها، ومثلها كثير من الأمم، فهل نريد أن نحرم أنفسنا هذه القوى العاملة، وهي أغلى الثروات في الوجود، وأثمنها وأغلاها، ومثلنا كمثل من يكون في يده كنز من الذهب لا يستطيع أن يتخذ منه نقدًا أو حليًا، أو ما ينفع الناس في الأرض فيلقيه في البحر، ليتخلص من أعباء صناعته أو الانتفاع به!!».

❑ ولكي نكشف كل ما هو زيف أو ادعاء، ونرى الحقيقة كفلق الصبح.. نتصفح معًا هذا البحث الوجيز الذي ألقاه الإمام أبو زهرة في مجمع البحوث الإسلامية في الخمسينات، ولم يلق الحظ الوافر من إعلامنا ليعرّف به الناس.

❑ يقول فضيلته:

«أثير هذا الموضوع تحت عناوين متعددة كتنظيم الأسرة، وتنظيم النسل، أو ضبط النسل، أو تحديد النسل، ألفاظ مترادفة في المؤدى كما يقصد الكتّاب فيها، وكما يقصد الذين يقومون بالعمل في تنفيذها بوزارة الشئون الاجتماعية ووزارة الصحة في مصر، فإن الذين يفعلون ذلك، والذين يروجون ويرددون أن النسل يتزايد، ويتكاثر، وقد ضاقت الموارد الطبيعية، وأصبح ما تنتجه تلك الموارد لا تتكافأ مع زيادة السكان المستمرة بنسبة عالية، فلا بد من وقف ذلك النمو المتزايد، وذلك بجعل النسل على قدر ما يجيء من الموارد الطبيعية، ذلك قولهم بأفواههم، ومقالاتهم بأقلامهم، ولا شك أن كلمة تحديد النسل تكون أدل على المراد، ولكنهم بدلوا بها غيرها، ليخففوا على المسلمين المتدينين وقعها، ولكن تغيير اللفظ لا يجعل الحلال حرامًا، ولا الممنوع مطلوبًا.

❑ وأن الدعاية لتحديد النسل ظهرت في البلاد الإسلامية من مصادر أوروبية وأمريكية، ولم تفرق بين بلد ذات موارد كثيرة، وأخرى قليلة، وكانت في الماضي تظهر وتختفي، حتى إذا احتلت إسرائيل الأرض المقدسة وأخرجوا أهلها من ديارهم وأموالهم وأرضهم، وظاهر على إخراجهم الأمريكان والإنجليز، وغيرهم من أهل أوربا، وأكثر أهل أمريكا، عندئذ وجدنا الدعاية إلى تحديد النسل تعود خدعة قوية في عنف ولجاجة، وتخص البلاد العربية التي تحيط بإسرائيل بالدعاية تحتل ربوعها، حتى ما كان منها

سكانه لا يصل إلى خمسة ملايين، وفيه موارد طبيعية تتسع لثلاثين أو أربعين، وفي أهله مهارة في الصناعة، وكياسة في التجارة كسوريا، وكادت الفكرة الباعثة تتكشف بهذا التعميم، فاتجهوا إلى التخصيص، وخصوا مصر بالدعاية اللجوج؛ لأن دعوى قلة الموارد الطبيعية فيها ربما تروج؛ ولأن سكانها في نماء ببركة اللَّه تعالى، ولأنها تقف بالمرصاد في الصدر لإسرائيل؛ ولأن جيشها المظفر ـ بعون اللَّه تعالى ـ هو قوة العرب أجمعين، وفيه عتادهم؛ ولأنها هي التي قبرت أمراء الصليبيين؛ ولأنها هي التي ردت التتار على أعقابهم خاسرين.

❑ وقال الشيخ: إن الأكثار من النسل مطلوب في ذاته، وهو غاية الزواج الأولى والسامية في الإسلام.

اختلف العلماء في جواز العزل، ففريق جوزه، وفريق منعه، ومن هؤلاء ابن حزم وبعض الحنابلة، والذين أجازوه ـ أجازوه على أنه رخصة فردية، وإن اختلفوا في أسباب هذه الرخصة ما بين موسع ومضيق، ومن أشد من وسعوا الغزالي في الإحياء، فقد وسع في أسباب الرخصة.

ومع ذلك فقد قرر الغزالي مع غيره أن العزل ترك الأفضل، بل إنه مكروه، وفي الجملة إن الإباحة لا تكون إلا برخصة باعثة وفي غيرها لا يكون جائزا، هذا ما ينتهي إليه التفكير السليم.

ويجب أن نقرر أن العزل أو المنع الشخصي للنسل يعارضه أنه ضد الفطرة، ويعارضه الأحاديث المتفق عليها، الداعية إلى تكثير النسل، ويعارضه أيضا ـ الأحاديث الصريحة المانعة له، حتى قال بعض العلماء: إنها ناسخة لأحاديث الإباحة على سبيل الرخصة، وخصوصًا الحديث الصحيح الذي قال: «إنه الوأد الخفي» ثم تعارضه قاعدة أجمع عليها المسلمون، وهي المحافظة على النسل، فقد أجمع العلماء على أن الضرورات التي تجب

المحافظة عليها خمس هي النفس، والدين، والعقل، والنسل، والمال، فنظرية منع النسل معارضة صريحة لكون المحافظة على النسل من الأمور الضرورية في الإسلام بإجماع العلماء.

❑ تبين من البحث السابق أن المنع الفردي للنسل ترك للأفضل أو مكروه، وإذا وجد موجبه عند الفرد كان مباحًا على مقدار هذه الرخصة الفردية، ولا يوجد في الفقه الإسلامي ما يجعل الرخصة جماعية لأمة من الأمم أو لإقليم من الأقاليم، فالرخص دائمًا فردية.

وإذا انتهينا إلى الإباحة في هذه الدائرة، فإنه من المقررات الشرعية أن المباح بالشخص أو بالجزء يكون إما مطلوبًا بالكل، أو ممنوعًا بالكل، على حسب موافقته للمبادئ الكلية المقررة في الشريعة، أو مناقضتها. فإن كان خادمًا للمبادئ الشرعية الثابتة كان مطلوبًا بالكل مباحًا بالجزء وإن كان مناقضًا للمبادئ الكلية العامة في الشريعة، كان مباحًا بالجزء حرامًا بالكل، ولنترك الكلمة للشاطبي في الموافقات، فهو يقول: إن المباح ضربان: أحدهما إما أن يكون خادمًا لأصل ضروري أو حاجي أو تكميلي، والثاني ألا يكون كذلك، فالأول ـ قد يراعي ما هو خادم له، فيكون مطلوبًا ومحبوبًا فعله، وذلك كالتمتع بما أحل اللَّه تعالى من المآكل والمشرب ونحوهما مباح في نفسه، وإباحته بالجزء، وهو خادم لأصل ضروري، وهو إقامة الحياة، فهو مأمورٌ به من هذه الجهة ومعتبر ومحبوب من حيث هذا الكلي المطلوب، فالأمر به راجع إلى حقيقته الكلية، لا إلى اعتباره الجزئي.. والثاني: إما أن يكون خادمًا لما ينقض أصلاً من الأصول الثلاثة المعتبرة، أو لا يكون خادمًا لشيء، كالطلاق، فإنه ترك للحلال الذي هو خادم لكلي: إقامة النسل في الوجود، وهو ضروري، ولإقامة مطلق الألفة والمعاشرة، واشتباك العشائر بين الخلق، وهو ضروري أو حاجي أو مكمل لأحدهما، فإذا كان الطلاق بهذا النظر

خرقًا لذلك المطلوب، ونقضًا عليه كان مبغضًا، ولم يكن فعله أولى من تركه، إلا لعارض أقوى كالشقاق بين الزوجين وعدم إقامة حدود اللَّه، وهو من حيث كان جزئيًا في هذا الشخص، وفي هذا الزمان مباح وحلال[1].

وبتطبيق هذه القواعد على قضية منع النسل نقر الأمر الشرعي في هذه القضية، إنه إذا أبيح لرخصة، فإنه يباح للشخص الذي كانت عنده الرخصة، ولا يباح كقاعدة عامة تعم الناس في إقليم أو أمة، بحيث ينتفع بالإباحة صاحب الرخصة وغيرها، ثم هو خادم لأمر يناقض مبدأ مقررًا ثابتًا، وهو المحافظة على النسل، والإكثار منه الذي جاءت به الأحاديث الصريحة المتفق عليها.

ونريد أن نطبق هذا الحكم على ما يجري الآن في مصر، تقوم الجماعات التي أصلها قد أنشئت للخير، وبعض الرعايات الاجتماعية بإعطاء أقراص أو حبوب لمنع النسل، وتقوم دعاية صحفية، وعلى منبر الإذاعة المرئية وغير المرئية لتحديد نسل الأمة بدعوى قلة الموارد، وتزايد السكان، باسم جواز ذلك شرعًا، وقد رأينا حكم الشرع، وأنه لا يجوز منع النسل بالكل، ولا يباح كأمر عام؛ لأنه يعارض قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾. ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، ولذلك نعارض باسم الدين، ولا نريد أن نقطع نسلنا، ونقلل جمعنا، ونعصي رسولنا، ونكفر بقدرة ربنا الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

هذا حكم الدين فلننظر إلى الدنيا، ولنتعرف الدنيا متحررين في فهمنا من كل تقليد أعمى، أو اتباع على غير هدى.

❑ لماذا نحدد النسل؟ لماذا نحارب الكثرة، ونعمل على القلة؟ إن الرقعة

(١) «الموافقات» للشاطبي (١/ ١٢٨، ١٢٩) طبع التجارية.

الزراعية ضئيلة، والسكان في تكاثر وتزايد، وسيأتي وقت لا تجود عليهم الأرض بما يطعمهم.

❑ ونقول: إن مصر الآن لم تبق بلدًا زراعيًّا يعتمد على الزراعة، بل إنه صار يعتمد على الصناعة، وإن ما تنتجه أرض مصر من ثمرات الأرض والأغراس يزيد عما تنتجه أرض انجلترا التي اتسعت لأكثر من خمسين مليونًا، ولكنها الصناعة، ومصر فيها كل المواد الأولية للصناعة: فيها البترول، ولم يكشف كل ما يجري في باطنها من أنهار، وفيها الحديد، وقد كشف فيها الفحم، وقد اتجهت إلى الصناعة في عهدها الحاضر، حتى صار ما تصدره منها لا يقل عما تصدره من زراعة، وأن قوتها لا تعتمد فيه على ما تخرجه أرضها، بل تعتمد على ما تستجلبه في نظير ما تقدم من صناعات وخامات.

إن الاقتصاديين المدركين الفاهمين الذين لا يقلدون ولا ينحرفون، يقررون أن النسل في ذاته ثروة، وأن أعلى مصادر الثروة هي القوة البشرية، وهناك أمم كسويسرا لا تعتمد في مصادرها إلا على مهارة سكانها، ومثلها كثير من الأمم، فهل نريد أن نحرم أنفسنا هذه القوى العاملة وهي أغلى الثروات في الوجود، وأثمنها وأغلاها، ومثلنا كمثل من يكون في يده كنز من الذهب لا يستطيع أن يتخذ منه نقدًا أو حليًا، أو ما ينفع الناس في الأرض، فيلقيه في البحر، ليتخلص من أعباء صناعته أو الانتفاع به»[1].

* أبو زهرة يرد على أكذوبة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون في مارس ١٩٦٨م:

❑ قال الدكتور أحمد شلبي في كتابه «مقارنة الأديان» (٢/ ١٠١،

(١) «أبو زهرة وقضايا العصر» (ص٢٠١ ـ ٢٠٨) ملخصًا.

١٠٢، ١٠٣): «انتهز بعض المسيحيين بمصر فرصة الهزيمة النكراء التي حلّت بالشعب المصري وجيشه في يونيو ١٩٦٧ بسبب اضطراب القيادة السياسية والعسكرية ـ آنذاك ـ ولم يشاءوا أن يشاركوا الشعب آلامه، ورأوا أن القيادة السياسية كانت تتلمّس الطريق لإرضائهم، ولو على حساب الحق والإسلام، فلم يضيّعوا هذه الفرصة، وأرادوا أن يكسبوا جولة من النصر، فادعوا أن العذراء ظهرت للناس، وأعادت الإبصار للعميان، والقوة للكسيح!!

وخرجت جريدة «وطني» المسيحية تهلل وتذيع، ولم يعد لها من عمل إلا تأييد هذه الفرية الهزيلة، قد حاوَلْتُ.. آنذاك ـ كما حاول غيري، أن نرد هذا الباطل، ولكن أوامر القيادة السياسية منعت أي نقاش في هذا الموضوع، فسكتنا حتى أذن اللّه للحق أن ينبلج، ولصوت الباطل أن يخفت، ولكن ذلك لم يتم إلاّ بعد ضحايا كثيرين سقطوا في الزحام الذي جمعته الدعاية الظالمة، وبدل أن تشفي العذراء المرضى تسبّبت هذه الفرية التي ارتبطت بالعذراء في قتل الأبرياء، ومعنا الآن كتاب كتبه باحث مسيحي أوربي يعرض هذه المهزلة، ومنه نقتبس كلماته ليكون صوتًا مسيحيًّا يردّ باطل أهل دينه.

❑ يقول otto Meinardus في كتابه christian Eygpt: Fiath and life p.265, 267, 269:

«في شهر مارس سنة ١٩٦٨ صرخت كنيسة العذراء بالزيتون بشارع «طومان باي» صرخة مدوية بأن العذراء ظهرت بها، وأنها تشفي المرضى، وتُعيد الإبصار للعُميان، وقد خُدِع بهذه الصرخة آلاف من المصريين، فاتجهوا ليروا هذا الأمر الجلل، ولم تقنع القيادة المسيحية بمصر بأن يُذاع مثل هذا الخبر دون توثيق، فأرسل البطريرك «كرولس السادس» مطران بني سويف ليرى في ذلك بنفسه وليعلنه بصفة رسمية، وفي الثاني من أبريل أعلن هذا المطران ظهور العذراء في هذه الكنيسة، وأنها ظهرت عدة مرات بحجمها

الطبيعي، أو ظهر النصف الأعلى منها، وقد أذاع المطران هذا الإعلان في مؤتمر صحفي ذاكرًا أنه رأى العذراء بنفسه، وأن آلاف الناس رأوا ذلك معه».

ويقرر المؤلف أن الذي ظهر ليس إلا انعكاسًا ضوئيًا، وليس بحال من الأحوال ظهورًا للعذراء، كما يقرر الحقيقة التي ذكرناها، وهي أن العذراء لم تكن تشفي المريض وهي حية منذ ألفي سنة. ويذكر كذلك أن البطريرك لم يتجه بنفسه إلى كنيسة العذراء إلا بعد أربعة أشهر من هذا الإعلان، مما يدل على تهاونه به، ولو حدث ظهور العذراء فعلاً لأسرع لاستقبالها والسجود لها، ولكن سلوكه كان أقل حماسًا وانفعالاً من معظم الأقباط». ويستمر المؤلف فيقول: «إن الكنائس في شبرا وفي المعادي أخذت تتنافس في ادعاء هذا الأمر لتجذب لها جماهير المخدوعين، بل وصل الأمر إلى كنائس شتى في جميع بلاد الشرق الأوسط أخذت تدّعي هذا الادعاء».

ويختم المؤلف وصفه لهذه المسألة بحديثه عن كارثة بشرية تسبّبت عنها، فيذكر أنه في ١٩ مايو ١٩٦٨ قُتِل وطئًا تحت الأقدام حوالي خمسة عشر شخصًا في زحام داخل كنيسة شبرا، وبهذا الحدث الجلل توقّف هذا الباطل وقُطِعت ألسنة الكذّابين»[1].

❑ وردّ الشيخ محمد أبو زهرة على هذه الأكذوبة بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أقدم لكلامي بذكر حقيقتين ومناقشة لكلام قيل حول القضية. أما الحقيقتان:

فأولهما: أنه لا يوجد في الأناجيل ولا في رسائل الرسل ولا في كتب

(١) «أبو زهرة وقضايا العصر» (٣/ ٤٢ ـ ٤٣).

العهد القديم التي يقدسونها، لا يوجد في هذه الكتب أيَّ ذكر قط لمريم البتول عليها السلام.

والكتاب المقدس الوحيد ـ الذي انفرد بذكر مريم البتول ـ إنما هو القرآن الكريم وقد ذكرها وهي حامل قبل أن تلد، وذكرها بعد أن ولدت، وذكر أن اللَّه طهرها واصطفاها على نساء العالمين، ومن الغريب أن النصارى عندما يريدون أن يتكلموا عن مريم العذراء والكتب المقدسة التي تعرض لها لا يجدون إلا القرآن الكريم، وإذا كانوا لا يجدون مصدر ذكرها إلا في القرآن الكريم فكان واجب المنطق أن يأخذوا بما جاء فيه في شأنها كما يفهمون سواء أكان حقًّا أم كان باطلاً.

الحقيقة الثانية: أن الصحف سواء كانت صحفًا قومية أم كانت صحفًا طائفية أخذت القول ترميه هنا وهناك من غير تمحيص. ولما اتجه بعض الناس إلى ذكره على أنه محض افتراض لم يأتوا بدليل يمكن أن يكون حجة لما يدّعون.

أنا كنت أفهم أن الحكومة ـ وقد رأت الأمر جللاً وأنه قد يثير فتنة، أو أن فيه ما يمس بعض العقائد ـ كنت أفهم أن تعيِّن الحكومة وكيل نيابة أو محققًا أو هيئة محترمة ومسئولة تحقق الموضوع ولا تترك الناس حيارى لا يدرون الحق في الأمر ويموجون في فتنة ظلماء وتمحصه وتذكر حقيقة الأمر فيه لا أن تترك الناس في هذه الظلماء التي قد تؤدي إلى فتنة عمياء، وهذه حقيقة أوجه نظر الحكومة إليها وأدعوها قبل أن يتفاقم الأمر وقبل أن يفوت الأوان.

❑ أما أن تجري الصحف وتقول: «نريده أن يكون مكانًا سياحيًّا» ونحو ذلك فهذا أمر لا يجوز مطلقًا!!

ويجب علينا نحن المسلمين أن نعرف أن هناك موجات من الأوهام

والخرافات تجيء الفينة بعد الفينة والسنة بعد السنة ولا شك أنكم تذكرون حديث «آقال» الذي جاء من لبنان وهو فتى أرمني معتوه قيل أنه يشفي المرضى، وكان معه خواص يشيعون عنه ذلك وأخذت الأخبار تنشر عنه، ثم تبيّن بعد حوالي عشرة أيام أنها كلها كاذبة، فرحل إلى أمريكا وهناك بُثّت كذبة أيضًا بعد أن روج له بعض المصريين من غير المسلمين ترويجًا شديدًا.

وأظنكم تذكرون أيضًا أن الخبر الذي ذاع في الآفاق في أوروبا وفي غيرها أن تمثالاً للعذراء انحدرت الدموع عن عينيه وتناقلت أوروبا ذلك وتحدثت به ثم تبين أنه «فرية بلا مرية» على رأي الأزهريين.

هذه أمور تعودنا أن نسمعها وأن تثير الفضول من المسلمين وغير المسلمين وأن تموه على أبصار الناس وعلى عقولهم وعلى تفكيرهم ومن الغريب أنه يسارع إلى ترويجها وتصديقها ناس لا يؤمنون بالأديان ولا يؤمنون بخاصة الأديان وهي الإيمان بالغيب، لأنهم يجدون في هذا ما يوهن العقائد، العقائد القائمة الثابتة التي لا يستطيع أن يرتاب فيها مرتاب.

❑ قيل لهم: وكيف عرفتم صورة العذراء؟ مع أن أحدًا من المسيحيين لم ير العذراء الآن ولا قبل الآن.

❑ فقالوا: إن القديس لوقا وهو من الحواريين رآها وصورها وهذه كذبة تقوم على عناصر ثلاثة من الكذب:

الكذبة الأولى: أن لوقا لم يكن مصورًا بل رجح القس إبراهيم سعيد وأعوانه أنه كان طبيبًا ولم يكن مصورًا ومن الغريب أن القس إبراهيم سعيد هو الذي روّج لفكرة أن لوقا هو الذي صورها مع أنه في شرع بشارة لوقا يبني العلالي والقصور على أن لوقا كان طبيبًا وكان عالمًا وأنه في طبّه وعلمه كان ممحصًا.

الكذبة الثانية: أنهم قالوا إن لوقا كان من الحواريين. ونقول لهم كذبتم

وافتريتم، فكُتَّابُ المسيحية ما قالوا إن لوقا كان من الحواريين، فلم يكن حواريًّا، بل كان من تلاميذ غير الحواريين كان تلميذًا لبولس وبولس ما كان من الحواريين ولا أتباع الحواريين، بل كان مناوئًا وعبئًا شديدًا عليهم!!

الكذبة الثالثة: أنهم قالوا إن لوقا رأى السيدة العذراء مريم، والتاريخ ينبئ أن لوقا لم يولد بين اليهود بل الراجح أنه ولد في أنطاكية، وقيل إنه ولد في إيطاليا، إذًا فهو ليس عبرانيًّا حتى نقول: إنه كان بحكم عبرانيته كان مع بني إسرائيل وكان مختلطًا بالعذراء وثابت عندنا أن الأناجيل لم تظهر قبل مضى مائتي سنة على وفاة المسيح عليه السلام.

نرجع ونقول إن الثابت عندهم لا عندنا أنه على حسب كلامهم فإن إنجيل لوقا دوّن سنة ٥٨م أو سنة ٦٢ أو سنة ٦٤ فأقل مدة ٥٨ سنة بينما في سنة ٥٨م كان المسيح قد ترك الدنيا منذ أكثر من ثمان وعشرين سنة.

ثم إن الأدلة قاطعة على أن السيدة العذراء ما ذكرت قط عندهم حتى يذهب إليها لوقا ـ في أكاذيبهم ـ ويصورها.

نعم قال بعض العلماء إنه كان مصورًا ولكن القس إبراهيم سعيد هو الذي حقق أنه كان طبيعيًّا وكيماويًّا وإن كنا نصدقه أو لا نُصَدِّقُهُ فعليهم أن يحترموا قوله خصوصًا أنه كان ممن خاضوا في هذه القضية.

بقي أن نقول لإخواننا الفضوليين الذين يذهب بهم فرط فضولهم إلى أن يذهبوا إلى هذا المكان ويوضحوا عندهم ومنهم من تصل به أوهامه إلى أن يرى ما لا يرى، وكون الإنسان يرى شيئًا لم يره فهذا ثابت عند ذوي النفوس المضطربة والعقول التي يسيطر عليها الوهم والخيال ـ إلى هؤلاء نقول لهم: لا تذهبوا لأن تصديق كلامهم يؤدي بكم إلى الكفر».

ذلك أن مريم العذراء كانت طاهرة مطهرة موحدة حتى قيل إنها نبي من الأنبياء ويتكلم علماء أصول الدين في ذلك: هل يوجد من النساء نبية؟ قيل

إن السيدة مريم إن كانت من الأنبياء فهي موحدة. وإذا كانت موحدة فلا يمكن أن تظهر في كنيسة لأن هذه الكنيسة يدَّعي فيها أن المسيح إله!! فكيف تظهر العذراء الطاهرة المطهرة الصادقة المؤمنة كيف تظهر في كنيسة لا تعبد اللَّه سبحانه وتعالى. لا نقول هذا طعنًا في أحد! ولكن نقوله لأبنائنا المسلمين: إن أردتم أن تكونوا ممن يقولون إن المسيح ابن اللَّه يعبد!!! فاذهبوا إلى هناك! وصفقوا أو لا تصفقوا!!

❑ أما إن كنتم مؤمنين باللَّه حقًّا وصدقًا فاحذروا ثم احذروا وأبعدوا الأوهام عن نفوسكم!!

هناك حقيقة أخرى ضد الإسلام، لقد قالوا إنها جاءت متأبطة الصليب أو في حالة تشبه تقديس الصليب، وهذا ضد القرآن فاحذروا أيها المؤمنون؛ لأن اللَّه يقول ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ والصليب رمز للصلب فهل تكذبون القرآن وتصدقون هذه الأوهام. إن كنتم كذلك فلا تكونوا مسلمين، هذه حقيقة نقولها بقوة لإخواننا المسلمين.

❑ ثم نقول لإخواننا[1] المسيحيين أيضًا ـ وإن كان كلامنا لا يخلو من فضول ولكن الأمور كلها تسير في فضول، فلا مانع أن نخوض في الفضول أيضًا:

ـ أيها الإخوان إنهم يقولون إن مريم شفت من المرضى ما عجز الطب عن أن يجد له علاجًا!! فلماذا يكلف السيد رئيس الجمهورية نفسه مشقة السفر ويسافر إلى «اسخلطو بو» للعلاج!! لماذا لا يعالج ببركات السيدة العذراء كما يدعي الجهلاء!!.

أيها الإخوان الأعزاء. أنتم تقولون إن مريم مقدسة فهل تقولون إنها

(١) غفر اللَّه للشيخ أبي زهرة أين هذه الأخوة وهم كفّار بنص كتاب اللَّه.

معبودة وإله؟! إذن فقولوا الرَّابوع ولا تقولوا الثالوث حتى يكون هناك أربعة بدل أن يكون هناك ثلاثة.

❑ وأخيراً أقول ما ابتدأت به وهو أنه يجب على الدولة أن تقتلع الفتنة من جذورها بأن ترسل هيئة قضائية تحقق القضية من كل وجوهها ثم تعلنها للناس حقيقة سائغة يطلبها الحق ويقرها الصدق»[1].

أسأل اللَّه أن يرحم الفقيه أبي زهرة لصدعه بالحق في وقت عزّ فيها الرجال الذين لا يخشون في اللَّه لومة لائم.

* * *

(١) «أبو زهرة وقضايا العصر» (٣/ ٦٤ ـ ٦٧).

*** الشيخ محمد الغزالي المدافع عن الإسلام ضد خصومه من العلمانيين ودعاة التنوير ـ الظلاميين ـ والقوميين والزنادقة والشيوعيين وطوائف الكافرين:**

❑ الشيخ محمد الغزالي من أبرز المدافعين عن الإسلام ضد خصومه الموتورين، وكانت مقالاته في شبابه صرخات عالية من شأنها أن توقظ النيام ولم تكن همسات خافتة تبعث على التثاؤب، وتنيم اليقظان!

كان بعد خروجه من معتقل الطور سنة ١٩٤٩ هو المحامي عن حرمات الإسلام في مصر، وكان يسطر المقالات الممتعة في مجلة «المباحث» لإيقاظ الوعي الإسلامي العام.

وتصدى لصاحبه الشيخ خالد محمد خالد لما كتب كتابه «من هنا نبدأ» الذي صفّقت له، وروّجت له كل القوى المعادية للإسلام: شيوعية، وصليبية، وماسونية، وعلمانية.

وهنا تصدى له الغزالي في سلسلة مقالات قوية، نقد فيها شبهات خالد وردّ على دعاويه ثم جُمعت هذه المقالات في كتاب «من هنا نعلم»، الذي كان أقوى ما رُدَّ به على الكتاب المذكور، مع رفق وأدب، ورعاية لرابطة الود القديم، وكان الغزالي ـ رغم خلافه لخالد ـ يظن به خيرًا، وقد صدّقت الأيام ظنه.

❑ وصدر بعد ذلك للغزالي كتاب آخر في المواجهة والردّ أيضًا على من يتحاملون على الإسلام، ذلكم هو كتاب «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» ردًّا على من افترى على الإسلام واجترأ على حماه.

*** الشيخ الغزالي يدافع عن الهضيبي ويرد على الظالمين:**

❑ وفي خلافه مع الشيخ حسن الهضيبي أنصفه باعتباره رمزًا من رموز

الحركة الإسلامية في ذلك الوقت وقال عنه:

«من حقه أن يعرف الناس عنه أنه تحمّل بصلابة وبأس كل ما نزل به، فلم يجزع ولم يتراجع، وبقى في شيخوخته المثقلة عميق الإيمان، واسع الأمل حتى خرج من السجن.

الحق يقال.. إن صبره الذي أعزّ الإيمان، رفعه في نفسي، وإن المآسي التي نزلت به وبأسرته لم تفقده صدق الحكم على الأمور، ولم تبعده عن منهج الجماعة الإسلامية منذ بدأ تاريخنا.. على حين خرج من السجن أُناس لم تُبق لهم المصائب عقلاً.

وقد ذهبت إليه بعد ذهاب محنته، وأصلحت ما بيني وبينه، ويغفر اللَّه لنا أجمعين»[1] اهـ.

وكان مما هزّ الشيخ الغزالي وقدّره من مواقف الأستاذ الهضيبي، أنه أوصى في مرض موته أن يُدفَن في مقابر الصدقة التي يُدفَن فيها الفقراء والغرباء! وهو مَنْ هو منزلة ومنصبًا وجاها.

❑ قال الشيخ الغزالي:

«من أيام مات الأستاذ حسن الهضيبي وبلغتني وصيته: لقد أوصى أن يُدفن خفية، لا إعلان ولا مواكب وطلب أن يوارى جثمانه في مقابر الصدقة.

وعقدت لساني دهشة، وأنا أسمع العبارة الأخيرة ـ في مقابر الصدقة ـ!..

قلتُ: لم مقابر الصدقة؟!

ولم يغب عني الجواب، لقد كان مستشارًا راسخ المكانة، رفيع الهامة.

---

(١) «الشيخ الغزالي كما عرفته ـ رحلة نصف قرن» للشيخ د. يوسف القرضاوي (ص٤٧) ـ مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الأولى.

لو اشتغل بمهاجمة الشريعة الإسلامية لنال جائزة الدولة التقديرية التي نالها غيره.

ولو خدم الغزو الثقافي لعاش في شيخوخته موفور الراحة، مكفول الرزق.

ولكنه خدم الإسلام، فتجرّع الصاب والعلقم! طُعِن مع الدين الجريح، وأُهين مع الدين المُهَان! فأراد أن تصحبه هذه المكانة في منقلبه إلى اللَّه!

فليدفن مع ناس أسلموا أرواحهم في غرفات السجن الحربي، وهم رازحون تحت وطأة عذاب تنوء به الجبال!

الحق يُقال: إن الأمة المصرية خاصة، والأمة الإسلامية جمعاء، يجب أن تُراجع نفسها طويلاً قبل يوم الحساب.

وسواءً صحا الضمير الراقد أم بقي غافيًا، فإن أعداء الإسلام لم يتغيروا في مواقفهم منه. لقد تحركوا مستغلين الضربات التي أطارت رشده ومزّقت شمله، فطمع البعض في تهويده، والبعض في تنصيره، والبعض في تكفيره، كفرًا يقطع علاقته بتة باللَّه والمرسلين أجمعين..

وتلك نتائج لم يكن منها بدّ للسياسة التي سلكها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر.. وما ألّفنا هذا الكتاب إلا بعد ما رأينا أن ارتداد مصر عن الإسلام، خطة يتحرك بها كثيرون يعلنون بها ولا يستترون..!!

وظاهر أن جمال عبدالناصر كان أداة رائعة في يد القوى العالمية الحاقدة على اللَّه وخاتم رسله، وأنه فعل بمصر أضعاف ما فعله لورد كرومر.

ما تكون (دانشواي) بجانب مجازر طرة والحربي وغيرهما من سجون؟

ومعلوم أن مصر، والعرب كلهم، والمسلمين في القارات الخمس مكلّفون بالتفريط في عقيدتهم وأرضهم.. وأن مأساة فلسطين نموذج لمآسٍ أخرى عديدة.

ومعلوم أن الحرب المعلنة علينا تعتمد على جناح ديني عند اليهود، والنصارى أعني المستعمرين منهم، وأن الدفاع لن يتماسك أو يقوم أو ينجح إلا بعاطفة دينية مقابلة ترد الجماح المعتدي.

لقد كانت رسالة الزعيم المصري أن يميت العاطفة الدينية عند المسلمين، وأن يُطارد كل أثارة من الإسلام.. أي كان يمهد للتعصب الزاحف ويدع الطريق أمامه مفتوحًا ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: ١٨ - ١٩][1].

إنصاف وأدب ونصح

* **وقفة هامة: «الدين النصيحة»:**

إن تشويه الرموز الإسلامية، وتحطيم الأعلام، وتدمير القمم عمل لا يستفيد منه غير أعداء الإسلام ولست والحمد للّه من الذين إذا رأوا شرًّا أذاعوه وإن رأوا خيرًا دفنوه، مبدعين في تضخيم الآفات إن وُجدت، واختلاقها إن لم يكن لها وجود.

ولست من الذين يسارعون في التكفير فهذا دأب الرعاع والحمقى، وليس من توجهي الهدم بدلاً من البناء، والحيف بدلاً من الإنصاف وإنما أقيم أخي إذا كبا، وأغطيه إذا تعرى، أبكي على ما بين الإسلاميين من تقطع، وإذا تصالح ندامى الحان، وتشاكس إخوان المسجد، فستنكسر المئذنة ويستولي السكارى على المحراب.

❑ ويرحم اللّه ابن القيم حيث يقول: «والبصير الصادق يضرب مع كل قوم بسهم، ويعاشر الناس على أحسن ما عندهم، وإن الماء إذا بلغ القلتين

(١) «قذائف الحق» للغزالي (ص١٠٨، ١٠٩).

لا يحمل الخبث.

❑ لست من دعاة التفرق ويبكيني قول القائل:

أخي إني أُريـــدك لا تدعنـــي وإنْ بي ضاق صـدرك من يسعني
أأبـــكي دون أن تبـــكي لحـــزني وجفنك بـــاردٌ لم يجـــر دمعـــه

* * *

وشُـــدّ بعزمـــة في اللّه أزري شريكي أنت في قهري ونصري
لنحرك صوّب الأعـــدا ونحـــري فصنْ صـدري فأنت اليـوم درعه

* * *

ولا تســمع لتحريك الضغـائن وأنصـــتْ لاســـتغاثات المـــآذنْ
بقلب القدس قد نصبوا البراثـن فـــدعْ داعي التفـــرق لا تُطعـهُ

❑ وقول القائل:

أخي إنني في القرار السحيق بغصة نَفْسٍ أضجّ إليكْ
فخذ بانتصاري فإني غريقْ أعاني وكيف أهون عليكْ

* * *

أَئِنُّ فلا تسمَعَنْ صرختي وأسقط لا ترفعن عثرتي
حرام فنصري لزامٌ عليك

❑ ومع هذا أقول: الولاء المطلق للّه ولرسوله ﷺ، والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم، وكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة، وإذا ضاع الحق، وضاعت معالم السنة، وظهرت البدع وسكتنا عنها بدعوى لمّ الشمل وتوحيد الصف فلن يتوحد صف وستضيع الأمة.

من هذا المنطلق ونحن نتكلم عن فضيلة الشيخ محمد الغزالي وهو

يهدر كالموج، ويقصف كالرعد، ويزأر كالليث مدافعًا عن الإسلام ضد خصومه، إلا أنا لا نقبل كلامه مطلقًا عن السلفية والسلفيين، ودفاعه عن المدرسة العقلية الحديثة، الأفغاني ورده لبعض الأحاديث الصحيحة وتقديم العقل على بعض النصوص، وبعض أقوال فيما يخص المرأة وتوليها لمناصب القضاء، وشدة هجومه وحدته بغير حق على الشباب الملتزم بالسنة ممن يخالفه الرأي.

فقد بلغ من ذلك مبلغًا لم يصل إليه أحد قبله في الاستخفاف بهم[1].

*** الغزالي المدافع عن الإسلام ضد خصومه:**

دافع الغزالي عن الإسلام في وقت علت فيه كلمة المارقين والشيوعيين والعلمانيين، وكان صوته مسموعًا بيّنا يجأر بالدعوة إلى اللَّه في أيام عبدالناصر، وسط الضوضاء الصاخبة التي تنعق بتقديس الطواغيت، وكان هو الشمعة الهادية في تلك الفترة الحالكة الظلمات، في جيل أُطفئت من حوله كل السُّرج، وزكمت أنوفه روائح التعذيب البشع والملاحقات التي كان بعض قادتها يتباهون علنًا بأنهم يعلمون ما في الصدور.

*** قذائف الحق:**

وقف الشيخ الغزالي حارسًا من حرّاس هذا الدين الأيقاظ ووقف لخصومه الكائدين له، المتربصين به الشر، الكارهين لانتشار أنواره وعودته إلى

---

(١) مما يؤخذ على الشيخ الغزالي عدم أخذه بأحاديث الآحاد في العقائد، ينحو منحى الأشاعرة، وأخطاؤه الفقهية، وموقفه من الشيعة وعباراته القاسية الخشنة المثيرة في كتابه «السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث» للسلفيين، وأيضًا كتابه «هموم داعية» و«علل وأدوية» يُرد عليها في مجلد، وصحة طريقهم واضحة وضوح الشمس لا يجحدها إلا مكابر

وهَبْني قلت: هذا الصبـــح ليلٌ أيعمى العالمون عن الضياء؟!

قيادة الحياة من جديد.

بعض هؤلاء من خارج الإسلام وخارج أرضه من القوى العالمية التي تخاف الإسلام أو تبغضه: من اليهودية والصليبية والشيوعية والوثنية.

بل وبعضهم من داخل أرض الإسلام، بل من أبناء المسلمين أنفسهم، ولكنهم لا يضمرون للإسلام إلا شرًّا، ولا لدعاته إلا عداوة، ولا لشريعته إلا تنكرًا - وربما عادوه لأنه ضد شهواتهم المحرمة، وضد مظالمهم المفترسة، وضد مصالحهم الآثمة، وضد مطامعهم الفاجرة.

❑ وقف الشيخ لأعداء الدين بالمرصاد، مدافعًا ذائدًا، لا يُلقي السلاح ولا ينشد الراحة، ومعركة المصحف في العالم الإسلامي قائمة، والحرب على الإسلام وأمته دائرة، والدم الإسلامي مستباح، وأكثر المُوكّلين بالحراسة يغطّون في نوم عميق، هانت رسالة الإسلام عليهم فلم يدروا منها ما يرفع خسيستهم ويحمي محارمهم.

❑ في مقدمة كتابه «قذائف الحق» قال الشيخ:

«أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه، ويريدون استغلال المصائب التي نزلت بأمته، كي يبنوا أنفسهم على أنقاضها.

يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين.

وقد قرّرنا نحن أن نبقى، وأن تبقى معنا رسالتنا الخالدة، أو قرّرنا أن تبقى هذه الرسالة، ولو اقتضى الأمر أن نذهب في سبيلها، لترثها الأجيال اللاحقة...» إلى أن يقول: «إن اللَّه أخذ على حملة الوحي أن يعالنوا به، ويكشفوا للناس حقائقه وأكدّ ذلك عليهم في قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

فما بد من البيان وعدم الكتمان.

وأعلم أن ذلك قد يعرّض لمتاعب جسام ولكني أقول ما قال صديقنا عمر بهاء الدين الأميري:

الهولُ في دربي وفي هدفي ... وأظلّ أمضي غير مضطرب!
ما كنتُ من نفسي على خور ... أوْ كنتُ من ربي على رِيَب!
ما في المنايا ما أحاذره ... اللّه ملء القصد والأرب»

* الشيخ الغزالي وعبدالناصر ورجاله:

كان الغزالي في بدء الثورة عظيم الترحيب بها والمناصرة لها، وتوجّس الهضيبي شرًّا من عبدالناصر، ولكن الشيخ الغزالي كان حسن الظن به، بناءً على ظواهر رآها منه أو سمعها عنه، ولكن الأيام أثبتت أن فراسة القاضي المتوجس، كانت أصدق من ظن الداعية المتفائل.

ومما يُذكر بالخير للغزالي أنه كان يرى أن من الخير للإسلام ولمصر أن يكون الإخوان أكثر ليونة مع الثورة وقائدها الذي لم يتخذ ـ في رأيه ـ بعد موقفًا صريحًا ضد الإسلام بدلاً من أن تراق دماء المسلمين[1].

❑ وحين أدرك الغزالي خبث عبدالناصر وسوء طويّته، وكيده للإسلام وأمته كتب في ذلك بعض الكتب المعبرة عن وجهته هذه، مثل: «كفاح دين» و«قذائف الحق» و«معركة المصحف في العالم الإسلامي» و«حصاد الغرور» و«الإسلام والزحف الأحمر» وغيرها.

---

(١) ويا ليت أن الناس أخذوا بهذا بدلاً من المصائب التي حلّت بالحركة الإسلامية عمومًا من جرّاء الاندفاع والقول بالعمل المسلح الذي لم يجن الاسلاميون منه إلا الصاب والمرّ والعلقم والتشريد والدماء وقتل الأبرياء المسلمين من الجانبيّن مما لا يرضى عنه اللّه ورسوله.

وأنذرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغدِ

❑ وفي كتابه «كفاح دين» كشف اللثام عن الخطط المبيّتة لضرب كل تحرك للإسلام، والاستعانة على ذلك بأبناء المسلمين أنفسهم، وذكر فيه إحصاء بالمساجد التي هدمها رجال الثورة بدعوى تجميل القاهرة، ولم يبنوا بدائل لها.. وسلّط الضوء على ما تقوم به أجهزة الإعلام من تخريب للعقول والضمائر.

وكان قد خطر له أن يجعل عنوان هذا الكتاب «سياسة تمويت الإسلام» سمعتُ ذلك منه، ثم رأى العنوان الآخر أخفّ وطأة، وأدلّ على روح المقاومة والكفاح الكامنة في طبيعة الإسلام»[1].

وفي كتاب «قذائف الحق» وضع النقاط على الحروف، وفضح المؤامرات اللئيمة التي دُبِّرت ـ ولا زالت تدبر ـ للإسلام، وسجّل في كتابه الوثيقة الرهيبة التي أعدها زكريا محيي الدين وشمس بدران ورجالهما، ووقعّ عليها عبدالناصر للقضاء على الإخوان، وعلى الروافد التي تمدهم من سائر التيارات والقوى الدينية في مصر.

❑ كما أكدّ أن القومية العربية لا يُمكن أن تكون بدلاً عن الإسلام، وأن العرب بدون الإسلام صفر.. وفي هذا الكتاب عرض الغزالي لعبدالناصر في أكثر من موضع، وخصوصًا في فصل «الدعوة الإسلامية والحكام الخونة» فقد ذكره مع «أتاتورك» و«سوكارنو» و«سوهارتو» وغيرهم ممن استخدمتهم القوى المعادية للإسلام من صهيونية وصليبية وشيوعية.

وأنكر على عبدالناصر أن يستخدم الأزهر أكبر جامعة إسلامية ليستقبل الداعر المنحل سوكارنو ويمنحه أعلى شهاداته العلمية وهي (العالمية) الفخرية في العقيدة والفلسفة من كلية أصول الدين!!

---

(١) انظر «الشيخ الغزالي كما عرفته» للدكتور يوسف القرضاوي (٥٥ ـ ٥٧).

❑ قال الغزالي:

«والحق أني حائر في فهم جمال عبدالناصر، لقد كنتُ ـ كما يعلم الناس ـ من جماعة الإخوان المسلمين، وأقرر أن جمال عبدالناصر وكمال الدين حسين بايعا في ليلة واحدة على نصرة الإسلام ورفع لوائه، وقد كنت قريبًا من مشهد مثير وقف فيه جمال عبدالناصر أمام قبر حسن البنا يقول: «نحن على العهد وسنستأنف المسيرة!. كان ذلك عقب قيام الثورة بأشهر قلائل[1].

وقد وضع كُتّاب مسلمون كبار مقدمات للرسائل التي كانت تصدر تحت عنوان «اخترنا لك» أمضاها جمال عبدالناصر، وفيها أشرف ما يؤكده زعيم مسلم نحو أمته ودينه.

لا أدري ما حدث بعد ذلك..

إنه تغيّر رهيب في فكر الرجل ومسيرته، جعله في كل نزاع بين الإسلام وطرف آخر ينضم إلى الطرف الآخر:

ـ انضم إلى الهند في خصومتها المُرّة ضد باكستان المسلمة.

ـ انضم إلى الحبشة في عدوانها الصارخ على إرتريا.

ـ انضم إلى تنجانيقا وأغضى عن المذبحة الشنعاء التي أوقعتها بشعب زنجبار المسلم ورحّب أحرّ ترحيب بنيريري الذي يتظاهر بالاشتراكية وهو قسيس كاثوليكي.

ـ انضم إلى القبارصة اليونان في نزاعهم ضد القبارصة المسلمين، وجعل الأزهر يستقبل مكاريوس عدو الكيان الإسلامي للأتراك.

ـ كان أسدًا هصورًا في قتال اليمن، وحملاً وديعًا في قتال اليهود،

(١) كان ذلك في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣م.

حتى جعل اليهود ـ وهم أحقر مقاتلين في العالم ـ يزعمون أنهم لا يُقهرون في حرب!!

سريع إلى ابن العم يلطم خدّه وليس إلى داعي الندى بسريع!

❑ وقد ساند «البعث العربي» الحاقد على الإسلام، ورفض مساندة أي تجمع إسلامي، واخترع حكاية القومية العربية لتكون بديلاً عن العقيدة الإسلامية..!!».

*** الغزالي رجل المواقف:**

❑ يرحم اللَّه شوقي القائل:

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً إن الحياة عقيدة وجهاد

وقد كانت للشيخ الغزالي مواقف مشكورة في نصرة الإسلام والجهر بالحق نذكر منها.

*** موقفه في المؤتمر القومي العام سنة ١٩٦٢م:**

«ومن المواقف التي تُذكر للشيخ موقفه في المؤتمر القومي العام الذي عُقِد في القاهرة أيام عبدالناصر سنة ١٩٦٢، ووقوف الشيخ يدعو صراحة إلى وجوب التحرير من الاستعمار التشريعي بالرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وعرّج الشيخ في نهاية كلمته على ضرورة التخلص من التقليد والتبعية في الأزياء، وأن يكون للأمة أزياؤها الخاصة بها، سواء ما يتعلق بالرجال أو النساء، وضرورة عودة المرأة المسلمة إلى الاحتشام»[1].

«وهنا ثارت ثائرة الشيوعيين والمنحلين، وأعداء الإسلام المتسترين بالثورة والمحتمين بحماها.

(١) انظر «الشيخ الغزالي كما عرفته» (ص٣٣٧ ـ ٣٣٨).

وكتب رسّام الكاريكاتير الملحد المعروف صلاح جاهين، المحرر بالأهرام ما كتب من سخرية بالشيخ وكلامه، وما يرمز إليه من بقاء الإسلام والأزهر.

نشر صلاح جاهين المعروف بانتمائه الشيوعي ١٤ رسمًا ساخرًا، تحت عنوان (تأملات كاريكاتورية في المسألة الغزالية) إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن كلمة الغزالي قلبت موازينهم، وأصابت منهم مقتلاً. وهو فرد، وهم ألوف معهم الدولة والسلطان والصحافة والإعلام.

وقد بلغ التبجح بصلاح جاهين أن بعض الناس قالوا له: كيف تهاجم الإسلام ورجاله، وهو دين الدولة الرسمي؟ فقال لهم: إذا كان الإسلام دين الدولة فسأحارب الدولة! ولقد غاظ الجماهير المسلمة أن يتعرّض شيخها لهذه السخريات من صحفي ملحد أثيم، فخرجت يوم الجمعة ١/٦/١٩٦٢ من الجامع الأزهر في صورة مظاهرة شعبية غاضبة مزمجرة، ضمت عشرات الألوف، وقد اتجهت الجموع الصاخبة إلى دار الأهرام القديمة تعلن احتجاجها وسخطها لقد سخر الشيوعي جاهين من عمامة الشيخ الغزالي، ولكن الشيخ وقف في المؤتمر في اليوم التالي يقول جهرة: إن تحت هذه العمامة رأس مفكر، كان يحارب الظلم والإقطاع، أيام كان أمثال هذا الكاتب قوّادين لفاروق!

ولقد سمعته ـ وأنا في قطر ـ يتحدث على الهواء في المؤتمر، يرد على مفتريات الصحافة التي حرّفت كلامه، وعلى الصحافيين الذين قوّلوه ما لم يقل، حقدًا على الإسلام الذي يمثله، وكان مما قاله: إن الذي يهاجمه هؤلاء اليوم باسم التقدمية والحرية، نُشر له في عهد الملكية خمسة كتب تهاجم الأوضاع الظالمة الفاسدة، طُبعت مثنى وثلاث ورباع، في الوقت الذي كان هؤلاء وأشباههم يسبحون بحمد فاروق وحاشيته»[1].

(١) المصدر السابق (ص٥٩ ـ ٦٠).

* مصارعة القوى المعادية للإسلام:

وهناك جانب أساسي من جوانب الدعوة عند الغزالي، وهو: مصارعة القوى المعادية للإسلام، والتصدي لتياراتها، والعمل على كشف عملائها، وهدم أوكارها، وهتك أستارها، والوقوف في وجه أخطارها وآثارها، والغزالي هنا مقاتل عنيد، لا يستسلم ولا يطأطئ ولا يلين، ولا يقبل اللقاء في منتصف الطريق، أو الرضا بأنصاف الحلول، بل صبر ومصابرة ومرابطة حتى النصر أو الشهادة.

* في وجه الاستعمار:

لذا وقف في وجه الاستعمار، وكشف عن حقيقته ودوافعه، وأنها (أحقاد وأطماع) فليس الاستعمار مجرد مطامع في أرض المسلمين ونهب ثرواتهم وخيراتهم، ولكنه ـ إلى جوار ذلك ـ حاقد صليبي، يحمل ضغائن قديمة لم ينسها بعد الحروب الصليبية المعروفة، بل منذ احتل الأرض التي كانت مسيحية، بالشام ومصر وشمال إفريقيا والأناضول، وحولها إلى قلاع إسلامية. وقد ظهر هذا في موقف الغرب من قضايا الإسلام، وآخرها: قضية البوسنة والهرسك.

* في وجه الصهيونية:

وقف في وجه الصهيونية العالمية، التي احتلت أرض النبوات، وانتهكت حرمة المقدسات الإسلامية، وشردت أبناء الأرض من ديارهم بغير حق، صنعت ذلك كله باسم التوراة، وتحت راية العقيدة اليهودية، التي جمعت اليهود المتفرقين في الأوطان، ويراد للعرب وللفلسطينيين أن يقاتلوهم بغير دين، فيدخل اليهود المعركة ومعهم التوراة، ويدخلها العرب وليس معهم القرآن، وكان للشيخ في ذلك كتابات كثيرة لا تحصى، من أبرزها ما أصدره

بعد النكبة أو النكسة، وهو كتاب: «حصاد الغرور».

□ يقول ـ رحمه اللَّه ـ في كتابه «كفاح دين» (ص١١١):

«كنا نفكر أن سيطرة الغربيين على بلادنا كانت مجرد غلب القوى على الضعيف حتى صحونا من منامنا، أو استفقنا من بلاهتنا، فوجدنا الأوربيين الغزاة يطوون أفئدتهم على جميع المشاعر التي حرّكت أسلافهم الأقدمين حين حاربونا باسم «الصليب» زهاء قرنين من الزمان.

إنهم هم هم، بغضاؤهم للإسلام لم تنقض، بل ظلت في نماء، وسخطهم على أهله لا تزيده الليالي إلا ضرامًا.

كل ما أفادوه من تقدم علمي في إبّان غفوتنا الأخيرة، أنهم غيّروا الوسائل، وأضافوا إليها مقدارًا أكبر من الختل والخبث، وطوروا السلاح ليجعلوه أشد فتكًا، وأوسع هلكًا، حشدوا كل ما لديهم ليجهزوا على الكتاب والسنة أي على رسالة محمد عدوهم الألدّ.. ثم ليمزقوا أمته شر ممزق فيسلطوا عليها من صنوف البلاء ما يجعلها تتعثر في طلب النجاة دون جدوى».

*** في وجه التنصير:**

ووقف في وجه «التنصير» الذي يريد أن يسلخ المسلمين من عقيدتهم فإن لم يقدر على إدخالهم في النصرانية اكتفى بزعزعة إسلامهم، وتشكيكهم في دينهم، وللشيخ في ذلك كتابات شتى، بأساليب متنوعة، لعل آخرها كتابه: «صيحة تحذير من دعاة التنصير»، وقد كتبه بعد أن قرأ ما صدر عن مؤتمر (كلورادو) سنة ١٩٧٨م من تقرير ضخم ضم أربعين (٤٠) دراسة عن الإسلام والنصرانية، وهو المؤتمر الذي اجتمع بهدف تنصير المسلمين في العالم، ورصد لذلك ألف مليون دولار، وأنشأ لهذه الغاية (معهد زويمر) لتخريج متخصصين في تنصير أمة الإسلام.

* في وجه الشيوعية:

ووقف في وجه الشيوعية ومحاولاتها لغزو ديار الإسلام، وما صنعته بالمسلمين وراء الستار الحديدي من تصفيات جسدية، وحملات قمعية، وحمامات دموية، وللشيخ في ذلك كتابات كثيرة أبرزها: كتاب «الإسلام في وجه الزحف الأحمر»، الذي نشرت طبعته الأولى في سنة ١٩٦٦م أيْ في أوج عهد عبدالناصر، وقد كان الشيوعيون في ذلك الوقت لهم سطوة وسلطان، وكانوا ممكنين من جميع أجهزة الثقافة والإعلام، وكانت صلة مصر بالسوفييت وثيقة متينة، لا غرو أن قال الشيخ في مقدمة كتابه هذه العبارات: «لذلك رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية، وأودعها صرخات قلب غيور على دينه، شفيق على أمته.

وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة، ولكن بئست الحياة أن نبقى، ويفنى الإسلام! إن الضربات تنهال من كل ناحية على هذا الدين الجلد! وعلى بعد ما بين الخصوم الضاربين من منازع وغايات، فقد جمعهم حب الإجهاز على الإسلام، واقتسام تركته!

وقد فرض اللَّه على العلماء أن يقولوا الحق ولو كان مرًّا، وألا يخشوا في اللَّه لومة لائم، وعُشّاق الحق لا بد أن يحيْوا معه، وإلا فبطن الأرض خير لهم من ظهرها. والأمة التي أعنيها ليست عشيرتي الأقربين، ولا العرب أجمعين، كلا. إنني أعني الأمة الإسلامية حيث انتشرت في الأرض، ولمس ترابها جبهات الساجدين، وكل منهم يهمس في خشوع: «سبحان ربي الأعلى».

هذه الأمة التي أحاط بها الطامعون والحاقدون هي الأمة التي أحذر عليها وأعمل لها».

* محامي الأمة الإسلامية:

وقف الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بقلمه ولسانه مع كل قضايا المسلمين في العالم، مع الإسلام في كل مكان واحتلت قضية فلسطين بؤرة شعوره، وصميم قلبه وفكره، وعدّ نفسه حارسًا لها بقلمه ولسانه ووجدانه.

وقف الشيخ بقلمه ولسانه مع «الإسلام الجريح في الحبشة[١]»، والإسلام المقاتل في كشمير والفلبين، وفي البوسنة والهرسك، الإسلام الصامد في أندونيسيا، وفي بنجلاديش في آسيا، وفي نيجيريا والصومال في أفريقيا أمام موجات التنصير والعلمانية، والإسلام الذي يقاوم التغريب في تركية وفي البلاد العربية.

وقف الشيخ مع اللاجئين المشردين من أبناء الإسلام في أنحاء العالم من أبناء بورما وتشاد والصومال وأريتريا وغيرهم[٢].

❑ يقول الشيخ في ألم وأسى: «إن قلبي يتفطّر عندما أرى الدم المسلم أرخص دم على الأرض، لقد استباحه المجوس واليهود والنصارى والوثنيون الملحدون.. وحكام مسلمون ولا ريب أن المدافعين عن الإسلام تكتنفهم ظروف صعبة معقدة، غير أنه بين الحين والحين ينبجس من روح اللَّه ندى يواسي الجراح، ويهوّن الكفاح، ويُبشر بالصباح. ومهما كانت الأوضاع محرجة فلا بد من بقاء الدعوة الإسلامية مرفوعة الراية، واضحة الهداية، تعلن الحق وتبسط براهينه، وتلقف الشبه وتوهي إسنادها»[٣].

---

(١) انظر حديثه في كتاب «كفاح دين» عن «مأساة المسلمين في الحبشة»، وفصل «حكومات مسيحية لشعوب مسلمة»، وفصل «ذئاب الحبشة تنهش الإسلام».

(٢) انظر حديثه عن «أحوال المسلمين في الفلبين في كتابه «علل وأدوية» (ص٢٠٩ ـ ٢١١).

(٣) «قذائف الحق» (ص١٤٨).

* الغزالي والحرية وحربه على الفساد السياسي:

كان ـ رحمه اللَّه ـ عدوًّ للاستبداد أيًّا كانت صوره، ولقد تحدّث الشيخ عن الفساد السياسي في كتابه «هموم داعية» فقال: «الفساد السياسي مرضٌ قديم في تاريخنا، هناك حكّام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة؛ لأن أهواءهم طافحة، وشهواتهم جامحة.. لا يؤتمنون على دين اللَّه ولا دنيا الناس.. ومع ذلك فقد عاشوا آمادًا طويلة.

ولقد عاصرت حكّامًا تدعو عليهم الشعوب، ولا تراهم إلا حجارة على صدرها توشك أن تهشمه، انتفع بهم الاستعمار الشرقي والغربي على سواء في منع الجماهير من الأخذ بالإسلام والاحتكام إلى شرائعه، بل انتفع بهم في إفساد البيئة حتى لا تنبت فيها كرامة فردية، ولا حرية اجتماعية أيًّا كان لونها».

وقال: «إن الفقه الدستوري في أمتنا يجب أن تنحسر عنه ظلال الحجاج، وعبيداللَّه بن زياد، وبعض ملوك بني العباس، وبعض سلاطين آل عثمان».

إن الضلال في تصوير الإسلام يُفقد الإسلام حق الحياة.. إنهم يحسنون الإماتة، ولا يحسنون الإحياء.

«إنني أومن بالشورى، وأزدري الاستبداد السياسي من أعماق قلبي، وأردّ إليه أغلب هزائم أمتنا خلال تاريخها».

وهو يبشر بالأمل ويفقه الثوابت من مذهب أهل السنة والجماعة من عدم الخروج المسلح والصبر على الحاكم الظالم فيقول:

«الواقع أن أنسًا ﷺ كان يقصد بحديثه منع الخروج المسلح على الدولة بالطريقة التي شاعت في عهده ومن بعده، فمزّقت شمل الأمة، وألحقت بأهل الحق خسائر جسيمة، ولم تنل المبطلين بأذى يُذكر.

وأنس بن مالك ﷺ أشرف دينًا من أن يمالئ الحجاج أو يقبل مظالمه، ولكنه أرحم بالأمة من أن يزجّ بأتقيائها في مغامرات فردية تأتي عليهم، ويبقى الحجاج بعدها راسخًا مكينًا.

وتصبيره الناس حتى يلقوا ربهم - أي حتى ينتهوا هم - لا يعني أن الظلم سوف يبقى إلى قيام الساعة، وأن الاستكانة الظالمة سنة ماضية إلى الأبد! لقد سلخ الإسلام من تاريخه المديد أربعة عشر قرنًا وسيبقى الإسلام على ظهر الأرض ما صلحت الأرض للحياة والبقاء، وما قضت حكمة اللّه أن يختبر سكانها بالخير والشر.

ويوم ينتهي الإسلام من هذه الدنيا فلن تكون هذه دنيا؛ لأن الشمس ستنطفئ، والنجوم ستنكدر، والحصاد الأخير سيطوي العالم أجمع فليخسأ الجبناء دعاة الهزيمة وليعلموا أن اللّه أبرّ بدينه وعباده مما يظنون.

إن الباطل لن تلين قناته بسهولة، بل ربما وصل في جرأته على الإيمان أن تقتحم حدوده ويهدد حقيقته، ويحاول الإجهاز عليه.

وعندما تنجلي الظلماء عن رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه يقاومون الضلال بجلد، ولا يستوحشون من جو الفتنة الذي يعيشون فيه ولا يتخاذلون للغربة الروحية والفكرية التي يعانونها، ولا يزالون يؤدون ما عليهم للّه حتى تنقشع الغمّة، ويخرج الإسلام من محنته مكتمل الصفحة، بل لعلّه يستأنف زحفه الطهور فيضمّ إلى أرضه أرضًا وإلى رجاله رجالاً.

ليست الغربة موقفًا سلبيًا عاجزًا، إنها جهاد قائم دائم حتى تتغيّر الظروف الرديئة ويلقى الدين حظوظًا أفضل.

وليس الغرباء هم التافهين من مسلمي زماننا، بل هم الرجال الذين رفضوا الهزائم النازلة، وتوكلوا على اللّه في مدافعتها حتى تلاشت!».

إن لجواد هذه الأمة نهضته من هذه الكبوة، وإن لسهمها قوطة بعد

هذه النبوة.

إن ترك الشر ليس هو غاية التدين، وإن اعتزال الفتن فقط ليس هو آية الإيمان، وهذا عجز سببه ضعف الهمة وسقوط الإرادة.

❑ وإني لأذكر قول المتنبي فيه:

إنّا لفي زمنٍ ترك القبيـــح به من أكثر الناس إحسان وإجمال

أجل، فإن ترك الصغائر غير بلوغ الأمجاد، وتجنب التوافه والرذائل غير إدراك العظائم، وتسنم الهام.

والرسول الكريم عندما يأمرنا باعتزال الفتن لا يُنهي واجبنا عند هذا الحد.. سوف يبقى بعد ذلك الاعتزال الواجب، بناء الأمة على الحق، ومدّ شعاعاته طولاً وعرضًا حتى تنسلخ كل ظلمة»[1].

*** في وجه العلمانية:**

ولعل أبرز المعارك التي خاضها الشيخ، وأطولها نفسًا، وأشرسها هجومًا هي معركته مع (العلمانية) اللادينيـة، التي تعارض حاكمية اللَّه لخلقه، وسيادة الشريعة على الناس، وتعزل الدين عن الحياة وعن المجتمع، وتحارب الذين يدعون إلى الإسلام الشامل، وتعتبرهم دعاة الرجعية وأعداء التطور.

وقد بدأ هذا في كتابات الشيخ منذ وقت مبكر، حينما رد على صديقه الشيخ خالد ـ في فصل (قومية الحكم) من كتابه: (من هنا نبدأ).

بيد أن الشيخ وقف بقوة وحرارة في وجه العلمانيين الأصلاء في العلمانية، المبغضين علانية لشريعة الإسلام، المجاهرين بتحقير حكم اللَّه

(١) «قذائف الحق» (ص٢٠٨ ـ ٢١١) باختصار وتصرف يسير.

ورسوله، الداعين إلى تغريب المجتمعات الإسلامية.

كانت معارك الشيخ مع هؤلاء تتسم بشيء من الشدة والحدة بقدر نفور هؤلاء من الإسلام، وتنفيرهم منه، ومعاداتهم للدعاة إليه، وكلما أوغل هؤلاء في عداوة الدين والشريعة كان قلم الشيخ كأنما هو شعلة من نار، نار تكوي وتحرق، ولا يخبو لها لهيب، كما نرى ذلك واضحًا في تعقب الشيخ لسقطات محمد سعيد العشماوي، ونصر أبو زيد، وفرج فودة، الذين أظهرت كتاباتهم مبلغ كراهيتهم لدعوة الإسلام، وتحكيم شريعته.

والشيخ يقول عن هذا النوع من العلمانيين: لماذا لا نسمي هؤلاء بأسمائهم الحقيقية؟ والاسم الحقيقي لهؤلاء: المرتدون، فهؤلاء قد مرقوا من الدين مروق السهم من الرمية، ولم يعد في قلوبهم توقير للّه تعالى، ولا تعظيم لكتابه، ولا احترام لرسوله، ولا انقياد لشريعته، ويعجب الشيخ من موقف هؤلاء المرتدين في حقيقة أمرهم، لماذا يحرصون على أن يحتفظوا باسم الإسلام، وأن يظلوا محسوبين على المسلمين، والإسلام منهم براء، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم قول المثقّب العبدي:

فإما أن تكون أخي بصدق ... فأعرف منك غثّي من سميني!

وإلا فاطرحني واتخذني ... عدوًّا أتقيك وتتقيني!

كان هؤلاء العلمانيون يظهرون في أثواب متباينة الأشكال. فقد يلبسون لبوس اليسار الثوري، وقد يلبسون لبوس اليمين الليبرالي، وقد يتحلون بعباءة القومية العربية، وقد يبدون في أثواب أخر، ولكنهم جميعًا شركاء في الجرأة على اللّه تباركت أسماؤه، وفي التعالم عليه جل علاه، والاستدراك على شرعه! فهم يزعمون أنهم أعلم من اللّه بخلقه، وأبر منه بعباده. وأنه تعالى حين شرع لهم ما شرع لم يكن يدري ما يحدث لهم من تطورات، وما يجري عليهم من أحداث، فهم لذلك يرفضون حكمه وحكم رسوله، ولا

يرتضون مرجعية الإسلام فيما شجر بينهم.

وأكثر ما يغيظ الشيخ من هؤلاء العلمانيين الذين لا دين لهم هو: دجلهم وكذبهم على اللَّه عز وجل! وذلك حين أقحموا أنفسه على دين اللَّه، وليسوا من اللَّه في كثير ولا قليل. وهم الذين يعتبرهم الشيخ (نباتات سامة في حقول الإصلاح)!

إنهم ورثة مسيلمة الكذاب الذي زعم أنه نبي يوحى إليه، ولم يوح إليه بشيء، وظن المغفل أنه يدرك المجد بهذا الدجل المكشوف، فلم يدرك إلا القاع، وبقي اسمه إلى الأبد رمزاً للكذب.

وتتابع الكذابون في عصور مضت، فإذا أناس لا أثر لهم في ميادين الفلسفة، ولا أثر لهم في مجالات العلم، ولا ثقة بعقولهم في شيء طائل يقتحمون ميدان الدين، ثم يزعم هذا أنه نبي بعد محمد! ويزعم أن اللَّه قد حلّ فيه، أنه مجلي لبهائه!!

وظاهر أن الاستعمار العالمي أراد الكيد للإسلام، والنيل من تعاليمه، فاستغل هذه «المانيخوليا» عند أصحابه، وروج لها واعتبر أصحابها مؤسسي أديان ومحدثين عن اللَّه، وساندهم بدهاء وإلحاح، فكان له ما أراد أو بعض ما أراد.

وعندما شرع المسلمون يفيقون من غفوتهم، ويثوبون إلى رشدهم، ويدمغون الكهان الجدد لاحقهم الاستعمار بنفر آخرين، هم امتداد للنبوات الكاذبة في العصور السابقة، بفرض هؤلاء أنفسهم على الإسلام، بغية الإجهاز عليه من داخله، ولا شيء لديهم من علم أو فلسفة إلا ما ورثوه عن مسيلمة وغلام أحمد وبهاء اللَّه، مزيج من المانيخوليا، والجراءة والكهانة والادعاء.

هذا دجال ظهر في السودان يأخذ القرآن المكي ويرفض القرآن

المدني[١] ، ويوفر له الأمن سنين عددًا!! وهذا دجال ظهر في مصر يقبل الكتاب ولا يقبل السنة[٢] .

وبديه أن كلا الشخصين لا يعتمد في مزاعمه على إسناد علمي، لا ينجع في مقارعة حجة بحجة. ماذا تقول لمسيلمة أو لسجاح أو لطواغيت القاديانية والبهائية، أو لطلائع الغزو الثقافي الذين يقسمون الوحي قسمين، فيمسكون قسمًا، ويطرحون قسمًا؟

هناك منطق عقلي أو تجريبي يحكم المقولات الفلسفية والقضايا المادية، أما هؤلاء فمنزع آخر تسيِّره أمراض نفسية، واضطرابات ذهنية، ونوع من الجنون المقدس أو عبادة الذات، وعلى الدهماء أن تسمع وتطيع..

وتعاليم الإسلام في هذه الأيام تهبُّ عليها رياح صفراء من مصادر جديرة بالتفرُّس والحذر..

وغايتها لا تخفى علينا، إنها الإطاحة برسالة محمد كلها تحت عناوين مفتعلة، الاعتماد على القرآن واطراح السنة! الاعتماد على القرآن المكي وترك القرآن المدني! تعطيل نصوص قائمة قد تكون عبادية كشريعة الصيام فيقال: الصيام يضرّ الإنتاج فلنلغ رمضان! وقد تكون معاملات اجتماعية كأنواع الحدود والقصاص، فيقال: إقامة هذه العقوبات تكثر العاهات وتشيع البطالة فنتجاوزها إلى ما هو أعدل منها وأرعى للصحة العامة!!

---

(١) يقصد: محمود محمد طه، الذي قضت المحكمة العليا في السودان بردته وبالدعوة إليها.

(٢) يريد حسين أحمد أمين، الذي كتب في مجلة (المصور) مقالات هاجم فيها الشريعة والسنة وفقهاء الأمة، والسلف الصالح وعمر بن عبدالعزيز، ودافع عن طغيان الحجاج. انظر ردّنا عليه في كتابنا: «فتاوي معاصرة» (ج٢). فتوى: عمر بن عبدالعزيز وهل كان جاهلاً بالسياسة؟ وانظر كذلك في الرّد عليه كتاب: الكاذب الحزين، نشر دار الصحوة وتأليف منذر الأسعد وتقديم الدكتور عبدالحليم عويس.

* فضح عملاء الغرب:

ومما أخذه الشيخ على نفسه: أن يفضح عملاء الغرب الصليبي والشرق الشيوعي في ديارنا، ويهتك أستارهم التي يتخفون وراءها ويتخذون لها عناوين شتى، من الحرية والتقدمية والتطور والتحرر والتنوير، وما شابهها.

لا بد من تعرية هؤلاء الذين لا همّ لهم إلا ترويج سلع الغرب الفكرية في أرضنا، وبين أهلنا، وإن كان فيها السم القاتل لأمتنا، فهذا السم يوضع في الدسم أو في الحلوى، حتى يقبل ويُشتهي.

من أجل ذلك هاجم سلامة موسى، ولويس عوض، وميشيل عفلق، وقسطنطين زريق، وجورج حبش، وغيرهم من النصارى كما هاجم لطفي السيد، وساطع الحصري، وطه حسين، ونزار قباني، وعبدالرحمن الشرقاوي، وصلاح جاهين، وحسين أمين، وغيرهم من المسلمين، سواء منهم من تسربل برداء القومية أو الاشتراكية أو التحررية، أو أي رداء كان.

ونأخذ هنا مثالاً لموقفه من طه حسين ومحاولات أنصاره العمل على تخليد ذكراه، باعتباره الرائد الأول في الأدب، والقائد الأول للفكر!

❑ يقول الشيخ في كتابه «علل وأدوية»:

«قرأت للدكتور طه حسين، واستمعت له، ودار بيني وبينه حوار قصير مرة أو مرتين فصد عني وصددت عنه!

أسلوب الرجل منساب رائق! وأداؤه جيد معجب، وهو بين أقرانه قد يدانيهم أو يساويهم ويستحيل أن يتقدم عليهم.. بل عندما أوازن بينه وبين العقاد من الناحية العلمية أجد العقاد أعمق فكرًا، وأغزر مادة، وأقوم قيلاً، وأكاد أقول: إن الموازنة المجردة تخدش قدر العقاد.

وأسلوب زكي مبارك أرشق عبارة وأنصع بيانًا من أسلوب الدكتور طه حسين، ولولا أن الرجل قتله الإدمان لكان له شأن أفضل.

ودون غمط لمكانة الدكتور الأدبية نقول: إنه واحد من الأدباء المشهورين في القرن الماضي، له وعليه.. وحسبه هذا.

بيد أنني لاحظت أن هناك إصرارًا على جعل الرجل عميد الأدب العربي، وإمام الفكر الجديد، وأنه زعيم النهضة الأدبية الحديثة.

ولم أبذل جهدًا مذكورًا لأدرك السبب، إن السبب لا يعود إلى الوزن الفني أو التقدير الشخصي، السبب يعود إلى دعم المبادئ التي حملها الرجل، وكلف بخدمتها طول عمره، إنه مات بيد أن ما قاله يجب أن يبقى، وأن يدرس، وأن يكون معيار التقديم.

❑ تدبر هذه العبارة للدكتور «العميد»:

«إن الدين الإسلامي يجب أن يعلم فقط كجزء من التاريخ القومي، لا كدين إلهي نزل بين الشرائع للبشر، فالقوانين الدينية لم تعد تصلح في الحضارة الحديثة كأساس للأخلاق والأحكام، ولذلك لا يجوز أن يبقى الإسلام في صميم الحياة السياسية! أو يتخذ كمنطلق لتجديد الأمة (!) فالأمة تتجدد بمعزل عن الدين».

ويمكن الرجوع لمثل كتابه: «مستقبل الثقافة في مصر» لتجد أشباهًا لهذه العبارات السامة.

ويشاء القدر أن تقع عيني على هذه العبارة: وقد قررت (إسرائيل) وقف الطيران في (شركة العال) يوم السبت احترامًا لتعاليم اليهودية!

إن الإسلام وحده هو الذي يجب إبعاده عن الحياة العامة، أما الأديان الأخرى فلتقم باسمها دول، ولترسم على هداها سياسات.

وظاهر أن الدكتور طه حسين كان ترجمانًا أمينًا لأهداف لم تعد خافية على أحد عندما طالب بإقصاء الإسلام وأخلاقه وأحكامه، وعدم قبوله أساسًا

تنطلق الأمة منه، وتحيا وفق شرائعه وشعائره.

قائل هذا الكلام يجب أن يكون عميد الأدب العربي في حياته وبعد مماته، وأن تشتغل الصحافة والمسارح بحديث طويل عن عبقريته، ليكون علمًا في رأسه نار، كما يقول العرب قديمًا.

أما العقاد وإسلامياته الكثيرة فيجب دفنه ودفنها معه، ومع أن الرجل حارب الشيوعية والنازية وسائر النظم المستبدة، وساند «الديمقراطية» مساندة مخلصة جبارة، فإن العالم «الحر» ينبغي أن يهيل على ذاكره التراب، ليكون عبرة لكل من يتحدث في الإسلام، ولو بالقلم! فكيف إذا كان حديثًا بالفكر والشعور، والدعوة والسلوك، والمخاصمة والكفاح؟ هذا هو الخصم بالفناء والازدراء.

والقوى التي تعمل دائبة على تخليد الدكتور طه حسين، وتجديد فكره، وإعلاء شأنه معروفة لدينا، ونريد أن نكشف عنها، إذ لا معنى لبقائها في جحورها تلدغ ثم تستخفي، وتنال منا باسم حرية العلم، وهي لا تعرف من الحرية إلا لونًا وحيدًا: كيف تضرب الإسلام وتطفئ جذوته وتميت صحوته؟

ذلك، إلى أن الريح تعصف اليوم ضدنا أكثر مما كانت تعصف يوم ألف الدكتور طه ضد ديننا وتراثنا، لقد أقامت اليهودية على أنقاضنا دولة تريد اجتياح حاضرنا ومستقبلنا، وهي تربي النساء والأطفال لتحقيق هذه الغاية، وتعتبر المدرسة ثكنة عسكرية، والثكنة معبدًا دينيًا، والتوراة دينًا ودولة»[1].

* علماء الأزهر وحملة نابليون والردّ على الخبيث صلاح جاهين:

كما فضح الغزالي العملاء، دافع بقوة عن الشرفاء، ومنهم علماء الأزهر، الذين اتهمهم بعض الشيوعيين أنهم استسلموا لنابليون!

(١) «علل وأدوية» (ص٧٩ ـ ٨١).

يقول الشيخ:

«لقد تابعت بعض العروض الروائية والسير التاريخية لرجالنا وأحوالنا الأولى، فوجدت العجب من تزوير التاريخ والكذب على الأحياء والأموات.

زعم بعضهم أن علماء الأزهر لاذوا بالتقية عند مجيء نابليون بونابرت إلى مصر ولم يؤدوا واجبهم الوطني، وضربت كفًا على كف لهذه الصفاقة الغريبة..!

إن جثث العلماء المسلمين بعثرت حول القلعة وهم يقاومون الفرنسيين، وضرب الأزهر بالمدافع، ودخله الجيش الفرنسي بخيله، وقتل أحدُ الأزهريين القائدَ «كليبر»، وانتقم الفرنسيون منه فقتلوه شر قتلة. فكيف يطوى ذلك كله، ويذكر أن النسوة المعلمات هن اللائي قاومن الفرنسيين؟

قبحك اللَّه من مؤلف كذوب.. ولكن التهجم على الإسلام هدف يشترك فيه الرعاع وبعض الرؤساء عمدًا، لينالوا من الإسلام نفسه، ولتعيش الأمة بلا عقيدة، ولتجد الصهيونية الطريق أمامها مفتوحًا إلى ما تريد.

وإلى القارئ هذا الشاهد الآخر من شواهد التاريخ والحملة على الإسلام وعلمائه:

كتب السيد صلاح جاهين شيئًا من الشعر[1] العامي عن مصر وتاريخها الطويل جاءت فيه هذه الكلمات:

زحف الفرنسيس وزحفت قبلهم جواسيس
غايصين لقاعها وعارفين باعها من باريس
وايش عمل القاع قصير الباع.. في القمة
وايش تعمل العمة في البرنيطة يا أئمة؟

(١) ناسف على تسميته بالشعر والشعر منه بريء.

العمة ما اتكلمت؟ (!!) وتن صوتها حبيس!
غير مرة لما البوليس قال: نوروا الفوانيس!
وده كفر طبعًا. ولا يدخل لنا في ذمة
اطمن الغرب أن في بلدنا ناس رمة
وانهش يا ديب فينا واقضي بمنتهى الهمة
على اسـم مصـر

وأنا أعتذر أولاً عن تدوين هذه التعابير السوقية في صحيفة محترمة، لا يجوز أن تنشر أمام العامة، ولكني مضطر لتفنيد ما حوت من إفك خسيس على تاريخ الجهاد العلمي لأمتنا..

يرى هذا الكاتب أن علماء الأزهر قابلوا الغزو الفرنسي لمصر بصوت محبوس، وهمة مشلولة، وأنهم ما تحركوا محتجين إلا عندما أنار الفرنسيون القاهرة؛ لأن إبقاء المصابيح كفر، وإشاعة الظلام بالليل هو ما يعمل له علماء الدين (الرمم).. !!!.

ولست أستغرب من منكر للّه أن يفتري على خلقه! ولكن الافتراء يوم يعلن على أنه علم، وعهد الناس قريب بالحقيقة، فإن الأمر يستدعي الكي لا التكذيب المعتاد..

ولقد علم الغرب والشرق أن الحملة الفرنسية لما وطئت أرض مصر قاد الإسلام ـ وحده ـ حركة المقاومة، وقاتل الفرنسيين شبرًا شبرًا في هذا الوطن المحروب، وأن علماء الدين كانوا قادة هذه المقاومة الباسلة ووقودها المتوهج.

ولما انتفضت القاهرة ضد الغزاة، وكان الجامع الأزهر مصدر الثورة اقتحمت الخيل الفرنسية حرمه، ويقول الجبرتي: «إنهم تفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، ودشتوا المصاحف والكتب على الأرض، وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه ـ أي بالوا داخله ـ وشربوا الشراب ـ أي الخمر ـ وكسروا الأواني وألقوها بجوانبه».

ويحكي التاريخ العدل الصدوق أن الشيخ الشهيد سليمان الحلبي كان ـ قبل أن يقتل بأشنع الطرق ـ رابط الجأش، وصرح في التحقيق الذي أجري معه أنه قتل الجنرال «كليبر» في سبيل اللَّه، وكان ينظر إلى من حوله «بعين رفيعة».

ولقد قبض الفرنسيون على الشيخ أحمد الجوسقي والشيخ أحمد الشرقاوي، والشيخ عبداللَّه الشبراوي، والشيخ يوسف المصيلحي، وعرّوهم من ثيابهم، وصعدوا بهم إلى القلعة، فسجنوهم إلى الصباح، ثم أنزلوهم وقتلوهم بالبنادق، وألقوهم من السور خلف القلعة، ولم تعرف لهم قبور. هكذا يذكر الجبرتي في تاريخه، ويجيء رجل شيوعي وغد ليقول في حق علماء الأزهر كلهم:

وأنا لو «نابليون» لكنت عدمتهم تقتيل
ما دمت أقدر أسيح دمهم في النيل
واخلع ذقونهم وابين أنها تضليل
على اسم مصر

أهكذا يكون تزوير الوقائع، وتشييع شهداء المقاومة الشريفة؟ ولم هذا كله؟ لنثبت بطريق الخداع والكذب أن الدين «أفيون الشعوب»، مع أن كل شيء يصرخ هنا بأنه محرر الشعوب ونافخ نارها ومعلي منارها؟

ونجيء أخيراً للقصة السمجة، قصة أن علماء الإسلام قاوموا تعليق المصابيح على البيوت؛ لأن الظلمة طاعة، والضوء معصية! كما يذكر رجال الأهرام الأغر.

إنه أضاف بهذه القصة بمنقبة لنابليون لم تعرف له، ألم يكتشف أنه جاء من فرنسا بجيشه كي ينير القاهرة؟

واتهم الإسلام بمثلبة لم يوردها أشد أعدائه صغاراً، ألم يقف علماؤه

ضد إنارة الشوارع والحارات؟

وقصة تكليف الأهالي بإنارة الطريق أمام بيوتهم أوردها الجبرتي، وذكر حولها بعض وقائع السلب والنهب التي تبعتها.

ورأينا أن هذا التصرف الفرنسي كان إجراء عسكريًّا ليحكم الغزاة وثاق القاهرة الجريح، وتشتد قبضتهم عليها، حتى لا يستخفي القناصة والفدائيون في جنح الليل.

لكن سدنة القومية العربية الذين يقودون صحافتنا المعاصرة، يريدون تشويه كل شيء لتحقيق مآربهم، وفرض مبادئهم.

وباسم القومية العربية، يحارب البيان العربي الصحيح، ويتم التمهيد للعامية الهابطة.

وباسم القومية العربية، ينقم العرب على أضوأ اسم في تاريخهم، وأشرف إنسان مشى على الثرى في الأولين والآخرين.. ينقمون على محمد ابن عبدالله وينالون من رسالته!

إن هؤلاء الناس ـ بداهة ـ ليسوا مسلمين. فهل هم عرب كما يوصفون أو يتصفون؟

كلا. إن هؤلاء ـ سواء كانوا أجراء أو مخلصين ـ أفضل لإسرائيل من كل أسلحة الدنيا التي ترد إليها»[1].

*** صلاح جاهين الملحد وتلميذته سندريللا الشاشة وضياع المُخَدَّرين من شباب الأمة في غيبوبة فكرية وفسق لا تفيق الأمة منه إلا على الجزاء العادل من ربك لمن حاد عن طريقه:**

يا لضياع الأمة حين يعلو الأقزام والزنادقة ولكن الإسلام لا بواكي له!!

(١) «قذائف الحق» (ص٩١ ـ ٩٤)، و«الشيخ الغزالي كما عرفته» (ص٧٧ ـ ٨٨).

صلاح جاهين الملحد المستهزئ الساخر من رسول اللَّه ﷺ ومن الإسلام يكال له المديح في وسائل الإعلام، وينخدع الدهماء والرعاع به وكأنه صلاح الدين ويفسح لكلامه الرقيق المجال وكأنه شعر حسان، وتشدو بالكلام الماجن تلميذته سندريللا الشاشة التي فُتن بها الرعاع والدهماء.

ويتكلم الفُسّاق من أهل الفن عن روائعها «خللي بالك من زوزو» و«الدنيا ربيع» و.. وصباحة وجهها وتعبيرات قسماته وتثنيها ورقتها ورشاقتها».

ونسوا أنها سقطت في وحل الشيوعية وزواجها السابق من المخرج الشيوعي كما قالت جريدة الأهرام العربي..

ومعاذ اللَّه أن نقول عنها ما قالته اعتماد خورشيد في كتابها «انحرافات أهل الفن» ونحن أبعد الناس عن قذف الناس ولكن ما كانت نهايتها:

يبتليها اللَّه بسرطان في وجهها الذي طالما أغرت به، وشرخ في عمودها الفقري الذي طالما تثنت به، وكآبة لا تفارقها، وبُعد عن الناس بعد أن كانت السندريللا، وترهل بالغ في جسدها بعد رشاقتها.. ثم انتحار أو قتل في بلد الضباب لندن» ولا يظلم ربك أحدًا، فهل من معتبر، والجزاء عند اللَّه من جنس العمل.

فهل رجع الناس وتلمّسوا العبرة من حكايتها.. خرج الغوغاء في جنازتها في مظاهرة كبيرة كبيرة وهم يرددون «لا إله إلا اللَّه» ويثنون على الراحلة عظيم الثناء!!! ونقول: قد أفضت إلى ما قدمت، وحسابها على اللَّه، فاحذر أن يفضحك ميراثك يوم موتك وعند القدوم على ربك، وإنما يحشر الناس على نياتهم، وقد قال ﷺ: «**من أراد أن يعلم ما له عند اللَّه فلينظر ما للَّه عنده**».

*** الشيخ الغزالي في مسجد عمرو بن العاص وموقفه العظيم من «قانون الأحوال الشخصية الزائف»:**

«ومن المواقف التي تذكر للشيخ: موقفه من قانون الأحوال الشخصية، الذي يعرف عند المصريين بـ (قانون السيدة جيهان)، يقصدون قرينة الرئيس الراحل أنور السادات، التي كانت متحمسة له، وقد هاجمه الشيخ في قاعة الشيخ محمد عبده بالأزهر وصفقت له الجماهير؛ ووقفت بجانبه.

وكان موقف الشيخ في هذه القضية مماثلاً لموقف شيخنا الدكتور عبدالحليم محمود ـ الإمام الأكبر شيخ الأزهر ـ ولذا سقط القانون أو قل جمّد في عهده، ثم وجد من الشيوخ ـ للأسف الشديد ـ من أجازوه!»[1].

❑ يقول الشيخ محمد المجذوب في كتابه «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٧٥ ـ ٢٧٧) في مسجد عمرو:

هذا المسجد الذي يحمل إلى قلوب المؤمنين العارفين، نفحات المدّ العظيم الذي أضاء مصر بنور الإسلام على أيدي الطليعة المباركة من تلاميذ النبوة كان قد استحال أو كاد خلاء كالخراب يوشك ألا يجتمع فيه نصاب الجمعة على المذهب الشافعي، وكأني بالدكتور عبدالحليم محمود، وكان يومئذ وزيراً للأوقاف، قد شاء إحياء الغابر من جلال هذا المسجد، فدعا الشيخ الغزالي ليبلغه رغبته في أن يتولى خطابته.. وكان هذا بنظر الغزالي أشبه بالنفي له عن أوساط التوجيه، لذلك راجع الوزير يطلب إعادته إلى خطابة الجامع الأزهر الذي ألفه وألفه روّاده على مدى عشر سنوات، ولكن الوزير أصر على تكليفه وقال له: اذهب إلى مسجد عمرو، وستجدني بين المستمعين إليك.

---

(١) «الشيخ الغزالي كما عرفته» للشيخ القرضاوي (ص٣٣٨).

وكانت هذه لفتة طيبة أقنعت الشيخ بقبول التكليف، وما إن ذاع خبر هذا التوجيه حتى استبشر الناس الذين أحزنهم أن يفتقدوا هذا الصوت المؤثر، وأقبلوا على المسجد منذ الجمعة الأولى فملئوه وصحنه، ثم مضى الأمر على التزايد جمعة بعد أخرى، حتى قفز العدد عن الألف إلى ما يُقارب الثلاثين ألفًا، يتوافدون إليه من مختلف أنحاء القطر.

وتراءى للشيخ من خلال ذلك الإقبال عظم المسئولية فاستخار اللَّه وتوجه إليه بالدعاء أن يوفقه إلى إعلاء كلمته وتثبيت حقائق الإسلام في هاتيك القلوب المتلهفة إلى قولة الحق.

ورأى أنفع شيء لهذه الآلاف المؤمنة أن يعالجها بالقرآن، وعلى المنهج الذي أفاده من تأملاته الخلوية في ليمان طرة.. وهكذا مضى بها في حدائق «الأنعام» و«يس» و«الواقعة» و«الفتح» و«محمد» ﷺ.

وقادته حكمة اللَّه أن يبدأ بسورة «النساء» في الوقت نفسه الذي اختارته وزارة الشئون الاجتماعية لإثارة موضوع قانون الأسرة، وما يُراد له من التغيير.

*** قضية الساعة:**

وتتصاعد موجة البحث، ويكون من ردود الفعل الطبيعية لمحاولات أنصار القانون المراد، أن اتجه أولو الفكر في مسجد عمرو إلى الدعوة لمؤتمر يُعقد في الأزهر، ويضم المشتغلين بالقضايا الإسلامية لمعالجة القضية على نطاق أكثر موضوعية.. وكذلك كان، وقد حضر ذلك المؤتمر كثيرون يمثلون مختلف الأوساط العلمية والسياسية، فعلماء من كبار الأزهريين، وأعضاء من مجلس الشعب، وأساتذة وطلاب من مختلف الكليات، إلى آخرين من العاملين في الجماعات الإسلامية.. وشارك في الاجتماع سفير نيجرية، حتى بلغ الحضور قرابة خمسة عشر ألفًا يمكن القول بأنهم يعكسون بمجموعهم رأي

الكثرة الغالبة من الشعب المصري.

وطرحت قضية الساعة في جو من الصراحة الواجبة، وكان الصديق المترجم في بحثه الموضوع[1] بمثابة المرافع القضائي الذي يدعم أفكاره بالحجج الدامغة والوثائق الحاسمة.

وانتهى النقاش أخيرًا بإجماع الحضور ودون معارض إلى المقررات التالية:

١ ـ لا يجوز النظر في قانون الأسرة قبل تعديل قوانين العقوبات كلها لتتفق مع مبادئ الشريعة.

٢ ـ يضع قوانين الأسرة علماء الأزهر فقط.. لا الوزارة.

٣ ـ استنكار ورفض كل تهجّم تقوم به أجهزة الإعلام على التعاليم الإسلامية وأوضاع المسلمين.

وعقب ذلك خرج جمهور المؤتمرين، ومعهم الطلاب، في مظاهرة ما زالت تزداد بالمنضمين إليها حتى أحاطت بمجلس الشعب إحاطة السيل بجزيرة معزولة.

وكان هذا كافيًا لإقناع المسئولين بأن الشعب المصري غير مستعد بتمرير هذا العدوان الجديد على بقايا الشريعة الإسلامية، فوقفوا التفكير في مشروعهم ولو إلى حين.

وكان طبيعيًّا، بعد هموده العاصفة أن يتحرك القوم للبحث عن مسببها، فانتهى بهم المطاف إلى مسجد عمرو وخطيبه، وأعقب ذلك تنحية الشيخ عن منبره.. ثم جاء التدبير الآخر بنقله من وظيفة مدير عام للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف إلى منصب مستشار فيها» ا.هـ.

---

(١) يعني بذلك «الشيخ محمد الغزالي».

*** وقفته الرائعة في «ملتقى الفكر الإسلامي» في الجزائر في الثمانينات وردّه على الدكتور البوطي أمام الرئيس الشاذلي بن جديد:**

قال الشيخ القرضاوي:

«ومن المواقف التي تذكر للشيخ: موقفه في (ملتقى الفكر الإسلامي) في الجزائر في أواخر الثمانينات، عندما وقف صديقنا الدكتور سعيد رمضان البوطي ـ الداعية الإسلامي المعروف ـ يتحدث عن ضرورة اشتغال الدعاة بالتربية والتوجيه، وترك السياسة لأربابها، ويكفي الحكام أو الساسة ما يعانون من متاعب الحكم، وآفات السياسة.. إلى آخر ما قال ـ غفر اللَّه لنا وله ـ حول هذا الموضوع، مما أثار الحاضرين في الملتقى وأقلقهم.

وكان الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد حاضرًا في ذلك الوقت، وشعر المشاركون بالحرج، وهنا طلب الشيخ الغزالي الكلمة، وصعد إلى المنصة، وأثنى على صديقه الشيخ البوطي، ولكنه خطَّأه في توجهه، وإن العالِم المسلم لا يسعه أن يسكت عن باطل، أو يغمض عن ظلم أو يتغاضى عن المنكرات من حوله، وأكبرها تعطيل الحكم بما أنزل اللَّه، وأن الإسلام لا يعرف الفصل بين الحكم والعلم، وأن المسلمين إنما أصيبوا وهزموا يوم فصلوا بين الأمرين.. إلى آخر ما قال ـ حفظه اللَّه ورعاه ـ.

وبذلك وضع الشيخ الحق في نصابه، وأتى الأمر من بابه، واستراح الجميع لتعليق الشيخ، ومنهم ابن جديد نفسه، وقد ذكر الشيخ له موقفًا في أيام الجهاد، دلل به على أهمية الدين وضرورة الإيمان للسياسة وللجهاد.

لم أكن حاضرًا في ذلك الملتقى، ولكن نقله إليّ الإخوة الحضور، كما نشرته جريدة «الشرق الأوسط» في حينه»[1].

(١) «الشيخ الغزالي كما عرفته» للقرضاوي (ص٣٣٨ ـ ٣٣٩).

*** الشهادة في مقتل فرج فوده:**

ومن أخطر المواقف وأحدثها للشيخ هو موقف (الشهادة) الأخيرة في محكمة أمن الدولة، في قضية مقتل الدكتور فرج فوده[1]، تلك الشهادة التي أحدثت دويًا، بل زلزالاً في دنيا السياسة وعالم الفكر والثقافة، وتناولتها الأقلام المختلفة بالتعقيب ما بين مؤيد ومنكر ومتوقف. وجاء فيها:

س من الدفاع: قررتم فضيلتكم أنه قد يكون صاحب القولة الكفرية لديه شبهة أو لم تبلغه الحجة، فماذا إذا بلغته الحجة؟

ج: هذا ككفر الفراعنة.. جحدوا وجود اللَّه وعصوا موسى، وهذا يكون ارتدادًا صريحًا حاسمًا.

س من الدفاع: من الذي يملك إيقاع الحد على المرتد المستوجب قتله؟

ج: المفروض أن جهاز القضاء هو الذي يقوم بهذه المهمة، فهو الذي يقيم الحدود ويقيم التعازير ويحكم بالقصاص، ولا يكون ذلك لآحاد الناس حتى لا تكون فوضى.

س من الدفاع: فماذا لو كان القانون لا يعاقب على الردة والقضاء لا يوقع الحدود؟

ج: هذا عيب القضاء وعيب المسئولين عنه والقانون معيب.

س من الدفاع: ماذا لو أن القانون المطبق لا يعاقب.. هل يبقى الحد على أصله من وجوب الإيقاع؟

ج: حكم اللَّه لا يلغيه أحد.. والحد واجب الإيقاع.

س من الدفاع: ماذا لو أوقعه فرد من آحاد الأمة، وهل يعتبر مرتكبًا

---

(١) «شهادة الشيخ سجلّها حرفيًا كتاب الأستاذ أحمد السيوفي «محاكمة المرتدين» وسننقل جزءاً منها هي وشهادة الشيخ مزروعة بعد ذلك.

جريمة أو مفتئتًا على السلطة؟

ج: أنا لا أذكر أن له عقوبة في الإسلام.

*** أثر شهادة الشيخ في الحياة العامة:**

«زلزلت الأرض زلزالها بعد شهادة الشيخ؛ لمكانته المرموقة في مصر والعالم العربي والعالم الإسلامي والعالم كله، وثارت ثائرة خصوم الفكر الإسلامي، وأعداء الحل الإسلامي، وكل الحاقدين على الإسلام، والخائفين منه، والمبغضين له، وتكالبت الأقلام المسعورة والمأجورة على الشيخ الجليل، وانتهزها الشيوعيون المهزومون، والمتغربون المقهورون، والعلمانيون الموتورون، انتهزوها فرصة لينهشوا من لحم الشيخ، ناسين أن لحمه سم زعاف.

وسالت أنهار الصحف بالكلام عن الشهادة والشاهد، ولم يعبأ الشيخ بما قيل ويقال.

حتى بعض الأقباط دخل في المعركة[1]، وهاجم الشيخ بوقاحة وسلاطة، مع أنهم كانوا من قبل لا يجترئون على أن يمسوا بكلمة علماء الإسلام!

وذهب وزير مسئول إلى الشيخ في بيته ملحًا في الضغط عليه، ليصدر تصريحًا أو بيانًا، أو يكتب كلمة ـ أو نحو ذلك مما يروق له ـ يفسر به موقفه بما يشبه التراجع عما قاله في الشهادة.

ولكن الشيخ أبى إلا أن يثبت على موقفه، وظل كالصخرة العاتية،

---

(١) غالي شكري، في مجلة له في مقال طويل عن الشيخ الغزالي. (وغالي شكري تظاهر باعتناق الإسلام لاعتبارات مصلحية، ثم عاد يعمل الآن بضراوة مع الكنيسة ولا يستحي من الأغلبية المسلمة بل يستغل حالة الخضوع لأمريكا فشتم الإسلام والمسلمين كل أسبوع وكل شهر، ويستغل كل حدث لإحداث الفتنة الطائفية واحتقار الأغلبية المسلمة) (ع.ع).

التي تحطمت عليها كل تلك المحاولات، ولم تجد فتيلاً.

ولما ألح هذا المسئول على الشيخ وكرر عليه القول مرة بعد مرة، قال له في صراحة وجلاء: أنا لم أكتب مقالاً في صحيفة، ولا ألقيت خطبة في جامع، ولا محاضرة في جمعية، ولكني استدعيت للشهادة أمام المحكمة، فشهدت بما أعتقد أنه الحق الذي أدين اللَّه به وألقاه عليه، فإذا كان في شهادتي بعض الغموض، فلتدعني المحكمة مرة أخرى، وأنا أشرح لها موقفي.

وبهذا حسم الأمر، ولم يعد هناك مجال للقيل والقال.

ولكن الصحافة لم تصمت، وخصوصًا بعد أن انضم إلى شهادة الشيخ: شهادة أ.د. محمود مزروعة رئيس قسم العقائد والأديان بكلية أصول الدين بالأزهر، والتي كانت أصرح وأشد من شهادة الشيخ، والتي اتهم فيها الشاهد فرج فوده بالردة صراحة، وقدم من كتبه ومقالاته ما يدل على ذلك للمحكمة.

ومن أهم ما نشرته الصحافة المصرية في الموضوع: ما أثاره الصحفي المعروف صلاح منتصر في جريدة الأهرام القاهرية»[1] .

*** أسئلة هامة للشيخ:**

في أهرام ١٨ يوليو فجَّر صلاح منتصر عدة أسئلة لفضيلة الشيخ الغزالي، نظرًا لأهميتها نوردها ونورد الرد عليها من الشيخ، وخاصة أننا استشعرنا أن الأستاذ صلاح يحاول أن يضع فخًا للشيخ.. ولكن الشيخ الغزالي خرج من هذا المطب بسهولة متلحفًا بقواعد الشريعة. وهذا نص ما كتبه الأستاذ صلاح منتصر في عموده اليومي[2] :

---

(١) «الشيخ الغزالي كما عرفته» (ص٣٤٥ ـ ٣٤٦).

(٢) نقلاً عن كتاب «محاكمة المرتدين».

* أسئلة إلى الغزالي:

فضيلة الشيخ محمد الغزالي له منا كل احترام وتقدير.. بالإضافة إلى ما نعرفه عن عمله وجهده الكبير للقيام بدور الداعية، الذي يتمنى قوة المسلمين وخروجهم من مرحلة الضعف والهوان التي يمرون بها اليوم.

ولقد كانت لفضيلة الشيخ الغزالي شهادة أمام المحكمة التي يمثل أمامها المتهمون باغتيال الدكتور فرج فوده، وحسنا تم نشر هذه الشهادة بالنص حتى نعرف على وجه الدقة ما قاله فضيلة الشيخ.. وإن كان أحد الزملاء (الأستاذ فهمي هويدي أهرام ٦/ ٧) قد وجد أن حديث الشيخ أمام المحكمة يحتاج إلى إيضاح للعامة، فكتب يحاول هذا الشرح تحت عنوان «حاشية على شهادة الغزالي». ولكن يبدو أن الحاشية في حاجة إلى حاشية.. وليس في الدين حرج كما تعلمنا.. كما أن الدين كدستور للحياة لا بد أن يصل إلى الناس ببساطة حتى وإن كان معقدًا في بعض التفاصيل.. لكن مهمة الداعية أن يسهل لا يصعب، وهو ما يجعلني أرجو فضيلة الشيخ الغزالي ـ بعد أن قرأت شهادته، وبعد أن قرأت الحاشية التابعة لشهادته ـ أن يجيب عن هذه الأسئلة التي أتصور أن ملايين مثلي قد سألوها وينتظرون من فضيلة الشيخ الإجابة عنها.

* إن أسئلتي يا فضيلة الشيخ هي:

١ ـ أي الدرجات أعلى في المعصية: الكافر أم المرتد؟

٢ ـ متى يكون الفرد كافرًا ومتى يكون مرتدًا؟

٣ ـ من الذي يملك تكفير فرد ومن الذي يملك الحكم عليه بالردة؟

٤ ـ هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية وواضحة.. أم يستطيعه أي فرد أو جماعة وبطريقة سرية ومغلقة؟

٥ ـ هناك بعض الدارسين من يشكك في حد الردة، ويقول: إن حد الردة ليس موجودًا صراحة في القرآن الكريم. . فهل هذا صحيح؟

٦ ـ هل يتعارض ما ورد في القرآن الكريم عن حرية العقيدة. واعتبار الحكم على إسلام الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى، مع القول بحق أي فرد أو جماعة في تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد؟

٧ ـ المعروف أن فضيلتكم اشتركتم في ندوة كان فرج فوده طرفًا فيها، وكان ذلك في معرض الكتاب في يناير من العام الماضي قبل اغتياله بنحو ستة أشهر، فهل كان قبولكم للاشتراك في هذه الندوة لمناقشة فرج فوده كمسلم أو محاولة استتابته كمرتد؟

٨ ـ حماية لأنفسنا وأبنائنا وشبابنا من الزلل، ما الذي ورد في كتابات فرج فوده يجعله في موضع الشبهة بالكفر أو الردة؟

فضيلة الإمام. . إن الدعوة ضريبة وفرض. . وأحسب أن تساؤلاتي هي أمانة في عنقك كداعية للرد عليها، مع كل تقديري واحترامي.

صلاح منتصر

*** رد من الغزالي:**

أبدأ أولاً وأشكر فضيلة الشيخ محمد الغزالي على سرعة استجابته بالرد على ما وجهته إلى فضيلته من أسئلة (أهرام الأحد ١٨/٧). . وقد أرسلها لي مكتوبة بخط اليد مع مقدمة، بأمل نشرها كاملة دون تلخيص «فإني قمت عنكم بمهمة الإيجاز، وأحسب أن أي نقص في العبارة يفسد الرد. . وهذا ما لا يرضيكم» وهأنذا أنشر نص الرد كاملاً:

١ ـ أي الدرجتين أعلى في المعصية: الكافر أو المرتد؟

جواب: الكافر أقل سوءًا من المرتد. فإنني قد أشترك في عمل تجاري

مثلاً مع كافر بالإسلام، يهوديًّا كان أو نصرانيًّا، وفي كلتا الحالتين يجب البر بهم وبذل الود لهم. أما المرتد فهو كخائن الوطن منبوذ مكروه، وقد استعمر الأوروبيون أرضنا ومحوا شرائعنا وشعائرنا، فمن انضم إليهم في عداوتهم.. فكيف نصادقه؟

٢ ـ متى يكون الفرد كافراً ومتى يكون مرتداً؟

جواب: الكافر امرؤ خالي البال من تعاليم الإسلام.. لعلها لم تبلغه أو بلغته ولم يقتنع بها. ولا سبيل لنا عليه إلا إذا اعتدى علينا. أما المرتد فهو رجل كان منا وعرف ما نحن عليه ثم رأى لمأرب خاص أن ينضم إلى خصومنا، وأن يؤيدهم بما يستطيع. أي أنه خائن غادر. أما إن كانت لديه شبهة عقلية فلا بد من إزالة شبهته ومحو ما يتعلق به من أوهام ولو ظل سنين على قيد الحياة.

٣ ـ من الذي يملك تكفير فرد أو الحكم عليه بالردة؟

جواب: أهل الذكر وحدهم.. أعني الراسخين في العلم، فإن اتهام فرد بالكفر جريمة، والإسلام دين مضبوط التعاليم.. فمن استباح الخمر مثلاً وسخر من حرمتها، أو من ترك الصلاة جاحدًا واستهزأ بشريعتها فليس بمسلم، بل هو ناقض للمجتمع، ومنكر للوحي وخارج على الأمة.

وسلطة الاتهام بالكفر محددة، وليست كلأً مباحًا لأي إنسان.

٤ ـ هل يحتاج الأمر السابق إلى فقهاء ودعاة دارسين وبطريقة علنية واضحة، أم يستطيعه أي فرد أو جماعة وبطريقة سرية مغلقة؟

جواب: قلنا: إن الفقهاء الثقات وحدهم هم مصدر الفتوى. ورأيهم يكون واضحًا ومعلنًا. إلا إذا كان الإسلام مضطهدًا وحرية العمل به مصادرة. إن جو الحرية الرحب هو الذي يستطاع الأخذ والرد فيه، ولن

تكون الحرية لطرف واحد بداهة، بل تضمن الحرية لجميع الأطراف يقولون ما لديهم في أمان.

وبقيت أربعة أسئلة أخرى سبق أن وجهتها إلى فضيلة الشيخ.. أكمل بإذن اللَّه غدًا رده عليها.

صلاح منتصر

*** بقية رد الغزالي:**

في عمود أمس نشرت النص الكامل لما تضمنته رسالة فضيلة الشيخ محمد الغزالي ردًا على أربعة أسئلة سبق أن وجهتها إليه، وفيما يلي بقية إجاباته عن أربعة أسئلة أخرى أنشرها بالنص دون انتقاص حرف واحد.. حتى علامات التعجب، فهي كما وردت في رسالة فضيلته:

٥ ـ هناك بعض الدارسين الذين يشككون في حد الردة.. ويقولون: إنه ليس موجودًا صراحة في القرآن الكريم فهل هذا صحيح؟

الجواب: نعم لم يرد في القرآن الكريم قتل المرتد[1]، وإنما وردت بذلك السنن الصحاح. وعندي أن جريمة الردة متفاوتة السوء والخطر، وقد تستحق القتل إذا ساوت ما نسميه الآن الخيانة العظمى، أو ما نسميه الخروج المسلح على الدولة. وقد تكون شبهة عارضة يكتفى فيها بالتوبة النصوح. وأمام القضاء تعرف الحقيقة، ويتحدد العقاب العدل، ويوزن خطأ كل فرد!!

٦ ـ هل يتعارض ما ورد في القرآن الكريم من اعتبار الحكم على إسلام الفرد من اختصاص الحق سبحانه وتعالى، مع القول بحق أي فرد أو جماعة

(١) هذا ليس مُسلَّمًا، فبعض فقهاء السلف يرون آية الحرابة في سورة المائدة تشمل المرتدين؛ لأنهم يحاربون اللَّه ورسوله ويسعون في الأرض فسادًا. انظر: بحثنا عن عقوبة المرتد في الفصل الأول من كتابنا: ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده.

في تكفير فرد أو الحكم بأنه مرتد؟

جواب: إن قلوب الناس إلى اللَّه بيقين. ولكن لمسالكهم حدودًا وضوابط من وضع اللَّه ذاته، وإلا سرت الفوضى بين الناس. فمن يدعو إلى ترك العلاقات الجنسية حرة، ويماري في جريمة الزنا وعقوبتها، لا يمكن اعتباره مسلمًا؛ لأنه مخاصم لحكم اللَّه وخارج عليه. ولذلك قال في ضرورة الطاعة التامة: ﴿**فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾ [التوبة: ١١].

فما العمل إذا لم يتب ويقم الصلاة ويؤت الزكاة؟ حكم اللَّه واضح.

٧ ـ اشتركت في مناظرة مع فرج فوده لأني كنت طامعًا ـ إذا شرحت له الحق، وبسطت أدلته ـ أن أعود بالرجل إلى الإيمان، ولكني وجدته يكره الإسلام ونظامه، وينكر صلاحية أحكامه للبقاء. أي أنه يؤيد حكم الإعدام الذي أصدره الاستعمار على شريعتنا وينحاز إلى أعدائنا بصراحة!!

هذا وقد أصدر نفر من علماء الأزهر كتابًا تضمن ما نسب إلى فرج فوده من خروج على الإسلام واستهزاء بتعاليمه.. ويستطيع الأستاذ صلاح منتصر أن يقرأ هذا الكتاب.. ذلك وأقول أخيرًا: إنني رجل من الدعاة إلى اللَّه، لا أتمنى إلا الحرية لي ولخصومي على السواء، وأكره العدوان والمشاكسة، ولكني أشكو من أن ديني يجار عليه، وينتقص منه ويحرم أهله ما يسمى في عصرنا بحقوق الإنسان، وأن المنتمين إلى هذا الدين في طور سيِّئ من تاريخه، وتكاد تذهب كراماتهم الخاصة والعامة في مهب الرياح.

محمد الغزالي

*** عقوبته قاتل المرتد:**

كان سؤالي الأخير إلى فضيلة الشيخ محمد الغزالي هو: إذا قتل إنسان

إنسانًا آخر بحجة أنه كفر أو ارتد.. فما عقوبته؟ هل يقتل قصاصًا أم تعزيرًا، أم نقول ـ كما فهم البعض من شهادتكم أمام القضاء ـ بأنه لا عقوبة عليه؟

وقد تلقيت شاكرًا رد فضيلة الشيخ الغزالي.. وفيما يلي نصه كما أنقله من رسالته المكتوبة بخط يده:

«إذا ارتد أحد عن الإسلام رفع أمره إلى القضاء ليبت في مصيره وفق حكم اللَّه.. وقد قلت: إن جريمته إذا ساوت الخيانة العظمى حكم القضاء بقتله. وتتقرر هذه المساواة في حالات شتى نذكر منها: التهوين من شأن القرآن والطعن في مكانته، وجحد الفرائض المعلومة من الدين بالضرورة والدعوة إلى تركها، واستباحة الكبائر وطلب فتح حانات الخمور ومواخير البغاء.. والسخرية من الحدود الشرعية، وإهانة الرسول ﷺ، إلى آخره.. فإذا أعلن المرتد توبته وأصلح نفسه سقط الحد عنه.. وعاد مسلمًا كما كان.. وليس للجمهور إقامة الحدود أو إيقاع العقوبات من قصاص وتعزير فذلك للقضاء، ومن فعل شيئًا من ذلك فقد افتأت على السلطة.. وهنا يقوم القضاء بتعزيره حسب ما يصون المصلحة العامة وهيبة القضاء.

وليست هناك عقوبة محددة لهذا المسلك.. بيد أننا نلفت النظر إلى أن التهاون في معاقبة المرتدين يفتح باب الفوضى. ومعروف أن هناك من ارتد وبسطت عليه بعض الحكومات حمايتها كسلمان رشدي، واعتقادي أن حكومتنا ترفض هذا السلوك، وأن قضاءنا ـ مع غيبة التعاليم الإسلامية ـ سيمنع هذه الفوضى، ويصون حق اللَّه سبحانه في ذلك، ولكم الشكر على سعة صدركم وكريم خلقكم».

محمد الغزالي

* الشيخ المبتلى الصابر ومع المحن المنح:

بعد مقتل النقراشي سيق الشيخ الغزالي إلى معتقل الطور ليقضي مع

إخوانه سنة كان لا بد منها للتدريب على ممارسة أنواع البلاء ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

ويصف الشيخ تلك السنة بأنها كانت حافلة بالآلام والبركات معًا..

❑ يقول فضيلته: لقد غذّت هذه التجربة طاقة الاحتمال في النفوس وارتفعت بروحانيتها إلى مستوى عال، فلا تذمر، ولا تململ؛ بل الصبر الكريم، والرضا بالقدر الحكيم.

❑ ثم كانت الطامة الكبرى في العهد الذي أحال مصر كلها سجنًا كبيرًا، ويصف فضيلته ذلك العهد بأنه كان يسلب الرجال رجولتهم بما أطلق من زوابع الرعب، التي ألقت في رُوع كل حر في مصر أنه محاط بالأعين والحراب والسياط.

في أحد السجون سيق أهل العلم، وكل من توهّم المتسلطون أن له صلة بالدعوة الإسلامية، إلى الباستيل الذي لم يخل قطّ من الأبرياء.. وبعد سنوات من الفتنة التي شوّهت وحطّمت، أفرجوا عن أحد المشايخ ممن لم يستطيعوا مواصلة الاحتمال، بعد أن كتب لهم التعهّد الذي شاءوا.. وبعد أن أوهموه أن في مكان ما من جوفه جهاز تسجيل ينقل إليهم كل كلمة يقولها، وكل حركة يأتيها، وبذلك أصبح وهو خارج السجن، في جحيم لا يخمد من الخوف، أحال وجوده سجنًا لا يكاد يطيق معه حراكًا.

❑ يقول الشيخ: ظللت في مطالع المحنة مدّة ألقي الدرس في المسجد أو في الجامع فلا أدري في أعقابه أين أبيت..

ويوم أعلن الطاغية من موسكو نيّته في إيقاع المذبحة بالإخوان، استدرارًا لعطف طواغيت الكرملين جاء الغزالي توجيه من الزبانية بوجوب التجريح في الجماعة لتسويغ ما يرادُ بهم، ولما رفض الخضوع للأمر زُجّ في سجن طرة، حتى قضى تلك المدة في جو من المهانة والتحقير لا يملك القدرة

على وصفه، ولكنها مع ذلك كله كانت فرصة أخرى للخلو مع القرآن الذي لم يكن له سلوة سواه.. ويشير إلى واحدة من هذه المناسبات الروحية قائلاً:

كنت ذات ليلة مضطجعًا في ثياب السجن فوق الأسفلت، فجعلتُ أتلو في نفسي سورة المائدة، وألاحظ أثناء ذلك مضامينها واحدًا تلو الآخر، فأحسّ بينها من التناغم ما لم أنتبه إليه من قبل.. وهكذا هُديت في ظلمات هذه المحنة إلى أنوار من المعرفة[1] أضاءت لي سبيلاً جديدة إلى أُفق جديد من

---

(١) من ذاق عرف.. ولا ينبيك مثل سجين.

وأردد مقالة شيخ الإسلام ابن تيمية: «لو يعلمون ما أسدوْا إليّ من الجميل بسجنهم إياي في القلعة ما كافأتهم عليه بملء القلعة ذهبًا» أو كما قال: ﴿**فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب**﴾ فافهم عن ربك ولا تخدعنك ظواهر الأشياء عن باطنها فكم في حشو البليّات من مسرّات، وكم في المحن من منح.

وكم للّه من لطفٍ خفيّ ... يدقّ خفاه عن فهم الذكيّ

وللّه در ابن تيمية حين يقول:

ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري أينما رحتُ فهي معي، إن معي كتاب اللّه وسنة نبيه، إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن نفوني فنفي سياحة، وإن حبسوني فأنا في خلوة مع ربي.. إن المحبوس من حُبس عن ربه، وإن الأسير من أسره هواه».

وليس السجن حبس الجسم قهرًا ... فـذا أنس بـرب العالمينـا
سجينٌ من نأى عن شرع ربي ... سجينُ الروح عن هدي الأمينا
أيُترك من يعيث بأرض مصر ... ويُسجن من رضى الإسلام دينا
بلاد الليث مأوى الشافعي ... وتصبـح ملهى كل العابثينا
سيوطي البلاد ينـوحُ يبكي ... وحافظنـا يجاوبـه أنينا
ينادي العسقلاني يا بلادي ... أضعت الهـدي كنـا حافظينا
فيا فسطاط عمرو العاص عودي ... يعودُ الطيـرُ كم ترح السنينا

أيام ليست من الدنيا.. بل هي جنة المعرفة والأنس باللّه برغم ضيق القضبان نشر اللّه علينا رحمته.. ردّدت فيها مع إبراهيم بن أدهم قوله: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من سعادة لجالدونا عليها بالسيوف».. ومع العابدة زوجة فتح الموصلي «حلاوة أجرها أنستني مرارة قطعها».

الفهم القرآني»[1].

* * *

= وفي المحن تأتي المنح. . بُشِّرت بجنين ذكر تحمله زوجي بعد دعاء طيلة خمسة عشر عامًا أن يرزقني الله بمولود يحمل الدعوة من بعدي أنذره وأهبه للعلم والدعوة إلى منهج السلف. . وكانت البشارة في السجن. . وصُمَّتْ أذن الدنيا إن لم تسمع لنا».

(١) «رجال ومفكرون عرفتهم» (١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٤).

فهرس الموضوعات

زهر البساتين

من

مواقف العلماء والربانيين

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء الرابع

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٣ درب الأتراك - الدور الثاني خلف الجامع الأزهر

ت: ٥١٠٨٢٥٧ / ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠

بني سويف: برج التربي - بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠٨٢٣١٧٣٤٤ / ٠١٠١٧٥٦٢٩٦

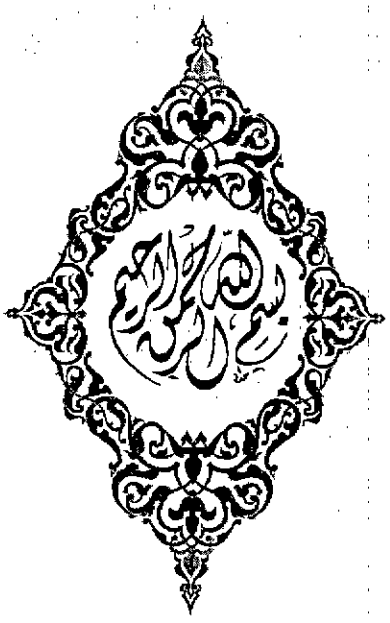
بسم الله الرحمن الرحيم

*** اللواء الركن محمود شيت خطّاب أكبر عقلية استراتيجية عسكرية في العرب.. الناصح لأمته قبل نكبة ٥ يونيو ١٩٦٧.. ولكنه كالنبي في الصحراء لا يجد من يستفيد منه:**

المفكر الإسلامي المعروف ولد في الموصل عام ١٩١٩م. وشاء اللَّه له أن ينشأ في حضانة جدته لأبيه وهي من أسرة معروفه بصحة نسبتها إلى البيت الحسيني:

«يقول المترجم عن جدته: كانت تصحبني إلى المسجد القريب لصلاة المغرب، فإذا قضيت الصلاة أصغيت معها من مقصورة النساء إلى مواعظ الملك داود، ذي الأسلوب المؤثر، حتى تنهض لصلاة العشاء.. ومن ثم تنصرف لتناول الطعام، وربما طلبت عشاءها فلا تجد، فلا تزيد على أن تبتسم وهي تقول: لا بأس.. حصتي في الجنة إن شاء اللَّه. فإذا أوينا إلى النوم أخذت بذكر اللَّه والاستغفار، ثم لا تدعني حتى تتحقق من نومي، فتتسلل لصلاة القيام. ولطالما استيقظت على نشيجها أثناء ذلك، فإذا ما شعرت بي عادت لتحنو عليّ. واستمر هذا دأبها حتى توفاها اللَّه وأنا في السادسة عشرة، فكان لوفاتها وقع لا يمحى»[1].

*** في سلاح الفرسان:**

ويتخرج المترجم برتبة ملازم ثان لينضم إلى سلاح الفرسان.

ويتخرج عن واقع الحياة في الجيش العراقي آنئذ. فيرينا العجب العجاب من آثار التوجيه الاستعماري، إذ كان كل شيء هناك يسير بالضابط في طريق التميع والانحلال، فلا يجد عاصمًا إلا أن يكون مزودًا بالحصانة

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٣٢٨).

القادرة على الثبات في وجه الأعاصير.

سأله آمر السرية الذي عين في كتيبته: أتشرب؟.. أتلعب القمار؟.. أتحب النساء؟.. ولما سمع نفيه الصارم لكل ذلك قال متبرمًا: إن ضمك إليّ نكبة عليّ[١].

*** أحداث شارك فيها:**

وفي إجابته على الاستطلاع الثامن لم يبعد بنا عن ذلك الجو، فهو يحدثنا عن طائفة من الأحداث التي شارك فيها وشاركت هي في بنائه الذاتي.

فأول هذه الأحداث ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١م الذي انتهز فرصة انشغال العدو بالحرب العالمية الثانية فحشد القوات لتطهير العراق من أوزار الإنجليز. وسرعان ما هزت هذه الحركة الضمائر، وأيقظت ما غفا من العزائم، فجددت الآمال بالخلاص الذي طالما بذلت الجهود وسقطت الضحايا لتحقيقه، فحالت دونه الحوائل.

ويخوض المترجم معظم المعارك التي تلاقى فيها الجيش العراقي بقوات المحتل. وكان أثناءئذ ضابط ركن في لواء الخيالة المرابط في (أبو غرير) على بعد ٥٠ كلم من الفلوجة (الأنبار) التي شبت في ساحاتها أهول المعارك. ومع القطعات الزاحفة إلى هناك، مضى للقيام بواجبه في لقاء العدو، ولكن طائرات الباغين كانت تسيطر على فضاء الملحمة، فكان نصيب اللواء منها قنبلة توزعت شظاياها في كل موضع من جسمه، على صورة أيأست الأطباء من إمكان بقائه على قيد الحياة، إلا أن الأجل غلب العلم، فكتب اللّه له الشفاء لكي يتمم مهمته المقدورة في خدمة دينه وأمته.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٣١).

ويقع ثاني هذه الأحداث أيام العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، وكان اللواء آمر كتيبة في الموصل، وقد ملأت التظاهرات الشعبية أنحاء العراق، احتجاجًا على المعتدين وأنصارهم. وزحفت الجماهير الغاضبة على مؤسسات تلك الدول تحطم كل ما تصل إليه أيديها. وبلغت الحماسة أوجها في الموصل، وسقط العديد من القتلى بالتصادم بين الشرطة والمتظاهرين.. وهناك جاءه الأمر من العاصمة بنزول الجيش للسيطرة على الموقف، ثم تتالت الأوامر بوجوب الضرب مهما تكن النتائج بعد أن بلغت التظاهرات يومها الحادي عشر.

❑ يقول اللواء: كان من غير العسير عليّ تفريق الجموع دون ما حاجة إلى إطلاق أي رصاصة، إلا أني لم أكن مقتنعًا بهذا العمل، بل كنت موقنًا أن هذا التظاهر أقل ما يجب على العراق لنصرة الشقيقة مصر. ولهذا تجاهلت أحد عشر أمرًا بالرمي، وأصررت على هذا التجاهل، فكانت عقوبتي هي نقلي من بلدي إلى جنوب القطر.

وطبيعي أن يكون له نصيبه من أحداث العهد الأحمر، الذي سلط عبدالكريم قاسم وفاضل عباس المهداوي، على مقدرات العراق فيما بعد.

كان المترجم، بحكم كونه رئيس هيئة أركان حرب، مسئولاً عن أمن الجنوب كله ما بين بغداد والبصرة، فكان ذلك بمثابة حماية أتاحها اللّه لذلك الجانب من العراق، فلم يجد القتلة الحمر منفذًا إليه، على الرغم من كل المحاولات التي بذلوها بعد أن فرضوا على سائر الأنحاء جوًا من الرعب لم يعرف له التاريخ نظيرًا، اللّهم إلا أيام مزدك في فارس، والقرامطة في العراق والحجاز، والثورة البلشفية في روسية، ثم الثورة الثقافية في صين ماوتسي تونغ.

❑ يقول الصديق الفاضل: لقد وُضعت أجهزة الدولة كلها تحت تصرف

الشيوعيين، فلم يحل بينهم وبين ما يشتهون، فهم يقتحمون الدور، ويجرّون الرجال إلى القتل خنقًا أو سحلاً في الشوارع العامة، ويستخدمون لذلك سيارات الجيش وما شاءوا من أسلحته وأدواته، ولما حاولوا أن يفعلوا ذلك في منطقة عملي واجهتهم بالرفض الصارم، وحجزتهم عن كل عدوان.

ويقول المترجم بهذه المناسبة: لم يكن عبدالكريم قاسم شيوعيًا، ولكن كان مضطرًا للاستعانة بهم، وبخاصة في تلك الأثناء التي اندلعت فيها ثورة الشواف بالموصل، فأطلق أيديهم يعملون ما يشاءون دون حسيب ولا رقيب.. ولم يكن بوسعهم الصبر على موقفي منهم فاتصلوا به يستعدونه عليّ، فبعث إلي المنطقة بضابط يصلح لتحقيق رغباتهم، وما لبثوا أن تجمعوا حوله ليخطب فيهم داعيًا إياهم إلى سحل كل ضابط ومدني يقف في طريقهم أو لا يؤيد ثورتهم، فكان عليّ أن أتدارك ما أمكن من الخطر، فدخلت على هذا الضابط أحذره مغبة تصرفه.. فلم يكن منه إلا أن اتصل بعبدالكريم قاسم طالبًا إليه التدخل لإقصائي عن طريقهم. وهكذا تم لهم ما يشاءون، وكان ذلك في الهزيع الأخير من إحدى ليالي رمضان، حيث وافتني ثلة من جنودهم فاعتقلتني، ثم حملتني في حراسة مشددة إلى السجن المخصص لأعداء الثورة في بغداد.. واستمر وجودي هناك مدى ثمانية عشر شهرًا مشحونة بألوان من التعذيب الذي يُعجز الوصف[1].

* العمل الأشق التدريس في الكليات العسكرية وكليات الأركان:

وعن عمله في التدريس يذكر من مجالاته فيها، الكليات العسكرية، وكليات الأركان، والجامعات الأخرى في العراق وغيره.. ثم معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة.

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨).

ويقول عن التدريس: إنه في تقديره أشق حتى من العمل العسكري لمن يستشعر حقه ويريد أن يؤديه على الوجه الأكمل، ويمثل لذلك بأن نصابه الأسبوعي في المؤسسات التي درس فيها لم يتجاوز الساعتين، ومع ذلك كان تحضيرًا لموضوع يستهلك من وقته أكثر من ثلاثين ساعة[١].

*** جهاده في فلسطين:**

لله دره وهو يتساءل مستنكرًا:

«فأين من يستقطب الضباط أصحاب السجية العسكرية النادرة، ويعطي لهم الصلاحيات الكاملة، للعمل في مجالهم العسكري، حتى تعرف إسرائيل ومن وراء إسرائيل من دول الاستعمار القديم والحديث، أي أمّة عريقة هم العرب، وأيّ رجال أبطال هم بنوها!»[٢].

إنه صاحب بصيرة، يفكّر بالماضي، ويحلّل الحاضر، لتكون نظرته المستقبلية صائبة.. وهذا ما يأباه الطغاة المسكونون بأنانيّاتهم، ومصالحهم الذاتية، مهما كانت تافهة، وضارّة ومضرّة بالوطن والمواطن. تقدّم رحمه اللّه بطلب إلى المراجع العسكرية عام ١٩٤٨م، وكان برتبة نقيب ركن، ليسمحوا له بالالتحاق بالقطعة التي سوف تتوجه إلى فلسطين لقتال اليهود. وقد شارك في عدة معارك، وضرب أروع الأمثلة بشجاعته، وحنكته، وحسن تصرفه قبل القتال وأثناءه وبعده، وبقي في مدينة (جنين) أكثر من سنة، ثم جاءت الأوامر بعودة الجيش العراقي إلى العراق، فعاد معه. وما يزال أهل جنين يذكرون الضابط العراقي البطل محمود شيت خطاب بالحبّ والإكبار[٣].

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٣٩).

(٢) عقبة بن نافع الفهري لمحمود شيت خطاب (ص١٢).

(٣) من حديث للواء محمود شيت مع حسني أدهم جرار.

□ قال اللواء خطاب عن نفسه:

«إنني أومن بأن الحرب الإجتماعية تقتضي الجهاد بالمال، والجهاد بالأنفس، والجهاد بالأقلام، لنيل النصر المؤزّر.

وقد حبستُ قلمي على الجهاد في فترة الأيام العصيبة قبيل اندلاع الحرب يوم ٥ حزيران ١٩٦٧م فلما وقعت الحرب بين العرب وإسرائيل، حاولت أن أجاهد بروحي، فلم يكتب اللّه لي الشهادة في ساحات القتال».

□ وقال عن معركة (جنين) التي أبلى فيها بلاء رائعًا في عدة معارك ضارية:

أجنينُ إنكِ قد شهدتِ جهادنا ... وعلمتِ كيف تساقطتْ قتلانا

أجنينُ لا أنسى البطولة حيّةً ... لبنيكِ حتى أرتدي الأكفانا

أجنينُ يا بلد الكرام تجلّدي ... ما مات ثأرٌ ضرّجتْه دمانا

إنَّ الخلودَ لمن يموتُ مجاهداً ... ليسَ الخلودُ لمَنْ يموتُ جَبانَا[1]

*** مواقفه الطيبة:**

١ ـ مواقفه في نصرة دعاة الإسلام:

أ ـ مع سيد قطب:

حدّثني اللواء خطّاب أنه زار القاهرة، بصحبة رئيس الجمهورية العراقية المشير عبدالسلام عارف. وهناك في القاهرة، طلب من المشير عارف أن يتوسّط لدى صديقه عبدالناصر للإفراج عن سيد قطب. وتحدّث عارف مع ناصر بحضور خطّاب، ووافق ناصر على الإفراج عن سيّد. عندها طلب

(١) «اللواء الركن محمود شيت خطاب المجاهد الذي يحمل سيفه في كتبه» لعبداللّه محمود (ص٤٣ ـ ٤٤) دار القلم ـ دمشق.

خطّاب من عبدالناصر أن يسمح له بزيارة سيّد في سجنه، ليبشّره بقرار الرئيس، فسمح بذلك، وجاءت سيارة من القصر حملت خطّابًا إلى سجن سيّد. وفرح سيّد بلقاء خطّاب، وحمّله سلامه إلى المشير عارف، فقال له خطاب:

ـ أبشّرك بالإفراج عنك قريبًا جدًّا.

تساءل سيّد: كيف؟

فقصّ عليه خطّاب قصّة وساطة المشير عبدالسلام الذي يكنّ له حبًّا ومودّة وتقديرًا وإعجابًا بجهاده، وفكره، وقوة إيمانه وصموده في وجه الأعاصير.

فسأل سيّد، وقد علتْ وجهه كآبة: يعني.. كلمتم الرئيس، وانتهى الأمر؟

أجاب خطّاب بسرور: نعمْ والحمد للّه.

قال سيّد في حزن: سامحكم اللّه.. لو أنكم شاورتموني.

قال خطّاب في دهشة: وهل كان سيكون لك رأي آخر؟

قال سيّد: نعمْ.. لو شاورتموني لرفضت الوساطة، ولما خرجت بهذه الصورة.

قال خطّاب في حزن وسهوم: ولكنها كريمة.. إخراج كريم.. الرسول القائد ﷺ قال معلّقًا على إباء يوسف الخروج من السجن حتى يسأل الملك النسوة اللواتي قطّعن أيديهنّ: «**رحم اللّه أخي يوسف لو خُيّرت ـ مكانه ـ لاخترت الخروج على المكث في السجن**».

قال سيّد:

ـ على أيّ حال.. سبق السيف العذل، وشكر اللّه لكم مسعاكم النبيل، ونيّتكم الحسنة في الإفراج عن أخيكم، وأطيب تحياتي لكم وللأخ

عبدالسلام عارف.. الرجل الصالح.

«وخرج سيّد من السجن، وقدّم لي وللمشير عارف كتبه كلّها مجلّدة تجليدًا فاخرًا، وكتب على الظلال إهداء لطيفًا لكلٍّ منا».

ثم اصطحبني اللواء خطّاب إلى مكتبته العامرة، وأراني كتب الشهيد العظيم، وقرأت إهداءه بخط يده على المجلد الأول من الظلال، واللواء خطّاب يدندن بهذين البيتين في تأثّر ثائر:

ذلك المؤمن المجاهد يغشى ... غمرة الحرب، والرَّدَى يخشاه
تحت ظلِّ السيوف ماضٍ قويٌّ ... درْعُه: لا إله إلا اللّه

ثم التفت إليّ، وقد أخذ الحزن مأخذه في وجهي وعينيّ، وقال في حزن:

وهوِّن عليك، فإنّ الأمور ... بكفّ الإله مقاديرها
فليس يؤاتيك مَنْهيُّها ... ولا قاصرٌ عنك مأمورها

ب ـ مع المودودي:

وتابع اللواء خطاب حديثه، فقال:

في العام نفسه: (١٩٦٤م) زرت باكستان بصحبة الأخ المشير عبدالسلام عارف، وهناك حدثته عن اعتقال الأستاذ أبي الأعلى المودودي، فأبدى امتعاضه وأسفه لتصرف الحكام مع قادة الفكر الإسلامي، وقال:

ـ سوف أكلّم أيوب خان ـ رئيس الجمهورية ـ بشأنه.

قال خطّاب:

ـ وتذكّرتُ عتاب الأستاذ سيد قطب؛ لأننا لم نشاوره قبل التوسّط لدى عبدالناصر للإفراج عنه، فقلت للأخ المشير:

ـ لا تكلّمه ـ أيوب خان ـ قبل أن أزور الأستاذ في سجنه، وأرى رأيه

في ذلك.

وعندما التقينا مع الجنرال أيوب خان، استأذنتُه في زيارة الأستاذ المودودي، فأذن بذلك وقال:

ـ الأستاذ المودودي عالم كبير، وإنسان مفكّر عاقل، ولكنّه يكرهني.. لماذا؟ لا أدري. فأنا هنا الرئيس ـ يا سيادة الرئيس ـ وكلما أصدرت قانونًا، أو اتخذت قرارًا، أو رسمت مرسومًا، بادر الأستاذ المودودي إلى تفنيده، والتنديد به.

ثم التفتَ إليَّ وقال:

ـ زره ـ يا حضرة الأخ خطّاب ـ وافهمْ منه ماذا يريد، حتى نتفاهم ونتعاون.

قلت لأيوب خان:

ـ يريد الإسلام حاكمًا لباكستان، فباكستان ما انفصلت عن الهند إلا من أجل الإسلام، وأن يحكم الإسلام، ويكون الدستور الباكستانيّ إسلاميًّا.

قال أيوب خان:

ـ ونحن معه، ولكنه يتعجل الأمور.. يحرّض على الانقلاب عليّ..

وزرت الأستاذ المودودي في سجنه، ففرح بلقائي، واختلطت مشاعر الفرح والحزن بلقائه.. فرحت بلقاء هذا العالم المجاهد العظيم، وحزنت أن يكون في السجن، وليس في قمة السلطة، يخطّط لباكستان المسلمة وينظّر.

وبعد تبادل التحيات، وسؤاله عن أحوالنا، وسؤالي عن أحواله وأحوال جماعته، وأحوال المسلمين في باكستان، قلت له:

ـ المشير عبدالسلام عارف يحبّك، ويحترمك، ويقرأ كتبك، ويتأثر بها جدًّا، وهو يعدّ نفسه من تلاميذك، ويريد أن يخدمك، ويسعى للإفراج عنك.

فقاطعني المودودي:

ـ هل كلّم أيوب خان بشأني؟

أجبت: ليس بعد.

فتنفّس الصُّعداء وقال بحرارة يكاد شواظها يلفحني:

ـ الحمد للّه.

قلت: على ماذا تحمد اللّه؟

قال: لو توسّط لدى أيوب خان، لرفضت الوساطة، وما خرجت من السجن، فالحمد للّه أنكم لم تكلموا ذلك الطاغية بشأني.

قلت: ولكنّ الأستاذ سيّد قطب قبل وساطة الأخ المشير.

قال: أظنكم أخرجتموه فقبل هذه الوساطة الكريمة.. الأستاذ سيّد رجل حيي.. أمّا أنا، فما كنت لأقبلها، حتى لو أخرجتكم..

ثم ودّعته محمَّلاً بدعواته، وتحياته للأخ عبدالسلام.

٢ ـ موقفه من اللهجة العاميّة:

يتلخص في أن عواقب انتشارها خطيرة، وكلّ الدعوات إليها مريبة، وكلّ الداعين إليها مشبوهون، وكثير منهم ماسونيون يريدون تقسيم الدولة العربية الواحدة إلى دويلات، أو دولة فيها عدة لهجات تقوم مقام اللغات، وفي النهاية، يريدون أن يصبح القرآن الكريم غير مفهوم، ومن يريد فهمه، فليترجمه إلى عاميته، أو أن يتعلم لغة أجنبية، كاللغة العربية، ليفهمه، لأن تلك اللهجات بعيدة عن العربية الفصيحة، أو يفهمونه مترجمًا إلى إحدى اللغات[1].. إنه يحذّر من استخدامها ومن الداعين إليها من المستشرقين والمستغربين.

(١) «مجلة لواء الإسلام» (٢٤/ ٥) لعام ١٩٧٠.

٣ ـ موقفه من شعر التفعيلة:

قَرَنَ اللواء خطاب بين الدعوة إلى استخدام العامية بالدعوة إلى استخدام الشعر الحر، وقال:

«فالشعر الموزون المقفَّى هو من دعائم اللغة العربية، والدعوة إلى الشعر الحرّ أصلها صهيوني من إسرائيل»[١].

وعندما أطلعته على مقالي الذي نشرته في مجلة (الآداب) البيروتية عام ١٩٦٩م ـ العدد التاسع، وأثبتّ فيه أن الشاعر الإسلامي علي أحمد باكثير ـ رحمه اللّه ـ هو أول من بدأ هذا النمط من الشعر، قبل السياب ونازك وغيرهما من الشعراء، قرأ المقال بإمعان، ثم قال:

«جهد غير مشكور.. ليتك لم تكتب هذا الكلام، وتتعب نفسك، وتبرئ ساحة أعداء العربية الذين يدعون إليه، وتلصق هذه التهمة بالشاعر والأديب الرائع باكثير الذي كتب صدفة أو قدراً مثل ذلك الكلام الذي هو ترجمة لباكثير، وكتبه تحدّيًا، وليس ابتداعًا من عندياته».

٤ ـ موقفه من اللغة العربية:

هي أحسن لغة في العالم، كما أن عقيدتنا أحسن عقيدة[٢].

وقد آلى على نفسه أن يكون الذائد عن حياض اللغة العربية ما عاش، ولهذا تراه في كل مناسبة يدعو إلى استخدامها، والتعمق فيها، ويندّد بأولئك الخونة الجهلة الذين يطلقون عليها أوصاف (لغة الكهوف ـ لغة أهل القبور ـ اللغة التي لا تستطيع أن تجهر بالعلم) ويجرون استفتاءات عما إذا كانت تستطيع النهوض بالعلوم الحديثة في القرن العشرين[٣].

---

(١) «مجلة لواء الإسلام» (٢٤/ ٥) لعام ١٩٧٠م.

(٢) «مجلة لواء الإسلام» (٢٤/ ٥) لعام ١٩٧٠م.

(٣) المرجع السابق.

ويرى أنّ اللغة العربية عالمية، متغلغلة في العالم شرقًا وغربًا، وقد دخلت في كلّ لغة من لغات العالم، كالروسيّة والإنكليزية والفرنسية والألمانية، ناهيك عن لغات الشعوب الإسلامية، كالتركية والفارسية واللغات الهندية.

٥ ـ يرفض رفضًا قاطعًا دعوة أعداء العربية إلى كتابتها بالحروف اللاتينية، تحت أيّ ذريعة[١]، من أجل قطع صلة المسلمين بقرآنهم، وهو سندهم القويّ المتين.

٦ ـ موقفه من الحضارة الغربية:

يرى أن الحضارة الغربية مقسومة إلى قسمين. الأول: علميّ، نقبله ونستورده. والثاني: ذو صلة بالمبادئ، وهذا نرفضه ولا نرضى بشيء منه.. إنه من قبيل الاستعمار الفكري والغزو الثقافي، وهو أخطر أنواع الاستعمار الحديث[٢] وهو القائل:

«إن هذا العصر الذي نجح في تطوير العلوم التطبيقية، والوصول إلى القمر، أخفق في تطوير معاملات البشر، أفرادًا أو أممًا، بعضهم لبعض، لذلك لا يزال البشر بعيدين عن الكمال؛ لأن حضاراتهم اهتمت بظاهر الإنسان وحياته المادية، بينما اهتمّ الإسلام بباطن الإنسان وظاهره، وبحياته الماديّة والرّوحيّة على حدٍّ سواء»[٣].

٧ ـ موقفه من أدب الجنس:

قال في مقدمة مجموعته القصصية: (عدالة السماء):

«صدرت قصص كثيرة في الأعوام الأخيرة، أقبل على قراءتها الشباب

(١) المرجع السابق (٢٣/ ٩ و١٠).

(٢) «مجلة لواء الإسلام» (٢٣/ ٩ و١٠).

(٣) «ومضات من حياة المصطفى» (ص٨).

والشابات؛ لأنها تدور على الجنس، وتشجّع عليه، ممّا أدى إلى إشاعة الفحشاء في كثير من قرائها.. هذه القصص الجنسية الداعرة، قصص المخدع، التي تتبجّح بالخلاعة، وتدعو إلى الميوعة، أضرّت بقرائها أبلغ الضرر؛ لأنها عملت على إفساد أخلاقهم، وجعلتهم يرون في (الجنس) هدفهم الحيويّ في الحياة.. ولست أشكّ في أنّ الذي يتلوّث جنسيًّا لا يقوى على تحمُّل أعباء الحرب. ولا يستطيع النهوض بواجباته في القتال.. وبذلك أفاد مؤلفو قصص المخدع إسرائيل من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون»[١].

وندّد بالأدب الماجن في عدّة مواضع من كتبه، وقال:

«إنّ ترك شبابنا يلجأون إلى الأفكار المستوردة، والتخنّث، والعبث، وتقليد الغرب حتى في (خنافسه) لن يفيد غير أعدائنا المستعمرين والصهاينة؛ لأن الترف والتخنّث على طرفي نقيض من حبّ التضحية والإقدام.

إن أدب المخدع، والصور العارية، والصحف والمجلات الخليعة، وكتب الجنس والرقص، والأفلام العابثة، والحانات، والعلاقات المشبوهة بين الجنسين دون حسيب أو رقيب، كلّها معاول هدم للفرد العربيّ أولاً، وللأسرة ثانيًا، وللأمّة ثالثًا، وهي لا تفيد غير إسرائيل؛ لأنّ من نتائجها: تمييع الشعب وتخنّثه، والشعب المائع المخنّث لا يحارب أبدًا»[٢].

ثمّ وجه نداءه الحارّ إلى المؤلفين «أن يحرصوا على أخلاق أبنائنا وبناتنا، وألاّ يكتبوا ما يحطّم تلك الأخلاق.. وستلعن الأجيال القادمة كلَّ مؤلف اتخذ العلم (تجارة) فقذف إلى أسواق الكتب مؤلفات أضرّت بالخلق الكريم، وألحقت بالفضيلة أبلغ الأضرار»[٣].

---

(١) «عدالة السماء» (ص٧).

(٢) «طريق النصر» (ص١٥٠).

(٣) «عدالة السماء» للواء محمود شيت خطاب (ص١٠٧ ـ ١٠٨).

* موقفه من اليهود:

كانت الصهيونية أو اليهودية أعدى أعدائه، ومحور تفكيره وهمومه، وأمَّ أحزانه وآلامه، وشغله الشاغل الذي لا يشغله عنه شاغل آخر، فلا يكاد كتاب من كتبه يخلو من التنديد بها، والتحريض عليها، والتحذير منها، والتبكيت لعملائها، والمتهاونين في مقاومتها.

كان ينعى على الكتّاب السائرين في ركابها، كذلك الأديب الكبير الذي منحوه جائزة نوبل لعلاقاته المريبة بالصهيونية ويهود، ويتساءل: لمصلحة مَنْ منحوك هذه الجائزة اليهودية يا أديب كنانة الأزهر؟

وألهب ظهور حكام العرب بالمقال الذي كتبه عن (اللغة الوحيدة التي تفهمها إسرائيل)، وذكر فيه أن القوّة وحدها، ولا شيء غير القوة، هي اللغة الوحيدة التي تفهمها إسرائيل[١]. والجهاد وحده هو الطريق الصحيح لتحرير فلسطين، وسحق إسرائيل.

يرى أنّ إسرائيل دويلة عنصرية، وكلّ ما بُني على العنصرية إلى زوال، وكلُّ أمّة أو دولة تُبنى على العنصرية إلى زوال وفناء، كما حدث لألمانيا النازية[٢].

ويرى أن مركّب النقص لدى يهود، الذي تغلغل في عمق أعماق نفوسهم وقلوبهم وعقولهم وأعصابهم، نتيجة للذلّ والحرمان والمهانة التي عانوا منها عبر القرون ـ دفعهم إلى جعل دولتهم عسكرية تؤمن بالقوّة وبالقوة فقط، وربُّوا أطفالهم، وأنشأ عناصرهم البشرية على المظاهر العسكرية، ووجّهوهم توجيهًا حربيًا ذا أهداف احتلالية، ولقّنوهم ما يعمّق فيهم التعصّب

(١) «الأيام الحاسمة قبل معركة المصير» لمحمود شيت خطاب (ص١٢ ـ ١٣).
(٢) «مجلة لواء الإسلام» (٢٥/٨).

الضيّق جدًّا كالذي يُطبَّق في النُظُم العسكرية، التي تؤلّه جيوشها. إنهم ينشّئون الأطفال هذه التنشئة العسكرية، مستعينين بجميع الوسائل التي تملكها الدولة، ليطبعوا كلَّ شيء فيها بطابع الغزو والاستعمار[١].

وحول محاولات إسرائيل إقامة هيكل سليمان المزعوم قال:

يوم ٢١ من آب سنة ٧٠م أحرق تيتيوس الرّوماني هيكل سليمان.

وفي ٢١ من آب سنة ١٩٦٩م يحرق اليهود المسجد الأقصى.

هل يمكن أن يكون هذا صدفة؟

أنا أقول ـ وهذا ليس تنبُّؤًا، إنما هو حساب محسوب:

يوم ٢١ من آب سنة ١٩٧٠م سيوضع الحجر الأساس لهيكل سليمان؛ ذلك لأن اليهود يهتمون برقم سبعة، ويعتبرونه رقمًا ربّانيًّا، وكلّ الأعمال الكبيرة يعملونها في السبعة. مثلاً:

سنة ١٨٩٧ كان المؤتمر الصهيوني الأول في بازل بسويسرة.

سنة ١٩٠٧م بدء الهجرة اليهودية بطاقات كبيرة.

سنة ١٩٣٧م وضع الحجر الأساس في جيش الهاجاناه.

سنة ١٩٤٧م كان قرار التقسيم.

سنة ١٩٥٧م كان الإبحار في إيلات.

وسنة ١٩٦٧م كان لهم النصر العظيم في حرب حزيران[٢].

❑ ولأن اليهود وإسرائيل عدو المسلمين الأول واللدود فلقد أولاهم أكبر الدراسات الهامة نصحًا لقومه ومنها كتبه الآتية: «حقيقة إسرائيل» و«طريق النصر في معركة الثأر» و«أهداف إسرائيل التوسعية» و«الأيام الحاسمة قبل

(١) «الأيام الحاسمة» (ص٦٠ ـ ٦١).

(٢) «مجلة لواء الإسلام» (٢٤/ ٥/ ١٩٧٠).

معركة المصير» و«الوجيز في العسكرية الإسرائيلية» و«التصور الصهيوني للتفتيت الطائفي» و«العدو الصهيوني والأسلحة المتطورة».

*** «الأيام الحاسمة قبل معركة المصير» ونصح اللواء محمود شيت خطاب لقادة أمته فلم يستجيبوا له:**

صدر هذا الكتاب في بغداد سنة ١٩٦٧م عن وزارة الثقافة والإرشاد في (١٦٧) صفحة للواء محمود شيت خطاب.

وهو مجموعة من الدراسات العسكرية كتبها ونشرها بين ٣٠/ ٥ و٥/ ٦/ ١٩٦٧م.

□ هدف من نشرها إلى:

١ ـ خلق وعي عسكري سليم بين أبناء الشعب.

٢ ـ استثارة الهمم لحشد الطاقات المادية والمعنوية للجهاد.

٣ ـ إبراز ما يمكن أن يحدث في الحرب فعلاً بكل صراحة وموضوعية ووضوح ليكون الشعب على بيّنة من أمره، فلا يؤخذ بالأحداث على غرّة، فتنهار معنوياته دون مبرر.

في بحثه (خطة إسرائيل في ٥ حزيران) كان مدركًا لمخططات إسرائيل، وخُطّتُها في الهجوم على تلك الهضاب (السورية) مكشوفة، أيضًا.. وهي خطّتها التي كررتها مئات المرات في الاعتداء على البلاد العربية المجاورة، مع اختلاف بسيط واحد، هو زيادة حجم دروعها ومشاتها المنقولين بالعجلات المدرعة، وزيادة إسنادها الجوّي.

خطتها هذه، هي غارات خاطفة، تباغت بها القوات العربية، بقوات أرضية مدرعة، وقوات جوية، مع اختلاف في حجم تلك القوات بالنسبة للواجب المطلوب، والهدف الذي تريد السيطرة عليه.

«وقد حشدت بالقرب من حدود سورية للهجوم على هضاب تجويل مجرى نهر الأردن ـ قوات تقدّر بأربعة ألوية مدرعة، ولواءين من المشاة المحمولين بالناقلات المدرعة، وهيأت القوة الجوية لإسناد هذا الهجوم الأرضي، لكي تهيّئ الجوّ المناسب لاختراق سريع حاسم».

وإسرائيل «لم تكتم نياتها في الاعتداء على سورية، وفضحت باستهتار عجيب تلك النيات».

لماذا هذا الاستهتار؟ أظنّ الجواب واضحًا..

بل عندما قامت مصر بحشد قواتها في سيناء على حدود إسرائيل، سارعت إسرائيل إلى سحب قواتها من حدودها الشمالية، إلى حدودها الجنوبية مع مصر، وصارت جبهتها الشمالية مع سورية ثانوية، وجبهتها مع مصر هي الحيوية.

ومع ذلك.. سقطت الهضاب المنيعة في الجولان الاستراتيجي المنيع. فتأمل.

وفي بحث (أهمية حرمان إسرائيل من الملاحة في خليج العقبة) قدّم وصفًا مجملاً لخليج العقبة، وأهميته الاستراتيجية من النواحي العسكرية والاقتصادية والسياسية.

وفي (حرب أم لا حرب) الذي كتبه في ١٩٦٧/٥/٣٠م أي قبل الحرب بخمسة أيام فقط قال:

«وأبادر إلى القول بأن الحرب بين العرب وإسرائيل آتية لا ريب فيها، ولكن: كيف؟ ومتى؟ وأين؟».

ثم أجاب اللواء خطاب على هذه الأسئلة.

تحدّث عن القوات الإسرائيلية: النظامية، والعصابات الإرهابية الرديفة للجيش النظامي، والقوات المدنيّة المهيأة للدفاع المحلي عن القرى والبلدات

والمستعمرات.

وبيّن أن القتال على جبهتين ليس بمقدور إسرائيل، بقواتها النظامية الراهنة، ولذلك دعت إلى النفير العام الذي تستطيع به تجنيد ٢٠٠ ـ ٣٠٠ ألف مقاتل. وهذا العدد يحتاج إلى التسليح، والتنظيم، والتجهيز، والقيادة.

وكل هذا يحتاج إلى الوقت، وهي جادة في كسب الوقت، وتخادع العرب بمظاهر كاذبة.. «هذا ما يجب على العرب أن يضعوه نصب أعينهم، ويستعدّوا لمجابهته بخطط مدروسة دقيقة» فإسرائيل سوف تخوض الحرب لا محالة.

وخلص إلى القول في هذه المقالة التي نشرها في ٣٠/٥/١٩٦٧م:

«أمّا متى تبدأ الحرب؟ فالنفير الإسرائيلي يكمل خلال أسبوعين، وقد بدأت بتنفيذ خطة نفيرها بتاريخ ٢٣/٥/١٩٦٧م وينتهي نفيرها يوم ٥/٦/١٩٦٧م، وفي خلال هذه الفترة يمكن إنجاز خطط الحركات والخطط الإدارية، وخطط التنقل، وخطط تعيين القيادات، وإصدار الأوامر إليها. وعلى ذلك: ستهاجم إسرائيل القوات العربية يوم ٥/٦/١٩٦٧م»[1].

ترى.. أي مفكر استراتيجي هذا اللواء الركن محمود شيت خطاب؟

وأيّ حساب دقيق، وذهن متوقّد كان يمتلك؟

وفهمه لقيمة الوقت في هذه المرحلة الحاسمة، جعله يكتب بحثه (الوقت مع العرب على إسرائيل)، وخلص فيه إلى: «أن العرب إذا اشتبكوا بالقتال ضدّ إسرائيل، بعد حشد طاقاتهم المادية والمعنوية، فإن الحرب، كلما طال أمدها، يكون الوقت مع العرب على إسرائيل. والذي أريده: أن العرب إذا حاربوا إسرائيل قبل استكمال نفيرها، فسيلحقون بها أضراراً جسيمة».

(١) «الأيام الحاسمة قبل معركة المصير» (ص٨٤).

هذا المعنى الحاسم كان خطاب لا يفتأ يردّده على مسامع العرب، ويؤكّده ليعوا خطورة ما يقول: «والذي أريده: أن العرب يجب أن يبدءوا بالهجوم على إسرائيل، ليحطّموا قواتها أولاً، قبل أن تحطّم إسرائيل القوات العربية، في حال استكمال نفيرها، وإقدامها على مهاجمة العرب، ولكي تكون المبادأة بيد العرب على إسرائيل».

ولكن.. يبدو أنه كان مدركًا أن العرب سوف يفوّتون على أنفسهم فرصة المبادأة، وسوف يقوم اليهود بمهاجمة العرب، وسوف يحققون نصرًا كاسحًا في الأيام الأولى من الحرب، وعندها ما على العرب إلا الاستمرار في القتال، فقال: «الدرس الذي أركز عليه في هذا المقال، والذي أريد أن يتفهمه العرب بعمق وأصالة: أن انتصار إسرائيل في الأيام الأولى من الحرب على العرب، يجب أن يزيد من صمود العرب، ومن استقتالهم، دفاعًا عن كرامتهم، وحقوقهم، وشرفهم».

فإذا كان العرب لا يجرؤون على مهاجمة إسرائيل، وتركوا لها فرصة بدء الحرب، وكسب النصر، فليطيلوا أمد الحرب، ولا يوقفوا القتال، وعندها يتراجع جيش اليهود وينتصر العرب، ولكنْ هيهات.. إنها صيحة في وادٍ سحيق.

وفي بحثه «حرب البترول» بيّن الأهمية الاستراتيجية للبترول بالنسبة للآلة العسكرية، وبالنسبة للغرب، وبالنسبة لإسرائيل.. وبعد دراسة مركّزة، قال:

«يمكن الجزم بأن قطع البترول عن إسرائيل نهائيًّا، وعن الدول الاستعمارية التي تساند إسرائيل، سيؤدي إلى اندحار إسرائيل في الحرب، وذلك في حالة صمود العرب، مهما بذلوا من خسائر وأضرار، وسيؤدي إلى انهيار الاقتصاد الغربي خاصة، ويجعل الدول التي وراء إسرائيل، تفكر ألف

مرة قبل الإقدام على إلحاق الضرر بمصالح العرب».

ودعا العرب والمسلمين إلى قطع بترولهم عن إسرائيل فوراً، وإذا نشبت الحرب، فعلى العرب أن يوقفوا ضخَّ بترولهم نهائيًّا، حتى تضع الحرب أوزارها، لكي لا يتسرب هذا النفط إلى إسرائيل، وإلى من وراء إسرائيل من دول الاستعمار.

وفي كلمته (إرادة القتال) التي ألقاها من تلفزيون بغداد مساء يوم ٥/٦/١٩٦٧م شجّع العرب على القتال والاستبسال والصمود في وجه العدو اليهودي، وبدأ حديثه بذكر عدّة حوادث تاريخية، كغزوة الحديبية التي بايع فيها المسلمون رسولهم وقائدهم ﷺ على الموت، واستذكر بعض بطولات معركة اليرموك، والقادسية، ثم عرّف (إرادة القتال) التي هي: إيمان بهدف سامٍ، وجهاد في سبيل هذا الهدف بالنفس والمال، وثقة بأن هذا الهدف هو أحبّ وأعزّ وأغلى من الآباء والأبناء والإخوان والزوجات والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن.. وتحدّث عن الناحية الروحية، والإيمان، وعقيدة الإسلام.

وطالب القادة العسكريين أن يكونوا قدوة لضباطهم وجنودهم، ولشعوبهم، في المعارك، وما يقال للقادة العسكريين، يقال للقادة السياسيين، وطالبهم:

١ ـ بحشد سائر الطاقات المعنوية والمادية، وزجّها في المعركة.

٢ ـ بالتوقف عن ضخّ البترول فوراً.

٣ ـ بأن يفتح العرب على إسرائيل ثلاث جبهات: مصرية، وسورية، وأردنية.

٤ ـ بأن تحشد سائر الدول العربية قواتها فوراً، وتنقلها إلى ساحات القتال بسرعة.

٥ ـ بإعلان النفير العام في سائر البلاد العربية.

وأنهى كتابه الاستراتيجي هذا بخاتمة لخّص فيها توقّعاته قبل الحرب، وحدوث تلك التوقعات على أرض الواقع، ثم حاول التخفيف من وقع هذه النكسة، النكبة على العرب، ودعاهم إلى الصبر، والإعداد، والصمود، والإفادة من دروس المعركة، والتركيز على المعنويات، على العقيدة، على المبادئ والأخلاق، على أن يعودوا إلى الإسلام من جديد.

فنتيجة حرب حزيران كانت متوقّعة، فقد كان همّ اليهود الإعداد لحرب العرب، وكان همُّ العرب مقاتلة بعضهم بعضًا.. لم يصرف اليهود دقيقة من وقتهم في غير الاستعداد للحرب، وصرف العرب كل أوقاتهم في تخدير أنفسهم، وفي اللهو واللعب وتفرفة الصفوف. كانت إسرائيل تعمل، وكان العرب يقولون. وشتان بين الأعمال والأقوال.

لقد بدا اللواء خطاب ـ في هذا الكتاب كما في غيره مفكرًا استراتيجيًّا، مستقبليًّا ومثقفًا عميق الثقافة، واسع الاطلاع، نهم القراءة والاستماع، يطالع الصحف، ويقرأ المذكرات والكتب، عربيةً وأجنبية، صديقةً ومعادية، ويستمع إلى الإذاعات المعادية، ويحلّل ما يقرأ ويسمع ويركب، ثم يستخلص النتائج بوعي، ويفهم دور العامل الاقتصادي، والسياسيّ، والمعنويّ في الحرب الحديثة، ومدى التغلغل اليهوديّ الاقتصادي في بلاد العرب والمسلمين، كما في أرتيرية عن طريق الحبشة.

لقد بلغت به الدقة في رصد التطورات التي كانت تتمخض بها المنطقة آنذاك، إلى حد أن يؤكد عزم إسرائيل على التحرك لإنزال ضربتها في اليوم نفسه الذي قررته وهو الخامس من حزيران. ونشر ذلك في جريدة «العرب» البغدادية يوم الأول من الشهر نفسه.. ولكن صيحته ذهبت مع الريح؛ لأن الغرور والجهل قد أصما آذان المسئولين أثناءها فلم يسمعوا سوى صوت

الشيطان الذي سبق أن غرر بأسلافهم يوم بدر، حتى إذا نزلت بهم الكارثة ولى هاربًا وهو يقول: «إني أرى ما لا ترون..».

وقد قدر لهذا الألمعي خبرته حق قدرها ذلك المؤلف الإسرائيلي الذي عرض لإنذار اللواء محمود بشأن تلك الحرب، فقال عنه في كتابه «الحرب بين العرب وإسرائيل» إنه أكبر عقلية استراتيجية في العرب، ولكنه كالنبي في الصحراء.. لا يجد من يستفيد منه»[١، ٢].

❑ يقول اللواء محمود شيت خطاب «ذات يوم كنت ألقي محاضرة في القاهرة عن نكبة ١٩٦٧م وأعدد أثناءها بعض مواطن الخطأ العسكري، فاعترضني واحد من الاتحاد الاشتراكي يقول: إنها نكسة.. نكسة فقط.. وقد أصابت النكسة رسول اللَّه نفسه في أحد.

فكان من ردي على هذا الرجل: إنها ليست نكسة.. بل هزيمة، لا.. بل فضيحة لا مثيل لها في تاريخ الحروب. إن ما تسميه نكسة في أُحد لم تكن من أخطاء القيادة، بل من أخطاء الجنود، ومع ذلك فقد قاد رسول اللَّه ﷺ المسلمين لمطاردة المشركين في اليوم التالي حتى حمراء الأسد.. فهل طاردت القيادة الحاضرة إسرائيل منذ ذلك اليوم؟

وأعقب ذلك الرد ضجة بين الحضور سرعان ما أخرست ذلك المتزلف»[٣].

«ولعلّ من المناسب أن نذكر، أن اللواء خطّابًا لم يشاهَد وهو يضحك ولم يبتسم منذ اندحار العرب في حرب حزيران، وكان دائم التقطيب والتجهّم، وإذا أُلقيتَ على مسامعه نكتة، أو طرفة، وراقبتَ وجهه، فسوف

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١).
(٢) «اللواء الركن محمود شيت خطاب» لعبداللَّه محمود (ص١٣٨ ـ ١٤٤).
(٣) «علماء ومفكرون» (١/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠).

تراه يتمعّر ويكظم غيظه من إلقاء النكتة والابتسام لها، وقد حاول الأستاذ الشيخ محمد الغزالي أن يضحكه بأكثر من نكتة، فكان اللواء يشيح بوجهه عنّا، ويزداد حزنه وألمه لضحكاتنا.. كان هذا في بيت اللواء خطاب، أثناء زيارة الشيخ الغزالي لبغداد، لحضور المؤتمر الإسلامي الشعبي عام ١٩٩٠م.

كان يرى من العار على العربيّ المسلم أن يفرح أو يبتسم بعد هزيمة حزيران، واحتلال ما بقي من فلسطين، وأسْرِ الأقصى وقبّة الصّخرة، وانتهاك القدس»[١].

*** في التأليف العسكري «اللواء محمود شيت خطاب» مجاهد يحمل سيفه في كتبه:**

للواء محمود شيت خطاب أربعة وتسعين كتابًا يقسمها أربعة أصناف:

أ ـ كتب عسكرية فنية تدرس في الكليات الحربية وكليات الأركان.

ب ـ التاريخ العسكري الإسلامي.

جـ ـ العسكرية السياسية.

د ـ اللغة العسكرية.

ويعتبر كتابه «الرسول القائد» أحب مؤلفاته إليه، ويقول إنه أول كتاب له، وقد ظل قرابة العشرين من السنين يعده ويستعد له قبل أن يقدمه إلى النشر، وقد تُرجم إلى اللغة الإنجليزية والفرنسية وأكثر من لغة إسلامية.

ويلخص دوافعه إلى التأليف في الجانب التاريخي قائلاً: في الكلية الحربية لاحظت أن الأمثلة التي تعرض من تاريخ الحرب كلها أجنبية.. والأغرب من ذلك أن يكون معظمها عن القادة الذين فتحوا للاستعمار بلاد

(١) «اللواء الركن محمود شيت خطاب» (ص٤٤ ـ ٤٥).

العرب والمسلمين. ولا حصيلة لذلك سوى تعميق الانبهار بهم في نفس الضابط، وغرس الإيمان بتفوق أعداء أمته عليها في كل شيء.. وهناك كنت أتساءل: لِمَ لا نستمد هذه الأمثلة من تاريخنا وهو بها أغنى وأحفل؟ ثم أدركت أن وراء ذلك أمرين: الجهل بماضي هذه الأمة ورجالها. والثاني المنهج المخطط من قبل المستعمرين لسحق معنويات المسلمين.. ومن هنا جاءت رغبتي في إحياء هذه المنسيات والكشف عن تلك المؤامرات، فحزمت أمري على العمل بكل ما أمكنني لسد هذا الفراغ في مكتبتنا العسكرية.

وعن بواعثه لإخراج كتبه المعروفة عن «طبقات القادة» يقول: عندما كنت في سجن بغداد سألت العديد من الضباط عن القادة الذين فتحوا بلادهم، فلم أسمع جوابًا سديدًا، بل لم أسمع جوابًا قط، ومن هنا وجدتني مدفوعًا إلى تيسير هذه المعلومات الأساسية بالكتب المناسبة.

ومنذ العام ١٩٦٧م توقف عن الكتابة في هذا الجانب من التاريخ، لينصرف إلى الجوانب الأخرى التي كشفت نكبة ذلك العام عن مسيس الحاجة إليها في صفوف العسكريين، وبخاصة أنه يعتبر جهل العرب بالعدو الذي حاربوه كان السبب الأكبر في هزيمتهم أمامه. وهكذا أكب منذئذ على الكتابة في الدراسات العسكرية، فكان من ذلك «الوجيز في العسكرية الإسرائيلية» و«العسكرية الإسرائيلية» و«حقيقة إسرائيل» و«دراسات في الوحدة العسكرية»، و«أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية» و«طريق النصر في معركة الثأر» و«الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها» وما إليها.

وتقوده دراساته وخبراته العملية والنظرية في المجال العسكري إلى وجوب العناية بتوحيد المصطلحات العسكرية في الجيوش العربية، فدعا إلى تكوين لجنة عامة من ذوي التخصص، تتفرغ لوضع معجم عسكري موحد ـ بالكسر ـ واستجيب لدعوته فتألفت اللجنة، واختير ممثلاً للمجمع اللغوي

المصري فيها ورئيسًا لها، وعن هذه اللجنة صدر المعجم العسكري الموحد في أربعة أجزاء، إنجليزي عربي وبالعكس، وفرنسي عربي وبالعكس. وكان لهذا الصنيع مردود عال، إذ قدم للجيوش العربية واحدًا من أهم الوشائج الممهدة لوحدتها. هذا فضلاً عما في هذه الأعمال من دلالات على اهتمام المترجم بخدمة اللغة التي درج على حبها منذ نعومة أظفاره. وحسبنا أن نشير من ذلك بوجه خاص إلى ذلك المجهود الكبير الذي اقتضاه تتبع كلمات القرآن الكريم لاستخراج ما يتصل منها بالمصطلحات العسكرية. وفي هذا ألف الجزأين من كتابه «المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم»، وكذلك عني باستخراج ما انطوى عليه كتاب ابن سِيدَه «المخصص» من هذه الأصول التي لا يستغني عنها من يهمه صيانة العربية من غزو اللغات الأجنبية»[1].

لقد بلغت هذه المؤلفات من الروعة والعمق والشمول مستوى لم تُسبق إليه عودة إلى الجذور والينبوع الصافي، ورسمًا لطريق النهوض بالأمة عسكريًّا وفكريًّا.

١ ـ في التراجم:

١ ـ الرسول القائد ـ ط١ عام ١٩٥٨م في ٥٤٠ص.

٢ ـ الصدّيق القائد ـ في ٣٢٠ص.

٣ ـ الفاروق القائد ـ ط١ عام ١٩٦٥م في ٢٣٠ص.

٤ ـ خالد بن الوليد المخزومي ـ ط١ عام ١٩٧٠م في ٣٢٠ص.

٥ ـ عقبة بن نافع الفهري ـ ط١ عام ١٩٧١م في ٣٢٠ص.

٦ ـ عمرو بن العاص ـ جزءان ـ ط١ عام ١٩٩٦م في ٣٨٢ص.

٧ ـ قادة النبي ﷺ ـ ط١ عام ١٩٩٥م ٦٦٩ص.

---

(١) «علماء ومفكرون» (١/ ٣٤١ ـ ٣٤٣).

٨ ـ سفراء النبي ﷺ ـ جزءان ـ ط١ عام ١٩٩٦م في ١٢٦٢ص.

٩ ـ قادة فتح العراق والجزيرة ـ ط١ عام ١٩٦٤م في ٥٠٠ص.

١٠ ـ قادة فتح بلاد فارس ـ ط١ عام ١٩٦٤م في ٥٢٠ص.

١١ ـ قادة فتح بلاد الشام ومصر ـ ط١ عام ١٩٦٤م في ٥٤٠ص.

١٢ ـ قادة فتح بلاد المغرب العربي (جزءان) ط١ عام ١٩٦٥م في ٥٦٠ص.

١٣ ـ قادة فتح السند وأفغانستان ـ ط١ عام ١٩٩٨م في ٤٢٢ص.

١٤ ـ قادة فتح أرمينية ـ ط١ عام ١٩٩٨م في ٥٠٤ص.

١٥ ـ قادة فتح بلاد الروم (جزءان) ـ ط١ عام ١٩٩٨م.

١٦ ـ قادة فتح بلاد ما وراء النهر ـ جزءان ـ ط١ عام ١٩٩٨م في ٥٢٤ص.

١٧ ـ قادة فتح بلاد الأندلس ـ جزءان ـ مخطوط.

١٨ ـ ومضات من نور المصطفى ـ ط١ عام ١٩٧٢م في ١٢٠ص.

١٩ ـ هنيبال.

٢٠ ـ المشير فون رونشتد ـ ط١ عام ١٩٦٢م في ٤٠٠ص.

٢ ـ في الدراسات العسكرية:

١ ـ بين العقيدة والقيادة ـ ط١ عام ١٩٧٢م في ٦٥٠ص.

٢ ـ دروس في الكتمان ـ ط١ عام ١٩٦٩م في ٥٥ص.

٣ ـ إرادة القتال في الجهاد الإسلامي ـ ط١ عام ١٩٦٤م في ٤٠ص.

٤ ـ الرسالة العسكرية للمسجد ـ ط١ عام ١٩٦٨م في ٣٢٠ص.

٥ ـ غزوة بدر الكبرى ـ ط١ عام ١٩٧٢ في ٤٨ص.

٦ ـ العسكرية العربية الإسلامية ـ ط١ عام ١٩٨٣م في ٢٠٠ص.

٧ ـ المصطلحات العسكرية في القرآن الكريم ـ جزءان ـ ط١ عام ١٩٦٦م في ١٠٠٠ص.

٨ ـ أهمية توحيد المصطلحات العسكرية ـ ط١ عام ١٩٦٥م في ٤٠ص.

٩ ـ المعجم العسكري الموحَّد (عربي ـ إنكليزي) ط١ عام ١٩٧٢م في ٨٠٠ص.

١٠ ـ المعجم العسكري الموحَّد (إنكليزي ـ عربي) ط١ عام ١٩٧٠م في ١٠٠٠ص.

١١ ـ المعجم العسكري الموحَّد (فرنسي ـ عربي) ط١ عام ١٩٧١م في ٨٠٠ص.

١٢ ـ المعجم العسكري الموحَّد (عربي ـ فرنسي) ـ ط١ عام ١٩٧٣م في ٨٠٠ص.

١٣ ـ تعريب المصطلحات العسكرية وتوحيدها ـ ط١ عام ١٩٨٥م في ٦٣ص.

١٤ ـ أهداف إسرائيل التوسعية ـ ط١ عام ١٩٦٦م.

١٥ ـ الأيام الحاسمة قبل معركة المصير ـ ط١ عام ١٩٦٧م في ٢٥٠ص.

١٦ ـ حقيقة إسرائيل ـ ط١ عام ١٩٦٧م في ٢٢٠ص.

١٧ ـ طريق النصر في معركة الثأر ـ ط١ عام ١٩٦٦م في ٤٩٥ص.

١٨ ـ الوجيز في العسكرية الإسرائيلية ـ ط١ عام ١٩٦٧م في ٢٥٠ص.

١٩ ـ دراسات في الوحدة العسكرية العربية ـ ط١ عام ١٩٦٨م في ٢٦٠ص.

٢٠ ـ التصور الصهيوني للتفتيت الطائفي ـ في ١٠٠ص.

٢١ ـ القتال في الإسلام.

٢٢ ـ الأمثال العسكرية في كتاب (مجمع الأمثال).

٢٣ ـ الوحدة العسكرية العربية ـ ط١ عام ١٩٧٠م في ٣٥٠ص.

٢٤ ـ العسكرية الإسرائيلية ـ ط١ عام ١٩٦٨م في ٦٠٠ص.

٢٥ ـ العدو الصهيوني والأسلحة المتطورة ـ ط١ عام ١٩٨٧م في ٣٥٠ص.

٢٦ ـ جيش النبي ﷺ ـ ط١ عام ١٩٨٠م في ١٠٠ص.

٢٧ ـ الإسلام والنصر ـ ط١ عام ١٩٧٢م في ٢٤٨ص.

٢٨ ـ التدريب الفردي ليلاً ـ ط١ عام ١٩٥٤م في ١٥٠ص.

٢٩ ـ القضايا الإدارية في الميدان ـ ط١ عام ١٩٥٠م في ٢٠٠ص.

٣٠ ـ الشورى العسكرية النّبويّة ـ ط١ عام ١٩٩٠م في ١٧٤ص.

٣١ ـ الشورى في المواثيق والمعاهدات النبوية ـ في ٢٠٠ص.

٣٢ ـ الأدلة الرسمية في التعابي الحربية (تحقيق) ـ ط١ عام ١٩٨٨م في ٢٧٢ص.

٣٣ ـ أسباب انتصار الرسول القائد.

٣٤ ـ التوجيه المعنوي للحرب.

٣٥ ـ أسرار الحرب العالمية الثانية.

❑ وعن مستقبل الجيل الذي يسهم في خدمته مع إخوانه رجال الفكر والدعوة، يأتينا جوابه مكثفًا في هذه الكلمات:

«يقول سيادته: إن قوى هائلة تعمل على تحطيم هذا الجيل، وتفتيت قدراته، وكانت من قبل مقصورة على العدو الخارجي، أما اليوم فقد وجدت

لها مرتكزات لا تحصى في الداخل. وهو لا يفرق بإزاء هذه القوى ما بين قطر وآخر من ديار المسلمين، بل يعتبر المحنة متشابهة فيها جميعًا.

ويقول: إن أفكاره حول هذا الموضوع مبثوثة في العديد من مقالاته ومصنفاته، ويخص بالذكر منها كتابه «بين العقيدة والقيادة» و«الإسلام والنصر» وفي كل من العنوانين صورة بليغة التعبير عن وجهة نظره في هذه الناحية، وتركيز دقيق على ارتباط مستقبل هذا الجيل صعودًا أو هبوطًا بمدى التزامه هداية الإسلام، أو إعراضه عنها»[1].

*** موقفه من المستشرقين:**

اللواء خطّاب عسكريّ يقظ، لا تلتبس عليه الأمور، ولا يستطيع الخبثاء من المستشرقين والمستعمرين التدليس عليه، أو الإيقاع به، في دراساتهم المطليّة بالموضوعية والبحث العلميّ ـ زعموا ـ وهي مليئة بالمفتريات والافتيات على كلّ ما يمتّ إلى العروبة والإسلام بصلة.. إنها سموم مطلية بحلاوة صناعية.. ولمعرفة خطّاب بهذا، انطلق في اتجاههم.. واجههم.. تصدّى لهم.. وتعقّبهم، وألقمهم أحجارًا تسدّ أفواههم ذات الأنياب الحمر والزرق، وتكسر أقلامهم، في أبحاث علميّة رصينة، قائمة على الأدلّة والبراهين.

فمثلاً البطل عقبة بن نافع، كان، وما يزال وسيبقى، المثل الأعلى للقائد الفاتح، والبطل الفذّ، والمؤمن الحق، والمجاهد الصادق، لذلك حاول الاستعمار بأذنابه، الانتقاص من قدره قائدًا، ليحطّم تأثيره العميق في نفوس العرب والمسلمين في شمال إفريقية بخاصة، وفي العالم العربيّ والإسلاميّ كلّه بعامّة.

ردّ خطّاب على أولئك الحاقدين من المستشرقين وأذنابهم المستغربين في

(١) «علماء ومفكرون» (١/ ٣٤٣).

كتاب كامل قوامه (٣٢٧) صفحة، كما تعقّبهم وردّ عليهم مزاعمهم في أهداف الفتح الإسلامي، وفي سواها من الموضوعات، وكتبه مليئة بهذه الردود المهمّة.

*** شروط النَّهضة:**

يحدّد اللواء خطاب الشروط الواجب تحقّقها في العلماء، من أجل النهوض بالأمة العربية والإسلامية فيراها في: «سعة الأفق العلميّ التي تمكّن من فهم العصر وما يعتريه من مشكلات، وما تتطلبه من حلول في ضوء الإسلام. ثم في الإخلاص للّه، بحيث لا يخاف ـ العالم ـ في الحقّ لومة لائم. والثالث: الحفاظ على كرامة العلم، فلا يمتهنها بالحاجة لغير اللّه. يقول:

«إن المسلمين اليوم في حاجة ماسّة إلى قادة كخالد والمثنّى و.. إلا أنّ حاجتهم إلى العلماء العاملين أمسُّ وأشدّ.

«هناك أزمة ثقة بين الشيوخ والشباب، ومردّ هذه الأزمة إلى فقدان عنصر القدوة الصالحة في معظم الذين يُعدّون في الشيوخ، ويظنّون أنّ كلّ ما عليهم، هو أن يحسنوا عرض الموعظة السطحيّة، ولو كان سلوكهم الشخصي أبعد ما يكون عما يدعون إليه»[1].

*** مع الزعماء:**

❑ قال اللواء خطاب:

«لقد رأيت قبل اليوم ـ ولا أقول: زرت ـ كثيراً من الملوك والرؤساء والأمراء والوزراء والقادة والزعماء، وكثيراً من ذوي الجاه والسلطان، في

(١) «محمد المجذوب «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ٣٤٤).

نطاق البلاد العربية والدول الإسلامية وغير الإسلامية أيضًا، فكان شعوري عند رؤيتهم متفاوتًا بين الاحترام، والسخرية، والرثاء:

احترامًا للذين يعملون من أجل المصلحة العامة حقًّا، بكفاية وإخلاص، منكرين أنفسهم، ناسين مصالحهم الشخصية. وما أقلَّهم!.

وسخرية من الذين لا يعرفون واقعهم وأقدار أنفسهم، فيتخيّلون لأنفسهم عظمة لا وجود لها، وإنجازات لا حقيقة لها، ويصدّقون مَنْ حولهم من الإمّعات والتافهين والوصوليّين والهتّافين وأشباه الرجال، في ادّعاءاتهم الباطلة؛ عبقرية ونبوغًا.

ورثاء للذين يشغلون مناصب أكبر من قابلياتهم.. فهم أقزام يطمعون أن يصبحوا عمالقة، فأرشدتهم حاشية السوء إلى أن السبيل إلى ذلك، هو أن يحطّموا العمالقة، ليخلو لهم الجوّ، فلا استطاعوا أن يحطّموا العمالقة، ولا استطاعوا أن يصبحوا عمالقة، وبقوا أقزامًا لا يستحقّون إلا الرثاء.. ولكنني لم أشعر مطلقًا بأيّ نوع من أنواع الاضطراب عند رؤيتهم جميعًا، ولم أخش منهم أحدًا، فليس لدي ما أخافهم عليه، وليس لديهم ما أطمع فيه، وما عند الناس لا يبقى، وما عند اللَّه خير وأبقى. ولو أن الإنسان أخرج من نفسه كلمة واحدة، هي الطمع، بما فيها من معان، لانكشف عنه الغطاء، ولنظر إلى ملكوت السماوات والأرض»[1].

إنه شموخ المسلم المعتز بإيمانه وإسلامه وكرامته.. وأين هذه المعاني من الكتّاب والمثقفين والعلماء والزعماء الذين لا يعرفون غير العبودية للمتألّهين في الأرض من الطواغيت!.

(١) «تدابير القدر» (ص٧١ ـ ٧٢).

* موقفه من الوحدة العربية:

اللواء خطّاب وحدويّ حتى العظم، والوحدة جزء من عقيدته كسائر المسلمين. يقول:

«والوحدة قدر، والقدر أقوى من البشر. بها يكون العرب كلّ شيء، وبدونها يكون العرب لا شيء. وهي سلاح يقضي على إسرائيل، والتفرقة سلاح يقضي على العرب. وإذا كانت الوحدة ضرورية أبدًا، فإنها أصبحت أكثر من ضرورية بعد خلق إسرائيل.. إنها قضيّة مصير.. إنها قضيّة حياة أو موت.

والذين يقاومون الوحدة نكاية بأشخاص معيَّنين، مخطئون، كالذين يريدون الوحدة من أجل أشخاص معيَّنين.. إن الوحدة إلى بقاء، والأشخاص إلى فناء. فيجب أن نعمل للوحدة من أجل الوحدة، ومن أجل عزّة العرب ومجدهم، ومن أجل القضاء على إسرائيل».

وضرب لنا مثلاً بإخوان سورية الذين وقفوا ضدّ انفصال سورية عن مصر، على الرغم ممّا ذاقوه هم وإخوانهم في مصر على يد جمال عبدالناصر ونظامه المفرط في الديكتاتورية والقسوة والاستبداد.

* الإسلام هو الحلّ:

الإسلام هو الحلّ لسائر قضايا الأمة؛ السياسية والاقتصادية والعسكرية، والاجتماعية، وبغير الإسلام تتفاقهم المشكلات، وتتردَّى الأمّة، ويطمع بها أعداؤها، فنحن أمّة أعزّنا اللَّه بالإسلام، فإذا طلبنا العزّة بغيره، أذلّنا اللَّه.

❑ والطريق إلى النصر الاتباع ورفض الابتداع ومهاجمة المبتدعين. للَّه دره من قائد نصح فوفى، ووفى لأمته في زمن عز فيه الوفاء.

* **الشيخ أحمد ديدات الذي زلزل أركان التنصير:**

الذي زلزل أركان التنصير في جنوب أفريقيا، وناظر زعماءهم في أمريكا، وتحدى البابا ودعاه إلى مناظرة علنية، فما استطاع أن يجيبه إلى طلبه.

يقول هذا الداعية الذي يجوب القارات شرقًا وغربًا رادًّا على افتراءات اليهود والنصارى مزلزلاً لعهديهم، يقول ديدات في خاتمة كتابه «هل الكتاب المقدس كلام اللَّه»:

«ولا بد أن القارئ إذا كان ذا ذهن متفتح، أن يكون قد اقتنع الآن أن الكتاب المقدس ليس كما يدعي أتباعه من النصارى، وخلال أربعين سنة يسألني الناس؛ كيف لي بكل هذا العلم بالنصرانية وكتابها، وبصراحة فخبرتي باليهودية والنصرانية ليست من اختياري، بل قد أُرغمت أن أكون هكذا.

عندما كنت أشتغل مساعد بائع عام ١٩٣٩ بجانب معهد لتخريج الوعاظ، كنت وأصدقائي هدفًا دائمًا لخريجي هذا المعهد، فلم يكن يمر يوم لا يضايقنا فيه هؤلاء بإهاناتهم للإسلام ونبي القرآن، وقد كنت شابًّا حساسًا في العشرين من عمري، فكنت أقضي ليالي عديدة ساهرًا أبكي، لضعفي وعدم قدرتي على الدفاع عن النبي ﷺ، وهو الذي أُرسل رحمة للعالمين، وقررت دراسة القرآن والكتاب المقدس والكتب التي تتحدث عنهما؛ واكتشافي لكتاب «إظهار الحق» كان أول خطوة في تغيير مجرى حياتي، وبعد فترة كانت لدي القدرة على أن أدعو أولئك الوعاظ للمناقشة، وأحرجهم بالحقائق المعروضة، مما اضطرهم لاحترام الإسلام ونبيه».

بائع الملح الهندي أحمد حسين ديدات الذي عاش في جنوب إفريقيا، الذي أصبح يجادل آباء الكنائس وعلماء اللاهوت وزعماء التنصير.

هذا الرجل الذي يدعو إلى اللّه عز وجل عن طريق المحاضرات واللقاءات في كل مدينة يذهب إليها، وفي كل جامعةٍ يزورها، وقد ألقى محاضراتٍ في بريطانيا، أيرلندة، أمريكا، كندا، هونج كونج، سنغافورة، الهند، زيمبابوي، موريتانيا، ملاوي، أبو ظبي، السعودية، وأعظم تجمع استمع له أكثر من ٣٠ ألف مستمع في جرين بوينت في مقاطعة الكاب.

هذا الرجل الذي تناظر مع اثنين وثلاثين قسيسًا في أماكن مختلفة من العالم، وأشهرها في نظره المناظرة التي كانت في قاعة الألبرت هول في لندن، وقد حضرها جَمْعٌ غفير من الناس بمختلف الأديان والطوائف.

❑ الداعية عالي الهمة الذي أقنع أحد رجال الأعمال، ممن يشغل وظيفةً في مركز الدعوة الإسلامي في مدراس، بإنشاء معهدٍ للدعاة، وبدأ ديدات في تدريب الدعاة على طول الساحل الجنوبي هناك، واستمر العمل في هذا المعهد لمدة عشر سنوات متصلة، وخرج جيلاً من الدعاة لنشر الدعوة في الكرة الأرضية؛ شرقها وغربها.

هذا الرجل الذي تحدى النصارى قائلاً: «لكل مسألة جدلية تقدمونها لي تأييدًا لدينكم، سأقدم لكم عشرًا ضدها»[1].

أسس مركز نشر الإسلام في عام ١٩٥٨م في جنوب إفريقيا، يوزع ١٠٠,٠٠٠ من ترجمة معاني القرآن بالإنجليزية.

❑ قال ديدات: «إن النبي ﷺ قال: «**اليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى**» وهذا يعني أن الذي يعطي، أرفع منزلةً من الذي يأخذ. إن مهمتنا هي أن

(١) من الحوار الذي أجرته معه فايزة أمبا في جريدة «عرب نيوز» السعودية التي تصدر بالإنجليزية.

نخرج لنبلّغ رسالة اللّه، إننا في مكانةٍ أعلى من الناحية العقائدية».

❑ يقول ديدات: «إذا امتلكنا أشعة الليزر فلن تجدينا عن الدعوة إلى اللّه شيئًا؛ لأن الدين يظهر بالدعوة والمجاهدة.

❑ ويقول: «ملايين الخطط وملايين المتفرغين المنصرين، هدفهم تحويل العالم الإسلامي إلى النصرانية ونحن نغط في نومٍ عميق».

❑ ويقول: «علينا أن نتجاوز القضايا الهامشية في مناظرتنا للنصارى، ونجادلهم في أصل الخلاف الذي هو قضية التوحيد».

❑ ويقول: «الأمة التي تملك هذه الأموال الطائلة التي بيد المسلمين، ولا تنفقها في الدعوة، أمةٌ تستحق الدمار، وسيحاسبها اللّه يوم القيامة».

❑ يقول ديدات: «كنت أسأل الجمهور الذين التقيت بهم: «هل سيظهر هذا الدين؟» ويقولون: نعم، إنه الحق، وإن الدين غالب على الجميع. فأقول: إذا كنتم تؤمنون بذلك، فلماذا تستندون على ظهوركم دون أن تفعلوا شيئًا، وتركبون السيارات الفاخرة، وتنفقون الأموال الطائلة فيما لا يفيد، وتقولون: الدين غالب، دون العمل له؟!».

❑ ويقول: «شرط اللقاء والتحدث مع النصارى: التحدث عن العبودية للّه وحده، فالحديث عن التوحيد شرط التناظر مع النصارى».

«يسرق النصارى أطفالنا، ففي ليستر بريطانيا وضعوا خطة بميزانيةٍ تقدر بملايين الدولارات لتنصير الفولانيين في نيجيريا».

«الآن يتفرغ لنا المنصرون بالملايين، حيث يتوزعون حول العالم لتنصير المسلمين، وهم يقرعون أبوابنا في بلادنا، فقد تنصر (١٥) مليون أندونيسي، وهم يفخرون ـ الآن ـ بأنهم استطاعوا تنصير الباكستانيين والبنغاليين الآن أكثر من أيام الاستعمار البريطاني هناك، وهناك الآن مئات الآلاف متفرغون

للتنصير في إفريقية»[١].

يا أيها الموحِّدون، يا ورثة خير النبيين وأعلاهم همة: «إن الإسلام لا بواكي له».

❑ يقول ديدات: «هناك مجموعة صغيرة من النصارى قد طبعوا أكثر من (٨٤) مليون نسخة من كتابٍ واحد، بأكثر من (٩٥) لغة مختلفة، ويطبعون (١٠٢) مليون نسخة من مجلة شهرية بأكثر من (١٠٢) لغة، ويصدرون من مجلةٍ أُخرى تسمى اليقظة (٨,٩) مليون نسخة في الشهر، بأكثر من (٥٤) لغة. وميزانية الرجل «سويجارت» مليون دولار يوميًّا، ونحن المسلمين بكل دخلنا من البترودولار، لا نستطيع أن ننفق مليون دولار للدعوة في السنة الواحدة.

النصارى أصبحوا يجرفون المسلمين في كافة أنحاء العالم، ولكن ليس هناك من يبكي لهذه النتيجة، بينما نرى النصارى يندفعون على نطاق واحد لنشر دينهم، والتضحية بحياة الترف والبذخ، والعيش في أدغال إفريقية والصحاري الحارقة لنشر دينهم.

فالأيرلنديون ـ مثلاً، وهم من الفقراء في بريطانيا مقارنةً بالإنجليز ـ يبعثون آلاف الرجال والنساء لخدمة المسيح عليه السلام ـ كما يزعمون ـ في العالم، وفي الكنيسة الكاثوليكية والرومانية، ترى الكثير من القساوسة والراهبات الأيرلنديات، لماذا؟! لأنهم يربون من الصغر على التضحية في سبيل المسيح ـ عليه السلام ـ ومن أجله.

أما نحن، فصحيح أنهم يربوننا بالصلاة وتربية اللحية، وهذا جميل، ولكنه جزء، فقلما تسمع على المنبر من يحمسك ويشجعك على الانطلاق

(١) من كتاب «أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن» ـ كتاب المختار الإسلامي.

والدعوة إلى اللَّه في بقاع العالم. كلهم يحدثونك عن الصلاة والزكاة.. إلخ، ولكن قلما يكون الحديث لنشر الدين.. أين الجهاد؟»[1].

وصدق الداعية ديدات الذي تمتزج الدعوة بدمه ولحمه.

في مدينة ملكال في جنوب السودان، تأتي المبشرة من بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا، أُوتيت الواحدة منهن قدرًا من الجمال يؤهلها لحياة الترف في أرقى المدن رفاهية.. تأتي المبشرة طبيبة أو غيرها تعيش في القطاطي.. الواحدة منهن خص من البوص المطين، تعيش الواحدة منهن على طعام الويكا ـ البامية المجففة ـ وتشرب من النهر مباشرة، فليس هناك صنابير للمياه.. ترعى أطفال السودانيات، وتشرف على علاج الأطفال والإشراف على تغذيتهن، في بيئاتٍ لا يرضى أن يعيش فيها السودانيون أنفسهم، وتصبر الواحدة العام الطويل حتى تدعو إلى النصرانية.

❑ يقول ديدات: «إن المسلم يملك هذا الدين.. يملك البرهان عليه، وعليه أن يصحو، ويعلم أنه يملك «جرافة» منحها اللَّه إياه، تحطم كل الصخور ـ صخور الأصنام والجاهلية ـ هي هذا الدين، فعليه استخدامها لنيل العزة، ولكن تصرفاتنا تدل على ألا عزة لنا في هذا العالم، مع أن أصل العزة للَّه ولرسوله وللمؤمنين».

❑ ويقول ديدات: «من مائة ألف صحابيٍّ حضروا حجة الوداع، لم يدفن في المدينة منهم إلا عشرة آلاف، أين ذهب الباقون؟ فهموا معاني الشهادة والتبليغ للرسالة، وانطلقوا في الآفاق يمتطون خيولهم وجمالهم، ينشرون دعوة اللَّه ويبلغونها للعالمين، أدركوا رسالتهم للعالم، ولم يكتفوا

---

(١) أحمد ديدات من كتاب «المختار الإسلامي» ـ نقلاً عن مجلة الإصلاح الخليجية، بقلم الأستاذ صفوت منصور.

بالجلوس في بيوتهم ومساجدهم يقيمون نصف الدين ويتركون النصف الآخر».

إلى القابعين في منازلهم.. «يكفيكم أن تعرفوا أن عدد المنصرين (١٧) مليون شخص في جميع أنحاء العالم».

ولعل من أهم مناظرات الداعية عالي الهمة أحمد ديدات، مناظرته الشهيرة في أمريكا مع «المنصر الصليبي القس جيمي سويجارت، صاحب الأحاديث التلفزيونية التي يشاهدها أكثر من مليوني شخص في الولايات المتحدة، وتصل لأكثر من ١٤٠ بلداً واستطاع أن يحصل على أكثر من ١٤٠ مليون دولار سنويًّا، ويعتبر من أكثر المنصرين نفوذًا في العالم»[١].

ولقد أفحمه ـ على مرأى من الآلاف ـ أحمد ديدات، وفي المناظرة تطاول على رسول اللَّه ﷺ، فأخزاه اللَّه بعدها مباشرة «بفضائح مع المومسات في نيو أورليانز وفنادقها، وقد دفع أموالاً للمومسات؛ للقيام بأعمال داعرة، واعترف بخطيئته أمام ثمانية آلاف شخص من أتباع كنيسته، ونقلت الاعتراف كل كاميرات التليفزيون عبر الولايات المتحدة، وأجهش بالبكاء وهو يقدم اعترافاته يوم الأحد ٢/٢١ قائلاً: ليست لدي النية بتاتًا لنكران خطيئتي.. ولا أُسميها غلطة.. جريمة.. أنا أُسميها خطيئة.. كل من جلبت لهم الفضيحة والعار والإحراج.. السماح»[٢].

* وصدق اللَّه: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ثم يعاود عالي الهمة ديدات الكرة مع رأس الأفعى بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني، ويدعوه إلى «حوار في لقاء علني في ميدان القديس بطرس في

(١، ٢) من كتاب «أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن» كتاب المختار الإسلامي.

روما مقر البابوية، وفي الوقت والزمان المناسب لقداسته.

ولما لم يرد البابا على تلك الرسالة، عاود الشيخ ديدات الكرة، وأرسل له ثلاثة خطابات أُخرى وبرقية، وهنا رد الفاتيكان مقترحًا إجراء مثل هذا الحوار في سكرتارية الفاتيكان وليس في مكان علني.

رد الشيخ ديدات على بابا الفاتيكان برسالة جاء فيها: «يسعدنا أنكم ترتبون للقاء معنا، ولكننا نتمسك بأن يكون مثل هذا اللقاء علنًا، كما كان في خطابنا المفتوح إليكم، والذي اقترحنا فيه مثل هذا اللقاء، وذلك من أجل الملايين المؤمنة بالمسيحية والإسلام، من أجل الحقيقة وإرضاء الرب.. ومع هذا فيمكننا الالتقاء بكم حسب رغبتكم في السكرتارية، ولكن هناك العديد من المسلمين في جنوب إفريقيا فقط، والذين يصرون على حضور هذا اللقاء، لذلك نرجو إفادتنا عن الإمكانيات المتاحة في سكرتارية الفاتيكان والخاصة بإسكان هؤلاء.

ونظرًا لوجود آلاف آخرين ممن يرغبون في حضور هذا الحوار، فإننا نطلب أيضًا تصريحًا بتصوير اللقاء بأجهزة الفيديو، حتى تصل مناقشتنا إلى الملايين الذين يودون الاستفادة من الحوار».

«وبعد أكثر من شهرين من الانتظار تم إرسال برقيتين أخريين؛ إحداهما إلى سكرتارية الفاتيكان، والأُخرى إلى البابا ذاته. وبعد شهر آخر تم إرسال برقيتين أُخريين دون جدوى»[1].

لله درُّك يا ديدات والله لا نقارن قلامة ظفره ببابا الفاتيكان.

ألم تَرَ أن السَّـيْف ينقص قَـدْرُه إذا قيل إن السيف أمْضى من العصا

ومن أراد أن يعرف قدر هذا الجبل الأشم الحاصل على جائزة الملك

(١) «أحمد ديدات: بين الإنجيل والقرآن» (ص٥٥ ـ ٥٧) المختار الإسلامي.

فيصل فلينظر إلى المناظرة بينه وبين القس الدكتور أنيس شروش بقاعة ألبرت بلندن في اليوم الخامس عشر من ديسمبر سنة خمس وثمانين وتسعمائة وألف وموضوعها «هل عيسى إله؟»[1].

وانظر أيضًا إلى مناظرتين في استكهولم بين الشيخ ديدات وكبير قساوسة السويد استانلي شوبيرج بالسويد في السابع والعشرين من أكتوبر عام ألف وتسعمائة وواحد وتسعين (١٩٩١م)، وكان موضوعها «هل الإنجيل كلام اللَّه؟». وفيها أُفحِم القس وتبين دَجَلُه.

*** الرجل الرباني القرآني أبو الحسن الندوي (١٣٣٣هـ - ١٤٢٠هـ) (١٩١٤ - ١٩٩٩م) عميد الأدب الإسلامي وصاحب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»:**

الشيخ أبو الحسن علي بن عبدالحي الحسني الندوي قال عنه الدكتور يوسف القرضاوي: «رباني الأمة والرجل القرآني والمحمدي الذي جعل الرسول الكريم ﷺ أسوته في هديه وسلوكه وحياته كلها، واتخذ مسيرته نبراسًا له».

العالم الجليل، والمصلح الذي ركّز جهوده على النهوض بالمسلمين في عصرنا الحاضر. وعميد الأدب الإسلامي الذي جعل للأدب الإسلامي نبراسًا ومنبرًا، ووجه الأدب إلى طبيعته الأصيلة، ووظيفة البناء والإصلاح. كان مصلحًا ربانيًّا اجتماعيًّا ومربيًا فاضلاً عاش حياة الزهد والورع، يقول الحق ولا يخاف لومة لائم.

---

(١) انظر «مناظرة العصر» ترجمة علي الجوهري - دار الفضيلة. وأنيس شروش من أصل فلسطيني مهاجر إلى أمريكا وحاصل على الدكتوراه في اللاهوت من «جامعة مسيسبي» الأمريكية.

❑ يقول الشاعر محمد المجذوب في رثائه:

بكيْنا وفاءً لامرئٍ قَلّ أن يُرى ... له في الدعاةِ العاملين نظيرُ
فخَلوْا كلامي إنْ ألحَّ بي البُكا ... فـإن فراق الصالحين عسـيرُ[1]

*** دراسته العلمية:**

❑ قال الشيخ محمد المجذوب في كتابه «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٣٦ ـ ١٣٨):

«تلقى الشيخ دراسته الأولية في العربية من الشيخ خليل محمد اليماني، حفيد المحدث الجليل الشيخ حسين بن محسن الأنصاري، وأتم دراسته الأدبية على الدكتور محمد تقي الدين الهلالي، رئيس تدريس الأدب العربي بندوة العلماء يومئذ، ثم تعلم في دار العلوم ندوة العلماء ودار العلوم في ديوبند، وجامعة لكهنؤ، بتفوق ممتاز، والتحق بمدرسة الشيخ أحمد علي في لاهور حيث تخرج عليه في علم التفسير.

وقد استفاد في الحديث من الشيخ حيدر حسن خان، ونال الإجازة منه ومن الشيخ عبدالرحمن المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي» وحضر دروس العالم الكبير الشيخ حسين أحمد المدني في الحديث بدار العلوم في ديوبند، فجمع بين جهابذة الأدب والحديث والتفسير.

*** الرجال الذين أثروا في توجيهه:**

ويسمي الشيخ من الرجال الذين أثروا في توجيهه أخاه المرحوم الدكتور عبدالعلي الحسني، ويصفه بأنه جمع بين الثقافتين الدينيـة والعصرية، إذ تلقى دراسته في المدارس الدينية والجامعات العصرية. وأنه كان ذا فضل كبير على ثقافته.

(١) أبو الحسن على الحسني الندوي لمحمد اجتباء الندوي (ص٩) ـ دار القلم ـ دمشق.

ثم المشايخ أحمد علي اللاهوري والشيخ محمد إلياس مؤسس حركة الدعوة والتبليغ بالهند وفي العالم الإسلامي، ثم المربي الجليل الشيخ عبدالقادر الرائيبوري، ثم شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، ثم السيد طلحة الحسيني أحد كبار الأساتذة في جامعة البنجاب.

ويدع الشيخ أثر هؤلاء الفضلاء دون تحديد، فلا يعلمنا في أي اتجاه، ولا من أي نوع، ولكن ذلك لا يحجب عنا الواقع الذي نعرفه من خلال آثار الشيخ، ومن خلال مسلكه في خدمة الدعوة، ثم من خلال ما اشتهر به بعض الذين نعرف آثارهم من أساتذته هؤلاء.

وفي ما كتبه الشيخ أبو الحسن عن روائع إقبال وأفكاره الإسلامية وتأملاته الفلسفية ما يكفي لاستخلاص الصورة المنشودة عن تأثيره في توجيهه الأدبي والفكري.

وقصارى القول في ذلك أن أبا الحسن قد وفق من ملابسته لهذه الثلة الممتازة إلى أن يجمع بين الثقافة الصحيحة والأسوة الحسنة. وإنها لبقية من منهج التعليم الإسلامي، الذي لا يقبل التفريق بين التعليم والتربية، ذلك المنهج الكريم الذي مسخه، بل نسخه، نظام التعليم الغربي، حتى أوشك أن يستحيل أثرًا بعد عين ـ ويا للأسف ـ !

*** العلوم التي يؤثرها:**

ويحدد العلوم التي يؤثرها بحبه فيحصرها في: القرآن الكريم، والحديث الشريف، ثم التفسير، والتاريخ، والأدب.

ولو سكت الشيخ عن هذا الجانب لأمكننا استخلاصه من مؤلفاته وبحوثه ومحاضراته وأحاديثه. وقديمًا قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقـــارن يقتـــدي

ولا قرين أعمق أثرًا في قلب الإنسان وعقله وسلوكه من العلم الذي ينسجم معه ويصدر عنه. ونحن بقليل من الممارسة والملاحظة نفرق بين امرئ وآخر عن طريق الحديث الذي نسمعه أو نقرؤه لكل من الاثنين. وقارئ أبي الحسن لا يفوته الإدراك بأنه ثمرة مونعة من حديقة الثقافة الإسلامية الأصيلة.

ثم إن الشيخ بجمعه بين هذه العلوم المتعددة في نطاق التفضيل، إنما يفعل ذلك إيمانًا منه بما يشملها من وحدة الإطار، فهو «لا يؤمن بالانفصال بين هذه العلوم، بل يرى كداعية إسلامي أن التاريخ مرآة الأمم البائدة، وخزانة العبر المبرزة لأسباب النهوض والهبوط في حياتها، فليس ثمة من سقوط أو نهوض يحدث عفوًا أو اتفاقًا، وإنما هي سنن وقوانين مرتبطة بتصرفات الأمم وأعمالها، فعلى هذه التصرفات والأعمال تتوقف مصايرها في مسيرة التاريخ».

وعلم القرآن والحديث، فضلاً عن كونه المصدر الرئيسي والمنبع الأول للثقافة الإسلامية، فهو كذلك الدليل الهادي إلى أسرار هذه السنن الإلهية وعملها في حياة البشر، وكل منهج لدراسة التاريخ لا يستمد من هذه الضوابط سيظل جهدًا ضائعًا ينقض بعضه بعضًا.

والتمكن من علوم الأدب والتمرس به أداة لا معدي عنها لإبراز هذه الحقائق والإفادة منها على أفضل الوجوه.

والشيخ، بارك اللّه في حياته وجهاده، قد علم كيف يستخدم هذه الأداة في خدمة مثله العليا أروع استخدام. ومتتبع ما يكتب يشعر بأن لعبارته الأدبية سحرًا لا يتوافر في العادة إلا للعلية من أصحاب المواهب، الذين تعمقوا سر الكلمة، وتفاعلوا به، وكان لقلوبهم أكبر الأثر في ما يصوغون. وتلك هي الخاصة الرئيسية التي يمتاز بها أبدًا أولو الأذواق الروحية من المتخرجين في مدرسة القرآن.

وبهذه الخاصة يتناول الشيخ الأحداث التاريخية، فإذا هي مائجة بالحياة وبالعبر.. وقلما تقرأ له بحثًا أو قصة أو حديثًا لا تلمس أثناءه هذه الصور الناطقة بالحكمة، وهذا ما يكاد الكاتبون عنه يجمعون عليه.

* النشاط المبارك للشيخ أبي الحسن الندوي:

أ ـ الشيخ وندوة العلماء:

يقول الشيخ محمد المجذوب عن الشيخ أبي الحسن الندوي وآثاره في ندوة العلماء ذات الماضي العريق في إذاعة العربية، وفي توضيح حقائق الإسلام، سواءً في قلوب طلاب الندوة، أو عن طريقهم بعد التخرج بين جماهير المسلمين في شبه القارة الهندية:

«ومن جميل الاتفاق أن أكتب هذه الأسطر باللاذقية ـ حيث أقضي إجازة الصيف ـ في حين يحتفل العالم الإسلامي بالمهرجان الذي نظمته ندوة العلماء في الهند ما بين ٢٥ و٢٨ شوال ١٣٩٥هـ. لمناسبة مرور خمسة وثمانين عامًا على إنشائها وبدء رسالتها العالمية، فكانت فرصة سعيدة لتلاقي رجال الفكر الإسلامي من المعنيين بقضايا التربية والتعليم، وشد ما كنت حريصًا على المشاركة فيها استجابة لدعوة كريمة، لولا أقدار محكمة صرفتني إلى اللاذقية بدل (لكهنؤ). وليس ثمة من ريب في أن تدفق وفود العالم الإسلامي أثناءئذ على ذلك المهرجان، إنما ينطوي خلال تكريمه لتلك المؤسسة المرموقة، على تقدير كبير لمجهود ذلك الشيخ الفاضل، الذي تسلم رايتها، فكان خير خلف لأولئك السلف الذين نهضوا برعايتها على مدى تلك العقود التسعة من السنين..

لقد أحسن الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي في مقاله الذي صدر به العدد الخاص بتلك المناسبة من جريدة (الرائد) تحت عنوان «في رحاب

المهرجان» إذ أبرز ما لا يجهله خبير من فضل أبي الحسن فيقول:

«الشيء الأصيل الذي كان يعمل في المهرجان ويعمل في كل ما يتصل به أولاً وآخرًا هو ذلك القلب الواسع الكبير الذي يخفق في جنب سماحة أستاذنا العلامة السيد أبي الحسن علي الندوي. فلولا عبقريته العميقة، ونظرته الواسعة، وفهمه الدقيق.. وفوق ذلك إيمانه الراسخ القوي، وإخلاصه في خدمة قضايا الإسلام، وتفانيه في حب اللَّه ورسوله، عن دراسة وتفقه.. فلولاه ولولا هذه الصفات العالية لم يكن لهذا المهرجان أي قيمة أو أهمية. ولولاه لما كان له أثره البعيد في تاريخ التعليم والتربية في هذه البلاد بوجه خاص، وفي العالم الإسلامي بصفة عامة.

ليس من سعادة الهند أو ندوة العلماء فحسب أن يوجد فيها مثل هذا الرجل العظيم المخلص المؤمن، بل إن وجوده سعادة لتاريخ العلم والثقافة والتعليم والتربية، وصفحة ناصعة في سيرة العلماء الأعلام والدعاة العظام. وإن العالم المعاصر لفي أمس الحاجة إلى أمثاله حتى يتبين هداه في مسيرة العلم والمدنية، ويعين خطاه في زحمة الصراعات والاتجاهات التي تموج بها المجتمعات الإنسانية اليوم».

ولا مبالغة في هذا الإطراء لذلك العالم الجليل الذي ـ كما قال شيخ الأزهر الدكتور عبدالحليم محمود في تلك المناسبة ـ «أخلص وجهه للَّه، وسار في حياته سيرة المسلم المخلص للَّه تعالى ورسوله ﷺ فدعا إلى الإسلام بالقدوة الحسنة، ودعا إلى الإسلام بكتبه النقية، ودعا إلى الإسلام بسياحاته التي حاضر فيها ووجه وأرشد. فجزاه اللَّه خير ما يجزي عالمًا عن دينه».

ولا جرم فقد اطلع اللَّه على إخلاص هذا العبد الصالح ـ ولا نزكي على اللَّه أحدًا ـ فبارك في مساعيه، وبارك في مواعظه، وبارك في محاضراته العميقة الغور، الغنية بالحقائق، التي يلقيها هنا وهناك، في الهند، وفي البلاد

العربية، وفي إنجلترة.. وفي مختلف المؤتمرات الإسلامية، التي لا ينفك يشارك فيها، ويسافر إليها، مضحيًا براحته، ومغامرًا بصحته، فأكرمه سبحانه بالرضوان والقبول، حتى صارت المورد العذب لناشدي الحق.. لأنه لا ينشد من ورائها شهرة ولا منفعة.. ولا شيء إلا ابتغاء رضوان اللَّه.

وأنا لا أذيع مجهولاً من حياة الشيخ عندما أذكر أنه، وهو العضو الدائم في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، لم يقبل أن يصرف له فلس واحد من المكافآت السخية لمثله، ولم أعرفه نزل فندقًا قط على حسابها، على تعدد المرات التي حضر فيها اجتماعات هذا المجلس حتى الآن. وأنا لا أدري كم في علماء الإسلام من نظير لهذا الزاهد الكبير!

إن خاصة الزهد والترفع عن حطام الدنيا، في هذا الجسد النحيل اللطيف، الذي يكاد ينطق بقول ابن الرومي عن نفسه:

أنا من خف واستدق فما يُثْـ ـقِلُ أرضًا ولا يسد فضـاءَ

هذه الخاصة هي التي مكنت له في مضمار الإصلاح والنقد الاجتماعي، فلا يهادن باطلاً، ولا يكتم حقيقة.. وجعلت لكلامه مساغًا في الأسماع فلا تنكر عليه ما يقول.

وهو كالشيخ ابن باز في حسن تأتيه عند توجيه النصيحة الواجبة، يطرق بها أبواب القلوب في أسلوب من الحكمة والموعظة الحسنة، لا يسخط ولا ينفر، ولكنه يبعث على التأمل والتدبر والتفكر.

*** عالمية الشيخ:**

والإشارة إلى مشاركة الشيخ في عضوية المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة منذ تأسيسها، توجه الذهن إلى مشاركاته في العديد من المنشآت العلمية الأخرى.

إنه عضو مراسل في مجمعي اللغة العربية بدمشق والقاهرة. وهو مؤسس المجمع العلمي الإسلامي بالهند ورئيسه، كما أنه يرأس المجلس التعليمي لولاية (أتر بردلش) هناك، وهو عضو في المجلس التنفيذي لمعهد (ديوبند)، ومن أعضاء المجلس التنفيذي لدار المصنفين في أعظم كرة بالهند أيضًا.

والشيخ أحد رؤساء التحرير لمجلة «معارف» تلك المجلة العلمية الأكاديمية للمسلمين في شبه القارة الهندية.

هذا وقد أخرج المجمع الإسلامي بالهند سلسلة من ترجمات كتب الشيخ باللغة الإنجليزية تعميمًا لفوائدها، وسبق لمجلة المجمع اللغوي بدمشق أن نشرت عدة فصول من آثاره.

وهذه المشاركات الواسعة إنما تؤكد الصفة العالمية لهذا الرجل، الذي أجمع على تقديره رجال الفكر من مختلف الأقطار.

*** عمله في التأليف:**

وإلى القارئ هذه القائمة بأشهر مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ مختارات في الأدب العربي (وهو من المقررات الدراسية في كثير من المدارس والجامعات).

٢ ـ القراءة الراشدة (ثلاثة أجزاء).

٣ ـ قصص النبيين للأطفال (خمسة أجزاء).

٤ ـ مذكرات سائح في الشرق العربي.

٥ ـ حديث مع الغرب.

٦ ـ روائع إقبال.

٧ ـ الأركان الأربعة.

٨ ـ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية.

٩ ـ ربانية لا رهبانية.

١٠ ـ المسلمون في الهند.

١١ ـ إذا هبت ريح الإيمان.

١٢ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام.

١٣ ـ القادياني والقاديانية.

١٤ ـ إلى الإسلام من جديد.

١٥ ـ المسلمون وقضية فلسطين.

١٦ ـ الطريق إلى المدينة.

١٧ ـ النبوة والأنبياء في ضوء القرآن.

١٨ ـ الصراع بين الإيمان والمادية.

١٩ ـ تأملات في سورة الكهف.

٢٠ ـ العرب والإسلام.

٢١ ـ النبي الخاتم.

٢٢ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

٢٣ ـ السيرة النبوية.

٢٤ ـ نحو التربية الإسلامية الحرة في البلاد الإسلامية.

وهذه الكتب نشرت كلها بالعربية، وترجم معظمها إلى مختلف اللغات كالتركية والإنجليزية والفارسية.

على أن هناك عشرات من مؤلفاته الأخرى باللغة الأردية، لم يذكر عنوانها.. ومحاضرات عدة نشرت منفردة في كراسات تتداولها آلاف الأيدي، ولم نشر إليها في هذا الجدول.

ويقول الشيخ: أن أحب هذه الكتب إليه هي: «الطريق إلى المدينة» و«النبوة والأنبياء في القرآن» وآثرها إطلاقًا هي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» و«الأركان الأربعة» و«الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية»[١].

*** لله در الندوي:**

كان للندوي من خلال مؤلفاته القيمة دور عظيم في مكافحة الغزو الفكري، وبث روح الاعتزاز بالإسلام في المسلمين، وبخاصة في طبقة المثقفين والشباب، ومقاومة الردة وآثارها».

«وهذه المجهودات مما يدركه كل قارئ لكتب الشيخ في مختلف أنحاء العالم، سواء بلغاتها الأصلية أو المترجمة، فليس ثمة كتاب له إلا وهو توكيد لهذا الاتجاه الإصلاحي على أرفع المستويات»[٢].

*** «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الكتاب القيم لأبي الحسن الندوي:**

«ترعرع الشيخ الندوي وشبّ وعاش آلام المسلمين وأحلامهم، وكان يفكر ويتحرّق على ما وصلوا إليه من الخسران والخذلان، وهل الخسارة هذه خسارة الأمة المسلمة وحدها أم هي للإنسانية جمعاء؟ وكان هذا الشعور قد تغلب عليه وهو الذي قاده إلى تأليف هذا الكتاب كما يقول الكاتب الكبير الأستاذ محمد واضح رشيد الندوي «إنها قصة الإحساس والوجدان»[٣].

والكتاب صرخة مدوية لعودة الأمة، وأمة العرب بخاصة إلى القيادة من

---

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٤١ ـ ١٤٥).

(٢) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٤١).

(٣) «أبو الحسن الندوي» لمحمد اجتباء الندوي (ص٨١)، وتقديم «قصة كتاب» (ص٣ ـ ٤) دار القلم ـ دمشق.

جديد لتجبر الإنسانية خسارتها.

❑ يقول الشيخ محمد المجذوب في «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧):

«لما صدرت الطبعة الأولى من كتاب «ماذا خسر العالم..» سمعت الأخ الأستاذ محمد المبارك يقول في وصفه: «إنه واحد من خير الكتب التي صدرت في هذا القرن».

وقرأت الكتاب في أناة محاولاً التحرر من إطراء الأستاذ المبارك إياه، ولكني لم أستطع ذلك لأني لم أجد تعبيرًا أكثر إنصافًا للكتاب من تلك الكلمة.

وأشهد لقد أعدت قراءة هذا السفر النفيس عددًا من المرات، بين قراءة كلية وأخرى جزئية، ولا أزال أحس عطشًا نحوه. وقد أثبتت طبعاته الاثنتا عشرة حتى الآن أنه جدير بكل إطراء يستحقه عمل عبقري، وحسبه تقديرًا ما ظفر به من أقلام كبار العلماء كأحمد أمين، وأحمد الشرباصي، ومحمد يوسف موسى، وسيد قطب.

وإني لأعتبر هذا الكتاب أنموذجًا لعقلانية الشيخ، فقد جمع بين التاريخ والفقه والبلاغة والنقد والتحليل، في انسجام تام بين عناصره جميعًا.

وإن القارئ المتدبر ليطل من خلال الكتاب على مواكب البشرية تتوالى نحو غاياتها كالسيول الدافقة في طريقها نحو المصب، وقد اختلفت بها السبل، فسيل يتحدر على غير هدى فيدمر كل ما يمر به، ثم يتلاشى في أعماق المحيط.

وآخر يتدهدى في نظام على غاية من الدقة والعظمة، فيشيع الخير والخصب والجمال في كل بقعة تعترضه.

إنها حركة الإنسانية في اضطرابها بين الخير والشر، بين الصراط المشرق

بنور الوحي، والمهامه الضائعات في ظلمات الجاهليات. بين القيادة النبوية العاصمة الراشدة، والقيادات الإبليسية الطاغية الحاقدة»[١].

❑ يقول الدكتور القرضاوي: «الكتاب نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من منظور إسلامي، وهو منظور عالم مؤرخ مصلح داعية، يعرف التاريخ جيدًا، ويعرف كيف يستخدمه لهدفه ورسالته، وقد ساعده على ذلك معرفته باللغة الإنكليزية، كما ساعده الحس النقدي، والحس الحضاري، والحس الدعوي، والحس الإصلاحي ـ وكلها من مواهبه ـ على تقديم هذه النظرة الجيدة من خلال كتابه الفريد»[٢].

❑ وقال الأديب المفكر الإسلامي سيد قطب في مقدمته للكتاب: «ولكنه لا يعتمد في هذا على مجرد الاستثارة الوجدانية أو العصبية الدينية، بل يتخذ الحقائق الموضوعية أداته، فيعرضها على النظر والحس والعقل والوجدان جميعًا، ويعرض الوقائع التاريخية والملابسات الحاضرة عرضًا عادلاً مستنيرًا، ويتحاكم في القضية التي يعرضها كاملة إلى الحق والواقع والمنطق والضمير، فتبدو كلها متساندة في صفه وصف قضيته بلا تمحل ولا اعتساف في مقدمة أو نتيجة، وتلك مزية الكتاب الأولى»[٣].

❑ ويقول الأديب الأريب الدكتور شكري فيصل ـ الذي أعجب بالكتاب إعجابًا كبيرًا وتأثر به ـ:

«إن ما يمتاز به المؤلف ويرتفع به إلى مصاف كبار المفكرين المسلمين.. ذلك هو نظرته الشاملة العالية إلى تطور الحياة الإنسانية.. إن الأبواب الخمسة

---

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٤٦ ـ ١٤٧).

(٢) «مقدمة الدكتور القرضاوي لكتاب «قيمة الأمة الإسلامية بين الأمم» (ص٣٣ ـ ٣٤).

(٣) مقدمة «ماذا خسر العالم» (ص٢٤) ـ طبعة دار القلم.

التي كسر عليها الكتاب لتدل على هذا الأفق العالي الذي يجتذب التاريخ الإسلامي والتاريخ العام ويركزه فيه، فمن خلال صفحات الكتاب تستطيع أن تستصفي تاريخ الدولة الإسلامية، والدول الأوربية من حيث الحياة الاجتماعية والدينية على السواء.. أن تلمّ بالخطوط العريضة للحركات الدينية وتلاقي هذه الخطوط وتوازيها واقتراب بعضها من بعض، وبُعد بعضها عن بعض»[1].

وهذا الكتاب عصارة دراسة مفكر واع عميق المطالعة، واسع الثقافة، خبير بالأمم والشعوب: أعمالها، وقائعها، مآثرها ومكارمها، بصير بالأخطار والعواقب والنتائج، ويصل بدراسته الحيادية المستقلة وبخبراته وتجاربه إلى أن الأمة التي كانت قد قادت الإنسانية سابقًا إلى شاطئ النجاة، هذه الأمة التي تقدر برسالتها الخالدة، وبقيمها الخلقية النورانية، وبمبادئها الفطرية المنطقية الواقعية، وبعقيدتها الصافية النقية الطاهرة، هذه الأمة هي الجديرة أن تقود الإنسانية جمعاء من جديد إلى الخير والفلاح، فالكتاب ثورة في دنيا العلم والفكر والحضارة والثقافة والتاريخ.

* السبيل إلى الإنقاذ:

❑ يقول الأستاذ محمد المجذوب:

«وحول مستقبل الجيل الإسلامي ومهمة علماء الإسلام نحوه يقول فضيلته: «إن الجيل الإسلامي الجديد سواءً في بلادنا ـ الهند ـ أو سواها من وطن الإسلام، يمر بمرحلة انتقالية على غاية من الأهمية.

لقد تجرع هذا الجيل مرارة الأفكار الأجنبية، وعاش في ظل نظم الحكم غير الإسلامي. ولا يختلف بعضه عن بعض في أي قطر وآخر؛ لأن هذه

(١) «مجلة الثقافة» ٨ ربيع الأول سنة ١٣٧٠هـ (١٨ ديسمبر ١٩٥٠).

النظم في جميع البلدان تستمد جذورها من الحضارة الغربية، فهي على منوال واحد. لكن الصورة اليوم تختلف عما كانت عليه في الماضي. إن تطبيق هذه النظم قد سهل عملية إقناع الجيل الحاضر بضلالها وبكونها جافة وجوفاء.

لقد أخفقت الحضارة الغربية في إسعاد المسلم كليًّا، وذلك من فضل اللَّه علينا، إذ كلما عرف العاملون للدعوة الإسلامية كيف ينتهزون هذه الفرصة، بتوجيه قواهم إلى الكشف عن مساوئ هذه النظم وما تقاسيه الشعوب في ظلها.. كلما فعلوا ذلك أحرزوا نجاحًا جديدًا لدعوتهم.

والمهم الأهم لقادة الفكر الإسلامي، بعد فضح الحضارة الغربية، أن يحسنوا تعهد قلوب المسلمين، بإلهاب العاطفة الدينية، وتعميق الإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأول، على أن يستخدموا لذلك جميع الوسائل الحديثة والقديمة، وطرق النشر والتعليم والاستعداد المادي.

❑ ويقول الشيخ: من أجل تحقيق هذا الهدف لا مندوحة عن إعداد الكتب المفيدة في أسلوب عصري، وتربية الشباب الروحية بتوطيد الصلة بينهم وبين الربانيين، وتضييق الفجوة بين الإسلام وغير المسلمين، وذلك بتنظيم اللقاءات معهم، وتزويدهم بما يجهلونه من حقائق الإسلام.

ويختم فضيلته توصياته الرشيدة بقوله: إن القرآن العظيم وسيرة محمد ﷺ، قوتان في وسعهما أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدنا في كل وقت ثورة مظفرة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مسلمة مخذولة أمة فتية مائجة بالحياة والحماسة والغيرة».

وفي هذه الخطوط المركزة خلاصة عميقة الغور تحمل ضروبًا من تجارب السيد أبي الحسن في دراسة الواقع الإسلامي، وطرق معالجته وتصحيحه.

* **لكن.. من لهذه العقبات!**

إن هاهنا نقدًا حادًا للحضارة الغربية، التي أفسدت الضمير الإنساني، فجنت على الإنسان بعامة والمسلم بخاصة، وهي نظرة ثابتة في أفكار الشيخ لا ينفك يعرض لها في كل ما يؤلف ويحاضر. وبذلك يلتقي مع كبار مفكري الإسلام والغرب المعاصرين، محمد إقبال، سيد قطب، وأخيه محمد، ومحمد محمد حسين، ومحمد البهي، وأنور الجندي، وألكسيس كاريل مؤلف «الإنسان ذلك المجهول» و..

وهاهنا كذلك توكيد على مفاسد النظم الحاكمة في بلاد الإسلام، بوصفها صورًا ممسوخة من تلك الحضارة المدمرة للروح. ويريد الشيخ من علماء الإسلام ومفكريه أن يستفيدوا من إخفاقها الذريع في معالجة قضايا المسلمين، لإبراز عظمة النظم الإسلامية، وقدرتها على تقويم كل عوج وتصحيح كل فساد.

وفي سبيل هذه الغاية يحث على الانتفاع بكل الوسائل الإعلامية، وبخاصة الكتاب الذي يعتمد الأساليب العصرية لنشر هذه الحقائق، إلى جانب التربية الروحية القائمة على الأسوة الحسنة.

ولا جرم أن في هذه التوجيهات الحكيمة، لو أمكن ترجمتها إلى الواقع، خيرًا كثيرًا.. ولكن.. وما آلمَ «لكن» هذه!!.. ما السبيل إلى هذه الترجمة؟.. وما الوسائل الموصلة إليها؟..

إن أهم أدوات الإعلام في ظل الحياة الإسلامية تتركز في هذه المنطلقات الأربعة: المسجد، المنهج التعليمي، الكتاب، السلوك الاجتماعي.

ففي المسجد تُبنى النفوس المؤمنة على مراقبة اللَّه، والعناية بشئون عباده.

وبالمنهج الإسلامي في التعليم يتكون اليقين بقداسة العلم، على أنه

النور الذي يهدي به اللَّه من اتبع رضوانه سبل السلام.

ثم يأتي الكتاب الإسلامي تفصيلاً لهذه المبادئ وإيضاحًا لحقائقها.. ومن هذا وذاك يتكون السلوك المثالي الذي يميز مجتمع الإسلام.

والأربع المنطلقات هذه قد ارتفع عنها سلطان الإسلام في معظم أقطاره. لأن النظم الطاغية قد فرضت رقابتها عليها جميعًا، فليس لخطيب المسجد أن يعلن كلمة اللَّه إلا ملفوفة بألف غشاء.. وكثيرًا ما يكره على ترديد أفكار الطواغيت أنفسهم، وقد يعرض نفسه للعزل والسجن، بل والإحراق حيًّا، إذا جرؤ على الإشارة إلى حكم اللَّه في قوانينهم ـ كما حدث في الصومال منذ مدة ـ ولم يبق للفكر الإسلامي أي صلة بمنهج التعليم؛ لأنه أُخضع للأيدي الملحدة أو المضللة تعبث به كيف تشاء، وإذا استبقت للإسلام فيه من أثر فللتمويه على البسطاء، ولإبرازه في مركز الضعف بإزاء المواد الأخرى التي استغرقت معظم المنهج، وفيها الكثير مما يصادم حقائقه البديهية.

وأي كتاب إسلامي يتاح له الظهور في مثل هذه المباءات المغلقة، إلا أن يحمل من مسوغات الظهور ما يقصم الظهور!

ولا حاجة للإسهاب في وصف المجتمع الذي يرزح تحت هذه الكوابيس، بعد أن فسدت عناصر تكوينه جميعًا.

ذلك هو واقع المسلمين في كل مكان إلا من رحم اللَّه.. ولا بد لنا من ملاحظته في كل ما نصف له من علاج.

وكلمة أخرى في شأن الكتاب.

من فضل اللَّه على القلم المؤمن أنه لا يزال قادرًا على التصريح ولو ببعض الحق، وفي بعض المواطن.. إلا أن في مقدمة العقبات التي تواجهه قلة القراء الذين يعنيهم أمره.

لقد سلكنا الطريق إلى مكافحة الأمية، وكدنا نغرق البلاد الإسلامية بالمدارس على اختلاف أقسامها، وبذلك كثر الذين يحسنون القراءة. ولكن حظ الكتاب الإسلامي من هؤلاء القراء ظل قليلاً محدوداً؛ لأن التوجيه المدرسي والإعلامي قد سبق إلى عقله فصرفه إلى الترهات، فما لبث أن فقد القدرة على استساغة الحقائق.. ثم جاءت الدعايات الساذجة، التي يتطوع لإشاعتها عن حسن نية كتاب مسلمون، ليوهموا بقية القراء أن ميدان النشر خال من الأدب الإسلامي والفكر الإسلامي، فلا قصة إسلامية، ولا شعر إسلامي.. ولا من يحزنون!

أجل.. إن هذا هو واقع المسلمين.. وتلك هي الفجوات التي تعترض سبيل المصلحين.

فمن لنا بإزالة هذه العقبات؟

وما السبيل إلى تحقيق هذه المقترحات؟!.

*** في التربية والتعليم:**

والذي أعلمه من أفكار الشيخ، ومن خلال الأحاديث الخاصة التي يتيحها لنا لقاؤه في المناسبات الإسلامية، أن جوابه على تساؤلنا الآنف ينحصر في الناحية التربوية.. ذلك لأنه شديد التركيز على هذا الجانب في معظم أعماله الفكرية، فهو بنظره المعوّل الأهم في تكوين الجيل الصالح لإقامة المجتمع الصالح. ونظرة مستوعبة إلى أحاديثه الكثيرة في هذا الموضوع كافية لاستبانة هذا الواقع، ولإمداد الباحث بما يكاد يؤلف منهجًا متكاملاً للتربية والتعليم كما يريده أبو الحسن، بل كما يتراءى له في ضوء الإسلام، ومن خلال تجاربه العميقة في هذا الميدان.

وبين يدي الآن صورة المحاضرة التي ألقاها في مهرجان الندوة ـ

٢٦/ ١٠/ ٩٥هـ بعنوان: «أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية..» ومنها أنقل للقارئ الفقرات التالية:

*** منابع السموم:**

يتحدث الشيخ عن عمل المستشارين الأجانب في نظم التعليم المفروضة على العالم الإسلامي، فيقول عن أصحاب السلطان: أنهم «حكَّموا في تخطيط برامجهم التعليمية ومؤسساتهم العلمية الإخصائيين أو المستشارين من البلاد الأجنبية، ولم يستوردوا منها المقررات الدراسية فحسب، بل النظرات التعليمية والتصورات التربوية، وأرسلوا البعثات إلى الخارج لتنشأ في أحضان المربين الغربيين والأساتذة الأجانب، ثم أطلقوا أيديهم ومنحوهم كل حرية في تخطيط البرامج وسياسة التعليم.. فكانت النتيجة وجود طبقة مضطربة العقائد والأفكار والسيرة والأخلاق، أحسن أحوالها أن تكون مذبذبة بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، وإلا فهي في أكثر الأحيان تنسلخ من كل ما يدين به مجتمعها وأمتها».

*** التربية لدعم العقيدة:**

وينقل هنا عن (دون آدامس) في أمر هؤلاء الموجهين طرفته التالية: «زعموا أن فيضانًا قد اجتاح بعض الأماكن، وكان هناك قرد وسمكة، فأما القرد فقد استفاد من سوابق تجاربه فتسلق شجرة ونجا، ثم وقع بصره على السمكة تكافح التيار فأشفق عليها، وحملها إلى الشاطئ وهو يظن أنه ينقذها، فكان في ذلك القضاء عليها».

ويعقب على ذلك بقوله: «إن عملية التربية في أمة أو بلاد ليست بضاعة تصدر إلى الخارج، أو تستورد إلى الداخل، كالمصنوعات أو المواد الخام، أو الحاجيات أو المخترعات التي لا تختص ببلد دون بلد، وإنما هي

لباس يفصل على قامة هذه الشعوب، وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة، وآدابها المفضلة وأهدافها التي تعيش لها وتموت في سبيلها، وأن التربية ليست إلا وسيلة راقية مهذبة لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد، وتغذيتها بالاقتناع الفكري القائم على الثقة والاعتزاز..»[1].

وعلى الرغم من ثقته التامة بصحة هذه الأفكار لم يرض إلا أن يؤيدها بموافقات أساطين الخبراء في هذا الشأن، من أمريكيين وبريطانيين وحتى الشيوعيين، مما يؤكد أن ارتباط التربية والتعليم بمقومات الأمم قضية لا خلاف عليها، بل هي القاعدة الأساسية في بنائهما عند كل أمة تريد لنفسها البقاء في معركة الحياة.. وما دام الأمر كذلك فأحق الأمم بالاستقلال في هذا الميدان هي الأمة التي حملت أمانة اللّه إلى البشرية، وبدينها الخالد الكامل خُتمت رسالات السماء إلى الأرض، فلا سبيل لها إلى أداء هذه المهمة إلا عن طريق استمساكها بالتميز، الذي يحفظ لها أصالتها سليمة من كل تميع أو تبعية أو تقليد. ذلك هو المنطلق الرئيسي الذي عنه يصدر الشيخ في كل ما يتناوله من شئون التعليم منهجًا وأسلوبًا وغاية، ولا جرم أن لوسطه الندوي إيحاءه الفعال في هذا الاتجاه، بما كان لندوة العلماء من أثر ضخم في إحياء هذه المثل وإخراجها من حيز النظر إلى مجال التطبيق.

*** تجربة رائدة:**

ويصف أبو الحسن هذه المؤسسة فيقول: «إنها تمثل فصلاً من أروع الفصول في تاريخ الوعي الإسلامي». إذ كان قيامها ـ ١٣١١هـ ـ لغرض واحد هو إنقاذ الكيان الإسلامي من عملية التدمير التي شنها (دعاة التغريب والردة الفكرية والحضارية من المسلمين والقوميين وغيرهم»[1].

والمتتبعون لأعمال هذه المؤسسة، والمطلعون على نشاطها الواسع في

(١) صفحة ١٠، ١٢ من المحاضرة.

خدمة الفكر والخلق والعربية، يؤيدون أبا الحسن فيما ذهب إليه من تقديرها. ولا أذيع سرًا إذا قلت: إنني أحدهم، فعن طريق معرفتي بمناهجها، وصلتي بخريجيها الملتحقين بالجامعة الإسلامية، أدركت عظم المهمة التي تنهض بها في خدمة الإسلام. (إن هؤلاء الفتية في مقدمة طلاب العالم الإسلامي التزامًا لأدب الإسلام، ورغبة في العلم، وتقديرًا لمدرسيهم، وتقديسًا للغة القرآن، التي لا يكاد يضاهيهم في سلامة النطق بها عربي من نوابغ الطلاب.

إنها لتجربة رائدة نهضت بها تلك المؤسسة، فقدمت للعالم الإسلامي أنموذجًا للتربية والتعليم يستحق الدراسة، ويمكنه أن يقيم لدعاة الإصلاح معالم على الطريق ذات دلالات لا تنكر.

ولقد حفلت مناهج الندوة بكل جديد مفيد من المواد العصرية، إلى جانب المقررات الإسلامية الضابطة، مع مراعاة الاحتمالات النفسية لطالب العلم. إلا أن عامل التفوق في عملها هو دستورها التربوي، الذي جمع بين التعليم والتطبيق على أفضل الوجوه. وأن في خريجيها، الذين تسنموا أرفع المنازل بين أساطين العلم في العالم الإسلامي كله، لأبرز الأدلة على أننا منها تلقاء واحد من أنجح المشروعات التعليمية في هذا العصر[1]. انتهى كلام الشيخ محمد المجذوب[2].

❑ يقول الشيخ محمد المجذوب:

«ولا حاجة إلى التذكير بأن فضيلة الشيخ أحد ثمرات هذه المؤسسة المباركة، وقد شاء اللّه أن ينتهي إليه لواؤها، فيتابع طريق أسلافه في دفعها

(١) من بحث قدمناه إلى المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي المنعقد في مكة المكرمة ربيع الآخر ١٣٩٧هـ.

(٢) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٤٧ ـ ١٥٣).

إلى الأعلى يومًا بعد يوم. وحسبه من ذلك وهذا ثروة لا تقوم من الخبرات الحية، التي تمده بكل سديد من الرأي في مجال التعليم الإسلامي. ولا عجب بعد ذلك أن يحظى هذا المفكر العملاق بكل التقدير الذي تحفه به أوساط العلية من مثقفي العالم الإسلامي، حتى ليجمعون على تقديمه للكلام باسمهم في أكبر المؤتمرات.

ثم لا غرو أن ينال هذا (المعلم) الممتاز مثل الحب الذي لمسته من طلابه نحوه، حتى ليتسابقون إلى خدمته في سعادة لا توصف، وحتى ليكون وقع الألم في أعينهم أخف عليهم من أن يلم به أي أذى مهما يكن قليلاً.

وذلك بعض فضل اللَّه عليه في الدنيا، وللآخرة أكبر درجات ـ إن شاء اللَّه ـ وأعظم تفضيلاً»[1].

*** أبو الحسن الندوي المربي الفاضل:**

لقد شغل أمر التعليم والتربية بال الدعاة والعلماء، وكان سماحة الشيخ الندوي قد أولى عنايته البالغة بالتربية، وتعرّض لها في معظم مؤلفاته، وبدأ يكتب مقالات ويُلقي محاضرات منذ الخمسينات، وجُمعت هذه المقالات والمحاضرات في كتاب بعنوان «نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية» وقد أفاض ـ رحمه اللَّه ـ في بيان أهمية التعليم الإسلامي وقيمة التربية معه فقال:

«إن التربية لا تقل أهمية عن التعليم، وإذا خلا التعليم عن التربية أصبح بلا نتيجة في أكثر الأحيان، ونقصًا في ناحية التربية ليس بأقل من نقصنا وفقرنا في ناحية التعليم ومنهاج دراسته وموضوع التربية موضوع

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (١/ ١٥٤).

واسع، طويل الذيل، وكثير الشعب والنواحي»[١] .

وقد قدّم سعادة الأخ الفاضل والعالم المربّي الدكتور محب الدين أحمد أبو صالح حفظه اللّه بحثًا قيمًا عن «التربية الإسلامية عند سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي» إلى الندوة العالمية لرابطة الأدب الإسلامي العالمية في استنبول «تركية» وأشار فيه إلى «أهمية التعرف على الفكر التربوي الإسلامي ـ أو التربية الإسلامية ـ عند سماحة الشيخ الداعية المربي أبي الحسن علي الحسني الندوي، باعتباره من كبار علماء العالم الإسلامي، وقادته الفكريين والأدباء، والدعاة والمربين «وذكر الباحث أن من مزايا الشيخ أنه شخصية مربّية بذاتها، ومربية بكتبها ومؤلفاتها، ومربية بمحاضراتها وخطبها، ومربية بدعوتها الحكام والمسئولين التربويين إلى وجوب الأخذ بالتربية الإسلامية والابتعاد عن النظم التربوية ـ المستعارة ـ الغربية والشرقية، وشخصية الشيخ مربية ـ أيضًا ـ بمشاركتها في التخطيط لبعض الجامعات والمؤسسات العلمية الجديدة، وفي تطور القديم منها»[٢] .

* الشيخ الندوي و«الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية»:

لما هاجمت البلاد الغربية الديار الإسلامية الهجوم العنيف الشرس في كل جانب من جوانب الحياة، لم يكن هذا التوجه لنقل الرقي الحضاري والصناعي إلى هذه البلاد، بل كان القصد منه السيطرة والهيمنة على جميع الموارد والمصادر والمناهل والملك، وكان استعمارًا تامًا لتلك البلاد، فتجمع الغرب كله، وبدأ يكيل التهم جزافًا، ويسفّه الأحلام والعلماء ويكذب المبادئ

(١) «نحو التربية الإسلامية الحرة» لأبي الحسن الندوي (ص١٧).

(٢) «مجلة البعث الإسلامي» ـ عدد ممتاز عن فقيد الأمة (ص٢٠٤ ـ ٢٠٥).

والحقائق، وكانت الافتراءات على الدين الإسلامي كثيرة إلى حد أنه وُضع في قفص الاتهام. وكان يواكب الجيش والعلم ووسائل الإعلام المبشرون المسيحيون المثقفون بثقافات الأديان والمذاهب وتاريخها ولغتها، فيلقون أسئلة لاذعة ويعرضون خلافات ونزاعات فكرية وفقهية وكلامية، ويبترون الحقائق بترًا، ويقتطعون العبارات والكلمات، ويوقعون عامة المسلمين الذين لا يعرفون من العقيدة والمبادئ الإسلامية إلا قليلاً، فصار الناس في بلاد الإسلام في (موقف الاعتذار) وكان للأمرين رجال وأناس، ولكن كلا الموقفين لم يثبتا ولم يجدا جذورًا قوية نامية فصار هباءً منثورًا، ومرّا مرورًا سريعًا، بَيْد أنه خلّف وراءه صراعًا فكريًّا شديدًا وعنيفًا في العالم كله. وهذا ما يتحدث عنه كتاب «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» لأبي الحسن الندوي. وهذا الكتاب كما يقول الندوي نفسه: «كتاب الساعة؛ لأنه يبحث عن قضية مصيرية للأقطار الإسلامية»، ويعين مكانتها في خارطة الإسلام المعنوية والمبدئية في جانب، وفي خارطة العالم الحضارية والاجتماعية في جانب آخر، ويحدد قيمتها الحقيقية من وجهة نظر الإسلام ورسالته وأهدافه. وهو من أهم كتب المؤلف وهو يُعدَّ الحلقة الثانية من كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»؟

استعرض ـ رحمه اللّه ـ الفكرة الغربية بتفاصيلها وأبعادها، ودرسها دراسة عميقة واعية، وأدرك أخطارها المحدقة بالإسلام والمسلمين في ديارهم كلها، لذلك خصّ كل بلد إسلامي بدراسة هذه الظاهرة فيه، وأفكارها، وحُماتها وكتاباتهم ونشاطاتهم، ثم لفت الأنظار إلى ما تخفي في جنباتها من التدمير والتخريب والأخطار التي تترصد العالم بسببها، ونبّه إلى الوسائل الوقائية والطرق السويّة السليمة لتجنب تلك الأخطار، وأشاد بما قام به المفكرون الإسلاميون العاملون بهذا الصدد، وكيف تصدوا لهذه الفكرة

الغربية، وتغيّر مفاهيمها الدينية وتقاليدها القومية وقوانينها الإسلامية بالأوضاع الغربية، وعلى حد قول الشيخ الندوي فإنها تريد أن تصهر هذه البلاد بتؤدة وأناة ولكن بوعي وإلحاح في بوتقة الحضارة الغربية».

❑ يقول القرضاوي عن الكتاب: «هو يبين كيف دخلت الفكرة الغربية ديار المسلمين، وصارعت الفكرة الإسلامية، التي هي الأصل وصاحبة الدار، وكيف كادت تنفرد بالتأثير والتوجيه فترة من الزمن، ثم قيّض اللَّه للفكرة الإسلامية من يجددها ويدعو إليها ويذود عنها لتتبوأ مكانتها».

❑ لقد كشف الندوي ـ رحمه اللَّه ـ القناع عن حركة التغريب «التقدمية!!» في العالم الإسلامي وسيلها العارم الجارف بنظرة فاحصة شاملة من علمه الجم.

وبيّن ـ رحمه اللَّه ـ مركز الأمة الإسلامية ورسالتها بكل قوة ووضوح، وألهب وأثار الغيرة الدينية والحماسة والروح البطولية، ليُحيي فيه المؤمن القوي العليم الصالح المصلح، ويشير إلى أنه في مثل هذا الموقف الشائك الحرج المتأزم تمسّ الحاجة إلى ذلك العبقري العصامي الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء، ويشق له طريقًا بين مناهجها ومذاهبها، ويبين فضائلها ورذائلها، طريقًا يترفع عن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر، والمفاهيم السطحية، ويتمسك بالحقائق وأسباب القوة، وباللباب دون القشور»[1].

ويرسلها الندوي دعوة مجلجلة لاختيار الطريق السوي في ضوء من الآية الكريمة ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ**

(١) «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» للندوي (ص٢١٦).

شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وهذا الكتاب بلا ريب كتاب الساعة، وحاجة العصر، ومطلوب الأمة.

* ردة ولا أبا بكر لها:

أمام غارة الغرب على دين الأمة، وشعائرها، وقيمها، ومبادئها، وأخلاقها، وتقاليدها، ولغتها، وثقافتها وحضارتها ورسالتها بحصاره وقيوده وأغلاله، واندهش الناس واحتاروا، ووجهت إلى المسلمين التهم والافتراءات والأكاذيب والأباطيل، وتصدى أبو الحسن الندوي بغيرته على الإسلام وكيانه لهذا التيار المنحرف الجارف وواجهه بكتابات فكرية علمية موضوعية، وبنداءات مجلجلة قوية واضحة صريحة، وصدرت له مقالات متتابعة متواصلة منها: إلى ممثلي البلاد الإسلامية، معقل الإنسانية، المد والجزر في تاريخ الإسلام، بين الصورة والحقيقة، ثورة في التفكير، بين الجباية والهداية، دعوتان متنافستان، مصرع الجاهلية، أزمة إيمان وأخلاق، العوامل الأساسية لكارثة فلسطين، ارتباط قضية فلسطين بالوعي الإسلامي.. ردة ولا أبا بكر لها.

وهزّ مقاله الثائر الرائع المؤثر القلوب ولفت الأنظار، وأثار الشعور، وأقبل القرّاء المسلمون عليه اقبالاً منقطع النظير.

❑ قال الندوي عن هذه الردة: «لكن حرب العالم الإسلامي في العهد الأخير ردّة اكتسحت عالم الإسلام من أقصاه إلى أقصاه، وبزّت جميع حركات الردة التي سبقتها في العنف وفي العموم، وفي العمق والقوة، ولم يخل منها قطر، وقلما خلت منها أسرة من أسر المسلمين، وهي ردة تلت غزو أوروبة للشرق الإسلامي، الغزو السياسي والثقافي، وهي أعظم ردة

ظهرت في عالم الإسلام وفي تاريخ الإسلام، منذ عهد الرسول ﷺ إلى يوم الناس هذا»[1].

*** إلى الإسلام من جديد:**

طالب الندوي العالم الإسلامي بالقضاء على هذه الردة بدعوة إسلامية جديدة فيقول: «إن العالم الإسلامي في حاجة شديدة إلى دعوة إسلامية جديدة، وإن هتاف الدعاة والعاملين فيه وهدفهم اليوم (إلى الإسلام من جديد)، ولا يكفي الهتاف، إنه لا بد من تصميم حكيم قبل العمل، لا بد من تفكير هادئ عميق، كيف نرد الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة وتملك الزمام إلى الإسلام من جديد، وكيف نبعث فيهم الإيمان والثقة بالإسلام، وكيف نحررها من رقّ الفلسفات الغربية والحضارة العصرية ونظرياتها اللادينية؟ إنه في حاجة إلى رجال ينقطعون إلى هذه الدعوة، ويكرّسون لها علمهم ومواهبهم وكفايتهم، ولا يطمعون بمنصب أو جاه أو وظيفة أو حكومة، ولا يحملون لأحد حقدًا، ينفعون ولا ينتفعون، ويعطون ولا يأخذون، ولا يزاحمون طبقة في شيء تحرص عليه وتتهالك، حتى لا تكون لها حجة عليهم، ولا للشيطان سبيل عليهم، شعارهم الإخلاص والتجرد عن الشهوات والأنانيات والعصبيات، إن العالم الإسلامي في حاجة إلى منظمات علمية تهدف إلى إنتاج الأدب الإسلامي القوي الجديد الذي يعيد الشباب المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد، ويحررهم من رقّ الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعي ودراسة وأكثرهم بتقليد وتسليم، ويقيم في عقولهم أسس الإسلام من جديد، ويغذي عقولهم وقلوبهم، إنه في حاجة إلى رجال في كل ناحية من نواحي عالم الإسلام

(١) «إلى الإسلام من جديد» للندوي (ص١٧٢ ـ ١٧٣) ـ دار القلم بدمشق.

عاكفين على الجهاد»[١] .

إن الكتاب دعوة مخلصة جامعة شاملة، ونداء قوي مجلجل، وهتاف عال رفيع لايقاظ الضمائر وإحياء القلوب، وإيقاد جمرات الأفئدة لتشتعل ثورة في المجتمع وتعود به إلى إيمان جديد غض طري، وتدوي صرخة في آذان جمهور المسلمين إلى الإسلام من جديد.

وقد حدث أن الشيخ الندوي ـ رحمه اللَّه ـ سافر إلى سريلانكا بدعوة من جامعتها الإسلامية عام ١٩٨٢م، فرحّب به نائب رئيس الجامعة محمد شكري، وقال: إن فكرة إقامة هذه الجامعة إنما بتلورت وقويت بل ظهرت بعد مقالكم (ردة ولا أبا بكر لها)، وقد أعجب الحاج المؤسس بهذا الموضوع، وملك عليه تفكيره وقلبه[٢] .

*** الدين النصيحة:**

فـ «سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي يُعدّ في طليعة أولئك العلماء والمفكّرين القلائل الذين أسهموا بكتاباتهم العلمية المبدعة، وجهودهم الدعوية القوية، في النهضة الإسلامية الواعية منذ نصف قرن، وسدّوا الثغرات العلمية والأدبية الهامّة، وملأوا الفراغ الفكري، في تفهّم أسرار الشريعة، وفي تحليل الوقائع والأحداث، بالدقة العلمية والغوص العميق، وتشخيص الأمراض واتخاذ الوسائل والأساليب لمعالجتها، مع المميّزات الروحية المشرقة، وأخلاق علماء السلف الكريمة»[٣] .

---

(١) إلى الإسلام من جديد» (١٨٦ ـ ١٨٧).

(٢) «في مسيرة الحياة» للندوي (١/ ٤١٨).

(٣) «الأستاذ أبو الحسن الندوي الوجه الآخر» من كتاباته للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد (ص٥) نقلاً عن «أبو الحسن الندوي كاتبًا ومفكرًا» لنذر الحفيظ الندوي الأزهري (ص٣) دار القلم ـ الكويت.

ولقد جمع أخونا في اللَّه الشيخ الفاضل صلاح الدين مقبول في كتابه القيم «الأستاذ أبو الحسن الندوي» ما كتبه الندوي باللغة الأردية وظهر فيها بشكل واضح صوفياته نقده فيها جمع من أهل العلم منهم شيخه الشيخ خليل بن محمد اليماني وشيخه العلامة تقي الدين الهلالي، والدكتور شمس الدين الأفغاني، والشيخ عبدالحميد الرحماني، والشيخ زين العابدين الأعظمي، والأستاذ عادل التل، والأستاذ محمود عبدالرءوف القاسم، والشيخ رفيع أحمد، والشيخ رضا علي بن عبداللَّه[1] .

يوجد في كتابات الأستاذ الندوي ـ على حيطة وحذر ـ كل ما يوجد عند غلاة المتصوفة من الصوفيات ففيها: التباكي على قتل الحلاّج، والدفاع عن ابن عربي، وتأويل أباطيله، وتقرير «وحدة الشهود» إزاء «وحدة الوجود» وتأثير الصوفية في الأكوان والأشخاص، ومكاشفتهم القلوب، وإشرافهم على الخواطر، والمراقبة عند القبور، والقول بأن الأقطاب وغيرهم يسمعون»، وكلامه عن أن أول خلق اللَّه المحبة، والسماع الصوفي، والشطحات والدعاوي، والظاهر والباطن، والغيب، والفناء، والمحوية والاستغراق، وثناؤه على جلال الدين الرومي ومثنويه ودعوته إلى وحدة الوجود».

* العالم الرباني حمود بن عبداللَّه التويجري (١٣٣٤هـ ـ ١٤١٣هـ) ودفاعه عن عقيدة السلف:

كان ـ رحمه اللَّه ـ شديد الغضب للَّه، يتبيّن ذلك حين يعلم أن أحداً يُجاهر بمعصية أو يعارض سنّة أو ينشر بدعة.

كان قويًّا في الحق لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، مجانبًا لأهل البدع

(١) «الأستاذ أبو الحسن الندوي» ـ الوجه الآخر من كتاباته» (٣/ ٦٤٣).
(٢) المصدر السابق (١/ ٩ ـ ١٠).

والأهواء، محاربًا لهم بلسانه وقلمه»[1].

❑ ومؤلفات الشيخ التويجري تذب عن عقيدة السلف ومنها:

ـ «الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر».

ـ و«الرد القويم على المجرم الأثيم» وهو ردّ على من تعرّض لصحيح البخاري.

ـ و«إثبات علو اللَّه على خلقه».

ـ و«تحفة الإخوان بما جاء من الموالاة والمعاداة والحب والبغض والهجران».

ـ و«الصارم البتار للإجهاز على من خالف الكتاب والسنة والإجماع والآثار» (وهو رد على من أباح الربا في البنوك).

و«القول المحرر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

ـ و«عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن».

ـ و«الإيضاح والتبيين لما وقع فيه الأكثرون من مشابهة المشركين».

ـ و«إيضاح المحجة في الردّ على صاحب طنجه». وهو رد على أحمد الغماري.

ـ وكتابه «إنكار التكبير الجماعي» فرحمه اللَّه وأجزل له المثوبة والثواب بذبه عن عقيدة السلف الأكرمين.

*** الشيخ صلاح أبو إسماعيل يصدع بالحق:**

جذب الأنظار والأفكار في مختلف أرجاء العالم الإسلامي في وقته لأنه ذكّر المسلمين بالتحفة النادرة التي قلّما يقعون عليها في واقعهم، مع أنها

(١) «إتحاف النبلاء بسير العلماء» (ص١٩٥).

من الخصائص الأولى لهذه الأمة التي ميّزها اللّه بالخيرية، المتمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

دوّى اسمه في الصحف والإذاعات العالمية وهو يدافع عن قضايا الإسلام؛ «لأنه كان نذيراً بأنه لا يزال بين علماء الإسلام من يؤثر مرضاة اللّه على النفس والحياة والمنصب، فيعلن شهادة الحق في أحرج المواقف، يرسلها مجلجلة ناصعة لا تخاف في اللّه لومة لائم، حفاظًا على قلبه من أن يخالطه الإثم الذي أوعد اللّه به كاتمي الشهادة.

وإنها لعمر الحق لبطولة تفوق سائر البطولات التي ألف الناس أن يمجدوها ويقيموا لها الأنصاب والمعالم، وبخاصة بعد أن خرست أصوات الصادقين وطغت ضوضاء المنافقين، وأصبحت فنون البلاء موكلة بالألسن، فهي تتهيّب أن تهمس بكلمة الحق خشية أن تقطع أو تنزع..

وكان للرجل موقف ويوم تاريخي لا يُنسى له.

كان ـ رحمه اللّه ـ من أشد المنافحين عن شريعة اللّه والصادعين بالكلمة التي تُرضي اللّه وتُسخط كل عدو له.

رتب الشجاعة في الرجال قليلة وأجلهن شجاعة الآراء

قدّم استجوابًا لرئيس الوزراء عن تصريح السادات بألاّ سياسة في الدين ولا دين في السياسة وقد حشد في هذا الاستجواب البيّنات القاطعة على كمال السياسة الإسلامية وتفوقها على كل نظام في تأمين العدالة والأمن لأصناف البشر على اختلاف معتقداتهم، وبلغت صفحاته العشرين.

❑ يقول الشيخ صلاح أبو إسماعيل: «قدّمته إلى رئيس مجلس الشعب ليدرجه في أعمال أقرب جلسة، غير أنه جبن عن مجرد تقديمه، فذهبت به إلى القصر الجمهوري حيث قدّمته بنفسي إلى الدكتور زكريا البري.. وزير الأوقاف آنذاك ـ ليبلغه إلى رئيس الجمهورية، وضمنته كذلك التنديد بقول

السادات: إن قدوته مصطفى كمال أتاتورك.. ثم كان ما كان من تصادم مع الحزب الوطني والغالبية المؤيدة للحكومة بالحق والباطل. وهناك استجواب آخر وجهته إلى جمال الناظر وزير السياحة والطيران المدني عن تقريره الخمر في المدرسة الفندقية التابعة لوزارته في بلد دينه الرسمي الإسلام، والشريعة هي المصدر الرئيسي للتشريع[١].

وكان لي استجواب كذلك ضد عربدة الإعلام، ومن قبل كان لي استجواب ضد الأستاذ عبدالمنعم الصاوي وزير الإعلام عن تصريحه في أمريكا بأن الشريعة الإسلامية لن تطبق في مصر. وكان لي استجواب موجه إلى الدكتور عبدالمنعم النمر عن تفريطه كوزير للأوقاف في استرداد نحو ثلاثة وسبعين ألف فدان، كانت البقية الباقية من أراضي الأوقاف المغتصبة من الأزهر والمساجد عام ١٩٦١ إبان التحول الاشتراكي، وقد قضى فيها القضاء بحكم نهائي وباتٍّ بردها لوزارة الأوقاف سنة ١٩٧٣، وفرّط وزراء الأوقاف المتعاقبون في المطالبة بتنفيذ هذا الحكم»[٢].

▫ كذلك شهد مجلس الشعب مواقفه الرائعة ضد قانون السادات للأحوال الشخصية.. يقول عنها الشيخ صلاح أبو إسماعيل: «وهي معارك خضتها ضد الثلاثة الكبار محمد عبدالرحمن بيصار شيخ الأزهر السابق، وجاد الحق علي جاد الحق مفتي مصر السابق، وعبدالمنعم النمر وزير الأوقاف سنة ١٩٧٩مم وهذه الاستجوابات وغيرها من المواقف البرلمانية، كانت تحتاج إلى مستمعين يقدسون الإسلام، وإلى أعضاء يعرفون للقرآن حرمته وللسنة حجتها»[٣].

---

(١) بل الحق أن يقال إن الشريعة هي المصدر الوحيد للتشريع.. والتشريع حق مطلق للّه عز وجل.

(٢) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(٣) المصدر السابق (٢/ ١٥٥).

❑ ويذكر التاريخ بالخير للشيخ صلاح أنه في يناير ١٩٧٩ انتهز فرصة العمرة لما يقرب من ثلاثمائة عضو من أعضاء مجلس الشعب وبايعهم وبايعوه في الحرمين الشريفين على أن تكون أصواتهم لشرع اللَّه، لا يغلبهم على ذلك انتماء حزبي.. يقول الشيخ صلاح: «فما كان من الرئيس أنور السادات، إلا أن أصدر قراراً بحل مجلس الشعب بعد استفتاء ملفق، وأسقط معظم هؤلاء الذين تعاهدنا معهم في الحرمين الشريفين»[1].

❑ وكان لصوته ـ رحمه اللَّه ـ أثر في تعديل المادة الثانية من الدستور فأصبحت تنص على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع ولم تكن موجودة من قبل.

ولم تكن لجان تقنين الشريعة موجودة فُوجدت، وأنجزت عملها تمامًا، بل وأتمت طباعته في التشريعات الاقتصادية والاجتماعية والمدنية والجنائية، وفي التقاضي ولم يبق سوى التطبيق.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «الظلام الكثيف يبدده النور الخفيف.. فكيف بالنور الوهاج، واللَّه متم نوره ولو كره الكافرون».

❑ ويقول ـ رحمه اللَّه ـ: «لا شك أن عالمنا العربي والإسلامي، وقد مُني بالاستعمار الزاحف عليه من الخارج بعد أن أصيب بالتمزق الذي بعثر صفوفه، وفرّق كلمته داخل الدوائر العربية والإسلامية، قد أصبح في وضع دولي تبخرت معه العزة الإسلامية؛ لأن الذين ينسون اللَّه ينسيهم اللَّه أنفسهم، فالذين يدورون في فلك الغرب، والذين يدورون في فلك الشرق، إنما يدورون جميعًا في أفلاك قوى عالمية لا تتفق إلا على محاربة الإسلام، وهذا هو السر في تأخر الاستجابة حتى اليوم للمطلب الشعبي على مستوى

(١) المصدر السابق (١/ ١٥٤).

العالم الإسلامي المتمثل في تطبيق الشريعة الإسلامية.. ﴿إن اللَّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ الآية[1] . فجزى اللَّه الشيخ صلاح خير الجزاء.

*** الشيخ حافظ سلامة بطل السويس الذي صدّ برجاله اليهود عن الاستيلاء على السويس:**

❑ للَّه در الشيخ حافظ على أحمد سلامة صاحب المواقف العجيبة في مدينة السويس أثناء اقتحام شارون اليهودي لثغرة الدفرسوار في معارك رمضان.

❑ وجزاه اللَّه خيراً عن بنائه لبيوت اللَّه.. والقاصي والداني يعلم أن مسجد النور بالقاهرة أثر من آثاره ولكن «سمعة الشيخ حافظ سلامه خارج مصر إنما قامت بالدرجة الأولى على جهاده وإخوانه في حرب ١٩٧٣م وعن مواقفهم أيامئذ يقول:

لقد خدعنا أول الأمر بالبيانات المضللة التي كانت تذاع عن قوات العدو الإسرائيلي وتحركاته، حتى فوجئنا بوصول العدو إلى مشارف مدينة السويس، فكان علينا أن نتخذ الموقف الواجب بإزاء ذلك الخطر الداهم، وهكذا دعوت إخواني الذين تربوا في جمعية الهداية الإسلامية ومسجد الشهداء مدنيين وعسكريين، ونظمت صفوفهم خلال لحظات، وزودناهم بالأسلحة والذخائر التي انهمرت علينا دون أن نعلم كيف ساقها اللَّه إلى مسجد الشهداء من حيث لا ننتظر في تلك الساعة العصيبة.. حتى إذا صار العدو إلى أطراف البلد ووجه بسيل من النيران لم يتوقعه، وبمقاومة تعترض قواته لأول مرة بشراسة نادرة، من رجال باعوا أرواحهم للَّه، حتى فقد جنود

(١) المصدر السابق (١/ ١٥٨).

العدو أعصابهم، وتركوا معداتهم الثقيلة، أمام هؤلاء الأبطال الذين ثبتهم اللَّه، وقذف الرعب في قلوب أعدائهم فانطلقوا منهزمين، تاركين قتلاهم في شوارع السويس وأزقتها تنهشهم الكلاب الضالة التي حرمت الغذاء طويلاً.

وهنا بدا للعدو أن يقوم بمحاولة من نوع آخر لاحتلال المدينة، فوجهوا إنذارًا نهائيًا إلى محافظ البلد والمسئولين معه، من مدير الأمن والقائد العسكري، بوجوب تسليم المدينة وإلا عمدوا إلى تدميرها.

ولم يجد هؤلاء المسئولون أمامهم من سبيل سوى الإذعان لمطالب الأعداء «حماية للمدينة من الدمار، وحفاظًا على أرواح سكانها العزل»، وقد أعدوا الراية البيضاء لإعلام العدو بخضوعهم.

وجاء القائد العسكري ليخبرني بما تم عليه الاتفاق، وراح يدافع عنه بمختلف الحجج لإقناعي به. ولكن عناية اللَّه كانت فوق محاولته، فقد رفضت الاتفاق في تصميم قاطع، وقلت للقائد: أنت والمحافظ ومدير الأمن كل منكم مسئول عن نفسه فقط، أما موضوع المدينة فقد أصبح من مسئوليتنا، وعلينا وحدنا يقع واجب الدفاع عنها.

وكان العدو قد بدأ يذيع على السكان أن المسئولين عن البلد قد وافقوا على التسليم، فعلى الأهلين أن يتجهوا إلى المركز الرياضي لتقوم القوات الإسرائيلية بترحيلهم إلى القاهرة.

وإنما يريد العدو بذلك تدمير الأعصاب ونشر الرعب واليأس، فلم ألبث إلا ريثما أخذت مكبر الصوت الخاص بمسجد الشهداء، وانطلقت أعلن للناس بأننا رفضنا الإنذار الإسرائيلي، وأننا مصممون على استمرار الجهاد إلى آخر قطرة من دمائنا.. وجعلت أهيب بشباب الإسلام أن يتقدموا على بركة اللَّه وملؤهم اليقين بأن اللَّه معهم ما داموا في طاعته ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾.

ومن ثم وجهت كلامي إلى العدو قائلاً: إن أرض السويس الطاهرة متلهفة إلى دمائكم القذرة، وإذا حاولتم دخولها مرة ثانية فمرحبًا بذلك اللقاء المنتظر، ونحن على أتم استعداد للقضاء عليكم بمشيئة اللَّه.

واستجاب اللَّه لضراعتنا، فآتانا من التوفيق ما لا يتصور بالنسبة إلى ضعف عتادنا بإزاء استعدادات العدو، وخلال ثمان وأربعين ساعة دمر اللَّه بأيدينا اثنتين وثلاثين دبابة ومصفحة، غير الآليات التي أصبناها بما دون التدمير، وقد تناثرت جثث قتلاهم حتى عجزوا عن إخلائها، وقذف اللَّه في قلوبهم الرعب، فلم تغن عنهم إمكاناتهم الكبيرة، من طائرات ودبابات وصواريخ وما إلى ذلك من أحدث الأجهزة التي توصل إليها العلم. وصدق اللَّه العظيم القائل في كتابه الحكيم: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ**...﴾.

وقد سبق أن قرأت في «أخبار العالم الإسلامي» طائفة من أنباء الكرامات التي أمد اللَّه بها أولئك المجاهدين، فأردت أن أستوثق من أمرها فسألت الشيخ أن يطرفنا ببعض الحديث عنها تقديراً لنعمة اللَّه الذي وعد جنوده بالنصر، إذا ما قطعوا رجاءهم من خلقه، ولجئوا بضعفهم إلى قوته وحده.

❑ يقول فضيلته: حقًّا لقد واجهتنا هناك أحداث غريبة لا نجد لها تفسيراً إلا على ضوء الإيمان. ومن ذلك أن العدو عندما عجز عن اقتحام البلد عمد إلى تخريب المرافق الضرورية، فقطع المياه عن المدينة ليدفع أهلها إلى التسليم، وكان لذلك وقع رهيب إذ لم يكن ثمة مطمع بالحصول على أي ماء يصلح للشرب وكل ما حول المدينة من الماء فهو الملح ولا سبيل إلى الري إلا بمعجزة من وراء التدبير البشري. فأقبلنا على اللَّه ندعوه أن يدركنا برحمته، ثم عمدنا إلى اتخاذ الأسباب الشرعية، فأحدثنا حفرة بجوار مسجد

الشهداء، وإذا هي تتدفق بأعذب الماء، وقدمنا إلى بئر أخرى قد هجرها الناس لسواد مائها وملوحته، فقرأ بعضنا عليه فاتحة الكتاب، وألقينا فيها قليلاً من السكر، فإذا بمائها الكريه يستحيل عذبًا زلالاً بفضل اللَّه وبرحمته. وقد كفى اللَّه عباده المجاهدين حاجتهم من هذه المياه طوال مدة الحصار الذي استمر مائة يوم، فلما أن عادت مياه النيل إلى عطائها بعد انفضاض العدو رجعت مياه البئرين إلى أسوأ ما عرفه الناس من الملوحة والسواد!.

وإني لأتساءل اليوم كما يتساءل إخواني كلهم: لولا أن مَنَّ اللَّه علينا بهذه الرحمة الخارقة فأي مصير كان سيلاقيه المائة والخمسة عشر ألفًا من سكان هذه المدينة!! فالحمد للَّه ثم الحمد للَّه.

ويقف الشيخ حافظ عند هذا الموقف وحده من جملة الأحداث التي يتناقلها الناس عن أيام السويس وأراني هنا مدفوعًا إلى ذكر موقف آخر لا يقل عن ذلك من حيث الأهمية والدلالة، وقد سمعت قصته من الصديق الأزهري الثقة الشيخ محمود عبدالوهاب فايد ـ المحاضر بالجامعة الإسلامية.

كنا مجموعة من المشايخ في زيارة لمدينة السويس في أعقاب حرب رمضان ١٩٧٣م وهناك اجتمعنا ببعض المجاهدين، وطلبنا إليهم أن يقصوا علينا بعض أحداث الحصار العصيب، فأشاروا إلى فتى منهم قائلين: سلوا هذا الأخ عن قصته مع اليهود ففيها ما يسركم.

❑ وبكثير من التردد شرع الفتى يحدثنا بقصته:

«ذات ليلة حالكة السواد كنا زمرة من المجاهدين في أحد الكمائن نترقب تحركات العدو، وشعرت بالحاجة للخروج إلى الخلاء، فما إن انتهيت إلى المكان الذي أريد حتى أحسست جلبة قريبة، فتوقفت أصيخ بسمعي لأتبين المصدر أحيوان أم بشر.

وسرعان ما أتضح لي أن مجموعة من الرجال يتحركون في انتظام،

فأدركت أنها دورية يهودية، ولم يكن معي سلاح، فوجدت خير ما أصنعه هو أن أطلق صرخة الإنذار، فيسمعها إخواني فيأخذوا حذرهم، وصحت بقوة: كلمة السر.. ولم أكد أفرغ من ندائي حتى رأيت الأيدي تمتد إلى أعلى وقد ألقت بما معها من الأسلحة إلى الأرض.. ولم أتريث فأمرتهم بالسير أمامي فلم يتلكئوا، ومضيت وراءهم أوجههم حتى انتهيت بهم إلي موضع الرفاق، الذين كانوا قد اتخذوا وضع الاستعداد.. وهكذا وفقنا اللَّه لأسر عشرة أفراد من العدو دون أن نضطر إلى إطلاق رصاصة واحدة..»[1].

❑ انظر إلى الشيخ حافظ وهو يقول:

«قد بلغ من حقد السادات عليّ أن وصفني بالجنون؛ لأنني جنَّنته بنشاطي في مقاومة خططه الشيطانية على مستوى القطر، من أقصى أسوان إلى أقصى السويس»[2].

وفي اليوم الحق.. يوم القيامة، سيفصل الملك الحق.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

* الدكتور محمد عباس القلم الطاهر المدافع عن الإسلام.. الحيّ بين الموتى:

لا فضّ فوك دكتور محمد عباس.. أنت أمة في هذا الزمان.. تذوب كمداً لحال أمتك تصدّيت وحدك لمن طعنوا في ثوابت ديننا.. وكانت لك المقالات الهادرة ضد رواية «وليمة أعشاب البحر».

صودر لهذا الضخم العظيم محمد عباس كتابه «بل هي حرب على

(١) «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/١١٨ ـ ١٢١).
(٢) المصدر السابق (١٢١).

الإسلام» وصرّح الرجل بما لم يصرّح به غيره.. وبدا الرجل عملاقًا وسط الأقزام..

واللّه إن دور الرجل في الكتاب عن مآسي المسلمين يفوق ملايين الخطب.. ولا تجد من يصرح بمثل قوله، عقمت الكثيرات أن يأتين بمثله فللّه درّ أم أوحدت به في زمن الخصيان، زمن تحيض فيه الرجال.

وغالب كتبه قذائف موجهة تعيد إلى المسلم رجولته وتبصّره دوره ومواقع خُطا قدميه وإليك واحدة من مقالاته:

*** شارون الأول.. شارون الخامس والخمسون:**

عجزت عن الكتابة..

عجزت.. عجزت.. عجزت..

فكرت في أن أعتذر إليكم يا قراء..

لكنني أرى أن الأمة كلها محتاجة إلى كل اعتذاراتها كي تقدمها إلى فلسطيني واحد..

ولو كنت مكانه لما قبلت الاعتذار..

راجعت مئات المقالات والأبحاث وكتبًا عديدة كي أكتب عن المؤامرة التاريخية ضد العالم الإسلامي.. ورغم أنني أكتب في هذا الموضوع منذ عشرين عامًا إلا أنه قد هالني ما قرأت..

هالني.. وأفزعني..

فظيع أن يروعك أمر مفاجئ..

لكن الأفظع والأمر.. أن يفاجئك أمر غير مفاجئ.. أمر يحاك منذ عشرات وربما مئات الأعوام..

وأخذت أعد عدتي لكتابة المقال.. لكن الأحداث المروعة في فلسطين كانت تحتل كل خلية في كياني..

ورغم أنني أبغض أن أتناول الأمر من منظور غير جهادي.. لكن كيف أقنع قلبي ألا ينشطر وهو يرى يد ذلك الطفل المدفونة تحت الركام.. لم أر إلا يده.. وكان الجسد كله مطموراً.

وكان المسيح الدجال في واشنطن رأس الشر وخليفة الشيطان بوش ـ يراه إرهابياً لا يجوز إنقاذه.

رأيت أيضًا تلك المرأة التي تحثو على رأسها التراب الذي وددت لو أحثوه في وجه الخونة من أمتنا!!.

رأيت الجثث والأشلاء صفوفًا خلف صفوف. خلف جثمان كل شهيد تحت الأنقاض في فلسطين رأيت وجهه..

لا..

ليس وجه الكلب المسعور شارون..

بل وجه الفاسق..

ووجه الضليل..

ووجه السكير..

استرجعت صوت الصديق الغاضب يصرخ:

ـ لم نمر بهذه المهانة منذ غزو بغداد.. منذ التتار.. هذه أخطر فترة تمر بها الأمة منذ ألف عام..

ثم واصلت استرجاع صوت الصديق:

ـ لماذا تجري البلاد العربية مناورات مع الجيش الأمريكي..

وهمست لنفسي:

هذه الأواكس التي تحلق في سماء العروبة ليل نهار لم ترصد أبدًا يد الطفل ذي الجثة المطمورة..

وهذه البلايين والبلايين والبلايين عجزت أن تقدم كسرة خبز لتلك

العجوز التي قالت: إن فاها لم يلك طعامًا منذ عشرة أيام..

خلف كل جثمان كل شهيد رأيت وجه الجميع الفاسق الضليل السكير اللص الغبي الخائن.

وخلف كل شلو من أشلاء أحبابنا رأيت وجه عميل.. لا.. ليس إسرائيليًّا.. بل.. عربيًّا..

ما فشل فيه جنود الأعداء من الصليبيين والتتار طيلة ألف عام نجحت فيه أيدي العملاء..

دمرت روح الأمة..

أيها المجرم السفاح قاتل رجل مسلم؛ لأنه يقول: ربي اللَّه، أيها العميل.. هل تظن أنك أقل سوءًا من أي ضابط إسرائيلي.. لا واللَّه.. بل هو أفضل منك.. لأنه يسعى ولو بالجريمة لنصر بلاده وهي منتصرة.. وأنت يا سفاح يا عبد الشيطان تسعى بالجريمة لهزيمة أمتك.. وهي مهزومة.. أما وليك وآمرك والمتستر عليك فليس سوى عبد للشيطان مثلك ولن يغني عنك من اللَّه شيئًا..

أنت العاجزة الفاشلة وليس نخبتنا الفاجرة ليسوا فاشلين ولا عجزة.. على العكس.. إنهم ناجحون تمامًا.. ولو لم ينجحوا ما استمروا قابضين على الفكر والإعلام.. إنهم يقومون بالعمل الذي جيء بهم من أجله: حماية إسرائيل.. ولقد نجحوا في قرن حيث فشل الغرب طيلة قرون: دمروا أمة لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه لتجد نفسها في هذا الخزي العاجز والعجز المهين..

ليس العجز في مواجهة العدو الخارجي.. فكيف تواجهه وقد تحالفت كل نخبنا معه علينا..

وإنما العجز في تغيير هذه الفئة والقضاء على حواشيهم..

قبل الوعد بسلخ فلسطين من الجسد الإسلامي كان التمهيد طويلاً طويلاً..

وقبل خيانة بعض الحكام كانت خيانة العلماء والمثقفين الذين ساعدوا الغرب علينا فروجوا لأفكار شاذة كان كل همها هدم الإسلام وتحقير المسلمين..

كان كل ذلك تمهيداً لما حدث بالفعل بعد ذلك من تشرذم العالم الإسلامي وضياع فلسطين..

كان هدم الخلافة الذي هللوا له كثيراً..

وكانت سايكس بيكو الأولى..

لكن تزييف الوعي استمر بعد ذلك ليمهد لسايكس بيكو الثانية التي بر عنها محمد حسنين هيكل في أحد كتبه وهو يتصور أن أحد السيناريوهات القادمة التي يخطط الغرب لها هو «التصور الصومالي» حيث تتحول كل الدول العربية كلها إلى نموذج الصومال.. دول تقسم.. وشعوب تشظى.. وحكومات لا تحكم إلا جزءاً من العاصمة.. وقبائل متناحرة.. وحضيض لا حضيض بعده..

لم يستطع الغرب أبداً أن يغزونا فكريًّا ولا أن يهزم أرواحنا حتى حين هزم جيوشنا..

لكن.. تكفل بالمهمة أبناء جلدتنا..

في القرن التاسع عشر كان عملاء الاستعمار يقومون بالمهمة لكن رائحة عفن الخيانة صرفت الناس عنهم فلم يتبعهم إلا قليل ولم ينجح منهم في إخفاء عمالته إلا قليل..

في القرن العشرين حمل الشيوعيون لواء تزييف وعي الأمة.. حملوه باقتدار لا يضاهيهم فيه إلا الشيطان..

كانوا هم الوجه الآخر لليهود.. وكانوا وما يزالون امتدادًا عضويًا لهم..

وتلقف القوميون الطعم منهم بغباء مطلق.. وما زالوا..

تكلفت سايكس بيكو الأولى بتمهيد التربة لزرع إسرائيل..

وكل خط وضع في الخرائط كان من أجلها.

وكل صاحب نفوذ جاء منذ ذلك الوقت لم يكن إلا خفيرًا لحراستها.. بإرادته واختياره في معظم الأحوال.. وعلى الرغم منه في أقلها..

تم تقسيم الدولة الإسلامية لتكون التربة المثالية لإسرائيل..

وطوال الوقت.. تم حصار الفئة الوحيدة التي كانت تستطيع المواجهة بل النصر: الإسلام والمسلمين.

فكيف نتصور أننا يمكن أن نواجه ونحن في هذا الحال؟!..

أما عن التساؤل عن حالنا لو استمر الأمر كذلك فليس سوى ذل الدنيا وخزي الآخرة.

سألت نفسي.. لو أن الجيش المصري في عام ٦٧ رغم الكارثة حارب كما حارب أهل جنين.. هل كان يمكن أن تكون إسرائيل الآن موجودة..؟

الحل واضح مهما كانت صعوبته..

على الأمة أن تنهض..

عليها أن تنكس عملاءها.. وأن تمحو الخرائط بين بلادها..

وأن تلفظ كل تلك الأفكار الشاذة النجسة التي دمرت الأمة من يسار وقومية وعلمانية و.. و.. و..»[1] اهـ.

---

(١) المختار الإسلامي ـ العدد ٢٣٨ ـ جمادى الآخرة ١٤٢١ ـ ١٠ أغسطس ٢٠٠٢م ص(٣٦ ـ ٤٠).

❑ جزاك اللَّه خيرًا عن أمتك فواللَّه إن مقالة واحدة من مقالاتك تكفي ليقظة أمة نامت كنوم أهل الكهف طويلاً . . لسان حاله يقول:

أنا لا أدعو
إلى غير الصراط المستقيم
أنا لا أهجو
سوى كل عُتُلٍّ وزنيم
وأنا أرفض أن
تصبح أرض اللَّه غابة
وأرى فيها العصابة
تتمطى وسط جنات النعيم
وضعاف الخلق في قعر الجحيم

* * *

*** الشيخ علي عبدالرحمن الحذيفي إمام وخطيب المسجد الحرام وخطبته عن الشيعة في ١٥ من ذي القعدة عام ١٤١٨هـ:**

✍ للَّه دره من خطيب نصح للَّه ورسوله.

ففي خطبته التي ألقاها في يوم الجمعة ١٥ من ذي القعدة عام ١٤١٨هـ وعنوانها «أخرجوا اليهود والنصارى والروافض من جزيرة الأرض» بوجود إمام الضلالة رفسنجاني قال الشيخ الحذيفي ما لم يقله أحد، ودافع عن عقيدة السلف، ودافع عن الصحابة ﷺ وها نحن ننقلها كاملة ونختم بها هذا الفصل من هذا الجزء.

الحمد للَّه رب العالمين أما بعد..

فاتقوا اللَّه أيها المسلمون اتقوا اللَّه حق التقوى واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى عباد اللَّه إن أعظم نعم اللَّه على الإنسان الدين الحق الذي يحيي اللَّه به من موت الكفر ويبصره اللَّه به من عمى الضلالة، قال تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا..**﴾ ودين اللَّه في السماء وفي الأرض ودين اللَّه للأولين والآخرين هو الإسلام، ولكن الشريعة تختلف لكل نبي فشرع اللَّه لكل نبي ما يصلح أمته وينسخ اللَّه ما يشاء ويثبت ما يشاء بحكمه وعلمه. وببعثة سيد البشر محمد ﷺ نسخ اللَّه كل شريعة وكلف اللَّه الإنس والجن باتباعه والإيمان به قال اللَّه تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾.

وفي الحديث: «**والذين نفسي بيده لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**».

فمن لا يؤمن بالنبي محمد ﷺ فهو في النار ولا يقبل اللَّه منه دينًا غير الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقد بعث اللَّه نبيه محمدًا ﷺ بأفضل شريعة وأكمل دين جمع اللَّه فيه كل أصل بعث به الأنبياء قبله ﷺ ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾. احبار اليهود ورهبان النصارى يعلمون أن دين محمد ﷺ حق لكن يمنعهم من اتباعه الحسد والكبر وحب الدنيا والشهوات ولن يجدي ذلك عليهم شيء وقد حرف اليهود والنصارى قبل بعثة النبي ﷺ كتابهم وغيّروا.

❑ وبعد هذا العرض الموجز للحق والباطل يسوءنا نحن المسلمين الدعوة التي تنادي بالتقريب بين الأديان من جهة والتقريب بين أهل السنة والشيعة من جهة أخرى والذي ينادي به بعض المفكرين الذين تنقصهم أولويات وأساسيات في العقيدة ويزداد الأمر خطورة في هذا العصر الذي صارت فيه الصراعات دينية ومصالح ترتكز على الدين.

❑ إن الإسلام يدعو اليهود والنصارى إلى أن ينقذوا أنفسهم من النار ويدخلوا الجنة ويدخلوا في دين الإسلام الحق وينخلعوا من الباطل قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

❑ والإسلام يقر اليهود والنصارى على دينهم تحت حكمه إذا كانوا ملتزمين بأحكامه المالية والأمنية ولا يجبرهم على الإسلام لقول اللَّه تعالى:

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾. ويبين الإسلام أن دينهم باطل وهذا لسماحة الإسلام ونصحه للبشرية حتى يؤمن من يؤمن ويكفر من يكفر.

ولو دخل اليهود والنصارى والمشركون في الإسلام لوسعهم وكانوا إخوة للمسلمين في الدين؛ لأن الإسلام ليس فيه عنصرية ولا يتعصب للون ولا لعرق قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

❑ وتاريخ الإسلام شاهد بذلك وأما أن يقرب الإسلام من اليهودية أو النصرانية فذلك بعيد كل البعد وهيهات هيهات أن يكون هذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾.

❑ وأما أن يقرب المسلم من اليهود والنصارى بمعنى أن يتنازل عن بعض أحكام دينه ويتساهل في تطويع دينه أو تطويع بعض أحكام دينه لأهوائهم أو يوادهم فذلك أيضًا لا يكون أبدًا من المسلم الحق ولكن المسلم مع هذا نهاه دينه أن يظلمهم بل يقسط إليهم وهو مأمور بالمدافعة عن الحق وينصره ويُعادي الباطل ويكسره.

❑ وأما الدعوة إلى التقريب بين الأديان فذلك يُنافي دين الإسلام ويوقع في فتنة وفساد كثير ويجر إلى خلط في عقيدة الإسلام وضعف في الإيمان وموالاة لأعداء اللَّه تعالى وقد أمر اللَّه المؤمنين أن يكون بعضهم أولياء بعض قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. وأخبرنا اللَّه تعالى أن الكفار بعضهم أولياء بعض مهما كانت مشاربهم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. كيف يكون هناك تقريب بين الإسلام واليهودية والإسلام في صفائه وضيائه ونوره وإشراقه وعدالته وسماحته وشموله وسمو أخلاقه وعمومه للإنس والجن واليهودية في عنصريتها وضيقها وحقدها على البشرية وانحطاط أخلاقها وظلماتها وطمعها كيف يقبل المسلم أن ترمى مريم الصديقة العابدة بالزنا الذي يرميها به اليهود وكيف يقبل المسلمون أن يرمي اليهود المسيح بن مريم بأنه ولد الزنا.

❑ كيف يكون تقريب بين القرآن وتلمود الشيطان؟ كيف يكون تقريب بين الإسلام والمسيحية؟. الإسلام دين التوحيد الصافي والتشريع الكامل والرحمة والعدالة والمسيحية التي تقول أن عيسى عليه السلام هو ابن اللَّه أو هو اللَّه أو هو ثالث ثلاثة الأب والابن وروح القدس فهل يقبل العقل أن الإله يشتمل عليه الرحم وهل يقبل العقل أن الإله يأكل ويشرب ويركب الحمار وينام ويبول ويغوط كيف يكون تقريب بين النصرانية الضالة التي هذه عقيدتها في عيسى وبين الإسلام الذي يعظم عيسى ويقول: هو عبد للَّه ورسول من أفضل الرسل عليه الصلاة والسلام.

❑ وكيف يكون هناك تقريب بين السنة والشيعة. أهل السنة الذين حملوا القرآن الكريم وسنة رسول اللَّه ﷺ وحفظ اللَّه بهم الدين وجاهدوا لإعلاء منارة الإسلام وصنعوا تاريخه المجيد، والرافضة الذين يلعنون الصحابة ويهدمون الإسلام، فإن الصحابة رضي الله عنهم هم الذين نقلوا الدين لنا فإذا طعن أحد فيهم فقد هدم الدين.

❑ كيف يكون تقريب بين أهل السنة والرافضة وهم يسبون الخلفاء الثلاثة وسبهم لو كان لهم عقول يفضي إلى الطعن في الرسول ﷺ فإن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما صهران لرسول اللَّه ﷺ ووزيراه في حياته وضجيعاه بعد موته ومن ينال هذه المنزلة، وجاهدا مع رسول اللَّه ﷺ في جميع غزواته

ويكفي هذا الدليل لبطلان الرفض. وعثمان ﷺ زوج ابنتين للرسول ﷺ واللَّه لا يختار لرسوله ﷺ إلا أفضل الأصحاب فكيف لم يبين النبي ﷺ عداوة الخلفاء الثلاثة للإسلام ويحذر منهم إن كانوا صادقين بزعمهم، بل سب هؤلاء الثلاثة طعن في علي ﷺ فقد بايع أبا بكر في المسجد راضيًا وزوج عمر ابنته أم كلثوم وبايع عثمان مختارًا وكان وزيرًا لهم محبًا ناصحًا ﷺ. فهل يُصاهر علي ﷺ كافرًا أو يبايع كافرًا؟ سبحانك هذا بُهتان عظيم.

❑ ولعنهم لمعاوية ﷺ طعن في الحسن ﷺ الذي تنازل عن الخلافة لمعاوية ابتغاء وجه اللَّه وقد وفق لذلك وحرضه ﷺ على ذلك فهل يتنازل سبط رسول اللَّه ﷺ لكافر يحكم المسلمين؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

❑ وكيف يلعنون أم المؤمنين عائشة ﷺ التي نص اللَّه في كتابه على أنها أم المؤمنين في قوله تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**﴾.

❑ وكيف يكون تقريب أهل السنة والرافضة وقد جعلوا الخميني إمام الضلالة معصومًا حيث أقروه على أنه نائب مهديهم الخرافة الذي قالوا بأنه دخل سرداب سامرا والنائب له حكم المستنيب فإذا كان المهدي معصومًا فالخميني معصوم؛ لأنه نائب له فماذا هذا التناقض؟ إن الرافضة في قولهم في ولاية الفقيه قد نسفوا مذهبهم من أساسه والباطل يحطم بعضه بعضًا ويشتمل ويتضمن على الردود وتحطيم نفسه بنفسه وأهل البيت براء منهم ومن هذا القول والأدلة على بطلان مذهب الرافضة شرعًا وعقلاً لا تحصى إلا بالمشقة.. ألا فليدخلوا في الإسلام وأما نحن أهل السنة والجماعة فلن نقترب منهم شعرة واحدة أو أقل من ذلك فهم أضر على الإسلام من اليهود والنصارى ولا يوثق بهم أبدًا وعلى المسلمين أن يقفوا بالمرصاد قال تعالى:

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. إن نسب الرفض يعود إلى عبداللَّه بن سبأ اليهودي وإلى أبي لؤلؤة المجوسي.

❑ إذًا معشر المسلمين لا بد أن يتميز المسلم في عقيدته فيحب ما أحب اللَّه ويكره ما يكرهه اللَّه ويتناصر المسلمون ويكونوا يدًا واحدة فإن أعداء المسلمين جمعهم على عداوة المسلمين دينهم وعقائدهم الكافرة قديمًا وحديثًا.

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وما غرسوا الدولة الصهيونية في فلسطين إلا لحرب الإسلام وزعزعة المنطقة وكان من آثار استعمارهم للعالم الإسلامي أمراض عقدية واجتماعية ما زال يعاني منها المسلمون ومن أعظم ذلك إلغاء المحاكم الشرعية في العالم الإسلامي وإحلال القوانين الوضعية والمحاكم القانونية بدلاً عنها لكن هذه المملكة!! وللَّه الحمد هي التي بقيت محافظة على المحاكم الشرعية التي تحكم بشريعة اللَّه تعالى وتحمل راية التوحيد بين الدول.

❑ وفي الآونة الأخيرة صار اليهود والنصارى يختلقون مشاكل للمنطقة ويتذرعون بها للتواجد العسكري ومن أسباب ذلك سلسلة من الانقلابات العسكرية التي بليت بها المنطقة باسم أحزاب ومذاهب كافرة كالبعث والقومية والاشتراكية التي لا تمت إلى الإسلام بخيط أو بشعرة من الصلة فأبرزت مثل صدام فهذه الأحزاب وهذه المذاهب مثل صدام حسين وحورب لذلك الدين والعلم والنبوغ، واستخدمت التصفيات الجسدية وأسكتت أصوات الحق وهاجرت الكفاءات إلى الغرب فضعفت تلك الدول التي أُصيبت بالانقلابات وكل ما جاءت أمة منهم لعنت ما قبلها والعياذ باللَّه. ولا تزال بعض البلاد العربية تعتبر صلاة الجماعة جريمة يُعاقب عليها فلا حول ولا قوة إلا باللَّه فأين النصر والعزيمة والكرامة.

❑ وبعد أن تمهدت الأسباب للدول الكبرى صاروا يفتعلون الأحداث الصورية للتدخل العسكري بعد أن تدخلوا اقتصاديًا وباتت نوايا الدول الكبرى ظاهرة ضد استقرار المنطقة وتقسيمها إلى دويلات صغيرة متحاربة وبدافع العداء الديني فإن عداء الدول الكبرى لدولة الحرمين الشريفين أعزها اللَّه أشد وأعظم؛ لأن هذه المملكة حصن للإسلام فأصبحت نوايا أمريكا وبريطانيا ومن دار في فلكهم ظاهرة السوء بغية إلحاق الضرر. بل عداء الدول الكبرى كلها وعداء الدول الكافرة كلها ضد الإسلام والمسلمين ولا يوثق بواحدة منها أبدًا فبغية إلحاق الضرر والعنت بهذه المملكة في التلويح بتهديدها في مرافقها الحيوية أو سلامة وحدة أراضيها. ألا فلتعلم أمريكا أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها متضامنون مع دولة الحرمين الشريفين أعزها اللَّه؛ لأن هذه المملكة المعقل الأخير للإسلام وكل هذه النوايا السيئة من الدول الكبرى كل ذلك لستة أمور:

الأول: ضمان استقرار دولة العدو الصهيوني.

الثاني: بناء هيكل سليمان.

الثالث: المحافظة على بقاء التفوق العسكري اليهودي على دول المنطقة.

الرابع: السيطرة على ثروات المنطقة حتى لا يكون لأهلها إلا فتات الموائد.

الخامس: القضاء على الدعوة للإسلام.

السادس: الدعوة إلى كل ما يُضاد الإسلام وهدم كل خلق كريم وبقاء دول المنطقة في صراعات دائمة.

❑ يا معشر المسلمين لكم عبرة في تركيا حكمت بالعلمانية منذ ظهر عليها اللعين كمال أتاتورك وطبق عليها الكفر قهرًا ونبذ حكامها الإسلام

وحاربوه على كل صغير ولا يزالون يُحاربونه وتحالفوا عسكريًّا مع اليهود ولم يرضوا لها إلا أن تكون خادمًا مُطيعًا فحسب بل لم يدخلوها معهم في أي حلف وذنبها لأنها كانت حامية للواء الإسلام في يوم مضى فأنتم مهما تنازلتم فلن يرضوا عنكم أبدًا بل دافعوا عن حقكم ودافعوا عن دينكم. العداء ديني يا معشر المسلمين، العراق لماذا يُحاصر شعبه ست سنين ما ذنب الضعفاء لأنهم مسلمون لا غير.

صدام لن يتضرر هو وحزبه ويزعمون أن العراق لم ينفذ قرار الأمم المتحدة وهو قرار واحد والعدو الصهيوني لم ينفذ ستين قراراً بل لم توقع دولته على حظر الأسلحة النووية في منطقة ملتهبة تغلي بالبراكين والفتن لا تصلح أسلحة الدمار الشامل لها فإن صدام وحزبه ينفذون ما يُريده أعداء الإسلام.

❑ نصيحتي لأمريكا أن لا تتدخل في شئون المنطقة فدول المنطقة وعلى رأسها المملكة العربية السعودية هم المسئولون عن المنطقة!! ولا تغتر أمريكا بقوتها فقد جرت سنة اللّه أن قوة زائد ظلم يُساوي دمار الدولة والدمار من رب العالمين إذا غلب المستضعفون على تلك الدولة العاتية الكافرة فالتكنولوجيا ليست كل شيء إنما الأمر يعود إلى الإيمان.. أمن المنطقة لدول المنطقة هو من حقهم وما سبب المشاكل للمنطقة المزعزعة إلا الدول الكبرى التي تفتعل الأحداث وتتواجد كلما افتعلت حدثًا بذريعة أنها تقوم بذلك وأنها تصلح الوضع أو تدرأ الخطر وهي أكبر وكيف يكون الذئب راعيًا للغنم؟

❑ إن العداوة دينية يا عباد اللّه وأمريكا ليس لها من أمرها شيء وإنما يقودها اليهود صاغرة إلى حيث يريدون والمسلمون لا يقبلون تواجدها العسكري ولا تواجد غيرها من أي دولة كافرة بأي حال لقول النبي ﷺ: **«لا يبقى بجزيرة العرب دينان»**. وآخر وصيته ﷺ: **«أخرجوا اليهود**

والنصارى من جزيرة العرب». فيجب العمل بذلك.

❑ وأنتم معشر المسلمين تخيم عليكم سحب الإنذار فعليكم بالتوبة إلى اللَّه فإنه ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة.. يا من عصيت اللَّه بالخمر تب إلى اللَّه فإنك بهذا تساهم بالإصلاح لمجتمعك. يا من عصيت بالزنا.. ويا من عصيت اللَّه باللواط تب إلى اللَّه.. يا من عصيت اللَّه بالمخدرات تب إلى ربك فإنك عما قريب سترجع إليه.. يا من عصيت اللَّه بترك الصلاة تب إلى اللَّه عز وجل.. يا من عصيت بظلم مسلم في ماله وفي عرضه تب إلى ربك.. طهروا أموالكم من الربا فهو من أسباب الحروب والدمار وطهروها من المعاملات ما لا يتفق مع دين الإسلام ونصوص الشريعة حتى تكون جميع أنواع المعاملات في البنوك خاضعة لأحكام الإسلام موافقة لها.. ادعوا إلى اللَّه أيدوا الدعوة إلى اللَّه عز وجل وإلى الإسلام.

علموا المسلمين اعتنوا بالمناهج في مناخ دول العالم الإسلامي المناهج الإسلامية والدعوة إلى اللَّه تبارك واجب كلّ مسلم ويجب أن يُوجهها العلماء الموثوق بعقيدتهم والموثوق بعلمهم وباستقامتهم والذين ترجع إليهم الفتوى ويرجع إليهم المسلمون فيما عرض لهم من الأمور التي يحتاجونها الذي يتطابق مع كتاب اللَّه وسنة رسوله. واحذروا الحزبيات المفرقة. واحذروا الأهواء المشتتة. واحذروا من عقاب اللَّه وعذابه بارك اللَّه لي ولكم في القرآن العظيم وبهدي سيد المرسلين وبقوله القويم.. أقول قولي هذا وأستغفر اللَّه لي ولكم ولسائر المسلمين فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

* * *

الدعاء إلى الإسلام
رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الدعاء إلى الإسلام

رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

* **أبو بكر الصديق يقول لجبابرة قريش ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ :**

لله درك يا صديق هذه الأمة الأكبر:

● روى البخاري عن عروة بن الزبير: سألتُ ابن العاص فقلتُ: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول اللَّه ﷺ؟ قال: بينما النبي ﷺ يصلّي في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبي ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الآية.

● وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لقد ضربوا رسول اللَّه ﷺ مرة حتى غُشي عليه، فقام أبو بكر رضي الله عنه فجعل يُنادي: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ فقالوا: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر المجنون[1].

وزاد البزار: فتركوه وأقبلوا على أبي بكر.

● وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً، ألحّ أبو بكر على رسول اللَّه ﷺ في الظهور،

---

(١) رواه أبو يعلى وأخرجه أيضًا البزار، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه الحاكم وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرّجاه.

فقال: «يا أبا بكر، إنا قليل» فلم يزل أبو بكر يُلحّ حتى ظهر رسول اللَّه ﷺ وتفرّق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته؛ وقام أبو بكر رضي الله عنه في الناس خطيبًا، ورسول اللَّه ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى اللَّه وإلى رسول اللَّه ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر رضي الله عنه وعلى المسلمين، فضربوا في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، ووُطئ أبو بكر رضي الله عنه، وضُرب ضربًا شديدًا، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين، ويُحرّفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر رضي الله عنه، وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد، وقالوا: لئن مات أبو بكر، لنقتلن عتبة ابن ربيعة، فرجعوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول اللَّه ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئًا أو تسقيه إياه، فلمّا خلت به ألحّت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول اللَّه؟ فقالت: واللَّه ما لي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبداللَّه؟ فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبداللَّه، وإن كنت تحبّين أن أذهب معك إلى ابنك. قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعًا دَنِفًا[1] فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت: واللَّه إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم اللَّه لك منهم. قال: فما فعل رسول اللَّه ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع. قال: فلا شيء عليك منها. قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم. قال: فإن للَّه عليّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا، أو آتي

(١) الدَّنِف: المريض الذي لزمه المرض.

رسول اللَّه ﷺ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول اللَّه ﷺ. قال: فأكبّ عليه رسول اللَّه فقبّله، وأكبّ عليه المسلمون، ورقّ له رسول اللَّه ﷺ رقة شديدة. فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي وأمي يا رسول اللَّه، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى اللَّه وادع اللَّه لها، عسى أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول اللَّه ﷺ ودعاها إلى الإسلام فأسلمت، وأقاموا مع رسول اللَّه ﷺ في الدار شهرًا، وهم تسعة وثلاثون رجلاً[1].

❑ قال ابن إسحاق: لما أسلم أبو بكر رضي الله عنه وأظهر إسلامه، دعا إلى اللَّه عز وجل، وكان أبو بكر رجلاً مألوفًا لقومه محبًّا سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجرًا ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، ممّن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه ـ فيما بلغني ـ الزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد اللَّه، وسعيد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فانطلقوا إلى رسول اللَّه ﷺ ومعهم أبو بكر رضي الله عنه، فعرض عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وأنبأهم بحق الإسلام فآمنوا، وكان هؤلاء النفر الذين سبقوا في الإسلام صدقوا رسول اللَّه ﷺ وآمنوا بما جاء من عند اللَّه».

فللَّه در الصديق رضي الله عنه أول خطيب في الإسلام، ومن أسلم على يديه

---

(١) رواه الحافظ أبو الحسن الأطرابلس ـ انظر «حياة الصحابة» للكاندهلوي (١/ ٢٥٩ ـ ٢٦١).

خمسة من العشرة المبشرين بالجنة[١] .

*** الصحابي عديّ بن حاتم الطائي يعود إلى الإسلام على يديه ألف وخمسمائة من المرتدين:**

للَّه درّ هذا الصحابي المبارك عديّ بن حاتم الطائي يهدي اللَّه على يديه ألفًا وخمسمائة رجل..

بارك اللَّه له في دعوته وسعيه لصدقه وإخلاصه:

«لما ارتدّ بنو طيء وانضموا إلى جيش المتنبئ طليحة بن خويلد الأسدي، دعاهم عدي بن حاتم الطائي ﷺ إلى الإسلام بأمر من الصديق ﷺ، وذلك قبل بدء القتال معهم، فعادوا بفضل اللَّه مع عديّ ﷺ إلى خالد ﷺ مسلمين، وكانوا خمسمائة مقاتل.

كما دعا عديّ بن حاتم ﷺ بني جديلة، الذين كانوا قد انضمّوا أيضًا إلى المتنبئ طليحة الأسدي، فاستجابوا لعديّ ﷺ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب»[٢] .

*** دخول التتار والمغول أحفاد جنكيزخان الإسلام على يد الشيخ جمال الدين الذي لا يعرفه أحد:**

تكلّم الشيخ الندوي عن دور الربانيين في إخضاع التتار الفاتحين لدين أمة مفتوحة فقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«لما فتح التتار العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري، وأثخنوه

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (٣/ ٢٩).

(٢) «تاريخ الطبري» (٣/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤)، و«الكامل في التاريخ» (٢/ ٢٣٤).

جراحًا وقتلاً، ولم يتركوا فيه إلا رُوحًا ضعيفة ونفسًا خافتًا، وفُلّ سيف الجهاد والمقاومة فأصبح لا يؤثر ولا يعمل، وأغمده المسلمون يأسًا وقنوطًا، وآمن الناس بأن التتار لا يُمكن إخضاعهم وأن العالم الإسلامي قد كُتب عليه أن يعيش تحت حكم هؤلاء الهمج، وأن الإسلام لا مستقبل له، قام هؤلاء الدعاة المخلصون الذين لا يزال تاريخ الدعوة والإصلاح ـ على إحصائه واستقصائه ـ يجهل أسماء كثير منهم، يتسرّبون في هؤلاء الغلاظ الشداد، يفتحون قلوبهم للإسلام، حتى تفتّحت له وأحبّته، وصاروا يدخلون في دين اللَّه أفواجًا.

وهكذا أخضعوا للإسلام من أخضع العالم الإسلامي بالأمس من شرقه إلى غربه، وأدخلوا أمة قهرت الأمم كلها في عصرها في دين لا يحميه سيف، ولا يدافع عنه جيش، وقد كانوا ثلاثة ديانات تتنافس في اكتساب هذه القوة القاهرة للعالم: «البوذية» و«المسيحية» و«الإسلام»، وكانت البوذية أقرب إلى فطرتها وبيئتها، وكانت النصرانية أرفع مكانة وأقرب زلفى في مجالس سلاطينها، ولكن الإسلام ـ بفضل دعاته المخلصين ـ انتصر على منافستيه ـ البوذية والنصرانية ـ وأسلم التتار أمة وجنسًا، وكوّنوا دولاً إسلامية كان لكثير منها مآثر إسلامية يتجمّل بها تاريخ الإسلام، وكان انتصار الإسلام على الديانتين المنافستين حادثة غريبة لا تعلل إلاّ بمشيئة اللَّه تعالى وتأييده، وتفوّق دعاة الإسلام في الإخلاص والروحانية على دعاة البوذية والنصرانية.

❑ يقول أرنلد: «لقد كان منافسة هذه الديانات العظمى في إخضاع القوة الباهرة لعقيدتها صراعًا عجيبًا ينظر إليه التاريخ، وينظر إليه العالم بدهشة واستغراب، كل يحاول أن يُخضع هؤلاء الوحوش القساة الذين داسوا هذه الديانات وحطّموها. لم يكن أحد يتوقّع أن الإسلام سينتصر في هذه

المعركة ويهزم البوذية والنصرانية ويستأثر بالتتار، فقد كانت عاصفة هجومهم وغارتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم، وكانت خسارتهم في ذلك أعظم من خسارة أية أمة ودولة وديانة، وقتل التتار علماء المسلمين وفقهاءهم وأسروهم واستعبدوهم، وقد كان ملوك التتار وأمراؤهم يعطفون على كل ديانة سوى الإسلام.

ولكن رغم هذه المصاعب دان المغول والأمم الوحشية التي جاءت بعدهم بديانة أمة داستها بأقدامها واعتنقت الإسلام».

❑ قال «أرنلد»: «أسلم سلطان (كاشغر) الذي كان يُسمّى: «تغلق تيمورخان» (١٣٤٧م ـ ١٣٦٣م) على يد الشيخ «جمال الدين» الذي جاء من بخارى: وكان من خبره، أنه كان مع رفقة له في رحلته، فمرّوا بأرض السلطان التي كان قد حماها للصيد وهم لا يشعرون، وأمر بهم الملك فأُوثقوا وعُرضوا عليه، وقال... وقد استشاط غضبًا: كيف دخلتم في حماي من غير إذن؟.

قال الشيخ: نحن غرباء، ولم نشعر بأننا نمشي على أرض ممنوعة. ولمّا علم الملك أنهم إيرانيون، قال في احتقار وسخرية: حتى الكلب أفضل من الإيرانيين.

قال الشيخ: صدق الملك، لولا أن اللَّه أكرمنا بالدين الحق لكنّا أذلّ من الكلاب، وتحيّر الملك ومضى للصيد، وبقيت الكلمة تشغل فكره، وأمر بعرضهم عليه بعد الصيد، ولما رجع خلا بالشيخ وقال: فسِّر لي ما قلت، وأخبرني ما تعني بالدين الحق؟.

وفسّر الشيخ الإسلام في حماسة وقوة تفسيراً رقّ له قلب السلطان، وصوّر الكفر تصويراً بشِعًا هائلاً فزع منه السلطان وأيقن أنه على ضلال وخطر.

ولكن السلطان رأى أنه لو أعلن الإسلام لما استطاع أحد أن يدخل قومه في الإسلام ورجا الشيخ أن ينتظر حتى إذا سمع أنه ولي الملك، وجلس على أريكة الحكم زاره.

وكانت المملكة «الجغتائية» قد توزّعت في إمارات متعددة، واستطاع «تغلق تيمور» أن يجمعها، ويكوّن منها مملكة صغيرة، ورجع الشيخ «جمال الدين» إلى بلاده، ومرض مرضًا شديدًا، ولما حضرته الوفاة، دعا ولده «رشيد الدين» وقال له: «إن تغلق تيمور» سيكون في يوم من الأيام ملكًا عظيمًا، فإذا سمعت بذلك تزوره، وتقرئه مني السلام، وتذكّره بما وعدني به من اعتناق الإسلام، وكان كذلك.

فقد بويع «تغلق تيمور» بالملك، وجلس مكان أبيه، ودخل الشيخ «رشيد الدين» في المعسكر لينفّذ وصية أبيه، ولكنه لم يخلص إلى الملك، فاحتال، وبدأ يومًا يؤذن بصوت عال عند خيمة السلطان في الصباح الباكر، فطار نوم السلطان وغضب وطلب الشيخ «رشيد الدين»، وحضر الشيخ، وبلّغ السلطان تحية والده، وكان السلطان على ذكْر منه، فنطق بالشهادتين وأسلم ثم نشر الإسلام في رعيّته، وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد جغتاي بن جنكيزخان»[1].

*** عبدالله بن ياسين بن مكوك الجزولي العالم العابد الزاهد مؤسس دولة المرابطين:**

الشيخ عبدالله بن ياسين الجزولي ولد في قرية قرب أودغشت في طرف صحراء غانة تتلمذ على يد الشيخ وجاج بن زولو الذي أمره أن يسير إلى

(١) «ربانية لا رهبانية» للشيخ أبي الحسن الندوي ص(٣١ ـ ٣٥) وكتاب «الدعوة إلى الإسلام» لأرنلد ص(٢٥٦).

وطن الملثمين «موريتانيا» داعيًا ومصلحًا آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، وكان ـ رحمه اللَّه ـ متبعًا هدي السلف فحارب البدع وأصلح العقائد، وبنى رباطًا ربّى فيه من دخله على الزهد والتقشف وتعليم الكتاب والسنة، وكان يرسل من رباطه بعوثًا إلى القبائل لترغيب الناس في الاتباع، واجتمع له من التلاميذ نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، وقام عبداللَّه بن ياسين خطيبًا في تلاميذه فوعظهم وذكّرهم بنعمة اللَّه عليهم بأن هداهم إلى الصراط المستقيم وأن عليهم الآن أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وأن يجاهدوا في اللَّه حق جهاده[1] فقالوا: مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين، ثم أمر هؤلاء المرابطين أن يخرجوا على بركة اللَّه لينذروا قومهم ويخوّفوهم عقاب اللَّه ويبلّغوهم حجته، «فإن تابوا ورجعوا إلى الحق فخلّوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيّهم ولجوا في طغيانهم استعنّا باللَّه تعالى عليهم وجاهدناهم حتي يحكم اللَّه بيننا وهو خير الحاكمين».

وتمكن من إخضاع قبيلة جدالة بعد قتالهم وذلك في سنة ٤٣٤هـ، ثم سار إلى لمتونة وقاتلهم حتى ظهر عليهم وأذعنوا إلى الطاعة والتوبة، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة. وكذا فعل بأهل مسوفة ثم باقي قبائل صنهاجة، وجعل يعلمهم القرآن وشرائع الإسلام، وجعل يحيى بن عمر أمير المرابطين فضرب عبداللَّه بن ياسين أعظم المثل في الزهد في المناصب والملك والمجد ولخّص دوره للمرابطين في قوله: «إنما أنا معلم دينكم».

ثم سار إلى مملكة غانة وخضعت مدينة أودغست سنة ٤٤٦ للمرابطين.

□ ولما اجتمع فقهاء سلجماسة ودرعة بالمغرب الأقصى سنة ٤٦٦هـ وكتبوا إلى عبداللَّه بن ياسين يرغّبونه في الوصول إلى بلادهم ليطهرها من

(١) «العبر» لابن خلدون (٦/ ٣٧٥).

المنكرات وشدة العسف من الأمراء. وعرفوه ما هم فيه من الذل والصغار من جرّاء أميرهم مسعود بن وانودين المغزاوي، وكان هذا النداء مدعمًا بخطاب من شيخه وجاج يؤكد فيه ضرورة نجدة أهل سلجماسة ودرعة. واستطاع أن يردع أهل درعة وأن يقتل مسعود المغراوي بعد غزوه وقتاله سنة ٤٤٦هـ.

❑ وبعد احتلال درعة دخل عبداللَّه بن ياسين سجلماسة وأقام بها وأصلح أحوالها، وأزال المنكرات، وقطع آلات اللهو، وأحرق الدور التي كانت تباع فيها الخمور، وأزال المكوس والمغارم، ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه.

❑ ثم سار إلى قبائل وريكة وهيلات من قبائل المصامدة بأغمات فأمرهم ونهاهم، ثم سار إلى السوس وماسة، وتقدم المرابطون إلى تارودانت بالسوس وكان فيها قوم من الشيعة والروافض يدعون البجلية نسبة إلى عبداللَّه البجلي الرافضي فأخضوعهم للكتاب والسنة.

❑ ثم سار إلى تامسنا[1] وكانت بها قبائل برغواطة وكانوا ذوي نحلة ضالة وعقائد فاسدة، ورأى ابن ياسين أن جهاد هؤلاء البرغواطيين المارقين عن الدين من أوكد الأمور، واعتبره من أولويات المرابطين لاستئصال شأفة هذا المنكر المستشري الذي استعصى على من حكموا المغرب قبل ذلك من بني يفون.

واستشهد في قتالهم عبداللَّه بن ياسين بعد أن أصيب في هذه المعركة، وحُمِل إلى عسكره وبه رمق، فجمع أشياخ المرابطين ورؤساءهم وقال لهم: «يا معشر المرابطين! إنكم في أرض أعدائكم وإني ميت في يومي هذا فإياكم

(١) تاسنا: سهل يقع إلى الشمال من وادي أم الربيع يمتد على ساحل المحيط من الرباط إلى الدار البيضاء وتسمى الآن بالشوية.

أن تجبنوا أو تفشلوا فتذهب ريحكم، وكونوا أعوانًا على الحق وإخوانًا في ذات اللَّه تعالى»[١] . ويوم مات ـ رحمه اللَّه ـ ترك للمرابطين دولة تمتد من حدود نهر السنغال إلى وسط المغرب الأقصى لقد ترك عبداللَّه بن ياسين لأتباعه هدفًا ساميًا يعيشون من أجله هو إعلاء كلمة اللَّه، وقد حرص عبداللَّه أن يتجلى هذا في كل أعمال المرابطين، فالنقود التي ضربوها منذ سنة ٤٥٠هـ مكتوب عليها الشهادتان والآية الكريمة ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾. وكان قوام منهجه الالتزام بشرع اللَّه في كل الأمور صغيرها وكبيرها. وقد أثمر ذلك المنهج انمحاء البدع والفرق الضالة وتوحيد المغرب الأقصى مذهبيًّا على مذهب أهل السنة والجماعة لأول مرة في تاريخه[٢] . وكتب المرابطون اسم الخليفة العباسي على سكتهم.

❑ لقد كان عبداللَّه بن ياسين ـ رحمه اللَّه ـ ذا علم واسع، وكان خطيبًا مفوّهًا بليغًا ومؤمنًا مخلصًا لرسالته متفانيًا في تحقيقها صابرًا على ما أصابه فيها.

❑ وكان نموذجًا حيًّا لما يدعو إليه فقد كان كثير الصوم متورعًا لا يأكل إلا من الصيد أو عمل يده متقشفًا في المأكل والمشرب[٣] .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامع

---

(١) «عبداللَّه بن ياسين» لعبداللَّه كنون ص(٢٦)، و«روض القرطاس» لابن أبي زرع ص(١٣٢).

(٢) «عبداللَّه بن ياسين» لعبد اللَّه كنون ص(٢٣).

(٣) «روض القرطاس» ص(١٢٤).

*** إسلام ملك مالي وسنغاي وجنى على يد الدعاة:**

جهاد عظيم قام به الدعاة والعلماء والتّجار والأمراء لنشر الإسلام في غرب أفريقية وجنوبها من السودان الغربي حتى موريتانيا.

وكان للأمير أبي بكر بن عمر دور كبير في ذلك، فلقد عهد بأمر المغرب إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين بمشهد من شيوخ المرابطين وأعيان الدولة والكتاب والشهود ووصّاه قائلاً: «يا يوسف إني وليّتك هذا الأمر وإني مسئول عنه فاتق اللّه في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك ولا تضيّع من أمور رعيّتك شيئًا فإنك مسئول عنهم، واللّه تعالى يصلحك ويمّدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم»[1].

❑ ويمّم هذا الأمير الصالح وجهه إلى أرض الملثّمين بموريتانيا لمواصلة الجهاد ونشر الإسلام بين أهل السودان الغربي.

وغرس دعاة الإسلام البذور الأولى للإسلام في السودان الغربي وأمضى الأمير أبو بكر بن عمر خمسة عشر عامًا في الجهاد والدعاء إلى الإسلام وتُوّجت جهوده بسقوط دولة غانا بيد المرابطين سنة ٤٦٩هـ واعتنق ملك غانة الإسلام فأبقاه الأمير أبو بكر في ملكه.

❑ وإلى جانب مملكة غانة دخلت دولة التكرور في حوض السنغال الإسلام، وأسلم ملكها وارجابي بن رابيس في مطلع القرن الخامس الهجري على يد هؤلاء الدعاة التجار، وقد أقام وارجابي شرائع الإسلام وحمل رعاياه عليها وحقق بصائرهم فيها.

ولم يكتف هذا الملك التكروري بهذا بل حمل دعوة الإسلام إلى الممالك المجاورة فأسلم أهل سلي على يديه.

---

(١) «روض القرطاس» لابن أبي زرع ص(١٣٥).

وظل الأمير أبو بكر بن عمر يجاهد في اللّه بالقول والعمل إلى أن استشهد سنة ٤٨٠هـ. وقد دُفن الأمير أبو بكر بموضع استشهاده في المقسم بأرض تكانت في موريتانيا.

❑ ولا يُنسى دور الإمام أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي القاضي بمدينة أزوكي بالصحراء في الدعوة إلى اللّه على بصيرة ونشر الإسلام في الصحراء إلى أن تُوفي بها سنة ٤٨٩هـ.

❑ وانظر إلى همة الدعاة في دعوة الملوك إلى الإسلام:

كيف اعتنق ملك مالي[١] الإسلام في أواسط القرن الخامس الهجري قحطت بلاد هذا الملك ـ وتسمّيه بعض المصادر برمندانا[٢] ـ سنة تلو سنة فاستسقوا بقرابينهم فلم يُسقوا «وكان بأرض هذا الملك رجل من المسلمين يُقرئ القرآن ويُعلّم السنّة فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك، فقال له: أيها الملك لو آمنت باللّه تعالى وأقررت بواحدنيته وبمحمد ﷺ وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه، وأن تعمّ الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته، وأقرأه من كتاب اللّه ما تيسّر عليه، وعلّمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله، ثم أمهله إلى ليلة جمعة فأمره فتطهّر فيها طهراً سابغًا وألبسه المسلم ثوب قطن عنده وبرزا إلى ربوة من الأرض، فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأتمّ به فصليا من الليل ما شاء اللّه والمسلم يدعو والملك يُؤمّن، فما انفجر الصبح إلاّ وقد عمّهم اللّه بالسقيا. فأمر الملك بكسر الأصنام، وأخرج السحرة من بلاده، وصحّ إسلامه وإسلام عقبه، وأُطلِق

(١) إحدى ممالك السودان الغربي القديمة، وتقع في حوض النيجر الأعلى.
(٢) انظر «العبر» لابن خلدون (٦/ ٢٠٠).

عليه لقب المسلماني فما عاد يُعرف إلا به.

ولم يكن المسلماني هو الملك الوحيد الذي اعتنق الإسلام على يد العلماء والدعاء فقد اعتنق ملك سنغاي زاكوسي الإسلام ـ فيما بين سنتي ٤٧١ ـ ٤٧٥هـ[١].

ومَلك مدينة جني[٢] في عهد المرابطين في أواخر القرن الخامس الهجري جمع كل العلماء المسلمين في مملكته فكان عددهم أربعة آلاف ومائتي عالم وأسلم على يديهم، وطلب منهم أن يدعوا اللَّه أن ينصر مدينته ثم هدم قصره وبنى مكانه مسجدًا عظيمًا مبالغة في حبه للدين الإسلامي[٣].

*** رجل من أمة التوحيد يُسلم على يديْه أربعة آلاف من الأجانب:**

هذا الرجل المبارك الأمة هو المهندس محمد توفيق بن أحمد مؤسس «دار تبليغ الإسلام» أثناء إقامته في سويسرا في بعثة هندسية (١٩٢٩ ـ ١٩٣١) يعمل في صمت منذ خمسة وستين عامًا، وهو محرر مجلة البريد الإسلامي وصاحب امتيازها، والذي أسلم على يده أربعة آلاف من الأجانب، منهم قسيس يعمل أستاذًا للأدب في جامعة الفاتيكان، وقاضي جزيرة سان موريس، والقائد الهولندي «كلنجر» الذي أسمى نفسه «محمد توفيق كلنجر» تيمنًا باسم صديقه الأستاذ محمد توفيق.

أصدر بداية مجلة اسمها «التقوى» وطبع من العدد الأول منها ألف نسخة، ووزعها فانتشرت بحمد اللَّه انتشارًا واسعًا، وكان يكتب عليها ـ كما

---

(١) «الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين» لمحمد محمود عبداللَّه بن بيّه ص(٢٧٨ ـ ٢٧٩) ـ دار ابن حزم.

(٢) «مدينة على النيجر الأعلى».

(٣) «الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين» ص(٢٨١ ـ ٢٨٢).

يكتب على مجله البريد الإسلامي: «اقرأها وأعطها لغيرك مشكورًا». وواصل إصدار «التقوى» حتى سنة ١٩٣٥.

ولَمَّا رشح في بعثة هندسية إلى سويسرا عام ١٩٢٩م، يقول: «وهناك شعرت بحاجة الأوروبيين للحصول على فكرةٍ صحيحة وموضوعية عن الإسلام، ومن ثم بدأ العمل لتبليغ الإسلام «دار تبليغ الإسلام» وهو اسم معنوي كنت أعمل من ورائه ولا زلت، وكانت كل الرسائل والإعلانات التي أبعث بها إلى الصحف الأوروبية، أو أنشرها من خلالها: باسم محمد توفيق محرر مجلة «التقوى» في القاهرة، وكنت أتسلم كثيرًا من الرسائل على المنزل الذي كنت أسكن فيه، وبالطبع كنت أرد عليها، وفي كل مكانٍ كنت أتواجد فيه، أجد كثيرًا من الأسئلة المتعلقة بالإسلام والمسلمين، وكانت صورة الإسلام مشوهة من أعداء الإسلام والمستشرقين، ومن حَسَنِي النية الذين يصدقون كل ما يقرءون فيعتقدون أن الإسلام بهذه الصورة، وذات مرة قام أحد المبشرين واسمه روبلي أو دكتور روبلي، مفتش التبشير في أسوان في ذلك الوقت، وكان بصدد جمع تبرعات للمساعدة في خدمات المستشفى التبشيري في مصر، ونشر في الصحف أنه سيلقي محاضرة عن مصر وفلسطين، وحدد موعدها وحث الجمهور لحضورها، وكان مكان المحاضرة في أحد المعابد الأوروبية وتصورت وقتها أنه سيتعرض في محاضرته للإسلام، وفعلاً تناول في حديثه أشياء كثيرة تمس الإسلام، وتحدث في مواضيع كثيرة عن العرب وفلسطين ومصر، وقد حمل الرجل صورًا معه إلى المحاضرة، تسيء إلى الإسلام وإلى مصر أبلغ إساءة، ومن الصور التي عرضها بالفانوس في هذا الوقت، صورة جمل، وسيدة تركب خلف الرجل في المكان المنحدر من مؤخرة الجمل تكاد تسقط، ليوحى بهذا أن معاملة الرجل للمرأة في الإسلام سيئة. ثم قال: هل تتخيلون كيف يتم الزواج هناك؟!.

القول للدكتور روبلي: المرأة عند المسلمين تباع، فهناك التي يشتريها الزوج عند الزواج بعشرة جنيهات[1] ، وأخرى بعشرين، وثالثة بخمسين، كأنك تشتري عنزاً أو جاموسة، يمكنك أن تشتري المرأة، ويمكنك أن تتزوج ممن تعجبك بأي عدد تشاء ـ ولم يحدد الدكتور روبلي عدد النساء بأربع كما هو معروف!!.

وبعد هذا عرض د. روبلي صورة أُخرى لرجلين يمشيان، أحدهما معه مغزله يغزل به وأمامه زوجه تحمل حملاً ثقيلاً من القمح، قدره د. روبلي حسب الصورة بأنه أربع كيلات، وقال للمشاهدين الذين يشاهدون الصورة: هل تعرفون كم تحمل هذه المرأة؟ إنها تحمل ما يساوي أربع كيلات من القمح، وبالرغم من ذلك يقول زوجها لصاحبه: سأطلقها بالرغم من تفانيها وتعبها في خدمته، وبعد ذلك قال لهم: الآن سأعرض عليكم صورة لأكبر مستشفى رمدي في مصر في القاهرة، وجاء بصورة ضريح السيدة نفيسة، وتظهر فيه حلقات في جوانب الضريح، وجاء بأناس تظهر عيونهم بصورة قبيحة جداً، وقد وضعت عليها طبقاتٌ من الطين بشكل قبيح، تتقزز منه العين، وقال: هذه الطبيبة ـ السيدة نفيسة ـ من نسل النبي أُرسلت إلى مصر لتعمي المصريين!! وقال لهم: هل تعرفون كم عدد العميان في مصر؟ وأجاب: إنهم يمثلون (٣٠٪)! وعندما انتهت المحاضرة قدم المحاضرون التبرعات لهذا المبشر، ورغبت في أن أرد على د. روبلي، غير أن لغتي الألمانية لم تكن تسعفني في هذه المهمة، فقلت كلماتٍ قصيرة في نهاية المحاضرة، واستمع إليها الحاضرون؛ مؤداها أن لي تعليقًا قصيرًا ستقرءونه في الصحف، وأثناء خروجي اعتذرت له عن الإسهام في تقديم التبرعات، وعندما ذهبت إلى البيت قالت لي المرأة التي كنت أسكن عندها ـ غاضبةً ـ

(١) إشارة إلى المهر في الثلاثينيات من القرن العشرين.

وقد حضرت: هل دينكم بهذا الشكل؟ وهل الحياة في بلادكم على هذه الصورة القبيحة؟! غير أني لم أنم تلك الليلة، وجئت بجميع القواميس في محاولة مني لكتابة ردٍّ يصحح ما أثاره مفتش التبشير في محاضرته من أكاذيب ومغالطات، وفي الصباح صححت لي هذه المرأة الرد المكتوب بلغةٍ ركيكة، وبعثت بهذا الرد إلى الصحف، وقد نسخت منه ثماني نسخ، ونشرت الصحف الرد في صفحاتها الأولى، وذكرت أنَّه لمحمد توفيق محرر مجلة «التقوى» بالقاهرة، ومن هنا كانت الحاجة ماسة لتأسيس «دار تبليغ الإسلام»؛ لتقوم بتقديم مفهوم صحيح عن الإسلام، ولتساعد الأجانب الراغبين في معرفة الحقيقة فيما يتصل بالإسلام، بلغاتهم الحية في مواجهة حملات التضليل والأكاذيب والتعصب»[1].

والغريب أن المهندس محمد توفيق أثناء إقامته بالفيوم درس في مدرسة تبشيرية، وغضب والده وطرده من البيت، وأقام إقامة داخلية بهذه المدرسة، واكتشف بفطرته أباطيل الإنجيل، وكتب في ذلك ثلاث كراريس مدرسية، رد بها على مستر «جلوي» مفتش التبشير، الذي لم يستطع الإجابة، وما قال له إلا: إن الذي كتب هذا الكلام شيطان وليس أنت. وضاق ذرعًا بالمدرسة التبشيرية، وعاد إلى أحضان أبويه بعد أن أطلع عمه ـ وكان ذا دين ـ على ما كتبه ابن أخيه ردًّا على الإنجيل.

❑ يقول الأستاذ عبداللطيف الجوهري ـ مؤلف كتاب «رجل من أمة التوحيد أسلم على يده ٤٠٠٠ من الأجانب» ـ للمهندس محمد توفيق، أثناء حواره معه الذي ذكره في كتابه، وكان هذا الحوار سنة ١٤٠٧هـ الموافق يونية سنة ١٩٨٧م، ونشر في مجلة «منار الإسلام» الظبيانية الغراء ص(١٠٨ ـ

(١) «رجل من أمّة التوحيد أسلم على يده ٤٠٠٠ من الأجانب» لعبداللطيف الجوهري ص(٢٢ ـ ٢٥). دار الصحوة للنشر.

١١٣): «ماذا عن رقم آخر بطاقة تزف للمسلمين بشرى ميلاد مسلم جديد. وما قصة إسلامه باختصار؟ فقال الشيخ محمد توفيق: آخر بطاقة رقم (٣٣٣٤) وصاحبها هولندي، جاء إلينا فأعطيته رسائلي ليقرأها، ولكن لم أر منه الحماس الكافي لاعتناق الإسلام، وفي مرة أُخرى زارني في صحبة صديق إنجليزي معه شديد التحمس إلى الإسلام، فعندما رأى هذا الحماس لدى الإنجليزي، عاد إليّ بعدما تفرغ لدراسة الإسلام، وأقر بالشهادتين وكتب إقراراً بالإسلام وأسلم»[1].

كان الشيخ المهندس محمد توفيق يراسل مثقفي العالم الذين يريدون فكرة صحيحة عن الإسلام، ويتلقى آلاف الرسائل على صندوق بريده برقم (١١٢) في القاهرة من مختلف أنحاء العالم.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «إن اتجاهي لتبليغ الإسلام للأجانب، دفعني إليه ـ بالإضافة إلى واجب التبليغ على كل مسلم ـ افتتان العرب والمسلمين بالأجانب، فيما يعرف «بعقدة الخواجة» فأردت أن أتخذ من الأجانب حقلاً للدعوة الإسلامية، فإذا أسلم هؤلاء الأجانب، لفت ذلك أنظارنا في بلاد العرب والمسلمين ـ مما يلفتنا ـ إلى عظمة ديننا وضرورة الالتجاء إليه والتشبث بهديه»[2].

❑ ويقول: «إنني في مجال تبليغ الدعوة للأجانب، لا أترك الأجنبي الذي يراسلني بصدد دعوة الإسلام، إلا بعد ما يعلن الشهادتين، وفي العادة قد تطول المراسلة أو تقصر، وأقصر مراسلة انتهت بإعلان إسلام أحد الأجانب من ألمانيا استمرت شهرين، وأطولها استمرت سبعة عشر عامًا مع

(١) «رجل من أمة التوحيد» ص(٢٧).
(٢) «رجل من أمة التوحيد» ص(٥٩).

رجل من تشيكوسلوفاكيا، ومع هذا الأخير الذي كانت تربطني به صداقة، وكان يتردد على القاهرة ويتفضل بزيارتي، وكان مصرًّا على التمسك بعقيدته، بيد أنه جاءني ذات مرة، بعد مرور سبعة عشر عامًا على صداقتنا، وقال لي: إنني أحمل لك مفاجأة، فقلت له: ما هي؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه»[1].

رحمه اللَّه، لقد تفرغ تفرغًا تامًّا لمراسلة الأجانب والرد على استفساراتهم طوال عمره المبارك الذي يناهز التسعين عامًا.

كتب إليه رجلٌ نصراني أجنبي: إن عمري ثمانون عامًا، وقد دأبت منذ نعومة أظافري على التردد على الكنيسة، وإن ما قدمته من معلوماتٍ عن المسيح، يفوق ما عرفت عنه في الكنيسة.

يراسل الشيخ محمد توفيق صيدليًّا كاثوليكيًّا يسكن في «بازل» على الحدود الفرنسية وزوجته، مدة طويلة بعد طول جهدٍ معهما، ويرسل إلى زوجة هذا الصيدلي ترجمة معاني القرآن الكريم، وتستوقفها أشياء، ويسافر الشيخ إلى «بازل» ويصل بقطار الساعة الرابعة بعد الظهر، وكانوا في انتظاره ـ الصيدلي وزوجه وأولاده ـ ولم يكونوا يعرفونه، وكان قد وافاهم بمواصفاته، وأنه طويل نحيف بنظارة ومعه كتاب لونه أحمر، وكان قد حمله ليعرف به، واهتدوا إلى معرفته، وفور وصولهم إلى البيت، قالت له زوجة الصيدلي: هل أنت متوضئ؟ فقال لها: نعم، فقالت: ونحن أيضًا متوضئون، ثم طلبت منه أن يصلي بهم إمامًا، فتأثر وبكى.

أم نقص حكاية الصبي الألماني، الذي كان والده يراسل الشيخ في موضوع «الإسلام» ووصلت مراسلته إلى قناعته بالإسلام، وكان الشيخ في

(١) «رجل من أُمة التوحيد» ص(٥٩ ـ ٦٠).

مراسلته قد ذكر له أن أول من أسلم من الصبية علي بن أبي طالب، ومن الرجال أبو بكر الصديق، ومن النساء خديجة بنت خويلد ﷺ، وبعد ما أعلن الرجل إسلامه، وبعث إلى الشيخ بإقرار الشهادة، أرسل إليه الشيخ شهادة اعتناق الإسلام، وعقب ذلك تلقى الشيخ رسالة من ابن الألماني الصبي وقال: أرجو أن ترسل لي الإقرار للتوقيع عليه، وشهادةً باعتناق الإسلام مثل أبي، فكتب إليه الشيخ يستمهله حتى يكبر ويزداد تعرفه على الإسلام، فأرسل من فوره رسالةً ذات منطقٍ مفحم، أقنع الشيخ وأثر فيه كثيرًا، حيث قال في رسالته: «هل طلب محمد بن عبدالله من علي بن أبي طالب أن يرجئ إسلامه حتى يكبر؟!» فلم ير إلا أن يلبي طلبه فورًا، ويرسل إليه الإقرار ليوقعه، ثم الشهادة باعتناق الإسلام[1].

يقول الأستاذ أنور الجندي عن المهندس محمد توفيق أحمد: «هذا رجل ليست له شهرة الأدباء، ولكن له مكانة العاملين في مجال الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية في صدقٍ وثبات، وقد اختار مجالاً لا يكاد ينافسه فيه أحد، وهو المحيط الخارجي، وفي قلب أوروبا بالذات، وأصدر مجلة «البريد الإسلامي» الزاهرة عام ١٩٤٣م، وأنشأ «دار تبليغ الإسلام» قبل ذلك عام ١٩٢٩م، بدأ عمله في سويسرا عن طريق الرسائل والإعلانات، ففي كل محطةٍ من المحطات على طول الطريق من النمسا إلى زيورخ إلى باول، تجد لوحًا تقول: «لقد علمت خطأ عن الإسلام، إن كنت تريد أن تعرف الحقيقة، فاكتب إلى فلان، فإذا أرسلت إليه، أرسل لك كتبًا صغيرة موجزة»، وقال لك: أرسل لي خمسةً من أصدقائك، ولا يلبث أن يرسل لهم بطاقاته، وامتد عمله في النمسا والسويد والنرويج وفرنسا، ونما هذا العمل الصامت الخالص لوجه الله، وفي سبيل التعريف بالإسلام، وتحرير

(١) «رجل من أمة التوحيد» ص(٨٥).

مفاهيمه، حتى كتب إلى مائة ألفٍ من البشر، قال لهم كلمة التوحيد، فكسب منهم أصدقاء، وكسب منهم معتنقين، ونشأ من خلال ذلك في هذه الأقطار مجتمعات إسلامية»[1].

يا سبحان خالق الهمم... يرسل خطابات إلى مائة ألف شخص!!.

ويقول الصحفي المغربي الأستاذ عبدالقادر الإدريسي عن الشيخ محمد توفيق في مقالة «الرجل المؤسسة»: «أسلم على يده أكثر من ثلاثة آلاف شخص... هذا هو المدخل الرئيسي إلى عالم صاحبي... التقيت به مرتين، تفصل بينهما ثلاث عشرة سنة كاملة، لم يتغير الرجل طوال هذه المدة، بل أستطيع أن أقول: إن قوته وعزيمته تزدادان مضاءً مع توالي الأعوام، الإشراق في عينيه يجذبك إليه بقوة، رجل ليس كالرجال، قمة من القمم الشامخة التي وهبت حياتها للّه رب العالمين... يحتفظ بمكتبه ـ الذي يشغل جناحًا من شقته المتواضعة ـ بملفاتٍ كاملةٍ عن الأشخاص الذين اهتدوا إلى دين اللّه على يده، أصناف متعددة من البشر، الصفة التي تجمعهم أنهم خارج الوطن الإسلامي، والحكاية لها بداية جديرة بالتسجيل: رحل صاحبي إلى أوروبا في الثلاثينيات، وأقام بإحدى المدن السويسرية، حيث عمل في الهندسة الكهربائية، وطالت إقامته في تلك الديار، وأقام علاقات عديدة مع مختلف الطبقات، مما أكسبه حسن السمعة وطيب الذكر، وأخذ في الدعوة إلى الإسلام في الأوساط المسيحية، ولقي عمله إقبالاً كبيرًا، وفوجئ بتدفق لم يكن يتوقعه من شتى الأوساط؛ المتعلمة والمثقفة والعادية، فزاده ذلك إقبالاً على المضي في هذا الطريق، ودخل الكنائس والمدارس والسجون

(١) «رجل من أمة التوحيد» ص(١١١ ـ ١١٢) نقلاً عن مقالة في مجلة «المنهل» الحجازية في رجب سنة ١٣٩٠ الموافق سبتمبر سنة ١٩٧٠م بعنوان «لقاء مع جيل الرواد المهندس محمد توفيق أحمد».

والنوادي الليلة، وأخذ ينفق على الدعوة من دخله الشخصي، وهداه تفكيره إلى استئجار الأماكن العامة، مثل دور السينما والنوادي وقاعات الاجتماعات؛ لإلقاء المحاضرات وإدارة الندوات، وفجأة وجد نفسه في عالمٍ لم يخطط له. كان في البداية يقدر أن المسألة لا تعدو أن تكون عملاً متواضعًا. يقصد به وجه اللَّه لا أقل ولا أكثر، فإذا به أمام نتائج باهرة وحركة واسعة وإقبالٍ لم يخطر على بال، وإذا باسم الرجل يتردد في أكثر من جهة في أوروبا، وإذا بالصحافة تكتب عنه، وإذا برجال الكنيسة يتحركون لمعرفة السر وراء هذا النجاح، فلما أيقنوا أن الرجل لا يدعمه أحد سوى اللَّه، كفوا عن المناوشة وسلموا أمرهم للَّه، حتى إن بعض الرهبان والقساوسة أخذوا يترددون عليه في مقر إقامته بمدينة بادن (أرجاو) بسويسرا لمناقشته والأخذ عنه، وكتب اللَّه لهذا العمل المتواضع الخالص لوجهه الكريم، أن يتسع ويمتد ويشع وينمو في اطراد، وكان أن ارتفع المعدل الشهري للذين يُقبلون على الإسلام، وبمرور الأعوام قفزوا إلى الألف الأُولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، وهذا كله من فضل ربي الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً. اتخذ لنفسه شعارًا يلخصه في الجملة التالية: «الناس جميعًا أسرة واحدة، ربها واحد، ودينها واحد، هو الإسلام الذي دعا إليه جميع رسل اللَّه الكرام، والسعيد الناجي من فهم القرآن، وعمل على نشر تعاليمه التي تحقق المحبة والسلام بين بني الإنسان». وهو يطبع هذا الشعار على الرسائل التي يوزعها مجانًا بسبع لغات على القارات الخمس. هذا الرجل تخطى عتبة الثمانين ولا يزال في فتوة وحيوية الشباب.

رجل يستحق التكريم ممن جعل اللَّه تكريم الرجال على أيديهم... لقد أسعدني أن ألتقي بالمهندس محمد توفيق بن أحمد سعد، وهذا اسمه بالكامل. ألستم معي أن هذا الرجل يضاهي عمله عمل المؤسسات... إنه

بحق الرجل المؤسسة، ولا عجب»[١].

وتحت عنوان «مع العاملين في صمت وبلا دعاية» كتب الأستاذ محمد الجندي: «يذكر المهندس توفيق أحمد، أنه في الوقت الذي تحاصر فيه الصحافة الإسلامية وتخضع لأجهزةٍ متعددة من الرقابة، فإن جمعية «شهود يهوه» تصدر مجلة تسمى «برج المراقبة» وتوزع منها عشرة ملايين نسخة، وبتسع وسبعين لغة ولهجة في العالم، بينما كل المجلات والصحف في العالم الإسلامي لا تتجاوز إصداراتها في مجموعها علي مليون نسخة، وفي عددٍ محدود من اللغات، علمًا بأن جمعية «شهود يهوه» هي موسسة يهودية ترتدي ثوبًا نصرانيًّا مزيفًا، وتقوم على مبدأ خداع الجماهير المسيحية الساذجة، وإدخال نبوءات التوراة المحرفة في النفوس، والتي منها ما يبشر بعودة اليهود إلى فلسطين والتي تخدم الفكر الصهيوني. ودار تبليغ الإسلام تقوم على شخصٍ واحد، هو «الساعي ومسئول العلاقات العامة والمحرر ورئيس التحرير ومسئول المراسلات والتمويل وغيرها». وقد وصفته إحدى المجلات الإسلامية بأن هذا الجهد الكبير، الذي يقوم به، لا تستطيع مؤسساتٌ بكاملها عمله، ورجحت جهده على جهد أحد المؤتمرات الإسلامية، والتي أشرفت عليه مجموعة دولٍ في إحدى العواصم الأوروبية عام ١٩٧٦م، وكان هذا المؤتمر يهتم بالتراث من خلال مخطوطات إسلامية ومجموعة محاضرات، ورغم هذا لم يعلن أحدٌ إسلامه.

ويمنح المهندس توفيق أحمد شهادةً بإسلام من يرغب من الأوروبيين، ولا يتم منح هذه الشهادة إلا بعد إجراء الاختبارات الدقيقة حول الدوافع إلى اعتناق دين الإسلام، ويكتب في الشهادة أي خروج على تعاليم الإسلام

(١) مجلة «المسلمون» الدولية بلندن ـ العدد الصادر في ٢١ من رجب سنة ١٤٠٢/ الموافق ١٤ من مايو ١٩٨٢م.

يلغيها»[١].

«اقرأها وأعطها لغيرك مشكورًا، ولا تحتكرها فتأثم». كتبت هذه العبارة على مجلة البريد الإسلامي... فرحم اللَّه الرجل الأُمَّة المؤسسة... عالي الهمة... الشيخ الداعية المهندس محمد توفيق، الذي أسلم على يديه أربعة آلاف شخص، وكتب إلى مائة ألف شخص يدعوهم إلى الإسلام... هذه هي الأُسوة والقدوة.

*** الشيخ محمد جميل غازي الداعية المبارك يقضي عمره ذابًّا عن التوحيد، ومدافعًا عن الإسلام، ومفسرًا لكتاب اللَّه، ويُسلم على يديه القساوسة:**

كان التوحيد وتصحيح العقيدة أس دعوته وزبدتها ومنطلقها وغايتها.. وكم كانت له صولات وجولات.. وقام على يديه هذا الصرح المبارك «مسجد العزيز باللَّه» بمنطقة «حدائق الزيتون».. وعلّم الناس الاتباع، وحارب التصوف وبدعه.

وعلى منبر مسجد العزيز فسّر القرآن العظيم تفسيرًا جميلاً يدل على رسوخ الشيخ في هذا العلم المبارك.

ودعا غير المسلمين إلى الإسلام: «فبدعوة من بعض قساوسة السودان ومبشّريه، وعلى رأسهم المبشر القسيس جيمس بخيت وتيخا رمضان ومن معهما من القساوسة، عُقدت مناظرة استغرقت ستة أيام.. في كل يوم ثلاث ساعات متتالية، في الفترة من ١٤٠١/١/٢٣ هـ إلى ١٤٠١/١/٢٩هـ، الموافق ١٩٨٠/١٢/١م إلى ١٩٨٠/١٢/٧م، بين ثلاثة من أعلام الفكر

(١) مجلة «الهدى» الخليجية ـ العدد الصادر في يوم الجمعة ١٤ من ذي الحجة سنة ١٤٠٥هـ.

الإسلامي: الشيخ الدكتور محمد جميل غازي والأستاذ إبراهيم خليل أحمد ـ الذي كان من أخطر القساوسة المصريين وأسلم ـ واللواء المهندس أحمد عبدالوهاب علي الذي شُغل بمقارنة الأديان منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا، وبين القساوسة السودانيين وعلى رأسهم المبشر القسيس جيمس بخيت، وآمن جميع القساوسة والمبشرون المناظرون، وأسلم بإسلامهم خمسمائة»[1].

❑ واللَّه عز وجل لا يضيع جهد الداعية الدكتور محمد جميل غازي الذي ربما ظلّ في الدعوة بعيدًا عن أولاده خمسة أشهر متوالية، فرحمه اللَّه وأجزل له المثوبة.

❑ وهذا الداعية العظيم إبراهيم خليل أحمد، الذي كان رأسًا من رءوس التبشير والكفر في مصر والعالم، فإذا هو بعد إسلامه يجوب البلاد دعوة إلى اللَّه عز وجل، يتحدّث في جامعة أسيوط سنة ١٩٧٦م، فيقف بعد محاضرته سبعة عشر من شباب جامعة أسيوط ليعلنوا إسلامهم بكل جرأة.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «لقد شعرت أن الإسلام يفرض عليّ فرضًا، هو أن أحمل رسالة التبليغ، وأن أدعو برسالة لا إله إلا اللَّه.

فهلاّ اتعظ الغافلون من المسلمين بسير الرجال العماليق... وهلاّ آمن المبشرون الدّجالون الذين يصدق عليهم قول المسيح لليهود: «ويلٌ لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون؛ لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحدًا، ومتى حصل تجعلونه ابنًا لجهنم أكثر منكم مضاعفًا».

* الشيخ غازي ليث المنابر يُفحم مناوئي الإسلام:

نطق الشيخ وجهر بدعوة الإسلام ودافع عن دينه حين سكت وجمجم

(١) من كتاب «مناظرة بين الإسلام والمسيحية» طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد».

غيره ولنسق إليكم جزءًا من خطبة عيد الفطر سنة ١٤٠٦هـ لترى أي معدن من الرجال الربانيين كان ذلكم الرجل...

يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «ليست هذي خطبة بالمعنى الذي عهدناه وألفناه، فما أكثر ما خطبنا، وما أكثر ما تكلمنا، ولكن الذي نقوله اليوم هو تقرير عن الواقع الإسلامي، تقرير عن هذه السنوات التي نعيشها عبر الخمسين عامًا الأخيرة... في هذه السنوات الأخيرة رأى المسلمون ما رأوا من هجمات مسعورة القصد منها القضاء على الإسلام، وشارك في هذه الهجمات رؤساء يحكمون بلادًا إسلامية، ساهموا في قتل المسلمين، وساهموا في تنفيذ مذابح للأمة الإسلامية في كل مكان.

وأبدأ معكم الحديث منذ عام ١٩٢٤م مَن منكم يحفظ هذا التاريخ؟ احفظوه جميعًا، احفظوا أن في هذا التاريخ قام مصطفى كمال أتاتورك الخائن اللعين المثل الأعلى لأحد الحكام المصريين في هذه الحقبة الأخيرة الذي يخطب في مصر ويقول: إن مثلي الأعلى هو مصطفى كمال أتاتورك... مصطفى كمال الذي وأد المسلمين، وقتل المسلمين في تركيا، وقضى على الخلافة الإسلامية، يُعتبر القضاء على الخلافة الإسلامية هو أول مسمار دُقّ في نعش المسلمين. وقُتِل المسلمون جماعات... وقف مصطفى كمال أتاتورك في وجه العمل الإسلامي في تركيا، في بلاد القوقاز، وعلى بحر قزوين، ونادى بالعلمانية وهدم اللغة العربية، وكتب بالحروف اللاتينية، وحذّر أشد تحذير من أن تقوم علاقة بين المسلمين وبين القرآن الكريم، ضرب المساجد، ضرب المدارس الإسلامية، قضى على كل مظهر إسلامي في تركيا التي كانت في ذلك الوقت مقر الخلافة الإسلامية العظيمة التي هزّت أوربا، وأزعجت العالم كله، وروّعت الدنيا، وحققت انتصارات باهرة، ولكنه في أعقاب الحرب العالمية الأولى أعلن المتحاربون جميعًا سواء من هذه الجبهة أو

تلك أعلنوا أنه لا بد أن تقوم العلمانية، ولا بد أن توزّع تركة الرجل المريض، ومات الرجل المريض، مات الخليفة العثماني، وماتت معه تركيا، ومات العالم الإسلامي كله، ونشأت الإقليميات، وأخذت تطلّ برأسها القوميّات والوطنيات، نشأت القومية العربية وهي ضربة موجهة للإسلام نفسه، ونشأت جامعة الدول العربية وهي ضربة المقصود بها تصفية العالم الإسلامي، وبعد أن قامت القومية العربية، وبعد أن قامت جامعة الدول العربية قامت إسرائيل التي ما كان يمكن لها أن تقوم أبدًا لو أن الخلافة الإسلامية قائمة، ولو أن تركيا ما زالت على عهدها.

❑ رفضت تركيا الإسلام، رفضه مصطفى كمال أتاتورك وخلفاؤه وحلفاؤه الذين توافدوا على حكم الإسلام... ويقول الشاعر يبكي على الإسلام... يقول:

ما لي وللنجم يرعاني وأرعاه ... أضحى كلانا يعافُ الغمض جَفْنَاهُ
أَنَّى اتَّجَهْتَ إلى الإسلام في بلدٍ ... تَجِدْهُ كالطيرِ مقصوصًا جناحاهُ
وَيْحَ العروبةِ كان الكون مَسْرَحَها ... فأصبحت تتوارَى في زواياهُ
كم صَرَّفَتْنَا يَدٌ كُنَّا نُصَرِّفُهَا ... وبَاتَ يَحْكُمُنَا شعْبٌ حَكَمْنَاهُ
تاجٌ أَغَرُّ على الأتراكِ نَعْرِضُه ... ما بالنا نجدُ الأتراكَ تأْبَاهُ
ألمْ يَروْا كيف فدّاهُ معاويةٌ ... وكيف باتَ عليٌّ من ضحاياهُ
غالَ ابن بنت رسول اللّه ثم عدا ... على ابن بنت أبي بكرٍ فأرداهُ

وتمزّقت الأمة...

❑ انظروا إلى الخريطة، وانظروا إلى الدماء التي تسيلُ كل يوم.. دماءٌ موجودة في أفغانستان، ودماء موجودة كل يوم في كل مكان، ويا ليت الأمر توقّف على مجازر يقوم بها الشيوعيون الروس لقلنا إن الخطْب هيّن، ولكن للأسف الذي يقوم بتنفيذ مخططات الهجمات هُم الحكام المسلمون عَربًا كانوا

أو غير عرب، يدفعون ثمن الكراسي بدماء المسلمين في كل مكان.

*** الهجمة على الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية:**

ثم يقول الشيخ جميل في الهجمة على الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية: «جاء عميل قمئ من عملاء الهجمات المضادة للإسلام فقام بدور دنكيشوت فقضى على الأوقاف ثم المحاكم الشرعية وجاءت حادثة الشيخ الفيل والشيخ سيف، وأُلقي الرجلان الشريفان العظيمان ألْقِيَا في فم الصحفيين، وبالمانشتات العريضة كانت صورهما تظهر في صفحات كاملة، وكتب زعيم الأدب العربي يصفّق فرحًا مستبشرًا كتب يقول: «الخطوة الثانية».

أي هذه هي الخطوة الأولى؛ القضاء على القضاء الشرعي، ونريد الخطوة الثانية وهي القضاء على الأزهر، القضاء على الأزهر بمعنى أن يصبح التعليم في مصر تعليمًا واحدًا مدنيًّا، ما ضرّ هذا الإنسان البغيض إلى ربه وإلى خلقه، ما ضرّه لو طالب بتوحيد التعليم فيصبح كله تعليمًا إسلاميًّا ولكن كلمة «إسلام» تقضّ المضاجع وتتعب كثيرًا من النفوس، وطالب بالخطوة الثانية... كتبها كانفجار من انفجارات الحقد الموجود في نفوس الهجمات المعادية للإسلام» اهـ[1].

▣ رحمك اللَّه يا شيخ جميل وأعطاك جزاء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر المجاهرين بالحق الصادعين به من العلماء الربانيين.

* * *

(١) تراجع الخطبة كاملة مسجلة «خطبة عيد الفطر سنة ١٤٠٦هـ لترى جرأة الشيخ ورباطة جأشه وصدعه بما لم يصدع به غيره في زماننا هذا.

أمـــا لك بالرجـــال أســـوة؟
أتسبقك وأنت رجل نِســـوة؟!

أَمَا لك بالرجال أُسوة؟ أتسبقك وأنت رجل نِسْوة؟!

إن الإسلام حدّد دائرة نشاط كل من الرجال والنساء، فجعل أمر الولاية والسياسة للرجال دون النساء، وقرّر أن الأصل للنساء القرار في البيوت. ومع انقياد المسلمات من سلف هذه الأمة لأمر ربّهنّ عز وجل في هذا الصدد فقد قمن بالإنكار على أصحاب السلطة حيثما وجدن إلى ذلك سبيلاً وإليك نماذج عطرة دالة على ذلك.

١ ـ إنكار عائشة رضي الله عنها على زياد تجرّده عن الثياب بعد بعثه الهَدْي:

بلغ أم المؤمنين رضي الله عنها أنّ زياد بن أبي سفيان[1] بعث بهدي وتجرّد عن الثياب فأنكرت عليه ذلك. فقد روى الإمام أبو يعلى عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كنت لأفتل قلائد بُدْن رسول اللَّه ﷺ ثم يبعث بالهدي وهو مقيم عندنا لا يجتنب شيئًا مما يجتنب المحرم».

بلغنا أن زيادًا بعث بهدي وتجرّد، فقالت: «وهل كانت له كعبة يطوف بها حين لبس الثياب، فإنا لا نعلم أحداً تحرم عليه الثياب ثم تحلّ له حتى يطوف بالكعبة»[2].

فها هي الصديقة توبخ وتستنكر مستغربة تصرفه ذلك.

---

(١) (زياد بن أبي سفيان): أمّره معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه على العراقين البصرة والكوفة، جمعهما له، ومات في خلافة معاوية رضي الله عنه في سنة ثلاث وخمسين. انظر: «فتح الباري» (٣/ ٥٤٥)، و«عمدة القاريء» (١٠/ ٤٠).

(٢) مسند أبي يعلى، مسند عائشة رضي الله عنها رقم الحديث ٣٨ (٤٣٩٤)، (٧/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨). وقال عنه محقّق الكتاب: «إسناده صحيح». هامش المسند (٧/ ٣٥٧).

٢ ـ أمر عائشة رضي الله عنها أمير المدينة بردّ المطلقة إلى بيتها:

طُلِّقت ابنة أخ لأمير المدينة المنورة مروان بن الحكم، فنقلها أبوها عبدالرحمن بن الحكم إلى بيته وهي في العدّة، فأرسلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى أمير المدينة المنورة تأمره بردّ ابنة أخيه إلى بيتها. فقد روى الإمام البخاري عن القاسم بن محمد وسليمان بن يسار أنّ يحيى بن سعيد بن العاص طلّق بنت عبدالرحمن بن الحكم، فانتقلها عبدالرحمن، فأرسلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى مروان ـ وهو أمير المدينة ـ: «اتق اللّه وارددها إلى بيتها».

قال مروان [في حديث سليمان (أحد راوة الحديث)]: «إنّ عبدالرحمن ابن الحكم غلبني»[١].

وقال القاسم بن محمد (أي في رواية الراوي الثاني): «أو ما بلغك شأن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها»[٢].

قالت: «لا يضرك أن لا تذكر حديث فاطمة رضي الله عنها»[٣].

فقال مروان بن الحكم: «إن كان بك شر فحسبك ما بين هذين من الشر[٤]»[٥].

---

(١) (إنّ عبدالرحمن بن الحكم غلبني): «أي: لم يطعني في ردّها إلى بيتها، وقيل: مراده غلبني بالحجة لأنه احتج بالشر الذي كان بينهما» «فتح الباري» (٩/ ٤٧٨).

(٢) (أو ما بلغك شأن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها): هذا أيضًا من كلام مروان كما جاء في رواية القاسم بن محمد. ويستدل بذلك مروان بإذن النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها بالانتقال من بيتها وهي في العدّة.

(٣) (لا يضرك أن لا تذكر حديث فاطمة رضي الله عنها): أي: أنه لا حجة فيه لجواز انتقال المطلّقة من منزلها بغير سبب. «فتح الباري» (٩/ ٤٧٨).

(٤) (إن كان بك شر فحسبك ما بين هذين من الشر): أي إن كان عندك أن سبب خروج فاطمة رضي الله عنها وما وقع بينها وبين أقارب زوجها من الشر فهذا السبب موجود، ولذلك قال: «فحسبك ما بين هذين من الشر» (المرجع السابق ٩/ ٤٧٨).

(٥) **صحيح البخاري**: كتاب الطلاق، باب قصة فاطمة بنت قيس رضي الله عنها، رقم الحديث =

٣ ـ إنكار أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما على الحجّاج قوله في ابنها:

قَتَل الحجّاجُ بن يوسف الثقفي عبداللَّه بن الزبير رضي الله عنهما ثم دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما فبرّر قتله ابن الزبير رضي الله عنه باتهامه بإلحاد في الحرم فلم يكن من أسماء رضي الله عنها إلا أن فنّدت اتهامه وبيّنت أنه قد افترى على ابنها الكذب. فقد روى الإمام الحاكم عن أبي الصديق قال: لما ظفر الحجّاج على ابن الزبير رضي الله عنه فقتله ومثّل به، ثم دخل على أم عبداللَّه وهي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، فقالت: «كيف تستأذن عليّ وقد قتلت ابني؟»[1].

فقال: «إنّ ابنك ألحد في حرم اللَّه فقتلتُه ملحدًا عاصيًا حتى أذاقه اللَّه عذابًا أليمًا، وفعل به وفعل».

فقالت: «كذبت يا عدو اللَّه وعدو المسلمين! واللَّه! لقد قتَلتَه صوّامًا قوّامًا بَرًّا بوالديه حافظًا لهذا الدين. ولئن أفسدتَّ عليه دنياه لقد أفسد عليك آخرتك. ولقد حدّثنا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم أنّه يخرج من ثقيف كذّابان، الآخر

= (٥٣٢١، ٥٣٢٢)، (٩/ ٤٧٧).

(١) وفي «صحيح مسلم»: ثم (بعد قتل ابن الزبير رضي الله عنهما) أرسل (الحجاج) إلى أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فأبت أن تأتيه.

فأعاد عليها الرسول: «لتأتينّي أو لأبعثنّ إليك من يسحبك بقرونك».

قال: فأبت وقالت: «واللَّه! لا آتيك حتى تبعث إليّ من يسحبني بقروني».

قال: فقال: «أروني سبتي».

فأخذ نعليه ثم انطلق يتوذّف حتى دخل عليها...

«صحيح مسلم»، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر كذّاب ثقيف ومبيرها، جزء من الحديث ذي الرقم (٢٢٩)، (٤/ ١٩٧١ ـ ١٩٧٢).

(يسحبك بقرونك): أي: يجرّك بضفائر شعرك.

(سبتي): هي: النعل التي لا شعر لها.

(يتوذّف): قال أبو عبيد: معناه: «يسرع». وقال أبو عمرو: معناه «يتبختر» (نقلاً عن هامش «صحيح مسلم» للشيخ محمد فؤاد عبدالباقي (٤/ ١٩٧١ ـ ١٩٧٢).

منهما أشرّ من الأول، وهو المبير[١] وما هو إلا أنت يا حجّاج»[٢].

اللّه أكبر! ما أجرأها في الجهر بكلمة حق عند سلطان جائر! ولا عجب في هذا إنها ذات النطاقين ابنة الصديق رضي الله عنهما وعن أبيها وأرضاهما.

٤ ـ احتساب أم الطفيل على الفاروق رضي الله عنهما بسبب قوله في عدّة الحامل المتوفّى عنها زوجها:

اختصم عمر بن الخطاب وأبي بن كعب رضي الله عنهما في عدّة الحامل المتوفّى عنها زوجها. فكان أبي بن كعب رضي الله عنه يرى أنّ عدّتها وضع الحمل، ولم يوافقه الفاروق رضي الله عنه على ذلك. فسمعت امرأة أبي بن كعب ـ وهي أم الطفيل رضي الله عنهما تحاورهما فاحتسبت على الفاروق رضي الله عنه مشيرة إلى مخالفته لما ثبت في السنة. فقد روى الإمام أحمد عن أم الطفيل امرأة أبي بن كعب رضي الله عنهما أنها سمعت عمر بن الخطاب وأبيّ بن كعب رضي الله عنهما يختصمان فقالت: «أفلا يسأل عمر بن الخطاب سبيعة الأسلمية رضي الله عنها؟ توفي عنها زوجها وهي حامل، فوضعت بعد ذلك بأيام فأنكحها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم»[٣].

---

(١) (المبير): المهلك انظر هامش «صحيح مسلم» (٤/ ١٩٧٢).

(٢) «المستدرك على الصحيحين»، كتاب الفتن والملاحم (٤/ ٥٢٦).
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». (المرجع السابق (٤/ ٥٢٦).
ووافقه الحافظ الذهبي انظر: «التلخيص» (٤/ ٥٢٦).
وروى نحوه الإمام أحمد انظر: «المسند» (٦/ ٣٥١)، (٦/ ٣٥٢).
وأصل القصة موجود في «صحيح مسلم» انظر: «صحيح مسلم»، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر كذّاب ثقيف ومبيرها، رقم الحديث (٢٢٩، ٤/ ١٩٧١ ـ ١٩٧٢).

(٣) «المسند» (٦/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦).
وقال عنه الحافظ الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني أتم منه. وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات». «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٥/ ٢).

ومما نجده في هذه القصة أنّ علوّ مكانة الفاروق رضي الله عنه وعظيم منزلته لم يمنعا أم الطفيل رضي الله عنها من الاحتساب عليه لمّا وجدتْ أنّ رأيه يخالف من أرسله اللّه تعالى ليُطاع بإذنه ﷺ.

٥ ـ احتساب قرشية على الفاروق رضي الله عنه بسبب منعه الزيادة في مهور النساء:

صعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على منبر الرسول الكريم ﷺ وانتقد على الناس إكثارهم في صداق النساء، وهدّد من زاد فيه على أربعمائة درهم. ثم نزل الفاروق رضي الله عنه عن المنبر فاعترضته امرأة من قريش وأنكرت عليه خطبته تلك. فقد روى الإمام أبو يعلى عن مسروق قال: «ركب عمر بن الخطاب رضي الله عنه منبر رسول اللّه ﷺ ثم قال: «أيها الناس! ما إكثاركم في صداق النساء، وقد كان رسول اللّه ﷺ والصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند اللّه أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلأعرفنّ ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم».

قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش، فقالت: «يا أمير المؤمنين! نهيت الناس أن يزيدوا في مهر النساء على أربعمائة درهم؟».

قال: «نعم».

فقالت: «أما سمعت ما أنزل اللّه في القرآن؟».

قال: «وأيّ لك؟».

فقالت: «أما سمعت اللّه يقول: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠].

قال: فقال: «اللّهم غفرًا! كل الناس أفقه من عمر».

ثم رجع فركب المنبر، فقال: «أيها الناس! إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحبّ».

قال أبو يعلى: وأظنه قال: «فمن طابت نفسه فليفعل»[١].

وفي رواية أخرى: فقال عمر رضي الله عنه: «إن امرأة خاصمت عمر فخصمته»[٢].

لا عصمة لأحد من الأمة، فكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول اللَّه ﷺ وهذا فاروق الإسلام عمر الوقّاف عند كتاب اللَّه تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر امرأة وعلى ملإ فينقاد رضي الله عنه من غير تردد... فرحم اللَّه حاكمًا سار على دربه.

٦ ـ نهي أم الدرداء رضي الله عنها عبد الملك بن مروان عن لعن الخادم:

كان عبدالملك بن مروان يستضيف أم الدرداء رضي الله عنها، وكانت تبيت عند نسائه، فسمعته يومًا يلعن خادمه فنهته عن ذلك. فقد روى الإمام أحمد عن زيد بن أسلم قال: كان عبدالملك بن مروان يرسل إلى أم الدرداء رضي الله عنها فتبيت عند نسائه، ويسألها عن النبي ﷺ.

---

(١) نقلاً عن «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٠٨).

وقال عنه الحافظ ابن كثير: «إسناده جيد قوي» (المرجع السابق (١/ ٥٠٨).

وقال عنه الحافظ الهيثمي: «رواه أبو يعلى في الكبير، وفيه مجالد بن سعيد، وفيه ضعف، وقد وُثّق». «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» (٤/ ٢٨٤).

وقال عنه الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني: «وسنده جيد» «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» (٢/ ١٥٥).

ونقله الحافظ ابن الجوزي في كتابه: «مناقب أمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه» ص(١٤٩ ـ ١٥٠).

(٢) نقلاً عن «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٠٩).

قال: فقام ليلة فدعا خادمه[١] فأبطأت عليه فلعنها، فقالت: «لا تلعن، فإنّ أبا الدرداء رضي الله عنه حدّثني أنّه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «**إن اللَّعَّانين لا يكونون يوم القيامة شهداء[٢] ولا شفعاء[٣]**»[٤].

* وهَلْ ينبت الخطّي إلا وشيجه؟؟

لله در القائل:

وهل يُنبت الخطي إلا وشـيجه ويُزرع إلا في منابته النخل؟

انظر إلى صنيع ابنتي الحافظ عاصم بن علي بن عاصم أبي الحسين الواسطي:

«عن محمد بن سويد الطَّحَّان، قال:

كنا عند عاصم بن علي، ومعنا أبو عبيد القاسم بن سلام، وإبراهيم بن أبي الليث ـ وجماعة ـ وأحمد بن حنبل يُضربُ ذلك اليوم، فجعل عاصم يقول: ألا رجل يقوم معي، فنأتي هذا الرجل فنكلمه؟

قال: فما يجيبه أحد. ثم قال إبراهيم بن أبي الليث: يا أبا الحسين أنا أقوم معك، فقال: يا غلام، خُفيَّ. فقال ابن أبي الليث: يا أبا الحسين أبلغ

---

(١) (خادمة): يقول الجوهري: «الخادم: واحد الخدم غلامًا كان أو جارية». الصحاح، مادة «خدم»، (٥/١٩٠٩). والمراد هنا «جارية» كما هو واضح من كلام الراوي الذي بعد ذلك: «فأبطأتْ عليه فلعنها».

(٢) (لا يكونون يوم القيامة شهداء): أصح الأقوال وأشهرها فيه: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات. (انظر: «شرح النووي» (١٦/١٤٩).

(٣) (ولا شفعاء): لا يشفعون حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار. (المرجع السابق (١٦/١٤٩).

(٤) «المسند» (٦/٤٤٨). وروى نحوه الإمام مسلم في «صحيحه». انظر: «صحيح مسلم»، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، رقم الحديث (٨٥) (٢٥٩٨)، (٤/٢٠٠٦).

إلى بناتي، فأوصيهم وأجدد بهم عهداً.

فظننا أنه ذهب يتكفن ويتحنط، ثم جاء، فقال عاصم: يا غلام خُفيَّ.

فقال: يا أبا الحسين إني ذهبت إلى بناتي فبكين. قال: وجاء كتاب بنتي عاصم من واسط:

يا أبانا إنه بلغنا أن هذا الرجل أخذ أحمد بن حنبل، فضربه بالسوط على أن يقول: القرآن مخلوق، فاتق اللَّه، ولا تجبه، فواللَّه لأن يأتينا نعيك أحب إلينا من أن يأتينا أنك قلت»[1].

*** امرأة من أهل الأندلس آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر:**

امرأة من أهل الأندلس يُقال لها الشلبية ولم يُعرف لها اسم كتب عنها المقرى والتلمساني:

«أنها كتبت إلى السلطان يعقوب المنصور تتظلَّم من وُلاةِ بلدها وصاحب خراجه:

قد آنَ أن تبكي العُيونُ الآبيهْ ... ولقد أرى أنَّ الحجارةَ باكيَه

يا قاصدَ المصر الذي يُرْجى به ... إن قدَّرَ الرحمنُ رَفْعَ كراهيهْ

ناد الأمير إذا وقفتَ ببابه ... يا داعيًا إنَّ الرعيَّة فانيه

أرسلتَها هَملاً ولا مَرْعىً لها ... وتركتَها نهبَ السِّباعِ العاديهْ

شِلْبٌ كلا شِلْبٍ، وكانت جنَّة ... فأعادها الطاغون ناراً حاميه

حافوا وما خافوا عقوبةَ ربِّهم ... واللَّهُ لا تخفى عليه خافيه

فيقال: أنها أُلقيت يوم الجمعة على مصلَّى المنصور، فلمّا قضى الصلاة وتصفَّحها بحث عن القصة فوقف على حقيقتها، وأمر للمرأة

(١) «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩)، و«سير أعلام النبلاء» (٩/ ٢٦٤).

بصلة»[1].

□ وعلى يد القانتات العابدات الصالحات ومن بيوتهن خرج الصبية والغلمان الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر:

جاء في كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدينوري ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ما نصه:

«عندما كان الحجاج يستعرض جنده، سمع غلامًا يقرأ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٩ ـ ١٣١].

فنظرَ إليه، وقال: أرى لسانًا فصيحًا، تقدَّم يا غُلام.

فتقدم، فسأله الحجاج: أتحفظ القرآن يا غلام؟

قال: ما خفت ضياعه حتى أحفظه، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قال الحجاج: أجمعتَ القرآن؟

قال: ما كان مفرّقًا حتى أجمعه، فقد جمعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

قال الحجاج: ويحك! ماذا أقول؟

قال: قل هل معك من القرآن شيء، فبهذا جاء الحديث.

فقال الحجاج: أتل شيئًا من القرآن.

فقرأ الغلام: «إذا جاء نصر اللَّه والفتح ورأيت الناس يخرجون من دين اللَّه أفواجا».

فقال الحجاج: ويحك يا غلام، يدخلون في دين اللَّه أفواجا.

---

(١) «نفح الطيب» للمقري التلمساني (٤/ ٢٩٤).

قال الغلام: هذا في عهد رسول اللَّه ﷺ، أما في إمارة الحجاج يخرجون من دين اللَّه أفواجا.

قال: يا غلام، أنت مقتول، فبماذا تلقى اللَّه؟

قال الغلام: ألقاه بعملي، وتلقاه بدمي.

فعفا عنه»[1].

وجاء في كتاب «تذكرة الآباء وتسلية الأبناء» لابن العديم ص(٦٤) ما نصه:

«دخل الحسين بن الفضل على بعض الخلفاء، وعنده كثير من أهل العلم، فأحب أن يتكلم فَزَجَرَهُ وقال:

أصبي يتكلم في هذا المقام؟

فقال: إن كنتُ صبيًا فلستُ أصغر من هدهد سليمان، ولا أنت أكبر من سليمان حين قال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢].

ثم قال: ألا ترى أنه فهم الحكم لسليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى».

*** السري السقطي يعظ أستاذه وهو صبي:**

جاء في كتاب «أنباء نجباء الأبناء» لابن ظفر المكي ص(١٤٦) ما نصه:

«بلغني أن السري بن المغلس السقطي قرأ على مؤدبه: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، فقال: يا أستاذ ما الورد؟

فقال: لا أدري.

فقرأ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]،

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدينوري (٢/ ١٨٢).

فقال: يا أستاذ ما العهد؟

قال: لا أدري.

فقطع السري القراءة وقال: إذا كنت لا تدري فلم غررت بالناس؟ فضربه المؤدب، فقال السري:

❑ يا أستاذ ألم يكفك الجهل والغرور حتى أضفت إليهما الظلم والأذى؟

فاستحله المؤدب وتاب إلى اللَّه تعالى من التأديب، وأقبل على طلب العلم، وكان يقول: إنما أعتقني من رق الجهل السري».

*** وأخيراً: امرأة سبب في الهداية:**

يُروى أن أحمد بن طولون كان في أول عهده ظالمًا باغيًا، فلما ساءت الأحوال، وجبن العلماء عن نصحه اعترضته امرأة في الطريق فقدمت له بطاقة كتبت فيها:

«ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وأُنْعِمَ عليكم ففسقتم، ووردت إليكم الأرزاق فقطعتم.. هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة، لا سيما من قلوب أجعتموها، وأكباد أوجعتموها.. اعملوا ما شئتم فإنا صابرون، وجوروا فإنا باللَّه مستجيرون، واظلموا فإنا إلى اللَّه متظلمون، وسيعلم الذي ظلموا أي منقلب ينقلبون».

فلما قرأها هدى اللَّه قلبه فعدل لوقته[1].

*** وراء كل عظيم امرأة:**

و«أجمع المؤرخون على أن جميع الأعمال الطيبة، والأفعال الحسنة التي

(١) «عالم أزهري حر يواجه السلطان الجائر بقلمه وقلبه ولسانه» للشيخ محمود عبدالوهاب =

قام بها المقتدي[١] ، فأكسبته الشهرة الفائقة، إنما كانت بتأثير زوجته (الخيزران)»[٢] .

❑ وفي العصر المتأخر كان للزوجة العاقلة أكبر الأثر في نصرة أعظم حركة تجديدية شهدتها الأمة منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري حتى يومنا هذا:

*** الأميرة (موضى بنت أبي وهطان) تحث زوجها الأمير محمد بن سعود على مؤازرة الدعوة الوهّابية:**

إذ لما قدم شيخ الإسلام (محمد بن عدالوهاب) ـ رحمه اللَّه ـ إلى (الدرعية) ليعرض دعوته على أميرها (محمد بن سعود) لعله ينصره بسيفه، ويحمي الدعوة التجديدية الوليدة، أوعز تلميذ شيخ الإسلام الشيخ (أحمد ابن سويلم العريني) إلى (ثنيان) و(مشاري) أخوي الأمير (محمد بن سعود)، وكانا من أنصار الشيخ وأتباعه، أوعز إليهما أن يستكشفا رأي أخيهما الأمير محمد في شأن الشيخ، ويقفا على مدى استعداده لمناصرة دعوته، فلم يترددا في قبول طلبه، وخَفَّا مسرِعَيْن إلى دار أخيهما الأمير محمد، وشرعا أوَّلاً بمفاوضة زوجته المسماة (موضى بنت أبي وهطان) من آل كثير، وكانت امرأة مشهورة بوفرة الذكاء والنباهة وسعة الإدراك، وقد تحدث الأخَوان إلى زوجة أخيهما طويلاً في المهمة التي جاءا من أجلها، وعن الدعوة التي يدعو إليها الشيخ، ومدى فائدتها في محاربة البدع والخرافات، ومكانة الشيخ، وما هو

= فايد (ص١٠٧) ـ دار الاعتصام.

(١) هو الخليفة محمد بن عبداللَّه المنصور.

(٢) «مرآة النساء» (ص٨٦)، وهي أم الهادي، وهارون الرشيد، ملكة حازمة، عاقلة، لبيبة، دَيِّنة، خيِّرة، متفقهة، أخذت الفقه عن الإمام الأوزاعي، كما في «الأعلام» (٢/ ٣٧٥).

عليه من علم ومعرفة، وصفة ما يأمر به وينهى عنه، وأخيرًا طلبا إليها أن تفاوض زوجها لمناصرة الشيخ، وشَدِّ أزره، وإشهار السيف من غِمده في سبيل نصرة الدعوة التي يدعو إليها، فَوَعَدَتْهما خيرًا، وتم الاتفاق على ذلك، ونقلت السيدة (موضى) إلى زوجها ما دار بينها وبين أخويه من الحديث، وَدَعَتْهُ إلى تأييد الشيخ، ونصرة دعوته، وقالت له: إن هذا الرجل قدم إلى بلدك، وهو غنيمة ساقها اللَّه تعالى إليك، فأكرِمْه، وعظِّمْه، واغتنم نُصْرَتَه»، ثم رَغَّبَتْهُ، وحسَّنت إليه القيام بزيارة خاصة إلى دار الشيخ (أحمد ابن سويلم) لمقابلة الشيخ، لتكون إعلانًا جهارًا للملأ بأنه على نصرته، وتحت حمايته، لكي يعظمه الناس، ويكرموه، فوافق الأمير محمدٌ على نصيحة زوجته»، وتم اللقاء بينهما حيث أفاض الشيخ في شرح دعوته إلى التوحيد، ومحاربة الشرك والبدع، وتمت البيعة بينهما، وعقد التحالف على قيام الأمير (محمد بن سعود) بشد أزر الشيخ ونصرة دعوته، ودخل الشيخ البلد تلبية لدعوة الأمير، واتخذ له منزلاً بالقرب من دار الأمير (محمد بن سعود)[1] اهـ.

❑ وقد كان لهذه المرأة الصالحة الصادقة أكبر الأثر في مؤازرة زوجها وتشجيعه، وحثه على الصبر والسلوان حينما اندحر الجيش الذي قاده ولده عبدالعزيز وهزم هزيمة نكراء في (حائر)[2، 3].

---

(١) انظر «تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب» لحسين خلف الشيخ خزعل (ص١٥٩ ـ ١٦١)، وكذا «السعوديون والحل الإسلامي» (ص١١٢)، «مجلة البحوث الإسلامية» العدد السابع عشر (ص٣٦٠) عام ١٤٠٦ ـ ١٤٠٧هـ.

(٢) السابق (ص٢٥٢)، ومن فضائل هذه المرأة العاقلة أن في كنفها وتحت عينها نشأ ابنها الإمام المجاهد، والبطل المجالد، أمير المسلمين في زمانه، العلامة الزاهد العابد، بقية السلف الصالح، تلميذُ إمام الدعوة السلفية: عبدالعزيز بن محمد ابن سعود، الملقب بـ «مهدي زمانه»، المقتول غدراً بيد رافضيٍّ خبيث في صلاة العصر وهو ساجد سنة ١٢١٨هـ، رحمه اللَّه، وعفا عنه، وتقبله في الشهداء.

(٣) «عودة الحجاب» للشيخ محمد إسماعيل المقدم (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).

✍ هذه الأمة العظيمة لا تزال بخير وهي معطاءة برجالها ونسائها. . . ما دام في الأمة من تسير على درب عائشة أم المؤمنين وذات النطاقين وأم الدرداء رضي الله عنهن فلا خوف عليها.

فعلِّموا النساء دين اللَّه عز وجل، حتى إذا تخنث الرجال وحاضوا، قامت ربات الخدور بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضوابطه الشرعية.

* * *

لله درهم من ربانيين

للّه درهم من ربانيين

*** للّه درك يا يزيد بن مرثد: كم بينك وبين من يهرولون إلى المناصب ولو على حساب دينهم:**

عن الوضين بن عطاء قال: أراد الوليد بن عبدالملك أن يُوليّ يزيد بن مرثد، فبلغ ذلك يزيد بن مرثد فلبس فروه قدْ قلبه، فجعل الجلد على ظهره والصوف خارجًا، وأخذ بيده رغيفًا وعرقًا وخرج بلا رداء ولا قلنسوة ولا نعل ولا خف، وجعل يمشي في الأسواق ويأكل الخبز واللحم، فقيل للوليد: إن يزيد بن مرثد قد اختلط، وأخبر بما فعله فتركه».

إن للّه عبادًا فُطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

كراهية توليّ القضاء حذرًا من القرب من الولاة وإشفاقًا على النفس:

من العلماء الربانيين مَن كره تولى القضاء حذرًا من القرب من الولاة والسلاطين وإشفاقًا على أنفسهم من عدم الإتيان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يجب، وإقامة العدل على الوجه الأتمّ بين الرعية والأمراء على حدّ سواء، ففرّوا بدينهم.

❑ منهم: شيخ الإسلام أبي قلابة الجَرمي عبداللّه بن زيد.

قال عنه أيوب السختياني: كان واللّه من الفقهاء ذوي الألباب. إني وجدت أعلم الناس بالقضاء أشدهم فرارًا منه، وأشدهم منه فرقًا، وما أدركت بهذا المصر أعلم بالقضاء من أبي قلابة.

وعن أيوب قال: لما مات عبدالرحمن بن أُذْينة ـ يعني قاضي البصرة ـ زمن شُريح ذُكِر أبو قلابة للقضاء، فهرب حتى أتى اليمامة، قال: فلقيته بعد

ذلك فقلتُ له في ذلك، فقال: ما وجدت مثل القاضي العالم إلاّ مثل رجل وقع في بحر، فما عسى أن يسبح حتى يغرق[١].

❑ وعن مفضل قال: حبس ابن هبيرة منصوراً ـ يعني ابن المعتمر ـ شهراً على القضاء يريده عليه، فأبى، وقيل: إنه أحضر قيداً ليقيده به، ثم خلاّه[٢].

❑ وقال يحيى بن معين: كان أبو حنيفة ثقة... ولقد ضربه ابن هُبيرة على القضاء، فأبى أن يكون قاضيًا.

❑ وعن مغيث بن بديل قال: دعا المنصور أبا حنيفة إلى القضاء فامتنع، فقال: أترغب عما نحن فيه؟ فقال: لا أصلح. قال: كذبت. قال: فقد حكم أمير المومنين عليّ أني لا أصلح، فإن كنتُ كاذبًا، فلا أصلح، وإن كنتُ صادقًا فقد أخبرتكم أني لا أصلح، فحبسه[٣]. وضربه أيامًا، كل يوم عشرة أسواط فتركه.

❑ ودعا المنصور شريكًا فقال: إني أريد أن أوليك القضاء، فقال: أعفني يا أمير المؤمنين قال: لست أعفيك. قال: فأنصرف يومي هذا وأعودُ، فيرى أمير المؤمنين رأيه. قال: تُريد أن تتغيّب؟ ولئن فعلت لأقدمن على خمسين من قومك بما تكره، فولاّه القضاء فبقي إلى أيام المهدي، فأقره المهدي، ثم عزله[٤].

❑ وقال محمد بن عامر المصيصي: سألت أحمد: وكيع أحبّ إليك أو

---

(١) انظر: «السير» (٤/ ٤٦٨ ـ ٤٧٥).

(٢) انظر: ترجمة منصور في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٠٢ ـ ٤١٢).

(٣) انظر: ترجمة أبي حنيفة في «السير» (٦/ ٣٩٠ ـ ٤٠٤).

(٤) انظر: ترجمة شريك في «السير» (٨/ ٢٠٠ ـ ٢١٦).

يحيى بن سعيد؟ فقال: وكيع. قلتُ: كيف فضّلته على يحيى، ويحيى ومكانه من العلم، والحفظ والإتقان ما قد علمت؟ قال: وكيع كان صديقًا لحفص بن غياث، فلما ولي القضاء، هجره، وإنّ يحيى كان صديقًا لمعاذ بن معاذ، فلما ولي القضاء لم يهجره يحيى.

وقال محمد بن علي الوّراق: عُرِض القضاء على وكيع، فامتنع[١].

❑ والإمام العظيم ابن أبي عاصم الذي ولي قضاء أصبهان.

هو من أهل السنة والحديث والنُّسك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: وصل إليَّ منذ دخلت إلى أصبهان من دراهم القضاء زيادة على أربع مئة ألف درهم، لا يحاسبني اللَّه يوم القيامة أني شربت منها شربة ماء، أو أكلت منها، أو لبست.

وقالت ابنته عاتكة: سمعت أبي يقول: جاء أخي عثمان عهده بالقضاء على سامراء، فقال: أقعد بين يدي اللَّه تعالى قاضيًا؟! فانشقت مرارته، فمات.

❑ وذُكِر عن أبي الشيخ قال: حضرت جنازة أبي بكر، وشهدها مئتا ألف من بين راكب وراجل، ما عدا رجلاً كان يتولى القضاء، فحُرِم شهود جنازته، وكان يرى رأي جهم[٢].

فرّ عن القضاء كثير من الفضلاء وتغيّبوا حتى تركوا، وسجن بسببه عند الامتناع آخرون[٣].

---

(١) انظر: «السير» (٩/ ١٤٠ ـ ١٦٨).

(٢) «السير» (١٣/ ٤٣٠ ـ ٤٣٩).

(٣) «حلية الأولياء» (٥/ ١٦٥).

❑ ولما أراد هشام للقضاء بقرطبة زياد بن عبدالرحمن اللخمي المعروف بشَبَطون وعزم عليه، خرج منها فارًّا بنفسه، على ما حكاه ابن حارث. فقال هشام عند ذلك: «ليت الناس كلهم كزياد، حتى ألغى أهل الرغبة في الدنيا!»[١].

❑ ودعا الأمير محمد بن عبدالرحمن الشيخ إبراهيم بن محمد بن بار للقضاء بالأندلس فأبى وامتنع، فأرسل إليه هاشم بن عبدالعزيز صاحبه مرة ثانية بوصية يقول: «إذا لم تقبل قضاءنا، فاحضر مجلسنا، وكن أحد الداخلين علينا، الذين نشاورهم في أمورنا، ونسمع منهم في رعيتنا. فلما استمع رسالته، قال: «يا أبا خالد، إن ألحّ عليّ الأمير في هذا ومثله، هربتُ واللَّه بنفسي من بلده! فما لي وله؟» فأعرض عنه الأمير عند ذلك، وعلم أنه ليس من صيده[٢].

❑ وقاسم بن ثابت بن عبدالعزيز الفهري السرقسطي صاحب «كتاب الدلائل في شرح غريب الحديث» دُعي للقضاء ببلده؛ فامتنع من ذلك، فلما اضطره الأمير وعزم عليه، استمهله ثلاثة أيام، يستخير فيها اللَّه ـ عز وجل ـ فمات خلال تلك المدة، فكان الناس يرون أنه دعا اللَّه تعالى في الاستكفاء؛ فكفاه وستره، وصار حديثه موعظة في زمانه[٣].

❑ وممن جاهر بالإصرار على الإباية من القضاء محمد بن عبدالسلام الخشني أراده الأمير محمد لتقليد القضاء بجيّان، وأمر الوزراء أن يُجلسوه ويلزموه ذلك؛ ففعلوا وأدوا إليه رسالة الأمير، فأبى عليهم ونفر نفوراً شديداً؛ فلاطفوه وخوّفوه بادرة السلطان؛ فلم يزد إلا إباءً ونفوراً، فكتبوا إلى

(١) «تاريخ قضاة الأندلس» لأبي الحسن النباهي الأندلسي ص(٢٧ ـ ٢٨) ـ دار الكتب العلمية.

(٢، ٣) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٢٨، ٢٩).

الأمير محمد بإعياء الحيلة عليهم في إجابته، فوقّع الأمير توقيعًا غليظًا معناه: إنّ من عصانا، فقد أحلّ بنفسه دمه فلما قرأوه على الخشَنيّ، نزع قلنسوته من رأسه ومدّ عنقه وجعل يقول: «أبيْت كما أبت السموات والأرض إباية إشفاق، لا إباية نفاق!» فكتبوا إلى الأمير بلفظه؛ فكتب إليهم أن «سلّموا أمره وأخرجوه عن أنفسكم!»، فقالوا له: انصرف[1].

❑ وعرض أمير المؤمنين الرشيد على المغيرة بن عبدالرحمن المخزومي قضاء المدينة، وجائزته أربعة آلاف دينار، فامتنع، فأبى الرشيد إلاّ أن يلزمه، فقال: «واللّه يا أمير المؤمنين لأن يخنقني الشيطان أحبّ إليّ من أن ألي القضاء!»، فقال الرشيد: ما بعد هذا شيء! وأعفاه، وأجازه بألفي دينار[2].

❑ وممن عُرِض عليه القضاء بإفريقية فامتنع منه، أبو ميسرة أحمد بن نزار، فلما عُرِض عليه قال: «اللّهم! إنك تعلم أني قد انقطعت إليك وأنا ابن ثماني عشرة سنة! فلا تمكّنهم مني!» فما جاء العصر إلاّ وقد تُوفّي.

فغُسّل وكُفّن وخُرِج به، فوجّه إليه الأمير إسماعيل العبدي كفنًا وطيبًا في الأطباق؛ فوافاه الرسول على النعش؛ فجُعل عليه الكفن من فوق[3].

❑ وذكر يحيى بن إسحاق أن هشامًا لمّا ولي، قيل له: «لا يتعدّل ما تريد إلا بولاية زياد بن عبدالرحمن على القضاء!» فبعث إليه؛ فتمنّع؛ فألحّ عليه هشام، وأحضر الوزراء؛ وكلّموه في ذلك عن الأمير وعرّفوه عزمه. فقال لهم: «أما إذا عزمتم، وأكرهتموني على القضاء، فأُخبركم ما أبدأُ به عليّ المشي إلى مكة. إن وليّتموني، وجاءني أحد متظلمًا منكم إلاّ

(١) المصدر السابق ص(٢٩ ـ ٣٠).
(٢) المصدر السابق ص(٣١ ـ ٣٢).
(٣) المصدر السابق ص(٣٣).

أخرجت من أيديكم ما يدّعيه، ورددته عليه، وكلّفتكم البيّنة لما أعرف من ظلمكم!»، فلما سمعوا ذلك، عرفوا صدقه فعملوا عند الأمير في معافاته. فقيل ليحيى بن يحيى: «أهو وجْهُ القضاء؟» قال: «نعم! فيمن عُرِف بالظلم والقدرة!»[١].

❑ من العلماء الربانيين أبو غالب عبدالرؤوف بن الفرج بن أبي كنانة، كان الأمير عبداللَّه بن محمد[٢] به معجبًا، وله مفضِّلاً؛ وكان قد اشتهى رؤيته من غير أن يستدعيه، فتعرّض لذلك يوم الجمعة من طاق الساباط[٣]، فرآه عند رواحه إلى المسجد الجامع، وأعجبه سمْته، وأحبّ اجتذابه إليه، وقال: «لا بدّ أن أضمّه إلى الوزارة أو القضاء» فذاكر بشأنه الوزير ابن أبي عبدة، وكان صديقًا لأبي غالب؛ فقال: «ينبغي للأمير أن لا يهجم على الرجل بالاستدعاء، حتى يعرف ما عنده في ذلك»، فقال له: «فكُن أنت الذي يتعرّف ذلك». قال الكاتب المدعّو بسكن بن إبراهيم: «فأرسلني الوزير إليه؛ فعرضتُ عليه مُراد الأمير؛ فتلقّى ذلك مني بالنطق والتضاحك، حتى أطمعني في نفسه، وجعل يقول: «كيف كان تنبهكم لنا بعد طول الغفلة؟ وما نرى هذا منكم عن صحّة نيّة؛ فأنتم أشحّ بدنياكم من أن تعطوا منها أحدًا شيئًا، وتشركوا فيها صديقًا!» قال سكن: «فلما صرت به إلى الجدّ، تنمّر[٤] لي، وقال آخر قوله: «باللَّه الذي لا إله إلا هو! لئن عاودتني أو غيرك، أو بلغتْني فيه عن الأمير عزيمة، لأخرجنّ عن الأندلس، فلا أعودنّ إليها آخر الدهر!» فتُرك عن ذلك[٥].

(١) المصدر السابق ص(٣٣ ـ ٣٤).
(٢) ولي عبداللَّه بن محمد الأندلس سنة ٢٧٥هـ، وتوفي سنة ٣٠٠هـ.
(٣) الساباط: سقيفة بين دارين تحتها طريق.
(٤) تنمّر: غضب وساء خلقه.
(٥) «تاريخ قضاة الأندلس» ص(٣٦).

❑ قال عمر بن عبدالعزيز: «لا يصلح للقضاء إلا القويّ على أمر الناس، المستخفّ بسخطهم وملامتهم في حق اللَّه، العالم بأنه مهما اقترب من سخط الناس وملامتهم في الحق والعدل والقصد، استفاد بذلك ثمنًا ربيحًا من رضوان اللَّه»[١].

للَّه درّهم من ربانيين

للَّه درهم من ربانيين زهدوا في مخالطة الأمراء والسلاطين، رفضوا مقابلتهم، أو أخذ أعطياتهم وأموالهم، وكانوا يعدّون الدخول على السلاطين خذلانًا من اللَّه، فإذا اضطرهم الأمر للدخول عليهم صدعوهم بالحق، ووعظوهم، وقضوا حاجات الناس.

*** عدم الدخول عليهم وحث بعضهم بعضاً على ذلك:**

عن شقيق قال: كان ابن زياد يراني مع مسروق فقال: إذا قدمت فالقني، فأتيت علقمة فقال: إنك لم تصب من دنياهم شيئًا إلا أصابوا من دينك ما هو أفضل منه، ما أحبّ أن لي مع الفيء ألفين وأني أكرم الجند عليه[٢].

❑ وانظر إلى سيد البكائين الحسن البصري:

قال فضيل بن جعفر: خرج الحسن من عند ابن هُبيرة فإذا هو بالقرّاء على الباب فقال: ما يُجلسكم ها هنا؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء، أما واللَّه ما مجالستهم مجالسة الأبرار، تفرّقوا فرّق اللَّه بين أرواحكم وأجسادكم، فقد فرطحتم[٣] نعالكم، وشمّرتم ثيابكم، وجززتم شعوركم،

(١) المصدر السابق ص(١٨).

(٢) انظر: «السير» ترجمة علقمة (٤/ ٥٣ ـ ٦١).

(٣) كل شيء عرّضته فقد فرطحته.

فضحتم القرّاء فضحكم اللَّه، واللَّه لو زهدتم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم أبعد اللَّه من أبعد[١].

للَّه درك من إمام أوحدت به أمة فكان زينة لأُمّة.

❑ وقال عالم الديار المصرية ـ ومفتيها عبدالرحمن بن القاسم صاحب الإمام مالك: ليس في القرب من الولاة ولا في الدنو منهم خير.

❑ وقال الثوري: إذا لم يكن للَّه في العبد حاجة، نبذه إلى السلطان.

❑ وقال عبد اللَّه بن المعتز باللَّه: من شارك السلطان في عزّ الدنيا، شاركه في ذل الآخرة.

وأشقى الناس أقربهم من السلطان، كما أن أقرب الأشياء من النار أسرعها احتراقًا[٢].

❑ وقال الإمام سعيد بن الحداد شيخ المالكية: القرب من السلطان في غير هذا الوقت حتف من الحتوف فكيف اليوم؟[٣].

رحمك اللَّه.. هذا في زمانك فكيف في زماننا وهو زمن تحيض فيه الرجال.. يصدق فيه الكاذب، ويكذب فيه الصادق وينطق فيه الرويبضة وتعلو فسولُ الرجال وصعاليكُهم التحوتُ والوعولَ.

❑ قال سحنون رضي الله عنه: «ما أسمج بالعالم أن يُؤتَى إلى مجلسه، فيُسأل عنه فيُقال عند الأمير»، وقال: «كنت أسمعُ أنه يقال إذا رأيتم العالم يحبُّ الدنيا فاتهموه على دينكم» حتى جرّبت ذلك إذ ما دخلتُ قطّ على السلطان إلا وحاسبتُ نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك[٤] مع ما أواجههم به من

(١) «السير».

(٢) «السير» (١٤/ ٤٢ ـ ٤٤).

(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٠٥ ـ ٢١٤).

(٤) الضعف.

الغلظة والمخالفة لهواهم!!.

❑ وكان الإمام الزهري من أنسك علماء المحدثين، وكان يتردّد على السلطان ليقدّم له النصيحة الواجبة دون أن يستدعي السلطان إلى مجلسه في حلقة العلم، فكتب له أحد إخوانه يلومه على ذلك ويقول:

«عافانا اللَّه وإياك أبا بكر من الفتن ـ فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو اللَّه لك ويرحمك... أصبحت شيخًا كبيرًا قد أثقلتك نعم اللَّه، لما فهمت من كتابه، وعلمت من سنة نبيه.. وليس كذلك أخذ اللَّه الميثاق على العلماء.. قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ اعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت أنك آنست وحشة الظالم، وسهّلت سبيل الغيّ بدنوك ممن لم يؤد حقًّا، ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطبًا تدور عليه رحى ظلمهم، وجسرًا يعبرون عليه إلى بلائهم، وسُلَّمًا يصعدون فيه إلى ضلالهم، ويُدخلون بك الشك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء.. فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال اللَّه فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل.. فداو دينك.. فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر سفر بعيد، وما يخفى على اللَّه من شيء في الأرض ولا في السماء.. والسلام»[1].

❑ وانظر إلى شيخ الإسلام أبي محمد الأودي عبداللَّه بن إدريس قال عنه الحسن بن الربيع: قُرئ كتاب الخليفة إلى ابن إدريس وأنا حاضر: من عبداللَّه هارون أمير المؤمنين إلى عبداللَّه بن إدريس، قال: فشهق ابن إدريس

(١) «كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء» ص(٢٤).

شهقة، وسقط بعد الظهر، فقمنا إلى العصر، وهو على حاله، وانتبه قبيل المغرب، وقد صببنا عليه الماء فلا شيء قال: إنا للَّه وإنا إليه راجعون، صار يعرفني حتى يكتب إليّ! أي ذنب بلغ بي هذا؟!(١).

رحمك اللَّه يا ابن إدريس تهرب من معرفة هارون لك وتعد هذا عقوبة لذنب أذنبته وهو الذي كان يغزو عامًا ويحج عامًا، فكيف لو رأيت قرّاءنا وعلماءنا:

يرمرم من فُتات الكفر قوتًا ... ويلعق من كئوسهم الثمالة
يقبل راحة الطاغوت حينًا ... ويلثم دونها خجل نعاله

*** ومن العلماء والربانيين الزهاد من يطلب الأمراء والكبراء مقابلتهم فلا يَرْضون ذلك:**

❑ فقد مرّ بك خبر سيد التابعين سعيد بن المسيب ورفضه لقاء الخليفة عبدالملك بن مروان.

❑ والإمام الزاهد شيخ خراسان شقيق البلخي قال عنه الحاكم: قدم شقيق نيسابور في ثلاثمائة من الزهاد، فطلب المأمون أن يجتمع به، فامتنع(٢).

❑ وزاهد عصره وناسك مصره، مجاب الدعوة يحيى بن مجاهد أبو بكر الفزاري الأندلسي الإلبيري الزاهد: ذكره عمر بن عفيف، فقال: كان من أهل العلم والزهد والتقشف والعبادة، وجميل المذهب، لم تر عينيّ مثله في الزهد والعبادة، يلبس الصوف، ويمشي حافيًا مرة، وينتعل مرة فحدثني

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» ترجمة عبداللَّه بن إدريس (٩/ ٤٢ ـ ٤٨).
(٢) انظر ترجمته في «السير» (٩/ ٣١٣ ـ ٣١٦).

محمد بن أبي عثمان، عن أبيه أن الحكم المستنصر باللَّه أحب أن يجتمع بيحيى بن مجاهد الزاهد، فلم يقدر عليه، ووجّه إليه من يتطلف به ويستعطفه، فقال: ما لي إليه حاجة، وإنما يدخل على السلطان الوزراء، وأهل الهيئة، وأيش يعمل بأصحاب الأطمار الرثّة، فوجّه إليه الحكم جبّة صوف وغفّارة وقميصًا من وسط الثياب ودنانير، فلما نظر إليها قال: مالي ولهذه؟ ردّوها على صاحبها، ولئن لم يتركوني سافرت، فيئس من لقائه وتركه[١].

❑ ومن بلاد الهند بدور سافرة زهاد أبناء الآخرة منهم الشيخ علي بن حسان الدين المتقي البرهان يوري كان ـ رحمه اللَّه ـ مرزوق القبول في بلاد كجرات، وكان واليها بها درشاه الكجراتي معتقدًا بفضله وكماله يريد أن يحضر لدْيه، والمتقي لا يرضى بذلك فشفع له القاضي عبداللَّه السندي، فقال له المتقي: كيف يجوز أن يأتيني بمنكراته ولا آمره بالمعروف ولا أنهاه عن المنكر! فأجاز له بها درشاه أن يأمره بما شاء وينهاه عما شاء فأذن له المتقي، فدخل عليه السلطان وقبّل يده[٢].

❑ والشيخ الصالح شمس الدين الكوئلي، أحد المنقطعين إلى الزهد والعبادة ذكره ابن بطوطة في كتابه وقال: إنه كان كبير القدر، ولما دخل محمد شاه تغلق إلى مدينة كوئل فبعث في طلبه فلم يأته، فذهب السلطان إليه ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره[٣].

❑ والشيخ العالم الفقيه الكبير نظام الدين محمد بن أحمد البدايونيّ

---

(١) «السير» (١٦/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦).

(٢) «الإعلام» (٤/ ١٨١).

(٣) «الإعلام» (٢/ ٥٤ ـ ٥٥).

انتهت إليه الرياسة في دعاء الخلق إلى اللَّه تعالى، والانقطاع عن الدنيا مع التضلع من العلوم الظاهرة. لم يرض بلقاء الملوك والسلاطين مع إلحاحهم على ذلك وشدة توقهم إليه قال الكرماني في «سير الأولياء»: إن جلال الدين فيروز الخليجي كان يريد أن يلاقيه وهو يمتنع من ذلك، فأراد أن يدخل عليه بغتة بغير إذن فخرج الشيخ من دهلي، وذهب إلى أجودهن قبل أن يحضر الملك عنده، وكذلك أرسل إليه علاء الدين محمد شاه الخلجيّ كتابًا يشتمل على بعض مهمّات الأمور ودعاه يستشيره في بعض المصالح فأبى وقال: إن كان السلطان لا يحب أن أقيم في ملكه فليُظهر ذلك من غير تورية فإن أرض اللَّه واسعة، فأرسل إليه السلطان ابنه واعتذر من مخاطبته إياه في تلك الأمور واستأذن في حضوره لديه، فأبى الشيخ، ولما أصرّ السلطان على ذلك قال: إن في داري بابيْن يدخل السلطان من باب وأخرج من الباب الآخر.

ومن ذلك ما رُوي أن قطب الدين الخلجي كان معتادًا أن يحضر العلماء والمشايخ في غرّة كل شهر للتهنئة، وكان الشيخ لا يذهب بنفسه بل يذهب خادمه إقبال نيابة عنه، فاغتاظ السلطان منه وقال: إن لم يحضر الشيخ بنفسه في الشهر القابل نفعل به ما نشاء، فاغتمّ الناس وكانوا يتناجوْن بينهم، وكان الشيخ جذلاً رخيّ البال فارغ الخاطر لا يرى عليه أثر الحزن حتى استهلّ الشهر وقُتل السلطان المذكور في تلك الليلة[1].

❑ وانظر إلى ابن رسلان أحمد بن حسين بن حسن أبي العباس الرملي الشافعي نزيل بيت المقدس.

كان مؤثرًا صحبة الخمول والشغف بعدم الظهور تاركًا ما يعرض عليه من الدنيا ووظائفها حتى أن الأمير حسام الدين حسن ناظر القدس والخليل

(١) «الإعلام» (٢/ ١٢٤ ـ ١٣١).

جدّد بالقدس مدرسة وعرض عليه مشيختها وقرر له فيها في كل يوم عشرة دراهم فضة فأبى، بل كان يمتنع من أخذ ما يرسل به هو وغيره إليه من المال ليفرّقه على القرّاء.

لمّا سافر الأشرف إلى آمد هرب ابن رسلان من الرملة إلى القدس في ذهابه وإيابه لئلا يجتمع به هو أو أحد من أتباعه وإن تضمّن ذلك تفويت الاجتماع بمن كان يتمناه. وصار المشار إليه بالزهد في تلك النواحي وقُصِد للزيارة من سائر الآفاق.

أرسل إلى طوغان نائب القدس وكاشف الرملة بكف مظلمة فامتنع وقال: طوّلتم علينا بابن رسلان، إن كان له سرٌّ فليرم هذه النخلة لنخلة قريبة منه فما تمّ ذلك إلا وهبّت ريح عاصفة فألقتها، فما وسعه إلا المبادرة إلى الشيخ في جماعة مستغفرًا معترفًا بالخطأ فسأله عن سبب ذلك فقيل له، فقال: لا قوة إلا باللَّه من اعتقد أنّ رمي هذه النخلة كان بسببي أو لي فيه تعلّق ما فقد كفر، فتوبوا إلى اللَّه وجدّدوا إسلامكم، فإن الشيطان أراد أن يستزلكم ففعلوا ما أمرهم به[1].

❑ وانظر إلى الشيخ ابن غانم المقدسي الشافعي الذي ما كان يتردّد إلى أحد من الأكابر بل الأكابر فمن دونهم يتردّدون إليه بحيث طلبه السلطان مراد بك بن عثمان فامتنع فجاءه خفية ومع ذلك لم يجتمع به[2].

❑ والإمام السيوطي كان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردها، وأهدى إليه الغوريّ خصيًّا وألف دينار، فردّ الألف وأخذ الخصيّ فأعتقه وجعله خادمًا في الحجرة النبوية، وقال لقاصد

(١) «الضوء اللامع» للسخاوي (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٨).
(٢) «الضوء اللامع» (٤/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨).

السلطان: لا تعد تأتينا قطّ بهدية، فإن اللّه تعالى أغنانا عن مثل ذلك.

وكان لا يتردّد إلى السلطان ولا إلى غيره، وطلبه مرارًا فلم يحضر إليه، وقيل له: إن بعض الأولياء كان يتردد إلى الملوك والأمراء في حوائج الناس، فقال: اتباع السلف في عدم ترددهم أسلم لدين المسلم، وألّف كتابًا سمّاه «ما رواه الأساطين في عدم التردد إلى السلاطين»[١].

وكان الفقيه الزاهد الورع محمد الكبير السرغيني شيخ فاس القرويين وخطيبها وإمامها ومدرسها يحذر الطلبة من موالاة الولاة ويقول لهم: إنهم لا حاجة لهم بعالم أو صالح، وإنما قصدهم فيكم ما يتوقف عليكم من الإيصال إلى ما يريدون.

ويحذّر من موالاة أصحاب الدنيا والجاه ويقول: إنهم لا يخالطون الطالب إلا لتكميل دنياهم[٢].

*** ومنهم من كان السلطان يزوره فلا يعظّمه وربما لا يلتفت إليه:**

فهذا شيخ الإسلام الفقيه نصر النابلسي المقدسي الشافعي صاحب «الحجة على تارك المحجّة» كان لا يقبل صلة من أحد بدمشق، بل كان يقتات من غلّة تُحمل إليه من أرض نابلس فيخبز له كل يوم قُرصة في جانب الكانون.

زاره الملك تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان يومًا، فلم يقُم له، ولا التفت إليه وكذا ابنه الملك دُقاق، فسأله عن أحلّ الأموال التي يتصرّف فيها السلطان، قال: أحلُّها أموال الجزية، فقام من عنده، وأرسل إليه بمبلغ، وقال: هذا من الجزية ففرِّقه على الأصحاب، فلم يقبله، وقال: لا حاجة لنا

(١) انظر «الكواكب السائرة» (١/ ٢٢٦ ـ ٢٣١).
(٢) «نشر المثاني» (٤/ ٨٤ ـ ٨٩).

به، فلما ذهب الرسول لامه الفقيه نصر اللَّه المصيصي، وقال: قد علمت حاجتنا إليه، فقال: لا تجزع من فواته، فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد فكان كما تفرّس فيه[١] .

❑ والشيخ القدوة الزاهد أبو العباس أحمد بن أبي غالب المعروف بابن الطَّلاّية الذي أفنى عمره في العبادة والقيام والصيام، ولا يقبل من أحد شيئًا.

❑ قال المظفر بن الجوزي: سمعت مشايخ الحربية يحكون عن آبائهم وأجدادهم أن السلطان مسعودًا لما أتى بغداد، كان يحب زيارة العلماء والصالحين، فالتمس حضور ابن الطَّلاَّية، فقال للرسول: أنا في هذا المسجد أنتظر داعي اللَّه في النهار خمس مرات، فذهب الرسول، فقال السلطان: أنا أولى بالمشي إليه، فزاره، فرآه يصلي الضحى، وكان يُطوّلها يصليها بثمانية أجزاء، فصلى معه بعضها، فقال له الخادم: السلطان قائم على رأسك، فقال: أين مسعود؟ قال: ها أنا، قال: يا مسعود، اعدلْ، وادع لي، اللَّه أكبر، ثم دخل في الصلاة فبكى السلطان وكتب ورقة بخطه بإزالة المكوس والضرائب وتاب توبة صادقة[٢] .

❑ وانظر إلى حافظ وقته السلفي حضر عنده السلطان صلاح الدين وأخوه الملك العادل لسماع الحديث، فتحدّثا، فأظهر لهما الكراهة وقال: أنتما تتحدثان وحديث النبي ﷺ يُقرأ؟! فأصغيا عند ذلك[٣] .

❑ وكان الإمام الرفاعي لا يقوم للرؤساء، ويقول: النظر إلى وجوههم يُقسّي القلب[٤] .

---

(١) «السير» (١٩/ ١٣٦ ـ ١٤٦).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٢٦٠ ـ ٢٦٣).

(٣) انظر «السير» (٢١/ ٥ ـ ٣٩).

(٤) «السير» (٢١/ ٧٧ ـ ٨٠).

❑ والإمام العالم العامل أبو عبداللَّه ابن ناصر الدرعي الذي وقع عليه اتفاق أهل المغرب والذي كثر عنه الأخذ شرقًا وغربًا كان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يخاف في اللَّه لومة لائم.

كان لا يُرى واقفًا بباب ملك من الملوك، ولم يخطب ويدعو لملك قط. ووقع بينه وبين بعض الملوك شنآن[١] على ذلك حتى همّ به ذلك الملك، ثم عُصِم منه، ونُقِل عنه حينئذ لما رأى خوف أصحابه عليه قال: رأيت كأن سورًا من حديد ضُرِب عليّ من ستر اللَّه تعالى، فلا تخافوا علينا[٢].

*** ولتجرّدهم وإرادتهم الدار الآخرة ردّوا عطايا السلاطين والأمراء وما قبلوها وهم أحوج من في الأرض إليها:**

قال إبراهيم بن محمد بن المنتشر: أهدى خالد بن عبداللَّه بن أُسَيْد عامل البصرة إلى عمي مسروق ثلاثين ألفًا وهو يومئذ محتاج فلم يقبلها[٣].

❑ وبعث معْن والي اليمن إلى معمر بن راشد بذهب فردّه، وقال لأهله: إنْ علم بهذا غيرنا لم يجتمع رأسي ورأسك أبدًا[٤].

❑ ولما مات إمام أهل السنة أحمد بن حنبل بعث ابن طاهر بأكفان وحنوط، فأبى صالح أن يقبله وقال: إن أبي قد أعدّ كفنه وحنوطه، وردّه، فراجعه، فقال: إن أمير المومنين أعفى أبا عبداللَّه مما يكره، وهذا مما يكره، فلستُ أقبله.

رحمك اللَّه يا ابن حنبل.. أين أيامك وعزك وقناعتك وزهدك في الفاني.

---

(١) بُغض.

(٢) «نشر المثاني» (٢/ ٢١١ ـ ٢١٥).

(٣) انظر «سير أعلام النبلاء» ترجمة مسروق (٤/ ٦٣ ـ ٦٩).

(٤) انظر «السير» (٧/ ٥ ـ ١٨).

*** للّه درك يا ابن حنبل.. أنت إمام أهل السنة صدقًا، وشيخ الإسلام حقًّا:**

❑ قال أحمد بن سنان: بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خبّاز باليمن، وأكرى نفسه من جمّالين عند خروجه إلى عبدالرزاق باليمن، وعرض عليه عبدالرزّاق دراهم صالحة، فلم يقبلها.

قال حنبل: جرى بين أبي عبداللّه وبين أبي كلام كثير، وقال: يا عم ما بقي من أعمارنا، كأنك بالأمر قد نزل، فاللّه اللّه، فإن أولادنا إنما يريدون أن يأكلوا بنا، وإنما هي أيام قلائل، وإنما هذه فتنة. قال أبي: فقلت: أرجو أن يُؤمنك اللّه مما تحذر. فقال: كيف وأنتم لا تتركون طعامهم ولا جوائزهم؛ لو تركتموها لتركوكم، ماذا تنتظر؟ إنما هو الموت، فإما إلى جنة، وإما إلى نار، فطوبى لمن قدم على خير. قال: فقلتُ: ألست قد أُمرت بما جاءك مِنْ هذا المال بلا إشراف نفس ولا مسألة أن تأخذه؟ قال: قد أخذت مرة بلا إشراف نفس، فالثانية والثالثة؟ ألم تستشرف نفسك؟ قلت: أفلم يأخذ ابن عمر وابن عباس؟ فقال: ما هذا وذاك! وقال: لو أعلم أن هذا المال يُؤخَذ من وجهه، ولا يكون فيه ظلم ولا حيف لم أُبالِ.

وفي دولة المتوكل الذي أظهر السنة قالت أم الخليفة المتوكل: يا بني، اللّه اللّه في هذا الرجل فليس هذا ممن يريد ما عندكم.

وأتاه يحيى بن خاقان فقال له: إن أمير المؤمنين يُقرئك السلام، ويقول: كيف أنت في نفسك، وكيف حالك؟ ثم قال: قد وجّه معَي ألف دينار تُفرقها على أهل الحاجة. فقال: يا أبا زكريا، أنا في بيت منقطع، وقد أعفاني من كل ما أكره، وهذا مما أكره. فقال: يا أبا عبداللّه الخلفاء لا يحتملون هذا. فقال: يا أبا زكريا تلطّف في ذلك. فدعا له ثم قام.

❑ قال صالح بن أحمد: كتب إليّ إسحاق بن راهويه: إن الأمير عبداللّه بن طاهر وجّه إليّ، فدخلت إليه وفي يدي كتاب أبي عبداللّه. فقال:

ما هذا؟ قلتُ: كتاب أحمد بن حنبل، فأخذه وقرأه، وقال: إني أحبه، وأحب حمزة بن الهيصم البُوشنجي، لأنهما لم يختلطا بأمر السلطان. قال: فأمسك أبي عن مكاتبة إسحاق.

❑ وقال إبراهيم بن أبي طالب: سمعتُ أحمد بن سعيد الرِّباطي يقول: قدمتُ على أحمد بن حنبل، فجعل لا يرفع رأسه إليّ، فقلت: يا أبا عبدالله، إنه يُكتب عني بخراسان، وإنْ عاملتني هذه المعاملة رَمَوا حديثي، قال: يا أحمد، هل بُدٌّ يوم القيامة من أن يُقال: أين عبدالله بن طاهر وأتباعه؟ فانظر أين تكون منه»[1].

❑ ولما علم بصلة المتوكل لابنه وعمه أنكر عليهم قال صالح: فهجرنا أبي، وسدّ الأبواب بيننا وبينه وتحامى منازلنا، ثم أُخبر بأخذ عمه، فقال: نافقتني وكذبتني!! ثم هجره وترك الصلاة في المسجد، وخرج إلى مسجد آخر يصلي فيه[2].

قال صالح: وكان رسول المتوكل يأتي أبي يبلِّغه السلام، ويسأله عن حاله. قال: فتأخذه قُشعريرة حتى نُدثِّره، ثم يقول: واللَّه لو أن نفسي في يدي لأرسلتها.

وذكر صالح قصة في توجيه أمير بغداد محمد بن عبدالله بن طاهر إلى أحمد ليحضر إليه، وامتناع أحمد وقوله: أنا رجل لم أخالط السلطان، وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره وهذا مما أكره[3].

❑ وفي مرض موته وصف له متطيب قَرْعة تُشوى، ويُسقى ماءها.. هذا كان يوم الثلاثاء، فمات يوم الجمعة، فقال: يا صالح، قلتُ: لبيك،

(١) «السير» (١١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).
(٢) «السير» (١١/ ٢٧٩).
(٣) «السير» (١١/ -٢٨٠).

قال: لا تُشوى في منزلك، ولا في منزل أخيك[١] لكونهما كانا يقبلان أُعطيات السلطان والأمراء.

❑ وفي مرض الموت جاءه حاجب ابن طاهر، فقال: إن الأمير يُقرئك السلام، وهو يشتهي أن يراك. فقال: هذا مما أكره، وأمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره[٢].

*** الإمام ابن جرير الطبري:**

قال الذهبي: قيل إن المكتفي أراد أن يُحبِّس وقفًا تجتمع عليه أقاويل العلماء، فأُحضر له ابن جرير، فأملى عليهم كتابًا لذلك، فأُخرجت له جائزة، فامتنع من قبولها، فقيل له: لا بد من قضاء حاجة. قال: أسأل أمير المؤمنين أن يمنع السؤال يوم الجمعة[٣].

❑ والفقيه الكبير الخَبُوشاني الشافعي عاش عمره لم يأخذ درهمًا لملك، ولا من وَقْف، ودُفن في الكساء الذي صحبه من بلده.

*** والشيخ الصالح العالم الزاهد محمد المغربي:**

كان ينشد كثيرًا:

اقنع بلقمة وشربة ماء ولبس الخيش وقل لقلبك ملوك الأرض راحوا بيش

دخل عليه السلطان قايتباي يزوره ورسم له بألف دينار فردّها وأنشد البيت فبكى السلطان قايتباي حتى بلّ منديله وقال له: فرِّقها على المحبين فقال له: من تعب في تحصيلها فهو أولى بتفريقها ولم يقبل الألف دينار[٤].

---

(١) «السير» (١١/ ٣٣٥).

(٢) «السير» (١١/ ٣٣٦).

(٣) «السير» (١٤/ ٢٦٧ ـ ٢٨٢).

(٤) «السير» (٢١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧).

* **وشيخ الإسلام تقي الدين البلاطنسي**: استوطن دمشق، وبعث إليه نائب دمشق بمال فردّه، فبعث إليه مرة أخرى وقال للرسول: قل له: إنه حلال، فردّه أيضًا وقال: أنا في غنية عنه. وبعث إليه إبراهيم أغا نائب القلعة بمال فسأله الدعاء فردّه ولم يقبله ودعا له، وقال للرسول: قل له غيري أحوج إليه مني. وعيّن له متولي الجامع الأموي ثمانية عثمانية في مقابل تدريسه به فلم يقبل ليكون تدريسه بغير عِوض.. وكان له مهابة في قلوب الفقهاء والحكام يُرجع إليه في المشكلات وكان لا يتردد لأحد لغناه. وكان أمّارًا بالمعروف نهّاءً عن المنكر، لا يخاف في اللَّه لومة لائم ولا يداهن في الحق، قائمًا بنصرة الشريعة، حاملاً لواء الإسلام، مجدًّا في العبادة، مجانبًا للرياء[٢].

▣ وانظر إلى زاهد اليمن وورعها العلاّمة أحمد بن سعد بن الحسين المسوريّ اليمنيّ: قال عنه فضل اللَّه المحبي في كتابه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧): كانت الأئمة تراسله بالكتب والهدايا فيأباها ولا يرى في ذلك من المُلوك عُقباها، فمن ذلك ما أجاب على الأمير الكبير الشريف الحسين بن أحمد الخواجي صاحب صنعاء وقد كتب إليه كتابًا وأصحبه هدية، فكتب إليه:

«.. كنتُ أظنكم رعاكم اللَّه وأولئك الجماعة ممن له في خوف اللَّه نصيب وممن أقلع عما يُوجب البعد من القريب المجيب، وممن دعواه صادقة أنه لا يريد إلا اللَّه ولا يسعى إلا في طاعته وتقواه، فخدعتموني تاللَّه فانخدعت ولو أخذت بالحزم الذي هو سوء الظن لما أبعدت، فحملتم تلك الحالة مني على ما زهّدني واللَّه وغيري من المؤمنين فيكم، ونبّهني على الحذر

(١) «الكواكب السائرة» (١/ ٧٤ ـ ٧٧).

(٢) «الكواكب السائرة» (٢/ ٨٥ ـ ٨٦).

والريب في كل ما يصدر من قول أو فعل عنكم إذ أحللتموني محلاً لست من أهله، وكتبتم إليّ بتصدير هديتكم المردودة إليكم غير مشكورة ولا محمودة ولم ترها والحمد للّه عيني وما لمستها يدي إذ أردتم خديعتي عن ديني والتوصّل بها إلى ما تريدون من أغراض الأهواء في هلكتي فأكون كما قيل:

بتُّ كأني ذُبالة[1] نُصِبتْ تضيء للناس وهي تحترقُ

ومعاذ اللّه أن أكون ممن يبيع دينه بكل الدنيا فضلاً عن عرض منها هو أقلّ وأدنى، أو أن يحبط أعماله ويبطلها بإماطة الأوساخ عن الناس. لقد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين، وكيف إن بقي شيء من المعقول آمر الناس بالبرّ وأنسى نفسي، وأتصدّر لإمام الحق في إنشاء المواعظ يُخطب بها على المنابر لنصيحة الخلق وأخونها وهي أعزّ الأنفس عندي».

ومنها: «وأعجب من هذا طارق يطرقنا بملفوفة في وعائها ومعجونة كما عجنت بريق حية أرياقها فقلتُ: أصِلة أم زكاة وصدقة فذلك محرم علينا أهل البيت، قال: لا ذا ولا ذاك ولكنها هدية، فقلت: هبلتك الهبول، أعن دين اللّه أتيتني لتخدعني أمخبط أنت أم ذو جنّة، أما واللّه لو أُعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصي اللّه في نملة أسلبها خلب شعيرة ما فعلتها، وإن دنياكم هذه لأهون عند اللّه من ورقة في فم جرادة. نعوذ باللّه من سيئات العمل وقبح الزلل وبه نستعين».

ثم جعل يعدّد آباءه من أهل البيت ثم قال: «اللّهم إني لا أقول ذلك افتخارًا لي ولا تزكية لنفسي، بل لما ينبغي من تجنب مواقف التهم معترف بأني أحقر من أن أُذكر وأهون من قلامَه الظفر».

---

(١) الذُّبالة: الفتيلة.

ثم قال: «ولولا تحرّج أمير المومنين عليّ في إعادة الجواب لما توجّه مني بعد ذلك خطاب، وهذا إن شاء اللّه تعالى بيني وبينكم آخر كتاب والسلام».

*** والشيخ الصالح ولي اللّه الذي يستسقي به المطر محمد بن عمر العباسي الدمشقي الصالحي عابد دمشق:**

لمّا حُبس الغيث عن دمشق سنة سبعين وألف واستسقى أهلها مرات فلم يمطروا فأمره نائب الشام فالخروج للاستسقاء بهم فخرج وهو في غاية الخجل فقد كان يؤثر الخمول على الظهور فقال: اللّهم إن هؤلاء عبادك قد أحسنوا الظن بي فلا تفضحني بينهم فأغيثوا من ساعتهم، وما رجعوا إلى البلد إلا بمشقة من كثرة المطر، واستمر المطر ثلاثة أيام.

كان ـ رحمه اللّه ـ لا يقبل من الحكام هدية ولا يتردّد إليهم[1].

*** والإمام الداعي إلى دار السلام علم اللّه بن فضيل بن معظم الشريف الحسني البريلوي:**

بلغ الغاية من هضم النفس، وكان يأتي بحزمة من الحطب على رأسه يبيعها في عسكر خاله.

وقد عرض عليه عالمكير بن شاهجهان صاحب الهند وملكها أقطاعًا من الأرض فلم يقبل، واستأثر الفقر والفاقة.

كان أحسن الناس وجهًا وأتمهم خلقة، قد غشيه نور الإيمان وسيما الصالحين، إذا خرج نهارًا ازدحم الناس على تقبيل يده ورؤية وجهه وهو يكره ذلك وينفر عنهم، وكان يغضب إذا مُدِح ويستبشر إذا نُصِح، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحتسب على كل من رأى عليه أثرًا خلافًا

(١) «خلاصة الأثر» (٤/ ١٠٣).

للشرع سواءً كان ملكًا قاهرًا أو عالمًا كبيرًا أو شيخًا جليلاً، وكان يكثر الرد على المبتدعين ويظهر فضائحهم مع استيلائهم على بلاد المسلمين في عصره.

رأى سلطان الهند عالمكير في المنام أن رسول اللَّه ﷺ تُوفي في تلك الليلة، فعرض على العلماء والمشايخ وسألهم تأويله، فأولوه بأنه توفي في تلك الليلة من كان له نسبة صحيحة بالنبي ﷺ وقدم راسخة في اتباعه، ثم أُخبر بأن السيد علم اللَّه توفي في تلك الليلة، فأجمع العلماء والمشايخ على أنه هو المعبَّر عنه بذلك المنام[1].

*** والشيخ الزاهد مرزا مظهر جان جانان الدهلوي الحسني:**

كان من أعاجيب الزمان في الاستغناء عن الناس والزهد والورع واتباع السنة السنيّة واقتفاء آثار السلف.

وكان يقول: إن ردّ الهدية ممنوع، ولكنّا ما أُمِرنا بالأخذ وجوبًا، إني أقبل من أصحابي يأتون بها بإخلاص واحتياط ولا أقبل من الأغنياء فإن هداياهم قلّما تخلو عن الشبه، وربما يتعلّق بها حقوق العباد.

بعث محمد شاه وزيره قمر الدين خان إلى الشيخ مرزا وقال له: إن اللَّه أعطاني مُلكًا كبيرًا فخذوا مني ما شئتم، فأجابه إن اللَّه تعالى يقول: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فلّما كانت أمتعة الأقاليم السبعة قليلة، فكيف بما في يدكم من قطعة حقيرة من إقليم واحد، والفقراء لا يخضعون للملوك لأجل ذلك الأقلّ.

❑ وأعطاه نظام الملك ثلاثين ألفًا من النقود فلم يقبل، فقال له نظام الملك: إن لم تكن لكم حاجة إليها فخذوها ثم قسّموها على المساكين، فقال: إني لست بأمينكم إن شئتم التقسيم فباشروه بأنفسكم إذا خرجتم من

(١) «الإعلام» (٥/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

داري»[١] .

*** وشيخ أهل المغرب عبدالقادر بن علي بن يوسف الفاسي:**

□ أحيا اللَّه به علوم الحديث والمغازي والسير بالمغرب في القرن الحادي عشر، كان ـ رحمه اللَّه ـ لا تأخذه في اللَّه لومة لائم، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، قوّالاً للحق، يواجه به الكبراء والملوك، قد أُعطي قوة على التلطف في توصيل ذلك وإبلاغه على أجمل صوره، حتى تنفعل له النفوس الأبيّة، وتذعن لسامعها آذان الأغيال الجبابرة، ولا تستنكف عن الانقياد له الأنوف الشامخة، مهابًا في الأعين، معظمًا في القلوب.

كان عالم وقته، وكان أزهد العلماء بوقته فيما في أيدي الناس، وكان مع اتساع علمه وعظم جاهه يأكل من عمل يده، فكان ينسخ الجامع الصحيح للبخاري كثيرًا، وكان يبيعه يتعيّش به.

ولما تولى السلطان الرشيد، وهو حينئذ كبير السن، أراد أن يمدّه بشيء من الدنيا، فبلغه ذلك، فقال: «قولوا له يشغل نفسه بغيري، فالذي رزقني من المهد إلى أن ابيّضت لحيتي هو يرزقني». ثم جعل يحكي ما قاله الشيخ السنوسي لبعض ملوك وقته حين عرض عليه شيئًا من الدنيا فقال له: «أما نيّتك فاللَّه يجازيك عليها خيرًا، وأما أنا فأخاف أن تفيض عليّ بحور الآخرة، فأردت أن تجدني حينئذ خفيفًا من الدنيا لعلّي أقطعها بخفة»[٢] .

*** والشيخ عمر العقيبي الدمشقي الشافعي المعروف بالإسكاف:**

يبعث إليه عيسى باشا كافل المملكة الشامية بثمانين دينارًا ذهبًا فردّها عليه وقال: «نحن في كفاية وغنية عنها ولا يجوز لنا تناولها إلا مع

(١) «الإعلام» (٦/ ٥٥ ـ ٥٩).

(٢) «نشر المثاني» (٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧٩).

الاضطرار، ولا اضطرار لنا».

يقول هذا ـ رحمه اللَّه ـ مع شده فقره فقد كان ينظر بستانًا بحماة وفيه العنب والتين وكثير من أنواع الفواكه فيقطفون العنب وغيره ويبيت في البستان فيصبح وعليه النّدى فيكتسي بذلك حُسنًا فلا يلتفت إليه ولا يُعرِّج عليه ولا يأكل منه حبّة واحدة.

❑ جاءه إنسان يطلب الإرشاد والتزمه فأمره أن يعترف بين يديه بظلامات الناس ليأمره بالتوبة منها والتحلل وكيف يتوب ويخرج من المظالم، فاعترف بين يديه بقتل إنسان عمدًا، فقال له: لا بد أن تعترف لأوليائه وتطلب منهم العفو، فإن عَفَوْا كان طريقك مبني على أمر صحيح، وإن اقتُصَّ منك خرجت من عهدة الجناية في الدنيا باستيفائهم منك ما لهم عليك من القصاص، والصبر على القصاص في الدنيا أهون من الصبر على عذاب الآخرة، ففعل واعترف عند أولياء القتيل فأمسكوه وضيّقوا عليه واستعدوا عليه عند الحاكم، ثم لمّا بلغهم قصته مع الشيخ عمر عفوْا عنه ووهبوه له[1].

عزّ العلماء الربانيين العاملين وشرفهم وفضلهم

❑ يرحم اللَّه من قال:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظّموه في النفـوس لعُظِّمَا

كان العلماء الربانيون يهابون ربهم وحده فهابتهم الخلائق وملوك الأرض، فمن خاف اللَّه أخاف اللَّه منه كل شيء، ومن خاف غير اللَّه وقدّم الخوف من العبيد المخلوقين على الخوف من ربّ العالمين خوّفه اللَّه من كل شيء.

---

(١) «الكواكب السائرة» (٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣٣).

❑ وللَّه ما أحلى قول القائل عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس:

يدع الجواب فلا يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان

نور الوقار وعزّ سلطان التقى فهو المهيب وليس ذا سلطان

❑ يكفيهم شرفًا وعزًّا أنهم سبب لهداية الناس:

قال الأوزاعي: من كان مقتديًا، فليقتد بمثل ابن محيريز، إن اللَّه لم يكن ليضلّ أمة فيها ابن محيريز[١].

❑ وهم الذين يستشفى بحديثهم، وتنزل الرحمة بذكرهم، ويسّاقط القطر من السبب بدعائهم.

قالت عائشة رضي الله عنها: عند ذكر عمر تنزل الرحمة.

وقال ابن حنبل عن صفوان بن سليم: من الثقات، يُستشفى بحديثه، وينزل القطر من السماء بذكره[٢].

*** وهم أمان للناس:**

قال رجاء بن حيوة: بقاء ابن محيريز أمان للناس.

قال هلال بن خباب: قلت لسعيد بن جُبير: ما علامة هلاك الناس؟ قال: إذا ذهب علماؤهم.

قال رجل لميمون بن مهران: يا أبا أيوب! ما يزال الناس بخير ما أبقاك اللَّه لهم».

قال ـ رحمه اللَّه ـ : ثلاث لا تبْلُوَنّ نفسك بهن: لا تدخل على السلطان وإن قلت: آمره بطاعة اللَّه، ولا تصغينّ بسمعك إلى هوى، فإنك

(١) «السير» (٤/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦).

(٢) «السير» (٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٩).

لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت: أعلمها كتاب اللَّه[١] .

قال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري شيخ الإسلام عن إمام الأئمة ابن خزيمة: إن اللَّه ليدفع البلاء عن أهل هذه المدينة لمكان أبي بكر محمد بن إسحاق[٢] .

*** وفي بقاء العلماء العاملين الربانيين صلاح لهذه الأمة:**

قال يونس بن عبدالأعلى: أبو زرعة وأبو حاتم إماما خراسان، ودعا لهما وقال: بقاؤهما صلاح للمسلمين[٣] .

*** وهم سبب لنصر الأمة:**

قال مسلمة بن عبدالملك أمير السرايا: برجاء بن حيوة وبأمثاله نُنصر وما أمر محمد بن واسع ودعاؤه عند فتح كابل، وما خبر ابن تيمية في موقعة مرج الصفر من الناس ببعيد.

❑ وهم الذين ينقّون الدين مما علق به، وهم الذين ينفون عنه تحريف الغالين انظر إلى الجبل الشامخ أبي إسحاق الفزاري، وهو الذي أدّب أهل الثغور كان يأمر وينهى، وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه.

أمر سلطانًا ونهاه، فضربه مائتي سوط، فغضب له الأوزاعي وتكلّم في أمره.

أخذ الرشيد زنديقًا ليقتله، فقال الرجل: أين أنت من ألف حديث وضعتها؟

---

(١) انظر «السير» (٥/ ٧١ ـ ٧٨).

(٢) انظر ترجمته في «السير» (١٤/ ٣٦٥ ـ ٣٨٢).

(٣) «السير» (١٣/ ٢٤٧ ـ ٢٦٣).

قال: فأين أنت يا عدو اللَّه من أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك يتخللانها، فيخرجانها حرفًا حرفًا.

❑ وللَّه در القائل عنهم:

تحيا بكم كل أرض تنزلون بها ... كأنكم في بقاع الأرض أمطار
وتشتهي العين فيكم منظرًا حسنًا ... كأنكم في عيون الناس أقمارُ
لا أوحش اللَّه ربعًا من زيارتكم ... يا من لهم في الحشا والقلب تذكارُ

كلمات للحياة

*** أديب الإسلام مصطفى صادق الرافعي يبين علو شأن العلماء الربانيين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في شخص سيدهم أحمد بن حنبل:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «كنتُ لا أزال أعجب من صبر شيخنا أحمد بن حنبل، وقد ضُرِب بين يديْ المعتصم بالسياط حتى غُشي عليه، فلم يتحوّلْ عن رأيه، فعلمتُ الآن أنه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمي، ولو هو صبر على هذا صبر الإنسان لجزع وتحوّل، ولو ضُرِب ضرب الإنسان لتألمّ وتغيّر، ولكنه وضع في نفسه معنى ثبات السنة وبقاء الدين، وأنه هو الأمة كلها لا أحمد بن حنبل، فلو تحوّل لتحوّل الناس، ولو ابتدع لابتدعوا، فكان صبره صبر أمة كاملة لا صبر فرد، وكان يُضرب بالسياط ونفسه فوق معنى الضرب، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير، لما نالوا منه شيئًا؛ إذ لم يكن جسمه إلاّ ثوبًا عليه، وكان الرجل هو الفكر ليس غير.

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل، ولكنهم يرونها أمانات قد ائتمنوا عليها من اللَّه، لتبقى بهم معانيها في هذه الدنيا، فهم يُزرعون في الأمة زرعًا بيد اللَّه، ولا يملك الزرع غير طبيعته، وما كان المعتصم ـ وهو يريد شيخنا

على غير رأيه وعقيدته ـ إلا كالأحمق، يقول لشجرة التفاح: أثمري غير التفّاح».

من ارتقى إلى سماء الرافعي عرف لآلئ بشر بن الحارث الحافي حين يقول عن الذين أجابوا في محنة خلق القرآن: «وددت أن رءوسهم خُضبت بدمائهم، وأنهم لم يجيبوا»[١].

❑ نعم مكانة العلماء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر عالية يهابهم من أجلها السلاطين والأمراء.

قال يعقوب بن شيبة: كان يزيد بن هارون يُعَدُّ من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

❑ وقال يحيى بن أكثم: قال لنا المأمون: لولا مكان يزيد بن هارون، لأظهرت القرآن مخلوق، فقيل: ومَن يزيد حتى يُتَّقى؟ فقال: ويحك إني لأرتضيه لا أن له سَلْطنه، ولكن أخاف إن أظهرته، فيردّ عليّ، فيختلف الناس وتكون فتنة[٢].

❑ وانظر إلى المعتصم مع إمام أهل السنة:

قال أبو زرعة: دعا المعتصم بعمِّ أحمد، ثم قال للناس: تعرفونه؟ قالوا: نعم، هو أحمد بن حنبل، قال: فانظروا إليه، أليس هو صحيح البدن؟ قالوا: نعم. ولولا أنه فعل ذلك، لكنت أخاف أن يقع شيء لا يُقام له. قال: ولما قال: قد سلّمته إليكم صحيح البدن، هدأ الناس وسكنوا.

قال الذهبي: قلتُ: ما قال هذا مع تمكنه في الخلافة وشجاعته إلاّ عن كبير أمر كأنه خاف أن يموت من الضرب، فتخرج عليه العامة، ولو خرج

(١) «السير» (١١/ ٣٢٣).

(٢) «السير» (٩/ ٣٥٨ ـ ٣٧١).

عليه عامة بغداد لربما عجز عنهم[١] .

انظر إلى علو مكانة العلماء وعزّهم لما قال الإمام أحمد بن حنبل: «قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز».

لما قبض الإمام أحمد صاح الناس، وعلتِ الأصوات بالبكاء حتى كأن الدنيا قد ارتجّت، وامتلأت السكك والشوارع.

قال صالح بن أحمد: وحضر نحو مائة من بني هاشم، ونحن نكفِّنه، وجعلوا يُقبّلون جبهته حتى رفعناه على السرير.

قال عبدالوهاب الورّاق: ما بلغنا أن جمعًا في الجاهلية ولا الإسلام مثله ـ يعني: من شهد الجنازة حتى بلغنا أن الموضع مُسِح وحُرِز على الصحيح، فإذا هو نحو من ألف ألف وحزرنا على القبور نحوًا من ستين ألف امرأة، وفتح الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب.

قال عبدالوهاب الورّاق: أظهر الناس في جنازة أحمد بن حنبل السنة والطعن على أهل البدع، فسرّ اللَّه المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة لما رأوا من العزّ وعلو الإسلام وكبْت أهل الزيغ.

وما صلوا ببغداد في مسجد العصر يوم وفاة أحمد.

❑ ولو لم يكن لأهل العلم إلا المنقبة التالية لكفتهم: «لولا أصحاب المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر». وأوثق ما لديهم المحابر وأغلى ما عند الشهيد دمه يوزن بأدنى ما عند العالم وهو مداد.

❑ وأهل الدنيا يعرفون شرفهم وفضلهم: فهذا ملك الهند شاهجهان بن جهانكير التيموري يزن العلاّمة الإمام عبدالحكيم السيالكوتيّ شيخ الهند مرتين بالفضة في الميزان ومنحه ما جاء في الوزن، وهو كل مرة ستة آلاف من

(١) «سير أعلام النبلاء» ـ ترجمة الإمام أحمد (١١/ ١٧٧ ـ ٣٥٨).

النقود[١] .

❑ تعالَ وشاهد عزّ العلماء العاملين:

الشيخ كمال الدين بن الهمام قرره الأشرف برسباي سلطان مصر شيخًا في مدرسته فأعرض عنها بعد مدة، فعارضه جوهر الخازندار بغيره فغضب وقال: اشهدوا عليّ أني عزلت نفسي من هذه المشيخة وخلعتها كما خلعت طيلساني هذا، وتحوّل في الحال لبيت في باب القرافة، وبلغ ذلك السلطان فشقّ عليه وراسله يستعطف خاطره مع جقمق الذي صار سلطانًا وغيره من الأعيان فلم يُجب، وخشي جوهر غضب السلطان عليه بسببه فبادر للاجتماع به لتلافي الأمر فما أمكنه، فجلس بزاوية هناك كانت عادة الشيخ الصلاة فيها حتى جاء فقام إليه حاسر الرأس ذليلاً، فقبّل قدمه مصرّحًا بالاعتذار والاستغفار فأجابه بأنني لم أتركها بسببك بل للّه تعالى.

وداوم على الأمر بالمعروف وإغاثة الملهوفين والإغلاظ على الملوك فمن دونهم[٢] .

* الملك الأشرف قايتباي الجركسي سلطان مصر والشيخ عبدالقادر الدشطوطي:

مرّ الملك قايتباي وهو راكب في موكبه على الشيخ عبدالقادر الدشطوطي، فنزل إليه وقبّل يديه، فقال الشيخ عبدالقادر له يومًا والذباب قد انعطف عليه: يا قيتباي، قل لهذا الذباب يذهب عني، فحار قايتباي فقال: يا سيدي: كيف يسمع الذباب مني. قال: وكيف تكون سلطانًا ولا يسمع

(١) «الإعلام» (٥/ ٢٢٩ ـ ٢٣١).

(٢) «الضوء اللامع» للسخاوي (٨/ ١٢٧).

الذباب منك. ثم قال سيدي عبدالقادر: يا ذباب اذهب عني فلم يبق عليه ذبابة[١].

❑ وتعالَ إلى ما قصّه العالم المفسر ابن كمال باشا وكان جده من أمراء الدولة العثمانية حكى عن نفسه أنه كان مع السلطان بايزيد خان في سفر وكان وزيره حينئذ إبراهيم باشا بن خليل باشا، وكان في ذلك الزمان أمير ليس في الأمراء أعظم منه يُقال له: أحمد بك بن أورنوس، قال: فكنتُ واقفًا على قدمي قدّام الوزير وعنده هذا الأمير المذكور جالسًا إذ جاء رجل من العلماء رث الهيئة فجلس فوق الأمير المذكور ولم يمنعه أحد عن ذلك فتحيّرت في هذا الأمر وقلت لبعض رفقائي: من هذا الذي تصدّر على مثل هذا الأمير. قال: هو رجل عالم مدرس يُقال له: المولى لطفي، قلت: كم وظيفته؟ قال: ثلاثون درهمًا.

قلت: فكيف يتصدّر على هذا الأمير ووظيفته هذا القدر؟ فقال رفيقي: العلماء معظّمون لعلمهم، فإنه لو تأخّر لم يرض بذلك الأمير ولا الوزير، فنويت أن أشتغل بالعلم الشريف[٢].

❑ قال الشيخ عبدالوهاب الشعراوي عن الشيخ العلامة شهاب الدين السنباطيّ الشافعي الواعظ: لم نرَ أحدًا من الوعاظ أقبل عليه الخلائق مثله، وكان إذا نزل من فوق الكرسي يقتتل الناس عليه.

ولما مات أظلمت مصر لموته وانهدم ركن عظيم من الدين، وما رأيت في عمري كله أكثر خلقًا من جنازته إلا جنازة الشيخ شهاب الدين الرملي[٣].

---

(١) «الكواكب السائرة» (١/ ٢٩٧ ـ ٣٠٠).

(٢) «الكواكب السائرة» (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨).
ويرحم اللَّه من قال: طلبنا العلم لغير اللَّه فأبى إلاّ أن يكون للَّه.

(٣) «الكواكب السائرة» (٢/ ١١١ ـ ١١٢).

* ملك العلماء عبدالعلي اللكهنوي والأمير والاجَاه محمد علي خان الكوباموي:

لما نزل ملك العلماء العلاّمة الكبير عبدالعلي بن نظام الدين السُّهالْوي اللكهنوي ومعه ستمائة نفس من رجال العلم بمدْراس ووصل إلى باب القصر استقبله الأمير بسائر أقاربه وأركان دولته راجلاً فأراد العلاّمة أن ينزل من المحفّة[١] فمنعه الأمير عن ذلك، وحمل المحفّة على عاتقه، ودخل دار الإمارة في قصر من قصورها، وأجلسه على الوسادة وقبّل قدميه، وتعود كل يوم أن يحضر لديه.

❑ «والإمام ابن دقيق العيد عظمته الملوك، وكان السلطان لاجين ينزل له عن سريره ويُقبِّل يده»[٢].

❑ وهذا سلطان اليمن في أيام الفيروز أبادي يكتب إلى الفيروز أبادي: «كانت اليمن عميًا فاستنارت فكيف يمكن أن تتقدم وأن تعلم أن اللّه قد أحيا بك ما كان ميتًا من العلم فباللّه عليك إلا ما وهبت لنا بقية هذا العمر، واللّه يا مجد الدين يمينًا بارّة إني أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك أنت اليمن وأهله»[٣].

* الشيخ الزاهد محمد بن حمزة الدمشقي المعروف بابن شمس الدين والسلطان محمد الفاتح:

ظهر فضل الشيخ ابن شمس الدين حتى أن السلطان محمد خان ـ

(١) شيء شبيه بالهودج ولكنه يحمل على أعناق الرجال غالبًا.
(٢) «الإعلام» (٧/ ٢٨٩ ـ ٢٩٤).
(٣) «الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢١٠ ـ ٢١٤).
(٤) «الضوء اللامع» للسخاوي (١٠ ـ ٧٩ ـ ٨٦).

الفاتح ـ سلطان الروم دعاه للجهاد فقال ابن شمس الدين للسلطان: «سيدخل المسلمون القلعة في يوم كذا، فجاء ذلك الوقت الذي عيّنه لفتح القلعة فحصل مع بعض أصحابه فزع شديد من السلطان على الشيخ إذ لم يصح الخبر، فذهب إليه في تلك الحال فوجده في خيمته ساجدًا على التراب مكشوف الرأس وهو يتضرّع ويبكي فرفع رأسه وقام على رجليه وكبّر وقال: الحمد للَّه مُنحنا فتح القلعة. قال الراوي: فنظرت إلى القلعة، فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففرح السلطان بذلك، وقال: ليس فرحي لفتح القلعة إنما فرحي بوجود مثل هذا الرجل في زمني.

ثم بعد يوم جاء السلطان إلى خيمة صاحب الترجمة وهو مضطجع فلم يقم له، فقبّل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة، قال: وما هي؟ قال: أن أدخل الخلوة عندك، فأبى، فأبرم عليه السلطان مرارًا وهو يقول: لا، فغضب السلطان وقال: إنه يأتي إليك واحد من الأتراك فتُدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى عليّ، فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينك فتختل أمورها فيمقت اللَّه علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئًا من النصائح، ثم أرسل إليه ألف دينار فلم يقبل، ولما خرج السلطان محمد خان قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لي، فقال له: لعلّه شاهد من الزهو بسبب هذا الفتح الذي لم يتيسّر مثله للسلاطين العظام، فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو[1].

*** الملوك حُكّام على الناس، والعلماء حكّام على الملوك:**

«قال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حكّام على الناس، والعلماء حكّام

(١) «البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ١٦٦ ـ ١٦٩).

على الملوك»[١] .

رحم اللَّه من تسابق أبناء الملوك إلى تقديم نعالهم إليهم وحملها:

قال الخطيب البغدادي: «كان الخليفة المأمون قد وكّل الفرّاء يُلقّن ابنيه النحو، فلما كان يومًا أراد الفرّاء أن ينهض إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعل الفرّاء يُقدّمانها له، فتنازعا أيهما يُقدّمها، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردة، فقدّماها، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر، فرفع إليه ذلك الخبر فوجّه إلى الفرّاء فاستدعاه، فلما دخل عليه قال له: من أعزّ الناس؟ قال: ما أعرف أحدًا أعزّ من أمير المؤمنين، قال: بلى، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليّا عهد المسلمين، حتى رضي كل واحد منهما أن يُقدِّم له فردة. قال: يا أمير المؤمنين، لقد أردتُ منعهما من ذلك، ولكن خشيتُ أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، وأكسر نفوسهما عن شريفة حصلا عليها، وقد رُوي عن ابن عباس أنه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهما ركابيْهما حتى خرجا من عنده؟ فقال له بعض من حضر: أتُمسك لهذين الحَدَثَيْن ركابيهما وأنت أسنّ منهما؟ فقال له: اسكت يا جاهل، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل.

قال له المأمون: لو منعتهما عن ذلك؛ لأوجعتك لومًا وعُتبًا، وألزمتك ذنبًا، وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرهما، وبيّن عن جوهرهما»[٢] .

❑ وصبّ هارون الرشيد أمير المؤمنين الماء لأبي معاوية الضرير، فقال: أتدري من يصب ماء الوضوء عليك؟ قال: لا. قال: أمير المؤمنين، إكرامًا

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧).
(٢) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٤/ ١٥).

للعلم بأبي وأمي علماء ربانيون خدمتهم الملوك، ملوك الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وعلماء الآخرة تخدمهم الملوك.

❑ وابن تيمية الذي ملأ مشارق الأرض ومغاربها أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وصدْعًا بالحق لما مات في سجنه دخل أربعة من كبار الحفّاظ عليه يغسّلونه منهم الحافظ المزي، وكانت جنازته أكبر جنازة في تاريخ الإسلام بعد جنازة إمام أهل السنة ابن حنبل، وما استطاع شانئوه أن يخرجوا يوم موته خوفًا من بطش العامة بهم.

*** شيخ الإسلام أبو خالد الإمام يزيد بن هارون:**

قال عنه الذهبي: كان رأسًا في العلم والعمل، كبير الشأن.

قال أبو نافع سبط يزيد بن هارون: كنت عند أحمد بن حنبل وعنده رجلان ـ وأحسبه قال: شيخان، فقال أحدهما: يا أبا عبداللَّه، رأيت يزيد بن هارون في المنام، فقلت له: يا أبا خالد، ما فعل اللَّه بك؟ قال: غفر لي وشفّعني وعاتبني، قال: قلتُ: غفر لك وشفّعك قد عرفتُ، ففيم عاتبك؟ قال: قال لي: يا يزيد، أتحدِّث عن جرير بن عثمان؟ قال: قلتُ: يا رب ما علمتُ إلاّ خيرًا، قال: يا يزيد، إنه كان يبغض أبا حسن عليّ بن أبي طالب.

وقال الآخر: أنا رأيت يزيد بن هارون في المنام، فقلتُ له: هل أتاك منكر ونكير؟ قال: أي واللَّه، وسألاني: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ قال: أمثلي يُقال هذا؟! وأنا كنت أعلم الناس بهذا في دار الدنيا؟ فقالا لي: نم كنومة العروس لا بؤس عليك»[1].

(١) «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٤٦، ٣٤٧).

* **العلماء ملوك الدنيا:**

قدم الرشيد مدينة «الرقة» يومًا في موكبه، فأشرفت أم ولد لهارون الرشيد من برج الخشب والناس يتزاحمون خلف عبداللَّه بن المبارك ـ رحمه اللَّه ـ حتى تقطّعت منهم النعال وارتفعت الغبرة... فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟! قالوا: عالم أهل خراسان قَدِم الرقة يُقال له عبداللَّه بن المبارك ـ فقالت: هذا واللَّه المُلك.. لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بِشُرْط وأعوان[1].

❑ وسُئِل ابن المبارك: مَنْ الناس؟ قال: العلماء.

قيل: فمن الملوك؟؟ قال: الزهاد. قيل: فمن السِّفْلة؟؟ قال: الذي يأكل بدينه.

❑ ورضي اللَّه عن عمر بن عبدالعزيز حيث قال: لأن يكون لي مجلس من عبيداللَّه[2] ـ أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها.

* **طاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء:**

أجاد ابن القيم حين أوجز قوامة العلماء على الأمة حكامًا ومحكومين باعتبارهم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففسّر في سطور قليلة قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: إن أولي الأمر العلماء أو الأمراء.

ثم قال: والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم، فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ﷺ، فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء.

---

(١) «تاريخ بغداد» (١٠/١٥٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٨٤)، و«وفيات الأعيان» (٣/ ٣٣).

(٢) أحد فقهاء المدينة السبعة.

* إلى اللَّه نشكو أهل الممالك من أهل ملَّتنا:

«ماذا يملك أفذاذ الرجال الذين أعطاهم اللَّه البصيرة والنور حينما يَرَونَ الحالة الأليمة التي تتردَّى فيها الأمة؟! إلا أن يتوجهوا إلي ربهم بالشكوى، ثمَّ يُجرِّدوا ألسنتهم وأقلامهم لتبصير الناس وتوجيههم الوجهة الصحيحة.

هذا عالم فذٌّ من علماء الأندلس يجأرُ بالشكوى إلى اللَّه، يشكو ملوكَ زمانه؛ لانشغالهم بالدنيا عن الآخرة، وبعمارة القصور عن عمارة الشريعة، وبجمع المال عن حماية الديار.

وفي مثل هذا الجو يضعُف الأخيار ويكثر الأشرار، ويستشرف أعداء الإسلام السِّيادة والسلطان، وهذا ما حدث، عندما اتخذ بعضُ الملوك اليهودَ وزراءً وعمَّالاً سلَّطُوهم على رقاب المسلمين فاستأسدوا، وضَارّوا المسلمين، وتجرَّأ زعيمُهم على كتابة كتابٍ يتهجم فيه على كتاب اللَّه الكريم، ويزعم أنه متناقض. فكتب ابن حزم كتابه هذا[1]، وبدأه بالشكوى: «اللَّهم إنَّا نشكو إليكَ تشاغُل أهل الممالك ـ من أهل ملتنا ـ بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصورٍ ـ يتركونها عمَّا قريبٍ ـ عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم، وبجمع أموالٍ ـ ربما كانت سببًا إلى انقراض أعمارهم، وعونًا لأعدائهم عليهم ـ عن حِياطة ملَّتهم التي بها عزُّوا في عاجِلَتهم، وبها يرجون الفوز في آجلتهم، حتى استشرف لذلك أهلُ القبلة والذّمة، وانطلقت ألسنةُ أهل الكفر والشرك بما لو حقَّق النظر أربابُ الدنيا لاهتموا بذلك ضَعفَ هَمِّنَا؛ لأنهم مُشاركون لنا فيما يلزم الجميع، من الامتعَاضِ للديانة الزهراء، والحميَّة للملة الغرَّاء، ثمَّ هُم بعدُ مُتردُّون بما يؤول إليه إهمالُ هذه الحال، من

(١) كتاب «الردُّ على ابن النغريلة اليهودي» ص(٤٥ ـ ٤٦) تحقيق د. إحسان عباس ـ نشر مكتبة دار العروبة ـ القاهرة.

فساد سياستهم والقدح في رياستهم. فللأسباب أسباب، وللمداخل إلى البلاء أبواب، واللَّه أعلم بالصواب، وقد قال علي بن العباس:

لا تَحْقِرَنَّ سُبَيْبًا كم جرَّ أمرًا سُبَيْبُ

وقال أبو نصر ابن نباتة:

فَلاَ تَحْقِرَنَّ عدوًّا رماكَ وإنْ كَانَ في سَاعِدَيْهِ قِصَرْ
فإنَّ السيوفَ تحزُّ الرقابَ وتعجَزُ عمَّا تَنالُ الإبَرْ

لقد كان في المسلمين بقية خيرٍ؛ فقد أثَّرت كتابات الأخيار فيهم، وأثارت حميَّتهم قصائد الشعراء الذين بيَّنوا مساوئ اليهود، ومنها قصيدة أبي إسحاق الألبيري التي يقول فيها:

وإنِّي احتللتُ بِغِرْنَاطَةَ فكنتُ أراهم بِهَا عابثِينْ
وَقَدْ قسَّموها وأعمالَهَا فمنهُمْ بكلِّ مكانٍ لَعِينْ
وَهُمْ يَقْبِضُونَ جِبَاياتِهَا وأنْتُمْ لأوضَاعِهَا لابِسُونْ
وهم أُمَناكم على سِرِّكمْ وكيفَ يكون أمينًا خَئُونْ

وثار المسلمون وهبُّوا جميعًا في ثورةٍ عارمةٍ أودت بحياة أربعمائة مجرمٍ يهودي، منهم ابن النغريلة، هذا الذي بلغ مرتبة الوزارة.

ما أشبه الليلةَ بالبارحة! ومُصابُ اليومِ أعظمُ، فأهل الممالك في زماننا أقاموا لليهود دولة في مَسرَى الرسول ﷺ، وباعوا الأرض المباركة بعرضٍ حقيرٍ، واعترف بعض هؤلاء بدولة أبناءِ الخنازير، واستقبلوهم في ديارهم. تُرى، لو كان ابن حزم حيًّا ماذا يقول، وماذا يكتب؟ وتراه لو كَتَب، أيحرِّك أشجان المسلمين؟! إلى اللَّه نشكو، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العظيم»[1].

(١) جولة في رياض العلماء» للدكتور عمر سليمان الأشقر ص(١٠٣ ـ ١٠٥)ـ طبع دار النفائس ومكتبة الفلاح.

لا يعلم إلا اللَّه ـ إن لم يأمرِ الربانيُّون بالمعروف وينهون عن المنكر ـ ما سيكون، والوحل والحضيض الذي تعيش فيه الأمة يُدمي القلوب والعيون، والمسلمون ينحدرون من هاوِيَةٍ إلى هاوية، ويتقهقرون من نكسة إلى نكسة، ويتهافتون من خَرابٍ إلى خرابٍ.

ألفَت الأمة الآثام، حتى أمست جزءًا من كِيَانها تتمسَّك به وتدافع عنه، حالُهم مثلُ حال الأُمم التي قال اللَّه عز وجل فيها: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ...﴾ الآية [النحل: ٦٣] جعل القبيح في عيونهم حَسَنًا، والمُرّ في مذاقهم حلوًا، وكرّه لهم الاستقامة وَوَحي السماء، فهم لا يرتضُون إلا ما ابتدعوا، ولا يقبلون عنه بديلاً.

ومثال ذلك الواضح: كان القذرُ الجنسّي يتمُّ في خَفَاء، ثم صار يبدو على استحيَاء، ثم تواضعَ عليه الرِّعَاعُ، ثم صار قانونًا يُعمل به، ثم انعقدت مؤتمراتٌ عالمية تدعو إليه ولا ترى فيه عِوَجًا فَمَن يُعرِّي هؤلاءِ العُراة ويفضحهم إن سكتَ الربانيُّون؟!

ناشئةٌ حديثةٌ تكره اللَّه ورسوله، وتنقم على الإسلام ووحيه، وتريد باسم العلمانية أن تعيدنا إلى جاهلية عمياء..

ومن لهؤلاء الأقزام يصدُّهم إلا الجبال الشُّمُّ من الربانيين الذي ذاقوا حلاوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستعذبوا ما يُلاقون، ابتغاءَ وَجه ربهم الأعلى؟! يا جيل المصاحف. أكلت مواسِمَنا الجنادب.. واستبدَّ بنا الحواة، وغادرتنا آخرُ السُّحُبِ الحميمةِ في السماء.

وأقول يا جيل المصاحف.. يا خميرَ الأرض.. يا غَرسَ الشهادة، أنت الذي سيبدِّل الأوزان والأحزان، يزرعُ في العيون نخيلَها، فَلَكَم تباطأَ في الرحيل عن القُرى عامُ الرَّماد!!

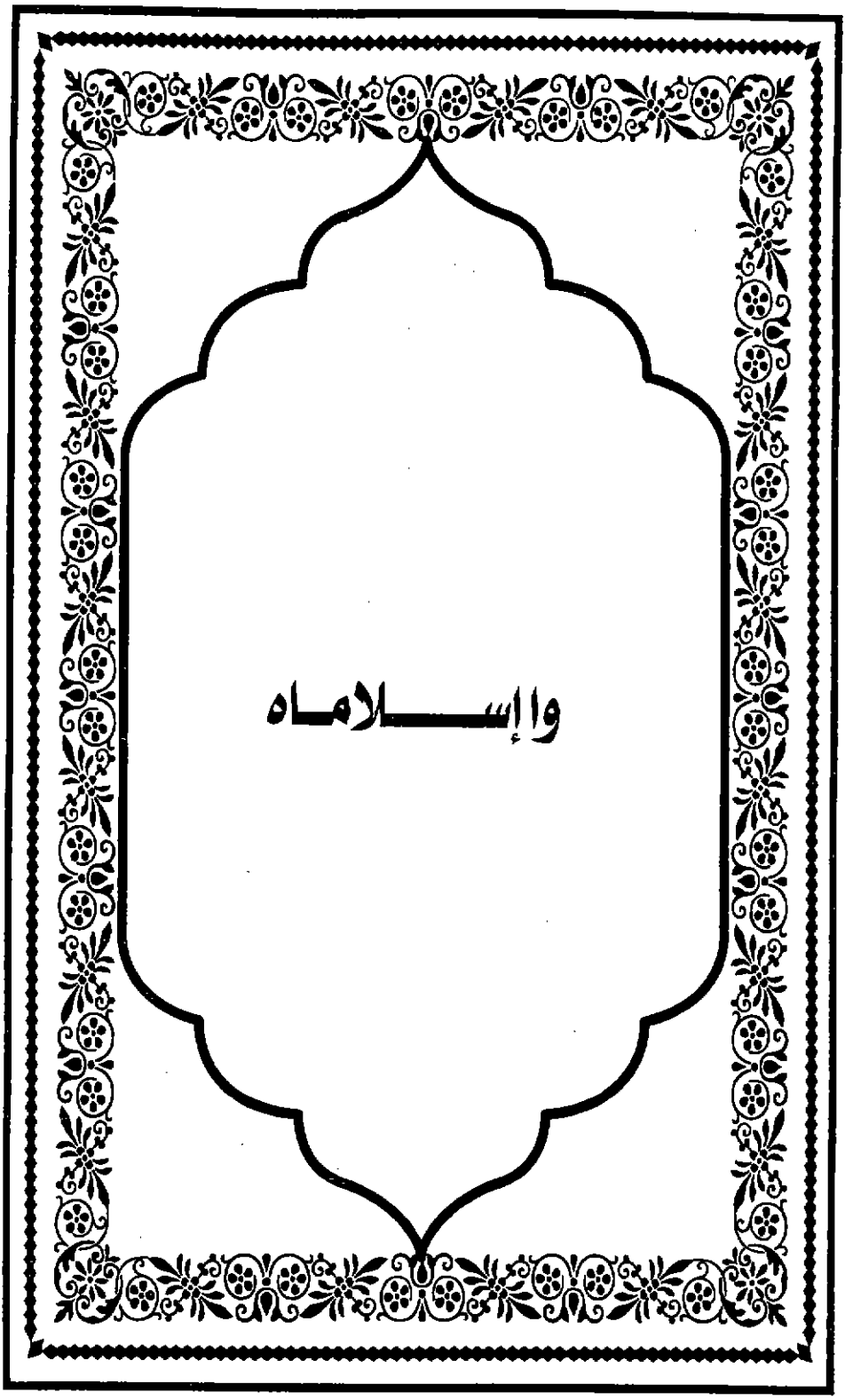
وا إســـــلامـاه

وا إســـــلاماه

للَّه در الإمام ابن بطة العكبري وهو يصور غربة الدين في أيامه فيقول:

«يا إخواني عصمنا اللَّه وإياكم من غلبة الأهواء، ومشاحنة الآراء، وأعاذنا وإياكم من نصرة الخطأ وشماتة الأعداء، وأجارنا وإياكم من غِيَر الزمان، وزخاريف الشيطان، فقد كثر المغترون بتمويهاتها، وتباهى الزائغون والجاهلون بلبسة حلتها، فأصبحنا وقد أصابنا ما أصاب الأمم قبلنا، وحلَّ الذي حذَّرَنَاه نبينا ﷺ من الفرقة والاختلاف، وترك الجماعة والائتلاف، وواقع أكثرنا الذي عنه نهينا، وترك الجمهور منا ما به أمرنا، فخلعت لبسة الإسلام، ونزعت حلية الإيمان، وانكشف الغطا، وبرح الخفا، فعبدت الأهواء واستعملت الآراء، وقامت سوق الفتنة وانتشرت أعلامها، وظهرت الرِدَّة وانكشف قناعها، وقُدحت زناد[٢] الزندقة فاضطرمت نيرانها، وخلف محمد ﷺ في أمته بأقبح الخلف، وعظمت البليَّة واشتدت الرزيَّة، وظهر المبتدعون، وتنطَّع المتنطِّعون، وانتشرت البدع، ومات الورع، وهُتِكتْ سُجفُ[٣] المشاينة، وشُهِرَ سيف المحاشة[٤] بعد أن كان أمرهم هيِّنًا، وحدهم ليِّنًا، وذاك حتى كان أمرُ الأمَّةِ مجتمعًا، والقلوبُ متآلفةً والأئمةُ عادلةً، والسلطانُ قاهرًا، والحقُّ ظاهرًا، فانقلبت الأعيانُ، وانعكس الزمانُ، وانفرد كلُّ قومٍ ببدعتهم، وحزب الأحزابُ، وخُولِفَ الكتابُ، واتخذ أهلُ الإلحادِ

---

(١) أي من أحداثه.

(٢) الزند هو العود الذي يُقدح به النار.

(٣) السجف: الستر.

(٤) أي شُهِرَ سيف الفُرقةِ والخِلاف.

رءوسًا أربابًا، وتحولت البدعة إلى أهل الاتفاق، وتهوك[١] في العسرة العامة وأهل الأسواق، ونَعَقَ[٢] إبليسُ بأوليائه نعقةً فاستجابوا له من كل ناحية، وأقبلوا نحوه مسرعين من كل قاصية، فألبسوا شيعًا، وميزوا قطعًا، وشمتت بهم أهل الأديان السالفة، والمذاهب المخالفة، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، وما ذاك إلا عقوبة أصابت القوم عند تركهم أمر اللَّه، وصدفهم عن الحقِّ، وميلهم إلى الباطل، وإيثارهم أهواءهم، وللَّه عز وجل عقوبات في خلقه عند ترك أمره ومخالفة رسله، فأُشْعِلَت نيران البدع في الدين، وصاروا إلى سبيل المخالفين، فأصابهم ما أصاب مَنْ قبلهم مِنَ الأمم الماضين، وصرنا في أهل العصر الذين وردت فيهم الأخبار ورويت فيهم الآثار»[٣].

□ وقال أيضًا: «فلو أنَّ رجلاً عاقلاً أمعن النظر اليوم في الإسلام وأهله، لَعَلِمَ أنَّ أمورَ الناس تمضي كلها على سنن أهل الكتابين وطريقتهم، وعلى سُنَّة كسرى وقيصر، وعلى ما كانت عليه الجاهلية، فما طبقة من الناس، وما صنف منهم إلا وهم في سائر أمورهم مخالفون لشرائع الإسلام وسُنَّة الرسول ﷺ، مضاهون فيما يفعل أهل الكتابين والجاهلية قبلهم، فإنْ صَرَّفَ بصرَهُ إلى السَّلطنة وأهلها وحاشيتها، ومَنْ لاذ بها من حكامهم وعُمَّالهم، وَجَدَ الأمر كله فيهم بالضد مِمَّا أُمِرُوا به ونُصِّبُوا له في أفعالهم وأحكامهم وزِيِّهم ولباسهم، وكذلك في سائر الناس بعدهم من التُّجَّار والسوقة وأبناء الدنيا وطالبيها من الزُّرَّاع والصُّنَّاع والأُجَراء والفُقَراء والقُرَّاء والعلماء، إلا مَن عصمه اللَّه، ومتى فكَّرت في ذلك وجدت الأمرَ كما أخبرتك في المصائب والأفراح، وفي الزيِّ واللِّباس، والآنية والأبنية والمساكن

(١) التهوك: التهور والوقوع في الشيء بغير مبالاة.
(٢) نعيق الشيطان: هو الصياح والنوح.
(٣) «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة» (١/ ١٦٣).

والخُدَّام والمراكب والولائم والأعراس والمجالس والفرش والمآكل والمشارب، وكل ذلك، فيجري خلاف الكتاب والسُّنَّة بالضد مما أمر به المسلمون، ونُدِبَ إليه المؤمنون، وكذلك مَنْ باع واشترى وملك واقتنى واستأجر وزرع وزارع، فمن طلب السلامة لدينه في وقتنا هذا مع الناس عدمها، ومَنْ أحبَّ أن يلتمس معيشة على حكم الكتاب والسُّنَّة فقدها، وكثر خصماؤه وأعداؤه ومخالفوه ومبغضوه فيها، فاللَّه المستعان، فما أشد تعذُّر السلامة في الدين في هذا الزمان، فطرقات الحق خالية مقفرة موحشة، قد عدم سالكوها، واندفنت محاجها وتهدَّمت صواياها[1] وأعلامها، وفقد أدلاؤها وهُدَاتها، قد وقفت شياطين الإنس والجن على فجاجها وسبلها تتخطَّف الناس عنها، فاللَّه المستعان، فليس يعرف هذا الأمر ويهمه إلاَّ رجلٌ عاقلٌ مُمَيِّزٌ عاقلٌ قد أدَّبه العلم، وشرح اللَّه صدره بالإيمان»[2].

*** وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. وا إسلاماه:**

أنصمتُ وتنطق شفاه نجسة مخمورة من زنادقة على أبواب جهنم؟!..

نخبة فاسدة مفسدة.. زرع الشيطان ونبته تسخر من كتاب اللَّه وترفض تطبيق شرعه؛ لأنه شرع بدوي متخلف كان يصلح للرعاة الحفاة في القرن السابع، لكنه لا يصلح لنا الآن!!!

كفر عفن تروّج له هذه النخبة المارقة.. فديننا عندهم أكذوبة، ونبينا ﷺ عندهم دعيّ وإلهنا وهم وسراب وأساطير الأولين.

❑ نخبة نجسة تحمل للدين كل الازدراء تتحدث عن تخاريف البخاري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأحمد بن حنبل.

---

(١) هي الحجارة التي تُوضَع علامات للشيء.

(٢) المصدر السابق (٢/ ٥٧١ ـ ٥٧٢).

❑ نخبة نجسة لم تركع للّه ركعة ولم تقرأ من القرآن آية إلا هزوًا، ولا تكتفي بذلك بل تريد أن تملك حق تحديد مواصفات الإسلام الذي ينبغي أن نسير عليها حتى لا نوصم بالتخلف أو نتهم بالإرهاب.

❑ نخبة انفجرت في بلادنا منذ أعوام بإدانة مفعمة بالاشمئزاز منا فيقول فاجرهم «أولئك المتخلفين الإرهابيين الذي بلغ من تخلّفهم أنهم يرفضون جلوس المرأة عارية ـ تمامًا ـ أمام الرسّام ليرسمها!!!».

❑ نخبة من الذئاب والخنازير والأفاعي تدافع عمن يقول عن السيدة خديجة رضي الله عنها أنها كانت نصرانية وقد تآمرت مع عمها ورقة بن نوفل النصراني أيضًا في مؤامرة كبرى كان موجزها: كيف يمكن أن يصنعا نبيًّا؟ ويقول الكتاب إنهما قد نجحا.

❑ نخبة نسوا وتناسوا أن اللّه قد عهد إليهم ألا يعبدوا الشيطان فعبدوه.

❑ نخبة منافقة خائنة يستنسخون في كل بلد جيلاً يسخر من دينه، جيلاً مخدوعًا مستنزف الوعي مخترق الذاكرة.

❑ نخبة نتنة عفنة لا تريد إلا الإسلام المسخ المشوّه.. تريد إبعادنا عن منابعنا التي لم ولن تجفّ أبدًا وإن شُبِّه لهم.

❑ نخبة منحرفة في نفق تيهها المظلم أرادت أن تزلزل ديننا وعقيدتنا وهي تتظاهر بالمطالبة بحرية الفكر ولا تقصد سوى حرية الكفر، وبحرية الرأي ولا تقصد إلا حرية الإلحاد.. هم عصابة مارقة وأعني بالعصابة وبالمروق كل مدلوله وكل حرف من حروفه وكل مفهوم من مفاهيمه.

❑ يريدون أن يسرقوا منا الإسلام ويأتونا بإسلام كشف محمد جلال كشك عن تفاصيله حين أطلقوا عليه في أضابيرهم في مؤتمر انعقد هناك اسم «الإسلام العيسوي» إسلام لا جهاد.. إسلام يتراجع فيه المسلمون عن عقد

بيعهم لأنفسهم مع اللَّه بأن لهم الجنة.. إسلام لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر.. إسلام لا يتدخل في السياسة ولا في نظام الحكم ولا في الاقتصاد ولا في مكافحة الظلم.. إسلام يعتبر المباح المشروط كتعدد الزوجات جريمة كبرى في نفس الوقت الذي يعتبر فيه الزنا حرية شخصية تنعقد مؤتمرات السكان من أجل الدفاع عنه.. أما الاعتراض على الشذوذ الجنسي فهو جريمة كبرى تدل على التخلف والهمجية.. إسلام لا دخل له بالإسلام.

فقد جاء عصرٌ للخصيِّين مرتعٌ
فكم أحراراً وشان حلائلا
وقد جاء يوم نطلب العار عنوة
على عتبات الغرب نحدوا العوائلا
نزلنا بساحات الفرنجة سُجّداً
وخُنّا «صلاح الدين» سيفًا ونابلا
وهُنّا وصار الذي مربط نوقنا
وهان على الأيام أن نتخاذلا
ألا إن عزَّ المرء ما عَزّ دينه
وبئس نوالٌ جاء للذلِّ حاملا

□ هذا كيد الحانقين الكارهين لوحي السماء، فأين كيدهم من كيد اللَّه ومكره بهم.

● قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا يزال اللَّه يغرس في هذا الدين غرسًا، يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة»**[1].

(١) حسن: أخرجه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه عن أبي عنبة الخولاني، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٦٩٢) رقم (٧٦٩٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٤٤٢).

ومن هذا الغرس المبارك الذي يؤتى أكله كل حين بإذن ربه.

*** الزنديق فرج فودة وتصدّي دعاة الإسلام له وعلى رأسهم فضيلة الشيخ محمد الغزالي والشيخ الدكتور محمود مزروعة:**

القميء فرج فودة الكاره الكريه.. الكاره للّه ورسوله وشرعه وتاريخ الإسلام كله المستهئ بصحابة رسول اللّه ﷺ.. والذي لقبه الزعيم عادل بالشهيد!! و«الطيور على أشكالها تقع» ويكفي سرد بعض أقواله لنعلم أي مستنقع ووحل تدنّى إليه هذا الزنديق:

*** ادعاؤه تفوّق القانون الوضعي على الشريعة الإسلامية:**

❑ يقول: «أنا أرى أن حجم الانحلال الموجود في المجتمع المصري أقل بكثير اليوم على مدى التاريخ الإسلامي كله.. ورأيي أن القانون الوضعي يحقق صالح المجتمع في قضايا الزنا مثلاً، وأكثر مما ستحققه الشريعة لو طُبِّقت»[1] !!!

❑ ويقول في كتابه «الحقيقة الغائبة»: «والنتيجة ببساطة أن القانون الحالي يعاقب على جرائم يعسر على الشريعة أن تعاقب عليها ويعكس احتياج المجتمع المعاصر بأقدر مما تفعل الشريعة»[2].

---

(١) «حوار حول قضايا إسلامية» لفرج فودة ص(١٧٨ ـ ١٧٩) نقلاً عن كتاب «من قتل فرج فودة» ـ للأستاذ الدكتور عبدالغفار عزيز ص(٣٢) ـ دار الإعلام الدولي، وكتاب «أحكام الردة والمرتدين» للدكتور محمود مزروعة ص(٣١٥ ـ ٣١٦) ـ الطبعة الأولى.

(٢) «الحقيقة الغائبة» لفرج فودة ص(١٢١) نقلاً عن «من قتل فرج فودة» ص(٣٢) و«أحكام الردة والمرتدين» ص(٣١٦).

* ويعلن رفضه لتطبيق الشريعة الإسلامية:

❑ يقول فرج فودة في كتاب «حوارات حول الشريعة لأحمد جودة» ص(١٤ ـ ١٥): [«ببساطة أنا ضد تطبيق الشريعة الإسلامية فوراً أو خطوة خطوة».

❑ ويقول أيضًا في نفس المصدر والصفحات: «وعمومًا هناك قاعدة إسلامية تقول: «ويجوز ارتكاب معصية اتقاء فتنة»، لذلك فأنا أقول إذا كان عدم تطبيق الشريعة معصية فلتكن معصية نسعد بارتكابها اتقاء لما هو أسوأ وهو الفتنة الطائفية.. الدولة الدينية سوف تقود للحكم بالحق الإلهي.. وهو حكم جاهل وكثيراً ما أدى لمظالم ومفاسد تقشعر منها الأبدان وسوف يؤدي إلى نفس الشيء في العصر الحالي..».

❑ ويقول: «ولهذا كله أرفض تطبيق الشريعة وصوتي عال جدًّا في هذا الصدد».

❑ ويقول في كتاب «الطائفية إلى أين»[١]: «إن الدعوة لإقامة دولة دينية في مصر يمثل ردة حضارية شاملة بكل المقاييس».

❑ وفي كتاب «حوار حول قضايا إسلامية» ص(١٧٢) يقول: «إن الإسلام دين وليس دولة، وإن الدولة الإسلامية على مدى التاريخ الإسلامي كله كانت عبئًا على الإسلام وانتقاصًا منه وليس إضافة إليه»][٢].

❑ وفي محاورة معه يقول لمن يحاوره: «وأنا شخصيًّا أرفض تمامًا الدولة الدينية أيًّا كان شكلها، وبالتحديد في المجتمع المصري.. أرفض قيام دولة إسلامية دينية»[٣].

---

(١) «الطائفية إلى أين» لفرج فودة ص(٢٠).

(٢) «أحكام الردة والمرتدين» ص(٣١٤ ـ ٣١٥).

(٣) «من قتل فرج فودة» ص(٣٠).

❑ وهو يرى أن الإسلام دين وليس دولة، ويثبت هذا في كتبه ويدعو المعترضين إلى إثبات العكس بالبيّنة»[١] .

*** إباحته للزنا :**

❑ يقول الدكتور عبدالغفار عزيز رئيس قسم الدعوة بجامعة الأزهر ورئيس ندوة العلماء في كتابه «من قتل فرج فودة؟» عن فرج علي فودة: «والغريب أنه كان يُفتي بجرأة في كثير من قضايا الدين إلى حد إباحته للزنا في الإسلام، ويستدل على ذلك بقول اللّه تعالى: ﴿**وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا**﴾ ويرى أن عملية الإكراه والإجبار هي الممنوعة، أما إن تم ذلك من غير إجبار فلا شيء في ذلك، بل يتجرأ على بعض كبار الصحابة ويدعي أن بعضهم كان يطلب ممن تعجبه الاستمتاع بها لأيام معدودات نظير إعطائها مقابل ذلك»[٢] .

*** يبيح صناعة الخمور وبيعها في مصر، ورفضه للشعائر الإسلامية :**

في محاورة معه نُشرت في كتاب «حوارات حول الشريعة»: «المجتمع الحالي في مصر ـ مثلاً ـ له إطار مدني مسموح فيه ببعض المظاهر المخالفة للدين لاعتبار الإطار المدني ـ الخمور متاحة في مصر ـ ولكن هذا أدّى إلى نتيجة وهي أن أقل دولة في العالم تستهلك الخمور هي مصر.

أن يوجد شيخ للأزهر أهلاً وسهلاً، أما أن يصطبغ المجتمع بالصبغة الدينية فلا».

وفي نفس المحاورة ص(١٩) يقول: «إن إطالة اللحى، وارتداء الملابس

---

(١) «حوار حول قضايا إسلامية» ص(١٧٣) نقلاً عن «من قتل فرج فودة» ص(٣١).

(٢) حوار خاص مسجل معه في ٢٩/٧/٨٩ نقلاً عن «من قتل فرج فودة» ص(٢٨).

الباكستانية بحجة أنها إسلامية، ومطالبة البعض بتسييد الحجاب، واستعمال السواك بدلاً من معجون الأسنان نوع من المرض الذي يجب استئصاله»!!.

❑ ويقول في كتابه «الطائفية إلى أين»: «ومن الطريف أن أذكر أني في بحث عن التطرف الديني قد انتقدت بعض مظاهر التراجع الإعلامي أمام المدّ الديني، وأعطيت مثالاً على ذلك بالحرص على إذاعة أذان الصلاة كاملاً مهما كانت البرامج المذاعة، بعد أن كان الأمر يقتصر فيما سبق على التنبيه إلى موعد الأذان، ثم تطوّر الأمر بعد ذلك إلى إذاعة أحاديث نبوية بعد الأذان، وأنه ليس ببعيد ذلك اليوم الذي نسمع فيه شرحًا للحديث النبوي بعد إلقائه!!»[1].

❑ ويعترض على تعطيل الأعمال في المصالح والوزارات الحكومية لقضاء الصلاة جماعة»[2].

❑ ويعترض أيضًا على اهتمام التوجيه المعنوي للقوات المسلحة بالناحية الدينية، وإصدار القوات المسلحة لمجلة دينية في ص(٣٧، ٣٨) من كتابه «النذير».

❑ ويحرّض الدولة على ضباط القوات المسلّحة المتزوجين من المحجبات وفي هذا يقول عدوّ الحجاب: «إن هناك مؤشرًا يصعب تجاهله، وهو انتشار ظاهرة الحجاب داخل أسر أفراد القوات المسلحة، وهو أمر ملحوظ في نوادي هذه القوات والحجاب في حد ذاته لا يمثل خطرًا، لكن الخطر أن يكون مؤشرًا لحجاب العقل، وللانسياق في السلفية التي تقود أحيانًا إلى مواجهة مع الشرعية، وليس مقصودًا بالطبع التصدي لمثل هذه الظاهرة، فهو أمر غير

(١) «الطائفية إلى أين» لفرج فودة ص(٣٦).
(٢) «النذير» لفرج فودة ص(٣٧ ـ ٣٨).

وارد، لكننا نوردها لمجرد رصد ظاهرة قد تكون لها دلالة»[١] .

* تطاول الكلب على سادات الصحابة:

زعم فرج فودة في المناظرة التي انعقدت في معرض الكتاب الدولي بالقاهرة في يوم الأربعاء الثامن من يناير عام ١٩٩٢م، والتي كانت بعنوان «مصر بين الدولة الدينية والدولة المدنية». والذي كان هو والدكتور محمد أحمد خلف اللَّه يمثلان الجانب العلماني فيها، وكان فضيلة الشيخ محمد الغزالي والمستشار مأمون الهضيبي والدكتور محمد عمارة يمثلون فيها الجانب الإسلامي - زعم في هذه المناظرة أن واحد في المائة فقط من التاريخ الإسلامي يناصر الدولة الدينية، وأن ٩٩٪ يناصر الدولة العلمانية، وهذا هو ما يسميه «حجة التاريخ» التي كان لا يملّ من تكرارها، والتي كان يبغي من وراء تكرارها النيل من الشريعة والطعن في الإسلام.

وهذه النسبة الضئيلة التي يرى أنها تناصر الدولة الدينية في تاريخ المسلمين تتمثل في عهد عمر بن الخطاب، عشرة سنوات ونصف، وعمر بن عبدالعزيز بستتان وثلاثة أشهر، والمهتدي باللَّه العباسي أحد عشر شهرًا، فيكون المجموع ثمانية أشهر وثلاث عشرة سنة أي واحد في المائة تقريبًا.

وفيما عدا هذه الفترة لا يرى في تاريخ الإسلام إلاّ كتابًا أسود أحاطت به الظلمة من كل جانب، وقد ألف كتابه الحقيقة الغائبة ليكون بمثابة قراءة جديدة في عهود الراشدين والأمويين والعباسيين ينتصر بها لنظرية الـ ٩٩٪، ويؤكد بها صدق ما يقول من دعوى حكم الدولة الدينية بنسبة ١٪ فقط من عمر التاريخ الإسلامي أي من بعد وفاة النبي ﷺ إلى وقتنا الحالي»[٢] .

---

(١) «النذير» ص(٣٨).

(٢) «من قتل فرج فودة» ص(٤٣ - ٤٤).

يعلن هذا القزم تعاطفه مع المرتدين الذين حاربهم أبو بكر وتخطيئه لأبي بكر في قتاله لمانعي الزكاة؛ لأنه ـ كما ذكر ـ فتح الذريعة إلى القتال بين أهل القبلة، وأن موقفه هذا يعد البداية الحقيقية لقتال المسلمين للمسلمين[١] .

ويفتري على ذي النورين عثمان رضي الله عنه فيقول عن سياسة الحكم في أيام الراشدين: «لا قاعدة إذن ولا نظام للرقابة، والأمر كله موكول لضمير الحاكم، إنْ عدل وزهد كان عمر، وإن لم يعدل وتمسّك بالحكم كان عثمان!!

لقد أعلن عثمان أن نظام الحكم الإسلامي يستند إلى القواعد التالية:

١ ـ خلافة مؤبدة.

٢ ـ لا مراجعة للحاكم ولا حساب ولا عقاب إن أخطأ!!!

٣ ـ لا يجوز للرعية أن تنتزع البيعة منه أو تعزله. ومجرّد مبايعته له مرة واحدة تعتبر مبايعة أبدية، لا يجوز لأصحابها سحبها لو رجعوا عنها أو طالبوا المبايع بالاعتزال؛ ولأن أحدًا لا يقرّ ولا يتصوّر أن تكون هذه مبادئ الحكم في الإسلام قتله المسلمون»[٢] .

كذا يتطاول هذا القميء على ابن عباس، ويتهمه بالاستيلاء على أموال المسلمين بالباطل، وتهكمه عليه، وعلى من يحاول أن يكحل عينيه تأسيًا بابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: «لو قرأ ما قرأناه عنه ما تأسّى به وما اكتحل مثله»، ويمكن مراجعة ذلك، وتطاوله على العشرة المبشرين بالجنة في كتابه «الحقيقة الغائبة» في صفحات ٥٤ إلى ٦٠[٣] .

---

(١) «الحقيقة الغائبة» ص(٤٢ ـ ٤٤)، نقلاً عن «من قتل فرج فودة؟» ص(٤٤).

(٢) «الحقيقة الغائبة» ص(٢٨، ٢٩).

(٣) انظر «من قتل فرج فودة؟» ص(٤٥، ٤٦).

*** ويقول إن الجهاد في سبيل الأرض وحدها، ويطلق اسم الشهيد على غير المسلم الذي يُقتل دفاعًا عن الأرض:**

يقول هذا الأفّاك الأثيم: «إنني عندما أدافع إنما أدافع عن مصر، وإنما أرفض أن يُضام مصري وأن يكون لمواطن حق الشهادة لأنه مصري مسلم، ولا يكون لمواطن آخر هذا الحق لأنه ذمي، وأرفض أيضًا أن يكون حق الحكم لفريق دون فريق، أو أن يكون حق التشريع لفريق دون فريق، أو أن يكون حق ولاية القضاء في أي أمر لفريق دون فريق، أو أن يكون حق الدفاع عن الأرض ـ وأكرر الأرض ولا شيء غير الأرض ـ لفريق دون فريق»[١].

✍ قاتلك اللَّه أتطلق الشهادة أعلى مراتب أهل الجنة على غير المسلم، وهذ إنكار للمعلوم من الدين بالضرورة.. ما أشد جرأتك في التطاول على دين اللَّه!

*** موقفه من جون جارانج الصليبي زعيم المتمردين في جنوب السودان:**

قال فرج فودة عن الصليبي جون جارانج: «قيادات الجنوب وعلى رأسهم جارانج التي تُعارض انتماء السودان العربي والإسلامي تستحق وسامًا ويجب مساندتها في سعيها»[٢].

📖 ويقول في حوار تم بينه وبين محرّر جريدة السودان الحرّ، والذي نُشِر في العدد السادس فبراير سنة ١٩٩٢: «تجربة جنوب السودان خاصة فترة ١٩٧٢ ـ ١٩٨٣ ـ كانت أخصب تجربة لكنها ضُربت لسببيْن هما: أولاً: إعادة تقسيم الجنوب، وثانيًا: تطبيق الشريعة، وعندما يدخل الدين في السياسة فإن ذلك يمزّق أي وطن ويُخرّب أي وطن وبالتحديد السودان الذي

(١) «قبل السقوط» لفرج فودة ص(٨١) نقلاً عن «من قتل فرج فودة؟» ص(٦٩).
(٢) «من قتل فرج فودة؟» ص(٧٧).

هو أكثر حساسية».

*** نسفه لعقيدة الولاء والبراء:**

❑ يقول هذا المارق في شريط سُجِّل له في ١٩٨٩/٧/٢٩م: «خليق بمثلي أن يشعر بالأسى والأسف حين يرتفع صوت الدعاة معلنًا، أن الهندي المسلم أقرب إلى المصري المسلم من القبطي المصري ـ لا واللَّه لن يكون ولن يكون؟ فالمصري لدينا، وأنا أقصد المصريين جميعًا، لا يتميّز إلا بحبه لوطنه وولائه لأرضه، وغير ذلك غرض في النفوس، ومرض في الصدور، وسوء في القصد، وسواد في النظرة، وفساد في الوطنية وإثم وطني عظيم»[1].

*** الشيخ الغزالي وفرج فودة:**

❑ قال الشيخ الغزالي في صحيفة الوفد الصادرة في يوم الخميس ٢٥ يونيو سنة ١٩٩٢م: «فرج فودة بيقين كان خصمًا للإسلام ـ وهو لم يكن يداري هذا.. هو كان صريحًا في خصومته للإسلام كشريعة ونظام ومعاملات وشئون سياسية واقتصادية، وكان يهدد المجتمع بأفكار خبيثة مثل: إباحة زواج المتعة، وإباحة الرضاعة بين الكبار، وكلا هذين الرأيين رفضهما أئمة الفقه الأربعة في ثقافتنا الإسلامية».. إنه جعل التدين في الصحوة الإسلامية وليد انحرافات جنسية، وضغوط الكبت التي تحدث عنهما فرويد..» اهـ.

❑ يقول هذا المجرم فرج فودة: «إن التيار الإسلامي كله خداع وكذب وتلفيق وتزوير للحقائق تدفع للاعتقاد بأنه وراء كل خسيسة ونقيصة في العالم. وحتى لا يكون الوصف قاصراً على الزمن الحاضر فإن تاريخ

---

(١) «من قتل فرج فودة؟» ص(٩١).

المسلمين كله ليس إلا امتدادًا للقهر والاستبداد». وقد قال ذلك ردًّا على الأستاذ فهمي هويدي الذي قال في إحدى مقالاته: «إن من حكام المسلمين من كانوا أهل حكمة وسداد وعلم وحزم»[١].

❑ يقول الشيخ محمد الغزالي في حديثه عن فرج فودة: «كيف أُقنع رجلاً بأن الإسلام دولة وهو لا يؤمن بأنه دين. إن المقتنع بالوحي يكفي أن أقول له: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ ليقتنع بأن القرآن نزل ليحكم.

المشكلة أن يقول لك امرؤ أنا مسلم ولكني أبيح الخمر، وأنا أعرف منك بالإسلام..

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

ثم يجيء بعدئذ من يصف مستبيح الخمر بأنه «المفكر الإسلامي الكبير ما هذا الهذر؟»[٢].

وقد قال الشيخ محمد الغزالي في نفس المقال: «أما رأيي في الدكتور فرج فودة فهو صورة عربية للعقيد جون جارانج الزنجي الذي يحارب الإسلام في السودان، ويريد وضع دستور علماني لشماله وجنوبه معًا..

بقي ما قاله في آخر مقال نشرته له مجلة أكتوبر حيث زعم أن التدين المغرق يقوم على هوس جنسي، وأن المتدينين حاولوا تحريم حشو الباذنجان والفلفل؛ لأن هذا الحشو يثير الغريزة، ويذكّر بمسالك جنسية!!! أرأيت هذا الهبوط العقلي؟ أسمع امرؤ طول حياته بهذا الإسفاف؟ تلك هي الطبيعة العلمية لفرج فودة!! وقد ملأ مقاله بأفكار عن الدين والمتدينين لا تصدر إلا

---

(١) «من قتل فرج فودة» ص(١٠٥).

(٢) جريدة الشعب ٣٠/ ٦/ ٩٢ بعنوان «هذا ديننا».

عن ملتاث الفطرة مريض القلب».

فرج فودة وفئته العلمانية المقززة فئة بلا جذور وبلا فكر وبلا لون، وإن كان لها رائحة فهي رائحة نتنة لا تنبت إلا بترًا ونكدًا.

ولقد حاور الشيخ محمد متولي الشعراوي فرج فودة في جريدة اللواء الإسلامي، وبعد أن استمع إلى كثير من آرائه وأفكاره قال: «إذا كان هذا هو فكر الدكتور فرج فودة واعتقاده، فهو بذلك يعد خارجًا عن الإسلام»[1].

❑ يقول الدكتور عبدالغفار عزيز رئيس قسم الدعوة بجامعة الأزهر و«رئيس ندوة العلماء» عن فرج فودة:

«تفرّغ تفرّغًا كاملاً لتأليف الكتب وكتابة المقالات التي تركّز على موضوع الشريعة الإسلامية والتي قلنا إنها تخصصت في التعرّض لهذه الشريعة، وتشويه صورة الإسلام ورموزه بما لا يحتمله عقل ولا نقل، ووصل بكتاباته إلى حد تأويل آيات القرآن الكريم وإنكار الكثير من أحاديث النبي ﷺ الصحيحة، والتأكيد على قصر العمل بكثير من أحكام الشريعة على عصر النبي ﷺ، وعلى أن الأوامر التي كانت تصدر من خلال القرآن أو السنة كانت أوامر شخصية لا يطالب بها إلا من نزلت في شأنهم أو قيلت في حقهم»[2].

❑ وفي البيان الأول الصادر عن «ندوة علماء الأزهر» والذي نشرته جريدة النور في ٢٨ رمضان سنة ١٤١٢هـ قال الأستاذ الدكتور محمود حماية رئيس قسم العقيدة بكلية أصول الدين فرع أسيوط:

«أما السقطة الكبرى للدكتور فودة والجريمة التي لا تغتفر بكل المقاييس

(١) «من قتل فرج فودة» ص(١٣٣).

(٢) «من قتل فرج فودة» ص(٢٧ ـ ٢٨)، حوار خاص مع فرج فودة تم تسجيله في ٨٩/٧/٢٩.

فهو هجومه السافر اللئيم على خيار صحابة الرسول ﷺ، لقد أعلن الحرب وتطاول على أبي بكر الصديق، رضي الله عنه وتطاول على عثمان بن عفان رضي الله عنه واتهمه بالظلم وعدم العدل، وتطاول على الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنهما واتهمه بأنه لص سارق!! وتطاول على العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم الذين كان يجلّهم النبي ﷺ فأعلنها حربًا شعواء على الزبير وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد اللّه وعبدالرحمن بن عوف، وإني أعتذر للقارئ الكريم عن نقل كلام هذا الكاتب وإجرامه في حق الصحابة الكرام تقديراً لمكانتهم وحفاظًا على شخصيتهم وحتى لا نحقق رغبة هذا المارق في نقل الأباطيل وإشاعتها عن أكرم الرجال وأطهر الأصحاب، إنهم أصحاب النبي ﷺ الذين لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق معلوم النفاق.

أما الرجل ويشهد اللّه على ما نقول: فهو يكتب بلا حياء ويسطو على محاريب العلماء ولا سند له من دين أو تاريخ أو علم أو خبرة أو أمانة.. وما أشبهه بذلك الذي قاله فيه شاعر قديم:

كناطـــح صخـــرة يومًا ليوهنـهـا فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل»[1].

❑ يقول القزم فرج فودة نصًّا في كتابه «الحقيقة الغائبة» ص(٦٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «هل الاستيلاء على أموال المسلمين بالباطل حلال على مسلم لكونه عاصر الرسول أو الخلفاء أو الصحابة، حرام علينا لأننا جئنا في عصر غير العصر وزمان غير الزمان..» اهـ.

*** وقبل أن نسطر شهادة الدكتور محمود مزروعة نسجل ما سوّدته يد المجرم الأفاك الأثيم فرج فودة إفكًا وزورًا:**

يقول في آخر مقال له في مجلة أكتوبر تحت عنوان «اللّهم لا حسد»

(١) «من قتل فرج فودة» ص(١٦٦، ١٦٧، ١٦٨).

قبل اغتياله بيومين: «الجماعات الظلامية لها من المشكلة الجنسية نصيب، صحيح أنها ظاهرة احتجاج سياسي لها أسبابها الاقتصادية والاجتماعية، ولها أيضًا غطاؤها الديني نتيجة تفسيرات صبيانية، إلا أن الجنس يلعب دورًا مؤثرًا في التفكير والسلوك..

في سمالوط منذ خمس سنوات حرّمت الجماعات أكل «الكوسة» والباذنجان.. حجة الجماعة أن (الكوسة) يتم حشوها وكذلك الباذنجان.. وفي الحشو إيحاء جنسي، هكذا زعم الصبيان.

إذن فالبائع يستحق الجلد، والمشترية تستحق أن يُقام عليها الحد. انتهت القصة حين لم يسمع إليهم أحد.

الحقَ أقول للقارئ إنني شعرت بتعاطف شديد معهم، البطالة وأزمة الإسكان وارتفاع المهور وغريزة الجنس لا ترحم، إذا اغتصب أعدموه، إذا هتك العرض طالبوا بإعدامه، إذا عالج مشكلته بنفسه أفتوا بحرمة ما فعل، فلتختف المرأة من أمامه، وأد البنات حرام، إذن فليكن النقاب هو الحل، ولتدفع المرأة الثمن، بيد أن الغريزة باقية، وهي غريزة لا ترحم، والكوسة والباذنجان لا بواكي لهما، إذن فلتدفع الكوسة الثمن، وليدفع الباذنجان الثمن، ولن يبكي على الكوسة أحد».

ويقول: «منذ أوائل القرن ونحن نلعب كرة القدم.. كانت عيوننا تتابع الكرة ولا أكثر، وظهرت الجماعات الظلامية وغريزة الجنس لا ترحم، تابعنا الكرة وتابعوا أفخاذ اللاعبين، كنا نهتف هذا لاعب فذّ، وكانوا يهتفون هذا لاعب فخذ، كما نهتف باللاعب اقذف الكرة في المرمى، أصبحوا يهتفون باللاعب: غطِّ فخذك أيها الداعر، اكتشفنا فجأة أن فخذ اللاعب عورة وفتنة، الأحاديث الدينية الصحيحة تنفي ذلك، كتبنا هذا ووثقناه ولم يستمع إلينا أحد انصرفت أذهانهم إلى «فتنة الأمرد»، الفتى الأمرد هو الفتى صغير

السن، أمامي كتاب من كتب زماننا السعيد، يقول الكاتب: إن فتنة الفتى الأمرد تعادل فتنة سبعين امرأة، في الملعب يوجد ٢٢ لاعبًا، فتنة كل منهم تعادل سبعين، أكثر من ألف وخمسمائة فاتنة تلهب خيال صبية الجماعات، ناهيك عن الحكم ومراقب الخط، أما الاحتياطي فيا ألطاف اللَّه، فتنة فتنة، مجتمع كافر لا يرحم، ألف وخمسمائة فاتنة في ملعب صغير، أزمة إسكان، وبطالة وارتفاع مهور، كتب وألم، ومعاناه بغير حد.

بعض كبار الفقهاء أصابهم المد، أحدهم أفتى ألا يجلس رجل مكان امرأة في الأتوبيس إلا بعد مرور دقائق عشر، الحكمة أن تختفي حرارة الجسد، آخر أفتى بكراهة تشريح الطبيبة لجثة الرجل، ثالث أفتى بحرمة أن تخلع الفتاة ملابسها أمام كلب ذكر، رابع أفتى بحرمة الموسيقى إذا اهتزّ الجسد، جسد.. جسد.. جسد.

من يُفتي معنا بحرمة هذا البلد، من يحترم معنا والدًا وما ولد، من يدرك معنا أن الإنسان خُلِق في كبد، وأن الحرمات كبد، وأن الكبت كمد، أيحسب هؤلاء أن كرامة الإنسان قد ضاعت سدى، أيحسب هؤلاء أن لا يقدر عليهم أحد»[1].

* تصدي الدكتور محمود مزروعة للعلمانيين وشهادته الجرئية في قضية القمئ فرج فودة:

تصدّى علماء الأزهر وعلى رأسهم «ندوة علماء الأزهر» لمقال فرج فودة، وطلب العلماء من الأستاذ الدكتور محمود حماية أمين عام ندوة العلماء كتابة رد على هذا السفيه، كتب الشيخ الجليل.

---

(١) مقتطفات من مقال «اللّهم لا حسد» آخر ما سطرّته يد الآفّاك فرج فودة قبل قلته بيومين نقلاً عن كتاب «من قتل فرج فودة؟» ص(١٩٤ ـ ١٩٧).

وتصدى الدكتور محمود مزروعة للعلمانيين ولفرج فودة فكتب قائلاً عن فرج فودة: «كان أسوأ الأمثلة لهؤلاء الذين أعلنوا الحرب ضد الإسلام والمسلمين، فقد كان عمله الوحيد الذي يصبح ويمسي عليه هو الكتابة ضد الإسلام عقائد وشرائع وأحكامًا ورموزًا، ولم ينج من بذاءته وافتراءاته شيء، طعن في القرآن حتى أعلن أن الالتزام بالآيات الصريحة يؤدي إلى الظلم والفوضى والفساد، وأن الخروج عليها ومخالفتها أمر ضروري، وطعن في السنة حتى زعم أنها لا تصلح لشيء، وأن الرسول ﷺ لم يثبت عنه سوى ستة عشر حديثًا فقط، وكل كتب السنّة بما فيها صحيح البخاري ومسلم مزوّرة مكذوبة لا يصح منها شيء، وطعن في الشريعة الإسلامية حتى زعم أن القانون الوضعي أصلح من الشريعة الإسلامية، وأن تطبيق الشريعة لا يمكن أن يحدث طالما بقي فيه عرق ينبض، وطعن في الصحابة حتى زعم أن أبا بكر رضي الله عنه من وضّاعي الحديث الذين لا دين لهم ولا خُلُق، وأن عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما قد سرق أموال المسلمين من بيت المال وفرّ بها إلى ديار أخواله، كل هذا وغيره كان عدو الله هذا يتغنّى به ليل نهار، وما يمرّ صباح إلا وله مقال أو حديث أو محاضرة في الافتراء على الإسلام...».

على أنّ عدو الله هذا ليس بدعًا من طوائف الشيوعيين والعلمانيين الملاحدة، بل هو مثال للآلاف منهم الذين نذروا حياتهم، ووقفوا جهودهم لحرب الإسلام والمسلمين والتطاول على الله ورسوله ورموز دينه، والسخرية بكل هذا أو ذاك، وإن كان عدو الله الذي ذهب كان أكثرهم توقّحًا وتبجحًا وفجورًا، لذلك كان زعيمهم، وكان صاحب لوائهم، وقائدهم إلى حرب الله ورسوله والمسلمين، وتكوّم الشيوخ خلف مكاتبهم يملؤهم الخوف على المناصب والكراسي، لا يعنيهم سوى ذلك شيء»[1].

(١) «أحكام الردة والمرتدين» للدكتور محمود مزروعة ص(٢٠ ـ ٢٢).

* الشيخ الغزالي يجهر بكلمة الحق في قضية فرج فودة حين صمت أكثر الناس:

❑ قال الدكتور محمد مزروعة رئيس قسم العقيدة بجامعة الأزهر عن الشهادة في قضية فرج فودة: «يعجب الإنسان وتأخذه الحيرة من أناس يُعَدّون من العلماء والمفكرين، بل من رءوس هؤلاء وأولئك، يدعون إلى أداء الشهادة فيمتنعون، وينهاهم ربهم عن كتمانها فيعصون ربهم ويكتمون، وهم يعلمون جيدًا أن القران بنصه القاطع الذي لا يقبل تأويلاً قد فرض على المسلم أداء الشهادة، وحرّم عليه كتمانها، وحكم على كاتم الشهادة بأنه آثم القلب، خبيث الضمير، ساقط المروءة، خاذل الحق، معين للباطل، شيطان أخرس.

وحين نتذاكر هذه المواقف المسيئة المحيّرة لطائفة من الذين يعتبرهم الناس علماء ومفكرين، يكتمون الحق، ويخشون الناس كخشية اللَّه أو أشد خشية، حين نتذاكر ذلك، لا ينبغي أن نغفل عن أمثلة مضيئة لامعة نيّرة، من علمائنا العاملين لا يخشون في اللَّه لومة لائم، من أمثال العالم الفاضل إمام الدعاة في عصرنا المجاهد بقلمه ولسانه صاحب الفضيلة الشيخ محمد الغزالي.

هذا الشيخ الفاضل العالم العامل ـ نحسبه كذلك، واللَّه حسيبه، ولا نزكي على اللَّه أحدًا ـ الذي ضرب المثل الرائع لهؤلاء المتقاعسين الكاتمين للشهادة، هذا العالم الفاضل سارع إلى ساحة القضاء ملبيًا نداء الحق، ليؤدي الشهادة في واحدة من أكثر القضايا المعاصرة حساسية، ذهب إلى ساحة القضاء رغم كبر سنه ـ بارك اللَّه في عمره ـ، ورغم مرضه ـ شفاه اللَّه ومتّعه بالصحة ـ، ورغم كثرة شواغله بالدعوة إلى اللَّه ـ أعانه اللَّه وسدّده ـ، ذهب الشيخ الفاضل وصدع بالحق، وقام للَّه، وشهد بالقسط، ووضع الحق في نصابه، وأعلن حكم اللَّه ـ سبحانه ـ في أعداء اللَّه المرتدين، ولم يثنه عن

الجهر بالحق، عصابات العلمانيين الملاحدة الذين ملأوا الدنيا ضجيجًا ونواحًا على قائدهم ورائدهم في مسيرة الباطل، وطريق الكفر والردّة، وكثر النواح والنباح عقب شهادة الشيخ الجليل، لكن الشيخ لم يعر هؤلاء ذرة من اهتمام، وكان من توجيهاته التي أفدت أنا منها ألا نقيم للنابحين وزنًا، ولا نعيرهم اهتمامًا، فإن الرد عليهم يعطيهم قيمة ليست لهم، ويمنحهم شرفًا لا يستحقونه.

❑ وهكذا ارتفع الشيخ الجليل فوق كاتمي الشهادة ممن يُحسبون على العلماء. ثم ارتفع فوق هؤلاء الذين ملأوا الدنيا نباحًا وتجريحًا من العلمانيين الملاحدة.

ومن قبل ذلك كله ومن بعده نحمده اللَّه تعالى ونشكره أن هيّأ للأمة أمثال الشيخ من العلماء العاملين الذين يؤاسون الأمة ويخفّفون من مصيبتها في العلماء الكاتمين»[1].

ـ ولما سُئل الشيخ الغزالي مِن قِبَل الدفاع بمحكمة أمن الدولة العليا بمجمع المحاكم بمدينة نصر عن حكم مَنْ يجاهر برفض تطبيق الشريعة الإسلامية جحودًا أو استهزاء؟[2].

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «الشريعة الإسلامية كانت تحكم العالم العربي والإسلامي كله حتى دخل الاستعمار العالمي الصليبي ـ وكرهه للإسلام واضح ـ فألغى أحكام الشريعة الإسلامية وأنواع القصاص وأنواع التعاذير وأنواع الحدود، وحكم الناس بالهوى فيما يشاءون. وقد صحب الاستعمار العسكري استعمار ثقافي مهمته هي جعل الناس يطمئنون إلى ضياع شريعتهم وإلى تعطيل أحكام اللَّه دون أن يتبرّموا. وأنا كأي مسلم أقرأ قوله تعالى:

(١) «أحكام الردة والمرتدين» للدكتور محمود مزروعة ص(٢٣٨ ـ ٢٣٩).
(٢) كحال فرج فودة.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا..﴾ أجد الآية مقلوبة في المجتمع، وأجد القانون يقول: «إذا اتفق شخصان بإرادة حرة على مواقعة هذه الجريمة فلا جريمة وقد تُسمَّى حبًّا وتُسمّى عشقًا، ولكن نص الشريعة عُطّل وروح الشريعة أُزهقت.. فكيف يقبل مسلم هذا الكلام أو يستريح لهذا الوضع، وبالتالي كيف يسخرون مني إذا قلت يجب إقامة الشريعة؟ وأعرف أناسًا كثيرين يرون تعطيل الشريعة ويجادلون في صلاحيتها ويثبتون حكم الإعدام الذي أصدرته الحكومات الأجنبية أو الاستعمار العالمي على هذه الشريعة التي شرّفنا اللَّه بها. إنهم يعدمونها إعدامًا، ويريدون تثبيت هذا الإعدام، ويجادلوننا باستهزاء أحيانًا في صلاحية الشريعة للتنفيذ. هذا كما قلت ليس بمؤمن إطلاقًا برفض تطبيق الشريعة الإسلامية جحدًا أو استهزاء، بل كما قال اللَّه تعالى في وصف هؤلاء الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. ويُعرف الإنسان المنافق من رفض حكم اللَّه.

وقد قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. إلى آخر الآيات في نفس الموضوع.

❑ سؤال من الدفاع: ما حكم من يدعوا إلى استبدال حكم اللَّه بشريعة وضعية تحل الحرام وتحرّم الحلال؟

❑ قال الشيخ: ليس هذا بمسلم يقينًا. يقول اللَّه تعالى في هؤلاء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن

﴿يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً﴾.

سؤال: هل يعتبر هذا العمل عملاً كفريًّا يُخرج صاحبه عن الملة؟

قال الشيخ: نعم، فمن رفض الحكم بما أنزل اللَّه جحدًا أو استهزاء هو بلا شك يخرج من الملة.

سؤال من الدفاع: هل يصح لإنسان النطق بالشهادتين أو الادعاء بالإسلام مع المجاهرة برفض تطبيق الشريعة الإسلامية، والدعوى إلى استبدال شرع اللَّه بشرائع الطواغيت من البشر؟

أجاب الشيخ: أولاً يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ بل إن بعض الناس كان يحلف أنه مؤمن ولكن ميله إلى الكفار وجبنه عن مقاتلتهم والدفاع عن الإسلام نفى الدين عنه وقد قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

ومعنى الآية أن قولهم مؤمنون مع تكذيب أعمالهم لهم لا يُقبل، والإيمان باتفاق العلماء قول وعقيدة وعمل.

ثم ألفت النظر إلى أن ديننا اسمه الإسلام.. أي الخضوع للَّه، ومعنى ذلك أن إبليس كان يعلم أن اللَّه حق ويجادله.. فرفض الأمر والنهي يُخرج الإنسان عن الملّة.

سؤال من الدفاع: هل يُعتبر من يأتي هذه الأفعال الكفرية والأقوال الكفرية مبدّلاً لدينه مفارقًا للجماعة؟

أجاب الشيخ: نعم يُعتبر مرتدًّا عن الإسلام»[1].

(١) «أحكام الردة والمرتدين» ص(٢٩٣ ـ ٢٩٦).

*** شهادة الأستاذ الدكتور محمود مزروعة أستاذ العقيدة والأديان بجامعة الأزهر في يوم السبت ٣/٧/١٩٩٣م:**

❑ وجاء في هذه الشهادة القيمّة:

د. مندور: هل قرأت شيئًا من كتب المقتول فرج فودة؟

د. مزروعة: في الحقيقة أنا لم أسمع بفرج فودة إلا في عام، ربما ثمانية وثمانين، أو تسعة وثمانين. وقعت في يدي صحيفة «الأهالي» مرة عَرَضًا، فوجدت بها مقالاً بعنوان: «وختانه مسك» مرة ثانية عنوان المقال: وختانة مسك. حقيقة أنا ذهلت، وقتذاك ذهلت..

د. مندور: عنوان المقال: «وختانه» بالنون؟

د. مزروعة: نعم، وختانه مسك، أنا وقتذاك ذهلت من العنوان، إن العنوان جزء آية كريمة، حرِّف شيء من القرآن، ووضع عنوانًا على مقال مسفٍّ جدًّا، شدَّني هذا إلى أن اسأل عن الكاتب، وأن أتابع ما يكتب، بعد ذلك قرأت له بعض الكتب وبعض المقالات. وكنت أتابع المقالات والكتب التي يصدرها، وكنا في ندوة العلماء نرد أحيانًا على ما يكتب هذا وأمثاله، فحينًا كان ينشر لنا، وأحيانًا لا ينشر، وهكذا، وأنا في وقتها ـ حين قرأت ذلك العنوان ـ ومعي زميل آخر فكرنا أن نرفع قضيته ضد هذا الذي حرف كتاب اللَّه وأخذ يسخر بهذه الصورة، يحرف بعض آية، ثم يضعه عنوانًا على مقال مسف بطريقة مثيرة.

لكن ما قرأته لفرج فودة بعد ذلك جعل هذا الذي كان أمرًا يسيرًا جدًّا؛ لأني قرأت له كتابًا أسماه «الحقيقة الغائبة»، وكتبًا كثيرة، لكن أسوأها جميعها هو هذا الكتاب، وأنا أتيت به معي راجيًا من الهيئة الموقرة أن تقبله ضمن أوراق القضية، وأنا وضعت على هوامشه علامات..

رئيس المحكمة: أنا لا آخذ منك شيئًا، قدمه لمحاميك أو هيئة الدفاع وهي تقدمه للمحكمة.

د. مندور: شكرًا لك يا دكتور على هذا الجهد المشكور، ونرجو أن تكون قد وضعت علامات على بعض الموضوعات المفيدة في الموضوع.

د. مزروعة: نعم أنا وضعت إشارات عند أكثر الموضوعات أهمية.

د. مزروعة: كان المرتد فرج فودة يقصد بعبارة: «الحقيقة الغائبة» يقصد بذلك حقيقة النبي والصحابة والإسلام، وقال: إنها غائبة نظرًا لأننا ـ كما صرح في مقدمة الكتاب ـ أننا تعودنا أن نقرأ الجانب المضيء لرسول اللَّه ﷺ وصحابته ﷺ والإسلام، وقد ركز بالذات على حكم الراشدين ﷺ ركز على حكم الخلفاء الراشدين، وأنا حين قرأت هذا الكتاب كتبت عن مؤلفه إنه عدو الإسلام، أو العدو الأول للإسلام، فهو هاجم الإسلام من جانبين:

هاجم نصوص القرآن العظيم القطعية الصريحة، وهاجم نصوص السُّنَّة الصحيحة، وهو عندما تكلم عن السُّنَّة ركز على لفظة «الصحيحة الثابتة» أي أنه يريد أن يبين لنا أنه متعمد لهذا المعنى عارف إياه، وليس هجومه عليها لجهل أو عدم معرفة. ركز على أن النصوص القرآنية القطعية والأحاديث الثابتة الصحيحة لا يجوز الالتزام بها، وإنما يجب الخروج عليها إذا كان في الخروج عليها مصلحة، وزعم أن القرآن والسُّنَّة لم يصلحا للتطبيق حتى لعشر سنوات بعد وفاة الرسول ﷺ، بدليل ـ كما يزعم ـ أن عمر بن الخطاب ﷺ عطل نصوص القرآن ولم يأخذ بها، وعطل السُّنَّة النبوية، وخالف رسول اللَّه ﷺ، وهذا الجانب الأول من جوانب حربه للإسلام والمسلمين في هذا الكتاب وفي غيره أيضًا..

لست أدري إن كنت أذكر دليلاً من أدلته ـ فيما يزعم ـ على عدم

صلاحية النص وأرد عليه أم لا؟

هل تسمحون لنا؟

د. مندور: تريد الكتاب لتقرأ منه هذا الدليل؟

د. مزروعة: لا، لا، أنا أعرف ما كتب في كتبه وأعيه جيدًا.

د. مندور: تفضل أكمل.

د. مزروعة: هو يزعم أن عمر بن الخطاب ﷺ قد عطل نصًّا قاطعًا في آية الصدقات بأنه لم يعط «المؤلفة قلوبهم» من الصدقات، والمسألة لا تحتاج إلى شرح طويل؛ لأنها مشهورة حتى عند العوام. يقول إن عمر بن الخطاب ﷺ جاءه جماعة من الناس..

أمين الجلسة ـ مستفسرًا ـ: المؤلفة ماذا؟

الشاهد مكررًا: يقول إن عمر بن الخطاب لم يعط المؤلفة قلوبهم سهمهم من الصدقات، فالآية الكريمة تقول: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٦٠].

ويدعي أيضًا أن عمر بن الخطاب لم يقم الحدّ على شارب الخمر الذي كان بين جند المسلمين في إحدى الغزوات.. أنا أردت هنا أن أوضح هذين الزَّعْمين فقط؛ لأن الكثيرين يقعون فيهما ويضلون في فهمهما.

عمر بن الخطاب ﷺ لم يعط المؤلفة قلوبهم، لأنهم لم يكونوا موجودين، الرسول ﷺ اتخذ مؤلفة فأعطاهم، كان الإسلام ضعيفًا وكان الأمر محتاجًا إلى تأليف بعض ذوي المكانة، فكان الرسول ﷺ يعطيهم تألفًا لهم، واتقاء لشرِّهم.. لكن في عهد سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عز الإسلام، ولم يعد الإسلام بحاجة إلى أن يتألف أناسًا جلبًا لنفعهم أو دفعًا لضرهم. لذلك لم يتخذ عمر ﷺ مؤلفة؛ ولأنه لم يتخذ

مؤلفة فلمن يعطي الصدقات؛ ولأن الإسلام لم يعد بحاجة إلى تزلفهم، رفض عمر أن يتألفهم، وحين جاءوا يطلبون أعطياتهم، صرفهم دون أن يعطيهم شيئًا.

وذلك مثل ما حدث على أيام الخليفة العادل «عمر بن عبدالعزيز» ﷺ بالنسبة للفقراء والمساكين، فقد جاءته أموال الزكاة فبحث عن الفقراء فلم يجد، وبحث عن المساكين فلم يجد، لم يجد في المجتمع المسلم فقيرًا ولا مسكينًا يقبل أن يأخذ الزكاة، لذلك لم يعط فقيرًا ولا مسكينًا؛ لأنهم غير موجودين، وصرفها في مصارف أخرى، فعمر ﷺ لم يعطل، ولم يخرج على النص، وإنما ربط الأمور بأسبابها، وأرجع المعلولات إلى عللها.

الزعم الثاني: زعمه أن عمر بن الخطاب ﷺ لم يجلد شارب الخمر، وعطل حدّ اللّه تعالى في شارب الخمر، وكان ذلك في إحدى الغزوات.. هو قال في كتابه عن عمر ﷺ إنه عطل الحد أو منع إقامة الحد، لكن الحقيقة أن عمر ﷺ أجل إقامة الحد، حتى عاد الجيش إلى المدينة فأقام حدّ اللّه على شارب الخمر، وإنما أجل عمر إقامة الحد لأمرين: الأمر الأول: أن شارب الخمر كان حديث عهد بالإسلام فخشي عمر ﷺ أن يجلده في أرض المعركة، فيرتد ويلحق بجيش الكافرين. الأمر الثاني: أن عمر ﷺ ببصيرته لم يرد أن يشاهد جواسيس العدو أمير الحرب أو قائد الجند يجلد أصحابه، لذلك أجل إقامة الحد.

لا خروج، ولا تعطيل، وفرج فودة في كتابه يقول: كانت وجهة نظر عمر صائبة، ويقول: يتضح من هذا أن عمر خرج على النص طلبًا للعدالة؛ لأن في التزام النص ضررًا وفسادًا.

د. مندور: هل تفضلتم بالرد على هذه النقاط في كتاب «الحقيقة الغائبة»؟.

د. مزروعة: لا، أنا فقط وضعت حواشي بسيطة مثل: هام، هام

جدًّا.

د. مزروعة: قلنا إن المرتد فرج فودة هاجم الإسلام من جانبين: جانب النصوص.

وكما هاجم الإسلام من جانب النصوص هاجم الإسلام أيضًا من جانب رموزه.

فالأمر الثاني الذي هاجم الإسلام منه، هو رموز الإسلام، أمثال الصحابة ﷺ بل أشياخ الصحابة وجلّتهم.. وأنا قد أعطيت أمثلة لهجومه على النصوص، وإذا أردتم أن أعطي مثالاً على تهجمه على الصحابة وعلى رسول اللَّه ﷺ..

فيما يتعلق بالصحابة ﷺ، فقد بدأ بأبي بكر ﷺ شيخ الصحابة، فاتهمه بأنه وضاع للحديث، واتهمه بأنه وضع حديث: «الأئمة من قريش»، قال: عندما ذهب أبو بكر ﷺ بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ إلى سقيفة بني ساعدة، فوجد الأنصار ﷺ يوشكون أن ينصبوا خليفة لرسول اللَّه ﷺ منهم. قال المرتد فرج فودة: عند ذلك سارع أبو بكر فذكر هذه العبارة التي هي: «الأئمة من قريش». قال: ولم يكن هذا حديثًا، وإنما وضعه أبو بكر قاصدًا أن ينتزع الإمامة من الأنصار ويضعها في المهاجرين. وعند هذه الجزئية وصف الوضاعين بأنهم منعدمو الأخلاق والدين والضمير واليقين.. إلى آخر ذلك، وهو يعني بهذه الصفات أبا بكر ﷺ.

بالنسبة لسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ قال كثيرًا، بالنسبة للأصحاب ﷺ عثمان، علي، طلحة، الزبير، عائشة أم المؤمنين، عبداللَّه بن عباس حبر الأمة ﷺ ذكر ستة منهم واتهمهم بالاستيلاء على أموال الدولة ـ بيت المال ـ وقبل أن يدخل إلى الحديث عنهم قرر قاعدة قال فيها: انفتحت عليهم الدنيا، ودخل حب المال قلوبهم، ثم قال: ومحال أن يجتمع المال والدين

والعقيدة في قلب، بعد أن قرر هذا بدأ يتكلم عنهم، نقدهم واحدًا واحدًا، متهمًا إياهم بالسرقة، عبدالله بن عباس ـ على سبيل المثال ـ، وهذا حبر الأمة. له تفسير للقرآن اتهمه بأنه كان واليًا على إمارة، فاستولى على أموالها، ثم فر بها إلى ديار أخواله.

رئيس المحكمة: هل هذا موجود في الكتاب الذي..

د. مزروعة: نعم كل هذا موجود في الكتاب، والذي أريد أن أوضحه أنه بعد أن عرض بهؤلاء الأجلاء من الصحابة وتهجم عليهم كتب في تهكم شديد يقول: وهؤلاء هم الذين بشرهم النبي بالجنة في تهكم شديد كتب هذه العبارة.

وأنا أحيل أيضًا إلى ما وضعه في هذا الكتاب، في نهايته وضع نتائج أخيرة، وضع: أولاً، وثانيًا، وثالثًا، ورابعًا. نتائج ختم بها الكتاب. في رقم واحد من هذه النتائج كتب عن الخلافة الإسلامية يقول: لم يكن هناك إطلاقًا ما يسمى بالخلافة الإسلامية، هناك خلافة لكنها عربية قرشية عصبية، هذا في رقم واحد من النتائج التي وضعها.. خلافة رسول الله ﷺ وأصحاب رسول الله ﷺ خلافة لا صلة لها بالإسلام كما يقول.. وفي أواخر النتائج التي وضعها في كتابه كتب يقول: «وهذا الأمر ـ يعني تطبيق الشريعة ـ لن يحدث أبدًا ما دام فيّ عرق ينبض».

له كتاب اسمه «الفتنة الطائفية» تكلم فيه عن النظام عندنا، وانتقد فيه النظام، من أنه يمنع الأقباط من رئاسة الدولة، رئاسة الوزراء، قيادة الجيش، المناصب العليا كلها، وأنه يمنعهم أيضًا من إقامة الكنائس إلا بتحفظات شديدة، وأنا أمشي في أي شارع من شوارع مصر فأعرف كذب هذه الدعوى.. تندر جدًّا أيضًا وقال..

رئيس المحكمة: في أي كتاب هذا؟

د. مزروعة: في كتاب «الفتنة الطائفية».

الشاهد: تكلم في هذا الكتاب أيضًا ينعي استسلام الإعلام الرسمي لما أسماه: الدولة الدينية، يسميها ـ الاتجاهات الإسلامية ـ دولة دينية، وقال: لقد نبهت إلى ذلك في مقال لي حين ذعرت، لما سمعت الأذان يذاع كاملاً، من وسائل الإعلام ـ يعني التليفزيون والإذاعة ـ بعد أن كان فقط يشار إلى حلول وقته بكلمة، ثم قال: وقد تنبأت بأن التنازلات سوف تستمر، يقول: وقد صدقت نبوءتي فبعد أن كانت وسائل الإعلام تشير إلى الأذان، أصبح الأذان يذاع كاملاً، ثم أصبح يذاع بعد الأذان أحد الأحاديث النبوية، قال: ولا ندري ماذا يأتي بعد ذلك من تنازلات ومخاطر. . انتقد أيضًا أن تخصص الدولة إذاعة للقرآن الكريم، وزعم أن نسبة المستمعين إليها «صفر»، وتهجم على إذاعة القرآن المجيد، هذا كله وغيره في كتاب «الفتنة الطائفية».

له كتاب اسمه: «نكون أولا نكون». .

رئيس المحكمة ـ مقاطعًا ـ وموجهًا كلامه إلى رئيس هيئة الدفاع: الشاهد لا يشهد، وإنما يقول برأيه.

د. مزروعة: الحقيقة أن لي أكثر من ساعة ونصف الساعة وأنا أتحدث لم أقل رأيًا لي إطلاقًا، والشهادة التي أقيمها الآن، وأنا ـ أيضًا ـ أعلم أولادي ـ طلاب الجامعة ـ أننا حين نحاكم لا نحاكم أشخاصًا، وإنما نحاكم فكرًا، وأنا لم أر هذا الرجل ـ المرتد فرج فودة ـ، ولا صلة لي به إطلاقًا، وأدعو اللَّه ألا يجمعني به في الآخرة. . لكن أنا أذكر فكرًا، أنا قلت كتب كذا، وقال كذا، لم تسمعني الهيئة الموقرة أقول: يجب أن نفعل به كذا، أو رأيي كذا. إلى آخره. . أنا قلت ما قلت من خلال فكره.

بالنسبة لكتبه، له كتب كثيرة، خمسة أو ستة كتب، له كتاب ـ أيضًا ـ

عنوانه: «نكون أو لا نكون»، ومدى علمي أنه صودر عند صدوره؛ لأن فيه سبًّا شنيعًا لشيخ الأزهر الموجود حاليًا، وتهجمًا شديدًا على الإسلام وعلى علماء الإسلام.. وأنا أستحيي أن أذكر كلامًا كتبه، ومعنا سيدات؛ لأن تهجم بتوقح وإسفاف على الإسلام وعلمائه.. كان من منهجه ـ وهذا أيضًا فكره، فكر قرأته ـ كان يخترع شيئًا ثم يعتبره حقيقة، وينقده ليوهم الناس أن الذي اخترعه حق، ونسبته إلى الإسلام صحيحة، وأن الإسلام كذلك، كما ادعى أن علماء المسلمين قالوا: إن إسلام «روجيه جارودي» غير صحيح[1]، وإذا أردتم أن تتأكدوا من صحة إسلامه فاختبروه بالختان. زعم أن علماء المسلمين قالوا: اختبروه بالختان.. من هم علماء المسلمين هؤلاء الذين يتحدث عنهم، من هم علماء المسلمين الذين يأتيهم رجل يقول: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، فيرفضون إسلامه، ويقولون: اختبروه بالختان، ليتحققوا إن كان إسلامه صحيحًا أم لا، وهذا غباء، فالذي فارق دينه وأعلنها صراحة، ما أسهل عليه أن يختتن إن كان قد أسلم نفاقًا، أو يهدف إلى شيء من وراء ذلك.. لكن فرج فودة ادعى على العلماء هذه الدعوى، ثم أخذ يناقشها تحت عنوان: «وختانه مسك»، كأنها أمر صحيح، وليوهم الناس أن علماء المسلمين قالوا ذلك فعلاً..

أيضًا.. في أخريات أحاديثه، في بعض كتاباته الأخيرة قال: إن علماء المسلمين يحرّمون «المحشي»، زاعمًا أنهم قالوا ذلك لما في صناعته من إيحاءات جنسية.. إلى آخر هذا السقط.. يذكر مثل هذه الافتراءات على

---

(١) القول الفصل في إسلام روجيه جارودي هو قول العلاّمة شيخ الإسلام ابن باز، وأنه كافر أصلي ليس بمرتد، وأنه لم يدخل الإسلام أصلاً حتى يرتد عنه، للَّه در ابن باز من إمام يقع على ما لا يقع عليه غيره.

للَّه در إمامنا من عالمٍ ... باز يصيد الطير وهو ضريرُ

علماء المسلمين، ثم يجلس فيناقشها كأنها حقيقة واقعة، دون أن يبين مَن مِن علماء الإسلام قال ذلك، أو أفتى به.. لكنه يذكر أشياء قمة في الإسفاف والسّفه ملصقًا إياها بعلماء الإسلام. أشياء كثيرة يعف لسان الإنسان أن يذكرها، لا يقصد منها إلا تجريح الإسلام والمسلمين.. له كتب كثيرة، ومقالات كثيرة، ليس له مقال واحد، ولا جملة واحدة خرجت منه في أي مجال، إلا في مجال واحد، وهي حرب الإسلام والمسلمين.. وأنا قلت مرة، وأقول مرة أخرى: أنا لم ألتق به، وليست لي به أدنى صلة، وأحمد اللَّه تعالى أني لم أره في الدنيا، واسأل اللَّه تعالى ألا يجمعني به في الآخرة إن شاء اللَّه تعالى.

د. مندور: ما مدى انطباق هذه المبادئ التي ذكرتها فضيلتك على وضع فرج فودة.. اتفضّل يا دكتور.

د. مزروعة: كنتُ أقول: إذا كان فرج فودة مرتدًا عن دين اللَّه تعالى.

رئيس المحكمة مقاطعًا: لا، ليس إذا كان، أنت قرأت..

د. مزروعة: أنا ذكرت ضوابط، هل أذكره شخصًا؟

د. مندور: أذكره شخصًا طبعًا.

د. مزروعة: فرج فودة مرتد عن دين اللَّه، نذر حياته لحرب الإسلام والمسلمين، كان إذاعة كاملة، وزارة إعلام كاملة تشيع الفساد والإفساد بين الناس، وهذا ينطبق عليه ما ذهب إليه العلماء.

... (هتافات متكررة من المتهمين وجمهور الحاضرين: اللَّه أكبر اللَّه أكبر، فليرتفع شأن الأزهر.

أ ـ ممدوح إسماعيل: هل المناظرات التي تمت بين الدكتور فرج فودة وعلماء الأزهر، والكتب التي قام بها بعض العلماء للرد عليه، هل تعتبر بمثابة إقامة حجة، واستتابة لفرج لفودة؟

د. مزروعة: تعتبر يقينًا، تعتبر كافية وأكثر من مجرد استتابة، بل إن بعض ذلك كان كافيًا»[1].

*** العشرة المبشرون بالجنة كلهم إرهابيون هكذا يقول الضالون المفسدون من الإعلاميين:**

❑ في كتابها «للّه يا زمري» لمقدمة البرامج الدينية بالتلفزيون المصري «السيدة كريمان حمزة» وتحت عنوان «على جثتي إذاعة العشرة المبشرين بالجنة: التي سجّلتها مع الدكتور أحمد شلبي وصورتها ليذيعها التلفاز المصري.. تقول السيدة كريمان حمزة: «تم تسجيل ثلاثين حلقة جاءت على مستوى طيب بحمد اللّه.

أخبرت السيدة سهير الأتربي بإتمام العمل والمونتاج ومراجعة الرقابة.. فسعتْ لوضع البرنامج في وقت جيد.

جن جنون رئيس التلفزيون.. صاح صارخًا: «على جثتي إذاعة العشرة المبشرون بالجنة! ودارت أحاديث كثيرة يندى لها الجبين بين رئيس التلفزيون ونائب رئيس القناة الثانية.. الذي راح بدوره يوصّل لي كلمة بكلمة، وإليك أيها القارئ الكريم أسلوب رجل مسئول في التلفزيون، قال رئيس التلفزيون: العشرة المبشرون بالجنة!! ولماذا عشرة؟

لماذا لا يكونوا اثنين أو ثلاثة.. أو خمسة من أين تأتي لها رقم عشرة؟!!

العشرة من أيام الرسول!! لماذا مفيش واحد من اليومين دول مُبَشَّر

---

(١) هذا جزء من الشهادة التي أقامها للّه الدكتور محمود مزروعة انظر الشهادة كاملة في كتاب «أحكام الردة والمرتدين» ص(٢٧١ ـ ٢٨٨).

بالجنّة.. واحد من السلطة مثلاً.. يعني عاطف صدقي[١] موش مالي عينيها؟! ولاّ صفوت الشريف موش من المبشرين بالجنة؟! الست كريمان موش ذكيّة بالمرة، كانت تختار اثنين من الماضي.. واثنين من الحاضر.. لا.. لا.. واللّه لن تذاع الحلقات.. على جثتي.

ده حتى الصحفي (فلان) قال للوزير: إن العشرة المبشرين بالجنة كلهم إرهابيين.. لا يمكن»[٢].

❑ وعن برنامجها «قرآن ربي» الذي نجح تقول كريمان حمزة:

«أشهد أن هذا البرنامج هو أفضل برنامج قدّمته في حياتي الإعلامية كلها.. وقام بإخراج الحلقات المخرج المتمكن بكر رشوان.. ونجح البرنامج نجاحًا غير عادي.. ولقي قبولاً متدفقًا من المشاهدين.. ولكننا فوجئنا بأمر ايقاف البرنامج فورًا وبدون إبداء الأسباب وبدأنا نسمع كلامًا عجيبًا لا يستساغ منطقيًّا ولا عقليًّا ـ البرنامج هيشجع الأطفال على حفظ القرآن.. وده غير مطلوب!!!»[٣].

* * *

(١) كان رئيسًا للوزراء وقتها.

(٢) «للّه يا زمري» لكريمان حمزة ص(١٢٦ ـ ١٢٧).

(٣) «للّه يا زمري» ص(٢٥).

* وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. لكن الإسلام لا بواكي له:

استبدال كلمة «اللَّه» بكلمة «الإنسان الكامل» زندقة:

«في كثير من كتابات العلمانيين اليوم سوء أدب مع اللَّه عز وجل أو مع الرسول ﷺ، فلقد سبق لحسن حنفي مثلاً أن اقترح في «التراث والتجديد» استبدال كلمة «اللَّه» بكلمة «الإنسان الكامل»! بدعوى أنه «مع أن علماء أصول الدين يتحدثون عن اللَّه ذاته وصفاته وأفعاله، فإنهم في الحقيقة يتحدثون عن الإنسان الكامل؛ فكل ما وصفوه على أنه اللَّه إنْ هو إلا إنسان مُكَبَّر في أقصى حدوده»[1].

* وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. لكن الإسلام لا بواكي له:

❑ يقول محمد أركون عن القرآن: «إن إعادة قراءة القرآن من جديد قراءة نقدية متفحصة؛ لا قراءة أيديولوجية تقليدية[2] هي الخطوة الأولى التي لا بد منها من أجل فهم المناخ الفكري والنفسي للشخصية العربية الإسلامية. إن هذه القراءة مضطرة لأن تأخذ في الاعتبار كل المسار الفلسفي والنقدي الذي قطعه الفكر الغربي، ابتداءً من نيتشه، وانتهاء بفرويد مروراً بطبيعة الحال ـ بكارل ماركس»[3].

❑ ويتأسف أركون لأن الديانتين السابقتين قد شُكِّك في كتابيهما «أما الإسلام، ومن ثم القرآن، فقد بقي في منأى عن انقلابات الحداثة وشكوكها»[4].

---

(١) «التراث والتجديد» لحسن حنفي ص(١٠٨) نقلاً عن مقال «كتاب الإسلام وأصول الحكم»، وذرائعية العلمانيين» لحسن محمد الغزواني ـ مجلة البيان العدد ١٧٩ ص(٩٩).

(٢) يقصد قراءة المسلم المسلِّم بالنص.

(٣) «جوله في فكر محمد أركون» ص(٦٦) نقلاً عن «اليسار الإسلامي خنجر في ظهر الإسلام» للأستاذ عبدالسلام بسيوني ص(٣٣) ـ مكتبة الأقصى ـ قطر.

(٤) «الفكر الإسلامي: قراءة علمية» لمحمد أركون ص(٢٧٨).

❑ ويقول: «إن الحكايات التوراتية والخطاب القرآني هما نموذجان رائعان من نماذج التعبير الميثي (الأسطوري)»[١] «تاريخية الفكر الإسلامي» لأركون ص(٢١٠). (Le coran est un discours de structure my thique)

وكلمة (Mythe) لا يوجد مقابل عربي لها غير «أسطورة» أو «خرافة» أو «وهم» وإن راوغ محمد أركون.

❑ وقال أيضًا: «إن القرآن كما هي الأناجيل ليس إلا مجازات عالية تتكلم عن الوضع البشري، إن هذه المجازات لا يمكن أن تكون قانونًا واضحًا» «تاريخية الفكر الإسلامي» ص(١٥٤)، وفي هذا إشارة إلى استحالة تطبيق هذا القانون؛ لأنه مبني على فروض مفارقة أكثر من كونه مقاربة للواقع، ولعل هذا ما يُفسِّر قوله: «إن القرآن يتكلم عن الدين المثالي الذي يتجاوز التاريخ، أو إذا ما شئنا يشير إلى التعالي»؛ أي أنه خطاب قائم على مبدأ تجاوز الواقع من خلال إعطاء الأسبقية للمثال، وتأسيس روية للتعالى تجعله نوعًا من الأسطورة.

❑ وعند محمد أركون الحديث النبوي إضافة إلى الإجماع والقياس وحتى القرآن «مبادئ غير قابلة للتطبيق»[٢].

❑ يقول محمد عركون: «نلاحظ أن الماركسية لم تُعرف بصورتها الإيجابية حتى الآن، لا في الفكر العربي المعاصر، ولا في الفكر الإسلامي بشكل عام، نفس الشيء يمكن أن يُقال بخصوص نقد القيم الذي قام به «تيتشة» تجاه المسيحية. وهذا النقد قابل للتطبيق على الإسلام (؟!)، وإذا ما

---

(١) «الفكر العربي» لأركون ترجمة عادل العط.

(٢) «تاريخية الفكر الإسلامي» لمحمد أركون ص(٢٩٧)، نقلاً عن مقال «محمد أركون ومشروعه النقدي» لمحمد بوراس ـ مجلة البيان العدد ١٧٩ ـ ص(١٠٢ ـ ١٠٨).

نظرنا للتاريخ بكليته ضمن هذا المنظور فإنه يصبح ممكنًا تعبيد الطريق وتمهيده نحو ممارسة علمانية للإسلام.. يمكن للعلمنة عندئذ أن تنتشر في المجتمعات التي اتخذت الإسلام دينًا»[١] .

يقول هذا المجرم المجدد الثقافي! محمد أركون: «إن أشكال الإسلام المدعوة مستقيمة أو أرثوذكسية (هكذا واللّه) كالاتجاه السني والشيعي والخارجي (؟!) الذي يدّعي كل منها أنه يحتكر الإسلام الصحيح دون غيره هي عبارة عن انتقاءات اعتباطية (!!) واستخدامات أيدلوجية لمجموعة من الأفكار والعقائد والممارسات المقدمة والمصورة على أساس أنها دينية محضة»[٢] .

فالمسألة عنده ليست اجتهادًا بل اعتباطًا وانتقاء لأيديولوجيات ثم إضفاء الصبغة الدينية عليها.

* الطيور على أشكالها تقع:

طه حسين يطعن في القرآن ومن بعده العلماني «محمد أحمد خلف اللّه» في سنة ١٩٢٦م أصدر طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي وقد جاء في ص(٢٦) منه: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا أيضًا، ولكن ورود هذين الإسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي»[٣] ، ويقول في نفس الصفحة: «.. فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها، ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة

(١) «تاريخية الفكر العربي الإسلامي» لمحمد عركون ـ مركز الإنماء القومي ١٩٨٦، نقلاً عن «اليسار الإسلامي خنجر في ظهر الإسلام» لعبدالسلام بسيوني ص(٤٩).

(٢) مجلة الفكر العربي المعاصر العدد ٣٩ ـ نقلاً عن «اليسار الإسلامي» ص(٤٢ ـ ٤٣).

(٣) «ذيل الملل والنحل» لمحمد سيد الكيلاني ص(٤٨) عن «في الشعر الجاهلي» لطه حسين.

في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية من جهة أخرى، والقرآن والتوراة من جهة أخرى. .»[١] .

وفي عام ١٩٤٧م قدم الطالب محمد أحمد خلف اللّه من كلية الآداب بجامعة فؤاد رسالة للحصول على الدكتوراه بعنوان «الفن القصصي في القرآن الكريم» قرر فيها أن ورود الخبر في القرآن الكريم لا يقتضي وقوعه، وأنه يذكر أشياء وهي لم تقع ويخشى على القرآن (!!) من مقارنة أخباره بحقائق التاريخ «إن التاريخ ليس من مقاصد القرآن وإن التمسك به خطر أي خطر على النبي ﷺ وعلى القرآن بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن كما كفروا من قبل بالتوراة»[٢] .

❑ ويقول: «إن المعاني التاريخية ليست مما بلغ على أنه دين يتبع وليست من مقاصد القرآن في شيء. . إن قصد القرآن من هذه المعاني إنما هو العظة والعبرة. . ومعنى هذا. . إن قيمتها التاريخية ليست مما حماه القرآن الكريم ما دام لم يقصده»[٣] .

ويستند[٤] فيما قال على ما جاء في المنار «ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هي تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره»[٥] ويستدل بقول المنار: «هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع»[٦] ، وبقوله: «بينا

---

(١) «ذيل الملل والنحل» لمحمد سيد الكيلاني ص(٨٤) عن «في الشعر الجاهلي» لطه حسين.
(٢) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللّه ص(٤٢).
(٣) المرجع السابق ص(٤٤).
(٤) المرجع السابق ص(٤٢).
(٥) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٧٩).
(٦) المرجع السابق (٤/ ٧).

مرارًا أن أحداث التاريخ وضبط وقائعه وأزمنتها وأمكنتها ليس من مقاصد القرآن، وأن ما فيه من قصص الرسل مع أقوامهم فإنما هو بيان لسنة اللَّه فيهم وما تتضمنه من أصول الدين والإصلاح»[١] .

❑ واستدل أيضًا بغير ذلك من نصوص المنار، ومن هنا ندرك عمق الصلة بين هذا الموقف من قصص القرآن وموقف المدرسة العقلية الممثلة في «تفسير المنار من قصص القرآن الكريم».

❑ ثم يصل الدكتور خلف اللَّه إلى نتيجة ما قرره من الفصل بين القصة القرآنية والحقيقة التاريخية فيصف القرآن بما وصفه به المشركون من أنه «أساطير»، ويستدل على هذا بأن القرآن عرض مرة واحدة للرد على المشركين «في قيلهم بأنه أساطير وهي المرة التي ترد في سورة الفرقان وهذه هي الآيات: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [فرقان: ٥، ٦]. فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن؟ أو هو إنما ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتبها وتملى عليه ويثبت أنها من عند اللَّه، قل أنزله الذي يعلم السر.. إلخ»[٢] . ثم قال: «وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد ـ عليه السلام ـ وليس من عند اللَّه إذا كان هذا ثابتًا فإنا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير لأنا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصًّا من نصوص القرآن»[٢] .

❑ ونذكر مثلاً من تطبيقه هذه النتيجة التي توصل إليها على قصص

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١٠١/١٢).

(٢) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(١٧٨ ـ ١٨٠).

القرآن قوله: «وإذا ما قال المستشرقين أن بعض القصص القرآني كقصة أصحاب الكهف أو قصة موسى في سورة الكهف قد بنيت على بعض الأساطير قلنا: ليس في ذلك في القرآن من بأس فإنما هذه السبيل سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى ويكفينا فخرًا أن كتابنا الكريم قد سنّ السنن وقعّد القواعد وسبق غيره في هذه الميادين»[١] .

❑ وزعم أيضًا أنه لن يجد من «يعارض في وجود القصة التمثيلية في القرآن الكريم وأنها وليدة الخيال وأن الخيال إنما يسود هذا النوع من القصص لحاجة البشر إليهم وجريهم في بلاغتهم عليه واللَّه سبحانه وتعالى إنما يحدثهم من هذا بما يعتادون»[٢] .

❑ ويستدل[٣] لإثبات هذه النتيجة التي توصل إليها بما جاء في «المنار» عن إحدى قصص القرآن «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل واللَّه أعلم»[٤] .

❑ ويستدل[٥] أيضًا بقول الشيخ محمد عبده: «وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه: إن القرآن كثيرًا ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق: ٣٠] فليس المراد أن اللَّه تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه، وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين

(١) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(١٨٢).
(٢) المرجع السابق ص(١٧٠).
(٣) المرجع السابق ص(١٦٤).
(٤) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٣/ ٥٢).
(٥) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(١٦٨ ـ ١٦٩).

مهما كثروا ونحو قوله عز وجل بعد ذكر الإستواء إلى خلق السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، والمعنى في التمثيل ظاهر»[١] .

ومن هنا ـ أيضًا ـ ندرك عمق الصلة بين الفكرتين فكرة خلف اللَّه وفكرة الشيخ عبده وتلاميذه في قصص القرآن ولهذا حرص أمين الخولي المشرف على الرسالة المنحرفة على التصريح بأن جامعة فؤاد التي رفضت الرسالة المنحرفة هذه «ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عامًا»[٢] .

ولا شك بعد هذا أن هذا الزعم في قصص القرآن الكريم بأنها مخالفة لحقائق التاريخ وأن المراد بها التمثيل لا الحقيقة التاريخية لا شك أنه أثر من آثار مدرسة المنار، كيف وهو إنما يستشهد بأقوال أستاذهم وإمامهم.

وسواء أكان الأستاذ الإمام يقصد ما قصده خلف اللَّه أم لم يقصده فإن الصلة بين القولين ولا شك بينة وواضحة.

بقي أن نقول: إن هذه الرسالة أيضًا لقيت ردود فعل قوية واحتجاجات الرفض حتى رفضتها الجامعة، وفي الوقت نفسه كان الترحيب والقبول لما جاء به محمد عبده وتلاميذه؟!

ويرى محمد أحمد خلف المارق أن: «القرآن يتقول على اليهود، ويتقوّل أموراً لن تحدث، ويقرّر أمرًا خرافيًّا أو أسطوريًّا، ثم يعود فيقرر نقيضه ويزيد وينقص بحكم الحرية الفنية»[٣] .

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

(٢) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحدم أحمد خلف اللَّه ص(ح).

(٣) مجلة منار الإسلام عدد شعبان ١٤٠٤هـ ص(٧٥).

❑ ويرى الدكتور محمد عابد الجابري: «أن الوحي سلطة مرجعية، تضايق الحاضر، وتنافس المستقبل والجديد».

فهو ينكر أن يكون هنالك وحي، وإن آمن به، فهو يعتبره وليد زمانه، أي هو جزء من التاريخ أو تجربة تاريخية»[١].

*** ولكن الإسلام لا بواكي له.. وا إسلاماه.. وا إسلاماه..**

❑ قال حسن حنفي رائد اليسار الإسلامي!! «يمكن للمسلم المعاصر أن ينكر الجانب الغيبي في الدين ويكون مسلمًا حقًّا في سلوكه»[٢].

وقال: «ألفاظ الجن والملائكة والشياطين، بل والخلق والبعث والقيامة، ألفاظ تتجاوز الحس والمشاهدة، ولا يمكن استعمالها؛ لأنها لا تشير إلى واقع، ولا يقبلها كل الناس»[٣].

❑ قال القرطبي: «وقد أنكر جماعة من كفرة الأطباء والفلاسفة الجن اجتراءً على اللَّه وافتراءً، والقرآن والسنة ترد عليهم»[٤].

*** ماذا بقي من الإسلام إذًا أيها العلمانيون وإليك آخر الطوام قولهم بوحدة الأديان:**

❑ قال الأفغاني: «إن الأديان الثلاثة الموسوية والعيسوية والمحمدية، على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية، وإذا نقص في الواحد شيء من أوامر

---

(١) «الخطاب العربي المعاصر» ص(٥٥ ـ ٥٦) نقلاً عن «ظاهرة اليسار الإسلامي» لمحسن الميلي.

(٢) «قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر» لحسن حنفي ص(٩١ ـ ٩٣) ـ دار التنوير.

(٣) «التراث والتجديد» لحسن حنفي ص(٦٤).

(٤) «تفسير القرطبي» (٦/١٩) ـ طبعة أولى ـ سنة ١٣٥٧هـ ـ دار الكتب المصرية القاهرة.

الخير المطلق، استكملته الثانية.

❑ وعلى هذا لاح لي بارق أمل كبير أن يتحد أهل الأديان الثلاثة»[١].

❑ ويقول الدكتور عبدالعزيز كامل وزير الأوقاف والشئون الإسلامية السابق: «ونحن في منطقة الشرق الأوسط، نؤمن بالتوحيد بطريقة أو بأخرى، وأقولها واضحة، يستوي في هذا: الإسلام والمسيحية واليهودية، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة في الفكر المسيحي يُختم بإله واحد.. هذه منطقة توحيد، والصور تختلف، وتفسيرها»[٢].

❑ ويقول الدكتور أحمد كمال أبو المجد: «والذين يسرفون في الإلحاح على تميز الإسلام والمسلمين تميزًا اشاملاً مطلقًا محجوجون بنصوص القرآن الكريم التي تصف أنبياء اللَّه بوصف الإسلام ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]، وهم محجوجون كذلك بحقيقة وحدة الإنسانية، ووحدة مصدر الأديان السماوية، وبأن العهد الذي أُخذ بحمل الأمانة إنما أُخذ على آدم أبي البشرية وعلى بنيه مسلمين وغير مسلمين ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢][٣].

❑ وللدكتور محمد عمارة نظريته في وحدة الأديان أعلنها تحت شعار «وحدة الدين الإلهي» فهو يرفض تقسيم الناس على هذا الأساس (المتخلف) إلى مؤمنين وكفار؛ لأن ذلك التقسيم، قد ارتبط بالعصور الوسطى وعهود

---

(١) «الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني» لمحمد عمارة ص(٦٩) ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت.

(٢) انظر «الإسلام والعصر» لعبدالعزيز كامل ص(١٩٤) نقلاً عن: «العصريون» ليوسف كمال.

(٣) «حوار لا مواجهة» لأحمد كمال أبو المجد ص(٢٠٧).

الظلام»[١] .

ويرى أن رفاعة الطهطاوي قدّم فكرًا مستنيرًا في هذا الجانب حيث قدّم «تقسيمًا جديدًا، لا يقوم على معايير الكفر والإيمان، وإنما يقوم على مقاييس التحضر الخشونة»[٢] .

«والفروق بين المسلمين وأهل الكتاب، ليست من الخطر بحيث تُخرج الكتابيين من إطار الإيمان والتدين بالدين الإلهي»[٣] .

❑ أما الدكتور حسن حنفي فهو أشد صراحة في طرحه لهذه القضية حيث يقول: «لا يوجد دين في ذاته، بل يوجد تراث لجماعة معينة، ظهر في لحظة تاريخية محددة، ويمكن تطويرها للحظة تاريخية قادمة»[٤] .

❑ ويقول عبداللطيف غزالي: «لم يعتقد أتباع كل دين أن اللّه يختصهم بالجنة، ويذر غيرهم وأكثر الناس في النار؟ إن إلهًا هذا شأنه وإن صح، وحاشا أن يصح، لا يكون إله طائفة قليلة بالنسبة لسائر الناس؛ لأنه ليس ثمة دين يضم أكثر البشر.. وإن العمل الصالح لهو اليوم أفضل جهاد في سبيل اللّه»[٥] .

❑ وانظر على نفس النسق والمنوال رسالة رجاء جارودي المسماة «وثيقة أشبيلية» .

❑ ويعجب محمود أبو رية في كتابه «دين اللّه واحد» كيف سيحرم «أديسون» مخترع النور الكهربائي من الجنة، وقد أضاء العالم كله، حتى

(١، ٢) «تيارات اليقظة الإسلامية» لمحمد عمارة ص(٢٨٠)، سلسلة الهلال ١٩٨٢م، وانظر «غزو من الداخل» ص(٦٤).

(٣) «تجديد الفكر الإسلامي» لمحمد عمارة ص(٨٢).

(٤) «التراث والتجديد» لحسن حنفي ص(٢٢).

(٥) «العصريون» ليوسف كمال ص(١٩).

مساجد المسلمين باختراعه»؟!، وعندما قيل له: إن أديسون لم ينطق بالشهادتين. قال: إذا كان هذا الرجل العظيم لم يدخل الجنة شرعًا، أفلا يمكن أن يدخلها عقلاً بفضل اللَّه ورحمته؟ ما دام يؤمن بخالق السماوات والأرض»[1].

* وا إسلاماه.. ولكن الإسلام لا بواكي له:

إنه الإنسلاخ الكامل من أركان الإسلام والتغريب المطلق:

وكان لا بد لنا من تعرية هؤلاء المنهزمين، وكل مقوماتهم سنوات يقضونها في انسلاخ تام عن ماضي أمتهم وحاضرها، في نفوسهم هزيمة التراث والإسلام، وعلى رؤوسهم قبعة الغالب، وبين أيديهم كتاب الأجنبي، وعلى ألسنتهم رطانة الأعاجم يلوكونها.. هذا زيف العلمانيين وكذبهم وزندقتهم.

❑ لقد كان العلمانيون والملاحدة يعيشون على استحياء، ويتحركون على حذر، ثم تبجّحوا، ثم توقّحوا، ثم فجروا، وكان من وقاحتهم وفجورهم تلك الحرب المسعورة ضد الإسلام والمسلمين، والتي استباحوا فيها كل مقدسات الإسلام من عقائد وشرائع وأحكام ورموز فلم يسلم القرآن ولا السنة من طعونهم وافتراءاتهم، ولم ينج رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ﷺ من سبهم ووقاحتهم وسخريتهم واستهزائهم ورميهم بكل نقيصة.

* وكان ولاؤهم للطين والتراب إن كان لهم ولاء:

قال بعض دعاة «القومية العربية» من العلمانيين الأقحاح:

❑ يقول علي ناصر الدين: «العروبة نفسها دين عندنا ـ نحن القوميين

(١) «العصريون» ليوسف كمال ص(١١٢) بإيجاز.

العرب، المؤمنين العريقين، من مسلمين ومسيحيين؛ لأنها وُجِدَتَ قبل الإسلام وقبل المسيحية مع دعوتها ـ أي العروبة ـ إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات»[1].

*** أما المجون فدينهم:**

❑ يقول شيطان حداثي في وقاحة ودناءة وإسفاف وتحريض على الفحشاء ولوم ليوسف عليه السلام الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

يوسف أعرض.. يوسف أغمض
يوسف لا تُعرض!.. يوسف لا تُغمض!
تلك عروس البحر؟ فماذا لو دخلت قلبك؟
وملأت دربك؟
ماذا لو قُدّ قميصك من قُبلُ؟
ماذا لو سكب ذوب الليل، دبيب الميل في شفتيك؟
وتتسع الشفتان لحُمّى قُبَل؟!

وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. وا إسلاماه ولكن الإسلام لا بواكي له:

خليل عبدالكريم الزنديق:

والزنديق كل من يظهر طعنًا في دين اللَّه، أو نبيه أو يستهزئ ويسب الصحابة أو يتنقص مجتمعهم.

❑ يقول خليل عبدالكريم اليساري في كتابه «مجتمع يثرب» عن الصحابة: «كانت نزعة معافسة النساء لدى رجال «المجتمع اليثربي» من القوة بحيث دفعتهم إلى تحطيم الحواجز التي أقامتها (النصوص المقدسة) صراحة،

(١) «أعداء الحل الإسلامي» للدكتور يوسف القرضاوي ص(١٨٠) ـ مكتبة وهبة.

وبلا مواربة..

مثل: من يظاهر من امرأته ثم يعتليها قبل التكفير..

وآخر يركب زوجته وهي حائض أو مستحاضة.

وثالث يطؤها في نهار رمضان..

ورابع ينكح امرأة أبيه، أو يعاشرها دون عقدة نكاح..

والمملوك الذي يشرع في مفاخذة جارية سيده.. وقد يحدث العكس.

المرأة تسعى إلى أجير زوجها ليشبعها، ويروي لها ظمأها لعجز زوجها عن ذلك.. إلخ كل هؤلاء.. ذكوراً وإناثًا يعلمون علم اليقين أن الفعل الذي قارفوه حرّمته عليهم الشريعة التي بلّغها محمد.. ولكن نزعة التلاقي بالآخر يغلبهم وتقهرهم، وتملك عليهم نفوسهم وعقولهم ووجدانهم، وتعطّل ملكة التفكير السديد عليهم، فلا يرون في «النصوص المقدسة» إلا قيدوًا تحول دون انطلاقهم»[1].

أترمي رجال طهر يا لئيمُ وأنت المجرم القاصي الزنيمُ

*** ولكن الإسلام لا بواكي له:**

«في صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٩٩٩/٦/١٦م يتساءل أحمد عبدالمعطي حجازي في غضب «هل نريد حقًّا أن نحرر عقولنا من الخرافة، ونعالج أنفسنا من الخوف، ونعامل أجسادنا بما هي جديرة به من اعتزاز واحترام؟».

وتحرير عقولنا، واحترام أجسادنا في نظر حجازي لا يتحقق إلا برسم الأجساد عارية، والسماح بإدخال الموديلات العارية إلى كليات الفنون ليرسمها الطلاب.. بل يتمادى أحمد حجازي فيدعو صلاح طاهر وآخرين

(١) «مجتمع يثرب» لخليل عبدالكريم ص(٤٣) ـ دار سنا ـ القاهرة ١٩٢٢م.

أن يرسموا له صورة من هذا النوع العاري «حتى يراه الناس في الواقع، وربما رأوه على نحو أفضل»، كما يقول بالحرف الواحد».

*** الدكتورة التنويرية نوال السعداوي:**

وآخر ما أفرزته الدكتورة التنويرية (ن) ما صرّحت به في تحقيق صحفي من أن «ختان الذكور» عملية وحشية مؤذية وضارة، وتصرخ في غضب «كيف تقطع هذه الجلدة مع أن لها فوائد متعددة؟!!.

*** حيدر حيدر السوري وروايته «وليمة لأعشاب البحر»[1] :**

هذا الذي تعرّى من كل القيم ومارس العري في الكتابة، وسخر واستهزأ وتطاول على ذات اللّه ورسوله وأنبيائه عليهم السلام وارتدّ. . انظر إلى عدوانه على اللّه والرسالة والقرآن.

١ ـ «نحن الآن في المطهر، لسنا في مسجد اللّه أو كنيسته، هذه براريننا، ونحن هنا آلهة هذه البراري» ص(١٦).

٢ ـ حيث لن يعرف لا الحزب، ولا الرب متى ستشرق الشمس من جديد. ص(٣٨).

٣ ـ أنا أرى في ماركس أو لينين محمدًا جديدًا، محمد القرن العشرين. . «ماركس أو لينين العربي هذا ما نحتاجه في هذا العصر المضطرب» ص(٨٧).

٤ ـ الوعي العميق بالتاريخ غائب، وهؤلاء يهمشون التاريخ ويعيدونه مليون عام إلى الوراء ـ في عصر الذرة والفضاء والعقل المتفجّر يحكموننا

---

(١) رواية «وليمة لأعشاب البحر في ميزان الإسلام والعقل والأدب» للدكتور جابر قميحة ص(١٤) دار الاعتصام.

بقوانين آلهة البدو وتعاليم القرآن خراء (١٢٩).

٥ ـ . . إحساس المنفى يتواقت مع انفجار الحب. . وكما يتجلّى الجنس إلهًا إفريقيًّا مقدسًا ص(١٤٦).

٦ ـ «ورسولنا المعظم كان مثالنا جميعًا، ونحن على سنّته. . لقد تزوج أكثر من عشرين امرأة بين شرعية. . وخليلة، ومتعة» ص(١٤٨).

٧ ـ رأسه ملئ باختلاطات وسخافات. . ربي لا يدركها (١٧٨).

٨ ـ جبهة التحرير. . مخلوقة عجيبة وغريبة. . حتى ربي لا يستطيع توحيدها ص(١٨٢).

٩ ـ في ذلك الوقت العصيب كان اللّه يتقمّص السلطة، الجنة والجحيم ص(١٨٧).

١٠ ـ وهو الخارج من أضلاع اللّه والطغاة والحروب الأهلية المغدورة ونفسه ص(١٩٢).

١١ ـ لا بد أن ربك فنان فاشل إذن ص(٢٢٠).

١٢ ـ وربك لا يعرف متى تحسم هذه الأراجيف ص(٢٤٤).

١٣ ـ كنت أتخيل السماء شجرة. . واللّه هو القمر ص(٢٣٤).

١٤ ـ وكما أقام اللّه مملكته الوهمية في فراغ السموات ليدخل في خلود ذاته بذاته ص(٤٢٥).

١٥ ـ الحجاج الثقفي المقعي على العرش. . رب السموات والأرضين الذي يقول للشيء كن فيكون ص(٥٦٩).

١٦ ـ انفجر شيء آخر وتشظى: اللّه. . الوطن والأسرة ص(٥٠٨).

١٧ ـ الحرية. . الحرية. . هذا هو ربي ص(٥٤٦).

❑ وهو ينكر الغيبيات أو يسخر منها كالآخرة والجنة والنار نص (٣٦)

ويحلّ التعري والزنى واللواط وشرب الخمر (نصوص: ٢، ٣٦، ٤٧، ٥٦، ٦٥)[١].

□ ومنها إن اللّه نسي بعض مخلوقاته من تراكم مشاغله التي لا تحد في بلاد العرب وحدها ص(٢٥٧).

□ ولن نجيب على ردّته وزندقته إلا بقول اللّه عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]. ثم بعد هذا يقول تقرير اللجنة التي شكلّها وزير الثقافة التي رأسها الدكتور القط بأن ما ورد في الرواية لا يعد مساسًا بالدين، ثم بعد هذا يقول حيدر حيدر في دفاعه عن نفسه وعن روايته: «ليس في الرواية صفحة واحدة تسيء إلى الإسلام، بل العكس إنها تمجد الإسلام»[٢].

*** وا إسلاماه.. وا إسلاماه.. وا إسلاماه:**

ماذا يريد من الإسلام أدباء المراحيض والجنس.. هم واللّه الظلاميون المتقيّحون الساقطون.

*** الليث الهادر الدكتور محمد عباس يزأر نصرة لدينه:**

وهدر الدكتور محمد عباس وزأر نصرة لدينه وعرّى التنويريين الذين

---

(١) «أخبار الأدب» ـ العدد ٣٥٦ ـ ٧/ ٥/ ٢٠٠٠ من حديث هاتفي معه جاء في «أخبار الأدب» «أخبار الأدب تنفرد بنشر تقرير اللجنة العلمية حول الرواية: «وليمة لأعشاب البحر».. عمل مقاومة ينتصر للدين»!!.

بل وقال عنها وزير الثقافة: «إنه ليس فيها ما يسيء للإسلام، وإنها لتدعو للعقيدة والإيمان وتبجّل الإسلام»!! انظر إلى «رواية وليمة لأعشاب البحر في ميزان الإسلام..» ص(٢١٥).

تدثروا بأردية صفيقة من الغش والخداع.. والكذب.. والادعاء.. والسفاهة.. من يعيشون للمراحيض والمستنقعات والشذوذ.. لقد أصبح الهجوم على الإسلام ونبيه ﷺ وكتابه وقيمه العليا هو أقرب طريق وأسهله لتحقيق الشهرة الكاذبة والمجد الزائف.. وشكر اللَّه لمحمد عباس ولقلمه الطيب وجزاه اللَّه عن الإسلام وأمته خير الجزاء.

لقد جاء في نداء علماء الأزهر الشريف الذي وقّعه ستون أستاذًا ومدرسًا بجامعة الأزهر «.. من ذلك ما جاء في ديوان «امرأة يروق لها البحر» وفيه: فتاة يقاسمني في حبها اللَّه فأحبه ولا أناصبه العداء.. مونيكا حضارة الأنبياء..».

هل بعد هذا تدن وإسفاف وفجور وسقوط وردة.. هل بعد هذا إرهاب هم واللَّه الإرهابيون.

تاللَّه ما الإرهاب يهزم دعوة ... كلاّ وفي التاريخ برّ يميني
ضع في يديّ القيد ألهب أضلعي ... بالسوط ضع عنقي على السكين
لن تستطيع حصار فكري ساعة ... أو محو إيماني ونـــور يقينـي
فالنور في قلبي، وقلبي في يدي ... ربي وربـي ناصـري ومعيـني
سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي ... وأموت مبتسمًا ليحيـــا دينـي

* **أيها المتغرّبون:**

أيطربكم من جانب الغرب ثاعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تُعلمون العقل يومًا علمتمُ ... بما تحته من عثرة وشتات

❑ وللَّه در القائل:

رُبَّ نظم ما له من هدفٍ ... ليس يـــدري ناظمـوه موقعـــه

(١) رواية «ولية أعشاب البحر في ميزان الإسلام» للدكتور قميحة ص(٢٢٥).

ومن الشعر غثيث فاتر تأنف الآذان من أن تسمعهْ
ما له من أبحرٍ أو تُرعٍ أو عيون لست تدري منبعهْ
لفّقته عصبة ما وردت بحره، بل وردت مستنقعه؟

*** معاشر العلمانيين:**

إن الإسلام ديننا ولحمنا وعرضنا، ودمنا إن الإسلام بالنسبة لنا ليس مسألة حياة أو موت، بل هو فوق الحياة وفوق الممات وفوق كل شيء:

تموت المبادئ في مهدها ويبقى لنا المبدأ الخالد
مراكب أهل الهوى أتخمت نزولاً ومركبنا صاعد
يحدثنا الليل عن نفسه وفيهمْ على نفسه شاهد

❑ وللّه در القائل:

أنا الغريب إذا جاوزت معتقدي ورُحت أضربُ في وهم وفي رُجُمِ
أنا الغريب إذا استسلمت عبدُ هوًى وعربَدَتْ شهوات العمرِ ملءَ دمي
وغربة النفس تُشقِي كلما نزعتْ نفسٌ إلى صنمٍ يهوى إلى صنمِ
وقسوة الذلِّ أن يرقى الشِّعار على زخارفٍ كذبتْ في الساحِ والأكَمِ

*** أخي: أنت ابن الإسلام فاهتف بهم:**

إني أنا السفر الذي كلماته هدْيٌ ومن كَلِم السماء بياني
وأنا أنا البحر الخضم أنا الذي جاشت غواربه بكل مكانِ

*** أخي: هذي بساتين الجنان فوّحت فأين من يرتادُ:**

قد كثرت وتنوعت ميادين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبكثرتها فوّحت بساتين الجنان فأين من يريد عبقها الفوّاح، وأريجها الغالي.

أخي أيها الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أنت صاحب تعبد مطلق ليس لك غرض في تعبد بعينه تؤثره على غيره، بل غرضك تتبع مرضاة اللَّه تعالى أين كانت، فمدار تعبدك عليها، فأنت لا تزال متنقلاً في منازل العبودية، كلما رُفعت لك منزلة، عملت على سيرك إليها، واشتغلت بها حتى تكونُ لك منزلة أخرى، فهذا دأبك في السير حتى ينتهي سيرك.

أنت العبد المطلق الذي لا تملك الرسوم، ولا تقيدك القيود، ليس عملك على مراد نفسك وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل أنت على مراد ربك، ولو كانت راحة نفسك ولذتها في سواه.

لا تملكك إشارة، ولا يتعبّدك قيد، ولا يستولي عليك رسم، حرّ مجرّد، دائر مع الأمر حيث دار، تدين بدين الأمر أنّى توجهتْ ركائبه، وتدور معه حيث استقلّتْ مضاربه، يأنس بك كل محق، ويستوحش منك كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها. وأنت موضع الغلظة على المخالفين لأمر اللَّه، والغضب إذا انتهكت محارم اللَّه لسان حالك ومقالك لكل من حادّ اللَّه ورسوله ومن ناصبوا دين اللَّه العداء:

أنا همّكم أنا غمّكم أنا سقمكم ... أنا سمكم في السرّ والإعلان
لأقطعن بمعولي أعراضكم ... ما دام يصحب مهجتي جثماني
ولأهجونكم وأثلب حزبكم ... حتى تغيّب جثتي أكفاني
ولأهتكنّ بمنطقي أستاركم ... حتى أبلّغ قاصيًا أو داني
ولأهجون صغيركم وكبيركم ... نصراً لدين اللَّه والقرآن
ولأنزلن إليكم بصواعقي ... ولتحرقن كبودكم نيراني
ولأقطعن بسيف حقّي زوركم ... وليخمدن شواظكم طوفاني
ولأقصدن اللَّه في خذلانكم ... وليمنعن جميعكم خذلاني

ولأحملن على عتاة طغاتكم حمل الأسود على قطيع الضان
ولأرمينكم بصخر مجانقي حتى يهد عتوكم سلطاني
ولأكتبن إلى البلاد بسبّكم فيسير سير البزل بالبركان
ولأدحضن بحجتي شبهاتكم حتى يغطيَ جهلكم عرفاني
ولأغضبن لقول ربي فيكمُ غضب النمور وجملة العقبان
ولأضربنكم بصارم معولي ضربًا يزعزع أنفس الشجعان
ولأسعطنّ من الفضول أنوفكم سطعًا يعطس منه كل جبانِ

* **أخي**: كل ميدان من الميادين التي مرّت بك وذكرناها يحتاج إلى قائم للّه بحجة يرى أن القيام للّه وسد هذه الثغرة ورد شبه المجرمين والزود عن حياض الإسلام وحماه يفتح لك كوى من الفور تشرف منها على عالم الآخرة، وترى الجنة ببساتينها الفوّاحة لعلك تقول مقالة سعد بن معاذ ﷺ إني لأشم رائحة الجنة في دفاعي عن الإسلام في هذا الميدان. فما أكثر البساتين وما أقل الرجال الذين يعرفون قدرها.

* **أخي أيها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر**:

أنت للّه وباللّه ومع اللّه.

❑ قد صحبت اللّه بلا خلق، وصحبتَ الناس بلا نفْس، فواهًا لك!! ما أغربك بين الناس!! وما أشد وحشتك منهم!! وما أعظم أنسك باللّه وفرحك به!! وسكونك إليه وطمأنينتك به للّه درك!!.

* * *

أعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:
الدعـــوة إلى الاتبـــاع
والنهي عن الابتداع

أعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:
الدعوة إلى الاتباع والنهي عن الابتداع

طلب الحق أجلى بالنفوس الأبية من الشمس في رابعة النهار، وقطب تدور عليه همم الأخيار، وعُباب تنصبّ منه جداول شمائل الأطهار، ومتى علت الهمة في طلق الحق، حملت على مفارقة العوائد وطلب الأوابد «فإن الحق في مثل هذه الأعصار قلما يعرفه إلاّ واحد، وإذا عظم المطلوب قلّ المساعد، فإن البدع قد كثرت، وكثرت الدعاة إليها والتعويل عليها، وطالب الحق ـ اليوم ـ شبيه بطلاّبه في أيام الفترة، وهم سلمان الفارسي وزيد بن عمرو بن نفيل وأضرابهما، رحمهما اللَّه تعالى، فإنهم قدوة لطالب الحق، وفيهم له أعظم أسوة، فإنهم لما حرصوا على الحق، وبذلوا الجهد في طلبه، بلغّهم اللَّه إليه، وأوقفهم عليه، وفازوا من بين العوالم الجمّة، فكم أدرك الحق طالبُه في زمن الفترة! وكم عمي عنه المطلوب له في زمن النبوة! فاعتبر بذلك، واقتد بأولئك، فإن الحق ما زال مصونًا عزيزًا، نفيسًا كريمًا، لا يُنال مع الإضراب عن طلبه، وعدم التشوّف والتشوق إلى سببه، ولا يهجم على المبطلين المعرضين، ولا يُفاجئ أشباه الأنعام الغافلين، ولو كان كذلك ما كان على وجه الأرض مبطل ولا جاهل، ولا بطّال ولا غافل»[1].

* للَّه درّ من تمسّك بالسنّة ودعا إلى الاتباع ونهى عن الابتداع ولو غلت به القدور في ذات اللَّه:

للَّه درّ من «اتخذ اللَّه وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية مقصده

(١) «إيثار الحق على الخلق» للسيد مرتضى اليماني ص(٢٤) ـ مطبعة الآداب والمؤيد.

ومنتهى طلبه، واتخذ رسوله ﷺ ـ وحدهُ ـ دليله وإمامه وقائده وسائقه، فوحّد اللَّه بعبادته ومحبته وخوفه ورجائه، وإفراد رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدُّب بآدابه، وللعبد في كل وقت هجرتان: هجرةٌ إلى اللَّه بطلب والمحبة، والعبودية والتوكل، والإنابة والتسليم والتفويض، والخوف والرجاء والإقبال عليه، وصدق اللجأ والافتقار في كل نفسٍ إليه. وهجرةٌ إلى رسوله ﷺ في حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة، بحيث تكون موافقةً لشرعه الذي هو تفضيل محابّ اللَّه ومرضاته، ولا يقبل اللَّه من أحدٍ دينًا سواه، وكل عملٍ سواه فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد، قال بعض العارفين: كل عملٍ بلا متابعةٍ فهو عيش النفس»[1].

فهذا هو الغريب حقًّا «والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء. وأهل العلم في المؤمنين غرباء. وأهل السنة ـ الذين يميزونها من الأهواء والبدع ـ فيهم غرباء. والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين: هم أشدُّ هؤلاء غربة. ولكن هؤلاء هم أهل اللَّه حقًّا، فلا غربة عليهم. وإنما غربتهم بين الأكثرين، الذين قال اللَّه عز وجل فيهم: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**...﴾ [الأنعام: ١١٦] فأولئك هم الغرباء عن اللَّه ورسوله ودينه، وغربتهم هي الغربة الموحشة، وإن كانوا هم المعروفين المشار إليهم، كما قيل:

فليس غريبًا مَنْ تَناءَتْ دياره ولكنَّ مَن تنْـأَيْنَ عنه غَريبُ

غربة أهل اللَّه وأهل سنة رسوله بين هذا الخلق. وهي الغربة التي مدح رسول اللَّه ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به أنه: «**بدأ غريبًا**»، وأنه: «**سيعود غريبًا كما بدأ**»، وأن «**أهله يصيرون غرباء**».

وهذه الغربة قد تكون في مكانٍ دون مكان، ووقت دون وقت، وبين

---

(١) «طريق الهجرتين» لابن القيم الجوزية ص(٧).

قومٍ دون قوم. ولكن أهل هذه «الغربة» هم أهل اللَّه حقًّا؛ فإنهم لم يأووا إلى غير اللَّه، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به. وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم، فيقال لهم: «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده».

فهذه «الغربة» لا وحشة على صاحبها، بل هو آنسُ ما يكون إذا استوحش الناس، وأشدّ ما تكون وحشته إذا استأنسوا، فوليُّه اللَّه ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

ومن صفات هؤلاء الغرباء ـ الذين غبطهم النبي ﷺ: التمسك بالسنة إذا رغب عنها الناس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التوحيد وإن أنكر ذلك أكثر الناس، وترك الانتساب إلى أحدٍ غير اللَّه ورسوله؛ لا شيخ، ولا طريقة، ولا مذهب، ولا طائفة. بل هؤلاء الغرباء منتسبون إلى اللَّه بالعبودية له وحده، وإلى رسوله بالاتباع لما جاء به وحده. وهؤلاء هم القابضون على الجمر حقًّا. وأكثر الناس ـ بل كلهم ـ لائم لهم.

فلغربتهم بين هذا الخلق: يعدّونهم أهل شذوذٍ وبدعةٍ، ومفارقة للسواد الأعظم.

● ومعنى قول النبي ﷺ: «**هم النزاع من القبائل**»، أن اللَّه سبحانه بعث رسوله، وأهل الأرض على أديانٍ مختلفة، فهم بين عباد أوثان ونيران، وعباد صور وصلبان، ويهود وصابئة وفلاسفة، وكان الإسلام في أول ظهوره غريبًا، وكان من أسلم منهم، واستجاب للَّه ورسوله: غريبًا في حيّه وقبيلته وأهله وعشيرته، فكان المستجيبون لدعوة الإسلام نزّاعًا من القبائل، بل آحادًا منهم، تغرّبوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام، فكانوا هم

الغرباء حقًّا، حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته ودخل الناس فيه أفواجًا، فزالت تلك الغربة عنهم. ثم أخذ في الاغتراب والترحل، حتى عاد غريبًا كما بدأ. بل الإسلام الحق ـ الذي كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه ﷺ ـ هو اليوم أشدّ غُربةً منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامُه ورسومُه الظاهرةُ مشهورةً معروفةً. فالإسلام الحقيقيّ غريب جدًّا، وأهله غرباء أشدّ الغربة بين الناس.

وكيف لا تكون فرقةٌ واحدة قليلة جدًّا، غريبةً بين اثنتين وسبعين فرقة، ذات أتباع ورئاسات، ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلا بمخالفة ما جاء به الرسول؟! فإن نفس ما جاء يضادّ أهواءهم ولذاتهم، وما هم عليه من الشبهات والبدع التي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، والشهوات التي هي غاياتُ مقاصدهم وإراداتهم؟.

فكيف لا يكون المؤمن السائر إلى اللَّه على طريق المتابعة غريبًا بين هولاء الذين قد اتبعوا أهواءهم، وأطاعوا شحهم، وأعجب كلٌّ منهم برأيه؟! كما قال النبي ﷺ: «**مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شحًّا مطاعًا وهوًى متَّبعًا، ودنيا مُؤثرةً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرًا لا بد لك به فعليك بخاصّة نفسك. وإياك وعوامّهم؛ فإن وراءكم أيامًا صبر الصابر فيهن كالقابض على الجمر**». ولهذا جعل للمسلم الصادق في هذا الوقت ـ إذا تمسك بدينه ـ: أجر خمسين من الصحابة، ففي سنن أبي داود والترمذي ـ من حديث أبي ثعلبة الخشني ـ قال: سألت رسول اللَّه ﷺ عن هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥]، فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متَّبعًا، ودنيا مُؤثَرةً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام؛ فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض على**

الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله». قلت: يا رسول اللَّه، أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم». وهذا الأجر العظيم إنما هو لغربته بين الناس، والتمسك بالسنة بين ظلمات أهوائهم وآرائهم.

فإذا أراد المؤمن، الذي قد رزقه اللَّه بصيرةً في دينه، وفقهًا في سنة رسوله، وفهمًا في كتابه، وأراه ما الناس فيه: من الأهواء والبدع والضلالات، وتنكُّبهم عن الصراط المستقيم، الذي كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط: فليوطن نفسه على قدح الجهال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ. فأما إن دعاهم إلى ذلك، وقَدَح فيما هم عليه: فهنالك تقوم قيامتهم، ويبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيلِ كبيرهم ورَجله.

فهو غريب في دينه، لفساد أديانهم. غريبٌ في تمسكه بالسنة؛ لتمسكهم بالبدع. غريب في اعتقاده؛ لفساد عقائدهم. غريب في صلاته؛ لسوء صلاتهم. غريب في طريقه؛ لضلال وفساد طرقهم. غريب في نسبته؛ لمخالفة نسبهم. غريب في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم.

وبالجملة: فهو غريب في أمور دنياه وآخرته. لا يجد من العامة مساعدًا ولا مُعينًا. فهو عـالمٌ بين جُهّال. صاحب سنة بين أهل بدع. داعٍ إلى اللَّه ورسوله بين دعاةٍ إلى الأهواء والبدع. آمر بالمعروف، ناهٍ عن المنكر بين قومٍ المعروف لديهم منكر والمنكر معروف»[1].

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٩٦ ـ ٢٠٠).

● قال رسول اللَّه ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً»[1].

❑ قال ابن قيم الجوزية: «وهذه سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان. والرضا بنبيه رسولاً يتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من موقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيءٍ من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه. لا يرضى بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه. فإن عجز عنه، كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم. وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

لا يبقى في قلبه حرج من حكمه، ويسلم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلده وشيخه وطائفته.

ها هنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم. فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد، فإنه واللَّه عين العزة، والصحبة مع اللَّه ورسوله، وروح الأُنس به، والرضا به ربًّا، وبمحمد ﷺ رسولاً، وبالإسلام دينًا. بل الصادق كلما وجد مسَّ الاغتراب، وذاق حلاوته، وتنسّم روحه، قال: اللَّهم زدني اغترابًا، ووحشة من العالم، وأُنسًا بك. وكلما ذاق حلاوة هذا الاغتراب، وهذا التفرد، رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذل عين العزّ بهم، والجهل عين الوقوف مع آرائهم وزبالة أذهانهم، والانقطاع عن التقيّد برسومهم وأوضاعهم، فلم يؤثر نصيبه من اللَّه أحداً من الخلق، ولم يبع

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن العباس بن عبدالمطلب.

حظّه من اللَّه بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان.

وغايته: مودة بينهم في الحياة الدنيا، فإذا انقطعت الأسباب، وحقّت الحقائق، وبعثر ما في القبور، وحُصّل ما في الصدور، وبليت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوةٍ ولا ناصر، تبيّن له حينئذٍ مواقع الربح والخسران، وما الذي يخفّ أو يرجح به الميزان»[١].

● وقال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أُمّتي ظاهرين على الحق، حتى تقوم الساعة**»[٢].

● وقال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر اللَّه وهم ظاهرون**»[٣].

● وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر اللَّه، لا يضرُّهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر اللَّه، وهم ظاهرون على الناس**». رواه أحمد والبخاري ومسلم.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قوامةً على أمر اللَّه، لا يضرها من خالفها**»[٤].

❑ قال يزيد بن هارون: إن لم يكونوا أصحاب الحديث، فلا أدري من هم.

❑ وقال ابن المبارك: هم عندي أصحاب الحديث.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٢) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» عن عمر وصححه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧١٦٤).

(٣) رواه البخاري ومسلم عن المغيرة.

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧١٦٨).

❑ وقال ابن المديني: هم أصحاب الحديث.

❑ وقال ابن حنبل: «إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث، فلا أدري من هم».

❑ وقال البخاري: «يعني أصحاب الحديث». وقال: «هم أهل العلم».

فأهل الحديث ـ حشرنا اللَّه معهم ـ لا يتعصبون لقول شخصٍ معين مهمًا سما وعلا، حاشا محمدًا ﷺ، وهم الذين هدم اللَّه بهم كل بدعةٍ شنيعة، فهم أمناء اللَّه في خليقته، وهم الطائفة الظاهرة والفرقة الناجية، بل والأمة الوسط، الشهداء على الخلق.

الدعوة إلى الاتباع.. الدعوة إلى الكتاب والسنة: منهجٌ للحياة ومنهجٌ للفكر، ومنهجٌ للتصور، تطلق الإنسان من كل قيدٍ إلا ضوابط الفطرة.

● عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من نبيٍّ بعثه اللَّه في أمةٍ قبلي، إلا كان له من أمته حواريُّون، وأصحاب يأخذون بسنته، ويتقيدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[1].

● وقال ﷺ: «**إن أناسًا من أُمتي يأتون بعدي، يودّ أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله**»[2].

● وقال ﷺ: «**أشدّ أُمتي لي حبًّا قومٌ يكونون بعدي، يودّ أحدهم أنه**

---

(١) رواه أحمد ومسلم.

(٢) حسن: أخرجه الحاكم عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠٠٨).

فقد أهله وماله وأنه رآني»[١] .

حواريُّو الرسول من يأخُذون بسنَّته، ويتقيّدون بأمره، وهم أنصار سنته، يود أحدهم لو اشترى رؤيته بأهله وماله وولده، وهم أعلى الناس همة في اتباع هديه، وحث الناس على التمسك بسنته، وذم أهل البدع والتنفير منهم.

* قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ**﴾ [الصف: ١٤].

«هذا الموضع الكريم الذي يرفعهم اللَّه إليه، وهل أرفع من مكانٍ يكون فيه العبد نصيرًا للرب؟! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعيم.. كونوا أنصار اللَّه.. فما أجدر أتباع محمد ﷺ أن ينتدبُوا لهذا الأمر الدائم، كما انتدبَ الحواريُّون للأمر الموقوت.

وفي هذا استنهاضُ همة المؤمنين بالدين الأخير، الأُمناء على منهج اللَّه في الأرض، وورثة العقيدة والرسالة الإلهية، المختارين لهذه المهمة الكبرى، استنهاض همتهم لنصرة اللَّه ونصرة دينه. فما أطعمه من مذاق وما أعظمها من مهمة، وما أعلاها من همة.. أن تتَّبع وتقود الناس إلى الاتباع.

● عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يأتي على الناس زمانٌ، الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر**»[٢] .

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» عن أبي ذر، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٠٠٣).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٨٧٩)، =

● وعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن من ورائكم زمان صبرٍ، للمتمسِّك فيه أجر خمسين شهيداً منكم»[١].

● وعن ابن عمرو ﷺ قال: قال رسول اللَّه: «طوبى للغرباء، أناس صالحون في أناس سوءٍ كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم»[٢].

● وقال ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء»[٣].

وفي رواية جابر ﷺ: «الذي يصلحون إذا فسد الناس».

● وعن أبي موسى ﷺ، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مثل ما بعثني اللَّه به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع اللَّه بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أُخرى، إنما هي قيعانٌ لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين اللَّه ونفعه ما بعثني اللَّه به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى اللَّه الذي أُرسلت به». متفق عليه.

= و«الصحيحة» رقم (٩٥٥).

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٢٣٠).

(٢) صحيح: رواه أحمد وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٨١٦)، و«الصحيحة» رقم (١٦١٩).

(٣) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة، والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود ﷺ، وابن ماجه عن أنس ﷺ، والطبراني في «الكبير» عن سلمان وسهل بن سعد وابن عباس ﷺ.

❑ انظر إلى الصديق ﷺ يقول: «لست تاركًا شيئًا كان رسول اللَّه ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركتُ شيئًا من أمره أن أزيغ».

❑ وقال عمر ﷺ على المنبر: «ألا إن أصحاب الرأي أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فأفتوا برأيهم، فضلوا وأضلوا، ألا وإنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ما نضل ما تمسكنا بالأثر».

اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول اللَّه ﷺ برأي اجتهادًا، وواللَّه ما آلو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل، والكفار بين يدي رسول اللَّه ﷺ، وأهل مكة، فقال: «**اكتبوا بسم اللَّه الرحمن الرحيم**». فقالوا: إنا قد صدقناك بما تقول، ولكن تكتب: باسمك اللَّهم. قال: فرضي رسول اللَّه ﷺ وأبيت عليهم، حتى قال: «**يا عمر، تراني قد رضيت وتأبى؟!**» قال: فرضيت.

❑ وقال ابن مسعود ﷺ: «أيها الناس، لا تبتدعوا ولا تنطّعوا ولا تعمقوا، وعليكم بالعتيق». وقال: «اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم».

❑ قال عمرو بن زُرَارة: «وقف عليَّ عبداللَّه ـ يعني ابن مسعود ـ وأنا أقصُّ فقال: يا عمرو، لقد ابتدعت بدعة ضلالة، أو إنك لأهدى من محمد وأصحابه!! فلقد رأيتهم تفرقوا عني، حتى رأيت مكاني ما فيه أحد»[1].

«وعن يسار أبي الحكم أن عبداللَّه بن مسعود حدث أن أُناسًا بالكوفة يسبحون بالحصى في المسجد، فأتاهم وقد كوم كلُّ رجلٍ منهم بين يديه كومة حصى، قال: فلم يزل يحصبهم بالحصى حتى أخرجهم من المسجد، ويقول:

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير» بإسنادين، أحدهما صحيح كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب»، وأخرجه الدارمي بنحوه أتم منه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٢٧).

«لقد أحدثتم بدعةً ظلمًا، أو قد فضلتم أصحاب رسول اللَّه ﷺ علمًا!».

ومرّ عبداللَّه ﷺ برجل يقصُّ في المسجد على أصحابه وهو يقول: سبحوا عشرًا وهللوا عشرًا. فقال عبداللَّه: «إنكم لأهدى من أصحاب محمدٍ ﷺ أو أضل، بل هذه، بل هذه. يعني أضل».

وعن عبدة بن أبي لبابة أن رجلاً كان يجمع الناس فيقول: رحم اللَّه من قال كذا وكذا مرةً: سبحان اللَّه، قال: فيقول القوم، فيقول: رحم اللَّه من قال كذا وكذا مرةً: الحمد للَّه، قال: فيقول القوم. قال: فمر بهم عبداللَّه ابن مسعود ﷺ فقال: لقد هديتم لما لم يهتد له نبيكم، أو إنكم لمتمسكون بذنب ضلالة».

ومر ابن مسعود ﷺ بامرأةٍ معها تسبيح تسبح به، فقطعه وألقاه، ثم مر برجل يسبح بحصًى فضربه برجله، ثم قال: لقد سبقتم، ركبتم بدعة ظلمًا، أو لقد غلبتم أصحاب محمد ﷺ علمًا.

وجاء المسيب بن نجيد إلى عبداللَّه فقال: إني تركت في المسجد رجالاً يقولون: سبحوا ثلثمائة وستين، فقال: قم يا علقمة واشغل عني أبصار القوم، فجاء فقام عليهم فسمعهم يقولون، فقال: إنكم لتمسكون بأذناب ضلال، أو إنكم لأهدى من أصحاب محمد ﷺ، أو نحو هذا»[1].

نعم يا صاحب سواك رسول اللَّه ﷺ.. هذه آنيةُ محمد ﷺ لم تجفّ، وثيابه لم تبلُ.

*** عبداللَّه بن عباس، ترجمان القرآن ﷺ:**

قد كان لترجمان القرآن القدح المعلَّى في الاتباع.

«فعن عروة بن الزبير أنه قال لابن عباس ﷺ: أضللت الناس. قال:

(١) «البدع والنهي عنها» لابن وضّاح القرطبي ص(١٧ ـ ٢٠)، طبع دار الصفا.

وما ذاك يا عرية؟ قال: تأمر بالعمرة في هؤلاء العشر، وليست فيهن عمرة. فقال: أو لا تسأل أمك عن ذلك، فقال عروة: فإن أبا بكر وعمر لم يفعلا ذلك. فقال ابن عباس ﷺ: هذا الذي أهلككم، واللَّه ما أرى إلا سيعذبكم، إني أحدثكم عن النبي ﷺ وتجيبون بأبي بكر وعمر»[1].

وأخرج الدارمي عن ابن عباس ﷺ قال: أما تخافون أن تعذبوا ويخسف بكم؛ أن تقولوا: قال رسول اللَّه ﷺ وقال فلان!.

وعنه أيضًا: أيها الناس، توشك أن تنزل عليكم حجارةٌ من السماء، أقول لكم: قال رسول اللَّه ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وقال عمر!!.

للَّه درك من «طين عجن بماء الوحي، وغرس بماء الرسالة، فهل يفوح منك إلا مسك الهدى وعنبر التقى؟!».

❑ وأخرج الشافعي عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه لقي رجلاً فأخبره عن رسول اللَّه ﷺ شيئًا فخالفه، فقال أبو سعيد: واللَّه لا آواني وإياك سقف بيت أبدًا.

***عبداللَّه بن مُغفَّل ﷺ:**

أخرج الشيخان عن عبداللَّه بن بُريدة أن عبداللَّه بن مغفل رأى رجلاً يخذف فنهاه، وقال: إن رسول اللَّه ﷺ نهى عن الخذف، وقال: «**إنه لا يرد الصيد، ولا ينكأ العدو، ولكنه يكسر السن، ويفقأ العين**» فرآه بعد ذلك يخذف، فقال: أحدثك عن رسول اللَّه ﷺ ثم تخذف، واللَّه لا أكلمك أبدًا.

---

(١) رواه أحمد والخطيب في الفقيه والمتفقه بسند صحيح نقله في كتاب «العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون» علي حسن علي عبدالحميد، طبع مكتبة الغرباء الأثرية.

*عمرانُ بن حُصين رضي الله عنه :

وأخرج الشيخان عن عمران بن حصين أن قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «الحياءُ خير كله» فقال بشير بن كعب: إنا نجد في بعض الكتاب: أن منه سكينة ووقارًا، ومنه ضعفًا. فغضب عمران بن حصين حتى احمرت عيناه. وقال: أحدثك عن رسول اللَّه ﷺ وتعارض فيه. وفي رواية: «وتحدثني عن صحفك».

ولفظ ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق: قال بشير بن كعب: إن فيه ضعفًا، وإن منه لعجزًا. فقال عمران: أحدثك عن رسول اللَّه ﷺ وتجيء بالمعاريض، لا أحدثك بحديثٍ ما عرفتك. فقالوا: يا أبا نُجيد: إنه طيب الهوى.. وإنه.. وإنه، فلم يزالوا حتى سكن.

*** الإمام القدوة شيخ الإسلام المُتعبِّد المتهجِّد، المُتتبِّع للأثر المُتشدِّد أبو عبدالرحمن القرشّي العدويّ عبداللَّه بن عمر:**

ما ناقةٌ أضلت فصيلها في فلاة من الأرض بأطلب لأثره من ابن عمر لرسول اللَّه ﷺ.

قال نافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما: «لو نظرت إلى ابن عمر رضي الله عنهما إذا اتبع أثر النبي ﷺ، لقلت هذا مجنون».

«وعن عاصم الأحول عمن حدثه قال: كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا رآه أحدٌ ظن أن به شيئًا من تتبعه آثار النبي ﷺ».

«وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان في طريق مكة يقول برأس راحلته يثنيها ويقول: لعل خُفًا يقع لي على خُفٍّ؛ يعني خُفّ راحلة النبي ﷺ»[1].

---

(١) «الحلية» (١/ ٣١٠)، «السير» (٣/ ٢٣٧).

بأبي وأمي أنت أبا عبدالرحمن.. هذه واللَّه الرجولة.. وهذا واللَّه الاتباع..

«لعل خفًّا يقع لي على خفٍّ».. رحمك اللَّه يا ابن الفاروق.

وهل يُنبِت الخطِّيَّ إلا وَشِيجُهُ ويُزرَعُ إلا في منابته النخلُ

❑ وعن زيد بن أسلم قال: رأيت ابن عمر يصلي محلولةً أزراره، فسألته عن ذلك. فقال: رأيت رسول اللَّه ﷺ يفعله[1].

❑ وعن مجاهد قال: «كنا مع ابن عمر ـ رحمه اللَّه ـ في سفر، فمر بمكان، فحاد عنه، فسئل: لم فعلت ذلك؟ قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ فعل هذا؛ ففعلت»[2].

❑ وعن ابن عمر ﷺ: «أنه كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها، ويخبر أن رسول اللَّه ﷺ كان يفعل ذلك»[3].

❑ وعن أنس بن سيرين قال: «كنت مع ابن عمر ـ رحمه اللَّه ـ بعرفات، فلما كان حين راح، رحت معه، حتى أتى الإمام فصلى معه الأولى والعصر، ثم وقف وأنا وأصحابٌ لي، حتى أفاض الإمام، فأفضنا معه، حتى انتهى إلى المضيق دون المأزمين، فأناخ وأنخنا، ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي، فقال غلامه الذي يمسك راحلته: إنه ليس يريد الصلاة، ولكنه ذكر أن النبي ﷺ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته فهو يحب أن

---

(١) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» والبيهقي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٢٢ ـ ٢٣).

(٢) رواه أحمد والبزار، وقال المنذري: إسناده جيد. وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٢٣).

(٣) رواه البزار، وقال المنذري: إسناده لا بأس به.

يقضي حاجته»[1].

● روى مسلم عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم**».

❑ قال سالم بن عبدالله: فقال بلال بن عبدالله: والله لنمنعهن. قال سالم: فأقبل عليه عبد الله؛ فسبه سَبًّا سيِّئًا، ما سمعته سبه مثله، وقال: أخبرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهن؟!

* **محمد بن سيرين:**

وحدث ابن سيرين رجلاً بحديثٍ عن النبي ﷺ، فقال له رجل: قال فلان كذا وكذا. فقال ابن سيرين: أحدثك عن النبي ﷺ، وتقول: قال فلان وفلان، والله لا أكلمك أبدًا.

* **نجيبُ بَني أميّةَ أمير المؤمنين مجدّد الدين عمرُ بن عبدالعزيز:**

❑ قال فيه عروة بن أذينة يرثيه:

وَأحيَيْتَ في الإسلام علمًا وسنّةً ... ولم تبتدعْ حُكمًا من الحُكمْ أسْحَمَا

فَفِي كلِّ يَوْمٍ كنتَ تهدمُ بدعةً ... وتبني لنا من سُنَّةٍ ما تَهدَّما

ومن كلامه الذي عني به، ويحفظه العلماء، وكان يعجب مالكًا جدًّا. قال: «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننًا، الأخذ بها تصديقٌ لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحدٍ تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من عمل بها مهتدٍ، ومن انتصر بها منصورٌ، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه

(١) رواه أحمد، وقال المنذري: رواته محتج بهم في «الصحيح». وصححه الألباني في «الترغيب والترهيب» (١/ ٢٣).

جهنم وساءت مصيراً».

ولما بايعه الناس صعد المنبر، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، إنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد سنتكم سنةٌ، ولا بعد أمتكم أمةٌ، ألا وإن الحلال ـ ما أحل اللَّه في كتابه وعلى لسان نبيه ـ حلالٌ إلى يوم القيامة، ألا وإن الحرام ـ ما حرم اللَّه في كتابه وعلى لسان نبيه ـ حرام إلى يوم القيامة، ألا وإني لست بمبتدع، ولكني متبع، ألا وإني لست بقاضٍ ولكني منفذٌ، ألا وإني لست بخازنٍ ولكني أضع حيث أمرت، ألا وإني لست بخيركم ولكني أثقلكم حملاً، ألا ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ثم نزل.

وعند اللالكائي (١/ ٥٦) عن أبي المليح قال: «كتب عمر بن عبدالعزيز بإحياء السنة وإماتة البدعة».

وكتب له عدي بن أرطاة يستشيره في بعض القدرية فكتب إليه: «أما بعد، فإني أُوصيك بتقوى اللَّه والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون فيما قد جرت سنته وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإن السنة إنما سنها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك بما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم عن علمٍ وقفوا وببصرٍ نافذٍ قد كفوا، وهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضل كانوا فيه أحرى، فلئن قلتم: أمرٌ حدث بعدهم. ما أحدثه بعدهم إلا من اتبع غير سننهم، ورغب بنفسه عنهم. إنهم لهم السابقون، فقد تكلموا منه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مُقصِّرٌ، وما فوقهم محسر، لقد قصر عنهم آخرون فقلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدًى مستقيم»[1].

(١) «الاعتصام» (١/ ٤٩ ـ ٥٠) للشاطبي. وسنن أبي داود (٤/ ٢٠٣)، و«الشريعة» للآجري (١/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥)، و«الحلية» (٥٣٣٥) لأبي نعيم.

هذا المجدّد العظيم الذي ماكان يُبالي لو غلت به وبأهله القدور في ذات اللَّه عز وجل حتى يعيد الأمر إلى مجراه الأول.

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ في أصحاب القدر: يستتابون، فإن تابوا، وإلاّ نُفوا من ديار المسلمين.

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «ينبغي لأهل القدر أن يتقدم إليهم فيما أحدثوا من القدر، فإن كفوا وإلا استلت ألسنتهم من أقفيتهم استلالاً»[1].

❑ وكان عمر بن عبدالعزيز يكتب في كتبه: إني أحذركم ما مالت إليه الأهواء والزيغ البعيدة[2].

وأفحم عمر بن عبدالعزيز غيلان الدمشقي وألقمه حجرًا، وقال لغيلان: «إنك إن أقررت بالعلم خصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحد فتكفر». فلما ولى غيلان قال عمر: «اللَّهم إن كان كاذبًا بما قال ـ في ادعائه التوبة ـ فأذقه حر السلاح».

وفي رواية: «اللَّهم إن كان صادقًا فتب عليه، وإن كان كاذبًا فاجعله آية للمؤمنين».

وفي رواية: فسلِّط عليه من يمثل به.

وأظهر غيلان مقالته مرة أخرى بعد موت عمر، فلما وَلِيَ هشام أرسل إليه، فقال له: أليس قد كنت عاهدت اللَّه لعمر لا تتكلم في شيء من هذا أبدًا؟ قال: أقلني فواللَّه لا أعود. قال: لا أقالني اللَّه إن أقلتك. اذهبا فاقطعا يديه ورجليه، واضربا عنقه واصلباه.

وكتب رجاء بن حيوة إلى هشام أمير المؤمنين: «بلغني أنه دخلك من

---

(١) «مناقب عمر بن عبدالعزيز» لابن الجوزي ص(٨٣ ـ ٨٤).

(٢) «الاعتصام» (١/٨٦).

قبل غيلان وصالح، فأقر بالله، لقتلهما أفضل من قتل ألفين من الترك والديلم».

❑ وقال إبراهيم بن أبي عبلة: «أصاب والله فيه القضية والسنة، ولأكتبن إليه فلأحسن له»[١].

❑ وكان الحسن البصري سيد زمانه علمًا وعملاً يقول: «من وقرّ صاحب بدعة فقد سعى في هدم الإسلام».

❑ وقال ـ رحمه الله ـ: «لا تجلس إلى صاحب بدعةٍ، فإنه يُمرِض قلبك ويُفسِد عليك دينك».

❑ والإمام الجبل سليمان بن طرخان التيمي.

قال عنه سعيد بن عامر: مرض سليمان التيمي فبكى في مرضه بكاءً شديدًا، فقيل له: ما يبكيك، أتجزع من الموت؟ قال: لا، ولكن مررت على قدري فسلمت عليه، فأخاف أن يحاسبني ربي عز وجل عليه[٢].

*** وإمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ:**

«قال إسحاق بن عيسى: قال مالك: أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله»[٣].

❑ وقال ـ رحمه الله ـ: «سن رسول الله ﷺ، وولاة الأمر بعده سننًا، الأخذ بها اتباعٌ لكتاب الله، واستكمالٌ لطاعة الله، وقوةٌ على دين الله، ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٤/ ٧١٤ ـ ٧١٧)، «الآجُريّ في الشريعة» ص(٢٢٩)، وابن بطة في «الإبانة» (٢/ ٣٣٤).

(٢) «حلية الأولياء» (٣/ ٢٨).

(٣) «الحلية» (٦/ ٣٢٤)، و«السير» (٨/ ٩٩).

اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصورٌ، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه اللَّه ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً»[١].

❑ كان ـ رحمه اللَّه ـ كثيراً ما ينشد:

وخيْرُ أمورِ الدِّين ما كان سُنَّةً وشرُّ الأُمورِ المُحْدَثَاتُ البدائِعُ[٢]

❑ وقال عبدالرحمن بن مهدي: قد سئل مالك بن أنس عن السنة، قال: ما لا اسم له غير السنة، وتلا ﴿**وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله**﴾.

وأما ذمه للبدع وأهلها، فهو الإمام.

«قال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: ما آية في كتاب اللَّه أشدُّ على أهل الاختلاف من أهل الأهواء من هذه الآية: ﴿**يوم تبيضُّ وجوه**﴾ إلى قوله: ﴿**بما كنتم تكفرون**﴾ قال مالك: فأي كلام أبين من هذا؟ فرأيته يتأولها لأهل الأهواء. ورواه ابن القاسم وزاد: قال لي مالكٌ: إنما هذه الآية لأهل القبلة»[٣].

❑ وقال يحيى بن خلف الطرسوسي ـ وكان من ثقات المسلمين ـ: كنت عند مالك، فدخل عليه رجل، فقال: يا أبا عبداللَّه، ما تقول فيمن يقول: القرآن مخلوق، فقال مالك: زنديقٌ، اقتلوه. فقال: يا أبا عبداللَّه، إنما أحكي كلامًا سمعته. قال: إنما سمعته منك، وعظم هذا القول»[٤].

❑ وقال مالك: القدرية لا تناكحوهم، ولا تصلوا خلفهم[٥].

---

(١) «السير» (٨/ ٩٨)، و«الحلية» (٦/ ٣٢٤).

(٢) «الاعتصام» (١/ ٨٥).

(٣) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٥٦).

(٤) «الحلية» (٦/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥)، و«السير» (٨/ ٩٩).

(٥) «ترتيب المدارك» للقاضي عياض (١/ ١٧٦)، و«السير» (٨/ ١٠٢، ١٠٣).

«قال معن: انصرف مالكٌ يومًا، فلحقه رجل يقال له: أبو الجويرية، متَّهمٌ بالإرجاء، فقال: اسمع مني شيئًا أُعلمك به وأحاجك وأخبرك برأيي. قال: احذر أن أشهد عليك. قال: واللَّه ما أُريد إلا الحق، فإن كان صوابًا. فقل به، أو فتكلم. قال: فإن غلبتني؟ قال: اتبعتني. قال: فإن غلبتك؟ قال: اتبعك. قال: فإن جاء رجل فكلمنا. فغلبنا؟ قال: اتبعناه. فقال مالك: يا هذا، إن اللَّه بعث محمدًا ﷺ بدين واحد، وأراك تتنقل»[1].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: الجدال في الدين ينشئُ المراء، ويذهب بنور العلم من القلب، ويُقسِّي ويورث الضغن.

❑ قال القاضي عياض: «قال أبو طالب المكي: كان مالكٌ ـ رحمه اللَّه ـ أبعد الناس من مذاهب المتكلمين، وأشد نقضًا للعراقيين. ثم قال القاضي عياض: قال سفيان بن عيينة: سأل رجلٌ مالكًا، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فسكت مالك حتى علاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء منه معلومٌ، والكيف منه غير معقول، والسؤال عن هذا بدعةٌ، والإيمان به واجبٌ، وإني لأظنك ضالاً. أخرجوه. فناداه الرجل: يا أبا عبداللَّه، واللَّه قد سألت عنها أهل البصرة والكوفة والعراق، فلم أجد أحدًا وفق لما وفقت له»[2].

جاء رجل إلى مالك فسأله عن مسألة، فقال له: قال رسول اللَّه ﷺ كذا وكذا، فقال الرجل: أرأيت؟ فقال مالكٌ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) «ترتيب المدارك» (١/ ١٧٠)، و«السير» (٨/ ١٠٦).

(٢) «السير» (٨/ ١٠٦ ـ ١٠٧)، و«ترتيب المدارك» (١/ ١٧٠ ـ ١٧١).

* الإمامُ الرَّبَّانِّي: ابنُ أبي ذِئبٍ:

❑ قال ابن سماك بن الفضل الشهابي: «حدثني ابن أبي ذئبٍ بحديثٍ عن رسول اللَّه ﷺ، فقلت له: يا أبا الحارث أتأخذ بهذا؟ فضرب صدري وصاح علي صياحًا كثيرًا، ونال مني، وقال: أحدثُكَ عن رسول اللَّه ﷺ وتقول: تأخذ به؟! نعم آخذ به، وذلك الفرض عليّ وعلى من سمعه، إن اللَّه تبارك وتعالى اختار محمدًا ﷺ من الناس، فهداهم به وعلى يديه، واختار لهم ما اختار له على لسانه؛ فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك. قال: وما سكت حتى تمنيت أن يسكت»[1].

* وإمام أهل الشام شيخ الإسلام الأوزاعي:

هذا الإمام العظيم الذي «أجاب في سبعين ألف مسألة بالأثر» وكأن لحمه ودمه سيط بالاتباع فلا يعدوه.

❑ قال ابن عيينة: كان الأوزاعي والثوري بمنى، فقال الأوزاعي للثوري: لم لا ترفع يديك في خفض الركوع ورفعه؟ فقال: حدثنا يزيد بن أبي زياد.. فقال الأوزاعي: اروى لك الزهري عن سالم، عن أبيه عن النبي ﷺ، وتعارضني بيزيد رجل ضعيف وحديثه مخالف للسنة. فاحمر وجه سفيان، فقال الأوزاعي: كأنك كرهت ما قلت؟ قال: نعم. فقال: قم بنا إلى المقام نلتعن أينا على الحق. قال: فتبسم سفيان لمَّا رآه قد احتد»[2].

سبحان اللَّه.. بمثل الأوزاعي حفظ اللَّه الأرض.. يحتد من أجل السنة على جبل السنة والاتباع: الثوري.

---

(١) «الحجة في بيان المحجة لقوّام السنة» إسماعيل الأصبهاني (١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) دار الراية.
(٢) «السير» (٧/ ١١٢ ـ ١١٣).

❑ قال الأوزاعي: عليك بآثار من سلف، وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال، وإن زخرفوه لك بالقول، فإن الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم.

وقال: العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئ عنهم فليس بعلم[١].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: ما ابتدع رجل بدعة، إلا سلب الورع[٢].

*** وأمير المؤمنين في الحديث سفيان الثوري جبل في الاتباع والدعوة إليه:**

❑ قال عنه بشر بن الحارث الحافي: كان الثوري عندنا إمام الناس، وقال: سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما.

❑ قال الثوري ـ رحمه اللَّه ـ: «استوصوا بأهل السنة خيرًا، فإنهم غرباء».

❑ قال سفيان ـ رحمه اللَّه ـ: من أصغى بسمعه إلى صاحب بدعةٍ وهو يعلم، خرج من عصمة اللَّه ووكل إلى نفسه. وقال: من سمع ببدعةٍ فلا يحكها لجلسائه، لا يلقها في قلوبهم.

❑ قال الذهبي في «السير» (٧/ ٢٦١): «قلت: أكثر أئمة السلف على هذا التحذير؛ يرون أن القلوب ضعيفة، والشبه خطافة».

❑ قال رجل لسفيان: رجل يكذب بالقدر، أأصلِّي وراءه؟ قال: لا تقدموه، قال: هو إمام القرية، ليس لهم إمام غيره. قال: لا تقدموه، لا تقدموه، وجعل يصيح.

---

(١) «السير» (٧/ ١٢٠).

(٢) «السير» (٧/ ١٢٥).

❑ وقال سفيان: «البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها»[١].

❑ قال بشر بن منصور: سمعت سفيان الثوري يقول، وسأله رجل فقال: على بابي مسجدٌ، إمامه صاحب بدعة؟ قال: لا تصل خلفه. قال: تكون الليلة المطيرة وأنا شيخ كبير؟ قال: لا تُصَلِّ خلفه.

وقال له رجل: أوصني. قال: إياك والأهواء، إياك والخصومة، إياك والسلطان.

❑ قال سفيان ـ رحمه اللَّه ـ: «لا يستقيم قولٌ إلا بعمل، ولا يستقيم قولٌ وعملٌ إلا بنية، ولا يستقيم قولٌ وعملٌ ونيةٌ إلا بموافقة السنة»[٢].

❑ قال يوسف بن أسباط: قال سفيان: يا يوسف، إذا بلغك عن رجل بالمشرق صاحب سنة فابعث إليه السلام، وإذا بلغك عن آخر بالمغرب صاحب سنة فابعث إليه بالسلام، فقد قل أهل السنة والجماعة[٣].

*** وشيخ الإسلام عبداللَّه بن المبارك:**

قال: ليكن مجلسك مع المساكين، وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة[٤].

*** والإمام الرباني أبو إسحاق الفزاري:**

الإمام الذي أدّب أهل الثغر، وعلّمهم السنة، وكان يأمر وينهى. وإذا

---

(١) «الحلية» (٧/ ٢٦).
(٢) «الحلية» (٧/ ٣٢).
(٣) «الحلية» (٧/ ٣٤).
(٤) «السير» (٨/ ٣٩٩).

دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه.

❑ وقال ابن عيينة: «ما أعلم أحدًا من أهل الإسلام أجدى وأدفع عن أهل الإسلام من أبي إسحاق الفزاري»[١].

نعم واللَّه، فقد «كان الفزاري عظيم الغناء في الإسلام» كما قال أبو حاتم، وكم ذَبَّ عن السنة.

«يروى أن هارون الرشيد أخذ زنديقًا ليقتله، فقال الرجل: أين أنت من ألف حديثٍ وضعتها؟ قال: فأين أنت يا عدو اللَّه من أبي إسحاق الفزاري وابن المبارك يتخللانها، فيخرجانها حرفًا حرفًا».

* وسيد شباب أهل البصرة..فتى الفتيان، وسيد العبَاد والرهبان.. المنوَر بالاتباع والإيمان أيوب السختياني:

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: إذا حدثت الرجل بسنة فقال: دعنا من هذا، وأنبئنا عن القرآن، فاعلم أنه ضال.

«قال سلام بن أبي مطيع: رأي أيوب رجلاً من أصحاب الأهواء فقال: إني لأعرف الذلة في وجهه، ثم تلا: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، ثم قال: هذه لكل مفترٍ. وكان يسمي أصحابَ الأهواء خوارج، ويقول: إن الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السيف»[٢].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: إن الذين يتمنون موت أهل السنة يريدون أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم.

❑ وعن سلام بن أبي مطيع: قال رجل من أهل الأهواء لأيوب:

---

(١) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/ ٢٨٣).

(٢) «الحلية» (٣/ ٩)، و«السير» (٦/ ٢١).

أكلمك كلمة. قال: لا، ولا نصف كلمة.

وفي رواية: يا أبا بكر، أسألك عن كلمة؟ فولى وهو يقول: ولا نصف كلمة، مرتين.

وعن هشام بن حسان: قال أيوب: ما ازداد صاحب بدعةٍ اجتهادًا إلا ازداد من اللَّه بعدًا.

* نَاصِرُ السُّنَّة الإمام المُطَّلبِي الشَّافعِي:

❑ قال أحمد بن حنبل عن الشافعي: لقد كان يذبُّ عن الآثار.

❑ وقال الربيع بن سليمان: قال الشافعي: قد أعطيتك جملةً تغنيك إن شاء اللَّه: لا تدع لرسول اللَّه ﷺ حديثًا أبدًا، إلا أن يأتي عن رسول اللَّه ﷺ خلاف، فتعمل بما قلت لك في الأحاديث إذا اختلفت.

❑ وقال الشافعي: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول اللَّه ﷺ، فقولوا بسنة رسول اللَّه ﷺ، ودعوا ما قلت.

وقال: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط[1].

وقال: إذا وجدتم سنة من رسول اللَّه ﷺ خلاف قولي فخذوا بالسنة، ودعوا قولي؛ فإني أقول بها.

وقال: كل مسألةٍ تكلمت فيها صح الخبر فيها عن النبي ﷺ عند أهل النقل، بخلاف ما قلت ـ فأنا راجعٌ عنها في حياتي وبعد موتي.

وقال: كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي، وإن لم تسمعوه مني[2].

---

(١) «السير» (١٠/ ٣٥).

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي ص(٤٧٣)، و«السير» (١٠/ ٣٥).

وقال: كل ما قلت وقال النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولى، ولا تقلدوني.

❑ وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول، وروى حديثًا، فقال له الرجل: تأخذ بهذا يا أبا عبداللَّه؟ فقال: متى رويتُ عن رسول اللَّه ﷺ حديثًا صحيحًا فلم آخذ به والجماعة، فأشهدكم أن عقلي قد ذهب، وأشار بيده على رءوسهم.

❑ وقال الحميدي: سأل رجلٌ الشافعي بمصر عن مسألة، فأفتاه وقال: قال النبي ﷺ كذا. فقال الرجل: أتقول بهذا؟ قال: أرأيت في وسطي زنَّارًا؟ أتراني خرجت من الكنيسة؟! أقول: قال النبي ﷺ وتقول لي: أتقول بهذا؟ أروي عن رسول اللَّه ﷺ ولا أقول به!![1].

❑ وقال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول، وسأله رجل عن مسألة فقال: روي عن النبي ﷺ أنه قال كذا وكذا. فقال له السائل: يا أبا عبداللَّه، أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي واصفر لونه وقال: ويحك، أي أرضٍ تقلني، وأي سماء تظلني، إذا رويت عن رسول اللَّه ﷺ شيئًا فلم أقل به؟! نعم، على الرأس والعينين، على الرأس والعينين[2].

وقال: كل متكلم عن الكتاب والسنة فهو الجد، وما سواه هذيان.

وقال: «لا يقال: لم؟ للأصل، ولا كيف» ويعني بالأصل: القرآن والسنة.

وقال الشافعي: لم أسمع أحدًا نسبته عامة، أو نسب نفسه إلى علم ـ يخالف في أن فرض اللَّه: اتباع أمر رسول اللَّه ﷺ والتسليم لحكمه؛

(١) «مناقب الشافعي» ص(٤٧٤)، و«الحلية» (٩/١٠٦)، و«توالي التأسيس في مناقب الشافعي محمد بن إدريس» للحافظ ابن حجر ص(٦٣).

(٢) «مناقب الشافعي» ص(٤٧٥).

فإن اللَّه لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وإنه لا يلزم قول بكل حال إلا بكتاب اللَّه أو سنة رسوله ﷺ، وإن ما سواهما تبع لهما. وإن فرض اللَّه علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول اللَّه ﷺ واحد، لا يختلف فيه أنه الفرض، وواجب قبول الخبر عن رسول اللَّه ﷺ.

❑ قال الربيع بن سليمان: قال الشافعي: اسقني قائمًا، فإن النبي ﷺ شرب قائمًا.

❑ قال سالم: قالت عائشة رضي الله عنها: طيبت رسول اللَّه ﷺ بيدي، وسنة رسول اللَّه ﷺ أحقُّ أن تُتَّبع.

❑ قال الشافعي: وهكذا ينبغي أن يكون الصالحون من أهل العلم. فأما ما تذهبون إليه من ترك السنة لغيرها، وترك ذلك الغير لرأي أنفسكم، فالعلم إذن إليكم، تأتون منه ما شئتم، وتدعون منه ما شئتم[1].

❑ وقال الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ: من تبع سنة رسول اللَّه ﷺ وافقته، ومن غلط فتركها خالفته. صاحبي الذي لا أفارقه اللازم الثابت عن رسول اللَّه ﷺ وإن بعد، والذي أفارق من لم يقبل سنة رسول اللَّه ﷺ وإن قرب[2].

❑ قال الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ: «لولا أصحاب المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر».

❑ قال قتيبة بن سعيد: مات الثوري ومات الورع، ومات الشافعي وماتت السنن، ويموت أحمد وتظهر البدع[3].

---

(١) «الأم» للشافعي (٧/ ٢٠٠)، و«المناقب» (١/ ٤٨٤).

(٢) «مناقب الشافعي» للبيهقي (١/ ٤٨٥).

(٣) «السير» (١٠/ ٤٦)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٢٥٠).

وكان ـ رحمه اللَّه ـ شديدًا على المبتدعة، دائب التحذير من البدع: قال يونس بن عبداللَّه: قال الشافعي: قال صاحبنا الليث بن سعد: لو رأيت صاحب هوًى يمشي على الماء ما قبلته. فقال الشافعي: أما إنه قصر، لو رأيته يمشي في الهواء ما قبلته[1].

وقال: لأن يلقى اللَّه العبدُ بكل ذنبٍ ما خلا الشِّرك باللَّه خير من أن يلقاه بشيء من الأهواء. أي البدع.

❑ وقال الشافعي: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيءٍ، واللَّه ما توهمته قط، ولأن يبتلى المرء بجميع ما نهى اللَّه عنه، ما خلا الشرك باللَّه، خير من أن يبتليه اللَّه بالكلام.

ودخل حفص الفرد ـ وكان الشافعي يسميه المنفرد ـ على الشافعي فكلمه، ثم خرج فقال: لأن يلقى اللَّهَ العبدُ بذنوبٍ مثل جبال تهامة خير له من أن يلقاه باعتقاد حرفٍ مما عليه هذا الرجل وأصحابه، وكان يقول بخلق القرآن. وكفر الشافعي حفصًا الفرد.

❑ قال الربيع: لقيت حفصًا الفرد فقال: أراد الشافعي قتلي.

❑ وقال الشافعي: ما ارتدى أحدٌ بالكلام فأفلح.

وقال: لو علم الناس ما في الكلام والأهواء لفروا منه كما يفرون من الأسد. وقال: ما شيء أبغض إليَّ من الكلام وأهله.

❑ وقال الشافعي: حكمي في أهل الكلام حكم عمر في صبيغ.

❑ وقال الزعفراني: سمعنا الشافعي يقول: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر، ينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

---

(١) «مناقب الشافعي» ص(٤٥٣).

وقال: مذهبي في أهل الكلام تقنيع رءوسهم بالسياط، وتشريدهم في البلاد.

❑ قال الذهبي: هذا النفس الزكي متواتر عن الشافعي.

❑ وسئل الشافعي عن شيء من الكلام فغضب وقال: سل عن هذا حفصًا الفرد وأصحابه، أخزاهم اللَّه.

❑ وقال الشافعي للربيع: يا ربيع، اقبل مني ثلاثة: لا تخوضن في أصحاب رسول اللَّه ﷺ، فإن خصمك النبي ﷺ غدًا، ولا تشتغل بالكلام، فإني قد اطلعت من أهل الكلام على التعطيل، وزاد المزني: ولا تشتغل بالنجوم.

❑ ودخل الشافعي على المأمون وعنده بشر المريسي، فقال أمير المؤمنين للشافعي: أتدري من هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. قال: هذا بشر المِريسّي. قال: فقال الشافعي لبشر: أدخلك اللَّهُ أسفل السافلين، مع فرعون وهامان وقارون.

❑ قال الربيع: انحدر علينا الشافعي من درجته يومًا وهم يتجادلون في القدر، فصاح: إما أن تقوموا عنا أو تجاورونا بخير.

ولما نقض إبراهيم بن إسماعيل ابن علية كلام الشافعي في «تثبيت خبر الواحد» قال الشافعي: ابن عليّة ضالٌّ، قد جلس عند باب الضّوال يضل الناس.

❑ وقال المزني: «كنت أنظر في الكلام قبل أن يقدم الشافعي، فلما قدم أتيته، فسألته عن مسألة من الكلام، فقال لي: تدري أين أنت؟ قلت: نعم، في مسجد الفسطاط. قال أنت في «تاران» تلطمك أمواجه ـ وتاران موضعٌ في بحر القلزم، لا تكاد تسلم منه سفينة ـ ثم ألقى عليّ مسألة في الفقه، فأجبت، فأدخل شيئًا أفسد جوابي، فأجبت بغير ذلك، فأدخل شيئًا أفسد

جوابي، فجعلت كلما أجبت بشيء أفسده، ثم قال لي: هذا الفقه الذي فيه الكتاب والسنة وأقاويل الناس، يدخله مثل هذا، فكيف الكلام في رب العالمين؟ الذي فيه الزلل كثير؟! فتركت الكلام وأقبلت على الفقه»[1].

وفي رواية أخرى: قال المزني: «قلت: إن كان أحد يخرج ما في ضميري، وما تعلق به خاطري من أمر التوحيد فالشافعي، فصرت إليه، وهو في مسجد مصر، فلما جثوت بين يديه، قلت: هجس في ضميري مسألة في التوحيد، فعلمت أن أحدًا لا يعلم علمك، فما الذي عندك؟ فغضب، ثم قال: أتدري أين أنت؟ قلت: نعم، قال: هذا الموضع الذي أغرق اللَّه فيه فرعون. أبلغك أن رسول اللَّه ﷺ أمر بالسؤال عن ذلك؟ قلت: لا، قال: هل تكلم فيه الصحابة؟ قلت: لا، قال: تدري كم نجمًا في السماء؟ قلت: لا، قال: فكوكب منها؛ تعرف جنسه، طلوعه، أفوله، مِمَّ خُلِق؟ قلت: لا، قال: فشيء تراه بعينك من الخلق لست تعرفه، تتكلم في علم خالقه؟! ثم سألني عن مسألة في الوضوء، فأخطأت فيها، ففرعها على أربعة أوجه، فلم أُصب في شيء منه، فقال: شيءٌ تحتاج إليه في اليوم خمس مرات تدع علمه، وتتكلف علم الخالق، إذا هجس في ضميرك ذلك، فارجع إلى اللَّه، وإلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٣ - ١٦٤]. فاستدل بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك. قال: فتبت»[2].

❑ قال أحمد بن حنبل: إن اللَّه يُقيض للناس في رأس كل مائة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول اللَّه ﷺ الكذب، قال: فنظرنا، فإذا في

(١) «السير» (١٠/ ٢٦، ٣١ ـ ٣٢).
(٢) «السير» (١٠/ ٢٦، ٣١ ـ ٣٢).

رأس المائة عمر بن عبدالعزيز، وفي رأس المائتين الشافعي»[1].

* **شيخ المُحدّثين وقامع البدع: يزيد بن هارون:**

انظر إلى قامع البدع الذي يخشاه ويرهبه المأمون. قال ابن الجوزي: «كان هارون الرشيد يقول: بلغني أن بشر بن غياث يقول: القرآن مخلوق، وللَّه عليّ إن أظفرني به لأقتلنه قتلةً ما قتلتها أحدًا».

❑ قال أحمد: فكان بشر متواريًا أيام هارون نحوًا من عشرين سنة، حتى مات هارون، فظهر ودعا إلى الضلالة، وكان من المحنة ما كان.

فلما توفي الرشيد كان الأمر كذلك في زمن الأمين، فلما ولي المأمون خالطه قوم من المعتزلة فحسنوا له القول بخلق القرآن، وكان يتردد في حمل الناس على ذلك، ويراقب بقايا الأشياخ، ثم قوي عزمه على ذلك فحمل الناس عليه.

❑ قال ابن أكثم: قال لنا المأمون: لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت أن القرآن مخلوق. فقال بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، ومن يزيد حتى يتقى؟ قال: فقال: ويحك. إني أخاف إن أظهرته فيردّ عليّ فيختلف الناس وتكون فتنة، وأنا أكره الفتنة. قال: فقال الرجل: فأنا أخبر ذلك منه، فقال له: نعم. فخرج إلى واسط، فجاء إلى يزيد فدخل عليه المسجد وجلس إليه، فقال له: يا أبا خالد، إن أمير المومنين يقرئك السَّلام، ويقول لك: إني أُريد أن أظهر أن القرآن مخلوق، قال: فقال: كذبت على أمير المؤمنين، لا يحمل الناس على ما لا يعرفونه، فإن كنت صادقًا فاقعد إلى المجلس، فإذا اجتمع الناس فقل. قال: فلما أن كان الغد اجتمع الناس فقام فقال: يا أبا خالد، رضي اللَّه عنك، إن أمير المؤمنين يقرئك السَّلام ويقول لك: إني

(١) «السير» (١٠/٤٦).

أردت أن أُظهر أن القرآن مخلوق، فما عندك في ذلك؟ قال: كذبت على أمير المؤمنين، أمير المؤمنين لا يحمل الناس على ما لا يعرفونه، وما لم يقل به أحد. قال: فقدم فقال: يا أمير المؤمنين، كنت أعلم، كان من القصة كيت وكيت. فقال له: ويحك تلعب بك»[1].

فانظر إلى الشيخ الأثري الذي يخاف أميرُ المؤمنين جنابه، ولا يستطيع إظهار البدعة خوفًا منه.. انظر إليه وهو يتلعَّب بحاشية وخواص أمير المؤمنين ويقمع البدعة على ملأ من الناس.

*** معلم الخير وإمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه اللَّه ـ:**

رحم اللَّه ابن حنبل.. ما قام أحد بالسنّة وللسنّة مثلما قام، ويكفيه شرفًا ثباته ودفاعه عن القرآن وعقيدة أهل السنة.

❑ يقول علي بن المديني: «إن اللَّه عز وجل أعز هذا الدين برجلين، ليس لهما ثالث إلى يوم القيامة، بأبي بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة. وقد كان لأبي بكر الصديق أصحاب وأعوان، وأحمد ليس له أعوانٌ ولا أصحاب».

❑ وقال المزني: أحمد بن حنبل يوم المحنة، وأبو بكر يوم الردة، وعمر يوم السقيفة، وعثمان يوم الدار، وعلي يوم صفين.

فبُـورِكَ مولودًا وبـورك ناشئًا ... وبُورِك كهلاً من أمـينٍ معَـدَّلِ
وبورك مقبوضًا وبـورك مُلْحَدًا ... وبـورك مبعوثًا إلى خيـر منزلِ
وبَعْدُ فإن السّـنة اليوم أصبحتْ ... مُعـزَّزةً حتى كـأنْ لم تـذللِ
تصول وتسـطو إذ أقيم منارها ... وحُطَّ مَنَارُ الإفـك والزُّور من عَلِ

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٣٨٥ ـ ٣٨٦).

وولى أخو الإبداع في الدّين هاربًا إلى النار يهوي مدبرًا غير مقبلِ

❑ قال أبو عمير الطالقاني: سمعتهم يقولون: أحمد بن حنبل قرة عين الإسلام.

❑ وقال أبو حاتم الرازي: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل، فاعلم أنه صاحب سنة. وهو المحنة بيننا وبين أهل البدع.

❑ وقال أبو الحسن الهمداني: «أحمد بن حنبل محنة، به يعرف المسلم من الزنديق»[1].

تعالَ يا أخي إلى الإمام الذي لو كان في بني إسرائيل لكان آية، وإلى تمسكه بالسنة والأثر، يقول ابن الجوزي:

«كان رضي الله عنه شديد الاتباع للآثار؛ حتى إنه بلغنا عن أبي الحسين بن المنادي أنه قال: استأذن أحمد زوجته في أن يتسرَّى طلبًا للاتباع فأذنت له، فاشترى جاريةً بثمنٍ يسير وسماها ريحانة، استنانًا برسول اللَّه ﷺ.

❑ وقال الحسن بن أيوب البغدادي: قيل لأبي عبداللَّه أحمد بن حنبل: أحياك اللَّه يا أبا عبداللَّه على الإسلام. قال: والسنة.

❑ قال عبدالملك الميموني: ما رأت عيني أفضل من أحمد بن حنبل، وما رأيت أحدًا من المحدثين أشد تعظيمًا لحرمات اللَّه عز وجل وسنة نبيه ﷺ، إذا صحت عنده، ولا أشد اتباعًا منه.

❑ قال أبو بكر الأثرم: سمعت أبا عبداللَّه أحمد بن حنبل يقول: إنما هو السنة والاتباع، وإنما القياس أن يقيس على أصل، أما أن تجيء إلى الأصل فتهدمه ثم تقول: هذا قياس، فعلى أي شيءٍ كان هذا القياس.

---

(١) «مناقب الإمام أحمد».

❑ وقال المروذي: قال لي أحمد: ما كتبت حديثًا عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به، حتى مرّ بي في الحديث أن النبي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة دينارًا؛ فأعطيت الحجام دينارًا حين احتجمت.

❑ قال أبو بكر المروذي: قلت لأبي عبدالله: من مات على الإسلام والسنة مات على خير؟ فقال لي: اسكت، من مات على الإسلام والسنة مات على الخير كله»[1].

«قال أبو داود: قلت لأحمد: الأوزاعي هو أتبع أم مالك؟ قال: لا تقلِّد دينك أحدًا من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به، ثم التابعين بعد، الرجل فيهم مخير.

❑ وقال أبو داود: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه، ثم هو من بعد مع التابعين مخيّر. وقال أحمد أيضًا: «لا تقلِّدني، ولا تقلد مالكًا، ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا». وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلّد دينه الرجال.

❑ قال ابن القيم: ولأجل هذا لم يؤلف الإمام أحمد كتابًا في الفقه، وإنما دون أصحابه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته وغير ذلك»[2].

❑ قال ـ رحمه الله ـ: «من عظم أصحاب الحديث تعظم في عين رسول الله ﷺ، ومن حقرهم سقط من عين رسول الله ﷺ؛ لأن أصحاب الحديث أحبار رسول الله ﷺ.

❑ قال الفضل بن أحمد الزبيدي: سمعت أحمد بن حنبل يقول، وقد

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» (٢٢٩ ـ ٢٣٤).

(٢) «إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار» لصالح بن محمد الفلاّني ص(١١٣).

أقبل أصحاب الحديث وبأيديهم المحابر، فأومأ إليها وقال: هذه سرج الإسلام.

❑ وقال أبو عمران المالكي: رأى أحمد بن حنبل أصحاب الحديث وقد خرجوا من عند محدث، والمحابر بأيديهم، فقال أحمد: إن لم يكونوا هؤلاء الناس فلا أدري من الناس.

❑ وقال عمر بن بكار القافلاني: سمعت أحمد بن حنبل يقول: إن لم يكن أصحاب الحديث الأبدال فمن يكون.

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: من ردَّ حديث رسول اللَّه ﷺ فهو على شفا هلكة»[1].

* **أخي**: لقد كان يوم موت أحمد نصراً لأهل السنة.. فما ظنك برجل نصر السنة حتى في يوم موته.. فكيف نصره للسنة في حياته:

❑ قال عبداللَّه بن أحمد: «سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز». ولمَّا مات ـ رحمه اللَّه ـ كانت جنازته أكبر جنازة في تاريخ الإسلام.

❑ قال عبدالوهاب الوراق: «ما بلغنا أن جمعًا كان في الجاهلية والإسلام مثله، حتى بلغنا أن الموضع مسح وحزر على التصحيح، فإذا هو نحو من ألف ألف، وحزرنا على السور نحواً من ستين ألف امرأة. وفتح الناس أبواب المنازل في الشوارع والدروب، ينادون من أراد الوضوء».

❑ وقال أبو زرعة: بلغني أن المتوكل أمر أن يُمسح الموضع الذي وقف عليه الناس، حيث صُلِّي على أحمد بن حنبل، فبلغ مقام ألف ألف

(١) «مناقب الإمام أحمد».

وخمسمائة ألف.

«قال محمد بن إبراهيم البوشنجي: صلوا على أحمد بن حنبل في المصلى، وظهر اللعن على الكرابيسيّ. فأخبر بذلك المتوكل فقال: من الكرابيسي؟ فقيل: إنه رجل أحدث قولاً لم يتقدمه أحد، فأمره بلزوم بيته حتى مات.

❑ وقال جعفر بن محمد النسوي: شهدت جنازة أحمد بن حنبل وفيها بَشَرٌ كثير، والكرابيسي يلعن لعنًا كثيرًا بأصوات عالية، والمريسي أيضًا.

❑ قال عبدالوهاب الوراق: أظهر الناس في جنازة أحمد بن حنبل السنة والطعن على أهل البدع، فسر اللَّه المسلمين بذلك على ما عندهم من المصيبة؛ لِمَا رأوْا من العز وعلو الإسلام، وكبتَ اللَّه أهل البدع والزيغ والضلالة»[1].

للَّه درّك يا ابن حنبل من إمامٍ لأهل السنة.. بأبي هو وأمي، ما كان أعمق فهمه لعقيدة أهل السنة، يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «لا يكون صاحب الكلام ـ إن أصاب كلامه السنة ـ من أهل السنة حتى يدع الجدل ويُسَلِّم»[2].

وهو نفس المحكي عن ابن المديني: «الكلام في القدر وغيره من السنة مكروه، ولا يكون صاحبه ـ وإن أصاب السنة بكلامه ـ من أهل السنة حتى يدع الجدل ويسلم ويؤمن بالإيمان».

نعم، إن من خاض في شيء من علم الكلام لا يعتبر من أهل السنة، وإن أصاب كلامه السنة، حتى يدع الجدل ويسلم للنصوص، فلم يشترطوا موافقة السنة فحسب بل التلقي والاستمداد منها، فمن تلقى من السنة فهو

(١) «مناقب الإمام أحمد» ص(٥٠٦ ـ ٥٠٧).
(٢) «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (١/ ١٥٧).

من أهلها وإن أخطأ، ومن تلقى من غيرها فقد أخطأ، وإن وافقها في النتيجة[١] .

انظر رحمك اللَّه إلى شدة اتباع أحمد بن حنبل:

اختفى أحمد أيام الواثق عند إبراهيم بن هانئ. قال إبراهيم: اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام، ثم قال: اطلب لي موضعًا حتى أتحوَّل إليه. قلت: لا آمن عليك يا أبا عبداللَّه. فقال: افعل، فإذا فعلت أفدتك، وطلبت له موضعًا. فلما خرج قال لي: اختفى رسول اللَّه ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم تحوّل، وليس ينبغي أن يُتَّبع رسول اللَّه ﷺ في الرخاء ويترك في الشدة[٢] .

*** للَّه دَرُّك إمام أهل السنة:**

ولابن حنبل الصِّدِّيق نورُ هدى ... حتى القيامة مثل البدر في الغَسَقِ
وفَضْله بين أهل الفضل مُشتهرٌ ... وإصبعاه من الزِّنْديق في الحَدَقِ

*** إعراضه عن أهل البدع وذمّه لهم:**

❑ قال أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل: كنت أنا وأحمد بن الحسن الترمذي عند أحمد بن حنبل، فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبداللَّه، ذكروا لابن أبي قُتيلة بمكة أصحاب الحديث فقال: قوم سوء. فقام أحمد وهو ينفض ثوبه فقال: زنديق زنديق زنديق. ودخل بيته.

❑ وقال صالح بن أحمد: جاء الحزامي إلى أبي، وقد كان ذهب إلى

---

(١) «منهج الأشاعرة في العقيدة» للدكتور سفر الحوالي.
(٢) «مناقب الإمام أحمد» ص(٤٣٠).

ابن أبي دؤاد، فلما خرج إليه ورآه أغلق الباب في وجهه ودخل.

❑ وقال أبو داود السجستاني: قلت لأبي عبداللَّه: أرى رجلاً من السنة مع رجل من أهل البدع، أترك كلامه؟ قال: لا، أو تعلمه أن الذي رأيته معه صاحب بدعة، فإن ترك كلامه وإلا فألحقهُ به. قال ابن مسعود: «المرء يخدنه».

❑ وقال الحسن بن ثواب: قال لي أحمد بن حنبل: ما أعلم في زمان أحوج منهم إلى طلب الحديث من هذا الزمان. قلت: ولم؟ قال: ظهرت بدعٌ، فمن لم يكن عنده حديث وقع فيها.

للَّه دَرُّك يا إمام، ما أفطنك.

❑ قال حسان بن عطية: ما ابتدع قوم بدعةً في دينهم إلا نزع اللَّه من سنَّتهم مثلها، ثم لا يعيدها إليهم إلى يوم القيامة.

وسئل أحمد بن حنبل عن الوساوس والخطرات، فقال: ما تكلَّم فيها الصحابة ولا التابعون.

❑ وقال أبو القاسم النصر أباذي: بلغني أن الحارث المحاسبي تكلم في شيء من الكلام فهجره أحمد بن حنبل، فاختفى في دارٍ ببغداد ومات فيها، ولم يُصَلِّ عليه إلا أربعة نفرٍ.

أرسل الإمام أحمد إلى المتوكل: «إن أهل البدع والأهواء لا ينبغي أن يستعان بهم في شيءٍ من أمور المسلمين، فإن في ذلك من أعظم الضرر على الدين، مع ما عليه رأي أمير المؤمنين ـ أطال اللَّه بقاءه ـ من التمسك بالسنة والمخالفة لأهل البدع»[1].

❑ وقال الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ: قبورُ أهل السنة من الفُسَّاق روضةٌ

(١) «مناقب الإمام» ص(٢٣٣).

من رياض الجنة، وقبورُ أهل البدع من الزُّهاد حفرة من حفر النار»[١] .

*** زهر البساتين من ثبات الإمام أحمد بن حنبل إمام العلماء الربانيين:**

ذلكم الجبل الذي أعطى المجهود من نفسه.

❑ قال أبو غالب ابن بنت معاوية: ضُرِب أحمد بن حنبل بالسياط في اللَّه، فقام مقام الصديقين، في العشر الأواخر من رمضان سنة عشرين ومائتين.

● عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«يأتي على الناس زمان؛ الصابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر»**[٢] .

● وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن من ورائكم زمان صبر، للمتمسّك فيه أجر خمسين شهيداً منكم»**[٣] .

أُخِذ أحمد بن حنبل في محنة خلق القرآن أيام المأمون، ليُحمل إلى المأمون ببلاد الروم، وأُخِذَ معه أيضًا معه محمد بن نوح مقيَّدَيْن، ومات المأمون قبل أن يلقاه أحمد، فُردّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح في أقيادهما، فمات محمد بن نوح في الطريق، ورُدّ أحمد إلى بغداد مقيّدًا.

❑ ودخل على الإمام أحمد بعض حفّاظ الحديث بالرّقة وهو محبوس، فجعلوا يُذاكرونه ما يُروى في التقية من الأحاديث، فقال أحمد: وكيف تصنعون بحديث خباب: **«إن من كان قبلكم كان يُنشر أحدهم بالمنشار، ثم لا يصده ذلك عن دينه»؟!** فيئسوا منه.

---

(١) «مناقب الإمام» ص(٢٣٦ ـ ٢٤١).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٨٧٩)، و«الصحيحة» رقم (٩٥٥).

قال الإمام أحمد: كنت أُصلي بأهل السجن وأنا مقيّد.

ولما مات المأمون، رُدّ أحمد إلى بغداد فسُجن، إلى أن امتحنه المعتصم.

«قال أبو بكر المروزي: لما سُجِن أحمد بن حنبل، جاء السجّان فقال له: يا أبا عبدالله، الحديث الذي رُوِي في الظَّلَمة وأعوانهم صحيح؟ قال: نعم. قال السجّان: فأنا مِن أعوان الظلمة؟ قال أحمد: فأعوان الظلمة مَنْ يأخذ شعْرَك، ويغسل ثوبك، ويُصلح طعامك، ويبيع ويشتري منك، فأمّا أنا فمن أنفُسهم»[1].

للّه درّ ابن حنبل، وضعوا في رجلة أربعة قيود، وهو إمام أهل السنّة!!

«لما أمر المعتصم بحمل أحمد إليه ـ وكان قد سجنوه في رمضان سنة تسع عشرة، في دار إسحاق بن إبراهيم ـ دخل عليه إسحاق فقال: يا أحمد، إنها واللّه نفسك، إنه لا يقتلك بالسيف، إنه قد آلى إن لم تجبه أن يضربك ضربًا بعد ضرب، وأن يُلقيك في موضعٍ لا ترى فيه الشمس، وجيء إلى أحمد بدابّة، فحُمِل عليها وعليه الأقياد، وكاد غير مرّة أن يخرّ على وجهه، لثقل القيود، فجيء به إلى دار المعتصم، وأدخلوه في حجرة، وأدخلوه إلى بيت، وأُقفل الباب عليه، وذلك في جوف الليل، وليس في البيت سراج، فلما كان الغد، أخرجوه إلى الخليفة ليناظره أحمد بن أبي دؤاد، والمعتصم يقول: واللّه لئن أجابني لأُطلقن عنه بيدي، ولأركبن إليه بجندي، ولأطأن عقبه. ثم قال: يا أحمد، واللّه إني عليك لشفيق، وإني لأشفق عليك كشفقتي على هارون ابني، ما تقول؟ فأقول: أعطوني شيئًا من كتاب اللّه عز وجل أو سنّة رسوله. ومرة أخرى يقول المعتصم لأحمد: ما كنت تعرف صالحًا الرشيدي؟ قال أحمد: قد سمعت باسمه. قال: كان مؤدبي، وكان في

(١) «مناقب الإمام أحمد» ص(٣٩٧).

ذلك الموضع جالسًا ـ وأشار إلى ناحية من الدار ـ فسألته عن القرآن فخالفني؛ فأمرت به فوُطِئ وسُحِب. وبعد ثلاثة أيام من المناظرة والإمام أحمد يُفحم المبتدعة، قال المعتصم: العقابين والسياط، فجيء بهم.

❑ قال إبراهيم البوشنجي: ذكروا أن المعتصم رقّ في أمر أحمد لمّا عُلِّق في العقابين، ورأى ثبوته وتصميمه، وصلابته في أمره، حتى أغراه ابن أبي دؤاد، وقال له: إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون، وسخِطت قوله، فهاجه ذلك على ضربه.

«قال صالح: قال أبي: لما جيء بالسياط، نظر إليها المعتصم، فقال: ائتوني بغيرها، فأُتي بغيرها، ثم قال للجلادين: تقدّموا، فجعل يتقدم إليّ الرجل فيضربني سوطين، فيقول له ـ يعني المعتصم ـ: شُدَّ قطع اللَّه يدك! ثم يتنحّى، ثم يتقدم الآخر فضربني سوطين، وهو في كل ذلك يقول لهم: شُدُّوا، قطع اللَّه أيديكم، فلما ضُرِبت تسعة عشر سوطًا، قام إلى ـ يعني المعتصم ـ فقال: يا أحمد، علام تقتل نفسك؟! إني واللَّه عليك شفيق، قال: فجعل عُجيف ينخسني بقائم سيفه، وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟ وجعل بعضهم يقول: ويلك! الخليفة على رأسك قائم. وجعل عبدالرحمن يقول: ويحك يا أحمد! من صنع من أصحابك في هذا الأمر ما تصنع؟! قال: وجعل المعتصم يقول: ويحك يا أحمد! أجبني إلى شيء لك فيه أدنى فَرَج، حتى أطلق عنك بيدي. قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئًا من كتاب اللَّه عز وجلّ أو سنّة رسوله حتى أقول به. قال: فرجع فجلس، فقال للجلاّدين: تقدّموا، فجعل الجلاّد يتقدّم ويضربني سوطين ويتنحّى، وهو في خلال ذلك يقول: شُدَّ، قطع اللَّه يدك. قال أبي: فذهب عقلي، فأفقتُ بعد ذلك، فإذا الأقياد قد أُطلقت عني، فقال رجل ممّن حضر: إنا كببناك على وجهك، وطرحنا على ظهرك باريّة، ودُسناك. قال أبي: فما

شعرتُ بذلك، وأتوني بسُوَيق فقالوا لي: اشرب وتقيّأ. فقلت: لست أُفطر. ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم، فحضرت صلاة الظهر فتقدّم ابن سماعة فصلى، فلما انفتل من الصلاة، قال لي: صلَّيْت والدم يسيل في ثوبك؟! فقلتُ: قد صلى عمر وجُرحه يثغب دمًا»[1].

ثم خلي عنه فصار إلى منزله، فمكث في السجن منذ أُخِذ وحمل، إلى أن ضُرِب وخُلِّي عنه ثمانية وعشرين شهرًا.

قال بعض الجلادين الذين ضربوا الإمام أحمد: لقد بطل أحمد الشُّطار، واللَّه لقد ضربته ضربًا لو أُبرك لي بعير فضربته ذلك الضرب، لنقبت عن جوفه.

وقال شاباص التائب: لقد ضربت أحمد بن حنبل ثمانين سوْطًا، لو ضربته فيلاً لهدَّتْه.

يرحم اللَّه إمام أهل السنة، للَّه درّه ودر أم أنجبته فأوحدت به.

❑ قال علي بن المديني: «إن اللَّه أعز الإسلام برجلَيْن لا ثالث لهما: أبو بكر يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة، بل إن أبا بكر له أعوان، ولم يكن لأحمد بن حنبل أعوان».

❑ قال ابن الجوزي: هذا رجل هانت عليه نفسه في اللَّه فبذلها، كما هانت على بلال نفسه.

وقد روينا عن سعيد بن المسيب أنه كانت نفسه عليه في اللَّه تعالى، أهون من نفس ذباب، وإنما تهون عليهم أنفسهم لتلمحهم العواقب، فعيون البصائر، ناظرة إلى المآل لا إلى الحال، وشدة ابتلاء أحمد دليل على قوة دينه، لأنه قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**يبتلى الرجلُ على حسب دينه**» فسبحان من أيّده وبصّره، وقوّاه ونصره!!

(١) «مناقب الإمام أحمد» ص(٤٠٥ ـ ٤٠٧).

قافلة النور تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فتبتلى

قد ضرب الربانيون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أروع الأمثلة في القيام بالحق، وأن لا تأخذهم في اللَّه لومة لائم.

وكم للربانيين على مدار التاريخ من مواقف أنصع من ضوء النهار! بيّض اللَّه وجوههم كما بيّضوا وجه التاريخ. . وكانوا شامة الحسن فيه.

❑ قال ابن الجوزي: «وما زال الناس يُبتلون في اللَّه تعالى ويصبرون، وقد كانت الأنبياء تُقتل، وأهل الخير في الأمم السابقة يُقَتلون ويحرّقون، ويُنشر أحدهم بالمنشار، وهو ثابت على دينه، وقد سُمَّ نبينا ﷺ، وسُمّ أبو بكر، وقتل عمر وعثمان وعلي، وسُمّ الحسن، وقُتل الحسين بن علي، وابن الزبير، والضحّاك بن قيس، والنعمان بن بشير، وصُلب خُبيب بن عدي.

وقتل الحجاج عبدالرحمن بن أبي ليلى، وعبداللَّه بن غالب الحدّاني، وسعيد بن جبير، وأبا البختري الطائي، وكميل بن زياد، وحطيطًا الزيّات، وماهان الحنفي، صلبه، وصلب قبله ابن الزبير.

وقتل الواثق أحمد بن نصر الخزاعي وصلبه.

*** فأما من ضُرب من كبار العلماء:**

فعبدالرحمن بن أبي ليلى: ضربه الحجاج أربعمائة سوط، ثم قتله.

وخبيب بن عبداللَّه بن الزبير: ضربه عمر بن عبدالعزيز بأمر الوليد مائة سوط، فكان عمر إذا قيل له: أبشر. قال: كيف بخبيب على الطريق؟!

وأبو الزناد: ضربه بنو أمية.

وأبو عمرو بن العلاء: ضربة بنو أمية خمسمائة سوط.

وربيعة الرأي: ضربه بنو أمية.

وعطية العوفي: ضربه الحجاج أربعمائة سوط.

ويزيد الضبّي: ضربه الحجّاجُ أربعمائة سوط.

وثابت البناني: ضربه ابن الجارود خليفة ابن زياد.

وعبدالله بن عون: ضربه بلال بن أبي بردة سبعين سوطًا.

ومالك بن أنس: ضربه المنصور سبعين سوطًا في يمينِ المُكرَه، وكان مالك يقول: لا تلزمُه اليمين.

وأبو السّوار العدوي: وعقبة بن عبدالغافر: ضُرِبَا بالسياط.

ولأحمد بن حنبل في هؤلاء الأئمة أسوةٌ»[1].

«دخل الحارث بن مسكين على الإمام أحمد، فقال له: أخبرني يوسف ابن عمر بن يزيد، عن مالك بن أنس: أن الزهريّ سُعي به حتى ضُرِبَ بالسياط، فقيل لمالك بعد ذلك: إن الزهريّ قد أُقيم للناس وعُلِّقَت كتُبه في عنقه. فقال مالك: قد ضُرب سعيد بن المسيب بالسياط، وحُلِقَ رأسه ولحيتُه، وضُرب أبو الزناد بالسياط، وضُرِبَ محمد بن المنكدر وأصحابٌ له في حمّامٍ بالسياط. قال: وقال عمر بن عبدالعزيز: لا تغبطوا أحدًا لم يصبه في هذا الأمر أذًى. فأعجب أحمد بقول الحارث»[2].

قيل للشافعي: يُبتلى الرجلُ خيرٌ له أم يُمكَّن؟ قال: لا يُمكَّنُ حتى يُبتلى.

ضربُوا ابن حنبل بالسياطِ بظُلْمهم ... بغْيًا فَثُبِّتَ بالثباتِ الأنْورِ

قال المُوَفَّقُ حينَ مُدِّد بينهمْ ... مدّ الأديم معَ الصعيدِ القرْقرِ

إني أموتُ ولا أبوءُ بِفَجْرَةٍ ... تصلى بوائقُها محلَّ المفتري

للَّه دره!!

هانتْ عليه نفسُهُ في دينِه ... فَفَدَى الإمامُ الدينَ بالجُثْمَانِ

للَّهِ مَا لَقِيَ ابنُ حنبلَ صابراً ... عزمًا وينصرُهُ بلا أعوانِ

(١) «مناقب الإمام أحمد» ص(٤٢٢ ـ ٤٢٣).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» ص(٤٢١ ـ ٤٢٢).

❑ قال بشر الحافي ـ رحمه اللَّه ـ: إنّ ابن حنبل طار بحظّها وغنائها في الإسلام.

❑ قال إسحاق بن راهويه: لولا أحمد بن حنبل وبذلُ نفسه لما بذلها له؛ لذهب الإسلام.

وعن أبي هيثم العابد قال: «كنتُ عند بشر بن الحارث، فجاءه رجلٌ فقال: قد ضُرب أحمد بن حنبل إلى السَّاعة سبعةَ عشرَ سوطًا، قال: فمدَّ بشرٌ رجله، وجعل ينظر إلى ساقيه ويقول: ما أقبحَ هذا الساقَ أن لا يكون القيدُ فيه نصرة لهذا الرجل».

وقالوا لبشر: ألا صنعتَ كما صنع ابن حنبل. فقال: تريدون مني مرتبةَ النبوة، لا يقوى بدني على هذا، حَفِظَ اللَّه أحمد؛ من بين يديه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله.

«وقال بشرٌ: أُدخلَ أحمدُ الكيرَ، فخرج ذهبًا أحمر. قال علي بن خشرم: فبلغ ذلك أحمد، فقال: الحمد للَّه الذي رَضَّى بشرًا بما صنعنا»[1].

وما أروع ما كتب مصطفى صادق الرافعي، بقلمه النيّر ـ للَّه درُّه ـ: «كنتُ لا أزال أعجب من صبر شيخنا أحمد بن حنبل، وقد ضُرب بين يدي المعتصم بالسياط حتى غُشي عليه، فلم يتحوَّل عن رأيه، فعلمتُ الآن أنّه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمي، ولو هو صبر على هذا صبر الإنسانِ لَجَزِعَ وتحوّل، ولو ضُرب ضرب الإنسان لتألَّم وتغيّر، ولكنه وضع في نفسه معنى ثبات السنة وبقاء الدين، وأنه هو الأمّة كلُّها لا أحمد بن حنبل، فلو تحوّل لتحوّل الناس، ولو ابتدع لابتدعوا، فكان صبره صبر أمَّة كاملة، لا صبر فرد، وكان يُضرب بالسياط ونفسه فوق معنى الضرب، فلو قرضوه بالمقاريض ونشروه بالمناشير،

(١) «مناقب الإمام» ص(١٥٧).

لما نالوا منه شيئًا؛ إذ لم يكن جسمُه إلا ثوبًا عليه ،وكان الرجل هو الفكر ليس غير.

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل، ولكنهم يرونها أمانات قد ائتُمنوا عليها من اللَّه، لتبقى بهم معانيها في هذه الدنيا، فهم يُزرعون في الأمم زرعًا بيد اللَّه، ولا يملك الزرع غير طبيعته، وما كان المعتصم ـ وهو يريد شيخنا على غير رأيه وعقيدته ـ إلا كالأحمق، يقول لشجرة التفاح: أثمري غير التفاح»[1].

*** الإمام أسد بن الفرات وشدّته على المعتزلة وأهل البدع:**

كان ـ رحمه اللَّه ـ ذات يوم يُقرأ عليه في تفسير المسيب بن شُريك ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢١ ـ ٢٢]، وسليمان الفرّاء المعتزلي حاضر، فقال: من الانتظار يا أبا عبداللَّه؟ فأخذ أسد بتلابيبه وأخذ بيده الأخرى نعلاً وقال: يا زنديق لتقولنها أو لأبيضن بها عينيك، فقال سليمان: نعم ننظره، وقيل: ضربه حتى أدماه وطرده من مجلسه»[2].

*** محنة الإمام سحنون وتلاميذه في محنة خلق القرآن وثباتهم حتى هُزمت المعتزلة:**

كان المعتزلة في بادئ الأمر في ذلّة وهوان؛ولكن اعتناق حكّام القيروان الأغالبة لعقيدتهم عزّز جانبهم وأعطاهم قوة ومنعة ونفوذًا، وحاول الأغالبة إرغام الناس على اعتناق عقيدة المعتزلة والقول بخلق القرآن، فلم يجار المالكية بني الأغلب في مقالتهم المملاة عليهم من الخلفاء العباسيين في

(١) من «وحي القلم» لمصطفى صادق الرافعي.

(٢) «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك» (٣/ ٣٠٢) طبع وزارة الأوقاف المغربية.

بغداد.

وقد نزل بكثير من المالكية الأذى والضرّ برفضهم القول بخلق القرآن ولا سيما الإمام سحنون بن سعيد التنوخي، ذلك أنه لما تولى أحمد بن الأغلب إمارة القيروان، أخذ الناس بالمحنة بالقول بخلق القرآن، فجمع قوّاده، وقاضيه ابن أبي الجواد الحنفي، ودعا سحنون بن سعيد فقال له: ما تقول في القرآن؟ فقال سحنون: أما شيء أبتديه من نفسي فلا، ولكني سمعتُ من تعلّمت منه وأخذت عنه كلهم يقولون: القرآن كلام اللَّه غير مخلوق، فقال ابن أبي الجواد، كَفَر فاقتله، ودمه في عنقي، غير أن الأمير أحمد لم يأخذ بهذا الرأي، ولكنه حكم على سحنون بالإقامة الجبرية في منزله، ومنعه من الفتوى[١].

ولما رفض سحنون أن يصلي خلف ابن أبي الجواد لقوله بخلق القرآن سعى به إلى الأمير زيادة اللَّه بن الأغلب، فأمر الأمير عامله على القيروان بضرب سحنون خمسمائة سوط، وحلق رأسه ولحيته، ولو لا أن الوزير علي ابن حميد بادر إلى الأمير فأقنعه بالعدول عن هذا القرار لما تخلّص سحنون من هذه العقوبة[٢].

وقد فرّ يحيى بن عمر الكندي تلميذ سحنون إلى سوسة من أمام ابن عبدون القاضي الحنفي بالقيروان لطرده العراقيين من مجلسه، وعدم قوله بخلق القرآن، وبعث ابن عبدون يطلبه، وأمر أن يُؤتي إليه موثقًا إن وُجد ولكنهم لم يتمكنوا منه وظل مختفيًا بسوسة حتى توفي ـ رحمه اللَّه ـ[٣].

❑ كما توارى محمد بن سحنون التنوخي المتوفي عام ٢٥٦هـ خوفًا

(١) «ترتيب المدارك» (٤/ ٧١).
(٢) المصدر السابق (٤/ ٦٩ ـ ٧٠).
(٣) المصدر السابق (٤/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤).

على نفسه من سليمان بن عمران قاضي محمد بن الأغلب لمخالفته له في المذهب ورفضه القول بخلق القرآن، حتى لجأ إلى الأمير محمد بن الأغلب، فرفع يد سليمان عنه، وأمّنه، فردّ سليمان غيظه على أصحاب ابن سحنون، فأخذ فرات بن محمد وضربه بالسياط[١].

وقد امتحن كثير من فقهاء المالكية في مسألة خلق القرآن وأصروا على التمسك بالكتاب والسنة والثبات على عقيدة السلف، حتى كُتب لهم النصر وهُزِمت المعتزلة.

❑ يقول الدكتور حسن أحمد محمود: «فلما امتحن أهل المغرب بمحنة خلق القرآن، وتفشّت آراء المعتزلة، والقدرية، كان المالكيّون أشد الناس لهم حربًا وأكثرهم عنفًا في مقاومتهم، وامتُحِنوا في سبيل ذلك، فصبروا على الإيذاء، وتمسكوا بالكتاب والسنة، ونافحوا عنها منافحة الأبطال، حتى كُتب لهم الظفر، وأُعِزّ بهم الإسلام، ورفع كتابه وسنة نبيه، وهُزِمت المعتزلة، حتى لم يبق لها بالقيروان رأي ولا أتباع، ولم يجد الأمراء مفرًّا من النزول على رأي المالكية»[٢].

❑ قال الإمام الذهبي في ترجمة الإمام أبي سعيد عبدالسلام بن حبيب المعروف بسحنون: «قرأت في تاريخ القيروان لأبي بكر عبدالله بن محمد المالكي قال: قال أبو العرب: اجتمعت في سحنون خلال قلّما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشّن في الملبس والمطعم والسماحة، كان ربما وصل إخوانه

(١) المصدر السابق (٤/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

(٢) «قيام دولة المرابطين» للدكتور حسن أحمد محمود ص(٩٣ ـ ٩٤) طبع دار الفكر العربي، و«السلفية وأعلامها في موريتانيا» للشيخ الطيب بن عمر بن الحسين ص(١٧٨ ـ ١٨١) ـ دار ابن حزم.

بالثلاثين دينارًا، وكان لا يقبل من أحد شيئًا، ولم يكن يهاب سلطانًا في الحق شديدًا على أهل البدع، انتشرت إمامته، وأجمعوا على فضله»[١].

❑ وكذلك عبداللَّه بن أبي حسان اليحصبي (ت: ٢٢٦)، قال ابن فرحون في ترجمته: «وكان جوادًا مفوّهًا قويًّا على المناظرة، ذابًّا عن السنة متبعًا لمذهب مالك شديدًا على أهل البدع»[٢].

❑ وقال القاضي عياض ـ رحمه اللَّه ـ في ترجمة الإمام أبي يوسف جبلة بن حمود الصدفي من تلاميذ سحنون (ت: ٢٩٩هـ): «ذكر شدته على أهل البدع ومجانبته إياهم وقوته في ذات اللَّه عز وجل: كان ـ رحمه اللَّه ـ شديدًا في ذلك، لا يداري فيه أحدًا، ولم يكن أحد أكثر مجاهدة منه للروافض وشيعهم، فنجّاه اللَّه منهم.. وكان يُنكر على من خرج من القيروان إلى سوسة ونحوها من الثغور، ويقول: جهاد هؤلاء أفضل من جهاد الشرك»[٣].

* شيخ الإسلام محمد بن أسلم الطوسي أمره سماوي أشد الناس اتباعًا ودعوة إلى الاتباع:

❑ قال عنه أبو عبداللَّه الحكم: كان من الأبدال المتّبعين للآثار.

❑ وقال قبيصة: كان ابن مسعود أشبه الناس برسول اللَّه ﷺ، يعني في هديه وسمته، وكان علقمة يشبَّه بابن مسعود في ذلك، ويشبَّه بعلقمة إبراهيم، وبإبراهيم منصور، وبمنصور سفيان، وبسفيان وكيع.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٦٩).

(٢) «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فرحون ص(١٣٤) ـ دار الكتب العلمية.

(٣) «ترتيب المدارك» (٤/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦).

❑ قال الحاكم: «قام محمد بن أسلم مقام وكيع، وأفضل من مقامه؛ لزهده وورعه وتتبعه للأثر»[١].

قال إسحاق بن راهويه: «وذكر في حديثٍ رفعه إلى النبي ﷺ، قال: «**إن اللَّه لم يكن ليجمع أُمّة محمدٍ على ضلالة، فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم**»[٢]، فقال رجل: يا أبا يعقوب، من السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن أسلم وأصحابه ومن تبعه. ثم قال: سأل رجلٌ ابن المبارك فقال: يا أبا عبدالرحمن، من السواد الأعظم؟ فقال: أبو حمزة السكوني. ثم قال إسحاق: في ذلك الزمان؛ يعني أبا حمزة، وفي زماننا محمد بن أسلم ومن تبعه. ثم قال إسحاق: لو سألت الجهال: من السواد الأعظم؟ قالوا: جماعة الناس، ولا يعلمون أن الجماعة عالمٌ متمسِّك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبعه فهو الجماعة، ومن خالفه فيه ترك الجماعة. ثم قال إسحاق: لم أسمع عالمًا منذ خمسين سنة كان أشد تمسكًا بأثر النبي ﷺ من محمد ابن أسلم»[٣].

❑ قال محمد بن القاسم خادم محمد بن أسلم: سمعت أبا يعقوب المروزي ببغداد، وقلت له: قد صحبت محمد بن أسلم، وصحبت أحمد بن حنبل، أي الرجلين كان عندك أرجح أو أكثر أو أبصر بالدين؟ فقال: يا أبا عبداللَّه، لم تقول هذا؟ إذا ذكرت محمد بن أسلم في أربعة أشياء فلا تقرن معه أحدًا: البصر بالدين، واتباع أثر النبي ﷺ في الدنيا، وفصاحة لسانه

---

(١) «السير» (١٢/ ١٩٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه، وإسناده ضعيف، ورواه أبو يعلى الموصلي، وأبو داود وأحمد والترمذي وأبو نعيم والحاكم وابن منده والضياء في المختارة عن أنس بن مالك وأبي مالك الأشعري وأبي بصرة وابن عمر وأبي ذر ﷺ، وفي كلها نظر كما قاله العراقي. قال شعيب الأرنؤوط. لكن بمجموعها يتقوى الحديث. انظر هامش «السير» (١٢/ ١٩٧).

(٣) «السير» (١٢/ ١٩٦ ـ ١٩٧)، «الحلية» (٩/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

بالقرآن والنحو. ثم قال لي: نظر أحمد بن حنبل في كتاب الرَّدّ على الجهمية، الذي وضعه محمد بن أسلم، فتعجب منه، ثم قال: يا أبا يعقوب، رأت عيناك مثل محمد؟ فقلت: يا أبا عبداللَّه لا يغلظ رأي محمد من أستاذيه ورجاله مثله. فتفكر ساعةً ثم قال: لا، قد رأيتهم وعرفتهم، فلم أر فيهم على صفة محمد بن أسلم.

❑ قال أبو عبداللَّه: وسألت يحيى بن يحيى عن ست مسائل فأفتى فيها، وقد كنت سمعت محمد بن أسلم أفتى فيها بغير ذلك، احتج فيها بحديث النبي ﷺ، فأخبرت يحيى بن يحيى بفتيا محمد بن أسلم فيها، فقال: يا بني أطيعوا أمره، وخُذُوا بقوله، فإنه أبصر منا؛ ألا ترى أنه يحتج بحديث النبي ﷺ في كل مسألة، وليس ذاك عندنا.

❑ قال أبو عبداللَّه: سمعت إسحاق بن راهويه ـ ذات يومٍ ـ روى في ترجيع الأذان أحاديث كثيرة، ثم روى حديث عبداللَّه بن زيد الأنصاري، ثم قال: يا قوم قد حدثتكم بهذه الأحاديث في الترجيع، وليس في غير الترجيع إلا حديث واحد؛ حديث عبداللَّه بن زيد، وقد أمر محمد بن أسلم الناس بالترجيع فقلتم: هذا مبتدع، عامَّةُ أهل بلده بالكُورة غوغاء، ثم قال: احذروا الغوغاء، فإن الأنبياء قتلتهم الغوغاء. فلمّا كان الليل دخلت عليه فقلت: يا أبا يعقوب، حدثت هذه الأحاديث كلها في الترجيع، فمالك لا تأمر مؤذنك بالترجيع؟ قال: يا مغفل، ألم تسمع ما قلت في الغوغاء، إنما أخاف الغوغاء، فأمّا أمر محمد بن أسلم، فإنه سماويّ، كلَّما أخذ في شيءٍ، تمَّ له، ونحن عنده عبيد بطوننا، لا يتم لنا أمرٌ نأخذ فيه، نحن عند محمد بن أسلم من السُّرَّاق.

لا يعرف قدر الرجال إلا الرجال، فهذا كلام إسحاق بن راهويه شيخ البخاري.

❑ قال أبو عبدالله: وكتب إليّ أحمد بن نصر: أن اكتب إليَّ بحال محمد بن أسلم، فإنه ركن من أركان الإسلام.

❑ وقال لخادمه عند موته: «يا أبا عبدالله؛ أنا معك وقد علمت أن معي في قميصي من يشهد علي، فكيف ينبغي لي أن آتي الذنوب، إنما يعمل الذنوب جاهلٌ ينظر فلا يرى أحدًا، فيقول: ليس يراني أحدٌ، أذهب فأُذنب. فأما أنا كيف يمكنني ذلك وقد علمت أن داخل قميصي من يشهد علي. ثم قال: يا أبا عبدالله، ما لي ولهذا الخلق، كنت في صلب أبي وحدي، ثم صرت في بطن أمي وحدي، ثم دخلت الدنيا وحدي، ثم تقبض روحي وحدي، وأدخل في قبري وحدي، ويأتيني منكر ونكير فيسالاني في قبري وحدي، فإن صرت إلى خير صرت وحدي، وإن صرت إلى شرٍّ كنت وحدي، ثم أوقف بين يدي الله وحدي، ثم يوضع عملي وذنوبي في الميزان وحدي، وإن بُعثت إلى الجنة بُعثت وحدي، وإن بعثت إلى النار بعثت وحدي، فما لي وللناس. ثم تفكر ساعةً فوقعت عليه الرّعدة، حتى خشيتُ أن يسقط، ثم رجعت إليه نفسه، ثم قال: يا أبا عبدالله، إن هؤلاء قد كتبوا رأي أبي حنيفة، وكتبت أنا الأثر، فأنا عندهم على غير طريقٍ، وهم عندي على غير طريقٍ. وقال لي: يا أبا عبدالله، أصل الإسلام في هذه الفرائض، وهذه الفرائض في حرفين، ما قال الله ورسوله: افعل. فهو فريضة ينبغي أن يفعل، وما قال الله ورسوله: لا تفعل. فينبغي أن ننتهي عنه، فتركه فريضة، وهذا في القرآن، وفي فريضة النبي ﷺ، وهم يقرءونه ولكن لا يتفكرون فيه، قد غلب عليهم حب الدنيا. ثم قال: حديث عبدالله بن مسعود: خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا فقال: «**هذا سبيل الله**»، ثم خطّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «**هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**

ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وحديث عبداللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ: «**إن بني إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملَّة، وأُمَّتي تفترق على ثلاثة وسبعين، كلها في النار إلا واحدة**». قالوا: يا رسول اللَّه ﷺ، من هم؟ قال: «**ما أنا عليه اليوم وأصحابي**» فرجع الحديث إلى واحد، والسبيل الذي قال في حديث عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «الذي قال ما أنا عليه وأصحابي» فدين اللَّه في سبيلٍ واحدٍ، فكل عملٍ أوله أعرضه على هذين الحديثين، فما وافقهما عملته، وما خالفهما تركته، ولو أن أهل العلم فعلوا، لكانوا على أثر النبي ﷺ، ولكنهم فتنهم حب الدنيا وشهوة المال، ولو كان في حديث عبداللَّه بن عمرو الذي قال: «كلها في النار إلا واحدة»، قال: «كلها في الجنة إلا واحدة» لكان ينبغي أن يكون قد تبين علينا في خشوعنا وهمومنا وجميع أمورنا، خوفًا أن يكون من تلك الواحدة، فكيف وقد قال: «**كلها في النار إلا واحدة**»[1].

❑ وقال أبو عبداللَّه: «وولد له ابنٌ فدفع إليَّ دراهم وقال: اشتر كبشين عظيمين وغال بهما فإنه كلما كان أعظم كان أفضل. فاشتريت له وأعطاني عشرة دراهم فقال: اشتر به دقيقًا واخبزه. فنخلت الدقيق وخبزته، ثم جئت به فقال: نخلت هذا؟ فأعطاني عشرة دراهم أُخَر وقال: اشتر به دقيقًا ولا تنخله واخبزه. فخبرته وحملته إليه، فقال لي: يا أبا عبداللَّه، إن العقيقة سنة، ونخل الدقيق بدعة، ولا ينبغي أن يكون في السنة بدعة، فلم أُحب أن يكون ذلك الخبز في بيتي بعد أن يكون بدعة».

اللَّه أكبر. نخل الدقيق مباح.. ولكنه يريد أن يقتفي أثر الرسول ﷺ الذي ما رأى منخلاً قط منذ أن ابتعثه اللَّه.

---

(١) «الحلية» (٩/ ٢٤١ ـ ٢٤٤).

فرحم اللَّه شيخ الإسلام الطوسي، الذي ما علم بسنةٍ إلا وعملها، إلا سنة واحدة أعيته، وهي أن يطوف بالبيت راكبًا مثلما طاف رسول اللَّه ﷺ بالبيت راكبًا.

*** سيّد الحُفّاظ أبو زُرْعَة الرَّازِي عُبيد اللَّه بن عبدالكريم بن يزيد:**

«قال يونس بن عبدالأعلى: أبو زرعة أشهر في الدنيا من الدنيا.

وقال محمد بن يحيى: لا يزال المسلمون بخيرٍ ما أبقى اللَّه لهم مثل أبي زرعة، يُعلِّم الناس وما كان اللَّه يترك الأرض إلا وفيها مثل أبي زرعة يعلم الناس ما جهلوه.

❑ وقال محمد بن إسحاق الصاغاني: أبو زرعة يشبه بأحمد بن حنبل»[1].

وتحت باب «ما ذكر من بدو مكاشفة أبي زرعة لأهل الرأي، وإظهاره السنن ومقاساته أى القوم» كتب ابن أبي حاتم الرازي في «الجرح والتعديل» (١/ ٣٤٧) يقول: «سمعت أبا زرعة يقول: قال لي أبو جعفر الجمال: ما لهم ـ يعني أصحاب الرأي ـ سواك».

❑ وقال أبو زرعة: ما رغبت قط في سكنى الري، وما كاشفت القوم وأنا أريد مزاحمتهم في دنيا ولا مال ولا في ضيعة، وقلت في نفسي: أنا لست براغبٍ في شيءٍ من هذا، فأُقاسي إظهار السنن، فإن كان كونٌ، خرجت وهربت إلى طرسوس.

❑ وقال أبو زرعة: قال لي السّريّ بن معاذ: لو أني قبلت لأعطيت مائة ألف درهم قبل الليل فيك وفي ابن مسلمٍ، من غير أن أحبسكم ولا أضربكم

(١) «السير» (١٣/ ٧٠ ـ ٧٤).

أكثر من أن أمنعكم من الحديث.

سبحان اللَّه: هكذا الخوف من إظهار السنن ونشر الاتباع.

«قال الحسن بن أحمد بن الليث: سمعت أحمد بن حنبل، وسأله رجلٌ فقال: بالري شابٌ يقال له: أبو زرعة، فغضب أحمد وقال: تقول: شاب؟! كالمنكر عليه، ثم رفع يديه، وجعل يدعو اللَّه عز وجل لأبي زرعة ويقول: اللَّهم انصره على من بغى عليه، اللَّهم عافه، اللَّهم ادفع عنه البلاء، اللَّهم.. اللَّهم، في دعاء كثير. قال الحسن: فلما قدمت الري حكيت ذلك لأبي زرعة، وحملت إليه دعاء أحمد بن حنبل له، وكتب كتبته عنه، فكتبه أبو زرعة، وقال لي أبو زرعة: ما وقعت في بلية فذكرت دعاء أحمد، إلا ظننت أن اللَّه عز وجل يفرج بدعائه عني.

وكتب عبدالرحمن بن عمر الأصبهاني ـ المعروف بـ «رُسْتَةَ» ـ من أصبهان إلى أبي زرعة: اعلم ـ رحمك اللَّه ـ أني ما أكاد أنساك في الدعاء لك ـ ليلي ونهاري ـ أن يُمتع المسلمون بطول بقائك، فإنه لا يزال الناس بخيرٍ ما بقي من يعرف العلم وحقه من باطله، ولولاك لذهب العلم وصار الناس إلى الجهل، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**»، وقد جعلك اللَّه منهم، فاحمد اللَّه على ذلك، فقد وجب للَّه عز وجلّ عليك الشكر في ذلك».

«وكتب إليه إسحاق بن راهويه: اعلم ـ أبقاك اللَّه ـ أني كنت أسمع من إخواننا القادمين علينا، ومن غيرهم، حالك وما أنت عليه من العلم والحفظ، فأُسرّ بذلك، وإني أزداد بك كل يومٍ سروراً، فالحمد للَّه الذي جعلك ممن يحفظ سنته، وهو من أعظم ما يحتاج إليه الطالب اليوم، وأحمد بن إبراهيم لا يزال في ذكرك الجميل حتي يكاد يفرط حُبًّا لك، وإن لم يكن فيك ـ

بحمد اللَّه ـ إفراط»[١] .

❑ قال أبو زرعة: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة[٢].

❑ وقال أبو زرعة وأبو حاتم الرازي: مذهبنا واختيارنا وما نعتقده وندين اللَّه به.. ترك النظر في موضع البدع.. وترك رأي الملبِّسين المُموِّهين المُزَخْرفين.. وترك النظر في كتب الكرابيسي.. وترك مجالسة من وضع الكتب بالرأي بلا آثار.

وكانا يقولان: لا يفلح صاحب كلام أبدًا.

❑ وقال أبو زرعة: هؤلاء المتكلمون لا تكن منهم بسبيل، فإن آخر أمرهم يرجع إلى شيءٍ مكشوف ينكشفون عنه، وإنما يتموّه أمرهم سنةً أو سنتين، ثم ينكشف، فلا أرى لأحدٍ أن يناضل عن أحدٍ من هؤلاء، فإنهم إن يهتكوا يومًا قيل لهذا المناضل: أنتَ من أصحابه، وإن طلب يومًا طلب هذا به. لا ينبغي لمن يعقل أن يمدح هؤلاء[٣] .

وسُئل أبو زرعة عن كتب الحارث المحاسبي، فقال: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدعٍ وضلالات، عليك بالأثر، تجد فيه ما يغني عن هذه الكتب. فقيل له: في هذه الكتب عبرة. فقال: من لم يكن له في كتاب اللَّه عبرة،

---

(١) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٤١ ـ ٣٤٤).

(٢) «الكفاية» للخطيب ص(٤٩).

(٣) «الضعفاء» للبرذعي ص(٥٥٣)، و«تاريخ بغداد» (٨/ ٣٧٣)، و«طبقات الشافعية» (٢/ ٢٨٥).

فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين، صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟! هؤلاء قومٌ خالفوا أهل العلم، فأتونا مرةً بالحارث المحاسبي، ومرة بعبدالحليم الدبيلي، ومرة بحاتم الأصم، ومرة بشقيقٍ البلخي[١] ، ما أسرع الناس إلى البدع[٢] .

❑ وقال أبو زرعة: إذا رأيت الكوفي يطعن على سفيان الثوري وزائدة، فلا تشك أنَّه رافضيٌّ، وإذا رأيت الشامي يطعن على مكحول والأوزاعي، فلا تشك أنه ناصبي، وإذا رأيت الخراساني يطعن على عبداللَّه بن المبارك، فلا تشك في أنه مرجئ، واعلم أن هذه الطوائف كلها مجمعةٌ على بغض أحمد ابن حنبل؛ لأنه ما منهم أحد إلاَّ وفي قلبه منه سهمٌ لا برء له[٣] .

وانظر ـ رحمك اللَّه ـ إلى حرص أبي زرعة على نشر السنة، ولو عند الاحتضار:

«قال أحمد بن إسماعيل؛ ابن عم أبي زرعة: سمعت أبا زرعة يقول في مرضه الذي مات فيه: اللَّهم إني أشتاق إلى رؤيتك، فإن قال لي: بأي عمل اشتقت إليَّ؟ قلت: برحمتك يا رب»[٤] .

فبيّن الرؤية والرجاء.

❑ وقال البرذعي في كتابه «الضعفاء» ص(٥٦٩ ـ ٥٧٠): «سألته (يعني أبا زرعة) عن نصر بن عليّ الجهضمي فقال: اتق اللَّه ذاك زَفَّانٌ يجتمع بالليل مع هؤلاء المغبّرين، يزفن ويرقص معهم. قال: فضربت على ما كتبت عنه».

---

(١) حاتم الأصم وشقيق البلخي أثنى عليهما الذهبي وغيره.

(٢) «الضعفاء» للبرذعي و«تاريخ بغداد» للخطيب (٨/ ٢١٥)، و«تلبيس إبليس» ص(١٦١).

(٣) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٤) «الجرح والتعديل» (١/ ٣٤٦).

والتغبير: هو الغناء بالأشعار الزهدية والضرب على المخادّ مع ذلك الغناء، وهذا قال فيه الشافعي: أرى الزنادقة وضعوا هذا التغبير ليصدوا الناس عن ذكر اللَّه.

وانظر ـ رحمك اللَّه ـ إلى هذه الحكاية التي تدل على شدة اتباع أبي زرعة، وهي حكايته مع يحيى بن معاذ الرازي، وكان سليم الاعتقاد يقصّ ويعظ، أثنى عليه الجمع الغفير من العلماء.

❑ قال البرذعي في كتابه «الضعفاء» ص(٥٦٥): «شهدت أبا زرعة، وأتاه أبو العباس الهسنجاني، فكلمه أن يُقيل يحيى بن معاذ. فقال: إنه يقول: أنا على مذهبك، وأنا رجل نوّاحٌ، أنوح وأنوح. فقال أبو زرعة: إنما النوح لمن يدخل بيته، ويغلق بابه، ينوح على ذنوبه، فأما من يخرج إلى أصبهان وفارس، ويجول في الأمصار في النوح، فإنا لا نقبل هذا منه. هذا من فعل المستأكلة، الذين يطلبون الدراهم والدنانير. ولم يقبله»[1].

❑ قال أبو حاتم الرازي: «علامة أهل البدع: الوقيعة في أهل الأثر. وعلامة الزنادقة: تسميتهم أهل الأثر حشوية، يريدون إبطال الآثار عن رسول اللَّه ﷺ.

وعلامة الجهمية: تسميتهم أهل السنة مشبهةً ونابتةً.

وعلامة القدرية: أن يسموا أهل السنة: مجبرةً.

وعلامة المرجئة: تسميتهم أهل السنة: مخالفة ونقصانية.

وعلامة الرافضة: تسميتهم أهل السنة: ناصبة.

وكل هذا أم عصبات معصبات. ولا يلحق أهل السنة إلا اسمٌ واحد، ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء».

---

(١) ورواه ابن الجوزي في كتاب «القصاص» ص(١٢٢).

❑ وروى الإمام اللالكائي عن ابن أبي حاتم الرازي قوله:

«سمعت أبي وأبا زرعة يأمران بهجران أهل الزيغ والبدع، يغلظان في ذلك أشد التغليظ، وينكران وضع الكتب برأي في غير آثار، وينهيان عن مجالسة أهل الكلام والنظر في كتب المتكلمين، ويقولان لا يفلح صاحب كلام أبدًا»[1].

❑ قال اللالكائي: وبه نقول.

* زَيْن الأمَّة وأمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري:

❑ قال له مسلم: أشهد أنه ليس في الدنيا مثلك.

أبو عبداللَّه البخاري إمام أهل خراسان وسيدهم، كتب إليه أهل بغداد:

المسلمون بخيرٍ ما بقيتَ لهم ... وليس بَعْدَك خيرٌ حينَ تُفْتَقَدُ

❑ قال عنه الحسين بن محمد السمرقندي: كان لا يشتغل بأمور الناس، كل شغله كان في العلم.

كان ـ رحمه اللَّه ـ جبلاً في الاتباع، ومن مثله والناس كلهم محتاجون لعلمه وحديثه.

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: لا أعلم شيئًا يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة. فقال له محمد بن أبي حاتم: يمكن معرفة ذلك كله؟ قال: نعم.

❑ قال محمد بن أبي حاتم: «كنت بنيسابور، أجلس في الجامع، فذهب عمرو بن زرارة وإسحاق بن راهويه إلى يعقوب بن عبداللَّه والي نيسابور، فأخبروه بمكاني، فاعتذر إليهم وقال: مذهبنا أنه إذا رفع إلينا غريبٌ لم نعرفه، حبسناه حتى يظهر لنا أمره. فقال له بعضهم: بلغني أنه قال لك:

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (١/ ٢٠٢).

لا تُحسن تصلي، فكيف تجلس؟ فقال: لو قيل لي شيء من هذا، ما كنت أقوم من ذلك المجلس حتى أروي عشرة آلاف حديثٍ في الصلاة خاصة»[١] .

هذا واللَّه الشرف.

رحم اللَّه البخاري، فقد كان رأسًا في السنة والأثر.. ومن أراد سبر غور الإمام فلينظر إلى صحيح البخاري، وخلق أفعال العباد.

«قال محمد بن العباس الفربري: أملى يومًا عليَّ حديثًا كثيرًا فخاف ملالي، فقال: طب نفسًا، فإن أهل الملاهي في ملاهيهم، وأهل الصناعات في صناعاتهم، والتجار في تجاراتهم، وأنت مع النبي ﷺ وأصحابه»[٢] .

❑ قال البخاري: نظرت في كلام اليهود والنصارى والمجوس، فما رأيت أحدًا أضل في كفرهم من الجهمية، وإني لأستجهل من لا يكفرهم.

* الإمام القُدْوة، شيخُ أهل السُّنَّة والجماعة في عصره: البَرْبَهارِيّ أبو محمد الحسن بن عليّ بن خَلَف:

الشديد على أهل البدع.. صاحب المقامات العظيمة في ذلك.

❑ قال أبو عبداللَّه الفقيه: «إذا رأيت البغدادي يحب أبا الحسن بن بشار، وأبا محمد البربهاريَّ، فاعلم أنه صاحب سنة»[٣] .

❑ وقال أبو يعلى: «شيخ الطائفة في وقته، ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع، والمباينة لهم باليد واللسان».

❑ وقال ابن الجوزي: «جمع العلم، والزهد.. وكان شديدًا على أهل البدع».

---

(١) «السير» (١٢/ ٤١٢).

(٢) «السير» (١٢/ ٤٤٥).

(٣) «طبقات الحنابلة» لأبي يعلى (٢/ ٥٨) ـ دار المعرفة.

❑ وقال الذهبي في «السير» (١٥/ ٩٠ ـ ٩٢): «كان قوالاً بالحق، داعية إلى الأثر، لا يخاف في اللَّه لومة لائم».

❑ وقال في العبر: «شيخ الحنابلة بالعراق، قالا، وحالاً، وحلالاً، وكان له صيتٌ عظيم وحُرمةٌ تامَّة».

❑ وقال ابن كثير: «العالم الزاهد، الفقيه الحنبلي، الواعظ.. وكان شديداً على أهل البدع والمعاصي، وكان كبير القدر، تعظِّمه الخاصة والعامة»[1].

❑ قال ابن رجب: «شيخ الطائفة في وقته ومتقدمها في الإنكار على أهل البدع والمباينة لهم باليد أو باللسان»[2].

لقد كان ـ رحمه اللَّه ـ شديداً على أهل البدع والأهواء، منابذًا لهم باليد واللسان، وكان موقفه منهم يدلّ على الصرامة والشدة، غيرةً منه على السنة، أن يحاول النيل منها كل بدعيٍّ مارق، فموقفه يعد أنموذجًا رائعًا لمواقف أهل السنة من أهل البدع والضلال.

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: في كتابه القيم «شرح السنة»: «اعلموا أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر».

وقال: واعلم ـ رحمك اللَّه.. أن الدين إنما جاء من قبل اللَّه تبارك وتعالى، لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، وعلمه عند اللَّه وعند رسوله، فلا تتبع شيئًا بهواك، فتمرق من الدين فتخرج من الإسلام، فإنه لا حجة لك، فقد بين رسول اللَّه ﷺ لأُمَّته السنة، وأوضحها لأصحابه،

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (١١/ ٢١٣).

(٢) «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٨)، و«المنهج» لأحمد (٢/ ٢٦)، و«ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ـ دار المعرفة.

وهم السواد الأعظم، والسواد الأعظم: الحق وأهله.

واعلم أن الناس لم يبتدعوا بدعةً قطُّ حتى تركوا من السنة مثلها، فاحذر المُحدَثات من الأمور، فإن كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالة، والضلالة وأهلها في النار.

واحذر صغار المحدثات من الأمور، فإن صغير البدع يعود حتى يصير كبيرًا، وكذلك كل بدعة أُحدِثت في هذه الأمة، كان أولها صغيرًا يُشبه الحق، فاغتر بذلك من دخل فيها، ثم لم يستطع الخروج منها، فعظمت وصارت دينًا يدان بها، فخالف الصراط المستقيم؛ فخرج من الإسلام.

وقال: انظر ـ رحمك اللَّه ـ كل من سمعت كلامه من أهل زمانك خاصّةً، فلا تعجلن، ولا تدخلن في شيءٍ منه حتى تسأل وتنظر: هل تكلم به أصحاب رسول اللَّه ﷺ، أو أحدٌ من العلماء؟ فإن وجدت فيه أثرًا عنهم فتمسك به، ولا تجاوزه لشيءٍ ولا تَختَر عليه شيئًا فتسقط في النار.

واعلم أن الخروج من الطريق على وجهين؛ أمّا أحدهما: فرجلٌ قد زلّ عن الطريق وهو لا يريد إلا الخير، فلا يُقتدى بزلته؛ فإنك هالك. وآخر عاند الحق، وخالف من كان قبله من المتقين، فهو ضالٌّ مضلٌّ، شيطانٌ مريد في هذه الأُمة، حقيقٌ على من يعرفه أن يحذر الناس منه، ويبين للناس قصته، لئلا يقع أحدٌ في بدعته فيهلك.

واعلم ـ رحمك اللَّه ـ أنه لا يتم إسلامُ عبدٍ، حتى يكون مُتَّبِعًا مصدِّقًا مسلمًا، فمن زعم أنه قد بقي شيءٌ من أمر الإسلام، لم يكفوناه أصحاب محمد ﷺ، فقد كذّبهم، وكفى به فُرقةً وطعنًا عليهم، وهو مبتدعٌ ضال، محدِثٌ في الإسلام ما ليس فيه.

واعلم ـ رحمك اللَّه ـ أنه ليس في السنة قياس، ولا يضرب لها الأمثال، ولا تتبع فيها الأهواء، وإنما هو التصديق بآثار رسول اللَّه ﷺ بلا

كيفٍ، ولا شرحٍ، لا يقال: لم؟ وكيف؟

والكلام والخصومة والجدال والمراء: محدث، يقدح الشك في القلب وإن أصاب صاحبه الحق والسنة.

واعلم ـ رحمك اللَّه ـ أن الكلام في الرب تعالى محدثٌ، وهو بدعة ضلالة، ولا يتكلم في الرب إلا بما وصف به نفسه في القرآن، وما بين رسول اللَّه ﷺ لأصحابه.

وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ولا يقبلها، أو ينكر شيئًا من أخبار رسول اللَّه ﷺ، فاتّهمه على الإسلام؛ فإنه رجلٌ رديء القول والمذهب، وإنما طعن على رسول اللَّه ﷺ وأصحابه لأنه إنما عرفنا اللَّه، وعرفنا رسول اللَّه ﷺ، وعرفنا القرآن، وعرفنا الخير والشر، والدنيا والآخرة، بالآثار.

واعلم ـ رحمك اللَّه ـ أنه ما كانت زندقة قطُّ ولا كفر، ولا شك ولا بدعة ولا ضلالة، ولا حيرة في الدين؛ إلا من الكلام، وأهل الكلام، والجدل والمراء والخصومة. والعجب كيف يجترئ الرجل على المراء والخصومة والجدال، واللَّه تعالى يقول: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]. فعليك بالتسليم والرضا بالآثار وأهل الآثار، والكف والسكوت.

واعلم أنه لم تجئ بدعةٌ قط إلا من الهمج الرعاع، أتباع كل ناعقٍ، يميلون مع كلِّ ريحٍ، فمن كان هكذا، فلا دين له، قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية: ١٧].

* وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وهم علماء السوء وأصحاب الطمع والبدع.

واعلم أنه لا يزال الناس في عصابةٍ من أهل الحق والسنة، يهديهم اللَّه

ويهدي بهم غيرهم، ويحيي بهم السنن، فهم الذين وصفهم اللَّه تعالى مع قلتهم عند الاختلاف ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ فاستثناهم فقال: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال عصابةٌ من أُمتي ظاهرين على الحق، لا يضرُّهم من خذلهم، حتى يأتي أمر اللَّه وهم ظاهرون**».

واعلم ـ رحمك اللَّه ـ أن من قال في دين اللَّه برأيه وقياسه وتأويله، من غير حُجَّة من السنة والجماعة، فقد قال على اللَّه ما لا يعلم، ومن قال على اللَّه ما لا يعلم، فهو من المتكلفين.

ومن اقتصر على سنة رسول اللَّه ﷺ وما كان عليه أصحابه والجماعة، فَلَج[1] على أهل البدع كلهم، واستراح بدنه، وسلم له دينه، إن شاء اللَّه.

ومن عرَف ما ترك أصحاب البدع من السنة، وما فارقوا فيه، فتمسك به، فهو صاحب سُنّة وصاحب جماعة، وحقيقٌ أن يُتَّبَع وأن يُعان وأن يُحفظ، وهو ممّن أوصى به رسول اللَّه ﷺ.

وإياك والنظر في الكلام والجلوس إلى أصحاب الكلام.

وكل علمٍ ادَّعاه العباد من علم الباطن، لم يوجد في الكتاب وفي السنة، فهو بدعةٌ وضلالة، ولا ينبغي لأحد أن يعمل به ولا يدعو إليه.

وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، أو يردّ الآثار، أو يريد غير الآثار، فاتَّهِمه على الإسلام ولا تشك أنه صاحب هوًى مبتدِع.

---

(١) أي: ظفر وفاز.

وإذا رأيت الرجل جالسًا مع رجلٍ من أهل الأهواء، فحذِّره وعرِّفه، فإن جلس معه بعدما علم فاتّقه، فإنه صاحب هوى.

وإذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر، فلا يريده، ويريد القرآن، فلا شك أنه رجل قد احتوى على الزندقة.

واعلم أنه من تناول أحدًا من أصحاب محمد ﷺ، فاعلم أنه إنما أراد محمدًا ﷺ وقد آذاه في قبره.

وإذا ظهر لك من إنسانٍ شيءٌ من البدع، فاحذره، فإن الذي أخفى عنك أكثر مما أظهر.

رأى يونس بن عبيد ابنه، وقد خرج من عند صاحب هوًى، فقال: يا بني، من أين جئت؟ قال: من عند فلان. قال: يا بني، لأن أراك خرجت من بيت خُنثى، أحبّ إليَّ من أن أراك تخرج من بيت فلان وفلان، ولأن تلقى اللَّه يا بُنيَّ زانيًا فاسقًا سارقًا خائنًا، أحبّ إليَّ من أن تلقاه بقول فلانٍ وفلان.

ألا ترى أن يونس بن عبيدٍ قد علم أن الخنثى لا يضل ابنه عن دينه، وأن صاحب البدعة يضله حتى يكفر.

ولا تطلب من عندك حيلةً تردّ بها على أهل البدع، فإنك أُمرت بالسكوت عنهم، ولا تمكنهم من نفسك، أما علمت أن محمد بن سيرين ـ في فضله ـ لم يجب رجلاً من أهل البدع في مسألةٍ واحدةٍ، ولا سمع منه آيةً من كتاب اللَّه عز وجل، فقيل له، فقال: أخاف أن يحرفها، فيقع في قلبي شيء.

❑ وقال: قال بشر بن الحارث: الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام.

❑ وقال الفضيل: إذا رأيت رجلاً من أهل السنة، فكأنما أرى رجلاً من

أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وإذا رأيت رجلاً من أهل البدع، فكأنما أرى رجلاً من المنافقين.

وكان ابن عون يقول عند الموت: «السُّنَّة السنة، وإياكم والبدع» حتى مات.

❑ وقال أحمد بن حنبل: مات رجل من أصحابي، فُرئِيَ في المنام فقال: قولوا لأبي عبداللَّه: عليك بالسنة، فإنه أول ما سألني اللَّه، سألني عن السنة.

❑ وقال أبو العالية: من مات على السنة مستورًا، فهو صدِّيق.

❑ وقال الفضيل بن عياض: من جلس مع صاحب بدعةٍ في طريق، فجُز في طريقٍ غيره.

وقال: من عظّم صاحب بدعة، فقد أعان على هدم الإسلام، ومن تبسّم في وجه مبتدعٍ، فقد استخفّ بما أنزل اللَّه عز وجل على محمد ﷺ، ومن زوّج كريمته من مبتدعٍ، فقد قطع رحمها، ومن تبع جنازة مبتدعٍ، لم يزل في سخط اللَّه حتى يرجع.

❑ وقال فضيل بن عياض: إذا علم اللَّه من الرجل أنه مُبغِضٌ لصاحب بدعة، غفر له وإن قلَّ علمُه، ولا يكون صاحب سُنة يُمالئ صاحبَ بدعةٍ إلا نفاقًا، ومن أعرض بوجهه عن صاحب بدعة، ملأ اللَّه قلبه إيمانًا، ومن انتهر صاحب بدعة، أمَّنه اللَّه يوم الفزع الأكبر، ومن أهان صاحب بدعة، رفعه اللَّه في الجنة مائة درجةٍ، فلا تكن صاحب بدعةٍ في اللَّه أبدًا[1].

❑ وقال البربهاري: «مثل أصحاب البدع مثل العقارب، يدفنون رءوسهم وأبدانهم في التراب، ويُخرجون أذنابهم، فإذا تمكّنوا لدغوا،

(١) «شرح السنة» للبربهاري، تحقيق خالد الردادي ـ مكتبة الغرباء بالمدينة.

وكذلك أهل البدع، هم مختفون بين الناس، فإذا تمكنوا بلغوا ما يريدون»[١].

ما فتئ أهل الأهواء والبدع المُعادُون له يُؤلبون السلطان، ويغيظون قلبه عليه، حتى أمر الخليفة القاهر وزيره ابن مقلة في سنة ٣٢١ بالقبض على البربهاري وأصحابه، فاستتر البربهاريُّ، وقُبض على جماعةٍ من كبار أصحابه، وحُملوا إلى البصرة، وعاقب اللَّه ابن مقلة على فعله هذا، بأن أسخط القاهر عليه، وعزل عن الوزارة، وطرح في داره النار، وحُبس وخلع وسملت عيناه.

ثم تفضل اللَّه وأعاد البربهاريّ إلى حشمته.

وفي سنة ثلاثٍ وعشرين وثلاثمائة ازدادت حشمة البربهاري، وعلت كلمته، وظهر أصحابه، وانتشروا في الإنكار على المبتدعة، حتى إن البربهاري لما اجتاز بالجانب الغربي، فعطس، فشمته أصحابه، فارتفعت ضجتهم حتى سمعها الخليفة وهو في روشنه، فسأل عن الحال، فأُخبر بها، فاستهولها. ولم تزل المبتدعة يثقلون قلب الراضي على البربهاري، حتى نودي: أن لا يجتمع من أصحاب البربهاري نفسان، فاستتر البربهاري - رحمه اللَّه.

❑ قال ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» ص(٦١٨ - ٦١٩) عن البربهاري: «جمع بين العلم والزهد، وصحب المروذي، وسهلاً التستري، وكان البربهاري شديدًا على أهل البدع، فما زالوا يثقلون قلب السلطان عليه، وكان ينزل بباب محول، فانتقل إلى الجانب الشرقي، واستتر عند أخت توزون[٢]، فبقي نحوًا من شهر، ثم أخذه قيام الدَّم، فمات، فقالت المرأة

(١) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤).

(٢) أحد القوّاد الأتراك، خلع عليه المتّقي، وجعله أمير الأمراء.

لخادمها: انظر من يغسله. وأغلقت الأبواب حتى لا يعلم أحدٌ، فجاء الغاسل فغسله، ووقف يصلي عليه وحده، فاطلعت ـ من الروشن ـ فإذا الدار ممتلئة رجالاً بثيابٍ بيضٍ وخُضرٍ، فاستدعت الخادم وقالت: ما الذي فعلت؟ فقال: يا سيدتي، رأيت ما رأيت؟ قالت: نعم. قال: هذه مفاتيح الباب، وهو مغلق. فقالت: ادفنوه في بيتي، وإذا متُّ فادفنوني معه. فدفنوه في دارها، وماتت بعده فدفنت هناك.

❑ قال ابن الزاغوني: كشف قبر أبي محمدٍ البربهاريِّ؛ وهو صحيحٌ لم يرم، وظهر من قبره روائح الطيب حتى ملأت مدينة السلام»[1].

ولا تعجب يا أخي، فهاك كلام الإمام أحمد إمام أهل السنة: «قبور أهل السنة من الفساق روضةٌ من رياض الجنة، وقبور أهل البدع من الزُّهّاد حفرة من حفر النار»[2].

فكيف بأئمة أهل السنة ممن لهم القدم العالي في الاتباع، وحمل الناس عليه، كالبربهاري.

*** شيخُ الإسلام ابنُ تيميَة: مجدد زمانه وقامع المبتدعين:**

حامل راية الدعوة إلى الكتاب والسنة، وإرجاع الإسلام إلى منابعه الصحيحة في القرن السابع الهجري.

نصر السُّنَّة بأوضح حُجَجٍ وأبهر براهين، وأُوذِيَ في ذات اللَّه من المخالفين، وأُخِيفَ وسجن في نصر السنة المحمدية، حتى أعلى اللَّه مناره.

❑ قال الحافظ ابن سيد الناس عنه: «كان يستوعب السنن والآثار حفظًا».

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» ص(٦١٨ ـ ٦١٩)، و«السير» (١٩/ ٩٠ ـ ٩٢).

(٢) «مناقب الإمام أحمد» ص(٢٣٩).

❑ وقال ابن الزملكاني عنه: «ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقةً».

❑ وقال الحافظ المزي: «ما رأيت أحداً أعلم بكتاب اللَّه وسنة رسوله، ولا أتبع لهما منه»[1].

دعا شيخ الإسلام إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة في عقائد الدين وأصوله وفروعه.

قال ـ رحمه اللَّه ـ: «وليعلم أنه ليس لأحدٍ من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عامًّا، يتعمد مخالفة رسول اللَّه ﷺ بشيءٍ من سنته، لا دقيق ولا جليل؛ فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًّا على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كلّ أحدٍ من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول اللَّه ﷺ».

وقال: «وليس لأحدٍ أن يعارض الحديث الصحيح عن النبي ﷺ بقول أحدٍ من الناس، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما لرجلٍ سأله عن مسألة، فأجابه فيها بحديث، فقال له: قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يوشك أن تنزل عليكم حِجَارةٌ من السماء؛ أقول: قال رسول اللَّه ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر».

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «قد ذم اللَّه في القرآن من عدل عن اتباع الرسل إلى ما نَشَأَ عليه من دين آبائه، وهذا هو التقليد الذي حرمه اللَّه ورسوله، وهو أن يتبع غير الرسول فيما خَالفَ فيه الرسول. وهذا حرامٌ باتفاق المسلمين على كل أحدٍ؛ فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، والرسول طاعتُه فرض على كل أحدٍ من الخاصة والعامة في كل وقت وكل مكان، في سرِّه

(١) «الردّ الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي ص(١٢٩) ـ المكتب الإسلامي.

وعلانيته وفي جميع أحواله».

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «قد أوجب اللَّه طاعة الرسول على جميع الناس في قريبٍ من الأربعين موضعًا من القرآن، وطاعته طاعة اللَّه».

وقال: «التقليد المحرم بالنص والإجماع، أن يعارض قول اللَّه ورسوله بما يخالف ذلك، كائنًا من كان المخالف لذلك».

وقال: «إن اللَّه سبحانه لما ذكر حال من يقول على اللَّه بلا علمٍ بل تقليد السلف، ذكر حال من يكتم ما أنزل اللَّه من البينات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب، فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٧٤]، فهذا حال من كتم علم الرسول، وذلك حال من عدل عنها إلى خلافها، والعادل عنها إلى خلافها يدخل فيه من قلد أحدًا من الأولين والآخرين فيما يعلم أنه خلاف قول الرسول ﷺ، سواءً كان صاحبًا أو تابعًا أو أحد الفقهاء أو غيرهم. ومن ادعى إجماعًا يخالف نصَّ الرسول، من غير نصٍّ يكون موافقًا لما يدعيه، واعتقد جواز مخالفة أهل الإجماع للرسول برأيهم، وأن الإجماع ينسخ النص ـ كما تقوله طائفةٌ من أهل الكلام والرأي ـ فهذا من جنس هؤلاء».

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «وكثير من الفقهاء المتأخرين، أو أكثرهم يقولون: إنهم عاجزون عن تلقي جميع الأحكام الشريعة من جهة الرسول، فيجعلون نصوص أئمتهم بمنزلة نص الرسول، ويقلدونهم. ولا ريب أن كثيرًا من الناس يحتاج إلى تقليد العلماء في الأمور العارضة التي لا يستقل هو بمعرفتها. ومن سالكي طريق الإرادة والعبادة والفقر والتصوف من يجعل شيخه كذلك، بل قد يجعله كالمعصوم!! ولا يتلقى سلوكه إلا عنه، ولا يتلقى عن الرسول سلوكه، مع أن تلقي السلوك عن الرسول أسهل من تلقي

الفروع المُتنازَع فيها، فإن السلوك هو الطريق التي أمر اللَّه بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق، وهذا كله مبين في الكتاب والسنة؛ فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه، ولهذا جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول، ولا يحتاجون في ذلك إلى فقهاء الصحابة..» إلى أن قال: «ولكن كثيرًا من أهل العبادة والزهادة أعرض عن طلب العلم النبوي الذي يعرف به طريق اللَّه ورسوله، فاحتاج لذلك إلى تقليد شيخ، وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصوص الدالة على الصواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد، كلها منصوصة في الكتاب والسنة؛ وإنما اختلف أهل الكلام لمّا أعرضوا عن الكتاب والسنة، فلما دخلوا في البدع وقع الاختلاف، وهكذا طريق العبادة، عامَّةُ ما يقع فيه من الاختلاف إنما هو بسبب الإعراض عن الطريق المشروع، فيقعون في البدع، فيقع فيهم الخلاف، وهكذا الفقه إنما وقع فيه الاختلاف لما خفي عليهم بيان صاحب الشرع».

*** محاربته للبدع والعقائد المخالفة للكتاب والسنة وجهاده الدائم ضد المبتدعة:**

❑ قال عنه الحافظ ابن عبدالهادي: قامع المبتدعين، وقال: «كان ـ رحمه اللَّه ـ سيفًا مسلولاً على المخالفين، وشجًى في حلوق أهل الأهواء المبتدعين»[1].

❑ وقال الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني: «ناصر السنة قامع البدعة، حجّة اللَّه على عباده في عصره، رادّ أهل الزيغ والعناد».

(١) «العقود الدرّية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» لابن عبدالهادي ص(٧) ـ مكتبة المؤيد.

وقال عنه أيضًا: «قامع المبتدعين محيي السنة»[١].

❑ وقال عنه أحمد بن شيخ الحزاميين: «محيي السنة وقامع البدعة ناصر الحديث»[٢].

❑ وقال عنه أحمد بن فضل اللَّه العمري: «وأخمد من أهل البدع كل حديث وقديم، ولم يكن منهم إلا من يجفل عنه إجفال الظليم ويتضاءل لديه تضاؤل الغريم»[٣].

❑ وقال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني: «ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان أعظم الناس قيامًا على أهل البدع من الروافض والحلولية والاتحادية وتصانيفه في ذلك كثيرة شهيرة، وفتاويه فيهم لا تدخل الحصر»[٤].

❑ وقال بدر الدين العيني: «السيف الصارم على المبتدعة» وقال أيضًا: «وكان سيفًا صارمًا على المبتدعة»[٥].

❑ وقال العلاّمة التفهني: «لا يأخذه في الحق لومة لائم، قائم على أهل البدع»[٦].

وقد أسهبنا في ذكر مواقفه مع دجاجلة الرفاعية.

❑ يقول ابن تيمية في الحموية: «من المحال أن يكون الرسول ﷺ قد علم أمته كل شيءٍ حتى الخراءة، وقال: «**تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**». وقال فيما صح عنه أيضًا: «ما بعث

(١) «الردّ الوافر» ص(١٠٨ ـ ١٠٩).
(٢) «الرد الوافر» ص(١٣٠).
(٣) «الرد الوافر» ص(١٤٧).
(٤) المصدر السابق ص(٢٤٨).
(٥) المصدر السابق ص(٢٦٢).
(٦) المصدر السابق ص(٢٥٤).

اللَّه من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم».

❑ وقال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: لقد توفي رسول اللَّه ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا.

❑ وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قام فينا رسول اللَّه ﷺ مَقَامًا، فذكر بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه» رواه البخاري.

مُحالٌ مع هذا، ومع تعليمهم كل شيءٍ لهم فيه منفعةٌ في الدين، وإن دق ـ أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم، ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم، رب العالمين».

وقال: «إن هؤلاء المبتدعة الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ـ ومن حذا حذوهم ـ على طريق السلف، إنما أتوا من حيث إن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأُميين الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾»[1].

❑ يقول أبو حفص البزار تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية عن محاربته للبدع: «وأما ما خصه اللَّه تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك من دحض أقوالهم، وتزييف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم وانتحالهم، وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المحمدية، بما منحه اللَّه تعالى من البصائر الرحمانية، والدلائل النقلية والتوضيحات العقلية، حتى انكشف قناع الحق، وبان فيما جمعه في ذلك

(١) «العقود الدرية» ص(٧٦).

وألفه: الكذبُ من الصدق، حتى لو أن أصحابها أحياء ووفّقوا لغير الشقاء، لأذعنوا له بالتصديق ودخلوا في الدين العتيق».

لقد تصدى ابن تيمية للفرق المنحرفة عن الكتاب والسنة القائمة في عصره:

فدحض مناهج الفلاسفة والمتكلمين، وبين أنهم أبعد الناس عن معرفة الأمور الإلهية.

ورد على الأشاعرة وتأويلهم، وكان لهم منه أوفر نصيبٍ، ورد على القدرية والشيعة، وأفحم النصارى في كتاب «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».

وهاجم ضلال الصوفية والاتحادية وأصحاب وحدة الوجود. . رد على ابن الفارض وابن عربي والعفيف التلمساني والصدر القونوي وابن سبعين، وألف «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

وتصدى للأحمدية والرفاعية.

وقام شيخ الإسلام بتحدي هؤلاء الصوفية، الذين يزعمون الدخول في النيران، وضربهم أنفسهم بالسيوف والسهام، وحملهم الحيات والثعابين، وغيرها من أنواع المخاريق.

تحداهم أنه يدخل معهم النار التي يزعمون دخولهم فيها، وأنها تحرقهم إن شاء اللّه، ولا تحرقه، شريطة أن يغسلوا أنفسهم أولاً بالخلّ، وذلك لإزالة دهن الضفادع الذي يدهنون به أنفسهم حتى لا تؤثر فيهم النار، فلما كشف حيلهم وتحداهم، وكان ذلك بمحضر السلطان، تراجعوا عن ذلك، وظهر كذبهم ومخاريقهم.

وقد كان للشيخ استقلاله في أخذ الفقه من الكتاب والسنة. . واختار ما ترجح بالكتاب والسنة، وجهر به، من دون أن يبالي بالذي قال خلافه من

الأئمة السابقين، فهو تابع للدليل، يدور معه حيث دار.

يقول تلميذه أبو حفص البزار: «كان لا يذكر رسول اللَّه ﷺ إلا ويصلي ويسلم، ولا واللَّه ما رأيت أحدًا أشد تعظيمًا لرسول اللَّه ﷺ، ولا أحرص على اتباعه ونصر ما جاء به منه، حتى إذا أورد شيئًا من حديثه في مسألةٍ، ويرى أنه لم ينسخه شيءٌ غيره من حديثٍ، يعمل به ويقضي بمقتضاه، ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين، كائنًا من كان. وقال رضي الله عنه: «كلُّ قائلٍ إنما يحتج لقوله، لا به، إلا اللَّه ورسوله»[1].

❑ وقال ابن الوردي: «له باعٌ طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين، قل أن يتكلم في مسألةٍ إلا ويذكر فيها مذاهب الأربعة. وقد خالف الأربعة في مسائل معروفة، وصنف فيها واحتج لها بالكتاب والسنة». ثم قال: «وبقي سنين لا يفتي بمذهبٍ معين، بل بما قام الدليل عليه عنده. ولقد نصر السنة المحضة واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يسبق إليها»[2].

وقبل أن نذكر طيب قول الشيخ عماد الدين الواسطي في شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، نذكر ما قاله ابن كثير، من أن الواسطي كان في أول الأمر من الفقهاء المتكلمين، وكان يغلب عليه الجدل والكلام والرأي، فلما انتقل من مصر إلى بغداد، والتقى بأهلها وعلمائها، وتوسعت مداركه وحاسب نفسه، وجدها فارغة من الطمأنينة، فترك سبيل الفقهاء والمتكلمين، واتجه إلى التصوف واقترب من المتصوفة، فلما رأى ما رأى عندهم من الغرائب، تكدر طبعه، وقرر السفر إلى دمشق، وحضر مجلس شيخ الإسلام ابن تيمية، وكان الدرس الأول عن المتكلمين والفلاسفة وعن فقدهم طمأنينة

(١) «الأعلام العلية» ص(٢٩).
(٢) «تاريخ ابن الوردي» (٢/٤٠٦، ٤١٣).

القلب، وأن مشاهيرهم اعترفوا بهذا، وشهدوا على أنفسهم بالاضطراب والحيرة اللذين سببهما الكلام والفلاسفة.

يقول الشيخ عماد الدين ما معناه: إن شيخ الإسلام استمر في كلامه، وأوضح أن الدواء الناجع لأمراض القلب، والسبيل الوحيد لنيل طُمأنينته، هو التمسك بما جاء في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، فانقشع الظلام، وزالت الحيرة ووجدت نور الحقيقة الذي كنت حيران من أجله. قال: فلما اطلع شيخ الإسلام على أحوالي، أوصاني بقراءة السيرة النبوية؛ فإنها الوصفة الكافية الشافية من جميع أمراض القلوب.

ولقد كتب الشيخ عماد الدين الواسطي في الثناء على ابن تيمية ـ ووصى تلامذته به ـ رسالةً سمَّاها «التذكرة والاعتبار، والانتصار للأبرار» وسمى فيها بعض تلامذة ابن تيمية: عمر بن عبداللَه بن شقير، ومحمد بن عبدالأحد، ومحمد بن المنجى، ومحمد بن محمد بن الصائغ؛ وغيرهم من اللائذين بحضرة شيخهم وشيخنا السيد الإمام، الأُمَّة الهمام، محيي السنة، وقامع البدعة، ناصر الحديث، مفتي الفرق، الفائق عن الحقائق، وموصلها بالأصول الشرعية للطالب الذائق، الجامع بين الظاهر والباطن، فهو يقضي بالحق ظاهرًا وقلبه في العلى قاطن، أنموذج الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، الذين غابت عن القلوب سيرهم، ونسيت الأُمَّة حذوهم وسبلهم، فذكرهم بها الشيخ؛ فكان في دارس نهجهم سالكًا، ولموات حذوهم محييًا. ولأعنة قواعدهم مالكًا: الشيخ الإمام تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، أعاد اللَّه علينا بركته، ورفع إلى مدارج العُلى درجته، وأدام توفيق السادة المبدوّ بذكرهم وتسديدهم، وأجزل لهم حظهم، ومزيدهم.

السلام عليكم ـ معشر الإخوان ـ ورحمة اللَّه وبركاته، جعلنا اللَّه

وإياكم ممن ثبت على قرع أبواب الحق جأشه، واحتسب للَّه ما بذله من نفسه في إقامة دينه، وما احتوشته من ذلك وحاشة، واحتذى حذو السبق الأولين، من المهاجرين والأنصار، والذين لم تأخذهم في اللَّه لومة لائم.

ويوصي إخوانه من تلامذة الشيخ بالمواظبة على الاتباع ونبذ الابتداع، ويثني عليهم بدعوتهم ودعوة شيخهم ابن تيمية إلى السنة فيقول:

«وبعد ذلك الحظوة في هذه الدار بلقاء رسول اللَّه ﷺ، غيبًا في غيب، وسرًّا في سر، بالعكوف على معرفة أيامه وسننه واتباعها. فتبقى البصيرة شاخصةً إليه، تراه عيانًا في الغيب، كأنها معه ﷺ، وفي أيامه. فيجاهد على دينه، ويبذل ما استطاع من نفسه في نصرته.

واعلموا ـ أيَّدكم اللَّه ـ أنه يجب عليكم أن تشكروا ربكم تعالى في هذا العصر، حيث جعلكم بين جميع أهل هذا العصر كالشامة البيضاء في الحيوان الأسود. لكن من لم يسافر إلى الأقطار، ولم يتعرف أحوال الناس، لا يدري قدر ما هو فيه من العافية. فأنتم ـ إن شاء اللَّه تعالى ـ في حق هذه الأُمّة الأُولى، كما قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، وكما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١].

أصبحتم إخواني تحت سَنْجقِ[1] رسول اللَّه ﷺ، إن شاء اللَّه تعالى، مع شيخكم وإمامكم، وشيخنا وإمامنا المبدوء بذكره رضي الله عنه. قد تميزتم عن جميع أهل الأرض ـ فقهائها وفقرائها، وصوفيتها، وعوامِّها ـ بالدين الصحيح.

---

(١) أي تحت لوائه ورايته.

وقد عرفتم ما أحدث الناس من الأحداث، في الفقهاء والفقراء والصوفية والعوام. فأنتم اليوم في مقابلة الجهمية من الفقهاء، نصرتم اللَّه ورسوله في حفظ ما أضاعوه من دين اللَّه، تصلحون ما أفسدوه من تعطيل صفات اللَّه.

وأنتم أيضًا في مقابلة من لم ينفذ في علمه من الفقهاء إلى رسول اللَّه ﷺ، وجمد على مجرد تقليد الأئمة، فإنكم قد نصرتم اللَّه ورسوله في تنفيذ العلم إلى أُصُوله من الكتاب والسنة، واتخاذ أقوال الأئمة، تأسِّيًا بهم، لا تقليدًا لهم.

وأنتم أيضًا في مقابلة ما أحدثته أنواع الفقراء من الأحمدية والحريرية من إظهار شعار المكاء والتصدية، ومؤاخاة النساء والصبيان، والإعراض عن دين اللَّه إلى خرافاتٍ مكذوبة عن مشايخهم، واستنادهم إلى شيوخهم وتقليدهم في صائب حركاتهم وخَطَائها، وإعراضهم عن دين اللَّه الذي أنزله من السماء. فأنتم بحمد اللَّه تجاهدون هذا الصنف ـ أيضًا ـ كما تجاهدون من سبق. حفظتم من دين اللَّه ما أضاعوه، وعرفتم ما جهلوه، تقومون من الدين ما عوجوه، وتصلحون منه ما أفسدوه.

وأنتم أيضًا في مقابلة رسمية الصوفية والفقهاء، وما أحدثوه من الرسوم والوضعية، والآصار الابتداعية، من التصنع باللباس، والإطراق والسجادة؛ لنيل الرزق من المعلوم، ولبس البقيار، والأكمام الواسعة في حضرة الدرس، وتنميق الكلام، والعدو بين يدي المدرس راكعين، حفظًا للمناصب، واستجلابًا للرزق والإدرار.

فخلط هؤلاء في عبادة اللَّه غيره، وتألهوا سواه، ففسدت قلوبهم من حيث لا يشعرون. يجتمعون لغير اللَّه، بل للمعلوم، ويلبسون للمعلوم، وكذلك في أغلب حركاتهم يراعون ولاة المعلوم، فضيعوا كثيرًا من دين اللَّه

وأماتوه. وحفظتم أنتم ما ضيعوه، وقومتم ما عوجوه.

وكذلك أنتم في مقابلة ما أحدثته الزنادقة من الفقراء والصوفية من قولهم بالحلول والاتحاد، وتأله المخلوقات؛ كاليونسية، والعربية، والصدرية، والسبعينية، والتلمسانية، فكل هؤلاء بدلوا دين اللَّه تعالى وقلبوه، وأعرضوا عن شريعة رسول اللَّه ﷺ.

فاليونسية يتألهون شيخهم، ويجعلونه مظهرًا للحق، ويستهينون بالعبادات، ويظهرون بالفرعنة والصولة، والسفاهة والمحالات، لما وقر في بواطنهم من الخيالات الفاسدة، وقبلتهم الشيخ يونس، ورسول اللَّه ﷺ والقرآن المجيد عنهم بمعزل، يؤمنون به بألسنتهم، ويكفرون به بأفعالهم.

وكذلك الاتحادية، يجعلون الوجود مظهرًا للحق، باعتبار أن لا متحرك في الكون سواه، ولا ناطق في الأشخاص غيره. وفيهم من لا يفرق بين الظاهر والمظهر، فجعل الأمر كموج البحر، فلا يفرق بين عين الموجة وبين عين البحر، حتى إن أحدهم يتوهم أنه اللَّه، فينطق على لسانه، ثم يفعل ما أراد من الفواحش والمعاصي؛ لأنه يعتقد ارتفاع الثنوية: فمن العابد ومن المعبود؟ صار الكل واحدًا.

اجتمعنا بهذا الصنف في الرُّبُط والزَّوايا.

فأنتم بحمد اللَّه قائمون في وجه هؤلاء أيضًا، تنصرون اللَّه ورسوله، وتذبون عن دينه، وتعملون على إصلاح ما أفسدوا، وعلى تقويم ما عوجوا، فإن هؤلاء محوا رسم الدين، وقلعوا أثره. فلا يقال: أفسدوا ولا عوجوا، بل بالغوا في هدم الدين ومحوا أثره، ولا قربة أفضل عند اللَّه من القيام بجهاد هؤلاء بما أمكن، وتبيين مذاهبهم للخاص والعام. وكذلك جهاد كل من ألحد في دين اللَّه، وزاغ عن حدوده وشريعته، كائنًا في ذلك ما كان من فتنةٍ وقول، كما قيل:

إذا رَضي الحبيبُ فلا أُبالي أقام الحيُّ أَم جَدَّ الرَّحيلُ

واللَّه المستعان.

وكذلك أنتم بحمد اللَّه قائمون بجهاد الأمراء والأجناد، تصلحون ما أفسدوا من المظالم والإجحافات، وسوء السيرة الناشئة عن الجهل بدين اللَّه، بما أمكن، وذلك لبعد العهد عن رسول اللَّه ﷺ؛ لأن اليوم له سبعمائة سنة، فأنتم بحمد اللَّه تجدِّدون ما دَثَرَ من ذلك ودُثر.

وكذلك أنتم بحمد اللَّه قائمون في وجوه العامة، ممّا أحدثوا من تعظيم الميلادة، والقَلَنْدس، وخميس البيض، والشَّعانين، وتقبيل القبور والأحجار، والتوسل عندها. ومعلوم أن ذلك كله من شعائر النصارى والجاهلية، وإنما بُعث رسول اللَّه ﷺ ليُوحَّد اللَّه ويعبد وحده، ولا يُؤلَّه معه شيء من مخلوقاته. بعثه اللَّه تعالى ناسخًا لجميع الشرائع والأديان والأعياد. فأنتم بحمد اللَّه قائمون بإصلاح ما أفسد الناس من ذلك.

وقائمون في وجوه من ينصر هذه البدع من مارقي الفقهاء، أهل الكيد والضرار لأولياء اللَّه، أهل المقاصد الفاسدة، والقلوب التي هي عن نصر الحق حائدة.

وإنما أعرض هذا الضعيف عن ذكر قيامكم في وجوه التتر والنصارى، واليهود، والرافضة، والمعتزلة، والقدرية، وأصناف أهل البدع والضلالات؛ لأن الناس متفقون على ذمهم. يزعمون أنهم قائمون برد بدعتهم، ولا يقومون بتوفية حق الرد عليهم كما تقومون، بل يعلمون ويجبنون عن اللقاء، فلا يجاهدون وتأخذهم في اللَّه اللائمة؛ لحفظ مناصبهم، وإبقاء على أعراضهم.

سافرنا البلاد فلم نر من يقوم بدين اللَّه في وجوه مثل هؤلاء ـ حق القيام ـ سواكم، فأنتم القائمون في وجوه هؤلاء ـ إن شاء اللَّه ـ بقيامكم

بنصرة شيخكم وشيخنا ـ أيده اللَّه ـ حق القيام، بخلاف من ادعى من الناس أنهم يقومون بذلك.

ثم اعرفوا إخواني حقَّ ما أنعم اللَّه عليكم من قيامكم بذلك. واعرفوا طريقكم إلى ذلك، واشكروا اللَّه تعالى عليها. وهو أن أقام لكم ولنا ـ في هذا العصر ـ مثل سيدنا الشيخ، الذي فتح اللَّه به أقفال القلوب، وكشف به عن البصائر عمى الشبهات وحيرة الضلالات، حيث تاه العقل بين هذه الفرق، ولم يهتدِ إلى حقيقة دين الرسول ﷺ.

ومن العجب أن كُلاًّ منهم يدعي أنه على دين الرسول، حتى كشف اللَّه لنا ولكم ـ بواسطة هذا الرجل ـ عن حقيقة دينه الذي أنزله من السماء وارتضاه لعباده.

واعلموا أن في آفاق الدنيا أقوامًا يعيشون أعمارهم بين هذه الفرق، يعتقدون أن تلك البدع حقيقة الإسلام، فلا يعرفون الإسلام إلا هكذا.

فاشكروا اللَّه الذي أقام لكم في رأس السبعمائة من الهجرة، مَنْ بيَّن لكم أعلام دينكم، وهداكم اللَّه به وإيانا إلى نهج شريعته، وبين لكم بهذا النور المحمدي، ضلالات العباد وانحرافاتهم، فصرتم تعرفون الزائغ من المستقيم، والصحيح من السقيم. وأرجو أن تكونوا أنتم الطائفة المنصورة، الذين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وهم بالشأم إن شاء اللَّه تعالى.

ثم إذا علمتم ذلك، فاعرفوا حق هذا الرجل ـ الذي هو بين أظهركم ـ وقدره، ولا يعرف حقه وقدره إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقدره، فمن وقع دين الرسول ﷺ من قبله بموقعٍ يستحقه، عرف حق ما قام به هذا الرجل بين أظهر عباد اللَّه، يقوم معوجهم، ويصلح فسادهم، ويلمّ شعثهم، جهد إمكانه، في الزمان المظلم، الذي انحرف فيه الدين،

وجهلت السنن، وعهدت البدع، وصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والقابض على دينه، كالقابض على الجمر، فإن أجر من قام بإظهار هذا النور ـ في هذه الظلمات ـ لا يوصف، وخطره لا يعرف. هذا إذا عرفتموه أنتم من حيثية الأمر الشرعي الظاهر، فهنا قوم عرفوه من حيثيةٍ أخرى من الأمر الباطن. ومن يقوده إلى معرفة أسماء اللَّه تعالى وصفاته، وعظمة ذاته، واتصال قلبه بأشعة أنوارها، والاحتظاء من خصائصها وأعلى أذواقها، ونفوذه من الظاهر إلى الباطن، ومن الشهادة إلى الغيب، ومن الغيب إلى الشهادة، ومن عالم الخلق إلى عالم الأمر، وغير ذلك مما لا يمكن شرحُه في كتاب.

فشيخكم ـ أيّدكم اللَّه تعالى ـ عارفٌ بذلك، عارف بأحكام اللَّه الشرعية، عارف بأحكامه القدرية، عارف بأحكام أسمائه وصفاته الذاتية، ومثل هذا العارف قد يبصر ببصيرته تنزُّل الأمر بين طبقات السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق: ١٢].

فالناس يحسون بما يجري في عالم الشهادة، وهؤلاء بصائرهم شاخصةٌ إلى الغيب، ينتظرون ما تجري به الأقدار، يشعرون بها أحيانًا عند تنزلها. فلا تهونوا أمر مثل هؤلاء في انبساطهم مع الخلق؛ واشتغال أوقاتهم بهم، فإنهم كما حكي عن الجنيد ـ رحمه اللَّه ـ أنه قيل له: «كم تنادي على اللَّه تعالى بين الخلق؟ فقال: أنا أنادي على الخلق بين يدي اللَّه».

فاللَّه اللَّه في حفظ الأدب معه، والانفعال لأوامره، وحفظ حرماته في الغيب والشهادة، وحب من أحبه، ومجانبة من أبغضه وتنقَّصه، وردِّ غيبته، والانتصار له في الحق.

واعلموا ـ رحمكم اللَّه ـ أن هنا من سافر إلى الأقاليم، وعرف الناس

وأذواقهم، وأشرف على غالب أحوالهم، فواللَّه، ثم واللَّه، ثم واللَّه، لم ير تحت أديم السماء مثل شيخكم: علمًا، وعملاً، وحالاً، وخلقًا، واتباعًا، وكرمًا وحلمًا؛ في حق نفسه، وقيامًا في حق اللَّه عند انتهاك حرماته. أصدق الناس عقدًا، وأصحهم علمًا وعزمًا، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همَّةً، وأسخاهم كفًّا، وأكملهم اتباعًا لنبيه محمدٍ ﷺ.

ما رأينا ـ في عصرنا هذا ـ من تُستجلى النبوة المحمدية وسنتها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، بحيث يشهد القلب الصحيح، أن هذا هو الاتباع حقيقةً.

❑ وتكلم عمن يطعن في الشيخ ابن تيمية:

يا سبحان اللَّه العظيم، أين عقول هؤلاء؟ أعميت أبصارهم وبصائرهم؟! أفلا يرون ما الناس فيه من العمى والحيرة في الزمان المظلم المدلهم، الذي قد ملكت فيه الكفار معظم الدنيا؟! وقد بقيت هذه الخطة الضيقة، يشم المؤمنون فيها رائحة الإسلام، وفي هذه الخطة الضيقة من الظلمات من علماء السوء والدعاة إلى الباطل وإقامته، ودحض الحق وأهله، ما لا يحصر في كتاب. ثم إن اللَّه تعالى قد رحم هذه الأمة بإقامة رجلٍ قوي الهمة، ضعيف التركيب، قد فرق نفسه وهمه في مصالح العالم، وإصلاح فسادهم، والقيام بمهماتهم، وحوائجهم، ضمن ما هو قائم بصدد البدع والضلالات، وتحصيل مواد العلم النبوي الذي يصلح به فساد العالم، ويردهم إلى الدين الأول العتيق جهد إمكانه، وإلا فأين حقيقة الدين العتيق؟!

فهو مع هذا كله قائمٌ بجملة ذلك وحده، وهو منفردٌ بين أهل زمانه، قليلٌ ناصره، كثيرٌ خاذله، وحاسده، والشامت فيه!!

❑ ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية في جمعه لعقيدة السلف الصالح: «ما

جمعت إلا عقيدة السلف الصالح جميعهم، ليس للإمام أحمد اختصاصٌ بهذا. والإمام أحمد إنما هو مبلِّغ العلم الذي جاء به النبي ﷺ، ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يجئ به الرسول ﷺ، لم نقبله. وهذه عقيدة محمد ﷺ».

وقال أيضًا: «الإمام أحمد رضي الله عنه، لَمَّا انتهى إليه من السنة ونصوص رسول اللَّه ﷺ أكثر مما انتهى إلى غيره، وابتلي بالمحنة والرد على أهل البدع أكثر من غيره، كان كلامه وعمله في هذا الباب أكثر من غيره، فصار إمامًا في السنة أظهر من غيره، وإلا فالأمر كما قاله بعض شيوخ المغاربة العلماء الصلحاء، قال: المذهب لمالكٍ والشافعي، والظهور لأحمد بن حنبل. يعني أن الذي كان عليه أحمد، عليه جميع أئمة الإسلام، وإن كان لبعضهم من زيادة العلم والبيان وإظهار الحق ودفع الباطل، ما ليس لبعضٍ».

❑ وللَّه درّ شيخ الإسلام ابن تيمية، العلم في الاتباع، حين يدافع عن عقيدته؛ عقيدة السلف: «قلت مرات: قد أمهلت كل من خالفني في شيءٍ منها ثلاث سنين، فإن جاء بحرفٍ واحد عن القرون الثلاثة، التي أثنى عليها النبي ﷺ ـ حيث قال: «خير الناس القرن الي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» ـ يخالف ما ذكرته، فأنا راجعٌ عن ذلك. وعليَّ أن آتي بنقولِ جميع الطوائف من القرون الثلاثة توافق ما ذكرته».

وما ذاك إلا أنه لنبيِّه ... نبّي الهُدى في كل شيءٍ متابعُ

❑ ويقول آخر:

منه حُبُّ الكتابِ والسُّنّة الـ ... ـمُثْلَى جرى في عُرُوقه والعظامِ

❑ ويقول الشيخ المتيم عبداللَّه بن خضر الرومي تلميذ شيخ الإسلام، في الثناء على شيخه ابن تيمية ورثائه:

ملأتُ النواحي من نُواحي وكيف لا ... أنوح على قومٍ هُم خير جيرتي

ومن عجبٍ أني أحِنُّ إليهمُ ... وقد سكنوا قلبي وروحي ومهجتي
ذكرتُ فلم أنس زمان وصالهم ... أأنسى ليالٍ بالعُذيب تقضَّت
منازُل أحبابي مواطن سادتي ... مطالع أقماري شروق أهلَّتي
معاهد أفراحي ديار سعادتي ... مواسم أرباحي أُويقات لَذَّتي
وحاشايَ أن أسْلُو هواهم وحُبُّهم ... يُذكّرني حِفْظ العهود القديمة
فهو سرُّ أسراري ونور مناظري ... ورُوحي وريحاني وأُنسي وبهجتي
وهم عينُ أعياني وقلبي وقالبي ... وهم منتهى قصدي ومشهد رؤيتي
وهم في معانيهم حياتي حقيقةً ... وهم في مغانيهم أُهَيْلُ مودّتي
وهم في تجلِّيهم شموسٌ إذا بَدَوْا ... وهم في تجنِّيهم رياضي ونزهتي
وهم أينما كانوا نهاية مقصدي ... وهم أينما حلُّوا مرادي وبُغيتي
وقد آن أنْ أُبدي خفايا صبابتي ... وأُظهر للعُذّال أصل رَزيَّتي
وأبكي على مَن كان يجمعُ شملنا ... على طاعة الرحمن في كلِّ لمحة
وأندب أحزاني بما قد أصابني ... وأنثُر أشجاني بنظْم قصيدتي
فقدتُ إماماً كان أوْحَدَ عصرِه ... وقد فُجعتْ فيه جميعُ البَرِيَّة
فقدتُ إماماً لم يَزَلْ متوكِّلاً ... على اللّه لا يُصغي إلى غير سُنَّة
فقدتُ إماماً كان بالعلم عاملاً ... وكان حقيقًا قامعًا كلَّ بدعة
أتى بكتاب اللّه والسُّنّة التي ... علَتْ وارتقتْ حقًّا على كلِّ ملَّة
أتى بأحاديث الرسول وشرحها ... وعمّنْ رواها بالمتون الصحيحة
أتانا بأحوال الرسول حقيقة ... وسيرته تسمو على كل سيرة
أتانا بأحوال الصحابة كلِّهم ... والتَّابعين الملَّة المستقيمة
أتانا بوصف الصالحين وحالهم ... وما هم عليه من جميل العقيدة
وعلَّمنا شرعَ الرسول ودينَهُ ... بأفصح ألفاظٍ وأصدق لهجة

أعْلَمَنا أن النجاة من الهوى ... تمسُّكنا بالسُّنّة النّبويّة
وحذّرنا من كل زيغٍ وبدعةٍ ... وعن كل طاغٍ خارجٍ عن مَحَجَّة
وناظَرَ أربابَ العقائد كلّهم ... وبيّن مَنْ قد ضلَّ من كلِّ فرقة
وردَّ على أهل الضلال جميعهم ... بأوضح برهانٍ وأبْلَغِ حُجّة
وبيّن تكذيب اليهود وخُبْثهم ... وما بدّلوا في الملّة الموسويّة
وأخبرهم عن سرِّ أسباب كفرهم ... فتعسًا لهم من أُمَّةٍ غَضَبيَّة
وأظهر أيضًا للنصارى ضلالهم ... وما أحدثوا في الملّة العيسويّة
وباحَثَهم حتى تبيَّن أنّهم ... سُكارى حَيارى بالطِّباع الخبيثة
وردَّ على كُتُب الفلاسفة الأُلى ... بمنقولِ أحكامٍ ومعقولِ حِكْمة
وقرَّر إثبات النُّبّوات عندهم ... وجال عليهم كرَّةً بعدَ كرَّة
وردّ على جَهْمٍ وجَعْدِ بن درْهمٍ ... وبشرِ المريسي عُمْدة الجَهْميَّة
زنادقةٌ كم أهلكوا من عوالمٍ ... بُسوءِ اعتقاداتِ النُّفوسِ السَّقيمة
وجادَلَ أهلَ الاعتزال جميعهم ... وسلَّ عليهم سيفَه بالأدلَّة
وباحَثَ أشياخَ الرَّوافض وانثنَى ... يُقاتلهم بالدُّرَّة العُمَريَّة
وردَّ على قومٍ تربَّتْ نُفُوسهم ... على النَّفْي والتعطيل من غير حُجَّة
وردَّ على قومٍ وشتَّتَ شملَهم ... وهم أهلُ تشبيه أتَوْا بكبيرة
وردَّ على أهل التَّناسُخ عندما ... تَجَرَّوْا وخاضُوا في أمورٍ عظيمة
وردّ على أهل الحُلُول فإنَّهم ... يروْن تجلِّي الحقِّ في كلِّ صورة
وقد زعموا أن التَّجلِّيَ ظاهرٌ ... ولا سيَّما في صورةٍ أمْرَديَّة
فمن أجْلِ هذا يرقصون ديانةً ... وفي رقصهم جاءوا بكُلِّ قبيحة
يروْن شهودَ المُرْدِ والرَّقص قُربةً ... فيا وَيْلهم من خِزْي يومِ الفضيحة
وردَّ على أتْباعِ إبليسَ عندما ... رآهم وقد مالوا إلى الجَبْريَّة

وكم قد طوى في عِلْمه من طوائف ... حَرُورِيَّةٍ منهم على حَشَوِيَّةِ
مطايا بُنَيَّات الطريق سرتْ بهم ... إلى أن أناخُوا في عِراصِ القطيعةِ
وفي بحر آراء العقائد أغرقوا ... رمتْهم خيالاتُ العقول السخيفةِ
وكم قدْ أراهم كلّهم سُبُل الهُدى ... وكم قد نهاهم مرَّةً بعد مرّةِ
فمن كان قطب الكون في حال عصره ... سواه ومنْ قد فاز بالبَدَلِيَّةِ
شجاعٌ هُمامٌ بارعٌ في صفاته ... يروم مرامًا في المراقي العَلِيَّةِ
هو الحَبْر والقُطب الذي شاع ذكْرُه ... وفاح شذاه كالعبير المُفَتَّتِ
ألا يا تقيَّ الدين يا فردَ عَصْرِه ... بُرُوقُك قد لاحتْ كشمسٍ مضيئةِ
وبانتْ لكلِّ الناس أوصافُك التي ... برزتَ بها مِثْلَ العيون الغزيرةِ
ظهرتَ بأنواع العلوم وجنسها ... وسارت بها الرُّكْبانُ في كلِّ بلدةِ
لقد كُنتَ رُوحًا للقلوب وراحةً ... وقُوتًا وأُنسًا للنفوس النفيسةِ
تمسَّكت بالدين الحنيفيّ والهُدى ... وبالعُروة الوثقى وأصل الشريعةِ
وجُدتَ بكأس الفضل منك تكرُّمًا ... على تابعين السُّنّة المحمديّةِ
لقد عشتَ محبوبًا ومتَّ مكرَّمًا ... عليك من الرحمن أزْكَى تحيَّةِ[1]

* تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة والأصول:

❑ قال الحافظ البزار: «وأمَّا ما خصَّه اللَّه تعالى به في معارضة أهل البدع في بدعيتهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألفه في ذلك من دحض أقوالهم، وتزييف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم وانتحالهم، وتبديد شملهم، وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشيطانية، ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنيفية المُحمديَّة، بما منحه اللَّه تعالى به من البصائر

(١) «العقود الدرية» ص(٤٦٥ ـ ٤٧٢).

الرحمانية، والدلائل النقلية، والتوضيحات العقلية، حتى ينكشف قناع الحقّ، وبان ـ بما جمعه في ذلك وألَّفه ـ الكذب من الصدق، حتى لو أنَّ أصحابها أحياء، ووفَّقوا لغير الشقاء؛ لأذعنوا له بالتصديق، ودخلوا في الدين العتيق.

ولقد وجب على كلٍّ من وقف عليها، وفهم ما لديها؛ أن يحمد اللَّه تعالى على حسن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام.

ولقد أكثر رضي الله عنه التصنيف في الأصول فضلاً عن غيره من بقية العلوم، فسألتُه عن سبب ذلك، والتمستُ منه تأليف نصٍّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته؛ ليكون عمدةً في الإفتاء. فقال لي ما معناه: الفروع أمرها قريب، ومن قلَّد ـ المسلمُ ـ فيها أحد العلماء المُقلَّدين؛ جاز له العمل بقوله، ما لم يتيقَّن خطأه، وأما الأصول: فإني رأيتُ أهل البدع والضلالات والأهواء، كالمتفلسفة، والباطنية، والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية، والقدرية، والنُّصيرية، والجهمية، والحلولية، والمُعطلة، والمُجسِّمة، والمُشبِّهة، والراوندية، والكُلابية، والسُّليمية، وغيرهم من أهل البدع ـ قد تجاذبوا فيها بأزمَّة الضلال، وبان لي أن كثيرًا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المُقدَّسة المحمدية، الظاهرة العليَّة على كل دين، وأن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلَّ أن سمعتُ أو رأيتُ مُعرضًا عن الكتاب والسُّنة مُقبِلاً على مقالاتهم؛ إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده. فلما رأيت الأمر على ذلك؛ بان لي أنه يجب على كل من يقدر على دفع شُبَههم وأباطيلهم، وقطع حُجَّتهم وأضاليلهم؛ أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويُزيِّف دلائلهم؛ ذبًّا عن الملَّة الحنيفية، والسُّنَّة الصحيحة الجليَّة.

ولا واللَّه ما رأيت فيهم أحداً ممن صنَّف في هذا الشأن، وادَّعى عُلُوَّ المقام، إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام وسببُ

ذلك: إعراضه عن الحق الواضح المبين، وعمَّا جاءت به الرسل الكرام عن ربِّ العالمين، واتِّباعه طُرُقَ الفلسفة في الاصطلاحات التي سمَّوها بزعمهم حكميات وعقليات، وإنما هي جهالات وضلالات، وكونه التزمها مُعرضًا عن غيرها أصلاً ورأسًا، فغلبت عليه حتى غطَّت على عقله السليم، فتخبَّط حتى خبط فيها عشوًا، ولم يُفرِّق بين الحق والباطل، وإلا فاللَّه أعلم لطفًا بعباده أن لا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويُثبته، ويُبطل الباطل وينفيه، لكن عدم التوفيق، وغلبة الهوى، أوقع من أوقع في الضلال، وقد جعل اللَّه تعالى العقل السليم من الشوائب ميزانًا يزِنُ به العبد الواردات، فيُفرِّق بين ما هو من قبيل الحق، وما هو من قبيل الباطل، ولم يبعث اللَّه الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده، فكيف يقال: إنه مُخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن اللَّه تعالى، هذا باطل قطعًا، يشهد له كل عقل سليم، لكن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

قال الشيخ الإمام قدَّس اللَّه روحه: فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنِّي صرفتُ جُلَّ همِّي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم وأجبتُ عنها بما أنعم اللَّه تعالى به من الأجوبة النقلية والعقلية.

قلتُ ـ البزار ـ: وقد أبان ـ بحمد اللَّه تعالى فيما ألَّف فيها ـ لكل بصير الحقَّ من الباطل، وأعانه بتوفيقه حتى ردَّ عليهم بدَعَهم وآراءهم، وخِدَعَهم وأهواءهم، مع الدلائل النقلية بالطريقة العقلية، حتى يُجيب عن كل شبهة من شبههم بعدة أجوبة جليَّة واضحة يعقلها كل ذي عقل صحيح، ويشهد لصحتها كلُّ عاقل رجيح، فالحمد للَّه الذي منَّ علينا برؤيته وصُحبته، فلقد جعله اللَّه حُجَّةً على أهل هذا العصر، المُعرض غالب أهله عن قليله وكثيره؛ لاشتغالهم بفاني الدنيا عما يحصل به باقي الآخرة، فلا حول ولا قوة إلا باللَّه»[1].

(١) «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» للبزار ص(٣٠ ـ ٣٥).

❑ قال العلامة شيخ الشافعية ابن الزملكاني في شيخ الإسلام ابن تيمية:

ماذا يقولُ الواصفون له ... وصفاتُهُ جلَّتْ عن الحصرِ
هو حُجَّةٌ للَّه قاهرةٌ ... هو بيننا أُعْجُوبةُ الدهرِ
هو آيةٌ للخلقِ ظاهرةٌ ... أنوارُها أربتْ على الفجرِ

*** من كلامه في أهل البدع:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ «رأى المسلمون أن يهجروا من ظهرت عليه علامات الزيغ من المظهرين للبدع الداعين إليها والمظهرين للكبائر»[1].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المخالفة للكتاب والسنة، أو العبارات المخالفة للكتاب والسنة، فإن بيان حالهم وتحذير الأمة منهم واجب باتفاق المسلمين، حتى قيل لأحمد بن حنبل: الرجل يصوم ويصلي ويعتكف أحب إليك أو يتكلم في أهل البدع؟ فقال: إذا قام وصلى واعتكف فإنما هو لنفسه، وإذا تكلم في أهل البدع فإنما هو للمسلمين هذا أفضل.

فبيّن أن نفع هذا عام للمسلمين في دينهم من جنس الجهاد في سبيل اللَّه، إذ تطهير سبيل اللَّه ودينه ومنهاجه وشرعته ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم على ذلك واجب على الكفاية باتفاق المسلمين، ولولا من يقيمه اللَّه لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدو من أهل الحرب، فإن هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدين إلا تبعًا، وأما أولئك فهم يفسدون القلوب ابتداءً»[2].

---

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٤/ ١٧٤).
(٢) المصدر السابق (٢٨/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).

وقال ـ أيضًا ـ: «ومن كان مبتدعًا ظاهر البدعة، وجب الإنكار عليه، ومن الإنكار المشروع امتناع أهل الدين من الصلاة عليه لينزجر من يتشبه بطريقته، ويدعو إليه، وقد أمر بمثل هذا مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وغيرهما من الأئمة، واللَّه أعلم»[1].

«ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة، كما روي ذلك عن الحسن البصري وغيره؛ لأنه لما أعلن ذلك استحق عقوبة المسلمين له، وأدنى ذلك أن يذم عليه لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته، ولو لم يذم ويذكر بما فيه من الفجور والمعصية أو البدعة لاغترّ به الناس، وربما حمل بعضهم أن يرتكب ما هو عليه، ويزداد أيضًا هو جرأةً وفجورًا ومعاصي، فإذا ذكر بما فيه انكفّ وانكفّ غيره عن ذلك وعن صحبته ومخالطته، قال الحسن البصري: أترغبون عن ذكر الفاجر؟! أذكروه بما فيه كي يحذره الناس، وقد روي مرفوعًا، و«الفجور» اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح يدل السامع له على فجور قلب قائله.

ولهذا كان مستحقًّا للهجر إذا أعلن بدعة أو معصية أو فجورًا أو مخالطة لمن هذا حاله بحيث لا يبالي بطعن الناس فإن هجره نوع تعزير له، فإذا أعلن السيئات أعلن هجره، وإذا أسر أُسر هجره، إذ الهجرة هي الهجرة على السيئات، وهجر السيئات هجرة ما نهى اللَّه عنه، كما قال تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾.

* وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾»[2].

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٩٢).

(٢) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (١٥/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧).

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «والكلام الذي ذمّوه (أي السلف) نوعان: أحدهما أن يكون في نفسه باطلاً وكذبًا، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل وكذب فإن أصدق الكلام كلام اللَّه.

والثاني: أن يكون فيه مفسدة، مثلما يوجد في كلام كثير منهم: من النهي عن مجالسة أهل البدع، ومناظرتهم، ومخاطبتهم، والأمر بهجرانهم. وهذا لأن ذلك قد يكون أنفع للمسلمين من مخاطبتهم، فإن الحق إذا كان ظاهرًا قد عرفه المسلمون، وأراد بعض المبتدعة أن يدعو إلى بدعته، فإنه يجب منعه من ذلك، فإذا هُجر وعُزِّر، كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصبيغ بن عسل التميمي، وكما كان المسلمون يفعلونه، أو قُتل كما قَتل المسلمون الجعد بن درهم وغيلان القدري وغيرهما، كان ذلك هو المصلحة، بخلاف ما إذا تُرك داعيًا، وهو لا يقبل الحق: إما لهواه، وإما لفساد إدراكه، فإنه ليس في مخاطبته إلا مفسدة وضرر عليه وعلى المسلمين»[1].

❑ يقول ابن رجب عن شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولقد نصر السنّة المحضة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات وأمور لم يُسبَق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها. حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قيامًا لا مزيد عليه، بل يقول الحق المرَّ الذي أداه إليه اجتهاده فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقعات شامية مصرية، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه اللَّه، فإنه دائم الابتهال، كثير الاستغاثة، والاستعانة به، قوي التوكل، ثابت الجأش، إلى أن قال: ولعل من الحق علينا هنا أن نضيف إلى تلك الأسباب التي خلقت هذه

(١) «درء التعارض لابن تيمية» (٧/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

الخصومات سببًا آخر نحسٌ آثاره في كل عصر، وهو داء الحسد الذي إذا تملك قلب إنسان أفسده وأعمى بصيرته، وجعله لا يبغي لخصمه إلا الشر والأذى.

ولأن ابن تيمية اشتهر وذاع صيته واجتهد في أمور كثيرة خالف فيها علماء عصره، فدب الحسد والغضب إلى مدعي العلم والمقلدة والخرافيين الذي يضيقون أن يروا عالمًا يبزهم ويظهر جهلهم. فوشوا به إلى الحكام واتهموه بالكفر. فزجوا به في أعماق السجون تارة في القاهرة، وتارة في الإسكندرية، ولايكاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون يفرج عنه لما يجد من فضله وعلمه حتى يسارع هؤلاء الهدامون من جديد للوشاية به واختلاق الأكاذيب وإثارة الفتن ضده حتى يعاد به إلى السجن بعد تسليط الرعاع والغوغاء عليه وإيذائهم له واعتدائهم عليه، وكان يسجن معه أحيانًا أخواه شرف الدين عبدالله وزين الدين عبدالرحمن»[1].

ويذكر صاحب فوات الوفيات[2] أن الشيخ أملى سنة ٦٩٨هـ ـ ١٢٩٨م المسألة المعروفة بالحموية في قعدة بين الظهر والعصر وهي رسالة أجاب بها عن سؤال ورد من «حماة» في الصفات، وجرى له بسببها محنة ولكن الله نصره وذلَّ أعداءه.

وقد كان شيخ الإسلام سلفيًّا في كل آرائه، فاتهم بلا حق بأنه يرى رأي المجسِّمة أو المشبِّهة، وأثار خصومه الناس وبعض السلاطين والأمراء عليه بسبب آرائه في هذه المسألة التي جاءت في الرسالة الحموية، فكانت فتنة ومحنة نجَّاه الله منها.

ويبسط ابن كثير القول قليلاً في هذه المسألة، فيذكر أنه في أواخر دولة

(١) «ابن تيمية بطل الإصلاح الديني» لمحمود مهدي الاستانبولي ص(١٩).
(٢) «فوات الوفيات» (١/ ٥٠ ـ ٥١).

الملك المنصور لاجين السلحداري قام على ابن تيمية جماعة من الفقهاء وأرادوا أن يحضر إلى مجلس القاضي الحنفي جلال الدين، ولكنه أبى أن يحضر فشنعوا عليه بالمناداة في البلد ضد رأيه الذي أبانه في الرسالة الحموية.

ولكن أحد الأمراء انتصر له وأرسل يطلب من قالوا ضده فاختفى الكثيرون منهم، كما ضرب بعض من نادوا عليه فسكت الباقون وسكنت الفتنة. ثم اجتمع الشيخ بالقاضي جلال الدين وعنده جماعة من العلماء والفضلاء، وباحثوه في الرسالة وناقشوه في مواضع منها، فأجاب الشيخ عما سألوه بما أسكتهم بعد كلام كثير[1].

ثم امتحن سنة ٧٠٥هـ ـ ١٣٠٥م بالسؤال عن معتقده بأمر السلطان، فجمع نائبه القضاة والعلماء بالقصر، وأحضر الشيخ وسأله عن ذلك، فبعث الشيخ من أحضر من داره «العقيدة الواسطية» فقرءوها في ثلاثة مجالس، وحاققوه وبحثوا معه، ووقع الاتفاق بعد ذلك على أن هذه العقيدة سُنّية سلفية، فمنهم من قال ذلك طوعًا ومنهم من قاله كرهًا.

*** محنة شيخ الإسلام وسجنه:**

ويذكر أن المصريين هم الذين دبروا الحيلة في أمر الشيخ، ورأوا أنه لا يمكن البحث والجدل معه، وأجمعوا أمرهم على أن يعقد له مجلس ويُدَّعى عليه فيه وتقام عليه الشهادات.

وكان القائمون في ذلك منهم بيبرس الجاشنكير[2] الذي صار سلطانًا فيما بعد، ونصر المنبجي وكان خصمًا للشيخ لأكثر من سبب شديد المراس،

---

(١) «البداية والنهاية» (١٤/ ٤).

(٢) كان المنبجي شيخ بيبرس حاكم مصر، كان متصوفًا من أنصار مذهب الاتحاد والحلول. انظر «الطبقات» (٢/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

وابن مخلوف قاضي المالكية. ومهما يكن من أمر، فقد عقد المجلس لمحاكمته، وادَّعى عليه المدعي بأنه يعتقد أن اللَّه على العرش حقيقةً، وأنه يشار إليه بالإشارة الحسيّة، وأنه يتكلم بحرف وصوت، ثم قال: اطلب التقرير على ذلك، التقرير البليغ، يشير إلى القتل على مذهب مالك.

فقال القاضي ابن مخلوف: ما تقول يا فقيه؟ فأخذ في حمد اللَّه والثناء عليه، فقيل له: أسرع، ما جئت لتخطب، فقال: أأمنع من الثناء على اللَّه تعالى!.. فقال القاضي: أجب، فقد حمدت اللَّه، فسكت الشيخ، فقال: أجب.. فقال الشيخ له: من هو الحاكم فيَّ؟ فأشاروا: القاضي هو الحاكم، فقال الشيخ لابن مخلوف: أنت خصمي فكيف تحكم فيَّ؟ فأقيم الشيخ ومعه أخواه، ثم رُدَّ. وقال: رضيت أن تحكم فيَّ، فلم يُمكَّن من الجلوس.

وكان بعد هذا أن حبسوه في برج أيامًا نقل بعدها ليلة عيد الفطر إلى السجن المعروف بالجب. وتلا ذلك إرسال كتاب سلطاني إلى الشام بالطعن عليه والحط منه وإلزام الناس ـ وبخاصة أهل مذهبه ـ بالرجوع عن عقيدته وإلا كان العزل والحبس مصيرهم، ونودي بهذا في الجامع والأسواق.

ولبث في السجن عامًا وبضعة أشهر، ورفض الإفراج عنه على أن يرجع عن بعض عقيدته، حتى إذا كان شهر ربيع الأول سنة ٧٠٧هـ ـ ١٣٠٧م حضر حسام الدين مهنا بن عيسى أمير العرب إلى مصر ودخل السجن وأخرج الشيخ بنفسه بعد أن استأذن في ذلك، وعقدت له مجالس حضرها أكابر الفقهاء وانتهت على خير[1].

على أنه لم يخرج من السجن إلا ليعود إليه في العام نفسه بسبب

(١) «البداية والنهاية» (١٤/٤٥).

شكاية تقدم بها الصوفية في شهر شوال ضده إلى القاضي، وذكروا في شكايتهم أنه يحمل على ابن عربي وغيره من المتصوفة.

ولكن الدولة لم ترضَ بهذا (ولعله بإيعاز من الشيخ نصر المنبجي عدو ابن تيمية) فخير بين أشياء وهي: الإقامة بدمشق أو بالإسكندرية بشروط أو الحبس، فكان أن اختار الحبس مؤثرًا له على قبول تلك الشروط. إلا أن أصحابه رغبوا إليه في السفر إلى دمشق ملتزمًا ما شرطوه عليه، فأجابهم وركب فعلاً متوجهًا إليها، إلا أنه صدر الأمر برده فرد في الغد إلى القاهرة وحضر عند القاضي، فقيل له: ما ترضى الدولة إلا بالحبس، إلا أن أحدًا من القضاة لم يجرؤ على الحكم عليه لأنه ما ثبت عليه شيء.

ولما رأى الشيخ تحيرهم بين الحق وبين ما تريده الدولة، قال: أنا أمضي إلى الحبس وأتبع ما تقتضيه المصلحة، فأرسل إلى حبس القاضي المعروف.

وحينئذٍ لم يجدوا بدًا من إخراجه إلى الإسكندرية، وبقي في الحبس بها مدة سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، فلما عاد الملك الناصر محمد ابن قلاوون إلى السلطنة، أمر بإحضار الشيخ إلى القاهرة في شوال سنة ٧٠٩هـ - ١٣٠٩م وأكرمه إكرامًا زائدًا، وقام إليه وتلقاه في مجلس حفل بالقضاة المصريين والشاميين وأعيان الدولة[٢]، ثم استشاره في خصومه إذ كان همَّ بقتل بعضهم فصرفه عن ذلك وأثنى عليهم. وكان ابن مخلوف المالكي يقول: ما رأينا أفتى (من الفتوة والمروءة) من ابن تيمية، سعينا في دمه، فلما قدر علينا عفا عنا[٣].

---

(١) محمد يوسف موسى، ابن تيمية، ص(١٠٥).

(٢) «البداية والنهاية» (١٤/ ٤٥) وما بعدها.

(٣) راجع قضية الطلاق في كتاب «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» محمد بهجة البيطار، ص(٥١). ففيها إسهاب مجمل لهذه القضية والرد عليها.

لبث الشيخ بعد أن عاد إلى دمشق بضع سنين لا يزعجه خصومه، فتفرغ لنشر العلم والتأليف والإفتاء، ولكن سئل في مسألة الحلف بالطلاق وهي من المسائل الفقهية التي تفرد في عصره بالقول بها، ورأيه أنه لا يقع الطلاق بالحلف به بدل الحلف باللَّه، ولكن على الحالف إذا حنث في يمينه كفارة اليمين المعروفة في القرآن، كما كان رأيه أن الطلاق الثلاث بلفظ واحدٍ لا يقع به إلا طلقة واحدة رجعية[1].

وفي عام ٧١٨ هـ ـ ١٣١٨م ورد كتاب من السلطان بمنعه من الفتوى في مسألة الحلف بالطلاق بالتكفير، وعقد له مجلس بدار السعادة، ومنع من ذلك ونودي به في البلد. ثم في سنة ٧١٩هـ ـ ١٣١٩م عقد له مجلس أيضًا كالمجلس الأول وقرئ كتاب السلطان بمنعه من ذلك وعوتب على فتياه بعد المنع. وبعد مدة عقد له مجلس ثالث بسبب ذلك، وعوتب وحبس بالقلعة لأجل ذلك مرة أخرى ومنع بسببه من الفتيا مطلقًا، فأقام مدة يفتي بلسانه ويقول: لا يسعني كتم العلم[2] واستمر على هذا حتى حبس بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يومًا، ثم أخرج من السجن بعد ذلك وعاد إلى ما كان عليه من الاشتغال بالعلم والتعليم.

لما ورد أمر بسجنه بقلعة دمشق، أظهر السرور بذلك، وقال: إني كنت منتظرًا ذلك وهذا فيه خير عظيم، ونقل عنه وارث علومه العلامة ابن قيم الجوزية الذي حبس بقلعة دمشق معه في كتابه «الكلم الطيب والعمل الصالح» أنه قال: ما صنع أعدائي بي، أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول من مجلسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة

(١) «فوات الوفيات» (١/ ٥٢).

(٢) محمد بهجة البيطار «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» ص(٣٤).

ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا إليَّ فيه من الخير ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللَّهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء اللَّه. وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه. ولما أُدخل ووصل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال[1]: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. ويذكر أنه كتب بفحم يقول: إن إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم. وكان السلطان رسم بحرمانه من الكتب وأدوات الكتابة، فأخرجوا في تاسع جمادى الآخرة من هذا العام كل ما عنده من الكتب والأوراق والدواة والقلم وبذلك منع من الكتابة والمطالعة وزاد إقباله على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين.

* قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز:

مات ابن تيمية وقد ختم القرآن إلى أن وصل إلى قول اللَّه عز وجل ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥].

وأخيرًا.. آن لابن تيمية العابد العالم والمجاهد أن يلقى ربه، آن له أن ينطلق من سجنه وأن يرتاح من خصومه، وأن يترك الدنيا ومتاعها.. فكانت وفاته ليلة الإثنين العشرين من شهر ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ - ١٣٢٧م وهو لا يزال في سجنه بقلعة دمشق.

---

(١) محمد يوسف موسى «ابن تيمية» ص(١٠٩). أيضًا عبداللَّه اليافعي، مرآة الجنان، ج٤. (بيروت ١٩٧٥). و«الأعلام العلية والرد والوافر». وهما من تحقيق زهير الشاويش طبع المكتب الإسلامي، ص(٢٧٧).

وكان مشهد تشييعه إلى المقر الأخير أمرًا عظيمًا، فقد تزاحم الناس على جنازته، وعلت الأصوات بالبكاء والنحيب والثناء عليه والدعاء له، ولم تصل الجنازة إلى مستقرها إلا وقت العصر[١] .

دخلت جنازة الإمام جامع بني أميّة، وصلي عليه، ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه إلا حضر ذلك حتى غلقت الأسواق بدمشق وعطلت معايشها حينئذٍ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم. وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء والأتراك والأجناد، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام. قال بعض من حضر: لم يتخلف فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته، فاختفوا من الناس خوفًا على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم متى خرجوا رجمهم الناس واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه أنهم يزيدون على نحو من ستين ألفًا إلى أكثر من ذلك، وحضرها نساء كثير بحيث حزرن بخمسة عشر ألفًا[٢] .

وكانت جنازة شيخ الإسلام ابن تيمية في ضخامتها ثاني جنازة في التاريخ الإسلامي بعد جنازة الإمام أحمد.

وليس السجن حبس الجسم قهرًا ... فـــذا أنـسٌ برب العـالمينـــا

سَـجينٌ من نأى عن شـــرع ربي ... سجـــين الروح عن هدي الأمينـــا

* حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ـ الإمام ابن قيم الجوزية ـ:

لقد كان هذا الإمامُ العظيمُ إمامًا في السنة والاتباع، ثائرًا على التقليد

(١) «ابن تيمية» لمحمد يوسف موسى ص(١١٠).

(٢) انظر «البداية والنهاية» (١٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، «ابن تيمية بطل الإصلاح الديني» ص(١٧٣). و«ابن تيمية والصوفية» لمحمد أحمد درنيقة وسوهام توفيق المصري ـ مكتبة الإيمان طرابلس.

«يندد بالمقلدة ويَنعَى عليهم حظهم من العلم، ويعقد مجالس المناظرة بين المقلد وصاحب الحجة ـ في كتبه ـ ويصفه بأنه بدعة، وأنه من المحدثات بعد خير القرون، وقد عالج هذه القضية في كتبه في مناسبات كثيرة، وقد بسط الحديث عن أحكام الاجتهاد والتقليد في كتابه «إعلام الموقِّعين» في أكثر من مائة صحيفة.

وابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ لم يصل في هذا إلى حظيرة المتهورين الذين أزروا بالأئمة الأربعة وأصحابهم، كمتطرفي الظاهرية ومن نحا نحوهم، فردوا بدعة التقليد ببدعة الإزراء بالسلف واقتراف إثمه وجرمه. ولم يكن أيضًا من أولئك الذين أشقاهم التعصب، وأصمهم وأعمى أبصارهم عن نور الوحيين: الكتاب والسنة، حتى بلغ بهم الهوس. ردًّا لمذهب بمذهبٍ آخر، وأبدوا من غرائب المواقف والتراشق، ما يكون سُبَّةً وعارًا في تاريخ المسلمين، ولكنه ـ رحمه اللَّه ـ أخذ بالطريق الأوسط، وهو بعبارةٍ مختصرة: «مُناشدة الدليل مع احترام الأئمة».

❑ يقول في «إعلام الموقعين» (٤/ ١٧٧): «كثيرًا ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب، فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده، فنحكي المذهب الراجح ونرجحه».

فمعرفة المذهب شيءٌ، والتقليد له شيءٌ آخر. فالمعرفة مع الانقياد للدليل، هو منهج أصحاب الأئمة، وهو مقام مدحٍ لا مقام ذمٍّ، بخلاف التقليد بلا دليل»[1].

وقد أُوذي ابن القيم بسبب مجاهدته لنشر عقيدة السلف، ومحاولة ردّ الخلف إلى طريق السلف، فحُبس مدةً لإنكاره شدّ الرِّحال إلى قبر الخليل،

(١) «ابن قيم الجوزية، حياته وآثاره» لبكر بن عبداللَّه أبو زيد ص(٤٤ ـ ٤٥).

وسجن بسبب فتاويه القائمة على الدليل، كمسألة الطلاق الثلاث بلفظٍ واحد، فقد تصدى للفتوى بهذه المسألة على وفق اختيار شيخه ابن تيمية، وعامة أهل الأرض مطبقون على أن طلاق الثلاث بلفظ واحدٍ، يعتبر ثلاثًا لا واحدةً.

فرحم اللَّه من سجن لكسر سلطان التقليد، وانتصر للدليل ردًّا للأُمّة إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ.

❑ وابن القيم ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في فاتحة كتابه «إعلام الموقعين» يذكر انعقاد الإجماع ـ خلفًا وسلفًا ـ على وجوب الرد إلى اللَّه ورسوله، وأن التقليد مع ظهور الدليل، حكمه التحريم، والمقلد الأعمى خارجٌ عن زمرة العلماء، وينعى حال عصره، وما ينال من قام بهذا الشأن من الكيد والأذى، فيقول بعد امتداحه لحال الصحابة رضي الله عنهم: «ثم خلف من بعدهم خلوفٌ فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، كل حزبٍ بما لديهم فرحون، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، وكل إلينا راجعون، جعلوا التعصُّب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون، ورءوس أموالهم التي بها يتَّجرون، وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على أُمَّةٍ وإنا على آثارهم مقتدون.

والفريقان بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب، ولسان الحق يتلو عليهم: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣].

❑ قال أبو عمر وغيره من العلماء: «أجمع الناس على أن المقلّد ليس معدودًا من أهل العلم، وأنّ العلم معرفة الحق بدليله». وهذا كما قال أبو عمر ـ رحمه اللَّه تعالى؛ فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدليل، وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد. فقد تضمن هذان الإجماعان: إخراج المتعصب بالهوى والمقلد الأعمى عن زمرة العلماء،

وسقوطهما باستكمال من فوقهما وراثة الأنبياء، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر، وكيف يكون من ورثة الرسول من يجهد ويكدح في رد ما جاء به إلى قول مقلده ومتبوعه، ويضيع ساعات عمره في التعصب والهوى، ولا يشعر بتضييعه؟!.

تاللَّه، إنها فتنة عمت فأعمت، ورمت القلوب فأصمت، ربا عليها الصغير، وهرم فيها الكبير، واتخذ لأجلها القرآن مهجورًا، وكان ذلك بقضاء اللَّه وقدره في الكتاب مسطورًا، ولما عمت بها البلية، وعظمت بسببها الرزية، بحيث لا يعرف أكثر الناس سواها، ولا يعتبرون العلم إلا إياها، فطالب الحق من مظانه لديهم مفتون، ومؤثره على ما سواه عندهم مغبون، نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل، وبغوا له الغوائل، ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد، وقالوا لإخوانهم: إنا نخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد.

فحقيقٌ بمن لنفسه عنده قدر وقيمة، ألاَّ يلتفت إلى هؤلاء، ولا يرضى لهم بما لديهم، وإذا رفع له علم السنة المحمدية شمر إليه ولم يحبس نفسه عليهم. فما هي إلا ساعة حتى يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، وتتساوى أقدام الخلائق في القيام للَّه، وينظر كل عبدٍ ما قدمت يداه، ويقع التمييز بين المحقين والمبطلين، ويعلم المعرضون عن كتاب ربهم وسنة نبيهم، أنهم كانوا كاذبين».

فرحم اللَّه ابن القيم، لقد كان ـ مع ما ناله في هذا السبيل ـ رابط الجأش، ثابت الجنان كالجبل الأشم، لا تؤثر فيه العوامل من الرياح والأمطار والمناخ، ولا تثنيه عن مسلك الحق وقولة الحق، ويرى أن هذا كله طيش وسفه، لا يلبث أن يذوب ويتفرق شأن الباطل، ولا يؤثر إلا على من في

عقله ضعف وفي دينه ذلة. وفي ذلك يقول[1] : «من في عقله ضعف: تؤثر فيه البداءات، ويستفز بأوائل الأمور، بخلاف الثابت التام العاقل؛ فإنه لا تستفزه البداءات، ولا تزعجه ولا تقلقه، فإن الباطل له دهشة وروعة في أوله، فإذا ثبت له القلب، رده على عقبيه. واللَّه يحب من عبده العلم والأناة، فلا يعجل، بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه، ولا يعجل بأمرٍ قبل استحكامه، فالعجلة والطيش من الشيطان، فمن ثبت عند صدمة البداءات، استقبل أمره بعلمٍ وحزمٍ، ومن لم يثبت لها، استقبله بعجلةٍ وطيشٍ وعاقبته الندامة، وعاقبة الأول حمد أمره، ولكن للأول آفة متى قرنت بالحزم والعزم نجا منها، وهي الفوت؛ فإنه لا يخاف من التثبيت إلا الفوت، فإذا اقترن به العزم والحزم، تم أمره».

ولقد تم الأمر ـ وللَّه الحمد ـ للشيخ ابن القيم ـ رحمه اللَّه تعالى، فقد أرسى سفينة النجاة على شاطئ السلامة، تحمل النور والهدى، وكسر المقلدة المتعصبة، ومن نحا نحوهم، فذابت العصبية المذهبية في الطريقة الأثرية؛ فصححت المفاهيم، وأخذ يدبّ في الناس روح الأخذ بالدليل، مع احترام الأئمة السالفين، بل هو مسلكهم وكريم منهجهم، وما زال هذا يدب في كل عهدٍ ومهدٍ حتى أيامنا هذه، بل في هذه الأيام والأزمان الحاضرة، لم يجد الناس بداً من ذلك المنهج السوي والمشرع الروي؛ لأنه هو الذي يتمشى ووقائع العصر ونوازله، فعاد أعداء المدرسة الأثرية لها أصدقاء، والحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

ولقد كان الاعتماد على الأدلة من الكتاب والسنة، أبرز خصائص المدرسة السلفية التي قام بنشرها ابن القيم ـ رحمه اللَّه تعالى ـ على أنقاض

(١) «مفتاح دار السعادة» ص(١٥٤).

الرد إلى محض الآراء ومستبعد الأقيسة وفاسد التأويل.

فابن القيم ـ رحمه اللَّه تعالى ـ يبرز الأدلة من الكتاب والسنة، ويستنبط الأحكام الشرعية منها بأسلوبٍ سهل مبسط، خالٍ من التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي، متطلبًا نشر التشريع وبث التوجيه ردًّا إلى اللَّه ورسوله، وإلى أن يرد الناس منابع الشريعة الأولى خاليةً من كل وَضَرٍ، خالصةً من كلِّ شائبةٍ.

وهذا منهجٌ أصيل في عامَّة كتبه ومباحثه، لا أراني مضطرًّا إلى سياق مواضع من كلامه للتدليل عليه.

لكني أراني مضطرًّا إلى نقل طائفةٍ من كلامه في احترام الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة، والتنديد بمن أعرض عن هذا وخالفه، لمخالفته أمر اللَّه ورسوله ﷺ؛ لأن هذا هو الذي يشكل التقعيد والتأصيل لمنهج ابن القيم رائد المدرسة السلفية. ومن ذلك ما يلي:

قال في مقام الأدب مع النبي ﷺ: «ومن الأدب معه ﷺ أن لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياسٍ، بل تهدر الأقيسة وتغلى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيالٍ يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول وعن الصواب معزول، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحدٍ، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ، وهو عين الجرأة».

ويقرر ابن القيم في «مدارج السالكين» بحثًا ممتعًا لطيفًا، في وجوب إذعان المسلم وتواضعه للدليل، وحرمة المعارضة والمخالفة، أسوقه بطوله لنفاسته، فيقول ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «التواضع للدين هو الانقياد لِمَا جاء به الرسول ﷺ والاستسلام له والإذعان، وذلك بثلاثة أشياء:

الأول: أن لا يعارض شيئًا مما جاء به، بشيءٍ من المعارضات الأربعة

السارية في العالم، المسماة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة. فالأول: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل، قدمنا العقل وعزلنا النقل، إما عزل تأويلٍ وإما عزل تفويض. والثاني: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياسُ والرأيُ والنصوصُ، قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه. والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد، فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر، قدموا الذوق والحال، ولم يعبئوا بالأمر. والرابع: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأُمراء الجائرين، إذا تعارضت عندهم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة هم أهل الكبر. والتواضع: التخلص من ذلك كله.

الثاني: أن لا يتَّهِم دليلاً من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه. ومتى عرض له شيءٌ من ذلك، فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه، كما قيل:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا ... وآفَتُهُ من الفَهْمِ السَّقِيمِ

ولكنْ تأخُذُ الأذهـانُ منه ... على قَدْرِ القَرائِحِ والفُهُومِ

وهكذا في الواقع حقيقةً: أنه ما اتهم أحدٌ دليلاً للدين، إلا وكان المتهم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقله وذهنه، فالآفة من الذهن العليل، لا في نفس الدليل. وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبو فهمك عنه، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزًا من كنوز العلم. ولم تؤت مفتاحه بعد هذا في حق نفسك، وأما بالنسبة إلى غيرك: فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي، وليكن ردها أيسر شيءٍ عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك، فلست على شيءٍ ولو.. ولو.. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء.

قال الشافعي ـ قدّس اللَّه روحه ـ: «أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول اللَّه ﷺ، لم يحل له أن يدعها لقول أحدٍ».

الثالث: أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلاً البتة، لا بباطنه ولا بلسانه، ولا بفعله ولا بحاله، بل إذا أحسَّ بشيءٍ من الخلاف، فهو كخلاف المقدم على الزنا، وشرب الخمر، وقتل النفس. بل هذا الخلاف أعظم عند اللَّه من ذلك، وهو داعٍ إلى النفاق، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلم أن المخالف للنص؛ لقول متبوعه وشيخه ومقلده، أو لرأيه ومعقوله وذوقه وسياسته: إن كان عند اللَّه معذوراً ـ ولا واللَّه ما هو بمعذورٍ ـ فالمخالف لقوله؛ لنصوص الوحي، أولى بالعذر عند اللَّه ورسوله وملائكته والمؤمنين من عباده.

فوا عجبًا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليداً أو تأويلاً أو لغير ذلك، فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم وأقوال شيوخهم؛ لأجل موافقة النصوص؟! وكيف نصبوا له الحبائل، وبغوه الغوائل، ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالاً من أرباب الجرائم؟! فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذًا، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا. واللَّه أعلم.

نهج ابن القيم ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في مسائل العلم منهج الاسترواح والتطلب من كتاب اللَّه تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن سنة رسوله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، فإن لم يجد، أخذ بأزمة أقوال الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم أبر الأُمّة قلوبًا وأعمقها دينًا وأصحها فهومًا.

وهذه صفة بارزة وسمة ظاهرة في جميع مباحثه في العقائد والأحكام.

ولهذا أفاض ـ رحمه اللَّه تعالى ـ بالاستدلال لهذا الأصل، ووجوب الأخذ به، والعمل بموجبه، من ستةٍ وأربعين وجهًا، بسطها في كتابه «إعلام الموقعين»[1].

*** مدى تأثُّره بابن تيمية:**

إن المدرسة السلفية التي جدد بناءها شيخ الإسلام ابن تيمية، بما ملأ الأسماع، وصار حديث أهل الإسلام في شتى الأقطار، وبما آتاه اللَّه من المواهب النادرة، والتفنن في علوم الإسلام، وابن القيم يسمع ويرى، ويعايش هذا الاتجاه الفكري الانقلابي على التقليد والطائفية والمذاهب الكلامية، والتخبطات العقائدية، رجوعًا بالأُمّة إلى ما كان عليه السلف الصالح، وردًّا لكل نزاعٍ في ذلك إلى اللَّه والرسول. كل ذلك لا بد أن يكون له في نفوس المتعلمين الأثر الكبير، وابن القيم يعيش في مرحلة الطلب، ولديه من الهمة والعلم والذكاء والألمعية، ما يسيره إلى الطريق السوي والمَشْرع الروي، بعد حلول العناية الربانية في أعطاف ما أعطاه اللَّه من المواهب، فما كان لابن القيم إذن أن ينفلت من ذلك التأثير، فاتصل بشيخ الإسلام عام قدومه، وثنى ركبتيه في حلقات درسه، لينهل من معارفه وعلومه، وصحبه في ذلك ستة عشر عامًا وهو يقرأ عليه فنون العلم.

فصار لهذه الصحبة والملازمة الطويلة، الأثر البالغ على ابن القيم في تكوين اتجاهه، وتغذية مواهبه، وإشباع نهمته بعلوم الكتاب والسنة والرد إلى اللَّه والرسول، حتى صار أبرع تلاميذه، وألمعهم نجمًا، وأجلاهم اسمًا، فلا يكاد يذكر الشيخ ابن تيمية، إلاَّ ويذكر معه تلميذه ابن قيم الجوزية، وسرى نور هذين العلمين في آفاق المعمورة، بسعة العلم، وأصالة الفكر، والتجديد

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ١٢٣ ـ ١٥٦).

في دعوة الناس إلى صراط اللَّه المستقيم.

وقد اتفقت كلمة النقلة، على أن تاريخ اللقاء بينهما كان منذ سنة ٧١٢هـ ـ واستقر إلى أن مات ـ رحمه اللَّه تعالى ـ سنة ٧٢٨هـ.

وقد بقي ابن القيم ـ رحمه اللَّه تعالى ـ ملازمًا له طيلة هذه المدة؛ أي طوال ستة عشر عامًا، فأخذ عنه علمًا جمًّا، وتلقى فنونًا كثيرة.

ومن مآثر شيخ الإسلام ابن تيمية وأياديه البيضاء: توبة ابن القيم على يديه بعد اتصاله به، وتأثره به في النهج السلفي في الاعتقاد والاتباع.

ذكر ابن القيم ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في النونية بعض ما يقوله الأشاعرةُ وغيرهم، في الصِّفات من التأويلات. وبعض ما في كتب النُّفاة من الطّامّات، وبيَّن ضررهم على الدين، ومناهضتهم لنصوص الكتاب والسنة. ثم عقد فصلاً أعلن فيه أنه قد وقع في بعض تلك المهالك، حتى أتاح له الإلهُ من أزال عنه تلك الأوهام، وأخذ بيده إلى طريق الحق والسلامة، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

❑ وفي إعلانه لتوبته على يديه يقول:

يا قوم واللَّهِ العظيمِ نصيحةٌ ... مِن مُشفِقٍ وأخٍ لكم معْوانِ
جرَّبتُ هذا كلَّه ووقعتُ في ... تلك الشِّباكِ وكنت ذا طَيَرانِ
حتى أتاح ليَ الإلهُ بَفضلِه ... مَن ليس تجزيه يدي ولساني
فتًى أتى من أرض حَرَّانَ فيا ... أهلاً بمن قد جاء مِنْ حرّانِ
فاللَّهُ يجزِيه الذي هو أهْلُه ... من جنَّةِ المأوى مَعَ الرِّضوانِ
أخذتْ يداه يدي وسار فلم يَرُمْ ... حتى أراني مَطْلَعَ الإيمانِ
ورأيتُ أعلامَ المدينة حولها ... نُزُلُ الهُدى وعساكرُ القرآنِ
ورأيت آثاراً عظيمًا شأنُها ... محجوبةً عن زُمرةِ العمْيانِ

ووردت كأس الماء أبيضَ صافيًا حَصْباؤه كلآلئ التِّيجان
ورأيتُ أكوابًا هناك كثيرة مِثْل النُّجُوم لوارِدٍ ظمآن
ورأيتُ حَوْضَ الكَوْثَر الصافي الذي لا زال يَشخُبُ فيه ميزابان
ميزاب سُنَّته وقول إلهِه وهما مدى الأيام لا يَنيان
والناس لا يَرِدُونهُ إلاَّ من الـ آلاف أفرادٌ ذوو إيمان
وَرَدُوا عِذابَ مَناهِلٍ أكْرِمْ بها ووَرَدْتُمُ أنتم عَذابَ هَوان

فبين أنه طاف المذاهب يبتغي الهدى والنور، فما زاده ذلك التطواف إلا ظلمةً وحرقةً، حتى هداه اللَّه تعالى وتداركه بلطفه، فأخذ بزمام الكتاب والسنة، واستعصم بهما عن المذاهب الكلامية والمناهج الفلسفية، وفي ذلك يقول:

يا طالبَ الحقِّ المُبينِ ومُؤْثِرًا علْمَ اليقينِ وحُجَّةَ الإيمانِ
اسمعْ مقالةَ ناصحٍ خَبَرَ الذي عند الوَرَى قد شبَّ حتى الآنِ
ما زال مُذ عقدتْ يداه إزارَهُ قد شدَّ مِئْزَرَهُ إلى الرحمنِ
وتَخَلُّلُ الفَتَرَاتِ للعَزَمات أمْـ ـرٌ لازِمٌ لطبيعة الإنسانِ
وَتولُّد النُّقْصانِ من فَتَرَاتِه أو ليس سَائِرُنا بَني النقصانِ
طاف المذاهبَ يبتغي نورًا ليَهْـ ـدِيَهُ وينجيه من النيرانِ
وكأنَّه قد طاف يبغي ظلمة اللَّـ ـيْلِ البهيمِ ومذهبَ الحَيْرانِ
واللَّيْلُ لا يزدادُ إلاَّ قوةً والصُّبْحُ مقهورًا بذا السُّلْطانِ
حتى بدتْ في سيْرِه نارٌ على طور المدينةِ مَطْلَعِ الإيمانِ
فأتى ليَقْبِسَها فلم يُمكنه معْ تلك القُيُودِ مَنَالَها بأمانِ
لو لا تَدَارَكَهُ الإلهُ بلُطْفه ولَّى على العَقِبَيْن ذا نُكصانِ
لكن توقَّف خاضعًا مُتذلِّلاً مُسْتَشْعِرَ الإفلاس من أثمانِ

فأتاه جندٌ حلَّ عنه قيودَهُ فامتدَّ حينئذٍ له الباعانِ
واللَّهِ لو لا أن تُحلّ قيودُه وتَزُول عنهُ رِبْقَةُ الشَّيطانِ
كان الرُّقِيُّ إلى الثُّريَّا مصعداً من دون تلك النارِ في الإمكانِ
فرأى بتلك النار آطامَ المدي ـنة كالخيامِ تَشُوفُها العينانِ
ورأى هُنالك كلَّ هادٍ مهتدٍ يدعو إلى الإيمان والإيقانِ
فهناك هنَّا نَفْسَه متذكِّراً ما قاله المشتاقُ منذ زمانِ
والمُسْتَهَام على المحبّةِ لم يَزَل حَاشَا لذكْركمُ من النسيانِ
لو قيل ما تهوى لقال مبادراً أهوى زيارتُكم على الأجفانِ
تاللَّه إن سمح الزمانُ بقُرْبكم وحللتُ منكم بالمحلِّ الدّاني
لأُعفِّرنَّ الخَدَّ شُكراً في الثَّرى وأُكحِّلَنَّ بُتربكم أجفاني
إنْ رُمتَ تُبصر ما ذكرتُ فغُضّ طر فًا عن سوى الآثارِ والقرآنِ
واتُركْ رسوم الخلق لا تعبأ بها في السَّعْد ما يُغنيك عن دَبَرَانِ
حذِّقْ لقلبك في النصوص كمثل ما قد حذّقُوا في الرّأي طُول زمانِ
واكْحَلْ جفونَ القلب بالوحْيَيْنِ واحْـ ـذَرْ كُحْلهم يا كثرة العُمْيَانِ
فاللَّهُ بيَّن فيهما طرق الهُدى لعبـادِهِ في أحسـن التِّبيـانِ
لم يُحوِج اللَّه الخلائقَ معْهما لخيـال فَلْتـانٍ ورأي فُلانِ
فالوحـي كـافٍ للَّذي يُعْنَى به شافٍ لـداءِ جهـالة الإنسانِ
والعلم أقسامٌ ثلاثٌ ما لها من رابـعٍ والحـقّ ذو تِبيان
عـلمٌ بأوصـاف الإله وفعْـله وكذلك الأسـماء للرحمنِ
والأمر والنهي الذي هو دينُهُ وجزاؤه يـوم المعـادِ الثاني
والكلُّ في القرآن والسُّننِ التي جـاءت عن المبعـوثِ بالقرآنِ

❑ يرحم اللَّه ابن القيم، فقد امتحن وأُوذي من أجل مناصرته لشيخه في ذات اللَّه، ومن أجل نصرة السنة والدليل.

❑ يقول ابن رجب: «وقد امتحن وأُوذي مراتٍ، وحبس مع الشيخ تقي الدين في المرة الأخيرة بالقلعة، منفردًا عنه، ولم يفرج عنه إلاَّ بعد موت الشيخ»[١].

❑ ويقول ابن حجر: «إنه اعتقل مع ابن تيمية بالقلعة، بعد أن أُهين وطيف به على جملٍ مضروبًا بالدرة، فلما مات، أُفرج عنه»[٢].

وكما احتفى بشيخه وعلومه حال حياته، وأخلص في محبته وولائه، فقد كان خليفته الراشد بعد وفاته، فتلقف راية التجديد، وثبت على جادة التوحيد: بنشر العلم، وبرد الخلف إلى مذهب السلف.

فاتسعت به دائرة المدرسة السلفية، وانتشر روادها في كل ناحية وصقع. وكان من حفاوته بشيخه (شيخ الإسلام) أن دون في ثنايا كتبه جُمَلاً من مواقفه، وسؤالاته له، وأسئلة غيره له، وطائفة من أحواله ومرائيه واختياراته، مما لو استل من مؤلفات ابن القيم، لظهر في مجلدة لطيفة، ترفل بعزيز الفوائد ولطائف العلم. واللَّه أعلم.

❑ يقول الشوكاني في «البدر الطالع» (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥) عن ابن القيم: «ليس له على غير الدليل معول.. وبالجملة فهو أحد من قام بنشر السنة، وجعل بينها وبين الآراء المحدثة أعظم جنة، فرحمه اللَّه وجزاه عن المسلمين خيرًا».

❑ ويقول العلاَّمة صديق حسن خان عن ابن القيم: «كان يتقيد بالأدلة

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٤٨).

(٢) «الدرر الكامنة» (٤/ ٢١).

الصحيحة، معجبًا بالعمل بها، غير مصرٍّ على الرأي».

❑ يقول الشيخ بكر أبو زيد: «وهذه أرضى العبارات وأسعدها بالقبول، لمطابقتها عين الواقع لمن كانت له دربة تامة على مؤلفات ابن القيم، ودرى ما فيها من العلم والفقه».

❑ يقول ابن القيم مبيِّنًا أن اتباع السنة والقرآن طريق النجاة من النيران:

يا مَن يُريد نجاتَهُ يوم الحسا ... ب من الجحيم ومُوقد النِّيرانِ
اتْبَعْ رسول اللَّه في الأقوال والْـ ... أعمالِ لا تَخْرُج عن القرآنِ
قَدِّرْ رسول اللَّه عندك وَحْدَهُ ... والقولُ منه إليك ذو تبيانِ
ماذا ترى فرضًا عليك مُعَيَّنًا ... إن كُنت ذا عَقْلٍ وذا إيمانِ
عَرْض الذي قالوا على أقواله ... أو عَكْس ذاك فذانكَ الأمرانِ
هي مَفْرقُ الطرقات بَيْنَ طريقنا ... وطريق أهل الزَّيْغِ والعُدوانِ
قدِّرْ مقالاتِ العبادِ جميعهم ... عَدَمًا وراجع مَطْلَع الإيمانِ
واجعلْ جُلُوسَك بين صَحْب محمدٍ ... وتَلَقَّ معْهم عنه بالإحسانِ
وتَلَقَّ عنهم ما تلقَّوْه هُمُ ... عنه من الإيمان والعِرْفانِ
أفليس في هذا بلاغُ مُسافرٍ ... يبغي الإلَهَ وجنة الحيوانِ
فلأيّ شيءٍ يَعْدِلُ الباغي الهُدى ... عن قوله لو لا عَمَى الخذْلانِ
فالنَّقْل عنه مُصَدَّقٌ والقولُ مِن ... ذي عصمةٍ ما عندنا قوْلانِ
والعَكسُ عند سواه في الأمرين يا ... مَن يهتدي هل يستوي النَّقْلانِ
تاللَّهِ قد لاح الصبّاحُ لمن له ... عينان نحو الفجر ناظرتانِ
وأخو العَمَاية في عَمَايَتِه يقو ... ل اللَّيْل بعدُ أيستوي الرَّجُلانِ
تاللَّه قد رُفِعتْ لك الأعلامُ إنْ ... كنتَ المُشَمِّر نلتَ دارَ أمـانِ

❑ ويقول ابن القيم ناصحًا باتباع السنة في نونيته:

يا مَنْ تعزُّ عليهمُ أرواحُهُمْ ... وَيَرَوْن غَبْنًا بَيْعها بهوانِ
ويَرَوْن خسرانًا مُبينًا بَيْعها ... في إثْر كلِّ قبيحة ومهانِ
ويرَوْن مَيْدان التَّسابُق بارزًا ... فيتاركون تَقَحُّم الميدانِ
ويرون أنفاسَ العبادِ عليهمُ ... قد أُحصيتْ بالعَدّ والحسبانِ
ويرون أن أمامهم يوم اللِّقا ... للّه مسألتان شاملتانِ
ماذا عبدتم ثُمَّ ماذا قد أجَبْـ ... ـتُم مَن أتى بالحقِّ والبرهانِ
هاتوا جوابًا للسُّؤال وهيئُوا ... أيضًا صوابًا للجواب يدانِ
وتيقَّنُوا أن ليس يُنجيكم سوى ... تجريدكم لحقائق الإيمانِ
تجريدُكم توحيده سبحانه ... عن شركةِ الشيطان والأوثانِ
وكذاك تجريد اتِّباع رسوله ... عن هذه الآراء والهَذَيَانِ
واللّه ما يُنجي الفتى من ربه ... شيءٌ سوى هذا بلا رَوَغانِ

❑ ويتكلم ابن القيم ـ رحمه اللّه ـ عن الفرق بين أهل السنة وغيرهم، فيقول في النونية لخصوم أهل السنة:

والفَرْق بَيْنَكمُ وبين خصومكم ... من كلِّ وجهٍ ثابتٌ ببيانِ
ما أنْتُم مُنهم ولا هم منكمُ ... شَتَّان بين السَّعْدِ والدَّبَرَانِ
فإذا دَعَوْنا للقُرَانِ دعوتمُ ... للرَّأْي أين الرأيُ من قرآنِ
وإذا دعونا للحديث دعوتمُ ... أنتم إلى تقليدِ قولِ فُلانِ
وكذا تلقّينا نصوص نبيِّنا ... بقَبُولها بالحقِّ والإذعانِ
من غير تحريفٍ ولا جَحْدٍ ولا ... تفويضِ ذي جهلٍ بلا عِرفانِ
لكنْ بإعراضٍ وتجهيلٍ وتأ ... ويلٍ تلقَّيْتُم مع النُّكرانِ
أنكرتموها جُهْدَكم فإذا أتى ... ما لا سبيل له إلى نكرانِ

أعرضتمُ عنه ولم تستنبطُوا منه هُدًى لحقائق الإيمانِ
فإذا ابتُليتم مُكْرَهين بسَمْعِها فوَّضتُمُوها لا عَلى العرفانِ
لكنْ بجهلٍ للذي سيقَتْ له تفويض إعراضٍ وجهلٍ ومعانِ
فإذا ابتُليتم باحتجاجِ خُصُومِكم أوْلَيْتُموها دَفْعَ ذي صَوَلانِ
فالجَحْد والإعراض والتأويل والتَّـ ـجهيل حظُّ النصِّ عند الجاني
لكنْ لدَيْنا حظُّـه التَّسْلِيم مَعْ حُسْن القَبُول وفَهْم ذي الإحسانِ
ولنا الحقيقةُ من كلام إلهنا ونَصيبُكم منه المجـاز الثاني
وقواطِعُ الوحْيَيْن شاهدةٌ لنا وعليكم هل يستوي الأمـرانِ
وجنودُنا مَنْ قد تقدَّم ذِكْرُهم وجُنُودُكُم فعساكِرُ الشيطانِ
وخيامُنا مضروبةٌ بمشاعر الْـ وحْيَيْنِ من خَبَرٍ ومنِ قرآنِ
وخيامُكم مضروبةٌ بالتِّيه فالسُّـ ـكَّان كلُّ مُلَدَّدٍ حَيْرَانِ
ولنا المسانِدُ والصِّحاحُ وهذه الـ ـسُّنَنُ التي نابتْ على القرآنِ
ولكم تصانيفُ الكلام وهذه الْـ آراءُ وهْي كثيرةُ الهَذَيانِ
شُبَهٌ يُكَسِّرُ بعضُها بعضًا كبَيْـ ـتٍ من زُجاج خرَّ للأركـانِ
هل ثَمَّ شيءٌ غيرَ رأيٍ أو كلام مٍ باطلٍ أو منطقِ اليونانِ
ونقول قال اللّه قال رسولُه في كلِّ تصنيفٍ وكلِّ مكانِ
لكن تقولوا قال آرسطو وقا ل ابنُ الخطيب وقال ذو العرفانِ
شيخٌ لكم يُدعَى ابن سينا لم يكن متقيِّدًا بالدين والإيمـانِ
وخيارُ ما تأتُون قال الأشعريُّ وتشهدون عليه بالْبُهتـانِ
هذا ونحن فتاركو الآراء للنَّـ ـقْل الصحيح ومُحْكَم الفرقانِ
وعرضتمُ قول الرسول على الذي قال الشيوخُ ومحكم الفرقانِ
فالمحكم النَّصُّ المخالف قولهم لا يَقْبَلُ التأويلَ في الأذهـانِ

لكنَّما النَّصّ المخالف قولهم ... لا يقبل التأويل في الأذهانِ
لكن عرضنا نحنُ أقوال الشيو ... خِ على الذي جاءتْ به الوَحْيَانِ
ما خالف النَّصَّيْن لم نعبأْ به ... شيئًا وقُلنا حَسْبُنا النَّصَّانِ
والمُشْكِل القول المخالف عندنا ... في غاية الإشكال لا التِّبيانِ
هذي سبيلُكمُ وتلك سبيلُنا ... والموعدُ الرحمنُ بعد زمانِ
وهناك يُعْلَمُ أيّ حزبَيْنا على الْـ ... ـحقِّ الصريح وفِطْرةِ الدَّيّانِ
فاصبرْ قليلاً إنّما هي ساعةٌ ... فإذا أُصِبْتَ ففي رضا الرحمنِ
فالقومُ مِثْلك يَأْلَمُونَ ويصبرو ... نَ وصبرُهم في طاعة الشيطانِ

***

❑ ويقول ـ رحمه اللَّه ـ في كفاية النصين وجناية أعداء السنة عليهما:

وكفايةُ النَّصَّيْن مشروطٌ بتَجْـ ... ـريد التَّلَقِّي عنهما لِمَعَانِ
وكذاك مشروطٌ بخَلْع قيودهم ... فقيودهم غُلٌّ إلى الأذقانِ
وكذاك مشروط بهدم قواعد ... ما أنزلت ببيانها الوحيانِ
وكذاك مشروطٌ بإقدامٍ على الْـ ... آراء إن عَرِيَتْ عن البُرهانِ
بالرَّدِّ والإبطال لا تعبأْ بها ... شيئًا إذا ما فاتها النَّصَّانِ

***

❑ ثم يقول عن خصوم السنة ممن ناصبوه وناصبوا السنة العداء:

هذا وإني بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بأر ... بعةٍ وكلُّهمُ ذَوو أضْغانِ
فَظٌّ غليظٌ جاهلٌ مُتَمَعْلِمٌ ... ضخمُ العمامةِ واسعُ الأَرْدَانِ
مُتَفَيْهِقٌ مُتضلِّعٌ بالجهل ذو ... صَلَعٍ وذو جَلَحٍ من العرفانِ
مُزْجَى البضاعةِ في العلوم وإنَّه ... زاجٍ من الإيهانِ والهَذَيانِ
أو حاسدٌ قد باتَ يغلي صدرُهُ ... بعَداوَتِي كالمِرْجَلِ المِلآنِ

لو قلتُ هذا البَحْرُ قال مكذِّبًا هذا السَّرابُ يكون بالقيعانِ
أو قلتُ هذي الشمسُ قال مُباهتًا الشمسُ لم تَطْلُع إلى ذا الآنِ
أو قلتُ قال اللَّهُ قال رسولُه غَضِبَ الخبيثُ وجاء بالكتمانِ
أوْ حرَّف القرآنَ عن موضوعِهِ تحريفَ كذَّابٍ على القرآنِ
والثالث الأعمى المقلِّد ذَيْنِكَ الـ ـرَّجُلَيْنِ قائدُ زُمْرَةِ العميانِ
هذا ورابعُهُم وليس بكَلْبِهم حاشا الكلابَ الآكلي الأنتانِ
خِنْزيرُ طبْعٍ في خَليقَةِ ناطقٍ مُتَسَوِّف بالكذبِ والبُهتانِ
كالكلبِ يَتْبَعُهُم يُمَشْمِشُ أعْظُمًا يَرْمُونها والقوم للَّحْمانِ
هو فَضْلَةٌ في الناس لا علْمٌ ولا دينٌ ولا تمكينُ ذي سُلطانِ
فبقاؤه في الناس أعظَمُ مِحْنَة من عسكر يُعْزَى إلى غَازانِ
هذي بضاعةُ ضارِبٍ في الأرض يَبْـ ـغي تاجرًا يَبْتَاعُ بالأثمانِ
وَجَدَ التُّجَار جميعهم قد سافروا عن هذه البُلْدانِ والأوطانِ
إلا الصَّعَافِقَةَ الذين تكلَّفُوا أن يَتْجَرُوا فينا بلا أثمانِ
فَهُمُ الزُّبُونُ لها فباللَّه ارحموا مِنْ بَيْعةٍ من مفلس مدْيَانِ
يا رَبِّ فارزُقْها بحقِّك تاجرًا قد طاف بالآفاقِ والبلدانِ
ما كلّ مَنْقُوشٍ لديه أصفرٍ ذَهَبًا يراه خالصَ العقْيَانِ
وكذا الزُّجاجُ ودُرَّةُ الغوَّاصِ في تمييزه ما إن هُمَا مِثْلانِ

* * *

□ ويقول عمّن يُبغِض أهل الحديث وهم أنصار هذا الدين:

يا مُبغضًا أهْلَ الحديث وشاتمًا أبشِرْ بعَقْدِ ولايةِ الشيطانِ
أوَ مَا علمتَ بأنَّهم أنصارُ دِيـ ـنِ اللَّه والإيمانِ والقرآنِ
أوْ ما علمتَ بأن أنصار الرَّسُو لِ هُمُ بلا شكٍّ ولا نُكرانِ

هل يُبْغض الأنصارَ عبدٌ مؤمنٌ ... أو مُدْرِكٌ لروائحِ الإيمانِ
شهد الرسولُ بذاكِ وَهْيَ شهادةٌ ... من أصدقِ الثقلَيْنِ بالبُرهانِ
أوَ ما علمتَ بأن خَـزْرَجَ دينِـهِ ... والأوسَ هُمْ أبدًا بكُلِّ زمانِ
ما ذنْبهم إذ خالفوك لقوله ... ما خالفوه لأجْلِ قولِ فُلانِ
لمّا تحيَّزْتم إلى الأشياخِ وانْـ ... ـحَازُوا إلى المبعوثِ بالقرآنِ
نُسِبُوا إليه دُونَ كلِّ مقالةٍ ... أو حالةٍ أو قائلٍ ومكانِ
واللّه ما يُنْجيكَ من سجن الجحيـ ... ـم سوى الحديثِ ومُحكمِ القرآنِ
واللّه ليس الناسُ إلاَّ أهْلَهُ ... وسواهُمُ من جُملةِ الحيوانِ

* * *

ويقول ـ رحمه اللّه ـ:

واللّه ما خَوْفِي الذنوبَ فإنها ... لَعَلَى طريقِ العَفْوِ والغُفرانِ
لكنَّما أخشى انسلاخ القلبِ مِنْ ... تحكيمِ هذا الوَحْيِ والقرآنِ
ورضًا بآراء الرجال وخَرْصِها ... لا كان ذاك بمِنَّةِ الرحمنِ
فبأيِّ وَجْهٍ ألْتَقِي ربي إذا ... أعرضتُ عن ذاك الوحي طولَ زمانِ
وعزلتُه عمَّا أُريدَ لأجلِهِ ... عَزْلاً حقيقيًّا بلا كتمانِ

* * *

يقول ابن القيم في تعين الهجرتين إلى اللّه ورسوله:

يا قومُ فرْضُ الهجرتَيْنِ بحالِهِ ... واللّه لم يُنسخ إلى ذا الآنِ
فالهجرةُ الأُولى إلى الرحمن بالْـ ... إخلاص في سرٍّ وفي إعلانِ
والهجرةُ الأُخرى إلى المبعوث بالْـ ... إسلام والإيمان والإحسانِ
أتَرَوْنَ هَذي هجرةَ الأبدانِ لا ... واللّه بل هِيَ هجرةُ الإيمانِ
قَطْعُ المسافةِ بالقلوبِ إليه في ... دَرْكِ الأُصُولِ مع الفروعِ وذَانِ

أبداً إليه حُكْمُها لا غَيْرُهُ ... فالحُكْم ما حَكَمَتْ به النَّصَّانِ
يا هجرةً طالتْ مسافَتُها على ... مَنْ خُصَّ بالحِرْمانِ والخِذْلانِ
يا هجرةً طالتْ مسافتها على ... كَسْلانَ مَنْخُوبِ الفُؤادِ جبانِ
يا هجرةً والعَبْدُ فوقَ فِراشِهِ ... سَبَقَ السُّعاةَ لمنزلِ الرِّضْوانِ
رُفعت له أعلامُ هاتيكَ النُّصُو ... صِ رُءوسُها شَابَتْ من النِّيرانِ
نارٌ هي النُّورُ المُبينُ ولم يكُن ... ليرَاهُ إلاَّ مَنْ له عينانِ
مكحولتان بمِرْوَدِ الوَحْيَيْنِ لا ... بمَرَاوِدِ الآراء والهَذَيَانِ
فَلِذَاكَ شَمَّرَ نحوها لم يلتفتْ ... لا عن شَمَائِله ولا أيمانِ
يا قومُ لو هاجرتم لرأيتمُ ... أعلامَ طَيْبَةَ رُؤْيَةً بعيانِ
ورأيتمُ ذاكَ اللِّواءَ وتحتَهُ السـ ... ـسلُ الكرامُ وعَسْكَرُ القرآنِ
وكذا المُهاجِرَةُ الأُلى سبقوا كذا الـ ... ـأنْصَارُ أهْلُ الدَّارِ والإيمانِ
والتابعونَ لهم بإحسانٍ وَسَا ... لكُ هَدْيِهم أبداً بكلِّ زمانِ
لكنْ رَضِيتُم بالأمـاني وابْتُليـ ... ـتُمْ بالحُظُوظ ونُصرة الإخوانِ
ونَبَذْتُمُ غَسْلَ النُّصُوصِ وراءكم ... وقَنَعْتُمُ بِقُطارَةِ الأذهانِ
وتركتمُ الوَحْيَيْنِ زُهداً فيهما ... ورَغِبْتُمُ في رَأْيِ كلِّ فلانِ
وعزلتمُ النَّصَّيْنِ عَمَّا وُلِّيَا ... للحُكْم فيه عَزْلَ ذي عُدوانِ
وزعمتمُ أن ليس يحكُمُ بيننا ... إلاَّ العقولُ ومنطقُ اليُونانِ
فهما بَحُكْم الحقِّ أوْلَى منهما ... سُبحانك اللَّهمَّ ذا السُّبْحَانِ
حتّى إذا انكشَفَ الغطاءُ وُحصِّلَتْ ... أعمال هذا الخلْقِ في الميزانِ
وبَدَتْ على تلك الوجوهِ سِماتُهَا ... وَسْمَ المليك القادرِ الدَّيّانِ
مُبْيَضَّةً مِثْلَ الرِّياضِ بجَنَّةٍ ... والسُّودُ مِثْلَ الفَحْمِ للنِّيرانِ
فهناك يعلمُ راكبٌ ما تَحْتَهُ ... وهناك يَقْرَعُ ناجِذَ النَّدْمانِ

وهناك يعلم مُؤثِرُ الآراء والشَّـ ـطَحَات والهَذَيان والبُطلان
أيَّ البضائعِ قد أضاع وما الذي منها تَعَوَّضَ في الزمـان الفاني

* * *

يقول ابن القيم فيما أعد اللَّه للمتمسكين بكتابه وسنة رسوله ﷺ :

هذا وللمُتَمَسِّكِينَ بُسنَّةِ الْـ ـمُخْتارِ عِنْدَ فَسَادِ ذِي الأزمان
أجْرٌ عظيمٌ ليس يَقْدِرُ قَدْرَهُ إلاَّ الذي أعطـاهُ للإنسـان
فَروَى أبو داوُدَ في سُنَنٍ له ورواهُ أيضًا أحمدُ الشَّيْبَاني
أثَرًا تَضَمَّنَ أجْرَ خمسين امْرَأ مِنْ صَحْبِ أحْمَدَ خيرةِ الرحمن
إسنادُهُ حَسَنٌ ومصداقٌ له في مُسلمٍ فافْهَمْهُ بالإحسـان
إنَّ العبادَةَ وَقْتَ هَرْجٍ هِجْرَةٌ حقًّا إليَّ وذاك ذو بُرهـان
هذا فكَمْ مِنْ هجرةٍ لك أيُّها السُّـ ـنِّيُّ بالتَّحْقِيقِ لا بأمـان
هذا وكَمْ من هجرةٍ لهمُ بما قال الرسولُ وجاء في القرآن
ولَقَدَ أتى مصداقُهُ في الترمذي لمن لَهُ أُذُنـان واعِيَتـان
في أجْرِ مُحْيِي سُنَّةٍ ماتت فَذَا كَ مَعَ الرسولِ رفيقهُ بجنان[1]
هذا ومصداقٌ له أيضًا أتى في التِّرمذيِّ لمن له عينـان
تشبيهُ أُمَّتِه بغَيْثٍ أوَّلٌ منه وآخِرُهُ فمُشْتَبِهَان
فلذاك لا يُدْرَى الذي هو منهما قد خُصَّ بالتَّفْضِيلِ والرُّجْحَان
ولقد أتى في الوَحْيِ مصداقٌ له في الثُّلَّتَيْنِ وذاك في القـرآن
أهْلُ اليمينِ فَثُلَّةٌ مَعْ مِثْلِهَا والسَّابِقُونَ أقَلُّ في الحُسْبان
ما ذاك إلا أن تابِعَهُمْ هُمُ الْـ ـغُرَبَاءُ ليستْ غُربَةَ الأوطـان

(١) الحديث في ذلك ضعيف.

لكنَّها واللّه غُربةُ قائمٍ بالدِّينِ بين عساكرِ الشيطانِ
فانظُرْ إلى تفسيرِهِ الغُرَبَاءَ بالـ ـمُحْيِينَ سُنَّتَهُ بكلِّ زمـانِ
طُوبَى لهم والشَّوْقُ يَحْدُوهُم إلى أخْذِ الحديثِ ومُحكَمِ القرآنِ
طوبى لهم لم يَعْبَئُوا بِنُحَاتَةِ الـ أفكـارِ أو بزبالةِ الأذهـانِ
طوبى لهم رَكِبُوا على مَتْنِ العَزَا ئِمِ قاصدينَ لمَطْلَعِ الإيمـانِ
طوبى لهم لم يَعْبَئُوا شيئًا بذي الـ آرَاءِ إذْ أغناهُمُ الوَحْيَانِ
طوبى لهم وإمامُهُمْ دُونَ الوَرَى مَنْ جـاءَ بالإيمـانِ والفُرقـانِ
واللّه ما ائتَمُّوا بشخصٍ دُونَهُ إلاَّ إذا ما دَلَّهُمْ ببَيانِ
هذا وقد بَعُدَ المَدَى وتَطَاوَلَ الـ ـعَهْدُ الذي هو مُوجِبُ الإحسانِ
ولذاك كان كقابضٍ جَمْرًا فَسَلْ أحشاءَهُ عن حَرِّ ذي النِّيرانِ
واللّهُ أعْلَمُ بالذي في قَلْبِهِ يكفيهِ علْمُ الواحدِ المَنَّانِ
برٌّ وتوحيدٌ وصَبْرٌ مَعْ رِضًا والشُّكْرُ والتَّحكيمُ للقـرآنِ

* * *

يقول شيخ الإسلام ابن القيم مبينًا نشأة الفرق الضالة وذم السلف لهم:

«لما أظلمت الأرض وبعد عهد أهلها بنور الوحي، وتفرقوا في الباطل فرقًا وأحزابًا، لا يجمعهم جامع، ولا يحصيهم إلا الذي خلقهم، فإنَّهم فقدوا نور النبوّة. ورجعوا إلى مجرد العقول..، فأطلع اللّه شمس الرسالة في تلك الظلم سراجًا منيرًا وأنعم بها على أهل الأرض في عقولهم وقلوبهم ومعاشهم ومعادهم نعمة لا يستطيعون لها شكورًا فأبصروا بنور الوحي ما لم يكونوا بعقولهم يبصرونه ورأوا في ضوء الرسالة ما لم يكونوا بآرائهم يرونه..، فمضى الرعيل الأول في ضوء ذلك النّور، لم تطفئه عواصف

الأهواء، ولم تلتبس به ظلم الآراء، وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم، وأن لا يخرجوا عن طريقهم، فلما كان في أواخر عصرهم حدثت الشيعة والخوارج والقدريّة والمرجئة، فبعدوا عن النور الذي كان عليه أوائل الأئمَّة، ومع هذا فلم يفارقوه بالكليَّة، بل كانوا للنصوص معظمين، وبِهَا مستدلين. ولها على العقول والآراء مقدّمين، ولم يدّع أحدٌ منهم أن عنده عقليات تعارض النصوص، وإنّما أتوا من سوء الفهم فيها، والاستبداد بما ظهر لهم منها، دون من قبلهم، ورأوا أنَّهم إن اقتفوا أثرهم كانوا مقلدين لهم، **فصاح بهم من أدركهم من الصحابة وكبار التابعين من كل قطر، ورموهم بالعظائم، وتبرّأوا منهم، وحذّروا من سبيلهم أشدّ التحذير، ولا يرون السلام عليهم ولا مجالستهم**، وكلامهم فيهم معروف في كتب السنّة، وهو أكثر من أن يذكر ها هنا..»[1].

وقال: «فكل بدعة مضلّة في الدين أساسها القول على اللَّه بلا علم.

ولهذا اشتدّ نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذّروا فتنتهم أشدّ التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان؛ إذ مضرّة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد»[2].

* * *

(١) «الصواعق المرسلة» لابن القيم (٣/ ١٠٦٨ ـ ١٠٧٠).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٣٧٢).

*** عهد لابن القيم مع ربه بجهاد أهل البدع وقمعهم:**

❑ يقول ابن القيم في عهده مع ربه، وعهد الرجال الجبال يبين عن علو همتهم:

يا ناصرَ الإسلام والسُّنَن التي ... جاءتْ عن المبعوث بالقرآنِ
اشرحْ لدينك صدْرَ كلِّ مُوحِّدٍ ... شرحًا ينال به ذُرَا الإيمـانِ
واجْعَلْهُ مُؤتَمًّا بوحْيكَ لا بما ... قد قالَهُ ذُو الإفْكِ والبُهتـانِ
وانْعشْ به مَنْ قصْدُهُ إحياؤه ... واعصمْهُ من كيْد امْرِئٍ فَتَّانِ
فَوَحَقِّ نعمتك التي أوليتَني ... وجعلت قلبي واعِيَ القرآنِ
وكتبتَ في قلبي مُتابَعَةَ الهُدى ... فقرأتُ فيـه أسْـطُرَ القـرآنِ
وَنَشَلْتَني من حُبِّ أصحاب الهَوَى ... بحبائل من مُحكَمِ القـرآنِ
وجعلتَ شرْبِي المنْهَلَ العَذْبَ الذي ... هُو رأسُ ماءِ الوارِدِ الظَّمـآنِ
وعصمتَني من شرْبِ سفْلِ الماء تَحْـ ... ـتَ نجاسةِ الآراءِ والأذهـانِ
وحَفِظْتَني ممَّا ابتليتَ به الأُلى ... حكموا عليك بشرْعَةِ البُهتـانِ
نَبَذُوا كتابَكَ منْ وراءِ ظُهُورهم ... وتمسّكُوا بزَخارِفِ الهَذَيـانِ
وأريتَني البدَعَ المُضِلَّةَ كيف يُلْـ ... ـقيهَا مُزَخْرَفَةً إلى الإنسانِ
شيطانُهُ فَيَظَلّ يَنْقُشُهَا لهُ ... نَقْشَ المُشبِّه صُورةً بِدهَـانِ
فَيَظُنّها المغرورُ حقًّا وَهْيَ في التَّـ ... ـحْقِيقِ مِثْلُ اللاَّلِ في العِقيانِ
لأُجَاهِدَنَّ عِداكَ ما أبْقَيْتَني ... ولأجعلنَّ قتالَهُمْ دَيْـدَاني
ولأفْضَحَنَّهُمُ على رُوس المَلا ... ولأفْرِينَّ أديمَهُمْ بلسـاني
ولأكْشِفَنَّ سَرَائِرًا خَفِيَتْ على ... ضُعَفاءِ خَلْقِكَ منهُمُ بَبَيانِ
ولأتْبَعَنَّهُمُ إلى حيث انْتَهَوْا ... حتّى يُقـالَ أبَعْـدُ عَبَّـادانِ
ولأرْجُمَنَّهُمُ بأعلامِ الهُـدى ... رجْم المريـد بثـاقِبِ الشُّهْبَانِ

ولأقْعُدَنَّ لهم مَرَاصِـدَ كَيْدِهـم ... ولأحْصُـرَنَّهُـمُ بكُلِّ مكـانِ
ولأجْعَـلنَّ لُحُومَهـم ودمـاءَهـم ... في يومِ نصْرِكَ أعْظَمَ القُربـانِ
ولأَحْمِـلَنَّ عليهمُ بعَسَـاكِر ... ليستْ تَفرُّ إذا الْتَقَى الزَّحْفـانِ
بعَسَاكِرِ الوَحْيَيْنِ والفِطْـرَاتِ بالـ ... ـمعْقُولِ والمنقُولِ بالإحسانِ
حتَّى يَبِينَ لمن له عَقْـلٌ مَن الْـ ... أوْلَى بحُكْم العَقْـلِ والبُرهـانِ
ولأنْصَحَـنَّ اللَّه ثُـمَّ رسـولهُ ... وكتـابهُ وشـرائـعَ الإيمـانِ
إن شـاءَ ربِّي ذا يكُونُ بحولْه ... إن لم يشأ فالأمْـرُ للرحمـنِ

❑ ولقد صدق ابن القيم في عهده مع ربه أيما صدق، ووفَّي أعظم توفيةٍ، للَّه درُّه.

* * *

أزاهير في التمسك بالسنة واتباع الخليل ﷺ

* قال اللَّه تعالى، وكلام الملوك ملوك الكلام:

* ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

الدعوة إلى الكتاب والسنة.. الدعوة إلى الاتباع: دعوةٌ تُحيي القلوب والعقول، وتطلقها من أوهاق الجهل والخرافة، ومن ضغط الوهم والأسطورة، ومن العبودية لغير اللَّه، والمذلَّة للعبد أو للشهوات سواءٌ.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢].

* وقال تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

* وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١-٢].

❑ يقول ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «فرأس الأدب مع الرسول ﷺ كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن

يحمله معارضة خيالٍ باطلٍ يسميه معقولاً، أو يحمله شبهة أو شكًّا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان. كما وحد المرسل سبحانه وتعالى بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب اللَّه إلا بهما: توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول. فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره. ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة: أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وإلا حرفه عن مواضعه، وسمى تحريفه تأويلاً وحملاً. فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنبٍ على الإطلاق ـ ما خلا الشرك باللَّه ـ خيرٌ له من أن يلقاه بهذ الحال.

ولقد خاطبت يومًا بعض أكابر هؤلاء، فقلت له: سألتك باللَّه، لو قُدِّرَ أن الرسول ﷺ حَيٌّ بين أظهرنا، وقد وَاجَهَنا بكلامه وبخطابه، أكان فرضًا علينا أن نتبعه من غير أن نعرضه على رأي غيره، وكلامه ومذهبه، أم لا نتبعه حتى نعرض ما سمعناه منه على آراء الناس وعقولهم؟ فقال: بل كان الفرض المبادرة إلى الامتثال من غير التفاتٍ إلى سواه. فقلت: فما الذي نسخ هذا الفرض عنا؟ وبأي شيءٍ نسخ؟ فوضع إصبعه على فيه، وبقي باهتًا متحيرًا، وما نطق بكلمة.

هذا أدب الخواص معه، لا مخالفة أمره، ورفع الأصوات، وإزعاج الأعضاء بالصلاة عليه والتسليم، وعزل كلامه عن اليقين، وأن يستفاد منه معرفة اللَّه، أو يتلقى منه أحكامه، بل المعول في باب معرفة اللَّه: على العقول المنهوكة المتحيرة المتناقضة، وفي الأحكام: على تقليد الرجال وآرائها.

والقرآن والسنة إنما نقرؤهما تبرُّكًا، لا أنا نتلقى منهما أصول الدين ولا فروعه. ومن طلب ذلك ورامه، عادياناه وسعينا في قطع دابره واستئصال شأفته: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣ ـ ٧٤].

والناصح لنفسه، العامل على نجاتها يتدبّر هذه الآيات حقّ تدبرها، ويتأملها حق تأملها، وينزلها على الواقع فيرى العجب، ولا يظنها اختصت بقومٍ كانوا فبانوا «فالحديث لك واسمعي يا جارة» واللّه المستعان.

ومن الأدب معه: أن لا ترفع الأصوات فوق صوته، فإنه سببٌ لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجبًا لقبول الأعمال؟! ورفع الصوت فوق صوته موجب لحبوطها»[1].

* قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩).

عباس رضي الله عنهما: سبيلٌ وسنة.

* وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]. قال الحسن: على السنة.

* وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١] قال عطاء: يتبعونه حقّ اتّباعه، ويعملون به حق عمله.

* وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. قال الحسن: الكتاب: القرآن، والحكمة: السنة.

* وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. قال سعيد بن جبير: ثم استقام. قال: لزوم السنة والجماعة. وقال شمر بن عطية: ثم اهتدى. قال: للسنة.

* وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، قال: فأما الذين ابيضت وجوههم: فأهل السنة والجماعة وأولو العلم، وأما الذين اسودت وجوههم: فأهل البدع والضلالة.

* وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. قال عطاء: طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة.

* وقال تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى اللَّه والرسول﴾. قال ميمون بن مهران: ما دام حيًّا، فإذا قُبض فإلى سنته. وقال مجاهد: كتاب اللَّه وسنة نبيه، ولا تردوا إلى أُولي الأمر شيئًا.

* وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

* وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

﴿الأَنْهَارُ﴾ [النساء: ١٣].

* وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

* وقال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

* وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

* وقال تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

* وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

* وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

والدعاوى يحتج لها ولا يحتج بها.. وللمحبة علامات حتى لا يدعي الخلي حرقة الشجي.

فأول علامات المحبة: الاتباع والاعتصام بالكتاب والسنة.

❑ قال الحسن: ادَّعى قوم على عهد رسول اللَّه ﷺ محبة اللَّه، فابتلاهم اللَّه بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وثمرة الاتباع محبة اللَّه للمتبع.. وشأن عظيم أن تُحِب، وأعظم منه أن تُحَبّ.

● وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول اللَّه ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول اللَّه كأنها موعظة مودِّع، فأوصنا قال: «**أوصيكم بتقوى اللَّه والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبدٌ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنّتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهدّيين، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**»[1].

وقوله: «**عضّوا عليها بالنواجذ**» أي: اجتهدوا على السُّنّة والزموها، واحرصوا عليها كما يلزم العاضُّ على الشيء بنواجذه، خوفًا من ذهابه وتفلُّته.

● وعن أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فقال: «**أليس تشهدون أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول اللَّه؟**». قالوا: بلى. قال: «**إن هذا القرآن طرَفه بيد اللَّه وطَرَفه بأيديكم، فتمسَّكُوا به، فإنكم لن تضلّوا ولن تهلكوا بعده أبدًا**»[2].

● وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**تركت فيكم شيئين، لن تضلّوا بعدهما؛ كتاب اللَّه وسُنّتي، ولن يتفرَّقا حتى يردا عليَّ**

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه». وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٢٠).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، وقال المنذري: إسناده جيد، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٢٠).

هذه الأحاديث وأكثر منها وردت في كتاب لي تحت الطبع وهو: «عطر الياسمين في اتّباع سيِّد المرسلين».

الحوض»[١] .

● وعن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا إني أُوتيت القرآن ومثله معه، ألا يُوشك رجلٌ شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه، وإن ما حرم رسولُ اللَّه ﷺ كما حرَّم اللَّه، ألا لا يحلُّ لكم الحمار الأهليُّ، ولا كلُّ ذي نابٍ من السِّباع؛ ولا لُقَطَة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم، فعليهم أن يقروه[٢] ، فإن لم يقروه، فله أن يُعقبهم بمثل قِراه»[٣] .

● وروى الترمذي بسند صحيح، عن أبي رافع رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا أُلفينّ أحدَكم متَّكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري، مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب اللَّه اتَّبعناه»[٤] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سُنّتي، وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديِّين، عضّوا عليها بالنّواجِذ، وعليكم

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك»، وصححه ووافقه الألباني، وصححه في «صحيح الجامع» رقم (٢٩٣٤).

(٢) أي: يُضيّفوه.

(٣) صحيح: رواه أبو داود في «الأطعمة» وفي السنة، وروى الدارمي نحوه وكذا ابن ماجه إلى قوله: «كما حرَّم اللَّه». وقال الألباني في التعليق على المشكاة (١/ ٥٧ ـ ٥٨): سنده صحيح.

(٤) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي في «دلائل النبوة» وسنده صحيح.

بالطاعة وإن عبداً حَبَشِيًّا، فإنما المؤمن كالجمل الأنف، حيثما قِيدَ انقاد»[١].

● وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب اللَّه، وخير الهَدْي هدي محمد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالةٌ». رواه مسلم.

● وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ حين أتاه عمر رضي الله عنه، فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمُتَهَوِّكُون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي».

ولفظ الدارمي: عن جابر، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أتى رسول اللَّه ﷺ بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول اللَّه، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول اللَّه ﷺ يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل! ما ترى ما بوجه رسول اللَّه ﷺ؟! فنظر عمر إلى وجه رسول اللَّه ﷺ فقال: أعوذ باللَّه من غضب اللَّه وغضب رسوله، رضينا باللَّه ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا. فقال رسول اللَّه ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني، لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيًّا وأدرك نبوتي لاتبعني»[٢].

● عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إذا أخذت

---

(١) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن العرباض، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٣٦٩).

(٢) حسن: رواه أحمد والبيهقي في «شعب الإيمان» والدارمي، وقال الألباني في التعليق على «مشكاة المصابيح» (١/ ٦٣): «وفيه مجالد بن سعيد وفيه ضعف، ولكن الحديث حسن عندي؛ لأن له طرقًا كثيرة عند اللالكائي والهروي وغيرهما».

مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللَّهم أسلمتُ وجهي إليك، وفوّضتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت. واجعلهن من آخر كلامك، فإن مت من ليلتك، مت وأنت على الفطرة». قال: فرددتهن لأستذكرهن فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت قال: «قل: آمنت بنبيك الذي أرسلت»[1].

للَّه ما أحلى هذا الحديث في الحثّ على الاتباع.. قد يقول قائل: ما الفرق بين نبيك ورسولك؟ الفرق بينهما الاتباع.

❑ قال النووي في «شرح مسلم» (٥/ ٥٦٣): «اختار المازري وغيره، أن سبب الإنكار، أن هذا ذكر ودعاء، فينبغي فيه الاقتصار على اللفظ الوارد بحروفه، وقد يتعلق الجزاء بتلك الحروف، ولعله أُوحي إليه ﷺ بهذه الكلمات، فيتعين أداؤها بحروفها، وهذا القول حسن».

إن كان يتعين هذا في باب الأذكار، فما ظنك بالاعتقاد والأحكام؟! فاقصد البحر وخلِّ القنوات.. إذا أتى نهر اللَّه بطل نهر معقل.. في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل.

*** عود على بدء:**

ها نحن من جديد نعطر الصفحات بقول العلماء الربانيين السادات من الأمر بالاتباع والتمسك بالسنة وندون ما قالوه فتعال معي إلى بساتينهم، وشُمّ من أريجهم الفوّاح:

● عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «من دعا إلى هُدًى،

(١) رواه البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم.

كان له من الأجر مثل أُجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أُجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة، كان له من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا».
أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

❑ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: النظر إلى الرجل من أهل السنة يدعو إلى السنة وينهى عن البدعة، عبادةٌ[1].

❑ وعن الزهري: الاعتصام بالسنة نجاةٌ.

❑ وقال أبو العالية: «تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الإسلام يمينًا ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء». وصدق ونصح كما قال الحسن وابن سيرين.

❑ وعن الحسن قال: يا أهل السنة تفرقوا ـ رحمكم الله ـ فإنكم من أقل الناس.

❑ وعن سعيد بن جبير: لا يقبل قولٌ إلا بعمل، ولا يقبل عملٌ إلا بقول، ولا يقبل قولٌ وعملٌ إلا بنيَّةٍ، ولا يقبل قولٌ وعملٌ ونيّةٌ إلا بنيّةٍ مُوافِقةٍ للسنة.

❑ وقال يونس بن عبيد: أصبح مَن إذا عُرِّف السُّنّة عرفها، غريبًا، وأغْرَب منه من يُعرِّفها.

وقال يونس: إن الذي يعرض عليه السنة لغريب، وأغرب منه من يعرفها.

---

(١) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٥٥).

وقال: ليس شيءٌ أغرب من السنة، وأغرب منها من يعرفها.

❑ قال أيوب السختياني: إن من سعادة الحدث والأعجمي، أن يوفقهما اللَّه لعالِمٍ من أهل السنة.

❑ وعن ابن شوذب: إن من نعمة اللَّه على الشاب إذا نسك، أن يواخي صاحب سنة يحمله عليها.

❑ وقال أيوب لعمارة بن راذان: يا عمارة، إذا كان الرجل صاحب سنة وجماعة، فلا تسأل عن أي حال كان فيه.

❑ وقال حماد بن زيد: حضرت أيوب السخياني وهو يغسِّل شعيب بن الحبحاب، وهو يقول: إن الذين يتمنون موت أهل السنة يريدون أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم، واللَّه متم نوره ولو كره الكافرون.

❑ وقال ابن عون: ثلاث أُحِبُّهن لنفسي ولأصحابي. فذكروا قراءة القرآن والسنة، والثالثة: أقبل رجلٌ على نفسه ولها من الناس، إلا من خَيْرٍ.

❑ وقال الأوزاعي: ندور مع السنة حيث دارت.

وقال: كان يقال: خمس كان عليها أصحاب محمد ﷺ والتابعون بإحسانٍ: لزوم الجماعة، واتباع السنة، وعمارة المساجد، وتلاوة القرآن، والجهاد في سبيل اللَّه.

وأخرج ابن أبي حاتمٍ عن ابن مسعود: ما من شيءٍ إلا بُيِّن لنا في القرآن، ولكن فهمنا يقصر عن إدراكه، فلذلك قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

❑ للَّه ما أروع هذا الكلام!

وقال رجل عن مطرف بن عبداللَّه: لا تحدثونا إلا بما في القرآن. فقال مطرف: إنّا واللَّه ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا.

❑ وأخرج الدارمي عن سعيد بن جبير، أنه حدث يومًا بحديثٍ عن النبي ﷺ فقال له رجل: في كتاب اللَّه ما يخالف هذا. فقال: لا أراني أُحدِّثك عن رسول اللَّه ﷺ وتعرض فيه بكتاب اللَّه، كان رسول اللَّه ﷺ أعلم بكتاب اللَّه منك.

❑ وأخرج البيهقي عن أيوب السختياني قوله: إذا حدثت الرجل بُسنّةٍ، فقال: دعنا من هذا وأنبئا عن القرآن، فاعلم أنه ضالٌّ.

❑ وكتب عمر بن عبدالعزيز: لا رَأْيَ لأحدٍ في كتاب اللَّه ولا في سُنّةِ رسول اللَّه ﷺ، وإنما رأيُ الأمة فيما لم ينزل فيه كتاب، ولم تَمْضِ به سُنّةٌ عن رسول اللَّه ﷺ.

❑ وقال الأوزاعي: إن السنة جاءت قاضيةً على الكتاب، ولم يجئ الكتاب قاضيًا على السنة. وكذا قال يحيى بن أبي كثير.

❑ وقال مكحول: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن.

❑ قال البيهقي: ومعنى ذلك أن السنة مع الكتاب أُقيمت مقام البيان عن اللَّه، كما قال اللَّه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

❑ وقال السيوطي: والحاصل أن معنى احتياج القرآن إلى السنة؛ أنها مبينة له ومفصلة لمجملاته؛ لأن فيه كنوزًا تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها، فيبرزها، وذلك هو المنزل عليه ﷺ.

وهذا هو معنى كون السنة قاضيةً عليه، وليس القرآن مبينًا للسنة ولا قاضيًا عليها؛ لأنها بيِّنَةٌ بنفسها.

«كان إبراهيم التيمي يقول: اللَّهم اعصمني بدينك وبسنة نبيك من الاختلاف في الحق، ومن اتباع الهوى، ومن سبل الضلالة، ومن شبهات

الأمور، ومن الزيغ والخصومات.

❑ وقال ابن المبارك: اعلم ـ أي أخي ـ أن الموت كرامةٌ لكل مسلمٍ لقي اللَّه على السنة، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، فإلى اللَّه نشكو وحشتنا وذهاب الإخوان وقلة الأعوان، وظهور البدع، وإلى اللَّه نشكو عظيم ما حلَّ بهذه الأُمّة من ذهاب العلماء وأهل السنة وظهور البدع»[1].

❑ وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: والمتبع للسنة كالقابض على الجمر، وهو اليوم عندي أفضل من ضرب السيف في سبيل اللَّه عز وجل.

❑ قال الألباني: هذا في زمانه، فماذا يقال في زماننا؟!.

❑ قال ابن عمر: لا يزالون على الطريق ما اتبعوا الأثر.

❑ قال وكيع: لو أن الرجل لم يصب في الحديث شيئًا إلا أن يمنعه من الهوى، كان قد أصاب فيه.

❑ وقال سفيان: الملائكة حراس السماء، وأصحاب الحديث حراس الأرض.

❑ وقال سفيان: استوصوا بأهل السنة خيرًا؛ فإنهم غرباء[2].

❑ وقال فضيل بن عياض: إن للَّه عبادًا يحيي بهم البلاد، وهم أصحاب السنة، ومن كان يعقل ما يدخل جوفه من حله، كان من حزب اللَّه.

❑ وقال أبو بكر بن عيّاش: السنة في الإسلام أعز من الإسلام في سائر الأديان.

❑ وقال ابن المبارك: ما رأيت أحدًا شرح السُّنة من أبي بكر بن عياش.

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٨٦).

(٢) «شرح أصول الاعتقاد» (١/ ٦٣).

❑ وعن عون قال: من مات على الإسلام والسنة، فله بشيرٌ بكل خيرٍ.

❑ وقال معتمر بن سليمان: دخلت على أبي وأنا منكسر، فقال: ما لك؟ قلت: مات صديقٌ لي. قال: مات على السنة؟ قلت: نعم. قال: فلا تخف عليه.

❑ وقال معافى بن عمران: لا تحمدن رجلاً إلا عند الموت: إما يموت على السنة أو يموت على بدعة.

❑ وقال شداد بن يحيى: ليس طريقٌ أقصد إلى الجنة من طريق من سلك الآثار.

دِينُ النبيِّ محمـــدٍ أخبـــارُ نِعْـــم المَطِيَّـــةُ للفتـــى آثـــارُ
لا تَعْدِلَنَّ عن الحديث وأهْـلِه فالرَّأْيُ ليـــلٌ والحديثُ نهـــارُ
ولرُبَّما غَلِطَ الفتى أثَـــرَ الهُـــدى والشمسُ بازِغَـــةٌ لها أنـــوارُ

❑ وقال ابن خزيمة: ليس لأحدٍ قولٌ مع رسول اللَّه ﷺ إذا صحّ الخبر.

❑ وقال يحيى بن آدم: لا يحتاج مع قول النبي ﷺ إلى قول أحدٍ، إنما كان يقال: سنة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر؛ ليعلم أن النبي ﷺ مات وهو عليها.

❑ وقال مجاهد: ليس أحدٌ إلا يؤخذ من قوله ويترك من قوله إلا النبي ﷺ.

❑ وقال أبو حنيفة: إذا جاء عن النبي ﷺ، فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن أصحابه، نختار من أقوالهم، وإذا جاء عن التابعين، زاحمناهم.

❑ وقال عروة بن الزبير: اتباع السنن قوام الدين.

❑ وقال ابن سيرين: كانوا يقولون: ما دام على الأثر، فهو على الطريق.

❑ وقال الأوزاعي: إذا بلغك عن رسول اللَّه ﷺ حديثٌ، فإياك أن تقول بغيره، فإن رسول اللَّه ﷺ كان مبلغًا عن اللَّه.

❑ وقال الثوري: إنما العلم كله العلم بالآثار.

❑ وقال كهمس: من لم يتحقق أن أهل السنة حفظة الدين، فإنه يعد في ضعفاء المساكين، الذين لا يدينون للَّه بدين، يقول اللَّه لنبيه ﷺ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ويقول رسول اللَّه ﷺ: «**حدثني جبريل عن اللَّه**».

❑ قال أبو إلياس الألباني: ثلاث لو كتبن في ظفر لوسعهن، وفيهن خير الدنيا والآخرة: اتبع ولا تبتدع، اتضع ولا ترتفع، ومن ورع لا يتسع.

* كلمات في الاتّباع وذَمّ البدع لأهل الزُّهْد وأصحاب السلوك:

❑ قيل لإبراهيم بن أدهم: إن اللَّه يقول في كتابه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ونحن ندعوه منذ دهر فلا يستجيب لنا؟! فقال: ماتت قلوبكم في عشرة أشياء: أولها: عرفتم اللَّه فلم تؤدُّوا حقه. والثاني: قرأتم كتاب اللَّه ولم تعملوا به. والثالث: ادعيتم حب رسول اللَّه ﷺ وتركتم سنته.. إلى آخر الحكاية.

❑ وقال ذو النون: من علامة حب اللَّه متابعة حبيب اللَّه ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأمره وسنته.

❑ وقال: إنما فسد الخلق من ستة أشياء: الأول: ضعف النية بعمل الآخرة. والثاني: صارت أبدانهم مُهَيَّأَةً لشهواتهم. والثالث: غلبهم طول

الأمل مع قصر الأجل. والرابع: آثروا رضاء المخلوقين على رضاء اللَّه. والخامس: اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم ﷺ. والسادس: جعلوا زلات السلف حجة لأنفسهم، ودفنوا أكثر مناقبهم.

❑ وقال لرجل أوصاه: «ليكن آثر الأشياء عندك وأحبها إليك، إحكام ما افترض اللَّه عليك، واتقاء ما نهاك عنه؛ فإنّ ما تعبَّدك اللَّه به، خيرٌ لك مما تختاره لنفسك من أعمال البر وأنت ترى أنها أبلغ لك فيما تريد، كالذي يؤدب نفسه بالفقر والتقلل، وما أشبه ذلك، وإنما للعبد أن يراعي أبدًا ما وجب عليه من فرضٍ يحكمه على تمام حدوده، وينظر إلى ما نهي عنه، فيتقيه على إحكام ما ينبغي، فإن الذي قطع العباد عن ربهم، وقطعهم عن أن يذوقوا حلاوة الإيمان، وأن يبلغوا حقائق الصدق، وحجب قلوبهم عن النظر إلى الآخرة ـ تهاونهم بأحكام ما فرض عليهم؛ في قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وبطونهم وفروجهم، ولو وقفوا على هذه الأشياء وأحكموها، لأُدخل عليهم البر إدخالاً تعجز أبدانهم وقلوبهم عن حمل ما رزقهم اللَّه من حسن معونته، وفوائد كرامته، ولكن أكثر القراء والنساك حقروا محقرات الذنوب، وتهاونوا بالقليل مما هم فيه من العيوب، فحرموا ثواب لذة الصادقين في العاجل».

❑ وقال بشر الحافي: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: يا بشر، أتدري لم رفعك اللَّه بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول اللَّه. قال: لاتباعك سنتي وحرمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، هو الذي بلغك منازل الأبرار.

❑ وقال يحيى بن معاذ الرازي: اختلاف الناس كلهم يرجع إلى ثلاثة أصول، فلكل واحد منها ضد، فمن سقط عنه وقع في ضده: التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية.

❑ وقال أبو بكر الترمذي: لم يجد أحد تمام الهمة بأوصافها إلا أهل المحبة، وإنما أخذوا ذلك باتباع السنة ومجانبة البدعة، فإن محمداً ﷺ كان أعلى الخلق كلهم همة وأقربهم زلفى.

❑ وقال أبو عليّ الحسن بن علي الجوزجاني: من علامات السعادة على العبد تيسير الطاعة عليه، وموافقة السنة في أفعاله، وصحبته لأهل الصلاح، وحسن أخلاقه مع الإخوان، وبذل معروفه للخلق، واهتمامه للمسلمين، ومراعاته لأوقاته.

وسئل: كيف الطريق إلى اللَّه؟ فقال: الطريق إلى اللَّه كثيرة، وأوضح الطرق وأبعدها عن الشبه: اتباع السنة قولاً وفعلاً وعزمًا وعقدًا ونِيَّةً؛ لأن اللَّه يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]. فقيل له: كيف الطريق إلى السنة؟ فقال: مجانبة البدع، واتباع ما أجمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام، والتباعد عن مجالس الكلام وأهله، ولزوم طريقة الاقتداء، وبذلك أُمِر النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣].

❑ وقال أبو الحسن الورَّاق: لا يصل العبد إلى اللَّه إلا باللَّه وموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه، ومن جَعَلَ الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء، يضلُّ من حيث يظن أنه مُهتدٍ.

❑ وقال: الصدق استقامة الطريق في الدين، واتباع السنة في الشرع.

وقال: علامة محبة اللَّه متابعة حبيبه ﷺ.

❑ وقال إبراهيم القمار: علامة محبة اللَّه إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ.

❑ وقال أبو محمد بن عبدالوهاب الثقفي: لا يقبل اللَّه من الأعمال إلا

ما كان صوابًا، ومن صوابها إلا ما كان خالصًا، ومن خالصها إلا ما وافق السنة.

وقد كان إبراهيم بن شيبان القرميسيني ـ الذي صاحب إبراهيم الخواص ـ شديدًا على أهل البدع، متمسكًا بالكتاب والسنة، لازمًا لطريق المشايخ والأئمة، حتى قال فيه عبدالله بن منازل: إبراهيم بن شيبان حجة الله على الفقراء وأهل الآداب والمعاملات.

❑ وقال أبو بكر بن سعدان ـ وهو من أصحاب الجنيد ـ: الاعتصام بالله هو الامتناع من الغفلة والمعاصي والبدع والضلالات.

❑ وقال أبو عمر الزجاجي ـ وهو من أصحاب الجنيد والثوري ـ: كان الناس في الجاهلية يتبعون ما تستحسنه عقولهم وطبائعهم، فجاء النبي ﷺ فردهم إلى الشريعة والاتباع، فالعقل الصحيح الذي يستحسن ما يستحسنه الشرع، ويستقبح ما يستقبحه.

❑ وقيل لإسماعيل بن محمد السلمي جد أبي عبدالرحمن السلمي ـ ولقي الجنيد ـ: ما الذي لا بد للعبد منه؟ فقال: ملازمه العبودية على السنة، ودوام المراقبة.

❑ وقال أبو عثمان المغربي التونسي: هو الوقوف مع الحدود لا يقصر فيها ولا يتعداها، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

❑ وقال بندار بن الحسين: صحبة أهل البدع تورث الإعراض عن الحق.

❑ وقال أبو بكر الطمستاني: الطريق واضح، والكتاب والسنة قائم بين أظهرنا، وفضل الصحابة معلومٌ لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم، فمن صحب منا الكتاب والسنة، وتغرب عن نفسه والخلق، وهاجر بقلبه إلى الله، فهو الصادق المصيب.

❑ وقال أبو يزيد البسطامي[1] : عملت في المجاهدة ثلاثين سنة، فما وجدت شيئًا أشد من العلم ومتابعته، ومتابعة العلم هي متابعة السنة لا غيرها.

وروي عنه أنه قال: قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية. وكان رجلاً مقصودًا مشهورًا بالزهد، قال الراوي: فمضينا، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا غير مأمونٍ على أدبٍ من آداب رسول اللَّه ﷺ، فكيف يكون مأمونًا على ما يدعيه؟!.

❑ قال الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٩٤): «وهذا أصل أصَّله أبو يزيد ـ رحمه اللَّه ـ للقوم: وهو أن الولاية لا تحصل لتارك السنة، وإن كان ذلك جهلاً منه، فما ظنك إذا كان عاملاً بالبدعة كفاحًا؟!».

وقال: هممت أن أسأل اللَّه أن يكفيني مؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز أن أسأل اللَّه هذا، ولم يسأله رسول اللَّه ﷺ؟! فلم أسأله، ثم إن اللَّه سبحانه كفاني مؤنة النساء، حتى لا أبالي أستقبلتني امرأة أم حائط.

وقال: لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات، حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وآداب الشريعة.

❑ وقال سهل التستري: كل فعل يفعله العبد بغير اقتداءٍ، طاعةً كان أو معصية، فهو عيش النفس ـ يعني اتباع الهوى ـ وكل فعلٍ يفعله العبد بالاقتداء فهو عتابٌ على النفس، واتباع الهوى هو المذموم، ومقصود القوم

---

(١) له كلامٌ طيِّبٌ، وله شطحات، عفا اللَّه عنه، فنأخذ منه كلامه الطيب، ولنا سلفٌ في ذلك: شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم.

تركه البتة.

وقال: أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب اللَّه، والاقتداء بسنة رسول اللَّه ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق.

وقال: قد أيس الخلق من هذه الخصال الثلاث: ملازمة التوبة، ومتابعة السنة، وترك أذى الخلق. وسئل عن الفتوة فقال: اتباع السنة.

❑ وقال أبو سليمان الداراني: ربما تقع في قلبي النكتة من نكتة القوم أيامًا، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة.

❑ وقال أحمد بن أبي الحواري: من عمل عملاً بلا اتباع سنةٍ، فباطلٌ عمله.

❑ وقال أبو حفص الحداد: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقتٍ بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعده في ديوان الرجال.

وسئل عن البدعة، فقال: التعدي في الأحكام، والتهاون في السنن، واتباع الآراء والأهواء، وترك الاتباع والاقتداء.

قال: وما ظهرت حالةٌ عاليةٌ إلا من ملازمة أمرٍ صحيح.

وسئل حمدون القصار: متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس؟ فقال: إذا تعين عليه أداء فرضٍ من فرائض اللَّه في علمه، أو خاف هلاك إنسانٍ في بدعةٍ، يرجو أن ينجيه اللَّه منها.

وقال: من نظر في سير السلف، عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال.

❑ قال الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٩٥): «وهذه ـ واللَّه أعلم ـ إشارةٌ إلى المثابرة على الاقتداء بهم، فإنهم أهل السنة».

❑ وقال أبو عثمان الحيري: الصحبة مع اللَّه تعالى: بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع رسول اللَّه ﷺ: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم.

ولما تغير عليه الحال، مزق ابنه أبو بكرٍ قميصًا على نفسه، ففتح أبو عثمان عينيه وقال: خلاف السنة ـ يا بني ـ في الظاهر؛ علامة رياءٍ في الباطن.

وقال: مَن أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالبدعة؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

❑ وقال محمد بن الفضل البلخي: ذهاب الإسلام من أربعة: لا يعملون بما يعلمون، ويعملون بما لا يعلمون، ولا يتعلمون ما لا يعلمون، ويمنعون الناس من التعلم.

وقال: أعرفهم باللَّه أشَدُّهم مجاهدةً في أوامره، وأتبعهم لسنة نبيه ﷺ.

❑ وقال شاه الكرماني: من غضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشبهات، وعمّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعوّد نفسه أكل الحلال، لم تخطئْ له فِرَاسةٌ.

❑ وقال أبو العباس بن عطاء، وهو من أقران الجنيد: من ألزم نفسه آداب اللَّه، نور اللَّه قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه.

❑ وقال إبراهيم الخوّاص: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العالم من اتبع العلم واستعمله، واقتدى بالسنن، وإن كان قليل العلم.

وسئل عن العافية فقال: العافية أربعة أشياء: دينٌ بلا بدعةٍ، وعملٌ بلا

آفةٍ، وقلبٌ بلا شغلٍ، ونفسٌ بلا شهوةٍ.

وقال: الصبر: الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقال أبو حمزة البغدادي: من علم طريق الحق، سهل عليه سلوكه، ولا دليل على الطريق إلى اللَّه إلا متابعة سنة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله.

وسُئل أبو علي الرّوزباري عمّن يسمع الملاهي ويقول: «هي لي حلال، لأني قد وصلت إلى درجةٍ لا يؤثر في اختلاف الأحوال». فقال: نعم قد وصل، ولكن إلى سقر.

❑ وقال أبو محمد عبداللَّه بن منازل: لم يضيع أحدٌ فريضةً من الفرائض، إلا ابتلاه اللَّه بتضييع السنن، ولم يبتل بتضييع السنن أحدٌ، إلاَّ يوشك أن يُبتلى بالبدع.

❑ وقال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلاَّ من اقتفى آثار الرسول ﷺ.

وقال: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيَّدٌ بالكتاب والسنة. وقال: هذا مشيد بحديث رسول اللَّه ﷺ.

هذا قول سيد من سادات العابدين العاملين، فلم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق من الصوفية، ونواب إبليس وشرطه.

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبي ﷺ، فإن اللَّه عز وجل يقول: وعزتي وجلالي، لو أتوْني من كل طريقٍ، واستفتحوا من كل بابٍ، لما فتحت لهم، حتى يدخلوا خلفك[1].

(١) «طريق الهجرتين» لابن القيم ص(٧).

وقال رجل له: أهل المعرفة باللَّه يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى اللَّه. فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، ولو بقيت ألف عام، لم أنقص من أعمال البر ذرَّةً، إلا أن يحال بي دونها.

«فهذا كلام أهل الحقائق والمواجد، والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية، فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقهم ولا يجري على منهاجهم، بل يأتي ببدعٍ محدثات، وأهواء متبعات»[1].

فالسابقون مَضَوْا وما خدعوا الوَرَى ... بالتُّرَّهَاتِ لأنّهم أُمَنَاءُ
واللاّحقون مضوْا على أهوائهم ... أرأيتَ ما فعلتْ بنا الأهواءُ
بدع بها جمعوا من الأموال ما ... جمعوا ومجموعُ الهباءِ هباءُ
في ذمة العُلماءِ هذا كُلُّه ... إن كان فيما بيننا علماءُ

* * *

(١) «الاعتصام» للشاطبي بتصرف (١/ ٩٠ ـ ٩٨).

ذم الابتداع، والتحذير من أهل الأهواء وهجرهم والشدة عليهم وقمعهم

❑ قال العلامة ابن بطة العكبري: «يا إخواني، عصمنا اللَّه وإياكم من غلبة الأهواء ومشاحنة الآراء، وأعاذنا وإياكم من نصرة الخطاء وشماتة الأعداء، وأجارنا وإياكم من غِيَر الزمان وزخاريف الشيطان، فقد كثر المغترون بتمويهاتها، وتباهي الزائغون والجاهلون بلبس حلتها، فأصبحنا وقد أصابنا ما أصاب الأُمَمَ قبلنا، وحل الذي حذرناه نبينا ﷺ من الفرقة والاختلاف، وترك الجماعة والائتلاف، وواقع أكثرنا الذي عنه نهينا، وترك الجمهور منا ما به أُمرنا، فخُلعتْ لبسة الإسلام، ونزعت حلة الإيمان، وانكشف الغطا، وبرح الخفا، فعُبدت الأهواء، واستُعملتْ الآراء، وقامت سوق الفتنة، وانتشرت أعلامها، وظهرت الردة، وانكشف قناعها، وقُدحتْ زناد الزندقة، فأُضرمت نيرانها، وخلف محمد ﷺ في أُمَّته بأقبح الخلف، وعظمتْ البليَّة، واشتدت الرزيَّة، وظهر المبتدعون، وتنطّع المتنطعون، وانتشرت البدع، ومات الورع، وهتكت سجف المشاينة، وشهر سيف المحاشة، بعد أن كان أمرهم هينًا، وحدهم لينًا، وذاك حين كان أمر الأُمّة مجتمعًا، والقلوب متآلفة، والأئمة عادلة، والسلطان قاهرًا، والحق ظاهرًا، فانقلبت الأعيان، وانعكس الزمان، وانفرد كلُّ قومٍ ببدعتهم، وحُزِّبَ الأحزاب، وخولف الكتاب، واتخذ أهل الإلحاد رءوسًا وأربابًا، وتحولت البدعة إلى أهل الاتفاق، وتهوك في العسرة العامة وأهل الأسواق، ونعق إبليس بأوليائه نَعْقةً فاستجابوا له من كل ناحية، وأقبلوا نحوه مسرعين من كل قاصية، فأُلْبِسوا شيعًا، ومُيِّزوا قِطَعًا، وشمتت بهم أهل الأديان السالفة والمذاهب المخالفة، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، وما ذاك إلا عقوبة أصابت القوم عند تركهم أمر اللَّه، وصدفهم عن الحق، وميلهم إلى الباطل،

وإيثارهم أهواءهم، وللَّه عز وجل عقوبات في خلقه عند ترك أمره ومخالفة رُسُله، فأشعلتْ نيران البدع في الدين، وصاروا إلى سبيل المخالفين، فأصابهم ما أصاب من قبلهم من الأمم الماضين»[1].

❑ قال الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٣٨): «هذا تمام الحكاية، فكأنه ـ رحمه اللَّه ـ تكلم على لسان الجميع».

ولقد وردت عن سيد البرية ﷺ أحاديث عطرة في ذم البدع والتنفير من أهلها:

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد**». متفق عليه.

ولفظ مسلم: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**».

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أبغض الناس إلى اللَّه ثلاثة: مُلحدٌ في الحرم، ومُبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطَّلب دم امرئ بغير حقٍّ ليهريق دمه**». رواه البخاري.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كل أُمتي يدخلون الجنة إلا مَنْ أبى**». قيل: ومَن أبَى؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[2].

وفي حديث أنس: «**فمن رغب عن سنتي، فليس مني**». متفق عليه.

● وعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول اللَّه ﷺ: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ**﴾ وقرأ إلى: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾

(١) «الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية» لابن بطة (١/ ١٦٣ ـ ١٦٥).

(٢) رواه البخاري.

[آل عمران: ٧] قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الذين سماهم اللَّه؛ فاحذروهم**» متفق عليه. وعند مسلم: «**فإذا رأيتم**».

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يكون في آخر الزمان دجالون، كذّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنوكم**». رواه مسلم.

● وعن عبداللَّه بن عمرو قال: هجرت إلى رسول اللَّه ﷺ يومًا، قال: فسمع أصوات رَجُلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول اللَّه ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**». رواه مسلم.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، و﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾** الآية [البقرة: ١٣٦]. رواه البخاري.

● وعن خبّاب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنّ بني إسرائيل لمّا هلكوا قَصُّوا**»[1].

أي لما هلكوا بترك العمل، أخلدوا إلى القصص، وعولوا عليها واكتفوا بها. قاله المناوي.

وحال كثير من المؤمنين اليوم يشبه حالهم، فقد أعرضوا عن العلم

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»، والضياء في «المختارة»، وأبو نعيم في «الحلية»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠٤١)، و«الصحيحة» رقم (١٦٨١).

النافع والعمل الصالح.

● وقال ﷺ: «لتتَّبعنّ سُنن الذين من قبلكم، شبرًا بشبرٍ، أو ذراعًا بذراعٍ، حتى لو سلكوا جحر ضَبٍّ لسلكتموه». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن!»[١].

● وقال ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضَبٍّ لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع أمّه بالطريق لفعلتموه»[٢].

● وقال ﷺ: «ليس منا من عمل بسنة غيرنا»[٣].

● وقال ﷺ: «من صنع أمرًا على غير أمرنا، فهو ردٌّ»[٤].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أُمَّتي أخذ القرون قبلها، شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ». قيل: يا رسول اللَّه، كفارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلاّ أولئك»[٥].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «ليأتينَّ على أُمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملَّة، وتفترق أُمّتي

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجه عن أبي سعيد، والحاكم عن أبي هريرة.

(٢) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٤٣).

(٣) حسن: رواه الديلمي في «مسند الفردوس» عن ابن عباس، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٤٣٩).

(٤) صحيح: رواه أبو داود عن عائشة. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٣٦٩).

(٥) رواه البخاري عن أبي هريرة.

على ثلاثٍ وسبعين ملّة، كلهم في النار، إلا ملّةٍ واحدة؛ ما أنا عليه وأصحابي»[١].

● وقال ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، والذي نفس محمدٍ بيده، لتفترقن أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار»[٢].

● وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يكون في آخر الزمان دجّالون كذّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإيّاكم وإيّاهم، لا يُضلّونكم ولا يفتنونكم».

● وعن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه، قال: خطَّ لنا رسول اللَّه ﷺ خطًّا، ثم قال: «هذا سبيل اللَّه». ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، وقال: «هذه سُبُلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطان يدعو إليه». وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣][٣].

● وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملّة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي عن ابن عمرو، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٣٤٣).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه عن عوف بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٠٨٢).

(٣) **إسناده حسن**: رواه أحمد والنسائي والدرامي والحاكم وصححه. وحسّن إسناده الألباني في «التعليق على المشكاة» (١/ ٥٩).

من أُمّتي أقوام تَجَارَى بهم تلك الأهواءُ كما يَتَجَارى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عِرق ولا مَفْصِل إلا دَخَلَه»[١] .

● وعن أبي أُمامة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما ضل قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه، إلا أُوتوا الجدل». ثم قرأ رسول اللَّه ﷺ هذه الآية: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾[٢] [البقرة: ١٣٦].

● وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «أَبْغَضُ الرِّجال إلى اللَّه الأَلَدُّ الخَصِم»[٣] .

● وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «المدينة حرام، ما بين عَير إلى ثور، فمن أحدثَ فيها حدثًا، أو آوى محدثًا، فعليه لعنةُ اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللَّه منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً»[٤] .

هذا في المحدث المبتدع، والذي يأويه لا يقبل اللَّه منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً، وعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين.

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «المِراءُ في القرآن كفر»[٥] .

● وعن أبي برزة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إنما أخشى عليكم

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه أحمد وأبو داود. وقال الألباني: وسندهما صحيح.

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه. وقال الألباني: سنده صحيح. انظر «مشكاة المصابيح» (١/ ٦٤).

(٣) رواه البخاري، وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي.

(٤) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن علي، ومسلم عن أبي هريرة، ونحوه عن أنس رواه أحمد والبخاري ومسلم. ورواه الطيالسي وأبو نعيم والبيهقي في السنن.

(٥) **صحيح**: رواه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة، وصححه الحاكم والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٥٦٣).

شهوات الغيّ في بطونكم وفروجكم، ومُضلات الهوى»[١] .

● وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «وأما المُهلِكات؛ فُشحٌّ مُطاع، وهَوًى مُتَّبَعٌ، وإعجاب المرء بنفسه»[٢] .

● وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه حَجَبَ التوبة عن كلِّ صاحبِ بدعةٍ حتى يَدَعَ بدعته»[٣] .

● وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أبى اللَّه أن يقبل عَمَلَ صاحبِ بدعةٍ حتى يَدَع بدعته»[٤] .

● وعن عبداللَّه بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لكلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، ولكل شِرّةٍ فَتَرةٌ، فمن كانت فترتُه إلى سُنَّتي، فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك، فقد هلك»[٥] .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لكل عملٍ شِرَّة[٦] ، ولكل شِرّةٍ فَتْرةٌ، فإن كان صاحبها سَدَّدَ أو قارَبَ فارْجُوهُ، وإن أشُير إليه

---

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني في معاجمه الثلاثة. وقال المنذري: وبعض أسانيدهم رواته ثقات، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٢٥).

(٢) حسن: رواه البزار والبيهقي، وحسّنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٢٥).

(٣) صحيح: رواه البزار وقال المنذري: إسناده حسن. وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٢٥).

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه وابن أبي عاصم في «السنة». وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٢٦).

(٥) صحيح: رواه أحمد والطحاوي، وابن حبان وابن أبي عاصم. وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٢٦).

(٦) الشِّرَّة: النشاط والهمّة.

بالأصابع، فلا تعدُّوه»[١] .

● وعن العرباض بن سارية ﷺ، أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «لقد تركتُكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك»[٢] . قال أبو عمران الجوني: ليت شعري، أيّ شيءٍ علم ربنا من أهل الأهواء حين أوجب لهم النار.

من سار على المحجة البيضاء في الدنيا، يسير على المرمرة البيضاء أرض الجنة في الآخرة.. واحدة بواحدة.

أنت القتيـــــلُ بكُلِّ من أحْبَبْتَـــهُ فا خْتَرْ لنَفْسِكَ في الهوى مَنْ تَصْطَفِي

● وعن أبي الدرداء قال: خرج رسول اللَّه ﷺ علينا فقال: «وايم اللَّه لأتركنكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها سواء». فقال أبو الدرداء ﷺ: صدق اللَّه ورسوله، فقد تركنا على مثل البيضاء[٣] .

● وعن العرباض ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إياكم والبدع»[٤].

● وعن العرباض ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إياكم والمحدثات؛ فإن كل محدثة ضلالةٌ»[٥] .

وفي رواية: «إياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة».

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والطحاوي وابن حبان في «صحيحه». وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٢٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وابن أبي عاصم. وقال المنذري: رواه بن أبي عاصم بإسناد حسن. وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٢٧).

(٣) صحيح: أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٦) وصححه الألباني.

(٤) حديث حسن: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٠) وحسَّنه الألباني.

(٥) حديث صحيح: رواه ابن أبي عاصم ـ واللفظ له ـ وابن حبان وابن ماجه، وصححه الألباني في التعليق على «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ١٧).

● وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير مغاليق للشر، ومن الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل اللَّه مفتاح الخير على يديه، وويلٌ لمن جُعل مفتاح الشر على يديه**»(١).

● عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: واللَّه ما أظن على ظهر الأرض اليوم أحدًا أحب إلى الشيطان هلاكًا مني. فقيل: وكيف؟ فقال: واللَّه إنه ليحدث البدعة في مشرقٍ أو مغربٍ، فيحملها الرجل إليّ، فإذا انتهت إليَّ قمعتها بالسنة، فترد ليه كما أخرجه(٢).

● عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة عاقٌّ ولا مُكذِّبٌ بقدَرٍ ولا مُدمنٌ خمرٍ**»(٣).

● وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ثلاثة لا يقبل اللَّه لهم صرفًا ولا عدلاً: عاقٌّ، ومَنَّانٌ ومُكذِّبٌ بالقَدَر**»(٤).

● وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار اللَّه تعالى إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم، وإن ماتوا فلا تصلوا عليهم**»(٥).

---

(١) **حديث حسن**: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٢٧ ـ ١٢٨) وحسَّنه الألباني.

(٢) «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (١/ ٥٥).

(٣) **حديث حسن**: رواه ابن أبي عاصم واللفظ له، وأحمد والبزار والطبراني وحسنه الألباني في «التعليق على «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ١٤١).

(٤) **إسناده حسن**: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٤٢) وحسن إسناده الألباني.

(٥) **حديث حسن**: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» واللفظ له، وابن ماجه، والطبراني في «الصغير»، والآجري في الشريعة، وحسنه الألباني.

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»(١) .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن لكلِّ أُمَّة مجوسًا، وإن مجوس هذه الأمة القدرية، فلا تعودوهم إذا مرضوا، ولا تصلوا على جنائزهم إذا ماتوا»(٢) .

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «الخوارج كلابُ النار»(٣) .

● وقال ﷺ: «إن من ضئضئ هذا قومًا يقرءون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»(٤) .

● وقال ﷺ: «سيخرج في آخر الزمان قومٌ أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يقرءون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم عند اللَّه يوم القيامة»(٥) .

● وقال ﷺ: «سيكون بعدي من أُمَّتي قومٌ يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه،

---

(١) **حديث حسن**: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٥٠) وحسَّنه الألباني.

(٢) **حديث صحيح**: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ١٥١) واللفظ له، والآجري في الشريعة، والدولابي في «الكنى» وصححه الألباني.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد وابن ماجه والحاكم عن ابن أبي أوفى، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٣٤٧).

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد.

(٥) رواه البخاري ومسلم عن علي.

هم شر الخلق والخليقة سيماهم التحليق»[١] .

اعلم يا أخي أن الدعوة إلى الاتباع والنهي عن الابتداع، أصل عظيم من الدعوة إلى اللَّه «وتبليغ سنته إلى الأمة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، ولأن ذلك التبليغ يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا تقوم به إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا اللَّه منهم بمنّه وكرمه» كما قال ابن القيم، والمبلغون لهم من حفظ اللَّه وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه.

● وقال عمر بن الخطاب ﷺ في خطبته التي ذكرها ابن وضّاح في كتاب «الحوادث والبدع»[٢] له قال: «الحمد للَّه الذي امتنّ على العباد بأن جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويُحيون بكتاب اللَّه أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وضال تائه قد هدوه، بذلوا دماءهم وأموالهم دون هلكة العباد، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، يقبلونهم في سالف الدهر وإلى يومنا هذا، فما نسيهم ربهم، وما كان ربك نسيًّا، جعل قصصهم هدى، وأخبر عن حسن مقالتهم، فلا تقصد عنهم، فإنهم في منزلة رفيعة، وإن أصابتهم الوضيعة».

● وقال ابن مسعود ﷺ: «إن للَّه عند كل بدعة كيد بها الإسلام وليًّا من أوليائه يذبّ عنها، وينطق بعلاماتها، فاغتنموا حضور تلك المواطن، وتوكلوا على اللَّه».

□ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الرادُّ على أهل البدع مجاهد، حتى

(١) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي ذر ورافع بن عمرو الغفاري.
(٢) «البدع والنهي عنها» لابن مفلح.

كان يحيى بن يحيى يقول: الذبّ عن السنة أفضل الجهاد»[١] .

❑ يقول ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «وأنت إذا تأمّلت تأويلات القرامطة والملاحدة والفلاسفة والرافضة والقدرية والجهمية، ومن سلك سبيل هؤلاء من المقلدين لهم في الحكم والدليل، ترى الإخبار بمضمونها عن اللَّه ورسوله لا يقصر عن الإخبار عنه بالأحاديث الموضوعة المصنوعة، التي هي مما عملته أيدي الوضّاعين وصاغته ألسنة الكذّابين، فهؤلاء اختلقوا عليه ألفاظًا وضعوها، وهؤلاء اختلقوا في كلامه معاني ابتدعوها، فيا محنة الكتاب والسنة بين الفريقين، وما نازلة نزلت بالإسلام إلا من الطائفتين فهما عدوان للإسلام كائدان، وعن الصراط المستقيم ناكبان، وعن قصد السبيل حائران..» ثم قال: «فكشف عورات هؤلاء، وبيان فضائحهم، وفساد قواعدهم، من أفضل الجهاد في سبيل اللَّه، وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت رضي الله عنه: «**إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن رسوله**»، وقال ﷺ: «**اهجهم أو هاجهم وجبريل معك**»، وقال ﷺ: «**اللَّهم أيِّده بروح القدس ما دام ينافح عن رسولك**»، وقال ﷺ عن هجائه لهم: «**والذي نفسي بيده لهو أشد فيهم من النبل**»[٢] .

❑ وقال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه، ومن مبتدع في دين اللَّه بشهب الحق قد رموه جهادًا في اللَّه، وابتغاء مرضاته»[٣] .

---

(١) «نقض المنطق» لابن تيمية ص(١٢)، وانظر كتابه «التسعينية» (١/ ٢٣١).

(٢) «الصواعق المرسلة» لابن القيم (١/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

(٣) «مفتاح دار السعادة».

❑ وقال في نونيته[١] :

هذا ونصر الدين فرض لازم لا للكفاية بل على الأعيان
بيدٍ وإمّا باللسان فإن عجز ت فبالتوجه والدعا بجنان

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ[٢] : «ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم؛ وجدهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشدّ قيام حتى لقوا اللَّه تعالى، وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم وأخبر النبي ﷺ : «أنّ المتخلّص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبّة خردل»، وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشدّ المبالغة، حتى قال: «**إن الناس إذا تركوه؛ أوشك أن يعمهم اللَّه بعقاب من عنده**».

وأخبر أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار ويوجب تسلّط الأشرار.

وأخبر أن تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه، ويحلّ لعنة اللَّه كما لعن اللَّه بني إسرائيل على تركه».

فالصحابة رضي الله عنهم قد واجهوا البدع وأهلها بشدّة، فقمعوها وتبرءوا من أهلها وذلك واضح جلي لمن تدبّر سيرتهم، وعرف أخبارهم.

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «وقد كان ابن عباس شديداً على القدريّة، وكذلك الصحابة»[٣] .

❑ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب»[٤] .

---

(١) «النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» ص(٤٠٨).
(٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٢٣).
(٣) «شفاء العليل» لابن القيم ص(٦٠).
(٤) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٣٨).

❑ وعن عطاء ـ رحمه اللَّه ـ قال: أتيت ابن عباس ﷺ وهو ينزع في زمزم قد ابتلت أسافل ثيابه فقلت: قد تُكلم في القدر.

قال: أو قد فعلوها؟. فقلت: نعم.

قال: «فواللَّه ما نزلت هذه الآية إلا فيهم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، أولئك شرار هذه الأمة، لا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، فإن أريتني أحدهم فقأت عينيه بأصبعيّ هاتين[1]».

❑ عمر بن الخطاب ﷺ قد شجّ رأس صبيغ بن عسل لما كان يسأل عن المتشابه في القرآن، فعن سليمان بن يسار أنّ رجلاً من بني تميم يقال له: صبيغ بن عِسل قدم المدينة، وكانت عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن فبلغ ذلك عمر فبعث إليه وقد أعدّ له عراجين النخيل.

فلما دخل عليه جلس، قال: من أنت؟

قال: أنا عبداللَّه صبيغ.

قال عمر: وأنا عبداللَّه عمر وأومأ عليه فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجّه وجعل الدم يسيل على وجهه.

فقال: حسبك يا أمير المؤمنين فقد واللَّه ذهب الذي أجد في رأسي»[2].

❑ وعن يحيى بن يعمر، قال: كان أول من قال بالقدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحميري حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوُفّق لنا عبداللَّه بن عمر بن الخطاب ﷺ داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أنّ صاحبي سيَكِلُ

(١) «شرح السنة» للالكائي (٤/ ٧١٢)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ٢٠٥).
(٢) «شرح السنّة» للالكائي (٣/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦).

الكلام إليّ، فقلت: أبا عبدالرحمن، إنه قد ظهر قبلنا ناسٌ يقرءون القرآن ويتقفّرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنّهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنف، قال: «فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم، وأنهم برآء منّي والذي يحلف به عبداللَّه بن عمر! لو أنّ لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا فأنفقه، ما قَبل اللَّه منه حتى يؤمن بالقدر»[1].

❑ وكان سمرة بن جندب ﷺ شديدًا على الخوارج فكانوا يطعنون عليه[2].

❑ قال ابن الماجشون: سمعت مالكًا يقول: «من ابتدع في الإسلام بدعةً يراها حسنةً، فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة؛ لأن اللَّه يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذٍ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا».

نعم.. لئن لم يسعنا ما وسع القوم، فلا وسعتنا رحمة اللَّه.

❑ عن حميد بن مهران قال: سألت الحسن: كيف يصنع أهل هذه الأهواء الخبيثة بهذه الآية في آل عمران ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] قال: نبذوها وربِّ الكعبة وراء ظهورهم.

❑ وعن قتادة في قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ يعني أهل البدع.

❑ وعن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] قال: تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدع.

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) «الإصابة» لابن حجر (٣/ ١٣٠).

* قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

❑ قال بكر بن العلاء: أحسبه أراد شيطانًا من الإنس وهي البدع، والله أعلم.

❑ وعن مجاهد، في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، قال: البدع والشهوات.

❑ وعن عمرو بن قيس الملائي قال: «لا تجالس صاحب زيغ فيزيغ قلبك»[١].

❑ وقال إبراهيم النخعي: «لا تجالسوا أهل الأهواء فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان من القلوب، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغضة في قلوب المؤمنين»[٢].

❑ وقال مجاهد: «لا تجالس أهل الأهواء فإن لهم عرّة كعرب الجرب»[٣].

❑ وقال إسماعيل بن عبيد الله: «لا تجالس ذا بدعة فيمرض قلبك، ولا تجالس مفتونًا فإنه ملقّن حجته»[٤].

❑ وقال مفضل بن مهلهل: «لو كان صاحب البدعة إذا جلست إليه يحدثك ببدعته حذرته وفررت منه، ولكنه يحدثك بأحاديث السنّة في بدو مجلسه ثم يدخل عليك بدعته فلعلها تلزم قلبك فمتى تخرج من قلبك»[٥].

---

(١) «الإبانة» (٢/ ٤٦٣).
(٢) «الإبانة» (٢/ ٤٣٩).
(٣) «الإبانة» (٢/ ٤٤١).
(٤) «الإبانة» (٢/ ٤٤٣).
(٥) «الإبانة» (٢/ ٤٤٤).

❑ وعن هشام بن حسان قال: «كان الحسن ومحمد بن سيرين يقولون: لا تجالسوا أصحاب الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم»[١].

❑ وقال حنبل بن إسحاق: سمعت أبا عبدالله يقول: «أهل البدع ما ينبغي لأحد أن يجالسهم ولا يخالطهم ولا يأنس بهم»[٢].

❑ وعن ثابت بن عجلان قال: «أدركت أنس بن مالك وابن المسيب والحسن البصري وسعيد بن جبير والشعبي وإبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وطاووس ومجاهد وعبدالله بن أبي مليكة والزهري ومكحول والقاسم أبا عبدالرحمن وعطاء الخراساني وثابت البناني والحكم بن عتيبة وأيوب السختياني وحماد ومحمد بن سيرين وأبا عامر ـ وكان قد أدرك أبا بكر الصديق ـ ويزيد الرقاشي وسليمان بن موسى، كلهم يأمروني بالجماعة وينهوني عن أصحاب الأهواء»[٣].

* وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

❑ قال التستري: ﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ طريق السنة، ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ يعني إلى النار، وذلك الملل والبدع.

وجاء عن سفيان بن عيينة وأبي قلابة وغيرهما، أنهم قالوا: كل صاحب بدعة أو فرية ذليلٌ. واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾

---

(١) «طبقات ابن سعد» (٧/ ١٧٢)، و«سنن الدارمي» (١/ ١٢١)، و«شرح السنة» للالكائي (١/ ١٣٣)، و«الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٤٤).

(٢) «الإبانة» (٢/ ٤٧٥).

(٣) «المعرفة والتاريخ» للفسوي (٣/ ٤٩١ ـ ٤٩٢)، و«شرح السنة» للالكائي (١/ ١٣٣).

[الأعراف: ١٥٢].

❑ قال أبو الجوزاء ـ وذكر أصحاب الأهواء فقال ـ: والذي نفس أبي الجوزاء بيده؛ لأن تمتلئ داري قردةً وخنازير، أحب إليَّ من أن يجاورني رجلٌ منهم، ولقد دخلوا في هذه الآية: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ الآية: [آل عمران: ١١٩].

❑ وقال الحسن: صاحب البدعة لا يزداد اجتهادًا؛ صيامًا وصلاة، إلا ازداد من اللَّه بعدًا».

❑ وعن أبي إدريس الخولاني أنه قال: لأن أرى في المسجد نارًا لا أستطيع إطفاءها، أحبُّ إليَّ من أن أرى فيه بدعةً لا أستطيع تغييرها.

❑ وقال الفضيل بن عياض: اتبع طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين.

❑ وقال الحسن: لا تجالس صاحب هوى؛ فيقذف في قلبك ما تتبعه عليه فتهلك، أو تخالفه فيمرض قلبك.

❑ وعن أبي قلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم؛ فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[1]. قال أيوب: وكان واللَّه من الفقهاء ذوي الألباب.

وعنه أيضًا، أنه كان يقول: «إن أهل الأهواء أهل ضلالة، ولا أرى مصيرهم إلا إلى النار». وعنه: «ما ابتدع رجلٌ بدعةً إلا استحل السيف».

❑ وعن أيوب السختياني: ما ازداد صاحب بدعةٍ اجتهادًا، إلا ازداد من اللَّه بعدًا.

---

(١) «سنن الدارمي» (١/ ١٢٠)، و«السنة» لعبداللَّه بن أحمد (١/ ١٣٧)، و«شرح السنة» للالكائي (١/ ١٣٤)، و«الإبانة» (٢/ ٤٣٥).

❑ وعن سفيان قال: كان رجل فقيه يقول: ما أُحبّ أني هديت الناس كلهم وأضللت رجلاً واحدًا.

❑ وكان ابن سيرين يرى أسرع الناس ردة أهل الأهواء.

❑ وعن إبراهيم: لا تكلموهم؛ إني أخاف أن ترتد قلوبكم.

❑ وعن هشام بن حسان قال: لا يقبل اللَّه من صاحب بدعة صيامًا ولا صلاةً، ولا حجًّا ولا جهادًا ولا عمرةً، ولا صدقةً ولا عتقًا، ولا صرفًا ولا عدلاً، وليأتين على الناس زمانٌ يشتبه فيه الحق والباطل، فإذا كان ذلك، لم ينفع فيه دعاء إلا كدعاء الغرق.

❑ وقال يحيى بن أبي كثير: إذا لقيت صاحب بدعةٍ في طريقٍ، فخذ في طريق آخر.

❑ وعن بعض السلف: من جالس صاحب بدعةٍ، نزعت منه العصمة، ووكل إلى نفسه.

❑ وعن العوام بن حوشب، أنه كان يقول لابنه: يا عيسى، أصلح قلبك، وأقلل مالك. وكان يقول: واللَّه لأن أرى عيسى في مجالس أصحاب البرابط[1] والأشربة والباطل، أحب إليَّ من أن أراه يجالس أصحاب الخصومات. قال ابن وضاح: يعني أهل البدع.

❑ وقال يحيى بن أبي عمر الشيباني: كان يقال: يأبى اللَّه لصاحبِ بدعةٍ توبةً، وما انتقل صاحب بدعةٍ إلا إلى شرٍّ منها.

❑ وقال أبو العالية: إياكم وهذه الأهواء، التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء. فحُدث الحسن بذلك فقال: رحمه اللَّه، صدق ونصح.

---

(١) البرابط: جمع بربط، هو المزهر والعود، وهو فارسيٌّ معرب.

وقال آخر: «أهل هذه الأهواء آفة أُمَّة محمد ﷺ، إنهم يذكرون النبي ﷺ وأهل بيته، فيتصيدون بهذا الذكر الحسن عند الجهال من الناس، فيقذفون بهم في المهالك، فما أشبههم بمن يسقي الصبر باسم العسل! ومن يسقي السم القاتل باسم الترياق! فأبصرهم، فإنك إن لا تكن أصبحت في بحر الماء، فقد أصبحت في بحر الأهواء، الذي هو أعمق غورًا وأشد اضطرابًا، وأكثر صواعق، وأبعد مذهبًا من البحر وما فيه، فَفُلك مطيتك التي تقطع بها سفر الضلال: اتباع السنة»[1].

❑ وقال ابن شبرمة:

إذا قلتُ جدُّوا في العبادة واصبروا ... أصرُّوا وقالوا لا الخصومةُ أفْضَلُ

خلافًا لأصحاب النبي وبدعةً ... وهُمْ لسبيل الحقِّ أعْمَى وأجْهَلُ

❑ وقال مطرف بن عبدالله بن الشخير: لو كانت هذه الأهواء كلها هوًى واحدًا، لقال القائل: الحق فيه. فلما تشعبت واختلفت، عرف كل ذي عقلٍ أن الحق لا يتفرق.

❑ وقال مالك بن أنس: الكلام في الدين كله أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، القدر ورأي جهم وكل ما أشبه، ولا أحب الكلام إلا فيما كان تحته عَمَلٌ، فأما الكلام في الله، فالسكوت عنه؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا ما كان تحته عملٌ.

❑ وقال مالك: مهما تلاعبت به من أمر شيء، فلا تلاعبن بأمر دينك.

❑ وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقومٍ شرًّا، ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل.

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٨٢ ـ ٨٦).

❑ وقال عبدالله بن المبارك: صاحب البدعة على وجهه الظلمة، وإن ادَّهَنَ كل يومٍ ثلاثين مرَّةً.

❑ وقال عطاء الخراساني: ما يكاد الله أن يأذن لصاحب بدعةٍ بتوبةٍ.

❑ وقال الحسن بن أبي الحسن: أبى الله تبارك وتعالى أن يأذن لصاحب هوًى بتوبةٍ.

❑ وقال الحسن: ليس لصاحب بدعةٍ ولا لفاسقٍ يعلن بفسقه، غيبةٌ.

❑ وعن كثير بن أبي سهل: يقال: أهل الأهواء لا حرمة لهم[1].

❑ «وقال الفضيل بن عياض: المؤمن يقف عند الشبهة، ومن دخل على صاحب بدعة فليست له حرمة، وإذا أحب الله عبدًا، وفقه لعملٍ صالحٍ، فتقربوا إلى الله بحب المساكين.

❑ وقال ابن المبارك: لم أر مالاً أحمق من مال صاحب بدعةٍ.

❑ وقال: اللَّهم لا تجعل لصاحب بدعةٍ عندي يدًا، فيحبه قلبي.

❑ وقال ابن المبارك: يكون مجلسك مع المساكين، وإياك أن تجالس صاحب بدعةٍ.

❑ وقال الفضيل: من أتاه رجلٌ فشاوره، فدله على مبتدعٍ، فقد غش الإسلام، واحذروا الدخول على أصحاب البدع؛ فإنهم يصدون عن الحق.

وقال ـ رحمه الله ـ: لا تجلس مع صاحب بدعةٍ، فإني أخاف أن ينزل عليك اللعنة.

وقال: لا تجلس مع صاحب بدعةٍ أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه.

---

(١) «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (١/ ١٤٠ ـ ١٥٠).

وقال: صاحب البدعة لا تأمَنْه على دينك، ولا تشاوره في أمرك، ولا تجلس إليه، فمن جلس إلى صاحب بدعةٍ، ورَّثه اللَّه العمى.

وقال: إن للَّه ملائكةً يطلبون حلق الذكر، فانظر مع من يكون مجلسك؛ لا يكون مع صاحب بدعةٍ؛ فإن اللَّه لا ينظر إليهم، وعلامة النفاق أن يقوم الرجل ويقعد مع صاحب بدعةٍ.

وقال: الأرواح جنودٌ مجندةٌ، ولا يمكن أن يكون صاحب سنةٍ يمالئ صاحب بدعةٍ إلا من النفاق.

وقال: أدركت خيار الناس كلهم أصحاب سنةٍ، وينهون عن أصحاب البدع.

وقال: لا يرفع لصاحب بدعةٍ إلى اللَّه عملٌ.

وقال عبداللَّه بن عمر السرخسي ـ عالم الخرز ـ: أكلت عند صاحب بدعةٍ أكلة، فبلغ ذلك ابن المبارك فقال: لا كلمته ثلاثين يومًا.

❑ وقال إبراهيم بن ميسرة: من وقر صاحب بدعةٍ، فقد أعان على هدم الإسلام.

❑ وقال يونس بن عبيد: لا تجالس سلطانًا ولا صاحب بدعة.

❑ وقال محمد بن النضر الحارثي: من أصغى سمعه إلى صاحب بدعةٍ، وهو يعلم أنه صاحب بدعة، نزعت منه العصمة، ووكل إلى نفسه.

❑ وقال الثوري: إياك والأهواء والخصومة، وإياك والسلطان.

وقال: المسلمون كلهم عندنا على حالةٍ حسنةٍ إلا رجلين: صاحب بدعة، أو صاحب سلطان.

❑ وقال عمر بن عبدالعزيز: إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيءٍ

دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة»[١].

❑ «قال معمر: كان ابن طاوس جالسًا، فجاء رجلٌ من المعتزلة، فجعل يتكلم. قال: فأدخل ابن طاوس إصبعيه في أُذُنَيْه وقال لابنه: أي بني، أدخل إصبعيك في أُذنيك، واشدد، لا تسمع من كلامه شيئًا. قال معمر: يعني أن القلب ضعيف»[٢].

❑ وقال عبدالرزاق: قال لي إبراهيم بن أبي يحيى: إني أرى المعتزلة عندكم كثيرًا! قلت: نعم، وهم يزعمون أنك منهم. قال: أفلا تدخل معي هذا الحانوت حتى أُكلِّمك؟ قلت: لا. قال: ولم؟ قلت: لأن القلب ضعيف، وإن الدين ليس لمن غلب[٣].

❑ وقال الثوري: من سمع بدعةً فلا يحكها لجلسائه، لا يلقيها في قلوبهم[٤].

❑ وقال أيوب: لست ترد عليهم بشيءٍ أشد من السكوت[٥].

❑ وقال عبدالله بن السري: ليس السنة عندنا أن يرد على أهل الأهواء، ولكن السنة عندنا أن لا نكلم أحدًا منهم.

«وروي عن حنبل بن إسحاق بن حنبل، أنه قال: كتب رجلٌ إلى أبي عبدالله ـ رحمه الله ـ كتابًا يستأذن فيه أن يضع كتابًا، يشرح فيه الرد على أهل البدع، وأن يحضر مع أهل الكلام فيناظرهم ويحتج عليهم.

فكتب إليه أبو عبدالله كتابًا فيه: الذي كنا نسمع، وأدركنا عليه من

---

(١) «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (١/ ١٣٥ ـ ١٤١).

(٢) «المصنف» لعبدالرزاق الصنعاني رقم (٢٠٠٩٩).

(٣) «الإبانة» لابن بطة.

(٤) «شرح السنة» للبغوي (١/ ٢٢٧).

(٥) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦).

أدركنا من أهل العلم، أنهم كانوا يكرهون الكلام، والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمر في التسليم والانتهاء إلى ما كان في كتاب اللَّه أو سنة رسول اللَّه ﷺ، لا في الجلوس مع أهل البدع والزيغ لترد عليهم، فإنهم يلبسون عليك، وهم لا يرجعون، فالسلامة ـ إن شاء اللَّه ـ في ترك مجالستهم والخوض معهم في بدعتهم»[1].

❑ وعن إسماعيل بن خارجة قال: دخل رجلان من أهل الأهواء على محمد بن سيرين، فقالا: يا أبا بكر، نحدثك بحديث؟ قال: لا. قالا: فنقرأ عليك آيةً من كتاب اللَّه؟ قال: لا. قال: تقومان عني وإلا قمت. فقام الرجلان فخرجا، فقال بعض القوم: ما كان عليك أن يقرأا آية؟ قال: إني كرهت أن يقرأا آية فيحرفانها، فيقر ذلك في قلبي[2].

❑ وقال الحسن البصري: أهل الهوى بمنزلة اليهود والنصارى.

❑ وقال محمد بن سيرين: لو خرج الدجال لرأيت أنه سيتبعه أهل الأهواء.

❑ وعن إبراهيم قال: إذا امتنع الإنسان في الشيطان، قال: من أين آتيه؟ قال: ثم قال: بلى آتيه من قبل الأهواء.

❑ وعن الشعبي قال: إنما سميت الأهواء؛ لأنها تهوي بصاحبها في النار.

❑ وقال أبو العالية: ما أدري أي الغنمين علي أعظم، إذا أخرجني اللَّه من الشرك إلى الإسلام، أو عصمني في الإسلام أن يكون لي فيه هوًى!!.

❑ وعن الحسن، أن رجلاً أتاه فقال: يا أبا سعيد، إني أريد أن

---

(١) «الإبانة» لابن بطة.

(٢) «الشريعة» للآجري (١/ ٥٧).

أخاصمك. فقال الحسن: إليك عني، فإني قد عرفت ديني، وإنما يخاصمك الشاك في دينه[١].

❑ وقال جعفر الباقر: إياكم والخصومات في الدين؛ فإنها تشغل القلب وتورث النفاق.

❑ وقال الأحنف بن قيس: كثرة الخصومة تنبت النفاق في القلب.

❑ وقال معاوية بن قرة: إياكم وهذه الخصومات؛ فإنها تحبط الأعمال.

❑ وقال هرم بن حيان: صاحب الكلام على إحدى المنزلتين: إن قصر فيه خُصم، وإن أغرق فيه أثم.

❑ وقال الفضيل بن عياض: لا تجادلوا أهل الخصومات؛ فإنهم يخوضون في آيات اللَّه.

❑ عن مجاهدٍ قال: قيل لابن عمر: إن نجدة[٢] يقول كذا وكذا. فجعل لا يسمع منه كراهيةَ أن يقع في قلبه منه شيءٌ.

❑ وعن عبداللَّه بن خباب بن الأرت قال: بينما نحن في المسجد، ونحن جلوسٌ مع قوم نقرأ السجدة ونبكي، فأرسل إليَّ أبي، فوجدته قد أحضر معه هراوة له، فأقبل عليَّ، فقلت: يا أبه، مالي مالي؟ قال: ألم أرك جالسًا مع العمالقة[٣]. ثم قال: هذا قرن خارجٌ الآن.

❑ وعن عبداللَّه بن أبي الهذيل العنبري قال: كنا جلوسًا مع عبداللَّه ابن خباب بن الأرت، وهو يقول: سبحوا كذا وكذا، واحمدوا كذا وكذا، وكبروا كذا وكذا. قال: فمر خبابٌ فنظر إليه، ثم أرسل إليه فدعاه، فأخذ

---

(١) رواه الآجري في «الشريعة» ص(٥٧)، و«شرح أصول الاعتقاد» للالكائي (١/ ١٢٩).

(٢) هو نجدة بن عامر الحروري الخارجي.

(٣) العمالقة: يقال لمن يخدع الناس ويخلبهم عملاق، والعملقة: التعمق في الكلام.

السوط، فجعل يضرب رأسه به، وهو يقول: يا أبتاه، فيم تضربني؟! فقال: مع العمالقة؟! هذا قرن الشيطان قد طلع أو قد بزغ[١].

❑ وعن الضحاك قال: رأيت عمر بن عبدالعزيز يسجن القُصَّاصَ ومن يجلس إليهم.

❑ وقال عمر بن العلاء اليماني لسفيان الثوري: يا أبا عبداللَّه، أستقبل القاصّ؟ فقال: ولُّوا البدع ظهوركم[١].

«عن حميد الأعرج: قدم غيلان مكة يجاور بها، فأتى غيلان مجاهدًا فقال: يا أبا الحجاج، بلغني أنك تنهى عني وتذكرني، بلغك عني شيءٌ لا أقوله؟ إنما أقول كذا. فجاء بشيءٍ لا ينكر، فلما قام قال مجاهد: لا تجالسوه؛ فإنه قَدَريٌّ. قال حميد: فإنه يومًا في الطواف، لحقني غيلان من خلفي يجذب ردائي، فالتفت، فقال: كيف يقول مجاهدٌ حرف كذا؟ فأخبرته، فمشى معي، فبصر بي مجاهد معه، فأتيته فجعلت أُكلمه، فلا يرد علي، وأسأله فلا يجيبني. قال: فغدوت إليه، فوجدته على تلك الحال، فقلت: يا أبا الحجاج، أبلغك عني شيء؟! ما أحدثت حدثًا، ما لي؟! قال: ألم أرك مع غيلان، وقد نهيتكم أن تكلموه أو تجالسوه؟! قال: قلت: يا أبا الحجاج، ما أنكرت قولك، وما بدأته، هو بدأني. قال: واللَّه يا حميد، لولا أنك عندي مصدق، ما نظرت لي في وجهٍ منبسطٍ ما عشت، ولئن عدت، لا تنظر لي في وجه منبسط ما عشت.

❑ وعن أيوب: كنت يومًا عند محمد بن سيرين، إذ جاء عمرو بن عبيد فدخل، فلمّا جلس، وضع محمدٌ يده في بطنه وقام، فقلت لعمرو: انطلق بنا. قال: فخرجنا، فلما مضى عمرو رجعت، فقلت: يا أبا بكر، قد

(١) «البدع والنهي عنها» لابن وضّاح القرطبي ص(٢٤، ٢٧، ٢٨).

فطنت إلى ما صنعت. قال: أقد فطنت؟ قلت: نعم. قال: أما إنه لم يكن ليضمني معه سقف بيتٍ.

❑ وعن أيوب: دخل رجلٌ على ابن سيرين، فقال: يا أبا بكر، أقرأ عليك آيةً من كتاب اللَّه، لا أزيد أن أقرأها ثم أخرج؟ فوضع إصبعيه في أُذُنَيْه ثم قال: أعزم عليك، إن كنت مسلمًا إلا خرجت من بيتي. قال: فقال: يا أبا بكر، لا أزيد على أن أقرأ الآية، ثم أخرج. فقام لإزاره يشده، وتهيأ للقيام، فأقبلنا على الرجل، فقلنا: قد عزم عليك إلا خرجت، أفيحلُّ لك أن تخرج رجلاً من بيته؟ قال: فخرج، فقلنا: يا أبا بكر، ما عليك لو قرأ آيةً ثم خرج؟! قال: إني واللَّه لو ظننت أن قلبي ثبت على ما هو عليه، ما باليت أن يقرأ، ولكن خفت أن يلقي في قلبي شيئًا، أجهد في إخراجه من قلبي فلا أستطيع.

❑ روي عن ابن مسعود أنه قال: من أحب أن يكرم دينه، فليعتزل مخالطة الشيطان ومجالسة أصحاب الأهواء؛ فإن مجالستهم ألصق من الجرب.

❑ وعن بعضهم قال: كنت أمشي مع عمرو بن عبيد، فرآني ابن عونٍ، فأعرض عني. وقيل: إنه دخل دار ابن عونٍ، فسكت ابن عون لمَّا رآه، وسكت عمروٌ عنه فلم يسأله عن شيء، فمكث هنيهةً، ثم قال ابن عون: بم استحل أن يدخل داري بغير إذني؟! مرارًا يرددها.

❑ وعن مؤمّل بن إسماعيل قال: قال بعض أصحابنا لحماد بن زيد: ما لك لم ترو عن عبدالكريم إلا حديثًا واحدًا؟ قال: ما أتيته إلا مرة واحدة لمساقه في هذا الحديث، وما أُحبُّ أن أيوبَ علم بإتياني له، وأنّ لي كذا وكذا، وإني لأظنه لو علم، لكانت الفصيلة بيني وبينه.

❑ وعن إبراهيم أنه قال لمحمد بن السائب: لا تقربنا ما دمت على

رأيك هذا. وكان مرجئًا.

❑ وعن حماد بن زيد قال: لقيني سعيد بن جبير فقال: ألم أرك مع طلق؟ قلت: بلى، فما له؟ قال: لا تجالسه، فإنه مرجئ.

❑ وعن محمد بن واسع قال: رأيت صفوان بن محرز وقريبٌ منه شيبةُ، فرآهما يتجادلان، فرأيته قائمًا ينفض ثيابه، ويقول: إنما أنتم جُرب.

❑ وعن الأوزاعي: لا تكلموا صاحب بدعةٍ من جدلٍ، فيورث قلوبكم من فتنته»[1].

❑ وقال أبو يوسف لبشر المريسي: يا بشر، إما أن تتوب أو تفسد علينا خشبة.

وانظر إلى جعد بن درهم، وهو أول من تفوه بكلمةٍ خبيثة في الاعتقاد، ونفى صفات اللَّه، وقال بخلق القرآن، وأنكر أن يكون اللَّه قد تكلم به، وقال: إن اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلاً. فذبحه خالد بن عبداللَّه القسري أمير العراق بواسط، في يوم الأضحى حيث قال: «أيها الناس، اذهبوا إلى أضاحيكم، يتقبل اللَّه منكم، فإنِّي مضحٍّ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن اللَّه لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولا كلم موسى تكليمًا». ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من التابعين، فشكر له صنيعه أهل السنة والجماعة.

شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كلُّ صاحِبِ سُنَّةٍ ... لِلَّه دَرُّك مِنْ أخي قُرْبـــانِ

وانظر إلى أُسِّ الضلالة ورأس الجهمية: جهم بن صفوان: الذي تبنى آراء الجعد، وزاد عليها بدعًا أُخرى:

❑ قال عنه إبراهيم بن طهمان: ما ذكرته، ولا ذكر عندي إلا

(١) «الاعتصام» للشاطبي (٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨).

دعوت اللَّه عليه، ما أعظم ما أورث أهل القبلة من منطقه العظيم.

لما أسر الجهم وأوقف بيني يدي سلم بن أحوز، فأمر بقتله؛ لإنكاره أن اللَّه كلم موسى، فقال: إن لي أمانًا من أبيك. فقال: ما كان له أن يؤمنك، ولو فعل ما أمنتك، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب، ما نجوت، واللَّه لو كنت في بطني لشققت بطني حتى أقتلك. وأمر ابن ميسر فقتله. وفي رواية ابن جرير: وأبرأك إليَّ عيسى بن مريم، ما نجوت[1].

❑ وأحمد بن أبي دؤاد الإيادي، الذي جر البلاد إلى محنة خلق القرآن، وأهان علماء الأُمَّة، وتكلم في عقيدة أهل السنة، دعا عليه الإمام أحمد، فحبسه اللَّه في جسده، فدخل عليه عبدالعزيز الكناني وقال له: لم آتك عائدًا، بل لأحمد اللَّه أن سجنك في جلدك[2].

❑ قال الخطيب البغدادي: «لما مات بشر بن غياث المريسي، لم يشهد جنازته من أهل العلم والسنة أحد إلا عبيد الشونيزي، فلما رجع من جنازته، أقبل عليه أهل السنة والجماعة، وقالوا له: يا عدو اللَّه، تنتحل السنة، وتشهد جنازة المريسي؟! فقال: أنظروني حتى أُخبركم، ما شهدت جنازةً رجوت بها من الأجر، ما رجوت في شهود جنازته؛ لما وضع في موضع الجنائز، قمت في الصف فقلت: اللَّهم إن عبدك هذا كان لا يؤمن برؤيتك في الآخرة، اللَّهم فاحجبه عن النظر إلى وجهك يوم ينظر المؤمنون إليك، اللَّهم فاحجبه عن النظر إلى وجهك يوم ينظر المؤمنون إليك، اللَّهم عبدك هذا كان لا يؤمن بعذاب القبر، اللَّهم فعذبه اليوم في قبره عذابًا لم تعذبه أحدًا من العالمين، اللَّهم عبدك هذا كان ينكر الميزان، اللَّهم فخفف ميزانه يوم

---

(١) «البداية والنهاية» (١٠/ ٢٨)، «تاريخ الطبري» (٤/ ٢٩٥)، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٧).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ١٧٠ ـ ١٧١).

القيامة، اللَّهم عبدك هذا كان ينكر الشفاعة، اللَّهم فلا تشفع فيه أحداً من خلقك يوم القيامة. قال: فسكتوا عنه وضحكوا»[١].

* تحذير السلف من أهل البدع بأعيانهم:

قال ابن تيمية: «فلا بد من التحذير من تلك البدع وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم»[٢].

وتحذير السلف من أهل البدع بأعيانهم كثير جداً، وما حملهم على ذلك إلا النصيحة للَّه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فهذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رحمه اللَّه ـ حذّر من أهل البدع بأعيانهم.

١ ـ كما قال عبدالرحمن بن مهدي: دخلت عند مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن، فقال: «لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد، لعن اللَّه عمراً فإنه ابتدع هذه البدعة من الكلام..»[٣].

٢ ـ وقال: «إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنّة»[٤].

٣ ـ وقال ابن أبي زيد: قال رجل لمالك: يا أبا عبداللَّه ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟

قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، وأراك صاحب بدعة وأمر بإخراجه[٥].

وهذا إمام أهل السنّة أحمد بن حنبل ـ رحمه اللَّه ـ جاء عنه التحذير

---

(١) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٧/ ٦٦).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢٣٣).
(٣) «مناقب مالك» للزواوي ص(١٤٧ ـ ١٤٨).
(٤) «مناقب مالك» للزواوي ص(١٤٨).
(٥) «مناقب مالك» للزواوي ص(١٣٤).

من أهل البدع بأسمائهم في كثير من أقواله وما ذلك إلا نصيحة لدين اللَّه، قال ابن الجوزي ـ رحمه اللَّه ـ:

«وقد كان الإمام أبو عبد اللَّه أحمد بن حنبل لشدّة تمسكه بالسنّة ونهيه عن البدعة يتكلم في جماعة من الأخيار إذا صدر منهم ما يخالف السنّة، وكلامه محمول على النصيحة للدين»[1]، فمن ذلك:

١ ـ عن أبي مزاحم موسى بن عبيد اللَّه بن خاقان قال: قال لي عمي أبو علي عبدالرحمن بن يحيى بن خاقان قال: أمر المتوكل بمسألة أحمد بن حنبل عمن يتقلد القضاء؟ فسألته.

قال أبو مزاحم: فسألته أن يخرج إلي جوابه، فوجه إلي بنسخة فكتبها ثم عدت إلى عمي فأقرّ لي بصحة ما بعث به.

وهذه نسخته:

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، نسخة الرقعة التي عرضتها على أحمد بن محمد ابن حنبل بعد أن سألته عما فيها فأجابني عن ذلك بما قد كتبته، وأمر ابنه عبداللَّه أن يوقع بأسفلها بأمره، ما سألته أن يوقع فيها:

سألت أحمد بن حنبل عن أحمد بن رباح، فقال فيه: إنه جهمي معروف بذلك، وإنّه إن قلّد القضاء من أمور المسلمين كان فيه ضرر على المسلمين لما هو عليه من مذهبه وبدعته.

وسألته عن ابن الخلنجي، فقال فيه ـ أيضًا ـ مثل ما قال في أحمد بن رباح وذكر أنه جهمي معروف بذلك، وأنه كان من شرهم وأعظمهم ضررًا على الناس.

وسألته عن شعيب بن سهل، فقال فيه: جهمي معروف بذلك.

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص(٢٥٣).

وسألته عن عبيداللَّه بن أحمد، فقال فيه: جهمي معروف بذلك.

وسألته عن المعروف بأبي شعيب، فقال فيه: إنه جهمي معروف بذلك.

وسألته عن محمد بن منصور قاضي الأهواز، فقال فيه: إنه كان مع ابن أبي دؤاد وفي ناحيته وأعماله، إلا أنه كان من أمثلهم ولا أعرف رأيه.

وسألته عن ابن علي بن الجعد، فقال: كان معروفًا عند الناس بأنه جهمي مشهور بذلك، ثم بلغني عنه الآن أنه رجع عن ذلك.

وسألته عن الفتح بن سهل صاحب مظالم محمد بن عبداللَّه ببغداد، فقال: جهمي معروف بذلك، من أصحاب بشر المريسي، وليس ينبغي أن يقلّد مثله شيئًا من أمور المسلمين لما في ذلك من الضرر.

وسألته عن ابن الثلجي، فقال: مبتدع صاحب هوى.

وسألته عن إبراهيم بن عتّاب، فقال: لا أعرفه إلا أنه كان من أصحاب بشر المريسي، فينبغي أن يحذر ولا يقرّب، ولا يقلّد شيئًا من أمور المسلمين.

وفي الجملة إن أهل البدع والأهواء لا ينبغي أن يستعان بهم في شيء من أمور المسلمين؛ فإن في ذلك أعظم الضرر على الدين، مع ما عليه رأي أمير المؤمنين أطال اللَّه بقاءه من التمسك بالسنّة والمخالفة لأهل البدع»[1].

٢ ـ وقال علي بن أبي خالد: قلت لأحمد بن حنبل ـ رحمه اللَّه ـ: إنّ هذا الشيخ ـ لشيخ حضر معنا ـ هو جاري، وقد نهيته عن رجل، ويحب أن يسمع قولك فيه: حارث القصير ـ يعني حارثًا المحاسبي ـ وكنت رأيتني معه منذ سنين كثيرة، فقلت لي: لا تجالسه، فما تقول فيه؟ فرأيت أحمد قد احمرّ لونه، وانتفخت أوداجه وعيناه، وما رأيته هكذا قط، ثم جعل ينتفض، ويقول: «ذاك؟ فعل اللَّه به وفعل، ليس يعرف ذاك إلا من خَبَره وعرفه،

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص(٢٥١ ـ ٢٥٢).

أوّيه، أوّيه، وذاك لا يعرفه إلا من قد خبره وعرفه، ذاك جالسه المغازلي ويعقوب وفلان، **فأخرجهم إلى رأي جهم**، هلكوا بسببه، فقال له الشيخ: يا أبا عبداللَّه، يروي الحديث، ساكنٌ خاشعٌ، من قصته ومن قصته؟ فغضب أبو عبداللَّه، وجعل يقول: لا يغرّك خشوعه ولينه، ويقول: لا تغتر بتنكيس رأسه، فإنه رجل سوء ذلك لا يعرفه إلا من خبره، لا تكلمه، ولا كرامة له، **كل من حدّث بأحاديث رسول اللَّه ﷺ وكان مبتدعًا تجلس إليه؟! لا، ولا كرامة ولا نُعْمَى عين**، وجعل يقول: ذاك، ذاك»[1].

٣ ـ وقال أبو داود في مسائله للإمام أحمد[2]: «ورأيت أحمد سلّم عليه رجل من أهل بغداد ـ قال أبو داود: بلغني أنّه أبو بكر المغازلي ـ ممن وقف فيما بلغني، فقال له: أُغرب لا أرينّك تجيء إلى بابي ـ في كلامٍ غليظ ـ ولم يرد عليه السلام، وقال له: ما أحوجك أن يصنع بك ما صنع عمر بصَبيغ ـ أفهمني (عمر بصَبيغ) بعض أصحابنا ـ فدخل بيته وردّ الباب».

٤ ـ وقال أبو بكر المرّوذي: أظهر يعقوب بن شيبة الوقف في ذلك الجانب من بغداد، فحذّر أبو عبداللَّه ـ أحمد بن حنبل ـ منه، وقد كان المتوكل أَمَرَ عبدالرحمن بن يحيى بن خاقان أن يسأل أحمد بن حنبل عمّن يقلّد القضاء. قال عبدالرحمن: فسألتُه عن يعقوب بن شيبة، فقال: «**مبتدع صاحب هوى**». قال الخطيب: وصفه أحمد بذلك لأجل الوقوف[3].

٥ ـ وقال الحاكم ـ رحمه اللَّه ـ: سمعت أبا الحسين محمد بن أحمد الحنظلي ببغداد يقول: سمعت أبا إسماعيل الترمذي يقول: كنت أنا وأحمد ابن الحسن الترمذي عند أبي عبداللَّه، فقال له أحمد بن الحسن: يا أبا عبداللَّه

(١) «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٣٤).
(٢) ص(٣٥٥) برقم (١٧٠٧).
(٣) انظر «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٥٠)، و«السير» للذهبي (١٢/ ٤٧٨).

ذكروا لابن أبي قتيلة بمكة أصحاب الحديث فقال: أصحاب الحديث قوم سوء، فقام أبو عبداللَّه وهو ينفض ثوبه فقال: زنديق! زنديق! ودخل البيت[١].

٦ ـ وقال عبداللَّه بن أحمد: سمعت أبي يقول: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق هذا كلام سوء رديء، وهو كلام الجهمية، قلت له: إن الكرابيسي يقول هذا، فقال: **كذب هتكه اللَّه الخبيث**، وقال: قد خلف هذا بشرًا المريسي[٢].

٧ ـ وقال صالح بن أحمد: جاء الحزامي إلى أبي وقد كان ذهب إلى ابن أبي دؤاد، فلما خرج إليه ورآه، أغلق الباب في وجهه ودخل[٣].

٨ ـ وقدم داود الأصبهاني الظاهري بغداد وكان بينه وبين صالح بن أحمد حسن، فكلم صالحًا أن يتلطف له في الاستئذان على أبيه، فأتى صالح أباه فقال له: رجل سألني أن يأتيك. قال: ما اسمه؟ قال: داود. قال: من أين؟ قال: من أهل أصبهان، قال: أيّ شيء صنعته؟ قال وكان صالح يروغ عن تعريفه إيَّاه، فما زال أبو عبداللَّه يفحص عنه حتى فطن فقال: هذا قد كتب إليّ محمد بن يحيى النيسابوري في أمره أنه زعم أن القرآن محدث فلا يقربني. قال: يا أبت ينتفي من هذا وينكره، فقال أبو عبداللَّه: محمد بن يحيى أصدق منه، لا تأذن له في المصير إليَّ[٤].

❑ وقال عاصم الأحول: جلستُ إلى قتادة فذكر عمرو بن عبيد فوقع

---

(١) «معرفة علوم الحديث» ص(٤)، و«مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي ص(٢٤٧)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٣٨).

(٢) «السنّة» لعبد اللَّه بن أحمد (١/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

(٣) «مناقب أحمد» لابن الجوزي ص(٢٥٠).

(٤) «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٧٤).

فيه فقلت: لا أرى العلماء يقع بعضهم في بعض، فقال: يا أحول أو لا تدري أن الرجل إذا ابتدع فينبغي أن يُذكر حتى يُحذر. فجئت مغتمًّا فنمت فرأيت عمرو بن عبيد يحك آية من المصحف، فقلت له: سبحان اللَّه، قال: إني سأعيدها. فقلت: أعدها قال: لا أستطيع[١].

❑ وقال الفلاس: عمرو متروك صاحب بدعة[٢].

❑ وقال الذهبي في واصل بن عطاء: كان من أجلاد المعتزلة[٣].

وقال ـ أيضًا ـ في ابن أبي دؤاد: جهمي بغيض[٤].

❑ وقال أحمد: «كان ثور يرى القدر، وكان أهل حمص نفوه وأخرجوه»[٥].

❑ وقال أبو توبة: حدثنا أصحابنا أن ثورًا لقي الأوزاعي فمد يده إليه، فأبى الأوزاعي أن يمد يده إليه، وقال: «يا ثور لو كانت الدنيا لكانت المقاربة ولكنه الدين»[٦].

❑ وقال أبو إدريس الخولاني: «ألا إن أبا جميلة لا يؤمن بالقدر فلا تجالسوه»[٧].

❑ وقال إسماعيل ابن علية: قال لي سعيد بن جبير غير سائله ولا ذاكرًا ذا كله: لا تجالسوا طلقًا، يعني: لأنه مرجئ[٨].

---

(١) «الميزان» للذهبي (٣/ ٢٧٣).
(٢) «الميزان» (٣/ ٢٧٥).
(٣) «الميزان» (٤/ ٣٢٩).
(٤) «الميزان» للذهبي (١/ ٩٧).
(٥) «الميزان» للذهبي (١/ ٣٧٤).
(٦) «السير» للذهبي (١١/ ٣٤٤).
(٧) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٤٩).
(٨) «الإبانة» (٢/ ٤٥٠).

وقال الإمام ابن بطّة بعد أن ذكر مقالات أهل البدع وطوائفهم: «هم شعوب وقبائل وصنوف وطوائف أنا أذكر طرفًا من أسمائهم وشيئًا من صفاتهم؛ لأن لهم كتبًا قد انتشرت ومقالات قد ظهرت، لا يعرفها الغرّ من الناس ولا النشؤ من الأحداث تخفى معانيها على أكثر من يقرؤها فلعل الحدث يقع إليه الكتاب لرجل من أهل هذه المقالات قد ابتدأ الكتاب بحمد اللَّه والثناء عليه والإطناب في الصلاة على النبي ﷺ ثم أتبع ذلك بدقيق كفره وخفي اختراعه وشرّه فيظن الحدث الذي لا علم له والأعجمي والغمر من الناس أن الواضع لذلك الكتاب عالم من العلماء أو فقيه من الفقهاء ولعله يعتقد في هذه الأمة ما يراه فيها عبدة الأوثان ومن بارز اللَّه ووالى الشيطان.

فمن رؤسائهم المتقدمين في الضلال منهم: الجهم بن صفوان الضّال.

وقد قيل له وهو بالشام: أين تريد؟ فقال: أطلب ربًّا أعبده، فتقلد مقالته طوائف من الضُّلال، وقد قال ابن شوذب: ترك جهم الصلاة أربعين يومًا على وجه الشك.

ومن أتباعه وأشياعه: بشر المريسي والمردار وأبو بكر الأصم وإبراهيم بن إسماعيل ابن علية وابن أبي دؤاد وبرغوث وربالويه والأرمني وجعفر الحذّاء وشعيب الحجام وحسن العطار وسهل الحرار وأبو لقمان الكافر في جماعة سواهم من الضلال وكل العلماء يقولون في من سميناهم أنهم أئمة الكفر ورؤساء الضلالة.

ومن رؤسائهم أيضًا ـ وهم أصحاب القدر ـ: معبد الجهني وغيلان القدري وثمامة بن أشرس وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل العلاف وإبراهيم النظام وبشر بن المعتمر في جماعة سواهم أهل كفر وضلال يعمّ.

ومنهم: الحسن بن عبدالوهاب الجبائي وأبو العنبس الصميري.

ومن الرافضة: المغيرة بن سعيد وعبدالله بن سبأ وهشام الفوطي وأبو الكروس وفضيل الرقاشي وأبو مالك الحضرمي وصالح قبة.

بل هم أكثر من أن يحصوا في كتاب أو يحووا بخطاب ذكرت طرفًا من أئمتهم ليتجنب الحدث ومن لا علم له ذكرهم ومجالسة من يستشهد بقولهم ويناظر بكتبهم.

ومن خبثائهم ومن يظهر في كلامه الذّبّ عن السنّة والنصرة لها وقوله أخبث القول: ابن كلاب وحسين النجار وأبو بكر الأصم وابن علية[1] أعاذنا الله وإياكم من مقالتهم وعافانا وإياك من شرور مذاهبهم»[2].

❑ وقال الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت: ٤٤٤):

أهون بقول جهم الخسيس ... وواصل وبشر المريسي
ذي السخف والجهل وذي العناد ... مُعمّر وابن أبي دؤاد
وابن عبيد شيخ الاعتزال ... وشارع البدعة والضلال
والجاحظ القادح في الإسلام ... وجبت هذي الأمة النّظام
والفاسق المعروف بالجبائي ... ونجله السفيه ذي الخناء
واللاحقيِّ وأبي الهذيل ... مؤيدي الكفر بكل ويل
وذي العمى ضرار المرتاب ... وشبههم من أهل الارتياب
جميعهم قد غالط الجُهّالا ... وأظهر البدعة والضلالا
وعدّ ذاك شرعة ودينًا ... فمنهم لله قد بَرِئنا[3]

* * *

(١) هو إبراهيم بن الإمام إسماعيل بن علية.

(٢) «الشرح والإبانة» ص(٣٤٨ ـ ٣٥٢).

(٣) «الأرجوزة المنبهة» للداني ص(١٨٢ ـ ١٨٤)، وانظر «السير» (١٨/ ٨٢ ـ ٨٣).

✍ أعلم رحمك اللَّه أن هجر أهل البدع ومنابذتهم من أعظم أصول الدين..

* قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

* وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

❑ قال ابن عون: كان محمد بن سيرين ـ رحمه اللَّه ـ يرى أن أسرع الناس ردّة أهل الأهواء وكان يرى أن هذه الآية أُنزلت فيهم ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[1].

❑ وعن ليث بن أبي سُليم عن أبي جعفر قال: «لا تُجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات اللَّه»[2].

❑ وقال الإمام الطبري في «تفسيره»: «وفي هذه الآية الدلالة الواضحة على النهي عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من المبتدعة والفسقة عند خوضهم في باطلهم»[3].

❑ وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ عند ذكر مكايد الشيطان: «ومن أنواع مكايده ومكره أن يدعو العبد بحسن خلقه وطلاقته وبشره إلى أنواع من

(١) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٣١).
(٢) «تفسير الطبري» (٧/ ٢٢٩)، و«تفسير القرطبي» (٧/ ١٢).
(٣) «تفسير الطبري» (٥/ ٣٣٠).

الآثام والفجور، فيلقاه من لا يخلّصه من شره إلا تجهّمه والتعبيس في وجهه والإعراض عنه، فيحسن له العدوّ أن يلقاه ببشره وطلاقة وجهه وحسن كلامه، فيتعلّق به فيروم التخلص منه فيعجز، فلا يزال العدو يسعى بينهما حتى يصيب حاجته، فيدخل على العبد بكيده من باب حسن الخلق وطلاقه الوجه.

ومن ههنا وصّى أطباء القلوب بالإعراض عن أهل البدع وأن لا يُسلّم عليهم ولا يريهم طلاقة وجهه، ولا يلقاهم إلا بالعبوس والإعراض»[1].

وانظر إلى ردود أهل السنة على مخالفيهم مثل «الصارم المنكى في الرد على السبكي» لابن عبدالهادي وردود الأئمة على النبهاني كـ «غاية الأماني في الرد على النبهاني» لمحمود الألوسي، ورد نعمان الألوسي على ابن حجر الهيتمي في كتابه «جلاء العينين»، وردود أئمة الدعوة في نجد كردودهم على ابن جرجيس وغيره، وكردود الأئمة على الكوثري وأبي غدة، كرد المعلمي في تنكيله وغيره، وردودهم على ضلالات سيد قطب وغيره.

*** شدة أهل السنة على المبتدعة أهل الأهواء منقبة لهم:**

وكتب التراجم مليئة بذلك.

❑ فهذا الإمام الرشيد المتمسك بالمنهج الحميد، أبو إسماعيل حمّاد بن زيد:

قال فطر بن حماد بن واقد: سألت حماد بن زيد، فقلت: يا أبا إسماعيل، إمامٌ لنا يقول: القرآن مخلوق، أصلي خلفه؟ قال: لا، ولا كرامة.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٤٠) لابن القيم. وانظر «إجماع العلماء على الهجر والتحذير من أهل الأهواء» لخالد بن ضحوي الظفيري ص(١٩ ـ ٥٦) ـ دار المنهاج.

وكان يقول: «لا يزال الرجل منكم داحضًا في بوله، يذكر أهل البدع في مجلس عشيرته حتى يسقط من أعينهم»[١].

وكان يقول: «لئن قلت: إن عليًّا أفضل من عثمان لقد قلت: إن أصحاب رسول اللَّه ﷺ قد خانوا».

❑ وهذا ـ أيضًا ـ الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو سلمة حماد بن سلمة البصري (ت: ١٦٧)، قال الذهبي في ترجمته: قال شيخ الإسلام (أبو إسماعيل الأنصاري) في الفاروق له: «قال أحمد بن حنبل: **إذا رأيت الرجل يغمز حماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام؛ فإنّه كان شديدًا على المبتدعة**».

❑ والقاضي شريك بن عبداللَّه النخعي الكوفي (ت: ١٧٧)، قال معاوية بن صالح الأشعري: سألت أحمد بن حنبل عن شريك، فقال: «كان عاقلاً صدوقًا محدثًا، وكان شديدًا على أهل الريب والبدع»[٢].

❑ وقال عنه الحافظ ابن حجر: «وكان عادلاً فاضلاً **شديدًا على أهل البدع**»[٣].

ومن أقواله ـ رحمه اللَّه ـ: «لئن يكون في كل قبيلة حمار أحب إلي من أن يكون فيها رجل من أصحاب أبي فلان رجل كان مبتدعًا»[٤].

وكذلك الإمام عبدالرحمن بن هرمز الأعرج (ت: ١١٧) والإمام عبدالرحمن بن القاسم (ت: ١٢٦) ـ رحمهما اللَّه ـ، قال عنهما الإمام مالك: «كان ابن هرمز قليل الكلام، وكان يشدّ على أهل البدع، وكان أعلم

---

(١) «الحلية» (٦/ ٢٥٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٠٩).

(٣) «تقريب التهذيب» لابن حجر ص(٤٣٦).

(٤) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٦٩).

الناس بما اختلفوا فيه من ذلك، وكذا كان عبدالرحمن بن القاسم»[١] .

❑ وقال أبو الصلت عبدالسلام بن صالح الهروي في ترجمة إبراهيم بن طهمان (ت: ١٦٣): «كان شديداً على الجهميّة»[٢] .

وهذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس (ت: ١٧٩) ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «لا تسلم على أهل الأهواء ولا تجالسهم إلا أن تغلظ عليهم، ولا يعاد مريضهم، ولا تحدث عنهم الأحاديث»[٣] .

وقال أيضًا: «لا تجالس القدري، ولا تكلمه إلا أن تجلس إليه، فتغلظ عليه، لقوله: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ فلا توادّوهم»[٤] .

❑ وهذا الإمام محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه اللَّه ـ (ت: ٢٠٤) قال عنه البيهقي: «وكان الشافعي ﷺ شديداً على أهل الإلحاد وأهل البدع مجاهراً ببغضهم وهجرهم».

❑ وعمر بن هارون قال عنه قتيبة بن سعيد: «كان عمر بن هارون شديداً على المرجئة وكان يذكر مساويهم وبلاياهم»[٥] .

❑ والإمام العظيم أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي صاحب الإمام الشافعي قيل في ترجمته «إنه كان شديداً على أهل البدع»[٦] .

❑ والإمام عثمان بن سعيد الدارمي، قال عنه ابن حبان: «كان الدارمي

---

(١) «مناقب مالك» للزواوي ص(١٥٢).
(٢) «السير» (٧/ ٣٨٠).
(٣) «الجامع» لابن أبي زيد القيرواني ص(١٢٥).
(٤) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ١٣١).
(٥) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٤٥/ ٣٦٥).
(٦) «تبيين كذب المفتري» لابن عساكر ص(٣٤٨).

من الحفاظ المتقنين، وأهل الورع في الدين ممن حفظ وجمع، وتفقه وصنّف وحدّث، **وأظهر السنّة ببلده ودعا إليها وذبّ عن حريمها وقمع مخالفها**».

❑ وقال الذهبي: «كان لهجًا بالسنّة، بصيرًا بالمناظرة، **جذعًا في أعين المبتدعة**»[١].

وهو الذي قام على محمد بن كرّام الذي ينسب إليه الكرّاميّة وطرده عن هراة فيما قيل»[٢].

وما جاء في ترجمة إسماعيل بن إسحاق القاضي (ت: ٢٨٢): «وكان شديدًا على أهل البدع يرى استتابتهم، حتى إنّهم تحاموا بغداد في أيامه..»[٣].

❑ وأبو جعفر محمد بن العباس بن أيوب الأخرم (ت: ٣٠١) جاء في ترجمته أنه «كان متعصبًا للسنة غليظًا على أهل البدع»[٤].

❑ وجاء في ترجمة المحدث الإمام أحمد بن عون اللّه بن حدير أبي جعفر الأندلسي القرطبي (ت: ٣٧٨هـ)، فقد قال أبو عبداللّه بن أحمد بن مفرج: «كان أبو جعفر أحمد بن عون اللّه محتسبًا على أهل البدع غليظًا عليهم مذلاً لهم طالبًا لمساوئهم مسارعًا في مضارّهم شديد الوطأة عليهم مشرّدًا لهم إذا تمكن منهم غير مبقٍ عليهم، وكان كل من كان منهم خافيًا منه على نفسه متوقيًا، لا يداهن أحداً منهم على حال ولا يسالمه، وإن عثر على منكر وشهد عليه عنده بانحرافٍ عن السنّة نابذه وفضحه وأعلن بذكره والبراءة منه وعيّره بذكر السوء في المحافل وأغرى به حتى يهلكه أو ينزع عن قبيح

(١) «السير» (١٣/ ٣٢٢).
(٢) «السير» (١٣/ ٣٢٣)، و«تذكرة الحفاظ» للذهبي (٢/ ٦٢٢).
(٣) «الديباج المذهب» لابن فرحون ص(٩٤).
(٤) «طبقات المحدثين بأصبهان» لأبي الشيخ ابن حبان (٣/ ٤٤٧).

مذهبه وسوء معتقده ولم يزل دؤوبًا على هذا جاهدًا فيه ابتغاء وجه اللَّه إلى أن لقي اللَّه عز وجل»[١].

❑ وكذلك ما جاء في ترجمة بكر بن جعفر بن راهب أبي عمرو المؤذن (ت: ٣٨٠)، قال جعفر بن محمد المعتز في «تاريخ نسف»: . . وكان ـ رحمه اللَّه ـ قارئًا آناء الليل والنهار، شديدًا على أهل البدع»[٢].

❑ وما جاء في ترجمة ابن السوسنجري أنه كان «حسن الاعتقاد شديدًا في السنة»[٣].

❑ محمد بن أحمد بن محمد أبو الحسن البزاز المعروف بابن رزقويه (ت: ٤١٢هـ) قال الخطيب: «حسن الاعتقاد، جميل المذهب، مديمًا لتلاوة القرآن، شديدًا على أهل البدع»[٤].

❑ وقال الخطيب عن أبي القاسم الخفاف المعروف بابن النقيب (ت: ٤١٥): «كتبت عنه وكان شديدًا في السنة»[٥].

❑ وقال الذهبي في «ترجمة الإمام أبي عمر أحمد بن محمد المعافري الأندلسي الطلمنكي عالم أهل قرطبة (ت: ٤٢٩): «وكان فاضلاً شديدًا في السنّة، قال خلف بن بشكوال: كان **سيفًا مجردًا على أهل الأهواء والبدع، قامعًا لهم، غيورًا على الشريعة، شديدًا في ذات اللَّه**»[٦].

❑ وقال الذهبي ـ أيضًا ـ في ترجمة الشيخ مسند الأندلس أبي العاص

---

(١) «تاريخ دمشق» (٥/ ١١٨).
(٢) «التقييد» لابن نقطة (١/ ٢٦٤).
(٣) «تاريخ بغداد» (٤/ ٢٧٣).
(٤) «تاريخ بغداد» (١/ ٣٥١).
(٥) «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣).
(٦) «السير» (١٨/ ٥٠٩).

حكم بن محمد بن حكم الجُذامي القرطبي (ت: ٤٤٧): «قال الغساني: كان رجلاً صالحًا، ثقة مسندًا، صلبًا في السنّة، **مشدّدًا على أهل البدع** عفيفًا ورعًا صبورًا على القلّ راضيًا للدنيا، مهينًا لأهلها»[١].

❑ وقال الخطيب في ترجمة أبي منصور عبدالملك بن محمد بن يوسف البغدادي (ت: ٤٦٠): «كان أوحد وقته في فعل الخير، ودوام الصدقة، والإفضاء على العلماء، **والنصر لأهل السنّة، والقمع لأهل البدع**»[٢].

❑ وقال ابن كثير: «كان أوحد زمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمبادرة إلى فعل الخيرات واصطناع الأيادي عند أهلها من أهل السنّة، **مع شدّة القيام على أهل البدع ولعنهم**»[٣].

❑ وقال أبو الحسين الفراء في ترجمة الشريف أبي جعفر عبدالخالق بن أبي موسى الهاشمي الحنبلي (ت: ٤٧٠): «لزمته خمس سنين وكان إذا بلغه منكر عَظُم عليه جدًّا، **وكان شديدًا على المبتدعة**، لم تزل كلمته عالية عليهم وأصحابه يقمعونهم ولا يردّهم أحد وكان عفيفًا نزهًا»[٤].

وقال ـ أيضًا ـ في ترجمة عبدالرحمن بن محمد بن مندة (ت: ٤٧٠): «وكان **شديدًا على أهل البدع، مباينًا لهم**»[٥].

❑ وقال في ترجمة إبي علي الحسن بن أحمد المعروف بابن البنا (ت: ٤٩١): «وكان أديبًا **شديدًا على أهل الأهواء**»[٦].

---

(١) «العبر» (٢/ ٣٤٣).

(٢) «السير» (١٨/ ٣٣٣).

(٣) «البداية والنهاية» (١٢/ ١٠٣).

(٤) «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ٥٣٨)، وانظر «السير» (١٨/ ٥٤٧).

(٥) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٤٢).

(٦) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٤٣).

❑ وقال في ترجمة القاضي أبي علي يعقوب بن إبراهيم البرزيني (ت: ٤٨٦): «وكان متشدداً في السنة»[١] .

وكذلك ما قيل في شيخ الإسلام أبي إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري الهروي (ت: ٤٨١)، فقد قال عنه الرهاوي: «وكان شيخ الإسلام مشهوراً في الآفاق بالحنبليّة **والشدّة في السنّة**»[٢] .

❑ وقال ابن رجب: «كان سيّداً عظيمًا وإمامًا عارفًا وعابداً زاهداً ذا أحوال ومقامات وكرامات ومجاهدات كثير السهر بالليل **شديد القيام في نصر السنّة والذبّ عنها والقمع لمن خالفها**، وجرى له بسبب ذلك محنٌ عظيمة، وكان شديد الانتصار والتعظيم لمذهب أحمد»[٣] .

❑ وقال الذهبي: «وكان هذا الرجل **سيفًا مسلولاً على المتكلمين**، له صولة وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده، يعظّمونه ويغالون فيه، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به، كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير وكان طوداً راسيًا في السنّة لا يتزلزل ولا يلين. .»[٤] .

وقال ـ أيضًا ـ: «كان **سيفًا** مسلولاً على المخالفين، **وجذعًا في أعين المتكلمين**، طوداً في السنّة لا يتزلزل».

وقال ـ أيضًا: «كان جذعًا في أعين المبتدعة وسيفًا على الجهميّة»[٥] .

❑ وقال ابن الجوزي: «وكان كثير السهر بالليل وحدّث وصنّف وكان

---

(١) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٤٦).
(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (٣/ ٥٧).
(٣) «ذيل الطبقات» (٣/ ٦٠ ـ ٦١).
(٤) «السير» (١٨/ ٥٠٩).
(٥) «العبر» (٢/ ٣٤٣).

شديدًا على أهل البدع قويًّا في نصرة السنّة»[١] .

وقد جاء في ترجمته أنه قال: عُرضت على السيف خمس مرّات، لا يقال لي: ارجع عن مذهبك، لكن اسكتْ عمن خالفك، فأقول: لا أسكت[٢] .

وجاء في ترجمة الأستاذ أبي محمد عبداللَّه بن سهل الأنصاري المقرئ شيخ القرّاء بالأندلس (ت: ٤٨٥)، أنه كان إمام وقته في فنِّه، وبعد صيته وكان شديدًا على أهل البدع، قوّالاً بالحق مهيبًا، امتحن وغرّب[٣] .

وكذلك ما جاء في ترجمة الإمام أبي المظفَّر منصور بن عبدالجبار التميمي السمعاني (ت: ٤٨٩) ـ رحمه اللَّه تعالى ـ،فقد قال الذهبي: «صنّف كتاب «الاصطلام»، وكتاب «البرهان»، وله «الأمالي» في الحديث، تعصّب لأهل الحديث والسنّة والجماعة، وكان شوكًا في أعين المخالفين، وحجة أهل السنّة»[٤] .

وما جاء في ترجمة أبي عبداللَّه محمد بن فرج (ت: ٤٩٧)، قال ابن فرحون: «وكان شيخًا فاضلاً فصيحًا، وكان قوالاً بالحق شديدًا على أهل البدع»[٥] .

وقال ـ أيضًا ـ في ترجمة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي (ت: ٧٨٠): «صلبًا في الحق شديدًا على أهل البدع ملازمًا للسنّة»[٦] .

---

(١) «المنتظم» (١٦/ ٢٧٨).

(٢) «السير» (١٨/ ٥٠٩).

(٣) «معرفة القراء الكبار» للذهبي (١/ ٤٣٦)، و«لسان الميزان» لابن حجر (٣/ ٢٩٨).

(٤) «السير» (١٩/ ١١٦).

(٥) «الديباج المذهب» ص(٢٧٥).

(٦) «الديباج المذهب» ص(٤٢).

* عود على بدء: أقوال العلماء في هجر أهل البدع والأهواء:

● نصيحة من إمام أهل الشام:

❑ قال الإمام الأوزاعي ـ رحمه اللَّه ـ: «اتقوا اللَّه معشر المسلمين، واقبلوا نصح الناصحين، وعظة الواعظين، واعلموا أن هذا العلم دين فانظروا ما تصنعون وعمّن تأخذون وبمن تقتدون ومَن على دينكم تأمنون؛ فإن أهل البدع كلهم مبطلون أفّاكون آثمون لا يرعوون ولا ينظرون ولا يتّقون ولا مع ذلك يُؤمنون على تحريف ما تسمعون ويقولون ما لا تعلمون في سرد ما يُنكرون وتسديد ما يفترون، واللَّه محيط بما يعملون، فكونوا لهم حذرين متهمين رافضين مجانبين، فإن علماءكم الأولين، ومن صلح من المتأخرين كذلك كانوا يفعلون ويأمرون، واحذروا أن تكونوا على اللَّه مظاهرين ولدينه هادمين، ولعراه ناقضين موهنين بتوقير لهم، أو تعظيم أشد من أن تأخذوا عنهم الدين وتكونوا بهم مقتدين ولهم مصدّقين موادعين مؤالفين، مُعينين لهم بما يصنعون على استهواء من يستهوون، وتأليف من يتألفون من ضعفاء المسلمين لرأيهم الذي يرون ودينهم الذي يدينون، وكفى بذلك مشاركة لهم فيما يعملون»[1].

● نصيحة الإمام عبدالرحمن بن أبي الزناد (ت: ١٧٤):

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «أدركنا أهل الفضل والفقه من خيار أوليّة الناس يعيبون الجدل والتنقيب والأخذ بالرأي أشد العيب وينهوننا عن لقائهم ومجالستهم، وحذّرونا مقاربتهم أشد التحذير، ويخبرونا أنهم على ضلال وتحريف لكتاب اللَّه وسنن رسوله ﷺ وما تُوفي رسول اللَّه ﷺ حتى كره المسائل والتنقيب عن الأمور وزجر عن ذلك، وحذره المسلمين في غير

(١) «تاريخ دمشق» (٦/ ٣٦٢).

موضع حتى كان من قول النبي ﷺ في كراهية ذلك أن قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»[1].

* ذَمُّ الرَّأْي:

وهو الرأي الذموم غير المبني على أُسٍّ من كتاب ولا سُنَّةٍ.

● قال ﷺ: «إن اللَّه تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علمٍ، فضلوا وأضلوا»[2].

❑ وعن ابن عبدالبر في «التمهيد»: «فيبقى ناسٌ جهالٌ يُستفتون، فيفتون برأيهم فيضلون ويُضلون».

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه لا ينزع العلم منكم بعدما أعطاكموه انتزاعًا، ولكن يقبض العلماء بعلمهم، ويبقى جهالٌ، فيسألون فيفتون، فيضلون ويُضلون»[3].

❑ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من أحدث رأيًا ليس في كتاب اللَّه، ولم تمض به سنة من رسول اللَّه ﷺ، لم يدر ما هو عليه إذا لقي اللَّه عز وجل.

❑ وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قراؤكم يذهبون، ويتخذ الناس رؤساء جهالاً

---

(١) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٥٣٢).

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمرو.

(٣) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٨٥٧).

يقيسون الأمور برأيهم.

❑ وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: السنة ما سنه اللَّه ورسوله، لا تجعلوا حظ الرأي سنة للأمة.

❑ وعن عروة بن الزبير: لم يزل أمر بني إسرائيل مستقيمًا حتى أدرك فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم، فأخذوا بالرأي، فأضلوا بني إسرائيل.

❑ وعن الشعبي: إنما هلكتم حين تركتم الآثار وأخذتم بالمقاييس.

❑ وعن الحسن: إنما هلك من كان قبلكم حين شعبت بهم السبل، وحادوا عن الطريق، فتركوا الآثار، وقالوا في الدين برأيهم، فضلوا وأضلوا.

وعن دراج بن السهم بن أبي السمح: يأتي على الناس زمانٌ يسمن الرجل راحلته حتى تعقد شحمًا، ثم يسير عليها في الأمصار حتى تعود نقضًا، يلتمس من يفتيه بسنةٍ قد عمل بها، فلا يجد إلا من يفتيه بالظن.

❑ وقال أبو بكر بن أبي داود: أهل الرأي هم أهل البدع. وقال:

وَدَعْ عنك آراءَ الرِّجالِ وقَوْلَهُم فقَوْلُ رسول اللَّه أزْكَى وأشْرَحُ

❑ وقال مسروق: من رغب برأيه عن أمر اللَّه يضل.

❑ وقال الشافعي: «من استحسن فقد شرع».

والرأي المذموم يشمل البدع المحدثة في الاعتقاد، ويشمل أيضًا العمليات.. وإعمال النظر العقلي مع طرح السنن: إما قصدًا أو غلطًا وجهلاً.

فعليكم بالسنن والآثار.. وترك ومجانبة أهل البدع الأشرار، وعليكم بطريق الصحابة الأبرار.

❑ قال ابن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم متأسيًّا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا،

وأقومها هديًا، وأحسنها خلالاً، قومٌ اختارهم اللَّه لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم».

*** دُرر الفضيل بن عياض:**

إن للَّه عز وجل ملائكة يطلبون حلق الذكر، فانظر مع من يكون مجلسك، لا يكون مع صاحب بدعة، فإن اللَّه تعالى لا ينظر إليهم، وعلامة النفاق أن يقوم الرجل ويقعد مع صاحب بدعة، وأدركت خيار الناس كلهم أصحاب سنّة وهم ينهون عن أصحاب البدعة»[1].

❑ وقال الفضيل ـ رحمه اللَّه ـ: «من عظّم صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام، ومَن تبسّم في وجه مبتدع فقد استخفّ بما أنزل اللَّه عز وجل على محمد ﷺ، ومن زوّج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها، ومن تبع جنازة مبتدع لم يزل في سخط اللَّه حتى يرجع»[2].

❑ قال الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ: «فإن توقير صاحب البدعة مظنة لمفسدتين تعودان على الإسلام بالهدم:

إحداهما: التفات الجهال والعامة إلى ذلك التوقير، فيعتقدون في المبتدع أنه أفضل الناس، وأن ما هو عليه خير مما عليه غيره، فيؤدي ذلك إلى اتباعه على بدعته دون اتباع أهل السنّة على سنّتهم.

والثانية: أنه إذا وُقِّر من أجل بدعته صار ذلك كالحادي المحرّض له على إنشاء الابتداع في كل شيء.

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠٤).

(٢) «شرح السنّة» للبربهاري ص(١٣٩).

وعلى كل حال فتحيا البدع وتموت السنن، وهو هدم الإسلام بعينه»[١].

❑ وقال الفضيل ـ رحمه اللَّه ـ: «من جالس صاحب بدعة لم يُعط الحكمة».

وقال: «لا تجلس مع صاحب بدعة، فإني أخاف أن تنزل عليك اللعنة».

وقال: «من أحب صاحب بدعة أحبط اللَّه عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه».

وقال: «آكل مع يهودي ونصراني ولا آكل مع مبتدع وأحب أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد»[٢].

* مع شيخ الإسلام حقًّا، وإمام أهل السنّة صدقًا: أحمد بن حنبل:

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «إياكم أن تكتبوا عن أحدٍ من أصحاب الأهواء قليلاً أو كثيراً، عليكم بأصحاب الآثار والسنن».

وقال الإمام أحمد: «إذا سلّم الرجل على المبتدع فهو يحبه»[٣].

❑ وقال أبو داود السجستاني: قلت لأبي عبداللَّه أحمد بن حنبل: أرى رجلاً من أهل البيت مع رجل من المبتدعة أترك كلامه؟ قال: لا، أو تُعلمه أن الذي رأيته معه صاحب بدعة، فإن ترك كلامه وإلا فألحقه به، قال ابن مسعود: المرء بخدنه»[٤].

* وصدق واللَّه الإمام:

❑ فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنما يماشي الرجل، ويصاحب من يحبّه

(١) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ١١٤).
(٢) «شرح السنة» للبربهاري ص(١٣٨ ـ ١٣٩)، و«الإبانة» (٢/ ٤٦٠).
(٣) «طبقات الحنابلة» لأبي يعلى (١/ ١٩٦).
(٤) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٦٠)، و«مناقب أحمد» ص(٢٥٠).

ومن هو مثله»[١] .

❑ وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : «من فقه الرجل ممشاه ومدخله ومجلسه»[٢] .

❑ وقال الفضيل: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، ولا يمكن أن يكون صاحب سنة يمالئ صاحب بدعة إلا من النفاق»[٣] .

❑ قال الإمام أحمد: «الذي كنا نسمع، وأدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم أنّهم يكرهون الكلام والجلوس مع أهل الزيغ، وإنما الأمور بالتسليم والانتهاء إلى ما كان في كتاب اللَّه أو سنة رسول اللَّه لا في الجلوس مع أهل البدع والزيغ لترد عليهم، فإنه يلبّسون عليك وهم لا يرجعون.

فالسلامة إن شاء اللَّه في ترك مجالستهم، والخوض معهم في بدعتهم وضلالتهم»[٤] .

وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إنه لا يفلح مَنْ أحبّ الكلام، وكلّ من أحدث كلامًا لم يكن آخر أمره إلاّ إلى بدعة؛ لأن الكلام لا يدعو إلى خير. ودعوا الجدال وكلام أهل الزيغ والمراء، أدركنا الناس ولا يعرفون هذا ويجانبون أهل الكلام»[٥] .

❑ وقال الإمام إسماعيل بن يحيى المزني (ت: ٢٦٤) في رسالته «شرح السنة» عن أهل البدع: «فمن ابتدع منهم ضلالاً، كان على أهل القبلة خارجًا، ومن الدين مارقًا، ويُتقرّب إلى اللَّه بالبراءة منه، ويهجر ويحتقر،

---

(١) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٧٦).

(٢) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٦٤).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٥٦).

(٤) «مسائل الإمام أحمد» لابنه صالح (٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧).

(٥) «الإبانة» (٢/ ٥٣٩).

وتجتنب غدّته، فهي أعدى من غُدّة الجرب».

❑ وقال الإمام الآجرّي: «ينبغي لكل من تمسّك بما رسمناه في كتابنا هذا، وهو كتاب الشريعة، أن يهجر جميع أهل الأهواء من الخوارج، والقدرية، والمرجئة والجهمية، وكل من يُنسب إلى المعتزلة وجميع الروافض، وجميع النواصب وكل من نسبه أئمة المسلمين أنه مبتدع بدعة ضلالة، وصحّ عنه ذلك، فلا ينبغي أن يُكلَّم ولا يُسلّم عليه، ولا يُجالس، ولا يصلى خلفه، ولا يُزوّج، ولا يتزوّج إليه من عرفه، ولا يشاركه، ولا يُعامله ولا يناظره ولا يجادله، بل يُذله بالهوان له، وإذا لقيته في طريق أخذت في غيرها إن أمكنك»[1].

❑ وقال الإمام ابن بطة: «ولا تشاور أحدًا من أهل البدع في دينك، ولا ترافقه في سفرك، وإن أمكنك أن لا تقربه في جوارك. ومن السنّة مجانبة كل من اعتقد شيئًا مما ذكرناه[2]، وهجرانه والمقت له، وهجران من والاه، ونصره، وذبّ عنه وصاحبه، وإن كان الفاعل لذلك يظهر السنّة»[3].

❑ وقال العلامة شيث بن إبراهيم القفطي المعروف بابن الحاج (ت: ٥٩٨هـ): «فبيّن سبحانه بقوله ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ ما كان أمرهم به من قوله في السورة المكيّة ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ثم بيّن في هذه السورة المدنيّة أن مجالسة مَن هذه صفته لحوقٌ به في اعتقاده، وقد ذهب قوم من أئمة هذه الأمة إلى هذا المذهب، وحكم بموجب هذه الآيات في مُجالس أهل البدع على المعاشرة والمخالطة منهم أحمد بن حنبل والأوزاعي وابن المبارك فإنهم قالوا في رجل شأنه مجالسة أهل البدع قالوا:

(١) «الشريعة» للآجري (٣/ ٥٧٤).

(٢) أي من البدع.

(٣) «الشرح والإبانة» ص(٢٨٢).

يُنهى عن مجالستهم، فإن انتهى وإلا أُلحق بهم يَعْنُون في الحكم»[١] .

❑ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فيمن يُوالي الاتحادية ـ وهي قاعدة عامة في جميع البدع ـ: «ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم أو ذبّ عنهم، أو أثنى عليهم، أو عظّم كتبهم أو عُرف بمساندتهم ومعاونتهم، أو كره الكلام فيهم أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يدري ما هو، أو من قال إنه صنّف هذا الكتاب، وأمثال هذه المعاذير التي لا يقولها إلا جاهل أو منافق، بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم، ولم يعاون على القيام عليهم، فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات، لأنهم أفسدوا العقول والأديان، على خلْق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء، وهم يَسْعَوْن في الأرض فسادًا ويصدون عن سبيل اللَّه»[٢] .

❑ وقال الإمام أبو عثمان الصابوني: «واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع وإذلالهم، وإخزائهم، وإبعادهم، وإقصائهم والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم والتقرّب إلى اللَّه عز وجل بمجانبتهم ومهاجرتهم»[٣] .

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «ويبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، يجادلونهم في الدين ولا يناظرونهم، ويرون صوْن آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مرّت بالآذان وَقَرَت في القلوب ضرّت وجرّت إليها من الوساوس والخطرات الفاسدة ما جرّت، وفيه أنزل اللَّه عز وجل ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨][٤] .

---

(١) «حزّ الغلاصم في إفحام المخاصم» للقفطي ص(١١٠ ـ ١١١).

(٢) «مجموع الفتاوي» (٢/ ١٣٢).

(٣) «عقيدة السلف وأصحاب الحديث» للصابوني ص(١٢٣).

(٤) المصدر السابق ص(١١٤ ـ ١١٥).

❑ قال عبدالله بن داود سنديلة: «من علامات الحق البُغض لمن يدين بالهوى، ومن أحبّ الحق فقد وجب عليه البغض لأصحاب الهوى، يعني: أهل البدعة»[١].

❑ قال رجل لأيوب السختياني: يا أبا بكر أسألك عن كلمة. قال: فرأيته يشير بيده ويقول: ولا نصف كلمة ولا نصف كلمة[٢].

❑ وعن ابن سيرين أنه كان إذا سمع كلمة من صاحب بدعة وضع أصبعيه في أذنيه ثم قال: لا يحلّ لي أن أكلمه حتى يقوم من مجلسه[٣].

❑ وقال معمر: كان ابن طاوس جالسًا فجاء رجل من المعتزلة فجعل يتكلم، قال: فأدخل ابن طاوس إصبعيه في أذنيه، قال: وقال لابنه: أي بني أدخل أصبعيك في أذنيك واشدد، ولا تسمع من كلامه شيئًا[٤].

❑ وقال يحيى بن أبي كثير: إذا لقيت صاحب بدعة في طريق فخذ في طريق آخر[٥].

❑ وقال الإمام البغوي ـ رحمه الله ـ: «والنهي عن الهجران فوق الثلاث فيما يقع بين الرجلين من التقصير في حقوق الصحبة والعشرة دون ما كان من ذلك في حق الدين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدع دائمة إلى أن يتوبوا»[٦].

❑ وقال أبو العباس القرطبي (ت: ٦٥٦هـ): ـ بعد أن ذكر تحريم الهجر

---

(١) «سير السلف الصالحين» للتيمي (٣/ ١١٥٤)، و«الحلية» (١٠/ ٣٩٢).
(٢) «الإبانة» لابن بطة (٢/ ٤٧٢).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٤٧٣).
(٤) «الإبانة» (٢/ ٤٤٦).
(٥) المصدر السابق (٢/ ٤٧٥).
(٦) «شرح السنة» للبغوي (١/ ٢٢٤).

فوق ثلاث ـ: «وهذا الهجران الذي ذكرناه هو الذي يكون عن غضب لأمر جائز لا تعلّق له بالدين.

فأما الهجران لأجل المعاصي والبدعة فواجب استصحابه إلى أن يتوب من ذلك، ولا يُختلف في هذا»[1].

❑ وقال العظيم أبادي صاحب «عون المعبود»: «وهذا فيما يكون من المسلمين من عتب وموجدة أو تقصير يقع في حقوق العشرة والصحبة دون ما كان من ذلك في جانب الدين، فإن هجرة أهل الأهواء والبدع واجبة على مرّ الأوقات ما لم يظهر منه التوبة والرجوع»[2].

❑ ويرحم اللَّه من قال:

وخير أمـــور الدين ما كان سنّةً ... وشرُّ الأمـور المحدثات البدائـعُ

* الحذار الحذار من قراءة كتب المبتدعة الفُجّار:

❑ قال ابن القيم للَّه دره عن المبتدعة:

يا من يظن بأننا حفنا عليـ ... ـهم كتبهم تُنبيك عن ذا الشانِ
فانظر ترى لكن نرى لك تركها ... حذراً عليك مصـائد الشـيطانِ
فشباكها واللَّه لم يَعْلَق بها ... من ذي جنـــاحٍ قاصر الطيرانِ
إلا رأيت الطير في قفص الردى ... يبكي له نـــوح على الأغصـانِ
ويظل يخبط طالبًـا لخلاصه ... فيضيق عنه فرجـة العيـــدانِ
والذنب ذنب الطير خلّى أطيب الثـ ... ـمرات في عـالٍ من الأفنـــانِ
وأتى إلى تلك المزابل يبتغي الـ ... ـفضلات كالحشرات والديدان[3]

(١) «المفهم لما أُشكِل من تلخيص كتاب مسلم» (٦/ ٥٣٤).
(٢) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (١٣/ ١٧٤).
(٣) «نونية ابن القيم» ص(١٨٠).

❑ قال الشيخ محمد خليل هرّاس شارحًا هذه الأبيات: «ولا يظنن أحد أننا نتجنّى على القوم أو نتهمهم بغير الحق، فتلك كتبهم تُخبر عنهم كل من ينظر فيها وتشهد عليهم شهادة صدق، فليقرأها من شاء ليتأكد من صحة ما نسبناه إليهم، لكننا مع ذلك ننصح كل أحد أن لا يقرأ هذه الكتب حتى لا يقع في حبائلها ويغرّه ما فيها من تزويق المنطق وتنميق الأفكار لا سيما إذا لم يكن ممن رسخ في علوم الكتاب والسنة قدمه، ولا تمكّن منهما فهمه فهذا لا يلبث أن يقع أسير شباكها، تبكيه نائحة الدوح على غصنها، وهو يجتهد في طلب الخلاص فلا يستطيع، والذنب ذنبه هو، حيث ترك أطيب الثمرات على أغصانها العالية حلوة المجتنى طيبة المأكل، وهبط إلى المزابل وأمكنة القذارة يتقمّم الفضلات كما تفعل الديدان والحشرات.

وما أروع تشبيه الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ حال من وقع أسير هذه الكتب وما فيها من ضلالات مزوّقة قد فُتِن بها لبُّه وتأثّر بها عقله، بحال طير في قفص قد أُحكِم غلقه، فهو يضرب بجناحيْه طالبًا للخلاص منه لا يجد فرجة ينفذ منها لضيق ما بين العيدان من فرج.

وما أجمل أيضًا تشبيهه لعقائد الكتاب والسنة بثمرات كريمة المذاق على أغصان عالية، بحيث لا يصل إليها فساد ولا يلحقها تلوّث، وتشبيهه لعقائد هؤلاء الزائغين بفضلات قذرة وأطعمة عفنة أُلقيت في إحدى المزابل، فلا يأوي إليها إلاّ أصحاب العقول القذرة والفطرة المتنكسة»[1].

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «وكذلك لا ضمان في تحريق الكتب المضلّة وإتلافها».

❑ قال المروذي: قلت لأحمد: استعرتُ كتابًا فيه أشياء رديئة ترى أني

(١) «شرح نونية ابن القيم» للشيخ محمد خليل هرّاس (١/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).

أخرقه أو أحرقه؟ قال: نعم، وقد رأى النبي ﷺ بيدي عمر كتابًا اكتتبه من التوراة وأعجبه موافقته للقرآن، فتمعّر وجه النبي ﷺ حتى ذهب به عمر إلى التنوّر فألقاه فيه»[1].

* ابن خلدون لله دره:

قال ـ رحمه الله ـ: «وأما حُكم هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلّة وما يُوجد من نسخها بأيدي الناس، مثل: (الفصوص) و(الفتوحات) لابن عربي، و(البُدّ) لابن سبعين، و(خلع النعلين) لابن قسي، و(عين اليقين) لابن بَرَّجان، وما أجدر الكثير من شعر ابن الفارض، والعفيف التلمساني وأمثالهما أن تُلحق بهذه الكتاب، وكذا شرح ابن الفرغاني للقصيدة التائية من نظم ابن الفارض، فالحكم في هذه الكتب كلها وأمثالها إذهاب أعيانها متى وُجدت بالتحريق بالنار والغسل بالماء، حتى ينمحي أثر الكتابة لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين بمحو العقائد المضلّة».

ثم قال: «فيتعيّن على ولي الأمر إحراق هذه الكتب دفعًا للمفسدة العامة، ويتعيّن على مَن كانت عنده التمكين منها للإحراق، وإلا فينزعها وليّ الأمر ويؤدبه على معارضته على منعها لأن وليّ الأمر لا يُعارض في المصلحة العامة»[2].

* الحافظ ابن حجر العسقلاني وغضبه لله ورسوله:

قال الحافظ السخاوي في ترجمة الحافظ ابن حجر: «ومن الاتفاقات الدالة على شدة غضبه لله ولرسوله أنهم وجدوا في زمن الأشرف برسباي شخصًا من أتباع الشيخ نسيم الدين التبريزي وشيخ الخروفية المقتول على

(١) «الطرق الحكمية» لابن القيم ص(٢٣٣ ـ ٢٣٥).

(٢) «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» للفاسي (٢/ ١٨٠ ـ ١٨١).

الزندقة سنة عشرين وثمانمائة ومعه كتاب فيه اعتقادات منكرة فأحضروه، فأحرق صاحب الترجمة الكتاب الذي معه، وأراد تأديبه، فحلف أنه لا يعرف ما فيه وأنه وجده مع شخص، فظنّ أن فيه شيئًا من الرقائق فأُطلق بعد أن تبرّأ مما في الكتاب المذكور، وتشهّد والتزم بأحكام الإسلام»[1].

*** لآلئ البيان للشيخ ابن عثيمين ـ رحمه اللَّه ـ:**

❑ قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه اللَّه ـ: «ومن هجران أهل البدع ترك النظر في كتبهم خوفًا من الفتنة بها، أو ترويجها بين الناس، فالابتعاد عن مواطن الضلال واجب؛ لقوله ﷺ في الدجّال «**من سمع به فلينأ عنه، فواللَّه إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات**» رواه أبو داود، وقال الألباني: وإسناده صحيح.

لكن إذا كان الغرض من النظر في كتبهم معرفة بدعتهم للرد عليها فلا بأس بذلك لمن كان عنده من العقيدة الصحيحة ما يتحصّن به، وكان قادرًا على الردّ عليهم، بل ربما كان واجبًا؛ لأن ردّ البدعة واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»[2].

❑ قال الحافظ أبو عثمان سعيد بن عمرو البردعي: «شهدت أبا زرعة ـ وقد سُئِل عن الحارث المحاسبي وكتبه ـ فقال للسائل: إياك وهذه الكتب هذه كتب بدع وضلالات عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب.

قيل له: في هذه الكتب عبرة.

فقال: من لم يكن له في كتاب اللَّه عبرة فليس له في هذه الكتب

---

(١) «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للسخاوي (٢/ ٦٣٧ ـ ٦٣٨) ـ دار ابن حزم.

(٢) «مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين» (٥/ ٨٩).

عبرة، بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري والأوزاعي والأئمة المتقدمين صنّفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟ هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم.. ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع»[1].

*** قاضي الجماعة ابن حمدين الأندلسي (ت: ٥٠٨) وإحراقه لكتاب إحياء علوم الدين:**

❑ هو شيخ القاضي عياض ولي القضاء في عهد يوسف بن تاشفين، فسار فيه أحسن سيرة، وفي عهد علي بن يوسف بن تاشفين كان يشغل منصب قاضي الجماعة بقرطبة، وكان حميد الأحكام، واقفًا عند حدود اللَّه صارمًا في الحق، منكرًا للبدعة.

❑ وقال عنه الذهبي: وكان يحطّ على الإمام أبي حامد في طريقة التصوف، وألف في الردّ عليه «وملخص القضية أنه ما إن وصل كتاب إحياء علوم الدين إلى المغرب والأندلس، وقرأه الفقهاء السلفيون خاصة قاضي الجماعة ابن حمدين حتى ثارت ثائرتهم فاجتمعوا واتفقوا على ضرورة إتلافه، لما يتضمنه من الفكر الصوفي، ومذاهب الفلاسفة، ورفعوا أمره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، فنزل على رأيهم، وأصدر أمره إلى جميع الأقاليم التابعة لحكمه بمصادرة الكتاب وحرقه، كما أمر بتفتيش المكتبات العامة والخاصة، وأن يحلف من يشك في أمرهم بأنهم لا يملكون كتاب الإحياء.

وقد نفذ أمر علي بن يوسف على أكمل وجه، حيث جُمعت نسخ الإحياء التي تم العثور عليها، وأُشبعت بالزيت، وأُحرقت على الباب الغربي

(١) «كاب الضعفاء» لأبي زرعة، ضمن كتاب «أبو زرعة الرازي وجهوده في السنّة النبوية» (٢/ ٥٦١ ـ ٥٦٢).

من رحبة مسجد قرطبة الجامع بحضور جماعة من أعيان قرطبة وعلمائها، يتقدمهم القاضي ابن حمدين وكان الإحراق عام ٥٠٣هـ.

وفي الحقيقة أن هذه الحادثة تمثل موقفًا حازمًا ضد التصوف الفلسفي الذي يتضمنه كتاب الإحياء.

❑ قال الطرطوشي المتوفى عام ٥٢٠ أن الغزالي في كتابه الإحياء دخل في علوم الخواطر ومزامير الصوفية، ثم شاب ذلك بآراء الفلاسفة، وأن هذا الكتاب إن تُرك انتشر بين ظهور الخلق، ومن لا معرفة لهم بسمومه القاتلة، وخيف عليهم أن يعتقدوا صحة ما سُطِّر فيه مما هو ضلال، فحُرِق قياسًا على ما أحرقته الصحابة ﷺ من صحائف المصحف التي تخالف المصحف العثماني. وقد أورد الذهبي ملخص هذه الرسالة التي أرسلها أبو بكر الطرطوشي إلى عبيد اللَّه بن مغفر يجيبه فيها عن حقيقة الغزالي[1].

وفي كلام القاضي عياض ما يدل لذلك، فقد أورد قضية الحرق في كتابه «معجم أبي علي الصدفي[2]» وذكر أن الغزالي غلا في طريقة التصوف بقوله: «والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف العظيمة، غلا في طريقة التصوف، وتجرّد لنصرة مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألّف فيه تَواليفه المشهورة، أُخِذ عليه فيها مواضع، وساءت به ظنون أمة، واللَّه أعلم بسره، ونفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها فامتثل لذلك»[3].

● قال ﷺ: «**وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما**

---

(١) انظر «سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦).

(٢) هذا الكتاب مفقود، وقد أورد الذهبي هذا النص في «السير» (١٩/ ٣٢٧).

(٣) «السلفية وأعلامها في موريتانيا» للشيخ الطيب بن عمر بن الحسين ص(١٩٣ ـ ١٩٥).

يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله»[١] .

❑ قال الشيخ العلاّمة عبيدالله بن عبدالسلام المباركفوري عن قول النبي ﷺ في هذا الحديث: «وفي هذا التشبيه فوائد منها: التحذير من مقاربة تلك الأهواء ومقاربة أصحابها، وبيان أن داء الكَلَب فيه ما يشبه العدوي، فإن أصل الكَلَب واقع في الكلب، ثم إذا عضّ ذلك الكلْب أحدًا صار مثله ولم يقدر على الانفصال منه في الغالب إلا بالهلكة فكذلك المبتدع إذا أورد على أحد رأيه وإشكاله فقلّما يَسلَم من غائلته، بل إما أن يقع معه في مذهبه ويصير من شيعته، وإما أن يثبت في قلبه شكًّا يطمع في الانفصال عنه فلا يقدر، هذا بخلاف المعاصي، فإن صاحبها لا يضارّه ولا يداخله فيها غالبًا إلاّ مع طول الصحبة والأنس به، والاعتياد لحضور معصيته، وقد أتى في الآثار ما يدلّ على هذا المعنى، فإن السلف الصالح نهوا عن مجالستهم، ومكالمتهم وكلام مُكَالمهم وأغلظوا في ذلك»[٢] .

❑ فإياك ومجالسة أهل البدع فكم لهم من خفي مكر ودقيق كفر.

● قال ﷺ : «**من سمع منكم بخروج الدجّال فلينأ عنه ما استطاع؛ فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فما يزال به حتى يتبعه لما يرى من الشبهات**»[٣] .

* «**ياقومنا أجيبوا داعي اللّه**»:

❑ قال ابن القيم: «أسمع ـ واللّه ـ لو صادف آذانًا واعية، وبصّر لو

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤٥٩٧)، و«صححه الألباني كما في السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٧).

(٢) «مرقاة المفاتيح» (١/ ٢٧٨).

(٣) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، وأبو داود (٤٣١٩) من حديث عمران بن حُصين.

صادف قلوبًا من الفساد خالية. لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء، فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها آراء الرجال، فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذًا، وتحكمت فيها أسقام الجهل، فلم تنتفع معها بصالح العمل.

وا عجبًا لها! كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولم تقبل الاعتداد بكلام رب العالمين، ونصوص حديث نبيه المرفوع؟! أم كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ والصواب، وخفي عليها ذلك في مطالع الأنوار من السنة والكتاب؟!.

وا عجبا! كيف ميزت بين صحيح الآراء وسقيمها، ومقبولها ومردودها، وراجحها ومرجوحها، وأقرت على أنفسها بالعجز عن تلقي الهدى والعلم من كلام من كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكفيل بإيضاح الحق مع غاية البيان، وكلام من أُوتي جوامع الكلم، واستولى كلامه على الأقصى من البيان؟!.

كلا، بل هي واللَّه فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها، وحيرت العقول عن طرائق قصدها، يربى فيها الصغير، ويهرم فيها الكبير.

وظنت خفافيش البصائر أنها الغاية التي يتسابق إليها المتسابقون، والنهاية التي تنافس فيها المنافسون، وتزاحموا عليها، وهيهات، أين السهى من شمس الضحى؟! وأين الثرى من كواكب الجوزاء؟! وأين الكلام الذي لم تضمن لنا عصمة قائله بدليلٍ معلومٍ، من النقل المصدق عن القائل المعصوم؟! وأين الأقوال التي أعلا درجاتها: أن تكون سائغة الاتباع، من النصوص الواجب على كل مسلمٍ تقديمها وتحكيمها والتحاكم إليها في محل النزاع؟! وأين الآراء التي نهى قائلها عن تقليده فيها وحذر، من النصوص التي فرض على كل عبدٍ أن يهتدي بها ويتبصر؟! وأين المذاهب التي إذا مات أربابها فهي

من جملة الأموات، من النصوص التي لا تزول إذا زالت الأرض والسموات؟!.

سبحان اللَّه! ماذا حرم المعرضون عن نصوص الوحي واقتباس العلم من مشكاته ـ من كنوز الذخائر؟! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر؟! قنعوا بأقوال استنبطتها معاول الآراء فكرًا، وتقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زبرًا، وأوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرف القول غرورًا، فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورًا.

درست معالم القرآن في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودرسرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، ووقعت ألوليته وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها، وأفلت كواكبه النيّرة من آفاق نفوسهم، فلذلك لا يحبونها، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وعقدها، فليسوا يبصرونها.

خلعوا نصوص الوحي عن سلطان الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين. وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم كمينٌ بعد كمين، نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام، فعاملوها بغير ما يليق بها من الإجلال والإكرام، وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في صدورها والأعجاز. وقالوا: ما لك عندنا من عبور، وإن كان ولا بد، فعلى سبيل الاجتياز. أنزلوا النصوص منزلة الخليفة في هذا الزمان؛ له السكة والخطبة، وما له حكم نافذ ولا سلطان. المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر، مبخوس حظه من المعقول. والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة، والأفكار المتهافتة لديهم هو الفاضل المقبول. وأهل الكتاب والسنة، المقدمون لنصوصها على غيرها، جهال لديهم منقوصون. ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣].

حرموا ـ واللَّه ـ الوصول، بعدولهم عن منهج الوحي، وتضييعهم

الأصول. وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها، فخانتهم أحرص ما كانوا عليها، وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها، حتى إذا بعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وتميز لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه، وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه، وقدموا على ما قدموه ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] وسقط في أيديهم عند الحصاد لمَّا عاينوا غلة ما بذروه.

فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباءً منثورًا، ويا عظم المصيبة عندما يتبين بوارق أمانيه خلبًا، وآماله كاذبة غرورًا. فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى، والتعصب للآراء، بربه يوم تبلى السرائر؟ وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر؟

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله، أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟! أو يتخلص من بأس اللَّه بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟! أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال؟!.

هيهات واللَّه، لقد ظن أكذب الظن، ومنّته نفسه أبين المحال. وإنما ضمنت النجاة لمن حكّم هدى اللَّه على غيره، وتزود التقوى وائتمَّ بالدليل، وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، واللَّه سميع عليم» اهـ.

* عليكم بالعتيق وإياكم والهمج الرعاع:

إياكم والهمج الرعاع الذين ضلّوا وتنكّبوا الطريق.. المحقبون[1] دينهم أشباه الرجال الذين تنكبوا الجادة وتركوا المحجّة البيضاء.

---

(١) المحقب: المقلّد التابع لغيره، من الإحقاب وهو الإرداف وشدّ المتاع وراء ظهر الراكب.

وهم الذين عناهم عليٌّ ﷺ حين قال لكميل بن زياد: «وهمج رعاع أتباع كلّ ناعقٍ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى رُكنٍ وثيق. . أُفٍّ لحامل حقٍّ لا بصيرةَ له، ينقدح الشّكُّ في قلبه بأول عارضٍ من شبهة، لا يدري أين الحق، إن قال أخطأ، وإن أخطأ لم يدر، مشغوفٌ بما لا يدري حقيقته، فهو فتنةٌ لمن فتن به».

❑ وعن علي ﷺ: إياكم والاستنان بالرجال، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، ثم ينقلب لعلم اللَّه فيه فيعمل بعمل أهل النار، فيموت وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، فينقلب لعلم اللَّه فيه فيعمل بعمل أهل الجنة، فيموت وهو من أهل الجنة، فإن كنتم لا بُدَّ فاعلين، فبالأموات لا بالأحياء. وأشار إلى رسول اللَّه ﷺ وأصحابه الكرام.

❑ وفي «الصحيح» عن أبي وائل قال: جلست إلى شيبة في هذا المسجد قال: جلس إليَّ عمر في مجلسك هذا، قال: هممتُ أن لا أدَعَ فيها صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين. قلت: ما أنت بفاعلٍ. قال: لم؟ قلت: لم يفعله صاحباك. قال: هما المَرءَانِ أهتدي بهما. يعني النبي ﷺ وأبا بكرٍ ﷺ.

*** درة من درر ابن القيم:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ في بيان أقسام الناس من حيث المخالطة:

«القسم الرابع: من مخالطته الهلاك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السمّ، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن اللَّه فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم اللَّه: وهم أهل البدع والضلالة الصّادون عن سنّة رسول اللَّه ﷺ الداعون إلى خلافها الذين يصدّون عن سبيل اللَّه ويبغونها عوجًا، فيجعلون السنة بدعة والبدعة سنة، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا. . فالحزم كل الحزم التماس مرضات اللَّه تعالى ورسوله بإغضابهم وأن لا تشتغل

بأعتابهم ولا باستعتابِهم ولا تُبالي بحبهم ولا بغضهم فإنه عين كمالك»[١] .

منكرو السنة كُليًّا أو جزئيًّا

العقلانيون أفراخ المعتزلة ـ القرآنيون

أقلام وعقول تستجدي سقط متاع التاريخ وزبالة أحداثه، قطوف عَفِنة من حدائق الخوارج الدموية.. أو حنظل المعتزلة وثمارها النَّكِدة.. وفروع جافة من أشجار مدرسة القرآنيين التي لا ظلّ لها وغوص في مستنقع الضلال، يعلن الحرب على عائشة أم المؤمنين تارة، وعلى أبي هريرة والرسول ﷺ تارة أخرى، ثم بلا لفٌّ أو دوران وجَّهوا سهامهم نحو الإمام البخاري، لا تصفية حسابات مع عائشة أو أبي هريرة أو البخاري إنما الحقيقة التي طالما ترددوا كثيراً في إعلانها هي إنكار سنة النبي محمد صلى اللَّه عليه وآله وسلم إجمالاً..

وفي سنوات ضعف فيها ساعد الحق تم توزيع الأدوار، وانتشرت الأفاعي والخفافيش هنا وهناك، تعلن في صوت واحد لا للسنة النبوية المشرفة»[٢] .

□ وتاريخ إنكار السنة تاريخ أسود.

فللحديث رجال يُعرفون به وللتساويد نُسّاخ وكُتّابُ

يبدأ هذا التاريخ من الخوارج الذين أنكروا كل سنة يظنون أنها تخالف

---

(١) «بدائع الفوائد» لابن القيم (٢/ ٢٧٥). ويراجع كتاب «إجماع العلماء على الهجر والتحذير من أهل الأهواء» لخالد بن ضحوي الظفيري فهو نافع في بابه، وأبى اللَّه العصمة إلا لكتابه.

(٢) «شبهات وشطحات منكري السنة» لأبي إسلام أحمد عبداللَّه ص(٣) ـ بيت الحكمة.

القرآن كالرجم ونصاب السرقة..

والشيعة الذين جرّحوا العدول بل وكفّروا جمهور الصحابة حملة الحديث إلى من بعدهم.

❑ والمعتزلة الذين قدّموا العقل على النقل، وأتوا بمنطق اليونان وحكّموه في الأمة وافترى النظام منهم وأنكر حجية الحديث المتواتر ولم يحتج به وقال: إن القرآن غير معجز في نظمه، وزعم هذا الزنديق أن أبا هريرة كان أكذب الناس، وينكر حديث انشقاق القمر وهو متواتر ويكذّب ابن مسعود، ويقول هذا الزنديق عن سمرة بن جندب الصحابي الجليل: ما نصنع بسمرة ابن جندب؟ قبّح اللَّه سمرة.

❑ وقال عمرو بن عُبيد شيخ المعتزلة: لما ذكر حديث النبي ﷺ الذي رواه الأعمش قال: «لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذّبته، ولو سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول هذا لرددته، ولو سمعت اللَّه يقول هذا لقلتُ: ليس على هذا ميثاقنا».

ويرى الدكتور محمد عمارة تلميذ الغزالي والممثل لمدرسته من بعده أن «التوحيد بمعناه النقيّ المبرأ من الشبهات هو الذي دعا المعتزلة لنفي القدم عن القرآن لأنهم ينفون الصفات عن الذات العلية حتى لا يكون هناك إقرار بقدم هذه الصفات فيكون مع القديم قديم آخر»[1].

بل ويكتب فصلاً كاملاً عن بدعتهم «المنزلة بين المنزلتين» في آخر كتابه «الإسلام والمستقبل» ص(٢٥٦) لينصر هذه البدعة.

❑ وهو يثني على رجال المعتزلة القدرية قبلهم ثناءً حارًّا وعلى مواقفهم ويعتبرهم من أفذاذ رجال الإسلام وأصحاب الفكر المستنير في تراثنا.

---

(١) «نظرة جديدة إلى تراث» للدكتور محمد عمارة ص(٩١).

فيقول عن غيلان الدمشقي المبتدع: «كانت حياة غيلان نموذجًا فريدًا يُجسِّد الموقف الثوري من سلبيات مجتمعه كذلك كان مماته نموذجًا فريدًا يجسِّد سلبيات هذا المجتمع ويدين هذه السلبيات»[١].

❑ يقول محمد عمارة عن مدرسة الأفغاني «هي بحق مدرسة الجامعة الإسلامية كان رُوَّادها الشيخ الغزالي ومن قبله الإمام محمد عبده والكواكبي والمراغي»[٢].

❑ ولقد ردّ العقلانيون بعض الأحاديث الصحيحة التي سلطوا عليها عقولهم باعتبار أنها أحاديث آحاد منها:

١ ـ حديث نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان وهو حديث متواتر تواترًا معنويًّا ردوه وطعنوا فيه[٣].

٢ ـ أحاديث الدجال[٤] والجساسة وقد أخرجه مسلم.

---

(١) «مسلمون ثوار» لمحمد عمارة ص(١٤٩).

(٢) «هامش (١) ص(١٣٩) من كتاب «محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة» لسليمان ابن صالح الخراشي دار الجواب.

(٣) انظر قول الشيخ محمد عبده في «المنار» (١٠/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦)، والشيخ المراغي مجلة الرسالة العدد ٥١٩ ص(٤٦٦)، والشيخ رشيد رضا ـ «المنار» (٨/ ٧٥٥، ٧٥٦، ٧٥٧)، والشيخ شلتوت ـ مجلة الرسالة العدد ٥١٤ ص(٣٦٥)، ومجلة الرسالة ـ العدد ٥١٨ ص(٤٤٥)، و«أضواء على السنة النبوية» لعدو السنة أبي رية ص(١٤١)، و«السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» لمحمد الغزالي ـ طبعة دار الشروق.

(٤) وأحاديث الدجال في صحيح البخاري ومسلم.
قال القاضي عياض فيما نقله عنه النووي: «هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده.. هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافًا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة» «شرح النووي على مسلم» (١٨/ ٥٨).
انظر الطعن في الدجال والجساسة في مجلة المنار (١٠/ ٢٤٦)، (١٩/ ٩٩) و«أضواء على السنة المحمدية» ص(١٤٠ ـ ١٤١)، و«موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي» =

٣ ـ حديث موسى عليه السلام وملك الموت[١] .

٤ ـ حديث عدم مس الشيطان لعيسى بن مريم وأمه عليهما السلام[٢] .

٥ ـ حديث سحر النبي ﷺ[٣] .

= لمحمد إسماعيل السلفي ص(٣٩)، و«السنة النبوية» ص(١٢٢ ـ ١٢٥).

(١) انظر «أضواء على السنة المحمدية» ص(١٩٨)، «السنة النبوية» للغزالي ص(٢٦ ـ ٢٩) والحديث أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ٢٣ باب من أحب الدفن في الأرض المقدسة (٢/ ٩٢ ـ ٩٣)، وكتاب الأنبياء باب وفاة موسى (٤/ ١٣٠ ـ ١٣١).

وأخرجه مسلم في «صحيحه» كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى (٤/ ١٨٤٢ ـ ١٨٤٣) والنسائي في «سننه» ـ كتاب الجنائز ـ باب نوع آخر من التعزية (٤/ ٩٦)، وأخرجه أحمد في «مسنده» نحوه (٢/ ٣١٥، ٥٣٣)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢٢٣)، ولقد زعم عدو السنة أبو رية أن رائحة الإسرائيلية تفوح منه ـ «أضواء على السنة المحمدية» ص(١٩٨)، فوسمه الشيخ المعلمي على خرطومه في كتابه القيم «الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة» ص(١٩٤) ـ المطبعة السلفية «ولو جاز الحكم بالرائحة لما ساغ أدنى تشكك في حكم البخاري؛ لأنه أعرف الناس برائحة الحديث النبوي، وبالنسبة إليه يكون أبو رية أخشم فاقد الشمّ أو فاسده». أما الشيخ الغزالي فقد قال: «والحق أن في متنه علة قادحة تنزل به عن مرتبة الصحة. ورفضه أو قبوله خلاف فكري، وليس خلافًا عقائديًّا، والعلة في المتن يبصرها المحققون، وتخفى على أصحاب الفكر السطحي ـ انظر «السنة النبوية» ص(٢٩) فهل أصحاب الفكر السطحي هم أحمد بن حنبل، والبخاري، ومسلم والنسائي وابن قتيبة وابن خزيمة والمازري والقاضي عياض والنووي وأئمة الإسلام.. إنها إساءة بالغة توجه لعلماء الإسلام وأئمته وهذا جور وظلم وتجني عليهم.

(٢) والحديث رواه البخاري ـ كتاب الأنبياء ـ باب قول اللَّه تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ (٤/ ١٣٨)، ومسلم حديث رقم (٢٣٦٦). وانظر الطعن في الحديث في «تفسير المنار» (٣/ ٢٩٢)، ومجلة المنار (١٠/ ١٦٦)، (١٩/ ٥٣٦، ٥٣٧)، و«أضواء على السنة المحمدية» ص(١٤٤، ١٤٧، ١٤٨)، و«السنة النبوية» ص(٩٧ ـ ٩٨).

(٣) رواه البخاري ـ كتاب الطب ـ باب السحر (٧/ ٣٠)، وكتاب الأدب باب قول اللَّه تعالى: ﴿إن اللَّه يأمر بالعدل والإحسان﴾ (٧/ ٨٨)، وكتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده، وكتاب الطب: باب هل يستخرج السحر (٧/ ٢٩ ـ ٣٠) وكتاب الدعوات باب =

٦ ـ حديث شق صدر النبي ﷺ وإخراج حظ الشيطان منه[١] .

٧ ـ حديث إسلام شيطان النبي ﷺ[٢] .

٨ ـ حديث المعراج[٣] .

٩ ـ حديث وقوع الذباب في الإناء[٤] .

= تكرير الدعاء. و«مسلم» ـ كتاب السلام باب السحر حديث رقم (٢١٨٩ ـ (٤/ ١٧١٩ ـ ١٧٢١) وأنكره محمد عبده في «تفسير جزء عم» ص(١٨١ ـ ١٨٣)، ومجلة المنار (١٢/ ٦٩٧)، (٢٩/ ١٠٤)، و«أضواء على السنة المحمدية» ص(٢٥٩)، وسيد قطب.

(١) والحديث أخرجه البخاري (١/ ٩١ ـ ٩٣)، (٢/ ١٦٧)، (٤/ ٧٧ ـ ٧٨)، (٤/ ١٠٦ ـ ١٠٨)، (٤/ ٢٤٨ ـ ٢٥٠)، (٨/ ٢٠٣ ـ ٢٠٥)، و«مسلم» (١/ ١٤٧ ـ ١٥١).

وانظر الطعن في الحديث في «تفسير المنار» (٣/ ٢٩٢)، مجلة المنار (١٠/ ١٦٦)، (١٩/ ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٦)، «وأضواء على السنة» ص(١٤٥ ـ ١٤٨)، و«السنة النبوية» ص(٩٨).

(٢) رواه مسلم (١٤/ ٢٨) ـ (٤/ ٢١٦٧ ـ ٢١٦٨).

انظر الطعن فيه في «تفسير المنار» (٣/ ٢٩٢)، مجلة المنار (١٠/ ١٦٦)، و«أضواء على السنة» (١٤٧ ـ ١٤٨)، و«السنة النبوية» ص(٩٨).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

وطعن فيه أبو رية في «أضواء على السنة المحمدية» ص(١٢٣ ـ ١٢٤).

(٤) رواه البخاري (٧/ ٣٣)، والدارمي نحوه (٢/ ٩٨ ـ ٩٩)، ونحوًا منه البيهقي في سننه. وابن خزيمة في «صحيحه» (١/ ٥٥ ـ ٥٦)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٦، ٤٤٣)، وابن حبان في «صحيحه» (١٢٤٦)، والبغوي في «شرح السنة» والطبراني في «الأوسط»، وابن الجارود في «المنتقى».

انظر مجلة المنار (١٩/ ٩٧ ـ ٩٩)، (٢٩/ ٤٨ ـ ٥١)، و«أضواء على السنة المحمدية ص(١٩٩ ـ ٢٠١)، و«السنة النبوية» للغزالي.

ولله درّ ليث الحديث أبو الأشبال الشيخ أحمد محمد شاكر إذ يقول في تحقيق «المسند» (١٢/ ١٢٥) ـ «الهامش»: «والحق أنه لم يعجبهم هذا الحديث، لما وقر في قلوبهم من أنه ينافي المكتشفات الحديثة من المكروبات ونحوها، وعصمهم إيمانهم من أن يجرءوا على المقام الأسمى، فاستضعفوا أبا هريرة.

والحق أيضًا أنهم آمنوا بهذه المكتشفات الحديثة أكثر من إيمانهم بالغيب ولكنهم =

١٠ ـ حديث: إن أحدكم يعمل بعمل أهل الجنة[١] .

١١ ـ حديث تحاجت الجنة والنار[٢] .

* الشيخ محمد حسين الذهبي والمدرسة العقلية الحديثة:

قال ـ رحمه اللَّه ـ عنها: «إنها أعطت لعقلها حرية واسعة فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلاّ مجرد الاستبعاد أو الاستغراب، استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة اللَّه وصلاحيتها لكل ممكن.

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها، وحمّلت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهودًا عند العرب في زمن نزول القرآن، وطعنت في بعض الحديث تارة بالضعف وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم وهما أصحّ الكتب بعد كتاب اللَّه تعالى بإجماع أهل العلم، كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة في كل ما هو من قبيل العقائد أو من قبيل السمعيات مع أن أحاديث الآحاد في هذا الباب كثيرة لا يُستهان بها»[٣] .

= لا يصرّحون! ثم اختطوا لأنفسهم خط عجيبة: أن يقدموها على كل شيء، وأن يؤولوا القرآن بما يخرجه عن معنى الكلام العربي، إذا ما خالف ما يسمونه «الحقائق العلمية» وأن يردوا من السنة الصحيحة ما يظنون أنه يخالف حقائقهم هذه! افتراءً على اللَّه، وحبًّا في التجديد».

(١) «رواه البخاري (٧/ ٢١٠)، (٤/ ٧٨ ـ ٧٩)، (٤/ ١٠٣ ـ ١٠٤)، (٨/ ١٨٨)، ورواه مسلم (٢٦٤٣)، (٤/ ٢٠٣٦).

وانظر الطعن فيه في «السنة النبوية» للغزالي ص(١٤٥ ـ ١٤٦، ١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٨)، (٨/ ١٨٦)، ومسلم (٢٨٤٦، ٢٨٤٧). والطعن فيه في «أضواء على السنة المحمدية» لعدو السنة أبي رية ص(١٩٨).

(٣) «التفسير والمفسرون» محمد حسين الذهبي (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

وقال: «وإذا كان الأستاذ الإمام قد أعطى لعقله الحرية الكاملة في تفسيره للقرآن الكريم فإنا نجده يُغرق في هذه الحرية ويتوسّع فيها إلى درجة وصلت به إلى ما يشبه التطرف في أفكاره والغلوّ في آرائه»[١].

وقال في موضع آخر ما خلاصته «الأستاذ الإمام ومن على طريقته لا يفرقون بين رواية البخاري وغيره فلا مانع عندهم من عدم صحة ما يرويه البخاري، كما أنه لو صح في نظرهم فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن وهذا في نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة»[٢].

وقال عن موقفه من حديث: «**كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها**»، وقد رواه الشيخان قال الذهبي عن موقف محمد عبده: «فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له ثم يتخلص من إرادة الحقيقة على فرض الصحة بجعل الحديث من باب التمثيل، وهو ركون إلى مذهب المعتزلة الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء فقط»[٣].

وقال أيضًا: «وهذا المسلك الذي جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه ومسلك الزمخشري وغيره من المعتزلة الذين اتخذوا التشبيه والتمثيل سبيلاً للفرار من الحقائق التي يصرح بها القرآن ولا تعجز عنها قدرة اللّه وإن بعدت عن منال البشر»[٤].

وقال: «ثم إن صاحب المنار لا يرى السحر إلا ضربًا من التمويه والخداع وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة وهو يوافق بهذا القول قول

---

(١) المرجع السابق (٣/ ٢٣٥).
(٢) «التفسير والمفسرون» لمحمد حسين الذهبي (٣/ ٢٤١).
(٣) المرجع السابق (٣/ ٢٤١).
(٤) المرجع السابق (٣/ ٢٤٩).

شيخه وقول المعتزلة من قبله»[١] .

ولم يكن الشيخ الذهبي بالوحيد الذي ربط بين اتجاههم واتجاه المعتزلة بل حتى أنور الجندي الذي أشاد بهذه المدرسة وخدع بها قال: «وإذا كان جمال الدين الأفغاني هو أول من فتح باب المنطق والفلسفة في الفكر العربي الحديث بحسبانه طريقًا إلى الدفاع عن الإسلام في مواجهة الفلسفات الحديثة على نفس المنهج الذي اتخذه المعتزلة فإن محمد عبده هو الذي عمق هذا الاتجاه حتى أطلق عليهما اسم «معتزلة العصر الحديث»[٢] .

أما الدكتور علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق فقالا عن المدرسة العقلية: «ونحن ـ على عكس كثير غيرنا ـ نحسن الظن بأصحاب هذه المدارس ولا نقبل أن نسميهم عملاء، وإن بدا منهم لون من الاتصال أو التعاون مع العدو المستعمر»، «ولكننا وإن نفينا عنهم «العمالة» فلا نستطيع أن ننفي عنهم «السذاجة» أنهم ظنوا أنهم يستطيعون أن يضحكوا على الاستعمار ويمكروا به فإذا به أشد مكرًا ظنوا أنهم يستطيعون أن يمتطوه ليسخروه لصالح الإسلام وامتطاهم الاستعمار ليسخرهم لصالح التغريب والتغيير الاجتماعي»[٣].

وقالا: «وبهذه النية التي نحسن الظن بها ألف صاحب مدرسة العقل جمعية التقريب بين الأديان فيها المسلمون والنصارى واليهود.. ولعله لم يدرك أن التقارب بين الإسلام والمسيحية واليهودية لا يمكن أن يكون إلا على حساب الإسلام.. لأنه الوحيد الدين الصحيح وغيره محرف.. ولعله لم يدرك أن المشركين حاولوا مع رسول اللَّه ﷺ ذلك التقارب حين قالوا نعبد إلـهك يومًا وتعبد آلهتنا يومًا فأنزلها رب السماء والأرض قاطعة حاسمة ﴿قُلْ

(١) المرجع السابق (٣/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠).

(٢) «اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار» لأنور الجندي ص(١٣٢).

(٣) «أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي» لعلي جريشة ومحمد الزيبق.

يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ السورة»[1].

وقالا: ـ «وأما الذي نأخذه علي الرجل العالم:

أولاً: اقتصاره من الإسلام على الإصلاح عن طريق التعليم فالإسلام ليس مجرد ثقافة فقط لكنه منهاج تربية ومنهاج حياة، وليته في هذا الجانب استطاع أن يصلح.

ثانيًا: أن الرجل وهو في موضع القدوة للمسلمين مالأ «الكافرين» الذين غصبوا الديار وما بعد الديار!.. ولا ندري هل كان الإمام يحفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية وهل قرأ غيرها من الآيات في نفس المعنى أم أن له فيه تأويلاً كتأويله في الملائكة أو في سجودهم أو في معصية آدم أو في خلق عيسى عليه السلام أو في الجن أو في السحر أو غير ذلك مما أعمل فيه عقله (الكبير) ليقول «بالرأي في كتاب اللَّه؟!» لقد مضى الرجل إلى ربه فنترك له حساب سره وعلانيته لكننا إزاء الظاهر.

وعمره الذي أفنى في محاولة إصلاح التعليم بلوغًا إلى مقاومة الاستعمار أو إلى النهوض بالإسلام لا نملك إلا أن نتلو قول اللَّه ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. ونترك من قبل ذلك ومن بعد ذلك حسابه على اللَّه لكننا نسوق ما نسوق ليعتبر أولو الأبصار.. ويتذكر أولوا الألباب فلا تتكرر الصورة مرة أخرى»[2].

---

(١) المرجع السابق ص(٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٢) «أساليب الغزو الفكري» ص(٢٠٤ ـ ٢٠٥).

أما الأستاذ غازي التوبة فعد من أخطاء محمد عبده دعوته للتقريب بين الأديان فقال: «قد أخطأ محمد عبده في دعوته إلى التأليف والتقريب بين الأديان حتى صار مطية لهيئات ودول حاقدة على الإسلام والمسلمين، وما ذلك إلا لأنه لم يلتزم حدّ الإسلام بل اتبع هواه فكان أمره فرطًا»[1].

واستعرض الأستاذ غازي جملة الأخطاء والانحرافات بعد أن قسمها إلى قسمين:

*** نتائج سياسية: وعدّ منها:**

١ ـ التعاون مع رياض باشا عميل الإنجليز.

٢ ـ التعاون مع المحتل الإنجليزي.

٣ ـ الاصطدام مع عباس الثاني فقد كانت في مصر آنذاك سلطتان سلطة الاحتلال وسلطة الخديوية إحداهما مغتصبة والأخرى شرعية تمثلت الأولى في الثعلب العجوز اللورد كرومر والثانية في الخديوي عباس الثاني.

٤ ـ تبرير وجود المحتل.

٥ ـ تكوين مدرسة سياسية باسم محمد عبده حيث وجد الاحتلال في محمد عبده وتلاميذه مدرسة سياسية تحقق أغراضه وتنفذ مآربه فرعاها ونماها.

*** النتائج الفكرية:**

كان الاستعمار يشعر بتحول المجتمع المسلم نحو الحضارة الغربية وأخذه منها في كل مجال وتقليده لها في كل أمر ولكنه كان يؤمن ـ في الوقت نفسه بأن الهوة ستبقى قائمة بين الغرب والمسلمين من جهة ولا يؤمن الانتكاس من

(١) «الفكر الإسلامي المعاصر» لغازي التوبة ص(٢٣).

جهة ثانية طالما أن الإسلام باق على طبيعته وحقيقته لذلك فقد صبّ جهودًا كبيرة كي يحوّر ويحوّل الإسلام من الداخل ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية من ناحية وتناولها دون التحرج من ناحية أخرى، وقد وجد الاستعمار في محمد عبده ضالته التي تحقق له هدفه ذلك في التحويل والتحوير أو قل التي تبدأ له بالخطوة الأولى في ذاك التحويل والتحوير»[١] .

*** قول هام للدكتور محمد محمد حسين عن المدرسة العقلية الحديثة :**

والدكتور محمد محمد حسين غير مكثر في ميدان الكتابة لكنه رصين الأداء مقتدر في استيفاء جوانب موضوعه ينظر إلى الأمور في عمق كما قال الأستاذ أنور الجندي[٢] ، وقد كان لدراسته العميقة في دعوة الأفغاني وتلاميذه نتيجة خطيرة توصل إليها حيث يقول: «الذي يبدو لي هو أن دعوة الأفغاني التي ربي محمد عبده في أحضانها كان لها ـ ككل الدعوات السرية ـ ظاهر وباطن فظاهرها يخاطب الجماهير. وهو يصور ما يريد صاحب الدعوة أن يعرفه جمهور المسلمين مما يعجبهم ويقع في قلوبهم موقع الارتياح والقبول، وباطنها يمثل حقيقتها التي يخفيها أصحابها عن الناس، ولا يكشفون الستر عنها قبل أن تحقق أهدافها بالوصول إلى مركز السلطة ومحمد عبده كان تابعًا لسيده الأفغاني أو خادمًا له كما تعود هو نفسه أن يكتب إليه في بعض رسائله والأفغاني كان يريد أن يعيد الدور نفسه الذي لعبه الإسماعيلية من أصحاب الدعوات الباطنية التي تتستر وراء التشيع»[٣] .

---

(١) «الفكر الإسلامي المعاصر» لغازي التوبة ص(٤٤ ـ ٦٥).

(٢) «مفكرون وأدباء» لأنور الجندي ص(٢٦٤).

(٣) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد حسين ص(٨٣).

وإذا اردت أن تعرف أي تخبط وقعت فيه المدرسة العقلية الحديثة فانظر إلى قول الشيخ محمد عبده حيث يقول: «اتفق أهل الملة الإسلامية، إلا قليلاً ممن لا يُنظَر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أُخذ بما دل عليه العقل وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه.

والثانية: تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل»[1].

وإذا أردت أن تعرض الطوام في عقيدتهم فانظر إلى عقيدتهم وتأويلهم الفاسد للملائكة وأصل الإنسان، والجن، وإنكارهم للمعجزات، قولهم في القضاء والقدر، وأمارات الساعة، والدجال والمهدي.

ولعل اللَّه يأذن في كتابة مجلد مستقل عن أخطاء المدرسة العقلية الحديثة وطوامها.

*** الدكتور التركي محمد توفيق صدقي دجّال من الدجاجلة:**

ينكر الدكتور توفيق صدقي حجية السنة ويعلن عنوان مقاله «الإسلام هو القرآن وحده» وينشر له الأستاذ محمد رشيد هذا المقال في عددين من مجلته المنار السابع والثاني عشر من السنة التاسعة.

ويزعم في مقاله أن القرآن قد حوى كل شيء من أمور الدين، وكل حكم من أحكامه وأنه بينه وفصله بحيث لا يحتاج إلى شيء آخر كالسنة وإلا كان الكتاب مفرطًا فيه ولما كان تبيانًا لكل شيء.

ويلحد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فيزعم أنه تكفل بحفظ القرآن وحده دون السنة، ولو كانت دليلاً

(١) «الأعمال الكاملة» لمحمد عبده (٣/ ٢٨٢) جمع وتحقيق د. محمد عمارة.

وحجة كالقرآن لتكفل بحفظها؟!.

*** أحمد أمين يدسّ السُّم بالعسل ويخلط الحق بالباطل:**

وجاء من بعده أحمد أمين صاحب كتب «فجر الإسلام، وضحاه، وظهره» تحدث في فجر الإسلام عن الحديث النبوي فمزج السم بالدسم وخلط الحق بالباطل كما يقول المرحوم مصطفى السباعي[1].

زعم أن هناك أموراً كثيرة تضعف من حجية السنة منها أن الحديث لم يدون في عهد رسول اللَّه ﷺ وزعم أنه نشأ عن هذا كثرة الوضع والكذب على الرسول ﷺ ساعد على ذلك كثرة دخول الشعوب في الإسلام، وزعم أن علماء الحديث إنما اعتنوا بالسند ولم يعتنوا بنقد المتن عشر عنايتهم بالسند ثم شكك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفي حفظه؟!

وأنت قد لا تجد في كلامه نصًّا صريحًا واضحًا في إنكار حجية السنة فهو أدهى من أن يظهر هذا بل يرشد من يريد إنكار حجية السنة إلى السبيل لذلك فيقول للدكتور علي حسن عبدالقادر: «إن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة، فخير طريقة لبث ما تراه مناسبًا من أقوال المستشرقين ألا تنسبها إليهم صراحة، ولكن ادفعها إلى الأزهريين على أنها بحث منك وألبسها ثوبًا رقيقًا لا يزعجهم مسها، كما فعلت أنا في فجر الإسلام، وضحى الإسلام» هذا ما قاله الدكتور علي حسن نفسه للمرحوم مصطفى السباعي[2].

*** إسماعيل أدهم يفتري على الأئمة:**

وقد نشر إسماعيل أدهم رسالة سنة ١٣٥٣هـ زعم فيها أن الأحاديث التي تضمنتها كتب الصحاح ليست ثابتة الأصول والدعائم بل هي مشكوك

(١) «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» لمصطفى السباعي ص(٢٣٦).
(٢) «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» لمصطفى السباعي ص(٢٣٨).

فيها ويغلب عليها صفة الوضع، وثارت حول هذه الرسالة ضجة انتهت بمصادرتها ودافع أدهم عن نفسه بأن ما قاله قد وافقه عليه كبار أدباء وعلماء ذكر منهم أحمد أمين، ولم يكذب أحمد أمين ما قال هذا بل كتب ما يفيد تأله مما حصل لصاحبه واعتبار ذلك محاربة لحرية الرأي، وحجر عثرة في سبيل البحوث العلمية[1] »[2] .

وكتاب الدكتور إسماعيل أدهم هذا هو «مصادر التاريخ الإسلامي». ولقد كان هذا الرجل عضو في المجمع الشرقي لنشر الإلحاد ثم مات منتحرًا.. ومزابل التاريخ تسع الكثير.

كان هذا المفتري على حفّاظ الحديث قد أرسل رسالة إلى مجلة الفتح الإسلامي نُشِرت في العدد ٤٩٤، يؤكد فيها أن ما ذهب إليه من الشك في صحة السنة لم ينفرد به، إنما هو بموافقة جماعة من كبار الأدباء، ذكر من بينهم الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية بعد ذلك، والذي لم يكن قد أفصح عن عدائه للسنة.

*** أحمد أمين وإنكاره للسنة وخيانة الأمة وأسفه على موت المعتزلة:**

في كتبه الثلاث فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام قبح وجرم وخيانة الأمانة العلمية وعدم التزام الدقة البحثية والاعتماد القصدي للنقول المكذوبة والتغاضي عن الصحيحة والموثوقة، الحد الذي وصفه الأستاذ أنور الجندي ببراعة التضليل، وقد حذا حذو المستشرقين وبعض زعماء الخوارج والمبتدعة في إنكارهم للسنة النبوية المطهرة، وينقل كذبًا عن الإمام أحمد أنه لم يصح من أحاديث التفسير شيء، وتشكيكًا في صحابة رسول اللَّه

(١) المرجع السابق ص(٢٣٧ ـ ٢٣٨).

(٢) «منهاج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٧٤٦).

ﷺ الذين نقلوا أحاديثه أو رووها أنهم رضي الله عنهم كانوا ينتقدون بعضهم بعضًا بعدم الثقة والتكذيب والريبة، ويطعن في أبي هريرة رضي الله عنه ويدلس تدليسًا علميًّا لا يخفى على الحُذّاق.

يقول تابعه على الدرب زكي مبارك: «إن أحمد أمين لا يهمه أن يردّ الحقوق إلى أربابها، إلا في موطن واحد هو اعترافه بأنه استأنس بآراء المستشرقين ليُقال إنه يطّلع على أقوالهم فخراً.». يقول أحمد أمين: «في رأيي أن من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة»[1].

*** الدكتور محمد حسين هيكل صاحب «حياة محمد» من الطاعنين في السنّة:**

وهو ممن يستخدم سلاح القرآن ليطعن به السنة ويشكك في صحتها، وفي صدق الأحاديث التي انطوت عليها بصورة قطعية.

وهو يشكك في رصد الشبهات التي تشكك في رواة الحديث وفي صدق الأحاديث وفي ضوابط جمعها والقائمين عليها، ثم ما لبث أن أهال التراب على معجزات الرسول ﷺ بحجة أن القرآن لم يشر إليها فيقول:

«لقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبي ما لا يصدقه العقل ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة، لو أن أمة مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين ولم تحتج إلى التصديق بمعجزة غير القرآن لما طعن ذلك في دينها ولا نقص من إسلامها».

❑ لقد تبع الدكتور هيكل وزير المعارف بغير إحسان المستشرقين فقال منكراً معجزات النبي ﷺ غير القرآن: «إن الشهادة برسالة محمد لا تحتاج

(١) «ضحى الإسلام» لأحمد أمين (٣/ ٢٠٧).

إلى معجزة غير القرآن ولا تحتاج إلى أكثر من تلاوة الكتاب الذي أوحاه اللّه إليه». وقد أنكر هذا الرجل معجزات النبي إلا القرآن وقال: «كتب السيرة تذكر أن طائفة من المسلمين قد ارتدّوا عن إسلامهم حينما ذكر لهم النبي، أنه أسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى».

ويقول: «وندع الدين جانبًا (!!) ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبي ما لا يصدقه العقل ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة»[١].

وفي حديث شق الصدر الذي رواه البخاري ومسلم يقول هيكل: «لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكيْن ويرونها ضعيفة السند»[٢].

والصلة بين هيكل والمدرسة العقلية الحديثة عميقة الصلة.. يكفي أن تعلم أن «الشيخ مصطفى المراغي هو الذي كتب المقدمة لهذا المؤلّف مشيدًا بما جاء فيه ومعجبًا به ومؤيدًا له. ودافع عن المؤلف والكتاب السيد رشيد رضا في مجلته المنار وجاء في دفاعه «أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات وقد حررتها في كتاب الوحي المحمدي بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة اللّه القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات.. وإن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لا حجة لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل»[٣].

والمؤلف ـ هيكل ـ نفسه كثيرًا ما يستشهد فيما يذهب إليه بأقوال محمد

(١) «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل ص(٣٤).

(٢) «حياة محمد» ص(١١١ ـ ١١٢).

(٣) مجلة المنار مجلد ٣٤ الجزء العاشر ص(٧٩٣) ـ عدد ٣ مايو ١٩٣٥م.

عبده نفسه ويشيد به[١] .

❑ ويقول عن الشيخ محمد عبده ودعوته «وكانت دعوته موضع إعجابي[٢] »[٣] .

*** زكي مبارك:**

نشر في مقال له بالعدد الممتاز من مجلة الرسالة «كان محمد إنسانًا بشهادة القرآن» ويعلن انضمامه إلى منكري السنة النبوية فيكمل النص بشيء من التعريض الذي هو سمة من سماتهم جميعًا في قلة الأدب والحياء في خطابهم مع النبي الكريم ﷺ فيقول: **«وبنو آدم يؤذيهم أن يتلقوا الحكمة عن رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق!!»**.

*** عدّو السنة وعدوّ أبي هريرة محمود أبو رية يتصدى لظلماته العالمان الجليلان: محمد عبدالرزاق حمزة وعبدالرحمن المعلمي اليماني:**

لقد كان هذا الهالك سبّاقًا في جرأته على النبي الكريم بما لم يتجرأ به أحد، نشر مقالاته في مجلة الرسالة منذ إبرايل ١٩٥١م، ونُشرت أبحاثه تحت عنوان «في الحديث النبوي» ثم جُمعت في كتاب «أضواء على السنة المحمدية» وردّ عليه الشيخ محمد عبدالرزّاق حمزة في كتاب «ظلمات أبي ريّة أمام أضواء السنّة المحمدية».

ثم ردّ عليه الشيخ عبدالرحمن المعلمي اليماني في كتابه «الأنوار

---

(١) انظر الصفحات (٣٤، ٧٠، ١٨١، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٧٣).

(٢) «حياة محمد» ص(٧٠).

(٣) «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٧٧٧ ـ ٧٧٩) للدكتور فهد الرومي ـ مؤسسة الرسالة.

الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة»، ثم سوّد كتابًا آخر فيه من الفحش والفسق والفجور والطعن على أبي هريرة ﷺ ما يعفّ اللسان عن نطقه ويأبى القلم أن يخطّه على الورق، يتهم فيه أبا هريرة بالكذب، هذا الدجال عدو أبي هريرة لما مات اسوّد وجهه وجعل يقول: «ما لي ولأبي هريرة».

هذا الذي ما أقرّ بعدالة الصحابة ولم يُسَلِّم بهذا. وقال طاعنًا في حفّاظ الحديث وحملة سنّة النبي ﷺ ساخرًا منهم:

«ماذا تكون حال كثيرين من الذين يزعمون اليوم أنهم من المحدثين، أولئك الذين يتسللون بين أشباههم من العامة ـ ومبلغ علمهم أنهم قرءوا بعض كتب الحديث واستظهروا عددًا مما فيها، يجترّونه ليؤيدوا به باطل المعتقدات وسوء العادات ويروّجوا به ما فشى بين الناس من الترّهات والخرافات، لكي يختلسوا احترام الدهماء وثقتهم، ويأكلوا بالباطل والإثم أموالهم.

على أنهم لو عرفوا قدر أنفسهم، وأن ما يحفظونه مما لا يزيد أكثره عند أحفظهم على عشرات من الأحاديث، وأن كتابًا من كتب الحديث لا يزيد ثمنه عن بضعة قروش يغني عنهم جميعًا! لو أنهم عرفوا ذلك كله واستيقنوه لقبعوا في جحورهم، ولأراحوا الناس من نقيقهم.

ورحم اللَّه أستاذنا الإمام محمد عبده ـ رحمه اللَّه ـ حيث قال في رجل وصفوه بأنه قد جدّ واجتهد حتى بلغ ما لم يبلغه أحد، فحفظ متن البخاري كله ـ «لقد زادت نسخة في البلد». حقًّا واللَّه ما قاله الإمام، أي أن قيمة هذا الرجل ـ الذي أعجب الناس جميعًا به لأنه حفظ البخاري ـ لا تزيد عن قيمة نسخة من كتاب البخاري لا تتحرك ولا تعي»[1].

(١) «أضواء على السنة المحمدية» ص(٣٢٩).

* ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾:

وصدق أبو حاتم الرازي لما قال: «علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر»[١].

❑ وقال الإمام أبو عثمان الصابوني: «وعلامات البدع على أهلها بادية ظاهرة، وأظهر آياتهم وعلاماتهم: شدة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ واحتقارهم واستخفافهم»[٢].

❑ وقال ابن أبي داود في قصيدته الشهيرة:

ولا تك من قوم تلَهّـوا بدينهم فتطعن في أهل الحديث وتقدحُ

❑ ورحم اللَّه الفضيل لما قال: «الملائكة حرّاس السماء، وأهل الحديث حراس الأرض».

❑ وللَّه درّ من قال: «من لم يقرّ بأن أهل الحديث هم أنصار هذا الدين فإنه يُعدّ في ضعفاء المساكين الذين لا يدينون للَّه بدين.

❑ وقال السفاريني: «ولسنا بصدد ذكر مناقب أهل الحديث فإنّ مناقبهم شهيرة ومآثرهم كثيرة وفضائلهم غزيرة، فمن انتقصهم فهو خسيس ناقص، ومن أبغضهم فهو من حزب إبليس ناكص»[٣].

❑ لقد قال الدجال أبو رية عن أبي هريرة أن كبار الصحابة جرّحوه وشكّوا في روايته لأجل إكثاره من الحديث واتهمه بالكذب عمر وعثمان وعلي[٤].

---

(١) «السنة» للالكائي (١/ ١٧٩).

(٢) «عقيدة السلف» للصابوني ص(١٠١).

(٣) «لوائح الأنوار» للسفاريني (٢/ ٣٥٥).

(٤) «أضواء على السنة المحمدية» ص(١٥٤ ـ ١٥٥).

❑ وقال إن عمر ضربه بالدرّة وأوعده إن لم يترك الحديث ليلحقنّه بأرض دوس أو بأرض القردة، ولذا لم يحدّث إلا بعد قتل عمر[١] .

❑ ويقول عن أبي هريرة أيضًا أنه كان كثير النسيان لضعف ذاكرته، فاختلق قصته ليسوغ بها كثرة أحاديثه، ويثبت صحة ما يرويه في أذهان السامعين[٢] »، وأنه «لم يكن له علم ولا فقه ولا رأي ولا نصيحة، ولذا لم يجعله عمر في أهل شورته»[٣] ، وأنه «كان من عامة الصحابة، ولم يكن بينهم في العير ولا في النفير[٤] . ولم يُذكر في طبقة من طبقاتهم، ولم يرد في فضله حديث»[٥] وأنه «كانت به غفلة وغرّة وسذاجة. ولذا استغله أعداء الإسلام في بث الخرافات والأوهام في الدين الإسلامي»[٦] .

❑ أما زعمه بأن أبا هريرة غير فقيه، فلا يُؤخذ بما رواه مخالفًا للقياس فهو زعم واه ضعيف، ولذا قال الحافظ ابن حجر: «وهو كلام آذى قائله به نفسه، وفي حكايته غنى عن تكلف الردّ عليه»[٧] .

❑ وقد كان أبو هريرة ﷺ ممن يُرجع إليه في الفتوى.

روى مالك بسنده إلى معاوية بن أبي عيّاش الأنصاري، أنه كان جالسًا مع عبداللّه بن الزبير، وعاصم بن عمر بن الخطاب. قال: فجاءهما محمد بن إياس بن البكير. فقال: «إن رجلاً من أهل البداية طلّق امرأته ثلاثًا قبل أن

---

(١) المرجع السابق ص(١٦٣، ١٩٧).
(٢) المرجع نفسه ص(١٧٧).
(٣) المرجع السابق ص(٢٠٣) الهامش.
(٤) المرجع نفسه ص(١٥٢).
(٥) المرجع نفسه ص(١٨٤ ـ ١٨٥).
(٦) المرجع نفسه ص(١٧٢ ـ ١٧٣).
(٧) «فتح الباري» (٤/ ٣٦٤).

يدخل بها. فماذا تريان؟ فقال عبدالله بن الزبير: إن هذا الأمر ما لنا فيه قول، فاذهب إلى عبدالله بن عباس، وأبي هريرة، فإني تركتهما عند عائشة، فسَلْهما. ثم ائتنا فأخبرنا، فذهب فسألهما، فقال ابن عباس لأبي هريرة: أفته يا أبا هريرة، فقد جاءتك معضلة، فقال أبو هريرة: الواحدة تبينها، والثلاثة تحرّمها حتى تنكح زوجًا غيره، وقال ابن عباس مثل ذلك ﷺ»[١].

❑ فقد دفع ابن عباس ﷺ الفتوى إلى أبي هريرة لما كان يعلمه عنه من فقهه وسعة علمه، ولذا قال الذهبي: «احتج المسلمون قديمًا وحديثًا بحديثه، لحفظه وجلالته وإتقانه وفقهه، وناهيك أن مثل ابن عباس يتأدّب معه، ويقول: افت يا أبا هريرة»[٢].

❑ وقد ذكره ابن سعد في النفر من الصحابة ﷺ الذين صارت إليهم الفتوى بالمدينة وهم: ابن عباس، وابن عمر، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة وجابر ﷺ[٣].

❑ كما ذكره ابن حزم في المتوسطين من الصحابة ﷺ ممن رُوي عنهم الفُتيا[٤]. وذكر ذلك أيضًا ابن القيم[٥] »[٦].

❑ يقول الدكتور فهد بن عبدالرحمن الرومي في كتابه القيم «منهاج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩):

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه مالك في «الموطأ» ـ كتاب الطلاق ـ باب طلاق البكر (٢/ ٥٧١).
وذكره الذهبي في «السير» (٢/ ٦٠٧)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٦٠٩).

(٣) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٣٧٢).

(٤) «الإحكام في أصول الأحكام» (٥/ ٩٢).

(٥) «أعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ١٣).

(٦) «موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية» للأمين الصادق الأمين ص(٣٧٩) ـ مكتبة الرشد.

«وفي عام ١٣٧٧هـ الموافق ١٩٥٧م ظهر كتاب جديد وأعني بالجديد فيه ذلكم الأسلوب الذي نهجه صاحبه وما رأيت مثله؟! رجل يحمل معول هدم السنة ينكر أحاديثها ويلقي أفظع السباب والشتائم على ناقلها الأول أبي هريرة رضي الله عنه ثم يزعم بعد هذا أنه يدافع عن الحديث؟!

أما المؤلف فمحمود أبو ريّة، وأما الكتاب فـ «أضواء على السنة المحمدية أو دفاع عن الحديث»؟.

ومن التوافق العجيب أن الذي قدم لهذا الكتاب الذي أنكر حجية السنة هو الذي أنكر صدق قصص القرآن وأنكر حجيته فيما يخبر به ـ كما مر بنا ـ وأعني به طه حسين.

أنكر محمود أبو رية حجية السنة، وإذا ما قال له قائل كيف تنكر حجية السنة وأنت تستدل على ما ذهبت إليه بأحاديث منها؟ أجاب «أن الأحاديث التي أوردها في سياق كلامي للاستدلال بها على ما أريد في كتابي إنما أسوقها لكي نقنع من لا يقنع إلا بها على اعتبار أنها عنده من المسلمات التي يصدقها ولا يماري فيها «ويشبه أسلوبه هذا باحتجاج» المسلم على النصراني بما في الإنجيل وهو في نفسه غير مؤمن بما يحتج به أو عكس ذلك[1] ؟!

وحتى ندرك أيضًا الصلة التي تربطه برجال المدرسة العقلية الحديثة وتأثره بهم فيما ذهب إليه نقول إنه كثيرًا ما يسوق نصوصهم ويستشهد بها في التقليل من شأن حجية السنة أو التجريح بصحابي جليل، وحينما عاب عليه طه حسين كثرة نقله عن رشيد رضا أجاب بأنه لم يصنع ذلك «عفوًا أو فقرًا من الأدلة»[2] ، وإنما كان يقصد من ذلك أمورًا مهمة، «منها أن هذا السيد

(١) «أضواء على السنة المحمدية» ص(٣٣).

(٢) المصدر السابق ص(٣٤ ـ ٣٥).

يعتبر في هذا العصر من كبار أئمة الفقهاء المجتهدين عند أهل السنة الذين يعتد برأيهم. إلخ»[١] «وأنه بلا منازع شيخ محدثي أهل السنة في عصرنا بحيث يعلم من أمر الأحاديث التي حملتها الكتب المشهورة لدى الجمهور ويدرك ما أعتراها من فعل الرواة وغير ذلك مما يتصل بكتابي ما لم يعلم مثله سواه»[١] «على أنه فوق ذلك ورث علم الأستاذ الإمام محمد عبده وناهيك به علمًا وفضلاً بحيث لا يختلف اثنان في أنه من كبار أئمة الدين المجتهدين فما يقوله السيد رشيد إنما أعتبره كأنه صادر عن أستاذه الإمام، وذلك فيما أرى أنه من منهج الأستاذ الإمام وأسلوبه في النظر إلى الدين»[٢] ، وفوق هذا وذاك فهو يكتب عن السيد رشيد بمناسبة مرور خمسة أعوام على وفاته ويسميه «شيخنا» ويردد هذه العبارة[٣] .

إذن فهو يستند فيما ذهب إليه إلى أقوال أئمة رجال المدرسة العقلية الحديثة الأستاذ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد، وبحسب قوله بعد هذا فوق الشبهات!!» اهـ.

* أخي:

هل تتخيل أن عدو السنة أبا ريّة يقول عن الإمام أبي هريرة: «إنه شخصية وهمية لم يقف أحد على اسمه، فكان حريًّا عدم الثقة في شخصه والتشكيك في كل ما يُروى على لسانه»[٤] .

وقال عنه أنه: «نقل من الأحاديث أكثر مما يطيق عقل بشر».

---

(١) «أضواء على السنة المحمدية» ص(٣٤ ـ ٣٥).

(٢) المصدر السابق ص(٣٥).

(٣) «مجلة الرسالة أغسطس ١٩٤٠م مقال: «السيد رشيد رضا» بقلم محمود أبو رية ص(١٣٥٥).

(٤) «شبهات وشطحات منكري السنة» لأبي إسلام أحمد عبدالله ص(٣٢).

ويأبى الدكتور طه حبيش إلا أن يكشف لنا النقاب ويفكّ اللغز المحيّر في سبب هذا الكمّ من حقد أبي رية الجاحد على أبي هريرة رضي الله عنه، إذا اشتهر عن محمود أبو ريّة فشله في الدراسة الأولية بالأزهر الشريف، وتردده الدائم على بعض الأديرة والكنائس، والتقائه فيها بمن أوهمه بأنه سوف يكون رجلاً ذا شأن إذا ما سلك هذا الطريق الوعر»[1] .

يقول الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد في مقدمته لكتاب «موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي» ص(٥) عن أبي رية: «وكتابه «أضواء على السنة المحمدية» صادف رغبة أعداء الإسلام حتى اشترت إحدى السفارات الأجنبية في القاهرة أكثر نسخه، وأرسلتها إلى مكتبات الجامعات الغربية لتكون بين يديْ الحاقدين على الإسلام ورسوله وصحابته وليستندوا إليها فيما أورده من أكاذيب وأباطيل»[2] .

* الكذّاب الأشِر المدعو «السيد صالح أبو بكر» وجنونه العجيب!!

«كأن خداع العناوين مرض انتقل من أبي رية في زعمه الدفاع عن الحديث النبوي في عنوان كتابه إلى المدعو «السيد صالح أبو بكر» فنشر كتابًا زعم أنه «الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها» زعم فيه أن من أهدافه «تقديم حصيلة الفحص الدقيق للأحاديث المعارضة للقرآن، والمنافية لما يليق باللّه وبرسوله والتي جمعناها من صحيح البخاري باعتباره عمدة المراجع في هذا المجال وعددها مائة وعشرون حديثًا والتعقيب القرآني على كل منها بما يثبت أنها دخيلة على كلام النبي ﷺ»[3] .

---

(١) المصدر السابق ص(٣٣).

(٢) نقلاً عن «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ص(٤٦٧).

وعدّ من أهدافه «القضاء على منازعة الحديث الباطل للقرآن الكريم»[١]، ومنها «إدراك العواقب المترتبة على ترك الأحاديث المخالفة للقرآن الكريم دون تجريح وإظهار لعيوبها»، و«إثبات أن دين اللّه هو القرآن بداية ونهاية»، وقال أخيرًا: «كتابنا هذا يستند إلى كتاب اللّه نصًّا ومعنى»[٢].

والحق أننا في حاجة ماسة إلى مثل هذه الأهداف والحق أيضًا أن هذا الرجل بعيد كل البعد عن المنهج الذي زعم بل عماد نقله وأسّه محمود أبو ريه السالف ذكره فهو كثيرًا ما ينقل عنه بل نستطيع القول أن الجزء الأول منه خلاصة لكتاب أبي رية، ثم أراد المؤلف منافسة أبي رية على مناهله الأولى فنقل أيضًا عن محمد عبده وعن رشيد رضا وغيرهم من مدرسة المنار.

بل إن بدء هجومه على أبي هريرة رضي الله عنه يصدره برأي مدرسة المنار فيضع عنوانًا «أبو هريرة ورأي علماء الحديث فيه ممثلاً في مدرسة المنار»[٣].

وقد خصص المؤلف الصفحات من ٥٨ إلى ٦٣ للتشكيك في أبي هريرة رضي الله عنه وفي روايته.

وإن شئت مثالاً من الأحاديث المائة والعشرين التي كذبها المؤلف من صحيح البخاري وأسلوبه في التكذيب، حتى تدرك بعد منهجه عن عنوان الكتاب «الأضواء القرآنية» وعن أهدافه التي زعمها فإليك واحداً منها.

● ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما «قام رسول اللّه ﷺ في الناس فأثنى على اللّه بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: **«إني لأنذركموه وما من نبي إلا أنذره قومه، لقد أنذر نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه:**

(١) «الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها» للسيد صالح أبو بكر ص(٣ ـ ٦).

(٢) المصدر السابق ص(٣ ـ ٦).

(٣) المصدر السابق ص(٥٨).

تعلمون أنه أعور، وأن اللَّه ليس بأعور» رواه البخاري في كتاب الأنبياء باب قوله اللَّه عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

أتدرون ماذا قال المؤلف بعد أن نقله نقلاً غير ملتزم بألفاظه كما هو شأن علماء الحديث الصالحين أتحسبون الرجل استند إلى ضوء آية قرآنية واحدة في رد الحديث فضلاً عن التزام «الأضواء القرآنية»!! لا لا ليس الأمر كما تحسبون. بل قال: «ودلائل الزيف في هذا الحديث وغيره من أحاديث الدجال كلها نقول فيها ما يلي:

أولاً: إن المسيخ الدجال هو كل مبدل وكل ماسخ لجمال الحق.. وأن هذا المسيخ ليس رجلاً واحداً فقط، ولكنهم كثيرون وهم عور وغير عور يعيشون معنا وأناس منا وكانوا مع من قبلنا وسيكونون مع من بعدنا وفي كل زمان ومكان.. وليسوا مسيخًا واحداً كما يقول الحديث.

ثانيًا: إذا كان المسيخ سيظهر في آخر الزمان فقط.. فمن هو المسيخ الدجال الذي كان سببًا في ظهور الفساد والفتن في عهود الخلفاء وزمن التابعين بل زماننا هذا.

ثالثًا: إذا كان المسيخ الدجال رجلاً واحداً ولا يأتي إلا في آخر الزمان فمن أي مسيخ كان يتعوذ النبي ﷺ هو وأصحابه والتابعون.. ومن أي مسيخ نتعوذ نحن الآن في نهاية كل صلاة كما علمنا النبي ﷺ؟؟

رابعًا: .. بأي عقل نصدق أن يعطيه اللَّه كل هذه الأسباب ثم يأمرنا بمحاربته أو يلوم أتباعه وقد أعطاه من وسائل الإغراء والإقناع للناس ما لا يعطي الأنبياء والمرسلين.

---

(١) «الأضواء القرآنية» ص(٢٠٦ ـ ٢٠٧).

(٢) «منهاج المدرسة العقلية الحديث في التفسير» ص(٧٤٩ ـ ٧٥٢).

خامسًا: في هذا الحديث أن النبي ﷺ يقول إن المسيح الدجال رجل أعور وإن ربكم ليس بأعور فكيف يعقل أن تجري هذه الألفاظ على لسان النبي ﷺ وأن تكون ألفاظه قد وصلت إلى هذا النقص في التعبير عن ذات اللَّه وأن يتكلم عن خالقه بتلك الصورة المزرية الركيكة.

سادسًا: كيف أنذر نوح قومه من المسيخ الدجال كما يقول الحديث مع أن الأحاديث التي وردت فيه تقول كلها أن المسيخ سيأتي في آخر الأمان»[1].

«وليس هدفنا هنا أن نرد على شبهه ونبطلها فليس هذا موضعه وإنما أردنا أن ظهر أسلوبه في النقد وأن أدلته تلك ليست أضواءً قرآنية كما زعم، ولم يستند فيها إلى أية آية قرآنية بل كلها شبه من فكره ومن مفهومه الضال الذي لم يستند إلى كتاب ولا إلى سنة أيضًا.

وليس هذا الأمر في هذا الحديث فحسب، بل هو في كل الأحاديث التي أوردها لم يستدل فيها بآية قرآنية إلا آية تُعرض عرضًا في حديثه وليس فيها من معارضة الحديث شيء.

إذن فلا عجب إذا ما أكثر النقل عن محمود أبو ريّة وعضّ على أقواله بنواجذه ولا عجب أيضًا إذا ما استند إلى أقوال محمد عبده ورشيد رضا بل إلى مدرسة المنار» اهـ.

* * *

* «الردّ القويم على المجرم الأثيم» لفضيلة الشيخ حمّود التويجري:

لقد ردّ الشيخ حمود التويجري على السيد صالح أبي بكر في كتابه «الرد القويم على المجرم الأثيم» في جزءين فأفحمه.. قال الشيخ: «فقد رأيت كتابًا لبعض أهل الزيغ والفساد والإلحاد من العصريين تهجّم فيه على بعض الصحابة والتابعين وعلى مائة وعشرين حديثًا في صحيح البخاري الذي هو أصحّ الكتب بعد القرآن، وزعم أنها أحاديث إسرائيلية وأنه يكتسحها بالأضواء القرآنية ويطهر البخاري منها. وتهجّم أيضًا على غير ذلك من الأحاديث الصحيحة وقابلها بالردّ والإنكار.

وقد سمّى المؤلف نفسه بالسيد صالح أبي بكر، وليس بسيد ولا صالح ولا كرامة ولا نعمة عين، لما رواه أبو داود والنسائي والبخاري في الأدب المفرد عن أبي بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقولوا للمنافق سيد فإنه إن يك سيداً فقد أسخطتم ربكم عز وجل» ورواه الحاكم في مستدركه والبيهقي بنحوه وصححه الحاكم.

وفي تهجمه على بعض الصحابة والتابعين وعلى الأحاديث الصحيحة أوضح دليل على زيغه وفساد عقيدته وأنه ليس بصالح في الحقيقة.

وقد سمى الملحد كتابه «الأضواء القرآنية، في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها».. وكلام الملحد كله شبهات وحمل لكتاب اللَّه على غير محامله، فهو في الحقيقة ظلمات بعضها فوق بعض كما سأبيّنه إن شاء اللَّه تعالى.

ومن تأمّل كتابه لم يشك أنه محارب للإسلام والمسلمين، وأنه إنما أراد بكتابه الطعن في الإسلام وأهل الإسلام، وإن أظهر ذلك في قالب الإصلاح فهو بلا شك ممن يسعى في الأرض فساداً وإن كان يزعم أنه مصلح. وقد قال اللَّه تعالى مخبراً عن سلف هذا الملحد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي

الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ وهذه الآية الكريمة مطابقة لحال الملحد غاية المطابقة، طهر اللَّه الأرض منه ومن امثاله من المفسدين في الأرض إنه سميع مجيب. وقد رأيت من الواجب الردّ على أباطيل هذا الزائغ المفتري على اللَّه وعلى رسوله ﷺ وتطهير الأحاديث في صحيح البخاري وغيره من كتب السنة من تلطيخ هذا الظالم المعتدي»[1].

قال الشيخ التويجري «وقد قال المؤلف[2] في صفحة (٤) ما نصّه:

سابعًا: الاستكشاف الفعلي لانحراف عقائد من سبقونا من أمم الدراويش وجماعات التنسك الشكلي وأصحاب الدعاوي بخروج بشريتهم أو بشرية شيوخهم على سنن اللَّه في خلقه ادعاءً للكرامات المصطنعة وزعمًا للمعجزات الخيالية التي ملأت المدونات الصفراء وليس لهم فيها من سند ولا أصل إلا أحاديث الخيال المفتراة على رسول اللَّه ﷺ تلك التي استقرت في كتب الأحاديث المعتمدة لدى المسلمين بحسن القصد من الناشرين والمستطلعين.

والجواب: أن يُقال هذه الجملة في أول كتاب المؤلف الجاهل كافية في بيان عداوته للرسول ﷺ وللسلف الصالح من الصحابة والتابعين وأئمة العلم والهدى من بعدهم، وبيان ذلك من وجوه:

أحدها: زعمه أن معجزات النبي ﷺ خيالية وأن كراماته وكرامات غيره من أنبياء اللَّه وأوليائه مصطنعة. وهذا قول أعداء اللَّه من الإفرنج

---

(١) «الرد القويم على المجرم الأثيم» للشيخ حمود التويجري ص(١، ٢) ـ مكتبة دار العليان الحديثة.

(٢) يعني السيد صالح أبو بكر.

وغيرهم من أمم الكفر والضلال. وقد تلقاه هذا الجاهل وأشباهه من زنادقة العصريين بالقبول والرضا. وهذا القدر كاف في الحكم بردّة المؤلف وخروجه من الإسلام.

وقد أجمع العلماء على تكفير من عبث في جهة النبي ﷺ بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور. وأجمعوا على تكفير من استخفّ بالرسول ﷺ أو استهزأ به أو بشيء من أفعاله، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه. ذكر ذلك القاضي عياض ـ وابن حجر الهيتمي وكلام المؤلف ههنا داخل فيما أجمع العلماء على تكفير قائله.

الوجه الثاني: زعمه انحراف عقائد الذين يؤمنون بمعجزات النبي ﷺ وكراماته وكرامات غيره من أنبياء اللَّه وأوليائه. وهذا يتضمن القدح في جميع أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان. ولا يقدح فيهم إلا مَن هو متبع لغير سبيلهم وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

وقد قال في الإقناع في ذكر ما يصير به المسلم كافرًا: «أو قال قولاً يتوصّل به إلى تضليل الأمة أي أمة الإجابة فهو كافر؛ لأنه مكذب للإجماع على أنها لا تجتمع على ضلاله» انتهى.

ولا يخفى ما في كلام المؤلف من تضليل الأمة على إيمانهم بمعجزات النبي ﷺ وكراماته وكرامات غيره من أولياء اللَّه تعالى فيكون بهذا كافرًا حلال الدم والمال.

الوجه الثالث: تسميته علماء السلف وأئمة الخلف بالدراويش وجماعات التنسك الشكلي وأصحاب الدعاوي وزعمه أنهم قد خرجوا ببشريتهم على سنن اللَّه في خلقه، وهذه الأوصاف أولى به وبأشباهه من زنادقة العصريين

وملاحدتهم.

الوجه الرابع: تسميته كتب الحديث المعتمدة عند المسلمين بالمدونات الصفراء تحقيراً لها وتصغيراً لشأنها وزعمه أن الأحاديث الواردة فيها في المعجزات والكرامات أحاديث مفتراة على رسول اللَّه ﷺ وهذا من أعظم المحادة للَّه ورسوله ﷺ والمخالفة لما عليه المسلمون من الاعتناء بكتب الحديث والتعظيم لشأنها والإيمان بما جاء في الصحيح منها من أخبار الغيوب والمعجزات والكرامات واعتقاد أن ذلك حق وصدق.

الوجه الخامس: رميه المسلمين بالغباوة والتغفيل من أجل اعتمادهم على كتب الحديث وإيمانهم بما جاء في الصحيح منها من أخبار الغيوب والمعجزات والكرامات، والواقع في الحقيقة أن المؤلف هو الغبيّ المغفل الذي انقاد للشيطان فأغواه وتلاعب به حتى انسلخ من الدين وهو لا يشعر وصار حربًا للَّه ولرسوله ﷺ وللأحاديث الصحيحة والمحدثين وسائر المؤمنين وقال اللَّه تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾»[1].

*** الدكتور أحمد زكي أبو شادي وإنكار السنّة:**

رئيس تحرير مجلة العرب الكويتية سابقًا. تلقّى تعليمه في الغرب وله كتاب «ثورة الإسلام» يقول فيه ص(٥٧): «إن القرآن الشريف والأحاديث النبوية إنما هي مجموعة مبادئ خُلُقية وسلوكية، أحكامها عُرضة للتبدّل بتبدّل الأحوال والأسباب، ففيه شواهد هادئة على ضوئها وأسبابها وظروفها، لا أحكام ثابتة ترفض التعديل وفقًا لتبدّل الأسباب والظروف».

(١) «الرد القويم» ص(٤٩ ـ ٥١).

وهكذا لم ينف أبو شادي قدسية السنّة النبوية وحسب، إنما جمع معها القرآن الشريف حسب وصفه، بوصفها مبادئ خلُقية، خلع عنها الثبات، وأخضعها لإمكانية التعديل والتبديل وإعادة الصياغة وفقًا للأسباب والظروف. وكان أبو شادي قبل صفحات من كتابه الذي ننقل منه ـ قد حسم القضية ص(٢٥، ٤٤) وحدّد موقفه من السنّة النبوية، فقال كما قال قرناؤه المتغرّبون:

«إن سنن البخاري وابن ماجه وجميع كتب الحديث والسنة طافحة بأحاديث وأخبار لا يمكن أن يقبل صحتها العقل[1] ، ولا نرضى بنسبتها إلى الرسول وأغلبها يدعو إلى السخرية من الإسلام والمسلمين والنبي الأعظم». وقال أيضًا: «وأما التغنّي بأبي داود ومسلم والنسائي وترديد الأحاديث الملفّقه التي لا تنسجم مع تعاليم القرآن فبمثابة الخيانة لرسالة الإسلام الخالدة».

ويتهم هذا الرجل أبا هريرة وأنس بن مالك وعبداللّه بن عباس بالغفلة وانتحال الأحاديث في صفحة ١٧٤ من كتابه، ويشترك في حركة البرلمان العالمي للديانات للجمع بين الإسلام واليهودية والمسيحية والبوذية.

«بلغ الحال إلى إنكار أبواب كاملة في الفقه؛ لأنها تضمّنت أحاديث نبوية تعارضت مع مبادئه العقلية وأخلاقه الوضعية، ولم تتطوّر وفقًا لهذه المبادئ والأخلاق»[2] .

* توفيق الحكيم أستاذ المتمرّدين على السنّة ورد الدكتور عبدالعظيم المطعني عليه:

«وسط زخم كثير من الطعنات الموجّهة إلى علوم المسلمين وعلمائهم ودعاتهم في ظهورهم وبطونهم وحلوقهم، كتب توفيق الحكيم في صحيفة

(١، ٢) «شبهات وشطحات منكري السنة» ص(٣٨) لأبي إسلام أحمد عبداللّه.

«الأهرام» أول عام ١٩٨٣م، سلسلة من المقالات تحت عنوان متبجح، اضطربت معه الصحيفة الكبيرة التي طالما فتحت صفحاتها للضالين والمنافقين والملاحدة والشعوبيين، فجاء العنوان «حوار مع اللَّه» حينًا، و«حديث مع اللَّه» حينًا آخر، و«حديث إلى اللَّه» حينًا ثالثًا في محاولة غير كريمة وغير لائقة لامتصاص السخط الذي استقبلت به هذه السلسلة مع إصرار شديد من القائمين عليها على مواصلة عرضها ونشرها على المسلمين دون اعتبار لمشاعرهم، إلى أن انتهى العنوان إلى «حديث مع نفسي» فيعلق د. عبدالعظيم المطعني الذي ندعو اللَّه له بالحفظ والرعاية والسلامة ودوام العطاء والجهاد ضد أعداء الإسلام قائلاً:

«الحكيم واحد من العقلانيين الذين انحرفوا بعقولهم وفكرهم، فقضوا على أنفسهم وعلى عقولهم وأفكارهم بالانتحار المريع، بيد أن الحكيم قد فاق أسلافه في هذا المجال، إذ لم نر واحدًا منهم يزعم أنه قال للَّه أو قال اللَّه له، فهذه أضحوكة انفرد بها من بين المتحرين عقليًّا وفكريًّا إلى الأبد، ما لم يجد الزمان بحكيم مثله، يزعم ما زعم ويهزي بمثل ما هزي، فقد كانت كتابته هذه هي آخر ما يتصوره العقل من مزالق محفوفة بالمخاطر، عن إنسان يحترم عقله وفكره، إلاّ إذا أفلت عقله من كل المقاييس (والتعبير للدكتور المطعني) ولا مناص أن يؤدي الحكيم دوره، ويشارك في زفة إنكار السنّة، في حواره الكاذب مع جلال اللَّه فيقول نصًّا:

«على رجال الدين أن يُفهموا المسلمين أن صلاح الإسلام ليس في التجمّد في زمن واحد مضى، بل مع الحركة المتقدمة مع تنقية ما يُفسد ويتعثّر بالحركة الطائشة».

والزمن الواحد الذي مضى ويقصده الحكيم غير الحكيم، هو تلك النصوص التي حدّدت للمسلم كل دقائق حياته، في نظام بديع يخضع له

الزمان والمكان، ولا يخضع هو لهما؛ لأنه ما جاء من الهوى إن هو إلا وحي يوحى، علّمه شديد القوى، إذا ضاقت به نفوس؛ فلأنها عليلة، وإذا رفضته عقول فلأنها ضالة يعزّ عليهم الاعتراف بضلالها، فيرمون أهل الهدى بما فيهم، وهو ما فعله الحكيم ونطق به قبل ذلك بسنوات خمس في مقال نُشر له في «الأهرام» أيضًا، متهمًا فيه أحكام الشريعة الإسلامية المتمثلة في سنّة المصطفى ﷺ، إذْ ما كان له أن يجرؤ ومسّ كتاب اللَّه في هذه الفترة الزمنية، مطالبًا بالخروج بها من جمودها وإفساح الطريق إلى أن نطوّرها ونجددها، لتتناسب مع روح العصر ومواكبة المفتونين بالمادة والعلمانية، وتُستباح لهم السنّة النبوية فيُضيفون ويحذفون ويعدّلون ما يلبي حاجاتهم وشهواتهم وأوامر أسيادهم.

ولأن اللَّه لا يغير ما بقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم يقول د. المطعني:

«وبهذه النزعة «العقلانية» نصب الحكيم نفسه أستاذًا في مدرسة المتمردين على الشريعة، قصد أم لم يقصد، فالعبرة بالعمل لا بالقصد والنية، ولتلامذته حيل غريبة في ذلك، ففريق ينكر العمل بحديث الخبر الواحد ما لم يكن متواترًا، وبعضهم ينكر صحة العمل بالأحاديث كلها صحيحها وحسنها وخبر الواحد منها، ويقول آخرون: إن الأحاديث لا تفيد العلم اليقيني وإنما تفيد الظن، والظن يبطل الاستدلال، ولا تفسير لكلام الحكيم على ضوء ذلك إلا بإجراء هذه العمليات الجراحية، التي يريدون أن يدخلوها على ثوابت الإسلام ونظمه»[1] اهـ.

* * *

(١) المصدر السابق ص(٣٤).

*** الشيخ محمد فريد منكر المعجزات.. يردّ بعض الأحاديث فيلقمه شيخ الإسلام مصطفى صبري الحجر:**

الشيخ محمد فريد وجدي واحد من رموز المدرسة العقلية الحديثة، وهو «أحد كتاب مجلة المنار، وصاحب المقامات الصوفية، وتلميذ علي عبدالجليل راضي، رائد المذهب الروحي في العصر الحديث، يرفع لواء استحالة وقوع معجزات النبي عقلاً، مؤكداً أن كل ما جاء عنها في السنة غير مقبول أو موثوق به على الإطلاق، برغم أن الأستاذ وجدي عاش حياته وأنهاها بما لا يخفى على كثير من القرّاء والمثقفين، مدّعيًا لنفسه ممارسة المعجزات، حيث كان واحدًا من أكبر رموز العاملين في الجمعيات الروحية التي تتعامل مع الجن والعفاريت، والاعتقاد بالجلاء البصري والجلاء السمعي الذي يسمح لمن يمارسه أن يبصرنا في أماكننا، ويبصر اجتماع الكونجرس الأمريكي، ويسمع كل ما يدور بداخله وهو في قلب القاهرة.

نقول: برغم هذا كله فحتى الآيات القرآنية التي أنبأت ببعض معجزات الأنبياء، اعتبرها فريد وجدي جميعًا من المتشابهات التي لا تُفهم معانيها، وكتب في مجلة الأزهر (ج٥/ م٨) «إن الإيمان بالغيب الذي هو أول صفة وصف اللَّه بها عباده المفلحين، يقابل الإيمان بالواقع» ليحطّ بهذه المقابلة من منزلة الإيمان الغيب.

❑ وعلى صفحات الأهرام يقول في مناظرته مع شيخ الإسلام مصطفى صبري ـ رحمه اللَّه ـ: «لقد وُلِد العلم الحديث وما زال يُجادل القوى التي تقف أمامه حتى تغلّب عليها، فنظر نظرة في الأديان، فقذف بها جملة إلى عالم الأساطير وجعل منها (الأديان وكتبها) مجموعة كتب تُقرأ لا تُقدس، ليعرف الباحثين منها، الصور الذهنية، لا أن يُتعبّد بها ويُستعبَد لها».

❑ ويُعلِّق على ذلك الشيخ مصطفى صبري ـ رحمه اللَّه ـ آخر من تولّى منصب شيخ الإسلام قبل سقوط الخلافة عام ١٩٢٤ قائلاً: «إن إنكار المعجزات النبوية يتضمن إنكار النبوة فتشتد الحماقة وتتضاعف فيمن يؤمن بالأنبياء وينكر معجزاتهم ويصوّرونهم كأنهم لا يمتازون عن الناس إلا بما يمتاز به العظماء».

ثم يشير شيخ الإسلام ـ رحمه اللَّه، إلى جريمة الصحافة المصرية التي فتحت الباب أمام هؤلاء المتشككين في النبوة والمنكرين للسنة فيقول: «تفكّروا في كون صحافة مصر المنحرفة عن الثقافة الإسلامية إلى الثقافة الغربية لا تزال تشيد بمن يقول بهذا، ثم تفكروا في إنكار الأستاذ فريد وجدي لمعجزات النبي جهارًا نهارًا على صفحات الأهرام أثناء مناقشته إياي، تلك المناقشة التي استمرت أيامًا، ثم تعيينه بعد انتهائها مديرًا ورئيسًا لتحرير مجلة الأزهر المسمّاه يومئذ «نور الإسلام».

ونجح فريد وجدي حقيقة، أن يجعل من نور الإسلام منبرًا خاصًّا لأفكاره الشاذة نحو النبي الأمين وسيرته العطرة ومعجزاته القرآنية والمتواترة بالحديث، بمباركة شديدة من فضيلة الشيخ مصطفى المراغي شيخ الأزهر حينذاك، فانبرى يترجم أفكارهم الشاذة حول نبي الإسلام وحول النبوة ومعجزاتها في سلسلة مقالات بعنوان «السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة» فيقول في (ج٧/ م١١):

❑ «تمتاز العصور النبوية بالخوارق للنواميس الطبيعية، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل كان لها أقوى تأثير في حمل الشعوب التي شهدتها على الإذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم».

❑ وسريعًا يكشف فريد وجدي عن وجهه في سفور وقح فيقول مستطردًا: «وقد حدثت أمور من هذا القبيل في العصر المحمدي «صاحبت

الدعوة في جميع أدوارها، وكانت أعظم شأنا وأجلّ أثرًا من كل ما سبق من نوعها».

❑ وفي جرأة منقطعة النظير، يؤكد في تحدّ وعناد ما ذهب إليه من بطلان وضلال فيقول: «ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما إليها، مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس، ومما يتأتى توجيهه إلى غير ما فُهِم منه، ولكن أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي تمت على يد محمد ﷺ في أقل من ربع قرن، وقد أعوز أمثالها في الأمم، القرون العديدة والآماد الطويلة».

❑ ونخلص إلى أن فريد وجدي يريد أن يقول بإنكار المعجزة، ومن ثَمّ بإنكار النبوة، خاصة أن النبوة نفسها من الأمور الغيبية التي هي اتصال خاص بين النبي وربه، ليصل إلى الغاية الشيطانية التي رضعها من الفكر الإبليسي أنه لا أنبياء على الإطلاق، إنما هم مصلحون اجتماعيون وحسب، وهو نفس ما ذهب إليه فرح أنطون منشئ مجلة «الجامعة» في مناقشة له مع الشيخ محمد عبده فقال:

ـ الدين هو الإيمان بخالق غير منظور، وآخرة غير منظورة، ومعجزة ووحي ونبوءة وبعث وحشر وسؤال وحساب وثواب وعذاب في الجنة والنار، وكلها غير محسوسة ولا معقولة، ولهذا كان العقلاء في كل ملة ينادون بإبعاد العقل عن الدين».

ولا تعليق لنا على الصليبي فرح أنطون أفضل مما كتبه، ليشهد على منكري السنة ويفضح مصادر فكرهم وتبعة إنكارهم»[1].

* * *

(١) المصدر السابق ص(٢٩ ـ ٣٠).

*** الشيخ أبو زيد الدمنهوري صاحب كتاب «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن»:**

وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبرى في المحيط العلمي وثورة ساخطة من شيوخ الأزهر على مؤلفه وانتهى الأمر بمصادرة الكتاب والحكم على صاحبه بالزيغ والضلال[1]، ويتلخص قول هذا الضال المضلّ في السنة أنها نكبة على المسلمين وعلى دين اللَّه عز وجل وهو يتمنى إحراقها وإعدامها من الوجود وتكون نقطة بداية التحريق من صحيح البخاري فمسلم فيرتاح الناس من شرّ ما فيهما، وأنكر هذا الرجل نبوة آدم.

*** القرآنيون منكرو السنة بالهند وباكستان وتصدي شيخ الإسلام أبي الوفاء ثناء اللَّه الأمرتسرى لدجّالهم غلام أحمد القادياني:**

قد كان لأعاجم شبه القارة الهندية النصيب الأكبر في ردّ السنة، وبدأ ذلك على يد رجل هو السير السيد خان (ت: ١٨٩٨م). ذكره أحمد أمين في كتابه المعروف «زعماء الإصلاح في العصر الحديث»[2] وقال عنه: «هو في الهند أشبه شيء بالشيخ محمد عبده في مصر، والرجل له اتجاهات إلحادية منحرفة ومع هذا يعتبر رائد النهضة التعليمية المعاصرة في أوساط المسلمين في القاهرة الهندية فقد أنشأ «جامعة على كره الإسلامية» فله في ذلك فضل يُذكر.

❑ أما انحرافاته فكثيرة منها:

ـ أن المعراج عنده عبارة عن سير النبي ﷺ في المنام.

---

(١) «الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم» للدكتور محمد حسين الذهبي ص(٩٤)، و«منهاج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٧٣٦).

(٢) ص(١٢١)، وما بعدها ـ طبعة ١٩٤٨م.

ـ والمراد بالملائكة والشياطين هو: الأخلاق الجليلة، والأخلاق الرذيلة.

ـ والجنة والنار عبارة عن أمر روحي.

ـ والاعتقاد بالبعث والنشور، والحساب والميزان، وما في النار من ألوان العذاب، وما في الجنة من أنواع النعيم من عقائد الناس البسطاء السذج.

ـ وأما عذاب القبر وعلامات القيامة ـ مثلاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة، ونزول المسيح ـ عليه السلام ـ وغيرها من الأمور ليست عنده من الحقيقة في شيء[1].

❑ ومنهم «المرزا غلام أحمد القادياني» المتنبئ الكذّاب. وكان مواليًا للحكم الإنجليزي، فأفتى بعدم جواز القتال ضد الاستعمار، وأنكر الجهاد بالسيف، وطعن في الأحاديث الواردة في فضله. هذا وأنكر نزول عيسى ـ عليه السلام ـ في آخر الزمان، وحرّف الأحاديث الواردة في هذا الأمر عن معناها العربي؛ لأنها كانت تقف في إثبات مسيحيته، ثم انتهى به الأمر إلى ادعائه للنبوة، وأنكر الأحاديث التي كانت تفند دعواه الباطلة وتكشف عن سخفها وهرائها.

❑ وهذا الأفيوني الخمّار تطاول على نبي اللَّه آدم ونبي اللَّه نوح وأهان نبي اللَّه عيسى، وفضّل نفسه على يوسف الصديق، وأهان جميع أنبياء اللَّه ورسله وفضّل نفسه عليهم.

فناقشة العلماء، وعبثًا حاولوا إصلاحه وإرجاعه إلى الإسلام، وحينما رأوا إصراره وصموده على الكفر والارتداد، ودعوى النبوة، نازلوه وناظروه، وأظهروا كذبه، وبطلان دعواه، وبعد إتمام الحجة أفتوا بالإجماع على كفره

---

(١) مقدمة كتاب موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد ص(٦، ٧).

ودجله، فكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل العلامة ـ شيخ الإسلام ـ ثناء اللَّه الأمرتسري صاحب التصانيف الرائعة الكثيرة في الدفاع عن الإسلام ضد «الهندوسية» و«النصرانية» و«القاديانية» وطائفة «منكري الحديث» وهو مناظر الإسلام، ومحامي المسلمين في القارة الهندية، فقد جرى بينه وبين الغلام القادياني عدة مناظرات ومناقشات تحريرية، وتقريرية، ودومًا كان الانتصار حليفًا للرجل الإلهي وبطل الإسلام، فاستشاط من ذلك المتنبي القادياني غضبًا، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م وبتاريخ ١٥ إبريل بالضبط وكتب فيها ما يلي: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم، يسئلونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق إلى خدمة الأستاذ ثناء اللَّه، السلام على من اتبع الهدى.

من زمان وأنا أُكذّب وأفسّق في مجلتكم «أهل حديث» (اسم المجلة) ودائمًا تسمونني في مجلتكم هذه ملعونًا كذّابًا، ودجّالاً ومفسدًا، وتشهرني في العالم بأني مفتري كذّاب دجال، وأفتري في دعواي المسيحية، فأنا تأذيت منك كثيرًا، وصبرت ولكني لما رأيت نفسي بأني مأمور لنشر الحق وأنت تمنع العالم من التوجه إليّ بسبب افتراءتك عليّ.. فأدعو إن أنا كذّاب ومفتري كما تذكرني في مجلتك، فأهلكُ في حياتك لأني أعلم أن عمر الكذّاب والمفسد لا يكون طويلاً، بل هو يموت خائبًا في حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان، وتكون في موته منفعة لعباد اللَّه حيث لا يضلهم، فإن لم أكن كذّابًا ومفتريًا بل أكون متشرّفًا بمخاطبة اللَّه والمكالمة معه، وأكون مسيحًا موعودًا، فأدعو أن لا تنجو من عاقبة المكذبين حسب سنة اللَّه.

فأُعلن إن لم تمت أنت في حياتي بعقاب اللَّه الذي لا يكون إلا من عند اللَّه محضًا مثل أن تموت بمرض الطاعون أو الكوليرا فلا أكون مرسلاً من اللَّه تعالى، وهذا لا أقول نبوءة بل طلبت القضاء الفيصل من اللَّه تبارك وتعالى،

وأدعو اللَّه، يا مولى البصير، القدير، العليم الخبير، يا عالم أسرار القلوب، إنْ أنا كاذب ومفسدٌ في نظرك، وأفتري عليك ليلاً ونهاراً يا اللَّه فأهلكني في حياة الأستاذ ثناء اللَّه، وسرّه وجماعته بموتي ـ آمين ـ ويا اللَّه إنْ أنا صادق، وثناء اللَّه على باطل، وكذّاب في التهم التي يلصقها بي، فأهلكه يا رب العالمين في حياتي بالأمراض المهلكة مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض، آمين.

يا رب أنا أوذيت وصبرت، ولكني أرى الآن أنه قد تجاوز الحد، وأنه يظنني أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضرون العالم، ويحسبني أرذل خلق اللَّه، وقد شهرني في البلدان النائية بأني في الحقيقة مفسد ونهاب، وطمّاع وكذّاب، ومفتري وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدى كنت صبرت عليها، ولكني أرى أن ثناء اللَّه يريد بهذه التهم أن يفني دعوتي ويهدم عمارتي التي بنيتها أنت يا ربي ويا من أرسلتني، ولذا ألتجئ إليك يا اللَّه آخذاً بذيل رحمتك وتقدسك فاقض بيني وبين ثناء اللَّه بالحق، وأهلك الكذّاب والمفسد في حياة الصادق، أو ابتليه في آفة تكون مثل الموت، فافعل هكذا يا ربي الحبيب ـ آمين ثم آمين ـ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين.

وأخيراً أرجو من الأستاذ ثناء اللَّه أن ينشر هذه النشرة في مجلته، ثم يعلّق عليها ما يشاء، فالقضاء الآن بيد اللَّه». الراقم: عبداللَّه الصمد غلام أحمد المسيح الموعود عافاه اللَّه وأيده» (إعلان الغلام القادياني المنشور بتاريخ ١٥ إبريل ١٩٠٧ المندرج في «تبليغ رسالت» (١٠/ ١٢٠)، مجموعة إعلانات الغلام المرتبة من قاسم القادياني.

وفعلاً قُبلت دعوته هذه، وقضى اللَّه بينه وبين ثناء اللَّه بالحق، وبعد ثلاثة عشر شهراً وعشرة أيام بالضبط جاءه قضاء اللَّه وقدره بصورة بشعة كان

يتمناها للشيخ الجليل ثناء اللَّه، نعم بنفس الصورة وبنفس المرض الذي نصّ عليه هو؟ بالكوليرا، وإليك بيانه، يكتب ابن الغلام القادياني، وزعيم القاديانية «بشير أحمد» في سيرته: «أخبرتني أمي أن حضرته (أى الغلام) احتاج إلى بيت الخلاء بعد الطعام مباشرة، ثم نام قليلاً، وبعد ذلك احتاج مرة أخرى إلى بيت الخلاء فذهب مرة أو مرتين إليها بدون أن يُشعرني، ثم أيقظني، فرأيت أنه قد ضعف جدًّا وما استطاع الذهاب إلى سريره فلذا جلس على سريري أنا، فبدأت أمسحه وأُمسّجه، وبعد قليل أحس الحاجة مرة أخرى، ولكن الآن ما استطاع الذهاب إلى بيت الخلاء فلذا قضاها عند السرير واضطجع قليلاً بعد القضاء، ولكن الضعف بلغ منتهاه فجاءته الحاجة مرة أخري فقضاها ثم جاءه القيء وبعدما فرغ من القيء خرّ على ظهره واصطدم رأسه بخشب السرير وتغيرت حالته» («سيرة المهدي» ص(١٠٩) لبشير أحمد بن الغلام).

❑ وكتب رحيمه (أبو زوجه) «الليلة التي مرضها حضرته (الغلام) كنت نائمًا في غرفتي، ولما اشتد مرضه أيقظوني فذهبت إلى حضرته ورأيت ما يُعانيه من الألم فخاطبني قائلاً: أصبت بالكوليرا، «ثم لم ينطق بعد هذا بكلمة صريحة حتى مات اليوم الثاني بعد العاشرة من الصباح» («حياة ناصر» رحيم الغلام القادياني ص١٤).

هذا وقد نشرت الجرائد الهندية آنذاك «أن غلام أحمد المتنبي القادياني لما ابتُليَ بالكوليرا كانت النجاسة تخرج من فمه قبل الموت».

فمات وكان ثناء اللَّه حيًّا وبقي حيًّا بعد موته قريبًا من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية ويقمع جذورهم، وهكذا كذّب اللَّه الكذّاب حتى وإلى آخر لحظة من حياته، وعذّبه في الدنيا وعذاب الآخرة أشدّ وأقوى، ولقد صدق اللَّه عز وجل: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ**

وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]»[1].

❑ وقبل القادياني كان جُراغ علي ينكر الحجاب، وقال إن النبي ﷺ لم يأمر زوجاته بالحجاب ولا منعهن منه!!!

❑ وفي عام ١٩٠٢م ظهر غلام نبي عبدالله جكرلاوي مؤسس الحركة القرآنية أو جماعة أهل الذكر والقرآن»، وأنكر هذا الرجل السنة مطلقًا.

❑ ثم كان أوسخهم «غلام أحمد برويز» رئيس جمعية «أهل القرآن» ورئيس منكري السنة في باكستان، تسلّم قياد هذه الفتنة، ونظم جهود منكري السنّة، وقام بجهد متواصل في هدم بنائها، ونشر كتبًا كثيرة في إنكار الحديث، وأصدر مجلة «طلوع الإسلام» الناطقة باسم الجمعية، ونادى بالاكتفاء بالقرآن وحده لا يوجد شيء اسمه سنّة، وألّف كتابًا عن نظرية داروين التي يذهب فيها إلى تكذيب القرآن.

وبالتعاون مع زميله أسلم جيرا جبوري أصدرًا مجلة «فجر الإسلام» عام ١٩٥٧م لتكون لسان حال جماعة القرآنيين في الهند لأول مرة.

وعلى خطى أحمد أمين، المفكر والأديب والكاتب المصري، أعاد غلام أحمد برويز ترتيب موضوعاته وأصدر ثلاثيته «معارف الإسلام» وجعل لها عناوينًا جريدة؛ فجر الإسلام عام ١٩٥٨م، ثم ضحى الإسلام عام ١٩٥٩م، ثم ظهر الإسلام عام ١٩٦٠م، وبعدها نشر كتابه الضخم الذي أصبح سفرًا من أسفار منكري السنّة في مصر وهو «لغة القرآن» في أربعة مجلدات عام ١٩٦١م.

---

(١) «القاديانية لإحسان إلهي ظهير» ص(١٥٤ ـ ١٥٩) ـ إدارة ترجمان السنّة.

ولقد قال هذا الضال الفاجر أن تعيين الجزئيات في العبادات مثل الركوع والسجود.. إلخ تردّ إلى مركز الأمة «أي يحددها الحاكم».

❑ قال الدكتور محمد مصطفى الأعظمي: «إن منكري السنّة قديمًا وحديثًا ـ ما عدا أهل القرآن ـ كانوا يأخذون السنة العملية المتواترة، كالصلاة وهيئاتها، وركعاتها، والزكاة والحج وما شاكل ذلك من الأمور التي تناقلها المسلمون جيلاً بعد جيل نقلاً عمليًّا.

ولكن ذهب «أهل القرآن» إلى أبعد من ذلك، فأنكروا حتى هذا الجزء المتواتر العملي من الإسلام»[1].

❑ ففاقوا جميع منكري الحديث، وصدق عليهم قول الشاعر:

كبهيمة عمياء قاد زمامها أعمى على عوج الطريق الحائر

وانظر إلى هذا التواطؤ الخسيس والخيوط الخفية بين منكري السنّة في الهند ومصر فأحمد أمين يثني على السير أحمد خان مرزا ويقول عنه أنه في الهند كالشيخ محمد عبده في مصر، وينشر أحمد خان مرزًا من خلال مجلته الداعية لإنكار السنة ـ حلقات متتابعة من كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين.

ومثلما وضع حسرت موهاني ونيار فتحبوري أسس الضلال وأصدرا مجلة تحمل اسم «إنكار» في الهند، وضع صبحي منصور يده في يد فرج فوده وأصدر مجلة تحمل اسم «التنوير» في مصر وطعنت المجلتان في العقيدة، وأثارتا الشبهات حول الوحي والقرآن وحجية الأحاديث النبوية وحطّتا من أهمية الفقه الإسلامي في حياة المسلمين.

وكانت جماعتا القاديانية والأحمدية بأمريكا على اتصال دائم بمركز توسان حيث يقبع مسيلمة الكذاب مدعي النبوة رشاد خليفة بمسجد توسان.

---

(١) «دراسات في الحديث» للدكتور محمد مصطفى الأعظمي ص(٣٢ ـ ٣٣).

* صبحي منصور الدجّال منكر السنة نائب مسيلمة الكذاب بتوسان والمروّج لنبوته الكاذبة وتصدي فضيلة الشيخ الدكتور سعد ظلاّم له وفضحه إياه:

من مدينة كفر الزيات خرج علينا مسيلمة الكذاب رشاد خليفة المولود في ١٨/١١/١٩٣٥ تخرّج مهندسًا زراعيًّا وعمل بالهيئة العامة للإصلاح الزراعي في ١٩٥٧م وصدرت ضده الجزاءات، ومع هذا حصل على بعثة علمية لدراسة الدكتوارة في أمريكا ٣٠/٨/١٩٥٩م، وعاد الخائن ومعه زوجه الأمريكية السافرة ثم سافر إلى ليبيا ومنها إلى أمريكا وبعد أشهر معدودة أصبح رشاد خليفة خبيرًا بالأمم المتحدة ثم إمامًا لمسجد مدينة توسان ومئات الألوف من الدولارات.

❑ ومن قرية حريز مركز كفر صقر بمحافظة الشرقية جاء صبحي منصور وانضم في بداية أمره إلى الطريقة الرفاعية والتحق بالأزهر، وأصبح أستاذًا مساعدًا بكلية اللغة العربية ولفت الأنظار إليه بما يطرحه من آراء مخالفة لإجماع المسلمين، ليس بعدائه للصوفية فحسب، إنما بعدائه للسنة النبوية.

والتقى برشاد خليفة، ووجد كل منهما ضالته في الآخر فرشاد يملك السلطان والمال بالدولار، ويسكن بلاد اللحم الأبيض والحاسوب الذي يُحصى كلمات القرآن وحروفه وآياته في لمح البصر، وينبئك على الفور عمّا إن كنت تصلح نبيًّا أو مساعد نبي وراح صبحي منصور داخل الأزهر يعبث بعقول خير شباب الأمة، ويُنكر السنّة وينال من عصمة الأنبياء ويسيء إلى الصحابة، ويُحقِّر من شأن رواه الأحاديث النبوية، حتى فُضِح أمره عام ١٩٨٢م، وشكى الطلاّب إلى أساتذتهم، وتمّ جمع كتبه، فحاول أن يُقدّم استقالته إلا أن الأزهر أصدر قرارًا بفصله.

❑ لفظ الأزهر صبحي منصور، ولكن أيد خفيّة حافظت له على المسجد الذي يخطب فيه، بل إن مساجدًا جديدة فتحت له أبوابها في الجيزة والقاهرة، وفي مسجد إسماعيل منصور صاحب كتاب إنكار عذاب القبر (٨٠جنيه للنسخة) ومقالات إنكار حجاب المرأة.

وهاجر صبحي إلى الشيطان رشاد خليفة، وذهب إلى أمريكا.

❑ وفي إحدى الصحف المصرية، كتب الدكتور سعد ظلام عميد كلية اللغة العربية الذي حمل العبء الأكبر في التصدي لهذا المنكِر لسُنّة خاتم الأنبياء، يوضح حقيقته ويفضح باطله، ويُشرك أهل العلم والتخصص فيما اتخذ ضده من إجراءات موّضحًا عقيدة الأزهر الشريف في الإيمان باللَّه وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، ومؤكدًا على شهادة التوحيد أنه لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه، وعلى الصلاة والزكاة والصوم والحج كما وردت في الصحاح ومذاهب الأئمة الأعلام، ومبشرًا المسلمين بسفر صبحي منصور إلى خارج البلاد.

❑ ولم تمض أيام معدودة حتى انهال سيل الخطابات من رشاد خليفة من أمريكا، حيث استُقبل البطل المجاهد صبحي منصور هناك!! يكتبون إلى الدكتور ظلام، وهم في حالة هذيان تترنّح رءوسهم في كل اتجاه، وتقيّأوا كل ما في بطونهم ضد العميد وكليته وأزهره والمسلمين في أنحاء مصر بلا استثناء، فيكتب قبل أن يُعلن النبوة بخمسة أشهر فقط أول رسائله:

❑ في ٤/ ١/ ١٩٨٨م كتب يقول: لقد اخترتم أنتم وأربابكم تكذيب اللَّه سبحانه وتعالى عما يصفون، وقرّرتم وجود مصادر إبليسية ـ يقصد السنّة ـ أخرى إلى جانب كلام اللَّه.

❑ وفي ٩/ ١/ ١٩٨٨م كتب يقول: لقد وفّق اللَّه الدكتور صبحي إلى كشف الانحرافات التي جعلت إسلام اليوم مختلفًا تمامًا عن الإسلام الذي دعا إليه خاتم الأنبياء (ذلك قبل أن يدّعى النبوة).

❑ ثم في خطاب بتاريخ ٢٦/ ١/ ١٩٨٨م وصفه الدكتور طه حبيشي في كتابه «مسيلمة في مسجد توسان» بأنه خطاب هابط الأسلوب نازل المعاني أشبه بعبث الصبيان، قال فيه رشاد: «لعلّك استلمت عدد فبراير من مجلتنا «الإسلام الحقيقي» ولعلك قرأت أول مقالة يكتبها د. صبحي اسمًا على مسمى منصور في أرض الحرية التي منّ اللّه علينا بها.

ثم يشير إلى ما بذلته الحكومة الأمريكية من تقديم التسهيلات وتذليل العقبات أمام صبحي منصور حتى وصل سالمًا إلى أمريكا أرض الحرية والعزّة والفخار، هاربًا من أرض أزهر الشيطان والقهر والفقر والانحطاط، حيث وافق الكونجرس الأمريكي على طلب رشاد خليفة باعتبار صبحي لاجئًا سياسيًا، والرواية على لسان صبحي نفسه.

❑ وفوجئ الرأي العام المصري بأحمد بهاء الدين يكتب في صحيفة أخبار اليوم ١٧/ ٤/ ١٩٨٨ قائلاً: أحبُّ أن أنبه الأزهر والمؤسسات الإسلامية إلى نشرة بالغة الخطورة والغرابة، تلقيتها بالبريد من ولاية أريزونا الأمريكية تقول: «الأزهر منكر القرآن يقود مصر إلى الهلاك، وأنه يوصي اللّه ورسوله بابتداع العصمة للأنبياء والشفاعة لغير اللّه متمسكًا بالبدع الإبليسية المسماة بالحديث والسنّة، تلك أولى غرائب هذه النشرة، ثاني غرائبها أنها تصدر عن جمعية إسلامية تملك من وسائل التكنولوجيا الشيء الكثير، فهي تبيع شرائط الفيديو والكاسيت في جميع الموضوعات، والأسماء السائدة في النشرة تأليفًا وإخراجًا وخطبة كانت للدكتورين: رشاد خليفة وصبحي منصور وبعض الأسماء المسيحية الأمريكية التي كانت مسلمة من قبل!!

وتقول النشرة (وما زال الكلام لأحمد بهاء الدين في صحيفة الأخبار): إن الخالق يعلّمنا أن نتيجة رفض كلامه وتكذيب آياته كما فعل الأزهر وأتباعه هي الهلاك وحتمية جفاف النيل ووقوع الكوارث، لأن أسّ البلاء هو ممارسة

الأزهر للقهر الفكري.

❑ وفي اليوم التالي ١٨/٤/١٩٨٨ يواصل أحمد بهاء الدين تعليقه على نشرة مسجد توسان فيقول: إن الملحوظات التي تستوقف النظر ونضيفها، أنها تبدو مموّلة تمويلاً جيداً خصوصًا بإنتاجها التلفزيوني، والكثير مما سجلته على أشرطه فيديو للبيع، والإسلام الوحيد الذي يقابله تعريف واضح هو الدكتور صبحي منصور المحاضر في جامعة أريزونا، والمنتشر في الصحافة والإذاعة والتلفزيون عن القهر الفكري الأزهري.

❑ «في فبراير ١٩٨٨ عرضت النشرة الشهرية لمسجد الضرار والضلال في توسان بأريزونا مقالاً لصبحي منصور بعنوان «الأزهر يكفر بالقرآن» ردًّا على مقال نشر بمجلة منبر الإسلام لسان حال وزارة الأوقاف المصرية في عددها «يناير ١٩٨٨» قال فيه: «يقول جهلاء الأزهر أنه من المعلوم أن القرآن جاء دستورًا، ومن شأن الدساتير أن تكون مجملة في حاجة إلى تفصيل، لكن المشكلة الأزلية، للأزهر أنه مسجد سيئ الاستخدام «مسجد ضرار» يقوم على حماية التراث البشري «يقصد السنة النبوية» الذي يناقش القرآن ويتهم كتاب اللَّه بأنه غامض يحتاج إلى توضيح وأنه ناقص يحتاج إلى تفصيل، ومن الواضح أن الأزهريين لا يؤمنون ولا يعلمون ولا يذكرون، بعدما أعماهم اللَّه عن القرآن الكريم، ولقد أدت الأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم إلى تكذيب رب العزة في تقريره أن القرآن كامل وتام ومفصل».

❑ وفي ذيل المقال تعليقًا لنبي الزور رشاد خليفة يقول فيه: «كما هو مدعّم بالوثيقة في الصفحة السابقة فإن الأزهر يرفض التأكيدات المتكررة للقرآن بأنه كامل وتام ومفصل تمامًا.

إن الأزهر يأخذ موقفًا رسميًّا من أن القرآن ليس كاملاً، ومن ثم فإن الأزهر يعزز تلك البدع الشيطانية مثل الحديث والسنة، وإن أي مسلم يمتلك

أقلّ قدر من التفكير والبداهة يستطيع أن يرى الأزهر لا يحترم إرادة الرب، وإنما يحترم إرادة إبليس، وصبحي منصور هو أول عالم أزهري يكتشف الحقيقة، ويقف في وجه السلطات في قلعة إبليس «الأزهر» ففي هذه السلسلة التاريخية من المقالات، يوضّح منصور الطبيعة المحمدية للأزهر ودوره في تحويل المسلمين المخلصين إلى محمدين مؤلهين للوثنية»[1] .

❑ ومرّة أخرى حلّ صبحي منصور بهمّه وغمّه وضلاله على مصر وترك شيخه المزعوم بعد عام واحد فقط وقال صبحي عن رشاد خليفة أنه علا وتكبّر بعدما أصبح نبيًّا!!

عاد صبحي منصور بيث سمومه في المساجد إلى أن قُبض عليه بنفس التهم التي وُجّهت إلى المتشيّع حسن شحاته من إثارة الفتن والتعدي على صحابة رسول الله ﷺ والتشكيك في السنة النبوية المطهرة.

❑ ولقد عرض رشاد خليفة على صبحي منصور النبوة فرفضها!! ثم لم يلبث أن ادعى النبوة لنفسه في مايو ١٩٨٨ ولم يخطر بباله هذا من قبل، هذا قول صبحي منصور أما رشاد خليفة فقال عن نفسه: أن الوحي قد هبط عليه وهو في سن الخامسة والأربعين أي في عام ١٩٨٠. ولقد قُتِل هذا الدّجال الكذاب.

❑ هذا المهووس الدجال أطلق على الآيات التي لم تخضع للرقم (١٩) آيات شيطانية وهما الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة وأنكرهما وقال: إنهما أُقحمتا على القرآن وليستا منه. وقال اسمي جاء في القرآن ١٩ مرة ومثله اسم أبي.

وقال إن المسلمين عندهم عقيدة التثليث: «الإجماع والحديث والسنة»

---

(١) «شبهات وشطحات منكري السنة» ص(٦٧).

وهذا يتنافى مع القرآن وكفّر البخاري، وقال: «جميع الأنبياء من قبلي لم يُؤتوا معشار ما آتاني ربي، والأنبياء ثلاثة فقط هم: إبراهيم ومحمد وأنا»، ويقول: «ليس هناك نصًّا قرآنيًّا يلزم زوجتي الأمريكية بتغطية شعرها ووجهها أو خلع البنطلون». وقال: «أخبرني جبريل الأسبوع الماضي أن كل من ينكر السنّة لن يموت ولن يُوضع في قبر بل يدخل الجنة ومباشرة، كما أخبرني من قبل أن من يؤمن بي لن يُسأل عما ارتكبه من ذنوب ومعاص وفواحش قبل الأربعين».

❑ ولقد أعدّ صبحي منصور بخط يده رسالة مدّعي النبوة إلى العالم وكان العنوان «رسالة إلى العالم الجديد» جاء فيها:

«إن اللَّه يحب أمريكا التي تأسست على حرية العقيدة، والتي تنفرد في كل بلاد الدنيا بأن تكتب على عملتها (الدولار) «نحن نُؤمن باللَّه»، ولذا فإن أمريكا هي أحب الشعوب إلى اللَّه؛ ولأن العالم القديم قد أُرسل إليه العديد من الرسل، فقد حان أن تتلقى أمريكا بركة عظيمة «رسولاً من عند اللَّه» يساعدهم ويهديهم ويحلّ مشاكلهم المستعصية مع العقاقير والكحوليات والجريمة والفقر.

وكما جاء الأنبياء من قبل بمعجزاتهم، فإن رسول اللَّه إلى العالم قد جاء بدليل مثبت بالكمبيوتر!!! والذين فحصوا البرهان جيدًا توصلوا إلى قناعة مطلقة أنني رسول اللَّه، وباعتباري مكلفًا من قِبَل اللَّه مؤيدًا ببرهان مادي لا يمكن أن يدحضه أي باحث شريف يتمثل في قانون رياضي هائل ضمن رسالة إلهية إلى العالم، وقد ذُكر اسمي «رشاد» في القرآن مرتين» اهـ.

❑ وعند وقوع الخلاف بينه وبين صبحي منصور قال عنه صبحي منصور: «رشاد خليفة خليفة، هو الكاذب في كل نفس من أنفاسه، وقد ظل يكذب ويتحرّى الكذب حتى خالط الكذب كل خلية من خلايا لحمه وعظمه؛

لأن رشاد خليفة حين ادّعى النبوة والرسالة كان نبيًّا للشيطان ورسولاً من إبليس» اهـ. نقلاً عن «منكري السنة» لأبي إسلام أحمد عبدالله.

* وممن أنكروا بعض الأحاديث المتواترة أو الصحيحة:

* **الشيخ محمد بخيت المطيعي**: جوّز تولّى رجل غير مسلم سدّة الخلافة العظمى بعد أن أنكر جميع ما ورد من السنّة، وأوّل آيات الكتاب المخالفة لذلك تبريرًا للحكم الإنجليزي آنذاك، ويعتبر هذا الاستنباط مفخرة عظمى وتوفيقًا إلهيًّا لا يصل إليه إلا المخلصون من عباده»[1] !!!.

* **وعلى درب الوالد سار الابن**:

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عـوّده أبوه

حسين أحمد أمين على درب والده، وللابن كتاب «دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السلوك في القرن العشرين»، وهذا الكتاب أخذ جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي ١٩٨٤م وكله طعن في السنّة، ويقول هذا الرجل: «ما كان أبي أحمد أمين يفرض علينا الصلاة».

وله فتوى عجيبة في حدّ السرقة فيقول: «لقد كان الاعتداء على الساري في الصحراء بسرقة ناقته بما تحمل من ماء وغذاء وخيمة وسلاح في مصاف قتله. لذلك كان من المهمّ للغاية أن تقرر الشريعة عقوبة جازمة رادعة بالغة الشدة لجريمة السرقة في مثل هذا المجتمع»[2].

وقال عن الحجاب «وهْم صنعه الفرس والأتراك، وليس في القرآن نص يحرّم سفور المرأة أو يعاقب عليه»، و«أن الرجال يتمسكون بالحجاب

---

(١) انظر «المنار» (٩/ ٢٣٨) عدد مارس ١٩٠٦م، ١٣٢٤هـ.

(٢) «دليل المسلم الحزين» لحسين أحمد أمين ص(١٤١) ـ طبعة مدبولي/ نقلاً عن إسلام آخر زمن: للأستاذ منذر الأسعد ص(٨٤) ـ دار المعراج ١٤١١هـ.

ليستبدوا بالمرأة، فينفّسوا عن قهرهم سياسيًّا واجتماعيًّا»[١].

❑ وأتى عبدالله عنان فأنكر أحاديث المهدي المنتظر والمسيح وكتب تحت عنوان «أساطير دينية عماد حوادث كبرى في التاريخ»: «لم تزدهر هذه الأساطير من الوجهة العلمية قدر ازدهارها في الدول الإسلامية، وكانت أسطورة المهدي من بينها أقواها وأبعدها أثرًا.. ومثل أسطورة المهدي المنتظر أسطورة المسيح وهي ترجع إلى أصل يهودي ولها في الإسلام مكان أيضًا، بل تُمزج أحيانًا بأسطورة المهدي فيُقال: إن المسيح المنتظر يظهر في أثر المهدي أو يظهر معه ويأتّم به».

*** وعلى الدرب سار الدكتور مصطفى محمود:**

فأنكر شفاعة الرسول ﷺ وأنكر الرجم وردّ الأحاديث منذ ربع قرن من الزمان حين أفادتنا مجلة «صباح الخير» في العدد (١٠٩٣) بتاريخ ١٩٧٦/١٢/١٦ بوقوف الدكتور على فقه منكري السنّة وتأييده لهم، فهو يسير على منوالهم. وصدق القائل: «إن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة فعليكم بالعتيق»[٢].

* منكر السنة مصطفى كمال المهدوي صاحب كتاب «البيان بالقرآن» وتصدي الشيوخ في ليبيا له:

هذا الدجال المولود في الإسكندرية عام ١٩٣٤م لأب ليبي وعمل بالقضاء في ليبيا منذ عام ١٩٦٠م حتى أحيل للتقاعد على وظيفة مستشار عام ١٩٩٤م أشار إلى إنكاره للسنة الدكتور طه حبيشي..

---

(١) «موقف القرآن من حجاب المرأة» لحسين أحمد أمين/ الأهالي القاهرية ١٩٨٤/١١/٢٨م عن كتاب «غزو من الداخل» ص(٥٥).

(٢) «السياسة الأسبوعية» ص(١٧) العدد ٩٥ بتاريخ ١٩٢٧/١٢/٣١م.

كتب هذا الضال سلسلة مقالات في الصحف الليبية تحت عنوان «أفلا يتدبرون القرآن» ثم نشرها في كتابه الذي يحمل فكره «البيان بالقرآن» وقام الشيوخ في ليبيا ضده وعلى رأسهم الشيخ المستشار القضائي علي ونيس أبو زغيبة الذي كان يقف على منبر مسجده كل جمعة ويصفه «بالجهول الظلوم السفيه المتسلط» وردّ عليه الأديب عبدالكريم الوثّاق بعنوان «محاكمة البيان بالقرآن» جمع فيه ما نُشِر في الصحافة من هجوم ونقد ضد الكتاب.

❑ يقول هذا المأفون في إنكاره لحد الرجم للزانية المحصنة:

«إن لفظيْ الزاني والزانية جاء مُعَرّفين بالألف واللام بما يدل على ثبات الحال ودوامه في ممارسة الزنا، ولذا فلا ينطبق الحد الشرعي على الزاني والزانية إلا إذا كان ذلك عملاً مستمراً وثابتًا، أما الذي يزني مرة أو اثنين لشهوة أو نزوة أو غير ذلك فلا يُقام الحدّ عليه، أما المرأة فتحبس في بيتها حتى يتوفاها الموت أو يجعل اللّه لها سبيلاً». ولقد أطلق هذا الضال لفظ «أوصياء على الدين» بصفة الذم على أبي هريرة وابن عباس وأم المؤمنين عائشة ﷺ.

❑ ويقول: الإسلام قرآن وسنن الأنبياء جميعًا!!! ليس قرآن وسنة، وحينما سُئِل ماذا تقصد بسنن الأنبياء؟ قال: أن نصبر كصبر يعقوب.

❑ وهو يقول إن الصلوات المفروضة خمس صلوات: «الصلوات الخمس حسب القرآن هي: فجر، وصبح، وظهر وعصر، وصلاة واحدة من دلوك الشمس إلى غسق الليل». ويقول: «الصلاة ركعتان ـ لجميع الصلوات من صلاة الصبح وحتى صلاة الدُّلوك». وكان يقول: «السنة ليست منهاجي، ولا أقبل غير منهج القرآن، ليس عندي غير القرآن ولا تلزمني بالسنة. والسنة نعرضها على القرآن».

❑ ويقول عن «العمرة» في كتابه ص(٩٤): «والعمرة هي عمارة المسجد

الحرام وهي واجبة للمساجد جميعًا، وتكون بالبناء والترميم والفرش والإضاءة والمصاحف والصلاة فيها»!! أمّا الحج عنده فطوال ستة أشهر تقريبًا.

❑ يقول هذا المأفون: «إن اللّه تبارك وتعالى حفظ لنا كتابه، وفيه الدين كله مفصّل، وفيه السنّة أيضًا، فيما تصف الآيات الكريمة خُلُق الرسول الكريم وأفعاله وأقواله فيجب أن نكتفي بذلك ونهجر ما سواه. إنه من الصعف أن نتأكد من أن الذي كتب صحيح البخاري هو البخاري نفسه.

إن ما يُوصف بأنه سنة رسول اللّه ﷺ من حيث كونها تكميلاً للقرآن أو تفصيلاً أو تفسيرًا لهو مردود مرفوض بآيات القرآن.

ويقول عن الصلاة في كتابه «قراءة الفاتحة ليست شرطًا في الصلاة، وإنما تُقرأ لأنها من القرآن. والفاتحة ليست هي السبع المثاني، والسبع المثاني هم العينان والشفتان والأذنان.. إثباتًا لبشرية النبي.

❑ تسبيح المصلي في ركوع أو سجود وقول سمع اللّه لمن حمده كله باطل.

❑ ليست هناك صلاة جهرية وأخرى غير جهرية، ولا تشهد أوسط أو أخير إذ تنتهي الصلاة بالسجود.

❑ لا صلاة جمعة إنما المقصود بآية النداء هو قول الصلاة جامعة عند كل صلاة مفروضة في يوم الجمعة، إذ لا أذان للصلاة في بقية الأيام»[1].

❑ وفي فتوى له عن حكم أكل لحوم الكلاب قال: إن القرآن الكريم لم يرد فيه نص واحد يحرّم على العموم أكل الكلاب الضالة والمستأنسة، ولذا فإن لحم الكلاب طعام شهي لمن يريدون أكله ولا إثم عليهم فيما يفعلون.

---

(١) «شبهات وشطحات منكري السنة» لأبي إسلام أحمد عبداللّه ص(٧٩ ـ ٩٤) ملخصًا.

*** العقيد معمر محمد عبدالسلام أبو منيار القذافي وإنكاره للسنة وتصدي العلماء له وعلى رأسهم شيخ الإسلام عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ:**

«في ٣/ ٧/ ١٩٧٨م عُقدت في طرابلس «ليبيا» ندوة علمية حول منزلة السنّة النبوية من القرآن الكريم شارك فيها عدد من مفكري البلاد الإسلامية، تحدّث فيها الرئيس معمر القذافي، مُركّزًا على التناقضات التي ادّعاها في الأحاديث النبوية التي تحتويها كتب الصحاح والسنن مستشهدًا بعدد من النصوص الحديثة التي يتصور أن بينها تناقضًا ثم ختم حديثه قائلاً:

«إن في البخاري ومسلم أحاديث منسوبة إلى النبي ﷺ لا تتفق مع القرآن، وقد دُوِّنت بعده بأكثر من مائتي سنة، يرتفع فوقها علامة استفهام»، ثم يضيف: «إذن لنجمع كل ما قيل من حديث ونقارنه بالقرآن فالذي يتفق معه نعمل به، والذي لا يتفق معه لا نعمل به، ولا نقول: قال البخاري وقال مسلم فالقرآن معروف ومحفوظ ولا يختلف فيه المسلمون من جاكرتا إلى طنجة» بثّت قنوات الإذاعة والتلفاز الليبية ونقلت على الهواء مباشرة هذه الكلمات القاسية على كل نفس تنتمي إلى عقيدة الإسلام، فكانت صدمة ألجمت كل ألسنة المسلمين في ليبيا الشقيقة، وهم يستمعون إلى رئيسهم في أطول حديث وأجرأ حديث سهر أمامه الشعب الليبي حتى الثانية من صباح اليوم التالي.

وقبل أن يُشرق شمس اليوم الجديد، كانت ليبيا ثلاثة أحزاب:

أولها: الحزب الذي صفّق طويلاً سعيدًا بما أسمَوْه في صحفهم «بروتستانتية» إسلامية جديدة.

وثانيها: الحزب الذي حبس غضبه في صدره مكلومًا، يضرب أهله كفًّا في حسرة وألم قائلين: وإن سلّمنا جدلاً أن هناك بعض الأحاديث النبوية

المنسوبة كذبًا إلى النبي في كتب الحديث، فهل يجوز أن نتخذ ذلك تكأة لهدم كل معتقدات المسلمين؟!

أما ثالث الأحزاب: فهم هؤلاء الذين التزموا الصمت، إمّا جهلاً بخطورة ما سمعوا، أو خوفًا من تبعة الغضب فيما لو عبّروا عن مشاعرهم، أو تجاهلاً متعمّدًا»[1].

*** وفرية أخرى: ادّعاء النبوة:**

أعدّت الكاتبة الإيطالية ميريللا بياتكو، كتابًا باللغة الفرنسية صدر عن شركة stoc في باريس وطُبع في مطابع دار الشورى ببيروت في ١٥/ ٢/ ١٩٧٤م تحت عنوان «القذافي رسول الصحراء».

وكان سؤال المؤلفة لمعمر القذافي بهذه العبارة: يا رسول اللَّه!! أرعيتَ الغنم؟ فأجاب العقيد: بلى فلم يكن هناك نبي لم يفعل ذلك.

Envoyed. allah tuas donce etetre de moutons?

Qui etil yapas de prophete Qui ne laitete.

❑ وجاء الرد «ببيان من الرئاسة العامة للمجلس الأعلى للمساجد حول ما دار مع العقيد معمر القذافي حول إنكاره للسنّة النبوية كمصدر للتشريع كما تناقلتها الصحف والأنباء»: على لسان الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ «قام وفد من الأمانة العامة للمجلس المذكور برئاسة فضيلة الشيخ صالح بن محمد اللحيدان عضو مجلس القضاء الأعلى بالمملكة العربية السعودية وعضوية كل من فضيلة الشيخ أبي بكر محمود جومي كبير قضاة نيجيريا وعضو الرابطة ومجلس المساجد، وفضيلة الشيخ أحمد الحماني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في الجزائر وعضو الرابطة ومجلس المساجد، وفضيلة الشيخ علي

(١) المصدر السابق ص(١١٨).

مختار الأمين العام المساعد للمجلس الأعلى العالمي للمساجد بزيارة الجماهيرية الليبية بناءً على ما دار بين الأمانة والجماهيرية للبحث مع فخامة العقيد معمر القذافي حول ما تناقلته الصحف والأنباء من إنكاره للسنة النبوية أن تكون مصدرًا من مصادر التشريع الإسلامي.

وقد تم بالفعل اجتماع الوفد بفخامته في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم الأربعاء الثاني عشر من شهر صفر ١٣٩٩هـ في مدينة بني غازي بليبيا وتبادل الجميع وجهات النظر، وبيّن الوفد لفخامته الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة على عظيم منزلة السنة في الإسلام، وأنها الأصل الثاني في إثبات الأحكام وأن العلماء قد عنوا بها وعرفوا صحيحها من سقيمها، ووضعوا لذلك قواعد وأصولاً يُعرف بها صحيح الأحاديث من ضعيفها، وأجمعوا على اعتماد ما صحت به الأحاديث فأظهر اقتناعه بأكثر ما قاله الوفد، وأوضح فخامته للوفد موقفه من الكتاب والسنة والحديث. وأنكر بشدة ما نُسب إليه من أنه حذف كلمة «قل» من «قل هو اللَّه أحد» أو أنه صلى العصر ركعتان حضرًا، كما أوضح للوفد بأنه يعترف بالسنة الفعلية فقط كالصلاة والحج أما الأحاديث القولية فإن ما يصح عنده منها يعمل به ووعد أنه سيُعلن ذلك على الملأ.

هذا ملخص قرار الوفد وقد سرّنا كثيرًا رجوع فخامة العقيد إلى الصواب في الأخذ بالسنة الصحيحة، وقد دلّت الأدلة من الكتاب والسنة الصحيحة واجتماع أهل العلم على أن السنة الصحيحة القولية والفعلية والتقريرية أصل عظيم من أصول الإسلام، وهي الأصل الثاني في إثبات الأحكام الشرعية وبيان الحلال والحرام، وهي الوحي الثاني، كما أجمع العلماء أيضًا على أن من جحد كون السنة أصلاً معتبرًا يرجع إليه في الأحكام، وزعم أنه يكتفي بالقرآن عنها فهو كافر مرتد عن الإسلام، وقد صنف في ذلك الحافظ السيوطي رسالة سمّاها «مفتاح الجنة في الاحتجاج

بالسنة» ذكر فيها الأدلة من الكتاب والسنة والآثار على وجوب تعظيم السنة والأخذ بها وأنها الأصل الثاني من أصول الإسلام، كما ذكر فيها إجماع العلماء على كفر من أنكر السنة وزعم أنه لا يحتج إلا بالقرآن، ولا شك أن من أنكر السنة فقد أنكر القرآن وكذّبه؛ لأن القرآن الكريم قد أمر في مواضع كثيرة بطاعة الرسول ﷺ واتّباعه وعلّق الرحمة والهداية ودخول الجنة والنجاة من النار على ذلك.

❑ وقد كتبنا في هذا المقام مقالاً أبسط من هذا البيان ننشره قريبًا إن شاء اللَّه.

❑ فالواجب على فخامة العقيد أن يعلن توبته إلى اللَّه سبحانه من إنكاره ما أنكر من السنة، وأن يعلن التزامه بما صح منها عند أهل العلم كأحاديث الصحيحين وغيرها مما صحّ عن رسول اللَّه ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريرًا.

وهنا أمر عظيم يهمّ القرّاء والمسلمين يتعلّق بفخامة العقيد، ويجب علينا التنبيه عليه وبيان حكمه، وهو أن الكاتبة الإيطالية (ميريلابيانكو) قد ذكرت في كتابها (القذافي رسول الصحراء) ص(٢٤١) عن فخامة العقيد ما يدلُّ على أنه يدّعي أنه رسول من رسل اللَّه، وقد خاطبته في الصفحة المذكورة بقولها له: يا رسول اللَّه أكنت راعي غنم؟ فأجابها بقوله: «بلى فلم يكن هناك نبي لم يفعل ذلك»، وهذا الجواب يقتضي إقراره لها على أنه رسول اللَّه؛ لأنه لم ينكر عليها ولم يقل لست برسول، ومعلوم أن دعوى الرسالة أو النبوة بعد نبينا محمد ﷺ كفر أكبر وضلال عظيم وردّة عن الإسلام بإجماع المسلمين؛ لأن ذلك تكذيب لقول اللَّه عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وتكذيب لما تواترت به الأحاديث عن رسول اللَّه ﷺ الدالة على أنه خاتم

النبيين والمرسلين لا نبي بعده ولا رسول، وقد قاتل الصحابة ﷺ من ادّعى النبوة بعده واعتبروه كافراً حلال الدم والمال كالأسود العنسي ومسيلمة الكذاب والمختار بن أبي عبيد الثقفي، وقد أجمع علماء الأمة إجماعًا قطعيًّا على أن نبينا محمدًا ﷺ هو خاتم النبيين والمرسلين لا نبي بعده ولا رسول، وقد كفّر العلماء في عصرنا وقبل عصرنا مرزا غلام القادياني لما ادعى النبوة، وكفّروا من صدّقه في ذلك.

فالواجب على فخامة العقيد أن يُعلن في وسائل الإعلام تكذيبه لما زعمته هذه الإيطالية وأنه يبرأ إلى اللَّه من ذلك إن كان ذلك لم يقع منه، فإن كان وقع منه فالواجب عليه إعلان التوبة النصوح من ذلك، ومن تاب تاب اللَّه عليه، كما دلّ على ذلك كتاب اللَّه المجيد وسنّة رسوله الكريم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ومن قول اللَّه سبحانه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠]. فبيّن سبحانه أنه لا بدّ من إعلان التوبة وبيان ما كتم من الحق، وقال النبي ﷺ: «**التوبة تهدم ما كان قبلها**». والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، ونسأل اللَّه أن يهدينا وإياه سواء السبيل، وأن يمنّ علينا وعليه وعلى سائر المسلمين بالتوبة النصوح من جميع الذنوب إنه وليّ ذلك والقادر عليه وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان» انتهى رد فضيلة الشيخ ابن باز على القذافي[1].

(١) مجلة البحوث الإسلامية ـ العدد الخامس محرم ـ جماد الثاني ١٤٠٠ هـ تحت عنوان «ايضاحات وتنبيهات» لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ص(٢٦٢ ـ ٢٦٣)، ومجلة المجتمع الكويتية العدد ٣٩٣ ص(٢١)، وكتاب «السنة باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي» لمحمود صالح شريح ص(٣٥٣ ـ ٣٥٤). وهذه رسالة ماجستير في الشريعة الإسلامية بالجامعة بالمدينة المنورة.

فللَّه درّ ابن باز من مدافع صلب عن الإسلام وعقيدة أهل السنة والجماعة من سلفنا الصالح.

* شطح وانفلات:

في يوم الاثنين ١٨ من ذي الحجة ١٤٠٠هـ الموافق ٢٧ من أكتوبر ١٩٨٠م صدرت جريدة أخبار العالم الإسلامي التي تصدرها «رابطة العالم الإسلامي» من مكة المكرمة، تحمل مانشيتًا رئيسيًّا «القذافي رأس حربة ضد الإسلام» أما الخمس عشرة صفحة التالية من الجريدة فكانت عبارة عن ملف صحفي عن إنكاره حجية السنة النبوية، وادعائه النبوة، وإنكاره تعدد الزوجات، وحجاب المرأة في القرآن، وإلغائه العمل بالتاريخ الهجري، وتأييده الاستعمار الروسي لأرض أفغانستان، ثم دعوته المصلين في صباح عيد الأضحى من هذا العام إلى ترك الحج قائلاً: «فليعلم المسلمون في كل مكان من العالم أن مكة الآن، الكعبة الشريفة، بيت اللَّه، وأن المدينة المنورة وقبر الرسول، وأن جبل عرفات المقدس تقع الآن تحت طائلة الاحتلال الأمريكي، فأي معنى للحج هذا العام أو في الأعوام القادمة إذا استمر الاحتلال، إن المعنى الوحيد هو القتال والجهاد لتحرير بيت اللَّه، ومن يمارس شعائر الحج متجاهلاً هذه الحقيقة إنما هو يمارس عبادة ساذجة ليست هي التي أرادها اللَّه، والآن المسلمون يؤدون شعائر الحج تحت ظلال الطائرات الأمريكية[1]، وعندما يرفعون رءوسهم إلى السماء وهم يدعون تسقط عليهم نفايات وفضلات الطائرات الأمريكية ويعتقدون أنهم سيعودون وقد غُفرت ذنوبهم وقُضيت حوائجهم، ولن تغفر الذنوب ولن تُقضى الحوائج إلا إذا تحوّل الحج إلى معركة، وتحوّل الدعاء للغفران إلى دعوة للجهاد والقتال»[2]..

(١) أي صفقة طائرات التصنت.

(٢) «شبهات وشطحات منكري السنة» لأبي إسلام أحمد عبداللَّه ـ جريدة الأحرار ١١ =

ثم بعد هذا يدافع عنه د. محمد بن عبدالكريم الجزائري الليبي المولد والجنسية في كتابه «القذافي والمتقوّلون عليه»:ـ

فلتسمعنّ بكل أرض داعيًا ... يدعو إلى الكذّاب أو لسجاح
ولتشهدن بكل أرض فتنة ... فيها يُباعُ الدين بيع سماحَ
يُفتى على ذهب المعز وسيفه ... وهوى النفوس وحقدها الملحاح

نعم انظر إلى طوام العقيد:

ـ يبيح التعدد من اليتيمات فقط!!

ويقول: «كل من يخرج على القرآن هو من الخوارج ولو كان مسلمًا، وبذلك تنتهي مشكلة: هذا مسلم وهذا مسيحي»[1].

❑ يقول الدكتور جابر قميحة أستاذ الأدب العربي بكلية الألسن جامعة عين شمس عن المجموعات القصصية التي كتبها معمر محمد عبدالسلام أبو منيار القذافي والتي أثنى عليها حملة المباخر من جوقة النقاد المسبّحين لهذا العمل الفذ، والتي هبت وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية بالجماهيرية الليبية ابتداءً من ديسمبر عام ١٩٩٣م تعلن في أوقات متواصلة طلوع نجم السياسي الكاتب العقيد القذافي من خلال هذه المجموعة القصصية.. يقول الدكتور جابر قميحة عن أدب العقيد في مجموعاته القصصية: «إن الأدب المقصود حرص فيه كاتبه أن يزرع في تضاعيفه أساليب سمّاها حواريوه من النقاد «سخرية راقية»، وهي في الحقيقة إذا ما قدمنا مفارقة بين السخرية الأدبية والفنية، وبين التهريج، لأدرك القارئ بسهولة؛ أن ما قدّمه القذافي الأديب يمثل تهريجًا في صورته الهابطة المبتذلة.

= جمادي الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٢٢ أغسطس ١٩٩٩ ـ الحلقة (١١).

(١) «شبهات وشطحات منكري السنة» ص(١٢٦).

لأنه في بساطة قول، تهكّم في قصصه الأدبية هذه، بأسلوب سوقي على بعض صحابة رسول اللَّه ﷺ، من أمثال خبيب بن عدي، وخالد بن الوليد، وأم أيمن، واستهزأ بعلماء السلف من أمثال ابن تيمية وأبي حامد الغزالي والحافظ ابن كثير، ونال من سيد قطب والبنا، إلى أن بلغ به الأمر إلى التهكّم على أم المؤمنين زينب رضي الله عنها.

وحتى لا يظن ظان بنا سوء فالمجموعة القصصية يمكن الحصول عليها، والتهكم والاستهزاء ليس فيه تورية مما قد يكون حمّالاً للتأويل أو التجني على الكاتب، إنما كان الكاتب العقيد واضحًا في ذلك تمام الوضوح»[1].

❑ يقول القذافي في خطبة ١٢ ربيع الأول ١٣٨٧ (١٩/ ٢/ ١٩٧٨) عن النبي ﷺ نصًّا بأنه «مجرد بوسطجي»، وقال بالنص في هذه الخطبة: «إن المسلمين ابتعدوا عن الدين الإسلامي وهم في طريقهم إلى النتيجة التي وصل إليها المسيحيون، ونحن الآن بدأنا عبادة الأصنام، وبالأحرى في بدايته، فنحن نجسّم النبي حتى يحجب اللَّه، ولو قلت لكم «رسول اللَّه» لقلتم كلكم «صلى اللَّه عليه وآله وسلم» ولو قلت لكم: «اللَّه»: لما تكلم أحد، وهذا نوع من الاستعباد والوثنية». وقال نصًّا: «إن صلاتنا على النبي ﷺ تعني أننا نخافه أكثر من اللَّه أو أننا نرى الرسول أقرب إلينا، مثل المسيحيين الذين قالوا: إن عيسى أقرب من اللَّه»[2].

❑ ويقول في خطابه هذا المطبوع ص(١٤): «النبي لو كان يقول: اتبعوا حديثي، يعمل بديل للقرآن، لكنه باستمرار كان يؤكد تمسكه بالقرآن فقط»!!!

---

(١) المصدر السابق «شبهات وشطحات منكري السنة» ص(١٤٠) ـ انظر جريدة الأحرار ٢٠ جمادي الأولى ١٤٢٠هـ ـ ٣١/ ٨/ ١٩٩٩ ـ الحلقة (٢٠).

(٢) المصدر السابق ص(١٤٢، ١٤٣).

وص(١٦): «القرآن لم يرد فيه أن النبي قال عليكم أن تتبعوا كل الكلام الذي قلته وإلا فأين الكلام الذي قاله لمدة أربعين عامًا قبل البعثة»[1].

وقال ص(٢٣): «لو كان الحديث الذي يقوله الرسول يُعتد به أو يُؤخذ كشريعة، لوجب أخذ كل كلامه حتى الذي قبل الرسالة».

وص(٢٦): «سنّة النبي هي عمله، وليس كلامه، فهل النبي كان يسرق؟ طبعًا لا، هذه سنّة من سننه، ومن أخلاقه أنه لا يكذب ولا يسرق، ويتصف بالأمانة والنزاهة، هذه هي السنّة، أي أنها تصرّف النبي وطريقته في ذلك، إذن كيف نأتي بعد ألفيْ سنة، ونقول إن الحديث هو السنّة».

❑ ويقول في قصته «الموت» محددًا جنس الموت فيقول عنه بأنه «أنثى، لأن أباه؛ ـ أبا معمر القذافي ـ استسلم له في النهاية، ولو كان ذكرًا لقاومه وانتصر عليه فيقول نصًّا: «ولكني تأكّدت أخير أنه أنثى لأن أبي استسلم لها يوم ٨/ ٥/ ١٩٨٥ ولم يحرّك ساكنًا لمقاومتها».

وفي مجموعته القصصية «الفرار والموت» التي تضم اثنا عشر عملاً «المدينة، عشبة الخلعة، ملعونة عائلة يعقوب ـ أفطروا لرؤيته ـ دعاء الجمعة الآخرة ـ وانتهت الجمعة دون دعاء ـ المسحراتي ظهرًا ـ القرية القرية ـ الأرض الأرض ـ الفرار إلى جهنم ـ الموت. . .

يقول في «دعاء الجمعة الآخرة» هازئًا بالكتب الشرعية: «فقه السنّة في استعمال الشامبو والحنّة» و«الكناش في دخول الجنة ببلاش»، ويصف مؤلفات ابن تيمية الذي يقول عنه ساخرًا «تيمية» بدلاً من ابن يقول عنها: «تشرح لكم حكمة الأكل بثلاث صوابع، والأكل وأنت متكئ، والأكل في قصعة العود أو قصعة الحديد».

---

(١) هو نفس كلام رشاد خليفة.

❑ وفي عمله «وانتهت الجمعة بدون دعاء» يقول مستهزئًا متهكمًا من «أم أيمن» رضي الله عنها والتي كان النبي ﷺ يناديها «يا أمي»، ويقول: «هذه بقية أهل بيتي»، يقول عنها: «أم أيمن كادت تموت عطشًا بين مكة والمدينة وهي صائمة، فنزل عليها حساء من شوربة بالمعدنوس، ودلو ماء معدني ماركة «أفيان» ولم تعطش طيلة عمرها بعد «أفيان»، ويقول عن خبيب بن عدي رضي الله عنه: «وهل العنب الذي كان يسقط على خبيب بن عدي، وهو أسير عند المشركين في مكة، كان من كوكب الزهرة، أم من كوكب عطادر؛ لأن مكة لا عنب فيها». ويقول عن سيف اللَّه خالد: «إن خالدًا حاصر حصنًا منيعًا للروم، وطلب منهم التسليم فقالوا له: لا نسلم حتى تشرب السم، فشرب قدحين منه ولم يوجعه مصران واحد من مصارينه»[1] انتهى ولا تعليق.

* دجّال السودان حسن الترابي يردّ السنة، وينحرف عن قواعد الدين ويطعن في الصحابة وينكر حدّ الردة والرجم ويمجّد الفن ورقص الغرب!!

من أراد أن يعرف ضلال هذا الرجل فلينظر إلى بعض أخطائه كما يعددها فضيلة الدكتور جعفر شيخ إدريس:

- نظرته للسنة النبوية المطهرة.
- نظرته لصحابة رسول اللَّه رضي الله عنهم.
- نظرته إلى فقهاء أمة الإسلام.
- نظرته إلى مجمع تاريخ المسلمين.
- إنكاره لبعض الحدود الشرعية.

---

(١) «شبهات وشطحات منكري السنة» ص(١٤٧، ١٤٨)، وجريدة الأحرار ٢١ جمادي الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١/٩/١٩٩٩ ـ الحلقة (٢١).

ـ آراؤه المتناثرة في الاجتهاد والمرأة والموسيقى.

وزد على ذلك نظرته أنه لا ضابط لتفسير القرآن إلا ما يمليه تجديد اللغة والاستحداث الاجتماعي والإعمال العقلي لفهم الدلالة دون أية قيود أو قوالب.

وقد تصدت له جماعة أنصار السنة بالسودان بشيوخها من علماء الدعوة السلفية، وتصدّى له الدكتور عصام البشير وهو من قيادات العمل الإسلامي بالسودان وفي خطب الجمعة أعلن هذا الداعية الصادق بكل وضوح وعلى الملأ الحرب على فكر الترابي، وأهال كل تراب السودان على رأسه، وما تحويه من نظريات تجديدية.

*** آراؤه في العقيدة:**

يذهب الرجل إلى قول ما سبقه إليه أحد وهو تجديد العقيدة فيقول: «لا بد إذن من تجديد الفكر العقدي الإسلامي في كل طور؛ لأن الشرك في كل عهد من العهود يتخذ مظهرًا مختلفًا»[(١)].

ويقول: «كذلك ينبغي لفقه العقيدة اليوم أن يستغني عن علم الكلام ويتوجّه إلى علم جديد غير معهود للسلف»[(٢)].

ويقول: «لا تجد في مباحث العقيدة حديثًا عن الفن، كأن التوحيد يجمع الحياه كلها صلاتها ونسكها ومحياها ومماتها ويترك الفن ولكن الواقع أن مباحثنا العقدية الإسلامية مباحث فقيرة وليست مباحث توحيدية»[(٣)].

---

(١) «تجديد الفكر الإسلامي» لحسن الترابي ص(٤٢) ـ الدار السعودية للنشر طبعة ٢ ـ ١٤٠٧هـ.

(٢) المصدر السابق ص(٤٤).

(٣) من محاضرة له ألقاها في الخرطوم وقوله هذا مسجّل بصوته.

● ويقول عن الرسول ﷺ: «ما برضه الرسول ﷺ لا يعلم الغيب ومرات مرات يقول أخبار تطلع غلط»[١].

❑ ويقول عن حديث الذبابة: «إنه أمر طبي آخذ فيه بقول الكافر ولا آخذ بقول الرسول ﷺ ولا أجد في ذلك حرجًا ألبتة»[٢].

❑ ويقول في عصمة النبي ﷺ: «ولا إيه تقول في القرآن في العملوه الأنبياء ديل والرسول ذاتو ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، و﴿ويتوب الله عليك﴾ وكان الرسول يستغفر، يستغفر من إيه؟ من الصلاة؟ هآ هآ هآ هآ.

❑ وهو ينكر نزول المسيح عليه السلام:

قال محمد سرور بن نايف «أنكر أستاذ الحقوق الدستورية في الجامعات السودانية الدكتور حسن عبدالله الترابي نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان، فقلت له في مجلس ضمّنا قبل أكثر من إحدى عشرة سنة، كيف تنكر حديثًا متواترًا؟ قال: أنا لا أناقش الحديث من حيث سنده وإنما أراه يتعارض مع العقل، ويُقدّم العقل على النقل عند التعارض، وقال أيضًا: هناك أحاديث قالها الرسول ﷺ بصفته البشرية فهي ليست حجة رغم صحة أسانيدها وتوسّع في ذكر نماذج من هذه الأحاديث»[٣].

❑ ويقول في محاضرة له مسجلة بصوته «كل الصحابة عدول؟ ليه؟!!»[٤] أي لماذا؟!

---

(١) «الصارم المسلول على الترابي شاتم الرسول» لأحمد بن مالك جامعة أم درمان قسم الدراسات العليا.

(٢) نقلاً عن محاضرة له بصوته.

(٣) «الصارم المسلول» ص(٦)، وكذلك قوله هذا مسجل بصوته في محاضرة له.

(٤) «دراسات في السيرة النبوية» لمحمد سرور بن نايف ص(٣٠٨) طبع دار الأرقم، وتاريخ

❑ ويقول عن تنظيمه الذي يترأسه في السودان مفضلاً له على مجتمع الصحابة: «يعني نحن هسع[١] مثلاً تنظيم جماعة كالجماعة الإسلامية طبعًا أدقّ من تنظيم جمهور المسلمين في عهد الصحابة طلّعو لهم مجتمع (أي الصحابة) نحن مآخذين منه نفس الآيات ونفس الأحاديث، طلّعنا مجتمع أدق وأكفأ وكده»[٢].

❑ ويقول في سخرية عن ابن عباس: «وابن عباس ده كم مره قال كلام كده، زرّوه[٣]، الآخر كده قال: ما قال الرسول، في الحقيقة كلّمني الفضل ابن عباس»[٤].

❑ ويقول: «الصحابة، السيدة عائشة ما كانت تناقش الصحابة وتقول: كذبوا على رسول اللَّه ﷺ»[٥].

* إنكاره لبعض الحدود:

في محاضرة له بجامعة الخرطوم أجاز للمسلم أن يرتد عن دينه فقد قال: «وأود أن أقول إنه في إطار الدولة الواحدة والعهد الواحد يجوز للمسلم كما يجوز للمسيحي أن يُبدِّل دينه»[٦].

❑ ويقول عن الحكم في الردّة: «هو حكم اجتهادي في تقديري وليس حكمًا حَدِّيًّا»، وجوّز هذا المأفون زواج المسلمة من الكتابي نقل ذلك عنه

= كتابة المقال في شوال ١٤٠٦.

(١) الآن.

(٢) محاضرة مسجلة له.

(٣) أي: ضيّقوا عليه حتى يبيّن الحقيقة.

(٤) من محاضرة له مسجلة.

(٥) «الصارم المسلول» ص(٨).

(٦) من محاضرة «تحكيم الشريعة» بجامعة الخرطوم نقلاً عن «الصارم المسلول» ص(١٢).

الدكتور محمود الطحان في كتابه «مفهوم التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد»، ويقول إن الشيخ السنانيري ظل يحاوره على مفهومه هذا الخاطئ طويلاً وما اقتنع وما عدل عن رأيه.

وهو ينكر حد الرجم بالنسبة للزاني المحصن[١] ، أما حدّ شرب الخمر فيقول الترابي: «وكانت العقوبات التي افترضناها (أي في لجنة تعديل القوانين) لشرب الخمر رفيقة لا تتعدى الجلد بين عشرين وأربعين ولا تتعدى السجن نحو شهر أو أكثر من ذلك بقليل وغرامة قليلة»[٢] .

❑ ويقول هذا الضال في هذيانه بدعوى تجديد أصول الفقه: «لا بد أن نقف وقفة مع علم الأصول تصله بواقع الحياة؛ لأن قضايا الأصول في أدبنا الفقهي أصبحت تُؤخذ تجريداً حتى غدت مقولات نظرية عقيمة لا تكاد تلد فقهًا البتة، بل تولد جدلاً لا يتناهى».

❑ وانظر إلى قوله في تجديد «الإجماع» وهو الأصل الثالث من أدلة الشرع بعد الكتاب والسنة وكما هو معلوم فإنه إجماع المجتهدين من الأمة لا إجماع الجهال.. يقول: «فيمكن أن نرد إلى الجماعة المسلمة حقها الذي كان قد باشره عنها الفقهاء.. وهو سلطة الإجماع. ويمكن بذلك أن تتغيّر أصول الفقه والأحكام ويصير إجماع الأمة المسلمة أو الشعب المسلم، وتصبح أوامر الحكّام كذلك أصلين من أصول الأحكام في الإسلام»[٤] .

---

(١) انظر «مفهوم التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد المعاصرين» للشيخ محمود الطحان ص(٣١) مكتبة دار التراث. وكتاب «الصارم المسلول» ص(١٢).

(٢) «الصارم المسلول» ص(١٢).

(٣) «تجديد أصول الفقه» للترابي ص(٧) الدار السعودية للنشر ط ١٤٠٤هـ.

(٤) المصدر السابق ص(٥٨).

* موقفه من الفن:

انظر إلى مدّعي التجديد والمزكي لنفسه يقول نصًّا: «كما قدّر اللَّه وأرسل محمد ﷺ وتلا (أي: تاليًا) للأنبياء ليجدّد رسالتهم، فبتوفيق من اللَّه أرسلني لتجديد فقه محمد».

ويقول عن الفنانين: «قد يكون باب الجنة الذي يدخلون به، اسمه «باب الفنانين في الجنة»[1].

وقال محذرًا من إهمال الفن:

«فلا بد إذًا من اتخاذ الفن لعبادة اللَّه، فمن تلقائه يضل كثير من الضالين وبه يمكن أن يهتدي المهتدون، فمن أهمله ترك بابًا واسعًا للفتنة الملهية عن اللَّه والداعية إلى معاصيه، ومن أخذه بما ينبغي فتح بابًا واسعًا للدعوة إلى اللَّه بدفع جاذبية الجمال ولعبادته أجمل وجوه العبادة»[2].

وخذ آخر الطوام لهذا الضال الذي يجعل للراقصين والراقصات والمطربين والمطربات وممثلات الإغراء وعرايا الفن السابع بابًا في الجنة باسمهم يقول عن «الرقص» لجريدة «الصحافة» السودانية.

«الرقص تعبير جميل يصور معنى خاصًّا بما تنطوي عليه النفس البشرية من شعور.. إلى أن يقول: «ولا ننكر أن في الغرب رقصًا يعبّر عن معاني أُخر كريمة»[3].

أخزاك اللَّه فليس بعد هذا إسفاف وابتذال وجنون.

---

(١) «الدين والفن» للترابي ص(١٠٦)، الدار السعودية للنشر ط١ ١٤٠٨هـ، ومحاضرة له ـ وقوله هذا مُسجّل فيها بصوته.

(٢) «الدين والفن» ص(١١٠).

(٣) جريدة الصحافة الصادرة في الخرطوم ١٥/١١/١٩٧٩م نقلاً عن «الصارم المسلول» ص(١٢).

في ذمة العلماء هذا كله إن كان فيما بيننا علماءُ

***روجيه جارودي من صنع الجهّال حوله هالات النور وهو يهدم دين اللّه من أساسه ويحطم الثوابت والسنة فيتصدى له شيخ الإسلام الفذّ الشيخ عبدالعزيز بن باز:**

حال هذه الأمة بعيدًا عن العلم حين يسود الجهال وحملة المباخر وأتباع كل ناعق من الهمج الرعاع يصوره حديث رسول اللّه ﷺ: **«إن اللّه تعالى لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»**[1].

● وقال ﷺ: **«إن اللّه لا ينزع العلم منكم بعدما أعطاكموه انتزاعًا، ولكن يقبض العلماء بعلمهم ويبقى جهال، فيسألون فيفتون، فيضلون ويضلون»**.

❑ وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قرّاؤكم يذهبون ويتخذ الناس رؤساء جهّالاً يقيسون الأمور برأيهم»[2].

لقد تكلّم في إسلام هذا الرجل الكثير وجعلوه فتحًا من فتوح الإسلام وأضفوا عليه وخلعوا عليه من الألقاب وكأنه مجدد هذا القرن، فلما ردّوا الأمر إلى شيخ الإسلام ابن باز «سقطوا على الخبير».

وقبل أن نأتي بكلام الشيخ عن جارودي نذكر بعض الأقوال لجارودي

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمي وابن ماجه عن ابن عمرو.

(٢) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٨٥٧).

يهدم بها الثوابت من دين اللَّه:

❑ قال: «دخلت الإسلام وبإحدى يديّ الإنجيل، وباليد الأخرى كتاب رأس المال لماركس ولست مستعدًا للتخلي عن أي منهما»[١].

فانتسابه للإسلام لا يعني التخليّ عن الماركسية أو ترك النصرانية!!!!

❑ ويقول عن القدر والإنسان:

«إن اللَّه لم يخلق منفذين مستسلمين للقدر، إنه جعل من الإنسان خليفة أي خليفة اللَّه[٢] على الأرض، والخليفة ليس منفذًا قدريًّا، إنه إنسان يأخذ القرارات عندما يكون الحاكم غائبًا، ولا يمكن لأي كان أن ينزع منا هذه المسئولية»[٣].

❑ أما عقيدته في اليوم الآخر:

فهي تصور غريب لا يتفق مع التصور الإسلامي فعندما سُئل عن الحساب الأخير والبعث أجاب: «إن الحساب الأخير ليس حسابًا أخيرًا يعقب هذه الحياة، فاللَّه ليس في الزمان بما يتضمنه الزمان من تعاقب بين القبلي والبعدي، والاعتراف بالحساب الأخير لا يعني إذن مقارنته بمحكمة إنسانية فالحساب الأخير ليس هو الأخير في الزمان، وإنما هو كذلك في كل آن بوصفه الحكم المطلق والنهائي وراء أحكامنا الإنسانية لأنها قائمة على ظواهر نسبية وعلى نجاحنا وفشلنا وعلى خداعنا أيضًا.. ولهذا فحساب اللَّه هو

---

(١) Montour du siecle كما جاء في تصريح له صريح بأنه لم يتخلّ عن الماركسية! انظر السبيل العدد ١٠٤، تاريخ ١٢/١١/١٩٩٥.

(٢) وهذا قول خطأ فاللَّه ليس غائبًا حتى يخلفه غيره وقد جاء في الحديث «اللَّهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في المال والأهل والولد».

(٣) الموقف ١٩٨٤ انظر كتاب رامي كلاوي «جارودي من الإلحاد إلى الإيمان» ص(١٨٥).

الحساب الأخير في قيمته النهائية، وفي اعتماده على قانون مطلق لا في مجرى الزمان، ولذا فالإيمان بالحساب الأخير يعني أن نحيا في صفاء مع اللَّه في كل آن»[١] .

مفهوم البعث:

لم يكتف جارودي بإنكار القيامة ولكنه ينكر مفهوم البعث بصفته الحقيقية: وقد قال: «ذلك هو البعث، فهو ليس ظاهرة كيميائية غريبة يُسَوّى بموجبها لحمنا ودمنا وعظامنا من جديد.

إن الأمر يتعلق بمثل ضربه اللَّه لنا وهو اللغة الوحيدة التي اعتمدها اللَّه المتعالي، الذي ليس كمثله شيء ليُوحي إلينا بحقيقته التي لا تدركها حواسنا ولا فهمنا، فالبعث ممكن كل يوم، لأن قدرتنا على تقويم ماضينا تمكننا رغم هفواتنا وذنوبنا من بعث إنسان جديد واع»[٢] !!

أما السنّة:

يقول جارودي: «إن سنّة النبي لم تُوضع لأجل المستقبل، لما بعد وفاة محمد وحسب، إذ أن اللَّه يذكّر الرسول في عدة مناسبات أن من الواجب عليه، خارج الوحي الذي يبلّغه في القرآن أن يقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢].

في القرآن أمر بطاعة النبي لا تقليده، اللَّهم إلا في إيمانه وعقيدته»[٣] .

«تُعدّ هذه المسألة عند جارودي من أخطر المسائل التي تناولها، فقوله

---

(١) مقدمة بقلم جارودي لكتاب محسن الميلي «المشكلة الدينية» ص(٧).

(٢) مقدمة لجارودي لكتاب «المشكلة الدينية» لمحسن الميلي ص(٨).

(٣) «الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها» لجارودي ص(٨٢).

يستهدف استبعاد السنة النبوية وعدم قبولها بعد وفاة النبي ﷺ»[١] .

❑ ويفتري جارودي على المسلمين بإدخالهم السنّة من خارج القرآن!!

فيقول: «لقد أُدخِل مفهوم السنة من خارج القرآن وبعد وفاة النبي ﷺ» فهو يدعو إلى الاعتماد على القرآن وحده وصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه عني إذ يقول: «لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب اللَّه! فيضلوا بترك فريضة أنزلها اللَّه، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة، أو كان الحمل أو الاعتراف. قال سفيان: كذا حفظت: ألا وقد رجم رسول اللَّه ﷺ ورجمنا بعده»[٢] .

* الوحدة الفيديرالية الإبراهيمية:

اقترح جارودي تصورا للطوائف الدينية فقال: «إن الفكرة الأولى لعلاقات المسلمين مع بقية الطوائف الدينية في فكر ورأي النبي ﷺ كانت إقامة ما نسميه اليوم «وحدة فيديرالية» للطوائف الدينية، لكن حصل أن هذا الأمر لم يتحقق أبدًا في التاريخ: لا في المسيحية ولا في اليهودية أو في الإسلام لكن أعتقد أن هذه المعادلة قابلة للعيش والاستمرار، أي أن تصل بنا إلى روابط الجماعة»[٣] .

❑ وعقيدة الولاء والبراء تخالف معتقد جارودي هذا البتة.

❑ ويقول عن تصوره لأساس الخلاف بين المسيحية والإسلام: «سنضع جانبًا أيضًا الاتهامات الموجهة من المسلمين إلى المسيحين حول سر التثليث لأن

---

(١) «فكر جارودي بين المادية والإسلام» لعادل التل ص(٧٣) ـ دار البيّنة.

(٢) **إسناده صحيح.**

(٣) «الموقف» (١٩٨٤)، وانظر كلاوي ص(١٨١).

محتوى سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يتطابق تمامًا مع قول مجمع (لاتران) المنعقد عام ١٢١٥ حول التثليث: «اللَّه أب وابن روح قدس»، وهذه حقيقة معنى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ القرآنية»[١].

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ تزوير للحقائق بصورة فاضحة من المفكر الكبير جارودي!! الذي يريد أن يجعل من الكفر إيمانًا بجرّة من قلمه.

أما عن قوله عن الحجاب وأحكام المرأة والتشريع الإسلامي فانحراف تام عن الإسلام.

من أجل فهم فتوى الشيخ ابن باز كان لا بد من هذه المقدمة حول بعض معتقدات جارودي لتعلم أي علم ووعي كان يحمله الشيخ ابن باز بين جنبيه.

بيان حكم الشرع في الجارودي
على ضوء المقابلة معه في مجلة المجلة
لسماحة الشيخ: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز[٢]

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد كثر في الآونة الأخيرة في الصحف والمجلات الكلام عن الرجل المسمى (روجيه جارودي) الشيوعي الفرنسي؛ الذي ادعى أنه دخل الإسلام عن اقتناع ومحبة ففرح بذلك بعض المسلمين وأظهروا حفاوة به، وأكرموه ومنحوه الثقة، وجعلوه عضوًا في المجلس الأعلى العالمي للمساجد في رابطة

(١) كتاب «الإسلام الحي» لروجيه جارودي ص(١٨) ترجمة دلال ومحمد طاهر.
(٢) «مجلة البحوث الإسلامية» العدد (٥٠) عام ١٤١٨هـ. ص(٣٦١).

العالم الإسلامي، وصار يحضر الندوات واللقاءات التي تعقد في العالم الإسلامي عن الإسلام متحدثًا ومناظرًا. ثم لم يلبث أن تكشفت حقيقته وافتضح أمره وبان ما كان يخفيه في صدره من حقد على الإسلام والمسلمين، وأنه لم يزل على كفره وإلحاده فانضم إلى أشكاله من المنافقين الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وآخر ما نُشِرَ عنه الحوار الذي أجرته معه مجلة المجلة في عددها (٨٣٩) حيث جاء فيه: أنه لم يتخل عن اعتقاداته الخاصة وأنه لم يعتنق الإسلام الذي عليه المسلمون، وإنما اعتنق إسلامًا آخر تخيله بذهنه زعم أنه خليط من الأديان: اليهودية والنصرانية ومن الإسلام الذي تخيله هو، لا الإسلام الذي بعث اللَّه به نبيه محمدًا ﷺ، وقال إن هذا الإسلام المزعوم هو دين إبراهيم عليه السلام. فإبراهيم بزعمه هو أول المسلمين فالإسلام بدأ من عهد إبراهيم، قال: ولم يكن إبراهيم يهوديًّا ولا مسيحيًّا ولا مسلمًا بالإسلام التاريخي للكلمة أي الذي عليه المسلمون اليوم. وكذب في ذلك فإن الإسلام الذي هو توحيد اللَّه بالعبادة وترك عبادة ما سواه هو موجود من قبل إبراهيم من عهد آدم ونوح والنبيين من بعده وهو دين جميع الرسل. وهو الذي بعث اللَّه به نبيه محمدًا ﷺ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وهو دين المسلمين اليوم من أتباع محمد ﷺ قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ولم يكن دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام خليطًا من الحق والباطل كما زعم هذا الضال؛

بل كان دينه التوحيد الخالص للَّه عزّ وجل والبراءة من الشرك وأهله قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وهو الدين الذي بعث اللَّه به محمدًا ﷺ، ويرى هذا الضال أن البراءة من الكفر والشرك وما عليه اليهود والنصارى من الوثنيات والتحريفات الباطلة دين تفرقة؛ لأن الإسلام في مخيلته معناه التوحيد والتقارب بين المسلمين وغير المسلمين، يريد إسلامًا يجمع بين المتناقضات والمتضادات، ويكفر المسلمين الذين يخالفونه في ذلك.

ويرى أيضًا أن سنة الرسول ﷺ وأن الفقه الإسلامي المستنبط من الكتاب والسنة انتهت صلاحيتهما في هذا الزمان لأنهما كانا لزمان معين، وأنه يجب إحداث فقه جديد. وهذا معناه ترك دين الرسول ﷺ؛ لأنه لا يصلح لهذا الزمان وإحداث دين جديد. وهذا كفر بعموم رسالة الرسول لكل زمان ومكان، ولكل جيل، ولكل البشرية إلى أن تقوم الساعة، وكفر بختم الرسالة بمحمد ﷺ خاتم النبيين، وكفر بصلاحية رسالته لكل زمان ومكان، وهذا كفر صريح وقول قبيح مناقض لقول اللَّه سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

● وقول النبي ﷺ: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[1] متفق على صحته.

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب (التيمم) برقم (٣٢٣)، واللفظ له، ورواه الإمام مسلم في =

● وقوله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار»[1]، أخرجه الإمام مسلم في صحيحه. والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقد أجمع العلماء رحمهم اللَّه من الصحابة ﷺ ومن بعدهم إجماعًا قطعيًّا على أن محمد بن عبداللَّه بن عبدالمطلب ﷺ هو رسول اللَّه إلى جميع الثقلين الإنس والجن، وهو خاتم النبيين لا نبي بعده.

ثم يتناول هذا الملحد الركن الثاني من أركان الإسلام الخمسة وهو الصلوات الخمس الثابت بالكتاب والسنة والمعلوم من الدين بالضرورة، فيرى أن الصلوات ثلاث صلوات في اليوم والليلة لا خمس صلوات. ويزعم أن هذا هو ما يدل عليه القرآن. وهذا القول الباطل بل الكفر الصريح ناتج عن كفره بالسنة التي بينت الأوامر التي جاءت في القرآن، ومن ذلك الصلوات فقد بينت السنة الصحيحة المتواترة أنها خمس صلوات في اليوم والليلة وأجمع المسلمون على ذلك:

ثم بين هذا الضال الصلاة التي يعنيها وأنها ليست الحركات التي هي عبارة عن القيام والقراءة والركوع والسجود، وإنما هو التفكير العميق في الذات الإلهية، وذلك يستغرق عنده ساعات الليل والنهار الأربع والعشرين ساعة. وهذه صلاة الباطنية الملاحدة لا صلاة الأنبياء وأتباعهم وهذا القول كفر صريح وردة عن الإسلام عند جميع أهل العلم.

= كتاب (المساجد ومواضع الصلاة) برقم (٨١٠).

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب (الإيمان) برقم (٢١٨)، ورواه الإمام أحمد في (باقي مسند المكثرين» برقم (٧٨٥٦).

ثم تناول الركن الرابع من أركان الإسلام وهو الصيام وقال: إنه ليس هو الامتناع عن الأكل والشرب وإنما هو معاني الصيام وأهدافه. ثم إنه أعفى سكان المناطق القطبية من الصيام لأنه لا يمكن تطبيقه في مناطقهم؛ لأنه ليس عندهم طلوع فجر ولا غروب شمس. وهذا تكذيب للّه ولرسوله ولإجماع المسلمين في أن الصيام ترك الأكل والشرب وسائر المفطرات.

* قال تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ**﴾ [البقرة: ١٨٧].

● وقال النبي ﷺ: «**إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم**»[1] متفق على صحته. فمن أعظم منافيات الصيام الأكل والشرب. وأما الاقتصار على معاني الصيام وأهدافه فليس صيامًا شرعيًّا وإنما هو صيام الباطنية الذين يقولون الصيام هو كتم الأسرار، وهذا إلحاد في دين اللّه عز وجل، وكذلك لا يعفى أحد من الصيام في جميع أقطار الأرض لأن أحكام الشريعة عامة للبشرية أينما كانت وإنما يصوم المسلم حسب استطاعته. وكيفية صيام أهل المناطق القطبية قد بحثها علماء المسلمين قديمًا وحديثًا وقرروا فيها رأيهم حسب ما ظهر من أدلة الكتاب والسنة. ثم إن هذا الملحد يُجهل علماء المسلمين فيقول: «قد عملت معهم عندما كنت عضوًا في المجلس الأعلى العالمي للمساجد. واكتشفت أنهم أناس جهلة، بل إنهم من أجهل الناس إطلاقًا يرددون بطرق آلية الأحاديث النبوية وآراء فقهاء القرون الوسطى التي حفظوها عن ظهر قلب، ولا أعتقد أن لدي استعدادًا للتعاون مع هؤلاء بشأن أي موضوع كان بسبب الانطباعات السيئة التي تركوها في ذهني».

---

(١) رواه الإمام البخاري في كتاب (الأذان) برقم (٥٨٧)، ورواه الإمام مسلم في (الصيام) برقم (١٨٢٩) واللفظ متفق عليه.

❑ هذا شعوره نحو علماء الإسلام الذين اغتر الكثير منهم به وأحسنوا به الظن وأكرموه وأشركوه معهم في مؤتمراتهم وندواتهم. وإنها لموعظة للعلماء أن لا يتسرعوا بمنح الثقة لكل من تظاهر بالإسلام خصوصًا من أمثال جارودي ممن عرفوا بالإلحاد والزندقة والشيوعية قبل ادعاء الإسلام حتى يتثبتوا في شأنه.

ومن كفر جارودي الصريح أنه يدعو إلى تعطيل حد السرقة وتغيير مقادير المواريث، فيرى أن قطع يد السارق اليوم غير مناسب وهذا اتهام للإسلام بالقصور وعدم صلاحيته لكل زمان ومكان. بل هو وصف للّه سبحانه بالجهل وأنه لا يعلم ما يَجِدُّ في المستقبل وما يناسبه من العقوبة، فإن اللّه سبحانه أمر بقطع يد السارق والسارقة جزاء بما كسبا ثم ختم الآية بقولة سبحانه: ﴿**واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [المائدة: ٣٨] فهو سبحانه يشرع لكل ذنب من العقوبة ما يناسبه ويمنع وقوعه في كل زمان ومكان. ثم يقول: (لو كنت قاضيًا وجاءني أخ وأخت يتنازعان في قضية ميراث لأعطيت البنت ضعف ما أعطي الذكر)، وهذا مصادم لقول اللّه تعالى في شأن الإخوة في آخر سورة النساء: ﴿**وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾ [النساء: ١٧٦]، ولقوله تعالى في أول السورة: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾ [النساء: ١١]، فهو اعتراض على اللّه في حكمه وكفى بذلك كفرًا وإلحادًا.

ثم يدعو علماء الإسلام أن يتمردوا على شرع اللّه كما تمرد المسيحيون على البابا وثاروا في وجه الكنيسة، فهو يسوي بين الدين الحق الذي هو دين الإسلام ودين الكفر الذي هو دين البابوات ورجال الكنيسة المغير لشرع اللّه.

وأخيرًا فإن روجيه جارودي لا يحكم عليه بأنه مرتد عن دين الإسلام كما توهمه بعضهم، وإنما هو كافر أصلي لم يدخل في الإسلام كما اعترف

هو بذلك حيث يقول: (انتهيت إلى الإسلام دون التخلي عن اعتقاداتي الخاصة وقناعاتي الفكرية).

إن دين الإسلام لا يجتمع مع القناعات الإلحادية ولا يجتمع مع اليهودية والنصرانية لأنهما ديانتان محرفتان ومنسوختان بدين الإسلام الذي بعث اللَّه به نبيه محمدًا ﷺ وأمره أن يقول: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [الأعراف: ١٥٨].

● وقال ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار**»[(١)] أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه» كما تقدم، وفي «الصحيحين» عن جابر ابن عبداللَّه رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[(٢)] وبذلك يعلم أنه لا يسع أحدًا من هذه الأمة جنها وإنسها إلا اتباع محمد ﷺ ولا يقبل اللَّه من أحد بعد بعثته إلا دينه.

---

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب (الإيمان) برقم (٢١٨)، والإمام أحمد في (باقي مسند المكثرين) برقم (٧٨٥٦).

(٢) رواه الإمام البخاري في كتاب (التيمم) برقم (٣٢٣) واللفظ له، ورواه الإمام مسلم في كتاب (المساجد ومواضع الصلاة) برقم (٨١٠)، والنسائي في (الغسل والتيمم) برقم (٤٢٩).

* ودينه هو الإسلام وهو صالح لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة قال اللَّه تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

* وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

● وتقدم قوله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار**»[1]. وذلك أن اللَّه سبحانه أخذ الميثاق على الأنبياء كلهم من أولهم إلى آخرهم بالإقرار بنبوة محمد ﷺ وعموم رسالته، وأنه لو بُعث وأحد منهم حي وجب عليه اتباعه وطاعته ومناصرته، وهذا الحكم يتناول أتباعهم أيضًا فإن من زعم أنه يتبع موسى وعيسى يجب عليه أن يؤمن بمحمد ﷺ بعدما بعثه اللَّه ويتبعه؛ لأن رسالته ختمت الرسالات وشريعته نسخت الشرائع ولم يبق دين مقبول عند اللَّه سوى الدين الذي بعثه اللَّه به كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وهذا الحكم واجب على جميع المكلفين من الجن والإنس إلى يوم القيامة، كما تقدم ذلك في قوله سبحانه آمرًا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول

(١) سبق تخريجه.

للناس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] الآية.
وتقدم قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

* وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

● وقول النبي ﷺ: «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[1] متفق على صحته.

● وقوله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار**»[2]
والآيات القرآنية والأحاديث النبوية في هذا المعنى كثيرة، وأسأل اللَّه سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يصلح أحوال المسلمين جميعًا وأن يثبتنا وإياهم على دينه، وأن يمنحنا جميعًا الفقه فيه، والاستقامة عليه، وأن يعيذنا وجميع المسلمين من شر أعداء اللَّه ومكائدهم كالجارودي وأشباهه من سائر الملحدين، والكافرين، إنه على كل شيءٍ قدير وصلّى اللَّه وسلّم على نبينا محمد، وآله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

* الشيخ ابن باز يحكم بردة من تنقّص الرسول ﷺ ويرد على جريدة المساء المصرية:

حكم من استهزأ بالرسول العظيم عليه الصلاة والسلام أو سبه أو تنقصه أو استحل شيئًا مما حرمه[1]

بسم اللَّه والصلاة والسلام على رسول اللَّه.. لقد اطلعت على ما نشرته صحيفة صوت الإسلام بالقاهرة نقلاً عن صحيفة المساء المصرية الصادرة في ٢٩ يناير الماضي من الجرأة على الجانب الرفيع والمقام العظيم مقام سيدنا وإمامنا: محمد بن عبداللَّه ﷺ وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيراً بتمثيله بحيوان من أدنى الحيوانات، وهو الديك، لا يشك مسلم أن هذا التمثيل كفر بواح، وإلحاد سافر واستهزاء صريح بمقام سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين وقائد الغر المحجلين، إنها لجرأة تحزن كل مسلم، وتدمي قلب كل مؤمن، وتوجب اللعنة والعار والخلود في النار، وغضب العزيز الجبار، والخروج من دائرة الإسلام والإيمان إلى حيز الشرك والنفاق والكفران لمن قالها أو رضي بها، ولقد نطق كتاب اللَّه الكريم بكفر من استهزأ بالرسول العظيم، أو بشيء من كتاب اللَّه المبين، وشرعه الحكيم، قال اللَّه عز وجل: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] الآية، فهذه الآية الكريمة نص ظاهر وبرهان قاطع على كفر من استهزأ اللَّه العظيم أو رسوله الكريم أو كتابه المبين، وقد أجمع

---

(١) نداء من الجامعة الإسلامية إلى العالم الإسلامي «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٦/ ٢٥٣).

علماء الإسلام في جميع الأعصار والأمصار على كفر من استهزأ باللَّه أو رسوله أو كتابه أو شيء من الدين، وأجمعوا على أن من استهزأ بشيء من ذلك وهو مسلم أنه يكون بذلك كافرًا مرتدًا عن الإسلام يجب قتله؛ لقول الرسول ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**».

❑ ومن الأدلة القاطعة على كفر من استهزأ باللَّه أو رسوله أو كتابه ـ أن الاستهزاء تنقص واحتقار للمستهزأ به واللَّه سبحانه له صفة الكمال، وكتابه من كلامه، وكلامه من صفات كماله عزّ وجل، ورسوله محمد ﷺ هو أكمل الخلق وسيدهم وخاتم المرسلين وخليل رب العالمين، فمن استهزأ باللَّه أو رسوله أو كتابه أو شيء من دينه فقد تنقصه واحتقره، واحتقار شيء من ذلك وتنقصه كفر ظاهر ونفاق سافر وعداء لرب العالمين وكفر برسوله الأمين.

❑ وقد نقل غير واحد من أهل العلم إجماع العلماء على كفر من سب الرسول الكريم ﷺ أو تنقصه، وعلى وجوب قتله.

❑ قال الإمام أبو بكر ابن المنذر ـ رحمه اللَّه ـ: أجمع عوام أهل العلم على أن حد من سب النبي ﷺ القتل، وممن قاله مالك والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي. انتهى.

وقوله: (عوام): جمع عامة، والعامة هنا بمعنى الجماعة، فمراده ـ رحمه اللَّه ـ أن جماعات العلماء أجمعوا على وجوب قتل من سب النبي ﷺ.

ولا شك أن السب يتنوع أنواعًا كثيرة، ولا ريب أن الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام وتنقصه وتمثيله بحيوان حقير من أقبح السب وأعظم التنقص، فيكون فاعل ذلك كافرًا حلال الدم والمال.

❑ وقال القاضي عياض ـ رحمه اللَّه ـ: أجمعت الأمة على قتل متنقصه

من المسلمين وسابه. انتهى.

❑ وقال محمد بن سحنون من أئمة المالكية: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ والمتنقص له كافر، والوعيد جاء عليه بعذاب اللَّه له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر. انتهى.

❑ قال شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ بعد ما نقل أقوال العلماء في شاتم الرسول ﷺ ومتنقصه في كتابه: «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ما نصه: وتحرير القول فيه: أن الساب إن كان مسلمًا أنه يكفر ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، وقال حنبل: سمعت أبا عبداللَّه يقول: من شتم الرسول ﷺ أو انتقصه مسلمًا كان أو كافرًا فعليه القتل، وأرى أن يقتل ولا يستتاب. انتهى.

وكلام العلماء في هذا الباب كثير، وفيما نقلنا عنهم كفاية لطالب الحق.

ولقد وفقت صحيفة صوت الإسلام القاهرية في ردها على جريدة المساء المصرية ما اقترفته من المحاربة للإسلام ومن الجرم الفظيع والمنكر الشنيع في حق المصطفى ﷺ وشريعته بقلم رئيس التحرير الشيخ محمد عطية خميس، ولقد أحسن فضيلته إحسانًا عظيمًا حيث أنكر ما فعلته هذه الصحيفة من الكفر الصريح والاستهزاء السافر بسيد عباد اللَّه وأفضل رسول، واحتج على حكام مصر وطالبهم بوضع حد لهذه الفتنة.

وإلى القراء بعض كلمته، قال وفقه اللَّه بعد كلام سبق في رد مقالات شنيعة كتبتها بعض الصحف المأجورة ما نصه:

فلا عجب بعد كل هذا أن يتجرأ صحفي من صحفي جريدة المساء ليعرض برسول اللَّه ﷺ في صورة كاريكاتورية في عددها الصادر في ٢٩ يناير الماضي فيرسم شخصًا له جسم الديك ويقول تحت هذه الصورة «اهوه ده

يا سيدي محمد أفندي اللي متجوز تسع» بمثل هذا الخبث تنشر مثل هذه الصورة التي تعرض برسول اللَّه ﷺ وبشريعة الإسلام.

❑ من الذي تزوج تسعًا غير رسول اللَّه ﷺ؟ أيصل الأمر إلى أن ينشر مثل هذا الرسم في جريدة يومية يشرف عليها الاتحاد القومي، وتصل السخرية الترقة على شخص رسول اللَّه ﷺ وأن يقال عنه: (محمد أفندي) ويرمز إليه بمثل هذا الرمز، لماذا اختار المحرر أو الرسام محمد أفندي بالذات ولم يختر علي أفندي أو سعيد أفندي أو أي اسم آخر؟ ولماذا حدّد العدد بتسع بالذات؟ ولم يحدد بسبع أو عشر أو اثني عشر؟ إن خبث الرسام ظاهر واضح ولا يحتاج إلى تأويل والتماس عذر له، إن مثل هذا الرسم لو نشر في أية صحيفة انجليزية أو أمريكية أو فرنسية أو حتى إسرائيلية لقامت الدنيا وقعدت، ولاتخذت سلاحًا بتارًا للدعاية والتشهير، أما أن ينشر في جريدة من جرائد هذه الأمة فتغمض عنها الأعين وتمر بها مرورًا عابرًا، ومن المؤسف المؤلم أن يحدث هذا في صحافتنا في الوقت الذي يعمل فيه الأعداء أكثر من حساب لمشاعرنا نحن المسلمين، فأمريكا وإيطاليا يريدان إنتاج فيلم عن رسول اللَّه ﷺ فإذا بهم يلجأون إلى مشيخة الأزهر والجامعة العربية ليأخذوا رأيها وموافقتها في كل ما يتعلق بهذا الفيلم من حوار وسيناريو وخلافه، وكان باستطاعة هاتين الدولتين أن تخرجا الفيلم كما تشاءان وعلى النحو الذي يتفق مع روحهما العدائية لنا، هذا ما يحدث من أعدائنا، وهذا ما يحدث من أبناء أمتنا. إلى متى يسكت المسئولون عن هذه الصحافة؟ وإلى متى نسكت نحن أبناء هذه الأمة؟ هل ننتظر إلى أن يلجأ هؤلاء الخونة والمفسدون إلى التصريح بدلاً من التلميح؟ أننتظر إلى أن يسخر من إسلامنا في الشوارع والطرقات؟ واللَّه إنها لفتنة سوداء يوقدها هؤلاء الجهلاء المأجورون تنذر بالخطر الفادح إن لم يوضع لها حد، فإننا لن نستطيع أن

نسكت بعد هذا على هذا التمادي في محاربة الإسلام والأخلاق وفي التعريض برسول اللَّه ﷺ وشريعته، فالأمة لا تزال معتزة بدينها غيورة على رسولها، فإن أرادت هذه الصحافة الماجنة أن تعلنها حربًا فلتعلنها كما تريد، ولكن لن نقف مكتوفي الأيدي. . وكفى! فإسلامنا هو وطننا ولا وطن لنا غيره، وإسلامنا هو روحنا ولا حياة لنا بسواه، وإسلامنا هو رزقنا ولا قيمة للطعام والشراب عندنا بدونه، وإسلامنا هو كل شيء في الوجود بالنسبة لنا. وأقول هذا باسم أكثر من عشرين مليون مسلم من أبناء هذا الشعب العزيز، ونحن في انتظار بيان رسمي من الاتحاد القومي وما صنعه مع جريدة المساء ورسامها والمسئولين عنها، ومع صحافتنا على العموم حتى نطمئن إلى مستقبل ديننا، واللَّه أكبر والعزة للَّه ولرسوله وللمؤمنين. انتهى كلام الشيخ محمد عطية خميس.

❑ ولقد أجاد وأفاد، وصدع بالحق، فجزاه اللَّه على ذلك خيراً وزاده من الهدى والتوفيق وكثر في المسلمين من أمثاله من الصادعين بالحق بين الظلمة اللئام، والحمد للَّه الذي أوجد في مصر من ينطق بالحق ويصدع بالرد على من حاد عنه، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن بالزوايا خبايا، وأن في الرجال بقايا، ولا شك أن ذلك من حفظ اللَّه لدينه وحمايته لخاتم أنبيائه وسيد أصفيائه محمد ﷺ، ولقد أخبر اللَّه سبحانه في كتابه المجيد عن أعدائه من الكفار والمنافقين أنهم يسخرون بالمرسلين والمؤمنين، ويضحكون منهم، فلا غرابة أن سلك القائمون على صحيفة المساء مسلك أئمتهم من المشركين والمنافقين وساروا على منهاجهم الوخيم وطريقهم الذميم ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣].

* قال اللَّه عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠]. الآيات.

* وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

* وقال جلّ وعلا عن رسوله نوح وقومه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ١٠٩-١١١].

* وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

ففي هذه الآيات المحكمات والبراهين البينات دلالة ظاهرة وحجج قاهرة على أن الاستهزاء بالمرسلين والمؤمنين من صفات الكفار والمنافقين والمشركين، ومن عدائهم السافر وكفرهم الظاهر.

ولقد تخلق بعض القائمين على صحف القاهرة في هذا العصر بأخلاقهم وساروا سيرتهم ونهجوا نهجهم فلهم حكمهم في الدنيا والآخرة، وقد ثبت عن المصطفى ﷺ أنه قال: «**من تشبه بقوم فهو منهم**» فليس من شك عند كل من له أدنى مسكة من علم وهدى أن من شبه الرسول ﷺ بشيء من الحيوانات الحقيرة قد تنقصه واحتقره ومن فعل ذلك أو رضيه من حاكم أو صحفي أو غيرهما فهو كافر ملحد حلال الدم والمال.

وهنا أمر عظيم ينبغي التنبيه له، وهو أن يقال: ما السر في تشبيه صحيفة المساء القاهرية للرسول ﷺ بالديك دون بقية الحيوانات، إنه ظاهر لمن تأمله، ألا إنه الجحود لنبوته والإنكار لرسالته ورميه بأنه ثائر شهواني ليس

له هم إلا إشباع نهمته من النساء، وهذا إمعان في الكفر، وإيغال في الاستهزاء والاحتقار للجناب العظيم والمقام الرفيع، لعن اللَّه من تنقصه أو رماه بما هو براء منه، وقاتل اللَّه صحيفة المساء القاهرية والقائمين عليها الراضين بهذا الاستهزاء، فما أعظم ما تجترءوا عليه من الباطل، وما أقبح ما وقعوا فيه من الإسفاف والاستهزاء، ولقد صان اللَّه رسوله ﷺ وحماه مما قاله المبطلون ورماه به المفترون فقد كان أعف الناس وأنصحهم للَّه ولعباده وأرفعهم قدرًا وأشرفهم نفسًا وأشدهم صبرًا وأقومهم بحق اللَّه وتبليغ رسالته، وأخشاهم للَّه وأتقاهم له، وأزهدهم في كل ما يلوث مقامه العظيم أو يعوقه عن مهمته في الجهاد والنصح والتبليغ، وإنما تزوج النساء كسنة من قبله من المرسلين، كما قال اللَّه سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**﴾ [الرعد: ٣٨]، وفي تزوجه ﷺ بتسع من النساء حكم كثيرة وأسرار بديعة ومصالح عظيمة، منها: إعفافهن والإحسان إليهن، ومنها: أن يتعلمن منه ﷺ أصول الشريعة وأحكامها ويعلمنها الناس بعده كما قد وقع، فقد كان بيت كل واحدة منهن مدرسة للمسلمين والمسلمات، يردونها للتعلم ويشربون من معينها الصافي عللاً بعد نهل، ويسألون أمهات المؤمنين عن حياته ﷺ وشمائله وأخلاقه وأعماله داخل بيوته وخارجها، ومن ذلك: ما في تعددهن من مصلحة التأليف والتعاون على البر والتقوى، وتبليغ القرآن والسنة بواسطة أصهاره ومن يتصل بهم؛ لأن أزواجه كن من قبائل شتى وذلك أبلغ في مقام الدعوة والتأليف وأنفع للأمة وأكمل من جهة التبليغ والتعليم، ومن ذلك: ما في تعددهن من راحته ﷺ وأنسه، فإن اللَّه سبحانه قد حبب إليه النساء والطيب، وجعل قرة عينه في الصلاة، وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «**الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة**»، وقد جبل اللَّه الرجال على حب النساء والميل إليهن، وجعلهن سكنًا للرجال، كما قال عزّ

وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، وأعطى نبيه ﷺ في ذلك من كمال الرجولة والقوة على القيام بأمر الزوجات وحقوقهن ما لم يعطه الكثير ممن قبله، وليس هذا بمستنكر في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم أكمل الرجال رجولة وأعفهم فرجًا وأقومهم بحق اللَّه وحق عباده، وقد كان لنبي اللَّه داود زوجات كثيرة، ولابنه نبي اللَّه سليمان بن داود كذلك، وقد قواهما اللَّه على الطواف عليهن والقيام بحقهن، فكيف يستغرب على من هو أفضل منهما وأرفع عند اللَّه منزلة، وهو محمد ﷺ، أن يبيح اللَّه له تسعًا من النساء مع ما في ذلك من المصالح الكثيرة التي تقدم بعضها، وكلها تعود على الأمة بالخير والإحسان والنفع العام، وقد خص اللَّه نبيّه ﷺ بخصائص عظيمة وحباه بصفات كريمة، فبعثه إلى الناس عامة، وجعله رحمة للعالمين، واتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ورفع منزلته في أعلى الجنة وهي الوسيلة، وجعله سيد أولاد آدم كلهم، وأعطاه المقام المحمود والشفاعة العظمى يوم القيامة، ونصره بالرعب مسيرة شهر، وشرح له صدره وغفر له ذنبه ووضع عنه وزره ورفع له ذكره، فلا يذكر سبحانه إلا ذكر معه، كما في الخطيب والتشهد والإقامة والتأذين، وخصائصه وشمائله ﷺ كثيرة جدًّا، فكيف بعد هذا كله تجترئ صحيفة المساء المصرية والقائمون عليها على الاستهزاء به والحط من قدره وتمثيله بحيوان من أحقر الحيوانات وأدناها، إمعانًا في الاحتقار ومبالغة في الاستهزاء، سبحان اللَّه ما أعظم شأنه، واللَّه أكبر ما أوسع حلمه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩]، وليس هذا الكفر الظاهر والنفاق السافر والاستهزاء الصريح بأشرف عباد اللَّه ومن أخرج اللَّه به العباد من الظلمات إلى النور ـ بغريب من صحف الخلاعة والمجون وأبواق الكفر

والإلحاد ومنابر الظلم والعدوان ومحاربة الفضائل والدعوة إلى الرذائل، ليس ذلك بغريب على بعض القائمين على صحف القاهرة، الذين باعوا أنفسهم للشيطان، وأعرضوا عما جاءت به الرسل ونزل به القرآن، واهتموا بالفراعنة والملاحدة وعباد الصلبان، وجندوا بعض صحفهم لمحاربة الإسلام وطمس شعائره العظام والتضليل والتلبيس على خفافيش الأبصار وسفهاء الأحلام.

ثم أقول: ليس هذا وحده جرم صحف القاهرة، فكم لهم من جرائم وكم لهم من مخاز، وكم لهم من مكفرات ونواقض للإسلام، أليسوا هم الذين أعلنوا في كثير من صحفهم الدعوة إلى الإشتراكية الكافرة والشيوعية الحمراء المشتملة على الظلم للعباد، وزعموا تلبيسًا وتضليلاً أنها من الإسلام، والإسلام براء من ذلك، الإسلام حرم على الناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم، الإسلام يحترم مال الفرد والجماعة ويحرسه ويحميه بقطع يد السارق، وقتل المحارب إذا قتل، وقطع يده ورجله من خلاف إذا أخذ المال فقط، ويقول الرسول العظيم ﷺ في حجة الوداع يوم النحر: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»، متفق على صحته.

● ويقول ﷺ: «**من ظلم شبرًا من الأرض طوقه اللَّه إياه يوم القيامة من سبع أرضين**» متفق على صحته.

● ويقول ﷺ: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب اللَّه له النار وحرم عليه الجنة**» خرجه الإمام مسلم في «صحيحه».

* ويقول اللَّه في كتابه الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ**﴾ [النساء: ٢٩].

* وقال تعالى: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**

﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

● وقال سيد الخلق ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجل أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**».

● وقال ﷺ أيضًا: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيبة من نفسه**»، والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثير، وقد أجمعت الرسل عليهم الصلاة والسلام في شرائعهم المتنوعة على عصمة مال المسلم وتحريم دمه وماله وعرضه إلا بحق، وأجمع علماء المسلمين على ذلك، ومع هذا كله فدعاة الاشتراكية والشيوعية وأعوانهم على الظلم والعدوان استباحوا أموال الناس ودماءهم بغير حق ونبذوا كتاب اللَّه وسنّة رسوله ﷺ وراءهم ظهريًّا، ولو أنهم قالوا: قد عرفنا أنه ظلم وعدوان وأقدمنا عليه، لكان أسهل عند اللَّه وعند المؤمنين، ولكن بعضهم مع الظلم السافر والكفر الظاهر يزعمون أن أعمالهم الماركسية وتصرفاتهم الشيوعية وسيرتهم الكفرية والإلحادية من الإسلام ويزعم لهم أذنابهم وعبيدهم تلبيسًا وتضليلاً أن الإسلام جاء بذلك واللَّه سبحانه ورسوله ودينه براء من ذلك كله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

* ولقد صدق اللَّه سبحانه حيث يقول وهو أصدق القائلين: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣، ٤٤]، ومن زعم أن ما يفعله دعاة الاشتراكية والشيوعية من الظلم والاستبداد والتعدي على حرمات المسلمين من الإسلام فهو كافر ضال كاذب على اللَّه ورسوله وعلى شرعه، كما أن من أنكر الحدود كحد السرقة أو غيره وزعم أنها ليست من

شرع اللَّه كما ينعق بذلك دعاة الإلحاد من الشيوعيين وغيرهم فهو كافر مكابر مكذب لقول اللَّه سبحانه: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، ومن زعم أن الاشتراكية الماركسية مباحة وأنها من الإسلام أو أنها خير من الإسلام وأرحم من الإسلام فهو من أكفر عباد اللَّه وأضلهم عن سواء السبيل؛ لأنه لا شيء أحسن من الإسلام ولا حكم أعدل من حكمه، ومن جعل الظلم منه ونسبه إليه فقد تنقصه وكذب عليه، قال اللَّه عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥].

* وقال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦ - ١١٧]، واللَّه سبحانه قسم بين الناس معيشتهم، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، لتنتظم أمورهم ويستعين بعضهم ببعض، فتكمل مصالحهم وتظهر مواهبهم ويتميز غنيهم من فقيرهم وشاكرهم من كافرهم وناصحهم من خائنهم وطيبهم من خبيثهم، إلى غير ذلك من الحكم والأسرار الكامنة في حكمة التفاوت بينهم في المعيشة والأسباب والأخلاق والعقول، كما قال تعالى منكرًا على المشركين الأولين: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

* وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٥]، فلو سوى بينهم سبحانه في المعيشة والأخلاق والعقول والأسباب لتعطلت مصالحهم ولم تظهر

هذه الحكم والأسرار التي رتب عليها الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، ولم يعرف العباد معاني أسمائه الحسنى وصفاته العلى، ولم يخضع أحد لأحد ولم يعرف أحد قدر نعمة اللَّه عليه، ولم يؤد ما يجب عليه من الشكر إلى غير ذلك من الأسرار والمعاني الشريفة والحكم الرفيعة التي لا يدركها ولا يوفق لها إلا أهل الإيمان باللَّه واليوم الآخر وأرباب العلم النافع والبصائر.

والاشتراكية استوردها أربابها ليغنوا بها الفقراء بزعمهم، وإنما جلبوها في الحقيقة ليفقروا بها الأغنياء ويسلبوا بها أموال الناس بالباطل باسم رحمة الفقراء ويصرفوها في مطامعهم الأشعبية وأغراضهم الدنيئة وشهواتهم البهيمية، ويخمدوا بها جذوة الحركة والعلم، ويصدوا بها الناس عن التفكير في: حق رب العالمين والتنافس في مصالح الحياة والثورة على الكفرة والطغاة الملحدين. هذه حال الاشتراكية وأهلها، حسدوا الناس على ما آتاهم اللَّه من فضله، وتجرأوا على شرعه وظلموا العباد واستبدوا بالأموال والعتاد وحاربوا اللَّه في أرضه واستكبروا عن طاعته وحقه، تبًّا لهم ما أخسر صفقتهم وأخس مروءتهم وأسوأ عاقبتهم، فالحذر الحذر أيها المسلمون من أرباب هذه الفتنة العمياء والبدعة النكراء والكفر الصريح والمعاداة للَّه ولرسوله وشرعه لعلكم تفلحون، وقد شرع اللَّه في الإسلام ما يغني عن هذا المذهب الهدام ويبطل كيد مخترعيه الكفرة اللئام، فأوجب سبحانه في أموال الأغنياء من الزكاة وصنوف النفقات، وشرع لعباده عزّ وجل من أنواع الكفارات والصدقات وسبل الإحسان ما تسد به حاجات الفقراء ويستغنى به عن ظلم العباد والتحيل على سلب أموالهم، بل جعل سبحانه وتعالى أداء الزكاة أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام وتوعد من يخل بها بأنواع العذاب والآلام، ووعد من بذلها كما شرع اللَّه بالطهرة والزكاة لهم ولأموالهم ومضاعفة الأجور وعظيم الخلف، كما قال عزّ وجل: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [النور: ٥٦].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

* وقال عزّ وجل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

* وقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

* وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، فالواجب على المسلمين جميعًا أن يؤدوا ما أوجب اللَّه عليهم لإخوانهم الفقراء وأن يطيبوا نفسًا بذلك وأن يرحموهم ويعطفوا عليهم أداءً لما أوجب اللَّه ورجاءً لرحمة من اللَّه وحذرًا من غضب اللَّه وسدًّا لأبواب الفتن والفساد وإغلاقًا لسبل الكفر والإلحاد وشكرًا للَّه على إنعامه وطمعًا في المزيد من فضله وكرمه وإرغامًا لأنوف الكفار والملحدين الذين قد ساءت ظنونهم بالإسلام واعتقدوا أنه قد أهمل جانب الفقراء ولم يعطهم حقهم، ولقد أخطأ ظنهم وخسرت صفقتهم وكذبوا على اللَّه وحادوا عن الحق الواضح.

فاتقوا اللَّه أيها المسلمون ومثلوا الإسلام في أعمالكم وأقوالكم وارحموا فقراءكم وأدوا ما أوجب اللَّه عليكم من الزكاة وغيرها لتفوزوا بالسعادة والنجاة وتسلموا من غضب اللَّه وأليم عقابه في الدنيا والآخرة، واللَّه المسئول أن يصلح أحوال المسلمين جميعًا وأن يمنحهم الفقه في دينه، وأن يهدي زعماءهم وقادتهم لصراطه المستقيم، وأن يقيم علم الجهاد ويكبت أهل الشرك

والكفر والإلحاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلّى اللّه وسلم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه.

نائب رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

عبدالعزيز بن عبداللّه بن باز

* للّه در الشيخ ابن باز ـ رحمه اللّه ـ:

❑ قد كان ـ رحمه اللّه ـ مثالاً فذًّا في إسداء النصح للمسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن ذلك:

ـ رسالته للملك فيصل ـ رحمه اللّه ـ يحثه فيها على الدعوة إلى اللّه ومناصحة رؤساء بعض الدول بتحكيم شرع اللّه. «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٦/ ٧٢).

ـ رسالته إلى صدام حسين يُنكر عليه فيها إعلانه للنظام الاشتراكي في العراق. «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٧/ ٣٩٤).

ـ تعقّبه على محمد سعيد البوطي حول بعض الأمور التي زلّ فيها. «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٤/ ٣٥٣).

ـ الردّ على من قال: إن الجهاد دفاع فقط. «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٣/ ١٧١).

ـ الرد على من اعتقد صحة دين اليهود والنصارى. «فتاوى إسلامية» (١/ ٦٧).

ـ الرد على دعاة التقريب بين الأديان. «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢/ ٨٠).

ـ الرد على الطريقة التيجانية. «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢/ ٢٢٤ ـ ٢٤٠)، ومجلة البحوث الإسلامية العدد «٣٩» ص(١٤٥).

ـ الردّ على البريلوية. «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢/ ٢٨٣).

ـ الرد على طائفة الدروز. «فتاوى اللجنة الدائمة» (٢/ ٢٨٧ ـ ٣٠٦)، ومجلة البحوث الإسلامية» العدد «٣٦» ص(٨٥).

ـ الرد على البهائية والقاديانية. «فتاوى إسلامية» (١/ ١٦٣).

ـ الرد على الماسونية. «مجلة البحوث الإسلامية» العدد «٣٦» ص(١٠٥).

ـ الرد على من يريد التقريب بين أهل السنة والرافضة. «مجموع فتاوى سماحة الشيخ» (٣/ ١٠٩٨).

ـ الرد على من يقول إن الإسلام انتشر بالسيف. «مجموع فتاوى سماحة الشيخ» (٣/ ١٠٨٩).

ـ الرد على من يزعم أن في الدين قشور. «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٦/ ٣٢٣).

ـ الرد على رشاد خليفة حول إنكاره للسنة المطهرة. «مجلة البحوث الإسلامية» العدد «٩» ص(٣٩).

ـ الرد على من يقول: الصحابة رجال ونحن رجال فيستقل في فهمه وعلمه. (مجموع فتاوى سماحة الشيخ) (٢/ ٧٦٠).

ـ الرد على من يعتبر الأحكام الشرعية غير متناسبة مع هذا العصر. «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٤/ ٤١٥).»[1].

وهناك كتاب قيم بعنوان «الشيخ ابن باز ومواقفه الثابتة» وهو قيم في بابه.

(١) «الشيخ ابن باز ومواقفه الثابتة» جمع أحمد الفريح ص(٤٣٥ ـ ٤٣٩).

فهرس الموضوعات

زَهْرُ البَسَاتِين

مِن

مَوَاقِفِ العُلَمَاءِ وَالرَّبَّانِيِّين

جَمْعٌ وَتَرْتِيب

الدكتور سَيِّد بن حُسَين العَفَّاني

الجزءُ الخامس

النَّاشِر

دَارُ العَفَّانِي

القاهرة: ٣ درب الأتراك الدور الثاني خلف جامع الأزهر

ت: ٥١٠٨٢٥٧ / ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠

بني سويف: برج الريحي - بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠٨٢٣١٧٣٤٤ / ٠١٠١٧٥٦٢٩٦

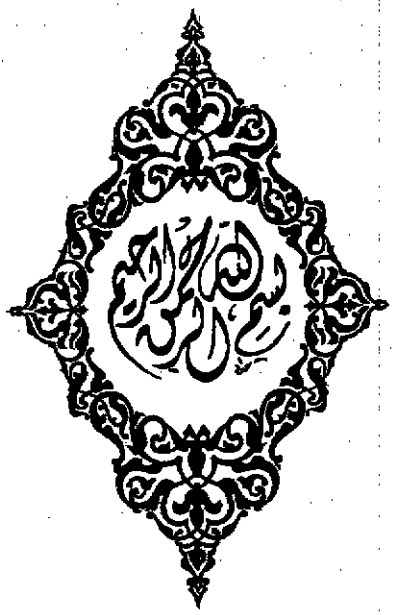
بسم الله الرحمن الرحيم

جناية المدرسة العقلية الحديثة ورُوّادها على الإسلام

جناية المدرسة العقلية الحديثة ورُوّادها على الإسلام

إذا كان الولاء المطلق للّه ولرسوله، وكان قربنا من أي إنسان أو بعدنا بمقدار قربه أو بعده من اعتقاد أهل السنة والجماعة، وإذا أيقن الرجل منا بأن الحق لا يُعرف بالرجل، وإنما بالحكمة الجميلة «اعرف الحق تعرف أهله» هان علينا أمر نقد الرجال والمدارس نصحًا للّه ولرسوله ولعامة المؤمنين.

وإنصاف الناس هدف نبيل ومن حسن خلق المسلم.. والمدرسة العقلية إن كان لها مآثر كما يقولون فإنها واللّه جنت على الإسلام وعلى المسلمين في واقعنا المعاصر..

ونلقى نظرة سريعة على شيخيها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده والمآخذ التي أخذت عليهما، ثم نظرة سريعة على موقف المدرسة من عقيدة السلف، وأثر المدرسة على واقع المسلمين.

*** الدكتور فهد الرومي يكشف زيف المدرسة العقلية الحديثة:**

كان لكتاب الدكتور فهد الرومي «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» وكذا كتابات الدكتور محمد محمد حسين والدكتور الذهبي والعلماء المعاصرين للأفغاني ومحمد عبده أكبر الأثر في كشف زيف هذه المدرسة.. نقول هذا الكلام لرجل جعل الحقيقة نصب عينيه، وتحصيلها مقصوده، وجعلها فوق الرجال بها يوزنون ولا تُوزن بهم. لا نقولها لرجل نزع الحقيقة من نُصب عينيه، واستبدل بها أصنامًا بشرية وأوثانًا إنسية صار همه كل همه تقديسهم، ومراده كل مراده ذب الشبهات عنهم ونفي الخطأ منهم، وجعلهم في منزلة تأبى الشبهات أن تصل إلى أقدامهم»[1].

(١) انظر «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٧٣).

«إن حياة الرجل تصبح ملكًا له ما دامت خاصة به، فإذا تجاوزت هذه المرحلة وأصبحت حياته جزءًا من التاريخ، فإن الحديث عنها أمانة في أعناق الدارسين لا يفك رقابهم منها إلا قول الحقيقة من غير تجنّ أو تعدّ، أو تزلّف أو نفاق فكلاهما منهج ضال، والمنهج الحق وسط بينهما: قول الحق والحقيقة مهما أدّيا إليه ومهما صاح بك من يجهد أعينهم نور الحقيقة»[1].

❑ ومعظم هذا الفصل تلخيص لكتاب الدكتور فهد الرومي فإن من بركة العلم عزوه إلى أهله «والمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور».

*** جمال الدين بن صفدر الأفغاني:**

واسم والده «صفدر» هو لفظ فارسي من ألقاب الإمام علي رضي الله عنه عند الشيعة ولا يوجد إلا بين الشيعة. ولا صحة لانتسابه إلى الحسين بن علي، وهو إيراني لا أفغاني كتب أبو الهدى الصيادي إلى الشيخ رشيد رضا «إني أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفغن جمال الدين الملفّقة، وقد تدرجت به إلى الحسينية التي كان يزعمها زورًا، وقد ثبت في دوائر الدولة رسميًّا أنه مازندراني من أجلاف الشيعة»[2].

*** الجامعة الشرقية لا الجامعة الإسلامية:**

«من أهم الآراء التي تنسب إلى الأفغاني وكان يدعو إليها: الدعوة إلى الوحدة الإسلامية وإقامة جامعة إسلامية تنضوي تحت لوائها دول العالم الإسلامي تُوحِّد كلمتها وأهدافها وإنما قلتُ: تُنسب إليه لأني أرى في مقالاته ومقالات تلاميذه ما يدل على أنه لا يريد الجامعة الإسلامية بل الجامعة الشرقية التي تجمع دول المشرق مسلمة وغير مسلمة ضد الاستعمار.

---

(١) المصدر السابق (٧٣).

(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده» للسيد محمد رشيد رضا (١/ ٩٠).

فهذا السيد رشيد رضا يُعلّق على كلمة لجمال الدين قائلاً: «هذا تنبيه لوجوب تأليف جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يفكر فيه أحد قبله»[١] ، ويقول في موضع آخر «وقد اشتبه على بعض الناس أمر اللهجة الإسلامية في جريدة العروة الوثقى، وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فأزالا هذه الشبهة ـ يعني الأفغاني ومحمد عبده ـ بعبارة نُشرت في العدد الثامن «من العروة الوثقى»[٢] ، ويقول عثمان أمين: «إن الجامعة التي كان ينشدها الأفغاني ومحمد عبده في أواخر القرن الماضي ليست هي الجامعة الإسلامية كما توهّم بعض الكتاب الغربيين وإنما هي في صميمها «الجامعة الشرقية»[٣] »[٤] اهـ.

*** نشاطه الماسوني:**

الماسونية هي صنيعة اليهود تسعى إلى القضاء على الأديان تحت شعارات برّاقة (حرية، مساواة، إخاء).

خدع كثير من الناس بهذا الشعار فدخلوها وما لبثوا أن أدركوا الغموض الذي يحيط بها فغادروها مسرعين.

إلا أن السيد الأفغاني قدم في ٢٢ ربيع الثاني ١٢٩٢هـ طلبًا للانضمام إلى المحفل الماسوني هذا نصه:

يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي[٥] الذي مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة بأني أرجو من إخوان الصفا

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٩٢).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٨٩).

(٣) مقال «العروة الوثقى» لعثمان أمين ـ مجلة العربي الكويتية عدد ٤٢ ص(٧٣).

(٤) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٩١).

(٥) نسبة إلى كابل وهي عاصمة أفغانستان فهو كابلي أو أفغاني.

وأستدعي من خلان الوفاء أعني أرباب المجمع المقدس الماسون الذي هو عن الخلل والزلل مصون أن يمنوا علي ويفضلوا إلي بقبولي في ذلك المجمع المطهر وبإدخالي في سلك المنخرطين في ذلك المنتدى المفتخر ولكم الفضل.

ربيع الثاني يوم الخميس

٢٢ سنة ١٢٩٢هـ

التوقيع

❑ ولم ينسحب من المحفل بل كان من الأعضاء البارزين ذوي النشاط فيه ولذا تم اختياره بعد سنوات ثلاث رئيسًا للوج كوكب الشرق بتاريخ ٧ يناير ١٨٧٨م بأغلبية الآراء ووجهت له دعوة بهذا التاريخ لاستلام القادوم بعد إتمام ما يجب من التكريز الاعتيادي والحضور بالزي الرسمي الماسوني الأسود ورباط الرقبة والكفوف بيضاء «انظر الصورة رقم ٣».

❑ ولم يكتف السيد الأفغاني بهذا بل ازداد نشاطه في ميدان الماسونية فاعتزل هذا المحفل الاسكتلندي وانشأ محفلاً وطنيًّا تابعًا للشرق الفرنساوي وفي برهة وجيزة بلغ عدد أعضائه العاملين أكثر من ثلاثمائة»[١] .

❑ ولم يزل يبذل جهوده في هذا الميدان حتى صدر الأمر بنفيه في ٦ رمضان سنة ١٢٩٦ هـ ٢٤ اغسطس ١٨٧٩م وجاء في القرار: «إنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا»[٢] . وكتب إلى بعض الشخصيات من غير أن يذكر اسمًا يستنجد بها مما حلّ به ويزعم أنه مظلوم فيما نسب إليه.

❑ ونفي من بعده تلميذه وأحد أعضاء محفله الشيخ محمد عبده ووجد

(١) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» لمحمد المخزومي ص(٢٠).

(٢) «جمال الدين الأفغاني» لعبدالرحمن الرافعي ص(٤٦). وانظر الصورة رقم/ ١.

في منزله كتاب الماسون بخط السيد الأفغاني كما اعترف بهذا الشيخ نفسه في خطاب منه إلى أستاذه الأفغاني.

❑ ولم ينقطع نشاط السيد الأفغاني الماسوني بعد نفيه من مصر فإن التاريخ يحدثنا أنه في «جمادي الأولى سنة ١٣٠٣[١] سافر السيد إلى البلاد الإيرانية بدعوة من الشاة ناصر الدين فنال مكانة سامية وتزاحم حوله الأمراء والمجتهدون والكبراء وتمكن من نظم كثيرٍ منهم في سلك الماسونية»[٢].

وكان له نشاط ماسوني في فرنسا أيضًا حيث قدم طلبًا للعضوية في اللوج باريس وتم قبوله.

❑ وإذا ثبت بما لا يقبل الشك انتماء السيد الأفغاني للماسونية، وثبت أن الماسونية وليدة الصهيونية العالمية وسبيل من سبلها لتحقيق أهدافها في هدم الأديان والسيطرة على العالم فإن الواجب تقصّي الحقائق في سيرة الرجل الأفغاني والبحث عن حقيقة أهدافه.

❑ أما الزعم بأن الأفغاني كان مَخدوعًا بمبادئ الماسونية (الحرية، المساواة، الإخاء)، ولم يعرف حقيقتها وصلتها بالصهيونية؛ لأن بروتوكولات حكماء صهيون لم تنشر إلا بعد وفاته فإنه زعم باطل.

ذلكم أن من الصحف من قامت بكشف حقيقة الماسونية آنذاك فقد تصدت جريدة البشير الجزويتية الصادرة في بيروت للماسونية ولم تغفل عن مهاجمتها وكشف أسرارها دوامًا»[٣].

وقد تصدت لهذه الجريدة صحف مصرية ماسونية مثل «اللطائف»

---

(١) أي: بعد نفيه من مصر بسبع سنوات قريبًا.

(٢) مصطفى عبدالرازق: المرجع السابق ص(٢٥).

(٣) «الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي» لسامي عزيز ص(٣٠٩).

و«المقتطف» و«البيان» و«الفلاح» و«النصوح» و«المقطم» بردود كثيرة ودفاع عن الماسونية ومبادئها[١] مما يثبت وقوع مناقشات حادة في الصحف عن الماسونية وهذا يدعو إلى التأكد من صحة أهدافها قبل الانضمام إليها من كل شخص فكيف بمن يريد الإصلاح وينتسب إليه.

فإن زعموا أن السيد لم يقرأ هذه الصحف أو لم تصل إليه أعدادها سلمنا ـ جدلاً ـ وقلنا: صدر من الكتب سنة ١٨٩١م أي قبل وفاة الأفغاني بست سنوات كتاب الحقيقة الإسرائيلية، وجاء فيه: «الروح الماسونية هي نفسها الروح اليهودية لا اختلاف في معتقداتها الأساسية فآراؤهما متماثلة»[٢] وقبل وفاة الأفغاني بإحدى وثلاثين سنة أي في سنة ١٨٦٦م صدر كتاب «السر المكنون في شيعة الفرماسون أو ماهية الفرماسونية على ما يشهد به أهلها وتدل عليه قوانينها وتنبئ به أعمالها» صدر في بيروت وطبع كتاب مثله بالفرنسية في السنة ذاتها وهي لغة يجيدها الأفغاني، وفي سنة ١٨٨٥م طبع كتاب «شيعة الماسونيين» بمطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين وفي سنتي ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م نشر كتاب «الأدلة القاطعة على شرف الرهبانية اليسوعية وبيان كنه الشيعة الماسونية» في جزءين بمطبعة الآباء اليسوعيين[٣] وفي سنة ١٨٨٥م صدر كتاب شيعة المسونيين بلا ألف بعد الميم هو مجموع المقالات التي نشرتها البشير عن الماسونية[٤].

فإن زعموا أنه لم يقرأ هذا ولا ذاك سلمنا ـ جدلاً ـ وقلنا: أليس في وجود أعضاء في الماسونية يسعون لهدم أركان الدين وتشتيت الفضيلة ما يثير

(١) المرجع السابق ص(٣٠٨ ـ ٣١٨).
(٢) «الماسونية» لأحمد عبدالغفور عطار ص(٦٠).
(٣) انظر كتاب «السر المصون في شيعة الفرماسون» للأب لويس شيخو ص(٢٠٢).
(٤) «الماسونية بلا قناع» أبو صادق ص(٢٣٤).

شكوكه في أهداف الماسونية فيحذرها فقد اعترف أحد الماسونيين وهو جورجي زيدان بوجود هؤلاء الأعضاء في المحافل الماسونية حيث يقول: «فقد اتهم رجال الدين الماسونية بالكفر وإنها إنما تسعى لهدم أركان الدين وتشتيت الفضيلة، أما نحن فمع إجلالنا لهذه الجمعية عن هذه التهمة ومع يقيننا أنها براء منها لا يسعنا الإنكار أن بين أعضائها أفرادًا قليلين ربما يصح عليهم تلك التهمة»[١].

فإن زعموا أن هذا كله لا تقوم به حجة ولا يستقيم به برهان ـ سلمنا جدلاً ـ وقلنا: خذوا القاضية القاصمة.

أيّ شيء أراد الأستاذ محمد المخزومي تلميذ الأفغاني أن يخفيه عنا حين قال: «أما انخراط جمال الدين في الماسونية.. فنختصره على قدر ما تسمح به الطريقة الماسونية»[٢].

ثم إن أردتم أن نسير على منهج «من فمك أدينك» فإنا فاعلون.

بعد دخول الأفغاني إلى المحفل الماسوني تغيّرت ثمّ لهجته في أحاديثه وأخذ يقرب منه العوام[٣] لأي شيء يفعل هذا؟ أتظنون أنه فعل ذلك يوضح لهم ما يجهلونه من أمور دينهم ولينزع الخرافات والمعتقدات الزائفة من أذهانهم والبدع والمنكرات من أفعالهم؟ كلا، إنه يقربهم ليقول لهم: «إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد وربيتم بحجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك والرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون[٤]

---

(١) «الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي» لسامي عزيز ص(٣٠٨) عن «تاريخ الماسونية» لجورجي زيدان ص(٢٥١ ـ ٢٥٣).

(٢) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» لمحمد المخزومي ص(١٧ ـ ١٨).

(٣) «تاريخ الأستاذ الأمام» لرشيد رضا (١/ ٤٦).

(٤) تعنون: تخضعون.

لوطأة الغزاة الظالمين»[١] إلى أن قال: «تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس، ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والغلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت»[٢].

فعدّ السيد الأفغاني الفتح الإسلامي لمصر دخول عرب، وعدّ دخول العرب على حدّ تعبيره استعبادًا واستبدادًا وقرنه باستعباد اليونان والرومان والفرس والفرنسيس واستبدادهم ثم يسترسل في حديثه فيقول: «انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار تيبه ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح»[٣]

إذن فهو لا يدعو عوام المسلمين الذين قربهم إليه بعد انضمامه إلى الماسونية لا يدعوهم إلى الدين الإسلامي إذ هو يشق جلودهم بمبضع نهمه ويهيض عظامهم بأداة عسفه كاليونان والرومان والفرس والفرنسيس، لا يدعوهم إلى الدين الإسلامي وإنما إلى النظر إلى أهرام مصر وهياكل منفيس. إلخ وكلها آثار فرعونية شاهدة على جاهلية تعبد الأشخاص والكواكب من دون اللّه، ولا شك أن دعوته إلى النظر فيها دعوة إلى الاقتداء بأصحابها.

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح

❑ إذن فهي دعوة إلى نبذ الدين الإسلامي ـ كما أفهمها ـ وهي جزء من أهداف الماسونية التي تحارب الأديان.

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٤٦ ـ ٤٧) و«زعماء الإصلاح في العصر الحديث» لأحمد أمين ص(٧٨ ـ ٧٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

ثم ومما يزيد الأمر وضوحًا أن الرجل ذكر آثارًا ميتة وجيفًا منتنة ولم يذكر مصنع الرجال لكونه مأثرة إسلامية. أعني الجامع الأزهر ما الداعي إلي هذا التحامل ضد الإسلام ومآثره؟ وهل لهذا أيضًا صلة بانتمائه إلى الماسونية؟!

وبعد.. فلعلي أطلت الحديث هنا في هذا الموضوع؛ لأنه الميزان الدقيق الذي نزن به الرجل هنا؛ ولأنه يكفي في بيان حقيقة الرجل أيّ رجل إثبات انتمائه إلى الماسونية..

فإن كان فيما ذكرنا من أدلة ما يثبت انتماء الأفغاني إلى الماسونية وظهور أثرها في أحاديثه وأقواله فقد انجلت الحقيقة.. حقيقة الرجل. وإن كانت لا تكفي لإثبات ذلك، فإنها ولا شك أصابع تشير إلى الأفغاني بالاتهام»[1].

*** حقيقته والمآخذ عليه:**

مما لا شك فيه أن حياة هذا الرجل مليئة بالأسرار ويحيطها الغموض[2] وتلتبس فيها الحقائق بالأكاذيب، ومما يزيد الأمر سوءًا أنه لم يؤرخ للرجل مؤرخ معتدل فأغلب من أرّخ له إما معجب به بالغ الأعجاب مبالغًا في الثناء عليه متجاوزًا عن كثير من أخطائه تكلّ عينه عن كل عيب فيه أعمته عين الرضا عن الحقيقة؛ وإما رجل حاقد كاره بالغ في قدحه وذمه يحمل منه كل شاردة وواردة ما لا تحتمله أعمته عين السخط عن الحقيقة.

وزاد بعض تلاميذه الأمر سوءًا فأخفى بعض أعماله زاعمًا أن الطريقة

---

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٩٧ ـ ١٠٦). قال طبيبه الخاص عند موته في ٩ مارس ١٨٩٧م: «إن شدة ولع جمال الدين بالسيجار الإفرنجي كان من مسببات السرطان الذي أدى إلى وفاته».

(٢) «العروة الوثقى» ص(١٨).

الماسونية لا تسمح بذكره[١] .

ويزيد الأمر حينما نعلم أن أكثر نشاطه كان سريًّا[٢] ، ولكن مع هذا الغموض فإنا نجد في بعض أفعاله وأقواله مآخذ لا نراها إلا خطيرة توجب إعادة النظر في تقويم بعض الرجال كما قال الدكتور محمد محمد حسين ونحن حين ندعو إلى ذلك لا نريد أن ننقص من قدر أحد ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس يزعمون أنهم معصومون من كل خطأ[٣] .

ومع أنه كان يدعو إلى تنقية الدين الإسلامي مما علق به من الخرافات كتقديس الأموات والتبرك بهم ونحو ذلك إلا أنا نراه يستغل هذه النقطة أبشع استغلال فيلجأ إلى مقام عبد العظيم خوفًا من ناصر الدين شاه ويثير فيهم الحمية لهذا المعتقد الباطل بالانتقام من ناصر الدين شاه فيقول: «وأما قصتي وما فعله هذا الكنود الظلوم معي فمما يفتت أكباد أهل الإيمان ويقطع قلوب ذوي الإيقان ويقضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الأوثان أن ذلك اللئيم أمر بسجني وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام»[٤] ، ويصف هذا المقام بأنه «حرم من دخله كان آمنًا»[٥] .

❑ بل ويحاول أن يظهر بالقداسة أمام العوام ولو كان بالكذب والخداع حكى عنه سعد زغلول أنه ذكر لهم أنه كان في سفينة خيف عليها الغرق فرأى في الركاب خوفًا فأكد لهم أن السفينة لن تغرق، ثم قال: «لو غرقت

---

(١) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» ص(١٨).

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» محمد محمد حسين ص(٦٥).

(٣) المرجع السابق ص(٤٩).

(٤) «نابغة الشرق» السيد جمال الدين الأفغاني سعيد الأفغاني ص(٧٧).

(٥) «تاريخ الأستاذ الإمام» ج(١) ص(٥٥).

السفينة لم أجد منهم أحدًا يكذبني، وإن سلمت ظهرت بالقداسة من أقرب سبيل»[١].

*** اليهود والنصارى من حوله:**

ومما يثير الريبة والشكوك في الأفغاني هذا الخليط من اليهود والنصارى الذي يحيط به، سليم نقاش من نصارى الشام وهو ماسوني ووضع كتابًا تبدو فيه أهداف الماسونية بارزة في عنوانه «مصر للمصريين» وهو يذكرنا بدعوة الأفغاني للمصريين بالنظر ليس إلى الآثار الإسلامية بل إلى الآثار الفرعونية المصرية، وفي هذا فصل لمصر عن المسلمين والإسلام.

وأديب إسحاق من أكثر الدعاة إلى الماسونية حماسًا وقف نشاطه الصحفي على هذا وهو أيضًا من نصارى الشام انتظم في سلك الماسونية سنة ١٨٧٣م في محفل انشأه الماسون في بيروت ذلك العام ثم وقف نشاطه على الدعوة إلى الماسونية في بعض الصحف ولم يكتف بهذا بل قام بطبع مقالاته تلك في كتاب ضخم[٢]، ومع هذا فقد كان الأفغاني لآخر نسمة في حياته ـ كما يقول تلميذه المخزومي ـ عند ذكر أديب بك إسحاق يسترجع ويقول: كان طراز العرب وزهرة الأدب، قضى نحبه في شرخ الشبوبة وعنفوان الفتوة، وترك لنا قلوبًا آسفة وشجونًا فائضة، إنا للّه وإنا إليه راجعون[٣].

❑ ومع هذا أيضًا فقد أسند الأفغاني إدارة أول صحيفة أنشأها (مصر) الأسبوعية سنة ١٨٧٧م إلى أديب إسحاق هذا؟! ثم ساهم في إنشاء جريدة (التجارة) وتولى رئاستها أديب إسحاق وسليم نقاش، وكان الأفغاني يساهم

---

(١) «نابغة الشرق جمال الدين الأفغاني» ص(٩١ ـ ٩٢)، وجمال الدين الأفغاني عبد القادر المغربي ص(٥٠ ـ ٥١).

(٢) «الماسونية بلا خداع» أبو صادق ص(٢٣٣ ـ ٢٣٤).

(٣) «خاطرات جمال الدين الأفغاني» لمحمد المخزومي ص(٢٢) الهامش.

بالكتابة فيها ويوصي تلاميذه بخدمة هاتين الصحيفتين قلمًا وسعيًا[١] .

❑ وهكذا نرى الأفغاني يمكن النصارى من أجهزة الإعلام ويصرف النقود ويفتح المطابع، ويحصل على الامتيازات ليسلمها لهم.

وكان من المحيطين به من النصارى جورج كوتجي وطبيبه الخاص هارون يهودي[٢] ، ولم يحضر وفاته إلا كوتجي النصراني وهارون اليهودي، وعند قدومه إلى مصر يسكن في حارة اليهود[٣] .

*** صلته بالإنجليز :**

ومن المآخذ عليه صلته بالإنجليز المريبة ورجال الإنجليز، وفي الحقيقة أنه لم تتضح لي حقيقة الرجل بالإنجليز فهو معهم أحد رجلين لا محالة: إما عدو ساذج مغفل اتخذوه مطية لهم لتحقيق مآربهم؛ وإما صديق مخلص ذو مكر ودهاء[٤] .

وحسب ما نعرف من تاريخ الرجل فإن أول صلة بينه وبين الإنجليز حينما انضم إلى محمد أعظم في أفغانستان ضد شير علي وانتصر الثاني لتأييد الإنجليز له، ولم يجد الأفغاني بدًّا من الهرب[٥] .

وفي مصر كان يؤلب عليهم الناس حتى يقوموا بالثورة العرابية، وفي إيران يحرض مفتي إيران على تحريم الدخان لإبطال احتكار الإنجليز له في إيران تمهيدًا لاحتلالها، وفي باريس ينشئ مجلة العروة الوثقى التي تحارب الإنجليز أينما حلوا وتشنع عليهم وهو مع هذا يسرح في بلادهم ويمرح ويتردد

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا(١/ ٤٥).
(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٦٩).
(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٤٤).
(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا (١/ ٤٥).
(٥) «الإسلام والحضارة الغربية» محمد محمد حسين ص(٦٩).

بين لندره وباريز ولا يلقى سوى الترحيب[١] .

❑ صحيح أنهم أدّوا إلى تعطيل العروة الوثقى لكن صاحبها لا يجد مانعًا من اللجوء إلى سفير بريطانيا في الآستانة ليساعده على الخروج منها[٢] ولا تجد إنجلترا مانعًا قبل ذلك من عرضها له توليه السلطة في السودان[٣] وقبل هذا وذاك لا يجد السيد الأفغاني مانعًا من دخول المحفل الماسوني والاسكتلندي، ولا يجدون هم أنفسهم مانعًا من تعيينه رئيسًا للمحفل.

ولا يجد مانعًا من التعاون مع الانجليز ضدّ من؟ ضدّ الخلافة الإسلامية؟!! قال السلطان المهضوم عبد الحميد في مذكراته التي نشرت مؤخرًا: «وقعت في يدي خطة أعدّها في وزارة الخارجية الإنجليزية كل من مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنجليزي يدعي بلند، قالا فيها بإقصاء الخلافة عن الأتراك واقترحا على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين[٤] .

لهذا فلا عجب أن يصفه السلطان عبد الحميد بقوله: «كان رجل الإنجليز ومن المحتمل جدًّا أن يكون الإنجليز قد أعدّوا هذا الرجل لاختباري»[٥] .

❑ أما بلنت هذا الذي أشار إليه السلطان عبد الحميد فهو وزوجته من أصدقاء الأفغاني الإنجليز وهو وزوجته ذوي نشاط مريب في بلاد العرب ويكفي نشاطهما ريبة دعوتهما إلى إنشاء دولة عربية حليفة لإنجلترا تصبح

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٤٤).

(٢) «تاريخ الأستا الإمام» محمد رشيد رضا (١/ ٧٢)، و«حاضر العالم الإسلامي» شكيب أرسلان (٢/ ٢٩٦).

(٣) «جمال الدين الأفغاني» محمود أبو رية ص(٥٣).

(٤) «مذكرات السلطان عبد الحميد» ترجمة محمد حرب عبد الحميد ص(٦٧).

(٥) المرجع السابق ص(٦٨).

مقرًّا للخلافة الإسلامية، ويكتب بلنت في ذلك كتابه المشهور المسمى «مستقبل الإسلام»[١] .

وصلة الأفغاني ببلنت هذا وزوجته أيضًا صلة مريبة فهي التي تفاوض باسمه الحكومة البريطانية وتبدي رأيها له في بعض المسائل وتطلب منه توجيهاته بعد هذا، وتسعى لعقد الاجتماعات بينه وبين كبار الشخصيات حتى الإيرانية منها فتنظم له لقاء مع مالكوم خان سفير إيران لدى جميع الدول الأوربية وهو نصراني ذو ميول أوربية[٢] ، وتفاوض باسمه بريطانيا في مسألة مصر ومسألة السودان وتكتب إليه بجواب الوزراء الإنجليز.

ومن يقرأ بتمعن تاريخ بلنت وزوجته يدرك أنهما يحاولان الظهور بمظهر التعاطف مع قضايا (العرب) حتى ضد الإنجليز ولكن حقيقتهما أنهما من رجال الإنكليز وأكبر من هذا دعوتهما لفصل العرب عن الخلافة الإسلامية وإنشاء دولة عربية حليفة لإنجلترا تصبح مقرًّا للخلافة الإسلامية وفي هذا وحده ما يكشف حقيقتهما.

فما علاقة الأفغاني بهما وكيف يسمح لنفسه أن يتعاون مع الإنجليز لهدم الإسلام والخلافة الإسلامية، وهو يسعى بزعمه وزعم المخدوعين به إلى الوحدة الإسلامية؟!

ومن المآخذ على الأفغاني تلك العبارات الخطيرة والألفاظ المنحرفة وهي وإن كانت غير صادرة منه ولكنها من تلاميذه وموجهه إليه، ولو لم يكن بها

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» محمد محمد حسين ص(٦٨).

(٢) يروى عنه مستر بلنت في تاريخه السري لاحتلال إنجلترا مصر ص(٦٤ ـ ٦٥) قوله: ربما كان يهمكم أن تسمعوا حكاية دين أسس في فارس قبل مضي عدة سنين، وقد كنت زعيمه في يوم من الأيام، ويقول: «وقد أدركت عبث الاجتهاد في تنظيم فارس على مثال أوربا فصممت على اللباس الذي يفهمه الناس هناك. لباس الدين!!.

راضيًا لردع تلاميذه عنها ولعرفوا كراهيته لذلك فارتدعوا ولكنه لم يفعل فلم يفعلوا.

فمن ذلك ما كتبه إليه تلميذه إبراهيم اللقاني: «لو أذن لي سيدي وربّ ومعدّل مزاجي ومقوم خلائقي، ومحور خلقي ومحرر فطرتي.

❑ ويكتب إليه السيد رشيد رضا مصليًا ومسلمًا عليه بعد رسول اللَّه ﷺ فيقول: «الحمد للَّه على أفضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وعلى سيدي بل السيد المطلق، ذي القدح المعلى والجواد المصلى الأسبق، سدرة منتهى العرفان، وجنة مأوى المحاسن والإحسان الذي له جوّ متنفس، ومن كل نار مقتبس، الإمام المفرد والعقل المجرد، إلى أن قال: مهبط الفيض مصعد الكلم الطيب، مجلى سر الجمال الأكمل»[1].

❑ ويكتب إليه الإمام محمد عبده ما هو أشد وأفظع وأخطر على عقيدة المسلم.

❑ ومن المأخذ على الأفغاني أن السلطان عبدالحميد استشاره في إرسال بعثة من العلماء لنشر الإسلام في اليابان حسب طلب امبراطور اليابان فأرجعه عن عزمه وقال له: «إن العلماء نفروا المسلمين من الإسلام فأجدر أن ينفروا الكافرين»[2].

❑ ومنها تعليله عدم زواجه بخشيته عدم العدل، ومنها قسمه الذي يقسم به وعز الحقّ وسرّ العدل، ومنها أنه يشرب «قليلاً من الكونياك»[3].

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا ص(٨٥).

(٢) «نابغة الشرق جمال الدين الأفغاني» لسعيد الأفغاني ص(١١٦) و«جمال الدين الأفغاني» لعبدالقادر المغربي ص(٣٢).

(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا (١/٤٩).

ومن شطحات الرجل في تفسيره قوله بـ «جواز الربا المعقول الذي لا يثقل كاهل المديون ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير أضعافًا مضاعفة».

ويطول بنا الحديث لو أردنا استقصاء ذلك، ولعل فيما ذكرنا إشارة لمؤسس هذه المدرسة العقلية الحديثة والباعث لها وهو وإن كان الغالب على نشاطه السياسة لا الدروس العلمية التي هي مرادنا لكنه هو الذي وجه الإمام محمد عبده وتلاميذه إلى هذه الطريقة وأخذ بيدها إليه حتى سلكته وحمدت له ذلك واعترفت له[1].

*** الشيخ محمد عبده:**

لئن كان السيد جمال الدين الأفغاني هو المؤسس لهذه المدرسة فإن محمد عبده هو الذي أقام صروحها ودعا إليها ونشرها بين الناس فكان بحق هو صاحبها وهو أستاذها وإمامها الأول فكان له من الأثر فيها ما لم يكن لأستاذه جمال الدين.

*** ما يؤخذ عليه:**

ليس من السهل ذكر أكثر المآخذ على الشيخ محمد عبده فضلاً عن ذكرها جميعًا.

❑ إن الإسلام عند الشيخ محمد عبده يعتمد على الدليل العقلي ويحتج به لا بالمعجزات «فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان باللَّه ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشى بصرك بأطوار

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(١٠٨ ـ ١٢٣، ٨٩).

غير معتادة ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية ولا يقطع فكرك بصيحة إلهية»[١] .

❑ ليس هذا فحسب، بل يعتقد الإمام أن الإيمان باللَّه لا يؤخذ من الرسول ولا من الكتاب ولا يصح أخذه منهما بل من العقل فيقول: «وقد اتفق المسلمون إلا قليلاً[٢] ممن لا يعتد برأيه فيهم ـ على أن الاعتقاد باللَّه مقدم على الاعتقاد بالنبوات، وأنه لا يمكن الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان باللَّه، فلا يصح أن يؤخذ الإيمان باللَّه من كلام الرسل ولا من الكتاب المنزل فإنه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله اللَّه إلا إذا صدّقت قبل ذلك بوجود اللَّه وبأنه يجوز أن ينزل كتابًا ويرسل رسولاً»[٢] .

❑ أما إذا تعارض العقل والنقل عنده فقد «اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه[٣] على أنه إذا تعارض العقل والنقل أُخِذ بما دلّ عليه العقل»[٤] .

* التقريب بين الأديان:

بعد أن توقّفت العروة الوثقى وعاد الإمام إلى بيروت أنشأ فيها جمعية سياسية دينية سريّة هدفها التقريب بين الأديان الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) واشترك معه في تأسيسها ميرزا باقر، وبير زاده، وعارف أبي تراب، وجمال بك نجل رامز بك التركي قاضي بيروت، ثم انضم إليها مؤيد

---

(١) «الإسلام والنصرانية» لمحمد عبده ص(٥٤ ـ ٥٥).

(٢) المرجع السابق ص(٥٤ ـ ٥٥).

(٣) هذا القليل هم سلف الأمة جميعًا ولا عبرة بقول المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، وقد كان الشيخ محمد عبده أشعريًّا.

(٤) «الإسلام والنصرانية» ص(٥٩).

الملك أحد وزراء إيران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية بالأستانة، والقس إسحاق طيلر، وجي دبليو لينتر، وشمعون مويال، وبعض الانكليز واليهود، وكان الإمام صاحب الرأي الأول في موضوعها ونظامها، وميرزا باقر هو الناموس (السكرتير) العام لها[١] وهو إيراني تنصّر وصار مبشّرًا نصرانيًّا وتسمّى بميرزا يوحنا ثم عاد إلى الإسلام. ودعا أعضاؤها إلى فكرتهم في صحفهم ورسائلهم، وهذا الشيخ محمد عبده يكتب رسالة إلى القس إسحاق طيلر يقول فيها: «كتابي إلى الملهم بالحق الناطق بالصدق حضرة القس المحترم إسحاق طيلر أيدّه اللّه في مقصده ووفاه المذخور من موعده». إلى أن قال: «.. ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتُهزم له ظلمات الغفلة فتصبح الملتان العظيمتان المسيحية والإسلام وقد تعرّفت كل منهما إلى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد وتعانقتا معانقة الألفة، فتُغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين»[٢] !!!!!.

❑ ويقول: «وإنا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتبًا متوافقة!!، وصحفًا متصادقة!!، يدرسها أبناء الملتين، ويوقّرها أرباب الدينيْن، فيتم نور اللّه في أرضه، ويظهر دينه الحق على الدين كله»[٣] ؟!!

❑ بينما يردد الشيخ محمد عبده هذا القول الكُفري وأمثاله ينشر جي دبليو لينتر مقال «الإسلام والمدارس المحمدية» في الديلي تلغراف اللندنية جاء فيه: «إحسان المسلمين لمواليهم وإشفاقهم على البهائم التي ترجع أيضًا إلى

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (١/ ٨١٩، ٨٢٠، ٨٢٨).

(٢، ٣) «الأعمال الكاملة لمحمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (٢/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

الربّ وإنفاقهم في سبيل الخير والسذاجة التي هي من خصال المؤمنين الصادقين أحرى بأن تميلنا إليهم من أن نصيح على النبي الكاذب»[١] .

❑ وقال أيضًا: «وإن كنا نريد أن نلصق المسلمين بالدولة الإنكليزية فيجب علينا أن نهب لهم الدين والدنيا»[٢] .

❑ ويقول إسحاق طيلر: «إن المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام.. فهم عندنا مسيحيون نصلى لهم كل يوم أحد ونسأل اللّه يهديهم وإيانا إلى الحق وإلى طريق مستقيم»[٣] .

ولعل أول ثمرة جناها الغربيون في سعيهم إلى التقريب بين الأديان القضاء على فكرة الجهاد في الإسلام، فما دامت الأديان الثلاثة كلها حق، وليس بينها من فرق، فليس هناك من داع لحمل السيف وإعلان الجهاد ضد النصارى مثلاً، وهو الأمر الذي أقلق بريطانيا كثيراً وهي دولة نصرانية، فسعت بشتى السبل للقضاء على هذه العقيدة الإسلامية، فأنشأت القاديانية التي حرّمت قتال الإنجليز، والبهائية كذلك، وأيّدت حركة أحمد خان الذي أعلن أن قتال الإنجليز كفر وأن مساعدتهم واجبة.

❑ ومن أثر هذه الدعوة ما نراه بارزًا في حديث رجال المدرسة العقلية الحديثة من تقليل شأن الجهاد في نشر الإسلام، وأنه قام على الدعوة باللسان، «وعللوا كل حركة من حركاته بأنه للدفاع بمعناه الاصطلاحي الحاضر الضيّق»[٤] فلقد زعم السيد رشيد رضا «أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعًا»[٥] .

(١، ٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٨٢٠ ـ ٨٢٢) ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة المنار.

(٣) المرجع السابق (١/ ٦ ـ ٨).

(٤) «خصائص التصور الإسلامي» لسيد قطب ص(١٨).

(٥) «الوحي المحمدي» للشيخ محمد رشيد رضا ص(٢٧٢).

لذلك فلا عجب أن تؤيد إنجلترا تلك الجمعية.

❑ لن نحاسب الإمام إلا بحقيقة الإسلام التي لا تخفى على مثله وعلى أمثال تلاميذه.

* **فتوى لعالم الإسلام الرباني ابن باز في «التقريب بين الأديان»:**

لا أخوة بين المسلمين والكافرين

ولا دين حق غير دين الإسلام

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

أما بعد: فقد نشرت صحيفة عكاظ في عددها ٣٠٣١ الصادر بتاريخ ٢٧/ ٨/ ١٣٩٤هـ خبرًا يتعلق بإقامة صلاة الجمعة في مسجد قرطبة وذكرت فيه أن الاحتفال بذلك يعد تأكيدًا لعلاقات الأخوة والمحبة بين أبناء الديانتين الإسلام والمسيحية. انتهى المقصود.

كما نشرت صحيفة أخبار العالم الإسلامي في عددها ٣٩٥ الصادر بتاريخ ٢٩/ ٨/ ١٣٩٤هـ الخبر المذكور وذكرت ما نصه: (ولا شك أن هذا العمل يعتبر تأكيدًا لسماحة الإسلام وأن الدين واحد) إلى آخره.

ونظرًا إلى ما في هذا الكلام من مصادمة الأدلة الشرعية الدالة على أنه لا أخوة ولا محبة بين المسلمين والكافرين، وإنما ذلك بين المسلمين أنفسهم، وأنه لا اتحاد بين الدينين الإسلامي والنصراني؛ لأن الدين الإسلامي هو الحق الذي يجب على جميع أهل الأرض المكلفين اتباعه أما النصرانية فكفر وضلال بنص القرآن الكريم؛ ومن الأدلة على ما ذكرنا قول اللَّه سبحانه في سورة الحجرات: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٠].

* وقول اللَّه عز وجل: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ**

مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

* وقوله سبحانه في سورة المجادلة: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

* وقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

* وقوله سبحانه في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

* وقوله عز وجل في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

* وقوله تعالى في السورة المذكورة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* وقوله عز وجل في سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧١].

* وقوله سبحانه في سورة المائدة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥].

● وقول النبي ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، ولا يخذله ولا يكذبه» الحديث رواه مسلم، ففي هذه الآيات الكريمات والحديث الشريف وما جاء في معنى ذلك من الآيات والأحاديث إنما يدل دلالة ظاهرة على أن الأخوة والمحبة إنما تكون بين المؤمنين أنفسهم.

❑ أما الكفار فيجب بغضهم في اللَّه ومعاداتهم فيه سبحانه، وتحرم موالاتهم وتوليهم حتى يؤمنوا باللَّه وحده ويدعوا ما هم عليه من الكفر والضلال.

❑ كما دلّت الآيات الأخيرة على أن الدين الحق هو دين الإسلام الذي بعث اللَّه به نبيه محمداً ﷺ وسائر المرسلين وهذا هو معنى قول النبي ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء ديننا واحد» رواه البخاري في «صحيحه»، أما ما سواه من الأديان الأخرى سواء كانت يهودية أو نصرانية أو غيرهما فكلها باطلة وما فيها من حق فقد جاءت شريعة نبينا محمد ﷺ به أو ما هو أكمل منه؛ لأنها شريعة كاملة عامة لجميع أهل الأرض، أما ما سواها فشرائع خاصة نسخت بشريعة محمد ﷺ التي هي أكمل الشرائع وأعمها وأنفعها للعباد في المعاش والمعاد كما قال اللَّه سبحانه يخاطب نبيه محمداً ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

❑ وقد أوجب اللَّه على جميع المكلفين من أهل الأرض اتباعه والتمسك بشرعه كما قال تعالى في سورة الأعراف بعد ذكر صفة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، ثم قال عز وجل بعدها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧-١٥٨].

* ونفى الإيمان عن جميع من لم يحكمه فقال سبحانه في سورة النساء: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

* وحكم على اليهود والنصارى بالكفر والشرك من أجل نسبتهم الولد للَّه سبحانه واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون اللَّه عز وجل بقوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣٣].

❑ ولو قيل إن هذا الاحتفال يعتبر تأكيداً لعلاقات التعاون بين أبناء الديانتين فيما ينفع الجميع لكان ذلك وجيهًا ولا محذور فيه، ولواجب النصح

للَّه ولعباده رأيت التنبيه على ذلك لكونه من الأمور العظيمة التي قد تلتبس على بعض الناس.

❑ وأسأل اللَّه أن يوفقنا وسائر المسلمين للأخوة الصادقة في اللَّه والمحبة فيه ومن أجله، وأن يهدي أبناء البشرية جميعًا للدخول في دين اللَّه الذي بعث به نبيه محمدًا ﷺ والتمسك به وتحكيمه ونبذ ما خالفه؛ لأن في ذلك السعادة الأبدية والنجاة في الدنيا والآخرة، كما أن فيه حل جميع المشاكل في الحاضر والمستقبل إنه جواد كريم، وصلّى اللَّه وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه»[1].

*** ومن المآخذ على الشيخ محمد عبده:**

❑ اشتراكه مع أستاذه الأفغاني في المحافل الماسونية ونشاطه فيها وتعاونه مع أستاذه في نشر مبادئها.

ويرد على من يدافع عن انتمائه إلى الماسونية بمثل ما رددنا به على من يدافع عن الأفغاني بل هو في محمد عبده أكثر قوة ووضوحًا لتأخر وفاة الشيخ عبده عن الأفغاني وقد كان الشيخ عبده يحتفظ ببعض كتب الماسونية في منزله بخط الأفغاني وقد صودرت أثناء سجنه بمصر.

❑ وقد صدرت منه عبارات كعبارات أستاذه الأفغاني تفوح منها رائحة تجاهل الإسلام والدعوة إلى الفرعونية المصرية فمن ذلك قوله: «كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الأمة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنًا»[2]، قال هذا القول وهو في القرن الرابع عشر الهجري أو العشرين الميلادي وعلى كلا الأمرين يكون

(١) «مجموع فتاوى سماحة الشيخ ابن باز» (٣/ ١٠٢٣).

(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ١٢).

قفز بقوله الحكم الإسلامي بأكمله! فمتى عرفت هذه الأمة ذلك إذا لم تكن عرفته في الإسلام؟!

❑ لا شك أن الدعوة إلى القومية الوطنية إنما هي أيضًا وليدة الماسونية التي تسعى إلى القضاء على الأديان، ولذلك يلاحظ كل من ينظر في سيرة هذا الرجل مظاهر دعوته إلى القومية العربية في سمتين بارزتين:

الأولى: أن الشيخ محمد عبده هو الذي صاغ برنامج الحزب الوطني المصري وجاء فيه في المادة الخامسة منه «الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذهب، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرس أرض مصر ويتكلم لغتها منضم إليها»[١].

❑ وفي سنة ١٨٨٨م جرت في مصر مناقشات صحفية حول تعصب الأقباط في مصر ضد المسلمين فكتب الشيخ محمد عبده مدافعًا عن الأقباط: «ليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن أو ينسبوها إلى شائن من العمل تعللاً بأن رجلاً أو رجالاً منها قد استهدفوا لذلك..»[٢].

❑ ومن أقواله: «إن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه»[٣]، وغاب عن ذهنه أن خير أوجه الوحدة الدين.

السمة الثانية: مطالبته باستقلال العرب عن الأتراك:

فقد أرسل لويس صابونجي برقية إلى مستر بلنت أوردها الأخير في تأريخه السري لاحتلال إنجلترا مصر جاء فيها إن: «نديم وعرابي وعبده

---

(١) «الأعمال الكاملة لإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ١٠٧).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٠٨).

(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (٢/ ١٩٤).

يتحدون الباب العالي علنًا»[١] ، ويقول بلنت أيضًا في تأريخه هذا: «وقد سمعت سامي وعبده وندیمًا يلعنون السلاطين والأمم التركية من عهد جنكيز خان وهولاكو إلى عبدالحميد وقد ألف حزب كبير يستعد لإعلان الاستقلال عن تركيا إذا تدخل الأتراك في مصر تدخلاً حربيًا. .»[٢] ، وهذا الموقف هو الذي يفسر لنا معنى تلك البرقية التي أرسلها الخديو توفيق إلى السلطان العثماني في نوفمبر سنة ١٨٨١م يقول له فيها: «إن مصر في حالة ثورة وإن هناك اقتراحًا لإنشاء امبراطورية عربية»[٣] .

وهو مع عداوته للأتراك وللخلافة الإسلامية قد يعلن تأييده للخلافة الإسلامية والدولة العثمانية ولكنه إعلان نفاق وتزلف؛ لأنه إنما يعلن هذا حينما يكون في نطاق النفوذ المباشر للسلطان العثماني والسلطة العثمانية فإذا خرج من ذلك عاد إلى رأيه القديم في هذه الدولة وهذا السلطان[٤] فهو يقول في تأييد الخلافة: «وإني على ضعفي ـ والحمد للّه ـ مسلم العقيدة عثماني المشرب، وإن كنت عربي اللسان ولا أجد في فرائض اللّه بعد الإيمان بشرعه والعمل على أصوله فرضًا أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمساك بعصمته والخضوع لجلالته وشحذ الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً وعندي أني إن لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند اللّه بإيماني فإنما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان فخاذلها محاد للّه ورسوله ومن حادّ اللّه ورسوله فأولئك هم الظالمون»[٥] .

---

(١) «التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر» للمستر بلنت ص(٢٤٩).

(٢) «المرجع السابق ص(٢٥٥ ـ ٢٥٦).

(٣) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ١١٣).

(٤) المرجع السابق (١/ ١١٤ ـ ١١٥).

(٥) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا (٢/ ٥٢٢ ـ ٥٢٣).

ومن أثر هذا الاتجاه أيضًا اتجاهه إلى إنشاء جمعية «سرية» للتقريب بين الأديان ودفاعه القوي عنها وعن أعضائها حتى في وجه الخلافة الإسلامية، كتب مدافعًا عن إسحاق طيلر قائلاً: «إن السر في غضب السلطان عبدالحميد من نشاط القس الإنجليزي إسحاق تيلور في الدعوة لتوحيد الأديان وموافقتي وميرزا باقر وعلماء دمشق له ومراسلتنا إياه أنه خشي أن يعتنق الإنجليز الإسلام، ثم يطلبوا أن يكونوا أصحاب الدولة في الإسلام وتكون الملكة فيكتوريا ملكة المسلمين.. ويذهب السلطان من السلطان.. وسبحان مدبر العقول»[1].

فانظر إلى أي مدى وصل دفاعه عن قس إنجليزي يقول: «إن المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام.. فهم عندنا مسيحيون نصلي لهم كل يوم أحد ونسأل اللَّه أن يهديهم وإيانا إلى الحق وإلى طريق مستقيم»[2].

ثم انظر إلى هذا الاتهام السخيف من محمد عبده إلى السلطان عبدالحميد؟! ولا ندري هل قال الشيخ عبده هذا عن اعتقاد صحيح أو خداع للقارئ.

أما عن نشاطه في هذه الجمعية فقد تقدم بيانه.

ومن أهم المآخذ عليه علاقته المريبة بالإنجليز كأستاذه الأفغاني، فقد كان الإمام محمد عبده يبذل لهم النصيحة خالصة ويرشدهم إلى ما يوطد دعائم احتلالهم ويحذرهم من الأخطاء التي يكادون أن يقعوا فيها وتضرهم في مصالحهم، نذكر لذلك مثلاً بعزيمة اللورد كرومر على إلغاء النيابة العامة وإحالة أعمالها إلى القضاء، فحذره محمد عبده بأن هذا خطأ لا يحتمل

---

(١) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٧٣٥).

(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٨٢٦).

الصواب وعلل ذلك بأن رجال النيابة من أرقى رجال البلاد علمًا وعقلاً ولسانًا وقلمًا وستتوجه همة كل من تلغى وظيفته إلى الاشتغال بالسياسة فيتعبون البلاد والمسئولين عن النظام تعبًا كبيرًا»[١] فأبطل اللورد المشروع فورًا.

بل ويدل على ما قدمه لهم من خدمات دفاعهم عنه والوقوف بجانبه فقد صرح اللورد كرومر بأن الشيخ محمد عبده يظل مفتيًا في مصر ما ظلت بريطانيا العظمى محتلة لها»[٢] ، وكان الاحتلال الإنجليزي عاملاً أساسيًا من عوامل عودة محمد عبده إلى مصر وقد صرح اللود كرومر بذلك في كتابه مصر الحديثة فقال: إن العفو صدر عن محمد عبده بسبب الضغط البريطاني»[٣] .

وقدم له الإنجليز الحماية في الآستانة حين كثرت الدسائس ضده يقول تلميذه السيد رشيد رضا «كان المراد من الدسائس.. أن يحبس الأستاذ الإمام أو يهان وهم لا يجهلون أن السفارة البريطانية كانت بالمرصاد وأنها لا تسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه والسلطان ورجاله لا يجهلون هذا أيضًا»[٤] . ويكتب الشيخ عبده نفسه إلى السيد رشيد قائلاً: إن السلطان لا يستطيع حبسي لو أراده وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم ولذلك أسباب لا أحبّ ذكرها الآن»[٥] .

فأي علاقة تربطه بالإنجليز حتى يوفروا له كل هذه الحماية؟! وأيّ أسباب لا يحب الشيخ محمد عبده ذكرها؟!

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٩٢٢).

(٢) المرجع السابق (١/ ٥٠١ ـ ٥٦٤).

(٣) «الفكر الإسلامي المعاصر» لغازي التوبة ص(٤٥).

(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٨٦٠).

(٥) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» لمحمد عمارة (١/ ١١٧).

ثم لا ندري كيف تستقيم عقيدة الرجل وقد كلّت أبصارنا من قراءة عبارات له خطيرة يبدو الانحراف ظاهراً في عقيدة قائلها.

فمن ذلك ما ورد في كتابه الذي أرسله من السجن إلى أحد مريديه» . . ودارت الأفلاك دورة العكس ذاهبة بنيرانها إلى عوالم غير عالمنا هذا فولى معها آلهة الخير أجمعين وتمخضت السلطة لآلهة الشر»[1] .

ولا يصح تخريج تلميذه رشيد لهذا بأنه على الحكاية لخرافات اليونانيين وهو إن كان قال هذا عن اعتقاد فلا شك في كفره ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤].

ومن ذلك ما كتبه إلى أستاذه الأفغاني قائلاً: «ليتني كنت أعلم ماذا أكتب إليك، وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك، صنعتنا بيديك وأفضت على موادنا صورها الكمالية وانشأتنا في أحسن تقويم فبك عرفنا أنفسنا وبك عرفناك وبك عرفنا العالم أجمعين فعلمك بنا كما لا يخفاك علم من طريق الموجب وهو علمك بذاتك وثقتك بقدرتك وإرادتك، فعنك صدرنا وإليك إليك المآب.

أوتيت من لدنك حكمة أقلب بها القلوب وأعقل العقول، وأتصرف بها في خواطر النفوس ومنحت منك عزمة أتعتع بها الثوابت وأذل بها شوامخ الصعاب وأصدع بها حمّ المشاكل وأثبت بها في الحق للحق حتى يرضى الحق، وكنت أظن قدرتي بقدرتك غير محدودة ومكنتي لا مبتوتة ولا مقدورة فإذا أنا من الأيام كل يوم في شأن جديد»، ويقول: «فصورتك الظاهرة تجلت في قوتي الخيالية وامتد سلطانها على حسي المشترك وهي رسم الشهامة وشبح الحكمة وهيكل الكمال فإليها ردت جميع محسوساتي وفيها فنيت مجامع

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (١/٢٦٧).

مشهوداتي وروح حكمتك التي أحييت بها مواتنا وأنرت بها عقولنا وطفت بها نفوسنا بل التي بطنت بها فينا فظهرت في أشخاصنا فكنا أعدادك وأنت الواحد وغيبك وأنت الشاهد ورسمك الفوتوغرافي الذي أقمته في قبلة صلاتي رقيبًا على ما أقدم من أعمالي ومسيطرًا عليّ في أحوالي وما تحركت حركة ولا تكلمت كلمة ولا مضيت إلى غاية ولا انثنيت عن نهاية حتى تطابق في عملي أحكام أرواحك وهي ثلاثة فمضيت على حكمها سعيًا في الخير وأعلاءً لكلمة الحق وتأييدًا لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة ولست في ذلك إلا آلةً لتنفيذ الرأي المثلث ومالي من ذاتي إرادة حتى ينقلب مربعًا غير أن قواي العالية تخلت عني في مكاتبتي إليك وخلت بيني وبين نفسي التزامًا لحكم أن المعلول لا يعود على علته بالتأثير على أن ما يكون إلى المولي من رقائم عبده ليس إلا نوعًا من التضرع والابتهال لا أحسب فيه ما يكشف خفاء أو يزيد جلاء ومع ذلك فإني لا أتوسل إليك في العفو عما تجده من قلق العبارة وما تراه مما يخالف سنن البلاغة بشفيع أقوى من عجز العقل عن إحداق نظره إليك وإطراق الفكر خشية منك بين يديك، وأي شفيع أقوى من رحمتك الضعفاء وحنوك لمغلوبي حياء»، ويقول: «فقد قضت حكمتك القائمة منا مقام الإلهام في قلوب الصديقين»، ويقول أيضًا: «أما ما يتعلق بنا فإني على بينة من أمر مولاي وإن كان في قوة بيانه ما يشكك الملائكة في معبودهم والأنبياء في وحيهم، ولكن ليس في استطاعته أن يشكك نفسه في نفسه ولا أن يقنع عقله الأعلى بمحالات وإن كان في طوعه أن يقنع بها من أراد من الشرقيين والغربيين.

هذا بعض ما ورد في خطاب محمد عبده إلى أستاذه الأفغاني بتاريخ ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠هـ وهي عبارات ولا شك خطيرة توجب إعادة النظر في عقيدة الرجل عند من لا تخدعه الأسماء وقد استغرب السيد رضا نفسه هذه الرسالة من أستاذه حيث قال عند سياقه لها:

«ومن كتاب له إلى السيد جمال الدين عقب النفي من مصر إلى بيروت وهو أغرب كتبه بل هو الشاذ فيما يصف به أستاذه السيد مما يشبه كلام صوفية الحقائق والقائلين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم، وفيه من الإغراق والغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه، وإن كان من قبيل الشعريّات، وكذا ما يصف به نفسه بالتبع لأستاذه من الدعوى التي لم تعهد منه البتة»[1] ، ثم ساق نص الخطاب، ولم يلتزم السيد رشيد رضا الدقة كلها في نقل الرسالة فنراه يحذف بعض العبارات الخطيرة ويضع نقطًا وأحيانًا لا يضع حتى النقط ويحاول حينًا أن يلطف من شدة انحراف بعض العبارات بتأويلات متكلفة، أما حذفه بعض العبارات فلعله وضع لنفسه مبررًا لذلك فقال في تقديم الخطاب: «ومن كتاب له إلى السيد جمال الدين».

هذه عبارات ولا شك خطيرة، ولكن ما هو أخطر وأشد ضلالاً ما ورد في خطاب آخر منه إلى السيد الأفغاني بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٣٠٠هـ وإني لأدعو القارئ أن يمعن النظر في كل حرف أنقله من الرسالة: «أما الآن وقد حبسني الجناب العالي نتيجة لأعماله فإني أصدع بأفكاري قواعد الملكوت وأزعزع بهمتي أركان سطوة الجبروت وأدعو إلى الحق دعوة الحكيم.. ثم يقول: «بلغنا قبل وصول كتابكم الكريم ما نشر في «الدبا» من دفاعكم عن الدين الإسلامي (يا لها من مدافعة) ردًّا على مسيو رينان فظننّاها من المداعبات الدينية تحل عند المؤمنين محل القبول فحثنا بعض الدينيين على ترجمتها لكن حمدنا اللّه تعالى إذ لم يتيسر له وجود أعداد «الدبا» حتى ورد كتابكم واطلعنا على العددين ترجمهما لنا حضرة الفاضل حسن أفندي بيّهم

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا (٢/٥٩٩).

فصرفنا ذهن صاحبنا الأول عن ترجمتها[1] وتوسلنا في ذلك بأن وعدنا أن الأصل العربي سيحضر فإن حضر نشر ولا لزوم للترجمة فاندفع المكروه والحمد للَّه».

(١) نقل الأستاذ محمد حميد اللَّه في مجلة الفكر الإسلامي ـ بيروت ـ السنة الثانية العدد الثاني في مقال «صلات ارنست رينان مع جمال الدين الأفغاني» نقل بعض العبارات التي جاءت في دفاع الأفغاني ومن الطريف أن الأستاذ حميد اللَّه استغرب صدور هذه النصوص من جمال الدين واستبعد ذلك، ولو أنه قرأ خطاب محمد عبده ـ هذا ـ إلى الأفغاني وحرصه على عدم ترجمة هذا الدفاع من الأفغاني لأدرك صحة نسبته للأفغاني.
أما النصوص فمنها: «عند قراءة المحاضرة (يعني محاضرة رينان التي يرد عليها الأفغاني) لا يقدر الإنسان على منع نفسه من التساؤل: «إن أصل تلك العوائق هل هو من دين المسلمين أو من خصائص الملل التي أكرهت بالسيف على قبول ذلك الدين».
ومنها: «وفي الحقيقة إن الدين الإسلامي حاول خنق العلم وسدّ جميع التطور ولذلك نجح في سدّ الحركات الفكرية والفلسفية وطرد الأذهان عن طلب الحقيقة العلمية».
ومنها: «كان هذا صحيحًا أن دين المسلمين يعوق من تطور العلم فهل يقدر أحد على أن يدعي عن هذه الطائفة سوف لا تزول يومًا؟ ففيم يختلف دين المسلمين في هذا من سائر الأديان؟ إن جميع الأديان لا سماحة عندها أبدًا، كل واحد حسب شاكلته إن المجتمع النصراني الذي تحرر واستقل الآن يتقدم بادي الرأي سريعًا في سبيل التقدم والعلوم بينما المجتمع الإسلامي لم يتحرر إلى الآن من تسلط الدين».
ومنها: «لا شك عندما سار الإسلام في البلاد التي تملكها باستعمال الجبر والقهر ما هو معروف نقل إليها لغته وعاداته ومعتقداته وهذه البلاد لم تستطع إلى الآن من الخلاص من مخالبه».
ومنها: «.. ولماذا لم يزل العالم العربي مغطى بالظلمات العميقة؟ في هذه الناحية تظهر مسئولية الدين الإسلامي كاملة. ومن الظاهر أن هذا الدين حيثما حل حاول خنق العلوم».
هذا بعض ما جاء في رد الأفغاني، ولذلك فلا عجب أن يكتب رينان في اليوم التالي معقبًا على ردّ الأفغاني: «إنه متفق مع جمال الدين تمام الاتفاق فيما ذكره في رده عليه».
هذه النصوص نقلها الأستاذ محمد حميد اللَّه من جريدة «جورنال ديه ديبا» الفرنسية المؤرخة في ١٨ مايو ١٨٨٣.

ثم قال في عبارة أشد انحرافًا وأدعى إلى تقييم عقيدته: «نحن الآن على سنتك القويمة لا تقطع رأس الدين إلا بسيف الدين ولهذا لو رأيتنا لرأيت زهادًا عبادًا ركعًا سجدًا لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل».

عجبًا!! نحن الآن على سنتك القويمة.. لا تقطع رأس الدين إلا بسيف الدين - ولهذا لو رأيتنا لرأيت زهادًا عبادًا.. ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل؟!

هي هي دعوة باطنية يخفيها الرجلان ويسعيان تحت ستارة الدين و«بسيف الدين» لقطع «رأس الدين»؟! وقيامهم بالصلاة أمام الناس هل هو سعي إلى القبض على سيف الدين؟! ثم تركهم للصلاة بعض الأحيان هل هو تنفيس «لضيق العيش» وعودتهم إليها حينًا لأجل «فسحة الأمل».

❑ عاتب الشيخ يوسف النبهاني السيد رشيد رضا على صحبته لمحمد عبده وتسميته له بالأستاذ الإمام مع تركه للحج ولفروض الصلاة ولاشتراكه في الماسونية فقال نظمًا:

وذاكرته في شيخه وهو عبده ... تملكه للشيطان عن قومه قسرا
فقلت له لو كابن سينا زعمتم ... وعالم فاراب وأفهم قدرا
لقلنا لكم حقًّا وإن كان باطلاً ... ولم نر من هذا على ديننا ضرا
ولكنكم مع تركه الحج مرة[1] ... وحج لباريز ولندره عشرا
ومع تركه فرض الصلاة ولم يكن ... يسر بذا بل كان يتركها جهرا

(١) اعترف السيد رشيد بهذا وزعم أن المانع هو الخوف من إساءة السلطان عبدالحميد له! ونقول: إن الشيخ محمد عبده كان قادرًا على الحج قبل سوء العلاقة بينه وبين السلطان هذا لو سلمنا أن سوء العلاقة كان مانعًا حقيقيًا!! ومن تمكن من زيارة الآستانة نفسها في عهد السلطان عبدالحميد أفلا يستطيع أن يحج إلى مكة المكرمة؟!.

ومع كونه شيخ المسنون مجاهراً بذلك، لا يخفي أخوّتهم سراً
ومع غير هذا من ضلالاته التي بها سار مثل السهم للجهة الأخرى
تقولون أستاذ إمام لديننا فما أكذب الدعوى وما أقبح الأمرا
ونحن نراه عندنا شر فاسق فيقتل فسقًا بالشريعة أو كفرا[1]

❑ أما عن الشيخ الأفغاني فيقول الشيخ يوسف النبهاني: «إنه اجتمع به سنة ١٢٩٧هـ في مصر حين كان مجاوراً بالأزهر ولازمه من قبل الغروب إلى قرب العشاء فلم يصل المغرب»[2].

❑ ومن أقوال الشيخ محمد عبده التي نؤاخذه عليها وصفه للأزهر بالأسطبل والمارستان والمخروب[3] وقوله لتلميذه رشيد: «إن من تطول مدة طلبه للعلم في الأزهر وأمثاله فإنه يفقد الاستعداد للعلم»[4].

وفي الحقيقة إن الباحث المدقق في مسار الفكر الإسلامي في تلك الآونة وما تلاها يجد الشيخ محمد عبده خلف كثير من الدعوات الهدامة والمبادئ المنحرفة لا أقول هذا تعصبًا ضد الرجل فما تقولت عليه قولاً وما نسبت إليه نصًّا إلا عن مصدر موثوق وطريق مأمون.

نشر محمد أحمد خلف اللّه كتابه «الفن القصصي في القرآن الكريم» زعم فيه أن ورود الخبر في القرآن لا يقتضي وقوعه وإنه يذكر أشياء وهي لم تقع ويخشى على القرآن (!!) من مقارنة أخباره بحقائق التاريخ، وقال: «إننا

---

(١) «الرائية الصغرى في ذم البدعة ومدح السنة الغراء» ضمن كتاب «العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية» وكلاهما للشيخ يوسف النبهاني ص(٣٨٣).
(٢) المرجع السابق ص(٣٧٢).
(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٤٩٥).
(٤) المرجع السابق (١/ ١٨١).

لا نتحرج من القول: بأن القرآن أساطير»[١] . وعندما رفضت جامعة فؤاد هذه الرسالة دافع عنها أمين الخولي المشرف على الرسالة قائلاً: «إنها ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عامًا»[٢] .

*** محمد عبده وتلميذه قاسم أمين:**

❑ ونشر قاسم أمين كتابه تحرير المرأة وفيه دعوة إلى نبذ الحجاب واطراحه وإلى خروج المرأة إلى العمل في كل المجالات ودراسة كل العلوم وزعموا أن هذا تحرير المرأة وهو في الحقيقة تخريب للمرأة وتحرير لها من الكرامة التي صانها لها الإسلام.

❑ وقصة الكتاب تبدأ حينما نشر أحد الكتاب الفرنسيين مقالاً هاجم فيه حجاب المرأة المصرية فكتب قاسم أمين دفاعًا عن الحجاب أغضب اللورد كرومر الذي جاء إلى مصر كما قال: ليمحو ثلاثًا القرآن والكعبة والأزهر[٣] فأمر بوضع كتاب «تحرير المرأة»، وقيل: إن الذي أمر بوضعه الأميرة نازلي حفيدة إبراهيم باشا؛ لأنها غضبت من دفاع قاسم أمين عن الحجاب «والذين نسبوا الأمر إلى اللورد كرومر والذين نسبوه إلى «نازلي» يتفقون أن الأمر قد صدر إلى الشيخ محمد عبده، وأنه قد قام بدور كبير في تأليف الكتاب.. بل يرى بعضهم إنه هو الذي ألّفه، ثم وضع على غلافه اسم قاسم أمين تجنبًا للحرج والعاصفة التي كانت ستهب عليه مباشرة إذا ما وضع اسمه عليه، وهو الشيخ الأزهري ذو المناصب الدينية الكبرى، ومنها منصب

(١) «الفن القصص في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللّه ص(١٨٠).
(٢) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللّه تقديم أمين الخولي ص ح.
(٣) «الخنجر المسموم الذي طعن به المسلمون» لأنور الجندي ص(٢٩).

مفتي الديار المصرية»[١].

ولذلك فلا عجب أن يقول الأستاذ محمد عمارة الذي جمع مؤلفات ومقالات محمد عبده في كتاب «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» في ستة مجلدات بعد تحقيق دقيق لنسبتها إلى محمد عبده لا عجب أن يقول: «والرأي الذي أؤمن به والذي نبع من الدراسة لهذه القضية هو أن هذا الكتاب إنما جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين. وأن في هذا الكتاب[٢] عدة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ثم صاغ الأستاذ الإمام الكتاب صياغته النهائية، بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده منه إلى أسلوب قاسم أمين»[٣] ، ثم ذكر بعد هذا مجموعة كبيرة من الأدلة على ذلك قدم بين يديها عددًا من القرائن.

منها موقف الأستاذ الإمام من الكتاب بعد صدوره فلقد أيّده ودافع عنه بطريقة غير مباشرة وامتنع عن التعليق عليه أو المشاركة بشكل مباشر في المعارك التي دارت من حوله وبالذات عندما أراد خصومه إحراجه وطلبوا منه أن يفتي ـ بحكم منصبه الرسمي ـ في الموضوع.

أما دفاعه غير المباشر فيتمثل في وقوف الشيخ رشيد رضا ومجلة المنار إلى جانب الكتاب فلقد تناولت المنار الكتاب بالمدح والتقريظ في أكثر من مرة واعتبرته مع رسالة التوحيد للأستاذ الإمام و«سر تقدم الإنجليز السكسونيين» الذي ترجمه فتحي زغلول أهم الأعمال الفكرية في ذلك العصر «المنار ١ يوليو ١٨٩٩م» كما تناولته بالثناء في عددي ١٥ يوليو ٢٦ اغسطس

(١) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨).
(٢) يعني كتاب «تحرير المرأة» المنسوب لقاسم أمين.
(٣) «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٢٥٢).

من العام نفسه»[١] .

ووصف السيد رشيد رضا قاسم أمين بأنه العالم البارع في علوم الأخلاق والاجتماع»[٢] .

❑ وحينما أراد خصوم الشيخ إحراجه طبعوا سؤالاً موجهًا إليه هو: «هل رفع الحجاب عن المرأة وإطلاقها في سبيل حريتها بالطريقة التي يريدها صاحب كتاب المرأة الجديدة يسمح به الشرع الشريف أم لا؟»، ووزعوا هذا السؤال على الجمهور في صورة كتاب مفتوح إلى المفتي محمد عبده. عندما فعلوا هذا لزم الشيخ محمد عبده الصمت ودافعت المنار عن هذا الصمت قائله:

١ ـ إن الاستفتاء جاء على خلاف المعهود بأن وزع على الجمهور.

٢ ـ إن الجواب عليه يستلزم قراءة الكتاب في حين أن المفتي مثقل بالأعمال (!!).

٣ ـ إن من اطلع على الفتوى يحتاج إلى أن يقرأ الكتاب أولاً، فإذا كان ضارًّا تكون الفتوى سببًا في إذاعة الضرر (!!).

٤ ـ إن فتوى الإمام ستكون على المذهب الحنفي الذي عينته الحكومة ليفتي على أساسه في حين أن بعض المذاهب قد أباحت كشف المرأة لوجهها ويديها[٣] .

أما الفصول التي أثبت الأستاذ محمد عمارة أنها للشيخ محمد عبده فهي «الحجاب الشرعي» و«الزواج» و«تعدد الزوجات» و«الطلاق» ثم قال

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٥٥).

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام» للسيد محمد رشيد رضا (١/ ١٠٥١).

(٣) مجلة المنار المجلد ٤ (١/ ٣٣ ـ ٣٤) في غرة ذي القعدة ١٣١٨هـ.

عنها: «إنما هي فكر خالص وصياغة خالصة للأستاذ الإمام»[١] وأقول: إن هذه الفصول هي أهم ما في الكتاب.

ومن هنا ندرك أن الشيخ محمد عبده يقف خلف هذه الدعوة، ولذلك رأى الشيخ مصطفى صبري أن يكتب تحت عنوان «الأستاذ الإمام وكتاب اللَّه في كفتي الميزان»: - «وإني أرى الرسالة المستنكرة - يعني رسالة الفن القصصي في القرآن الكريم» - وما سبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده كلها ناشئة من الأسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالأستاذ الإمام.. فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها من أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤتمين»[٢].

وبعد..

فلعلي أقف هنا عن الحديث عن المآخذ على الشيخ محمد عبده.

أما من كانت الحقيقة هدفه فلا شك أنه واجد فيما ذكرت ما يجلوها له.

وأما من أعرض عن طلبها ووضع في ذهنه أصنامًا وتماثيل لأشخاص بلغوا من القداسة حدًّا لا يقبل معه كلمة في حقهم، يعلو صوته ويحتدّ صراخه إن سمع نقدًا لأحدهم في وقت لا يهيج فيه ولا يتمعّر وجهه حين يسمع السب والشتم فضلاً عن التجريح لأبي هريرة ﷺ أو وهب بن منبه أو كعب الأحبار ﷺ من محمود أبي رية وغيره من أتباع الأفغاني ومحمد عبده.

إن مثل هذا لا نأبه له في حديثنا هنا ولم نكتب هذا لإقناعه لأنه وأمثاله ليس في مستطاعنا ولا مستطاع غيرنا إقناعهم إلا أن يهديهم اللَّه إلى

---

(١) «الأعمال الكاملة» للإمام محمد عبده» جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٢٥٨).

(٢) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (١/ ٣٤٦).

الحق وإلى سبيل الرشاد وحينذاك فيقرأوا حديثنا مرة أخرى.

ومن وجد فيما كتبنا فهمًا خاطئًا أو تأويلاً باطلاً فليرشدنا إلى الحق وله منا الدعاء الحسن فما كتبنا إلا للحقيقة وما طلبنا إلا إياها فهي ضالتنا وهي مرادنا فيما نكتب وفيما نقول واللَّه الهادي إلى سواء السبيل»[١] .

❑ وذهب الشيخ محمد عبده إلى أن حكم المؤمن القاتل عمدًا هو الخلود في النار، وأنه لا توبة له مطلقًا، وهذا مخالف لاعتقاد السلف الذين فسروا وأولوا الخلود بطول المكث.

❑ وخالف فهم السلف للوحي فقال: «بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل اللَّه بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت»[٢] ، ويقول: «إن روح النبي منطوية على الدين في جملته من قبل أن ينزل عليه الوحي بتفاصيل مسائله»؟!!.

❑ وذهب الشيخ محمد عبده إلى إباحة الربا لضرورة الوقت فقال: «إن أهل بخارى جوّزوا الربا لضرورة الوقت عندهم والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدّد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص!!!»[٤] .

❑ وتبعه الشيخ محمد مصطفى المراغي في مراعاته للزمان والمكان حين قال لأعضاء لجنة الأحوال الشخصية: «ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم»[٥] .

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(١٤٩ ـ ١٦٩).

(٢) «رسالة التوحيد» لمحمد عبده ص(١٠٨).

(٣) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٢/ ١٤).

(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٩٤٤).

(٥) «المجددون في الإسلام» لعبدالمتعال الصعيدي ص(٥٤٨)، و«تراجم الأعلام المعاصرين» لأنور الجندي ص(٤٢٨).

* **موقف المدرسة العقلية الحديثة من بعض القضايا الاعتقادية والقرآنية:**

❑ يقول الدكتور فهد الرومي في كتابه القيم: «نخلص من دراستنا هذه أن لمذهب المدرسة العقلية الحديثة أبعادًا ثلاثة نراها قوية شامخة في التكوين الأساسي للمدرسة العقلية نذكر هذه الأبعاد الثلاثة إجمالاً ثم نستخلص بعد هذا النتيجة التي نراها والموقف الذي يجب أن نقفه نحن المسلمون على ضوء هذه النتيجة:

الأبعاد الثلاثة:

أولاً: أن هذه المدرسة أعطت العقل أكثر من حقه وكلفته ما لا يطيق ورفعت من قيمته وضخمت حجمه حتى ساوته بالوحي بل قدمته عليه وقدمت ما زعمته من أحكامه على أحكام الوحي.

وسعت في هذا السبيل لأجل «تضييق» حيز الغيبيات في مسائل العقيدة الإسلامية.

ثانيًا: قامت هذه المدرسة بتأويل حقائق العقائد الإسلامية بما يتمشى مع الأحكام العقلية من جهة ومكتشفات الحضارة الغربية والنظريات العلمية الغربية من جهة أخرى.

وفي سبيل ذلك أيضًا قامت بتأويل المعجزات والخوارق وإنكار بعضها إذا لم يمكن قلب حقيقته بما يتمشى مع هذا البعد الفكري.

ثالثًا: تبرير تناول الحضارة الغربية ومجاراتها في مدنيتها الزائفة والتحوير من الداخل لإعطاء السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية وتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين تقريبًا كان على حساب كثير من الجوانب الإسلامية التي تقوم عليها العقيدة الإسلامية.

تلكم هي الخطوط العريضة والأبعاد الراسخة التي نراها في منهج

المدرسة العقلية.

ونتيجة لذلك فإنا نعتقد:

أولاً: أن المدرسة العقلية الحديثة ذات منهج منحرف، وهي بسلوكها إياه تعد فرقة منحرفة جديدة أقرب ما تكون إلى فرقة المعتزلة فهم كالمعتزلة.

أ ـ في تحكيم العقل والرجوع إلى أحكامه ورفعه إلى مرتبة الوحي، وهم لو حكموا العقل نفسه لسلمنا لهم؛ لأن أحكامه بنفسه لا تخالف حكمًا ثابتًا في الشريعة الإسلامية أو قضية من قضاياه وهم إنما يحكمون العادة فيحسبون ما خالف العادة مخالفًا للعقل.

ب ـ وهم كالمعتزلة في إنكار المعجزات أو تأويلها.

جـ ـ وهم كالمعتزلة أيضًا في كثير من الغيبيات كالملائكة والجن والسحر وغيره.

د ـ وهم كالمعتزلة في إنكار كثير من الأحاديث الصحيحة حتى ما رواه البخاري ومسلم.

هـ ـ وهم كالمعتزلة في عدم تعديل الصحابة كلهم بل تجاوز بعضهم ذلك كبعض المعتزلة إلى سب الصحابة ﷺ.

و ـ وإنهم كالمعتزلة في اعتقاد خلود أهل الكبائر في النار.

ومن هذا ندرك وضوح الصلة ووجه الشبه بينهم وبين المعتزلة.

ثانيًا: أنهم يزيدون على المعتزلة بالدعوة للتقريب بين المسلمين والكفار (النصارى واليهود) وتبرير تناول الحضارة الغربية ومجاراتها في مدنيتها الزائفة.

بل إنهم أخطر من المعتزلة ذلك أنهم يسعون بكل ما وسعهم لتغيير المفهوم الإسلامي في معاملة الكفار وإلغاء الفاصل والحاجز بين الفكر الحق

والفكر الضال أو المنحرف وإذا ما ألغي جانب العقيدة في ميزان التفاضل، فإن الكفة سترجح حتمًا بنا وسيصبح الكفار آنذاك هم الأفضل والأقوى ومن ثم تكون لهم السيطرة وتكون لهم الدولة وحينئذ تكون خسارتنا للدين والدنيا.

وهو ما يسعى إليه الاستعمار وسهر من أجله الليالي ودفع جيوشه المادية والمعنوية وبث رجاله المستشرقين والمخدوعين ـ لأجله.

ثالثًا: إن الكثير من مفاهيمهم ومبادئهم هي السائدة في الفكر الإسلامي المعاصر وما ذاك إلا أثر من آثار فرض الاستعمار بادئ ذي بدء آراءهم على الناس وترويجه لهم وتمجيد المستشرقين لهم حتى إذا ما سار ذلك بين الناس أخذوا يتبنونه بأنفسهم ويعلنونه في مؤلفاتهم ويدافعون عنه حتى أصبح أو كاد من المسلمات.

وأصبح رجال المدرسة العقلية عندهم من الرجال الذين لا يقبل فيهم نقد أو يصل إليهم قدح.

رابعًا: أنهم مهدوا السبيل لسيطرة الفكر الغربي واتخذهم الأعداء مطي يعملون من خلالها على زلزلة عقيدة المسلمين وتشكيكهم بها ومحاربة الإسلام في عقر داره ليس عن طريق نشر المؤلفات فحسب بل عن طريق الصحافة وطريق السينما والتليفزيون والإذاعة وكل وسائل الإعلام الأخرى.

ثم عمل الاستعمار على إطفاء ما بقي من نار الغيرة على الشعائر الإسلامية بل على الدين كله في قلوب الشباب فأصبحوا لا يحرك ساكنًا فيهم ما يحدث في المسلمين في الفلبين أو في الهند أو في أفغانستان أو في فلسطين أو في غيرها من مختلف البلدان، لا يحرك هذا فيهم ساكنًا عند سماعه فضلاً عن أن يهبوا زرافات ووحدانًا.

خامسًا: لم تكن نتيجة ذلك ذات أثر على الأفراد فحسب بل على كثير

من الدول التي نبذت الفقه والفقهاء الإسلاميين واستبدلت القوانين الوضعية بالفقه الإسلامي وتركت تقليد أبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد أو غيرهم من الفقهاء واستمدت جل دستورها من القوانين الأوروبية الحديثة.

وبعد..

□ فما الموقف منهم الذي يجب إعلانه هنا؟ لا أريد أن أستطرد في الحديث هنا بل ألخص الموقف بأسطر أحسب فيها الكفاية.

لا شك أن الواجب يقتضي أن نعيد النظر في رجال هذه المدرسة العقلية أنفسهم ونعيد تقييمهم وفق الميزان الإسلامي الحق ونعلن للناس كافة حقيقتهم ونجلو لهم علانية زيف منهجهم ونبين مواقع ضلاله ومواقع انحرافه.

ـ نعيد تقييمهم تقييمًا حقًّا لا يراعي بحال من الأحوال ما هو سائد بين الناس عنهم.

ـ وحين نصل إلى نتيجة ذلك نعلن بها العلماء قبل العامة لينشروه بين الناس كافة.

وحينئذ نعيد ترتيب الأمور على الميزان الحق أحسب هذا الأمر يقال في لحظة، ويكتب في لحظتين ولكن تنفيذه يريد عزمة إسلامية خالصة تطوي الزمن طيًّا فيحصل ما يحتاج إلى قرون عديدة في سنوات قليلة ويكون صلاح هذا الدين في هذا العصر كصلاحه في أوله»[1].

ولنأخذ من انحرافاتهم أمثلة:

أولاً: الأحاديث الواردة في أشراط الساعة ومنها أحاديث المهدي والدجال وطلوع الشمس من مغربها وقد بلغت حد التواتر يردونها.

يرد الشيخ رشيد رضا أيضًا حديث الجساسة وقد ورد في صحيح مسلم

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٨٠٩ ـ ٨١٢).

يقول: «وجملة القول في حديث الجسّاسة أن ما فيه من العلل والاختلاف والإشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع، وأنه على تقدير صحته ليس له كله حكم المرفوع»[١].

❑ وهم يؤولون حقائق يوم القيامة عن نشر الصحف، وأخذ الكتاب باليمين أو بالشمال أو الميزان.

«أما نشر الصحف الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]، فيقول عن ذلك الشيخ محمد عبده: «الصحف التي تنشر يوم القيامة بعد البعث هي صحف الأعمال والذي يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لا يرتابون فيها يوم الجزاء ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال أما كون الصحف على مثال الأوراق التي نكتب عليها في الدنيا أو على مثال الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه. فذلك مما لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل ولم يرو عن المعصوم ﷺ فيه نص قاطع»[٢].

أما أخذ الكتاب باليمين أو بالشمال الوارد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الإنشقاق: ٧، ٨] الآيات فيفسر ذلك الشيخ محمد عبده بقوله: «فإيتاء الكتاب باليمين أو اليسار أو وراء الظهر تمثيل وتصوير لحالة المطلع على أعماله في ذلك اليوم فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وهو التناول باليمين ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنهما وأدبر وتمنى لو لم تكشف له ـ وهذا هو التناول باليسار أو وراء الظهر، وبهذا اتفق المعنيان في

(١) «تفسير المنار» لرشيد رضا (٩/ ٤٥١).

(٢) «تفسير جزء عم» لمحمد عبده ص(٢٧ ـ ٢٨).

الآيتين ولم تبق حاجة إلى الجمع بين الشمال ووراء الظهر باختراع معنى لا يليق بكتاب اللّه كما جرى عليه كثير من المفسرين»[١] .

إذن فهم يحملون هذه النصوص القرآنية الصريحة عن بعض أحوال يوم القيامة على أنها تمثيل وتصوير لا حقيقة واقعة، فحمل عرش ربك تمثيل لكمال عزته وأخذ الكتب باليمين أو الشمال تمثيل وتصوير لا حقيقة فالتناول باليمين يراد به الاستبشار والابتهاج والتناول بالشمال يراد به العبوس، وكذا النفخ في الصور تمثيل وتصوير.

وهذا الحمل منهم وهذا التأويل كثير جدًّا وهم أيضًا لا يقصرونه كما علمنا على الأخبار في المستقبل بل عموا به الأخبار القرآنية في الماضي أيضًا وهي القصص القرآنية وقد سبق لنا الحديث عن ذلك. هذا ولا شك منهج ضال»[٢] .

*** وفي القضاء والقدر:**

أدى بهم تحكيم العقل والعقل وحده إلى رأي مختلف في تلكم العقيدة اختار بعضهم مذهب الجبرية واختار الآخرون مذهب الاختيار وهم هنا وهناك يزعمون أنهم يستندون إلى الأدلة العقلية.

ثم ومع هذا تلتبس عليهم الأمور وتختلط عليهم الحقائق فيضطربون في معرفة السبيل الحق ويعلنون حيرتهم بل ويقر أحدهم بما هو أشنع وهو تظاهره بالمعرفة أمام من يسميهم البسطاء حتى ينفي عن نفسه صفة الجهل مع إقراره بجهله حل هذه المسألة وزعمه أن كل حل لها قابل للنقد والرد؟!

بل وعجز أستاذ المدرسة عن التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة

---

(١) «تفسير جزء عم» لمحمد عبده ص(٥٢ ـ ٥٣).

(٢) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٥٣٠ ـ ٥٣١).

علم اللَّه وإرادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار، وزعم أن هذا طلب لسر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه. وأنه اشتغال بما لا تكاد تصل العقول إليه. وكأن كل ما عجزت عن الوصول إليه تلك العقول فلا يصح الاعتقاد به والإيمان والتسليم، وإن وردت به الآيات الكريمة من القرآن.

أرأيتم أي ضلال يوصل إليه تحكيم العقل والإعراض عن النقل ذلكم ما نذكره هنا. ومذهب أهل السنة والجماعة هو الأسلم والأعلم والأحكم في عقيدة القضاء والقدر.

* **المعجزات:**

المعجزات ولا شك حجة للرسل لا ينكر حجيتها إلا مغالط خاضع للهوى أو للجهل.

والمعجزات عند المدرسة العقلية الحديثة مثار شبهات أو تأويلات في روايتها أو في صحتها أو في دلالتها.

ويرى محمد عبده أن الأديان السابقة لم تكن أدلتها تقوم على حجج عقلية بل تقوم على العداء للعقل نتائجه ومقدماته، وتقوم على الإدهاش بالمعجزات والإلهاء بالخيالات.

ومعجزات الأنبياء قبل بعثة نبينا ﷺ لا يحيل وقوعها رجال المدرسة العقلية بل هي عندهم «جائزة عقلاً» أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا ارتفاعهما فلا مانع من وقوعها بقدرة اللَّه تعالى في يد نبي من الأنبياء ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها»[1]، ولكنهم يخصون هذا بفترة ما قبل رسالة محمد ﷺ أما في عصره عليه الصلاة والسلام «فانتهى بذلك زمن

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

المعجزات ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان.

❑ ويرى الشيخ محمد عبده أن المعجزات إنما هي لأولئك الأقوام الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان ولا يضر الإسلام أن يروي تلك المعجزات فمجرد روايته لها لا ينفي عنه أنه دين العقل ما دام لم يرد فيه شيء منها. يقول الشيخ عبده: «فإيماننا بما أيد اللَّه تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان لا ينافي كون ديننا هو دين العقل والفطرة وكونه حتم علينا الإيمان بما يشهد له العيان من أن سننه تعالى في الخلق لا تبديل لها ولا تحويل»[1].

إلى هذا ذهب رجال المدرسة العقلية الحديثة في أمر معجزات الأنبياء السابقين أثبتوا وقوعها وأنكروا حجيتها وتأثيرها عند أهل العقول الراقية؟!

* **معجزات محمد ﷺ:**

ولهم في أمر معجزاته ﷺ رأي آخر هو غير ذاك بل هو أشد منه خطراً ذلكم أنهم أنكروا معجزاته عليه الصلاة والسلام كلها سوى معجزة القرآن الكريم وجردوا نبوته من أي معجزة أخرى وسلكوا في ذلك سبلاً. إما بإنكار صحتها وإما بتفسيرها بأمر لا تكون به معجزة وأقربهم إلى الحق على بعده عنه من أثبت بعضها، ولكن أنكر أن يكون ورودها لإقامة الحجة على نبوته ﷺ بل هي رحمة من اللَّه تعالى وعناية به ﷺ وبأصحابه في الشدائد.

❑ يقول الشيخ محمد عبده: «نبي صدّق الأنبياء ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر، ولكن

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣١٥).

طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب وحاكم إليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة»[١] ، ويقول: «ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سن الطفولية النوعية بل أرشده اللَّه تعالى بالوحي»[٢] ، وقال أيضًا: «فالإسلام في هذه الدعوة والمطالبة بالإيمان باللَّه ووحدانيته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية»[٣] .

وتجريدهم نبوة محمد ﷺ من المعجزات أدى بهم إلى أن عدّوا الإقرار بعبقريته كسبًا عظيمًا للقائلين بنبوته، وهم يحسبون العبقرية إذا كانت من طراز خاص هي النبوة أو قريب منها، يؤيد هذا الوصف ذلكم التعريف الذي جاء به شيخهم للنبوة وهو يريد أن يأتي بكل ما هو جديد لأنه «سئم من الاستمرار على ما يألفون واندفع إلى طلب شيء مما لا يعرفون»[٤] ، فكان مما جاء به مما لا يعرفون ذلكم التعريف للنبوة الذي أورده في تعليقاته على شرح الجلال الدواني للعقائد العضدية حيث يقول: «قد يعرف النبي بإنسان فطر على الحق، علمًا وعملاً، بحيث لا يعلم إلا حقًّا، ولا يعمل إلا حقًّا، على مقتضى الحكمة، وذلك يكون بالفطرة، أي لا يحتاج فيه إلى

(١) «رسالة التوحيد» لمحمد عبده ص(١٤٣).
(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١/ ٣١٥).
(٣) «الإسلام والنصرانية» لمحمد عبده ص(٦٨).
(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ١١).

الفكر والنظر، ولكن التعليم الإلهي، فإن فطر أيضًا على دعوة بني نوعه إلى ما جبل عليه فهو رسول أيضًا وإلا فهو نبي فقط، وليس برسول[١] ثم يصنف تعريفه هذا بالدّقة ويوصي بالتفكر فيه «فتفكر فيه فإنه دقيق».

ذلكم هو التعريف «الجديد» الذي جاء به شيخ المدرسة، وكان أولئك التلاميذ الذين عملوا بمبادئ شيخهم يعدون إثبات عبقرية محمد كسبًا عظيمًا للقائلين بنبوته، وما ذلكم إلا بعد أن جردوا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام من المعجزات ورأوها بعد تجريدها لا تعدو العبقرية فقالوا بها ودعوا إليها وألزموا أنفسهم بأنفسهم.

فلا عجب إذن أن يرد الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام في الدولة العثمانية هذا التعريف للنبوة والرسالة من الشيخ عبده ويرفضه بقوله: «وأنا أقول ليس في تعريف الشيخ شيء من خصائص النبوة والرسالة لا وحي ولا ملك مرسل ولا كتاب منزل ولا معجزة، وعليه فمن أين يعرف كونه «لا يعلم إلا حقًا ولا يعمل إلا حقًا» من أين يعرفه هو نفسه؟ ومن أين يعرفه بنو نوعه إذا دعاهم؟ نعم في تعريف الشيخ «ولكن التعليم الإلهي» لكنه يمكن حمل هذا التعليم أيضًا على الفطرة، ثم يرد عليه السؤال المذكور: من أين يعرف أنه تعليم إلهي؟»[٢].

ثم يذكر الشيخ مصطفى صبري أن القصد من قيد «التعليم الإلهي» ذر شيء من الرماد في بعض الأعين أو دس في الكلام لا من نوع دس السم في الدسم بل من نوع دس الدسم في السم[٢].

ذلكم التعريف ونحوه من أقوال الشيخ محمد عبده كانت منهجًا

---

(١) «الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين» تحقيق سليمان دنيا (١/ ٣ ـ ٤).

(٢) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (٤/ ٤١ ـ ٤٢).

لتلاميذه من بعده في إنكار المعجزات بإنكار حجيتها ونفيها عن الدين الإسلامي وكأنها عيب أو نقص يجب تطهير الإسلام منه.

وقصروا معجـزات نبينـا محمد ﷺ على معجزة القرآن الكريم ووصفوها بأنها معجـزة عقليـة وكأنهم بهـذا القصـر يريـدون إنقاذ حياته عليه الصـلاة والسـلام من شائبة المعجزات الكونيـة المخـالفة للعـلم وسنن الكون.

ولأجل هذا الهدف تجرأوا على ما ورد من الروايات الصحيحة في السنة لبعض المعجزات فأبطلوها وتجرأوا على رواتها فقدحوا فيهم وجرحوهم ولم يفرقوا أو أكثرهم بين صحابي أو تابعي أو سواهم.

❑ بقي هنا أمر يرد عليهم في إبطال ما ورد من المعجزات لنبينا ﷺ وقصر معجزاته على معجزة القرآن الكريم يرد هذا الإشكال عند تفريقهم بين المعجزات والقرآن ويورده الشيخ مصطفى صبري «ثم ليعلم الذين يتنازلون عن معجزات نبينا الكونية ويقصرون معجزته على القرآن إرضاءً لمفكري المعجزات والخوارق من المستشرقين وتفضيلاً لموافقتهم في عقلية الإنكار على تجشم معارضتهم. إن القرآن مهما حبب إليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم وإعجابهم مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد ﷺ وقد يطمع منهم أن يعدوه أفضل كتاب في الدنيا وضعه البشر أما أنه كلام اللَّه أنزل على خاتم أنبيائه ليكون له معجزة النبوة فأمر خارق لسنة الكون لن يقبله منكرو المعجزات والخوارق. وما دام أناس من المسلمين وفيهم معالي مؤلف «حياة محمد» ينكرون معجزاته الكونية لا لعدم استنادها إلى الروايات الصحيحة بل لكونها أيضًا مخالفة لسنة الكون مخالفة للعلم، مخالفة لمقتضى العقل فكيف ينتظر من المستشرقين الذين لا يدينون بالإسلام أن يقبلوا القرآن على أنه من المعجزات الخارقة أعني أنه كلام اللَّه لا كلام سيدنا محمد؟ فالواجب إذن أن

يداوى أساس الداء وتقاوم حملات المنكرين من جباهها»[١] .

* إحياء الموتى:

* قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

ولقد حملت المدرسة العقلية الحديثة هذه القصة على أنها تمثيل لا حقيقة بل إن الشيخ - عبده - وتلميذه - رشيد حملا القصة على أنها نوع من التشريع الذي كان موجودًا في زمن بني إسرائيل لأجل الوصول إلى معرفة القاتل المجهول في هذه الحادثة وأمثالها لا على أنها وردت في حادث معين ظهرت فيه معجزة لموسى عليه السلام وهم يستندون في زعمهم هذا إلى ما ورد في التوراة قال الشيخ محمد عبده: «يقول أهل الشبهات في القرآن أن بني إسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذ لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن؟ ونقول: إن القرآن جاء بها من عند اللَّه الذي يقول في بني إسرائيل المتأخرين أنهم نسوا حظًّا مما ذكروا به وإنهم لم يؤتوا إلا نصيبًا من الكتاب على أن هذا الحكم منصوص في التوراة وهو أنه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي، ثم يقولون: إن أيدينا لم تسفك هذا الدم اغفر لشعبك إسرائيل ويتلون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل، ومن لم

(١) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين» لمصطفى صبري (٤/١١١).

يفعل يتبين أنه القاتل، ويراد بذلك حقن الدماء فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه وما هذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذي حرفوه أو أضاعوه وأظهره اللَّه تعالى»[١].

وشد أزره بهذا الرأي السيد محمد رشيد رضا بقوله: «وأقول: إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه»[٢]، ثم ساق النص وهو قريب مما ذكره شيخه، ثم قال بعد هذا: «والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برئ من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية»[٣].

❑ ومن هذا ترى كيف حملوا القصة على أنها حكم شرعي عندهم لا على أنها أمر طارئ أظهر اللَّه به معجزة هي إحياء الميت على يد موسى عليه السلام أمام قومه ليعتبروا بها ولتكون حجة لإثبات المعاد وليريهم اللَّه كيف يحيى الموتى.

❑ وإنا لفي حيرة من ذلكم الشيخ وتلميذه اللذين امتلأت كتبهما تشدقا بالتحذير من الإسرائيليات وذمهما وتجريحهما لكعب الأحبار ووهب بن منبه لرواية الإسرائيليات إلا أن الشيخين الفاضلين هنا لا يجدان غضاضة أن يصرفا آيات القرآن الكريم عن ظاهرها ليس استنادًا إلى آيات أخرى ولا إلى سنة نبوية ولا إلى حكم عقلي صحيح يوجب هذا وإنما استنادًا إلى ما جاء

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١/ ٣٤٧).
(٢) المرجع السابق (١/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨).
(٣) المرجع السابق (١/ ٣٥١).

في التوراة واعتباره ثابتًا صحيحًا معتمدًا يجوز صرف القرآن عن ظاهره وتأويله على مقتضاه، وتقربًا إلى أولئك الإفرنج الذين أنكروا وجود هذه القصة في التوراة، فألزم هذان الشيخان نفسيهما بصرف الآيات عن ظاهرها إلى معنى توافق فيه ما جاء في التوراة حتى يرضى عنهم أولئك الإفرنج.

وهم حين يفعلون هذا بالقصة فإنما يفعلونه ليتسنى لهم إبطال معجزة موسى عليه السلام وتأويل إحياء الموتى الوارد في الآيات على المعنى الحقيقي إلى معنى مجازي قال السيد رشيد رضا: «ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أي يحييها بمثل هذه الأحكام وهذا الإحياء على حدّ قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾، وقوله: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**﴾ فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين. ثم قال: ﴿**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ**﴾ بما يفصل بها في الخصومات، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات فهو كقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾ وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير في آيات اللَّه في خلقه الدالة على صدق رسله وليس عندي شيء عن شيخنا في تفسير هذه الجملة، ولكنه قال في تعليلها ما يرجح القول الأول وهو ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ أي تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة فلا تتوهمون أن ما وقع مختص بهذه الواقعة في هذا الوقت، بل يجب أن تتلقوا أمر اللَّه في كل وقت بالقبول من غير تعنت»[1].

ويرجع الدكتور رمزي نعناعه هذا السلوك من السيد رشيد إلى المبالغة في تحكيم العقل ثم يكشف ما يؤدي إليه هذا القول من إلحاد فيقول: «ونقول أخيرًا للسيد رشيد إن مبالغته في تحكيم العقل جعله يستبعد حصول مثل هذه المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام، فمن ثم أول الآية لصالح التوراة! ولا

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣٥١).

أدري كيف خفي عليه ـ وهو المدافع عن الإسلام ـ أنه يوجد في هذا الزمن نوع من الإلحاد الخفي المآل، وهو تأويل كل آية أو حديث صحيح يدل على معجزة رسول من الرسل، حتى يكون مفادها أمرًا غير خارق للعادة وهذا النوع أخطر أنواع الإلحاد؛ لأنه سبيل إلى إنكار الأديان السماوية، وإلى هدمها من أساس؛ لأن أساس إثباتها المعجزات التي أجراها اللَّه على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام»[1].

ذلكم تأويل الشيخ عبده والسيد رشيد لهذه المعجزة.

تقربًا إلى أولئك الإفرنج المستشرقين ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

*** من معجزات عيسى عليه السلام:**

* قال اللَّه سبحانه وتعالى مثبتًا معجزة لعيسى عليه السلام أظهرها سبحانه على يديه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٨ ـ ٤٩].

* وقال سبحانه مثبتًا وقوع هذه المعجزة منه عليه السلام بعد إمكانها: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠] الآية.

فثبت بنص القرآن الكريم وقوع هذه المعجزة لعيسى عليه السلام

(١) «الإسرائيليات» لرمزي نعنانة ص(٣٦٦).

وحصولها منه، ويرى الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد في تفسير آية آل عمران أن هذا يدل على إمكان وقوعها لعيسى عليه السلام ولا يدل على وقوعها من غير رجوع إلى آية المائدة وهما ـ أيضًا ـ لا يستندان في نفيهما الوقوع إلى نص من الكتاب أو السنة، وإنما إلى عدم تناقل النصارى لهذا (!!) خاصة في الأناجيل القانونية عندهم أما الأناجيل غير القانونية التي ورد فيها الإخبار بمجيء محمد ﷺ وكون عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير بإذن اللَّه فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن اللَّه ونحو ذلك فلا قيمة لهذه الأناجيل!! وإنما المستند إلى تلك التي لم يرد فيها شيء من ذلك.

❑ ولندع الشيخ عبده يوضح لنا ذلك حيث يقول في تفسير آية آل عمران: «وغاية ما يفهم منها أن اللَّه تعالى جعل فيه هذا السر، ولكن لم يقل أنه خلق بالفعل ولم يرد عن المعصوم أن شيئًا من ذلك وقع»[1] ، ثم يقول: «فإن قصارى ما تدل عليه العبارة أنه خص بذلك وأمر بأن يحتج به والحكمة في إخبار النبي ﷺ بذلك إقامة الحجة على منكري نبوته كما تقدم وأما وقوع ذلك كله أو بعضه بالفعل فهو يتوقف على نقل يحتج به في مثل ذلك»[1] .

❑ ويوضح لنا تلميذه النقل الذي يحتج به في مثل ذلك فيقول: «هذا ما قاله الأستاذ الإمام ومن الغريب أن ابن جرير يروي عن ابن إسحاق «أن عيسى صلوات اللَّه عليه جلس يومًا مع غلمان من الكتاب فأخذ طينًا ثم قال أجعل لكم من هذا الطين طائرًا، قالوا: وتستطيع ذلك؟ قال: نعم بإذن ربي ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر فنفخ فيه ثم قال كن طائرًا بإذن اللَّه فخرج يطير بين كفيه»، فكأنه اتخذ آية اللَّه على رسالته ألعوبةً للصبيان

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٢١١).

والحاصل أنه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير بل ولا عند النصارى الذين يتناقلون وقوع سائر الآيات المذكورة في الآية إلا ما في إنجيل الصبا أو الطفولة من نحو ما قال ابن إسحاق وهو من الأناجيل غير القانونية عندهم، ولعل آية سورة المائدة أدنى إلى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهي: ﴿**إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ..**﴾ الآية. فإنه جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه إلا أن يقال إن جعل هذه الآيات مما يجري على يديه عند طلبه والحاجة إلى تحديه به من أجلّ النعم وأعظمها، ولكن هذا خلاف الظاهر»[1].

ذلكم ما ذهبا إليه في تأويل تلك المعجزة لعيسى عليه السلام وقبلها معجزة موسى عليه السلام ولنكتف بهذا من معجزات الأنبياء قبله عليه الصلاة والسلام، ولنذكر موقفهم من معجزة لنبينا ﷺ غير القرآن الكريم التي لا يثبتون سواها.

* انشقاق القمر:

* قال اللَّه تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ**﴾ [القمر: ١].

● وروى البخاري ومسلم والترمذي عن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: انشق القمر على عهد رسول اللَّه ﷺ بشقتين فقال رسول اللَّه ﷺ: «**اشهدوا**»، وفي أخرى: ونحن معه فقال: «**اشهدوا اشهدوا**»، وفي أخرى قال: «بينما نحن مع رسول اللَّه ﷺ بمنى إذ انفلق القمر فلقتين فلقة وراء الجبل وفلقة دونه، فقال لنا رسول اللَّه ﷺ: «**اشهدوا**» أخرجه البخاري ومسلم.

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢١١ ـ ٢١٢).

وللبخاري قال: وقال مسروق عن عبداللَّه «بمكة» وأخرج الترمذي مثله[١].

● وعن عبداللَّه بن عباس رضي الله عنهما قال: «إن القمر انشق في زمن رسول اللَّه ﷺ» أخرجه البخاري ومسلم[٢].

● وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول اللَّه ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر»[٣].

● وعن عبداللَّه بن عمر رضي الله عنهما قال: «انشق القمر على عهد رسول اللَّه ﷺ فصار فرقتين فقالت قريش: سحر محمد أعيننا فقال بعضهم: لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم. أخرجه الترمذي[٤] وزاد رزين: «فكانوا يتلقون الركبان فيخبرونهم بأنهم رأوه فيكذبونهم».

بتلك الآية الكريمة وبتلك الأحاديث الشريفة وغيرها ثبتت معجزة انشقاق القمر آية لنبينا ﷺ وكان ذلك في مكة قبل الهجرة بهذا قال السلف وسنذكر قولهم بعد قول منكري هذه المعجزة ليكون بمثابة الرد عليهم.

---

(١) رواه البخاري في الأنبياء باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ باب انشقاق القمر، وفي كتاب التفسير سورة اقتربت الساعة باب وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا».
رواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر، والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القمر.

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة اقتربت الساعة وفي الأنبياء باب سؤال أن يريهم النبي ﷺ آية وفي باب انشقاق القمر، ورواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر.

(٣) رواه البخاري في نفس المواضع السابقة، وكذا مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة القمر.

(٤) رواه مسلم في صفات المنافقين باب انشقاق القمر والترمذي في التفسير باب ومن سورة القمر.

❑ وسار السيد رشيد في هذه المعجزة على نهج المدرسة العقلية من تأويل للمعجزات وإنكار لأي معجزة لنبينا ﷺ سوى معجزة القرآن وذهب السيد رشيد في إنكار معجزة انشقاق القمر مذهب مدرسته في ذلك، من التشكيك أولاً في تواتر أحاديثها، ورد ما ورد منها في صحيح البخاري ومسلم ثم بعد هذا أورد الشبهات العقلية والعلمية على تلك المعجزة!!!»[1].

*** قولهم في الملائكة:**

نحن نعلم جيدًا عقيدة السلف في الملائكة وما ورد في ذلك من أحاديث، ولكن تعال إلى المدرسة العقلية الحديثة التي أتت بالغرائب في الاعتقاد والتفسير والفقه وشذت كل الشذوذ عن منهج أهل السنة والجماعة بل صارت قاب قوسين أو أدنى من فكر المعتزلة بل واللَّه أضرّ.

ويثبت الشيخ محمد عبده في تفسيره قولين للعلماء في الملائكة قال عن الأول منهما: «أما الملائكة فيقول السلف فيهم: أنهم خلق أخبرنا اللَّه تعالى بوجودهم وببعض عملهم فيجب علينا الإيمان بهم، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم فنفوض علمها إلى اللَّه تعالى، فإذا ورد أن لهم أجنحة نؤمن بذلك، ولكننا نقول: إنها ليست أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطيور إذ لو كانت كذلك لرأيناها وإذا ورد أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبات والبحار، فإننا نستدل بذلك على أن في الكون عالمًا آخر ألطف من هذا العالم المحسوس، وأن له علاقة بنظامه وأحكامه، والعقل لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بإمكانه لذاته، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به».

❑ ثم قال معلقًا: «وقد بحث أناس في جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن من وقفهم اللَّه تعالى على هذا السر قليلون والدين إنما شرع للناس

(١) «منهج المدرسة العقلية» ص(٥٧٩ ـ ٥٨٠).

كافة، فكان الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته لأن تكليف الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق، ومن خصه اللَّه تعالى بزيادة في العلم فذلك فضله يؤتيه من يشاء»[1] .

❑ أما الرأي الثاني في الملائكة فإن الشيخ محمد عبده يرويه ناقلاً أول الأمر، ولكنه يؤيده ويحبذه ويدافع عنه؛ لأن فيه تقريبًا للإيمان بالملائكة من عقول الماديين، ثم يزعم أنه لا فرق بين هذا القول وقول السلف؟! فالحقيقة واحدة، وإنما الخلاف في الأسماء، والعاقل لا تحجبه الأسماء عن المسميات قال عن هذا الرأي: «وذهب بعض المفسرين مذهبًا آخرًا في فهم معنى الملائكة وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه اللَّه في البذرة فكانت هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال في الحيوان والإنسان فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده، فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكًا، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة، والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمرًا هو مناطها، وبه قوامها ونظامها لا يمكن لعاقل أن ينكره وإن انكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكًا وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموسًا طبيعيًّا؛ لأن هذه الأسماء لم ترد في الشرع ـ فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات»[2] ، ونقل الشيخ أحمد

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٥٤).

(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (١/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

مصطفى المراغي هذا الكلام مؤيداً له[١] .

ثم لا يستبعد الشيخ عبده أن تكون الملائكة هي تلك النوازع التي نحس بها عندما نتردد بين فعل شيء أو تركه: «يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير، ووجه للباطل أو للشر بأن في نفسه تنازعًا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى، فهذا يورد وذاك يدفع، واحد يقول: افعل وآخر يقول: لا تفعل، حتى ينتصر أحد الطرفين، ويترجح أحد الخاطرين فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا، ونسميه قوة وفكرًا ـ وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه، وروح لا تكتنه حقيقتها ـ لا يبعد أن يسميه اللَّه تعالى ملكًا (أو يسمي أسبابه ملائكة) أو ما شاء من الأسماء فإن التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع»[٢] .

* ثم يطبق الشيخ محمد عبده هذا المفهوم على قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٣٤]، فيقول: «فإذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن اللَّه تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصًا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به، خلق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدًّا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حدّ له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة اللَّه في

(١) «تفسير المراغي» لأحمد مصطفى المراغي (١/ ٨٦ ـ ٨٧).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٢٦٨).

الأرض؛ لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي تعارض في اتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الإنسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته فيصل إلى مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعدًّا للوصول إليها»[1].

وبين السيد رشيد غرض أستاذه وشيخه من هذا التأويل بقوله: «إن غرض الأستاذ من هذا التأويل الذي عبر عنه بالإيماء وبالإشارة إقناع منكري الملائكة بوجودهم بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم، وقد اهتدى به كثيرون، وضل به آخرون فأنكروا عليه وزعموا أنه جعل الملائكة قوى لا تعقل»[2].

وردّ الشيخ عبده على أولئك المنكرين عليه تأويله بقوله: «ولست أحيط علمًا بما فعلت العادة والتقاليد في أنفس بعض من يظنون أنهم من المتشددين في الدين إذ ينفرون من هذه المعاني كما ينفر المرضى والمخدجون من جيد الأطعمة التي لا تضرهم، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى والمخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام، ويزيد الأسقام، لا أعرف ما الذي فهموه من لفظ روح أو ملك وما الذي يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة، أليس الروح في الآدمي مثلاً هذا الذي يظهر لنا في إفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والإرادة والعمل، وإذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له، فإذا سمي الروح لظهور أثره قوة أو سميت القوة لخفاء حقيقتها روحًا، فهل يضر ذلك بالدين أو ينقص معتقده شيئًا من اليقين؟»، ثم قال: «.. لو أن مسكينًا من عبدة الألفاظ من أشدهم ذكاء وأذربهم لسانًا أخذ بما قيل له أن

(١) المصدر السابق (١/ ٢٦٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٧٠).

الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معنى نوارنية الأجسام، وهل النور وحده له قوام يكون به شخصًا ممتازًا بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كزجاجة المصباح أو سلك الكهرباء؟ ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك؟ ألا يقع في حيرة ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكًّا؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون أبواب الغيب يطرف لما لا يستطيع النظر إليه، لكنها حيرة من أخذ بقول لا يفهمه وكلف نفسه علم ما لا تعلمه فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة إيمانًا صحيحًا وأطمأنت بإيمانه نفسه، وأذعن له قلبه ولم يبق لوهمه سلاح ينازع به عقله كما هو شأن صاحب الإيمان الصحيح، فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذي وقر فيها تقاليد حفت بالمخاوف لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة»، ثم قال: «. . هذه القوى التي نرى آثارها في كل شيء يقع تحت حواسنا وقد خفيت حقائقها عنا، ولم يصل أدق الباحثين في بحثه عنها إلا إلى آثار تجل إذا كشفت وتقل بل تضمحل إذا حجبت وهي التي يدور عليها كمال الوجود، وبها ينشأ الناشئ، وبها ينتهي إلى غايته الكامل كما لا يخفى على نبيه ولا خامل، أليست أشعة من ضياء الحق؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة؟ ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها لا تدرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا؟ ألا تراها توافي بأسرارها من ينظر في آثارها ويوفيها حق النظر في نظامها؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شئونها، ومعرفة الطريق إلى استدرار منافعها؟»[1].

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧٢).

ثم يبسط الشيخ عبده معتقده في الملائكة فيقول: «.. أفلا تزعم أن للّه ملائكة في الأرض وملائكة في السماء؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها، ورسمت مساكنها؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك؟ ومن يكون عن يسارك؟ هل ترى أجسامهم النوارنية تضيء لك في الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك، وما بين يديك وما خلفك، وأن اللّه ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك وبالعبارة التي تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها، أفلا يكون ذلك أروح لنفسك، وأدعى إلى طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئًا من وراء حجاب ووقعت على سر من أسرار الكتاب؟ فإن لم تجد في نفسك استعدادًا لقبول أشعة هذه الحقائق وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض في إدراك الحقيقة ويقول: (آمنا به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ما داموا يصدقون بالكتاب الذي آمنت به، ويؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالته، وهم في إيمانهم أعلى منك كعبًا، وأرضى منك بربهم نفسًا، ألا إن مؤمنًا لو مالت نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه على النحو الذي يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان من دينه في ثقة، ومن فضل ربه في سعة»[٢].

إن ما ذكرته المدرسة العقلية يخالف القرآن ويشكك في معتقد أولئك الأبرار الذين استمدوا عقيدتهم من القرآن الكريم فاعتقدوا أن الملائكة قابلة للتشكل والظهور بمظهر البشر كما أسلفنا حيث يقول: «وهل النور وحده له قوام يكون به شخصًا ممتازًا بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٧٣).

(٢) «تفسير المنار» (١/ ٢٧١).

كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء؟ ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك؟ ألا يقع في حيرة، ولو سئل عما يعتقده من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكًّا؟»[١] .

* ويشكك في موضع آخر من غير تصريح بذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، ونحو ذلك من الآيات فيقول: «أفلا تزعم أن للَّه ملائكة في الأرض وملائكة في السماء؟ هل عرفت أين تسكن ملائكة الأرض؟ وهل حددت أمكنتها ورسمت مساكنها وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك؟ ومن يكون عن يسارك؟ هل ترى أجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام أو تؤنسك إذا هجمت عليك الأوهام؟ فلو ركنت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حولك، وما بين يديك وما خلفك وأن اللَّه ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك وبالعبارة التي تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشك، وترك لك النظر فيما تطمئن إليه نفسك من وجوه تعرفها. أفلا يكون لك أروح لنفسك، وأدعى إلى طمأنينة عقلك؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئًا من وراء حجاب ووقفت على سرّ من أسرار الكتاب»[٢] .

ماذا يريد الشيخ عبده بهذا التأويل وهذا المفهوم؟ هل يريد أن يؤكد لنا مرة أخرى تكذيبه للقرآن الكريم كما كذب قصصه بحملها على التمثيل لا على الحقيقة والوقع؟! ماذا يريد بزعمه هذا؟ هل يريد أن يقول إن القرآن لم يخبرنا عن الحقيقة في أمر الملائكة بل أخبرنا بألفاظ كانت مألوفة ومعروفة

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٧١).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٢٧٣).

حتى لا تصيبنا «الوحشة والدهشة» إذا ما أخبرنا بحقيقتهم، وأن القرآن ترك لنا النظر في الوصول إلى «ما تطمئن إليه نفوسنا» حتى ولو وصلت إلى ما يخالف القرآن؟!

ذلكم ما يدل عليه كلامه شاء ذلك أم أبى وأحسبه لا يأبى ذلك لأنه بادر إلى تطبيق معتقده وحمل أمر سجود الملائكة لآدم عليهم السلام على التمثيل كما نقلنا عنه ذلك.

وما أصدق محمد الصادق عرجون في وصف مذهب الشيخ عبده وتلاميذه بقوله: «إن هذا الطريق في تفسير آيات القرآن الحكيم بتسليط التأويل على كل ما يتعاصى فهمه على بعض العقول وإحالة أو استبعاد ظاهر المعنى إلى ضرب من التمثيل، هو الذي يخشى أن ينفذ منه (المتقرمطون) إلى تحريف كلم اللَّه عن مواضعها ابتغاء فتنة الجماهير من عامة المؤمنين.. إن هذا القرآن العظيم أنزله اللَّه تعالى بلسان عربي مبين هدى للناس ورحمة، ولم ينزله بالإشارات والرموز والإيحاءات..»[1].

ثم ما الفرق بين من ينكر وجود الملائكة وبين من يزعم أنها قوى طبيعية ما دام منكر الملائكة يقر ويعترف بوجود قوة نمو في النبات وخلق في الحيوان وحفظ في الإنسان ولكنها قوى طبيعية لا ينطبق عليها ما ورد في القرآن الكريم من أوصاف للملائكة؟!

إن الأمر لا يعدو إلا محاولة يائسة من أولئك المنهزمين أمام الماديين لتقريب عقيدة الإيمان بالملائكة إلى أذهانهم ولكنها محاولة أخرجتهم من عقيدة السلف العقيدة الصحيحة في الإيمان بالملائكة إلى عقيدة باطلة وغير

(١) «نحو منهج لتفسير القرآن» لمحمد الصادق عرجون ص(٣٩ ـ ٤٠)، وانظر «منهج المدرسية العقلية في التفسير» (٦٢١ ـ ٦٣٠).

مقنعة أيضًا لأولئك الماديين، فضاع المنهزمون بين العقيدتين كالعنز الجرباء في الشمأل البليل. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

* **قولهم في الجن:**

مجمل اعتقاد السلف في الجن لا يصفونهم بأكثر مما وصفهم به القرآن الكريم والسنة المطهرة لأنهم من أمور الغيب الذي لا يمكن إدراكه إلا بالوحي يذهب الشيخ محمد رشيد رضا أن الميكروبات والجراثيم نوع من الجن:

يقول: «وقد قلنا في المنار غير مرة أنه يصح أن يقال إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعًا من الجن وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض، قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن، على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الأطباء أو إضافة شيء إليه مما لا دليل عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الآحادية فنحمد الله تعالى أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم»[1].

وفتح الباب للتأويل وصرف القرآن عن ظاهره باب لو فُتح لولج منه القرامطة والمتقرمطون بل أعداء الدين بشتى أنواعهم مبطلين لعقائده.

❑ ونوع آخر نرفضه من تأويلاتهم الباطلة في أمر الجن ونعني به ما زعموه في أمر رؤيتهم وحمله ما ورد من رؤيتهم على التخييل والوهم كما قال الشيخ رضا في «تفسير المنار» (٧/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦).

وعلى كل حال فالذي نفهمه من الآية: ﴿**إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾ أنها لا تنفي إمكان رؤيتهم ولكنها تثبت رؤيتهم لنا من حيث لا

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٩٦).

نراهم وقدرتهم على التشكل بهذه الحالة غير المرئية لنا ونضرب لذلك مثلاً بمن يجلس في ظلام دامس وينظر إلى من يجلس في النور أو من يجلس في سيارة ذات زجاج ملون فإن الجالس في الحالتين يرى من في الخارج من حيث لا يرونه ولا يفهم من هذا عدم إمكان رؤيته في حالات أخرى.

● أما نفي ابن عباس ﷺ لرؤيته ﷺ لهم حين استمعوا القرآن منه - إن صح - عن ابن عباس فإنه محمول على عدم رؤيته ﷺ لهم في تلك المرة ولا يمنع رؤيته لهم بعد ذلك، كما رآهم ابن مسعود ﷺ بعد ذلك وهو يخبر عن مشاهدة.

أما قول الشافعي - رحمه اللَّه تعالى - فيحمل على من يدعي رؤيتهم بصورتهم التي خلقهم اللَّه عليها دون الصور التي يتمثلون بها أو على من يدعي إمكان رؤيتهم في كل حال وهو تكذيب للقرآن.

ويبقى بعد هذا كله في ترجيح إمكان رؤيتهم حديث أبي أيوب وحديث أبي هريرة ﷺ الذي رواه البخاري في صحيحه وإن زعم السيد رشيد عدم صحتهما.

والحق أنه كان من الأولى عدم الخوض فيما لم يكن مصدره الوحي الصادق - عن أحوالهم - وتفويض علم ذلك إلى اللَّه سبحانه وتعالى فهو المنهج الأسلم والأعلم والأحكم[1].

*** شذوذ الشيخ محمد عبده وشطحه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾:**

لقد شذ في تفسير الآيتين الشيخ محمد عبده وتبعه محمد فريد وجدي

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» (٦٤٦، ٦٤٧).

وأحمد مصطفى المراغي قال الشيخ محمد عبده:

«الطير هو ما يطير في الهواء سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، وسواء كان مرئيًا لك أم غير مرئي»، وبعد هذا التمهيد زعم أن مما تواتر في الواقعة فشو داء الجدري والحصبة في جند الجيش[1] ثم استدل لذلك فقال: «.. قال عكرمة وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث: إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام. وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط. فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين وأصيب الجيش ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء. وهذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به»[1].

ولا ندري ما مفهوم التواتر عند الشيخ محمد عبده ينكر تواتر ما عرف عند السلف تواتره ويصف بالتواتر ما لم يعرف بذلك.

يزعم هنا أن وقوع الجدري والحصبة في جيش أبرهة قد تواتر وأنه مما اتفقت الروايات عليه ويستند في ذلك إلى قول عكرمة «وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب»، وقول يعقوب بن عتبة «أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام»، هذا كل ما استند إليه للحكم بالتواتر.

أما قول يعقوب فليس فيه ما يدل على وقوع الحصبة أو الجدري في جيش أبرهة وكل ما فيه أن ظهور الجدري لأول مرة كان في هذا العام فلا يصح الاحتجاج به لذلك.

وأما قول عكرمة فنقول: إنه روي عن عكرمة ما هو أصرح من ذلك في الدلالة على وقوع مرض الجدري في جيش أبرهة فقد روي عن عكرمة

(١) «تفسير جزء عم» لمحمد عبده ص(١٥٥ ـ ١٥٦).

عن ابن عباس ﷺ قال: «لما أرسل اللَّه الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدري»[١] .

وهذا كله مجرد رواية فأين هي من دعوى التواتر.

أما زعم الشيخ أن ما قاله هو ما اتفقت عليه الروايات فهو غريب في باب العلم وعجيب في تفسير القرآن وليس بغريب ولا بعجيب من الشيخ محمد عبده وتلاميذه.

❑ وقال الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسير السورة: «أي أنه تعالى أرسل عليهم فرقًا من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش فابتلوا بمرض الجدري أو الحصبة حتى هلكوا»، ثم قال: «ولا شك أن الذباب يحمل كثيرًا من جراثيم الأمراض فوقوع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافية في إصابته بالمرض الذي يحمله، ثم هو ينقل هذا المرض إلى الجم الغفير من الناس، فإذا أراد اللَّه أن يهلك جيشًا كثير العدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيدًا عن مجرى الإلف والعادة، وهذا أقوى في الدلالة على قدرة اللَّه وعظيم سلطانه من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور وغرائب الأمور، وأدل على ضعف الإنسان وذله أمام القهر الإلهي وكيف لا وهو مخلوق تبيده ذبابة وتقض مضجعه بعوضة، ويؤذيه هبوب الريح»[٢] .

ومن هذا ندرك أن الشيخ أول الطير والحجارة في السورة بـ «الذباب يحمل كثيرًا من جراثيم الأمراض، فالمراد بالطير والمراد بالحجارة تلك الجراثيم التي يحملها الذباب».

❑ قال الشيخ محمد عبده: «فيجوز ذلك أن تعتقد أن هذا الطير من

---

(١) «المصحف المفسر» لمحمد فريد وجدي ص(٨٢٢).

(٢) «تفسير المراغي» (٣٠/ ٢٤٣).

جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه. وأن كثيرًا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود اللَّه في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها ـ ولا يتوقف ظهور أثر قدرة اللَّه تعالى في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رءوس الجبال ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ولا على أن يكون له ألوان خاصة به، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها»[1].

ولا يُقبل أبدًا في تأويل الآيات بأن المراد بها البعوض والذباب والميكروبات قال الشيخ الذهبي: «لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن، والعربي إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب وخاطبهم بما يألفون»[2].

بل إن الآية صرحت بإرسال الطير «وأرسل عليهم طيرًا أبابيل» وبين المخاطبين كثير ممن عاصر الحادث بل ممن شاهده وفيهم كثير من أعداء الرسول ﷺ فالسورة مكية ولو أنهم لم يروا هذا الطير الأبابيل رأي العين لبادروا إلى تكذيب القرآن وإنكارهم لرمي الطير لجيش أبرهة ولا يقبل أن يقال: إنهم رأو المكروب أو الجراثيم؛ لأنهم لا يستطيعون رؤيتها، ولا يقال: إنهم رأوا الذباب أو البعوض؛ لأنهم لا يرون الحجارة التي تحملها فكان لا بد أن

(١) «تفسير جزء عم» لمحمد عبده ص(١٥٦).
(٢) «التفسير والمفسرون» للذهبي (٣/ ٢٣٥).

يكونوا رأوا طيرًا ورأوا الحجارة التي تحملها ورأوا الرمي ولا يهم بعد ذلك أن يكون هلاك الجيش بمجرد وقوع الحجر أو أن تكون هذه الحجارة قد أصابته بمرض من الأمراض فالقرآن لم يصرح بذلك بل ذكر هلاكهم بهذا العقاب الشديد.

أما ما زعموه من أن تأويل الطير بالجراثيم والذباب والبعوض وتأويل الحجارة بما يعلق في أرجل هذه المخلوقات من مكروبات أو مواد سامة هو أقوى في الدلالة على قدرة اللَّه وعظيم سلطانه فرد عليه سيد قطب ـ رحمه اللَّه تعالى ـ حيث قال: «لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة اللَّه ولا أولى بتفسير الحادث فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع، ومن حيث الدلالة على قدرة اللَّه وتدبيره ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس المعهودة المكشوفة لعلمهم، وهي التي جرت فأهلكت قومًا أراد اللَّه إهلاكهم أو أن تكون سنة اللَّه قد جرت بغير المألوف للبشر، وغير المعهود المكشوف لعلمهم، فحققت قدرة ذلك»، ثم قال: فأما في هذا الحادث بالذات فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة وأن اللَّه أرسل طيرًا أبابيل غير معهودة.. نحن أميل إلى هذا الاعتبار لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب»[1]، ثم قال: «ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو ـ يعني بالحصبة والجدري ـ وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل، وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء في حصرها في صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث.

إننا نـدرك ونقدر دوافع المدرسـة العقليـة التي كان الأستاذ الإمام ـ

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب (١٠/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

رحمه اللَّه ـ على رأسها في تلك الحقبة. . ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية. . فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة، كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمتها. فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل»، ثم قال: «ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة. من المبالغة في الاحتياط، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة اللَّه فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده ـ كما شاع في تفسير تلميذيه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبدالقادر المغربي ـ رحمهم اللَّه جميعًا ـ شاع في هذا التفسير الرغبة الواضحة في رد كثير من الخوارق إلى مألوف سنة اللَّه دون الخارق منها، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه «المعقول» وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات.

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه. فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل. وهو طلاقة مشيئة اللَّه وقدرته من وراء السنن التي اختارها ـ سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف ـ هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه ـ كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام المدرسة[1] فتبين

(١) «في ظلال القرآن» لسيد قطب (٣٠/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

بهذا كله خطأ رجال المدرسة العقلية الحديثة في تفسير هذه الآية وتجاوزهم للحدود التي شرعها اللَّه سبحانه وتعالى لتحكيم العقل وتعديهم على القرآن الكريم بتفسيرهم لآياته تفسيراً لا يعتمد على قواعد التفسير وأصوله فعلوا كل هذا لمواجهة المفتونين بالعلم الحديث وما توصل إليه من مقررات ولكن هذا لا يعني من قريب أو بعيد أن نصرف ظاهر آيات القرآن الكريم عن حقيقتها مع عدم مصادمتها لشيء من مقررات العلم الثابتة وفعلوا ذلك تقريبًا لوقوع الحادثة إلى عقول من ينكرون الخوارق ولا يؤمنون بها لعلهم يصدقون إذا كانت جارية على ما هو مألوف ومقرر في العلم الحديث.

ونسوا أن فيما أقروا به خارقة لا تقل عن خارقة ذلك الطير الذي يحمل الحجارة ويلقي به على الجيش فيهلكه ذلكم أن وقوع المرض الفتاك بجيش أبرهة مع عدم تعديه وتجاوزه إلى من حوله يعد خارقة كبيرة. فهم فروا من أمر إلى مثيله[1].

* قول المدرسة العقلية في القصة القرآنية:

سبق أن عرضنا قول محمد أحمد خلف اللَّه في كتابه «الفن القصصي في القرآن الكريم» وجرأته على اللَّه وكتابه فهو يصف القرآن بأنه «أساطير» كما وصفه به المشركون ويستدل على هذا بأن القرآن عرض مرة واحدة للرد على المشركين: «في قيلهم بأنه أساطير وهي المرة التي ترد في سورة الفرقان وهذه هي الآيات: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥ ـ ٦]، فهل هذا الرد ينفي ورود الأساطير في القرآن؟ أو هو إنما ينفي أن تكون هذه الأساطير من عند محمد يكتتبها وتملى عليه ويثبت أنها

(١) «منهج المدرسة العقلية في التفسير».

من عند اللَّه قل أنزله الذي يعلم السر.. إلخ»[١] ، ثم يقول بعد هذا: «وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام، وليس من عند اللَّه إذا كان هذا ثابتًا فإنا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير لأنا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصًّا من نصوص القرآن»[٢] .

وبعد هذا يبرز مخالفة القصص في القرآن للحقائق الواقعة حسب إلحاده بها بأن هذا من البلاغة في القرآن ثم يستدل بهذا على أمر خطير «وإن الصنيع البلاغي للقرآن الذي يقوم على تخليص العناصر القصصية من أحداث وأشخاص وأخبار من معانيها التاريخية وجعلها صالحة كل الصلاحية لاستثارة العواطف والانفعالات حتى تكون العظة والعبرة وتكون البشارة والإنذار وتكون الهداية والإرشاد ويكون الدفاع عن الدعوة الإسلامية والتمكين لها حتى في نفوس المعارضة إن هذا كله لهو الدليل القوي على أن القرآن الكريم لا يطلب الإيمان برأي معين في هذه المسائل التاريخية»[٣] .

وهو يريد أن يصل بهذا إلى نتيجة أخطر «ومن هنا يصبح من حقنا أو من حق القرآن علينا أن نفسح المجال أمام العقل البشري ليبحث ويدقق وليس عليه من بأس في أن ينتهي من هذه البحوث إلى ما يخالف هذه المسائل ولن تكون مخالفة لما أراده اللَّه أو لما قصد إليه القرآن؛ لأن اللَّه لم يرد تعليمنا التاريخ ولأن القصص القرآني لم يقصد إلا الموعظة والعبرة وما شابههما من مقاصد وأغراض»[٤] .

---

(١) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(١٧٨).
(٢) المرجع السابق ص(١٧٩ ـ ١٨٠).
(٣) المرجع السابق ص(٢٥٤).
(٤) المرجع السابق ص(٢٥٤).

ثم يقرر ما يعتقده بعد ذلك «أعتقد أنك قد فطنت إلى ما نريد تقريره من نظرية تحمل مشكلات المفسرين وترد اعتراضات المستشرقين والمبشرين، وأعتقد أنك قد فطنت إلى أن هذه النظرية ليست إلا القول بأن ما بالقصص القرآني من مسائل تاريخية ليست إلا الصور الذهنية لما يعرفه المعاصرون للنبي عليه السلام عن التاريخ ـ وما يعرفه هؤلاء لا يلزم أن يكون هو الحق والواقع كما لا يلزم القرآن أن يصحح هذه المسائل أو يردها إلى الحق والواقع لأن القرآن الكريم كان يجيء في بيانه المعجز على ما يعتقد العرب وتعتقد البيئة ويعتقد المخاطبون»[1] .

❑ وخلاصة القول أن الطالب ينفي الصدق عن القرآن الكريم ومطابقة قصصه للحقائق التاريخية حسب زعمه، ويذكرني هذا الإلحاد والتكذيب للقرآن الكريم بتكذيب الدكتور طه حسين للقرآن الكريم حين قال في كتابه: «في الشعر الجاهلي»: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي»[2] .

❑ وما كان لنا أن ندرس هذه القضية لولا صلة ذكرت بينها وبين أستاذ المدرسة العقلية وإمامها وبعض تلاميذه.

تبدأ الحكاية حينما ينسب الطالب خلف اللّه أسباب ذلك إلى أستاذه أمين الخولي «أما الأسباب التي جعلتني أعني بالدراسة الأدبية وأجعل من القرآن ميدان أبحاثي فترجع قبل كل شيء إلى نوع من الاستهواء عمل على إذاعته في نفسي درس أستاذنا الخولي عن المنهج الأدبي في فهم القرآن

(١) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللّه ص(٢٥٥).
(٢) «ذيل الملل والنحل» لمحمد سيد كيلاني ص(٨٤) عن «في الشعر الجاهلي» لطه حسين ص(٢٦).

وتفسيره فقد كانت تلك اللفتات تستقر في نفسي استقراراً يجعلني أتخيل أني أستطيع تمثل هذا المنهج والسير عليه في تفسير كتاب اللّه»[١].

ولا تنس ما نقلناه عن الأستاذ محمد سيد كيلاني من وصف لأمر أمين الخولي وكونه مستوراً لا يدري أحد في خارج الكلية ما يلقنه لتلاميذه من أنواع الكفر والضلال.

ولكن أمين الخولي نفسه لا يحوجنا إلى شيء من هذا فهو يقر بنفسه بأن كل ما جاء في الرسالة حق حيث يقول: «فلو لم يبق في مصر والشرق أحد يقول: إنه حق لقلت وحدي وأنا أقذف في النار أنه حق حق»[٢].

إذن فالأستاذ المشرف على الرسالة يشارك تلميذه في كل ما جاء فيها من إلحاد وتكذيب للقرآن الكريم.

فقامت الاحتجاجات ورفعت البرقيات للمسئولين، ورفضت الرسالة وطالب أولئك بتطبيق أحكام الردة على خلف اللّه ودافع عنه أستاذه أمين الخولي ودفع إلى الميدان بورقته الرابحة عند ضعاف النفوس حيث وصف جامعة فؤاد التي رفضت الرسالة إنها «ترفض اليوم ما كان يقرره الشيخ محمد عبده بين جدران الأزهر منذ اثنين وأربعين عاماً!»[٣].

وعلّق توفيق الحكيم على هذا بقوله: «إنني أحب أن ألفت النظر إلى نقطة الخطورة فيها تلك هي قوله أن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء منذ اثنين وأربعين عاماً إذا كان هذا القول صحيحاً كما يؤكد الأستاذ الخولي فلنا أن نطلب تعليلاً لما صرنا إليه وعلى المسئولين من رجال الدين أن يوضحوا الموقف فإنه لا يرضيهم أن نرجع اليوم - في عهدهم -

(١) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللّه ص(١).
(٢) المرجع السابق: مقدمة أمين الخولي ص: ح.
(٣) المرجع السابق ص: ح.

القهقرى.. بعد نهضة إسلامية بعثها الأستاذ الإمام»[١].

وهم حين يلقون هذا القول يعتقدون أنهم يلقونه على رجل لا تصعد إليه المسئولية بل تتلاشى قبل أن تصل إلى مقامه البعيد[٢].

❑ يقول الشيخ مصطفى صبري ـ رحمه اللَّه تعالى ـ عن الرسالة تلك: «وإني أرى الرسالة المستنكرة وما سبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده.. كلها ناشئة من الأسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالأستاذ الإمام.. فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤتمين»[٣].

وإني أدعو كل رجل مؤمن باللَّه تعالى أن يجعل اللَّه سبحانه نصب عينيه وأن لا يجعل للعاطفة سبيلاً عند مناقشة قضية كهذه القضية تمس كيان القرآن الكريم، وأن لا يجعل لها سبيلاً لطمس الحقائق حينما تمس من ننزله في نفوسنا منزلة سامية فلعلنا نكون قد خدعنا به والحقيقة ضالة كل مسلم.

ومنهج الناس من القصص القرآني إما منهج القابلين للروايات التي صحت عن القرون الخيرية من سلف الأمة وعليه المعتمد.

أو منهج المؤولين للقصص، أو منهج القائلين بالتخييل.

١ ـ منهج المؤولين للقصص:

«وهو صرف الكلام عن مدلوله اللغوي إلى معنى آخر دون ما يدعو

(١) المرجع السابق ص: ط.

(٢) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (١/ ٣٤٥).

(٣) المرجع السابق (١/ ٣٤٦).

إلى هذا التأويل» وصاحبه قد يحكّم فيه مجرّد الاستبعاد لما يؤديه الكلام من المعنى الظاهر، وكثيراً ما يقصده بعض الباحثين دفعًا لما يثيره خصوم القرآن على القرآن، ويدخل في هذا القسم تأويل إحياء الموتى المنسوب لعيسى بالإحياء الروحي، وحمل النمل في قصة سليمان على أنه قبيلة ضعيفة. . ثم يقول: «وهذا المنهج هو من طريقة التأويل التي أسسها الباطنية في القرآن الكريم صرفوه بها عن دلالته العربية وفيه احتفاظ بمدلول للكلام وواقع يدل عليه ولكنه صرف اللفظ عن معناه الوضعي إلى هذا المعنى الواقعي الذي يزعمه المؤول مدلولاً للكلام، والرأي في هذه الطريقة أنه يجب أن يطبق عليها قانون التأويل الي يتلخص في أنه إذا كان التأويل لا يقضي على أصل ديني ولا يمس عقيدة ثابتة وهو في الوقت نفسه يحتفظ للعبارة القرآنية بواقع تعبر عنه تعبيراً صادقًا وكانت اللغة تسمح به فإنه يكون مقبولاً من الوجهتين الدينية واللغوية، وإذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهة صادر عن جهل من صاحبه بقانون التأويل ومرفوض أيضًا من جهة ما يلزمه من الحكم بصدور التليس من اللّه تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً أما إذا كان يقضي على أصل ديني أو يمسّ عقيدة فإنه يكون مرفوضًا من الوجهة الدينية»[1] .

❑ بقي أن نقول أن الشيخ شلتوت جعل تأويل الشيخ محمد عبده ورشيد رضا لقصة بقرة بني إسرائيل من هذا النوع. حيث قال: «وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعي فهذا الحمل تأويل منهما لكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة، وما هو المعهود من كلام العرب»[2] .

---

(١) تفسير القرآن الكريم» لمحمود شلتوت ص(٤٥ ـ ٤٦).

(٢) «تفسير القرآن» لمحمد شلتوت ص(٥٠).

* المنهج الثاني ـ منهج القائلين بالتخييل ـ:

وهو يتفق مع المنهج الأول في ناحية ويخالفه في ناحية إذ هو صرف للألفاظ عن معانيها الحقيقية كما في المنهج الأول، ولكن لا إلى واقع يزعم ويدعى أنه مراد وإنما إلى تخييل ما ليس بواقع واقعًا فلا يلزم فيه الصدق ولا أن يكون إخبارًا بما حصل وإنما هو ضرب من القول شبيه بما يوضع من حكايات بين أشخاص مفروضين أو على ألسنة الطيور والحيوان للإيحاء فقط بمغزى الحكايات من الإرشاد إلى فضيلة والحث عليها أو التحذير من رذيلة والتنفير منها.. ولا شك أن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخلط والخبط والادعاء فقد اقتحمت قدسيته وزالت عن النفوس روعة الحق فيه، وتزلزت قضاياه في كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار»[1].

ولقد وردت عبارة نشدّ عليها وردت في ذم الشيخ شلتوت لهذا المنهج الباطل توقع الشيخ محمد عبده، وغيرهم في سلك هذا المنهج المذموم حيث يقول: «هذه الآراء فضلاً عما لها من تلك النتائج السيئة هي فاسدة في ذاتها؛ لأن القرآن عربي نزل بلغة العرب وقانون اللغة المتواتر يقضي بحمل الكلام على ظاهره وما تدل عليه ألفاظه من المعاني المعروفة لها عند المخاطبين ما لم يمنع من ذلك الحمل مانع»[2] نشد على هذه العبارة؛ لأنه وصف آنفًا منهج الشيخ وتلميذه بهذا الوصف.

فهل يريد الشيخ شلتوت بهذا أن يشرك محمد عبده ورشيد رضا مع أولئك؟ هذا ما يفهم من عباراته ونصوصه المنقولة، وعلى كل حال سواء أكان يشركه أم لا يشركه فهي شهادة من تلميذ ببطلان منهج أستاذه يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار.

(١) «تفسير القرآن الكريم» لمحمود شلتوت ص(٤٦ ـ ٤٧).

(٢) «تفسير القرآن» لمحمود شتلتوت ص(٢٧٣ ـ ٢٧٤).

وكلمة حق يجب أن نسوقها قبل سياق نصوص محمد عبده وتلميذه رشيد ذلك أنه لم يصدر عنهما أي تصريح بأن قصص القرآن منافية للحقيقة أو وصفها بالكذب ومغايرة الواقع أقول: إنه لم يصدر نص صريح بهذا أما أن كلامهما يحتمل ذلك ويحتمل غيره فهذا أمر لا ننفيه ولندع نصوصهم تتحدث.

قال الشيخ محمد عبده في تفسيره قصة آدم في الجنة التي تحدثت عنها الآيات في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

يقول الشيخ محمد عبده: «وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه: أن القرآن كثيرًا ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] فليس المراد أن اللّه تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحوه قوله عز وجل بعد ذلك الاستواء إلى خلق السماء ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] والمعنى في التمثيل ظاهر».

ثم قال: «وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا: أن إخبار اللّه الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض ـ وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض؛ لأنه يعمل باختياره ويعطي استعدادًا في العلم والعمل لا حدّ لهما هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض ـ وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان

لعلم كلّ شيء في هذه الأرض وانتفاعه به في استعمارها ـ وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودًا لا يتعدى وظيفته ـ وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن اللَّه تعالى في ذلك وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدي والإفساد في الأرض ـ ولو لا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري.

هذا ملخص ما تقدم في سياق آيات القصة، وأما التمثيل فيما نحن فيه منها فيصح عليه أن يراد بالجنة الراحة والنعيم؛ فإن من شأن الإنسان أن يجد في الجنة التي هي الحديقة ذات الشجر الملتف ما يلذ له من مرأى ومأكول ومشروب ومشموم ومسموم[1] في ظل ظليل وهواء عليل وماء سلسبيل كما قال تعالى في القصة من سورة طه ﴿**إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ**﴾، ويصح أن يعبر عن السعادة بالكون في الجنة وهو مستعمل، ويصح أن يراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبي القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال: كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب، وكان من قريش كذا يعني القبيلة التي أبوها قريش، وفي كلام العرب كثير من هذا.

ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة كما عبر اللَّه تعالى في مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وفسرت كلمة التوحيد وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر وفي الحديث تشبيه المؤمن

(١) هكذا وردت ولعلها (مسموع).

بشجرة النخل ـ ويصح أن يكون المراد بالأمر بسكنى الجنة وبالهبوط منها أمر التكوين فقد تقدم أن الأمر الإلهي قسمان: أمر تكوين، وأمر تكليف، والمعنى على هذا أن اللَّه تعالى كون النوع البشري على ما نشاهد في الأطوار التدريجية التي قال فيها سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ فأولها طور الطفولية وهي لا هم فيها ولا كدر وإنما هي لعب ولهو كأن الطفل دائمًا في جنة ملتفة الأشجار يانعة الثمار جارية الأنهار متناغية الأطيار وهذا معنى ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمي للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين أي أنه تعالى خلق البشر ذكوراً وإناثًا هكذا ـ وأمرهما بالأكل حيث شاءا عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر، وأن الفطرة تهدي إلى قبحه ووجوب اجتنابه وهذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان في الطور الثاني وهو طور التمييز هما المراد بقوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ووسوسة الشيطان وإزلاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التي تلابس النفوس البشرية فتقوي فيها داعية الشر، أي أن إلهام التقوى والخير أقوى في فطرة الإنسان أو هو الأصل ولذلك لا يفعل الشر إلا بملابسة الشيطان له ووسوسته إليه ـ والخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن حدّ الاعتدال الفطري ـ وأما تلقي آدم الكلمات وتوبته فهو بيان لما عرف في الفطرة السليمة من الاعتبار بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة ورجوعه إلى اللَّه تعالى عند الضيق والتجائه إليه في الشدة وتوبة اللَّه تعالى عليه عبارة عن هدايته إياه إلى المخرج من الضيق والتفلت من شرك البلاء بعد ذلك الاعتبار والالتجاء وذكر توبة اللَّه على الإنسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد أن اللَّه تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى بنيه إلى أن يأتي عيسى ويخلصهم منها وهو اعتقاد تنبذه الفطرة ويرده الوحي المحكم المتواتر. .

وبقي طور آخر أعلى من هذه الأطوار وهو منتهى الكمال وأعني به طور الدين الإلهي والوحي السماوي الذي به كمال الهداية الإنسانية وبيانه في قوله تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩][1].

ذلكم ما ذهب إليه الشيخ محمد عبده في تأويل قصة آدم في الجنة ومنه ندرك أن الإمام لم يصرح بما صرح به خلف اللَّه من أن قصص القرآن منافية للواقع مخالفة للحقيقة، وهو لا شك وافقه في حمل القصة على غير ظاهر ألفاظها إلى معنى أو معان أخرى لا يدل عليها ظاهر الكلام ومن غير مسوغ لذلك.

وهو مذهب لم يذهب إليه الشيخ محمد عبده في هذه القصة فحسب بل هو منهج سار عليه وبعض تلاميذه في معظم قصص وأخبار القرآن الكريم ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. قال السيد رشيد رضا: «ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في القصص التمثيلية إذ يراد أن من شأن مثلها في وضوحه أن يكون معلومًا حتى كأنه مرئي بالعينين»[2]، ثم ذهب في تفسير الآية ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أي أماتهم بإمكان العدو منهم فالأمر أمر التكوين لا أمر التشريع أي قضت سنته في خلقه بأن يموتوا بما أتوه

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨٤) وانظر «تفسير المراغي» (١/ ٩٤ ـ ٩٦) فقد نقل هذا النص ووصف أستاذه بالإجادة.

(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٢/ ٤٥٧).

من سبب الموت، وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار ففتك بهم وقتل أكثرهم ولم يصرح بأنهم ماتوا لأن أمر التكوين عبارة عن مشيئته سبحانه فلا يمكن تخلفه وللاستغناء عن التصريح بقوله بعد ذلك: «ثم أحياهم»، وإنما يكون الإحياء بعد الموت والكلام في القوم لا في أفراد لهم خصوصية؛ لأن المراد بيان سنته تعالى في الأمم التي تجبن فلا تدافع العادين عليها ومعنى حياة الأمم وموتها في عرف الناس جميعهم معروف فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها وذهبت جامعتها فكل من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم مدغمين في غمارهم لا وجود لهم في أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم ذلك أن من رحمة اللَّه تعالى في البلاء يصيب الناس أن يكون تأديبًا لهم ومطهرًا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة أشعر اللَّه أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها فجمعوا كلمتهم ووثقوا رابطتهم حتى عادت لهم وحدتهم قوية فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها»[1].

ويبين الشيخ محمد عبده رأيه في القصة في القرآن الكريم بعض بيان حين يقول: «يظن كثير من الناس الآن كما ظن كثير ممن قبلهم ـ أن القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة، وليس القرآن تاريخًا ولا قصصًا وإنما هو هداية وموعظة فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ولا لأجل التفكه بها أو الإحاطة بتفصيلها وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة

(١) المرجع السابق (٢/ ٤٥٧ ـ ٤٥٨) وانظر «تفسير المراغي» (٢/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩).

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وبيان سنن الإجتماع كما قال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧][1].

وهو يكرر مثل هذا الكلام في مواضع عديدة من التفسير فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]. «إن كثيرًا من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص ويقولون هنا أن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الأمر بدخول تلك القرية فذكر هنا بعد تلك الوقائع، والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مرارًا في قصص الأنبياء والأمم الواردة في القرآن وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها. وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم المتصلة بأسبابها لتطلب بها وبيان النقم بعللها لتتقى من جهتها»، ثم يقول: «إن ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار بل ربما يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمي جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الإنسان»[2].

* وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] الآيات يقول الشيخ محمد عبده: «جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب

(١) «تفسير المنار» محمد رشيد رضا (٢/ ٤٧٠).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٣٢٧).

يأخذ بمجامع القلوب ويحرك الفكر إلى النظر تحريكًا ويهز النفوس للاعتبار هزًّا»[١].

❑ قال الشيخ رشيد: «قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر»[٢].

❑ وقال الشيخ محمد عبده في موضع آخر عن التاريخ والقصة القرآنية: «ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار للأمم أو البلاد لمعرفة أحوالها وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن اللَّه تعالى فيهم إنذارًا للكافرين بما جاء به محمد ﷺ وتثبيتًا لقلبه وقلوب المؤمنين به، ولذلك لم تذكر قصة بترتيبها وتفاصيلها وإنما يذكر موضع العبرة فيها»[٣].

❑ وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع والموضوعات المروية في بناء الكعبة كثيرة»[٤].

❑ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، قال الشيخ رشيد رضا: «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل»[٥].

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).
(٢) «تفسير المنار» (١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).
(٣) «تفسير المنار» (٢/ ٢٠٥).
(٤) «تفسير المنار» (٤/ ٧).
(٥) «تفسير المنار» (٣/ ٥٢).

❑ وقال الشيخ محمد عبده: «بيّنا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين، وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ومن عاداتهم النافع والضار لأجل الموعظة والاعتبار فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية»[1].

ولا ندري ما الذي يقصده الشيخ بهذا؟ هل يريد أنه إذا كانت قصصه ليست للتاريخ وإنما للهداية والاعتبار فإنها لا تلتزم حقائق التاريخ بل تشتمل على ما لم يقع وما لم يحدث؟!

وهل يريد بزعمه وزعم تلميذه أن قصص القرآن «لا تتجاوز موطن الهداية»، وأنها لم ترد إلا «للعظة والاعتبار» الورود الذي يسوغ لقائلها أن يتجاوز الحقائق ويروي ما لم يقع ولم يحصل ما دامت في حيز الهداية والعظة كما يسوغ للحكيم أن يروي حكمته ويسديها إلى الناس على ألسنة الحيوانات والطيور.

❑ هل يريد بهذا أن يرفض قوله تعالى ووصفه لقصص القرآن بأنها الحق ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، وقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.

وهل يقصد الشيخ بقوله: «ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار» إباحة ردّ شيء من جزئياتها وتكذيبها وأن ذلك لا يخالف عقيدة المسلم؟!

إن كان وتلاميذه يقصدون هذا ولم يصرحوا به كما صرح به خلف اللّه في رسالته الملحدة فهو أمر يذكرنا بقوله تلميذه الأستاذ محمد فريد وجدي:

وقد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ

---

(١) «تفسير المنار» (١/ ٣٩٩).

يرتشف من مناهله العلمية ويقتبس من مدنيته المادية فوقف فيما وقف على هذه الميثولوجيا «علم الأساطير» ووجد دينه ماثلاً فيها فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله ولكنه استبطن الإلحاد متيقنًا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية، وقد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دسًّا في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم تفاديًا من أن يقاطعوا أو ينفوا من الأرض»[1] .

❑ والحق أنا لا نرى كبير فرق بين قولي الشيخ محمد عبده والأستاذ خلف اللَّه فإن رأي الشيخ في قصص القرآن أنها «تمثيل وتخييل وهي للعظة والهداية» ورأي خلف اللَّه: «أنها مخالفة للواقع ومختلقة وهي للعظة والهداية».

فهما متفقان على الشطر الثاني، ومتفقان في الشطر الأول على أن ظاهر لفظها غير مراد وأنها غير واقعة عبر الأول عن ذلك بالتمثيل والتخييل وعبر الثاني عنه بالاختلاق.

ولا ينفي هذا قوله في موضع آخر: «وجملة القول أن طريقة القرآن في قصص الذين خلوا هي منتهى الحكمة، وما كان لمحمد الأمي الناشئ في تلك الجاهلية الأمية أن يرتقي إليها بفكره، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره ولكنها هداية اللَّه تعالى لعباده أوحاها إلى صفوته منهم ﷺ ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فعلينا وقد ظهرت الآية ووضحت السبيل أن لا نلتفت إلى روايات الغابرين في تلك القصص ولا نعد مخالفتها للقرآن شبهة نبالي بكشفها»[2] .

---

(١) جريدة الأهرام ٣٠/ ٨/ ١٩٣٣م مقال «مذهب القرآن في المتشابهات» لمحمد فريد وجدي.
(٢) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٢/ ٤٧٢).

❑ وإني لأستعيد هنا نصوصًا ذكرتها تؤيد ما قلته. قال السيد رشيد: «ولا يشترط أن تكون القصة في مثل هذا التعبير واقعة بل يصح مثله في القصص التمثيلية»[١] ، ويقول: «وإن أخبار التاريخ ليست مما بلغ على أنه دين يتبع»[٢] ، ويقول في إحدى القصص: «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل[٣] ويقول أخيرًا: «قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا العصر»[٤] .

❑ ويقول شيخه محمد عبده: «بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين»[٥] .

وإني لأدعو كل مسلم أن يجعل البحث عن الحقيقة هدفه وأن لا تعميه منزلة الرجل بين الناس عن طلبها وأن يجعل الحق ميزانًا للأقوال لا أن يجعل الرجال ميزانًا لها.

وبعد أن يؤمن بهذا فلينظر فيما سقناه من النصوص في مذهب الشيخ محمد عبده وبعض تلاميذه في القصة في القرآن الكريم. وما لم نذكره اختصارًا ثم ليقل رأيه بعد هذا وليرشدنا إلى الحق إن كنا قد تجاوزناه فالحقيقة ضالتنا»[٦] .

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٤٥٧).
(٢) المرجع السابق (٤/ ٧).
(٣) المرجع السابق (٣/ ٥٢).
(٤) المرجع السابق (١/ ٣٤٧).
(٥) المرجع السابق (١/ ٣٩٩).
(٦) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٤٤٢ ـ ٤٦٦).

* شذوذ المدرسة العقلية في كيفية خلق عيسى من مريم عليها السلام:

* قال تعالى: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

تأثر رجال المدرسة العقلية الحديثة كثيرًا بالمستشرقين الفرنسيين وغيرهم، ويظهر تأثرهم بهم أكثر ما يظهر في محاولاتهم الدائبة على تقريب الأخبار الخارقة في القرآن إلى الأذهان بصرفها إلى خضوع الأسباب لمسبباتها، وتعليلها بما يوافق العلم والعقل بزعمهم.

ومن ذلك تأويلهم لخلق عيسى عليه السلام المذكور في هذه الآية، وكان الواجب التوقف في تفصيل كيفية نشوء الحمل لأنه من الأمور الغيبية التي لا تثبت إلا بالوحي ولم ينص الوحي على كيفية ذلك، فكان المنهج السليم ومنهج السلف التوقف في كيفيته وإسناد علم ذلك إلى اللَّه سبحانه وتعالى، وعلينا أن نؤمن أن مريم عليها السلام ليست بغيًّا بل اصطفاها اللَّه وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، وأن اللَّه أرسل إليها ملكًا تمثل لها بشرًا أخبرها بمهمته وهي أن يهب لها غلامًا، ثم نفخ اللَّه فيها من روحه فحملت بعيسى عليه السلام.

أما محاولة تقريب حملها بعيسى عليه السلام إلى الأذهان بما تكون به هذه الواقعة أمرًا عاديًّا لا إعجاز فيه ولا في كونه آية للناس فيها باطل نرفضه. فكيف إذا كان تأويله بما هو بعيد عن الحقائق متأثر بنظريات علمية ثبت بطلانها وزيفها، ولندع السيد رشيد رضا يشرح لنا محاولتهم حيث يقول: «وأقول: اعلم أن الكافرين بآيات اللَّه ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جمودًا على العادات، وذهولاً عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات. ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد، وهم في كل يوم يرون من شئون الكون ما لم

يكن معتادًا من قبل، فمنه ما يعرفون له سببًا ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع، ومنه ما لا يعرفون له سببًا ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة ونحن معاشر المؤمنين نقول: إن تلك الأشياء المعبر عنها بالفلتات إما أن يكون لها سبب خفي وحينئذ يجب أن تهدي هؤلاء الجامدين إلى أن بعض الأشياء يجوز أن يأتي من غير طريق الأسباب المعروفة، فلا ينكروا كل ما يخالفها لاحتمال أن يكون له سبب خفي لم يقفوا عليه، ولا ينزل أمر عيسى في الحمل به من غير واسطة أب عن ذلك، وأما أن تكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الأسباب وحينئذ يجب بأن يعترفوا بأن الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوبًا عقليًّا مطردًا وإذا كان الأمر كذلك امتنع على العاقل أن ينكر شيئًا ما ويعده مستحيلاً؛ لأنه لا يعرف له سببًا، ولعل أبناء العصور السابقة كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حدث به عقلاء الغابرين لعدوه من خرافات الدجالين، ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على إمكان التولد الذاتي أي تولد الحيوان من غير حيوان أو من الجماد، وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا إلى ذلك بتجاربهم، وإذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزًا فتولد الحيوان من حيوان واحد أولى بالجواز وأقرب إلى الحصول نعم.. إنه خلاف الأصل وإن كونه جائزًا لا يقتضي وقوعه بالفعل، ونحن نستدل بوقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه»[1].

إلا أن تعدي السيد رشيا رضا حدود التفسير وتجاوزه لمنهج السلف يظهر في محاولته تقريب هذه الواقعة إلى السنن المعروفة في نظام الكائنات، وذلك بصرفها عن أن تكون خارقة وآية للناس إلى أن تكون غير ذلك. حيث يقول: «ويمكن تقريب هذه الآية الإلهية من السنن المعروفة في نظام

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩).

الكائنات بوجهين:

أحدهما: أن الاعتقاد القوي الذي يستولى على القلب ويستحوذ على المجموع العصبي يحدث في عالم المادة من الآثار ما يكون على خلاف المعتاد فكم من سليم اعتقد أنه مصاب بمرض كذا، وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم الحية وصار مريضًا، وكم من أمرئ سقي الماء القراح أو نحوه فشربه معتقدًا أنه سم ناقع فمات مسمومًا به، والحوادث في هذا الباب كثيرة أثبتتها التجارب وإذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول: إن مريم لما بشرت بأن اللّه تعالى سيهب لها ولدًا بمحض قدرته وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين، انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح، كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت، وفي مزاج المريض فيبرأ، وكان نفخ الروح الذي ورد في سورة أخرى متممًا لهذا التأثير.

الوجه الثاني: وهو أقرب إلى الحق وإن كان أخفى وأدق وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشباح، وهي أن المخلوقات قسمان أجسام كثيفة وارواح لطيفة، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحركة والتوالد الذي يكون فيه من النمو أو يكون النمو منه فلولا الهواء لما عاشت هذه الأحياء والهواء روح، ولذلك كان من أسمائه إذا تحرك الريح وأصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسبه والماء الذي منه كل شيء حي مركب من روحين لطيفين وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطًا بين الكثيف واللطيف ولكنه أقرب إلى الثاني، والكهربائية من الأرواح وناهيك بفعلها في الأشباح، فهذه الموجودات اللطيفة التي سميناها أرواحًا هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون حتى أننا قد رأينا في هذا العصر من أسرارها ما لم يكن يخطر على بال أحد

من قدماء فلاسفتنا، ويعتقد علماؤنا اليوم أن ما سيظهر منها في المستقبل أجل وأعظم، فإذا كان الأمر كذلك في الأرواح التي لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد فلم لا يجوز أن يكون تأثير الأرواح العاقلة المريدة أعظم.

ثم قال: «إذا تمهد هذا فنقول: إن اللَّه المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل روحًا من عنده إلى مريم فتمثل لها بشرًا ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا؟ اللَّه أعلم»[1].

ذلكم ما قاله رجال المدرسة العقلية الحديثة في أمر خلق عيسى عليه السلام فهو أمر ليس فيه من خارق العادات شيء بل هو إما اعتقاد قوي استولى على قلب مريم واستحوذ على مجموع أعصابها لما بشرت بأن اللَّه تعالى سيهب لها ولدًا بمحض قدرته فانفعل مزاجها انفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح؟! فلم يكن في الأمر عجبًا!! ولم يكن فيه «آية للناس»؟! سبحانك هذا بهتان عظيم.

وهم بهذا التأويل وإن لم يرجحوه قد فروا من طريق السلامة إلى طريق الضلال وفتحوا طريقًا سهلاً للبغايا الفاسدات وليزعمن إذا وقع منهن الحمل أنهن لم يرتكبن جريمة الزنا، وإنما وقع منهن الاعتقاد؟! وما الذي بأيدينا حتى نثبت كذبهن إذا جعلنا الاعتقاد هذا سبيلاً للحمل، وأي فضل اختصت به مريم عليها السلام بل أي أمر عجب جعله اللَّه آية للناس فليعلم بطلان هذا الزعم.

وأما أن اللَّه المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات قد أرسل روحًا من عنده إلى مريم، فتمثل لها بشرًا ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها

(١) «تفسير المنار» (٣/٣٠٩ ـ ٣١٠).

فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا؟ اللَّه أعلم»[١].

▣ وهذا هو الذي ورد في القرآن ما يشير إليه، وكنا نود لو اكتفى رجال المدرسة بهذا التأويل في الأمر الغيبي ولم يأتوا من عندهم ومن خارج ما تدل عليه ألفاظ القرآن بتأويلات باطلة ومفاهيم ضالة.

ولكنهم أرادوا زيادة التقريب إلى الأذهان خشية ألا تقبل أذهان «أحرار الأفرنج» التأويل السليم للآية فجاءوا بتأويل آخر تقبله أذهانهم ولكنه مخالف لما دل عليه القرآن الكريم فكان حقًّا علينا أن نرفضه ونرده على أصحابه ليبقى التأويل السليم والفهم السلفي الصحيح هو رائدنا في تفسير الآية، واللَّه الهادي.

*** إنكارهم لنزول عيسى عليه السلام آخر الزمان وردهم للحديث المتواتر:**

فقد تواتر في السنة النبوية الشريفة نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان وممن حكى التواتر هذا ابن جرير الطبري[٢] آنفًا والشوكاني في تفسيره[٣] وابن كثير[٤] وابن حجر العسقلاني[٥] وابن عطية الغرناطي الأندلسي في تفسيره[٦].

وأبو الوليد بن رشد[٧] والسفاريني[٨] والكتّاني[٩] والشيخ محمد شفيع[١٠]

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣١٠). (٢) «تفسير الطبري» (٦/ ٤٥٨).

(٣) «فتح القدير» (١/ ٥٣٥). (٤) «تفسير ابن كثير» (١/ ٦١٥ ـ ٦٢١)، و(٤/ ١٤٢).

(٥) «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني (٦/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤).

(٦) «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي الغرناطي (٢/ ٤٧٣).

(٧) «إكمال إكمال المعلم» (شرح صحيح مسلم) لأبي عبداللَّه محمد بن خلفة الوشتاني الأبي (١/ ٢٦٥).

(٨) «لوامع الأنوار البهية» لمحمد بن أحمد السفاريني (٢/ ٩٤ ـ ٩٥).

(٩) «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» لأبي عبداللَّه محمد الكتّاني ص(١٤٧).

(١٠) «مقدمة التصريح بما تواتر في نزول المسيح» كتبها الشيخ محمد شفيع ص(٥٦).

والشيخ مصطفى صبري[١] وأبو حيان الأندلسي في تفسيره[٢] .

لكن رجال المدرسة العقلية الحديثة جاءوا بالعجب العجاب في تفسير هذه الآية مهدوا للأمر أول تمهيد فأنكروا صحة الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام فضلاً عن تواترها وزعموا أنها «روايات مضطربة مختلفة في ألفاظها ومعانيها اختلافًا لا مجال معه للجمع بينها، وقد نص على ذلك علماء الحديث وهي فوق ذلك رواية وهب بن منبه، وكعب الأحبار وهما من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام وقد عرفت درجتهما في الحديث عند علماء الجرح والتعديل»[٣] وأضاف الشيخ شلتوت قائلاً: «وموجز ما نقول فيها: أنها لا تخرج عن كونها أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد مهما صحت لا تفيد يقينًا يثبت عقيدة يكفر منكرها»[٤] .

ثم يصف أولئك العلماء الأفاضل الذي حكوا التواتر ومنهم من ذكرنا آنفًا كابن حجر والطبري وابن كثير والشوكاني وغيرهم بأنهم قوم «تظاهروا بالانتساب إلى الدين والغيرة على أحاديث الرسول واستباحوا لأنفسهم - في سبيل أغراضهم الدنيا - أن يصطنعوا كل أساليب التلبيس والتمويه في شأن أحاديث عيسى التي لا يمكن أن يكون منها متواتر حتى على أوسع الآراء في تحققه وهي مع آحاديتها يكثر ويشتد في معظمها ضعف الرواة واضطراب المتون، ونكارة المعاني، فتراهم يقولون هي متواترة قد رواها فلان وفلان من الصحابة والتابعين، وذكرت في كتاب كذا وكتاب كذا من كتب المتقدمين، فإذا رأوا في بعضها ضعفًا أو اضطرابًا أو نكارة حاولوا التخلص من ذلك

(١) «موقف العقل والعلم والعالم» (٤/ ٢٤٧) لمصطفى صبري.

(٢) «النهر الماد من البحر» لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٤٧٣) بهامش تفسير البحر المحيط.

(٣) «الفتاوى» للشيخ محمود شتلوت ص(٦٢).

(٤) المرجع السابق ص(٧٧).

فقالوا: إن الضعيف فيها منجبر بالقوي وأن العدالة لا تشترط في رواة المتواتر. وهكذا يخلعون عليها ثوبًا مهلهلاً من القداسة، لا رغبة في علم ولا غيرة على حق ولكن مكابرة وعنادًا وإصرارًا على التضليل، وليقال على السنة العامة وأشباه العامة أنهم حفاظ وأنهم محدثون!»[١] !.

فإن قال قائل: إنه لا يقصد في اتهامه الخطير هذا أولئك العلماء الذين ذكرت ولم يسم أحدًا منهم؟ قلت: إن كلامه ولا شك يشملهم ويعمهم فإنهم هم الذين قالوا: «أنها متواترة قد رواها فلان وفلان من الصحابة والتابعين وذكرت في كتاب كذا وكتاب كذا من كتب المتقدمين»، وهم الذين قالوا: «إن الضعيف فيها منجبر بالقوي».

فإن كان لا يقصدهم فإن كلامه يشملهم بل كدت أقول يخصهم شاء ذلك أم أبى.

ثم أدرك أن كلامه هذا لا يقوم على الأصول الصحيحة في نقد الحديث أو قواعد الجرح والتعديل فذهب يلتمس مخرجًا آخر فزعم «أن تلك الأحاديث كيفما كانت ليست من قبيل الحكم الذي لا يحتمل التأويل حتى تكون قطعية الدلالة، فقد تناولتها أفهام العلماء قديمًا وحديثًا، ولم يجدوا مانعًا من تأويلها»[٢].

❑ وقال الشيخ شلتوت أيضًا: «إنه ليس في الأحاديث التي أوردوها في شأن نزول عيسى آخر الزمان قطعية ما، لا من ناحية ورودها ولا من ناحية دلالتها»[٣].

وهذا هو ما ذهب إليه شيخه «الأستاذ الإمام» محمد عبده حيث قال

(١) المرجع السابق ص(٧٧ ـ ٧٨).
(٢) المرجع السابق ص(٧٨).
(٣) «الفتاوى» لمحمود شلتوت ص(٧٩).

عن طريقته: «ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي؛ لأنه من أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي؛ لأن المطلوب فيها هو اليقين وليس في الباب حديث متواتر. وثانيهما: تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها وهو حكمتها وما شرعت لأجله»[1].

وقد أراد أن يدافع السيد رشيد عن ظاهر هذه الأحاديث بأنه لا يوافقهم ثم أشار إلى تأويل آخر ليسلكوه هو أشد فتنة وضلالاً ممن أنكر التواتر فقال: «هذا ما قاله الأستاذ الإمام في الدرس مع بسط وإيضاح، ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه، ولأهل هذا التأويل أن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل ما فهمه»[2]، وإنما قلنا: أن هذا التأويل أشد ضلالاً وفتنة ممن ينكر التواتر لأن من أنكر التواتر إذا صح عنده التواتر عمل به واعتقد. أما من زعم أن هذه الأحاديث نقلت بالمعنى فالتأويل الباطل هو سبيله في كل ما خالف معتقده سواء كان الدليل متواترًا أو غير متواتر وحجته أنها رويت بالمعنى.

❑ ونقل الشيخ شلتوت عن الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي فتواه في نزول عيسى وجاء فيه «لكن جمهور العلماء على أنه رفعه بجسمه وروحه فهو حي الآن بجسمه وروحه وفسروا الآية بهذا بناء على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذي يسوغ تفسير القرآن بها، ثم قال: «ولكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة،

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣١٧).

(٢) «تفسير المنار» (٣/ ٣١٧).

والعقيدة لا تجب إلا بنص من القرآن أو بحديث متواتر»[١] .

ومن هذا ندرك مبلغ جهدهم في إنكار تواتر هذه الأحاديث وهو جهد ضال؛ لأنه لا يقوم على الأسس الصحيحة لنقد الحديث مع جمع للروايات ثم نقدها ونقد رجالها بما تبطل به صحتها وتواترها ولكنهم يصفونها ـ اعتباطًا ـ بأنها أحاديث غير متواترة وهذا منهج مألوف لهم في إنكار الأحاديث المتواترة التي لا توافق هواهم وقد مر بنا بعض ذلك في إنكارهم تواتر ما تواتر عند السلف من علامات الساعة قال الشوكاني بعد أن ساق الأحاديث الواردة في المهدي والدجال ونزول عيسى: «فتقرر أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة والأحاديث الواردة في الدجال متواترة والأحاديث الواردة في نزول عيسى بن مريم متواترة»[٢] .

وغير ذلك من الآيات التي ذكرنا هناك تواترها، وقد أنكر رجال المدرسة العقلية صحتها فضلاً عن تواترها وأولوها تأويلات باطلة على نحو ما نقلنا عن الشيخ عبده آنفًا عن الدجال وكونه رمزًا للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها»[٣] .

*** نقل رشيد رضا تأويل الشيخ عبده لهذه الآية بقوله:**

«يقول بعض المفسرين: «إني متوفيك»، أي منومك وبعضهم إني قابضك من الأرض بروحك وجسدك «ورافعك إليَّ» بيان لهذا التوفي، وبعضهم إني أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك وأميتك حتف

(١) «الفتاوى» لشلتوت ص(٨٢).

(٢) انظر تحقيق عبدالفتاح أبو غدة لكتاب «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للكشميري ص(٦٤).

(٣) «تفسير المنار» (٣/ ٣١٧).

أنفك، ثم أرفعك إليَّ. ونسب هذا القول إلى الجمهور، وقال للعلماء: ههنا طريقتان أحدهما وهي المشهورة أنه رفع حيًّا بجسمه وروحه وأنه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه اللَّه تعالى ولهم في حياته الثانية على الأرض كلام طويل معروف وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن في تقديم الرفع على التوفي بأن الواو لا تفيد ترتيبًا ـ أقول: وفاتهم أن مخالفة الترتيب في الذكر للترتيب في الوجود لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة ولا نكتة هنا لتقديم التوفي على الرفع إذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكان. (قال) والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر وهو الإماتة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح ولا بدع في إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه، فإن الروح هي حقيقة الإنسان والجسد كالثوب المستعار، فإنه يزيد وينقص ويتغير والإنسان إنسان؛ لأن روحه هي هي (قال) ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي؛ لأنه من أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي؛ لأن المطلوب فيها هو اليقين وليس في الباب حديث متواتر وثانيهما: تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها وهو حكمتها وما شرعت لأجله فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة، ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها والمراد منها ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب أي ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبرًا عن رأيه وفهمه وكان ذلك مزهقًا لروحها ذاهبًا بحكمتها كان لا بد لهم

من إصلاح عيسوي يبين لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقي وكل ذلك مطوي في القرآن الذي حجبوا عنه بالتقليد الذي هو آفة الحق وعدو الدين في كل زمان فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر»[١].

❑ ومن هذا ندرك أن الشيخ جعل عيسى عليه السلام رمزًا لغلبة روحه وسر رسالته على الناس كما جعل الدجال رمزًا للدجل والخرافات وكلاهما مذهب جديد سبق إليه الشيخ عبده وتلاميذه. قال الشيخ أحمد مصطفى المراغي: «فزمان عيسى هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر وأما الدجال فهو رمز الخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها، والقرآن أعظم هاد إلى الحكم والأسرار وسنة الرسول ﷺ مبنية لذلك»[٢].

❑ يا ضيعة الأمة حين تنبذ العقائد الثابتة بما دل عليه القرآن الكريم وما تواتر في السنة النبوية.

وانظر إلى عجب العُجاب من قول السيد رشيد رضا: «وجملة القول: أنه ليس في القرآن نص صريح في أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء حيًّا حياة دنيوية بهما.. وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء، وإنما هذه عقيدة أكثر النصارى، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام إلى الآن بثها في المسلمين»[٣].

---

(١) «تفسير المنار» (٣/ ٣١٧).

(٢) «تفسير المراغي» (٣/ ١٧٠).

(٣) الجزء العاشر المجلد ٢٨ للمنار ص(٧٥٦).

إذن فهذه العقيدة أسطورية؛ لأنها لا تستند إلى الكتاب ولا إلى السنة حاول بثها بين المسلمين أكثر النصارى منذ ظهور الإسلام.

ولا أدري كيف يصفهم بأنه «حاولوا» ولا يقول: «نجحوا»؛ لأنهم تمكنوا من بثها في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما بل في منابع تلك الكتب وتمكنوا من خداع أصحاب هذه الكتب بل من خداع جمهور علماء المسلمين ولم يكشف زيفهم ودسهم لهذه الأسطورة إلا الشيخ محمد عبده وتلاميذه، هذا على التسليم بأن القرآن لا يدل على هذه العقيدة.

ورحم اللَّه الشافعي الذي أدرك ببصيرته جناية تقديم العقل على النقل فقال: «إنما فسد العرب لما تركوا لسان الفطرة واتبعوا لسان أرسطو طاليس».

❑ يقول الشاعر:

من أنت يا رسطو ... ومن أفلاط قبلك يا مبلدْ
هل أنتمُ إلا الفراش ... وقد رأى ناراً توقَّدْ
فدنا فأحرق نفسه ... ولو اهتدى رشداً لأبعدْ
فلتخسأ الحكماء عن ... رب له الأفلاك تسجُدْ

* أثر المدرسة العقلية الحديثة في الفكر الإسلامي:

❑ تكلمنا عن أثر المدرسة في تفسير القرآن، وأنهم يحملّون الآيات ما لا تحتمله، ويؤولون الحقائق القرآنية تأويلاً منحرفًا عن فهم سلف الصالح.

انظر مثلاً إلى «الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن» لأبي زيد الدمنهوري وقد سبق ذكر شطحاته.

وانظر إلى طنطاوي جوهري في كتابه «الجواهر في تفسير القرآن العظيم»، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ الآيات «وأما علم تحضير الأرواح، فإنه من هذه الآية

استخراجه، أن هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولاً ثم بسائر أوربا ثانيًا»[١] ، وقال: «ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم وعلم اللَّه أننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾، ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزير، وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لخلوص قلوبهم وعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم فقلت: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾[٢] .

❑ وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ونحوها من الآيات يقول: «.. أو ليس الاستدلال بآثار الأقدام وآثار أصابع الأيدي في أيامنا الحاضرة هو نفس الذي صرح به القرآن»[٣] .

لا شك أن هذا التفسير وأمثاله من أخطر التفاسير للقرآن الكريم بل هو تلاعب بالآيات وصرف لها عن حقائقها الثابتة إلى معان لا تثبت إلا بقدر ما تثبت مكتشفات علمية تهتز يمنة ويسرة بين الثبات والسقوط ـ هذا في الآيات التي قد يفهم منها ما أورده في تفسيرها فما بالك بما يورده من تفسير لا

(١) «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» لطنطاوي جوهري (١/ ٨٤).
(٢) المرجع السابق (١/ ٨٩).
(٣) المرجع السابق (٣/ ٩٩).

تحتمله الآي من بعيد ولا من قريب.

(ب) في السنة النبوية:

وقد سبق ذكر ذلك بالتفصيل وردهم لأحاديث صحيحة بل ومتواترة، وعدم أخذهم بأحاديث الآحاد، وثمرة من ثمارهم النكدة عدو السنة محمود أبو رية.

(جـ) في القصة القرآنية:

قولهم في القصص القرآني بأنه من قبيل التمثيل فتح الباب على مصراعيه أمام محمد أحمد خلف اللَّه ليقول: «إنا لا نتحرج من القول بأن القرآن أساطير»[١].

ويستدل[٢] لإثبات هذه النتيجة التي توصل إليها بما جاء في المنار عن احدى قصص القرآن «ويحتمل أن تكون القصة من قبيل التمثيل واللَّه أعلم»[٣] ويستدل[٤] أيضًا بقول الشيخ محمد عبده: «وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه: إن القرآن كثيرًا ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير فهو يدعو بها الأذهان إلى ما وراءها من المعاني كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، فليس المراد أن اللَّه تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه، وإنما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحو قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء: ﴿فَقَالَ

(١) «الفن القصصي في القرآن الكريم» لمحمد أحمد خلف اللَّه (١٧٨ ـ ١٨٠).
(٢) المرجع السابق ص(١٦٤).
(٣) «تفسير المنار» (٣/ ٥٢).
(٤) «الفن القصصي في القرآن الكريم» (١٦٨ ـ ١٦٩).

لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، والمعنى في التمثيل ظاهر»[١].

(د) في الفقه:

ونحن وإن كنا لا نزعم أن كل انحراف في تقنين الأحكام الشرعية وميل بها عن الحق أنه أثر من آثار المدرسة العقلية إلا أننا نؤكد أن كثيرًا من ذلك يستند إلى آرائهم ويستدل بأقوالهم ويستشهد بها وما هذا إلا معيار لتأثرهم بها، نذكر من هذا مسألة تعدد الزوجات دع عنك تحرير المرأة وخروجها إلى العمل واختلاطها بالرجال في ميادينه.. إلخ.

وقد سبق للشيخ عبده أن دعا إلى تطبيق ما ذهب إليه في مسألة تعدد الزوجات ونحن نذكر دعوته هنا حتى ندرك أن ما حدث بعد إنما هو من آثاره ومدرسته قال: «لا سبيل إلى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصًا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من أصوله منع الضرر والضرار فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله فلا شك في وجوب تغير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة»[٢].

إذن فهو يدعو إلى تغيير الحكم؟! ترى هل يدعو إلى تغييره دفعة واحدة أو بطريقة أخرى؟! يفسر هذا تلميذه السيد رشيد بقوله: «إن قاعدة اليسر في الأمور ورفع الحرج من القواعد الأساسية لبناء الإسلام ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، و﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾

(١) «تفسير المنار» (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).
(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

[المائدة: ٦]، ولا يصح أن يبني على هذه القاعدة تحريم أمر تلجئ إليه الضرورة أو تدعو إليه المصلحة العامة أو الخاصة.. وهو مما يشق امتثاله دفعة واحدة لا سيما على من اعتادوا المبالغة فيه كتعدد الزوجات كذلك لا يصح السكوت عنه وترك الناس، وشأنهم فيه على ما فيه من المفاسد فلم يبق إلا أن يقلل العدد ويقيد بقيد ثقيل وهو اشتراط انتفاء الخوف من عدم العدل بين الزوجات وهو شرط يعز تحققه ومن فقهه واختبر حال الذين يتزوجون بأكثر من واحدة يتجلى له أن أكثرهم لم يلتزم الشرط ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي»[1] ؟!!

إذن فليس الأمر في المنع «دفعة واحدة»؛ لأنه يشق على من اعتادوا المبالغة فيه والحل أن يقيد بقيد ثقيل.. وهو شرط يعز تحققه.. ومن لم يلتزمه فزواجه غير إسلامي.

وليس المانع من إلغاء التعدد دفعة واحدة «أمر شرعي وإنما المشقة على من اعتادوا المبالغة فيه، والعلاج التدرج في ذلك إلى أن يصل الأمر إلى اعتياد الناس على عدم التعدد ولا يشق على أحد إلغاؤه ومن ثم إلغاء التعدد.

لن أذكر هنا أثر تلك الدعوة على الأفراد في أقوالهم ودعواتهم؛ لأنها كلها تنتهي إلى الدعوة إلى تطبيقه وتقنينه، وإذا ما اكتفينا بذكر القوانين التي سنتها بعض الدول المسلمة في ذلك نكون قد تجاوزنا آراءهم إلى النتيجة والنتيجة هدفنا من الإشارة إلى الأثر.

وفي الواقع أن الدول التي تأثرت بهذه الدعوة انقسمت إلى قسمين ولا يزال بعضها في مرتبة «قيد ثقيل يعز تحققه.. ومن لم يلتزمه فزواجه غير

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٣٥٩).

«إسلامي»، واستطاع بعضهم أن يصل إلى مرتبة «دفعة واحدة».

أما القسم الأول فدول المغرب وسوريا والعراق قيدته المغرب قضائيًّا بالعدل بين الزوجات، وقيدته سوريا بالقدرة على الإنفاق، وقيد في العراق بمصلحة مشروعة وبالعدل بين الزوجات، وبالقدرة على الإنفاق عليهن.

«وورود أحد هذه القيود في القانون معناه أنه أصبح ملزمًا ويتعين على القاضي أن يتحقق من توافره بحيث إذا لم يكن هذا الشرط متوافرًا أو ذاك كان تعدد الزوجات غير جائز؛ لأن المفروض أن أحكام القانون جميعها ملزمة ويحمل الناس على احترامها وتطبيقها طوعًا أو كرهًا»[١].

أما التي أخذت بالطريقة الثانية فتونس فمنعت تعدد الزوجات ومن تزوج بأكثر من واحدة يستوجب عقابًا بالسجن مدة عام وبخطية (أي غرامة) قدرها (٠٠٠ و٢٤٠) فرنك أو بإحدى العقوبتين فقط «(الفصل ١٨)»[٢].

ومصر انتهى الأمر سنة ١٩٦٧م ففي هذه السنة صدر قانون الأسرة في مصر والجديد الذي جاء فيه ما نصّت عليه المادة (١٣٤).

أ ـ للزوجة التي تزوج عليها زوجها وإن لم تكن قد اشترطت عليه في العقد ألا يتزوج عليها أن تطلب التفريق بينها وبينه وفي مدى شهرين من تاريخ علمها بالزواج ما لم ترض به صراحة أو دلالة.

ب ـ ويتجدد حقها في طلب التفريق كلما تزوج بأخرى.

جـ ـ وإذا كانت الزوجة الجديدة قد فهمت من الزوج أنه غير متزوج بسواها ثم ظهر أنه متزوج فلها أن تطلب التفريق.

كما نصت هذه المادة على أن «التفريق للزواج بأخرى طلاق بائن»[٣].

---

(١) «تعدد الزوجات» ص(٢٦٢).

(٢) المرجع السابق ص(٢٦٢).

(٣) «تعدد الزوجات» لعبد الناصر توفيق العطار ص(٢٣٧).

وهذا ولا شك «قيد ثقيل يعز تحققه..»؟!.

❑ والاتجاه العام إلى تقييد تعدد الزوجات سائر على منهج مدروس وقد بدأت بعض السلطات في بعض البلدان الإسلامية في إصدار قوانين تحرم من يعدد زوجاته من بعض الحقوق أو المزايا التي يتمتع بها سائر المواطنين كحرمانه من الاشتراك في نقابة أو ناد معين أو قصر الإعارة للخارج على المتزوجين بواحدة أو السماح بالعلاج المجاني لزوجة واحدة أو قصر الإعفاء الضريبي على المتزوجين بواحدة[1] ونحو ذلك.

❑ وهذا كله ولا شك في سبيل «تقييد تعدد الزوجات بقيد ثقيل.. يعز تحققه ـ ومن لم يلتزمه فزواجه غير «إسلامي» «والانتقال بعد هذا إلى الخطوة الأخرى «منع تعدد الزوجات» دفعة واحدة»، وبهذا لا يشق هذا الأمر على «من اعتاد على تعدد الزوجات»؟!.

وقبل أن نترك هذه النقطة نقول: إن المدعو عبدالعزيز فهمي باشا زعم أن القرار يحرم بتاتًا تعدد الزوجات؟!، وإلى تحريم تعدد الزوجات ذهب الشيخ الأزهري عبدالمتعال الصعيدي قائلاً: «لولي الأمر أن ينهى عنه إذا أساء المسلمون استعماله فيصير حرامًا لنهيه عنه، وإن كان في ذاته مباحًا»؟!!

ولذا فلا عجب أن يقول الدكتور عفّت الشرقاوي معلقًا على ما ذهب إليه عبدالعزيز فهمي ونعمّ به عبدالمتعال «ومع ما يبدو في هذا من الغرابة والتجوّز في الاستنتاج، وخروجه عن المألوف المأثور، فإنه كان النتيجة الطبيعية لتأثرنا بالنظم الأوربية في تشريع الزواج.. وكان ذلك في جملته تطورًا واضحًا لنزعة قديمة حمل لواءها «محمد عبده» محاولاً التوفيق بين النص القرآني وهذا التصور الجديد»[2].

(١) المصدر السابق ص(٣١٦ ـ ٣١٧).

(٢) «الفكر الديني في مواجهة العصر» لعفّت الشرقاوي ص(٢٣٧).

هـ ـ في السياسة:

عمى الألوان مرض يصيب البصر لا يستطيع صاحبه التفريق أو التمييز بينها، وأحسب أن عمى الألوان هذا يصيب البصيرة فلا يستطيع صاحبه أن يفرق بين دين ودين، ومنهج وآخر.

❑ نظرت طائفة من المسلمين أو من المنتسبين للإسلام إلى ما حدث في أوروبا في العصور الوسطى، وإلى ما حدث من صراع هناك بين الدين والعلم، بين الدين والسياسة، بين الدين والدولة، نظروا إلى «رجال الدين» يستندون إلى كتب «محرفة»، وما فيها يخالف حقائق العلم ونظرياته، أضف إلى هذا تشدد أولئك «رجال الدين» في مواجهة خصومهم.

❑ ليس هناك مجال آخر دين محرف أقواله تصادم حقائق علمية، ورجاله متصلبون متشددون، فكان لا بد من قيام ثورة للفصل بين الدين والدولة، بين الدين والسياسة بين الدين والعلم، فعزلوا الدين وأقصوه.

حسب من أصيب بعمى البصيرة أن كل دين كهذا الدين المحرف، فأراد من ينتسب إلى الإسلام منهم أن يطلب تلك الثورة على دينه الذي ينتسب إليه ـ إما عن جهل منه وإما عن خبث فيه ـ فدعوا إلى فصل الدين عن الدولة، وجعل الدين مجرد عبادة تؤدى في المسجد فإذا خرجت إلى الشارع فقد تعدت حدودها وتجاوزت مراسيمها ووجب عقابها وقمعها.

فليبق الدين في المسجد؟!

ولتبق الوطنية والقومية.. إلخ في الشارع، وليسرح الناس وليمرحوا حسب نظامهما، دينهم الوطن وعقيدتهم القومية.

❑ وكان من السابقين السابقين إلى هذه الدعوة الشيخ محمد عبده حيث قال: «إن خير أوجه الوحدة الوطن لامتناع الخلاف والنزاع فيه»[1]. والشيخ

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» رشيد رضا (٢/ ١٩٤).

نفسه هو الذي صاغ برنامج «الحزب الوطني» المصري وجاء فيه «الحزب الوطني حزب سياسي لا ديني[١] فإنه مؤلف من رجال مختلفي العقيدة والمذاهب، وجميع النصارى واليهود وكل من يحرس أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم إليه»[٢] ، ودافع عن القبط في مصر قائلاً: «ليس من اللائق بأصحاب الجرائد أن يعمدوا إلى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن أو ينسبوها إلى شائن من العمل تعللاً بأن رجلاً أو رجالاً منها قد استهدفوا لذلك..»[٣] .

❑ وهو في هذا يقلد أستاذه الأفغاني الذي دعا إلى القومية والوطنية «الفرعونية» في مصر حيث يقول موجهًا حديثه للعوام: «إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد.. تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيس والمماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ويهيض عظامكم بأداة عسفه وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت.. انظروا أهرام مصر وهياكل منفيس وآثار تيبه ومشاهد سيوه وحصون دمياط شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرشيد فلاح[٤]

* * *

(١) لاحظ الفصل بين الدين والسياسة.

(٢) «الأعمال الكاملة» لمحمد عبده جمع محمد عمارة (١/١٠٧)، و«التاريخ السري» بلنت ص(٤٤٢).

(٣) «الأعمال الكاملة» لمحمد عبده جمع عمارة (١/١٠٨).

(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (١/٤٦ ـ ٤٧) و«زعماء الإصلاح» لأحمد أمين ص(٧٨ ـ ٧٩).

❑ واتبعا القول بالعمل فجدا واجتهدا في سبيل هدم الخلافة الإسلامية، واستقلال العرب عن الأتراك والتقريب بين الأديان.

وقد سرت هذه الأفكار والمبادئ في المجتمع الإسلامي بعد ذلك وانتشرت ولا نزال حتى ساعتنا هذه نعاني من آثارها.

وظهرت آثارها أول ما ظهرت في الثورة الكمالية الإلحادية في تركيا حيث عملت أول ما عملت على فصل الدين عن الدولة وقالوا فيما قالوا: «إننا نحن العثمانيين لا يمكن أن نترقى إلا إذا نبذنا الدين وراء ظهورنا وعصرنا العلماء عصراً نمحقهم به محقًا، وسرنا وراء فرنسة خطوة خطوة»[١].

❑ وأشاد بعض العرب بهذه الحركة وفتن بها كثير منهم قال أحدهم: «حصل التقدم في تركيا بعد نبذها تعاليم رجال الدين وفتاويهم وفصلها الأمور الزمنية عن الدينية، واستغنائها عن قراءة البخاري في السفن البحرية»[٢].

وفي سنة ١٩٢٥م وضع علي عبدالرزاق كتابه الإسلام وأصول الحكم خاض فيه في مبحثين:

١) هل منصب الخلافة ديني أم سياسي أم مزيج من كليهما معًا؟

٢) هل منصب الخلافة ضروري للمسلمين؟[٣].

وهو في سبيل فصل الدين عن الدولة تضمن:

١ ـ جعل الشريعة الإسلامية روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا.

---

(١) مجلة المنار مجلد ١٦ جـ٢ ص عدد صفر ١٣٣١ هـ ص(١٣٢).

(٢) «هذا هو الإسلام» لفاروق الدملوجي ص(٢١٣).

(٣) «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرزاق ص(٥).

٢ ـ أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل الملك لا في سبيل الدين ولا بلاغ الدعوة إلى العالمين.

٣ ـ وأن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان موضوع غموض أو إبهام أو اضطراب أو نقص وموجبًا للحيرة.

٤ ـ وأن مهمة النبي ﷺ كانت بلاغًا للشريعة مجردًا عن الحكم والتنفيذ.

٥ ـ وإنكار إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا.

٦ ـ وإنكار أن القضاء وظيفة شرعية.

٧ ـ وأن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده ﷺ كانت لا دينية»[١].

وجاء فيه «الدنيا من أولها لآخرها وجميع ما فيها من أغراض وغايات أهون عند اللَّه تعالى من أن يبعث لها رسولاً وأهون عند رسل اللَّه تعالى من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبيرها»[٢].

وزعم «أن كل ما جاء به الإسلام من عقائد ومعاملات وآداب وعقوبات فإنما هو شرع ديني خالص للَّه تعالى ولمصلحة البشر الدينية لا غير، وسيان بعد ذلك أن تتضح لنا تلك المصالح الدينية أم تخفى علينا، وسيان أن يكون منها للبشر مصلحة مدنية أم لا فذلك مما لا ينظر الشرع السماوي إليه ولا ينظر إليه الرسول»[٣].

❑ وقال: «التمس بين دفتي المصحف الكريم أثرًا ظاهرًا خفيًّا لما يريدون

(١) «حكم هيئة كبار العلماء في كتاب الإسلام وأصول الحكم» ص(٥ ـ ٦).
(٢) «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرازق ص(١٥٤).
(٣) المرجع السابق ص(١٧١ ـ ١٧٢).

أن يعتقدوا من صفة سياسية للدين الإسلامي ثم التمس ذلك الأثر مبلغ جهدك بين أحاديث النبي ﷺ، تلك منابع الدين الصافية في متناول يديك، وعلى كثب منك فالتمس منها دليلاً أو شبه دليل فإنك لن تجد عليها برهانًا، إلا ظنًا وأن الظن لا يغني عن الحق شيئًا»[١].

ولن ندع مثل هذا التحدي لهذا القزم المتعملق من غير ردّ، ولن نأتيه بشبه دليل بل نأتيه بالصاعقة قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وهل الحكم بين الناس إلا عين السياسة وهدفها ولا نريد أن نعدد الأدلة بعد هذا فهي جد طويلة ولكن أتينا بما طلبه «التمس دليلاً أو شبه دليل..» إلخ؟!.

وقال بنحو هذا محمد أحمد خلف اللَّه في كتابه «القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة»، حيث يقول: «إن رياسة الخلفاء الراشدين للدولة العربية (!!) لم تكن دينية بحال من الأحوال وإنما كانت مدنية صرفة»[٢].

وقال: «والقرآن الكريم قد أعرض إعراضًا تامًّا عن الحديث في أي نظام أساسي للدولة العربية الإسلامية وترك أمر ذلك للمواطنين (!!) يقررون فيه ما يشاءون (!!)»[٣].

ودعوا إلى حركة القومية العربية وقالوا: «إن هذه الحركة لم تتخذ من الإسلام خاصة ومن الدين عامة أساسًا لها، وإنما مضت على أساس عربي خالص»[٤] «وإن الفكرة العربية أكثر انتشارًا وأوسع نفوذًا من الفكرة الإسلامية»[٤].

---

(١) المرجع السابق ص(١٥١).

(٢) «القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(٨٢).

(٣) «القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة» لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(٨٢).

(٤) «مجلة العربي» العدد الأول مقال (القومية العربية كما يجب أن نفهمها) لمحمد أحمد خلف اللَّه ص(٢٢ و٢٤).

ودعوا إلى توحيد الأديان وصهرها بعضها ببعض وهو سبيل من سبل القومية قال أبو رية: «إن الناس سيصلون إن شاء اللَّه بعلومهم وعقولهم إلى مرتقى تزول فيه الجنسيات الدينية وتختفي العصبيات المذهبية ويجتمعون على دين واحد يشمل الناس جميعًا وهذا الدين يقوم على ثلاث قواعد:

١ ـ إيمان باللَّه.

٢ ـ عمل صالح في الحياة.

٣ ـ إيمان باليوم الآخر.

❑ أما ما وراء ذلك مما هو خارج عن علمهم فأمره مفوض إلى ربهم وبذلك يعيشون الحياة تحت ظل السعادة ظليل متحابين متعاونين على عمل ما فيه الخير لكل قبيل»[1].

❑ وإذا ما استنكر أحدهم الترحم على نصراني قال: «إذا كان حكمكم على الكافر صحيحًا فإن النصراني ليس بكافر»[2].

ولنقف هنا ولنجمع الشتات

القومية الوطنية

التقريب بين الأديان

فصل الدين عن الدولة

أحسبها وجوهًا متعددة لقضية واحدة، وهدفها واحد: إقصاء الدين الحق وقيام قومية وطنية.. لا دينية «علمانية».. تنبذ الدين وتقصيه عن ميدان السياسة وحينئذ يسهل انقيادها لمن خطط لذلك ووقف خلفه من وراء الستار هل ترون الأصابع الخفية؟! إنها الصهيونية العالمية تسعى للقضاء على

(١) «دين اللَّه واحد على السنة جميع الرسل» لمحمود أبو رية ص(١٦٨).

(٢) المرجع السابق ص(٢٨).

القومية الدينية.

وصهر الأديان تحت عنوان التقريب بينها وهو تذويب لها وتدمير.

وفصل الدين عن الدولة.

وظفرت في يومنا هذا على حلم كبير من أحلامها فقد صرح زعيم عربي بـ

فصل الدين عن الدولة بمنع الخطباء في المساجد من التعرض لما يجري في السياسة... إلخ.

وسعي ويسعى في بناء.

«مسجد إسلام» و«كنيسة نصرانية» و«معبد يهودي».

في سيناء في سبيل التقريب بين الأديان أليس «خير أوجه الوحدة الوطن» كما يقول الشيخ محمد عبده[1] آخر أخبار هذا المشروع أن هذا الزعيم طلب من ممثلة أفلام الخلاعة والجنس أن تتبرع لبناء هذه المعابد ولو بدولارين.

و ـ في الاجتماع والأسرة:

والحديث هنا متشعب الأطراف متعدد الجوانب وأهم الأطراف وأخطر الجوانب قضية المرأة أليست المرأة هي الأم وهي الأخت وهي البنت وهي الزوجة وهي المربية وهي المعلمة؟! وهي في كل قاعدة تقف عليها أو منصب يجد الرجل والطفل والشاب ما يجذبه إليها ويشده ومن هنا يكون تأثيرها.

إن صلحت أصلحت وإن فسدت أفسدت أليست المرأة الصالحة خير متاع الدنيا؟! إذن فاظفر بذات الدين تربت يداك.

وأحسب أن المرأة جوهرة يجب أن تصان عن أعين اللصوص وغبار

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (٢/ ١٩٤).

الطريق ما الذي ترجوه من امراة خلعت جلبابها وهتكت سترها وتزينت وتبرجت وفتنت وفتنت واختلطت برجال تأججت غرائزهم وانفلت زمامهم، ما إن يفتح أحدهم مجلة حتى يرى الصورة المثيرة، ويذهب إلى دار السينما فيرى ما هو أشد ويفتح التلفاز والمذياع فيسمع ويرى قصص الحب والغرام وماذا بعد هذا؟!

ينظر إلى زميلته في العمل أو على كرسي المدرسة وقد اكتست من المدنية سربالاً وتزينت بزينتها ولبست لباسها وأصابها ما أصاب الرجل نفسه وخلا لهم المكان والزمان بعد هذا؟!

ما الذي ترجوه من امرأة تسلم أولادها لمربية وتخرج إلى واجهات المتاجر والمعارض وتتخذ وسيلة لإغراء المشترين حيث تحدثهم بأرق حديث وألينه، أو تتجه إلى آلات المصانع ودخان المعامل وتهين نفسها بين العمال والموظفين هذا يغمزها وذاك يلمزها وذاك ينظر إليها بعين النهم؟! أو تنساق وراء مغريات الحضارة والحياة الغربية وتتبع شهواتها ورغباتها والمتعة المحرمة؟ كل هذا ولا شك سبب خطير لوقوعها في الرذيلة، إن لم تختصر الطريق وتجعل الرذيلة مهنتها..

وحينئذ فلا أسرة؟ وتشتت الأسر ضياع للمجتمع، وضياع المجتمع ضياع للأمة؟ إذن فضياع المرأة ميزان لضياع الأمة يرتفع ضياعها بارتفاع ضياع المرأة وينخفض بانخفاضه ويسلم بسلامتها، ولذلك قال رسول اللّه ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»[1]، وفي رواية «**أضر على أمتي**».

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأة، ورواه مسلم في كتاب الرقاق ورواه الترمذي في كتاب الأدب باب: ٣١ ورواه ابن ماجه في «الفتن»: باب فتنة النساء حديث ٤٠٦٢ ورواه أحمد (٥/ ٢٠٠ و٢١٠).

* وقبل هذا قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] عدد سبحانه في هذه الآية متاع الحياة الدنيا وجعل في مقدمته النساء قال ابن حجر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك»[(١)].

❑ أدرك ذلك المقياس المعز لدين اللَّه لما قيل له: إن نساء قصر الإخشيد قد أغرقن في الترف ورفعن نقاب الحياء والسرف واستهنَّ بالفضيلة وتركن رسالتهن قال في زهو وانتصار: «اليوم فتحت يا مصر»[(٢)].

❑ وأدرك هذا الشاعر العربي حين قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق

❑ وأدرك هذا أيضًا الاستعمار ومن خلفه الصهيونية العالمية وجندت جنودها لهذا الهدف، ولقد خدمها ولا زال يخدمها في تحقيقه كثير وكثير من الناس منهم من يعلم أنه جند من جنود الاستعمار ومنهم من يعلم أنهم جند من جنود الصهيونية نفسها ومنهم إمعة يخدمهم من حيث لا يدري.

ظهر أول كتاب في مصر يدعو إلى «تحريرها» من النظام الإسلامي سنة ١٨٩٤م عنوانه: «المرأة في الشرق» لمؤلفه مرقص فهمي المحامي وبعده بسنوات خمس أصدر قاسم أمين كتابه الأول «تحرير المرأة» دعا فيه إلى:

١) القضاء على الحجاب الإسلامي المعروف.

٢) إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها.

٣) تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضي.

---

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني (٩/١٣٨).

(٢) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» جمع محمد عطية خميس ص(١٤).

٤) منع الزواج بأكثر من واحدة[١] .

ونحن ندرك صلة الشيخ محمد عبده بهذا الكتاب فهي لا تخفى وسبق الحديث عنها وأقل ما قيل في هذه الصلة أن هذا الكتاب «وضعه ـ قاسم أمين ـ بإيعاز من الأميرة نازلي وبتشجيع من الشيخ محمد عبده»[٢] .

وقد حقق الأستاذ محمد عمارة في «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده» أن هذا الكتاب إنما جاء ثمرة لعمل مشترك بين كل من الشيخ محمد عبده وقاسم أمين. . وأن في هذا الكتاب عدة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده، وعدة فصول أخرى كتبها قاسم أمين ثم صاغ الأستاذ الإمام الكتاب صياغته النهائية بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده منه إلى أسلوب قاسم أمين»[٣] .

❑ وقد أحدث صدور هذا الكتاب ضجة في المجتمع المصري دونها الضجة التي أحدثها علي عبدالرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» أو طه حسين في «في الشعر الجاهلي» أو محمد أحمد خلف اللّه في «الفن القصصي في القرآن الكريم». ذلك أن هذه الكتب إنما يعنى بها رجال السياسة والأدب وعلوم القرآن وإن شئت فقل الطبقة المثقفة.

أما «تحرير المرأة» فيمس كل الطبقات لارتباطه بحياة كل أسرة وتناوله المباشر لأحد أركانها ولهذا كان له من الأثر والصدى في المجتمع ورود الفعل ما لم يكن لتلك.

❑ قالوا عن الكتاب فيما قالوا: «إننا نظن أن يكون ظهور هذا الكتاب

---

(١) المرجع السابق ص(٧٣ ـ ٧٤).

(٢) المرجع السابق ص(٧٤).

(٣) «الأعمال الكاملة» للإمام محمد عبده: جمع وتحقيق محمد عمارة (١/ ٢٥٢).

مصدر تغير عظيم في أفكار الأمة ينشأ عنه فيما بعد تغير أعظم في أخلاقها. .»[١].

لذلك فلا عجب أن يقوم ضد هذا الاتجاه الفكري طائفة من الناس كبيرة إما لغرض ديني محض، وإما تقربًا للمجتمع المصري الرافض لهذا الاتجاه وهو الجانب الأكبر.

وقف فيمن وقف ضد هذا الإتجاه الحزب الوطني[٢] الذي شجب هذا الاتجاه في أول اجتماع عقده بعد صدور الكتاب في ٥ شعبان ١٣١٧هـ ١٨ سبتمبر ١٨٩٩م وفتح صدر صحيفته اللواء لكل طاعن في قاسم أمين وأفكاره[٣].

وحينما توفي قاسم أمين سنة ١٩٠٨م وأقام له شيعته حفلة تأبين أشادوا فيها بدعوته إلى السفور قابل رجال الحزب الوطني هذه الحركة بإقامة احتفال كبير للدعوة إلى الحجاب[٤].

وفي مقابلة هذا كان «حزب الأمة» من المناصرين لقاسم أمين وأفكاره على صفحات «الجريدة» وكان لطفي السيد باشا في مقدمة المروجين لها بمقالاته العديدة[٥].

وكان لا بد من تدخل الاستعمار الذي استغل فترة الحرب العالمية الأولى فاعتقل رجال الحزب الوطني وأوعز إلى أنصار الدعوة النسائية بإصدار مجلتهم «السفور»[٥] وحتى هذا الوقت كانت النساء الداعيات إلى السفور

(١) المرجع السابق (١/ ٢٤٥).

(٢) هذا حزب وطني جديد ليس هو الذي شارك محمد عبده في صياغة دستوره وسبق الحديث عنه.

(٣) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» جمع محمد عطية خميس ص(٧٥ ـ ٧٦).

(٤) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» جمع محمد عطية خميس ص(٧٨).

(٥) المرجع السابق ص(٨٠ ـ ٨١).

يخرجن في مظاهرات وهن متحجبات ومنهن هدى شعراوي وصفية زغلول حرم سعد زغلول أحد تلاميذ الأستاذ الإمام.

وفي عام ١٩٢٢م تلقت هدى شعراوي[١] دعوة من الاتحاد النسائي الدولي بروما وعند عودتها ورسو الباخرة في الميناء المصري ألقت حجابها في ماء البحر.. ثم كونت الاتحاد النسائي المصري عام ١٩٢٣م ووضعت حجر الأساس له في إبريل ١٩٢٤م.

ودعا الاتحاد النسائي إلى تطبيق المبادئ التي نادى بها مرقص فهمي وقاسم أمين وفي مقدمتها تعديل قوانين الطلاق ومنع تعدد الزوجات علاوة على المطالبة للمرأة بالحقوق الاجتماعية والسياسية المزعومة[٢] وبعد عشرين عامًا من إنشائه أي سنة ١٩٤٤م استطاع الاتحاد النسائي أن يمهد لعقد المؤتمر النسائي العربي وجاءت قراراته بالدعوة إلى تطبيق ذلك؟!.

□ هل تريدون أن أذكر شيئًا من صلة الصهيونية العالمية بذلك؟ إذن فاعلموا أن حرم الرئيس الأمريكي روزفلت أبرقت إلى المؤتمر بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٤٤م أشادت فيها بالاتحادات النسائية في البلاد العربية وقالت فيها: إنها «واثقة» من أن النساء العربيات سيقمن بدورهن إلى جانب شقيقاتهن في بلدان العالم أملاً في نشر التفاهم والسلم العالمي في المستقبل «ولسنا في حاجة إلى أن نذكر الجهد الكبير الذي بذلته مسز روزفلت في تكوين الوطن القومي لليهود في فلسطين..»[٣].

---

(١) هدى شعراوي ابنة (محمد باشا سلطان) الذي رافق جيش الاحتلال في زحفه على القاهرة ودعا الأمة إلى استقباله وعدم مقاومته، وأهاب بها إلى تقديم كافة المساعدات المطلوبة له، وسجل له التاريخ صفحة خالدة حينما تقدم مع فريق من الخبراء بهدية من الأسلحة الفاخرة إلى قادة جيش الاحتلال شكرًا لهم على إنقاذ البلاد؟! وخدمة لأهداف الاستعمار فجاءت البنت تواصل أعمال والدها.

(٢) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» لمحمد عطية خميس ص(٨٢ ـ ٨٣).

(٣) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» مجمع محمد عطيه خميس ص(٨٥).

❑ وعقب هذا المؤتمر تكون «الحزب النسائي» سنة ١٩٤٥م وفي عام ١٩٤٩م تكون حزب بنت النيل وزعيمته درية شفيق وأصدر العديد من المجلات بالعربية والفرنسية للكبار والصغار.

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن هو السؤال عن إيرادات هذا الحزب المالية وقدرته علي إصدار هذه المجلات؟ والجواب كما نشرت الصحف بعد ذلك أنه من سفارتي بريطانيا وأمريكا؟!!!.

❑ ولقد لقي هذا الحزب الترحيب من الاستعمار بكافة دوله، وزيرة الشئون الاجتماعية في إنجلترا تقوم بزيارته ورئيسة الاتحاد الدولي تبرق إلى رئيسة الحزب تدعوها للزيارة في أثينا. وجمعية سان جيمس النسائية بانجلترا تهنئ الهيئات النسائية المصرية علي كفاحها وتعلن تأييدها لها، ورئيسة لجنة الحقوق الاقتصادية بالاتحاد الدولي تقوم بزيارة إلى مصر لغرض الاطمئنان على أحوال الجمعيات النسائية في مصر[١].

❑ اهتمام عجيب ما عهدناه منهم فيما فيه صلاحنا وصلاح ديننا ولكنهم يدركون أنهم بذلك إنما يسعون لخدمة مصالحهم الصهيونية؟! نعم الصهيونية ذاتها!! أتريدون شاهداً على ذلك! لقد دعا المؤتمر النسائي الدولي إلى اجتماع في ستوكهلم عاصمة السويد ومن قراراته قرار يقضي بمطالبة وزير الداخلية في السويد بإنزال أشد العقوبات على مسيو أنيرايرا؟ أتدرون لماذا؟!! لمواصلته أعمال الدعاية ضد الصهيونية في السويد!! وقد كتب مسيو أنيرايرا على إثر ذلك إلى الجمعية العربية والحكومة المصرية يستنكر موقف مندوبات الهيئات النسائية المصرية الممثلة في المؤتمر لموافقتهن على هذا القرار[٢] !!.

---

(١) المرجع السابق ص(٨٦ ـ ٩٣).

(٢) «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» جمع محمد عطية خميس ص(٩٤).

وبهذا وغيره كثير تبدو لنا صلة الحركات النسائية بالاستعمار ومن خلفه الصهيونية العالمية»[1].

❑ هذه قصة الصلة بين الاستعمار والاتحادات النسائية، والصلة بين الحركات النسائية ودعوة محمد عبده وتلميذه قاسم أمين وهي صلة قوية واضحة.

*** موقف علماء المسلمين منهم:**

❑ يقول الدكتور فهد الرومي:

وأسمح لنفسي هنا أن أستبق الأحداث وأجيب هنا على سؤال هام قد يخطر على ذهن من يقرأ ما سأكتب هنا.

سيقول قائل: تحيّزك هنا بيّن وإجحافك بحقهم واضح وظلمك لهم ظاهر! كان الواجب إذا أردت تقييم أولئك الرجال أن تذكر أقوال أنصارهم وخصومهم، أن تذكر أقوال المدح والثناء عليهم والإعجاب بهم والإطراء لهم، وتذكر في مقابل ذلك عبارات التجريح والذم لهم والتحذير منهم، أما أن تعمد إلى أقوال الخصوم وتدع أقوال الأنصار فليس هذا من الإنصاف في شيء؟

أقول لهذا رويدك.. لقد قلت بعض الحق لو كان قصدي من سياق الأقوال هو تقييم رجال المدرسة العقلية بها، والحق أن هذا ليس كل قصدي.

ذلكم أن تقييمهم لا يكون بعرض أقوال الناس فيهم وإنما يكون بعرض أقوالهم أنفسهم على الكتاب والسنة وبمقدار موافقتهم لهما تكون سلامتهم والعكس بالعكس وهو ما فعلناه في كثير من القضايا التي بحثناها.

---

(١) «منهج المدرسة العقلية الحديثة» ص(٧٥٩: ٧٧١).

❑ أما مرادنا هنا من عرض أقوال (من سميتهم خصومًا)[١] فهو أن نبين للقراء أنه كان بين علماء المسلمين من لم ينخدع بهم ويعميه الإعجاب بهم عن كشف مثالبهم وتجاوزهم وأخطائهم، وأنه كان بين العلماء من أدرك ذلك في حينه وأخذ على عاتقه كشفه وبيانه للناس، ولكنهم كانوا قلة في العدد والعدة ولم تكن هناك دولة تساندهم ولم يكن هناك استعمار والمستعمرون للناس عامة بصورة المصلحين الساعين إلى ما فيه خيرهم وخير بلادهم ولا تزال هذه الصورة لهم إلى ساعتنا هذه هي الطاغية على الحقيقة حتى عند العلماء منهم، وحتى أن الأستاذ أنور الجندي يقول عن أحد الناقدين لهم: «وهكذا يمضي الدكتور محمد حسين في إثارة الشبهات حول حقيقة جمال الدين ومواقفه مخالفًا كل ما ذهب الناس إليه من الثقة به واعتباره رائد النهضة وموقظ الشرق»[٢].

❑ إذن فلا يحتاج هذا إلى بيان أقوال المؤيدين لهم والمناصرين لأفكارهم ومبادئهم، وإنما يحتاج الأمر إلى بيان: من رفض أقوالهم، وكشف للناس حقيقتهم وسيرتهم وهذا ما سنفعل إن شاء اللّه فنبدأ:

أ ـ المعاصرين لهم:

*** الشيخ محمد الجنبيهي مؤلف كتاب «بلايابوزا» والشيخ يوسف النبهاني يتصديان لمحمد عبده وشيخه الأفغاني:**

ونبدأ ذلك بأقوال الشيخ محمد الجنبيهي صاحب كتاب «بلايا بوزا»

(١) الحقيقة أنهم ليسوا كلهم خصومًا بل فيهم من هو معجب بهم في بعض الجوانب لكن إعجابه هذا لم يمنعه من قول الحقيقة في جوانب أخرى وحتى الخصوم الذين ننقل عنهم هنا لم يخاصموهم فيما نعلم لأمر دنيوي أو حقد أو حسد وإنما لأمر ديني وغيرة منهم على الإسلام، ولا يعدّ هذا تجريحًا أو طعنًا في نقدهم.

(٢) «مفكرون وأدباء» لأنور الجندي ص(٢٦٢).

الذي وضعه ردًا على طه حسين في كتابه «في الشعر الجاهلي» ويرمز الشيخ الجنبيهي بـ «بوزا» لطه حسين وهو اصطلاح فرنساوي وهي قطعة من الخشب وزنها خفيف.. على هيئة قبل الرجال ولقد ركبت تلك القطعة على مقعر من رصاص ثقيل.. فتراها كلما ألقيت فوق الأرض كانت قائمة وقد ضربها عقلاء الأقدمين مثلاً لكل ضال حائر مغرور ذي لسانة وسفه فقد مزايا الأدباء وشذ عن مناهج الفضلاء متلبسًا بعناد وإصرار شيطاني من حيث لا يشعر بما يقول ولا بما يعمل فلا تتوجه به أمياله إلا إلى مخالفة الفضلاء ومعارضة الأدباء بما لا يعلم عاقبته ولا يستطيع أن يقيم على صحته دليلاً»[1].

وحينما يتحدث الشيخ عن الأفغاني ومحمد عبده، فإنه لا يتحدث حديث التخرص والظنون وإنما حديث من خالطهم وعاشرهم، فهو حديث خبير بهم حيث يقول: «إني نشأت بعد بلوغ الرشد وطلب العلم في الأزهر الشريف مصاحبًا تلميذ جمال الدين الأفغاني ومحاذيًا له قدمًا بقدم بعدما أتى جمال الدين الديار المصرية، وكثيرًا ما جالست ذلك الرجل وتذاكرت معه مذكرات ذكرتها في بعض الكتاب وما كان يدعوني إلى مجالسته إلا صاحبي الذي كان يظن أن يجذبني إلى الميل إلى ما مال إليه من فتنة ذلك الفاتن وكنت أطمع أن أكون سببًا في خلاصه من تلك الفتنة (ولكن اللَّه غالب على أمره)[2] ».

إذن فحديثه حديث المخالط المعاشر فلنذكر حديثًا له مع جمال الدين الأفغاني، كان محور الحديث بينهما ما يروى من الحديث القدسي «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني»[3] قال الجنبيهي: «ولقد

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(٢٨ ـ ٢٩).

(٢) «بلايا بوزا) لمحمد الجنبيهي ص(٣٨).

(٣) قال السخاوي في «المقاصد الحسنة»: «قال بن تيمية: أنه ليس من كلام النبي ﷺ ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي وشيخنا» «المقاصد الحسنة» ص(٣٢٧).

كان لي في هذا الحديث القدسي مع جمال الدين الأفغاني واقعة كانت سببًا لعدم اتصالي به مع شديد رغبته ورغبة تلميذه الذي أشرنا إليه من قبل، وتلك الواقعة هي أني سألته عن هذا الحديث لعلمي أنه ينكر الأحاديث القدسية؛ لأنه طبيعي لا يعترف بوجود إله، وكنا في مجمع من الناس فقال: ليس هذا وقت الكلام على هذا الحديث فأملهني لوقت آخر «إلى أن قال: أنه وجده في مجالس اللاهين في قهوة من القهاوي فقال له: «هذا وقت الكلام على ذلك الحديث الشريف» فما كان جوابه إلا أن قال: ذهب فيلسوف إلى المنتزه في يوم العيد فوجد الناس على حال مضحك: منهم من هو مخمور ومنهم من هو لاعب ومنهم من هو مرافق لامرأة من المومسات ومنهم من هو راقص ومنهم من هو متبلس بما لا يرتضيه أبناء البشر فنظر ذلك الفليسوف إلى السماء قائلاً: «الآن وقعت الحسرة في قلبك أهؤلاء كلهم عرفوك»، فعند ذلك تغير حالي وعلمت أن الرجل ضال فقلت له: أن هذا الفيلسوف لأحمق ومجنون. قال: ولم ذلك قلت: لأن من جهل ربه في الدنيا يعرفه فيما بعد الموت ومن جهله في الرخاء يعرفه عند الشدة فما ذلك الفيلسوف إلا ضائع العقل والدين ثم تركت الرجل محزونًا؛ لأن فتنته لم تؤثر في قلبي أثرًا كان يريده وكان ذلك الموقف آخر عهدي به»[1].

ويتحدث الجنبيهي عن المقادير التي جمعت بين دول الاستعمار وأنهم «ألهموا أن المتمسكين بآداب الدين القويم لن يغلبوا ما داموا متمسكين به سواء كثروا أو قلوا لأن المتمسك بدينه مرتكن على قوي متين لا يغلب ولا يقاوم فلذلك أجمعوا رأيهم على أن يعتمدوا على العلماء السياسيين منهم في حل روابط ذلك التماسك فقرر أولئك السياسيون فيما بينهم أن روابط الدين القوية لا تنحل إلا بثلاثة أمور: استبدال العلم النافع الذي كان يسأل رسول

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(١١٨ ـ ١١٩).

اللَّه ربه أن يزيده منه بالعلم الذي كان يستعيذ بربه منه، والأمر الثاني تولية المناصب لغير أهلها.. والأمر الثالث إيجاد أسباب قوية توقد نيران العداوة والبغضاء والتشاجر بين المسلمين حتى لا يتمسكوا بدينهم ولا يتفقوا على عمل مرضٍ» إلى أن قال: «وبمقتضى هذه الفكرة السياسية بعث جمال الدين الأفغاني إلى الديار المصرية لتنفيذ مفهوم تلك الفكرة»[١] .

ويتحدث عن علماء الأزهر آنذاك بأنهم أيقنوا أنه أتى الأفغاني - من رجال الفتنة التي يتيحها اللَّه لأشرار العلماء»[٢] .

❑ ويتحدث عن محمد عبده ويسميه (ابن عبده الغرابلي)؛ لأن أهله كما يقول الدكتور محمد محمد حسين من الفقراء الذين يمتهنون صناعات صغيرة منها صناعة الغرابيل[٣] ، قال الجنبيهي عن محمد عبده: «أن الأسباب التي جعلت ابن عبده الغرابلي محبوبًا لفحول السياسيين ولولاة الأمور من الدول المتحالفة على محو الإسلام اسمًا ورسمًا وصيرته محمودًا عند محرري الجرائد الأورباوية تتمدح باسمه وتعتني بعمل تذكاره هي بعينها الأسباب التي يتناول بها أستاذ الجامعة المصرية - يقصد طه حسين - مرتبًا كبيرًا بسبب شهادة الدكتوراه التي تناولها من أوربا لسبب عداوته للدين ورجاله حتى يكون إذا أعلوا شأنه فتنة لأبناء المسلمين»[٤] .

❑ ويستدل الجنبيهي على سوء اتجاه محمد عبده الفكري بعلاقته باللورد كرومر فيقول: «فهلا فكرت.. في الأسباب التي صعدت بمحمد بن عبده الغرابلي.. وقد اتخذه جناب اللورد كرومر أستاذًا ومرشدًا في الدين وفي

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(٤٥ - ٤٦).
(٢) المرجع السابق ص(٤٧).
(٣) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٨٧).
(٤) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(٣٥ - ٣٦).

السياسة ثم نعاه بعد موته.. فهل كان ابن عبده الغرابلي في عصره من أكابر المرشدين الدينيين وكان ذلك اللورد متعطشًا لأن يسلك سبيل المؤمنين.. فهلا تفكر في الأسباب التي جعلته محبوبًا لرؤساء الدول المتحالفة على محو الإسلام اسمًا ورسمًا وما ذلك إلا لأنه أجهد نفسه في حلّ روابط المدنية الإسلامية السماوية..»[1].

❑ وتحدث عن محمدعبده بعد عودته من المنفى في البلاد الشامية «فلما انقضت مدة النفي ورجع إلى الديار المصرية كانت ثقة اللورد كرومر به أكبر ثقة فسكن في منشية الصدر بعيدًا عن عيون الرقباء، وكانت الواسطة بينه وبين اللورد رجلاً إنكليزيًّا يسمى (بلنت) كان يتزيا هو وزوجته بزي عرب البادية.. فلما قويت رابطة التواصل بين ذلك الإنكليزي وبين ابن عبده الغرابلي أعطاه قطعة أرض.. ليكون له جارًا وفي ذلك الحين اتخذه اللورد أستاذًا ومرشدًا يسترشد برأيه في كل عمل يطلبه في تنفيذ الغرض الذي أجمع عليه السياسيون فكان الإصلاح الأزهري الذي ذهب بالدين وعلمه النافع أدراج الرياح من إشارات ذلك المفتون، وكذلك كان إصلاح المحاكم الشرعية، وما أنشئت الجامعة المصرية إلا بإرشاده وكان من تعليماته لذلك اللورد أن لا يتولى المناصب العالية متمسك بدينه وكان بين ذلك التلميذ وبين المبشرين رابطة وداد قوية فكانوا يزورونه في غالب الأحيان للإسترشاد به في مهمات التضليل التي أجمعوا عليها.. وكان من مساعدة اللورد كرومر لشيخه ومرشده أن ولاه مناصب القضاء الأهلي حتى وصل به إلى وظيفة مستشار.. ثم عينه مفتيًا بالديار المصرية ليكون له الحق في التداخل بشئون الأزهر الذي أجمع السياسيون على خرابه فكان كل من أراد أن يلتحق

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنيبهي ص(١٠).

بالمناصب العالية يتظاهر بازدراء الدين ورجاله ويكون كزب الأرض في ثباته على تمثيل هيئة العناد والإصرار بعدم الإنقياد لأي واعظ كان من النصحاء.. وما زالت تماثيل زب الأرض تتفاقم رزاياها وتنتشر مصائبها من سفهاء الزيغ الذي افتتنوا بذلك الطالب المارق من الدين ظانين أن انتشار صيته في الممالك كان لمهارته في العلم وتمسكه بالحق وليس الأمر كذلك وإنما هي فتنة اتخذها اللورد كرومر طريقًا مسلوكًا لتنفيذ أغراض السياسيين في البطش بالدين الإسلامي والخلافة الإسلامية وضياع العلم الديني وكان أمر اللَّه قدرًا مقدورًا»[١].

ونذكر بعد هذا رأي الشيخ يوسف النبهاني وهو مع رأي الجنبيهي كما يقول الدكتور محمد محمد حسين: «يصوران الجانب الآخر لصدى دعوة الأفغاني ومحمد عبده عند المعاصرين وهو الجانب الذي اختفى الآن أو كاد يختفي تحت تأثير الضغوط والحماية التي تساند هذه المدرسة وتحارب خصومها»[٢].

والشيخ النبهاني ـ أيضًا ـ إنما يتحدث، ويقول بعد معاشرة ومخالطة للأفغاني إذن فقوله قول من أدرك الأمور على حقيقتها لا قول متخرص ظان.

يصفهم بادعاء الاجتهاد المطلق وهم «الجاهلون» قال نظمًا:

وكم من قرون قد توالت ولم يجل ... بدعوى اجتهاد مطلق عالم كفرًا
فكيف ادعاه الجاهلون بعصرنا ... فما أقبح الدعوى وما أفظع الأمرا[٣]

(١) «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي ص(٥٠ ـ ٥٣) باختصار.
(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٩٤).
(٣) «الرائية الصغرى» ليوسف النبهاني ضمن العقود اللؤلؤية في المدائح النبوية له ص(٣٥٤).

* ويرى أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]. يرى أنهم هم المرادون بها ويستدل بما نقله السيوطي في الدر المنثور عن سلمان الفارسي ﷺ أنه سئل عن هؤلاء القوم فقال: لم يأتوا بعد وذكر ذلك البيضاوي، ثم قال النبهاني: «قلت: لا شك أن المنافقين المذكورين في هذه الآيات السابقة واللاحقة، والخوارج الذين خرجوا على سيدنا علي ﷺ وغيره من أئمة الإسلام متصفون بهذه الأوصاف الذميمة إلا أنهم لم يدعوا أنهم مصلحون لدين الإسلام ويلقبوا أنفسهم بهذا اللقب مثل هذه الفرقة الضالة فرقة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده المصري في مطابقة الآية لهذه الفرقة أكثر من مطابقتها للمنافقين والخوارج وإن شملتم جميعًا أحكامها»[1].

❑ وقال نظمًا:

فما بالهم لا يصلحون نفوسهم ... أما هي بالإصلاح من غيرها أحرى[2]

❑ وقال:

وكل امرئ لا يستحي في جداله ... من الكذب والتلفيق مهما أتى نكرًا

فمن قال صلوا قال قائلهم له ... يجوز لنا في البيت نجمعها قصرًا[3]

❑ وقال

وأعداؤهم من بيننا كل عالم ... ولا سيما إن كان في فقهه بحرًا

❑ وقال:

فإياك أن تغتر منهم بفاجر ... وإن أنت قد شاهدت من فعله الخيرا

---

(١) «الرائية الصغرى» ص(٣٥٦).

(٢) المرجع السابق ص(٣٥٦).

(٣) المرجع السابق ص(٣٦٢).

فذلك شيء جاء ضد طباعهم ... وقد فعلوا أضعاف أضعافه شرا
وكم أيد الإسلام ربي بفاجر ... فنهدي له لا الفاجر الحمد والشكرا
أشد من الكفار فينا نكاية ... وأعظم منها في ديانتنا ضرا
من الكفر ذو الإسلام يأخذ حذره ... ومن هؤلاء القوم لا يأخذ الحذرا[1]

❑ وقال عن جرائدهم ومجلاتهم:

بها خلطوا بالحق باطل غيهم ... بها مزجوا الإسلام بالملل الأخرى[1]

❑ وقال عن الأفغاني:

تسمى جمال الدين مع قبح فعله ... كما وضعوا لفظ المفازة للصحرا[2]

❑ وقال عن محمد عبده:

فمن جهة يدعى الإمام ويقتدي ... بأعمال أهل الكفر من جهة أخرى
يذم خيار المسلمين وعندما ... يرى حاجة للكفر يستحسن الكفرا
لكيما يقال الشيخ حرّ ضميره ... فيبلغ عند القوم مرتبة كبرى
وما زال مشهوداً على الدين شره ... وإن زعم العميان أن به خيرا

❑ ويصف عبده ـ بعد عودته إلى مصر من منفاه:

وعاد إلى مصر فأحدث مذهبًا ... ولوث من أقذاره ذلك القطرا
وأيّد أعداء البلاد بسعيه ... وأوهم أهل الجهل أن بهم خيرا
يحسن بين الناس قبح فعالهم ... ومهما أساءوا راح يلتمس العذرا
بمقدار ما خان البلاد وما أتى ... لأعدائها نصحًا علا عندهم قدرا

❑ وقال:

ونال بجاه القوم في الناس رتبة ... بها حاز فيمن شاءه النفع والضرا

(١) المرجع السابق ص(٣٦٢ ـ ٣٦٣).
(٢) «الرائية الصغرى» ص(٣٥٤).

❑ وقال:

فمن رهبة أو رغبة كم سعى له ... طغام من الجهال أكسبهم خسرا

❑ وقال عن منهجهم في التفسير:

وقد ضل في القرآن مع عظم نوره ... كما خبطت عشواء في الليلة القمرا
فتفسيره من رأيه ليس خاليًا ... فإما يرى فسقًا وإما يرى كفرا
أحذّر كل الناس من كتب دينه ... وبالرد والأعراض تفسيره أحرى

❑ وقال عنه:

يعاشر نسوان النصارى ولا يرى ... بذلك من بأس وإن كشف السترا
ويأكل معهم كل ما يأكلونه ... ويشربها حمراء إن شاء أو صفرا
ويفتي بحل المسكرات جميعها ... إذا هي بالأسماء خالفت الخمرا
ويأكل مخنوقًا ويفتي بحله ... لئلا يقولوا أنه ارتكب الوزرا
وتحليله لبس البرانيط والربا ... به بعض أهل العلم قد ألحق الكفر
وكم زار باريز ولندره ولم ... يزر مكة يومًا ولا طيبة الغرا
وإن كان يومًا للرياء مصليًّا ... يرى فاعلاً يومًا وتاركها شهرا

❑ وقال:

وقد كنت في لبنان يومًا صحبته ... لقرب غروب الشمس من ضحوة كبرى
وصليت فرض الظهر والعصر بعده ... لديه وما صلى هو الظهرا والعصرا
وكان صحيح الجسم لا عذر عنده ... بلى إن ضعف الدين كان له عذرا

❑ وقال:

وقبل غروب الشمس صاحبت شيخه ... لقرب العشا أيام جاورت في مصرا
ولم أره أدى فريضة مغرب ... فقاطعت شيخ السوء من أجلها الدهرا

وقال:

ولو لا حديث المصطفى لأسامة ... يقول به هلا شققت له الصدرا
لما صحت الدعوى بإسلام بعضهم ... لدي وما استبعدت عن بعضهم كفرا
وكنت كتبت الكاف والفاء بعدها ... على جبهات القوم كي يعرفوا والرا
كما جاء في الدجال يكتب لفظها ... فيقرأ من يقرأ ومن لم يكن يقرا
فقد أشبهوه في معان كثيرة ... من الدّجل والإلحاد والبدع الأخرى
وما الفرق إلا أنهم في قلوبهم ... عماهم ودجال الورى عينه عورا
مقدمة للجيش عنه تقدموا ... وجند له من قبله مهدوا الأمرا
تقدم فيهم نائبًا عنه عبده ... أغوى الذي أغوى وأغرى الذي أغرى[1]

وقال عن رشيد رضا ومجلته المنار:

غدا ناشرًا فيه ضلالات شيخه ... كما نشر الزّراع في أرضه البعرا

وقال:

وكم ضل رأيًا من سقامة فهمه ... بأمر صحيح من شريعتنا الغرا
ولو سأل الأشياخ أدرك سره ... ولكنه مع جهله قد حوى كبرا[2]

وقال عن الثلاثة:

ثلاث أثاف تحتها نار فتنة ... ومن فوقها الإلحاد صار لها قدرا
وقد دخلوا حزب المسون بهمة ... بها حل كلّ من محافله الصدرا
ومذهبهم حكم الديانات واحد ... تساوى به الإسلام والملل الأخرى[3]

---

(١) «الرائية الصغرى» ليوسف النبهاني من ص(٣٦٥: ٣٧٤).
(٢) المرجع السابق ص(٣٧٧).
(٣) «الرائية الصغرى» ليوسف النبهاني ص(٣٨٤).

وهذا رجل آخر يكشف حالهم ويعلنها للناس وهو الشيخ مصطفى صبري شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقًا يقول: «أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده فخلاصته أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين فقرب كثيرًا من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات، ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة، وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني كما أنه على ما يقال وسيأتي إيضاحه في هذا الكتاب هو الذي شجع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر»[١].

❑ وقال عن محمد عبده: «فلعله وصديقه أو شيخه جمال الدين أرادا أن يلعبا في الإسلام دور لوثر وكلفين زعيمي البروتستانت في المسيحية فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين وإنما اقتصر تأثير سعيهما على مساعدة الإلحاد بالنهوض والتجديد»[٢].

❑ وقال عنه أيضًا: «وكان من مضار الشيخ بالإسلام وعلمائه الناشئين بعده أنّ حملة الأقلام بمصر المنحرفين عن الثقافة الإسلامية كما أكبروا الشيخ وآراءه الشاذة التي انتقدتها في هذا الكتاب وأوجدوا من السمعة العلمية السامية ما لا يزال طنينه في أذن الشرق الإسلامي. ولا شك في تأييد القوة الماسونية له كان ذلك حثًا للذين يحبون الشهرة والظهور من شباب العلماء وكهولهم على نيل ما أرادوا بواسطة الشذوذ في الرأي والتزلف إلى الكتاب المتفرنجين بل الإنتماء إلى الماسونية»[٣].

❑ ولا نريد أن نذكر بعد هذا موقف الشيخ عليش ـ رحمه اللّه تعالى ـ

---

(١) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لمصطفى صبري (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٤٤).

(٣) المرجع السابق (١/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

الذي كان يلاحقهم في صحن الأزهر بعصاه أو موقف أبي الهدى الصيادي الذي وصف جمال الدين بأنه «مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية»[١] أو اعترافات أتباعه أنفسهم بأن الأفغاني «برز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم زاعمًا أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بترق وتحوير طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفلك ويتجاذبها الجو أن القول بوجود محرك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقي الإنسان في تعظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات»[٢] أو وصف السلطان عبدالحميد لجمال الدين الأفغاني بأنه رجل الإنجليز، وأنه مهرج[٣] .

ب: من بعدهم:

سبق أن ذكرنا الموقف المشرف للعلماء الذين أتوا من بعدهم ونقدوا، المدرسةالعقلية نقدًا لاذعًا ومن هؤلاء الدكتور محمدحسين فقد كشف عن عور المدرسة العقلية الحديثة وانحرافها وقبح ما تدعو إليه.

ـ ومنهم أيضًا الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه القيم «التفسير والمفسرون» وسيد قطب في كتابه «الظلال» والدكتور علي جريشة ومحمد شريف الزيبق والأستاذ غازي التوبة في كتابه الفكر الإسلامي المعاصر.

❑ ولقد استعرض غازي التوبة جملة من أخطاء محمد عبده فعد منها:

دعوته للتقريب بين الأديان حتى صار مطية لهيئات ودول حاقدة على الإسلام والمسلمين وما ذلك إلا لأنه لم يلتزم حد الإسلام بل اتبع هواه فكان أمره فرطا.

❑ واستعرض الأستاذ غازي جملة الاخطاء والانحرافات بعد أن قسمها

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لرشيد رضا (١/ ٩٠).

(٢) المرجع السابق (١/ ٤٣).

(٣) «مذكرات السلطان عبدالحميد» ترجمة محمد حزب عبدالحميد ص(٦٧).

إلى قسمين:

أ) نتائج سياسية: وعد منها:

١ ـ التعاون مع رياض باشا عميل الإنجليز.

٢ ـ التعاون مع المحتل الإنجليزي.

٣ ـ الاصطدام مع عباس الثاني فقد كانت في مصر آنذاك سلطتان سلطة الاحتلال وسلطة الخديوية إحداهما مغتصبه والأخرى شرعية تمثلت الأولى في الثعلب العجوز اللورد كرومر والثانية الخديوي عباس الثاني.

٤ ـ تبرير وجود المحتل.

٥ ـ تكوين مدرسة سياسية باسم محمد عبده حيث وجد الاحتلال في محمد عبده وتلاميذه مدرسة سياسية تحقق أغراضه وتنفذ مآربه فرعاها ونماها.

ب) النتائج الفكرية:

كان الاستعمار يشعر بتحول المجتمع المسلم نحو الحضارة الغربية وأخذه منها في كل مجال وتقليده لها في كل أمر ولكنه كان يؤمن ـ في الوقت نفسه بأن الهوة ستبقى قائمة بين الغرب والمسلمين من جهة ولا يؤمن الانتكاس من جهة ثانية طالما أن الإسلام باق على طبيعته وحقيقته لذلك فقد صب جهودًا كبيرة كي يحوّر ويحوّل الإسلام من الداخل ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية من ناحية وتناولها دون التحرج من ناحية أخرى، وقد وجد الاستعمار في محمد عبده ضالته التي تحقق له هدفه ذاك في التحويل والتحوير أو قل التي تبدأ له بالخطوة الأولى في ذاك التحويل والتحوير»[1].

(١) «الفكر الإسلامي المعاصر» لغازي التوبة انظر ص(٤٤ ـ ٦٥).

❑ والدكتور محمد محمد حسين غير مكثر في ميدان الكتابة لكنه رصين الإداء مقتدر في استفتاء جوانب موضوعه ينظر إلى الأمور في عمق كما قال الأستاذ أنور الجندي[١] ، وقد كان لدراسته العميقة في دعوة الأفغاني وتلاميذه نتيجة خطيرة توصل إليها حيث يقول: «الذي يبدو لي هو أن دعوة الأفغاني التي ربي محمد عبده في أحضانها كان لها ـ ككل الدعوات السرية ـ ظاهر وباطن فظاهرها يخاطب الجماهير. وهو يصور ما يريد صاحب الدعوة أن يعرفه جمهور المسلمين مما يعجبهم ويقع من قلوبهم موقع الارتياح والقبول، وباطنها يمثل حقيقتها التي يخفيها أصحابها عن الناس، ولا يكشفون الستر عنها قبل أن تحقق أهدافها بالوصول إلى مركز السلطة ومحمد عبده كان تابعًا لسيده الأفغاني أو خادمًا له كما تعود هو نفسه أن يكتب إليه في بعض رسائله والأفغاني كان يريد أن يعيد الدور نفسه الذي لعبه الإسماعيلية من أصحاب الدعوات الباطنية التي تستر وراء التشيع»[٢] .

❑ وقال عنهما أي الأفغاني ومحمد عبده: «وكانا ـ ككل الثوار من أصحاب الدعوات السرية ـ يعلنان ما يحبه الناس ويستهويهم غير ما يبطنان مما ينكره الناس وما يبلغهم مطامعهم»[٣] .

❑ هذا الرأي ليس رأي رجل خراص وإنما رأي رجل وقف جزاءًا كبيرًا من نشاطه لدراسة حقيقتهم وجلاء أهدافهم حتى إذا ما وصل إلى درجة كبيرة من ذلك كشف للمسلمين ما توصل إليه مستندًا إلى حقائق ثابتة من أقوالهم أو أفعالهم التي لا تنكر وقد عرفت عنهم واشتهروا بها، وهو حينما يكشف

---

(١) «مفكرون وأدباء» لأنور الجندي ص(٢٦٤).

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد حسين ص(٨٣).

(٣) مجلة «رسالة الطالب المسلم» لقاء مع الدكتور محمد محمد حسين ص(١٠٠) العدد الأول ١٣٩٧ ـ ١٣٩٨هـ.

هذا لا يكشفه لحقد أو حسد وإنما يكشفه لغرض إسلامي نبيل هو أن لا تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناسٍ يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ وأن أعمالهم كلها حسنات لا تقبل القدح والنقد حتى أن المخدوع بهم والمتعصب لهم والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إمامًا من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه في الوقت الذي لا يهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول اللَّه ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون»[1].

إذن فنقده نقد عارف مطلع، هدفه الإصلاح، وهذا ما نبحث عنه.

❑ ونختم الحديث هنا برأي صنيعة من صنائعهم وأثر من آثارهم هو الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي لكنه مع هذا أبى إلا أن يقول الحق في منهجهم.

أما أنه متأثر بهم معجب فشاهده أنه قال في إهداء كتابه «النظرات»: «إن كان لي في هذا السفر فضيلة يعجب بها الفاضل أو رأي يرضى عنه العاقل، أو ديباجة يثني عليها الأديب فلا يد فيها لأحد من الناس غير هؤلاء الرجال الثلاثة ولي نفسي والدي السيد محمد لطفي ووليّ عقلي أستاذي الشيخ محمد عبده، ووليّ أمري سيدي سعد باشا زغلول أولئك الذين أهدي إليهم كتابي؛ لأنه حسنة من حسناتهم وصنيعة من صنائعهم وأثر من آثار عنايتهم ورعياتهم وأولئك الذين أحسنوا إلي في هذه الحياة إحسانًا لا أزال أذكر أياديهم البيضاء فيه حتى يعتاق نفسي حمامها وعظامي رجامها»[2] إلخ.

ولكن هذا الولاء ولا دخل لنا فيه، ولمحمد عبده ولسعد زغلول وهو

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٤٩ ـ ٥٠).

(٢) نقل لي هذا النص شيخنا وأستاذنا عبدالفتاح أبو غده جراه اللَّه خيرًا عن الطبعة الأولى من كتاب «النظرات» لمصطفى لطفي المنفلوطي سنة ١٣٢٨هـ الصفحة الأولى.

مرادنا لم يمنعه من قول الحق في نقد منهج محمد عبده حيث عرض لذكره في مقالة عنوانها «يوم الحساب» تخيل فيها أنه قد انتقل من العالم الأول إلى العالم الثاني ورأى كأنه بعث بعد الموت، وكأن أبناء آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم فألهم أنه موقف الحشر، وأنه يوم الحساب ثم تخيل حواراً جرى هناك بين محمد عبده وقاسم أمين عاتب فيه الأول الثاني على دعوته إلى السفور، فإذا بقاسم أمين يجيب «أتأذن لي يا مولاي أن أقول لك: إنك قد وقعت في مثل ما وقعت فيه من الخطأ.. وإنك نصحتني بما لم تنصح به نفسك، أنا أردت أن أنصح المرأة فأفسدتها كما تقول، وأنت أردت أن تحيي الإسلام فقتلته، إنك فاجأت جهلة المسلمين بما لا يفهمون من الآراء الدينية الصحيحة والمقاصد العالية الشريفة فأرادوا غير ما أردت وفهموا غير ما فهمت فأصبحوا ملحدين، بعد أن كانوا مخرفين، وأنت تعلم أن ديِّنًا خرافيًّا خير من لا دين.

أوّلت لهم بعض آيات الكتاب فاتخذوا التأويل قاعدة حتى أولوا الملك والشيطان والجنة والنار، وبينت لهم حكم العبادات وأسرارها وسفهت لهم رأيهم في الأخذ بقشورها دون لبابها، فتركوها جملة واحدة! وقلت لهم: إن الولي إله باطل واللّه إله حق فأنكروا الألوهية حقها وباطلها، فتهلل وجه الشيخ وقال له: ما زلت يا قاسم في أخراك مثلك في دنياك لا تضطرب في حجة ولا تنام عن ثأر»[1].

حسبك بهذا الاتهام من صنيعة من صنائعهم وأثر من آثار عنايتهم ورعياتهم وخلاصة ما نقلنا من نقد لهم هنا أنهم:

١ ـ غير ملتزمين للشعائر الإسلامية من صلاة أو حج.. إلخ.

---

(١) «النظرات» لمصطفى لطفي المنفلوطي (١/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

٢ ـ إن تعاونهم مع الاحتلال ودول الاستعمار إما لأنهم عملاء كما يقول بعض النقاد أو سذاجة منهم كما يقول آخرون.

٣ ـ إن لهم دعوة باطنية يظهرون منها ما يخالف حقيقتها وباطنها.

٤ ـ إنهم جاروا مذهب الاعتزال في كثير من مذاهبهم حتى اطلق عليهم أنهم معتزلة العصر الحديث.

٥ ـ إنهم الوسيلة التي اتخذها الاستعمار والمستعمرون لتحويل وتحوير الإسلام من الداخل ليعطي السند الفكري والدعم الديني لمعطيات الحضارة الغربية.

٦ ـ إن منهجهم في التفسير ضال ومنحرف.

كل هذا وغيره كثير كشفه الناقدون لهم لكن هذا كله، ولكنهم كلهم لم يكن لهم من الأثر ما يذكر، في التقليل من رواج حسن سيرتهم بين الناس وانخداع العلماء بهم قبل العوام حتى وصلوا إلى درجة لا يجرؤ عالم من العلماء على نقدهم علانية أمام ملأ من الناس في مجتمعهم.

لم يكن السبب في هذا سرًّا لا يعلمه أحد بل علمه وخبره الكثيرون وأعلنوه للناس أيضًا، قالوا: إن السبب أن الاستعمار يقف خلفهم ويؤيدهم ويساند دعوتهم ويحميهم أينما ساروا، ويحمي أفكارهم ومبادئهم في اللحظة التي يحتاجون فيها إلى الحماية ويسعى إلى ترويج آرائهم بين المسلمين وإيصال صوتهم ودعوتهم إلى الناس.

وجنّد الاستعمار جنوده من المستشرقين للثناء عليهم ومدحهم حتى يروج ذلك بين الكتاب المسلمين فينقلوه عنهم نقل الإعجاب والتأييد «والإفتخار» برجلين أو رجال من الشرق نالوا رتبة عالية عند رجال الغرب في المباحث الدينية، وهي رتبة تهفو إلى بلوغها أنظار طلاب الشهرة ولو على حساب الدين فأخذوا ينقلون ويروجون أفكارهم ومبادئهم لا نقل الفاحص

الناقد، وإنما نقل المؤيد المسلم لهم ما يقولون.

❑ وبهذا راجت بين الناس أفكارهم وطغت على أذهانهم مبادؤهم فلا يسمعون صيحة «مخنوق» ضدهم ولا همس هامس في نقدهم، ولا صرخة محذّر بين صيحات المخدوعين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

حتى ألجأوا بعض من يريد قول الحقيقة إلى قولها مشوبة بالثناء عليهم ومدحهم وتمجيدهم تقربًا إلى المخدوعين بهم.

ذلك أثر من آثار الاستعمار، ونتيجة لدراسة نقدية مزعومة من المستشرقين لا ندعي ذلك ادعاء ونثبت هنا ما يقيم أساسه.

*** موقف الاستعمار البريطاني منهم واعترافه بما قدموه له من خدمات:**

سبق أن ذكرنا ما يثبت حماية الاستعمار لهم ودفاعه المستميت عن دعوتهم، ونعيد هنا للمناسبة بعضه ونزيد عليه.

ونبدأ أول ما نبدأ برجل أعلن عداءه للإسلام حيث قال: جئت (إلى مصر) لأمحو ثلاث القرآن والكعبة والأزهر[1].

ترى من الذي عاون هذا الرجل لتحقيق هدفه؟! إنهم ولا شك رجال المدرسة العقلية من حيث يدرون (فيكونوا عملاء) أو من حيث لا يدرون (فيكونوا سذاج).

❑ قال كرومر في تقريره السنوي لعام ١٩٠٥م عن محمد عبده: «كان لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية ولآرائه المتحررة المستنيرة أثرها في جعل مشورته والتعاون معه عظيم الجدوى»[2].

---

(١) «الخنجر المسموم» لأنور الجندي ص(٢٩).

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» لمحمد محمد حسين ص(٧٨).

❑ وقال أيضًا: «لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد إليه المرحوم الشيخ محمد عبده هو السبيل الذي يؤمل رجال الإصلاح من المسلمين الخير منه لبني ملتهم إذا ساروا فيه فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوروبيين»[١] .

❑ وقال أيضًا: «إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين، وإنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربي»[٢] .

وقد امتثل هو ما دعا إليه فمال إليهم وعطف عليهم وقدم لهم كل عون وتشجيع فكانوا له (حلفاء طبيعيون) فوجبت عليهم حمايته.

❑ صرح اللورد كرومر بنفسه: «إن الشيخ محمد عبده يظل مفتيًا في مصر ما ظلت بريطانية العظمى محتلة لها»[٣] .

❑ وقال السيد رشيد: «وقد تحقق أن اللورد كرومر قال للخديوي: إن كان تحريك بعض المشايخ ضد المفتي لأجل فصله من الإفتاء فاسمح لي بأن أقول: أنه ما دام لبريطانيا العظمى نفوذ في مصر فإن الشيخ محمد عبده يكون هو المفتي حتى يموت»[٤] .

هذه بعض حمايته في الداخل أما إذا ذهب إلى الخارج كالآستانة مثلاً، فإنه يكتب إلى تلميذه السيد رشيد «إن السلطان لا يستطيع حبسي لو أراده

---

(١) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (٣/ ٤٢٦).

(٢) Medern Egept: Cromer P. 180

(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٥٠١).

(٤) المرجع السابق (١/ ٥٦٤).

وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم ولذلك أسباب لا أحب ذكرها الآن»[١]، ولكن السيد رشيد يذكر السبب في هذا «وهم لا يجهلون أن السفارة البريطانية كانت بالمرصاد؛ لأنها لا تسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه والسلطان ورجاله لا يجهلون هذا أيضًا»[٢] .

بل إن الاحتلال الإنجليزي كان عاملاً أساسيًّا من عوامل عودة محمد عبده من المنفى في الشام إلى مصر وقد صرح اللورد كرومر بهذا في كتابه مصر الحديثة حيث قال: «إن العفو صدر عن محمد عبده بسبب الضغط البريطاني»[٣] .

هذه إشارة تكفي اللبيب في بيان مدى تعاون إمام المدرسة العقلية الحديثة وأستاذها مع الاحتلال ومدى حمايتهم له وهو أمر له معناه.

*** ترحيب المستشرقين بالمدرسة ونتائجها :**

كان لأفكار المدرسة العقلية صدى كبيرًا في دراسات المستشرقين، والحقيقة أنا لا ندري من أين نبدأ وإلى أين ننتهى بين عبارات الثناء والترحيب بهم من المستشرقين ولعلنا نكتفي ـ أيضًا ـ بالإشارة.

فهذا جب يقول عنهم: «لسوء الحظ ظل قسم كبير من المسلمين المحافظين ولا سيما في الهند لا يخضعون لهذه الحركات الإصلاحية المهدئة وينظرون إلى الحركة التي تزعمتها مدرسة عليكره بالهند ومدرسة محمد عبده بمصر نظرة كلها ريبة وسوء ظن لا تقل عن ريبتهم في الثقافة الأوروبية نفسها»[٤] ، ثم وضح هذا المستشرق الإنجليزي جب دور المدرسة العقلية

(١) «الأعمال الكاملة» لمحمد عبده» جمع محمد عماره (١/ ١١٧).

(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٨٦٠).

(٣) «الفكر الإسلامي الحديث» لغازي التوبة ص(٤٥).

(٤) «إلى أين يتجه الإسلام» للمستشرق جب عن مجلة المجتمع العدد ٣٦٤ في ٩ رمضان =

بقوله: «إن في كل البلاد الإسلامية ـ باستثناء شبه جزيرة العرب وأفغانستان وبعض أجزاء من أواسط إفريقيا ـ حركات معينة تختلف قوة واتساعًا ترمي إلي تأويل العقائد الإسلامية وتنقيحها»، ثم قال: «وقد اتجهت مدرسة محمد عبده بكل فروعها وشعبها نحو تحقيق هذا الهدف»، ثم ذكر «أن الأب (بانيرث) المبشر يرى أن حركة الإصلاح الإسلامي ـ على النحو الذي تسير فيه الآن يجب أن تقابل من المسحية الغربية بالتشجيع»[١] .

ولعله يكفي هنا أن ننقل عن جب رأيه في تلاميذ محمد عبده حيث يقول: «إن تلامذته هم من أولئك الذين تعلموا على الطريقة الأوروبية وذلك من ناحيتين أولاهما إن ما كتبه الشيخ كان بمثابة درع واقية للمصلحين الاجتماعين والسياسيين فإن عظمة اسمه قد ساهمت نشر أخبار لم تكن تنشر من قبل ثم إنه قد أقام جسرًا من فوق الهوة السحيقة بين التعليم التقليدي والتعليم العقلي المستورد من أوربا الأمر الذي مهد للطالب المسلم أن يدرس في الجامعات الأوروبية دون خشية من مخالفة معتقده وهكذا انفرجت مصر المسلمة بعد كبت، فقد ساهم الشيخ محمدعبده أكثر من أي شخص آخر في خلق اتجاه أدبي جديد في إطار الروح الإسلامية»[٢] .

أما الجاسوس البريطاني الفريد سكاون بلنت فيصف دعوتهم بأنها «الإصلاح الديني الحر» ويصفهم بأنهم «زعماء الإصلاح في الأزهر» ويصف مدرستهم بأنها «تلك المدرسة الواسعة التقية»[٣] .

□ وقال عن الأفغاني: «ومن أغرب ما يروى أن الفضل في نشر هذا

= ٩٧هـ ص(٢٩).

(١) المرجع السابق ص(٦٣) عن «الفكر الإسلامي المعاصر» لغازي التوبة ص(٦١ ـ ٦٢).

(٢) «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» ص(٧٠).

(٣) «التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر» الفرد سكاون بلنت ص(٧٦).

الإصلاح الديني الحر بين العلماء في القاهرة لا يعود إلى عربي أو مصري أو عثماني ولكن إلى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الأفغاني»[١].

وقال عن محمد عبده أنه «رجل من أحسن وأحكم الرجال العظام ويجب أن لا يتوهم أحد أني إذ استخدم هذه الألفاظ ألقي القول على عواهنه أو أبالغ مثقال ذرة، ولكني أقولها معتمدًا على معرفتي بأخلاقه في ظروف مختلفة وأحوال صعبة فقد عرفته في أول الأمر معلمًا دينيًا ثم قائدًا لحركة الإصلاح الاجتماعي.. وأخيرًا حين سودته مواهبه العقلية ونصرته من جديد»[٢].

وتحدث عن هدف الأفغاني فقال: «كان همه أن يطلق العقول من الأغلال التي قيدتها طوال الأجيال الماضية»، وأن هذا «يماثل ما حدث من إحياء المسيحية بأوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر»[٣].

وهذا جولد زيهر يبين قصد مدرسة المنار بأنه «تحقيق قدرة الإسلام على الحياة بين تيارات العصر الحديث عن طريق إصلاح الأحوال المغلولة بقيود المذاهب الجامدة»[٤] واعتبر السيد جمال الدين الأفغاني المحرك الأول لهذا الاتجاه[٤].

وحسبي أن أقف هنا في بيان الصراع بين المحذرين منهم وبين الاستعمار والمستشرقين، ولا يزال ـ حتى ساعتنا هذه ـ صوت الاستعمار هو الأكثر رسوخًا في أذهان الناس[٥].

---

(١) المرجع السابق ص(٧٧).
(٢) المرجع السابق ص(٨٠).
(٣) المرجع السابق ص(٧٨).
(٤) «مذاهب التفسير الإسلامي» لجولد زيهر ص(٣٤٧ ـ ٣٤٨).
(٥) «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٧٩٩ ـ ٨٠٨).

* من رفض هذه الحجج وردّها ندعوه إلى المباهلة:

بعدما أطلنا النفس في عوار هذه المدرسة وكيف أن رجالها كانوا وراء كل مصيبة ألّمتْ بأمتنا في واقعنا المعاصر.. فمن لم يقبل هذه الحجج لانحراف الناس عن سواء السبيل، ويقول عن هذه المدرسة: إنها المدرسة الإصلاحية المستنيرة، وإن إمامها نعم الإمام، وأنه سعى لنصرة دين اللَّه حتى لا تقضي عليه عمائم الأزهر أو: «الإسطبل» كما كان يسميه، وكثيرًا ما كان يقول:

ولكن دينًا قد أردت صـــلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمائمُ

فمن نعت القوم بأنهم أئمة هذا الدين وأن طريقهم خير طريق وهو الأوحد المستقيم فإنا ندعوه للمباهلة.

❑ قال ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٦٩٧): «في قصة أهل نجران.. وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصرّ بعد ظهور الحجّة، وقد دعا ابن العباس إلى ذلك ثم الأوزاعي ووقع ذلك لجماعة من العلماء.

ومما عُرف بالتجربة أن من باهل وكان مبطلاً لا تمضي عليه سنة من يوم المباهلة ووقع ذلك لي مع شخص كان يتعصّب لبعض الملاحدة فلم يقم بعدها شهرين».

❑ يقول الحافظ ابن حجر: «جرى بيني وبين بعض المحبين لابن عربي منازعة كثيرة في أمر ابن عربي، حتى تبرأت من ابن عربي بسوء مقالته ـ وهذا هو الملحد الذي يقصده ابن حجر ـ فلم يسهل ذلك بالرجل المنازع لي في أمره، وهددني بالشكوى إلى السلطان بمصر بأمر غير الذي تنازعنا فيه يتعب خاطري، فقلت له: ما للسلطان في هذا دخل، إلا تعال نتباهل وقلت: ما تباهل اثنان فكان أحدهما كاذبًا إلا وأصيب، فقال لي: باسم اللَّه قال: فقلت له: قل اللَّهم إن كان ابن عربي على ضلال فالعني بلعنتك،

فقال ذلك. فقلت أنا: اللَّهم إن كان ابن عربي على هدى فالعني بلعنتك وافترقنا.

قال: وكان سكن الروضة فاستضافه شخص من أبناء الهند جميل الصورة، ثم بدا له أن يتركهم وخرج في أول الليل مصممًا على عدم المبيت، فخرجوا يشيعونه إلى الشختور، فلما رجع أحس على شيء مر على رجله فقال لأصحابه: مر على رجلي شيء ناعم فانظروا فنظروا فلم يروا شيئًا، وما رجع إلى منزله إلا وقد عمي وما أصبح إلا ميتًا، وكان ذلك في ذي القعدة سنة سبع وسبعين، وكانت هذه المباهلة في رمضان منها، وعند وقوع المباهلة عرفت أن السنة ما تمضي عليه، وكانت بمحضر من جماعته»[1].

* وأخيراً:

نقول لكل معاند ومخالف:

أنت القتيـــل بكـل من أحببتـــهُ فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى

* * *

(١) «غاية الأماني» (٢/ ٣٧٤).

* الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ يدافع عن أهل الحديث ويرد على الشيخ محمد الغزالي:

الشيخ محمد الغزالي رمز كبير من رموز الدعوة بمصر، وله قلم سيّال في الرد على العلمانيين والمستشرقين وهو فارس لا يُشق له غبار في هذا الميدان. وهو وإن كان حبيبًا إلى النفوس إلا أن الحق أحب إلينا منه، وقد كبا به جواده حينما يتكلم عن أهل الحديث، أو يطعن ويرد بعض الأحاديث التي وجدت في «الصحيحين» فانبرى للرد عليه عالم من البيت المبارك بيت الشيخ محمد بن عبدالوهاب شيخ الإسلام، وهو فضيلة الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ فجزاه اللَّه عن المسلمين خير الجزاء فيقول في رده على كتاب الشيخ محمد الغزالي «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»:

«وهذا الكتاب الذي طلبت الكشف عنه طار به أهل الفتن وأعداء السنن، لجريانه مع أهل الأهواء في أهوائهم، وقد ضرّم ناره، وأشعل الفتيل في زناده «خضراء الدِّمَن»[1]، وما أدراك ما خضراء الدمن، وسوء منبتها، فنشرت منه وانتقت، فدخلت فتنته إلى بيوت لم تعرف الكتاب ولا كاتبه؛ لأنه يخدم مصالح معلومة في بث الخلاف، وتفريق العلماء، وانتقاد الدعاة، وتطوير قلوب أبطأ تطويرها.

لكن هذا حريق ضُرِّمت ناره، وحريق الأقلام قد يُطفئه سيل المداد من ذوي السداد.

ألم تر - أيها الفاضل المودود - كم أقرّ الكاتب عين الرافضة والعلمانيين حين اجترأ على الفاروق المحدث ﷺ فخطّأه فيما رواه إذ خالف ما يراه ويهواه، فقال ص(١٧): «إن الخطأ غير مُستبعد على راو، ولو كان

(١) يعني بها «جريدة الشرق الأوسط».

في جلالة عمر»!.

ثم ألم تر كيف عطف وكرّ على خبّاب بن الأرت الذي أسلم سادس ستة، وروّحت روحه في جنة الخلد قبل مجئ الغزالي بثلاثة عشر قرنًا[1]، فطعن في علمه إذ ساق ما رواه البخاري ومسلم عن خباب: «إن المسلم يُؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب»، فقال الغزالي ص(٨٧) متطاولاً: «كلام خباب ﷺ عليه مسحة تشاؤم غلبت عليه لمرضه الذي اكتوى منه».

❑ ثم ألم تر ـ أيها الأخ ـ قوله عن سلمان الفارسي ﷺ ص(١١٦) إثر سياق حديث له، قال: «حديث سلمان ليس إلا تعبيرًا عن حالة نفسية خاصة» انتهى.

❑ فقل لي أيها الموفق، أفيعز على ذي هوى أن يردّ الحجج والدلائل بمثل ما ردّ به الغزالي: عمر مخطئ فيما رواه عن رسول اللّه ﷺ، وخبّاب متشائم، وسلمانُ ذو حالة نفسية خاصة.

❑ ثم قف ـ أيها الودود ـ على قوله ص(١٢٨): «إن من قال بقطع الصلاة بالثلاثة المذكورين في حديث أبي ذر وغيره هم القاصرون من أهل الحديث».

أتدري من الذين قالوا بقطع الصلاة بالثلاثة المذكورة؟ إنهم جمع خِيرة؛ منهم: أنس، وأبو ذر، وأبو هريرة ﷺ، وابن عباس في رواية، والحسن البصري، وأبو الأحوص، وأحمد في رواية وغيرهم.

ثم سل أطفال المسلمين عمن ذكرت لك أسماءهم من الأئمة الأعلام: أقاصرون هم؟ فإن أجابوك بأنهم كَمَلة مُنتخبون فستقاسمني القول بأن الغزالي

(١) لا نشهد لمعيّن أنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بما شهد له الشارع.

عَظُم رَغَبُه في إطاحة من يُخالفه، بألفاظ نابيات، وتحريرات واهيات، شأن أهل الهوى، ومن قال ما شاء لقِي ما لم يشأ.

* **أيها الصاحب:**

قرأت وقرأت الكتاب، فألفيته غنيًّا فقيرًا: غنيًّا من القصص والسخريات، فقيرًا من عالي الكلام والاختيارات، نصب الكاتب فيه نفسه قاضيًا وحكمًا، وبيْن من؟ بين أهل الفقه وأهل الحديث في فهمهم للسنّة، فدلَّ بذلك على ضيق أفقه، وضعف فقهه، إذ أهل الفقه المتقدمون جلّهم محدثون، وأهل الحديث السالفون جلّهم فقهاء.

واعتبر ذلك بمالك، والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، والليث والثوري، ونحوهم.. أليسوا أمراء المؤمنين في الحديث؟ ثم أليسوا فقهاء الأمة؟»[1].

❑ وردّ على الغزالي قوله ص(١٩):

«أهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل، وهذه سوأة فكرية وخُلُقية، رفضها الفقهاء المحققون»!

❑ قال الشيخ صالح: «وهذا تعالم، بل كذب، فمن أولئك الفقهاء المحققون الذين رفضوا هذا؟ لم يصح خلاف لأحد؛ إلا أن يعني الغزالي نفسه! وهو الأظهر فالأمة مجمعة على هذا في النفس، وليس هذا من قول أهل الحديث وحدهم، قال: الشافعي في «الأم»:

«لم أعلم مخالفًا من أهل العلم قديمًا ولا حديثًا في أن دية المرأة نصف دية الرجل».

---

(١) المعيار لعلم الغزالي في كتابه «السنة النبوية» للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ ص(٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣).

ونقل الإجماع وأثبته: ابن المنذر، وابن حزم، وابن عبدالبر، وابن رشد والقرطبي، وجمع، والعلماء تواتر عندهم نقل هذا الإجماع.

فإذا انكشف لك هذا فاعلم ـ علمت الخير ـ أن قوله: «هذه سوأة فكرية وخلُقية» اتهام لأمة الإسلام، ولشريعة الإسلام، وشهادة على الصحابة والتابعين والعلماء بعدهم أجمعين بأن إجماعهم وفقههم سوأة في الفكر، بل وفي الخُلُق، فالفكر فكر سوء، والخُلُق مذموم هابط!

هذا مكان هذه الأمة ـ وإجماع علمائها ـ في قلب هذا الرجل.

وتذكر هنا قوله ص(١٦٠) آخر كتابه، وكأنما يشهد على نفسه: «إن الذين يخطئون في الفهم، ويجورون علي في حكم لا ينبغي أن يُسقطوا عوجهم الفكري على دين اللّه» انتهى»[١].

❑ وعن قول الشيخ الغزالي في المعازف والموسيقى[٢] ص(٦٣): «التطرف في التحريم نزعة غير إسلامية».

❑ قال الشيخ صالح: «لا يبعد عن خاطرك أن الأئمة الأربعة وفقهاء الملّة أفتوا بتحريم المعازف، ولم يُخالف إلا الظاهرية، وبعض أفراد شذّوا ممن قبلهم، ولهذا فإن تهويله وتقريره لما يريد بعنوان مثل هذا، يُفهم أنه متهم للأئمة بأنهم حرّموا حلالاً، نازعين إلى غير الإسلام، فلم يتّبعوا الإسلام، وإنما نزعوا إلى غيره من تقاليد وأديان.

وكلامه في المعازف والغناء كلام من ركب الثقافة، فسعى إلى تقرير ما يريد، بعيداً عن القواعد العلمية، والبينات الشرعية»[٣].

---

(١) «المعيار» ص(٤٦ ـ ٤٧).

(٢) قال الشيخ في غير هذا الموضع «من لم يستمع الغناء فهو جلف الطباع»!.

(٣) «المعيار» ص(٥٨، ٥٩).

❑ وعن تنقّص الغزالي وسخريته من علماء الأمة قال الشيخ صالح: «هذه ـ أيها الأخ ـ خلّة من تمكنتْ منه أصابته المقاتل، ولحوم العلماء مسمومة، وتنقّص العلماء من شيم السفهاء، وكلام الكَلام كجراح السهام، أفلم تشعر بطعن ينفذ إلى حشاك كلما تنقّص الغزالي إمامًا أو عالمًا؟».

قد سمعت مقاله قبل في عمر وخباب وسلمان والقاصرين ـ عنده ـ من أهل الحديث ـ فاسمع تنقصه من نافع أول سلسلة الذهب عن ابن عمر:

قال ص(١٠٣) بعد سياق حديث وأثر: «ونافع ـ غفر اللَّه له ـ مخطئ.. ورواية نافع هذه ليست أول خطأ يتورّط فيه، بل قد حدّث بأسوأ من ذلك»، ثم وصفه ص(١٠٥) بأنه: «راو تائه». فاسمع هذا، ثم تذكّر قول الإمام مالك: «كنت إذا سمعتُ نافعًا يُحدّث عن ابن عمر لا أبالي أن لا أسمعه من غيره».

لكن لا يعزُبُ عن لب مثلك ـ أيها الأخ ـ أن ذنب نافع هو روايته ما يخالفِ تفقّه الغزالي، وذلك ذنب يهوي بصاحبه!

وعِش تر، وتذكّر قول ساكن المعرّة:

وقال السُّها للشمس أنت خفيّة ... وقال الدجى للصبح لونُكَ حائلُ

وطاولت الأرضُ السماء سفاهة ... وفاخرتِ الشُّهبَ الحصى والجنادلُ

ولعلّك ـ أيها الصاحب الموفق ـ اطلعت على نفيه صفة للَّه تعالى يثبتها أهل السنة[1]، وردّه حديث البخاري ـ رحمه اللَّه ـ، ثم قوله ص(١٢٧): «بعض المرضى بالتجسيم هو الذي يُشيع هذه المرويات، إن المسلم الحق ليستحي أن ينسب إلى رسوله هذه الأخبار» انتهى.

فالبخاري ومن حذا حذوه فيهم خصلتان: مرضى بالتجسيم، وليسوا

---

(١) يعني الشيخ بها صفة الساق الواردة في قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾.

من المسلمين حقًّا!

ولا يقول ذلك إلا أشعري مجازف.

❑ ولا تعجب ـ إذن ـ من قوله ص(١١٤) عن الحافظ المنذري: «إنه ليس لديه فقه صحيح».

ولا تعجب ـ إذن ـ من قوله عن كلام لابن خزيمة، وغيره من المتقدمين، والمازري، والقاضي عياض، لما وجّهوا حديث فقء موسى عين ملك الموت توجيها صحيحًا عليه المعتمد والترجيح، قال ص(٢٩) عن مقالهم السديد: «نقول نحن (!!) هذا الدفاع كله خفيف الوزن، وهو دفاع تافه لا يُساغ» انتهى.

❑ هذه حُجج السُّوقة والهمل: دفع بالألفاظ المبتذلة الشوهاء في أوجه العلماء الفقهاء.

واسمعه حين قال ص(١١٨): «من زعم أن السنة تنسخ القرآن فهو مغرور» انتهى.

وهؤلاء الذين قالوا بالنسخ جمع من العلماء منهم: حسان بن عطية، وأحمد في رواية، وابن حزم، وجمع من الظاهرية؛ قالوا بوقوع النسخ مطلقًا، وذهب آخرون إلى وقوعه في زمن النبي ﷺ؛ منهم: القاضي في «التقريب»، والغزالي، والباجي، والقرطبي.. وغيرهم.

أفأولئك مغرورون؟

ومن استهزأ وسخر من العلماء السابقين فلا تستكثر منه مقالاً، أو تستغرب منه فعالاً، لأن لحومهم ـ كما أسلفت مسمومة»[1].

❑ يقول الشيخ صالح آل الشيخ في نقده للغزالي: «وقد بلغ هذا الرادُّ

(١) «المعيار» ص(١٥ ـ ١٩) مختصراً.

للسنن أطوريه حين اتهم الأمة وعلماءها تهمة ما تجاسر عليها مستشرق أو حاقد، فقال قالة سوء ص(٤٦) فأصغ لها، قال: «إنني أشعر أن أحكامًا قرآنية ثابتة أُهملت كل الإهمال، لأنها تتصل بمصلحة المرأة»!.

واسمع قوله ص(٣٣) عمن ذهب إلى إجبار البكر على الزواج بمن رضيه لها والدها، قال: «ولا نرى (!!) وجهة النظر هذه إلا انسياقًا مع تقاليد إهانة المرأة وتحقير شخصيتها» انتهى.

فالذين قرروا ترجيح جواز إجبار البكر لأدلة أقاموها.. وإن كان ترجيحهم مرجوحًا ـ تركوا القرآن والنص عند الغزالي، واتبعوا تقاليد تهين المرأة، وتحقّر شخصيتها.

لكنْ؛ أتدري من أولئك؟! هم القاسم، وسالم ـ وهما من فقهاء المدينة النبوية السبعة ـ وعامر الشعبي، وابن أبي ليلى، والليث ومالك، والشافعي، وأحمد في رواية وإسحاق.

هؤلاء الأئمة متهمون بترك القرآن والحُكم به رعاية لتقاليد أهانت المرأة! نعوذ باللَّه من الحور بعد الكور»[1].

❑ ويقول الشيخ صالح: «ومن ضعف الكاتب في الحديث قوله ص(٥٥): «ولم يجئ في أحد «الصحيحين» ما يُفيد منع النساء من الصلاة في المساجد» انتهى. وقد جاء في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لو أن رسول اللَّه ﷺ رأى من النساء ما رأينا لمنعهن من المسجد»[2].

❑ ويقول الشيخ صالح: «ومن ضعفه في الأصول قوله ص(٦٥): «الحديث الصحيح له وزنه، والعمل به في فروع الشريعة له مساغ وقبول» انتهى.

(١) المصدر السابق ص(٢٠ ـ ٢١).
(٢) المصدر السابق ص(٢٨).

❑ وهنا مخالفتان بدعيتان:

الأولى: قوله: «العمل به في فروع الشريعة». تنحية لما صحّ من السنن والأحاديث عن الاحتجاج بها في العقائد وأصول الدين، وتلكم نزعة اعتزالية اشتهرت في قالَبَيْ الأشعرية والماتريدية، ونحوهما من زيْغ الخلف عن محجة السلف.

الثانية: قوله: «العمل به.. له مساغ وقبول» مخالف لإجماع الأمة من الفقهاء ومحدثين، وأصوليين، على أن الحديث إذا صح وجب العمل به في الفقهيات.

وكلمات الأئمة في هذا ذائعة سائرة، وقد يترك أحدهم العمل به للنظر في دلالته بما يسوغ النظر فيه مما عرف في الأصول..

أما قوله: «له مساغ وقبول»، فباطل وردّ، والمستقيم أن يقول: «واجب وحتم، إن لم تكن دلالته محتملة»[1].

* رده على الغزالي في طعنه على السلفية:

❑ قال الشيخ صالح: «ومن تناقضه قوله ص(١١) عن كتابه «العلّ فيه درسًا لشيوخ يحاربون الفقه المذهبي لحساب سلفية مزعومة» انتهى.

ولمزه للدعوة السلفية لا يضيرها، إذ الدعوة دعت إلى التوحيد الحق، وأخذت دين اللَّه كله، بشمولية واتزان، واعتبر بذلك بدعوة إمام الدعوة في هذه القرون شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، ومن نهج نهجه، واقتفى سننه، في الدعوة إلى تعظيم اللَّه وتوحيده، والإلزام بشرع اللَّه.. رحم اللَّه أئمتنا رحمة واسعة. ومن شذّ من أتباعها، فغلا أو جفا، أو أخطأ وكبا،

---

(١) «المعيار» ص(٤١ ـ ٤٢).

فعلى نفسها جنت براقش، خطؤه على نفسه، لا تتحمّل ما أخطأ فيه دعوتنا»[١] .

* **تفسيره أحاديث بخلاف فهم أهل السنة:**

قال الشيخ صالح: «وتارة يُفسِّر أحاديث بتفسير أجمع أهل السنة على خلافه خذ مثلاً قوله ص(١٤): «أمتنا تعد الكذب على صاحب الرسالة طريق الخلود في النار؛ لأنه تزوير للدين، وافتراء على اللَّه لقوله ﷺ: **«إن كذبا عليَّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليَّ متعمّدًا فليتبوأ مقعده من النار»** انتهى.

وتلكم التي تحكم بالخلود على الكاذب على رسول اللَّه ﷺ هي الأمة الخارجية، لا أمة السُّنّية، ففسّر الحديث بتفسير الخوارج والمعتزلة، مِنْ جعله الوعيد خلودًا، والكبيرة كفرًا»[٢] .

* **ضعفه النفسي أمام الغرب وحال العصر:**

قال الشيخ صالح آل الشيخ: «وهذا الضعف قصم ظهورًا، فردّها على أدبارها حائرة ثكلى، ومن قوى يقينه باللَّه وشرعه، لم يرفع بحال الغرب رأسًا، ولم يبالهم باله، إذْ برد الإيمان وبشاشته جالبة للعزة والاعتزاز بشرعنا وأحكامه، مهما شوّش المرجفون، وحاك الشبه المتحيرون، والكاتب كثيرًا ما يستحضر شبه المستشرقين، وإخوانهم الذين نافقوا، فيكون ردّ الشبهة عنده بأي طريقٍ، حتى ولو كانت عسفاء أو هوجاء اسمع إلى قوله لما وقف موقفه المنكور من الاختلاط والسفور، مبديًا باعث الموقف الخفي، قال

(١) «المعيار» ص(٦٦ ـ ٦٧).

(٢) «المعيار» ص(٣٤ ـ ٣٥).

ص(٤٦): «قد استغلّ الاستعمار العالمي في غارته الأخيرة علينا هذا الاعوجاج المنكور! وشنّ على تعاليم الإسلام حربًا ضارية، كأن الإسلام المظلوم هو المسئول عن الفوضى الضاربة بين أتباعه».

فهذه كلمات خلَلَها حالة نفسية تصوغ المواقف وتُبْدي المرجوح راجحًا، والضعيف قويًّا.

ومن ذلك قوله ص(٥٢) عن الأوربيين ومن شابههم: «إذا ارتضوا أن تكون المرأة حاكمة، أو قاضية، أو وزيرة، أو سفيرة فلهم ما شاءوا، ولدينا وجهات نظر فقهية تجيز ذلك كله» انتهى.

وهذا غوص في بحار العقلانية، وتجرّد عن التحقيقات الشرعية، والمسألة دين، وغدًا سؤال.

ومن ذلك قوله ص(٩٥): «عندما تناقلت الصحف (!) أن الشيخ عبدالعزيز بن باز أخرج شيطانًا بوذيًّا من أحد الأعراب، وأن هذا الشيطان أسلم.. كنت أرقب وجوه القرّاء، وأشعر في نفوسهم بمدى المسافة بين العلم والدين» انتهى.

ويعني بالعلم علم الغربيين الفجرة، وبالدين دين الشيخ وأمثاله».

❑ وتجده قلقًا في نفسه من مخالفة الشرع للقوانين الدولية ويقول ص(٥٩): «ولست أحبّ أن أوهِّن ديني أمام القوانين العالمية بموقف لا يستند استنادًا قويًّا إلى النصوص القاطعة» انتهى.

فهذه نقول كاشفات للحال النفسية المتوترة التي أنشأ أثناءها كتابه، وأنه بناه مريدًا دفع شبهات عن الإسلام بأي طريق وأي سبيل، حتى ولو كان السبيل ردًّا لقول العلماء والإجماعات، أو سلوكًا لسبيل الشذوذ في الآراء

(١) انظر المصدق السابق ص(٦٩ ـ ٧٣).

المعطلة عن محجة الاستدلال ونور العلم الوثيق الصحيح».

* من أخطائه الاعتقادية:

❑ قال الشيخ صالح: «ومن أخطائة العقدية قوله ص(١٤٢): «العلم الإلهي مسطور في كتاب ضابط شامل محيط ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ انتهى.

وهذا تعدٍّ وابتداع بما لم يُسبق إليه، إذا المسطور في اللوح المحفوظ هو ما في السماء والأرض، لا العلم الإلهي كله، فعبارته فيها عدم توقير لصفات اللَّه وفيها ابتداع وتعالم»[١].

❑ ومن أغلاطه قوله ص(١٤٤): «لقد شاء اللَّه لحكمة لا نعلمها أن يخلقنا ويكلفنا، وقال في وضوح ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ انتهى.

❑ والحكمة من الخلق والتكليف يعلمها صبيان أهل التوحيد ألا وهي تحقيق عبادة اللَّه وحده لا شريك له؛ قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾»[٢].

* العلم... العلم:

❑ ويسوق الشيخ في مقدمه كتابه قول ابن قتيبة: «قد كنا زمانًا نعتذر من الجهل، فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم! وكنا نؤمِّل شكر الناس بالتنبيه والدِّلالة، فصرنا نرضى بالسلامة، وليس هذا بعجيب مع انقلاب الأحوال، ولا يُنكر مع تغيّر الزمان. وفي اللَّه خلف وهو المستعان»[٣].

---

(١) المصدر السابق ص(٧٦).

(٢) المصدر السابق ص(٧٦ ـ ٧٧).

(٣) المصدر السابق ص(٥).

ويقول: «ولقد شهدت وشهدتُ أن العلم في زماننا قد استدْبر، وأن البُغاث «بأرضنا» قد استنسر.

قد أعوز الماء الطَّهورُ وما بقى ... غيرُ التيمُّمِ لو يطيبُ صعيدُ»[٢]

* أصل الإنسان وبدع المدرسة العقلية:

أصل الإنسان لا شك أمر غيبي لا سبيل إلى القطع في علمه ومعرفته إلا عن طريق الوحي والسنة الصحيحة المطهرة.

ولقد خلق اللَّه آدم عليه السلام أبا البشر من تراب خلقًا متكاملاً يؤهله لأن يكون خليفة في الأرض بإذن اللَّه، وألقى في ذهنه من العلم ما خفي على الملائكة عليهم السلام لتكون مزية عليهم ليسجدوا له بإذن اللَّه وأمره، ثم ليسكنه بعد هذا الجنة هو وزوجه لتقع منهما المعصية فينزلهما اللَّه إلى الأرض، أرض الابتلاء والامتحان.

ولم تزل البشرية كذلك إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها.. ذلكم المعتقد في خلق الإنسان هو الذي اعتقده السلف وقامت أركانه على قواعد القرآن وآياته وصحيح السنة.

إلى أن ظهرت نظرية داروين سنة ١٨٥٩م التي قال عنها «فون باير» في كتابه «المذهب الداروني»: «إن الرأي القائل أن النوع الإنساني متولد من القردة السيمانية هو بلا شك أدخل رأي في الجنون قاله رجل على تاريخ الإنسان».

ويأتي الأستاذ محمد فريد وجدي وينكر على داروين نظريته ولكنه أيضًا يخالف نصوص القرآن مخالفة صريحة حين ينكر خلق آدم خلقًا

---

(١) المصدر السابق ص(٧٩)، والبيت قاله الأمير الشاعر ابن حَيُّوس، «ديوانه» (١/١٥٨) ط المجمع الدمشقي.

مستقلاً من طور العدم إلى طور الإنسانية الكاملة فيقول:

«ونحن لا نريد من قولنا أن أهل العلم تبينوا وَهَن أصول مذهب داروين أنهم أصبحوا يقولون بالخلق المستقل فهذا ما لا يقول به إلا الشاذ من أهل العلم اليوم، ولكنهم يرون لتسلسل الأحياء بعضها من بعض نواميس أخرى غير نواميس داروين»[1].

ولا تعتقد أن فريد وجدي هو الفارس الوحيد في ميدان الشذوذ، فقد سبقه وزاد عليه الفارس الذي لا يُشقُّ له غبار في هذا المجال الشيخ محمد عبده، ومن خلفه تلاميذه السيد رشيد رضا، وأحمد مصطفى المراغي، وتبعهم بعد ذلك الأستاذ عبد الصبور شاهين فزاد وأتى بما لم يأت به أحد.

❑ لم يرفض الشيخ محمد عبده نظرية ـ داروين كما أنه لم يصرّح بقبولها، ولكنه فسّر الآيات القرآنية بما يفسح المجال لمن يريد أن يقول بها وأنكر معارضة القرآن لذلك؟!

«ليس هذا تجنيًا منا على الشيخ عبده بل هو مع حسن الظن أيضًا، حينما نعلم أن الشيخ وتلميذه رشيد يساوون بين الاعتقاد بأن أبا البشر آدم عليه السلام والاعتقاد بأنه القرد أو غير ذلك ما دامت الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر.

وحتى ندع القارئ يسبقنا إلى الحكم عليهما نكتفي هنا بإيراد نصوص لهم.

❑ فقد قال الشيخ محمد عبده في تفسير قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا**

(١) «على أطلال المذهب المادي» لمحمد فريد وجدي (١/١٠٣ ـ ١٠٤) ـ الطبعة الأولى ـ طبع دائرة معارف العشرين القرن ـ مصر.

وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] «ليس المراد بالنفس الواحدة آدم بالنص ولا بالظاهر، فمن المفسرين من يقول إن كل نداء مثل هذا يراد به أهل مكة أو قريش، فإذا صح هذا جاز أن يفهم منه بنو قريش أن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان، وإذا قلنا أن الخطاب لجميع أهل الدعوة إلى الإسلام أي لجميع الأمم فلا شك أن كل أمة تفهم منه ما تعتقده، فالذين يعتقدون أن جميع البشر من سلالة آدم يفهمون أن المراد بالنفس الواحدة آدم، والذين يعتقدون أن لكل صنف من البشر أبًا يحملون النفس على ما يعتقدون.. والقرينة على أنه ليس المراد هنا بالنفس الواحدة آدم قوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ بالتنكير وكان المناسب على هذا الوجه أن يقول وبث منهما جميع الرجال النساء، وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب عام لجميع الشعوب وهذا العهد ليس معروفًا عند جميعهم فمن الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما، وهذا النسب المشهور عند ذرية نوح مثلاً هو مأخوذ عن العبرانيين فإنهم هم الذين جعلوا للبشر تاريخًا متصلاً بآدم وحددوا له زمنًا قريبًا. وأهل الصين ينسبون البشر إلى أب آخر ويذهبون بتاريخه إلى زمن أبعد من الزمن الذي ذهب إليه العبرانيون، والعلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين ونحن المسلمين لا نكلف تصديق تاريخ اليهود وإن عزوه إلى موسى عليه السلام فإنه لا ثقة عندنا بأنه من التوراة وإنه بقي كما جاء به موسى»[1].

وبهذا أكد الشيخ أن آدم ليس أبو البشر كلهم وإنما قلت أكد لأنه: ـ

١ ـ استدل بأن الآية لا تدل (بالنص ولا بالظاهر) على ذلك.

---

(١) «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا (٤/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

٢ ـ وأنه لو كان آدم أبا البشر كلهم لما قال ﴿رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ بل قال جميع الرجال والنساء.

٣ ـ وأن من الناس من لا يعرفون آدم ولا حواء ولم يسمعوا بهما.

٤ ـ أن العلم والبحث في آثار البشر مما يطعن في تاريخ العبرانيين باعتقادهم أن آدم أبو البشر.

وبهذا أضاء الشيخ عبده النور الأخضر لمن يريد أن يقول بنظرية داروين بأن يجعل تطبيقها على آباء البشر الآخرين عدا آدم عليه السلام.

فإن ذهبت تعترض على هذا وتقول: ـ ورد في القرآن الكريم الخطاب ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ وورد في قوله ﷺ: «**كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب**»[1] وما رواه أحمد في «مسنده» عن رسول اللَّه ﷺ: «**يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**»[2].

إذا ما قلت هذا سهل عليه تأويل ذلك وكيف لا يسهل هذا على من يرد أحاديث البخاري ومسلم ويرد الأحاديث المتواترة كما مر بنا، يقول الشيخ عبده في تأويل ذلك: «وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس بقوله: «يا بني آدم» لا ينافي هذا ولا يعد نصًّا قاطعًا في كون جميع البشر من أبنائه إذ يكفي في صحة الخطاب أن يكون من وجه إليهم في زمن التنزيل من أولاد آدم وقد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة أنه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس فسدوا فيها وسفكوا الدماء، وأقول زيادة في الإيضاح إذا كان جماهير المفسرين فسروا النفس الواحدة هنا بآدم فهم لم

---

(١) رواه البزّار عن حذيفة بن اليمان.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ٤١١).

يأخذوا ذلك من نص الآية ولا من ظاهرها بل من المسألة المسلمة عندهم (!!) وهي أن آدم أبو البشر»[١] .

ويؤيد هذا الكلام تلميذه السيد رشيد بنوع من الأخبار لو لم يكن فيها تأييد لما ذهب إليه لاعتبرها من الإسرائيليات التي أدخلها كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما ولشن عليهما هجومًا لا ينقطع ونعى على الإسلام أمثالهما ولكن والحال أن هذه الأخبار في مقام تأييده فلا بأس من الاستدلال بها والدفاع عن المعتقدين لها قال: «وقد نقل عن الإمامية والصوفية أنه كان قبل آدم المشهور عند أهل الكتاب وعندنا آدمون كثيرون قال في «روح المعاني»: ذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية في الفصل الخامس عشر خبرًا طويلاً نقل فيه أن اللَّه تعالى خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم بين كل آدم وآدم ألف سنة وأن الدنيا بقيت خرابًا بعدهم خمسين ألف سنة ثم عمرت خمسين ألف سنة ثم خلق أبونا آدم عليه السلام، وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق في حديث طويل أيضًا أنه قال لعلك ترى أن اللَّه لم يخلق بشرًا غيركم بل واللَّه لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين»، ثم قال: «ثم نقل عن زين العرب القول بكفر من يقول بتعدد آدم وهذا من جرأته وجرأة أمثاله الذين يتهجمون على تفكير المسلمين لأوهى الشبهات»[٢] .

❑ ثم يجمل لنا السيد رشيد رأي أستاذه «للأستاذ الإمام في هذا المقام رأيان:

أحدهما: أن ظاهر هذه الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم أي سواء كان هو الأب لجميع البشر أم لا، لما ذكره من معارضة المباحث العلمية

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥).

(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

والتاريخية له ومن تنكير ما بثه منها ومن زوجها، على أنه يمكن الجواب عن هذا الأخير بأن التنكير لمن ولد منهما مباشرة كأنه يقول بث منهما كثيرًا من الرجال والنساء وبث من هؤلاء سائر الناس وعن الأول بأنه لا يزال غير قطعي.

وثانيهما: أنه ليس في القرآن نص أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم والمراد بالبشر هنا هذا الحيوان الناطق البادي البشرة المنتصب القامة الذي يطلق عليه لفظ الإنسان، وعلى هذا الرأي لا يرد على القرآن ما يقوله بعض الباحثين ومن اقتنع بقولهم من أن للبشر عدة آباء ترجع إليهم سلائل كل صنف.

❑ ثم إن ما ذهب إليه الأستاذ الإمام يرد الشبهات التي ترد في هذا المقام ولكنه لا يمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم هذا لأنه لا يقول: أن القرآن ينفي هذا الاعتقاد وإنما يقول: أنه لا يثبته إثباتًا قطعيًا لا يحتمل التأويل وقد صرحنا بهذا؛ لأن بعض الناس كان فهم من درسه أنه يقول أن القرآن ينفي هذا الاعتقاد أي اعتقاد أن آدم أبو البشر كلهم وهو لم يقل هذا تصريحًا ولا تلويحًا وإنما بين أن ثبوت ما يقوله الباحثون في العلوم وآثار البشر وعادياتهم والحيوانات من أن للبشر عدة أصول ومن كون آدم ليس أبًا لهم كلهم في جميع الأرض قديمًا وحديثًا كل هذا لا ينافي القرآن ولا يناقضه ويمكن لمن ثبت عنده أن يكون مسلمًا مؤمنًا بالقرآن»[1].

❑ ثم يقول السيد رشيد: «وليت شعري ماذا يقول الذين يذهبون إلى أن المسألة قطعية بنص القرآن فيمن يوقن بدلائل قامت عنده بأن البشر من عدة أصول؟ هل يقولون إذا أراد أن يكون مسلمًا وتعذر عليه ترك يقينه في

(١) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٦).

المسألة أنه لا يصح إيمانه ولا يقبل إسلامه وإن أيقن بأن القرآن كلام اللَّه وأنه لا نص فيه يعارض يقينه»[١] .

❑ ويقول الشيخ أحمد مصطفى المراغي: وجمهرة العلماء على أن المراد بالنفس الواحدة هنا آدم وهم لم يأخذوا هذا من نص الآية بل أخذوه تسليمًا وهو أن آدم أبو البشر»[٢] ، وقال: «وقال بعض العلماء أبهم اللَّه تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها، فلندعها على إبهامها، فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من أن لكل صنف من أصناف البشر أبًا كان ذلك غير مخالف لكتابنا، كما هو مخالف للتوراة التي نصت صراحة على أن آدم أبو البشر فحمل ذلك بعض الناس على الطعن في كونها من عند اللَّه ووحيه»[٢] .

❑ وكان الأولى بالشيخ المراغي أن يدعو إلى إنكار هذه الفكرة والرد عليها وبيان مخالفتها لنصوص القرآن؛ حتى إذا ما ثبت للناس بعد هذا بطلان هذه النظرية وقف المسلم شامخًا معتزًا بدينه، وكأنه يقول أرأيتم الدين الحق يقول كلمته مخالفًا نظرية في وقت دولتها وعصر سطوتها حتى حسبها بعض الناس حقيقة علمية، ولكن الإسلام يقول كلمته ولا يقف يعضُّ بنانه حائرًا بين تأييدها أو إنكارها جاهلاً الحق فيها أو يقف حائرًا بين هذه النظرية وحقيقة دينه الناصعة فيها، بل يقول حقائق دينه، ولو خالفت ما توهمه المتوهمون وزعمه الزاعمون.

❑ ويفسر الشيخ رشيد رضا المراد بالنفس بقوله: «هذا وأن المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات ـ أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو هذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات أي

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٢٧).

(٢) «تفسير المراغي» لأحمد مصطفى المراغي (٤/ ١٧٥).

خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة ولا فرق في هذا بين أن تكون هذه الحقيقة بدئت بآدم كما دل عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين، أو بدئت بغيره وانقرضوا كما قاله بعض الشيعة والصوفية، أو بدئت بعدة أصول ابنث منها عدة أصناف كما عليه بعض الباحثين ـ ولا بين أن تكون هذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات أو خلق مستقلاً على ما عليه الخلاف بين الناس في هذا العصر»[١] .

ثم قال: «على كل حال وكل قول يصح أن جميع الناس هم من نفس واحدة هي الإنسانية التي كانوا بها ناسًا وهي التي يتفق الذين يدعون إلى خير الناس وبرهم ودفع الأذى عنهم على كونها هي الحقيقة الجامعة لهم فتراهم على اختلافهم في أصل الإنسان يقولون عن جميع الأجناس والأصناف: أنهم إخوتنا في الإنسانية فيعدون الإنسانية مناط الوحدة وداعية الألفة والتعاطف بين البشر سواء اعتقدوا أن أباهم آدم عليه السلام أو القرد أو غير ذلك»[٢] .

❑ لا نريد الرد عليه هنا بإثبات أن مناط الوحدة والألفة في الإسلام هو الدين لا الإنسانية ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]»اهـ.

*** الدكتور عبدالصبور شاهين يخالف إجماع الأمة ويأتي بالعجب العجاب فيتصدى له الدكتور عبدالعظيم المطعني ويلقمه حجراً:**

في كتابه «أبى آدم.. قصته الخليقة بين الأسطورة والحقيقة» الذي صدر فيه عام ١٩٩٨م عن دار النشر المسماة بـ «الروافد الثقافية» أنكر الدكتور

(١) «تفسير المراغي» لأحمد مصطفى المراغي (٤/ ١٧٥).
(٢) «تفسير المنار» (٤/ ٣٢٧).

عبدالصبور شاهين أن يكون آدم أبًا للبشر، ولا أن يكون هو أول مخلوق عاقل من غير الجن والملائكة ولنترك المجال لفضيلة الشيخ الدكتور عبدالعظيم المطعني الذي أفحمه في رده، وقال قولاً شافيًا.

❑ يقول الدكتور المطعني في كتابه «أبي آدم.. قصته الخليقة.. بين الخيال الجامح والتأويل المرفوض»: «الفكرة التي تبناها الكتاب من أول سطر فيه إلى آخر سطر، هي باختصار شديد الآن، أن آدم عليه السلام ليس هو أبا البشر، ولا هو أول مخلوق عاقل من غير الملائكة والجن؟!

بل هو أبو الإنسان، وأن اللَّه تعالى خلق قبله من جنسه خلائق كثيرين عاشوا قبل آدم هذا ملايين السنين، وكانوا في تلك الأزمان خاضعين للتصرف الإلهي من التسوية والتعديل والتهذيب، ثم انقرضوا جميعًا بعد أن انتخب اللَّه منهم آدم ـ هذا ـ من أب وأم منهم، كما انتخب حواء زوجة آدم من أب وأم كذلك من آخر أجيال البشر الأولين، الذين انقرضوا تمامًا. ولم يصبح في الوجود منهم أحد، وأن آدم وحواء وحدهما هما اللذان بقيا ليكونا أبوين لنوع جديد من ذلك الجنس الذي انقرض. أي نوع الإنسان المستمر توالده حتى الآن إلى قيام الساعة؟!

والفروق بين البشر والإنسان عند الدكتور عبدالصبور شاهين نوجزها الآن في الفروق الآتية:

ـ البشر أقوام همجيون لا سمع ولا بصر لهم ولا عقل؟!

ـ الإنسان هو النوع المنتخب المهذب الراقي، لهم سمع وأبصار وعقول.

ـ البشر لم يرسل اللَّه فيهم رسولاً، ولم يكونوا من أهل التكليف الإلهي، فلا إيمان باللَّه، ولا أوامر ولا نواهٍ كلفهم اللَّه بها؛ لأنهم كما ردد هذا الدكتور شاهين مرات، كانوا بمثابة مشروع إلهي تحت التنشئة، ينتقلون بصنع اللَّه من طور ـ إلى طور آخذين في الصعود نحو الرقي والكمال، وهذا

هو ما قاله دعاة «نظرية النشوء والارتقاء» أو الانتخاب الطبيعي من قبل، وأن «البقاء للأصلح».

ـ البشر مخلوقون من تراب أو طين.

ـ أما الإنسان فإنه هو المخلوق من «ماء» أو من «علق» أو من «نطفة».

هذه هي الفكرة، التي تمثل خطوط العرض والطول في هذا الكتاب؛ لأنها ملكت كل حواس ومشاعر المؤلف وعاشت في وجدانه ـ كما قال هو ـ خمسة وعشرين عامًا أو تزيد. هذه الفكرة هي التي نواجهها في هذه الدراسة. ولكن قبل البدء في المواجهة، لا بد من تحرير مدخل لهذه الدراسة، نعرض فيه بعض الأمور المهمة، التي تتصل بفكرة الكتاب، من جهة، وبمنهج المؤلف في عرضها، ثم الجهة التي اعتمد عليها في إثبات الفكرة التي تحمس لها، والنظر في الطريقة، أو الطرق، التي سلكها في انتزاع الأدلة منها، وهل سلمت له أدلته فيكون قد أثبت الفكرة التي تبناها بما لا مجال للطعن فيه، أم لم يسلم له استدلال في الواقع، وإن كان هو يراه مقنعًا يفيد اليقين، أو حتى الظن القوي، الذي يشيع في النفس نوعًا ما من الاطمئنان.

فالدعوى التي ادعاها المؤلف دعوى «غريبة» حقًّا، والدعاوى الغريبة، إذا وجه بها مدَّعُوها الناس تكون في أمس الحاجة، إلى أدلة قوية تكافئ المقام الذي يحدثه رد الفعل. وإلا كانت وهمًا من أوهم الأوهام»[1].

*** موقف السلف من هذه القضية:**

❑ وخلاصة موقف السلف: أن هذه القضية أمر غيبي، يجب الإيمان

(١) «أبي آدم.. قصة الخليقة بين الخيال الجامح.. والتأويل المرفوض» للدكتور عبدالعظيم المطعني ص(٧ ـ ٨) ـ مكتبة وهبة.

بها كما وردت في كتاب اللَّه، وكما أشارت إليه أحاديث الصادق المصدوق ﷺ.

والوقوف في الإيمان بها عند دلالات النصوص المقدسة دون تحريف، أو تأويل تأباه دلالات اللغة العربية التي نزل بها القرآن، أو تأباه حقائق الإسلام الواضحة. وأن هذه القضية لا يحتاج المسلم في الإيمان بها جملة وتفصيلاً إلى مصادر أخرى غير المصادر الإسلامية المقدسة.

❑ وأنهم لا يقولون فيها غير ما قاله اللَّه ورسوله. شأنهم فيها شأنهم في كل أمر غيبي لا يملك الحديث عنه إلا علام الغيوب.

❑ لهذا، فإننا نختلف كل الاختلاف مع الدكتور عبدالصبور شاهين في موقفه غير المنصف، حيث ذكر في إحدى مقدمات كتابه الفقرة الآتية:

«قال المفسرون بألفاظ مختلفة، ومعان متفقة: إن اللَّه تعالى لما أراد خلق آدم عليه الصلاة والسلام، أوحى إلى الأرض: إني خالق منك خلقًا منهم من يطيعني، ومنهم من يعصني، فمن أطاعني منهم أدخلته الجنة، ومن عصاني أدخلته النار، ثم بعث إليها جبريل عليه السلام ليأتيه بقبضة من ترابها، فلما آتاها جبريل ليقبض منها القبضة قالت له الأرض: إني أعوذ بعزة اللَّه الذي أرسلك لا تأخذ مني شيئًا يكون فيه غدًا للنار نصيب، فرجع جبريل عليه السلام إلى ربه، ولم يأخذ منها شيئًا. قال: يا رب، استعاذت بك فكرهت أن أقدم عليها؟

فأمر اللَّه ميكائيل عليه السلام، فأتى الأرض فاستعاذت باللَّه أن يأخذ منها شيئًا، فرجع إلى ربه، ولم يأخذ منها شيئًا؟

فبعث اللَّه ملك الموت، فأتى الأرض فاستعاذت باللَّه أن يأخذ منها شيئًا، فقال ملك الموت: وإني أعوذ باللَّه أن أعصي له أمرًا، فقبض قبضة من زواياها الأربع من أديمها الأعلى، ومن سبختها وطينها، وأحمرها وأسودها

وأبيضها وسهلها وحزنها، فكذلك كان في ذرية آدم الطيب والخبيث، والصالح والطالح، والجميل والقبيح ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم. .»[١].

❑ قدَّم المؤلف لهذه الفقرة بقوله:

«جوهر القصة كما تلقيناها عن القدماء، وكما رواها صاحب قصص الأنبياء المسمى بـ «العرائس. .» ثم عقب عليها بقوله:

على هذه مضت كل كتب التفسير تقريبًا، وكلها تنقل عن مصدر واحد، مع انطواء الرواية، على كثير من صور السذاجة»[٢].

وهذا الصنيع من المؤلف يوحي لجمهور قراء كتابه أن ما ذكره صاحب «عرائس المجالس» هو التصور الإسلامي الوحيد في قصة آدم، بدليل أن جميع المفسرين أطبقوا على ترديد ما ذكره صاحب «العرائس» وهو ينقل في كتابه خرافات لا حصر لها، لا يصدقها عقل، ولم يرد بها نقل مع بُعد ما ذكره عن الاعتقاد الإسلامي الصحيح في نشأة آدم عليه السلام.

وهذا الذي ذكره إنما هو مجرد رواية، أو روايات غير معتمدة في النظر الصحيح. فلم ينص عليه السلف في مسائل الاعتقاد، ولم يرد في مسائل ما أجمعت عليه الأمة، ووجوده في كتاب التاريخ والسير، ليس معناه اعتماده والإيمان به، وهذه الروايات وإن وردت في بعض المصادر الإسلامية بدون تنبيه عليها، فإنها لا تسلم من الطعن في مصادر أخرى. وعلماء الكلام، وغيرهم نصوا بكل وضوح على مسائل الاعتقاد الصحيح الذي يجب على المسلم الوقوف عندها. ولهم في ذلك مؤلفات مطولة وموجزة، مثل «منهاج السنة النبوية» للإمام ابن تيمية، و«مجموعة الفتاوى الكبرى» له، ومثل «الإبانة» للإمام أبي الحسن الأشعري.

(١) «أبي آدم» لعبدالصبور شاهين ص(٧).
(٢) المصدر السابق ص(٩).

فكان حريًا بالدكتور شاهين أن يغفل هذا الجانب ولا يذكر ما يسيء إلى سلف الأمة الصالح، ثم يكتفي به ليضع السلف موضع السخرية أمام قراء كتابه ويظهرهم بمظهر المرددين ـ بلا وعي ـ لأكاذيب بني إسرائيل، والنقل عنهم بلا أدنى روية. وهو يعلم الحركات النقدية الواعية، التي قام بها العلماء حول الأكاذيب الإسرائيلية في التفاسير والسيرة والتاريخ والأحاديث النبوية، ووضع الضوابط التي يعرف بها الصحيح من الأقوال، ويعرف بها كل ما هو مكذوب أو معلول. وقد استمرت هذه الحركات الوثابة من عصر الإمام البخاري، وبلغت ذروتها في عصر ابن الصلاح صاحب كتاب «علوم الحديث» المتوفى في القرن السابع الهجري. وما يزال أهل العلم حتى يومنا هذا يضيفون إضافات حسنة إلى جهود أولئك العلماء الأعلام. ولكن يبدو أن بريق الفكرة، التي أراد الدكتور شاهين عرضها على الناس، قد أنساه الإشارة إلى بعض الأساسيات «الواقية» التي تحول بين القراء وبين سوء الظن بعلماء الأمة، الذين نحن عالة عليهم الآن»[1].

❑ يقول الدكتور المطعني في رده على الدكتور عبدالصبور شاهين:

«عرض المؤلف في الشطر الأول بعد المقدمة لثلاث نقاط هي:

ـ القصة بين العقل والنقل.

ـ النظرة العلمية.

ـ نظرة القدماء إلى وجود الخليقة.

أما المقدمة فقد أشار فيها إلى خطورة الفكرة التي وضع من أجلها الكتاب، وهي الفصل التام بين البشر والإنسان وأشار فيها إلى أن باحثًا معاصرًا من تونس كتب بحثًا ذهب فيه إلى أن البشر غير الإنسان. وأن

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(١٢ ـ ١٤).

المؤلف ـ أعني الدكتور عبدالصبور شاهين ـ يتفق معه في أصل الفكرة ويختلف معه في التفاصيل[١] .

أما النقاط الثلاثة الأول، فقد كان الغرض منها لدى المؤلف أن قصة الخليقة يغلب عليها الغموض والاضطراب بين العقل والعلم والروايات الدينية بوجه عام، وأن إزالة هذا الغموض، وذاك الاضطراب، لا يمكن حصوله من جهة العلم العملي التجريبي، ولا من جهة الروايات الدينية التي ساق جانبًا منها، وإنما السبيل الوحيد هو ما ورد في القرآن الكريم، لكن لا على فهم القدماء للآيات القرآنية التي تحدثت عن «قصة آدم» بل على نظر جديد مغاير تمامًا لما ذكره المفسرون، وما قام عليه إجماع علماء الأمة، وفي ذلك يقول:

«أما القرآن، وهي الكلمة النهائية في الخطاب ما بين السماء والأرض، أو ما بين الأعلى والأدنى، فإنه ـ ولا شك ـ يقدم للعقل الإنساني الحقائق النهائية في الموضوع. ولكن الأجيال تتفاوت في فهم النص المقدس؛ حتى ليبدو ما استخرجه الفكر الديني، حتى الآن من النصوص، مناقضًا للعلم، ولا سبيل إلى اللقاء بينهما»[٢] .

ظاهر جدًّا أن الدكتور عبدالصبور شاهين ينكر في هذه الفقرة التي نقلناها عنه، ينكر ما أجمعت عليه الأمة في فهم الآيات التي تحدثت عن خلق آدم وزوجه وذريته، والسبب عنده أن هذا الفهم يبدو مناقضًا للعلم، ويعني بالعلم تلك النظريات المتضاربة، الناتجة عن دراسة بعض الجماجم والآثار. ونذكر القارئ الكريم أننا نقلنا من قبل من كلام الدكتور شاهين ما أفاد رفضه هو نفسه لنتائج التجارب العلمية. وحتى إذا فرضنا أن اختلافًا ما

(١) «أبي آدم» لعبدالصبور ص(١٣ ـ ١٦) واسم الباحث هو: بشير التركي.
(٢) «أبي آدم» لعبدالصبور ص(٤٢).

حدث بين معان وردت في القرآن، وبين نتائج علمية من هذا النوع تحدث عنه في كتابه، فإن الخطأ يكون في نتائج التجارب العلمية لا في معاني القرآن إذ لم يثبت ـ ولن يثبت ـ حدوث تناقض بين الحقائق العلمية اليقينية، وبين المعاني القطعية الواردة في كتاب اللَّه العزيز. والدكتور شاهين نفسه يدرك هذه الحقيقة تمامًا.

وبعد أن هوَّن من شأن ما أجمعت عليه الأمة في شأن خلق آدم وذريته، نراه يقترح البديل الذي يزيل ما بين العلم والعقل وبين القرآن من تعارض، أو تناقض فيقول بعد أن تساءل هل يمكن التوافق بين ما يفهم من القرآن وبين العلم والعقل: وهذه عبارته بالحرف «وهل من سبيل إلى لقاء بينهما»؟

«نحن نرى أن ذلك ممكن، من خلال فهم واعٍ للنصوص القرآنية. فهمٌ يخرج عن المذهب التقليدي، الذي التزمت به التفاسير كلها؟ ويسعى إلى استنطاق النظم القرآني، ما دام هناك إمكان لالتقاء العلم بالقرآن»؟[1].

❑ معنى هذا الكلام أن تناقضًا عظيمًا حدث بين العلم والقرآن في مسألة بدء الخليقة، وأن آدم عليه السلام هو أبو البشر والإنسان والناس والإنس، وأن هذا التناقض لن يُزال إلا بالنظر الجديد في دراسة الآيات القرآنية، الذي سيقوم به الدكتور عبدالصبور شاهين بعد قليل، بعد رفضه القاطع لما أجمعت عليه الأمة ـ سلفًا وخلفًا ـ من فهمهما للآيات التي تتحدث عن خلق آدم وما تربت عليه من وقائع؟

ولا يُفْهمُ من كلامه هذا أنه يريد تلك الروايات الواهية، من خارج القرآن والحديث الصحيح؛ نحن نرفض أن يكون مراد المؤلف تلك الروايات.

---

(١) «أبي آدم» لعبدالصبور ص(٤٢).

ولرفضنا هذا سببان قويان:

الأول: أن تلك الروايات الواهية التي وردت في كتب التراث ليست هي عقيدة الأمة، ولا فهمها المجمع عليه في وقائع الخلق الأول. بل إن عقيدة الأمة أرفع قدرًا وأصدق تصورًا، وأصح سندًا مما حفلت به الروايات النظرية التي لا تثبت أمام النظر الغامض السليم، ومن يدعي قصر عقيدة الأمة على تلك الروايات الواهية فقد أعظم على اللَّه الفرية. وسلوك الدكتور شاهين نفسه ـ كما سيأتي ـ هو الدليل أو السبب الثاني الذي حملنا على القول ـ بكل اطمئنان ـ على أنه لم يرد هذا الذي نفينا آنفًا أن يكون هو مراده من عبارته الثانية التي نحن بصدد التعليق عليها هنا.

الثاني: أن الدكتور شاهين ـ فيما سيأتي عمد إلى الآيات التي تحدثت عن خلق آدم، ورفض تفسير علماء الأمة لها، وقام بوضع تفسير آخر من عنده مخالف كل المخالفة للتفسير المجمع عليه عند سلف الأمة وخلفها سعيًا وراء إثبات الفكرة التي من أجلها وضع كتابه «أبي آدم».

وهذا يؤكد ـ بكل قوة ووضوح ـ أنه لم يقصد رفض الروايات الواهية، فهي مرفوضة قطعًا ـ وإنما أراد رفض التفسير الصحيح، الذي أجمعت عليه الأمة جمعاء ثم بنت عقيدتها في خلق اللَّه آدم عليه، وهو نفسه يعلن ذلك مرات، ويسم منهج سلف الأمة وخلفها بالمذهب التقليدي، الذي ترتب عليه حدوث صدام عنيف بين العلم والقرآن؟!

ومسألة بدء الخلق مسألة غيبية محضة. والأمور الغيبية لا صلة للعلم التجريبي بها لا من قريب ولا من بعيد، والمعول عليه فيها هو الوحي الأمين، أو الخبر الصادق عن لسان رسول اللَّه ﷺ. فإذا ورد على لسان الشرع معنى قطعي، وجب على العقل التسليم به سواء فهم وأدرك كنهه، أو لم يفهم ولم يدرك. أما العلم فإن جاءت نتائج بحثه مطابقة لخبر الشرع فتلك

هي محمدة تحسب للعلم وأهله، وإن اختلفت فعلى العلماء أن يتهموا أنفسهم بالعجز أو الخطأ في الاستدلال. ويبقى الحق مع ما قرره الوحي أو الرسول ﷺ. إذن، فما كان ينبغي ـ أصلاً ـ وضع العلم التجريبي في درجة مكافئة للوحي، تمهد لنشوء خصومة بينهما، ثم تحمل هذه الخصومة بعضنا للاعتداء على النصوص المقدسة فننزلها من هاماتها العُلى، لنعقد مصالحة بينها وبين دلالات العظام البالية، والجماجم المحطمة ونحن كما قال ربنا: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ واللَّه وحده هو «علام الغيوب».

أما الشطر الثاني من الكتاب، فقد وقفه المؤلف على حديث القرآن عن الإنسان.

والغرض منه إثبات التفرقة بين مفهوم «بشر» ومفهوم «إنسان» وأن «بشر» الواردة في مثل قوله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ليس هو آدم قط بل هو أب لبشر كثيرين.

وأن «بشر» هذا ليس هو الذي أمر اللَّه الملائكة بالسجود له، وليس هو المخلوق الذي خلقه اللَّه لعبادته، وأرسل إليه رسله؛ لأن «بشر» هذا ومن تناسل منه كانوا مثل الدمى لا عقل ولا سمع ولا أبصار لهم. بل هم «مشروع بدائي جدًّا موضوع تحت التعديل والتسوية والترقي شيئًا فشيئًا، خاضع للتنشئة عبر ملايين السنين؟ وبعد ما لا يعلمه إلا اللَّه من تطاول الأزمان حدثت تصفية جذرية فانقرض بنو البشر جميعًا، ولم يصطف اللَّه منهم إلا اثنين هما: آدم وحواء، اصطفاهما بعد تلك التجارب الطويلة من أبوين وأمَّين؟

فآدم هذا غير «بشر» الذي قال اللَّه فيه: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾.

وهكذا تطور الوجود من بشر مخلوق من تراب ثم انقرض تمامًا إلى «إنسان» مخلوق من ماء، هو الذي أسجد اللَّه له الملائكة، وكلفه بعبادته،

وأرسل إليه رسله، ثم راح الدكتور عبدالصبور شاهين يستدل على هذا الزعم الغريب بالآيات القرآنية بعد حملها على غير معناها كما سنرى فيما يأتي:

*** المنهج الذي سلكه في كتابه:**

لكل باحث منهج يختاره في سبيل الوصول إلى غايته من بحثه. ويصطبغ هذا المنهج بصبغة المادة موضوع الدراسة ومنزع الاستدلال.

ومنهج الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين في محاولته إثبات الفكرة التي تبناها لا يخرج عما أثبتناه في عنوان هذه الدراسة أو المواجهة، وهما دعامتان رئيستان:

الأولى: الخيال الجامح أو المفرط في التصور؛ لأن التفرقة بين البشر الذي انقرض عنده، والإنسان الذي يعمر الأرض ـ الآن ـ ويتناسل ويتوالد إلي يوم القيامة، أن تصور هذه التفرقة من صنع الخيال الجامح، أو الوهم الموغل في الإيهام، ومحال أن يكون لهذا التصور مثقال ذرة من واقع، أو خيال مقبول.

إن عمل هذا الخيال هو المسيطر على هذه الفكرة من الألف إلى الياء، أو من ما قبل الألف إلى ما بعد الياء.

أما الدعامة الثانية: فهي التأويل المرفوض المرفوض، حيث لم يَدَعْ المؤلف نصًّا واحدًا، يقف حجرة عثرة في طريق فكرته إلا سارع إلى تأويله بما يتفق مع مراده. ولولا ذلك الخيال الجامح، وهذا التأويل المرفوض لوئدت فكرته في صلب أبيها قبل أن تستقر في رحم أمها، ولكنه بهاتين الدعامتين طارت الفكرة بلا جناحين، ولكنه طيران وقف بها عند نقطة البدء، فلا صعود ولا إقدام، وذلك شأن كل ما ليس له وجود إلا في الوهم.

والمنهج الذي سلكه الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين يذكرنا بمذهب المعتزلة في الانتصار لمعتقداتهم وآرائهم في مسائل النظام السياسي ومسائل الاعتقاد.

فهم ـ مثله ـ ما كانوا يأخذون الأحكام من واقع النصوص المقدسة، بل كانوا يقررون ما يرون من آراء ومذاهب، ثم ينزلون النصوص المقدسة عليها، فما وافق معتقداتهم اعتمدوه، وما خالفها فلهم فيه مسلكان:

الأول: أن يصرفوه عن ظاهر معناه ويؤولوه بما يتفق وآراءهم، غير عابئين بدلالات اللغة وطرائق البيان في المفردات والتراكيب، وقد سجَّل عليهم خصومهم شناعات منكرة نتجت عن تأويلاتهم التعسفية للنصوص مما لا يقره نقل، ولا يقبله عقل.

أما الثاني: فقد كانوا يطعنون في صحة النص إذا استعصى عليهم تأويله، وهذا خاص بما كان غير قرآن؛ لأن القرآن قطعي الثبوت.

هذا ما أردنا بيانه في هذا المدخل، ونكتفي به. أما ما يتعلق بالشطر الثاني من الكتاب فهو ما عنون له المؤلف بـ «حديث القرآن عن الإنسان» وهو غرضنا الأهم من تحرير هذه الصفحات. فلنول وجوهنا شطره، وباللَّه ومن اللَّه التوفيق»[1].

❑ يقول الدكتور المطعني على تفرقة عبدالصبور بين بشر وإنسان:

«وهذا تحكم بغيض حمله عليه التعصب لرأيه بعد أن أقام فواصل وهمية بين البشر من جهة والإنسان والإنس والناس من جهة أخرى.

❑ وهذه البدعة لم يقل بها أحد من أهل العلم، ولا وردت بها الآثار اللغوية. بل اللغة تقرر أن هذه الكلمات: البشر، الإنسان، الناس، الإنس،

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(١٤ ـ ٢٠).

تطلق على بني آدم عليه السلام، وهي وإن كان لكل منها اعتبار خاص في التسمية بها، فلا يراد لغة ولا عرفًا ولا شرعًا منها إلا الدلالة على بني آدم.

والدكتور شاهين يعلم ذلك جيدًا، ولكن تعصبه لرأيه المعروض في كتابه «أبي آدم» أنساه كل الضوابط اللغوية، وغير اللغوية.

❑ وبقي في هذا المبحث تحكّم آخر، مهد له بقوله:

«غير أن خلق زوج آدم من نفسه مشكل. فهل حواء من ضلع آدم، كما ورد بذلك آثار؟ أو أن حواء خلقت خلقًا مستقلاً ـ يعني من أب وأم ـ كما هو شأن آدم؟».

ثم يختار المؤلف الرأي الثاني كما أشرنا في المدخل، ونراه هنا يشير إلى حديث صحيح رواه الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا إلى النبي ﷺ، يقرر أن حواء خلقت من ضلع آدم بلا أب ولا أم، وهذا الحديث يتفق مع ظاهر المعنى في آيتي النساء والأعراف: ﴿وَخَلَقَ مِنهَا زَوْجَهَا﴾ في النساء، ﴿وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَهَا﴾ في الأعراف.

لكن المؤلف يضرب بدلالة الآيتين والحديث عُرْض الحائط، ويتشبث بتأويلين لا وزن لهما، ولم تدع إليهما ضرورة شرعية أو عقلية أو لغوية؟

الأول: تأويل النفس في الآيتين بالنوع أو الجنس، أي خلق اللَّه حواء من فصيلة آدم وجنسه، لا من جنس آخر.

والثاني: حمل الخلق من ضلع آدم على التمثيل والتشبيه والمعنى المراد منه الرمز إلى اعوجاج في طبع المرأة؟

❑ وإنما قلنا إن هذين التأويلين لا وزن لهما لسببين:

الأول: أن إبقاء المعنى على ظاهر المراد من الآيتين والحديث سائغ لا حرج فيه. والتأويل يُحتاج إليه حين يمنع من ظاهر الكلام مانع شرعي أو

عقلي، ولا مانع هنا قط.

الثاني: أن إجراء المعنى في الآيتين على الظاهر يتضمن أن حواء مخلوقة من جنس آدم وفصيلته وفي هذا تمام النعمة المراد وهو الامتنان بالخلق والجعل»[1].

❑ ويقول الدكتور المطعني أيضًا: «يعلم القارئ قبل اطلاعه على كتاب «أبي آدم» للدكتور عبدالصبور شاهين أن البشر والإنسان لهما معنى واحد هو ابن آدم، أو أبناء آدم. ولا يعرف لهذا مخالف من سلف الأمة أو خلفها.

لكن الدكتور شاهين يفاجؤنا بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فجاء كتابه هذا ببدعة «العصر» وأعلن أن البشر غير الإنسان، وأن الأمة طوال خمسة عشر قرنًا من الزمان غفلت عن هذه الحقيقة، أو ضل عنها بصرها وزاغ»[2].

*** مشروع إنسان!!!**

❑ يقول د. عبدالصبور في كتابه «أبي آدم» ص(٨٨): «فقبل التسوية لم يكن المخلوق البشري إنسانًا، بل كان مشروع إنسان في حيز الفطرة قبل أن يكون إنسانًا في حيز القوة»؟!!.

❑ يقول الدكتور المطعني: «ولم يقتصر ذكر كلمة «مشروع، أو المشروع» في كلامه على هذا الموضع، بل ذكره مرات في كتابه «أبي آدم»، الدكتور شاهين ـ هنا ـ يغرق في الخيال أو الوهم بلا حدود، أو يرجم بالغيب بلا ضوابط.

---

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(٢٧ ـ ٢٨).

(٢) المصدر السابق ص(٣٠).

ثم يغرق ويغرق مرة أخرى حين يكرر في كتابه أن هذا المشروع ظل تحت الرعاية الإلهية المكثفة ملايين السنين؟ يا سبحان اللَّه؟ ملايين السنين وهو مشروع إلهي؟ فلماذا هذا البطء يا دكتور؟ ألعجز في قدرة اللَّه، تعالى اللَّه عما نقول علوًّا كبيرًا؟ أم لحكمة غابت عن مدارك ذوي التبصير؟!!!»، ثم يأتي الدكتور المطعني بالآيات التي وردت فيها «كن فيكون»، ثم يقول: «هذه سبع آيات يخبر اللَّه فيها عن نفسه، بأن أداة الخلق والتكوين عنده هي كلمة «كن» فيكون ما قضى وأراد دون مسافة فاصلة بين صدور الأمر، ووقوع المأمور به».

❑ ثم يقول الدكتور المطعني ص(٣٩ ـ ٤٠): «نسألك يا سيادة الدكتور: خلق السموات والأرض وما بينهما أكبر وأظهر أم خلق الناس؟ أنت لا بد قائل في الجواب: بل خلق السموات والأرض وما بينهما أكبر وأظهر؛ لأن اللَّه عز وجل قال في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

هذا الخلق الأكبر من خلق الناس خلقه اللَّه في ستة أيام كما جاء في القرآن مرات عديدات:

* ففي سورة الأعراف {٥٤} جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾.

* وفي سورة السجدة {٤} قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ..﴾.

فإذا كان خلق السموات والأرض وما بينهما من أفلاك ونجوم وكواكب، هذا العمل الضخم الفخم ثم إنجازه بما فيه من دقائق وأسرار وإحكام في ستة

أيام، فكيف يقع الوهم أن مشروع تطوير «البشر» إلى «إنسان» استغرق ملايين السنين؟ ولو كان الأمر هكذا لذكر اللَّه تعالى بيانًا عنه كما ذكر مدة خلق الكون، ومراحل الأجنة في بطون أمهاتها».

*** دعوى الدكتور عبدالصبور شاهين بخلو المجتمع البشري من التكليف:**

❑ يقول الدكتور المطعني ص(٥٥): «ومن غرائب مدعيات المؤلف، أنه بعد أن سلب عن مفهوم «البشر» كل وسائل الإحساس، وصورهم في أشكال ممسوخة لا تعرف لهم وجهًا من قفا، ولا بطنًا من ظهر، ادعى أنهم كانوا مهملين من جانب اللَّه، بل هم كالأنعام أو هم أضل:

فلم يكلفهم اللَّه بمعرفة ذاته، ولم يطالبهم بتوحيده، ولم يأمرهم بخير، ولم ينههم عن شر، ولِمَ لم يكونوا كذلك عند المؤلف وهم ـ عنده ـ صم بكم عمى، في صورة جماد متحرك، ولكن حركاته وسكناته همجية غشيمة ليس من ورائها قصد ولا إرادة؟!

وهذه الدعوى من المؤلف هي ـ كما يمثل الفلاسفة والمناطقة لكل أمر وهمي ـ القُبَّعة السوداء التي يُبحَثُ عنها في غرفة مظلمة لا وجود لها».

❑ وفي هذه الدعوى يقول المؤلف: «ولأمر ما وجدنا القرآن لا يخاطب البشر، بل يخاطب الإنسان، والتكليف الديني منوط بصفة الإنسانية لا بصفة البشرية، فلم يعد للبشر وجود منذ ظهر آدم عليه السلام وتناسلت ذريته، وورث الأرض، وما عليها»[1].

❑ ثم يقول الدكتور المطعني: «إذن تعالى نحتكم إلى فيصل ما بين الحق والباطل والصواب والخطأ:

* ففي سورة آل عمران الآية (٧٩) يقول اللَّه جل شأنه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ

(١) «أبي آدم» للدكتور عبدالصبور ص(٩٨).

أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾. فقد وضع القرن أفراد البشر في هذه الآية موضعًا فوق درجة التكليف العام (العادي) الذي هو صفة لكل فرد منهم، ذلك الموضع (الفوق) هو:

ـ أن البشر صالحون لأن ينزل اللَّه على من يختار منهم وحيًا من عند اللَّه (الكتاب).

ـ أن البشر صالحون لأن يجعل اللَّه من يختار منهم ولي أمر أو حاكمًا عامًّا لشعب أو أمة (الحكم).

ـ أن البشر صالحون لأن يتخذ اللَّه منهم أنبياء (النبوة) وهذا فضل اللَّه في أعلى درجاته يهبه اللَّه لمن يشاء من البشر.

* وفي سورة المدثر (٣١) يقول أحكم الحاكمين: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

* وفي السورة نفسها الآية (٣٦) يوقل رب العالمين: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾.

فلو كان البشر غير مكلفين لما أنزل اللَّه عليهم وحيًا، وما جعلهم ساسة الناس على الأرض، وما بعث منهم رسولاً ولا نبيًّا، وما لفت أنظارهم مذكِّرًا لهم، وما أنذرهم بطشه وعقابه. أليس هذا هو التكليف بدرجاته العليا والدنيا يا دكتور عبدالصبور؟

❑ لو كنا نواجه غيرك لقلنا له: أم أن التكليف معنى آخر عندك لم يعلمه اللَّه، ولا رسوله، ولا صالحو المؤمنين؟

شيء وحد يزيل كل هذه التحكمات والمغالطات، هو أن تقرّ أن البشر والإنسان وصفان لموصوف واحد. إذا أقررت بهذا وقفت مع الأمة في صف واحد، وإن أصررت ـ ولا نخالك تصر وقفت وحدك في صف، ووقفت الأمة كلها وراء رسولها في صف واحد أمامك.

❑ يا سيادة الدكتور: هل أنت ما تزال متمسكًا بقولك:

«أما الإنسان فلا يُطلق بمفهوم القرآن إلا على ذلك المخلوق بالتوحيد والعبادة لا غير، وهو الذي يبدأ بوجود آدم عليه السلام، وآدم على هذا هو (أبو الإنسان) وليس (أبو البشر) ولا علاقة بين آدم والبشر الذين بادوا قبله، تمهيدًا لظهور ذلك النسل الجديد»؟!![1].

لقد غاليت وأسرفت في الادعاء يا سيادة الدكتور، وزاد من خطر مغالاتك استنادك فيها إلى القرآن الأمين، والقرآن بريء كل البراءة مما تنسب إليه. أما تخشى يا دكتور أن ينطبق عليك قول الحق عز وجل: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

إنهم كانوا يحرفون الألفاظ والمعاني، قاتلهم اللَّه، وأنت تحرِّف المعاني، وفي كلا التحريفيْن جرأة مذمومة وخيمة العواقب. ونحن ـ واللَّه ـ ما كنا نتوقّع صدور هذا عنك مع ما لك من جهاد في سبيل الدعوة، فهل هذا من باب «لكل جواد كبوة، ولكل حليم نبوة» أم من باب «من مأمنه يؤتى الحذر»؟

❑ إن الأمل كبير في أن يعلن الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين براءته من هذا «اللغو» وأن يسارع بإعدام كتابه «أبي آدم» لأن في بقاء نسبته إليك فضائح؟ أم ترى أنك مجتهد، والمجتهد إذا أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر. لا يا دكتور، ليس هذا اجتهادًا، وإن كان الاجتهاد مع النص واقعًا في فهم النص إن كان احتمالي الدلالة أو احتمالي الثبوت.

لكن النص الذي حاولت الاجتهاد فيه نص قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، يعني إنه في «حصانة من التأويل» فيجب التسليم بظاهر معانيه،

---

(١) «أبي آدم» لعبدالصبور ص(٩٨).

وبخاصة أن هذه القضية التي تناولتها في كتابك «أبي آدم» فوق أن نصوصها معصومة من التأويل، فإن لها محصنًا ثانيًا، وهو إجماع الأمة على التسليم بظواهر معانيها، فهل تسمح لنفسك استمراء الاعتداء على حرمة النص المقدّس، وإهدار إجماع الأمة ـ خاصتهم وعامتهم ـ القائم عليها.

إنه لمن أصعب الصعوبات علينا أن نراك منفردًا عن الأمة فتشمت فيك أعداءك إياهم وما أكثرهم؟ وما ألأمهم؟ وما أغدرهم؟ وما أخسّهم؟»[1].

وفي مقدمة هذه الأمة ـ بعد رسولها الكريم ـ أصحابه الكرام البررة، الذين قال فيهم علاَّم الغيوب: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح: ٢٩].

هؤلاء الذين أثنى اللَّه عليهم في هاتين الآيتين من آل عمران والفتح، وفي غيرهما من آيات كتاب اللَّه العزيز، في مقدمة من قسا عليهم المؤلف في الحكم وجار، ورماهم بالسذاجة والبله والبهلولية. درى الدكتور أو لم يدر؛ لأنه وهو يرسل هذه الأحكام ـ جزافًا ـ وبلا ضوابط أو معايير، ما كان يقيم وزنًا لمفهوم اللفظ بل قصر ذهنه على «منطوق اللفظ». والإنسان قد يقع في بحور من الإثم بإهماله مراعاة «مفهوم اللفظ» والدكتور على دراية بالمعاني التي تستفاد من دلالات الألفاظ والتراكيب سواء كانت تلك الدلالات قريبة أو بعيدة.

❑ وننقل للقراء هذه الفقرة من كلامه بالألفاظ والتراكيب التي خطها هو

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(٥٥ ـ ٥٨).

بقلمه: «ومعنى هذا أن خلق الإنسان تم عبر ثلاث مراحل هائلة، هي (الخلق، والتسوية، والنفخ).

«ومن السذاجة أن نفسر هذا النفخ بأنه بث الروح في الجسد؟! فقد حدث ذلك في مرحلة «الخلق» الأولى، التي أحالت التراب أو الطين إلى مخلوق ظاهر (بشر) يتحرك على الأرض بالروح الحيواني، كما يتحرك سائر الكائنات من (حشرات)[1] وطير، وحيوان»[2] ؟!

قف إمام قوله: «ومن السذاجة أن نفسر هذا النفخ بأنه بعث الروح في الجسد»؟!

المؤلف يقصد النفخ في قوله اللَّه عز وجل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ هذا النفخ عند المؤلف نفخ من نوع خاص سيأتي ذكره بعد قليل أما عند الأمة ـ بدءًا من رسولها الكريم، وأصحابه البررة، والذين اتبعوهم بإحسان، إلى يومنا هذا فإن المراد بنفخ روحٍ من اللَّه في ذلك البشر الأول (آدم) هو النفخ الذي صار به «الجماد» إنسانًا ارجع إلى أحاديث رسول اللَّه كلها فلا تجد فيها ما يخالف هذا الفهم، ثم إلى تفاسير علماء الأمة لكتاب اللَّه العزيز، وكتب السيرة والتاريخ وكل مصادر المعرفة الإسلامية، فأنت غير واجد فيها ما يخالف هذا المعنى البدهي.

فإذا بحثت عن من وصفهم المؤلف بالسذاجة في عبارته المذكورة لم تبصر أمامك إلا أمة الإسلام لم يتخلف منها أحد. أفلست معي ـ إذن ـ بأن سيادة الدكتور قد وصف كل أفراد الأمة بالسذاجة والبله والبهلولية؟!

وهل هذا الاتهام الآثم عندك ـ أيها القارئ ـ هين أم عظيم؟ إن هذا

---

(١) هي في الأصل (حشر) وكتبناها هكذا (حشرات) جريًا على العرف اللغوي السائد.

(٢) «أبي آدم» ص(١٠٥).

التفسير للنفخ عند المؤلف تفسير بدعي شنيع، ولا نملك إلا أن نرده على القائل به مهما كان حظه من الثقافة والمعرفة. وإذا استقصينا استعمال القرآن لهذا النفخ وجدناه في كل مواضع وروده يحيل الجماد أو الأموات أحياء، إما ببعث الروح في الجسد لأول مرة. وإما لإعادة الحياة إليها بعد الموت، كما هو الشأن في البعث العام يوم القيامة. وليس فيه موضع واحد أريد به المعنى البدعي الذي انفرد به المؤلف ووصف مخالفيه فيه بالبله.

*** معنى النفخ عنده:**

بقي أن نعرف معنى النفخ عند الأستاذ الدكتور، ولكن قبل بيان معنى النفخ عنده، نذكر بمعنى التسوية التي سبقته في الآية ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ إنها عنده هي مهمة المشروع الإلهي لتهجين البشر عبر ملايين السنين ـ تحت المراقبة الإلهية الدقيقة ـ أمكن من خلالها نجاح ذلك المشروع المدهش فصار البشر إنسانًا، ودخل بوّابة الزمان بحضوره وحضارته هكذا قال؟!

هذا هو معنى التسوية، كرره في كتابه «أبي آدم» مرّات عديدات.

وقد شبّه المؤلف هذه التسوية بالهندسة «المعمارية» هندسة البناء وتجميله ومن الطريف أن المؤلف يسمى التسوية الإلهية: الهندسة المادية الظاهرية، وقد استغرق ملايين السنين؟!

أما النفخ عنده ـ فهو كما يقول: «ثم جاءت المرحلة الثالثة للهندسة الداخلية، وهي المتمثلة في تزويد المخلوق السوّي بالملكات والقدرات العليا، التي جوهرها العقل؟ والحياة الاجتماعية ثمرة العقل، واللغة وسيلة الاتصال بين أفراد المجتمع من العقلاء.

وبذلك اكتمل مشروع بناء الإنسان، فكان آدم هو أول «إنسان» وطليعة

سلالة التكليف بتوحيد اللَّه وعبادته»[١] .

يعني: أن نفخ الروح في الآية كان بشق السمع والبصر وتركيب جهاز العقل فيه»!!![٢] .

*** مصدر الأمة في نشأة الإنسانية:**

من البواعث التي دعت المؤلف إلى تأليف كتابه «أبي آدم» حماية الأمة من التصديق بالروايات الإسرائيلية في نشأة الحياة الإنسانية على الأرض وإيجاد صيغة توفق بين القرآن والعقل والعلم فيها.

وقلنا آنفًا أنه لا منافرة بين القرآن والعقل والعلم في هذه القضية: لأنها قضية غيبية من اختصاص الوحي الصادق والقرآن لم يأت فيها بما يثير العلم، أو يغضب العقل، وعلى العقل والعلم أن يجثوا على الركب أما صوت الوحي لا في قصة آدم وحدها، بل في كل مسائل الغيب، أو مام يسمى بما وراء الطبيعة. فإن اصطنع علم عالم أو عقل عاقل خصومة مع الوحي في هذه الأمور فإنما يرجع ذلك إلى جهل العلم، وجنون العقل، ورحم اللَّه كل شيء عرف قدر نفسه.

ونقول هنا: إننا نختلف مع سيادة الدكتور كل الاختلاف في دعواه أن الأمة استقت عقيدتها في نشأة الحياة الإنسانية من الروايات الإسرائيلية الباطلة، كلا يا سيادة الدكتور: لأن الأمة لم تخرج قيد أنملة عن وحي ربها، وكفاها القرآن هاديًا وموجهًا، وما جاء به القرآن حول هذه القضية واضح كل الوضوح، كامل كل الكمال.

فلا الأحافير التاريخية ولا الروايات الإسرائيلية هي التي لقنتها عقيدتها

---

(١) «أبي آدم» لشاهين ص(١٠٥).

(٢) «أبي آدم» للمطعني ص(٦٩ ـ ٧٢).

في نشأة الحياة الإنسانية، وإنما هاديها هو القرآن في ماضيها وحاضرها ومستقبلها بإذن اللَّه.

ولم تتأثر كل التفاسير بالروايات الإسرائيلية. بل القليل منها، وأنت تعلم أن التفسير غير المفسَّر (اسم مفعول)؟ فرنين الآيات في الآذان، وأثرها في القلوب يمحو تلك الأساطير من النفس، وإن ظلت أسطرًا سوداء على الورق. وسل ـ إن شئت ـ أي مسلمٍ عن قصة آدم فلن تجد على لسانه إلا ما جاء به القرآن مالئًا كل قلب مسيطرًا على كل نفس.. وأما الزبد فيذهب جفاء كما قال عز وجل، والإسرائيليات ـ عمومًا ـ نهض جيش عرموم من العلماء الأقدمين والمحدثين، وتتبعوها أثرًا أثرًا، وخبرًا خبرًا في شتى مصادر الفكر الإسلامي: في كتب التفسير وفي كتب الحديث، وفي كتب السيرة والتاريخ، ونبهوا عليها، وحذروا منها. وهي في كتب التفسير هين أمرها، أما في كتب الحديث فإن البلاء بها عم وطم، وهذا ما دعا الأقدمين من التصدي لها، فوضعوا تاريخ الرواة وصنفوهم أصنافًا كثيرة ونصوا على من تقبل روايته ومن ترد روايته، وجمعوا الأحاديث الموضوعة في مجلدات شتى ورتبوها ترتيبًا منهجيًا رائعًا، وأمام هذه الأعمال المجيدة، يسهل التمييز بين الحق والباطل والغث والسمين ولا يخشى على الأمة بعد هذا من ضلال، لكن بقيت كتب بعينها وضعها مؤلفوها بحسن نية أو بسوء نية، يحشو أدعياء الدعوة عقولهم بها في مادة وعظهم وخطبهم ودروسوهم، ولو أن الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين أنفق من الخمسة والعشرين عامًا، التي أنفقها في هذا الكتاب «أبي آدم» لو أنفق خمسة أعوام منها في إحصاء تلك الكتب الضالة المضلة، وكتب تقريرات عنها، ونشرها في كتاب ليحذر منها أو طالب بجمعها من على الأرصفة وإعدامها، لقدم للدعوة أجل عمل، بدلاً من شَغْل نفسه بموضوع العلم به لا ينفع، والجهل به لا يضر.

وآخر ما نذكّر به أن هذا الكتاب «أبي آدم» من أوله إلى آخره، إنما هو مجموعة من أخبار مسندة إلى اللَّه، أي أن المؤلف يسوق أحداثًا ليس لها في الوجود فاعل لو كانت صوابًا، إلا اللَّه عز وجل:

فاللَّه هو الذي خلق آدم الأول (؟!) واللَّه الذي خلق ذرية آدم الأول، بلا سمع ولا بصر ولا عقل، وجعلهم يتناسلون عبر ملايين السنين، واللَّه الذي أهملهم وحرمهم من النور والهدى فلم يرسل إليهم رسولاً، ولم يعرِّفهم بالتوحيد، ولم يطلب منهم عبادة، واللَّه هو الذي أبادهم وطهر الأرض منهم، وأحل آدم الثاني وزوجه وذريته محلهم.

واللَّه الذي خلق آدم الأول من تراب، أمَّا آدم الثاني فقد خلقه من صلب أب، وترائب أم، إن له والدًا ووالدة، وحواء لم تخلق من ضلع آدم، بل لها أب وأم كذلك.

إن هذه كلها أخبار تروى عن اللَّه في كتاب «أبي آدم» وتسند إليه على لسان الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين، فما هي المصادر التي استقى منها هذه الحقائق، التي غابت عن فكر الإنسانية جمعاء؟ وإذا كان الإسلامُ يُجَرِّمُ من يتحدث عن لسان الرسول بغير سند، ويمنع الرواية عنه بغير دليل، فما بالنا بإسناد وقائع خطيرة إلى اللَّه، بغير ما أخبر اللَّه به عن نفسه، ولا أخبر بها عن رسوله؟ هذا ما نريد من المؤلف تدبره، وإنعام النظر فيه، ثم اتخاذ القرار المناسب نحوه فإن الأمر جد خطير.

ونذكر الداعية الكبير بقول اللَّه تعالى، وهو يتوعد الذين خاضوا في أمرٍ غيبي، ليس لهم به علم، فوصف اللَّه خوضهم هذا بأنه «شهادة زور، وأنه سوف يسألهم عنها يوم القيامة، وذلك في سورة الزخرف.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

إنهم شهدوا شهادة زور واحدة.. وأنت شهدت ـ مجتهداً ـ عشرات الشهادات. فماذا أنت فاعل حين يقول اللَّه لك: أشهدت خلقهم يا عبدالصبور؟!

والأمر للَّه من قبل ومن بعد.. وعلى اللَّه قصد السبيل.

نداء: «من كل قلوبنا ننادي الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين أن يعود إلى حظيرة الأمة في فهمها لقصة آدم؛ لأن خطو الأفراد نحو الأمة مقبلين عليها، أخف من خطو الأمة نحو الأفراد مقبلة عليهم؛ لأن الأمة هي الأصل. ومن نأى عن أصله اغترب. ومن عاد إلى أصله اقترب. ولا يأكل الذئب من الغنم إلا القاصية».

عزيزنا الأستاذ الدكتور عبدالصبور شاهين: ما كان أحوجنا نحن وأنت، إلى غير هذا منك، وإلى غير هذا منا. وفقنا اللَّه وإياك إلى ما يرضيه، ويرضي رسوله، وصالحي المؤمنين، وسلام على عباده الذين اصطفى والحمد للَّه رب العالمين»[1].

* رئيس قسم السموم بجامعة القاهرة الدكتور إسماعيل منصور يبث سمومه في الأمة فيتصدى له الرجال:

الدكتور إسماعيل منصور رئيس قسم الطب الشرعي والسموم بجامعة القاهرة والخطيب بمسجده بمنطقة الإمام الشافعي بعد انتقاله من المنصورة حيث كان يخطب بمساجد الجمعية الشرعية، ثم أخرج سمومه للناس من خلال كتبه «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب»، وكتاب «شفاء الصدر بنفي عذاب القبر»، وكتاب «تبصير الأمة بحقيقة السنّة»، وهو يرى أن تدوين الحديث بدعة ضالة أحلّت بالأمة، وكتب السم بقلمه: نجمع صحاح البخاري ومسلم

(١) «أبي آدم» للمطعني ص(١٥٨ ـ ١٦٠).

وسنن الترمذي وأبي داود وابن حبان وابن ماجه ومسند أحمد والدارمي وابن خزيمة والنسائي والدارقطني على الترتيب ثم نرمي بها في محرقة الباطل.

وعلى دربه يسير الدكتور محمد بن الشيخ عبداللطيف مشتهري، وقد كان والده داعية فذًّا فإذا بالابن العاق الضال يسوّد الصفحات طعنًا في السنة الصحيحة عامله اللَّه بما يستحق.

* **أخي**: عش مع الحديث تفز.. ودر معه حيث دار.. اقصد النهر وخلّ القنوات.. إذا جاء نهر رسول اللَّه ﷺ بطل نهر معقل «فحكمة اللَّه مطويّة فيما يأمر به على ألسنة رسله، وليست مما يستنبطه ذو العلم بعلمه، ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله، ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا» كما يقول ابن الأثير الأديب.

* **أخي**: إن هذه الأقلام التي حادت عن سواء السبيل وتنكبت الصراط المستقيم وأنكرت وردت الأحاديث الصحاح بهواها حسابها شديد عند ربها ومولاها.

لا بُورِكت تلك الأكفُّ فإنها ... ضربتْ على الآذان سدًّا عاتيا
حجبت صديع[1] الرشد عنها فارتمت ... تجتاب ليل الغيِّ أسفع داجيا
بعثوا الصحائف يلتوين كأنما ... بعثوا بهنّ عقاربًا وأفاعيا
صحف يَزِلُّ الصدق عن صفحاتها ... ويظلُّ جدّ القول عنها نابيا[2]

* * *

(١) الصديع: الصبح.

(٢) انظر «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين (١/ ٢٢٠).

جهاد أهل السنة الرجال
للمتصوفة والشيعة الرافضة الضلال

*** المتصوفة حادوا عن سواء السبيل وغيّروا وبدّلوا عقائد الأمة:**

ضربنا الأمثلة الكثيرة في جناية تقديم العقل على الشرع، وكيف طعنوا في السنة المشرفة بل وأنكروها.

وعلى الجانب الآخر ضُرب جانب التوحيد في الصميم بدعوى أصحاب المواجيد وأنصار التصوف الفلسفي وظهرت دعاوى مارقة من الاتحاد والحلول كدعوى الحلاج المقتول على الزندقة، ثم ظهر القول بوحدة الوجود، وكان الذي تولّى كبره شيخ الصوفية الأكبر وكبريتهم الأحمر ابن عربي وسار على نهجه العفيف التلمساني، والصدر القونوي، وابن سبعين، وابن الفارض صاحب التائية، وظهرت الدعوى الفاجرة لعبدالكريم الجيلي، والسهروردي المقتول على الزندقة.. وطفحت كتب المتأخرين بالخبيث الذي يصم الإسلام في الصميم ككتاب «الطبقات الكبرى» للشعراني، وفيه ما لا تصدقه العقول مما يظنه أهل الهوس والجنون أنها كرامات.

*** شيخ الإسلام ابن تيمية الجبل والطود الذي دحر التصوف:**

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية في عصره المدافع الأول عن الاتباع والتوحيد وجاهر بتكفير ابن عربي ومن على شاكلته، وابتلي في ذات اللّه فصبر حتى مات في سجنه.. ونفع اللّه بكتبه ومؤلفاته في دحر التصوف.. وعلى طريقه سار شيوخ أنصار السنة كالشيخ حامد الفقي، والشيخ أحمد شاكر، والشيخ عبدالرحمن الوكيل والشيخ محمد خليل هرّاس.

*** الوكيل يذبّ عن التوحيد ويبيّن عوار الصوفية في كتابه «هذه هي الصوفية»[1]:**

❑ يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل في مقدمة كتابه «هذه هي

(١) كل يؤخذ من قوله ويترك.. وأبى اللّه العصمة إلا لكتابه.. نأخذ من الكتاب طيبه وهو أكثر الكتاب ومعظمه إلا هنات لا نأخذ بها.. ومنها جرحه غير المفرس لمن عدّله أهل العلم من الثقات.. فمعروف الكرخي يقول عنه ابن حنبل: «كان مع معروف رأس =

الصوفية»: «هداني اللَّه سواء سبيله، وسلكت بي رعايته مسلك التوحيد والإيمان، فماذا حدث بعد؟ تطلعت نفسي إلى الماضي الوثني ـ وهي نَهْب حسرة حزينة المأساة، وخميل أفراح معطّرة ـ تطلّع الناجي من السعير ما زالت في أتونه المتأجّج ضحايا تعسة منكودة جنت عليها الصوفية ما جنت عليّ، وتطلّعت إلى الريف الحزين، يستعبده شيوخ الطرق، ويغصبون أيتامه ما يُوَصْوص فيهم من رَمَق خابي الشعاع، وأرامل ما هُنّ في حاجة ملهوفة إليه ليَسْدُدْن خَلّة، أوْ يسترن عورة، ومساكينه حتى الذبالة المحتضرة من حشاشتهم.

تطلّعت إلى الريف الوديع تجعل منه الصوفية فساد عقيدة، وضلالة فكر، وذل ومهانة في الأخلاق، ورَدْعة بدع وجهالة وخرافة وأساطير، وعبودية خانعة لهوى الأحبار، وسدانة يعكف فيها السدنة على بغي طواغيتهم، يبشرون بسماحة برِّه، وأريحيه رحمته!!

❑ وتطلّعت إلى المدينة يعبث في أرجائها الصوفية، فتحيل أهلها ـ حتى الكثير من المثقفين منهم ـ عبيد قبور، وعبّاد جيف، وأحلاس منكر وزور، وموالي أذلاء لكل طاغية باغية.

❑ تطلّعت إلى هؤلاء وأولئك، وذكرت ما كابدته، فصرخت موجعًا من هول الفاجعة أحاول إنقاذ الضحايا التعسة، المُغذّة السُّرَي وراء الذئاب الضواري من الصوفية!!

❑ وأكتب ما أكتب، ضارعًا إلى اللَّه وحده أن يمدّ المعونة، فمنه وحده يُسْتَمَدُّ. وأن يتبيّن لتلك الضحايا المسكينة أنها تتجرّع الغسلين تحسبه رحيقًا، وتطعم الْوَزِين تظنه فاكهة الخلد، وتدين بوثنية ـ هي شر ما ابتدع الشيطان

= العلم»، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف». ثم يجرحه هو!! لا وألف لا.

لأوليائه من وثنيات، وتخالها توحيداً مطيّبًا برَوْح اللَّه!!»[١، ٢].

❑ ويقول: «وقد يعيب علينا بعض من سحرتهم طقوس الصوفية، وشاعريتها الكهنوتية العنف في المحاجة، لكننا نقول: رويدكم!! فإنما نسمي الأشياء بأسمائها، ونصفها بصفاتها، فلا نقول عن الزّقوم إنه تفاح الجنة، ولا عن الغِسْلين إنه رحيق الفردوس، ولا عن الشرك إنه توحيد»[٣].

❑ ويقول الشيخ: «إن الحق والدفاع عنه يحتّمان علينا أن نسمي كل شيء باسمه، ونصفه بصفاته، وإلاّ افترينا عليه، وجعلنا للباطل السَّوْرة والصوْلة، وراجينا في الإيمان. أما هذه النعومة والطراوة والرخاوة المختثة في الذياد عن الحق، والجهر بكلمة الحق، أما ذلك فشر أنواع الجبانة الذليلة، والخداع والرياء والعجز المهين!! قولوا عنا ما شئتم، فإن للحق صولة تجتاح كل صولة، ولن ينال منها أن ترموا بعض جنده بالعنف في البيان والمحاجة. وعجيب أن نُرمى بالعنف، أو يُنتقد علينا هذا في الدفاع عن أعظم مقدسات الدين والفضيلة، واللَّه يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التوبة: ٧٣].

قولوا ما شئتم، فليس بنافع ما تتقوّلون به في الذياد عن الصوفية أو الإبقاء على رمقها الشاحب المحتضر!! بل ستبقى رغم ما تتقوّلون به تلك

---

(١) «هذه هي الصوفية» لعبدالرحمن الوكيل ص(٧) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) نعذر هؤلاء بالجهل، ولقد فرق شيخ الإسلام بن تيمية بين كفر النوع وكفر العين وأن الرجل قد يرتكب فعل الكفر ولا يكفر به فربما كان الرجل جاهلاً أو متأولاً أو نشأ ببلدة لا تعرف الإسلام، أو كان حديث عهد بإسلام أو غلبة علماء السوء على البلدة. وشيخ الإسلام ابن عبدالوهاب يقول: «وإن كنا لا نكفر من طاف بقبر الجيلاني أو صنم البدوي، وإنما نعذره بجهله فكيف نكفرّ من لم يهاجر إلينا سبحانك هذا بهتان عظيم»، وهذا نقله عنه السهسواني في «صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان».

(٣) «هذه هي الصوفية» ص(١١).

الحقائق الصاعقة العاصفة المدمرة تدك هياكل الصوفية، ستبقى شاهد عدل وحق ساطع البرهان على أن الصوفية عدو الإسلام الألدّ الخصام، بيْد أن هذا العدو يسحرك بغزل التقبيل، ويسكرك بخمرة العناق، حتى إذا أَغْمَضَتْ عينيك النشوة الحالمة، أنفذ إلى صميم قلبك خنجره المسموم.

وما نشتري بما نكتب رضاء الناس، وإنما نبتغي به رضاء اللَّه، فللَّه ما بذلت من جهد، وأضرع إليه سبحانه أن يدخره لي جهدًا في سبيله، وألا يضيّعه بذنب منا نقترفه، وهو مولانا ونعم النصير»[1].

❑ وانظر إلى بعض قذائف الشيخ:

«إله ابن الفارض»:

تحت هذا العنوان قال الشيخ الوكيل في كتابه ص(٢٤، ٢٥): «يؤمن هذا الصوفي ببدعة الاتحاد، أو الوحدة سمّها إن شئت، بصيرورة العبد ربًّا، والمخلوق خلاقًا، والعدم الذاتي الصِّرف وجودًا واجبًا، وإذا شئت الحق في صريح من القول، فقل: هو مؤمن ببدعة الوحدة، تلك الأسطورة التي يؤمن كهنتها بأن الرب الصوفي تعيّن بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله في صور مادية أو ذهنية، فكان حيوانًا وجمادًا وإنسًا وجنًّا وأصنامًا وأوثانًا..»، ثم يدلل من تائية ابن الفارض.

جَلَتْ في تجلّيها الوجود بناظري ... ففي كل مَرْئيٍّ أراها برؤيةِ

❑ وقوله:

فإنْ دُعِيَتْ كنتُ المجيبَ، ولم أكُنْ ... منادًى أجابت من دعاني، ولبّتِ

❑ وقول:

ولا فَلَكٌ إلا ومن نور باطني ... به ملك يهدي الهدى بمشيئتي

(١) «هذه هي الصوفية» ص(١٢ ـ ١٣).

ولا قَطْرَ إلا حَلّ من فيض ظاهري ... به قطرةٌ عن السحائب سحَّتِ
ولولاي لم يُوجَدْ وجودٌ، ولم يكن ... شهودٌ، ولم تُعهد عهودٌ بذمَّةِ
فلا حَيَّ إلا من حياتي حياته ... وطوع مرادي كل نفسٍ مريدةِ

❑ ويقول:

وكُلُّ الجهات الستِّ نحوي توجّهتْ ... بما تَمّ من نُسْكٍ وحجٍّ وعمرة
لها صلواتي بالمقام، أقيمها ... وأشهد فيها أنها لي صَلَّتِ

❑ ويقول:

ففي النشأة الأولى تراءت لآدم ... بمظهر حَوَّا قبل حُكم البُنُوّةِ
وتظهر للعشاق في كل مظهر ... من اللَّبْس في أشكال حسنٍ بديعة
ففي مرة «لبُنى» وأخرى «بثنية» ... وآونة تُدعى «بعزّة» عَزَّتِ

❑ ويقول:

وما كان لي صلّى سواىَ، ولم تكن ... صلاتي لغيري في أداء كلِّ سجدةِ

وإذا تصفحتَّ الكتاب تجد زندقة الصوفية في أبشع صورها منقولة من كتبهم بأرقام الصفحات، وبرقم الطبعة:

*** التجسد في النساء:**

تحت هذا العنوان يكتب الوكيل عن زندقة ابن عربي، وتجسد الذات العلية في النساء تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا:

❑ يقول ابن عربي: «فإذا شاهد الرجل الحق[1] في المرأة كان شهودًا في منفعل عن الحق بلا واسطة، فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل؛ لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة؛

(١) الحق عند الصوفية هو الذات الإلهية في وجودها المطلق.

فلهذا أحب الرسول ﷺ النساء؛ لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يُشاهد الحق مجرّدا! عن المواد أبدًا، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله، وأعظم الوصلة النكاح»[١] .

ويقول: «وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمَّى مُحْدَثات هي العليّةُ لذاتها، وليست إلا هو»[٢] .

*** إله الجيلي.. وادعاء الجيلي الربوبية العظمى:**

❑ يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل في كتابه ص(٤٣ ـ ٤٤) عن الجيلي: «وهذا الكاهن الوثني الأكبر يدين بدين صنميه ابن الفارض وابن عربي، غير أن اللون الفاضح الصارخ في زندقته هو اعتقاده أن اللَّه ما هو إلا إنسان كامل، وأن الإنسان الكامل ما هو إلا الرب الأكبر الجامع بين الحق والخلق في وحدة، ولقد سبقه بهذا الإلحاد ابن عربي، ولكن الجيلي كان حَفِيًّا به أكثر مديرًا حول محوره زندقته، ولقد رأى الجيلي ألا يمنّ بهذه المرتبة على أحد قبله، فمضى يؤكد القول أن إنسانيته هي أفق الربوبية والألوهية الأسمى».

❑ وينقل ما يقوله الجيلي في ادعائه الربوبية:

لي الملكُ في الدارين، لم أر فيهما ... سواي، فأرجو فضله، أو فأخشاهُ
وقد حُزتُ أنواع الكمال، وإنني ... جمالُ جلال الكل، ما أنا إلا هوُ

❑ ويقول:

ومهما ترى من عرشه ومحيطه ... وكرسيه، أو رفرفٍ عزّ مجلاهُ
فإني ذاك الكلُّ، والكلُّ مشهدي ... أنا المُتَجَلي في حقيقته، لا هو

(١) «فصوص الحكم» لابن عربي (١/ ٢١٧) طبعة الحلبي.
(٢) «فصوص الحكم» (١/ ٧٦) طبعة الحلبي.

وإني رب للأنـــام وســـيـــدٌ جميع الورى اسم، وذاتي مُسَمَّاهُ[١]

* الحلاّج الزنديق:

يقول الشيخ عبدالرحمن الوكيل ص(٤٩): «عجيب أن يمجد الغزالي الحلاّج، وهو يعلم أنه قائل هذه الأبيات:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقبْ
ثم بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشاربْ
حتى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجبْ

* * *

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلالْ
فإذا مَسَّك شيء مسّني فإذا أنت أنا في كل حال[٢]

* خطايا الوثنية في بذاءة القونوي:

يقول الصدر القونوي في كتابه «مراتب الوجود»: «فالإنسان هو الحق، وهو الذات، وهو الصفات، وهو العرش، وهو الكرسي، وهو اللوح، وهو القلم، وهو المَلَك، وهو الجن، وهو السموات وكواكبها، وهو الأرضون وما فيها، وهو العالم الدنياوي، وهو العالم الأخراوي، وهو الوجود، وما حواه، وهو الحق، وهو الخلق، وهو القديم، وهو الحادث»[٣].

---

(١) «الإنسان الكامل» للجيلي (١/ ٢٢) ط ١٢٩٣هـ.

(٢) «الطواسين» للحلاج ص(١٣٠، ١٣٢).

(١) من كتاب «مراتب الوجود» مخطوط بالظاهرية بدمشق رقم ٥٨٩٥ عام نقلاً عن «الإنسان الكامل» ص(١١٥) للدكتور بدوي.

* إله النابلسي:

تحت هذا العنوان كتب الشيخ عبدالرحمن الوكيل في كتابه ص(٥٨) عن النابلسي: «يقول معقّبًا على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]. يقول: «أخبر تعالى أن نبيه محمدًا ﷺ هو اللَّه تعالى وتقدّس وبيعته بيعة اللَّه ويده التي مدت للبيعة هي يد اللَّه».

ويُفسر قول اللَّه لموسى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ بقوله: «بأن تكون أنا، وأكون أنا أنت، فاستمع لما يوحى إليك مني، وهذا نظير حديث الإنسان الغافل لنفسه، يحدثها وتحدثه».

ويُفسِّر قوله سبحانه لموسى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. أي: ذاتي فأظهر بك، وتغيب أنت، وتظهر أنت، وأغيب أنا، وما هما اثنان، بل عين واحدة»[١].

❑ وينعي الوكيل على فلاسفة التصوف الفلسفي قولهم بوحدة الأديان ص(٩٣)، وحكمهم بنجاة فرعون ص(٩٥)، والحكم بنجاة إبليس ص(٩٦) وفعل قوم لوط مع الدواب على قارعة الطريق يعدها الشعراني في طبقاته الكبرى كرامة لعلي حيش[٢]، ومثلها لأبي خودة كرامة وهي كبيرة دميمة صفيقة غليظة[٢].

وكتاب الشيخ الوكيل «وهذه هي الصوفية» يحتاج إلى قراءة متأنية وهو هام قيم في بابه.

❑ يقول الشيخ الوكيل ص(١٨٢): «وإني وقد ناضلت الصوفية

(١) عن رسالة اسمها «حكم شطح الولي» للنابلسي مخطوطة بالظاهرية بدمشق رقم ٤٠٠٨ نقلاً عن «شطحات الصوفية» ص(١٥٣) للدكتور بدوي.

(٢) انظر «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/ ١٣٥، ١٢٢، ١٣٢) طبعة صبيح.

ـ بهدى اللَّه ـ أعرق أن هذا النضال يثير عليّ بَغْيَ أحقادهم، ويقف بي على شفا خطر يَدْهمُ بغتة منهم بجوْره، غير أني أومن بالحكمة الرائعة المؤمنة: «لأن يكون الناس جميعًا عدوًّا لي في الدنيا، خير من أن يكون اللَّه وحده خصمي يوم القيامة»، وأجعل من هذه الآية الكريمة منارًا لي ﴿**حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [يوسف: ١١٠].

ولن أضع القلم ـ وحسبي اللَّه ـ إلا إذا أصميتُ الصوفية وأدميت، أو إلاّ إذا تهدّمت أنا، أو قضيْت! فلن تخشى صولةُ الحق سورة الباطل».

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ واعظًا مذكرًا: «أيها التائهون في كهوف الظلمات! عودوا إلى الحق من هَدْي اللَّه الحق، ثم انظروا حواليْكم حين تنيبون إلى اللَّه، وتعملون بهديه، ألا ترون الإسلام رفّاف الألوية في عزّة على قمة الوجود الإنساني كله، وعلى الذرى السامقات من كل مناحيه؟! ألا ترون هداه يناسم في رحمة شرقه وغربه؟ ألا ترون الحياة فياضة الصفاء والبشر والخير، تنعم بالسلام الوديع الرفيق الآمين؟ ألا ترون القلوب ينابيع ثرّة للإخاء والحب والإيثار؟ ألا ترون الكون كله محاريب إيمان، وحمى حق وعدل، ومغاني سلام كريم؟! لا تعجبوا إذا رأيتم ذلك كله فإنه وعد اللَّه العلي الكبير القدير: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور: ٥٥].

❑ كل هذا يحققه اللَّه للمسلمين إذا هم أخلصوا للَّه وحده دينهم، ووعد اللَّه لن يتخلّف؛ لأنه الكريم القدير، وقد حقق اللَّه سبحانه وعده لمحمد ﷺ، ولأصحاب محمد، ولكل من سلك بالحق سبيل محمد،

وسيحققه لكم إذا اتبعتم سبيله. دعوة صادقة الحب أيها الحيارى: لا منجاة لكم من آلامكم وأحزانكم ومن الخوف الذي يعصف بكم، والقلق الذي تضطرب به مشاعركم، لا منجاة لكم من تلك الهموم الساجية إلا إذا لذتم بحمى اللَّه وحده، تؤمنون به، وتتدبرون آياته، وتهتدون بهديه، وتقتدون برسوله وحده ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]»[1].

* فضيلة الشيخ الوالد بقية السلف الشيخ محمد صفوت نور الدين.. رجل العامة.. الذي إذا رُؤي ذُكر اللَّه تعالى برؤيته:

❑ ومن الربانيين الصادقين شيخنا ومقدم أهل السنة بمصر الشيخ الرباني محمد صفوت نور الدين، ويعلم اللَّه أن له أوفى نصيب من الحديث الحسن «أولياء اللَّه الذين إذا رؤوا ذكر اللَّه تعالى برؤيتهم».

❑ هذا الشيخ المتواضع الوقور البسّام الذي طاف المشارق والمغارب دعوة إلى التوحيد.. ينزل إلى الناس في أماكنهم وينشر دين اللَّه عز وجل، وأشهد باللَّه أن له حالاً مع ربه ينبيك عنه وجهه النيّر، ينبيك وجه هذا الشيخ المبارك أنه ناسك في قدس المحاريب، وأنه متهجد تحت سَجَوات الليل، وأنه ضارع متبتل أوّاه منيب.

❑ إنه رجل العامة وهذه الصفة لا تنطبق إلا على أقل القليل من الرجال الكرام.. كانت له هيبة الكرام من العلماء الصادقين، وحنوّ الوالد الشفيق فمنّ اللَّه على أنصار السنة به وبرئاسته فكانت أيامه عامرة بالخير.. ويذكر بالخير دائمًا للشيخ أنه هو وحده وفي أيامه فقط وثقت جماعة أنصار

(١) «هذه هي الصوفية» ص(١٨٠ ـ ١٨١).

السنة صلتها بشباب الحركة الإسلامية من الدعاة الذين هم على نهج السلف الصالح.. وإذا دعى رجل إلى اللّه بسمته ودلّه ووقاره كان ذلكم هو فضيلة الشيخ المربي الفاضل محمد صفوت نور الدين.

❑ وأشهد اللّه أن الشيخ في بيانه ووعظه وخطبه كان يأخذ بمجامع القلوب، وإذا أخذ في شرح حديث يغلب على الظن أنه لن يستغرق إلا دقائق معدودات فإذا بفتح اللّه على لسان الشيخ ساعات وساعات، فتعلم أن الرجل الصالح مؤيد.. وقد ختم اللّه حياته الصالحة بعمرة وموت في مكة الطيبة تركنا الشيخ والدعوة أحوج ما تكون إليه وإلى حكمته وبصيرته.

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا ... شوقًا إليكم ولا جفّت مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
من مبلغ الملبسين عنا بانتزاحهم ... حزنًا مع الدهر لا يبلى ويبلينا
أن الزمان الذي قد كان يضحكنا ... أنسًا بقربهم قد عاد يبكينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودًا وكانت بكم بيضًا لياليا
ليُسق عهدكمُ عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

*** الشيعة الرافضة الاثنا عشرية بإيران وعلى رأسهم الخميني إمام الضلال تفضحهم كتابات شيخ أهل السنة بباكستان إحسان إلهي ظهير فيقتلونه:**

يوم أن ظهرت ثورة الخميني بإيران وقامت دولتهم صفّق الجهال كثيرًا لهم، وظنوا أن مجد الإسلام سيعود على أيديهم، وساقوا شباب الحركة الإسلامية سوقًا إلى مظاهرات عارمة لتأييدهم وظهرت كتب تمدح الخميني وكأنه مجدد العصر، وإمام هذا الزمان، وأن «الخميني الحل الإسلامي البديل»، ومَنّ اللّه على الأمة برجل كان أمّة، كانت كتاباته عن الفرق الضالة، فكتب عن «القاديانية» و«الإسماعيلية» و«البريلوية» و«البهائية»

و«البابية» و«التصوف»، وهذه كلها أسماء كتب لشيخ أهل السنة بباكستان الشيخ إحسان إلهي ظهير، ولقد خصّ الشيعة بمعظم كتاباته فكتب «الشيعة والتشيع» و«الشيعة والسنة» و«الشيعة وأهل البيت» و«الشيعة والقرآن» بعد أن اطلع على مصادرهم ونسب كل قول إلى مصدره وذكر الطبعة ورقم الصفحة فأخزاهم اللّه على يده المباركة واللّه إن أعتى الجيوش في حرب الشيعة وتأديبهم لا تقوم مقام كتابات الشيخ إحسان.

*** العالم الرباني المجاهد شيخ علماء باكستان:**

الشيخ إحسان إلهي ظهير (١٣٦٠ - ١٤٠٧هـ) الذي فضح الرافضة والقاديانية والبابية والبهائية والإسماعيلية والنحل المارقة:

حفظ الشيخ إحسان إلهي ظهير القرآن في سن التاسعة، ودرس علومه في الجامعة الإسلامية بمدينة ججرانوالا، ودرس كتب الحديث النبوي على يد الحافظ محمد جوندلوي - شيخ العلامة عطا اللّه حنيف - وذلك في مدينة فيصل آباد. ودرس الفلسفة والمنطق على يد الشيخ شريف اللّه حتى برع فيها، ويظهر ذلك من خلال ردوده العلمية في مؤلفاته التي يرد فيها على الملل والنحل والعقائد.

تنقله في الدراسات الجامعية والعليا ومناصبه:

١ - حصل على ليسانس في الشريعة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان ترتيبه الأول على جميع طلبةالجامعة، وحصل على نسبة ٩١٪، وذلك في عام ١٩٦١م.

٢ - بعد نجاحة في الجامعة الإسلامية رجع إلى بلاده باكستان، والتحق بجامعة البنجاب بكلية الحقوق والعلوم السياسية، وحصل على الليسانس.

٣ - ثم حصل في الدراسات العليا على الماچستير في الشريعة، وفي

اللغة العربية والفارسية والأردية.

٤ ـ رئيس تحرير مجلة ترجمان الحديث ـ التابعة لجمعية أهل الحديث بلاهور، باكستان.

٥ ـ مدير تحرير مجلة أهل الحديث الأسبوعية.

٦ ـ زاول الخطابة، ومناظرة المنحرفين، وكان قوي الحجة له قدم راسخة في المناظرة.

٧ ـ كان خطيبًا بارعًا شديدًا في نشر دعوته[1].

❑ وللشيخ القدح المعلي في جهاده في الدعوة ونشر السنة، وقمع البدعة، وبيان أباطيل أهل الزيغ والانحراف... وقلمه المبارك وكتبه القيمة أشد وقعًا من السهام في نحور أهل الضلال من أصحاب الملل الفاجرة والمارقة والغلاة بارك اللَّه في هذه الكتب، وجاب الدول لفضح هذه النحل وألقى محاضرات بالكويت، والجامعات السعودية وأيام موسم الحج، وألقى ندوات ومحاضرات بالعراق، وأمريكا، وزار بريطانيا ومصر وإيران للبحث عن كتب ومصادر القاديانية، والبهائية والشيعة لتوثيق ما كتبته هذه الفرق من كتبها. وزار المغرب وتونس وأسبانيا وفرنسا بحثًا عن الكتب والمصادر التي تتعلق بالإسماعيلية.

* إخلاصه وتجرده يضعان القبول لكتبه:

يفوح عبق الإخلاص من كتب الشيخ إحسان ومن دعائه نصراً للسنة ونصحًا للأمة يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

---

(١) «إحسان إلهي ظهير ـ الجهاد والعلم من الحياة إلى الممات» لمحمد بن إبراهيم الشيباني (ص٧ ـ ٨) مكتبة ابن تيمية ـ الكويت.. وبقية الترجمة تحتوي معظم الرسالة مع تقديم وتأخير وزيادات.

«. . . إني لأرجو اللّه تعالى العلي القدير أن ينفع به الخلائق، الأحياء والأباعد، وأن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم ويجعله ذخيرة لي في الدين والدنيا، وفي الحياة بعد الممات، وأن يحشرني في زمرة أصحاب نبيّه، وعظمة أصحابه ورفاقه وتلامذته، وأزواجه أمهات المؤمنين، وعن أسلاف هذه الأمة وعلمائها ومحسنيها، جعلنا منهم، إنه سميع مجيب»[١] .

❑ ويقول: «. . . وأخيرًا أدعو اللّه العلي القدير أن ينصر الحق وأهله، ويخذل الباطل ومعتنقيه، وأن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه»[٢] .

❑ ويقول ـ رحمه اللّه ـ:

«. . . إننا حين نكتب ما نكتب قاصدين هذا أو ذاك خدمة ولا حتى للعلم وغير العلم، أو إرضاء لفلان، أو إغضابًا لفلان، بل نكتب ما نكتب خدمةً للإسلام، وذودًا عن حرماته ومقدساته، نافين عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين عصبية له وغيرةً عليه، رادين على من يريد تشويه صورته النقية الصافية وتبشيع وجهه المضيء المنير بخرافاته وترّهاته، وببدعه وشركياته.

هذا هو الهدف، وهذه هي الحقيقة من البحث والكتابة في الفرق المنحرفة، والطوائف الباغية الخارجة على الإسلام. فما كتبنا عنهم حتى اليوم إلا ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة. وما علينا إلا البلاغ المبين، واللّه ولي التوفيق فهو حسبي ونعم الوكيل»[٣] .

❑ ويقول في زيارته لمصر والتي أثمرت كتابه «الرد الكافي على مغالطات

(١) «الشيعة والتشيع» لإحسان إلهي ظهير ٣٠ محرم ١٤٠٤هـ.
(٢) «الشيعة والقرآن» لإحسان إلهي ظهير ١٧ ربيع الأول ١٤٠٣هـ.
(٣) «الإسماعيلية» لإحسان إلهي ظهير ١٢ شوال ١٤٠٥هـ.

الدكتور علي عبدالواحد وافي» في ٢٦/ ١١/ ١٤٠٤هـ ـ ١٤/ ٨/ ١٩٨٤م:

«... أدعو اللَّه تعالى القدير أن يوفقني لأداء هذه المهمة خلال يومين قبل مغادرتي مصر الطيبة، وأن يلهمني الرشد والصواب. وأخيرًا أتوجه إلى علماء مصر والأزهر خاصة، مهيبًا بهم وداعيًا إياهم أن يقوموا بواجبهم الديني ودورهم الذي تحتم عليهم دفاعًا عن شريعة اللَّه ودينه الذي ارتضاه لنفسه دين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

لقد قدمنا ما كان في وسعنا وذخرنا مع أننا جئنا إلى مصر ببضاعة مزجاة فعليهم أن يوفوا الكيل ويتصدقوا بعلمهم على المسلمين، ويردوا عنهم كيد المبطلين المنتحلين، واللَّه ولي النعم وهو ملهم التوفيق، وصلى اللَّه على رسوله خير خلقه محمد وعلى آله وأزواجه وأصحابه الأخيار ومن تبعهم إلى يوم الدين»[1].

ويقول: «... وأرجو اللَّه العلي القدير أن يخلص نياتنا لوجهه الكريم ويجعلنا مدافعين عن حوزة العقيدة الصحيحة والصراط المستقيم إنه سميع مجيب»[1].

*** مناظراته ومناقشاته:**

بعد دراسات متعمقة ومستفيضة لجميع الفرق المنحرفة طيلة السنوات الماضية، وبعد اطلاع واسع على هذه الأفكار والعقائد، ومعرفة مبادئها وأهدافها المخربة استطاع الشيخ إحسان بفضل اللَّه تعالى أن يوقف هذه الدعوات عند حدِّها، ويبطل كثيرًا من معتقداتها وأفكارها؛ وذلك من خلال المناظرات والمناقشات التي جرت بينه وبين دعاتها ورجالها.

ومن هذه الطوائف: طوائف الخرافيين، والمقلدين، والمتعصبين،

(١) «الرد الكافي على مغالطات الدكتور علي عبدالواحد وافي».

والاشتراكيين، والشيوعيين، والشيعة، والقاديانيين، والنصارى، والبهائيين. فسجن من جراء ذلك مرات عدة.

*** قيمة كتبه ومؤلفاته:**

حين يتجول الإنسان في بساتين كتب الشيخ إحسان تلوح أمام ناظريه كلمة الشيخ محمد رشيد رضا في مقدمة كتاب «الاعتصام» للشاطبي: «ادخل دار الكتب الخديوية، وارم ببصرك إلى الألوف من المصنفات في خزائنها، تر أن كثرتها قلة، وكثيرها قليل؛ لأن القليل منها هو الذي تجد فيه علمًا صحيحًا لا تجده في غيره؛ لأنه مما فتح اللَّه به على صاحبه دون غيره» وأيم اللَّه لقد كانت كتب الشيخ إحسان من هذا القليل.

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يُقال له قليلُ

وقد اهتمت الأوساط العلمية والحكومات بما كتبه الشيخ إحسان لما فيها من دراسات مهمة ومفيدة ومتعمقة لعقائد هذه الفرق وأفكارها، ومفيدة لكل مهتم في دراسة الفرق.

فهذا الملك فيصل ـ رحمه اللَّه ـ قد طلب من المختصين في السعودية شراء كتب الشيخ إحسان إلهي وتوزيعها على حسابه الخاص في أفريقية وآسية وأوربة. واهتم الشيخ عبدالعزيز بن باز رئيس إدارات الفتوى والتشريع والإرشاد والدعوة، ورئيس الجامعة الإسلامية سابقًا كذلك. والشيخ إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم آل الشيخ وزير العدل بالمملكة العربية السعودية. والشيخ محمد بن علي الحركان ـ رحمه اللَّه ـ الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، والشيخ محمد عبداللَّه المطلق سفير السعودية في الباكستان، والشيخ الشربتلي في مكة المكرمة، والمراكز الإسلامية في جميع بلدان العالم، والمكتبات العامة والتجارية.

* مؤلفاته باللغة العربية:

(١) **الشيعة والسنة**: فرغ منه وطبع في ١٨ ربيع الثاني ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

وقد أحدث هذا الكتاب ضجة كبرى في الأوساط العلمية، والدينية، وأزال النقاب عن الوجه الحقيقي للتقية المصطنعة بالكذب والافتراء، وأبان حقيقة هذا المعتقد: في اللّه، وفي الرسول عليه السلام، وفي الصحابة والأئمة، كما بين حقيقة معتقد هؤلاء في كتاب اللّه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الكتاب المعجزة العظيمة التي جاء بها النبي عليه السلام والباقية إلى قيام الساعة.

وللمرة الأولى في تاريخ التأليف في الملل والنحل يؤلف كتاب بهذا التفصيل الذي لم يسبق إليه، بالمراجع المستندة، والمصادر المعتمدة، والكتب الموثوقة لدى القوم أنفسهم، مع ذكر العبارات التي احتجوا بها واستشهدوا فيها وبالصفحات والمجلدات والطبعات فجاء الكتاب لا نظير له في المؤلفات الحديثة.

(٢) **الشيعة وأهل البيت**: طبع عدة طبعات آخرها الثالثة سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

وهو يتحدث عن حقيقة هؤلاء الذين يتحدثون ويزعمون أنهم يحبون آل البيت وموالاتهم، وتبرهن الأدلة على أنهم أشد الناس عداوة لأهل البيت وسنة النبي عليه السلام، كما يبرهن الشيخ في الكتاب ليس فقط على مخالفة أهل البيت بل إهانتهم واتهامهم بتهم وأقاويل وتلفيقات أهل البيت منها براء. فمن كان في بيته هذا الكتاب فقد عرف حقيقة ادعائهم حبّ آل بيت النبي ﷺ الذي هو في الحقيقة طعن لهم وإهانة.

(٣) **الشيعة والتشيع**: فرق وتاريخ. يعتبر من آخر الكتب التي ألفها

الفقيد في هذه الملة وهي سلسلة ليست بالكثيرة ـ أربعة كتب ـ ولكنها في الحقيقة تغني طالب العلم الباحث عن هذه الملة وكتبها من عقدية وتاريخية، بل إن المؤلف ـ رحمه اللَّه ـ عندما أظهر ما في كتب هذه الملة من الزيغ والضلال الذي لا يقبله العقل السليم حتى من الشيعة، جعلهم يفكرون ويتعقلون ويتبصرون ويدققون النظر لتمييز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ في مذهبهم وقد تميزت الكتب الأربعة بعدم التكرار والمشابهة عما في الأخرى.

وميزة هذا الكتاب أنه يشتمل مع تاريخ التشيع والشيعة وتغيير التشيع الأول وتبدل الشيعة الأولى وفرقها التي حدثت ونشأت بهذا الاسم، وانقرضت أو بقيت، ومطاعنها على أصحاب رسول اللَّه ﷺ ولا سيما عثمان ومعاوية وغيرهما ﷺ والرد عليها ردًّا علميًّا ومنطقيًّا.

(٤) **الشيعة والقرآن**: يفضح الشيخ إحسان موقف الشيعة من القرآن، وقولهم بتحريف القرآن ونسبة ذلك إلي كبار أئمتهم من خلال كتبهم والمصادر الشيعية حتى لا تنطلي التقية الشيعية على السذّج من أهل السنة.

(٥) **الرد الكافي على مغالطات الدكتور علي عبدالواحد وافي**: في كتابه «بين الشيعة وأهل السنة» ٢٦/ ١١/ ١٤٠٤هـ ـ ٢٤/ ٨/ ١٩٨٤م.

موضوعه أن أحد الكتاب من الدكاترة المصريين قد ألف ردًّا على الشيخ إحسان إلهي بعد صدور كتابه «الشيعة والسنة» أسماه «بين الشيعة وأهل السنة» يناصر فيه مذهب الشيعة، وأن مذهبهم لم يكن بعيداً كل البعد عن مذاهب أهل السنة، ولم تكن وجوه الخلاف بينه وبينهم لتزيد كثيراً عن وجوه الخلاف بين أهل السنة بعضهم مع بعض.

كيف يسوغ له أن يبرئ ساحتهم من الاعتقادات التي يحملونها، ويدينون بها؛ وهي أساس مذهبهم وديانتهم، بكل سذاجة وبكل طيبة، وبكل

جرأة ملتمسًا لهم الأعذار التي لم يلتمسوها لأنفسهم قط، ومخترعًا لهم المعاذير التي لم يرضوها لهم، في بلدة سنية خالية من الشيعة والتشيع، بعد أن ذاقت الأمرين في عصر من ماضيها؛ أيام تسلُّط طائفة الفاطميين على السنة وذبحهم لهم. ولقد شهدت في وقتهم مساجد أهل السنة وجوامعهم ومجالسهم العديدة شتائمهم وسبابهم لسادات الصحابة والخلفاء الراشدين أصحاب محمد ﷺ وذلك لقرون طويلة.

إنه لمن المؤسف أن تنطلي على كثير من أهل السنة السذج مكايد الرافضة وحيلهم ودموع التماسيح التي تصدر عنهم والبكاء على مقتل الحسين رضي الله عنه وحب آل البيت. والتاريخ يروي لنا الحقائق التي تدينهم وبين زيف هذا الحب المصطنع المخادع.

لقد جاء هذا الكتاب ردًّا على هذا المخدوع بالدفاع عنهم لعله يستنير به ويستفيد منه، ولا يجعل العجلة الأساسية ديدنه في المستقبل؛ لأنَّ بها موالاة من يتبرأ اللَّه تعالى من أفعالهم ﴿**من يتولهم منكم فإنه منهم**﴾ ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قومًا غضب اللّه عليهم**﴾.

(٦) **الإسماعيلية** ـ تاريخ وعقائد ـ فرغ منه وطبع في ١٢ شوال ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

قسم الكتاب إلى قسمين: قسم تاريخي ويشتمل على أربعة أبواب: وقسم عقائدي وهو القسم الأكبر في الكتاب.

وهو يشتمل على أبواب خمسة:

١ ـ الإسماعيلية ومعتقداتها.

٢ ـ الإسماعيلية ونسخ شريعة محمد ﷺ.

٣ ـ الإسماعيلية والتأويل الباطني.

٤ ـ ماهية الدعوة ونظامها.

٥ ـ الإسماعيلية مجموعة تعارضات وتناقضات.

ولا بد من أمور يجب علينا ذكرها والالتفات إليها، قد ناقشها هذا الكتاب يشتمل على ذكر إسماعيلية الدور الأول وعقائدهم ومعتقداتهم وتاريخهم وأخبارهم، ومنهم إسماعيلية دور التكوين والنشأة إلى آخر دور الظهور الذي ينتهي بقتل الآمر بن المستعلي بن المستنصر، سنة ٥٢٤هـ الذي يعبر عنهم بالإسماعيلية إلى الطوائف والفرق المختلفة، وهو ينتهي إلى موت المستنصر سنة ٤٨٧هـ وتولية المستعلي بالخلافة الإسماعيلية مع ذكر الافتراق الذي وقع في الإسماعيلية بدون التطرق إلى تفاصيلها لانتهاء دور الظهور عند جميع الأطراف الإسماعيلية، ولم يشمل الكتاب إسماعيلية الدور الجديد الذي يبدأ «بالحسن الصباح» في فارس «وقلعة الموت» وغيرها من القلاع الجبلية، و«بالدعوة الطيبة» تحت رعاية الصليحيين في اليمن والعقائد التي تجاهر بها كل من الطائفتين أولاً، ثم الطوائف الأخرى المتعرفة منهما.

جاء هذا الكتاب مبتكراً في موضوعه حيث حصل مؤلفه على وثائق ومستندات من كتب القوم وغيرها تدينهم لم تقع في حوزة أحد من قبل أبدًا.

(٧) البابية ـ عرض ونقد القسم الأول ـ:

❑ يقول الشيخ: وأما البابية والبهائية فلم أزل حريصًا على اقتناء المعلومات عنهما وجمع الكتب، مشتغلاً بالمناظرات والمناقشات مع رجالهما ودعاتهما، وبكتابة الردود القصيرة في مجلتي، وهذا مع انهماكي في المعارك السياسية بجانب المعارك الكلامية مع الطوائف المنتشرة الكثيرة في بلادي من الخرافيين والبدعيين والمقلدين والمتعصبين، والاشتراكيين والشيوعيين، والشيعة، والقاديانيين، والنصارى وغيرهم.

لنا في كل يوم من معدٍّ سبابٌ، أو قتالٌ أو هجاءُ، فالبابية والبهائية لم

تؤسسا إلا لمخالفة هذا الدين القويم، والصراط المستقيم، وللدعاية الباطلة ضد الإسلام، وأنه لا يتلاءم مع هذا العصر ومتطلباته وحاجته، وإن البهائية هي وحدها التي تطابق مقتضيات العصر فكان من الضروري أن تبين الحقيقة الصادقة؛ فموازنة الإسلام ومقارنته مع البهائية إهانة له وانتقاصة لهذا الدين العظيم حيث إنه لا توافق بين الحق والباطل، وبين العلم والجهل، وبين الظلمات والنور: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢١].

(٨) **القاديانية** ـ فرغ منه وطبع في ٢٧ رمضان ١٣٨٦هـ المدينة المنورة، وبعد فقد أنشئت في القرن العشرين فتنتان خبيثتان بإيعاز من الاستعمار الكافر لتحويل المسلمين عن قبلتهم وكعبتهم، ومهوى أفئدتهم ومسكن مهجهم، مكة المكرمة، وحصرهم في الأوطان التي يسكنونها والبلدان التي يعيشون فيها لتقطع تلك الرابطة الوثيقة التي تربط ملايين البشر من الشرق والغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، الرابطة التي يتألم لأجلها من يسكن في بخارى وسمرقند وغيرها من بلدان المسلمين.

وقد مرّ بنا ذكر طرف من عقائدهم الفاسدة.

❑ ولقد وجه الشيخ إحسان إلهي في الكتاب نداء إلى الجمعيات الإسلامية وإلى كل من يهمه أمر الإسلام والمسلمين، وإلى رابطة العالم الإسلامي بمكة، والمؤتمر الإسلامي العالمي، ومجلس البحوث الإسلامية بالقاهرة، والجامعة الإسلامية بالمدينة، وغيرها من الجمعيات والجامعات؛ بأن يعملوا على إنقاذ المسلمين من مخالب هؤلاء الكفار المرتدين ـ في العالم الإسلامي عامة وفي أفريقية وأوربة خاصة، حيث يشكل القاديانيون خطراً كبيراً على الإسلام والمسلمين مساندة الاستعمار وأعداء الملة الحنفية الذين

يمولونهم ويمدونهم بكل الإمكانات والوسائل لكي يبعدوا المسلمين عن الإسلام الحقيقي وما فيه من عزة وكرامة باسم الإسلام خداعًا ومكرًا لقلة وجود العلماء المسلمين الحقيقيين، وشغور مناصبهم في تلك البلاد وجهل أكثر المسلمين بحقيقة القاديانية الأصلية وأهدافهم وغفلة العالم الإسلامي عن أفريقية في الوقت الذي تنشر القاديانية أكثر من خمس مجلات راقية بمعونة أعداء الإسلام للدس، وإفساد عقائد المسلمين، ونشر أفكار الكفر بينهم. بينما لا توجد مجلة واحدة للمسلمين في أفريقية كلها تجابههم وتبين فساد عقيدتهم وهذا مع مئات المبلغين القاديانيين الذين يتجولون من أدنى أفريقية إلى أقصاها غير القارات الأخرى. وقد أقاموا سبعًا وأربعين مدرسة، وبنوا ستين ومئتي مسجد هناك. هذا غير ما يتبع ذلك من المكتبات العامة والخاصة والمؤلفات والنشرات وترجمة القرآن إلى لغات شتى كما فتحوا في الآونة الأخيرة المستشفيات والدور الاجتماعية في مختلف أنحائها، وأصبح عدد أتباعهم حسب نشراتهم الإحصائية أكثر من مليوني شخص في مدة لا تتجاوز خمس عشرة سنة.

(٩) البريلوية عقائد وتاريخ ١٢/ ٦/ ١٤٠٣هـ - ٢٣/ ٣/ ١٩٨٣م:

البريلوية جديدة من حيث النشأة والاسم، ومن فرق شبه القارة الهندية من حيث التكوين والهيئة، ولكنها قديمة من حيث الأفكار والعقائد، مثل الفرق المنتشرة الكثيرة في العالم الإسلامي بأسماء مختلفة، وصور متنوعة، من الخرافيين وأهل البدع.

عندما يقرأ القارئ هذا الكتاب في أي قطر من الأقطار سيجد أن هذه الفرق شبيهة بالفرق الموجودة عنده في بلاده ولكنها بأسماء أخرى مختلفة، فهي كالتيجانية والسنوسية والمهدوية والقاديانية والسهروردية والنقشبندية والجستية والرفاعية وغيرها من الفرق الكثيرة المنتشرة في العالم الإسلامي.

يقول المؤلف: عندما ألفت هذا الكتاب عن هذه الملة قرأت ما قرابته ثلاث مائة مؤلف عنها حتى أضحى هذا الكتاب كما ترى.

فهذه الملة شأنها شأن الملل الضالة الأخرى التي ادعت العصمة لمؤسسيها ومروِّجي باطلها. فهذا أحمد رضا زعيم هذه الطائفة ولد سنة ١٢٧٢هـ - ١٨٦٥م ادعى أن قول اللَّه عز وجل: ﴿**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**﴾ ينطبق عليه.

ويقول عنه مريدوه: «إن البريلوي لم ينطق بلسانه المبارك بلفظة غير شرعية، واللَّه عصمه من كل زلة».

وقالوا: «إن اللَّه صان قلمه ولسانه من الخطأ».

وقالوا: - وما أقبح ما قالوا - إن الحضرة الأعلى - أي البريلوي - كان في يد الغوث الأعظم - يعني الشيخ عبدالقادر الجيلاني - كالقلم في يد الكاتب. والغوث الأعظم في يد رسول اللَّه محمد ﷺ كالقلم في يد الكاتب، والرسول في الحضرة الإلهية ما ينطق عن الهوى.

وقالوا: «إن رضا اللَّه في رضا الرسول ورضا رسول اللَّه في رضى البريلوي».

وقالوا: «إن وجود البريلوي كان آية من آيات اللَّه المحكمات».

(١٠) البهائية - نقد وتحليل ٢٤/ ١٢/ ١٩٧٥م.

ولد مؤسس البهائية ومنشئها المرزة حسين علي في قرية «نور» من قرى المازندران من إيران، يوم ٢ محرم سنة ١٢٣٣هـ ٢/ ١١/ ١٩٨٧م.

تلقى العلوم الشيعية والصوفية وهو صغير حتى بلغ الثالثة عشرة، ثم اشتهر بالعلوم المتنوعة فكان يتكلم في أي موضوع شاء ويحل أي معضلة تعرض له، ويتباحث في المجامع مع العلماء ويفسر أعوص المسائل الدينية

وأوتي جدلاً ولحنًا، وكانت له معرفة واسعة وإلمام تام بالروايات الشيعية وكتبها، ولا سيما الكتب التي تروى عن المهدي والمهدوية، كما كان مطلعًا على كتب الصوفية والباطنية والفلاسفة القدامى والفلسفة السفسطائية القديمة مع دعواه الكذب «ما قرأت ما عندهم من العلوم وما دخلت المدارس فاسأل المدينة عني كنت فيها لتوقن بأني لست من الكذابين» والدارس لكتبه، والباحث فيها، يجد أنه أمام مقتطفات صوفية، وسرقات باطنية، ومقتبسات كلامية، وعبارات طويلة مسروقة من كتب القدامى.

علاقاته بالاستعمار البريطاني: كان له اتصالات بالدول الأجنبية كبريطانية التي أعانته في دعواه؛ وذلك لصرف المسلمين عن الدين الصحيح الحق، وصرفت عليه الأموال الطائلة، وسافر إلى بريطانية وإلى روسية وتركية وغيرها من البلاد لترويج نحلته الباطلة.

جاء كتاب الشيخ إحسان إلهي لإعلام المسلمين بخطر هذه الفرق الباطنية الخبيثة الباطلة التي تحاول أن تندس في صفوف المسلمين لتمزيق شملهم، وتشتيت كلمتهم وتمزيق صفوفهم. وبالفعل؛ لقد كان لهم ماكان حتى صدوا كثيراً من المسلمين عن دعوة الحق وعن الكتاب والسنة في الهند، وباكستان، وإفريقية، وغيرها من البلاد. ولا زالوا يفعلون. لهذا جاء الكتاب صرخة مدوية لتحذير الحكومات الإسلامية والعربية من خطر هؤلاء ومن ارتباطهم بالصهيونية العالمية التي تمدهم بالمال والعتاد لتروج فكرتهم وتسود.

بلغت مصادر الشيخ إحسان إلهي في هذا الكتاب مائتين وثمانية وسبعين مرجعًا عربيًّا وأجنبيًّا ومن كتب القوم.

(١١) الباطنية بفرقها المشهورة.

(١٢) فرق شبه القارة الهندية ومعتقداتها.

(١٣) النصرانية ـ وكان يضع اللمسات الأخيرة عليه.

(١٤) **التصوف** ـ المنشأ والمصادر ـ الجزء الأول ـ ١٤٠٦هـ.

(١٥) **التصوف** ـ الجزء الثاني ـ وهذا آخر مؤلفاته، انتهى منه قبل وقوع الحادث بسبع ساعات في مدينة سيالكوت في ولاية البنجاب.

*** أعداد مراجعه في كتبه:**

١ ـ القاديانية : رجع فيه إلى (١٥٠) مرجعًا.

٢ ـ البريلوية : رجع فيه إلى (١٨٠) مرجعًا.

٣ ـ البابية : رجع فيه إلى (١٧٤) مرجعًا.

٤ ـ الشيعة والسنة : رجع فيه إلى (٨٨) مرجعًا.

٥ ـ الشيعة والقرآن : رجع فيه إلى (٨٤) مرجعًا.

٦ ـ الشيعة وأهل البيت : رجع فيه إلى (٢٣٠) مرجعًا.

٧ ـ الشيعة والتشيع : رجع فيه إلى (٢٥٩) مرجعًا.

٨ ـ الإسماعيلية : رجع فيه إلى (٣٦٢) مرجعًا.

٩ ـ الرد الكافي : رجع فيه إلى (٢٥٩) مرجعًا.

١٠ ـ البهائية : رجع فيه إلى (٢٧٨) مرجعًا.

*** مؤلفاته: باللغات الأخرى:**

١ ـ القاديانية: بالإنجليزية.

٢ ـ الشيعة والسنة: بالفارسية.

٣ ـ كتاب الوسيلة: بالإنجليزية والأردية.

٤ ـ كتاب التوحيد.

٥ ـ الكفر والإسلام: بالأردية.

٦ ـ الشيعة والسنة: فارسي ـ إنجليزي ـ تايلاندي.

*** نسأل اللّه أن يتقبّل الشيخ إحسان إلهي ظهير في عداد الشهداء:**

في الساعة ١١ ليلاً يوم ٢٣/٧/١٤٠٧هـ بجمعية أهل الحديث بلاهور.. وفي ندوة العلماء «أهل الحديث» في حضور ٢٠٠٠ شخص دوّت انفجارات بالمكان أصيب الشيخ إحسان إلهي ظهير.

وقُتل من العلماء في هذه الحادثة عشرة غير الشيخ إحسان وأصيب ١٠٠ شخص ١٤ منهم في حالة خطيرة، وسقطت بعض العمارات والبيوت القريبة من مكان الحادث وخيم الحزن العام على باكستان مدنها، وأُغلقت بعض المحال التجارية في لاهور، وإسلام آباد وكراتشي، وأذاع راديو الرياض الخبر، وعرضت السعودية عن طريق سفيرها طلب معالجته في مستشفيات الرياض.

جيء به من باكستان إلى المملكة العربية السعودية للعلاج في مستشفيات الرياض بناءً على طلب من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبداللّه ابن باز رئيس إدارات الإفتاء والدعوة والإرشاد بالرياض، وذلك عندما كلم الملك فهدًا عن إحسان؛ فأمر الملك بطائرة من باكستان إلى الرياض، ولكن وفاته المنية قبل أن يستكمل علاجه وفاضت روحه إلى بارئها في الساعة الرابعة من صباح يوم الاثنين ١ شعبان ١٤٠٧هـ الموافق ٣٠ من مارس ١٩٨٧م، فغُسِّل هناك، وصلى عليه الشيخ عبدالعزيز بن باز وجمع كبير من محبيه، وسُمِع البكاء والنشيج من الناس حزنًا على المجاهد الكريم، ثم نُقِل جثمانه بالطائرة إلى المدينة المنورة حيث دفن في مقبرة البقيع مع الصحابة وآل البيت وأمهات المؤمنين، فنعم المكان ونعم جار القبر نسأل اللّه أن يرزقه الفردوس الأعلى، وأن يجعله من أهل عليين.

*** من ذكرى النوادر تستمد العبر:**

❑ قال الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني:

«نعم، من ذكرى النوادر من الأشياء والحكم والأفذاذ والشجعان تستمد العبرة، وتستلهم الفكرة؛ فنادر الشيء هو الباقي ذكره في النفوس والعقول، وعلى منواله يستفيد الأحياء من الذي تركه.

كان إحسان إلهي ظهير قليلٌ من الرجال في هذه العصور أمثاله، وكان شجاعًا في قولة الحق، باحثًا عن الحقيقة، ناصحًا لأمته، مرددًا كلام نبيه: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**»، قالوا: لمن؟ قال: «**للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**». مبينًا عوار الخبث والخبثاء لأكثر من عشرين سنة. وقف مع الحق، ونُصْرته والقيام به، لا تهمه في نشره لومةُ لائم ولا صرخة جاهل، ولا عواء جبان، ولا تهديد عدو؛ فكلفه ذلك حياته، فهل مَنْ وضع حياته لنصرة الحق ولا يعرف ذلك؟ اللَّهم إلا الذي حمل الفكرة، ولا يعرف ما هية تلك الفكرة؛ فحامل الفكرة لا بد أن يكون ناصرها ومؤيدها، والمؤمن بها وناشَرها والمجاهرَ بها؛ وإلا فكيف تنتشر الفكرة؟ وكيف تقمع البدعة؟ إذا لم يكن حاملها بشجاعة إحسان! وتنقيب إحسان لأعداء الفكرة نجاةً لحملة الفكرة (وبينهما أمور مشتبهات فاتقوا الشبهات كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه)، إحسان ـ رحمه اللَّه ـ أراد أن يحمي قومه من أن يقعوا في حبائل الشيطان؛ فأوضح لهم خبث الأفكار التي ينادي بها أربابها، أراد أن يحذر أمته وبني قومه من خطورة الوقوع فيها لأنها النار التي تلظى، والشر الذي ليس وراءه إلا الشر «النجاء النجاء إني أنا النذير العريان».

وضع الجبناء الذين لا يقوون على صد اندفاع الحق، وسطوع شمسه، المتفجرات ليُسكتوا صوتَ إحسان بالموت، ونسوا أن إحسان الآن بدأ يتكلم، انهالت الناس والجماهير على كتب إحسان تطلبها من كل مكان، وفي كل مكتبة، وبدأ القراء يقرؤون بعد أن كانوا لا يقرؤون، والآن بدؤوا يفهمون بعد

أن كانوا لا يتعمقون في القراءة، الآن بدأوا يحذرون بعد أن كانوا يأمنون.

الجبان جبان وإن عز، والنفيس نفيس وإن قلَّ، فالعبرة بقيمة الأشياء.

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولد صالح يدعو له».

بقيت الكتب تنهل منها الناس، وبقي من أبناء الشيخ إحسان، هشام، وابتسام، ومحتشم، وميمونة، ستناديهم كتب أبيهم أن يكونوا مثل أبيهم. وأصبح واضح للمسلمين تمامًا ضلال الشيعة وفرقهم...

❑ الشيعة الاثنا عشرية الجعفرية الإمامية وهم الرافضة فئة ضالة مارقة.

❑ قالوا بتحريف القرآن، وممن قال بذلك الكليني والنوري والحر العاملي والخميني.

❑ وفي السنة المطهرة كانت لهم أصول منكرة كقولهم إن الإمام يوحى إليه بل يأتيه خلق أعظم من جبريل، ومن سمع حديثًا من أحد من الأئمة له أن يقول فيه: قال اللَّه؛ لأن قولهم كقول اللَّه.

❑ وفيهم روح القدس التي بها «عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى»، وبها يرون ما غاب عنهم في أقطار الأرض وما في عنان السماء، ويذهبون إلى عرش الرحمن كل جمعة ليأخذوا من العلم ما شاءوا.

❑ وقالوا: إن اللَّه سبحانه يناجي عليًّا والأئمة.

❑ وهم جهمية في نفي الصفات، وقدرية في نفي القدر، ومرجئة في قولهم بأن الإيمان معرفة الإمام وحبه، ووعيدية بالنسبة لغيرهم، حيث يكفّرون ما عدا طائفتهم.

❑ ويعتقدون أن الأئمة أنزلت عليهم كتب إلهية، وعندهم كتب الأنبياء يقرءونها ويحكمون بها.

❑ وقالوا: إن الأئمة يأكلون من الجنة في الدنيا، وأن حساب الخلق إلى الأئمة يوم القيامة.

❑ وقالوا: إن لقم بابًا إلى الجنة، وأهل قم لا يحشرون كسائر الناس.

❑ وقالوا: بالإمامة، والعصمة، والتقية، والغيبة، والرجعة، والظهور والطينية، والبداء وغيرها من العقائد الكفرية مما يضيق المجال هنا لشرحه وبيانه[1].

* تكفير علماء الأمة للشيعة الإمامية الاثنا عشرية بسبب تكفيرهم للصحابة ولعنهم إياهم:

كتب الشيعة الإمامية وأقوال أئمتهم مليئة باللعن والتكفير لمن رضي اللَّه عنهم ورضوا عنه من المهاجرين والأنصار وأهل بدر وبيعة الرضوان وسائر الصحابة أجمعين وتقول كتبهم: إن الصحابة بسبب توليتهم لأبي بكر قد ارتدوا إلا ثلاثة: سلمان والمقداد وأبا ذر.

❑ يقول ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ: «إن الرافضة تقول: إن المهاجرين والأنصار كتموا النص، فكفروا إلا نفرًا قليلاً.. إما بضعة عشر أو أكثر ثم يقولون: إن أبا بكر وعمر ونحوهما ما زالا منافقين، وقد يقولون: بل آمنوا

(١) انظر كل كتب الشيخ إحسان إلهي ظهير: «الشيعة والتشيع»، و«الشيعة والسنة»، و«الشيعة وأهل البيت»، و«الشيعة والقرآن»، و«موقف الخميني من الشيعة والتشيع» لمحمود سعد ناصح، و«أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية» للدكتور ناصر القفاري، و«جاء دور المجوس» للدكتور عبداللَّه الغريب.

ثم كفروا»[١] .

وهم يخصون كبار الصحابة بمزيد من الطعن والتكفير لهم، ولهم في ذلك أقوال ونصوص تقشعر من سماعها جلود المؤمنين.

❑ وهم يخصون أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ وزراء رسول الله ﷺ وأصهاره بالنصيب الأولى من التكفير، وانظر ما كتبه المجلسي شيخهم وكافرهم في كتابه «البحار» الذي يعدونه المرجع الوحيد في تحقيق المذهب، وانظر إلى «الكافي» للكليني، ورجال الكشي ونصوص كتب الشيعة تربو على المجلدات في تكفير الشيخين، بل ترى أن من أعظم الكفر الحكم بإسلامهما[٢] ، وحينًا تنعتهم بأنهم الجبت والطاغوت[٣] وتارة تصب عليهم اللعنات ولا سيما في أدعية الزيارات[٤] ، وأذكار ما بعد الصلوات حيث يستبدلونها بلعن الشيخين وسائر المسلمين[٥] .

❑ وقالوا: إن إبليس أرفع مكانًا في النار من عمر، وأن إبليس شرف عليه في النار.

وزعموا أن محمد بن أبي بكر بايع عليًّا ـ عليه السلام ـ على البراءة من أبيه وأن أباه في النار «معاذ الله».

❑ وقالوا تحت قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قالوا: «ما بعث الله نبيًّا

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ٣٥٦).
(٢) «أصول الكافي» (١/ ٣٧٣).
(٣) المصدر السابق (١/ ٤٢٩).
(٤) «من لا يحضره الفقيه» لابن بابوية القمي (٢/ ٣٥٤).
(٥) «مستدرك الوسائل» للنوري ـ(١٠/ ٣٤٢).

إلا وفي أمته شيطانان يؤذيانه ويضلان الناس بعده، فأما صاحبا نوح.. وأما صحابا محمد فجبتر وزريق[١].

وزريق مصغر لأزرق والمراد أبو بكر، وجبتر معناه الثعلب والمراد به عمر.

❑ وفي قوله سبحانه: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾، قالوا: فلان وفلان، ﴿فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ يعني: نعثل، ﴿مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ طلحة والزبير. ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ﴾ معاوية»[٢].

قال المجلسي في «بحار الأنوار» (٢٣/ ٣٠٦): «المراد بفلان وفلان أبو بكر وعمر، ونعثل هو عثمان».

وكتب الشيعة الاثنا عشرية الرئيسية تطفح بهذا الركام:

«الكافي» للكليني، و«من لا يحضره الفقيه» لابن بابوية القمي، و«بحار الأنوار» لمحمد باقر المجلسي، و«وسائل الشيعة» للحر العاملي، و«مستدرك الوسائل» للنوري الطبرسي.

* ولذا كفّرهم الأئمة:

❑ قال النووي: «إن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون والمحققون أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع»[٣].

❑ قال الشيخ ملا علي القاري: «قلت: وهذا في غير حق الرافضة الخارجة في زماننا فإنهم يعتقدون كفر أكثر الصحابة فضلاً عن سائر أهل

---

(١) «تفسير القمي» (١/ ٢١٤) طبعة النجف ١٣٨٦هـ.

(٢) «تفسير القمي» (٢/ ١٠٦)، و«بحار الأنوار» للمجلسي (٢٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥).

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢/ ٥٠).

السنة والجماعة، فهم كفرة بالإجماع بلا نزاع»[١] .

❑ وذكر النووي في «شرح مسلم» أن الإمامية لا يكفرون الصحابة، ويرى أن التكفير إنما هو عند غلاة الشيعة[٢] ، فالإمامية في عصر النووي كانوا لا يكفرون الصحابة، أو أن الإمام ـ رحمه اللَّه ـ لم يعرف ذلك عنهم.

وقد ذهب إلى كفرهم الإمام مالك، وأحمد، والبخاري وغيرهم كالقرطبي وابن تيمية والألوسي.

* **الإمام مالك**: روى الخلال عن أبي بكر المروذي قال: سمعت أبا عبداللَّه يقول: قال مالك الذي يشتم أصحاب النبي ﷺ ليس لهم اسم أو قال: نصيب في الإسلام[٣] .

❑ قال ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ [الفتح: ٢٩].

قال: «ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك ـ رحمة اللَّه عليه ـ في رواية عنه تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة ﷺ قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة ﷺ فهو كافر لهذه الآية، ووافقه طائفة من أهل العلم»[٤] .

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لملا علي القاري (٩/ ١٣٧).

(٢) «شرح النووي» (١٥/ ١٧٣).

(٣) «السنة» للخلال (٢/ ٥٥٧). . وإسناده صحيح.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢١٩)، وانظر «روح المعاني» للألوسي (٢٦/ ١١٦)، فقد ذهب إلى تكفيرهم، وانظر أيضًا في استنباط وجه تكفيرهم من الآية ـ في «الصارم المسلول» ص(٥٧٩).

❑ قال القرطبي: «لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله، فمن نقص واحدًا منهم، أو طعن عليه في روايته فقد رد على اللَّه رب العالمين وأبطل شرائع المسلمين»[١].

* **الإمام أحمد**: وردت عنه روايات عديدة في تكفيرهم:

فقد روى الخلال عن أبي بكر المروذي قال: سألت أبا عبداللَّه عمن يشتم أبا بكر وعمر وعائشة؟ قال: ما أراه على الإسلام».

❑ وقد جاء في كتاب «السنة» للإمام أحمد قوله عن الرافضة: «هم الذين يتبرءون من أصحاب محمد ﷺ ويسبونهم، وينتقصونهم ويكفرون الأئمة إلا أربعة: علي وعمار والمقداد وسلمان، وليست الرافضة من الإسلام في شيء»[٢].

* **وقال البخاري ـ رحمه اللَّه ـ**: «ما أبالي صليت خلف الجهمي والرافضي، أم صليت خلف اليهود والنصارى، ولا يسلم عليهم ولا يعادون ولا يناكحون ولا يشهدون ولا تؤكل ذبائحهم»[٣].

❑ وقال عبدالرحمن بن مهدي: هما ملتان الجهمية والرافضة[٤].

❑ وسأل رجل الفريابي عمن يشتم أبا بكر؟ قال: كافر، قال: فيصلى عليه؟ قال: لا. وقال: لا تمسوه بأيديكم ارفعوه بالخشب حتى تواروه في حفرته[٥].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٦/ ٢٩٧).

(٢) «السنة» للإمام أحمد ص(٨٢) تحقيق الشيخ إسماعيل الأنصاري.

(٣) «خلق أفعال العباد» للإمام البخاري ص(١٢٥).

(٤) المصدر السابق ص(١٢٥)، و«مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣٥/ ٤١٥).

(٥) «الصارم المسلول» لابن تيمية ص(٥٧٠).

وممن كفّرهم أحمد بن يونس، وأبو زرعة الرازي، وابن قتيبة.

❑ قال عبدالقاهر البغدادي: «وأما أهل الأهواء من الجارودية والهشامية والجهمية والإمامية الذين أكفروا خيار الصحابة ـ فإنا نكفرهم ولا تجوز الصلاة عليهم عندنا ولا الصلاة خلفهم»[١].

❑ وقال القاضي أبو يعلى: «وأما الرافضة فالحكم فيهم.. إن كفّر الصحابة أو فسّقهم بمعنى يستوجب به النار فهو كافر».

* **وقال ابن حزم**: «وأما قولهم ـ يعني النصارى ـ في دعوى الروافض تبديل القرآن، فإن الروافض ليسوا من المسلمين».. وهي طائفة تجري مجرى اليهود والنصارى في «الكذب والكفر»[٢].

ثم قال: «ومن قول الإمامية قديمًا وحديثًا أن القرآن مبدل..».

ثم قال: «القول بأن بين اللوحين تبديلاً كفر صريح وتكذيب لرسول الله ﷺ»[٣].

❑ وقال الإسفراييني: «وليسوا في الحال على شيء من الدين، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر إذ لا بقاء فيه على شيء من الدين».

❑ وقال أبو حامد الغزالي: «فلو صرّح مصرح بكفر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد خالف الإجماع وخرقه، وردّ ما جاء في حقهم من الوعد بالجنة والثناء عليهم والحكم بصحة دينهم وثبات يقينهم وتقدمهم على سائر الخلق في أخبار كثيرة»، ثم قال: «فقائل ذلك إن بلغته الأخبار واعتقد مع ذلك كفرهم فهو كافر»[٤].

(١) «الفرق بين الفرق» لعبدالقاهر البغدادي ص(٣٥٧).
(٢) «الفصل» لابن حزم (٢/ ٢١٣).
(٣) «الفصل» (٥/ ٤٠).
(٤) «فضائح الباطنية» لأبي حامد ص(١٤٩).

❑ وقال القاضي عياض ـ رحمه اللَّه ـ: «نقطع بتكفير غلاة الرافضة في قولهم: إن الأئمة أفضل من الأنبياء».

والشيعة المعاصرون يعدون هذا من ضرورات مذهبهم ومنكر الضروري كافر عندهم.

❑ وقال السمعاني: «واجتمعت الأمة على تكفير الإمامية؛ لأنهم يعتقدون تضليل الصحابة، وينكرون إجماعهم وينسبونهم إلى ما لا يليق بهم»[1].

❑ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من زعم أن الصحابة ارتدوا بعد رسول اللَّه ﷺ إلا نفرًا قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفسًا، أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب ـ أيضًا ـ في كفره؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضى عنهم والثناء عليهم.

بل من يشكك في كفر مثل هذا؟ فإن كفره متعين»[2].

❑ وساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث الثابتة في السنة، والمتضمنة نفي دعوى النص والوصية التي تدعيها الرافضة لعلي، ثم قال بعدها معقبًا: «ولو كان الأمر كما زعموا لما رد ذلك أحد من الصحابة فإنهم أطوع للَّه ولرسوله في حياته وبعد وفاته من أن يفتاتوا عليه فيقدموا غير من قدّمه، ويؤخروا من قدّمه بنصه، وحاشا وكلا، ومن ظن بالصحابة ﷺ ذلك فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور، والتواطئ على معاندة الرسول، ومضادته في حكمه ونصه، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربقة الإسلام، وكفر بإجماع الأئمة الأعلام، وكان إراقة دمه أحلّ من إراقة المدام»[3].

(١) «الأنساب» للسمعاني (٦/ ٣٤١).

(٢) «الصارم المسلول» ص(٥٨٦ ـ ٥٨٧).

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٥/ ٢٥٢).

❑ وكفرهم شيخ الإسلام ابن عبدالوهاب في رسالته «الرد على الرافضة»، والشيخ شاه عبدالعزيز الدهلوي في «مختصر التحفة الاثنا عشرية» ص(٣٠).

❑ وكفرهم الإمام الشوكاني: فقال: «وبهذا يتبين أن كل رافضي خبيث يصير كافرًا بتكفيره لصحابي واحد، فكيف بمن كفّر كل الصحابة واستثنى أفرادًا يسيرة»[١].

❑ وعندما جاء بعض آياتهم لمناظرة العالم الرباني الشيخ الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» قال لهم: «لو كنا نتفق على أصول واحدة لناظرتكم، ولكن لنا أصول ولكم أصول، وبصورة أوضح لنا دين ولكم دين»[٢].

❑ وكفرهم الشيخ تقي الدين الهلالي في رسالته «مناظرتان بين رجل سني وإمامينِ مجتهدينِ شيعيين»[٣].

*** للمخدوعين في «حزب اللّه» الاثنى عشري نقول:**

❑ إن لم ترضوا بأقوال هؤلاء العلماء الجهابذة من أساطين الإسلام، فاقرءوا رسالة الشيخ محب الدين الخطيب: «الخطوط العريضة التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثنى عشرية»، والشيخ محمد بهجة البيطار في كتابه «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» ص(١٣١)، والقاسمي، ومحمد رشيد رضا، والدكتور مصطفى السباعي في مقدمة كتابه: «السنة ومكانتها في التشريع» ص(١٧)، وهو شيخ الإخوان في سوريا ـ رحمه اللّه ـ، والشيخ ابن باز، والشيخ الألباني، وشيخ علماء الجزائر البشير الإبراهيمي، وأحمد أمين،

(١) «نثر الجوهر على حديث أبي ذر» للشوكاني.
(٢) «وجاء دور المجوس» ص(١٥١).
(٣) المصدر السابق ص(١٤٨).

والدكتور محمد رشاد سالم.

*** سلوا التاريخ يخبركم عن الرافضة الإثنى عشرية:**

❑ [«من الذي تآمر مع التتار حتى استولوا على بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم، وقتلوا معه ـ غدرًا وفي ساعة واحدة ـ مائتي وألف شخصية من العلماء والوجهاء والقضاة، واستمرت المذابح فيها بضعًا وثلاثين يومًا، قُتِل فيها حوالي ثمانمائة ألف مسلم ومسلمة؟

❑ ومن الذي تسبب في انحسار المدّ الإسلامي العثماني في أرجاء أوربة، وطعن الخليفة العثماني في ظهره بزحفه على عاصمة الخلافة بينما كان يتغلغل بجيوشه في أحشاء النمسا إلى أن دخل قلب «فيينا»، وكادت أوربا تدخل في حظيرة الإسلام لولا اضطرار الجيش العثماني إلى الانسحاب والرجوع إلى الرافضة لدحرهم ودفعهم؟»[١].

❑ ومن الذي تحالف مع ملك المجر ضد الدولة العثمانية؟][٢].

❑ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللّه ـ: «كانوا من أعظم الأسباب في استيلاء النصارى قديمًا على بيت المقدس حتى استنقذه المسلمون منهم»[٣].

❑ «ومن الذي سلّم أرض المسلمين في باكستان الشرقية لقمة سائغة للهندوس حتى يقيموا عليها الدولة المسخ «بنجلاديش»؟»[٤].

(١) انظر: «الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا» للدكتور محمد عبداللطيف هريدي ـ دار الصحوة ـ القاهرة.

(٢) مقدمة كتاب «حقبة من التاريخ» لعثمان الخميس والمقدمة للدكتور محمد إسماعيل المقدم ص(٩ ـ ١٠) ـ دار الإيمان.

(٣) «منهاج السنة» لابن تيمية (٤/ ١١٠).

(٤) مقدمة: «حقبة من التاريخ» ص(١٠).

❑ يقول الشيخ إحسان إلهي ظهير: «وها هي باكستان الشرقية ذهبت ضحية بخيانة أحد أبناء «قزلباش» الشيعة يحيى خان في أيدي الهندوس»[١].

❑ «وقد عارض شيوخ الشيعة في باكستان تطبيق الشريعة الإسلامية وقد قال زعيم الشيعة مفتي جعفر حسين في مؤتمر صحفي: بأن الشيعة يرفضون تطبيق الحدود الإسلامية؛ لأنها ستكون على مذهب أهل السنّة»[٢].

* الخميني ضال مضل:

❑ الخميني ضال مضل وارجع إلى كتابه «الحكومة الإسلامية أو ولاية الفقيه» وكتابه «تحرير الوسيلة» ومختصره «من هنا المنطلق» وكتابه «جهاد النفس أو الجهاد الأكبر». والأحاديث الواردة في الصحاح والتي بدونها يضيع ديننا لا ترد على لسانه أبدًا بل يرد في كتابه «الحكومة الإسلامية» ص(٣٧ وما بعدها) أنه لا يعترف بها.

❑ يترحم الخميني على «النوري» صاحب كتاب «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب» والذي طبع سنة ١٢٩٨هـ. وقد قال علماء الشيعة عنه إنه من أعظم علماء الشيعة وكبار رجال هذا القرن.

ويحيل الخميني في كتابه «الحكومة الإسلامية» عند ذكره لأحد الأحاديث إلى كتاب «دعائم الإسلام» وهو الكتاب الأكبر عند الإسماعيلية الباطنية الغلاة.

ويرجع الخميني إلى كتاب «الكافي» للكليني وفيه من الكفريات والضلالات الشيء الكثير كالأحاديث الواردة فيه بنقض القرآن وتحريفه، وأن الأئمة يوحى إليهم، وأنهم يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى

(١) «الشيعة والسنة» لإحسان إلهي ظهير ص(١١).
(٢) «الأنباء الكويتية» ـ العدد ١٧ ـ ربيع الثاني ١٤١٢هـ ص(٧١، ٧٢).

عليهم شيء، وأنهم إذا شاءوا أن يعلموا علموا، وأنهم يعلمون متى يموتون، ولا يموتون إلا باختيار منهم، وفيه تكفير أبي بكر وعمر وعمرو وعثمان، وعقيدة الكليني في القرآن أنه ناقص محرف.

*** الخميني الضال يذهب إلى تحريف القرآن:**

هناك إجماع من الشيعة وعلى رأسهم الخميني على تقدير النوري، صاحب كتاب «مستدرك الوسائل» ويترحم عليه، و«الكافي» للكليني، و«الوسائل» للحر العاملي، و«الاحتجاج» لأحمد الطبرسي وكلها تقول بتحريف القرآن.

وبين أيدينا وثيقة وهذه الوثيقة كتاب باللغة الأردية موثق من عدد من آياتهم المعاصرة ومنهم الخميني وهو طبقًا لما جاء في صدر الكتاب مراعين في ذكرهم النص الأردي:

١ ـ آية اللَّه العظمى.. محسن حكيم طباطبائي مجتهد أعظم نجف أشرف.

٢ ـ آية اللَّه العظمى.. أبو القاسم خوئي نجف أشرف.

٣ ـ آية اللَّه العظمى.. روح اللَّه خميني.

٤ ـ آية اللَّه العظمى.. محمود الحسيني.

٥ ـ آية اللَّه العظمى.. محمد كاظم شعريعتمداري.

٦ ـ مصدقة ماليجناب سيد العلماء علامة سيد علي تقي النقودي مجتهد لكهنو.

ويتضمن هذا الكتاب نصًّا بالعربية في حدود صفحتين كله يدور حول كيفية لعن صنمي قريش وهما حسب اعتقادهم ـ أبو بكر وعمر ـ واتهامهما بتحريف القرآن الكريم.. ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ**

كَذِبًا﴾.

❑ وسنكتفي من هذا النص بموضع الشاهد لحديثنا.

«بسم الله الرحمن الرحيم.. اللّهم العن صنَمي قريش وجبتيها وطاغوتيهما وإفكيها وابنتيها اللذين خالفا أمرك وأنكروا وحيك وعصيا رسولك وقلبا دينك وحرّفا كتابك»[1].

❑ الخميني: الذي يقول في كتابه «جهاد النفس» ص(١٨) عن معاوية رضي الله عنه: «معاوية ترأس قومه أربعين عامًا، ولكنه لم يكسب لنفسه سوى لعنة الدنيا وعذاب الآخرة»، ويقول في «الحكومة الإسلامية» ص(٧١): «ولم تكن حكومة معاوية تمثل الحكومة الإسلامية أو تشبهها من قريب ولا بعيد».

ويتهم الصحابي الجليل سمرة بن جندب بأنه يفتري أحاديث تمس من كرامة أمير المؤمنين[2].

❑ يعتقد الخميني في نصوص «الكافي» للكليني، وقد ورد فيه أن الصحابة ارتدوا إلا ثلاثة.

❑ الخميني: الذي يتهجم على هارون الرشيد فيصفه بالجهل فيقول: «وها هو التاريخ يحدثنا عن جُهّال حكموا الناس بغير جدارة ولا لياقة، هارون الرشيد، أية ثقافة حازها؟ وكذلك من قبله ومن بعده»[3].

❑ الخميني: الذي يطعن في خيار الأمة وينال من شرف روّادها يثني على الأقزام الملاحدة مثل النصير الطوسي فيقول: «ويشعر الناس بالخسارة أيضًا بفقدان الخواجة نصير الدين الطوسي وأمثاله ممن قدّموا

(١) «تحفة العوام» مقبول جديد ص(٤٢٢).
(٢) «الحكومة الإسلامية» للخميني ص(٧١).
(٣) «الحكومة الإسلامية» ص(١٣٣).

خدمات جليلة للإسلام»[١] .

والطوسي هذا هو محمد بن محمد بن الحسن الخوجه نصير الدين الطوسي المسئول مع عدو اللّه ابن العلقمي ومستشاره ابن أبي الحديد عن الذبح العام الرهيب الذي ارتكبه الوثني هولاكو في أمة محمد ﷺ عند استيلائه على عاصمة الإسلام بغداد سنة ٦٥٥هـ، وكان الطوسي قبل ذلك من ملاحدة الإسماعيلية.

❑ قال ابن القيم: «ولما انتهت النوبة إلى نصير الشرك والكفر الملحد وزير الملاحدة النصير الطوسي وزير هولاكو شفى نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شفى إخوانه من الملاحدة واستشفى هو فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء والمحدثين.. ونصر في كتبه قدم العالم وبطلان المعاد.. وبالجملة فكان هذا الملحد هو وأتباعه من الملحدين الكافرين باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر»[٢] .

*** الخميني الضال المضل المغالي في أئمته الاثنا عشر:**

فيقول: «إن للإمام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون»[٣] .

ويقول في ص(٥٢): «والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارًا فجعلهم اللّه بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا اللّه، وقد قال جبرائيل ـ كما ورد في روايات المعراج ـ لو دنوت أنملة لاحترقت».

ويقول: «والأئمة الذين لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة»[٤] .

(١) المصدر السابق ص(١٢٨).

(٢) «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٢/ ٢٦٣).

(٣) «الحكومة الإسلامية» ص(٥٢).

(٤) المصدر السابق ص(٩١).

ويقول في ص(٥٢): «وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل».

❑ قال شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: «ومن اعتقد في غير الأنبياء كونه أفضل منهم أو مساوٍ لهم فقد كفر، وقد نقل على ذلك الإجماع غير واحد من العلماء»[١].

وهذا هو مذهب غلاة الرافضة كما قال ابن تيمية في «منهاج السنة» (١/ ١٧٧).

❑ ونحن نقول عن الخميني إمام حزب اللَّه أنه إمام من أئمة الكفر: جاء في بيان التنظيم الدولي للإخوان المسلمين وصف حكم الخميني بأنه «الحكم الإسلامي الوحيد في العالم»[٢].

وقالت مجلة الاعتصام: «أن ردود الفعل التي أحدثتها (حركة الخميني) كان مبعثها أن حركة الخميني حركة إسلامية مائة في المائة»[٣].

*** ونحن نقول عن الخميني أنه إمام من أئمة الكفر:**

❑ وندلل على هذا بما سبق وقلناه عن عقيدته وبالآتي أيضًا.

(١) الاتجاه الوثني عنده:

في كتابه «كشف الأسرار» تحت عنوان «ليس من الشرك طلب الحاجة من الموتى»:

يقول: «يمكن أن يقال إن التوسل إلى الموتى وطلب الحاجة منهم شرك؛

(١) «الرد على الرافضة» لشيخ الإسلام ابن عبدالوهاب ص(٢٣).

(٢) انظر: «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة» وهو من سلسلة الكتب التي تصدرها دار المختار الإسلامي ص(٥٢).

(٣) مجلة الاعتصام ـ العدد الخامس ـ السنة الثانية والأربعون ربيع أول ١٣٩٩هـ.

لأن النبي والإمام ليس إلا جمادين فلا يتوقع منهما النفع والضرر.

والجواب: إن الشرك هو طلب الحاجة من غير اللَّه مع الاعتقاد بأن هذا الغير هو إله ورب.

وأما إذا طلب الحاجة من الغير من غير هذا الاعتقاد فذلك ليس بشرك، ولا فرق في هذا المعنى بين الحي والميت، ولهذا لو طلب أحد حاجته من الحجر والمدر لا يكون شركًا، مع أنه قد فعل فعلاً باطلاً!!!.

ومن ناحية أخرى نحن نستمد من أرواح الأنبياء المقدسة والأئمة الذين أعطاهم اللَّه قدرة.

لقد ثبت بالبراهين القطعية والأدلة العقلية المحكمة حياة الروح بعد الموت، والإحاطة الكاملة للأرواح على هذا العالم!!!»[1].

(٢) اعتقاده تأثير الكواكب والأيام على حركة الإنسان وهو قول الصابئة الكفار:

يقول الخميني: «يكره إيقاعه ـ يعني عقد الزواج ـ والقمر في برج العقرب، وفي محاق الشهر، وفي أحد الأيام المنحوسة في كل شهر وهي سبعة: يوم ٣، ويوم ٥، ويوم ١٣، ويوم ١٦، ويوم ٢١، ويوم ٢٤، ويوم ٢٥ ـ وذلك من كل شهر ـ»[2].

ويقول صاحب «التحفة الاثنا عشرية: «إن الصابئين كانوا يحترزون عن أيام يكون القمر بها في العقرب، أو الطرف، أو المحاق وكذلك الرافضة»، وكانت الصابئة يعتقدون أن جميع الكواكب فاعلة مختارة، وأنها هي المدبرة للعالم السفلي، وكذلك الرافضة»[3].

(١) «كشف الأسرار» للخميني ص(٣٠).

(٢) «تحرير الوسيلة» للخميني (٢/ ٢٣٨).

(٣) «مختصر التحفة الاثنا عشرية» ص(٢٩٩) لشاه عبدالعزيز الدهلوي، واختصره الشيخ محمد شكري الألوسي ـ المطبعة السلفية ـ.

(٣) قوله بالحلول والاتحاد:

«وله كتابان خطيران في ذلك: «مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية»، و«سر الصلاة».

*** قوله بالحلول الخاص:**

يقول عن أمير المؤمنين علي: «خليفته [يعني خليفة الرسول ﷺ] القائم مقامه في الملك والملكوت، المتحد بحقيقته في حضرة الجبروت واللاهوت، أصل شجرة طوبى، وحقيقة سدرة المنتهى، الرفيق الأعلى في مقام أو أدنى، معلم الروحانيين، ومؤيد الأنبياء والمرسلين عليّ أمير المؤمنين»[١].

ومن منطلق دعوى حلول الرب لعلي ـ كما يُفترى ـ ينسب الخميني لأمير المؤمنين علي أنه يقول: «كنت مع الأنبياء باطنًا ومع رسول اللَّه ظاهرًا»[٢].

ويعلق الخميني قائلاً: «فإنه عليه السلام صاحب الولاية المطلقة الكلية والولاية باطن الخلافة.. فهو عليه السلام بمقام ولايته الكلية قائم على كل نفس بما كسبت!!، ومع كل الأشياء معيّة قيّومية ظلية إلهية ظل المعية القيومية الحقة الإلهية إلا أن الولاية لما كانت في الأنبياء أكثر خصهم بالذكر»[٣].

ويقول في قوله ـ عز وجل ـ: ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾ [الرعد: ٢]، قال: «أي: ربكم الذي هو الإمام»[٤].

---

(١) «مصباح الهداية» للخميني ص(١).
(٢) «مصباح الهداية» ص(١٤٢).
(٣) المصدر السابق ص(١٤٢).
(٤) «مصباح الهداية» ص(١٤٥).

ب: قوله بالحلول والاتحاد الكلي:

يقول: «النتيجة لكل المقامات والتوحيدات عدم رؤية فعل وصفة حتى من اللَّه تعالى، ونفي الكثرة بالكلية، وشهود الوحدة الصرفة»[١].

ثم ينقل عن أحد أئمته أنه قال: «لنا مع اللَّه حالات هو هو ونحن نحن، وهو نحن، ونحن هو»[٢].

ثم يعلق على ذلك بقوله: «وكلمات أهل المعرفة خصوصًا الشيخ الكبير محي الدين مشحونة بأمثال ذلك مثل قوله: الحق خلق، والخلق حق، والحق حق، والخلق خلق».

«ويستدل على مذهبه في وحدة الوجود بقول ابن عربي والذي يصفه بالشيخ الكبير[٣]، والقونوي، ويصفه بـ «خليفة الشيخ الكبير محي الدين»[٤].

«وهكذا يتبين أن الخميني قد أخذ منهج أهل الحلول والاتحاد»[٥].

*** ثالثًا: دعوى النبوة:**

أفرزت لوثات التصوف عند الخميني دعوى غريبة وكفرًا صريحًا حيث يرسم للسالك أسفارًا أربعة:

- ينتهي السفر الأول إلى مقام الفناء.
- وينتهي السفر الثاني إلى الفناء عن الفناء وتتم دائرة الولاية.

---

(١) «مصباح الهداية» ص(١٣٤).

(٢) المصدر السابق ص(١١٤).

(٣) المصدر السابق ص(٨٤، ٩٤، ١١٢).

(٤) المصدر السابق ص(١١٠).

(٥) «أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية» ـ للدكتور ناصر القفاري (٣/ ١١٥١).

ـ أما في السفر الثالث فإنه: «يحصل له الصحو التام ويبقى بإبقاء اللَّه، ويسافر في عالم الجبروت والملكوت والناسوت، ويحصل له حظ من النبوة، وليست له نبوة التشريع، وحينئذ ينتهي السفر الثالث، ويأخذ في السفر الرابع»[١].

ـ وبالسفر الرابع: «يكون نبيًّا بنبوة التشريع»[٢].

فمراحل السفر عنده هي: الفناء، والولاية وفيها الفناء عن الفناء، والنبوة بلا تشريع، ثم النبوة الكاملة.

وقوله هذا يتضمن أن النبوة مكتسبة عن طريق «رياضات» ومجاهدات أهل التصوف.

قال القاضي عياض: «نكفّر من أدعى النبوة لنفسه، أو جوّز اكتسابها والبلوغ بصفاء القلب إلى مرتبتها كالفلاسفة وغلاة الصوفية»[٣].

وقد ذكر الخميني في كتابه الحكومة الإسلامية: «أن الفقيه الرافضي بمنزلة موسى وعيسى»[٤]، وادعى فخر الحجازي: «أن الخميني أعظم من النبي موسى وهارون» فعينه نائبًا عن طهران ورئيسًا لمؤسسة المستضعفين أعظم مؤسسة مالية في البلاد[٥].

* الخميني يكفر صحابة رسول اللَّه ﷺ عامة ويصرح بتكفير الشيخين:

يقرر الخميني في كتابه «تحرير الوسيلة» مشروعية التبري من أعداء الأئمة في الصلاة[٦] ـ وأعداء الأئمة في قاموس الشيعة هم صحابة رسول اللَّه

(١، ٢) «مصباح الهداية» ص(١٤٩).
(٣) «الشفاء» للقاضي عياض (٢/ ١٠٧٠ ـ ١٠٧١).
(٤) «الحكومة الإسلامية» ص(٩٥).
(٥) «الثورة الباسمة» لموسى الموسوي ص(١٤٧).
(٦) «تحرير الوسيلة» للخميني (١/ ١٦٩).

ﷺ إلا ثلاثة أو سبعة.

وهو في كتابه «كشف الأسرار» يصرّح بتكفير الشيخين[١] .

وقد ذكر الشيخ أبو الحسن الندوي في ترجمته لبعض نصوص «كشف الأسرار» ما يتضمن مجاهرة الخميني بهذا الكفر[٢] .

*** ونكفر الخميني بتفضيله مهدي الشيعة المنتظر على النبي محمد ﷺ :**

فقد قال الخميني في خطاب له بمناسبة ذكرى مولد الإمام المهدي ـ كما يعتقدون ـ في الخامس عشر من شهر شعبان ١٤٠٠هـ وأذيع من راديو طهران: «لقد جاء الأنبياء جميعًا من أجل إرساء قواعد العدالة لكنهم لم ينجحوا حتى النبي محمد خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشرية.. لم ينجح في ذلك، وإن الشخص الذي سينجح في ذلك هو المهدي المنتظر»[٣] .

❑ وفي احتفال رسمي وجماهيري أقيم في عبدان في ١٧/٣/١٩٧٩م تأييدًا لإقامة الجمهورية الإسلامية ألقى د. محمد مهدي صادقي خطبة في هذا الاحتفال سجلت باللغتين العربية والفارسية، ووصفتها الإذاعة بأنها مهمة ومما جاء في هذه الخطبة:

«أصرح يا إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن مكة المكرمة حرم اللّه الآمن يحتلها شرذمة أشد من اليهود..» وذكر قبل ذلك بأنه حين تثبت ثورته سينتقلون إلى القدس وإلى مكة المكرمة وإلى أفغانستان وإلى

(١) «كشف الأسرار» ص(١١٢) وما بعدها، وانظر «صورتان متضادتان» لأبي الحسن الندوي ص(٥٧ ـ ٥٨).

(٢) «صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ الدعوية والتربوية وسيرة الجيل المثالي الأول عند أهل السنة والشيعة الإمامية» لأبي الحسن الندوي ـ ندوة العلماء ـ الهند.

(٣) «مجلة المجتمع» الكويتية العدد (٤٨٨) في ٨/٧/١٩٨٠م، و«نهج الخميني في ميزان الفكر الإسلامي» لبشار عواد ص(٤٥ ـ ٤٧) دار عمار للنشر.

مختلف البلاد»[١] .

❑ وانظر ما كتبه الشيخ محمد عبدالقادر آزاد رئيس مجلس علماء باكستان عما شاهده في أثناء زيارته لإيران، حتى يقول: بأنه رأى على جدران فندق هيلتون في طهران والذي يقيمون فيه شعارات مكتوبًا عليها «سنحرر الكعبة والقدس وفلسطين من أيدي الكفار»[٢] .

* * *

(١) أذيعت هذه الخطبة من صوت الثورة الإسلامية من عبادان الساعة ١٢ ظهراً من يوم ١٧/ ٣/ ١٩٧٩م.

(٢) «الفتنة الخمينية» للشيخ محمد آزاد ص(٩).

صفحة من جهاد المجددين وفضحهم للمبتدعة الآثمين

* الإمام المجدد الرباني الشاطبي صاحب كتاب الاعتصام وجهاده للبدع، وفضحه للمبتدعة:

لا يعرف قدر الرجال إلاّ الرجل وإنما يعرف الفضل لأهله أهله، فللّه در الشيخ محمد رشيد رضا إذ يقول عن الإمام الشاطبي: «العلماء المستقلون في هذه الأمة ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين. والإمام الشاطبي من هؤلاء القليل، وما رأينا من آثاره إلا القليل؛ رأينا كتاب «الموافقات» من قبل، ورأينا كتاب «الاعتصام» اليوم، فأنشدنا قول الشاعر:

قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يُقالُ له قليلُ»

❑ وقال عن كتاب الشاطبي «الاعتصام» «تجد فيه علمًا صحيحًا لا تجده في غيره؛ لأنه مما فتح اللّه به على صاحبه دون غيره» و«لولا أن هذا الكتاب أُلّف في عصر ضعف العلم والدين في المسلمين لكان مبدأ نهضة جديدة لإحياء السنة، وإصلاح شئون الأخلاق والاجتماع، ولكان المصنف بهذا الكتاب وبصنوه كتاب «الموافقات» ـ الذي لم يسبق إلى مثله سابق أيضًا ـ من أعظم المجددين في الإسلام، فمثله كمثل الحكيم الاجتماعي، عبدالرحمن بن خلدون، كل منهما جاء بما لم يسبق إلى مثله، ولم تنتفع الأمة كما كان يجب ـ بعلمه.

كتاب «الموافقات» لا ندّ له في بابه «أصول الفقه وحكم الشريعة وأسرارها» وكتاب «الاعتصام» لا ندّ له في بابه، فهو ممتع مشبع»[1].

«كان الإمام الشاطبي ـ رحمه اللّه ـ مشهورًا بمقاومة البدع وأهلها، وكان يبين للناس السنن ويحذر من البدع.

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي ـ مقدمة بقلم الشيخ محمد رشيد رضا (ص٣، ٤) ـ المكتبة التجارية ـ الكبرى بمصر.

وقد كان الإمام الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ أحد أولئك الأعلام الأفذاذ الذين كانت لهم جهود مميزة في محاربة البدع وأهلها.

❑ وكان ـ رحمه اللَّه ـ تولى الخطابة في الجامع الأعظم، فلما حاول أن يبين للناس ما دخل على الخطابة والإمامة من البدع، وجد مقاومة شديدة من أرباب البدع؛ حيث نسبوه إلى البدعة والضلاله والغباوة والجهل»[1]، وفي ذلك يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«ابتدأت بأصول الدين عملاً واعتقاداً، ثم بفروعه المبنية على تلك الأصول؛ وفي خلال ذلك أبيّن ما هو من السنن أو من البدع، كما أبين ما هو من الجائز وما هو من الممتنع، وأعرض ذلك على علم الأصول الدينية والفقهية، ثم أطلب نفسي بالمشي مع الجماعة التي سمّاها رسول اللَّه ﷺ بالسواد الأعظم، في الوصف الذي كان عليه هو وأصحابه وترك البدع التي نصّ عليها العلماء أنها بدع وأعمال مختلفة.

وكنت في أثناء ذلك قد دخلت في بعض خطط الجمهور من الخطابة والإمامة ونحوها، فلما أردت الاستقامة على الطريق، وجدت نفسي غريبًا في جمهور أهل الوقت، لكون خططهم قد غلبت عليها العوائد، ودخلت على سننها الأصلية شوائب من المحدثات الزوائد، ولم يكن ذلك بدعًا في الأزمنة المتقدمة فكيف في زماننا هذا؟؟!

فتردد النظر بين ـ أن أتبع السنة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفي العوائد، لا سيما إذا ادعى أهلها أن ما هم عليه هو السنة لا سواها إلا أن في ذلك العبء الثقيل. ما فيه من الأجر

(١) «الإمام الشاطبي ـ عقيدته وموقفه من البدع وأهلها» لعبدالرحمن آدم علي (ص٨٧، ٨٨) ـ مكتبة الرشد.

الجزيل ـ وبين أن أتبعهم على شرط مخالفة السنة والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال عائذًا باللَّه من ذلك، إلا أني أُوافق المعتاد، وأعد من المؤلفين، لا من المخالفين، فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة، وأن الناس لن يغنوا عني من اللَّه شيئًا، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأُمور، فقامت عليَّ القيامة، وتواترت عليَّ الملامة، وفوّق إلى العتاب سهامه، ونسبت إلى البدعة والضلالة، وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة، وإني لو التمست لتلك المحدثات مخرجًا لوجدت، غير أن ضيق العطن، والبعد عن أهل الفطن، رقى بي مرتقى صعبًا وضيق عليَّ مجالاً رحبًا، وهو كلام يشير بظاهره إلى أن اتباع المتشابهات، لموافقات العادات، أولى من اتباع الواضحات، وإن خالفت السلف الأول.

وربما ألُّوا في تقبيح ما وجهت إليه وجهتي بما تشمئز منه القلوب، أو خرجوا بالنسبة إلى بعض الفرق الخارجة عن السنة شهادة ستكتب ويسألُون عنها يوم القيامة فتارة نسبت إلى القول بأن الدعاءَ لا ينفع ولا فائدة فيه كما يعزي إلى بعض الناس، بسبب أني لم ألتزم الدعاءَ بهيئة الاجتماع في أدبار الصلاة حالة الإمامة. وسيأتي ما في ذلك من المخالفة للسنة وللسلف الصالح والعلماء.

وتارة نسبت إلي الرفض وبغض الصحابة ﷺ، بسبب أني لم ألتزم ذكر الخلفاء الراشدين منهم في الخطبة على الخصوص، إذ لم يكن ذلك من شأن السلف في خطبهم، ولا ذكره أحد من العلماء المعتبرين في أجزاء الخطب. وقد سئل (أصبغ) عن دعاء الخطيب للخلفاء المتقدمين فقال: هو بدعة ولا ينبغي العمل به، وأحسنه أن يدعو للمسلمين عامة. قيل له: فدعاءَه للغزاة والمرابطين؟ قال: ما أرى به بأسًا عند الحاجة إليه، وإما أن يكون شيئًا يصمد له في خطبته دائمًا فإني أكره ذلك. ونص أيضًا عز الدين

ابن عبدالسلام: على أن الدعاءَ للخلفاء في الخطبة بدعة غير محبوبة.

وتارة أُضيف إليَّ القول بجواز القيام على الأئمة، وما أضافوه إلا من عدم ذكرى لهم في الخطبة، وذكرهم فيها محدث لم يكن عليه من تقدم.

وتارة أحملُ على التزام الحرج والتنطع في الدين، وإنما حملهم على ذلك أني التزمت في التكليف والفتيا الحمل علي مشهور المذهب الملتزم لا أتعداه، وهم يتعدونه ويفتون بما يسهل على السائل ويوافق هواه، وإن كان شاذًا في المذهب الملتزم أو في غيره. وأئمة أهل العلم على خلاف ذلك وللمسألة بسط في كتاب (الموافقات).

وتارة نسبتُ إلى معاداة أولياء اللَّه، وسبب ذلك أني عاديت بعض الفقراء المبتدعين المخالفين للسنة، المنتصبين ـ بزعمهم ـ لهداية الخلق، وتكلمت للجمهور على جملة من أحوال هؤلاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الصوفية ولم يتشبهوا بهم.

وتارة نسبت إلى مخالفة السنة والجماعة، بناء منهم على أن الجماعة التي أمر باتباعها ـ وهي الناجية ـ ما عليه العموم، ولم يعلموا أن الجماعة ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون لهم بإحسان. وسيأتي بيان ذلك بحول اللَّه، وكذبوا عليَّ في جميع ذلك، أو وهموا، والحمد للَّه على كل حال.

❑ فكنت على حالة تشبه حالة الإمام الشهير عبدالرحمن بن بطة الحافظ مع أهل زمانه إذ حكى عن نفسه فقال: «عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين، والعارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها موافقًا أو مخالفًا، دعاني إلى متابعته على ما يقول، وتصديق قوله والشهادة له. فإن كنت صدقته فيما يقول وأجزت له ذلك ـ كما يفعله أهل هذا الزمان ـ سماني

موافقًا وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله ـ سماني مخالفًا، وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد، سماني خارجيًّا، وإن قرأت عليه حديثًا في التوحيد سماني مشبهًا، وإن كان في الرؤية سماني سالميًّا، وإن كان في الإيمان سماني مرجئيًّا، وإن كان في الأعمال، سماني قدريًّا، وإن كان في المعرفة سماني كراميًّا، وإن كان في فضائل أبي بكر وعمر، سماني ناصبيًّا، وإن كان في فضائل أهل البيت، سماني رافضيًّا، وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما، سماني ظاهريًّا، وإن أجبت بغيرهما، سماني باطنيًّا. وإن أجبت بتأويل؛ سماني أشعريًّا، وإن حجدتهما، سماني معتزليًّا، وإن كان في السنن مثل القراءة، سماني شفعويًّا، وإن كان في القنوت[1] ، سماني حنفيًّا وإن كان في القرآن، سماني حنبليًّا، وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار ـ إذ ليس في الحكم والحديث محاباة ـ قالوا: طعن في تزكيتهم. ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرءُون على من أحاديث رسول اللَّه ﷺ ما يشتهون من هذه الأسامي؛ ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم أسخطت اللَّه تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من اللَّه شيئًا. وإني مستمسك بالكتاب والسنة وأستغفر اللَّه الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم».

هذا تمام الحكاية فكأنه ـ رحمه اللَّه ـ تكلم على لسان الجميع. فقلما تجد عالمًا مشهورًا أو فاضلاً مذكورًا، إلا وقد نبذ بهذه الأُمور أو بعضها؛ لأن الهوى قد يداخل المخالف، بل سبب الخروج عن السنة الجهل بها، والقوى المتبع الغالب على أهل الخلاف، فإذا كان كذلك حمل على صاحب السنة،

(١) يريد القنوت في الوتر دائمًا، أما القنوت في صلاة الصبح، فالشافعية هم الذين يلتزمونه.

إنه غير صاحبها، ورجع بالتشنيع عليه والتقبيح لقوله وفعله، حتى ينسب هذه المناسب.

❑ وقد نقل عن سيد العبّاد بعد الصحابة (أويس) القرني أنه قال: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدعا للمؤمن صديقًا، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا ويجدون على ذلك أعوانًا من الفاسقين، حتى ـ واللَّه ـ لقد رموني بالعظائم. وأيم اللَّه لا أدع أن أقوم فيهم بحقه».

فمن هذا الباب يرجع الإسلام غريبًا كما بدأ؛ لأن المؤالف فيه على وصفه الأول قليل، فصار المخالف هو الكثير، فاندرست رسوم السنة حتى مدت البدع أعناقها، فأشكل مرماها على الجمهور فظهر مصداق الحديث الصحيح.

ولما وقع عليَّ من الإنكار مع ما وقع ما هدى اللَّه إليه وله الحمد، لم أزل أتتبع البدع التي نبه عليها رسول اللَّه ﷺ وحذر منها، وبيّن أنها ضلالة وخروج عن الجادة وأشار العلماءُ إلى تمييزها والتعريف بجملة منها، لعلي أجتنبها فيما استطعت. وأبحث عن السنن التي كادت تطفئُ نورها تلك المحدثاتُ لعلي أجلو بالعمل سناها، وأُعدّ يوم القيامة فيمن أحياها، إذ ما من بدعة تحدث إلا ويموت من السنن ما هو مقابلتها، حسبما جاء عن السلف في ذلك.

❑ فعن ابن عباس قال: «ما يأتي على الناس من عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سنة، حتى تحيا البدعة وتموت السنن».

❑ وفي بعض الأخبار: لا يحدث رجل بدعة إلا ترك من السنة ما هو خير منها.

❑ وعن لقمان بن أبي إدريس الخولاني أنه كان يقول: «ما أحدثت أُمة في دينها بدعة إلا رفع بها عنهم سنة.

❑ وعن حسان ابن عطية قال: «ما أحدث قوم بدعة في دينهم إلا نزع اللَّه من سنتهم مثلها ثم لم يُعدها إليهم إلى يوم القيامة، إلى غير ذلك مما جاء في هذا المعنى وهو مشاهد معلوم.

فوجوت بالنظر في هذا الموضع الانتظام في سلك من أحيا سنة وأمات بدعة. وعلى طول العهد ودوام النظر اجتمع لي في البدع والسنن أُصول قررت أحكامها الشرعية، وفروع طالت أفنانها لكنها تنتظمها تلك الأُصول، وقلما توجد على الترتيب الذي سنح في الخاطر، فمالت إلى بثها النفس، ورأت أنه من الأكيد الطلب[1] لما فيه من رفع الالتباس الناشئ بين السنن والبدع؛ لأنه لما كثرت البدع وعم ضررها، واستطار شررها، ودام الإكباب على العمل بها، والسكوت من المتأخرين عن الإنكار لها، وخلفت بعدهم خلوف جهلوا أو غفلوا عن القيام بفرض القيام فيها، صارت كأنها سنن مقررات، وشرائع من صاحب الشرع محررات، فاختلط المشروع بغيره، فعاد الراجع إلى محض السنة كالخارج عنها كما تقدم، فالتبس بعضها ببعض، فتأكد الوجوب بالنسبة إلى من عنده فيها علم؛ وقلما صنف فيها على الخصوص تصنيف، وما صنف فيها فغير كاف في هذه المواقف، مع أن الداخل في هذا الأمر اليوم فاقدُ المساعد عديمُ المعين؛ فالموالى له يخلد به إلى الأرض، ويلقي له باليد إلى العجز عن بث الحق، بعد رسوخ العوائد في القلوب، والمعادي يرميه بالأردبيس، ويروم أخذه بالعذاب البئيس؛ لأنه يرد عوائده الراسخة في القلوب، المتداولة في الأعمال، دينًا يتعبد به، وشريعة يسلك عليها لا حجة له إلا عمل الآباء والأجداد، مع بعض الأشياخ العالمين، كانوا من أهل النظر في هذه الأمور أم لا. ولم يلتفتوا إلى أنهم عند موافقتهم للآباء والأشياخ مخالفون للسلف الصالح، فالمتعرض لمثل هذا الأمر

(١) كذا في الأصل، ولعل فيها تحريفًا من النساخ.

ينحو نحو عمر بن عبدالعزيز ﷺ في العمل حيث قال: ألا وإني أعالج أمرًا لا يعين عليه إلا اللَّه قد فنى عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه دينًا لا يرون الحق غيره.

وكذلك ما نحن بصدد الكلام عليه، غير أنه أمر لا سبيل إلى إهماله، ولا يسع أحدٌ ممن له منَّة إلا الأخذ بالحزم والعزم في بثه، بعد تحصيله على كماله، وإن كره المخالف فكراهيته لا حجة فيها على الحق ألا يرفع منارُه، ولا تكشف وتجلى أنواره، فقد خرج أبو الطاهر السِّلفي بسنده إلى أبي هريرة أن النبي ﷺ قال له: **«يا أبا هريرة علِّم الناس القرآن وتعلمه، فإنك إن مُت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما يزار البيت العتيق، وعلِّم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت ألا توقف على الصِّراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث في دين اللَّه حدثًا برأيك»**.

قال أبو عبداللَّه بن القطان: وقد جمع اللَّه له ذلك كله من إقراء كتاب اللَّه والتحديث بالسنة، أحب الناس أم كرهوا، وترك الحدث حتى إنه كان لا يتأوَّل شيئًا مما روى، تتميمًا للسلامة من الخطإ.

على أن أبا العرب التميمي حكى عن ابن فروخ أنه كتب إلى مالك بن أنس: إن بلدنا كثير البدع وإنه ألف كلامًا في الرد عليهم. فكتب إليه مالك يقول له: إن ظننت ذلك بنفسك خفت أن تزل فتهلك. لا يرد عليهم إلا من كان ضابطًا عارفًا بما يقول لهم لا يقدرون أن يعرجوا عليه فهذا لا بأس به، وأما غير ذلك فإني أخاف أن يكلمهم فيخطئ فيمضوا على خطئه أو يظفروا منه بشيءٍ فيطغوا ويزدادوا تماديًا على ذلك.

وهذا الكلام يقضي لمثلي بالإحجام دون الإقدام، وشياع هذا النكر وفشوُّ العمل به وتظاهر أصحابه يقضي لمن له بهذا المقام منَّةٌ بالإقدام دون الإحجام؛ لأن البدع قد عمت وجرت أفراسها من غير مغير ملءَ أعنتها.

❑ وحكى ابن وضاح عن غير واحد: أن أسد بن موسى كتب إلى أسد ابن الفرات: اعلم يا أخي أن ما حملني على الكتب إليك ما أنكر أهل بلادك من صالح ما أعطاك اللَّه من إنصافك الناس، وحسن حالك مما أظهرت من السنة، وعيبك لأهل البدع وكثرة ذكرك لهم وطعنك عليهم، فقمعهم اللَّه بك، وشدَّ بك ظهر أهل السنة، وقواك عليهم بإظهار عيبهم، والطعن عليهم، وأذلَّهم اللَّه بذلك وصاروا ببدعتهم مستترين. فأبشر يا أخي بثواب اللَّه، واعتد به من أفضل حسناتك من الصلاة والصيام والحج والجهاد. وأين تقع هذه الأعمال من إقامة كتاب اللَّه وإحياء سنة رسوله ﷺ؟! وقد قال رسول اللَّه ﷺ: **«من أحيا شيئًا من سنتي كنت وأنا وهو في الجنة كهاتين»** وضم بين إصبعيه.

وقال ﷺ: **«أيُّما داعٍ دعا إلى هذه فاتبع عليه كان له مثل أجر من تبعه رلى يوم القيامة»**.

فمن يدرك يا أخي هذا بشيءٍ من عمله؟! وذكر أيضًا: إن للَّه عند كل بدعة كيد بها الإسلامُ وليًّا للَّه يذب عنها، وينطق بعلامتها، فاغتنم يا أخي هذا الفضل وكن من أهله؛ فإن النبي ﷺ قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فأوصاه وقال: **«لأن يهدي اللَّه بك رجلاً واحداً خير لك من كذا وكذا»**. وأعظم القول فيه. فاغتنم ذلك وادع إلى السنة حتى يكون لك في ذلك أُلفة وجماعة يقومون مقامك إن حدث بك حدث، فيكونون أئمة بعدك فيكون لك ثواب ذلك إلى يوم القيامة كما جاءَ الأثر. فاعمل على بصيرة ونية حسنة فيرد اللَّه بك المبتدع والمفتون الزائغ الحائر، فتكون خلفًا من نبيك ﷺ فأَحْي كتاب اللَّه وسنة نبيه، فإنك لن تلقى اللَّه بعمل يشبهه.

❑ انتهى ما قصدت إيراده من كلام أسد ـ رحمه اللَّه. وهو مما يقوى جانب الإقدام مع ما روى عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنه خطب الناس فكان

من جملة كلامه في خطبته أن قال: واللَّه إني لولا أن أُنعش سنة قد أُميتت، أو أن أُميت بدعة قد أُحييت، لكرهت أن أعيش فيكم فواقًا.

❑ وخرَّج ابن وضاح في كتاب القطعان وحديث الأوزاعي أنه بلغه عن الحسن أنه قال: لن يزال للَّه نصحاءُ في الأرض من عباده يعرضون أعمال العباد على كتاب اللَّه فإذا وافقوه حمدوا اللَّه، وإذا خالفوه عرفوا بكتاب اللَّه ضلالة من ضل وهدى من اهتدى، فأولئك خلفاء اللَّه.

❑ وفيه عن سفيان قال: اسلكوا سبيل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهله، فوقع الترديد بين النظرين.

ثم إني أخذت في ذلك مع بعض الإخوان الذين أحللتهم من قلبي محل السويداء وقاموا لي في عامة أدواء نفسي مقام الدواء، فرأوا أنه من العمل الذي لا شبهة في طلب الشرع نشره، ولا إشكال في أنه بحسب الوقت من أوجب الواجبات، فاستخرت اللَّه تعالى في وضع كتاب يشتمل على بيان البدع وأحكامها وما يتعلق بها من المسائل أُصولاً وفروعًا وسميته بـ «الاعتصام». واللَّه أسأل أن يجعله عملاً خالصًا، ويجعل ظل الفائدة به ممدودًا لا قالصًا، والأجر على العناء فيه كاملاً لا ناقصًا؛ ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم[1].

* خمس قواعد من الشاطبي في ذم البدع وأهلها:

❑ قعد الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ قواعد في ذم البدع وأهلها:

القاعدة الأولى: عدم استقلال العقل بمعرفة مصالح دينيوية أو أخروية:

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «لا خفاء أن البدع من حيث تصورها يعلم

(١) «الاعتصام» للشاطبي (ص٢٥ ـ ٣٥) باختصار.

العاقل ذمها؛ لأن اتباعها خروج عن الصراط المستقيم، ورمي في عماية، وبيان ذلك من جهة النظر والنقل الشرعي العام».

أما النظر فمن وجوه:

أحدها: القاعدة الأولى:

«أنه قد علم بالتجارب والخبرة السارية في العالم من أول الدنيا إلى اليوم أن العقول غير مستقلة بمصالحها استجلابًا لها، أو مفاسدها استدفاعًا لها؛ لأنها إما دنيوية، أو أخروية. فأما الدنيوية فلا يستقل استدراكها على التفصيل البتة لا في ابتداء وضعها أولاً، ولا في استدراك ما عسى أن يعرض في طريقها، إما في السوابق وإما في اللواحق.

وأما المصالح الأخروية، فأبعد عن مصالح المعقول من جهة وضع أسبابها، وهي العبادات مثلاً، فإن العقل لا يشعر بها على الجملة، فضلاً عن العلم بها على التفصيل».

إلى أن قال: «فعلى الجملة: العقول لا تستقل بإدراك مصالحها دون الوحي، فالابتداع مضاد لهذا الأصل لأنه ليس له مستند شرعي بالفرض، فلا يبقى إلا ما ادعوه من العقل»[1].

القاعدة الثانية: المبتدع يستدرك على الشارع:

❑ يبين فيها الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «أن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان؛ لأن الله تعالى قال فيها: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

● وفي الحديث: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها الأعين

(١) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٤٦ ـ ٤٧).

ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول اللَّه، إن هذه موعظة مودع، فما تعهد إلينا؟ قال: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي**»[1] الحديث.

وثبت أن النبي ﷺ لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه في أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة.

فإذا كان كذلك، فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: أن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه، لم يبتدع، ولا استدراك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم»[2].

القاعدة الثالثة: «المبتدع معاند للشرع»:

❑ يبين فيها الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ: «أن المبتدع معاند للشرع ومشاق له؛ لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقًا خاصة على وجوه خاصة، ونصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها، إلى غير ذلك؛ لأن اللَّه يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين، فالمبتدع راد لهذا كله؛ فإنه يزعم أن ثم طرقًا أخرى، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عينه بمتعين، كأن الشارع

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة باب الزوم السنة: «سنن أبي داود» (٤/٢٠١)، «سنن الترمذي» (٥/ ٤٤)، قال الترمذي: حسن صحيح، «سنن ابن ماجه» (١/ ١٥/١٦)، والحديث بهذه الرواية التي ذكرها الشاطبي هي عند عبدالرحمن بن عمرو السلمي عند ابن ماجه، قال عنها الألباني: صحيح. انظر: «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ١٣ ـ ١٤). لكن الحديث اشتهر برواية يحيى بن أبي المطاع بدون «تركتكم على البيضاء».

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٤٨ ـ ٤٩).

يعلم، ونحن أيضًا نعلم، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع، أنه يعلم ما لم يعلمه الشارع. وهذا وإن كان مقصودًا للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع. وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين»[1].

القاعدة الرابعة: المبتدع مضاهٍ للشارع:

❑ يبيّن فيها: «أن المبتدع قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع؛ لأن الشارع وضع الشرائع وألزم الخلق الجري على سننها، وصار هو المنفرد بذلك؛ لأنه حكم بين الخلق فيما كانوا فيه يختلفون، وإلا فلو كان التشريع من مدركات الخلق لم تنزل الشرائع، ولم يبق الخلاف بين الناس، ولا احتيج إلى بعث الرسل عليهم السلام.

هذا الذي ابتدع في دين اللَّه قد صير نفسه نظيرًا ومضاهيًا حيث شرع مع الشارع، وفتح للاختلاف بابًا، ورد قصد الشارع في الانفراد بالتشريع وكفى بذلك»[2].

القاعدة الخامسة: المبتدع متبع للهوى:

❑ يبيّن فيها ـ رحمه اللَّه ـ: «أنه اتباع للهوى؛ لأن العقل إذا لم يكن متبعًا للشرع لم يبق له إلا الهوى والشهوة، وأنت تعلم ما في اتباع الهوى، وأنه ضلال مبين، ألا ترى قوله اللَّه تعالى: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [ص: ٢٦].

فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده، وهو الحق والهوى، وعزل العقل مجردًا، إذ لا يمكن في العادة إلا ذلك.

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٥٠ ـ ٥١).

(٢) «الاعتصام» (١/ ٥١ ـ ٥٢).

والمبتدع قدّم هوى نفسه على هدى اللَّه، فكان أضل الناس وهو يظن أنه على هدى فهذه قاعدة ينبغي أن تكون من بال الناظر في هذا المقام، وإن كانت أصولية فهذه نكتتها مستنبطة من كتاب اللَّه»[١].

* فتوى الشاطبي فيما تنتحله طائفة الفقراء (الصوفية) في الأندلس:

❑ سُئل الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ عن حكم ما تنتحله هذه الطائفة، فأجاب بما نصه:

«سألت ـ وفقني اللَّه وإياك ـ عن قوم يتسمون بالفقراء يجتمعون في بعض الليالي ويأخذون في الذكر، ثم في الغناء والضرب بالأكف، والشطح إلى آخر الليل.

والجواب، واللَّه الموفق للصواب:

إن اجتماعهم للذكر على صوت واحد إحدى البدع المحدثات التي لم تكن في زمن رسول اللَّه ﷺ، ولا في زمن الصحابة، ولا من بعدهم، ولا عرف ذلك قط في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، بل هو في البدع التي سماها رسول اللَّه ﷺ ضلالة وهي مردودة. ففي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»[٢]، يعني فهو مردود وغير مقبول، فذلك الذكر الذي يذكرونه غير مقبول. وفي رواية: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا هفو رد**»[٣].

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٥٣).

(٢) الحديث متفق عليه: عن عائشة رضي الله عنها، «صحيح البخاري مع الفتح» (٥/ ٣٠١)، «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٢/ ١٦)، «سنن أبي داود مع البذل» (١٨/ ١٤٦)، «سنن ابن ماجه» (١/ ٧)، «صحيح سنن ابن ماجه» للألباني (١/ ٧)، «مسند الإمام أحمد» (٦/ ٢٧٠).

(٣) «صحيح البخاري مع الفتح» (١٣/ ٣١٦)، «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٢/ ١٦)، =

❑ وعن الحسن البصري أنه سئل عن هذا فنهى عن ذلك أشد النهي.

❑ قال مالك بن أنس: فما لم يكن يومئذ دينًا لم يكن اليوم دينًا، وإنما يعبد اللَّه بما شرع.

* **الغناء والشطح:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ: «وأما الغناء والشطح فمذمومان على ألسنة السلف الصالح.

❑ فعن الضحاك[1] ـ رحمه اللَّه ـ: «الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب».

❑ وقال المحاسبي: «الغناء حرام كالميتة».

❑ وسُئل مالك بن أنس عن الغناء الذي يفعل بالمدينة، فقال: إنما يفعله عندنا الفساق.

وهذا محمول على غناء النساء، وأما الرجال فغناؤهم مذموم أيضًا؛ بحيث إذا داوم أحد على فعله أو سماعه سقطت عدالته لما فيه من إسقاط المروءة ومخالفة السلف.

وعلى الجملة فواجب على كل من كان قادراً على تغيير ذلك المنكر الفاحش القيام بتغييره وإخماد نار الفتنة، فإن البدع في الدين هلاك، وهي في الدين أعظم من السم في الأبدان»[2].

= «مسند الإمام أحمد بن حنبل» (٦/ ١٤٦، ١٨٠، ٢٥٦).

(١) الضحاك بن مزاحم الهلالي البلخي، الخراساني، أبو القاسم، مفسر، توفي سنة: ١٠٥هـ، له كتاب في التفسير. انظر «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٩٨)، «تهذيب التهذيب» لابن حجر (٤/ ٤٥٣).

(٢) «الاعتصام» (١/ ٢٦٤ ـ ٢٨٥)، و«فتاوى الإمام الشاطبي» (ص١٩٣ ـ ١٩٤).

❑ سُئل الشيخ الحفار ـ شيخ الشاطبي ـ عن نفس السؤال السابق، فأجاب بما نصه:

«إن هذه الطائفة المنتمية للتصوف في هذا الزمان قد عظم الشرر بهم في الدين، وفشت مفسدتهم في بلاد المسلمين، يظهرون ما انطوى عليه باطنهم من الضلال من تحليل ما حرم اللَّه، والافتراء عليه، وعلى رسوله. وبالجملة فهم قوم استخلفهم الشيطان على حل عرى الإسلام وإبطاله، وهدم قواعده؛ فهم أعظم ضررًا على الإسلام من الكفار، بهيمة من البهائم في دينهم، ليس عندهم من الدين إلا الغناء والشطح، وأكل أموال الناس بالباطل، فسول لهم الشيطان، وزين لهم هذه الطريقة، التي هي لهو ولعب، ولبسوا فيها على الجهال بالذكر الذي يفتتحون به مجالسهم»[1].

* الشاطبي الغيور.. المُعظِّم لأسماء اللَّه الحسنى..

سمع الشاطبي من بعض من ينتمي إلى الطريقة الفقرية شرح لبعض الآيات القرآنية بألفاظ كفرية صريحة، وسئل الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ عن حكم القائل بذلك، فأفتى بقتله من غير استتابة. وهذا نص ما ما ورد:

«شهد عيه أحدهم بأنه فسر قوله تعالى: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، بأن الحي: حيا المرأة يعني فرج المرأة. وأن القيوم: ذكر الرجل ـ تعالى اللَّه عن أقوال المفترين ـ.

فأجاب الشاطبي:

أن الشهود الثلاثة قد اتفقوا على معنى واحد يقتضي الحكم بقتله من غير استتابة، أما عدم استتابته فلاستتاره بتلك المقالات، وأما قتله فلأن شهادتهم اجتمعت على أنه كافر بشريعة محمد ﷺ فإن الحي القيوم من

(١) «المعيار المعرب والجامع المغرب» للونشرين (١١/ ٤٢) ـ دار الغرب الإسلامي.

أسماء اللَّه ثابت في الشريعة قرآنًا وسنة على معناه المفهوم الخاص والعام. فتحريفه إلى ذلك المعنى الخسيس كفر يصحبه من الاستهزاء ما لا يخفى. وكل من كفر بشيء من الشريعة فهو كافر بجميعها حسبما هو منقول عن السلف الصالح. فالتفسير لهذين الإسمين العظيمين بما ذكر تكذيب من المفسر بما أتى فيهما في الشريعة»[1].

* الشاطبي المنصف العادل كلامه في الصوفية الأوائل موافق لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية:

❑ كان الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ كغيره من العلماء المنصفين العادلين في الصوفية الأوائل، يجل الأوائل الذين ما انحرفوا عن الشريعة، وإنما كان زهدهم عبارة عن ترك الانغماس في الملذات، والميل إلى التقشف والشدة في العيش بما يناسب أحوالهم وأذكارهم وأورادهم مما ورد بها الأثر.

❑ يقول الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ في ذلك:

«وأما الكلام في دقائق التصوف فليس ببدعة بإطلاق، ولا هو مما صح بالدليل بإطلاق، بل الأمر ينقسم»[2].

❑ وقال في موطن آخر:

«وأما ما يرجع إلى العوارض الطارئة على السالكين، إذا دخل عليهم نور التوحيد الوجداني، فيتكلم فيها بحسب الوقت والحال، وما يحتاج إليه في النازلة الخاصة رجوعًا إلى الشيخ المربى، وما بين له في تحقيق مناطها بفراسته الصادقة في السالك بحسبه، وبحسب العارض، فيداويه بما يليق به

(١) «المعيار المعرب والجامع المغرب» (٢/ ٥١١ ـ ٥١٣)، و«فتاوى الإمام الشاطبي» (ص١٨٩ ـ ١٩٠) رقم الفتوى ٤٦).

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٢٠٧).

من الوظائف الشرعية والأذكار الشرعية، أو بإصلاح مقصده إن عرض فيه العارض، فمثل هذا لا بدعه فيه لرجوعه إلى أصل شرعي»[١].

❑ وقال أيضًا:

«ما يرجع إلى النظر في مدركات النفوس من العالم الغائب، وأحكام التجريد النفسي، والعلوم المتعلقة بعالم الأرواح، وذوات الملائكة والشياطين والنفوس الإنسانية والحيوانية، وما أشبه ذلك، وهو بلا شك بدعة مذمومة، إن وقع النظر فيه؛ فإنه لم يعهد مثله في السلف الصالح، وهو في الحقيقة نظر فلسفي، إنما يشتغل باستجلابه والرياضة لاستفادته أهل الفلسفة الخارجون عن السنة المعدودون في الفرقة الضالة، فلا يكون الكلام فيه مباحًا، فضلاً عن أن يكون مندوبًا إليه»[٢].

❑ ويذكر في موطن آخر أن عمل المتصوفة الأوائل لا ينبغي أن يعتبر به إلا إذا وافق أصل الشرع، وما لم يوافق ترك.

وهذا نص قوله: «كل ما عمل به المتصوفة المعتبرون في هذا الشأن لا يخلو: إما أن يكون مما ثبت له أصل في الشريعة أم لا.

فإن كان له أصل، فهم خلقاء به، كما أن السلف من الصحابة والتابعين خلقاء بذلك. وإن لم يكن له أصل في الشريعة فلا عمل عليه؛ لأن السنة حجة على جميع الأمة وليس عمل أحد من الأمة حجة على السنة»[٣].

❑ وبيَّن ـ رحمه اللَّه ـ أيضًا أن الصوفية ليسوا بمعصومين، وإنما يجوز عليهم من النسيان والخطأ والمعصية كبيرة كانت أو صغيرة كسائر الناس، فلا

---

(١) نفس المصدر السابق (١/٢٠٨).
(٢) نفس المصدر السابق (١/٢٠٩، ٢١٠).
(٣) المصدر السابق (١/٢١٧).

ينبغي قبول كل ما صدر منهم من الأعمال والأقوال إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة.

وهذا نص قوله ـ رحمه اللَّه ـ:

«فالصوفية كغيرهم ممن لم يثبت له العصمة، فيجوز عليهم الخطأ والنسيان والمعصية كبيرتها وصغيرتها، فأعمالهم لا تعدو الأمرين.

فالواجب علينا أن نقف مع الاقتداء بمن يمتنع عليه الخطأ، ونقف على الاقتداء بمن لا يمتنع عليه الخطأ إذا ظهر في الاقتداء به إشكال، بل نعرض ما جاء عن الأئمة على الكتاب والسنة، فما قبلاه قبلناه، وما لم يقبلاه تركناه»[1].

وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية، ونبه عليه، فقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون، خارجون عن السنة، وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

والصواب: أنهم مجتهدون في طاعة اللَّه، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة اللَّه، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه، وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا

(١) «الاعتصام» للشاطبي.

منهج كالحلاج[١] مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق»[٢].

* **العلماء العاملون هم السواد الأعظم وهم الجماعة:**

«أبو حمزة السكري هو الجماعة.. والسواد الأعظم محمد بن أسلم الطوسي»:

أورد الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ الحديث الصحيح المشهور في تفرّق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وهي «الجماعة»[٣]، وفي رواية: «ما أنا عليه وأصحابي»[٤]، وفي رواية: «السواد الأعظم»[٥].

ثم عدد أقوال أهل العلم في «الجماعة» وانتصر للقول الثاني منها فقال:

---

(١) الحسين بن منصور الحلاج الفارسي البيضاوي، صوفي ضال مضل، قال عنه الذهبي في «العبر» (١/ ٤٤٠) «ظهر أنه ادعى الإلهية، وصرّح بحلول اللاهوت في الناسوت، نودي عليه في بغداد: هذا أحد دعاة القرامطة فاعرفوه، وعلق مصلوبًا». قتل ببغداد سنة ٣٥٩هـ.

(٢) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١١/ ١٧ ـ ١٨).

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٤/ ١٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١٢٨)، وأبو عاصم في «السنة» (١/ ٧، ٣٢ ـ ٣٣)، والبغوي في «شرح السنة» (١/ ٢١٣)، وحسنه الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٦٣)، وصححه الألباني في تحقيقه للسنة لابن أبي عاصم.

(٤) رواه الترمذي (٥/ ٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٨ ـ ٢٩)، والبغوي في «شرح السنة»، وقال الأرناؤوط: يتقوى بحديث معاوية الصحيح.

(٥) «السنة» لابن أبي عاصم (١/ ٣٤، ٤١)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ١١٥ ـ ١١٦)، والطبراني في «الأوسط»، و«الكبير» و«الواسطي في تاريخ واسط» (ص١٣٥)، وفيه راوٍ لم يسم، وبقية رجال الأوسط ثقات، وكذلك أحد إسنادي «الكبير» قال الألباني في حاشية السنة لابن أبي عاصم بعد ذكره لكلام الهيثمي هذا: «فإن كان الحديث عندهما من غير طريق الفطن هذا فهو حسن».

«الثاني: إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين، فمن خرج مما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية؛ لأن جماعة العلماء، جعلهم اللَّه حجة على العالمين، وهم المعنيون بقوله ﷺ: «إن اللَّه لن يجمع أمتي على ضلالة»؛ وذلك أن العامة عنها تأخذ دينها، وإليها تفزع من النوازل وهي تبع لها.

فمعنى قوله: «لن تجتمع أمتي» لن يجتمع علماء أمتي على ضلالة.

وممن قال بهذا عبداللَّه بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وجماعة من السلف، وهو رأي الأصوليين.

فقيل لعبداللَّه بن المبارك: من الجماعة الذين ينبغي أن نقتدي بهم؟ قال: أبو بكر وعمر، فلم يزل يحسب حتى انتهى إلى محمد بن ثابت[١]، والحسين بن واقد[٢].

فقيل: هؤلاء ماتوا: فمن الأحياء؟

قال: أبو حمزة السكري[٣]»[٤].

---

(١) انظر ترجمته في «الكامل» لابن عدي (٦/ ٢١٤٥)، و«تهذيب التهذيب» لابن حجر (٩/ ٨٥).

(٢) انظر ترجمته في «تهذيب التهذيب» (٢/ ٣٧٣).

(٣) هو محمد بن ميمون المروزي أبو حمزة السكري، قال أحمد: ما بحديثه عندي بأس، وقال الدوري: كان من ثقات الناس، ووثقه النسائي، وقال ابن عبدالبر: ليس بقوي، وقال النسائي: قد ذهب بصره في آخر عمره، وذكره ابن القطان الفاسي فيمن اختلط، وقال الحافظ ابن حجر: ثقة فاضل من السابعة؛ مات سنة سبع أو ثمان وستين ومائة. انظر: «تهذيب التهذيب» (٩/ ٤٨٦)، «تقريب التهذيب» (٢/ ٢١٢، ٤١٤)، «تهذيب التهذيب»: (١٢/ ٧٩) في الكنى.

(٤) انظر: كلام ابن المبارك في: «سنن الترمذي بشرح عارضة الأحوذي» (٩/ ١١ ـ ١٣)، وقال الترمذي: وأبو حمزة هو محمد بن ميمون وكان شيخًا صالحًا، وإنما قال هذا في حياته عندنا، وفي «شرح السنة» للإمام البغوي (١/ ٢١٦)، وذكره الحافظ ابن حجر ـ رحمه اللَّه ـ عند ترجمة الحسين بن واقد في «تهذيب التهذيب» (٢/ ٣٧٣)، وكذا عند ترجمته (٩/ ٤٨٧).

❑ وعن المسيب بن رافع قال: كانوا إذا جاءهم شيء من القضاء ليس في كتاب اللَّه ولا سنة رسول اللَّه سموه «صوافي الأمراء»، فجمعوا له أهل العلم، فما أجمع رأيهم عليه فهو الحق.

❑ وعن إسحاق بن راهويه نحو مما قال ابن المبارك».

قال ـ رحمه اللَّه ـ: «فعلى هذا القول، لا مدخل في السؤال لمن ليس بعالم مجتهد؛ لأنه داخل في أهل التقليد، فمن عمل منهم بما يخالفهم فهو صاحب الميتة الجاهلية، ولا يدخل أيضًا أحد من المبتدعين؛ لأن العالم أولاً لا يبتدع، وإنما يبتدع من ادعى لنفسه العلم وليس كذلك، ولأن البدعة قد أخرجته عن نمط من يعتد بأقواله.

وهذا بناء على القول بأن المبتدع لا يعتد به في الإجماع، وإن قيل بالاعتداد بهم فيه، ففي غير المسألة التي ابتدع فيها؛ لأنهم في نفس البدعة مخالفون للإجماع، فعلى كل تقدير لا يدخلون في السواد الأعظم رأسًا».

❑ ثم بعد سرد أقوال العلماء[1] في معنى الجماعة قال ـ رحمه اللَّه ـ:

«فلنأخذ ذلك أصلاً ونبني عليه معنى آخر، وذلك أن الجميع اتفقوا على اعتبار أهل العلم والاجتهاد، سواء ضموا إليهم العوام أم لا، فإن لم يضموا إليهم فلا إشكال أن الاعتبار إنما هو بالسواد الأعظم من العلماء المعتبر اجتهادهم، فمن شذ عنهم فمات؛ مات ميتة جاهلية.

وإن ضموا إليهم العوام فبحكم التبع؛ لأنهم غير عارفين بالشريعة، فلا بد من رجوعهم في دينهم إلى العلماء؛ فإنهم لو تمالئوا على مخالفة العلماء فيما حدوا لهم لكانوا هم الغالب والسواد الأعظم في ظاهر الأمر، لقلة العلماء وكثرة الجهال.

---

(١) انظر هذه الأقوال الخمسة في «الاعتصام» (٢/ ٢٦٠ ـ ٢٦٥).

فلا يقول أحد: إن اتباع الجماعة العوام هو المطلوب، وإن العلماء هم المفارقون للجماعة، والمذمومون في الحديث.

بل الأمر بالعكس، وإن العلماء هم السواد الأعظم وإن قلوا، والعوام هم المفارقون للجماعة إن خالفوا، فإن وافقوا فهو الواجب عليهم.

فلا يمكن أن يعتبر العوام في هذه المعاني بإطلاق، وعلى هذا لو فرضنا خلو الزمان عن مجتهد لم يمكن اتباع العوام لأمثالهم، ولا عد سوادهم أنه السواد الأعظم المنبه عليه في الحديث الذي من خالفه فمنته جاهلية، بل يتنزل النقل عن المجتهدين منزلة وجود المجتهدين، فالذي يلزم العوام مع وجود المجتهدين هو الذي يلزم أهل الزمان المفروض الخالي عن المجتهد».

واستطرد قائلاً: «وأيضًا فاتباع نظر من لا نظر له، واجتهاد من لا اجتهاد له محض ضلالة، ورمي في عماية، وهو مقتضي الحديث الصحيح: **«إن اللَّه لا يقبض العلم انتزاعًا»** الحديث[1].

وروى أبو نعيم عن محمد بن القاسم الطوسي[2] قال: سمعت إسحاق ابن راهويه وذكر في حديث رفعه إلى النبي ﷺ قال: **«إن اللَّه لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة فإذا رأيتم الاختلاف فعليكم بالسواد الأعظم»**.

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٥٠)، كتاب العلم (٦/ ٢٦٦٥)، كتاب العتصام بالكتاب والسنة، «صحيح مسلم» (٤/ ٢٠٥٨)، كتاب العلم «سنن الترمذي» (٥/ ٣١)، كتاب العلم «سنن ابن ماجه» (١/ ٢٠٠)، المقدمة، «مسند الإمام أحمد» (٢/ ١٦٢، ١٩٠)، «سنن الدارمي» (١/ ٧٧)، «مشكل الآثار» للطحاوي (١/ ١٢٧)، «مسند الحميدي» (١/ ٢٦٥)، «الزهد» لابن المبارك (٢٨١)، «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر (١/ ١٤٩)، «موضح أوهام الجمع» للبغدادي (٣٢١).

(٢) هو محمد بن القاسم، أبو عبداللَّه، خادم محمد بن أسلم، هذا قدر ما وقفت عليه من ترجمته. ذكره أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٣٨)، ونقله منه الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٩٦).

فقال رجل: يا أبا يعقوب ـ من السواد الأعظم؟ فقال: محمد بن أسلم[١] وأصحابه، ومن تبعهم.

ثم قال إسحاق: لو سألت الجهال عن السواد الأعظم لقالوا: جماعة الناس، ولا يعلمون أن الجماعة عالم متمسك بأثر النبي ﷺ وطريقه، فمن كان معه وتبعه فهو في الجماعة، ثم قال إسحاق: لم أسمع عالمًا منذ خمسين سنة كان أشد تمسكًا بأثر النبي ﷺ من محمد بن أسلم»[٢].

❑ قال الشاطبي ـ رحمه اللَّه ـ: «فانظر في حكايته تتبين غلط من ظن أن الجماعة هي جماعة الناس وإن لم يكن فيهم عالم، وهو وهم العوام، لا فهم العلماء. فليثبت الموفق في هذه المزلة قدمه لئلا يضل عن سواء السبيل»[٣].

ويؤيد كلام الشاطبي قول العلماء أن الفرقة الناجية هم: «أصحاب الحديث كما قال علي بن المديني وقول الإمام أحمد: «إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم»[٤].

* الدين النصيحة.. وكل يؤخذ من قوله ويترك:

رحم اللَّه الشاطبي بذبه عن السنة، وتنفيره من البدع وجهاده لأهلها

---

(١) محمد بن أسلم بن سالم بن يزيد، أبو الحسنالكندي، مولاهم، الطوسي، من حفاظ الحديث، اشتهر بالصلاح، ونعته الذهبي بشيخ المشرق، توفي سنة ٢٤٢هـ من كتبه «المسند» و«الرد على الجهمية»، و«الإيمان والأعمال في الرد على الكرامية» انظر: «الجرح والتعديل» للرازي (٧/ ٢٠١)، «حلية الأولياء» للأصفهاني (٩/ ٢٣٩)، «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٩٥)، «شذرات الذهب» (٢/ ١٠٠)، «الأعلام» للزركلي (٦/ ٣٤).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩)، «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ١٩٦ ـ ١٩٧).

(٣) «الاعتصام» (٢/ ٢٦٧).

(٤) «معرفة علوم الحديث» للحاكم (ص٢).

بقلمه ولسانه وغفر اللَّه له فيما حاد فيه عن عقيدة السلف في الأسماء والصفات فإنه أشعري، يقول بقولهم في الرؤية ويقول بالتفويض في الاستواء والصفات السمعية كالوجه، واليدين، والعين، والرجل، والضحك والنزول، وينحي منحى الأشاعرة في الإيمان، وصفة الكلام للَّه تبارك وتعالى، ويقول في التأويل خاصة في صفات الباري بقول الأشعرية، ويرى أن ذلك فرع من الفروع[1] عفا اللَّه عنه وغفر له.

* * *

(١) انظر «الإمام الشاطبي.. عقيدته وموقفه من البدع» الباب الثاني كله (ص١٥٩ ـ ٣٠٤).

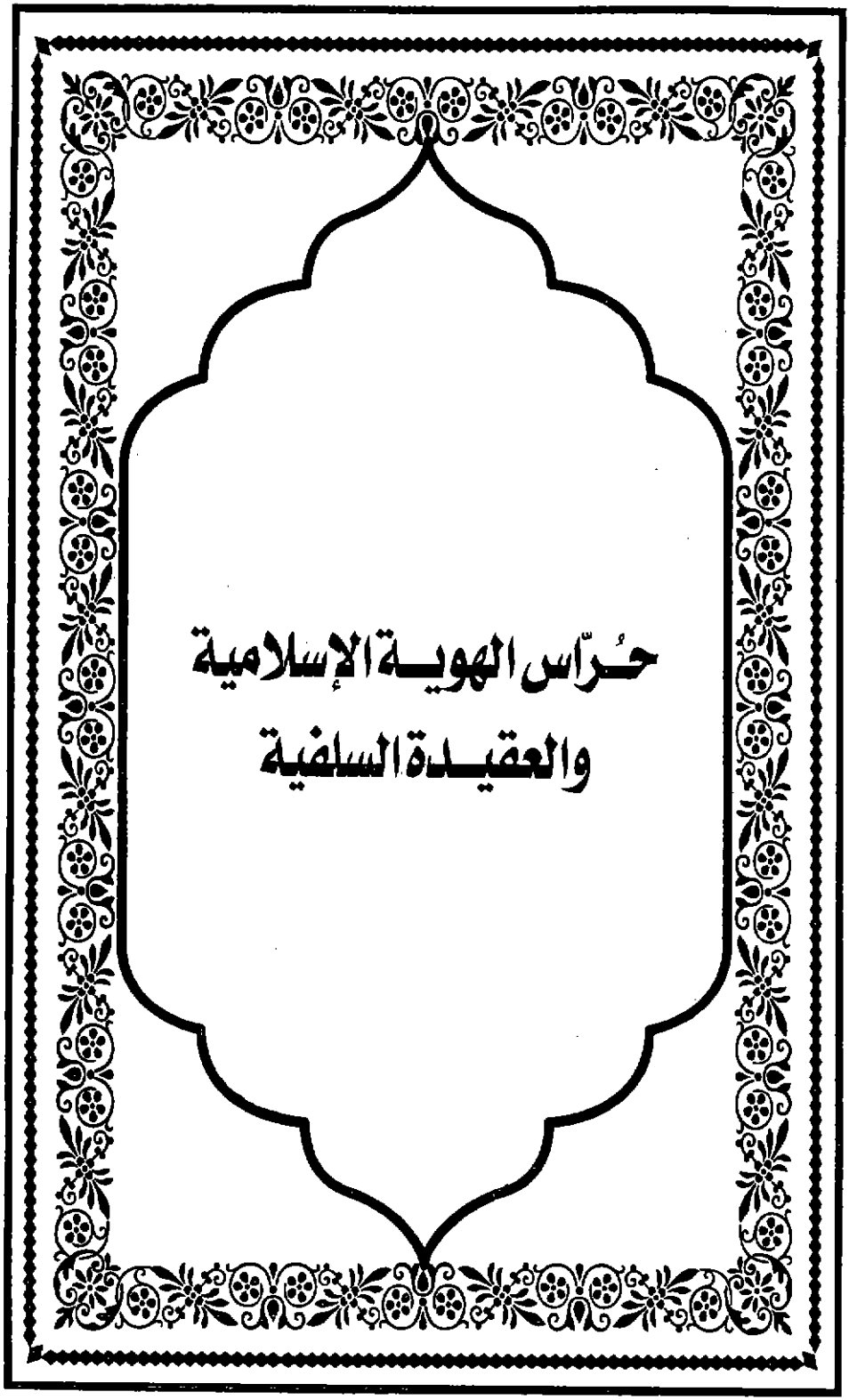
حُرّاس الهوية الإسلامية
والعقيدة السلفية

حُرّاس الهوية الإسلامية والعقيدة السلفية

* **شيخ الإسلام ابن تيمية:**

✍ مرّ ذكر شيخ الإسلام فيما سبق، وفي نظري أن شيخ الإسلام ابن تيمية هو المثل الجميل للهوية الإسلامية والعقيدة السلفية، والشخصية السلفية في أسمى شمولها، لقد كان الهدف الأساسي لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية هو تنقية العقيدة الإسلامية من رواسب البيئة، وتهويلات أهل البدع والأهواء، حتى تبقى واضحة نقية طبق الكتاب والسنة، كما كانت في عهد الإسلام الزاهر.

❑ وصلت دعوته إلى القارات الخمس الآن، وعمّت مشارق الأرض ومغاربها، [وفرضت هيمنتها العقدية والفقهية والجهادية على المخالفين قبل الموافقين، واعتبرت شخصيته ميزانًا لمعرفة الخطأ والصواب فيما بعده من العصور. وكان علماء البلاد يُعرفون باتجاهاتهم بالميل إليه، أو الميل عنه حتى بدأ يُذكر هذا الوصف في تراجمهم فيُقال «كان من المائلين إلى ابن تيمية، أو المائلين عنه»[1]][2].

لقد كرّس ابن تيمية جهده وقلمه وحياته لاقتلاع الشركيات ومظاهرها، والبدع والخرافات وأساطيرها، والعودة بالأمة إلى الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، في العقائد والأحكام والعبادات والمعاملات، والمعيشة والاقتصاد والسياسة والاجتماع، والسلطة والحكم وغيرها من نواحي الحياة الإنسانية. أوقف حياته على تصحيح العقيدة، واتباع الدليل لتسير الأمة على

(١) «طلب العلم وطبقات المتعلمين» للشوكاني (ص١٤).

(٢) «دعوة شيخ الإسلام» للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد (ص٣٣٦).

الدرب السليم الذي يؤدي إلى منهج الأنبياء في الدعوة والإرشاد.

❑ يقول الشيخ محمد خليل هراس: «هذه هي دعوة ابن تيمية: إصلاح وإحياء وتجديد. فهو بحق أبو النهضة الإسلامية، وواضع أساسها. وجميع دعاة الإسلام من بعده إنما بهديه اقتدوا، وعلى كتبه تخرّجوا»[١].

❑ وقال الأستاذ أبو الحسن الندوي: «كان القرن الثامن بحاجة إلى مثل هذا الرجل الكامل الذي يسع نشاطه كل مجال من مجالات الحياة، من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاوية واحدة، أو تتركز على جانب واحد.

كان ذلك الرجل هو شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاط وحياة وتحركات علمية وعملية، لا تزال آثارها خالدة باقية على مرّ القرون والأجيال»[٢].

لقد حارب ابن تيمية التصوف الفلسفي وعرّى أصحاب الكلام، ونقد الأشاعرة والمعتزلة والشيعة، وحارب التقليد، وجاهد في اللّه حق جهاده.

❑ قال الأستاذ المودودي: «لكن نداءه لأتباع الإسلام الخالص المحض كان نفخة صور أحدثت في العالم حركة دائمة لا نزال نسمع صداها في أقطار الإسلام بين حين وآخر»[٣].

❑ لقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية سدًّا منيعًا ضد رواسب التعصّب والتحيّز، ومفاسد الجمود والركود، وعُقَد المنطق والفلسفة وأوحال الحلول والاتحاد؛ حتى تعيش الأمة حياة سعيدة مستقيمة لا شقاء فيها ولا عناء، ولا انحراف فيها ولا ضلال يتمثلها حديث: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما**

---

(١) «ابن تيمية السلفي» لمحمد خليل هراس طبعة اليوسفية ١٩٥٢م.

(٢) «الحافظ ابن تيمية شيخ الإسلام» للندوي.

(٣) «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» للمودودي (ص٧٩) ـ مؤسسة الرسالة.

تمسّكتم بهما كتاب اللَّه وسنة نبيه»[١] .

❑ لقد أدى شيخ الإسلام خدمات جليلة لأمته لا تُنسى في إصلاح الأحوال الدينية، والسياسية، والاجتماعية، وإليكم الخطوط العريضة لمجالات[٢] الدعوة والإرشاد التي خاضها شيخ الإسلام بكل جدارة بفضل اللَّه تعالى ومنّه:

(أ) الدعوة للإصلاح السياسي:

*** ركّز ابن تيمية في هذا المجال على أمور ثلاثة:**

الأول: بناء تصور سليم للحكم الإسلامي:

خلاصة هذا أنه لا يكفي أن تكون الدولة الإسلامية والإدارة فيها قوية فحسب، وإنما يجب أن تكون منسجمة أيضًا مع الأصول الواردة في القرآن والسنّة، وكما طبقها السلف الصالح.

وقد وضح شيخ الإسلام كثيرًا من آرائه في الإصلاح السياسي في كتابيه: «السياسة الشرعية» و«الحسبة في الإسلام»[٣] .

الثاني: إقامة حكومة قوية:

سعى شيخ الإسلام لتحقيق هذا الجانب، إلى إقامة العلاقات بأمراء المماليك وإقناعهم بمنهج الكتاب والسنّة في الحكم، حتى قيل في عدد من

---

(١) «الموطأ» للإمام مالك (٢/ ٨٩٩ ـ ط فؤاد عبدالباقي)، والحديث من بلاغيات الإمام مالك، ومال العلامة الألباني إلى تصحيحه من حديث عدّ حديث «... كتاب اللَّه وعترتي أهل بيتي» شاهدًا قويًا لحديث الموطأ هذا، بعدما ذكر «وعترتي أهل بيتي» في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (١٧٦١) لأنه يوافق لفظ «وسنّة رسوله».

(٢) راجع التفاصيل عن ميادين الإصلاح التي تناولها شيخ الإسلام، في كتاب «الفكر التربوي عند ابن تيمية».

(٣) «الفكر التربوي» (٥٣ ـ ٥٤). للدكتور ماجد عرسان الكيلاني طبعة عمان.

هؤلاء أنهم من تلاميذه وأتباعه، أمثال:

- زين الدين كاتوبغا المنصوري (ـ٧٠٢هـ) الذي كان حاكم حماة[١].
- وأرغون شاه الناصري (ـ٧٠٥هـ) الذي تولى منصب نائب السلطان في مصر وحلب ودمشق[٢].
- والأمير سلار، نائب الملك ناصر بن قلاوون (ـ٧٠٩هـ)[٣].
- والأمير حسام الدين مهنا بن عيسى الطائي (ـ٧٣٥هـ) ملك العرب، الذي أخرج شيخ الإسلام من السجن سنة ٧٠٧هـ معظّمًا له ومكرّمًا[٤].
- السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ـ ٧٤١هـ) الذي عاد للسلطنة سنة ٧٠٩هـ بعدما قتل الجاشنكير الجركسي، وكان أول عمل له إطلاق سراح ابن تيمية من منفاه في الإسكندرية.

الثالث: بعث روح الجهاد والمقاومة لمواجهة الأخطار الخارجية:

*** ومن إنجازات شيخ الإسلام في هذا الميدان:**

- نجاحه في إقناع قازان الثاني أن لا ينهب دمشق خلال الغزو المغولي عام ٦٩٩هـ. وتكلّم مع قازان كلامًا أثار دهشة الحاضرين. حتى قازان نفسه تعجّب من جرأته وشجاعته في الحق[٦].
- لما جاوز قازان المغولي بجيشه الفرات عام ٧٠٠هـ، وقصد حلب وأخذ الناس يتركون البلاد طلبًا للنجاة من شراسة المغول. قام شيخ الإسلام

(١) «شذرات الذهب» (٦/ ٥).
(٢) المصدر المذكور (٦/ ٢٧٧).
(٣) المصدر المذكور (٦/ ١٩).
(٤) المصدر المذكور (٦/ ١١٢).
(٥) المصدر المذكور (٦/ ١٣٤).
(٦) «البداية والنهاية» (١٤/ ٨٩).

يحث الناس على الجهاد، واجتمع بالأمراء، وذهب إلى القاهرة يسأل السلطان محمد بن قلاوون الدفاع عن الشام[١] .

❑ وفي عام ٧٠٢هـ حين لاح خطر المغول مرة ثالثة، كان شيخ الإسلام في الصف الأول من المعركة. وأصدر فتوى بالإفطار للمقاتلين، وكان لوجوده الأثر الكبير في الانتصار في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ[٢] .

❑ وفي عام ٦٩٩هـ، وكذلك في عام ٧٠٤هـ شارك شيخ الإسلام في الحملة ضد الإسماعيلية، في جبل كسروان، الذين كانوا يتعاونون مع الصليبيين والمغول[٣] ، فاستتابوا خلقًا منهم، وألزموهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيدًا ومنصورًا[٤] .

❑ قال الأستاذ المودودي بعد أن ذكر عمل ابن تيمية التجديدي:

«مضافًا إلى هذا التجديدي جاهد بالسيف همجية التتر ووحشيتهم.

كانت بلاد مصر والشام عند ذلك بمفازة من هذا السيل، فنفث الإمام في قلوب الرؤساء وعامة المسلمين هناك روح الغيرة والحمية والحماس، وحرّضهم على مقاومة أولئك وقد شهد معاصرو الإمام أن المسلمين كان بلغ منهم الخوف والفزع من التتر أن كانوا يرتعشون لمجرد ما يسمعون ذكرهم، وكانوا يحجمون عن لقائهم خوفًا وذعرًا، كأنما يُساقون إلى الموت.

ولكن ابن تيمية أيقظ فيهم روح الشجاعة والاستبسال بما بثَّ في قلوبهم من التحمس وحب الجهاد»[٥] .

---

(١) المصدر المذكور (١٤/ ١٥ ـ ١٦)، و«شذرات الذهب» (٥/ ٤٥٥).

(٢) «شذرات الذهب» (٦/ ٤).

(٣) «الفكر التربوي» (ص٥٥).

(٤) «البداية والنهاية» (١٤/ ١٢، ٣٥).

(٥) «موجز تاريخ تجديد الدين» (ص٧٩).

(ب) الدعوة للعدالة الاجتماعية:

اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الواجبات الدينية جزء مكمل للحياة الاجتماعية وأن أركان الإسلام الخمسة تتجسّد في العدل الاجتماعي.

ولتجسيد النظام الاجتماعي في واقع الحياة، وتسهيل تصوّره عمل شيخ الإسلام على إشاعة نظام التربية على منهج أهل السنّة، ضد النظم التربوية الأخرى التي فتّتت المجتمع إلى مذاهب متناحرة، وطرق متنافرة.

ويقدّم كتاب «الحسبة في الإسلام» إطارًا مفصّلاً لهذا النظام الذي يغطّي كل مظاهر الحياة الدينية والدنيوية، والمعاملات التجارية، والحرف المهنيّة والخدمات العامة[1].

(ج) الدعوة للقضاء على انحرافات الفرق الضالّة:

بذل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللّه تعالى ـ جهودًا جبارة في تصحيح عقائد المسلمين؛ لأنه هو الهدف الأول الشريف لبعثة الأنبياء والرسل. فمن تكون دعوته على منهج الأنبياء يقدّم جانب تحقيق توحيد اللّه في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته، على الجوانب الأخرى من الإصلاحات في الحياة الإنسانية.

ومعلوم أن شيخ الإسلام نشأ في إطار المذهب الحنبلي، ولكنه فضّل التمسك بالكتاب والسنّة في العقائد والأحكام، من دون أن يتقيّد بمذهب معين. وصرّح بهذا الأمر قائلاً:

«مع أني في عمري إلى ساعتي هذه، لم أدعُ أحدًا قطّ في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها.

(١) «الفكر التربوي» (ص٥٥).

وقد قلت لهم غير مَرَّة: أنا أمهل من يخالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلتُه فأنا أقرّ بذلك.

وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بالفاظهم، وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف[1].

انطلاقًا من هذا الموقف العادل المستقيم قام شيخ الإسلام بنقد مدارس الفكر المعاصرة في ضوء الكتاب والسنّة وأقوال السلف الصالح. وشمل نقده مدرسة الفلاسفة والمتكلمين، ومدرسة الصوفية والروافض وغيرها من المدارس المنحرفة عن الخط المستقيم الذي حدّدَه الكتاب والسنّة[2].

*** شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب مجدد زمانه إمام الدعوة السلفية في العصر الحديث:**

«هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن مشرف النجدي التميمي. ولد سنة ١١١٥هـ ونشأ في بيت علم، فوالده من علماء البلاد وتولى القضاء في عدة جهات، وجده الشيخ سليمان كان عالمًا جليلاً وإمامًا في الفقه وهو المفتي في البلاد في وقته وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء وطلبة العلم، وعمه الشيخ إبراهيم ابن سليمان كان من أجلة العلماء، فنشأ الشيخ محمد في هذا الجو العلمي وكان حاد الذهن متوقد الذكاء سريع الحفظ، حفظ القرآن الكريم قبل سن العاشرة ودرس على والده كتب الفقه الحنبلي وكان كثير المطالعة والقراءة للكتب إلى جانب قراءته على والده، فقرأ في كتب التفسير والحديث والأصول، وعني عناية خاصة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب العلامة

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/ ٢٢٩).

(٢) راجع «الفكر التربوي» (١٧٢ ـ ١٩٣).

ابن القيم، وكان لكتب هذين الإمامين أكبر الأثر في تكوين شخصيته العلمية المتميزة والأخذ بيده إلى مصادرة العلم الصحيحة فتكوَّن لديه الاتجاه السليم منذ صغره وتركزت في قلبه العقيدة الصحيحة، وتخرج على كتب هذين الإمامين المحققين»[1].

*** حالة المسلمين عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب:**

«لقد ذكر المؤرخون كابن غنام وابن بشر وغيرهما عن حالة أهل نجد خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا الشيء الكثير من ظهور البدع والخرافات والشركيات والجهل بحقيقة الدين الصحيح، ففي نجد كانت القبور والأشجار والأحجار والمغارات تعبد من دون اللَّه بأنواع من القربات، وفي الحجاز واليمن وغيرهما من البلاد من ذاك الشيء الكثير، يقول العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني في قصيدة له يصف المظاهر الشركية في البلاد الإسلامية وهو معاصر للشيخ محمد وقد وصف ما يفعل ويمارس حول القبور من الشرك الأكبر فيثني على دعوة الشيخ:

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه ... يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهرًا ما طوى كل جاهل ... ومبتدع منه فوافق ما عندي
ويعمر أركان الشريعة هادما ... مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله ... يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة ... أهلت لغير اللَّه جهرًا على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل ... ومستلم الأركان منهن باليد

(١) «من مشاهير المجددين في الإسلام» للدكتور صالح الفوزان (ص٥٦ ـ ٥٧) طبع أنصار السنة.

ويقول الإمام الشوكاني وهو من المعاصرين لدعوة الشيخ أيضًا، يقول في وصف ما يفعل عند القبور من الشرك: وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر، فجعلوها مقصدًا لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا، وبالجملة إنهم لم يدعوا شيئًا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب للَّه ويغار حمية للدين الحنيف لا عالمًا ولا متعلمًا ولا أميرًا ولا وزيرًا ولا ملكًا، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيرًا من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف باللَّه فاجرًا، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة، فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين أي درء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير اللَّه، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجبًا:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو نارًا نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

انتهى من «نيل الأوطار» (٤/ ٩٠).

وقد ألف كل من هذين الإمامين رسالة في التحذير من هذا الشرك الذين فشا في البلدان في عصرهما فألف الصنعاني رسالة اسمها «تطهير

الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، وألف الشوكاني رسالة اسمها «شفاء الصدور بتحريم البناء على القبور» وكلتا الرسالتين مطبوعة ومتداولة.

❑ وإليك ما قاله فاضلان من أهل العلم معاصران للشيخ محمد ودعوته، قالا ـ رحمهما اللَّه ـ:

«من محمد بن غيهب ومحمد بن عيدان إلى عبداللَّه المويس، الباعث للكتاب إخبارك عن ديننا قبل أن يجعل هذا الشيخ لهذا القرن[1] يدعوهم إلى اللَّه وينصح لهم ويأمرهم وينهاهم حتى أطلع اللَّه به شموس الوحي وأظهر به الدين وفرق به أهل الباطل من السادة والكهان والمرتشين فهو غريب في علماء هذا الزمان هو في شأن وهم في شأن آخر، رفع اللَّه له علم الجهاد فشمر إليه فأمر ونهى ودعا إلى اللَّه تعالى ونصح ووفى بالعهد لما نقضوه وشمر عن ساعد الجد لما تركوه وتمسك بالكتاب المنزل لما نبذوه فبدعوه وكفروه، فديننا قبل هذا الشيخ المجدد لم يبق منه إلا الدعوى والاسم فوقعنا في الشرك فقد ذبحنا للشياطين ودعونا الصالحين ونأتي الكهان ولا نفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ولا بين توحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا نفرق بين السنة والبدعة فنجتمع لليلة النصف من شعبان لصلاتها الباطلة التي لم ينزل بها من سلطان ونضيع الفريضة، ونقدم قبل الصلاة الوسطى ـ صلاة العصر ـ من الهذيان ما يفوتها عن وقت الاختيار إلى وقت الضرورة، هذا وأضعافه من البدع لم ينهنا عنه علماؤنا بل أقرونا عليه وفعلوه معنا فلا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر ولا ينصحون جاهلاً ولا يهدون ضالاً والكلام من جهتهم طويل عصمنا اللَّه وإياك من الاقتداء بهم واتباع طريقتهم فكن منهم على حذر إلا

(١) كذا في الأصل ولعلّ الصواب: «يجيء» بدل يجعل.

القليل منهم ويكفيك عن التطويل أن الشرك باللَّه يخطب به على منابرهم ومن ذلك قول ابن الكهمري: اللَّهم صل على سيدنا وولينا ملجانا منجانا معاذنا ملاذنا. وكذلك تعطيل الصفات في خطب الطيبي فيشهد أن اللَّه لا جسم ولا عرض ولا قوة.

فقبل هذا الشيخ لا تؤدى أركان الإسلام كالصلاة والزكاة فلم يكن في بلدنا من يزكي الخارج من الأرض حتى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا».

❑ في وسط هذا الجو المظلم الذي سبق وصفه سطعت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ورفع صوته منكرًا هذا الشرك داعيًا الناس إلى التوحيد الذي بعث اللَّه به رسوله محمدًا ﷺ فلقي من الناس ما يلقاه أمثاله من الدعاة إلى اللَّه من الأذى وأطاعه من وفقه اللَّه لقبول الحق، يقول حفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن ـ رحمه اللَّه ـ: ثم رجع إلى نجد وهم على الحالة التي لا يحبها اللَّه ولا يرضاها من الشرك بعبادة الأموات والأشجار والأحجار والجن، فقام فيهم يدعوهم إلى التوحيد وأن يخلصوا العبادة بجميع أنواعها للَّه، وأن يتركوا ما كانوا يعبدونه من قبر أو طاغوت أو شجر أو حجر، والناس يتبعه الواحد منهم والاثنان فصاح به الأكثرون وحذروا منه الملوك وأغروهم بعداوته. انتهى من «الدرر السنية» (٩/ ٢١٦).

❑ وأصول دعوته ـ رحمه اللَّه ـ هي الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، والاعتماد على الكتاب والسنة وأقوال صالح سلف الأمة، وألزم من تحت يديه إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض اللَّه ونهاهم عن الربا

---

(١) المصدر السابق (ص٦٠ ـ ٩١)، نقلاً عن كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» للشيخ عبداللَّه البسام (٢/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦).

وشرب المسكر وأنواع المنكرات.

*** المراحل التي مرت بها دعوة الشيخ محمد ـ رحمه اللَّه ـ:**

بدأ الشيخ دعوته في بلدة حريملا لوجود والده فيها، ولكن لما كانت الظروف غير مواتية ترك هذه البلدة بحثًا عن غيرها فاتجه إلى العيينة واتصل بأميرها عثمان بن معمر فساعده في أول الأمر واجتمع حوله طلبة وبدأ بتنفيذ الأحكام الشرعية فهدم بعض القباب الشركية ورجم في الزنا، ثم إن ابن معمر تخلى عنه خوفًا من تهديد بعض الرؤساء، فترك الشيخ العيينة وبحث عن غيرها فاتجه إلى الدرعية واتصل بأميرها محمد بن سعود وعرض عليه دعوته فقبلها وبايعه على مناصرته وصدق في ذلك، وهنا استقر الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ وانعقدت حوله حلق الدروس ووفد إليه الطلاب من مختلف الجهات وتكونت في هذه البلدة ولاية إسلامية أميرها الإمام محمد بن سعود وموجهها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وامتدت الدعوة إلى البلاد المجاورة ونشأ الجهاد في سبيل اللَّه لإعلاء كلمة التوحيد وقمع الشرك، وما هي إلا فترة وجيزة حتى انتشرت الدعوة وتوحدت جميع البلدان النجدية تحت رايتها، وامتدت فيما بعد ذلك إلى الحجاز وعسير وشمال الجزيرة، وكان ذلك بفضل اللَّه وحده ثم بمؤازرة آل سعود لهذه الدعوة المباركة، وصدق اللَّه وعده: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠][1].

قال الشيخ محمد رشيد رضا في التعريف بكتاب «صيانة الإنسان» للسهسواني بعد أن ذكر فشو البدع بسبب ضعف العلم، وعدم العمل بالكتاب

(١) «من مشاهير المجددين في الإسلام» (ص٧٦ ـ ٧٧).

والسنة، ونصر الملوك والحكام لأهل البدع، وتأييد المعممين لها قال ـ رحمه اللَّه ـ: «لم يخل قرن من القرون التي كثرت فيها البدع من علماء ربانيين، يجددون لهذه الأمة بالدعوة والتعليم وحسن القدوة، وعدول ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، كما ورد في الأحاديث، ولقد كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب النجدي من هؤلاء العدول المجددين قام يدعو إلى تجديد التوحيد، وإخلاص العبادة للَّه وحده، بما شرعه في كتابه، وعلى لسان رسوله خاتم النبيين ﷺ، وترك البدع والمعاصي، وإقامة شعائر الإسلام المتروكة، وتعظيم حرماته المنتهكة، فقامت لمناهضته واضطهاده القوى الثلاث: قوة الدولة والحكام، وقوة أنصارها من علماء النفاق، وقوة العوام والطغام، وكان أقوى سلاحهم في الرد عليه أنه خالف جمهور المسلمين، وهم كاذبون في زعمهم هذا» اهـ.

* الشبه التي أثيرت حول دعوة الشيخ:

تعرضت دعوة الشيخ كغيرها من دعوات المصلحين للنقد من قبل خصومها وأثيرت حولها شبهات ربما تروج على من لم يعرف حقيقتها، وقد أثير كثير من هذه الشبهات في حياة الشيخ ورد عليها بنفسه، وأثير البعض الآخر أو بالأصح أعيدت إثارة نفس تلك الشبه بعد وفاته فرد عليها تلامذته وغيرهم من محققي علماء المسلمين الذين لا يروج عليهم البهرج والكذب ولا تأخذهم في اللَّه لومة لائم ومن هذه الشبه:

١ ـ أنه يبطل كتب المذاهب الأربعة وأن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء.

٢ ـ أنه يدعي الاجتهاد وأنه خارج عن التقليد وأنه يقول اختلاف العلماء نقمة.

٣ ـ أنه يحرم زيارة قبر الرسول ﷺ وزيارة قبر الوالدين وغيرهما.

٤ ـ أنه يكفر من حلف بغير اللَّه.

وقد أجاب الشيخ عن هذه بقوله: جوابي عن هذه المسائل أني أقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، وقبله من بهت النبي ﷺ أنه يسب عيسى بن مريم ويسب الصالحين فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب وقول الزور قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٠٥]، الآية بهتوه ﷺ بأنه يقول إن الملائكة وعيسى وعزيرًا في النار فأنزل اللَّه في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآية. انتهى، انظر «الدرر السنية» (١/ ٣٠ ـ ٣١).

٥ ـ قالوا إنه ينهى عن الصلاة على النبي ﷺ وأنه يقول: لو أن لي أمرًا هدمت قبة النبي ﷺ وأنه يتكلم في الصالحين وينهى عن محبتهم.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: هذا كذب وبهتان افتراه عليَّ الشياطين الذين يريدون أن يأكلوا أموال الناس بالباطل، انظر «الدرر» (١/ ٥٢).

٦ ـ قالوا: إنه يكفر جميع الناس إلا من اتبعه وأن أنكحتهم غير صحيحة.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: يا عجبًا كيف يدخل هذا في عقل عاقل وهل يقول هذا مسلم، إني أبرأ إلى اللَّه من هذا القول الذي ما يصدر إلا من مختل العقل فاقد الإدراك، فقاتل اللَّه أهل الأغراض الباطلة، انظر «الدرر» (١/ ٥٥).

٧ ـ قالوا: إنه يكفر بالعموم ويوجب الهجرة إليه على من قدر على إظهار دينه.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: كل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين اللَّه ورسوله، وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على عبدالقادر والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبههم فكيف نكفر من لم يشرك باللَّه ولم يهاجر

إلينا أو لم يُكفِّر ويُقاتل[1] ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم. انظر «الدرر» (١/ ٦٦).

٨ ـ قالوا: إنه ينكر الشفاعة، فردّ الشيخ على ذلك بقوله: «سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نشهد أن رسول اللَّه ﷺ الشافع المشفع صاحب المقام المحمود نسأل اللَّه الكريم رب العرش العظيم أن يشفعه فينا، وأن يحشرنا تحت لوائه، هذا اعتقادنا وهذا الذي مشى عليه السلف الصالح من المهاجرين والأنصار والتابعين وتابع التابعين والأئمة الأربعة ﷺ وهم أحب الناس لنبيهم وأعظمهم في اتباعه وشرعه، فإن كانوا يأتون عند قبره يطلبونه الشفاعة فإن اجتماعهم حجة، والقائل إنه يطلب الشفاعة بعد موته ويورد علينا الدليل من كتاب اللَّه أو من سنة رسول اللَّه أو من إجماع الأمة والحق أحق أن يتبع، انتهى من «الدرر السنية» (١/ ٤٦).

٩ ـ وأما اتهام الشيخ أنه يكفر بالعموم ويقاتل المسلمين، فقد أجاب عنه الشيخ بقوله: وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول ثم بعد ما عرفه سبه ونهى عنه وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفر، وأكثر الأمة وللَّه الحمد ليسوا كذلك، وأما القتال فلم نقاتل أحدًا إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكنا، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾، وكذلك من جاهر بسب دين الرسول بعد ما عرف فإنا نبين لكم أن هذا هو الحق الذي لا ريب فيه وأن الواجب إشاعته في الناس وتعليمه الرجال والنساء، انتهى من «الدرر السنية» (١/ ٥١).

❑ وقال أيضًا لما بين بطلان الذي يفعله القبوريون: فهذا الذي أوجب

---

(١) يعني: لم يكفر المسلمين ويقاتلهم.

الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا اللَّه عليهم وظفرنا بهم، وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجة من كتاب اللَّه وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه﴾ [الأنفال: ٣٩]، فمن لم يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] انتهى من «الدرر السنية» (١/ ٥٨)»[1].

▫ وقد دافع أهل العلم عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب بعد وفاته، وفندوا أباطيل وأكاذيب خصومه، وألفوا في ذلك مؤلفات ضخمة من أشهرها:

١ ـ «مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام ونسب إليه تكفير أهل الإسلام» في مجلد وهو للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن ابن حسن من آل الشيخ ـ رحمهم اللَّه.

٢ ـ «معارج القبول»، للشيخ الحسين بن مهدي النعمي من علماء اليمن في مجلد.

٣ ـ «غاية الأماني في الرد على النبهاني» للشيخ محمود شكري الألوسي من علماء العراق وهو في مجلدين.

٤ ـ «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للشيخ محمد بشير السهسواني الهندي في مجلد، وغير ذلك من الكتب التي ألفت في الذب عن

(١) «من مشاهير المجددين في الإسلام» (ص٨٣ ـ ٨٦).

دعوة الشيخ حتى من غير المسلمين.

وهكذا يقيض اللَّه سبحانه للحق أنصاراً في كل زمان تقوم بهم حجة اللَّه على خلقه، فللَّه الحمد والمنة، وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين»[1].

*** ثمرات دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه اللَّه ـ وآثارها:**

إن كل دعوة من الدعوات وكل عمل من الأعمال إنما تعرف قيمته من ثمراته المترتبة عليه ومن أثره الذي يتركه، وإن دعوة الشيخ وللَّه الحمد لما كانت دعوة خالصة للَّه مترسمة منهج رسول اللَّه ﷺ مستمدة علمها من الكتاب والسنة صار لها أطيب الأثر واستمر نفعها وبقي أثرها وأنتجت للأمة خيرات كثيرة منها:

١ ـ قيام دولة إسلامية هي دولة آل سعود الذين آزروا هذه الدعوة وجاهدوا في سبيلها، ولا تزال هذه الدولة وللَّه الحمد تحكم بشريعة اللَّه وتخدم الحرمين الشريفين وتشد أزر المسلمين في كل مكان من بقاع العالم بعمارة المساجد والمراكز الإسلامية والتعليمية.

٢ ـ تصحيح العقيدة الإسلامية مما علق بها من الشركيات والبدع والخرافات وإرجاعها إلى منبعها الصافي من كتاب اللَّه وسنة رسوله، وقد طهر اللَّه كل البلاد التي صار لهذه الدعوة المباركة فيها نفوذ وسلطة من جميع مظاهر الشرك والبدع والخرافات.

٣ ـ امتداد أثر هذه الدعوة المباركة خارج بلادها حتى انتفع بها من هدفه الحق في مختلف بلدان العالم الإسلامي في الشام ومصر والمغرب العربي وأفريقيا والسودان واليمن والعراق والهند وباكستان وأندونسيا وغيرها.

---

(١) المصدر السابق (ص٩٢ ـ ٩٣).

٤ ـ وجود حركة علمية واعية متحررة من التقليد الأعمى، فانتشر التعليم في المساجد في مختلف مناطق البلاد حتى تخرج فيه علماء أفذاذ في حياة الشيخ وبعدها قاموا بنشر هذه الدعوة ورعايتها إلى يومنا هذا، ثم أسست لهذا التعليم جامعات إسلامية تخرج الأفواج تلو الأفواج من مختلف العالم الإسلامي مسلحين بالعقيدة الصحيحة والفكر السليم ينتشرون في العالم الإسلامي وغيره للدعوة إلى اللَّه.

٥ ـ نشاط حركة التأليف والنشر، فقد قدم علماء هذه الدعوة للأمة الإسلامية رصيداً من الكتب النافعة في الأصول والفروع ومن ذلك:

١ ـ مؤلفات الشيخ محمد عبدالوهاب إمام الدعوة ويتكون من اثني عشر مجلداً في الفقه والعقائد والتفسير والحديث والسيرة.

٢ ـ مجموع الفتاوى والرسائل لعلماء الدعوة ويتكون من أحد عشر مجلداً.

٣ ـ كتب ألفها أئمة الدعوة في مختلف العصور للرد على خصوم الدعوة تبلغ العديد من المجلدات وهي مطبوعة ومتداولة.

٤ ـ نشر كتب السلف وتوزيعها على المسلمين في موسم الحج وغيره.

٥ ـ نشر كل مفيد من المؤلفات العصرية وتوزيعها مجاناً[1].

* العالم الرباني والزعيم السياسي عبدالحميد بن باديس.. يحافظ على هوية الجزائر العربية الإسلامية:

وُلِدَ الإمام الجليل الشيخ عبدالحميد بن محمد بن مصطفى بن مكي بن باديس يوم ١١/٤/١٣٠٧هـ، ٤ ديسمبر ١٨٨٩م، وقبيلته هي صنهاجة ولها

(١) المصدر السابق (ص٨٠ ـ ٨٣).

دور كبير في مقاومة الشيعة الرافضة.

* **تعليمه:**

أتم ابن باديس حفظ القرآن وهو في الثالثة عشرة من عمره على يد الشيخ محمد المداس، وتلقى علوم العربية والفقه والحديث على يد الشيخ حمدان التونسي، ثم اتجه إلى الزيتونة عام ١٣٢٦ وهناك مكث أربع سنوات، وتلقى فيها علم التفسير على يد الشيخ محمد النخلي، والأدب على يد الشيخ الطاهر بن عاشور، والتاريخ على يد البشير صفر، وكان رحمه اللَّه على رأس قائمة الخريجين.

* **صفاته:**

كان للشيخ ابن باديس هيبة الإيمان يدركها من عرفه ومن لم يعرفه، وكان الشيخ الإبراهيمي يرى انقياد الناس لابن باديس فلا يتمالك نفسه حتى يقول: «ما أقوى نفوذ هذا الرجل»[1]، ويقول تلميذ ابن باديس الشيخ محمد الصالح رمضان ـ الذي عاش في غرفة ملاصقة لغرفة ابن باديس خمس سنوات «إن للشيخ عبدالحميد بن باديس قوة روحية خارقة سببها الجانب الروحي»[2].

كان ـ رحمه اللَّه ـ زاهدًا انتقل من بيت والده إلى غرفة بجوار مسجد قموش، وكان طعامه قليلاً لا يزيد عن الكسرة واللبن وفنجان أو فنجانين من القهوة يوميًا. وكان ـ رحمه اللَّه ـ إذا دُعي إلى طعام اشترط الاقتصار على

---

(١) «عبدالحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي» لمازن صلاح مطبّقاتي (ص٣٧) ـ دار القلم دمشق.

(٢) في مقابلة لمازن مطبقاتي مع محمد الصالح رمضان في منزله في الجزائر في ١٥ نوفمبر ١٩٨٣ ـ انظر المصدر السابق (ص٣٧).

صنف واحد من الطعام، وكان يسأل عن الكسكسي فإن وجده لم يأكل معه غيره[١].

❑ وكان ـ رحمه اللَّه ـ يحرص على ارتداء البُرنس المنسوج قماشه في الجزائر. ويذكر أحد تلاميذه أنه بينما كان الشيخ يلقي درسه نظر إلى تلاميذه فرأى أحدهم يلبس برنسًا مصنوعًا قماشه في فرنسا فقال له: «ما هذا البرنس؟ أمّا أنا فأفضّل الذي صنعته أمي على الذي صنعته ضرتها»[٢].

❑ أما عن شجاعته فلا بد من ذكر موقفه حين كان في وفد المؤتمر الإسلامي الذي قابل رئيس الوزراء دلاديبه، فتحدث المسئول الفرنسي إلى الوفد مهددًا بقوة فرنسا، فرّد عليه ابن باديس: «ونحن لدينا مدفع، إنها مدافع اللَّه»[٣].

❑ يقول عنه مراسل جريدة البتي ماتان الفرنسية «الشيخ ابن باديس يمثل حقًّا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الجهوري يستفزّ الجماهير فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة السلام. وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة عاليه من التقدير. وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة، أمّا سمعته فقد اخترقت البحار، وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله»[٤].

❑ ويقول عنه أستاذ في جامعة ستراتسبورغ «هذا الرجل الذي استطاع ألوف من مواطنيه رؤيته والحكم على حياته، ذلك أن برنامج حياته اليومي

---

(١) المصدر السابق (ص٣٩).
(٢) المصدر السابق (ص٣٨).
(٣) المصدر السابق (ص٤١).
(٤) المصدر السابق (ص٤٤) نقلاً عن الشهاب (٥/ ١٣) ـ ١٠ يونية ١٩٣٧.

يوضح لنا بجلاء شخصيته الحقيقية؛ لأنه لا يوجد شخص يستطيع أن يخدع الجميع كل الوقت».

* **الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي:**

«كانت الجزائر أول قطر عربي، احتله الفرنسيون خاصة، وتعرض للاحتلال الأوروبي عامة، وكان ذلك عام ١٨٣٠م وطال الاحتلال البغيض إلى عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، حين وقع الطرفان ما يعرف باسم معاهدة إيفيان التي حصل بها الجزائريون على استقلالهم بعد ثورة عارمة اشتعلت سنة ١٩٥٤م وهي التي أجبرت المحتل الغاصب على توقيع المعاهدة والانسحاب من الأراضي الجزائرية. والتي كانت جمعية العلماء المسلمين التي أسسها الشيخ عبدالحميد بن باديس في أواخر حياته المباركة سنة ١٩٢٨م والتي استمر يجاهد من أجل إيجاد نخبة متميزة من العلماء الإيجابيين حتى وفاته سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، هي الزاد القوي الذي تربى عليه المجاهدون سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

❑ ونعود فنقول: إن فرنسا اتبعت في حكمها للجزائر منذ عام ١٣٤٩هـ/ ١٨٣٠م، سياسة رهيبة، تعتبر بحق نموذجًا لسياسة الاحتلال البشع، حيث ارتكزت دعائمها على الأسس التالية:

١ ـ دمج الجزائر في فرنسا دمجًا كاملاً، وتحويلها إلى أرض فرنسية.

٢ ـ تحويل الجزائر في لغتها وثقافتها وهويتها إلى الفرنسية، وهو ما يعرف باسم الفرنسة، أي فرنسة الجزائر.

٣ ـ عدم النهوض بمستوى الشعب الجزائري وفرض سياسة التخلف عليه.

٤ ـ التفرقة العنصرية بين الشعب الجزائري من عرب وبربر لإشعال

الفتن بينهم.

٥ ـ اتباع سياسة الاقتصاد المغلق لحساب الاقتصاد الفرنسي، من حيث استثمار كافة الموارد والثروات الطبيعية والأراضي وموارد الرزق، بيد فرنسا.

٦ ـ ضرب أي حركة وطنية بالقوة وقمع الثورات بمنتهى الوحشية، ومن ذلك ما رواه المؤرخون من أن [قبيلة جزائرية فرت مرة من ظُلم وقسوة الفرنسيين، إلى كهوف الجبال، فما كان من الجيش الفرنسي إلا أن ملأ الكهوف أولاً بالدخان، ثم سد مداخلها ببناء الجدران عليها]!!!

ويتميز شعب الجزائر بروح المقاومة الجهادية، لذلك ورغم الاضطهاد اللعين من المحتل الغاصب، إلا أن المقاومة بدأت منذ وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر، الذين اتخذوا من قصة المروحة الشهيرة ذريعة لاحتلال الجزائر وغزوها عسكريًّا، إذ ادعَتْ أن الداي حاكم الجزائر، قد أهان قنصل فرنسا سنة ١٨٢٧م حين طالبه بدفع ثمن الحبوب والخيول والجلود والقروض المادية التي مضى على المماطلة في دفع ثمنها خمس وثلاثون سنة، وزعمت أن الداى رمى القنصل بمروحة كانت في يده، فردت على هذه الإهانة المزعومة، بتحريك الأسطول الفرنسي، وفرض الحصار على الشواطيء الجزائرية، ثم قامت بضرب مدينة الجزائر، وإنزال الجنود لحصارها من البر والبحر حتى اضطر الداى رغم المقاومة الباسلة إلى التسليم في ٥ يوليو سنة ١٨٣٠م.

ومع ذلك القهر المسلح لشعب الجزائر، فقد قاد المقاومة المسلحة منذ أول يوم الأمير عبدالقادر الجزائري ولمدة سبعة عشر عامًا، حتى اضطر إلى التسليم، وقبول النفي الاختياري، فاختار دمشق، وظل بها حتى مات سنة ١٨٨٣م ولم تنقطع سلسلة المقاومة ومجاهدة العدو الغاصب، وتوالت الثورات التي قادها نساء ورجال برزوا في تاريخ الجزائر الجهادي مثل، الشهيدة المجاهدة لالا فاطمة سنة ١٨٥٦م، ومحمد المعتراني سنة ١٢٩٠هـ/

١٨٧١م، وثورة أولاد سيدي الشيخ سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨١م، ثم فترت إلى حين، وحتى قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها استأنف الجهاد عدد من المثقفين والضباط وأسسوا اللجان الوطنية لتنظيم الجهاد، وشكلوا وفدًا لعرض القضية على مؤتمر الصلح بباريس، وتأسست جمعية (نجمة شمال إفريقيا) سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م بزعامة مصالي الحاج، التي نادت بحق الجزائريين في تملك أراضيهم، ووجود برلمان يمثلهم، واستخدام اللغة العربية في مناهج التعليم والدوائر الحكومية، لكن قوة البطش المحتلة عملت على حل هذه الجمعية.

وهنا نصل إلى جمعية علماء المسلمين، التي أنشأها الشيخ عبدالحميد ابن باديس[1] سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م، التي حافظت على هوية الجزائر الإسلامية ولغتها العربية وهي موضوع تفصيلنا. ومن ثم فلنا معها وقفة، ومع مؤسسها وقفات، لنستلهم الدرس المستفاد، ونقدمه كهدف تربوي يفيد في بعث روح الجهاد بين الأجيال».

*** وقفة مع الصليبيين الفرنسيين قبل الحديث عن «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»:**

منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر عملوا على محاربة الإسلام لعلمهم بأن الإسلام هو مصدر قوة المسلمين بالجزائر، ورافق حملة الاحتلال مجموعة من القسس ليشهدوا انتصار النصرانية على الإسلام عاقدين العزم على إعادة إفريقيا الشمالية بلدًا مسيحيًّا.

ويؤكد هذا ما قاله لويس فويو كاتب الجنرال بيجو سنة ١٨٤١م (١٢٥٦هـ): «إن العرب لن يكونوا لفرنسا إلا إذا صاروا فرنسيين، ولن

(١) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة» لصفوت منصور (ص٦٥ ـ ٦٨) ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية.

يكونوا فرنسيين إلا إذا تنصروا»[١] .

❑ وبرر أحد الفرنسيين سياسة التنصير بقوله: «إن تعصب المسلمين هو الأمر الحقيقي الذي يدعم المقاومة التي نواجهها في أفريقيا، وهذا الدين (الإسلام) الذي احترمناه إلى يومنا هذا نقترح الآن بجرأة محاربته، وهكذا نثبّت قومنا وننشر طقوسنا على أنقاض الإسلام».

❑ وطالب الأسقف لافيجري ـ الذي أصبح فيما بعد بمرتبة كاردينال ـ طالب الحكومة الفرنسية بأن عليها أن تفسح للمنصِّرين المجال ليقدموا الإنجيل للشعب الجزائري وإلا فعليها أن تطرده إلى الصحاري بعيدًا عن العالم المتمدن»[٢] .

❑ واستولت فرنسا على الأوقاف الإسلامية، وقامت بالاستيلاء على المساجد، وهدمت معظمها وحوّلت بعضها إلى مكاتب وثكنات عسكرية، وسنّت القوانين للحد من حرية التعليم الإسلامي، وذلك بالتدخل في مناهج التدريس، ومنعت تفسير القرآن ولا سيما آيات الجهاد.

وفتحت المدارس الفرنسية لتعليم بعض أبناء الجزائر تعليمًا فرنسيًّا لا دينيًّا يجعل هؤلاء الجزائريين يفخرون بأن بلادهم هي بلاد الغال وأجدادهم هم الغاليون، وأنه ليس هناك وطن اسمه الجزائر، وهذا نص ما قاله أحد أبناء الجزائر المتخرّج من هذه المدارس «فما كنت لأموت من أجل هذا «الوطن الجزائري»؛ لأن هذا الوطن لا وجود له»[٣] . أما تاريخ البلاد الحقيقي فتنقله لهم بصورة مشوهة.

---

(١) «عبدالحميد بن باديس» لمازن صلاح (ص٢١).

(٢) المصدر السابق (ص٢٢)، و«رسالة الأسقف» مؤرخة في ٦ أبريل ١٨٦٨م.

(٣) «الشهاب» (١/ ١٢) في محرم ١٣٥٥هـ ـ أبريل ١٩٣٦م (ص٤٣ ـ ٤٤).

* **البعثات التنصيرية:**

ومن وسائل الاحتلال في محاربة الإسلام تشجيع البعثات التنصيرية، وعلى رأسها «جماعة الآباء البيض» التي استخدمت أحط الوسائل لتنصير الشعب الجزائري، ومن ذلك اغتنام فرصة المجاعة الكبيرة التي حدثت في الجزائر بين عامي ١٢٨٢ ـ ١٢٨٤ = ١٨٦٦ ـ ١٨٦٨م لجمع عدد من الأيتام لتربيتهم تربية مسيحية وتعميدهم. ومن الوسائل الأخرى بناء المستشفيات والحقيقة أن هذه الوسائل اصطدمت بمقاومة الإسلام الصلبة التي شبهتها كاتبة فرنسية بالأسمنت المسلح، وذلك في قولها: «وردّ المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي عشرين عامًا ١٨٣٠ ـ ١٨٥٠م = ١٢٤٥ ـ ١٢٦٥هـ يُحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ، وينشئ المستشفيات فلا يتردد إليها مريض، وتعددت الصعوبات في وجه المحتل وكثرت، وأصبح الدين الإسلامي كالأسمنت المسلح يحمي من التفكك والاندماج»[1].

❑ وقد مضى لافيجري ومساعدوه في نشاطهم التنصيري رغم هذه العراقيل، ولما حقق بعض النجاح طمع في مدّ نشاطه إلى دول المغرب الأخرى، ودول أفريقية أخرى.

❑ وكان من أخطر القرارات الفرنسية اعتبار الجزائر قطعة من فرنسا وقسّمتها إلى ثلاث ولايات هي: قسنطينة، والجزائر، ووهران، وأصدرت عام ١٢٨١هـ = ١٨٦٥ قرارها المعروف «بسناتوس كونسلت» الذي ينص على أن جميع الجزائريين هم رعايا فرنسيون، ويحق لهم الحصول على الجنسية الفرنسية شريطة أن يتنازلوا عن الاحتكام إلى قانون الأحوال الشخصية

---

(١) «عبدالحميد بن باديس» (ص٢٤)، و«الحرب الثقافية في الجزائر المستعمرة الفرنسية» للكتابة الفرنسية يوفانتورين ـ باريس ١٩٧١ ـ (ص٢٥).

الإسلامي. وقد باء هذا القرار بالفشل؛ وذلك أن عدد الذين قبلوا الجنسية الفرنسية حتى عام ١٣٣٧هـ = ١٩١٩م لم يتجاوز خمسمائة وألفي شخص. أما من بقي من الجزائريين على جنسيته الجزائرية الإسلامية فقد أخضعته السلطات الفرنسية لمعاملة قاسية لا تليق بالعجماوات. وذلك بفرضها على الجزائريين قانونًا خاصًا أسمته الأنديجينا (الأهالي) عام ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م. وهذا القانون يحد من حرية الجزائري، ويجعله عرضة للمحاكمة والغرامة لأتفه الأسباب ومنها الكلام بما لا يليق في فرنسا وحكومتها.

❑ قال محمد فريد بك «نائب الزعيم مصطفى كامل» حين زار الجزائر عام ١٩٠١م (١٣١٩هـ): «يُعامل المسلمون في الجزائر بقوانين مخصوصة في غاية الشدة والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة، وحرية الاجتماع، بل ومن حرية السفر والانتقال، وحرية مطالعة الكتب والجرائد، ومن الغريب في بلاد الجزائر أنه لا يجوز للعربي أن يُسافر خارج المركز الذي يقيم فيه»، وقال في مقال آخر: «وصارت الديار مرتعًا للجهل والجهلاء، وكادت تندرس معالم اللغة العربية الفصحى، وتطرّقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية بل أصبحت اللغة الفرنساوية هي لغة التخاطب في العواصم مثل (وهران وقسنطينة وعنابة وغيرها من السواحل والثغور)»[1].

*** ابن باديس للّه دره:**

بعد أن أتم الشيخ ابن باديس دراسته في جامع الزيتونة بتونس، رحل ابن باديس إلى الحجاز، الذي كانت الدعوة السلفية قد ذاعت فيه وانتشرت، «فتشبع بأفكارها حين اتصل بشيوخها من أمثال الشيخ حمدان الونيسي

(١) «الشيخ عبدالحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر» لتركي رابح (ص٥٢، ٩٨)، وجريدة «اللواء» الأعداد ٦٠٩ في أكتوبر ١٩٠١م، ٦١٢ في ١٣ أكتوبر ١٩٠١م.

المهاجر الجزائري، والشيخ أحمد حسين الهندي، وقد أشار عليه الشيخ الهندي بالعودة إلى وطنه الجزائر، وخدمة الإسلام فيه قدر الجهد وخدمة اللغة العربية كذلك، وهنا يقول الشيخ ابن باديس: «ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته، فنحن لا نهاجر، نحن حرّاس الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن».

❑ ويعقب الدكتور محمد فتحي عثمان في كتابه: «عبدالحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة» على كلمة القومية بقوله (ص٣٨): «ولم تكن القومية في رأي ابن باديس إلا الحفاظ على شخصية الشعب الجزائري الإسلامية العربية أمام المحاولات الدائبة لفرنسته» وهذا تعقيب هام، حتى لا يظن القارئ المتعجل أن الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ كان يأخذ بمفهوم القومية العنصري، وهو الذي تربى على الإسلام، الذي ينبذ القومية العرقية، والتي ذمها رسول الإسلام سيدنا محمد ﷺ قائلاً: **دعوها فإنها منتنة»**[1].

*** التعليم:**

«عندما التقى ابن باديس الشيخ البشير الإبراهيمي في المدينة المنورة في حج عام ١٣٣١هـ = ١٩١٣م اتفقا أنهما حينما يعودان إلى الجزائر سوف يبدآن حركة علمية يكون فيها التركيز على الكيف لا على الكم. ونظرًا لأهمية هذا الموقف نورد هنا نص كلمات الإبراهيمي ـ رحمه اللَّه ـ حيث قال: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربّيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي

(١) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة» للباديسية (ص٦٩ ـ ٧٠).

أعددناه من تلامذتنا»[١] .

بدأ ابن باديس نشاطه التعليمي في المسجد الكبير بقسنطينة فور عودته من تونس عام ١٣٣٠هـ = ١٩١٢م، ثم انتقل إلى المسجد الأخضر الذي بناه حسين باي عام ١١٥٦هـ، وكتب في صدر المسجد بجوار المحراب أنه بناه للعبادة والعلم. وتلك مسألة لا تحتاج إلى تدوين أو تسجيل فمتى كان المسجد لغير هذا إلا عندما أصبح أصحاب المساجد ليسوا أصحابها. بل ما أجمل بيان ابن باديس في إجلاء هذا الجانب إذ يقول: «المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام، فما بنى النبي ﷺ يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم...»[٢] .

إن المناهج والكتب التي أقرأها ابن باديس على أهميتها وعظيم شأنها إلا أنها في نظرنا تحتل مرتبة ثانية بعد أسلوب التعليم والتربية الذي اتبعه ابن باديس. فقد بدأ دروسه بعدد محدود من التلاميذ حتى مع مرور الأيام أصبح هؤلاء التلاميذ طبقات، تكوّنت لهم مؤسسة تعليمية شاملة أشبه ما تكون بجامعات اليوم: تقدّم المسكن والمأوى، والطعام والدواء، والرعاية الاجتماعية والنفسية لطلابها. لقد سار ابن باديس بالمسجد الأخضر خطوات عظيمة حتى أصبح مدرسة لتكوين القادة، وذلك بتربيتهم على الإحساس بما أصاب أمتهم

---

(١) مقالة «أنا» لمحمد البشير الإبراهيمي ـ مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، العدد ٢١ سنة ١٩٦٦م.

(٢) «عبدالحميد بن باديس» تقرير في التعليم المسجدي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام ـ نادي الترقي بالجزائر عام ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م، أعيد نشره مصورًا عن الأصل (ص١٠٤).

من الوهن والضعف، وتعويدهم على الإحساس بأن مسئوليتهم ليست مجرّد تلقّي العلم وتلقينه بل إنقاذ أمتهم مما وصلت إليه. ولم نذكر الجامعات الإسلامية كالزيتونة والقرويين والحرمين؛ لأن تلك المعاهد كان يتخرج فيها العلماء وينبغ منهم أحيانًا بعض القادة.

أما الجامع الأخضر فإنه شابه هذه المعاهد بروح ابن باديس وفكره. وليس القصد من القادة الذين يتسنّمون المناصب والزعامة فإنهم قادة بالفعل لما تحملوه في سبيل إحياء الشعب الجزائري بعد سنين طويلة من الاحتلال.

❑ ولا تحسبن ما وصفنا به مدرسة ابن باديس مبالغةً أو إعجابًا عاطفيًا؛ فإن الطالب حين يلتحق بالمسجد الأخضر يجد نفسه في مؤسسة تعليمية تحرص عليه علميًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا وماديًّا حِرْص والديه أو أكثر، وما جولات ابن باديس في القطر الجزائري شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا إلا لبناء الجزائر على أسس مقتبسة من روح الإسلام وحضارته. حتى إذا تيسر له عام ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م أن يضمّ الجامع الأخضر من أبناء الجزائر من يمثلون جميع جهاتها بدأ العمل الفعلي لصهرهم في بوتقة الإسلام الذي لا يفرّق بين عربي وأمازيغي أو كتامي وصنهاجي وزناتي أو عربي من الحضر أو من البدو.. ولا يفرق بين متبع لمالك أو لأبي حنيفة.

❑ لم يكن ابن باديس مجرد أستاذ بل كان أخًا أكبر لكبيرهم، وأبًا لصغيرهم ورفيقًا لمن قارب سنُّه سنَّه. فكان من اهتمامه بالتلاميذ أنه كان يستقبلهم حين وصولهم إلى قسنطينة ويودعهم واحدًا واحدًا حين سفرهم بعد انتهاء السنة الدراسية. يوصيهم بنشر العلم والسلوك الذي يمثل الإسلام في أبهى صورة وأجملها حتى يكونوا دعاةً صادقين في دعوتهم. أما أثناء وجودهم في قسنطينة فقد اختار العرفاء ليكونوا أولاً عونًا لزملائهم في حل مشكلاتهم، وثانيًا ليراقبوا سلوكهم ولا سيما أنه كان بقسنطينة جالية أوروبية

تعيش حياتها الأوروبية اللاهية المارقة. وكان في المدينة حيّ لليهود تشيع منه المفاسد والفجور. ومع وجود العرفاء والأساتذة المساعدين فقد كان ـ رحمه اللّه ـ يتعهد طلابه بنفسه حيث يستيقظ قبل الفجر ويمرّ عليهم في مقر سكناهم.

❑ وهناك مسألة هامة تغفل عنها برامج التربية والتعليم في عالمنا الإسلامي اليوم رغم معرفة المربّين لها وهي الصلة بين المدرسة والبيت، وقد أدرك هذا ابن باديس فكان يلتقي بالآباء في أماكن عملهم ويخصّص لهم جزءاً من وقته فيلقي عليهم الدروس فيه.

❑ ولما كان تلاميذ الجامع الأخضر ليسوا من قسنطينة وحدها فقد كانت رحلاته التي سنتكلم عليها فيما بعد تؤدي هذه المهمة فهو غالبًا ما يتعرف إلى الآباء قبل أن يلتحق أبناؤهم بالجامع الأخضر، وكم أقنع شيخ زاوية أو رئيس قبيلة أن يبعث ابنه ليتلقّى التعليم في الجامع الأخضر، ومن أبرز هؤلاء الفضيل الورتلاني والسعيد الصالحي وعمر دردور وغيرهم.

لم تكن تربية عند ابن باديس مَلء أذهان الطلاب بالمعلومات بل تعدّتها إلى التربية المتكاملة التي تؤدي إلى رفع مستوى الوعي الفكري والسياسي والاجتماعي والأخلاقي. وهذا ما أشار إليه أحد الباحثين في تعليقه على إدخال مقدمة ابن خلدون في مناهج الجامع الأخضر[1] ، ذلك أن ابن خلدون عاش حياة سياسية حافلة.

❑ كذلك اهتم ابن باديس بالبيئة فقد كانت الكتب المصرية هي التي يتم تدريسها في أنحاء الجزائر المختلفة فنادى ابن باديس بإعطاء هذه المسألة ما تستحقه من العناية والاهتمام.

---

(١) «ابن باديس حياته وآثاره» (١/١١٧).

إن اهتمام ابن باديس بالجوانب المختلفة من الشخصية الجزائرية قادته إلى التفكير بالتدريب العسكري فكان يسأل تلاميذه من منكم أدى الخدمة العسكرية فيطلب منهم أن لا ينسوا الرمي، وينبههم إلى أن البلاد ستحتاج إليهم يومًا ما. وكان ممن أدى الخدمة العسكرية الفضيل الورتلاني[1] . وقد ظهر هذا عندما أُسست جمعية شباب المؤتمر الإسلامي واتخذت النظام العسكري في زي أعضائها وفي طريقة تنظيمها»[2] .

أمام هذا النشاط العلمي لابن باديس كانت هناك حركة فكرية تغريبية تنادي بالاندماج التام في فرنسا وكان لهذه الفئة صحافتها الخاصة، وأبرزها صحيفتا «الأهالي» و«صوت المتواضعين»، وقد ظل هذا التيار قويًا حتى بعد انتشار حركة الشيخ عبدالحميد بن باديس. حتى إن أحدهم كتب ينفي وجود وطن جزائري ويؤكد أنه فرنسي وأمته هي الأمة الفرنسية، فرد عليه ابن باديس بأن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة منذ أقدم الأزمان، وأن الجزائر ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولو أرادت أن تكون كذلك. ولم تسع فرنسا إلى زيادة أفراد هذه الفئة، وإنما سعت إلى تمكينهم وتقوية شوكتهم بما مكنت لهم من المناصب والمكانة القيادية في المجتمع.

بدأ ابن باديس عمله فرديًا، ولكنه كان يخطط إلى الانتقال إلى العمل الجماعي المنظم. وكان أوّلَ برهان على هذا التخطيط لقاؤه بالإبراهيمي في المدينة المنورة الذي أثمر عن إعداد عدد كبير من التلاميذ ليكونوا جنودًا في جيش الدعوة الإسلامية. وقبل أن ينشئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٣٤٩هـ = ١٩٣١م) بسبع سنوات فكر في إنشاء جمعية الإخاء الإسلامي

---

(١) أحمد حمّاني، هل كان ابن باديس يفكر في الثورة ويعمل لها؟» العصر: العدد ٨٥ في ٥ رجب ١٤٠٣هـ = ١٨ أبريل ١٩٨٣م.

(٢) «عبدالحميد بن باديس» (ص٥١ ـ ٥٥).

من علماء قسنطينة. ولما لم تتهيأ الظروف لمثل هذه الجمعية ظلت الفكرة في ذهنه، فبدأ بالدعوة إليها بعد التفكير في الجمعية الأولى بسنة منذ الأعداد الأولى لجريدة الشهاب.

وحتى لا يضيع الوقت قبل أن تنشأ جمعية تضم علماء الجزائر من جميع أرجائها قام بتأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية عام ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م. وصادقت الحكومة على قانونها الأساسي في مارس ١٩٣١م شوال ١٣٤٩م أي قبل تأسيس جمعية العلماء بشهرين. وكان هدف هذه الجمعية وفقًا لما جاء في القانون الأساسي: نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف الدينية والعربية، والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين. وأما الوسائل الموصلة لهذه الأهداف فهي تأسيس مكتب للتعليم ليدرس فيه الذين لا يجدون مكانًا في المدارس الفرنسية، وليقدم التعليم الإسلامي للذين يتلقون العلم في المدارس الفرنسية. وكذلك إنشاء ملجأ للأيتام حماية لهم من الوقوع في أيدي المنصِّرين، ونادٍ للمحاضرات لنشر الثقافة الإسلامية لمن لا يتمكنون من حضور الدروس في المساجد، ومعملٍ للصنائع تنبيهًا للأمة على أهمية الصناعة وللقضاء على البطالة، وأخيرًا إرسال التلاميذ على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى[1].

وقد اختير الشيخ عبدالحميد رئيسًا لهذه الجمعية، وظل يرعاها ويهتم بها حتى إذا كان عام ١٩٣٨م = ١٣٥٧هـ وأصبح هناك عدد من الخرِّيجين فكّر في إرسالهم إلى مصر وسوريا، وقد تم إرسال بعثة إلى مصر وكان يشرف عليها الفضيل الورتلاني.

---

(١) «ابن باديس حياته وآثاره» (١/ ١١٤ ـ ١١٥).

* **تعليم المرأة:**

أدرك ابن باديس ـ رحمه اللَّه ـ أن المجتمع لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام وشطره يقبع في ظلمات الجهل، كما أدرك أن التعليم الأجنبي سيؤدي إلى تكوين جيل لا ينتمي إلى الجزائر وفكرها وعقيدتها.

❑ كَتَب ابن باديس في أحد مقالاته مؤكدًا «أن البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهن»[١].

❑ ويقول في مناسبة أخرى: «لماذا تعاقب المرأة بعلمها؟ هل العلم وِرْدٌ صفاء للرجال ومنهلٌ كدر للنساء؟ هل له تأثيران حسن على فكر الذكور قبيح على فكر الإناث؟»[٢].

أما الخطوات العملية التي اتخذها ابن باديس في هذا السبيل فإنه لما تأسست جمعية التربية والتعليم حرص ـ رحمه اللَّه ـ أن يتضمن قانونها الأساسي أن يكون تعليم البنات مجانًا (سواء كن قادرات على دفع مصاريفه أم عاجزات عن دفعها وذلك تشجيعًا لهن على الإقبال على الدراسة»[٣].

وزيادة على هذا فإنه كان يتصل شخصيًا بالمواطنين يحثهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم، وكان يفعل ذلك أثناء جولاته في أنحاء القطر، ويطلب من زملائه العلماء الدعوة إلى تعليم المرأة.

ولم يكن كافيًا أن تتعلم الفتيات الصغيرات فقد خصّص دروسًا للنساء

---

(١) «الشهاب» (ج٨ م١١)، غرة شعبان ١٣٥٤هـ نوفمبر ١٩٣٥م.

(٢) «المنتقد» العدد ٨ في ٣٠ محرم ١٣٤٤هـ = ٢٠ أغسطس ١٩٢٥.

(٣) «الشهاب» (ج٢ م٧/ ١١٥ ـ ١١٧) غرة شوال ١٣٤٩هـ = مارس ١٩٣١م.

في المسجد الأخضر وغيره من مساجد قسنطينة، وكن يحضرن بأعداد كبيرة حتى ضاقت عليهن جنبات المسجد المخصصة للنساء.

ولنا أن نتساءل لماذا كل هذا الاهتمام بتعليم المرأة؟

إن داعية كابن باديس لم يكن ليخفى عليه ما يدبَّر للمرأة المسلمة خُفْية وعلانية. ولم يكن منعزلاً بعيداً عن ساحة المجتمع. فكما كان بعض الجاهلين بالإسلام يحرصون على إبقاء المرأة جاهلة، كان في الطرف الآخر من يدعوها إلى الخروج غير المنضبط، بل وتلقِّي العلوم الغربية. فقد أدركت الدراسات الاستشراقية التنصيرية والاستعمارية ما يمكن أن يؤديه تعليم المرأة تعليمًا غربيًا من تحولات اجتماعية نحو التغريب. فما إن صدر كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» حتى صفّقوا له وهلّلوا. وكانوا يدركون أن التخريب يكون أبلغ إذا كان من الداخل، فقد ذكرت الوثائق الفرنسية أهمية كتاب الطاهر الحداد «امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع» الذي نادى فيه بأن الشريعة الإسلامية لم تكتمل في عهد صاحب الرسالة ﷺ وأن المجال مفتوح لمزيد من التشريعات بخصوص المرأة بإعطائها مزيدًا من الحقوق وبمعنى أدق تقليد المرأة الغربية[1].

*** رحلاته الدعوية:**

إن الشمولية في المنهج الإسلامي تمثّلت في جميع أعمال ابن باديس.. وقد عمّت رحلاته الدعوية وشملت أرجاء وطنه الجزائري، وقد كان ابن باديس يهدف من هذه الرحلات إلى ما يلي:

١ ـ التعرف على وطنه الجزائر؛ لأن المشاهدة خير من السماع لمعرفة البيئة التي سيدعو فيها ومن ذلك أيضًا الالتقاء بالعلماء وطلبة العلم وحثهم

(١) «امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع» للطاهر بن حداد (ص٢٠) الطبعة الرابعة تونس.

على نشر الدعوة.

٢ ـ مقابلة شيوخ الطرق الصوفية وإجراء الحوار معهم للرجوع إلى الكتاب والسنة في زهدهم وتصوفهم، وإقناعهم بنبذ الخرافات، وتشجيعهم على إرسال أبنائهم لتلقي العلم على يديه في قسنطينة.

٣ ـ معرفة المشكلات التي تعاني منها المناطق المختلفة والعمل على حلها بقدر المستطاع، وتنبيه المناطق الأخرى إلى الاحتراز من مثل هذه المشكلات، وذلك بإلقاء دروس عامة حولها، وقد تكون هذه الدروس بناء على اقتراح بعض علماء المنطقة التي يزورها.

٤ ـ التعرف على نشاط التنصير والاستشراق والاستعمار في جذب بعض الجزائريين نحو فكره وثقافته ودعوته، وإبطال كيد هؤلاء بالتأكيد على وحدة الجزائر المنبثقة من الإسلام. فها هو عالم من قسنطينة (شرق الجزائر) يزور الغرب والجنوب والشمال، ويشعر بأنه بين أهله في كل مكان ليؤكد هذا الإحساس لدى الشعب الجزائري.

٥ ـ زيارة إخوانه الجزائريين في أماكن عملهم كالمؤسسات التجارية والمعامل والمصانع والمزارع وعدم الاقتصار على المسجد والمدرسة. وقد يحضر في هذه الرحلات مناسبات اجتماعية مختلفة كالزفاف والختان والعقيقة ويستفيد منها في توجيه الحديث إلى الحاضرين. وهذا يؤكد دور الداعية وأنه لا ينتظر أن يأتيه المدعوّون، وكذلك أن التهديد بمنعه من الوعظ في المساجد لن يوقف دعوته فهناك أماكن كثيرة يمكن أن تنطلق فيها الدعوة إلى اللّه.

*** الصحافة:**

ظهرت أولى الصحف الجزائرية القوية وهي «جريدة النجاح» عام ١٣٣٧هـ = ١٩١٩م وساهم فيها ابن باديس تأسيسًا وتحريرًا.

وكانت مقالاته تظهر باسم مستعار هو القسنطيني والعبسي والصنهاجي، ولمّا رأى أن هذه الصحيفة غير قادرة على إحداث الهزة العنيفة لإيقاظ الشعب الجزائري كما تصور هو، تركها ليؤسس صحافته الخاصة به.

وبالنسبة لتركه جريدة «النجاح» فمن الضروري أن نوضح أمرًا هامًا وهو أن هذه الصحيفة لم تؤيد الاستعمار وتقف في وجه الإصلاح إلاّ في السنة الثانية لتأسيس جمعية العلماء ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م فقد كانت تورد أخبار الجمعية في سنتها الأولى باهتمام وتقدير بالغين. أما أخبار الشيخ عبدالحميد بن باديس فقد كانت موضع رعاية من الصحيفة حتى ذلك التاريخ، وهناك من أخبار ابن باديس ما انفردت به صحيفة النجاح.

ولقد تخصّص باحثون جزائريون في نشاط الشيخ ابن باديس الصحفي على رأسهم الدكتور محمد ناصر في كتبه المختلفة.

❑ سعى ابن باديس إلى تحقيق عدد من الأهداف من مشاركته في الحركة الصحفية الجزائرية منها:

١ ـ المشاركة في هذه الحركة بالكتابة في القضايا التي تهم الشعب الجزائري.

٢ ـ تأكيد الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين وذلك بالقيام بنشر الوعي الديني، والذبّ عن العقيدة الإسلامية مما خالطها من المعتقدات الباطلة.

٣ ـ جعل الصحافة منبرًا حرًا لتبادل الآراء والأفكار، وفتح المجال أمام الناشئة وتعويدهم على الكتابة السليمة الهادفة.

❑ قام ـ رحمه اللّه ـ بتأسيس صحيفة «المنتقد» في ١١/١٢/١٣٤٣هـ (٢/٧/١٩٢٥م) وكتب في افتتاحيتها:

«وسنسلك في انتقادنا طريق الحقيقة المجردة والصدق والإخلاص

والنزاهة والنظافة في الكلام..» ويمضي قائلاً: «هذه مبادئنا هي مبادئ الصحافة الحرة التي هي قوة لا غنى لأي أمة عنها، ولا رقي لأمة ناهضة بدونها»[1].

❑ وشنّ ابن باديس حملة على الأوضاع المخالفة للكتاب والسنة، وعلى الطرق الصوفية الضالة، لكنه لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددًا بعد أن تنبهت سلطات الاحتلال إلى خطورة أسلوبه المتميز في الكتابة.

فأصدر مجلة «الشهاب» لتعبر عن أهدافه ومقاصده.

وبعد تأسيس جمعية العلماء صدرت صحفها «السُّنّة» و«الشريعة» و«الصراط» ثم «البصائر».

*** مجالات نشاطه الصحفي:**

كما ذكرنا سابقًا أن نشاطات ابن باديس يصعب تقسيمها فكذلك نشاطه الصحفي الذي يأخذ من الإسلام شموليته، ولكن لضرورة البحث يمكن تقسيم مساهمته في الصحافة إلى عدة أقسام:

أولاً: مجالس التذكير: وهذه وإن كان بالإمكان جعلها تحت الكتابات الدينية ولكن لأن الإسلام ليس دينًا بالمعنى المعروف عند الغرب أو ما أصبح يفهم من كلمة دين في الوقت الحاضر لدى كثير من المسلمين فلذلك تركنا العنوان كما هو. ومجالس التذكير اتخذت من الكتاب والسنة منطلقًا للدعوة وهي نوعان:

أ ـ دروس التفسير، تحت عنوان «مجالس التذكير في تفسير كلام العليم الخبير»، وهي عبارة عن بعض دروسه في التفسير التي ألقاها في درسه الليلي

(١) «المنتقد» العدد الأول في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣هـ (٢ يولية ١٩٢٥).

في المسجد، أو ما ألقاه على تلاميذه، وفي ذلك يشهد له الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، خليفته على رئاسة جمعية العلماء، فيقول عنه في مقدمة تفسير ابن باديس:

. . . انتهت إمامة التفسير ـ بعد موت الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده وترجمان أفكاره ـ في العالم الإسلامي كله، إلى أخينا وصديقنا، ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر، بل وبالشمال الإفريقي (عبدالحميد بن باديس).

❑ وفي تفسيره للآيات يتعرّض للحديث عن الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية. ولئن كانت هذه الأحاديث قد جمعت في كتاب بعد وفاته بقليل إلا أنها تستحق دراسات مختلفة منها تعرف منهج ابن باديس ـ رحمه اللَّه ـ في التفسير وفي شتى مناحي الفكر.

❑ ففي الفكر السياسي نجد ابن باديس يصف لنا القائد وما يجب أن يتحلى به من مزايا من خلال تفسيره لآيات من سورة النمل وهي: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾. فيقول ابن باديس: «هذه نملة وفّت لقومها وأدت نحوهم واجبها فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه! هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم ولمن يرى الخطر داهمًا لقومه فيسكت ويتعامى ولمن يقود الخطر إليهم ويصبُّه بيده عليهم، آه ما أحوجنا معشر المسلمين إلى أمثال هذه النملة»[1].

كما أنه من خلال تفسير آيات أخرى يوضح ما هي الحضارة الحقة ومن هم عباد اللَّه الصالحون الذين أورثَهُم الأرض، وأن هؤلاء ليسوا الأوروبيين

(١) «الشهاب» (ج٤ م ١٥) ـ ربيع الثاني ١٣٥٨هـ = مايو ١٩٣٩م.

وذلك حين فسّر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. حيث قال: «رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض، وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها. فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان - فقالوا: إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم اللَّه بإرث الأرض، وزعموا أن المراد بـ «الصالحون» في الآية الصالحون لعمارة الأرض، فيا اللَّه للقرآن وللإنسان من هذا التحريف السخيف كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد وفسدت الأخلاق واعوجت الأعمال وساءت الأحوال وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة وروِّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها»[1].

ولما ختم ابن باديس دروس التفسير التي استمرت سنين طويلة قال له لسان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشاعر محمد العيد آل خليفة قصيدة جميلة منها:

بمثلكَ تعتز البلاد وتفخر
وتزهر بالعلم المنير وتزخَرُ
طبعتَ على العلمِ النفوسَ نواشئًا
بمخبرِ صِدْقٍ لا يدانيه مَخْبَرُ
نهجتَ لها في العلمِ نهجَ بلاغةٍ
ونهج مفاداهُ كأنّكَ حَيْدَرُ

(١) «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» لابن باديس (ص٢١٠) عن الشهاب (ج٦ م١١) في جمادى الثانية، ١٣٥٢هـ (سبتمبر ١٩٣٥م).

حبَتْكَ عمالاتُ الجزائرِ حُرْمَةً
مُشَرَّفَةً عُظْمى بها أنْتَ أَجْدرُ
ففي كُلِّ وفْدٍ راشدٍ لك دعـــوةٌ
وفي كل حفل حاشد لك مِنْبَرُ
يَراعُكَ في التحرير أمْضَى من الظُّبي
وأمْضى من الأحكام أيّان يُشهَرُ
ودرسُك في التفسير أشهى من الجبى
وأبهى من الروضِ النضير وأبهرُ
ختمتَ كتابَ اللّه خَتْمَةَ دارسٍ
بَصيرٍ له حَلَّ العَويصِ مُيَسّرُ[1]

(ب) مجالس التذكير من كلام البشير النذير:

وهو عبارة عن شرح للأحاديث النبوية الشريفة، وهو يدرس الحديث دراسة عميقة تبدأ من السند يبين درجته من الصحة والحسن، ثم ينتقل إلى شرح مفرداته، وبعد ذلك يستنبط الدروس والعبر. ولنضرب على ذلك مثالاً نذكر منه الدروس والعبر التي استنتجها ابن باديس. ففي حديث قال رسول اللّه ﷺ: «**إذا سمعت الرجل يقول هَلَك الناس فهو أهْلَكُهُم**» رواه مالك، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ومسلم، عن يحيى، عن أبي يحيى، عن مالك. ومما جاء في تعليقه على هذا الحديث تحت عنوان: أصل عام في التربية: «هذا الحديث أصل عظيم في التربية المبنية على علم النفسية البشرية. فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب، وعندما تشعر بحقارتها وعجزها

(١) «مجالس التذكير» (ص٤٦٤).

تقعد عن العمل وترجع إلى أحط دركات السقوط، وهذا الحديث يحذر من تحقير الناس وتقنيطهم»[١].

*** ثانيًا: رجال السلف ونساؤه وبعض الأعلام المعاصرين:**

وإننا من خلال دراسة النماذج التي قدمها ابن باديس ندرك أنه لم يختر هؤلاء بصورة عفوية بل كانت بناءً على دراسة ووعي وفهم. ومن ذلك قدَّم ترجمة لعبادة بن الصامت رضي الله عنه أوضح من خلالها مزية أن يكون الإنسان «قويًا في دين اللَّه لا تأخذه في الحق لومة لائم»، وأن يكون «صلبًا في دين اللَّه يوالي في اللَّه ويعادي في اللَّه». وأوضح أن عُبادة رضي الله عنه كان له موالي من اليهود، ولكن لما رأى عداوتهم للإسلام وتربّصهم بأهله جاء إلى النبي ﷺ فقال له: «**إن لي موالي من اليهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى اللَّه ورسوله من ولايتهم وأتولى اللَّه ورسوله**».

* وفيه وفي عبداللَّه ابن أبي الذي لم يترك مواليه من اليهود نزل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢]. أما الدرس الذي يستخلص من قصة عبادة أن عبادة هو «أول من سنّ سنة رفض ولاية مواليه لما رأى منهم الشر وتولى اللَّه ورسوله»[٢].

كما أنه ترجم لبعض العلماء والزعماء المعاصرين قائلاً: «إنما تُقاس

(١) «عبدالحميد بن باديس»، مجالس التذكير من كلام البشير النذير: (ص٨٢)، عن «الشهاب» (ج٣ م١٠) في ذي القعدة ١٣٥٢هـ = ١٥ فبراير ١٩٣٤م.

(٢) «الشهاب» (ج١ م ١٠) في رمضان ١٣٥٢هـ (يناير ١٩٣٢م).

الأمم بما تنتجه من الرجال وإنما تكون منجبة للرجال يوم تصير تعرف أقدار العاملين من أبنائها».

❑ فقال عن الشيخ رشيد رضا «لقد كانت غايته السياسية إيجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب تكون مركزًا للأمم الإسلامية في العالم بصفة دينية إذا لم تكن بصفة سياسية»[١] وتكلم عن أثره فقال: «وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القرآن وهو الذي دحر خصوم الإسلام من المنتمين إليه وغير المنتمين إليه، وهتك أستارهم حتى صاروا لا يحرّك أحد منهم أو من أشبابهم يده إلا أُخذ بجنايته. فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم ـ إصلاحًا وهداية، بيانًا ودفاعًا ـ كلها من آثاره»[٢].

❑ وتكلّم عن الأمير خالد بن الهاشمي، وعودته للجزائر عقب الحرب العالمية الأولى وتقلده رئاسة الواجهة الإسلامية «تدافع عن حقوقها دفاع البطل المستميت، وتقوم بحملتها في فرنسا وفي الجزائر بواسطة الخطب والصحف وبواسطة الدعاية والنشريات المختلفة، حتى إذا ضاق الاستعمار به ذرعًا أبعد عن البلاد)، ويتحدث ابن باديس عن محاولة أعداء الأمير تشويه سمعته بعد مغادرته البلاد وإلصاق التهم به فقال في ذلك: «إنما الأمة الإسلامية في القطر الجزائري لا تزال ولن تزال تحتفظ بذكرى الأمير الجليل والزعيم المبجل كما تحتفظ أشراف الشعوب بأقدس الذكريات»[٣].

*** ثالثًا: القضايا المعاصرة:**

ما كان ابن باديس العالم المنعزل في برج عاجي لا يعرف من الإسلام إلا فتوى في المولد أو زكاة أو صيام أو صدقة فطر أو نذر ـ ومع أنه كان

(١، ٢) «الشهاب» (ج ٩ م١١) في رمضان ١٣٥٤هـ = ديسمبر ١٩٣٥.
(٣) «الشهاب» (ج١١ م ١١) غرة ذي القعدة ١٣٥٤هـ = فبراير ١٩٣٦م.

يعلمها ويعلّمها ـ بل إنه عاش قضايا المسلمين الكبرى، وكان يبحث ليعلم ويعلّم ولينفع وليغيّر. كان يدرك دوره تمامًا فقد جاء الاستعمار إلى البلاد يريد فرض ثقافته وانحرافاته وماديته وعقلانيته، وانجرف نفر من الشباب الجزائري مع هذا التيار، فكتب ابن باديس حول هذه الثقافة الجديدة قائلاً: «قمنا بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف والصحيح من السنّة الشريفة وقد عرف القائمون بتلك الدعوة ما يلاقونه من مصاعب وقحم في طريقهم من وضع الذين شبُّوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق التساهل في الزيادات والذيول التي ألصقها بالدين المغرضون أو أعداء الإسلام الألداء والغافلون من أبناء الإسلام»[1].

❑ ثم يحدد أهداف الدعوة هذه ومنها:

«انتشال الشباب المثقف بالثقافة الجديدة من وَهْدة الشك في كل شيء يُعزى إلى الدين بسبب ما يجده فيه من خرافات وسخافات لا يمكن للعقل أن يصدقها وأن يعزوها إلى دين اشتهر باتصاله بالعقل اتصالاً وثيقًا؛ بحيث لا يقبل من تعاليمه ما لا يقبله العقل وما لا يدخل في دائرة الوعي السليم. وقد كان الإقدام على انتشال هذه الطبقة من الشباب من أوكد الواجبات في مثل هذا الظرف الذي طغى فيه تيار المادة على كل شيء سيّما وقد أوشك الإلحاد والمروق من الدين أن يبترا تلك الطبقة التي هي عدتنا من المجتمع الجزائري، وقد شجّعها على ذلك ما تقرؤه وتطّلع عليه من حين لآخر من سخافات الطقوس المسيحية ونحوها»[2].

*** التجنس:**

كذلك انتشرت موجة في الجزائر تدعو إلى الدخول في الجنسية الفرنسية

(١) المرجع نفسه: (ج٢ م٨) غرة شوال ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م.

(٢) المصدر السابق.

والحصول على الحقوق السياسية والاجتماعية التي يتمتع بها المتفرنسون. وقد كانت سياسة ابن باديس أن يوضح حكم الإسلام في التجنس وأن ما يقتضيه من رفض أحكام الشريعة الإسلامية بعضها أو كلّها يُعَدّ ارتدادًا عن الإسلام وخروجًا منه، ويترك هؤلاء وما اختاروا لأنفسهم. فلما عقد المتجنسون اجتماعًا في أوائل أبريل ١٩٣٤م = ذي الحجة ١٣٥٣هـ للمطالبة بتسهيل التجنس لزيادة عددهم، فيقول: «غير أننا لا نستجيز السكوت عنهم إذا رأينا منهم دعاية لتوسيع نطاق التجنيس إذ في ذلك محاولة إضعاف الإسلام باختطاف الضعاف من بنيه ومجاوزة لحدود النظر لأنفسهم بالإغراء لغيرهم»، ثم يدعوهم أن: «يكفوا عن الدعاية ويتفرّغوا للحصول على الحقوق التي أرادوها مقابل ما «ارتكبوا» والتي ينالها كلها أحط أوروبي بمجرد التجنس وهم ما يزالون ولن يزالوا يحاولون استكمالها»[١].

❑ وعندما أعلنت جمعيّة العلماء أنها كلفت رئيسها بالرد على أسئلة الناس واستفتاءاتهم وقدِّمَ إليه الكثير من الأسئلة من الجزائر وتونس حول التجنس قالها مرة أخرى بصراحة لم تُعرف عن كثير من علماء شمال أفريقيا حينئذ فكتب يقول: «التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة ومن رفض حكمًا واحدًا من أحكام الإسلام عُدَّ مرتدًا عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع»[٢]. ثم وضح القضايا المختلفة المتعلقة بالمتجنس ونسله وزواجه من امرأة من جنسية غير إسلامية. والمقصود بهذا كله الجنسية الفرنسية. ويشير ابن باديس في آخر الفتوى إلى أن سؤالاً ورده من رئيس المتجنسين بتونس فكانت هذه الفتوى إجابة له[٣].

---

(١) «الشهاب» (ج٥ م١٠) مرم ١٣٥٣هـ = ١٦ أبريل ١٩٣٤م.

(٢) «البصائر» العدد ٩٥ في ١٢ ذي القعدة ١٣٥٦هـ = ١٤ يناير ١٩٣٨م.

(٣) المرجع نفسه.

* **الوحدة العربية:**

ولقد كان من بين القضايا المثارة في الصحف العربية الوحدة السياسية للأمة العربية فحدثت مناظرة بين شكيب أرسلان وسليمان الباروني وكان من رأي الأمير شكيب أنه من الصعب بل من المستحيل أن تجتمع دول في وحدة وهم لا يملكون زمام أمرهم فكان للشيخ عبدالحميد رأي في هذه المسألة مفاده أن «الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم وتتعاقد على تنفيذها والدفاع عنها يداً واحدة».. ثم يشير إلى أن الدول التي حققت استقلالها يجب عليها أن تتحد[1].

* **التقدم والمدنية:**

حظيت فكرة التقدم والرقي بمساحات واسعة في الصحف العربية والإسلامية، وكانت ثغرة دخل منها الاستعمار والاستشراق اقتنع من خلالها بعض المفكرين المسلمين بأن الإسلام هو سبب التأخر. فانبرى ابن باديس يفند هذه المفتريات وهو يفسر كتاب اللَّه الكريم، فحين فسر قول اللَّه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩].

❑ فيقول رحمه اللَّه ـ: «ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي؟! والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أن المصانع جمع مصنع من المصنع كالمعمل من العمل، وإنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران»، ثم يوضح ابن باديس أهمية المصانع بأنها: «تُشاد لنفع البشر ولرحمتهم ومن لوازم ذلك أن تراعى

(١) «الشهاب» (ج١١ م ١٣) ـ غرة ذي القعدة ١٣٥٦هـ (يناير ١٩٣٨).

فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة»[١] .

أما ما في الحضارة من صناعات وغيرها فإنها بنيت على أسس غير إسلامية، إنها بنيت على «القسوة، والقسوة لا تُحمد في مبدأ ولا غاية، وأي عاقل يرتاب في أن المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة، ووسائل تدمير لا تعمير، فهل يحمدها على عمومها وإن كانت دلائل حضارة ومدنية»[٢] .

ولا يألو «الشهاب» ولا صاحبه جهداً في التأكيد على ضرورة يقظة المسلمين والعمل على كل ما من شأنه أن يأخذ بأيديهم نحو التقدم والرقي. ومن ذلك نقل بعض المقالات من الصحف الشرقية التي تدعو إلى ذلك، ففي العدد السادس والعشرين من «الشهاب» نجد مقالاً مقتبسًا من «الأهرام» يقول كاتبه: «وإذًا فالإسلام يحث على تعلم الصنائع ويسميها علمًا ويعتبرها رحمة ويبين أنه كان يقوم بها ويشرف عليها أفضل الخلق وهم الرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم، فهو لا يعادي علمًا ولا صنعة بل يعتبر القيام بالصنائع والعلوم من الفرائض التي يُتَقَرَّب بها إلى اللَّه»[٣] .

□ والحقيقة أن قضايا الساعة كانت كثيرة ولعل من أبرزها الاتجاه الداعي إلى الفرنسة والاندماج والتشبّع بالثقافة الفرنسية. والحقيقة أننا نعاني اليوم إلى حدّ كبير ما عاناه مجتمع ابن باديس. وانظر إليه كيف صوّرهم: «الشبّان المسلمين ينشئون أولاً في وسط إسلامي، ثم يدخلون المدارس الفرنسية فيتأثرون بالوسط الجديد فيحدث تنازع بين الروحين. وأما أشكال التأثر فهي كالتالي: نجد أكثرهم لا يتكلمون غالبًا إلا باللغة الفرنسية وليس ذلك منهم

(١) «الشهاب» (ج٦ م١١) (ص٣٤٤ ـ ٣٤٥)، جمادى الثانية ١٣٥٤هـ = سبتمبر ١٩٣٥م.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) «الشهاب» العدد ٢٦ في ٧ ذي القعدة ١٣٤٤هـ = ٢٠ مايو ١٩٢٦م عن مقال لعبدالباقي سرور نشر في الأهرام.

بقصد التظاهر بالتفرنج والتشبّه السخيف بل إنهم مُرْغَمُون في ذلك بحكم تعلمهم اللسان الفرنسي، وقد لا يقف هذا التأثير عند التكلم بل يتعداه إلى التفكير نفسه حتى في شئون الحياة العادية»[1] .

❑ لم يكن ابن باديس ليناقش مثل هذه القضايا من منطلق فكري بحت بل كان يدرسها من الواقع، يختلط بهؤلاء المثقفين ويهتم بهم. فقد عقدت جمعية الأساتذة بالقطر الجزائري ـ المعلمين بالمكاتب الفرنسية ـ اجتماعها السنوي بقسنطينة عام ١٩٣٣م = ١٣٥٢هـ، فماكان من ابن باديس إلا أن أقام حفل تكريم لهؤلاء المعلمين باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دعا إليه قاضي المدينة وأعضاء شعبة قسنطينة (جمعية العلماء) ومحرر «النجاح» وبعض رجال العلم والأدب[2] . وزيادة على دعوة كهذه فإنه يجتمع إلى هؤلاء ويحدثهم ويحادثونه ففي أحد اللقاءات مع بعض المثقفين الجزائريين بالثقافة الفرنسية دار بينه وبينهم حديث حول كيف تكسب الأمم والأفراد الاحترام في أعين غيرها فيقول: «جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلم التعليم الأوربي والمتأدب الأدب الإفرنجي ممن لا ينقصه شيء عن الطبقات الراقية منهم وانساق بنا الكلام إلى ما تكسب به الأمم والأفراد الاحترام في عين غيرها، واتفقنا على أن الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم، ولا ينظر إليها إلا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار. . .»[3] .

❑ ولنختم هذا الفصل وحديث ابن باديس عن القضايا المعاصرة: وقوفه في وجه التنصير، وقد اتخذ لذلك عدة سبل أهمها:

---

(١) «الشهاب» (ج١ م ١٢)، محرم ١٣٥٥هـ = أبريل ١٩٣٦م.

(٢) «الشهاب» (ج ٦ م٩) (ص٢٦١)، غرة محرم ١٣٥٢هـ = ماي ١٩٣٣م.

(٣) «الشهاب» (ج٨ م ١١)، شعبان ١٣٥٤هـ = نوفمبر ١٩٣٥م.

نشر العقيدة الصحيحة، والحرص على نشر التعليم العربي الإسلامي، ثم الدعوة إلى المحافظة على الشخصية الإسلامية العربية للمواطن الجزائري. ثم لم يكتف بكل ذلك بل وجد أن العداء مستحكم في نفوس المستوطنين وبخاصة أولئك الذين كانوا يعملون منصِّرين فدرس فكرهم بعمق. وقد عجبت أن يتسع وقت ابن باديس ـ رحمه اللَّه ـ لمعرفة المسيحية من كتبها، ثم من منطلقاتهم الفكرية والعقديه يرد عليهم»[1].

* **نشاطه السياسي:**

ولأن الإسلام دين ودولة وشمل كل مجالات الحياة، ولما كان العلماء هم قادة الفكر والرأي في الأمة فلا بد أن يشاركوا في السياسة التي لا يقر الإسلام مطلقًا بينها وبين الدين الإسلامي.

ولتأكيد مشاركة العلماء في السياسة فقد كتب ابن باديس في مناسبات مختلفة يوضح هذا الرأي. ففي عام ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م كتب ابن باديس يقول: «ثم ما هذا العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس رشليو؟ أفيجوز الشيء ويحسن إذا كان هناك ويحرم ويقبح إذا كان من هنا؟ كلا لا عيب ولا ملامة وإنما لكل امرئ ما اختار ويمدح ويذم على حسب سلوكه في اختياره»[2].

ويواصل ابن باديس معلمًا ومفكرًا وقائدًا سياسيًّا حكيمًا حتى إذا نجح ابن باديس في عقد أول مؤتمر إسلامي عام ضم جميع الأحزاب والاتجاهات

---

(١) «ابن باديس» (ص٨٢ ـ ٨٤).

(٢) «الصراط السوي» عدد ١٥ في ٨ رمضان ١٣٥٢هـ = ٢٥ ديسمبر ١٩٣٣م.

الفكرية الجزائرية انبرت الأقلام التي تحمل الفكر الغربي تنتقد ابن باديس في عمله هذا وتعيب على العلماء التدخل في الشئون السياسية، فكتب مقالاً بعنوان «واجب العلماء في المجتمع» يقول فيه: «وهكذا فالإسلام لا يحجر على العلماء التدخل في أي شأن من الشئون العامة ـ كما يزعم البعض في هذه البلاد ـ بل هم أولى من غيرهم بذلك وهم رعاة الأمة المسئولين وليس لغيرهم أن يستهجن فعلهم أو يلومهم إذا هم قاموا بما يجب عليهم نحو أمتهم. وليست مهمة العالم في الإسلام قاصرة على التدريس والإرشاد فقط.. وبعد فهل كان العلماء في كل أمة وفي كل عصر إلاّ قادة الفكر والسياسة والدين»[١].

وفي إحدى زياراته لتونس دُعي لإلقاء محاضرة في جمعية الطلبة الجزائريين بتونس والجمعية الودادية الجزائرية بتونس في ربيع الأول ١٣٥٦هـ = يونيه ١٩٣٧م، فكان مما جاء في محاضرته قوله: «وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معًا، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعوّدوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم إلا إذا نهضت السياسة بجدّ»[٢].

إذن كان نشاط ابن باديس السياسي مستندًا إلى فهمه للإسلام الذي ما تأخر أتباعه إلا حينما أقصَوْا العلماء عن سدّة الحكم أو عن إبداء الرأي في المسائل السياسية. فقد جاء في تفسير القرطبي ما يلي: «قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب»[٣].

(١) «البصائر» العدد ٤٣ في ٢٨ شعبان ١٣٥٥هـ = ١٣ نوفمبر ١٩٣٦م.
(٢) «البصائر» العدد ٧١ في ٩ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ = ١٨ يونيه ١٩٣٧م.
(٣) «تفسير القرطبي» (٤/٢٤٩).

«لقد بدأت مشاركة ابن باديس في السياسة منذ وقت مبكر من حياته. فإن كانت فرنسا قد فرضت التجهيل على عامة الشعب الجزائري، وسمحت بالتعليم الفرنسي لطبقة منه، فقد أخذ ابن باديس يحاربها بنشر التعليم بين طبقات الشعب كافة حتى أولئك الذين كانوا يدرسون في المدارس الفرنسية خصص لهم أوقاتًا بعد أن يفرغوا من الدراسة بالمدارس الفرنسية حتى يتلقوا العلم الإسلامي على يديه أو أيدي العلماء المسلمين الآخرين ليرتبطوا بأمتهم برابطة اللغة، والفكر، والتاريخ، والعقيدة»[1].

❑ كتب الشيخ ابن باديس مقالاً تحدث فيه عن سياسة بريطانيا الاستعمارية ـ وقد كان من نوع اللحن الذي يفهمه ذوو الألباب ـ فقال: «قلّب صفحات التاريخ العالمي، وانظر في ذلك السجل الأمين هل تجد أمة غُلبت على أمرها ونُكبت بالاحتلال ورُزئت في الاستقلال ثم نالت حريتها منحة من الغاصب وتنازلاً من المستبد ومنّةً من المستعبد.

اللَّهم كلا! فما عَهِدنا الحرية تُعطى إنما عهدنا الحرية تُؤخذ، وما عهدنا الاستقلال يُمنح ويُوهب إنما علمنا الاستقلال يُنال بالجهاد والاستماتة والتضحية، وما رأينا التاريخ يُسجِّل بين دفتي حوادثه خيبةً للمجاهد إنما رأيناه يسجل خيبة للمستجدي»[2].

❑ وكان مما قاله ـ رحمه اللَّه ـ يوقظ به الأمة إلى حقها في الاستقلال فيقول: «إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا مع الذين يدعون علم الغيب مع اللَّه، ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد فكما

(١) «عبدالحميد بن باديس» لمازن صلاح (ص٨٨).

(٢) «الشهاب» (ج٥ م٦)، غرة محرم ١٣٤٩هـ = يونية ١٩٣٠م.

تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أن تزداد تقلّبًا. وتصبح الجزائر مستقلة استقلالاً واسعًا تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر»[١].

❑ وكثيرة هي الدلائل على هذا التفكير ومنها أحاديثه لتلاميذه حيث يروي الشيخ محمد الصالح رمضان أن بعض شبّان الحركة الوطنية جاءوا للشيخ ابن باديس وقالوا له: أنت شخصية كبيرة، لماذا لا تدعو للاستقلال وأنت مسموع الكلمة؟ فقال لهم: «يا أبنائي من أراد أن يبني منزلاً هل يبدأ بالسقف؟ قالوا: لا، قال: فبماذا إذن؟ قالوا: بالأساس والجدران. فقال: هذا ما أفعله، الآن نبني الأساس والجدران ثم نبني السقف»[٢].

❑ لم يقف ابن باديس ـ رحمه اللّه ـ عند مرحلة التفكير والكتابة في الصحافة داعيًا إلى الاستقلال بل تعدى ذلك إلى مرحلة التفكير العملي. وقد رُوي عن الشيخ أكثر من حديث أبدى فيه عزمه على إعلان الجهاد. ومنها ما ذكره لي الشيخ حمزة بوكوشة قائلاً: «كنا جلوسًا مع الشيخ وكان مريضًا جدًّا وكان من ضمن الحضور محمد جلول وسي عبدالرحمن بن بيبي فقال لنا الشيخ: تعاهدوني. فقلت له ـ الشيخ حمزة ـ: نعاهدك على أمر تكون فيه. قال: وهل يمكن أن أطلب أمرًا لا أكون معكم؟ قلت: إذًا على ماذا نعاهدك؟ قال: الوقت الذي تعلن فيه إيطاليا الحرب على فرنسا فإننا نعلن الحرب عليها. ومات قبل ذلك»[٣].

❑ وقد أورد الشيخ حمزة بوكوشة هذه القصة في مقالٍ له نشر في

---

(١) «الشهاب» (ج٣ م١٢) صفر ١٣٥٥هـ = مايو ١٩٣٦م.

(٢) رمضان، مرجع سابق. وقد أشار أحمد توفيق المدني في كتابه «حياة كفاح» إلى أنه صاحب هذا القول. للّه درّه كيف ينسب لنفسه ما قاله ابن باديس رحمهما اللّه؟! انظر «عبدالحميد بن باديس» (ص٩٢).

(٣) الشيخ حمزة بوكوشة، مقابلة معه، مرجع سابق. «عبدالحميد بن باديس» (ص٩٣).

مجلة المعرفة قبل حديثي معه بتسع سنوات.

❑ وهناك رواية أخرى ذكرها لي الشيخ عبدالرحمن شيبان ـ وزير الشئون الدينية السابق في الجزائر ـ «أن مجلسًا جمع الشيخ ابن باديس وصديقه عبدالرحمن يحيى الشريف ـ المعروف بـ بن بيبي ـ فسأل ابن باديس صديقه: هل عندكم في سطيف رجال؟ فأجابه عبدالرحمن: ماذا تعرف؟ ليس في سطيف إلا الرجال! فقال ابن باديس: هل في الإمكان العثور على من يضع قنبلة في مطار عين أرنات ـ قرية قريبة من سطيف بنحو ٧ كيلاً ـ وكان هذا قبل وفاته بشهر أو شهرين»[١].

❑ ويروي الشيخ أحمد حماني ـ رئيس المجلس الأعلى الإسلامي بالجزائر ـ أنه في إحدى أُمسيات خريف عام ١٩٣٩م في مجلس بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة وكان الحديث حول الأوضاع السياسة في العالم وإعلان الحرب العالمية الثانية وقبول بعض كبار رجال الأحزاب السياسية التجنيد في جيش فرنسا طوعًا أو كرهًا فقال ابن باديس ـ رحمه اللَّه ـ ما معناه: «لو أنهم استشاروني واستمعوا إلي وعملوا بقولي لأشرت عليهم بصعودنا جميعًا إلى جبال أوراس وإعلان الثورة»[٢].

إن كان ابن باديس قد فكر في الثورة فقد أعد لها عدتها فكريًا ونفسيًا وعسكريًا فقد أكد أحد تلاميذ ابن باديس الأقدمين ـ وهو محمد الحاج بجّة من دائرة أقبو ـ أن الشيخ كان يسأل تلاميذه الكبار عن أدائهم للخدمة العسكرية فمن أداها ميزه عن غيره وقال لهم: «إننا سنحتاجكم يومًا ما».

---

(١) الشيخ عبدالرحمن شيبان، مقابلة شخصية معه في مكتبه بوزارة الشئون الدينية في ١٦ صفر ١٤٠٤هـ = ٢٠ نوفمبر ١٩٨٣م. المرجع السابق ص(٩٣).

(٢) أحمد حماني، في ذكرى عبدالحميد بن باديس، جريدة العصر، مرجع سابق. عبدالحميد ابن باديس (ص٩٤).

وكان يوصيهم بالمحافظة على معرفتهم للرمي وكما ذكرنا من قبل أنه كان يقرب إليه الفضيل الورتلاني لأنه أدى الخدمة العسكرية، وكان يعهد إليه بتربية صغار التلاميذ على الثورة[١] .

*** تأسيس الشيخ عبدالحميد بن باديس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ورئاسته له طيلة حياته:**

تأسست الجمعية عام ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م على يد ابن باديس وتولّى رئاستها حتى وفاته في ٩/٣/١٣٥٩هـ = ١٦ أبريل ١٩٤٠م. قادها في ظل النظام الذي يسمح للجمعيات الدينية، فكان ابن باديس حريصًا على إظهارها بأنها «جمعية دينية محضة» كما ورد في إحدى خطبه، وإلا فإنها في حقيقتها كانت صاحبة دور فعال في الحركة الوطنية الجزائرية حتى قال عنها مؤرخو الجزائر: «والحق أنه لا تكاد توجد منظمة وطنية تركت بصماتها على الحياة الجزائرية وأثرت على عقلية أهلها تأثيرًا واضحًا مثلما فعلت جمعية العلماء. وإذا كانت المنظمات الأخرى (بما في ذلك الأحزاب السياسية) قد خاطبت فئة معينة فقط أو انحصرت في أبرز المدن فحسب فإن خطاب جمعية العلماء كان قد وصل أفقيًّا وعموديًّا إلى مختلف الطبقات الاجتماعية أينما كانت ريفية أو مدنية ومن ثم هزت المجتمع الجزائري هزًا عنيفًا»[٢] .

❑ وقال مؤرخ فرنسي: «لا يمكن فصل العنصر الديني عن العنصر السياسي في الإسلام، وإصلاح العقائد ورفع مستوى الثقافة العربية لا ينفصل في نظر العلماء عن الموقف السياسي في صالح العروبة والوطنية الجزائرية».

---

(١) أحمد حماني، العصر عدد ٨٥، مرجع سابق. «عبدالحميد بن باديس» (ص٩٤).

(٢) أبو القاسم سعد اللّه، رأي في دور جمعية العلماء ـ جريدة الشعب الجزائرية اليومية في ٥ رمضان ١٤٠٦هـ = ١٤ مايو ١٩٨٦م.

❑ وفي الجامع الأخضر بقسنطينة إثر صلاة الجمعة ٤ ربيع الأول ١٣٥٦ أعلن الشيخ ابن باديس عن أصول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهي سلفية بحتة وهي:

١ ـ الإسلام هُو دين اللَّه الذي وضَعهُ لهدَايةِ عِبَاده، وأرسل بهِ جميعَ رسُلِه، وكمَّله على يدِ نبيه محمد الذي لا نَبي من بعده.

٢ ـ الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به وذلك لأنَّه:

أولاً: كما يدعُو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يُذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين.

ثانيًا: يُسوي في الكرامة البشريةِ والحقوق الإنسانيةِ بين جميع الأجناس والألوان.

ثالثًا: لأنه يفرضُ العدل فرضًا عامًا بين جميع الناس بلا أدنى تَمييز.

رابعًا: يدعو إلى الإحسان العام.

خامسًا: يُحرِّمُ الظلم بجميع وُجُوهِه وبأقَل قليله من أي أحد على أي أحدٍ من الناس.

سادسًا: يُمجّد العقل ويدعو إلى بناءِ الحياة كلها على التَّفكير.

سابعًا: ينشرُ دعوتَه بالحُجة والإقناع لا بالختل والإكراه.

ثامنًا: يترك لأهلِ كل دينٍ دينهم يَفهمونهُ ويطبقونهُ كما يشاءون.

تاسعًا: شرَّك الفقراء مع الأغنياء في الأموال وشرع مثل القراض والمُزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العُمال وأرباب الأراضي والأموال.

عاشرًا: يدعو إلى رحمةِ الضعيف فيُكفى العاجز ويُعلم الجاهل ويُرشدُ

الضال ويُعان المضطر ويُغاث الملهوف وينُصر المظلوم ويُؤخذ على يد الظالم.

حادي عشر: يُحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه.

ثاني عشر: يجعلُ الحكمَ شورى ليس فيه استبدادٌ ولو لأعدلِ الناس.

٣ ـ القرآن هو كتاب الإسلام.

٤ ـ السنَّة «القوليةُ والفعليةُ» الصحيحة تَفسيرٌ وبيان للقُرآن.

٥ ـ سلوك السلف الصالح «الصحابةِ والتابعين وأتباع التابعين» تطبيقٌ صحيحٌ لهدي الإسلام.

٦ ـ فهوم أئمة السلف الصالح أصدَقُ الفهومِ لحقائق الإسلام ونُصوص الكتاب والسنة.

٧ ـ البدعةُ كلُّ ما أُحدث على أنه عبادةٌ وقُربةٌ ولم يثبت عن النبي ﷺ فعله. وكل بدعةٍ ضلالة.

٨ ـ المصلحة كل ما اقتضته حاجةُ الناس في أمرِ دنياهم ونظامِ معيشتهم وضبط شئونهم وتقدُّم عمرانهم مما تقرّه أصول الشريعة.

٩ ـ أفضلُ الخلق هو محمد ﷺ لأنه:

أولاً: اختاره اللَّه لتبليغ أكملِ شرعةٍ إلى الناس عامَّة.

ثانيًا: كان على أكمل أخلاق البشرية.

ثالثًا: بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته.

رابعًا: عَاش مجاهدًا في كل لحظةٍ من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعُه مرهونة.

١٠ ـ أفضلُ أمَّته بعده هم السلف الصالح لكمَال اتّباعهم لهُ.

١١ ـ أفضلُ المؤمنين هم الذين آمنوا وكان يتَّقُون وهمُ الأولياءُ

والصالحون فحظٌّ كل مؤمنٍ من ولاية اللَّه على قدر حظّه من تقوى اللَّه.

١٢ ـ التوحيدُ أساس الدين فكل شركٍ في «الاعتقاد أو في القول أو في الفعل» فهو باطلٌ مردودٌ على صاحبه.

١٣ ـ العملُ الصالح المبنيُّ على التوحيد: به وحده النجاة والسعادة عند اللَّه؛ فلا النسبُ ولا الحسبُ ولا الحظُّ بالذي يُغني عن الظالم شيئًا.

١٤ ـ اعتقاد تصرُّف أحدٍ من الخلق مع اللَّه في شيء ما؛ شركٌ وضلالٌ ومنه اعتقاد الغوث والديوان.

١٥ ـ بناءُ القباب على القُبور ووقد السُّرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثةُ بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ومضاهاةٌ لأعمال المشركين. من فعله جهلاً يعلم ومن أقره ممن ينتسب إلى العلم فهو ضالٌّ مضلٌّ.

١٦ ـ الأوضاع الطرقيةُ بدعةٌ لم يعرفها السلفُ ومبناها كلها على الغلوّ في الشيخ والتحيُّز لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هُنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال والاستغلال.. ومن تجميدٍ للعقُول وإماتَة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشُّرور.

١٧ ـ ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام وما بيَّنَاه منهُ من الأحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح من الأئمة، مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان.

١٨ ـ الجاهلون والمغرُورون أحقُّ الناس بالرَّحمةِ.

١٩ ـ المُعاندون المستغلُّون أحق الناس بكل مشروع من الشدة والقسوة.

٢٠ ـ عند المصلحة العامة من مصالح الأمَّة، يجب تناسي كل خلاف يُفرق الكلمة ويُصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التآزر والتكاتُفُ حتى تنفرج الأزمة وتزُول الشدة بإذن اللَّه ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة.

✍ قل هذه سبيلي: أدعو إلى اللّه على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان اللّه، وما أنا من المشركين.

عبدالحميد بن باديس[١] .

❑ وجّه ابن باديس خطابًا بليغًا في مقال له بعنوان «ليس الخبز كل ما نريد من فرنسا» جاء فيه: «جهل قوم من ذوي السلطة هذا الخلق منا فحسبوا ـ وهم عالمون بما فيه الأمة من جوع وفاقة ـ أننا قوم لا نريد إلا الخبز، وأن الخبز عندنا هو كل شيء، وأننا إذا ملئت بطوننا مهدنا ظهورنا وأنهم إذا أعطونا الخبز فقد أعطونا كل ما نطلب...

لا يا قوم إننا أحياء وإننا نريد الحياة وللحياة خُلِقنا. وإن الحياة لا تكون بالخبز وحده، فهنالك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكلها ضروريات في الحياة»[٢] .

❑ دعا ابن باديس إلى المؤتمر الإسلامي العام سنة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م، ومثّل العلماء بالإضافة إلى الأمين العمودي، والبشير الإبراهيمي، والطيب العقبي وبعد عودة الوفد من باريس خاطب الأمة الجزائرية قائلاً: «أيها الشعب إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية وهائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها»[٣] .

❑ ولما أصدر رئيس الوزراء قانون شوطان في ٨ مارس ١٩٣٨ لوضع

---

(١) «عبدالحميد بن باديس» (ص٢٠٢ ـ ٢٠٦).

(٢) «الشهاب» (ج٩ م١٢)، رمضان ١٣٥٥هـ = ديسمبر ١٩٣٦م والخُلُق الذي يشير إليه هو حياة التقشف والزهد والصبر.

(٣) «الشهاب» (ج٦ م ١٢) (ص٢٧٢)، غرة جمادى الثانية ١٣٥٥ = سبتمبر ١٩٣٦م.

العقبات في وجه تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي هبّ ابن باديس بوصفه رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حاملة لواء التعليم العربي الإسلامي فكتب الكثير، بل إنه أحدث ضجة عجيبة من كثرة ما كتب، ومن ذلك أنه وجّه الخطاب إلى فئات من الشعب الجزائري لا يمكن أن يفكر الإنسان العادي في استثارتها ضد هذا القانون.

❑ يقول ابن باديس: «إن أعداء الأمة الجزائرية ـ وأعداء فرنسا أيضًا ـ يجمعون أمرهم ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قرارًا وزاريًّا بعقوبات على التعليم ليهدموا هذه الشخصية الإسلامية من أصلها وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها».

«لقد فهمت الأمة مَنْ المعلمون المقصودون. إنهم معلمو القرآن والإسلام، ولغة القرآن والإسلام؛ لأنهم هم الذين عرفت الأمة كلها ما يلقون من معارضة ومناهضة، وما يجدون من مقاومة ومحاكمة بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان والمروّجين للنصرانية في السهول والصحاري والجبال، بين أبناء وبنات الإسلام، في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال».

❑ قد فهمنا ـ واللَّه ـ ما يُراد بنا، وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي ـ بعون اللَّه ـ في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدّنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا»[1].

يواصل ابن باديس نشاطه السياسي فيجد بدء العام الهجري الجديد ١٣٥٨هـ مناسبة ليخاطب الشعب الجزائري يصف حالته وما يلاقيه من

(١) «البصائر»: العدد ١٠٧ في ٧ محرم ١٣٥٧هـ = ٨ أبريل ١٩٣٨م.

اضطهاد الاستعمار وقهره كأنما يُعدّه نفسيًّا للثورة وينادي فيه إسلامه ليعرف الجميع أنه ليس التراب وحده هو الذي يحرك الشعوب، فإن العقيدة تأتي أولاً.

❑ يريد ابن باديس أن يهنئ الشعب الجزائري بالعام الجديد فماذا يقول؟

«أأهنيك ومساجدك في وجوه أهل العلم مغلقة؟!

أأهنيك وتعليم دينك ولغة دينك لا تُعطى رخصته لمن يطلبها وتنزع ممن يطلبها ويحاكم المعلمون كالمجرمين؟!

أأهنيك ومطالبك خابت فيها آمالك؟!

أأهنيك وأبناؤك البررة في زوايا السجون منهم من قضي عليه ومنهم من أهمل من زمان فهو ينتظر قضاءه، ومنهم من ـ في ساعة كتابتي هذه ـ يُذهب ويُجاء به إلى مجالس القضاء؟!..

ماذا ألم تبق للّه عليك نعمة أهنيك بها؟ كلا! ثم كلا!!

إن شعبنا احتضنه الإسلام واحتضن الإسلام ثلاثة عشر قرنًا، لن يضيع عن اللّه أبدًا أبدًا.

ألم يحفظ اللّه عليك هذا الإسلام رغم الجهل والتفقير وبث أسباب التنصير؟

ألم يحفظ اللّه عليك عروبتك رغم التمزق والتزهيد والتهديد؟

بلى ثم بلى.. فأنا أهنيك أيها الشعب الكريم بإسلامك وعروبتك وجزائريتك»[1].

(١) «البصائر»: العدد ١٥١ في ١٣ ذي الحجة ١٣٥٧هـ = ٤ فبراير ١٩٣٩م.

* اهتمام ابن باديس بقضايا العالم الإسلامي:

❑ ومن نشاطه السياسي اهتمامه بقضايا العالم الإسلامي والكتابة حولها ودعوة الجزائريين للاهتمام بإخوانهم المسلمين حتى بلغت نسبة ما احتلته هذه القضايا في صحافة ابن باديس وصحافة الجمعية ثلثها[١] . ومن أهم القضايا التي كتب حولها كثيراً قضية ليبيا وجهاد عمر المختار وقضية فلسطين. وعندما عقدت اللجنة البرلمانية مؤتمرها في القاهرة عام ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م أرسل ابن باديس برقيتين إلى المؤتمر إحداهما بوصفه رئيسًا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والثانية: بصفته شخصيًّا. جاء في الأخيرة: «نحن معكم»[٢] .

❑ وهناك أيضًا قضية فلسطين وما حدث فيها من تعاون بين اليهود الصهاينة ضد المسلمين فيها فكتب الشيخ عبدالحميد يوضح خطورة هذه الأحداث قائلاً: «تزاوج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فأنتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيمًا لا يطاق وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحًا لا يندمل»[٣] . ثم يتحدث عن مسئولية المسلمين تجاه هذه الأحداث فيقول: «وكل مسلم مسئول أعظم المسئولية عند اللّه تعالى على كل ما يجري هنالك من أرواح تزهق وصغار تيتّم ونساء ترمّل وأموال تُهتك وديار تُخرب وحرمات تُنتهك كما لو كان ذلك كله واقعًا بمكة أو المدينة إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع»[٤] .

---

(١) مقدمة بقلم أبي القاسم سعد اللّه» لكتاب مارن صلاح «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» طبع دار القلم.

(٢) «من الوثائق المحفوظة لدى مديرية الوثائق بولاية قسنطينة».

(٣) «الشهاب»: (ج٦ م١٤) غرة جمادى الثانية ١٣٥٧هـ = أغسطس ١٩٣٨م.

(١) المصدر السابق.

* ابن باديس والطرقية «الصوفية»:

لا يكتمل الحديث عن ابن باديس دون ذكر طرف من جهاده ضد الطرق الصوفية. فهو قد حاربها لأمرين: أحدهما: ما أدخلته على الدين من انحراف وضلال وبدع وخرافات.

وثانيًا: لأنها أصبحت تسير في ركاب الاحتلال.

❑ فمتى دخلت الطرق الصوفية إلى الجزائر وما عللها؟

يذكر أحد المؤرخين أن الطرق الصوفية بدأت تظهر في الجزائر منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي وازداد أتباعها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر. وأهم هذه الطرق هي: القادرية، والرحمانية، والتيجانية، والشاذلية، ودرقاوة الشاذلية، والعليوية[1].

وقد جاء في سجل المؤتمر الخامس لجمعية العلماء أن الطرق الصوفية «ترجع في أصلها إلى نزعة غامضة تسترت بالانقطاع للعبادة والتجرد من الأسباب والعزوف عن الملذات الجسدية والتظاهر بالخصوصية وكانت تأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية وهو التسليم المطلق وشيء من مظاهر البرهمية وهو تعذيب الجسد إرهاقًا إلى كمال الروح»[2].

❑ وها هي صورة ننقلها من مقالة كتبها أحد الصحفيين في إحدى الصحف الجزائرية حول شيخ إحدى الطرق الصوفية بأنه كان في فرنسا فشاهد فتاة تعمل في أحد الفنادق فأعجب بها وأراد الزواج منها فلم يوافق

(١) «نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني» لمختار فيلالي (ص٥١).

(٢) تصدير لسجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الخامس ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م (ص٢٧).

حاكم عام الجزائر ولكن الكاردينال لافيجري كان يرى أن هذا الزواج في مصلحة المسيحية وسوف يجعل تنصير المسلمين من أسهل الأمور وأيسرها. وتم الزواج في الكنيسة الكبرى عام ١٩٠٧م. وأصبحت تعرف بأميرة الرمال. وظلت على ديانتها الكاثوليكية وكانت تعطف على «المضلّلين المسيحيين فمدت لهم يد المساعدة، وكتبت باسم زوجها شيخ الطريقة كثيرًا من الرسائل إلى مقاديم هذه الطريقة وأعيانها توصيهم خيرًا بهؤلاء المضللين»[1].

❑ ولئن كان زعماء النضال في الجزائر في بداية الاحتلال ينتسبون إلى الطرق الصوفية، فما كان ذلك ليمنعهم من مقاومة الاحتلال؛ لأنهم لم يبتعدوا عن العقيدة السلفية. ولكن فرنسا رأت أن تستميل شيوخ هذه الطرق بالمناصب والمال والجاه حتى إن أحد الحكام الفرنسيين أعلن أن أفضل وسيلة للسيطرة على الشعب الجزائري هي التقرب من شيخ زاوية أو طريقة بمنصب أو مال. وقد أصبح هذا واضحًا فيما بعد حين سيطر الطرقيون على تسعة أعشار مقاعد المجالس المحلية على كل المستويات، وأربعة أخماس المناصب القيادية، وثلثي الوظائف في الإدارة الفرنسية.

❑ ويقول أحد المؤرخين المعاصرين: إن الحكومة تمكنت من استجلاب الطرقية إلى جانبها تمدها بالمساعدات وتحميها، فكان من الطبيعي في نظر العلماء أن تصبح خدمة الطرقية خدمة للأجنبي ودعائمه.

❑ وحين أعلن ابن باديس الحرب على الطرقية فإنما كانت هذه الحرب موجهة ضد الاستعمار الذي كان يؤيد الطرقية. ويؤكد هذا قول أحد المؤرخين الفرنسيين: «أصبحت كلمة المرابطين تدل على الجهل والتخلف،

---

(١) «الصراط السوي» عدد ٦ في ٤ رجب ١٣٥٢هـ = ٢٣ أكتوبر ١٩٣٣م - «إلى زيارة سيدي عابد» لمحمد السعيد الزاهري.

وكذلك أصبحت تعني المؤيدين للاحتلال والإدارة الفرنسية».

وقد وصفت إحدى الوثائق الفرنسية هذا الصراع بين العلماء بقيادة الشيخ عبدالحميد بن باديس وبين الطرقية بأنه كان صراعًا عنيفًا لا هوادة فيه ولا رحمة، ليس لأن الطرقيين مبتدعون في الدين فقط بل لأنهم متهمون بالإخلاص في تعاونهم مع فرنسا. وهذا يخالف العقيدة الإسلامية ويخالف أيضًا أفكار الجامعة الإسلامية.

وقد تجلت حرب ابن باديس للطرقية في طريقين: أحدهما نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة وبذل الجهود المضنية في ذلك، بل إن أعمال ابن باديس التعليمية منذ رجع من الحج عام ١٩١٣م كانت موجهة ضدهم ولكن بصورة غير مباشرة في محاولة لكسبهم إلى جانبه فلما بدأ نشاطه الصحفي عام ١٩٢٥م أخذ يوضح مخاطر الطرق الصوفية مع الاستمرار في التعليم وإصلاح العقيدة. ومن عبارات ابن باديس التحذيرية قوله: «واحذر كل (مترببط) يريد أن يقف بينك وبين ربك ويسيطر على عقلك وقلبك وجسمك ومالك بقوة يزعم التصرف في الكون»[1].

□ كما ألف ابن باديس قبل ذلك رسالة في الرد على شيخ الطريقة العليوية الذي كتب أبياتًا من الشعر العامّي يخاطب فيها الرسول ﷺ بما لا يليق[2]. فكان رد الشيخ عبدالحميد مفصلاً للحال التي يجب أن يكون فيها المؤمن مع الرسول ﷺ. وقد نالت من التقريظ والعناية من العلماء الجزائريين والتونسيين والمغاربة ما ملأ قلب ابن عليوه وأنصاره غيظًا فدبروا مكيدة للسطو بالإمام الرئيس عبدالحميد بن باديس في ٩ جمادى الآخرة

(١) «ابن باديس، «الشهاب»: عدد ١٩ في ١٥ صفر ١٣٤٥هـ = ٢٣ أغسطس ١٩٢٦م.

(٢) أنجزها في ٢٧/٢٦ ذي الحجة ١٣٤٠هـ بناءً على ما جاء في كتاب أحمد حماني، «صراع بين السنة والبدعة» (ص٥).

١٣٤٥هـ الموافق ١٤ ديسمبر ١٩٢٦م، ونجّى اللّه الإمام من هذا الاعتداء الأثيم. وهناك رأي بأن هذا الاعتداء كان بإيعاز من الإدارة الاستعمارية التي ضاقت ذرعًا بنشاط الأستاذ في الميدان الإصلاحي والوطني وكانت تعتمد بالدرجة الأولى على بعض هذه الطرق والزوايا[1] . وما كان من الممكن بالطبع أن يقال مثل هذا الرأي في حينه. ولعل مثل هذه الأعمال لا تفصح عنها الوثائق الفرنسية التي تم الإفراج عنها حتى الآن.

وبعد هذه الحادثة بسنوات تأسست جمعية العلماء المسلمين ودخلها بعض رجال الطرق الصوفية والعلماء الرسميين، ولكنهم لم يرقهم أن يكون علماء الإصلاح هم أصحاب الشأن فيها، فلمّا حان موعد انتخابات المجلس الإداري الجديد من العام التالي حتى خرج منها هؤلاء ـ علماء الدين الرسميون (الموظفون لدى الحكومة) والمتصوفة ـ وأنشأوا جمعية لهم باسم «جمعية علماء السنة» لتحارب العلم والإسلام باسم السنّة. وأخذت تنادي بأن الخلافات بينها وبين علماء الإصلاح تنحصر في مسائل شرعية دينية جزئية.

❑ ولم يكن الشيخ ابن باديس ليسكت عما يراه مخالفًا للعقيدة الإسلامية السلفية الصحيحة.

أما صلة أصحاب الطرق الصوفية بفرنسا فقد كفتنا الوثائق الفرنسية مئونة البحث مما أشرنا إليه آنفًا. ولعلنا نزيد الأمر وضوحًا بنقل وجهة نظر هؤلاء من خلال إحدى صحفهم التي كتبت تقول: «أما المسائل السياسية فقد صرحنا وما زلنا نصرح بأن مشروع الزوايا لم يؤسس لأجل الاشتغال بها لأننا ما زلنا نعتبر السياسة والدين متناقضان على الرغم مما يقوله المشاغبون بأن

(١) أحمد حماني، «صراع بين السنة والبدعة» (١/ ٩٩).

الدين لا ينافي السياسة»[١] .

بل إن الأمر ظهر جليًّا قبيل إعلان الحرب العالمية الثانية حين طالبت فرنسا الجهات الجزائرية المختلفة تقديم فروض الولاء والطاعة ضمانًا للجبهة الداخلية فكان شيوخ الطرق أول من أدى هذا الواجب ـ في نظرهم، ففي رسالة موجهة من شيخ الطريقة القادرية بالوادي يوجهها إلى الشعب الجزائر يطالبه فيها الانضمام للجيش الفرنسي أو بتقديم العون المادي للمجهود الحربي، ويقول فيها ما نصه: «وها أنا فرد منكم أقدِّم نفسي بإخلاص لدفع إعانة مالية عوضًا عن عجز صحتي البدنية قدرها عشرة آلاف فرنك»[٢] .

❑ وبفضل من اللَّه ثم بجهود مخلصة من الشيخ عبدالحميد بن باديس تضاءل وجود الطرق الصوفية حتى كادت تنقرض لولا أنها فتنة تطل برأسها بين الحين والآخر وتجد من أعداء الإسلام من يؤيّدها لحاجة في نفسه.

*** ابن باديس الرئيس الشرفي لبعض فرق الكشافة الجزائرية :**

وُجدت بالجزائر فرق كشفية كاثوليكية ويهودية شارك بعضها في عروض الاحتفال المئوي ـ مرور مائة سنة على الاحتلال ـ وكان بعض الجزائريين أعضاءً في هذه الفرق. لذا فكر بعض الشباب الجزائر في تكوين فرق كشفية خاصة بهم. فكان ابن باديس من المؤيدين لهذا العمل حتى اختارته بعض هذه الفرق أو الأفواج رئيسًا شرفيًّا لها. وكان من اهتمام ابن باديس بالكشافة أن خلّد ذكر فَوْجَيْ «الرجاء» و«الصباح» في قصيدته المشهورة:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

(١) «الرشاد»: العدد ٥ في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ = ٢٢ يوليه ١٩٣٨م.

(٢) من الوثائق الفرنسية الموجودة في الأرشيف الفرنسي الوطني لما وراء البحار العلبة رقم 16h72.

من قال حاد عن أصله أو رام إدماجًا له فقد كذب
يا نشء أنت (رجاؤنا) وبك (الصباح) قد اقترب

ولعل ابن باديس يرمي إلى أبعد من مجرد ذكر الفوجين وذلك التطلع إلى معركة التحرير[1].

❑ وأشرف نائبه محمد البشير الإبراهيمي على جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين، وكان معظمهم من طلبة الجامع الأخضر الذي كان يشرف على التدريس فيه الشيخ ابن باديس، وكان ابن باديس يجتمع بهم عند زيارته لتونس.

❑ سعى ابن باديس إلى تأسيس جمعية تجار قسنطينة عام ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م برئاسة بلقاسم بوشجة، وتأسست على منوالها «جمعية أمال» التي ضمت تجارًا من جميع أنحاء الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية وكان لها نفوذ كبير في الاقتصاد الجزائري حتى إن السلطات الاستعمارية كانت تراقب أعمالها وتحسب لها ألف حساب، حيث أصبحت الجمعية تستورد من الخارج ونظمت أعمالها برأس مال وطني وكانوا يستفيدون من ذلك أفرادًا ويستغلون التجار الفرنسيين لصالحهم، وقد ظهر أثر ذلك على المشروعات الخيرية من بناء المدارس، والمساجد، والنوادي، ومساعدة الفقراء[2].

*** ابن باديس العليم بأحوال عصره وواقع أمته:**

أقامت فرنسا حول الجزائر سورًا كالستار الحديدي وكان لابن باديس أثر كبير في تحطيم الأسوار التي بنتها فرنسا حول الجزائر، فيذهب إلى أرض

(١) «عبدالحميد بن باديس» (ص١١٦).
(٢) «عبدالحميد بن باديس» (ص١٢١).

الحجاز ويلتقي بعلماء الدعوة السلفية، ثم يسافر إلى مصر، وكان للشيخ مراسلات دائمة مع مفتي القدس الشيخ أمين الحسيني.

وكانت فظائع الاستعمار الإيطالي في ليبيا دافعًا لابن باديس أن يظهر مشاركة الشعب الجزائري لإخوانه المسلمين فيما تعرضوا له من محن. فكتب ابن باديس يقول: «فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تلبّي هذا النداء الصادر من القطر الشقيق المظلوم وترفع صوتها بالاحتجاج والاستنكار ضد ما ارتكبته إيطاليا من الظلم الفادح الذي أنزلته على طرابلس العربية المسلمة فأصابت به كل قلب عربي وكل مسلم. وتنذرها بأن الضمير الإسلامي والعربي قد استيقظ من نومه..»[1].

وكثيرة هي الأدلة على الاتصال بين شيخ الجزائر ابن باديس والعالم الإسلامي، فمنذ أول أعداد «المنتقد» نجده ينقل أخبار المسلمين في روسيا حيث يقول الخبر: «هدم الشيوعيون معهدًا إسلاميًّا في مدينة طاشقند اسمه «مدرسة كابيلربي» وأخذوا ينشئون في مكانه تمثالاً للزعيم لينين). ثم يستنتج الخبر أن هذا العمل وأمثاله يؤكد (عداء البولشفيك للإسلام والمسلمين كما هم أعداء جميع المتدينين)[2].

❑ وبعد سنوات تنشر الشهاب مقالاً مقتبسًا من مجلة «الفتح» يوضح دور اليهود في الثورة البلشفية وإنهم المسيطرون عليها، والدليل على ذلك ما يتمتع به اليهود من حقوق وامتيازات وهذا ما قاله مندوب مسلمي روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة عام ١٣٤٤هـ: «إنهم (البولشفيك) لا يفرّقون بين أهل دين ودين بل يضطهدون أهل الأديان جميعًا إلا أن اليهود سالمون من هذا الاضطهاد ومتمتعون بحقوق لا تتسنى لأحدٍ سواهم، بل الحكومة كلها في

(١) «البصائر»: العدد ١٥٢ في ٢٠ ذي الحجة ١٣٥٧هـ = ١١ فبراير ١٩٣٨م.
(٢) «المنتقد»: العدد الأول في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣هـ = ٢ يولية ١٩٢٥م.

أيديهم». وفسر ذلك بأنه النفاق والدهاء فاليهود بلشفية في الظاهر، وهم في الباطن لا يفرطون في مثقال ذرة من يهوديتهم، وبهذا المكر الكبّار نجحوا دون سائر أهل الأديان»[١].

ولعل قضية فلسطين من أبرز القضايا التي نالت اهتمام الشيخ عبدالحميد بن باديس، فهو لم يعشْ حتى تتأسس دولة اليهود على أرض المسجد الأقصى، ولكن الأحداث التي كانت تقع هناك لفتت الأنظار إلى المخطط اليهودي الماكر. فما كان من ابن باديس إلا أن يرسل الاحتجاج على الأحداث الدامية التي وقعت في فلسطين منذ أوائل الثلاثينات، وكان احتجاجه موجَّهًا إلى وزارة الخارجية الفرنسية. وما كان الاحتجاج هو الوسيلة الوحيدة بل كان الشعب الجزائري على فقره وحاجته يجود بما يستطيع لمساعدة إخوانه في فلسطين[٢].

❑ لولا ابن باديس لنسي المشرق المغرب العربي، ولفت الشيخ ابن باديس إخوانه في المشرق إلى معادن العلم والفضيلة ومنابت العز والرجولة ومعقل العروبة والإسلام في جمعية العلماء الجزائريين.

* ابن باديس في نظر معاصريه ومَنْ أتى من بعده من الأجيال المسلمة:

❑ أصدر الدكتور محمود قاسم كتابه «الإمام عبدالحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» في عام ١٩٦٧م. وقال فيه: إن الأساس الذي بنى عليه ابن باديس فكرة تحرير الجزائر عن طريق تصحيح

---

(١) «الشهاب»: (ج١٠ م٧ ص٦٢٢) وما بعدها، جمادى الثانية ١٣٥٠هـ = أكتوبر ١٩٣١م نقلاً عن مجلة الفتح، مقابلة أجراها محمد تقي الدين الهلالي مع موسى جار الله مندوب مسلمي روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة ١٣٤٤هـ.

(٢) الصراط: العدد ١١ في ٩ شعبان ١٣٥٢هـ = ٢٧ نوفمبر ١٩٣٣م.

المفاهيم الروحية[١].

❑ ويقول عن ابن باديس: «وقد استطاع بصادق فطرته وإخلاصه أن يهتدي إلى السلاح الناجع الذي حطم به أسطورة الجزائر الفرنسية، تلك الأسطورة التي حاولت فرنسا أن تفرضها على الجزائريين، وقد نجحت في أن تجر إليها نفرًا من السياسيين المحترفين».

«ولقد وضع ابن باديس خطته على أساس مبتكر يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم، في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر. ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الأوان. فوجدت نفسها محاصرة بعد أن نحّى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى»[٢].

❑ ويري الدكتور محمود قاسم أن ابن باديس لم يكن ممن يفكر في إنشاء مذهب أو فكر فلسفي إنما كان رجل عمل وحركة. ولكن العمل والحركة تستند إلى أسس فكرية، فتحدث محمود قاسم عن نظرة ابن باديس إلى أهمية القرآن في بعث الجزائريين والأمة الإسلامية جمعاء، ثم يعرج على نظرته للأخلاق. ويوضح موقف ابن باديس من إصلاح النفس والمجتمع ثم تحدث عن ربط ابن باديس العلم بالدين وأن الأمة متى فقدت سبيلها إلى العلم ضلّت وتأخرت وأصبحت في ذيل الأمم. ثم تناول موقفه من التصوف والطرق الصوفية وما أدخلته على الدين الإسلامي من بدع وخرافات وتواكل وتنازل عن القيم الإنسانية الرفيعة التي دعا إليها الإسلام»[٣].

---

(١) «الإمام عبدالحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» لمحمود قاسم (ص١٤).

(٢) المصدر السابق (ص١٥).

(٣) انظر المصدر السابق (ص٨٣ ـ ٩٣).

❑ ويقول مالك بن نبي ـ رحمه اللّه ـ في كتابه «شروط النهضة»: «ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات (ابن باديس) فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري يتحرك ويا لها من يقظة مباركة». ويقول في الكتاب نفسه مقارنًا بين عمل العلماء ورجال السياسة المحترفين: «إن العلماء كانوا أقرب إلى الصواب من السياسيين، حين دعوا إلى الإصلاح بمعنى دفع النفس إلى حظيرة الإيمان من جديد»[1].

❑ وللّه در الأستاذ أنور الجندي وهو الذي سبر أغوار ابن باديس يقول عنه في كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا»:

«فهو الخطيب الذي يهز المشاعر والأرواح ويسيطر على الجموع، وهو الكاتب الدقيق العبارة، النقي الأسلوب، الواضح الفكرة، وهو الصحفي والمدرس والمحدث والرحالة».

«وهو الذي ينشئ المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس يفتتح الدروس بعد صلاة الصبح حتى ساعة الزوال بعد الظهيرة، ومن بعد المغرب إلى صلاة العشاء. وإذا خرج من المعهد ذهب رأسًا إلى إدارة جريدته «الشهاب» يكتب ويحرر ويراسل «البصائر» ويجيب على الرسائل فيقضي موهنًا من الليل، حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول».

«لم تصرفه الصحافة عن التدريس وما من نظرية ظهرت في التربية والتعليم أو كشوف العلم والفكر إلا استوعبها، وأبدى رأيه فيها. وما من صحيفة في المشرق أو المغرب إلا نظر فيها واستخلص منها ما ينفع بني جنسه ووطنه ودعوته وهو الذكي الفطن الفاهم لتيارات سياسة الغرب في الشرق،

(١) «شروط النهضة» لمالك بن نبي (ص٧٩).

وما تحمل في أطوائها من زاوية دعوته ومن زاوية أمر العرب والمسلمين، ذلك إلى خبرة عميقة بالسياسة الاستعمارية في الجزائر يتعقب أخطاءها عن علم وبصيرة، ويفند مزاعم المستعمرين ما اتصل منها بالإسلام أم باللغة العربية أو بتفوق العنصر الأوروبي على العنصر العربي الإسلامي»[١] .

❑ ويقول الأستاذ مسعود الندوي في مقال كتبه بالانجليزية سنة ١٣٧١هـ = ١٩٥١م بعنوان «الحركات الإسلامية المعاصرة»[٢] جاء فيه:

«عبدالحميد بن باديس، دارس متعمق للقرآن والسنة، وباحث وكاتب بالعربية، له موهبة الرأي المتزن، وذو نزعة سلفية في الفقه والدين، وهو من نفس المستوى والنوع الذي يدرج فيهما محمد عبده[٣] ورشيد رضا، وعالما الشام عبدالرزاق البيطار، وجمال الدين القاسمي.

وقد شق طريقه على نهج قويم، وأصدر مجلة الشهاب، وصحفًا أسبوعية أخرى (الصراط ـ الشريعة ـ السنة) وقد درست ـ أي مسعود الندوي ـ بعضًا من هذه الصحف، وأقرر بلا تردد، أنه بالنسبة لهذا اللون من الصحافة، يمكن أن نضع صحف الجزائر الإسلامية الصادرة في ذلك الوقت في مصاف أرقى مجلاتنا، وإلى جانب الكتابة عمل ابن باديس على افتتاح شبكة من المدارس الابتدائية، وكان هو بنفسه يقوم بالتدريس في قسنطينة، وقد حمل إخوانه وتلاميذ دعوته إلى كل زاوية وركن من البلاد، وإن كان المتصوفة والعلماء المفسدون، لم يألوا جهدًا في وضع العراقيل وتعويق تقدمه، وتأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) لتسير على هذا النهج، ومن يوم مولدها والحكومة الاستعمارية الفرنسية، لا تطيق وجودها وكذلك

(١) «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا» لأنور الجندي (ص٤٦).

(٢) المقال منشور بمجلة «صوت الإسلام» التي كانت تصدرها «جمعية الفلاح» بكراتشي.

(٣) لا واللّه فهو يخالفه في معتقده ومنهجه.

جهلة المتصوفة، واستمرت دسائس الخصوم حتى وفاة ذلك المجاهد العظيم، في ١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م، ولكن غياب جسده عن مسرح الأحداث في الجزائر لم يكن يعني توقف الحركة التي بدأها فقد سارت في طريقها. (انتهى).

ومما يذكر أن ابن باديس وجماعته، قد تعرضوا لسلسلة من مكائد أصحاب الطرق وحماتهم من المحتلين، ومثال ذلك تلفيق التهم، وإلصاق كل فتنة بدعاة الإصلاح، بل ومحاولات الاغتيال، مثل التي حدثت للشيخ ابن باديس نفسه وهو عائد من درس التفسير ليلاً، إذ هم الجناة باغتياله. لكنه شعر به فاستغاث، وتجمع الناس حوله وتمكن من إلقاء القبض عليه قبل إتمام الجريمة، فسجل الشعراء ذلك الموقف المشرف له.

حمتك يد المولى وكنت بها أولى

فيا لك من شيخ حمته يد المولى

□ وقد أدركت فرنسا خطورة ابن باديس، والجمعية التي أسسها، والخط الفكري الذي ينشره في مجلته الشهاب حيث ينادي بمقاومة التغريب والتجزئة والتجنيس ومطاردة الاحتلال، ورأت أن ذلك سيعجل في يقظة الأمة الجزائرية إن لم تكن قد استيقظت بعد، لذلك ظلت تنظر إلى ابن باديس في قلق بالغ، وكانت تستدعيه لتحقق معه بين آن وآخر، كما تحول بينه وبين التنقل بين القرى والمدن، ولكنه كان لا يلبث أن يردد كلمته الخالدة: «إن لنا فكرة معروفة، ولن نحيد عنها».

ومما يؤكد صلابة ابن باديس ورسوخ دعوته قوله: «تستطيع الظروف أن تكيفنا ولكنها لا تستطيع أن تقهرنا»، ومن مواقف ابن باديس الشجاعة، أن دعا لمقاطعة الاحتفال الفرنسي بمرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر. وأصدر بيانًا أعلن فيه صراحة وبكل جرأة، أن هذا العمل خيانة للبلاد، وحينئذ عجزت فرنسا من أن تجد من يعاونها في هذا العمل فانصرفت عنه.

❑ عاش ابن باديس حياته للدعوة، ولم ينجب أولادًا، ولم يشغل نفسه بشئون الأسرة فقد كانت دعوته تملك عليه كل وقته وقلبه، وقد عبر عن ذلك بقوله: «إنني لن أنجب أولادًا، ومع ذلك فأنا أب؛ لأن الجزائريين أبنائي»!!!.

ولعل أصدق صورة لدعوته التي تحرك بها من خلال جمعية العلماء، ما أفصح عنه بقوله: «إننا نريد نهضة شعبية قوية، تُجلي شخصية الشعب الجزائري وتكشف له عن مجد الماضي بما ينير له طريق الحياة من جديد...

نريد انقلابًا جزائريًا يرتكز على إعداد نشء صالح تتمثل فيه عبقرية الجدود، فتنهض نهضة إسلامية، عربية، تأخذ من عظمة الماضي، ويقظة الحاضر، ما يعصمها من الزلل والانحراف وهي تسير في طريق المستقبل الباسم».

وكذلك قوله: «لمن أعيش؟ أعيش للإسلام والجزائر»!!

*** في نظر المؤرخين:**

❑ يقول الدكتور أبو القاسم سعد اللّه ابن المعهد الباديسي بقسنطينة، ودار العلوم بالقاهرة، ورائد مؤرخي الحركة الوطنية الجزائرية، ورئيس مجلس البحث العلمي بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر حاليًا. وليست تربية الدكتور سعد اللّه الباديسية مما يجعله يتحيّز لجمعية العلماء أو لابن باديس، بل هو يأتي أحيانًا بالآراء الفريدة ما يُعَدّ غريبًا أن يصدر من مثله لولا حرصه على توخّي الحيدة والعدل والإنصاف في أحكامه. فماذا يقول د. سعد اللّه عن ابن باديس؟

❑ يقول د. سعد اللّه: «إن العشرينات من هذا القرن هي الفترة التي ظهرت ونمت فيها الصحافة الإصلاحية، والنوادي، والمدارس الحرة. وكان

ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة بشخصه وقلمه ولسانه وتلاميذه»[١] .

❑ وحين يتحدث عن جمعية العلماء يقول: «وإذا تكلمنا عن جمعية العلماء خلال الثلاثينات فالكلام في الواقع عن ابن باديس. ومن الممكن أن يزعم المرء أنه لولا ابن باديس لما تأسست جمعية العلماء ولا يمكن عكس هذه القضية فيقال مثلاً إنه لولا جمعية العلماء لما كان ابن باديس»[٢] .

❑ وقال الدكتور أبو القاسم سعد اللّه في تقديمه لكتاب مازن بن صلاح «جمعية العلماء المسلمن الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية»:

«وحسبنا هنا أن ننبه إلى أن جمعية العلماء اهتمت بالإنسان فجعلته هو الهدف في كل تحركاتها. خاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية، وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ، وأنشأت لذلك من الدعاة والخطباء والمؤرخين والصحفيين والشعراء والمعلمين ووفرت لهم مراكز تمثلت في المساجد والمدارس والنوادي والصحف والكتب..»، ولئن كان حديثًا عن الجمعية فإن ابن باديس كان هو العصب المحرك وينطبق الحديث عليه تمامًا.

❑ وفي بحث له في مجلة كلية العلوم الاجتماعية تحت عنوان «دعوة الإصلاح الإسلامي بين الشيخ عبدالحميد بن باديس في الجزائر والدعاة المعاصرين في المشرق العربي»[٣] يقول الدكتور محمد فتحي عثمان:

«أما ابن باديس فكان بحق رجل (الجماهير) الصابر عليها، العامل معها ووسطها مهما كانت المكانة الرفيعة له ولأسرته بينها. وقد جاء نشاطه في جماعته صورة لطاقته الحركية الجماهيرية النشطة وكفايته التنظيمية البناءة إلى

---

(١) «الحركة الوطنية الجزائرية» لأبي القاسم سعد اللّه (٣/ ٨٢).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٨٣، ٨٦).

(٣) مجلة كلية العلوم الاجتماعية: العدد الرابع ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) (ص٤٣٢ ـ ٥٠١).

جانب عقليته الحكيمة المدبرة وبديهته السريعة الثاقبة في الوقت نفسه».

❑ ويقول الدكتور محمد فتحي عثمان عن ابن باديس في كتابه المسمى باسمه: «وقد استعان ابن باديس ـ في حكمة وتوفيق ـ بأدوات عصره لتحقيق أهدافه الجليلة، من (الصحافة) إلى (الجماعة) إلى (المدرسة) مستندًا إلى الذخيرة التي لا تنفد ولا تنقطع ثمارها وآثارها (القرآن الكريم) من جهة و(المسجد) من جهة أخرى.

ولقد كانت خطة ابن باديس في إصلاحه الثقافي التعليمي الاجتماعي بحق:

«عملاً وطنيًّا سياسيًّا» عميق الجذور، واسع النطاق، طويل المدى.

❑ ويمضي قائلاً:

«وعى ابن باديس آراء دعاة الإصلاح الذين سبقوه، ولا سيما جمال الدين الأفغاني[1] ومحمد عبده، وأيقن أن طبيعة الواقع الجزائري وتسلط الاستعمار الفرنسي القاهر، سوف يجعله في نهجه أقرب إلى ما آثره محمد عبده من الفكر والإرشاد والتربية والتعليم.. لكن ابن باديس كان (حركيًّا شعبيًّا) في دعوته الإصلاحية، يؤثر العمل بين الجماهير الأمية الساذجة، ويحدثهم بما يفهمون في المساجد والمجامع، وبينما يخاطب المتعلمين بقلمه في صحافته، وينشئ المدارس متطلعًا إلى جيل قادم ومؤمن مستنير في المستقبل، نراه لا يغفل الحاضر القائم، ويحرض على عدم الانجراف في تيارات السياسة العاتية في صراع غير متكافئ، أو في وقت غير موات، لكنه لا يتقوقع ولا ينكل إذا كان لا بد من مواجهة الأعاصير الهوج، وكان ذلك ضروريًّا وممكنًا، وكان يرى في جهوده البناءة في تدعيم الشخصية الجزائرية

(١) لا والله، فإن ما بين الأفغاني ومحمد عبده في العقيدة أبعد مما بين المشرق والمغرب.

العربية، خير ظهير للمطالبة بحقوقه السياسية، ويرى في العمل لنيل هذه الحقوق السياسية المهضومة وتأييد الساسة العاملين لذلك خير تأكيد للمقومات الإسلامية العربية لهذا الشعب.

هذا ويمكن لنا أن نلحظ حرص ابن باديس على بلورة مفهوم (الشخصية الجزائرية) المتميزة على أساس أصولها الإسلامية العربية، في ذلك الشعار الذي جعله لصحيفة (المنتقد) التي أشرنا إليها سابقًا، إذ هو «الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء»، وكان يردد دائمًا: «نحن الجزائر، وما الجزائر إلا الجزائريون»، و«العروبة والعربية» عنده ملتحمتان مع الإسلام لا تنفكان عنه، وحاجز متين يحول دون التذويب الثقافي الذي تستخدمه فرنسا ليظاهر الإدماج السياسي.

وكان إصرار ابن باديس كبيرًا في نشر التعليم الإسلامي واللغة العربية كسبيل أكيد ووحيد للحفاظ على الشخصية الجزائرية، وقد أدركت ذلك فرنسا فأصدرت (قانونًا في مارس ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، يقضي بإلزام كل مُعلم باستصدار ترخيص بذلك وإلا تعرض للغرامة والسجن).

وقد ندد بهم ابن باديس، وكشف خطتهم الشيطانية في عزل الجزائر عن هويتها الإسلامية وعروبتها، فكتب مقالاً بعد شهر من صدور هذا القانون الظالم، نشر في مجلة البصائر سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م جاء فيه: «.. أعداء الأمة الجزائرية يُجمعون أمرهم، ويدبرون كيدهم، فيستصدرون من الحكومة قراراً وزاريًّا بعقوبات صارمة على التعليم، ليهدموا الشخصية الإسلامية من أصلها، وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها.. علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، وأن لا تعلم له إلا بتعليم لغته، فناصبوا تعليمها العداء، وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية، ومكاتب التعليم

الديني العربي، والضَّنّ بالرخص، واسترجاع بعضها حتى لم يبقوا منها إلا على أقل القليل، ولما رأوا تصميم الأمة على تعلم قرآنها ودينها ولغة دينها واستبسال كثير من المعلمين في القيام بواجبهم واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد، ورغم الزجر والتغريم ـ لما رأوا هذ كله سعوا سعيهم حتى استصدروا قانون العقاب الرهيب..

فهمت الأمة هذا الكيد والشر، المدبر لدينها وقرآنها ولغة قرآنها ودينها، والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها، والمعاهدة للّه وللأمة على ذلك الدفاع إلى آخر رمق من حياتها وسنمضي بعون اللّه في طريق تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا.. وإننا على يقين من أن العاقبة وإن طال البلاء لنا، وإن النصر سيكون حليفنا؛ لأننا قد عرفنا إيمانًا وشاهدنا عيانًا أن الإسلام والعربية قد قضى اللّه بخلودهما ولو اجتمع كلهم على محاربتنا»[1].

❑ ويقول المؤرخ الكندي «أندريه ديرلك» في رسالة الدكتوراه بعنوان «عبدالحميد باديس مفكر الإصلاح وقائد الحركة الوطنية الجزائرية» وهي من أولى الرسائل الجامعية في الغرب تتناول حياة ابن باديس بهذا الوضوح والقوة. فقد أُنجزت عام ١٩٧١م أي بعد استعادة الاستقلال بسنوات قلائل، ولما تكن الوثائق الفرنسية قد كُشف النقاب عنها. ولكن معرفة الباحث للغة العربية واللغة الفرنسية وزيارته لكل من الجزائر وتونس لمقابلة بعض العلماء مكّنته من التوصل إلى تصور دقيق لنشاط ابن باديس.

لقد درس المؤلف نشاط ابن باديس بوصفه داعية وربطه بكبار الدعاة في التاريخ الإسلامي منذ ابن تيمية إلى العصر الحاضر. ووقف على فكر ابن باديس في بعض المسائل التي حاول بعض المؤرخين المسلمين طمسها وتشويهها

(١) «نماذج حركات الجهاد: السنوسية ـ الباديسية ـ القسامية» (ص٧٩ ـ ٧١).

مثل مسائل الاقتصاد والعمل. وفيما يلي بعضًا من أقوال هذا المؤرخ:

«لقد أخذ ابن باديس على عاتقه القيام بدور لا يقصر فيه عمله ليكون المفكّر الذي ينظّر لمجتمعه نظامًا فكريًّا بل ليكون الحركيّ الذي تحرك طاقاته الواسعة جماهير شعبه من حالة الكسل التقليدية التي كانوا عليها»[١].

❑ ويتحدث عن نتائج أعمال ابن باديس فيقول: «لقد كانت نتائج جهود ابن باديس أن احتفظت الجزائر بشخصيتها الإسلامية العربية في حين كانت أهداف فرنسا الصريحة بأن تحطم هذه الشخصية ولكن الجزائريون استطاعوا تجنب ذلك وتفاديه»[٢].

ويأتي حديث ديرلك حول اتساع نطاق عمل ابن باديس ليشمل جميع مجالات الحياة والفكر ليرد على أولئك الذين يريدون قصر مجال العلماء المسلمين على العبادات!! فيقول ديرلك: «إن اهتمامات ابن باديس امتدت من النواحي الدينية إلى الشئون السياسية ولمس تفكيره الأمور الاجتماعية والثقافية. لقد عبر عن آرائه حول مسألة الحضارة للجزائريين وللبشرية أجمع. لقد أظهر اهتمامه لمبادئ الأخلاق في المجتمعات. وإن الذي دفعه لإبداء آرائه حول هذه الموضوعات المختلفة هي نظرته للعالم. إن فكر ابن باديس متساوق مع الوضع الذي تبناه لأهمية الإسلام للإنسانية. إنه مما يهم الطالب الجزائري أن يعرف المشاركة التي لا شك في أن ابن باديس قدمها لتغيير المجتمع الجزائري»[٣].

❑ وقالت عنه المجلات العلمية الفرنسية أنه وجه أقسى الضربات للفكر الفرنسي، وللمؤسسات الفرنسية الثابتة.

---

(١) مجلة كلية العلوم الاجتماعية: العدد الرابع ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) (ص١٦٢).
(٢) (ص٢٠).
(٣) (ص٢٠٣ ـ ٢٠٤).

وقد حرصت الإدارة الاستعمارية في الجزائر على مراقبة جمعية العلماء ولا سيما رئيسها الشيخ عبدالحميد. فقدكان يحضر الاجتماعات العمومية مندوب عن السلطات الفرنسية، أو لعل أحد الحضور ممن كان ينتسب ظاهرًا إلى العلماء كان ينقل تفاصيل اجتماعات الجمعية. فبالإضافة إلى التقارير السنوية التي كانت تعدها مراكز الإعلام والدراسات في الولايات الجزائرية الثلاث كانت هناك تقارير مستمرة عن تحركات ابن باديس ننقل هنا بعض فقراتها الخاصة بابن باديس:

أولاً: التقرير السنوي عن الأهالي عام ١٩٣٦م.

خطا العلماء خلال سنة ١٩٣٦م خطوات كبيرة على الساحة السياسية وفقًا لمبادئهم الداعية إلى التعريب والإسلام، والتحدث الدائم عن الشعب الجزائري المسلم، وعن الأمة العربية وعن «الوطن الجزائري المسلم». فقد سبق لابن باديس أن أوضح هذه النقاط في مجلة «الشهاب» حينما أكد أن هذه الأمة الجزائرية التي لها تاريخها ووحدتها وثقافتها وعاداتها، وبالتالي فهي ليست فرنسا ولن تكون فرنسية.

ثانيًا: الاجتماع العمومي لجمعية العلماء في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٦م.

قارن ابن باديس بين عمل الجمعية وعمل الطبيب الذي وُكّل إليه معالجة رجل مريض جدًا ليأخذ بيده إلى الصحة. والجمعية سوف تقوم بمثل هذا العمل لصالح الشعب الجزائري المسلم موضحًا مدى حاجة المسلمين إلى الاتحاد، وأن الإسلام يأمر أتباعه بأن يهتمّوا بالبشرية جمعاء دون النظر إلى دين أو جنس.

ثالثًا: التقرير السنوي عن الأهالي الجزائريين عام ١٩٣٧م «حسب رؤية ولاية الجزائر».

تحدث هذا التقرير عن أعمال ابن باديس وأقواله خلال هذا العام مشيرًا

إلى أن ابن باديس قد كثف جهوده هذا العام نحو العروبة والإسلام، وأن من أقواله تصوير الجمعية بمدينة ذات أسوار شامخة أُسست على قواعد الإسلام وروح العروبة. كذلك نوّه التقرير بحديث أجراه مندوب مجلة «الرابطة العربية» قال فيه ابن باديس: «تحية لكم يا أبناء العقيدة الإسلامية. إن نهضتنا ترتكز على السلام ولكننا سنحارب من يحاربنا، وسوف نتصدى للخونة».

كما أشار التقرير إلى الفتوى التي أصدرها ابن باديس حول التجنس متعرضًا فيها إلى قضايا مختلفة تتعلق بهذا الأمر. وهنا يقول التقرير: «هذا التصرف من الشيخ ابن باديس لم يكن ليفاجئ أحدًا وبخاصة إذا علمنا خلفيته الشرقية وعلاقته مع العالم العربي. يؤيد ذلك سفره إلى تونس مرتين خلال العام الماضي: الأولى في شهر مايو، والثانية في شهر يوليه، وجاء تصريحه حول التجنس بالتوافق مع الشيخ الثعالبي. كما أشاد في زيارته الأخيرة بوحدة الشمال الأفريقي».

رابعًا: مقال لجريدة لاديباش كونستنتين.

تعرض الشيخ عبدالحميد بن باديس لمحاولة اغتيال غادرة على يد أحد أتباع الطريقة العليوية، فكتبت الجريدة المنوّه عنها أعلاه تقول: «السيد ابن باديس رجل متنوّر، متضلّع في العلوم الإسلامية، مسلم عامل بنص القرآن، تتبع أطوار تلك الدعوة (العليوية) وقابل بالغضب والنكير أعمال ابن عليوة المنافية للأخلاق، وأقدم على إظهار مساوئه لإخوانه في الدين»[1].

*** رجاء جارودي وابن باديس:**

وما دمنا في حديث الفرنسيين عن ابن باديس فالمفكر الفرنسي الذي

(١) «الشهاب» ـ العدد ١١٠ في ١٩ صفر ١٣٤٦هـ (١٨ أغسطس ١٩٢٧م).

أسلم حديثًا رجاء جارودي كتب مقالاً بعنوان «الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم»، جاء فيه: «وقد تحدد موقفهما (ابن باديس والإبراهيمي) برفضهما للأفكار التي دعا إليها في تركيا ضياء جوكلاب وطبّقها من بعده ببضع سنوات كمال أتاتورك الذي اختلط عليه الأمران العصرنة والغربنة. وبذلك أفقد الإسلام جانبه الروحي بتقليد الغرب تقليدًا أعمى». ويقول في مكان آخر من مقاله: «إن ابن باديس والإبراهيمي ورجال الجمعية حاربوا التعليم الاستعماري الهادف إلى تحطيم مقومات الشخصية وقطع الطفل الجزائري عن الثقافة العربية الإسلامية، وحاربوا كذلك العقلية الخرافية «المرابطية» فتلك العقلية بما فيها من خرافات وشعاعات تتنافى مع روح الإسلام»[1].

*** قول زملائه وإخوانه وتلاميذه عنه:**

قال عنه زميله ورفيق دربه وألصق الناس به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي تولى رئاسة الجمعية بعد وفاته: «وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمة تعاقبت عليها الأحداث والغير، ودينًا لابسته المحدثات والبدع، ولسانًا أكلته الرطانات الأجنبية، وتاريخًا غطّى عليه النسيان، ومجدًا أضاعه ورثة السوء وفضائل قتلتها رذائل الغرب.

وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية.. وأن آراءه في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي هي الدستور القائم بين العلماء والمفكرين والسياسيين، وهي المنارة التي يهتدي بها العاملون، وأن بناءه في الوطنية الإسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار»[2].

---

(١) مقال «الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم» لرجاء جارودي ـ الثقافة م ١٣ عدد ٧٦ ـ رمضان/ شوال ١٤٠٣هـ (يوليه/ أغسطس ١٩٨٣م).

(٢) «عيون البصائر» لمحمد البشير الإبراهيمي (ص٦٣٢ ـ ٦٣٣).

❑ ويقول عنه صاحبه الشيخ محمد خير الدين الذي عمل معه قبل تأسيس الجمعية وظل يعمل معه حتى وفاته:

«كانت حياة ابن باديس كلها جهاد. لم يعش لنفسه أبداً ولم يعش لأحد بل عاش للّه. كذلك لم يترك وقتًا قصيرًا ليقضيه في مسائل دنيوية أو مظاهر أو وظيفة أو طمع، إنما صرف وقته للعلم والتكوين. فالجزائر مدينة للشيخ عبدالحميد بن باديس في ميدان التربية والتعليم حيث لم يكن هناك تربية أو تعليم إلا به. والوطنية قبل أن يسمع بها الناس لم يسمعوا بها إلا منه»[1].

❑ ويقول عنه زميله الشيخ حمزة بوكوشه (شنوف):

«كان ابن باديس رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته وليس عنده كِبْر، ولا يشعر بأي غضاضة أن يسأله أحد تلامذته عن مسألة، ويرجع إلى الحق».

وقال: «إن التضحية التي ضحّاها ابن باديس مهمة جدًّا فقد كوّن جيلاً من الأجيال»[2].

❑ ويقول عنه تلميذه محمد الصالح رمضان «كنا نتمثّل في الشيخ عبدالحميد أحد الحواريين أو أحد الصحابة، فما رأينا رجلاً يتمثل فيه الإسلام ويتجسد كاملاً نقيًا بأجلّ معانيه مثلما رأينا هذا في الشيخ ابن باديس. يكاد يجمع الناس كلهم الأعداء وغير الأعداء مسلمين وغير مسلمين ـ والمسلمون هم الطرقيون لأنهم كانوا يعدونه شرًّا عليهم ويتصورونه السبب في زوال نفوذهم ـ كلهم يجمعون على صدقه وتقواه. وحتى الفرنسيون يؤمنون بهذا

(١) انظر «عبدالحميد بن باديس» (ص١٧٠) لمازن صلاح ومقابلة شخصية مع محمد خير الدين في الجزائر في ١٩ صفر ١٤٠٤هـ (٢٣ نوفمبر ١٩٨٣م).

(٢) «عبدالحميد بن باديس» لمازن صلاح (ص١٧١).

ويرون أنه أقوى شخصية في الجزائر»[١] .

❑ وفي سؤال وجهه مازن صلاح للشيخ عبدالرحمن شيبان وزير الشئون الدينية الجزائرية السابق وتلميذ ابن باديس:

ثبت عن الشيخ عبدالحميد ـ رحمه اللَّه ـ أنه كان ينوي إعلان الثورة فيما لو أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا، وتوفاه اللَّه تعالى قبل ذلك. فلماذا لم ينفذ ذلك العلماء فيما بعد ويتولوا قيادة المعركة بدل تركها في يد من تُركت في أيديهم؟ فأجاب: «ليس كل الناس ابن باديس فالعلماء لم يقوموا بالثورة لأن ذلك ليس من طبيعة الأشياء فهم مربون ومعلمون لإعداد الناس أما ابن باديس فهو زعيم وقائد وجندي ومربي»[٢] .

❑ ومن معاصري الشيخ عبدالحميد بن باديس الذين لم يكونوا يرون في الشيخ عبدالحميد إلا عدوًا لاختلاف في الفكر والتوجه، من هؤلاء عمار أوزغان من أوائل الجزائريين انتسابًا للحزب الشيوعي بل كان من الذين تسلموا قيادة هذا الحزب في الجزائر، ولكن اللَّه منَّ عليه بالهداية فترك الحزب الشيوعي وكان من إنتاجه كتاب «الجهاد الأفضل» الذي قال فيه عن ابن باديس: «كان الشيخ عبدالحميد بن باديس ـ أدام اللَّه ذكره ـ أول رئيس لجمعية العلماء. كان خطيبًا ساحرًا ومتواضعًا كأحد أبناء الشعب، كان مصلحنا الديني ثوريًّا خالصًا وحكيمًا، لا يتطلب من كل مرحلة تاريخية أكثر مما تقدر أن تعطي. كان أب المؤتمر الإسلامي حيث تحقق اتحاد جميع الاتجاهات المناهضة للاستعمار، وكان هذا المؤتمر استنفارًا عامًا للشعب الجزائري بغية الاتحاد والعمل دون استثناء ودون عصبية»[٣] .

---

(١) المصدر السابق (ص١٧٤).

(٢) المصدر السابق (ص١٧٤ ـ ١٧٥).

(٣) «الجهاد الأفضل» لعمار أوزغان (ص٢٧).

ونختم ما قيل في ابن باديس بفقرة من مقال كتبه الدكتور صالح الخرفي بعنوان: «الجزائر والأصالة الثورية» جاء فيه: «وابن باديس هذا الرجل الذي فجّر أعنف معركة فكرية في أدق مرحلة استعمارية. وإذا كانت معجزة عبدالقادر معجزة صلابة في معركة سافرة فإن معجزة المصلح تبدو هي الأخرى مدعاة للإكبار وهي تبشر بالشخصية الجزائرية تحت سمع العدوّ وبصره في معركة مقنّعة الجبهات، متعددة الوجوه، ملتوية السبل. سلاحها نفاذ في البصيرة، وعبقرية في المناورة، ومجابهة البطش المتعامي بالإيمان المتبصّر، وإدراك حساس للخطوط الدقيقة التي تفصل بين الغايات والوسائل»[1].

*** من درره وأقواله:**

قال ـ رحمه اللَّه ـ في خطابه التاريخي في جمعية العلماء ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) مبينًا الأبعاد الحقيقية لدعوته إذ يقول:

«**حوربت فيكم العروبة**: حتى ظُن أنه قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها، ويهدر خطباؤكم بشقاشيقها، فتدك الحصون، والمعاقل، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب المفاصل.

وحورب فيكم الإسلام: حتى ظُن أنه قد طمست أمامكم معالمه، وانتزعت عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد ﷺ، وكما يرضى اللَّه، لا كما حرَّفه الجاهلون وشوهه الدجالون، ورضيه أعداؤه.

وحورب فيكم العلم: حتى ظُن أن قد رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة، ونسيتم كل علم، إلا بما يخرج لكم بما هو أضر من الجهل عليكم،

(١) مقال «الجزائر والأصالة الثورية» ـ الثقافة ـ العدد ٥ السنة الأولى ـ رمضان ١٣٩١هـ (أول نوفمبر ١٩٧١م).

فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخًا، وتشيدون له صرحًا سامقًا.

فأسستم على قواعد الإسلام، والعروبة، والعلم، والفضيلة جمعيتكم. (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

وحوربت فيكم الفضيلة: ورُميتم بالصغار، حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة، وفارقتم العزة والكرامة، فارتضيتم الضيم، ورضيتم الخسف.. فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل، وتهزهزون أسس الظلم، وتهمهمون همهمة الكريم المحنق، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان، وتطالبون مطالبة من يعرف أن له حقًّا لابد أن يعطاه ويأخذه.

نهضنا بعد أصهرتنا نار الفتنة، وآلمتنا حوادث الزمان، وقارعتنا الخطوب، ودافعتنا الأيام ودافعناها ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [الحج: ٤٠].

نعم نهضنا بعد قرن: بعد ما متنا وأقبرنا، وأحيينا وبعثنا، سنة كونية فقهناها من القرآن، ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان ﴿**ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم**﴾. ﴿**أو كالذي مر على قرية**﴾.

نعم نهضنا نهضة بنينا على الدين أركانها، فكانت سلامًا على البشرية، لا يخشاها واللّه النصراني لنصرانيته، ولا اليهودي ليهوديته، ولا المجوسي لمجوسيته، ولكن يجب أن يخشاها الظالم لظلمه، والخائن لخيانته.

والعروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا. وأركان جمعية العلماء التي هي مبعث حياتنا، ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية منذ

كانت تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة، وتنيرنا بالعلم، وتحلينا بالأخلاق الإسلامية، وتحفظ علينا جنسيتنا، وقوميتنا، وتربطنا بوطننا الإسلامي الصادق، ولم يزل كذلك بإذن اللّه.

عرفت الأمم من تاريخها، لا تنهض إلا على صوت علمائها، فهو الذي يحل الأفكار من عقالها، ويزيل عن الأبصار غشاوتها، ويبعث الهمم من مراقدها، ويدفع بالأمم إلى التقدم في جميع نواحي الحياة..!!!

وما كانت جمعية العلماء حتى كان العلماء القرآنيون الذين فقهوا الدين بفقه القرآن، وعرفوا الدين الأقوم بمعرفة سنة محمد ﷺ، وهدوا واهتدوا بما كان عليه السلف الصالح ورجال الدين العظام...

إن الإسلام عقد اجتماعي عام، فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته، ورقيه، وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام، فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة.

فليس للجمعية إذن من نسبة إلا الإسلام، وبالإسلام وحده تبقى سائرة في طريق سعادة الجزائر. لا نوالي الأحزاب، ولكنا ننصر الحق والعدل والخير، ونقاوم الباطل والظلم والشر، محتفظين بشخصيتنا ومبادئنا» (انتهى) نقلاً عن: تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي ـ أنور الجندي.

□ «ولعل من أبرز ما التفت إليه ابن باديس في حركته الإصلاحية الإسلامية التعليمية السياسية الاجتماعية، أنه حرص على وحدة الشعب الجزائري من عرب وبربر. فقد كانت توقيعات مقالاته تحمل اسم (الصنهاجي) فكتب ذات مرة مقالاً بعنوان: «ما جمعته يد اللّه لا تفرقه يد الشيطان».

ومن أقواله في هذا المجال: «إن أبناء يعرب، وأبناء مازيغ، قد وحد بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنًا، ثم دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة والرخاء حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة، عنصرًا مسلمًا جزائريًّا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام.

وقد كتب أبناء يعرب، وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم لإعلاء كلمة اللَّه، وما أسالوا من محابرهم لخدمة العلم، فأي قوة في العالم تستطيع أن تفرقهم، لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع؟

يا عجبًا: لم يتفرقوا وهم الأقوياء، فكيف يتفرقون وغيرهم القوي؟ كلا واللَّه، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم، وقوة رابطتهم ـ ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم. الإسلام له حارس واللَّه عليه وكيل»[1].

يقول ابن باديس ـ رحمه اللَّه ـ:

ـ «إن الحياة الخالية من الأخطار لا تساوي شيئًا».

ـ «من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها فقد حاول عبثًا قلب الحقائق، فلن نتزحزح عن الفكرة قيد شعرة، مهما طال سيل الكوارث على أمة لها ما لشعب الجزائر من الصفات المرغوبة فيها، الكامنة كمون النور في الكهرباء».

ـ «أنا أحارب الاستعمار بالعلم، ومتى انتشر التعليم في أرض، أجدبت على الاستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير»، وكان يردد دائمًا: «اللغة هي القوة».

---

(١) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة» (ص٨٢).

ـ «إن هذه الأمة الجزائرية، ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ولا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري».

ـ «إن لنا فكرة معروفة ولن نحيد عنها».

ـ «السعادة هي التضحية، هذه أمة ـ يقصد الجزائريين ـ أخذت تقدم الضحايا في سبيل سعادتها».

ـ «تستطيع الظروف أن تكيفنا، لكنها لا تستطيع أن تقهرنا».

ـ «ما جمعته يد اللّه لا تفرقه يد الشيطان» «سنن الكون نافذة، لا تتخلف، والويل لمن قعد أو تقاعس».

□ وإن الدارس لشخصية ابن باديس، ليجد فيها مواهب متعددة، وطاقات هائلة وظفها جميعها في سبيل نشر دعوته حتى فجرت طاقات الثورة بعد ذلك، وأكدت الهوية الإسلامية واللغة العربية بين أرجاء محاولات الفرنسة الملحة والضاغطة والذي لم تكشف عنه حتى الآن، رغم اقتباسنا الكثير من أقواله التي تحدد ملامح شخصيته ومنهاج دعوته، ذلكم هو أنه كان يقرض الشعر بسلاسة ويسر، ويوظفه كذلك في سبيل مبادئه. ومن ذلك القصيدة التي نظمها، موضحًا فيها لب دعوته. فيقول:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجًا له ... رام المحال من الطلب
خذ للحياة سلاحها ... وخض الخطوب ولا تهب
وأذق نفوس الظالمين ... السم يمزج بالرهب

واخلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب
واهزز نفوس اليائسين فلربما حيا الخشب
من كان يبغي ودنا فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغي ذُلنا فله المهانة والحرب
هذا نظام حياتنا بالنور خُطَّ وباللهب
حتي يعود لشعبنا من مجده ما قد ذهب
هذا لكم عهدي به حتى أوسد في الترب
فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب!![1]

❑ نختم بما قال ـ رحمه اللَّه ـ:

هكذا هكذا هكذا سنعودْ
فاشهدي يا سما واكتُبنْ يا وُجودْ
أننا للعلى أننا للخلود[2]

*** أمير ونابغة البيان مصطفى صادق الرافعي تحت «راية القرآن» يرد على الزنادقة والغربان؛ ويدافع عن هوية الأمة في لغة القرآن:**

❑ للَّه درك يا رافعي:

لك في البيان رئاسة أزلية أبدية، ليست تُباع وتُشترى
أحييت آداب اللسان ولم يزل فيها مؤلفك السراج الأزهرا
ورفعتَ للقرآن أرفع «راية» فلذا غدوت «الرافعي» الأشهرا

(١) «الشهاب» (ج٤ م١٣)، الاثنين ١٣ ربيع الأول ١٣٥٦هـ (١١ جوان ١٩٣٧م).
(٢) «البصائر» عدد ٩٢ بتاريخ ٢٠ شوال ١٣٥٦هـ (٢٤ ديسمبر ١٩٣٧م).

❑ نظر الرافعي فوجد المغرورين يسيئون للإسلام والعربية، ولهم ذيول تردّد ما يقولون، وهيئات منظمة تفسح الندوات لتأييد هجومهم الظالم، ورءوسٌ من الاستعمار تنزلُهم أحسن المنازل في مناصب الدولة وأمهات الصحف والجرائد، وكلّما ازداد صيتهم عنفوا في مهاجمة اللغة العربية باعتبارها وعاء الإسلام الحافظ، وحصنه الواقي. لم يكن الرافعي مهاجمًا بادئ ذي بدء، ولكنّه التزم الفريضة في دفع المنكر، والأمر بالمعروف، وكانت المسألة بالنسبة إليه فرضُ عين لا فرض كفاية، إذ لا يستطيعُ أن يقوم مقامه أحد، فهو أصدقُ يقينًا، وأشدّ نفاذًا، وأبلغُ حجة. والرجلُ في منعة من ربّه وحده، فقد كان موظفًا متواضعًا بإحدى المحاكم، يرأسه من لم يبلغْ الدرجة الرابعة حينئذ!! ولكنّه كان يعارض أكبر وزير إذا شهد منه انحرافًا في الرأي، ويتصدّى لأصحاب الأمر والنهي بسيف لا يُفَلُّ، ويصدعُ بكلمة اللّه جهيرة رنانة، حين ينكمشُ الوصوليون في جُحورهم لا يهتمّون بغير أنفسهم، وما يرسمُون لمستقبلهم في الحياة!! أيكون البطل الباسل في حومةِ الدفاع مُهاجمًا!؟ بل يكونُ في رأي خصومه متعصبًا وهو يذودُ عن حُرمات، ويدفع أباطيل، إن الذين يهاجمون شريعة اللّه، وهُمْ مسلمون، وينتقصون اللغة العربية، وهم عرب ويَدعون إلى التبّرج والخلاعة والانهيار وهم شرقيون!! كلُّ هؤلاء غيرُ متعصبين!؟ بل مجدّدون تقدّميّون!؟ أما الذي يُسلم وجهه إلى اللّه وهو محسن مستمسكًا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، فهو المتعصّب، وهو الرجعّي!؟ وهو أشد أعداء ما يسمّى بالتنوير!؟ وهكذا تنقلب الأوضاع!!.

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد الصحف الأولى في الجرائد تنشر قول من يقول[1] : «إن الرابطة الدينية وقاحةٌ، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن

(١) هو سلامة موسي عدو الإسلام صاحب كتاب «اليوم والغد». انظر «اليوم والغد» (ص٢٣٩).

نعتمد على الدين جامعة تربطنا، وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا ولا يزال فلول المحررين من المؤيد والحزب والوطني يخبروننا نحن المصريين عن الإسلام».

«ماذا يصنع الرافعي إذا وجد الصحف الأولى في الجرائد تنشر قول من يقول[١] : «إنّني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنّه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوربا زاد حبّي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأني منها.. أريدُ من التعليم أن يكون تعليمًا أوربيًّا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه، وأن يتولى تعليم اللغة رجالٌ متمدِّنون يفهمون على الأقل نظرية التطور، وأريد أدبًا مصريًّا أبطالُه فتيان مصر وفتياتها لا رجالَ الدولة العباسية، ولا رجال الفتوحات العربية».

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد من يقول: «لقد أدرك مصطفى كمال الذي لم تنجب بعدُ نهضتنا رجلاً مثله ولا نصفه ولا ربعه، ما للقبعة من القيمة بالإعلان في الانسلاخ من آسيا والانضمام إلى أوربا، ولم تمتنع من استعمال السيف في سبيل ذلك، وسنبقى في نظر أنفسنا وفي نظر الأوربيين شرقيين حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا، ونعلن انسلاخنا من الشرق»[٢] .

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد من يقول: «إن اللغة العربية لغة بدوية لا تكاد تكفلُ الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها إلى الآن.. وهي لغةٌ شاقة تكدّ الذهن في حفظ قواعدها التي لا تنتهي كأنه ليس في العالم شيء جديرٌ بالبحث غير قواعدها. وكلّ من اختبرها يعرف أن قاسم أمين ولطفي السيد كانا على حقٍّ حين نصحا باستعمال العامية المصرية المهذبة بدلاً منها»[٣] .

---

(١) «اليوم والغد» (ص٧).
(٢) «اليوم والغد» (ص٢٥٤).
(٣) «اليوم والغد» (ص٢٣٧).

هذا قليل مما قاله سلامه موسى عدو اللَّه ورسوله، ونشره في أمهات الصحف ثم جمعه في كتاب «اليوم والغد» وقد عارضه الأستاذ الرافعي بمقالات رنّانة لم يُجمع أكثرها، فقام الوصوليون عليه يرمونه بالتعصب، وأنه يهاجم الكاتب لمسيحيته، ونحن نسأل: من المتعصب؟ الذي يهاجم دين الأمة، ويرى الارتباط بالجامعة الدينية وقاحة؟ أم الذي قام يرد على هذا الهجوم!! إن الرافعي لم يهاجم هذا الكاتب وحده، ولكنه هاجم مصطفى كمال أتاتورك وطه حسين وأحمد لطفي السيد ومحمود عزمي وكل من هاجم العربية والقرآن والشرق وهم مسلمون!![1].

*** الرافعي تحت راية القرآن يلقم طه حسين حجراً بل جبلاً:**

«قام الأستاذ الرافعي في مواجهة ما تورّط فيه الدكتور طه حسين مقامًا رائعًا ممتازًا وضع الحق في نصابه، حيثُ كان أول من نقض كتاب الشعر الجاهلي من الباحثين، وأوّلَ من لفتَ الأنظار إلى خطورة ما سجل من أوهام تتعلق بالقرآن والإسلام، وبسبب مقال الرافعي ثارت ثائرةُ الشعب المسلم، وتحرك الأزهر فأصدر بيانه الملزم، وكَتَب الناقدون في الصحف، وتفرّغ لنقض الكتاب أساتذة متخصّصون من أمثال: الأستاذ محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد لطفي جمعة، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي، والأستاذ عبدالمتعال الصعيدي، وكلّهُم مشكورون، وقد جاءوا بالمنطق الفصل بعد أن قال الرافعي كلمته في مقالات بالصحف اليومية الذائعة، فهو الأصلُ الأصيل لمن جاء بعده، وليس معنى هذا أنّهم رَدَّوا قوله، ولكن معناه أنه فتح لهم الطريق، ووضع السراج في شِعابه المُتشابهة المختلطة، فاطمأنّوا في

(١) «مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن» للدكتور محمد رجب البيومي (ص١٢٧ ـ ١٣٠) ـ دار القلم بدمشق.

سيرهم واثقين.

إن ما يدعُوني إلى تسطير هذا الموضوع باعتباره صفحةً لامعة من صفحات الجهاد الدائب تحت راية القرآن الكريم، أن حفلات تكريمية لذكرى الدكتور طه حسين تكاد تُقامُ سنويًّا في مصر، وكلُّها تزعم أنه من حملة مشاعل التنوير بما جاء في كتابه «الأدب الجاهلي» ومن قبله «الشعر الجاهلي». كما يقومُ المتحدثون في هذه الحفلات بهجوم على الرافعي لأنه خاصم الدكتور، وقد حسبوه كاتبًا متخلّفًا، يقفُ أمام ما يسمّونه بالتنوير، يتكرّر هذا اللغطُ الكاذب كلّ عام، وكأنّنا لم نقرأ ما كتبه الدكتور طه حسين مُخطئًا، وما قاله الرافعي مُصحّحًا مصوبًا، وقد كان الأولى بهؤلاء أن يذكُروا أن ناقدي طه حسين قد أدّوْا فريضة العلم حين ناقشوا الكتاب، أما أن يكونوا في مرآتهم مثالاً للرجعية والجمود، فهذا باطلٌ شائهٌ يقلب النور ظلامًا ويجعلُ السراب ماء. لذلك أُشير في هذا البحث إلى بعض ما قام به الرافعيُّ في هذا المجال، ولن أتسعَ في القول لأن لي كتابًا برأسه تحت عنوان «النقد الأدبي في الشعر الجاهلي» أَصْدَرَتْهُ جامعةُ الإمام محمد بن سعود سنة ١٩٧٢، وهو يعالجُ هذه القضية باسطًا ما قاله الدكتور طه حسين، وما عقّب به مخالفوه، وفي مقدمتهم الأستاذ الرافعي..

لم يأبه الرافعي باعتزازه وإبائه لثناء طه حسين عليه في كتاب «الشعر الجاهلي» بل رأي المسألة مسألة دين قبل أن تكون مسألة أدب، وإذا تحمّس الرافعي لدينه فمن يثنيه؟!

على أن ما آلمني ممّن قالوا في مهرجان الاحتفال بذكرى طه حسين، أنهم جعلوا مسألة النقد الخاص بكتاب الشعر الجاهلي مسألةً عَاميّةً سطحية لدى نفرٍ من الأزهريين لا صلة لهم بالبحث الاستشراقي ذي الأصول المنهجيّة الدقيقة، وهذا غمطٌ للحق، فمن تكلّم في نقد كتاب الشعر الجاهلي من

الأزهريين، قد ولّى المقام حقّه؛ مثل الأستاذ محمد الخضر حسين في كتابه المستقل، ومثل الأستاذين عبدالمتعال الصعيدي ومحمد سليمان في مقالاتهما بالمقطم والأخبار (الرافعية).. ولكن الأمر في الردّ لم يقتصر على الأزهريين، إذ ظهرت كتبٌ مستقلة لأعلام من غيرهم أشرتُ إليهم في صدر هذا المقال، كما أن كلية الآداب المصرية قد ناقشت الموضوع في رسائل جامعية خالفت منحى الدكتور ومنحت أصحابها أعلى درجات التقدير، ومن بين هؤلاء الدكتور ناصر الدين الأسد في رسالته عن مصادر الشعر الجاهلي وقد طُبعتْ عدة مرات، وفي أساتذة كلية الآداب من دحَض الفرية في دراساته ولكن بأسلوب هادئ، وقد قرأتُ أخيرًا كتابًا قيمًا للدكتور (إبراهيم عوض) الأستاذ بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وأحدُ المتخرّجين من جامعة أكسفورد الإنجليزية تحت عنوان «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين»، أتى فيه على كلّ ما تورط فيه الدكتور طه حسين من الأراجيف، فكيف يقولُ بعض المؤتمرين في حفلة الذكرى إن الثورة على كتاب الشعر الجاهلي كانت خاصةً بنفر من الأزهريين لا صلة لهم بالبحث، وقد كتب باحثٌ جامعي في جريدة الأهرام يُعلن أن الأستاذ الدكتور طه حسين لم يغتصب مقالات مرجليوث في دَعوى انتحال الشعر الجاهلي وإنما جاء بها من عند نفسه!! وهذا تجنٍّ رَفضهُ الذين ناقشوا هذا القول، ولكنه لم يخدم دِفاعَه عن طه حسين إذ أثبتَ أنه صاحبُ الهجوم العاصف دُون أن يتأثر بأحد! وكان على باحث الأهرام أن يقول إن الدكتور طه حسين لم يأتِ بهذه الآراء، إذا حاول تبرئته، ولكنه لا يستطيع.

كانت الصيحة الأولى للرافعي ـ بل ولمن قرأ مقاله هذا في كوكب الشرق ـ فاحتذاه أن كتب فصلاً تحت عنوان «إلى الجامعة المصرية» يُلخص فيه ما ترامى إليه من بعض دُروس طه بالجامعة حيث يتساءل:

١ ـ هل قرّر أستاذها ـ الجامعة ـ أن المسلمين مَحَوا شعرَ النصارى واليهود، ومنعوا روايته خوفًا على الإسلام، فمِنْ أجل ذلك لم يَنتَه إلينا من أخبارهم شيء؟

٢ ـ وأنه لا يوجد شعرٌ جاهلي بل هو مصنوعٌ بعد الإسلام، وأن هذا الجاهلي لا يُستشهد به على القرآن، بل القرآن هو الذي يحتج به للشعر.

٣ ـ أنّ العصر الجاهلي الذي ضاع شعره قد حفظ؛ لأن القرآن الكريم يمثله.

٤ ـ وأن الغزل المرويّ لامرئ القيس هو لعمر بن أبي ربيعة!

وهذه الأسئلة مهما أبانت بعض أخطاء الدكتور طه لا تُسَبِّبُ انزعاجًا شديدًا، كالذي وقع من بعد؛ لأن القاصمة التي وقعت وقوع الصاعقة على القراء ما ذكره الرافعي في مقال تال تحت عنوان (أستاذ الآداب والقرآن) إلى هيئة كبار العلماء ومجلس إدارة الجامعة[1] ، حيث نقل للقراء في هذا المقال العاصف قول طه حسين (ص٢٦) من كتاب الشعر الجاهلي:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يُحدثنا عنهما، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة.. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية من جهة، والتوراة والقرآن من جهة أخرى».

إن كل مسلم يعذر الرافعي حين يجده مشتدًا في الهجوم على هذه الأباطيل الزائفة، وبخاصة إذا علم أنها منقولةٌ عن أكثر المستشرقين كيدًا

(١) «تحت راية القرآن» للرافعي (ص١٤٤).

للإسلام، وقد بدأ الرافعي نقضه لهذه الفرية بقوله:

«فانظرْ إلى هذه الوقاحة في قوله: «للقرآن أن يحدّثنا» كأنّه زعم زاعم، له أن يقول، وأن لا يقول، وإذا لم يكفِ النصّ في كتاب سماويّ تدينُ به الأمّة كلها لإثبات وجودِ المنصوصِ عليه، فما بقيَ معنًى لتصديقه، وما بقي إلا أن يكونَ القرآن «كما يزعم المستشرقون أساتذة طه حسين وأولياؤه» كلامًا من كلام النبي ﷺ نفسه، ومن نظمه وعمله كما نقل عن هذا الخرِف المسمَّى كليمان هوار، فهو يدخله ما يدخل كلام الناس من الخطأ والغفلة والحيلة والكذب، فلَهُ أن يزعم ما شاء، ولكن ليسَ علينا أن نصدّق وأن نطمئن، وإذا هو ذَكَر اثنين من الأنبياء، وإذا هُو وَرَدَ فيه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] فذلك غير كاف في رأي الجامعة المصرية، لإثباتِ أن إبراهيم وإسماعيل شخصانِ كان لهما وجود تاريخي، ولا أنهما هاجرا إلى مكة، ورفعا قواعد البيت الحرام، وبنيا الكعبة، وإذن فالقصّةُ في رأي الجامعة المصرية من الأساطير الموضوعة، ومما يلحق بحيل الرّوائيين التي يَشدُّون بها المعاني الاجتماعية والسياسية والتاريخية، ويُؤتَى بها في الرواية على أنها من الكذب الفنّي توصُّلاً إلى سبكِ حادثة، أو تقريرِ معنى، أو شرحِ عاطفة».

ومضى الرافعي يفنّد هذا الرأي بما هو مقرّرٌ تاريخيًّا من انفصال المجتمع اليهودي عن العرب في دور البعثة، وبأن اليهود كانوا أهل كتاب وعلم فلا يقبلون من أمة أن تضع لهمُ التاريخ، وإذا كانت قريش قد قبلت الأسطورة الخرافية التي تُثْبِتُ أنّ الكعبة من بناء إبراهيم وإسماعيل، فأخذ الأسطورة مَنْ وَضَع القرآن عن قريش لأنه منهم؛ فالقرآنُ حينئذٍ كَذِبٌ وتلفيقٌ وليس من عند اللَّه!!

هذا الفصلُ الذي كتبه الرافعي تحت عنوان «أستاذ الآداب والقرآن» من

أقوى ما دافع به الرافعي عن الحقيقة المؤمنة، وهو وحده كاف لتحطيم كتاب لم يَرْعَ حُرمة البحث، حين نقل أكاذيب الاستشراق عن القرآن وعن رسول اللَّه، وقد وقع الدكتور طه في تناقض حين قرر أنه لا يجوزُ الاعتماد على الشعر الجاهلي في تصوير الحياة الجاهلية، وإنما يُلتمسُ هذا التصوير في روايات التاريخ وفي الأساطير، وَوَجْهُ التناقض ما ذكره الرافعي حين قال[1] :

«لقد عجبتُ لأستاذ الجامعة كيف يعتمدُ في تصوّر العصر الجاهلي على التاريخ والأساطير، وهو الذي يقولُ بالشك! وكيف تصحُّ عنده الأساطير، ويصحّ التاريخُ العربي دون الشعر الجاهلي! وهل جاءَ هذا الشعرُ إلا من الطريق التي جاءت منها الأساطير والتاريخ، أي بالرواية والإسناد، ومن الحفظ والتلقين؟ وإذا جاءتْ ثلاثتُها من طريق واحدة، وكان الكذبُ والوضعُ قد دَخلَها جميعًا، ونص العلماءُ على أشياء من ذلك في الأبواب الثلاثة، فكيفَ يكونُ العصر الجاهلي صحيحًا في اثنين منها دون الثالث، مع أن الوضع فيهما أيسرُ من الوضع في الشعر، إذْ هما كلامٌ كالكلام لا مؤونة فيه ولا تعب، ولا صناعة، ولا كذلك الشعرُ، وخاصّةً ما يوضع على ألسنة فحول الجاهليين».

وكل ما ذكره الأستاذ الرافعي في هذا الفصل رائعٌ رائعٌ، وقد فتح به القول لكثيرٍ ممن ناقشوا الدكتور طه فيما بعد، وليس معنى ذلك أنهم أخذوا منه، ولكنّ معناه أن الناقد الكبير يفتحُ أبوابًا كثيرة من القول، يقرؤُها الدارس المتفحص، فتفتحُ عليه بكلامٍ جيّد يشدّ أزْرَ النقد الرافعي، فحديثُه ذاك بذرةٌ جيدةٌ في أرضٍ خصبة لم تلبثْ أن صارتْ شجرةً مورقة.

أما فكرةُ الشك في العصر الجاهلي فقد أثبت الرافعي أنها مأخوذةٌ من

(١) «تحت راية القرآن» للرافعي (ص١٥١).

المستشرقين. وهو أول من أشار إلى ذلك وكان أمينًا في إشارته، حيث أثبتَ عن الدكتور يعقوب صروف أن مجلة الجمعية الأسبوعية نَشَرت بحثًا لمرجليوث أنكر فيه صحة الشعر الجاهلي! وقد بحث الدّارسون على مجلة الجمعيّة فوجدوا النقَل صريحًا دون لبس، ومعنى ذلك أن الرجل تَبنّى أقوال غيره دُون أن يشير إليه أدنى إشارة، وجاءَ أحد أشياعه فكتب أن ذلك من قبيل توارد الخواطر كما زعم طه حسين، وتواردُ الخواطر لا يكونُ في نظريّة ذات حُجج وبراهين واستشهاد، ولكنه يكونُ في فكرة أو خاطرة أو معنى بيت مفرد! وإذا كان التواردُ قد جاءَ في النظريّة فَلِمَ تكونُ حُجَجُها وبراهينها واستشهاداتها مُتفقةً؟!!

وتَتَبُّع الآراء الخارجة التي فندها الأستاذ الرافعي في كتابه «تحت راية القرآن» مما يتسعُ بالبحث إلى مدى فسيح، ولكن أذكر النقاط الهامة، نقلاً عن كتاب «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» للدكتور البحّاثة إبراهيم عوض، حيثُ جمع هذه الخطرات الشاذة في موضع واحد من كتابه، وقد أشرتُ إلى حديث طه حسين عن القرآن والتوراة وعدم الركون إليهما، وبقي أن أقتبس ما قاله الدكتور عوض في حيّزه[1] الوجيز مما فنده الرافعي أتم تفنيد، وهو منحصر في هذه النقاط:

١ ـ يجب حين نستقبل البحثَ عن الأدب العربي أن ننسى قوميتنا وكلّ مشخصاتها، وننسى ديننا، وكلّ ما يتصل به.

٢ ـ إن قريشًا كانت في عصر ما قبل الإسلام ناهضةً نهضةً مادية تجارية، ونهضةً دينية وثنيةً، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن تُوجد في البلاد وحدةً سياسية وَثَنيّةً مستقلة، وإذا كان هذا حقًّا ونحنُ نعتقد أنّه حقٌّ فمن المعقول أن تبحث هذه النهضة الجديدة عن أصل تاريخي يتّصل

(١) «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» (ص١٩) للدكتور إبراهيم عوض.

بالأمم التاريخيّة الماجدة التي تتحدثُ عنها الأساطير، وإذن فليس ما يمنع قريشًا من أن تتقبل هذه الأسطورة التي تفيد ذلك ولأسباب مُتشابهة أسطورة أخرى صنعها اليونان تُثبت أن روما متصلةٌ بإيتياس بن بريام، صاحب طروادة، وكذلك ما قاله (ص٨٠) من كتابه السالف الذكر: من أن القرآن «يذكر التوراة والإنجيل ويجادل فيهما اليهود والنصارى، وهو يذكر غير التوراة والإنجيل شيئًا آخر هو صحف إبراهيم، ويذكرُ غير دين اليهود والنصارى دينًا آخر هو ملّة إبراهيم، هو هذه الحنيفيَّة التي لم نستطع إلى الآن أن نتبيّن معناها الصحيح، وإذا كان اليهود قد استأثروا بدينهم وتأويله، وكان النصارى قد استأثروا بدينهم وتأويله، ولم يكن أحدٌ قد احتكر ملّة إبراهيم ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها، فقد أخذ المسلمون يردُّون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم، ويذكر (ص٨٣): «وليس يعنيني هنا أن يكون القرآن قد تأثر بشعر أمية بن أبي الصلت أو لا يكون، وقوله (ص٨٥) في الرد على المستشرق كليمان هوار، وزعمه أن النبي ﷺ قد استعان بشعر أمية بن أبي الصلت في تأليف القرآن: «من ذا الذي يستطيع أن ينكر أن كثيرًا من القصص كان معروفًا بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى، وبعضه عند العرب أنفسهم، وكان من اليسير أن يعرفه النبي ﷺ، كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي، ثم كان النبي ﷺ وأميةُ متعاصرين، فَلِمَ يكونُ النبي ﷺ هو الذي أخذَ من أميّة، ولا يكونُ أميةُ هو الذي أخذ من النبي» والرافعي يلمح بهذا الكلام إلى أن النبي في نظر طه حسين هو مؤلّف القرآن، وهو ما يفهم من قوله (ص١٨٢) في تعليل مخالفته لمن يرونْ أنّ إنكار الشعر الجاهلي يسيء إلى القرآن لأن القرآن ليس بحاجة إلى شواهد من الشعر على ألفاظه ومعانيه عند العرب «إنّ أحدًا لم ينكر عربيّة النبي فيما نعرف، فهو يَرَى في الإشارة الأخيرة أن القرآن هو كلامُ النبي وقوله (ص٧٢

ـ ٧٣): أنه يُوجد نوعٌ آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته للجاهليين، وهو ما يُقصد بتعظيم شأنِ النبي من ناحيه أسرته ونسبه إلى قريش، فلأمرٍ ما اقتنع الناسُ أن النبي يجبُ أن يكون صفوة بني هاشم، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف، وأن يكونَ بنو عبد مناف صفوةَ مُضَر، وأن كون مُضر صفوةَ عدنان، وعدنان صفوةَ العرب، والعربُ صفوة الإنسانية كلها، وهذا تهكُّم واستهزاءٌ بالحديث المروي عن رسول اللَّه ﷺ: **«إن اللَّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»**.

هذه أمورٌ أوجزها مؤلّف «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» كما تحدَّث عنها الرافعي في نقدِه لكتاب الشعر الجاهلي، وهي مسائلُ من الخطورة بحيث لا تُترك دون ردّ ماحق، وقد قام الرافعي بهذا الرد أولاً، قبل أن يسبقه غيره من كبار النقاد، أفيجوزُ لمن يعقدون المؤتمرات أن يسخروا بالرافعي ويعدونه عقبةً في طريق ما يسمونه (بالتنوير)!! على حين يكون طه حسين علم الأعلام في التنوير المعاصر، ونحن نقرأ ما كتب طه وما ردَّ به الرافعي، ونَزِنُ كل قول بمقدارِ حظه من الصواب والخطأ، وإذا أراد المغرضون أن يُهاجموا الرافعي فعليهم أن يثبتوا شيئًا واحدًا هو أنّ الرافعي قد افترى هذه الأقوال ونسبها إلى طه حسين اختلاقًا وافتراءً، وهو منها بريء بريء، وأظنّهم لا يستطيعون أن ينكروا الحق اللائح الصريح، وحينئذٍ عليهم أن يحترمُوا من جَاهَد في سبيل دينه ولغته وعروبته، ولم يُلق السلاح في حومة النضال، حتى قابل ربّه، وصحيفتُه بيضاء، وقدره ثابتٌ مكين[1].

* * *

(١) انظر «مصطفى صادق الرافعي» للدكتور محمد رجب البيومي (ص٢٠٣ ـ ٢١٦).

* معركة الفصحى والعامية بين الرافعي وأحمد لطفي السيد:

❑ دافع أحمد لطفي السيد عن صلاحية اللغة العامية كي تختار ألفاظها المستعملة، لتزاحم اللغة العربية، وهب إلى ضرورة أخذ أسماء المستحدثات من اللغة العامية وإمرارها على الأوزان العربية بقدر الإمكان؛ لأن في استعمال مفردات العامية وتركيبها إحياء للغة الكلام، وإلباسها لباس الفصاحة، فيكون من ذلك رفع العامية إلى الاستعمال الكتابي، كما أنه أباح استعمال العامية في الأسلوب الدارج إذا أدّت إلى المعنى المراد، فالمسألة ليست مسألة أسماء المستحدثات فقط، ولكنّ معها ما سمّاه (بالتمصير) أيْ إضافة الكلمات الذائعة في العامية في مصر متى احتاج إليها الكاتب.

❑ وهذا الشطط المتسرِّع دعا الرافعي إلى معارضته فقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إننا إذا تابعناه فإننا نلتمس كل ما أشار إليه من العامية المصرية وحدها، ولعلّ هذا الرأي أن يشيع من ناحيتنا نحن المصريين، ويطمئن في كل أمة لها عربية، فتأخذ مأخذنا في عاميتها، وتنزع إلى ما نزعنا إليه. فإذا أمكن أن يتفق ذلك وأن تتوافى عليه الأمم، كان لعمري أسرع في فناء العربية ومحوها، وعاد عليها شؤم هذا الرأي بما لا يعود به تألّب الأعداء عليها، ويوشك أن يجيء يوم تكون فيه تلك اللغة الفصحى في كتابها الكريم، ضربًا من اللغات الأثرية.. ثم إذا حاولنا مذهب الإصلاح بالعامية فليت شعري من أي لهجة نأخذ، وأي لهجة في مصر هي غير مصرية فننبذها، وإذا جاز للعامة أن يتابعوا الكتّاب فيما يخلطون به العامية بالعربية، أيتابعونهم على العامي الذي يفهمونه وحده، أو تكون المتابعة على العامي والفصيح معًا، ولماذا لا نأتي بالأسلوب العربي المأنوس فيفهمه العامة ولا داعي لغيره.

❑ ثم قال ـ رحمه اللَّه ـ: «نحنُ لا نماري في وجوب الإصلاح

اللغوي، ووجوب أن يكون للغة في هذه النهضة مجمع يحوطها، ويضع لها الألفاظ والمصطلحات، ولا نقول إن هذه العربية كاملة في مفرداتها، ولا أنه ليس لنا أن نتصرف فيها تصرف أهلها، فإن من يذهب إلى ذلك لا يعدو باللغة وسيلة من وسائل العيش، وإذن فالدعوةُ إلى إنشاء مجمع لغوي يضع المصطلحات العلمية والألفاظ الدالة على المستحدثات مما يخدمُ اللغة ويجعلها ذات اقتدار.. ثم إن الأمر في اللغة ليس أمر المفردات فقط ولكنه أمر الأوضاع والتراكيب؛ لأن اللغات الراقية هي التي تتميز بوجوه تركيبها، ونسق هذه الوجوه فيها، والعاميّةُ لا تصلح في تراكيبها وصيغها للكتابة ما لم تُفصَّح على وجه من الوجوه. وهي بعد لا وزن لها في كل ما ابتعدت به عن الفصيح إلا في كلماتٍ قليلة، فإذا هي نافرتِ الفصيح لفظًا أو نسقًا فلست واجدًا إلا أطلالاً من كلمات عربية يأباها من يعرفها صحيحة ماثلةً، وكيفما أدَرتَها لا تعرف لها إلا رقّة الشأن وسقوط المنزلة بإزاءِ أصلها الفصيح الذي خرجت منه»[1].

هذا قليل من كثير توسَّع فيه الرافعي إذ كتبه في ثلاث عشرة صفحة، جمعَها في كتاب «تحت راية القرآن» وكان قد نشرها في مجلة البيان سنة ١٩١٢ حين جهر الأستاذ لطفي السيد برأيه، وبانقضاء أكثر من ثمانين عامًا على هذا الجدل استقرّ الوضع على نحو ما ابتغاه الرافعي، فأنشئ مجمع اللّغة وصارت الفصحى حافلةً بما يرجوه المتحدث والمترجم من أدوات التعبير.

*** الرافعي «والجملة القرآنية»:**

❑ يقول الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه «مصطفى صادق

(١) «تحت راية القرآن» (ص٥٣) وما بعدها ملخصًا.

الرافعي»[١] :

وإذا كان الرافعي سيد بلغاء هذا العصر في نسقه الأسلوبي الممتد بجذوره إلى أعرق أساليب الفصاحة في عهدها الزاهر، فإنّ بعض الناقدين قد أخذ عليه اهتمامه بما سماه «الجملة القرآنية والحديث الشريف»، وما درى هذا الناقد أنه أثار ثائرة الكاتب المؤمن بما أخذَ عليه، فكتب مقالاً ضافيًا تحت عنوان «الجملة القرآنية» نشرهُ بمجلة الزهراء، وجمعه في كتاب «تحت راية القرآن»[٢] ، وقد تعرضتُ للإشادة بهذا المقال في كتابي «في ميزان الإسلام» إذ كشفتُ الضوء عن ظلام اكتنف مبعث هذا النقد، وقلت فيما قلت[٣] :

«وإذا كان نابغة البيان المعاصر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه اللّه ـ من أبرز البلغاء فصاحة وجزالة، وللكلمة القرآنية في بيانه وهج والتماع، إذ يستشهدُ بها في كل مجال، فإنّ بعضهم قد حاول أن يغمز بيانه من ناحية إبداعه، وهو هوىً مغرض يجعل الزين شينًا، والنهار ليلاً، فقال قائلهم: لو ترك الرافعي التزامه بالجملة القرآنية لكان ذلك أجدى وأنفع، وطار القولُ إلى الرافعي فنهض للرد عليه بما اشتُهر به من إقناع، وقال فيما قال: «لقد ظهر لي من نور الجملة القرآنية ما لم أكن أراه من قبل، حتّى لكأنها مكروسكوب يفصح عما يُخفي من صغار الجراثيم، مما يكونُ دقيقًا فيستعظم، وخفيًا فيستغلق». وبلغ موضع النفاذ المصيب، حين قال: وإذا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها في تربية الكلمة وإرهاف المنطق، وصقل الذوق، مقام نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب، وردّها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا منه، وصِلتنا به حتى كأنه فينا، وحفظها

(١) (ص١٣٦ ـ ١٣٨).

(٢) «تحت راية القرآن» (ص٢٤).

(٣) «في ميزان الإسلام» للدكتور محمد رجب البيومي (ص٦٧).

لنا منطق رسول اللَّه ﷺ ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأن ألسنتهم هي عند التلاوة تدور في أفواهنا، وسلائقهم فينا تقيمنا على أوزانها!! إذا فعلتُ ذلك ورضيتُه أفتراني أتّبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجيلية، وأُعين بنفسي على لغتي وقومي، وأكتبُ كتابةً تُميت أجدادي في الإسلام ميتةً جديدة، وتنقلب كلماتي على تاريخهم كالدّود يخرج من الميت، ولا يأكل إلا الميت، وأُنشئ على سنتي المريضة نشأةً من الناس يكونُ أبغضُ الأشياء عندها هو الصحيح الذي يجب أن يكونَ أحب الأشياء إليها».

ولِلَّه دره وهو يقول عن لغة القرآن والكتاب الحكيم والذكر الكريم:

فدَتْكِ نفسي قرآنيةً رُفعت ... بكفّ جبريل ما في مسّها طمع
وللنبيّ عليها لم يزلْ نَفَسٌ ... حيٌّ ومِن وجههِ في نورها لمع
لكاد واللَّه في التنزيل قارئُه ... يحسَ صوت رسول اللَّه يرتفع
إن النبيّ لحيٌّ في ضمائرنا ... على الزمان يرى منها ويستمع!
تاللَّه ما ناصب الفُصْحى سوى رجل ... بالمكر يخدع أو بالجهل ينخدع
كم أجنبي غريب بات يحفظها ... كحفظ عينيه أن يغشاهما الوجع
وكم ترى من بنيها ذا مكاشرة ... لسانُه كلسانِ النار تندلع
يا قوم لن يستحي مستنقعٌ وخِم ... إذا جرت حوله الأنهار والترع![1]

*** أصحاب اللسان المُرقَّع:**

الذين يتباهون بكلمات إفرنجية يسوقونها في محادثاتهم، تشبهًا بالضالين من الصليبيين ونسوا ما قاله شاعر النيل حافظ إبراهيم عن العربية:

وسعت كتاب اللَّه لفظًا وغاية ... وما ضقت عن آيٍ به وعظاتِ

(١) «مصطفى صادق الرافعي» (ص٢٥١ ـ ٢٥٢).

فكيف أضيقُ اليوم عن وصف آلةٍ وتنسيق أسماءٍ لمخترعاتِ
أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل ساءلوا الغوّاص عن صدفاتي
سقى اللّه في بطن الجزيرة أعظمًا يعزُّ عليها أن تلين قناتي

❑ «جاء على مصر حين الدهر، كان بعض ساستها، ومن يَلُون المناصب الكبرى بها، يتباهون بكلمات إفرنجية يَسُوقونها في محادثاتهم، حين لا يدعو الحديث إلى هذه الرطانة المسفّة، وهُمْ يشعرون أنهم يتعالون على من يحدثونهم حين يرطنون بألفاظ يسألهم السائل عن معناها حين يتكلّمون، فينطقون بمرادفها في العربية بعد أن يصطنعوا التفكير، وكأنّهم عن العربيّة بمنأى إذ هي في نظرهم لغة العامة لا الخاصة، وقد يرون أن الحديث بها لَدَى من يلُون الأمر من الإنجليز زُلْفى للتقرب إليهم واعترافٌ بأن لغة المحتل أو غيرها من اللغات الأوربية أجدر بالتداول من لغة المحتل أو غيرها من اللغات الأوربية أجدر بالتداول من لغة الأمّة. في هذه الفترة الحَالكة كتب الرافعي مقاله «اللّسان المرقّع» ليكشف دخيلة هؤلاء، ويريهم أنّهم محتقرون عند أبناء وطنهم حين يتخذون لغةً غير لغتهم، ومحتقرون عند المحتلّ حين يراهم يلتمسون وسائل الخضوع والزلْفى باتخاذ لغةٍ لا يجيدونها حق الإجادة، بل يتظاهرون بمعرفتها، وأكثرهُم منها بموضع شاسع. وللرافعيّ طريقته البارعة في التهكم الساخر بهؤلاء، فهو لا يقرّر الحقيقة وحدها بل يلبسها الصورة المضحكة التي تميل بالقارئ إلى الاستهزاء بمن يظنّون أنفسهم كبارًا وهم زعانف وذيول، يقول الرافعي[1] :

«وكان حضرة صاحب السعادة يكلّم الباشا بالعربيّة التي تَلْعَنُها العربية، مرتفعًا بها عن لغة الفصيح ارتفاعًا منحطًّا، نازلاً بها عن لغة السوقة نزولاً

(١) «وحي القلم» (٢/ ٢٩٦).

عاليًا، فكان يرتضخ لُكنةً أعجمية، بَيْنا هي في بعض الألفاظ جرسٌ عال يطنّ، إذا هي في لفظٍ آخر صوتُ مريض يئن، إذا هي في كلمةٍ ثالثة نغمٌ موسيقيٌّ يرنّ، ورأيته يتكلَّف نسيان بعض الجمل العربية، ليلوي لسانه بغيرها من الفرنسية، لا تظرّفًا ولا تملحًا، ولا إظهارًا لقدرة أو علم، ولكن استجابةً لشعور الأجنبيّ الخفي المتمكن في نفسه، فكانت وطنيةُ عقله تأبى إلا أن تكذّب وطنية لسانه، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه، فلما انصرف الرجل قال الباشا: أفٌّ لهذا وأمثال هذا، أفٌّ لهم ولما يصنعون، إنّ هذا الكبير يلقبونه (حضرة صاحب السعادة)، ولأشرف منه واللَّه رجلٌ قرويٌّ ساذج «ينطق بلغته».. إن عمله أن يُعلن برطانته الأجنبية أنّ لغة وطنه ذليلة مهينة، وأنه متجرّد من الروح السياسي للغة قومه، إذ لا يظهر الروح السياسي للغة ما إلا في الحرص عليها وتقديمها على سواها»[1].

*** الرافعي وردّه على محمود عزمي المتباهي بالقُبَّعة:**

وهو مسخ مشوه لزنديق تركيا أتاتورك الذي حرّم على المسلمين لبس العمامة وألزمهم بالقبعة ونصب المشانق من أجل هذا، والقبعة هي الشعار الثالث للصليبيين بعد الزنا والصليب ظهر خاصة أثناء الحروب الصليبية، وهو لبس خاص بهم، ولذلك أفتى أهل العلم بتحريم لبسها ومنهم الإمام النووي، فأتى قوم أعجبهم كل ما في الغرب فساروا على نهجه حتى في القبعة وقلدوا تركيا أتاتورك، والرافعي يقول في ذلك على لسان من سمّاه «صاحب السر»[2]:

«لقد نجمت في مصر حركةٌ بعِقب أيام البدعة التركية، حين لم تبق

(١) «مصطفى صادق الرافعي» لمحمد رجب البيومي (ص١٣٨ ـ ١٣٩).
(٢) «وحي القلم» (٢/ ٣٠١).

لشيء هناك قاعدة، إلا القاعدةُ الواحدة التي تقرّرها المشانق، فمن أبى أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه، ومن قال «لا» انقلبت «لا» هذه مشنقة فعُلّق فيها. وكانت فكرة اتخاذ القبعة في تركيا غطاءً للرأس قد جاءت بعد نزعات من مثلها كما يجيء الحذاء آخر ما يلبس اللابس، فلم يشكّ أحد أنها ليست قبعةً على الرأس أكثر مما هي طريقة لتربية رأس المسلم تربيةً جديدة، ليس فيها ركعة ولا سجدة، وإلاّ فنحن نرى هذه القبعة على رأس الزنجيّ والهمجي، وعلى رأس الأبله والمجنون، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض، ولا عرفناها نقلت همجيًّا عن طبعه، ولا زعم أحد أنّها أكْملت العقل الناقص، أو ردّت العقل الذاهب».

وقد احتجوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية، ولا يعرف المدنيّة إلا مدنية أوربا، فهو يمثلها كما هي في حسناتها وسيئاتها، وما يحلّ وما يَحْرُم، وما يكون في حاجه إليه وما يكون في غنىً عنه؛ حتى لو أن الأوربيون كانوا عُورًا الطبيعة، لجعل هو قومه عُورًا بالصناعة ليشبهوا الأوربيين.. نعم إنها حاجة تامة لولا نقص في البرهان، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الفتوح العثمانية، يظهر فيها الخلفاء العظام والأبطال المغاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبّعات، ليشبهوا الأوربيين. كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخلّ نافع للصفراء، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله: ازرع لي بصلاً بخلّ.. هكذا يريدون من القبّعات أن تُخرج لهم تُركًا بأوربيين.

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة، بل هي كلمةُ سب للعرب ورد على الإسلام ضاقت بها كلُّ الأساليب أن تُظهرها واضحةً بينةً، فلم يَفِ بها إلا هذا الأسلوبُ وحده. وهي إعلان سياسي بالمناوأة والمخالفة والانحراف عنا واطّراحِنا، فإن الذي يخرج من أُمّته لا يخرج منها وهو في ثيابها

وشعارها؛ فبهذا افتح لهم بابُ الخروج في القبعة دون غيرها مما يجري فيه التقليدُ أو يُبدِعُه الابتكار؛ وإلا فأي سر في هذه القبعات، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين..؟

هاهنا سيفٌ أراد أن يكون مِقَصًّا فعمل أولاً ما يعمل الحسامُ البتَّار، فأجاد وأبدع وأكبره الناسُ وأعظموه؛ ثم صنع ما يصنع المِقصُّ، فماذا عساه يأتي به إلا ما ينكره الأبطالُ والخياطون جميعًا؟

أكُتِبَ علينا أن نظلَّ دهرَنا نبحث في التقليد الأعمى، وألا يَحْيا الشرقيُّ إلا مستعبدًا ينتظر في كل أموره من يقول له: اشرَع لي..؟ إن بحثنا فلنبحثْ في زِيٍّ جديد نتميَّز به، فتكون القُوَى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجونا هي التي اخترعت لظاهرِها ما يجعله ظاهرها، كما يُخرج زَوْرُ الأسد لِبدَةَ الأسد، غايةً في المنفعةِ والجمالِ والملاءمة.

❑ هذا رأي الرافعي في القبعة، وقد أرادتْ مجلة الهلال (سنة ١٩٢٧) أن تُنبِّه الأذهان إلى غطاء الرأس الذي بدأ ينتشر تقليدًا لتركيا التي قلدت بدورها أوروبا فأتاحت الفرصة لكاتبين أن يُبْديا رأيهما في القبعة، وهما الدكتور محمود عزمي والأستاذ مصطفى صادق الرافعي. أما عزمي فقد باهى وافتخر بارتدائه القبعة، وقال: إن من رأوه يلبسها لأوّلِ مرة قالوا له: بدأ الشرقيون يفكرون برءوسهم، وأنّ القبعة التي بدأت تنتشر في الوسط الآخذ بالمذاهب الحديثة تُمثّل لونًا خاصًا! وزاد فقال: إنّي أنا مِنَ الذين يريدونَ أن يأخذوا من المدنيَّة العصرية وهي الحضارة الغالبة، وأنّ الخير كل الخير في شُخوصِ الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية إلى شواطئ البحر المتوسط الشمالية الغربيّة، وبأنّ كل نظرة إلى رمال التيه والبادية إنما تكونُ نُكُوصًا على الأعقاب في ميدان الجهاد الذي يسير فيه العالم سيرًا هائل السرعة إلى الأمام».

هذا بعض ما قاله الأستاذ محمود عزمي بشأن القبعة. أما الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فقد عارضه بمقال فخم نشر بمجلة الهلال المشار إليها، ولا أدري لماذا لم يجمع بين مقالات وحي القلم لجدارته بالذيوع، قال الرافعي[1] : «القبّعة على رأس المصري منفردًا بها دون قومه، بائنًا من جملتهم، إنما هي مظهرٌ من مظاهر التحلّل الاجتماعي، وارتكاسٌ في منطق الجملة المصرية، ونفيٌ لهذا الرقم من عبارة مجموعة، وهي في الرجال مشتقّةٌ من المصدر الذي يخرج منه التهتكُ في النساء، وكلاهما ضدٌّ من صفة اجتماعية تقومُ بها فضيلةٌ شرقية عامة، ولا يهولنّك ما أقرّر لك من أن القبعة على رأس المصري تهتكٌ أخلاقي أو تهتّك سياسي، أو تهتكٌ ديني، أو من هذه كلها معًا، فإنك تعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة، وتحلّلت أكثرُ عُقدها، وقاربت الحرية العصرية بين النقائض حتى كادت تختلطُ الحدود اللغوية، فحريّة المنفعة تجعلُ الصادق والكاذب بمعنى واحد، فلا يقالُ إلا أنّه وجَد منفعته فصدق، ووجد منفعته فكذب، ومتى أُزيلت الحدودُ بين المعاني كان طبيعيًّا أن يلتبس شيءٌ بشيء، وأن يحلّ معنى في موضع معنى، وأصبح الباطل باطلاً بسبب، وحقًّا بسبب آخر. ومن اختلاط الحدود تجيء القبعة على رأس المسلم، وما هي إلا حد يطمس حدًّا، وفكرة تهزم فكرة، ورذيلة تقول لفضيلة: ها أنذي قد جئت فاذهبي».

والمقالُ جيّد متّصل التحليل، حارّ النَّفَس، وفيه كفاء أي كفاء لمن يبتغي مقطع الصواب.

---

(١) «مجلة الهلال»: مجلد سنة ١٩٢٧، وقد أعيد نشر المقال في العدد الخاص من الهلال بمناسبة مرور ٧٥ سنة على إنشاء المجلة مع مقال الدكتور عزمي ليظهر الرأيان المتعارضان.

*** مصطفى صادق الرافع يفضح أتاتورك ويأخذ بثأر الإسلام منه:**

مصطفى كمال أتاتورك الذي أسقط الخلافة وذهب بمجد المسلمين عليه من اللَّه ما يستحقه.

لقد كان مصطفى كمال ذا أبواق عالية الصدى رنّانة الزئير في مصر، وقد صدرت كتب مصرية بأقلام مصريين ينتسبون إلى الإسلام!!! تؤيد هجومه على الإسلام وازدراءه للغة العربية، وجَعْل العطلة الأسبوعية يوم الأحد لا يوم الجمعة، وضرورة لبس القبعة، وإغلاق المساجد وتحويلها إلى متاحف أو متنزهات!! صدرت كتب في مصر تؤيد اتجاهه الإلحادي، ومُروقه عن دينه، فقام الرافعي زائداً عن دينه في وجه هذا الطاغية الذي ذهب وذهبت أفكاره إلى مزابل التاريخ وانقلب وهو حسير.

❑ تكلم الرافعي عن أتاتورك في مقاله «تاريخ يتكلم بالجزء الثاني من وحي القلم وقد جعل حديثه الظاهري عن الحاكم بأمر اللَّه كيلا يدخل تحت دائرة المسئولية حين يعترض الأذناب. والمقالة الصريحة عن أتاتورك تحت عنوان «كفر الذبابة» وانظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

*** قال الرافعي عن أتاتورك:**

«كانت أعماله في جملتها هي نقضَ أعمال الشريعة الإسلامية، وظن أنه مستطيع محو ذلك العصر من أذهان الناس وقتْلَ التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتل سفاك.

وسوَّل له جنونُه أن خُلِقَ تكذيبًا للنبوة؛ ثم أفرَطَ عليه الجنونُ فحصَّل في نفسه أنه خلق تكذيبًا للألوهية؛ وفي تكذيبه للنبوّة والألوهية يحملُ الأمة بالقهر والغلَبة على ألا تصدّقَ إلا به هو؛ وفي سبيل إثباته لنفسه صَنَعَ ما صنع، فجاء تاريخه لا ينفي ألوهية ولا نبوة، بل ينفي العقل عن صاحبه؛

ابتُلي هذا الطاغية بنقيصتين: إحداهما من نفسه، والأخرى من غيره؛ فأما التي من نفسه فإني أراه قد خُلِق وفي مخه لفافة عصبية من يهودية.

هذه اللفافةُ اليهودية في مخ هذا الطاغية ستحقق به قول اللَّه تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوة لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ اليَهُودَ...﴾ فهو لن يكون العدو للإسلام دون أن يكون الأشدَّ في هذه العداوة ويكون فيها الأشدَّ حتى يفعلَ بها الأفاعيلَ المنكرَة. وما أرى هذه المآذنَ القائمةَ في الجو إلا تجري بمنظرها عينيه من بُغضه للإسلام وانطوائه على عداوته؛ فويلٌ لها منه!.

وأما النقيصةُ الثانيةُ فقد ابتُلِيَ بقوم فتنوه بآرائهم ومذهبهم، وقد لفَّقوا للدنيا مذهبًا هو صورة عقولهم الطائشة، لا يجيء إلا للهدم، ثم يضع أولَ معَاوله في قُبة السماء ليهدمها..! ولو أنا جمعتُ هذا المذهبَ في كلمة واحدة لقلت هو حماقةٌ حمقاء تُريد إخراجَ اللَّه من الوجود لإدخال اللَّه في بعض الطُّغاة!

يرى هذا الطاغيةُ أن الدين الإسلامي خُرافةٌ وشَعوذةٌ عن النفس، وأن محو الأخلاق الإسلاميةِ العظيمة هو نفسه إيجادُ أخلاق، وأن الإسلام كان جريئًا حين جاء فاحتل هذه الدنيا، فلا يطردُه من الدنيا إلا جَراءةَ شيطان كالذي تَوَقَّحَ على اللَّه حين قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

□ أظهر الطاغية أن اللَّه يؤيد به الإسلام، ليتألّف الجند والشعب ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لئيم الكيد، دني الحيلة، يهودي المكر.

وكانت هذه المعاملةُ الإسلاميةُ الكريمةُ من هذا الطاغية، هي بعينها ربا اللُّفَافةِ اليهودية في مُخّه؛ تُصلحُ بإقراض مائة وفيها نيةُ الخراب بالستين في المائة..! فإنه ما كاد يتمكَّن من الناس ويعرفُ إقبالهم عليه وثِقَتهم به، حتى طَلبتِ اللفافة اليهوديةُ رأسَ المال والرِّبا؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخراجها، وأبطلَ العيدَين وصلاة الجمعة، وقَتَلَ الفقهاء.

إن هذا الطاغيةَ ملكٌ حاكم، يستطيعُ أن يجعلَ حماقتَه شيئًا واقعًا، فيقتلَ علماءَ الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارسَ الدين بإخرابها، ولو شاء لاستطاع أن يشنُقَ من المسلمين كلَّ ذي عمامة، في عمامته. ويبلغ من كفره أن يتبجَّحَ ويرى هذا قوةً، ولا يعلم أنه لهوانه على اللَّه قد جعله اللَّه كالذبابة التي تُصيبُ الناس بالمرض، والبعوضة التي تقتل بالحمَّى، والقملة التي تَضربُ بالطاعون، فلو فَخَرت ذبابةٌ، أو نجحت قملةٌ، أو استطالت بَعوضةٌ، لجاز له أن يَطِنَّ طنينَه في العالم. وهل فعلَ أكثر مما تفعل؟

لقد أودَى بأُناس يقوم إيمانُهم على أن الموتَ في سبيل الحق هو الذي يُخلدُهم في الحق، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذي يضعُهم في حقيقتها، وأن هذه الروحَ الإسلامية لا يَطمسُها الطغيانُ إلا ليجلوها.

إنه واللَّه ما قَتَلَ ولا شَنَقَ ولا عَذَّب، ولكن الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله، وأعوزه ذلك النوعُ السامي من الموت الأول الذي كان حياة الفكرِ ومادةَ التاريخ، فجاءت القملةُ تحمل طاعونها..!

لقد أحياهم في التاريخ، أما هم فقتلوه في التاريخ، وجاءهم بالرحمةِ من جميع المسلمين، أما هم فجاءوه باللعنةِ من المسلمين جميعًا!

* لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول.. أخزاه اللَّه..!!

❑ هذه طبيعة كل حاكم فاسق مُلحد، يرى في نفسه رذائله عُريانةً، فلا يكونُ كلامُه وعملُه وفكره إلا فُحشًا يَتعرَّى؛ وإن في هذا الرجل غريزة فسق بهيميةً متصلة بطور الحيوان الإنساني الأول؛ فما من ريب أن في جسمه خلية عصبيَّةً مُهْتاجَةً، ما زالت تَسبحُ بالوراثة في دماءِ الأحياء، متلفقة على خصائصها، حتى استقرت في أعصاب هذا لفاسق، فانفجرت بكل تلك الخصائص.

ولستُ أرى أكثرَ أعماله ترجعُ في مَردها إلا أن طغيان هذه الغريزة فيه؛ فهو يحاول هدم الإسلام؛ لأنه دينُ العفة ودينُ صَونِ المرأة، يُلزمُها حجابَ عِفتها وإبائها، ويمنعُها الابتذال والخلاعة. وليعينها أن تتخلَّص ممن يشتهيها، ولو كان الحاكم.. إنه يمقتُ هذا الدينَ القويّ، كما يمقتُ اللصُّ القانون؛ فهو دينٌ يَثقُل على غريزته الفاسقة، ولكل غريزة في الإنسان شعورٌ لا مَهنأ لها إلا أن يكون حرًّا حتى في التوهُّم؛ وهل يُعجبُ السكيرَ شيءٌ أو يُرضيه أو يلذه، كما يُعجبه أن يرى الناس كلهم سُكارى؛ فينشِي هو بالخمر، وتسكر غريزته برؤية السكر؟!

وما زال رأيُ الفُسَّاق في كل زمن أن الحرية هي حريةُ الاستمتاع، وأن تقييد اللذة إفساد للذّة.

❑ يزعم الطاغية أنه يُعِزُّ قومه. وما أراه يُعزهم، لكنه يمتحنُ ذلَّهم وضعفهم وهوانهم على الأمم يتجرأ شيئًا فشيئًا، مُتنظرًا ما يتسهَّل، مرتقبًا ما يمكن؛ وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا؛ فمن ذلك يَهدمُ الأخلاقَ ويظنّ عند نفسه أنه يهدمُ قبورًا لا أخلاقًا.

اندلعت ثورة الفجور في المدينة لا من العبيد، ولكن من الحيوان العتيق المستقرّ في هذا الطاغية.

❑ يزعم الطاغيةُ أنه سيَهدم كل قديم؛ وإني لأخشى واللَّه أن يأمرَ الناسَ في بعض سَطَواتِ جنونه: أن كل من كان له أبٌ أو أم بلغ الستين فليقتله، لتخلُصَ الأمةُ من قديمها الإنساني..!

كأنه لا يعرفُ أنه إنما يتسلط على أيام مُعاصريه لا على التاريخ، ويحكمُ على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف؛ فما هو إلا يهلكَ حتى ينبعثَ في الدنيا شيئان: نَتْنُ رِمَّته في بطن الأرض، ونتنُ أعماله على ظهر الأرض. إن هذا الرجلَ المسلَّطَ، كالغبارِ

المستطار لا يُكنس إلا بعد أن يقعَ..

□ لا يرضى الطاغيةُ إلا أن يَمْحَقَ روحانيةَ الأمة كلها، فلا يترك شيئًا رُوحانيًّا له في أعصاب الناس أثر من الوقار، وبمن يستظهرُ - ويلَه - إذا مُحِقت روحانيةُ الأمة وأشرفت نَزْعتُها الدينيةُ على الانحلال؟ كأنه لا يعلم أن حقيقة الوجود لأمة من الأمم إنما تُستَمدُّ من إيمانها بالمثَل الأعلى الذي يدفعُها في سِلمها إلى الحياة بقوّة، كما يدفعها في حربها إلى الموت بقوة؛ وكأنه لا يعلم أن التاريخَ كله تُقرره في الأرض بضعةُ مبادئ دينية.

أيّ مجنون أسخف جنونًا من هذا الذي يحسب النفوسَ الإنسانية كالأخشاب؛ تقبَلُ كلُّها بغير استثناء أن تُدقَّ فيها المسامير..؟

سيعلم إذا نَشبت حربٌ بينه وبين دولة أخرى، أنه كسرَ أشدَّ سيوفه مضاء حين كسرَ الدين!.

* كُفْرُ الذُّبابة(*).. أو كُفر أتاتورك:

قال كَليلة(١) وهو يَعِظ دمنةَ ويُحذّرُه ويقضي حق اللّه فيه؛ وكان دمنةُ قد داخله الغرورُ وزَهاه النصر، وظهر منه الجفاء والغِلظة، ولقي الثعالبُ من زيغه وإلحاده عنتًا شديدًا:

«.. واعلم يا دمنةُ أن ما زعمتَه من رأيك تامًّا لا يَعتريه النقص، هو بعينه الناقصُ الذي لم يتمّ؛ والغرورُ الذي تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء، لعله هو الذي يُثبت أن غير رأيك في الآراء هو الصحيح.

ولو كان الأمرُ على ما يتخيَّلُ كلُّ ذي خيال، لصدَقَ كلُّ إنسان فيما

(*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي» لمحمد سعيد العريان.

(١) «كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعي، يعمد إليه حين يريد تقرير المعاني بالتمثيل والمحاورة. وانظر مقاله «فلسفة الطائشة» في الجزء الأول.

يزعم، ولو صدَق كلُّ إنسان فيما يزعمُ، لكذَب كل إنسان؛ وإنما يدفعُ اللَّه الناسَ بعضهم ببعض، ليجيء حقُّ الجميع من الجميع. ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيرًا فلا يكبر، ويثبُتَ الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنتقَص، ويصح الصحيحُ ما دامت الشهادةُ له، ويفسُدَ الفاسد ما دامت الشهادةُ عليه، وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن أرنبًا سمعت العلماء يتكلَّمون في مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذَّنُ اللَّه بانقراضها، وكيف تكونُ القارعة؛ فقالوا: إن في النجوم نجومًا مُذنبةً، لو التفت ذنبُ أحدها على جِرم أرضنا هذه لطارتْ هَوَاءَ كأنها نفخةُ النافخ، بل أضعف منها كأنها زَفرةُ صدرٍ مريض، بل أوهى كأنها نَفثةٌ من شفتين. فقالت الأرنب: ما أجهلكم أيها العلماء! قد واللَّه خَرفتم وتَكَذبتم واستَحمقتُم؛ ولا تزال الأرض بخيرٍ مع ذَواتِ الأذناب؛ والدليلُ على جهلكم هو هذا ـ قالوا: وأرتهم ذَنبها..!

قال كليلة: وكم من مغرورٍ يُنزل نفسه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب من أولئك العلماء؛ فيقول كذبوا وصدَقتُ أنا، وأخطأوا جميعًا وأصبتُ، والتبسَ عليهم وانكشف لي، وهم زعموا وأنا المستيقِن. ثم لا دليلَ له إلا مثل دليل الأرنب الخرقاء من هَنَة تتحرَّك في ذنبها.

وكان يُقال: إنه لا يُجاهرُ بالكفر في قوم إلا رجلٌ هانَ عليهم فلم يَعبأوا به، فهو الأذل المستضعف؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم، فهو الأعزُّ الطاغية؛ ذاك لا يخشونه فيدَعُونه لنفسه وعليه شهادةُ حُمقه، وهذا يخشونه فيتركون معارَضَتَه وعليه شهادةُ ظُلمه؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا.

وقالت العلماء: إن كنتَ حاكمًا تَشنُقُ من يخالفُك في الرأي، فليس

في رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل؛ وإن كنتَ تَقتل من يُنكر عليك الخطأ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد؛ وإن كنت تحبس من يعارضُك بالنظر، ففيك عقلٌ اسمه الجِدار؛ أما إن كنت تُناظرُ وتجادل، وتقنِعُ وتتقنع، وتدعو الناس على بصيرةٍ ولا تأخذُهم بالعَمَى ـ ففيك العقلُ الذي اسمه العقل.

قال كليلة: وأنا يا دمنة، فلو كنتُ قائدًا مُطاعًا، وأميرًا مُتبَعًا، لا يُعصَى لي أمر، ولا يُرد عَلَيَّ رأي، ولا ينكر مني ما يُنكَر من المخلوق إذا أخطأ، ولا يقال لي دائمًا إلا إحدى الكلمتين: أصبتَ؛ ثم هي دائمًا أصبت؛ ولا يلقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى، رَهبةً من سَخَطي رهبةَ الجُبَناء، أو رغبةً في رضايَ رغبة المنافقين، وزعموا أنهم على ذلك قد صَحَّت نيَّاتهم وخلصَ لي باطنُهم جميعًا ـ فلو كنتُ وكانوا على هذا، لأحالني نقصُهم إلي نقص العقلِ بعد كماله، وردَّتني فُسولتُهم إلى فُسولة الرأي بعد جَوْدته، فأخلق بي أن أعتبر وضعَهم إيايَ في موضع الآلهة، هو إنزالهم إياي في منزلة الشياطين؛ وإلا كنتُ حقيقًا أن يُصيبني ما أصاب العَنزَ التي زعموا لها أنها أنثى الفيل..

قال دمنة: وكيف كان ذلك.

قال: زعموا أنه كان في إحدى خَرائب الهند جماعةٌ من العَظَاء، وكان فيها عَضرَفوطٌ كبير[1]، فملكتهُ الجماعة وذهبت تأتمرُ على أمره وتنتَهي. فمرّ بهذه الخربةِ فيلٌ جسيمٌ من الفيلة الهنديةِ العظيمة، لم يحسَّ بالعظاء، ولم يميز فرقًا بين هذه الأمة من الحشرات وبين الحصى منثوراً يلتَمعُ في الأرض هنا وهنا؛ قالوا: فغضب العضرفوطُ، وكان قائدًا عظيمًا، ثم تدبّر أمرَ الفيل ينظر كيف يصنعُ في مدافَعَته، وكيف يحتال في هلاكه؛ فرآه لا يتحرك إلا

(١) العظاء: جمع عظاءة وعظاية، وهي هذه الدويبة التي يقال لها (السحلية)، والعضرفوط: ضرب من العظاء يكون أكبر منها.

بأقدامه يَنقلُها واحدةً واحدة؛ فقدر عند نفسه أنه لو أزال قَدم الفيل عن الأرض زال الفيلَ نفسُه؛ فجاء فاعترض الطريق، ودب دبيبه؛ فلما رفع الفيلُ قدمه اهتبلَ هذه الغفلة منه.. واندسَّ تحتها، فاندسَّ مقبورًا في التراب!

ثم إن العَظاء افتقدت أميرها. فلما مضى الفيلُ لسبيله ورأت ما نزل بها، نَفَرت إلى أجحارها، واستكنَّت فيها ترتَقِبُ وتتربص، فدخلت إلى الخربة عنزٌ جعلت تتقمم منها وتَرتَعُ فيها، ورأتها العظاء فاجتمعن يأتَمِرن..

فقال منها قائل: هذه أنثى الفيل. فسألت عظايةٌ منهن: وأين النابان العظيمان؟

قالت الأولى: إن الإناثَ دون الذكورة في خلقها، والأنثى هي الذكرُ مقلوبًا أو مختصرًا أو مشوهًا، ولذلك هنَّ يقلِبنَ الحياة أو يختصرنها أو يشوهنها، أفلا ترين النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم، كيف نبتا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه..؟

فقالت واحدة: إن جاز قولك في الرأي فأين الخرطوم؟

قالت الأخرى: هو هذه الزَّمَّةُ المتدليةُ من حلقها، وذلك خُرطومٌ على قدر أنوثة الأنثى..!

قالوا: ثم اجتمع رأيُهن على أن يُملِّكن أنثى الفيل هذه؛ وأن يهبن لها الخربَة وأمَّتَها. وسمعت الماعزَةُ كلامهن فقالت في نفسه: لا جَرَمَ أن تكونَ العنزُ في أمةٍ من العظاء، فقد قالت العلماء: إنه لا كبير إلا بصغير، ولا قويَّ إلا بضعيف، ولا طاغيةَ إلا بذليل؛ وإن العظمةَ إن هي إلا شهادةُ الحقارة على نفسها، وإنه رُبَّ عظيم طاغيةٍ متجبِّرٍ ما قام في الناس إلا كما تقومُ الحيلة، ولا عاش إلا كما يعيش الكذِب، ولا حكَم إلا كما يَحكم الخِداع. وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده، فمتى جاءت إليه فقد جاءت، ولو أنها أدبرت عنه من ناحيةٍ لرجعت من ناحية أخرى، ليثبِتَ الحظ أنه الحظ.

وتقدَّم العظَاء إلى العنز، فقُلن لها: أيتُها الفيلةُ العظيمة، إن قَرينَك العظيمَ قد مسَّ أميرنا العضرَفُوطَ بقدمه فغيبه تحت سبعِ أرضين، وأنت أنثاه وسيدتُه، فقد اخترناك ملكةً علينا، ووهبنا لك الخربةَ وما فيها.

قالت العنز: فإني أتَّهبُ منكن هذه الهبة، ونعمَّا صنعتُن؛ غيرَ أن بينكن وبيني ما بين العظاية والفيل. وما بين الحصاة والجبل، فإذا أنا قلتُ؛ فأنا قلت، وإذا أنا أمرتُ، فأنا أمرت؛ وإذا أنا فعلتُ، فأنا فعلت. هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدةٌ ليس معها غيرها؛ لأن هاهنا في هذا الرأس دماغَ فيلة، وفي هذا الجسم قوة فيلة، وفي الخربةَ كلها فيلةٌ واحدة؛ فلا أعرفنَّ منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعةَ طاعةَ الأعمى للبصير. ألا وإن أول الحقائق أنني فيلةٌ وأنكنَّ عَظاء؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سَقَطَ الخلافُ من بيننا وبطلَ الاعتراضُ منكن، وقوَّتي حق لأنها قوّة، وباطلي كذلك حقٌّ لأنه من قوتي؛ وقد قال أسلافُنا حكماء الفيلة: إن القويّ بين الضعفاء مشيئةٌ مطلقة، فهو مُصلحٌ حتى بالإفساد، حكيمٌ حتى بالحماقة، إمامٌ حتى بالخرافة، عالمٌ حتى بالجهالة، نَبيٌّ حتى بالشعَوذَة..!

قالوا: وتُنكرُ عليها عَظَايَةٌ صالحةٌ عالمةٌ كانت ذاتَ رأي ودين في قومها، وكن يُسمينها: (العمامة)، لبياضها وصلاحها وطهارتها، فقالت: ولا كلٌّ هذا أيتها الفيلة؛ لقد تخرصت غير الحق فإنك تحكمينا من أجلنا لا من أجلك، وما قولُك إلا كلماتٌ تُحققُها أعمالُنا نحن؛ فلك الطاعةُ فيما يصلحنا، وما كان من غيره فهو ردٌّ عليك، ورأيُك شيء ينبغي أن تكون معه آراؤنا، لتتبينَ الأسباب أسبابُ الموافَقة والمخالفةَ، فنأخذَ عن بينةٍ ونتركَ عن بينة؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة: إنه يجب على من يقدم رأيًا للأمَّة الحازمة كي تأخذَ به، أو يضعُ لها شرعًا ليحملها عليه، أو يسنُّ لها سنةً لتتبعها ـ إنه يجب على هذا المتقدم لتحويل الأمَّة أو تحريرها أن يتقدم لأهل

الشورى وفي رأسه الرأيُ، وفي عنقه حبل؛ ثم يتكلَّم برأيهَ ويبسطُه ويدفعُ عنه، ويجادلُهم ويجادلونه؛ فإن كان الرأيُ حقًّا أخذوا الرأي، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهوّر.

وفي ديننا أن الطاعةَ في المعصية معصيةٌ أخرى؛ ولقد كان لنا عضرفوطٌ بحَّاثَةٌ في الأديان دراسة لكتُبها علامَةٌ نقَّابٌ؛ فكان مما علَّمنا: أن المخلوقَ مبنيٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء، فيجب ألا يتمَّ منه شيءٌ إلا بمقدار، وألا تكونَ القوةُ فيه إلا بمقدار؛ ولهذا كان العقلُ التامُّ في الأرض هو مجموع العقول العظيمة كلِّها، وكان أتم الآراء وأصحُّها ما أثبتت الآراءُ نفسُها أنه أصحُّها وأتمها. فلا الدينَ اتَّبعت أيتها الفيلةُ، ولا اتبعت فينا العقل، وليس إلا هذا (التفيُّلُ) الكاذب.

فلما سمعت العنزُ ذلك تنقَّشَت وغضبت، وقالت: إياكم وهذه الترَّهاتِ من ألسنتكم، وهذه الأباطيل في عقولكم؛ لا أسمعن منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياء ولا العضافيط.. فذلك وحي غيرُ وحيي أنا؛ وإذا كان غيرَ وحيي أنا فأنا لستُ فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يصلح للحكم الذي شرطه أن الدولة لي فيها إلا أنا واحدة. وذلك إن لم يجعلكم غُرباءَ عني جعلني غريبةً عنكم، ما بُدٌّ من إحدى الغُربتين، فهو أولُ القطيعة، والقطيعةُ أولُ الفساد. وما دام في الدين أمرٌ غيرُ أمري، ونهيٌ غير نهيي، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيران على مشيئتي ـ فأما مجنونةٌ إن رضيتُ لكم هذا..!

فضحِكَت (العمامة) وقالت للماعزة: بل قولي: أنا مجنونة بـ (أنا)؛ أفلا يجوز وأنت خلقٌ من الخلق أن يعتريَ عقلك شيءٌ مما يعتري العقول؟ ولسنا ننكر أنك قويةُ الرأي في ناحية القوة، حسنةُ التدبير في ناحية الشجاعة، متجاوزةُ المقدار في ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة؛ ولكن ألم يقل الحكماء: إن الزيادةَ المسرفةَ في جهة من العقل، تأتي من

النقص المتحيِّف لجهةٍ أخرى؛ وإنه رُبَّ عقلٍ كان تامًّا عبقريًّا في أمورٍ؛ لأنه ضعيفٌ أبلهُ في غيرها؛ يُحسِنُ في تلك ما لا يُحسِنُه أحد، ويُحكمُ منها ما لا يُحكمه أحد، ثم يَغلَطُ في الأخرى ما لا يغلط أحدٌ فيه؟

قالوا: فجاشت العنزُ وفارت من الغضب فورةَ الجبَّار، وخُيِّل إليها من عَمَى الغيظ أنها ذهبت بين الأرض والسماء، وأن زَنَمتَها امتدَّ منها خرطومٌ طويل، وأن قرنيها انبعج منهما نابان عظيمان؛ وقالت: ويحكم! خذوا هذه (العمامة) فاشنقوها؛ فإنها كما قالت؛ تقدَّمت إلينا بالرأي والحبل..!

وكان في العَظَاء ضِعافٌ ومَهازيلُ وجُبناءُ، ومأكولون لكل آكل؛ فتَشَبَّحَ[1] لهم أن أنثى الفيل هذه.. ستخلقهم فيلةً إن هم أطاعوها؛ فإذا مَردُوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيثُ تجعل كل ظلفٍ من أظلافها جبلاً فوقهم كأنه ظُلَّةٌ فتسوخُ بهم الأرض. ثم إنهم انخذلوا وتراجَعوا، وأُخِذَت (العمامةُ) الصالحةُ فشُنِقَت، وخمدَ الرأيُ من بعدها، وانقطع الخلاف والدينَ والعقل الحر..؛ وأقبلَت دولةُ العظاء على العنز تُجرِّرُ أذيالها.

قالوا: واغترَّت الماعِزةُ وأحست لها وجودًا لم يكن، وعرفت لنفسها وهي ماعزةٌ نَبَاهَةَ شأن الفيل القوي، فلجت في عَمَايتها وكفرت بجنسها، وقالت: لم يخلقني اللَّه فيلةً وخلقتُ نفسي؛ فأنا لا هو..

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتها كلُّ عنزٍ في الدنيا؛ وذهبت تقلد وتعيشُ على مذاهب الفيلة بين العظاء، فإذا مشت ارتجَّت وتخطرت كأنها بناء تقلقل، وإذا اضطجعت أنذرت الأرضَ أن تتمسك لا تَدُكَّها بجنبها..!

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخرابِ مرّةً أخرى، فلاذَت العَظَاءُ كلُّهن بالفِيلة..

---

(١) أي خيل إليهم وتمثل.

وتأهبت هذه للقتال، وتحصَّفت في المبارزَة والمناجزة.. (والمعانَزَة) فنصبت قرنيها، وحرّكت زمتها، وطأطأت، وشدت أظلافها في الأرض، وثبتت قوائمها، وصلبت عظامَها، ونفشت شعرها، وتشوكت كالقُنفذ، وأصرَّتْ بكل ذلك إصرارها، وكانت عنزًا نطيحةً منذ كانت تتبعُ أمَّها وتتلوها، فكيف بها وقد تَفَيَّلَتْ..؟

ثم إنها ثبتت في طريق الفيل ليرى بعينه هذا الهولَ الهائل.. فأقبل، فمدَّ خرطومَه، فنالَها به، فلفها فيه، فقبضه، فرفَعه، فكأنما ذهبت في السماء..!

وتهارَبت العظَاء ولذن بأجحارهن، ثم غَدَونَ على رزقهن؛ فإذا جِيفَةُ العنز غيرَ بعيد، فدببنَ عليها وارتعينَ فيها، وعَلمن أنها كانت ماعزةً فيلها جنونُها، وأدركن أن الكذبَ على الحقائق قد جعل اللَّه له حقائقَ أخرى تقتلُه، وأن من غَلَبَ أمةَ العظاء على أمرها فليست الأيامُ والليالي عظاء فيغلبها؛ وأن تغييرَ المخلوقات، إنما يكونُ بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها، وأن الإناءَ الأحمر يُريك الماء محمرًّا والماءُ في نفسه لا حُمرةَ فيه، حتى إذا انكسر الإناء ظهر كما هو في نفسه؛ وكلُّ ما يُخفي الحق هو كهذا الإناء: لون على الحق لا فيه؛ ثم أيقنَّ أن محاولة إخراج أمةٍ كاملةٍ من نزَعاتِ ماعزةٍ مأفونة، هي كمحاولة استيلادِ الفيلِ من الماعزة..!

قال كليلة: واعلم يا دمنة أنه لولا أن هذه العنزَ الحمقاء قد كفرَتْ كُفرَ الذبابة، لما أخَذَها اللَّه أخذَ الذبابة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن ذبابةً سوداءَ كانت من حمقَى الذبان، قُدرَت الحماقة عليها أبديَّة، فلو انقلبت نقطة حبرٍ في دواةٍ لما كُتبت بها إلا كلمة: سُخف.

ووقعت هذه الذبابةُ على وجه امرأة زَنجيةٍ ضخمة، فجعلت تقابلُ بين

نفسها وبين المرأة وقالت: إن هذا لمن أدل الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه، وأنه مُرسلٌ كيف يتفق على ما يتفق، عبثًا في عبث، ولا ريبَ أن الأنبياء قد كذبوا الناس، إذ كيف يستوي في الحكمة خلقي (أنا) وخلقُ هذه الذبابة الضخمةِ التي أنا فوقها..؟

ثم نظرت ليلةً في السماء، فابصرت نجومَها يتلألأن وبينها القمر؛ فقالت: وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندي من فَوضى العالم، وكذب الأديان، وعبثِ المصادَفات؛ فما الإيمانُ بعينه إلا الإلحاد بعينه، ووَضع العقل في شيء هو إيجادُ الألوهية فيه، وإلا فكيف يستوي في الحكمة وضعي (أنا) في الأرض ورفعُ هذا الذبانِ الأبيض ويعسُوبِه الكبير[1] إلى السماء...؟

ثم إنها وقعت في دار فلاح، فجعلت تمورُ فيها ذهابًا وجيئةً، حتى رجعت الفلاح من مرعاها، فبُهتت الذبابةُ وجمدَت على غُرّتها من أول النهار إلى آخره، كأنها تُزاولُ عملاً؛ فلما أمست قالت: وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فَوضى الأرزاق في الدنيا، فهاتان ذبابتان قد ثقبتا ثقبين في وجه هذه البقر.. واكتنتا فيهما تأكلان من شَحمها فتعظمان سمَنا؛ والناس من جهلهم بالعلم الذبابي يسمونهما عينين.. وأنا قضيتُ اليومَ كلَّه أخمشُ وأعضُّ وألسع لأثقُب لي ثقبًا مثلهما فما انتزعت شعرة؛ فهل يستوي في الحكمة رزقي (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين في وجه البقرة..؟

ثم إنها رأت خُنفساء تدب دبيبها في الأرواث والأقذار؛ فنظرت إليها وقالت: هذه لا تصلح دليلاً على الكفر؛ فإني (أنا) خيرٌ منها؛ (أنا) لي أجنحة وليس لها، (وأنا) خفيفةٌ وهي ثقيلة؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذباب القرون الأولى، ذلك الذي كان بليدًا لا يتحرّكُ فلم تجعل له الحركة

(١) اليعسوب: أمير النحل والذبان ونحوهما، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض.

جناحًا[١] . ثم إنها أصغت فسمعت الخنفساء تقولُ لأخرى وهي تحاورها: إذا لم يجد المخلوقُ أنه كما يشتهي فليكفُر كما يشتهي؛ يا وَيحنا! لِمَ لم نكن جاموسًا كهذا الجاموس العظيم، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من يَنفُخُه ولم نجد..؟

فقالت الذبابة: إن هذا دليلُ العقل في هذه العاقلة، ولَعمري إنها لا تمشي مثاقلةً من أنها بطيئةٌ مرهقة بعجزها، ولكن من أنها وَقُورٌ مثقلةٌ بأفكارها، وهي الدليلُ على أني (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة..!

وجعلت الذبابةُ لا يسمعُ من دندنتها إلا، أنا، أنا، أنا.. من كُفرٍ إلى كفرٍ غيرِه، إلى كفرٍ غيرهما؛ حتى كأن السماوات كلها أصبحت في معركة مع ذبابة..

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحاد الأحمق تَسعى سعيها؛ فبينا الذبابةُ على وجه حائط، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين، وأعجبتها نفسُها، فوقفت تحكُّ ذراعَها بذراعها ـ دَنت بَطةٌ صغيرة قد انفلقت عنها البيضةُ أمس، فمدَّت مِنقارها، فالتقطتها.

ولما انطبق المِنقارُ عليها قالت: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي خَلَق البطة..!»ا. هـ من وحي القلم.

* قُتل الإنسان ما أكفره:

من علم ما فعل غبار الغنم في أتاتورك وهو في أوج غروره، وما فعل النمل بحسده وبقصره، وكيف مات وكيف أخذه اللَّه أخذ عزيز مقتدر علم روعة بيان الرافعي نابغة الزمان.

---

(١) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا.

❑ يقول الرافعي متهكمًا بأعداء الخلافة الإسلامية:

رأى الطفل نابَ الليث مِسْمار فكّه ... فظنّ عُـرامُ الليث يكفيه مبردُ
فلما دنا منه وصمَّم وانتحى ... إذا هُو فوق الناب لحمٌ مبدد
فلما دنا منه وصمّم وانتحى ... إذا النابُ موتٌ بل من الموت أنكدُ
فلما دنا منه وصمّم وانتحى ... إذا الليثُ كل الليث ناب محدد
فيا طفلها ما كل ما أنت مصلح ... بحمقك إلا بعض ما أنت مفسدُ
أتوْا وبهم ريحُ الجنون ليعصفوا ... وصالوا ببأس المعتدين ليعتدوا
رموا شبكات الحرب في لجّة السما ... لصيْد هلال اللّه لما تصيّدوا
ثرى الأرضِ قد مدّ الزوابعَ سُلّمًا ... ونادى الهلال انزل وإلا فأصعدُ
فصبَّت عليهم جنـده بل نجومـه ... غزاةً هداةً كي يفيقوا ويهتدوا
ترف لهم راياتهـم أين رفرفت ... بأجنحة الأملاك تأتي فتحشدُ
حنيفيّـةٌ إنْ همَّ للّه جيشـها ... فما هزّها إلا النبي محمدُ
مساعيرُ حرب لا تنام همومهم ... ولا هُم على يقظى الحوادث هُجَّدُ
فيا جبل الدنيا وإنْ كنت راسخًا ... أبالقَـدرِ الجـاني نظنّـك تبعدُ[1]

*** دفاعه عن علماء الإسلام:**

حين سقطت الخلافة على أيدي المتآمرين على حكم اللّه، نهض قوم من علماء الأزهر يكتبون في الصحف اليومية مستنكرين ما قام به كمال أتاتورك من محاربة الشريعة في أقوى مظهر لها، وهو الخلافة الإسلامية، ولكن الذين في قلوبهم مرض قد شغبوا على العلماء في غير هوادة، وتجرءوا على التاريخ الإسلامي حين حكموا بأنّ علماء الإسلام في كل العصور كانوا مطايا للظالمين، وأبواقًا للفساد السياسي، وتحولوا إلى علماء تركيا في عهد

(١) «مصطفى صادق الرافعي» لمحمد رجب البيومي (ص٢٤٠ ـ ٢٤١).

الخلافة فرموهم بالرشوة وسلب الأموال، وافتروا على اللّه الكذب في كل ما قالوه إذ لم يُقدّموا دليلاً واحدًا على صحة هذه المفتريات، وقد ردَّ الأساتذة: علي سرور الزنكلوني وعبدالباقي نعيم سرور وعبد ربه مفتاح من علماء الأزهر، على كل ما قيل من الأراجيف، ونظر الرافعي فوجد أن تاريخ العلماء في عصور الإسلام لم يُكتب على وجهه الصحيح، حين ظلّ مهملاً في كتب الطبقات، دون أن يرجع إليه باحثٌ ما فيظهرُ ما كان لهؤلاء الأعلام من سطوات جبارة في وجه الباطل، ومن ثم أخذ يكتب سلسلةً أدبية عن كبار العلماء ممن جابهوا السلطان في غير هوادة، ليقول للمنكرين إنكم لم تقرءوا التاريخ، أو قد تكونون قرأتُموه، وغلب عليكم المراء، فأبدلتُم الحق باطلاً.

وقلمُ الرافعي في مضمار التصوير التاريخي لا يلحقُه مصورٌ مهما افتنَّ في صنعته، لذلك جاءت كتاباته عن سعيد بن المسيب وأبي عامر الشعبي ومالك بن دينار وأحمد بن حنبل والحسن البصري والعز بن عبدالسلام وغيرهم من أفذاذ الأبطال، أبطال الفكر النزيه، والرأي الصريح، مما أحدث التفاتةً كبرى لدى المثقفين نبّهت الأذهان إلى جلال العلم وسطوة العلماء. حلّق بنا الرافعي ببلاغته العلوية اتي تسمو بنا وتسمو.

طلعت مقالته عن علماء الإسلام على الدنيا شمسًا ساطعة، عرفت معها الدنيا كيف تكون حُصيات الليل لآلئ النهار.. ولم تكن دنيا الناس في زمانه تعرف من الأدب إلا الذي يسقط عليهم من باريس، أو لندن أو «بُوينس إيرس» فغطّى الرافعي على خيام أهل الجديد ودورهم المبنيّة من الطين والقش بقصر شامخ من الصخر يثبت ما ثبت الدهر.

لله در الرافعي وهو يحدثك عن «أمراء للبيع» وسلطان العلماء العز ابن عبدالسلام.. وحين يتحدث عن ابن دقيق العيد.

وانظر إليه في حديثه عن شيخ الإسلام أبي الحسن بنان الجمال الزاهد حين واجه بن طولون في جبروته الآثم، فاستشاط الحاكم بأمره غضبًا، وأمر بإحضار أسد شرس من آسادِ ولده خمارويه ليأكل الشيخ مفترسًا جزاءً على تهجمه بالحق، وجلس الشيخ. وخرج الأسد الجائع، فطاف حول الشيخ، ولم يمسسه بسوء، وارتاع ابن طولون لهول ما وجد من كرامة الشيخ، فتخاذل وذهب ليسترضيه، قال الرافعي يُصوِّر الموقف الرهيب، الرهيب حقًّا!! بأروع ما يحتمل هذا اللفظ من معان[1] :

«وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم، جسيمًا ضاريًا، عارم الوحشية، متزيِّل العَضَل، شديد عصب الخلق، هرّاسًا فرّاسًا، أهرت الشدق يلوحُ شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر، يُنبئ أنّ جوفه مقبرة، ويظهرُ وجهه خارجًا من لبدته، يهم أن ينقذف على من يراه فيأكله.

وأجلسوا الشيخ في قاعة، وأشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه، فجذبوه فارتفع، وهَجهجوا بالأسد يَزجرونه، فانطلق يُزمجر ويزأر زئيرًا تنشق له المرائر، ويتوهّم من يسمعه أنه الرعد وراءه الصاعقة!!

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعرَّ، ثم تمطَّى كالمنجنيق يقذفُ الصخرة، فما بقي من أجل الشيخ إلا طرفة عين، ورأيناهُ على ذلك ساكنًا مطرقًا، لا ينظرُ إلى الأسد، ولا يحفل به، وما منّا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفزع والرعب والإشفاق على الرجل!!.

ولم يَرُعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيّته، فأقعى على ذنبه، ثم لصق بالأرض هنيهةً يفترش ذراعيه، ثم نهض نهضةً أخرى، كأنه غير الأسد،

(١) «وحي القلم» للرافعي (٣/ ٥٠).

فمشى مترفقًا ثقيل الخطو، تُسمع لمفاصله قعقعةٌ من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ وطفق يحتَكّ به ويلحظه ويشمّه، كما يصنعُ الكلب مع صاحبه الذي يأنسُ به، وكأنّه يعلن أنّ هذه ليست مُصاولةً بين الرجل التقي والأسد، ولكنها مبارزةٌ بين إرادة ابن طولون وإرادة اللَّه»!!.

ثم ماذا؟! لقد جرى الرافعي إلى غايته فتملَّك ناحية التأثير، فهل أنقل كلّ ما قال؟! وإنه لرائع خلوب!!

*** رثاء الرافعي لشيخ العروبة أحمد تيمور:**

«أما رثاء الرافعي لأحمد تيمور ـ رحمه اللَّه ـ فصرخة عالية من صرخات التفجع لمغيب مسلم صادق غيور بذل ماله وعلمه ووقته في نصرة الإسلام واللغة العربية، جامعًا شتى مخطوطاتها من أقصى جنبات الأرض مهما كلفته جهد الجسم والعقل، وضخامة ما يبذل من مالٍ حين يُغالي تجار المخطوطات مغالاة من لا يتوقع الرفض من حريص أمين، وآية العظمة في أحمد تيمور أنه كان استثناءً نادرًا بين أبناء طبقته من ذوي الألقاب الضخمة، والمال الوافر، والحسب العريض، فلم يركن لمجده الأُسَري، ولقبه اللامع وثرائه الضخم ركون من يظن الحياة لعبًا ولهوًا، ولكنّه جعل ذلك كله وسيلة لخدمة الإسلام، وكُتب العربية، كما كان حربًا على أعوان التفرنج، ودعاة التغريب ومدَّعي الاستقراطية، غيورًا كلّ الغيرة على مقدسات الدين وتعاليم الشرع، عدوًا لمن يحاول أن ينتقص قليلاً من مفاخر السلف، وهذا ما جعل الرافعي يحس وقع الصدمة العنيفة في مُعسكر المؤمنين الخلَّص بفقده المفاجئ، فقال في لوعه[1]:

يا ضربة الموت ما باليتِ أن تقعي ... على امرىءٍ فيه بنيان لنا يقع

على الذي كان حصن الضاد يمنعها ... إن لم تجد صدر حرٍّ فيه تمتنع

(١) «الحديقة» (١٠/ ٧٤).

حصن بأسواره أنصارُها احتشدوا ... وحولَ أسواره أعداؤها انصرعوا
رأسٍ على الصخر من دين ومن خلق ... فليسَ يُعرف صخرٌ منه يُقتلع
ومن يكن لدفاع الضاد منجرداً ... فلينتصب كالرواسي فيمن اتضعوا
وليجفُ مثل جفاء القفر ممتنعاً ... على المذلة في أخلاق من خضعوا
وليدّرع صدرُه الصحراء كاشرةً ... لمن بسفساف أوربا قد ادّرعوا

❑ كأني بالرافعي كان يتحدث عن نفسه إذ رأى في اتجاه تيمور مثيلاً لاتجاهه!! فأوصى سامعه أن ينتصب كالرواسي فيمن اتّضعوا، وليُجفَ مثل جفاء القفر ترفعًا عن المذلة، وليدرع الصحراء هربًا من سفساف أوربا، ويعني بالسفساف ما أُغرم به الشباب لعهده من بريقٍ كاذب يجده في اللهو العابث، والتبرج الشائن، دون أن يُغرمَ باكتشافات أوربا العلمية وتقدّمها الصناعي!! فكان من أسباب انحدارِ أمته وفساد جيله، ولو شاء لعزف عن أساليب السقوط كما يعزف الأباة الناهضون، وهذا ما صوّره الرافعي أبلغ تصوير حين قال:

قالُوا أتى الليثَ حلاقٌ يعلّمهُ ... قصَّ الأظافر تجميلاً كما ابتدعوا
يا ليثُ قُلها لذا الحلاق زمجرة ... إن المخالب في كفّي هي السّبع
يا ليث قُلها لذا الحلاق همهمةً ... زدني مقصّك ظفراً منه أنتفع
يا ليثُ قُلها لذا الحلاق دَمدَمةً ... الظفُر لليث بالدنيا وما تسع
لو كلُّ مزمارِ فنٍّ عندنا خَنِثٌ ... لنا بهِ مدفعٌ فنانُه بشع
إذن لكانت لنا بين الورى لُغة ... متى تَقُل قولها في العالم اقتنعوا
ويحَ الفضائل من باغين لوَّثهم ... هوى أُوربّا، فهم ناسٌ وهم بُقع
يجدّدُون لنا أخلاقنا زعمـــوا ... ضرّوا لنفع فقد ضرُّوا وما نفعوا
يا من يُحطِّم بلُورًا ليسمعَ مِن ... أنغَامِه ويلَكَ اسمعْ، إنه قِطعُ

❑ وهكذا يجد الرافعي في المناسبة الباكية مجالاً لثورةٍ عارمة يصيح بها صياحَ الأسد الجريح، وقد كانت وثباته الفكرية دائمًا تلتقي مع أناته الوجدانية فتُحرّك جامدَ الإحساس، وتنقلُ السامع من الخاص إلى العام، ومن مُصيبةِ فرد إلى مصيبة أمّة، وقد كان تيمور في مرآة الرافعي نجمًا ساطعًا، أخلاقُه نورٌ يستمد عظمته من عظمةِ دينه الذي ملأ شعاب نفسه، وتفرّغ في جسمه فلم يُبق لغيره مكانًا:

من الرجال المصابيح الذين همو ... كأنهم من نجوم حيّة صُنعوا
أخلاقُهم نورهم من أي ناحية ... أقبلتَ تنظرُ في أخلاقهم سطعوا
يُحقق العلم في إنسانه مثلاً ... من قوة الدين، لا زيغٌ ولا بدع
دينٌ تفرغ في جسم فوقّره ... كما يُرى مُفرغًا في جسمه السبع[1]

❑ وقد أطلتُ في الاستشهاد بقلائد من هذه النادرة الناضرة؛ لأنها تصوّر اتجاه الرافعي أدبًا وخلقًا ودينًا، ولو لم يعلم عنه أحدٌ شيئًا وقرأ رثاءه التيموري لعرف خلاصة ما يجبُ أن يعرف من اتجاه الأديب الكبير، ولا أصدق دلالةً على الرافعي من أدبه الصارخ الذي يزأر به في مدلهمات الأحداث زئير الليث تحت العاصفة، وقد نهض لغوثِ أشباله والريح تدمدم، والبرق يلمع، والرمالُ تهيج!! أما امتزاجُ الصورة الرائعة بالفكرة الحية فأوضحَ من أن ندلّ عليه في سياقه الرصين»[2] ا.هـ.

* نصح الرافعي للمرأة، ومحاربته للسفور والتبرج:

قال الكذّابون الدجّالون عن الرافعي أنه عدوّ المرأة الذي يُطالب بسجنها الأبدي خلف الجدران، وهذا باطل لا صلة للحقيقة به، وكل ما يؤلمهم أن الرافعي يدعو إلى تصوّن المرأة، وعدم تبذّلها بالتبرّج الخادع.

---

(١) الحديقة (١٠/ ٧٤).

(٢) «مصطفى صادق الرافعي» (ص٢٤٩ ـ ٢٥١).

لقد اشتدّ تبرج المرأة المصرية عقب الحركة الكمالية في تركيا؛ لأن الزعيم الجريء قد سمح للمرأة أن تذهب إلى أبعد ما تُوجبه الفضيلة ويمليه العفاف، فكان لذلك صدىً بعيد لدى المحللين في مصر والشرق العربي، فأخذوا يُحبذون اتجاه أتاتورك ويعدونه رمز التقدم والرقيّ، وقد أفردت جريدة السياسة الأسبوعية مقالاً كبيرًا تحت عنوان (فتاة تركيا) نقل الدكتور محمد محمد حسين جزءًا منه في كتابه جاء فيه عن الباخرة التي جعلتها وزارة التجارة التركية معرضًا عامًا، في رحلة على نفقة الحكومة: «إنها تنتقل بين موانئ أوربا الشهيرة.. وهي تقلّ خمسًا وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة، كلهنّ جميلات مقصوصات الشعور، لا يكاد يميّزهن الرائي عن فتيات لندن وباريس، وأكثر الفتيات يتكلّمن الانجليزية بإتقان يدعو للدهشة، وقد قالت إحداهن بلغة انجليزية: «إن المرأة التركية اليوم حرّةٌ، فلن تسير إلى الطرقات في الظلام، وإننا نلبس أحدث الأزياء الأوربية والأمريكية، ونرقص وندخّن ونسافر بغير أزواجنا، «والمعيشة ـ كما قالت فتاة أخرى ـ على ظهر الباخرة معيشة سرور وصفاء لا يُوصف، كلُّهن يرقص، وبعد العشاء يبدأ الرقص من تانجو وفوكس ترون» ثم يعلق مراسل الصحيفة بقوله: إن هذا من أظهر الآثار التي تدل على تقدم المرأة التركية ومجاراتها لأختها الغربية في ميدان العمل والجهاد الفكري والاقتصادي (أين الجهاد الاقتصادي يا هذا) ولا يسع كلّ محب لتركيا إلا أن يغبطها على هذه الخطوات»[1] .

هذه الأقوال التي أخذت تنتشر على مدىً أوسع في الصحف المصرية، ثم ما تبعها من تطبيق عملي أدّى إلى بعض المآسي التي نشرتها الصحف إذ ذاك مما دفع الرافعي إلى محاربة التبرّج والسفور، فكتب كثيراً عن التصون والحجاب في حدود ما أباح اللّه وقال فيما قال:

(١) الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٢٤٤) نقلاً عن السياسة الأسبوعية (١٧/ ٧/ ١٩٢٦).

«وما الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاءُ سعرها في الاجتماع، وصونها من التبذل الممقوت، لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم: قانونُ العرض والطلب، والارتفاع بها أن تكون سلعةً بائرة يُنادى عليها في مدارج الأسواق: العيون الكحيلة، الخدود الورديّة، الشفاه الياقوتية، الثغور اللؤلؤية، الطرق والأسواق: الأعطاف المرتجة..؛ أوليس فتياتُنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا، فإنّهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادي أجسامهن بمثل هذا؟!

لقد مُحق الصبر، وتراخت قوة المدافعة في أكثر الفتيات المتعلمات، فابتُلين من ذلك بالضجر والملل، وتشويه النفس، ووقع في نفوسهن معنى كمعنى العفن في الثمرة الناضجة، وجهلن بالعلم حتى عن طبيعتهن، فما منهنّ من عرفت أن طبيعتها سلبيّة في ذاتها، وأنه لا يشدها ولا يقيمها إلا الصفاتُ السلبية، وملاكُها الصبر: فروعه وأصوله، وجمالُها الحياءُ والعفة، ورمزُها وحارسُها والمعين عليها هو الحجاب وحده. وما تُخطئ المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية، وانتحالها صفات الإيجاب وتمرّدها على صفات السلب، كما يقعُ لعهدنا، فإنّ هذا لن يتم للمرأة، ولن يكون منه إلا أن تعتبر المرأة نقائض أخلاقها من أخلاقها، كما نرى في أوربا، ومن هذا تلقي الفتاة حياءها، وتبذُؤ وتفحش، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعًا فبالمعاني وحدها، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر في هذه وتلك، وكانت الاستجابة لهذا ما فشا من الروايات الساقطة، والمجلات العارية، فإنّ هذه وهذه ليست شيئًا إلا أن تكون علم الفكر الساقط»[1].

هذا مقال من مقالات الرافعي التي كتبها حين انتشر التبرج المبتذل،

(١) «وحي القلم» (١/ ١٩٥).

وعمّت الروايات الخليعة، وتباهت المجلات بعرض الصور المُغرية في وجهات صفحاتها كمثال للأنوثة الصارخة.. وانتشرت دور السينما في الأقاليم لتعرض أفلام الانحلال الخلقي في الغرب، وتجعل من المخادنة أمرًا طبيعيًا، بين الرجل والمرأة الأجنبيين، ثم ما نشرته صفحات الحوادث من مآسي الإجهاض والحمل السّري، والقتل انتقامًا للشرف المسلوب، فالسجن الشاق عقابًا على القتل، وتشرّد الأطفال بعد موت الأم، وسجن الأب، ولا من راحم، كل ذلك دفع الرافعي إلى أن ينادي بالالتزام الشرعي، وإلى أن يجهر بصيحته في وجوه من يكتبون قصص الإغراء، وينشرون صور الانحدار، ولم يكتف بالمقالات وحدها، بل أرسل قصائد في هذا المجال أشَرتُ إلى نموذج منها في حديثي عن الرافعي الشاعر. ولكنّ صيحات الرافعي كانت تصدم أدعياء الإغراء والتحلل، فأوسعته صحائف الخلاعة هجومًا وانتقاصًا، وعَدُّوهُ عدوّ المرأة والتقدّم، وجعلوا ذلك مصدر انتقاص، ولم يكن الرجلُ عدوَّ المرأة ولن يكون، فالمرأة هي أمه وزوجتُه وأختُه وبنتُه فكيف يكون عدوّها؟! ومن المفارقات أن الكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم قد باهى في بعض أدوار حياته بأنه (عدو المرأة) فلم يُؤاخذه هؤلاء بشيء، بل ابتسموا لقوله وردّدوه مغتبطين؛ لأنه لم يكن مهاجمًا مُلتزمًا وصاحب حمية كحمية الرافعي، فكيف صار العدو حبيبًا مع اعترافه، وصار الرافعي عدوًا وهو لم يكتب عن المرأة غير ما يوحيه الإخلاص؟!!.

لقد كتب الرافعي عن المرأة الملتزمة أجمل ما كتبه أديب في العالم العربي لعهده، فقد تحدث عنها بأسلوبه البياني المؤثر، حديث المؤمن المصلح الذي يُقَدرُ ما يأخذ وما يدع من معاني البناء الأسري الوثيق كأن يقول:

«إذا ضاقت الدار فَلِمَ لا تتسع النفس التي فيها؟ المرأةُ وحدها هي الجو الإنساني لدار زوجها، فواحدةٌ منهن تدخلُ الدار فتجعل فيها الروضة ناضرةً

متروّحة باسمة، وإن كانت الدار قحطةً مسحوتةً ليس فيها كبير شيء؛ وامرأةٌ تدخل الدار فتجعل فيها مثل الصحراء برمالها وقيظها وعواصفها، وإن كانت الدار في رياشها ومتاعها كالجنة السندسيّة؛ وواحدةٌ تجعل الدار كالقبر. والمرأة حق المرأة هي التي تترك قلبها في جميع أحواله على طبيعته الإنسانية، فلا تجعل هذا القلب لزوجها من جنس ما هي فيه من عيشة: مرّةً ذهبًا، ومرّة فضّة، ومرةً نحاسًا أو خشبًا أو ترابًا، فإنما تكونُ المرأة مع رجلها من أجله ومن أجل الأمة معًا، فعليها حقّانِ لا حقٌّ واحد، أصغرهما كبير، ومن ثم فقد وجب عليها إذا تزوجت أن تستشعر الذات الكبيرة مع ذاتها، فإن أغضبها الرجلُ بهفوة منه، تجافت له عنها، وصفحت من أجل الجماعة الكبرى، وعليها أن تحكم حينئذٍ بطبيعة الأمة لا بطبيعة نفسها، وهي طبيعةٌ تأبى التفرق والانفراد وتقومُ على الواجب.

ومتى كان الدين بين كل زوج وزوجته، فمهما اختلفا وتدابرا وتعقدت نفساهما، فإن كل عقدة لا تخرجُ إلا ومعها طريقة حلّها، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه؛ وهو اليسر والمساهلة، والرحمة والمغفرة، ولين القلب وخشية اللَّه، وهو العهد والوفاء والكرم والمؤاخاة والإنسانية، وهو اتساع الذات وارتفاعها فوق كل ما تكون به منحطة أو ضيّقة»[1].

وانظر إليه حين يبيّن مآثر الزوجة الوفية، ومنزلتها لدى زوجها في نفسه وفي بيته، وفي معيشته ومختلف أحواله على لسان أبي ربيعة الفقيه إذ ماتت زوجته فوقف على قبرها راثيًا، بما ترجمه الرافعي عنه فقال:

«يرحمك اللَّه يا فلانة، الآن شفيت أنت ومرضتُ أنا، وعُوفيتِ وابتليتُ، وتركتني ذاكرًا، وذهبتِ ناسية، وكان للدنيا بك معنى، فستكون بعدك بلا معنى، وكانت حياتك لي نصف القوة، فعاد موتُك لي نصف

(١) «وحي القلم» (١/١٤٨).

الضعف، وكنت أرى الهموم بمواساتك همومًا في صورها المخففة فستأتيني بعد اليوم في صورها المضاعفة، وكان وجودك معي حجابًا بيني وبين مشقات كثيرة، فستخلُصُ كل هذه المشاق إلى نفسي، وكانت الأيام تمرّ أكثر ما تمرّ في رقتك وحنانك، فستأتيني أكثر ما تأتي متجردة في قسوتها وغلظتها، أما إن واللَّه لم أُرْزأْ منك في امرأة كالنساء، ولكني رُزِئتُ في المخلوقة الكريمة التي أحسست معها أن الخليقة كانت تتلطف بي من أجلها»[1].

* **حديثه عن البنت:**

أما حديثه عن البنت فمن أشفِّ وأرق وأصفى ما يكنه الوالد لابنته «البنت الطاهرة هي جهاد أبيها وأمها في هذه الدنيا، كالجهاد في سبيل اللَّه، وإنها فوز لهما في معركة الحياة، يكونان هما والصبر والإيمان في ناحية منها قبيلاً، ويكون الشيطان والهم والحزن في الجهة المناوحة قبيلاً آخر.

إن البنت هي أم ودار، وأبواها فيما يكابدان من إحسان تربيتها وتأديبها وحياطتها والصبر عليها واليقظة لها، كأنما يحملان الأحجار على ظهريهما حجرًا حجرًا، ليبتنيا تلك الدار في يومٍ يومٍ إلى عشرين سنة أو أكثر، ما صحبته وما بقيت في بيته، فليس ينبغي أن ينظر الأب إلى بنته إلا على أنها بنتُه، ثم أمّ أولادها، ثم أمّ أحفاده، فهي بذلك أكبرُ من نفسها، وحقُّها عليه أكبر من الحق، فيه حُرْمتها وحرمة الإنسانية معًا، والأبُ في ذلك يُقرضُ اللَّه إحسانًا وحنانًا ورحمة، فحقٌّ على اللَّه أن يوفّيه من مثلها، وأن يُضعف له»[2].

* **محاربته للتبرج والسفور والعُرْي: «لحوم البحر»:**

انظر إلى الرافعي للَّه درّه وهو يتكلم عن العري والفجور والتبرج على

(١) «وحي القلم» (١/ ٢٢١).
(٢) «وحي القلم» (١/ ٢٤٤).

رمل الشاطئ في الإسكندرية:

«قال الشيطان:

«ألا إن البهيمة والعقلية في هذا الإنسان؛ مجموعُهما شيطانية..

ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به.

هنا تتعرَّى المرأة من ثوبها، فتتعرى من فضيلتها.

هنا يخلعُ الرجلُ ثوبَه، ثم يعودُ إليه فيلبسُ فيه الأدب الذي خَلَعه..

رؤية الرجلِ لحم المرأة المحرَّمة نظرٌ بالعين والعاطفة.

يَرمي ببصره الجائع كما ينظر الصقرُ إلى لحم الصَّيد.

ونَظَرُ المرأة لحم الرجلِ رؤيةُ فكر فقط..

تُحولُ بصرها أو تخفضُه، وهي من قلبها تنظر..

يا لحوم البحر! سلخَكِ من ثيابك جزَّار..!

* * *

«يا لحوم البحر! سلخك جزارٌ من ثيابك.

جزارٌ لا يذبح بألم ولكن بلذَّة..

ولا يَحزُّ بالسكين ولكن بالعاطفة..

ولا يُميت الحيَّ إلا موتًا أدبيًّا..

إلى الهيجاء يا أبطال مَعركة الرجال والنساء.

فهنا تلتحمُ نواميسُ الطبيعة ونواميسُ الأخلاق.

للطبيعة أسلحة العُري، والمخالطة، والنظر، والأنس، والتضاحُك، ونُزوعِ المعنى إلى المعنى..

وللأخلاقَ المهزومةِ سلاحٌ من الدين قد صدِئ؛ وسلاحٌ من الحياة مكسور! يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار..

* * *

«الشاطئ كبيرٌ كبير، يسعُ الآلاف والآلاف.

ولكنه للرجل والمرأة صغيرٌ صغير، حتى لا يكون إلا خلوة..

وتقضِي الفتاة سنتَها تتعلم، ثم تأتي هنا تتذكر جهلَها وتعرفُ ما هو..

وتُمضي المرأة عامَها كريمة، ثم تجيء لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعي..

لو كانت حَجَّاجَةً صوَّامَةً، للعنتها الكعبةُ لوجودها في «استانلي».

الفتاة ترى في الرجال العُرْيانين أشباح أحلامِها، وهذا معنى من السقوط.

والمرأة تُسارِقُهم النظر تنويعًا لرجُلِها الواحد، وهذا معنى من المَواخِير..

أين تكونُ النيةُ الصالحةُ لفتاة أو امرأة بين رجال عريانين؟

يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار..!

***

«هناك التربية، وهنا إعلانُ الإغفال والطَّيش.

وهناك الدين، وهنا أسبابُ الإغراء والزلَل.

هناك تكلُّفُ الأخلاق، وهنا طبيعةُ الحرية منها.

وهناك العزيمةُ بالقهر يومًا بعد يوم، وهنا إفسادها بالترخص يومًا بعد يوم.

والبحرُ يعلم اللائي والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر..

لو درى هؤلاء وهؤلاء معرَّة اغتسالِهم معًا في البحر، لاغتسلوا من البحر.

فقطرةُ الماء التي نجَّستها الشهواتُ قد انسكبت في دمائهم.

وذرَّةُ الرملِ النَّجِسةُ في الشاطئ، ستكبَرُ حتى تصير بيتًا نَجِسًا لأب وأم..

يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار..!

* * *

«يجيئون للشمس التي تقوى بها صفاتُ الجسم؛
ليجد كل من الجنسين شمسَه التي تضعُفُ بها صفاتُ القلب.
يجيئون للهواء الذي تتجدَّد به عناصرُ الدم؛
ليجدوا الهواء الآخر الذي تَفْسُدُ به معاني الدم.
يجيئون للبحر الذي يأخذون منه القوة والعافية؛
ليأخذوا عنه أيضًا شريعتَه الطبيعية: سمكةٌ تطارِدُ سمكة..
ويقولون ليس على المُصيفِ حَرَج،
أي لأنه أعمى الأدب، وليس على الأعمى حَرَج.
يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار..!

* * *

«المدارس، والمساجد، والبِيعُ، والكنائس، ووزارة الداخلية؛
هذه كلّها لن تهزم الشاطئ.
فأمواجُ النفس البشرية كأمواج البحر الصاخب، تنهزمُ أبدًا لترجع أبدًا.
لا يهزم الشاطئ إلا ذلك «الجامع الأزهر»، لو لم يكن قد مُسِخ مدرسة!
فصرخةٌ واحدةٌ من قلب الأزهر القديم، تجعل هدير البحر كأنه تسبيح.
وتردُّ الأمواج نقيةً بيضاء[1]، كأنها عمائم العلماء.
وتأتي إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصلِ بين الرجال والنساء.

(١) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ، وأن الصواب أن يقال «بيض»، ولسنا من هذا الرأي، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه، لغفلتهم عن السير في بلاغة الاستعمال مرة في الوصف بالمفرد، ومرة في الوصف بالجمع.

ولكني أرى زمنًا قد نَقل حتى إلى المدارس رُوح «الكازينو»..!

يا لحوم البحر! سلخكِ من ثيابك جزار..!

***

«هنا على رغم الآداب، مملكة للصيف والقَيظ، سلطانُها الجسمُ المؤنثُ العاري.

أجسام تعرِض مفاتنهَا عرض البضائع؛ فالشاطئ حانوتٌ للزواج!

وأجسامٌ تَعرضُ أوضاعَها كأنها في غُرفةِ نومها في الشاطئ..

وأجسامٌ جالسةٌ لغيرها، تُحيط بها معانيها ملتمسةً معانيه؛ فالشاطئ سوقٌ للرقيق..

وأجسام خَفِرةٌ جالسةٌ للشمسِ والهواء؛ فالشاطئ كدار الكُفرِ لمن أكرِه[1].

وأجسامٌ عليلة تَقتَحمُها الأعين فتزدريها؛ لأنها جَعلتِ الشاطئ مستشفى..!

وأجسامٌ خليعة أضافت من (استانلي) وأخَواتها إلى منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية مَزبلة الإسكندرية..

كان جدالُ المسلمين في السفور، فأصبح الآن في العُري.

فإذا تطوَّر، فماذا بقي من تقليد أوروبا إلا الجدالُ في شرعية جمعِ المرأة بين الزوج وشبه الزوج[2] ؟».

انتهى ما استطعتُ ترجمته، بعد الرجوع في مواضع من القصيدة إلى

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿.. إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾.

(٢) يسمى هذا في اللغة الضمد بفتح الضاد والميم، وهو أن يخالل الرجل المرأة ولها زوج، ومنه قول الشاعر:

تريدين كيما تضمـــديني وخالدًا ... وهل يجمع السيفان ويحك في غمد

ومن هذا يقال في الرجل: ذاق الضماد (بكسر الضاد) أي فاق الطعم الذي وصفه أناتول فرانس..

بعض القواميس الحية.. إلى بعض شبان الشاطئ[1].

* ويقول للفتاة المتبرجة:

كمُلتِ تبرجًا فكملتِ حسنًا ... ولكن جاء نقصك من كمالك
لمن تتبرجين وذي سبيل ... وما هي أفقُ شمسك أو هلالك
أما تخشين أنك في طريق ... يرفّ به الحرام على حلالك
وأن ذئاب هذا الحسن تمشي ... مسعرة اللّحاظ على غزالك
عرضتِ لكي نرى فلقد رأينا ... لديك الحسن إلا في فعالك
كأنك لست بنت أبٍ وإلا ... فما لأبيك لم يخطر ببالك؟
أأختٌ أنت أمْ زوجٌ وأمٌّ ... فما منهن واحدة كذلك
نقابُك ذاك؟ أم لونٌ رقيق ... نراهُ بين ألوان احتيالك
وما هذا الدّهان لناظريه ... سوى روح التلوّن من خلالك
ألا إن الغيار أذىً فمن ذا ... يظنّ غيار وجهك من جمالك
وما لك تسألين الحق منا ... وخلقتُك الجواب على سؤالك
أعزّك فتيةٌ هم عارُ قوم ... إذا قيسوا بفتيان الممالك
جبالُهمُ مهيّأة لكَيْدٍ ... فكيف إذا التَفَفن على حبالك
وكلٌّ قائل فالقول حيّ ... وكلٌّ فاعلٌ فالفعل هالك[2]

* الشباب الرقيع المخنث:

وإذن فالرافعي، لا يلوم الفتاة وحدها، ولكنه يلوم الفتى المتبذّل معها؟ فليس متحزبًا لجنسٍ ولكنه ينعى على التبذل في شتى مظاهره. وقد أتبع هذه القصيدة بأخرى قالها في (تخنث الشباب) من الذين ظنوا التقدّم في رقة

(١) «وحي القلم» (٢/ ١٩٠ ـ ١٩٣). (٢) «مصطفى صادق الرافعي» (ص٢٤٣).

الملبس، ونعومة اللفظ، وتصفيف الشعر، وترصد خطوات الرائحات الغاديات، وهو مما شاع وذاع في المجتمع المصري، حين تشرّبه دعاة التقدم الزائف والمحاكاة السفيهة لخلاعات ذوي السقوط من الأجانب، وأعجبُ ما عجب منه الرافعي أن يكون من هؤلاء مَن تعلّم وظفر بالإجازة في معاهد أوربا، ولكنه رجع إلى مصر لا لينتفع بما وعَى من علم، بل ليتعالى بالملبس والشارة والأناقة المتكلّفة والحديث الهابط:

غصونٌ في رياض العلم تنمو ... وتُثمر بعد ذاك بما يُعابُ
فلا يغررك شكلُ العود وانظر ... فإنّ لناره صُنع الثقاب
شهاداتٌ ولا عمل يزكّي ... كأن حضورَ حاضرهم غياب
وما نفعُ اليقين بما علمنا ... وفي الآداب شكٌّ وارتياب
بنفسك لا بعلمك أنت منا ... وأنتَ لنا ثوابٌ أو عقاب
ألا إن الشراب لهُ إناء ... فإنْ دنّستَه دنس الشراب
لكانَ الليث أسهلَ ما ركبنا ... إذا لمْ يحمِه ظفر وناب
ألا يا قوم للفتيان فينا ... وزينتهم، وما حمدوا وعابوا
رأيتُ لبعضهم أمرًا عجابًا ... وليس كمثله أمرٌ عجاب
يسيل تخنّثًا ويذوبُ ظرفًا ... فهل في أرضنا رجلٌ مذاب
ولانَ كأنّه فينا اعتذار ... تُقدّمه حوادثُنا الصعاب
ومطمحه الذي يرنو إليه ... من العلياء نافذةٌ وباب
وهّمتهُ الثياب فليس يمشي ... إذا ما سار بل تمشي الثياب
ملوّنةً مصبّغةً لوجهٍ ... له في لونه منها اقتراب
أما في هذه الدنيا أمور ... سوى الشهوات تحرزها الطلاب
أما في هذه الدنيا أسود ... كما في هذه الدنيا كلاب[1]

(١) المصدر السابق (ص٢٤٣ ـ ٢٤٥)، ومجلة الرسالة العدد ٨٤٤.

* نصيحة للمرأة الشرقية المسلمة:

قصيدة مترجمة عن الملك:

* احذري...!!

ترجَمْنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر). وهذه ترجمةٌ عن أحد الملائكة؛ رآني جالسًا تحت الليل وقد أجمعتُ أن أضع كلمةً للمرأة الشرقية فيما تُحَاذِرُهُ أو تَتَوجسُ منه الشرَّ؛ فَتَخَايَل الملكُ بأضوائه في الضوء، وسنَح لي برُوحه، وبَث فيَّ من سرّه الإلهي، فجعلتُ أنظرُ في قلبي إلى فجر من هذا الشعر يَنبُعُ كلمةً كلمة، ويُشرقُ معنى معنى، ويَستطيرُ جملةً جملة، حتى اجتمعت القصيدة وكأنما سافرتُ في حُلُم من الأحلام فجئت بها.

وانطلق ذلك المَلك وتركها في يدي لُغةً من طهارته للمرأة الشرقية في ملائكيتها:

* * *

* احذري...!!

«احذري أيتُها الشرقيةُ وبالغِي في الحذر، واجعلي أخصَّ طباعِك الحذر وحده.

احذري تمدُّن أوروبا أن يجعل فضيلتكِ ثوبًا يُوسِّعُ ويُضيِّق؛ فلُبسُ الفضيلةِ على ذلك هو لبسُها وخلعُها..

احذري فنَّهم الاجتماعي الخبيث الذي يَفرِضُ على النساء في مجالس الرجال أن تؤدّي أجسامُهنَّ ضريبة الفن..

احذري تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة؛ إنها انتهاء المرأة بغاية الظرف والرقة إلى.. إلى الفضيحة.

احذري تلك النسائية[1] الغَزليَّة؛ إنها في جملتِها تَرخِيصٌ اجتماعي

(١) نحن نستعمل: النسائية والنسوية، وكلاهما عندنا صحيح، والاختيار في كل موضع للأفصح في موقعه.

للحُرَّة أن . . أن تُشَارك البغيَّ في نصفِ عملها .

أيتُها الشرقية! احذري احذري!

«احذري التمدن الذي اخترع لقتل لَقبِ الزوجةِ المقدَّس، لقب «المرأة الثانية» . .

واخترع لقتل لقبِ العذراء المقدَّس، لقب «نصف عذراء» . .

واخترع لقتل دِينية معاني المرأة، كلمة «الأدب المكشوف» . .

وانتهى إلى اختراع السُّرعة في الحب . . فاكتفى الرجلُ بزوجةٍ ساعة . .

وإلى اختراع استقلالِ المرأة، فجاء بالذي اسمُهُ (الأبُ) من الشارع، لتلقي بالذي اسمُهُ (الابنُ) إلى الشارع . .

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري وأنتِ النَّجمُ الذي أضاء منذُ النبوَّة، أن تقلدي هذه الشمعة التي أضاءت منذُ قليلٍ .

إن المرأة الشرقية هي استمرارٌ متصلٌ لآدابِ دينها الإنساني العظيم .

هي دائمًا شديدةٌ الحفاظ حارِسةٌ لحوزتها؛ فإن قانون حياتها دائمًا هو قانونُ الأمومة المقدَّس .

هي الطُّهر والعفة، هي الوفاء والأنفة، هي الصبرُ والعزيمة، هي كلُّ فضائلِ الأم .

فما هو طريقُها الجديدُ في الحياة الفاضلة، إلا طريقُها القديمُ بعينه؟

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري (ويحك) تقليد الأوروبية التي تعيشُ في دنيا أعصابها محكومةً بقانون أحلامها . .

لم تَعُدْ أنوثتُها حالةً طبيعيةً نفسيَّةً فقط، بل حالةً عقليةً أيضًا تَشُك

وتُجادل..

أنوثةٌ تَفَلسَفَتْ فرأت الزواج نصف الكلمة فقط.. والأم نصف المرأة فقط..

ويا ويل المرأة حين تنفجرُ أنوثتُها بالمبالغةِ، فتنفجرُ بالدواهي على الفضيلة..

إنها بذلك حُرَّةٌ مساويةٌ للرجل، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها..

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري خَجَل الأوروبية المترجلةِ من الإقرار بأنوثتها.

إن خَجَلِ الأنثى يجعلُ فضيلتَها تخجلُ منها..

إنه يُسقطُ حياءها ويكسو معانيَها رُجُولةً غيرَ طبيعيَّة،

إن هذه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى..

والمرأةُ تعلو بالزواج درجةً إنسانية، ولكن هذه المكذوبة تنحطُّ درجة إنسانيةً بالزواج.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري تَهَوُّس الأوروبية في طلبِ المساواة بالرجل.

لقد ساوتهُ في الذهابِ إلى الحلاق، ولكن الحلاق لم يجد في وجهها اللحية..

إنها خُلقت لتحبيبِ الدنيا إلى الرجل، فكانت بمساواتها مادّة تبغيض.

العجيبُ أن سرَّ الحياة يأبى أبدًا أن تَتَساوى المرأةُ بالرجلِ إلا إذا خسِرته.

والأعجبُ أنها حين تخضع، يرفعُها هذا السرُّ ذاتُه عن المساواة بالرجل

إلى السيادة عليه.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري أن تَخسري الطباع التي هي الأليقُ بأم أنجبت الأنبياء في الشرق.

أم عليها طابَعُ النفس الجميلة، تَنشُرُ في كل موضعٍ جَوَّ نفسِها العالية.

فلو صارت الحياةُ غيمًا ورعدًا وبرقًا، لكانت هي فيها الشمس الطالعة.

ولو صارت الحياةُ قيظًا وحرُورًا واختناقًا، لكانت هي فيها النسيم يَتَخَطَّر.

أم لا تُبالي إلا أخلاق البُطولةِ وعزائمَها، لأن جدَّاتها ولدن الأبطال.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري هؤلاء الشبَّان المتمدنين بأكثر من التمدن..

يُبالغُ الخبيث في زينته، وما يدري أن زينتَه مُعلنَةٌ أنه إنسانٌ من الظاهر..

ويبالغُ في عَرض رُجولتهِ على الفَتَيات، يحاولُ إيقاظ المرأةِ الراقدَة في العذراء المسكينة!

ليس لامرأة فاضلة إلا رَجُلُها الواحد؛ فالرجالُ جميعًا مَصائبُها إلا واحدًا.

وإذ هي خالطتِ الرجال، فالطبيعي أنها تُخالط شَهَوات، ويجب أن تحذَرَ وتُبالغ.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري؛ فإن في كل امرأة طبائعَ شريفةٌ مُتهوّرة؛ وفي الرجالِ طبائع خسيسة متهوّرة.

وحقيقة الحجاب أنه الفصل بين الشرف فيه الميل إلى النزول، وبين الخِسَّة فيها الميل إلى الصعود.

فيكِ طبائعُ الحب، والحنان، والإيثار، والإخلاص، كلما كَبُرتِ كَبُرت.

طبائع خَطِرَة، إن عملت في غير موضعها.. جاءت بعكس ما تعملُه في موضعها. فيها كل الشرفِ ما لم تنخدع، فإذا انخدعت فليس فيها إلا كلُّ العار أيتها الشرقية! احذري احذري!

«احذري كلمةً شيطانيةً تسمعينها: هي فنية الجمال أو فنية الأنوثة وافهميها أنتِ هكذا: واجبات الأنوثة وواجبات الجمال.

بكلمةٍ يكون الإحساس فاسداً، وبكلمة يكون شريفًا.

ولا يَتَسَقَّط الرجل امرأةً إلا في كلمات مُزَينة مثلِها..

يجب أن تتسلحَ المرأة مع نظرتها، بنظرةِ غضب ونظرةِ احتقار.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري أن تُخدَعي عن نفسك؛ إن المرأة أشدُّ افتقاراً إلى الشرف منها إلى الحياة.

إن الكلمة الخادعةَ إذ تقال لك، هي أخت الكلمةِ التي تقال ساعةَ إنفاذِ الحكم للمحكوم عليه بالشنق..

يَغترُّونكِ بكلماتِ الحب والزواج والمال، كما يقال للصاعِد إلى الشناقة[1] ماذا تشتهي؟ ماذا تريد؟

(١) كلمة «المشنقة» ليست عربية، ولكن لها وجهًا في الاشتقاق، غير أن كسرة ميمها تجعلها ثقيلة، وكان اسمها قديمًا «الشناقة»، ذكرها ياقوت في معجم الأدباء، وهي أفصح وأخف فلعل الشناقة بعد هذا تشنق المشنقة..

الحب؟ الزواج؟ المال؟ هذه صلاة الثعلب حين يَتظاهر بالتقوى أمام الدَّجاجة..

الحب؟ الزواج؟ المال؟ يا لحمَ الدَّجاجة! بعض كلماتِ الثعلب هي أنياب الثعلب..

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«احذري السقوط؛ إن سقوط المرأة لِهولِه وشدَّتِه ثلاث مَصائبَ في مصيبة:

سقوطُها هي، وسقوط من أوجدوها، وسقوط من تُوجِدهم!

نَوائب الأسرة كلها قد يَستُرها البيت، إلا عارَ المرأة.

فَيَد العار تقلب الحِيطان كما تقلب اليد الثوب فتجعل ما لا يُرى هو ما يُرى.

والعار حكمٌ يُنفذه المجتمع كلُّه، فهو نفيٌ من الاحترام الإنساني.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

* * *

«لو كان العار في بئر عميقة قلبها الشيطان مِئذنةً ووقفَ يُؤذن عليها.

يفرح اللعين بفضيحةِ المرأة خاصَّةً، كما يفرح أب غنيٌّ بمولود جديد في بيته..

واللصُّ، والقاتل، والسكير، والفاسق، كلٌّ هؤلاء على ظاهر الإنسانية كالحر والبرد:

أما المرأة حين تسقط فهذه من تحت الإنسانية هي الزلزلة.

ليس أفظعُ من الزلزلة المرتجة تشق الأرض، إلا عار المرأة حين يشق

الأسرة.

أيتها الشرقية! احذري احذري!»[1].

* **من درر الرافعي ونصحه للنساء في «وحي القلم»:**

❑ قال ـ رحمه اللَّه ـ عن المرأة المتبرجة ونساء الليل تحت عنوان «الجمال البائس»:

«إذا خرجت المرأةُ من حُدود الأسرة وشَريعتها، فهل بقي منها إلا الأنثى مجردةً تجريدَها الحيوانيّ المتكشف، المتعرض للقوة التي تناله أو ترغب فيه؟ وهل تعملُ هذه المرأةُ عند ذلك إلا أعمالَ هذه الأنثى؟

«وما الذي استَرْعاها الاجتماعُ حينئذٍ فتَرعاه منه وتحفظُه له، إلا ما استرعَى أهلُ المالِ أهلَ السرقة؟ إن الليلَ ينطوي على آفتين: أولئك اللصوص، وهؤلاء النساء.

«وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة ما دامت رذائلها دائمًا وراء عينيها، وما دام بإزاء عينيها دائمًا الأمهاتُ والمُحصَنَاتُ من النساء، وليس شأنُها من شأنهن؟ إن خيالها يُحرزُ في وعيه سورتها الماضية من قبل أن تزِلَّ، فإذا خَلَت إلى نفسها كانت فيها اثنتان، إحداهما تلعنُ الأخرى، فترى نفسها من ذلك على ما ترى.

«وهي حين تُطالعُ مرآتها لِتتبرَّجَ وتحتفِلَ في زينتها، تنظر إلى خيالها في المرآة بأهواءِ الرجال لا بعيني نفسها، ولهذا تُبالغُ أشدَّ المبالغة؛ فلا تُعنَى بأن تظهرَ جميلةً كالمرأة، بل مُثمرة كالتاجر.. وتكسُّبها بجمالها يكونُ أولَ ما تفكر فيه؛ ومن ذلك لا يكونُ سرورُها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكسبُ منه؛ بخلاف الطبع الذي في المرأة، فإن سرورَها بمسحةِ الجمالِ عليها هو أول

(١) «وحي القلم» (٢/ ١٩٤ ـ ١٩٧).

فكرها وآخرُه.

«إن الساقطة لا تنظر في المرآة ـ أكثرَ ما تنظر ـ إلا ابتغاء أن تتعهَّدَ من جمالها ومن جسمها مواقعَ نظرَات الفجُور وأسبابَ الفتنة، وما يَستَهْوي الرجلَ وما يُفسِدُ العفَّة عليه؛ فكأن الساقطة وخيالها في المرأة، رجلٌ فاسقٌ ينظرُ إلى امرأة، لا امرأةٌ تنظر إلى نفسها..»[1].

جمالُها، فتنتها، سحرُها، حديثها لهُوها؛ آه لا يبقَى لهذا كلُه عينٌ ولا أثر، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا ذُنوبٌ، وذنوبٌ، وذُنوب!

«المرأة من هذا النوع إذا طمعت فيما هو أغلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع، طمعت في الاحترام من رجل شريف متعفف، ولو احترام نظرة، أو كلمة. تقنع بأقل من ذلك وترضى به، فالقليل مما لا يدرك قليله، هو عند النفس أكثر من الكثير الذي لا يُنال كثيره».

«يا بؤسنا من نساء! لقد وُضعنا وضعًا مقلوبًا، فلا تستقيم الإنسانية معنا أبدًا اليقظة ليس لها عندنا النهارُ بل الليل، والصَّحو لا يكون فينا بالوعي بل بالسُّكر، والراحةُ لا تكون لنا في السكون والانفراد، بل في الاجتماع والتبذُّل؛ وماذا يردُّ على امرأة من واجباتها السهرُ والسكرُ والعَربدةُ، التبذلُ، وتَدريبُ الطباع بالوَقاحة، وتضريةُ النفسِ على الاستغواء، والتَصَدي بالجمال للكَسبْ من رذائل الفُسَّاق وأمراضِهم، والتعرُّضُ لمعروفهم بأساليب آخرُها الهَوانُ والمذلَة، واستماحَتُهم بأساليب أولها الخداعُ والمكر؟

إن حياةً هذه هي واجباتُها، لا يكونُ البكاء والهمُّ إلا من طبيعةٍ من يحياها، وكثيرًا من نُعالج الضحك لنفتَح لأنفسنا طُرُقًا تَتَهارَبُ فيها معاني البكاء؛ فإذا أثقلنا الهمُّ وجَلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلُّف السرور، خَتَلنَا

(١) «وحي القلم» (١/ ٢٠٤).

العقلَ نفسَه بالخمر؛ فما تسكرُ المرأةُ منا للسكر أو النَّشوة، بل للنسيان، للقُدرة على المَرَح والضحك، ولإمداد محاسنِها بالأخلاقِ الفاجرة، من الطيش والخلاعةِ والسَّفه وهذَيانِ الجمال الذي هو شعرُه البليغ.. عند بُلَغاء الفُسَّاق[1].

«إن المستقبلَ هو أخوفُ ما نخافُه على أنفسنا، وليس من امرأةٍ في هذه الصناعة إلا وهي مُعِدةٌ لمستقبلها: إما نوعًا من الانتحار، وإما ضربًا من ضُروب الاحتمالِ للذل والخسف؛ وليس مستقبلُنا هذا كمستقبل الثمار النَّضِرة إذا بقيت بعد أوانِها، فهو الأيام العفِنَةُ بطبيعةِ ما مضى.. بَلى إن مستقبل المرأة البغي هو عقابُ الشر.

□ «هذا كلامٌ ينبغي أن تعلمه الزوجات؛ فالمرأةُ منهنَّ قد تَتَبَرَّم بزوجها وتضجَر وتغتمُّ، وتزعمُ أنها مُعذبة؛ فتَتَسخَّطُ الحياةَ، وتندُبُ نفسها، ثم لا تعلم أنه عذابٌ واحدٌ برجل واحد، تألفُه، فتعتادُه، فتُرزَقُ من اعتياده الصبرَ عليه، فيسكنُ بهذا نفَارُها؛ وتلك نعمة واجبُها أن تحمدَ اللَّه عليها، ما دام في النساء مثلُ الشَّهيدات، تتعذبُ الواحدةُ منهن فُنونًا من العذاب بمائة رجل، وبألفِ رجل، وهم مع ذلك يبتلونَ روحَها بعددِهم من الذنوب والآثام.

وقد تستثقِلُ الزوجةُ واجباتها بين الزوج والنسل والدار، فتغتاظُ وتشكو من هذه الرَّجرَجة اليوميةِ في الحياة؛ ثم لا تعلم أن نساء غيرَها قد انقلبت بهن الحياةُ في مثل الخسف بالأرض.

وقد تجزعُ للمستقبل وتَنسى أنها في أمانِ شَرفِها، ثم لا تعلم أن نساءً

(١) المصدر السابق (١/ ٢١٤).

يَترقبنَ هذا الآتي كما يترقبُ المجرمُ غَدَ الجريمة، من يومٍ فيه الشرطةُ والنيابةُ والمحكمةُ وما وراء هذا كله.

فقلتُ: وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العَزاء كلُّ العزاء للزوجات، وهي أن الزوجة امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتها، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها.

والزوجة امرأة تجدُ الأشياء التي تتوزعُ حبها وحنان قلبها، فلا يزال قلبها إنسانيًّا على طبيعته، يفيضُ بالحب، ويستمدُّ من الحب؛ والأخرى لا تجد من هذا شيئًا، فتنقلب وحشيَّةَ القلب، يفيضُ قلبُها برذائلَ، ويستمدُّ من رذائل؛ إذ كان لا يجدُ شيئًا مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنسل.

والزوجة امرأة هي امرأة خالِصة الإنسانية، أما الأخرى فمن امرأةٍ ومن حيوانٍ ومن مادة مُهلِكة.

وتَمامُ السعادةِ أن النسلَ لا يكونُ طبيعيًّا مستَقِرًّا في قانونه إلا للزوجات وحدهن؛ فهو نعمتُهنَّ الكبرى، وثوابُ مستقبَلهن وماضيهن، وبَرَكتُهن على الدنيا؛ ومهما تكن الزوجةُ شقيَّةٌ بزوجها، فإن زوجَها قد أولدَها سعادتَها، وهذه وحدها مزية ونعمة؛ أما أولئك فليس لهن عاقبة؛ إذ النسلُ قلب لحالتهن كلها؛ وهو غِنىً إنسانيٌّ، ولكنه عندهن لا يكون إلا فقرًا؛ وهو رحمة، ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن. وقد وضعت الطبيعة في موضع حب الولد الجديد من قلوبهن، حب الرجل الجديد، فكانت هذه نقمة أخرى.

يا عجبا!! كل شيء في الحياة يُلقي شيئًا من الهم أو النكد أو البؤس على هؤلاء، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة.

وليست الحجارة هي الحجارة فقط، بل منها ألفاظ تُرجم بها كتسمية الناس لها «بالساقطة»؛ فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر.

وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«والمرأةُ التي لا يَحميها الشرفُ[1] لا يحميها شيء، وكل شريفة تعرفُ أن لها حياتين إحداهما العفة، وكما تُدافِعُ عن حياتها الهلاكَ، تُدافعُ السقوط عن عفتها؛ إذ هو هلاكُ حقيقتها الاجتماعية؛ وكلُّ عاقلة تعرفُ أن لها عقلين تحتمِي بأحدِهما من نَزواتِ الآخر، وما عقلُها الثاني إلا شَرف عِرْضها.

«ما تسامح الرجال في شرف العرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة، أرادوا ذلك أم لم يريدوه.

إن عفاف المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها، ما لم تتهيأ لها الوسائل والأحوال التي تُعين نفسها على ذلك؛ وأهم وسائلها وأقواها وأعظمها، تشدُّد الرجال في قانون العِرض والشرف.

فإذا تراخَى الرجالُ ضَعُفَت الوسائل، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعف تنبثق حريةُ المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر، على ما تكون أحوالُها وأسبابُها في الحياة. وهذه الحريةُ في المدنية الأوروبية قد عوَّدت الرجال أن يُغضوا ويَتَسمّحوا، فتهافَتَ النساء عندهم، تنالُ كلٌّ منهن حكمَ قلبِها ويَخضَعُ الرجل..

على أن هذا الذي يسميه القومُ حرية المرأة، ليس حريةً إلا في التسمية، أما في المعنى فهو كما ترى:

إما شُرودُ المرأة في التماس الرزقِ حين لم تجد الزوجَ الذي يَعُولُها أو يَكفيها ويُقيم لها ما تحتاج إليه، فمثلُ هذه هي حُرةٌ حريةَ النكَدِ في عيشها؛ وليس بها الحريةُ، بل هي مستعبدةٌ للعمل شرَّ ما تُستعبَدُ امرأة.

وإما انطلاقُ المرأةِ في عَبَثاتِها وشهواتِها، مُستجيبةً بذلك إلى انطلاق

(١) شرف المرأة في التزامها بأوامر دينها وبعدها عن نواهيه.

حرية الاستمتاع في الرجال، بمقدار ما يشتريه المال، أو تُعين عليه القوة، أو يسَوغُه الطيش، أو يجلبه التهتك، أو تدعو إليه الفُنون؛ فمثلُ هذه هي حريةٌ حريةَ سقوطِها؛ وما بها الحرية، بل يستعبِدُها التمتع.

والثالثة حريةُ المرأة في انسلاخِها من الدين وفضائله، فإن هذه المدنيةَ قد نسخَت حرامَ الأديان وحلالها بحرام قانوني وحلالٍ قانوني، فلا مسقَطة للمرأة ولا غَضاضةَ عليها قانونًا.. فيما كان يُعد من قبلُ خزيًا أقبحَ الخُزي وعارًا أشدَّ العار؛ فمثلُ هذه هي حريةٌ حرية فسادِها، وليس بها الحرية، ولكن تستعبِدُها الفَوْضى.

والرابعةُ غَطرَسةُ المرأة المتعلمة، وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معًا؛ فترى أن الرجل لم يبلغ بعدُ أن يكونَ الزوجَ الناعمَ كقفَّاز الحرير في يدها، ولا الزوجَ المؤنَّث الذي يقولُ لها نحن امرأتان.. فهي من أجل ذلك مُطلقةٌ مُخَلاَّة كيلا يكونَ عليها سلطانٌ ولا إمرة؛ فمثلُ هذه حريةٌ بانقلاب طبيعتها وزيغها، وهي مستعبدة لهوسها وشذوذها وضلالتها.

حريةُ المرأة في هذه المدنية أولها ما شئتَ من أوصاف وأسماء، ولكن آخرَها دائمًا إما ضيَاعُ المرأة وإما فَسادُ المرأة.

والدليلُ على التِواء الطبيعةِ في المدنية، استواء الطبيعة في البادية؛ فالرجال هنا قَوَّامون على النساء، والنساء بهذا قوَّاماتٌ على أنفسهن؛ إذ ينتقمون للمنكرَ انتقامًا يَفُورُ دمًا؛ وبهذه الوحشية يقرّرون شَرَفَ العِرض في الطبيعة الإنسانية، ويجعلونه فيها كالغريزة، فيُحَاجِزُون بين الرجال والنساء أول شيء بالضمير الشريف الذي يجد وسائله قائمة حوله»[1].

* * *

(١) «وحي القلم» (١/ ٢١٤ ـ ٢١٨) باختصار.

* لله درك يا أبا السامي:

❑ ما أحلى ما قيل فيك وفيمن زعموا أنهم أنصار الجديد[1] .

كثر التفيهقُ في الجديد ونهجه ... كم مَنْ تكلّم بالجديد وما دَرَى
وعَدا رجال يحلمون بأن يروا ... شملَ العروبة في البيان مبعثرا
حرجت صدورهُم بأن يجدوا من الـ ... ـقرآن موردَ أمة والمصدرا
فتقصّدوا أن يطفئوا ذاك الضّيا ... وتعمدوا أن يفصموا تلك العُرَى
وتغفّلوا قومًا أبت أحلامهم ... أن تَستبين الرشدَ أوْ تتدبرا
فمحا بنور الحق آية ليلهم ... وأراهُمُ عنه النهار المُبصرا
ورماهُمُ بكتائبٍ من كُتْبه ... فتطايَروا كالجُمْرِ لاقت قَسْوَرا
واقاهُمُ ببلاغة مُطَريَّة ... ما كان معجزُها حديثًا يفترى
فغدت سفاسفهم لدى آياته ... نَار الجُباحب ناوحت نار القرى
من ذا يُضارع في البيان عصابة ... قد أوضحوا نهج البلاغة نيِّرا
هم ذلك السلف الذين لسانهم ... تنحط عنه جميع ألسنة الوَرَى
من ذا يطاولُ في البلاغة أحمدا ... وصحابَه، وأبا ترابٍ حيدرا؟
المُعْربينَ إذا أجالُوا خاطرًا ... عنه بأعذبَ ما يكون وأقصرا
والمانعين المُسكرات وقولُهم ... ما دارَ في الألباب إلاّ أسكرا
تلك العصابة من يَحدْ عن سُبْلها ... حَقًا يقال لمثله: أطْرق كرا
زعَم الأُلى نحَوُا الجديدَ بأنه ... عصرٌ تحتَّم أن يخالفَ أعصُرَا
حسَبوا التدني في البيان تقدّما ... رَأَوُا الركاكةَ بالثقافة أجدرا

(١) من رثاء شكيب أرسلان للرافعي من كتاب «مصطفى صادق الرافعي» (ص٢٩١ - ٢٩٣).

عمدُوا إلى التغيير حتى يُحْدِثوا ... حدثًا يبلِّغهم مرادًا مُضْمَرا
واستظهروا بمقالةٍ تلخيصُها ... أن القديم مَضَى، وولَّى مدبرا
قد فاتهمْ أنّ الحلاوة سَرْمد ... ومذاقُ طعم الشهد لن يتغيرا
كم من قديم لا يُزال رواؤه ... متألقًا يحكي الصباحَ المسفرا
مهما تقادمَ جوهرٌ في عِتْقه ... فهو الثمين، وليسَ يبرح جوهرا
من حاد عَن حبّ الجمال تعنّتا ... يتبدلِ الأدنى، ويبغي الأحقرا
لغة قَلَوْا أسلوبَها، وتخيروا ... عنها كلامًا مثل أحلام الكرى
يرتد وارده وما ذاق الرِّوَى ... ويعودُ قارئه اللبيب وما قرا
أخنى «أبو السامي» على غُلَوَائهم ... وأذاقَهم مرَّ الكفاح المقرا
وذَرَا دَعاويَهم كما نُثِر الهَبَا ... وأعادَ خُضرتهم هشيمًا أغبرا
زحفت بلاغتُه تجرّ جيوشَها ... فانقاد طوعًا من أبىَ واستكبرا
قدْ يحرقون عليه من حسدٍ، ومِن ... بُغض، ولكنْ يحرقون العنبرا
ما زال في الأدب النزيهِ مبرِّزا ... حتى إذا شهد السفاهةَ قصَّرا
أعززْ «أبا السامي» عليَّ بأن أرى ... ذاك اليراعَ الجاحظيّ مكسَّرا
من أسرةِ القصب الضعيف وفعلُه ... في الخَطب يهزأ بالحديد مُعَصْفَرا
لك في البيان رئاسة أزلية ... أبديّة، ليست تُباع وتشترى
قل للمحاول أن يرى أنداده ... أقصرْ فكل الصيد في جوف الفرَى

* * *

*** شيخ العروبة وحامل لوائها فارس التراث أبو فهر الشيخ محمود محمد شاكر (١٣٢٧هـ-١٤١٨هـ) = ١٩٠٩-١٩٩٧م:**

الفارس الأخير الذي سقط تحت «راية القرآن» وفي حومة الدفاع عن مقومات هذه الأمة وأصالتها وقرآنها وفُصحاها وتراثها وهويتها الإسلامية، التي ضاعت الأمة بعد أن أضاعتها.

❑ للّه در أبي فهر الحاصل على جائزة الملك فيصل في الأدب العربي، ولقد كان شيخ العربية الشيخ محمود شاكر صاحب منهج يقوم على العودة إلى التراث، وعلى التمسك بلغة القرآن وأدب العربية الأصيل، في شعره الجاهلي وما بعد الجاهلي، ليكون من ذلك كله درع تصدّ عن الأمة تيار التغريب الجارف الذي ضيّع هوية الأمة بالتقليد الأعمى لكل ما لدى الغرب. وأقام الشيخ لمنهجه المعالم والصوى.

❑ وكان للشيخ فرادة في مجالات عديدة أجاد فيها، سواء في مجال التحقيق الذي كان صاحب منهج منفرد فيه، أم في مجال الدراسات الأدبية والفكرية، أم في مجال الإبداع الذي بلغ ذروة العطاء في ملحمة «القوس العذراء» التي قال فيها الناقد الكبير الدكتور إحسان عباس: «لا ريب عندي في أن الشعر الحديث قد ضل كثيرًا حين لم يهتد إلى (القوس العذراء) وأن الناقد الحديث كان يعشوا إلى أضواء خادعة حين انقاد وراء التأثر بشعر أجنبي ورموز غريبة، ولم يستطع أن يكتشف أدواته في التراث كما فعلت القوس العذراء»[1].

❑ الشيخ محمود بن محمد شاكر بن أحمد بن عبدالقادر، من أسرة أبي علياء من أشراف جرجا بصعيد مصر، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما.

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص١).

❑ ولد في الاسكندرية الساعة السادسة العربية من ليلة عاشوراء الاثنين عاشر المحرم سنة ١٣٢٧ للهجرة، الموافق الساعة الثانية عشر الإفرنجية أول فبراير سنة ١٩٠٩ الميلادية.

❑ انتقل إلى القاهرة في صيف عام ١٩٠٩م بتعيين والده وكيلاً للجامع الأزهر (١٩٠٩ ـ ١٩١٣م) وكان قبل ذلك شيخًا لعلماء الاسكندرية.

❑ تلقى أول مراحل تعليمه في مدرسة الوالدة أم عباس في القاهرة سنة ١٩١٦م.

❑ بعد ثورة سنة ١٩١٩م انتقل إلى مدرسة القربيَّة بدرب الجماميز.

❑ في سنة ١٩٢١ دخل المدرسة الخديوية الثانوية.

❑ مع بداية عام ١٩٢٢م قرأ على الشيخ سيد بن علي المرصفي، صاحب «رغبة الأمل» فحضر دروسه التي كان يلقيها بعد الظهر في جامع السلطان برقوق، ثم قرأ عليه في بيته «الكامل» للمبرد، و«حماسة أبي تمام» وشيئًا من «الأمالي» للقالي وبعض أشعار الهذليين. واستمرت صلته بالشيخ المرصفي إلى أن توفي ـ رحمه اللَّه ـ في سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م.

❑ حصل على شهادة البكالوريا (القسم العلمي) عام ١٩٢٥م.

❑ في سنة ١٩٢٦م التحق بكلية الآداب ـ الجامعة المصرية (قسم اللغة العربية) واستمر بها إلى السنة الثانية، حيث نشب خلاف شديد بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين حول منهج دراسة الشعر الجاهلي، كما بينه في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب «المتنبي» وترتب على ذلك تركه الدراسات الجامعية.

❑ في سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م ترك الجامعة وسافر إلى الحجاز مهاجرًا فأنشأ ـ بناء على طلب من الملك عبدالعزيز آل سعود ـ مدرسة جدة السعودية

الابتدائية وعمل مديراً لها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة في أواسط عام ١٩٢٩م.

❑ بعد عودته إلى القاهرة انصرف إلى الأدب والكتابة، فكتب في مجلتي «الفتح» و«الزهراء» لصاحبهما الأستاذ محب الدين الخطيب، وأكثر ما له فيهما الشعر، وكان من كتابهما منذ كان طالبًا.

❑ بدأت صلته بالعلماء، منذ شب في بيت أبيه، فعرف السياسيين والعلماء الذين كانوا يترددون على والده، كما اتصل مباشرة بعلماء العصر أمثال: محب الدين الخطيب، وأحمد تيمور باشا، والشيخ محمد الخضر حسين، وأحمد زكي باشا، والشيخ إبراهيم أطفيش، ومحمد أمين الخانجي وغيرهم، كما تعرف إلى الشاعر أحمد شوقي، وكان يلتقي به في الأماكن العامة التي كان الشاعر الكبير يتردد عليها.

❑ راسل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي منذ سنة ١٩٢١م، وهو طالب في السنة الأولى الثانوية طلبًا للعلم، واتصلت المعرفة بينهما، وظلت هذه الصلة وثيقة إلى وفاة الرافعي ـ رحمه اللَّه ـ في سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، فحزن عليه حزنًا شديدًا صرفه عن استكمال ردوده على الدكتور طه حسين في موضوع المتنبي التي كانت تنشر في جريدة البلاغ.

ومكانة الرافعي عنده يوضحها تقديمه لكتاب سعيد العريان عن حياة الرافعي، وقد ظلت هذه الرابطة بينهما تحول سنين عديدة دون التواصل بينه وبين الأستاذ العقاد، ثم صارت بينه وبين الأستاذ العقاد صحبة وصداقة عميقة بعد ذلك.

❑ تعاطف مع الحزب الوطني القديم، فقد كانت هناك صلة بين والده والزعيم مصطفى كامل، كما كان شقيقه الشيخ علي محمد شاكر عضوًا عاملاً بالحزب الوطني، فصحب شباب الحزب الوطني واتصل برجاله ومنهم:

حافظ رمضان، وعبدالرحمن الرافعي، وأحمد وفيق والدكتور محجوب ثابت، والشيخ عبدالعزيز جاويش.

❑ صاحب فكرة «جمعية الشبان المسلمين»، ولكنه تركها لاختلافه مع السيد محب الدين الخطيب وأحمد تيمور باشا والدكتور عبدالحميد سعيد، على الصورة التي صارت إليها.

❑ بدأ الكتابة في مجلة «المقتطف» منذ سنة ١٩٣٢م ثم في مجلتي «الرسالة» و«البلاغ» ولكنه كان على صلة دائمة بالرسالة في كتابة متقطعة إلى أن توقفت عن الصدور.

❑ في سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م أخذ امتياز إصدار مجلة «العصور» من الأستاذ إسماعيل مظهر، لتصدر أسبوعية بعد أن كانت شهرية، وصدر منها عددان الأول في ٢٧ رمضان ١٣٥٧هـ/ ١٩ نوفمبر ١٩٣٨م، والثاني في ١٧ شوال ١٣٥٧هـ/ ٩ ديسمبر ١٩٣٨م ثم توقفت عن الصدور بعد أن كان قد دفع بعددها الثالث إلى المطبعة، وكان مقرها: شارع الإسماعيلية (عمر بن الخطاب) بمصر الجديدة.

❑ في هذه الفترة قامت صداقة عميقة وعلاقة وطيدة بينه وبين كل من الكاتب الكبير الأستاذ يحيى حقي، والشاعر العظيم الراحل محمود حسن إسماعيل، وكان كل منهما يعتبر الأستاذ محمود شاكر إمامًا عليمًا بأسرار البيان العربي في شعره ونثره ومرجعًا حيًا للثقافة العربية في مجموعها، يأنسان إلى ذخيرته في إبداعهما الأدبي، وقد عبر كل منهما عن تلك الرابطة في أكثر من مقام من مقامات القول، منها: قصيدة الأستاذ محمود حسن إسماعيل في تقديم «القوس العذراء» كما ذكر الأستاذ يحيى حقي في بعض أحاديثه الصحفية أنه قرأ أمهات كتب الأدب العربي على الأستاذ شاكر.

❑ بناء على دعوة من صديقه فؤاد صرُّوف، صاحب المقتطف، ساهم

في اختيار وترجمة مواد مجلة «المختار» بدءًا من عددها الثاني، ولكنه توقف بعد قليل.

❑ وفي الفترة القليلة التي شارك فيها في إخراج «المختار» استطاع أن يقدم مستوى للترجمة الصحفية لم يعرف من قبل، وأدخل عددًا من المصطلحات الجديدة في اللغة للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع «الطائرة النفاثة» وما زال عدد من الصحفيين الحاليين يعتبرون عناوين «المختار» التي كان يصوغها نموذجًا يحتذى في هذا الباب.

❑ في أوائل الأربعينات تعرف على الأستاذ فتحي رضوان، وبدأت صلته بالحزب الوطني الجديد في سنة ١٩٥٠م، وساهم بالكتابة في مجلة «اللواء الجديد».

❑ انقطع عن الكتابة في الصحف والمجلات، بعد إغلاق «الرسالة» القديمة في سنة ١٩٥٢م، وتفرغ للعمل بالتأليف والتحقيق ونشر النصوص، فأخرج جملة من أمهات الكتب العربية مثل: «تفسير الإمام الطبري» (ستة عشر جزءًا)، و«طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي، و«جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار، وشارك في إخراج «الوحشيات» لأبي تمام، و«شرح أشعار الهذليين».

ونشر في عام ١٩٥٢م قصيدته «القوس العذراء» التي تعد معلمًا على طريق الشعر الحديث رغم التزامها بحرًا متساوي الشطرين ومحافظتها على وحدة القافية، ثم أعاد نشرها مرة ثانية في سنة ١٩٦٤م.

كما ألف كتابه الشهير «أباطيل وأسمار» وهو مجموعة مقالات (٢٥ مقالة) كتبها في مجلة الرسالة الجديدة، ثم طبعت مرتين، المرة الأولى سنة ١٩٦٥م وصدر مجلد واحد (فيه قسم من المقالات) وصودر المجلد الثاني، والمرة الثانية سنة ١٩٧٢م في مجلدين ضما جميع المقالات.

وكان سبب كتابة هذه المقالات التعليق على ما نشره الدكتور لويس عوض، المستشار الثقافي لجريدة الأهرام القاهرية حينذاك، في جريدة الأهرام بعنوان «على هامش الغفران» وذهب فيما نشره إلى تأثر المعري بحديث الإسراء والمعراج، كما ألمح فيه إلى أثر الأساطير اليونانية وغيرها في الحديث النبوي، مما دفع الأستاذ محمود شاكر إلى بيان تهافت كلام لويس عوض وجهله وافترائه، ثم انتقل إلى الكلام عن الثقافة والفكر في العالم العربي والإسلامي وما طرأ عليهما من غزو فكري غربي ولاسيما حركة التبشير التي غزت العالم العربي والإسلامي، وما تنطوي عليه هذه الحركة من أساليب ووسائل، وقاده البحث إلى تناول قضايا هامة بحيث يعد «أباطيل وأسمار» من أهم كتبه، بل من أهم الكتب التي ظهرت في المكتبة العربية في العشرين عامًا الأخيرة.

وأعاد طبع كتابه الإمام عن «المتنبي» الذي نشر كعدد مستقل من المقتطف سنة ١٩٣٦م، وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة حين صدوره بمنهجه المبتكر وأسلوبه في البحث والإبداع، ومقدمته التي عنوانها: «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» التي تناولت بكل صراحة ما اعترى الحياة الأدبية في النصف الأول من هذا القرن من فساد، وما أصاب أجيال المثقفين من تفريغ، تولى كبره واضع نظم التعليم في مصر، المبشر «دنلوب» الذي سيطر سيطرة تامة على التعليم، والذي لا تزال آثاره باقية على أشنع صورة في نظمنا التعليمية.

في الفترة التي صاحبت انتقاله إلى مسكنه في شارع السباق ثم إلى مسكنه الحالي في شارع حسين المرصفي بضاحية مصر الجديدة، بدأت أجيال من دارسي التراث العربي والمعنيين بالثقافة الإسلامية، من كافة أرجاء العالم الإسلامي، يختلفون إلى بيته، ويترددون على مجالسه العلمية يأخذون عنه ويفيدون من علمه ومكتبته الحافلة التي يسرها للدارسين والباحثين ومنهم:

الدكتور ناصر الدين الأسد، والدكتور إحسان عباس، والدكتور شاكر الفحام، والأستاذ أحمد راتب النفاخ، والدكتور محمد يوسف نجم.

❑ في سنة ١٩٥٧م أسس ـ مع الدكتور محمد رشاد سالم والأستاذ إسماعيل عبيد ـ مكتبة دار العروبة، لنشر كنوز الشعر العربي، ونوادر التراث، وكتب بعض المفكرين، وباعتقاله هو وشريكيه في ٣١ أغسطس ١٩٦٥م تم وضعها تحت الحراسة.

❑ شارك في عدد من المؤتمرات والملتقيات العربية فحضر «مؤتمر الأدباء العرب» في بغداد سنة ١٩٧٠م، ودعي إلى حضور الدروس الرمضانية التي تعقد في ليالي رمضان في القصر الملكي بالرباط بالمملكة المغربية (رمضان ١٣٩٥هـ).

❑ كذلك لبى دعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وألقى سلسلة من المحاضرات عن «الشعر الجاهلي» ستصدر في كتاب بعنوان «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام الجمحي».

وحالت ظروفه دون تلبية كثير من الدعوات لحضور مؤتمرات وملتقيات عربية وإسلامية كثيرة.

❑ انتخب عضواً مراسلاً في «مجمع اللغة العربية» بدمشق في سنة ١٩٨٠م.

❑ اعتقل مرتين في زمن حكم الرئيس جمال عبدالناصر: الأولى لمدة تسعة أشهر في الفترة من ٩ فبراير ١٩٥٩م إلى أكتوبر ١٩٥٩م. والثانية لمدة ثمانية وعشرين شهراً من ٣١ أغسطس ١٩٦٥م وحتى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٧م (٣٠ رمضان ١٣٨٧هـ).

❑ كرمته الدولة فأهدته «جائزة الدولة التقديرية في الآداب» عن عام

١٩٨١م تقديراً لجهوده وإسهاماته المتعددة في خدمة تراث الإسلام ودرايته الواسعة بعلوم العربية، ومكانته المتميزة في تاريخ الفكر الإسلامي.

وتسلم الجائزة في احتفال أقيم مساء يوم الثلاثاء ٨ رمضان ١٤٠٢هـ/ ٢٩ يونيه ١٩٨٢م.

❑ وعلى المستوى العربي نال جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب العربي، وتسلم الجائزة في احتفال بحضور الملك فهد بن عبدالعزيز في الرياض في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٤٠٤هـ الموافق ٢٥ فبراير ١٩٨٤م.

❑ انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٢م.

❑ عضو المجلس الاستشاري لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (١٩٩١ ـ ١٩٩٧م).

❑ عضو مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية (١٩٩٤ ـ ١٩٩٧م).

❑ انتقل إلى جوار ربه تعالى مساء يوم الخميس ٣ ربيع الآخر ١٤١٨هـ الموافق ٧ أغسطس ١٩٩٧م.

*** ثانياً: آثاره:**

أ ـ مؤلفاته:

١ ـ المتنبي.

ـ عدد خاص من المقتطف عام ١٩٣٦م.

ـ ط ثانية في مجلدين القاهرة ١٩٧٧م.

ـ ط ثالثة مطبعة المدني ـ القاهرة ـ دار المدني بجدة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢ ـ القوس العذراء.

ـ نشرت أول مرة في مجلة الكتاب ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٣ ـ أباطيل وأسمار.

ـ الجزء الأول مكتبة دار العروبة ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م.

ـ الجزءان الأول والثاني مطبعة المدني ـ القاهرة ١٩٧٢م.

٤ ـ برنامج طبقات فحول الشعراء.

مطبعة المدني القاهرة ١٩٨٠م.

٥ ـ نمط صعب ونمط مخيف.

دار المدني ـ جدة ١٩٩٦م.

[وهو سبع مقالات نشرت في مجلة «المجلة» عام ١٩٦٩، ١٩٧٠م].

٦ ـ قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام.

ـ دار المدني ـ جدة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٧ ـ رسالة في الطريق ثقافتنا.

صُدّر بها كتابُ المتنبي في طبعته الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ثم صدرت في كتاب مستقل في سلسلة كتاب الهلال بالقاهرة.

ب ـ تحقيقاته:

١ ـ فضل العطاء على العسر لأبي هلال العسكري المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

٢ ـ إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين المقريزي.

ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٠م.

٣ ـ المكافاة وحسن العقبى لأحمد بن يوسف بن الداية الكاتب.
ـ المكتبة التجارية ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.
٤ ـ طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي.
ـ دار المعارف ط أولى ١٩٥٢م ـ ط ثانية ١٩٧٤م.
٥ ـ تفسير الطبري.
ـ الأول والثاني ـ دار المعارف ١٩٥٤م.
ـ الثالث والرابع دار المعارف ١٩٥٥م.
ـ السادس والسابع والثامن دار المعارف ١٩٥٦م.
ـ من التاسع إلى الثاني عشر دار المعارف ١٩٥٧م.
ـ الثالث عشر والرابع عشر دار المعارف ١٩٥٨م.
ـ الخامس عشر دار المعارف ١٩٦٠م.
ـ السادس عشر دار المعارف ١٩٦٩م.
٦ ـ جمهرة نسب قريش وأخبارها للزبير بن بكار.
ـ جـ١ مكتبة دار العروبة ١٣٨١هـ السفر الأول.
٧ ـ تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول اللّه ﷺ من الأخبار للطبري.
مسند علي بن أبي طالب ـ مسند عبداللّه بن عباس ـ السفر الأول.
ـ منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
ـ مسند عبداللّه بن عباس ـ السفر الثاني.
ـ مسند عمر بن الخطاب.
ـ منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض

١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

٨ ـ دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني.

ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٨٩م.

٩ ـ أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني.

ـ دار المدني ـ جدة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م[١].

□ قال عنه تلميذه عبدالقدوس أبو صالح رئيس تحرير مجلة الأدب الإسلامي ورئيس رابطة الأدب[٢]:

«لم تكن ذاكرة الشيخ الفريدة، ولا اطلاعه الواسع الشامل، هما اللذان أوصلا الشيخ محمود شاكر إلى أن يكون شيخ العربية دون منازع، وإن أعانا على بلوغه تلك المنزلة العالية، ولكن الذي بوأه مكانته طول معايشته للتراث، وطول تأمله فيه، حتى خالط لحمه ودمه، وحتى ألقى إليه مقاليده وأسراره، فكان كما شهدت وشهد الكثيرون أفرس الناس ببيت الشعر، وكان صاحب أسلوب كالبنيان المرصوص، وكان أن ندب نفسه ليكون سادنًا للغة القرآن، وحاميًا لتراث الأمة ونذيرًا لها من هجمة التغريب الشرسة.

وكان الشيخ محمود شاكر يعد تقصير المحققين للتراث خيانة سافرة لهذا التراث، وكان منهجه يقوم على استفراغ الجهد في التحقيق، بكل ما يقتضيه منهج التحقيق العلمي.

ودليل على تبحره في اللغة ما نجده في «فهارس طبقات فحول الشعراء، إذ نجد فهرسًا عجيبًا بعنوان: «ألفاظ من اللغة، أخلّت بها المعاجم

(١) استعنا في سيرة حياته وآثاره بالكتيب الذي صدر عن: الهيئة العامة لدار الكتب القومية والمجلس الأعلى للثقافة في ١٥/٩/١٩٩٧م.

(٢) من مقاله «الشيخ محمود شاكر كما عرفته» لعبدالقدوس أبو صالح ـ مجلة الأدب الإسلامي العدد السادس عشر (ص٩ ـ ١٥).

أو قصرت في بيانها»، وقد جاء هذا الفهرس العجيب في أربع صفحات ونصف الصفحة، وما كان الشيخ محمود شاكر ليضع لفظة واحدة في هذا الفهرس الكبير، الذي استظهره من تحقيقه لكتاب واحد، لولا أنه استعرض كتب اللغة ومعجماتها، ثم وضع نفسه نداً لأئمة اللغة التي ألفوها، ومضى يستدرك ما أخلوا به أو قصروا في بيانه.

❑ كنت أستمع إليه عندما ما يرى العرب يختلفون ويقتتلون، ويهزلون ويعبثون فيردد في حرقة بالغة: «إيه يا بني إسماعيل.. أنتم في تيه دونه تيه بني إسرائيل».

«وتزداد كآبة الشيخ مع الأيام، حين لا يرى بارقة أمل، ولا بارقة فجر، وحين يرى العرب الذين يفترض فيهم أن يقودوا العالم الإسلامي وقد فقدوا هويتهم، بعد أن تنكروا للغة القرآن، وبعد أن جعلوا الأدب أدبًا فاسداً بمقدار فساد الحياة الأدبية، وبعد أن غربوا حياتهم، بدءًا من مناهج التعليم، وانتهاءً بفصل الدين عن الدولة، والنظر إلى الدين الذي هو سر بقائهم وشريان حياتهم على أنه سبب التأخر والجمود.

ومع ذلك كله فقد غالب الشيخ كآبته ويأسه، وظروفه الشخصية، ليكون بحق فارس التراث، وشيخ العربية، وأديبها الكبير.

وعلى الرغم من قلة ما ترك الشيخ لأمته من المؤلفات، فإنه كان في مواقفه ومقالاته وكتبه يمثل صورة الفارس الأخير، الذي حمل راية القرآن من الرافعي، كاتب الإسلام الأكبر، واستطاع أن يقف أمام طه حسين الذي فجر تيار التغريب في هذه الأمة، حين مضى يدعو إلى انسلاخ مصر، قلب العالم العربي، عن هذا العالم، بل عن الشرق كله، ويدعو في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» إلى أن يأخذ المصريون حضارة الغرب بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يستكره.

وكذلك استطاع أن يتصدى في «أباطيل وأسمار» إلى لويس عوض، الذي يمثل الجيل الذي خلف طه حسين، وزاد عليه في التنكر للتراث، وفي دفع الأمة إلى مهاوي العلمانية واليسار والاشتراكية.

❑ وقد أنكر بعض الناس أن يتصدى الشيخ محمود شاكر، وهو العملاق الكبير، لقزم لا يطاوله، ولكني أقول: لقد أراد الشيخ أن يجعل لويس عوض مثالاً لتحطيم الأصنام، التي أخذت أجيال من هذه الأمة المسكينة يعدونهم دعاة التنوير، ودعاة التقدم بعد أن تسنم الكثيرون منهم مقاليد الأمور وسيطروا على وسائل الإعلام المختلفة، وعلى دور النشر الرسمية.

وإذا كانت الأمة قد بدأت صحوتها الإسلامية لتعود إلى الإسلام من جديد، فلقد كان محمود شاكر ممن مهدوا لقيام هذه الصحوة، على أساس مكين من التمسك بالقرآن ولغته الفصحى، والاعتماد على تراث الأمة، والوقوف أمام تيار التغريب، سعيًا وراء منهج يعيد الأمة، كما أرادها اللَّه، خير أمة أخرجت للناس.

❑ يقول الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى رئيس قسم البلاغة السابق بكلية اللغة العربية جامعة القاهرة في مقاله «محمود محمد شاكر.. والفجر الصادق»[1] :

«قليل هم في زماننا الذين عاشوا هموم الوجود العربي الإسلامي، ومن هذا القليل الأستاذ محمود محمد شاكر الذي انقطع لهموم العرب والمسلمين، وجعل هذا الهم شاغله في ليله ونهاره، وفيما يكتب، وفيما يقرأ، وفيما يحدث به مَن يرتادونه، وكأن هذه الأمَّة العربية الإسلامية مع

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص١٦ ـ ٢٤) ملخصًا.

تنائي أقطارها، واتساع ديارها، واختلاف أجناسها، إنما هم أبناء أمه وأبيه، وهم أهله، وعشيرته، الذين يقوم لهم، ويقعد.

وقد درس تاريخ الإسلام، والصراعات التي دارت في دوله، سواءكانت هذه الصراعات في داخل ديار الإسلام، كما كان يحدث بين الأجناس المختلفة المتصارعة في دولة الخلافة، من الفرس، والترك، والعرب، أو كان هذا الصراع بين دول الإسلام والأمم الأخرى، وخاصة الأمم الأوربية منذ بداية الحروب الصليبية، ثم فتح القسطنطينية، وتوغل جيوش المسلمين في قلب أوربا الشمالية ثم الاستعمار الحديث، وحملاته، وجهاد المسلمين له، توسع في دراسة كل ذلك، وتعمقه، وفرغ له، حتى يخيل إليك وأنت تقرأ ما كتب أنه عاش الأحداث التي يحدثك عنها، وداخل الأشخاص الذين يصنعونها، وكأنه كان يعيش مع رهبان أوربا وملوكها وقادتها، وهم يُجيِّشون جيوش الصليبية، وكأنه كان يعيش في قلب وعقل الجنود، وكأنه كان يعيش مع المستشرقين، ورجال التبشير، والاستعمار، وهم يعدون العدة في الزمن بعد الزمن وفي الجيل بعد الجيل لتدمير دولة الإسلام.

□ وكان ـ رحمه اللَّه ـ يعتقد اعتقاداً جازمًا أن الثقافة العربية الإسلامية المتكاملة والمتضاربة، والمتداخلة، والحية ـ كما كان يصفها ـ والتي انبثقت أصولها، وتسلسلت ينابيعها من النظر في كلام اللَّه وفي كلام رسوله ﷺ، هي أصل هذا الوجود العربي الإسلامي، وهي أصل قوته، وهي الرابط الجامع لوحدته، والقوة الحية المتحركة في ضميره، وأن هذه الأمة خاضت معاركها مع الأمم والشعوب والعقائد والأديان والثقافات والحضارات وانتصرت وسادت وعمرت الأرض، بهذا الدين

العظيم، وهذه العلوم التي هي شارحة له، ومستنبطة من النظر فيه، ودائرة حوله.

❑ وكان علماء الصحابة ﷺ هم الذين مَهدوا لهذه العلوم، وطرقوا طرقها، وفتحوا أبوابها بما سمعوه من رسول اللَّه ﷺ الذي كان مثله فيهم كمثل الغيث أصاب أرضًا، ثم جاء التابعون ومن بعدهم وأجيال العلماء، جيلاً من بعد جيل، الكل يراجع وينقح ويستنبط ويضيف ويكشف ويشرح، حتى أقاموا أصول هذه العلوم العربية الإسلامية، والتي قامت عليها حضارة الإسلام، وشرحت للناس دين اللَّه، وصانته من التعديل، والتحريف، والتغيير ودسائس أعدائه، الذين كانوا يمكرون في فقهه كما يمكرون في أرضه، وبقي بها الحلال حلالاً والحرام حرامًا حتى يومنا هذا كيوم أنزله اللَّه.

❑ ويرى الأستاذ محمود محمد شاكر في كل ما كتبه، أنه من المحال، أن تجد هذه الأمة سبيلاً إلى النهوض، إلا بأن تنهض علومها التي هي عقلها وقلبها وذات نفسها، وأن النهضة تبدأ من نقطة واحدة وهي نهضة العلوم التي تمثل الثقافة العربية الإسلامية المتكاملة، وأي محاولة تتجاوز هذه النقطة هي محاولة باطلة، وأن علماء الأمة أدركوا ذلك لما تنبهوا إلى ما أصاب المسلمين من الوهن، الذي يصيب الأمم كلها، وذكر الشيخ خمسة من العلماء الأعلام، وسنذكرهم فيما بعد ووصفهم بقوله: «أحسوا بالخطر المبهم المحدق بأمتهم، فهبوا بلا تواطؤ بينهم، كانوا رجالاً أيقاظًا مُفرَّقين في جنبات أرض مترامية الأطراف متباعدة أوطانهم لا يجمعهم إلا هذا الذي تَوَجَّسُوهُ في قرارة أنفسهم مبهمًا من خطر محدق أحسوا الخطر فراموا إصلاح الخلل الواقع في حياة دار الإسلام خلل «اللغة» وخلل «العقيدة» وخلل «علوم الدين» وخلل

«علوم الحضارة» وبأناة وصبر عملوا وألفوا وعلموا تلاميذهم وبهمَّة وجد أرادوا أن يدخلوا الأمة عصر النهضة نهضة دار الإسلام»[١] ، وذلك في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري، وكان الأستاذ ـ رحمه اللَّه ـ يواجه بهذه الحقائق هذا الزيف الذي ضلل العقل العربي الإسلامي، وغرس في الأجيال الناشئة الاعتقاد بأن النهضة بدأت باجتياح الغزو المسيحي لهذه الديار، وانتهاب ثرواتها وتدمير حضارتها، وسفح دمائها وتخريب بنيانها، وقد صدقنا ذلك وكتبناه في كُتبنا وصار من العلم الذي نخرج به من الظلمات، إلى النور، ويقول الشيخ: إن هذا عكس الحقيقة التاريخية؛ لأن هذا الزحف المسيحي أو الزحف المسيحي المقدس كما كان يسميه الأوربيون أنفسهم، والذي يحقق لهم أهدافًا روحية كما قالوا، أيضًا إنما كان لتدمير اليقظة التي بدأت في القرنين الحادي عشر، والثاني عشر الهجري، وهو يقابل نهاية القرن السابع عشر إلى نهاية الثامن عشر، أعني أوائل التاسع عشر، وفي هذين القرنين ظهر خمسة من الأعلام سماهم الشيخ صناديد النهضة واليقظة الإسلامية وهم[٢] :

١ ـ عبدالقادر البغدادي صاحب الخزانة المتوفي ١٠٩٣هـ الموافق ١٦٨٣م.

٢ ـ الجبرتي الكبير المتوفى ١١١٨هـ الموافق ١٧٧٤م.

٣ ـ الشيخ محمد بن عبدالوهاب المتوفى ١٢٠٦هـ الموافق ١٧٩٢م.

٤ ـ المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس والمتوفى ١٢٠٥هـ الموافق ١٧٩٠م.

---

(١) «الطريق إلى ثقافتنا» لمحمود محمد شاكر (ص٨١).

(٢) انظر المصدر السابق (ص٨٠) وما بعدها.

٥ ـ الشوكاني المتوفى ١٢٥٠هـ الموافق ١٨٣٤م ومعروف أن الذي توجه إلى إحياء اللغة هو البغدادي، والزبيدي، والذي توجه إلى علوم الحضارات هو الجبرتي الكبير، الذي كان يدرس في الأزهر علوم الصناعات والهندسة وكان يحضر درسه «طلاب» من الفرنجة كما قال ابنه المؤرخ[1] .

❑ والذي توجه إلى إصلاح خلل العقيدة هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب والذي توجه إلى إصلاح خلل علوم الدين أعني الفقه هو محمد ابن علي الزيدي الشوكاني.

❑ وادرس تاريخ هؤلاء الرجال ومؤلفاتهم وما أحدثوا من يقظة، لتتأكد أن الزحف العسكري المسيحي من هذا التاريخ ـ حملة نابليون على مصر كانت سنة ١٧٩٨م ـ إنما كانت لتدمير هذه اليقظة، وكانت المسافة بيننا وبينهم في هذا الزمن قريبة يمكن أن تدرك بقليل من الجد.

❑ وهذا المعنى أكده الأستاذ محمود شاكر تأكيدًا قاطعًا، بما رواه من أحداث ثورة القاهرة الكبرى على الوجود الفرنسي، وكان ذلك في ١٠ جمادى الأولى ١٢١٣هـ ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨م، أي بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض مصر، فارتكب في قمع هذه الثورة من القسوة والتدمير وذبح الرجال والنساء وسفح الدماء الغزيرة ما ارتكب، ونذر ـ وأوفى بنذره ـ أن يذبح عند شروق كل شمس خمسة أو ستة «تقطع رءوسهم ويطاف بها في أنحاء القاهرة».

❑ ويقول الشيخ: «ولا شك عندي أن هؤلاء الخمسة، أو الستة هم من طلاب العلم في الأزهر، ومن المحرضين على مقاومة هذا الغازي المنتهك لحرمة ديار الإسلام، وأن الاستشراق هو الذي كان يقدمهم لهذا الجزار، وأنه

(١) راجع النص في رسالة «الطريق إلى ثقافتنا» (ص٨٣) وما بعدها.

كان يتخيرهم له؛ لأنه كان على معرفة سابقة بهم، وأنهم كانوا من الطلبة النابهين من ورثة الجبرتي الكبير والزبيدي، أي أنهم كانوا من طلائع اليقظة التي جاءت الحملة الفرنسية قبل كل شيء لوأدها في مهدها»[١] .

❑ ويكرر الأستاذ هذه الفكرة وهي أن وأد اليقظة في ديار الإسلام كان من أهداف الحملات العسكرية على دياره، وأن الاستشراق كان وراء ذلك وأنه خبر هذه الديار، وعاش فيها وعرف ما يجري وأفزعه ما رآه من يقظة فكتبوا إلى دولهم، وحرضوهم على الانقضاض على هذه اليقظة، قبل أن تشتد، وتاريخ هذه الكتابات بدأ مع تاريخ اليقظة ومنهم من كان يحضر دروس الجبرتي في الهندسة وعلوم الصناعات، ويسخر الأستاذ سخرية مرة من هذا الفساد المخجل الذي نعيشه حين نقول: إن غزو نابليون لمصر هو بدء النهضة.

❑ ويقول ـ رحمه اللَّه ـ بعدما بين تخريب مدينة القاهرة، التي كانت من أحسن مدن العالم بعمارتها وفنونها وبركها ومتنزهاتها، وبعدما خرجت جيوش نابليون منها. . : «ولكن صار هذا التدمير في عين حياتنا الأدبية الفاسدة هو رسول الحضارة الذي جاء ليخرجنا من ظلمات الجهل إلى عصر النور والتنوير لا تضحك ولا تبك، ولكن أطرق إطراقة الخزي والمهانة والعار»[٢] .

❑ ولم يقف الخطأ عند هذا الخزي وهذه المهانة وهذا العار، الذي دل على جهلنا بتاريخنا ورجالنا الذين أسسوا لنهضتنا، ووضعوا لها المنار، وسلكوا الطريق، ونبهوا، وأيقظوا وأحس عدوهم بخطرهم وأنه عُمِّي علينا،

(١) المصدر السابق (ص١٠٤).
(٢) المصدر السابق (ص٩٦).

وجهلنا كل ذلك، وجعلنا تاريخ وأد هذه النهضة هو بداية النهضة، أقول: لم يقف الأمر عند هذا، وإنما تجاوزه إلى ما هو أبشع منه وأشنع وهو طريق النهضة نفسه، إذ تركنا الطريق الصحيح الذي بدأه خمسة الأعلام وسقطنا في أخطر ما سقط فيه عقل أمة وهو الاعتقاد بأن سبيل النهوض هو السير وراء هؤلاء الذين دمروا نهضتنا والأخذ عنهم في المعارف والثقافات والآداب والفنون وبدأ إغراء العقل الإسلامي بالثقافة الأوربية المسيحية وآدابها وفنونها، وجهلنا أن الثقافات والآداب والفنون، وكل فصيلة العلوم الإنسانية كلها متدفقة من قلب العقائد، وآية ذلك ثقافة الإسلام وآدابه وفنونه وأن الإسلام يداخل كل هذا وكثير من المسلمين أيام الفتح الإسلامي، دخلوا في هذا الدين بعدما عاشوا ثقافته؛ لأن المسلمين لم يكرهوا أحدًا على الدخول في دين اللَّه؛ لأن اللَّه حرم هذا، فبقي كثير من الناس على دينهم، ولما انغمسوا في ثقافة الإسلام دخلوا فيه، وهكذا فعل المسلمون في الأندلس، لم يلزموا القوط باعتناق الإسلام، وإنما خلوا بين الناس وما يريدون، ولما بدأ القوم يتساقطون في حب الثقافة العربية والإسلامية فطن القساوسة إلى هذا الخطر، وقالوا لهم: لو غلبتكم ثقافة العرب المسلمين فلن تعود إليكم بلادكم.

لا شك أن الثقافة ومنها الفنون والآداب وما يتبعها من معارف إنما هي تجسيد للدين، وأن هذه النهضة الكاذبة دفعت بنا دفعًا في هذا التيار، فغيبت عنا علومنا وآدابنا وتاريخنا التي هي القوة الفاعلة والقادرة على تغييرنا وإحداث اليقظة والنهضة وعشنا تحت سيطرة ثقافة مسيحية وثنية تقتلع جذورنا، وتدفعنا دفعًا في تيار التبعية، ومضى على هذا الحال أكثر من قرنين، ولا نزداد في طريق النهضة الخادعة إلا تعثرًا وضلالاً؛ لأنه من المخالف لفطرة الأشياء أن تنهض أمة بعقل أمة، وأن يعتقد المغيب النائم،

الذي ينتفع بعلوم المستيقظين أنه استيقظ وحين يردد كلام المجتهدين يعتقد أنه اجتهد، وكذلك حين يقول مقالة المجددين أنه جدد، كل ذلك وهو نائم وكأننا نعاني ازدواج الشخصية وهذا هو جوهر النهضة المضللة التي قطعنا فيها قرنين ونحن كما ترى، وتأمل هذ جيداً لأن مصيبتنا تكمن فيه أقرأ كلام المجددين فأجده كلام الآخرين نقلوه، وأسأل نفسي بأي عقل اعتقد هؤلاء أنهم مجددون؟! هل يمكن أن يجدد النائمون؟!!

❑ ولما بدأت النهضة بفجرها الصادق، الذي رفع مناراته الخمسة الذين ذكرهم الشيخ أحدث هذا الفجر الصادق أثراً قويًا في النفوس؛ لأنها بدأت من ذات النفس؛ لأن علومنا وتاريخنا وآدابنا كل ذلك له رنين خفي في داخل نفوسنا، وهو قطعة منها، وهي قطعة منه ولا يزال صدى هؤلاء الأعلام يتردد ويفعل فعله ليس هناك دارس للغة إلا ونفث البغدادي في قلبه وعقله ومثله المرتضى الزبيدي الحسيني، وليس هناك دارس للسنة إلا واهتدى بهدي الشيخ ابن عبدالوهاب، ومثله الشوكاني، ولو قارنت عطاء واحد من هؤلاء بعطاء جميع الرواد الذين ولدتهم النهضة الكاذبة والذين لقبوا بالرواد لمزيد من الإقناع بالخداع والباطل والذين قام عملهم على ارتضاخ الثقافة المسيحية الغربية لوجدت اختلافًا لا تصح معه المقارنة، وشرط هذه الموازنة أن تكون من القادرين على قراءة مثل الخزانة؛ لأن قراءة هذه الكتب تحتاج إلى أدوات.

ولم يعط الأستاذ محمود شاكر قضية من القضايا، ما أعطاه لهذه القضية من دراسة وعرض وتحليل وتكرار وكأنه كان يتعمد تكرارها في كل ما يكتب حتى في اللقاءات الصحفية؛ لأنها هي قضيته الأم ولا يجوز الحديث عنه في غيبتها.

* **فساد الحياة الأدبية «ومحنة الشعر الجاهلي»:**

والكلام في فساد حياتنا الأدبية يدور حول نقطتين: الأولى هي تغييب علومنا، وإسدال الستار عليها، في جامعاتنا ومدارسنا وأنديتنا وصحافتنا، وكل وسائل التثقيف، ثم شغل هذا كله بمقتبسات عن الثقافة الغربية المسيحية وقد ندخل على هذا الاقتباس شيئًا من التحوير أو التعديل وهذا هو الفساد الوبيل كما كان يصفه ـ رحمه اللَّه ـ وما سماه الأستاذ «محنة الشعر الجاهلي» كانت رؤية منه لرأس هذه القضية وهي تطل من قاعات الدرس الجامعي لأول مرة فصدمته، وهو في السابعة عشرة من عمره وكان نافذًا نفاذًا غريبًا إذ أدرك هذا وهو في هذه السنة، ونفذ من وراء ضجيج الدكتور طه حسين إلى جوهر ما وقع الرجل فيه ولم يخدعه عن ذلك شيء، وليست المشكلة أن الدكتور طه ذهب إلى أن الشعر الجاهلي شعر صنعه الرواة في الإسلام ونحلوه الجاهليين، وإن كان هذا من الخطأ المحض؛ لأن الناس في العلم يخطئون ويصيبون، ولو أن الدكتور طه حسين اجتهد بعقله هو وراجع بعلمه هو وانتهى به الرأي إلى الذي قاله، صوابًا كان أو خطأ لما كانت هناك ما سماه الأستاذ «محنة الشعر الجاهلي».

ولو أن الدكتور طه عرض الذي عرض على طلابه مسندًا إلى مصدره، وحافظ على ما تجب المحافظة عليه من أسانيد المعرفة، وقال هذا كلام مرجليوث لم تكن هنا محنة حتى لو قال: وأنا مقتنع به.

❑ ولما قرر المرحوم محمود شاكر ترك الجامعة بسبب هذا، وجاءه وفد من العلماء وأهل الرأي ومنهم أساتذة في الكلية من المستشرقين طلب منهم شرطًا واحدًا، يعود به إلى الكلية، وهو أن يقول الدكتور طه حسين لطلابه أن هذا الذي قلته في الشعر الجاهلي هو كلام فلان، وكان الأستاذ جويدي

المستشرق الإيطالي يعلم أن ما قاله الدكتور طه هو مقال مرجليوث، ولكنه كما قال الأستاذ لما سمع منه هذا طالبه على عادته بتوقير أساتذته، وراغ من جوهر القضية[1].

كانت المحنة إذن أننا نحدث طلابنا، بمقالة أعدائنا في علومنا وأدبنا وتاريخنا، ونوهمهم أن هذا علم استخرجناه بالبحث والنظر والمنهج والاستنباط، ومثل هذا مما يجعل له توقيرًا في نفوس الطلاب الأغرار، مع أن هذا الذي نأخذ عنه علمنا أعجم «ليس عنده من أدوات النظر في العربية، وإدراك أسرارها ما يجعل لرأيه قيمة، وهذا أمر يرجع إلى الطبيعة فليس اللسان لسانه، وليس الأدب أدبه، وليس التاريخ تاريخه، هذا فضلاً عن فساد طويته ومقصوده من دراسته، وهذا الفساد يفسد منهجه، ولا يريد هو من وراء هذه الدراسة إلا تشويه وإفساد ومسخ الفكر العربي وتاريخه وكان مرجليوث مغاليًا في هذا الإفساد، ومغاليًا في حقده على العرب، والمسلمين وهو يهودي يقطر حقدًا».

وقد رد مقالته هذه التي سطا عليها الدكتور طه حسين سطوًا عريانًا على حد عبارة الأستاذ محمود شاكر بعض المستشرقين ومنهم الأستاذ ليال، الذي حقق كتابًا من أوسع الكتب وأفضلها، وهو المفضليات، وكتب مقدمة جيدة عن الشعر الجاهلي، ورفض كلام مرجليوث واعتبره خارجًا عن المعقول، والمفضليات التي بين أيدينا مختصرة من هذا الأصل، اختصرها الفاضلان أحمد شاكر، وعبدالسلام هارون، والأصل الذي حققه «سيرليال» موسوعة في اللغة والأخبار والشعر ومن المؤسف أن التحقيق المختصر اهتمت به دار المعارف، وأكثرت من نشره وغطى على هذا الأصل النافع.

---

(١) مقدمة كتاب المتنبي ـ «فساد حياتنا الأدبية» للشيخ محمود شاكر (ص١٩).

وقد أقحمت هذا لأن شرح ابن الأنباري الأصلي من العلم النافع الذي غاب.

كانت المحنة كما رآها الأستاذ ـ رحمه اللَّه ـ ورضي عنه أننا صرنا لا نكتفي بتغيب آدابنا وعلومنا وتاريخنا وفكرنا ومناهجنا وإنما نُصور بكل ذلك في قلوب أجيالنا صورةً هي من تصوير العدو الذي يجاهر بأن هدفه هو تدمير هذه العلوم، وهذه الحضارة وهذا التاريخ ثم نطبعها بأيدينا في قلوب أبنائنا، ونوهمهم أنها من كلامنا نحن، ونحن أمناء على تاريخنا وعلومنا ولسنا موضع تهمة، عند هؤلاء الطلاب، وليسوا أحرص على هذه العلوم، وهذا التاريخ منا، وليس وراء هذا هاوية أبشع ولا أشنع منها، يمكن أن نُسقط فيها أبناءنا، بأيدينا، وراجع هذا حتى تتصور الحجم المفزع للتدليس على العقول، الغضة المبتدئة وكيف يدمَّر تاريخهم، في ذات نفوسهم أو قل كيف تدمر ذات نفوسهم؛ لأن تدمير علوم الأمم هو تدمير ذات نفوسهم.

واضح أن الأستاذ محمود شاكر الذي كان في سن الثامنة عشرة لم يكن متسرعًا حين اتخذ قراره الحاسم بترك الجامعة، حتى يَفر بعقله قبل أن يُدَمَّر كما قال، وأنه نفذ في هذه السن إلى البشاعة المتسترة وراء طنين الأستاذية والمنهج والجامعة وعالمية الثقافة وغير ذلك مما تهالكت ولا تزال تتهالك فيه الأجيال.

وكان القرار صعبًا ملأ قلبه بالمرارة، كما وصف وكما كرر الوصف؛ لأنه كان شابًا يستقبل العمر، ويحلم بالمستقبل الزاهر، ويمد في أحلامه تفوق ظاهر ونبوغ ونشأة في بيت من أكرم بيوت العلم، يرتاده أشراف الناس وسادتهم وأهل الرأي والعلم، كما كان معقلاً من معاقل الوطنية، ولكن صدق النفس والوفاء لما يجده المرء في قلبه غلب عليه، وصنع أعظم صنيع

في تاريخ الثقافة العربية، ولفت أبين لفت إلى خطر هذا التحول الذي هو «جذر قضيتنا» كما كان يصفه ـ رحمه اللَّه.

❑ وقد وصف هذا التحول بعد خمسين سنة مفكر عاش يدعو إلى الثقافة الغربية المسيحية، بأنه يفضي بنا إلى أن نكون خبراً من أخبار التاريخ، هذا المفكر هو الدكتور زكي نجيب محمود، فقد رأى أن غيبة العلوم العربية والإسلامية في مدارسنا وجامعاتنا وبحوثنا ومؤلفاتنا وأنديتنا، ثم حضور الفكر الغربي الأوربي مكانها في هذا كله يؤدي بنا إلى أمرين خطيرين:

● **الأمر الأول**: هو نقض عقائدنا؛ لأن هذا الفكر الأوربي يقودنا إلى أن نأخذ «بوجهة نظر أصحابه في الإنسان والعالم» يعني أن نعتقد عقائدهم في ذلك، «ووجهة النظر في الإنسان» في الفهم الإسلامي أنه مخلوق للَّه رب العالمين، وأن مرده إلى اللَّه، وأنه يعيش في هذه الدنيا، وعليه رقيب وعقيد يكتبان في صحيفة أعماله كل ما يكون منه، من خير وشر، وأن صحيفته هذه تنشر يوم البعث، وأنه إما أن يأخذ كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه أو يأخذه بيساره فيقول: يا ليتني لم أوت كتابيه وهكذا العالم في الفهم الإسلامي، مخلوق للَّه رب العالمين، وله سبحانه ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثرى، وأن هذا العالم له نهاية تكون ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ**﴾ كل هذا ينقضه الفكر الأوربي المسيحي الوثني في نفس المسلم، ويرسخ مكانه وجهة النظر المسيحية الوثنية.

● **الأمر الثاني**: هو أن هذا الفكر الأوربي المسيحي الذي تفرد في تكوين الأجيال يفضي بنا إلى فقدان الذات، هكذا يقول الدكتور زكي محمود

يعني أننا نفتقد وجودنا، من حيث إننا عرب مسلمون، ونصير خلقًا ممسوخًا، تابعين لأصحاب هذه الحضارة التي صرنا من خدمها.

وبهذا نصبح خبرًا من أخبار التاريخ.

❑ يقول الدكتور زكي نجيب محمود وهو يشرح غلبة الفكر الأوربي قديمه وجديده وسيطرته على عقول الآلاف المؤلفة من المثقفين العرب، وغيبة الفكر العربي الإسلامي عن هذه الآلاف المؤلفة، حتى كانت مذاهبه وأعلامه تتراءى لهم كأنها أشباح طافية على سطور الكاتبين:

«فهو واحد من ألوف المثقفين العرب، الذين فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأن عيونهم لم تفتح على غيره، ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام، الفكر الأوربي دراسته، وهو طالب والفكر الأوربي تدريسه وهو أستاذ والفكر الأوربي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ، وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين»[1].

❑ هذا النص يصف ما يذكره الأستاذ محمود شاكر من تفريغ الأجيال من ثقافتها العربية الإسلامية المتكاملة والمتداخلة ثم ملء هذا الفراغ بالفكر الأوربي المسيحي.

❑ ويبين الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود خطر هذا، وأثره في تشكيل رؤيته، حتى إنه دعا يومًا إلى بتر التراث بترًا، قال ـ رحمه اللَّه ـ وهو يعتذر عن هذا الرأي الذي قال به أيام أن كان أصحاب هذه الحضارة

(١) «تجديد الفكر العربي» للدكتور زكي نجيب محمود (ص٥).

يحتلون بلادنا:

«بدأت بتعصب شديد لإجابة تقول إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة، إلا إذا بترنا التراث بترًا وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علمًا وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم بل إني تمنيت عندئذ أن نأكل كما يأكلون، ونجد كما يجدُّون، ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلي اليمين كما يكتبون»[1].

❑ ويكرر الدكتور أن هذا الشطط الذي ذهب إليه إنما كان مرجعه هو «جهلي بالتراث العربي جهلاً كاد أن يكون تامًا، والناس ـ كما قيل بحق ـ أعداء ما جهلوا».

ثم قال: «ثم تغيرت وقفتي مع تطور الحركة القومية، فما دام عدونا الألد هو نفسه صاحب الحضارة التي توصف بأنها معاصرة، فلا مناص من نبذه، ونبذها معه، وأخذت أنظر نظرة التعاطف مع الداعين إلى طابع ثقافي عربي خالص، يحفظ لنا سماتنا، ويرد عنا ما عساه أن يجرفنا في تياره، فإذا نحن خبر من أخبار التاريخ، مضى زمانه، ولم يبق منه إلا ذكراه»[2].

❑ والتراث الذي دعا الدكتور زكي نجيب محمود إلى بتره قبل أن يثوب إلى رشده هو التفسير، والحديث والفقه واللغة والشعر، وعلوم الكتاب والسنة والأعلام الذين كان يراهم أشباحًا طافية هم مالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والجاحظ والتوحيدي وطبقات المفسرين والمحدثين والمؤرخين.

❑ وكل كلام الدكتور يحتاج إلى مراجعة ليس موضعها هنا؛ لأنه من العجيب أن تدرس آلاف مؤلفة فكرًا يزلزل عقائدها، ويمحو ذواتها ويصيرها

(١) المصدر السابق (ص١٣).
(٢) المرجع السابق.

خبرًا من أخبار التاريخ، وهم لا يفطنون إلى ذلك والدرس تمحيص ويقظة!.

ثم كيف يجهلون أنها ثقافة العدو الألد، والاحتلال قائم والشعب ينتفض في مطاردته؟ ثم كيف يسبق إلى ظنونهم أنه لا علم سواه؟ والمعارك دائرة بين حماة الثقافة العربية الإسلامية، الذين ينبذون العدو وثقافته وبين دعاة ثقافة العدو، والذين يعيشون في ظله؟ وكيف يجهل من يعيش في مصر علوم العربية والإسلام، وهي بلد الأزهر، موئل هذه العلوم، وكعبة طلابها من أقطار الأرض؟ كل هذا غريب، وأغرب منه أنه لا ينبه إلى هذه الحقيقة المفزعة، والتي تصيرنا خبرًا من أخبار الماضي إلا الحركة القومية التي تجهمت في وجه كل ما هو أوربي بحكم توجهها الاشتراكي، وهل نبذ المرحوم فكر العدو الألد مع نبذه لهذا العدو؟

□ كم اقتنعنا بسراب حسبناه فكرًا، ورحمك اللَّه يا شيخ الفلاسفة كم في إرثك الذي تركت لنا من غوامض؟ وكم فيه من متعة؟ ولا يجوز أن أدع هذا الموضوع من غير أن أضع بين يدي القارئ شهادة أخرى لعلوم الإسلام، وعلماء الإسلام، الذين أسسوا حضارته، شهد هذه الشهادة فيلسوف مثل الدكتور زكي، ولكنه ليس واحدًا من المثقفين العرب وإنما هو الألماني «نيتشه» قال في كتابه «المضاد للمسيح» وهو ينتقد الحضارة الأوربية التي تجاهلت حضارة المسلمين في الأندلس، وأنها كانت أقرب إلى الروح الأوربية، من حضارة أثينا، وأنها وهذا هو المهم «بلغت شأوًا لو قيست به حضارة القرن التاسع عشر لظهر إملاقه وفقره»[1] يعني أن هذه الأشباح الطافية في نفوسنا كانت أسست حضارة تجاوزت القرن التاسع عشر، ودخلت القرن العشرين.

والذي وصفه الدكتور زكي نجيب محمود لا يزال قائمًا كما وصفه، ولا

(١) النص من مقالة كتبها الدكتور يعقوب زكي بعنوان «محمد إقبال» وترجمها يحيى حقي ـ رحمه اللَّه ـ ونشرها في مجلة «المجلة» يونيو ١٩٦٩م.

تزال طاحونة السحق تدور وتسحق الآلاف المؤلفة، ونحن نرى ونسمع، وندفع أنفسنا بأنفسنا لنكون خبرًا من أخبار التاريخ مضى زمانه، ولم يبق منه إلا ذكراه، ولم يقف أهل الرأي الوقفة الحاسمة، لتحويل هذا التحول الذي فرض علينا وأمرنا ليس بأيدينا، ولا محيد لنا عن تغييره، وعودة الأمر إلى نصابه، ووضع أجيال الأمة في علومها وتاريخها وحضارتها؛ حتى تنشأ النشوء الطبيعي الذي تنشؤه أجيال الأمم كلها.

□ وقد ذكرت أن الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ كان يضيق بالصمت عن هذه القضية التي ليست قضية فكرية فحسب وإنما هي قضية كيان، وكان يحرص على ذكرها في كل ما يكتب لينبه الغافلين، ولتعلم الأجيال الجديدة على أي أرض تقف، وكيف نقبل الصمت والمداهنة، والخلود إلى الدعة، وإيثار الراحة، ونحن نعد أبناءنا لمستقبل يعلم اللَّه ما يخبئه لهم، وقد سكنت في ديارهم حية من أخبث الحيات، «في أنيابها السم ناقع لا يشفى لديغها» وصار الأمر أمر جد، وهذا كله يوجب علينا أن نراجع كل شيء بصدق قصد، وصريح عقل، ورحم اللَّه من كان هذا أكبر همه، ورحم اللَّه الدكتور زكي نجيب محمود فقد شهد شهادة صدق من يكتمها فإنه آثم قلبه..

وكنت أقرأ بعض ما يكتب عن الشيخ بعد وفاته ـ رحمه اللَّه ـ وأجد أنفاسًا صادقة، وكان حظ هذه القضية أقل من القليل، وقد شغل البعض بذكر صبوة قديمة عاشها الرجل في شبابه، وكتم أمرها، أو كلامًا في أخبار «خولة» أخت سيف الدولة، وكان الذين شغلوا بهذا قادرين على أن يقتحموا هذه القضية الأم، وقد عني الأستاذ ـ رحمه اللَّه ـ عناية شديدة بدراسة مؤسسات الاستشراق والتبشير والاستعمار، وهي ذات أصل واحد، واحتشاد هذه المؤسسات من أجل دفع هذه الثقافة المسيحية الغربية وفرضها على قلوب المسلمين وعقولهم ثم مطاردة علومهم وآدابهم ولغتهم وتاريخهم وحضارتهم،

وأن هذا لم يكن لصالح الأمم الإسلامية ولا لتنويرها، ولا لتطويرها، ولا لإدخالها في عصر النهضة كما تقرأ وتسمع، وإنما كان لتدميرها، وتشتت شملها، وإفراغها من كل ما نتمسك به ومن كل ما يشد كيانها كالبنيان المرصوص؛ حتى تواجه التحديات التي فرضتها عليها الحضارة الأوربية المسيحية نفسها.

ولا شك أن إحكام السيطرة على العقل والفكر، هو ذاته إحكام السيطرة على الأرض، وفرق ساطع بين العلوم التي نتكلم عنها، وهي عندنا العلوم العربية والإسلامية التي تطارد بشراسة وجهل، ليحل محلها نظائرها أو ما يسد فراغها من علوم النصرانية فرق بين هذا وبين العلوم البحتة، كالرياضيات وعلوم الطبيعة؛ لأن هذه ملك مشاع أو هي كما يصفها الأستاذ رضوان اللَّه عليه «تراث إنساني وإن كان زيفه المزيفون فأدخلوا في مفهوم العلم شيئًا ليس منه»[1] الأولى تتناقض تناقضًا صريحًا مع عقائد المسلمين، وهي التي احتشدت أجهزة التبشير لاقتحامها في الأمم الإسلامية، وهي خطر على العقيدة، وخاصة إذا خلا العقل من علوم الإسلام التي تدفع عنه غوائل هذه الوثنية النصرانية وقد وصف الأستاذ المرحوم محمود شاكر هذا التناقض الصارخ بين هذه الثقافة وعقيدة الإسلام، وذلك في رده على صديقه «محمد عودة» الذي كتب في جريدة «الجمهورية» كلمة طيبة في «القوس العذراء» وذلك في يوم ٢٠ صفر ١٣٨٥هـ الموافق ٢٠ يونيو ١٩٦٥م وقد وضع فيها الأستاذ محمد عودة صاحبه في منزلته بين علماء الأمة، ثم ذكر أن بعض ما يكتبه الأستاذ محمود شاكر يترك في النفس «حزازا من الوجد حامزا» مثل هجومه على الثقافة الغربية، وكأنها فقط كتابات المستشرقين والمبشرين المعادين للإسلام.

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود شاكر (ص٤٩٧).

* لله در الأستاذ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ:

❑ قال الأستاذ ـ رحمه الله ـ «وكيف غاب عنه أنني بطبيعة نشأتي في هذه العربية الشريفة، وفي شرارة هذا الدين الذي لا يقبل الله من عباده سواه، يوم يقوم الناس لرب العالمين لا من عامي ولا من متعلم ولا من مفكر، ولا من عالم ولا من نبي من الأنبياء، كيف غاب عنه أنني بطبيعة ذلك عدو الثقافة الغربية؛ لأنها ثابتة في مدارج نموها في بيئة وثنية ومسيحية أنكر عقائدها وأرفضها وأعتقد بطلانها كل البطلان لمخالفتها للذي طالبنا به ربنا وخالقنا والمنعم علينا بآلائه ونعمه من عقل وبيان، وإذا أنا داهنت في ذلك أقل مداهنة فإنني على يقين من عذاب الله، الذي لا يغني عنه في دفعه ثناء صديقي الأستاذ عودة، ولا إعجابه ولا مودته، فإن الله يقول لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، فإذا فعلت فإني رهين بعذاب بئيس»[1].

❑ وأعود إلى ما نقله الشيخ من كلام رءوس المبشرين وكيف كانت تتفق كلمتهم على أن السيطرة الفكرية والثقافية على العقل الإسلامي هي أخطر طريق لتدمير ديار الإسلام، وأن تثبيت الأفكار الغربية المسيحية في ديار الإسلام، خطوة حاسمة في تحقيق أهداف إرساليات التبشير، وأن تَفتيت هذه الحضارة التي تقوم على مجموعة العلوم العربية والإسلامية أمر لازم حتى يتم المقصود من التجزئة السياسية التي فرضت على العرب والمسلمين، بعد سقوط الخلافة واستطاعت وحدة هذه العلوم، وهذه الثقافة أن تُفْقِد هذه التجزئة قيمتها، وسأكتفي بكلمات قصيرة قالها مسيو «شاتليه» أحد رءوس المبشرين

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود شاكر (ص٣٩٨).

في سنة ١٩١١م يوصي رجاله وصايا تعينهم على تمكنهم من «قضاء لبانتهم من هدم الفكرة الدينية الإسلامية» هكذا يقول بوضوح شديد وأهم هذه الوصايا التي تعين على قضاء هذه اللبانة هي «تثبيت الأفكار الأوربية في ديار الإسلام»، وأن هذه الفكرة الدينية الإسلامية المراد هدمها» يجب أن تحاط بأفكار أوربية، وأن تطوق بها، ثم قال: «إن هذه الفكرة الدينية الإسلامية لم تحفظ كيانها إلا بعزلتها، وانفرادها»[1].

❑ ولاحظ أننا بغفلة شديدة غرسنا هذه الأفكار في داخل العلوم العربية والإسلامية، وزرعنا ثقافة أعجمية مسيحية في قلب الثقافة العربية الإسلامية واعتقدنا أن هذا تطوير لعلومنا، وصرنا نقرأ كتبًا في اللغة والآداب لا نعرف هل هي عربية، أو أعجمية، ودنسنا الفكر العربي الإسلامي بالفكر الوثني المسيحي وهذه مصيبة ثانية، ولما طالب بعض الناس بتعريب الطب، قال الطبيب الأديب الدكتور يحيى الرخاوي ساخرًا: عربوا علوم العربية أولاً.

❑ ومعنى كلام هذا الرأس المدبر «شاتليه» أن الفكر الأوربي إذا ثبت في عقل المسلم، وقلبه وليس في هذا العقل والقلب من علوم الإسلام وحقائقه وأصوله ما يعصمه من غوائل النصرانية المتضمنة في هذا الفكر استطاع هذا الفكر المنفرد في هذه النفس أن يهيئها لقبول النصرانية، وهذا هو معنى تدمير الفكرة الإسلامية بتثبيت الأفكار الأوربية، وأن أعداء الإسلام يقضون لبانتهم بهذا التدمير وهو أيضًا معنى قول الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ في وصفه الثقافة الغربية أنها ثقافة ثابتة في مدارج وثنية مسيحية وأنه يرفضها كل الرفض، ويناقضها كل المناقضة وليس معنى هذا رفض الاطلاع على تجارب الأمم وماذا يقولون؟ ومعرفة علومهم، وآدابهم وطرائقهم في النظر؛ لأن الحكمة

(١) «أباطيل وأسمار» لمحمود شاكر (ص١٨٦).

ضالة المؤمن ينشدها في كل أرض، والعقل الحي كالطائر الحر لا يحبس عن قراءة ما يتاح له لأن حب الاطلاع شيء في سوس العقل، وفي طبع النفس ما دامت نفسًا، كما كان يقول علماؤنا ـ رحمهم اللَّه، ولكن لا بد أن تدور رحى البحث والدرس، على علومنا، وأن يُغْمَسَ الجيلُ فيها، ويصبغ بها، حتى تدخل في لَحْمه وعظمه، وأن تحيا هذا العلوم فينا، وأن نحيا نحن بها وفيها، وأن تتقلبَ بنا وأن نتقلب بها، وأن نَستَخْرج منها خبأها، وأن تستخرج هي منا خبأنا، وأن تزدهر بنا وتنمو وتسطع، وأن نزدهر نحن بها وننمو ونسطع وأن نحافظ على صفائها وخصوصياتها ونقائها، كما تحافظ هي أيضًا على صفائنا وخصوصياتنا ونقائنا، لتظل هي بنا عربية إسلامية خالصة ونظل نحن بها عَرَبًا خلصًا مسلمين غير مهجنين.

وهذا ما يفعله علماء الناس كل الناس، يحتفظون بخصوصية معارفهم وثقافاتهم ومناهجهم وآدابهم، ليحفظ ذلك كله خصوصية الإنسان ابن هذه الثقافة وابن هذه الآداب وابن هذه المناهج، راجع كلمة الدكتور زكي نجيب محمود واعكسها تُصبْ، أعني قوله ـ رحمه اللَّه ـ إنه هو وآلاف مؤلفة فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد.. الفكر الأوربي دراسته وهو طالب وتدريسه وهو أستاذ ومسلاته كلما أراد التسلية، اجعل هذا للفكر العربي الإسلامي، وهذا هو الذي يحدث في كل شقٍّ من الأرض، وقوله: «وكانت أسماء المذاهب والأعلام في الفكر العربي لاتجيئه إلا أصداء، كالأشباح الغامضة يلمحها طافية»، اجعل هذا لفكر الآخرين، ليس من الأوربيين فحسب، وإنما أيضًا لبقية أمم الأرض، ذات الحضارات والعلوم والآداب ولا تنفتح على العدو الألد وحده، نحن لم نراجع فكر إيران، ولا علومها، ولا آدابها إلا في حيز المتخصصين، وقل مثل ذلك في اليابان والصين وأمم الشرق الأقصى.

❑ وكان علماؤنا يقولون: لا يجوز للمبتدئ أن يقرأ كلام المخالفين إلا بعد أن يحكم المذهب، وأن يحكم أصوله وفروعه، فإذا تقرر في نفسه وقويت عنده حججه، واستنارت في عقله، فله أن يقرأ ما يشاء.

❑ ولا شك أن كثرة المدارسة لباب من أبواب العلم تكشف فيه خفايا، وتستخرج من تحت ألفاظ أئمته وشيوخه معاني وأفكارًا لم يكن لها أن تُستخرج إلا بطول الملابسة، وهذا وجه جيد من وجوه التجديد، ثم إن كثرة المدارسة أيضًا لباب من أبواب العلم يولد في النفس خواطر جديدة، حول هذا الباب، وإنما بقيت علومنا راكدة لأن عقولنا لم تَتَلبَّس بها بالقدر الكافي، بل غابت عنها على حد ما وصف المرحوم زكي نجيب محمود ولا يكفي أن تتوفر عليها طائفة وإنما الأمة كلها تجعلها قُطبَ رحى الدرس، والبحث والتأليف وكتابة المقالات.

ومن فعلوا ذلك وتوفروا على علومهم هذا التوفر يقرءون من ثقافات الأمم ما شاءوا، وهكذا كان حال علمائنا في تاريخنا ألموا بتراث الإنسانية، وجعلوا طحينهم وحده تحت رحاهم وهكذا كان المرحوم محمود شاكر وقد اعتبر وصف صاحبه له بالتقصير في معرفة الفكر الأوربي سخفًا وقال: «هل يتفضل الصديق بإطلاعي على شيء من كلامي يتضمن هذا المعنى السخيف»[1].

❑ وهناك فرق شاسع جدًّا بين أن تقرأ كلام الآخرين لتعرف كيف يفكرون؟ وبين أن تقرأه لتفكر كما يفكرون، وكذلك فرق بين أن تقرأ كلام الأخرين لتعرف ماذا يقولون؟ وأن تقرأ لتقول ما يقولون، أو شبه الذي يقولون، أنت في الحالة الثانية ضعيف مقلد، وفي الحالة الأولى عالم

(١) «أباطيل وأسمار» (ص٤٩٦).

متمكن، والتقليد خليقة مرذولة، وقد قال علماؤنا: إن المُقلد أذل من العنزة الجرباء تحت الشمال البليل، يعني الذي يقرأ كلامَ الآخرين ليفكر كما يفكرون وليقول مثل الذي يقولون، ليس هو هذه العنزةَ الجرباء تحت المطر الشديد البرد، وإنما هو أذل منها، فهل يُمكن لهذا العنز الأجرب أن يطور عُلومًا وأن يُحدثَ نهضة؟!!

وأعطيك مثلاً قريبًا للفرق الهائل بين القراءتين:

قرأ الأستاذ محمود شاكر مقالة «نشأة الشعر العربي» التي كتبها مرجليوث وقرأها الدكتور طه حسين.

عرف الأستاذ محمود شاكر ما قاله مرجليوث ثم أهمله، والدكتور طه حاضر به طلابه، وسكت عن مصدره، وأوهم أنه مما استخرجه بالمنهج الجديد. هذه واحدة، وأمر آخر هو أنك تجد الأستاذ محمود شاكر ـ رحمه اللَّه ـ مع سعة علمه بالأعجميات لا يرتضخُ فكرة أعجمية واحدة، وهو يتناول أي دراسة لشعر أو لغير شعر ولا يُقحم نفسًا أعجميًّا واحدًا في كلام عربي، وهذه دراساته المتسعة والمتعددة.. ونقد الشعر الذي صار أعجميًّا ويوشك أن يكون كامل العُجمة ليس في كلام الأستاذ محمود فيه حرف واحد مع أنه قادر على أن يتناوله تناولاً أعجميًّا خالصًا، ويحرص كثير منا على أن يتكبر بهذه الأعجميات، حتى ولو كان قد خطف كلمة من هنا، وأخرى من هناك.

وقد اتضح الآن الفرق بين معرفة ما عند الآخرين، والاحتفاظ بصفاء علومنا، واللَّه أعلم.

***

* ويقول الدكتور عبدالحميد إبراهيم في مقاله «محمود شاكر ـ الرجل والموقف»[1] :

«ألا لا يمنعنّ رجلاً هيبة الناس، أن يقول بحق إذا علمه».

❑ هذا نص حديث شريف، استفتح به الشيخ محمود شاكر كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا».

وهو حديث لا يصدق على أحد بقدر ما يصدق على الشيخ شاكر نفسه إن مفتاح شخصيته يتلخص في قدرته على قول الحق، مهما كانت الظروف.

وقبل هذه القدرة هناك قدرة ثانية تتكامل معها: وهي قدرته على أن يتبين الحق قبل أن يتنبه له الآخرون.

❑ إن تاريخ الشيخ شاكر يتلخص في أنه يدرك الحق قبل أن يدركه غيره، هذا أولاً. وفي أنه يجاهر بهذا الحق ولو سكت غيره، وهذا ثانيًا.

هذا مفتاح شخصيته، وهو مفتاح يدل على أننا إزاء صنف من الرجال، يختلف عن غيره من بقية خلق اللّه.

فالرجل، أي رجل، لا يقاس بغزارة علمه، ولا بوفورة ماله، فما أكثر العلماء الذين يعرضون صفحات الكتب، ثم يتركون دنياهم، دون أن يدري بهم أحد، وما أكثر الناس الذين يحبون المال حبًا جمًا. ويَفنون ويبقى المال ويذهب الأثر.

لقد ذكر الرسول ﷺ أن هناك نَهِمين لا يشبعان، طالب علم وطالب مال.

ولا غرابة في ذلك فكلاهما طالب العلم وطالب المال، يغرقان في لذة شخصية، قد تصرفهما عن المواقف التي تتجاوز حدود الشخصية ومتطلباتها

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص٢٦ ـ ٢٧).

الفردية.

❑ الرجل إذن لا يقاس بعلمه ولا بماله، ولكن يقاس بمواقفه.

وهذ المعيار لا يفرق بين شخص وآخر. بين شخص يعيش لنفسه ويسعى نحو لذائذه، وآخر يعيش من أجل غيره، ويرتفع بمطالبه الشخصية؛ لترتبط بهدف ورسالة.

بين شخص يعيش ليأكل، وآخر يأكل ليعيش، كما تقول الكتب المدرسية. والشيخ شاكر هو من هذا النوع الأخير.

فهو لا يقاس بعلمه ولا بماله فهناك غيره الكثيرون ممن يحفظون النظريات ويسردون عناوين الكتب، وهناك غيره أكثر مالاً وأعز نفرًا.

❑ ولكن الشيخ شاكر هو رجل المواقف بالدرجة الأولى.

وهي مواقف تفصله عن غيره، وتتيح له من الخلود ما لا يتاح لغيره.

❑ هو يستطيع أن يتبين الحقيقة، في وقت لا يعرفها أحد أو يخشى أن يعرفها أحد.

وهو إذا تبينها جاهر بها، لا تمنعه هيبة الناس أن يقولها، مهما كان مقدار هؤلاء الناس.

❑ التحق الشاب محمود شاكر في عام ١٩٢٦م بالجامعة المصرية، وكان الجميع فرحين بهذه الجامعة الجديدة، التي تدرس علوم الغرب ومناهج الإغريق، وكان الأساتذة يلبسون «الردنجوت» ويتبخترون في الأروقة بين المدرجات، يرطنون باللغات، ويلوكون الأعلام الأجنبية، ويتشدقون بالمعارف الأوربية، وكان الطلبة يتباهون بالأساتذة، يسيرون على خطاهم، ويرون فيهم صورة سقراط وأفلاطون وأرسطو قد بعثوا من جديد.

❑ ولكن شابًا لم يصل إلى العشرين، لم يخدع بهذا الزيف، ولم يغرق

في ذلك الطوفان، فهو يتجاوز تلك اللحظة التاريخية، وينظر وراء الحجاب، ويدرك أن كل هذه الطنطنة قد تصرفنا على أصالتنا، وقد تغرس فينا عقدة «الخواجة».

ولا يكتفي هذا الشاب الصغير بأن يدرك الحقيقة، التي لم يدركها غيره من الشيوخ الكبار، بل أن يجاهر بالحق لا تمنعه هيبة أحد من أن يقول كلمته.

❑ وتكون النتيجة أن يترك الجامعة إلى غير رجعة.

كانت اللحظة عمياء أقوى من أن يتبين الناس حقيقة هذا الشاب، فوصفوه بالعناد والثبات، وعدم القدرة على التطور.

ولكن الشاب يمضي في طريقه لم يتغير، تنكر له الناس، فهاجر من مصر إلى رحاب مكة، يستلهم من اللَّه الهداية والثبات.

وظل على موقفه عقودًا من الزمن، لم يتزحزح وهو شاب، وهو رجل، وهو شيخ حتى وافته المنية.

❑ وهنا نضيف خصلة ثالثة إلى شخصية الشيخ شاكر، فهو لا يقف عند معرفة الحق، ولا عند المجاهرة بهذا الحق، ولكنه يثبت عند هذا الحق ولو كان مرًّا، ولا يتزحزح عنه، ولو تنكر له كل الناس.

قد يقال إن هذا تحجر وعناد صعيدي، ولكن الشيخ قد ألهمه اللَّه معرفة الشعرة الرقيقة، التي تفصل بين العناد والثبات على الرأي، ومضى في طريقه لا يتزحزح عما يراه حقًّا.

كان الجميع في الجامعة الجديدة، يسعون إلى تطبيق إنجازات الحضارة الأوربية على الواقع العربي، من خلال ما أسميته في كتابي «الوسطية العربية» بالنزعة التوفيقية، وهي نزعة تحاول أن تضع في «جراب» واحد إنجاز حضارتين مختلفتين تاريخيًّا وثقافيًّا، وتكون النتيجة في النهاية، انتصار الحضارة العالية، وضياع خصوصية الحضارة العربية الإسلامية.

❑ ولكن الشيخ شاكر منذ حداثته يختط له طريقًا آخر، ويبدأ مسيرته من واقع التراث العربي، ويحاور التيارات الأخرى من واقع ذلك التراث، ويخاطب قارئه ويقول:

«فاقرأ الآن معي تاريخك بعين عربية بصيرة لا تغفل، لا بعين أوربية تخالطها نخوة أوربية، كما فعل أستاذنا عبدالرحمن الرافعي، غفر اللَّه له ذنوبه في كتابه «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر».

ويعيد الشيخ شاكر قراءة تاريخنا الحديث من منظور هذا المنهج الأصيل، ويرى أن الحملة الفرنسية على مصر، لم تكن بعثًا ولا بداية للنهضة، كما اعتاد أن يقول المؤرخون، بل إنها قد قضت على النهضة التي بدأها علماء الأمة في أواخر القرن الثامن عشر، وأدت في نهاية أمرها إلى ما يسميه الشيخ شاكر بالتفريغ الثقافي، الذي سوف ينشئ على حد قوله:

«جيلاً من تلاميذ المدارس، تتهتك علائقها التي تربطها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعيًّا وثقافيًّا ولغويًّا، حتى يتم تفريغهم تفريغًا كاملاً من ماضيهم كله، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هي علوم الغزاة، وفنون الغزاة، وتاريخ الغزاة ولغات الغزاة».

يكفيه ـ رحمه اللَّه ـ أنه أدرك الطريق قبل أن يدركه غيره، وأنه جاهر بالحق في وقت قد خرس فيه غيره. العظماء لا يموتون، وحين يسكت الجسد، يبعث الفكر في ثوب جديد» ا.هـ.

* * *

* **ويقول الدكتور حلمي محمد القاعود في مقاله «معارك محمود محمد شاكر الأدبية»[١] :**

«وقد اشتهر «محمود محمد شاكر» بتحقيقاته وقراءاته في مجال التراث، وقد أخرج للمكتبة العربية الحديثة عددًا من الكتب الأمهات، فكانت عنوانًا على وعي فريد ويقظ بالتراث ومكنوناته، وأبعاده وعلامة على دقة نادرة في العمل والإنجاز، ودليلاً إلى نمط فذ في المهارة والإتقان، وعرف القراء في العالم الإسلامي عن طريقه تحقيقًا ومراجعة أجود قراءة لتفسير الطبري «١٦ جزءًا» وطبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، وجمهرة نسب قريش للزبير بن بكار، والوحشيات لأبي تمام، وشرح أشعار الهذليين لأبي سعيد السكري ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني.

❑ يقول الشيخ شاكر:

«صار حقًّا عليّ واجبًا أن لا أتلجلج أو أحجم، أو أجمجم، أو أداري، ما دمت قد نصبت نفسي للدفاع عن أمتي ما استطعت إلى ذلك سبيلاً»[٢] .

❑ يقول الدكتور حلمي القاعود: «إن هيمنة الثقافة الغربية على الثقافة الإسلامية قد خلقت ما يسمى بفساد الحياة الثقافية طوال القرن العشرين، وخاصة بعد أن تصدر أتباع الثقافة الغربية ميادين التعليم والفكر والأدب والسياسة والاقتصاد.. لقد نبت صراع عنيف بين أنصار كل من الثقافتين، أسفر عن حالة الفصام، وعن تدهور اللغة القومية، وضعف الأدب، والخلل

(١) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص٢٨ ـ ٣٦) ملخصًا.

(٢) «أباطيل وأسمار» (ص١٠) مطبعة المدني.

في شتى نواحي الحياة الاجتماعية إنه صراع بين حضارتين مختلفتين في جذورهما أشد الاختلاف.. إحداهما كانت «غافية» فقامت «تتمطى» وتطرد الفتور عن أعضائها ومفاصلها، وأخراهما «يقظة» تهب حذرة، وتتأهب للسطو على «الغافية» بالبغي والعدوان والقوة والبطش والضراوة وحب الغلبة وبسط السلطان.

ولم يتعب «محمود محمد شاكر» من تكرار الحديث في هذه النقطة، فقد أشار إليه وتناوله في أكثر من كتاب من كتبه، حيث نعى على الحياة الثقافية فسادها وسطحيتها وضحالتها، وتسلط المستبدين من خدام الثقافة الغربية على مقدرات الثقافة الإسلامية والعقل الإسلامي، ويمكن الرجوع إلى ما كتبه تحت عنوان «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» في الجزء الأول من كتابه «المتنبي» ليجد تفصيلاً وإسهابًا حول هذه النقطة يتناول جوانب الفساد، وخاصة ما كان على يد «دنلوب» في نظام التعليم ونظام البعثات العلمية، والاستشراق، والفنون الأدبية «المسرح والقصة على وجه الخصوص» حيث صار السطو والتقليد للغرب أمرًا مألوفًا، ويؤكد أنه ما زال مستمرًا بقوة إلى يومنا هذا، «وبالثرثرة واللجاجة في الصحف والمجلات، صارت هذه الظاهرة مألوفة لا غبار عليها، وزادها رسوخًا إثارة قضية كثيرة الضجيج محفوفة بألفاظ مبهمة مغرية تقبلها النفوس بلا ممانعة، وهي قضية «القديم» و«الجديد» و«التجديد» و«ثقافة العصر»! والنظر في حقيقة هذه القضية يفضي إلى شيئين ظاهرين: ميل ظاهر إلى رفض «القديم» والاستهانة به، دون أن يكون الرافض ملمًا إلمامًا بحقيقة هذا «القديم» وميل سافر إلى الغلو في شأن «الجديد» دون أن يكون صاحبه متميزًا في نفسه تميزًا صحيحًا بأنه «جدد» جديداً نابعًا من نفسه، وصادرًا عن ثقافة متكاملة متماسكة، بل كل ما يميزه أن اللّه قد يسر له الاطلاع على آداب وفنون وأفكار تعب أصحابها في الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة!! وكفى اللّه المؤمنين

القتال!»[١].

❑ لقد ألحت مسألة فساد الحياة الأدبية على قلم (محمود محمد شاكر) إلحاحًا شديدًا، وتوقف عندها كثيرًا في كتابه «أباطيل وأسمار» بل إن آخر كتبه في مجال التحقيق، وهو «أسرار البلاغة» تضمن بيانًا مهما حول فساد الحياة الأدبية وأبعاده وأسبابه، تمنيت أن يقرأه المثقفون العرب المعاصرون، وخاصة من يعملون في حقل الدراسات الأدبية ليعرفوا مواطن الفساد كي يتجنبوها.. وأبرزها العبث بأصول ثقافتنا الإسلامية والكذب عليها، والاستهانة وقلة المبالاة والتحريض على تغيير التاريخ، إن أساتذتنا الكبار - كما يقول شاكر - استهانوا بما يقولون وتركوا ألسنتهم تطول وترعى في مرتع وخيم، واستهانتهم هذه لم تقتصر جنايتها على العلم أو الأدب، أو التاريخ، أو الدين بل جنت أيضًا على الحياة السياسية التي جاءت بعد ثورة مصر سنة ١٩١٩م، بل استشرت أيضًا حتى جنت على ما هو أعظم جنت على عامة الناس في حياتهم اليومية، وأعمالهم التي يزاولونها بأيديهم وعقولهم ليكسبوا بها رزق أيامهم[٢].

❑ وكما نرى فإن (محمود محمد شاكر) يقوم بدور المقاتل العنيد ضد الاستهانة بتراثنا، وضد فساد الحياة الأدبية والثقافية، وهو مؤهل لذلك، مسلح بالعلم والوعي والنشأة.. ولا ريب أن الرجل أدرك واجبه تجاه أمته وفكرها وثقافتها، فواجه التيار الجارف الذي صنعته الحضارة الغازية المهيمنة بإيمان راسخ، وعقيدة ثابتة لا تعبأ بما تجلبه هذه المواجهة من مضاعفات أو مضايقات أو أزمات، وفي الوقت ذاته كان فاهمًا لمعنى «التجديد» أو «التقدم»

---

(١) «المتنبي» لمحمود محمد شاكر (١/ ٣١).

(٢) «أسرار البلاغة» لعبدالقاهر الجرجاني - تحقيق محمود شاكر (ص٢٥) من المقدمة - طبعة المدني.

الحقيقي الذي تصنعه الأمة من خلال معرفتها بذاتها، ومعرفتها بما لدى الآخرين، لبناء المستقبل المأمول.

ومن ثم فقد دخل إلى معاركه الأدبية بقلب جسور، وعقل واع، ومعرفة عميقة دون أن يهتز قلمه أو تزل قدمه مع أنه واجه خصومًا يملكون شهرة أو هيمنة تجعل من أي طرف يواجههم يتردد ألف مرة قبل أن يخط حرفًا واحدًا ضدهم معركته مع لويس عوض في قضية «المعري»، كانت هذه المعركة أوسع المعارك مجالاً حيث دخلها عدد من الأطراف بالنيابة عن الطرف الأصلي مثل محمود مندور، ومحمد عودة، وكتاب مجلة «روز اليوسف» اليسارية، وكتاب من «الأهرام» و«الجمهورية» وسامي داود، ومحيي الدين محمد، وغالي شكري، وغيرهم فضلاً عن أطراف مؤيدة لشاكر، وضمت كتاب مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» من أمثال عبده بدوي وعباس خضر ومحمد جلال كشك وعامر بحيري، وغيرهم. . وكان لهذه المعركة أثر واسع المدى بحكم ظروف الفترة التي جرت فيها.

بيد أن معركة «المعري» كانت في أغلب جوانبها قضية عامة، تمس كيان الأمة وواقعها ومستقبلها، ومع أن الطرف المثير للمعركة لم يرد على ما وجه إليه من نقد وتصويب، واستعلى على المواجهة العلمية والنقاش الفكري، إلا أن المعركة بدت في زمانها تخوضها الأصالة ضد استباحة الأمة وهيمنة طلائع الثقافة الغربية على مقدرات الثقافة العربية.

❑ ومن المفارقات أن هناك من فسر استعلاء (لويس عوض) الطرف المثير للمعركة على الرد والمواجهة والنقاش، بأنه يرى أن من ينقدونه ويصوبون أخطاءه وخطاياه أقل منه، وليسوا في قامته العلمية والفكرية حتى لو كان أبرزهم (محمود محمد شاكر)![1] ، وقد حاول لويس أن يوحي بأنه ليس في

(١) «لويس عوض ومعاركه الأدبية» لنسيم مجلي (ص٥) وهو يقطر حقدًا على الإسلام.

معركة مع أحد، ولكنه لم يجد مفرًّا إلا أن يردّ، ليس بالعلم والمنطق والحجة، ولكن بالسب والتحريض والسخرية والتهكم في كتاب ألفه خصيصًا لذلك بعنوان «المحاورات الجديدة» ويحمل عنوانًا فرعيًا هو «دليل الرجل الذكي إلى الرجعية والتقدمية» وغيرهما من المذاهب الفكرية، وقد صور فيه خصومه بصورة كاريكاتورية تحقق السخرية منهم والتهكم عليهم من خلال أقنعة مسرحية».

وقد بدأت المعركة مع لويس عوض عندما أخذ ينشر في «الأهرام» مجموعة من المقالات تحت عنوان «على هامش الغفران» عام ١٩٦٤م، ملأها بالخلط والتدليس والتزوير، وكانت الطامة الكبرى عندما نشر في مقدمة مقالاته بالأهرام بعض أبيات «المعري» بخط النسخ محفورة على الزنك، خطأ على النحو التالي:

صليتْ جمرةَ الهجير نهاراً
ثم باتتْ تَغصُّ بالصُّلبانِ

«سقط الزند في وصف حلب».

أعُبَّادَ المسيح يخافُ صحبي
ونحنُ عبيدُ من خلق المسيَحا؟

«سقط الزند في الحروب الصليبية».

البيت الأول ليس صحيحًا كما أورده لويس عوض وشكله.

والبيت الثاني صحيح ولكنه لم يرد في الحروب الصليبية كما زعم لويس عوض.

وكان حريًّا بالمجتمع الأدبي أن ينهض ليردّ الرجل عن شططه وغلوه، وتورطه في التعصب الطائفي الذي بدأ مستفزًا لكل الناس العقلاء حتى الذين يتمتعون بالصبر الجميل، والحلم إلى أقصى مدى!

لم تعد القضية بحثًا أدبيًّا حول التأثير والتأثر بين الأدب الغربي والآداب الأوربية.. ولكنها تجاوزت إلى محاولة فرض النموذج الغربي وتأكيد هيمنته من خلال تزوير التاريخ وخلط الأوراق والتدليس على الناس من خلال منهج قاصر ومعيب.

وقبل أن نشير إلى بعض ما قاله (محمود محمد شاكر) فإن البيت الأول يأتي صحيحًا هكذا:

صليت جمرة الهجير نهارًا

ثم باتت تَغَصُّ بالصِّليانِ

الفعل: تَغَصُّ، بمعنى تمتلئ وتشرق، والصليان ـ بالياء المثناة ـ نبات ترعاه الإبل، وتسيغه إذا كان رطبًا وتشرق به «أي تغص» إذا كان يابسًا، إذا «الصلّيان» بالياء المثناة، وليست الصلبان بالباء المفردة كما ذهب لويس.

أما البيت الثاني الذي ذكر لويس أنه ورد في الحروب الصليبية، فقد كان ضمن قصيدة للمعري يمدح بها «الشريف العلوي» بعد أن أرسل إلى أبي العلاء أبياتًا أولها:

بعادُك أسهر الجفن القريحا

ودارك لاتني إلا نزوحا

وإذا عرفنا أن المعري مات قبل بداية الحروب الصليبية بنحو أربعين عامًا على الأقل، فإن المسألة لدى لويس عوض تخرج عن مجال البحث العلمي المجرد، إلى مجال آخر ليس علميًّا وليس مجردًا، وهو مجال التعصب الطائفي، والدعاية الفجة لأعداء الأمة[1].

---

(١) انظر «لويس عوض.. الأسطورة والحقيقة» لحلمي القاعود (ص١١٨) وما بعدها ـ دار الاعتصام.

أيضًا فإن لويس عوض قام بتفسير أحد الأبيات التي وردت في قصيدة أبي العلاء «النونية» يقول فيه:

فإذا الأرض، وهي غبراء صارت

من دم الطعنّ وردةً كالدهان

فقد جعل لويس الصفة «وردة» اسمًا، وفسّرها على هواه، حيث قال:

والمعري نفسه ينسج على صورة الوردة في سقط الزند، ويجعلها في الأرض لا في السماء، يعني كما في سورة «الرحمن» وكما في دانتي الذي أخذ عنهما «الوردة السماوية» (روزا مسكيتا)!! في حين أن المعري يقول: إن الطعن والقتل قد استمر فسالت الدماء حتى غشّت الأرض، فصارت أرض الميدان بالدماء حمراء كالأديم الأحمر المشرق[1].

❑ وهذه الأخطاء المقصودة وغيرها تدل عى أن (لويس عوض) يفتقد أبسط مبادئ الأمانة العلمية، ويفتقر إلى منهج البحث العلمي الدقيق، وهو ما توقف عنده (محمود محمد شاكر) طويلاً، وكشفه بوضوح عندما تبين أن الرجل لم يرجع في كلامه عن أبي العلاء إلى مرجع أصيل واحد يتعلق بشعر أبي العلاء أو حياته أو تفسير القرآن الكريم أو الأسماء الواردة في كلامه، فوقع في التخليط والتلفيق، ويستحسن أن ننقل هنا ما قاله (محمود محمد شاكر) على طوله، حيث يلخص أخطاء لويس عوض العلمية والفكرية يقول:

«.. هذا الرجل الذي طلع علينا في طيلسان وجلاجل، قد ادعى منهجًا كمناهج الأساتذة الجامعيين سلكه في دراسة رسالة الغفران، وتاريخ

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٠٣) وما بعدها، وقد حذف لويس عوض البيتين اللذين جعلهما صليبيين عندما نشر كتابه «على هامش الغفران» عن دار الهلال عام ١٩٦٦م.

شيخ المعرة، فحاكمته إلى أوائل ما يعرف الطلاب الصغار عن المنهج، فاتضح أنه يجهل منهج الدراسات الأدبية جهلاً تامًا، وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع بذلك حتى أبرئ ذمتي، فكشفت عن أكبر خطيئة لا تغتفر لطالب صغير مبتدئ، وهي العجلة في قراءة النصوص، فأثبت أنه نقل نصًا من كتاب واحد هو كتاب الدكتور طه حسين، لم يقرأ قط في غير هذا الكتاب، ومع ذلك فهو إنما قرأ أسطرًا كالملهوف وترك ما بعدها من الأسطر، وهي التي فيها نقد الدكتور طه لهذا النص نفسه، وكان من الغثاثة والادعاء أنه استخرج من هذا النص الفاسد المستحيل المعنى أحكامًا ألقاها للناس كأنها حقيقة مفروغ منها، وهذا غش فاضح وعبث. وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع بذلك فأبرأت ذمتي أيضًا ببرهان قاطع على أن هذا الرجل قد ادعى في كلامه أنه قرأ كتبًا بأعيانها، وهو في الحقيقة خطاف جريء يتكئ على كتاب الدكتور طه وحده بلا بصر ولا فهم، فمن أجل ذلك أخذته بادعائه ومخرقته، حتى أكشف للناس أنه لم يقرأ شيئًا مما ذكر من الكتب ولا رآها ولا عرف ما هي ولا من أصحابُها، وصدقته في ادعائه الكاذب ليكون ذلك أشنع له؛ لأنه يكون عندئذ قد قرأ نصًا لم يعرف معناه، ولم يعرف كيف يدرسه طالب جامعي مبتدئ ضعيف، وكان هذا أيضًا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع بذلك فأبرأت ذمتي مرة ثالثة، بالدلالة الحاسمة على أن هذا الذي كتب ما كتب عن شيخ المعرة لم يقرأ شيئًا من آثار شيخ المعرة، وبخاصة شعر سقط الزند، وهو الشعر الذي يتعلق بالخبر الذي ادعى مُتَنَفخًا أنه قرأه فهو لم يفهم إذن منه حرفًا على وجه يليق بمبتدئ

جامعي، وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام. ولكني لم أقنع بذلك حتى أبرأت ذمتي مرة رابعة، وذلك حيث زعم بمخرقته أنه جاء يعرف الناس بحقيقة شيخ المعرة، وحقيقة تاريخه، فذكر أكاذيب وأوهامًا لا أصل لها إلا في خيالاته وسماديره، فكشفت بلا ريبة عن أن هذا الدعيّ لم يقرأ كتابًا واحدًا في ترجمة شيخ المعرة، ومع ذلك فهو يأتي بلا خجل، ولا حياء فيذكر كذبًا صراحًا مناقضًا للمعقول من حياة الشيخ ومن حياة أسرته، ومن حياة أمته التي عاش فيها، وكان هذا هو حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع حتى أبرأت ذمتي مرة خامسة، بدلائل قاطعة على أن هذا الرجل الذي يدارس نصًا عربيًا من أعظم النصوص لا يملك أي إحساس أدبي، بأي نص يقرؤه، ولو ظل يكتب في الأدب عشرات المجلدات، وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكني لم أقنع بذلك، حتى أبرأت ذمتي مرة سادسة فبينت جهل هذا الرجل وادعاءه ببرهان فاصل من نص كلامه هو في صفة نفسه، إذ قال:

إن إحساس لويس عوض باللغة العربية ضعيف جدًا، وأجنبي جدًّا، ومع ذلك فهو يعمد إلى النصوص الأدبية في لغة العرب فيدرسها بمخرقة شنيعة، وبلا حياء ولا يقنع بهذا، بل ينتهي به ما أطبق عليه من الهوس والجرأة، فيعمد إلى آية من القرآن الكريم العظيم، فيفسرها بغباوة وجهل راسخ، ثم لا يستحي فيدعي نسبة ذلك إلى كتب المفسرين المسلمين، موهمًا أنه لا يفهم، ويزعم أن الرجل الذي يدرسه قد جاء في شعره بألفاظ هذه الآية، بالمعنى الذي يفسره هو[1].

(١) «أباطيل وأسمار» (ص١٣٦ ـ ١٣٩).

ولا شك أن هذا الملخص لأخطاء لويس عوض وخطاياه يكشف عن أهمية المعركة التي احتشد لها شاكر على مدى خمس وعشرين مقالة طويلة نشرت في مجلة «الرسالة» على مدى عامي ١٩٦٤، ١٩٦٥م وانتهت بإغلاقها مع معظم المجلات التي كانت تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي آنئذ، وانتهت أيضًا بإيداع الرجل السجن لأكثر من سنتين، خرج بعدهما ليجمع هذه المقالات في كتابه «أباطيل وأسمار» مضيفًا إليها مقالة قصيرة ضمنها بعض أبيات المعري الدالة على عمق المحنة التي تعرض لها على المستوى الشخصي، وتتعرض لها الأمة على المستوى الفكري والثقافي والحضاري[1] .

وكما رأينا في هذا الملخص، فإن لويس عوض حين تجرأ على تناول «رسالة الغفران» ليزعم أن المعري قد تأثر بالآداب الأوربية القديمة، لم يستخدم منهجًا صحيحًا، ولم يتسلح بمعرفة جيدة، ولم يدخل إلى الموضوع بتجرد الباحث المنصف، ولكنه كان مقصرًا في العناصر كافة اللَّهم إلا تعصبه للحضارة الأوربية ومفرداتها العنصرية.. ومن ثم، فقد امتدت المعركة لتتجاوز المعري إلى قضايا أخرى عديدة تخص الواقع الثقافي العربي المعاصر

---

(١) يقول الشيخ محمود شاكر في مقالته القصيرة «السادسة والعشرين» وكانت بعنوان «ثم غلّقت الأبواب» وقد حذفت من الطبعة المصرية لكتاب «أباطيل وأسمار» وقد أثبتها حلمي القاعود في كتابه «لويس عوض.. الأسطورة والحقيقة» (ص٢٩٥) في الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٥ (٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٥)، وأحاطت بي الأسوار، وأظلمت الدنيا، وسمعتُ، ورأيتُ، وفزعت وتقزّزت.. وكان ما كان.

وعلمتُ، حتى ما أُسائِل واحدا ... عن علم واحـــدة لكي أزدادها

وتسلّيت عن كل ما ألقى بقول شيخ المعرّة:

ويســـوسـون الأمور بغير عـقل ... فينفـــذ أمْرهـــمْ ويُقال: ساسهْ

فأفَّ من الحيـــــاة وأفَّ مني ... ومن زمن رئاســته خســـاسهْ

أو بمعنى آخر تخص الصراع القائم بين حضارة الأمة المستباحة، والحضارة الغازية القاهرة. . وهو ما ألح عليه شاكر في مواضع عديدة أشرنا إلى بعضها من قبل وأكد عليه في مقدمة الكتاب الذي حمل مقالاته في الرسالة، حيث قال: «وقد سرت في هذه الفصول المتشعبة المعاني (يشير إلى مقالات الكتاب) سيرة واحدة، فضمنت جميعها بابًا أو أبوابًا من النظر إلى حقيقة الصراع الذي دار، ولم يزل يدور على أرضنا وفي عقولنا، وفي ضمير أنفسنا، وأشرت في مواضع كثيرة إلى أن هذا الصراع صراع بين حضارتين مختلفتين في جذورهما أشد الاختلاف: حضارة طال عليها الزمن فغفت غفوة آمن مستريح لا يفزعه شيء، وحضارة واتاها الزمن فهبت يقظة متلفتة جريئة لا تأمن أحدًا ولا تطمئن إليه. .».

❑ ثم أضاف بعد حديث عن بداية الصراع الحديث وطبيعته وأساليبه «الجيوش ـ التجارة ـ المبشرين»:

«وأطبقت على رقعة العالم العربي والعالم الإسلامي ضبابة كثيفة، ووطئ عليها تاريخ يسحق القوى وينسفها نسفًا. . وكانت قصة طويلة متمادية، تقطر دمًا وغدرًا وخيانة، وترشح مكرًا وخبثًا وخسة وفظاظة».

❑ ويستطرد محمود محمد شاكر، في بيان أن الثقافة والأدب والفكر من أخطر ميادين هذا الصراع، ويزيده خطورة أن الذين تولوا كبره والذين ورثوهم من خلفهم رجال منا، من بني جلدتنا، من أنفسنا، ينطقون بلساننا، وينظرون بأعيننا، ويسيرون بيننا آمنين بميثاق الأخوة في الأرض أو في الدين، أو في اللغة، أو في الجنس. .[1].

❑ وهكذا يتبين لنا أن المعركة تجاوزت مسألة تزوير أبيات المعري، التي

(١) «أباطيل وأسمار» (١١ ـ ١٢).

أشرنا إليها من قبل لويس عوض، وتعمده أن يوظف هذا التزوير لإشباع ميله إلى التعصب، ورغبته في الإعلاء من شأن العالم الصليبي، وصارت القضية الكبرى هي الصراع بين الحضارتين، الحضارة الغافية «حضارة الإسلام» و«الحضارة اليقظة «الصليبية» وتعدد أساليب الصراع وميادينه..

لقد وقف إلى جانب محمود محمد شاكر عدد كبير من الكتاب، وخاصة في مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» وقد أسهموا في كشف أخطاء لويس عوض وخطاياه.. ومن ناحية أخرى فقد وجه لويس عملية كشف الأخطاء والخطايا بطريق غير مباشر عن طريق بعض أصدقائه وتلاميذه ومعظمهم من اليساريين، وقد تولوا الدفاع عنه، وتحويل المسألة إلى صراع سياسي بين الرجعية والتقدمية أو بين أعداء النظام من الرجعيين «ويمثلهم شاكر ومن معه» ومؤيدي النظام من الاشتراكيين التقدميين، وقد برز من هؤلاء كما سبقت الإشارة محمد مندور، ومحمد عودة، ومحيي الدين محمد، وغالي شكري، وكتاب مجلة «روز اليوسف» وصحيفتي «الأهرام» و«الجمهورية» وقام «لويس عوض» بعد أن سكنت العاصفة، وأغلقت المجلات، ودخل شاكر وآخرون السجن بإعلان بهجته واحتفائه بما يسميه «معجزة صيف ١٩٦٥م» (يقصد إغلاق المجلات وسجن الخصوم) ومطالبة الكتاب والفنانين والمفكرين بمقاتلة الرجعية وأفكارها، بعد أن اتهمهم بالتقصير أو «إنهم كانوا يعانون أزمة نفسية جماعية بلبلتهم وأخرجت زمامهم من أيديهم»[1].

❑ ثم إن (لويس عوض) أفرغ ما في نفسه بالسب والقذف في هؤلاء الرجعيين من خلال كتابه «المحاورات الجديدة» الذي سبقت الإشارة إليه، وللأسف فإنه لم يتخذ منهجًا علميًّا أو موضوعيًّا للردّ على أخطائه وخطاياه،

(١) الأهرام ١٩/ ١١/ ١٩٦٥ (ص١٢).

بل إنه تجاهلها تمامًا وراح يسخر من الرجعيين والمتمسكين بالتراث ويتهكم عليهم ويصورهم تصويرًا كاريكاتيريًّا باردًا.. وكان حرصه الأول في كتابه على التحريض ضد هؤلاء الرجعيين من عينة قوله:

«.. الميثاق (بيان أصدرته الحكومة وجعلته مشروعًا للعمل القومي) نادى بالتقدمية والنظر إلى الأمام ومجلات وزارة الثقافة ـ يقصد «الرسالة» و«الثقافة» وغيرهما ـ نادت بالرجعية وعبادة السلف.. الميثاق نادى بمساواة المرأة بالرجل وبتحرير المرأة من أغلالها ومجلات وزارة الثقافة نادت بانحطاط المرأة وبضرورة اعتقالها في الحريم.. الميثاق نادى بالاشتراكية العلمية ومجلات وزارة الثقافة نادت بالاشتراكية البورقيبية.. الميثاق مجد رفاعة الطهطاوي ولطفي السيد، وفلسفة الأخذ والعطاء مع الحضارات الأخرى، ومجلات وزارة الثقافة مجدت إغلاق النوافذ وتحسرت على انسلاخ مصر من الامبراطورية العثمانية.. الميثاق دعا لتنظيم الأسرة كجزء من برنامج التنمية ومجلات وزارة الثقافة كافحت تنظيم الأسرة.. إلخ»[1].

❑ وعلى هذا النحو يمضي لويس عوض في توجيه التهم ضدها وضد من يحررونها ممن يسميهم بالرجعيين، دون أن يشير أدنى إشارة إلى خطأ واحد أو خطيئة واحدة مما اقترفه في كتابه «على هامش الغفران» فيرد أو يعلل أو يصحح!

❑ ويقول الدكتور حلمي القاعود أيضًا:

أما معركة «المعري» فكانت معركه العصر الأدبية والفكرية بلا جدال، إذ إن الوقت الذي أُثيرت فيه المعركة كان يشير إلى عدم التكافؤ بين طرفي المعركة، فالطرف الذي يمثله شاكر، كان مطلوبًا من أطراف أخرى داخلية

(١) المحاورات الجديدة أو «دليل الرجل الذكي إلى الرجعية والتقدمية وغيرهما من المذاهب الفكرية» للويس عوض ـ (ص١٩) وما بعدها ـ الكتاب الذهبي «روز اليوسف».

وخارجية.. وكان وصمه بالرجعية وعداء الاشتراكية وما أشبه مسألة فوقية تريدها السلطات المحلية والقوى الأجنبية في آن. أما الطرف الثاني الذي يمثله (لويس عوض) فهو الطرف المدلل لدى السلطة، ولدى القوى الأجنبية جميعًا، فهو داعية للقضاء على هوية الأمة ومواريثها، وداعية إلى اللحاق بالآخر الغربي وقيمه ومثله وقد عبر عن ذلك بوضوح لإخفاء بعده في سيرته الذاتية التي صدرت قبيل وفاته بعنوان «أوراق العمر» (١٩٨٩م).. وقد أدى في فترة الستينيات دورًا جيدًا كوفئ عليه بتعيينه «مستشارًا ثقافيًّا» للأهرام، وهي أول مرة ينشأ فيها مثل ذلك المنصب الرفيع في تلك الجريدة العريقة.. فضلاً عن اكتسابه ما يشبه الحصانة داخل «الأهرام» وهيمنته على بقية الصحف والمجلات الحكومية.. أما الطرف الأول. فقد كانت مكافأته السجن، وإغلاق المجلات التي كانت تصدرها وزارة الثقافة، ومحاصرة الأقلام التي كشفت الأخطاء والخطايا لدى لويس عوض..

بيد أن النتائج النهائية لهذه المعركة كانت بلا ريب في صالح الطرف المهيض الجناح، إذ أن المجتمع الأدبي بعد نحو ثلاثين سنة تقريبًا من السجال، أسقط لويس عوض وما يمثله، واعترف بأهمية الدور الذي قام به محمود محمد شاكر في مجال الدفاع عن هوية الأمة وتراثها، ولا أدل على ذلك من تدفق المشاعر الفياضة لدى مثقفي الأمة وأفرادها الذين لا يملكون سلطة ولا هيمنة، تجاه (محمود محمد شاكر) بالتقدير والعرفان وافتقاده بعد رحيله حارسًا على اللغة وأدبها، والدين ومعطياته.. مما يعني أن المعارك الأدبية التي خاضها شاكر ـ كانت كما قال ـ صراعًا بين حضارتين، وليست مجرد سجال بين كاتبين أو أكثر في قضية أدبية أو فكرية تنتهي بالفراغ من كتابتها. ولم يكن مستغربًا أن يقف الفريق الموالي للغرب من وراء لويس عوض، وأن تقف الأمة وراء محمود محمد شاكر؛ لأنه بالنسبة لها رمز الاستقلال والحرية والأمل، مهما ادلهمت الظلمات وتكاثرت النكبات

واشتدت المحن!

❑ رحمك اللّه يا شيخ العربية:

قد جئت في زمن ضاعت مكارمه
وحرمة اللغة الغرّاء تُستَلَبُ
فكنت سدًّا منيعًا دون حوزتها
من أن يغير عليها الخائنُ الدَّرِبُ
رُمت «الأباطيل والأسمار» تدحضُها
فهُتِّكتْ دونها الأستارُ والحُجُبُ

❑ وفي حوار معه أجراه الدكتور نجم عبدالكريم[1] قال الشيخ محمود شاكر:

«إن هذا الجيل الذي نراه منزوعًا من أصوله نزعًا كاملاً.. الجيل الذي نشأ في السنوات الأخيرة كله منزوع من أصوله نزعًا كاملاً. وأنه لا بقاء لأمة.. لا بقاء لأمة بغير حصيلتها الماضية! بغير هذا التيار المتدفق من القرون الطويلة.

وأعني بالتيار المتدفق ذلك التيار الفكري واللغوي الذي يعيش به الإنسان.. الإنسان يعيش بلغته ـ فهذا الانفصال بين الماضي والحاضر قاطع بأن كل طريق في الحياة الأدبية سوف ينقطع أيضًا.

❑ كأنك بذلك تدق ناقوس الخطر؟

نعم.. لا تستطيع أي أمة أن تعيش بغير تاريخها، والذي يريد أن يُنشئ في هذا الزمن أمة أخرى عن طريق التوهم فهو مخطئ، فتأسيس أمة جديدة

(١) عن صحيفة الشرق الأوسط ـ العدد ٥٦٦٣ ـ الثلاثاء ٣١/٥/١٩٩٤، وجاء كاملاً بمجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص٥٦ ـ ٦١).

عن طريق التوهم ضرب من ضروب الخطأ، الأمم بلسانها فقط، الأمم بحركاتها الأدبية واللغوية فقط.. أما الأشياء الأخرى من الصناعة إلى كذا وكذا.. أو الآراء الاجتماعية وما شابه ذلك فهي زائلة ومتحولة، أو يمكن أن تتحول في أي وقت من الأوقات.

ولكن إذا تحوّل التاريخ فلا يمكن أن يبقى إنسان على صورة صحيحة في هذا الحياة.

❑ وقال ـ رحمه اللّه ـ لما سُئل عن موقفه من لويس عوض؟ قال:

«الذي دفعني لموقفي أني وجدت شيئًا غريبًا جدًّا كنت أراه مفرقًا ثم رأيته مجتمعًا.. وقد ذكرت ذلك في مقدمتي «أباطيل وأسمار» قلت: كيف تنبهت إلى هذا فقد انفتحت عيناي على شيء مخيف، وهو أني أرى اكتساحًا كاملاً مرورًا بالزمن للعقل العربي والمصري.. وأنا أذكر مصر هذه المرة، وأقول: أن الخطر آت من مصر، وإني أرى توجيهًا شديدًا لمحق كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالحياة الصحيحة للفكر الأدبي في المستقبل.

ومعنى هذا أن هذه المعركة ليست معركة أدبية، إنما هي معركة سياسية بمعنى أنهم يمنعون الأمة مما يجب وينبغي أن تكون عليه وخاصة في مصر.. لأني كما قلت لك اعتقد أن تاريخ الأمم هو تاريخ النفس الإنسانية في تعبيرها عن ذاتها، فإذا مُحِق هذا التعبير الحقيقي الصحيح، فقد انتهت الأمور، فالحرب من هذه الناحية إذن هي حرب الكيان السياسي لا الكيان الأدبي. إنما أنا أعتقد أن هذا الذي ذكرت اسمه في كلامك؛ لأنه لا يساوي شيئًا في التاريخ الأدبي الصحيح ولا فهم له ولا إدراك في أي شيء.. أنا لا أريد أن أذكر هذا الاسم لأنه ثقيل عليّ، وهو ثقيل عليّ منذ زمن قديم.. وقد ذكرت هذه القصة.. فأنا أقرأه منذ كان صغيرًا، وأراه وأعرفه وأعرف

كيف نشأ، وكيف نشأ أستاذه[١] أيضًا، وكيف تكوّن أستاذه، ومن يليه، أعلمهم وأعرفهم جميعًا.. لو كانت لنا أمة حقيقية لفهمت هذه الأشياء؛ لأن الأمم الأخرى تفهم كيف تُحصن نفسها من سموم هذا وأشباهه.

هذا الكلام قيل على لسان من هم أكبر من هذا الذي لا أريد ذكر اسمه؛ لأنه تابع بسيط مبتذل مبهور في كتب من سبقوه من اليهود وأمثاله.

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«أحب أن أقول لكل امرئ أنه مسئول أمام هذه الأمة التاريخية العظيمة المسماة بالأمة العربية مسئولية حقيقية.. وأن على كل امرئ أن يبصر طريقه بوضوح قبل أن يفوت الوقت.. فإن الأمم ليست بالصورة التي نتصورها.. الأمم تفنى وتزول، وأنتم ترون بأعينكم أنكم تُعاملون في العالم الآن معاملة شاذة جدًّا في تاريخ البشر، ولا يمكن أن يحدث في التاريخ القديم والمعاصر ما حدث لكم، لقد وصلت الأمور في بلادنا أننا طُردنا من بيوتنا وشُرِّدنا من أوطاننا وانتهكت كل الحقوق في بلادنا دون أن يتحرك في العالم ضمير إنسان، ودون أن يتحرك حتى الضمير العربي.

واللغة العربية من أشرف اللغات بين العالم، فاللسان هو حياة الأمة لا حياة لأمة بغير لسان!، واللسان كالنهر الجارف يجمع كل محصول الأمة، وهو كالغيث منهمر لآلاف القرون، ليتكون منه هذا النهر العظيم.. فإذا انقطع هذا النهر فقد وقعنا في أكبر خيبة» ا.هـ.

❑ قال الدكتور حيدر الغدير في قصيدته «الصقر»[٢]: «كان محمود محمد شاكر أمة وحده.. فهو شيخ العربية، وعاشق العروبة، وحارس

---

(١) عدو الإسلام.. القزم سلامة موسى.

(٢) مجلة الأدب الإسلامي ـ العدد السادس عشر (ص٦٢ ـ ٦٤).

التراث، وفارس الأصالة، جمع إلى غيرة المسلم عزة العربي.. غفر اللَّه له ورحمه وأنزله منازل الأبرار والصالحين.

صقر على شم الرعان يُحلِّقُ ومداه مغرب شمسها والمشرقُ
والنجم والأفلاك في تطوافها والروح في أسرارها والمطلقُ
نسجته من أرض الجزيرة ريحها ونخيلها وخيولها والأينق
وجبالها ورمالها وجلالها وبيانها العذب الشهي المونقُ
وحراء والآي الزواهر تزدهي فيه وتهدي العالمين وتعبقُ
فأتى أبرّ رجالها وأعزهم وأحبّ ما يرجو الفخار ويعشقُ

باق عطاؤك في الزمان مفاخراً
كالنيرات زواهراً تتألق
ستظل للفصحى وإن كره العدا
العُلم يروي والصوارم تبرق
أما عِداك ففي غد راياتهم
تطوى كما يطوى الظلام وتمحق
فيقول راوٍ عارَهم وشنارَهم
انظر إليهم لا بقين ولا بَقُوا

* * *

وهبتك آيات الفصاحة سرها
فإذا بك القلم البديع الشّيق
والضاد أنت نجيُّها ونجيبها
وعليمها وكليمها المتذوق

والحارس الشاكي يصـون ذمـارها
ويصـول إن حمي الوطيس ويهـرق
غضباً لهـا وحميـة مبـرورة
وجـذاه إعصـار يطوف ويحـرق
فإذا انتصفت لهـا رجعـت مكلّلاً
بالنصـر وهو مزغرد ومصـفق
ورجعـت بالرضـوان أنـك صنتهـا
أمـا الجبين فبالجـلال مطـوق
وعلى محيـاك الأبـي وضـاءة
تسـري فيـأتلق الحجـا والمفـرق
والضـاد تهديـك الثنـاء متوجـاً
والمسك أكـرم طيبـه والزنبـق

***

ولقـد عرفتك في فـؤادك حُرْقـة
نزَّت جراحـاتٌ تفيضُ وتَفْهَقُ
أدمنت حزنـك إذ رثيت لأمـة
هي منك قلبك في الجـوانـح يخفق
وجعلت همك أن تكـون بشيـرها
ونذيرهـا العريـان وهـو المشفق
والسيفَ سُلّ فمـا يعـود لغمـده
والحاديَ الهـادي يقـول ويصـدق

وجعلتها عرضًا يصـــان ويفتـــدى
بالغـاليـــات الطيبـات ويصـدق
عاينتهـــا فوجدتهـــا مصـــروفـــة
عن رشـــدها والجهـــل شـــر مطبق
فهتـــفت من قلب يكـابر لوعـــة
والحـزن عاصفـــة ونـار تحـرق
أبنـــاء إسـماعيل أنتـــم أمـــة
في التيـــه مرهقـة الخطا تتمـزق
أنتم أســـارى الجهـــل يدعـوكم له
لَسِنٌّ يقول ومـــدَّعٍ يتشـــدق
أو ســـامريٌّ في الجهـالة خابط
يسعى بـه حقـد قديـم أزرق
أو مستكين قـــاده مســـتغـرب
أو قـــاده لضـــلاله مستشـــرق
تتراكضـــون وراءه وشـــرُورُه
فيكم أشـــد من الزعـــاف وأرهـق

* * *

ولقـد رحلتَ وفي فـؤادك غصـة
والعين يغشـاها الذهـول المرهـق
أبصـرت أمتـك الكريمـة قصعـةً
وحمىً مباحًا في المذلـة يغْرق

عبثت بهـا أدواؤها وبلاؤهـا
فيها ومنهـا غاشيـات تطـرق
والمسلمـون من الهـوان كأنهـم
دِمَنٌ صـواد بالبلى تتمـزق
«نتن» يعيث بهم ويعلـم أنهـم
لن يثـأروا مهمـا رغـوا وتشدقـوا
يُقْضىَ عليهـم غائبين فـإن أتـوا
لم يغضبـوا أو يأنفـوا أو ينطقـوا

* * *

لا أبـا فهـر فـأمـةُ أحمـد
ستظل كالشمس المنيـرة تشـرق
إن الذي حفظ الكتـاب وصـانه
نـورًا يفيض وجـدولاً يترقـرق
سيظل يحفظها ويعلي شأنهـا
ويقيـل عثـرة أمرهـا ويُـوَفّقُ
منهـا اللياذ به ومنه حفظهـا
والعهـد منـه ومنـه جلّ الموثـق
ألاّ تمـوت وإن كبت في سيرهـا
بل تسـتجيش ومن جديـد تخلـق
فتعـود بالبعث الجديـد فتيـة
كالغـاب من بعـد اليبوسة تـورق

واللّه واق من يؤوب لأمـــره
وهو الحفـــي بمـــن أتـــوه الأرفـــق

* * *

*** الدكتور محمد محمد حسين الحامي لحصوننا الداخلية يفضح التغريب وينذر قومه:**

صرخات مدوية، ونفثات صادقة حاول صاحبها الدكتور محمد محمد حسين إيقاظ النائمين من سباتهم العميق، وتنبيه الغافلين مما يحاك لهم من مخاطر.

❑ يقول ـ رحمه اللّه ـ:

«إني رأيت الإلحاد والانحلال في هذه الأيام يشتعل ويسري سريان النار في يابس الحطب، ورأيت دعاته يستفحل أمرهم في كل مكان، ورأيت الناس مشغولين بالجدل والنقاش حول ما يثيرونه من موضوعات يسترون مآربهم الهدَّامة من ورائها تحت أسماء خلاَّبة برَّاقة، كالنهضة، والتحرر، والتطور، ومتابعة ركب الحياة، وهي موضوعات منوعة تشمل الحياة في شتى نواحيها، يخترعونها ثم يهولون من شأنها ويكثرون من الأخذ والرد حولها حتى يلفتوا إليها أنظار الناس، وحتى ينشأ جيل جديد مرنت أذنه منذ وعى على سماع المناقشات حول هذه الموضوعات، فيتوهم أنها مشكلات حقيقية لا بد لها من حل، ويتجه في أغلب الأحيان ـ كما جرت عادة الناس ـ إلى أنصاف الحلول التي ترضي الطرفين المتخاصمين حسب وهمه. والخاسر في حقيقة الأمر هو صاحب الحق. والربح كله للباطل وأصحابه.

❑ ولا يزال أصحاب الباطل ماضين في اتخاذ هذا الأسلوب نفسه جيلاً من بعد جيل، يزحفون ويزحفون، حتى يسدّوا على الناس كل سبيل للحق،

أو يفتح اللّه بابًا من أبواب رحمته فيبعث عليهم من ينكّل بهم ويقطع دابر ما يثيرونه من فتن.

❑ ولكن الجديد في أمر هؤلاء الدعاة أن شرهم لم يعد مقصورًا في هذه الأيام على الكلام، فقد انتقلوا من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل بعد أن نجحوا في التسرب إلى الحصون التي تحمي قيمنا، وأصبح كثير منهم في مناصب تمكّنهم من أن يدسّوا برامجهم وخططهم على المسئولين من رؤسائهم وينفذوها في صمت، ودون أن يثيروا ضجة تلفت إليهم المعارضين.

❑ ولهؤلاء المفسدين عصابة تشد أزرهم وتشيد بهم وتنوّه بذكرهم وتحميهم من خصومهم وتقطع ما يهاجمون به مما ينبه الناس إلى شرهم عن كل وسائل النشر، فلا يصل إلى آذان الناس أو عيونهم شيء منه. وأنا حين أزعم أن هؤلاء الدعاة ينتمون إلى عصابة ذات خطر إنما أعني بالعصابة كل مدلولها وكل حرف من حروفها وكل مفهوم من مفاهيمها.

❑ هذه العصابة قليلة العدد. ولا ترجع قوتها إلى كثرة عددها. ولكنها ترجع إلى تماسك أفرادها وتضامنهم، يساعد بعضهم بعضًا، ويحمي كبيرهم الصغير، ويمهد السابق منهم للاحق، ويهيئ له فرص الظهور والترقي، بينما يتخلصون بمختلف الوسائل من الخصوم الذين يعارضونهم والذين يقفون في وجه خططهم. يحدث ذلك كله في الظلام وفي صمت. وقد لا يكون هناك تنظيم واحد معروف بعينه يضم الهدامين ودعاة الشر كلهم جميعًا، ولكن المهم في الأمر أنهم جميعًا، على اختلاف نزعاتهم وعلى تباين ساداتهم وشياطينهم، متعارفون متضامنون، والمتدبر لخططهم وتحركاتهم في إحكامها، وفي تناسقها، وفي وحدة أهدافها، وتشابه أساليبها في كثير من الأحيان، وفيما تستند إليه من نفوذ واسع، لا بد أن ينتهي إلى أن هناك هيئات منظمة تنظيمًا دقيقًا من وراء هذه الحركات، وأن بين هذه الهيئات قدرًا كبيرًا من

التفاهم واتفاق المصالح. وعصابة الهدَّامين تستمد قوتها وخطورتها من هذا التنظيم من ناحية، ومن أنها مجهولة الرأس والحدود والأطراف والأساليب والأعوان من ناحية أُخرى. وهذا التنظيم وهذه السريَّة هما مصدر قوة هذه العصابة التي لا تفترق عن عصابات السطو والإرهاب في شيء. فهي لا تعتمد في تنفيذ خططها على الإقناع شأن أصحاب الرأي، ولا على الكثرة شأن أصحاب (الديموقراطية) المزعومة، ولكنها تعتمد على العمل في الظلام وعلى البطش بالخصوم والتخلص من المعارضين ومؤازرة الأولياء والأصدقاء وتمكينهم من مقاليد السلطة. وهم يسلكون لذلك كل سبيل ويستغلون فيه كل وسيلة، وعلى رأس هذه الوسائل الصحافة والإذاعة والمنابر ودور النشر وشراء الذمم والتهديد بالفضائح.

❑ ومن هذه الأساليب التي لا تحصى أسلوب مشهور معروف لم يعد يخفى على بَصير، يُلقي أعضاء هذه العصابة شباكهم حول أصحاب النفوذ والسلطان ويدخلون إليهم من أقرب الأبواب إلى قلوبهم وأضعف الثغرات في نفوسهم، ثم يتظاهرون بالتفاني في حبهم والإخلاص في خدمتهم، فيلازمونهم ملازمة الظل، لا يغادرونهم طرفة عين، ويراقبون منهم الإشارة والبادرة، مراقبة الكلب الأمين لصاحبه، حتى يصبح التابع منهم لازمة من لوازم سيده ووهمًا مسلطًا عليه لا يتخيل إمكان الاستغناء عنه، وبمرور الأيام تتحول هذه البطانة إلى سور ضخم شاهق يحجب عن بصر صاحب النفوذ كل شيء عداه، فحيثما وجّه البصر لا يرى إلا هذا السور، وتصبح هذه الدائرة الضيقة هي دنياه، لا يعرف شيئًا مما يجري وراءها في دنيا الناس، وعند ذلك يصبح صاحب النفوذ في حقيقة أمره سجينًا من حيث لا يدري، لأنه لا يرى إلا ما يسمحون له برؤيته، ولا يسمع إلا ما يسمحون له بسماعه وحسبك بهذا سجنًا، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يصبح صنمًا معبودًا كعجل

الكفار من الفراعنة، يحبس في الظلام، ولا ينتفع بعبادته وتقديسه إلا سدنتُه.

❑ وأخطر ما في أمر هذه العصابة أن أفرادها يتمتعون بكل ما في حرب العصابات من مزايا. ومن أخطر هذه المزايا أن الجهاز الحكومي ـ وهو يشبه الجيش النظامي ـ لا يستطيع توجيه الضربة القاضية إليهم. لذلك كان من أنجح الأساليب في مكافحتهم أن تدرس خططهم وأساليبهم في الكيد والدس وينبه الناس إليها. عند ذلك ينكشف الستر عن الذين يستمدون قوتهم من العمل في الظلام، ويجدون أنفسهم وقد غمرتهم الأضواء وكشفت أوكارهم وسراديبهم. ولا يجدون بدًّا من اللجوء إلى سلاحهم القديم الذي بدءوا به وهو سلاح الدعاية. وقد فشلوا فيه من قبل، وسيكون فشلهم في هذه المرة ساحقًا ماحقًا بعد افتضاح أمرهم؛ لأنهم يسبحون اليوم ضد تيار قوي غلاَّب، ترعاه عناية اللَّه سبحانه، ويحفه توفيقه، ويمده مدده الذي لا ينفد وجنوده التي لا يعلمها إلا هو. ذلك هو تيار النهضة العربية واليقظة الإسلامية.

❑ من أجل ذلك كتبت هذه الكلمات لمجلة الأزهر، ثم أعدت نشرها مجموعة في هذه الصفحات. كتبتها لألقي الأضواء على الذين يعملون في الظلام، وأكشف الستر عما يدبرون في الخفاء، ولأفضح دسائسهم التي يلقون عليها حجبًا كثيفة من الرياء والنفاق، حين يندسون بين صفوف العاملين على بعث معالم شخصيتنا وإحياء شعائرنا وأشعرتنا، يتظاهرون بالغيرة على إسلامنا وعلى عروبتنا، حين تنطوي ضمائرهم على فساد العقيدة وحين يعملون لحساب العدو الذي يستعبدنا ولحساب الصهيونية الهدامة التي لا تريد أن تبقي على بناء قديم. هؤلاء هم أخطر الأعداء، وهم أول ما ينبغي البدء به في تطهير الحصون وتنظيف الدار؛ لأن الأعداء والمارقين ظاهر

أمرهم لا يخفون، وهم خليقون أن ينفروا الناس، فهم كالمريض الظاهر يتحاشاه الناس ولا يقتربون منه. أما هؤلاء فهم كالمريض الذي لا يظهر المرض على بدنه، فالمخالطون لا يحتاطون لأنفسهم في مخالطته. وأكثر ما تتعرض الشعوب للخطر من هذا الفريق في أطوار ثورتها ونهضتها؛ لأنها في هذا الطور تمر في دور انسلاخ تحاول أن تطهر نفسها فيه من الأوضار ومن النقائص، فيُلبِّس هذا الفريق من المنافقين والضالين والمضللين عليها أمرها، ويزينون لها الباطل زاعمين لها أنه هو سبيل النهضة، ويوهمونها أن كثيرًا من عاداتها الصحيحة الأصيلة هي من أسباب تخلفها وضعفها، ويزجون بها فيما رسمته عصابتهم من قبل وما قدَّرته من طرق ومسالك.

كتبت هذه الصفحات حين كتبتها لكي أفضح هذا النفر من المفسدين وأنبه إلى ما انكشف لي من أهدافهم وأساليبهم التي خُدعت بها أنا نفسي حينًا من الزمان مع المخدوعين، أسأل اللَّه أن يغفر لي فيه ما سبق به اللسان والقلم.

وقد كان مصابي هذا في نفسي وفي تفكيري مما جعلني أقوى الناس إحساسًا بالكارثة التي يتردى فيها ضحايا هؤلاء المفسدين، وأشدهم رغبة في إنقاذهم منها، بالكشف عما خفي من أساليب الهدَّامين وشراكهم.

❑ ومن الواضح أن هذه الصفحات لا تستقصي نشاط الهدامين ولا تستوعب كل ميادينهم ولا تحصيها عددًا، ولكنها تقدم نماذج منها تكشف عن أساليبهم في الدس والتزييف والهدم والتخريب، وهي أساليب لا يقتصر شرها على بلد دون بلد، فهي تعم بلاد العرب، بل بلاد المسلمين، بل الشرق كله، يسقونه السم على حين نهضته حتى لا تصح له نهضة، وليقوده إلى الهاوية التي يوشك الغرب كله ـ شرقيه وغربيه ـ أن يتردى فيها. وسيعلم القارئ من بعد أن إصبع الصهيونية العالمية الهدامة التي تطمع في أن ترث

الأرض وتستعبد كل من عليها لليهود من وراء هذه الدعايات والدعوات.

لذلك لم يكن من قصدي في هذه الصفحات أن أقنع الذين أنبه إلى خطورتهم، فأكثر هؤلاء دعاة وليسوا طلاب حق، لا يخرجهم من ضلالهم إلا أن يرزقهم اللَّه الهداية، ويشرح صدورهم للإيمان، ولا حرج عن فضل اللَّه ولا يأس من رحمته. ولكن أكثر قصدي في هذه الكلمات كان إلى الشباب خاصة، أنبههم إلى ما قد يخفى عليهم من حيل الهدامين وأساليبهم. وشيء آخر كان بين عيني أيضًا حين كتبت هذه الكلمات، وهو أن أقوم بواجب في عنقي نحو ولاة أمورنا، وأن أعينهم بالنصح فيما أعلم ابتغاء لثواب اللَّه، وإبراءً للذمة من عهدة لا تبرئني منها إلا هذه الكلمات.

ولست أبالي أن يكون المنتفعون بهذه الكلمات والذين يعونها حق الوعي قلة من الناس، بلى إني لا أطمع في أكثر من ذلك. ولكني أعلم أن اللَّه سبحانه قد يجري خيرًا كثيرًا على يد نفر قليل إن أعان ووفق وبارك، وأنا أسأل اللَّه العون والتوفيق، وأنا يبارك جهود المخلصين ممن يبتغون بعملهم وجهه الكريم»[1] اهـ.

*** «حصوننا مهددة من داخلها» لزام على كل مسلم قراءته:**

وهو كتاب جد خطير، أوضح فيه الدكتور محمد محمد حسين أن الدول لا تقوم بالمال والصناعة وحدهما، وتسقط الدول وتنحلّ وهي في قمة مجدها الصناعي والمال حين تفقد الخلق.

وأوضح ـ رحمه اللَّه ـ أن المؤسسات التي تقوم على صيانة الدين واللغة هي بمثابة الحصون التي تسهر على حمايتنا وسلامتنا، وأن أخطر ما يكون

---

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» للدكتور محمد محمد حسين ـ مقدمة الطبعة الأولى (ص١١ ـ ١٦) دار الرسالة ـ السعودية ـ الطبعة الثانية عشرة ١٩٩٣م.

الغزو إذا كان من داخل هذه الحصون والمعاقل، وأن وزارة التربية والتعليم من أهم هذه المعاقل لأنها تقوم على الثروة البشرية وهي أغلى الثروات.

□ قال ـ رحمه اللَّه ـ:

ولا شك أن وزارات التربية والتعليم هي أهم هذه المعاقل والحصون الساهرة على أمن الشعوب وكيانها؛ لأنها هي المؤتمنة على أثمن ما تملكه الأمة من كنوز، وهي الثروة البشرية بما تنطوي عليه من قوى مادية ومن ملكات عقلية وخلقية، ممثلة في رجال الغد الذين تشرف على تربيتهم، وهي ثروة تتضاءل إلى جانبها كل كنوز الأرض؛ لأن كنوز الأرض لا تساوي شيئًا بدونها. فالعقل هو الذي يستخرجها من مكامنها ويحيلها من مادة صماء جامدة إلى قوة حية منتجة، والخلق الديني هو الذي يدفع الناس إلى إعمال هذا العقل في الطريق الصحيح، وإلى بذل الجهد فيما وكل إليهم من أمور، أداءً للأمانة، وابتغاءً للعزة والسيادة وإعلاء الحق.

وقد أصبحت مطامع أمريكا في هذه المنطقة وعداوتُها لحماتها الذين يتصدون لحراستها ويتزعمون نهضتها مشهورة لا تخفى ولا تحتاج إلى تنبيه. فاتصال القائمين على شئون التربية والتعليم في هذه الأمة العربية بالمؤسسات الأمريكية، والتعاوُن معها في ترويج مبادئ وأساليب يقال إن المقصود بها هو رفع مستوى التعليم وإصلاح شئون الجيل الجديد، أمر لا يصدّقه العقل ولا يتفق مع ما يبذلون من محاولات ظاهرة وخفية لابتلاع هذه الأمة والكيد لها. فالذين يشتركون في المؤتمرات الأمريكية، والذين يتعاونون مع دور النشر الأمريكية، وكلها يموَّل من مصادر مريبة، يَسخَرون من عقولنا، ويخدعون أنفسهم إن زعموا أنهم يخدمون أمتهم بالاشتراك في هذه المؤسسات؛ لأن الأموال الأمريكية التي تنفق بسخاء يبلغ حد السّفه على هذه المؤتمرات وعلى هذه الدور لا يمكن أن تستهدف خير هذه الأمة ونفع أهلها.

❑ وقد وقع بين يدي في هذه الأيام كتاب أصدرته الجامعة الأمريكية ببيروت في العام الماضي (يوليو ١٩٥٦)، يحتوي على محاضرات في نظم التربية، هي سجل لما دار في مؤتمر دعت إليه هذه الجامعة، واشترك فيه جماعة من كبار المسئولين عن التربية في مصر وفي سوريا والعراق والأردن ولبنان. وقد مُثِّلت ثلاثة من هذه البلاد في ذلك المؤتمر الأمريكي بثلاثة وزراء سابقين للتربية والتعليم. فمثلت مصر بإسماعيل القباني، ومثلت العراق بعبدالحميد كاظم، ومثلت الأردن بأحمد طوقان، والأخيران من تلاميذ الجامعة الأمريكية الداعية لعقد هذا المؤتمر، وقد كان العضو الأردني يشغل عند عقد هذا المؤتمر منصب مستشار لشئون اللاجئين الفلسطينيين في منظمة الإغاثة الدولية. أما البلدان الباقيان ـ سوريا ولبنان ـ فقد مثلهما رجلان من كبار المسئولين عن التعليم وهما جميل صليبا عميد كلية التربية في الجامعة السورية، ونجيب صدقة المدير العام لوزارة التربية الوطنية والفنون في لبنان. وقد اشترك مع إسماعيل القباني في هذا المؤتمر عضو مصري آخر هو حامد عمار الأستاذ في معهد التربية العالي بجامعة عين شمس ورئيس قسم التدريب في المركز الدولي للتربية الأساسية في العالم العربي بسرس الليان.

❑ وهذا المركز الدولي للتربية الأساسية في العالم العربي لا عمل له إلا (سلخ) الريف العربي من دينه وخلقه وعروبته، و(طبعه) بالطابع الأمريكي، وهو يتولى هذه المهمة إتمامًا لما بذله الغرب من جهود في فرنجة هذه المنطقة، بعد أن تبين المستشرقون الذين يبحثون في شئون هذا الشرق الإسلامي والعربي أن تأثير الفرنجة لم يتجاوز المدن؛ لأن كل الوسائل والأساليب التي يستخدمها الغربيون في هذا الصدد من صحافة ودعاية ومؤسسات علمية أو اجتماعية وسينما وشراء للأقلام وللذمم وللرجال إلى آخر ما هنالك، كل ذلك لا يصل إلى الريف، ولا يتجاوز حدود المدن. فما الذي صنعته أمريكا

لتلافي هذا النقص، والاحتيال لدخول الريف الذي عجز التبشير وعجزت الأساليب الاستعمارية العتيقة عن اقتحامه إلى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة؟ اخترعت أمريكا تحت ستار (الدولية) وعن طريق (الأمم المتحدة) شيئًا اسمه «التربية الأساسية». وما هي التربية الأساسية؟ يقول الدكتور حامد عمار في بحثه الذي ألقاه في هذا المؤتمر الأمريكي: «التربية الأساسية منهج من مناهج الإصلاح الاجتماعي لرفع مستوى المعيشة يؤكد قيمة العملية التربوية وتغيير الأفكار والنزعات إلى جانب تغيير الأوضاع المادية (ص٩٢) محاضرات في نظم التربية».

❑ ويقول في موضع آخر: «تسعى التربية الأساسية إلى محاولة تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات، كما تسعى إلى تغيير في الأوضاع المادية في الدائرة التي تلتزمها. ويؤمن دعاة التربية الأساسية أن كل عمل أو مشروع مادي لا بد أن يسبقه ويصاحبه ويتبعه تغيير في تفكير الناس، وفي الاتجاهات الفكرية والنفسية، حتى يمكن أن يكون العمل منتجًا إنتاجًا كاملاً (ص٨٥)».

❑ وواضح أن تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات الذي أشار إليه الباحث يقوم على أسس غربية خالصة، تروَّج باسم العلم ـ علم مزعوم لا يستقر له قرار ولا يقطع في ظاهره برأي يتفق عليه أصحابُ الرأي، يسمونه «علم النفس» ـ وواضح أيضًا أن هذا «التغيير» ـ تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات ـ لا يبالي أن يخالف الإسلام وتعاليمه في الريف المسلم؛ لأن القائم على هذا (التغيير) ليس هو مشيخة الأزهر، ولكن القائم عليه هم مجموعة من (الخواجات) يختفون خلف الشخوص العربية التي تبدو للناظر وكأنها تتحرك بإرادتها، وواقع الأمر أنها لا إرادة لها، وأنها تسير في خطوط مرسومة، وحسب خطط مدبرة قدرها أناس أقل ما يوصفون به أنهم لا

يبالون بالإسلام وتعاليمه، إن لم يكونوا معادين لها يعملون على محوها واستئصالها من نفوس الناس. ولهم في ذلك أساليب خبيثة يتسللون عن طريقها إلى قلوب أهل الريف السذج الغافلين. وسوف لا أصف لك أنا هذه الأساليب ولكني سأدع العضو العربي المحترم في هذا المؤتمر الأمريكي يقدم لك صورًا منها بألفاظه كما جاءت في الكتاب الذي بين يدي.

❑ فأول مراحل العمل في الريف هي «مرحلة التعرف»، (وهدفها أن يتحسس العامل الاجتماعي طريقه في القرية بصورة عامة وأن يألفه الناس ويألفهم.. ومن المستحسن أن تكون هذه المرحلة من العمل مرحلة فيها شيء من الاسترخاء وأخذ الأمور بمأخذ غير محدد، إذ إن هذا الهدوء والاسترخاء ضروريان لتأسيس العلاقات الاجتماعية وتنميتها، وبخاصة إذا تذكرنا أن الفلاح سريعًا ما تأخذه الريبة ويتولاه الشك إذا تبين إلحاحًا من غريب عليه في أمر من الأمور.. ثم إنه لا بد من التعرف على قادة القرية الطبيعيين الذين يعتبرون عناصر فعالة في تكوين الرأي العام والتأثير فيه.. وليس من المهم أن يكون هؤلاء القادة من النوع الذي يرغب فيه المصلح، لكنه لا بد من الاعتراف بهم واستغلالهم».

«وإذا كان التعرف يتطلب الاتصال والزيارة ومبادلة الحديث فإن هذا شرط لازم، وليس بكاف في كثير من الأحيان. وربما كان القيام بعمل إنشائي سريع من أنجح الوسائل لكسب الثقة وتأسيس علاقة طيبة مع الأهلين.. وقد تبين بالتجربة أن دق طلمبة مياه بالقرية، أو إصلاح خزان المياه بالجامع، أو مقاومة الآفات الحشرية في الزراعة، كان من أقوى العوامل التي وثّقت الصلة بين أهل القرية وبين المشرفين على مختلف جوانب الخدمة الاجتماعية فيها. وأذكر أن زجاجات قطرة العيون كانت من أهم الوسائل التي اكتسبت بها آنسات المركز الدولي للتربية الأساسية ثقة نساء القرية (ص٩٨ ـ ١٠٠)».

❑ ويتكلم الدكتور حامد عمار بعد ذلك عن المرحلة الثانية وهي «مرحلة الدراسة والبحث» التي (يقوم فيها المشتغل بميدان التربية الأساسية أو الخدمة الاجتماعية بجمع المعلومات والبيانات اللازمة جمعًا منظمًا، بحيث تكون معرفته لظروف القرية معرفة لا تقوم على مجرد الإحساس، بل على الاستقصاء للحقائق وتنظيمها، حتى يستعين بها في رسم خطته وتنفيذ برنامجه.. ومن البحوث المفيدة أيضًا تشكيل مختلف العادات والطقوس التقليدية التي تشكل حياة الريفيين وتعالج كثيرًا من نواحي نشاطهم.. ومن الأمور العملية المفيدة في هذه البحوث الكيفية الاحتفاظ بمذكرات أو يوميات يسجل فيها الباحث ملاحظاته ومجريات الحوادث وظروف العمل أثناء إقامته في الريف. ولا شك أن مثل هذه المذكرات هي المادة الخام التي تستطيع أن تعتمد عليها في فهم ظروف الحياة الريفية فهمًا ديناميكيًّا يتميز بغنى الواقع وتفاصيل الحياة اليومية (ص ١٠٠ إلى ١٠١).

❑ من الذي يشرف على إدارة هذا الجهاز، وعلى جمع كل هذه المعلومات والدقائق؟ هيئة أجنبية، وليكن اسمها ما يكون. لتكن هي «التربية الأساسية» أو «النقطة الرابعة» أو ما شئت من هذه العناوين المختلفة.

❑ هل هناك وسيلة للجاسوسية أضمن وأرخص وآمن من هذه؟ تجمع الهيئة وسماسرتها، الخبيث منهم والمغفل، ما شاءت من المعلومات في هدوء واطمئنان، دون أن يثير عملها ريبة أحد. بل إنها تلقى المساعدة الكاملة من الجهاز الحكومي، وتيسر لها سبل توثيق الصلات بالناس، وتترك لها الفرص لتعمل في بطء وفي مهل وفي غير عجلة. فهم جواسيس في ثياب أطباء، يؤتمنون على كل أسرار المريض الذي لا يخفي منها شيئًا طلبًا للشفاء؛ فإذا هذه الأسرار تُستغل في الغدر به. وإذا هي تدرس لاختيار أفعل الوسائل لقتله وأمثل السبل لامتصاص ما بقي في عروقه من دم.

❑ أتريد بعد ذلك أن أحدثك عن هدف آخر مهم من أهداف هذه المؤسسات الأجنبية المريبة؟ إن هذه المؤسسات تريد إفساد المرأة الريفية وفرنجتها. إنها تقوم باستئصال (حياء) المرأة الريفية المسلمة في النهار المبصر، وعلى مسمع من كل ذي أذنين. هل تريد دليلاً على ذلك؟ إذن فاقرأ بحث الدكتور هارولد ألن مدير التربية بمؤسسة الشرق الأوسط الذي ألقاه في مؤتمر أمريكي آخر تحدثت عنه من قبل وهو مؤتمر (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة)[1] ، وقد تولت نشره مؤسسة فرانكلين الأمريكية. راجع في هذا الكتاب مقال الدكتور ألن عن «العامل الريفي في الحضارة الإسلامية» (ص٢٦١ إلى ٢٨٨).

وسوف تتبين بعد قراءته أن الأساليب التي وصفها هذا الأمريكي مما اتُّبع في سوريا هي الأساليب نفسها التي وصفها الدكتور حامد عمار مما اتُّبع في مصر. وهذا الأسلوب الواحد الذي يذكرنا بأساليب الجواسيس والمبشرين يؤكد ما أسلفته من أن هذه الشخوص التي تبدو للناظر وكأنها تتحرك بإرادتها لا تتحرك إلا حسب خطة واحدة قدرها الذين فضلوا أن يجذبوا الخيط من خلف ستار. ولنقف قليلاً عند صفحتي (٢٦٧، ٢٦٨) من هذا المقال، حيث يقدم الكاتب صورة من بعوث أمريكا ـ أو البعوث الدولية إن شئت ـ التي تتغلغل إلى صميم البيئات الإسلامية في الريف باسم الخدمات الاقتصادية والخدمات الفنية، أو الخدمات الاجتماعية، وسوف تدرك بسهولة أن الهدف الكبير لهذه المؤسسات ـ إلى جانب ما تنتفع به من معلومات تفيد الجاسوسية السياسية والحربية ـ هو (أمركة الريف)، والاهتمام فيه بالمرأة خاصة وبتوجيه الحركة النسوية. سترى في هذا المقال أن هذه المؤسسة تختار موظفيها الذين

(١) انظر في هذا المؤتمر الطبعة الثالثة من كتاب الدكتور محمد محمد حسين «الإسلام والحضارة الغربية».

يتعاملون مباشرة مع القرويين من الوطنيين ليكونوا أقرب إلى قلوب الناس. وسيروي لك الكاتب ما حدث في (قبر الست) وهي إحدى قرى سوريا. ذهب مبعوث المؤسسة الدولية ـ أو الأمريكية إن شئت ـ وهو شاب عربي اسمه (فؤاد فرج) إلى القرية ليعيش فيها، واستطاع أن يقيم في حجرة من الحجرات المخصصة لإقامة زوار ضريح الست (والمقصود بها هي السيدة زينب رضي الله عنها حفيدة النبي ﷺ)، وأخذ يتلمس طريقه لممارسة نشاطه بعد أن وثق به أهل المنطقة واطمأنوا إليه، فنجح في إدخال بعض التحسينات الزراعية، وقدَّم ألوانًا مختلفة من الخدمات الصحية بمعاونة السكان وتنظيمهم. رش المدينة كلها بمسحوق د. د. ت. للقضاء على الذباب والبعوض، وجفف الشوارع، وأنشأ ناديًا للشبان، كما أنشأ دراسات مسائية في القراءة والكتابة للبالغين من الأميين، وكوَّن جمعية تعاونية. وبعد أن سرد الدكتور هارولد ألن ضروب النشاط التي قامت بها هذه المؤسسة الأجنبية ختم وصفه لهذه التجربة بالسطور التالية، التي تدل عى الهدف الحقيقي لهذه البعثات. قال: «وفي السنة الماضية بدأ الرجال الذين يعيشون في محيط هذا الرائد ـ بعد أن تحسن اقتصادهم وصحتهم تحسنًا كبيرًا نتيجة لجهوده العلمية ـ يفكرون في حاجات نسائهم، وهذا هو ما ظل فؤاد فرج ينتظره زمانًا. وقد أحيل الاقتراح إلى قسم رعاية المنزل بالمؤسسة المسئولة عن هذا العمل. فأعدَّ برنامجًا للنساء والأطفال يدار من مكاتب قدمتها القرية بلا إيجار»[1]. ثم يعقب على ذلك

(١) من القواعد الأساسية في مؤسسة (التربية الأساسية) حسب ما جاء في (ص٨٨) من الكتاب الذي نتكلم عنه في هذا المقال ـ «محاضرات في نظم التربية» ـ: مساهمة (الناس بالجهد أو بالمال أو في الفكرة أو في التنفيذ في أي عمل من الأعمال. ولا شك أن هذا يدعوهم إلى الشعور بأن هذا العمل أو المشروع جزء منهم وأنهم أصحاب حق فيه. وهو ما يحفزهم إلى رعايته واستغلاله والاهتمام به). ويذكرنا هذا الأسلوب بأسلوب الجاسوس الإنجليزي المشهور لورانس حيث يصفه في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» فيقول =

بقوله: «إن المشروع الذي وصفناه هو جزء من تجربة تشمل اثنتين وستين قرية، يبلغ مجموع سكانها ستة وعشرين ألفًا. وهو مثال لعشرات غيره من الجهود الفعالة المماثلة التي يمكن القيام بها (ص٢٦٨)».

❑ وهدف ثالث من أهداف مؤسسات «التربية الأساسية» ربما كان أخطر من الهدفين السابقين وأعمق أثرًا، هو تخريج جيل من الخبراء الاجتماعيين المصبوبين في قوالب أمريكية، أو قوالب صهيونية على الأصح، يلبس ثياب العرب والمسلمين، ويتسمى بأسماء العرب والمسلمين، ويعمل في حكومات العرب والمسلمين لغير أهداف العرب والمسلمين. ولا يمضي وقت طويل حتى يصبح المشتغلون بشئون الخدمة الاجتماعية وتنظيم الحياة العربية والإسلامية في شتى مناحيها من هؤلاء المتأمركين الذين يفسدون حين يزعمون أنهم يصلحون، ويهدمون حين يظنون ويظن المخدوعون بهم أنهم يبنون ويشيدون.

❑ والآن بعد أن طال الحديث عن المركز الدولي للتربية الأساسية أنتقل إلى مقالات الأعضاء الذين تحدثوا عن شئون التربية والتعليم في البلاد العربية، وهي الأساس في عقد هذا المؤتمر. والهدف من هذه البحوث التي دعي أصحابها لإلقائها لا يخرج عن الهدفين السابقين اللذين أشرت إليهما من قبل: الجاسوسية، والسيطرة على توجيه المجتمع. ففي مثل هذه المؤتمرات يتيسر استقاء معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها، كما يمكن معرفة الاتجاهات الفكرية لقادة الرأي والمسئولين في هذه البلاد. وهذه المؤتمرات ـ

= فيقول أنه كان يعيش بين العرب كأنه واحد منهم. ولم يزل يمعن في تقليدهم حتى أحسوا أنه واحد منهم. وعند ذلك وجدوا أنفسهم منساقين إلى مجاملته وتقليده. فهو لم يفعل ـ كما يقول ـ شيئًا بنفسه. وليس هناك عمل يمكن أن ينسب صراحة إليه. إلا أن يكون من تأثيره في أفكار غيره وتحويلها إلى أغراضه. على أن العرب ـ كما يقول ـ كانوا يبدون في كل تصرفاتهم أحرارًا يتأثرون بالقدوة الصامتة إيجابًا وسلبًا حسبما يحلو لهم (ص٢٩ من النسخة الإنجليزية طبعة اكسفورد سنة ١٩٤٣).

مثل المؤسسات الأمريكية والدولية التي أشرت إليها من قبل ـ هي أضمن الوسائل وأرخصها وأوثقها لجمع المعلومات الصحيحة الدقيقة التي تخدم الذين يرسمون الخطط السياسية والحربية لهذه المنطقة.

ثم إن هذه المؤتمرات هي ـ من ناحية أخرى ـ وسيلة للاتصال القريب المباشر بالمسئولين، يَعْجِمون عودهم، ويدرسونهم عن قرب، ويختبرون مدى مناعتهم ومدى استعدادهم للتجاوب مع الأهداف الخفية للسياسة الاستعمارية، كما يختبرون مواطن القوة ومواطن الضعف في كل واحد منهم لمعرفة أنجح الوسائل للاتصال بهم والتأثير عليهم. هذا إلى أن الكلام الذي يلقى في هذه المؤتمرات ـ وهو مجامل لا شك لوجهة نظر الداعي إلى المؤتمر ـ لا بد أن يلقى صدى في نفوس كثير من هؤلاء المسئولين من المدعوين.

أما خدمة هذا المؤتمر لأغراض الجاسوسية الأمريكية التي ترسم الخطط السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة، فهي واضحة في كلمة الدكتور عبدالحميد كاظم وزير معارف العراق السابق، التي ألقاها في هذا المؤتمر، حيث أشار إلى ما طُلب منه إعداده حين وجهت إليه الدعوة، فقال: «إن خطاب الزميل الدكتور حبيب كوراني يشير إلى الرغبة في أن أتكلم عن تطور التربية في المملكة العراقية خلال السنوات العشر الأخيرة[1] مشيراً إلى أهم الاتجاهات الحديثة من حيث: التنظيم، والمنهج، وإعداد المدرسين، والتفتيش، والامتحان، وكذلك المشكلات الاجتماعية، والاقتصادية،

(١) السنوات العشر الأخيرة هي السنوات التي تبدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية. وهي الفترة التي اتسمت بتدخل أمريكا في شئون هذه المنطقة. فأصحاب هذا المؤتمر يريدون الاطمئنان على مدى نجاح خططهم في خلال هذه السنوات العشر. والواقع أن أمريكا قد حققت بدولاراتها خلال هذه المدة ما لم تستطع الدبلوماسية الإنجليزية والدبلوماسية الفرنسية ومؤامرات التبشير الظاهرة والخفية مجتمعة أن تحققه في قرن كامل.

والسياسية التي تجابه التعليم في العراق مع بعض الحلول التي اتخذت أو يجب أن تُتخذ لمعالجتها، على أن تأتي هذه في محاضرتين. هذا هو المطلوب مني حسبما جاء في الدعوة الموجهة إلي (ص١٢٥: ١٢٦)»[1].

«والذي يراجع ما ألقي في هذا المؤتمر من بحوث يتبين دقة المدعوين في التزام الوفاء بما طلب إليهم التحدث فيه على أكمل ما يطلبه الأمريكيون ويريدونه. فبحوثهم مدعمة بجداول إحصائية لا حصر لها في كل جانب من جوانب التعليم، مما يقدم صورة دقيقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلادهم، إلى جانب النظم التعليمية. والواقع أن أعضاء المؤتمر لم يقدموا هذه الجداول الإحصائية تبرعًا من عند أنفسهم، ولكنهم قدموها استجابة لطلب الذين دَعَوا إلى هذا المؤتمر ونظموه. فالدكتور حبيب أمين كوراني رئيس دائرة التربية في الجامعة الأمريكية ببيروت ـ وهو الذي وجّه الدعوة لهذا المؤتمر ـ يقول في تقديم الكتاب الذي ضم ما أُلقي فيه من بحوث: «.. فدعونا لذلك نخبة من قادة الفكر وكبار رجال التربية في مختلف الأقطار العربية للمساهمة في هذه الدراسة، وذلك بتقديم محاضرات تتناول أهم الأبحاث الحديثة في التربية في أقطارهم من حيث الأسس الفلسفية والاجتماعية والنفسية التي ترتكز عليها التربية، ومن حيث التنظيم والمنهج وإعداد المعلمين والتفتيش والامتحان بالاستناد إلى بعض الإحصائيات التربوية الهامة، ويتناول أيضًا عرض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تجابه التعليم، مع بعض الحلول التي اتخذت والتي يجب أن تتخذ».

□ أما الهدف التوجيهي من هذا المؤتمر فهو واضح في هذه المقدمة أيضًا وفي سائر البحوث. يقول رئيس دائرة التربية في الجامعة الأمريكية ببيروت في مقدمته: «لقد بدأ قادة التربية في البلدان العربية يتحسسون الحاجة إلى

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٢١ ـ ٢٩).

تربية فعالة كوسيلة لمعالجة الوضع الخطير الذي أحدثته عوامل التطور في هذه البلدان». ثم يقول بعد أن يعرض هذه العوامل باختصار: «فنتج عن هذه تبديلات عديدة هي تبديلات جوهرية لا يمكن أن تحدث في مجتمع ما دون أن تحدث فيه تضاربًا بالأفكار والمثل والقيم، ودون أن تتطلب تعديلاً في مفاهيم ذلك المجتمع وآرائه ومعتقداته وطرق تنظيم معيشته. لذلك نجد أنفسنا في هذا الوضع مرغمين على إعادة النظر في مؤسساتنا التي تكونت ضمن الوضع القديم، وفي المبادئ والافتراضات والأهداف التي بنيت عليها تلك المؤسسات وتعديلها على ضوء الوضع العلمي والحضاري الحديث، والوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي القائم في مختلف مجتمعاتنا، كي نتمكن من إعادة بناء حياتنا على أساس مبادئ وآراء ومُثُل بنّاءة منسجمة تتماشى مع الحضارة الإنسانية الراقية[1] ، وتمكننا من المساهمة الفعلية في تقدم ركب المدنية البشرية ورقيّه»[2] .

❑ وأوضح ـ رحمه اللَّه ـ إلى سعيهم في إفساد التعليم بإقامته على أساس من الآراء الفاسدة والنظم الهدّامة التي تروّجها الصهيونية العالمية في غلاف أمريكي فيدعون إلى خلط الذكور بالإناث، وإلى إخراج المرأة للأسواق وامتهانها بين الرجال، مما يعرّضها ويعرض المجتمع الإنساني كله للفساد والانحلال ثم الانهيار.

❑ ثم قال ـ رحمه اللَّه ـ: «ولكني لا أستطيع أن أختم الكلام عنه دون الإشارة إلى أن هؤلاء المدعوين الكبار من الوزراء ومن في مستواهم قد ظلوا في ضيافة المؤتمر أربعة شهور كاملة، بدأت بمحاضرة العضو اللبناني الأولى

(١) لست أدري ما هو مفهوم «الرقي» و«الحضارة الإنسانية الراقية» في وهم صاحب هذا الكلام. هل هو كل ما جاء من الغرب المنحل وكل ما أخرجته فنون الجنون الأمريكي؟.

(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٢٩ ـ ٣١).

في نادي وست هول بالجامعة الأمريكية في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥. وسيعجب القارئ للسخاء الذي أُنفقت به الأموال على هذا المؤتمر وأمثاله. ولست أدري أيزول عجبه أم يزداد حين يعلم أن مؤسسة روكفلر هي التي قامت بكل النفقات. ولكي يطمئن القارئ إلى صدق ما أقوله أنقل له السطرين الأخيرين من مقدمة حبيب كوراني رئيس دائرة التربية في الجامعة الأمريكية ببيروت حيث يقول: «إننا مدينون بالشكر أيضًا إلى مؤسسة روكفلر التي قدّمت جميع نفقات هذا المشروع». ولقد كان يكفي أن أقول منذ البداية: إن الجامعة الأمريكية في بيروت هي التي دعت إلى هذا المؤتمر، وأن جلساته عقدت في مقرها، وأن مؤسسة روكفلر هي التي تكفلت بكل نفقاته، لكي يغنيني ذلك عن كل تفصيل»[١، ٢].

* مؤسسة فرانكلين الأمريكية ودورها في تخريب التعليم وانحلال المجتمع:

يقول الدكتور محمد محمد حسين:

ونتنقل الآن من مؤسسة روكفلر إلى مؤسسة أمريكية أخرى سبق أن قدَّمتُ كتابًا من الكتب التي أخرجتها دولاراتها[٣] وهي مؤسسة فرانكلين.

---

(١) المصدر السابق (ص٣٢).

(٢) من المعروف أن نلسون روكفلر المعاصر يهودي يتستر تحت النصرانية فهو عضو مؤسس في اللجنة (القومية المسيحية) التي وحدت صفوف اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، والتي تساهم بالنصيب الأكبر في جمع النفقات التي تساعد اليهود على الهجرة من أوروبا إلى فلسطين. وجدّ هذه الأسرة الأول هو جوهان روكفلر اليهودي الألماني الذي نزح إلى أمريكا في أوائل القرن الثامن عشر. وقد أنفق ابنه جون روكفلر ملايين الدولارات في تأسيس الجمعيات والمنظمات اليهودية المختلفة في أمريكا. وكان من المتعصبين لإحياء الإمبراطورية اليهودية في أمريكا «أمريكا مستعمرة صهيونية» (ص١١، ١٢).

(٣) كتاب «الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة» في جزء شعبان ورمضان سنة ١٣٧٦، راجع =

أصدرت هذه المؤسسة فيما أصدرته من مطبوعات[1] سلسلة عنوانها (كيف نفهم الأطفال ـ سلسلة دراسات سيكولوجية). وأشرف على هذه السلسلة وقدم لكل كتاب من كتبها الدكتور عبدالعزيز القوصي المستشار الفني لوزارة التربية والتعليم في مصر. والحديث في هذه السلسلة موجه إلى الآباء والمدرسين حسب ما هو مبين على غلاف كل عدد من أعداد هذه السلسلة، إذ رُسِم في أعلى الجانب الأيسر كتاب مفتوح، في إحدى صفحتيه «الطريق إلى حياة أفضل» وفي الصفحة الأخرى «علم النفس للآباء والمدرّسين». ويؤكد الدكتور القوصي هذا الهدف، إذ يقول في تقديم العدد الأول من أعداد هذه السلسلة الذي صدر في مارس ١٩٥٤، وأعيد طبعه في أكتوبر ١٩٥٥، مما يدل على الرواج الذي تلقاه هذه السموم الأمريكية، يقول في هذه المقدمة: «هذا هو الكتاب الأول في مجموعة من الكتب تهدف إلى توجيه الآباء والمدرسين إلى حياة أحسن من تلك التي يعيشونها.

□ ولا نقصد بالحياة الأحسن أن تكون كذلك من الناحية المادية، وإنما هي حياة أحسن من حيث الأداء لرسالة الأبوة ورسالة التربية». فالمشرف على هذه السلسلة ـ وهو من كبار رجال التربية في مصر ـ يعرف أن هذه المؤسسة الأمريكية تهدف إلى توجيه الآباء والمدرسين. وهو يقر هذا الهدف وترضى نفسه أن يعين الأموال الأمريكية عليه، وهو يعرف ـ ما يعرف كل عاقل ـ أن الناس لا يصدرون فيما يأتون من أعمال إلا عن دوافع تدفعهم إلى العمل، وأن هذه الدوافع مهما تختلف وتتنوع فهي تشترك في أنها تحقق نفع الفرد أو الجماعة التي تنتمي إليها. فمن الواضح أن الفرد أو الجماعة لا تبذل الجهد

= كتاب «الإسلام والحضارة الغربية» الطبعة الثالثة.

(١) الكتب التي تخرجها هذه المؤسسة لمؤلفين أمريكيين، ينفق عليها من المال الأمريكي لذا فهي مختارة اختيارًا خاصًا.

والمال إلا فيما يعود عليها بالمنفعة. فليت شعري ألم يَرِدْ على خاطر الأذكياء الذين يشاركون في هذه الأعمال ـ كتبًا كانت أو مقالات أو مؤتمرات ـ هذا السؤال الذي لا ينبغي أن يغيب عن البال: ما هو النفع الذي يعود على هذه المؤسسة، والذي يدفعها إلى بذل ما تبذله من جهد ومن مال؟ إذا لم يكن هذا السؤال قد ورد على أذهان هؤلاء الأذكياء فقد ورد على ذهني، وأظنه قد ورد على أذهان الكثير من الأذكياء وغير الأذكياء. وقد تكون الإجابة على هذا السؤال طويلة، وقد لا تكون واضحة في أذهان الذين يتساءلون، ولكن من الأهداف الواضحة التي لا تخفى أن مثل هذه المشروعات تحقق أول ما تحققه توثيق الصلات بنفر من ذوي النفوذ وكسب ودهم وولائهم بالبذل السخي الذي يقدم في صورة مهذبة مؤدبة جدًّا. فهو لا يعدو أن يكون أجرًا على مجهود قد بذل، وقد لا يكون هناك مجهود، وقد يكون المجهود تافهًا وصوريًّا. وقد يكون الأجر مضاعفًا أضعافًا كثيرة. ولكن المأجور لا يقول عادة إن الأجر كبير. وصاحب العمل مهذب رقيق يقدم عطاءه السخي في أدب جم وفي حياء (كأنك تعطيه الذي أنت سائله) ـ كما يقول شاعرنا العربي القديم زهير.

❑ وهدف آخر من هذه الأهداف الواضحة هو السيطرة على توجيه المجتمع، عن طريق هؤلاء الأصدقاء من أصحاب النفوذ وعن طريق المخدوعين بأسمائهم ممن يقرءون ما ينشرون، والذي ينشرونه ليس باطلاً كله، بل إن فيه حقًّا كثيرًا، بل إن الباطل فيه يلبس ثوب الحق فيصعب على غير الخبير الاهتداء إلى موضع الخطر فيه. ولكن بعض الأباطيل عارية لا تخفى ولا تلبس غير أثوابها، فمن هذه الأباطيل العارية ما جاء في العدد ١٢ من هذه السلسلة. وعنوان هذا العدد هو (الطفل والأمور الجنسية). وسأنقل في السطور التالية صورًا من هذه الأباطيل مكتفيًا بهذا النقل عن التعليق.

❑ قدّم الكتاب في صفحتي ٢٢، ٢٣ مجموعة من الأسئلة في صورة اختبار يساعد الآباء ـ فيما يزعمه المؤلف ـ على تبين اتجاه الأبناء الخاص في وضوح وفي جلاء، وعلى تقدير ما تنطوي عليه تصرفاتهم من خطأ وصواب، وأثبت المؤلف الإجابة الصحيحة المزعومة على كل سؤال من هذه الأسئلة في ذيل صفحة ٢٣. ومن بين هذه الأسئلة السؤال رقم ٦ ونصه هو: «هل ترى في التعبير السافر عن المحبة ما ينبئ عن ذوق رديء أو ما يثير الحرج؟». والجواب الصحيح فيما يزعمه الكتاب الأمريكي هو: «لا». والسؤال التالي هو: «هل تعتقد أن المواقف التي تتضمن ناحية جنسية تثير الضحك؟» والجواب الصحيح الذي أثبته الكتاب هو: «نعم».

❑ وجاء في (ص٤٦): «إن الكثير من الآباء اليوم لا يكترثون للظهور مجردين من الثياب أمام أطفالهم الصغار. وهذا أمر لم يكن يحدث في الماضي إلا نادرًا، كذلك أصبحت أبواب الحمامات وغرف النوم تترك مفتوحة أحيانًا فيرى الصغار أبويهم وهم يخلعون ملابسهم أو يرتدونها، فإذا كان في وسع الآباء أن يفعلوا ذلك بصورة طبيعية ودون شعور بالحرج أو الاضطراب فإن ذلك يكون مرانًا طبيعيًّا؛ لأن يعوّد الطفل على الشعور بأن الجنس ليس أمرًا مشينًا، كما يساعد على إشباع فضوله فيما يتعلق بأجسام الكبار[1]».

❑ وجاء في (ص٦٠): «إذا حدث التجريب في النواحي الجنسية في الفترة الواقعة بين سن ٨، ١٢ فمن المحتمل أن يقع بين أفراد الجنس الواحد، إذ نجد الصبية مثلاً يعرضون أعضاءهم التناسلية بعضهم على بعض، ويعتبر ذلك محاولة من الطفل لتحديد مدى مشابهته أقرانه. كذلك قد يلجأ البعض إلى ممارسة العادة السرية ـ كمحاولة لتخفيف ما يشعرون به من توتر جسمي

(١) أرأيت إلى الذين يريدون أن يعودوا بنا إلى الهمجية الأولى والجاهلية الجهلاء، هل ترى كبير فرق بين مذهبهم هذا وبين مذهب الذين يمارسون العري في مدن العراة.

وانفعالي ـ ومرة أخرى نقول: إن هذا السلوك لا يعتبر غير طبيعي، ولا يدمغ الطفل بالشذوذ أو الإجرام أو الانحراف، كما أنه لا يستدعي عقابه أو تهديده بأنه سيصاب بأمراض خبيثة، ولا يتطلب محاضرات خلقية تلقى عليه، كما لا يبرر نبذه وتحقيره».

❑ وجاء في صفحتي ٦٢ و٦٣: «فبدلاً من فصل البنين عن البنات يجب علينا أن نعمل على إشراكهم معًا في الأعمال الممتعة ومواقف اللعب، وأن نحاول مساعدتهم على تكوين مشاعر طبيعية مريحة نحو أفراد الجنس الآخر. وعلى الآباء تشجيع أطفالهم على المساهمة في نواحي النشاط المشتركة بين البنين والبنات مما تشرف عليه المدرسة والجمعيات الرياضية أو المراكز الاجتماعية. فهذا النشاط المشترك ليس «مواعيد غرامية» بل هو فرص لاشتراك البنين مع البنات في متع الرياضة وركوب الخيل أو الدراجات والسباحة وغير ذلك. وإذا حدث «استلطاف» بين بعض البنين والبنات فينبغي النظر إليه على أنه نوع من الصداقة وليس «غرامًا» أو «عشقًا». والمعاكسات البريئة التي من نوع «مراد وسهير صديقان حميمان» قد تبعث في صداقتهما دفئًا كانا يفتقران إليه، وقد تولد فيهما الشعور بأننا نتوقع منهما أن يسلكا مسلك الكبار».

❑ وجاء في (ص٧٨): «إن خروج الفتيات في صحبة الفتيان من الأمور الطبيعية التي تستطيع معظم الآباء تقبلها ـ في الوقت المناسب على أي حال ـ باعتبارها جانبًا من جوانب النمو الجسمي للمراهق».

❑ وجاء في صفحتي ٨٧، ٨٨: «في كل علاقة تقوم بين فتى وفتاة يشعر كل منهما في بعض الأحيان بدافع يحفزه إلى التعبير عن حبه وتقديره للآخر بلمسة أو ضغطة على يد أو قبلة، والرغبة في الكشف عن المشاعر بهذه الطريقة والاستجابة لها أمر طبيعي».

❑ وأخيرًا يقترح مؤلف الكتاب برامج للدراسة في مراحل التعليم

المختلفة ويضع تحت كل برنامج من هذه البرامج ما يرى أنه خليق بالدراسة، ومن بين ما يراه خليقًا بالدراسة في برنامج «المواد الاجتماعية» (ص١٠٤): «المعايير الخلقية والأخلاق الحديثة، وأساليب المجتمع في تقرير الخطأ والصواب[1] »، و«المركز الاقتصادي والقانوني للمرأة وكيف تأثر بتغير الظروف الاقتصادية في المجتمع وآثار هذا التغير على حياة الأسرة والزواج».

ومن بين ما يقترحه المؤلف في برنامج (العلاقات العائلية) (ص١٠٥ ـ ١٠٦):

«كيف تعرف أن ما تشعر به هو الحب؟ ـ كيف تختار رفيق حياتك؟ ـ فترة الخطوبة ـ العلاقات السابقة على الزواج.. إلخ». ومن بين ما ذكره تحت عنوان: «النشاط غير المنهجي» (ص١٠٦ ـ ١٠٧) في بيان أهداف هذا البرنامج وأساليبه: «والغرض منها مساعدة الطلاب والطالبات على تنمية علاقات طيبة، يشرف على توجيهها المدرسون بصورة بعيدة عن الرسميات، وهي تتضمن: أندية الشباب ـ صحيفة المدرسة ـ جمعيات الهوايات والميول ـ التمثيليات ـ مجالس إدارة الطلبة ـ حفلات السمر والرقص».

وجاء فيه أيضًا: «فمن حق الآباء أن يهتموا بمدى كفاءة الذين يقومون على تعليم أبنائهم وبناتهم الأمور الجنسية، فهم يريدون مدرّسًا يستطيع تزويد التلاميذ بنظرة عامة عن الزواج والتكيف الجنسي، وقد يشعر البعض منهم أن خير من يستطيع ذلك هو المتزوجون والمتزوجات، ولكن ليس هناك ما يدل على أن هذا شرط ضروري، وإن كان له بعض المزايا».

فإذا لم تنفعك كل هذه النماذج فهاك نموذجًا من كتاب آخر أصدرته مؤسسة فرانكلين نفسها وأشرف على إخراجة وقدَّم له الدكتور القوصي أيضًا

(١) تأمل معي قوله: «الأخلاق الحديثة» وكأن في الخلق قديمًا موروثًا جاءت به الأديان، وجديدًا يخالف ما تواضعت عليه الأديان والمجتمع في تقرير الخطأ والصواب.

حين كان عميدًا لمعهد التربية العالي للمعلمين بجامعة عين شمس، واسم الكتاب هو «كيف تتكامل الشخصية».

❑ جاء في (ص٦٥) من هذا الكتاب: «إن جميع الحاجات الإنسانية سواء كانت عضوية ينبغي إشباعها للإبقاء على الحياة، أم اجتماعية يقتضي إشباعها أيضًا لتضمن عيشة راضية، أو جنسية تشتمل على الحاجتين - الاجتماعية والعضوية - كلها ما هي إلا قوى دافعة إلى النشاط، تحض على العمل بدلاً من مجرد التطلع أو التفكير فيه. وكلنا نعرف أنه عندما تستيقظ حاجة ما، سواء أكان نشاطها شعوريًّا أم لا شعوريًّا، فإننا نحسّ بحالة من التوتر، وأن هذا الشعور يفقدنا الهدوء والراحة، ويستفزنا للعمل على الحد من شدة هذا التوتر أو التخلص منه كلية، وعندئذ نعود إلى الهدوء مرة أخرى، أي إنه متى تم إشباع حاجة من حاجاتنا زال التوتر، وهذا القول يصدق على جميع الحاجات البشرية».

❑ وجاء في صفحة ٧٢ تحت عنوان (المشاعر الجنسية مشاعر طبيعية):

«ولنصور المسألة الآن تصويرًا واضحًا، إن الطبيعة الجنسية ليست بالشيء الشاذ أو المشوّه، بل إنها الحياة الجنسية التي تقوم عليها الأسرة، تلك الأسرة التي تعتمد عليها ثقافتنا. والشيء الطبيعي الصائب أن يحب الفتيان الفتيات وأن تحب الفتيات الفتيان. والواقع أن أغلب المشكلات التي هي مصدر لشقاء شباب العقد الثاني من العمر ومن يكبرهم من إخوة وأخوات يمكن ردّها إلى الثقافة والمدنية التي نعيش فيها، أو على الأقل يمكن أن نقتفي أثرها في الاتجاهات السائدة في هذه الثقافة أو المدنية، وإنها لحقيقة على جانب عظيم من الأهمية أن الثقافات التي يتعلم النشء في ظلها الحقائق الجنسية في سن مبكرة وبطريق عرضي بحيث لا يكتنفها إبهام أو غموض لا يتعرض الأطفال ولا الشباب فيها لتلك المشكلات المألوفة في حياتنا وحياة

أصدقائنا». ثم يقول بعد ذلك في صفحة ٧٥: «فالشوق إلى القبلة أو بعض الغزل الرقيق أو الإنصات إلى قصة فيها تلميحات جنسية ـ كل هذه ليست أمورًا شائنة، فليهدأ الشباب بالاً، فليس كل ما يدور حول الجنس يدخل في باب المحرَّمات، ولعل كثيرًا مما نكتبه كان ضحية سوء التوجيه».

❑ هذه نماذج من الآراء التي يشرف المستشار الفني لوزارة التربية والتعليم على ترويجها، فهل تجد فيها الكفاية لتغير بعض ما يجري من حولنا في هذه الأيام؟[١، ٢].

*** نقده للآراء الهدّامة فيما يسمى بالفن والثقافة:**

أن يُلقى الحبل على غاربه لكل رأي يخالف الإسلام بدعوى «حرية الرأي» أو «حرية النشر» أو «حرية الفرد» تصدى لها الدكتور محمد محمد حسين حتى لا تترك السبل والمنافذ «مفتوحة لشهوات المأجورين والمخدوعين ومطايا الشياطين من الفاسدين والمفسدين، تفعل ذلك تقديسًا للوهم الذي أقامته الثورة الفرنسية اليهودية وزخرفت له اسمًا خداعًا خلابًا فسمته «حرية الرأي» أو «حرية النشر» أو «حرية الفرد»، وما هو في حقيقة الأمر إلا وسيلة اليهودية العالمية لإفساد الجماعات وهدم كل الأديان، حتى يتمكنوا من السيطرة عليها جميعًا بعد أن يقضوا عليها قضاء مبرمًا[٣]. إن الدولة التي

(١) هذا في الستينات.. فكيف في أيامنا هذه؟!!!

(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٣٣ ـ ٣٩).

(٣) أكثر الناس يجهلون أن شعار الثورة الفرنسية اليهودية: «الحرية والإخاء والمساواة» هو من وضع مجمع بوردو الماسوني. وهو شعار لم يخدم إلا الأقلية اليهودية. إذ سمح لسماسرتها بنشر الفساد، وأعانها على هدم سلطة الكنيسة وتقويض كل القيم، باسم الحرية. وحماها في الوقت نفسه من تعصب المسيحيين على الأقلية اليهودية التي تستأثر بالسلطة عن طريق المال، باسم الإخاء والمساواة. ومن أعجب ما يخضع له الناس من أوهام، مما روجه اليهود، تسمية الصحافة: «صاحبة الجلالة». وإحاطتها بهالة من القداسة =

تفعل هذا هي كالنافخ في قربة مقطوعة، أو الجابي في حوض مثقوب.

*** دعاة الفرعونية من أعداء الإسلام والعروبة:**

يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«أكثر ما كان هذا الشطط في مذاهب دعاة العزلة والانفصال الذين كانوا يعارضون الإسلام والعروبة بالفرعونية في الفترة التي تلت إلغاء الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى. فقد كان يزعم هؤلاء الغلاة من الانفصاليين والهدامين أن تغير الدين في مصر من الوثنية إلى المسيحية ثم الإسلام، وتغيير الكتابة واللغة فيها من الهيروغليفية إلى العربية لم يقطع ما بين مصر الحديثة وبين مصر القديمة من صلات. وكانوا يحتالون لرد حياتنا المعاصرة في مختلف مظاهرها إلى أصل فرعوني قديم، ويدعون إلى أن تقوم نهضتنا على بعث المجد الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوربية الحديثة على بعث التراث اليوناني والروماني في عصور الوثنية السابقة على المسيحية.

ومن هنا كان اتصال هذه الجماعة من المارقين الموكلين بتفريق شمل جماعة العرب والمسلمين بما يسمونه «الدراسات الشعبية» أو «الفولكور»، إذ

= تسمح لأي مدسوس على قومه، أو فاسق مريض القلب واللسان، أن يلفق من الأضاليل ما يريد وما يراد له، وأن يدسها على عقول السذج من الأحداث والأغرار، والحمقى من ضعاف العقول، باسم العلم والثقافة والحرية والتمدن، ما دام قادراً على تأثيث دار للصحافة، بماله أو بمال غيره. وسيطرة التنظيمات اليهودية على الصحافة العالمية وعلى وسائل النشر ووكالات الأنباء مشهورة معروفة. فرواج هذا الوهم بين الناس باسم «حرية الرأي» هو أكبر ما يمكِّن للدعاية اليهودية ويدعم سلطانها، حتى يصبح سوطًا يلهب ظهر كل حر، ومقراضًا يقطع عرض كل ذي خلق أو دين؛ ويجعله سخرية الساخرين وأضحوكة اللاهين، في الوقت الذي يمكِّن فيه للمفسدين والفارغين من الظهور، حتى يصبحوا ملء العيون والآذان، فلا يرى الناس إلا صورهم ولا يسمعون إلا أصواتهم، ولا يصبحون ويمسون إلا في أخبارهم وأقوالهم.

دعوا الأدباء والكتاب إلى البحث عن مواضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة وموروث التقاليد والعادات في شتى نواحي الحياة، كما دعوا إلى إنشاء أدب خاص وفن مستقل في التصوير والنحت والموسيقى، متميز بطابعه المصري المحلّي. وقد وصف أحدُ دعاة هذا المذهب وقتذاك الأدب الذي يعنيه بأنه «مستقل عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد»؛ لأن «اللغة العربية ليست لغة شعب فحسب، بل هي لغة شعوب وأمم عدة تنطق وتكتب بها. فنحن في حاجة إذن إلى تقريب هذه اللغة إلى أذهاننا لتعبر عن خواطرنا، وليس أدل على ذلك من ضرورة خلق أدب قومي تكون لنا غيرة عليه، ويكون في استقلاله بعيدًا عن كل المؤثرات التي تجعله اشتراكيًّا محضًا».

ولم يكن هؤلاء يخفون أنهم متأثرون بالأوروبيين شرقيهم وغربيهم في دعوتهم هذه، ولم يكونوا يتحفظون في دعوة أنصارهم إلى الاستفادة بكل ما جمعه الأوروبيون وما ألفوه في هذا الباب. وكانوا يجاهرون باتخاذ القدوة من اللغات الأوروبية الحديثة التي نشأت على أنقاض اللغة اللاتينية، حين كانت هي اللغة التي يكتب بها الشعر والنثر والقصة والأدب في أوروبا كلها (ولكن شعور كل شعب بقوميته واعتزازه بوطنيته واعتداده بنفسه، حدا به إلى أن يتحرر من إسار اللغة اللاتينية وإلى أن يكون مستقلاً في آدابه عنها، موحدًا جهوده في سبيل تهذيب لغته وطبعها بطابع قومي خاص له روعته وجماله). وفي سبيل تحقيق هذا المثال كان هؤلاء يقولون: «إن واجبنا هو أن نبث في الشعب روح القومية وروح الإنتاج المحلي» وأن «أول ما نولي وجوهنا، فليكن شطر الأدب الفرعوني قبل كل شيء فهو تراث الآباء والأجداد.. فإن لم يكن للكاتب ملكة ينميها أو وجدان يستمده من الأدب الفرعوني فليول وجهه شطر الأدب الريفي». وكان دعاتهم لا يملون من تأكيد

أن «الأدب المصري الذي نعنيه هو أدب محلي يصور الحياة المصرية والقومية المصرية وحدهما، فلا نعني به أدبًا شرقيًّا، كما أبهم على بعض الكتاب الأفاضل، يتناول حياة الشرق العربي أو البلاد الشقيقة المجاورة».

وكانت هذه الجماعة التي تتخذ (السياسة الأسبوعية) لسانًا لها تريد أن تكون «جماعةً تقتصر على الكتاب الناشئين، تُعنى بتهذيب ملكاتهم وجعلهم أكثر إنتاجًا وأكثر استقلالاً في الفكر واعتمادًا على أنفسهم وعلى مصريتهم». وكانوا يتخذون الدكتور هيكل رئيس تحرير تلك الصحيفة قدوة لهم، ويشيدون بقصة له ظهرت وقتذاك تحكي عن الريف ويجري الحوار فيها بالعامية، وهي قصة «زينب» التي كانت أول ما ظهر على لوحة الخيالة من الإنتاج المصري حين كانت صورها صامتة، وكان من بين ما يقترحونه من الوسائل إلى خلق هذه الروح المصرية في النشء «توجيه المسرح المصري إلى الناحية القومية وجعله مسرحًا مصريًّا روحًا وقوة وإنتاجًا، والعناية بالأناشيد القومية وجعلها تصور على قدر الإمكان أماني المصريين وآمالهم، والعناية بالأدب الفكه والأدب الريفي»[1].

ولعل هذا القدر الذي قدَّمته كاف في توضيح خصائص هذه الدعوة والكشف عن خطورة أهدافها، التي لا تخدم إلا مطامع الاستعمار، الذي يتوسل إليها في البلاد العربية وفي العالم الإسلامي بتقطيع أوصالها وبث

(١) لمن شاء التوسع في ذلك أن يعود إلى صحيفة (السياسة الأسبوعية) في أعداد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٦، ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٧، ٧ يناير ١٩٢٨، ١٨ يونية ١٩٣٠، ١٢ يولية سنة ١٩٣٠، ١٩ يولية ١٩٣٠. وعناوين المقالات المشار إليها مرتبة حسب التواريخ السابقة هي: (مصر الحديثة ومصر القديمة)، و(الفن المصري)، و(هل من خطوة جديدة في سبيل الفن المصري)، و(دعوة إلى خلق الأدب القومي)، و(في سبيل الدعوة إلى الأدب القومي)، و(دعوة الأدب القومي). وإلى الفقرة ٣ من الفصل الثاني في الجزء الثاني من (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) لكاتب هذه السطور.

روح التنافر والتدابر والتقاطع بين أفرادها وجماعاتها، استدامةً للوضع الراهن الذليل الذي كانت فيه، وتحاشيًا لاتحادها الذي يؤدي إلى قوتها وتمردها على هذا الوضع. وقد أشرت في مقال سابق إلى أهداف الأوروبيين والأمريكيين من الدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام، تلك الدعوة التي ظهرت في وقت واحد في كل من تركيا ومصر والشام والعراق وشمال أفريقيا وفارس والهند وأندونيسيا. وكان مظهرها في كل هذه البلاد واحدًا وكانت أساليبها متشابهة[1].

ومن الواضح أن ألاعيب الاستعمار في هذا الباب قد انكشف أمرها ولم تعد تخفى على ذي بصر، فقد تنبهنا إلى ما يراد من تفريق شمل العرب والمسلمين، كما بصّرتنا التجارب الأخيرة بما يمكن أن يعود على ذلك المجموع العربي والإسلامي من خير نتيجة لتضامنه واتحاده. فكل ما يقصد إلى زيادة هذا الاتحاد قوة فهو صادر على باعثٍ خيِّرٍ يستهدف صالح ذلك المجموع. وكل ما قصد إلى توهين هذا الاتحاد وبث روح الفرقة والعصبية القبلية والشعوبية الجاهلية بين أفراده فهو لا يخدم إلا أهداف العدو ولا يورثنا إلا الضعف.

ومن الواضح البيّن أن هذه الدعوات الشعوبية قد أصبحت تخالف دستورنا مخالفة صريحة تُوقِع أصحابها تحت طائلة العقاب. فلم يعد هناك مجال للكلام عن الفرعونية التي تَعتبِر العرب دخلاء بعد أن قررت المادة الأولى من الدستور أن (مصر دولة عربية) وأن (الشعب المصري جزء من الأمة العربية)، ولم يعد هناك مجال للكلام عن (الفولكلور) المصري القديم أو الحديث، والدعوة إلى إقامة حياتنا وفنوننا على أساسه، بعد أن نصت

(١) راجع مجلة (الأزهر) في جزء رمضان سنة ١٣٧٦ (ص٨١٦ ـ ٨١٨). تحت عنوان (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة). والمقال منشور في كتابنا (الإسلام والحضارة الغربية).

المادة الثالثة من الدستور على أن (الإسلام دين الدولة) ثم نصت المادة الخامسة على أن (الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق والوطنية). فنظام مجتمعنا لا يستمد مقوِّماته إذن من ذلك (الفولكلور) قديمه أو حديثه، ولكنه يستمدها من ديننا الإسلامي ومن أخلاقنا الإسلامية ومن وطنيتنا العربية.

❑ ولكن العجب الذي لا يشبهه عجب أن هذه الدعوة التي قَتَل الدستورُ جراثيمها واستأصل سرطانها الفتاك، قد أطلت برأسها من جديد تلتمس الحياة في صحيفة «المجلة».

❑ ويكفي أن تراجع العدد الأول من هذه الصحيفة لكي تتبين أن العصبية الشعوبية والفرعونية الجاهلية تسيطر عليها سيطرة كاملة، وأنها تتجاهل تجاهلاً كاملاً أنها في بلد عربي أو إسلامي. فهي تكاد تخلو من المواضيع الإسلامية أو العربية، وهي مطبوعة بطابع شعوبي انفصالي يتحدى دستور الدولة؛ لأنه يتحدث عن العرب بوصفهم غزاة دخلاء في بلد تنص المادة الأولى من دستوره على أنه عربي[1]، وهي تقدس الفرعونية إلى حد الغلوّ الذي يخرج بها إلى الوثنية والكفر والتهكم بقيم الإسلام وأبطاله وتشويه سيرتهم. فإذا خرجت «المجلة» عن هذا الطابع الانفصالي الذي هو خليق أن يدعم مزاعم الدعايات الأجنبية التي تريد أن تصور سياسة مصر الحالية سياسةً إمبراطوريةً استعمارية، إذا خرجت «المجلة» عن هذا الطابع لم تتحدث إلا عن أدب الغرب وموسيقى الغرب ورقص الغرب وفنون الغرب، ذلك الغرب الذي وصفه أحد كتابها بأنه (العالم المتحضر)، حين تحدث عن الاحتفال ببرنارد شو، فقال في صدر مقاله: «احتفل العالم المتحضر بالعيد المئوي لميلاد برنارد شو»، وكأن من عدا هؤلاء المحتفلين ببرنارد شو ـ ممن

(١) راجع مقال «صراع القومية المصرية من غزو الإسكندر حتى الفتح الإسلامي» في العدد الأول من «المجلة» (ص ٣٠ ـ ٤٣).

يزعم الكاتب أنهم هم المتمدنون ـ زعاع وهمج.

يتحدث المقال الأول في هذا العدد عن (قناة السويس بين التأميم والتدويل)، فيزعم أن (تقاطيع رئيس جمهورية مصر العربية الشاب تشبه تقاطيع الشخصيات والرجال الذين خُلّدت صورهم على جدران المعابد والهياكل الفرعونية منذ آلاف السنين). وجمال عبدالناصر ـ مثله في ذلك مثل ملايين عديدة من المصريين ـ عربي الأصل من بني مر. فمن أين يجيئهُ العِرْق الفرعوني؟ وأي فخر في أن يكون جَدّه أحد هؤلاء الكفار الجبابرة الذين قطع الإسلام ما بيننا وبينهم؟.

▣ ويمضي الدكتور حسين فوزي كاتب المقال على هذا النمط في سائر مقاله، تقوده نزعة فرعونية غالية، فيتحدث عن (عودة التاريخ الفرعوني فجأة ودبيب الحياة فيه، وتحرك الحضارة المصرية القديمة وسيرها على الأقدام وزحفها في العربات السريعة الرشيقة التي نرى صورها في الكتب ونعجب منها ومن راكبها وفارسها). والحضارة كما هو معلوم دين وتفكير وأسلوب في الحياة، فهل هناك نية للانسلاخ من حضارتنا الإسلامية والارتداد إلى الوثنية الفرعونية؟ أم ماذا تكون الحضارة الفرعونية؟ وكيف يكون تحركها وزحفها وبعثها؟ ويتحدث المقال كذلك عن واجب مصر الأول نحو الناس، وهو نشر الحضارة بينهم، فيخيل للقارئ أن الكاتب يتحدث بلسان الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر. أبمثل هذا تُدعَّم القومية العربية وتحارَب أكاذيب المفسدين والدساسين الذين ينفثون سموم الفرقة بين العرب، حين يزعمون لإخواننا أن مصر دولة ذات مطامع استعمارية تتذرع إلى مطامعها بين العرب والمسلمين باسم العروبة والإسلام؟.

▣ وإذا شئت المزيد من هذه العصبية ومن هذا التهور فاقرأ نص خطاب كاتب هذا المقال في الاحتفال بافتتاح البرنامج الثاني (العدد ٦ ص١٢٣ ـ

١٢٧)، حيث يردُّ إلى الفراعنة مظاهر الحضارة الإنسانية بكل ألوانها وبكل فروعها وصورها، وينسب إليهم (صنع فكرة الإيمان باللَّه) على حد تعبيره، وحيث يقول: «إن مصر الآن لا يُشَك في أنها تلعب دورًا رساليًا، دورًا ذا رسالة. ونحن لا نستطيع أن نضطلع بهذا الدور إلا إذا شَحَنّا بطاريتنا؛ لأن بطاريتنا فارغة».

❑ ثم يروي قصة القبطان الذي نفد ما في سفينته من الماء الحلو، فأخذ يلح في طلبه، ثم تبين له أن الماء الحلو تحته وهو لا يدري، بعد أن قطعت سفينته المحيط ودخلت في مصب أحد الأنهار. ويشبه حالنا في مصر بحال ذلك القبطان «الماء الحلو في ثقافتنا. في بعض هذه الهياكل والمعابد التي نستطيع أن نشاهدها، فنرى كيف صنع أجدادنا من هذه الأرض وبهذه الأدوات». ثم يقول: «وأرجو أن يكون البرنامج الثاني إحدى هذه الوسائل في أعماق حياتنا التي امتدت ستة الآف سنة بل أكثر. ونستطيع أن نخرج منها ماءً حلوًا لا لنشرب منه فقط، وإنما نشرب ونُوزّع منه على العالم».

فهل هذا هو الدور الرسالي الذي ستقوم به مصر بين العرب؟ هل رسالتها في إحياء الفرعونية وفرعنة العرب جميعًا؟ وماذا يحدث لو أراد إخواننا المغاربة بالمثل أن يُبَرْبِرُوا العرب، ونازعهم في ذلك كل من العراقيين والشاميين واليمنيين، كل واحد منهم يباهي بجاهليته ويزعم أنها أحق بالسيادة؟ هل هذا هو السبيل الصحيح لجمع العرب، وهم بحمد اللَّه وفضله مجتمعون فعلاً على الإسلام، لم تفرقهم إلا أمثال هذه الدعوات؟!.

❑ وتجد مثل هذا الانحراف المنفر في التعليق على العصر الفرعوني في مقال (تي ـ سيدة من الشعب وجهت أحداث عصرها ـ العدد الثاني (ص٢٥ ـ ٤٢)، حيث يتكلم الكاتب عن تقوية النفوذ المصري خارج الحدود، وعن منافسة الآشوريين والبابليين والحيثيين لمصر في ذلك، وعن أساليب مصر

الفرعونية في نشر نفوذها عن طريق نشر التعليم المصري. وكل ذلك لا يعين على تدعيم الثقة بين العرب ولا يلد إلا الشر؛ لأنه يدعم مزاعم الذين يعيثون بالتفريق بينهم ويشكك في أهداف مصر من وراء مساعدة إخوانها العرب ومدّهم بالمدرسين. ولا سيما إذا كان الذي ينشر هذا الكلام صحيفة تصدرها وزارة الإرشاد القومي.

❑ ومن أمثلة هذه المقالات المنحرفة مقال عنوانه (صراع القومية المصرية من غزو الإسكندر حتى الفتح الإسلامي ـ العدد الأول (ص ٣٠ ـ ٤٣). وهو مقال طويل كله تقديس جنوني للفرعونية وحط من قدر العرب والإسلام، ونزول بدوافع الفتح الإسلامي الأول في عهد الخلفاء الراشدين ـ الذين أنقذنا اللَّه بهم من النار وهدى آباءنا وأجدادنا ـ إلى مرتبة السطو والقرصنة واللصوصية، انظر إليه كيف يتحدث عن ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، حين يضعه بين جبابرة الرومان والمماليك، حيث يقول: «فالخليفة يعزل عاملاً من أعدل عماله على مصر»، ثم يعرِّض بسياسته المعتدلة في فرض الضرائب، قائلاً: «لقد دَرَّت اللقْحَةُ بعدك يا عَمْرُو. فيجيبه أعدلُ مَنْ وَلِيَ مصر بما يُفيد أنها أضرَّت بوليدها ـ العدد الأول ص٣١».

ويردف ذلك بحديث مثله عن أباطرة الرومان وبكوات المماليك، يُصوِّر أن همهم كلَّه كان مصروفًا لاستغلال الشعب المستعبَد والتمتع على حساب كدِّه وشقائه. والمقال كله يشف عن عداوة عميقة لكل فكرة إسلامية أو عربية. فهو يرفع ذلك العهد الفرعوني الإقطاعي إلى مرتبة من القداسة تكاد ترد الناس إلى ضرب من الوثنية. وهو لا يوقر صحابة رسول اللَّه الذين كان فتحهم لمصر خيرًا وبركة على المصريين، إذ أنقذهم من الضلال وأدخلهم في رحمة اللَّه بدخولهم في الإسلام، فهو حين يتحدث عن أولئك المجاهدين في نشر كلمة اللَّه وهداية خلقه، الذين عاشوا زاهدين، ثم خرجوا من الدنيا لا

يملكون من حطامها شيئًا، يقرنهم بالوثنيين من الرومان واليونان، وبالفسقة والجبابرة من الطغاة، كلهم عنده سواء، تجد ذلك في مثل قوله: «ولم تكن بيزنطة أرحم بالشعب المغلوب، ولا كان الولاة العرب ـ ص٣١».

وفي قوله: «لم يكن المصري يملك شيئًا من أرضه ولا من غير أرضه. كلها إقطاعات للفرعون وأسرته، وللمعبد وسدنته، ثم للبطليموس فالإمبراطور في رومة وبيزنطة، ثم للخلفاء في شبه جزيرة العرب جنوبًا وشمالاً[1]، ولمن جاء بعدهم من حكام مصر الأجانب ـ ص٣١».

وفي قوله: «وأنت تجد أمثلة لهذه الاضطرابات والثورات على طول التاريخ المصري في العهد القديم، وبعد استتباب الأمر للبطالسة وإبان الحكم الروماني والبيزنطي والعربي والعثماني والفرنسي والأرنؤودي والاحتلال البريطاني ـ ص٣٣».

وقوله: «حدث هذا بعد احتلال الرومان وبعد الفتح الإسلامي والغزو العثماني ـ ص٣٥».

وقوله: «وكل همه إرضاء الملك البعيد إمبراطورًا أو خليفة أو سلطانًا ـ ص٣٥».

❑ ولقد بلغ بالكاتب تقديسه للوطنية المصرية بهذا المعنى الشعوبي المتطرف حدًّا يقرب من الشرك، فكان من سوء اختياره للألفاظ أن وصفها بما اختاره اللَّه جل وعلا لنفسه فقال: إنها لا تدركها سِنَةٌ ولا نَوْم (ص٢٦)، وأنزل الدين منزلة تلي في قداستها وسلطانها على النفوس هذه الوطنية، إذ جعل اعتناق المصريين للمسيحية مظهرًا من مظاهر المقاومة الوطنية للاحتلال

(١) من الحقائق العلمية والتاريخية أن الفتح الإسلامي هو الذي ألغى نظام الطبقات للمرة الأولى في مصر وبه تحررت الطبقة الكادحة في الزراعة وصار حتى تملك الأرض عامًا لكل الطبقات. والذي يجهل هذه الحقيقة يجهل تاريخ الإسلام في مصر.

الروماني، وأظهر عجبه لتحول المصري عن الوثنية إلى المسيحية متسائلاً: «كيف لم يحرص المصري على ديانته العتيقة وهي آخر صلة له بمجده الغابر؟ ـ ص٢٦».

❑ وفي «المجلة» بعد ذلك صور كثيرة من هذه الشعوبية البغيضة، في مثل مقال «فن التصوير المصري ـ العدد الأول ص٤٤ ـ ٤٦» الذي يقدس فن الفراعنة الوثني وما اتخذوه لأنفسهم من آلهة بزعمهم، وفي مثل مقال «الفن المصري ـ إدراك القانون ـ العدد الرابع ٢٩ ـ ٣٣»، بما يتخلله من مجازفات مارقة في تعريف الدين والتدين والخلط بينهما وبين فنون الوثنية»[1] اهـ.

❑ وللَّه درّ من قال ساخرًا مستهزئًا بدعاة الفرعونية من الشعوبيين الكارهين للإسلام الداعين إلى المصرية والمصرية فقط:

وإخناتون للتوحيـد داعٍ ... قديمًا قبل كل المرسلينا
أإخناتون عابـد قرص شمس ... بزعم الكفر شيخ المسلمينا
وكعبتنا الحبيبة لو أرادوا ... لقالوا إنها كانت بسينا
إله القوم نيلهم العتيق ... رسولهمُ غدا طميًا وطينا
حضارة سبع آلاف لكفر ... وفرعون استخف الصاغرينا
أليس النيل لي ومصر ملكي ... وموسى ساحر لبث السنينا
نربيه صغيراً ثم يدعو ... لدن غير دين الكافرينا
فميمكمُ وصادكمُ وراءٌ ... غدت وثنًا وطاغوتًا لعينا
ونسبتكمْ لأمكم تلظى ... ونسبتنا لدار المتقينا
ونسبتكم لأهرام ووثنٍ ... ونسبتنا لتوحيد الأمينا
ونسبتكم لحتشبسوت كفرٍ ... ونسبتنا لحور الدار عينا

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص٥٣ ـ ٦١).

*** اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية تحت إشراف سمسار الغرب أحمد أمين وتلميذه طه حسين تنظر بغير عين العرب وتعمل بغير عقل العرب:**

❑ يقول الدكتور محمد محمد حسين:

«سوف أتناول في حديثي هذا اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية كما تبدو من مطبوعاتها الوافرة الغزيرة، وهي اللجنة التي كان يشرف عليها أحمد أمين، ثم ورثها طه حسين بعد وفاته، وسأقسّم منشوراتها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ البحوث والمحاضرات.

٢ ـ الكتب المترجمة.

٣ ـ المؤتمرات.

وأنا أعجل بتقديم النتيجة التي انتهيت إليها من بحث أعمال هذه اللجنة الثقافية ليضعها القارئ نصب عينيه على طول هذه المقال، هذه اللجنة كانت ـ ولا تزال ـ تنظر بغير عين العرب، وتعمل بغير عقل العرب، تهدف إلى غير أهداف العرب. إنها لا تزال كما كانت يوم أنشأها الذين كانوا يحرصون على أن يكون العرب ذيلاً لدول الاستعباد الغربي، لا يرون الأشياء إلا كما يراها الغربي، ولا يتذوقونها إلا كما يتذوّقها، ولا يقدرونها إلاّ كما يقدرها، إنها لا تزال تعمل على ما يسميه دهاقنة الاستعباد الغربي التغريب. ويُقصد به طبع العرب والمسلمين والشرقيين عامة بطابع الحضارة الغربية والثقافة الغربية، مما يساعد على إيجاد روابط الود والتفاهم بين الحمار وراكبه، وهي روابط تُفيد الراكب دائمًا ولا تُفيد الحمار»[1] اهـ.

❑ ثم قدّم الدكتور محمد محمد حسين لسموم هذه اللجنة بما نشرته مثل كتاب «العالم العربي مقالات وبحوث» نشرته الإدارة الثقافية سنة ١٩٥٣

(١) المصدر السابق (ص١١٤ ـ ١١٥).

مصدّرًا بمقدمة لأحمد أمين رئيس هذه الإدارة وقت ذاك. ثم استعرض من هذا الكتاب مقالاً خطيرًا للدكتور كامل عيّاد عن «مستقبل الثقافة في المجتمع العربي ص١٤٣ ـ ١٦٧».

*** «مستقبل الثقافة في المجتمع العربي» مقال شنيع لكامل عياد يفضحه ويكشف ما فيه الدكتور محمد محمد حسين:**

يتفوق فيه صاحبه على الدكتور طه حسين ـ صاحب «مستقبل الثقافة في مصر ـ في جرأته على الدين وإسرافه في إنكار ما وراء المادة المحسوسة الملموسة من عالم الغيب، ومحاربة كل مواريثنا الدينية والأدبية والاجتماعية على الإطلاق.

ويحار المؤلف كي يهش مندوب من مؤسسة روكفلر الأمريكية ويظهر البشاشة ولا يتردد في قطع الوعود بالمساعدة في إنشاء معهد لدراسة التصوف؟

❑ يقول الدكتور محمد محمد حسين: «فالصوفية مذهب غير إسلامي في كثير من تفاصيله وشطحاته وتقاليده ونظمه الدخيلة، وخوضه فيما نهى الإسلام عن الخوض في تفاصيله، أو هو يبدو كذلك فيما هو مشهور عن كثير من فرقه التي تدعو إلى سلبية يائسة مستسلمة تعارض روح الإسلام معارضة صريحة وهو شيء آخر غير الزهد الذي عُرف عن بعض الصادقين من الصالحين في صدر الإسلام خاصة وفيما تلا ذلك من العصور»[1].

❑ ورد الدكتور محمد محمد حسين على كامل عياد الذي لا يرى الأديان إلا أوهامًا وخرافات وأساطير[2].

---

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص١١٨ ـ ١١٩).

(٢) (ص١٦٤) من كتاب «العالم العربي مقالات وبحوث» وانظر «حصوننا مهددة من داخلها» ـ

*** الدكتور محمد محمد حسين يُبين حقيقة عبدالرزاق السنهوري الذي دعا إلى تبديل الشريعة الإسلامية ودعا إلى القانون الوضعي «القانون المدني العربي»:**

❑ قال الدكتور محمد محمد حسين بعد كلامه عن مقال كامل عياد.

هذا هو أحد النموذجين اللذين أردت تقديمهما لتصوير ما تنشره الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية من بحوث ومقالات. أما النموذج الآخر فهو بحث الدكتور عبدالرزاق أحمد السنهوري أو مقاله عن «القانون المدني العربي ص٥ ـ ٢٩».

❑ يدعو السنهوري في مقاله هذا ـ إلى توحيد القانون المدني في سائر البلاد العربية، فيستثني من ذلك الحجاز واليمن؛ لأنهما يلتزمان الشريعة الإسلامية، (إلى أن يحين الوقت الذي تتمكن فيه من المشاركة في حركة التقنين المدني العربي ص٨).

ويقول بعد ذلك: إن التقنين العربي يتنازعه تياران، أحدهما ممثل في القانون المصري، وهو تيار غربي خالص أو يكاد، والآخر يمثله القانون العراقي الحديث، وهو يمزج بين الشريعة الإسلامية والقوانين الغربية. ويُدخِل في القسم الأول الذي يصفه بأنه (ينتمي إلى الثقافة المدنية الغربية).. مصر وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش، بينما يُدخِل في القسم الثاني العراق والأردن وفلسطين.

❑ وهو يصف القانون المدني الجديد في مصر بأنه قد جعل للشريعة الإسلامية بعض الاعتبار. ولكنه يعترف بأن (المشرِّع المصري بالرغم من كل ذلك لم يخط خطوة حاسمة في جعل القانون المدني مشتقًا في مجموعه من

= (ص١٢٣ ـ ١٢٤).

الفقه الإسلامي). ويعتذر عن ذلك بأن المشرع المصري قد أخذ بأسباب الأناة والتبصر (وتربص حتى يأخذ الفقه الإسلامي بأسباب التطور ـ ص١٠). ثم يعود فيؤكد أن هذا القانون (يمثل أصدق تمثيل الثقافة المدنية الغربية في العصر الذي نعيش فيه ـ ص١٥).

❑ أما القانون العراقي فهو يتميز عنده بأنه (أول قانون مدني حديث يتلاقى فيه الفقه الإسلامي والقوانين الغربية الحديثة جنبًا إلى جنب بقدر متساو في الكم والكيف ـ ص٩١٨. وهو يرى أن هذه التجربة (من أخطر التجارب في تاريخ التقنين الحديث). لأن وضع نصوص الشريعة الإسلامية إلى جانب النصوص الغربية قد (مكن لعوامل المقارنة والتقريب من أن تنتج أثرها، ومهّد الطريق للمرحلة الثالثة والأخيرة في نهضة الفقه الإسلامي، يوم يصبح الفقه مصدرًا لأحكام حديثة تجاري مدنية العصر وتساير أحدث القوانين وأكثرها تقدمًا ورقيًا.. ص١٩).

❑ وهو يقدِّر (بعد أن أصبح الفقه الإسلامي والقانون المدني الغربي جنبًا إلى جنب في صعيد واحد، أن يتكامل القانونان وأن يتفاعلا، هذا يؤثر في ذلك وقد يتأثر به. ومن ثم تقوم نهضة علمية حقة لدراسة الفقه الإسلامي في ضوء القانون المدني الغربي. وهذه الدراسة هي التي قصدت أن أصل إليها، حتى إذا آتت ثمارها وتقدمت دراسة الفقه الإسلامي إلى الحد الذي يجعله مصدرًا لقانون مدني يجاري مدنية العصر ويساير ثقافة الجيل، عند ذلك نكون قد بلغنا المرحلة الثالثة والأخيرة، ويتحقق ببلوغنا هذه المرحلة الهدف المنشود ـ ص٢٠). والهدف المنشود عنده هو الذي أشار إليه قبل ذلك بسطور قليلة حين قال: «والهدف الذي قصدت إليه هو أن يكون للبلاد العربية قانون واحد يشتق رأسًا من الشريعة الإسلامية». ولكن كلامه الذي تلا ذلك ـ وهو كلام بالغ الخطورة ـ يكشف عن مبلغ ما في هذا الزعم من

إخلاص، ويبين أنه ليس إلا خداعًا، وأن الشريعة الإسلامية التي يقصدها هي شيء آخر غير الشريعة التي أنزلها اللَّه على سيدنا محمد ﷺ، والتي تمت نعمة اللَّه علينا بإكمالها منذ نزول قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾.

فهي شريعة تستهدي (مدنية العصر) الغربية و(ثقافة الجيل) الغربية أيضًا، وتروض نفسها على أن ترتفع إلى مستوى شرائع الغرب، لأنها في زعم المؤلف لم تبلغ هذا المستوى. وقَصْدُ الكاتب إلى تطوير الشريعة الإسلامية واضح في مقاله هذا كل الوضوح. وهو يقصد بتطوير الشريعة الإسلامية جعلها ملائمة لنظم حياتنا ولأنماطها المنقولة عن الغرب المسيحي، أو الغرب اللاديني على الأصح.

فهو يريد أن يشكل الشريعة الإسلامية بشكل هذه الحياة، بل أن يشكل الحياة بشكل الشريعة، أي إنه يحكِّم هذه الأنماط الغربية في الشريعة بدلاً من أن يحكِّم الشريعة في اختيار ما يلائمنا من هذه الأنماط. أو بعبارة أخرى هو يعرض الشريعة على واقع الحياة، ولا يعرض واقع الحياة على الشريعة. وهو مع ذلك لا يميز بين الشريعة الإسلامية المنزلة من عند اللَّه وبين القانون الغربي الذي صنعته المصالح والأهواء، بل الذي صنعته اليهودية العالمية في بعض الأحيان، كما هو الشأن في القانون الفرنسي الذي استمد منه القانون المصري بخاصة؛ لأن هذا القانون ثمرة من ثمار الثورة الفرنسية اليهودية التي أصبحت فرنسا من وقتها دولة لا دينية من الناحية الرسمية على الأقل. وما وجه المقارنة بين قانون صنعه الإنسان وبين قانون منزل من عند اللَّه العليم الخبير؟.

❑ إن الذي يعتريه شك في أن الشريعة الإسلامية ـ كما هي في القرآن الكريم وكما بينتها السنة الشريفة ـ منزلة من عند اللَّه، هو كافر. والذي

يؤمن بأنها منزلة من عند اللَّه لا يعتريه شك في صلاحيتها كل زمان ومكان؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بذلك وصف نفسه ـ سبحانه ـ في محكم كتابه، وبذلك يؤمن المسلمون.

❑ والذي يهدف إليه السنهوري هو شر الحلول؛ لأن الذي يفعله هو تبديل الشريعة الإسلامية. ولا شك أن تفاعل الشريعة الإسلامية السماوية مع شرائع الغرب الوضعية هو شر مما كان حادثًا من استعارة القانون الغربي كله أو بعضه؛ لأن من الممكن التخلص من الدخيل في هذه الحالة. أما في حالة الاندماج والتفاعل فإدراك الحدود بينهما صعب، وتخليص الشريعة الإسلامية مما دخلها من أسباب الزيغ والانحراف يكاد يتعذر بعد أن تتغلغل الروح الغربية في كيانها، ويصبح الناتج من تفاعلهما شيئًا جديدًا معقد التركيب تختلف خصائصه وصفاته عن كل من العنصرين المكونين له.

ثم إن الناس في الحالة الأولى يدركون إدراكًا واضحًا أن القانون الذي يحكمهم قانون دخيل. أما في الحالة الثانية فقد يتوهمون أن القانون الذي يحتكمون إليه قانون إسلامي، بل إن كاتب المقال يزعم لهم ذلك منذ الآن.

❑ والواقع أن هذا الذي يفعله السنهوري هو الذي يهدف إليه الاستعباد الغربي. يقول هـ. ا . ر . جب في كتابه «إلى أين يتجه الإسلام؟!» (ص٣٢٨ ـ ٣٢٩) من طبعة لندن ١٩٣٢: «إن مستقبل التغريب والدور الذي سيلعبه في العالم الإسلامي لا يتوقف على هذه المظاهر الخارجية للتأثر والاقتباس؛ لأن الصورة الظاهرية ثانوية، وكلما كان التقليد في المظاهر أكمل كان امتزاج الشيء المنقول بنفس المقلدين أقل؛ لأن فهم الروح والأصول التي تنطوي عليها المظاهر الخارجية فهمًا كاملاً لا بد أن يصحبه إدراك التعديلات

التي تتطلبها الظروف المحلية. ويمكن أن يزول من العالم الإسلامي كثير من النظم الغربية التي نراها فيه الآن، ثم لا يكون مع ذلك أقل حظًا من الاستغراب، بل ربما كان أوفر حظًّا. وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي ولمدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية، علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتُكِرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية بعد أن تُهضم وتصبح جزءً حقيقيًّا من كيان الدول الإسلامية، فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها».

❑ يعود كاتب مقال اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية فيؤكد أن هدفه هو تغريب الشريعة الإسلامية نفسها وفرنجتُها، أو بعبارة أُخرى إيجاد «إسلام غربي» إن صح هذا التعبير، وذلك حيث يقول: «فالنتيجة الحتمية إذن لوضع القانون المدني المصري ثم لوضع القانون المدني العراقي، مشتقًا منه ومن الفقه الإسلامي على السواء هي النهوض بدراسة الفقه الإسلامي في ضوء القانون المدني الغربي ـ ص٢١)».

ومع ذلك فهذا القانوني الذي يظن بالتشريع الإسلامي التخلف عن القانون الغربي يعترف بأنه لم يدرس الشريعة الإسلامية إلا في وقت حديث متأخر جدًّا، حين اشترك في وضع القانون المدني العراقي، فأتيح له الاطلاع على بعض نصوص الفقه الإسلامي. وهو هنا يعترف اعترافًا صريحًا بأن اطلاعه على الفقه الإسلامي جديد تاريخًا، ومحدود موضوعًا، لا يتجاوز ما أتيح له أثناء اشتراكه في لجان وضع القانون العراقي، وأنه لم يمنحه من وقته سنة من عشرات السنين التي أفناها في دراسة القانون الفرنسي. والواقع أن هذا الجهل بالشريعة الإسلامية يعلل فتنته بالقوانين الغربية، التي حدت به إلى المجاهرة بأن تكون روح التقنين الغربي وأسلوبه هما قِوام نهضة التشريع

الإسلامي، وهو بذلك معذور لجهله حسب اعترافه، ومن جَهِلَ شيئًا عاداه. ولكن من الظلم للناس وللإسلام وللقانون أن يسلم زمام التشريع في البلاد الإسلامية إلى الذين يجهلون شريعتها. ومن الواضح أن الرجل حين رأس لجان القانون المدني الجديد في مصر لم يكن على معرفة بالشريعة الإسلامية؛ لأنه إنما اتصل بها حسب اعترافه أثناء اشتراكه في لجان القانون المدني العراقي، وقد كان ذلك بعد وضع القانون المدني المصري الجديد. واعترافه في هذا الصَدَد صريح، إذ يقول: «وأكثر ما كان درسي للفقه الإسلامي عند وضع القانون المدني العراقي. فإن هذا القانون كما قدمت مزيج صالح من الفقه الإسلامي والقانون المصري الجديد. فأتاح لي اطلاعي على نصوص الفقه الإسلامي ـ سواء كانت مقننة في المجلة[1] ومرشد الحيران، أو كانت معروضة عرضًا فقهيًّا في أمهات الكتب وفي مختلف المذاهب ـ أن ألحظ مكانة هذا الفقه وحظه من الأصالة والابتداع، وما يكمن فيه من حيوية وقابلية للتطور ـ ص٢٢).

❑ ويرسم كاتب المقال منهجًا يقترحه لدراسة الفقه الإسلامي (لإحيائه والنهضة به نهضة علمية صحيحة) حسب زعمه، فيقرر في بدء كلامه أن (الأساس في هذه الدراسة أن تكون دراسة مقارنة، فيُدرَس الفقه الإسلامي في ضوء القانون المقارن). ولست أدري ما حاجتنا إلى هذه المقارنة، ولماذا كل هذا الحرص على أن لا نخالف التشريع الغربي ولا نبتعد عن روحه؟ أليس في ذلك قتل لشخصيتنا وإفناء لها في الغرب، مما لا يخدم سوى مصالح الاستعباد والتبشير؟ ذلك إلى ما يتضمنه من تبديل شرع اللَّه وتحريف الكلم

(١) المقصود هو (مجلة الأحكام العدلية) التي أصدرتها الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر متضمنة صياغة الأحكام الإسلامية ـ على المذهب الحنفي ـ في شكل مواد على النمط الغربي.

فيه عن مواضعه، وهو كفر صريح، وليس بعد الكفر ذنب.

▫ ويطالب الكاتب بدراسة مذاهب الفقه الإسلامي المختلفة، السني منها والشيعي والخارجي والظاهري: (وتُستكشَف من وراء كل هذه قواعد الصناعة الفقهية الإسلامية، ثم تقارن هذه الصناعة بصناعة الفقه الغربي الحديث. حتى يتضح ما بينهما من الفروق ووجوه الشبه، حتى نرى أين وقف الفقه الإسلامي، لا في قواعده الأساسية ومبادئه، بل في أحكامه التفصيلية وفي تفريعاته، فتمتد يد التطور إلى هذه التفصيلات، على أسس تقوم على ذات الفقه الإسلامي وطرق صياغته وأساليب منطقه. وحيث يحتاج الفقه الإسلامي إلى التطور يتطور، وحيث يستطيع أن يجاري مدنية العصر يبقى على حاله دون تغيير. وهو في الحالين فقه إسلامي خالص (؟!) لم تداخله عوامل أجنبية فتخرجه عن أصله (؟!) ـ ص٢٣).

▫ ألا تعجب معي لهذا الرجل الذي يزعم بعد كل ما قاله أن الفقه الإسلامي الذي يسعى إلى تطويره تحت وصاية التقنين الغربي وفي ولايته هو فقه إسلامي خالص؟ وكيف يكون خالصًا وهو يحكِّم فيه (روح العصر)، وهي روح غربية حسب اعترافه في كل موضع من مقاله؟ ومن الواضح أن (مدنية العصر) التي يطلب السنهوري إلى الفقه الإسلامي أن يجاريها، ويطلب إلى واضعي القانون أن يتخذوها مقياسًا لصلاحية الفقه الإسلامي، هذه المدنية هي مدنية غربية فرضها الاستعباد الغربي ونجح في ترويجها وفي إرساء دعائمها وتنشئة الرجال الذين يسهرون عليها ورعاية هؤلاء الرجال ودفعهم إلى مناصب القيادة والزعامة، بما يسمح لهم أن يرعوا جيلاً جديدًا من أتباعهم، ثم يرعى هذا الجيل جيلاً من بعده. وهكذا دواليك، فتصبح قيادة المسلمين الفكرية والسياسية دائمًا في يد هذه العصابة، لا يسمع الناس إلا كلامها وكلام أذنابها، ولا يرون إلا صورها وصور أذنابها، ولا يرقى أحدهم إلى مرتبة من مراتب الشرف ولا يُفتَح له باب من أبواب الرزق إلا إذا

حصل على جواز المرور من هذه العصابة التي تسد كل منفذ وتتحكم في كل باب وتحتل كل معقل. ويظل المسلمون هكذا محكومين في حقيقة الأمر بالاستعباد الغربي وهم يظنون أن حكامهم هم إخوانهم وأبناء أمتهم.

❑ ويقترح السنهوري بعد ذلك إنشاء معهد خاص يلحق بجامعة الدول العربية لدراسة الفقه الإسلامي حسب ذلك المنهج الذي يقترحه. وهنا يلتقي السنهوري بطه حسين، الذي اقترح في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر ـ الفقرة ٤٩) إنشاء معهد للدراسات الإسلامية في كلية الآداب. كما يلتقي بمحمد خلف اللَّه في اقتراحه الذي تقدم به إلى وزارة التربية والتعليم عن إعداد مدرِّس الدين، فاقترح فيه (أن يعاد النظر في تكوينه وإعداده وأن يُرسَم لذلك منهج يحقق له عمق الثقافة وحرية الفكر). وبنى على ذلك اقتراحًا بإنشاء (قسم أو شعبة للدراسات الإسلامية في كلية للآداب بالجامعات المصرية) (تدرس فيما تدرسه «سيكولوچية الدين» و«النظم الدينية والأخلاقية المقارنة» ولغة أو لغتين شرقيتين كالفارسية والأردية، ولغة أو لغتين غربيتين، ليكونوا على اتصال بتيارات التفكير الثقافي في الشرق الإسلامي وفي الغرب)[1].

❑ ومع ذلك كله فليس للشريعة الإسلامية من الاعتبار عند كاتب هذا المقال أكثر مما للقانون الروماني. فالغاية عنده من إنشاء ذلك المعهد الذي اقترحه هي أن (تنتهي هذه الدراسة بعد عشرات من السنين إلى أن يتجدد شباب هذا الفقه، وتدب فيه عوامل التطور لروح العصر. وتكون نهضة الفقه الإسلامي هذه شبيهة بنهضة القانون الروماني في العصور الوسطى. ويُنبِت الفقه الإسلامي قانونًا مدنيًا متصورًا يجاري المدنية الحديثة. وينبثق هذا القانون

(١) مجلة الأسرة ـ يصدرها قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالإسكندرية ـ العدد السادس سنة ١٩٥٧ (ص ١٦٠ ـ ١٦٥).

الحديث من الشريعة الإسلامية كما انبثقت الشرائع اللاتينية والشرائع الجرمانية من الفقه الروماني ـ ص٢٤).

مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن مسلم يعتقد أن الشريعة الإسلامية منزلة من عند اللَّه، وأنها حدود اللَّه، لا يتعداها إلا كافر ظالم لنفسه.

❑ ثم يأخذ الكاتب في بيان ما يتضمنه التقاء القانون الغربي بالفقه الإسلامي من وجوه واحتمالات، ويخرج القارئ من كلامه بأن ما يسميه (اشتقاق القانون من الشريعة الإسلامية) ليس في حقيقة الأمر إلا إخضاع الشريعة الإسلامية لأهواء العصر وشهواته وهو ما يسميه (مدنية العصر). وخلاصة ما يقوله هنا أنه لا يأخذ بحكم الشرع إلا حيث يتفق تمامًا مع روح القوانين المدنية المستجلبة من أوروبا. ثم هو يُعدِّل الحكم الشرعي أو يلغيه ويسقطه حسب مبلغ تعارضه مع هذه القوانين الغربية الأصول، التي هي في زعمه (أصلح للعصر) أو (تجاري مدنية العصر) أو (تساير روح العصر)، حسب تعبيره في مواضع مختلفة من هذا المقال.

❑ وتطوير الفقه الإسلامي الذي يدعو إليه الكاتب، أو تبديله على الأصح، وهو تطوير وتبديل لا يقف عند حد، حسب اعترافه هو نفسه حيث يقول: (فالهدف الذي نرمي إليه هو تطوير الفقه الإسلامي وفقًا لأصول صناعته، حتى نشتق منه قانونًا حديثًا يصلح للعصر الذي نعيش فيه. فإذا استخلصنا هذا القانون في نهاية الدرس وأبقيناه دائم التطور حتى يجاري مدنيات العصور المتعاقبة، فقد تكون أحكامه في جزء منها، قل أو كثر مطابقة لأحكام القانون المدني العراقي أو لأحكام القانون المدني المصري أو لأحكام كل من القانونين.. إلخ ص٢٨). والمهم في ذلك كله أن هذا التطور الدائم سوف ينتهي بذلك التشريع الإسلامي المزعوم في المدى القريب أو البعيد إلى أن يصبح شيئًا مختلفًا عن الإسلام الذي أنزل على نبينا عليه

الصلاة والسلام اختلافًا تامًا، بل إنه لكذلك منذ بدء وضعه أو التفكير فيه كما هو ظاهر في هذا البحث.

*** الدكتور محمد محمد حسين يفضح عمل لجنة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ورئيسها الدكتور طه حسين في الكتب التي ترجموها وأنهم استوحوا السفارة الأمريكية واليونسكو في اختيار ما ترجموه:**

❑ يقول الدكتور محمد محمد حسين «هل يعقل عاقل منصب أن يلجأ العرب إلى السفارة الأمريكية مثلاً لتختار لهم ما تراه نافعًا للعرب ومحققًا لنهضتهم، ومعينًا على طرد اليهود وإجلائهم، وتصفيةً لشركات البترول وخرابها؟ **لقد فعلت اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ذلك! استوحت السفارة الأمريكية في بعض ما اختارته مما ترجمته، واستوحت اليونسكو في بعضه الآخر.** وهي نفسها تعترف بذلك حيث تقول في نشرتها الثقافية التي عرضت فيها نشاطها بين سنتي ١٩٤٦ ـ ١٩٥٦ (كذلك اتفقت الإدارة الثقافية بعد موافقة المكتب الدائم على أن تتولى نشر بعض الكتب الهامة المترجمة بمعرفة القسم الثقافي بالسفارة الأمريكية. وقد قُدِّمت فعلاً إلى الطبع على هذا الأساس أصول كتاب مترجم إلى العربية، ويشتمل على مقالات للكاتب الأمريكي الكبير إمرسون ـ ص٢٥)[1].

وتقول كذلك: (اتصلت الإدارة الثقافية ببعض الهيئات العالمية

---

(١) طبعت الجنة بعد ذلك كتابين مما أوحت به السفارة الأمريكية. وهما (الثقافة والحرية) لجون ديوي، الذي أفسد المتأمركون تربية شبابنا باسمه، و(انتصار الحضارة) لبرستد الذي أوفده المليونير اليهودي المتستر تحت النصرانية روكفلر في سنة ١٩٢٦ ليعرض على مصر عشرة ملايين من الدولارات لتأسيس معهد للدراسات الفرعونية يعين على سلخ مصر من عروبتها.

المختصة)[1] ، وحصلت منها على كشوف بأسماء الكتب التي تراها تلك الهيئات داخلة في إطار هذا البرنامج). وسوف أعرض في هذا المقال نموذجين من هذه السموم التي تدس على العرب باسم جامعتهم في كتابين، أحدهما مما أوحت به السفارة الأمريكية وهو (مختارات من إمرسون)، والآخر مما أوصت به اليونسكو وهو (قصة الحضارة) لولْ ديورانت. وقبل أن أتناول هذين الكتابين أحب أن أؤكد لجامعة الدول العربية وللجنتها الثقافية الموقرة التي يرأسها طه حسين أن العرب لم يغلبوا من ضعف في الفلسفة ولا الآداب ولا التاريخ. ولكنهم غلبوا وضربت عليهم الذلة لأنهم متخلفون في العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية، النظرية منها والتطبيقية، غلبوا لأنهم لا يملكون من المصانع ومن أدوات القتال ما يناهضون به عدوهم وما يتحررون به من سجنه الاقتصادي، الذي يسخرهم فيه لجمع الثروات له كما يسخر العبيد ثم يحاربهم بهذه الثروات نفسها، ويشتري بها من رجالهم من يقوم على حراسة هذا السجن الكبير، فيقيم فيه معبداً يسبح كهنته بحمد آلهتهم التي يعبدونها من دون اللّه. وينكل بالذين ينبهون النائمين والغافلين والمخدوعين، أو يطادرهم بالإشاعات الكاذبة والأضاليل الباطلة حتى يُلَبِّس على الناس أمرهم ويجعلهم موضع السخرية والاستهزاء.

❑ إن الجماعات البشرية في الدول والحكومات، والجيوشَ في ميادين القتال، والفرق الرياضية في الساحات، تميز نفسها بمختلف الشارات، فتتخذ الأعلام والأناشيد وأنماط الأزياء والعلامات والأشعرة. تفعل ذلك لتميِّز نفسها من غيرها فلا تضل في الزحام ولا تذوب عند الاختلاط، ولا تنحلُّ رابطتها عند المصادمة والنزال.

---

(١) المقصود بها هيئة اليونسكو التي يسيطر عليها ـ كما هو الشأن في أكثر مؤسسات الأمم المتحدة ـ الصهيونية العالمية الهدّامة.

❑ وللعرب طابع يميزهم، ولهم شخصية قد ضلوا عنها في عصور الضعف والخمول وأضلهم عنها المستعبدون وأذنابهم. ولن تتحقق لهم نهضة إلا إذا أحيوا هذه الشخصية، وتمسكوا بمقوماتها، وتعصبوا لرموزها وشاراتها، وميزوا أنفسهم بطابعهم الخاص. وسيظلون بغير ذلك أذنابًا للمستعبدين ينقادون ولا يقودون، وأبواقًا ينشرون ما يلقى إليهم من قول ويرددونه في الأجواء، لا يزيد عملهم فيه عن مجرد تضخيمه. ذلك لأنهم لا يبتكرون حتى يحسوا في أنفسهم القدرة على الابتكار، وحتى يكونوا جميعًا متماسكين فيتولد من اجتماعهم وتماسكهم قوة. وهم لا يحسون القدرة على الابتكار إلا إذا استيقنوا أنهم عريقون في هذا الباب. ولا يجتمعون ويتماسكون إلا إذا عرفوا خصائصهم الأصيلة التي تمنعهم من أن يذوبوا في غيرهم فتذهب قواهم شَعَاعًا وتتفرق بدَدًا.

❑ لا يبلغ العرب درجة الأستاذية في هذه العلوم الجديدة التي أذلهم عدوهم بتفوقه عليهم فيها إلا إذا أصبحت هذه العلوم ملكًا لهم، وهم لا يملكون هذه العلوم ولا يحسون أنها علوم عربية إلا إذا قرءوها بالعربية وكتبوها بالعربية. وسيظلون يحسون أنهم غرباء عليها وأنهم متطفلون على أصحابها طالما ظلوا يقرءونها ويكتبونها بغير لغتهم.

ولكن اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية، وعلى رأسها طه حسين الذي تشهد كتبه أنه لم يكن إلا بوقًا من أبواق الغرب، وواحدًا من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير، يروِّج لثقافاته ويعظمها، ويؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عبادة جلاديهم. طه حسين الذي لم يملّ من الكلام عن جامعة البحر الأبيض المتوسط، التي دعت إليها فرنسا بالأمس والتي تدعو إليها أمريكا اليوم. طه حسين الذي يزعم لمصر أنها جزء من البحر الأبيض المتوسط في مقومات شخصيتها، وليست جزءًا من عرب نجد

واليمن والبحرين والعراق والسودان. طه حسين الذي لم يَبْدُ العرب في وهمه أمة؛ لأن قوام الدول في زعمه هو المنافع المادية؛ ولأن (تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية، ولا قوامًا لتكوين الدول)[1] . طه حسين هذا لا يُقِرُّ معنا هذه الحقيقة؛ لأنه يزعم للعرب أن السبيل إلى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم، ولكن السبيل إلى نهضتهم أن يذوبوا في الغرب، وأن يُخلَعوا من أنسابهم ويُقلَعوا من تُربَتهم ليُغَرسوا في تربة الغرب، ولذلك فهو يهلك أموالهم في ترجمة شكسبير الذي ترجمت رواياته من قبل أكثر من مرة ليحابي بها بطانته وحزبه فيغدق عليهم مما تحت يده، بل هو يهلك أموالهم في ترجمة ما لُعِن به أجدادهم، وما سُبَّ فيه أسلافهم، وسُفِّه دينهم، وافتُرِيَ على نبيهم.

ولو أنصف طه حسين، ولو أنصف كل القائمين على الترجمة في هذا البلد من مثل إدارة الثقافة بوزارة التربية ومجلس الآداب وغيرهما، لجعلوا كل همهم مصروفًا إلى نقل العلوم التجريبية والرياضة وحدها لا يشتغلون بترجمة غيرها حتى نستكمل نقصنا فيها؛ لأن الاشتغال بنقل كتب الأدب والفلسفة والتاريخ والتربية والأخلاق وما شاءوا من الثقافات الإنسانية، على هذا النحو الذي تسوده الفوضى وسوء الاختيار ـ بل سوء القصد في كثير من الأحيان ـ يضر مرتين: يضر بإفساد أذواق شبابنا وتدمير كيانهم، وتحويل شخصيتهم بحيث يصبحون غرباء بين قومهم، ثم يصبح قومهم بعد قليل هم الغرباء بينهم حين يكثر عددهم ويكْثُف جَمْعُهُم، ويضر مرة ثانية بتبديد الجهد والمال في غير وجهه وصرف العرب عن الطريق الصحيح إلى تحررهم ثم

(١) «مستقبل الثقافة في مصر» (ص١٩). ويراجع في بسطه الفكرة كلها الفقرتان الثانية والثالثة (ص١٢ ـ ٢٠) من طبعة المعارف سنة ١٩٤٤.

سيادتهم. ولو كان لي أن أقترح على اللجان الثقافية والهيئات الجامعية على اختلافها، لاقترحت أن يبدءوا بترجمة كتب المراجع في الطب والهندسة والعلوم والزراعة التي يدرسها طلاب الجامعات العربية. فهم بذلك يصيبون غرضين: إنهم ييسرون سبل العلم للطلبة العرب ويخففون عن آبائهم بعض الأعباء، بإغنائهم عن الطبعات الأوروبية الباهظة الثمن، والتي لا يتيسر وجودها في كثير من الأحيان؛ لأن أصحابها يستطيعون أن يمنعوا تصديرها إلينا حين يشاءون وهم في الوقت نفسه يخطون بهذا العمل خطوة واسعة نحو تعريب هذه العلوم التي لا تزال تدرَّس في جامعات مصر باللغة الإنجليزية»[1] اهـ.

❑ ويوضح الدكتور محمد محمد حسين بصمات اليهودية في كتابي إمرسن وديورانت:

وأن إمرسون يزعم أن الدين يتجدّد دائمًا وأن الأنبياء كانوا ولا يزالون اليهود في ثياب الكهنة، ويقرن رسالات الأنبياء بآراء الفلاسفة وأصحاب المذاهب الضالة، ويحض على التنكرّ للمقررات الدينية باسم الفكر، ويتعقّب فضائل الدين بالتسفيه والسخرية.

أما كتاب «قصة الحضارة» لول ديورانت فيتساءل إن كان المسيح عليه السلام قد وُجد، ويشكك في نسبه وينكر معجزاته، ويتناول حياة نبينا ﷺ بهذا الأسلوب الإلحادي نفسه ويذهب الدكتور إلى أن نقل هذه الكتب خطر، ولا يكفي تكليف أحد المسلمين بالردّ والتعليق عليها[2].

* * *

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص١٣٨ ـ ١٤٢).

(٢) راجع المصدر السابق (ص١٤٣ ـ ١٥٥).

*** الدكتور محمد محمد حسين يفضح المؤتمرات المشبوهة لضرب العرب والفصحى:**

تحت إشراف جامعة الدول العربية مثل مؤتمر التضامن الثقافي والاقتصادي بين دول البحر الأبيض المتوسط الذي انعقد في باليرمو سنة ١٩٤٥، وغيره من المؤتمرات التي كانت فيها الدعوة إلى وضع معجم جديد يُسمى «معجم العامة» وإلى إلزام مؤلفي الكتب المدرسية بالتزامه، وتمزيق العرب بالدعوة إلى تأليف معجم لكل بلد عربي على حدة. واقتراحات بمسخ قواعد اللغة والنحو والخط.

*** للّه درّ الدكتور محمد محمد حسين من فارس تحت راية القرآن:**

❑ كان ـ رحمه اللّه ـ واحدًا من أولئك النادرين الذين اشتدت حاجة الأمة إليهم في وقت علا فيه طوفان الانبهار بالحضارة الغربية، وطغى فيه تيار العلمانية، واشتدت فيه ظلمات الجاهلية المادية، وفاح فيه لهيب سياط الدعاة إلى جهنم.

كان ـ رحمه اللّه ـ يصارع رموز الانهزامية الفكرية على حلبة التخصص الثقافي، قاوم الطوفان وسبح ضد التيار في وقت ندر من سبح ضد هذا التيار الجارف، وأضاء الدرب في وقت اشتدت فيه حلكة ظلمات التغريب، وهو وإن سار في الدرب معه من يضيئون معالم الانفراد، إلا أن انفراد جهود كل منهم فيما يسره اللّه جعل المسير موحشًا لولا الأنس باللّه واستحضار معيته للمؤمنين.

*** الحاجة الشديدة إلى إعادة النظر في تقويم الرجال:**

❑ قال الدكتور محمد محمد حسين:

«أحب أن ألفت النظر إلى أمرين يجب أن يضعهما الباحثُ في هذا

الموضوع نُصْبَ عينيه، لكي يأمن الزلل، ولكي لا يضل الطريق، ولكي لا يُخدَع عن حقائق الأمور.

أحد هذين الأمرين هو حاجتنا الشديدة إلى إعادة النظر في تقويم الرجال؛ لأن كثيرًا ممن نعتبرهم دعائم النهضة الحديثة لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس إلا بسبب الدعايات المغرضة، التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة، لتحقق بذلك أغراضها في نشر مذاهبهم والتمكين لآرائهم؛ ولأن كثيرًا من الآراء المنحرفة التي لم تكن تستطيع أن تجد طريقها إلى الفكر الإسلامي وإلى مجتمعاته، قد أصبح قبولها ممكنًا، بنسبتها إلى هذه الزعامات وإلى هؤلاء الأئمة، الذين لا يتطرق إلى الناس شك في إخلاصهم وعلمهم.

والواقع أن كثيرًا من هؤلاء الرجال قد أحيطوا بالأسباب التي تَبْني لهم مجدًا وذِكْرًا بين الناس، ولم يكن الغرض من ذلك هو خدمَتهم، ولكن الغرض منه كان ولا يزال هو خدمة المذاهب والآراء التي نادَوا بها والتي وافقت أهدافَ الاستعمار ومصالحه. فقد أصبح يكفي في ترويج أي مذهب فاسد في تأويل الإسلام ـ كما لاحظ جب في كتابه (Modern Trends in Islam) أن يقال: إنه يوافق رأي فلانٍ أو فلانٍ من هؤلاء الأعلام. ويكفي في التشهير بأي رأي سليمٍ أن يُنْسَب إلى ضيق الأفق، الذي لا يلائم ما اتصف به هذا أو ذلك من سعة الأفق والسماحة وصحة الفهم لرُوح الإسلام، على ما تزعمه الدعايات. وليس مهمًا أن يكون ذلك عن حُسن قصدٍ منهم أو عن سوء قصد، وليس مهمًا أن يكون الاستعمار هو الذي استخدمهم لذلك، ووَضَعَ على ألسنتهم وأقلامهم هذه المذاهبَ والآراء، أو أن تكون هذه الآراءُ قد نشأت بعيدة عن حضانته ورعايته، ثم رآها نافعةً له، فاستغلها وعمل على ترويجها. المهم في الأمر هو أن المجد الذي يُنْسَب لهؤلاء الأفراد ليس من صنعهم ولا هو من صنع الشعوب التي عاشوا فيها، ولكنه من صُنْعِ القُوى

التي استخدمتهم أو التي تريد أن تستغلهم، سواءٌ كانت هذه القوى هي الاستعمار أو هي الصهيونية العالمية بمختلف وسائلها وأجهزتها.

❑ وخطة الاستعمار والصهيونية العالمية في ذلك كانت تقوم ـ ولا تزال ـ على السيطرة على أجهزة النشر التي نسميها الآن (الإعلام)، وإلقاء الأضواء من طريقها على كُتّابٍ ومفكرين من نوع خاص، يُبْنَون ويُنَشَّئون بالطريقة التي يُبْنى بها نجوم التمثيل والرقص والغناء، بالمداومة على الإعلان عنهم، والإشادة بهم، وإسباغ الألقاب عليهم، ونشر أخبارهم وصُوَرهم. وذلك في الوقت الذي يُهْمَل فيه الكُتّاب والمفكرون الذين يصوِّرون وجهات النظر المعارضة، أو تشوَّه آراؤهم وتُسفَّه، ويُشهَّر بهم. ثم هي تقوم على تكرار آرائهم آنًا بعد آنٍ لا يَملّون من التكرار؛ لأنهم يعلمون أنهم يخاطبون في كل مرة جيلاً جديدًا، أو هم يخاطبون الجيل نفسه، فيتعهدون بالسقي البذورَ التي ألقوها من قبل.

❑ ونحن حين ندعو إلى إعادة النظر في تقويم الرجال، لا نريد أن ننقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنامٌ جديدة معبودة لأناسٍ لا تقبل القَدْح والنقد، حتى إن المخدوع بهم والمتعصبَ لهم والمروِّجَ لآرائهم ليَهيجُ ويموج إذا وصَفَ أحدُ الناس إمامًا من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه، في الوقت الذي لا يَهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحابُ رسول اللَّه ﷺ بما لا يَقْبَلون أن يوصف به زعماؤهم المعصومون. فيَقْبَلون أن يُوصَمَ سيفُ الإسلام خالدُ بن الوليد بأنه قَتَل مالكَ بن نُوَيْرَة في حرب الرّدة طمعًا في زوجته، ويردِّدون ما شاع حول ذلك من أكاذيب. ويَقْبَلون أن يلطَّخ تاريخُ ذي النُّورَين عثمانَ بن عفان بما ألصقه بن ابنُ سَبَأ اليهودي من تُهَم. ويَقْبَلون ما يَرْوي الأصبهاني في كتاب الأغاني في سُكَينة بنتِ سيِّدِ شباب أهل الجنة الحسين من أخبار اللهو والمجون. ويردِّدون ما يذاع

من أخبار هارونَ الرشيدِ الذي كان يحج عامًا ويغزو عامًا ثم أصبح في أوهام أبناء هذا الجيل رمزًا للخلاعة والترف، بل كاد يصبح رمزًا للإسراف في طلب الشهوات، وصورةً من أبطال (ألف ليلة وليلة). يَقْبَلون ذلك كله، ثم يرفضون أن يُمسّ أحدُ أصنامهم بما هو أيسر منه. ويَحْتَمون بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبون على مخالفيهم في الرأي هذه الحرية. يخطِّئون كبارَ المجتهدين من أئمة المسلمين، ويجرِّحونهم بالظنون والأوهام ويثورون لتخطيء ساداتهم أو تجريحهم بالحقائق الدامغة.

أما الأمرُ الآخر الذي أحب أن ألفت النظر إلى خطورته، فهو تطوير الإسلام لكي يوافق الأمر الواقع في حياتنا العصرية. وقد بدأ هذا الاتجاه كما رأينا في أول الأمر بإحساس الحاجة إلى مواجهة الأقضية الجديدة باستنباط أحكام شرعية توافقها، ورأينا صدى ذلك فيما كتبه الطهطاوي وخير الدين التونسي.

فكتب الطهطاوي في «مناهج الألباب» عن (اقتضاء الأحكام والمعاملات العصرية تنقيح الأقضية والأحكام الشرعية بما يوافق مزاج العصر بدون شذوذ)، مقترحًا وضع مدونة قانونية عصرية شاملة، ودعا خير الدين إلى الاجتهاد في أضيق الحدود، بإعادة النظر في الأحكام المترتبة على العادات إذا تغيرت، ورد على من احتج بأنه لا يحق لنا (إحداث شرع جديد لعدم أهليتنا للاجتهاد) بأن هذا (ليس بتجديد اجتهاد من المقلدين، بل هو قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها).

كانت الدعوة إلى الاجتهاد في هذا الطور مقتصدة غاية الاقتصاد، تدعو إليه في أضيق الحدود، ولا تنكر التقليد بل هي تسلم به، وتسلم بأن أهل هذا العصر ليسوا أكفاء للاجتهاد. ومن كان منهم قادرًا على الاجتهاد لا يطمح إلى أكثر من الاجتهاد في حدود مذهب من المذاهب الأربعة، لا

يتجاوزه إلى الاجتهاد المطلق، الذي يسمو فيه بنفسه إلى مرتبة الأئمة الأربعة ومن في طبقتهم من المجتهدين الأولين.

ثم إن الدعوة أصبحت من بعد على يد محمد عبده ومدرسته، ولا سيما رشيد رضا، دعوة عامة تهاجم التقليد وتطالب بإعادة النظر في التشريع الإسلامي كله دون قيد، فانفتح الباب على مصراعيه للقادرين ولغير القادرين، ولأصحاب الورع ولأصحاب الأهواء، حتى ظهرت الفتاوى التي تبيح الإفطار لأدنى عذر، توسعًا في قوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ واستنادًا إلى إباحته في غزوة الفتح، وظهرت الفتاوى التي تبيح المعاملات التي تقوم على الربح، وتقسم الربا إلى ربا ظاهر وهو ربا النسيئة، الذين يتضاعف فيه الدين أضعافًا مضاعفة، وربا خفي وهو ربا الفضل، ولا تحرم إلا ربا النسيئة، أو تحرم الربا في أصناف معينة «الخلافة ٩٨» «يسر الإسلام ٥٨»، وظهرت الفتاوى التي تحظر تعدد الزوجات وتحظر الطلاق وتجيز تدخُّل القضاء فيهما. وظهرت الآراء التي تجعل الإسلام داخلاً في هذا المذهب أو ذاك من المذاهب السياسية والاجتماعية التي ابتدعتْها الحضارة الغربية الحديثة. وبذلك تحول الاجتهاد في آخر الأمر إلى تطوير للشريعة الإسلامية يهدف إلى مطابقة الحضارة الغربية، أو الاقتراب منها إلى أقصى ما تسمح به النصوص من تأويل على أقل تقدير.

❑ الاجتهادُ في الشريعة حقٌّ لكل عالم قادر عليه، ومن القدرة عليه أن يُلِم بكل ما قيل في المسألة التي يبحثها؛ لأنه لا يدري إن فاته بعضُها أن يكون هذا الذي فاته سببًا في عُدوله عن رأيه لو اطَّلع عليه؛ لأن فيه من الحقائق ما غاب عنه ولم يدخل في تقديره. وشأنُ الاجتهاد الديني في ذلك هو شأن الاجتهاد في أيّ فرعٍ من فروع المعارف والفنون. فليس يباح للطبيب أن يجتهد حتى يبلغ من الإلمام بالطب حدًا يَعترِف له عنده أصحابُ هذا العلم

بالقدرة على الاجتهاد فيه. وليس يُقبَل من المهندس أن يَطْلُع على الناس في الهندسة برأي جديد حتى يَثْبُت عند علماء الهندسة أنه قادر على الابتكار. بل لا يُقبَلُ من رجال القانون الوَضعْي الذي أخذناه من الغرب في كل فروعه أن يجتهدوا فيه حتى يبلغوا درجة من الحِذْق يسلَّم لهم معها بالقدرة على التشريع. والمهندسون والأطباء والقانونيون بعدَ ذلك في معظمهم مقلِّدون، يكتفون بتطبيق ما ابتكره المجتهدون في الطب والهندسة والقانون، ولا يزيد اجتهادُهم فيها عن الحِذْق والكياسة في تطبيق القواعد النظرية على الوقائع العملية. فالاجتهاد إذن لم يُغْلَق بابه، ولكنَّ المسلمين أحسوا في العصور المتأخرة من أنفسهم عدم القدرة عليه، وأحسوا أن أصول المسائل وفروعَها في مُختَلف احتمالاتها قد فُصّلت تفصيلاً.

❑ على أن الاجتهاد في حال افتتاننا بالحضارة الغربية خَطَرٌ غيرُ مأمون العواقب، يُخشَى معه أن يتحول من حيث يدري المجتهد ـ إن وُجِد ـ ومن حيث لا يدري، إلى تسويغ للقيم الأجنبية التي هو معجب بها، فإذا لم يكن معجبًا بها فالمجتمعُ الذي هو معجب بها لا يقبل اجتهاده، بل لا تزال تتناوله ألسن السفهاء من جُهَّاله، الذين يتصدون لإبداء الرأي فيما يعرفون وفيما يجهلون، حتى يَفْقِدَ ثقته في نفسه ويَعْتَبِر به غيرُه، فَيُفْتي حين يُستفتى وعَيْنُه على الذين يفتيهم، يريد أن يرضيهم، وأن يظفر بتقديرهم وتقريظهم، فيجورُ على الحق إرضاءً للخَلْق، ويَذْهَلُ عما عند اللَّه تَعجُّلاً لما عند الناس. ومع ذلك كله، فالاجتهاد الذي يحترم النصوص الشرعية ويبحثها في حَيْدة ونزاهة شيء، والتطويرُ الذي يهدف إلى تسويغ قيم الحضارة الغربية شيء آخر. الاجتهادُ الذي يتمسك بمبادئ الإسلام يُقوم بها عِوَجَ الحياة شيء، والتطوير الذي ينزل على الأمر والواقع، ويسوغ عِوَجَ الحياة بنصوص الشريعة شيء

آخر. نقطةُ البدء في اجتهاد المجتهد هي هذا السؤال: هل يَصِحُّ هذا الأمر شرعًا أو لا يصح؟ أو: ما هو حكم الإسلام في هذا الأمر؟ ونقطةُ البدء في تطوير المُطور هي: ما هي النصوص الشرعية التي تُثبت صِحَّةَ هذا الأمر؟ أو: ما هي النصوص الشرعية التي تثبت حُرْمَة هذا الأمر؟

❑ وخَطَرُ التطوير على الإسلام وعلى المجتمع الإسلامي يأتي من وجهين. فهو إفسادٌ للإسلام يُشوِّش قِيَمه ومفاهيمه الأصلية بإدخال الزَّيْف على الصحيح، ويُثبت الغريب الدخيل ويؤكده. فبعد أن كان الناس يشاركون في تصاريف الحياة، وهم يعرفون أن هذا الذي غُلِبوا على أمرهم فيه ليس من الإسلام، والأمُل قائم في أن تجيء من بعدُ نهضةٌ صحيحة تَرُدُّ الأمورَ إلى نِصابها عند الإمكان، يصبح الناس وهم يعتقدون أن ما يفعلونه هو الإسلام. فإذا جاءهم من بَعدُ من يريد أن يَرُدّهم إلى الإسلام الصحيح أنكروا عليه ما يقول، واتهموه بالجمود والتمسك بظاهر النصوص دون رُوحِها.

❑ وتقليدُ المغلوب للغالب مرحلة طبيعية طارئة تزول مع زوال الضعف. واختلاطُ الحق بالباطل والنافع بالضار في هذه المرحلة أمرٌ طبيعي كذلك. وهو مرحلة من مراحل التطوُّر الصحيح، تجيء بعدها التصفية والتمحيص عندما تزول غواشي الضعف والخمول. فإذا سوغنا ذلك الغريب الدخيل ـ خيَره وشرّه ـ تسويغًا إسلاميًّا في حال الضعف والعجز، فقد أصَّلناه من ناحية، وقد أقحمنا على الإسلام ما يُفْسِد بِنْيَتَه من ناحيةٍ أخرى؛ لأنه يصبح أخلاطًا من عناصر شتى لا تجمعها رابطة، ولا يضمها نظام، ولا يُشْبِه بعضُها بعضًا. فهذا هو أحد الوجهين في ضرر التطوير، وهو وجهٌ لا يَعْني إلا المسلمين..

أما الوجه الآخر لضرر التطوير ـ وهو الذي يعني أعداءَ الإسلام ـ فهو

أن هذا التطوير ينتهي بالمسلمين إلى الفُرْقة التي لا اجتماع بعدها؛ لأن كل جماعة منهم سوف تذهب في التطوير مذهبًا يخالف غيرها من الجماعات. ومع توالي الأيام، نجد إسلامًا تركيًّا وإسلامًا هنديًّا وإسلامًا إيرانيًّا وإسلامًا عربيًّا، بل ربما وجدنا في داخل هذا الإسلام العربي ألوانًا إقليمية تختلف باختلاف البلاد. بل لقد سمعنا منذ الآن أحدَ المنتسبين إلى الإسلام من الهنود يتحدث في (مؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة) سنة ١٩٥٣ عن الإسلام الهندي الحديث (ص٧٨، ٨١). وسمعنا سْمِثْ يَرْوي عن أحد المسئولين من الترك في كتابه (Islam In Modern History) كلامًا يتحدث فيه عن إسلام تركيٍّ خاص (ص١٩٣)»[1] اهـ.

*** نقده لرفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي:**

أقام رفاعة الطهطاوي في باريس خمس سنوات من (١٨٢٦ ـ ١٨٣١م) وأقام خير الدين التونسي بباريس أربع سنوات (١٨٥٢ ـ ١٨٥٦).

وقد جلب الطهطاوي والتونسي الأفكار والبذور الغربية وألقياها في التربة الإسلامية.

«للمرة الأولى في البيئة الإسلامية نجد كلامًا عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوروبا، الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض، يراد اتخاذُها وحدة وجودية، يرتبط تاريخُها القديم بتاريخها المعاصر، ليكوّنا وحدة متكاملة، ذاتَ شخصية مستقلة، تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين. وللمرة الأولى نجد اهتمامًا بالتاريخ القديم يوجّه لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد. وللمرة الأولى نجد عند كل

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين (ص٥١ ـ ٥٨) ـ دار الرسالة ـ الطبعة التاسعة.

من الطهطاوي وخير الدين كلامًا عن الحرية بوصفها الأساس في نهضة أي أمة وفي تقدمها. ولأول مرة نجد دعوة إلى وضع مدوَّنة فقهية واضحة محدودة، في صورة موادَّ قانونية، على نمط المدوَّنات القانونية الأوروبية. ولأول مرة تُنقَل إلى المسلمين النظرياتُ الثورية التي تريد أن تناقش الحكام الحساب فيما عليهم من واجبات، وتبصر الشعوب بما لهم من حقوق. ولأول مرة نرى عَرْضًا للنظم الاقتصادية الغربية التي تقوم على المصارف والشركات. عرضًا يبدو مجردًا من التعليق في بعض الأحيان، ومشوبًا بالإعجاب والتساؤل عن إمكان تطبيقه بين المسلمين في أحيان أخرى. ونرى بعد ذلك كلامًا كثيرًا عن المرأة، لا شك أنه من وحي الحياة الاجتماعية الأوروبية، مثلَ تعليمِ الفتيات، ومنعِ تعدد الزوجات، وتحديدِ الطلاق، واختلاطِ الجنسين»[1]

❑ كتب الطهطاوي كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الذي كتبه أثناء إقامته في فرنسا وعرضه على أستاذه «جومار» قبل أن ينشره وألّف بعد ذلك في عصر إسماعيل «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» و«المرشد الأمين للبنات والبنين»، وكتب خير الدين التونسي «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك».

تكلم الطهطاوي عن ما يسمى بالأخوة الوطنية التي تجمع بين ساكنيه على اختلاف دياناتهم في كتابه «مناهج الألباب» بل وتعدّي ذلك إلى ذكر صور من مجد الفراعنة والافتخار والاعتزاز بذلك فهو ـ على سبيل المثال ـ حين يتكلم عن ضرر البطالة والكسل، يقدم صورة من نشاط المجتمع الفرعوني القديم، الذي يتجلى فيما خلفوه من آثار ضخمة، ويتكلم عن التماثيل التي تصور الكسل في صورة بغيضة، والتي كانوا ينصبونها في

(١) المرجع السابق (ص٢١).

الميادين العامة (ص١٢٠ ـ ١٢١). ويشيد في موضع آخر بتقدم مصر وغناها وامتيازها في المعارف على عهد الفراعنة، وما تدل عليه آثارهم ومخلَّفاتهم وقوانينهم من الثروة والقوة واتساع العمران والتمسك بالفضائل الخلقية، ثم يقول: «فمنه يُعلَم أنه كان بمصر إذا ذاك أحكام عادلة وقوانينُ مرتَّبةٌ وحدودٌ مشروعة خالية من الأغراض والنفسانيات وهي نتيجة التمدن العام».

ويقول: «فلا يبعد على مصر في هذا العصر أن تَستجلبَ السعادة، وتكتسبَ من القوة المِلِّيَّة الحسنى وزيادة، وتتحصلَ من وسائل الغنى على مقاصد الإفادة والاستفادة؛ لأن بِنْيَةَ أجسام أهل هذه الأزمان هي عَيْنُ بنيةِ أهل الزمان الذي مضى وفات، والقرائحَ واحدة، ووسائلَ هذا العصر الأخير متسعةٌ ومتنوعة، فلا شك أنها مساعِدَةٌ على اكتساب المنفعة لمن يريد حقيقتها (ص١٧٠ ـ ١٨٧)».

وراجع مثالاً آخر أشاد فيه بأعمال الملك رمسيس الذي اشتهر باسم سيزوستريس (ص١٨٨ ـ ١٨٩)[1].

❑ ولم يستطع الطهطاوي أن يدرك الأغوار البعيدة والجوانب المتعددة لكلمة الحرية على طريقة الغرب من نبذ الدين، وتسفيه رجاله، والخروج على حدوده، لم يدرك ذلك ولم يلاحظ إلا الجانب البرّاق الذي يأخذ نظر المحروم من الحرية، حين تمارس في مختلف صورها وألوانها وفي أوسع حدودها.

«والجديد في الكلام مما تأثر فيه الطهطاوي بالحضارة الغربية هو:

أولاً: دعوتُه إلى وضع مُدوَّنة قانونية شاملة، على نمط المُدوَّنات الغربية الحديثة، وهي خطوة قد سبقت إليها تركيا بصدور (التنظيمات)، وسبق إلى

(١) المرجع السابق (ص٢٣).

الدفاع عنها خير الدين التونسي في كتابه «أقوم المسالك».

ثانيًا: الدعوةُ إلى تنظيم أحكامٍ للمعاملات تلائم العصر، والتماسُ الطريق إلى الاقتباس من نُظُم الغرب، التي قامت عليها المصارف والشركات. وهي فكرة قد بسطها خير الدين التونسي بسطًا أوفى وأعمقَ في كتابه «أقوم المسالك»، كما سنرى من بعد.

❑ ولكن الخطير حقًّا هو ما قرره الطهطاوي في كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» في فصل عقده للكلام عن (تمدن الوطن)، حين ذهب إلى أن مدنية أوروبا الحديثة التي تقوم على العقل تُحقِّق النتائج نفسَها التي تَهْدِي إليها مدنية الدين. فقال:

«ومَن زاول علمَ أصول الفقه، وفَقِهَ ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية، التي وصلت عقولُ أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها، وجعلوها أساسًا لوضع قوانينَ تمدنهم وأحكامِهم، قَلَّ أن تخرج عن تلك الأصول التي بُنيت عليها الفروع الفقهية، التي عليها مدار المعاملات. فما يسمَّى عندنا بعلم أصول الفقه يشبه ماي يُسمى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية. وهو عبارة عن قواعد عقليةٍ، تحسينًا وتقبيحًا، يؤسسون عليها أحكام المدنية. وما نسميه بالعدل والإحسان يعبِّرون عنه بالحرية والتسوية. وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولُّع بحمايته، مما يُفضِّلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة، يسمونه محبة الوطن (ص١٢٤ ـ ١٢٥)».

❑ وفي فصل آخر من الكتاب عقده للكلام (في الأحكام الطبيعية المستندة قبل التشريع إلى العقل) يسوغ القوانين العقلية التي تقوم عليها الحضارة الأوربية الحديثة، فيقول: «ولما كانت أعمالُ كل نوع من أنواع المخلوقات، وكلِّ عضو من أعضاء فَرْدِ ذلك النوع، منقادةً لنواميس طبيعية

عمومية خصته بها الحكمة الإلهية، كان لا يمكن مخالفةُ هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص وهذه النواميس الطبيعية التي خَصَّتْ بها العَالَمَ القدرةُ الإلهية عامةٌ للإنسان وغيره (ص١٣١)» «فينبغي للإنسان أن لا يتجارى على هذه الأسباب، ويتعدى حدودها، حيث إن المسبَّبات الناتجةَ عنها منتظمة محقّقة (ص١٣٢)» «فعلى الإنسان أن يطبِّق أعماله على هذه الأسباب التي تقدم ذكرُها ويتمسكَ بها، وإلا عوقب عقابًا إلهيًا لمخالفة خالق هذه الأسباب (ص١٣٣)» «وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا يخرج عنها حُكْمُ الأحكام الشرعية. فهي فطرية خلقها اللَّه سبحانه وتعالى مع الإنسان، وجعلها ملازمةً له في الوجود. فكأنها قالبٌ له، نُسجت على منواله، وطبعت على مثاله. وكأنما هي سُطرت في لوح فؤاده، بإلهام إلهي بدون واسطة، ثم جاءت بعدها شرائعُ الأنبياء بالواسطة، وبالكتب التي لا يأتيها الباطل من بين يديها، ولا من خلفها. فهي سابقة على تشريع الشرائع عند الأمم والملل، وعليها في أمان الفَتْرة تأسَّستْ قوانينُ الحكماء الأول وقدماء الدول؛ وحصل منها الإرشاد إلى طرق المعاش في الأزمنة الخالية، ما ظهر منها التوصل إلى نوع من انتظام الجمعيات التأنسية عند قدماء مصر والعراق وفارسَ واليونان. وكان ذلك من لطف اللَّه تعالى بالنوع البشري، حيث هداهم لمعاشهم، بظهور حُكَمَاءَ فيهم، يقنِّنون القوانين المدنية، لا سيما الضرورية لحفظ المال والنفس والنسل (ص١٣٣)».

وبذلك مهد الطهطاوي، من حيث يدري، أو من حيث لا يدري، لقبول التشريع الوضعي الذي يستند إلى العقل ـ على قصوره، وعلى مخالطة الشهوات له ـ ووافق في ذلك خير الدين التونسي، الذي يمتاز ـ كما أشرنا من قبل ـ بأنه أعمقُ غوراً في فهم الحضارة الغربية. فهو يدعو إلى الاقتباس منها على فقهٍ وبصيرة، تختلف عن السذاجة التي تبدو في كتابة الطهطاوي.

* اعجاب الطهطاوي بالمسرح الفرنسي!!! ورقص الباليه واختلاط الرجال بالنساء:

❑ قال الدكتور محمد محمد حسين:

والطهطاوي معجب بالمسرح الذي لم يجد له اسمًا عربيًا، فسماه باسمه الفرنسي (السيكْتَاكْل) أو (التياترو). وصفَهَ في «تخليص الإبريز» فبدأ كلامه بقوله: «ومن العجائب أنهم يقولون مسائل في العلوم الغربية والمسائِل المشكلة، ويتعمَّقون في ذلك وقتَ اللعب (ص١٦٦)».

ثم قال بعد وصف الممثلين والمناظر: «وبالجملة فالتياترو عندهم كالمدرسة العامة، يتعلم فيها العالم والجاهل (ص١٦٦)».

❑ وقد كان لمشاهداته في باريس أثر في توجيه فكره إلى شئون المرأة، فتكلم في «تخليص الإبريز» عن الطلاق، الذي لا يتم عند الفرنسيين إلا أمام المحكمة بإقامة دعوى الزنى (ص١٢٢). وتكلم عن عاداتهم في اختلاط الرجال بالنساء، فنفى أن يكون الاختلاط والتبرجُ داعيًا إلى الفساد، أو دليلاً على التساهل في العرض، حيث يقول: «ولا يُظَن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عِرْض لهم في ذلك.. لأنهم وإن فقدوا الغَيرة، لكنهم إذا علموا عليهن شيئًا كانوا شرَّ الناس عليهن وعلى أنفسهم وعلى من خانهم في نسائهم. غايةُ الأمر أنهم يخطئون في تسليم القياد للنساء. وإن كانت المحصَنات لا يُخشَى عليهن شيء (ص٣٠٤)»، ويعود فيؤكد أن السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعيًا إلى الفساد، وأن مَرَدّ الأمر كلُّه إلى التربية، فيقول: «إن نوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سَتْرهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة، والتعودُ على محبة واحد دون غيره، وعَدَمُ التشريك في المحبة، والالتئامُ بين الزوجين (ص٣٠٥)».

❑ ودَافَعَ الطهطاوي عن مراقصة الرجال للنساء حين وصف (مَحالَّ الرقص المسماة: «البال Ballet» فقال: «إن الرقص عندهم فن من الفنون، وقد أشار إليه المسعودي في تاريخه المسمى «مروج الذهب». فهو نظيرُ المصارعة في موازنة الأعضاء، ودَفْعِ قُوَى بعضِها إلى بعض، فليس كلُّ قويٍّ يعرف المصارعة، بل قد يغلبه ضعيفُ البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم. وما كلُّ راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء. وظَهَر أن الرقص والمصارعة مرجعُهُما واحد يُعَرف بالتأمل.. ويتعلق بالرقص في فرنسا كلُّ الناس. وكأنه نوعٌ من العِياقة والشّلْبَنَة لا الفِسق[1]. فلذلك كان دائمًا غيرَ خارج عن قوانين الحياء. بخلاف الرقص في أرض مصر، فإنه من خصوصيات النساء؛ لأنه لتهييج الشهوات. أما في باريس فإنه نَطٌّ مخصوص لا يُشَمُّ منه رائحة العُهْرِ أبدًا. وكل إنسان يَعْزِمُ امرأةً يرقص معها، فإذا فرغ الرقص عَزَمها آخر للرقصة الثانية وهكذا. وسواء كان يعرفها أو لا (ص١٦٨)».

ويشيد الطهطاوي في مقدمة كتابه «المرشد الأمين» بفضل الخديوي إسماعيل في التسوية بين البنات والبنين في التعليم. «فقد سوى في اكتساب المعارف بين الفريقين، ولم يجعل العلم كالإرث، للذكر مثل حظ الأنثيين. فبهذا سُوقُ المعارف المشتركة قد قامت، وطريقُ العوارف للجنسين استقامت، وليلُ جَهْلِ النساء جلاه فجرُ المعارف، وفخرُ تمتعهن بالطرائف واللطائف..» وتكلم عن وجوب تعليم المرأة، لتكمل لذة أنس الزوجية. «وهذا لا يكون إلا بالمشاكلة بين الزوجين، والمجانسة بين القرينين، ولا سيما في الممالك المتمدنة، التي يعد فيها تعليم النساء من الشيم المستحسنة. فالمرأة على هذا محتاجة للتعليم لإرشادها، في أمور الزوجية والعشرة، وفي تربية الأولاد، إلى الطريق المستقيم (ص٦٦)».

(١) العياقة والشلبنة عاميتان تعنيان: الأناقة والفتوة.

بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيجعل من مزايا التعليم أنه «يمكنُ للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقتها. فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن. وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبَهن بالأهواء وافتعال الأقاويل. فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة (ص٦٦)».

ويتكلم في موضع آخر من الكتاب عن تعدد الزوجات، فيشترط فيه العدل، ويورد حديث «من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل». ويورد أقوالاً للحكماء وقصصًا تحبذ الاقتصار على زوجة واحدة (ص١٤٨). ومن ذلك نرى أن الطهطاوي قد أثار قضية المرأة في أكثر النواحي التي أصبحت بعد ذلك مَثَارَ الجدل والمناقشة»[1] اهـ.

*** الدكتور محمد محمد حسين يُفرد الفصل الثالث من كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» (ص٦٧ ـ ١١٢) لنقد الأفغاني ومحمد عبده وكشف الستر عن حقيقتيهما:**

يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«الاهتمام بالأفغاني ومحمد عبده يستند إلى اعتبارين:

أولهما: هو أن الصورة الشائعة المعروفة عنهما بين الناس تخالف حقيقتهما. وهذه الصورة الشائعة تستمد وجودها وقوتها من الدعاية الدائمة التي لا تفتر، والتي تسهر عليها قوى ومؤسسات قادرة ذات نفوذ. ولذلك كان الكشف عن حقيقتيهما محتاجًا إلى مجهود كبير، وإلى مزيد من الدأب

(١) المصدر السابق (ص٣٢ ـ ٤٢) ملخصًا.

يقابل دأب الدعاية المبذولة في تدعيم مكانيهما.

وثاني هذين الاعتبارين: هو أن جلاء حقيقة الرجلين يتبعه جلاء حقيقة كثير من الأوهام التي تأصلت في نفوس الناس تبعًا لاستقرار شهرتيهما فيها، فكشف الستر عنهما هو في الوقت نفسه الكشف للستر عن أباطيل كثيرة ترتبط بهما، وتستمد قوتها وبريقها الخدّاع من شهرتيهما ومن ارتباطها بهما»[١].

❑ ويتكلم عن تعمية الأفغاني أصله ونسبه فهو إيراني شيعي وليس شريف النسب كما زعم. وتكلم عن أن أكثر نشاط الأفغاني كان سريًا، وأنه أنشأ جمعيات سرية بعضها كان أغلب أعضائها من شبان اليهود[٢].

❑ ثم تكلم عن إنشائه محفلاً ماسونيًّا تابعًا للشرق الفرنسي[٣]. وإن الأفغاني صانع ثورات دموي حيثما حل، واتخاذه بطانة تضم خليطًا من المسلمين والنصاري واليهود.

❑ وصف رشيد رضا الأفغاني بأنه كان يميل إلى وحدة الوجود، التي يشتبه فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية، وقال إن كلامه في النشوء والارتقاء يشبه بكلام داروين[٤].

وتكلم الدكتور محمد محمد حسين عن عقيدته وهي عقيدة الحلول ووحدة الوجود في كتبه وكتب تلاميذه إليه، وأن شيخ الإسلام حسن فهمي قال عنه إنه يسوي بين النبوة والفلسفة.

وأن علماء الأزهر هاجموا الأفغاني ومنعوه من دخول الأزهر.

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» (ص٦٧).
(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/ ٧٥).
(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٢٨٣، ٣٨٠)، (٢/ ٥٥٣ ـ ٥٥٨).
(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/ ٧٩ ـ ٨٠).

❑ ثم تكلم الدكتور محمد محمد حسين في كتابه القيم «الإسلام والحضارة الغربية» عن محمد عبده، وذكر أن حياة محمد عبده قسمان:

قسم في خدمة الأفغاني، وقسم في صداقة كرومر[١]، وأن كرومر عوَّل عليه في تدعيم الوطنية بمعناها الغربي في مصر[٢]، ويصفه بأنه لا أدري.

وصلته ببلنت. ودعوته إلى فتح باب الاجتهاد بقصد تطوير الإسلام والاقتراب به من قيم الحضارة الغربية.

ورعايته للبذور التي غرسها الطهطاوي وخير الدين التونسي في القسم الثاني من حياته[٣].

ودعوة الأفغاني التي ربي محمد عبده في أحضانها لها ظاهر وباطن.

❑ وذهب الدكتور محمد محمد حسين إلى وجود قوتين كبيرتين تروجان لآراء الأفغاني ومحمد عبده وهما الماسونية والاستعمار[٤].

* الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر:

وهو كتاب قيم من مجلدين للدكتور محمد محمد حسين.

يتكلم في الجزء الأول عن الأدب المعاصر منذ الثورة العرابية إلى قيام الحرب العالمية الأولى تكلم فيه عن الجامعة الإسلامية وغلبة النزعة الإسلامية على العصبية الجنسية، وكانت الخصومة بين الشرق والغرب هي استمرار

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» (٨٢)، وتقارير كرومر السنوية ومنها تقريره عن عام ١٩٠٥ في الفقرة (٧) بعنوان «الشيخ محمد عبده»، وكتابه عن «مصر الحديثة» ومذكرات المستر بلنت «التاريخ السري للاحتلال البريطاني في مصر».

(٢) تقرير كرومر سنة ١٩٠٦، و«الإسلام والحضارة الغربية» (ص٨٣).

(٣) انظر «الإسلام والحضارة الغربية» (ص٨٦).

(٤) المرجع السابق (ص٨٨).

للحروب الصليبية ودعم هذا ما يدور من حروب بين تركيا من ناحية وبين الدول الأوروبية الطامعة في اقتسام أملاكها من ناحية أخرى، وكان ساسة الغرب يصورون المسلمين في صورة الهمج المتخلفين، وأعان على ذلك ما كان تبذله انجلترا من جهود دائبة للقضاء على دولة الخلافة.

❑ ثم تكلم عن الجامعة المصرية، فتكلم عن الوطنية بمعناها الإقليمي أنها كانت صدى للاتجاه الأوروبي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر، وأن هذه الدعوة الجديدة نشأت قبيل الثورة العرابية ولكنها لم تكن مناقضة لفكرة الجامعة الإسلامية، وأن مصطفى كامل كان لا يرى تعارضًا بين الجامعة المصرية والجامعة الإسلامية ثم ظهر فريق آخر من دعاة الوطنية حارب فكرة الجامعة الإسلامية، ورأوا أن الوطنية هي المصلحة المشتركة التي تجمع بين من يعيشون في وطن وإقليم واحد، ويدعو إلى أن يقصر المصريون اهتمامهم على مصالح مصر ومثل هذا: صحيفة «المقطم» التي تعمل لحساب الانجليز، وكانت صريحة في تأييد المحتل وتصويره في صورة إنسانية رائعة وعلى هذا المنوال كانت أكثر كتابات مجلة «المقتطف». ونشأ «الحزب الوطني الحر» على أيدي قلة من أعيان البلاد استهوتهم مصالحهم الشخصية فأيدوا نزعة الوطنية ومحاربة فكرة الجامعة الإسلامية في جريدتهم «الجريدة» الناطقة بلسان حزبهم وسيذكر التاريخ بالسوء مصطفى عمار ومحمد وحيد ولطفي السيد وعبدالحميد الزهاوي السوري، وولى الدين يكن الذي يشيد بالانجليز، وكذلك حزب الأمة ورجاله من أعيان البلاد.

❑ وظهرت الدعوة الخبيثة إلى فصل الدين عن الدولة وسوّد عبدالقادر حمزة في سنة ١٩٠٤م صفحات في جريدة «المقتطف» عدد مارس سنة ١٩٠٤ (ص٢٣١ ـ ٢٤٠) داعيًا إلى هذا وردّ عليه رفيق العظم ومحمد كرد علي.

❑ وكشف الدكتور محمد محمد حسين عن قيام عبدالرحمن الكواكبي

بالدعوة إلى فصل الخلافة عن السلطنة في كتابه «أم القرى» ودعا إلى موالاة الدول الأوروبية المستعمرة (ص١٦٩)، والناظر في كلامه يريبه ما فيه من تودد إلى الدول المستعمرة ومن تهوين لوقوع الأمم الإسلامية تحت حكمهم، وإسقاط فريضة الجهاد بعد أن فسّرها تفسيراً غريبًا كما تريبه الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين ما تكشّفت عنه الأيام من حوادث الثورة العربية بتدبير الإنجليز سنة ١٩١٦م[١] .

❑ ومن هؤلاء الداعين إلى الفصل بين الدين والسياسة سليمان البستاني اللبناني في كتابه «ذكرى وعبرة ـ الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده»[٢] طبعة سنة ١٩٠٨ وصوّر عهد أتاتورك أنه وضع حدًا للظلم والفوضى والإرهاب.

❑ ثم تكلم عن الاتجاه الثالث وهو اتجاه ما يسمى بتحرير المرأة والذي تولى كبره قاسم أمين ورد أحمد محرم علي قاسم أمين (ص٣٤٦)، ورد عبدالله النديم الساخر في مجلة «التنكيت والتبكيت» على قاسم أمين في مقال بعنوان «عربي تفرنج»[٣] .

❑ ثم تكلم عن المتطرفين من أدعياء التجديد الذين يستخفّون بالدين وبعلمائه مثل هذا المجرم المسمى «بولي الدين يكن» الذي يجاهر بالإفطار في رمضان مستخفًا بالصائمين[٤] ، قال: «فلما انتهينا من الطعام وخرجنا إلى

---

(١) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين (١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤) ـ مكتبة الآداب.

(٢) ومثله كتاب «ما هنالك» الذي أصدرته مطبعة المقطم سنة ١٨٩٦م ولم تصرح باسم كاتبه، والمعروف الشائع أنه المويلحي ـ انظر «الاتجاهات الوطنية» (١/ ٢٦٤).

(٣) العدد الأول ٦ يوليو سنة ١٨٨١ سلافة النديم (ص٨٢) مقال بعنوان «عربي تفرنج» ـ انظر الاتجاهات الوطنية (١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٨).

(٤) راجع مقاله الذي نشر في المقطم «أكذوبة إبريل، وأكذوبة رمضان» الصحائف السود (ص٢٣ ـ ٣٨)، انظر «الاتجاهات الوطنية» (١/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥).

المكان المعّد للتدخين دنا مني أحد المعمّمين، وهو رجل كالجرادة، له لحية كقائمة المزاد، وعينان كزيتونتين. فنظر في وجهي مليًّا ثم قال لي: لم لا تصوم؟.. قلت: لا أدري. قال: كيف لا تدري؟ .. قلت: ككلّ من لا يدري».

وانظر إلى مروقه واستخفافه حين يُسفّه ذبح الأضاحي في العيد فيقول: «لا أدري حكم الأضاحي فيما يرجع إلى الدين. فلا أتعرض له بشيء مجانبة للشطط، ولكن ما هذا الإسراف؟.. ألنا ثأر عند الغنم فنثأر؟ أم الغنم كثيرة فنريد أن تقلّ؟.. ما روى لنا أحد المؤرخين أن جدّ الغنم نطح أبانا آدم، فنجعل عداءنا محمولاً على هذا السبب»[1] !!!

وانظر إلى تطاوله في ديوانه واستخفافه بعلماء الدين (ص١٩، ٢٥، ٣٢)[2].

❑ وفي الجزء الثاني من «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» من قيام الحرب العالمية الأولى إلى قيام الجامعة العربية:

تكلم في الفصل الأول عن الخلافة الإسلامية ـ وحزن المسلمين على سقوطها يقول حافظ إبراهيم:

«أيا صوفيا» حان التفرّق فاذكري ... عهود كرام فيك صلّوا وسلّموا
إذا عُدت يومًا للصليب وأهله ... وحلى نواحيك المسيحُ ومريمُ[3]
ودقّتْ نواقيسٌ وقام مزمّرٌ ... من الروم في محرابه يترنّمُ
فلا تنكري عهد المآذن إنه ... على اللّه من عهد النواقيس أكرمُ

(١) انظر إلى مقاله «الإسراف! الإسراف!» الصحائف السود لولي الدين يكن ١٩١٠م مطبعة المقتطف بمصر ـ و«الاتجاهات الوطنية» (١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦).

(٢) ديوان ولي الدين يكن مطبعة المقتطف.

(٣) من تمام الإسلام الإيمان بنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وأن أمه صديقة رضي الله عنها.

تباركت! «بيت القدس»[١] جذلان آمن ... ولا يأمن «البيت العتيق» المحرم
أيرضيك أن تغشى سنابك خيلهم ... حماك وأن يمنى «الحطيم» وزمزم
وكيف يذلّ المسلمون وبينهم ... كتابك يُتلَى كل يوم ويكرمُ
نبيّك محزون وبيتك مطرق ... حياءً وأنصار الحقيقة نُوَّمُ
عصيْنا وخالفْنَا فعاقبت عادلاً ... وحكَّمتَ فينا اليوم من ليس يرحَمُ[٢]

والكتاب يدل على الفهم العالي للدكتور محمد محمد حسين وعودته للينابيع الصافية.. أتاه نهر اللَّه فبطل عنده نهر معقل انظر إليه وهو يتحدث عن عصبية الصليبيين عند سقوط القدس في يد اللنبي وهزيمة تركيا فيقول:

«ولم ينكر الإنجليز وجود ما يُقابل هذا الشعور الإسلامي من عصبية مسيحية في بلادهم. وهذا هو اللورد ويفل وهو من كبار قوّادهم وساستهم، ينقل عن إحدى المجلات الإنجليزية صورة رمزية للقائد الإنجليزي أللنبي في عودته من حرب فلسطين، وقد كتب تحتها «العودة من الحروب الصليبية»[٣]، وأخذت الصحف الإنجليزية تلح في المطالبة بإخراج الترك من الأستانة[٤]، ووقع مائة عضو من أعضاء البرلمان الإنجليزي على مذكرة اللورد روبرت سيسل التي تتضمّن المطالبة بإخراج الأتراك من الأستانة[٥]، وأرسل «اثنا عشر أسقفًا في الأستانة برقية إلى رئيس أساقفة كانتربري يدعونه فيها إلى المساعدة على إخراج الأتراك من الأستانة، فأجابهم بأنه طلب مع غيره من الأساقفة البريطانيين إلى الحكومة البريطانية هذا الطلب، وأنهم سيبذلون

(١) يعني ببيت القدس هنا «الكنائس» ويعني بالبيت العتيق المساجد.
(٢) ديوان حافظ إبراهيم (٢/ ٨٨ ـ ٨٩). و«أيا صوفيا» هو مسجد الأستانة الكبير.
(٣) Allenby in Eqypt (ص١١٣).
(٤) الأهرام ـ ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٠ ـ التلغرافات العمومية.
(٥) الأهرام ـ ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٠ ـ التلغرافات العمومية.

مجهوداتهم لهذه الغاية، وأرسل أسقف نيويورك إلى رئيس أساقفة كانتربري تلغرافًا بهذا المعنى بالنيابة عن مائة أسقف، وشكره على المساعي التي يبذلها في «الحروب الصليبية» التي تُبذَل ضد بقاء الأتراك في الأستانة فردّ رئيس الأساقفة معربًا عن أمله في أن تشترك أمريكا في القيام بنصيبها في حماية الشعوب الشرقية المظلومة»[١] .

ويُصرح القائد الفرنسي بير كيللر بهذه الدوافع الصليبية حين يقول في كتابه عن القضية العربية «إن مصالح فرنسا في الشرق الأوسط هي قبل كل شيء مصالح روحية. وتعود هذه العلاقات إلى عهد الصليبيين، حيث وقعت معاهدات لحفظ الأماكن المقدسة. وجدّدت هذه المساعدات على مرّ القرون، وتحملت فيها فرنسا مهمة حماية نصارى الشرق»[٢] .

*** حذو القذّة بالقذّة :**

❑ وتكلم الدكتور محمد محمد حسين عن التجاوب الفكري بين أصحاب الدعوات الهدّامة في تركيا ومصر، فحين كان الكماليون يتخذون الذئب الأبيض ـ الأغبر ـ وهو رمز أسلافهم الأقدمين من الوثنيين ـ شعارًا لهم ويرسمونه على طوابع البريد، كان المصريون يحذون حذوهم ويرسمون أبا الهول على أوراق العملة، وعلى طوابع البريد، وحين جعل الكماليون حدًّا أدنى لسن الزواج في البنين والبنات اقتفى المصريون أثرهم في ذلك، وعندما ألغى الكماليون المحاكم الشرعية في تركيا أخذ بعض الكتاب في مصر يناقشون إلغاءها، وحين حمل مصطفى كمال نساء تركيا على السفور

---

(١) الأهرام ـ ٦ مارس سنة ١٩٢٠ ـ التلغرافات العمومية.

(٢) «القضية العربية في نظر الغرب» للجنرال كيللر ترجمة ميشال حجار (ص١١٩) ـ بيروت ـ انظر «الاتجاهات الحديثة» (٢/ ٢٠).

والاختلاط بالرجال ومراقصتهم، احتدمت المعارك في مصر حول هذه الموضوعات في الصحافة وفي الأندية. وحين ألزم مصطفى كمال الترك أن يلبسوا القبعة خاض بعض الكتاب المصريين في بحث ما سمّوه «مشكلة الأزياء» داعين إلى توحيدها، ودعا بعض أفراد منهم إلى اتخاذ القبعة، وحين استبدلت تركيا الحروف اللاتينية بالحروف العربية، أخذ كثير من الكتاب والصحافيين في مصر يناقشون ما سموه «مشكلة الكتابة والخط العربي» وهكذا نجد أن تأثر الرأي العام والمفكرين المصريين بأحداث الخلافة الإسلامية لم يكن إلا مظهرًا من مظاهر التجاوب بين تركيا وبين العالم الإسلامي عامة ومصر خاصة»[1].

*** القديم والجديد: وفضح الدكتور محمد محمد حسين لسلامة موسى صاحب كتاب «اليوم والغد»:**

ويعنون بالجديد انسلاخ الأمة من دينها و«أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يكره، وما يُحمد وما يعاب» كما قال طه حسين[2].

أما القديم فهو ما يمت إلى الإسلام بصلة، يُسمى أصحابه بالمحافظين، أو الجامدين، أو الرجعيين أو المتزمتين أو الظلاميين أو الإرهابيين أفرجعية أن يقف الإنسان في منزل الوحي يحاول السمو إلى أن يفهم كيف كانت صورته؟! أم رجعية أن يقف الإنسان عند آثار صاحب الوحي يلتمس فيها الأسوة والعِبرة؟! فأحبب بها إليّ من رجعية.

---

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٩٢ ـ ٩٣).

(٢) «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين ـ الفقرة ٩ (ص٤١).

«والمتطرفون من أنصار الجديد ينزعون إلى التحرير من كل قيد وإلى تخطي كل حاجز، ولا يقفون في ذلك عند حد»[١] ، يريدون أن يحطموا ما بقي في نفوس الناس من توقير للدين، ومن أبرع الأمثلة على ذلك ـ أو أخبثها إن شئت ـ قصة رمزية مترجمة نشرتها مجلة الهلال، تكمن بين سطورها سخرية لاذعة بالتدين وبالمقدسات الموروثة كلها[٢] .

❑ وكان سلامة موسى صاحب كتاب «اليوم والغد» أكثر دعاة الجديد تطرفًا وهو عميل قميء قزم كاره للإسلام وكل ما يمت إليه بصلة. يقول الدكتور محمد محمد حسين عن كتاب سلامة موسى «اليوم والغد»:

أما كتاب «اليوم والغد» فقد احتوى على مقالات نشرت في خلال سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦. ثم أضيف إليها مقالان عند نشر الكتاب سنة ١٩٢٧. وهو يلتقي مع كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» في كثير من وجهات النظر. ولكن الأول يعرض آراءه في صراحة عارية لا يبالي معها سخط الناس أو رضاءهم، بل لعله يقصد إلى إسخاطهم ويلتذ به. أما الثاني فهو يدور حول أهدافه ويعبر عنها في دهاء، محاولاً إقناع الناس وكسب رضائهم، سالكًا لذلك أحب السبل إلى نفوسهم وأقربها إلى قلوبهم، وكأنه لا ينسى ما تعرض له حين أخرج كتابه الأول «في الشعر الجاهلي».

❑ وهدف المؤلف واضح في كتاب «اليوم والغد»، فهو يقول في مقدمته:

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضي في الأدب كما أزاوله. فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ١٩٤).

(٢) انظر «الهلال» عدد مايو ١٩٢٦ ـ ١٧ شوال ١٣٤٤هـ (ص٨٠١ ـ ٨٠٥).

بأوربا[1] فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني. وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقي بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها. هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرًا وجهرة. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب».

ويضرب الكاتب في هذه المقدمة أمثالاً لهدفه، فهو يريد «حرية المرأة كما يفهمها الأوربي، حتى نأمل يومًا ما في رؤية قاضيات وطبيبات وطيارات ومعلمات ومديرات ووزيرات وعاملات.. إلخ».

وهو «يريد من الأدب أن يكون أدبًا أوروبيًا ٩٩ في المائة. قائم على المعنى والقصد لا على اللفظ كما كان الحال عند العرب».

ثم هو يريد: «أن تكون ثقافتنا أوروبية لكي نغرس في أنفسنا حب الحرية والتفكير الجريء».

وهو يهاجم الدين في المقدمة وفي أكثر من موضع من الكتاب؛ حتى ليخيل إليك أنه لا يبغض في هذه الشرقية التي يهاجمها إلا الدين. فهو في كل مثل من هذه الأمثال التي يضربها يهدم ركنًا من أركان الأديان عامة والإسلام خاصة. فهو «يريد من التعلم أن يكون تعليمًا أوروبيًّا لا سلطان للدين عليه، ولا دخول له فيه»، وهو «يريد من الحكومة أن تكون ديموقراطية برلمانية كما هي في أوروبا، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون، أوتوقراطية دينية».

وهو يريد أن يبطل شريعة الإسلام في تعدد الأزواج في الطلاق «بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة. ويمنع الطلاق إلا بحكم محكمة».

---

(١) مصر ليست جزءًا من آسيا. والمؤلف يقصد بالخروج من آسيا الخروج من التفكير الآسيوي، أو بعبارة أخرى من الدين الذي جاءنا من آسيا، وهو الإسلام.

وهو يريد أن يقتلع من أدبنا كل طابع شرقي مما يسميه «آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة».

□ ويبسط المؤلف القول في ذلك كله في خاتمة الكتاب الطويلة التي اتخذ لها عنوانًا «على مفترق الطرق». فيتكلم عن تاريخ دخول الحضارة الأوروبية إلى مصر منذ نابليون. وما أفاض عليها من بركات ـ حسب تعبيره ـ ثم يتكلم عن محمد علي الذي جاء من بعده فاعتمد على أوروبا في تمدين مصر. ثم يتكلم عن إسماعيل، الذي «رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد لنا من أن نتفرنج ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا. فأنشأ مجلسًا نيابيًا. وأسس مجلس وزراء.. ثم جعلنا نلبس الملابس الأوروبية، ووزع بين أعيان البلاد فتيات من الشركس لكي يتحسن اللون ويقارب البشرة الأوروبية، وهو يرى أنه قد آن الأوان لكي «نعتاد الأوروبيين ونلبس لباسهم ونأكل طعامهم ونصطنع أساليبهم في الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة، بل هو ينكر على مصرشرقيتها، ويزعم أن هذا الاسم إنما جاءنا «من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية، عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية، وحقيقة الأمر عنده فيما يزعم أننا غربيون «فقد عشنا نحو ألف سنة ونحن جزء من الدولة الرومانية ثم نحن في هيئة الوجه أوربيون.. والشعب الأول الذي سكن مصر لا يختلف ألبتة من الشعب الذي كان يسكن أوروبا قبل ٤٠٠ سنة».

بل هو يمضي في غلوه محاولاً عقد صلات من القرابة بين لغة مصر القديمة وبين اللغة الإنجليزية فيزعم أن «بين المصرية القديمة والإنجليزية الراهنة مئات الألفاظ المشتركة لفظًا ومعنى».

وتأخذه نشوة الغلو فيذهب إلى أن «حقيقة الأزهر أنه جامعة أوروبية أسسها رجل أوروبي هو جوهر (الصقلي)».

ولا يأسف المؤلف على شيء أسفه على الدم الشرقي الذي تسرب إلى

عروقنا من الإخشيديين والمماليك والعثمانين.

❑ يؤكد المؤلف أن مصر غربية، ويقول: «إن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض. ولهذا المرض مضاعفات. فنحن لا نكره الغربيين فقط ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية، فندرس كتب العرب ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب، كما يفعل أدباؤنا المساكين أمثال المازني والرافعي، وندرس ابن الرومي، ونبحث عن أصل المتنبي، ونبحث في علي ومعاوية ونفاضل بينهما، ونتعصب للجاحظ.. وليس علينا للعرب أي ولاء. وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم، فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب المصري الحديث، لا بأسلوب العرب القديم.. ثم يجب أن نذكر أن إدمان الدرس للعرب يشتت الأدب المصري ويجعله شائعًا لا لون له».

❑ ويريد مؤلف هذا الكتاب أن يقطع كل صلتنا بالماضي ويهدمه هدمًا يعفي على آثاره. يريد أن يهدم شرقيتنا، وأن يهدم عروبتنا، وأن يهدم إسلامنا، بل يهدم التدين جملة.

يريد أن يهدم شرقيتنا لأنه يقول: «إن الرابطة الشرقية سخافة.. فما لنا ولهذه الرابطة الشرقية؟ وأية مصلحة تربطنا بأهل جاوة؟ وماذا ننتفع بهم وماذا هم ينتفعون منا؟.. إننا في حاجة إلى رابطة غربية، كأن نؤلف جمعية مصرية يكون أعضاؤها من السويسريين والإنجليز والنرويجيين وغيرهم. نقعد معهم فنستفيد من شرعة إصلاحية نفذت في بلادهم يشرحونها لنا فننتفع بذلك، أو فلسفة جديدة ظهرت يعرفوننا شيئًا عنها، أو آلة جديدة اخترعت نتفاوض معهم في استعمالها عندنا. مثل هؤلاء الناس النظاف الأذكياء نستطيع أن نؤلف رابطة معهم. ولكن ما الفائدة من تأليف رابطة مع الهندي أو الجاوي؟».

❑ ويريد أن يهدم عروبتنا لأنه يقول في صراحة: «إن لنا من العرب ألفاظهم فقط، ولا أقول لغتهم، بل لا أقول كل ألفاظهم. فإننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية، وهي لغة بدوية لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها الآن».

❑ ويريد أن يهدم الإسلام والتدين جملة لأنه يقول: «ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان. ولا بأس من أن نعتمد على الترجمة إلى حد بعيد حتى يتمصر العلم وتتمصر ألفاظه، وعندئذ نسير فيه بالتأليف». والرجل لا يسخط على شيء في الاتجاهات السياسية مثل سخطه على الجامعة الإسلامية ورجالها. وكراهيته الشديدة للزعيم مصطفى كامل تصور هذا البغض الشديد. فهو يقول فيه: «وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا، ولا يزال فلول المحررين من المؤيد والحزب الوطني يخبروننا، نحن المصريين، عن الإسلام في الصين تحت عنوان (أخبار العالم الإسلامي)».

ويقول: «ثم حدث ارتداد في الفكرة الوطنية بظهور مصطفى كامل والخديوي عباس والمؤيد. فإن كل هؤلاء عادوا إلى جامعة الإسلام، وكانوا يقولون إن مصر هي من أملاك الدولة «العلية» أي التركية.

وكانت الآستانة عندهم «دار السعادة»، أما القاهرة فهي القاهرة فقط. وكان المصري عثمانيًّا يجب عليه أن يحارب المقدونيين للدفاع عن عبدالحميد ورعيته. وكان عبدالحميد خليفة المسلمين الذي يجب على كل مصري أن يطيعه. وأوشك مصطفى كامل ومحررو جريدته أن يحدثوا فتنة بين الأقباط بهذا السخف والهراء».

وبقدر سخط الرجل على سياسة الجامعة الإسلامية التي يمثلها مصطفى كامل، تجد تقديره الشديد للطفي السيد، الذي يرجع إليه كل الفضل في بناء

الوطنية المصرية، إذ «أخذ يفشي المبادئ الأوروبية عن العائلة، وحرية المرأة، واللغة، والأدب، والسياسة. ورأي الأقباط ـ بعد أن كانوا لا يهتمون بوطنية الخديوي عباس ومصطفى كامل والمؤيد ـ أن وطنية لطفي السيد لا شائبة فيها. وأنها لا تزيغ بهم إلى الجامعة الإسلامية أو الجامعة العثمانية، فصاروا يؤمنون بالوطنية. حتى إذا كانت سنة ١٩١٩ هبوا مع إخوانهم المسلمين كتلة واحدة للدفاع عن مصر. فالاتحاد الذي نراه بين الأقباط والمسلمين يرجع إلى لطفي السيد، لا إلى الحرب الكبرى كما يظن بعض شبابنا».

❑ وفي مقابل هذا السخط الشديد على كل ما يمت إلى الإسلام أو العروبة أو الشرقية بسبب، تجد ثناء على الغرب والغربيين لا تحفظ فيه، ودعوة صريحة إلى الاندماج فيهم اندماجًا كاملاً. فهو يدعونا إلى أن «نرتبط بأوروبا وأن يكون رباطنا بها قويًا، نتزوج من أبنائها وبناتها، ونأخذ عنها كل ما يجد فيها من اختراعات أو اكتشافات، وننظر للحياة نظرها. نتطور معها في تطورها الصناعي، ثم في تطورها الاشتراكي والاجتماعي، ونجعل أدبنا يجري وفق أدبها بعيدًا عن منهج العرب، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها، ونؤلف عائلاتنا على غرار عائلاتها».

ويدعو إلى تمصير الأجانب النازلين مصر «والتزواج بيننا وبينهم وحضهم على إرسال أولادهم إلى مدارسنا حتى يعرفوا لغتنا ويقرءوا صحفنا وكتبنا كما يجب أن نسمح لهم بالتوظف في الحكومة والانتخاب للبرلمان، حتى تغدو عواطفهم مصرية لا يعرفون لهم وطنًا ثانيًا غير مصر».

وهو يرى أن: «اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة»، فالقبعة عنده «هي رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر، سواء أكان يابانيًا أم صينيًا أم إنجليزيًا أم أمريكيًا. . فإن للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها، واتخاذ القبعة من هذه العادات.

فلسنا نحب أن نخرج على العالم المتمدين بلبسا خاص يجعلنا في مركز من الشذوذ يجلب إلينا الأنظار، فيعمد السياحون إلى تصويرنا كأننا أمة غريبة عن الأمم التي جاءوا منها».

وهو ساخط لأن «الحركة التي قامت في العام الماضي وكانت غايتها اصطناع القبعة قاومها زعماؤنا وقتلوها في مهدها، فأثبتوا بذلك أنهم لا يزالون آسيويين في أفكارهم لا يرغبون في حضارة أوروبا إلا مكرهين».

❑ ويقول المؤلف في صراحة يحسد عليها: «إن الأجانب يحتقروننا بحق، ونحن نكرههم بلا حق»؟! ويختم كتابه بالدعوة إلى إحكام علاقات الود مع الإنجليز مهاجمًا الساسة الذين يضعون العراقيل في طريق هذا التفاهم، فيقول: «إن الزعامة السياسية في أيدي أناس ليست فيهم الكفاية للقيام بأعبائها، ودليل ذلك فشلهم العظيم في عدم الاتفاق مع الإنجليز وفي عدم إدراكهم قيمة اتخاذ القبعة. ولكني لا أزال مع ذلك متفائلاً أرى أن الجمهور يسبق الزعماء ويجرئهم على السير بخطوات واسعة نحو الاستقلال بجميع أنواعه. فشبابنا قد سئم سخافة أدبائنا، وصار يطلب من الأدب شيئًا جديدًا مغذيًا غير الكلام عن العرب بلغة العرب. وشبابنا أيضًا يوشك أن يلبس القبعة؛ لأنه يجد هوانًا من الشذوذ في العالم المتمدين. وهو أيضًا قد أبصر أننا إذا أخلصنا النية مع الإنجليز قد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم. وهم في الوقت نفسه إذا أخلصوا النية لنا فإننا نقضي على مراكز الرجعية في مصر وننتهي منها. فلنول وجهنا شطر أوروبا».

❑ ولعل أكثر ما يدعو إلى الدهشة في الكتاب جرأة المؤلف على الإسلام في هذه الخاتمة وفي سائر كتابه، وهي جرأة عجيبة من غير مسلم في بلاد المسلمين، فهو يسخر من وزارة الأوقاف، ومن المحاكم الشرعية، ومن الأزهر، بل ومن الإسلام نفسه، حين يقول: «وها نحن أولاء نجد أنفسنا الآن

مترددين بين الشرق والغرب، لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوروبية، ولكن في وسط الحكومة أجسامًا شرقية مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد، ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدين، ولكن كلية جامعة الأزهر تقف إلى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة. ولنا أفندية قد تفرنجوا، لهم بيوت نظيفة ويقرءون كتبًا سليمة، ولكن إلى جانبهم شيوخًا لا يزالون يلبسون الجبب والقفاطين ولا يتورعون من التوضؤ على قوارع الطرق في الأرياف، ولا يزالون يسمون الأقباط واليهود «كفارًا» كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل ١٣٠٠ سنة».

❑ وهو ناقم على (الشيوخ) الذين يعلمون اللغة العربية، ينادي بأن يسلم أمر تعليمها إلى (الأفندية) حيث يقول: «ولكن تعليم العربية في مصر لا يزال في أيدي الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نقعًا في الثقافة العربية، أي ثقافة القرون المظلمة. فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه ونسلمه للأفندية الذين ساروا شوطًا بعيدًا عن الثقافة الحديثة».

❑ بل لقد وجد المؤلف في نفسه الجرأة لأن يكتب «الجامعة الدينية وقاحة» عنوانًا لفقرة من فقرات هذه الخاتمة. وقال تحت هذا العنوان: «إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة. فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا».

❑ والكتاب كما ترى من هذا العرض خليق أن يثير الناس على صاحبه ويملأهم سخطًا عليه ويصرفهم عن كل ما يقوله. ومن هنا كان الكتاب ـ على خطورة آرائه ـ هين الأثر قليل الخطر؛ لأنه يتولى بنفسه مهمة التنفير من نفسه. هذا إلى أن مهاجمة المؤلف ـ وهو مسيحي ـ للإسلام وللثقافة

الإسلامية، تدعو القارئ إلى أن يشك في حسن قصده وفي صدق نيته»[1].

*** الدكتور محمد محمد حسين يكشف عن صناعة الزعماء «سعد زغلول صديق الإنجليز وكرومر»:**

✍ أغلب الذين يوصفون بالقمم الشوامخ هم أولياء الثقافة الغربية، الساعون إلى تذويب ذاتية هذه الأمة في الأممية تحت اسم العصرية والتجديد والتقدم، وهؤلاء زيفوا إرادة الأمة وهم أشخاص لمعوا بالباطل وتُوِّجوا بالقداسة الكاذبة منذ أمد طويل، وكان من النصح للَّه ورسوله والمؤمنين أن تقوم الأقلام المتوضئة الساجدة لربها في كشف الزيف والبهرج.

ومن هنا تصدى الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «الاتجاهات الوطنية» في الجزء الثاني لزعيم ثورة ١٩١٩ سعد زغلول.

❑ قال الدكتور محمد محمد حسين في كتابه القيم:

«الذين يرجعون ثورة ١٩١٩ إلى أسباب سياسية، أو إلى أسباب اقتصادية ويهملون العامل الديني فيها يخطئون خطأً كبيراً.

وعلى هؤلاء أن يسألوا أنفسهم: أكان يُمكن أن تشتعل الثورة لو أن المصريين قد عانوا ما عانوا وضحّوا ما ضحّوا في سبيل هدف واضح تطمئن إليه ضمائرهم وتقتنع به عقولهم؟ أكانوا يثورون لو أنهم قاتلوا في صفوف تركيا دولة الخلافة استجابةً لدعوة الخليفة إلى الجهاد مثلاً؟

إن كثيراً من الحوادث التي وقعت في خلال الحرب ومن بعدها وفي إبان الثورة تدل على أن العامل الديني كان عنصراً أساسيًّا وسبباً مباشراً من أسبابها. وقد رأينا من قبل كيف نصح رئيس الحكومة لعلماء الأزهر بالإخلا

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٩).

للسكون حين همّوا أن يقوموا بحركة ضد الاحتلال لتأييد عباس.

وتكونت في مصر جمعيات سرية خلال سنة ١٩١٨ للاتصال بالسنوسي في طرابلس وإعانة جيوشه على مهاجمة الإنجليز في مصر، ونستطيع أن نضيف إلى هذه الحوادث ما يدعم دلالاتها وما يصور أن العامل الإسلامي لم يفتر خلال الثورة أو في بدئها على الأقل.

فلم يكن حادث الأرمني الذي أطلق النار من نافذة منزله على المتظاهرين وما ترتب عليه بعد ذلك من فتك الشعب بالأرمن في الطرقات إلا صدى لاضطهاد الترك للأرمن[١] . ولم تكن المعارك التي نشبت بين المتظاهرين وبين اليونان والطليان في مايو سنة ١٩٢١ بالإسكندرية إلا صدى للحرب التركية اليونانية في ذلك الوقت[٢] ولم يكن انشغال المصريين بما كان يجرى في تركيا من أحداث، وتتبعهم للخلافة وتطوراتها في خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها إلا مظهراً من مظاهر هذا العامل الإسلامي الذي لم يضعف أثره في النفوس، وقد اعترف بعض مؤرخي مصر الحديثة من الإنجليز بوجود هذا العامل الديني في الثورة[٣] »[٤] ا.هـ. ويتكلم الدكتور محمد

(١) بلغ عدد القتلى من الأرمن أربعين، وبلغ من اندفاع الشعب في الانتقام منهم أن وضعتهم السلطات الإنجليزية تحت حمايتها في معسكرات اللاجئين. ولم يسكن هياج المصريين إلاّ بعد أن تدخل بطريكي الأرمن الأرثوذكس والكاثوليك، وقصد أعيانهم ومعهم جماعة من كبار اليهود إلى الجامع الأزهر معتذرين عما فرط من بعضهم ملتمسين صفح الشعب عن إساءتهم (راجع التفصيلات في حوليات مصر السياسية ـ المقدمة ١، ٣٢٣ ـ ٣٢٥، وراجع قصيدة لخليل مطران في هذه المناسبة بديوانه (٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٩).

(٢) تُبودل في هذه المعارك إطلاق النار بين المصريين والأجانب، حتى بلغ عدد القتلى من الفريقين أربعة وأربعين قتيلاً، وتجاوز عدد الجرحى مائتين ـ راجع حوليات مصر السياسية لأحمد شفيق المقدمة (٢/ ١٧١ ـ ١٧٥).

(٣) Great BriTain.. (ص٢١٤).

(٤) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ١٨ ـ ١٩).

محمد حسين عن مواقف سعد المريبة[١] ثم يقول ـ رحمه اللَّه ـ:

«على أن الناظر في حياة سعد يعجب من أن هذا الرجل كان هو الزعيم الذي سيطر على أكبر ثورة شعبية عرفتها مصر في هذا القرن، وهي ثورة سنة ١٩١٩، فقد بدأ الرجل حياته صديقًا للإنجليز، وختمها كذلك صديقًا للإنجليز، واستطاع بين هذه البداية وهذه الخاتمة، حين وثب إلي مكان الزعامة من الثورة أن يصرف سخط الناس وثورتهم المكبوتة التي كانت تريد أن تجد متنفسًا فوجدته في الثورة، استطاع أن يصرف هذا السخط إلى الاشتغال بالتوافه وبما لا طائل تحته، فبعثر هذه الطاقة الضخمة وبددها، وفوت على الأمة أن تستفيد بها حين كان يمكن الانتفاع بها فيما يجدي ويفيد.

بدأ سعد حياته السياسية بمصاهرة أشهر صديق للإنجليز عرفته مصر في تاريخ الاحتلال الإنجليزي من أوله إلى آخره، وهو مصطفى فهمي باشا[٢]. ثم كان كرومر واضع أسس الاحتلال البريطاني في مصر هو الذي رشحه لوزارة المعارف في حكومة صهره ذاك[٣]. وظل سعد صديقًا للإنجليز يؤيد

---

(١) انظر المصدر السابق (٢/ ٣٧٣ ـ ٣٨٦).

(٢) مصطفى باشا فهمي هذا تركي الأصل. وقد كان سعد فلاحًا مصريًا خالصًا. ولا بأس بذلك ولا غبار عليه، ولكن العجيب في الأمر أن سعدًا نفسه كان هو مبتدع التفرقة المشهورة بين المصري والتركي منذ ثورة سنة ١٩١٩ ـ ويراجع ما كتبه كرومر عن مصطفى فهمي في Modern Egypt (١: ٢٦٥، ٢: ٣٤٦).

(٣) يراجع في ذلك ما جاء في تقرير كرومر عن سنة ١٩٠٦، المقدم إلى البرلمان الإنجليزي في إبريل ١٩٠٧ ـ الفقرة ٣ تحت عنوان «الوطنية المصرية» (ص٨) من النسخة الإنجليزية، ومما يذكر في هذا المقام أن فتحي زغلول، أخا سعد زغلول كان قاضيًا في محكمة دنشواي المشهورة. وقد كافأه الإنجليز على ذلك بتعيينه بعد ذلك وكيلاً لوزارة الحقانية «العدل». وهو المقصود بقول شوقي في وداع كرومر:

أم من صيانتك القضاء بمصر أن تأتي بقاضي دنشواي وكيلا؟

سياستهم ـ كما يقول نيومان ـ حتى غضب لتخلي كتشنر عنه في إحدى مصادماته الكثيرة مع الخديو عباس، فاستقال وتحول منذ ذلك الوقت إلى المعارضة الواضحة الصريحة للسياسة الإنجليزية، لا سيما بعد انتخابه وكيلاً للجمعية التشريعية التي أنشأها كتشنر سنة ١٩١٣[١] . ثم إن سعدًا عاد في آخر حياته إلى مهادنة الإنجليز، وبدأ هذا التحول الجديد ـ بعد فترة التطرف التي لم تزد على أربع سنوات ـ بعد مقتل السير لي ستاك مباشرة. فلم يكد اللورد لويد يصل إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩٢٥ حتى سارع سعد إلى زيارته[٢] . ثم لم تلبث الصحف الوفدية أن مالت إلى مهادنة الإنجليز، وأخذت تدعو إلى مسالمتهم (للانتفاع بمزايا الدستور والحكم النيابي، والسعي في سلوك سبيل سياسة الإنشاء، لتوطيد ودعم حياتنا الاقتصادية والزراعية توطيدًا ثابتًا يحقق استقلالنا الاقتصادي والزراعي الذي هو نواة الاستقلال السياسي، حتى تحين الفرص الملائمة للجهاد السياسي.. فإن ما لا ندركه اليوم سنظفر به غدًا[٣] . ذلك هو ما دعا نيومان إلى إبداء أسفه؛ لأن سعدًا قد مات «حين كان اتجاهه قد أصبح أكثر اعتدالاً، وحينما كانت الواقعية قد بدأت تنير طريقه خلال ضباب التعصب والتعلق بالأوهام». وهو يشير إلى تحوله عن طريق العنف قبيل وفاته، فيقول: «إنه قد استعمل نفوذه القوي في الحد من تطرف أعوانه. وقد جاء تحوله هذا حين كانت الظروف قد أخذت تعين على إبراز مدرسة جديدة في التفكير السياسي ذات مستوى عال لم تعرفه مصر من قبل. وقد كان من المأمول في مثل هذا التطور السياسي الجديد ـ لو أمتد بزغلول العمر ـ أن يكون لشخصيته أثر بعيد، فقد كانت

---

(١) Great BriTain.. (ص١٦٥، ٢٦٤).

(٢) الحولية الثانية (٨٥٥) وراجع نماذج من مهاجمة الصحف المعارضة في (٨٥٥، ٨٥٦).

(٣) الحولية الثالثة (٤٠٧ ـ ٤٠٨).

مصر كلها رهن أمره وإشارته». ويؤكد نيومان ما سبق حين يقول بعد ذلك بقليل: «كان من الممكن أن يكون سعد زغلول عاملاً قويًا في هذه الفترة من العلاقات المصرية الإنجليزية. وقد كان هناك أدلة لا تحتمل إلا قليلاً من الشك على ما ذهب إليه اللورد لويد والحكومة الإنجليزية من انتظار معونته وعطفه. وقد كان عطف زغلول على وجهة النظر الإنجليزية يعني عطف المصريين جميعًا»[١].

ثم إن الذي يقرأ المذكرة التي دونها زعماء الوفد الثلاثة (سعد وشعراوي وعبدالعزيز فهمي» وأثبتوا فيها ما جرى بينهم وبين ونجت من نقاش في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ يعجب من أن تكون هذه المقابلة وهذا النقاش بداية لثورة. فهم يتبرءون فيها من الحزب الوطني وأساليبه العنيفة، التي ترجع ـ كما قال عبدالعزيز فهمي في هذه المقابلة ـ إلى «طبيعة الشبان من كل جهة»، وهم يعترفون «بالأعمال الجليلة التي باشرتها إنجلترا في مصر»، ويتعهدون لونجت بأن «لا نلتجئ هنا لسواك ولا في الخارج لغير رجال الدولة الإنجليزية»[٢].

والذي يقرأ خطب سعد الأولى يعجب من أن تكون هذه الخطب هي خطب زعيم ألقت إليه الثورة مقاليدها ليأخذ بزمامها. خذ لذلك مثلاً خطبته بدار حمد الباسل عضو الجمعية التشريعية في ١٣ يناير سنة ١٩١٩، وهي من أوائل خطبه السياسية[٣]. فهو يتكلم كلامًا قانونيًّا فارغًا لا مكان له في الثورات، عن أن الحماية «أمر باطل بطلانًا أصليًّا أمام القانون الدولي، ومخالف مخالفة صريحة للمبادئ الجديدة التي خرجت بها الإنسانية من هذه

(١) Great Br:Tain.. (ص٢٦٤، ٢٦٦).
(٢) راجع نص الحديث في تمهيد الحوليات (١/ ١٣٧ ـ ١٤٤)، ثورة ١٩١٩ (١/ ٧٠ ـ ٧٢).
(٣) راجع نص الخطبة في «تمهيد الحوليات» (١/ ٢٠٢ ـ ٢١١).

الحرب الهائلة» وعن أن البلاد «خلو الآن أمام القانون الدولي من كل سيادة أجنبية. وبعيد على مؤتمر السلام أن يرتب سيادة جديدة للأقوياء على غيره»[١] وهو يكيل الثناء لأمريكا ولرئيسها الدكتور ولسون دون تحفظ، بل يعلق آماله كلها عليها، حتى إنه ليختم خطبته بالثناء على «رجل الإنسانية الدكتور ولسون واعترافنا نحن المظلومين بجميله على ما يعاني في الدفاع عن قضيتنا». ثم يقرأ على الحاضرين نص برقية مرسلة إليه، يقول فيه: «إلى رئيس الولايات المتحدة، ذلك الرجل العظيم الذي قاد أمته في خوضها غمار المعترك الأوربي، لمجرد خدمة الإنسانية وتخليص العالم في المستقبل مما يعاني من أهوال الحرب.. إلى الفيلسوف الكبير السياسي القدير.. إلى رجل الديمقراطية الكبرى الأمريكية، الذي غادر بلاده لينشر على العالم لواء السلام المقيم يرفعه العدل الشامخ.. إلخ». ثم يردف ذلك بالهتاف للولايات المتحدة والدكتور ولسون، طالبًا إلى الحضور أن يرددوا هتافه، فيرددونه متحمسين.

أليس عجيبًا أن يبدأ زعيم ثورة كفاحه بالهتاف لدولة أجنبية هي حليفة للمحتل وأن يخدع بالتصريحات البراقة التي قال الإنجليز أنفسهم: هو أجل منها واحلى ألفاظًا في خلال الحرب؟! بلى، إنه لعجيب. وأعجب منه أن يدعو في خطبته هذه إلى قبول الأمر الواقع في الامتيازات الأجنبية، بل هو يبررها ويعتذر عنها بأساليب وأسانيد فصيحة بارعة، قد لا يستطيع خيال الأجانب أنفسهم أن يخترعها وينمقها على النحو الذي تفتق عنه خيال الزعيم. ويقرر أن مصر لا تستغنى عن الأجانب، ويشيد بما أدوا من خدمات[٢].

---

(١) الواقع أن من سوء حظ مصر أن الزعماء فيها والمتزاعمين كانوا جميعًا منذ بداية الحركة الوطنية من محترفي المحاماة، فقد كان من آثار ذلك أن أكثرهم قد عالج القضية الوطنية كما يعالجون القضايا التي يوكلهم فيها عملاؤهم، ذلك العلاج الذي يقوم على السفسطة المنطقية والحيل القانونية وتجريح الخصوم.

(٢) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩).

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«كان يوقع خطاباته إلى الرئيس الأمريكي (ولسون) بـ «المخلص المطيع الخاضع سعد زغلول» تارة و«خادمكم المخلص المطيع سعد زغلول رئيس الوفد المصري» تارة أخرى، وكان يستجدي في هذه الرسائل تحديد موعد للمقابلة، ولا يمل من إرسال الخطاب تلو الخطاب، ولا يثنيه تجاهل الرئيس الأمريكي لكل رسائله، ولكنه يزيده انحداراً إلى إظهار الخضوع والخنوع، حتى كلف الرئيس الأمريكي كاتبه الخاص في آخر الأمر أن يرد عليه ـ بعد تجاهل طويل ـ معتذراً عن المقابلة بضيق وقته[1] . ثم إن سعداً قد عمل منذ البداية على الاستئثار بالقضية الوطنية وكأنها غنيمة لا يريد أن يشاركه فيها أحد، فنحى عنها عمر طوسون بحجة أن الحركة يجب أن تظل شعبية. وذلك بالرغم من أن عمر طوسون كان هو البادئ بفكرة إرسال الوفد المصري إلى أوربا للدفاع عن مصر والمطالبة بحقوقها أمام مؤتمر الصلح»[2] .

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «أصبح كفاح المحتل غير ذي خطر، بل قد دعت صحف الوفد في أواخر أيام سعد إلى مهادنة الإنجليز حرصاً على الدستور. وهذه هي صحيفة «كوكب الشرق» تتكلم عن «سياسة العنف والشدة التي من ذرائعها سياسة اللا تعاون والتحريض على المقاطعة وعلى الإضراب الوزاري»، فتصفها بأنها «سياسة لها عواقبها ونتائجها. . فمن نتائج هذه السياسة أن تقابل إنجلترا الشدة بمثلها، فيصبح الخطر على الدستور وعلى الحكم النيابي قاب قوسين، سيما وأن لإنجلترا في مصر من القوة ومن الرجال ما يساعدها على العبث بالدستور[3] وبالحياة النيابية»[4] » اهـ.

---

(١) راجع نصوص الرسائل في «مقدمة الحوليات» (١/ ٤٣٠ ـ ٤٣٨).

(٢) «مقدمة الحوليات» (١/ ١٤٧ ـ ١٥١).

(٣) مات هذا الدستور في عمر الفطيم وصار ألعوبة بيد الأحزاب والحكام.

(٤) كوكب الشرق ١١ يونية ١٩٢٦ نقلاً عن الحولية الثالثة (ص٤٠٧ ـ ٤٠٨).

❑ وللّه در أحمد محرم وهو يقول عن سعد ورجاله:

يقولون نواب ودار نيـــابة ... وملك ودستور من الحق واضح
وحكام عــدل شائع ووزارة ... هي الشعب أو روح من الشعب صالح
وساوس أقــوام مهاذير ما لهم ... من الرأي هاد أو من اللب ناصح
ينادون باستقلال مصــر ودولة ... من الوهم لم يبلغ بها السمع صائح
أسائل نفسي وهي ولهى من الأسى ... أرائك مالك ما أرى أم مذابح
جزى اللّه ســعداً إنها شهواته ... طغت ريحها فالشر غاد ورائح
أبـاح حمى مصر وسـودانها معا ... فأمعن مغتال وأوغل طامح
يسامحُ أعـداء البــلاد ويعتدي ... على قومه شر الحماة المسامحُ[1]

*** وإن تعجب فاعجب.. فكم ذا بمصر من المضحكات!!**

دعا سعد زغلول أعضاء البرلمان الإنجليزي من العمال للحضور إلى مصر والنزول في ضيافته، حتى يتأكدوا من التفاف الأمة حوله. وجاء الزوار إلى مصر، وطاف ممثلو الدولة المحتلة مع زعيم الأمة وسط الترحيب والزينات وهتاف الشعب. وجلس زعيم الأمة يصفق مع المصفقين لأحد هؤلاء النواب وهو يقول في وليمة فندق شبرد التي أقيمت في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢١، ردًّا على اعتراض الذين ينتقدونه لإقحامه البرلمان الإنجليزي في شئون مصر الداخلية: «فلم يبق إلا مؤاخذتهم لنا لأننا نتدخل في شئون مصر الداخلية. ولكن أليس صدور هذا الانتقاد مستغربًا بعد أن تدخلنا أربعين سنة في شئون مصر؟ ومع ذلك فهل هذا تدخل في شئون مصر الداخلية؟ أليست المسألة مما يهم إنجلترا؟ وإلا فكيف تعرض علينا الحكومة الإنجليزية كل سنة الميزانية لنوافق عليها، وفيها مصروفات تبلغ الملايين من الجنيهات للجيش الإنجليزي في مصر؟ إن جميع هذه الأقوال التي يبدونها لغو وهذيان».

(١) ديوان أحمد محرم.

❑ قيل هذا الكلام في حضور سعد زغلول وأعضاء الوفد فصفقوا له ـ مع المصفقين ـ تصفيقًا طويلاً. ومكث نواب الدولة المحتلة ما مكثوا، ثم ودعوا بمثل ما استقبلوا به من الترحيب ـ كما تعودت الصحف أن تقول ـ ولم يفتهم أن يرسلوا عند سفرهم برقية إلى سعد زغلول شاكرين[١] !!!.

❑ ولما رحل أللنبي عن مصر، وخلفه اللورد لويد. كان سعد وقتذاك خارج الحكم، منذ سقطت وزارته وحل البرلمان عقب مقتل السردار، فسارع إلى قصر الدبارة يهنئ المندوب السامي الجديد بسلامة الوصول[٢] »[٣] !!!!.

❑ وختم الدكتور محمد محمد حسين كلامه بقوله: «فختم سعد حياته ـ كما بدأها ـ مسالمًا للاستعمار»[٤].

❑ وللَّه در أحمد محرم حين يقول:

أيُخذلُ في الكنانة كل حـر ... ويُنصَرُ كل صخَّاب شغوب؟
ويُمنع ذو القضـاء الحـق منها ... ويقضي كل أزور ذي نكوبِ!!
ويُرمى ذو البـراءة من ذوينـا ... بمـلء الأرض ن إثـم وحـوبِ
يُعـاب المرء يصـدق من يوالي ... ويصبـر للشـدائـد والكروبِ
ويحمـد كل مختـلف المساعي ... إلى الأقـوام جَيَّـاء ذهوبِ
يريك ضحًى لباس فتـى أمـين ... فإن لبس الظـلام فـذو دبيبِ
يـكاد من التـلصص والتخفـي ... يشـق السـبل في عين الرقيبِ[٥]

(١) «تمهيد الحوليات» (٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٨).
(٢) «الحولية الثانية» (ص٨٥٥).
(٣) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).
(٤) المصدر السابق (ص٥٠٤).
(٥) ديوان أحمد محرم.

❑ يقول أحمد محرم متهكمًا من قول سعد في دار النيابة «دلوني على السبيل» كلما سامه نواب الحزب الوطني بعض المطالب الوطنية. وفيها يقول:

يا قـــوم مـــا ذنب الرئيـ ـس إذا تمسك بالدليل؟
ما كان من رســـل الحيا ل ولا دعـــاة المستحيل
إنجيـــله نشـــر الســـلا م ودينـــــه أخـــذ القليل
ســـعد رســـول الخير والـ ـإصلاح، بـــورك من رسول
ما النيـــل والسودان؟ ما طول التوجع والغليل؟
ما الملحقـــات؟ وما الجلا ء؟ وما التمادي في العويل؟
يا قوم لوذوا في الجـــدا ل بحكمة الرأي الأصيل
صـــدق الرئيس فقدســـو ه ونزهـــوه عن المثيل
أيصيح صائحكم بمـــا يؤذيـــه من قال وقيـــل؟
ويـــرى عليـــه لنفســـه حق الزميـــل على الزميـــل؟
اللّه أكبـــــر مـــا لكم لا تتبعون ذوي العقول
يا معشـــر الشـــعراء لســـ ـتم بالثقات ولا العدول
لا تطمعـــوا في شعب مصـ ـر فليس بالشعب الجهول
هو مـــا يقـــول زعيمـــه ويريد من أرب وســـول
هو لا يضن بألف مصـ ـر في الفـــداء وألف نيل
فدعـــوا العنـــاد وآمنـــوا بزعامة الشـــيخ الجليل
نعـــم الزعيـــم، شـــعاره: «دلوا الزعيم على السبيل»

* * *

✍ رحم اللَّه شعب الكنانة فهو أولى بالرثاء وما أصدق قول شوقي فيه:

أثَّـرَ البهتـان فيـه وانطوى الـزور عليـه
يا لـه مـن ببـغـاء عقـله في أذنيـه

❑ ورحم اللَّه الدكتور محمد محمد حسين بما نصح لأمته ودينه. بما خطّ قلمه الوضيء المتوضئ الذي ما هادن ولا حابى.

* * *

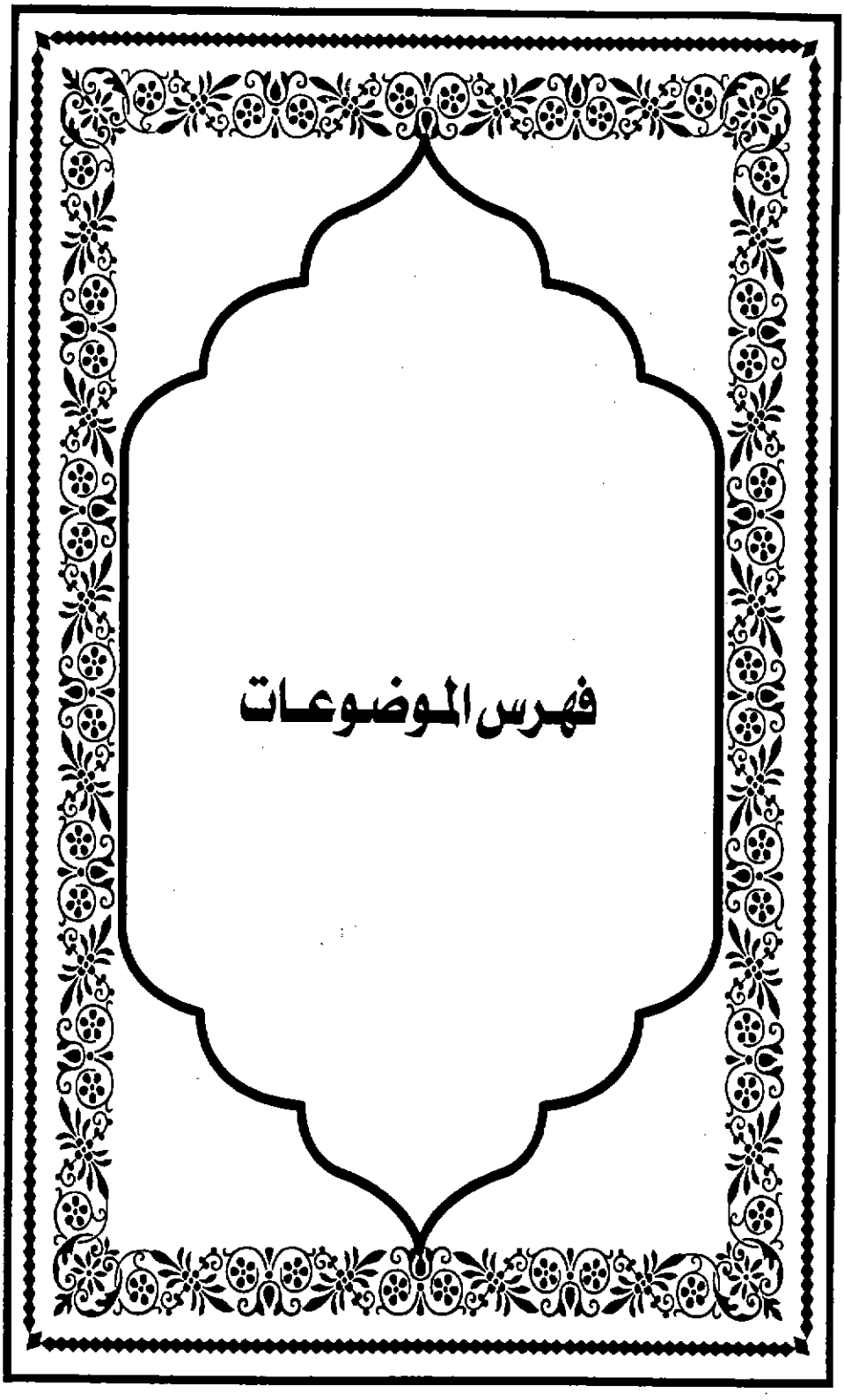

فهرس الموضوعات

زهر البساتين

من

مواقف العلماء والربانيين

جمع وترتيب

الدكتور سيد بن حسين العفاني

الجزء السادس

الناشر

دار العفاني

القاهرة: ٣ درب الأتراك الدور الثاني خلف الجامع الأزهر

ت: ٠١٠٥٢٤٦٤٢٠ / ٠١٠٨٢٥٧٥١٠

بني سويف: برج التوحيد - بجوار مجمع المحاكم

ت: ٠١٠١٧٥٦٢٩٦ / ٠٨٢٣١٧٣٤٤

بسم الله الرحمن الرحيم

* الأستاذ العملاق.. والفارس اليقظ.. القمة الشامخة الفاضحة لروّاد التبعية للغرب والتبشير والغزو الفكري الأستاذ أنور الجندي ـ رحمه الله ـ:

❑ هو خير من يحمي حمى الإسلام ضد التغريب والغزو الفكري، ولندع الشيخ يحدثنا عن نفسه[1] :

اسمي أحمد أنور سيد أحمد الجندي.. ولدت في الخامس من ربيع الأول من العام خمسة وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة، في مدينة ديروط من مديرية أسيوط بمصر، ولقد نشأت في بيت علم ودين، وتفتحت عيناي منه على كتب التراث الجميلة مكتوبة بالمداد الشيني الأسود، وقد مُيِّزَتْ عناواتها باللون الأحمر، مما ترك في نفسي هوي خاصًا لهذا النوع من كتب التراث.

وكان والدي ـ رحمه الله ـ إلى جانب عنايته بتلك الأسفار متابعًا للحديث من مقالات المعاصرين التي تنشرها الصحف والكتب الجديدة.

فكان من إيحاء ذلك الجو أن بدأت اتصالي بالكتب عن طريق مقدمة ابن خلدون ودائرة معارف فريد وجدي وما إليهما من مؤلفات بعضها في مكتبة الوالد، وأستعير بعضها من الآخرين.. فكنت أقرأ ما يتيسر من هذه الكتب دون الإحاطة الكاملة بما تحتويه، وكان لذلك أثره البعيد في تكويني الإنشائي والفكري، حتى لقد أقدمت على إلقاء محاضرة عن الأدب العربي الحديث أثناء دراستي الابتدائية، كان لها ردود فعل غريبة، إذ تعذر على مستمعيها أن تكون من عملي، ولذلك عمد بعضهم إلى إجراء البحث عن مصادر هذه المحاضرة، وقد علمت ذلك من أوضاع الغرفة التي أسكنها، إذ

(١) من خلال ترجمته في كتاب الأستاذ محمد المجذوب «علماء ومفكرون عرفتهم» (٢/ ٤٥ ـ ٥٩).

عدت ذاتَ يوم فوجدت آثارهم على درجي وأوراقي. فقد قدروا أن المحاضرة منقولة لا محالة؛ لأن أسلوبها الأدبي فوق طاقة تلميذ من تلك المرحلة، فأرادوا التيقن من ذلك..».

❑ ويتابع الأستاذ الجندي حديثه عن نشأته وعوامل تكوينه الفكري قائلاً:

«كانت صلتي وثيقة بأئمة المساجد في بلدنا، وهي التي ساعدت على اتجاهي في اختيار نوعية الأصدقاء الذين تركوا آثارهم عميقة في سلوكي الشخصي.. ففي ذاكرتي صور لا تنسى عن ذلك الوسط الطيب يتمثل في أجواء المساجد وهيئات المصلين ومواسم العبادات.. وما زلت أتذكر مجلسًا للعلم في مسجد ديروط الكبير بين العصر والمغرب من كل يوم، وألمح من وراء السنين ذلك الشيخ الوقور الذي يمس بإشراق وجهه وملامحه أعمق المشاعر..، وأستعيد ذكرى والدي وأنا أصاحبه إلى حلق الذكر، وأستشف تلك النشوة الروحية التي كانت تغمرنا نحن الصغار إذ نتنادى للخروج إلى المسجد، قبيل الفجر، فنرافق المؤذنين إلى المنائر، ونُدير السواقي القائمة على البئر لنستخرج المياه للمتوضئين».

❑ يقول الأستاذ محمد المجذوب في كتابه «علماء ومفكرون عرفتهم» عن الأستاذ أنور الجندي:

«وسألنا الصديق عن أكثر الشخصيات تأثيرًا في تكوينه الفكري، وعن أهم الأحداث التي ساعدت على هذا التكوين.. فأجاب بما خلاصته:

لقد قابلت عشرات من أعلام الفكر والكفاح أثناء رحلاتي في البلاد العربية، وتابعت دراسة الكثيرين من أعلام الإسلام المعاصرين، أمثال شيخ العروبة أحمد زكي باشا، وأحمد تيمور، وشكيب أرسلان، ومصطفى صادق الرافعي، وحسن البنا، وعبدالعزيز الثعالبي، وعبدالعزيز جاويش، وأمين

الرافعي، ومحمد فريد وجدي، ومن لا أحصي من طبقتهم، فكان لرحلاتي ومقابلاتي ودراساتي لأعمال هؤلاء الأفذاذ آثارها العميقة في كياني كله..

ويتابع: في مرحلة تكوني عرفت رجلاً جليلاً هو الشيخ فخر الدين، وكانت معرفتي إياه عاملاً أساسيًّا في إعطائي الاتجاه الفكري لونه الأصيل ومنهجه الصحيح، وبخاصة في الإنتاج الذي كنت أنشره في الصحافة العامة، ثم في الصحافة الإسلامية التي أواصل الكتابة فيها..

أما من هو الشيخ فخر الدين.. فما نعلم عنه إلا اسمه هذا..

❑ وعن مجالات هذا الاتجاه الأصيل يقول الأستاذ الجندي:

لقد تعددت أنحاء هذا الاتجاه ولكن الإطار الذي يضمها جميعًا هو الأدب والصحافة ثم الدراسات الإسلامية:

ويحدد أهم منتجاته في الموسوعات التالية:

١ ـ معالم الأدب المعاصر، وقد بلغت حتى الآن سبعة عشر مجلداً.

٢ ـ تراجم الأعلام في ثلاثة مجلدات.

٣ ـ مقدمات العلوم والمناهج في أربعين جزءاً يقدر لها عشرة مجلدات.

٤ ـ مَعْلَمَة الإسلام، وقد ظهر منها حتى تاريخ هذا الاستطلاع خمسون جزءاً.

❑ ويقول الصديق معقبًا على ما تقدم: إن هذا العطاء، عطاء القلم الذي أقسم اللّه تبارك اسمه به، قد بدأت بواكيره منذ السنوات الأولى من حياتي الفكرية، ثم أخذ سمته نحو التكامل والعمق، ثم شاء اللّه أن يخلصه لوجهه الكريم ودعوته المنقذة..

وأهم التحديات التي واجهتُها خلال هذه المراحل هي قضية الغزو

الفكري الهادف إلى تغريب التصورات والمناهج والصبغة الاجتماعية، بالتشويش عليها أولاً، ثم باستبعادها عن المرتكزات الإسلامية في النهاية وقد استخرت اللَّه، فوهبت نفسي لمقارعة هذا الغزو بالحجة والمناقشة وتعرية الأهداف المبيتة من خلفه، وهكذا يكاد ينحصر جهدي في معالجة قضايا الاستشراق والتبشير، والتهجمات الموجهة إلى الإسلام في نطاق الشريعة والاقتصاد والسياسة والتربية جميعًا.

❑ ويقول أبو غسان ـ المسجل لهذا الاستطلاع ـ إن القارئ المتتبع لإنتاج الأستاذ أنور الجندي لا تفوته رؤية هذه الملامح في سائر ما يطالعه من آثاره سواء في مقالاته المتلاحقة بمختلف الصحف الإسلامية، أو كتبه على اختلاف أحجامها، بل إنه ليشعر أن أجوبته على أسئلتنا كانت مسرفة في الإيجاز، وكان بمقدوره أن يتوسع في بسط بعض النقاط أكثر مما فعل، ولعله آثر هذا الإيجاز استحياء من إطالة الحديث عن نفسه أو اكتفاءً بما يحمله إنتاجه القلمي من موضوعات تغني عن المزيد من التفصيل.

والحق أن قارئ الأستاذ الجندي ليشعر بقوة أنه تلقاء كاتب شديد الإحساس بمسئوليته تجاه الأصالة الإسلامية في كل ما يتناوله من بحوث.. وكأنه حارس على ثغرة لا يملح شبحًا ولا حركة إلا تناولها بالتحليل والتصوير والاستنباط والتحذير..

وهذه العناية الدقيقة بمتابعة الوافدات الدخيلة قد أفرغت على الأستاذ الجندي طابعه المميز، الذي يصلك بملامحه الشخصية من خلال أي مقال يكتبه، أو رأي يعرضه في أي مشكلة..

إن في طبيعة هذا الكاتب الإسلامي خصائص المحلل الكيميائي، الذي لا يكتفي بالنظر إلى ظواهر المادة، حتى يتغلغل إلى أعماقها، فيفصل بين جزئياتها، فيعين لكل منها نسبتها ووظيفتها وأثرها.. وبهذه الخاصة التحليلية

تنفرد بحوثه بطابع الطرافة والجدة، وتنفرد شخصيته بالملامح التي تميزها فلا يختلط بغيره من حَمَلَةِ الأقلام.

«وقد امتحنت في العمل الصحفي بمحنة العمل مع الماركسيين، واستطعت بعون اللَّه أن أتجاوز إغراءاتهم، وأن أحصر نفسي في حيز قليل مضحيًا بكل أسباب الكسب والترقي، حتى أني أمضيت عشر سنوات كاملة دون أن أحصل على مكافأة واحدة، وكان عزائي في ذلك عملي الفكري الذي كنت أعده وأتفرغ له.

لقد ولدت في خضم الأحداث فعام مولدي ١٩١٧ كان عام وعد بلفور، وفي مطالع الشباب ١٩٢٤ سقطت الخلافة الإسلامية، ثم كان وصل الماركسيين في مصر إلى السيطرة على الإعلام عام ١٩٦٢ ثم كانت نكسة ١٩٦٧ التي ضاعت بها القدس عاملاً خطيراً في ظهور دعوة العودة إلى اللَّه وبوادر الصحوة الإسلامية التي تحتاج إلى الترشيد والتوجيه في الانتقال بالأجيال المسلمة الجديدة إلى الأصالة والرشد الفكري، وكان هذا من أهم مشاغلي.. ولا ريب كانت أخطر الأزمات النفسية التي أصبت بها هي أزمة سيطرة الماركسيين على الصحافة والإعلام والمسرح والثقافة في مصر.. فقد أحدثت لدي حالة من أشد الحالات خطورة، غير أن اللَّه تبارك وتعالى وجهني إلى العمل لإعادة بعث التاريخ الإسلامي على نحو جديد، وتجديد الثقافة الإسلامية ومواجهة التحديات.

ولقد كنت في الحقيقة قد اكتشفت نفسي منذ الثلاثينات عندما رفع الغطاء عن خطة «التغريب» التي يجري العمل بها في البلاد الإسلامية بترجمة كتاب «وجهة الإسلام» للمستشرق جيب، والهدف منه دراسة ما وصل إليه «تغريب البلاد الإسلامية» والخطط التي سيتم العمل بها حتى يتم هذا التغريب وواضح أن هذه الخطة كان قد رسمها لويس التاسع بعد هزيمته

واعتقاله في المنصورة، فقد دعا إلى ما سماه «حرب الكلمة» بعد هزيمة حرب السيف في الحروب الصليبية، وكان ذلك مبدأ العمل الخطير الذي تم تحت أسماء التبشير والاستشراق والغزو الفكري ومحاولة إثارة الشبهات والسموم حول الإسلام عقيدته وقرآنه ونبيّه وتاريخه ولغته، ومنذ ذلك الوقت الباكر توجه قلمي إلى هذا العمل، ومعنى هذا أنني بعون اللّه قد أمضيت الآن أكثر من أربعين عامًا في الكشف عن هذه الخطط والرد عليها في عديد من الدراسات، التي نشرتها في الصحف أو قدمتها في مؤلفات أو ألقيتها في مؤتمرات عالمية امتدت من إندونيسيا إلى الجزائر..

كانت خطة التغريب التي هي بمثابة التحدي الفكري لشاب في السابعة عشرة هي مفتاح حياتي الفكرية الحقيقي غير أنني لم أصل إلى الفهم الحقيقي لذلك إلا عندما استوعبت مفهوم الإسلام الجامع بكونه دينًا ودولة وعبادة ومنهج حياة، ومن هنا اكتشفت خطورة المؤامرة التي قادها التغريب عن طريق: «التبشير والاستشراق الغربي والصهيوني والماركسي» التي ترمي إلى تفريغ الإسلام من محتواه كدعوة عالمية، ومن منهجه لبناء المجتمع، ومن أصالته وذاتيته القادرة على حفظ بيضته، وبناء أجياله على مفهوم الجهاد والمرابطة والإعداد في مواجهة الخطر الخارجي المتربص الذي واجهته القارة الإسلامية منذ فجر الإسلام، والممتد إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها، وهذه الحقائق لا بد أن نربي عليها أبناءنا وأجيالنا الجديدة، حتى لا تستسلم للتحلل والخضوع لأي قوة مهما كانت..».

وشكر اللّه للأخ الفاضل إضافته النفيسة هذه إذ أمدتنا بما لا ينبغي أن تغفله ترجمة من حياة صاحبها تأثيرًا وتأثرًا، فليس بالشيء اليسير تلك الفترة المزعجة التي قضاها في جو الصحافة يسيطر على توجيهها عناصر مدخولة لا تقيم للقيم الإسلامية التي نشأ عليها وزنًا، وهو جو من الحدة والشدة بحيث

لا يتوقع أن يسلم من فاعليته معايش له، ولو تصورنا أن ذلك المعايش أقل حصانة روحية من فتانا ـ الجندي ـ لابتلعه التيار المركّز دون أن يجد فرصة للنجاة من قبضته، ولكن شاء اللّه أن يكون موقفه كموقف الجسم المنيع من هجوم الوباء يتلقاه ميكروبًا فيحيله غذاءً.. وشيء آخر لا ينفصل من حيث الأثر عن ذلك الجو وهو ما أتاحه له من فرص الاطلاع على خفايا العوامل المؤثرة في كيان المجتمع المصري، ما كان له أن يعلم عنها الكثير لولا وجوده هناك.. ومن هنا برزت اهتماماته بتتبع تلك المؤثرات وبخاصة في تضاعيف المؤلفات التي جعلت تغزو رءوس الجيل العربي عن طريق مؤلفيها من مدرسي الجامعات ودعايات أشياعهم لها ولهم..

❑ وحسبك من ذلك عنايته بآثار أبي كلود ـ الدكتور طه حسين ـ حتى ليكاد يحيط بها جميعًا كتبًا ومقالات وخطبًا ومحاورات ومحاضرات، وخصائص ومميزات وما إليها.. ولسنا بحاجة إلى تذكير القارئ بأهمية هذا التتبع لآثار رجل لم يُقَدَّر لواحد من معاصريه أن يبلغ ما بلغه في تفكير ذلك الجيل، ولم يبلغ كاتب من الغموض ما بلغه من تقديره، حتى أصبح ركيزة المولعين بالتجديد يطوفون حولها، ويقدسون موحياتها، ويذودون عن سمعتها بكل ما أوتوا من بلاغة وقوة، على الرغم من كل البينات الشاهدة عليه..

❑ في كتاب «طه حسين: حياته وفكره في ميزان الإسلام» يحشد الأستاذ الجندي خلاصة مركزة عن نشأة ذلك «العميد» الساحر واعترافاته وأفكاره وتناقضاته وأقوال خصومه وأنصاره، وخلفيات كل هؤلاء وأولئك.. وقد وفق إلى إزالة الستور التي طالما خدعت ولا تزال تخدع الكثيرين من «الدكاترة» والمأخوذين برقى ذلك الساحر الساخر، تلك الستور التي غلف بها كتبه ذات الطابع الإسلامي حتى حجب أغراضه الحقة عن الأعين الكليلة،

فاتخذها المخدوعون والمعجبون دليلاً لا يرد على إسلامية كاتبها، فإذا هي ـ كما قدرها العارفون في وقتها ـ سموم مغشاة بالعسل، تريد الإجهاز على مصداقية السيرة النبوية وإثارة الشك في براءة الرعيل الأول من خير أمة أخرجت للناس، وإذا مؤلفها لا يزيد على كونه حربًا دُسَّتْ على جماع الإسلام قرآنًا ونبيًا وسيرة وتاريخًا، لغرض واحد هو بعث الريبة وتكثيفها في كل هذه الحقائق.. وبدافع واحد هو تنفيذ المخطط الذي وضعته اليهودية والصليبية، وقامت على تعهده عن طريق المبشرين والمستشرقين وأذناب هؤلاء وأولئك من أبناء المسلمين.. ويا لها من حرباء لا أقدرَ منها على تغيير صبغتها وفق تغير الأحوال، حتى لم تدع حزبًا سياسيًا دون أن تنضوي إليه فتملأ الصحف بمدحه ثم تتسلل منه إلى خصومه فتدبج الروائع في إطرائه وتعظيمه.. وليس في صدرها ذرة حب أو إخلاص لهؤلاء أو أولئك، وإنما هو الاحتيال للوصول إلى طريقة أنجح لتنفيذ ما هي مكلفة به من قبل أعداء الإسلام..

وأنا حين أشير إلى مضمون هذا الكتاب القيم، الذي جمع في صفحاته المئتين والخمسين ما لا غنى لباحث عن معرفته من حياة طه حسين، فقدم له بذلك خدمة تغنيه عن مراجعة العشرات بل المئات من الكتب والصحف، ولا أنسى أن أضم إليه كتابه الآخر الذي لا يزال تحت الطبع بعنوان «محاكمات طه حسين»، وبهذا أو ذاك تنقطع حجة كل من يتصدى للدفاع عن أبي كلود من أصحاب النوايا الصالحة.. أما أولئك المواطئون له في أهدافه بل أهداف مصطنعيه الهدامة فليس لهم عندنا وعند الأستاذ الجندي سوى أن ندعو لهم بالهداية إلى التي هي أقوم..

❑ والآن ونحن في صدد التقييم لمميزات هذا المفكر الإسلامي يحسن بنا أن نختم هذه الصفحات ببعض النماذج من إنتاجه لنرى إلى أي مدى تتراءى

خصائصه الأسلوبية والفكرية والمنهجية من خلاله وليكن هذا الأنموذج مما تقع عليه اليد دون بحث ولا استقصاء ولا انتقاء.

❑ يقول الأستاذ الجندي في مقالة له نشرتها مجلة الدعوة الصادرة بالرياض في العدد ٨٨٩ تحت عنوان «خطران»:

«عملان خطيران قذف بهما التغريب في وجه الأمة الإسلامية فأفقدها قوة التماسك بإزاء ذاتيتها الخاصة المتميزة: القانون الوضعي في وجه الشريعة الإسلامية، ومبدأ القوميات في وجه الوحدة الإسلامية، وقد ولدت القومية في أحضان الإرساليات التبشيرية، واتخذت وسيلة لهدم الخلافة، وليس كذلك العروبة التي لجأ إليها العرب بعد سقوط الخلافة، وكانت في تقديرهم حلقة تالية للوحدة الإسلامية بعد الوطنية والإقليمية التي فرضها تمزيق العالم الإسلامي، وصولاً إلى الوحدة الإسلامية مرة أخرى، ولكن العروبة بمفهومها الإسلامي وانتمائها الأصيل كان مكروهًا عند التغريب الذي حاول أن يطرح مفهوم القومية بالمفهوم الغربي، وهو يعني الانسلاخ عن الإسلام تحت شعارات ومسميات شتى، وبأساليب وأفكار ترمي إلى هدم التراث والأصول التي قام عليها البناء الاجتماعي، وتهدف إلى الفصل بين العرب والمسلمين وبين العروبة والإسلام، وإقامة حاجز من الحقد والكراهية بدلاً من بناء جسر للأخوة الإسلامية بين العرب والأمم التي تقول لا إله إلا اللّه، ولقد تساءل كثير من الباحثين المخلصين، لماذا ركز الفكر الغربي على مفهوم القوميات والإقليميات في البلاد الإسلامية؟. وكانت الإجابة واضحة: إنها من أجل إسقاط الجامعة الإسلامية، ومن أجل إقامة القومية اليهودية، وفي نفس الوقت للدعوة إلى إنشاء دولة علمانية للقضاء على الذاتية الإسلامية الخاصة التي شكلها الإسلام، ومن أجل صهر وحدة المسلمين الفكرية في أتون الأممية العالمية.

وقد أدّى ذلك التركيز الخطير على الإقليمية والقومية إلى بعثرة وحدة الأمة الإسلامية إلى سبعين جنسية معزولة عن الأخرى ومحبوسة وراء أسوار، وعروبة مقطوعة عن الإسلام فكرًا وعن المسلمين جغرافيًا. وحاولت الدعوة إلى القومية أن تصبغ كل شيء بلونها كأنها أيديولوچية مستقلة حتى بالنسبة للقيم العامة، التربية العربية، القانون العربي، المجتمع العربي..

حتى في دراسات التاريخ.. فهناك الفقه المصري والفقه الشامي والفقه العراقي، وهناك في التراث إقليمية وقومية، دور مصر في النحو ودور الشام في الصرف ودور العراق في البلاغة، وتراوحت القضايا بين الإقليمية والعروبة، وأخذ كل قطر يفخر بنفسه، وكلها دعوات حول الأجناس والدماء والعناصر، وفصل اللغة عن الإسلام كفصل التاريخ عن الإسلام، والهدف هو إخفاء صوت الإسلام بالادعاء أن التاريخ عربي، والحضارة عربية، والثقافة عربية، والجامعة عربية، باستهداف التركيز على القوميات الضيقة، وإعلاء التاريخ القديم الذي أهدره الإسلام، وقال المؤرخون: بأن هناك انقطاعًا حضاريًا بين الإسلام وما قبله، فظهرت دعوات الفرعونية والفينيقية والقول بأن العربية لغة العرب وحدهم، وتمصير القانون والأدب واللغة، أو مغربته والإشادة بالمؤرخين الوطنيين وحدهم في كل قطر على حدة، وإعادة تفسير التاريخ الإسلامي على أنه تاريخ مناطق وأقاليم وأنه تاريخ قومي، والبحث عن سبيل لوضع صيغة القومية العازلة فيه منذ أولى عصوره، وقبل أن تعرف كلمة القومية أو مدلولها، قال أحدهم: العروبة دين عبر القوميين؛ لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا، وإن كان لكل نبوته المقدسة، فإن القومية العربية هي نبوة هذا العصر في محفلها العربي، وأن الوحدة العربية تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة اللّه من

قلوب قوم مؤمنين»، وهذا الكلام يعني إقامة القومية كدين ينافس الإسلام، وقد تعالت هذه الصيحات ثم انهارت وليس لها إلا بقايا قليلة لا بد أن تنهار.

❑ لقد تعالت صيحة القومية بين اليهود لتفسح مجالاً للصهيونية ولتحقيق البقاء لإسرائيل، وقد أقيمت جهود سنوات طويلة لبناء القومية العربية الوافدة، ولكنها فشلت لأنها عارضت الفطرة والعقل والعلم وتراث أربعة عشر قرنًا من الإيمان باللَّه. نعم إن العالم الإسلامي المركب من أجناس شتى يقدر للعرب دورهم الرائد في حمل رسالة الإسلام إلى العالمين، ويقدس لغتهم لأنه بها نزل القرآن، ويعلم أن العرب دماغ الإسلام وقلبه ما دام القرآن عربيًا والنبي عربيًّا، ولكن هذا لا يعطي العرب امتيازًا خاصًا يجعلهم جنسًا فوق الأجناس.

❑ والمعتقد أن مرحلة القومية العربية التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية قد انطوت، وأن المسلمين والعرب اليوم يواجهون مرحلة أخرى تختلف عن المراحل السابقة، وهي مرحلة التماس مفهوم إسلامي لإقامة المجتمع الرباني، وآية ذلك ما قاله المستشرقون الغربيون أنفسهم، وفي مقدمتهم (ويلفرد كايتول سميث) حيث قال: إن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء، وما لم يكن المثل الأعلى إسلاميًّا على وجه من الوجوه لن تثمر الجهود ألبتة، وفي هذا المعنى ما قاله (جارودي): من أن كل حركات الجهاد الوطنية والقومية التي قامت من أجل تحرير البلاد الإسلامية، كانت في الأصل إسلامية الجذور. ولقد استخدمت كل الوسائل السياسية لإعلاء شأن القومية ولكن المجتمع الإسلامي لم يقبلها على هذه الصورة الوافدة التي دعا إليها (ساطع الحصري) وغيره، والتي استمدها من مفهوم القومية التركية في البلقان وغيره، وسيظل

المسلمون قادرين على الأصالة وعلى رفض كل المذاهب والأيدلوجيات الوافدة، وسيجعلون مفهومهم في العروبة الأصل المستمد من الإسلام والقائم على الوحدة والإخاء الإنساني وعلى التجميع دون التفريق، وعلى الالتقاء الجامع لكل المسلمين، هو الأساس الحقيقي.. ومن هنا كانت قضية القومية إحدى التحديات التي حاولت تحطيم الكيان الإسلامي».

فمن خلال المقالة الصغيرة التي نقلناها لك كاملة، دون تنقيب ولا مفاضلة ولا سابق علم بها، تتضح لعينيك ملامح هذا المفكر الإسلامي مميزة بارزة بكل خصائصها.. فهو يحدثنا عن جانب من الغزو الفكري والنفسي يمثل في الواقع اثنين من أهم الأخطار التي تثيرها حركة التغريب.

❑ فالقوانين الوضعية التي فرضها الاستعمار لتكون البديل لشريعة اللَّه، قد أحدثت ثغرة هائلة في حصن المجتمع الإسلامي، إذ جرته بالقسر إلى الاحتكام لغير المبادئ التي ميز اللَّه بها أمة القرآن، وما هي سوى خطوة بعد خطوة حتى ألفت هذا الانحراف، وجاء حكامها الجدد من تلاميذ ذلك الاستعمار، فكانوا به أشد تشبثًا من الذين فرضوه، وكان لذلك التحول آثاره البعيدة في تغيير الصبغة الربانية الخاصة بأهل الإسلام. والويل لكل من يتصدى للمطالبة بالتحرر من تلك القوانين الهدامة؛ لأن أمامه ألوان البلاء التي بعضها. ولعل أهونها الموت..

وليس من باب الصدف أن يرافق قوانين الجاهلية ذيوع الدعوة إلى الاتحاد القومي، الذي بدأ على أساس الجنسية العربية، ثم ما لبث أن تحول إلى أنواع من الروابط الفرعية، فرعونية وفينيقية وإقليمية فقُطْرية، ومن ثم إلى فرق محلية تبعث موات العصبيات البلدية والقبلية في تقاليع من (الفولكلور) والعادات التي عفى عليها الإسلام..

❑ وهكذا تلاقى الخطران القانوني والعصبي على تفكيك وحدة العالم

الإسلامي، ليسهل القضاء على طاقاته كلاً على حدة، ولينفسح المجال أمام القومية اليهودية، التي ما كان لها أن تقوم لو بقي للعالم الإسلامي، ـ وفي قلبه الشعوب العربية ـ تماسكه الذي فرضه الإسلام منذ حدد اللّه هويته بقوله الحكيم في القرآن العظيم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾..

ومن هنا انطلقت سيول الأفكار الهدامة على ديار الإسلام، وزاد طغيانها إلقاء المسلمين أفلاذ أكبادهم إلى أيدي الصليبية والصهيونية والماركسية تصنع منها الركائز التي تدعم حضورها في صميم وجودهم.

وسرعان ما تفجرت هذه الألغام مولدة ما لا حصر له من الشعارات المعمِّقة للفرقة، والمتناولة لكل شيء من حياة المسلمين، حتى لتضع لكل إقليم من عالم الإسلام، بل من الأقطار العربية نفسها، مصطلحاتها الخاصة المتمايزة، في التعليم والقانون والتاريخ والتربية، وما إلى ذلك من شئون لا غاية لها في النهايات البعيدة سوى القضاء التام على وشائج القربى في عالم الإسلام..

ويلاحظ القارئ أن الأستاذ الجندي لا يلقي الكلام على عواهنه، بل يقدم أفكاره واستنباطه في إطار من الوقائع المنظورة، ومؤيدة بشهادات المنصفين من المستشرقين الذي هُدوا إلى الحقيقة المحررة.. فنشعر أنه موضوعي الرؤية، وأنه على اتصال بحركة الفكر العالمي..

وما أشك أن هذه الخاصة الواعية الواسعة هي التي دعت المفكر الإسلام المغربي الأستاذ عبداللّه كنون إلى ترشيح الأستاذ أنور الجندي لجائزة الملك فيصل الإسلامية.

ولعمري إنه لحقيق بهذه الجائزة التي وضعت لتكريم الفكر الإسلامي المجاهد لإعلاء كلمة اللّه» اهـ.

* أنور الجندي في مواجهة «حرب الكلمة»:

في كتابه «المدرسة الإسلامية على طريق اللَّه ومنهج القرآن» تكلم الأستاذ أنور الجندي عن الرواد، وتكلم عن تجربته وعن معركته «حرب الكلمة» التي دافع فيها عن دينه وكان رائداً، فقال ـ رحمه اللَّه ـ:

«بدأت أواجه الخطر في السابعة عشرة عندما ترجم الدكتور عبدالهادي أبوريده كتاب «وجهة الإسلام» الذي ألفه المستشرقون الخمسة (هاملتون جب) وزملاؤه عام ١٩٣٤ حين لخصه الدكتور محمد حسين هيكل في السياسة الأسبوعية وأنا غض الإهاب أتطلع إلى فهم حركة الفكر الإسلامي فهز نفسي هزاً أن وجدت هؤلاء الجماعة يكشفون للمرة الأولى عن هدف مبيت ضد الشرق والإسلام هو تغريب هذه الأمة، وقد قالوا: إنهم إنما يريدون أن يعرفوا إلى أي حد وصلوا في عملية التغريب وما هي الخطط التي تمكنهم من إتمام هذه المؤامرة الخطيرة؟ وقد أخذوا يدرسون العالم الإسلامي من أندونيسا، إلى الهند، إلى البلاد العربية من العراق إلى المغرب، هزني هذا السر الخطير الذي تفجر مرة أخرى بين يدي شاب يخطو خطواته الأولى في مجال الأدب والكتابة والصحافة، وقد ظل السؤال معلقًا في نفسي عشر سنوات كاملة حتى لقيت الرجل الذي أجابني ودلني على الطريق لمواجهة هذا المخطط، كانت رسالة صغيرة ألفها الأستاذ الإمام حسن البنا تحت عنوان «بين الأمس واليوم» أعتقد أنها هي مفتاح هذا العمل كله الذي وجهت إليه نفسي منذ ذلك اليوم إلى اليوم: أربعون عامًا كاملة.

❑ إنها مؤامرة استيعابنا نحن المسلمين في إطار الغرب واحتوائنا في دائرته، فالغرب يريد أن يبسط نفوذه وسلطانه ليتمكن من السيطرة الدائمة على هذه المنطقة التي وصفها نابليون بأنها (القارة الوسطى) هذه التي تبدأ من المغرب وتنتهي في أندونيسيا، وهي متكاملة فأهلها لا يحتاجون إلى شيء من

خارجها، البترول في ناحية والأرض الطيبة في ناحية والمنجنيز في ناحية، والخبرات هنا وهناك وبدأ الاستعمار التجربة الأولى في الحروب الصليبية التي امتدت قرنين كاملين ورغم ذلك فلم يتمكن الغرب من فرض سيطرته على بلاد المسلمين؛ لأن الإسلام كان قويًا وكان المسلمون يؤمنون بالجهاد في سبيل اللَّه، ولكن عندما جاء لويس في الحملة السابعة، كانت الحملة ضد مصر وهزم وأسر في دار ابن لقمان بالمنصورة، فقد درس التجربة أثناء فترة الأسر وقبل أن يفتدي نفسه بالمال ووصل إلى اقتناع كامل بفشل تجربة الحرب العسكرية وإنه لابد من إعلان حرب جديدة هي (حرب الكلمة) التي تستهدف تفريغ نفوذ المسلمين من الإيمان بالجهاد والمقاومة والدفاع عن الذات.

لقد وصل لويس إلى أربع نقاط تكون أساسًا للحرب الجديدة وهي:

١ ـ أن تسبق الجيوش التبشيرية الجيوش العسكرية وذلك لزعزعة العقيدة الإسلامية.

٢ ـ الاعتماد على أقليات الشرق في احتلال البلاد الإسلامية.

٣ ـ إقامة دولة أجنبية في قلب المنطقة العربية وهي قديمًا الدول الصليبية والآن الدولة الإسرائيلية.

٤ ـ ضرب الإسلام من الداخل وذلك بضرب المسلمين بعضهم ببعض.

هذه هي النقاط الأربع التي وضعها لويس التاسع أصبحت تحكم علاقة الغرب بالشرق، وفي حرب الكلمة بدءوا بما يسمونه (الاستشراق) وقد بدأ المستشرقون يقرءون القرآن ويترجموه ويدرسون الأحاديث النبوية والتاريخ الإسلامي في محاولة لإيجاد ما يمكن إثارة الشبهات من خلاله، وقد ظهرت من هذا المنطق دعوات البهائية والقاديانية تدعو إلى إنكار الجهاد في سبيل اللَّه وتعتبره جهاد النفس فقط كان هذا في مجال النقطة الأولى التي أعدها لويس، وفي سبيل تحقيق النقطة الثانية وأقصد بها خلق دولة أجنبية في قلب

المنطقة العربية فقد ألف المؤرخ البريطاني (جيبون) كتابه «سقوط الإمبراطورية الرومانية» وحذر بريطانيا أن تقع في نفس تجربة الإمبراطورية الرومانية، وكانت بريطانيا في ذلك الوقت الدولة التي لا تغيب عنها الشمس، فاستمع رئيس الوزراء (بنرمان) إلى هذه النصيحة.

❑ وجمع خمسين مؤرخًا وطلب منهم دراسة هذا الموضوع وكان رأيهم أن الحضارة الغربية تنهار وأن الوارث لهذه الحضارة هو المجتمع الذي يعيش بين آسيا وأفريقيا وهو المجتمع العربي الإسلامي وكان البحث حول العوامل التي تمكن الغرب من تأخر هذه النكبة وكانت الإجابة: «إيجاد حاجز بشري من جنس آخر في المنطقة الفاصلة بين آسيا وأفريقيا» وجاء اليهود وقالوا: نحن هذا الحاجز.

كان هدفهم بهذا الحاجز تأخير النهضة الإسلامية وليس القضاء عليها فالنهضة الإسلامية لن تموت. وكانت خطتهم هي القضاء على الذاتية الإسلامية.

❑ وتكفلت حركة التغريب بهذه المهمة: وكيف استطاعت القوى الغربية أن تعزل هذه الأمة عن منهجها الأصيل. فالإسلام كما أذاعوا دين عبادة يعني أن المساجد مفتوحة أما عند الحديث عن الاقتصاد فيقال: هذا شيء عالمي لا علاقة له بالإسلام وعندما وقعنا تحت سيطرة الاستعمار حطم اقتصادنا الإسلامي وفرض علينا النظام الربوي. وحطم التعليم الإسلامي وأقام بدلاً منه المنهج الغربي العلماني وحطم النظام السياسي: وأقام بدلاً منه النظام الليبرالي، نحن لم تقدم لنا هذه المناهج لنختار منها، ولكنها فرضت علينا فرضًا وحجبت شخصيتنا الإسلامية.

❑ في مصر مثلاً كان (كرومر) قد بقي فيها خمسًا وعشرين سنة، والتجربة في العالم الإسلامي تبدأ من مصر، كرومر هذا قال: لن أخرج من

مصر إلا بعد أن أكون جيلاً مغربًا، وكانوا يسمونه (متفرنجًا) يقبل بنا ويعمل لنا، عقل أجنبي ويد مصرية، وظل كرومر حتى كون هذا الجيل، وكان التعليم هو الخنجر المسموم الذي طُعِنَ به المسلمون، والصحافة هي الخنجر الآخر، وقد بدأ استخدام خنجر التعليم عندما جاءت الإرساليات التبشيرية إلى لبنان بدأت تنشئ نظامين من التعليم: نظام فرنسي ونظام أمريكي. نظام تابع للكاثوليكية ونظام تابع للبروتستانتية، وبدءوا يدعون أولاد المسلمين في المنطقة كلها لدخول الجامعات والمدارس ومنهم بدأت القيادات في العالم الإسلامي كله، وقد نقلت هذه المناهج التي وضعها المبشرون في هذه المدارس بعد ذلك إلى المدارس الوطنية في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي المغرب، كان هناك دنلوب في المغرب وكان هناك دنلوب آخر في العراق وهكذا تمضي التجربة متكاملة.

❑ هذا التعليم هو الذي بدأ في إعداد التغريب والغزو الفكري الذي جاء بديلاً لعملية الغزو السياسي فهي حرب: الاستشراق هو المصنع ومجموعة المستشرقين جيب وماسنيون، كلها أسماد بدأت في أحضان الكنيسة وكانوا يبحثون عن الشبهات.

يأتون بالنص فيأخذون بالنص فيأخذون نصفه؛ لأنه ينفعهم ويتركون الباقي، والمستشرق دائمًا يبدأ برأي مسبق حتى يهدم فكرة معينة. فيحجب عن النصوص التي تحقق هذه الفكرة، والكتب الإسلامية مليئة بالمتناقضات؛ لأنها كتبت في عصور مختلفة والخير فيها قليل جدًّا والكثير كتب في عهود الباطنية والشعوبيين والفلاسفة، والتبشير مرتبط بالتعليم فهو المكان الذي يبيع ما يصنعه المستشرقون وقد بدأ المستشرقون بالبحث في الفكر الوثني القديم، سواء الفكر الغنوصي الشرقي أو الفكر الهندي أو الفارسي المجوسي بالإضافة إلى الفكر اليوناني وبدءوا يجمعون هذه الأشياء ويعيدونها مرة أخرى،

يأخذون الشبهات من كتاب العقد الفريد ويتركون ردوده التي دحضها بها، يأتي مثلاً ماسنيون فيعيش أربعين سنة ليجمع تراث الحلاج حتى يطرحوه مرة أخرى بما يهدم مفهوم التوحيد الخالص عند المسلمين ـ يأتون بعمر الخيام مثلاً ـ رجل له عدة قصائد إسلامية وفي مدح اللّه تبارك وتعالى فينسبون إليه الشعر الوثني الخاص بالخمر والموجود في الأدب الفارسي قبل الإسلام. يأتي (فيتز جيرالد) المستشرق الإنجليزي فيجمع هذه القصائد كلها ويطبعها وينسبها إلى عمر الخيام، وكلهم يعرفون أن عمر الخيام كان عالمًا فلكيًّا ضخمًا ولكنهم وضعوه في خانة تحسين الخمر وجمعوا لها كل أعلام الشعر ليترجموه إلى العربية: والصافي النجعي، الزهادي، أحمد.

﴿ ٢ ﴾

❑ يعيش الغرب بالنسبة للإسلام مؤامرة اسمها (مؤامرة الصمت) ذلك أننا نحن الذين قدمنا لهم المنهج التجريبي الذي بنى الحضارة الحديثة، وكانوا من قبل موغلون في الرهبانية، ومنهج اليونان التأملي الذي لم يعرف الاستقراء.

فالاستقراء هو عمل المسلمين. نحن الذين أنشأنا هذا المنهج من القرآن الكريم ﴿**قل هاتوا برهانكم**﴾ البرهان مبدأ التجربة والعالم كله كان يعيش قبل الإسلام على مفهوم نظري، ولكن الإسلام هو الذي نقل البشرية إلى المنهج التجريبي والعلم والحضارة. الرجل الأبيض يستعلي وينكر فضل المسلمين ويدعي أنه هو صانع الحضارة.

❑ إن موقفنا من الرجل الأبيض هو نفس موقفنا من المسيحية واليهودية موقف كريم. لا يهاجم ولا يدمر ولا يحطم، ونحن لا نستعمل نفس الأساليب التي يستعملونها. إنما نحن نكشف بوضوح لبني قومنا ولأهلنا عن حقيقة الأمور، عن تاريخنا ومنهجنا في الحياة. نحن أنشأنا حضارة كبرى ولنا

تراث وعندما نعرف حقيقة أنفسنا يزول الوهم الموجود في بعض النفوس بعظمة الرجل الأبيض، والغريب أن المناهج الدراسية في المدارس على طول العالم الإسلامي وعرضه لا تدرس بطولاتنا ولكنها تدرس نابليون وبسمارك. الطبيب عندنا في كلية الطب هل تعرف أن عبدالكريم الزهراوي كان يجري الجراحات في المخ منذ سبعمائة سنة. لا نعرف ولكن نظن أن جراحات المخ حديثة صنعها الغربيون. البنج كان اسمه المرقد عرفه المسلمون وكانوا يستعملونه.

هل يعرف الطبيب الشاب المسلم أن أجداده هم الذين وضعوا علم الطب الحديث ووصلوا فيه إلى هذا الحد. إلى سنوات قليلة كان كتاب الشفاء لابن سينا لا يزال يدرس في جامعات أوربا. هل يعرف أبناؤنا في كليات التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية أن ابن خلدون هو الذي وضع هذا المنهج مثلاً. هل يعرف أبناؤنا في الفلك وفي الجغرافيا أن ٨٠ في المائة من أسماء النجوم لا تزال عربية في قواميس الغربيين، وأن العرب هم الذين سموها هذه الأسماء. هل يعرف أبناؤنا أن أحمد بن ماجد هو الذي وضع أساس علم البحار وهو من أبناء الخليج.

كل هذا موجود وكل هذا من عملنا نحن، ولكن أبناءنا لا يعرفونه فلماذا يرتفع شأن الرجل الأبيض في نظر أبنائنا.

﴿٣﴾

❑ نحن منبهرون بالغرب. هذه قضية حقيقية، ولكن كيف بدأت. المؤكد أنها بدأت من التعليم والصحافة. التعليم هو الذي حجب أمجادنا وأظهر لنا أسماء الغرب، فالعلوم كلها مناهجها بدأت إسلامية وأبناؤنا لا يعرفون شيئًا عن الطابق الأول الذي قامت عله بناء الحضارة وقد ظهرت أصوات الآن كجارودي وغيره يعترف لنا بهذا الفضل، غير أننا بصفة عامة

موضوعين كتلاميذ للفكر الغربي في هذه المجالات فلا بد من تصحيح ذلك. وهذه الخطوة هي المنطلق الوحيد لكسر عملية الانبهار بالغرب وكسر التصور بأن الرجل الغربي أو الرجل الأبيض هو صانع الحضارة مطلوب أن يقدم لنا التعليم (مقدمات المناهج) لماذا لا تقدم الدراسات الجامعية والمدرسية أصول العلوم الحديثة والدور الذي قام به المسلمون والعرب ونحن نعترف بأن الغرب أخذ منا أمورًا بسيطة وزاد فيها وعليها لكنه أخذ الفكر وترك العقائد. أي أنه لم يأخذ منهجنا كاملاً. إنما أخذ العلوم وحركها في داخل دائرته: الدائرة الغربية التي تقوم على ثلاثة عناصر:

❑ الفكر اليوناني الوثني والقانون الروماني والمسيحية الغربية، وليست المسيحية المنزلة؛ ولذلك اتجهت الحضارة الغربية اتجاهًا آخر فلو أخذت بمفهوم الإسلام لاستمرت على الطريق الصحيح، ولكن الحضارة الغربية كما يقول جارودي فقدت البعد الإلهي، وهذا هو سر انحرافها الآن، لابد أن نكشف لأبنائنا هاتين الحقيقتين: حقيقة أن لنا دورًا أساسيًّا في هذه العلوم التي تدرس الآن في الجامعات، والثاني هو أن الغرب عندما أخذ حضارتنا أخذ العلوم وترك الثقافات.

❑ المسألة الثالثة: أنه في كل قضية يقال الفكر الغربي قال كذا والفكر الماركسي قال كذا ولكن أين الفكر الإسلامي، ألسنا بلاد المسلمين، لماذا تثار في بلادنا المناهج والمفاهيم الغربية والماركسية وتختفي الوجهة الأصلية: يجب على الأقل إن لم يكن الفكر الإسلامي هو السائد المسيطر في هذه المرحلة، أن يكون له صوت بجوار الأصوات ولا بد أن يكون الفكر الإسلامي هو الأصل، فالفكر الغربي فكر مادي والفكر الماركسي فكر اقتصادي ومنكر للّه تبارك وتعالى، أما الفكر الإسلامي ففكر متكامل رباني الوجهة واسع الأفق، مرن الأطر، قادر على الجمع بين الروح والمادة فلا بد أن تكون نظرته أصدق

وأمتن وأعمق.

❑ نريد أن نربي الثقة في شبابنا بالإيمان بهذه الأمة وبقيم هذه الأمة وبعظمة تاريخ هذه الأمة، إنهم يستهدفون تاريخنا وعقائدنا وتراثنا لنظل هكذا خاضعين للمثل الأعلى الغربية.

❑ الغزو الفكري عندما بدأ اصطنع أناسًا من بني جلدتنا ويتسمون بأسمائنا ليقوموا بهذا الدور وأخطر ما في ذلك عملية الابتعاث التي تسافر إلى الغرب، هذه البعثات محكمة الحلقات إلا ما عصم اللّه، مثل أساتذتنا الكبار الذين سافروا وكانوا على خلفية إسلامية قوية فلم يستطع الغرب أن يغربهم (عبدالعزيز جاويش ويحيى الدرويري ومالك بن نبي)، ولكن عندما يكون أبناؤنا في حالة ضعف إسلامي ويذهبون إلى الغرب، هناك يسهل التغرير بهم تحت اسم التقدم ومعطيات البريق، والأماني الواسعة، ومن ثم يصنعون جيلاً مغربًا في داخل بلادنا، هذه العملية تحتاج إلى وقفة ويجب أن يكشف عنها بصراحة وقوة؛ لأن الاستشراق اليوم اختفى وراء هؤلاء، إن بني جلدتنا اليوم هم الذين يحاربوننا، ولكنا نحن نعرف أنهم غلمان المستشرقين وتلاميذهم والمخطط أكبر منهم وهم أدوات فيه، هذا يدعونا إلى أن نتيقظ إلى ما يراد بنا ونواجه ذلك.

❑ لقد بدأنا نستيقظ ونعرف المؤامرة المحيطة بنا وربما كل ما نقوله الآن لم تكن الأجيال التي سبقتنا في الثلاثينات تعرف عنه شيئًا فمثلاً بعد قيام إسرائيل ظهرت حقائق كثيرة مخبأة، وأصبح مسموحًا بالحديث عنها، مخططات بروتوكولات صهيون مثلاً أول من كتب عنها بعد هزيمتنا في فلسطين، ولكن البروتوكولات وضعت ١٩٢٠ كان هناك تكتم شديد حتى لا يعرف العرب والمسلمون عنها شيئًا إلا بعد أن انتهت الغزوة الصهيونية إلى احتلال فلسطين، لقد اتضحت حقائق كثيرة، وعرف المسلمون الآن من أين

يضربون وهذه مقدمة للمرحلة التي نتطلع إليها لأننا نمر الآن بمرحلة إعداد المنهج الإسلامي وتقنين الشريعة الإسلامية بحيث تصبح لها صفة القانون بعد أن كانت مادة عامة في الكتب الإسلامية»[١] اهـ.

*** أنور الجندي يعيد تقييم الرجال وفق ميزان الإسلام:**

رحم اللَّه أنور الجندي البطل الفذّ فقد تصدى للمحافظة على الهوية الإسلامية في زمننا هذا وجيلنا هذا.. جيل المدارس المفرّغ من كل أصول ثقافة أمته، وانتصب لوصف هذا التدمير الذي يشترك في جريمته مثقفون كثيرون أو متعالمون في الأدب وفي الاجتماع وفي الفلسفة.. كل منهم ينفث السم ويفسد العقول ويمسخ في نفوس الناس كل قيم الإسلام.

يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «ومن ثم فإن (العودة إلى المنابع) هي صلب دعوة مدرسة الأصالة منذ أحمد بن حنبل حتى صاغها ابن تيمية وابن القيم في منهج أصيل، هذا المنهج لم يتوقف عن أن يحمله المجاهدون الأبرار جيلاً بعد جيل فلم يخل منه جيل»[٢].

لقد سقطت كل المسلمات الباطلة التي جاهد التغريبيون في طرحها في أفق الإسلام وعاشوا حياتهم يبثونها ويرددونها ويخدعون الناس بها، فقد تكشّف باطلهم وزيفهم وعرف المسلمون أنهم كانوا مضللين وأن هؤلاء القادة الرواد الشوامخ كانوا غاشين لأمتهم خادعين لها لا يقولون لها الحق ولا يدلونها على الخير»[٣].

---

(١) «المدرسة الإسلامية على طريق اللَّه ومنهج القرآن» لأنور الجندي (ص٢٥٦ ـ ٢٦٣) ـ دار الاعتصام.

(٢) «جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام» لأنور الجندي (ص٢٦) ـ دار الاعتصام.

(٣) المصدر السابق (ص٢٨).

❑ لقد كان لكل منهم مهمة في هدم هذه الأمة، نعم حمل أتباع التغريب وغلمان المستشرقين لواء تزييف الفكر في كل مجال من مجالاته، حيث سيطر لطفي السيد على الدعوى العامية، أو قاسم أمين لإخراج المرأة من بيتها، أم سعد زغلول لدعوة تعليم اللغة الإنجليزية على حساب العربية، أم طه حسين للدعوة للأدب الفرنسي، أم سلامة موسى للدعوة إلى دارون وفرويد وماركس، أم حسين فوزي للدعوة إلى الموسيقى الصاخبة أم لويس عوض للدعوة إلى الفرعونية أم ساطع الحصري للدعوة إلى القومية العربية أم علي عبدالرازق للدعوة إلى العلمانية.

وزكي نجيب محمود للمادية، وأنيس منصور للوجودية، وإحسان عبدالقدوس للجنس، ويوسف إدريس للماركسية، وتوفيق الحكيم للفكر التلمودي، وصلاح جاهين للعامية، وبهاء وكامل زهيري للمنتوجات الخادعة، والشرقاوي لتزييف تاريخ الإسلام، أم الدعوة إلى التصوف الفلسفي وإحياء الفرق الباطنية كصلاح عبدالصبور.

فكشف زيفهم الأستاذ أنور الجندي وعرّى خبثهم ووضعهم في مكانهم الصحيح حتى لا تُخدع بهم الأمة[1].

ومن هؤلاء وأبرزهم سعد زغلول وطه حسين.

*** هذا هو سعد زغلول، وهذا قدره:**

❑ قال الأستاذ أنور الجندي:

«دعوة صريحة إلى الكتاب المؤرخين:

انشروا مذكرات سعد زغلول المخطوطة لتكشفوا حقيقة هذه الشخصية الخادعة ولتضعوه في مكانه الصحيح من تاريخ مصر.

(١) انظر المصدر السابق (ص٢٧، ٢٨).

إن الحقائق تكشف عن دور سعد زغلول:

أولاً: تجميد اللغة العربية وإتاحة الفرصة للغة الإنجليزية بوزارة المعارف.

ثانيًا: بعث قانون كرومر للمطبوعات لمحاكمة الصحفيين والكتاب والوطنيين.

ثالثًا: التعاون مع الأجانب لإدخال الحضارة الغربية إلى مصر الإسلامية.

*** سعد زغلول:**

كان من أهم الأسئلة في ندوة الاعتصام ما قدمه عدد من الشبان استفساراً عن صحة ما نشر عن تاريخ سعد زغلول من فصول في إحدى الصحف اليومية ومدى تطابق هذا مع واقع التاريخ ومن خلال نظرة إسلامية صحيحة.

ولا ريب أن شخصية سعد زغلول هي واحدة من أكثر شخصيات العمل الوطني في مصر بعد الحرب العالمية الأولى، ولكنه لا يمكن دراستها، ألا يفهم الإطار السياسي الذي بدأ منذ أن احتلت بريطانيا مصر وواجهت الحركة الوطنية التي قاومت النفوذ الأجنبي بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد وعدد من المجاهدين الذين عملت القوة البريطانية على تصفيتهم وتقديم جيل جديد من أصحاب الولاء للنفوذ البريطاني وفي مقدمة هؤلاء أحمد لطفي السيد وسعد زغلول وعبدالعزيز فهمي.

هذه المرحلة السابقة لظهور هيئة الوفد المصري التي قادها سعد زغلول لها أهميتها في الكشف عن الدور الذي قام به سعد زغلول في معارضة الحركة الوطنية وكبح جماحها، وتقديم رجالها للمحاكمة كما فعل مع قديس

الوطنية محمد فريد إبان توليه منصب وزير الحقانية، وكذلك دور في تجميد اللغة العربية وهو وزير للمعارف وإتاحة الفرصة للغة الإنجليزية، وكذلك دوره في إعادة بعث قانون المطبوعات القديم الذي كان كرومر قد أجازه، ثم أوقفه وذلك لمحاكمة الكتاب والصحفيين الوطنيين والحكم بأقسى العقوبات، هذه الصفحة لسعد زغلول يجب أن تعرف قبل أن يقدم على المسرح كزعيم وطني بعد الحرب العالمية الأولى.

ولقد اختلفت حول سعد زغلول كتابات المؤرخين والباحثين، فوضعه كتاب الوفد وأصحاب الولاء لحزبه موضع القداسة (وفي مقدمة هؤلاء الأستاذ العقاد) وكشف عن حقيقته مؤرخو الحزب الوطني (وفي مقدمة هؤلاء الأستاذ عبدالرحمن الرافعي) وجاءت كتابات كثيرة بعد ذلك لتصنع سعد زغلول في حجمه الصحيح، وكان في مقدمة ذلك تلك الدعوة الصريحة الموجهة إلى المؤرخين والكتاب والباحثين أن ينشروا مذكرات سعد زغلول التي كتبها بخط يده فإنها هي وحدها القادرة على أن تقدم للناس بغير ولاء ولا خصومة حقائق هذه الشخصية ودورها وعملها وحقيقتها من خلال كتابات صاحب المذكرات نفسه، تلك التي كتبها بكل حريته وإرادته خلال فترة تزيد على ثلاثين عامًا من أكتوبر ١٨٩٧ إلى ١٩٢٦، وتضم مراحل عضوية الجمعية التشريعية أو توليه الوزارة وفترة المنفى وفترة رئاسة الوزارة وتضم ثلاثًا وخمسين كراسة فقد كان يسجل الأحداث يومًا بعد يوم عقب وقوعها مباشرة.

*** تكشف هذه المذكرات عن أشياء كثيرة أهمها:**

أولاً: علاقة سعد بالإنجليز:

❑ يقول عن اللورد كرومر: «كان يجلس معي الساعة والساعتين ويحدثني في مسائل شتى كي تنور منها في حياتي السياسية (مذكرات سعد

زغلول كراس ٢٨ ص١٥١٦) والمعروف أن كرومر في تقاريره السنوية كان حريصًا على أن يذكر أنه يعد جيلاً جديدًا من الشباب المصري المتفرنج الذي يعجب بالغرب ويحرص على التفاهم مع الاستعمار البريطاني وقبول العمل معهم.

❑ ومن هنا كان صلة كرومر بسعد زغلول عن طريق صهره (مصطفى فهمي) الذي كان أول رئيس وزراء بعد الاحتلال، والذي قضى في الحكم ثلاثة عشر عامًا، وكان أثير الإنجليز محبوبًا عندهم، وقد أصهر إليه سعد زغلول فأعد نفسه ليكون أول وزير مصري. ولعل من الحقائق العجيبة أن اللورد كرومر عام ١٩٠٧ أعلن أنه يترك مصر مستريحًا؛ لأنه أقام فعلاً القاعدة الأساسية لاستدامة الاحتلال وكان في هذا العام قد ألف حزب الأمة، وأصبح لطفي السيد هو حامل لواء (الجريدة) وسعد ناظرًا للمعارف، وقد سخر كرومر في خطبة الوداع التي أقامها له رجال حزب الأمة من أولياء النفوذ الأجنبي من المصريين جميعًا، ولم يمدح في خطابه إلا رجلاً واحدًا: هو سعد زغلول.

❑ ومن هنا نجد سعد زغلول يكتب في مذكراته أثر استعفاء كرومر من منصبه في ١٩٠٧/٤/١١ وكان يجلس معه كل من حسن باشا عاصم ومحمود شكري عندم تلقوا خبر الاستعفاء فقال: أما أنا فكنت كمن تقع ضربة شديدة على رأسه أو كمن وخز بآلة حادة فلم يشعر بألمها لشدة هولها (كراس ٦ص٢٤٠). وكتب في موضع آخر يقول: «قد امتلأ رأسي أوهامًا وقلبي خفقانًا وصدري ضيقًا» (كراس ٦/٢٤٦).

❑ ويقول لورد كرومر في تقريره السنوي عن تعيين سعد زغلول ناظرًا للمعارف «لم يكن السبب الرئيسي في تعيينه كما يظن أحيانًا أنه استثناء من الحالة التي كانت تسير عليها مصلحة المعارف العمومية فلا زالت قاصرة في

أن توفر أية بادرة لتغير جذري في السياسة التعليمية، إنه يرجع أساسًا إلى الرغبة في ضم رجل قادر ومصري مستنير من تلك الطائفة الخاصة من المجتمع المعنية بالإصلاح في مصر».

❑ وقال كرومر: «كما أن سعد من تلاميذ محمد عبده وأتباعه الذين أطلق عليهم (جيروند) الحركة الوطنية المصرية، والذي كان برنامجهم تشجيع التعاون مع الأجانب لادخال الحضارة الغربية إلى مصر، الأمل الذي جعل كرومر يحصر فيهم أمله الوحيد في قيام الوطنية المصرية.

وكان سعد في مقدمة الداعين لإقامة حفل لتوديع اللورد كرومر وكتب في مذكراته يعلن ضيقه بالذين انتقدوا كرومر عقب استعفائه وقال: إن صفاته قد اتفق الكل على كمالها (كراس٦/ ٢٤٥) وأشار إلى علاقة غورست خليفة كرومر به وأنه لما زاره قام فأوصله إلى باب حديقة دار الوكالة البريطانية.

ثانيًا: أخلاقيات سعد:

سعد زغلول زعيم مصر المقامر وكم ذا بمصر من المبكيات:

وتكشف المذكرات أخلاقيات سعد ومواقفه المتعددة من الحياة الاجتماعية: وأبرز هذه الجوانب علاقته بالقمار وقد كتب فيها طويلاً فقال في (كراس ٢٦ ـ ص٢٩٠) «كنت أتردد بعد عودتي من أوربا على الكلوب (أي نادي محمد علي) إلى لعب الورق، ويظهر أن هذا الميل كان بداية المرض فإني لم أقدر بعد ذلك أن أمنع نفسي من التردد على النادي ومن اللعب وبعد أن كان بقليل أصبح بكثير من النقود وخسرت فيه مبلغًا طائلاً.

وقد بدأ ذلك حوالي ١٩٠١ فقد كتب في أبريل ١٩١٣ يقول: كنت قبل ١٢ سنة أكره القمار وأحتقر المقامرين وأرى أن اللهو من سفه الأحلام واللاعبين من المجانين ثم رأيت نفسي لعبت وتهورت في اللعب وأتى عليّ زمان لم أشتغل إلا به ولم أفكر إلا فيه ولم أعمل إلا له ولم أعاشر إلا أهله

حتى خسرت فيه صحة وقوة ومالاً وثروة (مذكرات سعد ـ كراس ٣/ ١٢٩).

❑ وكتب خلال زيارته لأوربا صيف ١٩٠٨ (أفطر مع الست والباشا (أي مصطفى فهمي) وحسين (ابن محمود صدقي) في الساعة تسعة وبعد أن نتمشى مع الباشا قليلاً نعود إلى البيت لنلعب البوكر مع الست وحسين إلى الساعة ثمانية ونتمشى قليلاً، ثم لنلعب البوكر إلى الساعة ١١ مساء وقد أنفعل أثناء اللعب عند الخسارة وصادف أن الزهر كان يعاكس وكان زهر حسين سعيدًا ولكن مع ذلك كسبت ولم أخسر غير أن خسارتي كانت من طريقين: طريقي وطريق الست (كراس ١٣٠٠ ـ ١٣٠١ ص٢٤).

❑ ويتساءل سعد عن الأسباب التي دفعته إلى المقامرة فيكتب ما يلي:

أريد أن أعرف ما أريد حتى أتمكن من معالجة نفسي من هذا الداء، هل أريد بسطة في الرزق، إنه يقبضه في الكثير الغالب، هل أريد سعة الجاه، إنه يضيقه بما يخط من القدر في نفوس الناس هل أريد تناسي آلام تتردد على النفس عند خلوها من الشغل وهو كثير، لا أشعر بهذه الآلام، ويقول: ما كنت أصغي لنصائح زوجتي ولا أرق لتألمها من حالتي ولا أرعوي عن نفسي، وأشار إلى توباته المتعددة، وعودته عنها فيقول: وقد يخيل لي أن كتابة هذه الخواطر وتسجيل هذه الواردات مما يساعد على الاستمرار في ارتكاب هذا الإثم، كأن النفس تجسد في هذه الاعترافات المكتوبة والاشمئزازات المرسومة، فضيلة تكفها عن الإنصاف بها وعن الإقلاع عن نفس الرذيلة أو أن الاعتراف كفارة عن الذنب والجريمة المرتكبة ترجيحًا.

ويقول: إني أوصي كل من يعيش بعدي ممن لهم شأن في شأني أني إذا مت من غير أن أترك اللعب أن لا يحتفلوا بجنازتي ولا يحدوا علي ولا يجلسوا لقبول تعزية ولا يدفنوني بين أهلي وأقاربي وأصهاري، بل بعيدًا عنهم وأن ينشروا على الناس ما كتبته في اللعب حتى يروا حالة من تمكنت

في نفسه هذه الرذيلة وبئست العاقبة. الكراسة ٢٨ ص١٥٧١):

وتفيض مذكرات سعد زغلول بالتفاصيل المسهبة التي تبين مدى سيطرة هذه الغواية عليه ومحاولة الإقلاع عنها وللتخلص منها وعودته إليها المرة بعد المرة فقد وردت تفاصيل إضافية في الكراسات ٣ و٢٨ و٢٩ و٣٠ في اثني عشر موضعًا من هذه الكراسات.

وقد أشارت المذكرات بوضوح إلى أثر القمار في حياة سعد وخاصة حياته الاقتصادية كما يشير إلى ذلك الدكتور (عبدالخالق لاشين) فقد وقع سعد الذي اقتنى الضياع الواسعة تحت طائلة ديون كثيرة مما دفعه عام ١٩١٠ إلى أن يبيع الضيعة التي اشتراها بناحية قرطسا (بحيرة) لقاء اثني عشر ألف جنيه يقول: «بعت هذه الأطيان وذهب كل ثمنها أدراج الرياح فلم أستفد منه فائدة»، كما باع الضيعة الأخرى بدسونس ومطوبس عام ١٩١٨ بمبلغ ١٦ ألف جنيه وضاعت كل إيرادت سعد في مدة عامين وكانت ٢٠٠٠ جنيه مرتب الناظر (الوزير) و١٥٠٠ جنيه إيجارات باقي أطيانه وأصبح مدينًا بمبلغ ٦٥٥٠ جنيهًا وبذلك بدد سعد الكثير من ممتلكاته، يقول في مذكراته (٢٥ مارس ١٩١٢):

أصبحت منقبض الصدر، ضائق الذرع، ولم أنم ليلي بل بت طوله ساهرًا تساورني الهموم والأحزان وأتنفس الصعداء على فرط مني من اللعب وضياع الأموال التي جمعتها بكد العمل وعرق الجبين وسيرورتي إلى حال سيئة.

وهكذا أجهز القمار على ثروته التي كونها من المحاماة وكانت لا تقل عن ٤٠٠ فدان و١٨ ألف جنيه فضلاً عما ورثه من صهره مصطفى فهمي: الذي كان يملك ٦٤٨ فدانًا و٨٦٠٠ جنيه وألف أردب قمح وألفي جنيه مواشي وكانت صفية زغلول التي أطلق عليها أم المصريين واحدة من ثلاث

بنات خلفها مصطفى فهمي جلاد شعب مصر ثلاثة عشر عامًا.

❑ وبعد فهل هذا وحده ما تكشفه مذكرات سعد زغلول التي نطالب بطبعها وإذاعتها لترسم صورة حقيقية لهذه الزعامة التي اختلف فيها الرأي فرفعها بالهوى والصداقة والولاء السياسي إلى مكان آخر، وما نريد أن نظلم أحدًا ولكنا نطالب بالكشف عن الحقائق عن طريق الوثائق وما يمكن أن توجد وثيقة أشد صدقًا من مذكرات كتبها الرجل عن نفسه.

ومن خلال المذكرات سوف تتكشف أشياء كثيرة خطيرة ومثيرة[1].

*** سعد زغلول رأس المدرسة الحزبية في مصر:**

«ظل الناس وقتًا طويلاً يظنون أن سعد زغلول زعيم وطني، وذلك تحت تأثير التهريج السياسي. والأوهام التي صنعتها الصحف الحزبية وأيدها تجار الوطنية منذ عام ١٩٢٠ حتى اليوم. فلما انقسمت الحزبية وأخذت تتصارع وفقدت عند الناس مظهرها وأمطر الزعماء على بعضهم البعض وابلاً من الاتهامات تكشفت الحقائق.

كان الناس يظنون أن سعدًا قديس وقد كذبتهم حقائق التاريخ فسعد رأس المدرسة التي جاءت بعد ثورة ١٩١٩، هو الثمرة الأولى لحزب الأمة الذي صنعه اللورد كرومر عام ١٩٠٨ ليحارب بها الحركة الوطنية التي كانت ممثله إذ ذاك في جهاد الحزب الوطني مصطفى كامل ومحمد فريد وقد أعلن حزب الأمة منذ اليوم الأول أنه يقبل الالتقاء بالإنجليز في منتصف الطريق.

وليس صحيحًا ما يقال من أن سعد وشعراوي وعبدالعزيز فهمي هم الذين وضعوا بذور الثورة. فلم يكن من المعقول أن لقاء هؤلاء بالمندوب البريطاني هو العامل الرئيسي في اندلاع ثورة ضخمة جليلة الخطر كالثورة

(١) المصدر السابق (ص١٠٧ ـ ١١٢).

المصرية عام ١٩١٩ ولا تقوم الثورات نتيجة لمثل هذه المقابلات، وإنما تقوم نتيجة لتوجيه دائب طويل المدى بتغلغل في نفوس الأمة زمنًا طويلاً حتى يأتي اليوم الذي ينفثئ فيه هذا الشعور وينفجر بصرف النظر عن الأشخاص.

❑ وقد سمي ذلك اليوم المهين الذي قابل فيه الزعماء الثلاثة المندوب البريطاني بعيد الجهاد (١٣ نوفمبر ١٩١٨) ولو أننا قرأنا المضبطة الرسمية للحديث الذي دار في ذلك لخجلنا حتى من مجرد ذكره».

❑ في ذلك اليوم قال سعد للمندوب البريطاني هذه العبارات بالنص: «متى ساعدتنا إنجلترا على استقلالنا التام فإننا نعطيها ضمانة معقولة على عدم تمكن أين دولة من استقلالنا والمساس بمصلحة إنجلترا. فنعطيها ضمانًا في طريقها للهند. هي قناة السويس بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها على الاقتضاء. بل نحالفها ونقدم لها ما تستلزمه المحالفه من الجنود».

وفي حديث سعد ثلاث هنات: تسليم قناة السويس. وقبول الاحتلال. والموافقة على الدفاع المشترك.

وإذا كان ما قيل من أن كرومر خلال وجوده في مصر كان يهدف إلى إعداد مصريين ليحكموا مصر باسم بريطانيا فهذا يعني أن هذا الهدف قد تحقق إلى أبعد مدى في اختيار سعد زغلول.

ونستطيع أن نرجع إلى تاريخ سعد زغلول قبل ثورة ١٩١٩ وقبل الحرب العالمية الأولى فنراه واضحًا لا غموض فيه فقد عاصر حركة عرابي وهي أكبر حركة شعبية في عصره فلم يعرف له فيها دور واضح. وعندما قام مصطفى كامل بحركته وقف في صفوف حزب الأمة وحارب الحزب الوطني الفتي. وعندما صاهر مصطفى فهمي صديق الإنجليز الوحيد في مصر، والوزير الذي حكم مصر اثني عشر عامًا متوالية كان إنما يريد أن يؤهل نفسه لمناصب الوزراء.

❑ تولى مصطفى فهمي وزارة الاستسلام المطلق للإنجليز من نوفمبر ١٨٨٥ إلى نوفمبر ١٩٠٨ وفي خلال حكمه باع البواخر المصرية بأبخس الأثمان إلى شركة (ألن والدرسن) وعددها ١١ باخرة قدرت بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه ونصف مليون وقد باعها الوزير الشريف بمبلغ ١٥٠ ألف جنيه.

❑ وقال مصطفى فهمي: إننا مدينون لإنجلترا بثروتنا وسعادتنا وهنائنا.

وفي عهده وقعت اتفاقية السودان. وأنشئ حزب الأمة. واحتفل بوداع كرومر.

وقد عين مصطفى فهمي صهره سعد زغلول وزيراً فماذا فعل سعد زغلول؟ انسحب من لجنة مشروع الجامعة عقب هذا التعيين وكان نائبًا للرئيس وتبين أن انسحابه كان تحقيقًا لرغبة الاحتلال لكي يحبط المشروع. وقد أصاب المشروع الفتور فعلاً بعد أن تركه سعد.

❑ قال مصطفى كامل: كيف يهتم سعد المستشار بالاستئناف بمشروع علمي ثم ينسحب منه بعد أن يصبح وزيراً للمعارف.

واتجه سعد إلى إنشاء الكتاتيب بعد أن جمد مشروع الجامعة. وطلبت الجمعية العمومية جعل التعليم في المدارس الأميرية باللغة العربية فاعترض وزير المعارف على هذا الاقتراح وقال بالنص:

«إننا إذا فعلنا ذلك أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى».

وقد كانت صدمة زغلول أن رفضت الجمعية العمومية اقتراحاته وأقرت المشروع بالأغلبية العظمى ودافع سعد مع الأسف عن سياسه الاحتلال في التعليم.

❑ كتب مصطفى كامل يقول: إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل لماذا اختار لورد كرومر لوزارة المعارف صهر رئيس الوزارة الأمين على وحيه، الخادم لسياسته.

❑ وعندما احتفل بتوديع كرومر طعن المصريين ولم يعلن تقديره إلا لسعد وقالوا: إن سعد زغلول قاوم دنلوب وقيل في الرد على ذلك: أنه فعل ذلك ليكون أشد على مصر من دنلوب وأخلص منه لرغبات الإنجليز.

وإن كان سعد قد اصطدم بدنلوب ـ وهو ما لم يحدث ـ فإنما فعل ذلك لاعتداده بشخصيته وليس لمصلحة مصر. ولم يعرف عنه أنه اختلف معه في أمر من أمور الوطن.

وعندما قام فريد بالدعوة إلى المطالبة بالدستور وأجمعت الأمة عليه، صرح سعد زغلول بأن مصر لا تصلح للحكم النيابي.

وعندما عين وزيراً للعدل سن قانوناً بإحالة تهم الصحافة إلى محاكم الجنايات وفي عهده ١٩١١ حوكم محمد فريد بإيعاز منه وحكم عليه بالحبس ستة شهور كما حوكم عبدالعزيز جاويش. وأغلقت صحف الحزب الوطني واحدة بعد أخرى.

وقد اشترك في وزارات مصطفى فهمي وبطرس غالي ووافق على اتفاقية السودان.

❑ نفى الإنجليز جميع زعماء الحزب الوطني إلى الخارج واندلعت الحرب، وأعلنت الحماية على مصر، فكان سعد زغلول أول من استقبل مندوب الحماية وأدلى إلى «المقطم» الأغرّ! بحديث قال فيه: أنه استبشر خيراً بمقدمه.

وتولى سعد زعامة الأمة اعتباطًا»[1].

❑ سعد زغلول هو صاحب المطالبة بمد عقد امتياز شركة قناة السويس للقنال أربعين عامًا بعد موعد نهاية عقدها أي من ١٩٦٨ إلى عام ٢٠٠٨م

(١) المصدر السابق (ص١١٢ ـ ١١٦).

وذلك عندما وقف في الجمعية التشريعية يوم ٩ فبراير سنة ١٩١٠ يطالب بذلك وهو وزير في وزارة بطرس غالي باشا الذي كان يوافق سعد على ذلك واغتيل بطرس وقال التحقيق إن تأييد المشروع هو سر اغتياله. وفي ٤ أبريل ١٩١٠ عاود الوزير سعد تأييد المشروع ولكن أغلب النواب رفضوا المشروع، وخرجت مظاهرة من خمسة عشر ألفًا من المصريين طافت بشوارع القاهرة رافضة المشروع. ثم أصبح هذا الوزير زعيم مصر بعد ذلك.

❑ يقول جورج لويد في كتابه «مصر منذ عهد كرومر» يصور سعد زغلول «بفضل مجهود اللورد كرومر أُنشئ في مصر في أكتوبر ١٩٠٧ حزب جديد هو حزب الأمة وصحيفة الجريدة.

ثم أكثر أعضاء هذا بعثًا للأمل رجل أصبح اسمه فيما بعد أهم الأسماء في تاريخ مصر الحديثة. ذلك هو سعد زغلول».

تسلم سعد آمال الشعب في وقت خلا فيه عرين الأسد، والأسد هنا بالطبع هو قديس الوطنية والعروبة محمد فريد، تسلم هذه الآمال التي ربّاها مصطفى كامل ومحمد فريد وضحيا في سبيلها بحياتهما وما يملكان، وضعت هذه الآمال الغالية بين يديْ الرجل الذي كان خصم الحركة الوطنية وجلاّدها[1].

❑ سعد زغلول هذا هو الذي ذهب الطلاب إليه في باريس يعلنوه بأن محمد فريد مريض في برلين وفي حاجة إلى الدواء وطلبوا إليه من مال المصريين الذي أُرسل إليه ما يعين الزعيم البطل، رفض سعد بشدة وقال: أنه لا يعطي لمجنون[2].

---

(١) المصدر السابق (ص١١٨).

(٢) المصدر السابق (ص١٢٢).

❑ سعد زغلول هو القائل: «وددت لو أن أجعلها دولة زغلولية لحمًا ودمًا.. مبررًا بذلك تصرفاته في تعيين أهله وأقاربه، وبالرغم من أزهريته، تنكر للدين ودافع عن القوانين الأوروبية[1].

❑ سعد زغلول الذي فصل قضية السودان وجمّدها، ولم يلبث أن صرّح هذا التصريح الخطير «الإنجليز خصوم شرفاء معقولون»[2].

*** سعد زغلول واللغة العربية:**

لقد دافع سعد زغلول عن التعليم باللغة الإنجليزية وجعلها اللغة الأساسية على أن تصبح اللغة العربية لغة ثانوية.. دافع عن ذلك وهو وزير للمعارف.

وهبّت الجمعية العمومية في مارس ١٩٠٧ مطالبة بالدعوة إلى التعليم باللغة العربية، ودافع الشيخ علي يوسف وألقى خطابًا ضافيًا في هذا الموضوع أمام الجمعية العمومية، وكانت هذه هي وجهة نظر جميع الوطنيين الغيورين، غير أن سعد زغلول ناظر المعارف رد عليهم معارضًا إليهم وكان مما قاله:

إذا فرضنا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية فإننا نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى؛ لأنه لا يمكن الذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبريد والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة التابعة للحكومات والشركات والبنوك، وإذا قطعت النظر عن هذا كله صادفتنا صعوبة مادية هي قلة المعلمين الأكفاء الذين يمكنهم تعليم الفنون المختلفة باللغة الوليدة ويستحيل مع وجود هذه الصعوبة الشروع الآن في التعليم باللغة العربية وإذا كنتم مع ذلك توافقون على الاقتراح المقدم لكم عن (تعلم

(١) المصدر السابق (ص ١٢٠ ـ ١٢١).
(٢) المصدر السابق (ص١١٩).

العلوم باللغة العربية) كنتم كمن يحاول الصعود إلى السماء بغير سلم!» اهـ.

❑ هذا هي وجهة نظر زعيم الأمة في اللغة العربية فهو يرفض تعلمها ويصر على إيفاد اللغة الإنجليزية هي لغة التعليم في مختلف العلوم (ما عدا اللغة العربية نفسها) وقد رد الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد على افتراءات سعد زغلول فقال:

❑ إن ما فعلته نظارة المعارف من نسخ التعليم باللغة العربية وجعله باللغات الأجنبية لم يكن لحاجة البلاد وليس سببه إقبال الأمة على المدارس التي كانت تعلم باللغات الأجنبية كما تقول ناظر المعارف بل الأولى أن تعلن أن إقبالها على مثل مدارس الجزويت والفرير كان منشؤه ضعف التعليم من حيث هو في مدارس الحكومة، وقد قال ناظر المعارف: إن التعليم في مدارس الحكومة ضعف إلى حد أننا نلتجئ إلى إرسال أبنائنا إلى المدارس الأجنبية.

❑ هذا وقد وافق المجلس على التعليم باللغة العربية، غير أن ناظر المعارف وضع عبارة مآلها إنه لا يمكن تنفيذ المشروع الآن للصعوبات الموجودة ومتى زالت الصعوبات أمكن تنفيذه.

ومما يذكر أن أحمد حشمت عندما تولى وزارة المعارف جعل التعليم في أكثر المدارس باللغة العربية.

هذا وقد هاجمت كبريات الصحف الوطنية سعدًا واتجاهه ولم تدافع عنه إلا جريدة الأخبار لصاحبها يوسف الخازن التي كانت تسير في فلك الاستعمار تحت عنوان «اللغة العربية وسعد زغلول» في ١٠ مارس ١٩٠٧.

❑ ويقتضينا الموقف هنا أن نتحدث عن موقف سعد من دنلوب، فقد أثار العقاد وبعض أنصاره أنه عارض دنلوب، وكان يتجاهله وتلك أكذوبه لها طابع زائف، فكيف يمكن أن يعارض سعد دنلوب والذي هو وزير المعارف

الحقيقي وقد اختير سعد عن ولائه للإنجليز الذي هو مصدر الثقة فيه، وإذا كان سعد قد اتخذ موقفًا ما من دنلوب، فإن هذا من المسرحيات الاستعمارية التي تريد أن تعطي أول وزير مصري اختاره كرومر من تلاميذه صورة البطولة والوطنية الكاذبة، وهل من المعقول أنه جاء وزيراً على غير رغبة المستشار الإنجليزي وأصحاب السلطة الفعلية في البلاد[1] .

* **مواقف سعد:**

قال الأستاذ أنور الجندي:

«ونستطيع أن نلخص مواقف سعد على النحو التالي:

أولاً: موقفه من المعتمد البريطاني في مقابلة ١٣ نوفمبر وعبارته معروفة (متى ساعدتنا إنجلترا على استقلالنا التام فإننا نعطيها ضمانة معقولة على عدم تمكين أي دولة من استقلالنا والمساس بمصلحة إنجلترا، فنعطيها ضمانة في طريقها إلى الهند وهي قناة السويس ونجعل لها دون غيرها حق احتلالها عند الاقتضاء بل ونحالفها على غيرها ونقدم لها ما تستلزمه هذه المحالفة من الجنود.

وقال سعد: لا نلتجئ لسواك هنا ولا في الخارج إلا لرجال الدولة الإنجليزية.

ثانيًا: موقفه من اللغة العربية في التعليم وهي واضحة تمامًا حتى بعد أن صدر قرار الجمعية العمومية بالموافقة فقد وضع سعد زغلول العقبات دون تنفيذه، وقد هدد سعد المصريين في خطابه بقوله: أن عدم تعلمهم باللغة الإنجليزية سيحول بينهم وبين التوظف في الجمارك والبريد والمحاكم المختلطة وقد أغضب هذا التصريح الوطنيين وحمل عليه الشيخ عبدالعزيز جاويش

(١) المصدر السابق (ص١٢٤ ـ ١٢٧).

حملة قاسية تحت عنوان: (ظلموك يا سعد).

ثالثًا: موقفه من تجديد امتياز قناة السويس، وقد كان معروفًا أنه في صف الاستعمار وأن الأمة كلها خرجت تهاجم القرار وتأييد سعد له بل إن الجمعية العمومية رفضته أيضًا.

رابعًا: موقفه من زعيم الأمة محمد فريد، حين رفض معونته وهو في أزمة مرضية في برلين وكانت البلاد قد جمعت لسعد زغلول قبل سفره إلى أوربا بضعة ألوف من الجنيهات.

خامسًا: القائد الحقيقي لثورة ١٩١٩ هو عبدالرحمن فهمي وهي ثورة جاءت وليدة الحركة الوطنية التي قادها مصطفى كامل ومحمد فريد. وقامت بعد سفر سعد زغلول وقد دهش لها حين علم بها.

سادسًا: عين سعد زغلول وزيرًا للمعارف ثمنًا لموقف شقيقه (فتحي زغلول) الذي كان رئيسًا لمحكمة دنشواي، وما كاد يلي وزارة المعارف حتى استقال من عضوية لجنة إنشاء الجامعة الأهلية معتذرًا بأن أعماله ومشاغله تحول بينه وبين استمراره في عضوية اللجنة بينما كانت اللجنة هنا أدخل في عمله كوزير للتعليم منها في عمله كمستشار يفصل في قضايا الناس.

❑ وقد قال مصطفى كامل:

كان سعد زغلول أول وزير رحب المصريون بدخوله الوزارة وكان قد اختير رئيسًا للهيئة التي تألفت لإنشاء الجامعة المصرية الأهلية، وكان لورد كرومر يرى في إنشاء هذه الجامعة ما لا يتفق مع سياسته في أن الغرض من التعليم في مصر هو تخريج موظفين للحكومة لكنه لم يكن يستطيع التصريح بهذه المعارضة من غير أن يجد مسوغًا لتحويل التيار إلى ناحية أخرى لذلك بدأت أبواقه تذيع أن نشر التعليم الأولي بين فئات الشعب أجدى على البلاد

من إنشاء الجامعة وأخذت الحكومة تشجع إنشاء الكتاتيب فلما عين سعد وزيراً للمعارف قيل أن الغرض من تعيينه أن يترك رئاسة مجلس الجامعة إضعافًا لهذا المشروع.

❑ وقال عبدالرحمن الرافعي في كتابه «مصطفى كامل» (ص٤٠١): «وقد تبين أن انسحاب «سعد زغلول» من رئاسة اللجنة كان تحقيقًا لرغبة الاحتلال لكي يحبط المشروع وقد أصابه الركود فعلاً بعد انسحابه من اللجنة وخاصة لأن الحكومة خلقت في هذا الحين بإيعاز من الاحتلال حركة إنشاء الكتاتيب».

أما ما ذكره العقاد من أن سعد كان مع حركة اللغة العربية وإنشاء الجامعة فهو دفاع غير مؤيد بسند حقيقي.

سادسًا: انتماء سعد إلى الماسونية:

نشرت المصور (٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٧) تحت عنوان: «الأمة والحكومة تشيعان الفقيد العظيم»: أشارت إلى وفد البنائين الأحرار الماسون في تشييع جنازة الزعيم فقد كان ـ رحمه اللّه ـ قطبًا من أقطاب الماسونية وقالت جريدة المقطم: الجمعة ٢٦ أغسطس ١٩٢٧ في الصفحة الأولى ما يلي:

*** حداد الماسونية على فقيد البلاد الأعظم:**

فقدت الماسونية المصرية بفقد سعد العظيم الخالد عضواً كبيراً وفضلاً كثيرًا وزخرًا وفيراً كانت تعتز بفضله وستقام حفلة جناز ماسونية للفقيد الأعظم يعلن عن موعدها فيما بعد.

وقالت المقطم: إن درجة سعد زغلول في الماسونية ورواد صالون نازلي فاضل في التنظيم الماسوني يفسر لنا نوع الصداقة مع قاسم أمين ويوضح الخط الفكري الذي سار فيه رائد تحرير المرأة وإهدائه كتاب المرأة الجديدة إلى

سعد زغلول.

ونشر المحفل الأكبر الوطني المصري (المقطم ٢٥ أغسطس ١٩٢٧) بيانًا إلى الإخوان الماسون جاء فيه:

لقد ريعت البناية الحرة من الفاجعة الأليمة التي أصابت عشيرة البنائين الأحرار خاصة والأمة المصرية عامة بموت زعيم مصر وواحدها المرحوم المغفور له سعد باشا زغلول الأستاذ الأعظم الفخري إلخ إلخ..

❑ وأشارت المقطم إلى تاريخ سعد زغلول فقالت:

كان سعد زغلول من المتأثرين بتأثير الشيخ محمد عبده، وكان الشيخ أول من لفت نظر اللورد كرومر إليه، وقال: إنه يتفاءل بأن يكون من خير دعاة الإصلاح والتجديد المصريين، وأنه مستعد لأن يعمل مع إنجلترا ولما خطب اللورد كرومر خطبة الوداع في القاهرة ١٩٠٨ قال: «إن زغلول رجل نزيه مقتدر شجاع وأن مجال التقدم أمامه متسع وقد دافع زغلول باشا عن الاقتراح الذي اقترحته بريطانيا لإطالة مدة امتياز قناة السويس فلقي معارضة شديدة دبرها الخديو السابق غير أن زغلول أدى المهمة التي عهد إليه بها بشجاعة وبلاغة».

❑ وقالت المقطم في ١٨ مايو ١٩٢٤: تحت عنوان «أول دليل ماسوني»: شرع داود تغمياس أفندي من واضعي الدليل المصري الكبير بموافقة المحفل الأكبر الوطني المصري بإصدار دليل مفيد يجمع بين دفتيه كل ما يهم الإخوان الماسون وغيرهم معرفته مصدراً يرسم ذي الرئاستين الأخ الكلي الاحترام صاحب الدولة سعد باشا زغلول المهدى له الدليل بصفته الرئيس الفخري الأعظم علاوة على رسوم زعماء العشيرة.. إلخ»[1] اهـ.

(١) «جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام» لأنور الجندي (ص١٢٨ ـ ١٣١).

*** الأستاذ أنور الجندي يكشف زيف عميد التغريبيين طه حسين في كتبه «طه حسين: حياته وفكره في ميزان الإسلام» و«محاكمة فكر طه حسين» و(الوجه الآخر لطه حسين.. من مذكرات السيدة سوزان «معك»):**

ولو لم يكن لأنور الجندي من فضل إلا كشفه لزيف المسمى بعميد الأدب العربي (طه حسين) لكفاه. ولقد أحدث كتاب الشيخ أنور الجندي «طه حسين: حياته وفكره في ميزان الإسلام» دويًا عظيمًا في أرجاء الحياة الفكرية والأدبية المعاصرة، وهدم كثيراً من المسلمات التي ألحّ البعض عليها لتقديس طه حسين ووضعه في وضعٍ يستعصي على النقد والتقويم. وجاء كتاب الأستاذ أنور الجندي ليبدّد الهالة التي أحيط بها طه حسين منذ خمسين عامًا، ويكشف حقيقة الدور الذي قام به في مجال التغريب والغزو الثقافي ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾.

كشف هذا الكتاب عن رحلة طه حسين إلى أوربا وآثارها، وعنه في أحضان الاستشراق والتبعية للفكر الغربي وولائه للسياسة الغربية، وتكلم عن دورة في الجامعة وتكلم عنه حين كان وزيراً للمعارف، وتكلم عن طه حسين والأزهر، والصحافة والسياسة الحزبية، ودوره في المجمع والجامعة العربي وعن محاضراته والمؤتمرات التي شارك فيها.

❑ وفي الباب الثالث عرض لآراء طه حسين وصراعه مع أهل جيله، وتناقضه[1].

❑ وأتت مذكرات السيدة سوزان طه حسين عن حياتها مع زوجها طه حسين في مجلة «أكتوبر» المصرية فتحس «بذلك الجو الكنائسي المليء بالتراتيل والمزامير والقداس الذي أضفته السيدة سوزان على حياتهما الاجتماعية، وهذا

(١) «طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام» لأنور الجندي ـ دار الاعتصام.

الاحتفال المتصل بأعياد العنصرة وعيد القيامة، وكيف كان طه حسين يستمتع بهذه الأحفال. وهؤلاء الكردينالات والقسس والآباء الذين يملأون هذه الحياة. وذلك الاهتمام بأجراس حين سمى (كلود) الذي هو مؤنس[1] ديوانه باسمها.

وذلك الهتاف الذي سجلته السيدة لابنها حين يصبح يوم الأحد «يا صباح أحدي الجميل»[2].

❑ وتكلم الأستاذ أنور الجندي عما قالته السيدة سوزان عن زيارته لإيطاليا واشتراكه في مؤتمر المستشرقين ـ تقول: «كان المطران تيسيران ـ ولم يكن قد أصبح كارديناًلا بعد ـ يعرف طه حسين معرفة جيدة، فأخذه من ذراعه وقال له مبتسمًا: «لا تقلقي سوف أعيده إليك». وكان المطران تيسيران هو الذي قدّم طه إلى البابا بيوس الحادي عشر وكان بيوس الحادي عشر مستشرقًا وكان قد أراد استقبال مؤتمر المستشرقين وقد وجّه لطه كلمات في منتهى الرقة كما وجّه إلي أيضًا مثلها.

❑ وبعد الجلسة الأولى تنازل (نلينو) عن رئاسة القسم لطه، ونحن نعرف معنى هذا كله وتقدير هؤلاء جميعًا والكنيسة الكاثوليكية كلها لأفضال طه، ونعرف معنى أن يضعوه على رأس مؤتمر الاستشراق. نقول: «ولم يسبق أن حدث هذا الأمر إطلاقًا ونحن نعرف أن طه تميّز عن جميع الذين اصطنعهم الاستشراق[3].

❑ يقول الأستاذ أنور الجندي عن سوزان: «ظل بيتها سجنًا رهيبًا للغة الفرنسية فلم يكن أحد فيه يتكلم العربية حتى ابن عميد الأدب لم يعرف

---

(١) ابن طه حسين.

(٢) الوجه الآخر لطه حسين من مذكرات السيدة سوزان «معك» لأنور الجندي (ص٨ ـ ٩) ـ دار الاعتصام.

(٣) المصدر السابق (ص١٤).

العربية»[١] .

«وكانت تصور بإعجاب موقف طه حسين وهو يرثي كبار رجال الاستشراق باسم الجامعة المصرية، وكيف زار الجامعة العبرية بالقدس، وكيف وقف برلي بول دومير (مؤسس الكوليج دي فرانس) وما أدراك ما الكوليج دي فرانس إنه المهد الذي يخرج قادة التغريب في بلاد المسلمين»[٢] .

❑ وتتحدث عن شيء آخر جد خطير، فتقول عن طه حسين: «إنه هاجم القصر، لا لكي يدافع عن الحكومة، وإنما لأن القصر يريد الحدّ من حرية المعتقدات، فالأديان المعترف بها هي التي ستكون مسموحًا بها في مصر، والملحد لا يستطيع أن يعلن نفسه ملحداً فهل يسع الإنسان الذي دافع عن كل الحريات وفي المقام الأول حرية الضمير أن يبقى لا مباليًا!».

وتقول: «نعم فقد كان يريد طه أن يبقى الباب مفتوحًا لكل الأديان والنحل والمذاهب»[٣] .

❑ أما الكتاب الثالث: «محاكمة فكر طه حسين» فهو يشكف عن السموم والأخطار والمطروحات المضللة الخطيرة التي قدّمها خلال خمسين سنة في مجالات ثلاثة:

- مجال الأدب العربي واللغة العربية.
- ومجال تاريخ الإسلام والسيرة النبوية.
- ومجال الفكر الإسلامي وقضايا المجتمع وفي أكثر من أربعين قضية كبرى.. يقدم الأستاذ أنور الجندي الإجابات الصحيحة ويدحض الاتهامات

(١) المصدر السابق (ص١٥).
(٢) المصدر السابق (ص٢٤).
(٣) المصدر السابق (ص١٨ ـ ١٩).

الخطيرة ويرد على الأكاذيب التي ظل الدكتور طه يطرحها في سنوات عمره ويرددها. اتهامات محددة ما تزال تزخر بها كتبه التي تتوالى طبعاتها رد عليه فيها وفي نقضها أكثر من أربعين عالمًا على مدار خمسين عامًا جمعها الشيخ أنور الجندي في كتابه القيم «محاكمة فكر طه حسين».

*** الاتهامات المقدمة لفكر طه حسين أمام محكمة الرأي العام:**

أولاً: القول ببشرية القرآن وإنكار القراءات.

ثانيًا: التناقض بين نصوص الكتب الدينية وما وصل إليه العلم وقوله:

إن الدين لم ينزل من السماء، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها.

ثالثًا: إثارة الشبهات حول ما أسماه القرآن المكي والقرآن المدني، وهي نظرية أعلنها اليهودي: جولد زيهر.

رابعًا: تأييد القائلين بتحريق العرب الفاتحين لمكتبة الإسكندرية.

خامسًا: انتقاص صحابة رسول اللَّه ﷺ ووصفهم بأنهم من الساسة المحترفين.

سادسًا: هدم الفصحى من ناحية الإملاء ومن ناحية النحو ومن ناحية هدم البلاغة العربية.

سابعًا: الحملة على الإسلام من خلال الأزهر وإهانته والدعوة إلى إلغائه.

ثامنًا: الترويج للفكر الوثني اليوناني والادعاء كذبًا بأن المسلمين قبلوه وشكلوا عليه فكرهم.

تاسعًا: إشاعة الأسطورة في سيرة الرسول بعد أن نقّاها المفكرون المسلمون منها والتزيّد في هذه الإسرائيليات في كتابه «على هامش السيرة».

عاشرًا: تدمير بطولات العرب والإسلام وإعلاء بطولات اليونان والرومان.

حادي عشر: اعتماد المصادر المشبوهة: كالأغاني ورسائل إخوان الصفا.

ثاني عشر: إقرار مفاهيم كنسية حول الإسلام ووصفه بأنه دين التراتيل الوجدانية.

ثالث عشر: إحياء التراث الزائف: تراث الباطنية والشك الفلسفي.

رابع عشر: معارضة مادة الإسلام دين الدولة في الدستور المصري.

خامس عشر: الدعوة إلى الأدب المكشوف والإباحي بإحياء شعراء الغلمة وترجمه القصص المكشوف.

سادس عشر: الدعوة إلى الفرعونية والتركيز على إقليمية مصر.

سابع عشر: الدعوة إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط لحساب بعض القوى الأجنبية والادعاء بأن المصريين غريبو العقل والثقافة.

ثامن عشر: دعوى فصل الأدب عن الفكر الإسلامي واللغة عن الفكر الإسلامي والأدب العربي.

تاسع عشر: الدعوة إلى فصل الدين عن المجتمع والتربية.

عشرون: انتقاص الحكومة الإسلامية الأولى وخلافة الراشدين.

واحد وعشرون: اتهام القرن الثاني الهجري بأنه عصر شك ومجون في كتابه «حديث الأربعاء».

ثاني وعشرون: كسر قاعدة ترابط الأدب العربي والفكر الإسلامي

كمقدمة لدفع الأدب العربي إلى ساحة الإباحيات والشك وغيرها.

ثالث وعشرون: الدعوة إلى اقتباس الحضارة الغربية (حلوها ومرها وما يُحمد منها وما يُعاب) في كتابه «مستقبل الثقافة».

رابع وعشرون: الولاء للفكر الفرنسي ثم الفكر الأمريكي.

خامس وعشرون: محاولة إعطاء اليهود في الأدب العربي مكانة وهمية وغير حقيقية.

سادس وعشرون: إنكار شخصية عبداللّه بن سبأ اليهودي وتبرئته مما أورده الطبري ومؤرخو الإسلام من دور ضخم في فتنة مقتل عثمان «الفتنة الكبرى».

سابع وعشرون: إذاعة مذهب الشك الفلسفي والادعاء على ديكارت.

ثامن وعشرون: إفساد مناهج التربية والتعليم في وزارة التعليم والجامعات.

تاسع وعشرون: الادعاء بأن الشاعر العربي المتنبي (لقيط) هادمًا بطولته ومكانته.

ثلاثون: اتهامه الخطير لابن خلدون بالسذاجة والقصور وفساد المنهج وهو ما نقله عن أستاذه اليهودي «دور كايم».

إحدى وثلاثون: إنكار وجود سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل وإنكار رحلتهما إلى الجزيرة العربية وإعادة بناء الكعبة على نفس مفاهيم الصهيونية.

هذه أبرز الشبهات التي أوردتها كتب الدكتور طه حسين وكتاباته وقد واجهتها أقلام الكتاب في عصره مواجهة حاسمة وكشفت زيف هذه الادعاءات. ولم يرجع الدكتور طه حسين عن رأي واحد منها ولا تزال هذه السموم باقية ومؤلفاته وكتبه متداولة. ولقد هزم هذا الفكر الاستشراقي

التبشيري هزيمة منكرة وطه حسين ما يزال على قيد الحياة، ولقد وُوجه طه حسين بالرفض والمخاصمة والانتقاض في فكره، وحُرقت كتبه في بعض العواصم العربية، وأرسل إليه كثير من المفكرين بما يكشف عن زيفه وجاءت مؤتمرات تكريم ابن خلدون وكتابات تكريم المتنبي لتكشف فساد رأيه فيهما وزيفه وضلاله»[1].

*** للّه در الأستاذ أنور الجندي وما أعظم مؤلفاته:**

✍ جزى اللّه خيرًا هذا العملاق بما قدّم للمكتبة الإسلامية وبما ذب عن دينه:

خلاف ما قدمنا من كتب للشيخ أنور الجندي تأتي مجلداته العشرة القيمة «مقدمات العلوم والمناهج» تسد ثغرة كبيرة أعوز الناس سدها، وله «موسوعة العلوم الإسلامية» وله «كسر طوق الحصار عن الإسلام» و«الصحافة والأقلام المسمومة» و«المدرسة الإسلامية» و«اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب» و«جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام»، و«سلسلة في دائرة الضوء» منها «تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث» و«أخطاء الفلسفة المادية» و«تصحيح المفاهيم الإسلامية» و«مصححو المفاهيم: الغزالي. ابن تيمية. ابن حزم. ابن خلدون» و«سقوط نظرية دارون» و«تحديات في وجه المجتمع الإسلامي».

✍ رحمك اللّه أستاذنا الكبير فأنت قمة شامخة في جيلنا المعاصر.

*** الدين النصيحة:**

يُؤخذ على الأستاذ أنور الجندي ـ غفر اللّه له ـ مدحه ودفاعه وثناؤه على الأفغاني والشيخ محمد عبده.

---

(١) «محاكمة فكر طه حسين» لأنور الجندي (ص١٤ ـ ١٦) ـ دار الاعتصام.

*** علم السنّة وإمامها.. رمز الهوّية الإسلامية والسلفية.. شيخ المحدّثين.. مجدّد العصر.. ومحدّث ديار الشام.. فضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني:**

إن للّه رجالاً مؤمنين يحفظ اللّه بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، وهممهم عند الثريا بل أعلى، تحبُّهم بقاعُ الأرض، وتفرح بهم أملاكُ السماء.

❑ قال الشيخ ابن باز يومًا في الشيخ: «ما رأيت تحت أديم السماء عالمًا بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني»[1].

❑ وبعث إليه الشيخ محمد الغزالي في رسالة: «بسم اللّه الرحمن الرحيم.. الأخ الكريم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته، نذكركم على البعد؛ فنذكُر الرقابة الدقيقة على السُّنَّة المطهَّرة، والغيرة المحمودة على معالم الإسلام الحنيف، والجهاد العلمي الموصول في ميدان قلَّ فيه الرجال، واحتاج إلى أُولي النجدة والنضال. فجزاكم اللّه عن دينه خير الجزاء، وآنسكم في هجراتكم المتتابعة من قطر إلى قطر، وأنت خبير بأن أنصار اللّه في هذا العصر لا يستقرُّون على حال، وأنهم عُرضة للمتاعب الثِّقال..».

❑ وقال الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق شيخ علماء الكويت: «كان ناصر الدين ـ وما زال ـ كالمطر لا يُبالي على أي أرض سقط.. عالم من علماء المسلمين، وعَلَمٌ من أعلام الدعوة إلى اللّه، وشيخ المحدِّثين وإمامهم في العصر الراهن.. ألا وهو أُستاذي محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه اللّه

(١) «الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه» لمحمد بن إبراهيم الشيباني (ص٦٥ ـ ٦٦)، الدار السلفية بالكويت.

وبارك في عمره.

ناصر الدين الذي لا يكاد يجهله مسلم يهتم بأمر الدعوة إلى اللَّه في العصر الحاضر، ولا يستطيع أن يستغني عن مؤلَّفاته وتحقيقاته طالب علم معاصر؛ فمعظم الكتب العلمية التي يتداولها الناس الآن مصدَّرة بتحقيقاته وتخريجه لأحاديثها، وطُلاب العلم الذين نقلوا علمه، وتتلمذوا على يديه، وتربّوْا في حلقاته وصُحْبته، لا يُحصون كثرة، وهم منتشرون في العالم الإسلامي أجمع على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم.

وقد قام ناصر الدين بنشر العلم الشرعي بكل طاقته في كل اتجاه.

❑ ويرى الشيخ ناصر الدين أن المنهج السلفي لفهم الدين، هو المنهج الكفيل بعودة المسلمين إلى الدين الحق؛ عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاقًا. وناصر الدين لا يهمّه أن يحمل هذا المنهج السلفي أي أناس تسمَّوا بأي اسم، كلُّ هَمِّه أن يُفهم هذا الدين فهمًا صحيحًا، وأن يُطبَّق تطبيقًا سليمًا، وأن يكون سير الناس مبنيًّا على الكتاب والسنة الصحيحة. والشيخ ينهى عن التَّحَزُّب والعصبية بأي لونٍ وأي شكلٍ ويرى أن نهضة المسلمين منوطة بتعاونهم جميعًا، وتضافُر جهودهم، وتوجُّهها في كل اتجاه نحو بناء العقيدة أو تصحيح العمل أو مقارعة الباطل.

❑ وأخذ ناصر الدين نفسه بقول كلمة الحق حيثما قدر على ذلك، وقام بنقد الآراء الإسلامية التي يراها مُجانبة للصواب والحق وتصحيحها.. لا يُجامل في ذلك أحدًا حتى نفسه، ولا أخلص محبِّيه وأصدقائه وإخوانه، ولا أقرانه في العلم من العلماء السلفيِّين؛ فلا يسمع حديثًا يرى أنه ضعيف إلا بيَّن ضعفه عنده، ولا يسمع رأيًا مخالفًا للحق إلا كتب عنه، ونبَّه عليه؛ نُصْحًا للعامَّة، وتنبيهًا للخاصَّة.

❑ وقد أنشأ بذلك حركة عظيمة للوعي الديني وتحرِّي الحق فيما يُكتب

ويُقال، لا عند طائفة خاصّة فقط، بل عند عامة العلماء الذين يُؤخذ عنهم أو يتتلمذ الناس على أيديهم؛ ولهذا قدَّمت طائفة كبيرة منهم كتبهم له لنقدها وتصحيح أحاديثها، وبذلك استفاد من هذا المنهج عموم المسلمين، فقلَّ استخدام الحديث الضعيف، وعظُم تحري الناس للحق، وابتدأ الناس فَهْم الدين بطريقة علمية مبنية على الدليل والبرهان، بعد أن كان أخذ الدين وتلقِّيه سائرًا بطريق التقليد والعشوائية، وضمِّ الصحيح إلى الضعيف، والشرك إلى التوحيد، وجمْع الهدى مع الضلالة والبدعة مع السنة.

❑ ولكن هذا المنهج النقدي العلمي الذي أخذ الشيخ نفسه به، أوجد لناصر الدين مجموعات كبيرة من الحاسدين، فمُجرَّد أن يرى أحدُ المتعالين أنه نُقِد في رأي له، أو استدلال خاطئ؛ إذا به ينقلب على الشيخ تجريحًا. وهكذا وُجِد الذين يقدِّمون آراءهم على قول اللَّه وقول رسوله.

❑ ولا شك أن هذه هي سنة اللَّه فيمن يصدع بالحق، والعجب أن ناصر الدين لا يأبه لذلك، فقد لازمتُه ثلاث سنوات؛ فوجدتُ أن مدْح الناس له ومذمَّتهم عنده سواء!! إنه فقط يرى أنه حامل دعوة، وصاحب حق يريد إبلاغه.. ولا نُزكِّيه على اللَّه ونحسبُه في ذلك كلِّه مخلصًا دينه للَّه، واللَّه أعلم بالسرائر».

❑ وللَّه در شيخ حلب: الشيخ محمد نسيب الرفاعي ـ رحمه اللَّه ـ حين يقول عن دُرَّة السنة وتاج الأثر ـ الألباني ـ: «الشيخ ناصر: أنفاسه أنفاس رسول اللَّه ﷺ، وهو صاحب فضل عليَّ». وإذا قال له معترض أو متلجلج: إن الشيخ ناصر يُحَسِّن ـ أو يصحِّح ـ اليوم ما يكون ضعَّفه بالأمس، والعكس. فيُجيب ـ رحمه اللَّه ـ مُخرسًا له ـ: «هذا من مناقب الشيخ ناصر وحسناته». رحمك اللَّه يا شيخ نسيب، لقد كنتَ ـ والذي

أماتك وأحياك ـ وقَّافًا عند أدب النبوة، «ويعرف لعالِمنَا حقَّه»[1].

* للَّه در أم أوْحَدَتْ بناصر الدين الألباني:

❑ قال الشيخ محمد إبراهيم شقرة: لو أن شهادات أهل العصر في شيوخ السنة وأعلام الحديث والأثر اجتمعت، ثم وضعت على منضدة تاريخ العلماء؛ فإني أحسب أن تكون شهادة صادقة في عَلَم الحديث الأوحد، أستاذ العلماء، وشيخ الفقهاء، ورأس المجتهدين في هذا الزمان: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، أكرمه اللَّه في الدارين.

❑ كانت ساحةُ علم الحديث والسنة النبوية قد أجدبت، وصوَّح نَبْتُها، وجفَّت أغصانها واسَّاقطت أوراقها، وانقطع ثمرها، والناس من فوقها ينظرون يَمنةً ويَسرةً، علَّهم يرون فيها رجلاً يخلُف الأولين الغابرين، ممن أعلى اللَّه بهم منارة السنة النبوية، فتعود أبصارهم إليهم كليلةً حاسرةً، ليجدوا أمامهم ما خلَّف أولئك من كتبٍ مسطورة لمن وراءهم، أو لمن جاء من بعده، بذلوا فيها جهدًا ضخمًا في جمع الآثار والسنن والأحاديث، وترتيبها ترتيبًا حسنًا يُسهِّل على القارئ ـ العالم وطالب العلم ـ النظر إليها، والرجوع إليها عند الحاجة، على ما في بعض هذه الكتب من صعوبة في استخراج الآثار والأحاديث منها، وهذا أمرٌ لا يجهله طالب العلم، فضلاً عن العالم الباحث، والناظر المدقِّق.

❑ وكُتُب السُّنَّة، من صحاحٍ، وسنن، ومسانيد، وجوامع، ومصنَّفات، وأجزاء، على كثرتها وغزارة الجهد الذي بُذِل في تأليفها وتصنيفها وجمعها

---

(١) الشيخ محمد نسيب الرفاعي صفحة دعوية طُويت. لمحمد إبراهيم شقرة ـ مقال في مجلة الأصالة العدد الثالث (ص٢٨)، والمذكور قطعة من حديث حسن. رواه الحاكم وأحمد عن عبادة.

وتحقيقها، والاستدراك عليها، والزيادة على أصولها على مَرِّ العصور والأجيال ـ فقد ظلَّت بحاجة إلى تحقيقٍ دقيق، وإحاطةٍ أشمل وأوسع بأسانيد الآثار والسنن والأحاديث التي حُشِدت فيها؛ كي تصيرَ إلى حالٍ من الصحة، ويطمئن إليها الباحثُ وطالب العلم والعالم أكثر وأكثر.

❑ ولا ريب أن مثل هذا العمل ينوء بالعصبة أولي القوة والجلادة من أهل العلم، فأن يقيِّض اللَّه له رجلاً واحدًا، يجمع اللَّه به كل شاذَّةٍ وفاذَّة من فنون علم السنة؛ لنعمةٌ جليلة، ليس على الشيخ ناصر وحده، بل على الأمة كلها، فهنيئًا لأمَّةٍ أنبت اللَّه فيها هذا الشيخ الذي ألان اللَّه له الحديث كما ألان لداود الحديد، ومُهِّدت له أكناف السنة من جديد.

❑ ولعلَّ بعض من ابتُلي بشيءٍ من شهادات العصر من الجامعات والمعاهد، يردِّد مع القائلين قولهم: ما ترك السابقون للاحقين شيئًا، أو: ما ترك الأوَّلون للآخرين شيئًا.

قولوا ما شئتم، ولكن ماذا كان يُراد بهذا العلم العظيم ـ علم السنة ـ لو أنه ظل أمانة عند هؤلاء ـ وما أضيعها إذًا من أمانة ـ ولم يجد في عقل الشيخ ناصر وقلبه وقوة نفسه وثبات صبره واحتمال مثابرته ما وجد؟!

وكثيرٌ هم أولئك الذين يجعلون من الشيخ ـ أعزَّه اللَّه ـ غرضًا لسهام حسدهم وحقدهم، وتراهم يحومون حول مائدته حَوم المريب المفزع الذي يخشى أن يُبصر به من هو على شاكلته، يصنعون صنيع النفر من قريش، حين اتفقوا على أن يتفرَّقوا عن النبي ﷺ، وأن لا يُصغوا لقراءته من الليل، فلمَّا جنَّ الليل خرج كل منهم متسللاً، لائذًا بلباس الظلام، وهو يظن أن الآخرين لا يعرفونه.

❑ وحسبُ طالب العلم أن يُلِمَّ بأي كتاب من كتب الشيخ؛ ليرى رسوخ قدمه، وطول باعه، وسعة اطلاعه وكثرة استدراكه، ودِقَّة استقصائه،

وحُسن ترتيبه ونظمه، وتلاحُق حججه، وعُلو برهانه، وحضور ذهنه، وقوة عارضته، ونفاذ بصره، ووضوح بصيرته، وشدَّة تمكُّنه. ولكن كما يُقال: المعاصرة حرمان. غير أنها كلمة إن صَدقت في غير الشيخ، فهي قد نبت عنه ونأت، فأي حرمانٍ هذا الذي أراده إليه الشانئون الجاهلون، ومدرستُه قد امتدَّت أروقتُها حتى شملت آفاق الأرض، وصارت كتُبه في صَمتٍ مهيبٍ تحرِّرُ العقول من الخرافة والأساطير، والقلوب من الوهم والرَّيب، والنفوس من الغلِّ والكبرياء والحسد؛ في حكمةٍ بالغة، وبرهانٍ منير، وموعظةٍ تبلغ من النفوس مبلغًا يرفع عنها غشاوات الجهالة، ويردُّها إلى القرون الثلاثة المفضَّلة، ويشدُّها إلى وثاق الهدي النبوي الأمين.

ومن نظر في حياة الشيخ، وعرفه عن قرب؛ عَرف أنه من أولئك الأفذاذ. الذين قلما يجودُ الزمان بمثله[1].

* كلمة للشيخ مقبل بن هادي الوادعي:

❑ قال الشيخ مقبل عن الشيخ ناصر: «إن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه اللَّه تعالى ـ لا يُوجَد له نظير في علم الحديث، وقد نفع اللَّه بعلمه وكتبه أضعاف أضعاف ما يقوم به أُولئك المتحمِّسُون للإسلام على جهلٍ.. أصحاب الثورات والانقلابات.

❑ والذي أعتقده وأدين اللَّه به، أن الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ حفظه اللَّه ـ من المجدِّدين، الذين يصدُق عليهم قول الرسول ﷺ: «**إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها أمر دينها**». رواه أبو داود، وصحَّحه العراقي وغيره.

❑ ولا يستغني طالب علم في هذا الزمن عن الاستفادة من كتب الشيخ

(١) «الألباني حياته وآثاره» (٢/ ٥٤٩ ـ ٥٥٢).

الألباني ـ حفظه اللَّه ـ وإني أنصح كلَّ طالب علم باقتنائها والاستفادة منها، فقد جمع الشيخ ـ حفظه اللَّه ـ فيها ما لا يُستطاع الوقوف على كلِّه، وتيسَّر له الاطلاع على كتب لم يطَّلع عليها كثير من طلبة العلم»[1].

* إلى شانئي الشيخ غير المنصفين:

ألم يُعِد الشيخ ناصر إلى الأذهان حُجِّيَّة السُّنَّة وفقهها، ووجوب الرجوع إليها، بعد أن نُبذت دهورًا؟!

ألم يخدم السنة خدمة تفوق خدمة مجامع البحوث العلمية مجتمعة وجمهرة من العلماء لو اشتغلوا؟!

ألم يحقِّق عددًا من المخطوطات النافعة، التي تلزم الأمة في نهضتها، بل تلزمها أولاً في عقيدتها ودينها؟!

ألم يوفِّق جميع المسلمين لمعرفة أحاديث الأحكام خاصَّةً، ودرجة الوثوق بكل حديث، وكيف يمكن الاحتجاج به؛ وطريقة الاحتجاج؟!

ألم يذبَّ عن السنة بجمع الأحاديث الموضوعة والضعيفة في ثلاثة عشر مجلدًا؛ كي يتجنَّبها العلماء الذين لم يعترفوا به، وجُلُّهم ممن لا يُميِّز بين غثٍّ وسمين؟!!

ثم أليس للشيخ ناصر أنصاره وأتباعه في كل العالم الإسلامي؟ وهل يدَّعي طالب علم أنه يستغني عن كتبه إلا إن كان أحمق أو مغرورًا؟!

أليس الرجل يدعو إلى عقيدة السلف، ويشرح ويُفصِّل ما أجمله البنا ـ رحمه اللَّه ـ من أن دعوته سلفية.

ثم إن الرجل يقول: إن الجهاد فرض عين، وإن المسلمين كلهم آثمون. على خلاف ما يُشاع من أنه يحارب الفكر الجهادي.

(١) «الألباني حياته وآثاره» (٢/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦).

* سنن أحياها الألباني:

١ ـ صلاة العيد في المصلَّى خارج البلد، هي السنة.

٢ ـ خطبة الحاجة، التي كان رسول اللَّه ﷺ يعلِّمها أصحابه.

٣ ـ آداب الزفاف في السنة المطهرة.

٤ ـ أحكام الجنائز وبدعها.

٥ ـ صحيح الكَلِم الطَّيب، والتعبُّد بالأدعية، والأذكار الصحيحة فقط.

٦ ـ وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والردِّ على شُبَه المخالفين.

٧ ـ كيفية أداء الصلاة كما أدَّاها رسول اللَّه ﷺ.

٨ ـ سنة «السلام على النبي في التشهُّد»، وصيغ التشهد.

* الألباني ودعوته:

تُوضع دائمًا في كتب الشيخ ورسائله القواعد الخمس لدعوته:

١ ـ الرجوع إلى الكتاب الكريم والسنة الصحيحة، وفهمها على النهج الذي كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم.

٢ ـ تعريف المسلمين بدينهم الحق، ودعوتهم إلى العمل بتعاليمه وأحكامه، والتَّحلِّي بفضائله وآدابه التي تكفُل لهم رضوان اللَّه، وتحقِّق لهم السعادة والمجد.

٣ ـ تحذير المسلمين من الشرك على اختلاف مظاهره، ومن البدع والأفكار الدخيلة، أو الأحاديث المنكرة والموضوعة؛ التي شوهت جمال الإسلام وحالت دون تقدُّم المسلمين.

٤ ـ إحياء التفكير الإسلامي الحر في حدود القواعد الإسلامية، وإزالة الجمود الفكري الذي ران على عقول كثير من المسلمين، وأبعدهم عن منهل

الإسلام الصافي.

٥ ـ السعي نحو استئناف حياة إسلامية، وإنشاء مجتمع إسلامي، وتطبيق حكم اللَّه في الأرض.

*** الشيخ الألباني رائد التصفية والتربية؛ الطريق الرشيد لبناء الكيان الإسلامي:**

❑ يقول الشيخ الألباني: «أقول وأخصُّ به المسلمين الثقات، المتمثِّلين في الشباب الواعي، الذي عرف أولاً مأساة المسلمين، واهتمَّ ثانيًا بالبحث الصادق عن الخلاص وبكل ما أُوتيه من قوة.. بينما الملايين من المسلمين مسلمون بحكم الواقع الجغرافي أو في تذكرة النفوس[1] .. فهؤلاء لا أعنيهم بالحديث، أعود فأقول: إن الخلاص على أيدي هؤلاء الشباب يتمثَّل في أمرين لا ثالث لهما؛ التصفية والتربية.

التصفية: وأعني بالتصفية: تقديم الإسلام إلى الشباب المسلم مصفًّى من كل ما دخل فيه على مرِّ هذه القرون والسنين الطوال؛ من العقائد ومن الخرافات ومن البدع والضلالات، ومن ذلك ما دخل فيه من أحاديث غير صحيحة قد تكون موضوعة، فلا بد من تحقيق هذه التصفية؛ لأنه بغيرها لا مجال أبدًا لتحقيق أمنية هؤلاء المسلمين، الذين نعتبرهم من المصطفين المختارين في العالم الإسلامي الواسع.

❑ فالتصفية هذه إنما يُراد بها تقديم العلاج الذي هو الإسلام، الذي عالج ما يشبه هذه المشكلة، حينما كان العرب أذلاء وكانوا يُستعبدون من فارس والروم والحبشة من جهة، وكانوا يعبدون غير اللَّه تبارك وتعالى من

(١) الجنسية أبو البطاقة أو شهادة الميلاد.

جهة أخرى.

▣ نحن نخالف كل الجماعات الإسلامية في هذه القضية، ونرى أنه لا بد من البدء بالتصفية والتربية معًا، أما أن نبدأ بالأمور السياسية، والذين يشتغلون بالسياسة قد تكون عقائدهم خرابًا يبابًا، وقد يكون سلوكهم من الناحية الإسلامية بعيدًا عن الشريعة، والذين يشتغلون بتكتيل الناس وتجميعهم على كلمة «الإسلام» عامة، ليس لهم مفاهيم واضحة في أذهان هؤلاء المتكتِّلين حول أولئك الدعاة، ومن ثَمَّ ليس لهذا الإسلام أي أثر في منطلقهم في حياتهم، ولهذا تجد كثيرًا من هؤلاء وهؤلاء لا يحقِّقون الإسلام في ذوات أنفسهم، فيما يمكنُهم أن يطبِّقوه بكل سهولة. وفي الوقت نفسه يرفع هؤلاء أصواتهم بأنه لا حكم إلا للَّه، ولا بد أن يكون الحكم بما أنزل اللَّه؛ وهذه كلمة حقٍّ، ولكن فاقد الشيء لا يعطيه.

▣ العلة الأولى الكبرى: بُعْدهم عن فهْم الإسلام فهمًا صحيحًا، كيف لا وفي الدعاة اليوم من يعتبر السلفيين بأنهم يضيِّعون عمرهم في التوحيد، ويا سبحان اللَّه، ما أشد إغراق من يقول مثل هذا الكلام في الجهل؛ لأنه يتغافل ـ إن لم يكن غافلاً حقًّا ـ عن أن دعوة الأنبياء والرسل الكرام كانت ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. بل إن نوحًا عليه الصلاة والسلام أقام ألف سنة إلا خمسين عامًا، لا يصلح ولا يشرع، ولا يقيم سياسة، بل: يا قوم اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت.

هل كان هناك إصلاح؟ هل هناك تشريع؟! هل هناك سياسة؟ لا شيء، تعالوا يا قوم اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت، فهذا أول رسول ـ بنص الحديث الصحيح ـ أرسل إلى الأرض، استمرَّ في الدعوة ألف سنة إلا خمسين عامًا لا يدعو إلا إلى التوحيد، وهو شغل السلفيين الشاغل، فكيف يُسفُّ كثير من الدعاة الإسلاميين وينحطُّوا إلى درجة أن ينكروا ذلك على السلفيين.

التربية: والشطر الثاني من هذه الكلمة يعني أنه لا بد من تربية المسلمين اليوم، تربية على أساس ألا يُفتنوا كما فُتِن الذين من قبلهم بالدنيا. ويقول الرسول ﷺ: «**ما الفقرَ أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تُفتح عليكم زهرة الحياة الدنيا، فتهلككم كما أهلكت الذين من قبلكم**».

ولهذا نرى أنه قلَّ من ينتبه لهذا المرض فيربي الشباب، لا سيما الشباب الذين فتح اللَّه عليهم كنوز الأرض، وأغرقهم في خيراته ـ تبارك وتعالى ـ وفي بركات الأرض، قلَّما يُنبَّه إلى هذا. مرض يجب على المسلمين أن يتحصَّنوا منه، وأن لا يصل إلى قلوبهم «حب الدنيا وكراهة الموت»، إذًا فهذا مرض لا بد من معالجته، وتربية الناس على أن يَتخلصوا منه.

● الحل وارد في ختام حديث الرسول ﷺ: «**حتى ترجعوا إلى دينكم**». الحل يتمثَّل في العودة الصحيحة إلى الإسلام، الإسلام بالمفهوم الصحيح الذي كان عليه رسول اللَّه ﷺ وصحابته.

* قال تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ [محمد: ٧]، وهي التي أجمع المفسرون على أنَّ معنى نصر اللَّه: إنما هو بالعمل بأحكامه، فإذا كان نصر اللَّه لا يتحقق إلا بإقامة أحكامه، فكيف يمكننا أن ندخل في الجهاد عمليًّا ونحن لم ننصر اللَّه؛ عقيدتنا خراب يباب، وأخلاقنا تتماشى مع الفساد، لا بد إذًا قبل الشروع بالجهاد من تصحيح العقيدة وتربية النفس، وعلى محاربة كل غفلة أو تغافُل، وكلِّ خلافٍ أو تنازع؛ ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٦]، وحين نقضي على هذا التنازع وعلى هذه الغفلة، ونُحلُّ محلهما الصحوة والائتلاف والاتفاق؛ نتجه إلى تحقيق القوة المادية ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ [الأنفال: ٦٠].

أخلاق المسلمين في التربية خراب يباب، أخطاء قاتلة، ولا بد من

التصفية والتربية والعودة الصحيحة إلى الإسلام، وكم يعجبني في هذا المقام قول أحد الدعاة الإسلاميين ـ من غير السلفيين، ولكن أصحابه لا يعملون بهذا القول ـ: «أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم دولته في أرضكم».. إن أكثر الدعاة المسلمين يخطئون حين يغفلون مبدأنا هذا، وحين يقولون: إن الوقت ليس وقت التصفية والتربية، وإنما هو وقت التكتُّل والتجمُّع.. إذ كيف يتحقَّق التكتُّل والخلاف قائم في الأصول والفروع.. إنه الضعف والتخلُّف الذي استشرى في المسلمين.. ودواؤه الوحيد يتلخَّص فيما أسلفتُ في العودة السليمة إلى الإسلام الصحيح، أو في تطبيق منهجنا في التصفية والتربية، ولعلَّ في هذا القدر كفاية. والحمد للَّه رب العالمين»[1].

● **«إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة»**[2]:

هذا الحديث تصوير صحيح لواقعنا المر.. الذي نهدت فيه رغائب الأمة في شعاب التفرُّق والأهواء، واستطالت فيه آراء العقول من غير هدًى ولا كتاب منير، واعتسفت فيه مائدات السوء بالناس إلى سراب بِقيعَة، فصاروا إلى ضياعٍ في الحق، وإقلالٍ في الورع، وتكاثرٍ من الباطل، فأضحوا كما قال عليه الصلاة والسلام: «**كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة**».

❑ والشيخ الألباني ـ حفظه اللَّه ـ في زماننا هذا ـ راحلة علم عالية السَّنَام، تامّة الخلق، متماسكة البناء، تغدو إليها رواحل العلم خِفافًا خماصًا، وتروح عنها ثقالاً بطانًا؛ فقد أنعم اللَّه عليه بعلم أوثَقَه إلى القرون الأولى، وأقامه على جادتها، وأراه فيها من آيات العلم الكبرى، وما نيل من الشيخ إلا بسبب الحسد.

---

(١) «الألباني حياته وآثاره» (١/ ٣٧٧ ـ ٣٩١).

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر.

لم ير أشياخ العصر فسطاط علم الشيخ يمتدُّ كلَّ يوم، ويأوي إليه الألوف من المسلمين، الذين استنارت بصائرهم بنور الحق وهُدوا إلى سواء القصد، حين ألهموا أن ينهلوا من علم الشيخ في كتبه ورسائله وتسجيلاته من بعيد ومن قريب. في حين أن «المشايخ» و«الأشياخ» و«الشيخة» و«المشيوخاء» يُصرُّون على عداوته، والطعن عليه، وتجريحه، والقول فيه ما لم يقله أهل الجاهلية الأولى! وإنها ـ واللَّه ـ الفتنة؛ فتنة النفس الأمارة، القرَّارة، الجرَّارة، البوّارة، الموَّارة!!

إنها أمشاج العلم تتهارش في ردخة خلائف التعصب من بعد المنارات التي علت في سماء القرون وضوأت آفاق الحياة، وأقبلت إليها ركائب طلاب المعرفة من كل الأقطار، تنهل من معينها الثر الصافي.

نسأل المشيوخاء والدكاتير: هل أحسنوا صنعًا في أنفسهم حين هاجت هائجتهم، وخرخرت أصواتهم، وتسعرت لهواتهم، ورقصت قلوبهم، وكتبوا في الصحف التي لا تزيد أعلاها أن تكون أقل من «خضراء الدمن» تحمل لواء الولاء لكل صاحب بلاء كحاطب الليلة الظلماء.

نسأل كل من تدثر بخيالات الأطفال السذج، بسوء أدب، وكزوزة وجه، وبلادة حس، وقماءة رجولة، وركاكة دين، وفهاهة لسان، وخيلاء مجانين، وكبرياء صاغرين، وحقارة حاسدين: ما تنقمون على من يضع على منكبيه رداء علوم السنة، فيكون الإمام المقدم في عصر أجدبت فيه الأرض من مثله وأبت ـ حتى على نفسها بإذن ربها ـ أن يكون له ند إلا نفسه؟! فما رأت عيون المنصفين في عصره مثله، وإن كره الشانئون، وخارت أصواتهم، وبرمت بهم نفوسهم، من غل أثقلها ومن حسدٍ أقعدها، ومن روغانٍ عن الحق أبعدها.

لقد أعاد حفظه اللَّه عيبة العلم ملأى بصدق رغبته، وجلادة نفسه،

وثقوب بصره، وطول معاناته، وعزمه أن تعود سنة الرسول ﷺ إلى الظهور من جديد في الأمة؛ لتكون موئل العلماء وطلاب العلم، ومربد العقول، ومزدحم العزائم، ودارة الحق والهدى.

لقد ـ واللَّه ـ أذكر علم الشيخ بعلم السابقين، ولو كان في زمانهم لعرفوا له قدره.

ويكفي الشيخ نصرة من ربه، أن نصبه لنشر راية سنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وكسر شوكة البدعة، والكشف عن زيوف دهاقنة العجم، وفضح خروج المعتزلة، والإبانة عن عورات أنصار العقائد الفاسدة، وجهالات سمان الإفك والضلالة.

ويكفي الشيخ نُصرة من ربه، أنه إذا ذكر الكتاب والسنة؛ فقد أعلى اللَّه في الأرض ذكره، وصيّره أمينًا حافظًا لأسانيد الأخبار ومتون السنن، ومكّنه من فقهها ما لم يمكن إلا للقلائل في عصره، وآتاه من علومها ما لم يؤتِ أحدًا.

*** إمام العصر.. شيخ الفقهاء.. إمام أهل السنة.. الذاب عن عقيدة السلف فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه اللَّه ـ:**

لله در الدكتور الزهراني وهو يشدو ببازيته في بعض فضائل سيدنا الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ:

يا من رأى مثله أو من يضارعه ... فليأت بين الملا يزري بأقوالي

يا رائد العلم في هذا الزمان ويا ... مجدد العصر في علم وأعمال

وحاتم في عطاياه وجودته ... في بحركم لا يساوي عشر مثقال

في الجود مدرسة، في البذل مملكة ... في العلم نابغة، أستاذ أجيال

الحق مذهبه، والنصح يعجبه ... والذكر يطربه يحيا به سالي
العلم مؤنسه، واللّه يحرسه ... ما كان مجلسه للقيل والقال
بالنص فتواه، بالرفق ممشاه ... من فيض تقواه مخشوشن الحال
لم ينتقص أحداً، لم يمتلئ حسداً ... لم يفتتن أبداً بالمنصب العالي
العين دامعة، والكف ضارعة ... والنفس خاشعة من خشية الوالي
المال ينفقه، والوعد يصدقه ... والشهد منطقه مستعذب حال
يا درة العصر يا بحر العلوم فما ... رأت لك العين من ند وأمثال
حقًا فقد عرف التاريخ كوكبة ... مضيئة من صناديد وأبطال
مثل ابن حنبل أو مثل ابن تيمية ... أو البخاري في إسناده العالي
لكننا يا حبيب القلب نبصرهم ... كأنما مثلوا في شخصك الغالي
يا مشرق الوجه عيني حين تبصركم ... أحب من خير أصناف العطايا لي
وقد ألام على هذا الثناء وقد ... يقول بعض أناس مسرف غال
يا لائمي لا تلمني لم سماحته ... سبا فؤادي واستولى على بالي
دعني أتيه على الدنيا برائعة ... بازية الوجه زهرانية الشال
دعني فقد فتنت نفسي بروعته ... وحبه رغم حساد وعذال
باز تصيد قلبي ثم طار به ... إلى سماء الهوى فلترحموا حالي
بئس البيان الذي لم يكتس حللاً ... من مدح شيخ عظيم القدر مفضال
لو ناب أمر معاذ اللّه أو خطر ... أفدي سماحته بالنفس والمال
لو أن لي حيلة أهديته مقلي ... فليس شيء على شيخ الهدى غالي
لكن عينيه في الميزان راجحة ... تزري بمليون من أبصار أمثالي
لم تبصر العين لكن الفؤاد يرى ... بنور خالقه من بعد أميال

أنت الكفيف ولكن أبصرت أمم ... بفيض علم نقي منك سلسال
رفعت للعلم أبراجًا مشيدة ... تجلو صداه وتحيي رسمه البالي
كم قلعة للهدى والعلم شامخة ... يطل منها سناكم خير إطلال
مرت ثمانون عامًا كلها عمل ... ودعوة في شموخ دون إدلال
وأنت لا زلت تمضي دونما ملل ... في همة تبلغ الجوزا وإقبال
يا رائدًا في ركاب النور متقدًا ... تطيب فيه تراتيلي وأقوالي
سر بارك اللّه في علم وفي عمل ... واللّه يرعاك في حل وترحال
قم يا إمام الهدى حي القلوب بما ... آتاك مولاك من علم وأفضال
قم يا ربيب التقى عطر مسامعنا ... فالكل في قربكم مستأنس سال
قم وازرع الهمة العلياء في أمم ... غاصت بأقدامها في عمق أوحال
وناد في أمة الإسلام إن لها ... مجدًا تليدًا مضى في دهرها الخالي[1]

❑ وهذه أزاهير من بستان شيخنا ابن باز من كتاب الدكتور ناصر الزهراني في ترجمة الشيخ ابن باز المسماة «إمام العصر»:

أما عن سعة علمه وقوة حافظته فحدث عن ذلك ولا حرج، فهو العجب العجاب، وهبة الوهاب، كنت أقرأ على سماحته في درس العصر أو العشاء، فأخطئ في كلمة أو أخرم لفظة من الحديث فيوقفني الشيخ - ويقول: أعد. فإن أعدت الكلام تامًا صحيحًا سكت، وإن أعدته مع الخطأ بين لي الصواب، ولقد جلست إليه مع عدد من أهل العلم والمعرفة بالفقه والحديث، فيورد أحدهم أسئلة شائكة ومسائل دقيقة، أو يسأل عن صحة حديث أو متنه أو سنده فإذا بالجواب حاضرٌ كأنما يقرأه الشيخ من كتاب.

(١) من قصيدة بازية الدهر من كتاب إمام العصر الإمام العلاّمة عبدالعزيز بن عبداللّه بن باز للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني (ص١٩٥ - ١٩٦) - مؤسسة الجريسي.

وعلمك كان متصلاً عميمًا ... تلذ له القلوب وتستفيد
تتابعت المواكب في اشتياق ... لمنهله، وطاب لها الورود
وأينعت الأطايب في عبير ... له الريحان أورق والورود
وأيسرت النفوس على ثراء ... هو الورقان.. والدر النضيد
ورفرفت السعادة في ابتهاج ... فمن عرف الإله هو السعيد
كذاك العلم إن خلصت قلوب ... لغايته، وجانبها كنود
ووليت القضاء فما استرابت ... خصوم فيك، أو ريبت شهود
ولم يعدم أخو حق نصيرًا ... ولم يظفر بباطله مريد
تقيم العدل والقسطاس فيهم ... وتردع من يجور ومن يكيد
وتفتح للمودة كل باب ... فيعدل عن خصومته اللدود
والفتيا أنرت بكل درب ... سراجًا، فهو من حكم وقيد
فكم من حائر أرشدت حتى ... أرحت وكان جانبَه الرقود
وكم من جاهل علمت حتى ... تعلم ما يضر ما يفيد
وكم من سائل بَصَّرت حتى ... تبينت الضوابط والقيود
كذلك كنت في الفتيا بيانًا ... دليلك - كلما سألوا - عتيد
وأحببناك إذ تدعو وتحنو ... وسعي حفاتنا فينا وتيد
عفيفًا في المقالة ذا جنان ... رءوفٍ ليس يرهقه الحسود
عفيفًا في الحوائج ذا معاش ... خفيفٍ ليس يثقله الرغيد
بصيرًا والبصيرة قد تُهدِّي ... ويعمى في الضحى البصر الحديد[1]

(١) للدكتور سعد الغامدي.

❑ يقول أحد تلاميذه وهو الدكتور أحمد الكبيسي: «كان يوم وداعه للجامعة بعد أن أسندت إليه رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، كان وداعًا مشهودًا، حزنًا وأسى، بكاء ونحيبًا، بكاء كبكاء الثكلى، ونحيبًا كنحيب اليتامى، حيث فقدوا من يحنو عليهم كحنو الآباء على أبنائهم، فبيته كان بيتًا لمن لا بيت له، ومأوى لمن لا مأوى له، يسعى في حل مشاكلهم، ويبذل وقته في توجيههم ونصحهم، ويفتح صدره وقلبه لاستقبالهم ومشاركته لهم في همومهم، وما ينزل بهم، فكانت الجامعة في عهده البيت الواسع، والمأوى والحب لعربيهم وعجميهم، أبيضهم وأسودهم، فالكل يلهج بابن باز، فقد أحبته القلوب، وتعلقت به النفوس وقد ربى أجيالاً وخرج أفواجًا من طلبة العلم، عمرت بهم المعمورة، وانتشروا في بقاع الأرض، ينشرون دين اللَّه عقيدة وشريعة، وكان لهم بعد ذلك معينًا وناصرًا وداعمًا ومؤيدًا، مما جعله يتبوأ هذه المنزلة الغالية في بلاد المسلمين، ويكسبه هذه الشهرة المنقطعة النظير في زماننا المعاصر».

❑ يقول أحد تلاميذ الشيخ ـ الشيخ فهد البكران ـ في مجلة الدعوة العدد (١٦٩٣): «قدم مندوب أحد المؤسسات الإلكترونية وبرفقتهم جهاز حاسب آلي شخصي وقد تم تخزين كتب الحديث داخل هذا الجهاز، وأرادوا من سماحته الاطلاع عليه والاستئناس برأيه قبل نزوله للأسواق فقال سماحته: فلنختبر جهازكم، واختار سماحته ـ رحمه اللَّه ـ أحد الأحاديث كعينة عشوائية لاختبار قدرة هذا الجهاز العجيب فقام المسئول عن تشغيل الجهاز بإدخال مفردات هذا الحديث للبحث عنه وتخريجه إلا أن الجهاز لم يستطع الوصول إلى المطلوب، وإن كان قد وصل لبعض الأحاديث التي تعطي نفس المعنى، فقال سماحته: «إذن ابحثوا عن راوي الحديث، فتم إدخال البيانات المعطاة باسم الراوي للبحث عن الحديث، ولكن لا نتيجة.

❑ فقال سماحته ـ رحمه اللَّه ـ: إن ابن حجر لم يخطئ فعليكم البحث مرة أخرى، وبعد بحث ومحاولات استغرقت أكثر من ١٥ دقيقة بعدها توصل الإخوة مشغلو الجهاز إلى الحديث المطلوب وبالراوي نفسه حيث تبين أن خطأ في إدخال بيانات الراوي وتصحيفًا تعرض له اسمه جعل من الصعوبة الوصول إلى المطلوب».

وقصصه ـ رحمه اللَّه ـ في هذا الميدان أعجب من العجب، وأشبه بالخيال، يقول الشيخ عطية محمد سالم في مقاله المدرج ضمن هذا الكتاب: «وذات مرة حصلت قضية من الشيخ أدهشت كل الحاضرين لإحدى المحاضرات الاجتماعية في الجامعة والتي حضرها سماحته وجاء المحاضر ليلقي محاضرته ومعه سبورة وكتب عليها اسم المحاضرة والنقاط الخاصة بها والجزئيات المتعددة لهذه النقاط، ثم أخذ يشرحها مفصلة بجزئياتها في ساعة ونصف وبعد المحاضرة طلب من الشيخ ابن باز أن يعلق عليها فذكر سماحته نقاط المحاضرة الست وجزئياتها وعلق على كل نقطة بالتفصيل، ولم يترك شيئًا منها وهي كما ذكرت لك محاضرة اجتماعية وليست فقهية. واندهش الجميع من ذاكرة سماحته القوية وذكائه في استيعاب المحاضرة فلو أننا كنا موجودين لما استطعنا أن نعلق على أي نقطة دون النظر إلى السبورة وتذكر النقاط».

❑ ولعله من المناسب هنا أن نضيف كلامًا لأحد تلاميذ الشيخ وهو الدكتور عبداللَّه المجلي عن ناحية من نواحي العلم عند سماحته، وهي الفتوى ومنهجه فيها يقول: «الحديث عن موضوع الفتوى يتم عن طريق محاور كثيرة منها:

الأول: أن الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ يفتي الناس في كل وقت في بيته ومسجده وطريقه ومكتبه، فليس له وقت خاص بالفتوى.

الثاني: أن الشيخ يفتي عبر كل وسيلة: يفتي كتابة، ويفتي مشافهة، ويفتي عبر الصحف والمجلات وعبر الإذاعة، وكان من آخر ما وافق عليه الصحف والمجلات وعبر الإذاعة، وكان من آخر ما وافق عليه ارتباطه بالناس بواسطة الإنترنت ـ رحمه اللَّه ـ والبقية موزعة على أصحاب الفضيلة الآخرين المفتين فيه.

الثالث: أن الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ يفتي في جميع مجالات الحياة وفروع العلم الشرعي المتنوعة في العبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك وغير ذلك.

الرابع: تتميز فتوى الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بالإيجاز غير المخل وسهولة عبارتها ودقتها.

الخامس: لا تخلو فتوى من فتاويه ـ رحمه اللَّه ـ من الدليل الشرعي من الكتاب والسنة وقلما يتطرق إلى خلاف العلماء وبخاصة في الفتاوى الموجهة للعامة.

السادس: قد جعل اللَّه تعالى لفتاوى سماحته القبول عند الناس كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وجاهلهم في داخل المملكة وخارجها.

ولذلك تسمع دائمًا سؤال الناس عن رأي الشيخ ابن باز في هذه المسألة أو تلك، وإذا ذكرت لأحد ـ إلا ما ندر جدًّا ـ فتوى للشيخ أو قول أو رأي لا يتردد في القبول به والتسليم.

فقوله معتمد ورأيه مقدم وفتواه مقبولة دون مراجعة، وهذا من فضل اللَّه وحده عليه ومن نعمه عليه والأسباب في ذلك ظاهرة جلية».

❑ ويقول الشيخ عايض بن فدغوش الحارثي: «إن الشيخ ابن باز ـ رحمة اللَّه عليه ـ على منهج السلف الصالح ـ كما هو معروف ـ لا يفتي إلا

بدليل من الكتاب والسنة أو الإجماع أو أقوال الصحابة أو القياس، ونحو ذلك من الأدلة الشرعية، وإذا لم يعلم قال: لا أدري، اللَّه أعلم، أو قال: سأبحث المسألة، وهو مجتهد في المذهب الحنبلي، ولكنه يتبع الدليل ويرجع إلى الحق، ولا يتمسك بالمشهور في المذهب الحنبلي إذا رأى أنه قول مرجوح، وظهر له الدليل مع رأي آخر في المذهب أو غيره.

وهو أيضًا ليس نسخة من شيخ الإسلام ابن تيمية، ولا من شيخه سماحة الشيخ ابن إبراهيم رحمة اللَّه على الجميع.

١ ـ فهو يرى أن لمس المرأة لا ينقض الوضوء مطلقًا سواء كان بشهوة أو بغير شهوة؛ لأن النبي ﷺ قبل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ، خلافًا للمشهور في المذهب.

٢ ـ وهو يرى أنه إذا جاء المسبوق، والناس في التشهد الأخير فإنه يدخل معهم ولا ينتظر جماعة أخرى، ولو كان يرجوها، هذا هو الأفضل، لقوله ﷺ: **«إذا أتيتم الصلاة فأتوها وعليكم السكينة والوقار فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»**، ولقوله ﷺ: **«إذا أتيتم والإمام على حال فاصنعوا كما يصنع الإمام»**، خلافًا لشيخه «ابن إبراهيم».

٣ ـ وهو يرى عدم صحة صلاة المنفرد خلف الصف مطلقًا، سواء عجز عن المصافة أو لم يعجز، وفاقًا للمشهور عند الحنابلة، وخلافًا لشيخه ولابن تيمية؛ لقوله ﷺ: **«لا صلاة لمنفرد خلف الصف»**؛ ولأنه ﷺ أمر من صلى خلف الصف وحده أن يعيد الصلاة ولم يسأله هل وجد فرجة أم لا؟

٤ ـ وهو يرى أن المغمى عليه لا يقضي الصلاة إلا إذا كان إغماؤه أقل من ثلاثة أيام، خلافًا للمشهور عند الحنابلة؛ لأن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أصيبوا ببعض الإغماء لمدة أقل من ثلاثة أيام فقضوا وقياسًا على النوم، فإن من نام عن صلاة أو نسيها صلاها متى ذكرها، وأما إن كانت المدة أكثر من

ذلك فلا قضاء على المغمى عليه؛ لأنه يشبه المجنون بجامع زوال العقل.

٥ ـ وهو يرى أنه إذا أقيمت الصلاة فإن المصلي يقطع النافلة، ولو شرع فيها ما لم يأت بالركعة الثانية، فإن أتى بها أتمها خفيفة، وإلا فإنه يقطعها خلافًا للمشهور عند الحنابلة، ولشيخه ابن إبراهيم، لقوله ﷺ: «**إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**»؛ ولأنه ﷺ قال هذا الكلام لما رأى رجلاً يصلي والمؤذن يقيم الصلاة، فإن أتى بالركعة الثانية أتمها خفيفة؛ لأن الصلاة قد انتهت، ولم يبق منها إلا أقل من ركعة.

٦ ـ وهو يرى وجوب قراءة الفاتحة على المأموم، ولو في الصلاة الجهرية خلافًا للمشهور من المذهب ولشيخه ولشيخ الإسلام، لقوله ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»، ولقوله ﷺ: «**لعلكم تقرءون خلف إمامكم؟**» قلنا: نعم، قال: «**لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها**»، والمشروع أن يقرأ بها في سكتات الإمام، فإن لم يكن له سكتة قرأ بها ولو كان الإمام يقرأ ثم أنصت.

٧ ـ وهو يرى أنه إذا طهرت المرأة من الحيض أو النفاس في وقت العصر وجب عليها أن تصلي الظهر والعصر جميعًا، وإذا طهرت وقت العشاء وجب عليها أن تصلي المغرب والعشاء جميعًا، وفاقًا للمشهور عند الحنابلة؛ لأن وقتهما واحد في حق المعذور كالمريض والمسافر، وهي معذورة بسبب تأخر طهرها، وقد أفتى بذلك جماعة من الصحابة ﷺ.

٨ ـ وهو يرى أن المسافر إذا نوى الإقامة في بلد أكثر من أربعة أيام، فإنه لا يترخص برخص السفر، وفاقًا للمشهور في المذهب ولشيخه، وخلافًا لابن تيمية؛ لأن الأصل في حق المقيم هو الإتمام، وإنما شرع له القصر إذا باشر السفر، وقد ثبت عن النبي ﷺ: «أنه أقام في حجة الوداع أربعة أيام يقصر الصلاة، ثم ارتحل إلى منى وعرفات» فدل ذلك على جواز القصر لمن

عزم على الإقامة أربعة أيام أو أقل، أما إقامته ﷺ تسعة عشر يومًا عام الفتح، وعشرين يومًا في تبوك، وهو يقصر الصلاة فقد حملها جمهور أهل العلم على أنه لم يزمع الإقامة، وإنما أقام بسبب لا يدري متى يزول.

٩ ـ وهو يرى مشروعية الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأول في الثلاثية والرباعية، وفاقًا للشافعي وخلافًا للمذهب ولشيخه.

١٠ ـ وهو يرى استحباب جلسة الاستراحة في الصلاة وفاقًا للشافعي وخلافًا للمذهب ولشيخه، لحديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا كان في الركعة الأولى والثالثة لم ينهض حتى يستوي قاعدًا».

١١ ـ وهو يرى انعقاد الجمعة بثلاثة: الإمام واثنين معه وفاقًا لابن تيمية وخلافًا للمشهور عن الحنابلة الذين اشترطوا الأربعين، وخلافًا لشيخه، فإن شيخه لم يرخص للثمانية في إقامتها، بل نص على أنه إذا اجتمع عدد كثير، وإن نقصوا عن الأربعين فإنهم يقيمونها جمعة وحجة الشيخ ابن باز قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، فاسعوا: صيغة جمع، وأقل الجمع ثلاثة، ولقوله ﷺ: «**إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم**»، وهو عام في الجمعة والجماعة، والحديث الوارد في اشتراط الأربعين ضعيف.

١٢ ـ وهو يرى أن الحلي فيه الزكاة مطلقًا، ولو كان يلبس أو يعار خلافًا للمشهور في المذهب ولشيخه ولابن تيمية، لعموم الأدلة الدالة على وجوب الزكاة، ولحديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: أن امرأة دخلت على النبي ﷺ وفي يد ابنتها مسكتان من ذهب فقال: «**أتعطين زكاة هذا؟**» فقالت: لا، قال: «**أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار**»، فألقتهما وقالت: هما لله ورسوله، ولحديث أم سلمة رضي الله عنها: أنها كانت تلبس أوضاحًا من ذهب فقالت: يا رسول الله أكنز هو؟ فقال ﷺ: «**ما بلغ أن يزكى**

فزكي فليس بكنز»، ولم يقل لها: ليس في الحلي زكاة وما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس في الحلي زكاة» فهو ضعيف.

١٣ ـ وهو يرى جواز رمي الجمرات ليلاً، خلافًا للمشهور عند الحنابلة ولشيخه.

١٤ ـ وهو يرى أن الطلاق بالثلاث بلفظ واحد يعتبر طلقة واحدة، وفاقًا لابن تيمية، وخلافًا للمشهور من المذهب ولشيخه.

١٥ ـ وهو يرى أن الطلاق بالثلاث إذا كان بألفاظ متفرقة فهو ثلاث إذا لم يرد تأكيدًا وتفهيمًا، وفاقًا للمشهور من المذهب ولشيخه، وخلافًا لابن تيمية.

١٦ ـ وهو يرى أن الطلاق البدعي لا يقع وفاقًا لابن تيمية وخلافًا للمشهور من المذهب ولشيخه، والطلاق البدعي: هو الطلاق في الحيض أو في النفاس أو في طهر جامعها فيه إذا لم تكن حاملاً ولا من الآيسات من المحيض.

❑ وبالجملة فالشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ موفق في فتواه، ملهم في جوابه، مسدد في رأيه، ترى نور الكتاب والسنة من خلال ما يفتي به، فهو في المسائل المتقدمة وغيرها آخذ بما ظهر له من الدليل، وليس بالهوى أو التقليد، بل بما أداه إليه اجتهاده، وهو في ذلك أهل للاجتهاد، والمجتهد بين أجرين إن أصاب، أو أجر إن أخطأ على اجتهاده، وخطؤه مغفور، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ، والشيخ ـ رحمه اللَّه ـ لا يتسرع في الفتوى، وإذا أفتاك وضع النقاط على الحروف، مختصرًا فتواه، مستدلاً لها من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة.

وكثيرًا ما كان يجعل الفتوى مشتركة بالتشاور مع إخوانه العلماء في هيئة كبار العلماء، أو لجنة الإفتاء.

وسماحته ـ رحمه اللَّه ـ ربما أجاب السائل بأكثر مما سأل عنه إذا كان له علاقة بسؤاله اقتداء بالنبي ﷺ لما سئل عن الوضوء بماء البحر قال: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**».

وكان لا يجيب حتى يفهم السؤال، فإذا أشكل عليه السؤال قال: أعد، وكان يرجع عن الفتوى إذا ظهر له أن الدليل على خلافها».

❑ ويقول سماحة الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ عن نفسه: «مذهبي في الفقه هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه اللَّه ـ وليس على سبيل التقليد، ولكن على سبيل الاتباع في الأصول التي سار عليها، أما في مسائل الخلاف فمنهجي فيها هو ترجيح ما يقضي الدليل ترجيحه، والفتوى بذلك، سواء وافق مذهب الحنابلة أم خالفه؛ لأن الحق أحق بالاتباع، وقد قال اللَّه ـ عز وجل ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾.

❑ أما عن منهج سماحته في التعامل مع المخالفين، فيقول الدكتور عبداللَّه بن عبدالعزيز الزايدي: «تميز الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بالتزام منهج سلف الأمة الصالح في فهم الدين والعمل به، ذلك المنهج السلفي الذي يجمع بين العلم والعمل والاعتدال والرفق.

فكان ـ رحمه اللَّه ـ يزن الناس بميزان الحق ويتعامل معهم بالرفق فهو لا يترك التنبيه على المخطئ كي لا يتمادى في كبريائه وخطئه. والمخالف للحق قسمان:

١ ـ قسم يخالف مخالفة صريحة للكتاب أو السنة أو الإجماع فهذا القسم مع خطئه الكبير نجد الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ يرد عليه بأسلوب رفيع مع بيان الأدلة وبعبارات تنم عن عظيم خلق كقوله: هداه اللَّه، عفا اللَّه عنه.

٢ ـ قسم خالف في مسألة من مسائل الاجتهاد فهذا لا يرد عليه الشيخ وإنما يذكر القول الذي يرى رجحانه ويضعف أدلة القول الآخر ـ إن وجدت ـ ولا يأتي الشيخ بأي عبارة فيها تعنيف أو تشنيع وكان ـ رحمه اللَّه ـ لا يتساهل في مسائل الابتداع والشرك بل يبين ما هو بدعة وما هو شرك لكنه ـ رحمه اللَّه ـ لم يكن متساهلاً بإطلاق عبارات الشرك أو البدعة على كل صغيرة أو كبيرة بل إنه لينبه على الصغيرة والكبيرة ويضع كل شيء موضعه ومن أحدث ما سمعت منه ـ رحمه اللَّه ـ جواب لسؤال حول الاستعاذة من الشيطان عقيب التثاؤب هل هي من البدع حيث لم يرد نص عن النبي ﷺ في مشروعية ذلك وسنيته. . فأجاب الشيخ بأن المشروع هو وضع اليد على الفم عند التثاؤب أو كظمه ولم ترد الاستعاذة،لكن من استعاذ متذكرًا أن التثاؤب من الشيطان فلا يعد فاعلاً لبدعة.

❑ وكان الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ في موقفه من الاتجاهات والجماعات الإسلامية المعاصرة مثال القائم بالحق الملتزم به عند الاختلاف والفتن حيث كان ينصح من خالف الحق ويدعو بالهداية ويبين بعض الجوانب الإيجابية لدى هذه الاتجاهات ويشجعها، ويدعو لتوجيهها الوجهة المناسبة، ويؤكد على تلك الاتجاهات بضرورة سلوك منهج السلف في فهم الدين والعمل به.

❑ كما كانت علاقته ببعض قيادات تلك الجماعات صلة التناصح والمحبة في اللَّه فكان يوجه لهم الخطابات التي يوضح فيها وجهة نظره فيما يراه خطأ وقع فيه بعضهم وكان أسلوبه في النصح غاية في الرفق والرغبة في إيضاح الحق للمخالف، ولم يكن يلجأ ـ رحمه اللَّه ـ للتحذير العام إلا في حالات قليلة من أهمها الحالات التي ينتشر فيها الخطأ بين الناس، مثل الكتابات الصحفية التي تتضمن خطأ ظاهرًا يناقض أصول الدين أو فروعه فإنه ينشر التحذير والتنبيه في الصحيفة نفسها أو في صحيفة أخرى أو في

مجلة البحوث الإسلامية ومن أمثلة ذلك: رده ـ رحمه اللَّه ـ على خبر عن إقامة صلاة الجمعة بمسجد قرطبة في أسبانيا نشرته جريدة عكاظ وعلقت الصحيفة على الخبر بالقول إن الاحتفال بذلك يعد تأكيداً لعلاقات الأخوة والمحبة بين أبناء الديانتين الإسلامية والمسيحية. . فقد نبه ـ رحمه اللَّه ـ إلى مصادمة هذا الكلام والأدلة الشرعية الدالة على أنه لا أخوة ولا محبة بين المسلمين والكافرين.

كما بين ـ رحمه اللَّه ـ خطأ عدد من الشعراء الذين نشروا قصائدهم في بعض الصحف السعودية وتضمنت غلواً في حق النبي ﷺ فقد نبه الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ إلى ذلك وذكر اسم الشاعر ودعا له بالهداية والصلاح».

❑ ويقول الشيخ محمد سليمان الصبيحي عن منهج الشيخ العلمي: «ومن أبرز ما تميز به منهجه العلمي مما ندعو به إخواننا إلى الاستفادة منه ما ملخصه:

١ ـ أرسى منهج الأخذ بالدليل الشرعي خلافًا لقول المذهب ـ إذا لم يدل عليه دليل.

٢ ـ بعد النظر والعالمية في الهموم والتعامل مع كل المسلمين.

٣ ـ الجمع بين العلم والدعوة فإذا أفتى قرن فتواه بنصيحة.

٤ ـ استثمار ذاكرته فيما ينفع وفي التعرف على هموم المسلمين والمشاركة في التخفيف عنهم ومتابعة أخبارهم.

٥ ـ بعد نظره في معرفة مرامي السائلين والمستفتين فيجيبهم بحيطة وحذر بما لا يعطي فرصة للنقل الخاطئ أو الادعاء الكاذب.

٦ ـ الرفق بحال المخالفين وحتى الخصوم والمعاندين.

٧ ـ النشاط الدائم والعمل الدءوب فهو لا يعرف الراحة أبداً فقد بذل وقته في محاضرات وندوات ودروس ورد على الهاتف وإجابة للسائلين

واستضافة للقادم ومسامرة للأهل وعبادة وقيام ليل».

❑ ويقول الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان ـ عضو هيئة كبار العلماء ـ: «يتأنى ـ رحمه اللَّه ـ في الأحكام، يعطي الفرصة الكافية لكل صاحب رأي أن يعرضه ويقرره دون تضييق أو مضايقة، يمد الوقت أكثر فأكثر مداولة ونقاشًا حتى يتمخض المجلس عن رأي سديد يحقق المصلحة. ولا يطمئن حتى لا يبقي للمداولة والنقاش مجال وهو في أثناء ذلك وقبل ذلك وبعده، يذكر نفسه وأعضاء المجلس في صوت متهدج ممتلئ خوفًا ورهبة من المولى عز وجل. يذكر بمراقبته تعالى والإخلاص والتجرد والنصح للعامة وولاة الأمر، ومن ثم الدعاء بالصلاح والرجوع إلى اللَّه ـ عز وجل ـ لا يفتأ يكرر هذا بداية وانتهاء».

* علامة الجزيرة وفقيد الأمة .. الشيخ عبدالعزيز بن باز:

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور: يوسف القرضاوي:

ودعت الأمة الإسلامية علمًا من أعلامها الأفذاذ، ونجمًا من نجومها الساطعة في سماء العلم، علامة الجزيرة الشيخ عبدالعزيز بن عبداللَّه بن باز، الذي كان جبلاً من جبال العلم، وبحرًا من بحور الفقه، وإمامًا من أئمة الهدى، ولسانًا من ألسنة التوحيد، وعمادًا من أعمدة الدين وركنًا من أركان الأمة، طالما استفاد من علمه المسلمون في الجزيرة والخليج وفي شتى بقاع الأرض، عن طريق اللقاء والمشافهة، أو الكتاب والمراسلة، أو الهواتف والإذاعة، أو الكتابة والصحافة، أو الرسائل والكتب، أو الشريط المسموع.

❑ عاش الشيخ عمره المبارك للعلم والدين، يعلّم ويدرس، ويجيب ويفتي، وينصح ويدعو، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، مع حكمة بالغة ورفق وبصيرة، فإنه اللَّه يحب الرفق في الأمر كله، وما دخل الرفق في شيء

إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه.

❑ كان أكبر همِّ الشيخ الدعوة إلى التوحيد الخالص، وتصفية العقيدة من الشرك أكبره وأصغره، جليه وخفيه، والوقوف في وجه القبوريين والخرافيين، واتباع ما جاء عن السلف في وصفه اللَّه تعالى بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، وكان لا يدع فرصة ولا مناسبة إلا أكد فيها هذه المعاني، لا يمالئ ولا يجامل.

❑ وكان الشيخ في الفقه حنبليًّا، ولكنه لم يكن مقلدًا يأخذ القول في مذهبه ولو كان ضعيف الحجة، بل كان ـ رحمه اللَّه ـ يعتمد الدليل ويستند إلى الكتاب والسنة، ويعرض عن مذهبه إذا كان الحق مع غيره، لا يخشى لومة لائم، وقد كان فوق أن يلومه أحد، ولذا رأيناه يكتفي بآراء شيخ الإسلام ابن تيمية في الطلاق، وإن كان علماء المملكة لا يفتون بها، وإنما يأخذون بالمعتمد في المذهب.

❑ كان الشيخ يرأس إدارة الفتوى والبحوث والدعوة، ويرأس هيئة كبار العلماء، ويرأس المجلس التأسيسي لرابطة العلم الإسلامي، ويرأس المجلس العالمي الأعلى للمساجد، ويرأس مجلس المجمع الفقهي للرابطة وظل سنين رئيسًا للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فلم يضعه ذلك في برج عاجي أو في صومعه منعزلة، بل ظل بيته مفتوحًا، ومكتبه مفتوحًا وقلبه مفتوحًا لكل ذي حاجة من أبناء المسلمين، مادية أو علمية، لا يغلق بابه في وجه أحد ولا يضيق صدره بلقاء أحد، ولا يدخر جهده في مساعدة أحد.

❑ لم يكن العلم الغزير وحده الذي ميّز ابن باز، بل ميزه كذلك قوة إيمانه، وغيرته على دينه، واهتمامه بأمر أمته، وتحرقه على مآسي المسلمين وحسن خلقه في معاملة الناس، ورحمته بالصغير، وتوقيره للكبير، ومعرفته

بحق أهل العلم من إخوانه وإن اختلفوا معه.

❑ اتصل حبل الود بيني وبين العلامة ابن باز في مناسبات كثيرة، في مؤتمرات رابطة العالم الإسلامي، وفي المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنور، وكنت عضوًا فيه، وكان الشيخ نائبًا لرئيسه إذ كان رئيسه هو ولي عهد المملكة الأمير فهد بن عبدالعزيز ـ حفظه اللَّه ـ في ذلك الوقت، وفي مجلس المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي الذي أتشرف بعضويته ويرأسه الشيخ، وفي المؤتمرات العلمية والدعوية العالمية التي أقيمت في المملكة، مثل المؤتمر العالمي للاقتصاد الإسلامي في مكة المكرمة، والمؤتمر العالمي للدعوة والدعاة في المدينة المنورة، ومؤتمر مكافحة المسكرات والمخدرات والتدخين في المدينة المنورة أيضًا.

❑ أبى الشيخ على نفسه أن يغادر المملكة، وكم دُعي من أقطار وجهات شتى، ولكنه اعتذر، وعندما أقيم المؤتمر العالمي للسنة والسيرة في دولة قطر في افتتاح القرن الخامس عشر الهجري وجهنا إليه الدعوة وألححنا عليه، ولكنه قال: إنه كان يود الاستجابة للدعوة، ولكن هذا سيفتح عليه أبوابًا لا يستطيع سدها، وأصر على موقفه ونهجه في الاعتذار.

❑ لم أر مثل الشيخ ابن باز في وده وحفاوته بإخوانه من أهل العلم، ولا في حبه وإكرامه لأبنائه من طلبة العلم، ولا في لطفه ورفقه بطالبي الحاجات من أبناء وطنه، أو أبناء المسلمين عمومًا، فقد كان من أحاسن الناس أخلاقًا، الموطئين أكنافًا الذي يألفون ويؤلفون.

ولقد رأيته في المجمع الفقهي يستمع وينصت إلى الآراء كلها، ما يوافقه منها وما يخالفه ويتلقاها جميعًا باهتمام، ويعلق بأدب جم، ويعارض ما يعارض منها برفق وسماحة دون استعلاء ولا تطاول على أحد، متأدبًا بأدب النبوة، ومتخلقًا بأخلاق القرآن.

❑ لا أعرف أحدًا يكره الشيخ ابن باز من أبناء الإسلام، إلا أن يكون مدخولاً في دينه أو مطعونًا في عقيدته، أو ملبوسًا عليه، فقد كان الرجل من الصادقين الذي يعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، ويخلصون فيصدقون، أحسبه كذلك واللَّه حسيبه، ولا أزكيه على اللَّه تعالى.

❑ الحديث عن العلامة ابن باز ذو شجون، ومجال القول ذو سعة، ولا نستطيع أن نوفي الشيخ ما يستحقه في هذه العجالة، إنما هي كلمات كتبتها على عجل أودع بها الشيخ الجليل، وفاءً لبعض حقه، ومعرفة بقدره وتقديراً لمكانته وفضله.

❑ إن موت العلماء الأفذاذ مصيبة كبيرة، فإن الأمة تفقد بفقدهم الدليل الذي يهدي، والنور الذي يضيء الطريق، يقول علي ـ كرم اللَّه وجهه ـ: إذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه.

❑ وقال ابن عمر ﷺ: ما قبض اللَّه عالمًا إلا كان ثغرة في الإسلام لا تسد، يؤكد هذا حديث عبداللَّه بن عمرو المتفق عليه: «**إن اللَّه لا يقبض العلم ينتزعه انتزاعًا من صدور الناس، ولكنه يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رءوسًا جُهّالاً فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[1].

*** لماذا كان أمة وحدة؟!**

والدعـــاوى ما لم يقيموا عليها ... بينـــات أصحابـــهـــا أدعيـــاء

❑ خلاصة الأمر عن هذا الإمام ـ رحمه اللَّه ـ أنه: «كان أمة وحده». إنها ليست عواطفَ مجردةً عن الحقائق، وليست ادعاءات خالية من البراهين

(١) مجلة المجتمع الكويتية العدد ١٣٥١.

إنها الإمامة في أبهى مظاهرها، والعظمة في أجمل مناظرها.

❑ قل لي بربك هل تحتاج الشمس الساطعة إلى دليل، وهل يفتقد البدر المنير إلى شهود، إن صفات هذا العالم ومناقبه شمس أشرقت على الدنيا. ونجومٌ تألقت في سماء الكون، وإن مكارمه وفضائله وعلمه، بدورٌ مزهرةٌ في الأفق الواسع.

كيف يطوي كونَ المعالي ضريحٌ ... والمعالي لا يحتويها مكان؟
من نُعَزّي..؟ سيل الفجيعة طام ... كل قلب يجتاحه طوفان؟
أنت حيٌّ في كل ذرة رمل ... من بلادي ما مرك النسيان
فكتاب الخلود سفر مضيءٌ ... أنت فيه الختام والعنوان
وإلى رحمةٍ وطيب مقام ... في جنان تُرابها زعفران

❑ لك أن تتأمل تأملاً سريعًا بعض المعالم البارزة في هذا العمر المديد والزمن المبارك، هذه المعالم التي ستبقى شاهد صدق وعدل على مدى التاريخ:

*** نور الإيمان:**

❑ كُفَّ بصره بعد أن كان ينعم بنوره، ويسعد بضيائه، فلم ينطو على نفسه، يتحسر على بصره أو يبكي حظه، بل ازداد نورًا إلى نوره وبصرًا إلى بصره، وهمة إلى همته.

إن يأخذ اللَّه من عينيّ نورهما ... ففي فؤادي وقلبي منهما نور
قلبي ذكيٌّ وعقلي غير ذي دخلٍ ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور

❑ وكأن حكمة اللَّه تعالى اقتضت أن يتمحض هذا القلب المؤمن الخاضع الصادق يتمحض له وحده سبحانه، فإن العين رسول القلب، ولو ترك هذا الرسول يتعامل مع أشياء الحياة الدنيا ومباهجها، فلربما يُحدث

تشويشًا على قلب امتلأ بجلال اللَّه، وفاض بحبه والإيمان به، فلا داعي إذن لهذا البصر، تنزع ملكيته، ويعوض صاحبه بنور في قلبه يملأ حياته أنسًا وسرورًا وإيمانًا ويقينًا، فلا يرى إلا نور خالقه، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وانظر لباز التقى والعلم تبصره ... بدون عينين قد أربى على البشر
عبدالعزيز الذي تهفو النفوس له ... وتشتري نظرة في وجهه النضر
كالبحر في علمه السامي وذو خلق ... كالمسك كالعنبر الفواح كالزهر

❑ انطلق الشيخ في حياته بهمّة تتحدى الصعاب، وإيمانٍ يعانق السحاب فهو يحفظ القرآن فلما أتمّ حفظه، ووعاه بقلبه، يمّم بوجهه شطر السنة المباركة في نَهَمٍ شديد، يحفظ متونها، ويدرس أسانيدها، ويدرس العربية والفرائض والفقه والتفسير، بدأت مخايل النبوغ والولاية والكرم من وقت مبكر في حياته، كان يلمسها فيه من رافقه في طلب العلم وتحصيل المعرفة.

وعيّرني الأعداء والعيبُ فيهمو ... فليس بعار أن يقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والتُّقى ... فإن عمى العينين ليس يضيرُ
رأيتُ العمى أجرًا، وذُخْرًا وعِصْمةً ... وإني إلى تلك الثلاثِ فقيرُ

* القاضي المعلم:

❑ تبدأ حياته بالقضاء فيمكث فيه أربعة عشر عامًا، لم يكن قاضيًا يؤدي دوامه الرسمي، يقبض راتبه آخر الشهر، فيصرفه على نفسه وأهله، وانتهت مهمته بذلك، بل كان القاضي، والمعلم، والمربي، والإمام،

والمرشد، والمصلح، والكريم، محكمته بيته، وبيته محكمته ذاع صيتهُ، ولمع اسمه، وتسابق إليه طلاب العلم، ينهلون من علم هذا الشاب المبارك المتدفق حيويةً وعلمًا ونشاطًا، والمتوقد ذكاءً وعبقرية وسناءً، وهكذا سالت أوديةٌ بقدرها من العلم والخير والدعوة إلى اللّه تعالى.

*** مخايل الذكاء:**

❑ ثم حينما أدرك أهل العلم والفضل أن بين ظهرانيهم كنزًا عظيمًا، وغنيمة باردة، وسراجًا مزهرًا، ونورًا متلألأ، وغيثًا هنيئًا، قرروا أن يعم الجميعَ خيرهُ، ويُنشر لطلبة العلم علمُه، فنُقِل إلى المعاهد العلمية بمدينة الرياض، ثم كلية الشريعة، ودرّس الفقه، والتوحيد، والحديث، واتصل هذا العطاء المبارك ما يقارب عشر سنوات (١٣٧١ ـ ١٣٨٠هـ)، كانت زاخرة بالعطاء المتألق، والعلم المتدفق، وتعددت قنوات هذا النهر الزاخر إلى كثير من البقاع والأراضي الهامدة، فذهبت غبرتُها، ورويت تربتها، فاهتزت وربتْ وأنبتت من كل زوج بهيج.

*** من المحلية إلى العالمية:**

❑ ثم عين نائبًا لرئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وامتد عطاؤه الدءوب لمدة تسع سنوات (١٣٨١ ـ ١٣٩٠هـ).

فلما بلغ القمة في العلم والحلم والفضل والتقى، وتوجهت الأنظار إليه، وتطلعت النفوس إليه، وأضحى ملء السمع والبصر، أسندت إليه رئاسة الجامعة الإسلامية، فلم يمكث في هذا المنصب إلا خمس سنوات ولكنها تعدل خمسين عامًا، وقد كان جهد الشيخ وعلمه وفضله فيما مضى من عمره قبل هذا المنصب، كان جهدًا محليًا إلى حدٍ كبير، أمّا الآن فقد انداحت دائرة هذا الجهد المبارك، والعطاء المميز لتشمل العالم الإسلامي كله، ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾، ففتح أبواب الجامعة لأبناء المسلمين من أنحاء

الدنيا، فنهلوا من علمه، ونهلوا من علم الجامعة التي حوت أفاضل العلماء، وأساطين الدعاة، ولقد كان الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ على عادته في بذل كامل وقته وجهده وماله للمسلمين، كان جامعة متنقلة اسمع ما يقوله أحد الطلاب الذين تخرجوا على يديه من تلك الجامعة، يقول: «ولذلك كان يوم وداعه للجامعة بعد أن أسندت إليه رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، كان وداعًا مشهودًا حزنًا وأسى، بكاءً ونحيبًا، بكاء كبكاء الثكلى، ونحيبًا كنحيب اليتامى، حيث فقدوا من يحنو عليهم كحنو الآباء على أبنائهم، فبيته كان بيتًا لمن لا بيت له، ومأوى لمن لا مأوى له، يسعى في حل مشاكلهم، ويبذل وقته في توجيههم ونصحهم ويفتح صدره وقلبه لاستقبالهم ومشاركته لهم في همومهم، وما ينزل بهم فكانت الجامعة في عهده البيت الواسع، والمأوى الرحب لعربيهم وعجميهم أبيضهم وأسودهم، فالكل يلهج بابن باز، فقد أحبته القلوب، وتعلقت به النفوس، وقد ربى أجيالاً وخرّج أفواجًا من طلبة العلم، عُمرت بهم المعمورة، وانتشروا في بقاع الأرض، ينشرون دين اللَّه عقيدة وشريعة، وكان لهم بعد ذلك معينًا وناصرًا وداعمًا ومؤيدًا مما جعله يتبوأ هذه المنزلة الغالية في بلاد المسلمين، ويكسبه هذه الشهرة المنقطعة النظير في زماننا المعاصر» اهـ.

*** إمـــام العلمـــاء:**

▣ انتقل الشيخ الأجل ـ رحمه اللَّه ـ ليكون على رأس هرم العلم والمعرفة، وعلى قمة عَلَم الفكر والهدى، ويصدر الأمر الملكي بتعيينه في منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برتبة «وزير»، ويا اللَّه كم فتح اللَّه على يديه في هذا المنصب من أبواب الخير، وكم يسر من سبل الهدى، ومهد من طرق المعرفة، وبث من نور العلم، ما ظنك برجل قلبه ونفسه وحبه وهوى نفسه وسلوة روحه وقرة عينه: الدعوة

إلى اللَّه، وتعليم الناس الخير؟ ما ظنك به إذا أصبح زمام الأمور بيده، والناس تصدر عن رأيه. جنَّد كل ما لديه من طاقات، وبذل الغالي من الأموال والأوقات، اختار العلماء الناصحين، ومكّن للدعاة الصادقين، وحث الجميع على العمل، وشجعهم على الدعوة، وشدّ من أزرهم، ورفع من قدرهم، وضرب لهم المثل الأعلى بنفسه، فما كان يدعوهم إلى أمر إلا وهو أسبقهم إليه ولا يحضهم على شيء إلا وقد تمثل فيه فازدهرت الأرض بالعلم، وآتت الجهود ثمارها، فشهدت البلاد علمًا ونورًا وصلاحًا ودعوة ودروسًا، حتى أصبحت مجالس الناس ومنتدياتهم وحفلاتهم ولقاءاتهم ومدارسهم وأنديتهم ودوائرهم، بل ومطاراتهم وقطاراتهم وسياراتهم، أصبحت جميعًا تعج بالعلم وأهله، وتعمر بالخير وذويه، وتعطر بالقرآن ومعانيه، وتُنوّر بالإسلام ومراميه، وقد وجد من الحكومة ما يشد من أزره، ويقوي من مكانته، ويسمع لرأيه، ويستجيب لندائه، ولم يكن هذا الجهد المبارك، والخير العميم، حكرًا على هذه البلاد بل امتد ليشمل أنحاء الدنيا، فاهتم الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بالدعوة إلى اللَّه وتنوير المسلمين، والشد من أزرهم، والوقوف ضد التيارات التي تريد اجتثاثهم، فجند جنودًا، وأقام مراكز، وأرسل دعاة وجهز هداةً لأغلب بلدان العالم. كانوا يستنيرون برأيه، ويمضون بتوجيهه، وإذا بالجماعات الإسلامية، والمراكز الدينية في أنحاء الدنيا إذا ما أشكل عليها شيء من الدين، أو خفي عليها باب من العلم، لجأت ـ بعد اللَّه ـ إلى سماحة الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ فإذا قال فالمعتمد لديهم قوله، وإن أفتى فالفتوى محبوبةٌ مقبولة، وأي لجنة تنشأ أو جماعة تقوم، أو مشروع يقترح من العالم فإن الأساس لنجاحه وفلاحه بعد اللَّه تعالى أن يحظى بتزكية من سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز ـ رحمه اللَّه ـ، فتُجعل تاج المشروع ووجهه وروحه.

❑ ولقد كنت أرى من محبة الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ من أبناء العالم

الإسلامي ما يسر النفس، ويسعد الخاطر، كنت أراهم في الحج، وفي رمضان، حينما يكون سماحته في مكة تجد سيارات الأجرة ذاهبة آيبة بالذين يأتون من أنحاء العالم، فيقبلون في رغبةٍ جامحة لرؤية ابن باز والسلام عليه، والنهل من علمه، وسؤاله عمّا يشكل عليهم، تغص الشوارع، ويكتظ الحي، ويمتلئ مجلسه بهؤلاء المسلمين من أنحاء الدنيا، وكنت حينما اقرأ الأسئلة على سماحته في مسجده بمكة أجد أمراً عجبًا، هذا السائل يسئل: يا سماحة الوالد أنا ابنكم من أمريكا وأسأل عن كذا، وثانٍ: يا سماحة نحن من مسلمي فرنسا، ولدينا كذا وكذا، فكيف نتعامل مع ذلك، وثالث: يا سماحة الشيخ أنا قادم من جزر القمر، وأريد أن تدعو لي..، ورابع: يا سماحة الشيخ نحن من أبنائكم المسلمين من ألمانيا، أو بريطانيا، أو الصين.. إلخ، وهكذا تجد هذه الأسئلة العالمية التي تنبئك بعالمية هذا الإمام، وسعة علمه، ورفعة شأنه في أنحاء الدنيا.

❑ ولقد استمر دعم سماحته للدعوة والدعاة في أنحاء العالم إلى وفاته ـ رحمه اللَّه ـ حيث توفي ولا زال تحت رعايته أكثر من ألفي داعية حول العالم، تصرف مرتباتهم عن طريق سماحته.

❑ مضى شيخنا ـ رحمه اللَّه ـ في هذا المنصب منذ عام ١٣٩٥هـ إلى عام ١٤١٤هـ، حيث صدر الأمر الملكي بإنشاء وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، وصدر الأمر بتعيين سماحته ـ رحمه اللَّه ـ مفتيًا عامًا للمملكة ورئيسًا لهيئة كبار العلماء، وبقي في هذا المنصب إلى أن توفاه اللَّه عز وجل في فجر الخميس السادس والعشرين من شهر محرم لعام عشرين وأربعمائة وألف من الهجرة بمدينة الطائف، وصلي عليه بالمسجد الحرام بعد صلاة الجمعة، ودفن بمقبرة العدل بمكة المكرمة ـ رحمه اللَّه رحمة واسعة ـ هذه المناصب الرئيسية في حياة الشيخ.

* المناصب الشامخة:

❑ ولكن مع هذه المناصب الشامخة، ومع هذا الكم الهائل من البذل والتضحية، لم يكن ذلك هو كل ما في حياة إمامنا ـ رحمه اللَّه ـ بل كان يجمع إلى ذلك رئاسة عددٍ من المناصب، كل منها يتطلب رجالاً عدّة لإدارته، والقيام به، ومع ذلك فقد قام على رئاستها جميعًا إلى جانب نهجه العامر المعهود في حياته طيلة ليله ونهاره، كما يقول الدكتور يوسف القرضاوي ـ وفقه اللَّه ـ: «كان الشيخ يرأس إدارة الفتوى والبحوث والدعوة، ويرأس هيئة كبار العلماء، ويرأس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ويرأس المجلس العالمي الأعلى للمساجد، ويرأس مجلس المجمع الفقهي للرابطة وظل سنين رئيسًا للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، فلم يضعه ذلك في برج عاجي أو في صومعة منعزلة، بل ظل بيته مفتوحًا، ومكتبه مفتوحًا وقلبه مفتوحًا لكل ذي حاجة من أبناء المسلمين، مادية أو علمية، لا يغلق بابه في وجه أحد ولا يضيق صدره بلقاء أحد، ولا يدخر جهده في مساعدة أحد».

قام على رئاسة هذه المهام، فأثراها بعلمه، وتوّجها بفعله، وأسعدها بفقهه.

* رئيس هيئة كبار العلماء:

❑ كان يرأس هيئة كبار العلماء، وهي هيئة عظيمة الشأن رفيعة القدر، عالية المكانة. ليست الهيئة مجرّد مجموعة من العلماء يجتمعون لإصدار بعض الفتاوى الفقهية فحسب، بل هذه الهيئة كانت ذات صبغةٍ علمية اجتماعية سياسية، تهتم بأهم القضايا الشرعية، والمسائل الاجتماعية، والمصالح السياسية، فيما يتعلق بالمملكة العربية السعودية على وجه الخصوص، وفيما يتعلق بالعالم الإسلامي على وجه العموم، فهي بمفردها

قلعة من قلاع العلم والمعرفة، لها أهميتها البالغة ولما تصدره من فتاوى وتوصيات. وإدارتها والقيام عليها، والنجاح في قيادتها، ليس بالأمر الهين ومع ذلك فقد تمكن الشيخ من القيام عليها بقوة واقتدار، وكان حسن السياسة، حكيم القيادة، بديع الريادة، لم توجد ذرّةٌ من جفوةٍ أو شقاق بينه وبين إخوانه وأبنائه العلماء.

كريمٌ يغض الطرف فضل حيائه ويدنو وأطراف الرماح دوان
وكالسيف إن لاينته لان مَسُّه وحدّاه إن خاشنتهُ خشنان

❑ يقول لي أحد الأعضاء: كانت تطرح المسألة من المسائل، فيبدأ النقاش فيها، فهذا يدلي برأيه، والآخر يبدي وجهة نظره، وذاك يقول وهذا يلاحظ، وقد يحتدم النقاش، وأنت تنظر إلى الشيخ وهو في غايةٍ من الإنصات والأدب والتواضع، حتى إن الذي يراه وهو لا يعرفه، يقول هذا من عامة الناس، فإذا ما بدأ سماحة الشيخ قائلاً: الحمد للّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ثم اندفع كالسيل المتدفق، وتفجر بالعلم كالبحر الهادر، وجاد بالحكمة كاللؤلؤ والمرجان، وأورد الآراء، وناقش الوجهات، ثم نفذ بفكره الثاقب إلى أعماق المسألة، فجاء فيها بنبأ عظيم، ورأي حكيم، فيأتي رأيه مثل فلق الصبح، ويلقى من الجميع القبول والربح، فإذا بالجمع منذ أن يبدأ كلامه في غاية من الإنصات والاستماع والإجلال والإعجاب والإكبار.

ومُخرّق عنه القميص تخالُه بين الرجال من الحياء سقيما
حتى إذا رفع اللواء رأيتَهُ تحت اللواء على الخميس زعيما

❑ يقول الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان ـ عضو هيئة كبار العلماء ـ في مقاله المدرج في هذا الكتاب: «إذا التقى مجلس هيئة كبار العلماء فأول ما يبتدر سماحته الحديث بالسؤال عن شئون الأمة الإسلامية، يستكشف أخبارها في جميع أقطارها، يتلمس أنباءها إن كانت خيراً حمد اللّه وأثنى عليه، وإن

كانت غير ذلك أحزنه أمرها، ودعا اللَّه أن يكشف الغمة عنها، وسعى ما استطاع من قول وعمل وجهد لما يرفع عنها الشدة، ويزيل عنها البأس.

❑ يتأنى ـ رحمه اللَّه ـ في الأحكام، يعطي الفرصة الكافية لكل صاحب رأي أن يعرضه ويقرره دون تضييق أو مضايقة، يمد الوقت أكثر فأكثر مداولة ونقاشًا حتى يتمخض المجلس عن رأي سديد يحقق المصلحة. ولا يطمئن حتى لا يبقى للمداولة والنقاش مجال وهو في أثناء ذلك وقبل ذلك وبعده، يذكر نفسه وأعضاء المجلس في صوت متهدج ممتلئ خوفًا ورهبة من المولى عز وجل، يذكر بمراقبته تعالى والإخلاص والتجرد والنصح للعامة وولاة الأمر، ومن ثم الدعاء بالصلاح والرجوع إلى اللَّه عز وجل لا يفتأ يكرر هذا بداية وانتهاء» اهـ.

❑ وإنني على يقين أن الهيئة الموقرة ـ متّعنا اللَّه بعلمائها ـ ستقوم بواجبها تجاه إمامها العظيم، وشيخها الكريم، وستجلّي للدنيا حقائق ووثائق من جهده النافع، وعطائه الناصع.

*** رئيس مجلس الرابطة:**

❑ وكان سماحته ـ يرحمه اللَّه ـ يرأس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، وهي أيضًا هيئة لها مكانة عالمية بعيدة المدى، عميقة الأثر، واسعة النشاط، ونشاطها على مستوى العالم الإسلامي، وقد قام بهذه المهمة خير قيام، وحقق نجاحًا باهرًا، وسمعة شامخة، وإكبارًا وإجلالاً من العالم بأسره.

*** رئيس المجلس الأعلى:**

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يرأس المجلس الأعلى العالمي للمساجد، وهذا أيضًا من المجالس ذات الأهمية البالغة، فهو مجلس عالمي، وليس وطنيًّا أو

إقليميًّا، وقد ظهرت بركة الشيخ، وصلاح نيته، ظهرت آثارها واضحة جلية على هذا المجلس، وما قام به من مهام على مستوى العالم الإسلامي.

*** رئيس المجمع الفقهي:**

❑ وكان يرأس المجمع الفقهي الإسلامي بمكة المكرمة، التابع لرابطة العالم الإسلامي.

❑ وهذا المجمع من أعظم وأجل وأنفع المجامع، إنه قلعة شامخة من قلاع العلم، إنه منارات إشعاع تسطع أنوارها في أنحاء العالم الإسلامي إنه عطر يفوح بعبير الشريعة الربانية، ويعبق بشذى الفقه الإسلامي، أنشئ ليقوم بمهمة عظيمة، ويؤدي رسالة خالدة.

❑ ولهذا المجمع الفقهي مجلس يضم نخبةً ممتازة من فقهاء العصر ومفكريه، متخصصين في مختلف المجالات والعلوم الإسلامية.

❑ وقد أنشئ في عام ١٣٩٦هـ، هذا المجمع الذي شَرُف برئاسة سماحة الشيخ له، وصل في التوفيق إلى مداه، وبلغ في المجد والسبق والفضل إلى منتهاه، وكانت إدارة الشيخ له وقيامه بمهامّه محط إعجاب وإكبار من الجميع، واسمع بعض أعضاء المجمع ماذا يقول عن الشيخ: «ولقد رأيته في المجمع الفقهي يستمع وينصت إلى الآراء كلها، ما يوافقه منها وما يخالفه ويتلقاها جميعًا باهتمام، ويعلق بأدب جم، ويعارض ما يعارض منها برفق وسماحة دون استعلاء ولا تطاول على أحد، متأدبًا بأدب النبوة، ومتخلقًا بأخلاق القرآن».

❑ وإنك بنظرة واحدةٍ إلى الموضوعات والمسائل التي طرحت ودرست في هذا المجمع، ترى الأهمية الكبرى لوجوده وتعرف المنزلة العظمى له.

لقد عالج كثيراً من القضايا، ودرس عدداً هائلاً من المسائل الشائكة

التي تعترض المسلمين في شتّى أنحاء الدنيا.

وأعلم يقينًا أن المسئولين في الرابطة عمومًا، والمجمع الفقهي خصوصًا ـ وفقهم اللَّه وبارك فيهم ـ سيقومون بالكتابة عن جهود الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ وأثره وإثرائه لهذه القلاع العملاقة.

*** عطاء بلا حـدود:**

❑ وقد كان سماحه الشيخ إضافة إلى ما سبق ذِكْره، عضوًا هامًا بارًّا راشدًا لكثير من اللجان والهيئات، ومع كل ما رأيت من جهود عملاقة، ومناصب شامخة، وأعمالٍ جادّة عظيمة كبيرة كثيرة، فإن هذا كلّه في كفّة وما تركه من تراث العلم وبركة الهدى، وروائع الفتيا في كفّة.

❑ وفتاوى اللجنة الدائمة التي كان يرأسها ـ رحمه اللَّه ـ من الأعمال العملاقة التي ستظل على مر القرون تنطق بفضله، وتشهد بعظمته، وتُبين عن سعة علمه، وقد بلغ المجموع والمطبوع منها عشرات المجلدات.

❑ أفلا يكون من قام بهذه الجهود الجبارة، ومن أفعمت حياته بهذه الأعمال العملاقة، التي عمّ نفعها الأرض، ووصل خيرها إلى أنحاء الدنيا، إضافة إلى ما مرّ من صفاته وسماته وجهوده ودعوته وبذله وكرمه ودروسه وعلمه، أفلا يكون مثل هذا الرجل: «**أمّـةً وحـده**»؟!!.

❑ اللَّهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله،،،

***

بعض صفاته كما رواها طلابه

● صفات الشيخ عديدة، ومناقبه جمة، ومزاياه نهر فيّاض، وبحر متدفق، وإضافة لما سبق ذكره نورد بعضًا من صفات الشيخ ومناقبه كما يرويها بعض طلابه ومحبيه:

❑ يقول الشيخ الدكتور عبدالله المجلي: «حياة الشيخ كلها عطاء، ولكنها خير، وكلها مواقف إيجابية وأحداثها ذات دلالة وأبعاد تربوية ودعوية، ومن الجوانب المهمة في حياته ـ رحمه الله ـ ما يلي:

١ ـ عدم الملل من القراءة والبحث والمطالعة فيمكن أن يجلس ساعات دون ملل أو ضجر في حين أن من حوله يملون ويضجرون ولقد استمر الشيخ في البحث والقراءة ومطالعة الكتب من سنوات عمره الأولى حتى ساعاته الأخيرة ـ رحمه الله.

٢ ـ الشيخ يحضر لدروسه جيدًا ويقرأ كثيرًا قبل الدرس بوقت كاف.

٣ ـ الشيخ متابع جيد وبدرجة كبيرة للأحداث السياسية من خلال وسائل الإعلام المتنوعة والنشرات الخاصة.

٤ ـ يحب ـ رحمه الله تعالى ـ الأخبار الطريفة والغريبة التي تنشر عبر وسائل الإعلام ويتعجب منها، وكنت أحرص على إحضارها إليه لإدخال السرور على نفسه ـ رحمه الله ـ وهو مسرور دائمًا.

٥ ـ لا يبخل الشيخ بجاهه في أي مجال من مجالات الحياة ولا يتردد في بذل المعروف لأي أحد.

٦ ـ لم يكن الشيخ ـ رحمه الله ـ متساهلاً في أمور الشفاعة، فالشفاعة الحسنة عنده أولاً قربة وطاعة لله تعالى، ثم هو لا يشفع إلا لمن يُزَكَّى عنده من عدد من الثقات المعروفين لديه بخلاف ما يظنه بعض الناس عنه في هذا الأمر.

٧ ـ للشيخ قدس اللّه روحه تعامل فريد مع الأطفال فحينما يسلم عليه الصبيان فإنه غالبًا ما يسأل عن الاسم ومستوى الدراسة ثم يسأله من ربك وما دينك ومن نبيك ولأي شيء خلقت وما الدليل، وأحيانًا ماذا تحفظ من القرآن.

٨ ـ أعمال الشيخ الخيرية والدعوية كثيرة جدًّا، فهناك آلاف المساجد بنيت بواسطته في الداخل والخارج، وهناك المدارس وحلقات القرآن الكريم وحفر الآبار وشق الطرق وإعانات الزواج وغيرها كثير جدًّا ولا يوجد فيما أعلم عمل خير إلا وكان للشيخ فيه نصيب وافر رحمة اللّه عليه.

٩ ـ من شدة كرمه وترحيبه بضيوفه أنه إذا انتهى من الأكل على العشاء أو الغداء لا يبادر بالقيام إلا بعد أن يتأكد من أن الجميع قد انتهى، وإذا قام قبل ذلك فإنه يردد عبارته المشهورة «كل باختياره كل باختياره» بمعنى أتموا أكلكم ـ رحمة اللّه تعالى عليه.

وإذا دعا له الضيف بعد الأكل فإنه يرد عليه بقوله: فيه العافية.

١٠ ـ إذا سمع من أحد كلامًا لا يعجبه أو تدخل فيما لا يعنيه فإنه يقول له (سبح سبح) لا يزيد على ذلك.

١١ ـ من دعواته التي كان يرددها (اللّهم اهدنا فيمن هديت) و(اللّه يحسن العاقبة) و(اللّه يطيب قلوب الجميع) حينما يذكر أحد عنده بسوء.

١٢ ـ حينما يخرج من عائلته ويستقبله أحد كُتّابه أو أحد طلابه أو أحد حراسه فإنه يبدأ بالمصافحة قبل الشخص الآخر ويسأل عن أحوال أهله وهكذا من كريم خلقه وعظيم تواضعه.

١٣ ـ لا توجد قضية من قضايا المسلمين في حياة الشيخ إلا وكان له رأي فيها ودور بارز في معالجتها. (مجلة الدعوة العدد: ١٦٩٣).

ويقول الشيخ عبدالرحمن بن عبدالعزيز العقل معددًا بعض مناقب

الشيخ في مقالة له عن سماحته: «ولعلي في هذه العجالة أشير إلى بعض هذه الفضائل والخصائص التي وجدتها فيه من خلال دروسه وجلساته ومن كتبه وأشرطته:

١ ـ التقوى والخشية للَّه تعالى.

٢ ـ الإخلاص والصدق مع اللَّه والنية الصالحة.

٣ ـ كثرة تعلقه باللَّه تعالى وقوة التوكل والاعتماد عليه سبحانه ويقينه العظيم باللَّه تعالى.

٤ ـ كثرة تذكر الآخرة ونعيم الجنة وما أعده اللَّه لأهلها وعذاب النار وما أعده اللَّه لأهلها.

٥ ـ خشوعه وبكاؤه الكثير من خشية اللَّه.

٦ ـ زهده في هذه الدنيا وتجافيه عنها وعن كل حطامها.

٧ ـ ورعه العظيم في أقواله وفتاويه رغم ما رزقه اللَّه من علم غزير فقد سمعته عشرات المرات يقول إذا سئل: «اللَّه أعلم» في مسائل يفتي بها سائر الناس فضلاً عن طلبة العلم.

٨ ـ قوته في العبادة وجمعه بين أنواعها من صيام وصدقة وقيام ليل وكثرة ذكر واستغفار وغيرها.

٩ ـ غزارة علمه وموسوعيته المتكاملة وإلمامه بفنون الشريعة وعلومها، وجمعه المتين بين الفقه والحديث.

١٠ ـ فهمه العميق لمقاصد الشريعة وإحاطته بنصوصها مع سعة الأفق وبعد النظر ودقة الفقه.

١١ ـ إدراكه الواسع لقواعد المصالح والمفاسد وقدرته الفذة على التوفيق بينهما ومعرفة الأصلح في هذا الباب الذي تزل فيه الأقدام.

١٢ ـ حرصه الشديد على اتباع السنة والدليل واقتفاء أثر النبي ﷺ في كل شيء.

١٣ ـ جلده وصبره وجده في العلم فلقد كان يجلس لبعض دروسه ما يقارب من ثلاث ساعات جلسة واحدة ويقرأ عليه فيها أكثر من عشرة كتب رغم تقدم سنه وتردي صحته ـ رحمه اللَّه ـ.

١٤ ـ ما حباه اللَّه ومنَّ به عليه من قوة الحافظة والذاكرة التي متعه اللَّه بها إلى آخر حياته.

١٥ ـ حرصه ـ رحمه اللَّه ـ على كسب القلوب وتقارب الآراء وجمع الكلمة وتوحيد الصف.

١٦ ـ أدبه الرفيع مع المخالفين وعدم تجريحهم والتغليظ عليهم، وهذه منقبة عظيمة لا يتصف بها إلا أعاظم الرجال.

١٧ ـ تصديه للبدع والرد على المبتدعة وجهاده الطويل في هذا المضمار.

١٨ ـ صدعه بالحق ووقوفه ـ رحمه اللَّه ـ في وجوه الفتن واجتهاده العظيم في رد المنكرات وقمع الفساد وثباته الواضح أمام أمواج الفتن.

١٩ ـ مواقفه الجبارة في الإصلاح والدعوة ونشر الخير والعلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢٠ ـ عالميته الواسعة وتجاوزه هموم بلده ووقوفه مع المسلمين في أقطار الأرض والإحساس بهمومهم ومتابعة أخبارهم ودعمهم المعنوي والمادي.

٢١ ـ صدق شفقته على الأمة ودوام مناصحة المسلمين عامتهم وخاصتهم، واجتهاده ـ رحمه اللَّه ـ في ذلك.

٢٢ ـ تواضعه الجم ووقوفه مع الفقراء والمساكين والأرامل في كل بلد وفتح بابه لكل أحد، وسماعه لمشاكل الناس جميعًا والاجتهاد في معالجتها،

والسعي في قضاء حوائج الناس، والشفاعة لهم.

٢٣ ـ سماحة نفسه ـ رحمه اللَّه ـ وسعة خلقه ولطفه ولين عريكته مع جميع الناس.

٢٤ ـ كرمه العميم وسخاؤه الذي لا يشق له غبار.

٢٥ ـ حلمه وعفوه وصفحه ـ رحمه اللَّه ـ على من أغلظ عليه أو آذاه.

٢٦ ـ سمته ووقاره ـ رحمه اللَّه ـ والسكينة التي لا تفارقه أبدًا.

٢٧ ـ بشاشته وطلاقة وجهه وحسن منطقه ـ رحمه اللَّه تعالى. فللَّه دره كيف جمع بين هذه كلها. وهذه الصفات التي ذكرت في هذا الإمام المجدد إنما هي غيض من فيض سقتها كي يُقتدى به فيها (وله في كل واحدة مما ذكرت قصص وأخبار ومواقف عظيمة تستحق التأمل وتثير العجب تكتب بالمجلدات) فهو قدوة ومثال يُقدم لشباب الإسلام وطلبة العلم بل والعلماء عسى أن نسير مسيره ونرتسم خطاه ونتأسى به في هذه الخلال العظيمة التي منّ اللَّه عليه بها جميعًا، نسأل اللَّه أن يرفع قدره ويعلي في العالمين ذكره، ويسكنه فردوسه الأعلى، كما نسأله أن يأجرنا بفراقه ويخلفنا مثله، ويجبر قلوبنا بفاجعة موته ـ رحمه اللَّه رحمة واسعة، وصلى اللَّه على نبينا محمد»[1].

* الولي.. العابد المتهجد.. البكّاء.. الذاكر.. المخلص.. الزاهد:

لقد اقتدى سماحة الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بالنبي ﷺ فهو عابد من العباد، ولي من الأولياء، قدوة للأتقياء كثير العبادة، دائم التسبيح، غزير الدمعة، رقيق القلب، خاشع النفس.

---

(١) جريدة الرياض ـ العدد ١١٢٨٩.

تتجافى جنوبهم عن وطيء المضاجع
كُلّهم بين خائفٍ مستجيرٍ وطامع
تركوا لذة الكرى للعيون الهواجع
ورعوا أنجم الدجى طالعًا بعد طالع
واستهلت عيونهم فائضات المدامع
ودعوا يا مليكنا يا جميل الصنائع
اعف عنا ذنوبنا للعيون الدوامع
اعف عنا ذنوبنا للوجوه الخواشع
أنت إن لم يكن لنا شافع خير شافع

❑ قال لي أحد الملازمين لسماحته في سر توفيق الشيخ ونجاحه، وبصيرته الثاقبة في كثير من المعاملات والآراء والمواقف، قال: ما ظنك برجل يبيت يناجي ربه ويدعو ويرجو ويهتف ويبكي، ثم إذا ارتفع النداء بادر إلى المسجد ثم صلى الفجر في خشوع وخضوع، ثم أتى بكامل الأوراد ثم أُتي له بالأوراق كلها، ثم يبدأ بقراءة المعاملات، والنظر في حاجات الناس، ثم قراءة بعض مسائل العلم، ثم قبل أن يخرج من بيته وهو في كامل طهره ووضوئه، متطهرًا متطيبًا متسوكًا، يتجه إلى اللَّه تعالى ويدعوه أن يحفظه وأن يعينه وأن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، أليس مثل هذا حريًا بأن يكون التوفيق حليفه، والنصر ربيبه، وأجزم أن الشيخ لو علم أنه سيموت في اليوم المحدد والوقت المحدد، ما زاد في عمله شيء، فكل وقته للَّه، وباللَّه، وفي اللَّه، ومع اللَّه.

❑ يقول أحد تلاميذه: «أما صلابة الشيخ ونشاطه في العبادة فالمواقف فيه كثيرة جدًّا حدثني أحد الدعاة أن الشيخ سافر برًّا من الرياض إلى مكة أو العكس فلما جاءت الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل قال الشيخ: ما

رأيكم لو نمنا هنا، ثم في الصباح نكمل السفر فوافق كل من كان معه حيث غلبهم النوم، ويريدون أن يستريحوا فلما نزلوا من السيارة كل منهم ذهب إلى ناحية فنام فيها أما الشيخ فإنه لما نزل طلب ماء وتوضا ثم شرع يصلي ما شاء اللَّه له، ثم نام ولما قاموا لصلاة الفجر وجدوا الشيخ قد سبقهم للقيام ووجدوه يصلي!! فتعجبوا منه ومن جلده على العبادة، حيث كان هو آخر من نام وأول من قام فسبحان الذي أعطاه هذه القوة والعزيمة».

❑ ويحدثني الشيخ محمد الموسى بقوله: «في يوم من الأيام ونحن بمكة المكرمة دعي الشيخ من أحد الأعزاء لديه للمساهمة في أحد الاحتفالات الدعوية بجدة، وألحّ على سماحته بالحضور بعد صلاة المغرب مباشرة، فقال له الشيخ: خيراً إن اللَّه اللَّه، وحينما صلّى الشيخ المغرب عزَّ عليه أن يترك مجلسه المعهود مع الناس من المغرب إلى العشاء، فقال: لن نذهب الآن ونترك الناس لا بد أن أجلس لهم إلى صلاة العشاء، وننظر في حاجاتهم ومتطلباتهم، فجلس ثم أذَّن المؤذن للعشاء، فذهب إلى المسجد، فألقى درسه المعتاد قبل صلاة العشاء، وأجاب عن الأسئلة، ثم صلى العشاء واتجه إلى جدة، وكان في غاية السرور والانشراح؛ لأنه جلس إلى الناس ولم يذهب ويتركهم وراءه، فاستمع إلى شرح تفصيلي عن المشروع ونشاطاته، ثم دخل قاعة المحاضرات المكتظة بالناس فاستمع إلى كل الكلمات والقصائد، ثم ألقى كلمة، ثم بعد ذلك تناول طعام العشاء، وعاد إلى مكة، وفي أثناء ذهابه وعودته وأنا والدكتور الشويعر والأخ صلاح نتناوب القراءة عليه لم يفوّت دقيقة واحدة، فما وصلنا إلى منزله في مكة إلا الساعة الثانية ليلاً يقول: والشيخ من عادته أن يقوم للتهجد في حوالي الساعة الثالثة ليلاً، وكان ينبهني أنا والشيخ عبدالعزيز بن ناصر دائمًا، ينبهنا معه إذا قام يتهجد لكي نأخذ حظنا من الليل، قال: فجزمنا أنه لن يقوم في تلك الليلة، وأنه سينام ويتركنا ننام قال: فما جاء الوقت المحدد لقيامه إلا وهو ينبهنا ويوقظنا للقيام، ثم بقي

فانطلقنا إلى المسجد ـ مسجد القطان المجاور لنا، وهذا قبل بناء مسجد سماحته ـ يقول: فتأخّر الإمام فصلى بنا الفجر في صوت لا تسمع بأندى ولا أخشع منه، فلما سلم، استقبل الناس بوجهه، وحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم ألقى فيهم كلمة، فلما فرغ عاد إلى البيت، فقلنا الشيخ مرهق وسهران، ربما لا يجلس اليوم بعد الفجر قال: فأتى إلى مجلسه، ورمى الغترة والطاقية جانبًا، وجلس، ثم قال: باسم اللَّه: ماذا عندكم؟ قال: فأخذت أقرأ عليه المعاملات، وأنا أرى فيه من الانشراح والنشاط والسرور ما يبعث العجب، قال: فبقيت أقرأ عليه حتى الساعة السابعة والثلث تقريبًا، قال: فظننت أنه سينام بعدها نومة طويلة، فإذا به يقول لي: رتّب الساعة على ثمانية وثلث، قال: فأيقظناه الساعة الثامنة والثلث، فانطلق إلى رابطة العالم الإسلامي لحضور الندوات والاجتماعات المطولة، ولم يرجع إلى منزله إلا في وقته المعلوم، الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، ونحن جميعًا نكاد نسقط على وجوهنا من التعب والإرهاق ولم نلاحظ عليه شيئًا من ذلك ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

لقد كان ـ رحمه اللَّه ـ آية في التقوى، أعجوبة في الزهد والمراقبة والخوف من اللَّه ـ جل وعلا ـ كان من الذين يتقون اللَّه حق تقاته وماتوا وهم مسلمون، كان من المتقين الذي اهتدوا بكتاب اللَّه تعالى، وآمنوا بما أنزل على رسوله، لقد كانت التقوى ديدنه في حياته، ووصيته لجلسائه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، فامتثل الشيخ وصية ربه التي أوصى الناس جميعًا بها، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

ووصى المؤمنين بالتقوى، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

ووصى نبيه وهو أتقى الناس بالتقوى، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

*** محافظته على الصف الأول في الصلاة:**

❑ ومن صور التقوى عنده ـ رحمه اللَّه ـ المحافظة على الصلوات وإقامتها بخشوعها وركوعها وسجودها وأذكارها ودوام المحافظة على قيام الليل وكذلك السنن الرواتب وسنة الضحى وغيرها، وكذلك المحافظة على الأذكار والأوراد الشرعية: أذكار الصباح والمساء، دعاء الخروج من المنزل ودعاء ركوب السيارة وإجابة المؤذن حتى لو كان في أهم عمل فإنه يتركه ويجيب المؤذن، وإذا كان في السيارة وحان وقت الأذان طلب فتح المذياع ليستمع إلى الأذان ويتابع المؤذن، ويذكر الدعاء المشروع بعد الأذان.

❑ ومن صور التقوى في حياته عدم الكلام في غير طاعة، أو الحديث فيما لا ينفع.

ومن صورها الخشوع والخضوع والبكاء من خشية اللَّه.

ومن صورها الحرص التام على القول السديد، فأصلح اللَّه أعماله وبارك أحواله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

ومن صورها الامتثال الكامل لأخلاق القرآن، وآدابه وأوامره ونواهيه، والاقتداء الأمثل بسنة النبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة من حياته.

❑ هذا الإمام العابد لا أعرف أنني في يوم من الأيام رأيته في الصف

الثاني أو الثالث، فضلاً عن رؤيته وهو يأتي بركعة أو ركعتين فاتته من الصلاة، كما هو حال كثير منا اليوم، بل كان دائمًا في الصف الأول وراء الإمام مباشرة، سواء في الصلوات الخمس أو الجمع أو الأعياد. أو غير ذلك لا أعرف في حياتي أنني رأيته في غير هذا المقام الأسبق، وهذا سر من أسرار توفيق اللَّه له، وسبب من أسباب البركة العظيمة في عمره ووقته وعلمه ودعوته وجهده ورزقه، كيف يوفق العالم أو الداعية أو المسلم أيًا كان، كيف يوفق توفيقًا بينًا ويرتقي ويتقدم وهو من المتأخرين عن داعي اللَّه، المتهاونين بالمسابقة إلى نيل رضاه؟

❑ يقول الدكتور عبداللَّه الحكمي: «أذكر وصيته يوم جئت أقرأ ورقة فور انتهاء المؤذن من الأذان، فسأل: لم أسمع الأذان، هل أذن؟ فقلت: نعم الآن أذن. فقال: أتعمل وقد أذن؟ الصلاة الصلاة؟

الصلاة قوة للنفس، وسعادة للقلب، وانشراح للصدر، وطمأنينة للروح، الصلاة هي لحظات الارتقاء الروحي التي يقف المرء فيها بين يدي ربه ـ جل وعلا ـ يثني عليه،ويدعوه ويرجوه، ويستمد العون منه، ولذلك جعل اللَّه تعالى الصلاة سلاحًا للمؤمن، وعونًا له في معركة الحياة وأوصاب الدنيا فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والنبي ﷺ جعلت قرة عينه في الصلاة، ومن عرف محافظة الشيخ العظيمة واهتمامه البالغ بالصلاة، عرف سرًّا من أسرار القوة والعزيمة والفلاح والنجاح في حياته ـ رحمه اللَّه ـ .

❑ هنا قصة طريفة حدثت لسماحته، وهي تدل على حرصه الشديد ـ رحمه اللَّه ـ على الصلاة، وتعلق قلبه بها، ولقد كنت أرمقه في صلاته، فلا واللَّه ما رأت عيني، ولا سمعت أذني، أكمل ولا أجمل، ولا أفضل، ولا أتم من صلاته، فيمن رأيت من الناس في زماني.

القصة يحدث بها سماحته أحد الموظفين لديه، والمقربين إليه، وهو الشيخ محمد الموسى، وحدثني بها بعد وفاة الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ يقول: هذه القصة ذكرها لي سماحته قبل حوالي عامين، ويقول سماحته ـ رحمه اللَّه ـ قصة حدثت لي لا أزال متأثرًا بها إلى اليوم حدثت أيام شبابي، فقد كنت من المحافظين على الصف الأول في الصلاة، وفي يوم من الأيام تأخّرت عن الحضور مبكرًا بسبب القراءة في بعض الكتب لبعض المسائل الهامة التي شغلتني عن الصلاة، فلم أدرك الصف الأول، وفاتني بعض الشيء من الصلاة، وحينما سلم الإمام، وهو قاضي الرياض الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ، وكان أحد مشايخي ـ رحمه اللَّه ـ حينما رآني أصلي في طرف الصف، وقد فاتني شيء من الصلاة، تأثّر لذلك كثيرًا، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ثم بدأ يتكلم وقال: بعض الناس يجلس في سواليف ومشاغل حتى تفوته الصلاة، يقول سماحته: فعرفت أنه يعنيني بذلك الكلام، فلم أتأخر بعدها أبدًا، وذلك الموقف الذي حصل لي ما أنساه أبدًا!!.

إن هذه القصة وغيرها من القصص الكثيرة التي رويناها والتي سوف يرويها غيرنا إنها بمجموعها تجعل المرء يقف على السرّ الحقيقي في رفعة هذا الإمام وعلوّ همّته، وذياع صيته ـ رحمه اللَّه رحمة واسعة ـ.

أروح وقد ختمت على فؤادي ... بحبك أن يحل به سواكا
فلو أني استطعت غضضت طرفي ... فلم أبصر به حتى أراكا
إذا اشتبكت دموع في خدودٍ ... تبين من بكى ممن تباكى

*** المداوم على ذكر اللَّه:**

❑ لقد كان الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ لاهجًا بذكر اللَّه، مترنمًا بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل، لا يفتر لسانه أبدًا، بل لقد كنت أرمقه وهو يرد

على المتصلين فأراه في أثناء إنصاته لحديث المتصل يلهج بالذكر، ولقد كنت أنظر إليه بعد انتهاء الصلوات فإذا به لا يقوم من مصلاه إلا وقد أتى بالأذكار كلها، وأطول مدة كان يجلسها في الصلوات هي بعد صلاة الفجر وبعد صلاة المغرب، بعد الفجر لأنه يأتي بأذكار الصلاة، ثم يأتي بأوراد الصباح، فيقول: «لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» مائة مرة، ويقول: «سبحان اللَّه وبحمده، سبحان اللَّه العظيم» مائة مرة.. إلى غير ذلك، وكذلك الحال بعد صلاة المغرب.

❑ لقد كانت محبة اللَّه وعظمته، والتعلق به ظاهرة جلية ينطق بها لسانُه، ويخفق بها جنانُه، ويسطرها بنانُه، وهذا سرٌّ من أسرار التوفيق في حياته، والبركة في عمره وعلمه ـ رحمه اللَّه ـ.

*** إخلاص الشيخ الإمام:**

❑ لم يكن الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ باحثًا عن سمعة، أو لاهثًا وراء المديح، أو متطلعًا للثناء، بل كان في كل ما يعمل وما يذر يقصد وجه اللَّه تعالى، كما نحسبه واللَّه حسيبه، وكما علمنا ذلك من واقع المعايشة والمتابعة لم يكن الشيخ ممن يحب التصدر أو الظهور، لقد بسطت جميع الوسائل المسموعة والمقروءة والمرئية، أذرعتها لاحتضان الشيخ، وأشرعت أبوابها لاستقباله، وارتمى كثير منها عند قدمه، فلم تظفر منه بشيء من ذلك، يهرب من الأضواء، ويكره الضجيج، ويبتعد عن مواطن الشبه، مهما أوّلت له التأويلات، وذكرت له المبررات.

❑ كان ـ رحمه اللَّه ـ لا يسمح لأحد من الشعراء والأدباء بإنشاء الشعر في إطرائه أو مديحه، وإذا تجرأ بعضهم على شيء من ذلك فإنه يوقفه في أثناء القصيدة، ولا يدعه يكملها، وقد حدث ذلك أمامي مرّات كثيرة[1].

---

(١) «إمام العصر» (ص٦٨).

* زهد الإمام ابن باز في الدنيا:

❑ ما كان سماحة الشيخ ابن باز يلقي للدنيا بالاً، ولا يقيم لها شأنًا، ولا يحسب لها حسابًا، أعرض عنها مستعليًا عليها فأقبلت إليه وهي راغمة، إن هذا الشيخ ليس له من صفات أهل الدنيا إلا أنه يعيش بينهم وإلا فأنت واللَّه ترى رجلاً من أهل الآخرة قلبه هناك، وفؤاده هناك يجلس إلى الناس وقلبه في الملأ الأعلى، ويتحدث معك وروحه مع خالقه.

إذا كان حب الهائمين من الورى ... بليلى وسلمى يسلب اللب والعقلا

فماذا عسى أن يفعل الهائم الذي ... سرى قلبه شوقًا إلى الملأ الأعلى

سُئل الشيخ عبدالرحمن بن عتيق المسئول المالي لسماحته: هل سألك الشيخ في يوم ما عن الراتب متى يأتي، أو متى يصرف، أو شيء من هذا، وهل سألك في يوم ما قدر الراتب، كم هو؟ فقال: واللَّه ما سأل عن ذلك أبدًا وإنما كان يسأل عن رواتب الناس ويحض على عدم تأخيرها.

❑ إن أمر هذا الشيخ كان عجبًا، ولولا أنها حقائق رأيناها وعشناها لقلنا: إنها من عالم الخيال.

أتيته في يوم من الأيام فأخذت أتوسل إليه، وأترجاه وأحاول معه أن يوافق لي على السعي في شراء هذا المنزل الذي يسكنه بمكة فهو ليس له بل هو مستأجر، فحاولت إقناعه وقلت له: لا أريد منك إلا الموافقة والباقي عليّ، فقال لي: اصرف النظر عن هذا الأمر، أي شيء تحتاجه مني في مساعدة أو شفاعة للمسلمين فلا تتردد، أما لي أنا فلا.

❑ ولم تكن هذه حادثة فريدة، أو قصة وحيدة لسماحته، فإن سجل حياته قد ضمخ بعبقٍ من هذه المواقف الماجدة، انظر إلى قصة حصوله على جائزة الملك فيصل ـ رحمه اللَّه، تلك الجائزة التي لها مكانتها الدولية وثقلها العالمي، لم يكن في باله وهو يتسلمها أن يفرح بهذا المبلغ المغري الذي جاءه

من غير تطلع أو استشراف نفس، لم يفرح به ليطور به بعض الضروريات الحياتية لأهله وأبنائه ومنزله أو يشتري به أرضًا أو يقيم به سكنًا، بل انطلق لاستلامه وهويحمل هموم الأمة الإسلامية في كل مكان، ومن ضمن ذلك دار الحديث الخيرية بمكة المكرمة التي وقفت على خدمة السنة، ودراسة الهدي النبوي، وتحوي بين جنباتها عددًا هائلاً من أبناء العالم الإسلامي، الذين ينهلون من علمها، ويستنيرون بنورها، ولكن أوضاعها المادية متردية، وميزانيتها ضئيلة، إنها بحاجة إلى يد خيرة تشد من أزرها، وتدفع عجلتها، ومَنْ إذًا إن لم يكن عبدالعزيز بن باز ـ رحمه اللَّه ـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

براءة جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام

❑ إن هيئة جائزة الملك فيصل العالمية بعد اطلاعها على نظام جائزة الملك فيصل العالمية المصادق عليه من مجلس أمناء مؤسسة الملك فيصل الخيرية بالقرار رقم ٩٨/٦٦/١١ وتاريخ ١٣٩٨/٨/١٠هـ وعلى محضر لجنة الاختيار لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٤٠٢هـ تقرر منح صاحب السماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبداللَّه بن باز جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام هذا العام ١٤٠٢هـ وذلك لخدماته الجليلة المتمثلة فيما يأتي:

١ ـ تنوع نشاطاته في ميادين الدعوة إلى اللَّه، ومثابرته على الجهاد والنضال والعمل الصالح في هذا العصر.

٢ ـ التزامه بالإسلام التزامًا عمليًّا في فكره وسلوكه، ومنهجه في الحياة ودعوته إلى ذلك.

٣ ـ إسهاماته القيمة في مجالات البحوث والدراسات، وفي حقل التعليم الإسلامي، ونشر الكتاب الإسلامي بجميع أنواعه، وتعميم توزيعه

في أطراف العالم، حتى غدا علمًا بارزًا من أعلام الثقافة الإسلامية.

٤ ـ حرصه على إيجاد الحلول المناسبة لقضايا الإسلام والمسلمين في الديار والأصقاع المختلفة.

٥ ـ دعمه للجهاد الإسلامي في كل بقاع العالم.

٦ ـ مساندته المشاريع الإسلامية، وحث العلماء والأشخاص والهيئات على مساعدتها والمشاركة بها.

وإن هيئة الجائزة إذ تمنحه ذلك، تسأل اللَّه أن يبارك في جهوده الخيرة وأن يمده بعنايته وجميل رعايته، حتى يواصل عمله في خدمة الإسلام والمسلمين.

واللَّه ولي التوفيق

خالد الفيصل بن عبدالعزيز

رئيس هيئة الجائزة

❑ وقال الشيخ في هذا اليوم وهذا الحفل: «أسأل اللَّه أن يعيننا على ما يجب علينا من خدمة الإسلام والمسلمين وأن يكلل الجهود بالنجاح والصلاح، وأن يعفو عنا ما قصرنا فيه فإن التقصير كثير، لكن نسأل اللَّه أن ينفعنا لتقديم الخير وأن يعفو عنا وعن إخواننا جميعًا فيما قصرنا فيه، وأن يمنحنا جميعًا النشاط والقوة في ميدان الحق ونفع المسلمين في كل مكان قولاً وعملاً.

❑ وبناء على هذا وأني حصلت عليها بسبب تقدير إخواننا في الهيئة طبعًا تقديرًا على الخدمة الإسلامية فإني أبذلها أيضًا وأهديها أيضًا إلى دار الحديث الخيرية الأهلية المكية معونة لها على ما تقوم به للخدمة الإسلامية، فإن دار الحديث الخيرية الأهلية بمكة تخدم المسلمين أيضًا وتخدم أبناءهم في سائر أرجاء المعمورة من أفريقيا وآسيا وغيرهما.

* خدمة المسلمين ولين الجانب:

يقول الدكتور ناصر الزهراني في كتابه «إمام العصر» (ص١١٧ ـ ١١٩): «بعض الناس قد يطبق السنة، ولكن ما راق له منها فقط، وما وافق هواه، وتمشى مع واقعه، أما الشيخ فلم يدع منها شيئًا، تمثلها روحًا وواقعًا فمن تشعبت به السبل، وبارت الحيل، لجأ بعد اللَّه إلى هذا الشيخ، لينفس كربه، ويفرّج همه، ويحل مشكلته، إما بمساعدة، وإما بخطاب شفاعة، وإما بنصيحة، وكلُّ ذلك بصدرٍ رحب، وأدب جم، ولا يلحقه منًّا ولا أذى، وأجزم لو جمعت خطابات الشيخ في الشفاعات فقط لجاوزت الملايين، أين ذلك من أناس أعطاهم اللَّه جاهًا ومكانًا، ومع ذلك لا يطمع المكروب في تنفيسهم لكربته، ولا المهموم في تفريجهم لهمه، ولا المستشفع في نيل شفاعتهم، وربما لو شفع الواحد منهم شفاعة واحدة في الأسبوع لرآها أمرًا عظيمًا، ومبادرة كبيرة، ولعدّها من أهم المواقف في حياته!!.

وانظر إلى مواقف سماحة الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بذلت شفاعته للبعيد قبل القريب، وللغريب قبل المقيم، أما لنفسه فليس له من ذلك نصيب أبدًا.

لقد كنت وأنا واحدٌ من آلاف المتعاملين معه، والمستعينين به بعد اللَّه في حل مشاكل الناس، وتنفيس كرباتهم، كنت واللَّه أذوب خجلاً وأقطر حياء من الشيخ من كثرة ما أكتب له.

فأتيته في يوم من الأيام فقبّلت جبينه الطاهر، وجلست عند قدميه، وقلت له: يا سماحة الوالد أنا أتيت معتذرًا منك لكثرة خطاباتي إليك، وشفاعاتي عندك، وأنا في غاية الحرج، الناس يؤمّلون فيَّ الخير، وأنا وهم أملنا بعد اللَّه تعالى فيك، فأرجو أن لا يضيق صدرك بهذا، فإن كان في الأمر مشقة عليك، فسوف أختصر الكتابات، فابتسم، وقال: «هداك اللَّه.. هداك اللَّه، اشفعوا تؤجروا، اشفعوا تؤجروا، جعلكم اللَّه مفاتيح للخير،

جعلكم اللّه مفاتيح للخير». فازددت نشاطًا إلى نشاطي، وحماسًا إلى حماسي، وكنت كلما بردت همّتي، أو كلّت عزيمتي، سرت إلى سماحته، وبادرت بزيارته، فأجلس إليه ساعةً أو جزءًا منها فأنظر إلى صبره وجهاده وحلمه وعطفه وبرّه وعزيمته، وهو في هذا العمر الكبير، والسن المتقدمة ثم أنظر إلى نفسي، وأنا الشاب الجلد الذي منّ اللّه عليه بالصحة والعافية، فأقول ماذا قدّمت أنا لأمة الإسلام، فأخرج من عنده وقد امتلأت نفسي حيويةً ونشاطًا، وإيمانًا ويقينًا.

*** الشمولية في الحياة:**

❑ إن الأبواب المتعددة، والأنواع الكثيرة، من أعمال البر، والخير والإحسان والعلم والتعليم، كانت بأنواعها متمثلةً في سماحة إمامنا وعالمنا ـ رحمه اللّه ـ.

فلم يكن الشيخ عالمًا فقط، فالعلم لا شك رتبة رفيعة، ومنزل منيف، ولكن الإنسان بالعلم وحده لا يمكن أن يصل إلى ما وصل إليه الشيخ ـ رحمه اللّه ـ والشيخ ليس بدعًا من الأمر ولا شيئًا خارقًا للعادة في حياة البشر، بل وصل إلى ما وصل إليه بالتزامه الكامل بالهدي النبوي فقد كانت هذه الشمولية متمثلة أجمل تمثيل، واضحة أحسن الوضوح في حياة النبي ﷺ، كان العالم والمعلم والأب والأخ والناصح والمعين والكريم والجواد والعطوف والمحسن والجواد والحليم والرفيق بذل وقته لربه ولكتابه ولأمته.

❑ إن هنالك كثيراً من العلماء يعلمون الناس ويدرسونهم أخلاق النبي وصفاته وحسن تعامله، ولكن البشرية محرومة من عطفهم ورفقهم ومخالطتهم، والسعي في حوائجهم، وكسب قلوبهم، وإطعام جائعهم وتنفيس كربهم، وتفريج همومهم، ونصرة مستضعفهم، فأنى للناس أن تحبهم، وتسكنهم في حنايا قلوبهم.

إن كثيراً من العلماء والمشايخ لا يطمع الناس في رؤيته إلا على شاشة

التلفاز، أو في صلاة العيد أو الجمعة ـ لمن لم يكن من أهل الحي ـ أو في مشهد عام، أو على كرسي التعليم، ولكن بعد ذلك يضرب بينهم بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، لا تطمع منه في زيارة، لا تحلم منه بشفاعة، لا تؤمل في تنفيس كربة، لا ترجو بذلاً أو عطاءً أو غداءً أو عشاءً.

أما سماحة الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ فقد بذل نفسه ووقته وماله وجاهه في سبيل اللَّه، كنت أتأمل بعض أعماله فأرى ما يبهر النفس ويبهج القلب ويسر الخاطر، فألجأ إلى اللَّه تعالى شاكرًا حامدًا على أنه أوجد في أمة محمد أمثال هذا الرجل الهمام، أعطيك مثالاً واحدًا يفعله الشيخ في وقت واحد فقط، وهو بعد صلاة الفجر، دعك من بقية اليوم، يصلي الشيخ الفجر، ثم يأتي بالأوراد كاملة، بما في ذلك قول: «لا إلا اللَّه وحده لا شريك له له الملك وله والحمد وهو على كل شيء قدير» مائة مرة، وقول: «سبحان اللَّه وبحمده» مائة مرة، يفرغ من ذلك ثم يجيب على أسئلة بعض طلبة العلم والمستفتين الذين يلتفون حوله بعد الصلاة، ثم ينطلق إلى بيته فيؤتى له بالتمر، وكان ـ رحمه اللَّه ـ يحب التمر كثيرًا، ثم تدور القهوة، وفي أيامه الأخيرة ـ رحمه اللَّه ـ كان يشرب الحليب بعد الفجر، وكان تقريبًا هو غذاؤه طيلة يومه ـ في أيام مرضه ـ وحين ابتداء جلسته يكون المشايخ العاملون معه قد جلسوا عن يمينه وعن يساره، فيبدأ بالذي عن يمينه ثم ينتهي منه، وينتقل إلى الذي عن يساره، وقد يكونون ثلاثة أو أربعة أحيانًا، الشاهد من هذا كله وما أريد التذكير به هو هذه الشمولية، فتبدأ المعاملات:

الأولى: نحن أهالي القرية الفلانية لدينا مقبرة قد وطئتها الأنعام وتهدم بناؤها وسقطت حيطانها فنرجو من سماحتكم مساعدتنا في تسويتها، فيكتب الشيخ لهم بالإيجاب، ويسعى في تحقيق أمرهم.

الثانية: نحن إخوانكم من المسلمين أهل السنة والجماعة في البلد الفلاني ونحتاج إلى مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم اللغة العربية.. فيستجيب لطلبهم ويكلف من يبحث موضوعهم.

الثالثة: أنا امرأة أرملة فقيرة مات زوجي وترك لي أطفالاً صغارًا، وليس لي مصدر دخل، فآمل من اللَّه ثم منكم مساعدتي، فإذا تأكد الشيخ من صدقها، وفحص أوراقها، أمر لها براتب شهري لا يقل عن ألف ريال.

الرابعة: نحن من إخوانكم المسلمين في أمريكا ولدينا أرض نريد شراءَها لتعمير مسجد عليها، فنأمل من اللَّه ثم منكم مساعدتنا والشفاعة لنا لدى أهل الخير لشراء هذه الأرض، فيجد الأمر غاية الترحيب منه ـ رحمه اللَّه ـ ويكتب لمن يراه من أهل الخير.

الخامسة: سماحة الوالد لقد وقع بيني وبين زوجتي خلاف شديد مما أدى إلى غضبي وتلفظي بالطلاق.. وإنني في حيرة من أمري آمل منكم إفتائي في هذا الأمر، فيطلب الشيخ منه الحضور مع الزوجة والولي إلى منزله، ويكون ذلك في الغالب بعد العشاء ـ وهو أمر شبه يومي ـ فيظل وقتًا طويلاً معهم ويسمع أقوالهم ويفتي لهم، وكم من أسرة التمَ شملها بفضل اللَّه تعالى ثم بفضله، وفهمه، وعلمه، وفتواه.

السادسة: نحن جماعة من أهل الكتاب والسنة في البلد الفلاني، ونحتاج إلى عدد من المراجع المفيدة في العقيدة والتفسير وغيرها، فيستجيب لطلبهم، ويبعث لهم بعدد من الكتب والمراجع القيمة، ويدعو لهم بالفلاح والنجاح، والثبات على الحق.

السابعة: نحن أبناؤكم في البلد الفلاني، ولدينا جماعة تسمى كذا، فما رأي سماحتكم في السير معهم والاستماع إلى كلامهم، وما هو معتقد

أهل السنة والجماعة الصحيح الذي تنصحوننا بالسير عليه فيأتي الجواب شافيًا كافيًا يفيض علمًا وحلمًا وطهرًا ورفقًا ورحمة.

❑ وهكذا ينطلق بهذه النظرة الشاملة والنفع العام والخير الأتم، ومن يطيق مثل هذا العمل الشاق المتعدد الموارد والأشكال والأحوال بصورة يومية بل يمتد هذا الجهد من الفجر إلى منتصف الليل أحيانًا.

❑ قبل وفاته ـ رحمه اللَّه بأيام أرسل لي بمعاملة كنت بعثت بها إليه لبناء مسكن لأرملة فقيرة تهدم منزلها، وأبدى موافقته على ذلك، وبعد وفاته أتتني بعض المعاملات التي بعثت بها إليه قبل وفاته ـ رحمه اللَّه ـ بأيام من ضمنها ثلاثة طرود من الكتب النافعة لكي أرسلها إلى الهند لجميعة إسلامية هناك، كتبوا لسماحته يطلبون كتبًا في العقيدة والتفسير، وجاءني شيك بمبلغ من المال مساعدة لرجل تحمل حمالة، فكنت أقرأ خطابات سماحته ـ رحمه اللَّه ـ التي وصلتني بعد موته، وأنثر دموعي عليها، وأقول: رحمك اللَّه، رحمك اللَّه، رحمك اللَّه ولقد جاءني خطاب موقّعٌ من سماحته في آخر يومٍ من أيام حياته يوم الأربعاء ٢٦/ ١/ ١٤٢٠هـ.

❑ وأذكر هنا قصة رواها الدكتور محمد الشويعر تدل على الآفاق الخيّرة التي بلغها سماحته ـ رحمه اللَّه ـ يقول: «ذهب وفد سعودي في إحدى المهمات إلى غابات أفريقيا، فجاءت عجوز عند هذا الوفد، وقالت لأحد رجال الوفد: أنتم من السعودية؟ فقال: نعم، فقالت: أبلغ سلامي على الشيخ ابن باز، فقال: كيف عرفتيه؟ فقالت: لقد كنت أنا وزوجي عائلة نصرانية وأسلمنا، ولكن طاردنا أقاربنا، وضاقت بنا الدنيا، فسألت عن مساعد بعد اللَّه، فقالوا: ليس لك بعد اللَّه إلا ابن باز، فكتبت إليه، وكنت لا أتوقع وصول الرسالة، ولكن فجأة إذا بالسفارة السعودية تتصل بي وتطلبني بمراجعتها وإذا بسماحته قد أرسل لها بمساعدة عشرة آلاف ريال،

فهذا الرجل كان له فضل بعد اللّه في ذلك بعدما عرف أننا في بلاء ونحن مسلمون.

لقد كانت جهوده عظيمة، وفيوضه كبيرة، وعطاءاته دائمة لا يكل من فعل الخير ولا يمل.

❑ رأيته في الأشهر الأخيرة من حياته ذهب في يوم من الأيام من مكة إلى جده ليشارك في مؤتمر هناك، ثم تناول معهم طعام الغداء، فعاد إلى مكة، فصلى العصر وألقى الدرس بعد العصر، ثم ارتاح قليلاً ثم صلى المغرب وجلس قليلاً للناس، ثم ذهب إلى جدة لإلقاء محاضرة بعد العشاء، ثم بعد المحاضرة استضافه أحد الفضلاء، فذهب إليه، وألقى محاضرة، وأجاب على الأسئلة، وتناول طعام العشاء، وعاد ومرافقه يقرأ عليه عدداً من المعاملات والكتب من جدة إلى مكه، ثم كان أول الحاضرين في صلاة الفجر، وقس على ذلك كثيراً، وهذا غيض من فيض من الجهد الجبار، والنفع المتصل، والعطاء المبارك، مما يجل عن الوصف، ويصعب على الحصر.

❑ واستمع إلى هذه الحادثة التي هي أغرب من الغرائب، وأعجب العجائب، وقد حدثني بها الشيخ محمد الموسى ـ حفظه اللّه ـ يقول: «في مرض الشيخ الأخير كنا في الرياض في شهر شوال لعام ١٤١٩هـ، قال في يوم من الأيام، وكان يوم الجمعة اشتد المرض بالشيخ وتعب تعبًا شديدًا في ذلك اليوم، وكان طوال يومه يعاني ويتقيأ، فلم يستطع أن يصلي مع الناس لا الجمعة ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء، فقرّروا نقله إلى المستشفى وجاءه بعض المحبين له يطمئنون على صحته وكان من بينهم سماحة الشيخ عبدالعزيز آل الشيخ نائبه ـ المفتي حاليًا ـ، وقد قال مُطمْئنًا لهم: أُبشِّركم الأمر سهل والحمد للّه، تأثر خفيف، وسأذهب إلى المستشفى ونعود إليكم إن

شاء اللَّه.

❑ قال فذهبوا به إلى المستشفى وهو في حالة من التعب والمرض والإرهاق فعملوا له منظارًا وأعطوه بعض المغذيات والمهدئات فاستقرّت حالته نوعًا ما.

يقول: فاتصلت على الإخوان الذين مع الشيخ، وقلت لهم: بشّروا كيف حال الشيخ الآن، فقالوا: بخير والحمد للَّه، ولكنه يحب أن يقرأ عليه أحد، فقام أحد المرافقين وقرأ عليه قدرًا لا بأس به، ثم ناموا فإذا بالشيخ يقوم في وقته المعلوم لصلاة التهجد فيصلي ما شاء اللَّه له، ثم يقرأ القرآن، ثم يصلي بمن معه من المرافقين والأقارب والعساكر، صلى بهم الفجر، ثم استقبلهم بوجهه وألقى فيهم موعظة مؤثرة، ثم قرأ الأذكار والأوراد كاملة، فسأل الأخ صلاح عثمان: ماذا معك يا صلاح، قال: معي فتح الباري، وفتح المجيد، قال: باسم اللَّه اقرأ، فقرأ عليه إلى حوالي الساعة السابعة، قال: فذهبت إلى المستشفى لأطمئن على الشيخ، وكانت الساعة السابعة والنصف، وفي تمام الساعة الثامنة والنصف دخلت على الشيخ، وكنت أظنه نائمًا، فإذا به جالس على كرسيه يقرأ القرآن الكريم، فسلمت عليه فبادرني بقوله: هات إيش معك، فقلت: يا شيخ معي معاملات كثيرة، ومعي فتاوى اللجنة الدائمة الجزء الثاني عشر صدر من المطابع، ولكني تركتها بالسيارة وأتيت أطمئن عليك، قال: اذهب وأت بها، قال: فذهبت، وأتيت بالمعاملات، فقرأت عليه معاملة طويلة تتكوّن من اثنتي عشرة صفحة، ثم بدأت بكتاب الفتاوى، فقرأت عليه أربعين صفحة، فجاء ابنه عبداللَّه، فبدأ يكمل القراءة عليه إلى الصفحة الخمسين، ثم جاء الممرضون والأطباء ليطمئنوا على الشيخ، وينظروا إلى نتائج الفحوصات، فقالوا للشيخ: تحسنت حالتك والحمد للَّه، فقال لهم: ما بقي لكم عندنا شيء، ولم يبق لكم فيَّ

حاجة فهل تأذنون لي بالذهاب، فقالوا له: لا بأس فخرجنا من المستشفى، ونحن نظنُّه يريد الذهاب إلى البيت، فقال له ابنه أحمد: سنتجه إلى البيت إن شاء اللَّه، فقال له: لا، اتجهوا إلى المكتب، فذهب إلى مكتبه، فقال له ابنه أحمد: إذًا ننتظرك في البيت بعد صلاة الظهر مباشرة ـ إن شاء اللَّه ـ قال له لا سآتيكم في الموعد المعروف (الثانية والنصف) ـ إن شاء اللَّه ـ».

❑ يقول الشيخ إبراهيم بن عبدالعزيز الشثري ـ أحد تلامذته ـ: «وكلما دخلت عليه في مجلسه إذا بالناس ملتفون حوله كل منهم يريد القرب من الشيخ وهم من بلاد شتى فهذا رئيس مركز إسلامي وذلك أمين جمعية إسلامية وآخر داعية في بلد كذا وكذا من بلاد الغرب والشيخ يعرفهم بأسمائهم ويسألهم عن الدعاة في بلادهم وعن الجهود التي يقومون بها هناك وعن أحوال المسلمين ومدى انتشار الإسلام والعوامل التي تحول بينه وبين الانتشار وعن المرأة المسلمة وما تواجهه في تلك البلاد، فيوصي هؤلاء الدعاة ويوجه المسلمين في بلادهم بالتمسك بالإسلام وتقوى اللَّه عز وجل واللين والرفق في الدعوة والتركيز في الدعوة على العقيدة الصحيحة وتبيينها للناس كما يوصيهم بسماع إذاعة القرآن الكريم التي تبث من المملكة وخصوصًا برنامج نور على الدرب، فيكرر هذه الوصية دائمًا لما وجد من استفادة الناس من هذه الإذاعة المباركة عبر ما يصله من رسائل من أقطار العالم ومما يذكر في هذا رسالة وصلت إلى سماحته من أحد مستمعي برنامج نور على الدرب وهو مقيم في سجن في إحدى الدول الغربية يقول فيها إنه يسمع برنامج نور على الدرب وقد استفاد منه كثيراً ويطلب عرض رسالته على سماحة الشيخ ليعلم سماحته مدى استفادة الناس من علمه حتى الذين في السجون.

أما الرسائل التي تأتي إليه في منزله أو عمله من أناس خارج المملكة يطلبون كتبًا في العقيدة وأحكام الدين فإن سماحته يوصي بإرسال الكتب

المفيدة لأصحابها لكي يستفيدوا منها وبالفعل يتم إرسال الكتب والرسائل الصغيرة لهؤلاء الإخوة المسلمين المتعطشين لهذه الكتب ولأمثالهم لكي تنير لهم الطريق بتوفيق من اللَّه ـ جلا وعلا ـ فكم وكم أرسل سماحته من الكتب والرسائل المفيدة للإخوة الذين يطلبونها، فجزاه اللَّه خيراً وجعل هذه الأعمال في موازين حسناته يوم القيامة»[1] .

❑ وإن من أعظم الأعمال في حياته ـ رحمه اللَّه ـ فتاواه في مسائل الطلاق على وجه الخصوص، كم جمع اللَّه على يديه من الأسر، وكم أقام من كيان تحطّم، ومنزل تهدم، وجمع اللَّه به قلوبًا تفرّقت، وبيوتًا تشتّتت، وأسرًا تمزّقت، عشرات الآلاف من المطلقين الذين كان لسماحته الفضل بعد اللَّه تعالى في إعادة حبل الود بينهم، ورأب صدع نفوسهم، ولسوف يبكي الناس على فقده دمًا، فإنه لا يكاد يمرّ يوم لم تأته فيه مسألة طلاق إلى آخر يوم من حياته ـ رحمه اللَّه ـ.

❑ في الليلة التي توفي فيها أفتى في مسألة طلاق، وقبل وفاته ببضعة أيام جاءني رجل من مسافة بعيدة يشكي ويبكي، طلّق زوجته ولديه ثمانية أبناء، وسبق له أن طلّقها قبل ذلك، جاءني وقلبه ممزق، دامع العين كاسف البال، ومكدّر الخاطر، وكان يخشى أن يفتي له الشيخ بعدم جواز مراجعته لامرأته، وكان ذلك في حرّ الظهيرة الحارق، قلت له: أين الزوجة، قال: موجودة في السيارة ومعها وَلِيُّها، قلت: ائتني بهم إلى المكتب، فأخذت أقوالهم كاملة، وكتبتُ ما جرى بينهم، وكانت مشكلة كبيرة ملأت صفحتين كاملتين، فقلت له: انطلق الآن إلى سماحة الشيخ في الطائف، وصلّ المغرب، ثم اعرض أمرك عليه، وقل له: إنني قادم من سفر بعيد لكي ينهي أمرك في الحال، وقبل صلاة العشاء، وإذا بالرجل يهاتفني على الجوال ويكاد

(١) مجلة الدعوة ـ العدد ١٦٩٣.

يطير من الفرح، تلعثم لسانه، وارتبك كلامه من الفرح وأخذ يدعو لي ويدعو للشيخ بدعاءٍ طويل، ويقول: أبشرك الشيخ أفتى برجوع زوجتي إلى عصمتي.

❑ وكم من القصص التي كنا نراها عند سماحته ـ رحمه اللَّه ـ يأتي أصحابها ينثرون دموع الحزن، ويبكون لوعة المصيبة، فيخرجون من عند سماحته بدموع تذرف، ولكن من نوع آخر، إنها دموع الفرح والسرور والغبطة بفتواه التي أعادت الأمل، وزرعت الرضا.

طفح السرور عليّ حتى ... من عِظْم ما قد سرّني أبكاني

*** حُسن ظنه بالناس:**

من أعظم وأجمل ما ترى في هذا الشيخ: حسن الظن بالمسلمين، فالأصل عنده حسن الظن، ولا يحب التشكيك في أحد من المسلمين أو تخوينه، أو الكلام فيه بما لا يرضي حتى ولو بلغه أنه أخطأ عليه شخصيًّا أو نال منه، بل ذلك أدعى لجعله لا يهتم للأمر أصلاً، جاءه بعض طلبة العلم فشكوا إليه أحد الناس، وبينوا أخطاءه وبعض المخالفات عنده، فبدأ الشيخ يملي كتابًا لتوبيخه ونصحه وتوجيهه، وفي أثناء الكتابة، قال أحدهم: وإنه يا شيخ يتكلم فيك، وينال منك فقال الشيخ للكاتب: قف، وترك الكتابة خشية أن يقال إن الشيخ ينتقم لنفسه.

*** القيام بالمسئولية، والصدق في حمل الأمانة:**

* وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٢٧].

* وقال تعالى: ﴿**والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون**﴾ [المعارج: ٣٢].

● ويقول ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كَذَبَ، وإذا وعدَ أخلف وإذا ائتُمن خان**» (متفق عليه).

❑ ولذلك كان سماحة الشيخ من أبعد الناس عن هذه الصفات، وهو ـ رحمه اللَّه ـ يعرف المنزلة العظمى لمن أدى الأمانة، وقام بالواجب، ونصح للأمة، ويعرف قوله ﷺ: «**أربعٌ إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدقُ الحديث، وحفظُ الأمانة، وحُسن الخلق، وعفّة مطعم**»[1].

والشيخ ـ رحمه اللَّه ـ يعلم أنه مسلم، وأن عليه أمانة عظيمة، ثم هو عالم، وعليه أمانة عظيمة، ثم هو موظف مسئول يتقاضى أجره فعليه أمانة عظيمة، فأتى بما طلب منه، وأضعاف أضعافه، وقت الدوام الرسمي لا يخرم منه دقيقة، كان إذا كان في اجتماع، أو عمل خارج إدارته، ففرغ منه يسأل عن الساعة، فإذا بقي ولو نصف ساعة على نهاية الدوام يعود إلى مكتبه، ويكمل بقية دوامه، وهذا واللَّه رأيته أنا عدة مرات، ومع ذلك فوقت الشيخ كله دوام، ويومه وليلته في خدمة المسلمين.

❑ إن صاحب الحاجة لا يتعب في الوصول إلى الشيخ، يأتي الإنسان لديه مشكلة أسرية، أو قضية شخصية، أو فتوى شرعية، فإن لم يجد الشيخ في العمل، ذهب إلى بيته، فتغدى معه، وعرض عليه أمره، فإن لم يكن قابله في العصر، وقضى له حاجته، أتى إليه من المغرب إلى العشاء في بيته، فإن لم يمكنه أتى إليه بعد العشاء، فتعشى معه، وعرض قضيته، فإن لم يمكنه أتى إليه بعد الفجر، فهو يجلس إلى الساعة الثامنة تقريبًا.

---

(١) صحيح: رواه أحمد، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمرو، ورواه ابن عدي وابن عساكر عن ابن عباس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٧٣)، و«الأحاديث الصحيحة» رقم (٧٣٣).

❑ لقد رأيته ـ رحمه اللَّه ـ في الأيام الأخيرة من حياته، وهو على عمله الدءوب، وصبره العظيم، بل يزيد ولا ينقص، في ليلة من الليالي صلى المغرب ثم ألقى درسًا، ثم صلى العشاء، ثم عاد إلى البيت ليستقبل عددًا من حالات الطلاق، استنفدت من وقته أكثر من ساعة، ثم قام لموعد مع عدد من الأطباء بالجامعة لديهم أسئلة واستفسارات، ثم انتهى منهم، وألقى محاضرة في مدينة أخرى عن طريق الهاتف، كل هذا الجهد والعمل فقط من المغرب إلى ما قبل النوم دعك من بقية النهار، وهو مريض منهك، المرض يفتك بجسمه، والوباء يلتهم أحشاءه، ولم يبق منه إلا جلد على عظم، وفي الليلة التي تُوفِّى فيها ـ رحمه اللَّه ـ كان جالسًا للناس من المغرب للعشاء، وأفتى في بعض المسائل بعد العشاء، وجلس إلى أهله وأبنائه، ثم في الثلث الأخير من الليل وهو في مصلاه يذكر ربه ويسبحه ويحمده ويمجده، سافرت الروح إلى بارئها، وغادرت الروح الطاهرة هذه الدنيا بأتعابها وأوصابها، سافرت في ليلة الخميس؛ لأنه كان يستحب السفر كل اثنين وخميس فسافر إلى مولاه، وأجاب ربًّا دعاه ـ رحمه اللَّه، رحمه اللَّه، رحمه اللَّه ـ»[1] ا.هـ.

هل ما روينا وما يُروى لنا صور ... من الحقائق أم ضرب من الحُلُم

نعم، فكل معاني الفضل ماثلة ... فيكم وكل سمات النيل والشيم

❑ يقول الشيخ ناصر الزهراني تلميذ الشيخ وإمام مسجده: «الشيخ هو الصورة المشرقة للإسلام وأنا أعي وأعني ما أقول، إذا أردت أن تنظر إلى الإسلام واضحًا نقيًا، بيّنا جليًّا، فانظر إلى حياة هذا الشيخ وسيرته بمعنى أن الخصال المحمودة، والمثل الطيبة التي أمر بها الإسلام خير من يطبقها في هذا

(١) «إمام العصر» باختصار (ص٥٥ ـ ١٧٥).

الزمن، وخير من تمثلت في حياته ممن رأينا هو سماحة الشيخ ـ رحمه اللَّه، كان رسول اللَّه ﷺ قرآنًا يمشي بين الناس، وأفعاله وأقواله سنة للناس، فجاء الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ فكان قرآنًا يمشي بين الناس، وتمثل سنة المصطفى ﷺ فأصبح قرآنًا وسنة يمشي بين الناس، فواللَّه ما رأيته في يوم من الأيام متلبسًا بأمر معيب، أو ماضيًا في تصرف مشين، أو مخالفًا لسنة، بل كان شديد الحرص على تطبيق السنة بحذافيرها، في كل أموره كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها»[1].

* أقوال في الثناء على إمام أهل السنة والجماعة في عصرنا وقرننا سماحة الإمام الشيخ ابن باز:

❑ قال عنه الدكتور محمود بن محمد سفر وزير الحج:

«لقد سُئل العرب: كيف ساد فيكم فلان؟ قالوا: احتجنا لعلمه واستغنى عن دنيانا. وعندما يسألنا العرب والمسلمون كيف ساد فيكم ابن باز؟ نقول لهم: احتجنا لعلمه واستغنى عن دنيانا»[2].

* ولسوف يذكرك الزمان:

«الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.. وبعد.

ففي فجر يوم الخميس السابع والعشرين من شهر اللَّه المحرم من عام عشرين وأربعمائة وألف، فارق الدنيا وانتقل إلى رحمة اللَّه ورضوانه بإذنه سبحانه علم من أعلام الأمة، وبحر من بحارها، وحبر من أحبارها إمام أهل

(١) «إمام العصر» (ص١٧٤).

(٢) «جريدة الشرق الأوسط» ـ العدد ٧٤٧٧.

السنة، وحامي عقيدة السلف، حجة هذا العصر، شيخنا ووالدنا سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

❑ ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإننا على هذا الفراق لمحزونون، نسأل اللّه العلي القدير ألا يحرمنا أجره، ولا يفتننا بعده، وأن يغفر لنا وله، اللّهم اغفر له، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يا رب العالمين.

❑ لقد طويت صفحة من صفحات تاريخ الإسلام، صفحة من صفحات العلم والفضل، التقوى والورع، والزهد والعفة. لقد قال عنه الكثير كثيرون، ولسوف يقولون ثم يقولون، وإن مؤلفاته وآثاره تقول أكثر وأكثر.

❑ لقد دفنت في مقابر العدل بمكة المكرمة الطاهرة مرجعية من مراجع الفقه والفتوى، وعلم من أعلام الحديث والسنة، ونموذج شامخ من نماذج التقوى والصلاح، برحيله ـ رحمه اللّه ـ حدثت بأهل الإسلام ثلمة واسعة وفتحت ثغرة عميقة، يدرك المتأمل غورها إذا تذكر غزارة علم الفقيد، ويهوله عمقها حين يتأمل اقتران العلم بالعمل اقترانًا أتعب فيه الفقيد من بعده. لم يتوقف يومًا عن طلب العلم والاستزادة منه، ولم يتوقف عن تعليمه وبذله، ثم لم يتوقف فيما رأينا وعلمنا لحظة عن الممارسة العملية في لحظه ولفظه، قوله وفعله، في البيت والمسجد، والمكتب والمركب، والحضر والسفر، فهو في كل أحواله يربي ويوجه، ويعظ ويرشد، ويعلم ويفتي، ويدعو ويفقه.

❑ جانب من جوانب عبقرية الشيخ وتميزه يتمثل في الحياة الزاهدة

(١) للشيخ صالح بن عبداللّه بن حميد ـ جريدة المدينة العدد ١٣١٩٨.

الورعة التي أخذ بها نفسه، لك أن تتخيل رجلاً يعيش فيما عهد من حياته أكثر من سبعين عامًا ـ لم يحسب من ذلك سنوات الطفولة والصبا ـ على حال واحدة لا تتغير من هذا التماسك العجيب والتمسك المتين، والموقف الحازم الصارم من الدنيا، لم يرفعه في أعين الناس إلا صغر الدنيا في عينه، هذه الدنيا التي لا تذكر في مجلسه قط فكل مجلسه قال اللَّه عز شأنه.. وقال رسوله محمد ﷺ، وقال أهل العلم، قراءة وتحديثًا شرحًا وبسطًا ووعظًا وتوجيهًا واشتغالاً بهموم المسلمين العامة والخاصة، يحل مشكلاتهم، ويسعى في حوائجهم، ويشفع فيما لا يستطيعه بنفسه. تتجلى عبقرية هذا الإمام في الحياة التي عاشها في منزله بين المساكين والغرباء، والتي لم تعهد لأحد مثله في هذا العصر، يستقبلهم، ويحتفي بهم ويدنيهم ويتفهم مشكلاتهم، ثم يسعى في حلها مهما كان نوعها، ثم يلتفت كل من حضر حول مائدة الشيخ ليلتقي على هذه المائدة المستديرة الغني والفقير والوجيه والوضيع، والكبير والصغير.

❑ كما تتجلى عبقرية الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ في هذا الاحترام الكبير والود العظيم الذي احتفظ به مع الموافق والمخالف. لم يعرف عنه كلمة نابية ولم يعهد عنه لفظ جارح مع كثرة رسائله ومخاطباته ومكاتباته ومقابلاته فهو راد ومردود عليه، متصد لبيان الحق لا يسكت على باطل، ولكنه كان محافظًا على سمته ووقاره وعفته وأدبه في قلمه ولسانه؛ لأنه يقرن العلم بالعمل فعنده ورع حاجز، وتقوى حافظة، ولا نزكيه على اللَّه، لقد أبقى اللَّه له الحب والود في قلوب الناس في احترام يندر أن يكون له مثيل، وما ذلك بعد توفيق اللَّه، إلا لصحة المعتقد، والسلامة من الهوى، والحرص الشديد على تحري الحق مع ما انضوت عليه نفسه من حب الخير للجميع، بل حب إصابة الحق للجميع.

❑ تتجلى عبقرية الفقيد ـ رحمه اللَّه ـ فيما رسمه وطبقه من علاقة متينة حكيمة وقورة بين العلماء والدولة، والراعي والرعية، الدولة وفقها اللَّه وسددها تعرف علمه وفضله وغايته وحكمته، وهو يعرف وظيفته ومنزلته، هبت عواصف، وهدرت بحار، وهاجت أمواج، فكان هو بإذن اللَّه الصاري الممسك بشراع السفينة، نحسب أن اللَّه قد وفقه وألهمه لما علم من صلاح نيته وصحة مسلكه وصدق نصيحته ونفاذ بصيرته.

❑ تتجلى شخصية الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ بالنظر فيما يتعرض له العالم الإسلامي وغير الإسلامي من غزو فكري، ومحاولات اختراق أدت في بعض صورها إلى حالات من الغلو والتشدد أو حالات من التسيب والتحلل مع اختراق لإضعاف الولاء للدين والانتماء للعقيدة الحقة.

❑ إن مواجهة هذه الحملات ضعفت في كثير من الجبهات في مواقع من العالم الإسلامي تحت تأثير الزخم الإعلامي أو الضغط السياسي، فتجلت بفضل اللَّه مدرسة الشيخ المتمسكة بدينها بقوة لتستبقي ملامح الأمة وقسماتها بعيداً عن الانهيار والانبهار والتأثر بمد الغزو الثقافي والفكر الغربي العلماني، لا تأخذه في هذا الباب لومة لائم، لا يبالي أن يقع الأمر والنهي موقع الرضا والقبول أو موقع الكراهية والاعتراض، ومن أجل هذا لم تكن له ـ رحمه اللَّه ـ جناية على الدين أو الأمة أو الحكام.

❑ توازن عجيب في فهم القضايا واستيعابها، وإعطاء الحلول لها في فهم لدرجاتها وأهميتها في الشئون العامة والخاصة في السياسة والحكم والعقيدة والفقه والدعوة والشئون الاجتماعية. لقد كان ـ رحمه اللَّه ـ مدرسة في حكمته وتعامله الرصين والإيجابي مع هذه القضايا الكبرى منها والصغرى. هو نموذج لما تحظى به هذه البلاد المباركة من علماء مخلصين ناصحين يقدمون النصيحة للَّه ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم،

فتركوا علمًا نافعًا وأثرًا طيبًا، وقدوة حسنة ـ ولله الحمد ـ هو نموذج لما يوليه ولاة الأمور في بلاد الحرمين الشريفين من محبة لأهل العلم واحتفاء بهم وبنصحهم ودعوتهم ووعظهم، لقد سعدت بهم وسعدوا بها فارتقت هذه البلاد في موقعها المتميز في البلاد الإسلامية بمثل هذه السيرة والانسجام والتوافق الذي نهنأ به، ويتناقله القاصي والداني بين العلماء والحكام.

في هذه البلاد ارتقى شأن العلماء واستقر الحكم، وطبقت الشريعة في أرض الله على عباد الله، ففتحت الأمة صدرها لمحبة حكامها، وبذلت لهم الطاعة لأنهم ساسوا الناس بسياسة الشرع، وبمثل هذا الانسجام والالتزام والمحافظة أصبح المجتمع مسلمًا في دولة مسلمة متمسكًا بإسلامه معتزًا بدينه عصيًا على الذوبان، محميًا بإذن الله من الضياع والتحلل والانهيار، إن غياب شيخنا ـ رحمه الله ـ يخلي ساحة المرجعية الإسلامية في العالم الإسلامي من مثل هذه الشخصية الفذة، ويتأكد هذا الغياب ويعظم حجمه في النفوس كلما تذكرنا غزارة هذا العلم الذي دفن، والصلاح الذي اختفى والورع الذي توارى، والصدر الواسع الممتلئ بالحب والنصح والصدق والشفقة على الأمة كلها، كل ذلك وارياه في مقابر العدل في مكة المكرمة الطاهرة، ولكن حسن عزائنا بربنا وبما هدانا إليه سبحانه من الدين الحق والرضا بمر القضاء، فكل نفس ذائقة الموت، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ويخف الأسى، ويحسن العزاء، إذا ما نظرنا إلى ما تركه ـ رحمه الله ـ من تراث وخلفه من علم، وربّى من تلاميذ، ومن حسن العزاء ما نعيشه في هذه البلاد المباركة في حكم بشرع الله، وسياسة الناس بدين الله، والذي انبثق منها هذه المنزلة المحفوظة لأهل العلم فهي التي أكرمت ابن باز حيًا وميتًا، وكرّمت إخوانه وسلفه وخلفه من أهل العلم وطلبته..»[1].

(١) جريدة المدينة ـ العدد ١٣١٩١.

* الإمام العلامة:

❑ بقلم الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن حميد:

«الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد،،،

❑ فإن الأجيال في كل عصر بعامة، وفي هذا العصر بخاصة محتاجة حاجة ماسَّة إلى التعرف على الشخصيات البارزة في مجتمعهم، المعاشة في واقعهم، الشخصيات التي يقوم عليها - بإذن الله - البناء ويرتسم بسيرتها المنهج.

يحتاج النشء إلى التعرف عن قرب على هؤلاء الرجال الذين يحملون المسئولية بقوة واقتدار، وكفاءة واصطبار، يحملون على عواتقهم أمانة الحفاظ على دين الله وتربية عباد الله في جمع عجيب بين الحب لهم والغيرة عليهم.

❑ منطلقهم في ذلك الدين بكل شموله الإيماني والفكري والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والسياسي، دين الدنيا والآخرة جميعًا، الإيمان والعمل الصالح معًا، إنهم علماء المساجد والمنابر وشيوخ الميادين والعامة.

❑ وصاحب السماحة الإمام العالم العلامة الحبر والبحر والدنا وشيخنا الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز - رحمه الله رحمة واسعة ورفع درجاته أعلى منزلة أنموذج من هؤلاء، علم يتسنم الذروة في الرجال ويعلو القمة في الأفذاذ دينًا وورعًا وعلمًا وفضلاً وكرمًا وجودًا، ولا أزكي على الله أحدًا وما شهدنا إلا بما علمنا وعلم البواطن موكول إلى الله وحده فهو أعلم بمن اتقى، وهو أعلم بمن هو أهدى سبيلاً.

❑ لقد عاش الشيخ - رحمه الله - حياة علمية دعوية متوازنة يتوافق فيها الفكر مع العمل ويقترن فيها العمل بالسلوك حياة تجلى في توازنها الفكر

الثاقب، والعطاء النير، والإسهام العميق، والمدد الغزير في ميادين الحياة كافة. امتداد في العلم والدعوة والتربية والتوجيه شمل أصقاعًا عريضة من العالم الفسيح من خلال أثره الفكري المقروء والمسموع ومشاركاته الميدانية في المؤتمرات والمجامع والحلقات والمنابر والمجالس واللجان، رئاسة وأستاذية وعضوية، إنه رجل شاء اللَّه أن يقع على كاهله أعباء جسام في الدعوة والإرشاد والبحث العلمي والإفتاء وخدمة قضايا المسلمين كافة.

إن العطاء والتوازن والثبات في حياة الشيخ وسيرته ـ علمًا وتعليمًا ودعوة ـ جلي بارز من خلال الرصد للقنوات التي صبغت عطاء الشيخ وأطَّرتْ أثره في إطار متميز، ولعل ذلك يتبين من هذه القنوات الثلاث الكبرى:

الأولى: الإيمان العميق والعقيدة الراسخة في اللَّه ورسوله وكتابه ودين الإسلام وأثر ذلك في سيرته ومسيرته سلوكًا حسنًا وورعًا وزهدًا وصدقًا في اللهجة وحبًا للناس وثقة متبادلة وعطفًا ورقة وكرمًا وبذلاً.

الثانية: التأصيل العلمي المبني على أصلي الدين: الكتاب والسنة، فالشيخ يحفظ القرآن كله ويتدبره، ويحفظ الكثير من السنة ويفقهها، فهو دائم التلاوة للقرآن بتدبر، قدير في الاستحضار للسنة بتفهم، سريع الاستشهاد بهما، ملتزم للاسترشاد بنورهما مع دعوته الظاهرة في كل مجلس وناد للأخذ بهما والرجوع إليهما والحث عن مداومة قراءتهما ومطالعتهما، وحفظ المتيسر منهما.

الثالثة: روح الاجتهاد والاستنباط المنبثقة من الفقه المتين والدراسة الواعية والفهم العميق والفكر المستنير مع الإحاطة البينة بمقاصد الشريعة وأصولها وقواعدها وضوابطها.

❑ ومن يسبر ذلك ويرصده في حياة هذا الإمام يدرك وضوح الطريق

عنده وانسجامه مع نفسه، ومن حوله في توافق سوي وسيرة معتدلة ونهج قويم.

❑ هذا هو الشيخ الذي يزكو شكره، ويعلو عند أهل العصر ذكره، ويعني الأمة أمره.

❑ الصنيعة عنده واقعة موقعها والفضيلة إليه سالكة طريقها، إن أوجز في الموعظة كان شافيًا، وإن أطنب كان مذكرًا، وإن نبه إلى ملاحظة فهو المؤدَّب المؤدِّب، وإن أسهم في التوجيه فهو المفهم، واضح البيان، صادق الخبر، بحر العلوم، نزهة المتوسمين، خصيم الباطل، نصير الحق، سراج يستضيء به السالكون، لين العريكة، أليف مألوف، يرفعه في أعين الناس صغر الدنيا في عينه، لا يتطلع إلى ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، متحكم في سلطان شهوته لا تدعوه ريبة ولا يستخفه هوى خارج من سلطان لسانه، لا يتكلم بما لا يعلم ولا يماري فيما يعلم خارج من سلطان الجهالة، لا يقدم إلا على غلبة ظن في منفعة، لا يرى إلا متواضعًا، وإذا جد الجد فهو القوي الغيور، لا يشارك في مراء، ولا يلوم إذا وجد للعذر سبيلاً، لم ير متبرمًا، ولا متسخطًا، ولا شاكيًا، ولا متشهيًا، لا يخص نفسه باهتمام دون إخوانه، واسع الشفاعة طويل يد العون. هذه إلماحات في سيرته وإشارات إلى ظاهر حاله واللَّه ربنا وربه هو حسبنا وحسبه. فعليك أيها النبيل بالأخذ بمجامع المحاسن إن أطقت وإن عجزت، فأخذ القليل خير من ترك الجميع، وللَّه الحجة على خلقه أجمعين رحم اللَّه الشيخ رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وجمعنا به في جنات الخلد إنه سميع مجيب الدعاء»[1].

(١) «إمام العصر» (ص٢٨٢ ـ ٢٨٥).

* إمام في علمه قدوة في سلوكه:

❑ قال الشيخ الدكتور عبدالوهاب بن إبراهيم آل سليمان:

اختار المولى جل وعلا إلى جواره الكريم سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز وقد كان ـ رحمه الله ـ عالمًا فذًا، ومثلاً رفيعًا في العلم والسلوك، تتابعت مآثره ونمت فضائله، اعترف له الجميع بالإمامة في العلم والقدوة في السلوك. يوم الخميس ١٤٢٠/١/٢٧هـ فخيم على الأمة الإسلامية سحابة حزن وألم عميق.

وصلى عليه جموع المسلمين في المسجد الحرام الذي شهد جمعًا من المصلين وكأنه يوم من أيام الحج، امتلأت ردهاته وازدحمت ساحاته بالمصلين يلهجون بالدعاء والرحمة لإمام فقدوه لم يأل جهدًا في بذل النصح والحب والشفقة عليهم طوال عقود من السنين ينفذ نصحه وكلماته إلى مسامعهم وقلوبهم في رفق ولين، وحب وعطف.

❑ ووُري جثمانه الطاهر بمقبرة العدل بمكة المكرمة في يوم مبارك يوم الجمعة ١٤٢٠/١/٢٨هـ تحمله القلوب لا الأكتاف، ازدحمت في تشييعه مسالك مكة وفجاجها في منظر وجمع عظيم من الأمة يعلوهم الحزن وتكسوهم الكآبة»[1].

❑ جاهد ـ رحمه الله ـ لإصلاح حال الأمة ومصلحتها والسعي الحثيث لرأب الصدع بين الأفراد بالرفق واللين، وبما يقرب بين القلوب المتباعدة، والنفوس المتنافرة ما وسعه منطقه، ينتصر للحق، ويوصي به في لهجة هي الحب والإخلاص، والغيرة على محارم الله وحدوده، فأصبح ما يقوله وينصح به مقبولاً لدى الحاكم والمحكوم الكبير قبل الصغير، القوي قبل الضعيف.

(١) المصدر السابق (ص٢٩١).

❑ منح ـ رحمه اللّه ـ حبه وعطفه وشفقته ونصحه للأمة دون تمييز.

شئون الأمة الإسلامية هاجسه، تمتلك عليه مشاعره وهمومه إذا التقى مجلس هيئة كبار العلماء فأول ما يبتدر الحديث سؤاله عن شئون الأمة الإسلامية، يستكشف أخبارها في جميع أقطارها، يتلمس أبناءها إن كانت خيراً حمد اللّه وأثنى عليه وإن كانت غير ذلك أحزنه أمرها، ودعا اللّه أن يكشف الغمة عنها، وسعى ما استطاع من قول وعمل وجهد لما يرفع عنها الشدة، ويزيل عنها البأس.

انصرف عن الدنيا ومباهجها، ورغب في التقليل منها في وقت يحرص غيره على التكالب عليها، والتكاثر منها فمنحه المولى جل وعلا القبول لهدى عباده، يطرق حديثه القلوب، وتتجاوب لمقالته النفوس الراغبة في الخير، وصدق الأخ الأديب الدكتور سعيد السريحي:

«غابت الدنيا عن عينيه، وحضرت الآخرة في قلبه»[1].

*** وبكى العلماء أمام تواضعه:**

❑ قال الدكتور محمد بن سعد الشويعر مستشار سماحة الشيخ ابن باز:

«إن فقدان الشيخ فقدان لأمور كثيرة تعلمناها منه وآداب رفيعة أخذناها عنه تطبعًا وحسن توجيه، فهو مع علمه الجم. مدرسة بأخلاقه، ومدرسة بحماسه للدعوة إلى دين اللّه، ومدرسة بحب الخير والمساعدة للقاصي والداني، في كل شئونهم بدون تمييز ومدرسة بالتواضع النادر مثله في هذا الزمان، يبين هذا عندما تأتي وفود من الخارج يريدون السلام عليه وبعد السلام والجلوس يسألني بعضهم: أين الشيخ ومتى يأتي حتى نسلم عليه ونشرح له قضايانا.. ولما أجيبهم بأنه هذا الجالس الذي سلّم عليهم وبمجلسه

(١) جريدة عكاظ ـ العدد ـ ١١٩٥٢.

المليء فئات من البشر من آفاق الدنيا بدون تفريق.. هذا الشيخ الذي وهبه اللّه خصالاً هي من سمو الإسلام ومثالياته.

ولقد بكت أمامي أكثر من شخصية إسلامية كبيرة بعد إخبارهم ليقولوا: «تعودنا حتى من علماء بلادنا التعاظم والمواعيد المسبقة.. إن هذا لا نظير له إلا فيما نقرأ في الكتب عن علماء السلف الصالح».

أما الكرم فناهيك بهذه الخصلة التي تتمثل في أكثر مما سمعنا عن كرماء العرب، فالسخاء والبذل والوجه البشوش سجايا تطبع بها منذ حداثته، وهو لا يملك من حطام الدنيا شيئًا فلما قدر سخره للضعفاء، ولذوي الحاجات.. إذ راحته في كثرة الضيوف.. وتوافر أصحاب الحاجات وإدخال السرور عليهم.

❑ المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، عندما يختلفون في أمر وتكثر أمامهم الآراء يلجأون بالهاتف من أي منطقة لسماحة الشيخ عبدالعزيز فيصدرون عن رأيه، ويرضون بما يوجههم إليه.

❑ والجاليات الإسلامية في أنحاء المعمورة رغم أنه لم يغادر المملكة طول عمره لا يحل قضاياهم ولا يريح قلوبهم من أي أمر يريدون، ولا يبذل الجاه لبناء مساجدهم ومراكزهم، أو يمدهم بالكتب إلا الشيخ عبدالعزيز بن باز.

ومع هذا فمن واقع معايشتي معه: فهو لا يصدر في أموره عن رأي شخصي، ولا من عاطفة ذاتية، ولكنها حمية الإسلام، والتوثق من الدليل الشرعي: آية أو حديثًا.. ثم استخارة اللّه سبحانه بعد ركعتين يدعو اللّه فيهما فإن ارتاح قلبه اطمأن وعمل بعد التوكل على اللّه.

ولذا فإن الشيخ عبدالعزيز أب رحيم وعطوف على اليتامى والمساكين، وعلى الأرامل والفقراء، وعلى المحتاجين ومن لا تصل كلمتهم إلى المسئولين

فيوصلها بشفاعة ودعوات للمشفوع تجعل قلبه يرق، ويده تسخو ولعل اللَّه سبحانه قد حقق له حديث رسول اللَّه ﷺ الذي جاء فيه: «**إن اللَّه إذا أحب عبداً جعل حبه في قلوب الناس**» وما أحصي كثرة الخصوم الذين يعتذرون إليه كتابيًا وهاتفيًا ومشافهة عن النيل منه سابقًا والتحدث فيه فيدعو لهم ويسامحهم ويعفو عنهم وعن من لم يعتذر..»[1].

*** رحمك اللَّه أبا عبداللَّه:**

❑ قال مدير عام مكتبه الشيخ الدكتور عبداللَّه بن حافظ بن حكمي:

طلعت علينا شمس النهار وقد فارقنا شمس العلوم والمعارف قبل أن ينبلج نهارها ويشع ضوؤها، وحل يوم الخميس وقد ودعنا فيه زينة الأيام وإمام الزمان. يوم الخميس هذا اليوم الذي كان لا يختار السفر إلا فيه، أتم اللَّه له الاختيار فكان سفره الأخير فيه، فإلى خير مستقر إن شاء اللَّه. والحمد للَّه على ما قضى وقدر.

نذكر الوالد الحبيب بأعمال الخير التي قضى حياته فيها، وعطّر تاريخ أيامه بأريجها، جهد دائب لا يعرف الإجازات ولا الاستراحات، منقطع لنشر العلم ونفع الخلق في ليله ونهاره، حتى السويعات الأخيرة من حياته، عمر مديد وعمل حسن، فليهنأ الوالد ـ أبو عبداللَّه ـ بالعمل الطيب والذكر الحسن. أجزل اللَّه له الأجر، وأعظم له الثواب، وتقبل منه، وجزاه خير ما جزى به عبداً صالحًا.

❑ نذكر مجالس الفتيا: يجيب كل سائل ويحل معضلات المسائل، وما رأيت أسرع منه إجابة، ولا أوقع على المقصود؛ جواب بلا إطالة، مقنع لا يدفع، قد أحاط بالأدلة، وجمع الأقوال، فانقطعت بجوابه الحجج. قنع

(١) جريدة الجزيرة ٢٨/ ١/ ١٤٢٠هـ.

الناس بكلامه فلا تردد بعد قوله، ولا جهل بعد فتواه. أجمع على قبول قوله العلماء والعامة. فكان المرضي عند الجميع. علمٌ واسع، ورأيٌ سديد، وعقلٌ راجح، وفراسةٌ صادقة. إن علم أجاب وإن أشكل عليه الأمر لجأ إلى اللّه داعيًا ذاكرًا مسبّحًا مستغفرًا متضرعًا أن يلهمه الصواب، فنعم العالم الورع التقي الزاهد.

❑ نذكر المساجد: المساجد التي سعى في بنائها بالتعاون مع ولاة الأمر وأهل الخير التي تعد بالمئات في داخل المملكة وخارجها. كان آخرها ثلاثة مساجد في يوم وفاته على مكتبي قد بدأ ـ يرحمه اللّه ـ في إجراءات تعميرها. حرص على ذلك، وفرّغ لهذا العمل موظفًا يتابع معاملاتها في مكتبه الخاص، ووقتًا يدرس أوراقها فيه.

نذكر حرصه على إعمارها بحلقات العلم التي أقامها فيها جُل حياته. يبدأ درسه بعد صلاة الفجر إلى أول الضحى، دروس متعددة تعلو على دروس الجامعات والمدارس العليا في عددها ومستواها. هو الشيخ والمعلم فيها.

نذكر حثه على أداء الصلاة فيها جماعة. وعدم التهاون، ولم ننس كلما ردد المؤذن: اللّه أكبر، اللّه أكبر، حي على الصلاة، حي على الفلاح دعوته الدائمة إلى إجابته: البدار البدار، الإسراع الإسراع. أذكر وصيته يوم جئت أقرأ ورقة فور انتهاء المؤذن من الأذان. فسأل: لم أسمع الأذان، هل أذن؟ فقلت: نعم الآن أذن، فقال: أتعمل وقد أذن؟ الصلاة الصلاة..

❑ خمسة وعشرون عامًا: لم أره فيها إلا ساعيًا في سبيل الخير، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، ناصحًا للّه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، مجيبًا لسائل، مغيثًا لملهوف، معينًا لذي الحاجة»[1].

(١) جريدة الرياض ـ العدد ١١٢٨٣.

* في وداع الشيخ:

قال عنه الأديب الشاعر غازي القصيبي:

إذا قيل: «الشيخ» عرف الناس الرجل المقصود..

جاءه اللقب من الجموع..

لم يحصل عليه من الجامعة..

ولم تُنعم به هيئة..

ولم يصدر بتحديده مرسوم..

كان ـ الشيخ ـ كبيرًا..

وكان كبيرًا جدًّا..

كان كبيرًا بعلمه..

وكان كبيرًا جدًّا بتواضعه..

وكان الشيخ كريمًا..

وكان كريمًا جدًّا..

كان كريمًا بماله..

وكان كريمًا جدًّا بنفسه..

وكان الشيخ طيبًا..

وكان طيبًا جدًّا..

كان طيبًا.. لا يخدع أحدًا..

وكان طيبًا جدًّا.. لا يغضب من أحد خدعه..

كان بعض اجتهاداته موضع خلاف..

أما نزاهته الفكرية كانت محل إجماع..

قولاً واحدًا..»[1].

(١) «إمام العصر» (ص ٣٢٠ ـ ٣٢١).

* ذكرياتي مع فقيد الأمة:

قال عنه الشيخ عطية محمد سالم وقد زامله منذ خمسين عامًا:

«إن الحديث عن الشيخ ابن باز بالنسبة لي شيء طويل المدى بعيد؛ فقد عرفته منذ السبعينات عندما كان قاضيًا في الدلم أما صلتي به عن قرب فكانت عندما كنت طالبًا ومعلمًا في كلية الشريعة، وقد تتلمذت على يديه الفقه والحديث، ثم زاملته وصاحبته سواءً في منزله أو في المسجد بعد تخرجي من الكلية في الرياض وفي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة كمساعد له بتكليف من الشيخ محمد بن إبراهيم وقد كنت حينها مسئولاً عن شئون التعليم وهذا ما زاد صلتي به عمقًا.

● **مآثر سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز يرحمه اللّه كثيرة هل تروون لنا بعضًا من هذه المآثر من خلال قربكم من سماحته في فترة سابقة؟**

لا أعتقد مهما تحدثنا عن الشيخ ابن باز أن نوفيه حقه في التعريف به ولكن كان يرحمه اللّه علمًا عالميًا وطودًا أشم وجبلاً يتميز بتوحيده وحلمه وكان لا يتحزب ولا يتعصب في البحث وفي المسائل الأخلاقية إنما يبحث بمقتضاه الخاص ويتكلم فيه برأيه. أما النواحي العلمية فكان بحرًا وله من الذكاء والذاكرة ما لم تجده في غيره وقد أثبتت كثيرٌ من المواقف هذه الفطرة التي وهبه اللّه إياها من الذكاء والذاكرة.

● **هل يتذكر فضيلتكم بعضًا من هذه المواقف؟**

الشيخ عبدالعزيز بن باز كان علامة في الحديث والفقه والتوحيد وكان موسوعة في هذه العلوم ومبرزًا فيها.. وعندما كنت أتعلم على يديه أتذكر أنه كان يشرح لنا في درس الحديث موضوعًا من المواضيع وكان يدرسنا في الفقه بنفس الباب على شيء آخر فقلت له ذات مرة يا شيخ أنت تورد أشياء

في الحديث لا توردها في الفقه وتقتصر في الفقه على أشياء تذكرها في الحديث فما هي وجهة نظرك؟ فقال سماحته يرحمه اللَّه: الحديث ليس له حدود وبقدر ما أعطاك اللَّه من الفهم وأقوال السلف سواء كان رأي الحنابلة أو غيرهم من علماء الأمة أما الفقه فأنت مقيد بكتاب اللَّه في مذهب وكمدرس لهذا الكتاب ليس لك أن تخرج عنه عندما تشرحه وتبينه حتى الحد الذي يستوعبه الطالب. وذات مرة حصلت قضية من الشيخ أدهشت كل الحاضرين لإحدى المحاضرات الاجتماعية في الجامعة والتي حضرها سماحته وجاء المحاضر ليلقي محاضرته ومعه سبورة وكتب عليها اسم المحاضرة والنقاط الخاصة بها والجزئيات المتعددة لهذه النقاط ثم أخذ يشرحها مفصلة بجزئياتها في ساعة ونصف وبعد المحاضرة طلب من الشيخ ابن باز أن يعلق عليها فذكر سماحته نقاط المحاضرة الست وجزئياتها وعلق على كل نقطة بالتفصيل ولم يترك شيئًا منها وهي كما ذكرت لك محاضرة اجتماعية وليست فقهية. واندهش الجميع من ذاكرة سماحته القوية وذكائه في استيعاب المحاضرة فلو أننا كنا موجودين لما استطعنا أن نعلق على أي نقطة دون النظر إلى السبورة وتذكر النقاط.

❑ كما أنه يتميز بأخلاقه وسماحته وكرمه وكان يأتيه الفقراء والمساكين لطلب المعونة فلا يتردد أن يعطيهم، وكثيراً ما طلب من صندوق الجامعة سلفة تخصم من راتبه ليعطيها هؤلاء الفقراء الذين قصدوه ومرة جاءني وقال لي: أريدك أن تعطيني سلفة قدرها مائتي ريال فضحكت وقلت له: الشيخ ابن باز يأخذ سلفة من عطية سالم، ثم أردفت لو كان المبلغ لك لأعطيتك عشرة آلاف اذهب وخذ من الصندوق قال لي: عندما ذهبت إلى الصندوق أخبرني أمينه أن راتبي منته وأني مدين للصندوق للشهر الذي بعده بـ ٤٠٠ ريال.

هذا هو الشيخ ابن باز كان يقترض من الصندوق ولم يبق شيء من راتبه ومدين للشهر الذي يليه من أجل أن يعطي الفقراء والمساكين جاء يتسلف ليعطي غيره. نوادر كانت في الشيخ ابن باز يطمع أي واحد منا أن يصبح مثله[1].

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة ... وفاضت عيون الكون بالعبرات
ففي الهند محزون وفي الصين نادب ... وفي مصر باك دائم الحسرات
وفي الشام مفجوع وفي الفرس نادب ... وفي تونس ما شئت من حسرات
لقد كان مقصود الجوانب آهلاً ... تطوف به الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ومهبط حكمة ... ومطلع أنوار وكنز عظات

* الإمام العالم العامل سماحة الشيخ ابن باز:

❑ قال عنه الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري:

«أهم وأجلى وأنفع ميزة للشيخ أنه علم ليعمل، وتوسَّع في العلم الأخروي النافع، ولم يخلط معه شيئًا من علوم الدنيا إلا ما كان من علوم الآلة لخدمة الشريعة كالنحو.. وكان ـ رحمه اللَّه ـ لا يلحن في حديثه العامي، ولا تدور العامية على لسانه.. ولم يطلب العلم لمجرد التلذذ والمتعة والمثاقفة والمسامرة والشهرة، بل كان علمه ـ كما أسلفت ـ تعبدًا في ذاته، ولأداء العبادة وفق الأمر الشرعي، ثم صار العلم لذته لأن لذته في العبادة.

❑ وأبحر في العلم الشرعي حتى كان بآخره مرجع العالم الإسلامي، وكان كل متورِّع لا يستريح إلى غير فتواه.

❑ وأما العمل فكان مثمرًا متبعًا سمت كبار الصحابة ومن ندرت سيرته

(١) جريدة عكاظ ـ العدد ـ (١١٩٥٠).

من التابعين ومن بعدهم كالإمام أحمد رضي اللَّه عن جميعهم، فأخذ على نفسه الحلم طبعًا وتطبعًا ما رأيته منفعلاً قط إلا مع الكتبي ـ رحمه اللَّه ـ ناشر كتاب تحفة الأحوذي لسبب لا أذكره الآن، وغاية انفعاله أنه طلب من الكتبي اليمين على أن ما حدث لم يكن يعلمه.. وأخذ نفسه بالجد في الدعوة إلى اللَّه، والصبر على الأذى في ذلك.. وأخذ على لسانه ووقته ومجالسه البعد عن الفضول، والقول الجارح، والفحش، والصلف والصخب، والاشتغال بغير العلم الشرعي، والانتقام للنفس أو الغضب لها.

❑ ويقول: «العالم باللَّه وبأمر اللَّه الذي يخشى اللَّه ويعلم الحدود والفرائض.. هذا الصنف أندر من الكبريت الأحمر، وصدرهم في العصر الحديث فيما نعلم، وكمال العلم عند اللَّه ـ سماحة الفقيد ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ».

وقال: «لقد بلي الشيخ بمتدينين متطرفين زبيوا قبل أن يحصرموا، وأظهروا التعسير والتحسير بدعوى الاجتهاد، ولم يمر بهم من العمر والتجربة ما يُظهر علمهم وورعهم وتأهلهم للاجتهاد.. ويقرنون مع دعوى الاجتهاد الدعوى بأنهم على مذهب الشيخ.. وكذبوا في ذلك، وإنما حملوا تورعه لنفسه على أنه يوجب ذلك على الناس.

❑ وبلي ـ رحمه اللَّه ـ بآخرين من ذوي الدخول التاريخية والفكر السياسي باسم الإسلام، فاتهموا سماحته بالمداهنة ومصانعة ولاة الأمر وكذبوا في ذلك أيضًا، وإنما كان مقياس المصارحة عندهم: أن تلعلع المنابر بثلب المسئولين، والتشهير بالحق والباطل، وجحد الإيجابيات، وتضخيم السلبيات ـ التي هي معادلة بين المصالح والمفاسد، وأن يكون الداعية خطيب فتنة.. وكرم اللَّه سماحة الشيخ عن ظنون هؤلاء، فكان ـ رحمه اللَّه ـ في منتهى المصارحة لولاة الأمور من ملوك، وأمراء ووزراء.. لا يداهن، ولا

يمجمج بالنصح، ويخاطب القلب، فيجتذب المسئول ترغيبًا وترهيبًا بنصوص الشرع، ويذكي حماسه بتاريخ الدعوة المجيد التي احتضنها آل سعود، ونصروها، وجاهدوا من أجلها، وسعوا في محو الجهل والأمية بمقتضاها.. يتصل برجاله مكاتبةً، ومهاتفةً، ويلح ويبالغ.. وكل هذا في السر ويكون شبه سر حين لا يعلم قيامه بالحسبة إلا من يمر عليه الإجراء من الموظفين.. وأما في العلن فكان يدعو للدولة، ويدعو إليها، ويبتهل ويتهدج إذا حذَّر من الفتن.. وقد نُقل إجهاشه بالبكاء وهو يدرس في المعهد العالي خائفًا من الفتن، ومرة في مسجد الإمام تركي الجامع الكبير وكان ـ رحمه اللَّه ـ بورعه وبصيرته أن هذه الدولة مهما كان النقص والنقد دولة حق ورحمة وسنة في هذا العصر الممزق، وهي دولة السلف وترجيح المصالح.

❑ ومن صراحته في ذات اللَّه أن أحد العوام الجهله ذبح الذبائح عند عجلات سيارة الملك سعود ـ رحمه اللَّه ـ بالصفا ابتهاجًا بقدومه، فقام الشيخ ابن باز يدور والدمع يخنقه، ويصيح بأعلى صوته: إنها حرام حرام لا يجوز أكلها.. ولما علم الملك سعود ـ رحمه اللَّه ـ بفعل الجاهل غضب، وأظنها نقلت لحديقة الحيوانات، وشكر للشيخ موقفه»[1].

❑ وقال الشيخ أبو الحسن الندوي عن الشيخ ابن باز أنه «أعجوبة زمانه»[2].

* كوكب غار ضوؤه:

❑ قال الشيخ الأديب عبداللَّه بن محمد بن خميس:

«الآن يستريح المجاهد!! الآن يلقي الشيخ عصا الترحال الطويل، الآن

(١) جريدة الجزيرة ـ العدد (٩٧٣٠).

(٢) «إمام العصر» (ص٣١٣).

تنقضي رحلة طويلة من الجهد والجهاد والمثابرة الدءوبة فيما ينفع العباد في دينهم ودنياهم.

❑ وبالأمس القريب نعى الناعي الشيخ الجليل، بالأمس فقط عادت مسيرة الوداع المليونية وقد وارت الثرى جثمان الشيخ الطاهر، عادت ضارعة رافعة أكفها بالدعاء الطويل للشيخ بالرحمة والمغفرة، وقد غفر اللَّه للخطائين التوابين، فكيف بالشيخ الجليل وقد رفعت أكف جميع أهل هذه البلاد الطيبة المباركة في نهار يوم فيه ساعة لا يواتيها عبد وهو قائم يصلي ويدعو اللَّه إلا واستجاب له اللَّه، كيف بالشيخ وقد صلى عليه الملوك والأمراء والشيوخ والعلماء وعامة الشعب من تلامذته ومحبيه ومستمعي فتاواه وقارئي كتبه كيف بالشيخ وما زال لسانه رطبًا بذكر اللَّه وقلبه مفعم بحب اللَّه وخشية اللَّه، كيف بالشيخ ووقته زاخر بعبادة اللَّه وتفسير كتاب اللَّه وتعليم شريعة اللَّه، كيف بالشيخ ولم يزل رنين هاتفه لا ينقطع محدثًا للعباد ومفتيًا في قضاياهم وناصحًا وهاديًا لضالهم.

وما أحسب أن هذه التقنية الحديثة حملت في أسلاكها حديثًا في اللَّه مثلما حمله هاتف ابن باز.

❑ الناس يضنون بأرقام هواتفهم الشخصية حتى على الأصدقاء، ولكن هواتف الشيخ ورفاقه لم تكن شخصية بل كانت جماهيرية! وهكذا تكون الأثرة ونكران الذات.

❑ وكان الشيخ جريئًا.. كان جرئيًا في الحق.. ما أن تحل بالأمة نائبة أو يدلهم بها خطب، إلا وتساءل الجميع.. ماذا يقول الشيخ؟

❑ كان الشيخ لسان الأمة الصادح بالحق وفؤادها النابض بالتقوى.. كان رأيها الصادق الأمين.. يصدر الفتوى جريئة قوية صادحة بالحق، فتطفئ لهيب الباحثين عن الحقيقة، وتوغر صدور الحاقدين.. ولم يكن الشيخ يأبه

كان جريئًا في الحق.. لم تكن تأخذه فيه لومة لائم ولا عتاب جاهل ولا تقول زنيم.. كانت فتاواه وما زالت تحدث خلافًا ويدور حولها جدل واسع.. كانت الدنيا تقوم ولا تقعد.. وهو ثابت كالجبل.. هادئ كالبحر.. شامخ كالطود.. لا تهزه ردود الأفعال ولا تثنيه عن كلمة الحق الأهوال.

❑ وكان الشيخ موحدًا.. بل كان إمام الموحدين في عصره.. حمل راية التوحيد بأمانة وصدق وقوة في عالم إسلامي يضطرم بنار الفتنة والخلافات ويشتعل بفتيل الفرقة والشتات وتعشش في أرجائه البدع والخرافات..

❑ وكان الشيخ ممن أراد اللَّه بهم خيرًا ففقهه في الدين، وكان ممن أحبهم اللَّه فحبب فيه خلقه.. كانت حياته كلها صدقة جارية من البر والإحسان للمحتاجين، والنصح والهداية للضالين، والعلم والفقه للباحثين عن الحقيقة.

فدارت المطابع كأن لم تدر من قبل بمطبوعات ابن باز، ورن الهاتف كأن لم يرن من قبل بحديث ابن باز، وكتب الصحفيون والإعلاميون كأن لم يكتبوا من قبل آراء ابن باز وصدح المذياع والتلفاز كأن لم يصدحا من قبل بأحاديث ابن باز فهل من صدقة جارية أكثر من هذا؟»[1].

❑ وقال الدكتور سعيد بن علي بن وهف القحطاني:

قد كنت أسمع بسماحة العلامة الحبر إمام أهل السنة والجماعة في الربع الأخير من القرن الرابع عشر والربع الأول من القرن الخامس عشر من الهجرة النبوية عبدالعزيز بن عبداللَّه بن باز ـ رحمه اللَّه تعالى ـ فكان في نفسي

(١) «إمام العصر» (ص ٣٥٠ ـ ٣٥٣) باختصار.

عظيمًا قبل أن أراه، وعندما قدّر اللّه عز وجل لي أن أنتقل إلى مدينة الرياض في عام ١٣٩٩هـ قابلته فرأيته أعظم مما قيل فيه، فقد وجدته إمامًا في الحديث، إمامًا في معرفة الرجال ومصطلح الحديث ، إمامًا في الفقه، إمامًا في العقيدة، إمامًا في القرآن الكريم وتفسيره، إمامًا في اللغة، إمامًا في الأنساب، إمامًا في الإفتاء والدعوة إلى اللّه على بصيرة، إمامًا في الكرم والجود، والزهد في الدنيا، والتواضع، وحسن الخلق، والعطف على الفقراء والمساكين، والورع، والتقوى، والصبر، والتثبت وعدم العجلة في الأمور، ووجدته إمامًا في الحكمة، فهو يضع الأمور مواضعها، وهذا في الحقيقة من توفيق اللّه له وإعانته وتسديده، فما أكرمه سبحانه وما ألطفه بالعلماء المخلصين! .

❑ وقد استفدت من هذا العلامة كثيراً وللّه الحمد، فقد كان يأمر بالدعوة إلى اللّه على بصيرة بالأسلوب الحسن، وتعلمنا منه النصح لأئمة المسلمين، ويأمرنا بالدعاء لهم بالتوفيق والإعانة والتسديد، ويطبق ذلك على نفسه فيدعو لولاة الأمر في كل مناسبة، وواللّه لا أحصي دعاءه لهم بالتوفيق وإصلاح البطانة والإعانة والتسديد لكل خير، سواء كان ذلك في دروسه أو محاضراته أو توجيهاته، فواللّه لا أحصي عدد المرات التي بكى فيها من خشية اللّه تعالى، ومن ذلك أنه أذيع عنه في إذاعة لندن في عام ١٤٠٠هـ تقريبًا أنه يكفر أهل المعاصي فبلغه هذا الخبر وهو يلقي محاضرة في الجامع الكبير «جامع الإمام تركي بن عبداللّه ـ رحمه اللّه ـ» فاستنكر هذا الخبر وردّه وتبرأ من هذا القول وبكى، وتلا قول اللّه تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

❑ وقال: «لازم التدريس في حلقات منتظمة في الجامع الكبير: يوم الأحد، والإثنين، والأربعاء، والخميس بعد صلاة الفجر، وفي جامع سارة

في البديعة ليلة الإثنين، وليلة الخميس، وفي مسجده بعد عصر كل يوم، وبين الأذان والإقامة لصلاة العشاء، ويعلق على المحاضرات والندوات التي تقام في الجامع الكبير ليلة كل جمعة، ويجيب على الأسئلة، ويجيب دعوة من دعاه لإقامة المحاضرات العامة، واللقاءات المفتوحة، وحفلات الجمعيات لتحفيظ القرآن الكريم، والمشاركة في برنامج نور على الدرب باستمرار، وغيره من البرامج النافعة، ويدرس في الحلقات المذكورة الكتب الستة، ومسند أحمد، وموطأ مالك، وسنن الدارمي، وشرح السنة للبغوي، وتفسير ابن كثير، وفي المصطلح نخبة الفكر، وشرح ألفيه العراقي، وفي العقيدة الأصول الثلاثة، وكتاب التوحيد، والعقيدة الواسطية، والحموية، والطحاوية، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وفتح المجيد، وكتب ابن تيمية، ومنها: الفتاوى، والاستقامة، وزاد المعاد، وإغاثة اللهفان، ومفتاح دار السعادة، وكتب أئمة الدعوة النجدية، ومنها: الدرر السنية في الأجوبة النجدية، وفي الأحكام: بلوغ المرام، ومنتقى الأخبار، وعمدة الأحكام للمقدسي، وفي الفقه: الروض المربع، والفرائض، وفي التاريخ والسير: البداية والنهاية لابن كثير، وفي هذه الدروس يكون القاموس المحيط والتقريب مع الطلاب لمراجعة اللغة والرجال، بالإضافة إلى تفسير البغوي بعد صلاة الجمعة في منزله، والجلوس للإجابة على الأسئلة ونفع الناس بين المغرب والعشاء في منزله في الليالي التي ليس له فيها دروس، ويشرح رياض الصالحين بعد صلاة العصر من كل يوم في مسجده، إلى غير ذلك من الدروس، وكان أطول هذه الدروس درس يوم الخميس في الجامع الكبير، فقد يمتد الدرس إلى أربع ساعات، والشيخ ثابت على كرسيه، واللَّه ما رأيته يومًا في الدرس ناعسًا منذ تسعة عشر عامًا، حتى في الأيام التي مرض فيها قبل موته، بل منتبهًا مستمعًا جَلِدًا.

❑ وإذا غضب الشيخ على بعض طلابه فمن أعظم ما يقول: «سبِّح.. سبِّح» أو «سبحان اللَّه»، أو يقول: «اللَّهم اهدنا فيمن هديت»، وهذا يدل على عظيم خلقه وعلوِّ منزلته، ولا يترك هذه الدروس إلا إذا سافر أو مرض مرضًا لا يستطيع معه أن يصلي مع الجماعة، ولم يحصل له ذلك فيما أعلم إلا مرة أو مرتين وللَّه الحمد»[1].

*** والسابقون السابقون:**

برنامج الشيخ اليومي والسنوي بإيجاز:

❑ هذا برنامج الشيخ في ثوب موجز، وأسلوب مقتضب، ليكون مثلاً يُحتذى، وأسلوبًا يُقتدى، ونبراسًا للمحبين، وآية للسائلين.

يستيقظ من نومه قبل الفجر بساعة على الأقل، ليأخذ حظه من الليل وهذه سنَّةٌ ثابتةٌ في حياته ـ رحمه اللَّه ـ سفرًا وحضرًا.

يصلي الفجر ثم يأتي بأوراد الصلاة وأوراد اليوم كاملة، وفي أكثر الأيام يكون عنده درس علمي ثابت وخصوصًا في الرياض والطائف؛ لأن إقامته بهما طويلة، وهذا الدرس الثابت يكون في بعض أيام الأسبوع ويتوافد له طلبة العلم من مسافات بعيدة، وقد يستمر أحيانًا لمدة ثلاثة ساعات، والأيام التي ليس فيها الدرس قد يلقي فيها موعظةً موجزة.

وبعد صلاة الفجر يعود الشيخ إلى منزله ويتناول حبات من التمر، وكان يحبه كثيراً ـ رحمه اللَّه ـ ويشرب القهوة، ثم تُقرأ عليه المعاملات المتنوعة. وأيام الأسبوع موزعةٌ على الموظفين والقرّاء على سماحته لكلٍّ منهم يوم معلوم، فتُقرأ عليه المعاملات وتقرأ عليه في كثير من الأحيان بعض الكتب إما لمراجعة مسألة، أو لتحضير درس، أو لإجازة كتاب، أو للتأليف،

(١) «إمام العصر» (ص٣٦٩ ـ ٣٧٢) باختصار.

أو غير ذلك.

وجلسة الشيخ في منزله بعد الفجر في اليوم الذي ليس فيه الدرس العلمي تستمر من الساعتين إلى الثلاث أحيانًا.

وبعض العلماء وطلبة العلم الذين يريدونه في أوقات مناسبة ومسائل هامة يختارون هذا الوقت في الغالب.

وبعد هذا كله يذهب الشيخ لأخذ قسط من الراحة قد ينام فيه وقد لا ينام، ثم في الساعة التاسعة أو التاسعة والربع يتهيأ للذهاب إلى المكتب، ثم ينطلق ويمكث في المكتب إلى الساعة الثانية والنصف وقد تزيد، وفي يوم الأحد والثلاثاء في الغالب يكون اجتماع اللجنة الدائمة للإفتاء، وبعد الساعة الثانية والنصف ظهرًا من كل يوم ينطلق الشيخ إلى منزله وتكون وجبة الغداء قد أعدّت وهيِّئت في هذا الوقت ويكون البيت قد اكتظّ بطلبة العلم والضيوف والفقراء والمساكين الذين يسعدون بتناول الغداء معه.

ثم يشرب الشاي والقهوة والنعناع وينظر في الحاجات الهامة للناس إلى ما قبل صلاة العصر بربع ساعة على الأقل، فيقوم ويتوضأ للصلاة ثم يذهب إلى المسجد، وبعد الصلاة له درس ثابت ما أخلَّ به طيلة حياته لا في حضرٍ ولا في سفر، ثم يجيب على عددٍ من الأسئلة.

أما بعد صلاة العصر إلى قبل صلاة المغرب فهو وقت راحته يخلد فيه للنوم، وقد لا ينام أحيانًا، ثم يتوضأ ويذهب لصلاة المغرب، ثم يأتي بالأذكار كاملة بما في ذلك أذكار المساء، وبعد المغرب إن لم يكن لديه درس أو محاضرة فهي جلسته المعروفة للناس، ولم يخل بموعدها طيلة عمره لا في سفر ولا في حضر، ثم إذا أذّن المؤذن لصلاة العشاء انطلق إلى المسجد للصلاة وله درس بين الأذان والإقامة، ثم يجيب على عددٍ من الأسئلة، وهذا أيضًا من الأشياء الثابتة في حياته في سفره وفي حضره لم

يخالفها أبدًا.

«قصْدُنا بالسفر: إقامته خارج الرياض: مكة ـ الطائف..».

أما بعد العشاء فهو إما محاضرة أو اجتماع أو قراءة بعض الكتب أو المعاملات، أو يُقرأ عليه موجز الصحف، أو تلبية دعوة، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يحضر الشيخ مجلسًا أو مناسبة ثم لا يلقي كلمة أو موعظة، بل طيلة مكوثه فهو إما يفسر آية أو حديثًا أو يلقي موعظة أو يجيب على الأسئلة.

ومن برامجه بعد العشاء استقبال حالات الطلاق والمطلقين، وقد يستمر معهم ساعات طويلة.

ثم يتعشى مع ضيوفه وزوّاره ويتناول الشاي والنعناع والقهوة ثم يدعو بالبخور الطيب وتسمر جلسته بعد العشاء إلى الساعة العاشرة والنصف، وأحيانًا إلى الحادية عشرة، وأحيانًا تطول، وجميع وقته في مكتبه أو في منزله أو في سيارته لا يفتر فيه لسانه عن ذكر اللَّه تعالى، بل أثناء أكله وشربه كثيرًا ما يردد: الحمد للَّه، الحمد للَّه.

لا بأني أنساك أكثر ذكراك ولكن بذاك يجري لساني

□ وهكذا كان برنامجه اليومي ـ رحمه اللَّه ـ ثم لا تسل عن كل يوم من أيامه ـ رحمه اللَّه ـ كم يُبذل فيه من العلم، ويُسدى من النصح، ويُنفّس من الكروب، ويفرّج من الهموم، ويُقضى من الديون، ويُمنع من الشرور، ويُلمّ من شتات الأُسر، ويُطعم من جائع، ويُكسى من عارٍ، ويُغاث من ملهوف، ويُبذل من معروف.

ذاك هو برنامج الشيخ اليومي تقريبًا، وهو ـ كما رأيت ـ برنامج حافل بالبذل والعمل والعلم والعطاء والعبادة والخير الكثير. وأعجب وأعظم ما يميز الشيخ هو وقته المنظم الذي لا يتغير ولا يتبدل، وبرنامجه معروف ومضبوط

سواء اليومي أو الشهري أو السنوي.

* وبرنامج الشيخ السنوي هو:

الإقامة في مدينة الرياض، وهي تقريبًا تبدأ من الشهر الرابع من السنة الهجرية، وفي الشهر السادس أو السابع يأتي إلى مكة لحضور مجالس الرابطة والمجمع الفقهي، ويمكث أسبوعين أو ثلاثة ثم يعود بعدها إلى الرياض، ثم يعود إلى مكة مرة أخرى في العشر الأواخر من رمضان، وقد يأتي من اليوم السادس عشر أو السابع عشر.

والشيخ ـ رحمه اللَّه ـ خصوصا في السنوات الأخيرة لم يكن يصلي التراويح بالمسجد الحرام نظرًا لكثرة الزحام؛ ولأنه يرى أن مكة كلها حرم، وأن الحديث الوارد في مضاعفة الصلاة في المسجد الحرام إلى مائة ألف صلاة يشمل حرم مكة كلها، وأدلته ـ رحمه اللَّه ـ قوية جدًّا ومقنعة، ولذلك فهو يريد أن يَسُنّ ذلك للناس لكي يبين لهم أن الأمر فيه سعة، فلا ضرورة للتزاحم والتحاشد الذي يذهب بخشوع الصلاة.

وهو يصلي صلاة التراويح على السُّنة إما ثمان ركعات ويوتر بثلاث وهذا في الغالب، وإما عشر ركعات ويوتر بثلاث وهو يفتي بأن هذه هي السنة، وأن الأخذ بها أفضل وأكمل، ومن سأله عن الصلاة إحدى وعشرين ركعة أو أكثر أو أقل فإنه لا يرى بذلك بأسًا.

وهو يلتزم الهيئة ـ المذكورة آنفًا ـ في صلاته حتى في العشر الأواخر في صلاة التهجد، فهو يقسّم الصلاة قسمين فيصلي تسليمتين أو ثلاث بعد العشاء، ثم يكمل الصلاة والوتر بعد منتصف الليل. وكان يأمرنا في الدعاء أن نقتصر على الدعاء المأثور فقط.

وأذكر أنني أول ما عُيِّنت في مسجد سماحته بمكة المكرمة حينما جاءنا الشيخ في العشر الأواخر، وصليت به التراويح كنت قد استذكرت أدعيةً

كثيرة للوتر، فحينما وصلت إلى دعاء القنوت تفننت في الدعاء، وتأنّقت في اختيار الكلمات المؤثرة، والعبارات المسجوعة وشرّقت وغرّبت فلم أترك مسافرًا، ولا غائبًا، ولا مدينًا، ولا، ولا، ولا.. إلخ إلا رددته، إلا أغنيته، إلا.. إلخ، ولم أترك بلدًا من بلاد المسلمين إلا وأعطيته نصيبه من الدعاء، ثم طوّفت على الشعوب بجميع طبقاتها ومستوياتها، ثم مررت بالأحياء ثم الأموات، مع ذكر صفة الموت، وعذاب القبر، والجنة والنار!! ثم توقفت طويلاً مع بعض الأدعية المؤثّرة فأعدت وزدتُ وبكيت، فلما قضيت الصلاة بعد رحلة طويلة من الدعاء الذي خارت له القوائم، وسقطت منه العمائم، ونثرت به الدموع السواجم قلت: هذا الذي سيفرح به الشيخ ويدعو لي من أجله، فإذا به يدعوني ثم يهمس في أذني كعادته في النصيحة ـ رحمه اللّه ـ فيقول: لقد أطلت الدعاء كثيرًا، اقتصر على المأثور.

وفي اليوم الثاني اكتفيت بنصف ما ذُكر مما مضى من الأدعية فدعاني أيضًا وقال لي: اقتصر على المأثور ولا تطل، فعرفت قصده ـ رحمه اللّه ـ فالتزمت به، فرأيت لهذا الالتزام بالمأثور من الدعاء من انشراح الصدر والأثر في النفس والارتياح من الناس ما لم أجد له مثيلاً في ذلك الدعاء الطويل.

● وحينما عدت لأتأمل قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها حينما سألته إذا هي أدركت ليلة القدر بما تدعو اللّه فيها فقال لها: «**قولي: اللّهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني**» عرفت عظمة النبي ﷺ وبلاغته، وعرفت فقه الشيخ ـ رحمه اللّه ـ وحسن اتباعه، فإن هذا الدعاء قد حوى الخير كله، فالإنسان يقف ذلك لوقت الطويل ويدعو بكل تلك الأدعية ومحصلتها جميعًا أنه يريد الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهو يثني على اللّه تعالى ثم يدعوه، وذلك كله قد أوجزه هذا الحديث المبارك، فهو حوى الثناء على اللّه بأحب الصفات إليه ـ صفة العفو ـ وحوى أجمل دعوة وأفضل مأمول وأكمل مطلوب، وهو

نيل عفو اللَّه تعالى، ومن عفا اللَّه عنه فقد فاز.

❑ ونعود بعد هذا الاستطراد إلى برنامج الشيخ السنوي:

في ليلة التاسع والعشرين ينطلق عائدًا إلى الرياض، ثم يمكث هناك إلى آخر شهر ذي القعدة، فيتجه إلى مكة لأداء فريضة الحج وللقيام بواجب النصح والتوجيه والإفتاء لحجاج بيت اللَّه الحرام، وفي هذه الأيام يأتي إليه المسلمون من أنحاء الدنيا ومن عادته أن يقيم مخيمًا كبيرًا بمنى ويستضيف فيه مئات المسلمين خصوصًا من طلبة العلم والفقراء والمساكين.

ويمكث في مكة إلى آخر شهر ذي الحجة، ثم ينطلق إلى الطائف ويقيم فيه إلى شهر ربيع الثاني، وبعد ذلك يعود إلى الرياض، ويكون سفره ذهابًا وإيابًا في طائرة خاصة من الدولة ـ وفقها اللَّه ـ عن طريق مطار الطائف دائمًا. وهكذا يستمر برنامجه رحمه اللَّه رحمة واسعة.

❑ ومن أهم ما يذكر في برامجه اليومية والشهرية والسنوية زيارته للأقارب واتصاله المستمر بهم دائمًا وأبدًا وهو يحفظ أرقام هواتفهم جميعًا ولقد رأيت منه في ملاطفتهم والسؤال عنهم والأنس بالحديث إليهم صغيرًا وكبيرًا رجالاً ونساءً ما يثير العجب، ويورث الحب والإجلال، عليه رحمة المتعال.

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾.

❑ يقول ابنه فضيلة الشيخ أحمد: برنامج سماحة الوالد اليومي متقارب طوال أيام الأسبوع.. يصحو قبل الفجر بساعة ليصلي ويقرأ من القرآن ما شاء اللَّه.. ثم مع الأذان يحاول إيقاظ جميع أهل البيت لصلاة الفجر، ثم يتوجه إلى الجامع الكبير ليقوم بعد صلاة الفجر بإلقاء بعض الدروس لمدة تصل أحيانًا إلى ثلاث ساعات، ثم يرجع إلى البيت، وبعد الإفطار يتوجه إلى مقر عمله ولا يمكن أن يخرج من عمله قبل الساعة الثانية والنصف

ظهرًا، فيرجع إلى البيت ليجد الجمع الغفير من الضيوف الفقراء بانتظاره، فيتناول طعام الغداء معهم، ثم يجلس لشرب القهوة ومحادثة الضيوف والإجابة على الاستفسارات والفتاوى عن طريق الهاتف إلى أذان العصر، وبعد صلاة العصر والدرس اليومي يتوجه إلى منزله لأخذ قسط من الراحة إلى ما قبل أذان المغرب بنصف ساعة، ثم يجلس للناس بعد صلاة المغرب يستمع إلى سائلهم ويقرأ ما يعرض عليه من الأوراق ويجيب على الاستفسارات عن طريق الهاتف إلى أذان العشاء، وبعد الأذان درس بين الأذان والإقامة، وبعد صلاة العشاء يرجع إلى البيت للاجتماعات الخاصة والمواعيد الشخصية ومطالعة الكتب في المكتبة، ثم يتناول طعام العشاء مع الحضور ليتوجه إلي مكان راحته، بعد ذلك عند الساعة الحادية عشرة أو أكثر يستمع إلى الأخبار قبل النوم، وهكذا برنامجه يحفظه اللّه، وقد تتخلل أيام الأسبوع محاضرات دينية في مساجد مختلفة أو ولائم ومناسبات اجتماعية يحضرها أو عملية في مقر عمله مساء، يقوم بكل ما سبق بأريحية وبدون ملل ولا كلل.

*** قلعة العلم:**

خفقان قلب الشعر، أم خفقاني ... أم أنه لهب من الأحـــزان
ماذا يقول محدثي؟ أحقيقة ... ما قال، أم ضرب من الهذيـان؟
ما لي أرى ألفـاظه كحجارة ... ترمي بها الأفـــواه للآذان؟
«الشيخ مات» عبـارة ما خلتها ... إلا كصاعقـة على الوجـــدان
أو أنها مـوج عنيف جـاءني ... يقتاد نحوي ثورة البركـان
يا ليتني استوقفت رنة هاتفي ... قبل استمـاع نـداء من ناداني
أو أنني أغلقت كل خطوطه ... متخلصًا من صوتـه الرنـان

«الشيخ مات» أما لديك عبارة ... أخرى تُعيد بها اتزان جناني
قل لي - بربك - أي شيء، ربما ... أنقذتني من هذه الأشجان
قل لي - بربك - أي شيء، قال لي: ... عجبًا لأمرك يا فتى الفتيان
أنسيت أن الموت حق واقع ... ونهاية كتبت على الإنسان؟
أنسيت أن اللّه يبقى وحده ... وجميع من خلق المهيمن فان؟
أنسيت؛ لا واللّه لكني إلى ... باب الرجاء هربت من أحزاني
«الشيخ مات» صدقت، إني مؤمن ... باللّه، مجبول على الإذعان
الشيخ، لا بل قلعة العلم التي ... ملئت برأي صائب وبيان
هو قلعة العلم التي بُنيت على ... ثقة بعون الخالق المنان
وأمامها هزمت دعاوى ملحد ... وارتد موج البغي والبُهتان
وتطايرت شبه العقول لأنها ... وجدت بناء ثابت الأركان
أنست بها نجد، ومهبط وحينا ... واسترشد القاصي بها والداني
هو قلعة ظلت تُحاط بروضة ... خضراء من ذكر ومن قرآن
صان الإله بها عقيدة أمة ... في عصرنا المتذبذب الحيران
ماذا تقول قصائد الشعر التي ... صارت بلا سعر ولا أوزان؟
ماذا تقول عن «ابن باز» إنها ... ستظل عاجزة عن التبيان
ماذا تقول عن التواضع شامخًا ... وعن الشموخ يُحاط بالإيمان؟
ماذا تقول عن السماحة والنُّهى ... عن فقه هذا العالم الرباني؟
مات «ابن باز» للقصائد أن ترى ... حُزن القلوب، وأدمع الأجفان
في عين «طيبة» أدمع فياضة ... تلقى دموع الطائف الولهان
والخرج تسأل والرياض ومكة ... عن قصة مشهورة العنوان
عن قصة الرجل الذي منحت له ... كل القلوب مشاعر اطمئنان

ما زلت أذكر صوته يسري إلى ... أعماقنا بمودة وحنان
يُفتي وينصح مرشداً وموجهًا ... ومعلماً للناس دون توان
نور على الدرب ارتوى من فقهه ... وسرت منابعة إلى الظمآن
يا رب قد أصغت إليك قلوبنا ... وتعلقت بك يا عظيم الشان
«الشيخ مات»، عليه أندى رحمة ... وأجل مغفرة من الرحمن[1]

* **مات ابن باز:**

للشعر بعدك أن يظل حزينا ... ولنبض قلبي أن يذوب حنينا
وكل قافية خبَاتْ حروفها ... أن تفتح الباب الذي يشجينا
ولصوت حادي الشعر بعدك أن يرى ... منا الوفاء لأنه يحدونا
يا وارثًا للأنبياء وإنما ... ورث الهدى والعلم والتمكينا
ورث العقيدة وهي أعظم ثروة ... وأعز مال مورث يغنينا
يا راحلاً عنا كأنك لم تكن ... فينا تحدثنا بما ينجينا
لما نعاك إليّ صوت محدثي ... أحسست أن الشك صار يقينا
ورأيت أثبت ما أمامي دائراً ... وسمعت أصوات الشداة طنينا
وشعرت أن الحزن صار يحيط بي ... من كل ناحية، وصرت رهينا
هل يدرك الناعي حقيقة من نعى ... وبأي سهم في الفؤاد رمينا؟
وبأي فاجعة أصيبت أمتي ... وبأي أصناف البلاء بلينا؟
يا أيها الناعي جرحت قلوبنا ... وأثرت فيها لوعة وأنينا
مات ابن باز، يا لها من أحرف ... وهاجة بلهيبهن صُلينا
مات ابن باز، هل علمت بما حوت ... هذي الحروف وما تحرك فينا؟

(١) لعبدالرحمن صالح العشماوي (ص٥٥٨ ـ ٥٥٩).

يا أيها الناعي رويدك، إن من ... تنعى، أب بحنانه يسقينا
أوَلم يكن نوراً يضيء عقولنا ... وإلى الهداية والتقى يدعونا؟
أتراك لم تعلم بأن وفاته ... رزء وأن وداعه يشقينا؟
أنسيت أن وفاة عالم أمة ... حدث بأسهم بؤسه يرمينا؟
يا خادم الحرمين شكراً صادقًا ... فلقد رأينا كل ما يرضينا
أسرجت خيلاً للوفاء كريمة ... ما زال لحن صهيلها يغرينا
شيعت عالمنا الجليل وإنما ... شيعت عقلاً راجحًا ورزينا
شيعت في يوم الفضيلة والتقى ... شيخًا بنى للمكرمات حصونا
لما تقدمت الجموع مودعًا ... رفع التلاحم والوفاء جبينا
ورسمت للأجيال أجمل صورة ... ستظل من أمجادنا تدنينا
كرمت فيها العلم، علم شريعة ... تمحو الضلال وترشد الغاوينا
فلتشهد الدنيا حقيقة ما جرى ... إن الحقائق تهزم التخمينا
لكأنني بوفاة شيخ شيوخنا ... صارت مثالاً للوفاء مبينا
خرجت جموع المسلمين فلا تسل ... عن مشهد جعل الشمال يمينا
في مسجد اللّه الحرام، وهل رأت ... عين مكانًا مثله مأمونا
لما تلاقى المسلمون هناك في ... أزكى وأطهر بقعة باكينا
وتزاحمت أفواجهم، وكأنهم ... يردون حوضًا منه يستسقونا
شهدت بقاع الأرض صورة أمة ... لا ترتضي غير الشريعة دينا
هو ديننا نبع الفضائل ترتوي ... منه القلوب وماؤه يشفينا
وبه يغرد طائر الأمن الذي ... من كل بغي مكابر يحمينا
وبه نخوض محيط كل رزية ... فهو السفين لمن يريد سفينا
يا شيخنا ودعتنا، وقلوبنا ... تُهدي إليك من الوفاء فنونا

ودعت دنيانا بجسمك بعدما ودعتها بالقلب منك سنينا
وزهدت فيها وهي ذات تبرج جعلت محب دلالها مفتونا
عزيت فيك ولاة أمر بلادنا ورجالها وبناتها وبنينا
عزيت فيك العلم والعلماء قد منحوك حبًا في القلوب ثمينا
عزيت فيك المسلمين جميعهم فقدوا بفقدك مرشداً ومعينا
يا رب لطفك صار فيض جراحنا نهرًا من الدمع الغزير سخينا
إنا برغم الحزن نحزم أمرنا بك يا عظيم الشان يا هادينا
إنا إليك لراجعون، وإننا بقضاء عدلك في العباد رضينا
إن مات عالمنا فإنا لم نزل فيما تعوضنا به راجينا
سلمت بلاد الخير من آلامها ورعى المهيمن خطها الميمونا[1]

* **مشهد الرحيل:**

❑ يقول الدكتور ناصر الزهراني:

أيها الشيخ الذي بُحتُ بالأشواق لَكْ
ليت روحي قُدِّمتْ للمنايا بدلك

❑ توفي الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ قبل فجر يوم الخميس في اليوم السابع والعشرين من شهر محرم لعام عشرين وأربعمائة وألف من الهجرة، في مدينة الطائف، وحمل جثمانه الطاهر إلى منزله بمكة المكرمة صبيحة يوم الجمعة، وهناك تم غسله وتكفينه ـ قدس اللَّه روحه، ثم انطلق به مصحوبًا بوفود هائلة من أمامه وخلفه، وعن يمينه وشماله، بقلوب محترقة، وأدمع باكية، وأنفس والهة.

(١) لعبد الرحمن العشماوي (ص٥٦٠ ـ ٥٦٢).

وداعك مثـــل وداع الربيـــع وفقدك مثـــل افتقـــاد الدِّيَـــمْ
عليك الســـلام فكم من وفـــاءٍ نفـــارقه منـــك كـــم من كـــرم

ذهبوا به إلى المسجد الحرام الذي عاش ليلة من لياليه المشهودة حيث غصّت أبوابه، وملئت رحابه منذ اليوم الأول، حيث توافدت الناس من أنحاء الدنيا، أقبلت القلوب قبل الأقدام، وتسابقت الأرواح قبل الأشباح، وسالت الدموع قبل الجموع.

غصّت الطرق البريّة بالقادمين إلى مكة، وارتبكت المطارات لذاك الزحام الرهيب، والإقبال المهيب من الناس، كلهم يريدون الحجز إلى جدّة أو الطائف، وكثّفت الرحلات، ولكنها لم تستطع أن تستوعب تلك الأعداد الهائلة التي جاءت لتلقي نظرة وداع على الإمام الراحل.

أخذتُ مكاني في المسجد الحرام بصعوبة فائقة، فأديت تحية المسجد ثم جلست فإذا بالنحيب من عن يميني وشمالي، وأمامي وخلفي، فأطلق بصري للصفوف البعيدة في شتى الاتجاهات فلا أرى إلا متقنعًا باكيًا، ووالهًا منتحبًا، ومطرقًا حزينًا، وأناسًا قد خفضوا رءوسهم ولهم خنين بالبكاء، فكنت أعطي النفس رغبتها، وأطلقها على سجيتها، فأدعها تبكي ساعة، ثم أخنق عبرتي، وأمسح دمعتي، وأنظر في أحوال الناس، وما هم فيه من كرب عظيم، ثم أعود أنثر دموعي مدرارًا، وحُقّ لي ذلك، فما ظنكم بإنسان يشعر بأن قلبه النابض سقط من بين جنبيه، أو يجد شعلة من حريق تشب في أحشائه وتأكل فؤاده، أو يحس أن نور عينه انطفأ، وسراج لياليه أُخمد، وفرات مائه قد أصبح غورًا، لقد كنت بل ومكثت لعدة أيام بعد وفاة الشيخ، وأنا لا يزال عندي أمل أنه سيعود، وأن الخبر قد يكون مغلوطًا ولكن هيهات لقد عشت الموقف الذي عاشه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع النبي ﷺ حينما جاءه نبأ وفاته، فسل سيفه وقام في الناس قائلاً، من قال إن محمدًا قد مات

ضربته بسيفي هذا.

ولقد عرف كثير من أحبتي وأصدقائي محبتي العميقة للشيخ، وتعلقي الشديد به فبادَروا بالاتصال بي وزيارتي ومواساتي جزاهم اللَّه خير الجزاء، وكان كل منهم يقول: حينما سمعت الخبر أول ما خطر على بالي أنت.

وأعود إلى سَرْد الحدث.. المهم أنني مضيت على تلك الحالة المذعورة حتى صعد الخطيب المنبر، فلما بدأ الخطيب[1] في خطبته، وتحدث عن هول الفاجعة قائلاً: «وقد أصيبت أمة الإسلام اليوم بوفاة عالم الأمة وإمام أهل السنة والجماعة في هذا العصر؛ علامة زمانه وفقيه أوانه الداعية إلى اللَّه تعالى على علم وبصيرة، المجاهد في سبيل الحق والهدى سماحة العلامة الجليل الشيخ عبدالعزيز بن باز» ضج الناس بالبكاء، وجادت العيون بالدموع، واشتد أزيز الصدور، فلما فرغ من الصلاة، ونادى المنادي: الصلاة على سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبداللَّه بن باز يرحمكم اللَّه» تدافع الناس باتجاه الجنازة، وعَظُم الزحام وكَثُر الضجيج، واشتد الموقف، وادْلَهَمَّ الأمر، وخشينا على الجنازة من ذلك التدافع المهول، والسباق ولم يسكن ضجيجهم، ماج بعضهم في بعض، وتخطى بعضهم بعضًا، كلٌّ يريد أن يحمل الجنازة وكل يريد أن يقترب للصلاة عليها، وكل يريد أن يكون عن كثب ليتأمل الموقف وليسارع إلى حمل الجنازة بعد الصلاة، ولولا أن الإمام سارع بالتكبير لطالت المدة، والناس على هذه الحال.

❑ ويعجز القلم عن تصوير حقيقة الموقف بعد انتهاء الصلاة، لك أن تتصور كيف يكون الأمر لو ازدحم عشرة آلاف رجل أو عشرين على شخص أمام موقع معين، أو أمام دائرة حكومية، كيف يكون الموقف، فما هو الحال يا ترى فيمن ازدحم عليه أكثر من مليوني مسلم على الأقل، أقبل هذا الموج

(١) هو الشيخ محمد السبيل إمام المسجد الحرام وخطيبه.

المضطرب من الناس بجنازة الشيخ على أكتافهم بل على رءوس أصابعهم، سبقتُ الجموع إلى السيارة التي ستحمل الشيخ فصعدت عليها أنظر في هذا الموقف الرهيب، (وأستغفر اللَّه العظيم مما فعلت)، واللَّه لقد ظللت أصيح وأبكي بأعلى صوتي، والذي نفسي بيده ما ارتسم أمام ذهني وأنا أتأمل ذلك الموقف الأجل إلا وقوف الناس لرب العالمين، أقبلت الأمواج المضطربة من الناس، الحر شديد، والزحام شديد، والموقف مهيب، والحشد رهيب، والعرق يبلغ منهم كل مبلغ البكاء يملأ المكان والزمان، والنحيب يهد الصدور هدًا، لقد اندفعت بالبكاء المرير من غير شعور، من غير وعي، لقد اضطربت في نفسي مشاعر عدّة، مشاعر الحزن لفقد الشيخ مشاعر الهيبة لهول الموقف، مشاعر الخوف الشديد على جنازة الشيخ التي أصبحت كأنها قطعة الخشب الصغيرة على سطح الأمواج الهادرة، وأنا أبكي وأهتف وأنادي: يا اللَّه لطفك، يا اللَّه لطفك، يا اللَّه لطفك، كان مئات العسكر قد انتشروا وكوّنوا ممرًا للجنازة يبدأ من باب الحرم إلى باب السيارة، ووقفوا صفًا واحدًا قويًا على الناحيتين لكيلا يخترقهم أحد من الجموع الهادرة وراءهم، وقد بذلوا جهدًا عظيمًا في ذلك، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة اخترقهم الناس، وهاجوا وماجوا، وتسارعوا نحو الجثمان الطاهر، كُلٌّ يطمع في المشاركة في حمل الجنازة، أو على الأقل يظفر بلمسها، أو يكحل عينيه برؤيتها فقط، وما كادت يدي تلامس أول النعش ـ لأجذبه إلى داخل السيارة ـ إلا وقلبي يكاد يسقط من بين جنبي، وبجهاد شديد، وتعب شاق من العسكر والمتطوعين استطعنا إغلاق باب السيارة، فصعد الناس على مقدمة السيارة، وعلى السطح، وعلى مؤخرة السيارة، فإذا بهم كَسرب النحل المتجمّع في جذع سدرةٍ على يعسوبه، انطلقت السيارة تخترق الجموع بصعوبة مريرة، والناس عن يمنة ويسرة، وأمامها وخلفها، يجرون لاهثين، الأنفس خائفة، والقلوب واجفة، والدموع واكفة، يا اللَّه، يا اللَّه، يا اللَّه، سقطت أرديتهم،

وتطايرت عمائمهم، وتقطعت أحذيتهم، يمشون على حرارة الأسفلت المحرقة، وكأنما يمشون على سجاد وثير، بدأ الطريق يتسع قليلاً قليلاً، وبدأ الزحام يخف حين البعد عن الحرم بكيلو متر تقريبًا، ثم انطلقت السيارة في طريقها إلى مقبرة العدل بمكة المكرمة، وهي تبعد عن الحرم أربعة أو خمسة كيلو مترات تقريبًا.

هــذا إمــام الجيــل في نعشــه قوموا انظروا كيف تزول الجبالْ

❑ ولم يمنع بعد المسافة كثيراً من الناس من المشي من الحرم إلى المقبرة سيراً على الأقدام، لقد سالت الأودية بالناس، واكتظت الطرق بالمسلمين المولين وجوههم شطر المقبرة في مشهد لم أر له مثيلاً إلا زحام الناس وتوافدهم إلى المشاعر في أيام الحج.

❑ انطلقنا بالجسد الطاهر تجاه المقبرة، وأنا جالس بجواره، ويدي على قدميه أتحسس بردها، وأتلمس طهرها، والبكاء قد هَدَّ جسمي، وبُحَّ صوتي، وكادت حبال حنجرتي أن تتمزق، خارت قواي، طاش عقلي، ذُهلت نفسي، تبدد فؤادي. وكنت إذا التقطت أنفاسي قليلاً أرفع أكف الضراعة إلى اللَّه وأدعو قائلاً: اللَّهم إنك تعلم أنني أحبه فيك فاجمعني بهذا الحب معه في جنات النعيم، وعلمني بهذا الحب شيئًا مما علمته. وكان معي في السيارة الشيخ أحمد بن عبدالعزيز ابن سماحة الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ وهو منهمك في دموع، غارق في بكائه ومعي مرافق الشيخ، وأمين مكتبته الأخ صلاح عثمان السوداني الذي أشهد أنه كاد يلفظ أنفاسه من شدّة بكائه، وقد أغمي عليه وخرّ صريعًا في الطائف حينما سمع خبر موت الشيخ، ودخل إلى غرفة العناية المركزة بمستشفى الهدى.

❑ أما الذي كان يقود السيارة التي تحمل جثمان الحبيب، فهو الأخ محمد السيلاني، هذا الرجل الذي تفانى في خدمة الشيخ، والسعي لنيل

رضاه، فهو ممن غمرهم الشيخ بإحسانه، وبالرغم من أنه ليس موظفًا أو مرافقًا أو يتقاضى راتبًا، إلا أن جلَّ وقته مع الشيخ وفي خدمته وفي مساعدة العاملين مع سماحته ليلاً ونهارًا حينما يكونون في مكة المكرمة بالذات أو في الطائف، ويكاد يبسط راحته للشيخ ليمشي عليها.

❑ وصلنا إلى المقبرة وأنا في كرب عظيم، وخوف أليم من الموقف أمامنا خفت أن يتكرر الموقف الذي حدث عند الحرم، أتينا إلى المقبرة ذات المساحة الكبيرة، وإذا بالناس عليها مثل الغمام، أحاطوا بأسوارها، ومنهم من صعد إلى الجبال المطلة عليها في منظر مهيب، وموقف مرعب، وقد تذكرت قول الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه ـ لأهل البدع: «بيننا وبينكم الجنائز»، ولكن حُسْن تصرف المسئولين منع اللَّهُ به ما كان يمكن أن يحدث من هرج ومرج، وتدافع وتطاحن، وتزاحم وتسابق على المقبرة، فقد صدرت الأوامر السريعة بمنع أي أحد كائنًا من كان بدخول المقبرة، وكان هذا عين الصواب والتوفيق.

❑ وصلنا إلى المقبرة وأول من فتح باب السيارة الأمير ماجد بن عبدالعزيز ـ أعظم اللَّه أجره ـ أمير منطقة مكة المكرمة، ومعه أمير مكة بالنيابة الأمير سعود بن عبدالمحسن ـ أحسن اللَّه جزاءه ـ وكان من أول الناس حضورًا وأكثرهم تأثرًا الأمير متعب بن عبدالعزيز ـ أعظم اللَّه مثوبته ـ حملت جنازة الشيخ على كتفي ولم أدعها إلا عند القبر، وكنت ممن دلاه إلى القبر.

حملت جثمانه الزاكي على كتفي ... وكنت أطمع لو أن طال مشواري
نثرتُ سيل دموعي فوق تربته ... ومُضْرَم الحزن يكويني بإسعـار

❑ وودعته الوادع الأخير، وبردت شيئًا من لواهب القلب بملامسة جسده الطاهر من وراء الكفن.

مددت إلى التوديع كفًّا ضعيفةً ... وأخرى على الرمضاء فوق فؤادي
فلا كان هذا آخر العهد منكمو ... ولا كان ذا التوديـع آخر زادي

❑ ولم أكن أتذكر في هذا الموقف إلا وفاةَ النبي ﷺ وموقفَ الصحابة وذهولَهم وبكاءهم يوم وفاته، وتذكرت قول فاطمة بنت محمد ﷺ وهي تقول: «كيف طابت نفوسكم وأنتم تحثون التراب على رسول اللَّه ﷺ». أُودِع الشيخُ - رحمه اللَّه في قبره جعله اللَّه روضة من رياض الجنة - وكان الناس أمراء وعلماء ملتفين على القبر، وكأن على رءوسهم الطير.

أيا قبر شيخي كيف أول حفرة ... من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر شيخي كيف واريت شخصه ... ولو كان حيًا ضقت حتى تصدعا
فلما مضى شيخي مضى الجودُ والندى ... وأصبح عرنينُ المكارم أجدعا

❑ وقف كثير منهم بضع دقائق يدعون اللَّه تعالى له، ويسألون له التثبيت، وانطلقت الأمة المسلمة عائدة من طريقها بعد أن دفنت قلبها النابض وضميرها المتوقد وعنوانها الناصع، وإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

❑ والذي نفسي بيده ما مرّ عليّ موقف أشد وقعًا، وأكثر ألمًا، من ذلك اليوم الذي فقدنا فيه سماحته.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر

❑ عدنا من المقبرة ميممين إلى منزل الشيخ، وكأننا دفنا معه قلوبنا وأرواحنا أما الأمير ماجد بن عبدالعزيز - حفظه اللَّه - فقد اصطحب أبناء الشيخ إلى القصر الملكي، بناءً على أمر خادم الحرمين الشريفين - حفظه اللَّه - الذي أمر أن يكون غداؤهم عنده، فاستقبلهم وواساهم وشدّ من أزرهم ودعا لوالدهم.

ألست ترى موت العلى والمحامد ... وكيف دفنا المجد في قبرِ واحدِ
وللدهر أيام يُسئن عوامدًا ... ويحسنّ إن أحسنّ غيرَ عوامدِ

❑ انطلقنا إلى منزل الشيخ - رحمه اللَّه - بمكة لاستقبال المعزِّين،

ويا اللّه.. يا له من موقف، ويا اللّه.. يا له من يوم عصيب، ومشهد مهيب، احتشدت الوفود، واكتظ الزحام، والأمة في مهرجان مهول، عزاء وبكاء، وجيبٌ ونحيب، المجالس غصّت بالناس، والفناء الواسع أترع بالملأ، وكأنك في فناء الكعبة المشرفة في ليلة السابع والعشرين من رمضان، أو في يوم الحج الأكبر، والبوابات كادت تقتلع من أصولها لثكرة المزاحمين عليها، والأرض كادت أن تميد بمن فوقها، لجور الحمل عليها، وقيل يا أرض الحب ابلعي ماءك، ويا سماء الدموع لا تقلعي ويا ماء الحزن لا تغض، وقيل بعدًا للقوم الكافرين.

ولأوّل مرّةٍ أرى مثل ذلك المشهد الذي اجتمعت فيه كل الطبقات، وكل الأجناس، وكل اللغات، في مكان واحد، في موقف واحد، في منزل واحد، في هم واحد، في مصاب واحد، وكأننا في يوم عرفة، أقبلت جموع الأمراء على مختلف المستويات، وأقبل الوزراء والعلماء، وطلبة العلم، وشيوخ القبائل والوجهاء، والفقراء والمساكين، والأبيض والأسود والعربي والأعجمي، والكبير والصغير، قُطعت نياط القلوب، ومزّقت أوتار الحناجر، وأضرمت نيران الصدور، وجرت أنهار الدموع، لقد رأيت بعض الأمراء الذين ما كنا نراهم إلا على شاشة التلفاز أو على صفحات الجرائد، رأيتهم في هذا الموقف وهم يزاحمون الناس، يخترقون الصفوف، يتقاذفهم الزحام يمنةً ويسرة، عيونهم باكية، وجَنَاتهم محترقة، عقولهم ذاهلة، يعزون الناس، والناس يُعزونهم، ولا تسمع إلا ترانيم الدعوات الصادقة ـ رحمه اللّه، غفر اللّه له، عوض اللّه المسلمين خيرًا.

على الرغم من أنف المكارم والعلى ... غدتْ داره قفرًا ومغناه بلقعا
ألم تر أن البأس أصبح بعدهُ ... أشلَّ وأن الجود أصبح أجدعا
فمرا على قبـر المسوّد وانظرا ... إلى المجد والعليـاء كيف تخشعا

فإن يك واراه الترابُ فكبّرا على الجود والمعروف والفضل أربعا
ولا تسأما نوحًا عليه مُكرَّرًا ونوحًا لفقدان الحبيب مُرجّعا
فما كان شيخي هلكهُ هلك واحد ولكنه بنيانُ قوم تضعضعا
ولا تحسبا أني أواريه وحدَهُ ولكنني واريتهُ والندى معا

❑ أما أنا فقد كنت كالإنسان الذي فقد كل شيء في حياته فجأة، فأصبح ذاهلاً والهًا، خالي الفؤاد، شارد الذهن، محترق الأحشاء. كنت أحيانًا أدع نفسي لأمواج الملأ أينما حملوني مضيت معهم، أتأمل كل زوايا المنزل، وأحدق في أطراف البيت، وأدقق في أنحاء الفناء، وكأنني في عالم آخر، كنت ـ وديمةُ الدموع تهمي ـ أتأمل في كل شيء، وأستعيد شريط الذكريات: هنا كان الشيخ يجلس، هنا كان يستريح، هنا كان ينام، هنا كان يستقبل ضيوفه، هنا كان يستقبل الفقراء، ويجود بالعطاء، ويحنو على الضعفاء، ويبذل الشفاعة، ويصدح بالنصيحة. هنا كان يصلي، هنا كان يستقبل الناس، هذا كرسيه، ذاك هاتفه، تلك سيارته، ذاك سائقه، هذا مرافقه، هذا كاتبه، ذاك خادمه، كلما رأيت شيئًا، أو رمقت أحدًا ممن كان له به صلة، فكأنما أُشْعِلتْ نار الحزن من جديد، وفُجّرت ينابيع الدموع للتّو.

❑ كنت أحيانًا أصيخ بسمعي، وأصغي بقلبي لعلي أسمع قرع نعاله أو وقع عصاته، فلا يصدم سمعي إلا نشيج الوالهين، وآهات المحترقين، وأزيز صدور المُعَزِّين، مضيت أتنقل في الدار أبحث عن أبناء حبيبي وقرّة عيني كنت أعانق الواحد منهم فلا آلو ألصق صدري بصدره من فيض محبتي لوالدي ووالدهم. كنت أعانق عبدالله وعبدالرحمن وأحمد وخالد، وأحيانًا أعانق الواحد أكثر من مرّة. أبحث عن إخواني المرافقين لسماحته لعلي أرى

صورته فيهم، وأجد ريح قميصه عندهم. الشيخ محمد الشويعر شحب لونه، وتهدّج صوته، وتيبست شفتاه، وجف ريقه، وجرى دمعه، الدكتور عبدالله الحكمي لم أعد أعرفه لتغير وجهه، وضمور جسمه، وشحوب لونه، لصدره أزيز، ولقلبه وشيج. الشيخ عبدالعزيز بن ناصر مزقه الحزن، وبدّده الأسى الشيخ محمد الموسى أغلق باب مكتبه على نفسه وأرسل النفس على سجيتها، وأجرى سيل الدموع، حاولت أن أكلمه أو أسمع منه شيئًا فلم يستطع كلامي وابيضّتْ عيناه من الحزن فهو كظيم، الشيخ ابن عتيق ذلك الرجل الطيب يده على قلبه خشية أن يسقط، لحيته البيضاء اخضلت بالدموع عانقني في صمت، وقد صام عن الكلام فلم يكلم ذلك اليوم إنسيًا، وإنما ترك الكلام لدموعه، وأطلق العنان لعبراته، هكذا كنت أتنقل بينهم باحثًا عن طيب الحبيب، هناك الأخ حَمَدْ يتأوه ويبكي، وهناك الأخ سعيد يئن ويشكي، ذهبت إلى الحارس والخادم والسائق والقهوجي أعزيهم ويعزونني، أذكي لهيب أحزانهم ويذكون لهيب أحزاني، أقيمت صلاة العشاء في مسجد سماحته فتقدمت للصلاة بالناس فتذكرت سماحته ومقامه خلف الإمام ونبراته الخاشعة، ودعواته الضارعة، ثم تذكرت أنه لن يصلي معنا أبدًا، وأن الأُنس معه انقضى، والغبطة به تلاشت، والحبيب غادر إلى غير عوده، وتذكرت بلالاً حين قام يؤذن بعد وفاة النبي ﷺ فحينما قال: أشهد أن محمدًا رسول الله، خنقته العبرة، وانهمك بالبكاء، تذكرت أبا بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي، والصحابة جميعًا رضي الله عنهم تذكرت موقفهم في أول صلاة غاب عنهم فيها إمامهم وحبيبهم ﷺ، فخنقتني العبرة، وانهمكت في البكاء، وضج المسجد بالنحيب، وامتلأ الأفق بالأنين، وكدت أخر على وجهي في المحراب ولم أستطع أن أكمل قراءتي وأتم صلاتي إلى بجهد جهيد.

□ وهكذا عشنا ذلك اليوم الرهيب، والمشهد الغريب. وظلت أفواج

المعزِّين تتوافد إلى ساعة متأخرة من الليل، ثم كان العزاء في اليوم الثاني بمنزله بالطائف، والموقف نفسه يتكرر، والمشاهد ذاتها تتجدد، ثم انتقل العزاء في اليوم الثالث إلى منزله في الرياض، وما قيل هنا يقال هناك وربما أكثر من ذلك بكثير.

اللَّهم اغفر لشيخنا، اللَّهم اغفر ذنبه، وارفع درجته، واجمعنا به في جنات النعيم إنك على كل شيء قدير.. وإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

ودع الصبرَ محبٌّ ودعك ... ذائع من سرّه ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن ... زاد في تلك الخطى إذ شيّعك
يا أخا البدر سناء وسنا ... رحم اللَّه زماناً أطلعك
إن يطل بعدك وقتي فلكم ... بتّ أشكو قصر الوقت مغك»[1]

* **أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة تخدمهم الملوك «ورقة من سفر الخلود»**[2] :

يا أُمَّةً غاب عنها بدرها الساري ... وجفّ من أرضها سلسالها الجاري
طاشتْ عقولُ بنيها من فجيعتها ... بحادث يلهب الأحشاء بالنار
من هوله بتُّ كالمطعون في كبدي ... بصارم مُفعمٍ بالسُّم بتار
هل مات من عاش نوراً نستضيء به ... في مُدْلَهِمّ الأمر من همٍّ وأخطار
هل مات من نرتوي من عذب مورده ... صفواً من العلم فيضاً دون إقتار؟
هل مات من ألبس التوحيد حُلَّته ... وهبَّ للشرك تمزيقاً لأستار؟
هل مات من عاش سيفاً باتراً بَتَرَتْ ... صولاتُه كلَّ تخريف لمهذار؟

(١) «إمام العصر» (ص٩٠ ـ ٢١٩).
(٢) قصيدة للدكتور ناصر الزهراني من كتابه «إمام العصر» (ص١٨ ـ ٢٤).

هل مات من نرتجي في صدق وَثْبَته ... كبتًا لأصوات أعداءٍ وأشرار؟
هل مات من عطَّر الدنيا بسيرته ... ومسعد الضيف والملهوف والجار؟
هل مات من يكفل الأيتام هل فقدوا ... حنان كَفٍّ لطيف اللمس مدرار؟
وباذل الجاه والأموال ما بَخِلتْ ... يمناه عن رفد قُصَّاد وزُوَّار
ومن تأبَّى على الدنيا وزينتها ... وللمحبين منه صِدْقُ إيثار
هل غاب عنا نمير العلم في زمن ... تشكو البرية فيه قحط آبار
سفينة العلم تبكي موت قائدها ... وتشتكي هول إدلاج وإبحار
عبدالعزيز بن بازٍ نَغْمةٌ نُقِشَتْ ... في كل قلب وفي أعماق أخيار
هل من محب لدين اللّه ما ذَرَفَتْ ... عيناه في كل أرجاء وأمصار؟
كل الإذاعات تشدو بالثناء له ... وكم يُرى عبر شاشات وأقمار
واسْوَدَّتْ الصفحاتُ البيضُ ناطقةً ... بفضله بين منثور وأشعار
ودَوَّنَتْ فيه أقلامُ الورى دررًا ... تبدي أفانين إجلالٍ ومقدار
أنت الكفيف ولكن الفؤاد يرى ... ويبصر الحق صفواً دون أكدار
أسديت للأمة الغراء ما عجزت ... عنه الملايين من أرباب أبصار
حُبٌّ لنشر الهدى والخير في جلدٍ ... وهِمَّةٍ تبلغ الجوزا وإصرار
في كل صقْعٍ له صوت وداعيةٌ ... عبير أنفاسه في أُفْقِها سَارِ
لقصة العلم والتوحيد أودية ... سلسالها في ربا أرجائنا جار
مواعظ كرحيق الشهد شافية ... تنير أعماق مهموم ومحتار
وحسن قصدٍ لما يأتيه من عمل ... أو دعوة واهتمامات وأوطار
لطف وعطف ورفق بالبرية لا ... يشوبه شؤم تعنيف وإضرار
لكن إذا حُرمةٌ من دينه انتُهِكتْ ... رأيت في الذَّبِّ عنها وَثْبَةَ الضاري
بَوَّأْتَ عند ولاة الأمر منزلة ... عظيمة لم ينلها أي دَيَّار

مُبَجَّلٌ عند كلِّ الناس محتـــرم ... مُقدَّرٌ في بواديهـــم وحضـــار
وكم له الفضل بعد اللّه في منٍ ... من وابـل النفـــع أو من دفع أضـــرار
مســاجد ورباطـــات وأنـديـــــة ... ودور علم بكت من هم إقفـــار
تبكي الليالي التي قد كان يسعدها ... أزيزُ صدرك في ساعات أسحـار
يبكي مُصَلاَّك والذكـــرُ الحكيـــم لما ... عَمَرت منه الليـــالي خير إعمـــار
يبكي الصحيحان والمغني لما فقدوا ... من حُسْن وصلٍ وتقديـر وتكرار
يبكي الرياضان والتفسير منتحبٌ ... والفتح يبكي ويبكي نيل أوطـــار
يا قبر ويحك هل واريت من عُمِرَتْ ... به قلوبٌ لأبـرار وأطهـــار
واريت يا قبر من أحيا ضمائرنا ... بفيض علم نقي النبع زخَّـــار
يا قبر واريت جيلاً عاش في رجل ... ذي مبدأ مشرق الأصـداءِ سيَّار
من بعد أن كان للدنيا بأكملها ... طويتـه فجأةً في بعض أشبـــار
كم بقعة تشتهي لو أنها سكن ... داف لذاك الإمـــام الخاشع القـــاري
يا قلب كم فيك من هم ومن أرقٍ ... ومن ظلام كثيف بعـد أنـــوار
تحطمت عزمات الأنس في لغتي ... وأَجْهَشَتْ بالبكاء المرِّ أغـــواري
لو أن لي حيلةً بالموت ما طَمِعَتْ ... عيناي في النـــوم قبل الأخـــذ بالثـار
لكنه أمْرُ مـــولانـــا وقـــدرتـــه ... ونحن نرضى بما يرضى لنا الباري
حَملتُ جثمانـــه الزاكي على كتفي ... وكنت أطمع لو أنْ طال مشواري
نثرت سيل دموعي فوق تربتـــه ... ومضرم الحزن يكويني بإسعـــار
واريتُه في فـــؤادي قبل مَدْفَنِه ... بعثتُه في دمي في عمق أوتـــار
روائـــع من صفات الطهر زاكيـــة ... تظل تُروى لأجيـــال وأدهـــار
إن غبت يا شيخنا جسماً فما بَرِحَتْ ... ذكراك تحيا معي في كل أطـــواري
أراك في كل حرف حين أقرؤه ... من سُنَّةٍ أو كتـــاب أو بآثـــار

أراك في الركن في البيت العتيق وفي ... بياض إحرام حجاج وعُمّـــار
أراك في زمزم في الخيف في طُرُقٍ ... إلى المشـــاعر، في إطلالـــة الغـــار
أراك في الحج في شهر الصيام وفي ... قيـام ليلٍ، وإمساكٍ، وإفطـــار
أراك في دمعة الأيتـام، في لغةٍ ... مكلومة من ذوي فقـر وإعســـار
أراك في كل من يرجو لكربتـه ... كشفًا وفي كل محزون ومحتـار
أراك في كل من يبغي لمسألة ... فتـــوى، وفي كل توجيـه وإنكـار
أراك حين احتدام الأمـــر حين يُرى ... وجـه الحـوادث والأيام كالقـار
أراك حين انغلاق الفهم في عقـــدٍ ... من المسائل، أو في فهم أســرار
أراك في مجلس الفتوى، وفي حِلَقٍ ... للعلم قد غاب عنها نجمك الساري
أراك في كل منثـورٍ وقافيةٍ ... أراك في دارك الثكلى، وفي داري
أراك في مسجدي في كل ما نَظَرَتْ ... عيناي يبدو أمـــامي كيف تذكـار
إن كان غيري له في ذكركم طرف ... يزهـو به من تراتيل وأخبـــــار
فإن لي من عبير القول أطْيبهُ ... في حُبّكم بين إعـــلان وإســـرار
أنا الذي صغت ألوان القريض وما ... فَتِئْتُ أشدو بها في كل مضمـار
نَظمْتُ أزكى فنـون القـــول في زمن ... غيري يُغَنّي لأحبـاب وسُمّـار
بازية الدهر من أقـــوى الشهود على ... سبقي وصدقي وإجـلالي وإكبـاري
من قام يشدو بمدح في سماحته ... يأبى وينكـر هذا أي إنكـار
إلا أنا كان يوليني رعايته ... ولا يصـادر أشعاري وأفكـاري
وحين أصدح بالرنان من خطبي ... يدعو ويثني بلفظٍ منه معطـار
يدري بأني مُحبٌّ مرهف نَمِـلٌ ... وكان بالمنطوي في خافقي داري
أنا الذي عشت في أعمـاق سيرته ... إذْ كان أهل الهوى في تيهِ مقفار
بذلت حبي وأوزاني وقافيتي ... وسوف أحيا وفيًا دون إخفـار

إذا تُسطَّر بالأحبار قافيةٌ ... فإنني من دمي سَطَّرتُ أشعاري

وليس من ينظم الدر البديع كمن ... يأتي بألفاظه من نحت أحجار

لا يستوي الذهب الإبريز أَسْبُكه ... بما يصوغون من طين وفخار

إذا انتقوا من بنات الفكر ثَيِّبَها ... فإن ألفاظ شعري طهر أبكار

آتي بها مثل ضوء البدر مزهرة ... رفيعة الذوق مسعاداً لنُظَّار

وإن بكوا ساعة ثم انقضى أَثَرٌ ... فإن دمعي سيبقى دائماً جاري

ولو سقوني من الأنهار أجمعها ... لن تنطفي من فؤادي جذوة النار

ماكان حبي لكم زعماً أردِّدُه ... عن البراهين في تصديقه عار

بل كان حباً نقياً رائعاً شهدت ... بصدقه خير أصداءٍ وآثار

عذباً فراتاً هنيئاً سائغاً غدقاً ... رَبَتْ روابيه من وردٍ وأزهار

وعشت أقبس نوراً من هدايتكم ... وأقتفي سيركم في كل مضمار

تَعلَّمتْ راحتيْ بذلَ الجميل وكم ... زكا فؤادي بتوجيه وتذكار

وبُدِّدَتْ ظلمات الدرب وانْقَشَعَتْ ... كل الغشاوات عن قلبي وأنظاري

وفزتُ بالمنهج الأسمى فَلُذْتُ به ... ولم يعد يغتويني أي تيار

نهج النبوة ما أزكى مشاربه ... جنيتُ بالسير فيه حلو أثمار

غمرتني بالرضى والحب وازدهرتْ ... روحي بريّاك في وِرْدٍ وإصدار

نهلتُ من نهرك الرَّقْراق في نهمٍ ... وفزتُ من كل إعسار بإيسار

ولو كتبتُ بدمع العين ملحمةً ... في الشيخ أَتْبَعْتُ ما أروي بأعذار

من ذا يوفِّي إمام الجيل منزله ... وكل ما قيل فيه عشر معشار

من يرتقي لسهيل في منازله ... ومن يقابل إغزاراً بإنزار؟

عشنا مع العلم والإيمان في ظُلَلٍ ... من السماحة في جهرٍ وإضمار

وكم نسجنا من الآمال أردية ... غدت ضحية أيام وأقدار

وكم ظفرنا أكاليلاً موردةً ... فاجتثها من ربانا هول إعصار
كم خيم الألم الفتّاك في جسدٍ ... واحلولكت من دروبٍ بعد إسفار
يا من يباهي بحب الشيخ هل جُمِعَتْ ... قواك للسير في منهاج أبرار
وهل تَعَلَّمْتَ منه في تَألُّقِه ... عن حَمْأة الذنب أو لوثات أوزار
أم أنت تبكي كما تبكي العجوز بلا ... بذْلٍ وفضلٍ وتحيا خلف أسوار
فانهض لرفعة دين اللّه مقتديًا ... به فقد كان يحذو حذو مختار
تأسّ بالمصطفي الهادي وصحبته ... وانظر لأخبار خباب وعمّار
نستودع اللّه من عشنا نُبَجِّلُه ... ويا إمام الهدى في ذمة الباري
رحلتْ عن هذه الدنيا التي لَعِبَتْ ... بنا إلى جود رحمن وغفار
يا رب يا من له تشدو ضمائرنا ... ويا مُقَدِّر آجالٍ وأعمار
ومن إذا ضاقت الدنيا بما رَحُبَتْ ... نلوذ منه بركْنٍ غير منهار
اخلف على أمة الإسلام في عَلَمٍ ... عَلامة طيّب الآثار مغوار
ولم نجد في البرايا من يضارعه ... علمًا وحلمًا وجودًا منذ أعصار
واجعل جنان الرضى والخلد منزله ... ما بين حور وولدان وأنهار

* * *

فقيه الزمان.. العالم الرباني.. بقية السلف..

أبو عبدالله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين (١٣٤٧هـ-١٤٢١هـ):

أيها الشـــيخ الذي ودَّعنـــا ... عالي الهمّـــة وضـــاحَ الجبـــينْ
نحن نلقـــاك وإنْ فارقتنـــا ... في علـــوم بقيتْ للراغبين
أنت كالشـــمس إذا ما غربتْ ... أهدت البـــدرَ ضـــياء المُدلجين
أنتَ مـــا ودّعـــتنـــا إلاّ إلى ... حيث تؤويك قلوب المسلمين[1]

❑ قال عنه الشيخ صالح بن عبدالله بن حميد إمام وخطيب المسجد الحرام:

«هو الإمام العالم العلاّمة حبر العلوم، وبحر المعارف، شيخ الفقه، وإمام السنة، الشيخ: محمد بن صالح العثيمين.. لقد كان - رحمه الله - لسان صدق، صادعًا بالحق ملتزمًا به، مقيمًا عليه مع رعاية الحكمة.. خلّف - رحمه الله - ثروة علمية هائلة ينتفع بها بعده - إن شاء الله - ليمتد له أجرها وثوابها»[2].

❑ وقال الشيخ عبدالرحمن السديس خطيب المسجد الحرام:

«يُعدّ الشيخ - رحمه الله - من بقية السلف الصالح، وإمامًا من أئمة أهل السنة والجماعة، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدًا، فهو ممّنْ قلّ نظيره، وممن جلّ أن ترى العيون مثله بلا مبالغة، لما حباه الله عز وجل، فهو موسوعة علمية أخلاقية، ودعوية، ومنهجية، يقلّ نظيرها، فهو أئمة في

---

(١) للدكتور عبدالرحمن العشماوي من قصيدته «وجهك الباكي دموع التائبين». من كتاب «الدر الثمين في ترجمة فقيه الأمة العلاّمة ابن عثيمين» لعاصم المري (ص٤٨٠) - دار البصيرة - الإسكندرية.

(٢) المصدر السابق (ص٤١٥، ٤١٦).

إمام، وأمة وحده، ونسيج بمفرده، وطراز مستقل طالما نفع اللّه به، وذاع صيته، وعلا قدره، واستفاد منه القاصي والداني.

لقد تعرضت الأمة لكثير من جوانب الخلل العقدي والفكري والمنهجي والأخلاقي، فكان الشيخ ـ رحمه اللّه ـ نعم الموجّه. . لقد كان مدرسة يصدر الدعاة وطلاب العلم عن رأيه في النوازل، وتوجيهه في المستجدات، ونصحه في المتغيّرات، تمسكًا بالتأصيل الصحيح، والمنهجية المنضبطة بالدليل والقاعدة الشرعية والمقصد الإسلامي النبيل»[1].

ولقد تم تكريم الشيخ باختياره لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٤م وذلك تقديراً لسجاياه.

❑ وجهوده المتمثلة فيما يلي:

ـ تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع، والزهد، ورحابة الصدر، وقول الحق، والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لعامتهم.

ـ انتفع الكثير بعلمه، تدريسًا وإفتاءً، وتأليفًا، فهو يدرس العلوم الدينية عقيدة وشريعة، وعلوم اللغة العربية، وذلك في جامع عنيزة وفي المؤسسات التعليمية الحكومية، وفي طليعتها كلية الشريعة في القصيم، وهو يجمع بين غزارة العلم، وجودة أسلوب عرضه؛ مما جعل حلقات درسه تجتذب طلاب العلم من مختلف أرجاء المملكة وخارجها، ولقد بذل نفسه للإفتاء بطرق متعددة، من أبرزها: الكتابة، والهاتف، والمسجّل، ووسائل الإعلام كالصحف، والمجلات، والإذاعة عبر البرنامج المشهور (نور على الدرب) الذي يستفيد منه كثير من الناس داخل المملكة وخارجها، وإلى جانب ذلك ألّف حوالي أربعين كتابًا ورسالة، منها ما هو ذو مستوى يتلاءم مع قدرات

(١) المصدر السابق (ص٤١٦، ٤١٧).

طلاب العلم، ومنها ما هو ذو مستوى يناسب جمهور المسلمين لمعرفة ما هو ضروري من مبادئ الدين الحنيف والشريعة السَّمحة.

ـ إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في بلدان ومراكز مختلفة من مناطق المملكة مما كان له أثر كبير في توجيه الجمهور خاصة الشباب الوجهة الحسنة.

ـ مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كبيرة مثل: مؤتمر رسالة المسجد، ومؤتمر الدعوة والدعاة، ومؤتمر الفقه الإسلامي، ومؤتمر مكافحة المخدرات.

ـ اتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلاً حيًّا لمنهج السلف الصالح فكرًا وأسلوبًا، مما جعل كثيرًا من المسلمين يطمئنون إلى ما يدعو إليه، ويستفيدون منه»[١].

❑ قال الشيخ محمد صفوت نور الدين ـ رحمه اللَّه ـ عن الشيخ ابن عثيمين: «صاحب الباع الوافر في الفقه وأصوله، وفي الحديث رواية ودراية، من أجل ذلك كان إمامًا في الدليل والتعليل، ففي المسألة الفقهية يدلي بالدليل الذي يستند عليه القول الذي يختاره، ويعلم السامع كيف يستنبط الحكم منه، ويشرح علّة الحُكْم، ويربط بالأشباه والنظائر، وكان في التفسير إمامًا بارعًا كيف لا؟!! وإن أحظى شيوخه العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي صاحب التفسير الجامع الممتع على اختصاره وتبسيطه.

وكانت مجالس الشيخ العلمية تجمع بين المبتدئ والمجتهد في طلب العلم، فلا يحرم المبتدئ من الفوائد المدرجة التي يرتقي بها مدارج العلم النافع، ويجد فيها المجتهد بغيته، ويحصل الباحث المدقق على ضالته المنشودة»[٢].

---

(١) جريدة الرياض العدد ١١٨٨٩.

(٢) مجلة التوحيد المصرية ـ العدد ١١ ـ للسنة ٢٩.

*** ابن عثيمين ودفاعه عن عقيدة السلف:**

ثلاثة رموز للهوية السلفية في عصرنا هذا: ابن باز، والألباني، وابن عثيمين ولقد ظل الشيخ ابن عثيمين ينافح عن هذه العقيدة ويدعو إليها بلسانه وببنانه تأصيلاً وتفصيلاً من منبره ومن درسه، ومن خلال هاتفه، وفي الشارع والجامعة والمعهد والجامع، في مجالسه الخاصة والعامة، ولا يكاد يجد فرصة سانحة إلا وينشر فيها هذه العقيدة الصافية النقية بأسلوبه السهل المتدرج الذي يجذب انتباه العامي.

وتولى ـ رحمه اللّه ـ في كتبه شرح كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وله أشرطة مسموعة فيها شروح كتب بأكملها كالتدمرية والعقيدة الواسطية والعقيدة السفارينية والنونية لابن القيم، وكتاب التوحيد والرد على الجهمية من صحيح البخاري، بل واختصر كثيراً من كتب ابن تيمية وعلّق على كتب لابن عبدالوهاب وقرّبها الطلبة العلم والعامة.

وردّ ـ رحمه اللّه ـ على أهل الزيغ والانحراف بمنتهى القوة، ونوّع الأدلة وفصّل في الرد وأطال النفس في ذلك جداً . . انظر إلى كتابه «تقريب التدمرية» وكيف ردّ على الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة وغلاة الجهمية والقرامطة والباطنية.

ولم يأل الشيخ ابن عثيمين جهداً في مواجهة المخالفات العقدية المعاصرة على اختلاف أنواعها، سواءً كانت من ميراث الفرق والمذاهب السالفة، أو من نتاج الحاضر، فكان بالمرصاد لكل دعوة دخيلة على العقيدة السلفية الخالصة، رداً لها وتفنيداً لشبهاتها وشبهات أصحابها، واستدلالاً على الحق بالكتاب والسنة والإجماع.

وانظر إلى إنصافه:

❑ قال ابن عثيمين: «وأما الخطأ في العقيدة؛ فإن كان خطأ مخالفًا

لطريق السلف فهو ضلال بلا شك، ولكن لا يُحكم على صاحبه بالضلال حتى تقوم عليه الحجة، فإذا قامت عليه الحجة؛ وأصر على خطئه وضلاله كان مبتدعًا فيما خالف فيه الحق، وإن كان سلفيًّا فيما سواه، فلا يُوصف بأنه مبتدع على وجه الإطلاق، ولا بأنه سلفي على وجه الإطلاق، بل يوصف بأنه سلفي فيما وافق السلف، مبتدع فيما خالفهم، كما قال أهل السنة في الفاسق إنه مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من العصيان، فلا يُعطى الوصف المطلق، ولا يُنفى عنه مطلق الوصف، وهذا هو العدل الذي أمر اللَّه به، إلا أن يصل المبتدع إلى حد يخرجه من الملة فإنه لا كرامة له في هذه الحال»[1].

❑ وانظر إليه للَّه دره في تفصيله في مسألة التكفير وخاصة تكفير الحكام التي صار الناس فيها إلى غالٍ ومفرط، فبيّن الشيخ خطورة الكلام في هذه المسألة خاصة ممن لا علم عنده، أو ممن يجري وراء العواطف والحماس المتوقد، وحذّر أشد التحذير من الولوج في هذا الباب بغير علم ولا بصيرة، فقال ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «وهذه المسألة أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل اللَّه من المسائل الكبرى التي ابتلى بها حكّام هذا الزمان، فعلى المرء أن لا يتسرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه؛ حتى يتبين له الحق؛ لأن المسألة خطيرة، نسأل اللَّه تعالى أن يُصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم، كما أن على المرء الذي آتاه اللَّه العلم أن يبيّنه لهؤلاء الحكام، لتقوم الحجة عليهم، وتبين المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، ولا يحقرن نفسه عن بيانه، ولا يهابن أحدًا فيه فإن العزة للَّه ولرسوله وللمؤمنين واللَّه ولي التوفيق»[2].

(١) «كتاب العلم» (ص١٩٩ ـ ٢٠٠) ط دار الثريا.

(٢) «مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين» لفهد السليمان (٢/١٤٧).

ردّ ـ رحمه اللّه ـ على الأشاعرة، ورد على زنادقة الفلكيين[١] ، وردّ على الرافضة[٢] وبين الشيخ كثيرًا من الأخطاء التي تقع في كلام بعض الناس[٣] .

❑ وهناك مؤثرات لنبوغ الشيخ والتزامه بالمنهج السلفي منها تتلمذه على كبار علماء عصره الذين عُرِفوا بعقيدتهم السلفية، وتأثره بكتابات شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وتأثر بمنهاج الشيخ محمد رشيد رضا فيقول: «وتأثرت بمنهاج الشيخ محمد رشيد رضا؛ لأنه جيد في عرض المسائل، وإن كان عليه بعض الأخطاء وجلّ من لا يخُطئ، فهو على كل حال له أثر في منهجي في تحقيقه المسائل وما أشبه ذلك»[٤] .

❑ أما تميزّ الشيخ ابن عثيمين في الفقه فلا يخفى على أحد من العوام أو العلماء أو طلاّب العلم من غرب المعمورة إلى شرقها من المسلمين عجمًا كانوا أم عربًا، ولقد تأثر الشيخ في منهجه الفقهي الذي بزّ فيه بشيخه السعدي، وابن سعدي ـ رحمه اللّه ـ ممن برز في الفقه في هذا العصر وأصوله وقواعده بروزًا منقطع النظير في اطلاعه وعمق فهمه وقوة استنباطه فارتوى ابن عثيمين من معين شيخه ونهل من بحره الزاخر، وتأثر بكتابات ابن تيمية وابن القيم، وابن مفلح صاحب كتاب «الفروع». وكان يوصي طلبته بحفظ المتون ويردد «من حفظ المتون حاز الفنون».

❑ والشيخ ـ رحمه اللّه ـ دعا إلى ترك التقليد الأعمى ولقد تأثر كثيراً بشيخه عبدالرحمن السعدي في ذلك.

---

(١) انظر «الضياء اللامع من الخطب الجوامع» لابن عثيمين (ص٣٢).

(٢) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٢/٣٣٨)، طبع دار ابن الجوزي.

(٣) انظر «مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين» الجزء الثالث.

(٤) «مجلة الدعوة» العدد ١٧٧٦ .

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ : «لقد تأثرت كثيراً بشيخي عبدالرحمن السعدي في طريقة التدريس، وعرض العلم، وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعاني»[١].

والمنهج الذي سلكه الشيخ عبدالرحمن السعدي هو منهج خرج به عن المنهج الذي سار عليه علماء نجد عامتهم أو غالبيتهم، حيث كان الشيخ السعدي لا يتقيّد بالمذهب الحنبلي في مسائل كثيرة حتى أن علماء بريدة ـ رحمهم اللَّه ـ في عهد الشيخ السعدي كان ينقمون على الشيخ السعدي بسبب خروجه عن المذهب الحنبلي، حتى رفعوا عليه دعوى إلى الملك عبدالعزيز آل سعود يشكونه إليه».

ومنهج الشيخ السعدي كثيراً ما يتبنى آراء الشيخ ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، ويرجحهما على المذهب الحنبلي، فلم يكن عنده جمود تجاه مذهب معين، بل كان متجرداً للحق، وقد انطبعت هذه الصفة وانتقلت إلى تلميذه محمد الصالح العثيمين.

❑ ولم يكن تبنّي الشيخ لآراء شيخ الإسلام نابعًا من هوى أو تقليداً أعمى، بل كان متجرداً للحق أيضًا، فحيثما وجد الحق فهو ضالته ومطلبه، بل إنه خالف شيخ الإسلام في عشرات المسائل أكثر من مخالفة شيخه السعدي»[٢].

❑ ولقد أوتي الشيخ ابن عثيمين فهمًا ثاقبًا في إظهار مقاصد الشريعة وأسرارها وحكمها، وكانت له عناية فائقة بالفروق، والقواعد الفقهية.

❑ ويمتاز البحث الفقهي عند الشيخ برسوخ وسائل البحث عنده،

---

(١) «صفحات مضيئة من حياة الشيخ محمد بن صالح العثيمين» لتلميذه وليد بن أحمد الزبيري (ص٣٠).

(٢) المصدر السابق (ص٣٢).

وتحريره الدقيق للمسائل، وتحديده للمصطلحات، واستحضاره البارع للقواعد الأصولية، والقواعد الفقهية، وتفريعه العظيم للمسائل، ورجوعه عن قوله إذا تبيّن له الصواب، وتوقفه عن الترجيح إذا تساوت عنده الأدلة أو تكافأت.

❑ والشيخ ابن عثيمين جمع بين أصالة السلف من جهة وإلمامه بواقع الناس وقضاياهم من جهة أخرى، ولقد قرّب الشيخ فقه السلف، وخاصة المسائل الكبار الموجودة في المغني والمبسوط والمجموع والتمهيد، وتظهر مكانة الشيخ في فتاويه في القضايا المعاصرة.

❑ وبلغت تسجيلات الشيخ في أشرطته المسجلة ٣١٨٣ شريطًا[1] .

❑ ولا يشك الناظر في حياة الشيخ العلمية العامرة بالفقه تأصيلاً، وتقعيدًا، وبذلاً، وعطاء أن الشيخ كان لا يُجارى ولا يُبارى في مكانته الفقهية، وللّه دره في حصيلته المباركة في الفقه وكتبه، ولو لم يكن للشيخ إلا «الشرح الممتع على زاد المستقنع لكفاه» وانظر إلى شرحه للكافي في الفقه الحنبلي، وشرحه لبلوغ المرام، ومؤلفاته الفقهية تعلم أي شيخ مجتهد رباني كان الشيخ ابن عثيمين.

❑ وبإخلاص الشيخ ابن عثيمين وتجرده وصل صوته إلى كل مكان في أرجاء البسيطة وفي روسيا الشيوعية هناك تحت سياط العقاب والإرهاب نجد دعوة الشيخ قد وصلت تحت الأقبية من ذلك: ما رواه الشيخ أحمد بن عبدالعزيز الحمدان: «في حج عام ١٤١٦هـ كنت مرافقًا لسماحته وهو يزور الحجّاج ـ كعادته كل سنة ـ يسلّم عليهم ويحدثهم، ويجيب على أسئلتهم في مطار الملك عبدالعزيز بجدة، ودخلنا صالة استقبال كان فيها حجاج من جمهورية من الجمهوريات الإسلامية التي كانت تحت الحكم الرّوسي، وكان

(١) انظر شريط ١٠٠ فائدة من الإمام ابن عثيمين للشيخ محمد صالح المنجد.

أصغرهم سنًّا قد بلغ الستّين، وليس فيهم من يتكلم العربية، فسأل الشّيخ إن كان معهم مترجم يترجم كلامه إليهم، فلم نجد إلاّ شابًّا سعوديًّا كان في استقبالهم يتحدّث بلسانهم. فطلبنا منه أن يترجم كلام الشيخ، فوافق، وأخذ الشيخ يتحدّث والشاب يترجم. وفي أثناء حديثه دخلَ شابٌّ يركض ـ علمنا فيما بعد أنه مرشد الحملة ـ وإذا به يتحدّث العربية بطلاقة، وطلب أن يقوم بالترجمة، وأخذ مكبّر الصوت، وهو لا يعلم من هو الشيخ حتى فرغ الشيخ من حديثه ثم جاء يسلّم. فقلنا له: هذا الشيخ محمد بن عثيمين، وإذا بالشاب ينظر إلى الشّيخ باستغراب وقد اتسعت حدقتا عينيه، وقال: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، فاستغربنا من معرفته لاسم الشيخ، وقلنا: نعم، وإذا به يضمّ الشيخ بذراعيه وأخذت الدّموع تنهال من عينيه وهو يقول: الشيخ محمد العثيمين ويكرّر اسمه فرحًا، ثم ما لبث أن أخذ مكبّر الصوت، ونادى في أفراد الحملة بكلام لم نفهم منه سوى ترديده لاسم الشيخ، وكانت المفاجاة أكبر عندما أخذ أفراد الحملة يبكون، وارتفعت أصواتهم وهم يردّدون اسم الشيخ: الشيخ العثيمين، وقال الشاب: يا شيخ هؤلاء كلّهم طلاّبك، هؤلاء كانوا يدرسون كتبك في الأقبية تحت الأرض لمّا كان تعليم الإسلام عندنا ممنوعًا، وهم في شوقٍ للسلام عليك فهل تأذن لهم؟ وأذن لهم الشيخ، فأقبلوا يقبّلونه ويقبّلون رأسه ويديه وهم يبكون ويردّدون اسمه، فكان من أشدّ المواقف تأثيرًا، وما أعلم من بقي في ذلك المكان إلا وبكى تأثّرًا بما رأى وسمع»[1].

* رؤية الشيخ لضوابط إنجاح الصحوة الإسلامية:

يرى الشيخ ابن عثيمين أن هناك ضوابطَ لإنجاح الصحوة الإسلامية منها:

(١) جريدة «البلاد» عدد (١٦٢٢٣)، و«الدر الثمين» (ص٢٠٠ ـ ٢٠١).

ـ التمسك بالكتاب والسنة.

ـ والعلم البصيرة: أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه، وعلى بصيرة في مجال الدعوة، وبصيرة في كيفية الدعوة، وثالث الضوابط هو الفهم. والرابع: الحكمة، والخامس: التآلف والتواد، وسادسها: الصبر والاحتساب، والسابع: التخلق بالأخلاق الفاضلة، والسابع: كسر الحواجز بين الداعية وبين الناس، والتاسع: الرفق واللين، والضابط العاشر: اتساع صدور الشباب للخلاف بين العلماء. والحادي عشر: تقييد العاطفة بما يقتضية الشرع والعقل، وبعد ذلك عدم اليأس.

*** مكانة الشيخ في التفسير:**

لقد أوتي الشيخ ابن عثيمين فقهًا في التفسير وبصرًا عظيمًا، يكثر التأمل، ويتعمق في الاستنباط، ويحث على الفكرة والتدبر، ويغوص وراء المعاني كأنه عالم من علماء القرون الأولى ممن رسخوا في العلم والفهم.

كان ـ رحمه اللَّه ـ يستخرج عشرات الفوائد من الآية الواحدة.

وللشيخ القدح المعلى في التفسير بعد الشيخ الشنقيطي في علماء عصرنا وقرننا.

*** زهده ـ رحمه اللَّه ـ:**

كان بيته القديم بعنيزة من الطين، «وكان ـ رحمه اللَّه ـ يلبس نعلاً معروفًا لها أصبع، لا تتجاوز قيمتها خمسة عشر ريالاً، ويلبسها دومًا»[1].

*** وقال الشيخ محمد صالح المنجّد:**

«كان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ زاهدًا في الدنيا، ليس من أهل العقارات،

(١) «الدر الثمين» (ص٢١٧).

والأموال، وما يأتيه من الرواتب ينفقه على أهله، وقد أُعطي سيارة جديدة فلم يستعملها، فلمّا علاها الغبار سحبت من أمام البيت.

وأُعطي بيتًا كبيرًا فوهبه لطلبة العلم.

وسيارته قديمة «مازدا» في الثمانينات «يعني الموديل»، ومن تأمّل غترته وبشته، ونعاله عرف أنه رجلٌ زاهد غير متعلّقٍ بالدنيا»[١].

❑ قال الشيخ فهد بن عبدالله السنيد: «وأما زهده فيكفي أن تعلم أن ريع كتبه التي تطبع بإذنه لصالح الأعمال الخيرية، ويشترط على من يقوم بطباعة كتبه ألا يحتفظ بحقوق لمن أراد طبعه، وتوزيعه مجانًا»[٢].

❑ وقال سليمان السالم الحناكي: «وقد ذكر لي من أثق به موقفين للشيخ يعبّران عن صفة الزّهد لديه:

ففي أحد الأيام كان الشيخ يقف بجوار مسجده مع بعض طلبته يسألونه ويناقشونه في بعض المسائل الشّرعية، فأتت سيارة فارهة ونزل منها السائق، وأعطاه مفاتيح السيارة قائلاً: إن هذه السيارة هدية من فلان الفلاني «أحد أعيان البلد» وأبى الشيخ، إلا أن الشخص ألّح عليه، فأخذ الشيخ المفاتيح، وركب ذلك الشخص السيارة الأخرى وذهب.

❑ فيقول محدّثي:

أن الشيخ تابع حديثه مع طلبته وهو يقلّب المفاتيح بيده، ولم يلتفت مطلقًا، وفجأة أتى شاب وسلّم على الشيخ، وقال: يا شيخ الليلة زواجي، وإني أرجو أن تحضره، ولكنّ الشيخ تعذّر لبعض الارتباطات، ولكنّ الشّاب

---

(١) محاضرة للمنجد بعنوان (١٠٠ فائدة من العلامة ابن عثيمين)، وجاء في الاقتصادية بعدد: ٢٦٥٢ أن السيارة من نوع (كريسيدا).

(٢) «مجلة الدعوة» العدد ١٧٨١.

ألح عليه بالحضور، فلاطفه الشّيخ وقال: إن ظروفه لا تساعده، ولكن خذ مفاتيح هذه السيارة فهي هديّة مني لك، وأخذ الشّاب السيارة وذهب، وعاد الشيخ لحديثه وكأن شيئًا لم يكن.

❑ وموقف آخر: وهو أن الملك خالد ـ رحمه اللّه تعالى ـ زار الشيخ في بيته كعادة ولاة الأمر في تقدير العلماء وإجلالهم، ولمّا رأى الملك منزل الشيخ المتواضع عرض عليه أن يبني له دارًا جديدة، فشكره الشيخ وقال: إنني أبني لي دارًا في الصالحية «حيّ في عنيزة» ولكن المسجد والوقف التابع له تنقصهما بعض الحاجيات والمستلزمات، وبعد أن ذهب الملك قال له بعض جلسائه: يا شيخ ما علمنا أنك تبني دارًا في الصالحية، فقال الشيخ: أليست المقبرة في الصالحية!!![1].

❑ وقال محمد إبراهيم السبيعي:

«أما عن زهدة فحدّث ولا حرج، وأذكر أنه حينما زاره الملك خالد بن عبدالعزيز يرحمه اللّه في منزله الطّيني البسيط في عنيزة، عرض عليه أن ينتقل إلى سكنٍ آخر، أو قبول أي مبلغ لبناء سكن مناسب.

لكن الشيخ دعا للملك خالد الذي ألح على الشيخ لقبول هذا الأمر، فآثر أن يوجه هذا التّبرع لشراء العمارة القريبة من الجامع، لتكون مكتبة لطلبة العلم، فاشتراها الملك بسبعة ملايين مع مبالغ نقدية للطلبة»[2].

❑ وقال أيمن بن عبدالعزيز أبانمي:

«مرة ذهب ليلقي محاضرة في الحرس الوطني، وقد استعد كبار الضباط لاستقباله عند المسجد، فلمّا أتى لينزل من السيارة جعل حذاءه داخل

(١) «جريدة الجزيرة» العدد ١٠٣٣٦.

(٢) الاقتصادية، العدد ٢٦٥٠.

السيارة ونزل، فأشار إليه مرافقه أن يلبس للوجاهة، فقال الشيخ: لا، دعها، ونزل حافيًا فما زاده ذلك إلا مهابة وتعظيمًا»[١].

* **تواضعه واحترامه لأهل العلم:**

❑ قال صاحب «الدر الثمين»:

«ومما أذكره من تواضعه ـ رحمه اللَّه تعالى ـ واحترامه لأهل العلم: أن الشيخ ألقى محاضرة في جامع الرّاجحي بالرياض بالربوة في «أحداث الشيشان» في يوم الأربعاء ١٦/٨/١٤٢٠هـ وبعد أن انتهى كان من ضمن الأسئلة التي وجّهت إليه؟ ماذا تقولون في الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وكان قد توفّي منذ فترة، فأجاب الشيخ قائلاً: «مثلي لا يتكلّم عنه؛ لأنه أعلم منّي وأنفع مني للأمة، ونشهد اللَّه على حبِّه، وهو أول من فتح الباب للبحث في علم الحديث، ونفع اللَّه به الأمة؟!!» رحمه اللَّه وغفر له»[٢].

* **عبادته:**

صلاته وتهجده:

❑ قالت سعاد بنت محمد بن حمد العثيمين:

«أمّا حبه للصلاة وطولها والخشوع فيها فحدّث ولا حرج، إذ قد أثارني منظر رأيته وأنا صغيرة، رأيت عجبًا في سجادته التي يصلّي فيها النوافل في منزله، كانت السجادة مبطنة من الأسفل بالبلاستيك، رأيتها معلّقة على الجدار، وقد تشقق موضع الجبهة، واليدين، والرّكبتين من البطانة

(١) الجزيرة، العدد ١٠٣٣٤.

(٢) «الدر الثمين» (ص ٢٤٠).

البلاستيكية، فهذا إن دلّ على شيءٍ، فإنما يدلّ على كثرة صلاته وقيامه، وبالفعل هذا ما لوحظ عليه في صلاة التراويح والقيام رحمه اللَّه رحمة واسعة»[١].

❑ قال الشيخ توفيق الصائغ:

«كان شيخنا ـ رحمه اللَّه تعالى ـ لا يدع أن يصل صلاة الفجر بقيام الليل، يصلي من آخر الليل ـ رحمه اللَّه تعالى، ولا يأتي إلى صلاة الفجر إلا ووجهه يستهل ويبرق.

وصلّى بنا صلاة الاستسقاء ذات مرّة، فلم نمطر، ثم نودي بالصلاة مرّة أخرى، فصلّى فلم نمطر، ثم نودي بالصلاة مرّة ثالثة، فخرج الشيخ من بيته ـ واللَّه الذي لا إله إلا هو كأن وجهه فلقة قمر، لا أظن ذلك إلاّ من قيام الليل ـ فلمّا صعد على درجات المنبر ما أن خطَب بالناس حتّى انهالت الدموع منه رحمه اللَّه رحمة واسعة، ثم أخذ يدعو ويدعو ويدعو، فلم ننزل من ذلك المصلّى إلا وقد مطرنا»[٢].

❑ وقال الشيخ سعد بن عبداللَّه البريك:

«إن هذا العالم الجليل حتى آخر لحظة من لحظات عمره كما يخبرني الطبيب الذي كان معه آخر أيام حياته، وقابلته بعد موته بساعة أو ساعتين في المستشفى التخصصي في جدّة، قال: إني كنت آخر الأيام مع الشيخ، فسألته ما كان دأبه في الأيام الأخيرة، قال: ما رأيت عليه سوى الصلاة، وقراءة القرآن ما اشتغل بغير ذلك بشيء أبدًا»[٣].

---

(١) الدعوة ـ العدد ١٧٧٦.

(٢) شريط «وداعًا العثيمين» بواسطة «صفحات مشرقة» (ص٣٣).

(٣) المصدر السابق (ص٨١)، وعزاه لشريط ربانيون على فراش الموت.

* قيامه الليل:

❑ قال الشيخ محمد صالح المنجد:

«والشيخ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ كان يغتنم أوقاته جيدًا، وينام مبكرًا بعد العشاء فإذا جاءت الساعة الثانية ليلاً استيقظ تلقائيًا من غير منبه»[١].

❑ ويقول مؤذن جامعه الشيخ عبدالرحمن الرّيس:

«وقد كان يحرص حرصًا شديدًا على النوم مبكرًا ليقوم للتهجد في آخر الليل»[٢].

❑ قال إحسان بن محمد العتيبي عن الشيخ:

«إنه كان يقيم الليل حتي مع شدّة تعبه، وقد حدّث عن ذلك بعض تلامذته وهو ـ حمد العثمان ـ ومما قال بالمعنى:

أنه سافر مع الشيخ إلى الرّياض، فمكثوا فيه وقتًا ثم غادروا إلى جدّة فأدوا العمرة في مكة، فلمّا انتهوا من عمرتهم وإذا بالتعب قد سرى لجسدهم، فاستسلموا للنوم، قال الشيخ حمد: فقمت في الليل إلى الحمام لقضاء الحاجة، وإذا بي أرى الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ قائمًا يصلّي!! فقلت: سبحان اللَّه، أنا شاب واستسلمت للنوم، وهذا شيخٌ كبير تعب معي مثلي، ثم يقوم في الليل ليصلي، فتشجّع أخونا (حمد) ليصلّي، فقام وتوضأ، ولما أراد أن يصلّي وإذا بالنعاس يغالبه..»[٣].

❑ وقال الشيخ محمد صالح المنجّد:

«قال أحد من رافقه مرة في سفرٍ، فذهب مع الشيخ في دعوة، فرجعا

---

(١) الدعوة، العدد ١٧٧٧.

(٢) الدعوة، العدد ١٧٧٦.

(٣) «جريدة المدينة» الرسالة العدد ١٣٧٨٨.

متأخرين كالّين متعبين إلى مسكنهما، فوضع كلٌّ منهما رأسه الساعة الواحدة ليلاً، واضطجع الشيخ.

قال المرافق: أثناء الليل، وأثناء النوم انتبهت قرابة الساعة الثالثة أو الثالثة والنصف، وكنّا قد نمنا قرابة الواحدة فحينما انتبهت على صوت الشيخ وهو قائمٌ يصلّي في هذا الوقت الذي كان هو في أمسّ الحاجة إلى النّوم والرّاحة»[1].

*** بكاؤه:**

❑ قال خالد بن عبدالله الحمودي:

«قبل وفاته يرحمه اللّه حضرنا مجلسًا، وكنت معه، فتليت قصيدة في هذا المجلس عن الموت، فبكى الشيخ بكاءً شديدًا وهو يسأل اللّه قائلاً: اللّهم أعني على الموت، اللّهم أعنا على الموت، وكان ذلك قبل وفاته بأشهر قليلة»[2].

*** أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وغيرته على حرمات اللّه:**

من المعلوم أن خيرية هذه الأمة المباركة منوطة بالإيمان باللّه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعظيم حرمات اللّه تعالى، ويحمل لواء هذه الشريعة العظيمة ـ بعد الأنبياء ـ العلماء الربانيون في كلّ أمة، فيكون أمرهم بالمعروف بالمعروف ونهيهم عن المنكر غير منكر بل بالحكمة والموعظة الحسنة، فينظرون إلى العصاة بنظرين: بعين القدر فيرحمونهم، وبعين الشرع فَيُقِيمُون عليهم ما أوجبه اللّه تعالى، وقد عُرف شيخنا بغيرته على دين اللّه تعالى،

(١) شريط «١٠٠ فائدة من الإمام ابن عثيمين» للمنجد.

(٢) المدينة ـ العدد ١٣٧٨٩.

وحرصه على الأمر والنهي على ما تُوجبه الشريعة.

* فقه إنكار المنكر عند الشيخ:

❑ يقول الشيخ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ:

«ليس من الحكمة أن تتعجل وتريد من الناس أن ينقلبوا عن حالهم التي هم عليها إلى الحال التي كان عليها الصحابة بين عشية وضحاها، ومن أراد ذلك فهو سفيه في عقله بعيد عن الحكمة، فلا بد من طول النفس، واقبل من أخيك الذي تدعوه ما عنده اليوم من الحقّ، وتدرّج معه شيئًا فشيئًا حتى تنتشله من الباطل»[١].

❑ ويقول أيضًا: «لا شكّ أن الدعوة الإسلامية منذ بعث الرسول ﷺ وإلى أن تقوم الساعة، أولياتها وأصولها واحدة لا تتغير بتغّير الزمان، لكن قد تكون بعد الأصول محققة عند قوم، وليس فيها ما يَنقُضَها أو يُنْقِصُها فيعمل الداعية إلى النظر في أمور أخرى يكون فيها من يدعوهم مقصّرين»[٢].

❑ ويقول أيضًا: « والدعوة إلى اللَّه لا بد أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، ولين الجانب وعدم التعنيف، واللوم والتوبيخ..»[٣].

❑ وقال ـ رحمه اللَّه ـ: «إننا لو علمنا أن في بيت من بيوت هذا البلد مرضًا فتاكًا لأخذنا القلق والفزع، ولاستنفدنا الأدوية، وأجهدنا الأطباء للقضاء عليه، هذا وهو مرضٌ جسمي، فكيف بأمراض القلوب التي تفتك بديننا وأخلاقنا.

---

(١) «صفحات من حياة الفقيد العالم الزاهد» (ص٢٦)، للدكتور عبداللَّه بن محمد الطيار.
(٢) المصدر السابق، وعزاه لـ «فتاوي الدعوة» (٥/ ١٥٤).
(٣) المصدر السابق.

إنّ الواجب علينا إذا أحسسنا بمرض ديني أو خلقيّ يفتك بالمجتمع، ويحرف اتجاهه الصحيح أن نبحث بصدقٍ عن سبب هذا الداء، وأن نقضي عليه وعلى أسبابه قضاءً مبرمًا من أيّ جهة كانت؛ لا تأخذنا في ذلك لومة لائم؛ قبل أن ينتشر الداء ويستفحل خطره..»[١].

* نماذج من دعوة الشيخ للكفّار، أو العصاة، وأمره ونهيه:

قال د. سعود بن عبدالرحمن العجاجي:

«بينما نحن مغادرين الفندق الذي سكنه توقّف أمامه طفلٌ أمريكي ومعه والدته، فطبطب على رأسه وبدأ يداعب هذا الطفل الذي أثارته هيئة الشيخ، وهيبته بلبسه الثوب السعودي والمشلح، فطلبت الأم من ابنها أن يحيي الشيخ، فردّ الشيخ بأحسن منها.

وقال الشيخ الراحل موجهًا كلامه للأم: اللَّه يهديك بالإسلام، وكان الشيخ خلالها غاضّ النظر، وعاف الخاطر، ثم طلبت الأم من ابنها أن يودّع الشيخ بعبارة Have nice day.

وسألني الشيخ: ماذا يقول الطفل؟ فأبلغته أنه يتمنّى لك يومًا سعيدًا لكن بعض المرافقين امتعضوا من ملبس المرأة، فقال أحدهم: قبّح اللَّه وجهك، لكن الشيخ لم يعجبه هذا الكلام، فقال: يا إخوان ليس هذا من سمات الإسلام، الطفل وأمه قابلانا بوجه حسنٍ وكلام طيّب، فأحرى أن نعاملهم بالمثل؛ فبدلاً من أن ندعو عليهم جدير أن ندعو لها بالهداية الذي هو منهج الدين الرّفيع»[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الاقتصادية، العدد ٢٦٥٠.

❑ ويقول الشيخ خالد المصلح ـ صهر الشيخ ـ:

«شيخنا آمرٌ بالمعروف، وناهٍ عن المنكر في دقيق الأمور وجليلها، ويلاحظ ذلك كل من عرف الشيخ فعلى المجال الفردي يأمر بالمعروف ويحثّ على الصلاة في طريقه إلى المسجد، وإذا لاحظ على شخصٍ تقصيراً أنكر عليه، أما المنكرات العامة فالشيخ صاحب بيان، لكنه دائمًا يقول: إنه لا يتكلّم إلا بما يكون فيه فائدة وبأسلوبٍ مفيد يكون فيه اندفاع الشر وحصول الخير دون أن يترتب عليه مفسدة أعظم من المصلحة المرجوّة منه»[1].

❑ وقال الدكتور إبراهيم بن عبدالله المطلق:

«صحبته ـ رحمه الله ـ يومًا من الجامع إلي منزله، وقرب إحدى إشارات المرور التفت ـ رحمه الله، فرأى سيارة واقفة، وفيها رجلٌ عربي من إحدى الدول العربية، ومعه زوجته قد كشفت عن وجهها.

فانطلق ـ رحمه الله ـ كالسهم تجاه السيارة فغطت المرأة وجهها، ونزل زوجها وقبّل رأس الشيخ واعتذر»[2].

❑ وقال العقيد الرّكن علي بن محمد الخشّان:

«كان يحرص على ألا يدنس العلم الذي معه بما يشينه، فحينما همّ أن يدخل أحد المكاتب رأي فيه صوراً معلقة، فعدل إلى مكتب آخر ليس فيه صور، وكذلك لا يرضى بحضور مناسبات فيها منكرات، ويحرص الشيخ كثيراً على تصحيح الأخطاء عمليًا، فكان الناس في السابق إذا أرادوا أن يصلوا على جنازة قاموا من حين يسلّم الإمام وقد تعلمت من الشيخ التريث؛ لا سيما إذا كان من المصلين من يقضي ما فاته.

---

(١) الأسرة، العدد ٩٢.

(٢) الدعوة، العدد ١٧٧٦.

كذلك صلّى الشيخ مرّة على جنازة، ولا حظ أن بعض المأمومين يرفع صوته بالتكبير إذا كبّر الإمام؛ فلمّا فرغ الشيخ من الصلاة على الجنازة نبّه الناس إلى عدم الجهر بالتكبير».

❑ في بداية أحد دروسه ـ رحمه اللّه ـ في المسجد الحرام قال:

«إني ألاحظ أنّ أيدي بعض الناس قد قُطعت؛ فشدّ الانتباه بذلك، ووضّحَ: أن البعض من احترامهم وتبجيلهم ربّما سارع بتقبيل الرأس قبل المصافحة، وبيّن أن هذا خلاف الهدي النبوي، فلا بدّ من البدءِ بالمصافحة»[1].

❑ وقال عبدالعزيز بن دغيثر الدغيثر:

«مرةٍ وهو راجع من المسجد إلى بيته كان يمشي على الرصيف، فوجد سيارة قد أوقفها صاحبها فوق الرصيف تعترض الطريق، فوقف الشيخ وسأل عن صاحب السيارة، ثم طرق عليه الباب، فخرج صاحب السيارة، ووجد من؟ وجد الناصح المتواضع، والموجه المشفق، نصحه الشيخ أولاً، ثم طلب منه أن يغيّر مكان السيارة فالطريق له حقّ»[2].

❑ وقال الشيخ محمد بن عبداللّه المشوّح:

«كان ـ رحمه اللّه ـ شفيقًا عطوفًا حدبًا على الشباب، يستمع إليهم ويناقشهم، فيرشد ويعظ بكلّ لينٍ وأدب.

لقد استعمتُ إلى بعضهم ينهر ويعلي صوته عليهم حين يتحدثون عن بعض المنكرات، ولكن الشيخ ـ رحمه اللّه ـ يعاملهم بكلّ هدوء، ويبيّن لهم أصول الإنكار، وضوابطه بعيدًا عن الحماس المرتجل، والعاطفة الثائرة، المجردة من العلم والعقل»[3].

---

(١) مجلة الجندي المسلم، العدد ١٠٢.

(٢) جريدة الرياض، العدد ١١٨٩٦.

(٣) الرياض، العدد ١١٨٩٣.

وكان ـ رحمه اللَّه ـ يتحدث عن فرقة التيجانية وأنها فرقة ضالةٌ، فقال أحد الإخوة: يا شيخ لو سمحت لي أن أترجم كلامك إلى لغة (الهوسا)، لوجود أناس كثير يتحدّثون بهذه اللغة، يقول الشيخ: وبدأت بالحديث وهو يترجم، وفي أثناء الكلام قال شخصٌ: يا شيخنا أنت تذم الطائفة وهو يثني عليها، فأجلسه الشيخ، ولم يعد يثق في كل مترجم، وكان يقول: تمنيت أنني تعلّمت اللغة الإنجليزية»[١].

❑ وقال د. أحمد بن سليمان العريني:

«كان ـ رحمه اللَّه ـ يعمل بالعلم ويطبّقه بحذافيره، ففي يومٍ من أيام شوال كنا في درسه في قاعة كلّية الشريعة بالقصيم، فسأل أحد الطلاب الشيخ عن أناسٍ اعتمروا في رمضان الماضي، فلمّا دخلوا الحرم ورأوا الزحام الشديد رجعوا إلى بلدهم ولم يتموا عمرتهم، فقال الشيخ: أتعرفهم؟ قال: إن زميلاً لي يعرفهم قد أوصاني بالسؤال، فقال الشيخ: اخرج الآن وبلغه ليأمرهم الآن بالتوجه إلى مكة، وإتمام نسك العمرة، فقال الطالب: حسنًا، سوف أخبره بعد المحاضرة، فقال الشيخ: لا تنتظر، اخرج الآن وأخبره، فخرج الطالب من فوره»[٢].

❑ وقال الشيخ عبداللَّه الجلالي:

«أذكر أنا كنا في حفل في عنيزة قبل أكثر من عشرين سنة، فقام أحد الشعراء هداه اللَّه وبحسن نيّة فأثنى على رجلٍ من المسئولين، فقال: لك النهي والأمر.

فغضب فضيلته ـ رحمه اللَّه ـ عليه وقال: هذا لا يكون إلا للَّه هو

---

(١) شريط معالم في حياة فقيد المسلمين ابن عثيمين، نقلاً عن «صفحات مشرقة» (ص٩٧).
(٢) الدعوة، العدد ١٧٧٧.

الذي له النهي والأمر، وكان ذلك المسئول أيضًا رجلاً فاضلاً فشكر فضيلة الشيخ وقال: جزاك اللَّه خيرًا. أنا لا أستحقّ هذا لأن هذا من اختصاص اللَّه عز وجل، هو الذي له النهي والأمر، خصوصًا وأن تقديم ما حقّه التأخير في الكلام يدلّ على الحصر، والأمران محصوران للَّه عز وجل»[١].

❑ وقال عبداللَّه بن عبدالعزيز الغفيص:

«مرّة بعد أن انتهينا من السعي للعمرة خرج الشيخ ليحلق رأسه، وإذا برجلٍ خارج المسعى يمسك بسيجارة، فوعظه الشيخ بكلمة طيبة، فكأن الرجل لم يعر الشيخ اهتمامًا، ومضى، فلحقت به وقلت له: أتدري من هذا الذي يعظك؟ إنه الشيخ ابن عثيمين، فقال: صحيح! ابن عثيمين؟ فانطلق فاعتذر من الشيخ، ويقبله في رأسه، فقال له الشيخ: إذا كنت تريدني أن أقبل اعتذارك فاترك هذا الخبيث، فوعد خيرًا»[٢].

❑ قلت: ومما أذكره من المواقف في هذا الأمر العظيم ما يأتي:

في مكة المكرمة جاء الشيخ لأداء العمرة في حدود سنة ١٤١٣هـ وطلبت منه أن ألازمه أثناء النسك للسؤال والاستفادة من عمله وعلمه، وكنت أسأله بين الحين والآخر عن مسائل.

وقد سألته عندما كان يشرب ماء زمزم بعد صلاة الركعتين خلف المقام، هل صح في استقبال القبلة شيء في هذا الموطن؟ فقال: لا.

وبعدما انتهى الشيخ من السعي ذهبت معه إلى الحلاق بجوار المروة فطلب منه الشيخ أن يحلق شعره ويأخذ من شعر الأذنين وأنا واقف خلفه أثناء الحلاقة قد عرضت عليه أن أدفع ثمن الحلق فرفض.

---

(١) شريط الإمام ابن عثيمين، (تسجيلات صدى التقوى بالرياض).

(٢) الأربعاء، يوم ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

وبعدما انتهى أعطيت الحلاق الأجرة وأعطاه هو أيضًا الأجرة، ووجد عند الحلاق لوحة مكتوب فيها «ممنوع حلاقة الذقن» فأعجب الشيخ جدًّا وقام للحلاق وشكره وحثه على عدم حلق اللحية وأخبره أن هذا حرام.

كل هذا والحلاق لا يعرف من الشيخ وهو في ذهول من أمره.

* **موقف آخر:**

كنا مع الشيخ في زيارة لمدينة الرَّس وركبنا معه في السيارة، وكان يطلب من كل واحد منّا أن يقوم بقراءة شيء من القرآن، إلى أن وصلنا. دخل الشيخ على بعض الوجهاء في هذه المدينة، وكان ينهاهم عن التصاوير التي توضع في المجالس، فيستمعون لأمره ويجيبونه لما أمر به.

وجاء وقت العشاء وجلسنا نأكل على الأرض وكان وراءنا بعض الخدم قيامًا للخدمة، فنهاهم الشيخ عن الوقوف على رءوسنا كما يقوم الأعاجم لملوكهم ومعظميهم.

❑ ومن تلطف الشيخ في الإنكار عند الحاجة إليه:

ذات يوم كان الشيخ يصلي الظهر إمامًا كعادته في مسجده، وخلفه مجموعة من المصلين من مصر؛ من صعيدها وكان إذا كبر الشيخ رفعوا أصواتهم بالتكبير خلفه.

فجاء الشيخ ذات يوم وقال: يا أبناء وادي النيل لا ترفعوا أصواتكم بالتكبير.

ومسألة إنكار المنكر مسألة عظيمة هلك فيها من هلك، وغلا فيها من غلا، من لدن الخوارج ثم المعتزلة فمن بعدهم منهم جماعات التكفير وغيرهم ممن لا يراعون الوسائل الشرعية في إنكار المنكر، ولا يقفون على كلام أهل العلم في مراتب إنكار المنكر.

وفي أحد الأيام في دروس الصباح في الصيف قام أحد الطلاب معترضًا على الشيخ قائلاً: انتشرت المنكرات والمعاصي كالربا والفاحشة والأفلام الماجنة.. وغيرها.

فلماذا يسكت العلماء؟ وما هو دوركم؟ ولماذا لا تنكرون المنكر؟

فأجابه الشيخ بحكمة ورفق قائلاً: وما أدراك أننا لم ننكر المنكر ولم نأمر بالمعروف.

بل نحن ننكر المنكر ونأمر بالمعروف، لكن هل يلزم من كل من ينكر المنكر أن يُستمع له، وهل يلزم أن يخبر الناس أنه أنكر المنكر؟.

فكانت هذه إجابة حكيمة من الشيخ تُنقل للمتحمسين والمتحاملين على شيوخهم في كل عصر ومصر ممن يتهمون أهل العلم الربانيين بالتقاعس عن إنكار المنكر.

❑ ومما أذكره في هذا الباب:

أن الشيخ كان سيحاضر في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان يوجد بالقاعة الكبرى عدد من كاميرات التصوير بالفيديو، فقام الشيخ قبل صعوده المنصة للمحاضرة بالمرور على أصحاب الكاميرات ونكّسها بنفسه واحدة بعد واحدة، ثم صعد على المنصة وقبل بدأ المحاضرة، قال: إنني لا أسمح لأحد بتصويري، ومن صورني فأنا خصمه يوم القيامة، ثم بدأ في المحاضرة.

فليسمع هذا كل من لا يفقه قول الشيخ في التصوير الفوتوغرافي الذي يكون لحاجة الشخص كالهوية وغيرها وبين التصوير للاقتناء والذكرى.

وقد نسب إلى الشيخ في هذا الأمر شنائع من جراء الفهم المغلوط لفتوى الشيخ.

وقد نُوقِش الشيخ كثيرًا في هذا الأمر في أن عموم الأدلة تدل على منع

كل أنواع الصور إلا ما استثنته الضرورة كما عليه فتوى شيخ شيخنا العلامة ابن باز رحم اللَّه الجميع وغفر لهم» ا.هـ[١] .

* **اهتمامه بأحوال المسلمين في العالم، وعلمه بواقعهم:**

❑ كان ـ رحمه اللَّه ـ شديد الاهتمام بأحوال المسلمين، وعلى علم بواقعهم.

«قال الشيخ عقيل بن عبدالعزيز العقيل رئيس مؤسسة الحرمين الخيرية: «إن الشيخ كان يهتم بقضايا المسلمين في كلّ أنحاء العالم، وكان يتصل بي شخصيًا في كثيرٍ من المرات يسأل ويستفسر عن أحوال المسلمين سواءً أيام البوسنة، وأفغانستان، وكوسوفا، وكان يتابع متابعة دقيقة لبعض المشاريع، ويحرص عليها، ويخصص جزءًا من محاضراته ودروسه لتوعية الناس بهذه القضايا، ويحث على دعمها، وأذكر أنني زرت الشيخ في مسجده الجامع الكبير في عنيزة، وبدأت أحدثه بعد الصلاة عن بعض القضايا الهامّة، وكان طبعًا المسجد مليئًا، وأمرني أن أنزل إلى القبو وأنتظر هناك، ونزل خلفي، وجلسنا وحدنا منفردين، وكان يصغي باهتمام للقضية التي أطرحها عليه، وكان يعطي توجيهاته ونصائحه رحمه اللَّه رحمة واسعة»[٢] .

❑ وقال د. عبدالرحمن بن عبدالعزيز السديس:

«أذكر أنّي مرّة في إحدى الدول الغربية، دخلت أحد المراكز الإسلامية وفيه مكتبة متواضعة، فإذا أنا بمجموعة من طلاب العلم في هاتيك الديار من محبّي الشيخ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ وهم لم يروه، وقد عكفوا على كتبه ومؤلفاته ورسائله، يقرءونها، ويبذلون جهدهم في ترجمتها بلغتهم، فقلت:

---

(١) «الدر الثمين في ترجمة فقيد الأمة العلامة ابن عثيمين» (ص٢٨٣ ـ ٢٩٣).

(٢) الرياض، العدد ١٨٩١.

سبحان اللَّه الذي كتب لشيخنا القبول حتى في مجاهل الغرب وأقاصي الدنيا ولقد بشرته بذلك فسرّ كثيرًا، وهذا من عاجل بشرى المؤمن، وقد كان يسألني عن أحوال المسلمين في الدول التي أزورها، ويشجعني على الاستمرار في ذلك كثيرًا، فجزاه اللَّه عني خير الجزاء»[١].

❑ وقال ناصر السعدي:

«كان الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ جلدًا وصابرًا، مستمرًا في العلم والعبادة دائبًا على ذلك، وأذكر أنه عندما علم بالحرب الإسرائيلية ضد الفلسطينيين تأثر كثيرًا، وظهر ذلك واضحًا في قسمات وجهه، وهذا دليل على اهتمامه بواقع المسلمين، وله جهود واضحة في ذلك»[٢].

❑ وقال الشيخ بدر بن نادر المشاري:

«رغم مرض الشيخ حرص على خطب الجمعة في الجامع الكبير والإمامة والالتقاء بالناس للإجابة على أسئلتهم واستفساراتهم رغم كلّ معاناته حتى قيل له في وقت مرضه: أرح نفسك يا شيخ، قال: الراحة في خدمة المسلمين»[٣].

❑ وقال د. عبداللَّه الموسى:

«ذهبت للولايات المتحدة الأمريكية، وكرمني الشيخ برقم الهاتف الخاص في المنزل، وطلب منّي ألا أستخدمه إلا في الحالات القصوى التي تحدث دائمًا في بلاد الغرب، وينتج عدم الفصل فيها إلى الفتنة والفرقة والشقاق والنزاع، وكنت أستخدم هذا الهاتف بين الفينة والأخرى، وكم كان

---

(١) الجزيرة، العدد ١٠٣٣٥.

(٢) الجزيرة، العدد ١٠٣٣٦.

(٣) شريط (أحبّ لقاء ربّه) نقلاً عن صفحات مشرقة لحمود المطر (ص٦١).

هذا مفيدًا على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية، فقد اتصلت به مرارًا، ولا سيما عندما يبلغ الخلاف الحلقوم، وبهذا الرقم الخاص انكشفت كرب، وانحلت عقد، واتحدت قلوب بهذه الفتوى، حتى إنه في أحد الأيام أحد الإخوان لم يصدقني في قول ابن عثيمين، فنقلته له وقال: لا مانع لديّ أن يكون اللقاء مباشرًا عبر الهاتف، وأنا مستعد للمناقشة، ومرت الأيام، وفي زيارتي السنوية للمملكة العربية السعودية أعود لمجلس الشيخ مرة أو مرتين، وأذكر له بعض الصور الموجودة هناك وأحوال المسلمين، وأعرض عليه بعض الفتاوى، وكان يكتب وييسر، وكنت أناقشه بصراحة إلى درجة أنه رفض الفتوى في موضعين لما أخبرته بكامل القضيّة ولم يعطني جوابًا وقال: اسأل غيري»[1].

❑ وقال الشيخ توفيق الصائغ:

«لما عاد من رحلته العلاجية وقد أمضى أربع عشرة ساعة في الجوّ منتقلاً من الولايات المتحدة إلى المملكة، فلما وصل إلى الطائف اتصل بي هاتفيًا، وقال ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «إذا استطعت أن تعلم الناس في المواقع [مواقع الإنترنت] برقم هاتفنا في الطائف، وأننا انتقلنا إلى هناك فافعل حتّى لا يُحرم الناس من السؤال والفتيا»[2].

❑ قال الشيخ سعد بن عبداللَّه البريك:

«ما توانى عن النصح والإرشاد بعد أن داهمه المرض، وأنهك قواه، وفتك بجسمه، يروي من رافقه في رحلة العلاج إلى (أمريكا) يقول: أمضى الشيخ عشرة أيام ملأها بجلسات تفسير القرآن وتعليمه، والفقه ومدارسته،

(١) الجزيرة، العدد ١٠٣٣٧.

(٢) شريط (وداعًا العثيمين) نقلاً عن صفحات مشرقة (ص٧٥).

وتحول جناحه في المستشفى إلى حلقة من حلق العلم والفتيا والذكر والدعوة، اجتمع برؤساء المراكز الإسلامية الذين زاروه في المستشفى، فأكثر عليهم النصيحة وأعاد وكرر عليهم أن يتقوا اللَّه، وأن يتحدوا وأن يتكاتفوا، وأن يجمعوا كلمتهم، وأن يعتصموا بحبل اللَّه جميعًا، وأن ينبذوا الفرقة، وأن يبدءوا الحوار بينهم باللين والحكمة والحسنى، وأن يتباعدوا عن رمي بعضهم بالعبارات التي لا تليق، أو اتهام بعضهم بما لا يجوز من سيِّئ الظنون»[1].

وقال عبداللَّه بن عبدالعزيز الغفيص:

«كان يحمل همّ الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ففي ذات يومٍ كنا عائدين إلى السكن بعد الدرس الذي كان يلقيه عقب صلاة الفجر في المسجد الحرام، ووصلنا إلى السكن حوالي الساعة السابعة والنصف تقريبًا لينام الشيخ وقت الضحى، فقد كان لا ينام في العشر الأخيرة من رمضان إلاّ في ذلك الوقت، حيث كان يجلس في غرفة في المسجد الحرام للرّد على أسئلة المستفتين من بعد صلاة العصر إلى صلاة المغرب شفهيًّا لمن يقدم عليه، وتليفونيًا لمن يتصل به، وبعد صلاة التراويح يجلس للدرس حتى صلاة القيام، ثم يصلي القيام وبعده ينام نصف ساعة فقط قبل السحور، ثم يصلّي الفجر ويجلس للدرس حتى الشروق؛ فلا يجد وقتًا للنوم إلا وقت الضحى، وهكذا بقيّة العشر.

أعود للقصة عندما وصلنا للسكن، دخل الشيخ لينام وطلب مني إيقاظه الساعة التاسعة والنصف لمقابلة وفد قدم من إحدى الدول الإسلامية، وبالفعل لم تقترب عقارب الساعة من التاسعة والربع حتى وصل الوفد، فأخبرتهم أن الشيخ نائم، وطلب مني إيقاظه الساعة التاسعة والنصف.

---

(١) شريط (ربانيون على فراش الموت) نقلاً عن صفحات مشرقة (ص٨٥).

واقترحت عليهم لو أنهم انتظروا ساعة أخرى حتى يستريح الشيخ فوافقوني بلا تردد، وما أن تجاوزت عقارب الساعة التاسعة والنصف بقليل حتّى وجدت الشيخ قد استيقظ من تلقاء نفسه، وسألني عن الوفد، فأخبرته أنهم وصلوا، وأعلمته بما قلت لهم فعاتبني، وقال: سامحك اللَّه كان علي أن أكون في استقبالهم»[١].

❑ وقال حمود الشميمري:

«زرته في مخيمه في منى مع عددٍ من إخواننا حديثي الإسلام للسلام عليه وإلقاء بعض الأسئلة، وكان ـ رحمه اللَّه ـ عند دخولنا عليه يلقي درسًا على عدد كبير من الحاضرين، فأسررت له أن معي بعض الإخوة الأمريكيين والأوروبيين يرغبون بالسلام عليه، والاستفادة في بعض الأمور التي تهمهم في بلاد الغرب، فما كان منه ـ رحمه اللَّه ـ إلاّ أن طلب من أحد المشرفين على المخيّم أن يستضيفهم في خيمته الخاصة حتى يفرغ من إلقاء درسه، وما هي إلا دقائق معدودة وإذا به يدخل علينا في خيمته هاشًا باشًا مرحبًا بالإخوة حديثي الإسلام، ويهنئهم على نعمة الإسلام، ثم بين لهم وسائل الثبات ومسئولياتهم نحو أسرهم وأقاربهم، ومجتمعاتهم، ثم جلس بعد ذلك يستمع إلى أسئلتهم، ويجيب عليها بكلّ اهتمام وسعادة، ويكرّر الإجابة للاطمئنان على فهمهم لها، وكنت أقوم بدور الترجمة، فأكد عليّ ـ رحمه اللَّه ـ الاهتمام بهم، وتقديم كلّ ما يحتاجونه للتفقه في دينهم وتقديم أي مساعدة يحتاجونها، ثم ودّعهم ـ رحمه اللَّه ـ بأحسن ما يكون التوديع، ودعا لهم»[٢].

---

(١) الأربعاء، عدد يوم ٢٩/ ١٠/ ١٤٢١هـ.

(٢) جريدة المدينة ، العدد ١٣٧٨٢.

❑ وقال عبدالمحسن بن عبدالرحمن القاضي:

«أذكر في غير مرّة ـ رحمه اللَّه ـ كنّا إذا حدثناه عن عملٍ خيري هنا أو هناك، يساهم بدعمه، ليس دعمًا ماديًا فقط، بل بالتوجيه والنصح والتحرّي في بذل المال، ولو أردت ضرب الأمثلة فإن المقام لا يسمح لذلك، ولكنني أذكر أنه في أحداث البوسنة والهرسك كان كثيرًا ما يطلب مني المرور عليه لأخذ الأموال التي وصلت إليه، وإيصالها إلى هناك، ولقد قمنا بطباعة عدد من الكتب على حسابه بواسطة مكتب هيئة الإغاثة، أو بواسطة الهيئة العليا لجمع التبرعات لمسلمي البوسنة أو غيرها..

وكانت له صلة مباشرة ـ رحمه اللَّه ـ مع المسلمين العاملين في البوسنة والهرسك حتى إنه أقام درسًا أسبوعيًّا توجيهيًا لأحد المراكز الإسلامية بالهاتف في البوسنة إبان أزمة ذلك البلد.

وتكرّر اهتمامه ـ رحمه اللَّه ـ واتسعت همومه لعدد من قضايا المسلمين التي كان يشجعنا على العمل فيها وجمع التبرعات لها، بل وتخصيص خطبة الجمعة عنها كقضايا الشيشان التي حظيت بنصيب من اهتمامه كبيرٌ في أواخر حياته ـ رحمه اللَّه ـ وكذلك قضية فلسطين، وكشمير، والفلبين، وإندونيسيا.

وأقمنا بواسطته عددًا من المراكز العلمية في العالم، التي كان يدعمها ويشارك في إلقاء المحاضرات بها، وإرسال الكتب والأشرطة إليها، وربما أن كثيرًا ممن حوله لم يعلموا بذلك؛ لخصوصيته المتميزة ـ رحمه اللَّه ـ في ذلك»[1].

❑ وقال الشيخ بدر بن نادر المشاري:

«بلغني من أحد طلابه أنه كان قليلاً من الليل ما ينام في أوقات النوازل

(١) جريدة الوطن، العدد ١١٠.

الكبيرة على الأمة خصوصًا في أيام أزمة الخليج ومأساة إخواننا في البوسنة والشيشان؛ حيث كان يقوم الليل ويدعو ربّه لهم بالنصر والثبات، وردّ كيد أعداء الدين عنهم، وكذلك دعاؤه للمسلمين وحثّهم للوقوف معهم»[١].

❑ وقال الشيخ محمّد بن صالح المنجّد:

«لقد اهتم الشيخ بأمور الجهاد، ومن ذلك جهاد المسلمين في بلاد البوسنة والهرسك، وكان قد خصّص من وقته ساعة أو أكثر في كلّ أسبوع لأمور الجهاد في البوسنة يتصلون به فيفتيهم، وينظر في حاجتهم، ويسمع أخبارهم ويستبشر بها وينشرها، واتصل به بعض المجاهدين من البوسنة مرّة، وسألوه عن حكم قتل الخطأ؟ وماذا يجب على القاتل؟ واحدٌ من المسلمين قتل أخاه المسلم في الجهاد خطأ، فبعد الإجابة؛ الشيخ لمّا أجابهم بما يجب عليهم من حقّ اللّه وحقّ أهل القتيل قال: أمّا دية المقتول فعليّ، وسأرسلها لكم إن شاء اللّه تعالى، وكذلك كان اهتمامه بالجهاد في الشيشان حتى ذهب بعض طلابه إلى هناك يعلمون ويدرّسون، ويشرفون على تطبيق الشريعة في بلاد الشيشان..»[٢].

❑ الشيخ ومحنة فلسطين والشيشان:

قد عاصر الشيخ طيلة حياته العديد والكثير من محن الأمة الإسلامية العالمية ابتداءً من محنة احتلال اليهود لفلسطين وانتهاءً بمحنة اغتصاب الرّوس لبلاد الشيشان.

وقد كان للشيخ تجاه هذه المحن مواقف عظيمة لم يدّخر فيها وسعًا للدفاع عن قضايا أمّته بشتّى الوسائل، ومساعدة هذه الشعوب المسلمة الممتَحنة.

(١) شريط (أحبّ لقاء ربّه) بواسطة صفحات مشرقة (ص١٦٣).
(٢) شريط (١٠٠ فائدة من العلامة ابن عثيمين).

فقد كان ـ رحمه اللَّه تعالى ـ يبذل ما يستطيعه من جهدٍ مادّي وعلميّ ودعويّ في سبيل نصرة إخوانه المسلمين.

من ذلك: «**في قضية فلسطين**».

ما قاله ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في خطبته التي ألقاها بعد احتلال فلسطين بحوال ثمانِ سنوات، قال فيها:

«أيّها الناس! فلقد مضى على احتلال اليهود للمسجد الأقصى أكثر من ثمانِ سنوات وهم يعيثون به فسادًا، وبأهله عذابًا، وفي هذه الأيام أصدرت محكمة يهودية حكمًا بجواز تعبد اليهود في نفس المسجد الأقصى.

ومعنى هذا الحكم الطاغوتي إظهار شعائر الكفر في مسجد من أعظم المساجد الإسلامية حرمة..».

ثم ذكر فضل المسجد الأقصى والأدلة على ذلك.

ثم ذكر المحن التي مرّ بها المسجد الأقصى خلال القرون الماضية.

ثم قال: «وفي ربيع الأول سنة ١٣٨٧هـ احتلّه اليهود، أعداء اللَّه ورسوله بمعونة أوليائهم من النصارى، ولا يزال تحت سيطرتهم ولن يتخلوا عنه، وقد قالت رئيسة وزرائهم فيما بلغنا: «إن كان من الجائز أن تتنازل إسرائيل عن تل أبيب، فليس من الجائز أن تتنازل عن أورشليم القدس نعم؛ لن تتنازل إسرائيل عن القدس إلا بالقوّة».

ولا قوّة إلا بنصر من اللَّه عز وجل، ولا نصر من اللَّه إلاّ بعد أن ننصره ﴿**يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا اللَّه ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾.

وإنّ نصرنا للَّه لا يكون بالأقوال البراقة، والخطب الرنانة التي تحوّل القضيّة إلى قضيّة سياسيّةٍ، وهزيمة ماديةٍ، ومشكلة إقليميّة.

وإنّها واللَّه لمشكلة دينية إسلامية للعالم الإسلاميّ كله.

إنّ نصر اللّه عز وجل لا يكون إلاّ بالإخلاص له، والتّمسك بدينه ظاهرًا وباطنًا والاستعانة به، وإعداد القوّة المعنويّة والحسّية بكلّ ما تستطيع، ثم القتال؛ لتكون كلمة اللّه هي العليا، وتطهر بيوته من رجس أعدائه.

أمّا أن نحاول طرد أعدائنا من بلادنا ثم نسكنهم قلوبنا بالميل إلى منحرف أفكارهم، والتلطّخ بسافل أخلاقهم.

أمّا أن نحاول طردهم من بلادنا، ثم يلاحقهم رجالُ مستقبل أمتنا يتجرّعون أو يستمرئون صديد أفكارهم، ثم يرجعون يتقيئونه بيننا.

أمّا أن نحاول طردهم من بلادنا، ثم نستقبل ما يرد منهم من أفلامٍ فاتنة، وصحفٍ مضلّة.

أمّا أن نحاول طردهم من بلادنا مع ممارسة هذه الأمور، فذلك التناقض البيّن، والمسلك غير السّليم.

والفجوة السحيقة بيننا وبين النّصر ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾.

نعم، أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر.

لا كما قال بعض المذيعين أيّام الحرب مع اليهود في عام ٨٧هـ غدًا تغنّي أم كلثوم في قلب تل أبيب.

صلّى اللّه على رسوله، لقد صلى غداة فتح مكة ثماني ركعات، إمّا شكرًا للّه تعالى على الفتح خاصّة، أو تعبدًا بصلاة الضّحى، والعبادة من الشكر، وهكذا حال الفاتحين في الإسلام، يعقبون الفتح بالشكر والتقوى.

فاتقوا اللّه أيّها المسلمون، وأنيبوا إلى ربّكم وأقيموا شريعته، وأطيعوا اللّه ورسوله إن كنتم مؤمنين.

اللَّهــم انصــر الإســلام والمسلمين، وطهّر المسجد الأقصى من اليهود والنّصارى والمنافقين..»[1].

رحم اللَّه ابن عثيمين، كم كان فقيهًا بواقع الأمة، فقيهًا بحكم الشرع، وليس كما يدعي بعض الأغمار أنه لا يعلم عن واقع أمّته شيئًا.

واللَّه إن هذه الكلمات بهذا التحليل الدقيق، والتشخيص للداء، ووصف الدواء لحقيقة أن تكتب بماء الذهب علي أوراق الفضة.

ووالله إنّ أسباب العلاج أو النصر التي أوردها مع اختصارها ووجازتها لجديرة أن تجتمع عليها الأمة الإسلامية والعربية بمؤتمراتها وجامعاتها، بل وجيوشها لدراستها وتدريسها والعمل بها للخروج من هذا المأزق التاريخي الذي امتحنت به أمّة الإسلام اليوم، وإلى اللَّه المشتكى، وهو وحده المستعان.

*** وأما قضيّة مأساة إخواننا المسلمين في الشيشان:**

فقد كان الشيخ مهتمًا بها غاية الاهتمام، وكما يقال الآن «على مستوى الأحداث» جمعًا للمال لدعم المجاهدين، ودعاءً لهم، وحثًا على الجهاد معهم، واتصالاً بهم هاتفيًا، وتخصيصه الأوقات للرد على استفساراتهم، واستضافة وافدهم، وبيان قضيتهم في محاضراته وخطبه وكلماته.

فرحمه اللَّه تعالى، ما كان أنصحه! وأحرصه! وأشفقه! على إخوانه المسلمين.

وقد سمعت منه ـ رحمه اللَّه تعالى ـ محاضرةً عظيمةً في نصرة إخواننا في الشيشان بجامع الراجحي بالربوة بالرياض أثناء اشتداد المأساة.

جاء فيها: «الأمة الإسلامية في هذه الأيام تستقبل شهر رمضان المبارك، ولكنها تعيش في ألمٍ ونكدٍ فيها يجري لإخواننا في الشيشان، من تسلّط

(١) «الضياء اللامع من الخطب الجوامع» للمترجم رحمه اللَّه تعالى (ص٦٦٢ ـ ٦٦٥).

أولئك الملحدين الرّوس عليهم، لا لشيء؛ إلاّ لأنهم شرعوا في نشر الدين الإسلامي الصافي من البدع في بلاد البلقان.

ولكن أعداء الإسلام لا يرضون بهذا أبدًا، سواءً كانوا من الملحدين الشيوعيين، أو من اليهود أو من النصارى، أو غيرهم.. وهذا ظاهر.

ولمّا أرادت تيمور الشرقيّة «يعني في بلاد إندونيسيا» وهي جزء من الأمة الإسلامية لمّا أرادت أن تتحرّر لأن أكثرها نصارى، قام الغرب وقعد، وهيأ الأسطول الجوّي والبحري والبرّي؛ من أجل أن ينفصل هذا الجزء من إندونيسيا لأن أكثره نصارى.

أمّا جمهورية الشيشان الجمهورية الفتيّة التي عرفت حقيقة الحياة، وعرفت حقيقة التوحيد، وعرفت الدين الصافي، فهي عند الغرب منشقة؛ والمجاهدون فيها إرهابيون، وما أشبه ذلك..

ولكنّي أقول: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾.

إننا لن نيأس ولن نقنط، وسوف يرجع الرّوس على أعقابهم مخذولين مهزومين إن شاء اللَّه كما رجعوا في أول مرة.

وإن من حقّ إخواننا علينا، بل أدنى حقّ؛ أن ندعو لهم أن ينجيهم اللَّه من القوم الظالمين، وأن ينصرهم على القوم الكافرين، في أوقات الإجابة وفي أحوال الإجابة..». وذكر أوقات الدعاء.

ثم قال: «المسألة خطيرة، وليت المسلمين عرفوا قدر هذه النكبة وقاموا ينكرون عليهم..

فرادى ومثنى ينكرون على الرّوس، وينكرون على دول الغرب؛ لأن دول الغرب نصرانية كافرة، والروس ملاحدة كفّار، واللَّه يقول: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾.

لا تقل: هؤلاء أهل كتاب بدعواهم، وهؤلاء ملاحدة، كلّهم سواء، كلّهم حربٌ على الإسلام.

لهذا كان الواجب على الدول الإسلامية ـ وأرجو اللَّه أن يصل كلامي أسماعهم ـ أن ينفروا خفافًا وثقالاً إلى نصرة هؤلاء؛ ولو بالكلام.

أمّا السكوت هكذا، ولا كأن شيء كان، هو واللَّهِ مزري.

وليس حزننًا أن تهزم دولة مقابل دولة؛ حزننا أن هذا هزيمة للإسلام؛ لأن الروس ما تسلّطوا هذا التسلّط إلاّ خوفًا من الإسلام، مع أننا نسمع أن اليهود يساعدون الرّوس على القتال هذا، واليهود أعداؤنا..».

ثم قال: «فما موقفنا الآن؟؟!!

من المعلوم أننا ليس لنا حيلة ولا قدرة ولا قوّة.

وأنّ الموقف كان يجب أن يكون من الدّول الإسلامية في إنكار هذا الأمر الفظيع، ولكن قَدَرُ اللَّهِ وما شاء فعل، موقفنا الآن هو أن ندعو اللَّه عز وجل..».

ثم شرع الشيخ في دعاءٍ طويلٍ مؤثّر، جاء فيه:

«اللَّهم: إنّا نسألك في مقامنا هذا ونحن في انتظار فريضة فرضتها علينا (يعني صلاة العشاء) نسألك اللَّهم في هذا المقام أن تنصر إخواننا في الشيشان.. اللَّهم أنزل بالروس بأسك الذي لا يردّ عن القوم المجرمين».

ثم قال: «أيها الإخوة: أكثروا من الدعاء لإخوانكم:

مخلصين للَّه، مخبتين إليه، مضطرين إليه، أكثروا من الدعاء لهم فإنهم في محنة عظيمة، الصّواريخ تدمّر بلادهم، وتقتل شيوخهم وأطفالهم ونساءهم وتهدم مساجدهم..».

ثم قال: «ادعوا اللَّه لهم بإخلاص في الفروض والنوافل، في انتظار

الصلاة، في التهجد، ادعوا لهم، ادعوا لهم، هذا أقلّ الواجب عليكم، نسأل اللَّه أن يتقبّل دعاءنا.. آمين»[١].

❑ رحم اللَّه الشيخ بقية السلف الرباني محمد بن صالح العثيمين.

حبيبنا طبت في أم القرى جدثا وطاب ذكرك في كل الدُّنا عَبقا

*** شيخ السلفية باليمن وشيخ المحدثين بها الشيخ مقبل بن هادي الوادعي ـ رحمه اللَّه ـ:**

❑ يقول فضيلة الشيخ أحمد بن إبراهيم بن أبي العينين:

«قد امتن اللَّه على شباب الصحوة أن وفَّقَ كثيرًا منهم لمعرفة الطريق الصحيح، والسبيل القويم، وهو منهج سلفنا الصالح وأصبح الباطل لا يروج على كثير منهم، حتى شاع بين كثيرٍ منهم أنه لا يحدِّث أحد بحديث عن رسول اللَّه ﷺ إلاَّ وجد من يقوم له، ويسأله: هل هذا الحديث صحيح أو ضعيف؟ حتى انتشر ذلك أيضًا بين عوام الناس، وذلك كله بفضل اللَّه عز وجل، ثم بجهاد أُناس صبروا على نشر سنة رسول اللَّه ﷺ بين الناس، ونشر العلم الصحيح، ابتغاء وجه اللَّه عز وجل.

ومن هؤلاء شيخنا مقبل بن هادي ـ حفظه اللَّه ـ الذي جعله اللَّه عز وجل سببًا لانتشار السنة في اليمن، خاصة في منطقته التي يحل بها ـ صعدة ـ والتي يحل بها غُلاة الشيعة، وبها (مسجد الهادي) الذي هو مُلْتَقاهم ومرجعهم. فجعل اللَّه شيخنا سببًا في كسر شوكتهم، ودحض حجتهم، وانصراف الناس عنهم بعد أن كانت مغلقةً عليهم. فجزاه اللَّه خيرًا.

وكذلك جعل اللَّه عز وجل شيخنا سببًا لنشر الحديث في اليمن، ومعرفة علومه، وكذلك عُرِف السؤال عن صحة الحديث من ضعفه، وأصبح

(١) «الدر الثمين» (ص٢٩٤ ـ ٣٠٦).

ذلك السؤال مألوفًا بعد أن لم يكن. وهذه المسألة ـ أعني السؤال عن صحة الحديث من ضعفه ـ جعلت دور النشر تحرص على عدم نشر كتاب إلا محققًا، مما جعل أناسًا كثيرين يتسابقون في مجال التحقيق، وأصبح أهل الحديث يلتفُّ حولهم الشباب، ويسألونهم من هنا وهناك، بعد أن لم يكن يلتفت إليهم أحد. وهذا يتضح إذا نظرنا إلى الشيخ الفاضل أحمد بن محمد شاكر ـ رحمه اللَّه ـ فإنه مع تبحره في علم الحديث وسائر العلوم لا نعلم له طلبة استفادوا منه شخصيًا إذا قسناه على طالب علم مستفيد في هذه الأيام، وإنما انتفع الناس بكتب الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه اللَّه ـ وكتاباته.

فالفضل في نشر العلم والسنة والحديث للَّه، ثم لأُناس صبروا لذلك كما قال اللَّه عز وجل: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ٢٤]، وعلى رأس هؤلاء الإمام المجدد الألباني ـ حفظه اللَّه ـ ونفع به الإسلام والمسلمين ـ الذي جعله اللَّه سببًا لنشر الحديث وعلومه بين غالب شباب الصحوة، وله أكثر من ستين عامًا في خدمة حديث رسول اللَّه ﷺ، وبيان صحيحه من ضعيفه قبل أن يولد أكبر العاملين في التحقيق اليوم، فله في ذلك الجهد الأكبر الذي نسأل اللَّه عز وجل أن يجزيه عنه خير الجزاء، وله جهد كبير في نشر منهج السلف الصالح والدفاع عن العقيدة الصحيحة، وتحمَّل في ذلك الإيذاء والابتلاء، فلقد سمعت في أحد أشرطته وهو يحكي عن نفسه وبدايته في العلم أنَّه كان يستأجر الكتاب؛ لأنه لا يملك ما يشتريها به، ثم لما بلغ من العمر نحو العشرين عامًا كان يناقش أباه في المسائل الفقهية، وفي العقيدة لأنَّ أباه كان حنفيًّا جامدًا، فلما لم يستطع المواجهة ضاق به ذرعًا، وقال له بلسان عربي مبين: رمَّا الموافقة، وإما المفارقة. فاختار الابن المفارقة وتحمل ترك بيته وأهله وهو في هذا السن نصرًا لسنة رسول اللَّه ﷺ، من ذاك اليوم إلى الآن وهو في خدمة سنة رسول اللَّه

ﷺ يدافع عنها وعن العقيدة الصحيحة ومنهج السلف الصحيح، ويصارع الأعداء والمبتدعة، ويدحض حججهم. فجزاه اللَّه خير الجزاء.

❑ وكذلك لشيخنا مقبل ـ حفظه اللَّه ـ[1] في ذلك جهد مشكور، وسعي مبرور في الدفاع عن سنة رسول اللَّه ﷺ، والصبر على تحمل الأذى هنا وهناك في سبيل نشر سنة رسول اللَّه ﷺ. فهل يستوي هؤلاء بأناس وجدوها لقمةً سائغة؟ هل يستوي مَن لُطِم على وجهه، وسُجِن وطُرِد في سبيل نشر سنة النبي ﷺ بمن وجد الأمر قد تحول فأصبح أهل السنة وأهل الحديث لهم الكلمة والاحترام فمشى في ركبهم.

❑ وشيخنا مقبل ـ حفظه اللَّه ـ لم يزدد ماله شيئًا من وراء عمله العلمي ولا الدعوة إلى اللَّه، وإنما يدفع من ماله الخاص لطلبة العلم والدعوة إلى اللَّه. فهل يستوي مع من أصبح من أصحاب الأموال الطائلة من وراء علمه العلمي، وإخراج الكتب، وبعضهم لا يلتزم بالسنة في نفسه، ربما يكون أحدهم متشبهًا بالكفار في لباسه وحالقًا للحيته، ومع ذلك فقد أصبح من المحققين المشهورين المرموقين وقد أَثْرَوْا ثراءً فاحشًا من وراء كتبهم التي ينشرونها.

❑ وشيخنا مقبل ـ حفظه اللَّه ـ آمر بالمعروف، ناه عن المنكر قوال بالحق من غير مُدَاراةٍ لا يبالي بمن خالفه عندما يظهر له الحق. فهو فيما يراه حقًّا لا يداهن، ولا يجامل بل ولا يداري، فسَبَّبَ ذلك له عداوة بعض الناس، وهو مع ذلك ظاهره كباطنه لا يمكر بأحد، بل إذا وجد على أحد أظهر كل ما في نفسه، وظهر على وجهه. فهذا أدْعَى أن يحتمل منه، ما يبدر منه، واللَّه المستعان.

---

(١) هذه المقدمة كانت قبل موت فضيلة الشيخ مقبل أسكنه اللَّه عليين جزاء ما قدم لدينه آمين.

وطلبته الكثير منهم بل أكثرهم كان سببًا في هدايتهم؛ فكثير منهم كانوا على بدعة التشيع فهداهم اللَّه بسببه، وتوجهوا لطلب العلم النافع، وبعضهم كانوا مستقيمين ولكنهم لم يكونوا متجهين لطلب العلم النافع ولا يعرفون الطريق إليه، فجعل اللَّه شيخنا مقبلاً سببًا في هدايتهم لطريق العلم النافع، فقد انتفع به أقوام كثيرون فجزاه اللَّه خير الجزاء.

وهو رجلُ علمٍ ودعوة من غير إثارة فتن ولا فوضي ولا طلب مناصب ولا رياسة ولا شهرة.

وهو رجل علم وعمل، فهو يتعلم ليعمل بعلمه، فما من سنة يتعلمها إلا وهو يبادر بالعمل بها.

وهو رجل وقَّاف عند نصوص الكتاب والسنة لا يستنكف أن يتراجع عن رأيه إذا ردَّه أحدٌ بنصٍّ من كتاب اللَّه، أو سنة رسول اللَّه ﷺ، ولو كان على رءوس الأشهاد.

وهو رجل قنوع يرضى بالقليل من أمور الدنيا، أقل شيء منها يكفيه، المهم عنده أن يعيش بين «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، وسائر السنن، و«تفسير ابن كثير»، وقبل ذلك كتاب اللَّه، وكتب الرجال، وغيرها من كتب العلم.

وهو رجل يصدع بالحق لا يخاف في اللَّه لومة لائم، ولا يرده عن قول الحق شيء مهما كلَّفه، ومهما خسر في ذلك، فنسأل اللَّه عز وجل أنّ يحفظه من بين يديه ومن خلفه.

وعلى أي حال فهو بشر يصيب ويخطئ، ويعلم ويجهل، ولكن يكفيه أن صوابه أكثر من خطئه، وكما قال النبي ﷺ: «**النَّاسُ كإبلٍ مائة، لا تكاد تجد منها رَاحلة**»، وقد كتبنا عن شيخنا في زول كتابه «أحاديث معلة ظاهرها الصحة» كلمات مختصرة وليس المجال مجال بسط. واللَّه المستعان.

❑ ونحن إذ ننشر ترجمة الشيخ ـ حفظه اللَّه ـ نريد من ذلك التعريف به، ونرجو منها أيضًا أن تكون حافزًا للشباب لكي يجدُّوا ويجتهدوا في طلب العلم النافع والعمل به.

نسأل اللَّه عز وجل أن يمد في عمره، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين[1].

❑ وكتب إليه تلميذه الشيخ أبو الحسن المأربي مصطفى بن إسماعيل المصري[2]:

الحمد للَّه والصلاة والسلام على رسول اللَّه ﷺ.

أما بعد: إلى فضيلة الشيخ أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي ـ حفظه اللَّه ـ من أبي الحسن السليماني.

بعد السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

أحمد اللَّه الذي لا إله إلا هو إليكم وهو للحمد أهلٍ، وأسأله لنا ولكم المزيد من فضله والبصيرة في الدين.

وقد بلغني كلامُ كثيرٍ من الشانئين لكم، وكثرت سهامهم الخاسئة إلى دعوتكم في شخصكم الكريم، وهذه سنة اللَّه في الدعوة وأهلها، فما من رجل يبرز في باب من أبواب الخير إلا كان له من يناصبه العِداء، وقديمًا قيل: إن الشجرة إذا طابت ثمارها كثر رماتها. ولكم أسوة حسنة في أهل العلم والفضل الذين أُوذُوا في سبيل صَدْعِهِم بالحق وصبرهم على الخلق.

---

(١) «ترجمة أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي» بقلم الشيخ مقبل الوادعي (ص١٢ ـ ١٦) ـ دار الآثار صنعاء.

(٢) هو شيخ المركز العلمي بمأرب، وهو متبحر في علوم الحديث وله كتاب «شفاء العليل» و«كشف الغمّة» و«إتحاف النبيل».

❑ أيها الشيخ الكريم: إننا ـ وللَّه الحمد ـ ما نزداد كل يوم إلا بصيرة بصحة منهج أهل السنة والجماعة، كما أننا نزداد علمًا بأنكم ـ وللَّه الحمد ـ تزدادون من فضل اللَّه كل يوم خيرًا وفضلاً، ولو أنصف مخالفوكم ورأوا ثمرة صبركم في الجلوس لتعليم الكتاب والسنة لاغتفروا لكم كثيرًا وكثيرًا جدًّا، كما ليَّنوا وسهَّلوا من طَامَّات قوم ما عُرف عنهم أنهم يرفعون بالسنة رأسًا، ولكن هكذا شأن الباطل وأهله فما من دليل يستدلون به إلا كانوا أول الناس نقضًا له وإعراضًا عنه، فثقُوا أن اللَّه قد منَّ عليكم بخير كثير، وأجرى بكم نفعًا عظيمًا فلا تأبهوا بِفِرْيَةِ مَن أنضجَ الغَيظُ قلبَهُ، فتارة يرمي مدرستكم المباركة، وتارة يرمي طلابكم، وتارة يرمي نهجكم، مع أن هذا كله قد زكَّاه ورَضِيَ به أفاضل أهل العلم، الذين يُقَدِّرون الأمور بقدورها، ويعرفون حال الأمور ومآلاتها، وصدق من قال:

إذا رضيتْ عني كرامُ عشيرتي فلا زال غضبانًا عليَّ لِئامُهـا

❑ أيها الشيخ الكريم: أتظن أن جمع التناقضات ـ زعموا ـ أو رمي مدرستكم أو طلابكم أو شخصكم أو غير ذلك ليس مقصودًا من ورائه سوى ذلك؟! كلا، إن القوم لا يرون طريقتكم النافعة طريقة تُنَاسِب هذا الزمان، ولا يرون التفرُّغ للعلم والتعليم سبيلاً يهدي للتي هي أَقْوَم، إنهم يُعَبِّرون عن طريقتكم بالسلفية القديمة التقليدية أو الأكاديمية التي لا تناسب حال العصر، وغاب عن كثير مِن هؤلاء أن ثمرة دعوتكم قد أضحت باديةً لكل ذي عينين لم تغشهما غشاوة الحزبية أو المصلحة أو البدعة والضلالة، فما أحسن ما قيل:

أقِلُّـوا عليهـم لا أبًا لأبيـكـمُ مِن اللَّوم أو سُدُّوا المكان الذي سَدُّوا

إن مخالفة نهج السلف الصالح الذي وفقكم اللَّه إليه خطوة ومرقاة للحزبية ثم للبدعة، وما أقرب كثير من مخالفيكم لتكفير كثير من المسلمين،

علموا ذلك أم لم يعلموا، ثم ما أقربهم للارتماء في أحضان الحزبيين الذين قد بُحَّت أصواتُهم معكم في التحذير منهم، فواللَّه لو كان النقد لشخصكم وفقط لما وجدنا في أنفسنا كل هذه الحرارة والأسى، لكن الأمر قد أصبح واضحًا، وهو أن النقد إن وُجِّه لشخصكم فسيَئُول عند الضعفاء إلى هدم دعوتكم ومنهجكم وهيهات هيهات لما يظنون ويزعمون.

❑ أيها الشيخ الكريم: نحن ومَن معنا ثمرة مِن جهودكم وحسنة لكم أرجو أن تكون في ميزان حسناتكم، ولو تسمع ما نسمع من ثناء الأعراب في أطراف البوادي، والطلاب في بطون المساجد، والعلماء فوق أعواد المنابر، والنساء في خدورهن، ولو تسمع صوتكم في سيارة، أو تمر على بيت فتسمعه يصرخ بالهدى والنور، ولو تعلم ما يرى لكم الصالحون في منامهم من المبشرات الحسنة، ولو تعلم كم شيبة أو عجوز أو طفل ناشئ يتردد على ألسنتهم ذكرك ودعوتك والدعاء لكم، ولو تعلم كم ينتصر لكم أقوام ويدافعون عنكم إلى حدود عجيبة مع أنهم ما رأوكم وليس معهم سوى ثناء إخوانكم على دعوتكم، ولو تعلم لهفة طلبة العلم في كل مكان شوقهم لسماع طيب أحوالكم، وتمنيهم التشرف بالتتلمذ على أيديكم، ولو تعلم م من دعوة لك من صائم وقائم، وكم مِن سنة أحياها اللَّه بكم، وجدَّدها بدعوتكم وثباتكم، ولو تلعم تردد وتخبط كثير من المخالفين لكم، وتناقضهم بين الحين والآخر، والعجب أن هذا يعرفه العامة، فتبًا للحزبي التي تبخس الناس أشياءهم، وتهدر ما يعرفه العامة بفطرتهم، ولو تعلمون أن اللَّه قد ألقى على لسانكم كثيرًا من الحقائق في وقت غيابها عن الخاصة فضلاً عن العامة، وجاءت الأيام والليالي لتثبت صدق ما تكلمتم به، سواء في نقدكم لداعية أو لمجاهد أو لمجلة أو لدعوة أو لطائفة، وكم لامك لائمون وأنت أنت على قولك ثم شاء اللَّه وأبى إلا أن يجعلكم إمامًا للسالكين سبيله

الداعين إليه.

لو تعلم أيها الشيخ هذا أو ذاك لهان عليك طعن الطاعنين، وتشويه الشانئين ولقلت بلسان الحال والمقال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

أيها الشيخ الكريم: كأني بكم وقد وقفتم على مَجَلَّة جنَّدب بعض أوراقها للنيل منك، أو وقفتم على كتاب ضخم أو ضئيل فيه كما زعموا تناقضكم، وتذهبُ بكم الأفكار يَمنَةً ويَسْرَة: هل تردُّون على ذلك أم تعرضون عنه؟، وإن كان لي رزي ونصيحة فلا أرى جهدكم ووقتكم يبذل في هذا الأمر، فأبكار العلوم تحتاج من يفضُّها، ونفائس الفكر تحتاج من يجتنيها وينظمها في نظامها، وشوارد الفوائد تحتاج إلى من يأوي بها إلى رياض مجالس العلم، وأقفال معضلات العلوم تحتاج من يفتحها، ومثلكم الخبير بذلك، فلا تُضَيِّع أنفاسك في كلام لا يشفي عليلاً ولا يروي غليلاً، وسر مستعينًا بربك فيما أنت عليه، فلتُتِم أيها الشيخ كتبك ورسائلك ودروسك و﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾، و﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

ثم ألا ترى أيها الشيخ الكريم أن مثل هذه الأشياء كالمولود الذي يموت قبل ختانه، فسرعان ما تذهب ثمرتها وتبقى حسرتها، فلا هي بالتي انتفع بها العقلاء، ولا هي بالتي سلم منها قائلها، ولنا أسوة في سلفنا الصالح، الذين أقاموا الأدلة ونصبوا الدلائل على الحق غير مبالين بالأشخاص، والذين أعطوا للأمور قدرها، فقدموا ما يحتاج الناس إليه بصفة عامة على أشياء لا يكاد ينتفع بها عاقل.

فكأني بك إذا أخذت بنصيحتي وعملت بها فقد وجهت للمخالفين بالباطل ضربة تقضي على باطلهم، ولا يهمنا القضاء على أشخاصهم،

وكذلك تكون قد أطفأت رغبة غير مجدية ولا نافعة عند كثير من الذين يترقبون الردود مع أنهم لا يهتمون بالعلم والعمل، مع أنني أقول أيها الشيخ الكريم ـ من باب الإنصاف ـ: إنه لن يلفت نظركم إلى مواضع العيب مثل عدوكم الذي هو كالذباب يراعي موضع العلل، فأرجو النظر فيما ذكره مخالفوك فإن كان فيه حق قبلته، وحمدت اللَّه على وجود من اعتني بلفت نظرك لعيبك، ولا عليك من قصده ونيته، فلنا خيره وعليه شره، وإن لم تجد فيها ما يدل على ما أراد، فاحمد اللَّه الذي ستر عنهم الذي هو فيك ـ لأن الإنسان ليس بمعصوم مهما بلغ من العلم والفضل ـ وصرفهم إلى ما ليس فيك فيخففون من ذنوبك أو يعطونك من حسناتهم.

هذا وما قصدت بذلك إلا مواساتكم وتذكيركم بشيء من فضل اللَّه عليكم، وانصحوا الطلبة بأن ينصرفوا إلى تحصيلهم للعلم ودعوتهم للناس وإصلاح قلوبهم، فهذه الأمور هي الباقيات الصالحات، وأما غير ذلك فما يضرونك من شيء، وإن يهلكون إلا أنفسهم، واللَّه من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والعاقبة للمتقين.

وصلى اللَّه على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والسلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته.

كتبه أبو الحسن

مأرب في ١٣/ رمضان/ ١٤١٦هـ[1]

*** الشيخ مقبل الوادعي:**

قال ـ رحمه اللَّه ـ أنا مُقبل بن هادي بن مقبل بن قائد الهمْداني الوادعي الخلالي، من قبيلة آل راشد، وشيباتنا يقولون: إن وادعة من تكيل.

(١) المصدر السابق (ص ٢١٠ ـ ٢١٤).

* دراستي ومشايخي:

درست في الكتب حتى انتهيت من منهج المكتب، ثم ضاع من العمر ما شاء اللَّه في غير طلب علم؛ لأنه ما كان هناك من يُرَغِّب أو يساعد على طلب العلم، وكتب محبًّا لطلب العلم، وطلبت العلم في (جامع الهادي) فلم أُسَاعَدْ على طلب العلم، وبعد زمن اغتربت إلى أرض الحرمين ونجد، فكنت أسمع الواعظين ويعجبني وعظهم، فاستنصحت بعض الواعظين ما هي الكتب المفيدة حتى أشتريها؟ فأرشد إلى «صحيح البخاري»، و«بلوغ المرام»، و«رياض الصالحين»، و«فتح المجيد شرح كتاب التوحيد»، وأعطاني نُسيخَات من مقررت التوحيد، وكنت حارسًا في عمارة في الحجون بمكة، فعكفت على تلك الكتب، وكانت تعلق بالذهن لأن العمل في بلدنا على خلاف ما فيها، خصوصًا «فتح المجيد».

وبعد مدَّة من الزمن رجعت إلى بلدي أُنْكِرُ كل ما رأيته يخالف ما في تلك الكتب من الذبح لغير اللَّه، وبناء القباب على الأموات، ونداء الأموات، فبلغ الشيعة ذلك، فأنكروا ما أنا عليه فقائل يقول منهم: من بدَّل دينه فاقتلوه، وآخر يرسل إلى أقربائي ويقول: إن لم منعوه فسنسجنه، وبعد ذلك قرروا أن يدخلوني (جامع الهادي) من أجل الدراسة عندهم لإزالة الشبهات التي قد علقت بقلبي، ويُدَنْدِنُ بعضهم بقول الشاعر:

عَرَفْتُ هَوَاهَا قَبْلَ أَن أَعرِفَ الهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

وبعد ذلك دخلت للدراسة عندهم في جامع الهادي، ومدير الدراسة القاضي (مُطهَّر حَنَش)، فدرست في «العقد الثمين»، وفي «الثلاثين المسألة وشرحها» لحابس، ومن الذين درَّسونا فيها (محمد بن حسن المُتَمَيِّز) وكنَّا في مسألة الرؤية فصار يسخر من ابن خزيمة وغيره من أئمة أهل السنة، وأنا أكتم عقيدتي، إلا أني ضعفت عن وضع اليد اليمنى على اليسرى في الصلاة

وأرسلت يديَّ، ودرسنا في «متن الأزهار» إلى النكاح مفهومًا ومنطوقًا، وفي شرح الفرائض كتاب ضخم فوق مستوانا فلم أستفد منه.

فلمَّا رأيت الكتب المدرَّسة غير مفيدة، حاشا النحو فإني درست عندهم «الآجرومية» و«قطر الندى»، ثم طلبت من القاضي (قاسم بن يحيى شُوَيْل) أن يدرسني في «بلوغ المرام» وبدأنا فيه، وأُنكِر علينا ذلك ثم تركنا، فلما رأيت أن الكتب المقررة شيعية معتزلية قدررت الإقبال على النحو فدرست «قطر الندى» مرارًا على (إسماعيل حَطَبَة) ـ رحمه اللَّه ـ في المسجد الذي أسكن ويصلي فيه وكان يهتم بنا غاية الاهتمام، وفي ذات مرة أتى إلى المسجد (محمد بن حُوريَّة) فنصحته أن يترك التنجيم فنصحهم أن يطردوني من الدراسة، فشفعوا لي عنده وسكت، وكان يمر بنا بعض الشيعة ونحن ندرس في «القطر» ويقول: (قبيلي صبِّن غِرارة) بمعنى أن التعليم لا يُؤثِّر فيَّ وأنا أسكت وأستفيد في النحو.

حتى قامت الثورة وتركنا البلاد ونزلنا إلى نجران ولازمت (أبا الحسين مجد الدين المُؤيَّد) واستفدت منه خصوصًا في اللغة العربية، ومكثتُ بنجران قدر سنتين، فلما تأكدتُ أن الحرب بين الجمهورية والملكية لأجل الدنيا عزمت على الرحلة إلى أرض الحرمين ونجد، وسكنت بنجد قدر شهر ونصف في مدرسة تحفيظ القران التابعة للشيخ (محمد بن سِنَان الحَدَائي) حفظه اللَّه، ولقد كان مكرمًا لي لمارزى من استفادتي وينصحني بالاستمرار مدة حتى يرسلني إلى (الجامعة الإسلامية) فتغير عليَّ الجو بالرياض، وعزمت على السفر إلى مكة، فكنت أشتغل إن وجدت شغلاً، وأطلب العلم في الليل أحضر دروس الشيخ (يحيى بن عثمان الباكستاني) في «تفسير ابن كثير»، والبخاري، ومسلم.

وأطالع في التب والتقيت بشيخين فاضلين من علماء اليمن:

أحدهما: القاضي (يحيى الأَشْوَل) صاحب بمعمرة، فكنت أدرس عنده في «سبل السلام» للصنعاني ويدرسني في أي شيءٍ أطلب منه.

الثاني: الشيخ (عبدالرزاق الشاحِذي المحويتي) وكان أيضًا يدرسني فيما أطلب منه.

ثم فتح معهد الحرم المكي وتقدمت للاختبار مع مجموعة من طلبة العلم، فنجحت والحمد للَّه.

وكان من أبرز مشايخنا فيه الشيخ (عبدالعزيز السُّبَيِّل)، ودرست مع مجموعة من طلبة المعهد عند الشيخ (عبداللَّه بن محمد بن حُمَيد) رحمه اللَّه في «التحفة السنية» بعد العشاء في الحرم، فكان ـ رحمه اللَّه ـ يأتي بفوائد مفيدة من «شرح ابن عقيل» وغيره، وكانت فوق مستوى زملائي فتملَّص زملائي، فترك ـ رحمه اللَّه ـ الدرس.

ودرست مع مجموعة من الطلاب عند الشيخ (محمد السُّبَيِّل) ـ حفظه اللَّه ـ شيئًا من الفرائض.

وبعد الاستقرار في المعهد خرجت للإتيان بأهلي من نجران فأتيت بهم وسكنَّا بمكة مدة الدراسة في المعهد ست سنين، والدراسة في الحرم نفسه.

وبركة دراسة المساجد معلومة، ولا تسأل عن أُنْسٍ وراحة كنا فيها، وصدق الرسول ﷺ إذا يقول: «**ومَا اجتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ من بُيُوتِ اللَّه يَتْلُونَ كتَابَ اللَّه ويَتَدَارَسُونَهُ فيمَا بَينَهُم إلاَّ نَزَلَت عَلَيهِم السَّكِينَةُ، وحَفَّتهُم المَلائِكَةُ، وغَشِيتهُم الرَّحمةُ، وذَكَرَهُم اللَّه فيمن عِنْدَه**».

النهار في دراسة المعهد، والدروس كلها تخدم العقيدة والدين، ومن بعد العصر إلى بعد العشاء في الحرم نشرب من ماء زمزم الذي قال النبي ﷺ فيه: «**إنَّه طَعَامٌ طعم وشِفَاءٌ سَقَم**». ونسمع من الواعظين القادمين من الآفاق لأداء حج أو عمرة.

ومن المدرسين في الحرم بين مغرب وعشاء الشيخ (عبدالعزيز بن راشد النجدي) صاحب «تيسير الوحيين في الاقتصار على القرآن والصحيحين» وله فيه أخطاء لا نوافقه عليها، وكان ـ رحمه اللَّه ـ يقول: الصحيح في غير الصحيحين يعدُّ على الأصابع، فبقيت كلمته في ذهني منكرًا لها حتى عزمت على تأليف «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» فازددت يقينًا ببطلان كلامه ـ رحمه اللَّه ـ.

وكان ـ رحمه اللَّه ـ رجل التوحيد، وله معرفة قوية بعلم الحديث، ومعرفة صحيحه من سقيمه، ومعلوله من سليمه، ويعجبني فيه أنه ينفِّر عن التقليد حتى إنه ألف رسالة بعنوان «الطواغيت المقنعة»، فظن بعد العلماء الكبار أنه يَعنيهم، وجمعت لجنة من كبار العلماء لمناقشته فقالوا: أنت عنيتنا بهذا وعنيت الحكومة؟ فقال: إن كنتم ترون أنكم متصفون بالصفات التي ذكرتُ في الكتاب فهو يشملكم، وإن كنتم ترون أنكم لستم متصفين بالصفات التي ذكرت في الكتاب فهو لا يشملكم. ثم مُنع الكتاب من الدخول إلى المملكة، أفادني بذلك.

وفي ذات ليلة طُلب منه أن يُلقيَ درسًا وكأنه لاختباره، فبدأ درسه بقوله تعالى: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٣]. سرد من الايات التي تدل على تحريم التقليد، وبعض أفاضل العلماء عند الكرسي، وبعد ذلك مُنع من التدريس في الحرام، واللَّه المستعان.

ومن مشايخي في الحرم المكي الذين استفدت منهم الشيخ (محمد بن عبداللَّه الصومالي) فقد حضت عنده نحو سبعة أشهر أو أكثر، وكان ـ رحمه اللَّه ـ آيةً في معرفة رجال الشيخين، ومنه استفدتُ كثيرًا في علم الحديث، على أني بحمد ربي من ابتدائي في الطلب لا أحب إلا علم الكتاب والسنة.

وبعد الانتهاء من معهد الحرم من المتوسط والثانوية، وكل الدروس دينية، وانتقلنا إلى المدينة إلى الجامعة الإسلامية، فحوّل أكثرنا إلى كلية الدعوة وأصول الدين، وأبرز من درسنا فيها الشيخ (السيد محمد الحكيم) والشيخ (محمود عبدالوهاب فائد) المصريان.

وعند أن جاءت العطلة خشيت من ذهاب الوقت وضياعه فانتسبت في كلية الشريعة، لأمرين: أحدهما: التزوُّد من العلم. الثاني: أن الدروس متقاربة وبعضها متحدة، فهي تعتبر مراجعةً لِمَا درسناه في كلية الدعوة. وانتهيت بحمد اللَّه من الكليتين، وأُعطيت شهادتين، وأنا بحمد اللَّه لا أبالي بالشهادات، المعتَبر عندي هو العلم.

وفي عام انتهائنا من الكليتين فُتِحت في الجامعة دراسةٌ عالية ما يسمونه بالماجستير، فتقدمت لاختبار المقابلة ونجحت بحمد اللَّه وهي تخصص في علم الحديث، وبحمد اللَّه حصلت الفائدة التي أُحبها، وكان أبرز من درسنا الشيخ (محمد الأمين المصري) ـ رحمه اللَّه، والشيخ (السيد محمد الحكيم المصري) وفي آخرها الشيخ (حماد بن محمد الأنصاري)، وكنت أحضر بعض الليالي درس الشيخ (عبدالعزيز بن باز) في الحرم المدني في «صحيح مسلم»، وأحضر كذلك مع الشيخ (الألباني) في جلساته الخاصة بطلبة العلم للاستفادة.

ومنذ كنت في الحرم المكي وأنا أدَرِّس بعض طلبة العلم في «قطر الندى» وفي «التحفة السنية»، وعند أن كنت بالمدينة كنت أُدرِّس بعض إخواني في الحرم المدني في «التحفة السنية» ثم وعدت إخواني في اللَّه بدروس في بيتي بعد العصر في «جامع الترمذي»، و«قطر الندي»، و«الباعث الحثيث»، وانتشرت دعوة كبيرة من المدينة ملأت الدنيا في مدة ست سنوات، بعض أهل الخير هم الذين يسعون في تمويلها، و(مقبل بن هادي) وبعض

إخوانه في اللَّه هم الذين يقومون بتعليم إخوانهم، وأما الرحلات للدعوة إلى اللَّه في جميع أنحاء المملكة فمشتركة بين الإخوان كلهم، طالب العالم للتزود من العلم ولإفادة الآخرين، والعامي للتعلم، حتى استفاد كثير من العامة وأحبُّوا الدعوة.

وكان بعض إخواننا في اللَّه طلبة العلم إمام مسجد في الرياض فأنكر عليه بعضُ أهل العلم السترة، فقال: عجزنا فيكم فواللَّه لا يقوم إلا عامي يعلمكم أحاديث السترة. فدعا أخًا من محبي الدعوة من العامة وحفظه أحاديث السترة من «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان»، وقام وألقى تلكم الأحاديث، وبعدها خجل المعارضون وسكتوا.

وبعد هذا تحرَّك المقلدة وعلماء السوء، وكان السبب في تحرك المقلدة الذين هم في نظر الناس علماء أنهم إذا التقوا بطالب علم صغير من طُلاَّبنا واستدلوا بحديث قال لهم: مَن أخرجه؟ وهذا شيء ما ألِفُوه، ثم يقول لهم: ما حال الحديث؟ وهذا أيضًا ما ألفوه، فخجَّلوهم أمام العامة، وربما قال لهم الطالب: هذا حديث ضعيف في سنده فلان، وضعفه فلان، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وأشاعوا أن هؤلاء خوارج، وحاشا الأخوة من الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين ويكفرون بالمعصية.

وكانت تحدث السقطات من بعض الأخوة المبتدئين؛ لأن الغالب على المبتدئ الحماسة الزائدة ـ وكنت آنذاك أُحَضِّر رسالة الماجستير ـ فما شعرنا ذات ليلة إلا بالقبض علينا، فقبضوا على نحو مائة وخمسين وهرب مَن هرب، وارتجت الدنيا بين منكر ومؤيِّد، فبقينا في السجن نحو شهر أو شهر ونصف، وبعدها خرجنا بحمد اللَّه أبرياء.

ثم بعد هذا خرجت بعض رسائل (جهيمات) فقُبِضَ على مجموعة منا، وعند التحقيق قالوا لي: أنت الذي كتبتها، جهيمان لا يستطيع أن

يكتب. فنفيت ذلك، واللَّه يعلم أني لم أَكتُبْها ولم أشارك فيها، وبعد سجن ثلاثة أشهر أُمِرَ بترخيل الغرباء.

ولما وصلت إلى اليمن عدت إلى قريتي ومكث بها أُعلِّمُ الأولاد القرآن، فما شعرت إلا بتكالب الدنيا عليَّ، فكأني خرجت لخراب البلاد والدين والحكم، وأنا آنذاك لا أعرف مسئولاً ولا شيخ قبيلة، فأقول: حسبي اللَّه ونعم الوكيل، وإذا ضقت ذهبت إلى صنعاء أو إلى حاشد، أو إلى ذمار، وهكذا إلى تعز، وإب، والحديدة، دعوة وزيارة للإخوان في اللَّه.

وبعد أيام أخرَجَ بعض فاعلي الخير مكتبتي من المدينة، فطُلِب منه خمسمائة ريال سعودي في مركز (كدم)، وكان المسئول عنه (المشرقي) فأبى، يظنها رشوة، وهو لا يدري أنها رشوة في حقهم، وأما هو فليست برشوة؛ لأن الرشوة ما أُعْطِي لإحقاق باطل، أو لإبطال حق.

فأرسلوا بالكتب إلى سعدة ومدير الإعلام (الحملي) حاقد على السنة، فطلب الكتب أصحابنا فقال: إن شاء اللَّه بعد الظهر، وما جاء بعد الظهر إلا وقد حرَّك الشيعة، فطلبوا من المسئولين توقيفها لأنها كتب وهابية. ولا تسأل عن الغرامة المالية، والمتاعب، والضيم التي حصلت لي.

إخوان بذلوا جهودًا في متابعة ذلك، كثير من أهل بلدي، (الشيخ عبداللَّه بن حسين الأحمر)، (الشيخ هزاع ضبعان)، المسئولون في مكتب التوجيه والإرشاد منهم القاضي (يحيى الفُسَيِّل) رحمه اللَّه، الأخ (عائض بن علي مسمار)، وبعد متاعب طويلة أبرق أهل صعدة إلى الرئيس (علي بن عبداللَّه بن صالح) فأحال القضية إلى القاضي (علي السمَّان) فأرسل إليَّ القاضي ووعد أنه سيسلم المكتبة وقال: إن أهل صعدة متشددون، فهم يكفِّرون علماء صنعاء. فطُلِبت المكتبة إلى صنعاء، وقُدِّر أن وصلت الكتب

والقاضي (علي السمان) في بعثة إلى الخارج، فذهب الإخوة إلى المسئول في وزارة الأوقاف فقال لهم: إنها مصاطرة ـ بالطاء ـ وتحرك بعض إخواننا في اللَّه من مكتب التوجيه والإرشاد وذهبوا واستلموها، وقالوا: هي من اختصاصنا، فنحن ننظرها فما كان صالحًا سلمناه للوادعي، وما كان يُخلُّ بالدين أبقيناه عندنا، وبما أنهم يعرفون أنها كتب دينية محضة فقد سلموها لي من غير تفتيش، فجزاهم اللَّه خيرًا، فأخذتها إلى البلاد والحمد للَّه، وقام أقربائي جزاهم اللَّه خيرًا ببناء مكتبة صغيرة، ومسجد صغير، وقالوا: نصلي فيه جمعة درءًا للفتن والمشاكل، فكنا في بعض الأوقات نصلي قدر ستة نفر.

وفي ذات مرة طلبني المحافظ (هادي الحشيشي) فذهبت إلى الشيخ (قائد مجلي) رحمه اللَّه فاتصل به وقال: ما تريد من الوادعي؟ فقال: لا شيء إلا مجرد التعرف عليه، فقال: نطلع إليه في معهده.

وفي أخرى طلبني مسئول آخر فدخل معي إليه (حسين بن قائد مجلي) فتكم على الشيعة، وشرح له أننا ندعو إلى الكتاب والسنة، وأن الشيعة حسدونا على ذلك، ويخافون أن تظهر الحقائق، فقال المسئول: إن الشيعة سوَّدت تاريخ اليمن، وما دامت دعوتك كذلك فادع ونحن معك.

وبعد هذا مكثت في مكتبتي، وما هي إلا أيام فإذا بعض الأخوة المصريين، وفتحنا دروسًا في بعض كتب الحديث وبعض كتب اللغة، وبعد هذا ما زال طلبة العلم يفدون من مصر، ومن الكويت، ومن أرض الحرمين ونجد، ومن عدن، وحضر موت، ومن الجزائر، وليبيا، والصومال، ومن بلجيكا، ومن كثير من البلاد الإسلامية وغيرها.

وعدد الطلاب الآن ما بين الستمائة إلى السبعمائة، منهم قدر مائة وسبعين عائلة، واللَّه يأتيهم برزقهم من عنده، كل هذا لا يجول منا ولا قوة، ولا بسبب كثرة علمنا، ولا شجاعتنا ولا فصاحتنا في الخطابة، ولكن

هذا أمر أراد اللَّه أن يكون فكان، وللَّه الحمد والمنة الذي وفقنا لذلك[١] .

* الدروس التي تلقى:

دروس هي:

(١) «تفسير ابن كثير» بعد الظهر.

(٢) «صحيح البخاري» بعد العصر.

(٣) «صحيح مسلم»، وبعده «مستدرك الحاكم» بين مغرب وعشاء.

(٤) «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» قبل الظهر.

(٥) «الصحيح المسند من دلائل النبوة».

(٦) «الجامع الصحيح في القدر».

وكنت أدرس في «شرح ابن عقيل» ثم مرضت وتركت.

أما إخواني في اللَّه فإنهم قائمون بدروس لإخوانهم في جميع المجالات العلمية على مستويات الطلاب في: التوحيد، والعقيدة، والفقه وأصوله، والحديث وأصوله، والفرائض، والنحو، والخط، والإملاء، وجميع ما يحتاج إليه الطالب من العلوم الدينية ووسائلها، وإذا ضاق المسجد والسكنات ففي الوادي وتحت الأشجار، وتلقى هنالك الدروس، علم طيب وهواء طيب.

والفضل في هذا للَّه وحده.

* وفاته:

مع غروب شمس السبت ٣٠ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ في مدينة جدة بعد رحلة علاجية دامت أكثر من سنة، عن عمر ناهز السبعين عامًا[٢] فنسأل اللَّه

(١) قبل موت الشيخ مقبل كانوا نحو ألف طالب، ونحو خمسمائة عائلة.

(٢) طلب ـ رحمه اللَّه ـ العلم في أرض الحرمين وعمره خمسة وثلاثون عامًا تقريبًا.

أن يغفر له ويدخله جنته.

*** قول الوادعي عن مؤلفاته:**

أبو عبدالرحمن مائل إلى البحث والتأليف أكثر منه إلى سائر الفنون، وكان من أول يحبُّ كثرة التخريج، ثم رأى أن حشر الواهيات من أجل الاستشهاد بها ليس من طريقة السلف، بل ما كانوا يستوعبون الطرق الصحيحة، فذلكم «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم» و«سنن أبي داود» و«جامع الترمذي» و«سنن النسائي» و«سنن ابن ماجه» وغير هذه من دواوين الإسلام وهم الحفاظ، وهم القدوة في هذا الفن، ثم إني بحمد اللَّه لا أحكم على حديث بأنه ضعيف إلا بعد دراسة ما أستطيع الاطلاع عليه من أسانيد، ولا أحكم على حديث بأنه صحيح إلا بعد مراجعة ما قاله أهل العلم المتقدمون حول الحديث، وفي الغالب أراجع كتب العلل فأرى أن أقدم للقارئ الفائدة يستفيدها بسهولة، وعلى هؤلاء الذين ليسوا إلاَّ مهيئين للانتقادات أن يأتوا بأحاديث ضعيفة قد صححتها، أو بأحاديث صحيحة قد ضعفتها.

على أنني أحمد اللَّه فإني مشغول مع التأليف بالدعوة إلى اللَّه، والتعليم، بخلاف كثير من الناس فإما أن ينصرف إلى الدعوة ولا يرفع إلى العلم والتعليم رأسًا، وإما أن ينصرف إلى التعليم ولا يرفع إلى الدعوة والتأليف رأسًا، وإما أن يشغل بالتأليف والتحقيق ولا يرفع إلى الدعوة والتعليم رأسًا، وهكذا إخواننا فهم الدعوة إلى اللَّه، وهم المؤلفون والمحققون، وهم الحراس وهم الطباخون، وهم القائمون على تعليم إخوانهم، والفضل في هذا اللَّه وحده، فهو الذي أعانهم على هذا كله.

* **المؤلفات مرتبة ترتيباً زمنياً إن تيسر ذلك:**

(١) «الطليعة في الرد على غلاة الشيعة»، كتبتها وأنا بمعهد الحرم، وهي مطبوعة مع «رياض الجنة».

(٢) «تحريم الخضاب بالسواد»، كتبتها وأنا بمعهد الحرم المكي وهي مطبوعة.

(٣) «شرعية الصلاة في النعال»، كتبتها بالمدينة ردًا على مزاعم (شيبة الحمد) أنه لم يثبت في الصلاة في النعال إلا حديث واحد.

(٤) «الصحيح المسند من أسباب النزول» قُدِّم رسالة لكلية الدعوة بإشراف الشيخ محمود بن عبدالوهاب بن فايد. مطبوع.

(٥) «حول القبة المبنية على قبر الرسول ﷺ»، قدمت رسالة لكلية الشريعة، بإشراف الشيخ حماد بن محمد الأنصاري، مطبوع في آخر «رياض الجنة».

(٦) تحقيق ودراسة «الإلزامات والتتبع» للدارقطني، قدم رسالة ماجستير للدراسات العليا بإشراف الشيخ محمد الأمين المصري، فلما توفي ـ رحمه اللَّه ـ أشرف عليها السيد محمد الحكيم المصري، مطبوع.

* **المؤلفات باليمن:**

(١) «الشفاعة»، مطبوع.

(٢) «رياض الجنة في الرد على أعداء السنة»، مطبوع.

(٣) تحقيق وتخريج مجلدين من «تفسير ابن كثير» إلى أول سورة المائدة، والباقي يقوم به الأخوة حفظهم اللَّه، مطبوعان.

(٤) «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين»، مطبوع.

(٥) «السيوف الباترة لإلحاد الشيوعية الكافرة»، مطبوع.

(٦) «المخرج من الفتنة»، مطبوع.

(٧) «إرشاد ذوي الفطن لإبعاد غلاة الروافض من اليمن»، تعليقات على «الرسالة الوازعة للمعتدين»، مطبوع.

(٨) «الصحيح المسند من دلائل النبوة»، مطبوع.

(٩) «الإلحاد الخميني في أرض الحرمين»، مطبوع.

(١٠) «الجامع الصحيح في القدر»، مطبوع.

(١١) «ردود أهل العلم على الطاعنين في حديث السحر»، مطبوع.

(١٢) «الجمع بين الصلاتين في السفر»، مطبوع.

(١٣) «قرة العين في أجوبة قائدة العلابي وصاحب العدين»، مطبوع.

(١٤) «الفواكة الجَنِيَّة»، مطبوع.

(١٥) «المصارعة»، مطبوع.

(١٦) «قمع المعاند وزجر الحاقد الحاسد»، مطبوع.

(١٧) «الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين» مرتبًا على الأبواب الفقهية، مطبوع.

(١٨) «إجابة السائل عن أهم المسائل»، مطبوع.

(١٩) «أحاديث معلة ظاهرها الصحة»، مطبوع.

(٢٠) «مقتل الشيخ جميل الرحمن الأفغاني رحمه اللَّه»، مطبوع.

(٢١) «غارة الأشرطة على أهل الجهل والسفسطة»، مطبوع.

(٢٢) «تتبع أوهام الحاكم في المستدرك التي لم ينبه عليها الذهبي مع تراجم للرواة الذين ليسوا من رجال تهذيب التهذيب»، مطبوع.

(٢٣) «تحفة الشاب الرباني في الرد على الإمام محمد بن علي الشوكاني» في شأن الاستمناء، مطبوع.

(٢٤) «غارة الفصل على المعتدين على كتب العلل» مطبوع.

(٢٥) «إيضاح المقال في أسباب الزلزال»، مطبوع.

(٢٦) «إعلان النكير على أصحاب عيد الغدير»[١].

(٢٧) «إقامة البرهان على ضلال عبدالرحيم الطحان»[٢] مطبوع.

(٢٨) «فضائح ونصائح» مطبوع.

(٢٩) «البركان لنسف جامعة الإيمان» مطبوع.

(٣٠) «إسكات الكلب العاوي يوسف بن عبدالله القرضاوي» مطبوع.

(٣١) «تحفة المجيب على أسئلة الحاضر والغريب» مطبوع.

(٣٢) «الزنداني ومجلس الشورى للشيخات في اليمن»[٣].

(٣٣) «صعقة الزلزال لنسف أباطيل أهل الرفض والاعتزال» مطبوع.

والآن بحمد الله أجمع في «الجامع الصحيح في التفسير».

*** عداوة أعداء الإسلام والمبتدعة لدعوة الشيخ مقبل:**

❑ أعظم أعداء الدعوة هم الشيوعيون فهم يهاجمون الدعوة وينشرون مقالات كاذبة في جريدة العمال وجريدة الثوري اللتين تنشران في الجنوب.

ومكارمة نجران الذين هم أكفر من اليهود والنصارى من الحاقدين على الدعوة والذين يريدون بها سوءًا فيصرفهم الله.

وهكذا الشيعة والصوفية، كل يدلي بدلوه في التنفير عن الدعوة، ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره ولو كره المبطلون.

---

(١) مطبوع مع «غارة الأشرطة على أهل الجهل والسفسطة».

(٢) وقد ضمه شيخنا «فضائح ونصائح».

(٣) مطبوع مع «تحفة المجيب».

وهكذا الحزبيون كالإخوان المفلسين[١] ، وجمعيتهم جمعية الإصلاح، وأصحاب جمعية الحكمة اليمانيون، وجمعية الإحسان السرورية.

وبهذا ينتهي ما أردنا كتابته، والحمد للَّه رب العالمين»[٢] .

* **هذه دعوتنا وعقيدتنا:**

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ عن دعوته بعد خطبة الحاجة:

أما بعد: فإنَّها لما كَثُرت العقائد المختلفة وانتشرت دعوات شتى وصارَ حالُ أصحابها كما قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وحال أصحابها كما قيل:

وكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلاً لِلَيلَى ولَيلَى لا تُقِرُّ لَهُم بِذَاكَ

* ولا تجد أصحابَ دعوة إلا وهم يدَّعون أنها على الصراط المستقيم، فذلكم فرعون الذي يقول: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾ [النازعات: ٢٤]، يقول لقومه: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [غافر: ٢٩].

* ويقول في شأن نبي اللَّه موسى عليه السلام: ﴿**ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ**﴾ [غافر: ٢٦].

* ويقول هو وقومه في شأن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿**إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ**﴾ [طه: ٦٣].

* ويقول سبحانه وتعالى عن دعوى المنافقين: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا**

---

(١) يعني بهم الإخوان المسلمين غفر اللَّه له ولهم.

(٢) «ترجمة مقبل بن هادي الوادعي» (ص٨١).

فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

* قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٢-١٣].

وإليك مثالاً: هذه الطائفةُ الضالَّةُ المارِقَة الإسماعِيْلِيَّة، بنجران والفرع والعطفين والإحساء والقطيف والبحرين والمدينة وهم المسمَّون بالنخاولة، وبجراز وعراس وبنقم بصنعاء وبالهند ومشايخهم يُسمَّون بالمكارمة وليسوا بمكارمة.

من أجل هذه الترهات والأباطيل والدعايات الكاذبة، ومن أجل جهل كثير من المسلمين بدينهم حتى لقد أصبح كثير منهم متحيرًا كما أخبرونا بذلك.

ومن أجل الدعايات الملعونة من الشيوعية والبعثية والرافضة والصوفية التي تنفر المسلمين عن الدعاة إلى اللَّه، رأيت أن أجمع نبذة عن دعوة أهل السنة باليمن فأقول وباللَّه التوفيق.

*** هذه دعوتنا وعقيدتنا:**

١ ـ نؤمن باللَّه، وبأسمائه، وصفاته كما وردت في كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ من غير تحريفٍ، ولا تأويلٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تشبيهٍ، ولا تعطيلٍ.

٢ ـ نعتقد أن نداء الأموات والاستعانة بهم وكذا الأحياء فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه شِرْكٌ باللَّه.

وهكذا العقيدة في الحُرُوز والعزائم أنها تنفع مع اللَّه أو من دون اللَّه شرك وحملها مع غير عقيدة خرافة.

٣ ـ نأخذ بظاهر الكتاب والسنة ولا نُؤَوِّل إلا بدليل يقتضي التزويل من الكتاب والسنة.

٤ ـ نؤمن بأن المؤمنين سيرون ربهم في الآخرة بلا كيف، ونؤمن بالشفاعة وبخروج المُوَحِدين من النار.

٥ ـ نحبُّ أصاحب رسول اللَّه ﷺ، ونبغض من تكلم فيها، ونعتقد أن الطعن فيهم طعنٌ في الدين لأنهم حملته إلينا، ونحب أهل بيت النبوة حبًا شرعيًا.

٦ ـ نحب أهل الحديث وسائر سلف الأمة من أهل السنة.

٧ ـ نكره عِلْمَ الكلام، ونرى أنه من أعظم الأسباب لِتَفرِقة الأمة.

٨ ـ لا نقبل من كُتُبِ الفقه، ومن كتب التفسير ومن القصص القديمة ومن السيرة النبوية إلا ما ثبت عن اللَّه أو عن رسول اللَّه ﷺ، وليس معناه أننا نَنْبُذُهَا، أو نزعم أننا نستغني عنها، بل نستفيد من استنباطات علمائنا الفقهاء وغيرهم، ولكن لا نقبل الحكم إلا بدليل صحيح.

٩ ـ لا نكتب في كتاباتنا، ولا نُلقي في دروسِنا، ولا نخطب إلاَّ بقرآن أو حديث صالح للحُجِّيَّة، ونكره ما يَصْدُرُ من كثير من الكتاب والواعظين من الأقاصيص الباطلة، ومن الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

١٠ ـ لا نكفر مسلمًا بذنب إلا الشرك باللَّه، أو ترك الصلاة أو الردة، أعاذنا اللَّه وإياكم من ذلك.

١١ ـ نؤمن بأن القرآن كلامُ اللَّهِ غيرُ مخلوق.

١٢ ـ نرى وجوب التعاون مع أي مسلم في الحق، ونبرأ إلى اللَّه من الدعوات الجاهلية.

١٣ ـ لا نرى الخروج على حكام المسلمين مهما كانوا مسلمين، ولا نرى الانقلابات سببًا للإصلاح، بل لإفساد المجتمع. أما حكام عدن فنرى

قتالهم واجبًا حتى يتوبوا من الإلحاد ومن الاشتراكية ومن دعوة الناس إلى عبادة (لِيْنِين وماركْس) وغيرهما من زعماء الكفر[١] .

١٤ ـ نرى هذه الجماعات المعاصرة المتكاثرة سببًا لفرقة المسلمين وإضعافهم.

١٥ ـ نرى دعوة الإخوان المسلمين غيرَ قادرةٍ وغيرَ صالحةٍ لإصلاح المجتمع إذ قد أصبحت دعوة سياسية لا رُوحيَّة، وأيضًا دعوة مبتدعة[٢] ؛ لأنها دعوة إلى مبايعة مجهول، ودعوة فتنة لأنها قائمة على جهل وسائرة على جهل. وننصح بعض الإخوة العاملين فيها من الأفاضل بالتَّخَلِّي عنها حتى لا يضيع وقتهم فيما لا ينفع الإسلام والمسلمين، وعلى المسلم أن يكون همُّه أنَّ اللَّهَ ينصرُ الإسلام والمسلمين.

١٦ ـ وأما جماعة التبليغ فإليك ما كتبه الأخ الفاضل محمد بن عبدالوهاب الوصابي فقال ـ حفظه اللَّه ـ:

١ ـ يعلمون بالأحاديث الضعيفة بل والموضوعة وما لا أصل لها.

٢ ـ توجد فيهم بدع كثيرة، بل إن دعوتهم مبنية على البدع إذ عمود دعوتهم الفقري هو الخروج بهذا التحديد: من كل شهر ٣ أيام، وفي السنة أربعون يومًا، وفي العمر أربعة أشهر، وفي كل أسبوع جولتان:

جولة في المسجد الذي تصلي فيه، والثانية متنقلة.

وفي كل يوم حلقتان: حلقة في المسجد الذي تصلي فيه، والثانية في البيت. ولن يَرضَوا عن الشخص إلا إذا التزمَه، ولا شك أنه بدعةٌ في الدين ما أنزل اللَّه بها من سلطان.

---

(١) وقد أخذهم اللَّه أخذ عزيز مقتدر.

(٢) في الإخوان من هو سلفي العقيدة بل ومن العلماء السلفيين كالدكتور مصطفى حلمي، وفيهم من هو من المبتدعة.

٣ ـ يرون أن الدعوة إلى التوحيد تَنْفِيرٌ للأمة.

٤ ـ يرون أن الدعوة إلى السنة تنفير للأمة.

٥ ـ يقول أميرهم بالحديدة: بدعة تجمع الناس خير من سنة تفرق بينهم.

٦ ـ يكنون العداوة لأهل السنة.

٧ ـ يُزَهِّدُونَ الناس عن العلم النافع تلميحًا وتصريحًا.

٨ ـ يرون أنه لا نجاةَ للناسِ إلا عن طريقِهم ويضربون على ذلك مثلاً بسفينة نوح من ركب فيها نجا ومن لم يركب هلك، ويقولون: إن دعوتنا كسفينة نوح، وقد سمعت هذا المثل منهم في الأُردن واليمن.

٩ ـ لا يهتمون بتوحيد الأُلُوهِيَّة، وتوحيد الأسماء والصفات.

١٠ ـ إنهم غير مستعدين لطلب العلم، ويرون الوقت الذي يصرف في طلب العلم ضائعًا.

وفيهم غير ما ذكر.

١٧ ـ نتقيَّدُ في فهمنا لكتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ بفهم سلف الأمة من المحدثين، غير مقلدين لأفرادهم، بل نأخذ الحق ممن جاء به، ونحن نعلم أن هناك من يدعي السلفية، والسلفية بريئة منه، إذ قد أصبح يُجاري المجتمع في تحليل ما حرم اللَّه (كأصحاب عبدالرحمن عبدالخالق ومحمد سرور).

١٨ ـ نعتقد أن السياسة جزء من الدين، والذين يحاولون فصل الدين عن السياسة إنما يحاولون هدم الدين، وانتشار الفوضى وكذا ما شاع في بعض البلاد الإسلامية (الدين للَّه والوطن للجميع) دعوة جاهلية، بل الكل للَّه.

١٩ ـ نعتقد أن لا عز ولا نصر للمسلمين حتى يرجعوا إلى كتاب اللَّه

وسنة رسوله اللَّه ﷺ.

٢٠ ـ نبغض الأحزاب المعاصرة: الحزب الشيوعي الملحد، والحزب البعثي الملحد، والحزب النصاري الملحد، والحزب الإشتراكي الملحد، والحزب الرافضي المارق.

ونرى أن الناس ينقسمون إلى حزبين: حزب الرحمن، وهم الذين تنطبق عليهم أركان الإسلام وأركان الإيمان غير رادين شيئًا من شرع اللَّه. وحزب الشيطان وهم المحاربون لشرع اللَّه.

٢١ ـ نُنْكِرُ على الذين يقسمون الدين إلى قُشُور ولُبَاب، ونعلم أن هذه دعوة هدامة.

٢٢ ـ ننكر على من يُزهِّد في علم السنة، ويقول ليس هذا وقته، وكذا من يزهد في العمل بسنة رسول اللَّه ﷺ.

٢٣ ـ نرى تقديم الأهم فالأهم، فالواجب على المسلمين أن يهتموا بإصلاح العقيدة، ثم بالقضاء على الشيوعية، وحزب البعث، وذلك لا يكون إلا بالاتحاد على التمسك بالكتاب والسنة.

٢٤ ـ نرى أن الجماعة التي تضم الرافضي والشيعي والصوفي والسني غير قادرة على مواجهة الأعداء لأن هذا لا يكون إلا بأخوة صادقة واتحاد في العقيدة.

٢٥ ـ ننكر على من كَابَر وزعم أن الدعاة إلى اللَّه وَهَّابِيَّةٌ عُمَلاء، ونعلم قصدهم الخبيث أنهم يريدون أن يجعلوا بين العامة وبين أهل العلم حاجزًا.

٢٦ ـ دعوتنا وعقيدتنا أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا وأبنائنا، فلسنا مستعدين أن نبيعها بالذهب والورق، نقول هذا حتى لا يطمع في الدعوة طامع، ويظن أنه يستطيع أن يستميلنا بالدرهم والدينا، على أن ذوي السياسة

يعلمون عنا هذا، من أجل هذا فهم آيسون من أن يطمعونا بمناصب أو بمال.

٢٧ ـ الحكومات نحبها بقدر ما فيها من الخير ونبغضها لما فيها من الشرِّ، ولا نجيز الخروج عليها إلا أن نرى كفرًا بواحًا عندنا فيه من اللَّه برهان، بشرط أن نكون قادرين، وألا تكون المعركة بين المسلمين من الجانبين، فإن الحكام يصورون الخارجين عليهم بصورة المُخَرِّبين المفسدين وثَمَّت شروط تُراجَعُ من كتبنا الأخرى.

٢٨ ـ نقبلُ التَّوجيهَ والنُّصحَ ممن وجَّهنا، ونعلم أننا طلبة علم، نصيب ونخطئ، ونجهل ونعلم.

٢٩ ـ نحب علماء السنة المعاصرين، ونرغب في الاستفادة منهم ونأسف لجمود كثير منهم.

٣٠ ـ لا نقبل الفتوى إلا بالدليلِ من كتاب اللَّه أو سنة رسول اللَّه ﷺ الثابتة.

٣١ ـ ننكر على المسئولين وغيرهم زيارة قبر (لِينِين) وغيره من زعماء الإلحاد للتعظيم.

٣٢ ـ ننكر على حكام المسلمين الاتحاد مع أعداء الإسلام سواء كانوا أمريكيين أو شيوعيين.

٣٣ ـ الدعوات الجاهلية كالقومية والعروبة ننكرها ونعتبرها دعوات جاهلية، ومن الأسباب التي أخرت المسلمين.

٣٤ ـ ننتظر مجددًا يجدد اللَّه به هذا ادين لما رواه أبو داود في «سننه» عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ يبعثُ لهذه الأمَّةِ على رأسِ كلِّ مائةِ سنةٍ مَن يُجَدِّدُ لها دينَها**». ونرجو أن تكون اليقظة الإسلامية ممهدة له.

٣٥ ـ نعتقد ضلال من ينكر أحاديث المهدي ورجال، ونزول عيسى بن مريم عليه السلام، ولسنا نعني مهدي الرافضة، بل إمام من أهل بيت النبوة،

ومن أهل السنة يملأ الأرض عدلاً وقسطًا، كما ملئت ظلمًا وجورًا، وقلنا إنه من أهل السنة لأن سبَّ أفاضل الصحابة ليس من العدل.

٣٦ ـ هذه نفثات عن عقيدتنا ودعوتنا، وذكرها بأدلتها يطول الكتاب، وقد ذكرت جلَّ أدلتها في «المخرج من الفتنة»، ومن لديه أي اعتراض على هذا فنحن مستعدون لقبول النصح إن كان محقًّا، ولمناظرته إن كان مخطئًا، وللإعراض عنه إن كان معاندًا. واللَّه أعلم.

❑ هذا، ومما ينبغي أن يُعْلَم أن هذا ليس شاملاً لدعوتنا ولعقيدتنا، فإن دعوتنا من الكتاب والسنة إلى الكتاب والسنة، وهكذا العقيدة، وحسبنا اللَّه ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا باللَّه[1].

❑ يقول أبو رواحة أحد تلامذة الشيخ في قصيدة له بعنوان «تحية إلى الشيخ مقبل بن هادي»:

ماذا أقول وما اللسان سينطق ... وأرى صروحًا من علوم تسمُق
وأرى بدربي زهر روضٍ فائحًا ... وأريجه في أرضنا يُستنشق
يا شيخ دعوتنا إليك سلامنا ... وتحيةٌ منا تضيء وتبرُق
يا ليت أني في ركابك لاحقٌ ... يا ليت أني في سماك أحلِّق
يا وادعيَّ الخير علمك ظاهرٌ ... بل صار نجمًا في السما يتألَّق
يا شيخنا إني أتيت مكبرًا ... ومهلِّلاً أرنو لشيخٍ يرفُق
ويعين من يسعى لأعلى هِمَّةٍ ... من طالبٍ علمًا يقول فيصدق
يا شيخنا ماذا يسطر حبرنا؟ ... علَمًا يُهادى في الخلائق يسمق
يا عالمًا طرق الحديث ولُجَّهُ ... وله مع الإسناد عهدٌ يصدق

(١) «ترجمة أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي» (ص١٧٥ ـ ١٨٤).

قد عاش بين الكتْب دهراً رائعًا ... فله مع التاليف جهدٌ مشرق
إن الحديث بكُم لنبلٌ صائبٌ ... ضد الطغاة بكل يومٍ يرشق
يا وادعيَّ الخير نَهج رسولنا ... ما زال غضًّا عندكم يتدفق
فليهنأِ الطلاب منكم منهلاً ... إذ في الحديث معالمٌ لا تغرق
يا وادعيَّ العلمِ ثغرك باسمٌ ... وجبين وجهك في البرايا يبرق
هذه مشاعر شاعرٍ من قبله ... ليست مقالة مادحٍ يتملَّق
هذي تحيتنا إليك وحسبنا ... شيخٌ كريمٌ علمه متدفِّق
ثم الصلاة على النبي محمد ... والآل والأصحاب نوراً يشرق[1]

❑ ويقول علي بن علي بن عبدالوهاب الرصاص:

ماذا أقولُ وفي الأحشاء خافقةٌ ... من حبِّ شيخ الهدى والعلم والنورِ
قد كُنتُ أحسبُ أني سوف أكتمُهَا ... زلفى إلى اللَّه يوم النفخ في الصورِ
باتَتْ تُجَلجِل في صدري لأُطلقَها ... فغالبتني وما أصغت لتحذيري
للَّه درُّك يا شيخ الحديث فما ... تركتَ من بدعة إلا بتحذيرِ
بيَّنت للناس درب الحق فانتظمتْ ... في سِلْكِهِ حلَقٌ للعلم والخيرِ
نرى دروسًا لأهل الحق قائمةً ... وسنة المصطفى تحظى بتقديرِ
هذي ثمارٌ عظيماتٌ وقد شَهِدتْ ... واللَّه حقًّا بما زسلفت في السيرِ
أرى طلائع أهل السنة انبثقتْ ... أرى نهوضًا إلى العليا بتشميرِ
دكَّوا خرافات أقوام دليلهمو ... هو الهوى فتداعى جحفل الزورِ
يا شيخُ مقبلُ حيَّا اللَّه طلعتكمْ ... وزادك اللَّه علمًا بالغَ النورِ
أرى لم وإله العرش موهبةً ... من الإله بتوفيقٍ وتسييرِ

(١) دماج ـ صعدة في عام ١٤١٥هـ.

لَمَّا نرى فتنةً مَالَ الرجالُ بها ... نرى لكم وقفةً في الحق كالطورِ
وإن أتونا بأقوالٍ مزخرفةٍ ... كشفتَ علَّةَ ما قالوا بتدبيرِ
ألست فارس ميدان الحديث وقد ... نكستَ رايات من عاشوا بتغريرِ
دكَكْت حصنًا منيعًا للروافض قدْ ... شادوه دهرًا فأضحى كالأساطيرِ
عا داك قوم ففَلَّ اللَّه شوكَتهمْ ... ووعدُ ربك لا يحظى بتأخيرِ
يا شيخنا أسأل الرحمن ينفعنا ... بعلمكم إن ربي واسعُ الخيرِ[1]

❑ وقال عبداللَّه بن علي السودي:

يهناكِ يهناكِ يا دماجُ قاطبةً ... بمقبلٍ قد أتاك العزُّ والكَرمُ
يا مقبلَ الخير قد حيَّرت زائركمْ ... واحتار في وصفكَ القرطاس والقلمُ
يا مقبلٌ أقبلت شمسُ الهدى فترى ... غياهبَ الشرك تُمحى ثم تنعدمُ
قد أشرقت شمسكم والأرض في ظُلَمٍ ... فانجابَ عنها الدُّجى وانشقت الظُّلَمُ
أحييتمو سنةً للمصطفى طُمِسَت ... وكاد فاعلها في الأرض ينعدمُ
وللأحاديث كرَّستم جهودكمُو ... وللملا قد كشفتم ما به سقمُ
نشرتمو العلم بالتوحيدِ فانتشرت ... مشاعل النورِ تسعى نحوها الأُمَمُ
جددتمو الدين بعد القرن فانطلقتْ ... كتائب ملْؤُها الأخلاق والشيمُ
يقودُها من رجال الدين كوكبةٌ ... يزيد فيها التقى والحلم والقيمُ
مصداق ما قاله المختارُ من كَلِمٍ ... قد صدَّقته الربا والسهل والقممُ
لنا مصابيح في جوف الدُّجى بَرقتْ ... أضاء من نورها الأغوار والأكمُ
قد سطَّروا في سبيل اللَّه ملحمةً ... بدعوة قد وعاها العُرب والعجمُ
وجدَّدوا سنةً للناس باليةً ... وأصلحوا في زمان كله نِقَمُ
وأرسلوا صيحةً كبرى مدويةً ... فأسمعت بصداها من به صممُ

(١) «ترجمة أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي» (ص٨٨).

رحم اللَّه الشيخ مقبل جزاء ما قدّم من نشر السنة الصحيحة والعقيدة السلفية[١] ،،

*** للَّه درّ حرّاس العقيدة:**

للَّه درّ حرّاس العقيدة والفضيلة والهُوّية الإسلامية الذين جاهدوا بأقلامهم وألسنتهم في مواجهة المطالب المنحرفة باسم «تحرير المرأة» والتي تُنقل من قطر إلى قطر منذ ما يزيد عن مائة عام بأقلام سعاة الفتنة، وما هي إلا مؤامرة من هؤلاء الكتاب لخلع الحجاب[٢] ، فهي معركة وهمية باسم الدين، ومرقاة لمبدئهم الخليع «تحرير المرأة» القائم على «فصل الدين عن الحياة» في شئونهم كافة، وأن مواجهة العلماء لهم في رفضها لا لأنها من باب الراجح والمرجوح كشأنهم مع العلماء المتجردين؟! إذْ ليس هؤلاء الكُتَّاب أهلاً لذلك في وِفَاقٍ ولا خِلاف، ولكن من باب مواجهة العلماء المصلحين للمُفسدين في الأرض، فصار الكلام معهم في مسألة: «فرض الحجاب بالجلباب ـ العباءة، والخمار» من أُصول الدِّين؛ لمواجهة المستغربين المستعلنين بالمنكر دفعًا لشناعتهم وتشنيعهم، وصد غايتهم: «فصل الدين عن الحياة» بالإنكار.

وممّن تصدى لهذا الشيخ أحمد محمد شاكر والشيخ بكر أبو زيد والشيخ محمد إسماعيل المقدم جزاهم اللَّه عن دينه خير الجزاء.

*** عود على بدء مع أبي الأشبال الشيخ أحمد محمد شاكر محدث الديار المصرية ـ رحمه اللَّه ـ:**

مرة أخرى نعود إلى حدائق أبي الأشبال لنقطف من أزاهيره المؤمنات فيقول ـ رحمه اللَّه ـ ناعيًا على أشقياء الكنانة:

---

(١) «ترجمة أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي» (ص٨٨).

(٢) المقصود به هنا النقاب.

«وليعلم من يريد أن يعلم.. من رجل استولى المبشرون على عقله وقلبه، فلا يَرَى إلا بأعينهم، ولا يسمعُ إلاَّ بآذانهم، ولا يَهتدي إلاَّ بهديهم، ولا ينظرُ إلاَّ على ضوء نارهم يَحسبها نورًا، ثم هو قد سَمَّاه أبواه باسم إسلاميٍّ، وقد عُدَّ من المسلمين - أو عليهم - في دفاتر المواليد وفي سِجلاَّت الإحصاء، فيأبَى إلاَّ أن يدافع عن هذا الإسلام الذي أُلْبِسهُ جنسيةً ولم يعتقده دينًا، فتراه يتأوَّل القرآن ليخضعه لما تعلَّم من أُستَاذيه، ولا يَرْضَى من الأحاديث حديثًا يخالف آراءهم وقواعدَهم، يَخْشَى أن تكون حجتُهم على الإسلام قائمةً!! إذْ هو لا يفقه منه شيئًا. أوْ مِن رجلٍ مثلِ سابقه، إلا أنه أراح نفسه، فاعتنق ما نفثوه في روحه من دين وعقيدة، ثم هو يأبى أن يعرفَ الإسلامَ دينًا أو يعترفَ به، إلاّ في بعض شأنه، في التسمِّي بأسماء المسلمين، وفي شيء من الأنكحة والمواريث ودفن الموتَى. أوَ من رجلٍ مسلم عُلِّمَ في مدارسَ منسوبةٍ للمسلمين، فعرف من أنواع العلوم كثيرًا، ولكنه لم يعرف من دينه إلاَّ نزرًا أو قشورًا، ثم خدعَتْه مدنية الإفرنج وعلومُهم عن نفسه، فظنّهم بلغوا في المدنية الكمالَ والفضلَ، وفي نظريات العلوم اليقينَ والبداهة، ثم استخفَّه الغُرور، فزعم لنفسه أنه أعرَفُ بهذا الدِّين وأعلمُ من علمائه وحفَظته وخُلَصائه، فذهب يضربُ في الدين يمينًا وشمالاً، يرجو أن ينقذه من جمود رجال الدين!! وأن يُصفّيه من أوهام رجال الدين!! أو مِن رجلٍ كَشَف عن دخيلة نفسه، وأعلن إلحاده في هذا الدِّين وعداوتَه، ممن قال فيهم القائلُ: «كفروا باللَّه تقليدًا». أوْ من رجلٍ ممن ابتُلِيَتْ بهمُ الأُمةُ المصرية في هذا العصر، ممن يسمّيهم أخونا النابغةُ الأديب الكبيرُ كامل كيلاني «المجدِّدينات»[1] .. أو مِن رجلٍ، أوْ مِن

(١) هكذا - واللَّه - سماهم هذا الاسم العجيب، وحين سأله سائل عن معنى هذه التسمية، أجاب بجواب أعجب وأبدع: هذا جمع مخنث سالم! فأقسم له سائله أن اللغة العربية في أشد الحاجة إلى هذا الجمع في هذا الزمن!!» انتهى.

رجل. .»[1] انتهى كلامه ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

❑ إليك هذا البيان النفيس للشيخ أحمد شاكر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ عند حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «**ما من امرأة تطيبت للمسجد فيقبل اللَّه لها صلاة حتى تغتسل منه اغتسالها من الجنابة**» رواه أحمد، قال ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في تحقيقه للمسند: (١٥/١٠٨ ـ ١٠٩) ما نصه: «وانظر ـ أيها الرجل المسلم ـ وانظري ـ أيتها المرأة المسلمة ـ هذا التشديد من رسول اللَّه ﷺ في خروج المرأة متطيبة تريد المسجد لعبادة ربها: أنها لا تقبل لها صلاة إن لم تغتسل من الطيب كغسل الجنابة، حتى يزول أثر الطيب.

❑ انظروا إلى هذا، وإلى ما يفعل نساء عصرنا المتهتكات الفاجرات والداعرات، وهنّ ينتسبن إلى الإسلام زورًا وكذبًا. يساعدهن الرجال الفجار الأجرياء على اللَّه وعلى رسوله وعلى بديهيات الإسلام، ويزعمون جميعًا أن لا بأس بسفور المرأة، وبخروجها عارية باغية، وباختلاطها بالرجال في الأسواق وأماكن اللهو والفجور، ويتجرءون جميعًا فيزعمون أن الإسلام لم يحرم عليها السفر في البعثات التي يسمونها «علمية»، ويجيزون لها أن تتولى المناصب السياسية.

❑ بل انظروا إلى منظر هؤلاء الفواجر في الأسواق والطرقات، وقد كشفن عن عوراتهن التي أمر اللَّه ورسوله بسترها، فترى المرأة وقد كشفت عن رأسها متزينة متهتكة، وكشفت عن ثدييها، وعن صدرها وظهرها، وعن إبطيها وما تحت إبطيها، وتلبس الثياب التي لا تستر شيئًا، والتي تشف عما تحتها، وتظهره في أجمل مظهر لها. بل إننا نرى هذه المنكرات في نهار شهر رمضان، لا يستحين، ولا يستحي من استرعاه اللَّه إياهن من الرجال، بل من

(١) «مقدمة تحقيق جامع الترمذي» (١/٧١ ـ ٧٢).

أشباه الرجال، الديابيث!! ثم قل بعد ذلك: أهؤلاء ـ رجالٌ ونساءٌ ـ مسلمون؟! انتهى.

● وصح من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال لنسائه في حجته: «**هذه ثم ظهور الحصر**» رواه أحمد وأبو داود.

❑ قال ابن كثير ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في التفسير: (يعني: ثم الْزَمْنَ ظهور الحُصْر ولا تخرجن من البيوت) انتهى.

❑ وقال الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ معلقًا على هذ الحديث في: «عمدة التفسير» (٣/ ١١): «فإذا كان هذا في النهي عن الحج بعد حجة الفريضة ـ على أن الحج من أعلى القُربات عند اللَّه ـ فما بالك بما يصنع النساء حتى ليخرجن سافرات عاصيات ماجنات إلى بلاد الكفر، وحدهن دون محرم، أو مع زوج أو محرم كأنه لا وجود له! فأين الرجال؟! أين الرجال؟!» انتهى.

● وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول اللَّه، تغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل اللَّه: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾. رواه أحمد والحاكم وغيرهما بسند صحيح.

❑ قال الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ تعليقًا على هذا الحديث في: «عمدة التفسير» (٣/ ١٥٧): «وهذا الحديث يرد على الكذابين المفترين ـ في عصرنا ـ الذين يحرصون على أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، فيخرجون المرأة عن خدرها، وعن صونها وسترها الذي أمر اللَّه به، فيدخلونها في نظام الجند، عارية الأذرع والأفخاذ، بارزة المقدمة والمؤخرة، متهتكة فاجرة!! يرمون بذلك ـ في الحقيقة ـ إلى الترفيه الملعون عن الجنود الشبان المحرومين من النساء في الجندية، تشبهًا بفجور اليهود والإفرنج، عليهم لعائن اللَّه المتتابعة إلى يوم القيامة» اهـ.

❑ وقال الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في تحقيق «المسند» (١٤/٢٣٦) عند حديث أبي هريرة ﷺ في رؤية المخطوبة: «وهذا الحديث ـ وما جاء في معنى رؤية الرجل لمن أراد خطبتها ـ مما يلعب به الفجار الملاحدة من أهل عصرنا، عبيد أوربة، وعبيد النساء، وعبيد الشهوات. يحتجون به في غير موضع الحجة، ويخرجون به عن المعنى الإسلامي الصحيح: أن ينظر الرجل نظرة عابرة غير متقصية. فيذهب هؤلاء الكفرة الفجرة إلى جواز الرؤية الكاملة المتقصية، بل زادوا إلى رؤية ما لا يجوز رؤيته من المرأة، بل انحدروا إلى الخلوة المحرمة، بل إلى المخادنة والمعاشرة، لا يرون بذلك بأسًا. قبحهم اللَّه، وقبح نساءهم ومن يرضى بهذا منهم. وأشدّهم إثمًا في ذلك من ينتسبون إلى الدين، وهو منهم براء، عافانا اللَّه، وهدانا إلى الصراط المستقيم» انتهى.

* حارس الفضيلة من أرض الجزيرة الشيخ بكر أبو زيد:

❑ للَّه دره من حافظ للهوية وحارس للفضيلة كشف دعاوي المستغربين إلى الرذيلة وبيّن أن حياة المسلمين المتمسكين بدينهم اليوم حياة محفوفة بالأخطار من كل جانب، بجلب أمراض الشبهات في الاعتقادات والعبادات، وأمراض الشهوات في السلوك والاجتماعات، وتعميقها في حياة المسلمين في أسوأ مخطط مسخّر لحرب الإسلام، وأسوأ مؤامرة على الأُمة الإسلامية، تبناها: «النظام العالمي الجديد» في إطار: «**نظرية الخلط**»[1] بين الحق والباطل، والمعروف والمنكر، والصالح والطالح، والسنة والبدعة، والسني والبدعي، والقرآن والكتب المنسوخة المحرفة كالتوراة والإنجيل، والمسجد والكنيسة، والمسلم والكافر، ووحدة الأديان: و«**نظرية الخلط**» هذه، أنكى مكيدة؛

(١) وهي المسمّاة في عصرنا: «العَوْلَمة»؟ أو «الشَّوْملة» أو «الكوكبة».

لتذويب الدِّين في نفوس المؤمنين، وتحويل جماعة المسلمين إلى سائمة تُسَام، وقطيعٍ مهزوزِ اعْتِقادُه، غارق في شهواته، مستغرق في ملذاته، متبلد في إحساسه، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، حتى ينقلب منهم من غلبت عليه الشقاوة على عقبية خاسرًا، ويرتد منهم من يرتد عن دينه بالتدريج.

❑ كل هذا يجري باقتحام الولاء والبراء، وتَسريب الحب والبغض في اللَّه، وإلجام الأقلام، وكف الألسنة عن قول كلمة الحق، وصناعة الاتهامات لمن بقيت عنده بقية من خير، ورميه بلباس: «الإرهاب» و«التطرف» و«الغلو» و«الرجعية» إلى آخر ألقاب الذين كفروا للذين أسلموا، والذين اسغربوا للذين آمنوا وثبتوا، والذين غلبوا على أمرهم للذين استُضعفوا.

❑ ومن أشأم هذه المخاطر، وأشدّها نفوذًا في تمييع الأمة وإغراقها في شهواتها، وانحلال أخلاقها، سعي دعاة الفتنة، الذين تولوا عن حماية الفضائل الإسلامية في نسائهم ونساء المؤمنين، إلى مدارج الفتنة، وإشاعة الفاحشة ونشرها، وعدلوا عن حفظ نقاء الأعراض وحراستها إلى زلزلتها عن مكانتها، وفتح أبواب الأطماع في اقتحامها، كل هذا من خلال الدعوات الآثمة، والشعارات المضللة باسم: «حقوق المرأة» و«حريتها» و«مساواتها بالرجل» وهكذا.. من دعوات في قوائم يطول شرحها، تناولوها بعقول صغيرة، وأفكار مريضة، يترجلون بالمناداة إليها في بلاد الإسلام، وفي المجتمعات المستقيمة؛ لإسقاط الحجاب وخلعه، ونشر التبرج، والسفور، والعري، والخلاعة، والاختلاط، حتى يقول لسان حال المرأة المتبرجة: «هَيْتَ لكم أيها الإباحيون».

❑ وقد تلطفوا في المكيدة، فبدءوا بوضع لبنة الاختلاط بين الجنسين في رياض الأطفال، وبرامج الأطفال في وسائل الإعلام، وركن التعارف بين الأطفال، وتقديم طاقات ـ وليس باقات ـ الزهور من الجنسين في

الاحتفالات، وهكذا يُخْتَرَقُ الحجاب، ويُؤسَّسُ الاختلاط، بمثل هذه البدايات التي يستسهلها كثير من الناس!!

❑ وكثير من الناس تغيب عنهم مقاصد البدايات، كما تغيب عنهم معرفة مصادرها، كما في تجدد: «الأزياء» ـ الموضة ـ الفاضحة، الهابطة، فإنها من لدن: «البغايا» اللائي خسرن أعراضهن، فأخذن بعرض أنفسهن بأزياء متجددة، هي غاية في العُري والسفالة، وقد شُحنت بها الأسواق، وتبارى النساء في السبق إلى شرائها، ولو علموا مصدرها المتعفن؛ لتباعد عنها الذين فيهم بقية من حياء.

❑ ومن البدايات المحرمة: إلباس الأطفال الملابس العارية؛ لما فيها من إيلاف الأطفال على هذه الملابس والزينة بما فيها من تشبه وعُريٍّ وتهتك.

❑ وهكذا سلكوا شتى السبل، وصاحوا بسفور المرأة وتبرجها من كل جانب، بالدعوة تارة، وبالتنفيذ تارة، وبنشر أسباب الفساد حتى صار الناس في أمر مريج، وَتَزَلْزَلَ الإيمان في نفوس كثيرين، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العزيز الحكيم.

❑ إذًا، لا بد من كلمة حق ترفع الضَّيْمَ عن نساء المؤمنين، وتدفع شر المستغربين المعتدين على الدين والأمة، وتُعلِنُ التذكير بما تعبّد اللَّه به نساء المؤمنين من فرض الحجاب، وحفظ الحياء والعفة والاحتشام، والغيرة على المحارم، والتحذير مما حرمه اللَّه ورسوله من حرب الفضيلة بالتبرج والسفور والاختلاط، وتفقأُ الحصرم في وجوه خونة الفضيلة، ودعاة الرذيلة، ليقول لسان حال العفيفة:

إليكَ عنـي، إليكَ عني فَلَسْتُ منك وَلَسْتَ مني[1]

(١) «حراسة الفضيلة» للشيخ بكر أبو زيد (ص٥ ـ ٩) سلسلة الدعوة والإرشاد.

* كشف دعاة المرأة إلى الرذيلة:

قال أبو محمد عبدالحق الإشبيلي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ:

لا يَخْدَعَنَّكَ عن دِيْن الهُدى نَفَرٌ
لَمْ يُرْزَقُوا في التماس الحق تأييدا
عُمْي القلوب عَرُوا عن كل قَائِدَةٍ
لأنهم كفروا باللَّه تَقْلِيْـدا[1]

يقول الشيخ بكر أبو زيد بعد ذكره لأصول الفضيلة وحراستها:

أمَّا بَعْدُ: فهذه هي الفضيلة لنساء المؤمنين، وهذه هي الأصول التي تقوم عليها وتحرسها من العدوان عليها، لكن بعض مَنْ في قلوبهم مرض، يأبون إلا الخروج عليها، بنداءاتهم المعلنة في ذلك، فمعاذ اللَّه أن يَمُرَّ على السمع والبصر، إعلانُ المنكر والمناداةُ به، وهضمُ المعروف والصَّدُّ عنه، ولا يكون للمصلحين منَّا في وجه هذا العدوان صَوْتٌ جَهِيْرٌ بإحسان يَبْلُغُ الحاضر والباد؛ إقامةً لشعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي به يُنَافَحُ عن الدِّين، ويُنصح للمسلمين عن التردي في هوة صيحات العابثين، وبه تُحْرَسُ الفضائل، وتكبت الرذائل، ويؤخذ على أيدي السفهاء. ومعلوم أن فُشُوَّ المنكرات يكون بالسكوت عن الكبائر والصغائر، وبتأويل الصغائر. لا سيما ونحن نُشَاهِدُ كَظِيظًا من زِحَام المعدومين المجهولين من أهل الرَّيب والفِتَن، المستغربين المُسَيَّرين بحمل الأقلام المتلاعبة بدين اللَّه وشرعه، يختالون في ثياب الصحافة والإعلام، وقد شرحوا بالمنكر صدرًا، فانبسطت ألسنتهم بالسوء، وجَرَت أقلامهم بالسُّوأى، وجميعها تلتئم على معنى واحد: التطرف الجنوني في مزاحمة الفطرة، ومنابذة الشريعة، وجَرِّ أذيال الرذائل على نساء

(١) «الحديقة» لمحب الدين الخطيب.

المسلمين، وتفريغهن من الفضائل، بدعوتهم الفاجرة في بلاد الإسلام إلى: «حرية المرأة» و«المساواة بين المرأة والرجل في جميع الأحكام»؛ للوصول إلى: «جريمة التبرج والاختلاط» و«خلع الحجاب» ونداءاتهم الخاسرة من كل جانب بتفعيل الأسباب لخلعه من البقية الباقية في نساء المسلمين، اللائي أسلمن الوجه للَّه ـ تعالى ـ وسَلَّمْن القيادة لمحمد بن عبداللَّه ﷺ.

❑ نسأل اللَّه لنا ولهن الثبات، ونبرأ إلى اللَّه من الضلالة، ونعوذ به سبحانه من سوء المنقلب.

❑ وهؤلاء الرُّماة الغاشُّون لأمتهم، المشئومون على أهليهم وبني جنسهم بل على أنفسهم، قَدْ عَظُمَت جَرَاءتُهم، وَتَلَوَّنَ مكْرُهم، بكلمات تخرج من أفمامهم، وتَجْري بها أقلامهم؛ إذ أخذوا يهدمون في الوسائل، ويخترقون سَدَّ الذرائع إلى الرذائل، ويتقحَّمون الفضائل، ويهوِّنون من شأنها، ويسخرون منها ومن أهلها..

نعم قد كتب أولئك المستغربون في كل شئون المرأة الحياتية، وخاضوا في كل المجالات العملية، إلا في أمومتها، وفطرتها، وحراسة فضيلتها.

❑ كل هذا البلاء المتناسل، واللَّغو الفاجر، وسَقَط القول المتآكل، تفيض به الصُّحف وغيرها باسم التباكي والانتصار للمرأة في حقوقها، وحريتها، ومساواتها بالرجل في كل الأحكام، حتى يصل ذوو الفَسَالَة المستغربون إلى هذه الغاية الآثمة: إنزال المرأة إلى جميع ميادين الحياة، والاختلاط، وخلع الحجاب، بل لتمد المرأة يدها بطوعها إلى وجهها، فتسفع عنه خمارها مع ما يتبعه من فضائل.

❑ وإذا خُلِع الحجاب عن الوجه فلا تسأل عن انكسار عيون أهل الغيرة، وتقلص ظِلِّ الفضيلة وانتشار الرذيلة، والتحلل من الدين، وشيوع التبرج والسفور والتهتك والإباحية بين الزناة والزواني، وأن تهب المرأة نفسها

لمن تشاء.

* وفي تفسير ابن جرير عند قول اللَّه ـ تعالى ـ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٢٧].

❑ قال مجاهد بن جبر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾، قال: الزناة، ﴿أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾، قال: يزني أهل الإسلام كما يزنون، قال: هي كهيئة: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] انتهى.

❑ ويتصاعد شأن القضية؛ من قضية المرأة إلى قضية إفساد العالم الإسلامي، وهذه الخطة الضالة ليست وليدة اليوم، فإنها جادة الذين مكروا السيئات من قبل في عدد من الأقطار الإسلامية، حتى آلت الحال ـ واحسرتاه ـ إلى واقع شاع فيه الزنا، وشُرِعت فيه أبواب بيوت الدعارة ودور البِغَاء بأذون رسمية. وعمرت خشبات المسارح بالفن الهابط من الغِناء والرقص والتمثيل، وسُنَّت القوانين بإسقاط الحدود، وأن لا تعزير عن رضا، وهكذا.. من آثار التدمير في الأعراض، والأخلاق والآداب.

❑ ولا ينازع في هذا الواقع الإباحي الأثيم إلا من نزع اللَّه البصيرة من قلبه.

❑ فهل يُريد أُجَراء اليوم أن تصل الحال إلى ما وصلت إليه البلاد الأخرى من الحال الأخلاقية البائسة، والواقع المرِّ الأثيم؟!

❑ أمام هذا العدوان السافر على الفضيلة، والانتصار الفاجر للرذيلة، وأمام تجاوز حدود اللَّه، وانتهاك حرمات شرعه المطهر، نُبَيِّنُ للناس محذِّرين من دخائل أعدائهم: أن في الساحة أُجَراءَ مستغربين، ولهم أتباع أَجْراءُ من سَذَجة الفساق، أتباع كل ناعق، يُفَوِّقُوْن سهامهم لاستلاب الفضيلة من نساء

المؤمنين، وإنزال الرذيلة بهن، ويجمع ذلك كُلَّه قَوْلُ اللَّه تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٢٧].

❑ قال ابن جرير ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: (٨/ ٢١٤ ـ ٢١٥): «معنى ذلك: ويريد الذين يتبعون شهوات أنفسهم من أهل الباطل وطلاب الزنا ونكاح الأخوات من الآباء، وغير ذلك مما حرمه اللَّه ﴿أَن تَمِيلُوا﴾ عن الحق، وعما أذن اللَّه لكم فيه، فتجوروا عن طاعته إلى معصيته، وتكونوا أمثالهم في اتباع شهوات أنفسكم فيما حرم اللَّه وترك طاعته ﴿مَيْلاً عَظِيماً﴾. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب؛ لأن اللَّه ـ عز وجل ـ عَمَّ بقوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ فوصفهم باتباع شهوات أنفسهم المذمومة، وعمهم بوصفهم بذلك، من غير وصفهم باتباع بعض الشهوات المذمومة، فإذا كان ذلك كذلك، فأولى المعاني بالآية ما دل عليه ظاهرها، دون باطنها الذي لا شاهد عليه من أصل أو قياس، وإذا كان ذلك كذلك كان داخلاً في الذين يتبعون الشهوات: اليهود، والنصارى، والزناة، وكل متبع باطلاً؛ لأن كُلَّ مُتَّبِعٍ ما نهاه اللَّه عنه مُتَّبِعٌ شهوةَ نفسه، فإذا كان ذلك بتأويل الآية الأولى، وجبت صحة ما اخترنا من القول في تأويل ذلك» انتهى.

❑ وقد سلك أولئك الجناة لهذا خطة غضبية ضالة في مجالات الحياة كافة، بلسان الحال أو بلسان المقال:

● **ففي مجال الحياة العامة:**

١ ـ الدعوة إلى خلع الحجاب عن الوجه: «الخمار»، والتخلص من الجلباب «الملاءة». ويقال: «العباءة».

وهذا بلسان الحال دعوة إلى خلع الحجاب عن جميع الجسد، ودعوة إلى اللباس الفاتن، بأنواعه: الفاتن في شكله، والتعري بلبس القصير،

والضيق الواصف للأعضاء، والشفاف الذي يَشُفُّ عن جسد المرأة.

ودعوة إلى التشبه بالرجال في اللباس.

ودعوة إلى التشبه بالنساء الكوافر في اللباس.

٢ ـ الدعوة إلى منابذة حجب النساء في البيوت عن الأجانب بالاختلاط في مجالات الحياة كافة.

وفيه:

٣ ـ الدعوة إلى دمج المرأة في جميع مجالات تنمية الحياة.

وهذا دعوة إلى ظهور المرأة في الطرقات والأماكن العامة متبرجةً سافرةً.

٤ ـ الدعوة إلى مشاركتها في الاجتماعات، واللجان، والمؤتمرات، والندوات، والاحتفالات والنوادي.

وفي هذا دعوتها إلى الخضوع بالقول، والملاينة في الكلام، ودعوتها إلى مصافحة الرجل الأجنبي عنها، ومنها مصافحتها لخطيبها ولَمَّا يُعْقَد بينهما.

ودعوة لها إلى خروجها من بيتها أمام الأجانب في حال تُثير الفتنة في اللباس، والمشية، وإعمال المساحيق، والتضمخ بالطيب، ولبس ما يجعلهن كَواعِبَ، ولبس الكعب العالي، وهكذا من وسائل الإغراء والإثارة والفتنة.

٥ ـ الدعوة إلى فتح النوادي لهن، والأمسيات الشعرية، والدعوة للجميع.

٦ ـ الدعوة إلى فتح مقاهي الإنترنت النسائية المختلطة.

٧ ـ الدعوة إلى قيادتها السيارة والآلات الأخرى.

٨ ـ الدعوة إلى التساهل في المحارم، ومنها:

ـ الدعوة إلى سفر المرأة بلا محرم، ومنه سفرها غربًا وشرقًا للتعلم بلا محرم، وسفرها لمؤتمرات: «رجالات الأعمال».

٩ ـ الدعوة إلى الخلوة بالأجنبية، ومنها خلوة الخاطب بمخطوبته ولَمَّا يُعقد بينهما.

١٠ ـ الدعوة إلى قيامها بالفَنِّ، ومنه:

١١ ـ الدعوة إلى قيامها بدورها في الفن، والغناء، والتمثيل.

وهذا ينتهي بالدعوة إلى مشاركتها في اختيار ملكة الجمال.

١٢ ـ الدعوة إلى مشاركتها في صناعة الأزياء الغربية.

١٣ ـ الدعوة إلى فتح أبواب الرياضة للمرأة، ومنه:

ـ المطالبة بإنشاء فريق كرة قدم نسائي.

ـ المطالبة بركوب النساء الخيل للسباق.

ـ المطالبة برياضة النساء على الدراجات العادية والنارية.

١٤ ـ فتح المسابح لهن في المراكز والنوادي وغيرها.

١٥ ـ وفي شَعْر المرأة: ضروب من الدعايات الآثمة، كالتنمص في الحاجبين، وقص شعر الرأس تشبهًا بالرجال، وبالنساء الكافرات، وفتح بيوت الكوافير لهن.

● **وفي مجال الإعلام:**

١٦ ـ تصوير المرأة في الصحف والمجلات.

١٧ ـ خروجها في التلفاز مغنية، وممثلة، وعارضة أزياء، ومذيعة، وهكذا.

١٨ ـ عرض برامج مباشرة تعتمد على المكالمات الخاضعة بالقول بين النساء والرجال في الإذاعة والتلفاز.

١٩ ـ ترويج المجلات الهابطة المشهورة بنشر الصور النسائية الفاتنة.

٢٠ ـ استخدام المرأة في الدعاية والإعلان.

٢١ ـ الدعوة إلى الصداقة بين الجنسين عبر برامج في أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، وتبادل الهدايا بالأغاني وغيرها.

٢٢ ـ إشاعة صور القُبُلات والاحتضان بين الرجال وزوجاتهم على مستوى الزعماء والوزراء في وسائل الإعلام المتنوعة.

● **وفي مجال التعليم:**

٢٣ ـ الدعوة إلى التعليم المختلط في بعضها إلى الصفوف الدنيا منه.

٢٤ ـ الدعوة إلى تدريس النساء للرجال وعكسه.

٢٥ ـ الدعوة إلى إدخال الرياضة في مدارس البنات.

وهذا داعية إلى المطالبة بفتح: «مدرسة الفنون الجميلة» للنساء.

● **وفي مجال العمل والتوظيف:**

٢٦ ـ الدعوة إلى توظيف المرأة في مجالات الحياة كافة بلا استثناء كالرجال سواء.

٢٧ ـ ومنه الدعوة إلى عملها في: المتاجر، والفنادق، والطائرات، والوزارات، والغُرف التجارية، وغيرها كالشركات، والمؤسسات.

٢٨ ـ الدعوة إلى إنشاء مكاتب نسائية للسفر والسياحة، وفي الهندسة والتخطيط.

وهذا داعية إلى الدعوة إلى عمل المرأة في المهن الحرفية كالسباكة، والكهرباء، وغيرها.

٢٩ ـ الدعوة إلى جعل المرأة مندوبة مبيعات.

والدعوة إلى إدخالها في نظام الجندية والشُّرط.

والدعوة إلى إدخالها في السياسة في المجالس النيابية، والانتخابات، والبرلمانات.

والدعوة إلى إيجاد مصانع للنساء.

٣٠ ـ الدعوة إلى توظيفهن في التوثيق الشرعي، وفتح أقسام نسائية في المحاكم.

❑ وهكذا.. في سلسلة طويلة من المطالبات، التي تنتهي ـ أيضًا ـ بما لم يطالب به، نسأل اللَّه سبحانه أن يبطل كيدهم، وأن يكف عن المسلمين شَرَّهم، لا إله إلا هو»[1].

❑ ثم قال الشيخ: «هذه مُثُلٌ من دعوات الأخسرين أعمالاً في: «شأن المرأة» رَكَّزت عليها الصحافة بوقاحة خلال عام ١٤١٩، جرى استخلاصها من ثمانِ إضْبَارات، كل قصاصة فيها تحمل اسم الصحيفة، وعددها، وأسماء كتابها، وهم أمشاج مبتلون بهذا التغريب، وبعضهم أضاف إلى هذا الفجور فجوراً آخر من السخرية بالحجاب والمتحجبات، وكلمات نابية في بعض أحكام الشريعة الغراء، وحملتها، إلى غير ذلك من مواقف نرى أن أصحابها على خطر عظيم يتردد بين الكفر والنفاق والفسوق والعصيان.

❑ وكانت هذه الأذايا تثار في وقت مضى، واحدة تلو الأخرى بعد زمن، ويقضي عليها العلماء في مهدها ويصيحون بأهلها من أقطار الأرض ويرمون في آثارهم بالشُّهب، وفي أيامنا هذه كَفَأَ الجُنَاة المِكْتَل مَمْلُوءًا بهذه الرذائل في بضعة شهور بكل قوة وجرأة واندفاع، ومن خبيث مكرهم تَحيُّنَ الإلقاء بها في أحوال العُسْر والمَكْرَه، وزحمة الأحداث.

وهذه الدعوات الوافدة المستوفدة قد جمعت أنواع التناقضات ذاتًا،

(١) «حراسة الفضيلة» (ص١٤٣ ـ ١٥٤).

وموضوعًا، وشكلاً.

❑ عَارٌ ـ واللَّه ـ أن يصبح توجيه الأخلاق في هذا العصر بأقلام هذه الفئة المضَلِّلة المسيَّرة، التي خالفت جماعة المسلمين، وفارقت سبيلهم، واشتغلت بتطميس الحق، ونصرة الهوى، عليهم من اللَّه ما يستحقون، وحسابهم عند ربهم، ونحذرهم سطوة اللَّه وغضبه ومقته، ولن يغلب اللَّه غالب، ونتلو عليهم قول اللَّه ـ تعالى ـ: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٣٥].

* وقول اللَّه تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النحل: ١١٦ ـ ١١٧].

● وهؤلاء الصَّخّابون في أعمدة الصحف على مسامع الملأ يبغضهم اللَّه، ويمقتهم سبحانه، كما ثبت من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه يبغض كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوّاظٍ** ـ أي: مختال متعاظم ـ **سَخَّابٍ بالأسواق، جِيْفَةٍ بالليل حِمَار بالنهار، عالمٍ بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة**» رواه ابن حبان في صحيحه.

❑ قال الشيخ العلامة المحدث أحمد بن محمد شاكر المتوفى سنة ١٣٧٧ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في تعليقه على «صحيح ابن حبان» (١/ ٢٣٠):

«وهذا الوصف النبوي الرائع، الذي سما بتصويره إلى القمة في البلاغة والإبداع، لهؤلاء الفئام من الناس ـ أستغفر اللَّه، بل من الحيوان ـ: تجده كل يوم في كثير ممن ترى حولك، ممن ينتسبون إلى الإسلام، بل تراه في كثير من عظماء الأمم الإسلامية، عظمة الدنيا لا الدين، بل لقد تجده فيمن يلقبون منهم أنفسهم بأنهم «علماء» ينقلون اسم العلم عن معناه الإسلامي الحقيقي،

المعروف في الكتاب والسنة، إلى علوم من علوم الدنيا والصناعات والأموال، ثم يملأهم الغرور، فيريدون أن يحكموا على الدين بعلمهم الذي هو الجهل الكامل، ويزعمون أنهم أعرف بالإسلام من أهله، وينكرون المعروف منه، ويعرفون المنكر، ويردون من يرشدهم أو يرشد الأمة إلى معرفة دينها رداً عنيفًا، يناسب كل جعظري جواظ منهم. فتأمل هذا الحديث واعقله، ترهم أمامك في كل مكان» انتهى.

❑ إن هذه المطالب المنحرفة، تُسَاق باسم: «تحرير المرأة» في إطار نظريتين هما: «حرية المرأة» و«المساواة بين المرأة والرجل» وهما نظريتان غربيتان باطلتان شرعًا وعقلاً، لا عهد للمسلمين بهما، وهما استجرار لجادة الأخسرين أعمالاً، الذين بغوا من قبل في أقطار العالم الإسلامي الأخرى، فَسَعوا تحت إطارهما في فتنة المؤمنات في دينهن، وإشاعة الفاحشة بينهن؛ إذ نادوا بهذه المطالب المنحرفة عن سبيل المؤمنين، ثم صرحوا بنقطة البداية: «خلع الحجاب عن الوجه» ثم باشروا التنفيذ لخلعه، ودوسه تحت الأقدام، وإحراقه بالنار، وعلى إثر هذه الفعلات، صدرت القوانين آنذاك في بعض الجمهوريات مثل: تركيا، وتونس، وإيران، وأفغانستان، وألبانيا، والصومال، والجزائر، بمنع حجاب الوجه، وتجريم المتحجبة، وفي بعضها معاقبة المتحجبة بالسجن والغرامة المالية؟؟!

❑ وهكذا يُساق الناس إلى الرذائل والتغريب بعصا القانون، حتى آلت حال كثير من نساء المؤمنين في العالم الإسلامي إلى حالٍ تنافس الغرب الكافر في التبرج والخلاعة، والتحلل والإباحية، وفتح دور الزنى بأذون رسمية، حتى جعلوا للبغاء ـ فوق الإباحة ـ نظامًا رسميًّا لتأمين الزاني والزانية؟! وما تبع ذلك من إسقاط الحدود، وانتشار الزنى، وفقد المرأة بكارتها في سن مبكر، بل صار الزِّنى بالقريبات، وزواج المرأة بالمرأة الأخرى، وتأجير

الأرحام؟!

❑ وأَعْقَبَ ذلك! بَذْلُ وسائل منع الحمل، وتكثيف الدعاية لها في الصحافة، مع فقدان أولى وسائل التحفظ: عدم الصرف إلا بوصفة طبيب لامرأة ذات زوج بإذنه عند الاقتضاء الطبي، وقد ارتفعت الجريمة بين النساء وتَعَدَّدَت حالات الانتحار في صفوفهن، لِتَحطُّم معنوياتهن.

❑ كما أَعْقَبَ ذلك: تحديد النسل، ومنع تعدد الزوجات، وتبني غير الرشدة ـ اللقطاء ـ واتخاذ الخدينات، حتى بلغت الحال اللعينة أن من وجدت معه امرأة فادّعى أنها صديقته أُطْلِق سراحه، وإن أَقَرَّ أنها زوجة ثانية طبق بحقه القانون اللعين؟!

❑ فما شرعه اللَّه من الزواج والنسل هو على التحديد في القانون، وما حرمه اللَّه من اتخاذ الخدينات، وتبني اللقطاء، على الإباحة المطلقة قانونًا؟!

فأين هم من قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]؟.

❑ وتصاعد لِقَاءَ هذه الإباحية، عددُ العوانس، وعدد المطلقات لأتفه الأسباب، وانخفض عدد المواليد الشرعيين؛ لما فيهم ـ زعموا ـ من إشغال الأم عن عملها خارج دارها، وارتفع عدد اللقطاء ـ المواليد سفاحًا ـ وانتشرت الأمراض المزمنة التي أعيا الأطباء علاجها.

فَغَرَّبوا ـ حَسْبُهم اللَّهُ ـ جماعة المسلمين، وأثخنوهم بجراح دامية في العرض والدين، وأشمتوا بأمتهم الكافرين، وأَثَّمُوهم، وأبعدوهم عن دينهم، وتولوا هم عن دينهم الحق، وخدموا الكفرة من اليهود والنصارى والملاحدة الشيوعيين وغيرهم، والْتقَت الداران: دار الإسلام مع دار الكفر، على هذه البهيمية الساقطة، حتى لا يكاد المسلم أن يُفَرِّق في ذلك بين الدارين، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون.

ويقول ـ حفظه اللَّه ـ: كانت أول شرارة قُدحت لضرب الأمة الإسلامية هي في سفور نسائهم عن وجوههن، وذلك على أرض الكنانة، في مصر، حين بعث والي مصر محمد علي باشا البعوث إلى فرنسا للتعلم، وكان فيهم واعظ البعوث: رفاعة رافع الطهطاوي المتوفى سنة ١٢٩٠، وبعد عودته إلى مصر، بذر البذرة الأولى للدعوة إلى تحرير المرأة، ثم تتابع على هذا العمل عدد من المفتونين المستغربين ومن الكفرة النصارى، منهم:

الصليبي النصراني مرقس فهمي الهالك سنة ١٣٧٤ في كتابه: «المرأة في الشرق» الذي هدف فيه إلى نزع الحجاب، وإباحة الاختلاط.

وأحمد لطفي السيد الهالك سنة ١٣٨٢، وهو أول من أدخل الفتيات المصريات في الجامعات مختلطات بالطلاب، سافرات الوجوه، لأول مرة في تاريخ مصر، يناصره في هذا عميد التغريب: طه حسين الهالك سنة ١٣٩٣.

وقد تولى كبر هذه الفتنة داعية السفور: قاسم أمين الهالك سنة ١٣٢٦ الذي ألف كتابه «تحرير المرأة» وقد صدرت ضده معارضات العلماء، وحكم بعضهم بردته، بمصر، والشام، والعراق، ثم حصلت له أحوال ألف على إثرها كتابه: «المرأة الجديدة» أي تحويل المسلمة إلى أوربية.

وساعد على هذا التوجه من البلاط الملكة نازلي عبدالرحيم صبري، وهذه قد تنصرت وارتدت عن الإسلام.

ثم منفذ فكر قاسم أمين داعية السفور: سعد زغلول الهالك سنة ١٣٤٦، وشقيقه أحمد فتحي زغلول الهالك سنة ١٣٣٢.

ثم ظهرت الحركات النسائية بالقاهرة لتحرير المرأة عام ١٩١٩ برئاسة هدى شعراوي الهالكة سنة ١٣٦٧، وكان أول اجتماع لهن في الكنيسة المرقصية بمصر سنة ١٩٢٠م، وكانت هدى شعراوي أول مصرية مسلمة رفعت الحجاب ـ نعوذ باللَّه من الشقاء ـ في قصة تمتلئ النفوس منها حسرة

وأسى، ذلك أن سعد زغلول لما عاد من بريطانيا مُصَنَّعًا بجميع مقومات الإفساد في الإسلام، صُنِعَ لاستقباله سرادقان، سرادق للرجال، وسرادق للنساء، فلما نزل من الطائرة عَمَدَ إلى سرادق النساء المتحجبات واستقبلته هدى شعراوي بحجابها ـ لينزعه ـ فَمدَّ يده ـ يا ويلهما ـ فنزع الحجاب عن وجهها، فصفق الجميع ونزعن الحجاب.

❑ واليوم الحزين الثاني؛ أن صفية بنت مصطفى فهمي زوجة سعد زغلول، التي سماها بعد زواجه بها: صفية هانم سعد زغلول، على طريقة الأوربيين في نسبة زوجاتهم إليهم، كانت في وسط مظاهرة نسائية في القاهرة أمام قصر النيل، فخلعت الحجاب مع من خلعنه، ودُسْنَه تحت الأقدام، ثم أشعلن به النار؛ ولذا سمي هذا الميدان باسم: «ميدان التحرير».

❑ وهكذا تتابع أشقياء الكنانة، إحسان عبدالقدوس، ومصطفى أمين، ونجيب محفوظ، وطه حسين، ومن النصارى: شبلي شميل، وفرح أنطون ـ نعوذ باللَّه من الشقاء وأهله ـ يؤازرهم في هذه المكيدة للإسلام والمسلمين الصحافة؛ إذ كانت هي أولى وسائل نشر هذه الفتنة، حتى أُصْدِرَتْ مجلة باسم «مجلة السفور» نحو سنة ١٩٠٠م، وهرول الكتاب الماجنون بمقالاتهم القائمة على المطالبة بما يُسند السفور والفساد، ويهجم على الفضائل والأخلاق من خلال وسائل الإفساد الآتية:

نشر صور النساء الفاضحة، والدمج بين المرأة والرجل في الحوار والمناقشة، والتركيز على المقولة المحْدَثَة الوافدة: «المرأة شريكة الرجل» أي: الدعوة إلي المساواة بينهما. وتسفيه قيام الرجل على المرأة، وإغراؤها بنشر الجديد في الأزياء الخليعة ومحلات الكوافير، وبرك السباحة النسائية، والمختلطة، والأندية الترفيهية، والمقاهي، ونشر الحوادث المخلة بالعرض، وتمجيد الممثلات والمغنيات ورائدات الفن والفنون الجميلة..

يساند هذا الهجوم المنظم أمران: إسنادهم من الداخل، وضعف مقاومة المصلحين لهم بالقلم واللسان، والسكوت عن فُحشهم، ونشر الفاحشة وإسكات الطرف الآخر، وعدم نشر مقالاتهم، أو تعويقها، وإلصاق تُهَم التطرف والرجعية بهم. وإسناد الولايات إلى غير أهلها من المسلمين الأمناء الأقوياء.

❑ هكذا صارت البداية المشئومة للسفور في هذه الأمة بنزع الحجاب عن الوجه ـ وهي مبسوطة موثقة في كتاب: «المؤامرة على المرأة المسلمة» للأستاذ أحمد فرج، وفي كتاب: «عودة الحجاب» (ج/١) للشيخ محمد بن أحمد إسماعيل، ثم أخذت تدب في العالم الإسلامي في ظرف سنوات قلائل، كالنار الموقودة في الهشيم، حتى صدرت القوانين الملزمة بالسفور، ففي تركيا أصدر الملحد أتاتورك قانونًا بنزع الحجاب سنة ١٩٢٠م، وفي إيران أصدر الرافضي رضا بهلوي قانونًا بنزع الحجاب سنة ١٩٢٦م، وفي أفغانستان أصدر محمد أمان قرارًا بإلغاء الحجاب، وفي ألبانيا أصدرأحمد زوغو قانونًا بإلغاء الحجاب، وفي تونس: أصدر أبو رقيبة الهالك سنة ١٩٢١ قانونًا بمنع الحجاب وتجريم تعدد الزوجات، ومن فعل فيعاقب بالسجن سنة وغرامة مالية؟!!

❑ ولذا قال العلامة الشاعر العراقي محمد بهجت الأثري المتوفى سنة ١٤١٦ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ:

أبو رقيبة لا امتدتْ لَه رَقَبه لم يتق اللَّه يومًا لا ولا رَقَبَهْ

❑ وكان متولي كبرها هو وآخرون منهم المدعو: الطاهر الحداد المولود سنة ١٣١٧هـ الهالك سنة ١٣٥٣ حين أَلَّف كتابه: «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» بين عام ١٩٢٠م ـ ١٩٣٠م يدعو فيه إلى تحرير المرأة، وقيل: بل هو من تأليف النصراني الأب سلام، تحمله الطاهر الحداد، وفي آخره آثار

اثني عشر سؤالاً أجاب عليها عدد من المفتين وقد حكم عليه مفتيا المالكية بالمروق من الدين، وبسببه حُرِمَ من الامتحان في كلية الحقوق بأمر حكومي، ثم أُصيب بالعزلة ونبذه الناس بسبب كتابه هذا حتى مات سنة ١٣٥٣ غير مُشيَّع إلا من أهله وعدد من أصدقائه، وكان مولعًا بالغناء، والتردد على المقاهي، والانتماء إلى المذهب الاشتراكي. ثم ركزت الصحافة على نشر ما في الكتاب من الطوام، وما زالوا كذلك حتى تحولت تونس إلى «جسم مريض» بالسفور والحسور وتجد تفاصيل هذه المعركة الإلحادية على: «الحجاب» و«العفة» في كتاب لا يُفرح به في نحو أربعمائة صفحة فإنا للَّه وإنا إليه راجعون[1].

❑ وفي العراق، تولى كبر هذه القضية ـ المناداة بنزع الحجاب ـ الزهاوي والرُّصافي، نعوذ باللَّه من حالهما.

وانظر خبر اليوم الحزين في نزع الحجاب في الجزائر كما في كتاب: «التغريب في الفكر والسياسة والاقتصاد» (ص٣٣ ـ ١٣٩): في ١٣/ ماي عام ١٩٥٨م قصة نزع الحجاب، قصة تتقطع منها النفس حَسَرات، ذلك أنه سُخِّر خطيب جمعة بالنداء في خطبته إلى نزع الحجاب، ففعل المبتلى، وبعدها، قامت فتاة جزائرية فنادت بمكبر الصوت بخلع الحجاب، فخلعت حجابها ورمت به، وتبعها فتيات ـ منظمات لهذا الغرض ـ نزعن الحجاب، فصفق المُسَخَّرون، ومثله حصل في مدينة وهران، ومثله حصل في عاصمة الجزائر: الجزائر، والصحافة من وراء هذا إشاعة، وتأييدًا.

❑ وفي المغرب الأقصى، وفي الشام بأقسامه الأربعة: لبنان، وسوريا، والأردن، وفلسطين، انتشر السفور والتبرج والتهتك والإباحية على أيدي دعاة

(١) من سقطات «الأعلام» للزركلي وصفه للطاهر الحداد المذكور بأنه من زعماء الإصلاح. فَلْيُتَنَبَّه!.

البعث تارة، والقومية تارة أخرى، إلا أن المصادر التي تم الوقوف عليها لم تسعف في كيفية حصول ذلك، ولا في تسمية أشقيائها، فلا أدري لماذا أعرض الكُتَّابُ ومُسَجِّلو الأحداث آنذاك عن تسجيل البداية المشئومة في القطر الشامي خاصة، مع أن الانفجار الجنسي والعري، والتهتك والإباحية على حال لا تخفى[1].

❑ أما في الهند والباكستان فكانت حال نساء المؤمنين على خير حال من الحجاب ـ درعُ الحشمة والحياء ـ وفي التاريخ نفسه ـ حدود عام ١٩٥٠م ـ بدأت حركة تحرير المرأة والمناداة بجناحيها: الحرية والمساواة، وترجم لذلك كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة»، ثم من وراء ذلك الصحافة في الدعاية للتعليم المختلط ونزع الخمار، حتى بلغت هذه القارة من الحال ما لا يشكى إلا إلى اللَّه تعالى منه، وهو مبسوط في كتاب: «أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم في شبه القارة الهندية» لخادم حسين (ص١٨٢ ـ ١٩٥).

❑ وهكذا تحت وطأة سعاة الفتنة بالنداء بتحرير المرأة باسم الحرية والمساواة، آلت نهاية المرأة الغربية بداية للمرأة المسلمة في هذه الأقطار.

● **فباسم الحرية والمساواة:**

❑ أخرجت المرأة من البيت تزاحم الرجل في مجالات حياته.

❑ وخُلع منها الحجاب وما يتبعه من فضائل العفة والحياء والطهر والنقاء.

❑ وغمسوها بأسفل دركات الخلاعة والمجون؛ لإشباع رغباتهم الجنسية.

---

(١) ثم وجدت ذلك في كتاب الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «الذكريات» (٥/ ١٠١ ـ ١١٢)، (٢٢٣ ـ ٢٧٤)، (٦/ ١٠ ـ ٢٥).

❑ ورفعوا عنها يد قيام الرجال عليها؛ لتسويغ التجارة بعرضها دون رقيب عليها.

❑ ورفعوا حواجز منع الاختلاط والخلوة، لتحطيم فضائلها على صخرة التحرر، والحرية والمساواة.

❑ وتَمَّ القضاء على رسالتها الحياتية، أُمًّا وزوجة، ومربية أجيال، وسكنًا لراحة الأزواج، إلى جعلها سلعة رخيصة مهينة مبتذلة في كف كل لاقط من خائن وفاجر.

إلى آخر ما هنالك من البلاء المتناسل، مما تراه محرراً في عدد من كتابات الغيورين، ومنها: كتاب: «حقوق المرأة في الإسلام» لمؤلفه محمد بن عبدالله عرفة.

هذه هي المطالب المنحرفة عن سبيل المؤمنين، وهذه هي آثارها المدمرة في العالم الإسلامي.

❑ وقال حفظه الله: على كل مسلم الحذر من إشاعة الفاحشة ونشرها وتكثيفها، وليعلم أن محبتها كما بينها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في «الفتاوي» (١٥/ ٣٣٢، ٣٤٤) لا تكون بالقول والفعل فقط، بل تكون بذلك، وبالتحدث بها، وبالقلب، والركون إليها، وبالسكوت عنها، فإن هذه المحبة تُمكِّن من انتشارها، وتُمكِّن من الدفع في وجه من ينكرها من المؤمنين، فليتق الله امرؤ مسلم من محبة إشاعة الفاحشة، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

❑ هذا ما أردت بيانه ـ وما على أهل العلم والإيمان إلا البلاغ والبيان ـ للتخفف من عهدته، ورجاء انتفاع من شاء الله به من عباده، وللنصح به؛

لقول النبي ﷺ: «**الدين النصيحة**، قالوا: لمن يا رسول اللَّه؟ قال: **للَّه ولكتابه، ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» خرجه مسلم في «صحيحه».

▣ وقال الحافظ ابن رجب ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في: الحِكَم الجديرة بالإذاعة (ص٤٣): «روي عن الإمام أحمد أنه قيل له: إن عبدالوهاب الوراق ينكر كذا وكذا، فقال: لا نزال بخير ما دام فينا من ينكر». ومن هذا الباب قول عمر لمن قال له: اتق اللَّه يا أمير المؤمنين، فقال: «لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم»[1].

* الشيخ بكر أبو زيد والحفاظ على الهوية الإسلامية ونداؤه العالي بتحريم المدارس الأجنبية:

▣ قال ـ حفظه اللَّه ـ: «إن أعداء اللَّه عبّاد الصليب وغيرهم من الكافرين، أنزلوا بالمسلمين استعماراً من طراز آخر هو: «**الاستعمار الفكري**» وهو أشد وأنكى من حربهم المسلحة؟! فأوقدوها معركة فكرية خبيثة ماكرة، ونارًا ماردة، وسيوفًا خفيّة على قلوب المسلمين باستعمارها عقيدةً وفكرًا ومنهج حياة؛ ليصبح العالم الإسلامي غربيًا في أخلاقه ومقوماته، متنافرًا مع دين الإسلام الحق، وكان أنكى وسائله: جلب «نظام التعليم الغربي» و«المدارس الاستعمارية ـ الأجنبية العالمية» إلى عامة بلاد العالم الإسلامي، ولم يبقَ منها بلد إلاَّ دخلته هذه الكارثة سوى حرم الإسلام قلب جزيرة العرب ـ فقد حماها اللَّه منها.

▣ ولمّا حلّت هذه النازلة في بلاد الإسلام لم يكن محل جدل بين العلماء في تحريم فتح المدارس الأجنبية في بلاد المسلمين، وفي تحريم إدخال

---

(١) انتهى النقل من كتاب «حراسة الفضيلة».

أولادهم فيها، وهذان الحكمان لا يحتاجان إلى إقامة دليل؛ لقُبح هذه الطامة بطرفيها، وبشاعتها، وشناعتها؛ إذ الحكم بتحريم قبول الاستعمار الفكري أولى من الحكم بتحريم الاستعمار الحِسِّي، ولا يرضى المسلم الحق أن يكون للكافرين على المؤمنين سبيل مطلقًا.

لكن قَدَّر اللَّه وما شاء فعل، ففي هذا العام عام ١٤١٩ امتدّ نفوذ مدارس أعداء اللَّه عُبّاد الصليب وغيرهم من الكفرة والملاحدة إلى قلب جزيرة العرب، ففتحوا فيها مدارسهم، وجثَت فيها هذه الفتنة الكبيرة، والخطيئة الخطيرة، التي ظاهرها تعليم الأجنبيين وباطنها الدعوة إلى غير سبيل المؤمنين، فأثارت استياء المسلمين فيها، وجرحت إحساسهم، ورأو أنّها أعظم ضربة وُجِّهت إلى جزيرتهم ولا عهد لقلب الجزيرة بها، وحذّروا المسارعين إليها من سوء عاقبتها، فالآن لا بدّ من بيان سطوة هذه الكارثة على الإسلام، ومدى ما نفثته في عقيدته وأخلاقه من الإفساد، والتَّعَدُّدِيَّة والانقسام، عسى أن يكون هذا البيان مضخة إنقاذ، يطفئ من جذوتها، ويُذهب سَعيرها وسُعارها، ولإسماع المسلمين كلمة الحق في حكمها وتشخيص مخاطرها، والخلوص من معرة الكتمان، عسى اللَّه أن ينفع به من شاء من عباده، ولولا بشاعة هذه النازلة لما حركت لقلم ساكنا، فأقول:

❑ إنّ عددًا جمًّا غفيرًا من المصلحين الغيورين من العلماء وغيرهم في شتى أقطار العالم الإسلامي: في المملكة، ومصر، والسودان، والعراق، والشام بأقسامه الأربعة، وفي تركيا، والهند، والباكستان، وفي الكويت، والإمارات، وفي المغرب بولاياته الأربع، وفي أندونيسيا، وماليزيا.. وغيرها أعلنوا موقفهم الإسلامي الصريح من المدارس المقطوعة الصلة بالإسلام عقيدةً ومنهجًا ولغةً وتاريخًا: **(المدارس الاستعمارية الأجنبية.. العالمية)** التي افتتحت في بلاد المسلمين لتكون محاضن للأجيال المسلمة محذِّرين منها ومن إدخال

أولاد المسلمين فيها، مبينين مخاطرها على الأُمة الإسلامية في حاضرها ومستقبلها، وأنَّها معاقل للخيانة بالمسلمين باستعمار أجيالهم عقديًّا وفكريًّا وثقافيًّا، وما في ذلك من تذويب الشخصية الإسلامية وتشكيل العقل والفكر بما يرفضه الإسلام، وأنّها بحق: «**البَيْتُ المُظْلِم**». وأنّها حرب جليّة فكرية من عبّاد الصليب أعمق من حروبهم الصليبية المسلحة، وأنّها «**السيوف المصلتة**» على القلوب، فإنّهم لما أغمدوا سيوفهم عن رقاب المسلمين سَلُّوْها على قلوبهم، وأنّها: «**الخنجر المسموم**» الذي طُعِنَ به المسلمون فأصاب منهم مقاتل متعددة فأخذوا يعالجون الجرح النازف، والخنجر المسموم ما زال مغروزًا في جسم الأُمة الإسلامية، فأولى لهم انتزاع الخنجر ليزول الجرح ويقف النزيف. وأنها شر القوى المسلطة على العالم الإسلامي.

❑ وهم لبالغ كيدهم ومكرهم، تركوا المدارس الحكومية والأهلية على ما هي عليه من مناهج سليمة لم يتعرضوا لها، لكن عملوا على جادة الأُسلوب البطيء المباشر «فتح المدارس الأجنبية» بجانبها، لتُعلِّم الدنيا ولا تُعلِّم الدين، وفي بعضها جزء هو من جملة إخراج المسلمين من الإسلام، فهي بحق مثل بناء الكنائس بجانب المساجد، بيوت كفر وردّة بجانب بيوت إسلام وطاعة.

❑ ويُبيِّن الأُستاذ محمد إقبال شدة مخاطر هذه المدارس على المسلمين فيقول[1] : «إن التعليم ـ الغربي ـ هو الحامض الذي يذيب شخصية الكائن الحي، ثم يكون كما شاء، وأن هذا الحامض هو أشد قوة وتأثيرًا من أي مادة كيماوية».

❑ وبَذَلَ أُولئك المصلحون في إنكار هذه البلية والدفع في وجهها جهودًا

(١) بواسطة كتاب: «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» للندوي.

مشكورة ذات جوانب متعددة ومنها: تأليف الكتب، والرسائل، والمقالات، وإصدار البيانات والفتاوى بشأنها التي زادت عن ستين عددًا سيأتي خبرها في البيانات اللاحقة إن شاء اللَّه تعالى.

❑ واليوم، في هذا العام ١٤١٩ تزحف هذه المدارس إلى قلب الجزيرة العربية، أول مفتاح للتنصير والتغريب ودخول أول أزمة جديدة في مجال التعليم وهي أولى وسيلة في مثلث التبشير: (المدرسة ـ المستشفى ـ دار الأيتام) فتزدحم بها المدن، وتنتشر في ساعةٍ من نهار، ولا حولَ ولا قوة إلا باللَّه العزيز الحكيم.

❑ وعسى أن لا تكون واحدة من فعاليات المؤتمرات المتتابعة لوحدة الأديان والتقريب بينها، في «ظاهرة التحول» المخيفة، كالتركيز على تغريب المرأة في فعاليات مؤتمرات المرأة والإسكان..

وعسى أن لا تكون من آثار «نظرية الخلط» ـ العولمة ـ تحت شعار «المدارس المنتسبة»: «نحن نعيش في عالم واحد، ونتعلم من أجل عالم واحد»، شعار: «تَوْأَمَةِ المدارس» وشعار: «التربية الدولية» المتجاوزة لحدود الدين واللغة.

❑ ثم يقول: «أما اليوم فيأتي موقف المواقف في فاتحة العام الدراسي لهذ العام.

دَهَى الجزيرةَ أَمْـرٌ لا عَـزاءَ له هَوَى لهُ أُحـدٌ وانهدَّ ثَهْلاَنُ

❑ اليوم يُفْتَح في بلادنا: «البيت المظلم»، تحل في بلادنا أعظم ضربة توجّه إلى هذه البلاد إنها قاصمة الظهر بفتح المدارس الأجنبية العالمية الاستعمارية.

اليوم هي على أرضنا ملء السمع والبصر.

اليوم نزلت في قلب الجزيرة العربية، حرم الإسلام، وعاصمة المسلمين وقاعدتهم: نازلة الشؤم والخطر، نازلة أُولى وسائل التبشير، وأدهى وسائل التنصير والتغريب، والنقلة الحادة بأولاد المسلمين من محاضنهم الإسلامية ـ المدارس الحكومية والأهلية الإسلامية ـ بنقلتهم وإسلامهم إلى محاضن الكفر والضلال والإباحية والإلحاد في: (المدارس العالمية ـ الأجنبية).

❑ إنها واللَّه رزية وأي رزية تحل في قلب الجزيرة العربية بجوار الحرمين الشريفين في بلد التوحيد وتحكيم الشرع المطهر، في البلد الذي لا يجوز فيه تجنس الكافر بجنسيته، ولا تمليكه جزءًا من أرضه، واليوم يُؤذن لأعداء اللَّه ورسوله وأعداء المؤمنين بفتح محاضن لأولادنا لمن ليسوا على ديننا: المدرس كافر أو عاهر، والمناهج مستوردة كافرة..

إنّه موقف المواقف، موقف الدهشة والاستغراب، والحسرة والندامة، والفجيعة والألم.

إنّها ساعة الذهول فينا، فَحُقَّ أن يُقال لنا: «**اصنعوا لآل جعفر طعامًا**».

*** إنّها قنطرة إلى مبدأ حرية تغيير الدين:**

❑ إنّها درجة إلى: (عولمة التعليم) بين المدارس الدينية للملل المختلفة، وبينها وبين المدارس اللادينية ـ العلمانية ـ.

❑ إنّها حركة لهدم الماضي المشرق العريق والمستقبل المضيء باسم (تجديد البناء) ومن آثارها: كسر حاجز النفرة من الكفر والكافرين، ومنها: أنّه لن يُقال للكافر: يا كافر، بعد الآن.

❑ إنها: تعطينا التفاتة، لكتاب: عبدالودود شلبي (الزحف إلى مكة) وفيه يقول عن المنصِّر الأمريكي روبرت ماكس: «لن تتوقف جهودنا وسعينا في تنصير المسلمين حتى يرتفع الصليب في سماء مكة، ويُقام قدّاس الأحد

في المدينة» انتهى كلامه ـ قبّحه اللّه وخيّب أمله.

❑ وأحسن اللّه إلى المؤلّف شلبي، إذ قال بعده: «نحن في انتظار أبرهة الأمريكي لا على أبواب مكة، فهو لن يراها أبدًا ولكن على أبواب جهنم التي تنتظره وأمثاله ليستقر هناك في دركها الأسفل» انتهى.

❑ إنّ قلب الجزيرة العربية يُعتبر بلدًا مغلقًا أمام المبشِّرين المنصِّرين، وإن فتح هذه المدارس هي خطوة جريئة لنفوذ سلطانهم الكنسي والثقافي فالخطوة بعدها: (فتح الكنائس)، وبث الأناجيل، والكتب التنصيرية، والإعلام التنصيري، وفتح المحاكم الأجنبية وفتح مراكز الإرساليات ـ البعثات ـ التنصيرية كما هي أمامنا وخلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا في جميع بلدان الخليج العربي بلا استثناء!! امتدادًا للواقع الحزين في العالم الإسلامي.

❑ إنها مؤامرة أُمم الكفر في اقتحام حرم الإسلام، إن المشكلة أفظع مما نتصور: إنّها إقامة حزام جغرافي لمجموعة الدول الكافرة تحاصر المنابع الإسلامية؟!

❑ اللّهم إنا نبرأ إليك من الرضا بهذه المدارس، أو أن تطمئن لها قلوبنا وغاية ما نملكه هو بذل النصيحة للّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فنبين ما نعلمه عن هذه المدارس الأجنبية في تاريخها ومخاطرها وأُصولها وسيرتها ووجوب نبذها عن بلاد المسلمين وإغلاقها وإيقاف نشاطها وانتماءاتها مُسْتَخْلَصًا مما كتبه عدد من علماء المسلمين وكتابهم ـ للّه درهم وللّه أبوهم ـ لعل اللّه أن ينفع بها، وأُسْوَةً بما صدر من اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالبيان الصادر في ٣/٢/١٤٢٠ القاطع بتحريمها والتحذير منها ووجوب إغلاقها ورفعها عن المسلمين..

❑ وعسى أن تَقَرَّ أعين المسلمين بتنفيس الكُرْبَةِ فَيُنْشِدُوا:

الحمد للّه على مَا نَفَّسَه من الكُروب وسُقوط المدرسه[1]

❑ ثم يسوق الشيخ نماذج من أقوال العلماء وبياناتهم وفتاويهم عن هذه المدارس.

❑ قال شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه اللّه تعالى ـ في: «الهداية الإسلامية» (ص١٥١) ما نصه:

«أبناء المسلمين في مدارس التبشير: من الذي يستطيع أن يُهيِّئ لولده عيشًا راضيًا، وينبته نباتًا حسنًا، فينشأ سليم القلب طاهر اللسان، صديقًا لأُسرته، عاملاً على إعلاء شأن أُمته، ولكنه يأبى أن يفعل هذا الذي ينصح به لولده ويجني ثمار الحمد من عواقبه، فيعمد إليه وهو صافي الفطرة، فيلقيه في بيئة يتولاّه فيها من لا يرقبون إلاًّ ولا ذمة، فلا يزالون يلقنونه زيغًا، ويبذرون في نفسه شرًا، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا.

❑ ذلك مثل المسلم الذي يهبه اللّه ولدًا ليسلك به في هداية، ويعدّه لأن يكون عضوًا يرتاح لسعادة قومه، ويتألم لشقائهم، فإذا هو يبعث به إلى مدارس أُسست لمحاربة الدين الحنيف، ولقتل العاطفة القومية، وهي المدارس التي تنشئها في بلادنا الجمعيات التي يُقال لها «جمعيات التبشير».

❑ إنّ الذي يقذف بولده بين جدران هذه المدارس، لا تكون جريمته من جريمة أُولئك الذين كانوا يقتلون أولادهم خشية إملاق ببعيد ـ ألم يقم الدليل إثْرَ الدليل على أن القائمين فيها بأمر التعليم يلقنون أبناء المسلمين معتقدات ديانة غير إسلامية، ويحملونهم على تقاليدها، ويتعرضون للطعن في شريعة الإسلام بطرق شأنها أن تؤثّر على الأطفال ومن هم بمنزلة الأطفال في عدم

(١) «المدارس العالمية الأجنبية الاستعمارية ـ تاريخها ومخاطرها» للدكتور بكر أبو زيد ـ (ص٥ ـ ١٠)، (ص١٣ ـ ١٦) ـ دار العاصمة.

معرفتهم بحقائق الدين معرفة تقيهم من شر ذلك الإغواء؟! ليس ذلك الذي يزج بابنه في مدارس التبشير بالذي يقتل نفسًا واحدةً ولكنه يقتل خلقًا كثيرًا، ويجني بعد هذا على الأُمة بأجمعها، ولا أقول هذا مبالغة، فقد يصير هذا الولد أُستاذًا من بعد، ويفسد على طائفة عظيمة من أبناء المسلمين أمر دينهم ووطنيتهم، كما أفسد عليه أُولئك القسس أمر دينه ووطنيته، وقد أرتنا الليالي أن من المتخرجين في هذه المدارس من يملك سلطة على قوم مسلمين، فيجدون فيه الغلظة والمكر وعدم احترام الشريعة ما لا يجدونه في الناشئ على غير الإسلام»[1] انتهى.

❑ وفي صحيفة الإسلام العدد ١/ ١٣٥٢ ما نصه:

«قرار هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف في يوم الاثنين ٣ من ربيع الأول سنة ١٣٥٢ (٢٦ من يونية سنة ١٩٣٣م).

❑ اجتمعت هيئة كبار العلماء بالجامع الأزهر تحت رياسة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر[2] وأصدروا البيان الآتي:

بيان إلى الأُمة الإسلامية من هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف:

أيها المسلمون: لقد استفاضت الأخبار بما يعمله هؤلاء الذين يسمون أنفسهم (مبشرين) وعمت البلاد من أولها إلى آخرها، ووصل إلى علمكم أنها يتخذون الوسائل الفظيعة إلى تنصير أطفال المسلمين، وضعفاء العقول منهم، وأنهم لا يخجلون من ارتكاب ما لا يجيزه عقل ولا فطرة، وما يحمر منه وجه المروءة والفضيلة، ويجعلون ذلك طريقًا لإخراج الشاب المسلم الضعيف الإدراك عن دينه.

---

(١) «المدارس العالمية» (ص٧٤ ـ ٧٥).

(٢) في وقتها وهو الشيخ الأحمدي الظواهري وكان مفتي الديار المصرية وقتها هو الشيخ عبدالحميد سليم.

فإذا أعيتهم الحيلة عمدوا (على ما جاء في الصحف) إلى التخدير والتنويم، فإذا لم يفدهم هذا عمدوا إلى الإرهاب والتعذيب حتى يصلوا إلى بغيتهم.

❑ ولقد انبث هؤلاء المبشرون في المدن والقرى، وأتقنوا الحيل فظهروا أمام ضعفاء العقول بمظهر رسل الرحمة، فأنشأوا المستشفيات تقبل المرضى وتعالجهم مجانًا وأنشأوا المدارس تقبل أولاد الفقراء وتعلمهم بلا مقابل، وبنوا الملاجئ تقبل المعوزين وتوسع عليهم في النفقة ـ عمل ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه الختل والخداع.

فأقبل ضعفاء الإدراك والعقول على مستشفياتهم ومدارسهم وملاجئهم ورائدهم حسن النية، لا يدرون أن وراء الأكمة ما وراءها.

إنهم أيها المسلمون، يتخذون من هذه المستشفيات والمدارس، والملاجئ شباكًا يصطادون بها ضعفاء العقول من الأطفال والمرضى والفقراء والمعوزين.

❑ أما في المستشفيات فإن المبشرين ينتهزون من مرض المسلم وفقره وضعفه وحاجته إلى الصحة فرصة لزحزحته عن دين الإسلام.

❑ وأما في المدارس فإنهم يعلمون أولاد المسلمين أمورًا هي ضد الدين الإسلامي وضد محمد ﷺ وضد القرآن الكريم، يبثون ذلك في الدروس كالسم في الدسم، ويصورون للأطفال محمدًا ﷺ تصورًا مخيفًا مزعجًا. ويفترون على الدين؛ والقرآن المجيد ما شاءوا أن يفتروا، ويرغمون هؤلاء الأطفال على تأديّة صلواتهم معتمدين في ذلك كله على أن الأطفال ضعفاء الإدراك يسهل تشكيكهم وتحويلهم عن دينهم.

❑ وأما في الملاجئ فإنهم يتصيدون الفقراء الذين مسهم الضر، ثم يضعونهم فيها فيطعمونهم ويكسونهم وعند ذلك يتصرف المبشرون في

عقائدهم الدينية حتى يخرجوهم من دين الإسلام.

فإذا تم لهم ما أرادوا اجتهدوا في قطع صلة من نَصَرُوه بأهله وذوي قرابته وربما غربوه إلى البلاد البعيدة التي لا يرجع منها إلى بلاده.

● **أيها المسلمون**: إن مما فرضه اللَّه على العلماء أن يذكروكم بما يوجبه الإسلام عليكم نحو هذه الأعمال الضارة بدينكم وأولادكم وإخوانكم وأمتكم.

فالواجب عليكم شرعًا أن تحبطوا أعمال المبشرين. وتباعدوا بينهم وبين أولادكم الذين هم فلذات أكبادكم.

يوجب عليكم الإسلام أن تنبذوا وتهجروا كل من يعرض ابنه أو بنته أو قريبه للدخول في هذه الأماكن الخبيثة والبيئات الضالة المضلة.

❑ إن من يدخل ولده أو مريضه في هذه الأماكن الموبوءة بعد أن افتضح أمرها وتبينت الأعمال المروعة التي ترتكب فيها لهو الرجل المحتقر في نظر الدين بل الخارج من حظيرة الإسلام إن كان عالمًا بتلك النتائج التي يقصدها المبشرون راضيًا بها.

فيجب عليكم معاشر للمسلمين أن تهجروه، ولا تمكنوه من معاملتكم ولا يكون له في قلوبكم أي ميل أو عطف حتى يشعر بعظم ما ارتكب في حق دينه وأولاده وعشيرته فيفيء إلى أمر اللَّه ويرجع عن غيه ويخرج صغيره أو قريبه من الظلمات إلى النور»[1].

❑ وفي صحيفة الإسلام/ العدد/ ٢٢ عام ١٣٥٢ نداء من مشيخة الأزهر:

«أيها المسلمون: إننا لا نجد بُدًّا من أن نسدي إليكم النصح

(١) المصدر السابق (ص٩٨ ـ ١٠١).

خالصًا ونتلو عليكم حكم اللَّه الرهيب فيمن أدخل أولاده في هذه المدارس: أن من أدخل ولده أو قريبه من هذه الدور وهو يعلم أنها أُعدّت لإخراج الناس من دينهم فهو مرتد عن الإسلام لم يكن اللَّه ليغفر له ولا ليهديه سبيلاً. ألا قد بلغت اللَّهم فاشهد ليعلم الشاهد الغائب».

وبعد أن ذكر الشيخ فتوى اللجنة الدائمة رقم (٢٠٠٩٦) بتاريخ ١٤١٨/١٢/٢٢ في التحذير من وسائل التنصير ومنها: فتح المدارس الأجنبية وفتوى اللجنة برقم (٢٠٢٦٢) بتاريخ ١٤١٩/٣/٣ بتحريم بناء أو تأجير الأماكن والمحلات للمدارس والكليات الأجنبية ذكر الشيخ حكم هذه المدارس الأجنبية:

* حكم الشريعة الإسلامية في المدارس الأجنبية المبني على النصوص الشرعية والقواعد والمقاصد العامة:

● أولاً: وجوب إعلان إنكارها والبراءة منها:

يجب على كل مسلم أن يبغض المنكر إذا رآه وأن يسعى في إزالته حسب استطاعته، ومن لم يبغض المنكر ولم ينكره فلا خير فيه كما أخبر النبي ﷺ بذلك في قوله: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**».

ولا يستريب مؤمنٌ بعد أن يعرف حال المدارس الأجنبية وآثارها السيئة على المسلمين أفرادًا وجماعات وأُمة أنّها من أعظم المنكر فيجب بغضها وإنكارها وإعلان البراءة منها.

---

(١) المصدر السابق (ص١٠٩).

● ثانيًا: تحريم الإذن بفتحها:

لا يجوز لأهل الإسلام تمكين أهل الكفر والضلال والنحل الباطلة من يهود ونصارى ومجوس وملاحدة وغيرهم من الدعوة إلى باطلهم والإذن لهم بفتح المكاتب والمؤسسات من أجل ذلك، ومنها المؤسسات التعليمية على كافة المستويات، ابتداء من رياض الأطفال وانتهاءً بالجامعة؛ لأن في ذلك إباحة للردة عن الإسلام، والرضا بما يخالف الدِّين الحق، وفي ذلك ظهور للكفر على الإيمان، وهذا يضاد مقصود الرسالة المحمدية، قال اللَّه تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣٣]، كما أن كل مبدأ واعتقاد يخالف الإسلام فهو مشتمل على الطعن في الإسلام وأحكامه وتشريعاته فكيف يُقَرُّ ذلك بين المسلمين على أرض الإسلام؟!

فمن النصيحة للمسلمين تطهير بلادهم من كل نجس، ونبذ كل باطل حماية لهم، وصيانة للإسلام من الطعن عليه.

ولا نرى هذه المدارس الاستعمارية الأجنبية العالمية إلا بيوتًا مظلمة تضارع مساجد الضرار، فهي تضار المدارس الإسلامية؛ لمناهجها الكفرية، ونظامها الغربي، وهي داعية تفريق المؤمنين وشق وحدتهم: طلاب مدارس إسلامية وطلاب مدارس أجنبية، كالشأن في مسجد الضرار يصلي فيه بعضهم ويترك «مسجد قباء» الذي يصلي فيه المسلمون، وهي أوكار لمن حارب اللَّه ورسوله من أُمم الكفر التي زحفت بمناهجها وأساتذتها، لفتح هذه البيوت المظلمة واحتضان أولاد المسلمين فيها. وذلك باسم نشر العلم، والحضارة وتثقيف العقل البشري واللَّه يشهد وكل مسلم يشهد إنهم لكاذبون، كالشأن في بناة مسجد الضرار من المنافقين.

* قال اللَّه ـ عز شأنه ـ: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا**

بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

● **ثالثًا: تحريم الاتجار بفتحها والعمل بها:**

يجب على عامة المسلمين من أهل التجارة والمال أن يطيِّبوا مكاسبهم طاعةً للّه، واتقاء لغضبه سبحانه ورجاء لبركته، وأن يكونوا وُعاةً فطناءَ فلا يجلبوا لإخوانهم المسلمين الشر والفساد والإلحاد، من أجل متاع الدنيا القليل، وعملاً بالقاعدة اليهودية الغائية، الماكيافيلية: الغاية تبرر الوسيلة!! سواء كان الاتِّجار عن طريق التعليم الأجنبي أو العمل فيه أو غيره من الطرق. وليعلموا أنهم مسئولون يوم القيامة عن كل فردٍ تسببوا في إضلاله وإفساده.

وليعلموا أيضًا أن كل درهم يحصِّلونه من وراء هذا التعليم الهادم للإسلام والأُمة أنّه سحت وحرام. وليتقّوا اللّه حق التقوى وليوقنوا بأن ما أباحه اللّه تعالى فيه غنية عن الحرام، وأن من ترك شيئًا للّه عوضه خيرًا منه.

● **رابعًا: تحريم الإعانة عليها بالتأجير أو الدعاية ونحوها:**

* لا يحل لمسلم أن يعين المدارس الهادمة للإسلام والأُمة بأي نوع من أنواع الإعانة أو المشاركة فيها أو التشجيع عليها لأنّ اللّه عز وجل يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]. والإعانة تكون بمثل: المشاركة بالمال أو بالعمل أو بتأجير الأرض أو المحل أو بالدعاية وغير ذلك. والراضي بالمنكر والمعين له كالفاعل نعوذ باللّه من ذلك.

● **خامسًا: تحريم إدخال أولاد المسلمين فيها:**

لا يحل لمسلم يؤمن باللّه واليوم الآخر أن يُلقي بأولاده إلى التهلكة في

أحضان المدارس الأجنبية وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ولا يعلمون من الإسلام شيئًا قليلاً، ولا كثيرًا فيتلقون الكفر والإلحاد والشر والفساد وناهيك بأثر ذلك على فِطَر الطغار الأغرار والنبي ﷺ أخبرَ بأنّه: «ما من مولود إلا يُولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه» فكل مولود فإنه يولد على فطرة الإسلام لو ترك على حاله ورغبته لما اختار غير الإسلام لولا ما يعرض لهذه الفطرة من الأسباب المقتضية لإفسادها وتغييرها وأهمها التعاليم الباطلة والتربية السيئة الفاسدة، وقد أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يُمجسانه» أي: نصرانيًّا خالصًا أو يهوديًّا أو مجوسيًّا، من هذا: تسليم الأولاد الصغار الأغرار إلى المدارس الكفريّة أو اللادينية بحجة التعلّم فيتربون في حجرهم ويتلقون تعليمهم وعقائدهم منهم، وقلب الصغير قابل لما يلقى فيه من الخير والشر بل ذلك بمثابة النقش على الحجر، فَيُسَلِّمونهم إلى هذه المدارس نظيفين، ثم يستلمونهم ملوثين، كل بقدر مَا عَبَّ منها ونَهَلَ، وقد يدخله مسلمًا ويخرج منها كافرًا، نعوذ باللّه من ذلك، فالويل كل الويل لمن تسبب في ضلال ابنه وغوايته، **فمن أدخلَ ولده راضيًا مختارًا مدرسة وهو يعلم أنّها تسعى بمناهجها ونشاطاتها لإخراج أولاد المسلمين من دينهم وتشكيكهم في عقيدتهم فهو مرتد عن الإسلام كما نص على ذلك جمع من العلماء.**

نسأل اللّه السلامة والعافية لنا ولجميع المسلمين.

● **سادسًا: تحريم فتحها في بلد الإسلام مطلقًا:**

لا يجوز فتح مدرسة من هذه المدارس في بلدٍ من بلدان المسلمين حتى ولو لم يُسمح لأولاد المسلمين بالدخول فيها؛ لأنها بيوت كفر، يُلَقَّنُ فيها دين غير دين الإسلام، فَيُكْفَرُ فيها باللّه تعالى، ولا يجوز لبلد إسلامي فتح

بيت يُكفر فيه باللَّه تعالى أو الإذن به؛ ولأنها تكون مراكز للدعوة إلى دين وملة غير الإسلام، كتنصير من ليس على ملة الإسلام من أصحاب الملل الأُخرى، فتكون مراكز لنقله من كفر إلى كفر في بلد إسلام، وعلى مرأى ومسمع من المسلمين؛ ولأنها تعطي الملل الكافرة قوة واعتباراً للبقاء على كفرهم، وسابقة لتوسع الكفرة في مطالبهم بفتح معابد لهم كالنكائس؛ ولأنها تخالف ما جرى عليه عمل المسلمين من الشروط على الذميين ونحوهم، كما في كتاب الشروط العمرية وغيره. واللَّه المستعان.

● **سابعًا: تحريم فتحها في جزيرة العرب والمناشدة بإلغائها:**

❑ أحكام هذا الفصل تَعُمُّ كل مسلم، وتَشْملُ كل بلد إسلامي، لكنها تتأكد في حق: «جزيرة العرب» وفي حق من أُضيفت إليهم: «عربها»؛ لما للجزيرة من المزايا التي اقتضت تفضيلها على جميع بلدان العالم الإسلامي، تجمع مزاياها: الذاتية، وعمق الجذور الإسلامية التي لا ينافسها فيها أي بلد في العالم، وهذا لِحكَم يريدها اللَّه ـ سبحانه ـ فإنّها حرم الإسلام، وقاعدته، وعاصمته الأُولى والأخيرة وهي مأرز الإيمان، ومتنزل القُرآن، ودار السنة والقدوة، ودار نبي الإسلام، وعَرِينُ صحابته الكرام، وقبلة المسلمين، ودار حجهم وعُمرتهم، ولا يجتمع فيها دينان، ولا مجال فيها للمبادئ الهدامة.

وأهلها هم أصل العرب ومادة الإسلام، فارتبطت الجزيرة بهم وارتبطوا بها، فهي بحق أرضًا وأهلاً دار القيادة والتوجيه والإشراف والمركز الرئيس للعالم الإسلامي، وحصن الدعوة إلى اللَّه، والمحافظة على حدوده وحرماته.

❑ لهذا يجب أن تبقى داراً وأهلاً متمتعة بالأصالة وصفاء التوحيد، وحسن الأسوة، والاستقلال، والاكتفاء الذاتي، وأن ترفض التبعية والتقليد ونفوذ الوفادات الأجنبية عليها فلا مجال فيها لما ينابذها.

ومن هذا: «التعليم» فهو لباس من ألبسة التقوى فلا تُكْسَى الجزيرة بخاصة ولا أهل الإسلام بعامة بلباس تعليمي ينكث التقوى ويوهن الإسلام.

❑ فحرامٌ ثم حرام فتح المدارس الأجنبية «المدارس الاستعمارية» العالمية، مدارس الذين كفروا في دار الإسلام وحَرَمِه: قلب جزيرة العرب، وحرام ثم حرام على أي مسلم إدخال أولاده ومن تحت يده فيها، ويجب على من ولاّه اللّه الأمر رفع هذه المصيبة عن المسلمين، وستكون من أعظم أياديه على المسلمين في مسيرة جهوده الإسلامية العظيمة.

● **ثامنًا: وجوب تواصي المسلمين بالتحذير منها:**

يا أهل الإسلام: احذروا هذه المدارس الاستعمارية العالمية، واحفظوا ذراريكم منها؛ لما فيها من أسباب الردة والفساد، والفسوق والعصيان، وانصحوا بالحذر منها أقاربكم وإخوانكم من المسلمين ولكم عبرة فيما حصل من آثارها السيئة في العالم الإسلامي، والسعيد من وُعِظَ بغيره.

● **تاسعًا: واجب العلماء مواصلة البيان بإنكارها:**

يا علماء المسلمين: تابعوا النُّصح والبيان، إِثْرَ النصيحة والبيان عن هذه المدارس المظلمة وحذِّروا المسلمين من سوء عاقبتها، واحملوهم على الحق والتواصي به والصبر عليه. قال اللّه عز شأنه: ﴿**وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾.

هذه نصيحتي وغاية جُهدي، والحمد للّه رب العالمين»[1].

(١) المصدر السابق (ص١١٧ ـ ١٢٥).

* لفتة طيبة:

ويحضرني هنا ما فعله الشيخ عبدالقادر الحسيني تقبله اللَّه في عداد الشهداء وهو من كبار المجاهدين في فلسطين في الأربعينات تخرج في الجامعة الأمريكية بالقاهرة وفي يوم تخريجه وأثناء وجوده على المنصة لاستلام شهادة التخرج أمسك بالميكروفون ومزّق الشهادة وعلى ملإٍ من الناس ووسط دهشة الحاضرين أخبرهم أنه لا يريد هذه الشهادة ثم كشف ألاعيب المنصرين في عقر دارهم وأنهم ما أتوا إلا لتشكيك المسلمين في دينهم وتنصير أبنائهم، وإخراج أجيال مبتوتة الصلة بالإسلام بل ومحاربة لأصوله وأسسه، والواقع خير شاهد.

*** ومسك الختام فارس الإسلام المدافع عن الهوية الإسلامية ومقدم السلفية بمصر وشيخها المبارك ونصير المرأة المسلمة.. صاحب «عودة الحجاب..» قذى في عيون المبتدعة شيخنا محمد إسماعيل المقدم حفظه اللَّه:**

إيه أبا الفرج.. إيه يا شيخي وسيدي.. واللَّه لا يكفي مجلد لكتابة أثرك وفضلك، وما صنعته لشباب هذه الأمة في سنيّ عمرك المبارك.. واللَّه إن أرجى أعمالي حبي لك في اللَّه أتقرّب إلى ربي بهذا، وكل لسن وبيان وفصاحة لا تعبّر عما يجيش به الفؤاد.. وسيظهر في عرصات القيامة.

جزاك اللَّه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ـ فلقد حملت على كاهلك سوق شباب هذه الأمة إلى طريق الجنة.. طريق السلف.. ودافعت عن عقيدة السلف أطيب الدفاع.. وكانت لك المواقف الطيبة المشكورة في كل ميدان من ميادين العمل الإسلامي..

ميدان العلم وتربية الشباب المسلم على عقيدة السلف الصالح ومجال الغزو الفكري ورد شبه الحاقدين على الإسلام الموتورين.. وفي مجال

التغريب ودعوة المرأة المسلمة للسفور كان جهادك المبارك حتى استبان للناس خداع هؤلاء المارقين والمارقات ولو أفسحوا لدعوتكم المباركة لتغيّرت مصر عن آخرها.

ومن عجب أني أحنّ إليهمُ ... وأسأل شوقًا عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهم عيني وهم في سوادها ... ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

*** قذائف الشيخ المقدام محمد بن إسماعيل:**

قال ـ حفظه اللَّه ـ: «فما أشد حاجتنا إلى إعادة النظر في تقويم الرجال بعد رحلة الشقاء التي تركت قلوبنا مجرحة، وأيدينا مرتعدة، وسيوفنا ملثمة، تلك الرحلة التي قام فيها على أمرنا فريق التحف الإسلام، وتبطَّن الكفر، حمل بين فكيه لسانًا مسلمًا، وبين جنبيه قلبًا كافرًا مظلمًا، حرص كل الحرص على أن يطفئ نور الإسلام، ويهدم عز المسلمين، فلم يجد أعون له على هذا الغرض السيئ من أن يقدم لنا الكفر والفسوق والعصيان في ثوب إسلامي، ويتولى تزيينَه لنا سَدَنَتُه من الزعماء، وربائبه من المفكرين، فكانت النتيجة ركامًا ضحلاً تافهًا مظلمًا من المبادئ التي أخذناها لنستر بها عُرْيَنا، فعرينا!، والمناهج التي اقتبسناها لننسج بها آمالنا فنسجنا بها أكفاننا!

(إن كثيرًا ممن نعتبرهم اليوم دعائم النهضة الحديثة، لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس إلا بسبب الدعايات المغرضة، التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة، لتحقق بذلك أغراضها في نشر مذاهبهم والتمكين لآرائهم؛ ولأن كثيرًا من الآراء المنحرفة التي لم تكن تستطيع أن تجد طريقها إلى الفكر الإسلامي وإلى مجتمعاته، قد أصبح قبولها ممكنًا بِنِسْبَتِها إلى هذه الزعامات وإلى هؤلاء الأئمة، الذين لا يتطرق إلى الناس شك في إخلاصهم وعلمهم، والواقع أن كثيرًا من هؤلاء الرجال قد أحيطوا بالأسباب التي تبني لهم مجدًا

وذكرًا بين الناس، ولم يكن الغرض من ذلك خدمتهم ولكن الغرض منه كان ولا يزال هو خدمة المذاهب والآراء التي نادوا بها، والتي وافقت أهداف الاستعمار ومصالحه.

وخطة الاستعمار واليهودية العالمية في ذلك كانت تقوم ـ ولا تزال ـ على السيطرة على أجهزة النشر التي نسميها الآن «الإعلام» وإلقاء الأضواء من طريقها على كُتَّابٍ ومفكرين من نوع خاص، يُبْنَوْنَ، وَيُنَشَّئون بالطريقة التي يُبنى بها نجوم التمثيل والرقص والغناء، بالمداومة على الإعلان عنهم، والإشادة بهم، وإسباغ الألقاب عليهم، ونشر أخبارهم وصُورهم، وذلك في الوقت الذي يهمل فيه الكُتَّابُ والمفكرون الذين يصورون وجهات النظر المعارضة، أو تُشَوَّهُ آراؤهم وتُسفَّه، ويُشَهَّر بهم، ثم هي تقوم على تكرار آرائهم آنًا بعد آن، لا يَمَلُّون من التكرار؛ لأنهم يعلمون أنهم يخاطبون في كل مرة جيلاً جديدًا، أو هم يخاطبون الجيل نفسه، فيتعهدون بالسقي البذورَ التي ألقوها من قبل.

ونحن حين ندعو إلى إعادة النظر في تقويم الرجال، لا نريد أن ننقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ، وأن أعمالهم كلَّها حسنات لا تقبل القدح والنقد، حتى إن المخدوع بهم والمتعصب لهم، والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وَصَفَ أحدُ الناس إمامًا من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه، في الوقت الذي لا يهيجون فيه، ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول اللَّه ﷺ وﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعماؤهم «المعصومون»!، ويحتمون بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبَوْن على مخالفيهم في الرأي هذه الحرية، يخطِّئون كبار المجتهدين من أئمة المسلمين ويجرِّحونهم بالظنون والأوهام، ويثورون لتخطئة

ساداتهم أو مواجهتهم بالحقائق الدامغة»اهـ[١] .

❑ ويرهق كثير من الكتاب عقولهم في تحديد هوية أولئك المتآمرين، وهذا لا مبرر له، إذ يكفينا أنهم «كارهون لما أنزل اللَّه»، فلا نبالي حينئذ أن يكونوا حقًّا صنائع اليهودية أو الصليبية أو الماسونية أو الشيوعية؛ لأن الكفر مهما تعددت ألوانه، فهو كفر، ينبغي محاربته واستئصاله، ودين الشيطان لا يعرف الجنسية.

❑ وهؤلاء الذين ما يزالون يتعامَوْن عن رؤية الواقع الصارخ الذي يؤكد أن هناك مؤامرة وتدبيرًا خفيًّا يستهدف القضاء على الإسلام ـ غافلون، مخدوعون بأصحاب القفازات الحريرية الذين هم «من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا».

إن من الغفلة أن نعمى عن أعداء ديننا، بل ونتخذهم أولياء من دون المؤمنين، وهم ـ في ذات الوقت ـ لا يدخرون وسعًا في تحطيم مقومات الأمة، وتنفيذ مخططات أعدائها:

بأبـي وأمي ضاعت الأحـلام ... أم ضـاعت الأذهـان والأفهـام
من حـاد عن دين النبي محمد ... ألَهُ بأمر المسـلمين قيـام
إن لا تكن أسـيافهم مشهورة ... فينـا فتلك سـيوفهم أقـلام[٢]

❑ وإذا كنا بصدد الحديث عن المؤامرة على المرأة المسلمة كجزء من مشروع استعماري شامل لتغيير وجه الحياة في مصر، واقتلاع المجتمع الإسلامي من جذوره، فلا ريب يستوقفنا مواقف رضعاء ألبان الغرب والشرق

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين ـ رحمه اللَّه ـ، ص(٤٧ ـ ٤٩) بتصرف.

(٢) «غذاء الألباب بشرح منظومة الآداب» لمحمد بن أحمد السفاريني (٢/ ١٤).

الذين غُسِلَتْ أدمغتهم في دهاليز الكفر، وترعرعوا في كنف الإلحاد، وعادوا إلى بلادنا لترتفع على أكتافهم أعمدة الهيكل العلماني، من هنا كان لا بد من وقفات معهم تبين بالوثائق والأدلة موقفهم من الإسلام وعليه موقف الإسلام منهم.

ولئن كان هناك رجال وقفوا حياتهم على هدم الإسلام، فلا بد أن يكون مصيرهم الهدم، ومن عجيب أمر بعض السُّذَّج أنهم تأخذهم بأولئك الهدَّامين رأفةٌ في دين اللَّه، وينكرون على من يكشف كيدهم قائلين: «وما يدريك لعلهم تابوا! ففلان حج أو اعتمر، وفلان بنى مسجدًا، وفلان أعلن أنه يستمع إلى إذاعة القرآن الكريم»!.

❑ نقول: هذا فهم قاصر لمعنى التوبة في حق هؤلاء، فإن من شرط توبتهم أن يتوبوا عن مظالمهم، ويقلعوا عن غيهم، ويتبرأوا مما بدر منهم في حق دين الحق، ويندموا على ما بارزوا به الإسلام والمسلمين، ويعلنوا ذلك على الملأ.

وقد يقول قائل: «لعلهم تابوا، ولكن حيل بينهم وبين إعلان توبتهم».

❑ نقول: هذا محتمل، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ**﴾ [البروج: ١٠]، وقال ﷺ: «.. **وإنما الأعمال بالخواتيم**»[1]، والخواتيم مُغَيَّبة، فلهذا كان من أصول أهل السنة عدمُ الحكم لمُعَيَّن بالجنة، ولا الحكم على معينٍ بالنار إلا بنص من الوحي، ولكن هذا لم يمنعهم من أن يُجْروا أحكام الإسلام على من كان يظهر الإسلام في الدنيا، وأحكام الكفر على من أظهره في الدنيا، وانشرح به صدره، ولم يمنعهم ذلك أيضًا من أن يُحَذِّروا من ضلال المُضِلِّين،

(١) قطعة من حديث رواه الشيخان ـ انظر «جامع الأصول» (١٠/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

وتلبيس الملحدين مع علمهم بأن الخواتيم مغيبة، إذ إن ذلك من واجبات الديانة.

وحينما نعرض الوثائق التاريخية التي تنطق بإدانة أولئك المتمسلمين الذين رفعوا عقيرتهم بالصدِّ عن سبيل اللَّه، فإن مقصودنا الأول هو تحذير المسلمين من ضلالهم، أما القطع بخاتمة شخص معين، أو الحكم عليه بجنة أو نار، فهذا لا يملكه إلا العزيز الغفار.

ومن هنا يتضح لك الجواب عما رمانا به أحد «عُبَّاد الصليب»، وقد أخذته الحمية وتدفقت من قلبه الغيرة على شخصيات تناولها البحث بالنقد، فكتب في (الأهرام) تحت عنوان: «تشويه العظماء»:

(إن محاولات هؤلاء المتخلفين وهجماتهم لم تقتصر على أعلامنا الأحياء بل امتدت لتشمل رُوَّادنا الراحلين، أي أن حقد المتخلفين لم يقف احترامًا للموت، بل استطاع أن يتجاوز حواجزه حتى ينفث سمومه هناك حيث رحاب اللَّه، وانهالت عليهم تهم الإلحاد والكفر والزندقة، وكأن هؤلاء المتخلفين قد ورثوا بابوات روما في العصور الوسطى المظلمة في منح صكوك الغفران لمن يحبونهم، وحجبها عمن يحقدون عليهم!! (قلت: أنت أدرى!!).

وقد آن الأوان ليعلم هؤلاء المتخلفون الجهلاء أن السلطة الوحيدة التي تملك حق اتهام الآخرين على وجه هذه الأرض هي السلطة القضائية، وذلك بناءً على قرائن وشواهد محددة، أما أن يتخيل جاهل متخلف أن في قدرته تحديدَ الذاهبين إلى الجنة، والساقطين في الجحيم، فإنه بهذا يتدخل في إرادة اللَّه سبحانه وتعالى) اهـ.

❑ ولا أجد جوابًا عليه إلا أن أنقل قوله:

«ولكي ندرك خطورة ما يجري الآن، فلنا أن نتخيل حياتنا الثقافية

بدون طابور رُوَّادنا العظام ابتداءً برفاعة الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وقاسم أمين، وهدى شعراوي، ولطفي السيد، وطه حسين، . . وسلامة موسى، ومحمد مندور، وانتهاءً بتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وزكي نجيب محمود، ولويس عوض، وأمينة السعيد، وعبدالرحمن الشرقاوي، وحسين فوزي، ويوسف إدريس، وأحمد بهاء الدين، وغيرهم ممن حملوا شعلة الثقافة المستنيرة عبر ما يزيد على قرن ونصف من الزمان»اهـ.

❑ ثم أتساءل: ما هو الذي يجمعك يا عابد الصلبان مع هؤلاء الرواد «العظام» سوى وحدة الهدف؟

إن وثائق الإدانة لهؤلاء الرواد العظام (!) تتزاحم أمامي الآن، كل منها يستبق ليحتل السطور القليلة في هذه المقدمة، ولكني أرجيء أغلبها، وأتخيَّر وثيقة واحدة، وهي عبارة مظلمة نطق بها يومًا أحد رُوَّادك العظام، وهو الذي أسماه أبوه (أحمد بهاء الدين) قال:

«لا بد من مواجهة الدعوات الإسلامية في أيامنا مواجهة شجاعة بعيداً عن اللف والدوران، وإن الإسلام كغيرة من الأديان يتضمن قيمًا خلقية يمكن أن تستمد كنوع من وازع الضمير، أما ما جاء فيه من أحكام وتشريعات دنيوية فقد كانت من قبيل ضرب المثل، ومن باب تنظيم حياة نزلت في مجتمع بدائي إلى حدٍّ كبير، وَمِنْ ثَمَّ فهي لا تلزم عصرنا ومجتمعنا»اهـ[1].

إن الإسلام دين اللَّه الحق لا يهزم أبداً في معركة شريفة، ولا يهاب الصراع مع الباطل أيًّا كان، إذ:

«ليس الخطر الذي يهدد المجتمع الإسلامي ناشئًا عن هذا الصراع،

(١) انظر «الصحافة والأقلام المسمومة» للأستاذ أنور الجندي ص(٢١٤).

فالصراع بين الأصيل والدخيل سنة من سنن اللَّه العليم الحكيم، يضرب فيها الحق والباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] ليس هذا الصراع إذن مصدر خطر، بل إنه ربما يدعو إلى التفاؤل والاطمئنان، ولكن مصدر الخطر وعلامته هي أن يزول هذا الصراع، وأن يفقد الناس الإحساس بالفرق بين ما هو إسلامي وبين ما هو غربي، إن فقدان هذا الإحسان هو النذير بالخطر؛ لأنه يعني فقدان الإحساس بالذات، فالجماعات البشرية إنما تدرك ذاتها من طريقين معًا: من طريق وحدتها التي تكونها المفاهيم والتقاليد المشتركة، ومن طريق مخالفتها للآخرين التي تنشأ عن المغايرة والمفارقة، ولذلك كان الخطر الذي يتهدد هذه الوحدة يأتيها من طريقين: الشُّعوبية التي تفتتها، والعالَمية التي تُميِّعُها، فزوال الإحساس بالمغايرة والمفارقة هو هدم لأحد الركنين اللذين تقوم عليهما الشخصية، وهذا هو ما لا نريد أن يكون، نريد أن يظل هذا التمييز بين ما هو إسلامي وبين ما هو طارئ مستجلب ـ شرقيًّا أو غربيًّا ـ حيًّا في نفوس الأجيال الصاعدة والتالية، وهي أمانة تلقاها جيلنا عمن قبله، ولا بد أن يحملها إلى من يجيء بعده»[١، ٢].

* الشيخ يبيّن لنا حجم العلمانيات رائدات تحرير المرأة!!

يقول الشيخ محمد إسماعيل في «عودة الحجاب» (١/ ١٢٥ ـ ١٢٩):

«أمينة السعيد»:

تلميذة وفيه لـ «طه حسين»، ترأس تحرير مجلة (حواء)، (ومن خلالها تحرض نساءنا على النشوز، وفتياتنا على التهتك والانحلال)، وقد تواتر لدى

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» ص(٥٩ ـ ٦٠).

(٢) «عودة الحجاب» للشيخ محمد إسماعيل ـ دار الصفوة.

الجميع أنها تهاجم الحجاب الإسلامي بكل جرأة، وهي ـ وإن كانت تلقفت الراية من «الزعيمات» السابقات ـ إلا أنها تفوقت على كل اللائي سبقنها في باب التجرد من الآداب والأخلاق الأساسية، إذ إنها لا تألو جهداً في الصد عن سبيل اللَّه، والاستهزاء من شرعه عز وجل، حتى وصل بها الأمر إلى أن قالت: «كيف نخضع لفقهاء أربعة ولدوا في عصر الظلام ولدينا الميثاق؟»، وقالت: «إنني لا أطمئن على حقوق المرأة إلا إذا تساوت مع الرجل في الميراث»[١].

وهي المرأة التي أزعجتها ظاهرة «عودة الحجاب» إلى المجتمع المصري، فجردت قلمها المسموم لتواجه هذه الظاهرة (المقلقة)، ووصفت الحجاب بأنه (كفن ككفن الموتى)، فقد قالت في إحدى جولاتها ضد الحجاب:

«إن هذه الثياب الممجوجة قشرة سطحية لا تكفي وحدها لفتح أبواب الجنة أو اكتساب رضا اللَّه، فتيات يخرجن إلى الشارع والجامعات بملابس قبيحة المنظر يزعمن أنها «زي إسلامي» لم أجد ما يعطيني مبرراً منطقياً معقولاً لالتجاء فتيات على قدر مذكور من التعليم إلى لف أجسادهن من الرأس إلى القدمين بزيٍّ هو والكفن سواء»[٢] اهـ.

وقالت أيضًا مستنكرة: «هل من الإسلام أن ترتدي البنات في الجامعة ملابس تغطيهن تمامًا، وتجعلهن كالعفاريت.. وهل لا بد من تكفين البنات بالملابس وهن على قيد الحياة، حتى لا يرى منها شيء وهي تسير في الشارع؟»[٣] اهـ.

وقالت أيضًا: «عجبت لفتيات مثقفات! كيف يلبسن أكفان الموتى،

---

(١) السابق ص(٢٦٨ ـ ٢٦٩) نقلاً عن (المصور).

(٢) مجلة (حواء) تاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٧٢م.

(٣) (المصور) ٢٢ يناير ١٩٨٢م ص(٧٥).

وهن على قيد الحياة؟!»[١] .

بل إنها تعتبر ظاهرة «عودة الحجاب» مشكلة، وترهق نفسها في البحث عن تبرير لهذه الظاهرة، فيهديها شيطانها إلى تبرير يشابه إلى حدٍّ كبير موقف المنافقين الذين كانوا يلمزون المُطَّوِّعين من المؤمنين في الصدقات، الذين لا يستطيعون أن يتصوروا إخلاص المؤمنين في طاعتهم لربهم، وصدقهم في الصبر على دينه، وامتثال أمره؛ لأنهم لم يألفوا الصدق، ولم يذوقوا الإخلاص، ومن هنا راحوا يطعنون في الغني المتصدق بأنه مراء، وفي الفقير بأنه أحوج إلى صدقته، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧٩].

تقول «أمينة السعيد»:

«الانفتاح أباح لبعض الفتيات الفرصة في ارتداء الأزياء الغالية، ومتابعة الموضات المختلفة مما تسبب عنه مشكلة اجتماعية ترتب عليها في نظري مشكلة الحجاب، وارتداء الملابس الإسلامية.. وهو في معظم أوقات ليس تدينًا، بل هربًا من مواجهة المقارنة الرهيبة في الجامعة بين الأزياء الباهظة الثمن المتنوعة، وبين البنت غير القادرة، وهي عندما تلبس ما يطلقون عليه الزي الإسلامي، تنقذ روحها من محنة مالية هي غير قادرة عليها»[٢] اهـ.

وتفاخر (أمينة السعيد) بصفحات نضالها ضد الشريعة الإسلامية تحت ستار (تحرير المرأة)، فتقول: «اقتراحي بإجراء تلقيح صناعي لزوجة عقيم من زوجها أقام الدنيا وأقعدها، ومطالبتي بإلغاء المحاكم الشرعية كاد يدخلني

---

(١) نقلاً عن «الولاء والبراء في الإسلام» لمحمد بن سعيد بن سالم ص(٤٠٤).

(٢) (المصور) العدد رقم (٣١٣٩) ١٤ ربيع الأول ١٤٠٥هـ، ٧ ديسمبر ١٩٨٤م، ص(٧٤).

السجن، أما مهاجمتي لقانون الأحوال الشخصية فقد أثارت الدنيا من حولي، وجاءت مظاهرة إلى «دار الهلال» تهتف بسقوطي»[1] اهـ.

ولنعرض فيما يلي ـ إن شاء اللَّه ـ أنموذجًا من جولاتها ضد الحجاب والآداب الإسلامية في ردها على بعض الشيوخ مستنكرة عليه آراءه التي (أثارت القلق والأسف) على حد تعبيرها، ولن نتتبع شبهاتها بالرد والتعقيب؛ لأن فسادها يغني عن إفسادها، وصدق القائل:

لو كل كلبٍ عوى ألقمته حَجَرًا لأصبح الصخر مثقالاً بدينارِ

وهي تذكر أن أكثر ما أثار القلق في أقوال الشيخ الفاضل نقطتان:

أولاهما: الدعوة إلى إلزام الطالبات بما يسمونه «الزي الإسلامي»، وهو ما تفضل سيادته بتسميته الحجاب بحجة أنه دليل إسلامي رائع على الإيمان العميق والبعد عن الفتنة والإغراء.. إلخ، ثم ترتدي هذه المرأة (الثعلب) ثياب (الناسكين)، وتعظ الشيخ قائلة: «ما كان ينبغي على شيخٍ المفروض فيه ـ بحكم ثقافته ومكانته ـ أن يكون ضليعًا في الإسلام، أن يصدر عنه مثل هذا الكلام، ونحن نعرف جميعًا استنادًا إلى ما ورد بالقرآن الكريم ـ وهو دستورنا الديني الأول ـ أن الإسلام لم يحدد على الإطلاق زيًّا معينًا للمرأة المسلمة، ولم يقدم رسمًا كامل الأوصاف لا من حيث الشكل أو النوع أو اللون»، ثم تزعم أن: «المعنى الواضح من هذا الكلام المقدس أن الدين الحنيف لا يستهدف من ملابس المرأة سوى الوقار والاحتشام والبعد عن التبرج والابتذال، فكان أي ثوب تتوافر فيه هذه الاشتراطات هو زي إسلامي بمعنى الكلمة سواء كان مقتبسًا من الغرب أو الشرق أو الشمال أو الجنوب، أمَّا ما نراه اليوم شائعًا بين الفتيات والسيدات مما يسمونه «الزي الإسلامي»

(١) السابق.

فالإسلام منه براء؛ لأنه تقليد حرفي لزي الراهبات المسيحيات، والذي نعلمه جميعًا أن لا كهانة، ولا رهبانية في الإسلام»، ثم تستطرد تحت عنوان: (أزياء دخيلة)[1] فتقول: «والأدهى من ذلك: «المقنعات» وهن قلة من المتطرفات في إعلانٍ عن تدينهن، فقد ذهبن في ثيابهن إلى تحريم ما أحله اللَّه، فغطين وجوههن بأنسجة كثيفة ليس بها سوى خرمين صغيرين للاستعانة بها في النظر، ولم يكتفين بذلك، بل ذهبن في مبالغتهن إلى تغطية الخرمين الصغيرين بنظارات سوداء خوفًا من أن تتغلغل الأنظار من خلال الخرمين إلى حدقتي العينين، وهو كل ما يحتمل أن يظهر من هذا القناع العجيب الدخيل.

هذا بالطبع غير جائز في الإسلام، بدليل الفتوى التي أصدرها سيد الأئمة كلهم الإمام الأكبر الشيخ «محمد عبده»، وقد أورد فيها أن «المقنعات» لا ينبغي أن ترفع لهن قضية، أو تسمع لهن شهادة في المحاكم.. ولو كنا نساير روح الإسلام الأصيل ما سمحنا لهن بدخول الامتحانات العامة لسهولة تزييف الشخصية تحت هذا القناع العجيب».

وتشتد «غيرة» «أمينة السعيد» على الإسلام، و«يتدفق» حرصها على «مخالفة الكفار»، فتقول: «وما يقال عن الحجاب يسري أيضًا على ملابس الرجال، فمع عظيم إجلالي للعمامة والجبة والقفطان أعرف أنها ليست زيًّا إسلاميًّا أصيلاً، وإنما هي اقتباس من ملابس الأحبار اليهود في قديم الزمان».

---

(١) تعني بتلك الأزياء الدخيلة الجلباب والنقاب، وهي تعلم تمامًا أن ما عدا هذه الأزياء هو الدخيل الطارئ، وأن هذا الحجاب كان سائدًا في كل المجتمع المصري قبل ظهور دعاة تحرير المرأة، ولكنها تستغل جهل الجيل الحاضر بالماضي الذي عاصرته هي وأمثالها من الطاعنات في السن وتتحدث عن الحجاب وكأنه اختراع من اختراع «المتطرفات الجدد» على حد تعبيرها.

وتختم مقالتها الطويلة مستنكرة على الشيخ تصريحاته قائلة: «إنها عملية هدم للإسلام من أساسه، فاللَّهم ارحمنا، وارحم ديننا من شر أنفسنا إنه السميع المجيب»[1] اهـ، وصدقت، فإن ما تفعله حقًّا هو عملية هدم للإسلام من أساسه، وهي أولى بهذه الكلمة من غيرها، وصدق اللَّه العظيم: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد: ٣٠].

لله درك يا أبا الفرج: واللَّه إن كتابك «عودة الحجاب» لهو فتح من فتوح الإسلام وشجى في أعين أعدائه.

*** معركة الحجاب:**

وإذا أردنا أن نشرح دور السياسة في معركة الحجاب في مصر، فلا شك يقفز إلى أذهاننا الدور الذي لعبه «صديق إسرائيل» و«خادم أمريكا» و«حليف الشيطان» الذي تهكم بالحجاب علنًا ووصفه بأنه «خيمة»، وجرائم هذا المخلوق في حق الإسلام، ثم في حق وطنه كثيرة لا تكاد تخفى على أحد، وقد ختم حياته «النضالية» ضد أمة محمد ﷺ بتلك الإجراءات التعسفية، والحرب المسعورة ضد المحجبات عمومًا، والمنقبات خصوصًا، فكان رجاله يتعرضون للمنقبات في الطرقات، وكانت صحفه نارًا تصب حميمها على المنقبات، وفرض عليهن الخيار بين السفور وبين الفصل من وظائفهن، ولم تنج حتى النساء من حملة الاعتقالات الواسعة التي عمت البلاد، واصطف جنود الشرطة البواسل صامدين رابضين كالأسود على بوابات الجامعة ودور التعليم، للتصدي لأي طالبة منقبة تسول لها نفسها دخول الجامعة بهذا النقاب الساتر، وذلك الجلبات السابغ الذي وصفه بأنه «خيمة»: فرعونٌ حقيرٌ يرقد الآن في مَزْبلة التاريخ، وحسابه على اللَّه.

---

(١) من مقالة بعنوان «هذه دعاوى غير إسلامية» مجلة حواء.

بل هذه زوجة هذا الفرعون تدلي قبل أن تدور عليها دائرة السوء وهي في قمة غرورها ـ ولا أقول مجدها ـ بحديث إلى مجلة «ماري كلير» الفرنسية المتخصصة في شئون المرأة حول ما يتعلق بالمرأة الشرقية من عرف وتقاليد متوارثة كالحجاب وختان الفتيات[١] وجريمة الزنى، وذلك خلال أربعة أسئلة وجهتها الصحافية الفرنسية «كاتي برين» التي زارت مصر أخيراً لإجراء هذا الحوار وكان السؤال الأول:

انتشرت عادة الحجاب بين الفتيات في مصر، فما رأي السيدة «جيهان السادات» في تلك الظاهرة؟

فأجابت: «إنني ضد الحجاب؛ لأن البنات المحجبات يخفن الأطفال بمنظرهن الشاذ، وقد قررت «بصفتي مدرسة بالجامعة» أن أطرد أي طالبة محجبة في محاضرتي، فسوف آخذها من يدها، وأقول لها: «مكانك الخارج»، وفي نظري فإن المسئولية تقع على عاتق أساتذة الجامعات، فهم سبب في انتشار هذه الظاهرة، فإذا قام أستاذ بطرد فتاة واحدة من محاضراته مرة واثنتين فسوف تقلع الفتيات عن ارتداء الحجاب.

وتستطرد قائلة: إن التحجب ليس بالشكل وبارتداء الأقنعة، فالإسلام لم يدع إلى ارتداء الحجاب، إنما تلك مسائل تفصيلية بعيدة عن جوهر الإسلام وعن مبادئه الأساسية، ثم تذكر في نهاية الحوار أنها تعمل ليل نهار حتى تحقق للمرأة المصرية بعض حقوقها، وأن أبرز ما أنجزته هو صدور قانون الأحوال الشخصية الجديد، ثم ذكرت أنها دائمًا «تعاكس» زوجها في طلباتها للمرأة، ولكنه يجيب بقوله: «إن هذه ليست هي اللحظة المناسبة»، وتقول: «ولكني أعاود، وألح عليه في طلباتي من أجل المرأة»[٢].

---

(١) انظر «الصحافة والأقلام المسمومة» ص(٧٢ ـ ٧٣).

(٢) ملحق جريدة (القبس) العدد (٢٦٢٥) تاريخ الإثنين ٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٠.

ويتضح من هذا الحديث أن ظاهرة «عودة الحجاب» كانت قد أخذت في الانتشار السريع، وكادت تفرض نفسها كواقع يكشف الحقيقة للمخدوعين والمخادعين على السواء، لو لا أن «الأكابر» بدأوا يبيتون «وأد» هذه «العودة» قبل أن يفلت الزمام، فبدأت الدوائر السياسية والصحافية تمهد للحملة المجنونة التي توجتها السلطة بمذبحة (سبتمبر ١٩٨١م).

* **المعركة مستمرة:**

أعداء الحق في كل عصر على وتيرة واحدة، وقلوبهم متشابهة فيما يرد عليها من الخواطر والشئون، وعلى المسلمة الصادقة أن توقن أن المعركة بين الحجاب والسفور، بين الحق والباطل، بين الإيمان والكفر، لا تنقطع، فإن التاريخ يعيد نفسه، وإن هذه سنة اللَّه في خلقه ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ [فاطر: ٤٣].

ألا إنما الأيام أبناء واحدٍ وهذي الليالي كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يومٍ ولا غدٍ خلافَ الذي مرت به السنوات

* قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[1] [التوبة: ٧٣].

● وعن كعب بن مالك مرفوعًا: «**اهجوا بالشعر، إن المؤمن يجاهد بنفسه وماله، والذي نفس محمد بيده كأنما تنضحوهم بالنبل**»[2].

---

(١) قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: ﴿جاهد الكفار﴾ بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالحجة، ﴿واغلظ عليهم﴾ في الجهادين جميعًا، ولا تحابهم، وكل من وُقِفَ منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم الثابت فيه؛ يُجاهَدُ بالحجة، وتُستعملُ معه الغلظة ما أمكن» اهـ من «الكشاف» (١/ ٥١٦).

(٢) رواه الإمام أحمد في «مسنده» وحسَّنه الألباني.

*** فيا كتائب الحق في كل مكان:**

جردوا أسنة العزائم والرد، واستعينوا على رد الباطل بالواحد الفرد، اكشفوا ما في مناهجهم من المؤاخذات، وبينوا ما فيها من الخطأ والغلطات، ليظهر جهل أعداء الحق وفساد أقوالهم للناظرين، ولا عدوان إلا على الظالمين. . فتاللَّه ما بارز جنودَ الحق قَطُّ قِرْنٌ إلا كسروا قَرْنَهُ، فقرع من ندمٍ سنَّه، ولا ناحرهم خصم إلا بشروه بسوء منقلبه وسدوا عليه طريق مذهبه لمهربه.

*** تصدي الشيخ المقدم في كتابه القيم «بل النقاب واجب» للمبتدع إسماعيل منصور صاحب كتاب «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب»:**

❑ يقول سيدنا الشيخ محمد إسماعيل المقدم: «في حال تداعي حملات الغزو الفكري الداخلي والخارجي علينا من كل حدب وصوب، إلى غير ذلك مما يعيشه المسلمون في قالب «أزمة فكرية غثائية حادّة» أفقدتهم ـ إلا من عصم اللَّه توازنهم، وزلزلت كيانهم، وشوّهت أفكارهم، كُلٌّ بقدر ما علّ من أسبابها ونَهل، فصار الدَّخَل، وثار الدَّخَن، وضعفت البصيرة، ووجد أهل الأهواء والبدع مجالاً فسيحًا لنشر إفكهم، ونشر بدعهم، حتى أصبحت في كفِّ كل لاقط، فاستشرت في الآفاق، وامتدت من دعاتها الأعناق، وعاثوا في الأرض الفساد، وتجارت الأهواء بأقوام بعد أقوام، إلى آخر ذلك من الويلات التي يتقلّب المسلمون في حرارتها، ويتجرّعون مرارتها.

❑ وفي غمار ذلك كله تجسّدت الأدلة المادية التي قامت في ساحة المعاصرة على ما ذَرّ قرنه من الخوض في شريعة اللَّه بالباطل، وما تولّد عن ذلك من فتنٍ تغلي مراجلها، لذهاب العلماء، وقعود المتأهلين عن التحمل والبلاغ، وتولى ألسنتهم وأقلامهم يوم الزحف على كرامته:

فبقي الذين إذا يقولوا يكذبوا ومضى الذين إذا يقولوا يصدقوا

❑ وإذا بسرب من المبتدعة يحاولون اقتحام بقايا العقبة لتكثيف الأميّة الدينية وزيادة غربة الإسلام بين أهله.

وإذا بواحد من هؤلاء وقد تشبّع بما لم يُعْطَ، وتزيَّا بزيّ العلم بل الاجتهاد والتجديد، وهو عارٍ عن ذلك كله، وقد راج سوقه على بعض العوام، بما يلفّقه من الخيالات والأوهام، فلما رأى أنه لا مُعارض له من أولئك الطِّغام، شأن الذي يتكلم بين المقابر بما شاء من الكلام، صَدّق نفسه، وتخيّل لذلك أنه من العلماء الأعلام، فرفع عقيرته بدعوى هي أوسع من الغبراء، وأكبر من أن تظلها الخضراء!

دعوى لو قالها قائل لعمر لهاجت شرَّته، ولبادرت بالجواب درَّته..

دعوى لا تقوم على قَدَمي الحق، بل ولا على قَدَميْ باطل وحق..

دعوى مخترعة محدثة لم يُسبَق صاحبها إليها، ولا مُساعِد له من أهل العلم عليها.. دعوى فاسدة يغني فسادها عن إفسادها، وباطلة يغني بطلانها عن إبطالها.. دعوى كاسدة لا تستحق النظر فيها، فضلاً عن الاشتغال بالردّ عليها.. إنها دعوى.

[أن المحجبة المنقّبة آثمة عاصية مجرمة، مستحقة لعقاب اللَّه وغضبه، بسبب ارتدائها النقاب، وأن المتهتكة المتبرجة أفضل منها؛ لأنها أقل ابتلاءً، وأقرب إلى سواء السبيل!!][1].

ولو كانت دعواه حبيسة الأوراق، رهينة الأدراج لهان الأمر، ولكان من الخطأ الردّ عليها، وتنبيه المسلمين إليها؛ لأنه يكون حينئذ إشهاراً لفكرة ماتت في مهدها، ولفتًا لأنظار المسلمين لينظروا في زيفها..

---

(١) «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب» ص(٢٢٦ ـ ٢٢٧).

أما وقد نشرها وأذاعها، وادّعى أن أحدًا لا يستطيع هدمها، وفهم أن سكوت أهل العلم عنه ليس له من تفسير سوى أنهم برمتهم عاجزون عن دحض شبهاته، وكشف مفترياته[١] ، شأنه في ذلك شأن «دونكيشوت» ذلك الرجل الأسباني الذي كان لا يجد مجالاتٍ لإثبات بطولته الفذّة سوى أن يتوجّه إلي «طواحين الهواء» يبارزها بسيفه، وأخيرًا ينتصر عليها، ويحطمها!!

وإذا ما خلا «الفَعَالُ» بأرض طلب الطَّعن وحده والنزالا

وقد أشار بعض الفضلاء بتعيّن التصدي لهذا الباهت المجازف، لكشف ما شَبَّه به من الكلام، وقد استخرت اللَّه تعالى في ذلك، وإني أسأله عز وجل أن يلهمني رشدي، وأن يعيذني من شر نفسي، هذا وأنا المقرّ بالتطفل على أهل الشأن، ولكن الضرورة ألجأتني وأمثالي إلى الكلام، كما قال أبو علي البصير:

لعَمْرُ أبيك ما نُسِبَ المُعَلّى إلى كرمٍ وفي الدنيا كريمُ
ولكن البلاد إذا اقْشَعَرّتْ وصَوّح نبتها رُعي الهشيمُ»[٢]

زادك اللَّه علوًّا بتواضعك.. بل أنت لها وأنت نبت الإسلام.

الإسلام الكريم.. ويأبى الزرع إلا طبيعته، ولقد أثمر غرسك في أمتك بساتين وأزاهير وعطر فوّاح يعبق الوادي أريجه الطيب، وكما قال ﷺ: **«لا يزال اللَّه يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة»**.

---

(١) يقول الشيخ محمد إسماعيل عن إسماعيل منصور في كتابه «بل النقاب واجب» ص(٥) «بل بلغ اغتراره بإهمال العلماء إياه، وإعراضهم عنه أنه عدّ سكوتهم عنه إقرارًا لمذهبه الباطل، اسمعه وهو يقول في معرض الردّ على أحد مخالفيه: «هل كان يمكن أن يسكت علينا سائر علماء الأمة في المشارق والمغارب بعد نشر هذا الأمر وذيوعه؟؟ وبعد مرور حوالي العامين على ذلك على وجه التقريب؟؟» اهـ. من جريدة «النور» ٢ ربيع الآخر ١٤١١هـ.

(٢) «بل النقاب واجب» للشيخ محمد إسماعيل المقدم ص(٤ ـ ٦) دار العقيدة للتراث.

❑ وعلى يد الشيخ المبارك كأن «وأد» بنات أفكار المبتدع وبدعه في كتابه «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب».

❑ يقول الشيخ محمد إسماعيل ـ حفظه اللَّه ـ:

«فقد أسفر الصبح لكل ذي عينين، ورُدّ الحق إلى نصابه، وبان خطأ الرجل من صوابه، لذا نقول:

قد أينعت الحقائق، وحان قطافها، ولقد صغا نجم الكاتب للأفول، وخرج ـ ولم يدخل قبلُ ـ من جملة العلماء الفحول؛ لأنه لبس رداء غيره، فصار عبرةً من العِبَر، وعِظَةً لمن ادَّكر، وأحسب أنه لا يَسَعُ كُل منصف إلا أن يشهد، ويقيم الشهادة للَّه: أن مثل هذا الكتاب لا يُصنّف في قوائم البحوث العلمية، ولا مكان له في درجاتها حتى ولا على أحطّها، فكيف وقد قام على التمويه، والكذب العلمي، وغير ذلك مما يتأبّى عليه الإنسان الكريم؟!

أما هذا الزبد الذي تضمّنه فعسى أن تبتلعه حنايا النسيان، وتلفّه طوايا الإهمال، فهذه سنة اللَّه التي لا تتبدّل، وهذه صحائف التاريخ قديمه وحديثه ناطقة بذلك، وإلاّ فأين «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرازق؟ وأين «في الشعر الجاهلي» لطه حسين؟

وأين «أضواء على السنّة المحمدية» لمحمود أبو ريّة؟

وعما قريب إن شاء اللَّه ستمضي القافلة قدمًا، وتطأ الأقزام، وتزيح المبتدعين من طريقها، ويومها ـ بإذن اللَّه ـ نضيف:

أين «السنّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»؟!

وأين «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب»؟!

وأين.. وأين.. وأين؟!

وكما فشلت ترسانة الدعاية في مصر من قبل، ستفشل هذه المرة أيضًا بعون اللَّه وحده، بل سيكون فشلها في هذه المرة ساحقًا ماحقًا، بعد انكشاف أمرها؛ لأنها تسبح اليوم ضد تيار قويّ غلاب، ترعاه عناية اللَّه سبحانه ويحفه توفيقه، ويمده مدده الذي لا ينفد، وجنوده التي لا يعلمها إلا هو.

فيا طالب الأخرى ويا مبتغي الهدى ليسعد عند اللَّه في يوم يُسألُ
لعمري لهذا الحقُّ يعلو مناره عليك به إن الأباطيل تسفُلُ

❑ وإلى هنا: «كَلّ القلم من شدة الألم، وضاقت النفس من قوة الرَّفس.. فأرجو أن أكون أزحتُ الستار، وبيّنت العوار، ومن لم يستره الليل لا يستره النهار، ومن لم ير بالتوبة الجنة، فسيرى بالأبصار النار، والأمر للَّه الواحد القهّار»[1، 2].

* الشيخ المقدم نصير المرأة المسلمة وغراسه، وقاسم أمين وغسلينه وزقومه الدنيوي:

كل إناء بما فيه ينضح.. وشجر التفاح لا يثمر إلا التفّاح وشجر الحنظل لا يثمر إلاّ مرًّا.

لقد قام شيخنا المقدم للَّه قومة صدق وحق، ودافع دفاع الميامين عن المرأة المسلمة وعفتها ونقابها وردّ أضابير العلمانيين أنصار قاسم أمين من روّاد الصالونات النسائية ومحافلهن ومراقصهن.. قاسم أمين الذي بلغ به قحته وتبجحه أن قال: «ليس في الشريعة نص يوجب الحجاب، إنما هو عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها، وألبسوها لباس الدين، أما خوف الفتنة، فإنه يتعلّق بقلوب الخائفين من الرجال، وليس على النساء

(١) «بل النقاب واجب» ص(٢٢٨ ـ ٢٢٩).
(٢) انظر «القول الكريم الغالي» للشيخ أبي بكر الجزائري ـ حفظه اللَّه ـ ص(٦٢).

تقديره ولا هن مطالبات به».

❑ ثم يقول ساخرًا: «مستهزئًا بالسنة ليرضي وليّ نعمته الأميرة نازلي».

«ولماذا لا يُؤمر الرجال بالتبرقع خوفًا على النساء من الفتنة؟ هل المرأة أقوى عزيمة من الرجل وأقدر على ضبط النفس».

ولا نملك إلا أن نقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

لقد أخرجت دعوة محمد إسماعيل السلفية بجهده وجهد إخوانه وتلاميذه آلاف الطاهرات العفيفات القانتات المتبتلات الصائمات الذاكرات..

فما الذي أخرجته دعوة قاسم أمين:

ـ هدى شعراوي ابنة «محمد سلطان» الذي خان الثورة العرابية.. هدى شعراوي التي ألقت الحجاب «النقاب» على شاطئ الإسكندرية، هدى شعراوي التي طالبت بإزالة الفوارق الدينية بين الشعوب.

ـ ودرية شفيق التي أيدت الاحتلال الانجليزي لمصر، وكانت السفارتان الانكليزية والأمريكية تمولانها هي وحزبها «حزب بنت النيل».

ـ وأمينة السعيد التي تصف الحجاب بأنه «كفن ككفن الموتى» وتصف المحجبات بأنهن كالعفاريت.

ـ ونوال السعداوي، وإقبال بركة.

وكل حنظل وزقوم وغسلين دنيوي..

❑ ثمار قاسم أمين وحنظله تراه الآن على شواطئ البحار.. وفي دور الخيالة.. وفتيات الفيديو، وحفلات مارينا، والمراقص، وبنات الاستربيتز، وعبدة الشيطان، ثم تعال معي إلى جزاء دنيوي عجّله اللّه لقاسم أمين ما ذكره الدكتور فهد بن عبدالرحمن الرومي ـ حفظه اللّه ـ في كتابه القيم

«منهاج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» يقول:

«بقي.. وقفة.. وهمسة:

وقفة مع محمود عوض الذي أبدى دهشته وأسفه لتحوّل منزل قاسم أمين إلى «كباريه» .. كباريه اسمه.. اسمه «الإريزونا!»[1] . وهمسة نهمسها في أذن محمود عوض هذا: ألا تستقي العبرة.. ألا تستوحي من هذا أن هذه «الدعوة» توصِّل إلى هذه «النتيجة»[2] .

❑ قسمة عادلة والجزاء من جنس العمل.. وأقول للشيخ محمد إسماعيل فيما سطرّته يداي حبًّا له في اللَّه:

يا زهر آمال البلاد وحبها ... يا حادي الغرباء للأوطان
وسمي حبر وطب هدي نبينا ... أعني البخاري العظيم الشان
يا ابن إسماعيل ويا بقية سلفنا ... ارو الغليل بشيخنا الألباني
وانشر علوم السابقين وداونا ... للَّه درك من فتى ربّاني
يا حسن «عود للحجاب» سَطَرته ... من نبض قلبك في حُلى التبيان
لا تنسنا من طيب صالح دعوة ... بظهرِ الغيوب لحبك العفّاني

* المدافع عن الهوية الإسلامية:

❑ يقول الشيخ محمد إسماعيل المقدم ـ حفظه اللَّه ـ تحت عنوان «هويتنا عقيدتنا»: «الهوية الإسلامية في المقام الأول انتماء للعقيدة، يترجم ظاهرًا في مظاهر دالة على الولاء لها، والالتزام بمقتضياتها، فالعقيدة

(١) «أفكار ضد الرصاص» لمحمود عوض ص(٥٧) ـ سلسلة اقرأ ـ دار المعارف بمصر أكتوبر ١٩٧٢م.

(٢) «منهاج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» ص(٧٧٢).

الإسلامية التوحيدية هي أهم الثوابت في هوية المسلم وشخصيته، وهي أشرف وأعلى وأسمى هوية يمكن أن يتصف بها إنسان، فهي انتماء إلى:

أكمل دين، وأشرف كتاب نزل على أشرف رسول إلى أشرف أمة، بأشرف لغة، بسفارة أشرف الملائكة، في أشرف بقاع الأرض، في أشرف شهور السنة، في أشرف لياليه وهي ليلة القدر، بأشرف شريعة وأقوم هدي.

وفي القرآن الكريم مدح وتعظيم لهذه الهوية، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

* وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

* وقال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾.

* وقال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

* وقال جل جلاله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، ونحن لسنا منطقة (الشرق الأوسط) لكننا منطقة (الأمة الوسط)، وقال عز وجل في شرف هذه الهوية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم ذكر حيثيات هذه الخيرية: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

❑ أما اليهود: فأمة عنصرية؛ تؤمن بتفوق الجنس الإسرائيلي، ويصفون اللَّه تعالى بأنه (إله إسرائيل)، والأمم الأخرى (الجوييم) خُلقوا لخدمة اليهود، (ولذلك لا تبشير في اليهودية) قيل: يخافون أن يشاركهم الناس في الجنة!

فالمؤمنون الصادقون هم خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، فهذه مؤهلات الخيرية عند اللَّه تعالى، ومن ثم كان بعض المجاهدين الفلسطينيين يواجه «كاهنًا» بقوله: «نحن شعب اللَّه المختار».

إن الهوية الإسلامية انتماء إلى اللَّه عز وجل، وإلى رسول اللَّه ﷺ، وإلى عباد اللَّه الصالحين وأوليائه المتقين، من كانوا، ومتى كانوا، وأين كانوا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وقال عز وجل: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، وقال تبارك وتعالى على لسان المؤمنين: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

قوم تخللهم زهو بسيدهم ... والعبدُ يزهو على مقدار مولاهُ
تاهـــوا به عمـن ســـواه له ... يا حُسْنَ رؤيتهم في حسن ما تاهوا

وكل مسلم يقول في صلاته: «السلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين»، ويقول الشاعر:

ومما زادني شرفًا وفخرًا ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك: «يا عبادي» ... وأن صيَّرتَ أحمدَ لي نبيًّا[1]

ويقول ـ رحمه اللَّه ـ: «فإذا نظرنا إلى مكائد الغرب ضد هويتنا

(١) «هويتنا أو الهاوية» للشيخ محمد إسماعيل المقدم ص(١٢ ـ ١٤) ـ دار الصفوة.

المسلمة لعلمنا أن هدفهم الأعلى هو طمس هويتنا، باستبدالها بأخرى أيًّا كانت، سواء هوية وثنية أو قومية، أو قطرية تفتتنا وتشتت شملنا؛ لأن الهدف هو الحيلولة دون أن يكون الإسلام عماد الحاضر والمستقبل، أو هوية عالمية تميع انتماءنا لديننا، المهم هو محو الهوية الإسلامية المتميزة، فصرنا كمن قيده عدوه، بعد أن جرده من سلاحه وانتزع أظفاره، وخلع أسنانه، ثم وضع الغُلَّ في عنقه، والقيد في معصمه وإذا به يشكر له هذا الصنيع، ويفخر بالغل، ويتباهى بالقيد ويعتز بأنه «عبد» لهذا السيد»[1].

أعداء الهوية في الداخل

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

إن تشويه الهوية وإضعافها عمل إجرامي تآمري، يرقى ـ بل ينحط ـ إلى مستوى الخيانة العظمى لأمة التوحيد، قال الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر السابق ـ رحمه اللَّه تعالى ـ : «إن البحث عن هوية أخرى للأمة الإسلامية خيانة كبرى، وجناية عظمى».

وقد لعن رسول اللَّه ﷺ من غير منار الأرض[2] ، فكيف بمن يُغَيِّر هوية أمة، ويُضلها عن طريق النجاة؟

إن التاريخ المعاصر حافل بنماذج بشعة من ممسوخي الهوية، الذين كانوا «يُخْربون هويتهم بأيديهم»، فمنهم على سبيل المثال لا الحصر، وإلا فما زالت الشجرة الخبيثة تُخْرج نكَدًا:

١ ـ مصطفى كمال أتاتورك: الذي مسخ هوية تركيا الإسلامية بالقهر، والذي قال: كثيرًا ما وددت لو كان في وسعي أن أقذف بجميع الأديان في

(١) المصدر السابق ص(٤٩ ـ ٥٠).

(٢) رواه مسلم في كتاب الأضاحي رقم (١٩٧٨).

البحر»، وهو الذي ألغى الخلافة، وعطل الشريعة، وألغى نص الدستور على أن الإسلام هو الدين الرسمي للبلاد، وألغى المحاكم الشرعية، والمدارس الدينية، والأوقاف، وألغى الحروف العربية واستبدلها باللاتينية، وكان يقول: «انتصرت على العدو وفتحت البلاد، هل أستطيع أن أنتصر على الشعب؟».

ونشرت «الأهرام» بتاريخ ١٩٦٨/٢/١٥ وثيقة نقلتها عن جريدة «صنداي تايمز» تحت عنوان (كمال أتاتورك رشح سفير بريطانيا ليخلفه في رئاسة الجمهورية التركية)، قال الصحيفة: «إنه في نوفمبر ١٩٣٨م كان أتاتورك رئيس تركيا يرقد على فراش الموت، وكان يخشى أن لا يجد شخصًا يخلفه، قادرًا على استمرار العمل الذي بدأه، فاستدعى السفير البريطاني «بيرس لورين» إلى قصر الرئاسة في إستانبول، وعرض عليه أن يخلفه في منصب الرئيس، وبلباقة رفض السفير وأبرق إلى وزير خارجيته بما دار بينه وبين أتاتورك!».

٢ ـ **أغا أوغلي أحمد**: أحد غلاة الكماليين الأتراك، القائل: «إننا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغاربيين حتى الالتهابات التي في رئيهم، والنجاسات التي في أمعائهم».

٣ـ **أحمد لطفي السيد**: خصم العروبة والوحدة الإسلامية، وصاحب شعار: «مصر للمصريين»، والنعرة الفرعونية، ويكفي في بيان عدائه للهوية الإسلامية أنه كان يصف نص الدستور على أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام بأنه: «النص المشئوم»!.

٤ ـ الرجل الذي قال في حقه شيخ الأزهر الأسبق العلاَّمة «التونسي» محمد الخَضِر حسين ـ رحمه اللَّه ـ: «وقد وصل ببعضهم الشغف بالانحطاط في هوى الأجانب، والانغماس في التشبه بهم أن اقترح في غير خجل قلب هيئة المساجد إلى هيئة كنائس، وتغيير الصلوات ذات القيام والركوع والسجود

إلى حال الصلوات التي تؤدى في الكنائس».

ثم علق ـ رحمه اللَّه ـ على ذلك الاقتراح بقوله: «وهذا الاقتراح شاهد على أن في الناس من يحمل تحت ناصيته جبينًا هو في حاجة إلى أن توضع فيه قطرة من الحياء».

٥ ـ طه حسين: عميد التغريب، وداعية التبعية المطلقة للغرب حتى في مفاسده وشروره، والقائل: «لو وقف الدين الإسلامي حاجزًا بيننا وبين فرعونيتنا لنبذناه».

وقد طالب «عميد التغريب»: «بأن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادًا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يُكره، وما يُحمد وما يُعاب» اهـ.

فلا عجب أن قال المستشرق ماسينيون: (لو قرأنا كلام طه حسين لقلنا: «هذه بضاعتنا رُدَّت إلينا»).

٦ ـ محمود عزمي: الذي أعلن أن سبب مقته الحجاب مقتًا شديدًا: «هو اعتباره من أصل غير مصري، ودخوله إلى العادات المصرية عن طريق تحكم بعض الفاتحين الأجانب، فكان حنقي على أولئك الأجانب الفاتحين الإسلاميين يزيد».

والقائمة طويلة ستجد فيها: سلامة موسى، ولويس عوض، وجرجي زيدان، وفرج فودة، وحسين أحمد أمين، وزكي نجيب محمود، وغيرهم ـ لا كثَّر اللَّه سوادهم.

* * *

فرسان الدفاع عن الهوية

هم كُثرٌ والحمد للَّه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ على رأسهم رجل كل العصور: شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه اللَّه ـ ومن أراد أن يفهم قضية الهوية حق الفهم فليدرس كتابه الفذ: «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، ومنهم الأديب البارع مصطفى صادق الرافعي[1]، والدكتور محمد محمد حسين، والأديب العملاق محمود شاكر والشيخ أبو الحسن الندوي ـ رحمهم اللَّه أجمعين ـ وسائر العلماء والمفكرين والدعاة في كافة بلاد العالم الإسلامي»[2].

ويقول ـ حفظه اللَّه ـ: «لماذا تُقَدسُ الحرية الدينية لكل من هَبَّ وَدَبَّ، وفي نفس الوقت تُشَنُّ الحروب «الاستراتيجية» على المظاهر الإسلامية كاللحية والحجاب، حتى إنه لتعقد من أجلها برلمانات، وتصدر قرارات، وتثور أزمات، وتُجَيَّش الجيوش، وتُرابِطُ القوات، هذا ونحن أصحاب الدار، و:

كلُّ دارٍ أحَقُّ بالأهل إلا ... في رديء من المذاهب رِجْسِ

أحرام على بلابله الدَّوْحُ ... حلالٌ للطيرِ من كل جنسِ؟

لماذا تكافح العالمانية الدعيَّة الزنيمة التي لا تعرف شرف الخصومة، في سبيل طمس ووأد معالم وشعائر الهوية الإسلامية؟

أفكل هذا من أجل ما أسموه «قشوراً»؟ كلا، بل هم يدركون ما لهذه المظاهر من دلالة حضارية عميقة، ويدركون أنها رمز يتحدى محاولات التذويب والتمييع، ويصفع مؤامرة استلاب الهوية، كمقدمة للإذلال والاستعباد.

---

(١) ومعاركه ضد طه حسين يعلمها القاصي والداني.

(٢) «هويتنا أو الهاوية» ص(٥١ ـ ٥٧).

إن من يتخلى عن «القشرة الإسلامية» سيتغطى ـ ولا بد ـ بقشرة دخلية مغايرة لها، فلا بد لكل «لب» من «قشر» يصونه ويحميه، والسؤال الآن: لماذا يرفضون «قشرة» الإسلام، ويرحبون بقشرة غيره: فيأكلون بالشمال، ويحلقون اللِّحَى، ويُلبِسون النساء أزياء من لا خَلاَقَ لهن، ويلبسون القبعة، ويُدَخِّنون «البايب» والسيجار؟

إن تقسيم الدين إلى «قشر ولب» تقسيم غير مستساغ، بل هو محدث ودخيل على الفهم الصحيح للكتاب والسنة، ولم يعرفه سلفنا الصالح الذين كل الخير والنجاة في اتباعهم واقتفاء آثارهم ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**﴾ وهذه القسمة إلى قشر ولب، ظاهر وباطن ـ يتبعها المناداة بإهمال الظاهر احتجاجًا بصلاح الباطن ـ تلقى رواجًا عند المستهترين والمخدوعين، حينما يرون القوم يسمون المعاصي بغير اسمها.

وقسمة الدين إلى قشر ولب تؤثر في قلوب العوام أسوأ تأثير، وتورثهم الاستخفاف بالأحكام الظاهرة، وينتج عنها الإخلال بهذه الأمور التي سميت قشورًا، فلا تلتفت قلوبهم إليها، فتخلو من أضعف الإيمان ألا وهو الإنكار القلبي الذي هو فرض عين على كل مسلم تجاه المنكرات.

والتفريط في مُحَقَّرات الأعمال يؤدي إلى التفريط في عظائمها؛ لأن استمرار هذا التفريط يتحول مع الزمن إلى عادة تنتهي بصاحبها إلى قلة الاكتراث بأمور دينه، والتهاون بها.

ونحن إذا تسامحنا معهم في هذه القسمة إلى قشر ولب، فإننا نلفت أنظارهم إلى أن قياس أمور الدين على الثمار من حيث إن لكل منها قشرًا ولبًّا، وظاهرًا وباطنًا، لا يعني أن القشرة التي أوجدها اللَّه للثمرة خُلقت عبثًا، حاشا وكلاَّ، بل لحكمة عظيمة وهي المحافظة على ما دونها وهو اللب نفسه، وهذا يَحمِلُنا على أن لا نستهين بالقشر من حيث كونُه حارسًا أمينًا

على اللب، وهكذا الشأن في أمور الدين الظاهرة»[1].

* هل ستعود إلى المسلمين هويتهم؟

❑ يقول الشيخ محمد إسماعيل: «هذا السؤال يمكن صياغته بعبارة معادلة: هل سيعود إلى المسلمين مجدهم وسيادتهم؟ وذلك نظراً للتلازم بين التسمك بالهوية وبين التمكين للدين.

الجواب: نعم، كما وعدنا اللَّه ورسوله ﷺ، وصدق اللَّهُ ورسولهُ، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «.. **ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**».

* وقال اللَّه تعالى في صفة الذين سيسلطهم على اليهود إن عادوا إلى الإفساد في الأرض: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، وأخبر ﷺ أن الهوية الإسلامية ستكون هي هوية الذين يقاتلون اليهود، حتى إن الحجر والشجر ليقول: «**يا مسلم يا عبداللَّه، هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله**» الحديث، فالإسلام وعبادة اللَّه وحده هو مفتاح النصر والتمكين، أما شعارات الدجاجلة الذين بدلوا نعمة اللَّه كفراً، والذين هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، فهؤلاء ستجرفهم سنة اللَّه ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾، فما هؤلاء الضالون المضلون من دعاة التغريب والقومية والعالمانية.. إلخ سوى «فقاقيع» سنحت لها الفرصة لتطفو على السطح، ثم تتلاشى كأن لم تكن، وسينتصر الإسلام رغم أنف الجميع.

إن العالم الإسلامي هو الآن الأجدر بالوصاية على المجتمع البشري،

---

(١) «هويتنا أو الهاوية» ص(٧٩ ـ ٨٣).

بعد انسحاب الأديان الأخرى من معترك الحياة، وبعد انهيار الشيوعية الملحدة، وإفلاس الغرب المادي من القيم الروحية السامية، والعالم الإسلامي له في المجد نسب عريق، وطريق عميق، وله حضور تاريخي متميز، ويملك مقومات الانطلاقة المستقبلية الجادة، إنه صاحب القوة الكبرى الكامنة التي يحسب لها الغرب ألف حساب ـ رغم ضعفه البادي ـ ومن أجل ذلك كان له الحظ الأوفر من مؤامرات تحطيم الهوية ومسخها، وفوق ذلك كله هو عالمٌ ـ إن عاد إلى هويته ـ فهو موصول بالسماء، مؤيد بالمدد الرباني الذي لا يضعه الغرب في حساباته، قال تعالى: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾.

ولنتأمل هذه «العبارة» التي نطق بها عدو لدود، ولكن لكونها توافق سنن الكون نقول: «صدق وهو كذوب»، فقد قصَّ الأستاذ يوسف العظم ـ رحمه اللَّه ـ أن وزير الحرب اليهودي «موشي ديّان» لقي في إحدى جولاته شابًّا مؤمنًا في مجموعة من الشباب في حيٍّ من أحياء قرية عربية باسلة، فصافحهم بخبث يهودي غادر، غير أن الشاب المؤمن أبى أن يصافحه، وقال له: «أنتم أعداء أمتنا، تحتلون أرضنا، وتسلبون حريتنا، ولكن يوم الخلاص منكم لا بد آتٍ بإذن اللَّه، لتتحقق نبوءة الرسول ﷺ: «**لتقاتلن اليهود، أنتم شرقي النهر وهم غربيّه**»، فابتسم «ديان» الماكر، وقال: «حقًّا! سيأتي يوم نخرج فيه من هذه الأرض، وهذه نبوءة نجد لها في كتبنا أصلاً.. ولكن متى؟» واستطرد اليهودي الخبيث قائلاً: «إذا قام فيكم شعب يعتز بتراثه، ويحترم دينه، ويقدر قيمه الحضارية.. وإذا قام فينا شعب يرفض تراثه، ويتنكر لتاريخه، عندها تقوم لكم قائمة وينتهي حكم إسرائيل».

فهل من معتبر..؟!»[1].

* يا ناطح الجبل العالي لتكلمه:

ولقدر الشيخ الجليل محمد إسماعيل، ولتعريته الدائمة لأعداء الهوية الإسلامية ولقيمة مؤلفاته «عودة الحجاب»، «أدلة تحريم حلق اللحية» «هويتنا أو الهاوية» «بدعة تقسيم الدين إلى قشر ولباب» ودروسه القيمة عن السلفية «السلفية لماذا؟» قامت جيوش العلمانيين وصحفهم السوداء التي تقطر سمًّا تهاجم الشيخ وتنعته روزاليوسف بنعوت هو أشد الناس بُعدًا عنها، وتصدى له الموتورون من الأقزام، وروّاد التنويريين من الشعراء والأدباء المارقين ولكنا نقول لهم، ما يفيد السحاب نبح الكلاب.. هو ملء السمع والبصر يحبه كل مسلم غيور.

ومن عجب أني أحنّ إليهمُ ... وأسأل شوقًا عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها ... ويشكو النّوى قلبي وهم بين أضلعي

نقول لهؤلاء الأقزام:

يا ناطح الجبل العالي لتُكلِمَه ... أشفقْ على الرأس لا تشفق على الجبلِ

* * *

(١) «هويتنا أو الهاوية» ص(٨٦ ـ ٨٩).

* المدرسة السلفية بالإسكندرية وأثرها المبارك في مصر:

✍ أقولها خالصة لوجه اللَّه عز وجل لو أتيح لشيوخها فرصة الانتشار بمصر لصبغوا مصر كلها بالصبغة السلفية ولتخرّج على أيديهم كوادر علمية على درجة عالية من الكفاءة تسد ثغرًا من ثغور الدعوة إلى اللَّه.

❑ ونخص بالذكر الشيخ أبا إدريس محمد عبدالفتاح، وشيخ الوعاظ وكبير المربين أستاذنا الحبيب العابد الورع طيب الذكر الشيخ الدكتور أحمد فريد، من تعلمنا الوعظ على يديه.. وأثر فينا نور وجهه وخشوعه وربّانا بلحظه قبل لفظه، وفضيلة الشيخ الدكتور سعيد عبدالعظيم وجهده الطيب المشكور على مدار سنين طويلة من الدعوة والنصح والتوجيه، والشيخ الدكتور أحمد حطيبة وأثره الطيب في باكوس.. وسل مسجد نور الإسلام فعنده الخبر العجيب.

❑ وشقيق الروح مربي الرجال الداعية الفذّ الذي وضع اللَّه له القبول في أوساط الشباب وتخرج على يديه كوادر من المدرسين الذي أحاطوا بدقائق عقيدة السلف وللَّه ما أحلى غرسه فيهم.. وهذا من عاجل الجزاء له وعاجل البشرى للمؤمن.. ويشكر له جهده وعلو همته العجيبة في الدعوة إلى اللَّه عز وجل فضيلة الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه اللَّه.

❑ وأشهد اللَّه أنه من الرجال الذين تعرفهم في وقت المحن والشدائد فتحبهم، وتحب فيه سعة أفقه، وصبره على العبادة، ولين جانبه، ويشكر له دفاعه العظيم عن عقيدة السلف، وتحريره لمسائلها العلمية.

سيبدو لكم في مضمر القلب والحشا سيرة حب يوم تبدو السرائر

❑ فاللَّهم بارك في جهودهم.. وعظّم أجرهم.. وبارك في دعوتهم وأبنائهم وأهليهم.

«وا إسـلاماه»

ولكنّ الإسلام لا بواكي له

هذا زمن ينطق فيه الرويبضة من أقزام العلمانيين المحادين للّه ورسوله الكارهين للإسلام من أمثال سعيد العشماوي إلى حسن حنفي ونصر حامد أبو زيد وسيد القمني وخليل عبدالكريم والجعلان على أشكالها تقع: أدونيس، وعبدالعزيز المقالح، وعبدالوهاب البيّاتي، ومحمود درويش، وصلاح عبدالصبور ونزار قباني وشيخة الإسلام إقبال بركة، وأمينة السعيد، ونوال السعداوي وأمر هؤلاء بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو أشرف أنواع الجهاد، فهو جهاد الخاصة جهاد البيان واللسان، فما كل أحد من عوام المسلمين يستطيع دحض شبهاتهم القاتلة قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا**﴾ أي بالقرآن وحججه وبيناته، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ وجهاد المنافقين إنما يكون بالحجة واللسان.

أيشتم رب قد عبدناه ونسكت إنا إذًا لعبيد سوء!! أيتكلم صبيان العلمانية وعبيد الغرب الكاره للإسلام أصحاب كل قلم داعر وصحيفة لقيطة وتكمم الأفواه التالية لكتاب اللّه، وتقيد الأيدي المتوضئة.

ذنبك أنك ما أذنبت وعارُك أنك ضد العار

لا بد من أن نرفع عقيرتنا للإسلام وبالإسلام عالية.

اصرخ لدينك في الطريق

اصرخ بجرحك في رءوس لا تفيق

قل إنه الطوفان يأكلنا . . ويطعم من بقايانا
كلاب الصيد والغربان والفئران في الزمن العقيم
قد يقول قائل: أنا مضطر لأن آكل خبزًا.
قل له: واصل الصوم. . ولا تفطر بجيفة
صم عن الدنيا . . واجعل فطرك الموت . .

متى اشتد عطشك إلى ما تهوى فابسط أنامل الرجاء إلى من عنده الريّ الكامل وقل قد عيل صبر الطبع في سنيّة العجاف، فعجّل لي العام الذي فيه أُغاث وأعصرُ.

أكْلُ عيشٍ؟؟
لم يمت حُرٌّ من الجوع
ولم تأخذه إلا من «حياة العبد» خيفة
لا . . ولا من موضع الأقذار
يسترزق ذو الكف النظيفة
أكلُ عيشٍ؟؟
كسب قوت . .
إنه العذر الذي تَعلِكُهُ المومِسُ
لو قيل لها كوني شريفة

*** للإسلام وبالإسلام نحيا:**

لإسلامي أعيش أنا لتوحيدي وذا ديني
نقشت حروفه تعلو على كل العناوين
بخط بارز يسمو على كل الميادين
لإسلامي ولو حتى إلى الجدران شدّوني

لإســـلامي ولو حتى إلى النيـــران زفّوني
لإســـلامي لإســـلامي ولو في السوق باعوني
وثـــارات لإســـلامي تعايـشـني تغـذّيني
تبث النـور في روحي وتنبض في شراييـني
وإســـلامي له عرقي له نبضي وتكويني
أنـــا ماذا أكون أنـــا بـــلا ربي بـــلا ديني
أنـــا ماذا أكون أنـــا أجيبوني أجيبوني؟؟

❑ لزامٌ علينا أن نُعَرِّي من تعرى من لباس الدين والتقوى وتعظيم حرمات اللَّه.

❑ لزامٌ علينا أن نرفع الغشاوة عن أعين المسلمين ليروا أعداءهم الذين تربوا على فتات موائد الاستشراق والشيوعية وأتوا إلينا بكل نبت نكد.. وحصائد ألسنتهم تظهر عفونة قلوبهم ﴿**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾.

❑ إنهم يهدمون الثوابت من دين اللَّه دون أي حياء، انظر إلى:

*** محمد سعيد العشماوي الذي تولّى كِبر الطعن في الإسلام وثوابته:**

فهو يرمي المسلمين الأوائل من الصحابة بل وعلى عهد الرسول أنهم بدّلوا دين الإسلام إلى صيغة حربية فيقول باللفظ:

«ويرى بعض المؤرخين أن الإسلام تشكّل في صيغة حربية عندما بدأت أول سرية للمسلمين على قوافل تجارة قريش فيما بين الشام ومكة، ويرى آخرون أن الاتجاه العسكري في الإسلام بدأ من غزوة خيبر».

ويقول عن عصر الصحابة ﷺ: «إن المسلم يحزن أن ينحدر المسلمون الأوائل إلى هذا المنقلب الذي غيّر من روح الإسلام وبدّل من صميم

الشريعة.. لقد صارت السلطة والغرض والورث والصدقة عقيدة غير العقيدة ودنيا بدل الدين، وشريعة عوضًا عن الشريعة.. وطفح على وجه الإسلام كل صراع.. فبثر بثورًا غائرة، ونشر بقعًا خبيثة»[١].

هذا الخبيث يزعم أن الصحابة ﷺ قد بدّلوا صميم الإسلام وغيّروا روحه، وقدموه في صورة شائهة منفرة طافحة بالدمامة والقبح والسوء.

*** العشماوي هو كاسمه:**

الذي قال عن القرآن: إن اتحاد نصه «قد ضيّع الإنسان المسلم، فجعله إنسان النص لا المعنى، إنسان النقل لا العقل، إنسان الحرف لا الروح.

وأنه لم يُطبَّق - في كل العصور الإسلامية - إلا كأمر شاذ، وعُملة نادرة، أو كمجرد نزوة، في ظرف استثنائي..

❑ وأن النص القرآني لا زالت به حتى الآن أخطاء نحوية ولغوية»[٢]!.

❑ ويكذب على اللَّه سبحانه وتعالى وعلى رسوله فيقول: «إن القرآن نزل على المعاني وقصد إليها، وإذا كانت المعاني تقبل التعبير عنها بأكثر من لفظ فقد تضمّن التنزيل صياغتها في لفظ وأجاز النبي أن يعبر عنها بلفظ آخر يفيد معناه»[٣].

* ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ بل القرآن نزل بلفظ يحمل معنى فالإلهي فيه هو اللفظ والمعنى جميعًا، والأحرف السبعة

---

(١) «الخلافة الإسلامية» لمحمد سعيد العشماوي ص(١١٣ - ١١٥) - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠.

(٢) انظر إلى «الخلافة الإسلامية» ص(١٤٧ - ١٤٨)، و«حصاد العقل» للعشماوي ص(٧٢، ٧٣).

(٣) «حصاد العقل» ص(٧٢) للعشماوي - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢.

جميعها تنزيل ووحي من اللَّه.

❑ وصورة الرسول ﷺ الذي قال عنه: «إنه صاحب دعوى».

فيقول: «بدأ النبي دعواه إلى الإسلام بمكة ٦١٠م»[١].

وهو كرجل قانون يعرف جيدًا الفرق بين «الدعوة» وبين «الادعاء» و«الدعوى» من الفعل: «ادّعى» وصاحبها «مُدَّع» فعامله اللَّه بما يستحق.

❑ ويرى أن عقيدة العصمة هي أفكار إسرائيلية دخيلة.

فيقول: «دخلت فكرة عصمة الأنبياء.. إلى الفكر الإسلامي نقلاً عن الفكر المسيحي الذي يؤمن بأن المسيح أقنوم (صورة) للَّه، وأنه لذلك لا يمكن أن يُخطئ؛ لأنه معصوم بطبيعته من الوقوع في الخطأ»[٢].

❑ ويوهم العشماوي القارئ بأن عند محمد رسول اللَّه وعيسى ـ صلوات اللَّه وسلامه عليهما ـ من الوحي ما كتماه عن الناس فيقول:

«لقد دهش بعض مستمعي السيد المسيح من تعاليمه، فعجب من دهشتهم، وقال له: إنه يكلمهم بالأرضيات (أي: في المعارف الدارجة) فما البال لو كلّمهم بالسماويات (أي: بالأسرار الكونية)!!.. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**أوتيت القرآن ومثله معه**». ومفاد قول المسيح وقول النبي أن كلامنهما كان يعرف ما لم يستطع أن يقوله حتى لخاصة خاصته»[٣].

❑ ويقول عن وثيقة دستور دولة المدينة التي وضعها رسول اللَّه ﷺ للدولة الجديدة بأنها «وثيقة شبه جاهلية وليست إسلامية، ولم تُشر إلى القرآن أو تعاليم الإسلام، ولم تنبن على ما فيهما من قيم وأحكام»[٤].

---

(١) «أصول الشريعة» لمحمد سعيد العشماوي ص(٥٦) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩م.

(٢) «أصول الشريعة» ص(١٤٣).

(٣) «أصول الشريعة» ص(١١).

(٤) «الخلافة الإسلامية» للعشماوي ص(٨٠).

وهذا افتراء غير مسبوق، وغير معقول وغير مقبول من العشماوي على رسول اللَّه ﷺ.

ويفتري على الرسول ﷺ بأنه كان يقضي بين الناس جريًا على سنة العرب في الجاهلية[١]، ولقد عارضت كثير من القبائل ما فرضه عليهم من إتاوة أو جزية أو خراج أو رشوة يسوءهم أداؤها، ويذلهم دفعها[٢].

وصوّر رسول اللَّه ﷺ أنه كان يشجع شعر حسان بن ثابت «المقذع.. البذيء»[٣].

وانظر إلى رأيه في «الصدّيق» رضي الله عنه وهو رأي لم يسبقه إليه زنديق.

فيقول: «بدأ فخلط بين حقوق النبي وحقوق الحكام[٤].. فحدث زيوغ في الخلافة، وحيود في الحكم، يبدو جليًّا في اغتصاب حقوق النبي، واشتداد نزعة الغزو، وانتشار الجشع والفساد وظهور القبلية والطائفية»[٥].

«أخذ من حقوق النبي ما ليس له، واغتصب من سلطات الرسول ما لا ينبغي أن يغتصبه، وأكره المؤمنين على ما ليس من الإسلام في شيء [يعني: إصرار أبي بكر رضي الله عنه على دفع الناس للزكاة، وعدم التفريق بينها وبين الصلاة].. وأنشأ في الواقع دينًا جديدًا غير دين النبي، فبدأ بذلك خطوات وضع أحكام دين جديد.. فكانت حروب الصدقة التي أعلنها أبو بكر،

---

(١) انظر إلى «الربا والفائدة في الإسلام» لمحمد سعيد العشماوي ص(١٩، ٤٣، ٤٤، ٤٩، ٧٢، ٩٨)، و«معالم الإسلام» للعشماوي ص(٢٥٤)، و«الإسلام السياسي» للعشماوي ص(١٨١)، و«الشريعة الإسلامية والقانون المصري» للعشماوي ص(٧٠).

(٢) «الخلافة الإسلامية» ص(١٠٢، ٨٦)، و«جوهر الإسلام» للعشماوي ص(٧، ٨).

(٣) «معالم الإسلام» للعشماوي ص(٢٦، ٢٧).

(٤) «الخلافة الإسلامية» ص(٨٦).

(٥) المرجع السابق ص(١٠٢).

وانتصر فيها رأيه وعمله، منحنى خطير في الخلافة، ومنعطفًا شديدًا غيّرها فور نشوئها، ومنقلبًا سيئًا انحدرت إليه عبر تاريخها»[١] .

❑ ويصف عمر بن الخطاب ﷺ «بالتشدّد والغلو»[٢] .

❑ ويصف ذا النورين عثمان بن عفان ﷺ «بالاستبداد» و«الاستعلاء» و«التعابث» و«التخابث» و«التحايل» كل ذلك في نص واحد[٣] .

❑ وقال عن علي كرم اللّه وجهه أنه: «شخص مناور. . ورجل مداور شق عصا الطاعة على الجماعة، وبذر بذور الفتنة في الخلافة وشئون الحكم، وأراق دماء المسلمين في سبيل الملك والإمارة»[٤] .

ويقول عن الصحابة ﷺ: «وساعد لفظ «الخليفة». . وما قد يفيده من معنى وراثة كل الحقوق والالتزامات ـ على بلبلة الفهم، واضطراب التصرفات، وبقاء الغيوم في المحيط الإسلامي، فاضطربت موازينهم، واختلت معاييرهم، وخلطوا بين ما هو للّه وما هو للناس، حتى انتشر ظلام دامس اختفت فيه الحقائق»[٥] .

❑ وقال عن الفقه الإسلامي: «إنه فقه الحيل، التي حرّمت الحلال، وتعدّت على مقام الجلالة ونزعت منازع المشركين عبدة الأوثان، واقتفت أثر الجهال أصحاب الأصنام»[٦] .

---

(١) «الخلافة الإسلامية» ص(٢٣٨، ٥٠، ١٠٢ ـ ١٠٥)، وانظر كذلك «أصول الشريعة» له ص(١٤٩ ـ ١٥٠)، و«حصاد العقل» ص(٧٩ ـ ٨٠).

(٢) «الربا والفائدة» ص(٥٣).

(٣) «معالم الإسلام» للعشماوي ص(١١٧).

(٤) «الخلافة الإسلامية» ص(١١٤، ١١٢).

(٥) «أصول الشريعة» للعشماوي ص(١٣٨، ١٤٩).

(٦) انظر إلى «الربا والفائدة في الإسلام» ص(٥٥، ٤٩).

«وهو فقه حروب ومجتمعات مضطربة، لا فقه سلام ومجتمعات مطمئنة»[١].

* ويقول عن الشريعة:

«إنها «رحمة.. وضمير» لا «قانون وتشريع».. فالدعوة إلى الحكم بشرع اللَّه وحده، هي دعوة إلى أفكار يهودية.

والقواعد والأحكام التشريعية في القرآن مؤقتة بأسباب نزولها، ليس لها إطلاق ولا استمرار.

وبوفاة الرسول ﷺ انتهى التنزيل، وانعدم الوحي.. وسكتت الشرعية الإلهية، وأصبحت الأحكام تاريخية، ليس لها أية قوة ملزمة، أو أي أثر فعّال، بما في ذلك: مبادئ وأحكام الشورى.. والميراث.. والحجاب، والحدود، حتى الخمر فهي غير محرمة في القرآن.. وحتى اللواط فلا عقوبة عليه في الإسلام»[٢].

❑ وأحمد عبدالمعطي حجازي الشاعر وأقواله طوام، ويكفيك ما قاله في جريدة الأهرام يوم الأربعاء ١٠/٧/٢٠٠٢ في مقاله الأسبوعي بعنوان «الإزار والرداء» وعرّج على قول اللَّه تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وهو يرى كالعشماوي أن ألفاظ الآية ليس فيها ما يدل على أن تغطية المرأة شعرها واجب ديني؛ لأن الخمار هو الغطاء دون تحديد.

---

(١) «الخلافة الإسلامية» ص(٢٣٠).

(٢) انظر «الإسلام السياسي» للعشماوي ص(٣٩)، و«معالم الإسلام» ص(١١٦ ـ ١١٨، ١٢٤، ١٢٥).

❑ ونصر أبو زيد الذي يريد الناس أن يتعاملوا مع القرآن كنص أدبي وليس وحيًا إلهيًّا بل يقول في آخر كتابه «وقد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر، لا من سلطة النصوص وحدها، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا، علينا أن نقوم بهذا الآن وفورًا، قبل أن يجرفنا الطوفان»[١] .

وهو يريد زحزحة القرآن عن موكب حياة المسلمين، ويقول إن: «الاحتكام إلى كتاب اللَّه عز وجل لم يكن موجودًا إلا عندما ظهر الخوارج»[٢].

❑ أدونيس: واسمه الحقيقي علي أحمد سعيد، قزمٌ تعملق، كان على النحلة النُصيرية المارقة، ثم تاب على يد إبليس منها، والتحق بالشيوعية وتسمَّى بأحد أسماء آلهة الفينيقيين (أدونيس) وانضم في مقتبل عمره إلى الحزب القومي السوري، وتأثر برئيس الحزب النصراني «أنطوان سعادة»، ثم مال إلى اليهودية بعد عمالة طويلة للماسونية.

ومن نماذج شعره الكفري العفن قوله:

كاهنة الأجيال قولي لنا شيئًا عن اللَّه الذي يولد..

قولي أفي عينيه ما يُعبد..

وقوله: مات إلهٌ، كان من هناك يهبط من جمجمة السماء.

وقوله: لا اللَّه أختار.. ولا الشيطان.. كلاهما جدار..

كلاهما يغلق لي عيني، هل أبدِّل الجدار بالجدار..

---

(١) «الإمام الشافعي، وتأسيس الأيدلوجية الوسطية» لنصر أبو زيد ص(١١٠).

(٢) المصدر السابق ص(٢١).

وقوله: اعبر اعبر.. فوق اللَّه والشيطان..

وقوله: يا أرضنا يا زوجة الإله والطغاة..

وقوله: نمضي ولا نصغي لذلك الإله.. تُقنا إلى ربٍّ جديدٍ سواه..

❑ وعبدالعزيز المقالح:

كاتب وشاعر يمني عَفِن، كان مديرًا لجامعة صنعاء وهو ذو فكر يساري.

ومن نماذج شعر الملحد قوله:

صار اللَّه رمادًا، صمتًا، رعبًا في كف الجلادين..

حقلاً ينبت سبحات وعمائم.. بين الرب.. الأغنية..

الثروة.. والرب القادم من هوليود..

كان اللَّه قديمًا حُبًّا.. كان سحابةً..

كان نهارًا.. في الليل أغنيةٌ..

❑ عبدالوهاب البيّاتي:

وعبدالوهاب البياتي شاعر عراقي ماركسي ومن شعره الكفري قوله:

اللَّه في مدينتي يبيعه اليهود..

اللَّه في مدينتي مشردٌ طريد..

أراده الغزاة أن يكون لهم أجيرًا شاعرًا قواد..

يخدع في قيثاره المذهب العباد..

لكنه أصيب بالجنون..

لأنه أراد أن يصون زنابق الحقول من جرادهم..

أراد أن يكون..

❑ محمود درويش:

وهو عضو الحزب الشيوعي الفلسطيني والمستشار الثقافي السابق لياسر عرفات.. وهذا الذي يُشار إليه بالبنان في المعارض الثقافية الكبيرة.. ويُمثل فلسطين!! أي واللَّه.

❑ ومن شعره الكفري:

كل قاضٍ كان جزّارًا تدرّج في النبوءة والخطيئة..

وقوله: نامي فعين اللَّه نائمة.. عنا وأسراب الشحارير[1].

ويقول في قصيدته «مديح الظلّ العالي»:

«يا خالقي في هذه الساعات من عدمٍ تجلّ... لعلّ لي ربًّا لأعبده لعلَّ

❑ ويقول في قصيدته «المطر الأول»:

في رذاذ المطر الناعم كانت شفتاها

وردة تنمو على جلدي.. وكانت مقلتاها

أفقًا يمتد من أمسي إلى مستقبلي

كانت الحلوة لي

كانت الحلوة تعويضًا عن القبر الذي ضم إلهًا

وأنا جئت إليها من وميض المنجل

والأهازيج التي تطلع من لحم أبي نارًا وآها

❑ ويقول في قصيدة (أهديها غزالاً):

وفي ليل رمادي رأينا الكوكب الفضي

(١) من قصيدته «الموت في الغابة».

ينقط ضوءه العسلي فوق نوافذ البيت
وقالت وهي حين تقول تدفعني إلى الصمت
تعال غداً لنزرعه مكان الشوك في الأرض
أبي من أجلها صلى وصام
وجاب أرض الهند والإغريق
إلها راكعًا لغبار رجليها
وجاع لأجلها في البيد
أجيالاً يشدّ النوق
وأقسم تحت عينيها يمين قناعة الخالق بالمخلوق
فدائي الربيع أنا
وعبدُ نعاسِ عينيها
وصُوفيٌّ الحصى والرمل والحجر
سأعبدهم لتلعب كالملاكِ
وظلّ رجليها على الدنيا
صلاة الأرض للمطرِ

❑ صلاح عبدالصبور:

يقول هذا الهالك التالف الحائر على جائزة الدولة التقديرية!! في شعره الكفري العَفِن:

. . وفي الجحيم دحرجت روح فلان. .
يا أيها الإله كم أنت قاسٍ مُوحش. .

وقوله: والشيطان خالقنا ليجرح قدرة اللَّه العظيم..

وقوله: ملاحنا ينتف شعر الذقن في جنون..

يدعو إله النقمة المجنون..

أن يلين قلبه، ولا يلين..

وقوله: كان لي يومًا إله وملاذي كان بيته..

قال لي إن طريق الورد وعرٌ فارتقيته..

وقوله: حين أبصرت إلهي أسمر الجبهة وردي..

ورقصنا وإلهي للضحى خدًّا لخد..

ثم نمنا وإلهي بين أمواج وورد..

وقوله: وإلهي كان طفلاً.. وأنا طفلاً عبدته..

❑ أمل دنقل:

القائل في شعره الكفري:

المجد للشيطان معبود الرياح

مَن قال لا في وجه من قالوا نعم

❑ فدوى طوقان:

وهي شاعرة فلسطينية يبرأ منها الحجر والشجر في أرض الإسراء، ومن شعرها قولها في حق ربها وخالقها تقول في قصيدة لها بعنوان «مرثاة إلى نمر»:

وأنت يا من قيل عنه إنه هناك..

حان لطيفٌ بالعباد..

أين أنت لا أراك..

دعني أراك.. كي أقول إنه هناك..

❑ وقال راشد حسين في قصيدة له عن مصادرة اليهود لبعض أملاك العرب:

اللَّه أصبح غائبًا يا سـيدي صادر إذن حتى بسـاط المسجد

❑ نوال السعداوي:

المحادة للَّه ورسوله القائلة: كون الإله ذكرًا انحياز إلى الرجال ضد النساء.. هل بعد هذا ردة وزندقة.. هذه الطاعنة في كل ثوابت ديننا.

❑ وشيخة الإسلام إقبال بركة!!

التي تنكر فريضة الحجاب وتشن عليه الحرب الشعواء وتقول: إنه يرمز لعصر الرق والإماء ولا حاجة إليه في عصرنا!! وتكذب أساطين العلم وسادات المحدثين والمفسرين عاملها اللَّه بما تستحق وأخزاها في الدنيا قبل الآخرة..

*** يقول الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي عن أهل الإلحاد:**

«فأهل هذا المذهب أعظم الخلق مكابرة وإنكارًا لأظهر الأشياء وأوضحها، فمن أنكر اللَّه فبأي شيء يعترف ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، وهؤلاء أبعد الناس عن عبودية اللَّه والإنابة إليه، وعن التخلق بالأخلاق الفاضلة التي تدعو إليها الشرائع، وتخضع لها العقول الصحيحة، ومع خلوّ قلوبهم من توحيد اللَّه والإيمان به وتوابع ذلك، فهم أجهل الناس وأقلهم بصيرة، ومعرفة بشريعة الإسلام وأصول الدين وفروعه، فتجدهم يكتبون ويتكلّمون ويدّعون لأنفسهم من العلم والمعرفة والثقافة واليقين ما لا يصل إليه أكابر العلماء، ولو طُلب من أحدهم أن يتكلم عن أصل من أصول الدين العظيمة التي لا يسع أحدًا جهله، أو على حكم من الأحكام في العبادات والمعاملات والأنكحة لظهر عجزه، ولم يصل إلى ما

وصل إليه كثير من صغار طلبة العلم الشرعي، فكيف يثق العاقل فضلاً عن المؤمن بأقوالهم عن الدين، فأقوالهم في مسائل الدين لا قيمة لها أصلاً، ولو سبرت حاصل ما عليه رؤساؤهم لرأيتهم قد اشتغلوا بشيء يسير من علوم العربية، وترددوا في قراءة الصحف التي على مشربهم، وتمرّنوا على الكلام الذي من جنس أساليب كثير من هذه الصحف الرديئة الساقطة، فظنوا بأنفسهم وظن بهم أتباعهم الاضطلاع بالمعارف والعلوم، فهذا أسمى ما يصلون إليه في العلم»[1] .

هذا النبت الشيطاني النكد لا يُسكت عليه أبدًا فهم جنود الشياطين الذين فاقوهم مكرًا ودهاء وكيدًا للإسلام وشعائره وعوام المسلمين الذين لا يفطنون لشبههم لقلة علمهم وضعفهم.

«أليس ضعف المسلمين في هذه الأوقات يوجب لأهل البصائر والنجدة منهم أن يكون جدّهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفًا ويقوموا بكل ما في وسعهم لينالوا المقامات الشامخة ولينجوا من الهوّة العميقة التي وقعوا فيها؟ أليس هذا من أفرض الفرائض وألزم اللازمات في هذه الحال؟»[2] .

❑ وفرج فودة: هذا الذي سمّاه الزعيم «عادل إمام»: بالشهيد وبصديقه العزيز هذا الذي سال قلمه بالسم الزعاف على الإسلام والشريعة ثم ذهب إلى مزابل التاريخ.

*** الزنديق نزار قبّاني:**

إلى الأمة الغافلة النائمة نرسم بالصدق حقيقة هذا الزنديق الذي تباكي عليه المرتزقة الفرحون بقتل كل فضيلة وعفة ونشر كل رذيلة وخسيسة،

(١) «انتصار الحق» للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ص(١٤ ـ ١٥) ـ المكتبة السلفية.
(٢) المصدر السابق ص(٧).

وهمّهم الوحيد خفض دين اللّه بكل وسيلة والصد عن سبيله ويأبى اللّهُ إلا أن يتم نوره.

إلى أصحاب الأقلام الداعرة المستأجرين على حطام من الدنيا قليل، وهم عند ربهم من المجرمين الفاجرين، الذين سال مدادهم حزنًا على شهيد الشعراء!!، وشاعر الأمة العربية، وشاعر المرأة نزار.

أين أنتم من جراح أمتنا؟ أين أدبكم وشعركم لماذا لم يتغنّ على أطلال الأندلس المسلوبة؟ وعلى جبال كشمير المغصوبة؟ وعلى أشجار الفلبين الخضراء؟! وتلال أرتريا وبورما وسهولها؟ وأرض البوسنة وجراحها؟! أين كتاباتكم أيها الأدباء والكُتَّاب عن أرض الملاحم وأرض الأنبياء، أرض الإسراء التي ترزح تحت أيدي أحفاد القردة والخنازير يهود الغدر والخيانة؟ أين مداد أقلامكم؟ ما لي أراها قد جَفّت، وأقلامكم قد تكسَّرت، عن كشف ما حلّ في أمتنا من منكرات وبدع في الدين قُدِّمت على دين اللّه تعالى وشرعه، وانقاد إليها الناس أفواجًا إثر أفواج، وأسرابًا تتبعها أسراب!!!»[1].

سنفضحكم ونفضح نزاركم الذي تولّى كبره.. نزار وما أدراك ما نزار التكبر على الخالق.. نزار الاستهزاء بكل فضيلة وعفّة وبؤرة كل فساد وعفونة.. نزار الزندقة والإلحاد، ووجه الحداثة الكالح، ومستنقع الوثنية الآسن[2].

خنزير طبع في خليقة ناطق مستوّف بالكذب والبهتان

أيها الجبناء قولوا للناس ما تعلمون من شعر نزار.. قولوا لمن كان عنده

(١) «السيف البتار في نحر الشيطان نزار» لممدوح السهلي الحربي ص(٨٥) ـ دار المآثر بالمدينة.

(٢) مثله مثل عبداللّه العروي المغربي، ومحمد الجابري المغربي، وعبدالعزيز المقالح وعبدالوهاب البياتي، وغيرهم وغيرهم.

مثقال ذرة من إيمان.. ماذا تقول في نزار القائل:

«من أين يأتي الشعر يا قرطاجة..

واللَّه مات وعـــادت الأنصاب»[١].

❑ والقائل:

(ماذا تشعرين الآن؟ هل ضيّعت إيمانك مثلي، بجميع الآلهة)[٢].

❑ والقائل: «بلادي ترفض الحُبّا

بلادي تقتلُ الرب الذي أهدى لها الخصبا

بلادي لم يزرها الرب منذ اغتالت الرّبا[٣].

❑ ويقول في «دفاتر فلسطينية» ص(١١٩):

«حين رأيت اللَّه.. في عمّان مذبوحًا

على أيدي رجال الباديـــة».

❑ ويقول في مجموعة «لا» في «خطاب شخصي إلى شهر حزيران» ص(١٢٤):

«أطلق على الماضي الرصاص

كن المسدس والجريمة..

من بعد موت اللَّه، مشنوقًا على باب المدينة

لم تبق للصلوات قيمة

لم يبق للإيمان أو للكفر قيمة».

---

(١) «الأعمال الشعرية الكاملة» لنزار (٣/ ٦٣٧).

(٢) «الأعمال الكاملة» لنزار (٢/ ٣٣٨).

(٣) «يوميات امرأة لا مبالية» لنزار ص(٦٢٠).

ويقول في مدح الكفر:

«يا طعم الثلج وطعم النار

ونكهة كفري ويقيني»[١] .

ويقول:

«أريد البحث عن وطن..

جديد غير مسكون

ورب لا يطاردني

وأرض لا تعاديني»[٢] .

ويقول هذا الزنديق:

(لأنني أحبك، يحدث شيء غير عادي، في تقاليد السماء، يصبح الملائكة أحرارًا في ممارسة الحب، ويتزوَّج اللَّه حبيبته في السماء)[٢] .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ .

ويقول هذا الملحد:

«إله في معابدنا نصلّيه ونبتهلُ

يغازلنا وحين يجوع يأكلنا

إله لا نقاومه يعذبنا ونحتمل

إله ما له عمر إله اسمه الرجل»[٣] .

ويقول: (اللَّه يفتش في خارطة الجنة عن لبنان)[٤] .

---

(١) «الأعمال الشعرية الكاملة» (٢/ ٣٩).

(٢) «يوميات امرأة لا مبالية» ص(٥٩٧).

(٣) «الأعمال الشعرية الكاملة» (٢/ ٤٤٢).

(٤) المصدر السابق (١/ ٦٣١).

❑ ويقول: «القلب الإنساني قمقم رماه اللَّه على شاطئ هذه الأرض، وأعتقد أن اللَّه نفسه لا يعرف محتوى هذا القمقم، ولا جنسية العفاريت التي ستنطلق منه، والشعر واحد من هذه العفاريت»[١].

❑ ويقول: «كل كلمة شعرية تتحوّل في النهاية إلى طقس من طقوس العبادة والكشف والتجلي..

كل شيء يتحول إلى ديانة

حتى يصير الجنس دينا..

والغريب أنني أنظر دائمًا إلى شعري الجنسي بعين كاهن، وأفترش وجه حبيبتي كما يفترش المؤمن سجادة صلاة، أشعر كلما سافرت في جسد حبيبتي أني أشف وأتطهر وأدخل مملكة الخير والحق والوضوء.

وماذا يكون الشعر الصوفي سوى محاولة لإعطاء اللَّه مدلولاً جنسيًّا؟»[٢].

❑ ويقول: «يكون اللَّه سعيدًا في حجرته القمرية»[٣].

❑ ويقول: (حين وزّع اللَّه النساء على الرجال

وأعطاني إياك

شعرت أنه انحاز بصورة مكشوفة إليّ

وخالف كل الكتب السماوية التي ألّفها

فأعطاني النبيذ وأعطاهم الحنطة[٤]

(١) المصدر السابق (٢/ ٣٢٣).

(٢) «أسئلة الشعر» لمنير العكش في مقابلة له مع نزار» ص(١٩٥).

(٣) المصدر السابق ص(١٩٦).

(٤) «مجموعة الأعمال الشعرية» (٢/ ١٨٨).

حين عرّفني اللّه عليك ذهب إلى بيته
فاللّه كما قالوا لي لا يستلم إلا رسائل الحب[١] .

- ويقول: (عمر حزني، مثل عمر اللّه، أو عمر البحور)[٢] .
- ويقول: (فلا تسافري مرة أخرى
لأن اللّه منذ رحلت دخل في نوبة بكاء عصبية
وأضرب عن الطعام)[٣] .
- ويقول: (لا اللّه يأتينا ولا موزع البريد
منذ سنة العشرين حتى سنة السبعين)[٤] .
- ويقول: (ولماذا نكتب الشعر وقد نسى اللّه الكلام العربي)[٥] .
- ويقول: (حين يصير الدمع في مدينة..
أكبر من مساحة الأجفان
يسقط كل شيء
الشمس والنجوم والجبال والوديان..
والليل والنهار والشطآن
واللّه والإنسان)[٦] .
- ويقول: (لا تخجلي مني فهذي فرصتي

---

(١) «الأعمال الشعرية» (٢/ ٤٠٢).
(٢) «الأعمال الشعرية الكاملة» (١/ ٧٧٥).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٥٦٢).
(٤) المصدر السابق (٢/ ٦٤٨).
(٥) المصدر السابق (٢/ ٦٤٨).
(٦) «الأعمال السياسية» لنزار (٣/ ١٠٥).

لأكون ربًّا أو أكون رسولاً)[١] .

❑ ويقول: (وشجّعت نهديك.. فاستكبرا على اللّه.. حتى فلم يسجدا)[٢] .

❑ ويقول: (في شكل وجهك أقرأ شكل الإله الجميل)[٣] .

❑ ويقول عن فم حبيبته:

وكيف فكّرت بهذا الفم..

كم سنة ضيّعت في نحته

قل لي: ألم تتعب..؟ ألم تسأم؟»[٤] .

❑ ويقول: (وطن بدون نوافذ..

هربت شوارعه.. مآذنه.. كنائسه..

وفرّ اللّه مذعورًا..

وفّر جميع الأنبياء)[٥] .

❑ وإلهه هواه فيقول:

(هو الهوى.. هو الهوى

الملك القدوس والآخرين القادر)[٦] .

* * *

(١) «المجموعة الكاملة» (٢/ ٧٦١).

(٢) ديوان «قالت لي السمراء» لنزار ص(٤٥).

(٣) نفس المصدر ص(٥٥).

(٤) نفس المصدر ـ قصيدة «فم» ص(١٠٧).

(٥) قصيدة «هل تسمعين صهيل أحزاني» ص(١٨٨).

(٦) القصيدة السابقة ص(٦٣).

❑ ويقول:

(شكرًا من الأعماق..

يا من جئت من كتب العبادة والصلاة)[١] .

❑ ويقول: (يا إلهي: إن كنت ربًّا حقيقيًّا.. فدعنا عاشقينا)[٢] .

❑ ويقول: «شكرًا لحبك.. فهو مروحة.. وغمامة وردية..

وهو المفاجأة التي قدر حار فيها الأنبياء)[٣] .

❑ ويقول: (وكتبت شعرًا.. لا يشابه سحره..

إلا كلام اللَّه في التوراة)[٤] .

❑ ويقول: (أنا أرفض الإحسان من يدي خالقي)[٥] .

❑ ويقول: (قد كان ثغرك مرة ربي، فأصبح خادمي»[٦] .

❑ ويقول: (مارست ألف عبادة وعبادةٍ

فوجدت أفضلها عبادة ذاتي)[٧] .

❑ (أين غرور اللَّه من غروري)[٨] .

* * *

(١) «أشعار خارجة على القانون» ص(٢٥).

(٢) المصدر السابق ص(٦٥).

(٣) المصدر السابق ص(٢٧).

(٤) ديوانه «الرسم بالكلمات» ص(١٤).

(٥) المصدر السابق (٩٤).

(٦) المصدر السابق ص(١٣٥).

(٧) المصدر السابق ص(١٧).

(٨) «خطاب من حبيبتي» لنزار ص(٤٢٦).

ويجعل امرأته رسولة بعد سجاح فيقول:

وتظل أجيالٌ من العشاق تقرأ عنك...

أيتها «المعلمة» الأصيلة!...

وسيعرف الأعراب يومًا...

أنهم قتلوا «الرسولة»!...

*** الظاهرة النزارية:**

قال نقّادنا القدماء: «ما دخل على النساء شيء أفسد لهن من شعر عمر بن أبي ربيعة» فماذا عساهم يقولون في غزل نزار شاعر «الجنس».

وإذا كان هناك من ألّف كتابًا سماه «كافوريات المتنبي» فإن ما قاله نزار القباني من كُفريّاته في أثناء دواوينه يمكن دون ريب أن يُجمع في ديوان كامل يسمى «كُفريّات نزار القباني».

يقول الأستاذ عبدالقدوس أبو صالح: «ولقد كان نزار من الدهاء بمعرفة عقلية الجماهير أو عقلية «القطيع» كما سمّاها دور كايم حتى استطاع أن يجمع حولة آلاف المعجبين بشعره إذ كان يضرب ويُرقص معجبيه على الأوتار الثلاثة: وتر الجنس ووتر الكفر، ووتر التطرف السياسي.

ويؤلف هذا الثالوث الرهيب ما نسميه بالظاهرة النزارية وهي ظاهرة جديرة بالدراسة والتحليل إذ هي مؤشر على دخول الأمة في التّيه، أو هي نتيجة لدخولها فيه، ولبعدها عن محجة الدين وصراطه المستقيم.

وإذا كنا لا نعجب أن يُفرز تردّي العصر نزارًا وأشباه نزار، فإن العجب كل العجب لأولئك الذين مضوا يمجّدون مَن يكفر باللّه ويطعن في أنبيائه، ألا يخشوا أن يخسف اللّه بهم الأرض... بل أن يُسلّط عليهم اليهود وأشباه اليهود»[1].

---

(١) «الظاهرة النزارية» مجلة الأدب الإسلامي ـ المجلد الثامن ـ العدد الثامن عشر (ص١).

* **مجابهة هذا الإلحاد والغزو الثقافي من أهم المهمات لحماية الإسلام:**

❑ قال الشيخ ابن باز ـ رحمه اللَّه ـ: «أما عن مجابهة الغزو المتمثل في الإذاعات والكتب والصحف والمجلات والأقلام التي ابتُليت بها المجتمعات الإسلامية في هذا العصر وأخذت تشغل أكثر أوقات المرء المسلم والمرأة المسلمة رغم ما تشتمل عليه في أكثر الأحيان من السم الزعاف والدعاية المضللة فهي من أهم المهمّات لحماية الإسلام والثقافة الإسلامية من مكائده وشره»[1].

❑ رحمك اللَّه يا إمام عصره:

وقفتَ على ثغر من الدين واسعٌ ... تدافع أصحاب الهوى وتجاهد

وكنت لأهل العلم أعذب مورد ... فمتَّ فجفّتْ للعلوم موارد

● نعم حماية الدين من أهم المهام، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: **«يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»**[2].

❑ قال الإمام ابن القيم في كلامه عن رتب الأقلام:

«القلم الثاني عشر: القلم الجامع وهو الرد على المبطلين ورفع سنة المحققين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم في الباطل، وهذا القلم في

---

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (١/ ٣٩٢)، و«الشيخ ابن باز ومواقفه الثابتة» لأحمد الفريح ص(١٦) مكتبة الرشد، الكويت.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن عبدالبر في «التمهيد» (١/ ٥٨ ـ ٥٩)، وابن عدي في «الكامل» (١/ ١٥٣)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٩)، وصححه الإمام أحمد وابن عبدالبر، وصحح بعض طرقه الحافظ العلائي في «بغية الملتمس» (٣ ـ ٤).

الأقلام نظير الملوك في الأنام وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم، وهم الداعون إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال، وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسل، فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن»[١] .

❑ ويرحم اللَّه شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول: «فمن لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين ولا ممن يُقتدى بهم»[٢] .

*** ولتستبين سبيل المجرمين:**

والحاجة إلى هذا مُلحَّة في هذه الأزمنة «فإن وطأة أهل الأهواء شديدة، وسبُلها متكاثرة، لكثرة المضلّين المفتونين، الرابضين بيننا المنطوين على رَشْح أصاب ضمائرهم، بآراء ساقطة يخزي بعضها بعضًا، من علمنة وحداثة، وإباحية، ودعوة إلى عصبيات عرقية شعوبية»[٣] .

❑ قال ابن القيم عن معرفة سبيل المجرمين واجتنابها:

«والناس في هذا الموضع أربع فرق:

الفرقة الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين، وسبيل المجرمين، على التفصيل، علمًا وعملاً، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عَميت عنه السبيلان، من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك.

الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدّها،

---

(١) «التبيان في أقسام القرآن».

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٥١٠).

(٣) «الرد على المخالف من أصول الإسلام» للشيخ بكر أبو زيد ص(٨).

فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل، وإن لم يتصوّره على التفصيل، بل إذا سمع شيئًا مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه، ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصّلة، وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم، ومقالات أهل البدع، فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول ﷺ كذلك، بل عرفه معرفة مجملة، وإن تفصّلت له في بعض الأشياء.

والمقصود أن اللَّه سبحانه يُحب أن تُعرف سُبُل أعدائه لتُجتنب وتُبغَض، كما يحب أن تُعرف سبيل أوليائه لتُحبَّ وتُسلَك»[1].

❑ يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ مبيّنًا خطورة خطط وشُبَه المنافقين والمجرمين: «وإذا صادفت هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية، وخيالات فاسدة، وظنون كاذبة، جالتْ فيها وصالت، وقامت بها وقعدت، واتسع مجالها، وكثر بها قيلها وقالها، فملأت الأسماع من هذيانها، والأرض من دويانها.

وما أكثر المستجيبين لهؤلاء، والقابلين منهم، والقائمين بدعوتهم، والمحامين عن حوزتهم، والمقاتلين تحت ألويتهم، والمكثرين من سوادهم، ولعموم البليّة بهم، وضرر القلب بكلامهم، هتك اللَّه أستارهم في كتابه غاية الهتك، وكشف أسرارهم غاية الكشف، وبيّن علاماتهم، وأعمالهم، وأقوالهم»[2].

---

(١) «الفوائد» لابن القيم ص(٢٠٢) مختصراً.

(٢) «الوابل الصيب» لابن القيم ص(١١٢).

*** صاحب الحق المرّ: الشيخ محمد الغزالي البحر الهادر الجارف لزبالات فكر كل علماني وحداثي أو مستشرق فاجر:**

رحم اللَّه الشيخ محمد الغزالي فهو فارس هذا الميدان، ولن ينسى له الناس قلمه السيّال في الدفاع عن الإسلام وفضح أباطيل خصومه[1] ويكفي كتبه «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين»، «الحق المر» و«معركة المصحف في العالم الإسلامي»، و«الإسلام والاستبداد السياسي» و«ظلام من الغرب» و«التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام».

❑ يقول ـ رحمه اللَّه ـ: «إن العالم الإسلامي يمرّ بفترة مشئومة من تاريخه الطويل وليست الصهيونية والصليبية أعدى أعدائه، إن أعداءه من صميم أرضه، إنهم بين ظهرانينا صنعهم الغزو الثقافي لينشئوا أمة لا خُلق لها ولا إنتاج، لا عقيدة ولا شريعة، لا تراث ولا مستقبل، إنهم يلبسون ثوبًا عربيًا على كيان أجنبي، ويوشك مع الأيام أن يخلعوا الثوب ويكشفوا المخبوء»[2].

*** كلام الشيخ محمد الغزالي الذي يفضح إلحاد نصر أبو زيد:**

تحت عنوان «نصر أبو زيد» في كتاب «الحق المر» (٥/ ٥٨ ـ ٥٩) يقول الشيخ الغزالي: «قد أدّى صديقنا الدكتور عبدالصبور شاهين واجبه على خير وجه حين اعترض طريق الدكتور نصر حامد وجماعته التي تريد تحت ستار العلم الترويج لأقبح صور الإلحاد.

---

(١) نحن نخالف الشيخ من الألف إلى الياء في كلامه عن «السلفية والسلفيين» وهذه كبوته، وموقفه من السنة وهو يمثل المدرسة العقلية الحديثة بكل كبواتها وطعنها في السنة، أما في مجال الرد على العلمانيين والمستشرقين والحاقدين على الإسلام فللَّه دره.

(٢) «الحق المر» للشيخ محمد الغزالي (٥/ ١٧١) ـ نهضة مصر.

يقول صديقنا الدكتور مصطفى محمود: «الخلاصة المفيدة لإنتاج الدكتور حامد أنه ينعي على الخطاب الديني، أو يعيب عليه أنه يرد كل شيء في العالم إلى اللَّه ومشيئته! وهذا الردّ ينفي الإنسان وينفي القوانين الطبيعية والاجتماعية».

ثم يقول بعد دفاع حار عن الماركسية «إن اللَّه تجلىّ في القرآن كما تجلىّ من قبل في المسيح.. ولكن منذ نزل القرآن في كلمات عربية، أصبح بشريًّا يجوز الطعن فيه، وتجوز مناقشته، ويجوز فيه ما يجوز على الكلام البشري من خطأ وصواب»!!! اهـ.

أقول: لا جديد في كلام الملاحدة الذين زاد لغطهم في هذه الأيام العجاف، إنه الهراء القديم وُضِع في ورقة مفضضة، وأُعطِي عنوانًا برّاقًا ثم دُفِع به في زحام المعركة بيننا وبين الغلاة كي يمر!!

إن الاستعمار العالمي نجح في تكوين فئات من الناس خربة الباطن مظلمة الروح حاقدة على اللَّه ورسوله، أو على الكتاب والسنة، أو على العقيدة والشريعة جميعًا، ومهما كثر الأعداء، وهاجمونا من جهات عدة فلا يجوز أن ننسى هؤلاء أو نتهاون معهم فإنهم خونة محتالون لا إيمان لهم ولاأمان».

*** عجبًا:**

تحت هذا العنوان كتب الشيخ محمد الغزالي:

«لم يضع الاستعمار أوقاته سدى عندما وطئت أقدامه دار الإسلام، لقد شرع لفوره يغيّر التشريع والتعليم والتربية والتقاليد ليصنع جوًّا يلائمه ومستقبلاً يطمئن إليه.

وها قد نضجت الأشواك التي بذرها، ورأينا ناسًا يفكرون بعقله

ويضربون بيده ويحاولون تغيير الأخلاق والعقائد وفق مشيئته..

والناظر عن قرب أو بعد يرى المثقفين قسمين، قسمًا لم يتغير للإسلام ولاؤه ولا انتماؤه وقسمًا آخر يعالن بكراهيته لشرائع الدين وشعائره، ورغبته في إسقاط ما بقى من رايات الإسلام في بلاده!!، كانوا قديمًا شيوعيين، ثم صاروا علمانيين. وتتغير الشارات التي يَبدون فيها وتبقى ضغائنهم على الإسلام وأمته ثابتة لا تزيدها الأيام إلا ضراوة وغلوًّا. وهم مع ضيقهم بالإسلام ومعالمه حراص على البقاء في دائرته! لماذا؟ حتى يؤدوا وظائفهم في تخريبه من الداخل، إن دودة «البلهارسيا» تريد أن تبقى داخل الجسم لتعوق نموَّه، وتنمِّي علله وتجرّه إلى الموت جرًّا، ولذلك رأينا هؤلاء المرتدين عن الإسلام يرفضون المعالنة بتركه ويحرصون على البقاء فيه!! لكنهم في الوقت نفسه لا يقيمون صلاة ولا يؤتون زكاة، ولا يُقرّون للّه بسمع أو طاعة! إنهم يعرفون إسلامًا بلا نصوص ولا أركان، ويحاربون كل دعوة إلى الاحتكام إليه أو إحياء ما أمات الاستعمار من أمره..!!

واليوم وقد سقطت الشيوعية في كل أماكنها نجدهم يملكون أزمّة التوجيه ويفرضون إلحادهم صراحة أو التواء ويحاربون رموز الإسلام بكل ما لديهم من طاقة!

لقد بلغتْ الأمور مرحلة لا تتحمل هذا النفاق، ونحن نأبى كل الإباء أن يضرب الإسلام بأيد إسلامية، ولا مكان بعد اليوم للبس أو نفاق، إما أن تكونوا أيها الناس مع الإسلام باطنًا وظاهرًا، وإما أن تتركوه علانية وتكشفوا كفركم به! ويعجبني قول المثقّب من شعراء الأقدمين:

فإما أن تكون أخي بصـــدق فأعرف منك غثّى من سميني
وإمـــا فاطرحنـي، واتّـخـذْني عـدوًّا أتّـقيـــك وتتقيـــني!

لا مكان بيننا اليوم لمرتدّ يكره الكتاب والسنة، ويصدم جماهير المؤمنين

ثم يزعم نفاقًا أنه مسلم! مسلم يحارب اللَّه ورسوله! ياللعجب..»[1].

* يضاهئون قول من قبلهم!!

* وصف اللَّه قرآنه الخاتم بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

ويقول الدكتور أبو زيد: إن القرآن «منذ لحظة نزوله الأولى، أي مع قراءة النبي ﷺ له لحظة الوحي تحول من كونه نصًّا إلهيًّا وصار فهمًا إنسانيًّا»!!

كيف؟

يقول: «لأنه تحوّل من التنزيل إلى التأويل! فإن فهم النبي ﷺ للنص يمثل أولى مراحل حركة النص في تفاعله بالعقل البشري، ومن ثم فإن انطلاقنا الفكري يبدأ من حقيقة أن النصوص الدينية هي نصوص بشرية إنسانية لغة وثقافة..».

نقول: وهذا كلام في غاية الغثاثة والسقوط..

كيف تنقطع صلة الكلام بمنزله عندما ينقله الرسول إلى غيره؟

جاء في سورة الزمر مثلاً: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٠-١٢].

وتكررت كلمة «قل» في السياق خمس مرات!.

فما معنى ابتعاد النص عن اللَّه وتحويله إلى تراث بشري؟

(١) «الحق المر» (٥/ ٦٠).

* منذ قال اللَّه لنبيه في غار حراء ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] ظل القرآن ينزل ثلاثًا وعشرين سنة لم ينقطع إلا بالوفاة فلما تضايق الكافرون منه قالوا له: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ٥١].

فكيف تحول القرآن من الربانية إلى البشرية؟

كان الدكتور محمد أركون ـ اتباعًا لفلاسفة الغرب ـ يصف القرآن بأنه «النص» ويحاول سحب العصمة الإلهية عنه وقد اشتبكنا معه في ندوة بالجزائر خرج منها زاريا على نفسه.

ودكتورنا المصري نصر أبو زيد يتأثر بخطوات أركون، ويناصر الاستعمار الثقافي ويزعم أن القرآن بعد الوحي صار فهمًا لمحمد، وتراثًا بشريًّا عاديًّا!!

ونتساءل: هل أركون وأبو زيد ومن سبقهما ومن لحق بهما يمثلون أنفسهم في هذا التحامل على القرآن؟

كلا إن الذين قادوا الفكر الشيوعي المادي هم.. هم الذين يقودون الفكر العلماني الإلحادي.

وسنرى كيف أنهم سماسرة للاستعمار العالمي الكافر باللَّه والمرسلين.

وكيف يغضب بعضهم لبعض ويناصر بعضهم بعضًا..»[1].

*** عتمة في العقل:**

❑ يقول الشيخ الغزالي: «أسماء القرآن معروفة ونرفض اختراع اسم آخر له، ولكننا نستغرب من الذين أسموه «النص». لماذا لم يلتزموا به ويتفقهوا أحكامه؟ كما توحي الكلمة.

(١) المصدر السابق (٥/ ٦١ ـ ٦٢).

❑ يقول الدكتور أبو زيد: «إذا كان مبدأ تحكيم النصوص يؤدي إلى القضاء على استقلال العقل. إذ يتحول إلى تابع يقتات بالنص ويلوذ به ويحتمي، فإن هذا ما حدث في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية».

وما العمل والحالة هذه؟ يجب احترام الواقع وقبوله وإقصاء التمرد عليه.

❑ يقول الدكتور أبو زيد: «الواقع هو الأصل ولا سبيل لإهداره. ومن الواقع تكوَّن النص يعني القرآن!! ثم يؤكد الواقع أولاً والواقع ثانيًا والواقع أخيرًا. وإهدار الواقع لحساب نص ثابت جامد المعنى والدلالة يجعل كليهما أسطورة»!!

ويشرح الدكتور مراده فيقول: «إن الإسلام بدأ تحرير المرأة وأعطاها نصيبًا من الميراث لم تكن تناله فيجب المضي مع هذا الاتجاه، وتسوية المرأة بالرجل في الميراث احترامًا للواقع الجديد».

وعبارته هي: «ليس من المقبول أن يقف الاجتهاد إلى المدى الذي وقف عنده الوحي. وإلا انهارت دعوى صلاحيته لكل زمان ومكان».

يبدو أن الشارع وافاه الأجل قبل إنصاف المرأة بالمساواة الكاملة فلنكمل نحن ما قصر فيه!!

ويكرر الدكتور نفسه فيقول: «إن التمسك بالدلالات الحرفية للنصوص لا يتعارض مع مصلحة الجماعة فحسب ولكن يضر الكيان الوطني ضرراً بالغًا..».

ويغمز الدكتور أبو زيد قضية عموم الرسالة المحمدية ويتابع المستشرقين الذين زعموا أن محمدًا بعث للعرب، ولكن النصر الذي أحرزه في جزيرة

العرب أغراه بالانطلاق إلى آفاق العالم والزعم بأنه للناس كافة، وقد أحصينا ـ في كتاب لنا ـ أن عموم الرسالة ورد في إحدى عشرة آية من القرآن الكريم[١] .

وأن هذه الآيات جميعًا نزلت في مكة قبل أن يحرز الرسول أي نصر على المشركين في معركة صغيرة أو كبيرة، بل إن قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٢].

نزل في سورة القلم وهي من أوائل الوحي النازل بمكة في السنة الأولى!

لكن سماسرة الاستشراق يتبعون سادتهم بعمى عجيب!

إن محمدًا جمع في شخصه وهداه سائر الأنبياء، ما يفرق بين أحد منهم، وليس ميراث محمد إلا ميراث الرسل كافة فالكفر به كفر بهم. ووثنية أعتى من سائر الوثنيات..»[٢] .

*** هل تحرير فلسطين بالعلمانية!!**

❑ يقول الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ: «هل الانتماء إلى القرآن جريمة العصر..

والانتماء إلى أي دين آخر سائغ مباح؟

إن قضية فلسطين قضية دينية شئنا أم أبينا، والمستوطنون اليهود قدموا إلى هذا القطر المنكوب وهم يصلّون لرب إسرائيل، ويتذاكرون وعوده في التوراة والتلمود أن يردَّهم إلى أرض إبراهيم، التي ورثوها عنه كما يزعمون..

---

(١) انظر كتاب «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» للشيخ محمد الغزالي.
(٢) «الحق المر» (٥/ ٦٣ ـ ٦٤).

فما مكان العلمانية في هذا التفكير؟ وما معنى أن يكون العرب علمانيين كي يسمح لهم بالبقاء في هذه الأرض كلها أو بعضها؟؟

إن إبعاد الإسلام عن هذه القضية قضاء أبدي على فلسطين، ومخدِّر خطير، بل سم قاتل لمستقبلها كله! وقد أدركت أن الخطة الاستعمارية التي وضعت من قديم كانت تسعى إلى هذا الغرض، كان الحاج أمين الحسيني بعمامته التقليدية رمزًا للإسلام المكافح، وكنت قريبًا من الرجل فرأيت فيه استنارة العلماء وعزم المجاهدين، ورأيته يتحمل الهزائم بِجَلَد، ويرتب صفوفه بأمل، وكنت أزوره في مسكنه بمصر الجديدة أتدارس معه حاضر الإسلام ومستقبله. ثم فوجئت بإخراجه من القاهرة، واضطراره إلى سكنى بيروت، ونفث الدخان حول سيرته وكفاحه..

كانت الخطة قد رسمت ليكون تحرير فلسطين تحت راية علمانية لا إسلامية..

وبدأت سلسلة الهزائم، فقد خذلتنا الأرض، وحرمتنا السماء، ولم ننل شيئًا من أحد!!

إننا نطلب اليوم سلامًا في مقابل التنازل عن بعض فلسطين، وهم يطلبون استسلامًا على شروطهم هم..

وهذه أولى بركات العلمانية التي جُعلت عنوانًا لتحرير فلسطين!! لكن أمتنا الكبرى تأبى إلا الإسلام شكلاً وموضوعًا، ومن حقها أن تحيا بدينها وأن يعود اليهود من حيث جاءوا..»[1].

* ردة:

❑ قال الشيخ ـ رحمه اللَّه ـ: «إن هناك حملة كبيرة على الإسلام

(١) المصدر السابق (٥/ ٨٤ ـ ٨٥).

فتفرست في وجوه الأعداء الجدد، فإذا هم شيوعيو الأمس القريب، الأسماء هي الأسماء وإن تغيرت العناوين، لقد سمّوا أنفسهم علمانيين، وزعموا أنهم أنصار الحرية الفردية والاجتماعية، وأنهم يريدون حرب الرجعية القديمة وتنوير الأذهان من المخلفات الدينية!!

والعلمانيون العرب يكنون ضغينة سوداء على الإسلام وحده، ربما قبل العلمانيون الألمان والطليان أن تحكمهم أحزاب تنتمي إلى المسيحية، وربما قبل العلمانيون اليهود أن تشدَّهم خيوط إلى التوراة، أما العلمانيون العرب فهم يمقتون الإسلام سرًّا وعلنًا ويرفضون كل صلة به!

هل هذا الإلحاد جديد عليهم؟ كلا، لقد كانوا شيوعيين يقولون: لا إله والحياة مادة، فلا حرج عليهم إذا استمر الكفر وبقيت الردّة واتسعت الحملة على القرآن والسنة، واتصل النشاط لتكفير الجماهير تحت عنوان التنوير..

إنني أحذّر من الرِّدّة الجديدة، إن كفرها صريح بالشريعة وماكر بالعقيدة، وضيقها بالقرآن نفسه ظاهر، وهي تستنجد بالحرية وقد علمت أنهم مذ وجدوا أعداؤها، وأن هدفهم الأول والأخير تمويت الإسلام»[1].

❑ ويقول ـ رحمه اللَّه ـ تحت عنوان «حميّة للإلحاد»:

لقد لاحظت أن العلمانيين داخل العالم الإسلامي ووراءه يحرضون أتباع الأديان الأخرى على الإسلام، ويختلقون لهم الأعذار، وربما نسبوا إلى المسلمين عدوانًا لم يعرفه اليهود ولا النصارى، وليس ذلك حبًّا للكنيسة ولكنه كره للمسجد..!

وفي تتبعي للمعارك الأدبية والاجتماعية وجدت العلمانيين ـ وجمهرتهم من الشوعيين المنافقين أو الصرحاء ـ يتنادون بين الحين والحين لضرب الإسلام

(١) المصدر السابق (٥/ ٩٢ ـ ٩٣).

في هذه المعركة أو تلك، وينصر بعضهم بعضًا إذا وجده مُحرجًا، بل قد ينصره لغير سبب حَميَّة للواء الإلحاد الذين يجتمعون تحته!

وقد رأيت أخيرًا مظاهرة لهم اشترك فيها عشرات من الأساتذة ردًّا على ضير توهموا نزوله بواحد منهم!!

إن ذلك يجعلني ألفت نظر الإسلاميين إلى المستقبل القريب والبعيد لديننا المثخن بالجراح، إن خيرًا لهم أن يتقاربوا وأن يلمّوا شملهم فإن النذر المقبلة تؤذن بشر مستطير، إن أعداء الإسلام طامعون في القضاء عليه، وحاضرنا مليء بالخسائر فإذا لم نتلاق على كلمة سواء تلاقى أعداؤنا على رفاتنا.

❑ ويقول ـ رحمه اللَّه ـ: «كيف انتصر اليهود سنة ١٩٦٧م؟ وكيف استطاعوا خلال ساعات أن يوجهوا إلينا ضربة قاضية؟

إن قيادتنا كانت في غيبوبة! ما أعدت للحرب عُدَّة، وما وضعت لها خطة ففوجئنا بأن الجيش الذي هزم أوروبا في «حطين» وهزم آسيا في «عين جالوت» وشتت شمل الصليبيين والتتار في معركتين هائلتين فوجئنا بأن هذا الجيش يحاط به وينال منه وهو في الحقيقة مظلوم.

ما أشبه جمال عبدالناصر بصدام حسين هذا ذهب بجيشه لاحتلال الكويت وهذا ذهب لاحتلال اليمن!!

ما لكما ولليمن والكويت، ولماذا تركتما فلسطين نهبًا لليهود؟

ولما دارت الحرب لم نر للرجلين خططًا مدروسة، فلم يكن بد من الهزائم الموجعة»[1].

❑ ثم يقول عن «ذكريات حرب رمضان»:

---

(١) المصدر السابق (٥/١٠٨ ـ ١٠٩).

«كنا نرى إخواننا على ضفاف القناة مقطبي الجبين كاسفي البال غضابًا لما حلّ ببلادهم وسمعتهم، ولكن الإيمان صانع العجائب والاتصال بالدين فعل بنفوسهم فعل السحر فكانوا يتحركون وفي صدورهم شحنات من اليقين المضغوط حوّلهم إلى جنّ عندما بدأت المعركة فهم يدوسون خط بارليف ببأس شديد ويجرون فوق الجدار الرملي كأنهم مدعوون إلى حفل ويهبطون بالردى على خصومهم فيملئونهم رعبًا وقنوطًا.

ويعلم الجنود أن الإفطار في رمضان جائز لهم، ولكن بعضهم أبى أن يفطر وقال: لعل فطوري يكون في الجنة!

وكانت الجبهة الممتدة على أربعين ميلاً تدوي بالتكبير وتقذف بالرهبة في قلوب العدو فما يرى أمامه إلا الاستسلام أو الموت. كان نداء اللّه أكبر قد ألغي! ثم فرضته طبيعة الإيمان في شعبنا المؤمن.

إن أعداء اللّه ورسوله كثيرون. ومنهم من يكره كلمة اللّه أكبر أشد الكره، وهؤلاء من وراء الانهيار الملحوظ في الجبهة العربية اليوم، الجبهة التي لا تبالي بالمسجد الأقصى ولا بمصير ملايين اللاجئين»[٢].

* * *

(١) المصدر السابق ص(١١٠).

(٢) المصدر السابق ص(١١١).

سماسرة الكفر

الاستعمار الثقافي أحرز انتصارات واسعة في العالم العربي وتكونت له عصابة من الكتاب ذوي القلوب الخربة تخدم أغراضه وتزين مقابحه وتحارب من حارب وتسالم من سالم، وأعضاء هذه العصابة من الصنف الذي قال اللّه فيه: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وقد تأملت في سيرتهم فرأيتهم يكرهون اللّه كرهًا شديدًا ويشمئزّون من وحيه ويهشون لكل هجوم عليه ويصرون على تمويت شرائعه وتشجيع كل خارج عليها في الشرق أو في الغرب، ولو علموا بأن على سطح المريخ ملحدًا لأرسلوا إليه يؤيدونه.

إنني أعرف أن بالأرض كفارًا وأن بها مؤمنين وأن بها دعاة للخير ودعاة للشر، ولكني لم أعرف سمسرة للكفر أضرى من هذه السمسرة.

إنهم إذا وجدوا رجلاً تاب سارعوا إليه يقولون: كنت عاقلاً فما دهاك؟

وإذا وجدوا أحدًا شتم محمدًا سارعوا إلى كتاباته ينشرونها ويثنون عليها، وقد ضلت أخيرًا امرأة من البنغال واحتضنها الغرب الصليبي على عجل وطار إليها أولئك الكتاب العرب يشجعونها وينقلون هذرها إلينا بلا حياء، وكأنهم يقولون لأهل مصر: تعلموا من هذه العبقرية.

واستغربت من استماتة هذه العصابة الحقوده. في نشر رواية «أولاد حارتنا» برغم أنف صاحبها!

لقد قرأت ما كتبه نجيب محفوظ في السنوات الأخيرة، كانت كتابات واعية لعقل مجرب يبغي الخير لأمته، فإذا نفر من سماسرة الكفر يعلنون بأنهم سينشرون الرواية التي صدرت من خمس وثلاثين سنة، وقال لهم مؤلفها: إن الجو غير ملائم!

وقالوا هم: نريد نشرها! يظنون بذلك أنهم يكيدون للإسلام وينالون من سلطانه الروحي على الجماهير!

والعيب الأكبر ليس في هؤلاء المارقين، إنه في من مكّن لهم، وأكره الناس على قراءتهم وأعطاهم صدور الصحف السيارة يملأونها بالغثاء ويُنفِّسون عن ضغائنهم ضد الإسلام وأمته!

في لقاء عام قابلت واحدًا من هذه العصابة فرأيت في جيده قلادة من ذهب، فلم أستغرب أن يستنوق الجمل، لقد ألفت رؤية هذه النوق، وإنما استغربت أن تلقى الأمة زمامها لهذا الصنف الملتاث الذي لا يُرى أبدًا في مسجد وقد يُرى في إحدى الحانات يشرب الإثم ويستعد لكتابة مقال يفسد به الأجيال الجديدة، ويُجرِّئها على ترك الإسلام بعضه اليوم وكله غدًا»[1].

ويقول ـ رحمه اللَّه ـ: «لقد رأيت شيوعيي العصر الماضي يختارون العلمانية عنوانًا جديدًا لهم. . ثم يهاجمون الإسلام بكل ما يقع في أيديهم من أسلحة.

أرأيت ما هو الإبداع عند هؤلاء الشيوعيين القدامى.

اكفر باللَّه تكن مبدعًا، حارب التعاليم والحدود الشرعية تكن مبدعًا، اجمع القمامات الفكرية من مواطن الزبالة في العالم أجمع وارم بها المجتمع الإسلامي تكن مبدعًا، هل عرفت الإبداع في منطق مفسدي الأوضاع؟!»[2].

* * *

(١) «الحق المر» (٥/ ١٢٠ ـ ١٢١).

(٢) المصدر السابق (٥/ ١٢٣).

بتر الشريعة

في الصراع بين الإسلام والعلمانية يجب أن نحدّد الموقف ونضبط المفاهيم!

❑ قال لي رجل علماني: ماذا عليكم لو كسبتم الإيمان والأخلاق، وتركتم شئون التشريع والاقتصاد والاجتماع لأصحابها يعملون فيها وفق مقتضيات العقل الحر والزمان المتجدّد؟؟

إن بُعْد الدين عن السياسة واكتفاءه بالصفاء الروحي والسناء الخُلُقي أشرف له وأجدى عليه!!

قلت له: تريد بصراحة أن تقسم القرآن شطرين ترمي بشطر المعاملات في البحر، وتمنح الشطر الآخر حق البقاء!

فسكت قليلاً ثم قال: ذاك ما أريد تقريبًا!

قلت له: وهذا ما نراه نحن ضياعًا للشطرين جميعًا، وبقاء الأمة بلا عبادات ولا معاملات!

❑ إن الإسلام انقياد مطلق للّه فيما أمر ونهى، وعلاقتنا بربنا تقوم على مبدأ السمع والطاعة، ونحن فهمنا هذا صراحة من قول اللّه لنبيه: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥].

تصوَّر أن إبليس قال للّه سأصطلح معك على أن تطرد آدم من الجنة، وسأخلفه فيها أسبح بحمدك وأقدس لك وأعفني من قضية السجود!

أيكون إبليس بهذا العرض قد تاب وأناب؟!

إنك يا صاحبي مخادع كبير حين تعزل الإسلام عن الشرائع والمعاملات

وحركات الحياة والأحياء ثم تقول له: إنك كسبت حظًا طائلاً!

هذا في الواقع حكم على الإيمان نفسه بالموت! عندما ينطلق الغناء في كل فجٍّ يقول للسامعين:

جئت، ولكن لا أدري من أين أتيت؟

ولقد وجدت قدَّامي طريقًا فمضيت؟

أيكون إبعاد الدين عن الفنِّ كسبًا للإيمان أو للإلحاد؟

وعندما يكون الزنا مباحًا بتراضي الطرفين أيكون إبعاد الدين عن التشريع كسبًا للإيمان أو للإلحاد؟ وعندما يظفر التراث اليهودي بحق الحياة ويرجع التراث الإسلامي بخفَّيْ حنين، أيكون إبعاد الإسلام عن السياسة كسبًا للإيمان أم للإلحاد؟

إن الزعم بأن الإسلام يبقى بعد عمليات البتر والتشويه التي تجريها العلمانية في كيانه هو من أبطل الباطل وأجرأ المفتريات، لن يبقى من الدين شيء ذو بال إذا قبلنا مبدأ الحذف والإلغاء لبعض تعاليمه، وقد حاول ذلك بنو إسرائيل قديمًا فقيل لهم:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ٨٥].

إذا كان المسلمون يطلبون نصرًا في الدنيا وكسبًا في الأخرى فليحتقروا هذه الصيحات العلمانية وليستمسكوا بالدين كله وبذلك يفوزون بنصر مؤكد»[1].

❑ وتحت عنوان: «السقوط من عين اللَّه» كتب الشيخ في كتابه «الحق المر» (٥/ ١٧٣): «إن إسرائيل لا تملّ من تكرار تشبثها بما نالت برًّا وبحرًا

(١) المصدر السابق (٥/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

وجواً، والدول العظمى وافقت على سحب اتهامها بالعنصرية، ومن ثم فأنا أسائلكم.

هل سيظل الإسلام يعيش على هامش تفكيركم بينما تعيش اليهودية في سويداء قلوب أصحابها؟ إن اليهود يسجلون غيابهم يوم السبت لأن العمل فيه حرام، فهل تسجلون غيابكم يوم الجمعة لأداء صلاة في مسجد، أو نعتبركم مسافرين فتؤدون الصلاة في بيوتكم؟ إنكم أسقطتم الإسلام من حسابكم فليس غريبًا أن تسقطوا من عين اللَّه!!».

* **أمـــة منحدرة:**

❑ يقول الشيخ الغزالي: «كانت العروبة في أحضان الإسلام تعني التربية والثقافة والشريعة والتراث فلما انسلخت عنه أو أريد لها أن تكون بديلاً عنه وُجدتْ شعوب معتلة الثقافة منحلة الأخلاق متسولة للقانون متنكّرة للتراث حتى صحَّ فيها قول محمود غنيم:

ويح العروبة كان الكون مسرحها! فأصبحت تتوارى في زواياه!!

وقد نظرت إلى إسرائيل بعد اشتباك سبعين سنة مع العرب فرأيت اليهود دولة قوية تحظى باعتراف الشرق والغرب ورأيت العرب زادوا على عشرين دولة تتنافس جميعًا على مرضاة إسرائيل! ورأيت اليهودية دينًا ودولة، أما الإسلام فلا يجوز أن تتكون باسمه هيئة ترفع راية الشريعة وتتشبث بمواريث الوحي!

وأعرف أن المسلمين يعانون من هزائم ثقيلة، وأن كفتهم طاشت بين الأمم.

ولكني لم أعرف منهزمًا يدعي البطولة، ويلبس شارة الزعامة ويرقب من الجماهير أن تهتف له كما يقع ذلك في أرجاء الأمة العربية! والعرب

بأسهم بينهم شديد، ولو أن نصف خسائرهم في الفتن الداخلية وُجِّه إلى عدوهم لاستردوا أكثر ما فقدوا.

❑ أليس من العجائب أن جيشًا لبنانيًّا لا يزال يقاتل العرب مع إسرائيل؟

❑ وقد استطاع بعض الرؤساء العرب أن يؤلف جيشًا لا بأس به، مزودًا بأسلحة حسنة وزعم أنه سيدخل به تل أبيب، فلما وقعت الواقعة دخل به الكويت وضلّ الطريق إلى تل أبيب!

وبين العرب اليوم سباق إلى مصالحة إسرائيل والرضا بالهزيمة المذلة، وأول من سنّ هذه السنة الرئيس أنور السادات؛ لأنه ورث عن جمال عبدالناصر عروبة مقطوعة عن الإسلام مربوطة بقومية مجردة وجاهلية عمياء حرمته كل توفيق وأذاقته الموت قبل أن يحين أجله!

إنني أرمق أوضاع العرب السياسية فأشعر بغصّة، وسيبقى العرب ينحدرون ما داموا يرفضون الإسلام تربية وثقافة وشريعة وفلسفة وشارة حياة ودعامة مجتمع، وسيبقى الصلف اليهودي يتورّم وتنفخ فيه الدول الكبرى ما بقي العرب زاهدين في الإسلام..

وسيبقى قادتنا أصحاب عضلات من حزق إلى أن يرجع الإيمان التائه إلى القلوب الفارغة وتعود الأخلاق إلى المسالك المعوجة»[1].

* * *

(١) «الحق المر» (٥/ ١٨٢).

حذار من علماء السوء
قطاع الطريق إلى الآخرة

يا رجال الدين يا ملح البلد!

من يُصلح الملح إذا الملح فسد؟!

حذار من علماء السوء قُطّاع الطريق إلى الآخرة

بعد أن طوّفنا بك في بساتين الربانيين وجمعنا لك من أزهاير الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر من الصالحين حذار أن تخالف نهجهم وأن تسير على غير منوالهم فيكون العلم وبالاً عليك، فالعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه حلّ وإلا ارتحل.

● قال رسول اللّه ﷺ: «**غيرُ الدجّال أخْوَفُ على أمتي من الدجال الأئمة المُضلُّون**»(١).

● وقال ﷺ: «**أكثر منافقي أمتي قُرَّاؤها**»(٢).

● وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «**يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقَى في النار، فتنَدلِق أقتابه، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فتجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه**»(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» عن أبي ذر، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٨٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٠٤١).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، والطبراني فى «الكبير» والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو، وأحمد في «مسنده»، والطبراني في «الكبير» عن عقبة بن عامر، والطبراني في «الكبير» وابن عدي عن عصمة بن مالك، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٥٠)، و«صحيح الجامع» رقم (١٢١٤).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

تندلق: تخرج من مكانها بسرعة.

الأقتاب: جمع قِتْب: وهي الأمعاء. الرحى: الطاحون.

● وعن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «مررتُ ليلة أُسريَ بي بأقوام تُقْرَض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباءَ أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون»(١).

● وعن زيد بن أرقم ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ يقول: «اللَّهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها» رواه مسلم.

● وعن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه فيم عمل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه»(٢).

● وقال ﷺ: «مثل الذي يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج، يُضيء للناس ويحرق نفسه»(٣).

● وعن أبي برزة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «مثل الذي يُعلِّم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة، تُضيء على الناس، وتحرق نفسها»(٤).

❑ قال الثوري ـ رحمه اللَّه ـ: «إنما يُتعلَّم العلمُ ليُتقى به اللَّه، وإنما

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا ابن وابن حبان والبيهقي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب». وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في رواية لهما «ويقرءون كتاب اللَّه ولا يعملون به».

(٢) صحيح: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» عن جندب بن عبداللَّه الأزدي، قال المنذري: وإسناده حسن إن شاء اللَّه، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

(٤) صحيح: رواه البزار قال المنذري: والطبراني في «الكبير» كما قال السيوطي والهيثمي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

فُضِّل العلم على غيره لأنه يُتقى به اللَّه». فإن لم يثمر العلم عملاً به فما هو بعلم، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قال ابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ: «يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أُعطوا التوراة وحُمِّلوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا، أي كمثل الحمار إذا حمل كتبًا لا يدري ما فيها فهو يحملها حملاً حسِّيًّا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظًا ولم يتفهّموه ولا عملوا بمقتضاه بل أوّلوه وحرّفوه وبدّلوه فهم أسوأ حالاً من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء قوم لهم فهوم لم يستعملوها»[1].

وقال القرطبي ـ رحمه اللَّه ـ: ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ أي: كُلِّفوا العمل بها، ضُرب مثلاً لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ هي جمع سِفْر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يُسفر عن المعنى إذا قُرئ. وفي هذا تنبيه من اللَّه تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلّم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذمِّ ما لحق هؤلاء ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بها. شبههم والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها بالحمار يحمل كتبًا وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة»[2].

هذا خلاّد بن يزيد الأرقط ـ الذي قال عنه أبو زيد عمر بن شبة ـ: «كان من الجبال الرواسي نبلاً يأتي سفيان بن عيينة للعلم فانظر ماذا قال له سفيان:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٦٤).

(٢) «تفسير القرطبي» ص(٦٥٧٣).

قال خلاّد: أتيت سفيان بن عيينة فقال: «إنما يأتي بك الجهل لا ابتغاء العلم، لو اقتصر جيرانك على علمك كفاهم، ثم كوّم كومة من بطحاء ثم شقّها بإصبعه ثم قال: هذا العلم أخذت نصفه، ثم جئت تبتغي النصف الباقي فلو قيل: أرأيت ما أخذت هل استعملته؟ فإذا صدقت قلت: لا، فيُقال لك: ما حاجتك إلى ما تزيد به نفسك وقْرًا على وقر ! استعمل ما أخذت أولاً»[١] .

❑ وقال وهيب بن الورد: مثل عالم السوء كمثل حجر دُفع في ساقية فلا هو يشرب من الماء، ولا هو يُخلّي عن الماء فيحيا به الشجر، ولو أن علماء السوء نصحوا للّه في عباده فقالوا: يا عباد اللّه اسمعوا ما نخبركم به عن نبيكم، وصالح سلفكم، فاعملوا به، ولا تنظروا إلى أعمالنا فإنا قوم مفتونون، كانوا قد نصحوا للّه في عباده، ولكنهم يريدون أن يدْعُوا عباد اللّه إلى أعمالهم القبيحة فيدخلوا معهم فيها»[٢] .

❑ وقال سفيان بن عيينة: «العلم إن لم ينفعك ضرّك».

❑ قال الخطيب: «يعني إن لم ينفعه بأن يعمل به، ضرّه بكونه حجّة عليه»[٣] .

❑ يا معشر العلماء اسمعوا: العالم ما لم ينفعه اللّه بعلمه فهو من أول من تُسعَّر بهم النار يوم القيامة:

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: **«إن أوّل الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتي به، فعرّفه نعمه فعرفها، قال: ما**

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي ص(٨٤).

(٢) المصدر السابق ص(٦٧).

(٣) المصدر السابق ص(٥٦).

عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يُقال: فلان جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمتُ العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت: ولكنك تعلّمت ليُقال: عالم، وقرأت القرآن ليُقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار. ورجل وسّع اللَّه عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به، فعرّفه نعمه، فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليُقال: هو جواد، فقد قيل: ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقي في النار»[١].

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كما أن خير الناس الأنبياء، فشرّ الناس من تشبّه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم، فخير الناس بعدهم العلماء والشهداء والصدّيقون والمخلصون، وشرّ الناس من تشبّه بهم يوهم أنه منهم وليس منهم»[٢].

❑ رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تُخالف سريرتهم علانيتهم، ويُخالف عملهم علمهم، يقعدون حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى اللَّه عز وجل[٣].

---

(١) رواه مسلم والنسائي والترمذي وحسنه، وابن حبان في «صحيحه».

(٢) «الداء والدواء» ص(٣١).

(٣) «جامع بيان العلم» ص(٢٤٥).

وذكر مالك أنه بلغه عن القاسم بن محمد: أدركت الناس وما يُعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل»[١].

❑ وقال الحسن ـ رحمه اللَّه ـ: اعتبروا الناس بأعمالهم ودعو أقوالهم، فإن اللَّه لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يُصدِّقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولاً حسنًا فرويدًا بصاحبه، فإن وافق قوله فعله فنعم ونَعْمَة عين»[٢].

❑ قال الفضيل ـ رحمه اللَّه ـ: إنما يُراد من العلم العمل، والعلم دليل العمل».

*** من لم يعمل بعلمه فهو جاهل:**

من لم يثمر علمه عمله به فهو جاهل.. وهذا النوع من الجهل سماه ابن القيم «جهل العمل».

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «الجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه. فكلاهما جهل لغة وعرفًا وشرعًا وحقيقة.

* قال موسى: ﴿**أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [البقرة: ٦٧] لما قال له قومه: ﴿**أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا**﴾ أي: من المستهزئين.

* وقال يوسف الصديق: ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ [يوسف: ٣٣] أي: من مرتكبي ما حرّمت عليهم.

* وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول اللَّه ﷺ أن كل ما عُصِي اللَّه به فهو جهالة. وقال غيره: أجمع الصحابة أن كل من عصى اللَّه فهو جاهل. وسمّي عدم

(١، ٢) «جامع بيان العلم» لابن عبدالبر ص(٢٤٥).

مراعاة العلم جهلاً، إما لأنه لم ينتفع به فنزّل منزلة الجهل. وإما لجهله بسوء ما تجنى عواقب فعله. فالفرار المذكور ـ أي منزلة الفرار من «منازل السائرين» ـ هو الفرار من الجهلين: من الجهل بالعلم إلى تحصيله، اعتقاداً ومعرفة وبصيرة في العلم. ومن «جهل العمل» إلى السعي النافع، والعمل الصالح قصداً وسعياً»[١].

❑ والخشية هي العلم، والقيام بحق العلم من العبادة هي العلم.

* قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩] فسمى التهجد علمًا.

❑ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية اللَّه علمًا، و«كفى بالاغترار به جهلاً».

❑ وقال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: إنما العالم مَن يخشى اللَّه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يقتضي أن كل من خشي اللَّه فهو عالم، ويقتضي أيضًا أن العالم من يخشى اللَّه.

«فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات، وترك السيئات، وكل عاص فهو جاهل ليس بتام العلم، تبيّن ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم»[٢].

❑ قال مجاهد: من عمل ذنبًا ـ من شيخ أو شاب ـ فهو بجهالة. وقال: من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته. وقال أيضًا: هو إعطاء الجهل العمد. وقال مجاهد أيضًا: من عمل سوءًا خطأً، أو إثمًا

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٢) «الحسنة والسيئة» لابن تيمية ص(٥٩).

عمداً، فهو جاهل حتى ينزع منه.

❑ يا من حملت العلم بين جنبيْك أعلم أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق ولا يتّبعونه قولاً أو عملاً، أوْ لا قولاً ولا عملاً، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من اللَّه، ويقولون على اللَّه ما لا يعلمون. ولهذا كان السلف، كسفيان بن عيينة وغيره يقولون: «من فسد من علمائنا: ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبّادنا ففيه شبه من النصارى»[1].

* قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «شبّه سبحانه من آتاه كتابه، وعلّمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتبع هواه، وآثر سخط اللَّه على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق بالكلب الذي هو من أخسّ الحيوانات، وأوضعها قدراً، وأخسها نفساً، وهمته لا تتعدّى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه: أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم، ويستروح حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشمّ دبره دون سائر أجزاء جسمه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضّه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا. والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبًا يتناول معه منها شيئًا إلاّ هَرَّ عليه وقهره، لحرصه وبخله وشرهه.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية ص(٥).

ومن عجيب أمره وحرصه: أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنيّة، وحال رزيّة نبحه، وحمل عليه كأنه يتصوّر مشاركته له، ومنازعته في قوته. وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة: وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على اللَّه والدار الآخرة ـ مع وفور علمه ـ بالكلب في حال لهثه سرّ بديع، وهو أن هذا حاله ما ذكره اللَّه من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه على الدنيا، لانقطاع قلبه عن اللَّه والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال انزعاجه وتركه. واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

❑ قال ابن جريج[1]: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له: إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. فهو مثل الذي يترك الهدى، لا فؤاد له إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده: أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث وهكذا هذا الذي انسلخ من آيات اللَّه، لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر على الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإذا كان فيه صبر على الجوع. وعلى كل حال فهو أشد الحيوانات لهثًا: يلهث قائمًا، وقاعدًا، وماشيًا، وواقفًا. وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده تُوجب له دوام اللهث.

---

(١) انظر «الطبري» (٩/ ١٢٩).

فهكذا مشبهه: شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

❑ قال مجاهد: ذلك مثل الذي أُوتي الكتاب ولم يعمل به.

❑ وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تتركه لم يهتد إلى خير، كالكلب إن كان رابضًا لهث، وإن طُرِد لهث.

❑ وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دُعِي أو لم يدع، وُعظِ أم لم يوعظ. كالكلب يلهث طردًا وتركًا.

❑ وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه.

❑ وقال أبو محمد بن قتيبة[1]: «كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش أو علة إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الصحة، وحال المرض والعطش». فضربه اللَّه لمن كذّب بآياته، وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال. كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث.

* ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

❑ وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني:

فمنها قوله: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة واللَّه هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه. ثم قال: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج منها، كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد

(١) انظر «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة ص(٣٦٩).

يُسلخ عن اللحم.

ولم يقل فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبّب إلى انسلاخه منها باتباعه هواه.

❑ ومنها: قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾، وكان محفوظًا محروسًا بآيات اللَّه محميّ الجانب بها من الشيطان لا ينال منه شيئًا إلا على غرّة وخَطْفة. فلما انسلخ من آيات اللَّه ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

❑ ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإنّ هذا كان من العلماء، وإنما هي اتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاه اللَّه، فإنّ هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه اللَّه بعلمه، ولم ينفعه به. نعوذ باللَّه من علمٍ لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإنْ لم يرفعه اللَّه فهو موضوع، لا يرفع أحدٌ به رأسًا. فإن الرب الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه. والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

❑ قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو شئنا لرفعناه بعلمه.

❑ وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾ عائد على الكفر. والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا. قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه. وهذا المعنى حق. والأول هو مراد الآية. وهذا من لوازم المراد.

وقد تقدم أن السلف كثيراً ما ينبهون على لازم معنى الآية، فيظن الظان

أن ذلك هو المراد منها.

* وقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض، وقال مجاهد: سكن، وقال مقاتل: رضي بالدنيا. وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ.

والمخلد من الرجال هو الذي يبطئ في مشيته.

❑ وقال الزجاج: خلد وأخلد، وأصله من الخلود: وهو الدوام والبقاء. يُقال أخلد فلان بالمكان إذا أقام به.

* وقوله: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ قال الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها.

❑ وقال أبو رَوْق[1]: اختار الدنيا على الآخرة. وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه فإن قيل: الاستدراك بـ «لكن» يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها، أو ينفي ما أثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته، لكني لم أعطه، ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته، والاستدراك يقتضي: ولو شئنا لرفعناه بها ولكنا لم نشأ، أو لم نرفعه، فكيف استدرك بقوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى، المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني، وذلك أن مضمون قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات: من إيثار اللَّه ومرضاته على هواه، ولكنه آثر الدنيا، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه»[2].

❑ قال القرطبي ـ رحمه اللَّه ـ: «وهذا المثل في قول كثير من أهل العلم

(١) أبو روق، هو عطية بن الحارث، صدوق.

(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ٢١٦).

بالتأويل عام في كلِّ من أُوتي القرآن فلم يعمل به. وقيل: هو في كل منافق. والأول: أصح.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، أي: إنْ تحمل عليه بدابتك أو برجلك يلهث أو تتركه يلهث. وكذلك من قرأ الكتاب ولا يعمل بما فيه. وقال غيره: هذ شر تمثيل؛ لأنه مثّله في أنه قد غلب عليه هواه حتى صار لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا بكلب لاهث أبدًا، حُمل عليه أو لم يُحمل عليه؛ فهو لا يملك لنفسه ترك اللَّهَثان.

وقيل: من أخلاق الكلب الوقوع بمن لم يخفه على جهة الابتداء بالجفاء، ثم تهدأ طائشته بنيل كلّ عوض خسيس. ضربه اللَّه مثلاً للذي قبل الرشوة في الدين حتى انسلخ من آيات ربه. فدلّت الآية لمن تدبّرها على ألا يغترّ أحد بعلمه ولا بعمله؛ إذ لا يدري بما يُختم له. ودلّت على منع أخذ الرشوة لإبطال حق أو تغييره. ودلّت على منع التقليد لعالم إلا بحجّة يبيّنها؛ لأن اللَّه تعالى أخبر أنه أعطى هذا آياته فانسلخ منها، فوجب أن يخاف مثل هذا على غيره وألا يُقبل منه إلا بحجة»[1].

□ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: هذا مَثَل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

تأمل ما تضمّنته هذه الآية من ذمّه وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضلّ بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه شيء لم ينسلخ منها.

---

(١) «تفسير القرطبي» ص(٢٧٥٩).

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿**فأتبعه الشيطان**﴾ ولم يقل تبعه، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنى.

ورابعها: أنه غوي بعد الرشد، والغيّ: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخصّ بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذُكِر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه لأنه لم يرفع به فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخفّ لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسّة همته وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاء اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض. وعبّر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه، واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبه بالكلب الذي هو أخسّ الحيوانات همّة، وأسقطها نفسًا وأبخلها، وأشدها كلبًا، ولهذا سمي كلبًا.

وعاشرها: أنه شبّه لهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه في تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا.. هذا إن تُرِك فهو لهثان على الدنيا، وإن وُعِظ وزُجِر فهو كذلك

فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب.

❑ قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الريّ وحال العطش فضربه اللَّه مثلاً لهذا الكافر فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال؛ كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته في حاله لهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخسّ ما يكون وأشنعه»[1].

*** عالم السوء:**

وقفنا طويلاً أمام مثل عالم السوء الذي آتاه اللَّه آياته فانسلخ منها، وهو «مثل رهيب عجيب، وما تنفك ظلاله القاتمات تملأ النفس رهبة ووجلاً، وتدخل على القلب بالهمِّ والحزن أن يصير إنسان إلى هذه الحال ـ أيُّ إنسان ـ ولكن الذي صار إليه رجل من أعلم أهل زمانه وكذلك يصير من هو على شاكلته انسلاخًا من آيات اللَّه، وإخلادًا إلى الأرض واتباعًا للهوى، ثُمَّ هو في الدنيا يقعد من الناس مَزْجَر الكلب، وفي الآخرة عذاب عظيم، وما ظلمهم اللَّه ولكن أنفسهم كانوا يظلمون؛ لأنهم كانوا في الدنيا يصرفون الناس عن اللَّه بسلوكهم وأعمالهم»[2].

*** تلبيس إبليس:**

❑ قال ابن الجوزي ـ رحمه اللَّه ـ: «إن أقوامًا علت هممهم فحصّلوا علوم الشرع من القرآن والحديث والفقه والأدب وغير ذلك، فأتاهم إبليس بخفيّ التلبيس فأراهم أنفسهم بعين عظيمة لما نالوا وأفادوا غيرهم؛ فمنهم من

(١) «الفوائد» لابن القيم (١٠٠ ـ ١٠٢).

(٢) «ذم الجهل» لمحمد بن سعيد بن رسلان ـ ص(١٥٧ ـ ١٥٨) ـ دار العلوم الإسلامية.

يستفزّه لطول عنائه في الطلب، فحسّن له اللذات، وقال له: إلى متى هذا التعب فأرح جوارحك من كلف التكاليف وأفسح لنفسك في مشتهاها؛ فإن وقعت في زلة فالعلم يدفع عنك العقوبة، وأورد عليه فضل العلماء.

فإنْ خُذِل هذا العبد وقَبِل هذا التلبيس يهلك، وإن وُفِّق فينبغي له أن يقول: جوابك من ثلاثة أوجه:

* **أحدها**: إنه إنما فُضِّل العلماء بالعمل ولولا العمل به ما كان له معنى، وإذا لم أعمل به كنتُ كمن لم يفهم المقصود به ويصير مثلي كمثل رجل جمع الطعام وأطعم الجياع ولم يأكل، فلم ينفعه ذلك من جوعه.

* **والثاني**: أن يعارضه بما ورد في ذمّ من لم يعمل بالعلم.

* **والثالث**: أن يذكر له عتاب من هلك من العلماء التاركين للعمل بالعلم، كإبليس وبلعام. ويكفي في ذم العالم إذا لم يعمل قوله تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾.

وقد لبّس إبليس على أقوام من المحكّمين في العلم والعمل من جهة أخرى، فحسّن لهم الكبر بالعلم والحسد للنظير والرياء لطلب الرياسة، فتارة يريهم أن هذا كالحق الواجب لهم. وتارة يقوّي حب ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمهم بأنه خطأ.

وعلاج هذا لمن وفّق إدمان النظر في إثم الكبر والحسد والرياء، وإعلام النفس أن العلم لا يدفع شرّ هذه المكتسبات بل يُضاعف عذابها لتضاعف الحجة به.

ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين استقرّت نفسه فلم يتكبّر، ومن عرف اللَّه لم يرآءِ، ومن لاحظ جريان أقداره على مقتضى إرادته لم يحسد.

وقد يدخل إبليس على هؤلاء بشبهة ظريفة؛ فيقول طلبكم للرفعة ليس بتكبّر لأنكم نوّاب الشرع فإنكم تطلبون إعزاز الدين ودحض أهل البدع، وإطلاقكم الكلام في الحسّاد غضب للشرع؛ إذ الحسّاد قد ذمّوا من قام به، وما تظنّونه رياء فليس برياء؛ لأن من تخاشع منكم وتباكى اقتدى به الناس كما يقتدون بالطبيب إذا احتمى أكثر من اقتدائهم بقوله إذا وصف.

وكشف هذا التلبيس: أنه لو تكبّر متكبّر على غيرهم من جنسهم وصعد في المجلس فوقه، أو قال حاسد عنه شيئًا لم يغضب هذا العالم لذلك كغضبه لنفسه، وإن كان المذكور من نوّاب الشرع، فعُلم أنه إنما لم يغضب لنفسه بل للعلم.

وأما الرياء فلا عذر فيه لأحد ولا يصلح أن يُجعل طريقًا لدعاية الناس. وبعد هذا فالأعمال بالنيات، والناقد بصير. وكم من ساكت عن غيبة المسلمين، وإذا اغتيبوا عنده فرح قلبه، وهو آثم ذلك من ثلاثة وجوه:

* أحدها: الفرح فإنه حصل بوجود هذه المعصية من المغتاب.

* والثاني: لسروره بثلب المسلمين.

* والثالث: أنه لا ينكر.

وقد لبّس إبليس على الكاملين في العلوم فيسهرون ليلهم ويدأبون نهارهم في تصانيف العلوم ويريهم إبليس أن المقصود نشر الدين، ويكون مقصودهم الباطن؛ انتشار الذكر، وعلوّ الصيت والرياسة وطلب الرحلة من الآفاق إلى المصنِّف.

وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انتفع بمصنفاته الناس من غير تردد إليه، أو قُرئَت على نظيره في العلم فرح بذلك إن كان مراده نشر العلم.

❑ قال بعض السلف: ما من علم علمته إلا أحببت أن يستفيده الناس

من غير أن يُنسب إليّ ـ قلت: هو الشافعي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ.

ومنهم من يفرح بكثرة الأتباع، ويُلبِّس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاّب العلم؛ وإنما مراده كثرة الأصحاب، واستطارة الذكر، ومن ذلك العُجب بكلامهم وعلمهم.

وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انقطع بعضهم إلى غيره ممن هو أعلم منه ثقل ذلك عليه، وما هذه صفة المخلص في التعليم؛ لأن مثل المخلص مثل الأطباء الذين يداوون المرضى للَّه سبحانه وتعالى؛ فإذا شُفي بعض المرض على يد طبيب منهم فرح الآخر.

● وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار ما منهم رجل يُسأل عن شيء إلاّ ودّ أن أخاه كفاه، ولا يحدِّث بحديث إلا ودّ أن أخاه كفاه.

وقد يتخلصّ العلماء الكاملون من تلبيسات إبليس الظاهرة، فيأتيهم بخفيّ من تلبيسه؛ بأن يقول له: ما لقيت مثلك، ما أعرفك بمداخلي ومخارجي؛ فإن سكن إلى هذا هلك بالعُجْب، وإن سلم من المسألة له سلم.

❑ وقد قال السري السقطي: لو أن رجلاً دخل بستانًا فيه من جميع ما خلق اللَّه عز وجل من الأشجار عليها من جميع ما خلق اللَّه عز وجل من الأطيار، فخاطبه كل طائر بلغته؛ وقال: السلام عليك يا وليّ اللَّه فسكنت نفسه إلى ذلك، كان في أيديها أسيرًا، واللَّه الهادي لا إله إلا هو»[1].

*** علماء السوء:**

❑ قال ابن الجوزي يصف بعض علماء السوء في عصره: «قدم علينا

(١) «تلبيس إبليس» ص(١٢٩).

بعض الفقهاء من بلاد الأعاجم وكان قاضيًا ببلده فرأيتُ على دابته الذهب ومعه أتوار[١] الفضة وأشياء كثيرة من المحرمات.

فقلت: أي شيء أفاد هذا العلمُ؟ بل واللَّه لقد كثرت عليه الحجج، وأكبر الأسباب قلّة علم هؤلاء بسيرة السلف وما كان عليه رسول اللَّه ﷺ؛ إنهم يجهلون الجملة، ويتشاغلون بعلم الخلاف، ويقصدون التقدم بقشور المعرفة وليس يعنيهم سماع حديث ولا نظر في سير السلف، ويخالطون السلاطين فيحتاجون إلى التزيِّي بزيهم، وربما خطر لهم أن هذا قريب، وإن لم يخطر لهم فالهوى غالب بلاصادّ، نعم، ربّما خطر لهم أن يقولوا: هذا يحتمل ويُغفر في جانب تشاغلنا بالعلم، ثم يرون العلماء يكرمونهم لنيل شيء من دنياهم، ولا ينكرون عليهم، ولقد رأيت من الذين ينتسبون إلى العلم من يستصحب المردان، ويشتري المماليك، وما كان يفعل هذا إلا من قد يئس من الآخرة. ورأيت من قدْ بلغ الثمانين من العلماء، وهو على هذه الحالة.

فاللَّه اللَّه يا من يريد حفظ دينه ويوقن بالآخرة، إيّاك والتأويلات الفاسدة، والأهواء الغالبة؛ فإنك إن ترخّصت بالدخول في بعضها جرّك الأمر إلى الباقي، وكم تقدر على الخروج لموضوع إلف الهوى فاقبل نصحي، واقنع بالكسرة، وابعد عن أرباب الدنيا؛ فإذا ضجّ الهوى فدَعْه ولا تُجبه. فالصبر الصبر على شظف العيش والبعد عن أرباب الهوى.. فما يتّم دينٌ إلا بذلك. ومتى وقع الترخّص حمل إلى غيره، كالشاطئ إلى اللجة، وإنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، ووجه أصبحُ من وجه؛ وإنما هي أيام يسيرة»[٢].

---

(١) أتوار: جمع تورٍ وهو إزاء يُشرب فيه وقد يُتوضأ منه.

(٢) «صيد الخاطر» ص(٣٦٣).

* **علماء السوء قطاع الطريق إلى الجنة.. دعاة على أبواب جهنم:**

❑ قال ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلّما قالت أقوالهم للناس: هلمّوا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له، فهم في هذه الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطّاع الطرق»[1].

* **علماء السوء ممقوتون عند اللَّه:**

* ويكفي هؤلاء قول اللَّه عز وجل ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٢، ٣].

والمقت الذي يكبر عند اللَّه هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر.. وهذا غاية التفظيع لأمر، وبخاصة في ضمير المؤمن، الذي يُنادى بإيمانه، والذي يناديه ربه الذي آمن به.

* **علماء السوء:**

❑ إنه ليس أشنع من خيانة المستأمَن، وليس أبشع من تفريط المستحفَظ، وليس أخس من تدليس المستشهَد.

❑ إن الخطأ الأكبر أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك.

❑ يا ضيعة العمر إن نجا السامع وهلك المسموع، يا خيبة المسعى إن وصل التابع وانقطع المتبوع.

---

(١) «الفوائد» ص(٨١).

وَبَّخْتَ غيرك بالعمى فأفدته بصـرًا وأنت مُحَسِّنٌ لعماكَ
وفتيلة المصباح تحرق نفسها وتُضيء للأعشى وأنت كذاكَ

❑ أو كما قال القائل:

وكنا نستطِبُّ إذا مرضنا فصار هلاكُنا بيد الطبيب

❑ قال الجُنيد: متى أردت أن تشرف بالعلم وتنسب إليه، وتكون من أهله قبل أن تُعطي العلم ماله عليك، احتجب عنك نوره، وبقي عليك رسمه وظهوره، ذلك العلم عليك لا لك، ولك أن العلم يشير إلى استعماله، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبه رحلت بركاته».

❑ يقول ابن الجوزي: «وجدت رأي نفسي في العلم حسنًا، فهي تقدمه على كل شيء وتعتقد الدليل، وتفضل ساعات التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل؛ أني رأيت كثيرًا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم، قد عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السليمة والرأي الصحيح.

إلاّ أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصِحْتُ بها: فما الذي أفادك العلم. أين الخوف؟ أين القلقُ؟ أين الحذر؟؟

أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبّدهم واجتهادهم؟ أما كان الرسول ﷺ سيد الكلّ، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه؟

أما كان أبو بكر رضي الله عنه شجيّ النشيج كثير البكاء؟

أما كان في خدّ عمر رضي الله عنه خطّان من آثار الدموع؟

أما كان عثمان رضي الله عنه يختم القرآن في ركعة؟

أما كان عليّ رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابه حتى تخضلّ لحيته بالدموع؟

ويقول: يا دنيا غُرِّي غيري؟

أما كان الحسن البصري يحيا على قوة القلق؟

أما كان سعيد بن المسيب ملازمًا للمسجد لم تفته صلاة في جماعة أربعين سنة؟

أما صام الأسود بن يزيد حتى اخضرّ واصْفرّ؟

أما قالت بنت الربيع بن خيثم له: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فقال: إن أباك يخاف عذاب البيات؟

أما كان أبو مسلم الخولاني يُعلِّق سوطًا في المسجد يؤدب به نفسه إذا فتر؟

أما صام يزيد الرقاشي أربعين سنة؟ وكان يقول: والهفاه سبقني العابدون وقُطِع بي؟

أما صام منصور بن المعتمر أربعين سنة؟؟

أما كان سفيان الثوري يبكي الدم من الخوف؟

أما كان إبراهيم بن أدهم يبول الدم من الخوف؟

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم؟ أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد؟

احذري من الإخلاد إلى صورة العلم مع ترك العمل به، فإنها حالة الكُسالى والزَّمْني.

وَخُذْ لك منك على مُهْلَةٍ ... وُمْقبل عيْشِك لَمْ يُدْبِرِ

وَخَفْ هَجْمةً لا تُقيلُ العثا ... رَ وتَطْوِي الورود على المصْدَرِ

ومثِّلْ لنفسِكَ أي الرَّعيـ ... ـلِ يضُمُّكَ في حَلْبَة المحشَرِ

* * *

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوءٍ ورهبانها

*** شيخ معمم في اللاذقية أيام الوحدة مع مصر يقول عن «المسابح المختلطة» أنها الجيل القوي الأمين الذي سيحرر فلسطين!! وكلمة حق من الشيخ محمد المجذوب:**

❑ يقول الأستاذ محمد المجذوب في كتابه «خواطر ومشاعر»:

«دأبت منذ ثلث قرن على خدمة الكلمة المسلمة، أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو تذكيرًا بحق، أو دعوة إلى خير.. حتى صار ذلك جزءًا لا يتجزأ من كياني، ولو كلفني ألوان البلاء من السجون والاعتداء، وحتى المحاربة في الرزق.. ومن هنا أصبح مثل هذا التعرض للمسئوليات، بالنسبة إليّ، خلقًا لا سبيل إلى تجاهله أو عصيانه، كائنة ما كانت عواقبه؛ لأن الموضوع ليس خاضعًا لمعايير الربح والخسار، بمقدار ما هو حافز نفسي يفرض سلطانه دون أن يكون لي بإزائه أي خيار.

ثم إني إلى ذلك من أعلم الناس بحساسية الأوضاع، التي لا يمكن أن تتسع لأي نقد، بعد أن استمر سلطان الحزبية الثورية، التي لا تتورع عن سحق أي بادرة من هذا النوع، لقد ظل دعاة هذه الحزبية عاجزين عن إطباق قبضتهم على عنق البلاد، على الرغم من كل المحاولات الزائفة التي هولوا بها على السذج، والحملات الإعلامية الرهيبة، التي شنوها على مخالفيهم من قادة الأكثريات الشعبية.. أما الآن، وبعد قيام الوحدة السياسية بين القطرين، التي وضعت في أيديهم أزمة البلد ـ ولو إلى حين ـ فقد حققوا كل ما فاتهم، حتى ليعلنون حربهم على النظام الإلهي نفسه كما حدث يوم وقف أحد وزرائهم يفتتح مشروع سد الرسين بقوله: بعد اليوم لن نحتاج إلى السماء..، ومع أن السماء قد ردت على ذلك التحدي الصبياني بحبس

الغيث عن الشام كلها، فلم تأذن لها بقطرة من الماء حتى تلك الساعة.. فإن قبضتهم لم تزل يشتد ضغطها على عنق البلاد، حتى بات من غير المتوقع أن يجرؤ إنسان على الإشارة إليها ولو همسًا، إلا أن يكون كارهًا لحياته، أو مفارقًا لعقله.

ثم.. من أين لي أن أنسى تلك التظاهرة الحكومية الكبرى التي افُتتح بها مسبح (الشاطئ الأزرق) في اللاذقية، أكبر تلك المذابح، إذ شارك فيها وزراء الإقليم، حتى الوزير الذي كان محسوبًا على الإسلاميين، ومعروفًا بالسلوك المحافظ.. وقد حشد لها فريق من السباحين والسباحات من القطرين.. وألقى فيهم معممٌ غير مجهول تلك الكلمة الرائعة، التي كان منها قوله: (في هذه المدارس ـ يريد المسابح ـ سيتخرج الجيل القوي الأمين الذي سيحرر فلسطين)!!

وطبيعي أن تعتبر تلك الحفلة يومئذٍ تعبير الدولة عن نظرتها الرسمية إلى مثل هذه المشاريع.. ولا سيما بعد إذاعة هاتيك الخطبة النفيسه، التي صفق لها كبار الشخصيات الرسمية والمدعوة، وحملتها وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمنظور إلى كل مكان.. وكان من حق هذا أن يقفل بي كل رغبة للكلام في غير هذا الاتجاه.. لو كان لمثل فضولي أن ينتفع بمنطق الواقع فيلجأ إلى أضعف الإيمان.

وتذكرت أنني عضو منتخب في تشكيلة (الاتحاد القومي).. الذي كنا نتوقع أن يكون له مهمة أخرى غير التدريب على الاستقبال والتصفيق.. ولعل لهذه الصفة أثرها الأكبر في اندفاعتي ـ غير المعقولة ـ التي حركت لساني بكل ذلك التنديد المزعج.. إذ قلت لنفسي: ما جدوى انتخابنا وتنظيماتنا، إذا لم يكن لأحدنا الحق في أن يقول للمخطئ: إنك مخطئ!!.

ولم تذهب توقعاتي سدى.. فما إن انتهيت إلى مكتبي حتى طالعتني

تلك المفكرة غير السارة.. متوَّجة بشعار (المباحث) وفيها دعوة (المدعو محمد المجذوب) إلى مواجهة المسئولين وبأسرع وقت ممكن!.

وكان ذلك عصر الخميس. .فخشيت أن أحجز هناك إلى يوم السبت، فقررت تجاهل الدعوة، وتأخرت المواجهة إلى صباح ذلك اليوم.

وطال انتظاري في غرفة الكاتب.. وكان ذلك مألوفًا بالنسبة إلى كل مدعو للمباحث العامة؛ لأنه أشد إثارة لأوهامه، وأعمق تأثيراً في أعصابه، ولا معنى للمباحث إذا هي تخلت عن هذا الطابع!.

وعلى مقربة من وقت الظهر جاء الآذن ليبلغني موعد المقابلة، فانطلقت خلفه إلى مكتب الرئيس.. فإذا عنده الضابط الذي تتناقل الألسن أخبار شدته على الذين يقذف بهم القدر إلى يديه..

واستكمالاً للفائدة المنشودة عرفني الرئيس ـ بعد رد التحية ـ شخصية مساعده قائلاً: إنه فلان.. وضغط على اسمه بصورة تسترعي الانتباه، وتظاهرت بالهدوء، أجبت بمثل المداعبة: يسرني أن ألقاكما معًا..

وافتتح الرئيس الحوار بهذا السؤال: لعل الرحلة كانت موفقة؟!..

ـ أتريد زيارتي لأهلي في طرطوس وبانياس؟..

ـ طبعًا.. فهل لك أن تحدثنا بما ألقيت على الناس هناك؟..

ـ عسى أن يكون المخبر أكثر تذكرًا مني لما قلت.. لأني لم أتحدث إلى الناس بشيء معدّ..

ـ لقد تكلمت عن المسابح.. وحذرت الناس شرها..

ـ المسابح المختلطة طبعًا!..

ـ هي لا غيرها..

ـ يظهر أن المخبر لم يكذبك. إلا إنه نسي أني لم أسمها مسابح بل مذابح..

ولم يطق كتمان دهشته، فنظر إليَّ فاغر الفم ثم قال: هكذا.. وفي دائرة حكومية تصرح بهذا!! ولم أجدني قادرًا على التمويه فأجبت: تلك كلمة حق لا قيمة لها إن لم تقل.. واسمح لي أن أوجه مثلها إليكما أيضًا..

وصاح الرئيس وصاح معه المساعد الذي لم يحرك لسانه بغير هذه الكلمة «إلينا»؟!.

ـ نعم إليكما.. إنها نصيحة لا يسقط الواجب إلا بأدائها.. وهي أن تتجنبا تلك المذابح فلا تقرباها ولا سيما مع أهلكما..

وركز الرئيس مقعده باتجاهي وهو يقول: يظهر أنك لا تفكر بعواقب كلامك.. عليك أن تفهم أن هذه المسابح ليست إلا إحدى الوسائل المخططة لإخراج المرأة من قوقعتها.. تلك هي سياسة سيادته، ولا محيد عنها، أرجو أن تفهم هذا جيدًا.

وابتسمت بقدر ما يساعد الموقف، ثم أجبت: إن سيادته مسلم، وكثيرًا ما يعلن تقديره للإسلام.. فلا يعقل أن يرضى بما يناقض دين اللَّه..

وأراد الرجل أن يسد باب الجدل، فإذا هو يتحول إلى التلويح بالسلطة، وفي لهجة مشحونة بالوعيد يسأل: من كلفك إرسال هذا الكلام؟!.. وهل أنت موظف في قسم الإرشاد؟!..

ولم أجد مندوحة عن الاستسلام إلى حوافز الضمير فقلت: بلى.. إنني موظف وفي القسم نفسه..

قال: ومن الذي وظفك؟.. ومتى..

قلت: اسمح لي أن أسألك: باسم مَن أنت توجه إلي هذا التحقيق؟

وفي شموخ متعال أجاب: إنني أتكلم باسم سيادة الرئيس..

قلت: إذن فاعلم أن رئيسي أكبر من رئيسك.. إنه اللَّه الذي ألزمني

هذه المهمة منذ آمنت به وبرسوله!..

وسادت القاعة لحظة صمت.. لم يلبث أن قطعه بقوله: إذن فاستعدَّ لمغادرة البلاد بأهلك وسنعد لكم الجوازات اللازمة..

وسألت بدوري: ولم هذا؟

قال: لأنك معارض لسياسة سيادة الرئيس.. ولا مقام في جمهوريتنا المتحدة لمن يرفض هذه السياسة!..

وكان علي أن أفكر جادًا وبسرعة في ذلك العرض الذي لم أكن بكاره له، فقد طالما تطلعت إلى الضرب في أرض اللَّه تطلع السجين إلى ما وراء الأسوار.. غير أني تخوفت أن يكون وراء العرض خطة للاستدراج.. فأجمعت على التظاهر برفضه، وبالصراحة نفسها قلت للرجل: إنني امرؤ ذو رسالة أعمل لها منذ ثلث قرن، ولا يزال أمامي الكثير لإتمامها، ومن أجل ذلك لا أريد مغادرة وطني في الوقت الحاضر.. غير أني أنصح لكم أن تدفعوا بمثل هذه الجوازات إلى جماعة (الهاشناق) فهم أحق بها من مثلي..

وكانت أخبار هذه الفئة من الأرمن لا تبرح جديدة على ألسنة الناس، بعد الذي أذاعته وسائل الإعلام عن مصادرة أجهزتها التجسسية، حتى من بعض المعابد التابعة لها!.. وكأنه وجد في إشارتي إليها ما استدعى وقف الحديث.. فأعلن انتهاء المقابلة دون أية نتيجة..

وعدت إلى البيت وفي نفسي أشتات التصورات، وما هي سوى أيام حتى تسلمت الأمر الصادر من السلطة المحلية بتسريحي من عملي في التدريس..

وفي المساء نفسه جاء لزيارتي محام صديق، جعل يعزيني ويذكرني بما لا ينبغي أن أغفله من الثقة برحمة اللَّه، وتكلم بعض أبنائي يَعِدون بأن يؤمنوا لي مثل راتبي الذي فقدته وفي اطمئنان غريب قلت لولدي: إنني

لشديد الأمل ألا يحوجني اللّه إلى معونتكم، وقلت لذلك الصديق: لقد أتيت ما أتيت نشدانا لمرضاة اللّه، وسترى يا صديقي أنه لن يغفلني..

❑ وكنت مدعوًّا لإلقاء بعض شعري في الحفلة التي يقيمها المجلس الثقافي بدمشق، فسافرت في اليوم التالي، وألقيت قصيدتي (ناقور القضاء) عن فلسطين واللاجئين.. ثم التقيت بوزير التعليم الإقليمي سيد يوسف، وقصصت عليه مشكلتي كاملة، فوجدت لديه إصغاء كريمًا، وكان على أهبة السفر إلى القاهرة فوعدني أخيرًا، وأنظرني إلى موعد رجوعه لدمشق، ولدى عودتي إلى الفندق وجدت خلاصة مكالمة هاتفية واردة من أهلي، تفيد أن فلانًا، وهو مدير ثانوية خاصة في حلب، قد أبرق يعرض عليَّ عملاً يقارب ضعف مرتبي المقطوع.. فقلت في نفسي: إنها البادرة الأولى للفرج الرباني.

وعدت إلى اللاذقية ومن ثم إلى حلب، ولكني لم أكد أتم الاتفاق حتى فوجئ العالم بنبأ الانقلاب الذي أطاح بالكيان السياسي كله.. وإذا الوحدة التي خلقتها الظروف غير الطبيعية تتبخر خلال ساعات معدودة، ويخلفها نظام جديد.. وحكومة جديدة تولى وزير التعليم فيها صديق لي قديم..!.

ولم أتردد في استجابة الحافز الأول، فشخصت إلى دمشق واتصلت بالوزير الصديق، الذي أحاط بواقع مشكلتي، فكتب على بطاقة خاصة رسالة حاسمة إلى ذلك المسئول، الذي كان قد وجد في تسريحي فرصته الذهبية للانتقام وفيها يقول: إني آمر بإعادة فلان إلى عمله دون أي تأخير.

وعلى الرغم من محاولات المأمور تأخير التنفيذ، لم يجد مفرًا من إلغاء قراره الظالم، فاستردت مكاني المغصوب.. ثم رحت أتابع شريط الأحداث، فأرى بعيني إلى مصير الأربعة الذين تواطئوا علي وقد أصبح كل

منهم عبرة لكل ذي عين..!

❑ وجاءني الصديق المحامي مرة ثانية ليقول: لا أدري بأي النصرين أهنئك.. بسقوط الذين بغوا عليك أو بعودة حقك إليك..؟

قلت: ولكن.. أنَّى للنصرين أن يخفا من أساي لانفصام القطرين..! وأطرق صديقي يفكر بما أثارته عبارتي في نفسه ثم أردف: لست واللَّه بأقل أسى لهذه النهاية.. ولكن.. لا تنسى يا صديقي أن الوحدة التي فقدناها ولدت ميتة منذ يومها الأول، لأنها لم تحمل روح صلاح الدين، ولهذا لم تظفر بالقرار المكين، ثم لم تعرف سبيلها إلى الشاطئ الأمين..![1].

* خبر عجيب عجيب!!!!

❑ يقول الدكتور محمد المجذوب: «سألت أحد طلابي في الجامعة إذا كان قد أتمّ زواجه الذي سبق أن أخبرني به.

فقال: لقد انفرط عقده قبل الدخول، ثم قص عليّ هذا الخبر العجيب الغريب، وخلاصته أن قاضي بلده قد حكم إلغاء عقده، إذ ثبت له أنه ينتمي إلى جماعة إسلامية معروفة، في حين أن زوجته تنتمي إلى إحدى الفرق الثورية.. والقاضي لا يرى تزويج مثلها لمثله؛ لأنه ليس لها بكفء!!»[2].

❑ وفي جامع ابن أدهم بجبلة من الساحل السوري وقف مفت معروف يخطب المسلمين، وكانت الغيوم متلبدة بين المملكة السعودية ورئيس الوحدة الموؤدة، فجعل خطبته صورة من ترهات صوت العرب ومفترياتها على السعودية، ثم ختم خطبته برجاء للراغبين إلى الحج إلى بيت اللَّه أن يستنزلوا سخط اللَّه على رجال المملكة وهم متمسكون بستار الكعبة!.

---

(١) «خواطر ومشاعر» لمحمد المجذوب (ص١٣٢ ـ ١٣٦) ـ دار الاعتصام.

(٢) «مشكلات الجيل في ضوء الإسلام» (ص١١٧ ـ ١١٨).

وشاء اللَّه أن يجتمع بعض حجّاج جبلة ذلك العام حول الكعبة المشرفة فيقول أحدهم: لا تنسوا وصية الشيخ بالدعاء على القوم! وكادوا يفعلون لولا أن قيض اللَّه لهم من أقنعهم بفساد تلك الوصية!!»[١] .

*** إن عالم السوء سماؤه مظلمة ليس فيها كواكب!!**

نظرته قصيرة وذوقه أعمى!

يتجول بلا هدف

الملّة أصبحت بأقواله متفرقة إلى أفراد!

وماذا يبقى من الأمة إن تفرق أفرادها أيدي سبا!

*** فتوى للشيخ زكي بدر وفتوى للشيخ الأكبر على مذهب واعتقاد الخوارج:**

❑ يقول زكي بدر: «أما الإخوان المسلمون؛ فهم ليسوا بمسلمين لكنهم أطلقوا على أنفسهم هذا اللقب ظلمًا وعدوانًا على الدين الإسلامي[٢] ، ثم الأدهى من ذلك أن تابعه شيخ الأزهر!! حيث نقلت الصحف المصرية أنه وقعت مصادمات بين المسلمين والنصارى في إحدى قرى الصعيد وبدون معرفة دوافع هذه المصادمات وبدون معرفة من المخطئ ومن المصيب، أصدر شيخ الأزهر هذه الفتوى «مرتكبو أحداث العنف ليسوا بمسلمين!!».

❑ قال شيخ الأزهر: إن هؤلاء ممن يسمون بالمتطرفين لا يجب أن نسميهم هكذا فعن أي شيء تطرفوا وهم لا ينسبون إلى الإسلام أصلاً. وكيف أنسبهم إلى الإسلام وهو العدل الإلهي الذي أوضح أنه من يقدم على

(١) المصدر السابق (ص١٢١).

(٢) «الوطن العربي» (تاريخ ٣/ ٢/ ١٩٨٩م).

جريمة القتل وعلى الإطلام والإفساد قد تخلى وقت ارتكابه الجريمة عن إسلامه لأن رسول اللّه ﷺ يقول: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن ولا يقتل حين يقتل وهو مؤمن**» ولهذا أنه من الإنصاف أن نبحث لهؤلاء القتله عن صفة أو اسم آخر يناسب ما ارتكبوا من جرائم». جريدة الأخبار ١٣/ ٥/ ١٩٩٢م.

* حكم التكفير أشد من حكم الحرابه:

والغرابة أن شيخ الأزهر أصدر هذا الحكم الجائر دون معرفة أسبابه ودوافعه، ودون معرفة الظالم من المظلوم وبعد إصدار الفتوى والحكم بالتكفير تقول ـ الأخبار ـ وحول إمكانية حد الحرابة الإسلامي على مرتكبي أعمال العنف في قرية «صنبو».

❑ قال الإمام الأكبر: «يجب ألا نستبق الحوادث وهذا طبعي ومبدئي في الحكم على الأشياء قبل أن يتم توصيف الجريمة كما أنني لا أفترض تطبيق عقاب ما دامت الأمور ليست واضحة»، وقال: «لا تنسوا أنه حتى آلان لم تتضح أسباب ما حدث ونحن نقرأ كل يوم أسبابًا جديدة لما حدث واتهامات جديدة أيضًا» الأخبار ١٣/ ٥/ ١٩٩٢م ـ ونسي شيخ الأزهر أن إصدار حكم التكفير على المسلم بدون تثبت من وقوع الفعل أولاً وبدون دليل قطعي يفيد أن الفعل كفر مخرج من الملة وبدون إقامة الحجة على الفاعل أبشع وأبشع لما رواه البخاري عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**ما رمى رجل رجلاً بالكفر أو الفسق إلا ارتدت عليه ما لم يكن صاحبه كذلك**».

* الرد على شيخ الأزهر وجماعة التكفير:

حقيقة.. أمر مؤسف أن تستدرج الحكومة شيخ الأزهر حتى ينخرط في مذهب الخوارج قديمًا وجماعة الهجرة والتكفير حديثًا فيفتي بأن ارتكاب

المعصية كفر يزيل وصف الإسلام عن مرتكبها!! مما يترتب عليه تكفير غالبية المسلمين قديمًا وحديثًا إذ لا يسلم من ارتكاب الكبائر إلا الأنبياء وصفوة أتباعهم، ولكن لكثرة المناقشة مع جماعة الهجرة والتكفير أصبحت الأدلة سهلة ويسيرة ولا يكلفنا الأمر إلا فتح كتاب من كتب العقائد ثم نبحث عن الفصل الذي يرد على الفرق الضالة، ثم نبحث عن باب الرد على «الخوارج» ثم ننتقي ما يكفينا من الأدلة الشرعية، ولكن قبل هذا لا بد أن ننظر في الحجة والبرهان الشرعي الذي استند إليه شيخ الأزهر وهو بعينه الذي كان يستدل به «جماعة التكفير» في تكفيرهم لعصاة المجتمعات الإسلامية من الزناة وشاربي الخمور والسارقين والقتلة وغيرهم.

*** دليل شيخ الأزهر:**

هو لا يزني الزاني حيث يزني وهو مؤمن - ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن» وقبل الرد أيضًا نريد أن نوجه سؤالاً لشيخ الأزهر: وهو كالآتي: «على افتراض أن الشباب الإسلامي هو السبب في أحداث «صنبو» وأنه هو الظالم وأنه يقع تحت وعيد الحديث المذكور فهل ينطبق الكفر والخروج من الإسلام عليهم فقط، أم يشمل الأصناف المذكورين مع القاتلين وهم الزناة وشاربي الخمور والسارقين؟ فإن قال الشيخ نعم يشملهم لأن دليل تكفير القتلة شمل الباقي.

◘ نقول: إذن صارت غالبية مجتمعات المسلمين كلها كافرة!! لأن شرب الخمور والزنى والسرقة تقع باستمرار من هذه المجتمعات؛ فإن قال: إن الفتوى تقصد، وقت الفعل فقط.

◘ نقول: لا.. بل الفتوى كانت بعد وقوع الأحداث وقضت بارتفاع وصف الإسلام عنهم بل ووصف التطرف وبأنهم لم يكونوا مسلمين أصلاً،

والآن يكفينا الرد على مرتكبي جريمة الاقتتال لأنه يشمل باقي المذكورين في الحديث، فنقول وباللَّه التوفيق.

*** الاقتتال لا يخرج من الإسلام:**

أجمع صحابة رسول اللَّه والتابعون والأئمة الأربعة وغيرهم من جماهير السلف والخلف على أن الاقتتال لا يخرج المسلمين من إسلامهم، حتى ولو كانت جميع الأطراف مسلمة فضلاً عن كونها غير مسلمة، وقد قال تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله..**﴾ الآية.

❑ قال ابن كثير: «فسمّاهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، خلاف ما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة»[1] ا. هـ[2].

*** من زيارة شيخ الأزهر لأندية الروتاري الماسونية:**

في كتاب «من شيخ أزهري إلى شيخ الأزهر.. الأزهر إلى أين؟!».

❑ كتب الشيخ الدكتور عبدالودود شلبي إلى شيخ الأزهر:

«أتوقف معك عند قضيتين أثارتا الجدل، وأشعلتا في النفوس ثورة الألم والغضب.

أولى هاتين القضيتين زيارتك إلى أندية الروتاري فمن البديهيات أن ننأى بأنفسنا عن مواطن الشبهات.. والزعم بأن العبرة بما يقال من (كلام) لا

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير. (١/ ٢١١).

(٢) «الرأي والرأي الآخر في أسباب الخلاف بين الحكام وشباب الصحوة الإسلامية» (ص٥٤ ـ ٥٨) لعثمان القطعاني ـ دار الإيمان ـ الإسكندرية.

بالمكان غفلة وإفراط في حسن النية.

أذكر: أن صديقين ذهبا إلى إدارة الأزهر لتهنئتك بالمشيخة ومن العجيب والغريب معًا أنهما قدما إليك كتابًا يكشف عن مؤامرات الروتاري والماسونية، وفي يقيني أنك لم تقرأ هذا الكتاب ووصفت من اعترضوا على هذه الزيارة بأنهم جهلة وسفهاء!

لقد أوقعك (الروتاريون) في الفخ.. وحصلوا منك على ما لم يحصلوا عليه من قبل! بل جعلوا من زيارتك (إعلان براءة) و(فتوى شرعية) تبيح لهم التصرف بلا حذر والتغلغل في أعماق الشعب المصري بلا خوف! وهذا هو الهدف الحقيقي من دعوتهم لك.. وهذا هو (الفخ) الذي وقعتم فيه من غير قصد»[1].

*** شيخ الأزهر يقول عند موت أحد البطاركة: «لقد مات حبيب اللّه وحبيب الشعب»!!!**

❑ وقال الدكتور عبدالودود شلبي:

«عندما توفي أحد البطاركة قال شيخ الأزهر ـ في ذلك الوقت ـ: لقد مات حبيب اللّه وحبيب الشعب»!!!

لو قال هذه الكلمة «مطران» أو «قمص» أو حتى «شماس» لتقبل الناس ذلك بالترحيب والرضا..

أما أن يقولها شيخ الأزهر فداهية من دواهي الدهر.. ومصيبة وقعت على رءوس المسلمين في مصر وفي خارج مصر.. ذلك لأن (المجاملة) بمثل هذا الكلام تجاوزت حدود الدين والعقل.. وألقت بالإسلام والمسلمين في

---

(١) من شيخ أزهري إلى شيخ الأزهر: «الأزهر إلى أين» (ص٣٥ ـ ٣٦) ـ دار الاعتصام للدكتور عبدالودود شلبي.

بحار من الريبة والشك!

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى امتلأت مصر كلها بإشاعة تقول: إن شيخ الأزهر قد ارتد وتنصر!! ووصلت الإشاعة إلى الشيخ نفسه فبادر إلى كتابة مقال نشرته صحيفة الأهرام تحت عنوان: «إن الدين عند اللَّه الإسلام» واللَّه أكبر..!!»[1].

*** الدكتوراه الفخرية من الجامعة الإنجيلية «مركز الدراسات التنصيرية» لشيخ الأزهر لماذا؟:**

«ولأن الشيء بالشيء يذكر.. هل فكرت يا فضيلة الإمام وقبل سفرك إلى الولايات المتحدة، وذهابك إلى الجامعة الإنجيلية التي منحتك الدكتوراه الفخرية.

هل عرفت شيئًا عن هذه الجامعة؟

بل لماذا أُنشئت هذه الجامعة؟

هذه الجامعة هي مركز الدراسات التنصيرية.. أي الجامعة التي تعد وتؤهل المنصرين الذين يقومون بتنصير المسلمين في آسيا وفي أفريقيا!!

و«القس» الذي سافر معك، وحصل على نفس الشهادة.. هذا القس هو رئيس الكنيسة الإنجيلية التي تقوم بتنصير المسلمين هنا في مصر المحروسة!!

إن أسماء من ارتدوا على أيدي كهنة هذه الكنيسة معروف عند الجهات المختصة! وهذه الأسماء عندي إن شئت الاطلاع عليها.. بل إن أحد كهنة هذه الكنيسة حاول تنصير طالب أزهري ـ يعمل الآن إمامًا وخطيبًا ـ في

(١) المصدر السابق (ص ٤٠ ـ ٤١).

إحدى محافظات الدلتا!

ألم تفكر يا فضيلة الإمام.. لماذا وجهت إليك هذه الدعوة؟ ولماذا منحت هذه الشهادة؟

إن هذه الشهادة لا تمنح أصلاً إلا لمن قدموا خدمات جليلة للكنيسة! ـ ومعاذ اللّه ـ أن تخطر ببالنا هذه الخاطرة!.. ولكن حسن الظن يورط صاحبه أحيانًا في مزالق خطيرة!!

اطلب الملف الخاص بالكنيسة الإنجيلية أو كنيسة قصر الدوبارة من أمانة الدعوة.. هذا إذا كان الملف لا يزال موجودًا في مكانه بالأمانة العامة؟!!»[1].

* وا إسلاماه:

❑ قال اللورد البريطاني المسلم «هيدلي»: لو كان للإسلام دعاة على مستوى الإسلام.. لدان معظم الناس في الغرب والشرق بالإسلام!!![2].

لقد وقف الأستاذ T.B. ARVENG (تي. بي. أرفنج) الأستاذ في جامعة (تنسى) (TENECY) الأمريكية، وقف يخاطب المسلمين في مدينة (جلاسجو) ببريطانيا منذ سنوات فماذا قال البروفسور (أيرفنج)؟

لقد قال: إنكم ـ أيها المسلمون ـ لن تستطيعوا ـ أن تنافسوا الدول الكبرى علميًا، أو اقتصاديًّا، أو عسكريًّا.. في الوقت الحاضر على الأقل، ولكنكم تستطيعون أن تجعلوا هذه الدول تجثو على ركبها أمامكم بالإسلام!!

أفيقوا من غفلتكم لقيمة هذا النور الذي تحملون.. والذي يتعطش إليه كل الناس في مختلف جنبات الأرض.. تعلموا الإسلام وطبقوه.. واحملوه لغيركم من البشر تتفتح أمامكم الدنيا.. ويدين لكم كل ذي سلطان..

(١) المصدر السابق (ص٤١ ـ ٤٢).

(٢) المصدر السابق (ص١١٣).

اعطوني أربعين شابًا ممن يفهمون هذا الدين فهمًا عميقًا.. ويطبقونه على حياتهم تطبيقًا عميقًا ويحسنون عرضه على الناس بأسلوب العصر.. وأنا أفتح بهم الأمريكتين[١] !!!

* مَن يُصلح الملح إذا الملح فسد؟!

❑ يقول الدكتور عبدالودود شلبي في كتابه «الأزهر إلى أين؟»[٢] :

«وأسأل الشيخ الدكتور:

في عهد الرئيس الراحل (جمال عبدالناصر) صدر ميثاق العمل الوطني.. وهذا الميثاق كما هو معروف، وكما قال الرئيس: يعتمد (الاشتراكية العلمية) منهجًا للتحول الاجتماعي، والاشتراكية العلمية ـ كما هو معروف ـ هي الماركسية!!

وقد فرض تدريس هذا الميثاق على طلبة الأزهر، وسارع كبار شيوخه ـ في هذا الوقت ـ إلى الترحيب بهذا الميثاق كأنه وحي أنزل![٣] .

* الأزهر يعطي الدكتوراه الفخرية لأحمد سوكارنو المرتد عن الإسلام والصانع لدين «الفانشاسيلا»:

وأعود لأسأل الشيخ الدكتور مرة ثانية:

هل تذكر رئيس أندونيسيا السابق (أحمد سوكارنو)؟ بالتأكيد تعرفه.

(سوكارنو) هذا صنع (دينًا جديدًا) للشعب الأندونيسي المسلم أطلق

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٥)، وكتاب «قضية التخلف العلمي في العالم الإسلامي المعاصر» للدكتور زغلول النجار (ص١٣٧، ١٣٨) ـ كتاب الأمة.

(٢) (ص١٥٨).

(٣) انظر في هذا الموضوع: «الاشتراكية العربية» للدكتور محمد البهي ـ مطبعة الأزهر و«القيم الروحية في الميثاق» دكتور محمد بيصار.

عليه اسم (الفانشاسيلا) وكان دينًا يجمع بين الإسلام، والمسيحية، والشيوعية، والهندوكية!!!

وحين ثار الشعب الأندونيسي ضد هذه الهرطقة وهذا الكفر ملئت السجون بعشرات الألوف، وقُتل الكثيرون بأفواه البنادق.. ووضع الزعيم المسلم الدكتور محمد ناصر وإخوانه في قبو تحت الأرض!!

فماذا كان موقف الأزهر من سوكارنو؟

لقد منحه الأزهر درجة الدكتوراه الفخرية، وقال الأزهر في حيثيات منحه هذه الشهادة:

إن الأزهر باستقبال فخامتكم اليوم إنما يستقبل قائدًا عظيمًا من قواد حركات التحرر في البلاد الإسلامية، يستقبل زعيمًا تمرس في الكفاح من أجل حرية بلاده واستعذاب العذاب من أجل سيادة أمته، واستطاب السجن والنفى والمشاق في سبيل تكوين شعبه واستقلاله وحياته الكريمة!!

يستقبل الأزهر فخامتكم اليوم مسجلاً تاريخكم المجيد منذ نشأتكم، وفي شبابكم حتى وقتكم الحاضر.. وهو تاريخ مليء بالأحداث الكبرى، أحداث المجد والعظمة التي ترتبط بعظمة أمة إسلامية كبرى، وبفك أسرها من قيود الاستعمار الأجنبي، وبتمكين أبنائها من الحياة الإنسانية الكريمة، وهي حياة الإيمان، والحرية، والعلم والمعرفة، والعمل الصالح المثمر المعمر.

وقد أراد الأزهر أن يعبر عن تقديره لكفاحكم المجيد، فقرر مجلسه الأعلى في جلسته المنعقدة في السادس والعشرين من شوال سنة ١٣٧٩هـ الموافق الواحد والعشرين من أبريل سنة ١٩٦٠م، أن يمنح سيادتكم شهادة العالمية الفخرية من درجة أستاذ في الفلسفة، ليرى فيكم ابنًا من أبنائه، وعنصرًا من عناصره العاملة المجاهدة!!.

وقد كان لمنح الأزهر (سوكارنو) هذه الشهادة وقع الصاعقة على

مسلمي أندونيسيا.. بل على جميع المسلمين في الشرق الأوسط والشرق الأقصى!!»[١].

*** وزير الأوقاف وشئون الأزهر يأمر بصلاة الغائب على «باتريس لومومبا» رئيس الكونغو وهو شيوعي قح:**

وأسأل مرة ثالثة الشيخ الدكتور:

في عهد وزير الأوقاف وشئون الأزهر الأسبق[٢] أقيمت صلاة الغائب على (باتريس لومومبا) رئيس جمهورية الكنغو الأسبق، وبأمر من الوزير الأزهري!

هل يعلم الشيخ الدكتور من كان لومومبا؟

(لومومبا) هذا كان شيوعيًا قحًا، ولأنه كان كذلك فقد خلد الاتحاد السوفيتي الهالك! ذكراه باطلاق اسمه على جامعة في موسكو!!

فكيف باللَّه أقيمت الصلاة على ملحد.. بل كيف سكت الجميع في الأزهر، وفي الأوقاف ولم ينطق منهم أحد؟!!»[٣].

*** نافق أحمد حسن الزيات جمال عبدالناصر وادّعى أن الوحدة الناصرية مع سوريا أفضل من الوحدة المحمدية!!!**

❑ وأسأل الشيخ الدكتور وللمرة الرابعة:

هل سمعت بما كتبه.. رئيس تحرير مجلة الأزهر.. لقد كتب يقول تحت عنوان (أمة التوحيد تتوحد)[٤]:

---

(١) «الأزهر إلى أين» (ص١٥٩ ـ ١٦٠).

(٢) كان هذا في الستينات.

(٣) «الأزهر إلى أين» (ص١٦٠).

(٤) في محرم ١٣٨٣هـ.

«إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة؛ لأنها قامت على العقيدة ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول، وأن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة؛ لأنها قامت على السلطان، والسلطان يعتريه الوهن فيزول.

أما الوحدة الناصرية فباقية نامية؛ لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق.. والحرية في الرأي.. والديمقراطية في الحكم.. وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة»!!

هل يصدق أحد صدور مثل هذا الكلام من مسلم؟

وهل يتصور عاقل أو حتى مجنون أن يكتب هذا في مجلة الأزهر؟

والأعجب من هذا كله.. أن الأزهر لم ينطق بكلمة أو يتحرك!!!

لقد ضج العالم الإسلامي من هول الصدمة، وانبرى العلماء والمفكرون يسفهون هذا المقال وصاحبه في جميع أنحاء الدنيا..

يقول علامة المسلمين في الهند «أبو الحسن الندوي» في تعليقه على مقال رئيس تحرير مجلة الأزهر:

اجتمع فريق من الشباب والشعراء في فندق (الغرب) في لاهور مرة، وكان في الجماعة شباب شيوعيون في غاية من الذكاء وسلاطة اللسان، وتجاذبوا مع الأستاذ «اختر الشيراني» أطراف الحديث، وصاروا يتناقشون معه في موضوعات شتى.

وكان الأستاذ الشيراني قد شرب كأسين من الخمر، وقد فقد رشده وملكته نشوة الخمر، وأخذته رعشة في الجسم، وكان يتكلم كلامًا متقطعًا غير متزن، وكان معروفًا بالإعجاب الشديد بنفسه والتيه بها، وكان لا يعترف بغيره من الشعراء.

ولست أذكر اليوم جيدًا الموضوع الذي كان يدور البحث فيه، ولكن أذكر أنه قال: قد ظهر في المسلمين ثلاثة نوابغ عبقريين، أولهم: أبو الفضل[١].

والثاني: أسد اللَّه خان غالب[٢]، والثالث: أبو الكلام أزاد[٣]، أما الشعراء المعاصرون فكان لا يعترف لأحد منهم بالمساواة أو المجاراة، وقد سأله الشباب الشيوعيون عن الشاعر الكبير (فيض أحمد فيض) فأعرض عن الجواب، وسألوه عن (شبير حسن جوش) الشاعر المعروف فقال: ليس بشاعر إنما هو ناظم.

وهكذا كان موقفه من جميع الشعراء المعاصرين، استخفاف أو إعراض، أو تبسم، أو تنكيت، ولما رأى الشباب أنه لا يعترف بقيمة حركة الأدب التقدمي لجأوا إلى موضوع آخر، لعله يثيره أو يحرك منه ساكنًا، فقالوا: يا سيدي.. ماذا يقول عن النبي الفلاني؟.. وكانت عيناه محمرتين، وأخذت الخمر فيه كل مأخذ، وكان لا يملك لسانه ولكنه أفاق وقال: ما هذا الهراء؟

لا تتحدثوا إلا عن الأدب والإنشاء والشعر والشعراء، فعطف عنان الكلام إلى أفلاطون، وقال: ما رأيك عن مكالماته؟ وسألوه عن أرسطو وسقراط، وكان نشيطًا للكلام فقال: أمة قد خلت.

حدثونا عن شخصياتنا وحاضرنا.. إن أولئك الفلاسفة لو كانوا في عصرنا لتتلمذوا علينا.. ما لنا ولأولئك حتى ندلي برأينا فيهم؟

❑ وانتهز شاب من هؤلاء الشباب الشيوعيين فرصة نشاطه ومرحه

---

(١) من وزراء الإمبراطور أكبر وصاحب «أكبر نامة» المأثرة العلمية في التاريخ وتخطيط البلاد.

(٢) شاعر أردو، يعتبر من أئمة الشعر الأردي، وصاحب مدرسة خاصة، كان في القرن الثالث عشر الهجري.

(٣) الأديب المعروف، رئيس المؤتمر الهندي الوطني الأسبق، ووزير المعارف في الهند سابقًا.

فقال: وما رأيك عن سيدنا محمد؟

وكأنما نزلت صاعقة وهبت عاصفة، فلم يكد الشاب يتم جملته حتى تناول الشاعر السكران كأس الزجاج وضربها على رأسه قائلاً:

يا قليل الأدب..! أنت توجه هذا السؤال الوقح إلى رجل مذنب معترف بشقائه.. ماذا تريد أن تسمع من فاسق؟ وكان جسمه يرتعد.. وانفجر باكيًا، وأجهش بالبكاء، وأقبل على الشاب الوقح يقول له في عنف وغضب:

كيف سولت لك نفسك يا خبيث أن تذكر هذا الاسم النزيه المقدس؟ كيف تجاسرت على ذلك يا قليل الأدب، يا قليل الحياء، لقد كان لكلامك مجال واسع.. فلماذا دخلت في هذا الحمى المقدس؟ تب إلى اللّه من هذا السؤال الوقح.. إنني أعرف خبث باطنك جيدًا، وعرف الشر في وجهه وكأنه يريد أن يفتك بالشاب ويسطو به!!

أما الشاب فقد سقط في يديه، وغاب رشده، ولم يكن يقدّر أنه سيلقى هذه النتيجة الوخيمة، وأنه يوقظ في الشاعر هذا الليث الثائر، ويثير فيه هذه الشرارة الكامنة.. شرارة الإيمان والحنان، وشرارة الحمية والغيرة، فكان لا يعرفه إلا شاعر الهوى والشباب، وشاعر الغزل والغرام، وحاول أن يشغله عن هذا الحديث المثير، وأن يهدئ فيه هذه الثائرة، ولكنه لم ينجح، ولم تهدأ ثائرة (اختر) فأمر بإخراجه من المجلس، ثم قام بنفسه وبات طول الليل باكيًا يقول:

لقد بلغ هؤلاء الشباب الملحدون هذا الحد من الوقاحة والجراءة.. إنهم يريدون أن يتزعوا منا آخر ما نعتز به ونعيش عليه من حب وولاء، وإخلاص ووفاء، إنني رجل مذنب، لا شك أعترف بذنبي، ولكن هؤلاء يحاولون أن نخلع ربقة الإسلام، ونخرج من حظيرة الإيمان، لا واللّه، لا نرضى بذلك!!!

ولكن ـ وا أسفاه وا ويلاه ـ ما أبعد المسافة بين هذا الوفاء العجمي وهذه الغيرة الإيمانية الثائرة المضطرمة التي يمثلها شاعر لم يكن قط من أبناء العرب، ولم يتكلم مرة بلغة العرب، نشأ بعيدًا عن البيئة الدينية والعلمية والأزهر الشريف، عاش في مجالس الشرب ونوادي اللهو، وأوساط الشعر والأدب، وعرف بالاستهتار وخلع العذار.

ما أبعد المسافة بينه وبين أديب كبير.. رضع بلبان اللغة العربية وآدابها الإسلامية، واشتهر بمقالاته في السيرة النبوية والموضوعات الإسلامية، يرأس تحرير مجلة هي لسان حال الأزهر الشريف، مثابة العلم والعلماء ومعقل الدين الحنيف.

كيف يقرن الاسم الذي هو من أكرم الأسماء وأعزها عند المسلمين باسم حاكم مصر، ويقارن بينهما، ثم تبلغ به الوقاحة إلى أن يعلن رجحان «ناصر» في هذا الميزان، وأن الوحدة التي يتزعمها وحدة باقية نامية، أما الوحدة التي دعا إليها محمد ﷺ، فمعرضة للضعف والتحول.. يا ليته لم تلده أمه.. ويا ليتنا لم نعش لنسمع ذلك!!!»[1].

*** أرضعوا الأمة الرياء والنفاق:**

إذا كان هذا حال من تصدر باسم الدين فكيف يكون حال بقية الناس..

❑ يقول محافظ أسيوط لعبدالناصر: «يا رب إنا نحبك ولكننا نحب جمالاً فما حيلتنا» فيُرقَّى في اليوم التالي محافظًا للقاهرة.

❑ ويقول مدير جامعة أسيوط لعبدالناصر في نفس الزيارة «إن كان اللَّه

(١) لقد ضاعت الوحدة.. وضاعت بعدها القومية والاشتراكية، واحتلت أرض مصر، ثم مات «ناصر» نفسه.

شق البحر لموسى فقد أعطاك ما هو أكبر.. السد العالي» فرقى في اليوم التالي وزيراً للثقافة.

❑ وقال ناظر المدرسة التي تعلّم فيها السادات مادحًا له: «إن في خلق السموات والسادات (هكذا وأقسم باللّه) لآيات لأولي الألباب.

*** وا إسلاماه وا إسلاماه...**

يا رجـــال الدين يا ملح البـلدْ من يُصلح الملح إذا الملح فسد؟؟

*** يا علماء السوء:**

لِمَ تعرضون عن النور وهو الذي أضاء السموات والأرض.. أضاء القلوبَ وأضاء العقول.. كأنما تصرون أن تعيشوا حياتكم ظلامًا.. ظلامًا بغير نور

*** ﴿قد جاءكم من اللّه نور وكتاب مبين يهدي به اللّه من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.**

*** يا علماء السوء عودوا إلى الحق:**

❑ فعلى حدائه الحبيب يسير الركب ثابت الخطى محدد الغايات..

❑ وعلى شعاعه المضيء يتحدد الطريق.. فمحجة بيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

مع الحق..

نجد حلاوته في القلوب، ونعرف مكانه في حنايا الصدور.. أغلى من العمر، وأحلى من الحياة!

مع الحق..

والحق يعلو على البشر، ويعلو به البشر، ولكن لا يعلو عليه بشر..!

مع الحق..

به حياة الروح، وفي سبيل ذهاب الروح.. ليبقى أشمّ من الرواسي، وأخلد ما علي الأرض..

وللحق العاقبة، طال عمر الباطل أو قصر

* قال تعالى: ﴿**قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد**﴾.

* وقال تعالى: ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾»[1].

*** وأخيـــراً:**

كم تعظ ولا تتّعظ؟ حتى متى؟ وإلى متى؟ تزجرُ ولا تزدجر؟ تصف الطريق للمدلجين، وتبقى مقيمًا مع المتحيرين الحائرين.

*** يا عالم السوء:**

فالذي بين جنبيك من العلم يذكّرك إن حضر قلبك. وإن غاب قلبك فمائة ألف واعظ لا يوصلون إليك موعظة.

غزلتُ لهم غزلاً دقيقًا فلم أجد لغزلي نسّاجًـــا فكسّـرت مغزلي

* * *

(١) «عندما يحكم الطغاة» لعلي جريشة (ص٣١) دار الاعتصام.

صبراً جميلاً

إلى السائرينَ إلى اللَّهِ على أَسِنَّةِ الحِرَابِ وجمرِ النيران أُهدي هذهِ الخاطرة:

ولما رأتْ وجْهي وقد غاضَ[١] بِشرُه
تفيضُ دمـــوعُ الحزنِ من عينِـه بَحْـرا
ويَذْوِي[٢] به روضُ الأماني كأنَّما
رَوتْهُ شِغافُ[٣] القلبِ من قَيْظِها[٤] الجمـرا
وقد خَطَّ فيه الدَّمْـعُ أشباحَ لَوْعَةٍ
وأبدى مِنَ الأحـزانِ ما جنَّهُ[٥] الدَّهْرا
وغـارتْ مـآقي نـاظـريـهِ كهـائمٍ[٦]
غريبٍ عن الأوطانِ قدْ أنفدَ الصَّبرا
كأنَّ بحـارَ الحُزْنِ في هذه الدُّنـا
تَفَجَّرُ مِنْ حُزْنٍ لدى قَلْبِهِ قَرَّا[٧]
ولـمَّـا رأتْ قلبي تَـدَفَّـقَ حُزْنُـهُ
تَدَفَّقَتِ الأحـزانُ مِنْ قَلْبِها حَرَّي[٨]

---

(١) غاض: الماء غيضًا: نزل في الأرض وغاب فيها والمراد ذَبُل الوجه.
(٢) يذوي: ذوى العود: ذَبُل ويَبِس وضُعف. (٣) شغاف: سُويداء القلب وحبَّته.
(٤) قيظ: القيظ شدة الحر. (٥) جنَّه: أخفاه وستره.
(٦) هائم: هام: خرج على وجهه في الأرض لا يدري أين يتوجه.
(٧) قرَّا: أقام وسكن واطمأن. (٨) حرَّى: عطشى (من الحزن).

هَلِ الحبُ إلا مهجةٌ تشتكي هنا
فتَذْوي بظهرِ الغيبِ أرواحُهـــا طُرًّا[١]
وتبكي وما تدري لماذا وإنَّمـــا
أجابَتْ بُكاءَ الحبِّ إذ قلبُها أَدْرى
ولَمَّا رأتْ عَيْنَي قالتْ دموعُها:
عَفَا عَنْكَ ربُّ الناس أَسْلَكْتنا الوَعْرا
أما قلتُ: إنَّ الحَقَّ صعبٌ طريقُهُ
وإن بَناتِ الدربِ قَدْ أعيتِ الصَّبرا
نَبيتُ على رُعْبٍ ونَغْفُو على نَوى[٢]
ونَصْحُو على قَيْدٍ وزِنْزانةٍ صُغرى
ونَحْيا على مَوْتٍ ونبقى على فنا[٣]
نَخَافُ حَفيفَ[٤] الرِّيحِ والنَّسْمَةَ السَّكرى
نُحِسُّ رَحيبَ الكونِ مِنْ هَوْل كيدِهِمْ
مَتَـاهَـةَ[٥] أشْـبَاحٍ وزِنـــزانة كُبْـــرى
تَعَالَ نعيشُ العُمْـــرَ أَمْنًـــا وراحَـــةً
نَعُبُّ[٦] مِنَ الدُّنيـــا وزِينَتِهـــا السِّـــحْرَا

(١) طُرًّا: جميعًا.
(٢) نوى: فراق وبعد.
(٣) فنا: فناء.
(٤) حفيف: صوت الريح في أوراق الشجر.
(٥) متاهة: الصحراء لا علامة فيها يُهتدي بها.
(٦) نَعُبُّ: عبّ الماء: شربه بلا تنفس ولا مص.

ونَحْيا كما الأَطْيَارُ نشدوا بأَيْكِهَا
تَصُوغُ لنا الأَلْحَانَ تَمْنحُنا العِطْرَا
يَغُطُّ[١] لَدَيْها القَلْبُ مِلءَ جُفُونِهِ
وينسى لَدَيْها الخوفَ والذُّلَّ والقَهْرَا
تعالَ نَعِيشُ الدِّينَ سِلْمًا كما الوَرى
على مَذْهَبِ الحُكَّامِ نَجْتَنِبُ الشَّرَّا
فتلكَ جَمـوعَ النَّاسِ تَحْيا حياتَها
وتَعْبُدُ رَبَّ النَّاسِ ما تعرِفُ الضُّرَّا
فهَبَّ نَسِيمُ البِشْرِ أَبْرَدَ مُهْجَتي
وفَجَّرَ منها بَسْمةً زانَتِ الثَّغْرَا
فقُلْتُ: أيا حَسْنَاءُ مَهْلاً فإِنَّهـا
دُمُـوعُ مُحِبٍّ تَرْقُبُ الفَتْحَ والنَّـصْرَا
وحُرْقَـةُ أَشْواقٍ إلى رَبِّها تَهْفُو[٢]
فَمَا تَرْتَضِي الدُّنْيا كُنـوزًا ولا قصـرَا
وقَلْبُ مُحِبٍّ شَفَّهُ[٣] الوَجْدُ[٤] والجَوى[٥]
وهَلْ ثَمَّ صَبٌّ[٦] دُونَ مَحْبُوبِهِ يَبْرا

(١) يغط: غط في نومه غطيطًا: ردد النفس في خياشيمه بصوت مسموع «نام نومًا عميقًا».
(٢) تهفو: تحن وتشتاق.
(٣) شَفّه: ضمّره وجعله نحيلاً.
(٤) الوجد: شدة الشوق والحب.
(٥) الجوى: اشتد وجده من عشق أو حزن.
(٦) صب: الصب: حامل الصبابة: أي مرارة الشوق أو رقته «العاشق».

وكُلُّ بَدَاءِ الحُبِّ مَيْتٌ فهَلْ تُـــرى
بذَلْنا إلى الفِرْدَوْسِ أرواحَنا مَهْرا؟!!!
فذاكَ إلى الحسناءِ يهفُو فؤادُهُ
ويذرِفُ دمعَ القَلْبِ في حُبِّها ثَرَّا
وذاكَ إلى الجَنَّـــاتِ في الأرضِ قد هَفا
وذاكَ هَوى الألحانَ والخِزَّوالتِبْرا
وقلبٌ إلى الرَّحْمَنِ يسرى وَجِيبُهُ[١]
يَخِفُّ[٢] إليهِ الكونُ يَشْتاقُهُ المَسْرَى
فصبراً على اللأْوَاءِ[٣] يا خودُ[٤] إنَّنـــا
على دربِ خيرِ الخَلْقِ لِلجنَّةِ الغَرَّا[٥]
وإنْ طَـالَ عَهْـدُ الليلِ دَهْرًا فإنَّني
لأَسْتَعْذِبُ الظَّلْمَاءَ إذْ أَذْكُرُ الفَجْرَا
وأَذْكرُ وجْـهَ الحِبِّ في حُلْكَةِ الدُّجى
فَأَغْزِلُ ثَوْبَ النُّـورِ لِلَّيلَةِ الكُبْرى
فإنْ مَا رَأَيْتِ القَيْدَ أَدْمَى سَواعِدي
وأَلْهَبَ حَرُّ السَّوْطِ رِجْلَيَّ والظَّهْرا

(١) وجيبه: وجب القلب وجيبًا خفق واضطرب ورجف.
(٢) يخف: خف: أسرع في السير.
(٣) اللأواء: التعب والنصب.
(٤) خود: الشابة الناعمة الحسنة الخَلْق.
(٥) الغرا: الغراء: الكريمة الفعال الواضحة المحاسن.

فتلكَ خِضابُ غازَلَ الفجرَ حسنُها
وذلكَ نـورٌ يَقْدُمُ الزَّمَـنَ الحُـرَّا
فلا تَخْشَيِ الأغلالَ والسَّوْطَ والقَنـا
ولا تَخْشَى النيـرانَ والحَـرَّ والقُرَّا
فتلكَ سبيلُ اللَّهِ في كُلِّ بُقْعَـةٍ
تُقَاسِي لظى الأهـوالِ تَسْتَعْذِبُ المُـرَّا
ومَنْ رَامَ وَجْـهَ اللَّهِ دَرْبًا وغَايَـةً
أَعَدَّ لَـهُ الأَكْفَـانَ واسْـتَـقْبَلَ القَبْـرَا
لنا الأمـنُ دونَ العالَمينَ وإنْ زَوى
لنا الخلقُ ذاكَ الجـوَّ والبحـرَ والبـرَّا
فما غَضْبَـةُ الأَمْلاكِ إن يَّرْضَ ربُّنـا
وإنْ صـانَ رَبُّ العَرْشِ مَنْ يَمْلِكُ الضُّرَّا
تَعَالَيْ بنا نَأْوِي إلى ظِـلِّ أَيْكَةٍ
هُنَالِكَ حَيْثُ الرَّوْضِ يَحْتَضِنُ النَّهْرَا
ونَبْنِي لَنَا كُوْخًا على هَـامِ رَبْـوَةٍ
كَسَتْهَا بَناتُ الرَّوْضِ أَزْهَارَها العِطْـرَا
نعيشُ لديـهِ العُمْـرَ صَفْـوًا وبَسْمَةً
ونحيـا لديهِ الزُّهْـدَ والرَّوْحَ والطُّهْرَا

(١) الخضاب: ما يخضب به من ضاء ونحوه.
(٢) القُرَّا: البرد.
(٣) زوى: زوى الشيء: طواه وجمعه.

ويحيَا لديهِ القلبُ يَقْتاتُ طَاعةً
ويَرْشُفُ[١] ذِكْرَ اللَّهِ يَحْيا بِهِ العُمْرا
ويَسْرى إلى الرَّحْمنِ قَدْ خَفَّ رَحْلُهُ[٢]
فَيَأْتِي دِيَارَ الحِبِّ لَيْلاً وما أَسْرَى
وكَمْ قَدْ سَئِمْتُ الدَّرْبَ أَشْتَاقُ رَاحةً
ـ زَعَمْتُ ـ إذِ الأَجْسادُ لازَمَتِ الخَدْرا[٣]
ولكِنَّها الفِرْدَوْسُ يَبْدُو نَعِيمُها
فنَعْدُوا إلى الرَّحْمنِ نَجْتَازُهَا[٤] صَخْرَا
تعالَيْ إلى الرَّحْمن نَرْجُوا جِنَانَهُ
عَلَى مَذْهَبِ المُخْتارِ أَحْرى بِهِ أَحْرَى

* * *

والحمدُ للَّهِ أَوَّلاً وآخِيراً
صباح الجمعة ٥ شعبان سنة ١٤٢٣هـ
١١ أكتوبر سنة ٢٠٠٢م

(١) يرشف: رشف الماء مصّه بشفتيه.
(٢) رحله: ما يوضع على ظهر البعير للركوب والمقصود: متاع الدنيا.
(٣) الخدرا: كل ما وارى من بيت ونحوه «ستر يُمد للمرأة في ناحية البيت».
(٤) نجتازها: جاز الموضع: سار فيه وسلكه وقطعه.

الأحاديث الضعيفة والموضوعة

الأحاديث الضعيفة والموضوعة

١ ـ (ائت المعروف، واجتنب المنكر، وانظر ما يعجب أذنك أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فأته، وانظر الذي تكره أن يقول لك القوم إذا قمت من عندهم فاجتنبه).

ضعيف: رواه البخاري في الأدب المفرد، وابن سعد، والبغوي في «معجمه» والبارودي في «المعرفة» والبيهقي في شعب الإيمان، عن حرملة بن عبدالله بن أوس وما له غيره.

❑ وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (١٤٨٩)، و«ضعيف الجامع» رقم (٢٣).

٢ ـ (إذا خفيت الخطيئة لا تضرّ إلا صاحبها، وإذا ظهرت فلم تغيّر ضرّت العامة).

موضوع: رواه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١/٦٤)، والطبراني في «الأوسط» كما في «المجمع» (٧/٢٦٨) ورمز له بالحسن! وتعقبّه المناوي بقوله: «رمز لحسنه وهو غير صواب، فقد أعلّه الهيثمي وغيره بأن فيه مروان ابن سالم الغفاري متروك».

❑ قال الألباني: «وقال أبو عروبة الحراني: «كان يضع الحديث» وأشار الحافظ إلى هذا بقوله في «التقريب»: «متروك ورماه الساجي وغيره بالوضع».

انظر «ضعيف الجامع» رقم (٤٨٠)، و«السلسلة الضعيفة» رقم (١٦١٢).

٣ ـ (إذا ظهرت البدع، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فمن كان عنده علم

فلينشره، فإن كاتم العلم يومئذ ككاتم ما أنزله اللَّه على محمد).

منكر: رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٥/٢٩٨/١) عن معاذ بن جبل مرفوعًا.

وفيه محمد بن عبدالرحمن بن رمل الدمشقي، ترجمه ابن عساكر، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥٨٩)، و«الضعيفة» رقم (١٥٠٦).

٤ ـ (إذا ظهرت الفتن والبدع، وسُبَّ أصحابي، فليُظهر العالم علمه، فمن لم يفعل ذلك، فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل اللَّه له صرفًا ولا عدلاً).

ضعيف: رواه ابن رزقويه في «جزء من حديثه» (ق٢/٢) قاله الألباني. وفيه محمد بن عبدالمجيد المفلوج قال الذهبي: «ضعّفه محمد بن غالب».

٥ ـ (إذا لعن آخرُ هذه الأمة أولها، فمن كتم حديثًا، فقد كتم ما أنزل اللَّه).

ضعيف جدًّا: أخرجه ابن ماجه (٢٦٣) عن جابر، وفيه عبداللَّه بن السري ومدار الروايات كلها عليه وهو ضعيف. وضعّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (١٥٠٧).

٦ ـ (إذا عظّمت أمتي الدنيا، نزعت منها هيبة الإسلام، وإذا تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حُرِمت بركة الوحي، وإذا تسابّتْ أمتي سقطت من عين اللَّه).

ضعيف: رواه الحكيم عن أبي هريرة، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥٩٧)، و«السلسلة الضعيفة» رقم (٢٥٧٨).

٧ ـ (إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف حُرموا بركة الوحي).

ضعيف: انظر «الأحاديث التي لا أصل لها» للسبكي، و«كشف الخفاء» للعجلوني (٢٩٩).

٨ ـ (إذا عَلِم العامل فلم يعمل كان كالمصباح، يضيء للناس ويُحرِق نفسه).

موضوع: رواه ابن قانع في «معجمه» عن سليك الغطفاني، وحكم عليه بالوضع الألباني في «الضعيفة» رقم (٢٦٣٣)، و«ضعيف الجامع» رقم (٥٩٨) وتخريج «اقتضاء العلم العمل» (٦٩).

٩ ـ (أطول الناس جوعًا يوم القيامة أكثرهم شبعًا في الدنيا، وأطول الناس يوم القيامة صمتًا أكثرهم جشأ في الدنيا، وأبعد الناس من اللَّه يوم القيامة القاصّ الذي يخالف إلى غير ما يأمر به، وشرار أمتي من يلي القضاء، إن اشتبه عليه لم يشاور، وإن أصاب بطر، وإن غضب عنّف، وكاتب الشر كالعامل به).

انظر «ذخيرة الحفاظ» (٥٤٧).

١٠ ـ (إن التارك للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس مؤمنًا بالقرآن ولا بي).

ضعيف: رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» عن زيد بن أرقم، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٣١٤٥)، و«ضعيف الجامع» رقم (١٤٢٥).

١١ ـ (إن اللَّه لا يعذب العامة بعمل الخاصة، حتى تكون العامة تستطيع أن تغير على الخاصة، فإذا لم تغير العامة على الخاصة، عذّب اللَّه

العامة والخاصة).

ضعيف: رواه أحمد في «مسنده»، وابن عدي في «الكامل» عن عدي بن عميرة، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٦٧٥)، و«الضعيفة» (٣١١٠)، و«تحقيق المشكاة» (٥١٤٧).

١٢ ـ (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق اللَّه ودَعْ ما تصنع فإنه لا يحلّ لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب اللَّه قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم**﴾ إلى قوله: ﴿**فاسقون**﴾ ثم قال: كلاّ واللَّه لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطرًا ولتقصرنه على الحق قصرًا).

ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٢/ ١٧٥)، وابن ماجه (٤٠٠٦)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٦١ ـ ٦٢)، وابن جرير في «التفسير» (٦/ ٣٠٥)، وأحمد في «المسند» (١/ ٣٩١) عن أبي عبيدة عن عبداللَّه بن مسعود به.

والحديث مداره على أبي عبيدة، وقد اضطرب الرواة عليه في إسناده على أربعة وجوه:

الأول: عنه عن أبيه عبداللَّه بن مسعود.

الثاني: عنه عن مسروق عن ابن مسعود.

الثالث: عنه مرسلاً.

الرابع: عنه عن أبي موسى.

والصواب من ذلك الوجه الأول، وهو منقطع، فأبو عبيدة لم يسمع

من أبيه عبدالله بن مسعود، فالانقطاع هو علة الحديث، وبه جزم الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» رقم (٣٧١٣). وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف أبي داود» (٩٣٢، ٩٣٣)، و«ضعيف الجامع» (١٨٢٢)، و«الضعيفة» (١١٠٥).

١٣ - (إن لله تعالى مجاهدين في الأرض أفضل من الشهداء، أحياء مرزوقين، يمشون على الأرض، يباهي الله بهم ملائكة السماء، وتزيّن لهم الجنة كما تزينت أم سلمة لرسول الله ﷺ؛ هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والمحبون في الله، والمبغضون في الله، والذي نفسي بيده إن العبد منهم ليكون في الغرفة فوق الغرفات، فوق غرف الشهداء، للغرفة منها ثلاثمائة ألف باب، منها الياقوت والزمرد الأخضر، على كل باب نور، وإن الرجل منهم ليتزوج بثلاثمائة ألف حوراء، قاصرات الطرف عين، كلما التفت إلى واحدة منهن فنظر إليها تقول له: أتذكر يوم كذا وكذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر؟ كلما نظر إلى واحدة منهن ذكرت له مقامًا أمر فيه بمعروف، ونهى فيه عن منكر).

لا أصل له: قال الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٦٠٣): «لا أصل له. ذكره الغزالي (٢/ ٢٧٣) من حديث أبي ذر! وقال الحافظ العراقي في «تخريجه»: «لم أقف له على أصل، وهو منكر».

قلت: ولوائح الوضع عليه ظاهرة. والله أعلم».

١٤ - (إن مثل الفاسق في القوم كمثل قوم ركبوا سفينة في البحر، فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم مكان، فعمد رجل منهم إلى مكانه يخرقه، فقالوا له: ما تريد إلاّ أن تهلكنا. قال: وفيم أنتم من مكاني، فإن تركوه، غرقوا، وغرق معهم، وإن أخذوا على يديه نجوا، ونجا معهم، فكذلك مثل الفاسق).

انظر «ذخيرة الحفاظ» (٢٠٠٠).

١٥ ـ (أوحى اللَّه إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها، قال: فقال: يا رب إن فيها عبداً لم يعصك طرفة عين، قال: اقلبها عليه وعليهم، فإن وجهه لم يتمعر[1] فيّ ساعة قط).

ضعيف جداً: رواه ابن الأعرابي في «معجمه» (١/٩٩) عن جابر بن عبداللَّه مرفوعًا. قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» ح رقم (١٩٠٤): «وهذا إسناد ضعيف جداً، عمار بن سيف أورده الذهبي في «الضعفاء» وقال: «قال الدارقطني وغيره: متروك».

وعبيد بن إسحاق العطار قال الذهبي أيضًا في «الضعفاء»: «ضعّفوه».

١٦ ـ (بحسب امرئ إذا رأى منكرًا لا يستطيع له غيراً أن يعلم اللَّه من قلبه أنه له كاره).

ضعيف: رواه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢/١/٢٥٤/٩٥١) و«التاريخ الصغير» (١٨٨)، والطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود مرفوعًا.

وفيه الربيع بن سهل بن الركين قال الذهبي في «الضعفاء»: ضعّفوه، ونقل المناوي عن الهيثمي أنه قال في إسناد الطبراني: «وفيه الربيع بن سهل وهو ضعيف».

❑ قال الألباني: ومع ضعفه فقد خولف في رفعه، والصواب الوقف». وصحّ موقوفًا كما قال الألباني في «الضعيفة» رقم (١٦٦٩). وانظر «ضعيف الجامع» رقم (٢٣١٩).

١٧ ـ (بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا

(١) يتغير.

مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العوام، وإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيهن مثل قبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم، قالوا: يا رسول اللَّه! أجر خمسين منهم؟ قال: لا بل أجر خمسين منكم».

ضعيف: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان عن أبي ثعلبة الخشني، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٣٤٤)، و«تخريج المشكاة» رقم (٥١٤٤).

١٨ ـ (الجهاد أربع: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في مواطن الصبر، وشنآن الفاسق).

ضعيف: رواه أبو نعيم في «الحلية» عن علي، وضعّفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٣٥١٣)، و«ضعيف الجامع» رقم (٢٦٧٢).

١٩ ـ (الجهاد أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، والصدق في مواطن الصبر، وشنآن الفاسق، فمن أمر بالمعروف، شدّ عضد المؤمن، ومن نهى عن المنكر؛ أرغم بأنف الفاسق، ومن صدق في مواطن الصبر؛ فقد قضى ما عليه).

انظر «ذخيرة الحفاظ» (٢٦٤٧).

٢٠ ـ (خذوا على أيدي سفهائكم).

ضعيف: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن النعمان بن بشير، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٢٢٨٣)، و«ضعيف الجامع» رقم (٢٨٢٠).

٢١ ـ (دخل عليّ رسول اللَّه ﷺ فعرفتُ في وجهه أن حفزه شيء،

فتوضأ ثم خرج فلم يكلم أحدًا فدنوت من الحجرات فسمعته يقول: يا أيها الناس إن اللَّه عز وجل يقول: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر من قبل أن تدعوني فلا أجيبكم وتسألوني فلا أعطيكم وتستنصروني فلا أنصركم).

ضعيف: انظر «الأحاديث القدسية الضعيفة والموضوعة» لأحمد العيسوي.

٢٢ ـ (سُئل متى نترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟ قال: إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل قبلكم، قالوا: وما ذاك يا رسول اللَّه؟ قال: إذا ظهر الإدهان في خياركم، والفاحشة في شراركم، وتحوّل الملك في صغاركم، والفقه في رذالكم).

انظر «ذخيرة الحفاظ» رقم (٤٩٤٦).

٢٣ ـ (على كل ميسم من الإنسان صلاة، فقال رجل من القوم: هذا شديد ومن يطيق هذا؟ قال: أمر بالمعروف ونهي عن المنكر صلاة، وإن حملاً عن الضعيف صلاة، وإن كل خطوة يخطوها أحدكم إلى صلاة صلاة).

ضعيف: أخرجه أبو يعلى في «مسنده»، وابن خزيمة في «صحيحه» (١٤٩٧)، وأبو الحسن محمد بن محمد البزاز البغدادي في «جزء من حديثه» وابن مردويه في «ثلاثة مجالس من الأمالي» عن ابن عباس مرفوعًا قاله الألباني في «الضعيفة» رقم (١٠٧٦).

وفيه سماك وروايته عن عكرمة مضطربة كما قال الحافظ في «التقريب». وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (١٠٧٦).

٢٤ ـ (غشيتكم السكرتان: حب العيش، وحب الجهل، فعند ذلك لا تأمرون بالمعروف، ولا تنهون عن المنكر، والقائمون بالكتاب والسنة كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار).

موضوع: رواه أبو نعيم في «الحلية» عن عائشة، وأشار السيوطي إلى ضعفه، وحكم عليه بالوضع الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٣٩١٤)، و«الضعيفة» رقم (٣٩٥٩).

٢٥ - (قيل: يا رسول اللَّه! متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم من قبلكم. قلنا: يا رسول اللَّه! وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: الملك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رذالتكم. قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ: «والعلم في رذالتكم إذا كان العلم في الفسّاق).

ضعيف: انظر ضعيف ابن ماجه (٨٧٠)، و«تكميل النفع بما لم يثبت به وقف ولا رفع» لمحمد عمرو عبداللطيف (٢٥).

٢٦ - (كل كلام ابن آدم عليه، لا له، إلا أمر بمعروف، أو نهي عن المنكر، أو ذكر اللَّه تعالى).

ضعيف: رواه البخاري في «التاريخ»، والترمذي (٦٦١٢) وابن ماجه (٢/ ٢٧٤)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥)، وابن أبي الدنيا، وأبو يعلى في «مسنده» (٤/ ١٧٠١)، وعبد بن حميد في «المنتخب من المسند»، والقضاعي في «مسند الشهاب»، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٣١٦ هند) والخطيب في «التاريخ» عن أم حبيبة زوج النبي ﷺ مرفوعًا به وفي الحديث: أم صالح وهي مجهولة العين، فهذه علة، والأخرى علي بن خنيس، ومدار الحديث بجميع رواياته عليه وهو ضعيف.

وضعّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (١٣٦٦).

ورواية ابن ماجه بلفظ (كلام ابن آدم عليه لا له، إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر اللَّه عز وجل). انظر «ضعيف ابن ماجه» (٨٦١).

٢٧ ـ (كلام ابن آدم كله عليه لا له؛ إلا أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو ذكر اللَّه عز وجل).

ضعيف: رواه الترمذي، وابن ماجه، والبيهقي في «الشعب» عن أم حبيبة وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» (٤٢٤)، و«ضعيف الجامع» (٤٢٨٣).

٢٨ ـ (لا يحقرن أحدكم نفسه. قالوا: يا رسول اللَّه كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرًا للَّه عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيلقى اللَّه وقد أضاع ذلك فيقول اللَّه: ما منعك أن تقول فيه؟ فيقول: خشيت الناس فيقول: فإياى كنت أحق أن تخشى).

ضعيف: رواه أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٦٣٣٢)، و«ضعيف ابن ماجه» (٨٦٨).

٢٩ ـ (لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن اللَّه عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم).

ضعيف: أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١٣/ ٩٢) عن أبي هريرة مرفوعًا به.

❑ وقال الخطيب: «قال الدارقطني: تفرّد به محمود بن محمد أبي يزيد الظفري الأنصاري عن أيوب بن النجار عن يحيى بن أبي كثير، ومحمود لم يكن بالقوي».

❑ قال الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٤٢٩٨): «وللحديث علة أخرى؛ وهي الانقطاع؛ فقد ذكروا عن أيوب بن النجار أنه قال: «لم أسمع من يحيى بن أبي كثير إلا حديثًا واحدًا: احتج آدم وموسى».

❑ والحديث قال الهيثمي (٧/ ٢٦٦): «رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار (٣٣٠٦)، وفيه حبان بن علي؛ وهو متروك، وقد وثقه ابن معين في

رواية، وضعفه في غيرها».

٣٠ - (لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، فنهتهم علماؤهم، فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم، وشاربوهم؛ ضرب اللَّه قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، لا والذي نفسي بيده، حتى تأطروهم على الحق أطْرًا).

ضعيف: رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي عن ابن مسعود، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٧٧٣)، و«تخريج المشكاة» (٥١٤٨).

٣١ - (ليؤتين برجال يوم القيامة ليسوا بأنبياء، ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء بمنازلهم من اللَّه، يكونون على منابر من نور، قالوا: ومن هم يا رسول اللَّه؟ قال: هم الذين يحببون اللَّه إلى الناس، ويحببون الناس إلى اللَّه قال: يأمرونهم بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ فإذا أطاعوه، أحبهم اللَّه عز وجل).

ضعيف: ورواه محمد بن طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٤٦٣٨) عن واقد البصري عن أنس. قال عبداللَّه بن أبي داود: واقد لم يسمع من أنس، وقد روى عنه الكبار مثل محمد بن عجلان وغيره. وقال البخاري: لم يصح حديثه.

انظر «الكامل» لابن عدي (٧/ ٢٥٥٤).

٣٢ - (ما بعث اللَّه من نبي إلاّ كان من أمته حواري من أصحابه يستنون بسنته، ويأخذون بهديه، ثم يخلف بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، من أنكر عليهم بيده فهو مؤمن، ومن أنكر عليهم بلسانه؛ فهو مؤمن، ومن أنكر عليهم بقلبه فهو مؤمن، وذاك أضعف الإيمان).

ضعيف: أخرجه محمد بن طاهر المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٤٧٧١) عن أبي رافع.

وفيه عبّاد بن كثير الرملي قال البخاري: فيه نظر، ووثقه يحيى بن معين، انظر «الكامل» لابن عدي (٤/ ١٦٤٣).

٣٣ ـ (ما من صدقة أحب إلى اللَّه من قول الحق).

ضعيف جدًّا: أخرجه البيهقي (٢/ ٤٥٣/ ٢) عن أبي هريرة مرفوعًا. وفيه إبراهيم بن يزيد الخوزي؛ متروك الحديث.

٣٤ ـ (ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي، وهم أمنع منه فيدهنون عليه، ولا يغيرون إلا عمهم اللَّه بعقاب).

ضعيف: أخرجه المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٤٩١١) عن جرير. وفيه سعد ابن مسلمة الأموي: ضعيف. انظر «الكامل» (٣/ ١٢١٦).

٣٥ ـ (مروا بالمعروف وإن لم تفعلوه، وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كله).

ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الأوسط» عن أنس. وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣١٧) عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ «مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، وإن لم تنتهوا عنه»، وقال: «هذا من حديث العلاء بن المسيب بهذا الإسناد غير محفوظ». ورواه ابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف» (٥٤/ ١) والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٣٦/ ١ و٧٥٧٠) ـ ط وزاد «... وإن لم تعملوا به كله». وفيه طلحة بن عمرو متروك الحديث، وأشار البيهقي إلى تضعيفه. والحديث ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٢٨٢)، و«ضعيف الجامع» (٥٢٥٩).

٣٦ - (مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، وإن لم تنتهوا عنه).

ضعيف: مر تضعيفه.

٣٧ - (مقام أحدكم في الدنيا يتكلم بكلمة الحق، يردّ به باطلاً، أو يحقّ بها حقًّا أفضل من هجرة معي).

ضعيف: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٠٤١) بلفظ «لمقام» عن عصمة بن مالك وقال المقدسي في «خيرة الحفاظ» (٧ ـ ٥): رواه الفضل بن مختار عن عبيد اللَّه بن موهب عن عصمة ولا يتابع الخطمي عليه.

٣٨ - (من أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فهو خليفة اللَّه في أرضه، وخليفة كتابه، وخليفة رسوله ﷺ).

ضعيف: أورده ابن عدي في «الكامل» (٦/ ١٠٤)، والذهبي في «الميزان» (٣/ ٤٠٠) وقال المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٧٣/ ٥): رواه كادح بن أحمد عن عبداللَّه بن لهيعة، عن ابن أبي حبيب، عن مسلم بن جابر الصدفي، عن عبادة وهذا غير محفوظ، ولا يتابع عليه.

٣٩ - (من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف).

ضعيف جدًّا: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٩٩/ ٧٦٠٣) عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده.

وإسناده ضعيف جدًّا مسلسل بالضعفاء قاله الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٢٠٩٧).

فيه: المثنى بن الصباح؛ قال الحافظ: ضعيف، اختلط بآخرة.

وفيه زافر بن سليمان الأيادي؛ قال الحافظ: صدوق كثير الأوهام.

وسلم بن ميمون الخواص شديد الضعف قال أبو حاتم: لا يُكتب

حديثه. وعزاه السيوطي في «الجامع الكبير» (٢/ ٢٢٨/ ١) للديلمي فقط.

وللحديث إسناد آخر ذكره ابن وضاح القرطبي في «البدع والنهي عنها» ص(٩٢) عن أبي نزار القرشي.

قال الألباني: وهذا إسناد مظلم: أبو نزار لم أعرفه. وإسحاق بن مالك الحضرمي قال الأزدي ضعيف.

انظر «ضعيف الجامع» رقم (٥٤٨٤).

٤٠ ـ (من حضر معصية فكرهها، فكأنما غاب عنها، ومن غاب عنها، فأحبها فكأنما حضرها).

ضعيف: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٦٨٦) وعزاه السيوطي للبيهقي في «الشعب» (٧/ ٢٦٦).

قال في «ذخيرة الحفاظ» (٥٢٦١): رواه يحيى بن أبي سليمان عن المقبري عن أبي هريرة.

ويحيى قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ليس بالقوي «الميزان» (٤/ ٣٨٣).

٤١ ـ (من حضر معصية فكرهها، فكأنما غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها، فكأنه حضرها).

ضعيف: رواه ابن حبان في «الثقات» (٢/ ٣٠٣) عن أبي هريرة مرفوعًا وفيه يحيى بن أبي سليمان وقد مرّ ذكره. وأخرجه الهروى في ذم الكلام (٢/ ٣٩/ ١ ٠ ٢) وابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف».

٤٢ ـ (يا أيها الناس! مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا اللَّه؛ فلا يستجيب لكم، وقبل أن تستغفروه؛ فلا يغفر لكم، إن الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر لا يدفع رزقًا، ولا يقرّب أجلاً، وإن الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى لما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لعنهم اللَّه على لسان أنبيائهم ثم عُمّوا بالبلاء).

ضعيف: أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢/ ٢١٧/ ١٣٨٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٧)، والأصبهاني في «الترغيب» (١/ ١٥٧/ ٢٩٩) عن ابن عمر مرفوعًا.

وأشار المنذري (٣/ ١٧١) إلى ضعفه. وقال الهيثمي (٧/ ٢٦٦) فيه من لم أعرفهم. وفيه إسحاق بن إبراهيم الرازي قال الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٢٠٩٢): لم أجد له ترجمه وضعّف الحديث من أجل هذا.

٤٣ ـ (خير الناس أتقاهم للرب، وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر).

ضعيف: رواه أحمد (٦/ ٤٣١ ـ ٤٣٢)، وابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٢/ ٥٤)، والبيهقي في «الزهد» (٢/ ١٠٧) عن درة بنت أبي لهب مرفوعًا.

❑ قال الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٢٠٩٣): وهذا إسناد ضعيف، وفيه ثلاث علل:ـ

الأولى: زوج درة لم أعرفه.

الثانية: عبداللَّه بن عميرة، وهو الكوفي مجهول.

الثالثة: شريك، وهو ابن عبداللَّه القاضي، وهو ضعيف لسوء حفظه.

تنبيه: زاد أحمد في أوله: «أقرؤهم».

٤٤ ـ (إذا أراد اللَّه بعبد خيرًا؛ جعل له واعظًا من نفسه يأمره وينهاه).

ضعيف: أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» ص(٩٣ ـ زهر الفردوس) عن أم سلمة مرفوعًا.

وفيه القاسم بن أبي صالح وفيه كلام.

٤٥ ـ (يا رسول اللَّه! هل من جهاد غير قتال المشركين؟ قال: نعم يا أبا بكر، إن للَّه مجاهدين في الأرض أفضل الشهداء.. هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر).

موضوع: انظر «الموضوعات في الإحياء أو الاعتبار في حمل الأسفار» (١١٨).

باب: النهي عن مخالطة العلماء للأمراء

٤٦ ـ (إذا رأيت العالم يخالط السلطان مخالطة كثيرة فاعلم أنه لص).

ضعيف: رواه الديلمي في «مسند الفردوس» عن أبي هريرة، وضعّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٢٥٢٦)، و«ضعيف الجامع» رقم (٥٠٠).

٤٧ ـ (إذا رأيت القارئ يلوذ بالسلطان فاعلم أنه لص، وإذا رأيته يلوذ بالأغنياء فاعلم أنه مراء، وإياك أن تخدع فيُقال لك: تشفع وتدرأ عن مظلوم، أو ترد مظلمة، فإن هذه خدعة إبليس، اتخذها فجّار القرّاء سلّمًا).

ضعيف: انظر «الأسرار المرفوعة» (٢٧)، و«كشف الخفاء» (٢٣٣).

٤٨ ـ (إذا قرأ الرجل القرآن، وتفقه في الدين، ثم أتى باب السلطان تملقًا إليه، وطمعًا لما في يده؛ خاض بقدر خطاه في نار جهنم).

ضعيف: رواه الديلمي (١/ ١/ ٧٠) وأبو الشيخ عن معاذ بن جبل مرفوعًا.

❑ وفي إسناده ثلاث علل:

الأولى: الانقطاع بين مكحول ومعاذ؛ فإنه لم يسمع منه.

الثانية: أبو بكر الفلسطيني لا يُعرف.

الثالثة: فيه إبراهيم بن رستم أورده الذهبي في «الضعفاء»، وقال: قال ابن عدي: منكر الحديث. «قاله الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٢١٩١). وانظر «ضعيف الجامع» رقم (٦٢٩).

٤٩ ـ (إن اللَّه يحب الأمراء إذا خالطوا العلماء، ويمقت العلماء إذا خالطوا الأمراء؛ لأن العلماء إذا خالطوا الأمراء رغبوا في الدنيا وإذا خالطهم الأمراء رغبوا في الآخرة).

ضعيف: «كشف الخفاء» للعجلوني (٢٨٢٧).

٥٠ ـ (إن أناسًا من أمتي سيتفقهون في الدين، ويقرءون القرآن، ويقولون: نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم، ونعتزلهم بديننا، ولا يكون ذلك، كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك، كذلك لا يجتني من قربهم إلا).

قال محمد بن الصباح: كأنه يعني الخطايا.

ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٢٥٥) عن ابن عباس مرفوعًا.

وفيه عبيداللَّه بن المغيرة بن أبي بردة، قال الذهبي: «تفرّد عنه أبو شيبة يحيى بن عبدالرحمن الكندي» ومعنى هذا أنه مجهول.

ضعّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (١٢٥٠)، و«ضعيف الجامع» (١٨١٨)، و«ضعيف ابن ماجه» (٥١).

٥١ ـ (سيكون قوم بعدي من أمتي يقرءون القرآن ويتفقهون في الدين، يأتيهم الشيطان فيقول: لو أتيتم السلطان فأصلح من دنياكم واعتزلتموهم بدينكم، ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتني من قربهم إلا الخطايا).

ضعيف: رواه ابن عساكر عن ابن عباس مرفوعًا، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٢٦٢٥)، و«ضعيف الجامع» رقم (٣٣١٣).

٥٢ ـ (شرار العلماء الذين يأتون الأمراء، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء).

لا أصل له: انظر «تذكرة الموضوعات» (٢٤)، و«الأحاديث التي لا أصل لها في كتاب الإحياء» للسبكي (٢٩٠)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (٩١١).

٥٣ ـ (شرار أمتي العلماء الذين يأتون الأمراء، وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء).

ضعيف: انظر «كشف الخفاء» (٢٥٣٥).

٥٤ ـ (العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان ويُداخلوا الدنيا، فإذا خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم).

ضعيف: رواه الحسن بن سفيان، والبيهقي في «السنن» عن أنس مرفوعًا. وضعّفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٢٦٧٠)، و«ضعيف الجامع» رقم (٣٨٨٣).

٥٥ ـ (العلماء أمناء الرسل على العباد ما لم يخالطوا السلطان ويدخلوا في الدنيا فإذا دخلوا في الدنيا وخالطوا السلطان فقد خانوا الرسل فاعتزلوهم).

موضوع: انظر تنزيه الشريعة المرفوعة (١/ ٢٦٧)، و«اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» (١/ ٢١٩)، و«الموضوعات» (١/ ٢٦٣).

٥٦ ـ (العلماء أمناء الرسل على عباد اللَّه ما لم يخالطوا السلطان فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم).

موضوع: انظر «الفوائد المجموعة» للشوكاني (٩١١)، و«تذكرة الموضوعات» (٢٤).

٥٧ ـ (العلماء أمناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان ويدخلوا في الدنيا فإذا فعلوا ذلك فاعتزلوهم).

موضوع: انظر «ترتيب الموضوعات» (١٦٨).

٥٨ ـ (الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا. قيل: يا رسول اللَّه وما دخولهم في الدنيا؟ قال: اتباع السلطان، فإذا فعلوا ذلك، فاحذروهم على أديانكم).

ضعيف: رواه أبو عبداللَّه الضبي في «المجلس الخمسون» من «الأمالي» عن علي مرفوعًا.

❑ قال الألباني في «الضعيفة» رقم (٢٠٣٤)، وهذا إسناد ضعيف مظلم؛ موسى بن إسماعيل وأبوه وجده لم أعرفهم، وقد ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٣٠٠/٧٤٦) من رواية العسكري عن علي مرفوعًا وقال: وهو ضعيف السند. وقد روي الحديث عن أنس وغيره مختصرًا ومطولاً» اهـ.

انظر «ضعيف الجامع» رقم (٤٠٣٢)، و«كشف الخفاء» (١٨٣٨)، و«تذكرة الموضوعات» (٢٥)، و«أسنى المطالب» (٩٧٨).

٥٩ ـ (ما من عالم أتى صاحب سلطان طوعًا إلا كان شريكه في كل لون يُعذَّب به في نار جهنم).

ضعيف: أخرجه الديلمي (٤/ ٢٥)، والحاكم في «تاريخه» عن معاذ بن جبل مرفوعًا، وفيه أبو بكر الفلسطيني لا يعرف، وإبراهيم بن رستم مختلف فيه، ومكحول لم يسمع من معاذ».

وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥١٩٣)، و«الضعيفة» رقم (٤٤٨٨). وانظر «المقاصد الحسنة» (٩٨٣)، و«تذكرة الموضوعات» (٢٥).

* **باب الإنكار على الأمراء:**

٦٠ ـ (إذا رأيت أمتي تهاب الظالم أن تقول له: إنك ظالم، فقد تُودِّع منهم).

ضعيف: أخرجه أحمد (٢/١٦٣ و١٨٩ ـ ١٩٠)، والحاكم (٤/٩٦) والطبراني في «الكبير» وابن عدي في «الكامل» عن عبداللَّه بن عمرو مرفوعًا.

❑ قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ولكن أعله البيهقي بكونه منقطعًا.

❑ قال المناوي في «الفيض»: «لكن تعقبه البيهقي نفسه بأنه منقطع حيث قال: محمد بن مسلم هو أبو الزبير المكي، ولم يسمع من ابن عمرو» وبه أعله ابن عدي، والألباني في «الضعيفة» رقم (١٢٦٤).

ورواه الطبراني في «الأوسط» عن جابر مرفوعًا. وقال المناوي في «فيض القدير»: «وفيه سيف بن هارون ضعّفه النسائي والدارقطني».

وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥٠١).

٦١ ـ (إذا رأيتم أمتي تهاب الظالم أن تقول له: إنك أنت ظالم، فقد تُودِّع منهم).

ضعيف: أخرجه أحمد (٦٥٢٠)، والحاكم عن عبداللَّه بن عمرو مرفوعًا.

وأبو الزبير لم يسمع من ابن عمرو.

٦٢ ـ (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر وأمير جائر).

ضعيف: رواه الخطيب عن أبي سعيد مرفوعًا. وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (١٠٠٣). وهو في «الصحيح» دون قوله: «وأمير جائر».

٦٣ - (أفضل شهداء أمتي رجل قام إلى إمام جائر، فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك، فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر).

لا أصل له: انظر «الأحاديث التي لا أصل لها في الإحياء» (٣٢١)، و«موضوعات الإحياء» (١١٩).

٦٤ - (أفضل الجهاد من قال كلمة الحق عند سلطان جائر).

ضعيف: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٨٦١)، وقال المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (١١٦٣) رواه حزور أبو غالب عن أبي أمامة. وأبو غالب ضعّفه النسائي.

٦٥ - (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر).

ضعيف: انظر «المقاصد الحسنة» (١٣٦).

٦٦ - (أي الشهداء أكرم على اللَّه؟ قال: «رجل قام إلى وال جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله فإن لم يقتله فإن القلم لا يجري عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش).

لا أصل له: انظر «الأحاديث التي لا أصل لها في الإحياء» (٣٢١).

٦٧ - (ستكون عليكم أمراء من بعدي، يأمرونكم بما لا تعرفون، ويعملون بما تنكرون، فليس أولئك عليكم بأئمة).

ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» عن عبادة بن الصامت مرفوعًا به،

وضعّفه المناوي في «فيض القدير»، والألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٣٢٥٦).

٦٨ - (ستكون عليكم أئمة يملكون أرزاقكم، يحدّثونكم فيكذبونكم، ويعملون فيسيئون العمل، لا يرضون منكم حتى تحسنوا قبيحهم، وتصدقوا كذبهم، فأعطوهم الحق ما رضوا به، فإذا تجاوزوا فمن قُتِل على ذلك فهو شهيد).

ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» عن أبي سلالة الأسلمي مرفوعًا، وضعفه المناوي في «فيض القدير»، والألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٣٢٥٥).

٦٩ - (سيلي أموركم من بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون، وينكرون ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى اللَّه، فلا تعتلوا بربكم).

ضعيف: أخرجه الحاكم (٣/ ٣٥٧)، وعبداللَّه بن أحمد في «زوائد المسند» عن عبادة بن الصامت مرفوعًا.

وفيه مسلم بن خالد فيه ضعف من قبل حفظه.

ورواه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٢٥) وفيه إسماعيل بن عياش ضعيف في روايته عن غير الشاميين وهذه منها.

ورواه العقيلي في «الضعفاء» عن عبداللَّه بن عمرو بن العاص مرفوعًا.

وفيه عبدالعزيز بن عبيداللَّه بن حمزة بن صهيب ضعّفه العقيلي.

وقال العقيلي: «أما هذا اللفظ: «فلا تعتلوا» فلا يحفظ إلا في هذا الحديث».

ووقع في «المستدرك» وتلخيصه: «فلا تعتبوا»، وفي «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٢٦) «فلا تقبلوا» وفي «الجامع الكبير»: «فلا تضلوا»، ولعل الصواب فيها: «الوجه الأول». انظر «السلسلة الضعيفة» رقم (١٣٥٣).

٧٠ ـ (سيليكم أمراء يفسدون، وما يصلح اللَّه بهم أكثر، فمن عمل منهم بطاعة اللَّه فله الأجر، وعليكم الشكر، ومن عمل منهم بمعصية اللَّه فعليه الوزر، وعليكم الصبر).

ضعيف: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن مسعود، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٣٣١٤)، و«السلسلة الضعيفة» رقم (١٣٥٢).

٧١ ـ (لا ينبغي لامرئ أن يشهد مقامًا فيه مقال حق إلا تكلم به فإنه لم يقدّم أجله، ولم يحرمه رزقًا هو له).

«ذخيرة الحفاظ» (٦٣٨٩).

٧٢ ـ (من أراد أن ينصح السلطان، فلا يبدأ علانية، ولكن يأخذ بثوبه، وليخل به؛ فإن قبل منه فذاك، وإلاّ كان قد أدّى الحق الذي عليه).

ضعيف: رواه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٣٩٣) عن عياض بن غنم مرفوعًا وفيه صدقة بن عبداللَّه السمين ضعيف. . انظر «ذخيرة الحفاظ» (١٠١٥).

٧٣ ـ (من أرعب صاحب بدعة ملأ اللَّه قلبه يُمنًا وإيمانًا، ومن انتهر صاحب بدعة أمّنه اللَّه من الفزع الأكبر، ومن أهان صاحب بدعة رفعه اللَّه في الجنة درجة، ومن لان له إذا لقيه تبشبشًا فقد استخف بما أنزل اللَّه على محمد).

موضوع: انظر «اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» (١/ ٢٥١).

٧٤ ـ (ما ظهر أهل بدعة قط؛ إلا أظهر اللَّه فيهم حجته على لسان من شاء من خلقه).

ضعيف جدًّا: أخرجه الديلمي (٤/ ٣٦) عن ابن عباس مرفوعًا.

وفيه سليم بن مسلم جهمي خبيث قال النسائي: متروك الحديث. والحديث ضعفه جدًا الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٤٤٥٨).

* **فصل: الابتعاد عن السلاطين:**

٧٥ - (اتقوا أبواب السلاطين وحواشيها، فإن أقرب الناس من السلطان وحواشيها أبعدهم من اللَّه، ومن آثر سلطانًا على اللَّه جعل اللَّه الفتنة في قلبه ظاهرة وباطنة، وأذهب عنه الورع، وتركه حيران).

موضوع: رواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٤٢)، والديلمي في «المسند» عن ابن عمر مرفوعًا.

وفيه عنبسة بن عبدالرحمن القرشي متهم بالكذب، فهو آفة الحديث.

قاله الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (١٦٩٨)، وحكم عليه بالوضع. انظر «ضعيف الجامع» رقم (١١١).

٧٦ - (ثلاث لا يركن إليها: الدنيا، والسلطان، والمرأة).

لا أصل له: انظر إلى «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» (١٠٢)، و«الأسرار المرفوعة» (١٥٠)، و«اللؤلؤ المرصوع فيما لا أصل له أو بأصله موضوع» (١٥٧)، و«المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» (٩٩).

٧٧ - (سيكون بعدي أمراء، تعرفون، وتنكرون، فمن فارقهم نجا، ومن اعتزلهم سلم، ومن خالطهم هلك).

ضعيف: رواه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٥٩٢) عن ابن عباس مرفوعًا. وفيه هياج بن بسطام الحنظلي الهروي قال المقدسي في «ذخيرة الحفاظ» (٣٢٧٥): ليس بشيء.

٧٨ - (سيكون بعدي سلاطين، الفتن على أبوابهم كمبارك الإبل، لا

يُعطون أحدًا شيئًا إلا أخذوا من دينه مثله).

ضعيف جدًّا: أخرجه الحاكم (٣/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤)، والطبراني في «الكبير» عن عبدالله بن الحارث بن جزء مرفوعًا به.

وفيه حسان بن غالب وهو متروك قاله الذهبي في «الميزان» وساق له الحافظ في «اللسان» حديثين آخرين، ونقل عن الدارقطني أنه قال: «إنهما حديثان موضوعان»، وقال الهيثمي (٥/ ٢٤٦): متروك وفيه ابن لهيعة: ضعيف. قاله الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٣٧٢٠)، و«ضعيف الجامع» رقم (٦ ٣٣٠).

٧٩ ـ (سيكون في آخر الزمان أمراء جورة فمن خاف سجنهم وسيفهم وسوطهم فلا يأمرهم ولا ينهاهم).

موضوع: انظر «تنزيه الشريعة» (٢/ ٢٣٢)، و«ذيل اللائي» (١٣٥)، و«تذكرة الموضوعات» (١٨٣)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (٦٢٧).

٨٠ ـ (سيكون في آخر الزمان علماء يرغّبون الناس في الآخرة ولا يرغبون، ويزهّدون الناس في الدنيا ولا يزهدون، وينبسطون عند الكبراء، وينقبضون عند الفقراء، وينهون عن غشيان الأمراء ولا ينتهون، أولئك الجبّارون أعداء الرحمن).

موضوع: رواه الدارمي في «مسند الفردوس» عن ابن عباس مرفوعًا، وفيه نوح بن أبي مريم. كذّاب وضاع.

انظر «تنزيه الشريعة» (١/ ٢٧٣)، و«تذكرة الموضوعات» (٢٦)، و«ذيل اللآلئ» (٣٦).

٨١ ـ (قال الله عز وجل لأيوب: تدري ما كان جرمك إليّ حتى

ابتليتك، قال: لا يارب، قال: لأنك دخلت على فرعون فأدهنت بكلمتين).

موضوع: رواه ابن النّجار عن عقبة بن عامر مرفوعًا.

قال في «تنزيه الشريعة» (١/٢٤٧): وفيه الكديمي. انظر «تذكرة الموضوعات» (١٨٣)، و«ذيل اللآلئ» (١٨).

٨٢ ـ (لست أخاف على أمتي غوغاء تقتلهم، ولا عدوًّا يجتاحهم، ولكني أخاف على أمتي أئمة مضلّين، إن أطاعوهم فتنوهم، وإن عصوهم قتلوهم).

ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة مرفوعًا، وضعّفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/٢٣٩)، والألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٦٧١).

٨٣ ـ (ما ازداد أحد من السلطان قربًا إلا ازداد من اللَّه بعدًا).

انظر «تذكرة الموضوعات» (٢٥).

٨٤ ـ (ما ازداد رجل من السلطان قربًا إلا ازداد من اللَّه بعدًا، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا اشتد حسابه).

ضعيف: رواه هناد عن عبيد بن عمير مرسلاً، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٩٩٥). والحسن بن مسلم لم يدرك عُبيد بن عمير.

٨٥ ـ (ما ازداد عبد من السلطان دخولاً إلا ازداد من اللَّه بعدًا).

ضعيف: رواه أبو بكر الشافعي في «مسند موسى بن جعفر بن محمد الهاشمي» وفيه موسى بن إبراهيم المروزي وهو متروك.

وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» رقم (٤٤١٨).

٨٦ ـ (من سوّد اسمه مع إمام جائر كان قرينه في النار).

منكر: رواه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٢١) وقال في «ذخيرة الحفاظ» (٥٣٦٧): رواه عمر بن عمرو العسقلاني عن عمر بن صبح، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبدالله.

وهذا عن الأعمش بهذا الإسناد منكر، وعمر بن صبح ضعيف، إلا أن البلاء من العسقلاني هذا».

٨٧ ـ (من مشى لإمام جائر في حاجة جعله الله قرينه يوم القيامة، فإن دله على باب ظلم جعله الله قرين هامان يوم القيامة).

ضعيف: رواه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٣٥٤) عن ابن عباس مرفوعًا.

والحديث ليس يرويه غير أيوب بن سويد وهو ضعيف انظر «ميزان الاعتدال» للذهبي (١/ ٢٨٨).

٨٨ ـ (من سوّد مع قوم فهو منهم، ومن روّع مسلمًا لرضا سلطان جيء به يوم القيامة معه).

ضعيف: رواه الخطيب في «التاريخ» عن أنس مرفوعًا، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٥٦٣٦)، و«السلسلة الضعيفة» رقم (٥٦٣٦).

٨٩ ـ (ومن لزم السلطان افتتن وما ازداد عبد من السلطان دنوًّا، إلا ازداد من الله بعدًا).

ضعيف: انظر «ضعيف أبي داود» (٦١٢).

٩٠ ـ (يعذب الله يوم القيامة ستة نفر بستة أشياء: الأمراء بالجور، والعلماء بالحسد، والعرب بالعصبية، والدهاقين بالكبر، وأهل الرساتيق

بالجهالة، والتجار بالخيانة، وستة يدخلون بستة: الأمراء بالمعروف، والعلماء بالنصيحة، والعرب بالتواضع، والدهاقين بالألفة، والتجار بالصدق، وأهل الرساتيق بالسلامة).

ضعيف: انظر «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» (١٥٦٥).

* **التحذير من العلماء الفسّاق**:

٩١ - (أخاف على أمتي ثلاثًا: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، والتكذيب بالقدر).

ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» عن أبي الدرداء، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٢٠).

٩٢ - (إذا كان يوم القيامة يدعى بفسقة العلماء فيؤمر بهم إلى النار قبل عبدة الأوثان، ثم ينادي مناد: ليس من علم كمن لم يعمل).

ضعيف: انظر «الجامع المصنف مما في الميزان من حديث الراوي المضعف» (١٨١) لعبدالعزيز الصديق الغماري، و«اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» للسيوطي (١/ ٢٢٤).

٩٣ - (إن أبغض الخلق إلى اللَّه تعالى العالم يزور العمال).

موضوع: رواه ابن لال عن أبي هريرة مرفوعًا. وحكم عليه بالوضع الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (١٣٥٧)، و«الضعيفة» رقم (٢٩٦٢).

٩٤ - (إن أهون الخلق على اللَّه العالم يزور العمّال).

ضعيف: رواه الحافظ أبو الفتيان الدهستاني في كتاب «التحذير من علماء

السوء» عن أبي هريرة مرفوعًا، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (١٨٤١).

٩٥ ـ (إن في جهنم رحى يطحن علماء السوء طحنًا).

ضعيف: رواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٦٢) عن أنس مرفوعًا. رواه سويد بن عبدالعزيز عن حميد عن أنس.

وهذا يرويه عن سويد: هشام، وعن هشام: عبدالعزيز بن حيان وليس هذا في كتاب هشام بن عمار، عن سويد، ولعلّ البلاء فيه من عبدالعزيز. انظر «ذخيرة الحفاظ» (١٩٥٠)، و«الجامع المصنف» (١٨٣).

٩٦ ـ (الزبانية إلى فسقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يُبدأ بنا قبل عبده الأوثان؟ فيُقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم).

وقد ورد بلفظ: «للزبانية.. فيقولون: يا رب بُدئ بنا.. يا رب سُورع إلينا».

ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في «الحلية» عن أنس مرفوعًا، وضعّفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٢٥٨٨)، و«ضعيف الجامع» رقم (٣١٨٩).

٩٧ ـ (شر الناس شرار العلماء).

ضعيف: رواه ابن عدي (١٠١/ ٢) عن معاذ بن جبل مرفوعًا. وفيه حفص ابن عمر الأُبُلي: كذبه أبو حاتم، ورواه البزار وفيه الخليل بن مرة ضعّفه الجمهور. ضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (١٤١٨).

٩٨ ـ (شر الناس علماء السوء).

لا أصل له: انظر «الأحاديث التي لا أصل لها في «الإحياء» للسبكي (٣٥٥).

٩٩ - (شرار الناس، شرار العلماء في الناس).

رواه البزار عن معاذ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٣٨١)، و«الضعيفة» رقم (١٤١٨).

١٠٠ - (علماء السوء جسور جهنم).

ضعيف: انظر «كشف الخفاء» (١٧٤٣).

١٠١ - (هلاك أمتي عالم فاجر، وجاهل عاقل، وشر الشرار شرار العلماء، وخير الخيار خيار العلماء).

لا أصل له: انظر «الأحاديث التي لا أصل لها في «الإحياء» (٢٨٩).

١٠٢ - (هلاك أمتي عالم فاجر، وشر الشرار شرار العلماء).

موضوع: انظر «موضوعات الإحياء» (١٥).

١٠٣ - (هلاك أمتي: عالم فاجر، وعابد جاهل، وشرار الشرار شرار العلماء، وخير الخيار خيار العلماء).

موضوع: انظر «الفوائد المجموعة» للشوكاني (٩٠٩)، و«تذكرة الموضوعات» (٢٤).

١٠٤ - (ويل لأمتي من علماء السوء).

ضعيف: أخرجه الحاكم في «تاريخه» عن أنس، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٦١٣٩).

١٠٥ - (ويل لأمتي من علماء السوء، يتخذون هذا العلم تجارة يتبعونها

من أمراء زمانهم ربحًا لأنفسهم، لا أربح اللَّه تجارتهم).

ضعيف: أخرجه الديلمي (٤/ ١٣٤) عن أنس مرفوعًا.

وفيه صالح بن نوح، قال الألباني في «الضعيفة» رقم (٥٢٣٥) لم أعرفه، وأحمد بن محمد بن أحمد العدل تغيّر بآخره، فهو علة الحديث أو شيخه.

١٠٦ - (يدخل فسقة حملة القرآن النار قبل عبدة الأوثان بألفي عام).

موضوع: انظر «اللآلئ المصنوعة» (١/ ٢٢٥).

*** ذم من لا يعمل بعلمه:**

١٠٧ - (إذا تعلّم الناس العلم وتركوا العمل، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام، لعنهم اللَّه عند ذلك فأصمّهم وأعمى أبصارهم).

لا أصل له: انظر «الأحاديث التي لا أصل لها في «الإحياء» للسبكي (٢٨٩).

١٠٨ - (إذا علم العامل فلم يعمل كان كالمصباح؛ يضيء للناس ويحرق نفسه).

موضوع: أخرجه ابن قانع في «معجمه» عن سليك الغطفاني مرفوعًا وحكم عليه بالوضع الألباني في «الضعيفة» رقم (٢٦٣٣)، و«ضعيف الجامع» رقم (٥٩٨).

١٠٩ - (أشد الناس عذابًا يوم القيامة، عالم لم ينفعه علمه).

ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الصغير»، وابن عدي في «الكامل»، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة مرفوعًا. وضعّفه الألباني في

«ضعيف الجامع» رقم (٨٦٨)، و«الضعيفة» رقم (١٦٣٤).

١١٠ - (اطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فقالوا: بم دخلتم النار وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم؟ قالوا: إنا كنا نأمركم ولا نفعل).

ضعيف: انظر «القصاص والمذكرين» (٥٦).

١١١ - (إن المؤمن إذا تعلم بابًا من العلم عمل به أو لم يعمل كان أفضل من أن يصلي ألف ركعة تطوعًا).

ضعيف: أخرجه «ابن لال» عن ابن عمر مرفوعًا، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (١٧٦٨)، و«الضعيفة» رقم (٣١٣٩).

١١٢ - (إن أناسًا من أهل الجنة يتطلعون إلى أناس من أهل النار، فيقولون: بم دخلتم النار؟ فواللَّه ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم؟ فيقولون: إنا كنا نقول ولا نفعل).

ضعيف جدًّا: رواه الطبراني في «الأوسط» (٩٧) وعنه ابن عساكر عن الوليد ابن عقبة مرفوعًا. وفيه أبو بكر الداهري متروك وقال الهيثمي (٧/ ٢٧٦) «أبو بكر الداهري ضعيف جدًّا»، وأشار المنذري في «الترغيب» (٣/ ١٧٤) إلى تضعيفه.

١١٣ - (أيتها الأمة إني لا أخاف عليكم فيما لا تعلمون، ولكن انظروا كيف تعملون فيما تعلمون).

ضعيف جدًّا: أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٣٢ - ١٣٣) عن أبي هريرة مرفوعًا. وفيه يحيى بن عبداللَّه بن موهب المدني. قال الألباني في «الضعيفة» (٣٣٦٥): هو متروك. وأبوه عبداللَّه بن عبداللَّه بن موهب لا يعرف؛ كما قال الذهبي. وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٢١٦).

١١٤ ـ (تعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن ينفعكم اللَّه حتى تعملوا بما تعلمون).

ضعيف: رواه ابن عدي في «الكامل»، والخطيب في «التاريخ» وابن عساكر عن أبي الدرداء، وضعّفه الألباني في «الضعيفة» (٣٤٠٧)، و«ضعيف الجامع» (٢٤٥٣).

١١٥ ـ (تعلموا من العلم ما شئتم، فواللَّه لا تُؤجروا بجمع العلم حتى تعملوا).

ضعيف: رواه أبو الحسن ابن الأخرم المديني في «أماليه» عن أنس، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٢٤٥٥)، و«الضعيفة» (٣٤٠٧).

١١٦ ـ (طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدل عنها إلى البدعة).

ضعيف: انظر «كشف الخفاء» (١٦٧٦).

١١٧ ـ (العالم والعلم والعمل في الجنة، فإذا لم يعمل العالم بما يعلم، كان العلم والعمل في الجنة، وكان العالم في النار).

موضوع: رواه الديلمي في «مسند الفردوس» عن أبي هريرة مرفوعًا. وحكم عليه بالوضع الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٣٨٣٩).

١١٨ ـ (العلم الذي لا يُعمل به كالكنز الذي لا ينفق منه أتعب صاحبه نفسه في جمعه ثم لم يصل إلى نفعه).

ضعيف: انظر «الجامع المصنف» (٢٣٩).

١١٩ ـ (كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به).

ضعيف: انظر «كشف الخفاء» (١٩٨٠).

١٢٠ - (كنا نتدارس من العلم في مسجد قباء، إذ خرج علينا رسول اللَّه ﷺ، فقال: تعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم اللَّه حتى تعملوا).

لا أصل له: انظر «الأحاديث التي لا أصل لها في «الإحياء» للسبكي (٢٨٩).

١٢١ - (كيف أنت يا عويمر إذا قيل لك يوم القيامة: أعلمت أم جهلت؟ فإن قلتَ: علمت، قيل لك: فماذا عملت فيما علمت؟ وإن قلت: جهلت، قيل لك: فما كان عذرك فيما جهلت، ألا تعلمت؟!).

ضعيف: أخرجه ابن عساكر عن أبي الدرداء مرفوعًا، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٤٢٨٨)، و«الضعيفة» رقم (٤١٥٧).

١٢٢ - (لا يكون المرء عالمًا حتى يكون بعلمه عاملاً).

لا أصل له: انظر «الأحاديث التي لا أصل لها في «الإحياء» (٢٨٩)، و«تذكرة الموضوعات» (٢٤).

١٢٣ - (من عمل بما علم ورّثه اللَّه علم ما لم يعلم).

انظر: تذكرة الموضوعات (٢٠)، «الأحاديث التي لا أصل لها في «الإحياء» (٢٩٠)، و«الضعيفة» (٤٢٢)، و«الفوائد المجموعة» (٨٩٤)، و«كشف الخفاء» (٢٥٤٢).

١٢٤ - (ويل لمن لا يعلم ولو شاء اللَّه لعلّمه واحد من الويل، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع من الويل).

ضعيف: رواه سعيد بن منصور في «سننه» عن جبلة مرسلاً، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٦١٤٦).

١٢٥ - (ويل لمن لا يعلم، وويل لمن علم ثم لا يعمل).

ضعيف: رواه أبو نعيم في «الحلية» عن حذيفة، وضعّفه الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٦١٤٧).

١٢٦ - (خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة في الدين فلا تأخذوه ولستم بتاركيه، يمنعكم الفقر والحاجة، ألا إن رحى الإسلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم، إن عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم»، قالوا: يا رسول اللَّه كيف نصنع؟ قال: «كما صنع أصحاب عيسى بن مريم نُشِروا بالمناشير، وحُمِلوا على الخشب، موت في طاعة اللَّه خير من حياة في معصية اللَّه).

رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٩٠)، وفي «الصغير» (١/ ٢٦٤) وفي مسند الشاميين عن معاذ بن جبل. قال في «المجمع» (٥/ ٢٢٨، ٢٣٨٦)، ويزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ، والوضين بن عطاء وثقه ابن حبان وضعفه جماعة».

* * *

* وختاماً:

اللَّهم كن أنيسي في وحشتي، ومقيل عثرتي، وغافر زلتي، وقابل توبتي، ومجيب دعوتي، ووليّ عصمتي، ومغني فاقتي، لا تقطعني عنك، ولا تُبعدني منك.

اللَّهم اجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودّك ومحبتك وشوّقته إلى لقائك، ورضّيته بقضائك، وحببته برضاك، وخصصته بمعرفتك، وأهّلته لعبادتك.

اللَّهم متعنا بالنظر إلى وجهك في الفردوس الأعلى، وبوِّئنا مقعد الصدق في جوارك، وفرّغ قلوبنا لمحبتك، وألهمنا ذكرك، وأوزعنا شكرك، واشغلنا بطاعتك، واقطع عنا كل شيء يقطعنا عنك.

اللَّهم يا وليّ الإسلام وأهله مَسّكنا بالإسلام.

اللَّهم اجعلنا من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر واجعلنا للمتقين إمامًا.

اللَّهم ورث همي فيك منتهى أملي.

واحفظني بالإسلام قائمًا، واحفظني بالإسلام قاعدًا، واحفظني بالإسلام راقدًا، ولا تشمت بي عدوًا حاسدًا.

اللَّهم إني أسألك لذة العيش بعد الموت وحسن النظر إلى وجهك الكريم.

وأسألك باسمك الأعظم أن تمنّ عليّ بأفضل الشهادة في سبيلك يا ودود يا كريم يا أرحم الراحمين.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين.

كتبه سيد بن حسين العفاني

مصر ـ محافظة بني سويف ـ بني عفان ـ ص.ب ١٢٣

فهرس المراجع

﴿أ﴾ التفسير وعلوم القرآن

١ ـ «تفسير الطبري» لابن جرير الطبري ـ طبع دار المعارف.

٢ ـ «تفسير القرطبي» للقرطبي ـ كتاب الشعب.

٣ ـ «تفسير ابن كثير» للإمام ابن كثير ـ مكتبة أولاد الشيخ.

٤ ـ «التفسير الكبير» للفخر الرازي ـ دار الغد العربي.

٥ ـ «أحكام القرآن» لابن العربي.

٦ ـ «فتح القدير» للشوكاني.

٧ ـ «روح المعاني» للألوسي ـ طبع دار الفكر.

٨ ـ «تفسير المنار» لمحمد رشيد رضا.

٩ ـ «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للنيسابوري.

١٠ ـ «التحرير والتنوير» للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر.

١١ ـ «تفسير جزء عم» للشيخ محمد عبده.

١٢ ـ «تفسير المراغي» لأحمد مصطفى المراغي.

١٣ ـ «المصحف المفسر» لمحمد فريد وجدي.

١٤ ـ «تفسير القرآن الكريم» للشيخ محمود شلتوت.

١٥ ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم» لطنطاوي جوهري.

١٦ ـ «تفسير البغوي» للإمام البغوي.

١٧ ـ «محاسن التأويل» للقاسمي ـ مكتبة عيسى الحلبي.

١٨ ـ «في ظلال القرآن» لسيد قطب ـ دار الشروق.

١٩ ـ «المورد العذب الزلال في الرد على الظلال» للشيخ الدويش.
٢٠ ـ «التفسير والمفسرون» للدكتور محمد حسين الذهبي ـ مكتبة وهبة.
٢١ ـ «الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم» للدكتور محمد حسين الذهبي.
٢٢ ـ «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير» للدكتور فهد الرومي ـ مؤسسة الرسالة.
٢٣ ـ «تنبيهات في الرد على الصابوني» للشيخ ابن باز ـ نشر دار الإفتاء.
٢٤ ـ «نحو منهج لتفسير القرآن» لمحمد الصادق عرجون.
٢٥ ـ «مذاهب التفسير الإسلامي» لجولد زيهر.
٢٦ ـ «التفهيمات الإلهية» للدهلوي.
٢٧ ـ «مجموعات الكلمات» للشيخ عبدالعزيز الدهلوي.
٢٨ ـ «كلمات طيبات» للدهلوي.
٢٩ ـ «طبقات المفسرين» للداودي.
٣٠ ـ «تصويبات في فهم بعض الآيات» للدكتور صلاح الخالدي ـ دار القلم ـ دمشق.
٣١ ـ «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة الدينوري.
٣٢ ـ «الفوز الكبير» للدهلوي ـ المكتبة المحمدية.
٣٣ ـ «أضواء البيان» للشنقيطي ـ مكتبة ابن تيمية.
٣٤ ـ «الكشاف» للزمخشري.

٣٥ ـ «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي.

﴿ب﴾ السنة وعلوم الحديث

٣٦ ـ «فتح الباري بشرح صحيح البخاري» للحافظ ابن حجر العسقلاني ـ طبعة السلفية.

٣٧ ـ «شرح مسلم للنووي» للإمام النووي ـ دار الشعب.

٣٨ ـ «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم».

٣٩ ـ «إكمال المعلم شرح صحيح مسلم» لأبي عبدالله الأبيّ.

٤٠ ـ «عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي» للمباركفوري.

٤١ ـ «سنن أبي داود».

٤٢ ـ «عون المعبود شرح سنن أبي داود» للطيب أبادي.

٤٣ ـ «سنن النسائي».

٤٤ ـ «سنن ابن ماجه» تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي.

٤٥ ـ «مسند الإمام أحمد بن حنبل».

٤٦ ـ «صحيح ابن خزيمة» ـ المكتب الإسلامي.

٤٧ ـ «السنن الكبرى» للإمام البيهقي.

٤٨ ـ «شعب الإيمان» للإمام البيهقي.

٤٩ ـ «سنن الدارمي».

٥٠ ـ «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» مؤسسة الرسالة.

٥١ ـ «المستدرك على الصحيحين» للحاكم النيسابوري.

٥٢ ـ «مشكاة المصابيح» للخطيب التبريزي ـ تحقيق الشيخ الألباني ـ المكتب الإسلامي.

٥٣ ـ «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لملاّ على القاري.

٥٤ ـ «صحيح الجامع» للألباني ـ المكتب الإسلامي.

٥٥ ـ «ضعيف الجامع» للألباني ـ المكتب الإسلامي.

٥٦ ـ «سلسلة الأحاديث الصحيحة» ـ المكتب الإسلامي.

٥٧ ـ «سلسلة الأحاديث الضعيفة» ـ المكتب الإسلامي.

٥٨ ـ «صحيح الترغيب والترهيب» للألباني.

٥٩ ـ «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» للحافظ الهيثمي.

٦٠ ـ «مسند البزار».

٦١ ـ «مسند الفردوس» للديلمي.

٦٢ ـ «المختارة» للضياء المقدسي.

٦٣ ـ «المصنف» لعبدالرزاق الصنعاني ـ المكتب الإسلامي.

٦٤ ـ «موطأ الإمام مالك» للإمام مالك بن أنس.

٦٥ ـ «تنزية الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة» للكتاني.

٦٦ ـ «الفوائد المجموعة» للإمام الشوكاني.

٦٧ ـ «كشف الخفاء ومزيل الإلباس» للعجلوني.

٦٨ ـ «مشكل الآثار» للطحاوي.

٦٩ ـ «الكنى» للدولابي.

٧٠ ـ «ميزان الاعتدال» للحافظ الذهبي.

٧١ ـ «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر العسقلاني.

٧٢ ـ «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر العسقلاني.

٧٣ ـ «مسند الحميدي» للحميدي.
٧٤ ـ «نظم المتناثر في الحديث المتواتر» لمحمد الكتاني.
٧٥ ـ «المقاصد الحسنة» للسخاوي.
٧٦ ـ «تقريب التهذيب» لابن حجر.
٧٧ ـ «تذكرة الحفاظ» للذهبي.
٧٨ ـ «الجرح والتعديل» للشيخ جمال الدين القاسمي.
٧٩ ـ «طبقات المحدثين بأصبهان» لأبي الشيخ ابن حبان.
٨٠ ـ «دراسات في الحديث» للدكتور محمد مصطفى الأعظمي.
٨١ ـ «مسند أبي يعلى».
٨٢ ـ «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم الرازي.
٨٣ ـ «الكفاية» للخطيب البغدادي.
٨٤ ـ «الضعفاء» للبرذعي.
٨٥ ـ «موضح أوهام الجمع» للخطيب البغدادي.
٨٦ ـ «فيض القدير» للمناوي.
٨٧ ـ «إرواء الغليل» للشيخ الألباني ـ المكتب الإسلامي.
٨٨ ـ «نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية» للحافظ الزيلعي.
٨٩ ـ «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي.
٩٠ ـ «تهذيب الكمال» للمزي.
٩١ ـ «الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة للشيخ عبدالرحمن المعلمي ـ المكتب الإسلامي.

٩٢ ـ «التنكيل لما ورد في تأنيب الكوثري من الأباطيل» للمعلمي اليماني ـ دار الكتب السلفية.

٩٣ ـ «قواعد في علوم الحديث» للتهانوي.

٩٤ ـ «الأضواء القرآنية في اكتساح الأحاديث الإسرائيلية وتطهير البخاري منها» السيد صالح أبو بكر.

٩٥ ـ «الرد القويم على المجرم الأثيم» للتويجري.

٩٦ ـ «تخريج أحاديث الكشاف».

٩٧ ـ «ذخيرة الحفاظ» لمحمد بن طاهر المقدسي.

٩٨ ـ «الكامل» لابن عدي.

٩٩ ـ «الأحاديث القدسية الضعيفة والموضوعة» لأحمد العيسوي.

١٠٠ ـ «شرح السنة» للبغوي ـ المكتب الإسلامي.

١٠١ ـ «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» لمصطفى السباعي.

١٠٢ ـ «موقف الجماعة الإسلامية من الحديث النبوي» لمحمد إسماعيل السلفي.

١٠٣ ـ «موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية» للأمين الصادق الأمين ـ مكتبة الرشد.

١٠٤ ـ «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» للشيخ محمد الغزالي ـ دار الشروق.

١٠٥ ـ «أضواء على السنة» لأبي رية.

١٠٦ ـ «شبهات وشطحات منكري السنة» لأبي إسلام أحمد عبدالله ـ بيت الحكمة.

١٠٧ ـ السنة باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع» لمحمود صالح شريح.

١٠٨ ـ «مفهوم التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد» لمحمود الطحان ـ دار التراث.

١٠٩ ـ «جهود مخلصة في خدمة السنة المطهرة» للفريوائي ـ السلفية بالهند.

١١٠ ـ «العواصم والقواصم» لابن الوزير الصنعاني.

١١١ ـ «الأنساب» للسمعاني.

١١٢ ـ «المعيار لعلم الغزالي في كتابه السنة النبوية» للشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ.

١١٣ ـ «الترغيب والترهيب» للمنذري.

١١٤ ـ «المعجم الكبير» للطبراني ـ تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي.

١١٥ ـ «الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث».

١١٦ ـ «جامع الأصول» لابن الأثير.

١١٧ ـ «المصنف» لابن أبي شيبة.

﴿ جـ ﴾ العقيدة

١١٨ ـ «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية.

١١٩ ـ «مجموع فتاوى ابن تيمية».

١٢٠ ـ «الصارم المسلول على شاتم الرسول» لابن تيمية.

١٢١ ـ اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية.

١٢٢ ـ «السنة» لعبدالله بن أحمد بن حنبل.

١٢٣ ـ «التسعينية» لابن تيمية.

١٢٤ ـ «نقض المنطق» لابن تيمية.

١٢٥ ـ «السنة» لابن أبي عاصم.

١٢٦ ـ «دلائل النبوة» للبيهقي.

١٢٧ ـ «عقيدة السلف أصحاب الحديث» للصابوني.

١٢٨ ـ «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي.

١٢٩ ـ «الحجة في بيان المحجة» لقوّام السنة إسماعيل الأصبهاني ـ دار الراية.

١٣٠ ـ «الشريعة» للآجري.

١٣١ ـ «الاعتصام» للشاطبي.

١٣٢ ـ «ايثار الحق على الخلق» للسيد مرتضى اليماني ـ مطبعة الآداب والمؤيد.

١٣٣ ـ «البدع والنهي عنها» لابن وضاح القرطبي ـ دار الصفا.

١٣٤ ـ «الرد على البكري» لابن تيمية.

١٣٥ ـ «الرسائل الأصفهانية» لابن تيمية.

١٣٦ ـ «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية.

١٣٧ ـ «الرد على الأخنائي» لابن تيمية.

١٣٨ ـ «الإبانة» لابن بطة.

١٣٩ ـ «الصواعق المرسلة» لابن القيم.

١٤٠ ـ «شفاء العليل» لابن القيم.

١٤١ ـ «النونية الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية» لابن القيم.

١٤٢ ـ «لوامع الأنوار البهية» للسفاريني.

١٤٣ ـ «الرد على الرافضة» لشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب.

١٤٤ ـ «فضائح الباطنية» للغزالي.

١٤٥ ـ «التحف في مذهب السلف» للشوكاني.

١٤٦ ـ التحفة الاثنا عشرية» للشيخ عبدالعزيز الدهلوي.

١٤٧ ـ «النهاية في الفتن والملاحم» لابن كثير.

١٤٨ ـ «مختصر التحفة الاثنا عشرية» للألوسي ـ المكتبة السلفية بمصر.

١٤٩ ـ «خلق أفعال العباد» للبخاري.

١٥٠ ـ «الفرق بين الفرق» لعبدالقاهر البغدادي.

١٥١ ـ «الفصل» لابن حزم.

١٥٢ ـ «رسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده.

١٥٣ ـ «التصريح بما تواتر في نزول المسيح» للكشميري.

١٥٤ ـ «السنة» للخلال.

١٥٥ ـ «الشيعة والتشيع» لإحسان إلهي ظهير.

١٥٦ ـ «الشيعة والسنة» لإحسان إلهي ظهير.

١٥٧ ـ «الشيعة وأهل البيت» لإحسان إلهي ظهير.

١٥٨ ـ «الشيعة والقرآن» لإحسان إلهي ظهير.

١٥٩ ـ «القاديانية» لإحسان إلهي ظهير.

١٦٠ ـ «البهائية» لإحسان إلهي ظهير.

١٦١ ـ «الإسماعيلية» لإحسان إلهي ظهير.

١٦٢ ـ «الرد الكافي على مغالطات الدكتور علي عبدالواحد وافي» لإحسان إلهي ظهير.

١٦٣ ـ «موقف الخميني من الشيعة والتشيع» لمحمود سعد ناصح.

١٦٤ ـ «أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية» للدكتور ناصر القفاري.

١٦٥ ـ «وجاء دور المجوس» للدكتور عبدالله الغريب.

١٦٦ ـ «الشيعة والسنة ضجة مفتعلة» ـ دار المختار الإسلامي ـ دار الاعتصام.

١٦٧ ـ «أصول الكافي» للكليني.

١٦٨ ـ «من لا يحضره الفقيه» لابن بابوية القمي.

١٦٩ ـ «مناظرة بين الإسلام والمسيحية» طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

١٧٠ ـ «الرد على ابن النغريلة اليهودي» تحقيق د. إحسان عباس ـ نشر مكتبة دار العروبة.

١٧١ ـ «ذيل الملل والنحل» لمحمد سيد الكيلاني.

١٧٢ ـ «أحكام الردة والمرتدين» للدكتور محمود مزروعة.

١٧٣ ـ «شرح السنة» للبربهاري ـ مكتبة الغرباء بالمدينة.

١٧٤ ـ «تلبيس إبليس» لابن الجوزي.

١٧٥ ـ «منهج الأشاعرة في العقيدة» لسفر الحوالي.

١٧٦ ـ «ظاهرة الإرجاء» لسفر الحوالي.

١٧٧ ـ «الرد العلمي على ظاهرة الإرجاء» للدكتور ياسر برهامي ـ تحت الطبع.

١٧٨ ـ «العصريون» ليوسف كمال.

١٧٩ ـ «العقلانيون أفراخ المعتزلة العصريون» لعلي حسن عبدالحميد ـ مكتبة الغرباء الأثرية.

١٨٠ ـ «اليسار الإسلامي خنجر في ظهر الإسلام» للأستاذ عبدالسلام بسيوني ـ مكتبة الأقصى قطر.

١٨١ ـ «إجماع العلماء على الهجر والتحذير من أهل الأهواء» لخالد ابن ضحوي الظفيري ـ دار المنهاج.

١٨٢ ـ «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لشيخ الإسلام مصطفى صبري.

١٨٣ ـ «الصارم المسلول على الترابي شاتم الرسول» لأحمد بن مالك.

١٨٤ ـ «الماسونية» لأحمد عبدالغفور.

١٨٥ ـ «الإمام الشاطبي عقيدته وموقفه من البدع وأهلها» ـ لعبدالرحمن آدم علي ـ مكتبة الرشد.

١٨٦ ـ «النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة» للشيخ مصطفى صبري.

١٨٧ ـ «جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية» للدكتور شمس الدين الأفغاني ـ دار الصميعي.

١٨٨ ـ «العقيدة في اللّه» للشيخ عمر الأشقر ـ طبع دار النفائس.

١٨٩ ـ «الصراط المستقيم» للسيد أحمد بن عرفان الشهيد.

١٩٠ ـ «دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية» ـ لصلاح الدين مقبول ـ دار ابن الأثير ـ الكويت.

١٩١ ـ «شطحات الصوفية» للدكتور عبدالرحمن بدوي.

١٩٢ ـ «الإنسان الكامل» للجيلي تحقيق عبدالرحمن بدوي.

١٩٣ ـ «الطواسين» للحلاج.

١٩٤ ـ «فصوص الحكم» لابن عربي ـ طبعة الحلبي.

١٩٥ ـ «الطبقات الكبرى» لعبدالوهاب الشعراني ـ طبعة صبيح.

١٩٦ ـ «هذه هي الصوفية» لعبدالرحمن الوكيل ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٩٧ ـ «صيانة الإنسان عن وسوسة دحلان» للسهسواني.

١٩٨ ـ حكم هيئة كبار العلماء في كتاب «الإسلام وأصول الحكم».

١٩٩ ـ «الخنجر المسموم الذي طُعِن به المسلمون» لأنور الجندي.

٢٠٠ ـ «الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين» ـ تحقيق سليمان دنيا.

٢٠١ ـ «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبدالرازق.

٢٠٢ ـ «الرائية الصغرى في ذم البدعة ومدح السنة الغرّاء» ليوسف النبهاني.

٢٠٣ ـ «فكر جارودي بين المادية والإسلام» لعادل التل ـ دار البيئة.

٢٠٤ ـ «الإسلام» لروجيه جارودي ـ ترجمة دلال محمد طاهر.

٢٠٥ ـ «الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها» لجارودي.

٢٠٦ ـ «المشكلة الدينية» لمحسن الميلي تقديم جارودي.
٢٠٧ ـ «ودين اللّه واحد على ألسنة جميع الرسل» لمحمود أبو رية.
٢٠٨ ـ «إلى أين يتجه الإسلام» للمستشرق جب.
٢٠٩ ـ «الوهابيون والحجاز» لمحمد رشيد رضا.
٢١٠ ـ «براءة أهل السنة من الوقيعة في علماء الأمة».
٢١١ ـ «شرح الصدور بتحريم رفع القبور» للشوكاني.
٢١٢ ـ «الدواء العاجل في دفع العدو الصائل» للشوكاني.
٢١٣ ـ «كشف الشبهات عن المشتبهات» للشوكاني.
٢١٤ ـ «قطر الولي على حديث الولي» أو «ولاية اللّه الطريق إليها» للشوكاني ـ دار الكتب الحديثة.
٢١٥ ـ «الماتريدية» للدكتور شمس الدين الأفغاني ـ مكتبة الصديق.
٢١٦ ـ «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين» للألوسي.
٢١٧ ـ «الغارة على العالم الإسلامي» ترجمة محب الدين الخطيب ـ المكتبة السلفية.
٢١٨ ـ «ظاهرة اليسار الإسلامي» لمحسن الميلي.
٢١٩ ـ «ذرائعية العلمانيين» لحسن محمد الغزواني.
٢٢٠ ـ «رواية وليمة لأعشاب البحر في ميزان الإسلام والعقل والأدب» للدكتور جابر قميحة ـ دار الاعتصام.
٢٢١ ـ «الإسلام والعصر» لعبدالعزيز كامل.
٢٢٢ ـ «السنة والشيعة» لمحمد رشيد رضا.
٢٢٣ ـ «صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول» لأبي الحسن الندوي.

٢٢٤ ـ «نهج الخميني في الفكر الإسلامي» لبشار عودة ـ دار عمار.

٢٢٥ ـ «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض.

٢٢٦ ـ «الحكومة الإسلامية» للخميني.

٢٢٧ ـ «مصباح الهداية» للخميني.

٢٢٨ ـ «تحرير الوسيلة» للخميني.

٢٢٩ ـ «در ثمين» للقادياني.

٢٣٠ ـ «براهين أحمدية» للقادياني.

٢٣١ ـ «تذكرة الشهادتين» للقادياني.

٢٣٢ ـ «ما الفرق في آدم والمسيح الموعود» للقادياني.

٢٣٣ ـ «بديع الزمان النورسي» ـ لإحسان قاسم الصالحي ـ دار المختار الإسلامي.

٢٣٤ ـ «تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة ما بين الحربين العالميتين» لأنور الجندي ـ دار الاعتصام.

٢٣٥ ـ «نشأة التصوف الإسلامي» للدكتور إبراهيم بسيوني ـ دار المعارف.

٢٣٦ ـ «أحمد ديدات بين الإنجيل والقرآن» كتاب المختار الإسلامي.

٢٣٧ ـ «مناظرة العصر» ترجمة علي الجوهري ـ دار الفضيلة.

٢٣٨ ـ «غاية الأماني في الرد على النبهاني» للألوسي.

٢٣٩ ـ «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي ـ المكتب الإسلامي.

٢٤٠ ـ «مجموعة رسائل الشيخ أحمد بن عتيق».

٢٤١ ـ «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» جمع عبدالرحمن بن محمد ابن قاسم.

٢٤٢ ـ «شرح الواسطية» لابن عثيمين ـ دار ابن الجوزي.

٢٤٣ ـ «بغية المرتاد» لابن تيمية.

٢٤٤ ـ «العواصم مما في كتب سيد قطب من القواصم» لربيع المدخلي.

٢٤٥ ـ «منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللَّه» لربيع المدخلي.

٢٤٦ ـ «رد الجواب على مَن طلب مني عدم طبع الكتاب» لمحمد بن علي الصومعي ـ دار الآثار.

٢٤٧ ـ «الرد الشرعي المعقول على المتصل المجهول» لأحمد بن يحيي النجمي المطبوع مع رد الجواب.

٢٤٨ ـ «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي» للبقاعي.

٢٤٩ ـ «الإبداع في مضار الابتداع» للشيخ علي محفوظ ـ دار الاعتصام.

٢٥٠ ـ «الولاء والبراء» للقحطاني.

﴿ د ﴾ الفقه وأصول الفقه

٢٥١ ـ «مسائل الإمام أحمد» لصالح بن الإمام أحمد.

٢٥٢ ـ «الفقية والمتفقه» للخطيب البغدادي.

٢٥٣ ـ «الأم» للشافعي.

٢٥٤ ـ «إعلام الموقعين» لابن القيم.

٢٥٥ ـ «سبل السلام» للصنعاني.

٢٥٦ ـ «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» للشيخ ابن باز.

٢٥٧ ـ «مجموع فتاوى ورسائل» فضيلة الشيخ ابن عثيمين.
٢٥٨ ـ «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم.
٢٥٩ ـ «فتاوى الإمام الشاطبي».
٢٦٠ ـ «الفتاوى» للشيخ محمود شلتوت.
٢٦١ ـ «الطرق الحكمية» لابن القيم.
٢٦٢ ـ «الموافقات» للشاطبي.
٢٦٣ ـ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للخلال.
٢٦٤ ـ «مختصر الفتاوي المصرية».
٢٦٥ ـ «المغني» لابن قدامة المقدسي.
٢٦٦ ـ «المبسوط» للسرخسي.
٢٦٧ ـ «مراتب الإجماع» لابن حزم.
٢٦٨ ـ «معالم القربة في أحكام الحسبة».
٢٦٩ ـ «الحسبة» لابن تيمية.
٢٧٠ ـ «كتاب الخراج» للإمام أبي يوسف.
٢٧١ ـ «إصلاح المساجد من البدع والعوائد» لجمال الدين القاسمي.
٢٧٢ ـ «الاستئناس في تصحيح أنكحة الناس» لجمال الدين القاسمي.
٢٧٣ ـ «تجديد أصول الفقه» لحسن الترابي ـ الدار السعودية للنشر.
٢٧٤ ـ «أحكام أهل الذمة» لابن القيم.
٢٧٥ ـ «فتاوى السيد رشيد رضا».
٢٧٦ ـ «الانتقاء» لابن عبدالبر.
٢٧٧ ـ «الفروق» للقرافي.

٢٧٨ ـ «السيل الجرار» للشوكاني.

٢٧٩ ـ «منهاج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لفاروق السامرائي ـ طبع دار الوفاء.

٢٨٠ ـ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للدكتور ياسر برهامي ـ دار العقيدة.

٢٨١ ـ «روضة الطالبين» للإمام النووي.

٢٨٢ ـ «بل النقاب واجب» للشيخ محمد إسماعيل المقدم.

٢٨٣ ـ «تذكير الأصحاب بتحريم النقاب» لإسماعيل منصور.

﴿ر﴾ تاريخ وسير وتراجم

٢٨٤ ـ «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي.

٢٨٥ ـ «تاريخ دمشق» لابن عساكر.

٢٨٦ ـ «وفيات الأعيان» لابن خلكان.

٢٨٧ ـ «مرآة الجنان» لليافعي.

٢٨٨ ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة».

٢٨٩ ـ «نفح الطيب» للمقري التلمساني.

٢٩٠ ـ «تاريخ قضاة الأندلس» لأبي الحسن النباهي الأندلسي ـ دار الكتب العلمية.

٢٩١ ـ «عيون الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة ـ مؤسسة الرسالة.

٢٩٢ ـ «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» للشيخ عبدالرازق البيطار.

٢٩٣ ـ «تاريخ هندوستان».

٢٩٤ ـ «تاريخ الهند» للشيخ ذكاء اللَّه.

٢٩٥ ـ «المنتظم» لسبط ابن الجوزي.

٢٩٦ ـ «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي.

٢٩٧ ـ «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلاني.

٢٩٨ ـ «الضوء اللامع» للسخاوي.

٢٩٩ ـ «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» لنجم الدين الغزي.

٣٠٠ ـ «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للشيخ فضل اللَّه المحبي.

٣٠١ ـ «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للشيخ محمد خليل المرادي.

٣٠٢ ـ «تاريخ الجبرتي» للجبرتي.

٣٠٣ ـ «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للشوكاني.

٣٠٤ ـ «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدينوري.

٣٠٥ ـ «أخبار قضاة مصر» للكندي.

٣٠٦ ـ «ولاة مصر وقضاتها».

٣٠٧ ـ «العثمانيون في التاريخ والحضارة» للدكتور محمد حرب ـ دار القلم ـ دمشق.

٣٠٨ ـ «الرسائل السياسية» للإمام الدهلوي.

٣٠٩ ـ «شرح السير الكبير».

٣١٠ ـ «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام

مالك» للقاضي عياض ـ طبع وزارة الأوقاف المغربية.

٣١١ ـ «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني.

٣١٢ ـ «سير أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي ـ مؤسسة الرسالة.

٣١٣ ـ «مرآة الزمان».

٣١٤ ـ «طبقات الشافعية» للسبكي.

٣١٥ ـ «رفع الإصر عن قضاة مصر» للحافظ ابن حجر العسقلاني.

٣١٦ ـ «الأعلام» للزركلي.

٣١٧ ـ «تاريخ الطبري» لابن جرير الطبري.

٣١٨ ـ «الكامل في التاريخ» لابن الأثير.

٣١٩ ـ «البداية والنهاية» لابن كثير.

٣٢٠ ـ «حياة الصحابة» للكاندهلوي.

٣٢١ ـ «طبقات الحنابلة» لأبي يعلى ـ دار المعرفة.

٣٢٢ ـ «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب ـ دار المعرفة.

٣٢٣ ـ «المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد».

٣٢٤ ـ «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» للفاسي.

٣٢٥ ـ «الطبقات الكبرى» لابن سعد.

٣٢٦ ـ «المعرفة والتاريخ» للفسوي.

٣٢٧ ـ «مناقب عمر بن عبدالعزيز» لابن الجوزي.

٣٢٨ ـ «صفة الصفوة» لابن الجوزي.

٣٢٩ ـ «القصاص والمذكرون» لابن الجوزي.

٣٣٠ ـ «إنباه الرواة» للقفطي.

٣٣١ ـ «صفحات مضيئة من حياة السابقين» لإبراهيم العلي ـ دار القلم.

٣٣٢ ـ «الإمام ابن تيمية» لأبي الحسن الندوي ـ دار القلم بالكويت.

٣٣٣ ـ «الإمام الدهلوي» لأبي الحسن الندوي ـ دار القلم بالكويت.

٣٣٤ ـ «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف» للدهلوي.

٣٣٥ ـ «الإمام السرهندي» لأبي الحسن الندوي ـ دار القلم بالكويت.

٣٣٦ ـ «حركة الانطلاق الفكري وجهود الشاه ولي اللّه في التجديد» لمحمد إسماعيل السلفي.

٣٣٧ ـ «الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام» المسمى «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» للسيد عبدالحي الحسني الندوي ـ دار ابن حزم.

٣٣٨ ـ «محمد الفاتح» للدكتور سالم الرشيدي ـ الإرشاد ـ جدة.

٣٣٩ ـ «سليمان الحلبي الشهيد البطل» لخالد الجر ـ دار القلم ـ دمشق.

٣٤٠ ـ «الشهيد محمد كريم» للأستاذ عبدالعزيز حافظ دنيا.

٣٤١ ـ «محمد عمارة في ميزان أهل السنة والجماعة» للخراشي ـ دار الجواب.

٣٤٢ ـ «محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي» لشكيب أرسلان ـ مكتبة دار الحياة ـ بيروت.

٣٤٣ ـ «عبدالرحمن الناصر» لبسام العسيلي.

٣٤٤ ـ «سيرة عمر مكرم» لمحمد فريد أبو حديد.

٣٤٥ ـ «علماء ومفكرون عرفتهم» لمحمد المجذوب ـ دار الاعتصام.

٣٤٦ ـ «مصلح اليمن محمد بن إسماعيل الصنعاني».

٣٤٧ ـ «العز بن عبدالسلام» للأستاذ رضوان الندوي.

٣٤٨ ـ «مذكرات محب الدين الخطيب» لمحب الدين الخطيب.

٣٤٩ ـ «جمال الدين القاسمي وعصره» لظافر جمال الدين القاسمي.

٣٥٠ ـ «ابن قيم الجوزية» للدكتور بكر أبو زيد.

٣٥١ ـ «رشيد رضا» للدكتور أحمد العدوي.

٣٥٢ ـ «رجال من التاريخ» لعلي الطنطاوي.

٣٥٣ ـ «تنوير البصائر من سيرة الشيخ طاهر» لمحمد سعيد الباني.

٣٥٤ ـ «كنوز الأجداد» لمحمد كرد علي ـ دار الفكر ـ دمشق.

٣٥٥ ـ «محاضرات عن محمد كرد علي» لشفيق جيري ـ مؤسسة الرسالة.

٣٥٦ ـ «حياة الألباني وآثاره» لمحمد إبراهيم الشيباني ـ الدار السلفية ـ بالكويت.

٣٥٧ ـ «رشيد رضا» للدكتور أحمد عبده الشرباصي ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ مصر.

٣٥٨ ـ «ضيامانة» لعزت أفندي الدارندلي ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩م.

٣٥٩ ـ «الحسن البصري» لابن الجوزي.

٣٦٠ ـ «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي.

٣٦١ ـ «صفحات مطوية من حياة سلطان العلماء» لسليم الهلالي ـ دار ابن الجوزي.

٣٦٢ ـ «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين» لابن العطار.

٣٦٣ ـ «ترجمة شيخ الإسلام النووي» للحافظ السخاوي ـ طبع جمعية النشر والتأليف بالأزهر.

٣٦٤ ـ «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» للبزار.

٣٦٥ ـ «العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» لابن عبدالهادي ـ مكتبة المؤيد.

٣٦٦ ـ «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للسخاوي ـ دار ابن حزم.

٣٦٧ ـ «أبو زرعة الرازي وجهودة في خدمة السنة النبوية».

٣٦٨ ـ «سير السلف الصالحين لقوام السنة».

٣٦٩ ـ «مناقب مالك» للزواوي.

٣٧٠ ـ «الإصابة في تميز الصحابة» للحافظ ابن حجر.

٣٧١ ـ «حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» لمحمد بهجة البيطار.

٣٧٢ ـ «ابن تيمية» لمحمد يوسف موسى.

٣٧٣ ـ «ابن تيمية بطل الإصلاح الديني» لمحمود مهدي الاستانبولي.

٣٧٤ ـ «حقبة من التاريخ» لعثمان الخموس.

٣٧٥ ـ «معرفة القرّاء الكبار» للذهبي.

٣٧٦ ـ «مفكرون وأدباء» لأنور الجندي.

٣٧٧ ـ «الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث» لحازم زكريا ـ دار القلم دمشق.

٣٧٨ ـ «جمال الدين القاسمي» للدكتور نزار أباظة ـ دار القلم ـ دمشق.

٣٧٩ ـ «شيخ الشام جمال الدين القاسمي» لمحمد مهدي الاستانبولي ـ المكتب الإسلامي.

٣٨٠ ـ «الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين» لمحمد محمود عبدالله ـ دار ابن حزم.

٣٨١ ـ «قيام دولة المرابطين» للدكتور حسن أحمد محمود ـ دار الفكر العربية.

٣٨٢ ـ «السلفية وأعلامها في موريتانيا» للشيخ الطيب بن عمر بن الحسين ـ دار ابن حزم.

٣٨٣ ـ «الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب» لابن فرحون ـ دار الكتب العلمية.

٣٨٤ ـ «تاريخ ابن الوردي».

٣٨٥ ـ «جمال الدين الأفغاني» لعبدالرحمن الرافعي.

٣٨٦ ـ «تاريخ الماسونية» لجورجي زيدان.

٣٨٧ ـ «نابغة الشرق السيد جمال الدين الأفغاني» لسعيد الأفغاني.

٣٨٨ ـ «جمال الدين الأفغاني» لمحمود أبو رية.

٣٨٩ ـ «مذكرات السلطان عبدالحميد» ترجمة محمد حرب عبدالحميد.

٣٩٠ ـ «جمال الدين الأفغاني» لعبدالقادر المغربي.

٣٩١ ـ «التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر» للمستر بلنت.

٣٩٢ ـ «تراجم الأعلام المعاصرين» لأنور الجندي.

٣٩٣ ـ «المجددون في الإسلام» لعبدالمتعال الصعيدي.

٣٩٤ ـ «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» لأحمد أمين.

٣٩٥ ـ «الشيخ ابن باز ومواقفه الثابتة» لأحمد الفريح.

٣٩٦ ـ «إمام العصر الإمام العلامة ابن باز» للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني ـ مؤسسة الجريسي.

٣٩٧ ـ «الدر الثمين في ترجمة فقيد الأمة العلامة ابن عثيمين» لوليد أحمد الزبيري.

٣٩٨ ـ «صفحات من حياة الفقيد العالم الزاهد ابن عثيمين» للدكتور عبدالله محمد الطيار.

٣٩٩ ـ «ابن عثيمين الإمام الزاهد» للدكتور ناصر بن مسفر الزهراني ـ دار ابن الجوزي.

٤٠٠ ـ «صفحات مشرقة» لحمود المطر.

٤٠١ ـ «مناقب الشافعي» للبيهقي.

٤٠٢ ـ «توالي التأسيس في مناقب الشافعي محمد بن إدريس» لابن حجر العسقلاني.

٤٠٣ ـ «مجتمع يثرب» لخليل عبدالكريم ـ دار سينا ـ القاهرة.

٤٠٤ ـ «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» لابن الجوزي.

٤٠٥ ـ «جارودي من الإلحاد إلى الإيمان» لرامي كلاوي.

٤٠٦ ـ «عقبة بن نافع الفهري» لمحمود شيت خطاب.

٤٠٧ ـ «اللواء الركن محمود شيت خطاب المجاهد الذي يحمل سيفه في كتبه» لعبدالله محمود ـ دار القلم دمشق.

٤٠٨ ـ «الأيام الحاسمة قبل معركة المصير» لمحمود شيت خطاب.

٤٠٩ ـ «أبو الحسن الندوي كاتبًا ومفكرًا» لنذر الحفيظ الندوي الأزهري.

٤١٠ ـ «أبو الحسن علي الحسني الندوي» لمحمد اجتباء الندوي ـ دار القلم ـ دمشق.

٤١١ ـ «رجل من أمة التوحيد أسلم على يديه ٤٠٠٠ من الأجانب» لعبداللطيف الجوهري ـ دار الصحوة.

٤١٢ ـ «عالم أزهري حر في مواجهة السلطان الجائر بقلمه وقلبه ولسانه» للشيخ محمود عبدالوهاب فايد ـ دار الاعتصام.

٤١٣ ـ «تاريخ الجزيرة العربية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب» لحسين خلف.

٤١٤ ـ «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل.

٤١٥ ـ «دراسات في السيرة النبوية» لمحمد سرور بن نايف ـ دار الأرقم.

٤١٦ ـ «إحسان إلهي ظهير ـ الجهاد والعلم من الحياة إلى الممات» لمحمد بن إبراهيم الشيباني ـ مكتبة ابن تيمية ـ الكويت.

٤١٧ ـ «شذرات الذهب».

٤١٨ ـ «الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوربا» للدكتور محمد عبداللطيف هريدي.

٤١٩ ـ «الثورة البائسة» لموسى الموسوي.

٤٢٠ ـ «المذكرات» لمحمد كرد علي ـ مطبعة الترقي.

٤٢١ ـ «الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام» لعبدالله التل.

٤٢٢ ـ «تاريخ الخلفاء» للسيوطي.

٤٢٣ ـ «الأستاذ أبو الحسن الندوي ـ الوجه الآخر» لصلاح الدين مقبول أحمد.

٤٢٤ ـ «المعيار المعرب والجامع المغرب» للونشرين ـ دار الغرب الإسلامي.

٤٢٥ ـ «أخبار قضاة مصر» لمحمد بن يوسف الكندي.

٤٢٦ ـ «الشيخ محمد بن عبدالوهاب» لابن حجر آل بوطامي.

٤٢٧ ـ «الإسلاميون وتركيا العلمانية» لهدى درويش.

٤٢٨ ـ «سعيد النورسي».

٤٢٩ ـ «لويس عوض الأسطورة والحقيقة» لحلمي القاعود ـ دار الاعتصام.

٤٣٠ ـ «حياة الرافعي» لمحمد سعيد العريان.

٤٣١ ـ «مصطفى صادق الرافعي» للدكتور محمد رجب البيومي سلسلة أعلام العرب ـ دار القلم ـ دمشق.

٤٣٢ ـ «تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند» لمسعود الندوي.

٤٣٣ ـ «فاتح القسطنطينية محمد الفاتح» للدكتور علي محمد الصلابي ـ دار الإيمان.

٤٣٤ ـ «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا.

٤٣٥ ـ «العبر» لابن خلدون.

٤٣٦ ـ «السعوديون والحل الإسلامي».

٤٣٧ ـ «حسن المحاضرة» للسيوطي.

٤٣٨ ـ «حسن البنا» لأنور الجندي ـ دار القلم ـ دمشق.

٤٣٩ ـ «حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه» لجابر رزق.

٤٤٠ ـ «ترجمة أبي عبدالرحمن مقبل بن هادي الوادعي» للشيخ مقبل الوادعي ـ دار الآثار بصنعاء.

٤٤١ ـ «الإمامة والسياسة».

٤٤٢ ـ «العقد الفريد» لابن عبد ربه.

٤٤٣ ـ «سيد قطب» لصلاح الدين الخالدي ـ دار القلم دمشق.

٤٤٤ ـ «قضاة الأندلس» المكتب التجاري للطباعة والنشر ـ لبنان.

٤٤٥ ـ «الرد الوافر» لابن ناصر الدين الدمشقي ـ المكتب الإسلامي.

٤٤٦ ـ «طريق الهجرتين» لابن القيم ـ المكتبة السلفية.

٤٤٧ ـ «مدارج السالكين» لابن القيم ـ مطبعة أنصار السنة المحمدية.

٤٤٨ ـ «مفتاح دار السعادة» لابن القيم.

٤٤٩ ـ «إغاثة اللهفان» لابن القيم.

٤٥٠ ـ «بدائع الفوائد» لابن القيم.

٤٥١ ـ «إيقاظ همم أولى الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار» لصالح الفلاني.

٤٥٢ ـ «طريق النصر» لمحمود شيت خطاب.

٤٥٣ ـ «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لأبي الحسن الندوي ـ دار القلم ـ دمشق.

٤٥٤ ـ «نحو التربية الإسلامية الحرة» لأبي الحسن الندوي.

٤٥٥ ـ «إلى الإسلام من جديد» للندوي ـ دار القلم ـ دمشق.

٤٥٦ ـ «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» لأبي الحسن الندوي.

٤٥٧ ـ «في مسيرة الحياة» لأبي الحسن الندوي.

٤٥٨ ـ «فضائل الجهاد» المسمى «مشارق الأنوار» لابن النحاس.

٤٥٩ ـ «ربانية لا رهبانية» لأبي الحسن الندوي.

٤٦٠ ـ «الدعوة إلى الإسلام» لأرنلد.

٤٦١ ـ «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبدالبر.

٤٦٢ ـ «كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء» للشيخ محمد فهمي عبدالوهاب ـ دار الاعتصام.

٤٦٣ ـ «عودة الحجاب» للشيخ محمد إسماعيل المقدم ـ دار الصفوة.

٤٦٤ ـ «مرآة النساء».

٤٦٥ ـ «جولة في رياض العلماء» للدكتور عمر الأشقر ـ دار النفائس ـ مكتبة الفلاح.

٤٦٦ ـ «أعداء الحل الإسلامي» للدكتور يوسف القرضاوي ـ مكتبة وهبة.

٤٦٧ ـ «القصاص» لابن الجوزي.

٤٦٨ ـ «حجة اللّه البالغة» للدهلوي.

٤٦٩ ـ «إذا هبت ريح الإيمان» لأبي الحسن الندوي ـ دار القلم ـ الكويت ومؤسسة الرسالة.

٤٧٠ ـ «الزهد» لابن المبارك.

٤٧١ ـ «الفوائد» لابن القيم ـ تحقيق محمد عيون.

٤٧٢ ـ «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم.

٤٧٣ ـ «إحياء علوم الدين» للغزالي.

٤٧٤ ـ «تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين» لابن النحاس الدمشقي ـ دار الكتب العلمية.

٤٧٥ ـ «الآداب الشرعية» لابن مفلح.

٤٧٦ ـ «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» لابن رجب الحنبلي ـ المكتب الإسلامي.

٤٧٧ ـ «فصول من السياسة الشرعية في الدعوة إلى اللّه» للشيخ عبدالرحمن عبدالخالق.

٤٧٨ ـ «العلماء وأمانة الكلمة» لمحمد سرور بن نايف ـ دار الأرقم.

٤٧٩ ـ «تلبيس إبليس» لابن لجوزي ـ دار الفكر.

٤٨٠ ـ «العزلة والخلطة» للقاضي أبي الحسن الجرجاني.

٤٨١ ـ «الإسلام بين العلماء والحكام».

٤٨٢ ـ «جامع العلوم والحكم» لابن رجب.

٤٨٣ ـ «الاستقامة» لابن تيمية.

٤٨٤ ـ «المصباح المضيء» لابن الجوزي.

٤٨٥ ـ «الآمرون بالمعروف في الإسلام» للمنجد.

٤٨٦ ـ «المحاسن والمساوئ» للبيهقي.

٤٨٧ ـ «سراج الملوك» للطرطوشي.

٤٨٨ ـ «مختصر منهاج القاصدين».

٤٨٩ ـ «علماء في وجه الطغيان» لمحمد رجب البيومي هدية مجلة الأزهر.

٤٩٠ ـ «من أخلاق العلماء» للأستاذ محمد سليمان.

٤٩١ ـ «تربية الأولاد في الإسلام» لعبدالله ناصح علوان.

٤٩٢ ـ «التصوف الإسلامي» لزكي مبارك.

٤٩٣ ـ «في ميزان الإسلام» للدكتور محمد رجب البيومي.

٤٩٤ ـ «عفوًا يا فضيلة الإمام الدكتور» لمحمد عبدالله السمان.

٤٩٥ ـ «كلمة الحق للشيخ أحمد محمد شاكر» ـ مكتبة السنة.

٤٩٦ ـ «الحرية في الإسلام» للشيخ محمد الخضر الحسين ـ دار الاعتصام.

٤٩٧ ـ «أبجد العلوم» لصديق حسن خان.

٤٩٨ ـ «البطولة والفداء عند الصوفية» لأسعد الخطيب.

٤٩٩ ـ «رسائل الشيخ محمد المعصوم».

٥٠٠ ـ «الفرق بين النصيحة والتعيير» لابن رجب الحنبلي.

٥٠١ ـ «لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ».

٥٠٢ ـ «كتاب العلم» لابن عثيمين ـ طبع دار الثريا.

٥٠٣ ـ «الوحي المحمدي» للشيخ رشيد رضا.

٥٠٤ ـ «المقابلة بين الهدى والضلال» للشيخ عبد الرزاق حمزة.

٥٠٥ ـ «خصائص التصور الإسلامي» لسيد قطب ـ دار الشروق.

٥٠٦ ـ «على أطلال المذهب المادي» لمحمد فريد وجدي ـ دائرة معارف القرن العشرين.

٥٠٧ ـ «إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان» للشيخ مرعي الحنبلي ـ دار عمار.

٥٠٨ ـ «تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من دلائل»

للشوكاني ـ دار ابن حزم.

٥٠٩ ـ «الوصايا» لأحمد الرافعي ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة.

٥١٠ ـ «النهر الماد من البحر» لأبي حيان الأندلسي.

٥١١ ـ «الرسالة القشيرية» لعبدالكريم القشيري.

٥١٢ ـ «الحسنة والسيئة» لابن تيمية.

٥١٣ ـ «الداء والدواء» لابن القيم.

٥١٤ ـ «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي ـ المكتب الإسلامي.

٥١٥ ـ «غذاء الألباب بشرح منظومة الآداب» لمحمد بن أحمد السفاريني.

٥١٦ ـ «ذم الجهل» لمحمد سعيد رسلان ـ دار العلوم الإسلامية.

٥١٧ ـ «حراسة الفضيلة» للدكتور بكر أبو زيد ـ سلسلة الدعوة والإرشاد.

٥١٨ ـ «الذكريات» للشيخ علي الطنطاوي.

٥١٩ ـ «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

٥٢٠ ـ «الضياء اللامع من الخطب الجوامع» لابن عثيمين.

٥٢١ ـ «رسائل النور» لسعيد النورسي.

٥٢٢ ـ «نزهة الناظرين» لعبيدالضرير.

٥٢٣ ـ «التبر المسبوك».

﴿ص﴾ فكر وغزو فكري

٥٢٤ ـ «الدين والفن» لحسن الترابي.

٥٢٥ ـ «خاطرات جمال الدين الأفغاني» لمحمد المخزومي.

٥٢٦ ـ «القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة» لمحمد أحمد خلف اللّه.

٥٢٧ ـ «الحركات النسائية وصلتها بالاستعمار» لمحمد عطية خميس.

٥٢٨ ـ «بلايا بوزا» لمحمد الجنبيهي.

٥٢٩ ـ «الخطاب العربي المعاصر» لفرج فودة.

٥٣٠ ـ «الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي» لسامي عزيز.

٥٣١ ـ «من قتل فرج فودة» للدكتور عبدالغفار عبدالعزيز ـ دار الإعلام الدولي.

٥٣٢ ـ «الحقيقة الغائبة» لفرج فودة.

٥٣٣ ـ «حوار حول قضايا إسلامية» لفرج فودة.

٥٣٤ ـ «الطائفية إلى أين» لفرج فودة.

٥٣٥ ـ «النذير» لفرج فودة.

٥٣٦ ـ «قبل السقوط» لفرج فودة.

٥٣٧ ـ «للّه يا زمري» لكريمان حمزة.

٥٣٨ ـ «التراث والتجديد» لحسن حنفي.

٥٣٩ ـ «قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر» لحسن حنفي.

٥٤٠ ـ «غزو من الداخل» لجمال سلطان ـ دار الوطن.

٥٤١ ـ «تجديد الفكر الإسلامي» لمحمد عمارة.

٥٤٢ ـ «تيارات اليقظة الإسلامية» لمحمد عمارة

٥٤٣ ـ «جولة في فكر محمد أركون».

٥٤٤ ـ «الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني» لمحمد عمارة ـ المؤسسة

العربية للدراسات والنشر ـ بيروت.

٥٤٥ ـ «حوار لا مواجهة» لأحمد كمال أبو المجد.

٥٤٦ ـ «تيارات اليقظة الإسلامية» لمحمد عمارة.

٥٤٧ ـ «نظرة جديدة إلى التراث» لمحمد عمارة.

٥٤٨ ـ «مسلمون ثوار» لمحمد عمارة.

٥٤٩ ـ «أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي» لعلي جريشة ـ محمد الزيبق.

٥٥٠ ـ «الفكر الإسلامي المعاصر» لغازي التوبة.

٥٥١ ـ «الأعمال الكاملة لمحمد عبده» لمحمد عمارة.

٥٥٢ ـ «ضحى الإسلام» لأحمد أمين.

٥٥٣ ـ «دليل المسلم الحزين» لحسين أحمد أمين.

٥٥٤ ـ «إسلام آخر زمن» لمنذر الأسعد ـ دار المعراج.

٥٥٥ ـ «موقف القرآن من حجاب المرأة المسلمة» لحسين أحمد أمين.

٥٥٦ ـ «اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار» لأنور الجندي ـ دار الاعتصام.

٥٥٧ ـ «تجديد الفكر الإسلامي» لحسن الترابي ـ الدار السعودية للنشر.

٥٥٨ ـ «أبي آدم» لعبدالصبور شاهين.

٥٥٩ ـ «أبي آدم ـ قصة الخليقة بين الخيال الجامح والتأويل المرفوض» للدكتور عبدالعظيم المطعني ـ مكتبة وهبة.

٥٦٠ ـ «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين ـ مؤسسة الرسالة.

٥٦١ ـ «حصوننا مهددة من الداخل» للدكتور محمد محمد حسين ـ دار الرسالة السعودية.

٥٦٢ ـ «مفكرون وأدباء» لأنور الجندي.

٥٦٣ ـ «الإسلام في النظرية والتطبيق» لمريم جميلة.

٥٦٤ ـ «التفسير السياسي للإسلام» لأبي الحسن الندوي.

٥٦٥ ـ «تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء» لقادة الجماعة الإسلامية ـ مكتبة دار التراث الإسلامي.

٥٦٦ ـ «في الشعر الجاهلي» لطه حسين.

٥٦٧ ـ «الفن القصصي في القران» لمحمد أحمد خلف اللَّه.

٥٦٨ ـ «الصحافة والأقلام المسمومة» لأنور الجندي ـ دار الاعتصام.

٥٦٩ ـ «تحت راية القرآن» لمصطفى صادق الرافعي.

٥٧٠ ـ «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» للدكتور إبراهيم عوض.

٥٧١ ـ «الحديقة» لمحب الدين الخطيب.

٥٧٢ ـ «الطريق إلى ثقافتنا» لمحمود محمد شاكر.

٥٧٣ ـ «المتنبي» لمحمود محمد شاكر.

٥٧٤ ـ «أباطيل وأسمار» لمحمود محمد شاكر.

٥٧٥ ـ «تجديد الفكر العربي» للدكتور زكي نجيب محمود.

٥٧٦ ـ «الفكر الإسلامي قراءة علمية» لمحمد أركون.

٥٧٧ ـ «الإخوان المسلمون رؤية من الداخل» للأستاذ محمود عبدالحليم ـ دار الدعوة بالإسكندرية.

٥٧٨ ـ «المسلمون والقبط» لمحمد رشيد رضا.

٥٧٩ ـ «الجماعات الإسلامية في فكر رشيد رضا» لخالد فوزي آل حمزة ـ مؤسسة قرطبة.

٥٨٠ ـ «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ حسن البنا.

٥٨١ ـ «اختلاف الأمة» لرشيد رضا ـ طبع المنار.

٥٨٢ ـ «الإخوان المسلمون» لريتشارد ميتشل ترجمة د. محمود أبو السعود.

٥٨٣ ـ «المدرسة الإسلامية على طريق اللَّه ومنهج القرآن» للأستاذ أنور الجندي ـ دار الاعتصام.

٥٨٤ ـ «جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام» لأنور الجندي ـ دار الاعتصام.

٥٨٥ ـ «طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام» أنور الجندي ـ دار الاعتصام.

٥٨٦ ـ «الوجه الآخر لطه حسين من مذكرات السيدة سوزان «معك» لأنور الجندي ـ دار الاعتصام.

٥٨٧ ـ «محاكمة فكر طه حسين» لأنور الجندي ـ دار الاعتصام.

٥٨٨ ـ «رجال اختلف فيهم الرأي» لأنور الجندي ـ دار الاعتصام.

٥٨٩ ـ «قافلة الإخوان» لعباس السيسي.

٥٩٠ ـ «الطريق إلى الجماعة الأم».

٥٩١ ـ «القول الكريم الغالي».

٥٩٢ ـ «هويتنا أو الهاوية» لمحمد إسماعيل المقدم ـ دار الصفوة.

٥٩٣ ـ «أفكار ضد الرصاص» لمحمود عوض ـ سلسلة اقرأ ـ دار المعارف.

٥٩٤ ـ «المدارس العالمية الأجنبية الاستعمارية تاريخها ومخاطرها» للدكتور بكر أبو زيد دار العاصمة.

٥٩٥ ـ «لماذا أعدموني» لسيد قطب.

٥٩٦ ـ «من هنا نعلم» للشيخ محمد الغزالي.

٥٩٧ ـ «واقعنا المعاصر» لمحمد قطب ـ دار الشروق.

﴿ط﴾ أدب وشعر

٥٩٨ ـ «النظرات» للمنفلوطي.

٥٩٩ ـ «من وحي القلم» لمصطفى صادق الرافعي.

٦٠٠ ـ «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين ـ مكتبة الآداب.

٦٠١ ـ «فتح الخالق في مدائح الخلائق» «شعر» لابن الوزير الصنعاني ـ المطبعة السلفية.

٦٠٢ ـ «المعجم الوسيط».

٦٠٣ ـ «الأدب العربي المعاصر في سورية» لسامي الكيالي.

٦٠٤ ـ «أسرار البلاغة» لعبدالقاهر الجرجاني ـ مطبعة المدني.

٦٠٥ ـ «ديوان ولي الدين يكن» مطبعة المقتطف.

٦٠٦ ـ «ديوان حافظ إبراهيم».

٦٠٧ ـ «ديوان أحمد محرم».

٦٠٨ ـ «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير.

﴿ مجلات ودوريات وصحف ﴾

٦٠٩ ـ «مجلة البحوث العلمية» ـ دار الافتاء بالسعودية.

٦١٠ ـ «جريدة الأحرار».

٦١١ ـ «جريدة الأهرام».

٦١٢ ـ «مجلة المجتمع».

٦١٣ ـ «مجلة التوحيد».

٦١٤ ـ «مجلة الجندي المسلم».

٦١٥ ـ «جريدة المدينة».

٦١٦ ـ «جريدة البلاد».

٦١٧ ـ «الجريدة الاقتصادية».

٦١٨ ـ «جريدة الجزيرة».

٦١٩ ـ «جريدة عكاظ».

٦٢٠ ـ «جريدة الرياض».

٦٢١ ـ «مجلة الدعوة».

٦٢٢ ـ «مجلة الأزهر».

٦٢٣ ـ «مجلة المنار».

٦٢٤ ـ «مجلة المصور».

٦٢٥ ـ «مجلة حواء».

٦٢٦ ـ «جريدة القبس».

٦٢٧ ـ «مجلة لواء الإسلام».

٦٢٨ ـ «مجلة الإصلاح الخليجية».

٦٢٩ ـ «مجلة الثقافة».

٦٣٠ ـ «مجلة المنهال الحجازية».

٦٣١ ـ «مجلة المسلمون الدولية» بلندن.

٦٣٢ ـ «جريدة عرب نيوز» السعودية.

٦٣٣ ـ «جريدة الشعب».

٦٣٤ ـ «مجلة البيان».

٦٣٥ ـ «مجلة الفكر العربي المعاصر».

٦٣٩ ـ «مجلة منار الإسلام».

٦٤٠ ـ «جريدة الأهالي» القاهرية.

٦٤١ ـ «مجلة الرسالة».

٦٤٢ ـ «جريدة السياسة» الأسبوعية.

٦٤٣ ـ «جريدة الصحافة» الخرطوم.

٦٤٤ ـ «مجلة العربي» الكويتية.

٦٤٥ ـ «مجلة الفكر الإسلامي» بيروت.

٦٤٦ ـ «مجلة الأنباء» الكويتية.

٦٤٧ ـ «مجلة الهلال».

٦٤٨ ـ «مجلة الأدب الإسلامي».

﴿ل﴾ متفرقات وأشرطة

٦٤٩ ـ شريط كاسيت «خطبة العيد» للشيخ محمد جميل غازي سنة ١٤٠٦ هـ.

٦٥٠ ـ شريط «١٠٠ فائدة من الإمام ابن عثيمين» للشيخ المنجد.

٦٥١ ـ شريط «معالم في حياة فقيد المسلمين ابن عثيمين».

٦٥٢ ـ شريط «وداعًا العثيمين».

٦٥٤ ـ شريط «ربانيون على فراش الموت».

* * *